الموسوعة الصوفية



تأليف
د. عبد المنعم الحفني

الكتاب الشامل لأعلام التصوف والمنكرين عليه
وطرق ولغة الصوفية ومصطلحاتهم
مما يستعجم معناه على غيرهم

مكتبة مدبولي

الموسوعة الصوفية

الكتاب: الموسوعة الصوفية
تأليف: دكتور عبد المنعم الحفنى
الطبعة: الخامسة ٢٠٠٦
الناشر: مكتبة مدبولى. ٦ ميدان طلعت حرب القاهرة
ت: ٥٧٥٦٤٢١. تليفاكس: ٥٧٥٢٨٥٤
التجميع التصويري والتنسيق: دار جهاد. ٢٦ ش اسماعيل ناظلة - لاظوغلى
الداخلى: ت: ٧٩٦٤٧٨٣
رقم الإيداع: ٢٠٠٦/١٠٩٠٨
الترقيم الدولى: (977.208.340-6)
موقع الإنترنت: www.ouda.org/madbouly
خدمات التسويق الإلكترونى: Info@ouda.org

شبكة كتب الشيعة
shiabooks.net
mktba.net رابط بديل

كتابخانه
مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی
شماره ثبت: ۰۰۴۲۱۵
تاریخ ثبت:

الموسوعة الصوفية

الكتاب الشامل لأعلام التصوف والمنكرين عليه، وطرق ولغة الصوفية ومصطلحاتهم، مما يستعجم معناه على غيرهم
والكتاب قسمان، يتضمن الأول فكر الأعلام، ويشمل الثانى لغاتهم منذ بداية التصوف حتى الآن

د. عبد المنعم الحفنى

الطبعة الخامسة مزيدة ومنقحة
٢٠٠٦

الناشر
مكتبة مدبولى
٦ ميدان طلعت حرب - القاهرة
ت: ٥٧٥٦٤٢١

Shiabooks.net





إلى القارئ اللبيب ...

فلنعقل الدين عقل رعاية ودراية لا عقل سماع ورواية، والعالم ليس هو من يحفظ كتاباً فإذا نسي ما حفظ صار جاهلاً ـ ولكنه من يُعمل عقله فيما يسمع ويقرأ.

***



بسم الله الرحمن الرحيم

ربِّ يسِّر

هذه الموسوعة تضم قسمين، الأول: **أعلام التصوف والناقدين عليه**؛ والثاني: **معجم لغة الصوفية واصطلاحاتهم**. والموسوعة بقسميها خلاصة الفكر الصوفي، سواء له أو عليه.

وكانت هذه الموسوعة أملى وقد تحقق على تواضع، وكان منهجي فيها كما قال الشعراني: لم أذكر إلاّ من كان له كلام في الطريق، ومن كان له كتاب يشرح فيه فلسفته، وكما يقول الشعراني : ما تركت ذِكر مَن تركت استهانةً بحقوقهم، فعدد الأولياء كثير، والفلاسفة منهم قليل ، وكما قيل: لا يخلو زمان من وجود مائة وليّ وأربعة وعشرين، والترجمة لكل هؤلاء تخرج عن نطاق هدفي وغايتي، وأنا لست سوى محبّ للفلسفة ،ويستهويني كلام الصوفية مما اعتبره من مجالات الفلسفة الإسلامية، ولقد قيل إن **التصوف هو فلسفة المسلمين**، وهو علمهم في الأخلاق، كما قيل إن الفقه هو منطق المسلمين، ومن هذه الزاوية كتبت هذه الموسوعة ، فهي دائرة معارف فلسفية صوفية، وقد حذفت الأسانيد عن كثير مما ذكرت ، واقتصرت على متون الأخبار والآثار، اختصاراً للوقت والجهد. وهؤلاء الصوفية الذين أقدمهم كانوا كما قيل كالأنجم يزهو بهم زمانهم، وأرجو بذكرهم بقاء الذِكر لهم، فإنهم عاشوا بأُنس الربّ سرّاً، وذاقوا من شراب الحبّ ، وكلّ واحد نلتُ منه علماً أو أدباً فهو

إمامى ، وكان لى بأُنسهم سلوان، وإنى لأرجو بذكرهم أن نحبّ هذا الفرع من علم الإسلام، وأن يدعو لى كل قارىء محبّ لهم فى الله، وقد قيل فى المحبة إنها صفاء الودّ مع دوام الذكر ، والذى يحب شيئاً يُكثر من ذكره، وطوبى لمن شرب من محبة الله فمُلئ قلبه حبّاً لكل خلقه ومخلوقاته .

وفى هذه الموسوعة ذكرت من الصوفية العرب أشهرهم، ومن الصوفية الإسلاميين أجلّهم وأخطرهم، ومن النقّاد لهم مَن عاب طريقتهم وكانت له أسانيده وحججه ، وكان دافعه لنقدهم غيْرته على الدين وحبّه لله تعالى من منطلق مختلف. وقد أشركت مع هؤلاء كبار الكتّاب والمفكرين الذين اهتموا بعرض أفكارهم، وآراء معارضيهم ، سواء منهم من كان على دين الإسلام أو من كان من أبناء غير هؤلاء من أصحاب الملل والمذاهب ، وأعطيت كلاً حقه من التمحيص، وقد يبدو أن المساحة المخصّصة لأحدهم أكبر وكان ينبغى أن تكون أصغر، أو قد يبدو أنى فضّلت أحدهم على غيره، وذلك ما كنت أتحاشاه قدر طاقتى، وقد استلهمت دائماً مكانة الصوفى أو الناقد له، وما يقوله عنه أهل زمانه، وما صار إليه شأنه فى بلادنا وعند غير العرب والمسلمين ، وأدعو الله أن أكون قد وُفّقت فما قصدت إلا الخير، وصدق قول القائل فى تعريف العارف : إنه الذى بذل مجهوده فيما لله، وتحققتْ معرفته بما مَنّ اللّه، وصحّ رجوعه من الأشياء إلى الله.

وينصرف الاعتراض على التصوُّف إلى أنه اعتزال لحركة المجتمع، وخروج عن التاريخ، وتوقُّف عن المشاركة فى الاجتماع والتأثير فى الأحداث. غير أن المتصوفة كثيرون، ومدارسهم تتخالف أحياناً وتتعارض، ولم يعد المتصوِّف فى المنظور المرئى ما يظن به الناس، فالمتصوّف إنسان مسلم يعيش القرآن، وسلوكه هو القرآن. وكتاب الله فيه مطلوبات كما فيه محظورات ومنهيات. والمسلم المتصوِّف هو المسلم الرسالى الذى يريد تغيير المجتمع الإنسانى للأفضل بالحُجّة والمنطق، ويجعل من أرض الله جنّة عدن الأرضية، إلى أن يأذن الله بجنته السماوية، والإنسان الصالح هو خليفة الله

فى أرضه، والموكول به إحقاق الحقّ، وإقامة العدل، وحفظ الميزان، وإشاعة السلام، ونشر العلم، واكتشاف قوانين الله فى الكون، والأخذ بها، والسير على منوالها. والإنسان الصالح هو العبد الصالح، وهو **الإنسان الكامل** الذى قال به الفلاسفة، **ومدينة الله** هى الأرض برمتها يعيش فيها الناس إخواناً متحابين متعاونين، يتعارضون فلا يتناكرون، وليست مدينة الله هى روما فى تصوّر فلاسفة ومتصوفى العصور الوسطى الاوربيين، ولا هى **القدس** أو **أورشليم** عند فلاسفة ومتصوفى اليهودية، وإنما هى الأرض جميعًا، فالله ليس هو المسيح ربّ المسيحيين، وليس هو يهوا ربّ اليهود، ولكنه ربّ **العالمين**، الذى يرزق الجميع ويرعاهم ويتعهدهم، ولا فرق بين عربى وأعجمى ويهودى وزنجى وصينى وهندوسى، وإنما الجميع أبناء الله، تظلهم سماؤه، وتطلع عليهم شمسه.

وهذه الموسوعة مدارها هذا الفكر العالمى، وليس للقلب أنفع من ذِكْر أبطال التصوف المسلمين وهم الذين يعنينا أمرهم فى هذا الكتاب، فهم أهل الله، نظروا إلى باطن الدنيا حيث نظر الناس إلى ظاهرها، وكانوا مثاليين والناس كانوا ماديين، ورأوا من الدنيا واقعها المرير ، وتنبأوا بمآلها القريب، فأماتوا من نفوسهم ما خشوا أن يُميتهم وهم أحياء، وتركوا ما علموا أنه سيكون فيه حتف الناس، وعاشوا بأفكارهم، يهدون بها الآخرين، ويضربون بها الأمثال فى القدوة، واستكثروا من الدنيا الخير، ونهوا عن شرورها ومفاسدها، والتصوف عندهم أمرٌ بالمعروف ونهىٌ عن المنكر، ودعوةٌ إلى الخير، وجهادٌ فى سبيل المُثل والقيم، وعندهم فإن الدنيا بما عليها الأمور الآن تثير الحزن وتُذهب الفرح، وعملهم فيها أن يقيموا معوجها، ويرفضوا ما يعارضهم من نائلها، ويضعوا ما يعترضهم من رفعتها. والدنيا عندهم بما فيها من استعمار واستغلال ليست سوى خلاق لايمكن أن يجدّدوه على حاله، وهى خراب عليهم أن يعمّروه كما ينبغى، والمادية كما يعيشها المحدثون موتٌ فى عقولهم فليسوا يعتقدونها، وهم يهدمون ما تعارف عليه المحدثون ليبنوا مدينة الله

الموعودة، يحبون بها الله، ويؤثرونها، ويذكرونه بها، بريئةٌ أيديهم، طاهرةٌ قلوبهم، يتحابون بجلال الله، ويسبغون الوضوء فى المكاره، وينيبون إليه تعالى كما يعود الغريب إلى وطنه، يدعون الجميع ليشاركوهم فى محبة الله، وينشروا دعوة الحب بين الناس كما هى ممارَسة فى الكون، بين الأجرام والذّرات وفى كل المظاهر والظواهر، فهناك دائماً السالب والموجب، والذكر والأنثى، والحب هو الآصرة التى تجمع الجميع، والنواة التى يطوف حولها الكل، يكلفون بحُب الله ككفل الأبناء بآبائهم.

هدانا الله وإياكم وأفاء علينا من رضاه.

د. عبد المنعم الحفنى

القسم الأول

أعلام التصوّف والمنكرين عليه





١ - الآملي: الفقيه المتكلم...

بهاء الدين حيدر بن عليّ العبيدى (المتوفى بعد ٧٩٤ هـ)، علوّى من آمل من طبرستان، يجمع بين الشيعة والحقيقة، ويرجع فى سلسلة خرقته إلى أبى يزيد البسطامى، وله «جامع الأسرار ومنبع الأنوار فى أن عقائد الصوفية موافقة لمذاهب الإمامية الاثنى عشرية»، الفّه فى العراق بناءً على طلب الشيعة هناك، وله كتاب «شرح فصوص الحكم» لابن عربى، وكان فقيهاً ومتكلماً شيعياً متعصباً، واستمر كذلك مدة عشرين سنة، ثم تحوّل إلى التصوّف فرغِب عن التعصُّب، واختار رأى أصحاب «وحدة الوجود»، ويسميهم أرباب التوحيد، وهاجم الإباحية، والحلولية، والاتحادية، والمعطّلة، وأخرجهم من التصوف، واختار - ليثبت انتساب التصّوف للتشيّع - أقوالاً من أقطاب الشيعة كابن المطهر الحلّى، من كتابيه «منهاج الكرامة» و«كشف الحقّ»، ومن أقطاب السُّنّة كالغزالى، وابن عربى، ليدلل على أن العلوم اللدنّية والحقائق الإلهية مخصوصة بعليّ رضى الله عنه دون غيره من الأولياء، من الأزل، وقال إن الفرق بين الشيعى والصوفى: أن الأول مؤمن عادى، والثانى مؤمن ممتحَن، والناس ثلاث طبقات: **الأولى الصوفية، والثانية الشيعة، والثالثة** العوام. والصوفية اختصاصهم بالأسرار الإلهية وهم لذلك الشيعة الخاصة، وذكر أن الحسن البصرى كان تلميذاً لعليّ، وأن إبراهيم بن أدهم أخذ عن عليّ بن الحسين، وأن أبا يزيد البسطامى أخذ عن جعفر الصادق، وأن شقيقاً البلخى أخذ عن موسى بن جعفر، وأن معروفاً الكرخى أخذ عن عليّ بن موسى الرضا، وكلهم أوصلوا ما اكتسبوه من علم وإرشاد إلى مريديهم. وقال إن كل أئمة الشيعة أصحاب علوم كشفية وخِرقة صوفية، والمهدى هو إمام الشيعة وقطب الصوفية، وفسّر التقية بأنها تعنى الاحتراز عن إفشاء الأسرار الإلهية التى يأخذ الصوفية بها أنفسهم، وقسّم التوحيد إلى توحيد الأنبياء الظاهرى وتوحيد الأولياء الباطنى، وأقام تعليله لوحدة الوجود على براهين من إخوان الصفا، فقال إن الواحد أصل

الأعـداد، ومن تكراره تنشأ الأعـداد وتتزايد، والعقل الأول على ذلك يقابل الوجود الأول الفائض من الله:

كـثـرةٌ لا تتناهى عـدداً

قد طوتها وحدة الواحد طَيّ

وقـال إن أصل الحقيقة المحمدية: أن محمداً وأهله من نفسٍ وحقيقة واحدة، باعتبارهم أشرف الخلق وأكملهم، وعليّاً من نفس محمد، وهو خليفته، والإنسان الكامل هو عليّ، وهو خاتم الأولياء والمهدى لأنه مظهر باطن النبيّ.

* * *

٢ - ابن أبى الحوارى (أحمد)...

ربحانة أهل الشام، فقد كان يعظ الناس بأعذب الكلام، ويكثر من القصص، وينسب للتوراة والإنجيل، ويحكى عن النبيّ ﷺ، ويروى أحاديثه. قال عن عليّ بن فضيل أنه قال لأبيه: يا أبت ما أحلى كلام أصحاب محمد ﷺ، فقال: يا بنى وتدرى لِمَ الحَلا؟ قال لا يا أبت. قال: لأنهم أرادوا الله به! وهكذا كانت روايات أحمد. وكان كثير الوعظ للنساء ويروى عنهن، وقد روى عن أسماء الرملية، والبيضاء بنت المفضل، ورابعة بنت إسماعيل، وتزوجها لما خطبته، من نفسه، واستشار أستاذه أبا سليمان الدارانى فيها، وكانت قد ورثت مالاً، ولها طريق إلى الله، فأرادت أن تنفقه على الإخوان، أى الصوفية، فأشار عليه الدارانى بالزواج منها، فإن كلامها من الصدّيقين وإنها لولية لله. ورابعة هذه، سمية رابعة العدوية، وقيل اسمها رابعة، وكان الرواة يخلطون بين الرابعتين حتى ظنوا قبرها بالشام هو قبر العدوية. ولم تكن رابعة بها شهوة لابن أبى الحوارى، وتحكى أنه عندما كان يجيئها كانت تطعمه الطيّبات وتطيّبه وتقول له: اذهب بنشاطك وقوتك إلى أزواجك. وقيل إنه تزوج عليها ثلاث نسوة. ويروى أحمد الكثير عن الدارانى، بل ويعتبر فى حكم الراوى الوحيد له. وكلامه يدور أغلبه على المحبة، أو أن ما يرويه عن الآخرين أغلبه عنها. وهو يروى مثلاً عن أحد الرهبان مبرراً عزلته وحبسه لنفسه: نجد فى كتبنا أن بدن ابن آدم خُلق من الأرض، وروحه خلقت من ملكوت السماء، فإذا أجاع بدنه وأعراه وأسهره، نازع الروح إلى الموضع الذى خرج منه، وإذا أطعمه وسقاه ونوّمه وأراحه، أخلد البدن إلى الموضع الذى خرج منه، فلم يكن شئ أحب إليه من الدنيا. قيل ولهذا سمى

الصوفية باسم الروحانية. وباسم الجوعية، لأنهم أجاعوا البدن فصاروا أرواحاً هائمة. واشتهر ابن أبي الحواري بقصصه هذه أو أمثاله، ويحكى أن امرأة طرقت بابه وقالت: ضالة، دلّني على الطريق رحمك الله. قال: رحمك الله، على أي طريق تسألين؟ فبكت ثم قالت: يا أحمد! على طريق النجاة ! قال: هيهات! إن بيننا وبين طريق النجاة عقبات، وتلك العقبات لا تقطع إلا بالسير الحثيث، وتصحيح المعاملة، وحذف العلائق الشاغلة عن أمر الدنيا والآخرة. قال :فبكت بكاء شديداً، ثم قالت: يا أحمد، سبحان من أمسك عليك جوارحك فلم تتقطعّ، وحفظ عليك فؤادك فلم يتصدّع. ثم خرّت مغشياً عليها، فقال لبعض النسوة: انظرن أي شئ حال هذه الجارية؟ فقمن إليها ففتشنها وقلن إنها ميتة، فقال: لمن هي؟ قالوا: جارية قرشية مصابة، وكانت تشكو إلينا وجعاً بجوفها، فكنا نصفها لمتطببي الشام، فكانت تقول: خلّوا بيني وبين الطبيب الراهب ـ تعني أحمد ـ أشكو إليه بعض ما أجد من بلائي، لعله أن يكون عنده شفائي!! ولا ندري السبب الذي من أجله يصف ابن أبي الحواري نفسه بالطبيب الراهب، إلا أن يكون ذلك لاشتهاره بالرواية عن الإنجيل والتوراة. ولعله كان كثير الاقتناء للكتب غير الإسلامية التي يستقي منها درايته بحكايات الصالحين من غير المسلمين ، ولعله في لحظة زهد فيها فاستغنى عنها وألقاها في البحر، فقد رووا عنه أنه قال في تبرير فعلته: نِعْم الدليل كنتِ (يخاطب الكتب)، والاشتغال بالدليل بعد الوصول محال. ـ وقيل إنه فعل ذلك بعد ثلاثين سنة كان يطلب العلم فيها، فلما بلغ فيه الغاية حملها إلى البحر فأغرقها، وقال: يا علم! لم أفعل هذا بك تهاوناً بك، ولا استخفافاً بحقّك، ولكن كنت أظلبك لأهتدي بك إلى ربّي، فلما اهتديت بك إلى ربّي استغنيت عنك! ـ ولا أدري لِمَ أغرق الكُتب في البحر؟ ولِمَ لم يعطها لآخرين يفيدون منها؟! وهذا الذي فعله ابن أبي الحواري بمكتبته زهداً، فعله داود الطائي بسبب فقد بصره، فألقى بكتُبه في البحر! ويبدو أنه قد تعلّم أيضاً أن العلم لا يوصل إلى الله تعالى، وإنما العلم لغاية أخرى. يقول: لا دليل على الله سواه، وإنما يُطلَب العلم لآداب الخدمة. ـ وإن كان للعلم درس قد انتهت إليه فائدته، فهو هذا الدرس الذي يحكيه عن أحد الرهبان، لما سأله عن الشئ القوى الذي يجدونه في كتبهم، قال: ما نجد شيئاً أقوى

من أن تجعل حيلك وقوتك كلها فى محبة الخالق ! ـ ونظريته فى المحبة: أنه ليس من أعلام الحب أن تحب ما يبغضه حبيبك، وعلامة حب الله هى طاعته، وحبّ ذكره، ولا يستطيع العبد أن يحب الله حتى يكون الابتداء من الله له بالحب، وذلك حين يعرف منه الاجتهاد فى مرضاته. ومرتبة الحب لله هى أعلى مراتب السلوك، وهى مرتبة المقرّبين، وحتى حبّه للناس يحكمه الحبّ لله، فالرجل لا يحبّ أخاه إلا لأنه يراه يُحسن خدمة ربّه. والرضا بالله هو نواة الحبّ لله، وهو أن لا تختار شيئاً إلا ما يختاره الله لك، والرضا يُسلم إلى الطاعة، والطاعة معها الندم على الذنب، وتصحيح المعاملة والاستغفار باللسان والتوبة، والتوبة تؤدّى إلى الزهد، ومن الزهد يتشعّب الصدق والتوكل والاستقامة، ثم تتشعب المعرفة، ومنها الذّكر، ثم يتشعّب من الذكر الحلاوة والتلذّذ فيكون الأُنس، فالحياء من الله، فالخوف منه، ثم تحدث الروعة، فيكون الانتقال إلى محبة الله التى تورث محبة كلامه وهو القرآن. يقول ابن أبى الحوارى: إنى لأقرأ القرآن فأنظر آية آية فيحار عقلى فيها، وأعجب من حُفّاظ القرآن كيف يهنيهم النوم ويسيغهم أن يشتغلوا بشئ من الدنيا وهم يتكلمون كلام الرحمن!! أما لو فهموا ما يتلون، وعرفوا حقّه، وتلذّذوا به واستحلّوا المناجاة به، لذهب عنهم النوم فرحاً بما رزقوا ووفقوا !!

وتوفى رحمه الله سنة ٢٣٠ هـ، وقيل سنة ٢٤٠ هـ عن ٨٢ سنة.

* * *

٣ - ابن أبى جمهور...

محمد بن علىّ بن إبراهيم بن أبى جمهور، الإحسائى، صوفى شيعى، من مواليد الإحساء من البحرين سنة ٨٣٨ هـ (١٤٣٥م)، وتوفى سنة ٩٠١ أو بعدها (١٤٩٦م)، وله «مسلك الأفهام فى علم الكلام»، كتب له حاشية سمّاها تلاميذه «النور المُنجى من الظلام، حاشية مسلك الأفهام»، وراجعها باسم «مجلس مرآة النور المُنجى من الظلام»، ووصفها بأنها تشتمل على الحكمة الإلهية، ونفائس أسرار العلوم العرفانية، وخلاصة زبدة الوصول، ونهاية مراتب الكمال المأمول. والكتاب موسوعة فى فلسفة التصوف، ويعتبر الشريعة والطريقة والحقيقة أسماء مترادفة على حقيقة واحدة هى حقيقة الشرع المحمدى، وحاول فيه دمج علم الكلام ـ المتمثل فى توحيد الأشاعرة والمعتزلة ـ بنتائج الفلسفة والتصوف، واستشهد بأقوال للبسطامى، والحلاج،

والشبلى، وعبد الله الأنصارى، والغزالى، وابن عربى، وسعد الدين الحموى، وابن سينا، وفخر الرازى، ونصير الدين الطوسى، وقال عن التوحيد: أنه التفريد، وإثبات صانع واحد للعالم؛ وعن الاتحاد: أنه اتحاد النفس بالصورة العقلية. وقال عن الأنبياء والأئمة والفلاسفة وأهل الكلام: أنهم سمّوه بأسماء متعددة، والدلالة لها جميعاً واحدة. وكان علىّ خاتم الأولياء، كما أن النبىّ: خاتم الأنبياء، والمهدى: هو قطب الوقت، وإمام الزمان، وخليفة العصر،وخاتم الولاية المحمدية. ويقول: إن الماضين من العلماء وأهل السلوك والمتصوّفة والحكماء تقصد مسلكاً واحداً.

* * *

٤- ابن أبى الخير (الشاعر التوحيدى)...

أبو سعيد فضل الله (١٣٥٧ ـ ١٤٤١هـ)، له «المقامات فى التوحيد»، صاغها شعراً بالفارسية فى شكل رباعيات، وقيل فيه إنه أول من أبدع الشعر الصوفى، وأول من استخدم الرمزية والقصص فيه، وأول من روّج الرباعيات ويسّرها للأفكار الصوفية، وتابعه على طريقته شعراء الصوفية الفرس، كفريد الدين العطار، وجلال الدين الرومى، وقد صنّف فى ترجمته ابن عم له يدعى محمد بن المنور كتاباً أعطاه عنوان : «أسرار التوحيد فى مقامات الشيخ أبى سعيد»، اعتمده فريد الدين العطار فى «تذكرة الأولياء»، وعبد الرحمن جامى فى «نفحات الأنس» فى شرح مذهبه وسيرته.

وأبو سعيد من مواليد ميهنة بخراسان، ودرس الفقه الشافعى، وأخذ التصوف عن أبيه، وتلقى الخِرْقة من أبى عبد الرحمن السُّلَمى، وحياته فى مرحلة الرياضة كلها زهد وتقشف، وكان فيها يلزم نفسه بخدمة المريدين فى الرباط، ويكنس المساجد، وينظف المغاسل حتى الحوائط، وقد ساح بالغياض مدة سبع سنوات، يتغذى على أوراق الشجر والعشب، ويصلى بالليل والنهار، ويصوم بالأيام، ولما بدأ يعظ الناس التف حوله المريدون يروون فكانوا بالآلاف، وانهالت عليه الصدقات والمنح والهبات، فكان ينفق ببذخ على مريديه ومجالس السماع التى يعقدها، وكانوا ينشدون شعره ويصفقون ويرقصون، فإذا غلبهم الوجد وأخذتهم الجذبة، خلعوا الجبب، وألقوا العمائم، وشقّوا القمصان، وتضايق الناس من هذه المجالس، فشكوه إلى السلطان ، وقيل إن الذين شكوه هم الشيعة والكرامية، إلا أن أبا سعيد كان يعتمد على الفراسة، واستغلها أقصى استغلال فى قراءة أفكار

خصومه والإيقاع بينهم، فتركوه وشأنه لمجالسه، وكان يقول : إن غايته إدخال السرور على قلوب أتباعه. وكان شعاره : صلْ مَن قطعك، واعطِ مَن حرمك، واغفر لمن ظلمك. واتهمه مناوئه بأنه كان يصعد المنبر في خطبة الجمعة فيتلو الشعر وليس القرآن والحديث، وقد وصمه ابن حزم الأندلسي بالكفر، وقال عنه نيكلسون المستشرق : أنه «حلولي» على مذهب الفرس والبسطامي خصوصاً، وأخذ عليه ابن حزم أنه يلبس الحرير كثيراً والصوف أحياناً ، ويصلي مرة ألف ركعة ، ومرات لا يصلي إطلاقاً، وذلك في المرحلة الثانية من حياته، والتي يعيبون فيها على الصوفية أنهم وقد ظنوا أنهم وصلوا، فإنهم قد يهملون العبادات، ويروون أنه صدرت عنه مرة قولة مثل قولة الحلاّج «أنا الحق»، واستبد به الوجد أثناء إلقائه موعظة من عظاته فقال مثله: «ليس في الجُبّة إلا الله»، وعندها ضرب سبابته في جُبّته فشقّها، وظل يحتفظ بالشّق ليذكّره بغلطته .

وعندما ذهب يزور القشيري صاحب «الرسالة»، انزعج القشيري من المقابلة، فقد كان قد سمع بأسلوبه في السماع، وإسرافه على نفسه وعلى مريديه في مجالسهم، وبذخه وجمعه للمنح والصدقات قسراً كلما أعوزه المال للإنفاق على هذه المجالس، وهي أمور ذكرها القشيري في باب النقائص والمثالب عند بعض الصوفية. وكان القشيري قد عاقب أحد المريدين حيث ارتكب غلطة، بأن قضى بنفيه من المدينة، وحضر أبو سعيد المجلس فاختلف معه، وذكّره بأنه كان من الممكن أن يعاقبه بطريقة أرفق، بأن يرسله في مهمة تستوجب السفر. وعندما مات أبو سعيد بالغاً من العمر ثلاثة وثمانين عاماً، قام ابنه أبو طاهر على رباطه وتوفر على خدمة الفقراء من أتباع طريقة أبيه كما كان الحال معه، إلا أنه لم تكن له شخصيته، وكان لا يحفظ من القرآن سوى سورة الفتح، فانفرط عقد الطريقة، ولما دخل السلطان مسعود خراسان، قتل مِن أفراد أسرته ما لا يقل عن مائة فرد، على أن واحداً من المريدين هاجر إلى بغداد وأقام بها رباطاً صغيراً يحيي فيه الطريقة. ومن شعره:

قلت: حدثني عن جمالك ، من الذي يفوز ببهجته وسناه؟! فقال:

أنا وحدي الفائز به ما دمتُ في الوجود والحياة
فإني أنا وحدي العاشق والمعشوق والعشق في منتهاه
وإني أنا وحدي العين المبصرة والجمال الزاهي والمرآة

* * *

لا تلمني يا سيدي إذا احتسبت الخمر والشراب

وإذا قضيت في الخمر والعشق أيام الشبيب والشباب

فأنا في إفاقتي أعاشر الأحباب وغير الأحباب

ولكني متى سكرت لا أجالس غير الأصحاب !

حدّثتُ طبيبي عن آلامي الكثيرة الخافية

فقال لي: كُفّ الحديث ولا تتكلم إلا عن صفاته العالية

وحذار أن تجمل لك زادًا إلا من دماء قلبك الغالية

وحذار أن تفكر في الدار الفانية أو الباقية

* * *

يا إلهي أنا في عثرتي ارتجي عفوك ورضاك

وأنا في ذلتي ابتغي رحمتك ونداك

ولن أفعل كباقي الناس فاحتمي بهذا أو ذاك

وليس من حامٍ ولا واقٍ في العالمين سواك !

* * *

ويقال إنه لما أشرف على الموت طلب أن يكتبوا على قبره هذين البيتين :

سألتك بل أوصيك إن متُّ فاكتبي

على لوح قبري كان هذا مُتيَّما

لعلّ شجيًا عارفًا سنن الهوى

يمر على قبر الغريب مُسلِّما

ومن أروع المؤلفات عن أبي سعيد كتاب: «حالات وكلمات الشيخ أبي سعيد فضل الله بن أبي الخير الميهني»، من تأليف كمال الدين محمد بن أبي روح لطف الله بن أبي سعيد، أحد أحفاد الشيخ أبي سعيد الأقربين، ألّفه في أواسط القرن السادس، ويشتمل الكتاب على مقدمة وخمسة أبواب : في بداية أحوال أبي سعيد، وأنواع رياضاته، وإظهار كراماته، وفوائد أنفاسه، ووصاياه، ووفاته، ويعدّ الكتاب أقدم ترجمة بالفارسية عن أحد العارفين.

* * *

٥ - ابن أبي الدنيا (العارف المؤدب)...

أبوبكر عبد الله بن محمد بن عبيد بن سفيان بن أبي الدنيا، القرشيّ الأمويّ البغداديّ (٢٠٨ ـ ٢٨١ هـ / ٨٢٣ ـ ٨٩٤ م)، وشهرته ابن أبي الدنيا، وأطلقوا عليه اسم الحافظ، فقد كانت كُتبه كلها روايات عن الآخرين، يقول: حدّثني محمد بن الحسين، عن محمد بن جعفر بن عوف، قال: قال داود الطائي.... وقيل إن لابن أبي الدنيا من مثل هذا الكلام السابق ثلاثمائة رسالة في موضوعات التصوّف وتربية المريدين، وما ينبغي أن يكون عليه السالك في حياته. ومن هذه الرسالات: «التوبة»، و«التفكّر والاعتبار»، و«التقوى»، و«التوكّل»، و«الجوع»، و«الجهاد»، و«حُسْن الظن بالله»، و«الحلم»، و«الدعاء»، و«ذَمّ الدنيا»، و«ذَمّ

الشهوات»، و«ذَمُّ البَغْي»، و«ذَمُّ الحسد»، و«ذَمُّ الفقر»، و«الزُّهْد»، و«الشُّكْر»، و«شَرَف الفقر»، و«الصَّمْت»، و«الصَّبْر»، و«العُـزلة»، و«العِلْم»، و«الفَرَح بعدَ الشدّة»، و«فَضل لا إله إلا الله»، و«فَضْل القرآن»، و«كرامات الأولياء»، و«المداراة»، و«المرض النفسي»، و«الموت»، و«كتاب المـرُوءة»، و«المُجُـوس»، و«مُحاسبة النفس»، و«اليقين» إلخ، وكل رسالة من هذه الرسـالات لا تتـجـاوز صفـحـاتهـا الخمس عشرة صفحة من القطع المتوسط.

وابن أبي الدنيا اشتغل بتأديب المريدين، وبتأديب أولاد الخلفاء، وكان الناصـحون ينصـحـون الخلفـاء بـه ليـعلّم أولادهم، وأطلقـوا عليـه لذلك مـؤدِّب الخلفـاء. وأسلوبه فـيـه بساطة شـديدة، ومـعـرفـة بمقتضى أحوال السـامعين، فكان يخاطب الناس بما يـنـاسـبـهـم، فـإنْ شـاء أبكى الجُلسـاء، وإن شـاء أضـحـكهم، حـتى ليُضحك الواحد ويُبكيه دواليك.

* * *

٦ - ابنُ أبي رواد: العابد السجّاد...

عبد العزيز أبو عبد الرحمن المكّي، وكان من مـريديه سـفـيـان بن عيـينة المتـوفى ١٩٨هـ؛ وابن عـيـينة كـان حـافظاً ثقةً، واسع العلم، وكـبير القـدر؛ وكذلك كـان ابـن أبـي رواد، مغـتنماً للعـبادة، ومتكتـماً للمـصائب والمحن، والتـصوّف تعداد للعطايا، وكتمان للرزايا.

وابن أبي رواد أصيب بالعمى فما شكا ولا عرف بذلك أهله عشرين سنة، ولما اكـتـشف ابنه ذلك قـال: يا أبت! ذهبتْ عيناك؟! قال: نعم يا بني! الرضاء عن الله أذهب عين أبيك منذ عـشرين سنة! وعـاش بعدها ابن أبي راود عـشرين سنة أخرى، لايرفع رأسه إلى السماء، ويصلي ويسجد حتى ما رؤى إلا ساجداً.

وكـان أصحـاب التـصوف في القـرن الثـانـي الهجـري يقرأون كثيـراً في كتُب الديانـات، وتأثّر ابن أبي رواد بحـكايات التـوراة والتـلمـود، وكـان يعظ تلاميـذه بمواعظ عن موسى، أو يحيى، أو أيوب، ويقـول: مكتوبٌ في التوراة، أو يقـول: كان عابدٌ من بني إسرائيل...

ومقام ابن أبي رواد: الرضا، ووصف نفسه فـيـه فقال: إنْ كنتُ في شـدّة لم أتمن أني كنت في رخاء، وإن كنت جـائعاً لم أتمن أني كنت شبـعـان، وإن كنت في شـمس لم أتمن أني كنت في في، وإن كنت في مـرض لم أتمن أني في صـحة. وكان يبكي ويقول لمريديه: إن لم تبكوا تباكَوْا. ابكُوا من مخافة الله. وسـألوه: كـيف أصـبـحتَ؟ قـال:

أصبحتُ والله في غفلة عظيمة عن الموت مع ذنوب كثيرة قد أحاطت بي، راحلٌ يسرع كل يوم في عمري، ومؤمّلٌ لست أدري على ما أهجم. ثم بكى. قال: من لم يتّعظ بثلاث لم يتّعظ: بالإسلام، وبالقرآن، وبالشّيب. ودخل على المغيرة بن حكيم في مرضه الذي مات فيه، فقال له: أوصني. قال يا ابن أبي رواد، إعمل لهذا المضجع! فتَعوّذ ابن أبي رواد وقال: أعوذ بالله من الغرّة بالله، ومن المُقام على معاصي الله. وسألوه: ما أفضل العبادة؟ قال: طول الحزن في الليل والنهار. وقال: لذّات الدنيا أربع: المال والنساء والنوم والطعام، فأمّا المال والنساء فلا حاجة لي منهما، وأما النوم والطعام فلابد منهما، فوالله لأضربنّ بهما جهدي!

* * *

٧ - ابن أبي العشائر (المُرّي)...

أبو السعود بن أبي العشائر، المُربّي صاحب الطريقة العشائرية، وأقواله كثيرة في الأخلاق وتربية المريدين. وكان مولده بواسط بالعراق، ووفاته بالقاهرة سنة ٦٤٤هـ، وله رسائل إلى إخوانه من باب النصح والوعظ، يصف فيها أصول الطريق وآداب التصوف، ويقول: إن الأخلاق الشريفة كلها تنشأ من القلوب، والأخلاق الذميمة كلها تنشأ من النفوس، فالصادق في الصُّلب يشرع في رياضة نفسه وطهارة قلبه حتى تتبدّل أخلاقه، فيبدّل الشك بالتصديق، والشِّرك بالتوحيد، والمنازعة بالتسليم، والسُّخط والاعتراض بالرضا والتفويض، والغفلة بالمراقبة، والتفرقة بالجمعية، والغلظة باللين واللطف، ورؤية عيوب الناس بالغضّ عنها ورؤية المحاسن، والقسوة بالرحمة. والسالك ينبغي أن يجعل كتابه قلبه، وصلاح القلب في التوحيد والصدق، وفساده في الشرك والرياء، وعلامة صدق التوحيد شهود واحد ليس معه ثان، مع عدم الخوف والرجاء إلا من الله تعالى، وأما الصدق فهو التجرّد عن الكلّ، ومحو كلّ ذات ظهرت، وفقد كلّ صفّة بطنت.

والسالك عليه إذا رأى من نفسه خلقاً سيئاً من كِبْر أو شرك أن يُدخل نفسه في ضد ما دعت إليه، ثم يُقبل على ذكر الله حتى تضعف أخلاق نفسه.

وأصول الطريقة التي ينبغي أن يبني المريد عليها أمره أربعة: اشتغال اللسان مع حضور القلب بالذِّكر، وقسْر القلب على المراقبة ومخالفة النفس والهوى، وتصفية اللقمة لعبوديته.

وابن أبي العشائر لا يقول بالجوع، ولا

بالفقر والانقطاع عن الدنيا، ولكن ما يهمّه هو أكل الحلال، ويقول: إن أكل الحلال ـ أو تصفية اللقمة بتعبيره، هي القطب، وبها تزكو الجوارح. ويبرر مخالفته للمعهود في التصوف: بأن النفس ينبغي أن تُعطَى حظها من المأكل والمشرب، وأن تُمنع في نفس الوقت عمّا يُطغيها منه، لأنها أمانة الله عند العبد، ومطيّته التي يسير عليها، فظُلمها كظلم الغير بل هو أشدّ، لما ورد في خلود قاتل نفسه دون قاتل غيره، إلا أن النفس من جهة أخرى لا ينبغي مطاوعتها على هواها، والنفس إذا استولت على القلوب أسَرتها وصارت الولاية لها، ومع ذلك فالسالك يجب أن لا يشتغل بالكلية بمقاومة نفسه، فإن مَن اشتغل بمقاومتها أوقفته، ومن أهملها ركبته، بل يخدعها بأن يعطيها راحة دون راحة، ثم ينتقل إلى أقل من ذلك؛ ومن قاومها وصار خصمها شغلته، ومن أخذها بالخدع ولم يتابع هواها تبعته.

* * *

٨- الأبياري...

عبد الهادي لجا بن رضوان الأبياري المصري (١٢٣٦ ـ ١٣٠٥هـ)، مُعلّم تصوّف، له: «زهرة الطَّلْع النضيد على إرشاد المريد»، و «باب الفتوح لمعرفة أحوال الروح»، و «زكاة الصيام بإرشاد العوام»، و «نشوة الأفراح في شرح راحة الأرواح». وكلها تعليم للتصوّف. وقد ترجم عنه المستشرق أرنو Arnaud مختارات من كلامه عن الصوفية (١٨٨٩م). واسمه الأبياري نسبةً إلى قرية أبيار من قرى محافظة الغربية حيث ولد، وكان تعليمه بالأزهر، واختير للإفتاء، وله نحو الأربعين كتاباً في التصوف والأدب ومصطلح الحديث.

٩- الأحمدي (أبو الفضل)...

الوليّ العارف أبو الفضل الأحمدي (المتوفى سنة ٩٤٢هـ)، مصري من شيوخ عبد الوهاب الشعراني، فقد صحبه خمس عشرة سنة، ووصفه بأنه من أعرف الأولياء بطريق الله وبأحوال الدنيا والآخرة، وله فيهما كلام محل اعتبار.

ومذهبه في التصوف: حُسن الاعتقاد بربط القلب مع الله، وتنظيف الباطن من الحرص والغل والحقد وكل الأخلاق المذمومة، وإصلاح الطُّعْمة فإنها أساس الدين، والتجرّد عن الأسباب، والتعلُّم من كل من اختصه الله من فضله كائناً من كان، لا سيما أهل الحرف النافعة، فإن عندهم من الأدب ما لا يوجد عند خصوص الناس.

وكلامه للمريدين عن الأدب ، يقول: لا تقـربوا من الأوليـاء إلا بالأدب ولو باسطوكم، فإنّ قلوبهم مملوكة، ونفوسهم مفقودة، وعقولهم غير معقولة، فيمقتون على أقل من القليل؛ ولا تتكلموا قطّ مع مَن فَنِي في التوحيـد فإنه مغلوب، وكِلوه إلى مشيئة الله، ولا تشتغلوا بالإكثار من مطالعة كتب التوحيـد، فإنها توقفكم عمّا أنتم مخلوقـون له؛ واحفظوا ألسنتكم مع أهل الشرع، فإنهم بوّابون لحضرة الأسماء والصفـات؛ واحفظوا قلوبكم من الإنكار على الأولياء فإنهم بوّابون لحضرة الذات؛ وإذا صحبتم كامـلاً، فلا تؤولوا له كلاماً إلى غير مفهومه الظاهر.

ويضع الأحمدى شروطاً للمشايخ عند تلقين الذِكـر للمريدين، وعند إلبـاسهم الخرقة وإرخائهم العذبة؛ فأمّا تلقين الذكر: فـشـرطه أن يكون للـشـيخ من الـقـوة والتمكين وكـمال الحال مـا يستطيع به أن يمنح المريد عند قوله «لا إله إلا الله» جميع علوم الشرائع المنزّلـة، إذ هي كلها أحكام «لا إلـه إلا الله»؛ وكلما كان المريد مـتمثّلاً بشـيخـه، كان ذلـك أيسر على الشـيخ، والتلقين الحـقـيـقي لا يكون إلا لمن اتحـد بشيخـه اتحاداً كاملاً حـتى صار كأنه هو. وأما إلباس الخرقة: فشرطه أن يكون الشيخ من التمكنُّ، بحيث أنـه عند أمره للمريد بأن يخلع قميصـه أو قلنسوته، فإنه يخلع عنه في الواقع جـميع أخـلاقه المذمـومة، فيـتعطّل عن استـعمـال شئ منها إلى أن يموت ذلك المريد، ثم يخـلع على المريد ـ مع إلباسـه تلك الخرقة ـ جـميع الأخلاق المحـمودة التي هي غـاية درجـة المريد في علم الله، فـلا يحتـاج بعدها إلى عـلاج خُلُقٍ من الأخـلاق؛ وأما إرخـاء العـذبة: فشرطه أن يقدر الشيخ على أن يخلع على المريد حال إرخائهـا له، سرّ النمو والزيادة لكل شئ يمسـه ذلك المريد أو ينظر إليـه، لتكون تلك الزيادة المرخـاة من العمـامة، علامة وإشارة إلى التحقق لتلك المرتبة من باب التحدّث بالنِّعَم.

* * *

١٠ - أخي أوران...

نصـر الدين، وشهـرته أخـي أوران، و«أخي» ليس اسمه ولكنه مـا كان إخوانه من مـريديه ينادونه به كـأخٍ أكـبرٍ لهم، واصطلاحيـاً تعني أخـاهم الفـتى ، فـأخ اصطلاحياً تعني الفتى، وممن اشتهروا بهذا الاسـم أخي أمـير عليّ، وأخي شـادي، وأخي عليّ المصري، وأخي فرج الزنجاني، وأخي محمـد الدهستاني، وأخي ميرمير. وكان لأوران طريقة في التصوّف تضم بين

فئاتها طبقتين، **الأولى** من **العمال** الذين تجمع بينهم أخوّة الإسلام، ورباط الطريقة، والانتماء للشيخ، والعمل فى ميدان من الميادين ـ كالدباغة أو الحِرَف الأخرى التى تنتشر فى المدن؛ **والثانية** من **السالكين** الذين لا يجيدون العمل ولا يقدرون عليه، وحياتهم مخصصة للعبادة، ويركنون إلى التكايا، ويتعيّشون مما يتصدّق به عليهم الإخوان العمال. والعامل العضو فى الطريقة لا يجد أى إعنات أنه يعول إخوانه من الدراويش. ولا نعرف بالتحديد تاريخ ميلاد ووفاة أخى أوران، إلا أنه عاش فى القرن **التاسع الهجرى**، وضريحه باستنبول. **والأخوّة** تعنى الفتوة، والانتصار للحقّ، وخدمة الخَلق، ونُصفة المظلوم، وقضاء حوائج الناس، والبذل لهم، والسعى من أجل خيرهم، وتأكيد معانى السلام بينهم. وكان قيام الطريقة على منوال **مملكة النحل**، سوى أن **الأخوّة الصوفية** قوامها فريقان، **العمال العُبّاد**، **والعمال** الحرفيون، والجميع على الأخلاق الصوفية العالية، ويضمهم علو الهمة والتقوى والورع، وهمّة العابد فى عبادته، كما أن همة العامل فى عمله، ولذلك راجت الطريقة بين العمال الأتراك، فقد كانت تشبع فيهم الناحية الدينية، وتؤلف بينهم على أهداف سامية، فيها **إعمار القلوب** و**إعمار الأرض**، وتجعلهم باستمرار فى حالة تأهب للبذل والعطاء، وكان منهم مجاهدون أشاوس، ودفعهم ذلك للإجادة والتفوّق فى كل شىء، حتى أنهم برعوا فى القضاء والحُكم، وأقام العثمانيون فى وقت من الأوقات دولتهم بفضل مساعداتهم. **والأخ** فى بداية الطريقه اسمه يكيت أى فتى، واليكيت فى أوله من القولية، أى عضو بالقول فقط، فإذا تدرجت به الحال، وداوم على الاتصال والتلقىّ من الإخوة، والعمل بما ينبغى، صار من السَّيْفية، أى حملة السيف، أى أنه يصبح عضواً عاملاً، **والشارة** التى يحملونها هى **غطاء الصوف الأبيض** للرأس يتدلّى طرفه بمقدار ذراع وعرض الإصبعين. ودخول المريد فى الجماعة له طقوس، فبالإضافة إلى محفوظاتهم القرآنية وأداعيهم وأذكارهم، فإن الغاية الأخيرة كانت تقليد الأخ المنطقة، التى هى العوض عن الخِرقة الصوفية وتناسبه أكثر كعامل، ويُقَص شَعْره، ويُعطى سكيناً يدخله منطقته، باعتبار شعاره أن: «من لا يزعه القرآن يزعه السلطان»، أى القوة.

وكان الإخوة سبباً في الكثير من الفتن حتى صار السلاطين يخشونهم، وكان أن انتسب لهم السلطان مراد. والإخوة مثلهم مثل الأتراك على المذهب الحنفي.

ومعنى أوران بالتركية التنين، أي أنه أخي الجبّار، والقول المأثور لأخي أوران: **أن الإنسان به قُوىً خفيّة لو تحركت لزحزحت الجبال، وأن الإيمان بالله وممالأة الحقّ، كفيلان بأن يجعلا للفرد قوة، يزيدها ويصونها أن يعمل من خلال الجماعة وفي إطار أهدافها، ولا عجب لذلك أن أصبحت هذه الجماعة قوة سياسية اجتماعية واقتصادية ودينية يعتدّ بها ويُحسَب حسابها.**

ويذكر ابن بطوطة في كتابه «الرحلة»: أن الإخوة أو الإخوان اجتماعهم في المساء في الرباط، فيقدمون لشيخهم بعضا مما ربحوه في يومهم، ويتعاونون فيما بينهم، ويتكفّل الشيخ بمن لا يستطيع العمل منهم أو المتبطّل، ويعقد لهم المآدب، ويُدعَى إليها الضيوف؛ وكان ابن بطوطة ممن استضافهم الإخوة، ويروى عنهم أنه كان لهم شأن سياسي واجتماعي عظيم، بمقاتلة الطغاة وتفريق أنصارهم - وكم نحن الآن في حاجة إلى مثل هذه الجماعة!

* * *

١١- ابن إدريس (صاحب المناقب)...

أبو العباس أحمد بن إدريس (١١٧٢-١٢٥٣هـ) مؤسس الطريقة المحمديّة الأحمديّة، وتشتهر في اليمن، والحجاز، ومصر، والشام، والهند، وحضرموت، والسودان، وچيبوتي، والحبشة، وجاوه، والمغرب، وليبيا، والصومال. وكانت ولادته في ميسور من قرى فاس بالمغرب، وبها نشأ وتعلّم، ثم تتلمذ على الشيخ عبد الوهاب التازي الذي لازمه وأخذ عنه الطريقة. وارتحل إلى مصر ثم مكة حيث استقر بها مدة أربع عشرة، ثم عاد إلى مصر وأقام بالزيني مدة خمس سنوات، وعاد إلى مكة وأقام بها اثنتي عشرة سنة، ثم انتقل إلى اليمن، وأقام بها تسع سنوات، وبها توفي ودفن في قرية صبيا.

وأخذ عن ابن إدريس فضلاء وقته، مثل: محمد السنوسي صاحب الجبل الأخضر، ومحمد حسن المدني، والسيد عثمان الميرغني، والشيخ المجذوب السواكني، وإبراهيم الرشيد. وله مؤلفات ومجالس علمية، ككتاب «العقْد النفيس في نظم جواهر التدريس»، والصلوات المسماة «المحامد الثمانية». وهو شريف حَسَنيّ من نسل الحسن بن عليّ. ولإبراهيم الرشيد المتوفى سنة ١٢٩١ هـ كراسة في مناقبة،

أطلق عليها اسم «عقد الدر النفيس فى بعض كرامات ومناقب أحمد بن إدريس»، وكذلك للشيخ محمد خليل الهجرسى: «الفتوحات المدنية الهجرسية على الصلوات القدسية الإدريسية» - ومختصر له هو «الجوهر النفيس على صلوات إدريس»، وأيضاً لصالح بن محمد الجعفرى كتاب «المُنتَقى النفيس فى مناقب قطب دائرة التقديس الإمام أحمد بن إدريس».

ويقول الميرغنى: إنّ طريقة إبن إدريس تأخذ من الطريقة النقشبندية والطريقة الشاذلية، وعنوانها الطريقة الشاذلية، ويُطلَق عليها اسم الأحمدية نسبةً إلى ذاته، ومبناها وطريقة سلوكها هو الإقبال بالكلية على تدبُّر معانى كتاب الله، والتعرُّض لنفحات أسرار علومه، ولطائف رقائقه وفهومه، واتّباع الكتاب والسُّنّة.

وكان ابن إدريس يقول: إن التصوف هو تجريد القلب لله تعالى، وهو علم الوراثة الذى نتيجته العمل المشار إليه بحديث: «فمن عمل بما علم أورثه الله علم ما لم يعلم». وهذه الطريقة تسمى محمدية، ووجه اختصاصها بالانتساب إلى النبىّ ﷺ، فمع أن الكل راجع إليه ومستمد منه، إلا أن صاحبها بعد تصحيح بدايته وسلوكه على مناهج الاستقامة المبيَّنة فى الكتاب والسُّنّة، يشتغل بالصلاة على النبىّ، صلاةً إلى أن يثوى على قلبه، ويتخامر لتعظيمه، ويهتز لدى سماع ذكره، فيسبغ الله عليه نعمتَه ظاهرةً وباطنة، ولا يجعل لمخلوق عليه منّة، إلا النبىّ ﷺ فيراه يقظةً ومناماً، ويسأله عمّا يريد، ومن ثم جعل الصلاة العظيمية مدخلاً لطريقته، كما ضمنها طلب الجمع به ﷺ، يقظةً ومناماً. وعنده أن الاستقامة هى غاية الكرامة، واتّباع النبىّ ﷺ، خطوةً بخطوة، وقدماً بقدم. وفى رسالة له تسمى «القواعد» ينصح مريديه بترك الراحة والرقاد، والقيام لله على قَدَم الصدق، وعدم الاستناد إلى البطالة، وعدم الاغترار بالدنيا، فإنه لا أضرّ على الفقير (يعنى الصوفى) الصادق من طمعه فى الخلق.

ومما يتعلق بالأذكار من طريقته ما يسميه التهليل والعظيمية، وصيغته: «لا إله إلا الله، محمد رسول الله، فى كل لمحة ونفس، عدد ما وسعه علم الله». وفاتحة الأوراد التى تستعمل أوائل كل عمل هى: «اللهم إنى أقدم إليك بين يدىّ كل نفس ولمحة، وطَرْفة يطرف بها أهل السماوات وأهل الأرض، وكلّ شىء هو فى علمك كائن أو قد كان، أقدم إليك بين يدىّ

ذلك كله»». وكفارة المجلس هي: «سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت. أستغفرك وأتوب إليك. عملت سوءاً وظلمت نفسي فاغفر لي، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت».

والعدد في التهليل في الطريقة الأحمدية بحسب الطاقة، وكذلك في كل ذِكْر، إلا أن الاستغفار في السَحَر يُعيَّن بالسبعين. وفي رسالة «مختصر الأنوار القدسية في الطريقة المحمدية الأحمدية الإدريسية» كلامٌ عن «التهليل» أنه يشفي الغليل. وقراءة الوردين والحِزبين، المسمى أحدهما «السرّ الأعظم والكنز المُطَلسم»، والآخر «التجلّي الأكبر والسّر الأفخر»، ويسمى أيضاً «التجلّي الأقدس والنور المقدّس في حضرة القدس»، من لوازم الطريقة.

ولفظ الاستغفار الكبير: استغفر الله العظيم الذي لا إله إلا هو، الحيّ القيوم، غفّار الذنوب، ذا الجلال والإكرام، وأتوب إليك من جميع المعاصي كلّها والذنوب والآثام، ومن كل ذنب أذنبته، عمداً وخطأ، ظاهراً وباطناً، قولاً وفعلاً، في جميع حركاتي وسكناتي وخطراتي وأنفاس، كلها، دائماً أبداً سرمداً، من الذنب الذي أعلم، ومن الذنب الذي لا أعلم، عددَ ما أحاط به العلم وأحصاه الكتاب وخطّه القلم، وعددَ ما أوجدته القدرة وخصّصته الإرادة ومداد كلمات الله، كما ينبغي لجلال وجه ربّنا وجماله وكماله، وكما يحب ربّنا ويرضى.

* * *

١٢- إبراهيم بن أدهم، الأمير الشحّاذ...

الأمير الشحّاذ كما يصفه المستشرقون، شبّهوا بدايته في التصوف ببداية جوتاما بوذا مؤسّس البوذية، وزادوا بأن قالوا إن حكاية ابن أدهم كلها قد صيغت نقلاً عن حكاية بوذا!!

وإبراهيم بن أدهم بن منصور بن يزيد ابن جابر، أبو إسحق، التميمي العجلي، زاهد مشهور، من كورة بلخ، توفي سنة ١٦١هـ، وقيلت فيه روايات كثيرة بمختلف اللغات في بلاد الإسلام، بالتركية، والفارسية، والعربية، والهندوستانية، والملاوية، والجاوية، بأسماء مثل: «الروض النسيم والدر اليتيم في مناقب السلطان إبراهيم»، و«سيرة السلطان إبراهيم»، و«قصة وليّ الله أدهم»، و«شاه إبراهيم بن أدهم»؛ ونلاحظ تسميته باسم السلطان والشاه، وهما لقبان كانا للمشايخ من الصوفية. ولذلك أُنشدتْ في إبراهيم بن أدهم القصائد، وكانت حياته مُلهمة ومُستنهضة للهمم الإبداعية للكثيرين، ومن ذلك أن يقال إنه ابن

ملوك، فقد ظن المستشرقون أن ذلك القول على الحقيقة، فلما تحرّوا أن يكون على بلخ أو خراسان أو العراق ملك أو سلطان، أو حتى والٍ يقال له أدهم، ولم يجدوا، أطلقوا القول بأن القصة مختلقة من أساسها، وأنه لم يوجد متصوّف مسلم اسمه إبراهيم بن أدهم، وإنما قصته ملفقة وترجمة لقصة بوذا. وقالوا إن المشابهة بين أقوال ابن أدهم في الزهد والتوكل والحبّ الصوفي وبين أقوال الصوفية في زمنه متعذرة، ومن ذلك ما يذكره المستشرق فان أريندونك: أنه من العبث أن نجد أي أثر في تصوف معاصريه للنزعة النظرية عنده.

ويحكى ابن أدهم عن بدايته: أن أباه حبّب إليه الصيد، وكان من المياسير، فخرج راكباً فرسه وكلبه معه، فبينما هو كذلك ثار أرنب أو ثعلب، فحرّك فرسه ناحيته، فسمع من ورائه: ليس لذا خُلقت، ولا بذا أُمرت!» ويقول إبراهيم: فوقفتُ أنظر يمنةً ويسرةً فلا أرى أحداً، فقلت لعن الله إبليس، ثم حرّكت فرسي، فأسمع نداءً من قربوس سرجي: يا إبراهيم ما لذا خُلقت، ولا بذا أُمرت! فوقفت وقلتَ: أُنبِهتُ أُنبِهت! جاءني نذير من ربّ العالمين! والله لاعصيتُ الله بعد يومي ذا ما عصمني ربّي! فرجعت إلى أهلي، فخليّت عن فرسي، ثم جئت إلى راعٍ لأبي، فأخذت منه جبة وكساء وألقيت ثيابي إليه، ثم أقبلت إلى العراق، أرضٌ ترفعني، وأرض تضعني، وعملت بالعراق أياماً فلم يصفُ لي منها شئ من الحلال، فسألت بعض المشايخ عن الحلال، فقالوا لي: إذا أردتَ الحلال (يقصد الشغل) فعليك ببلاد الشام؛ فصرتُ إلى بلاد الشام، فقيل لي إن أردت الحلال فعليك بطرسوس، فتوجهت إليها، وعملت بها أياماً أنظر البساتين (أي يحرسها) وأحصد الحصاد، فبينما أنا كذلك جاء صاحب البستان مع أصحابه وقعد في مجلسه ثم صاح: يا ناظور! فقلت: هو ذا أنا، فقال: اذهب فأتنا بأكبر رمّان تقدر عليه وأطيبه، فأتيته بأكبر رمّان، فأخذ واحدة فكسرها فوجدها حامضة،فقال لي: يا نظور، أنت في بستاننا منذ كذا وكذا، تأكل فاكهتنا، وتأكل رماننا، لا تعرف الحلو من الحامض!! فلم يكن إبراهيم يعرف، فلم يكن يأكل إلا من عمل يده، ولا يطعم إلا ما يوافق دينه. وتعجّب منه الرجل، فقال: أتراك إبراهيم بن أدهم! ما زاد على هذا وانصرف. فلمن كان الغد ذكر صفتي في المسجد، فجاء الناس مع الخادم ليروني، فاختفيت خلف شجرة، ثم اختلفت معهم وهم داخلون وأنا هارب. فهذا كان أوائل أمري وخروجي من طرسوس إلى بلاد الرمال.

وروى ابن المعارك قصة أخرى، فقال: خرجت أنا وإبراهيم بن أدهم من خراسان ونحن ستون فتى نطلب العلم.

ويبدو أن الأمر فى خروجه لم يكن لهذا ولا لذاك، وإنما لأن إبراهيم اضطر للهرب من بلخ سنة ١٣٢هـ بسبب ثورة أبى مسلم الخراسانى، فلحق بأخته فى الكوفة . ويُروَى أن شقيقاً البلخىّ التقى به فى الشام، فسأله لماذا ترك خراسان؟ فقال إبراهيم: ما تهنّيهت بالعيش إلا فى بلاد الشام (يقصد لأنه يأكل من عمل يده). أفرّ بدينى من شاهق إلى شاهق، ومن جل إلى جبل، فمَن يرانى يقول موسوس (يقصد مجنوناً)، ومن يرانى يقول هو حَمّال، ثم قال: يا شقيق، لم ينبل عندنا من نبل (يقصد من كان على طريقة ابن أدهم فى التصوّف) بالحجّ ولا الجهاد، وإنما نبل عندنا من نبل من كان يعقل ما يدخل فى جوفه (يعنى طعامه) من حِلّه، ثم قال: يا شقيق، إن الله أنعم على الفقراء (يقصد الصوفية)، لا يسألهم يوم القيامة، لا عن زكاة، ولا عن حج، ولا عن جهاد، ولا عن صلة رحم، وإنما يسأل هؤلاء المساكين (يقصد الأغنياء)!!

وفى رواية أخرى لإبراهيم بن بشّار الصوفى الخراسانى قال: أمسينا مع إبراهيم بن أدهم ذات ليلة وليس معنا شئ نفطر عليه، ولا بنا حيلة، فرآنى مغتماً حزيناً، فقال: يا ابن بشّار: ماذا أنعم الله تعالى على الفقراء (الصوفية) والمساكين (الأغنياء) من النعيم والراحة فى الدنيا والآخرة! لا يسأل الله الفقراء يوم القيامة عن زكاة ولا عن حج، ولا عن صدقة، ولا عن صلة رحم، ولا عن مواساة، وإنما يسأل ويحاسب عن هذا هؤلاء المساكين ـ الأغنياء فى الدنيا، والفقراء فى الآخرة، أعزةً فى الدنيا، أذلةً يوم القيامة! لا تغتم ولا تحزن، فرزقٌ الله مضمونٌ، سيأتيك، نحن والله الملوك الأغنياء! نحن (يقصد الصوفية) الذين تعجّلنا الراحة فى الدنيا، ولا نبالى على أى حال أصبحنا وأمسينا إذا أطعنا الله عزوجل!!!

وهناك الكثير من القصص عن إبراهيم بن أدهم تقارن أحوال الغنى عند أهل الدنيا، وأحوال الفقر عند أهل الله من الصوفية الزهّاد، وتتسق مع كون إبراهيم بن أدهم من المياسير الذين خلفوا كل جاه وسلطان ومال وولد، طوعاً وبالإرادة، طلباً لله. ولا يُفهم من ذلك أن إبراهيم يدعو إلى التواكل وترك الأسباب، فقد كان يتعيّش من الزرع والحصد وطحن الغلال وما شابهه، إلا أنه لم يدعُ مع ذلك إلى

الامتناع عن المسألة، لأنها فرصة لممارسة الإحسان من المحسن، واشترط فيها أن لا تكون تكسّباً للعيش، وهو يقول: المسألة مسألتان، مسألةٌ على أبواب الناس (أى اضطراراً ودفعاً للهلاك جوعاً، وحتى وهى كذلك فإن السائل عليه أن يسعى فى طلب القوت بطلبه من الناس، بأن يمر عليهم فى بيوتهم)، ومسألة يقول الرجل فيها ألازم المسجد وأصلى وأصوم وأعبد الله، فمن جاءنى فى شئ قبلته، فهذه شرّ المسألتين، والآخذ بها هو المُلحف من المسألة.

وإذن فطريقة إبراهيم هى طريقة العمل والأخذ بالأسباب مع التوكل على الله. وقد حدث أنه كان مع إخوانه أمام بيته، وأحدهم كان بادى الفقر، ومظهره شديد البؤس، فقال له إبراهيم: ادخُل ادخُل حتى لا يمر بك إنسان فيظن أنك سائل فيعطيك شيئاً!! ويروى إخوانه فى الطريق أنهم رأوه يأكل الطين عشرين يوماً، ويستفّ الرمل خمسة عشر يومًا، يبلّه بالماء ويأكله، وقيل ظهر شهرًا لا يأكل سوى الطين، وعرفوا عنه أنه يرفض كل طعام إلا ثلاثة أقراص من شعير بملح جريش. وكان يتمثل بالبيت:

لَلقمةٌ بجريش الملح آكلها
ألذّ من تمرة تُحشى بزيتون

ولما سأله الوالى عن معيشته قال:

نرقّع دنيانا بتمزيق ديننا
فلا ديننا يَبقَى ولا ما نرقّع

وكان يقول: لولا أنى أتخوّف أن أعين على نفسى (يعنى أن أجور على نفسى) ما كان لى طعام إلا الطين، حتى ألقى الله عز وجل، حتى يصفو لى الحلال من أين هو.

وقالوا فى صفة إبراهيم: كان لا يشبع من الخبز والماء يابسًا، وإنما هو جِلد على عظم. ويصف إبراهيم طريقته فيقول: لو علم الملوك وأبناء الملوك (لاحظ مرة أخرى ذكره للملوك وأبنائهم) ما نحن فيه من السرور والنعيم لجالدونا بأسيافهم أيام الحياة على ما نحن فيه من لذة العيش وقلة التعب!!!

وكان إبراهيم يلبس فى الشتاء: فروة ليس تحتها قميص، ولم يكن يلبس خُفَّين ولا عمامة؛ وفى الصيف: كانت له شُقتان بأربعة دراهم، يأتزر بواحدة ويرتدى بأخرى، ويصوم فى السفر والحضر، ولا ينام الليل، وفى إحدى المرات ظل شهرًا لا ينام الليل ولا النهار وكان يتفكّر، فإذا فرغ من الحصاد أرسل

بعض أصحابه فحاسبَ صاحب الزرع، فيجيئون بالدراهم لا يمسها بيده، فيقول لأصحابه: اذهبوا كلوا بها شهواتكم!!

وقيل فى إبراهيم: إنه كان قلما يبتسم، وقد حدث ذلك ثلاث مرات، وفى إحداها كان سبب ابتسامته أنه نظر الفروة التى عليه فلم يميز بين شعرها وبين القمل لكثرته (القشيرى فى الرسالة)! والقصة محلّ شك، لأنه من شروط التصوف النظافة والاستحمام وكلاهما من السُنة. ويعلق على ذلك أحد المستشرقين أن القصة ألصق بالتصوف الهندى والسريانى منها بالتصوف الإسلامى، غير أن هذا الفقر كنزٌ فى السماء، يهبه الله للمخلَصين من عباده، ومن علامة العارف بالله أن يكون أكبر همّه العبادة. ويروى عنه أنه فى بغداد التقى بالإمام أبى حنيفة (المتوفى سنة ١٥٠)، وحضر مجلسه، فاشمأز تلاميذه من رثاثة ثياب ابن أدهم، فقال لهم أبو حنيفة: أنتم مشغولون بأبدانكم، وهذا شغله بالله!!

وحدث يوماً وكان ينظر كرْماً أن مرّ به أحدهم وأمره أن يعطيه من الكرم، فقال إبراهيم: ما أذن لى صاحبه، فجعل الرجل يقلب سوطاً فى يده، وأمسك إبراهيم من موضع الشَّيْب فى رأسه يهدّده، وإبراهيم يطأطئ رأسه ويقول: إضرب رأساً طالما عصى الله! فأعجز الرجل عنه، وهى قصة يقول المستشرقون فيها: إن طريقة إبراهيم كما تصورها، تجعله متأثراً بالتصوف المسيحى، وقد كانت منطقة طرسوس وما حولها حيث لبث إبراهيم نحو أربع وعشرين سنة، يكثر فيها النصارى، وكثيراً ما كان إبراهيم يعمل عندهم، إلا أن طريقة إبراهيم كانت هى الطريقة المحمدية، وطريقة الآباء والإسلام.

وإبراهيم قد جاهد فى سبيل الله وغزا أربع غزوات، وكان الناس يركبون وإبراهيم على رجليه يأبى الركوب، ولم يكن يأكل من الغنائم لكيلا يكون جهاده فى غير سبيل الله، ومات شهيداً فى إحدى الغزوات ضد البيزنطيين، فحملوا جثمانه إلى صُور حيث دفنوه، وقيل دُفن فى جَبَلة بالقرب من اللاذقية، وقالوا إنه مدفون فى دمشق أو فى بغداد، وقال البخارى: إن وفاته سنة ٣٦١هـ، وقال ابن عساكر سنة ١٦٢ أو ١٦٣هـ.

وباسمه أنشئت الطريقة الصوفية الأدهمية فى القرن الرابع عشر الميلادى، وكانت لها زوايا فى بيت المقدس وفى غيرها من مدن الشام.

وفلسفة إبراهيم قوامها: أطِب مطعمك،

ولا حرج عليك إن لم تقم الليل ولم تصم النهار. وطريقته أساسها: أن درجة الصلاح لا ينالها المريد إلا إذا جاز ست عقبات: **الأولى**: أن يغلق باب النعمة ويفتح باب الشدّة؛ **والثانية**: أن يغلق باب العزّ ويفتح باب الذل؛ **والثالثة**: أن يغلق باب الراحة ويفتح باب الجهد؛ **والرابعة**: أن يغلق باب النوم ويفتح باب السهر؛ **والخامسة**: أن يغلق باب الغنى ويفتح باب الفقر؛ **والسادسة**: أن يغلق باب الأمل ويفتح باب الاستعداد للموت.

وإبراهيم صاحب تفكُّر، يجلس كل ليلة يتفكّر. وهو يقول: رأس العبادة التفكُّر والصمت إلا من ذكر الله. والفقر بطريقة ابن أدهم يعادل الشهادة عند الله، وهو مقام لا يعطيه إلا لمن أحبه، فإذا فرحت بالموجود فأنت حريصٌ، محروم؛ وإذا حزنت على المفقود فأنت ساخط، والساخط معذّب. ودليل كل ما سبق قوله تعالى: ﴿ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ (الحديد: ٢٣). واشتد به الجوع يومًا فكتب إلى الله هذه الرسالة: أنت المقصود إليه بكل حال، والمشار إليه بكل حال، والمشار إليه بكل معنى:

أنا حاضر، أنا ذاكر، أنا شاكر

أنا جائع، أنا حاسر، أنا عارى

هى ستة وأنا الضمين بنصفها

فكن الضمين لنصفها يا بارى

مدحى لغيرك لفح نار خضتها

فأجر فديتُك من دخول النار

وإبراهيم لا يُصدر عن فلسفات هندية أو سريانية أو مسيحية كما يقول المستشرقون، ولكنه يصدر عن عقيدة الإسلام، وكان شرع الرسول نهجه، واختياره للمألوف الموصول، ومخالفته للمفتون المخذول، وليست القصص عنه خيالية رومانسية كما يدعون، وليست حياته أغنى من آرائه. وحتى كلامه فى الحب - الذى يكنه للحقّ - لم يكن سابقاً على زمانه، ولم يكن مقلّداً للمسيحيين، فهو قد أسلم أمره لله، وزهد فى كل ما يمكن أن يشغله عن الله، وكانت طريقته المواساة من أخلاق المؤمنين. وقد حدث يوماً أن رسولاً جاءه بدنانير فردّها على صاحبها قائلاً: ما حاجتى إلى شئ لايبقى على! وحدث أن نام إبراهيم يوماً فى العراء والمطر ينهمر وقد غطى نفسه، فكشف أصحابه غطاءه ولاموه، فقال: طَلَب الملوك شيئاً ففاتهم، وطلبناه فوجدناه (يقصد الطريق إلى الله ومحبة الله).

وإبراهيم يشكو القلق دائماً، ولكنه ليس الدنيوى، ويقول مخاطباً الحق:

اللهم إن كنتَ أعطيت أحداً من المحبين لك ما سكنت به قلوبهم، فأعطني ذلك فقد أضرّ بيّ القلق! ويقول: الدنيا دار قلق! ويُروَى أنه رأى في نفس الليلة في المنام أن الله تعالى يقول له: يا إبراهيم، أما استحييت مني؟ تسألني أن أعطيك ما يسكن به قلبك قبل لقائي؟ وهل يسكن قلب المشتاق إلى غير حبيبه؟ أم هل يستريح المحبّ إلى غير من اشتاق إليه؟ فقال إبراهيم: قلتُ ـ يارب، تهتُ في حبّك، فلم أدرِ ما أقول!!! وبمثل ذلك قعّد إبراهيم أصول طريقته، فهي لم تقم على الصُّدفة والروايات والتأثير، بمثل ما قامت على الأصول، وهو يسأل مرة شقيقاً البلخيّ في الأصول: علام أصّلتم أصولكم؟ ويجيب البلخي: إذا رزُقنا أكلنا، وإذا مُنعنا صبرنا، فيردّ إبراهيم ردّاً حاسماً: هكذا كلاب بلخ! إذا رُزقت أكلت، وإذا مُنعت صبرت! إنّا أصّلنا أصولنا على أنّا إذا رُزقنا آثرنا، وإذا مُنعنا حمدنا وشكرنا!!! ـ وذلك ما يميّز الإنسان الصوفي، أو الإنسان العابد homo religiosus، عن الإنسان ـ أي إنسان، أو عن الحيوان. ويروَى أن شقيقاً البلخي وقد سمع رد ابن أدهم أسرع وقعد بين يديه وقال: أنت أستاذنا!!

ومما يروى عن إبراهيم بن أدهم أنه في سياحاته قصد الإسكندرية من مصر المحروسة. وكانوا يُكنّونه أبا إسحق ـ مع أنه لم يتزوج ولم يكن له أبناء، وإسحق هو ابن النبيّ إبراهيم «أبو الأنبياء»، فربما أن إخوان ابن أدهم من الصوفية كنّوه بذلك لأنه في اعتبارهم «أبوالصوفية»، تشبُّهاً بالنبيّ إبراهيم «أبو الأنبياء». والعادة أن العرب يُكنّون مَن لا ولد له كُنية من له ولد من المشاهير.

ويُروَى بخلاف ما سبق أنه لمّا وُلد كان ذلك بمكة أثناء الحج، رفعه أبوه في خرقة وذهب إلى العُبّاد الزُهّاد يطلب منهم أن يدعوا لابنه. ولمّا كان في شبابه عاش سوّاحاً، وكان شكله الغريب بأسماله وشعره الطويل يُغري به الأولاد، فيسعون خلفه يرمونه بالحصى. وكان أصحابه يأتونه بالعشاء فيجدون غذاءه عنده لم يقربه، ويأتونه بالغذاء فيجدون غداءه عنده لم يقربه، ويأتونه بالغداء فيجدون عشاءه لم يمسه، وكان يحب العزلة ويتمثّل قول الشاعر:

اتّخذ الله صاحباً .·. ودعِ الناسَ جانباً

وكان يؤثر الحصاد على اللّقاط، لأنه في الحصاد يجهد ويعمل، وهو يحب أن يأكل من عمله وليس من الصدقة. وكان

يحصد فى النهار، وكان من كثرة أسفاره وسياحاته يقول: عالجتُ العبادة فما وجدتُ شيئاً أشدّ عليَّ من نزاع النفس إلى الوطن. وقال: ما قاسيت فيما تركتُ شيئاً أشدّ عليَّ من مفارقة الإوطان. وقال عن طريقته: ما فاق إبراهيم بن أدهم أصحابه بصوم وصلاة، ولكن بالصدق والسخا. وقيل إنه كان شديد السخاء. ولمّا غزا لم يكن يأخذ معه سهماً ولا نفلاً، ولا يأكل من متاع الروم، ويجيئه إخوانه بالطرائف والعسل والدجاج فلا يأكل منه، ويقول: هو حلال ولكنى أزهد فيه. وكان يأكل مما حمل معه ويصوم. وغزا فى البَرّ غزاتين: غزاة عباس الأنطاكى، وغزاة محكاف؛ وغزا فى البحر غزاتين. وقال عن النساء والتصوّف: من أحبّ اتخاذ النساء لم يفلح. فإذا ادلهمّ الليل وأوغل قال بصوت حزين موجع للقلوب:

ومتى أنت صغيراً أو كبيراً أخو علل
فمتى ينقضى الرّدى ومتى- ويْحُكَ- العمل

ويردّد ما قرأه يوماً على قبر من القبور:

ما أحد أكرم من مفرد
فى قبره أعماله تؤنسه
منعَّم فى القبر فى روضة
زيّنها الله فهى مجلسه

ويقول:

كلّ حىّ وإنْ بقى
فمن العيش يستقى
فاعمل اليوم واجتهد
واحذر الموت يا شقى

ويقول:

لا تبغيّن جاهاً وجاهك سائط
عند المليك وكن لجاهك مصلحاً

ويقول:

من لم يثقّ بالقضاء والقدر
لاقى هموماً كثيرة الضرر

ويقول:

ما أزين التُّقى وما أقبح الخنا
وكلٌّ مأخوذٌ بما جنى وعند الله الجزا

ويقول:

إنما العزّ والغنى .·. فى تُقى الله والعمل

ويقول:

لما تَعد الدنيا به من شرورها
يكون بكاء الطفل ساعة يوضع
وإلا فما يبكيه منها وإنها
لأروْح مما كان فيه وأوْسع؟

وكتب يوصى أحد إخوانه: أما بعد: أوصيك بتقوى الله الذى لا تحلّ معصيته، ولا يُرَجى غيره. واتقِ الله فإنه من اتقى الله عزّ وجلّ- عزّ وقوى، وشبع وروى، ورفع عقله

عن الدنيا ... فارفض يا أخي الدنيا، فإن حُبّ الدنيا يُصمّ ويُعمي، ويذلّ الرقاب.

وقال في الأصحاب: أقلّوا من الإخوان والأخلاّء.

وقال في المحبة: ليس من أعلام الحُبّ أن تحبّ ما يبغض حبيبك.

وابن أدهم أول من تكلم في الحب الإلهي، قال: لو أن العباد علموا حبّ الله لقلّ مطعمهم ومشربهم وملبسهم وحرصهم.

والصوفية في فلسفة ابن أدهم هم أهل الله، وأهل محبته، ويسميهم المحبّين، منهم: مالك بن دينار، وثابت البنّاني، وأيوب السختياني. وسألوه: فهل أنت منهم؟ قال: لا، ولكني محبٌّ للمحبّين، فقال إخوانه: بل أنت أول المحبّين! وقال يصفهم: هم الأحباء المشتاقون، عُبّاد الله وأولياؤه المطيعون، وأصفياؤه المحزونون، ورثوا من محبوبهم النظر بنوره، والتعطّف على أهل معاصيه.

ولابن أدهم شطحات كشطحات رابعة العدوية، يقول في الجنة: اللّهم إنك تعلم أن الجنة لا تزن عندي جناح بعوضة! إذا أنت أنسيتني بذكرك، ورزقتني حبّك، وسهّلت عليّ طاعتك، فأعط الجنة لمن شئت! ـ وقال: الجنة لاتزن عندي جناح بعوضة إذا أنت وهبتَ لي حُبُّك، وآنستني بمذاكرتك، وفرّغتني للتفكُّر في عظمتك. ـ ولا نعتقد أنه قال ذلك فعلاً وإنما هو كلام منحول عليه، لأنه يخالف مذهبه كل المخالفة.

ومن استغفاراته: قد رضينا من أعمالنا بالمعاني، ومن التوبة بالتواني، ومن العيش الباقي بالعيش الفاني.

وكان يقول: إياكم والكبر. إياكم والإعجاب بالأعمال. انظروا إلى مَن دونكم ولا تنظروا إلى مَن فوقكم. مَن ذلّ نفسه رفعه مولاه، ومن خضع له أعزّه، ومن اتّقاه وفّاه، ومن أطاعه أنجاه، ومن أقبل إليه أرضاه، ومن توكّل عليه كفاه، ومن سأله أعطاه، ومن أقرضه قضاه، ومن شكره جزاه، فينبغي للعبد أن يزن نفسه قبل أن يوزن، ويحاسب نفسه قبل أن يحاسَب، ويتزيّن ويتهيأ للعرض على الله العليّ الأكبر.

ومن أقواله في الحكمة: لا تسأل عمّا قد كُفيت، ولا تتكلف ما يُعنيك (يُتعبك)، واصمُت كما ينبغي عليك، فإذا تكلمتَ فتكلم بما يُنتفع به، أو بما ينفع من موعظة أو تنبيه أو تخويف أو تحذير.

وقال: من عرف نفسه اشتغل بنفسه، ومن عرف ربّه اشتغل بربّه عن غيره. ـ رحم الله ابن أدهم!

* * *

١٣- أربري، (الأستاذ الأصولي)...

أرثر أربري Arberry، مستشرق بريطاني (١٣٣٣ - ١٣٩٠هـ/ ١٩٠٥ - ١٩٧٠م)، من أعضاء المجمع العلمي العربي بدمشق، تعلّم بمدرسة اللغات الشرقية في بورتسماوث، وكلية بمبروك في كيمبردج، وأتقن العربية والفارسية، ورأسَ قسم الدراسات القديمة في الجامعة المصرية، من سنة ١٩٣٢ إلى سنة ١٩٣٤م، وعين أميناً لمكتبة ديوان الهند، ووزيراً للأنباء في الهند، ثم أستاذاً للعربية في جامعة لندن. ونشر في التصوف كتاب «التعرُّف» للكلاباذي، و«اللُّمع» للسرّاج، و«المواقف» للنِفَّري، و«التوهّم» للمحاسبي، و«الصدق» لأبي سعيد الخرّاز، وترجمات من الشعر الصوفي الفارسي، وبحوثاً في الغزل الصوفي عند حافظ، وأشعاراً من رباعيات الرومي، وكتابات لأبي دنيا، والشيخ شهاب الدين عمر السهروردي. وله غير ذلك «رسالة في التصوف الإسلامي» في الدراسات البريطانية، و «سِيَر الصوفية»، وتراجم لذي النون المصري، والقشيري وغيرهم، وله كذلك «المدخل لتاريخ التصوف». وأربري يكاد يكون موضوعياً، وإن كانت ترجماته ينقصها الجمال الذي في أصول ما ترجم، وفهمه للتصوف يقصر عن أن يقدّم صورة حيّة له. ومع ذلك اعتبره زملاؤه مستشرقاً أصولياً لمحاولته أن يكون محايداً أميناً فيما يقدّم أو يعرض.

* * *

١٤- ابن أسباط (يوسف)...

من الكبار في النصف الثاني من القرن الثاني الهجري، وتلاميذه كُثُر، منهم: المسيّب بن واضح، وسهل أبو الحسن، وسعيد بن حرب، وأبو توبة، وكان عبدالله بن خبيق تلميذه الأثير، وهو الذي روى عنه.

وابن أسباط كان مقامه العلم والخوف، والتصوّف عنده تخلّي وتحلّي، ولقد تخلى عن الدنيا، وتحلّى بالزهد، وفلسفته فيه: أن تزهد فيما أحلّ الله، وغاية الزهد أن لا تفرح بما أقبل، ولا تأسف على ما أدبر، ويحتاج ذلك إلى التواضع، والمتواضع الزاهد الذي لا يلقى أحداً إلا ويرى أنه خيْرٌ منه. والدنيا عند الزاهد دار نعيم الظالمين، وهي جيفة، ومن يريدها فليصبر على مخالطة الكلاب. وكان يقول: كان أبو ذرّ وسلمان الفارسي وأبو الدرداء من التاركين للدنيا، فلو أن أحداً الآن فعل مثلهم ما يقال عنه زاهد، لأن الزهد لا يكون إلا في الحلال المحض، والحلال

المحض غيرمعروف الآن، والقلوب خلقها الله مساكن للتقوى، فسكنتها الآن الشهوات، والشهوات مفسدة للقلوب، وتلف للأموال، ولا يمحو الشهوات من القلوب إلا الخوف المُزعج من الله، أو الشوق المقلق لحضرته. وأكثر الناس زهداً الزاهد في الرياسة، وزهده أشدّ من زهد الزاهد في الدنيا. والعلم يحضّ على الزهد، فمن علم تعلّم، ومن تعلّم زهد، والقرآن كتاب العلم والزهد، وأسوأ الناس هو قارىء القرآن الذى لا يعمل ولا يتّعظ به، وقُرّاء هذا الزمان قرّاء سوء لا يؤمنون بيوم الحساب. وعلماؤهم علماء سوء يحرّفون الكلم عن مواضعه، وذنوب العلماء صارت أكثر من زَبَد البحر، والناس يُعذَّبون بذنوب علمائهم، والمؤمنون قليلون، وأهل العلم والإيمان بين ثلاثة: إما حلال بيّن، وإما حرام لاشك فيه، وإما شبهات بين ذلك، والمؤمنون إذا لم يجدوا الحلال تناولوا من الشبهات ما يقيم أودهم لاغير، فالمؤمن لا يعلم إلا ما ينجيه، وإذا توكل فعن ثقة أنه لن يصيبه إلا ما كُتب له، وليس كذلك علماء هذا الزمان، فهم لا يخافون الله، وخوفهم من السلطان، والمؤمن خوفه من الله، ومن خاف الله خاف منه كل شيء حتى السلطان، فلا تدعوا لعلماء السوء ولا لحكام السوء، فمن دعا لظالم بالبقاء فقد أحبّ أن يعصى الله، والدعوة للظلم لا يأتيها إلا طالب الدنيا، والدنيا لم تخلق ليُنظر إليها، وإنما خُلقت ليُنظَر بها إلى الآخرة. - وكما ترى، فإن علم يوسف بن أسباط هو العلم، وكان معه علمٌ كثير حسّنه الله. والعالِم الحقّ لا يرائى أبداً، وكل عمل فيه حبّة رياء لا يقبله الله، ويوسف بن أسباط كان يسأل الله أن يعلّمه ما يمكّنه به أن يعرف نفسه، وخير العلوم ما عرف بها صاحبها نفسه، وفلسفة يوسف قوامها معرفة الناس، وبها لا ينقطع رجاؤه من قلبه. والعارف بالله يطيع الله فى جميع ما يعرفه، والعارف نفسه يخاف من حسناته أن لا تُقبَل، وشعاره الآية: ﴿يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾(المؤمنون ٦٠)، قال ابن أسباط: يعطون ما أعطوا وهم يخافون أن يُتقبّل منهم.

ويوجز ابن أسباط تصوّفه فى موعظته لتلميذه حُذَيْفة: أوصيك بتقوى الله، والعمل بما علّمك الله، والمراقبة حيث لا يراك أحد إلا الله، فاحسر عن نفسك قناع الغافلين، وانتبه من رقدة الموتى، وشمّر الساق فإن الدنيا ممر السابقين، فلا تكن ممن يُظهر الشك، ويتشاغل بالوصف، ويترك العمل بالموصوف

له، فإن لنا ولك من الله مقاماً يسألنا فيه عن الرَّمق (لحاظ الأعين) الخافى، وعن الخليل الجافى، ولست آمن أن يكون فيما يسألنى ويسألك عنه وساوس الصدور، ولحاظ الأعين، وإصغاء الأسماع. واعلم أن مما يوصف به منافقو هذه الأمة، أنهم خالطوا أهل الدين بأبدانهم، وفارقوهم بأهوائهم، وخفّفوا مما سمعوا من الحقّ، ولم ينتهوا عن خبيث فعالهم. واعلم يا أخى أنه لا يجزينا من العمل القول، ولا من التوقّى التلاوم، وقد صرنا فى زمان هذه صفةُ أهله، خضعوا لما طغوا من مالهم، وسكنوا عمّا سعوا من باطلهم، وفرحوا بما رأوا من زينتهم، وداهَنَ بعضهم بعضاً فى القول والفعل.

* * *

١٥- الأسفراييني، صاحب التبصير...

أبو المظفر شاهفور بن طاهر بن محمد الأسفراييني، الفقيه، الأصولى، المفسّر، الشافعى، توفى بطوس سنة ٤٧١هـ، ومن مصنفاته «تفسير الكتاب الكريم» بالفارسية، و«الأوسط» فى الملل والنحل، وله «التبصير فى الدين وتمييز الفرقة الناجية عن الفرق الهالكين» المعروف بين أهل العلم بالتبصير، وأيضاً بكتاب الملل والنحل.

ويعتبر الأسفراييني الصوفية من الفرق الناجية، ويقول: إن الصوفية ليسوا من أهل البدع، لأن أهل البدع لم يكن لأحد منهم حظ من دقائق وحقائق علم التصوف، بل إن هؤلاء كانوا محرومين مما فيه من الراحة والحلاوة والسكينة والطمأنينة.

ويذكر الأسفراييني أن عبد الرحمن السُّلَمى قد أورد فى طبقاته من أعلام الصوفية قريباً من الألف، وجمع إشاراتهم وأحاديثهم، ولم يكن فيمن أورد أسماءهم أحد ممن يمكن أن يُنسَب إلى شىء من بِدَع القدرية، والروافض، والخوارج، ويتساءل: وكيف يمكن أن يُتصوَّر فيهم من هؤلاء - وكلامهم، أى الصوفية، يدور على التسليم، والتفويض، والتبرّى من النفس، والتوحيد بالخلق والمشيئة، والخُلُق والتقدير إلى أنفسهم، وذلك بمعزل عما عليه أهل الحقائق من التسليم والتوحيد؟.

ويقول الأسفراييني فى باب فرق البدع الذين ينتسبون إلى دين الإسلام ولا يُعَدّون فى زُمرة المسلمين: إن هؤلاء الحلولية، وهم فرقة ظهرت فى دولة الإسلام وكان غرضهم إفساد التوحيد على المسلمين، ومن جملتهم الحلاّجية المنتسبون إلى أبى المغيث الحسينىّ بن منصور الحلاّج من أرض فارس، من بلد يقال له بيضاء، وكان فى أول أمره يتكلم على لسان الصوفية، ويتعاطى العبارات التى تسميها الصوفية

الشَّطح، وهو أن يتكلم بكلام يحتمل معنيين، أحدهما مذموم والآخر محمود، وكان يدّعى فى كل علم. وافتتن به أهل العراق وجماعة من أهل طالقان خراسان، واختلف المتكلمون والفقهاء والصوفية فى حاله. أما المتكلمون فأكثرهم على أنه من الحلولية، وكان محتالاً ممخرقاً، ونبّه إليه القاضى أبو بكر (الإمام محمد بن الطيب الباقلانى المتوفى سنة ٤٠٣هـ)، وحكى فى كتابه كثيراً من حيله. وتكلّم فيه جماعة من متكلمى البصرة يقال لهم السالمية، وهم من جملة الحشوية، يتكلمون ببدع متناقضة، وقالوا إنه كان صوفياً محقّقاً وله كلام فى معان دقيقة فى حقائق الصوفية. وكذلك الفقهاء ـ اختلفوا فى حاله، فقد سُئل بعضهم عن حاله لمّا أُريد قتله، فتوقّف فيه، وأفتى بعضهم بجواز قتله. وكذلك أهل التصوّف اختلفوا فى حاله، فردّه عمرو ابن عثمان المكّى، وأبو أيوب الأقطع، وردّوا من كلامه أنه قال يوماً للجنيد: «أنا الحق»، فقال له الجنيد: «أنت بالحق أى خشبة تفسد»، فظهرت فراسته. وصُلب الحلاّج بعد ذلك. وقَبِله أبو العباس ابن عطاء، وأبو عبدالله بن خفيف، وأبو القاسم النصراباذى وفارس الدينورى، وقالوا أظهر الله عنه أحوالاً من الكرامات، وكان من حقّه أن يحفظ سرّه فيها، فعاقبه الله تعالى بتسليط مَن كان يردّه عليه، حتى بقى حاله مُشكلاً مُلبساً، وقالوا: والدليل على صحة باطنه أنه كان يُقطَع يده ورجله ويقول: «حسْبُ الواحد إفرادُ الواحد». وحُكى عنه أنه سُئل عن دينه فقال: «ثلاثة أحرف لا عُجم فيها؛ ومعجومان، وانقطع الكلام». قالوا أراد به التوحيد والذين قالوا بتكفيره إنما قالوه لما حُكى عنه من القول بالحلول، وأنه قال: «كل من هذّب نفسه فى الطاعة، وصبر على اللذة، وصفا حتى لا يبقى فيه شئ من البشرية، حلّ فيه روح الإله كما حلّ فى عيسى عليه السلام!! ولا يريد شيئاً إلا كان كما أراد.

ويقول الأسفراييني: وكان الحلاّج يدّعى لنفسه هذه المنزلة، ووُجدت له كُتب كتبها إلى أتباعه عنوانها: «من الهُوَ هُوَ (اسم إله اليهود) ربّ الأرباب، المتصوِّر فى كل صورة، إلى عبده فلان»!! وأتباعه كانوا يكتبون إليه: «يا ذات الذات ومنتهى غاية اللذات، نشهد أنك تتصور فيما شئت من الصور، وأنك الآن متصوِّر فى صورة الحسين بن منصور، ونحن نستجيرك يا علاّم الغيوب»!!! ويقال إنه اختدع جماعة من خواص الخليفة المقتدر، فخاف المقتدر أن

يُفتن الناس، فعرض حاله على الفقهاء، واستفتاهم فيه، فوافق مراده فتوى أبي بكر بن داود، فأمَرَ حتى ضُرب ألف سوط!! وقطعت يداه ورجلاه!! وصُلب يوم الثلاثاء، لثلاث بقين من ذي القعدة سنة تسع وثلاثمئة، ثم أُمر حتى أُنزل من خشبته، وأُحرق وطُرح رماده في دجلة!

فهذا هو ما يقوله الأسفراييني عن الحلاّج، أوردناه لأهميته، وكل ذلك مبالغ فيه، فكيف يُضرب ألف سوط ويعيش؟! وكيف تُبتر يداه ورجلاه ولا يموت فوراً نتيجة النزيف؟!

ويقول الأسفراييني: وأتباع الحلاّج الذين من أهل طالقان، قالوا إنه حيّ حتى الآن! وأن الذي قُتل كان شخصاً أُلقي عليه شَبَهُه!! ـ وهذا صدق، فإنهم يقولون ذلك حتى الآن، وقد تحدّثوا به إليّ في زيارتي لطالقان! وهؤلاء هم الشيعة، وهم أنفسهم الذين قالوا من قبل نفس المقالة عن عليّ، وعن الكثير من أئمتهم! لا سامحهم الله!

* * *

١٦- الأسمر: وليّ الشعب...

عبدالسلام الأسمر، أكثر الأولياء شعبيةً في ليبيا، والناس هناك يقسمون فيقولون: وحياة سيدي عبد السلام؛ وهو عبدالسلام بن سالم الطيطوري، وكان صوفياً من جملة مشايخ القوم، ووفاته سنة ٩٨١هـ (١٥٧٣م)، في زليفي، ومدفنه بها، واشتهرت بمسجده فيها، وله «الوصايا»، و«نصيحة المريدين للجماعة المتسبين»:

وقيل في الأسمر: هو «الأوحد القدوة»، وكان يتقلل من الدنيا، ويلبس الصوف، وما كان يطعم سوى رغيف في اليوم، وإذا استطاع كان يعطي الفقراء، واتخذوه ملاذاً، وكان يدعو تلاميذه أن يتقشّفوا، وإذا خدمه أحدهم قال له: إنما الحُرّ الذي يخدم الأحرار. ويقول له: هل أنت عَبْدُ نفسك؟ إن البرّ تجارة الأحرار، والتواضع وصيّتهم لبعضهم البعض، وربحهم رضا النفس.

ومن أقواله لتلاميذه: إذا أحببتم فافصحوا، ولا تكتموا ما عندكم، ولا تحفظوا سرّكم، والمحبة الجهر بها أولى من إسرارها.

ويقول: إذا أردتم أن تعرفوا ما ينتظركم في الآخرة فتعلّموا أن تجلسوا إلى الفقراء، وتذوقوا حلاوة صُحبتهم، فإنها من حلاوة صُحبة أهل الجنة.

ويقول: طلبنا التصوّف حتى استغرقنا، فخشينا أن يكون استغراقنا استخفافاً بحقّ الله علينا، فطلبناه تعالى، فهدانا إليه، فلا تركنوا

للمألوفات، واركنوا للصلاة والذكر، والجأوا لله من كل أبواب الفكر.

* * *

١٧- الإسنوى: الصوفى المتنور...

عماد الدين محمد بن الحسن بن علىّ بن عمر، القرشىّ، الإسنوىّ، الأموىّ، الأشعرىّ، (٦٩٥ ـ ٧٦٤هـ)، صاحب كتاب «حياة القلوب فى كيفية الوصول إلى المحبوب»، وميلاده بإسنا، وتعلّم بالقاهرة والشام، واستوطن حماةً مدة، وعاد إلى مصر فتولى النيابة فى القاهرة، ثم فى منوف، وتوفى بالقاهرة؛ والكتاب فى أربعة فصول، فى حدّ علم التصوف وحقيقته وشرفه، ومعنى التصوف، وأحوال الصوفية وأدبهم مع الحقّ والخَلْق، ومعنى الولاية، وكرامات الأولياء، ولغة التصوف؛ ويقول إن علم الباطن هو علم القرب أو علم التصوف، وهو أجَلّ العلوم وأشرفها، ويُعرف منه أحوال النفس فى الخير والشر، وكيفية تنقيتها من عيوبها وآفاتها، وتطهيرها من الصفات المذمومة، والرذائل والنجاسات المعنوية التى ورد الشرع باجتنابها، والاتصاف بالصفات المحمودة، وهى الصفات التى طلب الشرع تحصيلها، وكيفية السلوك والسير إلى الله تعالى. وفائدة هذا العلم وثمرته هى: النجاة فى الآخرة، والفوز برضا الله تعالى، ونيل سعادة الأبد؛ وموضوعه هو: الباطن، أى القلب، من ناحية ما يُعرَف له من اللمحات، والخواطر، والهواجس، والوساوس، والعلوم، والنيّات، والقصود، والعزائم، والاعتقادات، وحديث النفس، وغير ذلك. ومسائل هذا العلم: هى الأحكام المتعلّقة بهذه الخواطر، والهواجس، والنيّات، والقصود، والعزائم، وسائر أحوال النفس. وشرف هذا العلم: أن أهله هم الصفوة بعد الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام، وهو العلم الذى درج عليه السلف الصالح من الصحابة والتابعين وتابعيهم، وهو العلم الذى لم يبعث الله الأنبياء إلا لأجله، وقد سمّاه فى كتابه فقهاً: وعلماً، وضياء، ونوراً، وهدى ورُشداً، وهو مستخرج من القرآن والسُّنّة، وهو علم يقين المقرّبين.

والتصوف أوله علم، وأوسطه عمل، وآخره موهبة، فالعلم يكشف عن المراد، والعمل يُعين على المطلوب، والموهبة تبلّغ غاية الأمل. وأهل التصوف على ثلاث طبقات: مُريد طالب، ومتوسط سالك، ومُنتهٍ واصل؛ فالمريد صاحب وقت؛ والمتوسّط صاحب حال؛ والمنتهى صاحب نَفَس، وأفضل الأشياء عندهم عدّ

الأنفاس، فالمريد طالبٌ متعوبٌ فى طلب المراد، والمتوسط السالك مُطالَب بآداب المنازل، وهو صاحب تلوين لأنه يترقّى من حال إلى حال، وهو فى الزيادة، والمنتهى الواصل محمولٌ قد جاوز المقامات، وهو فى محل التمكين لا تغيره الأحوال. ومقام المريد المجاهدات والمكابدات، وتحمُّل المشاق، وتجرُّع المرارات، ومجانبة الحظوظ؛ ومقام المتوسط ركوبه الأهوال فى طلب المراد، ومراعاة الصدق فى الأحوال، واستعمال الأدب فى المقامات؛ ومقام المنتهى الصحو والتمكين وإجابة الحق من حيث دعاه.

والتصوف له ظاهر وباطن، فظاهره استعمال الأدب مع الخلق بالأخلاق الحسنة معهم، وباطنه منازلة الأحوال والمقامات مع الحق، فالظاهر علامة الباطن، والباطن حقيقة الظاهر.

ويوصى الإسنوىّ المريد بأن يكون شديد التوق والاجتناب لمحدثات الأمور، وليكن حريصاً على التفتيش عن أخبار الصحابة وسيرهم، ويحذّره من التخلى عن السُّنّة وآدابها، ويوجب عليه الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وجوباً على الكفاية، ويتأكد وجوبه على المريد والسالك، والدليل عليه قوله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ (آل عمران ١٠٤).

* * *

١٨- أصحاب الصُّفّة...

المقصود بها صُفّة الرسول ﷺ أو أهلها بالذات، قيل فيهم: أخلاهم الحقّ من الركون إلى شئ من العروض، وعصمهم من الافتتان بها عن الفروض، وجعلهم قدوة للمتجرّدين من الفقراء، لا يأوون إلى أهل ولا مال، ولا يلهيهم عن ذكر الله تجارة ولا حال، ولم يحزنوا على ما فاتهم من الدنيا، ولا يفرحوا إلا بما أُيِّدوا به من العُقْبَى، وكانت أفراحهم بمعبودهم ومليكهم، وأحزانهم على فوت الاغتنام من أوقاتهم وأورادهم، وقيل فيهم نزلت الآية: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ﴾ (الشورى ٢٧)، فزوى الله عنهم الدنيا وقبضها إبقاءً عليهم، وصوناً لهم، لئلا يطغوا، فصاروا فى حماه محفوظين من الأثقال، ومحروسين من الأشغال، فلا تذهلهم الأموال.

وكان من أهل الصفة سبعون رجلاً ليس لواحد منهم رداء. وكان عدد قاطنى الصفة يختلف على حسب اختلاف الأوقات والأحوال، فربما تفرّق طارقوها

من الغرباء والقادمين إليها فيقل عددهم، وربما يجتمع فيها واردوها من الرواد والوفود فيكثرون. والمشهور من أخبارهم غلبة الفقر عليهم، وإيثارهم القلّة واختيارهم لها، فلم يجتمع لهم ثوبان، ولا حضرهم من الأطعمة لونان، فإنهم لمّا هاجر الرسول من مكة تبعوه إلى المدينة، من مكة ومن غيرها من القرى، ولم يكن لديهم ما يُقيتهم، وما كان في المدينة ما يمكن أن يقوموا به من أعمال يُؤجَرون عليها، فلجأوا إلى رواق المسجد يستظلون بِظلّته من البرد والحر، ،وبلغ بهم الفقر أنه ما كان منهم من أحد عليه ثوب تام، وقد اتخذ العَرَق في جلودهم طوقاً من الوَسَخ والغبار، وكان الرسول إذا أمسى قَسَم أهل الصُّفّة بين الناس من أصحابه، فكان كل صحابيّ قادر، يستضيف منهم الواحد أو الاثنين أو الثلاثة حتى العشرة. وكان الواحد منهم يتوارى من العُرى.

وقيل فيهم: إنهم قوم استوطنوا الصُّفّة فَصَفُّوا من الأكدار، ونُقّوا من الأغبار، ومن حالهم واسمهم كان اشتقاق اسم التصوّف والصُّوفي. وقيل فيهم: أهل الصفة هم أخيار القبائل والأقطار، ألبسوا الأنوار، واستطابوا الأذكار، واستنارت منهم البواطن والأسرار.

وكان الرسول ﷺ يحضرهم ويجعلهم مثل الحلقة، ورجل منهم يقرأ عليهم القرآن، فيقول فيهم: «الحمد لله الذي جعل في أمتي من أُمرت أن أصبر نفسي معهم»، وينادي عليهم: «ليبشّر فقراء المؤمنين بالفوز يوم القيامة قبل الأغنياء بمقدار خمسمائة عام. هؤلاء في الجنة ينعمون، وهؤلاء يُحاسبون». ومرّ عليهم يوماً يقرأون فكفوّا فسألهم: ما كنتم تقولون؟ قالوا: نذكر الله ورسوله، قال: «فإني رأيت الرحمة تنزل عليكم، فأحببت أن أشارككم فيها».

ومن أهل الصفة: بلال بن رَباح: وهو من السابقين المعذَّبين في الله؛ والبَراء بن مالك: الذي قال فيه الرسول: «رُبَّ أشعث ذي طمرين لا يُؤبه له؛ لو أقسم على الله لأبرّه»؛ وثقيف بن عمر: وكان يخدم النبيّ، حتى إذا فرغ من خدمته أوى إلى المسجد فكان هو بيته؛ وجُعَيْل بن سُراقة: قال فيه الرسول: «فجعيل خيرٌ من هذا ملء الأرض»؛ وحارثة ابن النعمان: من أهل بدر، وأحد العثمانيين الذين ثبتوا يوم حُنَين ولم يفروا؛ وحازم ابن حرملة: قال فيه الرسول: «يا حازم! أكثر من قول لا حول ولا قوة إلا بالله العظيم فإنها كَنزٌ من كنوز الجنة»؛ وحنظلة بن أبي عامر: الذي

دعاه الداعي للجهاد وكان جُنباً، فلما مات على حاله قال فيه الرسول ﷺ: «لذلك غسلته الملائكة»؛ والحَكَم بن عُمَيْر: ويروى أن الرسول توجّه فيه بخطابه: «كونوا في الدنيا أضيافاً، واتخذوا المساجد بيوتاً، وعوِّدوا قلوبكم الرقة، وأكثروا التفكُّر والبكاء، ولا يختلفنّ بكم الأهواء، تبنون ما لا تسكنون، وتجمعون ما لا تأكلون، وتأملون ما لا تدركون». «كفى بالمرء نقصاً في دينه أن يُكثر خطاياه وينقص حلمه وتقل حقيقته، جيفةٌ بالليل، بطّال بالنهار، كسولٌ هلوع، منُوعٌ رتوع». «استحيوا من الله حقّ الحياء. احفظوا الرأس وما حوى، والبطن وما وعى، واذكروا الموت والبِلى، فمن فعل ذلك كان ثوابه جنّة المأوى»؛ ومنهم خبّاب بن الأرت: وكان من المعذبين، ومن السابقين الأولين من المهاجرين، وشهد بدراً؛ وخُنَيْس بن حُذافة: من المهاجرين الأولين، وزوجته حفصة بنت عمر من مهاجرة الحبشة، وتوفي بالمدينة في أول الإسلام، فلما تأيّمت منه حفصة تزوّجها الرسول ﷺ؛ وخُرَيِّم بن فاتك: قال فيه الرسول: «أيّ رجل أنت، لولا أن فيك خصلتين: تسبيل إزارك وتوفير شعرك»، فرفع خريم إزاره، وأخذ من شعره؛ وأبو رُزَيْن، قال له الرسول ﷺ: «يا أبا رزين، إذا خلوتَ فحرّك لسانك بذكر الله، فإنك لا تزال في صلاة ما ذكرتَ ربّك، إن كنتَ في علانية فصلاة العلانية، وإن كنتَ خالياً فصلاةُ الخلوة. يا أبا رزين: إذا كابد الناس قيام الليل وصيام النهار، فكابدْ أنت النصيحة للمسلمين. يا أبا رزين: إذا أقبل الناس على الجهاد في سبيل الله، فأحببتَ أن يكون لك مثل أجورهم، فالزم المسجد تؤدِّن فيه، لا تأخذ على أذانك أجراً». وقال له: «ألا أدلك على مَلاك هذا الأمر الذي تصيب به خير الدنيا والآخرة؟ عليك بمجالس أهل الذِّكر، وإذا خلوتَ فحرّك لسانك ما استطعت بذكر الله، وأحبَّ في الله، وأبغض في الله. هل شعرت يا أبا رزين أن الرجل إذا خرج من بيته زائراً أخاه، شيّعه سبعون ألف مَلَك، كلهم يُصلّون عليه: ربنا إنه وَصَلَ فيك فصله. فإن استطعت أن تعمل بذلك في ذلك فافعَل»؛ ومنهم سالم بن عُمَيْر، والعرباض ابن سارية: وكانا من البكائين، وفيهما وفي أصحابهما نزلت: ﴿ تَوَلَّوْا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ ﴾ (التوبة ٩٢)؛ وطخفة بن قيس: مات في الصفة؛ وطلحة بن عمرو، قال: وكان الرسول يُجرى علينا المُدّ من التمر كل يوم، حتى ناداه رجل منا: يا رسول الله، قد أحرق التمر بطوننا، فقال له: «لقد مكثتُ أنا وصاحبيّ بضعة عشر ليلة، ما

لنا طعام إلا البربر (ثمر الأراك)، فقدمنا على إخواننا من الأنصار وعَظْم (أغلب) طعامهم التمر، فواسونا فيه. فوالله لو أجد لكم الخبز واللحم لأطعمتكم، ولكن لعلكم تدركون زماناً تلبسون فيه مثل أستار، الكعبة ويُغْدَى ويُراح عليكم بالجِفان»؛ والطفاوي الدوسيّ: سيد من أصحاب الرسول ﷺ؛ وأبو ذرّ الغفاريّ، وكان من قُطّان مسجد الرسول، فكان متوحداً متعبّداً؛ وأبو هريرة: أشهر من سكن الصُّفّة واستوطنها طوال عمر النبيّ ﷺ، ولم ينتقل عنها، وكان عريف من سكن الصفة من القاطنين ومن نزلها من الطارقين، وكان النبيّ ﷺ إذا أراد أن يجمعهم لطعام حضره، تقدّم إلى أبي هريرة ليدعوهم ويجمعهم، لمعرفته بهم وبمنازلهم ومراتبهم، وكان أحد أعلام الفقراء والمساكين، صبر على الفقر الشديد وعن مخالطة الأغنياء والتُّجار، وزهد في لبس اللّين والحرير؛ وعبد الله بن أم مكتوم: وهو الذي نزلت فيه: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ * أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ﴾ (عبس ١/ ٢)؛ وعبد الله بن عمرو: وهو الذي استشهد بأحُد، فقال رسول الله لابنه جابر: «أبشّرك بخير. إن الله أحيا أباك فأقعده بين يديه، فقال: تمنّ عليّ عبدي أعطيكه. قال: يا ربّ ما عبدتُك حقّ عبادتك! أتمنى عليك أن تردّني إلى الدنيا، فأقاتل مع نبيّك، فأُقتَل فيه مرة أخرى. قال: إنه قد سلف منى أنك إليها لا ترجع»؛ وعبد الله بن زيد الجُهَني: أحدالأربعة الذي كانوا يحملون الألوية يوم الفتح؛ وعبد الله ابن الحارث: وكان مكفوفاً اكتفى عن رؤية الناس بالأُنس بذكر الله وتقديسه؛ وعبّاد بن خالد الغفاريّ: وهو الذي نزل بالسهم في البئر يوم الحديبية؛ وفُضالة بن عُبَيد الأنصاري: وَصَفَ إخوانه من أهل الصُّفة فقال: كان رسول الله ﷺ إذا صلى بالناس، يخرّ رجال من قامتهم في الصلاة، لما بهم من الخصاصة، وهم أصحاب الصُّفة، فإذا قضى رسول الله ﷺ صلاته، انصرف إليهم فيقول: «لو تعلمون ما لكم عند الله لأحببتم أنكم تزدادون حاجة وفاقة»؛ ومِسْطَح بن أُثاثة أبو عبّاد: وهو الذي ذُكر في حديث الإفك، وكان الصدّيق ينفق عليه لفقره وقرابته، فلما نزلت: ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (النور٢٢)، عاد أبو بكر إلى الإنفاق عليه، وقال: بلى أنا أحب أن يغفر الله تعالى؛ ووابصة بن مَعْبَد الجُهَنيّ: استقر بالرِّقة من بعد، فظل على حاله يجالس الفقراء ويقول: هم إخواني على عهد رسول الله ﷺ؛ وهلال مولى المُغيرة: قال فيه الرسول ﷺ: «ليدخلن من هذا

الباب رجلٌ ينظر الله إليه» - يعنى هلالاً . وقال : «ما أحبَّكَ على الله وما أكرمك عليه».

فهؤلاء هم بعض أهل الصُّفة الذين يَقتدى الصوفية بسيمتهم، ويلازمون طريقتهم، ويتتبعون آثارهم، وقد أحصاهم عبد الرحمن السُّلَمى فى طبقات الصوفية، وأبو نعيم فى الحِلْية، لتوطئة مذهب المتصوّفة وتهذيبه على ما بيّنوه، إذ حقيقة هذا المذهب: متابعة الرسول ﷺ فيما بلّغ وشرّع.

* * *

١٩ - الأصَمّ: لقمان الأمة...

أبو عبد الرحمن حاتم بن علوان أو عنوان، وقيل حاتم بن يوسف بن عنوان، وكان مولى للمُشَنّى بن يحيى المحاربىّ، وشهرته حاتم الأصَمّ، ولم يكن أصمّ على الحقيقة، وإنما جاءته امرأة تسأله مسألة، فاتفق أن خرج منها ريحٌ له صوت، فخجلت المرأة، فقال حاتم: ارفعى صوتك! زاعماً أنه لم يسمع ما صدر منها، فداخل المرأة السرور لذلك، ومن يومها غلب عليه اسم الأصم.

وهو أعجمى خراسانى من بَلْخ، وصفه بعض أصحابه بأنه الكَنْ، ليس يكلّمه أحد إلا قطعه، وتوفى سنة ٢٣٧هـ، وكان يقال فيه: حاتم الأصم «لقمان هذه الأمة».

قيل تتلمذ على شقيق البلخى، وتتلمذ عليه أحمد بن خضرويه، وروى عنه أبو تُراب النخشبى؛ وقيل: حجّ مرة وبلغ من كان معه من تلاميذه ممن يلبسون الصوف ٣٢٠ رجلاً. وكان دائم الصُّحبة لشقيق، حتى أنه اشترك معه فى حرب الترك، ويروى حاتم عن ذلك: فأخذنى فى ذلك اليوم تركىّ فأضجعنى للذبح، فلم يكن قلبى به مشغولاً وإنما كان شغله بالله، أنظرُ ماذا يأذن الله فىّ، فبينما التركى يطلب السكين من جفته - يعنى الغمد - إذ جاءه سهم غادر فذبحه، فألقاه عنى . . . والمعركة التى يروى عنها حاتم هى معركة كولان، وفيها قُتل أستاذه شقيق البلخى سنة ١٩٤ هـ، وقال حاتم عن نفسه: اختلفت إلى شقيق ثلاثين سنة.

وطريقته: تقوم على إيثار الأدوم والأعمّ، والأخذ بالألزم والأقوم، ويؤسّسها على التوكّل والتيقّن، ويفلسف توكله بأنه قد علم بأن رزقه لن يأكله غيره فاطمأنت نفسه، وعلم بأنه لا يخلو من عين الله حيثما كان فاستحيى منه ، وأن له أجلاً يبادره فهو منتظر له. ويضرب المثل بنفسه فقد كانت له أربعة نسوة وتسعة

أولاد،ولم يقدر الشيطان أن يوسوس له في شيء من أرزاقهم. ولما سأله أستاذه شقيق: ماذا تعلمت مني منذ أن صحبتني؟ أجابه: تعلمتُ ست كلمات: أولهن: رأيت كلّ الناس في شك من أمر الرّزق، والله يقول: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللهِ رِزْقُهَا﴾ (هود ٦)، فعلمتُ أني من هذه الدواب، فلم أشغل نفسي بشيء قد تكفّل لي به ربّي؛ والثانية: رأيت لكل إنسان صديقاً يفشي إليه سرّه، ويشكو إليه أمره، فقلت أنظر لي صديقاً، فكل صديق رأيته قَبْل الموت، فأردتُ أن أتخذ صديقاً يكون لي بعد الموت، فصادقت الخير ليكون معي إلى الحساب، ويجوز معي إلى الصراط، ويثبّتني بين يدىّ الله عزّ وجلّ؛ والثالثة: رأيت أن كل الناس لهم أعداء، فقلت أنظر من يكون عدوي، فالذي يعطيني أو يأخذ مني ليس عدوي، وإنما عدوي هو الذي يأمرني بالمعصية كلما كنت في طاعة الله، وذلك هو إبليس وجنوده فاتخذتهم عدوي، ونصبت الحرب بيني وبينهم؛ والرابعة: رأيت الناس لهم طالب يطلب كل واحد منهم في يوم من الأيام - وذلك هو الموت، ففرّغت له نفسي، فإذا جاء أكون مستعداً للمضي معه؛ والخامسة: رأيتني أحبّ وأبغض حسداً للناس، فطرحتُ الحسد من قلبي، وأحببت الناس كلهم، فكل شيء لم أرضه لنفسي لم أرضه لهم؛ والسادسة: رأيتُ الناس كلّهم لهم بيت ومأوى يهتمون بتعميره، ولكن مآلهم إلى القبر وليس ما يعمرونه به، فقلت أفعل كل ما أقدر عليه من الخير حتى أُعمّر به قبري . - فهذه الكلمات الست هي مذهب الأصم في التصوّف.

والموت من يقينيات الأصم، وله فيه كلام يعظ به مريديه، وكانوا كُثراً، حتى أنه لما دخل الرُّى في سياحة، كان بصُحبته أكثر من ثلاثمئة من الصوفية، يقول لهم: من دخل مذهبنا فليضع نصب عينيه الموت. - وهو ليس هذا الموت الحسّي الذي نعرفه كنهاية للحياة على الأرض، ولكنه موت الصوفية، ومنه موت أبيض: هو الجوع؛ وموت أسود: هو احتمال أذى الناس؛ وموت أحمر: هو مخالفة النفس؛ وموت أخضر: هو طرح الرقاع بعضها على بعض. والصوفي المراقب لنفسه هو الذي يذكر نظر الله إليه إذا عمل، ويذكر سمع الله له إذا تكلم، وعلْم الله فيه إذا سكت. وليس - من يدّعي حبّ الله من غير ورع عن محارمه، أو حبّ الجنة من غير إنفاق ماله، أو حب النبيّ من غير محبة الفقراء

ـ إلا كاذباً. ورأس الأمر كله فى الثقة بالله، ثم التوكل، ثم الإخلاص، ثم المعرفة، والأشياء كلها تتم بالمعرفة، ومذهب الأصم يؤصّله على المعرفة، وهى الألزم والأقوم للصوفى، وبها يكون العارف عارفاً.

والتقى حاتم بأحمد بن حنبل، وكانوا قد رووا لابن حنبل بعض أقوال حاتم، كقوله: «معى ثلاث خصال أظهر بها على خصمى: أفرح إذا أصاب خصمى، وأحزن إذا أخطأ، وأحفظ نفسى لا تتجاهل عليه». فلمّا بلغت أحمد بن حنبل مقالته، قال: سبحان الله! ما أعقله من رجل!ـ وسأله أحمد بن حنبل: يا حاتم، فيم التخلّص من الناس؟ قال: يا أحمد، فى ثلاث خصال: أن تعطيهم مالك ولا تأخذ من مالهم شيئاً؛ وتقضى حقوقهم ولا تستقضى حقاً لك منهم؛ وتحتمل مكروهم ولا تُكره أحداً على شىء !! فقال أحمد بن حنبل: سبحان الله ! ما أعقله من رجل!

ويُروى عن حاتم أنه آثر العزلة، واختار لنفسه قُبّة لم يبرحها ثلاثين سنة، لا يحتاج إلى الناس فى شىء من أمور الدنيا، ولا يكلّمهم إلا عن مسألة لابد له من الجواب عليها. ولم يكن ذلك من الاكتئاب، وإنما عن مبدأ هداه إليه تفكيره. فقالوا له: لِمَ اعتزلت الناس وفيهم من تعلم، وفيهم من يقدر على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر؟ قال: ولكن بينهم سلاطين الجور يفتنونا عن ديننا، فالتخلّى منهم أولى.ـ وأقول: هذا خطأ لأنه يعطّل الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، والجهاد فى سبيل الله، وهداية الناس، وعمل الخير، والله قد شرط الإيمان بعمل الصالحات، وقال: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ﴾ (محمد٣١). وسألوه: فعلام وطّنت نفسك فى العزلة وثبّت عليها أمرك؟ قال: علمت أن القليل من الرزق يكفينى، فأقللتُ الحركة فى طلبه؛ وأنّ فرضى لا يُقبل إلا منى فأنا مشغول بأدائه؛ وأن أجلى لا بد أن يأتينى، فأنا منتظر له؛ وأنى لا أغيب عن عين مَن خلقنى، فأستحى منه أن يرانى وأنا مشغول بغير ما وجب له.

ولم يكن حاتم من المعتزلين فى بدايته، بل كان مجاهداً، وشارك مع أستاذه شقيق البلخى فى الغزو.

وأصل مذهب حاتم الأصم يقوم بعد تطوره على الزهد، وهذا ما جعله يعتزل الناس، يقول: الزهد رأس ووسط وآخر، ورأس الزهد الثقة بالله، ووسطه الصبر، وآخره الإخلاص؛ ويلخص دعوته فيقول:

أنا أدعو الناس إلى ثلاثة أشياء: إلى الإيمان بقضاء الله، وإلى الثقة فيه، وإلى التوكل عليه. فأمّا الإيمان بقضائه فأن تعلم أن ما قضاه عدلٌ منه، فإذا علمت ذلك لا ينبغي لك أن تشكو إلى الناس أو تهتم أو تسخط، وإنما ترضى وتصبر. وأمّا الثقة فالإياس من المخلوقين. وعلامة الإياس أن ترفع القضاء منهم، فإذا رفعت القضاء منهم استرحت منهم واستراحوا منك. وأما التوكل فطمأنينة القلب بموعود الله، فإذا اطمأننت على الموعود استغنيت عنى لا تفتقر أبداً. والزهد اسمٌ، والزاهد رجل. وللزهد ثلاث شرائع: أولها الصبر بالقضاء، والاستقامة على التوكل، والرضا بالعطاء. وتفسير الصبر هو أن تعرف أن النازلة إذا نزلت بك فالله يراك على حالك، فتصبر وتحتسب، وتعرف ثواب ذلك الصبر. ومعرفة ثواب الصبر: أن توطّن نفسك على الصبر، وتعلم أن لكل شيء وقتاً، والوقت على الوجهين، فإمّا أن يجيء الفرج، وإما أن يجيء الموت، فإذا كان هذان الشيئان عندك، فأنت حينئذ عارفٌ صابر. وأما الاستقامة على التوكل، فالتوكل: إقرارٌ باللسان، وتصديقٌ بالقلب، فإذا كان مُصراً مصدّقًا أنه رازق لا شك فيه، فإنه يستقيم؛ والاستقامة على معنيين: أن تعلم أن شيئاً لك وشيئاً لغيرك، وأن كل شيء لك لا يفوتك، والذى لغيرك لا تناله ولو احتلت بكل حيلة. فإذا كان مالُك لا يفوتك، فينبغي لك أن تكون واثقاً ساكناً، فإذا علمت أنك لا تنال ما لغيرك، فينبغي لك أن لا تطمع فيه. وعلامة صدق هذين الشيئين أن تكون مشتغلاً بالمعروض. وأما الرضا بالعطاء، فالعطاء ينزل على وجهين: عطاءٌ تهواه فيجب عليك الشكر والحمد، وعطاءٌ لا تهواه فيجب عليك أن ترضى وتصبر. والصوفى الصادق هو الذى فيه ثلاث خصال: لا يحب المال، ويسكن قلبه برغيفين يقنع بهما، ويعزل نفسه عن الناس.

وسألوه: ما السلامة من الدنيا؟ فقال: «لا تسلم من الدنيا حتى يكون معك أربع خصال: تغفر للقوم جهلهم؛ وتمنع جهلك عنهم؛ وتبذل لهم شيئك، وتكون من شيئهم آيساً».

وقال فى طريقته: اطلب نفسك فى أربعة أشياء: العمل الصالح بغير رياء؛ والأخذ بغير طمع؛ والعطاء بغير بينة؛ والإمساك بغير بُخل. وأقول رحم الله الأصم فقد حصّل الحكمة، وكان مثل لقمان، وصَدَق من

أطلق عليه: الأصم، لقمان هذه الأمة، فقد كان حكيماً، مثل لقمان والحكمة أعظم من الفلسفة!

* * *

٢٠ - ابن الأعرابي (أبو سعيد)...

أبو سعيد أحمد بن زياد، المعروف بابن الأعرابي (٢٤٦ - ٣٤١ هـ)، بصريّ، نزيل مكة، وبها مات، وله التصانيف المشهورة، ومنها: «طبقات النُّسّاك»، و«الاختصاص» (في ذكر الفقر والغنى)، و«الإخلاص»، و«معاني علم الباطن»، و«معاني الزهد» و«أقوال الناس في صفة الزاهدين»، و«المواعظ والفوائد».

وصحب ابن الأعرابي - الجنيد، وعمر ابن عثمان المكّي، وأبا الحسين النوري، وأسند الحديث ورواه، وكان شيخ الحرم المكّي في وقته:

ويفرّق ابن الأعرابي بين علوم الظاهر وعلوم الباطن: الأولى مدارجها الوسائط، والثانية مدارجها المكاشفة؛ والتصوّف تركٌ للفضول، والمعاملة كلها مبنية على استعمال الأولى فالأولى من العلم، فإذا زهدتَ فيلزمك أن تأخذ فقط ما لابد منه؛ وإذا توكلتَ فمعنى ذلك أن تطرح عن نفسك الكَلَف، وإذا رضيت فذلك معناه أنك تركت الاعتراض؛ وأما مقام المحبة فهو إيثار المحبوب على الكلّ؛ وفي الصبر تتلقى البلاء بالرحب؛ فإذا فوّضت فإنك تطمئن تماماً، وعند تحقّق اليقين تترك الشكوى فتكون الثقة بالله، وبأنه أعلم بك وبمصالحك منك بنفسك. والنفس: وهي آفة المريد، والاشتغال بها يقطعه عن عبادة ربّه؛ والاشتغال بهموم الدنيا يقطعه عن هموم الآخرة، والأقرب إلى التوفيق مَن تنبَّه من الغفلة والنسيان برحمة من الله، فيعرف نفسه بالعجز والذُلّ والضعف وقلّة الحيلة، فيتواضع لله وللخَلْق، وهكذا الفقراء أو الصوفية: فأخلاقهم سكونٌ عند الفقر، واضطرابٌ عند الوجد، وأنسٌ بالهموم، ووحشةٌ عند الأفراح - فيا هلا يا أبا سعيد! رحمك الله!

* * *

٢١ - أق شمس الدين...

وليّ البيرامية، محمد، شمس الملّة، ووليّ الدين، ابن حمزة، له «رسالة في دوران الصوفية ورقصهم»، ولد سنة ٧٩٢ هـ في دمشق، وقيل إنه من نسل محمد بن شهاب الدين السهروردي، وكان قدومه إلى قاواق سنة ٧٩٩ هـ، وتوفي أبوه وهو في السابعة، وانخرط في دراسة الدين، واشتهر بدر الدين ابن قاضي سماونة بأنه كان من شيوخه، واشتغل مدرساً للقرآن، وانضم للطريقة البيرامية، وسرعان ما

اختاره وليّها حاجي بيرام شيخاً سنة ٨٣٠ هـ، وكانت له كرامات علاجية قرّبته من السلطان محمد الثاني، وكتب عدداً من الكتب الطبية والصوفية التي لم تنشر بعد، ولكن البيرامية الشمسية يتداولون مخطوطاتها بينهم، وكان له دور كبير في استبعاد الملامتية من الطريقة، فانفصلوا بطريقتهم، وتسمّوا باسم الملامتية البيرامية، وشيخهم عمر دده البورسوي.

* * *

٢٢ - الأقصري (أبو الحجّاج)...

يوسف بن عبد الرحيم بن غزي، وقيل ابن عربي، المغربي، الزاهد، العارف، أبو الحَجّاج الأقصري، نزيل الأقصر بصعيد مصر، وقبره فيها معروف، وكان في شبابه مشارفاً للديوان وملازماً للسلطان. وتجرّد وكثر أتباعه، وكان من أهل النظر والعلم، وله كلام يشهد بالمعرفة والدراية، وله منظومة في التوحيد أولها:

الحمد لله العليّ الصمد

الأول الآخر لا بأمد

ونَظمُه حَسَن، وقد ألّفها بحثّ تلاميذه على البُعد عن مخالفي سنن السلف، وغالى أتباعه فيه حتى ادّعوا أنه في ليلة النصف من شعبان عُرِّج به إلى السماء! وجعلوه عيداً لهم كل عام، تأتي إليه الخلائق من العوالي، ويحضره أصحاب الشنوف (الحلى) والشبوات (الخيل) والدفوف، والشيخ بعيدٌ عن كل ذلك، وكان يقول: من رأيتموه يطلب الطريق فدلّوه، فإن كان صادقاً أعينوه، وإن كان غافلاً فاطردوه وأبعدوه، لئلا يُتلف المريدين، فإنه لا يصل إلى المحبوب من هو محجوب، ويقول: لا حَسَد بين الإخوان، ولا حقد.

ويقصّ عن بدايته فيقول: كنت في بدايتي أذكر لا إله إلا الله، لا أغفل، فقالت لي نفسي مرة: مَن ربُّك؟ فقلت: ربيّ الله! فقالت نفسي: ليس لك ربّ إلا أنا، فإن حقيقة الربوبية امتثالك للعبودية، فأنا أقول لك: أطعمني فتطعمني، نمْ فتنم، قُم تقُم، امشي تمشي، اسمع تسمع، أبطش تبطش، فأنت تَمتثل لأوامري كلها، فإذن: أنا ربّك وأنت عبدي! قال: فبكيت متفكراً في ذلك، فظهرت لي عين الشريعة، فقالت لي: جادلها بكتاب الله، فإذا قالت لك: نم، فقل لها: ﴿كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ (الذاريات ١٧)، وإذا قالت لك: ابطش، قل: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾ (الإسراء ٢٩)، فقلت لتلك الحقيقة: فما لي إذا فعلت ذلك؟ فقالت: أخلَعُ عليك خُلع المتقين،

وأتوّجك بتاج العارفين، وأُمنطقك بمنطقة الصدّيقين، وأُقلّدك بقلائد المحقّقين، وأنادي عليك في سوق المحبين: ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ﴾ (التوبة١١٢). . . ومن أجل ذلك يقال في الأقصري: أنه المحبّ، المحقّق، المتّقي، الصدّيق، تاج العارفين.

وكان الأقصري من أخلص مريدي عبد الرحيم القنائي، ويذكر شهاب الدين السهروردي في كتابه «جذب القلوب إلى مواصلة المحبوب» طُرفاً من الحكايات عن الأقصري في بغداد، ومنها نفهم أنه كان فيها يعمل حائكا قبل أن يرحل إلى مصر، وكان له حانوته الخاص، وكان رحيل الأقصري إلى مصر ولم يبلغ الأربعين، وصحبه أولاده الأربعة. وأسلمت على يديه راهبة الأقصر تريزة بنت القيصر، لمّا رأت إيمانه، ووهبته كنيستها فأقام عليها مسجده، وألحق بها مدرسة لتدريس علوم الباطن لمريديه، ويبدو من الترجمات التي تناولته أنه حارب البدع في مجتمع الأقصر، وأنه استطاع أن يخرجه من التخلف والجمود إلى السعي في الدنيا من أجل الآخرة.

وطريقته في التصوف: هي التزام الكتاب والسُّنّة؛ ومن تعاليمه أن المريد الصادق لا يخوض قط في ذات الله تعظيماً لجنابه. وكان يحذّر المريدين من الحلوليين والاتحاديين ويقول: كل من سمعتموه يقول: حقيقتي الله؛ أو يقول: لا موجود إلا الله، فعرّفوه بذنبه واستتيبُوه. والمريد الصادق عنده لا يرجع عن الطريق ولو قاسى كلّ الأهوال، ومن شروطه: أن لا يصحب شيخه بنَفْس، ولا ملْك، ولا اختيار؛ ومن كان له حسد لإخوانه فلا ارتقاء له أبداً. ومن أشهر تلاميذه: أبو الغَوْث مفرج الدمامينى المتوفى سنة ٦٤٨ هـ، والمدفون بدمامين من أعمال قوص، وله كلام حسن في الطريق؛ وموسى ابن الحسن بن يوسف المعروف بالصبّاغ، وبالظهير القوصي، المتوفى سنة ٧١٠ هـ، وتخرّج عليه كثيرون، منهم: تاج الدين الدشناوى، وكمال الدين عبد الظاهر الجعبرى القوصي، المتوفى سنة ٧٠١ هـ، وقد استوطن أخميم وانتفع به خلقٌ كثير.

وفي طريقة الأقصري: ليس شرطاً أن يشهد التلميذ شيخه أو يجتمع به، لأن صورة المعتقدات إذا ظهرت لا تحتاج إلى صورة الأشخاص، بخلاف صورة الأشخاص إذا ظهرت، تحتاج إلى صورة المعتقدات، فإذا حصل الجمع بينهما فذلك كمالٌ حقيقي. ونحن نحبّ رسول الله ﷺ والتابعين وما رأيناهم. ولذلك لا عبرة بمن ينكر على أتباع الطرق الصوفية

اتّباعه لمشايخ هذه الطرق من الأموات، كما فى الأحمدية، والرفاعية، والبرهامية، والقادرية، مع أنهم أموات، فإن الاقتداء بهم وبأقوالهم وأحوالهم المنقولة إلينا حقيقة.

* * *

٢٣ - إمره (يوسف)...

نحو (١٢٤٠ ـ ١٣٢٠م) شاعر تركى من شيوخ المحبة الكبار، عاصر نهاية حكم السلاجقة وبداية حكم العثمانين فى الأناضول، ولم يعرف مكان مولده إذ تدّعيه بلاد كثيرة، إما أنه ولد فيها، وإما أنه مات فيها، ويقول فى ذلك شاعر آذربيجان وهّاب زاده: لماذا تنسبه أماكن كثيرة إليها إن لم يكن ذلك لأن مثواه الحقيقى فى القلوب والصدور وفى حبات العيون، فأينما كان الناس فهو معهم بروحه، ولذلك كان قبره أو موضع ميلاده فى كل مكان من تركيا، والعظام من أهل الله يحيون ويموتون فى القلوب وليس فى التراب أو بالتراب! ويقول وهّاب زاده فيه: يوسف إمره هو صوت الوجود.. ومع ذلك فالقبر الحقيقى ليوسف إمره إنما هو فى قرية صار كوى من أعمال اسكريشهر، وفيها أقام له أحباؤه نصباً تذكارياً سنة ١٩٤٩م.

وكان إمره من دائرة الثقافة العربية، ويتقن العربية ويحفظ القرآن، ويجيد الفارسية بالإضافة إلى لغة بلده التركية. وتعلم فى قونيّه، وفيها نظم الشعر، وبدأ الناس يستمعون إليه ويتحلّقون حوله، يحدثهم عن الله وعن الوجود. وعاصر جلال الدين الرومى وحضر له، وتساقيا المحبة.

وإمره فى الأدب التركى أكبر شعراء الصوفية عندهم، وهو يقول عن نفسه، ويتنبأ بما سيكون بعد وفاته: لقد اخترت القلوب أسكنها، ومُحال أن أخرج منها أبداً، فهنا كان مولدى، وهنا سيكون قبرى، وستحفر الأيام اسمى على جدرانها، وستنوزع نفسى فتنال منها ومن جسمى الحشائش والورود والأزهار، ومع كل ومضة برق سترد اسمى، وسيعلو كلما أشرقت الشمس، أو طلع القمر، أو قدم الربيع، أو نثر الفجر ضياءه على الكون.

وفلسفة إمرهُ فى الحب، باعتبار أن الحب هو الأصل فى الكون، فبه كان الخلق، وما تزال الدنيا ما دام الحب، فهل يثمر النبات، أو يتوالد الحيوان، أو يعيش الإنسان إن لم يكن الحب؟ الحب يجمع الذكر والأنثى، والإخوة، والأهل، والخلاّن، ويؤلّف ولا يفرّق، ويبنى ولا يهدم، والله تعالى جعلنا شعوباً وقبائل لنتعارف، والتعارف يقتضى

الحبّ، ويتم بالحبّ، وينتهى إلى الحبّ. ولم يخلق الله تعالى الخلق إلا لأنه أحبّ ذلك، وأحبّهم فأحبّوه.

ويقول إمره: إن العمر قصير، فهلاّ أمضيناه فى الحبّ؟ طُوبَى لمن أحبّ! ويبدى إمره التحسّر على من يقضى عمره فى الكراهية والحقد والعداء والعنف، ويقول: هذه الدنيا لا تدوم لأحد، فلنحب الآخرين وليحبونا.

ولإمره كتاب «النصيحة»،وفيه مواعظه وفلسفته فى الحياة، والخَلْق عنده قد حدث بالإحسان. وهو ينسب إلى الله تعالى أنه قال: كان الإحسان قصدى من الخلق. ـ ويشرح إمره ذلك فيقول: ومعنى الإحسان العطاء، ومعناه أن يأتى الخلق فى أحسن صورة، فلا أقل من أن يشكر الخلق الله على إحسانه. والشكر أدنى مراتب العرفان، والحبّ أعلى المراتب، ومن بدأ بالشكر ينتهى إلى الحبّ، ومن أحبّ سكر، ومن سكر فَنَى. وحقيقة المحبة أن تهب كلّك لمن أحببتَ، فلا يبقى لك منك شىء. والقلوب جُبِلت على محبة من يُحسن إليها وهذه محبة العوام، وأمّا محبة الخواص أو الصادّقين فهى أن تحبّ الله لما تراه فيه من قُدرة، ومن جلال وعظمة وعلم. ومحبة الصدّيقين أو المتحقّقين هى: أن تحب الله بلا علّه، وإنما لأنك تحبّه وكفى، وقلبك مُتْرعٌ به!

ثم إنه لا يحب الله إلا الجميل، لأن الجميل لا يميل إلا إلى الجميل ، والأشباه تتجاذب ، وكل شىء ينجذب إلى أصله وجنسه. وإمره يقول: إنه لا يحب الله إلا لله، وهو دائماً السوّاح فى مُلك الله ، والبُلبُل المغرّد على كل فَنَن بحبّ الله .

يقول : الله حياتى . لا أرتجى الحياة إلا به وله. وهو جنّتى فليذهب الناس إلى الجنة ما شاءوا، فإنما أنا مع الله! وهو كَنزى ، وأفضل كنوز الوجود. إنْ نطقتُ فهو نُطقى ، وإنْ نظرتُ فإنما أنظره ولا أنظر سواه ! عيناى لا تريان سوى الله ، وأذناى لا تسمعان إلاّ عن الله . سأظل على رجائى أن أراه .. ولو دُكّ بى الجبل وخررتُ صَعقاً سبعين مرة، لعدتُ أسأل والشمس رؤياه ! آه يا ربّى لو أرى وجهك ! أنت حبيبى وليس محبوب سواك!! ـ وهذا كلام أعظم وأسمى من كلام رابعة العدوية التى قيل فيها إنها شهيدة العشق الإلهى!

* * *

٢٤- الأنصارى (زكريا)...

شيخ الإسلام، مصرى، نشأ فقيراً مُعْدماً، حتى أنه قال أنه كان يخرج فى الليل من شدّة الجوع فيلتقط قشر البطيخ ويغسله ويأكله! ولمّا ظهر فضله تتابعت عليه العطايا حتى كان دخله قبل أن يولى

منصب القضاء نحو ثلاثة آلاف درهم، فأكثَرَ من الصدقة، واقتنى نفائس الكُتب، واشتغل بالتعليم والتأليف، وله المصنّفات والشروح، ومن ذلك «الزبدة الرائقة» فى شرح البُردة، وتتلمذ عليه الشعرانى، وقال فيه إنه فى أواخر عمره الذى امتد أكثر من مائة عام (ولد سنة ٨٢٣ هـ ومات سنة ٩٢٦ هـ)، لم يكن فى مصر كلها، إلا من كان من طَلَبته، أو من هو لا يزال يدرس عليه.

وكان الأنصارى صوفياً ذاكراً، يشرح كلام أهل الطريق على أتم حال، ويجيب عنه بالأجوبة الحسنة إذا أُشكل على الناس شىء من كلامهم.

وكان يقول: إن الفقيه إذا لم تكن له معرفة بمصطلح ألفاظ القوم، فهو كالخبز الجاف من غير إدام.

ولما وقعت فتنة برهان الدين البقاعى فى إنكاره على ابن الفارض ألفاظه، كان يقول: لا يجوز لمن لا يعرف مصطلح القوم أن يتكلم فى حقّهم بشرّ، لأن دائرة الولاية تبدأ من وراء طور العقل، لقيامها على الكشف - يعنى أن علم الصوفية كشفى من دائرة وراء العقل، أى أن الكلام فيه ليس بالعقل. وكان هو نفسه كثير الكشف لا تخيب فراسته فيمن يحادثه. وكان وهو شاب يحب طريق الصوفية، ويحضر أذكارهم، حتى أن أهل الفقه كانوا يعدّون ذلك نقيصة فيه، ولا يستبشرون فيه خيراً للفقه، لكثرة مطالعاته لكتب الصوفيه. وقال عن نفسه: إنه سافر إلى المحلة الكبرى ليلتقى بالشيخ الغمرى، وأقام عنده أربعين يوماً، قرأ عليه فيها كتابه قواعد الصوفية كاملاً، وأخذ عنه لبس الخِرْقة، وتلقّن الذِّكر.

* * *

٢٥ - الأنطاكى (أبو عبدالله)...

أبو عبد الله أحمد بن عاصم، المتوفى سنة ٢٣٩ هـ، من أقران بشْر الحافى، والسَّرِىّ السقطى، والحارث المحاسبى، ومن أجل ذلك يدور كلامه على المراقبة والمحاسبة، ويسميه الدارانى لهذا السبب: جاسوس القلب.

ويُطلق الأنطاكى على الصوفية اسم: أهل الصِّدق، ومجالستهم لذلك تكون بالصدق، لأنهم جواسيس القلب؛ وعلم التصوف هو علم معاملات القلوب. يقول: إذا صارت المعاملة إلى القلب استراحت الجوارح، وكلّ نفس مسئولة فَتَمَهَّدْها بالمحاسبة واسْتَحِ من قبولك من نفسك دعواها الصدق، والحكيم مَن نَظَر بعين القلب، والقلوب تحتاج من أصحاب النفوس

الحيّة إلى دوام الرعاية؛ وإجمام القلوب يكون بقلّة المخالطة وترك الطلب؛ ورقّتها تُستَجلب بدوام مجالسة أهل الذِّكر من أهل العقول؛ ونُورها يتحصّل بدوام الحُزن؛ واستفتاح الحزن يكون بطول الفكر؛ والتماس الفكر يكون في مواطن الخلوات .

والأنطاكي من الذين أمعنوا التفكير في أحوال عصره، وقرأ كثيراً، ووازن بين مختلف العلوم، وصارت له رؤياه الخاصة. يقول: أدركتُ من الأزمنة زماناً عاد الإسلام فيه غريباً كما بدأ، وعاد وصف الحقّ فيه غريباً كما بدأ؛ إنْ ترغب فيه إلى عالِم، وجدتَه مفتوناً بالدنيا، يحبّ التعظيم والرياسة، ويأكل الدنيا بعلمه، ويقول: أنا أولى بها من غيري؛ وإنْ ترغب فيه إلى عابد، تجده مفتوناً جاهلاً في عبادته، مخدوعاً لنفسه ولإبليس، قد صعد إلى أعلى درجات العبادة وهو جاهل بأدناها، فكيف بأعلاها، فقد صار العلماء والعُبّاد سباعاً ضارية، وذئاباً مختلسة، فهذا وصف أهل هذا الزمان من أهل العلم والقرآن ورُعاة الحكمة، فاعتبروا يا أولى الأبصار .

والأنطاكي بَحَث عن الحلّ لهذا التردّي للأوضاع، وقد تبحّر العلوم وجرّب الأصول، وطالع الحكمة، ودارَسَ الموعظة، وتدبّر القول بالمعقول، فلم يجد من العلم ما هو أشفى للصدر، وأتقى للهمّ وأحيا للقلب، وأجلب للخير، وأذهب للشرّ، من علم معرفة المعبود وتوحيده، والإيمان واليقين بآخرته، ليصحّ الخوف من عقابه، والرجاء لثوابه، والشكر على نعمائه .

ويوجز الأنطاكي مذهبه في هذه العبارة: «كفى بالعبد عارا أن يدّعي دعوة ثم لا يحققها بفعله»؛ ويلخّص حياته ومجاهداته الروحية، وحقيقة تصوّفه في هذه الأبيات، يُعلّم بها مريديه:

ألم تَرَ أن النفس يُرديك شرُّها
وأنك مأخوذ بما كنتَ ساعيا
فمن ذا يريد اليوم للنفس حكمةً
وعلماً يزيد العقل للصدر شافيا
هلمَّ إليّ الآن إنْ كنتَ طالباً
سبيلَ هدى أو كنت للحق باغيا
فعندي من الأنباء علمٌ مجرّبٌ
فمنه بإلهام ومنه سماعيا
أُخبرُ أخباراً تقادم عهدها
وكيف بدا الإسلام إذ كان باديا
وكيف نما حتى استتم كماله
وكيف ذَوَى إذ صار كالثوب باليا
ومن بَعْد ذا، عندي من العلم جوهرٌ
يفيدك علماً إن وعيتَ كلاميا

وعلماً غزيراً جالى الرَّين والصدَى
عن القلب حتى يترك القلب صافياً
فأصبحتُ بالتوفيق للحقّ واضحاً
وذاك بإلهام من الله ماضياً
لأنى فى دهر تغرّب وصفُه
فصار غريباً موحش الأهل قاسيا
فأخْوَج ما كنا إلى وصف ديننا
ووصف دلالات العقول زمانيا
عجائب من خير وشرّ كليهما
فإن كنتَ سمّاعاً بدا للقلب واعيا
فقد ندب الإسلام أحمد ندبةً
كما ندب الأمواتَ ذو الشجو شاجيا
فأول ما أبدأ بالحمد للذى
برانى للإسلام إذ كان باريا
وصيّرنى إذا شاء من نسل آدم
ولم أكُ شيطاناً من الجن عاتيا
ولا شاء من إبليس صيّر مخرجى
فكنتُ مضلاً جاحد الحق باغيا
ولكنه كان باللطف سابقاً
وإذ لم أكن حياً على الأرض ماشيا
وصيّرنى من بعد فى دين أحمد
وعلّمنى ما غاب عنه سؤاليا
وفهّمنى نوراً وعلماً وحكمة
فشكرى له فى الشاكرين موازيا
فمن أجل ذا أرجو إذ كان غافراً
ومن أجل ذا قد صحّ منى رجائياً
ومن أجل ذا أرجوه إذ لم يكافنى
ولكن بلطف منه كان ابتدائياً
فلا كنتُ ذا عقل لما قد رجوته
لقد كنت ذا خوف وشكرى محاذيا
ولو كنتُ أرجوه لحسن صنيعه
شكرتُ فصحّ الآن منى حيائيا
فشكرى له إذ صيّرتُ بالحق عالما
وللشرّ وصّافاً وللخير واصياً
ومن بعد ذا وصفى لنفسى وطبعها
ووصفى لغيرى إذ عرفت ابتدائيا
فهذا من الأنباء وصف غرائب
فمن كان وصفى لكان بحاليا
فكيف به إذا كان بالحق عالما
فهيهات لا ينجيه إلا الفيافيا
وذاك لأن الناس قد آثروا الهوى
على الحق سراً ثم جهراً علانياً
فهذا زمان الشرّ فاحذر سبيله
فإن سبيل الشر يُردى المهاوياً

* * *

٢٦ - الأنطاكى (البصير)...

داود بن عمر البصير، وكان ضريراً، وهو صاحب التذكرة الطبية المشهورة

«تذكرة داود»، وانتهت إليه رياسة الأطباء في زمانه ، وكان من مواليد أنطاكية، وله كتاب «تزيين الأسواق بتفصيل أشواق العشاق»، وكان قد هبط مصر وعاش بها وصار له شأن في الطبّ فيها، ووجدها كما يقول: «ملاعب جنّة»، وارتحل إلى مكة، وفيها توفي سنة (١٠٠٨ هـ - ١٦٠٠م)، ويعقد في كتابه فصلاً عن العشق الإلهي، يذكر فيه: أن المحبة قسمان، أشرفها الحب في الله، لأنه يُفني متعلقه ولا يفضُله شيء في الحقيقة، إذ ما سواه أوهام تضمحلّ وتزول، وأعراض تفنى وتحول. ويعرّف المحبة فيقول: إنها ميل نفساني إلى المراد يعضّده الجزم بالاعتقاد، ورؤية ما سوى المطلوب من الفساد، وغاية ذلك الثبات على الحبّ. - ثم لهذه المحبة أوصاف وشروط، منها: ألاّ يبالي المحب بما يَرِد من المحبوب، وأن يُؤثر رضاه على نفسه، فيتلذذ فيه بالبلاء كالعطاء، وبالغيبة كالحضور، وبالهجر كالوصل، وبالفناء كالبقاء، إذا كان في ذلك رضا المحبوب:

فكل الذي ترضاه والموت دونه
به أنا راضٍ والصبابة أرضت

وكذلك السالك: لم يزل يلقى مرادات نفسه حتى إذا وصل انطوى في دائرة المحبوب فلم يبق له مطلوب.

وشرط المحبة: أنها ميْل بلا نيْل، وشرط بلا جزاء، لئلا تزول عند زوال العوض. وقال في قوله عزّ وجلّ: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ (الأنبياء ٨٣): أن أيوب لم يزل يأكله الدود حتى لم يبق غير قلبه ولسانه، فأكل بعضه بعضاً حتى بقيت واحدة فدبّت إلى قلبه. فقال: أي ربّي ! لم أخف من بلاء ما دام قلبي عارفاً بحلاوة ذكرك، فأوحى الله إليه: بما تنظر إليّ غدا؟ فقال: بهاتين العينين . قال: «لا ، ولكن أخلق لك عينين يسميان البقاء، لتنظر إلى البقاء بالبقاء»!!.

ويذكر الأنطاكي فيمن استُشهد من المحبين شوقاً إلى حضرة ربّ العالمين: عبد الواحد بن زيد، وسعدون المجنون، وعُتبة الغلام، والشِّبلي، ورياح القيسي، ورابعة العدوية.

* * *

٢٧ - الأنطاكي (عبدالله بن خبيق)...

أبو محمد، أصله من الكوفة ولكنه سكن أنطاكية، وهي ثغر أهله في رباط . وابن خبيق من زُهّاد الصوفية المرابطين، وطريقته طريقة الثَّوْري، ولقد صحبه يوسف ابن أسباط، وردّدا كثيراً كلام الثَّوْري، وكلامه يدور على الأخلاق، وكان

من المَحدِّثين، وما تحدّث به عن رسول الله ﷺ يدور حول معاملات المسلم الورع مع إخوانه، ومع الدنيا، ومع زوجاته، وأحواله فى الجهاد، وما أعدّ للآخرة، والمضمون الأخلاقى للإسلام. وأقواله مواعظ، ولأنه احتك بأهل الكتاب من المسيحيين واليهود فى أنطاكية فهو يروى عنهم المواعظ، بمعناها وليس بمبناها، أو يستوحى ما وعاه من مضمونها. يقول مثلاً: كان حَبْر من أحبار بنى إسرائيل يقول: يا ربّ كم أعصيك ولا تعاقبنى! فأوحى الله إلى نبىّ من أنبياء بنى إسرائيل: قل له: كم أعاقبك وأنت لا تدرى! ألم أسلبك حلاوة مناجاتى؟!

ويقول ابن خبيق: إن مناط الأخلاق أربعة أشياء: العينان، واللسان، والهوى، والقلب؛ فانظر عينيك لا تنظر بهما إلى ما لا يحلّ لك، وانظر لسانك لا تقل به شيئاً بعلم الله خلافه من قلبك، وانظر قلبك لا يكن فيه نَمَل ولا دَغَل على أحد من المسلمين، وانظر هواك لا تهوىَ شيئاً من الشّر، وإذا أردت أن تعيش حيّاً فى حياتك فلا يسكن الطمع قلبك، ولا تغتمّ من شىء يضرّك غداً، ولا تفرح إلا بشىء يسرُّك غداً.

وسأله أحدهم: بماذا ألزم الحقّ فى أحوالى؟ فقال: «بإنصاف الناس من نفسك، وقبول الحق ممن هو دونك. وإن استطعت أن لا يسبقك إلى مولاك أحد فافعل، ولا تؤثر على مولاك شيئاً. واعلم أن طول الاستماع إلى الباطل يطفىء حلاوة الطاعة من القلب.

وسئل عن: أنفع الخوف وأنفع الرجاء؟ فقال: «أنفع الخوف: ما حجزك عن المعاصى، وأطال منك الحزن على ما فات، وألزمك الفكرة فى بقية عمرك؛ وأنفع الرجاء: هو ما سهّل عليك العمل لإدراك ما ترجو؛ ولا يستغنى حال من الأحوال عن الصدق، ولو صدق عبدٌ فيما بينه وبين الله لاطّلع على خزائن من خزائن الغيب، ولكان أميناً فى السموات والأرض.

وقال واعظاً أصحابه: «تعلّموا صحة العمل من سُقمه، فإنى تعلمته فى اثنتين وعشرين سنة. وإياكم أن تكونوا من قُرّائى الأسواق - يقصد الذين يُعلّمون القرآن ولا يعملون به. يقول: إذا دنا القارىء من المعصية ناداه القرآن من صدره، والله ما لهذا حملتنى، فلو أن العاصى سمع ذلك الصوت لمات حياءً من الله تعالى. - وهكذا كان ابن خبيق، واعظاً أكثر منه فيلسوفاً، وكان من أحسن الصوفية حديثاً فى الأخلاق الصوفية.

* * *

٢٨ - أوحدى: عاشق الله...

(١٢٨١ ـ ١٣٣٧م) الشاعر الفارسى ركن الدين أوحدى، الصُّوفى عاشق الله، ولد فى مراغة من أعمال أذربيجان، وعاش سنوات كثيرة فى أصفهان. وأوحدى هو تخلُّصه، أى الاسم القلمى له، من اسم أستاذه فى التصوّف: الشيخ أوحد الدين الكرمانى، وقد أهداه أوحدى ديوانه الذى يبلغ عدد أبياته حوالى عشرة آلاف بيت! إلا أن شهرته تقوم على مَثْنَوِيَّه «ده نامه»، أو منطق العشاق؛ و«جام جم» أو كأس جمشيد؛ والأول: يشتمل على عشر رسائل فى العشق الإلهى يوجهها إلى الله، الحبيب الغائب الحاضر، وأهداه إلى وجيه الدين، حفيد الفيلسوف الصوفى نصير الدين الطوسى سنة ١٣٠٦؛ هـ، والمثنوىّ الثانى: يشبه «حديقة الحقيقة» للشاعر الصوفى سنائى، وفيه يطرح أوحدى كلّ حكمته وفلسفته فى الحياة، ويهتم فيه بتربية المريد وما ينبغى له من الأخلاق، وما تكون عليه تربيته من طفولته، وما عليه من مسئوليات لمجتمعه، ولدينه، ولربّه، وللناس من حوله. ويظهر الجانب الصوفى من المثنوى فى جزئه الأخير، ظهوراً سافراً، حيث يتحدث فيه عن «الطريقة» وما يتصل بها.

* * *

٢٩ - أولاد الشيخ...

ويقال لهم كذلك بنو حَمَوَيْه، وكانت لهم الصدارة فى التصوّف وسياسة الدولة والقتال فى الحرب، وأصلهم من إيران، ونزحوا إلى الشام ومصر، وكانوا ينشئون المدارس والتكايا، ويعلّمون الإسلام والفقة، ويؤسّسون للطريقة، ورئيسهم أبو عبد الله محمد بن حمويه، المتوفى سنة ٥٣٠ هـ، وله مؤلفات فى التصوّف، وحفيده عماد الدين أبو الفتح، خلفه على الطريقة، واشتغل قيّماً على جميع المدارس الصوفية فى دمشق وحماه وحمص وبعلبك، وفى كل بَرّ الشام، ثم ابنه صدر الدين أبو الحسن (٥٤٣ ـ ٦١٧ هـ) وكان من أبرز المتصوفة فى عصره وبلده. **وأولاده الأربعة** ذاع اسمهم فى التاريخ، فالأول فخر الدين يوسف: دافع عن دمياط ضد الفرنسيين واستشهد فى وقعة المنصورة سنة ٦٤٧ هـ؛ والثانى عماد الدين عمر: قُتل على أبواب دمشق فى الوقعة المشهورة سنة ٦٣٦ هـ؛ والثالث كمال الدين أحمد: أبلى ككذلك بلاءً حسناً فى الحرب، وأُخذ أسيراً وتوفى سنة ٦٤٠هـ؛ والرابع معين الدين حسن: جاهد كذلك بالمال والنفس ولكنه توفى بالتيفود سنة ٦٣٤ هـ. **وأولادالشيخ** إذن هم القدوة للمتصوفة

في مجال التصوّف العملي أو التطبيقي، فهم ليسوا منظّرين وإنما معلّمون ومجاهدون.

* * *

٣٠ - أويس القرني...

نُحسب إليه الأويسية، وهي طريقة القَرَنيين. وأُوَيس لم يدرك رسول الله ﷺ، ولم تكن له معه صُحبة، ولكنه رأى رجالاً رأوه، وبلغه عن حديثه، وقد منعه عن رسول الله ﷺ أنه ما كان يستطيع أن يأتي إلى مسجده من العُرى، وما كان يترك أُمّه التي كان يرعاها، وفيه قال رسول الله ﷺ : «أويس القَرَني خير التابعين بإحسان». وعن النبيّ ﷺ قال: «إن من أمتي من لا يستطيع أن يأتي مسجده أو مصلاه من العرى، يحجزه إيمانه أن يسأل الناس، منهم أويس القرني، وفُرات بن حبّان».

وقيل صحيح اسمه: أويس بن عامر القَرَني، من بني قَرَن بن ردمان بن ناجية ابن مراد، أصله من اليمن، والبعض يتشككون في حقيقته ولا يُجزمون بوجوده. وقيل: هو من العُبّاد المتنسكين المقدَّمين، وكان يسكن القفار والرمال، وأصحابه يسمون القَرَنيين، وكان أسود.

وأهل الجنة منهم الملوك والسادة، وأويس منهم، وقال فيه النبيّ ﷺ لأبي هريرة : يا أبا هريرة! إن الله تعالى يحب من خلقه الأصفياء، الأخفياء، الأبرياء، الشَعثة رءوسهم، المغبرّة وجوههم، الخَمصة بطونهم، إلا من كَسْب حلال؛ الذين إذا استأذنوا على الأمراء لم يُؤذَن لهم، وإن خطبوا المتنعِّمات لم يُنكحوا، وإن غابوا لم يُفتقدوا، وإن حضروا لم يُدعوا، وإن طلعوا لم يُفرح بطلعتهم، وإن مرضوا لم يُعادوا، وإن ماتوا لم يُشهدوا. قالوا : يا رسول الله! كيف لنا برجلٍ منهم ؟ قال: «ذاك أويس القَرَني».

والتصوف تشمُّر للورود واللحوق، وتبصُّر في الوجود والطروق، وأويس - كما قيل - كان مُخبِتاً ورعاً، متثبتاً قَنعاً، حافظاً لسرّه، وضابطاً لجهره، ومُفرداً بنيّته، ومفتقراً إلى ربه. وكان إذا أمسى يقول: هذه ليلة الركوع - فيركع حتى يُصبح؛ وكان يقول إذا أمسى: هذه ليلة السجود - فيسجد حتى يُصبح . وكان إذا أمسى تصدّق بما في بيته من الفضل من الطعام والشياب، ثم يقول : «اللهم مَن مات جوعاً فلا تؤاخذني به، ومن مات عُرياً فلا تؤاخذني به. - وقيل أنه كان ليَتصدّق بثيابه فيصبح عرياناً لا يجد ما يخرج فيه.

وتقول القصة إن عمر وعلياً بحثا عنه

حتى وجداه، فهو حقيقة إذن وليس شخصية خرافية؛ وهو رمز للموالي، والقصة تجعله أشهل (يعنى كانت فى عينيه شُهْلة (أى زُرقة)، معتدل القامة، عريض الصدر، آدم شديد الأدمة (أسمر)، ضارباً بذقنه إلى صدره، رامٍ بذقنه إلى موضع سجوده ، واضعاً يمينه على شماله، يتلو القرآن ويبكى على نفسه، وله طِمران (ثوبان)، مئزراً بإزار صوف، ورداء صوف، لا يؤبَه له، مجهولاً فى أهل الأرض، معروفاً من أهل السماء، لو أقسم على الله لأبرّ قسمه قسمه.

وكما ترى: فإن القصة مصدرها صوفى، ولذلك ألبسوه الصوف؛ والقصة إذن من وضع الوُضّاع فى القرن الثانى الهجرى، لمّا بدأ انتشار لبس الصوف بين الصوفية.

ويختلف الصوفية مع الشيعة إزاءه، فالأولون جعلوا موته فى غزوة أذربيجان، زمن عمر بن الخطاب؛ والآخرون أسكنوه الكوفة وأشركوه مع علىّ فى وقعة صَفّين، وفيها قُتل !!

والدعوة الأويسية بدأها أبو الفتح سراج الدين محمود بن محمود الصابونى، وكان قد ارتحل إلى مصر يتلقى عن الإسماعيلية، وليكون من المرشدين، وأخذ عنه الخرقة فيها روزبهان البَقْلى ، المُلقّب شطّاح فارس، والذى استمرت إقامته بمصر مدة خمس عشرة سنة، وسُمّى لذلك بـ «روزبهان المصرى»؛ وقيل من خلفائه حافظ الشيرازى، ومن بعده نجم الدين كُبرى وهو أشهر صوفية الفرس. ومن تلاميذه بهاء الدين وَلَد، أبو جلال الدين الرومى، وفريد الدين العطار، وشهاب الدين السهروردى. ونجم الدين كبرى أعظم القَرَنيين، وتذكر له رباعيات فارسية، واثنان وعشرون كتاباً ورسالة حول التصوف، ومنها رسالة «الخائف الهائم عن لومة اللائم»،ومنها رسالة «منهاج السالكين»، ورسالة «سكينة الصالحين» وهى بالعربية. وخلفه رضىّ الدين على لاك، وهو من نسل الشاعر سنائى، واشتهر بأنه صاحب مائة وثلاث عشرة خرقة!! .

ومن شيوخ الطريقة الأويسية: السَّمنانى (٦٥٠ ـ ٧٣٦هـ)، وله «آداب السُّفرة»، و«بيان الإحسان لأهل العرفان»، و«ختام المسك»، و«سرّ السماع»، و«الفوائد فى التصوّف»؛ وعلىّ الهوّانى: الذى هاجر إلى الهند، وكان له دور كبير فى نشر الإسلام هناك، وتوفى سنة ٧٧٠ هـ؛ ومحمد نور الدين بخش (٧٩٥ ـ ٨٦٩ هـ): الذى

اتُّهم بادعائه المهدية، ومنح نفسه لقب نُوربَخْش، أى الذى وُهب النور؛ وله فى التصوّف: «سلسلة الذهب»، و«الرسالة المعراجية»، و«رسالة مكارم الأخلاق»، و«الواردات»، ونقل عنه مؤلف «رياض العارفين» بعض الأشعار. يعنى أن الدعوة الأويسية كان يقوم عليها كبارٌ من المفكرين والفلاسفة والشعراء والأدباء.

* * *

٣١ - أيوب السختياني (الناسك الزاهد)...

أبو بكر أيوب بن تميمة السَّخْتياني، ولد سنة ٦٦ هـ (٦٨٥م)، وتوفى سنة ١٣١ هـ (٧٤٨م) فى طاعون البصرة، مع فرقد السبخى، وكان من العُبّاد الرهبان، وفقيهاً محجاجاً، وناسكاً حَجّاجاً، قال عنه الحسن البصرى: هذا سيد الفتيان، وقال: أيوب سيد شباب أهل البصرة. ولقى سفيان بن عُيَيْنة سنة ٨٦ فقال عنه: ما رأيت مثل أيّوب. وكان إذا تحدّث عنه محمد ابن سيرين، قال: حدّثنى الصَّدُوق. - وقيل فيه: أيوّب سيد الفقهاء، وجَهْبذ العلماء، وليس فى البصريين مثله، ولا خرج من العراق من هو أفضل منه.

وأيوب كان من البكّائين، فقال عنه مالك ابن أنس: كنا ندخل على أيوّب فإذا ذكرنا له حديث رسول الله ﷺ، بكى حتى نرحمه.

وحجّ أيوب أربعين حجة! ومن أصحابه عبد الواحد بن زيد، وموسى الأسوارى، وهذا الاخير لم يكن يرى فى البصرة أفضل من الحسن البصرى وأيوب السختيانى. وكان أيوّب يقول عن نفسه: إذا ذُكر الصالحون كنتُ عنهم بمعزل. ويقول: وددت أنى أُغفلت من هذا الأمر كفافاً. يقصد بالأمر التصوّف. وقال فى زُهد أحد تلاميذه: ليتّقَ الله، إنْ زَهَد فلا يجعلن زهده عذاباً على الناس، فلأن يخفى الرجل زهده خيرٌ من أن يعلنه؛ وكان أيوب ممن يخفى زهده ويعتذر عن ذلك قائلا: «والله ما صدق عبدٌ إلا سَرّه أن لا يُشعَر بمكانه.

والزهد عند أيوب فى ثلاثة أشياء: أحبُّها إلى الله، وأعلاها عنده، وأعظمها ثواباً: الزُّهد فى عبادة من عُبد من دون الله، من كل مَلَك وصنم وحجر ووَثَن؛ ثم الزهد فيما حرّم الله تعالى من الأخذ والعطاء، ومنه زهد الفقراء - وهو أخسّ أنواع الزهد عند الله؛ ثم الزهد فى حلال الله عزّ وجلّ. - فأنت ترى أن التصوف عند السختيانى طريقة ومنهج أكثر منه فلسفة، ولأنه طريقة فهو أجدر بأن يُتّبع وليس أن يُستمع إليه. وكان يحبّ مع ذلك أن يُخفى تصوّفه، فإذا قام الليل سلك فى

الصباح كأنه استيقظ توأ. وقال ابنه عنه: كان أبى يحبّ الجهر بالقرآن من الليل. جهراً شديداً، وكان يقوم السَّحر الأعلى. وكان شديد التبسُّم للناس، ويدعو: اللّهم أسألك الإيمان وحقائقه ووثائقه، وكريم ما مننت به عليّ من الأعمال التى يُنال بها منك حُسن الثواب، واجعلنا ممن يتّقيك ويخافك ويرجوك ويستحيك. اللهم استرنا بالعافية.

وكان أيوب إذا نزل السوق اشترى الأشياء يحملها لعياله، ويقول: إلزَمْ السوق فإن الغِنَى من العافية. ويقول : إلزمَ سوقَك فإنك لا تزال كريماً على إخوانك ما لم تحتج إليهم . ـ يعنى كان يقول بضرورة أن يعمل الصوفى ويحترف .

* * *



٣٢ - بابا طاهر...

كردى من **همدان** ، توفى سنة ٤١٠ هـ، وكان يكتب الشعر فى رباعيات اشتهرت عنه بغزلياتها التى ينافس بها عمر الخيام، ومن الصعب تمييز عبارات الحب الصوفى فيها من عبارات الحب الدنيوى، ويصوّر فيها نفسه قائلاً إنه: صوفى قلندرى، كثير السياحة، لم يُعرَف له بيت، ولم يأو تحت سقف، وسادته أىّ حَجَر يصادفه، ويرين على صدره الهمّ، ويملأ قلبه الأسى، ويستبد به القلق الروحى، وحتى الربيع بما فيه من آيات الجمال والأشواق، فإنه لا يخلف فيه إلا الشقاء والبؤس والشعور بالوحدة. - ويعترف بابا طاهر فى شعره بخطاياه، ويطلب من الله العفو عنه، ويتذلل له ويتمسّح بالأعتاب، ويطلب منه الموت لجسده، لعله يشفى من آلامه وتنتهى به عذاباته. ويحكى عن الصراع فى نفسه بين التعلّق بالحياة ونشدان الموت، ويقول إن عينه تتعلق بأسباب العيش، وقلبه يتمرّد عليه بين جوانحه، ولا يدعه فى حاله، ويتساءل هل صرخاته هذه التى يطلقها فى أشعاره هى صرخات أسد هصور تمتلئ شجاعة، وجريء غير هيّاب، أم أنها صرخات نمر من النمور؟ ويناجى قلبه هاتفاً : لماذا لا تكفّ عن مجاهدتى وتتوقف عن مصارعتى ؟ أيها القلب سأسفح دمك لو وقعت بين يدّى ، لأرى من أى لون أنت !

وشعْر بابا طاهر الصوفى يباين شعر الخيّام، والبعض يقول إن شعر الخيام صرخات مدوية لنفس ثائرة، ولكنها فى الأعماق مؤمنة بالله تعالى، إلا أنه من جهة أخرى يجد الخلاص لها فى اللّذة، فهى الماء الذى يغسلها، والطهور الذى يزيح عنها الرَّيْن (هكذا يقول من يعتقدون فى حسّية الخيام)، والموت فيه راحة من كل المجاهدات، وأمّا بابا طاهر فشعره متأجّج بالأشواق والعشق للحقّ، وهو يشرح فلسفته الصوفية فى رسالات أو كلمات قصار كما يصفها، يختار لها عناوين من الأمثال السائرة، فهناك «باب الحقيقة المُشاهَدة بعد علم اليقين»، و«باب الوَجْد وفقدان الموجودات ووجود المفقودات»، و«باب من يَحلّ به قضاء الله فيبقى بلا حركة ولا إرادة»، و«باب من يقتله

الجهل فكأنه لم يعش مطلقاً، ومن يقتله الذكر فإنه لا يموت أبداً».

وهناك شروح عربية كثيرة على أشعاره، منها شرح لعين القضاة الهمذاني، المتوفى سنة ٥٣٣ هـ، بعنوان «الفتوحات الربّانية في إشارات الهمذانية».

وبابا طاهر كشاعر صوفي له كرامات كما كان للشعراء الصوفية من الفرس، كفريد الدين العطار، وجلال الدين الرومي. وقد تساءل مرة كيف السبيل إلى المعرفة، فأشاروا عليه أنه سيحصل عليها لو قضى ليلة شتاء في صهريج من الماء المثلّج، ففعل، ويقول مريدوه: إن حرارة إيمانه أذابت الثلج، وما أن انبلج الصبح حتى كان قد استنار، فقال قولةً أثرت عنه: «أمسيت كردياً وأصبحت عربياً». ـ يعني أنه كان في حال، فأصبح في حال، أو أنه كان بالفعل كردياً، فلما اعتنق الإسلام وتصوف صار عربياً، لأن الإسلام عربيٌّ أصلاً. ويبدو أن الطائفة التي يقال لها «أهل الحقّ» تعتقد فيه، وتُنزله منها منزلة الأولياء كما تفعل مع مشاهير الصوفية، حيث يسمون الأماكن بأسمائهم، على اعتقاد بأنهم يحلّون فيها، أو أن بركاتهم تحلّ بها.

* * *

٣٣ - بابا رسول ـ

تُنسب إليه البابائية، وقيل هو بابا إسحق، الكفرسودي، التركماني، الذي دعا أتباعه للثورة سنة ٦٣٨ هـ؛ وقيل هو بابا إلياس، وأما بابا إسحق فكان رسولاً لشيخ الطريقة واسمه بابا فقط، وقيل إن بابا إلياس هو الذي خلف إسحق على الطريقة بعد قتله. ويبدو أنها كانت طريقة شيعية ثورية راجت بين التركمان على الحدود بين تركيا وسوريا وملطية، وكان شعارها: لا إله إلا الله، البابا وليّ الله، وتُدرج على ذلك ضمن التصوّف السياسي. وكان مشايخ البابائية يزعمون أنهم يقتدون بالخلفاء الراشدين، ولذلك فقد أطلق البابا على نفسه اسم أمير المؤمنين. وقيل إن شعارهم كان: لا إله إلا الله، البابا رسول الله، بمعنى أن بابا إسحق كان يدّعي النبوّة، وأكد ذلك جلال الدين الرومي لمّا صلى خلف صدر الدين القونوي، فقال: من صلى خلف إمام تقيّ، فكأنما صلى خلف نبيّ. ويقول مؤرخو الطريقة أن مؤسسها كان صوفياً يتخذ المجاهدة والشعبذة، وأنه كان يتعاطى السياسة، ويستولي على عقول أتباعه، بأن يمنّيهم بحياة أفضل تحت زعامته الروحية، وقد اصطدمت الحركة بالسلطة، وأُسر البابا وزميله، وقيل قُتل

أحدهما، أو قُتل الاثنان، أو أن بابا إسحق اغتيل قبل المعركة الفاصلة، وقُتل أصحابه جميعاً عن بكرة أبيهم، والإجماع على أن هذه الطريقة كانت ذات اتصال بالتشيّع الغالي، وأن بكتاش مؤسس الطريقة البكتاشية في التصوّف كان من أتباع بابا إسحق، أو أنه كان من أعوان بابا إلياس، وهاجر مثله من خراسان إلى تركيا أمام زحف التتار. وقد استطاع أحد أتباع بابا إلياس - ويدعى نورة الصوفي - أن يقنع السلطة بزهد الجماعة وتصوّفها، فأقطعتهم إحدى الإمارات، وبها أنشأوا أول «دار إسلام» صوفية سمّوها «دار القرمانية» نسبة إلى قرمان الابن الأكبر لنورة الصوفي والذي خلفه على الطريقة.

* * *

٣٤ - بارجيس...

Bargés (١٨١٠ - ١٨٩٦م) مستشرق، وكان أستاذ العربية بجامعة مرسيليا، وقد نشر ديوان ابن الفارض في التصوّف، وعلّق على قصيدتيه: الخمرية، وسائق الأظعان، وقدّم دراسة عن الصوفي الكبير أبي مدين الغوث. وبارجيس حاول أن يكون موضوعياً، ولذلك لم يكن يبدي رأياً فيما يتصدّى له، وكتاباته لا تعدو أن تكون ترجمات.

* * *

٣٥ - ابن باخلا (داود الكبير)...

داود الكبير بن باخلا، شيخ محمد وفا الشاذلي، وكان أُمّياً لا يقرأ ولا يكتب ولكنه تكلّم في الطريق بكلام عال، وله كتاب «عيون الحقائق»، والحقائق التي يعنيها هي الحقائق العرفانية؛ ونظريته في المعرفة الصوفية: أن الموجودات موضوع علوم الدنيا أو علوم الظاهر، وما كان فوق إدراك العقل لا يمكن البحث فيه إلا بآلة عرفانية هي القلب، ومعرفة القلوب معرفة نورانية تتحصّل لا بالدليل ولكن بالوهب. وأهل العلم جوّابون في عوالم الحسّ، وأهل المعرفة جوّابون في أفق العوالم الأعلى. والإنسان مخلوق ليعلم ويعرف، وهو أبداً في عوالم ثلاثة، فعالمٌ بالوصف الإنساني الطيني، له الجهل والنسيان؛ وعالم بالوصف الشيطاني، له التكذيب والكفران والجحود والطغيان؛ وعالم بالوصف الروحاني، له التصديق والإذعان - ثم اليقين والعرفان - ثم الشهود والعيان. وغاية العلم: تنظيم أحوال الإنسان المعيشية، وأما المعرفة: فتوجهها إلى الذات. والإنسان في شوق دائم أن يعرف نفسه، ومن يعرف نفسه يعرف ربّه. والإنسان كلما زاد علمه زاد افتقاره ومطلبه من العلم، وعلت همّته

إليه، لأنه في حال جهله لا يطلب سوى أن يعلم، ولكنه في حال علمه يطلب ما فوق العلم، وهو أن يجلو العلوم والمعلومات. ويتفاوت الناس بإزاء الحقائق بحسب استعداداتهم، وما يبدو لهم منا يصنع علومهم، وأما ما يبدو فيهم فإنه ما يسميه العرفانيون **علوم الكشف**؛ ومن دأب **أهل العلوم العلمية**: أن يقنعوا بما يسمعون ويرون ويستدلون عليه بالعقول؛ بينما **أهل المعرفة أصحاب العلوم الكشفية**: فإن إقناعهم يكون بالشهود، ويُسمّى ابن باخلا العلوم العلمية لذلك **بعلوم الظاهر** أو **العلوم العقلية**، ويطلق على العلوم **الكشفية** اسم **علوم الباطن**، ويقول: إن علوم الظاهر تضبطها **الأصول والنقول**، وعلوم الباطن تضبطها أنوار القلوب. ويقول عن علوم الظاهر: إنها علوم سلوكية، أي أن مناطها الأخير هو تنظيم سلوك الإنسان في حياته ومع مجتمعه، بينما العلوم الباطنة الكشفية، منها ما قد يباح إظهاره، ومنها علوم مسرّة غير مباح إظهارها بالمرة. والعلوم الكشفية مرة أخرى منها علوم **إلهامية** من نصيب **الأولياء العارفين**، وعلوم وحي موكول بها الأنبياء. والفرق بين **معرفة النبيّ** و**معرفة الوليّ**: أن حقائق النبيّ غيبية، ومع ذلك له رقائق في عوالم الشهادة، تقتضيها منه هذه العوالم، وحقائق الوليّ كذلك من عوالم الشهادة إلا أن للأولياء مع ذلك رقائق من عوالم الغيب. **والغاية العظمى للمعرفة هي الانطواء بالفناء الأكبر في ظل الحقّ**، والمرء مع مَن أحبّ، ومن أحبّ الله تعالى أحبّ كل ما كان سبباً منه؛ **والعارف لا يرضيه أن يقصر معرفته على نفسه ولكنه يطلبها للناس**، وهو إن لم يطلبه الناس ليصلوا بواسطته إلى الله تعالى، طلبهم هو لاقتضاء حقّ الله تعالى؛ وما يتكلم بكلمة واحدة إلا انتفع بها كل من يسمعها، وما تكلم بكلمة إلا غاب فيها وجود المستمع؛ وهو في الدنيا لغيره لا لنفسه، بينما غيره لنفسه، لا لغيره. **ورسالة العارفين**: إنقاذ الغرقى وتخليص الأسرى، وتحمُّل أكدار الدنيا عن الضعفاء. **والعارف مع مريده**، لابد له أن يتنزّل لدرجته ليربّيه. **وقلب العارف** يكتب، وأما قلب المريد فيُكتَب فيه. وسماع المريد كلمة أدب من العارف أفضل من سماعه لأبيه، لأن العارف يؤدّب روحه، وأبوك أو معلمك في الظاهر يؤدّب نفسك، ومَن سقاك من جسدك فقد ظلمك على الحقيقة، وكذلك من سقاك من نفسك، ومن سقاك من عقلك؛ وأمّا

من سقاك من شراب قلبك فقد أحياك. والمريد الصادق فى حضوره لمجلس العارف يسمع كلامه بقلبه.

* * *

٣٦ - باعلوى...

باعَلَوى أو آل علوى، عشيرة كبيرة ذات جاه، ومنها الكثيرون من السادات والصوفية فى حضرموت، خصوصاً فى قرى تريم، ونوّه محمد بن أبى بكر الشلّى، المتوفى سنة ١٠٩٣هـ، بذكرهم، فى كتابه «المَشْرع» (أى المورد)، وأورد أكثر من ٢٨٠ سيرة لأفراد من آل عَلَوى، عُرفوا بالعلم والأدب والتقوى والصلاح. وجدّهم الأكبر علوى بن عبد الله بن أحمد ابن عيسى المهاجر، ابن علىّ العريضى، ابن جعفر الصادق، ابن محمد الباقر، ابن علىّ زين العابدين، ابن الحسين بن علىّ بن أبى طالب، فهم أشراف طالبيون أو علويون من آل البيت كما يزعمون، وهذه طريقة كل الصوفية أن ينتسبوا لآل البيت، وخصوصاً لعلىّ بن أبى طالب، أو لأحد من كبار الصحابة. ومنهم: محمد بن علىّ ابن محمد العلوى، الملقّب بالأستاذ الأعظم، والفقيه المُقدَّم (٥٧٤ - ٦٥٣هـ)، وكان من مشايخ صوفية الجزيرة العربية، وصاحب طريقة علوية، وله رسائل، منها: «بدائع علوم المكاشفات والتجليات»، وخالط الصوفى سفيان اليمنى اللّحجى حين زار حضرموت. وقيل من كراماته: أنه استنزل المطر بعد طول الجدب؛ وتأثّر عن طريق عبد الله صالح بن علىّ المغربى، وعبد الرحمن المُقعد بن محمد الحضرمى، بأقوال أبى مدين شعيب ابن الحسين التلمسانى، وكان أول من أدخل التحكّم (أى احتكام الخصمين للشيخ) الصوفى فى حضرموت. ويصف الشلّى الطريقة العلوية فيقول إنها طريقة الآباء.

ومن الصوفية العلوية: علوى بن محمد العلوى المتوفى سنة ٦٦٩هـ، وابنه عبد الله العلوى (٦٣٨ - ٧٣١ هـ)، وهما يتقدمان فرع باعلوى.

ومنهم: محمد بن على بن علوى (٧٠٥ - ٧٦٥ هـ)، وقد جعل رباطه فى مكان يقال له بيحر، فلقبوه بمولى الدُّوَيْلة، أى البلد القديم بيحر، وابنه عبد الرحمن السقّاف، جدّ آل السقاف والعَيْدروس.

ومنهم: عمر بن عبد الرحمن العلوى، الملقّب «صاحب الحمراء»، وله رسائل صوفية قصيرة، وكتاب فى السيرة الصوفية لأبى بكر العيدروس الشاذلى، أطلق عليه اسم: «فتح الله الرحيم الرحمن فى مناقب عبد الله بن أبى بكر بن عبد الرحمن».

ومنهم: محمد بن علي بن علوي الملقّب جَـرْد (أي الترس)، وله «رسـائل في التصوّف»، و«كتاب النفحات»، و«غرر البهاء الضوئي في مناقب السادة الصوفية بني علوي».

ومـنهـم: سالـم بن أحمـد بن سيخان العلوي (٩٩٥ ـ ١٠٤٦ هـ)، أدخله في طريق السالكين أحمد الشناوي المتوفى سنة ١٠٢٨ هـ. وكتب سالم عدة كتب في التصوّف، سجّلها ابنه أبو بكر في رسالة ضمنّها الشلّى سيرته في كتابه المَشْرع، منهـا «بَلغة المريد وبُغية المستفيد» ، وهـو شـرح على الجـزئين الرابع والخـامس من الجـواهر الخمس لمحمـد غوث الله خطيـر الـديـن؛ و«السفـر المستور للدراية في الدُّر المنثـور لـلولاية»؛ و«مـصبـاح السِّرّ اللامع بمفتاح الجَفْر الجامع»؛ و«غُرر البيان عن عُمْر الزمـان»؛ و«البـرهان المعروف في مـوازين الحروف».

ومنهم : عقيل بن عمـر عمران العلوي (١٠٠١ ـ ١٠٦٢هـ)، المُلـقّـب أبـو المواهـب، ومن آثـاره «العقيدة»، وقـد شرحـها أحمـد القشّاشي، وعليّ بن عـمر باعمر؛ و«فتح الكريم الغافر في شرح حلْية المسافر»، وهو شرحٌ على قصيدة صـوفية لسعيد بن عمر بلحاف.

ومـنهـم: محمـد بن زين بن السـمط العلوي (١١٠٠ ـ ١١٧٢هـ)، وله «غاية القصد والمراد» في مناقب شيخه عبد الله ابن علوي الحـدّاد، المتـوفـى سنة ١١٣٢هـ؛ و«قُرّة العين » في مناقب شيخه أحمد ابن زين، بـن علـوي المتـوفى سنة ١١٤٥هـ، وللأول مـلخـص هو: «بهـجة الفـؤاد»، وللثاني ملخص هو: «لب الألباب».

ومنـهـم: عـبد الله بن حـسين بن طاهر العـلوي، ولقـبه «الجـاوي» المتـوفى سنة ١٢٧٢هـ، وله كتاب: «سُلّم التـوفيق إلى محبة الله على التحقـيق»، وعليـه شـرح عنوانه: «مرقاة صعود التصْديق لمحمد نووي الجاوي».

ومـنهـم :عبـد الرحمن بـن محمـد ابن حسين بن عـمـر العلوي، المتـوفى نحـو ١٢٥٠هـ، وكان مفتـي حضرموت، وله: «بغية المسترشدين في تلخيـص فتاوى بعض الأئمة المتأخرين»، و«غاية تلخيص المراد في فتاوى ابن زياد».

ومنـهـم: فضـل بن علوي بن محمد بن سـهـل العلوي، المتـوفى سنة ١٢٨٣هـ، والملـقّب مـولى أو والى الدُّوَيْـلة، ولـه: «سبيل الأذكـار والاعتبار»؛ و«عقـد الفرائد من نصوص العلماء الأماجد». ـ نِعمْ البيت ـ بيت باعَـلَوي ـ فـقـد كـان بيت دين وتصوّف وما يزال.

* * *

٣٧ - الباعوني...

اسم أسرة اشتهرت بالقضاء والأدب والتصوّف ، أصلها من قرية باعون أو باعونة في حوران الشام، وتنحدر من ناصر ابن خليفة بن فرج، الناصري، الباعوني، الشافعي، بدأ حياته نسّاجاً، وتصوّف واستقر في الناصرة؛ وابنه إسماعيل، أصبح صوفياً وناب في قضاء الناصرة، وأحمد تصوّف أيضاً وتقلّد القضاء في مصر، ومما يذكر له أنه رفض أن يوافق للسلطان برقوق بسُلفة من أموال الأوقاف، فجرّ عليه ذلك غضبه وإذلاله وحبسه، ومات في دمشق سنة ٨١٦ هـ، وله قصيدة «العقيدة». وكان إبراهيم ابن أحمد يُنعت بقاضي القضاة، حيث ناب عن أبيه في قضاء دمشق، وذاعت شهرته حتى أطلقوا عليه شيخ الأدب في الديار الشامية. ومن تلاميذه الشوكاني صاحب السِّير، وله خطب ورسائل وديوان شعر، وتوفي سنة ٨٧٠ هـ. وكان محمد بن أحمد (٧٧٦ ـ ٨٧٠ هـ) خطيباً للجامع الأموي بدمشق وناظراً للأوقاف، وله تلخيص منظوم لتاريخ الإسلام، وقضى سنيّه الأخيرة متصوّفاً زاهداً، ونظم أرجوزة في السِّيرة النبوية، وله كتاب: «منحة اللبيب». وتولى يوسف ابن أحمد (٨٠٥ ـ ٨٨٠ هـ) قضاء صَفَد وطرابلس وحلب ودمشق، وعاش متصوّفاً، وكان ينظم الأراجيز في السِّير. وعاش محمد ابن يوسف (٨٥٧ ـ ٩١٦ هـ)، زاهداً كأبيه، ونظم الأراجيز مثله، وله: «بهجة الخلد في نصح الولد» . وكانت عائشة بنت يوسف نابغة، فحفظت القرآن وهي دون الثامنة، واكتملت فيها في هذه السن مَلَكات الأدب ونزعات التصوّف المأثورة عن أسرتها، وورثت إلى جانب ذلك استقلالاً في الفكر والرأي بدا في مصاحبتها للرجال من معاصريها، وتراسلها معهم بالشعر، ودرست لبعض الوقت بالقاهرة، واشتهرت باسم عائشة الباعونية. ولعل أشهر آثارها: «البديعية» في مدح الرسول ﷺ، وعنوانها: «الفتح المبين في مدح الأمين»، وكتبت عليها شرحاً، وتابعها على طريقتها عبد الغني النابلسي في كتابة بديعيته: «بسمات الأزهار» وتدبيج شرحها، ودأب على المقارنة بين أبيات عائشة الباعونية وأبياته المقابلة. وتشمل مصنّفاتها: «كتاب الممالك الشريفة والآثار المنيفة»، و «الفتح الحنفي»، وكلاهما في موضوع التصوّف، وكتاب «مولد النبيّ ﷺ»، وبعضه شعر، وبعضه نثر، ونظمت: «المعجزات والخصائص

النبـــوية» للسيـــوطى، واختصـــرت رسالة الهروى: «منازل السائرين»، فى أرجوزة عنوانهـــا: «الإشارات الخفيّة فى المنازل العليـــة»، كمـــا اختـــصرت فـــى أرجوزة أخـــرى: «القول البـديع فى الصلاة على الحبيب» للسخاوى. وتوفيت بدمشق سنة ٩٢٢هـ. ـ فنِعْم بيت الباعونى، فقد كان بيت دين وتصوّف وما يزال!

* * *

٣٨ - باقى بالله...

خواجه أبو المؤيد رضىّ الدين، ويُعرف أيضاً بعبد الباقى، أو محمد باقى بن عبد السلام، أُويسى، نقشبندى، ولد فى كابول سنة ٩٧١هـ، وتوفى بدلهى سنة ١٠١٢هـ، ودرس فى سمرقند، ونزع إلى التصـوّف، وتوجّـه إلى الهـند للعـمل، ولكنه بدلاً من ذلك بدأ يبـحث عن السالكين والصـوفية، ودخل فى الطريقة النقشبندية، وتتلمذ عليه أحمد سهرندى، وعبد الحق دهلوى.

ولباقى فى التصوف: «سلسلة الأحرار»، وهى مجموعة من الرباعيات التى تصدّى لهـا بـالشـرح أحـمـد سـهـرندى، و«الكليّات»؛ ويُنسَب إليه تفسير صوفى للقرآن. (أنظر أحمد السهرندى).

* * *

٣٩ - باقى خانلى...

عباس قلى آغا، وشهرته باقيخانوف، واسمه المستعار الذى يوقع به هو قُدسّى، وهو ابـن مَـمْدَخان حاكم بـاكو، الذى استولى أخوه محمد قلى خان على عرشه. وكانت ولادته سنة ١٧٩٤م فى قرية مير، من باكـو، ووفـاته سنة ١٨٤٧م، وتعلم العـربيـة والفـارسـيـة والروسـيـة، وزار شيروان، وأرمينيـة، وداغستان، والكرج، وتركيـا، وفارس، والقوقاز، والروسـيا، ودول البلطيق، وبولنده، وكـتب بالعربـية والفـارسيـة والآذرية، ومن مصنفـاته فى التصوّف: «رياض القدس» وهو ترجمة لعـدد من صوفـية الإسـلام المشهـورين؛ و«رسالة فـى الأخلاق»، اعتمد فـيها على أقوال الحكماء والفلاسـفة العرب وغيرهم من اليـونان والأوروبيين الـذين لهم نفس الاتجاهات؛ و«نصيحتنامه» بالفارسية، وهو فى الأخلاق الإسلامية وما يمكن أن يكون عليه شأن الصوفى الزاهد.

٤٠ - بالمر...

إدوارد هنرى بالمر Palmer (١٨٤٠ ـ ١٨٨٣)، مستشـرق إنجليزى، أولع باللغة العربية وقَرَض بهـا الشعر، وارتاد صحراء سينا، واتـصل بالبدو، واتقن لهـجاتهم، وعرفوه باسم الشيخ عبد الله، ومن آثاره

«التصوف الشرقي» (كيمبردج سنة ١٨٦٧) وعدد من القصائد فيه بالفارسية والعربية. وكتابه في التصوف عادي وليس فيه جديد ويردد الآراء القديمة.

* * *

٤١ - البخاري (الجلالي)...

جلال الدين حسين، المُلقّب بمخدوم جهانيان جهانكشت، أو الشيخ جلال مخدوم جهانيان، من مشايخ الطريقة السهروردية ثم الطريقة الجشتية، يعني أنه كان صوفياً علوياً. ومريدوه يسمون أنفسهم الجلالية، وهم: فقراء متجوّلون لا يعرفون الاستقرار، ولا يهتمون بالصلوات، ويتعاطون البنج أو القُنّب الهندي (الحشيشة)، ويأكلون الحيّات والعقارب، ويحلقون لحاهم وشواربهم وحواجبهم، ويلبسون أساور من الزجاج، ويضعون حول رقابهم حبلاً من الصوف!!.

وجلال أبوه: سيد أحمد كبير، هاجر من بخارى إلى مُلتان وبَهكر بالهند، ولهذا كان لقبه البخاري، وكان متصوّفاً، وولد ابنه جلال سنة ٧٠٧ هـ في أجبجه، وفيها مات سنة ٧٨٥ هـ ودفن. وقد تعلم في مُلتان، وخرج جوّابا، فزار الشام، وفلسطين، ومصر، والجزيرة، وبلخ وبخارى، وخراسان، ومكة، والمدينة، وكتابه: «سفر نامه مخدوم جهانيان» وصفٌ لرحلاته، فيه الكثير من القصص الخارقة، وكان تلقّبه الخرقة من نصير الدين جراغ دلهي، وأقيم شيخاً للإسلام على يد محمد بن تغلق، وكانت تتبعه أربعون خانقاه، وله غير كتاب الأسفار: «خلاصة الألفاظ جامع العلوم» ويعرف باسم: «الدُّر المنظوم في تلفُّظات المخدوم»، و«سراج الهداية»، و«خزانة جلالي» - ويعرف أيضاً باسم «مناقب مخدوم جهانيان»، والكتب الثلاثة ضخمة في حجمها، وكُتبت بروح الكرامات والخوارق، وهناك كتابٌ أخير في تعليم الطريقة الجلالية، اسمه «خزانة الفوائد الجلالية» صنّفه سنة ٧٥٢هـ تلميذه أحمد بهاء بن يعقوب.

* * *

٤٢ - البدليسي (حكيم الدين)...

مولانا حكيم الدين إدريس، المؤرّخ والصوفي، صاحب كتاب: «هشْت بِشْت» ومعناه: «الجنات الثماني»، يؤرخ به لعهود سلاطين العثمانيين الثمانية، من عثمان إلى بايزيد الثاني؛ وله شرح لفصوص الحكَم لابن عربي، وشرح لكلشن راز للشبستري، وشرح بعنوان «حقّ اليقين» لكتاب الشبستري «حقّ اليقين»، وشرح لخمرية ابن الفارض، ورسالة في النفس،

وحاشية على تفسير البيضاوي؛ وكان في تصوّفه اتحادياً يقول بوحدة الوجود. واشتهر بالورع، فلما عهدوا إليه بكتابة تاريخ البيت العثماني ترفّق بالفرس، ولما صحب سليماً في حملته على الكُرد، حاول ما استطاع أن يخدم الأكراد، وقيل إن سليماً كان يحبّه لتقواه، فأطلق يده في الأملاك الكردية، فاستطاع أن يكسب ثقة أعيانهم. وقيل إنه في حملة سليم على مصر، احتج على مساوىء الولاة العثمانيين. وكانت زوجته زينب خاتون قد شيدت مسجداً دُفن البدليسي بجواره عندما توفي سنة ٩٢٦ هـ.

* * *

٤٣ - بَرَاق بابا (صاحب البراقية)...

البَراقية طريقة برَاق بابا، وهو درويش تركي كان مريداً للصوفي صاري سلتوق، وكان أبوه موظفاً كبيراً في بوقات، ونزح من تركيا إلى إيران، ونزل وفريق من أتباعه دمشق سنة ٧٠٦هـ، فلفتوا الأنظار إليهم بتأثير لباسهم الغريب ومسلكهم غير المألوف، ولعله لهذا أطلق على نفسه اسم البَراق، ومعناه بالتركي «الكلب الأجرب» أو «الكلب الأقرع خالي الشعر»، أو أنه «الكلب الأشعث الأغبر»؛ ولأنه كان كذلك فعلاً كانت طريقته تقوم على تنفير الناس منه، للعزلة، وانقطاعاً عن الناس، وتشبه الطريقة الملامتية؛ وقد حاول بَراق بابا ومريدوه بلوغ الديار المصرية فرفضهم الناس فعادوا أدراجهم. ويترجم له أفلاكي في كتابه مناقب العارفين، وهو عنده منهم، ويرى في تعاليمه ومسلكه صدى لآثر الشامانية (الباطنية) التركية المغولية في الإسلام، وأن تصوُّفه من نوع التصّوف الاجتماعي، وقيل إنه قتل سنة ٧٠٧ هـ في إيران.

* * *

٤٤ - ابن برّجان (غزالي الأندلس)...

أبو الحكم عبد السلام بن عبد الرحمن «ابن أبي الرجال»، وتُخفّف إلى ابن برّجان، أندلسي من إشبيلية، ممن ذهبوا مذهب ابن مَسَرّة وخلطوا الفلسفة بالتصوف، فهو فيلسوف صوفي، أو صوفي متفلسف، وفلسفته إشراقية، وبسببها اتّهموه بالزندقة، واستدعاه على بن يوسف بن تاشفين إلى مراكش، حيث مثل أمام قاضيها ابن حمدين، وأُلقي به في السجن، وبعدها بقليل مات، وقيل إنه مات مسموماً، واحتمال ذلك كبير، وكان ذلك سنة ٥٣٦هـ(١١٤٠م)، والدليل على ذلك أن ابن تاشفين أمر بأن لا يُصلَّى عليه، وأن تُلقَى جثته في القمامة!! ولولا أن الصوفية في مراكش

أغضبهم ذلك لنفذ ابن تاشفين ما انتوى!

وكان ابن برجآن وطيد الصلة بالصوفي الأشهر ابن العرّيف صاحب مدرسة المرية، وكان يراسله، ويبدو أنهما تأثرا ببعضهما، وكانا شديدي الإعجاب بالغزالي، وكثيراً ما كان ابن برّجان يستخدم أقوال الغزالي في الردّ على الفقهاء، وخاصة أن النزاع بين الصوفية والفقهاء كان على أشدّه في الأندلس بالذات، بسبب التفلسف الذي أخذ به المتصوفة أنفسهم في هذه البلاد. كما أن الغزالي كان تجديداً للفكر الصوفي في الأندلس، واستخدم ابن برجان الفكر الغزالي في نزاعه مع الحكومة، ونادى بإحياء الإمامة، فاعترفت به القرى إماماً عليها، وقد وصفه مؤرخه ابن الأبّار، فقال إنه: كان صوفياً نابهاً، وكان المفكرون يقولون عنه إنه غزالي الأندلس. ويبدو ابن برجان قريباً في تفكيره الصوفي الفلسفي من أبي بكر الميورقي، ولذلك فإن ابن تاشفين، عندما استدعى ابن برجان، فإن أمر الاستدعاء شمل ابن العرّيف والميورقي، فهؤلاء الثلاثة كانوا الصوفية المارقين؛ وقد هرب الميورقي، وصمد ابن العرّيف للاختبار وأطلق ابن تاشفين سراحه، إلا أن ابن حمدين لم يعجبه ذلك، ومات ابن العرّيف هو الآخر بعد موت ابن برجان بقليل، وقيل إنه أيضاً مات مسموماً! - فكان الزمن بحقّ هو زمن اغتيال الصوفية الفلاسفة!

ولابن برجان تفسير صوفي للقرآن لم يُكمله، وذهب في تأويل الآيات فيه على الطريقة الباطنية، كما أن له شرحاً لأسماء الله الحسنى. وكلامه فيهما يخرجه عن حقّ من دائرة الإسلام؛ مثله مثل زميليه: ابن العريف، والميورقي، ومثل ابن مَسَرّة، وهؤلاء الأربعة هم أصحاب الدعوة الباطنية في الأندلس. ويبدو أن ابن برجان كان في حياته الخاصة شديد الزهد، واشتهر بالصلاح، وكانت له قدرة على التنبؤ، أو هكذا زعموا، وتنبأ بموته، غير أنه ذكر أن ابن تاشفين يموت أيضاً، وقد مات ابن تاشفين بعده بسنة واحدة! وهذا ليس تنبؤاً، فمثله ومثل ابن تاشفين لا يمكن أن تكون نهايتهم إلا هذه النهاية!

* * *

٤٥ - البُرْسي (الحافظ)...

رَضيّ الدين رجب بن محمد بن رجب الحلبيّ، وُلد نحو سنة ٧٤٣هـ(١٣٤٢م)، في بُرسيّ من قرى موقع الحِلّة على الفرات بالقرب من الكوفة، وكان يُنهي شِعْرَه بالتخلّص أو الاستشهاد: «البُرْسي»، نسبةً إلى موطنه، واشتهر بالغلو، وتوفي

نحو سنة ٨٤٣هـ(١٤١١م)، وقبره في مزار قتلكاه، بمشهد، في خراسان، وكان في تصوّفه يأنس إلى الوحدة، ويقول وهو يؤرخ لمذهبه: فشهرت ذيل العزلة، وأخّرت يدى من حبّ الوحدة، وأنست بالحق، وذلك أحقّ:

لقد أظهرتَ يا خافـ
ـظ سراً كان مخفياً
فَطِبْ نفساً وعِشْ فَرْداً
وكنْ طيراً سماوياً
غريباً يألف الخلو
ة والوحدة منسياً

وكان يكتب العامية ليروج كلامه بين محبيه، ومنه:

من لا ترى الشمس عينو
ولا يرى البدر مقلتو
ولا الصباح المشرق
إيش ينفعوا قنديل
فأنت في ذا اعتقادك
تشرب على هذا الظما
ماء البحار السبعة
ولا تبل غليل

وترك البرسي الكثير من المؤلفات في التصوف، منها: «مشارق الأنوار»؛ و«مشارق الأمان ولباب حقائق الإيمان»؛ و«لمعة كاشف»، عن أسرار الأسماء، والصفات والحروف والآيات وما يناسبها من الدعوات، وما يقاربها من الكلمات؛ و«الدر الثمين في ذكر ٥٠٠ آية نزلت من كلام رب العالمين»؛ و«رسالة في تفسير سورة الإخلاص». إلخ.

وكان ينفى عن نفسه الغلو وينسب هذه التهمة لتخرّص الجهّال. إلا أنه كان حروفياً، وكان يقول: إن الله بالكلمة تجلّى لخلقه، وبها احتجب؛ وأسرار الخلق مودعة في الحروف، وفي كل موجود نسبة منها، والقرآن هو الكتاب الجامع المانع، وفيه بنيان كل شيء، وسرّ القرآن في الحروف المقطعّة في أوائل السور، وعلم الحروف لام ألف، وهو الألف المعطوف المحتوى على سرّ الظاهر والباطن، وعلم اللام ألف في الألف، وعلم الألف في النقطة، وعلم النقطة في المعرفة الأصلية، وسرّ القرآن في الفاتحة، وسرّ الفاتحة في مفتاحها وهو بسم الله، وسرّ البسملة في الباء، وسرّ الباء في النقطة، وهكذا نعود من البدايات إلى النهاية ـ وهي النقطة التي تعبّر ـ كما يقول ـ عن عليّ بن أبي طالب، وصيّ النبيّ وسرّه!

ويقول: والوجود مطلق وهو الله، ومقيّد وهو ماعداه؛ وليس من سبيل إلى معرفة المطلق فلم يتبق إلا المقيّد، وحقيقته هي

النقطة، وإليها معرفة العارفين وسلوك السالكين، ولها اعتبارات، فهي الفيض الأول، والعقل الأول، والنور الأول، وهي علّة الموجودات وحقيقة الكائنات ودليل ذلك من القدسيات قوله: فكنتُ كنزاً مخفيًا، فأحببت أن أعرف، فخلقتُ الخَلقَ لأعرَف..

ويخترع البرسي أحاديث عن النبيّ ﷺ، يقول: كنتُ أنا وعليّ نوراً بين يديّ الرحمن قبل أن يخلق عرشه بأربع عشرة سنة! ـ بمعنى أنه إذا كان عليّ هو النقطة والسرّ، فمحمد وعليّ كانا معاً، وهما حُجّاب الحضرة الإلهية ونوّابها، وخُزّان أسرارها وبابها، ويقول حديثاً ينسبه للنبيّ ﷺ: أنا وعليّ أبوا (مثنى أب) هذه الأمة! يعني أنه بدونهما لم يكن خلق! ويقول عن عليّ: هو هو، بل إنه كلمة الله وآيته وسرّه.

ويُشبه البرسي في تصوّفه الحلاّج والسهروردي، ويقول عن الأئمة: أهل الله، وهي التسمية التي للصوفية عن الأولياء؛ ويقول عن المهدي: هذا الوليّ الذي بيمينه رزق الورى، وببقائه بقيت الدنيا. هذا نسخة الوجود والموجود. هذا غوث المؤمنين، وخاتم الوصيين، وبقية النبيين. هذا البقية من النور القديم والنبأ العظيم والصراط المستقيم. هذا الخليفة الوارث لأسرار النبوة والإمامة والخلافة والولاية والسلطنة والعصمة والحكمة!

وللبرسي كتاب في مصطلحات الصوفية، فيه أن الولاية: علم الغين وحقّ اليقين؛ ويقابل بين لسان الحال ولسان المقال؛ وبين الولاية المحمدية والختم. ومن شعره الصوفي:

أما والذي لدمى حلا
وخصّ أهل الولا بالبلا
لئن ذقت فيه كئوس الحما
م لما قال قلبي لساقيه: لا
فَموتي حياتي وفي حبّه
يلذ افتضاحي بين الملا
مضت سُنّة الله في خلقه
بأن المحب هو المُبتلى

وفي مدح أهل البيت قال:

فَرضى ونَفلي وحديثي أنتم
وكلّ كليّ منكم وعنكمُ
وأنتم عند الصلاة قبلتي
إذا وقفتُ نحوكم أُيَمّمُ
خيالُكم نصبٌ لعيني أبداً
وحبُّكم في خاطري مخيم
يا سادتي، وسادتي أعتابكم
بجفن عيني لثراها ألثمُ

وقفاً على حديثكم ومدحكم
جعلت عمرى فاقبلونى وارحموا
منّوا على الحافظ عند فضلكم
واستنقذوه فى غد وأنعموا

وفى الحبّ قال :

لقد شاع عنى حبُّ ليلى وأننى
كَلِفتُ بها عشقاً وهمتُ بها وَجْدا
ولا ذنب لى فى هجرهم لى وهَجْوهم
سوى أننى أصبحت فى حُبها فردا
ولو عرفوا ما قد عرفتُ ويموا
حماها كما يمتُ قد أعذَروا جِداّ
فوالله ما وصفى لها جاز حدّه
ولكنها فى الحُسن قد جازت الحدّا

وقال :

من قبل خلق الخلق أنت رضيتنى
عبداً وما أنا عبدُ سوء آبق
ونُقلت من صُلب إلى صُلب على
صدق الولا وأنا المحب العاشق
قد يعذلونى فى هواك تعنفاً
أنا عاشق أنا عاشق أنا عاشق

وكما ترى فإن كلامه فى التصوّف وفى المحبة يخرجه من دائرة الإسلام إلى دائرة الغلو.

* * *

٤٦ - البُرْعى (عَبْدالرحيم)...

عبد الرحيم بن أحمد بن علىّ البُرَعى اليمانى، أقام بالنيابتين فى اليمن، وجاور فى الحجاز، وتوفى قرب المدينة، ونسبته إلى بُرَع وهو جبل بتهامة، واشتهر بشعره الصوفى، وأكثره فى التوحيد، ومَدْح النبىّ ﷺ، والعارفين بالله من أقطاب وقته.

ويذكر بروكلمان أن البرعى من شعراء النصف الأول من القرن الخامس الهجرى، إلا أن ديوانه المعروف بديوان البرعى يأتى فيه أسماء عدد من أعلام التصوّف عاشوا من بعد ذلك، الأمر الذى يؤكد أن البرعى كان على الأرجح من شعراء القرن العاشر الهجرى.

والبرعى من كبار الصوفية، وأطلق عليه البعض شاعر الذات الإلهية، وشاعر الذات المحمدية، وله فى التوحيد :

تجلّت لوحدانية الحقّ أنوارٌ
فَدَلَّتْ على أن الجحودَ هو العار
وأغرَتْ لداعى الحقّ كلَّ مُوَحِّد
بمقْعَد صدْق حبِّذا الجارُ والدارُ
وأبْدَتْ معانى ذاته بصفاته
فلمْ يحتملْ عقْلُ المحبيّن إنكار
فسُبحانَ مَن تعنو الوجوهُ لوجهه
ويلقاهُ رَهْنَ الذُّلِّ مَن هُوَ جبّار

ومن كلٍّ شيءٍ خاضعٍ تحتَ قَهرِه
تصرفُهُ في الطَّوْعِ والقهرِ أقدار
عظيمٌ يهونُ الأعظمون لعزِّه
شديدُ القُوى كاف لذُلِّ القهرِ قهّار
لَكَ الحَمْدُ حمداً نستلذُّ به ذكرا
وإنْ كنتُ لا أُحصي ثناءً ولا شُكرا
لَكَ الحمْدُ حَمْداً طيّباً أنتَ أهْلُه
على كلِّ حال يشملُ السرَّ والجَهْرا
عَسَى مِن خَفِيّ اللُّطف سُبحانه لَطَف
بعطفِه برٍّ فالكريم له عَطف
وإني لمستغنٍ بفقري وفاقتي
إليه ومُستقوٍ وإنْ كانَ بي ضعفٌ
مُقيلُ العاثرين أقِلْ عَثاري
وخُذْ لي من بني زمني بثاري
وجمّلني بعافية وعفوٍ
من الأمراض والعلَلِ الطواري

ومن شعره في دلائل القدرة :

كلُّ شيءٍ منكم عليكم دليلٌ
وَضُحَ الحقُّ واستبانَ السبيلُ
أحْدَثَ الخلقَ بين كاف ونون
مَنْ يقولُ المرادَ حين يقولُ
مَن أقام السماء سقفاً رفيعاً
يرجعُ الطرفُ عنه وهو كليلُ

ومن شعره في مناجاة الله تعالى :

سبحانَ مَن عَنَتْ الوجوه لوجهه
وله سجودُ أوْجُه وجباهُ
مَلِكٌ تدينُ له الملوكُ ويَلتَجَى
يومَ القيامةِ فقرُهم بغناه
هو أولٌ هو آخرٌ هو ظاهرٌ
هو باطنٌ ليس العيونُ تراه

* * *

فيا فالقَ الإصباحِ والحَبِّ والنوَى
ويا قاسمَ الأرزاق بين العوالم
إليك تَوَسّلنا بك، اغفر ذنوبنا
وخَفِّفْ عن العاصينَ ثُقْلَ المظالم

وله القصيدة الصوفية ومنها :

لكلِّ خَطب مُهِمٍّ حَسْبيَ الله
أرجو به الأمْنَ مما كنتُ أخشاه
وأستغيثُ به من كلِّ نائبة
وما ملاذي في الدارين إلاّه
جوانب الخير في الدارَيْن تابعةٌ
لطاعة الله فالزَمْ طاعةَ الله
فاسلُكْ سَبيلَ كتاب الله مُمتَثِلاً
وسُنّةَ المِلّةِ الزهراء نعما هي

* * *

٤٧ - ابن بزّاز (توكّل)...

صاحب كتاب «صفوة الصفوة»، يذكر فيه مناقب الأولياء ، ويخصّ به شيخ أردبيل الأكبر صفيّ الدين، جدّ الأسرة الصفوية، يقول: إن الذي دفعه إلى تصنيفه الشيخ صدر الدين بن الشيخ صفيّ الدين،

وأشرف على تنقيحه مَن يُدعَى أبا الفتح الحسيني. والكتاب كبير الحجم، قيل كلماته بلغت نحو ٢١٦ ألف كلمة، ويشبه كتاب «مناقب العارفين» لأفلاكي، والفارق بينهما أن كتاب أفلاكي عام، وكتاب ابن بزّاز يحدّد مناقب أكابر الطريقة الصوفية المولوية في قونية، وعلى رأسهم شيخ أردبيل صفيّ الدين. والكتاب فوق ذلك يورد الكثير من التفاصيل المتصلة بالحياة الثقافية، والتاريخ، وتقويم البلدان، لهذا القسم الشمالي الغربي من بلاد الإسلام، من فارس وغيرها، وإن غلب فيه ذكر الخوارق والكرامات، وبه شواهد من اللهجة الفارسية في أذربيجان كما كانت في القرن الثامن الهجري، حيث جاء تأليفه قرابة سنة ٧٠٠ هـ.

* * *

٤٨ - البسطامي (سلطان العارفين)...

أبو يزيد الأكبر طيفور بن عيسى (١٨٨ - ٢٦١ هـ)، من بسطام خراسان، لم تؤثر عنه كتابات في التصوّف، ولكن أقواله رصدها أصحابه ومحبّوه وخصومه على السواء، وهي تشكّل مذهباً في التصوف، قالوا فيه إنه الطيفورية، وهومذهب في المحبة الصوفية، والفناء الصوفي، ولعل أكمل المراجع في سيرته ومعراجه الروحي، كما يقول عنه البعض، هو كتاب السهلجي «النور عن كلمات أبي طيفور».

واشتهر أبو يزيد بالشَّطح، وأصله كلمات مستغربة تصدر عن الصوفي في حال وجْده وذهوله بمشاهدة جلال الحق، فلا يدري ما يقول؛ أو أنه ينطق عمّا يشهد بلسان مشهوده، وفي ذلك يقول الجنيد شيخ الصوفية: إن حال أبي يزيد كحال مجنون ليلى، فإنّ حبه لليلى وقد تملكه لم يعد معه يرى في الأشياء والمخلوقات، وحتى في نفسه، إلا أنها ليلى، فلما سألوه من أنت؟ قال: ليلى!!

ويروون عن ذي النون أنه لما بلغه أن أحد أصحابه ذهب يسأل عن أبي يزيد، ولقاه ذاك، فقال له: آأنت أبو يزيد؟ فقال أبو يزيد: ومن يكون هذا وأين أجده؟ قال ذو النون: مسكين أخي أبو يزيد! لقد فقد نفسه في حبّ الله، فصار يطلبها مع الطالبين!

وأبو يزيد كان همّه الأكبر التوحيد، وهو يروى عن جهاده في طريق معرفة الله فيقول: إنه أقام دهراً طويلاً مع العلماء حتى صار من العارفين، ولكنه رأى ازدحامهم على أبواب الحقّ، ولم يجد لنفسه موضع قَدَم بينهم، وقال لنفسه إن العلم لا يستقيم من غير الحقيقة، والحقيقة هي الاجتهاد مع

المصلّون، فأقام دهراً معهم، فلم ير لنفسه موضع قَدَم بينهم، ثم وجد الحقيقة مع الصائمين، فأقام معهم دهراً ولم يجد نفسه، وانصرف إلى الملبّين بالحجّ، القاصدين بيت الله من كل فجّ عميق، فلم يجد لنفسه موضع قدم بينهم ، فانصرف إلى الجهاد، وأقام مع المجاهدين، يضرب معهم السيوف فى وجوه أعداء الله دهراً طويلاً، ولم يجد لنفسه موضع قَدَم بينهم، فانصرف وقال: يا إلهى ارحمنى وارحم حيرتى! وأقم بعبدك مقاماً أتقرّب إليك، لا ينافسنى فى ذلك المقام منافس، ولا يزاحمنى فيه مزاحم، فلقد أُشرف بى على مَن سبقونى إليك، ورأيتنى لا أطيق اللحوق بهم؟ فنادانى الحق: يا أبا يزيد، إنه لا يتقرّب إلىّ متقرّب بمثل من يأتينى بما ليس لى. قلت: يا إلهى وما الذى ليس لك وأنت لا تقرّب من يأتيك به ؟ ومن أين لى ما ليس لك ؟ فقال: يا أبا يزيد، ليس لى فاقة ولا فقر، فمَن ابتغى لدى الوسيلة بهما قرّبته من بساطى. قلت: اللهم أشْرِف بى على ذوى الفقر والفاقة، فأشرف بى، فإذا هم شرذمة قليلون، لا أرى هناك ازدحاماً ولا تنافساً، ولا أرى لهم على الباب جَلَبة ولا صياحاً ، فعاهدته لا أوثر على الفقر والفاقة شيئاً، فها أنا معه على هذا العهد، فليس من ساعة إلا وتأتينى منه كرامة جديدة، فقلت : إلهى، هذا شئ خصصتنى به من بين خلقك ؟ قال: هذه الكرامة لا ينالها إلا من آثر الفقر والفاقة وصبر عليهما وأنس بهما.

ويروون عنه فى سيرته الروحية أنه قال: رأيتُ ربّ العزّة فى المنام، فقلت كيف الطريق إليك ؟ فقال: اترك نفسك وتعال. ويردف أبو يزيد معلقاً : يستزيد أبو يزيد ولا مزيد على التوحيد. ويقول: طلّقت الدنيا ثلاثاً وصرت وحدى إلى ربّى، فناديته بالاستغاثة : إلهى ومولاى! أدعوك دعاء مَن لم يبق له غيرك. فلما عرف صدق الدعاء من قلبى مع الإياس منى، كان أول ما أورد علىّ من إجابة هذا الدعاء، أن أنسانى نفسى بالكلية، ونصب الخلائق بين يدىّ مع إعراضى عنهم.

ويصف أبو يزيد طريقته لمريديه فيقول: عملت أشياء، أولها: اتخذته سبحانه معلماً، فقلت إن لم يكفك ربّك لم يكفك غيره فى السماوات والأرض؛ وشغلت لسانى بذكره، وبدنى بخدمته، فكلما أعيت جارحة رجعت إلى الأخرى؛ وأكرمنى الله بثمانى كرامات ـ ثم بعدها نادانى: يا أبا يزيد؛ أولها: رأيت نفسى متأخراً ورأيت الخَلْق قد سبقونى؛ والثانية: رضيت بأن أُحرَق بالنار بدل خلقه، شفقةً بهم؛ والثالثة: كان قصدى إدخال الفرح فى قلوب المؤمنين ؛ والرابعة: لم

أمسك شيئاً قطّ للغير؛ والخامسة: أردت رحمة الله بالناس أكثر مما أردتها لنفسي؛ والسادسة: بذلت جهدي أن أدخل السرور على المؤمن وأفخرج الغمّ من قلبه؛ والسابعة: ابتدأت بالسلام على من لقيني من المؤمنين من شفقتي عليهم؛ والثامنة: قلت: لو غفر الله لي يوم القيامة، وأذن لي بالشفاعة، لشفعت أولاً لمن آذاني وجفاني، ثم من برّني وأكرمني.

وأبو يزيد كما يقول: عَرَف الله بالله، وعرف من دون الله بنور الله. وهو يقول: إنه توهم في بداية أمره أنه يذكر الله ويعرفه ويحبّه ويطلبه، فلما انتهى، رأى ذكره تعالى له أسبق من ذكر أبي يزيد له تعالى، ومعرفته ومحبته أقدم، وطلب الله له كان الأسبق.

ويقول أبو يزيد عن مجاهداته: إن الله تعالى في بداية أمري هداني للزراعة، فزرعت في نفسي أنواع العبادة، ثم أرشدني للقصارة، فلم أزل أغتسل بأنواع الطهارات والمياه، فلم أرها طهّرتني بعد. وكنت اثنتي عشرة سنة حدّاد نفسي، وخمس سنين مرآة نفسي، وسنةً أنظر فيما بينهما، فإذا في وسطي زنار، فعملت في قطعه خمس سنين، أنظر كيف يُقطَع، فكُشف لي ذلك، فنظرت إلى الخلق فرأيتهم مَوتَى، فكبّرت عليهم أربع تكبيرات. ومررت على بابه فلم أر زحاماً لأن أهل الدنيا حُجبوا بالدنيا، وأهل الآخرة شُغلوا بالآخرة، والمدّعين من الصوفية حُجبوا بالأكل والشرب، ومَن فوقهم حُجبوا بالسماع والشواهد، وأئمة الصوفية لا يعجبهم شئ من هذه الأشياء فرأيتهم حيارى سُكارى.

وأبو يزيد لا يريد من الله سواه. وقيل له: ما أشدّ ما لقيت في سبيل الله، فقال: لا يمكن وصفه! فقيل له: وما أهون ما لقيتَ نفسك منك! فقال: دعوتها إلى شئ من الطاعات فلم تجبني، فمنعتها الماء سنة. ولو نظرتم إلى رجل أعطي من الكرامات حتى يرتقي في الهواء فلا تغتروا به حتى تنظروا كيف تجدونه في الأمر والنهي وحفظ الحدود وأداء الشريعة. والناس كلهم يهربون من الحساب ويتجافون عنه، وأنا أسأل الله أن يحاسبني، لعله يقول لي فيما بين ذلك: يا عبدي، فأقول لبيك، فقوله لي يا عبدي أحبّ إلي من الدنيا وما فيها، وليفعل بي بعد ذلك ما يشاء.

ولما كتب له أحدهم أنه قد سكر من كثرة ما شرب من كأس محبة الله، ردّ عليه أبو يزيد: بأن غيره شرب بحور السماوات والأرض وما روى بعد، ولسانه خارج يقول هل من مزيد! ويصور أبو يزيد حاله في حب الله فيقول :

عجيب لمن يقول ذكرتُ ربّى

وهل أنسى فأذكر مَن نسيت؟

شربتُ الحبّ كأساً بعد كأس

فما نفد الشراب ولا رويت

وحبّه لله هو حبّ العارف الذى مُحيت رسومه، وفنيت هويته لهوية غيره، وعميت آثاره لآثار غيره. وهو يقول فى هذا الحب :

غرستُ الحبَّ غرساً فى فؤادى

فلا أسلو إلى يوم التنادى

جرحتُ القلب منى باتصال

فشوقى زائدٌ والحبّ بادى

سقانى شَرْبةً أحيا فؤادى

بكأس الحبّ فى بحر الوداد

فلولا الله يحفظ عارفيه

لهام العارفون بكل وادى

وحبّه لله هو الذى يقضه ويقلقه، فينتقل بين المقامات، وبعانى الأحوال فيما وصفه مؤرخوه بأنه معراج أبى يزيد، وهو يقول فيه: إنه طار إلى ميدان الليْسية حتى أشرف على التوحيد، فصار فيه طيراً من الأحدية، جناحاه من الديمومية، ولم يزل يطير إلى أن صار فى ميدان الأزلية، وشاهَدَ شجرة الأحدية - ثم يصفها ويصف أرضها وفرعها وثمارها. والليسية: هو مقام توحيد الله بليس كمثله شئ، ولا إله إلا الله، ثم يتلوه مقام الأيْس بعد الليْس، بتوحيد الله بدون لا وليس، والإيجاب له فى كلّ شئ، فلا يكون ثمت إلا الله، ويكون الفناء فى الله، ولا يكون هناك إلا هو الواحد الأحد، وهو مقام الأحدية والديمومية والأزلية. والعارف الذى يطمح إليه أبو يزيد فى تصوّفه: هو هذا الذى تكون أدنى صفاته أن تجرى فيه صفات وجنس الربوبية، فيراه خلق الله وقد تزيّن بالوحدانية، وارتفع إلى الأحدية، حتى ليكون هو ولا يكون هو هناك . ألم يقل الله تعالى: ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ (البقرة ٣٠)؟ والإنسان الكامل الربّانى هو خليفة الله، وصورته على صورة مولاه. ولقد رأى أبو يزيد أنه وقد بلغ هذا المقام: صار بالله ومن الله ولله، وهو فيه ينطق بما نطق بما أسموه شطحات، من مثل «سبحانى سبحانى، ما أعظم شأنى»، وهو فيه يخاطب ربّه فيقول: أنت العالم والمعلوم، والمفرد والفرد. تفرّدت بفردانيتك، وتوحّدت بوحدانيتك، وانقطعت حُجة الله علىّ فى فردانيته، وبوحدانيته فى وحدانيته، فأقمت معه دون تفرّدى بفردانيته، فأقمت معه به، وفنيت صفاتى بصفاته، وسقط اسمى باسمه،

وسقطت عني أوّليتي بأوّليته، وآخريتي بآخريته، فنظرت إليه بذاته التي لا يراها الواصفون، ولا يبلغها العالمون، ولا يفهمها العاملون، فنظر إليّ بعين الذات بعدما سقط اسمي وصفاتي، وأوّلي وآخري ونعتي، فدعاني باسمه، وكنّاني بهويته، وناجاني بأحديته، فقال: يا أنا، فقلت: يا أنت، فقال لي: يا أنت، فانقطعت حُجة الله عليّ به. ما سمّاني باسم من أسمائه إلا سمّيته به، وما وصفني بصفة من صفاته إلا وصفته بها، فانقطع كل شئ مني به، فبقيت دهراً بلا روح ولا جسم كاليت، ثم إنه أحياني بحياتي بعدما أماتني، فقال: لمن المُلك اليوم ؟ فلما أحياني قلت: لله الواحد القهّار! فقال: لمن الاسم ؟ قلت: لله الواحد القهّار! فقال: لمن الحُكم اليوم؟ فقلت: لله الواحد القهار! فقال: لمن الاختيار؟ فقلت: للربّ الجبّار ! فقال: أحييتك بحياتي، وملكتك مُلكي، وسمّيتك باسمي، وحكّمتك حكمي، وأفهمتك اختياري، ووافقتك بأسماء الربوبية والصفات الأزلية. فقلت: لا أدري ما تريد، فقد كنتُ لنفسي فلا ترضى؟ وكنت لك بك فلا ترضى؟ فقال: لا تكن لنفسك ولا لنفسي. إني كنت لك حيث لم تكن، فكن لي حيث لم تكن. وكنت لك حيث كنت، فكن لي حيث كنت. فقلت: وأنىّ لي بذلك إلا بك؟ فنظر إليّ نظرة بعين القُدرة فأعدمني بكونه، وظهر فيّ بذاته، فكنتُ به، فانقطعت المناجاة، فصارت الكلمة واحدة، وصار الكل بالكل واحداً، فقال لي: يا أنت، فقلت له: يا أنا، فقال لي: أنت الفرد، فقلت: أنا الفرد، فقال لي: أنت أنت، فقلت: أنا أنا. ولو كنتُ أنا من حيث أنا لما قلت أنا، فلمّا لم أكن أنا، فكن أنت أنت، قال: أنا أنا ـ قولي بأنائيته كقولي بهويته توحيداً، فصارت صفاتي صفات الربوبية، ولساني لسان التوحيد، وصفاتي هي أن هو هو لا إله إلا هو، فكان ما كان بكونه مما قد كان، وما يكون بكونه يكون ما يكون، صفاتي صفات الربوبية، وإشاراتي إشارات الأزلية، ولساني لسان التوحيد.

وذلك ما أنكره القوم عليه، وقد سألوه أنه يبلُغهم في كل وقت أشياء يقولها ولا يفهموها، فينكروها، فقال: إنما يخرج الكلام مني على حسب وقتي، ويأخذه كل إنسان على حسب ما يقوله، ثم ينسبه إليّ.

وما تنبأ به البسطامي كان، فقد تأوّله الجميع، المريدون المؤيدون، والأصحاب والأحباب، والخصوم المنكرون، وكان الجيلاني والسرّاج والجنيد من المتأوّلين العاذرين، بينما كان غيرهم من المكذّبين، كابن الجوزي، وابن سالم. وحاول البعض

إنكار نسبة هذه الأقوال إليه، مثلما فعل شيخ الإسلام عبد الله الأنصارى، والإمام الذهبى. وحذر السهلجى من الخلط بين كلامه وكلام من ينسبون أنفسهم إليه، ويُدعَون بكنيته، ويقول إن هؤلاء بلغوا نحو الألف، ومن لم تكن له منهم الدرجة والمقام والمنزلة فلا يصحّ التعويل على قوله، وقد جرى العُرف بين أهل العلم والتحقيق أن مالا نعرف مبناه فليس لنا أن ندّعى أننا نفهم معناه، وما لم نعرف مقامه لا نزعم أن بوسعنا أن نصف مقامه، وما لا نملك عبارته لا يجوز لنا أن نقول إننا ندرك إشارته!

ويذكر على الجوزجانى دفاعاً عن البسطامى: أن ما قاله قد قاله وهو فى مقامه، فمن أراد أن يفهمه فليرتق إلى هذا المقام، وليجاهد نفسه ليبلغه كما جاهد أبو يزيد، فهناك سيفهم كلام أبى يزيد.

وأقول: إن الكلام للأنام، وغايته الوصال وإحداث الاتصال، فإن لم يكن مفهوماً فهو لا وصال ولا اتصال، وأصحاب المنطق يسمون أمثال عباراته: عبارات فارغة المعنى.

والطيفورية ـ كما قلنا ـ هم أتباع بايزيد طيفور بن عيسى البسطامى؛ وطريقته ـ كما يقول الهجويرى فى «كشف المحجوب» ـ هى طريقة الغلبة والسُّكر. وغلبة الحق عزّ وجلّ وحُبّ السكر ليسا من جنس كسب الإنسان. وكل ما كان خارجاً عن متناول اختيار الإنسان تعتبر الدعوة إليه باطلة والتقليد فيه محال. وهذا هو اعتقادنا.

ومن أقوال البسطامى: إن الصحو يتحقق بتمكين صفة الإنسانية واعتدالها، وهو الحجاب الأعظم عن الحقّ تعالى. ويتحقق السُّكر بزوال الآفة ونقص الصفات البشرية، وذهاب تدبيره واختياره، واضمحلال تصرّفه فى نفسه، ببقاء طاقة متمكنة فى ذاته خلافاً لجنسه، وذلك أبلغ وأتم وأكمل.

ويخالف مذهب البسطامى ـ الذى هو طريقة السُّكر ـ مذهب الجنيد الذى هو طريقة الصحو مخالفةً تامة. ويقول الهجويرى: إن الجنيد وفرقته من رأيهم أن السُّكر هو محل للآفة، لأنه مشوّش للأحوال، ومزيل للصحة، ومضيّعٌ لزمام النفس، ولأن قاعدة المعانى كلها هى الطلب، فإنه يكون إما بحسب فنائه، وإما بحسب بقائه، وإما بحسب محوه، وإما بحسب إثباته، وإذا لم يكن صحيح الحال لم تحصل له فائدة التحقيق، ومن أقوال النبىّ ﷺ: «اللهم أرنا الأشياء كما هى»، وهذه الجملة لا تتحقق إلا فى حالة

الصحو، وأهل السُّكر ليست لهم معرفة بهذا المعنى.

وكان أتباع البسطامى يتجنبون مخالطة الناس وصُحبتهم على الأغلب، ويفضلون الخلوة والعزلة، وكانت الشطحات كثيرة بين أتباع البسطامى، أى أتباع طريقة السُّكر، لأن الصوفى إذ يعتبر نفسه مظهراً كاملاً لأسماء وصفات الحقّ، يرى كلّ دعوة فى مثل هذه الظاهرة صحيحة فى عالم الهيام والفناء والاتصال بالحقّ. يقول البسطامى: طفتُ مدة حول البيت، ولما بلغتُ الحق وجدت البيت يطوف حولى! وسأله أحدهم ما هو العرش؟ فقال: أنا العرش! فسأله: وما هو الكرسى؟ فقال: أنا الكرسى! فقال: وما هو اللوح والقلم؟ فقال: أنا اللوح والقلم!

وتوجد من ذلك شطحات كثيرة فى الأشعار الصوفية عند الطيفورية. هدانا الله وغفر للجميع!

* * *

٤٩ - البسطامى (الحروفى)...

زين الدين عبد الرحمن بن محمد ابن علىّ بن أحمد بن محمد البسطامى، الحنفى، الحُروفى، كان على الطريقة الحروفية عند الدراويش، وله فى التفسير الحروفى «كشف أسرار الحروف»، و«شمس الآفاق فى علم الحروف»، و «مفتاح الجَفْر الجامع». على أن أشهر كتبه فى التصوّف «مناهج التوصل فى مباهج الترسُّل»، حاول فيه أن ينهج على نهج ابن عربى فى الفتوحات المكّية، وجعله فى مائة باب، انتهى من ثلاثين باباً منها ولم يُكملها. وقد ظن أنه يمكنه من خلال قراءة معانى ودلالات وإرشادات حروف الكلمات فى القرآن، النفوذ إلى أسراره وإدراك الحقائق القدسية. والأسماء الحسنى هى مادته الجوهرية، ويطبّق عليها أصول علم الحروف لبلوغ ما يسميه الكشف الصوفى، فضلاً عن أن طبيعة الحروف وخواصها السرّية تكشف عن خواص الأشياء، ومن ثم يعطى العلم بها القدرة على التأثير فى الطبيعة، والكشف عن الأدوار التى كانت للأشياء عبر مراحل تطوّرها وتحولاتها، والتنبؤ لذلك بما كان منها فى الماضى وما سيكون منها فى المستقبل.

والبسطامى ينصرف اهتمامه إلى الأحلام وأسرارها، وغير ذلك من العلوم الباطنة، التى يتوسل بها إلى إدراك الحقائق الباطنة. وهو من مواليد أنطاكية، وتعلّم بالقاهرة، وتوجّه إلى بروسه، وكانت

يومئذ قَصَبة العثمانيين، وأهدى كتبه للسلطان مراد الثانى، وكان يرعى العلم، فنال حظوة لديه، وتوفى فى بروسه سنة ٨٥٨ هـ. (انظر الحروفية فى الاصطلاحات).

* * *

٥٠ - البغدادى (الصوفى)...

أبو حمزة محمد بن إبراهيم، وشهرته «الصوفى»، فقد كان الإمام أحمد بن حنبل إذا جرى فى مجلسه شئ من كلام الصوفية، يقول له: ماذا تقول فى هذا يا صوفى؟ فعُرف هذا عنه. وكان فقيهاً عالماً بالقرآن والقراءات، وتوفى سنة ٢٨٩ هـ، واشتغل بالبزازة، فسموه البزّاز أبا حمزة، وكان أول من تكلم ببغداد فى المحبة، وقالوا فيه: هو شيخ الصوفية ولسانهم فى المحبة والشوق، والأنس والقُرب، وموارد القلوب. وسألوه عن المحبة، وهل يمكن أن يتفرغ المحبُّ لشئ سوى محبوبه؟ فأجاب بالنفى: لأن المحبوب فى بلاء دائم، وسرور منقطع، وأوجاع متصلة، لا يعرفها إلا من باشرها. والمحبة تعنى الذكر، فمن المحال أن تحب المحبوب فلا تذكره، ومن المحال أن تذكره فلا يُوجدك طعم ذكره، ومن المحال أن يُوجدك طعم ذكره ثم تُشغل بغيره. والأنس: هو أن تكون موافقتك لمولاك، ويضيق صدرك عن معاشرة الخلق.

وللبغدادى شعر رقيق، منه:

لك من قلبى المكان المصون
كلّ صعب علىّ فيك يهون

ومنه:

نهانى حيائى منك أن أكتم الهوى
فأغنيتنى بالفَهم منك عن الكشف
تلطفتَ فى أمرى وأبديتُ شاهدى
إلى غائبى واللُطف يُدرَك باللُّطف
تراءيتَ لى بالغيب حتى كأنما
تبشّرنى بالغيب أنك فى الكفّ
أراك وبى من هيبتى لك حشمة
فتؤنسنى باللُطف منك وبالعطف
وتُحيى محباً أنت فى الحُبّ حتفَه
وذا عَجب كوْن الحياة مع الحَتف

وقيل إنه خرج مرة يشيّع بعض الشهداء فى الجهاد، فسمع من ينشد:

نقّل فؤادك حيث شئتَ من الهوى
ما الحبّ إلا للحبيب الأول

فسقط مغشياً عليه.

* * *

٥١ - البقاعى...

الإمام برهان الدين إبراهيم بن عمر ابن حسن الربّاط بن علىّ بن أبى بكر، البقاعى،

(٨٠٩ ـ ٨٨٥ هـ)، أصله من البِقاع بسورية، وارتحل إلى القاهرة، وبها صنّف رسالتيه: «تنبيه الغبيّ إلى تكفير ابن عربي» سنة ٨٦٤ هـ، و«تحذيرُ العباد من أهل العناد ببدعة الاتحاد» سنة ٨٧٨هـ، وله تصانيف أخرى أشهرها: «نَظْم الدُّرر في تناسب الآيات والسُّوَر» ويُعرف باسم: «مناسبات البقاعي». وقد نشر عبد الرحمن الوكيل الرسالتين في كتاب واحد، أعطاه اسم «مصرع التّصوّف»، ونقل عنه الزِركلي في ترجمته للبقاعي هذا الاسم المُنتحَل على أنه كتاب له في التصوف! وأهمية الرسالتين أنهما تسجلان أسماء المنكرين على ابن عربي وابن الفارض قولهما بالحلول والاتحاد، أو وحدة الوجود، ويورد البقاعي فيهما نحواً من أربعين اسماً من أسماء المشايخ الكبار، وكلهم يعترضون على ما ذهب إليه ابن عربي وابن الفارض، ومن تابعهما من فلاسفة الصوفية: كابن سبعين، وابن مَسَرَّة وغيرهما. وهو يدفع عن نفسه تهمة البُغض للصوفية ويقول: إنه إنما يبغض مَن كفّره، من أجمعنا على أنهم صوفية، مثل: الجنيد، والقُشيري، وشهاب الدين السهروردي، الذين أكدوا أن طريق الصوفية لا يخالف الكتاب ولا السُّنة، ويرتبط بهما، ومن يخالفهما فهو ليس من الصوفية، ومن ذلك قول أبي عثمان الحيري: من أمّر على نفسه السُّنة قولاً وفعلاً نطق بالحكمة، ومن أمّر الهوى على نفسه نطق بالبدعة؛ وقول النُّسْتَرِي: أصول مذهبنا ثلاثة: الاقتداء بالنبيّ ﷺ في الأخلاق والأفعال، والأكل من الحلال، وإخلاص النّية في جميع الأعمال.

ويذكر البقاعي: أن سبب تأليفه للرسالتين أن الناس قد اختلطت عليهم الأمور بشأن ابن عربي وابن الفارض، فأراد أن يوضّح من أمرهما ما استغلق من دعاواهما، وكان كُفر ابن عربي جلياً في كتابه «الفصوص» بالذات، وفي «الفتوحات» المكّية، وأما ابن الفارض فهو في تائيته إنما ينقل عن ابن عربي، فليست التائية سوى النظم الشعري للفتوحات المكّية المنثورة. وعقيدة ابن عربي هي «وحدة الوجود»، بمعنى: «أنه لا شيْ سوى هذا العالم، والإله أمْرٌ كلّي لا وجود له إلا ضمن جزئياته». وابن عربي ومن ينهج نهجه يتسترون بالإسلام ليروّجوا لدعواهم، لأنهم لو صرّحوا «بالتعطيل» فسينصرف الناس عنهم. ومن دعاواهم: «أن الإله هو عين كل شيْ، وأن كلّ عابد شيْ هو عابد لله، وأن الخلق هو الحقّ، والحقّ هو الخلق، والحقّ هو الإنسان الكبير، وهو حقيقة العالم وهويته، وأنه ليس

لوعيد الله عينٌ تُعاين، وأن الآخرة موضع سعادة لكل أحد، والمعذَّب منعَّم بعذابه، وأن الحقّ مفتقر إلى الخَلق، وأنه يتلبّس بصُوَر الخَلق، وأن هويته عَيْن أعضاء العبد وقواه، وأن الأديان كلها واحدة، والضال مهتد، والكافر لن يُعذَّب، والشرائع أوهام، والداعي هو عين المجيب»!!!

وقد صرّح بكفر ابن عربي، ومن نحا نحوه في مثل أقواله الظاهرة، جماعة من العلماء، نقل فتاواهم الإمام شهاب الدين أحمد بن يحيى بن أبي حجلة التلمساني الحنفي، والإمام سيف الدين عبد اللطيف ابن بلبان الصوفي، والعلاّمة بدر الدين حسين ابن الأهدل في تصنيفه المسمى: «كشف الغطا عن حقائق التوحيد».

ومن المنكرين له: سلطان العلماء عزّ الدين بن عبد السلام، ونقل عنه شيخ الإسلام تقيّ الدين بن دقيق العيد، أنه قال: هو شيخ سوء، كذّاب!! (يقصد ابن عربي).

ومن المنكرين له: شمس الدين محمد بن الجزري، قال فيه: كلامه باطل متناقض، وهو كُفر؛ والإمام أبو حيّان محمد الأندلسي، قال: ومن بعض اعتقاد النصارى، استنبط من أقرّ بالإسلام ظاهراً، وانتمى إلى الصوفية ظاهراً، استنبط حلول الله في الصور الجميلة؛ ونفس الشيء فعله من ذهب من ملاحدتهم إلى القول بالاتحاد والوحدة: كالحلاّج، والشعوذي، وابن أحلى، وابن عربي، وابن الفارض، وأتباعهم: كابن سبعين. وشيخ الإسلام تقي الدين السُّبكي، قال: ومن كان من هؤلاءالصوفية المتأخرين كابن عربي وغيره، فهم ضُلاّل جُهّال، خارجون عن طريقة الإسلام، فضلاً عن طريقة العلماء. ـ وقال ذلك في باب الوصية من شرح المنهاج، ونقله الدميري والتّقيّ الحُصْني. وقال الحافظ تقيّ الدين الفاسي في كتابه فيه: وقد أُحرقت كتب ابن عربي غير مرة. وممن صنع ذلك من العلماء المعتبرين الشيخ بهاء الدين السُّبكي، والعلاّمة القاضي شرف الدين عيسى بن مسعود الزواوي ـ شارح صحيح مسلم، فقال: وأما ما تضمنه هذا التصنيف من الهذيان والكفر والبهتان فهو كله تلبيس وضلال وتحريف وتبديل، ويجب على ولىّ الأمر إذا سمع بهذا التصنيف، البحث عنه وجمع نُسخه حيث وجدها وإحراقها، وأدّب من اتّهم بهذا المذهب أو نُسب إليه، على قدر التهمة عليه حتى يعرفه الناس ويحذروه.

ومنهم الشيخ الإمام المحقّق: نور الدين

علىّ بن يعقوب البكرى، قال: وأما تصنيفٌ تُذكر فيه هذه الأقوال، ويكون المراد به ظاهرها، فصاحبها ألعن وأقبح من أن يُتأوّل له ذلك، بل هو كاذب فاجر.

ومنهم العلامة: نجم الدين محمد ابن عُقَيْل البالسىّ، قال: من صدّق هذه المقالة الباطلة كان كافراً يُراق دمه ولا تنفعه التوبة؛ والعلاّمة: أبو إمامة ابن النقّاش المصرى، قال: وقد ظهرت أُمّة ضعيفة العقل، نزرة العلم، اشتغلوا بهذه الحروف وجعلوا لها دلالات، واشتقّوا منها ألفاظاً، واستدلّوا منها على مُدَد، وسمّوا أنفسهم بعلماء الحروف، ثم جاءهم شيخ جاهل يقال له البَوْنى، ألّف فيها المؤلفات، وأتى فيها بالطامات. ومن الحروف دخلوا للباطن، وأنّ للقرآن باطناً غير ظاهر، بل وللشرائع باطناً غير ظاهرها، ومن ذلك تدرجوا إلى «وحدة الوجود»: وهو مذهب الملحدين كابن عربى وابن سبعين وابن الفارض، ممن يجعل الوجود الخالق هو الوجود المخلوق، وقد لا يرضى هؤلاء بلفظ الاتحاد، بل يقولون بالوحدة، لأن الاتحاد يكون افتعالاً بين شيئين، وهم يقولون الوجود واحد لا تعدّد فيه، ولم يفرّقوا بين الواحد بالعين والواحد بالنوع، فإن الموجودات مشتركة فى مُسمّى الوجود، ولكن ليس وجود هذا هو وجود هذا، والقدر المشترك هو كلّى، والكلّى المطلق لا يوجد كلياً مطلقاً إلا فى الأذهان لا فى الأعيان. وهم متأهّلون للخيال ومعظّمون له، ولا سيما ابن عربى، وهو يسميه (أى الخيال) أرض الحقيقة، ويظنون دعاواهم الخيالية كرامات، ولقد حكى سعيد الفرغانى فى شرح القصيدة التائية لابن الفارض: أن رجلاً نزل دجلة، يتوضأ فخرج من نيل مصر وأقام هناك وتزوج وأنجب! ثم نزل فى إحدى المرات النيل للوضوء، فخرج من دجلة ووجد غلامه ودابته فى انتظاره، والناس لم تُصَلِّ الجمعة بعد!! وهذا الخيال يظنونه لجهلهم حقيقة وواقعاً. ثم قال: وحقيقة قولهم أن: «ما ثَمّ وجوداً إلا هذا العالم لا غير ـ كما قاله فرعون، لكنهم يقولون: إن العالم هو الله، وبينما فرعون أنكر وجود الله. ثم قال ـ وقيل لبعض أكابرهم: ما الفرق بينكم وبين النصارى؟ قال: النصارى خصّصوا، (يعنى خصّوا المسيح بعبادتهم)، وهذا موجود فى كلام ابن عربى وغيره: ينكرون على المشركين تخصيصهم عبادة بعض، والعارف عندهم يعبد «كل شئ»!!

ومنهم العلاّمة" جمال الدين عبد

اللطيف بن هشام، صاحب المُغني، وقد كتب عن الفصوص:

هذا الذي بضلاله

ضلّت أوائل مع أواخر

من ظن فيه غير ذا

فليتأ عنا فهو كافر

وقال: «هذا كتاب فصوص الظلم، ونقيض الحِكَم، وضلال الأمم. ـ وقال العلاّمة ابن خلدون: طريق المتصوّفة منحصر في طريقين ـ الأولى، وهي طريقة السُنّة وسلفهم، الجارية على الكتاب والسنة، والاقتداء بالسلف الصالح من الصحابة والتابعين؛ والثانية: مشوبة بالبدع، وهي طريقة قوم من المتأخرين، يجعلون الطريقة الأولى وسيلة إلى كشف حقيقة مؤلّفين من أمثال: ابن عربي، وابن سبعين، وابن برجان، وأتباعهم ممن سلك سبيلهم؛ وفضح الحِكَم المدعاة في الكتب من أمثال الفصوص والفتوحات المكية لابن عربي؛ والبُدّ لابن سبعين؛ وخَلع النعلَيْن لابن قسّي؛ وعيْن اليقين لابن بُرجان، والكثير من شعر ابن الفارض، والعفيف التلمساني، وأمثالهما؛ وكذا شرح الفرغاني للقصيدة التائية من نظم ابن الفارض، بإذهاب أعيان هذه الكتبُ متى وجدت، بالتحريق بالنار. ـ ومن المنكرين: العلاّمة شمس الدين محمد العزري، في كتابه: «الفتاوى المنتشرة»، قال عن الفصوص: «قال العلماء جميع ما فيه كُفر، لأنه دائر مع عقيدة الاتحاد.ـ وإذن فابن عربي من غُلاة الصوفية المحذَّر من طرائقهم، وهما فرقتان، فرقةٌ حلولية، يعتقدون حلول الخالق في المخلوق؛ وفرقةٌ اتحادية، لا يعتقدون تعدّداً في الوجود في زعمهم أن العالم هو الله، وكل فريق منهم يكفّر الآخر، وأهل الحقّ يكفّرون الفريقين. وممن يُكفّرون: ابن الفارض صاحب الديوان.

وقد ذَكَر هؤلاء بالحلول والاتحاد جماعةٌ من علماء الشريعة المتأخّرين، كالشيخ عزّ الدين عبد السلام، وأبي عمرو بن الصلاح، وابن دقيق العيد، وشيخ الفقهاء الزين الكتناني، وقاضي القضاة الشيخ تقيّ الدين السُّبكي؛ وحَكَم بتكفيرهم البدر بن جماعة، والزين الحنفي، والشرف الزواوي، والسعد الحنبلي.

ومن المنكرين: لسان الدين محيّ ابن الخطيب، في كتابه: «روضة التعريف بالحبّ الشريف»، قال: الفرع الخامس في رأيٌ، هم أهل الوحدة المطلقة ـ ثم قال يشرح ذلك: وحاصله أن الباري هو مجموع ما ظهر وما بطن، وأنه لا شئ

خلاف ذلك، وأن تعدّد هذه الحقيقة المطلقة والآنية الجامعة، التى هى عين كل آنية، والهوية التى هى عين كل هوية، إنما وقع بالأوهام من الزمان والمكان، والغيبة والظهور، والألم واللذة، والوجود والعدم. وقال هؤلاء: وهذه إذا حُقّقت إنما هى أوهام راجعة إلى أخبار الضمير، وليس فى الخارج شئ منها، فإذا سقطت الأوهام صار مجموع العالم بأسره وما فيه واحداً، وذلك الواحد هو الحقّ، وإنما العبد مؤلف من طرفى حقّ وباطل، فإذا سقط الباطل - وهو اللازم بالأوهام - لم يبق إلا الحقّ. وصرحت بذلك أقوال شيوخهم - أى شيوخ وحدة الوجود، فمنه قول ابن أحلى: «حقٌّ أقام باطلاً ببعض صفاته». وقال: «الحلاّج وابن عربى قد تعرّضا لما به وقع التعدد، وردّدا أنه وَهْم، فالكل واحد وإن كان متفرّقاً، فسبحان من هو الكلّ ولا شئ سواه، الواحد بنفسه، المتعدد بنفسه! - وهذا رأى الحلاّج وابن عربى.

ومنهم - أى من المنكرين - شيخ الإسلام أبو الفضل بن حجر، وشيخه شيخ الإسلام: سراج الدين عمر البلقينى، فقال فى ترجمة عمر بن الفارض: إنه شيخ الاتحادية، ينعق بالاتحاد الصريح فى شعره!

ومنهم: الحافظ عماد الدين بن كثير، قال: «هؤلاء كلهم يقتفون فى مسالكهم هذه، طريقة الحسين بن الحلاّج، الذى أجمع الفقهاء فى زمانه على كفره وقتله».

ومنهم: شمس الدين محمد بن عثمان الذهبى، قال فى كتابه: تاريخ الإسلام: «كلام ابن عربى كُفر وزندقة، فكان يجتمع به آحاد الاتحادية ولا يصرح بأمره لكل أحد، ولم تشتهر كتبه إلا بعد موته، ولهذا تمادى أمره».

ومن المنكرين: الإمام ابن تيمية، قال فى كتابه «الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان»: «وقد صنّف بعضهم - أى أهل الاتحاد - كتباً وقصائد على مذهب ابن عربى، مثل قصيدة ابن الفارض، المسماة بِنَظْم السلوك»؛ وتشابه ما كتبه فى فصوص الحِكَم مع كتابات صاحبه القونوى - يعنى صدر الدين - وأصحابه: التلمسانى، وابن سبعين، والششترى، وابن الفارض، وأتباعهم، ومذهبهم الذى هم عليه: أن الوجود واحد، ويُسمّون لذلك: أهل وحدة الوجود، وهؤلاء يدّعون التحقيق والعرفان، ويجعلون وجود الخلق هو عين وجود المخلوقات، فكل ما تتصف به المخلوقات من حُسن وقُبح،

ومدح وذمّ إنما المُتّصف به عندهم هو: عين الخالق، وليس للخالق عندهم وجود مباين لوجود المخلوقات، منفصل عنهم، بل عندهم: ما ثَمّ غير الخالق ولا سواه، فعُبّاد الأصنام لم يعبدوا غيره لأنه ما عندهم له غير!!

وأمّا شرف الدين إسماعيل بن أبى المقرى، فقد قال: «وأما من أثنىَ على ابن عربى، فلفضله وزهده وإيثاره واجتهاده فى العبادة، ولم يعرفوا ما فى كلامه من المنكرات لاشتغالهم عنه بالعبادة. وبعض المُثنين عليه يعرفون ما فى كلامه من المنكرات، ولكنهم يزعمون أن لها تأويلات، وحملهم على ذلك كونهم تابعين لابن عربى فى طريقته، فتناؤهم عليه مطروح لتزكيتهم معتقدهم.

والعلاّمة علاء الدين محمد بن محمد البخارى الحنفى: صنّف فيمن أثنوا على أصحاب وحدة الوجود، رسالةً سمّاها: «فاضحة الملحدين وناصحة الموحّدين»، وبيّن: «أن وحدتهم هى التى قرر أصلها بعض الفلاسفة، لا التى يسميها أهل الله الفناء».

ونُقل عن القاضى عضد الدين فى وصفه لابن عربى: أنه يُحكَى عنه أنه كان: كذّاباً حشّاشاً كأوغاد الأوباش، فقد صحّ عن صاحب كتاب المواقف، أنه لما سُئل عن كتاب الفتوحات، لصاحب الفصوص، قال: أفتطمعون من مغربى يابس المزاج بحرّ مكة، ويأكل الحشيش، شيئاً غير ذلك؟ وقد تبعه - أى ابن عربى - فى ذلك ابن الفارض، حيث يقول: أمرنى النبىّ بتسمية التائية نَظْم السلوك! ولا يخفى على العاقل أن ما نسبه إلى النبىّ ﷺ هو من الخيالات المتناقضة الحاصلة من الحشيش، إذ عندهم أن وجود الكائنات هو الله تعالى، فإذن الكل هو الله لا غير- فلا نبىّ، ولا رسول، ولا مرسل إليه! وقال: إن الملاحدة عبّروا عن ضلالتهم بعبارات العارفين بالله، يتسترون بها فى زندقتهم، فينبغى الحذر منهم، فأرادوا «بالفناء» نفى حقائق الأشياء، وجعلوها خيالاً وسراباً على ما هو مذهب السوفسطائية، و«بالبقاء» ملاحظة الوجود المطلق، و«بالوحدة المطلقة» كوْن ما سوى الوجود من الأشياء خيالاً وسراباً، وكَوْن وجود جميع الأشياء حتى الخبائث والقاذورات - إلهاً! وذلك غير ما أراده العارفون، فإنهم أرادوا بها معانى يصدُّقها الشرع، وهم مصرّحون بأن كل حقيقة يردّها الشرع فهى زندقة، وأنه ليس فى أسرار المعرفة شئ يناقض ظاهر الشرع، بل باطن الشريعة يتم

بظاهرها، وسرّها يُكمل صريحها. ويروّج ابن عربي وأمثاله سفسطتهم بإحالتها إلى الكشف، ويتفيهقون بأن مرتبة الكشف وراء طور العقل، والمعروف أن مرتبة الكشف يُنال بها ما ليس يُنال بالعقل، وليس ما هو ببديهة العقل محال، فلا مجال في مورد الشرع، ولا في طور الولاية والكشف، لما يحكم العقل عليه بأنه محال، بل يجب أن يكون كل منهما في حيّز الإمكان والاحتمال.

ومن المنكرين: الحافظ تقيّ الدين محمد ابن أحمد الفاسي المكّي، في كتابه «تحذير النبيه والغبي من الافتتان بابن عربي»، يقول: إن من يُنسَب إليه هذا الكلام، لا يشك مسلم منصف في فسقه وضلاله وزندقته.

وممن كفّروا ابن الفارض: الحافظ ابن الصلاح، والإمام الفقيه الصوفي قطب الدين القسطلاني، والإمام نجم الدين أحمد ابن أحمد بن حمدان الحنبلي، وقد شرح التائية وبين عوارها بيتاً بيتاً؛ والسكوني، وابن الحاجب، وابن بنت الأعز، وابن جماعة، والسعد الحارثي، وأبو حيان الشافعي، وأبو أمامة، والحافظ الموصلي، والسُّبكي، وابن حجر، والبساطي، وابن الأهدل.

كما شهد بالنقل عنهم نحو عشرين كتاباً من مصنفاتهم ومصنفات غيرهم، وهي: شرح التائية لابن حمدان، وديباجة ديوان ابن الفارض، ولحن العوام لابن خليل، وتفسير أبي حيان البحر والنهر، والفرقان لابن تيمية، وقصيدة السفاقسي التي يقول فيها:

وكالششترى القونوى ابن الفارض
فلا بردّ الله ثراهم ولا أسقى

وكتاب ابن أبي حجلة، والميزان ولسانه لابن حجر، والتاريخ لابن كثير، وناصحة الموحّدين للعلاء البخاري، والفتاوى المكية للعراقي، وتاريخ العيني، وشرح التائية للبساطي، وكشف الغطاء لابن الأهدل. فهذه أربعة عشر كتاباً وقصيدة شهدت بكُفره من بضع وعشرين عالماً هم أعيان كل عصر.

* * *

٥٢ - بكتاش ولي...

طريقته طريقة الدراويش البكتاشية التي كانت منتشرة بين الانكشارية، حتى أن معنى البكتاشي كان ينصرف إلى الانكشاري، وكانت من الحركات الصوفية التي لها أهميتها البالغة في شرقي آسيا الصغرى وكردستان وألبانيا والشام وفارس ومصر، وكانت لهم بجبل المقطم تكية،

وتنسب هذه الطريقة لحاج بكتاش وَلِيّ، واسمه محمد رضوى، وقيل إنه ولد بنيسابور ودرس على أحمد سوَى، وقيل: إنه كان من الصوفية البابائية، وأعوان البابا إلياس. وقيل إن وفاته كانت سنة ٧٣٨ هـ ، إلا أن هذه السنة هى المقابل لكلمة بكتاشية فى حساب الحروف - كما يعتقد أصحاب هذه الطريقة. وتُنسب له كرامات عظيمة، وقيل عنه: إن الانكشارية كلهم أسلموا على يديه فى عهد أورخان، وصاروا على طريقته فى التصوّف: وهى طريقة تقوم على التقشُّف والنظام الصارم، وتقول بالمساواة بين الأديان. ومن البكتاشية من هم على عقائد السُّنّة، ومنهم علويون ينتصرون لآل البيت، ويذمّون أبا بكر وعمر وعثمان - كما يفعل الشيعة، ويعترفون بالأئمة الإثنى عشر، ويُنزلون الإمام جعفر الصادق منهم منزلةً خاصة، وشعارهم: «اللّه. محمد. علىّ»، يعنى: أن الثلاثة ثلاثة أوجه لحقيقة واحدة، ويرى المستشرقون أن ذلك منهم كالتثليث عند النصارى، كما يرون أن التزامهم شُرب النبيذ والتقوّت بالجبن والخبز، عناصر نصرانية، يفسّرونها عندهم بأن البكتاشية أو حاج بكتاش ولىّ، ربما كان فى الأصل نصرانياً وأسلم؛ وذكْرهم فيه الرقص، وشيوخهم يُدعَوْن البابا، ويتلقون منهم المغفرة، ومنهم من يبلغ زهده حدّ العزوف بالكلية عن الدنيا، والركون فى التكايا وعدم الزواج؛ ويميّز المصرّون على العزوبية أنفسهم بلبس الأقراط فى آذانهم، ولهم مشايخهم، (ومن الغريب أن الكثير من الشباب المعاصر يفعل ذلك دون معرفة بالسبب)، والبكتاشى الدرويش يقال له المريد، والملتحق بتكية البكتاشية يقال له منتسب، ولباسهم: عباءة بيضاء وطاقية يقال لها سكّة، مثلثة وأطرافها ١٢ بعدد الأئمة، والبابا أو الشيخ يلف حولها عمامة خضراء، وحول رقابهم حجاب من الحجر، يقال له تسليم تاش، (ومايزال كثير من الشباب يضعون مثل ذلك حتى اليوم وخاصةً فى أمريكا)، ويضعون فى أيديهم عصا طويلة، ويتلّحون ببلطة ذات حدّين؛ وهذه الخصيصة فيهم، وميولهم القتالية - ربما كانت سبب إقبال الانكشارية على الدخول فى طريقتهم، أو ربما كانت من تأثير دخول الانكشارية فى الطريقة، حتى أن الانكشارية كان يقال لهم أبناء الحاج بكتاش؛ وكان مشايخ فرق الانكشارية العسكرية، المنتشرة فى العالم الإسلامى زمن الإمبراطورية التركية، من دراويش البكتاشية؛ وقد لعبت طريقة

البكتاشية دوراً كبيراً فى الفتن السياسية والدينية، والتحوّلات الاجتماعية؛ وقبل إن الآراء التحررية فى ثورة أتاتورك، الخاصة بالمساواة بين الأديان، وعدم حجاب المرأة، هى من تأثير معتقدات البكتاشية، وربما لذلك كان إقبال البكتاشية على الأفكار التقدمية عموماً. وكان خالد بكتاش آخر رئيس للحزب الشيوعى السورى، وشغلت ابنته مكانه، ويضم الحزب بين أعضائه بقايا العناصر الانكشارية فى هذه البلاد.

وللبكتاشية مصطلحات ينفردون بها مثل: «التولية والتبرية»، ومعنى التولية: مشايعتهم لآل البيت؛ وأما التبرية: فهى التبرئة من غيرهم. والولاية عندهم أربعة، وهى: الشريعة، والطريقة، والمعرفة، والحقيقة؛ والمقامات: أربعون، لكل باب عشرة مقامات؛ وأئمتهم سبعة عشر، يسمونهم بالمتحزّمين، أو الكمرسته، بعدد أصحاب علىّ بن أبى طالب الذين خرجوا معه. وفى كل ذِكر يوضع عدد من الغراء فى أماكن خاصة بطريقة خاصة، ترمز لولىّ من الأولياء، وتسمى بوست. ومن أشهر أدعياتهم، الدعاء الذى يطلقون عليه اسم «دعاء علىّ»، يقولون فيه: ناد علياً مظهر العجائب، تجده عوناً لك فى النوائب؛ ويقولون فيه: يا علىّ! يا علىّ! أدركنى يا علىّ!. أدركنى يا إيليا يا أبا الحسين! يا أبا تراب! يا ذا الجلال والجمال والهيبة والكمال!!! - وإيليا هو النبىّ إلياس فى اليهودية، وهو عيسى فى النصرانية، ويستنجدون به لأنه صاحب معجزات، وموعود بالعودة إلى الدنيا بعد أن رُفع. وذلك ما نسميه الغزو الثقافى أو الاختراق الثقافى للإسلام - ومما يُذكر أن الحكومة التركية قد عادت وسمحت للطريقة البكتاشية أن تقوم بالدعوة فى البلاء بعد أن كان مصطفى كمال أتاتورك قد حلّها ومنعها من العمل؛ وقيل إن أعضاءها الآن يبلغون نحو الخمسة عشر مليوناً، وأن رئيسهم هو دده دده بابا الدكتور بدرى نويان من أساتذة جامعة أسطنبول، أو أنه كان، ولا أدرى من يرأسها حالياً.

* * *

٥٢ - أبو بكر الصدّيق...

كان أبو بكر الصدّيق أكثر الصحابة اشتهاراً بأحوال الصوفية، واسمه عبد الله ابن أبى قُحافة، وكان كثيراً ما ينادونه يا ابن أبى قُحافة، وهو أول من آمن برسول الله ﷺ من الرجال، وميلاده بمكة سنة ٥١ قبل الهجرة (٥٧٣م)، ووفاته بالمدينة سنة ١٣ هـ (٦٣٤م)، وكان يُدعَى عالِم

قريش، وحرّم على نفسه الخمر في الجاهلية، وشهد المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ، فجاهد وغزا، وبويع بالخلافة يوم وفاته ﷺ سنة ١١هـ، ونافح عن الإسلام، ولقّبوه الصدّيق: لتصديقه النبيّ ﷺ في خبر الإسراء؛ والعتيق: لأنه عُتق من النار، ونزل فيه القرآن: ﴿ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ (التوبة ٤٠)، ونزل فيه قوله: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً﴾ (الحديد ١٠)، فلقد تجرّد من الأموال لما دعاه الحال، والتزم الطريق وأخذ بالتصديق، والتصوّف اعتصام بالحقائق إذا تخلّى الخلائق، وقد التزم الصدّيق البيان عندما استدعاه الإيمان، وصحّح لعمر عندما توفي الرسول ﷺ فقال: «اجلس يا عمر، أما بعد، فمن كان منكم يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حيّ لا يموت»، فسبحان الله لو قارنا هذا القول والإيمان، بقول عليّ الذي زاحم أبا بكر الخلافة، قال: أنا آدم، وأنا نوح، وأنا إبراهيم، وأنا موسى، وأنا عيسى، انتقل في الصور كيف أشاء، من رآني فقد رآهم» (كتاب طرائق الحقائق للحاج معصوم عليّ)، والنصّ يدل على أن علياً ادّعى الألوهية، وحاله كحال الحلاّج في مقاله المشهور:

فإذا أبصرتني أبصرته

وإذا أبصرته أبصرتنا

وأما أبو بكر فما كاد الناس يسمعون مقالته حتى ردّدوها وعاد إليهم الإيمان. وأبو بكر أول من ابتنى مسجداً في الإسلام، وأول من استعلن بالصلاة والقراءة في غير داره، فكانت نساء قريش يسمعن قراءته وينقصفن عليه، ويتعجّب منه أولادهن، وكان أول من استن البكاء في الورع عند قراءة القرآن. وهو أول من طلّق الدنيا في الإسلام، واستثمر المال في خدمة الدعوة، والتصوّف عزوفٌ عن الفاني وإقبالٌ على الباقي، ومصاحبة الرسول دوماً، والاقتداء به جمعاً. ولمّا استسقى أبو بكر أُتي له بماء وعسل، فأدناه من فيه فبكى، وأبكى من حوله، وسكت فسكتوا، ثم عاد فبكى حتى ظنوا أن لن يقدروا على مساءلته، ثم مسح وجهه وأفاق، فسألوه: ما هاجك على هذا البكاء؟ قال: كنت مع النبيّ ﷺ، وجعل يدفع عنه شيئاً لم أره، وسألته: تدفع عنك شيئاً ولا أرى معك أحداً؟ قال: «هذه الدنيا تمثّلت لي بما فيها، فقلت لها إليك عني، فتنحّت»! والتصوف سلوكه جِدّ، وعمله كدّ، وأبو بكر كان

يتمثّل بنبيّه ﷺ، فلمّا أتاه مملوكه يغلّ عليه بطعام، تناول منه لقمه، وعرف أنه من حرام، فأدخل يده في حلقه فجعل يتقيأ، وجعلت اللقمة لا تخرج، ودعا بطست من ماء، فجعل يشرب ويتقيأ حتى رمى بها، فقيل له: كل ذلك من أجل لقمة؟ قال: لو لم تخرج إلا مع نفسي لأخرجتها! سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «كل جسد نبت من سُحت، فالنار أولى به»، فخشيت أن ينبت شيء من جسدي من هذه اللقمة! - فهذا هو التصوف: تقوى وورع، وأخذٌ بالسُّنّة وتواضعٌ لله. ثم إن التصوف إخلاص وعمل، فلما حاولوا الاعتداء على النبيّ ﷺ واستدعوا أبا بكر: أن أدرك صاحبك، خرج يجري ودخل المسجد يقول: ويلكم! أتقتلون رجلاً أن يقول ربيّ الله، وقد جاءكم بالبينات من ربكم؟! فلهوا عن الرسول ﷺ وأقبلوا على أبي بكر. والتصوف وقفُ الهمم على مولى النِّعَم، فلما أتى أبو بكر النبيّ ﷺ بصدقته يخفيها، وقال: هذه صدقتي، ولله عزّ وجلّ عندي معاد. وجاء عمر بصدقته يُظهرها وقال: هذه صدقتي، وكلٌّ عند الله معاد. فقال رسول الله ﷺ: «يا عمر، وتّرت قوسك بغير وتر. ما بين صدقتيكما كما بين كلمتيكما»!

فهكذا التصوّف: عملٌ في الخفاء، لا إظهارٌ فيه ولا رياء. والتصوف تزجية الأمور وتصفيه الصدور، فلما كان ليلة الغار دخل أبو بكر الغار أولاً مخافة أن تكون حيّة أو شيئاً، فتكون له قبل الرسول ﷺ، فكان يلتمس الحجارة بيديه، وشقّ ثوبه، فكلما شاهد ثقباً سدّه بقطعة من ثوبه، حتى سدّ كل الثقوب إلا ثقباً لم يجد إلا أن يسدّه بعقبه، فلما علم الرسول ﷺ، رفع يده فقال: «اللهم اجعل أبا بكر معي في درجتي يوم القيامة»! - يعني: مع الأنبياء والصدّيقين، وحَسُن أولئك رفيقاً.

وطوبى للمتصوفة يموتون في الإسلام جديداً، وأبو بكر كان كذلك. ولمّا قدم أهل اليمن زمان أبي بكر، وسمعوا القرآن جعلوا يبكون، فقال: هكذا كنا، ثم قست القلوبُ. يعني قويت واطمأنت بمعرفة الله. وخطب يوماً فقال: «يامعشر المسلمين، استحيوا من الله». والتصوّف كله استحياء من المولى عزّ وجل. ولمّا مرض سالوه: ألا نستدعي الطبيب؟ فقال: قد رآني. قالوا: فأي شيء قال؟ قال: قال: ﴿إني فعّال لما أريد﴾. فقد كان إيمانه بالله في الذُرَى، ولذلك زهد الدنيا، يقول: «رأيت الدنيا قد أقبلت، ولمّا تقبل -

وهى جائية، ـ ستتخذون ستور الحرير ونضائد الديباج، وتألفون ضجائع الصوف. والله لئن يقدم أحدكم فيُضرَب عنقه، خيرٌ له من أن يَسبح فى غمْرة الدنيا». فهذا هو الزُّهد الصوفى المُوَرَّث للحزن. وكان أبو بكر من المحزونين والمكروبين والمتحسّرين، يقول: «أين الوُضّاء الحَسَنة وجوههم، والمعجبون بشبابهم، والملوك الذين بنوا المدائن؟ وأين الذين كانوا يحطون الغلبة فى مواطن الحرب؟ لقد تضعضع بهم الدهر فأصبحوا فى ظلمات القبور، فالنجاء النجاء». فالكل قبض ريح، ولا شىء يبقى سوى وجه الله، والنجاء ليس بالاعتزال، ولكنه بالعمل يقول: «فإن استطعتم أن تنقضى الآجال وأنتم فى عمل الله فافعلوا، ولن تستطيعوا ذلك إلا بالله، فسابقوا فى مهل آجالكم قبل أن تنقضى آجالكم». والتصوف سَبْقٌ إلى الخير، وتقديمٌ للغير، يقول: «أوصيكم بالله ـ لفقركم وفاقتكم ـ أن تتّقوه، واعلموا أنكم ما أخلصتم لله فربكم أطعتم، وحقّكم حفظتم، فاعطوا ضرائبكم فى أيام سلفكم، واجعلوها نوافل بين أيديكم» ويقول: «ولا خير فى قول لا يُراد به وجه الله، ولا خير فى مال لايُنفق فى سبيل الله» وأبو بكر من «أهل الله»، وعنده أن كل شىء: من الله، وإلى الله، ولا شىء غير الله.

والبكرية أصحاب هذه الطريقة كثيرون، يُنسَبون إلى أبى بكر، ومنشؤهم جميعاً هذه الدَّوْحة الطاهرة، ومنهم **البكرى الصِّدِّيقى عماد الدين**، المتوفى نحو ٣٨٠ هـ (٩٩٠م) وكان متصّوفاً عالماً، وله المؤلفات الثقات فى التصوف، ومنها: «**الأنوار فى عالم الأسرار**» من مخطوطات دار الكتب المصرية.

ومن البكرية: **أبو المكارم شمس الدين البكرى** (٩٦٠ ـ ٩٤٤هـ)، من علماء المتصّوفين، ومولده ووفاته بمصر، وهو المنعوت بأبيض الوجه، وحيثما أُطلق فى كتب التاريخ أو الطبقات اسم **القطب البكرى**، أو **البكرى الكبير**، أو **سيدى محمد البكرى**، فهو المعنىّ، وله فى التصوف «**الرسائل**»، و«**تُحفة السالك لأشرف المسالك**»، وهو صاحب الحزب المعروف بحزب البكرى.

ومنهم: **أبو المواهب البكرى** (٩٧٤ / ١٠٣٧ هـ ـ ١٥٦٦ / ١٦٢٨م)، وكان فى مبتدئه خليعاً، وله المجالس الماجنة، فلما آلت إليه مشيخة **الطريقة** بعد وفاة أخيه أبى السرور، بانت أصالته، وكشف عن معدنه، وتصدّر للتدريس وإملاء التفسير، وهكذا التصوف يُجلى السرائر، ويبين عن الضمائر، وكانت ولادة أبى

المواهب بالقاهرة المحروسة وبها توفى، وله الشعر الجميل فى الطريقة، جمعه ديواناً أعطاه اسم «ترجمان العوارف وبستان المعارف»، نشره بعد كتابيه عن مرحلته الأولى، الأول باسم «مبتدأ الخلاعة وأنيس الجماعة»، والثانى باسم «سلسال الذهب وعنوان الطرب»، ومع ذلك فالكتابان يمكن تأويل ما جاء بهما واعتبارهما من كتب التصوّف الثقات.

وأما أبو السرور البكرى، الملقب بتاج العارفين (١٠٠٧هـ)، فكان مفتى السلطنة فى مصر، وكان آية فى علم التصوف، وله «تفسير القرآن» ذهب فيه مذهب الصوفية.

* * *

٥٤ - البكرى (مصطفى)...

مصطفى بن كمال الدين بن علىّ، الصدّيقى، الحنفى، الدمشقى، البكرى، (١٠٩٩ ـ ١١٦١ هـ) قال عنه الجبرتى: هو الأستاذ، شيخ الطريقة والحقيقة، وقدوة السالكين، ومربىّ المريدين، المذكور فى منظومة النسبة لسيدى عبد الغنى النابلسى، ونشأته ببيت المقدس، ربّاه شيخه عبد اللطيف الحلبى، وتآليفه تقارب المائتين، وأحزابه وأوراده أكثر من ستين، وأجلها الورد السحرى، وعليه ثلاثة شروح أكبرها فى مجلدين. وقال عنه محمد توفيق البكرى (١٢٨٧ ـ ١٣٥١ هـ)، صاحب التراجم الصوفية: أنه طلب العلم بدمشق وقابل والى مصر ببيت المقدس، فاصطحبه إلى مصر، وأخذ عنه خلق كثيرون، أجلّهم الشيخ محمد الحفنى (الجدّ الأكبر للدكتور الحفنى كاتب هذه الموسوعة). ومن مؤلفاته: «الوصية الجليلة للسالكين طريق الخلوتية»، و«الفتح القدسى»، و«المورد العذب لذوى الورود فى كشف معنى وحدة الوجود»، و«التواصى بالصبر والحق»، و«بلغة المريد»، و«اللمحات فى صلوات بن مشيش»، و«المنهل السائغ لوارده فى ذكر صلوات الطريق وأوراده»، و«فوائد الفرائد»، و«السيوف الحداد فى أعناق أهل الزندقة والإلحاد». وله منظومة مشهورة لرسالة السيوطى فى التصوف التى أوردها رداً على أهل الدعاوى الكاذبة بالولاية، يبدأها بعد الديباجة بهذه الأبيات:

أولها طريقة التصوف
تجريدك القلب لحبّك الوفى
ثم احتقارك السوى مراقبًا
جنابه وغيره مجانبًا

* * *

٥٥ - بلاثيوس (أسين)...

مبجيل أسين بلاثيوس Palacios،

مستشرق أسباني من مواليد سرقسطة (١٨٧١ـ ١٩٤٤م)، وكان أستاذاً للغة العربية بجامعة مدريد، واشتهر بدراساته في التصوّف وفلاسفة الصوفية، وأخصهم الغزالي وابن عربي، وكانت رسالته للدكتوراه عن الغزالي، ونشر البحوث في تأثير الرشدية على الفلسفة اللاهوتية للقديس توما الأكويني، وفلسفة ابن مسرة وتشكيلها للتصوف الإسلامي في الأندلس، ثم تأثيرها على الفكر الأوروبي من خلال روجر بيكون وريموندو لوليو، وقدم سنة ١٩١٩ بحثه الأشهر في «الأخرويات الإسلامية في الكوميديا الإلهية». ودرس ابن عربي دراسة مستفيضة، ونشر فيه بحوثاً في علم النفس عند محيي الدين بن عربي، ونفسانية الوجد الصوفي عند الغزالي وعند محيي الدين بن عربي، وقدّم ترجمة لحياة محيي الدين ابن عربي، ونبّه إلى الخصائص العامة لمذهبه، وكذلك كتب عن الغزالي ونفسية الاعتقاد عنده، ومعاني الأخلاق والزهد في فلسفته، وتصوفه وروحانيته، وترجم في التصوف فصولاً من كتاب الإحياء، ونصوصاً مختارة من كتب ابن عربي: «تحفة السَّفَرة إلى حضرة البررة»، و«الأمر المحكم المربوط فيما يلزم أهل طريق الله من الشروط»، و«التدبيرات الإلهية في إصلاح المملكة الإنسانية»، و«كنه ما لابد للمريد منه»، و«مواقع النجوم ومطالع أهلة الأسرار والعلوم»، و«الأنوار فيما يمنح صاحب الخلوة من الأسرار»، و«الفتوحات المكية»، كما ترجم كتاب «الأخلاق» لابن حزم، وكتابه «الفصل في الملل والأهواء والنحل»، ودراسات في كتابه «طوق الحمامة»، وتابع تأثير الإسلام وفلاسفة المتصوّفين المسلمين في الفكر اللاهوتي المسيحي، ببيان سرقة الراهب الفرانشيسكاني تورميدا لرسائل من إخوان الصفا، وتأثير ابن عبّاد الرندي في يوحنا الصليبي، وتوّج حياته أخيراً بكتابه «تأثيرات الإسلام» (١٩٤١) فجاء كتاباً جامعاً ومن خير ما كتب.

* * *

٥٦ - البناني (عَبْدُ أهل وقته)...

ثابت البنّاني، كان وحبيب، ومالك ابن دينار، ومحمد بن واسع، من جيل واحد، ووفاته احتمالاً سنة ١٢٧ هـ أو ٧٤٤م، وتلاميذه كُثُر، منهم: بكر بن عبد الله، وابن شَوْذَب، والمبارك بن فضالة، وسليمان ابن المغيرة، وعمرو بن محمد بن أبي رُزَين، وحمّاد بن سلمة، وعبد الله بن بجير ابن حمدان القَيْسي، وسلام بن مسكين، ومحمد ابن سليم، وأكثر تلاميذه رواية عنه: جعفر

ابن سليمان، وأسند ثابت عن غير واحد من الصحابة، منهم: ابن عمر، وابن الزبير، وشدّاد، وأنس بن مالك. وأكثر ثابت من الرواية عن أنس، وروى عنه جماعة من التابعين، منهم: عطاء بن أبي رباح، وقتادة، وأيوب، ويونس بن عبيد، وسليمان التيمي، وحميد، وداود بن أبي هند، وعليّ بن زيد بن جوعان، والأعمش، وغيرهم. ومدرسة ثابت في التصوف: هي مدرسة مداومة الخدمة، ويقول البناني في شعار مدرسته: «لايسمى العابد عابداً أبداً وإن كانت فيه كل خصال الخير ما لم تكن فيه هاتان الخصلتان: الصوم والصلاة، لأنهما من لحمه ودمه». وكان ثابت شديد التعبّد بالصلاة والصوم حتى نحل وذبل، فسُمّي المتعبِّد الناحل، وقالوا فيه: «من أراد أن ينظر إلى أعبد أهل زمانه، فلينظر إلى ثابت البنّاني، فما أدركنا الذي هو أعبد منه»، ولذا قيل فيه إنه: عَبْدُ أَهْلِ وقته. وقال فيه أنس بن مالك: إن للخير مفاتيح، وثابت مفتاح من مفاتيح الخير. ومداومته على الصلاة حتى أنه دعا الله أن يصلي حتى وهو في القبر! وكان يصلي قائماً حتى يعيى، فإذا أعيى جلس فيصلي وهو جالس، ويحتبي في قعوده ويقرأ، فإذا أراد أن يسجد وهو جالس فتح حبوته. وظل يقوم الليل خمسين سنة، فإذا كان السحر قال في دعائه: اللهم إنْ كنتَ أعطيتَ أحداً من خَلْقك الصلاة في قبره، فأعطنيها ! ـ والصلاة ليست مجرد هذه الشعيرة التي نعرفها، ولكنه يقصد بها خدمة الله في الأرض. يقول : لو علم الله عزّ وجلّ شيئاً أفضل من الصلاة لما قال : ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ﴾ (آل عمران٣٩). ولمّا مرض عجز عن الصلاة، فقال لأصحابه: يا إخوتاه ! لم أقدر أن أصلي البارحة كما كنت أصلي، ولم أقدر أن أصوم كما كنت أصوم، ولم أقدر أن أنزل إلى أصحابي فأذكر الله عزّ وجلّ كما كنت أذكره معهم ! ثم قال : اللهم إذا حبستني أن أصلي كما أريد، وأصوم كما أريد، وأذكرك كما أريد، فلا تدعني في الدنيا !ـ فمات من وقته رحمه الله.

وطريقة البناني: قوامها قراءة القرآن في يوم وليلة، وصيام الدهر. والبناني بصري، وهو الذي يقول: إن الفقة كوفي، والعبادة بصرية. وعن ابن شَوْذَب قال: ربما مشيت مع ثابت البناني فلا يمر بمسجد إلا دخل فصلى فيه. ـ وقال : ربما مشينا مع ثابت، فإذا عدنا مريضاً بدأ بالمسجد الذي في بيت المريض، فركع فيه، ثم يأتي المريض. وكان يأتي أنس بن مالك، فكلما مرّ بمسجد صلى فيه. وكان يدعو في صلاته ويقول:

يا باعث! يا وارث! لا تدعنى فرداً وأنت خير الوارثين.

وكان ثابت من البكّائين، وكان يبكى حتى تُرى أضلاعه تختلف. وقال جعفر ابن سليمان تلميذه وراويه: بكى ثابت حتى كادت عينه تذهب، فجاءوا برجل يعالجها، فقال: أعالجها على أن تطيعنى! قال: فى أى شىء أطيعك؟ قال: على أن لا تبكى! قال ثابت: فما خَيَّرُهما إن لم تبكيا! - وأبَى أن يُعالج. وقيل لثابت: ليس بعينيك بأس إن لم تُكثر البكاء، فقال: فما أرجو بعينىّ؟! وقال له الطبيب: اضمن لى خصلة تبرأ عيناك. فقال: وما هى؟ قال: لا تبك. قال: وما الخير فى عين لاتبكى؟! - وقال له أنس ابن مالك: ما أشبه عينيك بعينىّ رسول الله ﷺ! فما زال يبكى حتى عمشت عيناه، فسمّوه الأعمش. فلما ذهب يزور مكة ورأوه يتعبّد قالوا فيه: ما رأينا أحداً أشدّ حبّا لربّه عزّ وجلّ من هذا الأعمش!- وقيل: قرأ ثابت فى وصفه تعالى للنار: ﴿تَطَّلِعُ عَلَى الأَفْئِدَةِ﴾ (الهمزة ٧)، فبكى وأبكى مَن حوله. وكان يقول: إنى لأعلم حين يذكرنى ربىّ وحين يستجيب لى! ففزعوا من ذلك. فقال: إذا ذكرته يذكرنى، وإذا وَجَل قلبى، واقشعرّ جلدى، وفاضت عيناى، وفُتح لى فى الدعاء، فشمّ أعلم أنْ قد استُجيب لى. ويقول: بلغنا أن العبد المؤمن يُوقَف يوم القيامة بين يدىّ الله عزّ وجلّ فيقول الله له: ياعبدى! أكنتَ تعبدنى فيمن يعبدنى؟ فيقول العبد: نعم ياربّ! فيقول الله له: أكنتَ تدعونى فيمن يدعونى؟ فيقول: ياربّ نعم! فيقول الله تعالى: وعزّتى ما ذكرتنى فى موطن قطّ إلا ذكرتك فيه، ولا دعوتنى بدعوة قطّ إلا استجبتها لك. ثم يقول ثابت: قال رسول الله ﷺ «إن العبد المسلم لا تُرَدّ له دعوة، إما أنْ تُعجّل له فى الدنيا، وإما أنْ تُدّخر له فى الآخرة، وإما أنْ يُكفَّر عنه بها خطاياه».

وكان البنانى يُكثر من ذكر الموت والقبور وملَك الموت، ومن أقواله فى ذلك: «ما أكثر أحد ذكر الموت إلا رؤى ذلك فى عمله». ويقول: «طوبى لمن ذكر ساعة الموت».

وتُشكّل النية ركناً رئيساً فى فلسفة البنانى، وهو يقول: «نية المؤمن أبلغ من عمله». ويقول: «إن مسلماً يقوم الليل، ويصوم النهار، ويُخرج من ماله فلا تطاوعه نفسه على ذلك، فنيّته أبلغ من عمله».

والبنانى على السُّنّة، ولذلك فقد تزوّج وأنجب. ويُروى عنه أنه لمّا تزوج امرأته التى أنجب منها ابنه محمد، حمله أصحابه على أكتافهم إلى زوجه، فقد كان هيكلاً

عظمياً.. وكان كلما ذهب يزور أنس ابن مالك تَطيّبَ أنس لزيارته، فقد كان البنانى يأبى إلا أن يقبّل يديه لأنهما مسّتا يدىّ رسول الله ﷺ. ويبدو أن جيل البنانى فى نحو النصف الأول من القرن الثانى الهجرى كان كثير الاطّلاع على التوراة والأناجيل، ولذا كان البنانى يكثر النقل من المزامير بالذات، ويروى دعوات من دعوات داود، وله دعوات يستلهمها القرآن كهذا الدعاء ذكَرته به الآية: ﴿غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ﴾ (غافر٣)، قال: «يا غافر الذنب اغفر لى، يا قابل التوب اقبل توبتى، يا شديد العقاب اعفُ عن عقابى».

* * *

٥٧ - البنورى (أبو عبدالله)...

أبو عبد الله مُعزّ الدين آدم بن إسماعيل البنّورى، من خلفاء أحمد السهرندى، وله فى التصوّف «نكات الأسرار»، يتناول فيه بعض المسائل الصوفية ورياضاته ومجاهداته الروحية، وبعض التراجم الصوفية، و«خلاصة المعارف» فى مجلدين، وموضوعاته صوفية خالصة كالكتاب السابق، وله تفسير صوفى للفاتحة.

وكان ميلاد البنورى فى بنور من البنجاب نحو سنة ١٠٠٥هـ، وتوفى فى المدينة سنة ١٠٥٣هـ، وكان مريدوه فى حياته نحو الأربعمائة ألف! ومبادؤه فى طريقته بسيطة، وتقوم على التزام الشريعة، والاقتداء بالسلف، والزهد فى الدنيا، واحتقار المناصب، والتعفف عن ذوى السلطان.

* * *

٥٨ - بهتائى...

شاه عبد اللطيف بهتائى (١١١٣-١١٧٦هـ)، شاعر باكستانى من بيت دين، من ميتارى، وشعره صوفى، وله ديوان «الرسالة»، قصائده فيه تتناول القصص الريفى، وتعرضه بأسلوب فلسفى دينى، وموضوعاته من مثل الحب العذرى، والمحب العاشق من طرف واحد، أو الذى لا يجد لحبّه وإخلاصه ما يكافئه، والحاجة فى الحب للاعتصام بالله والتعيّن بقَدره، وطلب رحمته والأمل فى رضوانه، وتفويضه فيما يتجرّعه المحب من آلام، وما يحتمله من عذابات، ولعل هذه النغمة الصوفية التى تسرى فى شعر بهتائى، والإيمان الذى يكشف عنه بفلسفته، ومسرى قصصه وخواتيمها، وقوله بالقدر، ذلك كله هو ما يشدّ إلى سماعه

عامة الناس والفلاحين البسطاء. وأبطاله من الفقراء دائماً والمسحوقين والمضطهدين، وشخصياته يرسمها لأفراد يستشعرون الكرامة ويؤمنون بالقيم رغم الحاجة الشديدة التى يعيشون فيها. والأوزان التى يستخدمها بهتانى مما يصلح للتلحين والغناء، ولذلك فإن الكثير من قصائده يتغنّى الناس بها وينشدونها فى مجالسهم ويعقدون لها الندوات، والكثير منها مما يشتاق لسماعه الأطفال.

* * *

٥٩ - البوصيرى (صاحب البردة)...

محمد بن سعيد بن حمّاد بن الصنهاجى (٦٠٨ـ ٦٩٦هـ)، ونسبته إلى بوصير بمصر التى نشأ بها، وأحياناً يقال له الدلاصيرى نسبةً إلى دلاص حيث مولده، ويشتهر بقصيدته البُردة، وكان قد أصابه الفالج فقطع على نفسه عهداً لئن شفاه الله أن ينظم قصيدة فى مدح الرسول عليه الصلاة والسلام «خير البرية»، ولذلك سميت قصيدته «الكواكب الدُّرّية فى مدح خير البرية»، وكان قد بدأ فى نظمها أثناء مرضه، فلما انتهى منها رأى فى المنام رسول الله يمر بيده الكريمة على جسمه كله فبرأ، ولذلك سميت القصيدة أيضاً باسم: البرأة، وقد جازاه الرسول ﷺ بأن خلع عليه بُردته، ولذا سميت كذلك: بالبردة. ويبدو أنه قد نظمها وفى باله قصيدة الشاعر الصوفى المصرى ابن الفارض، والتى يقول فيها:

هل نار ليلى بدت ليلاً بذى سَلَمِ
أم بارق لاح فى الزوراء بالعلم

ويقوم تصوّف البوصيرى على محبة الرسول ﷺ، وفى أغلب شعره الدينى يتصدّى بالردّ على منكرى نبوة النبىّ من غير المسلمين، ويشيد بالقرآن وإعجازه، ويدعو إلى الزهد، ومخالفة النفس، والندم، والاستغفار، ولما ذاع صيت البردة، صار الصوفية ينشدونها فى مجالسهم، وصارت تُنشد فى الاحتفالات الدينية، تشفّعاً بالنبىّ ﷺ، وطلباً لتفريج كربتهم، باعتبار شهرتها أنها «قصيدة الشدائد». وكانت هناك الكثير من المعارضات لها، وتقليدها، وتُرجمت إلى اللغات الأجنبية. وأقام البوصيرى فى آخر حياته بالإسكندرية، وكان من أصحاب أبى العباس المرسى، وتلقّى عنه علم الحقائق والأسرار، ولما مات دفن فى قبره الذى شيد عليه مسجده المعروف باسم مسجد البوصيرى.

وإن المرء ليحار فى قصيدة أحمد

شوقي: «نَهْج البُرْدَة»، التي عارض بها قصيدة البوصيري: «البردة»، ونَهْج البردة أروع، ومحبة الرسول ﷺ فيها أظهر، وثقافة الشاعر الإسلامية أوضح. ولا أحسب أن أحدًا استطاع أن يمدح النبيّ ﷺ قبل كعب بن زهير بأفضل من بيته المشهور:

إن الرسول لنورٌ يُستضاءُ به
مهندٌ من سيوف الله مسلول

إلا البوصيري من بعد ذلك، حين قال:

محمد سيّد الكونين والثَّقلين
والفريقين من عُرْب ومن عَجَم

نبيُّنا الآمر الناهي فلا أحدٌ
أبرُّ في قولٍ لا، منه، ولا نَعَم

وميزة البوصيري على كعب: أن البوصيري صوفي، ولذلك وصف النبيّ ﷺ بما يحبّه الصوفية في نبيّهم:

هو الحبيبُ الذي تُرجَى شفاعتُه
لكلّ هَوْلٍ من الأهوالِ مُقتَحَم

دعا إلى الله فالمستمسكون به
مُستمسكون بحبلٍ غيرِ مُنفَصِم

فاقَ النبيين في خَلْق وفي خُلُق
ولم يُدانوه في عِلمٍ ولا كرم

وكلُّهم من رسول الله ملتمسٌ
غَرْفاً من البحرِ أو رَشْفاً من الدِّيَم

فهو سيد الخلق جميعاً والعرب والعجم، وهو الحبيب المرجوة شفاعته:

فهو الذي تمّ معناه وصورته
ثم اصطفاه حبيباً بارئُ النَّسَم

منزهٌ عن شريك في محاسنه
فجوهرُ الحُسن فيه غيرُ مُنقسِم

دَعْ ما ادّعته النصارى في نبيّهم
واحكُم بما شئتَ مدحاً فيه واحتَكِم

والنصارى ادّعت لرسولهم أنه إله، وهي دعوة لا تقبلها فطرة:

وانسُبْ إلى ذاته ما شئتَ من شَرَف
وانسُبْ إلى قَدْره ما شئتَ من عِظَم

فإنّ فَضْلَ رسولِ الله ليس له
حدٌّ فيُعرِبُ عنه ناطقٌ بِفَم

والخطاب في هذين البيتين لكل مسلم أن يقول مايشاء في مدح النبيّ ﷺ. ويلتفت الشاعر إلى الرسالة النبوية فينبّه إلى وضوحها:

كالشَّمسِ تَظهرُ للعينين من بُعد
صغيرةً وتُكِلُّ الطَّرفَ من أمَم

ثم يلتفت إلى خُلقه، ويتناول ميلاده ومعجزاته، ويستجير به من الضرر والضيم، ويقول: أن الرؤيا به في المنام حقّ، وأن سُنته باقية أبد الدهر، وأن القرآن الذي نزل به كان هداية للعالمين، ومرشداً إلى حقيقة الإيمان عبر الدهور،

فمن آمن به نجا، ومن كفر به كبا وخسر، ومن حفظه تطهّر به من ذنوبه وأنار قلبه، وآياته دستور سماوي، وأكبر هذه الآيات كان الإسراء والمعراج، ثم يقول:

كفاكَ بالعلمِ في الأُمّيّ معجزةً
في الجاهليةِ والتأديبِ في اليُتُمِ

ويتوسل إليه ويناجيه:

يا أكرمَ الرُّسْلِ مالي مَن ألوذ به
سواكَ عند حلولِ الحادثِ العَمَمِ
ولن يَضيقَ رسولَ الله جاهُكَ بي
إذا الكريم تحلّى باسم مُنتَقِمِ
فإنّ من جُودِكَ الدُّنيا وضَرّتَها
ومن عُلومِكَ عِلمُ اللَّوحِ والقَلَمِ

ويعني أنه وهو المختص بالشفاعة لن يضيق به يوم القيامة ، ويقول:

يا نَفْسُ لا تقنطي من زلّة عَظُمتْ
إن الكبائرَ في الغُفرانِ كاللَّمَمِ

* * *

وأما شوقي فمجاله أوسع من البوصيري، وفي الهمزية يخاطب النبيّ ﷺ :

داءُ الجماعة من أرسطاليس لم
يوصف له ـ حتى أتيت ـ دواء
فرسمت بعدك للعباد حكومة
لاسوقة فيها ولا أمراء

فمحمد ﷺ هو الأروع والأفضل، وحكومته هي الحكومة:

بُنيت على التوحيد وهو حقيقةٌ
نادى بها سقراط والقُدماء

ويمهد لمدحه باعتذاره عن نفسه في أبيات هي في الذُرى:

إنْ جلّ ذنبي عن الغفران لي أملٌ
في الله يجعلني في خيرِ مُعتصِمِ
ألقى رجائي إذا عزّ المجيرُ على
مفرِّج الكَرْب في الدارين والغَمَمِ
إذا خفضتُ جَناحَ الذُّلِ أسألهُ
عزّ الشفاعة لم أسأل سوى أمَمِ

ويقول:

وإن تقدّم ذو تقوى بصالحة
قدّمتُ بين يديه عبرة النَّدَمِ
لزمتُ بابَ الأنبياء ومَن
يُمسك بمفتاح بابِ الله يَغتنم

ويقول:

محمدٌ صفوة الباري ورحمتُه
وبُغية الله من خَلقٍ ومن نَسَمِ
وصاحبُ الحَوْض يومَ الرُّسْلُ سائلة
متى الورود وجبريل الأمين ظَمِي

ثم إن شوقي يسرد ملامح النبوة،

ويعدّد معجزاته ودلائل نبوته، ويقول:

ونوديَ اقرأ تعالى الله قائلُها
لم تتصل قبل من قبلت له بِفَمِ

هناك أُذّن للرحمنِ فامتلأتْ
أسماعُ مكة من قُدسية النَّغَمِ

ويثنّى بالكلام على القرآن وأحكامه، ولفظه وعباراته، وما أوتى محمد ﷺ من بلاغة وفصاحة وبيان:

جاءَ النبيون بالآيات فانصرمتْ
وجئتَنا بحُكم غيرِ مُنصَرِمِ

آياتُه كلما طال المدى جُدُدٌ
يُزينهن جلالُ العتق والقِدَمِ

يكاد في لفظة منه مشرفة
يوصيك بالحقّ والتقوى وبالرَّحم

يا أنصح الناطقين الضاد قاطبة
حديثك الشهد عند الذائق الفهم

حليت من عطل جيد البيان به
في كل منثر من حُسن منتظم

بكل قولٍ كريم أنت قائله
تحيي القلوب وتحيي ميت الهمم

ويتحدث عن مولده وقد جاء والناس في فوضى فكرية:

أتيتَ والناسُ فوضَى لا تمرُّ بهم
إلا على صَنَمٍ قد هامَ في صَنَمِ

والأرضُ مملوءةٌ جوْراً مُسَخَّرة
لكلّ طاغية في الخلق مُحتكم

ويتناول الإسراء والمعراج، ويتعرض للهجرة النبوية، ويصف الرسول ﷺ وكَرَمَ الله له باليُتم، ويبلغ حدّ الروعة، فيقارنه بعيسى:

أخوك عيسى دعا ميتاً فقام له
وأنت أحييت أجيالاً من الرمم

والجهل موت، فإن أوتيت معجزة
فابعث من الجهل أو فابعث من الرجم

ويدفع عنه شبهات المستشرقين فيقول:

قالوا غزوتَ ورسلُ الله ما بُعثوا
لقتل نفس ولا جاءوا لسفك دم

جهلٌ وتضليلُ أحلام وسفسطة
فتحتَ بالسيف بعد الفتح بالقلم

لما أتى لك عفوا كلُّ ذي حسب
تكفّل السيفُ بالجهّال والعمم

والشر إن تلقه بالخير ضقتَ به
ذَرعاً وإن تلقه بالشر ينحسم

سَل المسيحية الغرّاء كم شربت
بالصاب من شهوات الظالم الغَلِم

طريدةً الشرك يؤذيها ويوسعُها
في كل حين قتالاً ساطع الحدم

لولا حُماةٌ لها هبّوا لنُصرتها
بالسيف ما انتفعت بالرفق والرحم

ويتناول أفضال الرسول ﷺ فيقول:

علّمتهم كلَّ شئ يجهلون به
حتى القتال وما فيه من الذمَم
دعوتَهم لجهاد فيه سؤددُهم
والحربُ أسُّ نظام الكون والأمَم

ويستطرد إلى ما أتى به من شريعة وعلم، مدارهما التوحيد جوهرِ الإسلام:

شريعةٌ لك فجّرتَ العقول بها
عن زاخرٍ بصنوف العلم مُلتطِم
يلوح حول سنا التوحيد جوهرُها
كالحَلْيِ للسيف أو كالوشْيِ للعَلَم

ثم يتحدث عن الخلفاء وآثارهم، وينهى شوقى قصيدته بالصلاة والسلام على رسول الله وعلى خلفائه، ويقول فى الختام:

ياربِّ هبّت شعوبٌ من مَنِيّتها
واستيقظتْ أممٌ من رَقدة العَدَم
سعدٌ ونحسٌ ومُلكٌ أنت مالكُه
تدويل من نِعَم فيه ومن نِقَم
رأى قضاؤك فينا رأي حكمته
أكرِم بوجهك من قاضٍ ومنتقم

ويدعو الدعاء الأخير:

فالطُفْ لأجل رسول العالمين بنا
ولا تُزد قومه خَسْفاً ولا تَبِم
ياربِّ أحسنتَ بدْءَ المسلمين به
فتمِّم الفضْلَ وامنحْ حُسْن مختتم

فهذه هى البُردة للبوصيرى المتصوّف السُّنِّى، كانت قصيدة فى التصوّف بلغت السماكين، وألهمت شوقى قصيدته «نهج البردة»، فجاءت قمة من القمم العوالى، وصرحاً مهيباً جميلاً من صروح التصوّف وستظل كذلك أبد الدهر.

* * *

٦٠ - البونى (أبو العباس)...

أبو العباس أحمد بن علىّ بن يوسف البَوْنى (المتوفى ٦٢٢هـ)، نسبته إلى بَوْنة بالمغرب، وله «شمس المعارف الكبرى»، ويسمى «شمس المعارف ولطائف العوارف» أربعة أجزاء؛ ورسائل «اللّمعة النورانية»؛ و«السُّلك الزاهر»، و«شمس المعارف الوسطى»؛ و «شمس المعارف الصغرى»؛ و«شرح اسم الله الأعظم»؛ و«فَضْل بسم الله الرحمن الرحيم»؛ و «مواقف الغايات فى أسرار الرياضات» وجميعها فى التصوّف وعلم الحروف، ومات البونى بالقاهرة.

* * *

٦١ - بيرام ولى...

حاجى بيرام وَلِى، وطريقته هى البيرامية، وكانت مراكزها فى القرنين الثامن والتاسع الهجريين فى استنبول، وأنقره، وأزمير، وقسطمونى، وتُشتق من الطريقة الخلوتية، بدعوى أن النبىّ

ﷺ، قد عهد إلى أبى بكر بالذكر الخفى، وهو ما تأخذ به الطريقة النقشبندية كذلك، ويبدو أن سبب هذا الاختيار هو الأصول الملامتية التى تقوم عليها الطريقتان. وعندما توفى حاجى بيرام انقسمت الطريقة إلى بيرامية شمسية، وشيخهم أق شمس الدين، وقد أخذ بالذكر الجَلى؛ وبيرامية ملامتية، وشيخُهم عمر دده البورسوى، وهؤلاء اتّبعوا الطريقة الملامتية، وهجروا الذكر والوِرْد وتكاياهم، ولم يعد لهم لباسهم المميز، وفلسفتهم تحريم إظهار التقوى، وأن تكون علاقة العبد بربّه وإخلاصه له فى السرّ، وخافوا أن يكون تعبُّدهم نفاقاً أو للمظهرية فأخفوه عن الناس، وظهروا بمظهر غير المتدينين أو الذين لا اعتبار لهم للدين.

والمبتدئ فى البيرامية يمارس العبادة على أساس توحيد الأفعال، أو فنائها فى فعل الله تعالى، باعتبار أنها جميعاً من عند الله، فليس العبد هو الفاعل، وإنما الفاعل الحقيقى هو الله تعالى، وبعد ذلك تأتى المرحلة التى عليه فيها أن يفهم أن الأفعال هى كشفٌ لصفاته، وكلها صفات لله تعالى، فإذا قام مثلاً بفعل فيه الكرم واتّصف به، فإنما لأن الكريم هو الله، والكرم فعله، ونحن نصفه به ونقدّره له، لأنه من صفات الله وفعله، وتلك مرحلة توحيد الصفات أو فنائها فى صفات الله؛ ثم تأتى المرحلة الأخيرة: وهى التى عليه فيها أن يفهم أن الصفات وقد فنيت فى صفات الله، ولم يعد غير صفات الحقّ التى هى تجلّيات لذاته، فإن الوجود يصبح فى حقيقته واحداً، وكل الأعيان فى الوجود هى أعيان علمية لم توجد إلا لأنها موجودة فى علم الله، وتلك المرحلة هى مرحلة توحيد الذات، أو فناء كل الذوات فى ذات الله تعالى.

والبيرامى يضع على رأسه طاقية من اللّبّاد الأبيض، لها ست جهات ترمز إلى الجهات الست: أعلى وأسفل ويمين ويسار وأمام وخلف، بما يعنى أنه قد صار له علمٌ محيط.

* * *

٦٢ - البيرونى: أبو الريحان...

الفيلسوف المؤرّخ محمد بن أحمد، أبو الريحان، البيرونى، الخوارزمى، من أهل خوارزم، والمتوفى سنة ٤٤٠هـ (١٠٤٨م)، وكان قد أقام فى الهند بضع سنين، واطّلع على فلسفة الهنود، ووعى تصوّفهم، وله التصانيف، منها: 'تاريخ الهند'؛ و'تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة

في العقل أو مرذولة"، وهو أول من نبّه إلى التشابه بين مذاهب الهند في التصوّف ومذاهب الصوفية المسلمين، والتشابه بين العديد من نصوص المتصوّف الهندي بتنجلي، وبين أقوال البسطامي والحلاّج والشبلي. يقول البيروني : وإلى طريقة بتنجلي ذهبت الصوفية في الاشتغال بالحق، فقالوا: ما دُمتَ تشير فلستَ بموحّد، حتى يتولى الحقّ على إشارتك؛ بإفنائها عنك، فلا يبقى مشير ولا إشارة»، ويوجد في كلامهم ما يدل على القول بالاتحاد، كجواب أحدهم عن الحق: «وكيف أتحقق مَن هو أنا بالأنية، ولست أنا بالأنية؟ إنْ عُدتُ فبالعودة فُرّقتُ، وإنْ أُهملتُ فبالإهمال خُفّقتُ، وبالاتحاد أُلّفتُ». وكقول أبي بكر الشبلي: إخلَعْ الكلّ تصل إلينا بالكلية؛ فتكون ولا تكون، إخبارك عنا، وفعلك فعلنا"، وكجواب أبي يزيد البسطامي وقد سُئل: بِمَ نلتَ ما نلتَ؟ قال: إني انسلختُ من نفسي كما تنسلخ الحيّة من جلدها، ثم نظرتُ إلى ذاتي فإذا أنا هو!

وقالوا في قول الله تعالى: ﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا﴾ (البقرة ٧٣)، إن الأمر بقتل الميت لإحياء الميت، إخبارٌ بأن القلب لا يحيا بأنوار المعرفة إلا بإماتة البدن بالاجتهاد، حتى يبقى رسماً لا حقيقة له، وقلبك حقيقة ليس عليه أثر من المرسومات.

وقالوا : إن بين العبد وبين الله ألف مقام من النور والظلمة، وإنما اجتهاد القوم في قطع الظلمة إلى النور، فلما وصلوا إلى مقامات النور لم يكن لهم رجوع.

ويعقد البيروني المقارنات بين كتاب جينا في الاستغراق أو الاشتغال بالفكر، وبين ما قالته الصوفية في العشق: أنه الاستغراق أو الاشتغال بالخَلق عن الحق، وينبّه إلى التشابه بين إرادة الفناء عند الصوفية المسلمين وهذه الإرادة عند الصوفية الهنود، ويروى حكاية صوفي هندي كان يجلس قريباً منه، وقام فصلّى، فلما فرغ التفت وسأله، قال : ياشيخ ! أتعرف ها هنا موضعاً يصلح أن نموت فيه؟ وقال : فظننت أنه يريد النوم فأومأت إلى موضع، فذهب وطرح نفسه فيه على قفاه وسكن. قال : وحرّكته وإذا هو بارد! ـ يعني: مات!

ويقول: إن الصوفية المسلمين عند تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الأَرْضِ﴾ (الكهف ٨٤)، قالوا : إن الصوفي إن شاء طويت له الأرض، وإن شاء مشى على الماء والهواء، وذلك ما يقوله صوفية الهند مما يَرِد في كتاب بتنجل، ويقول: إفراد

الفكرة فى وحدانية الله يشغل المرء بالشعور بشىء غير ما اشتغل به، ومن أراد الله، أراد الخير لكافة الخلق من غير استثناء واحد بسبب، ومن اشتغل بنفسه عمّا سواها لم يضيّع لها نَفَساً مجذوباً ولا مرسلاً. ومن بلغ هذه الغاية غلبت قوته النفسية على قوته البدنية، فمُنح الاقتدار عل ثمانية أشياء، بحصولها يقع الاستغناء؛ وأحد الثمانية: التمكُّن من تلطيف البدن حتى يخفى عن الأعين؛ والثانى: التمكُّن من تخفيفه حتى يستوى عنده وطء الشوك والوحل والتراب؛ والثالث: التمكُّن من تعظيمه حتى يُرَيه فى صورة هائلة عجيبة؛ والرابع: التمكُّن من الإرادات؛ والخامس: التمكّن من عِلم ما يروم؛ والسادس: التمكّن من الترأُّس على أية فرقة طلب؛ والسابع: خضوع المرءوسين وطاعتهم؛ والثامن: انطواء المسافات بينه وبين المقاصد الشاسعة.

ويقول البيرونى: وإلى مثل هذا أشار الصوفية المسلمون فى العارف إذا وصل إلى مقام المعرفة، فإنهم يزعمون أنه يحصل له روحان، قديمة لايجرى عليها تغيُّر واختلاف، وبها يعلم الغيب ويفعل المعجز، وأخرى بشرية للتغيّر والتكوين.

* * *

٦٢- البيومى (صاحب البيومية)...

سيدى علىّ بن حجازى بن محمد البيومى، الشافعى (نحو ١١٠٨ - ١١٨٣هـ)، وطريقته البيومية. وكان البيومى قد حفظ القرآن فى صغره، وتلقّن الخلوتية من السيد حسين الدمرداش العادلى، وسلك بها مدة، ثم أخذ طريق الأحمدية عن جماعة، ثم حصل له جَذْب، ومالت إليه القلوب، وصار للناس فيه اعتقاد عظيم، وصار له أتباع ومريدون، وأقام ذِكراً متميزاً مشى عليه الكثيرون، فيه « يا الله» يقولها الأتباع مع إحناء الرأس وضمّ اليدين على الصدر، ويتبع ذلك رفع الرأس والتصفيق باليدين. وثمة خصيصة أخرى للبيومية، هى مخاطبتها لأفقر الطبقات والعصاة من قُطّاع الطرق، والمُصِرّ منهم على المعصية يربطه بسلاسل الحديد بعامود مسجد الظاهر، حيث كانت تجرى حلقات ذكره، ومن هؤلاء من صار من السالكين وانضم إلى حاشيته، فإذا ركب الشيخ بغلته ساروا خلفه بالأسلحة والعصى، وإذا ورد المشهد الحسينى يغلب عليه الوجد فى الذكر حتى يصير كالوحش النافر فى غاية القوة، فإذا جلس بعد الذِّكر تراه فى غاية الضعف. وكان يلبس قميصاً أبيض، وطاقية بيضاء،

ويعتم عليها بشملة حمراء، لا يزيد على ذلك صيفاً وشتاء. وكان لا يخرج من بيته إلا مرة كل أسبوع لزيارة المشهد الحسينى، وأتباعه حوله يعلنون بالتوحيد والذكر، وربما جلس شهوراً لا يجتمع بأحد من الناس، ولما كان يعقد الذكر بالمشهد الحسينى كلّ ثلاثاء، كانت جماعته يأتون على الحال السابقة ويذكرون فى الصحن إلى الضَّحوة الكبرى، فأنكر العلماء عليه ذلك، واشتكوا من التلوّث فى الجامع من أقدام جماعته، إذ غالبهم كانوا يأتون حفاة، ويرفعون أصواتهم بشدّة، وكاد أن يتم منعهم، لولا أن الشيخ الشبراوى تدخل وانتصر له، بدعوى أن البيومى من كبار العلماء والأولياء فلا ينبغى التعرّض له، وطلب منه أن يعقد درساً بالأزهر وحضره غالب العلماء، فاقتنعوا به، وسكتوا عنه، وخمدت نار الفتنة.

وبنى له الأمير عثمان أغا المسجد المعروف بالحسينية، وسبيلاً، وكُتّاباً، وقُبّة، وبداخلها مدفن، فلما مات صلوا عليه بالأزهر فى مشهد عظيم، ودُفن بالقبر الذى بُنى له بداخل القبة بالمسجد المذكور.

وكان البيومى ذا واردات وفيوضات، ولم يترك خليفة، وله شروح عديدة، منها «شرح الجامع الصغير»، و«الحِكَم العطائية»، و«شرح الإنسان الكامل للجيلى»، وله مؤلَّف فى طريق القوم، خصوصاً فى طريق الخلوتية الدمرداشية، و«شرح الأربعين النووية»، و«رسالة فى الحدود»، و«شرح على الصيغة الأحمدية»، وله كلام عال فى التصوّف.

* * *



٦٤ - التامودزتى (الصوفى المجاهد)...

الحسن بن مبارك بن محمد بن عبد الرحمن، أبو على التامودزتى، كان من فقهاء المالكية من أهل تامودزت من سُوس بالمغرب، وتخرّج نحو سنة ١٢٩٠هـ مُجازاً بالفقة، وقصده الناس للنوازل، وتصوّف، وحجّ، وتنقّل فى البلدان، وكان مع «أحمد الهيبة» الصوفى الكبير، الذى أعلن الجهاد ضد الفرنسيين، فخرج معه وجاهد، وأقام لنفسه زاوية فى بلده، وصنف كُتباً فى التصوّف حتى قيل فيه إنه جُنَيد عصره، فكان مجدُداً فى التصوّف، وملتزماً للسُنّة، وداعياً لها، وطالب الإخوان أن ينقّوا التصوّف من البدع التى أدخلتها فيه الأميّة الدينية، وجهل الناس بدينهم، وبالمقصود من التصوّف، حتى اعتبره الثقات من أعظم الذين تحيّنوا للحقّ، وإن خالفه بعض الصوفية الكبار، وتوفى بقرية إيدغ، فى بلدة أولاد جرّار سنة ١٣١٦ هـ. (١٨٩٨م)، ودفن ببلدته تامودزت.

* * *

٦٥ - التبريزى (المولوى)...

محمد بن علىّ مَلِك داد تبريزى، وشهرته «شمس الدين»، و«الحقّ»، أصله من تبريز، وكان سوّاحاً جوّاباً، التقى بالشاعر الصوفى جلال الدين الرومى فى قونية، فحوّله من مدرّس فقه، إلى صوفى صاحب طريقة من أشهر الطرق الصوفية، هى الطريقة المولوية، نسبةً إلى مولانا جلال الدين الرومى، وفجّر فيه طاقات إبداعية وجدانية، كتب بها ديوان شمس تبريز، وهو قصائد غزلية بلغ عدد أبياتها ٣٥٠٠ بيت، وجاء تأليفه للديوان وتضمينه لاسم التبريزى، بحيث يُظَن أنه هو نفسه المؤلف. وقيل فى تسمية الرومى للتبريزى باسم «شمس»، و«الشمس»، أنه كان آيةً فى صباحة الوجه وحُسن القوام، ودمائة الخلق وبلاغة اللسان، وقد أحبّه الرومى حباً ملك عليه نفسه، وكان مصدر إزعاج لأهله وأولاده وأصحابه. ويحكى الرومى عن لقائهما وكان يستمع إليه مأخوذاً، فسأله لماذا تأخذ نفسك بدراسة الفقه، فأجاب الرومى: لأعرف الشرع، فقال التبريزى: أليس الأجدىّ أن تعرف صاحب الشرع! (وهذه مغالطة إذ كيف أعرف صاحب الشرع إن لم أعرف لأى

شيء يشرّع، ولماذا يشرّع، وما الذي يشرّع له ؟) يقول: إن العلم إن لم يجرّدك من نفسك فالجهل خير منه. ولزمه الرومي لا يبرحه، حتى أنه حبس نفسه معه في حجرة واحدة أربعين يوماً، (وهذا شذوذ صريح)، وقيل: سرّت فيه منه روح التصوف، فاعتزل التدريس وانخرط في الطريقة، وحدثت بين التبريزي وأهل الرومي وأصحابه مغاضبات، وتركهم مرة وسافر إلى الشام، وأرسل الرومي ابنه وراءه ليعيده، ومعه رسالة يُنشده فيها:

أنت كالشمس إذا دنت ونأت

يا قريباً إلينا تعال

ولما عاد التبريزي كانت فرحة كبرى للرومي، وزوّجه من إحدى بنات الأسرة ليُخرص الألسن ويمنع القيل والقيل، لأن الناس كانوا يظنون أن العلاقة التي بينهما علاقة لواط، ومع أنه زوّجه من امرأة، إلا أن المضايقات عادت، فغادرهم التبريزي هذه المرة إلى غير رجعة. (وقد تبيّن بعد الزواج أن التبريزي شاذ فعلاً، وفضحه الزواج، فلم يكن قد قَرُب المرأة، وكان جلال لوطياً والتبريزي مأبوناً). ويُذكر أن الرومي بدأ مجالس السماع بعد رحيله متعزّياً بها عنه. وكان التبريزي يلبس ملابس الدراويش، ونسبوا إليه قصيدة سعدي الشيرازي: «سوك نامه»، التي يتأسّى فيها على سقوط الخلافة الإسلامية على يد التتار، ويقول فيها: إن السماء لتنزف دماً على ما أصاب الأرض من مصيبة حلّت بأولاد المصطفى، وهي سقوط دولة الإسلام، ويناشد النبيّ ﷺ أن يولي المسلمين نظرة، فقد اشتدت بهم الضائقة وعمّ البلاء. ويبدو أن هذه المصائب التي كانت تنزل بالجملة بالمسلمين في وقته، وما عرفه عن الناس من نفاق، هما اللذان باعدا بينه وبين الحياة ودفعاه إلى الانزواء. ومن أقواله: «الناس اعتادوا النفاق، والتعامل معهم يقتضي أن تكون مثلهم وتلتزم سلوكهم، وإلا فالأولى بك أن تهرب منهم إلى الصحراء أو إلى الجبال». ويقول: «إن سرّ البقاء سعيداً مع الناس هو أن تشايعهم على النفاق». ويقول: «الدنيا ليست خيراً في ذاتها أو شراً في ذاته، والإنسان هو الذي يجعل منها خيراً أو شراً».

ويقول في محيي الدين بن عربي: كان ابن عربي مُعيناً ومؤنساً ولكنه لم يتّبع الشريعة، وجعل من نفسه متبوعاً.

ويقول عن الحلاّج: إنه لم يكن مبصراً تماماً لنور الكمال، ولم يظهر له النور والجمال في تمامهما، وإلا فكيف يقول «أنا الحق»؟.

ويقول عن البسطامي: إنه لم يكن عنده اطلاع، وإلا فكيف يتسبجّع قائلاً أنا ! ويقول: «الدنيا على أحوال شتى لا يمكن معها إصلاح الفاسد وإحلال الصالح محل الفاسد، وقد يحدث العكس فإن الفاسد قد يتبدل بالأفسد».

وأدرك التبريزى عصر الرازى، وعندما توفى كان هو فى السادسة والعشرين. ومن مأثوراته: المشكلة تحدث منك، والتتار فيك وهم غضبك، والمؤمن لا يحتار، والكافر مشكور لأنه لا ينافق،ويقولها صراحة أنا عدوكم. والمنافق أخطر من الكافر، وعبادة الحق هى أن تتخلص من عبادتك لنفسك، والناس من منبع واحد فلماذا هذا الاختلاف؟.

ويُروَى عن التبريزى: أنه كان يلبس عمامة سوداء يسمونها كَلاه، وأطلقوا عليه اسم برنده، أى الطيار ،لكثرة سياحاته، وقالوا عنه إنه سلطان العاشقين. وفى الطريقة المولوية: هناك طبقة من الواصلين جديدة تماماً فى التصوّف، أطلقوا عليها طبقة العاشقين الواصلين، لها نفس درجة الأولياء الكاملين، وهى الأسمى من مقام المعشوقين. وقيل: إن هذه الفضيحة التى موضوعها العشق واللواط بين شمس تبريزى وجلال الدين الرومى، قد دفعت ابن جلال، المدعو علاء الدين ، إلى أن يقتل التبريزى، وكتموا الأمر عن جلال بدعوى أن شمساً قد رحل، ويبدو أنهم اكتشفوا أخيراً فى قونية البئر التى أخفى فيه علاء الدين جثمان شمس، وعثروا فيه على بقاياه. ويبدو أن «سلطان ولد» ـ الابن الأكبر لجلال الدين الرومى ـ كان يعرف بمقتل التبريزى، رغم تظاهره بالبحث عنه فى دمشق وغيرها، وكانت هذه المعرفة تشكّل هَمّاً يجثم على قلبه، فصار يحب السماع ويرهف السمع للموسيقى أكثر، وشعر أن شمساً المفقود يَمثُل فى نفسه، ووصف حالته النفسية فى أبيات مؤثرة فى ديوانه: «ولد نامه»، ليس هنا مكان نشرها لأنها ليست من التصوّف فى شىء.

* * *

٦٦- التجانى (أبو العباس)...

صاحب الطريقة التجانية، والبعض يكتبها التيجانية: أبو العباس أحمد ابن محمد بن المختار بن سالم التجانى، أو التيجانى (١١٥٠ ـ ١٢٣٠ هـ)، واسم التجانى (بكسر التاء) من الأسماء المألوفة فى المغرب، والتجانية ارتبطت طريقتهم بحوادث سياسية مؤسفة، فقد كان ظهورهم أثناء مقاومة الأمير عبد القادر للاحتلال الفرنسى، ولما زاد أتباعهم،

حـاول الأميـر أن يستـميلهم إلى قـوانه، ولـكـن التـجـانى رفض بدعـوى عـدم الاشتغال بالسياسة، وأنهم قوم يعبدون الله ولا دخل لهم بما يجرى من حوادث وطنية أو غير وطنية، وظل ذلك دأبهم حتى بعد وفاة مؤسس الطريقة.

والتجانى من قرية عين ماضى، وظلت هذه القرية معـقلاً للتجانيـة بعد إجلائهم عن فـاس، وحاصرهم الأمير عبد القادر ثمانية أشـهر حتى ذاع صيتهم، واكـتـبوا تأييد العامة وعطف الفرنسيين عليهم، ولما قتل محمـد الكبير ابن التجانى، انسحبوا إلـى الأغـــواط، وقـيل إنهم ساعـدوا الفرنسيين على عبد القادر.

والتجانية من فروع الطريقة الخلوتيـة، وقد بدأ التجانى قـادرياً، ثم طيبياً، ثم خلوتياً. ومات أبواه بالطاعون وهو بعد فى السادسـة عشـرة، فرحل إلى فـاس، وتلمسـان، ومكة، والمدينة، يلتقى بالشيوخ ويأخذ عنهم، ثم توجه إلى القاهرة وفيها التقى بصديق يدعى محمود الكردى، أشار عليه بأن تكون له طريقـته فى بلده، ومن ثم سافـر إلى فاس، وانقطـع للتعـبّد فى واحة بالصحراء اسمها بوسـمـعون، ورأى رؤيا أن النبىّ ﷺ يكلفه بالدعوة، فعاد إلى فـاس واتخذها مقراً له، وفيها مات ودفن بالزاوية الخاصة بالتجانية، وقبره مزار لأتباع الطريقة.

ولا تختلف شعائر التـجانية كثيراً عن شعائر الخلوتية، والأتباع يسمون الأحباب، ومن مشايخهم على بن عـيسى، ومحـمد الحافظ بن مختار الملقب بالبَدّى، وهو الذى نشر الدعوة بالصـحراء؛ وينتشر التـجانية شرقـاً وغرباً، إلا أنهم غالـباً فى إفريقـية الشرقـية، وحلّت طريقـتهم فـيهـا محل القـادرية أينما وُجـدت. وأهم المصنّفات التى تجـمع مذهبهـم وريـاضاتهم كـتاب: «جـواهر المعـانى وبلوغ الأمـانى فى فـيض الشيخ التجانى» وهو المعروف كذلك باسم الكُنّاشى، ويقال إن هذا المصنف من إملاء منشئ الـطريقـة، وهو أهم مـــرجع عن سيرته. وهنـاك معجم: «كشف الحجاب عـمّن تلقى مع التـجـانى من الأصـحـاب»، صنّفه أبو العباس أحمد ابن أحمد العياشى.

ومن التجـانية أحمد بن بابا بن عـثمان الشنقـيطى، الـعـلـوى (المتـوفى بعـد ١٢٦٠هـ)، ولد وتـعلم بشنقيط، ولـه «نَظْم مُنيـة المريد» فى التـصّـوف على الطريقة.

ويقول أحمد التجانى عن نفسه : إن روحـه ﷺ، تمدّ الرسل والأنبـيـاء، وتمدّ الأقطاب والعـارفيـن، من الأزل إلى الأبد.

وإذا جمع الله تعالى خلقه فى الموقف، ينادى مناد بأعلى صوته، يسمعه كل من فى الموقف: يا أهل المحشر ! هذا إمامكم ـ أى التجانى ـ الذى كان مددكم منه، فكل ما فاض من ذوات الأنبياء تتلقاه ذاتى ـ أى التجانى ، ومنى يتفرّق على جميع الخلائق!!!

ويصفه تابع له بقوله : إذا توجّه أغنى وأقنى! وقال آخر: لا يتلقن واحدٌ من الأولياء فيضاً من حضرة نبىّ إلا بواسطته!! وآخر بقوله : نفوذ بصيرته الربّانية التى ظهر مقتضاها من إظهار مضمرات، وإخبار بمغيبات، وعلم بعواقب الحاجات وما يترتبّ عليها من المصالح والآفات»!

ونَعْتُ التجانى لنفسه بأنه يُغنى ويُقنى، ويعلم الغيب، هو نَعْتٌ من نعوت الله : ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ﴾ (النجم٤٨)، ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا * إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا﴾ (الجن٢٦/ ٢٧)، وصفات الإلهية والربّانية لا يوصف بها البشر، وقوله هذا يخرجه من دائرة الإسلام.

* * *

٦٧ - الترمذى (الحكيم)...

أبو عبد اللّه محمد بن علىّ الحكيم التِّرمذى (نحو ٢٠٥ ـ ٣٢٠هـ)، من أهل ترمذ، وأبوه هو أبو علىّ التِّرمذى، المحدّث المشهور، له التصانيف الكثيرة، وطريقته تسمى الحكيمية، والترمذية أيضاً: وتقوم على اعتبار الولاية هى الأساس، ويعدّها الترمذى قاعدة للطريقة، وبينما ينظر مشايخ التصّوف إلى الولاية كرتبة ومصدر للعرفان، فإنه يجعلها حقيقة الطريقة، ويقول: «لله تعالى أولياء اصطفاهم من بين الخلق، وقد انقطعت همّتهم عن المتعلّقات، وتنصّلوا من قبول دعاوى النفس والهوى، وأقام كلاً على درجة، وفتح عليهم باباً من المعانى». وقد قاطعه أهل ترمذ بسبب آرائه فى الولاية، وكتابه فيها: «ختم الولاية وعلل الشريعة»، ولمّا خالفهم وفضّل الولاية على النبوة، وشهدوا عليه بالكفر، ونفوه من بلدهم، فهو أول صوفى يُنفَى لآرائه، ودخل بَلْخ محمولاً وهو فى التسعين من عمره !! وقبله أهلها لموافقة رأيه لعموم آرائهم، وكان يقول: «للأولياء خاتم كما أن للأنبياء خاتم». واجتمع عليه أهلها ـ أهل بَلْخ ـ وكثر أشياعه.

والترمذى صحب الجلاّء، والقصّار، وابن خَضْرويه، ولقى النخشبى؛ ومن كتبه: «نوادر الأصول فى أحاديث الرسول»، و«الفروق» وفى هذا الكتاب الأخير يتناول

الفروق بين موضوعات كالمداراة والمداهنة، والمحاجة والمجادلة، والمناظرة والمغالبة، والانتصار والانتقام، والصدر والقلب، والفؤاد واللب، والعقل والهوى، إلى غير ذلك من الفروق.

ومن أقواله فى الولاية كركن ركين لطريقته: «أن إنكار الآيات للأولياء إنما يكون فى قلوب الجُهّال وحدهم، من ضيق صدورهم عن المصادر، وبُعد علومهم عن موارد الحكمة والقدرة، وأن الوليّ دائماً فى ستر حاله، غير أن الكون كله ينطق عن ولايته، بينما المدّعى ينطق بالولاية والكون كله ينكر عليه».

ويعتبر الترمذى الاستهانة بالأولياء من قلّة المعرفة بالله، وأنه من المستحيل أن يصل العابد إلى مقام الولاية وهو غير المُحترِم لأهلها، وأن قلة الاحترام هذه من شأنها أن تحرمه بركات المقام.

والترمذى فى تآليفه يقول إنه لا يكتب حرفاً عن تدبير، ولا لِيُنسب إليه شئ منه، وإنما كلما اشتد عليه وقته، فإنه يكتب للتسلية، والناس فى الاستماع إليه أو الاستماع إلى الحكمة رجلان: أحدهما عاقل يتعجّب لما يسمع ويشتهى ما يسمع؛ والآخر عامل يتقلّب مما يسمع، وكأن قلبه منه صار حيّة تتلوى. والصلاح الذى يرجوه للناس هو خمسة أصناف، ورجاؤه لهم فى خمسة مواطن: فصلاح الصبيان يكون فى إلحاقهم بالكُتّاب؛ وصلاح قُطّاع الطرق يكون فى السجن؛ وصلاح النساء يكون بأن يَقْرِنَ فى بيوتهن، وصلاح الفتيان فى التعلم والأخذ بالعلم؛ وصلاح الكهول بأن يؤمّوا المساجد ويُعمروها.

ويقول الترمذى: إن المؤمن بِشْرُه فى وجهه، وحزنه فى قلبه؛ ولكن المنافق حزنه فى وجهه وبشره فى قلبه. والمنافق أخطر من الكافر.

وينصح الترمذى مريديه لذلك: بأن يجعلوا مراقبتهم لمن لا يغيب نظره عنهم، وشُكرهم لمن لا تنقطع نعمه عليهم، وخضوعهم لمن لا يخرجون عن مُلكه وسلطانه. ويقول لمريديه: إن حقيقة محبة الله فى دوام الأُنس بذكره: والعاقل من اتقى ربّه وحاسب نفسه. وليست مخالفة الله، وترك المواظبة على ذكر القلب لله، إلا بسبب اعوجاج الباطن. والقلب والوقت هما رأس مال المريد، فلو شغل قلبه بهواجس الظنون، وضيّع وقته بالاشتغال بما لا يعنيه، فإنه يخسر رأس المال، والخاسر لرأس ماله متى يكون إذن رابحاً ؟

ولا يُعرف تاريخ وفاة الترمذى

بالضبط، ولكنه قيل نحو ٣٢٠ هـ، وقيل: كانت وفاته سنة ٣٥٤هـ/ ٩٦٥م.

* * *

٦٨- التستري (سهل)...

أبو محمد سهل بن عبد الله التُّسْتُرِي، المتوفى سنة ٢٨٣هـ/ ٨٩٦م، ونسبته إلى تُسْتُر من خوزستان، وهي التي سُمِّيَت مناشدّة ورع أهلها: دار المؤمنين، سكن البصرة وعبادان، وله «تفسير القرآن العظيم» في مائتي صفحة لاغير، فقد جعله تفسيراً صوفياً لم يأت مُرضياً، وطريقته تسمى السهلية - كما يقول الهجويري في كشف المحجوب، وأساسها: المجاهدة، ورياضة النفس، ومراقبتها ومخالفتها، كسبيل للخلاص والنجاة والوصول. وكان سهل يعيش على الشعير، يشترى منه بدرهم فيطحنه ويُخبَز له، ويفطر منه عند السَّحَر كلّ ليلة على أوقية واحدة، بغير ملح ولا إدام، وكان الدرهم يكفيه سنة!! ثم عزم على أن يطوى ثلاث ليال ثم يفطر ليلة، ثم خمساً، ثم سبعاً، ثم خمساً وعشرين ليلة!! واستمر على ذلك عشرين سنة في ابتدائه !! وكان يقوم الليل كله!! (كيف ؟ شيء لا يُصدّق؟ ومن أين تأتيه القوة والطاقة إن لم يأكل ولم ينم؟!!)

ويروى سهل أصل تصوّفه وطريقته فيقول: **إنه وعى على الحياة** - وهو بعد طفل ابن ثلاث سنوات، يرى خاله محمد بن سوار يقوم بالليل، فيظل يرقبه، فيشغل حاله بيقظته، ويطلب إليه أن يذهب لينام. وقال له يوماً: **يا سهل، ألا تذكر الله الذي خلقك؟** فقال له: **وكيف أذكره؟** فأجاب: **قل بقلبك عند تقلبك في ثيابك ثلاث مرات، من غير أن تحرّك لسانك: الله معي، الله ناظر إلي، الله شاهدٌ عليّ.** فظل سهل يقول ذلك ثلاث ليال ثم أعلمه، فقال له: **قل في كلّ ليلة إحدى عشرة مرة،** فقال سهل ذلك فوقعت في قلبه له حلاوة، فلما كان بعد سنة، قال له خاله: **احفظ يا سهل ما علّمتك، ودُم عليه إلى أن تدخل القبر، فإنه ينفعك في الدنيا والآخرة.** يقول سهل: فلم أزل على ذلك سنين، فوجدت لها حلاوة في سرّي. ثم قال له خاله يوماً: **يا سهل، من كان معه الله، وهو ناظر إليه، وشاهده، أيعصيه؟ إياك والمعصية يا سهل!** - ويا لها من نصيحة رائعة، ومن كلمات حلوة تطمئن لها النفس وتسكن، مع تكرارها باللسان والقلب!

ويقول سهل عن حياته في طفولته أيضاً: مضيت إلى الكُتّاب وأنا ابن ست سنوات أو سبع، وكنت أصوم الدهر،

وقُوتى خبز الشعير، إلى أن بلغت اثنتى عشرة سنة، فبدأت السفر طلباً للعلم. يقول سهل: شُكر العلم العمل، وشُكر العمل زيادة العلم. والعيش على أربعة أوجه: عيش الملائكة فى الطاعة؛ وعيش الأنبياء فى العلم وانتظار الوحى؛ وعيش الصدّيقين فى الاقتداء؛ وعيش سائر الناس، عالماً كان أو جاهلاً، زاهداً كان أو عابداً، فى الأكل والشُرب! ويقول: لا مُعين إلا الله، ولا دليل إلا رسول الله، ولا زاد إلا التقوى، ولا عمل إلا الصبر! ويقول: ولقد أيس العلماء والحكماء من هذه الثلاث خلال: ملازمة التوبة، ومتابعة السُنّة، وترك أذى الخلق. والذى يلزم الصوفى ثلاثة أشياء: حفظ سرّه، وأداء فرضه، وصيانة فقره. والأصول سبعة: التمسُّك بكتاب الله تعالى، والاقتداء بسُنّة رسوله ﷺ، وأكل الحلال، وكفّ الأذى، واجتناب الآثام، والتوبة، وأداء الحقوق.

وكان رحمه الله يقول عن نفسه: «أنا حُجّة الله على الخلق، وأنا حُجّةٌ على أولياء زمانى»، فبلغ ذلك جماعة من أكابر الصوفية فذهبوا إليه وسألوه: إنك تقول أنا حجة الله على الخلق، وأنا حجة الله على أولياء زمانى، فبماذا صرت؟ هل أنت نبىّ أو صدّيق؟ فقال سهل: لم أذهب حيث ظننتم، ولست أنا نبياً. إنما قلت هذا لأننى صحّحت أكل الحلال دون غيرى، وقسمت عقلى ومعرفتى وقُوتى على سبعة أجزاء، فأترك الأكل حتى يذهب منها ستة أجزاء ويبقى جزء واحد، فإذا خفت أن يذهب ذلك الجزء وتتلف معه نفسى، أكلت بقدر البلعة خوفاً أن أكون أعنتُ على نفسى، ولتُرَدّ علىّ الستة الأخرى، فبهذا صحّ لى الحلال. فقالوا: نحن لا نقدر على المداومة على هذا، ولا نعرف أن نقسم عقولنا ومعرفتنا وقُوتنا على سبعة أجزاء؟! - واعترفوا بفضل سهل، يعنى تميُّزه عليهم.

وكان رحمه الله يقول: يأتى على الناس زمان يذهب الحلال من أيدى أغنيائهم، وتكون أموالهم من غير حلّها، فيسلّط الله بعضهم على بعض، يعنى بالأذى والمرافعات عند الحكام، فتذهب لذة عيشهم، ويلزم قلوبهم خوف فقر الدنيا، وخوف شماتة الأعداء، ولا يجد لذة العيش إلا عبيدهم ومماليكهم،وتكون ساداتهم فى بلاء وشقاء وعناء وخوف من الظالمين، ولا يستلذ بالعيش يومئذ إلا منافق، لا يبالى من أين أخذ، ولا فيما أنفق، ولا كيف أهلك نفسه، وحينئذ تكون رتبة القُرّاء رتبة الجُهّال، وعيشهم عيش الفجّار، وموتهم موت أهل الحيرة والضلال. وأما صفوة الله من خلقه،

فالدنيا حرام عليهم أن ينالوا منها شيئاً، وكما حرّم الله على الخلق أن يأكلوا من صيد الحَرَم، ومَن أكَلَ منه لزمته الفدية، فكذلك من أكل من أهل صفوته شيئاً من الدنيا ليس له فدية إلا ترك الطاعات. إنما حُجب الخلق عن مشاهدة الملكوت وعن الوصول، بسوء المطعم وأذى الخلق.

وكان يقول لأصحابه عن طريقته: ما دامت النفس تطلب منكم المعصية فأدّبوها بالجوع والعطش، فإذا لم ترد منكم المعصية، فأطعموها ما شاءت، واتركوها تنام من الليل ما أحبت. وسألوه: والجائع الذى لم يطعم الطعام لأيام كثيرة، كيف يطفئ لظى جوعه؟ فقال: ينور القلب !! وقال: حياة القلوب التى تموت يكون بذكر الحيّ الذى لا يموت. ـ ومات رحمه الله بتُستُر غالباً سنة ٢٨٣ هـ.

ومن أصحابه: أبو عبد الله محمد ابن أحمد بن سالم البصرى، وهو راوى كلامه ولا ينتمى إلى غيره من المشايخ، وله تلاميذه الذين ينتسبون إليه وإلى ابنه أبى الحسن، وسار على نهجه وسلك مسلكه، وسألوه: أنحن مستعبدون بالكسب أو بالتوكل؟ فقال: التوكل حال رسول الله ﷺ، والكسب سُنته، واستن الكسب للضعفاء عن حال التوكل، فمن أطاق التوكل فغير مباح له كسب يعتمد عليه، ومن ضَعُف عن التوكل أبيح له طلب المعاش فى كسبه، لئلا يسقط عن درجة سُنته حيث سقط عن درجة حاله. ومن توكل على الله ملأ قلبه نور الحكمة، وكفاه كل هَمّ، وأوصله إلى كل محبوب، فإنه عزّ وجلّ يقول: ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ (الطلاق ٣)، أى هوالقائم له بكل كفاية.

ويبدو أن طريقة السالية تنتسب إلى أبى الحسن وليس لابن سالم الأب، ومصدر الخلط فى حقيقة نسبة أقوال هذه الطريقة لابن سالم الأب، أن الجميع كانوا إذا نسبوا الأقوال للأب أو للابن أشاروا إليهما باسم ابن سالم.

ورُصدت إجابات أبى الحسن التسترى، على خمسة آلاف سؤال وُجّهت إليه، ونُشرت الأسئلة والإجابات عليها ضمن تراث طريقة السالية. وأورد عبد القادر الجيلانى عشر مقالات للسالمية، وردّ عليها، ووصفها بأنها طريقة ضالة. وأورد ابن الفرّاء ست عشرة مقالة تتصل جميعها بمسائل مثل رؤية الله والتجلّى، والحقيقة المحمدية، ومواقف بعض الكفار.

وكانت وفاة ابن سالم احتمالاً سنة ٢٨٣هـ، أو سنة ٢٩٧ هـ، أما ابنه فتوفى غالباً عام ٣٦٠ هـ.

* * *

٦٩ - التفتازانى (أبو الوفا)...

شيخ الطريقة الغُنَيْمية، وشيخ مشايخ الطرق الصوفية سابقاً فى مصر، أبو الوفا، من مواليد كفر الغنيمى شرقية (١٩٣٠ - ١٩٩٤)، وهو الدكتور، وأستاذ الجامعة، ورئيس قسم الفلسفة، والذى أسهم فى إنشاء أقسام للفلسفة بجامعات بيروت، وقَطَر، وعُمان، والكويت، وله البحوث والمؤلفات فى الفلسفة الإسلامية والتصوّف، ومن ذلك كتابه عن «ابن سبعين»، ومؤلفاته عن «ابن عطاء الله السكندرى»، ومنها كتابه: «الإنسان والكون فى الإسلام»، وكتابه: «المدخل إلى التصوّف». وكان التصوّف مدار حياته منذ شبابه، وتخصّصه الأكاديمى فيه، والطريقة الغنيمية التى رأسها هى إحدى الطرق الخلوتية، مؤسسها الأول هو الشيخ الغنيمى بن سلامة، المتوفى سنة ٥٠٣ هـ، وضريحه فى كوم حِلّين مركز منيا القمح، وقد خلف التفتازانى أباه عليها، وفلسفته أساسها: الجمع بين العلم بالكون، وبين التصوّف من حيث هو قيم أخلاقية رفيعة، ونزعة روحية مثالية تهدف إلى النفاذ إلى الحقيقة؛ والعالم أو الفيلسوف أو الصوفى الذى يستطيع ذلك يصل إلى ذروة الكمال. والتصوّف الحقيقى: علاج للفرد وللمجتمع، فهو يجنّب الفرد شروراً كثيرة، على رأسها غرور الصوفى بنفسه، وبعلمه، وبإمكانياته؛ وهو فى نفس الوقت يُحدث فى المجتمعات التى تسودها فلسفات مادية، نوعاً من التوازن بين مطالب المادة ومطالب الروح.

والتصوّف عنده: منهج كامل فى الحياة؛ والصوفى المحقّق: هو الذى لا يرى تعارضاً بين حياته التعبّدية وحياة المجتمع الذى يعيش فيه، بل هو الذى يستعين بحياة التعبّد على حياة المجتمع وما فيها من مشقة وكفاح، والتصوّف بهذا المعنى فلسفة إيجابية تُضفى على حياة الإنسان معنى سامياً، ولهذا لا ينبغى أن يُظَن بأن الصوفية قوم سلبيون، يصرفون الناس عن الكون المادى وعلومه، إلى الإغراق فى العبادة والانعزالية عن المجتمع، فهذا تصور غير صحيح بالنسبة لصوفية الإسلام، فالتصوّف الإسلامى: يعبّر عن قيم الإسلام، والإسلام دين جامع بين العمل الدنيوى والعمل الأخروى، ولا يصرف الناس عن الأخذ بأسباب الدنيا وخيراتها. ونظرة صوفية الإسلام إلى الكون والإنسان ذات مغزى أخلاقى بعيد، فهم يريدون أن يبيّنوا للناس أن الكون مجرد شأن من شئون الله، ومصيره حتماً إلى الفناء، فلا

ينبغي للإنسان أن يتعلّق نفسياً بالكون إلى حدّ العبادة، ولا أن يغترّ بنفسه وبعلمه، ولابد من تطهير القلب من أخلاقياته الذميمة، والتعلّق بالأغيار العديمة، ولابد أن يتفكّر الإنسان فيما يشاهده في الأكوان من دلالات على وجود الله. والصوفية يرون أن العالم المادي ليس غاية في ذاته، وإنما وراء علة صُنعه حكمة مدبَّرة، وكلّ ما في الكون ناطق بوحدانية الله. ويعتبر الصوفية الوقوف مع موجودات هذا الكون، مع الغيبة عن إدراك المكوِّن، مما لا يليق بالإنسان، لأن كل ما في هذا الكون ناطق بوجوده تعالى، وليس ثمة حجاب بين الإنسان والله، لأن الله متجلٍّ في الموجودات على اختلافها، والحجاب فينا نحن، وفي شهواتنا وأهوائنا، ولو تخلصنا منها لبدت الحقيقة واضحة كشمس النهار، وبهذا أيضاً تتحقق حريتنا الجديرة بنا. والصوفية لا يمكن أن يزهدوا في الكون، لأنه مظهر تجلّيات الله بصفاته المختلفة، كالعلم، والحكمة، والقدرة، والخَلق، والتدبير، ولا يمكن أن يهوّنوا من شأن الإنسان، لأنهم يعلمون أنه خليفة الله على الأرض، ولابد أن لكلامهم عن الكون والإنسان غايات بعيدة، لأنهم يريدون للإنسان في علاقته بالكون أن يكون خاضعاً لقيم أخلاقية معينة. وهم كأطباء النفوس يعلمون الكثير عن نواحي الضعف الخُلُقي في الإنسان، فيريدون له أن يتحرر من عبودية الركون إلى العالم المحسوس وملذاته، لينطلق إلى فضاء المعرفة بخالقه. والإنسان صورة مصغرة للكون كله، جامعة لأسراره، والكون المادي وإن وسعه من حيث جسمه المادي، إلا أنه لا يسعه من حيث حقيقته الروحانية. **والامتزاج الحقيقي بين الصوفي ورجل العلم هو قمة السمو**، وهو شيء يمكن تحقّقه في عالم الفكر. ولقد حققه التفتازاني في نفسه. وهو صاحب دعوة عريضة للتصوف الفلسفي، وفيه تمتزج الأذواق الصوفية بالنظر الفعلي؛ **وفلاسفة الصوفية** هم الذين اطّلعوا على الفلسفات، كالهندية، والفارسية، واليونانية، والمسيحية، وصبغوها بالصبغة الإسلامية الخالصة، وأخضعوا مصطلحاتها للمصطلح الفلسفي الصوفي العربي، ومصطلح الشريعة الإسلامية. ولا يرى التفتازاني: **أن التصوّف الفلسفي هو فلسفة** خالصة، لأن التصوّف أصلاً يقوم على الذوق، والفلسفة تقوم على العقل، كما لا يمكن اعتباره تصوفاً خالصاً، لأن عباراته التي يتحدّث بها هي من لغة

الفلسفة: وإنما التصوّف الفلسفى هو بين بين.

* * *

٧٠ - التفتازانى (سعد الدين)

مسعود بن عمر بن عبد الله التفتازانى، وشهرته سعد الدين التفتازانى، ولد سنة ٧٢٢ هـ بتفتازان من بلاد خراسان، وأقام بسرخس، وأبعده تيمورلنك إلى سمرقند فتوفى فيها سنة ٧٩٣ هـ، وله المصنفات الكثيرة فى المنطق والكلام والأصول، وقد تناول الصوفية، وابن عربى بالذات، والقائلين بمذهب وحدة الوجود، فى رسالة طويلة يعارض كتاب فصوص الحِكَم، وهو يقول فيها: أن هذا الكتاب هو نقيض الحكم وليس فصوص الحكم، وهو ضلال الأمم، حيث يزعم أن ما لا يدركه العقل من الأمور الإلهية يمكن أن يُظهره الكشف الصوفى ويوضّحه، وأن الكائنات من سوى الله يضمحل وجودها فى نظر العارفين الواصلين اضمحلالاً إلى درجة الفناء عند تجليات أنوار الواحد، اضمحلال نور الكواكب مع وجودها عند ظهور نور الشمس فى النهار، فلا يشاهدون فى تلك الحال غير وجود الله من الأشياء، كما لا يشاهدون فى النهار غير الشمس من كواكب السماء، ويسمون انفراد مشاهدة الله من بين الموجودات للذهول عنها بالوحدة المطلقة، التى هى نهاية درجات أهل المعرفة، وهو ما يزعمه هؤلاء الكفرة الوجودية، واعتقادهم الذى معناه أن وجود الكائنات، حتى وجود الخبائث والقاذورات، هو الله، تعالى الله عما يقول الظالمون !! وأن ذوات الممكنات من الأرض والسماوات وما بينهما هى سراب وخيال ولا حقيقة لها، كما كان يقول السوفسطائية، فلا وجود إلا للماديات، ويروّجون لتلك السفسطة النافية لدين الإسلام، بإحالته إلى الكشف، بدعوى أن الكشف من المجرّبات التى تقع وراء طور العقل، وأن عظماء الملة ورءوساء الإسلام وأئمته لم يصلوا إلى الكشف لأنهم ظاهريون، وسمّوا زندقتهم علم الحقيقة. وزعم ابن عربى: أن الدين لم يكمُل، وأن الولىّ هو المنوط به الإكمال بمكاشفاته، والزيادة على الكمال نقص. وقد أجمع أهل العلم على أن صرف النصوص عن ظواهرها إلى معان يدّعيها الباطنية، زندقة وإلحاد. ويتضمن مذهب وحدة الوجود كما يعرضه مروّجوه، فلسفات دهرية ومعطلة وسوفسطائية، ولم يكن التجاؤهم إلى دعوى الكشف إلا لأنهم عجزوا عن إقامة البرهان. وقولهم أن الله تعالى هو

الوجود المطلق، هو قول باطل مبنى على أصول باطلة، وهو نفس ما يذهب إليه الملاحدة، وجميعهم يكذّبون قواعد البراهين العقلية، ويدّعون الألوهية بطريقة أو بأخرى، كزعم من زعم منهم: أنه الحقّ (الحلاج)، أو طنطنته قائلاً سبحانى (البسطامى)! وقولهم أن مَن عبد الأصنام فقد عَبَد الله، سوى أنه أخطأ فى طريق العبادة! أو أن عبدة العجل أصدق فى عبادتهم من موسى! واتخاذهم العجل إلهاً كانوا فيه مصيبين، لكنهم فى عبادتهم لله مخطئون ! (انظر أيضاً البقاعى).

* * *

٧١ - التلمسانى (الشاب الظريف)...

محمد بن سليمان بن علىّ بن عبد الله ابن علىّ، وشهرته شمس الدين التلمسانى، وهو ابن الشاعر الصوفى: العفيف التلمسانى، وكان شاعراً مثله، ولد بالقاهرة سنة ٦٦١ هـ ، ولقّبوه بالشاب الظريف، لميله إلى المجون. وشعْرُه فى التشبيب بالنساء وبالغلمان (كان زئر نساء وكان لوطياً)، وحاول أتْباع أبيه تفسيرَه تفسيراً صوفياً! وله غير ذلك «فصاحة المسبوق فى ملاحة المعشوق» ، و«مقامات العُشاق».

وكان أبوه يقول فى إفراط ابنه فى الملذّات: إن إفراط شمس يُعينه على أن يكون صوفياً متحققاً على طريقة الملامتية (مثل الراهب الروسى راسبوتين) ! - يقصد أنه فى فجوره إنما يبدو فى المظهر، ولكنه فى المخبر صوفى على طريقة الملامتية! وكان الملامتية كذلك فى المظهر ولكنهم ورعون وعلى التقوى فى الباطن، وذلك حتى لا تكون تقواهم نفاقاً - هكذا يدّعون.

غير أن إفراط التلمسانى الابن، عجّل بموته وهو فى السابعة والعشرين، أى سنة ٦٨٨ هـ ، وذلك قبل موت أبيه بعامين.

ومن شعره الذى يُؤوّل كشعرٍ صوفى :

أحْلَى الهوى أن يطول الوَجْدُ والسُّقْمُ
وأصْدَقُ الحُبِّ ما حَلَّتْ به التُّهَمُ
ليت الليالىَ أحلامٌ تعودُ لنا
فربما قد شفى داءُ الهوى الحِلَمُ

ويقول :

يا غائبين ووحْدِى حاضرٌ بهم
وهاتبين وذَنبى فى الغرام هُمُ
بِتُّمْ فلا طَرْفٌ إلاّ وَهْوَ مُضطربٌ
شوْقاً ولا قلبٌ إلاّ وهو مُضطرِمُ

ويقول :

أبداً بذكركَ تنقضى أوقاتى
ما بين سُمّارِى وفى خلواتى

يا واحدَ الحُسْنِ البديع لذاته
دعاوىَ الأسَى عندى عليكَ صحيحةٌ

أنا واجدُ الأحزانِ فيكَ لذاتى
فقلبىَ خفّاقٌ وجَفْنِىَ مُسَهَّدُ

وبُحبِكَ اشتغلَتْ حواسى مثلما
دمى بكَ مسفوكٌ ودمعى مُسَفَّحٌ

بجمالك امتلأتْ جميعُ جهاتى
فيصلُحُ قلبى فيكَ من حيثُ يفسَدُ

حَسْبى من اللّذاتِ فيكَ صبابةٌ
دفائنُ حُبٍّ فى لُحودِ جوانحِ

عندى اشتغلتُ بها عن اللّذاتِ
لها بكَ حَشْرٌ - كلَّ يَوْمٍ - وموْعِدُ

ورضاى أنى فاعلٌ برضاكَ ما
دُجاى إذا واصلتَ يومٌ مؤيَّدُ

يختارُ من مَحْوى ومن إثباتى
ويومى إذا أُبعدت ليلٌ مُسَرمَدُ

يا حاضراً غابت له عشّاقُه
ويقول من وزن الطويل أيضاً :

عن كل ماضٍ فى الزمان وآتِ
جحدتُ الهوىَ حتى تبدّتْ شهودُه

حاسبتُ نفسى فلم أرَ واحداً
فصرّحتُ بالكتمانِ والحقُّ أبلَجُ

منها خلا وقتاً من الأوقاتِ
جُفونى من ذاكَ الحجاب قريحةٌ

ويقول من وزن الطويل:
فلا دمْع إلا وهو بالدَّمِّ يخرجُ

دموعى أبَتْ إلاّ إنسكاباً لعلّها
جَعلتُ على قلبى يدىّ تألُّماً

بمكنون حبّى عند حبّى تشهدُ
فلم أرَ إلاّ جَمْرةً تتأجّجُ

دنوْتُ فأقصانى فعدْتُ فردّنى
جُبِلتُ علىَ حُبٍّ لمن أنا عبدُه

فلا هو يُدنينى ولا أنا أبْعُدُ
فلَحظى إطراقٌ ولفظِىَ تَلجْلجُ

دُهيتُ بفُقدانٍ لمنْ قَدْ وجدْتُه
جزاى هواهُ لوْعةٌ وصبابةٌ

فلا مَدْمَعٌ يرقا ولا وَجْدٌ يُحمدُ
وإنى إلى غير الجزائين أحْوَجُ

دبيبُ الهوىَ بين الضلوعِ مُؤَجّجٌ
جمعتُ له الضّدّين جَمْعَ ضرورة

لهيبُ اشتياقى فيه للقلبِ مُوردُ
فَجَفْنِىَ ممطور وقلبىَ مُنضَجُ

دعانى، فمن ذاق الهوىَ ثم لم يَنَلْ
جريْتُ مع الأشواق ملءَ عنانَها

وصالَ حبيبٍ كيف لا يتنهّدُ
وقُربُكَ مطلوبٌ وحبُّكَ مُنْهجُ

جنانُ التجلّي للجِنانِ مُعَدَّةٌ
ولا جاءَ أرقىَ في رضاهُ وأعْرَجُ

* * *

٧٢- التلمساني (العفيف)...

سليمان بن عليّ بن عبد الله بن عليّ، يقال له عفيف الدين التلمساني ، ويُلقَّب بالعفيف التلمساني، وله شرح على مواقف النِّفَّري، وشرح على فصوص الحِكَم لابن عربي، وشرح على منازل السائرين للهروي، وقد اتهمه خصومه بأنه من أتباع ابن عربي، ومن القائلين بوحدة الوجود، ولكن الإمام ابن تيمية كان يرى أن التلمساني أشدّ كُفراً، فلقد كان ابن عربي يحضّ على مكارم الأخلاق، ولكن «الفاجر التلمساني المُلقَّب بالعفيف» كان يتفلسف كأستاذه الصدر الرومي، ولهذا الأخير كتاب عنوانه «مفتاح غيب الجمع والوجود» يميّز فيه بين الوجود المطلق - أي الوجود بالاسم، كما نقول الحيوان، ونعني بذلك الحيوان على إطلاقه - والوجود المُتعيِّن أو العيني، أي هذا الوجود في الخارج متجسّداً في هذا الحيوان أو ذاك. ويقول الصدر الرومي: إن وجود الله المطلق هو نفسه وجود الأعيان، فلا شئ موجود على الحقيقة اسمه الله، ولكن وجوده هو هذا الوجود المتجسّد في المتعيّنات. وأما الفاجر التلمساني، فهو أخبث من ابن عربي الذي يقول إن وجود المُحدَثات أو المخلوقات هو عين وجود الخالق، وأشدّ خبثاً من الصدر الرومي الذي بمقتضى مذهبه: فإن ذات الكلب والخنزير والبول والعُذْرة هو عين وجوده تعالى، لأن التلمساني ليس عنده إلا «ما ثمّ غير ولا سوَى»، فالعبد إنما يشهد السوى ما دام محجوباً، فإذا انكشف حجابه رأى أنه ما ثمّ غير، ولذلك فكل الأمور عنده سواء، وكل المحرّمات عنده حلال ، ولا يوجد المحرّم أصلاً، فالمحرّم هو ما حرّموه هم على أنفسهم، والبنت بمنزلة الأم، وبمنزلة الأجنبية، وكلهن شئ واحد، بمعنى أنثى يمكن أن تُوْتَى، وليس في ذلك حرام، والقائلون بالحرام يقولون ذلك لأنهم ما يزالون محجوبين ولم يعرفوا! - يعني كان ملحداً وإباحياً! وكان يقول: «القرآن كله شرك وليس شريعة واحدة»!! فإذا أحسن القول قال: «القرآن يوصّل إلى الجنة، ولكنه هو - أي التلمساني، يوصّل إلى الله». وله شروح للأسماء الحسنى على هذا المنوال. وله شعر غزلي كان يشرحه شرحاً صوفياً على طريقته! وقالوا في شعره إنه شعر بحسب الصنعة كان جيداً، ولكنه كما قيل لحم خنزير في طبق صيني! - وهو أقل ما يوصف به.

والتلمسانى يُنسب إلى تلمسان، وكان ميلاده بها سنة ٦١٠ هـ، ووفاته سنة ٦٩٠هـ، ويرجع أصله إلى إحدى عوائل الكوفة كما يقول، وتنقّل كثيراً فى البلاد، وأقام فترةً فى مصر، وفيها أنجب ابنه محمد (سنة ٦٦١ هـ)، المشهور بشمس الدين التلمسانى، وكان شاعراً مثله، وإن قيل إنه أشعر منه، وكان يلقب بالشاب الظريف، لميله إلى المجون (فماذا تتوقع لمن يربيه أب كهذا؟!)، مما عجّل بموته وهو فى السابعة والعشرين، أى سنة ٦٨٨هـ، قبل موت أبيه بعامين، أى سنة ٦٩٠هـ.

* * *

٧٣ - التوحيدى (أبوحيّان)...

علىّ بن محمد بن العباس التوحيدى، قيل اسمه التوحيدى لأن أحد أجداده كان يتاجر فى تمر مخصوص اسمه التمر التوحيدى؛ وقيل إن اسمه التوحيدى لأن مذهبه فى التصوّف يقوم على التوحيد الخالص، ومع ذلك فإنهم اختلفوا فى تقويم هذا المذهب، فجماعة قالوا فى التوحيدى إنه شيخ الصوفية وفيلسوف الأدباء؛ وجماعة أخرى اتّهموه بالزندقة، حتى لقد قال فيه ابن الجوزى: زنادقة الإسلام ثلاثة: ابن الراوندى، والتوحيدى، والمعرّى، وأشرّهم التوحيدى، لأن المعرى وابن الراوندى صرّحا بالزندقة وهو لم يصرح. ولعل ذلك لأن التوحيدى عرض آراءه بغموض، وقالوا فيه: بل عرضها بدهاء؛ وقيل إنه رغم أن له ستة كتب فى التصوّف، هى: «الإشارات الإلهية»، و «رياض العارفين»، «والحَجّ العقلى إذا ضاق الفضاء عن الحج الشرعى»، و «رسالة فى أخبار الصوفية»، و«الرسالة الصوفية»، و«المحاضرات والمناظرات»، فإن أخلاقه الشكسة، واستعلاءه، جعلاه يعيش فى ضائقة وفاقة، وينصرف الناس عنه. (فكيف يقال إنه صوفى إذن؟!) وكان يتعيّش من النسخ، وواصل الوزير ابن العميد، واستخدمه الوزير ابن عبّاد، فلم يرتاحا إليه، وفصله ابن عباد من خدمته، فهجاهما فى كتاب «مثالب الوزيرين ابن العميد وابن عبّاد»، ولعل هذا الكتاب هو الذى أساء إليه كثيراً حتى ما عاد الناس يصدقون تصوّفه، ودرج المؤلفون على أن لا يضمّونه إلى قائمة الصوفية فى زمنه، فوصفه ابن حجر بأنه صاحب زندقة وانحلال، ووصفه ابن فارس: بالكذب وقلة الدين والورع، وبالقدح فى الشريعة والقول بالتعطيل، وقال عنه الذهبى: إنه الضال الملحد. ويذكر المؤرخون أن الوزير

المهلبى كان وراء اضطهاده واتّهامه بالزندقة. وأساس التُّهمة أنه كان رغم تصوّفه يتابع الفلاسفة، ويحضر مجالس مشايخ الصوفية وأعلام الفلسفة فى وقته ، وعرفوا عنه حضوره عند يحيى بن عَدّى، واستلهامه أفكار وأقوال أبى سليمان المنطقى، وقيل إن أبا سليمان هو ملهمه كتابه المقابسات، بل كلّ كتبه، وأنه جعله لذلك الشخصية المتحدّثة الأولى فى هذا الكتاب، مثلما جعل أفلاطون سقراط ـ الشخصية المتحدّثة الأولى فى كل كتُبه. وكان أبو سليمان على مذهب الأفلاطونية المُحَدثة، مما يحذره الصوفية والفقهاء، إلا أن كتب الصوفية تخلو من أى أثر للأفلاطونية المحدثة ، وليس كتابه الإشارات الإلهية ، وهو أهمها ، سوى دعوات وعظات، وشرح لبعض المصطلحات الصوفية ، إلا كتاب الحَجّ العقلى، فإنه يذكّر بأقوال الحلاّج ورابعة العدوية وغيرهما ممن تحدّثوا فى هذا الحج دون الحج على الحقيقة.

ولا نكاد نعرف شيئاً على اليقين عن ميلاد وموطن التوحيدى، ويبدو أنه ولد بين سنتى ٣١٠ و ٣٢٠ هـ فى نيابور أو شيراز، إلا أنه تعلّم فى بغداد واستقر بها، ويبدو من كتاباته وأحواله النفسية أنه كانت تتراوحه أحوال من البسط والقبض، والسرور والاكتئاب، وأن ذلك تمثّل فى تصويره للأشخاص ، فكان يروى النوادر عنها، ويرسمها فى صورة هزلية، ومع ذلك يُعلى من شأنها. وكتاباه «المقابسات» و«الإمتاع والمؤانسة» كما قيل فيهما، كنزان من كنوز المعرفة عن الحياة العقلية فى زمنه، بكل اتجاهاتها الدينية والفلسفية والثقافية. ويبدو أنه فى آخر حياته أصابه اكتئاب مرضى لم يُشفَ منه، واعترته لوثة اضطهاد فعمد إلى كتبه فأحرقها، بدعوى أنه عاش مهملاً فى حياته ، ولا ينبغى أن يفيد منها أحد من بعده ، ولم ينج منها إلا ما كان قد نُقل قبل الإحراق. وهناك من يؤكد أن قبر التوحيدى بجهة شيراز ، ويحدد وفاته بسنة ٤١٤ هـ . وقيل فى كتابه الإشارات الإلهية، وأصل تسميته «الإشارات الإلهية والأنفاس الروحانية» أنه ربما ينتمى للمرحلة الأخيرة من عمره ، وأنه كتبه للتعبير عن توبته والكتاب دُرّة من درر الآداب العالمية، نهج فيه التوحيدى منهج المناجاة، وليس له نظير فى ذلك إلا كتاب «مناجاة الفرد الكامل» للصدر القونوى، ويوجّه التوحيدى فى كتابه الخطاب إلى الله ، ومن ذلك قوله: اللهم إنّا نسألك ما نسأل

لا عن ثقة ببياض وجوهنا عندك، وحُسن أفعالنا معك، وسوالف إحساننا قبلك، ولكن عن ثقة بكرمك الفائض، وطمعاً فى رحمتك الواسعة، وعن توحيد لا يشوبه إشراك، ومعرفة لا يخالطها إنكار. وإن كانت أعمارنا قاصرة عن غايات حقائق التوحيد والمعرفة، فنسألك أن لا تَرُدّ علينا هذه الثقة بك فتُشمت بنا من لم تكن له هذه الوسيلة إليك. يا حافظ الأسرار، ويا مُسبل الأستار، ويا واهب الأعمار، ويا منشئ الأخبار، ويا موليج الليل فى النهار، ويا مُصافى الأخيار، ويا مُدارى الأشرار، ويا منقذ الأبرار من النار والعار. عُد إلينا بصفحك عن زلاّتنا، وأنعشنا عند تتابع صرعاتنا وخطر حالنا معك فى اختلاف سكراتنا وصحواتنا، وكن لنا وإن لم نكن لأنفسنا، لأنك أولى بنا، فامزج خوفنا منك برجائنا فيك. وإذا غلب علينا يأسنا منك، فتلقه بالأمل فيك. وبشرّنا عند توجهنا نحوك بالوصول إليك، ومتّعنا بالنظر إلى نور وجهك، وأسبغ علينا نعمتك بما وهبت لنا من توحيدك!...

ومن أقوال التوحيدى يدعو الله فى مذلة واتضاع: اللهم صُن وجوهنا باليسار ولا تبذلها بالافتقار، فنسترزق أهل رزقك، ونسأل شر خلقك، ونبتغى بحمدٍ من أعطى وذمٍّ من منع، وأنت من دونهم ولىّ الإعطاء، وبيدك خزائن الأرض والسماء.. ياذا الجلال والإكرام.

* * *

٧٤- ابن تيمية...

أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن عبد الله بن الخضر بن محمد بن تيمية، الحرّانى نسبةً إلى حرّان بالشام (٦٦١ - ٧٢٨ هـ). وهو الإمام النابه رأس المدرسة السلفية، وكان يهاجم التصوّف ليس بما هو تصوّف، وإنما يهاجم ما تجرى فيه من انحرافات، وموقفه فى هذا كموقف كبار الصوفية أنفسهم، الذين غلّطوا الانحرافات كالسرّاج والسلمى وغيرهما.

وابن تيمية نفسه كانت نشأته نشأة المتصوّف الزاهد فى ملبسه ومأكله، وكان فى بدايته يغشى مجالس الصوفية، إلا أنه من شبابه الباكر كان يرفض سماعهم ورقصهم ولا يوافق عليه، فكانوا إذا ألحّوا عليه فى الحضور، أفردوا له مكاناً وحده يرقبهم ولا يشاركهم، وأثنى عليه كثير من مشايخهم، كالواسطى شبيه الجُنَيد، الذى قال: إنه لم ير مثيلاً لابن تيمية، علماً وعملاً، وحالاً وخُلقاً واتّباعاً، وكرماً وحلماً، وطلب من تلاميذه أن يلزموه، عسى الله أن يرزقهم قسطاً من نصيبه المُحَمّدى معه، فإنما ذلك يسرى بواسطة محبّة الشيخ

للمريد، واستجلاب المريد لمحبّة الشيخ، بموافقته وحفظ قلبه وخاطره؛ إلا أن ابن تيمية كان عدواً للابتداع، وهاجم لذلك - من منطلق سلفي حنبلي - كلّ الفرق الإسلامية، كالخوارج، والمرجئة، والرافضة، والقدرية، والمعتزلة، والجهمية، والكرامية، والأشعرية؛ وانتقد الفلاسفة انتقاداً شديداً ، ومنهم ابن سينا، وحتّى الغزالي في كتبه التي زخرت بالآراء الفلسفية، مثل كتابه «المنقذ من الضلال» ، وعاب على الصوفية: أنه قد انتسبت لهم طوائف من الزنادقة وغيرهم، كالحلاّج مثلاً، فإن أكثر مشايخ الطريق قد أنكروه وأخرجوه عن الطريق، مثل الجُنَيْد بن محمد شيخ الطائفة؛ غير أن الكثيرين من المتصوّفة أولوا هذا الاتجاه عنده بالعداء التقليدي بين الفقهاء والصوفية، أو بين السلفية والتصوّف، ومن هؤلاء ابن عطاء الله السكندري، الذي تزعّم حملة كبيرة على ابن تيمية، استعدى فيها عليه نحو الخمسمائة من أعضاء الطُّرق الصوفية في مصر، وادّعى عليه بادعاءات لم يثبت شيءٌ منها، إلا أنها كانت سبباً في حبس ابن تيمية. وقيل إن ابن عطاء كان مدفوعاً في خصومته المغالي فيها بدوافع أخرى شخصية، فقد كان شيخ الطريقة الشاذلية في مصر، وابن تيمية كانت له مؤاخذات على أوراد الشاذلي، قيل فيها إنه كان على حق، وأن ثورة ابن عطاء عليه لم يكن لها ما يبررها موضوعياً. ويبدو أن نقد ابن تيمية لبعض المتصوّفة، أفلحوا أن يجعلوه نقداً شاملاً للتصوف، ومن ذلك ما تذكره دائرة المعارف الإسلامية: أنه هاجم المتصوفة، وسلكهم والمتكلمين معاً في جماعة واحدة. وقد تنبأ ابن تيمية بهذا اليوم الذي يشنّع فيه أعداؤه عليه، بأنه يعادي التصوّف، مع أن التصوّف قد حظي منه بالدراسة كأيّ من فروع المعرفة الإسلامية، وله فيه عدد من الرسائل اعتمد فيها على دراسة أقوال كبار مشايخ الصوفية، ومن ذلك: رسالته في التصوّف، وكتابه في السلوك ضمن مجموعة فتاويه، وله «التحفة العراقية في الأعمال القلبية» ، يدرس فيها المقامات والأحوال ويطريها ، وأبدى في كتبه الأخرى مثل «درء تعارض العقل والنقل»، و «منهاج السُّنّة النبوية» وغيرهما، عناية كبيرة بإسهامات أكابر الصوفية، لترسيخ التوحيد ودعم أسس العقيدة ، من أمثال: الفُضَيْل ابن عياض، ويوسف بن أسباط، وسهل بن عبد الله التُّستُرِي، وبِشْر الحافي، وعبد القادر الجيلاني، وعبد الله بن خفيف، وأبي نعيم

الأصبهاني، ومعمر بن زياد الأصفهاني، وأحمد بن أبي الحواري، وعمرو بن عثمان المكّي، والحارث المحاسبي ، وعدّهم ابن تيمية من أئمة السلف .

ويعرض ابن تيمية لأصل كلمة الصوفية، ويرجّح أن الصوفي منسوب إلى اللبسة، أي لبس الصوف، لأنها ظاهر حالهم، ويبين الخلاف في الحكم عليهم، فطائفة ذمّت الصوفية والتصوّف، وقالوا هم مبتدعون خارجون عن السُّنّة؛ وطائفة غلت فجعلت طريقهم أفضل الطرق، والصواب: أنهم يجتهدون في طاعة الله، فمنهم المذنب ومنهم التقي، وقد صاروا إلى ثلاث طبقات: صوفية الحقائق، وصوفية الأرزاق، وصوفية الرسوم؛ فأمّا صوفية الحقائق: فهم الذين وصفناهم؛ وأمّا صوفية الأرزاق: فهم الذين وقفت عليهم الخوانق والوقوف، فلا يشترط في هؤلاء أن يكونوا من أهل الحقائق؛ وأمّا صوفية الرسوم: فهم المقتصرون على التشبُّه بالصوفية في اللباس والآداب الوضعية، فهم بمنزلة الذي يقتصر على زيّ أهل العلم وهو ليس من العلماء.

وابن تيمية إذا كان لا يقرّ الانحرافات، فإنه في المقابل يقرّ بكرامات الأولياء التي يقول بها الصوفية، وهي حقّ باتفاق أئمة الإسلام والسُّنّة والجماعة ، ودل عليها القرآن في غير موضع ، إلا أن المعتزلة والجهمية وغيرهم ينكرها، كما ينكر من يدّعيها، أو تُدّعَى له كذباً ولبساً عليه. وأيضاً فهي لا تدل على عصمة صاحبها ، ولا على وجوب اتّباعه في كل ما يقول، بل قد تصدر بعض الخوارق من الكشف وغيره عن الكفار والسحرة، ولهذا اتفق أهل أئمة الدين على أن الرجل لو طار في الهواء، أو مشى على الماء، لم تثبت له الولاية ولا الإسلام حتى يُنظَر وقوفه عند الأمر والنهي .

ويقول ابن تيمية: إن المواجيد من السُّكر، والواردات ـ مما اشتهر عن الصوفية ـ إذا كانت أسبابها مشروعة، وصاحبها صادقاً وعاجزاً عن دفعها، كان محموداً على ما فعله من الخير، ومعذوراً فيما عجز عنه وأصابه بغير اختياره. والصوفية أصحاب الكرامات أكمل ممن لم يبلغ منزلتهم ـ لنقص إيمانه وقساوة قلبه؛ ومن لم يزل عقله ـ مع كونه قد حصل له من الإيمان ما حصل لهم وأكمل ـ هو أفضل منهم، وحاله هو حال الصحابة رضي الله تعالى عنهم أجمعين، وحال نبينا محمد ﷺ ، فإنه أُسري به ورأى ما رأى من آيات ربّه الكبرى، وأصبح ثابت العقل لم يتغيّر، فحاله بلا شك أكمل من حال موسى

الذى خرّ صَعقاً لما تجلّى ربّه للجبل وجعله دكّاً. وحال موسى حال جليلة فاضلة عليه، لكن حال محمد ﷺ أفضل وأكمال وأعلى.

ويقول ابن تيمية عن المقامات والأحوال: إذا كانت فى إطار الدين دون تجاوز ولا مبالغة، أنها من أعمال القلوب، ومن أصول الإيمان، ومثلها مثل محبة الله ورسوله، والتوكل على الله، والإخلاص والشكر له. ويخطئ من يدعى أن الكرامات احتكار للخاصة، ويقرر أنها فرض على الأعيان باتفاق أهل الإيمان، وينكر ما ينسبه الصوفية إلى الخَضر أو القطب الغَوث، من أوصاف وأفعال خارقة، ويصف بالكفر ادعاءهم أن الغوث: هو القطب الجامع فى الوجود، بمعنى أنه مدد الخلائق فى رزقهم، ومدد الملائكة؛ وكذلك قول البعض، أن الأرزاق تنزل من السماء باسم غوث الوقت الذى يُدعَى «الخضر»، فهذا كله باطل، ولا أصل له فى كتاب الله، ولا فى سنّة رسوله، ولا قاله أحد من السلف، ولا الأئمة، ولا مشايخ الصوفية المُقتدَى بهم. ومن رأيه أن الخضر قد مات، وليس للمسلمين من حاجة إليه، لأنهم أخذوا دينهم عن النبىّ ﷺ، وأن عامة ما يُحكَى عنه إما كذب أو مبنى على ظن، ويُدَمغ بالكفر قول القائلين: أن علم القطب من علم الله تعالى، وقُدرته من قدرته.

وكان أشد هجوم وجّهه ابن تيمية للصوفية، ما تضمنته رسالته إلى الشيخ أبى الفتح نصر المنيجى، المتوفى سنة ٧٠٩ هـ، وفيها يحذّر من الخائضين فى مذهب الاتحادية والحلولية، ليدفع ضررهم عن أهل الطريق السالكين، ويشبّه الجهاد ضدهم بأنه كالجهاد ضد التتار، ويقول: إنه كان قديماً يُحسن الظن بابن عربى ويعظّمه لما رأى فى كتبه مثل الفتوحات، والكُنه، والمحكم المربوط، والدُّرة الفاخرة، ومطالع النجوم، من الفوائد، ولم يكن قد اطّلع على كتابه فصوص الحكَم، فلما تبين له مقصوده فى هذا الكتاب تصدّى له بالنقد الشديد.

ويقول ابن تيمية: إن الكثيرين من الصوفية وقعوا فى الاتحاد والحلول، وهم صنفان، فقوم يخصُّون الحلول أو الاتحاد بالله فى بعض الأشياء أو المشايخ، وقوم يعمُّون فيقولون بحلول الله أو اتحاده فى جميع الموجودات، كما عند الجهمية ومن تبعهم من الاتحادية، كأصحاب ابن عربى، وابن الفارض، والتلمسانى، والبلبانى،

وغيرهم، ولم يسبق إلى ذلك أحد، إلا من أنكر وجود الصانع، لأنهم يقررون أن عين وجود الحق هو عين وجود الخَلْق، وأن وجود ذات الله - خالق السماوات والأرض - هو نفسه وجود المخلوقات، فلا يُتصوَّر عندهم أن يكون الله تعالى خَلَق غيره، ولا أنه ربّ العالمين، ولا أنه غنى وما سواه فقير!

ويؤكد ابن تيمية: أن شيوخ الصوفية المشهورين من أبرأ الناس من مذهب وحدة الوجود. ويقول عن الحلاّج: أنه إن كان قد تاب فى الباطن وقت أن قتلوه، فإن الله ينفعه بتوبته، وإن كان كاذباً فى التوبة فإنه يكون قد قُتل وهو كافر. ويدافع ابن تيمية مع ذلك عن الحلاج ويقول: بأن الرسائل والكلمات التى نُسبت إليه هى فى الغالب منحولة عليه، وإن كانت صحيحة وصدرت منه بالفعل فالغالب أن يصدق عليها أنه قد غلب عليه الوجد والحال، حتى عثر فى المقال ولم يدر ما قال، وكلام السكران يُطوَى ولا يُروَى، ومن ثم فالحلاج المقتول شهيد، وقاتله مجتهد ومجاهد فى سبيل الله. وعلى أى الأحوال، فالحلاّج وغيره، ممن لهم شطحات أدخلتهم ضمن زمرة الحلوليين والاتحاديين، لا ينبغى الاستشهاد بهم من الصوفية فى مجال العقيدة والتوحيد، والأولى الاستشهاد بأقوال المشايخ، مثل الجنيد، والتوحيد الذى يقصد إليه صوفى كالجنيد، هو نفسه ما اتفق السلف عليه، والجنيد عندما يقول: **إن التوحيد هو إفراد القديم عن المُحدَث**، يعنى التوحيد فى القصد والإرادة، وما يدخل فى ذلك من الإخلاص والتوكل والمحبة إلخ، وأن يُفرد الحق سبحانه وتعالى بهذا كله فلا يُشرَك به مُحدَثاً. وذلك صحيح ويلحق بالتوحيد الذى بُعث به محمد ﷺ، وهو التوحيد الذى يميّز بين الخالق والمخلوق، وينزّه القديم عن المُحدَث، ولا يساوى بينهما فى النعوت، ويزيل العلة عن الربوبية. وهو الذى يقوم الإيمان به على القول والعمل والنّية. ولقد كان إيمان الصوفية الكبار من أمثال عبد الله ابن المبارك، وابن أسباط، وابن عياض، وغيرهم، يقوم أيضاً على القول والعمل والنية، وعلى مقولة أنه يزيد وينقص، بخلاف من ادّعى من المتصوفة أن الإيمان وحده بدون العمل يكفى، واسترسلوا مع القدر وجعلوا ذلك من باب التفويض والتوكل، ولم يفرقوا بين ما أمر به الله ويرضاه، وبين ما نهى عنه ويبغضه، فسووا بينهما، وانتهى الأمر بغُلاتهم والمنحرفين منهم، أنهم أصبحوا لا يميّزون بين الأوامر الشرعية وما يكون من

الأحوال التى تجرى على أيدى الكفّار والفجّار ، فيشهدون وجه الجمع بقضاء الله وقدره وإرادته العامة، وأنه داخل فى مُلكه ، ولا يشهدون وجه الفرق بين أوليائه وأعدائه. ويلتبس الامر على البعض فيظنون أن الطريقة الكاملة هى ألا يكون للعبد إرادة أصلاً، ويضربون المثل بقول البسطامى لمّا سألوه، ماذا تريد ؟ فقال: «أريد ألاّ أريد»، فحملوا المعنى على أنه ترك الإرادة مطلقاً! والواقع أن البسطامى لمّا قال ذلك تناقض ، لأنه بقوله قد أراد فعلاً وإن كان قد قال غير ذلك! والغلط فى الإرادة أنهم يتكلمون على إرادتهم ويقصدون بها الإرادة الإلهية. وهم يغلطون من جهة الله تعالى فى كل شئ، فهم مثلاً يقولون إن الله عندما كلّم موسى لم يكلّمه بصوت، لأن الصوت فعل، وهم يثبتون الصفات لله وينفون عنه الفعل، ومن يقول ذلك منهم عدو لله وللإسلام ، فإذا قال الله أنه كلّم موسى فهو قد كلّمه، والغلط أنهم يُقرنون كلام الله بالكلام عند البشر ، وليس الأمر كذلك ، فصوت الله ليس كصوت البشر، لأنه ليس كمثله شئ.

وابن تيمية فى حملته على ابن عربى يبيّن أن مذهبه فى وحدة الوجود مبنى على أصلين، أحدهما: أن المعدوم قبل أن يوجد هو أيضاً شئ؛ والثانى: أن وجود الأعيان هو نفس وجود الحقّ وعينه ، واستدل ابن عربى على الأصل الأول بأن الله تعالى يقول: إنه إذا أراد شيئاً فإنما يقول له كن فيكون ، أى أن الشئ موجود قبل أن يكون ، وردّ عليه ابن تيمية أن الشئ الذى يريده الله أن يكون، قد ثبت فى علم الله وقدّره، ولكنه لم يثبت كحقيقة وهو فى العدم . ويترتب على ذلك بالتبعية بطلان دعوى ابن عربى التى مضمونها، أن الحقيقة المحمدية موجودة عيناً قبل الموجودات، استناداً إلى أحاديث زعمها ابن عربى، وبيّن ابن تيمية أنها مكذوبة ولا أصل لها، من مثل القول المنحول على النبىّ ﷺ : « كنت نبياً وآدم بين الماء والطين»، كما بيّن تهافت الدعوى القائمة على الحديث السابق بوجود خاتم للأولياء يقابل خاتم الأنبياء، وأنه كان أيضاً ولياً وآدم بين الماء والطين، وردد ابن تيمية أن الله سبحانه علِم الأشياء وقدّرها قبل أن تكون، فلا تكون موجودة بحقيقتها إلا حين توجد، وأن تلك حقيقة يستوى إزاءها الأنبياء والأولياء وسائر المخلوقات، فلا فرق، ولكن الصوفية الذين يأخذون بالفلسفة ويقولون بالولاية، ويحتجوّن لها بالأحاديث المنحولة، يبلغ بهم أنهم جعلوا الولاية فوق النبوة، ليجعلوا أنفسهم فى

مرتبة أعلى من مرتبة الأنبياء! وابن عربى يزعم أن لمحمد عليه الصلاة والسلام نبوة ورسالة وولاية، وولايته فوق نبوته ورسالته، لأن الولاية أعلم وأشمل! ويزعم ابن عربى أن الرسل والأنبياء يتلقون لذلك من مشكاة خاتم الأنبياء، فجعل خاتم الأولياء، الذى يقول به، أعلم من جميع الأنبياء والرسل ، بدعوى أن الرسالة والنبوة وَقْتيان، ومآلهما إلى الانقطاع، بينما الولاية لا تنقطع أبداً !!!

ويرتّب ابن عربى المقامات فيجعل مقام النبىّ فى برزخ فوق برزخ مقام الرسول، بينما مقام الولىّ هو الأعلى. ويرد ابن تيمية بأن دعوى ابن عربى كدعوى الملاحدة الذين زعموا أن إمامة علىّ بن أبى طالب من الأزل، وأن مقامه يفضل مقام محمد عليه الصلاة والسلام، وذلك باطل اتفق شيوخ الصوفية على معارضته ودحضه، وعندهم أن الأنبياء والرسل مفضلون على الأولياء، وأن أبا بكر وعمراً مفضلان على علىّ بن أبى طالب، وعلى كل الصوفية والزاعمين منهم الولاية، وقد أجمعت أمة الإسلام على أن النبىّ ما نصّ على أحد يكون بعده، وذلك يشمل علياً، ولم يحدث أن استعمل السلف الصالح تعبير خاتم الأولياء، وحتى لو كان ذلك وارداً، فموجب اللفظ يعنى آخر مؤمن تقى من الدنيا، لأن كل من كان مؤمناً فهو وليّ من أولياء الله، والمؤمن الذى يعيش لآخر لحظة فى الدنيا والذى يكون خاتماً للأولياء أو يُختم به الأولياء، أى المؤمنون، ليس هو أفضلهم ولا أكملهم، فليس معنى خاتمهم أنه أفضلهم أو أكملهم، بل إن أفضلهم وأكملهم هم السابقون من أصحاب محمد ﷺ، وإذا كان ابن عربى وأتباعه يتمسكون بقصة الخَضِر مع موسى عليه السلام، باعتبار الخضر ولياً، وكان يعلم ما لا يعلمه موسى، وقد تابعه موسى ليتعلم منه ما علمه من لَدُنّه. فإن موسى كان على علم من الله لا يعلمه الخضر وهو الشريعة، كما أن الخضر كان على علم لا يعلمه موسى أيضاً، فإذا كان موسى قد انتقد الخضر لأنه قد ارتكب فعلاً تعاقب عليه الشريعة، فإن الخَضِر لم يكن من الذين بعث الله إليهم موسى فيكون ملزوماً بشريعته التى جزاء القتل فيها أن يُقتل القاتل، ومع ذلك فالخضر لم يخالف الشريعة، والأمور التى فعلها الخضر تبيحها الشريعة لو علم العبد أسبابها كما علمها الخضر من الله، ولهذا فإنه لما بيّن له أسبابها وافقه موسى عليها، وإذن فلا معنى لأن يكون الخضر الولىّ

أعلم أو أفضل من موسى النبيّ وصاحب الرسالة!

ومع كل هذا النقد السابق وغيره فإن ابن تيمية يرى أن ابن عربى أقرب القائلين بوحدة الوجود إلى الإسلام، وأحسنهم كلاماً فى الكثير من المواضع ، لأنه لم يخلط الظاهر بالمظاهر، وأقرّ الأمر والنهى والشرائع، وأمر بالسلوك الصوفى على ما أمر به المشايخ من الأخلاق والعبادات، ولهذا فإن الكثيرين من اتباع طريقته الأكبرية (نسبةً إلى لقبه المشهور به وهو الشيخ الأكبر) يستعيرون سلوكهم من كلامه، وينتفعون بجانبه الأخلاقى وإن لم يفهموا جانبه الميتافيزيقى أو الفلسفى. وأما غيره مثل صاحبه الصدر الرومى فكان متفلسفاً، فبَعُد عن الشريعة والإسلام، وكذلك تلميذه الذى يطلق عليه ابن تيمية اسم «الفاجر التلمسانى الملقّب بالعفيف»، وقد ورد فى كتاب «مفتاح غيب الجمع والوجود» للصدر الرومى: أن الله هو الوجود المطلق والمعيّن، ويفرق الرومى بين المطلق والمعين، فالحيوان مثلاً يوجد فى الخارج مطلقاً، كما أنه يوجد متعيّناً فى الحيوانات، وكذلك الله وجوده مطلق ووجوده المتعيّن على الحقيقة فى الأعيان، والوجود المطلق ليس وجوداً على الحقيقة، ولا هو وجود أصلاً، فلا حقيقة ولا ثبوت إلا لنفس الوجود القائم بالمتعيّنات، تماماً مثل الوجود المطلق للحيوان، فهو ليس الوجود على الحقيقة ولكنه وجود بالاسم، وإنما الوجود الحقيقى للحيوان هو هذا الحيوان أو ذاك متجسداً.

وأما الفاجر التلمسانى فهو أخبث القوم وأعمقهم فى الكفر، فإنه لا يفرق بين الوجود والثبوت مثل ابن عربى، ولا بين المطلق والمعيّن مثل الرومى، ولكنه يقول: «ما ثم غير، ولا سوىَ ، بوجه من الوجوه»، وأن العبد إنما يشهد السوىَ ما دام محجوباً (محجوباً عن الحقيقة)، فإذا انكشف حجابه رأى أنه ما ثم غير، يعنى ما ثم غير الله، وما ثم إلا هذه الموجودات، ومن ثم فهى الله متعينٌ فيها. ولهذا كان يستحلّ كل المحرّمات، فالبنت والأم والأجنبية شئ واحد، وليس فى ذلك حرام ، وإنما هؤلاء المحجوبون (الناس) قالوا: حرام، فقلنا: حرام عليكم! وليس شىء حراماً، وكل شىء مباح! وكان يقول: القرآن كله شرك ليس فيه توحيد (لأنه لم ينبّه إلى وجود الله فى المتعينات)، وإنما التوحيد فى كلامنا!!!

وأما ابن سبعين، فإنه فى كتابيه «بُد العارف»، و«الإحاطة»، يقول أيضاً بوحدة الوجود ، وأنه ما ثم غير. وكذلك ابن الفارض فى تائيته، فإنه إن لم يصرح: هل يقول مثل التلمسانى، أو الرومى، أو

ابن عربي، إلا أنه إلى كلام التلمساني أقرب، والتلمساني هو أشدهم كفراً. وآخر يقال له البلياني من مشايخ شيراز، ومن شعره:

وفي كل شئ له آية
تدلّ على أنه عينُه

ومنه:

وما أنت غير الكون، بل أنت عينُه
ويفهم هذا السرّ من هو ذائقه

ومنه:

وتلتذ إن مرّت على جسدي يدي
لأني في التحقيق لست سواكم

ومنه:

ما بال عيشك لايقرُّ قرارُه
وإلام ظلُّك لايني متنقلاً
فلسوف تعلم أن سيّرك لم يكن
إلاإليك إذا بلغت المنزلا

ومنه:

ما الأمر إلا نسقٌ واحد
ما فيه من حمْدٍ ولا ذمّ
وإنما العادة قد خَصّصت
والطبع والشارع في الحكم

وبعد: فهؤلاء سدنة الكفر من الصوفية، وغيرهم كثير، وقد تولى ابن تيمية كشفهم، وأما غيرهم فقد كشفهم آخرون، مما سنورده في مكانه بإذن الله.

والمهم أن نعلم: أن الكفر ممكن حتى عند الصوفية، وذلك عندما ينحرف تفكيرهم كانحراف اليهود والنصارى من قبلهم حين جدّفوا، على الله، وعلى نبيّه ﷺ، حتى أن كباراً منهم، مثل نجم الدين الكبرى، وعمّار بن ياسر، وابن النجيب السهروردي، ووحيد الدين السهروردي، ومحمد بن عمويه، ومحمد الأسود، ومشاد الدينوري والجنيد البغدادي، والسريّ السقطي، ومعروف الكرخي.. ادّعوا نسبة الفتوة إليهم، وردّوها إلى عليّ ابن أبي طالب، عن النبيّ ﷺ، وأنه ﷺ قد ألبسَ لعليّ لباس الفتوة، ليتوارثه عنه هؤلاء في شكل سلسلة أسطورية، كذبوا فيها كذباً أظهر من كذبهم في لباس الخرقة، وأن النبيّ ﷺ تواجد حتى سقطت البُردة عن ردائه، وأنه فرّق الخِرَق على أصحابه، وأن جبريل أتاه فقال له: إن ربّك يطلب نصيبه من زيّ الفقر، فلمّا حصل عليه علّقه على العرش!! وقد تصدّى لهذه الأكاذيب ابن تيمية، وكشف تهافت أحاديث الخرقة الصوفية وارتباطها بالبردة النبوية، وحمل كلام صوفية الشيعة فيها محمل الهزل، وعلّق على الأقوال في السلسلة والخرقة والبردة من باب إيرادها لطرافتها.

* * *



٧٥ - جابر بن حيّان (الصوفي الآبق)...

المعروف عن جابر أنه فيلسوف، غير أن ابن النديم قال إنه: «المعروف بالصوفي»، والناس يختلفون فى أمره، والشيعة تنسبه إليهم، وادّعى أهل الكيمياء أنه كيميائى، وقيل إنه كان عميل السلطة على أهل الفلسفة والتصوّف والعلم، وقيل إنه لا أصل له ولا حقيقة، ولم يوجد أصلاً شخص باسم جابر بن حيّان، وانه اختراع شيعى أضافوه إليهم ليدللوا على أن عظماء المفكرين منهم، ومن أجل ذلك يؤصّلون له أنه من خراسان، وأنه عاش فى الشام وعاصر إبراهيم بن أدهم - وهو خراسانى هو الآخر، وقطع الرازى الشك باليقين وكتب عنه يقول : «قال أستاذنا أبو موسى جابر بن حيّان»، وربما كان استشهاده هذا باعتبار ما قرأه عنه لا باعتبار ما شاهده منه؛ وعن ابن النديم أن من تلاميذ جابر : الفُضَيْل بن عياض، والخَرْقى، والإخميمى.

وعلى أى الأحوال، وبافتراض أنه كان حقيقة، ففيما يبدو أن جابراً لم يكن صوفياً فى الواقع، إلا أنه كان من موالى جعفر الصادق، فأضفى عليه هذا اللقب لمّا رآه يتمذهب ويدّعى الزهد، ويُفرد نفسه بنوع خاص منه لـه نمطه الذى يميزه. والشيعة يزعمون أن علمه وتصوفه أخذهما عن جعفر الصادق. وفى أخبار الحكماء للقفطى، يَرِدُ عن جابر: أنه كان الضليع فى الكثير من أبواب الفلسفة، وأنه تقلّد العلم الباطن - وهو مذهب المتصوّفين من أهل الإسلام، كالحارث المحاسبى، وسهل بن عبد الله التُّسْتُرى، ونظرائهم. ويؤرَّخ لوفاة جابر بسنة ٢٠٨ هـ. وهو أمر مشكوك فيه. وكان علم الكيمياء الذى برع فيه صناعة مصرية، والشيعة ترى أن جابراً كان إماماً معصوماً، والإمام علمه علمٌ محيط، وجابر أحاط بعلم الكيمياء لهذا السبب وليس لأنه أخذه عن المصريين. وتُنسب إليه البراعة فى علم الطلسمات، وهو علمٌ مصرىٌ كذلك، ونوّه الخراسانى به باعتباره الشيخ الصوفى الأجلّ، منشىء كتاب المنتخب. ولو تحرّينا هذا المذهب فى الزهد المنسوب لجابر لا نجد شيئاً له ذا بال، وإنما معنى "الصوفى" الملتصقة باسمه أنه الحكيم -

بحسب التكوين الإيتيمولوجى للكلمة اليونانية، من **Sophos** أى حكمة، ويقال للمشتغل بها أنه "الحكيم" أو «الصوفى»، وإذن فلا ينبغى احتساب جابر بن حيان من المتصوّفة، فهو أبعد الناس عن التصوّف، وليس فى كلامه أية شُبهة تصوّف ـ لا من قريب ولا من بعيد، مع أنه كما هو مشهور، من أول من أُطلق عليه اسم صوفى فى الإسلام وفى العربية، فقد ورد فى الأثر: أن الكوفة اشتهر رجالها بالزهد، واتخذوا لذلك الصوف لباساً لهم، فقيل، إن أول من تسمّى باسم «صوفى» «ثلاثة زُهّاد من الكوفة، هم: جابر بن حيّان، وأبو هاشم الكوفى، وعَبْدَك الصوفى. غير أن جابراً ما كان من الزُّهّاد، ولا من البكّائين، ولا من أهل الله المتنسكين، وما ذكرته المصادر ـ حتى مصادر الشيعة ـ كواحد من أفراد سلسلة من الصوفية يُروَى عنهم. ومما لا شك فيه أن اسم الصوفى لم يُلصق بجابر باعتباره من أهل الله، وإنما باعتباره من المشتغلين بالكيمياء، وهؤلاء كان يقال عنهم ـ كما ذكرنا ـ صوفية، أى حكماء، ومن ثم سمىّ جابر بهذا الاسم، مثلما كان الحال مع المُنجّم أبى بكر عبد الرحمن بن عمر الصوفى، المتوفى سنة ٣٧٦هـ/ ٩٨٦م، صاحب كتاب «صور الكواكب»، فحال جابر مثل حال أبى بكر الصوفى هذا، ولذا لزم التنوية، ويثبت أن أول من وُصِف بأنه صوفى، هو: أبو هاشم عثمان بن شريك الكوفى الصوفى، الذى قال فيه معاصره سفيان الثورى: لولا أبو هاشم ما عرفنا دقائق الرياء. وكان أبو هاشم «أول من بنى خانقاه (دار الصوفية) فى الرملة».

* * *

٧٦ - جامى (أحمد)...

شيخ الإسلام شهاب الدين أبو نصر أحمد ابن أبى الحسن النامقى (٤٤١ ـ ٥٣٦ هـ)، ولقبه زنده بيل، أى ضخم الجثة كالفيل، ولد فى قرية نامق من قوهستان من أصول عربية، وله ديوان الشعر الصوفى المشهور عنه، ومؤلفاته فى التصوّف «أُنس التائبين»، و«سراج السائرين»، و «فتوح القلوب»، و«روضة المذنبين»، و«بحار الحقيقة»، و«كنوز الحكمة»، و«مفتاح السائرين»، و«رسالة سمرقندية»، وتسمى أيضاً «سؤال وجواب». وقيلت فى توبته عندما كان فى الثانية والعشرين، أنه كان يقود حماراً يحمل عليه خمراً لمجلس شراب كان هو ضيفاً عليه، ولكنه سمع هاتفاً يهتف به من أعماقه، أنه لم يخلق لهذه الحياة،

(تماماً مثل ما قيل لإبراهيم بن أدهم)، فأهرق الخمر، واعتزل الناس فى التلال لمدة اثنتى عشرة سنة، يجاهد نفسه ويعودها على الرياضات فى الزهد والنسك والصوم والصلاة والسهر والذكر، ثم رأى فى المنام أنه يستقر فى جبال بزدى بخراسان، وفى قرية يقال لها جام ابتنى مسجد النور، وصارت نسبته الجامى، وكان يدعو الناس ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويراعى ظاهر الشرع، ويزعج السكارى، ويكسر دنان الخمر، ويهدم الحانات، وقد قصده حافظ الشيرازى بهذا البيت:

إن حافظاً هو مربد كأس الخمر فاذهبى بأريج الصبا

وأبلغى عنى العبودية إلى شيخ جام

وقيل إن من تابوا على يديه بلغوا ستين ألفاً، ثم انتقل إلى معد آباد من أعمال جام أيضاً، وابتنى خانقاه ومسجداً جامعاً، ولما قارب الموت أوصى مريديه وأهله بأن يدفنوه خارج معد فى مكان عيّنه، وأن يبنوا فوق قبره مسجداً ورباطاً، وأصبح قرية عامرة يقال لها تربت شيخ جام.

والجامى لم يتلق التصوّف عن شيخ من الشيوخ، وإنما استنّه لنفسه، وحدّد طريقته، وأقامها على الشريعة والسُنّة المُطهرة، وقيل إنه كانت له صِلات بشيخ يقال له أبا طاهر، كان من تلاميذ أبى سعيد بن أبى الخير، وقيل إن أبا طاهر هذا هو الذى ألبس الجامى خِرقة أبى سعيد التى أودعها إياه، إلى أن يجد لها من تنطبق عليه شروطها، فلما انطبقت على الجامى علّمه أصولها.

ويقوم مذهب الجامى فى التصوّف على **تخلية القلب من كل العلائق، وتطهير النفس من الأدران.** ومراحل الرياضة النفسية أربع، هى: النفس الأمّارة، والنفس اللوّامة، والنفس المُلهِمة، ثم النفس المطمئنة. والجامى مرّ بالمراحل كلها وكابدها، وتميّز الارتقاء الروحى أو المدرج السلوكى الروحى للجامى بالإلهام، وتعاليمه كما يقول أتته كلها بالإلهام. واطمئنان النفس تحقيقه اطمئنان القلب، **والنفس المطمئنة** هى غلاف القلب المؤمن، **وغاية المجاهدة** هى اطمئنان النفس والقلب، ووسيلة ذلك الذكر والمداومة عليه، **والصبر على الجهاد.** ولا يقول الجامى بأن التصوّف يتحقق به أن تكون للعبد صفات من صفات الله وكرامات وخوارق، فالكرامة التى يضفيها التصوّف **وعبادة الله تعالى هى الاستقامة على الطريق**، وأن يخلص العبد لله وتناله بركة الطمأنينة، وتلك هى الجائزة.

والجامى - كشاعر - له خمريات

وغزليات، ويتحدّث فى الحب، وكل ذلك من المطروقات عند الشعراء الفرس، خصوصاً فى باب التصوّف، ولكنه لا يدّعى وهو فى مقام الحب، أنه قد فنى عن نفسه فى الله، أو أن الناسوت فيه قد اختلط باللاهوت، فهو وإن كان يبث الله لواعج حبه له، إلا أنه لا ينسى نفسه أبداً فى حضرته، ويظل يذكر أنه فى حضرة ذى الجلال، ومع ذلك فإن التواجد فى الحضرة الإلهية يقتضى من المحب أن يكون على قدر المقام، فإذا كان المحب يتهيأ باللباس لمحبوبه فيضفى على نفسه البهاء، فإن الجامى كصوفى لا يجد أبهى لمقام الحضرة الإلهية من لباس الفقر، لأنه لباس التقوى الذى تحدث الله تعالى عنه فى قرآنه: ﴿ وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ﴾ (الأعراف ٢٦). وشِعْر الجامى الصوفى فيه رصانة وجمال وانسياب.

وبعد وفاته تناول سيرته كثيرون، ولعل أشهر المؤلفات فى الجامى دراسة إيفانوف المستشرق سنة ١٩١٧: «سيرة الشيخ أحمدى جام»؛ و«مقامات شيخ الإسلام أحمد بن أبى الحسن النامقى ثم الجامى» لسديد الدين محمد بن موسى الغزنوى، و«خلاصة المقامات»، لميرزا معصوم على شاه.

* * *

٧٧ - جامى (عبدالرحمن)...

الشاعر الصوفى الفارسى الأشهر، كنيته نور الدين، ولد سنة ٨١٧ هـ بناحية جام من أعمال هُراة، وتوفى بهراة سنة ٨٩٨ هـ، وأسرته من دشت بالقرب من أصفهان، ولذا كان يوقّع تخلُّصَه «دشتى» قبل أن ينتحل اسم «جامى». والجامى يتمتع بشخصية هادئة، وقد أقبل منذ أن وعى الحياة على التصوف، وكان نقشبندياً، تتلمذ على سعد الدين الكاشغرى، تلميذ الشيخ الأكبر بهاء الدين نقشبند، وخليفته على الطريقة من بعده، وتزوّج ابنة سعد وأولدها أربعة أطفال، مات منهم ثلاثة فى الطفولة، ومات الرابع فى الشباب. وشِعْر الجامى ونثره يتخذ الرمزية كالشعر الصوفى الفارسى عند: سنائى، وأوحدى، ونظامى، وخسرو، ولذلك فهو يتجه للأسطورة غالباً، وكانت قصائد جامى من نوع ليلى والمجنون، ويوسف وزليخا، وحكمة الإسكندر، وهو مشهور خصوصاً بقصيدة يوسف وزليخا، والمثنويات السبعة المعروفة باسم الأكاليل السبعة من أسماء الصورة السماوية المعروفة بالدبُّ الأكبر، وهى ثلاث مجموعات غنائية تشكل ديواناً، وتشتمل على مراحل حياته كلها،

حيث المجموعة الأولى اسمها «فاتحة الشباب»، والثانية «واسطة العقد» ، والثالثة «خاتمة الحياة» . وله: «سلسلة الذهب» - وهى مجموعة متسلسلة من الحكايات التى يتخذها إطاراً لعرض وجهة نظره الفلسفية والدينية والأخلاقية؛ و«سلمان وأبسال» - وهى الرواية الرمزية التى تناولها ابن سينا، وابن طُفيل، وشرحها الطوسى؛ وقصيدة «تحفة الأحرار» فى مدح شيخ الطريقة ناصر الدين، المعروف باسم خواجاى أحرار ؛ وقصيدة «سُبحة الأبرار» وهى فى التصوّف - وإن كانت تمتدح السلطان حسين بيقرا . وأغلب أعماله تَوفّر المستشرقون، أمثال: فيتزجيرالد، وأربيرى، وبريستو، وروزنزفايج، وشيزى، على ترجمتها إلى الإنجليزية والألمانية والفرنسية. ولغته وموضوعاته الصوفية يطرحها فى إطار من فلسفته فى وحدة الوجود ، وتتحدّى المنافسة مع آثار أكبر شعراء الصوفية ، وقد قيل إن جامى يُعتَبر آخر سلسلة الشعراء الصوفية الفحول. وله آثار نثرية فى تفسير القرآن والحديث، وشروح على المسائل الصوفية، وأخصّها «شرح فصوص الحِكَم لابن عربى»، و«شرح خمرية ابن الفارض»، و«الدرر الفاخرة فى التصوّف والحكمة»؛ وله «نفحات الأنس» - الكتاب الموسوعى الذى يتضمن سِيرَ الصوفية، مع دراسة شاملة للتصوّف، وترجمه لجامى على طريقة «تذكرة الأولياء» لفريد الدين العطار، للمستشرق الفرنسى سيلفستر دى ساسى. ونذكر كذلك «شواهد النبوة»، و«اللوائح» التى ترجمها وينفيلد، و«بهارستان» - وهى مجموعة حكايات عجيبة وقصص تعليمية عن الحيوان، ومضمونها صوفى، ولها عدّة ترجمات ألمانية وفرنسية، لماسيه وآخرين . وكان جامى - فى كتاباته وحياته الصوفية - أوحد زمانه كما وصفه أحد مؤرخى سيرته .

ويعتبر البعض «نفحات الأنس» أهم مؤلفات جامى، وبمثابة العينين بالنسبة لهذه المؤلفات ، إلا أنه كان فيه ناقلاً عن غيره، فقد استعان فى تأليفه بطبقات السُّلَمى، وبترجمة عبد الله الأنصارى للكتاب إلى الهروية ؛ ونَقَل الكثير عن الهجويرى من كتابه المرجع «كشف المحجوب»؛ كما نقل عن أسرار التوحيد لمحمد بن المنور، حفيد أبى سعيد بن أبى الخير. وطريقته فى الترجمة بسيطة، فمثلاً فى ترجمة أوحد الدين حامد الكرمانى يقول: إنه بعد ما قَدِم شمس الدين التبريزى أثناء رحلته إلى بغداد، قابل

أوحد الدين الكرماني الذى كان شيخاً لإحدى الخانقاوات فى بغداد، وسأل خلال المقابلة: فيمَ أنت؟ فأجاب: إنى أرى القمر فى طست من الماء! فقال الشيخ شمس الدين: إذا لم يكن على قفاك دمل فَلِمَ لا تراه فى السماء؟!! - ويروى الجامى من غرائب السلوك: أن الكرمانى كان يحمّى فى السماع، فيشق جيوب قمصان الغلمان المُرد ويمد يديه إلى صدورهم!! ويفسر الجامى ذلك فيقول: قال بعض الكبراء العارفين قدّس الله تعالى أسرارهم: يعتقد أرباب التوحيد والتحقيق أن الفرد الكامل هو الذى يشاهد ببصره الجمال المطلق للحقّ سبحانه فى المظاهر الكونية الحسّية، كما يشاهد ببصيرته المظاهر الروحانية!! - وكان الجامى يرى فى السماع أنه إذا ظهر الوجد فى الإنسان عن غير إرادة فهو مباح. ويقول فى الجذبة: إن السالك الكامل فى السَّيْر إلى الله تتحقق له الجذبة، بالجلوس فى الخلوة، غائباً عن وجود نفسه، متخلّياً عن ذاته وصفاته، يرى نفسه فى مرآة حبيبه، ويرى حبيبه فى مرآة نفسه، ويقرأ فى مرآة نفسه أحوال حبيبه وصفاته!!.

ومن غزليات الجامى:

اسم محبوبنا حرز الأرواح، فما أعزّ اسمه وما أعلاه!

واسمه كنز كتاب اللاهوت، وكنز الغيب الذى يظهره

وكل الأسماء مظاهر للذات، وكل الأشياء مظاهر للأسماء

ولست أرى فى الوجود إلا هو، امحى اسم الغير وذهب نقش السوى

هو وجود مطلق: أين هو، وأين أنت، وأين أنا؟

فنيت الأنا والهو والأنت وصار سرّ الوحدة من الكل واحداً

ولا تصبر روح الجامى عن حقيقة الوحدة، كما لا تصبر السمكة عن البحر...

* * *

٧٨ - الجرجانى (أبو الحسن)...

علىّ بن محمد بن علىّ (٧٤٠ - ٨١٦ هـ)، وكنيته أبو الحسن الحسينى، وشهرته السيد الشريف، صاحب كتاب «التعريفات»، وهو معجم يشرح الألفاظ المصطلح عليها فى كافة فروع المعرفة، ومن ذلك التصوّف. والجرجانى كان حنفياً ومتصوّفاً، وحياته تشهد له بالورع والتقوى، ومعرفته بالمصطلح نتيجة قراءاته وغشيانه لمجالس العلم، ويحتوى التعريفات (حقّقه ونشره دكتور عبد المنعم الحفنى) على نحو ١٩٠٣ مصطلحاً، منها

نحو ثلاثمئة مصطلح تخص التصوّف وحده. ولا يخشى الجرجاني من تبسيط التعريف، وهدفه من ذلك تسهيل تناوله للطالبين. والجرجاني تلقى العلم في هراة لمدة أربع سنوات على قطب الدين الرازي، الذي نصحه بالشخوص إلى مصر ليدرس على تلميذه مباركشاه، فأقام بها أربع سنوات، بخانقاه سعيد السعداء. وبعدها بدأ التدريس ومناقشة العلماء والسياحة، وفي سمرقند جرت بينه وبين سعد الدين التفتازاني محاورات لم يعرف من كان الغالب فيها. ومعظم مصنفاته شروح، وهو يقول في التصوّف: إنه مذهب كله جدّ. وقال: «هو تصفية القلب عن مواقف البرية، ومفارقة الأخلاق الطبيعية، وإخماد صفات البشرية، ومجانبة الدعاوي النفسانية، ومنازلة الصفات الروحانية، والتعلق بعلوم الحقيقة، والنُصح لجميع الأمة، واتباع الرسول في الشريعة». وقال: التصوّف ترك الاختيار، وبذل المجهود، والأنس بالمعبود، وهو الإعراض عن الاعتراض، وصفاء المعاملة مع الله تعالى، وأصله التفرغ عن الدنيا». وقال: هو خدمة التشرُّف وترك التكلُّف، والأخذ بالحقائق، والكلام بالدقائق، والإياس مما في أيدي الخلائق».

ويقول الجرجاني في المريد: هو المجرّد عن الإرادة؛ والسالك: هو الذي مشى على المقامات، بحاله لا بعلمه وتصوّره؛ والمقام عبارة عمّا يتوصّل إليه بنوع تصرُّف، ويتحقق به بضرب تطلُّب ومقاساة تكلُّف؛ والسُّكر: غفلةٌ تعرض بغلبة السرور على العقل؛ والقبض والبسط هما حالتان بعد ترقّي العبد عن حالة الخوف والرجاء. فهذه أمثلة مما في كتاب الجرجاني من تعريفات دقيقة وإشارات رقيقة، فإن أردت كلاماً عن التصوّف ككلام العلماء، فلترجع إلى الجرجاني في التعريفات، فهو من أوفى المصنفات في ذلك، حتى أن الفرنسيين قلّدوه عليه في الاسم والمنهج والغاية ووضعوا تعريفات مشابهة وإن لم تكن مماثلة.

* * *

٧٩- الجَرْمي (العالم الناصح)...

عبد الله بن زيد بن عمرو الجَرْمي، وشهرته أبو قُلابة، وكان عالماً بالأحكام، وعاش بالبصرة، فأرادوه على القضاء، فهرب إلى الشام، ومات فيها سنة ١٠٤ هـ (٧٢٢م)، وكان من أهل الحديث الثقات، وقالوا فيه: أبو قلابة كان من الفقهاء ذوي الألباب. وأعلم الناس بالقضاء واشدّهم فراراً منه، وما كان هناك

من هو أعلم بالقضاء من أبى قلابة، وكان يكره الحرورية، ويحذّر من أصحاب الأكسية، ومن القُصّاص، وأهل الأهواء، ويقول: ما أمات العلم إلا القُصّاص. وروى عنه كثيرون، منهم عبد الله بن أحمد بن حنبل، والخليفة عمر بن عبد العزيز - وكان من جلسائه.

والتصوف عند الجُرْمى: علمٌ وانتصاح؛ ومن تعاليمه لتلاميذه. أعلم الناس الذى يزداد من علم الناس إلى علمه. ومَثَل العلماء كمثل النجوم التى يُهتَدى بها، والاعلام التى يُقتَدى بها، فإذا تغيّبتْ تحيّروا، وإذا تركوها ضلّوا. يقول: العلماء ثلاثة: فعالمٌ عاش بعلمه، وعاش الناس بعلمه؛ وعالمٌ عاش بعلمه ولم يعش الناس بعلمه؛ وعالمٌ لم يعش بعلمه ولم يعش الناس بعلمه. ومَثَل الإمام كمثل الفسطاط، لا يقوم الفسطاط إلا بعمود، ولا يقوم العمود إلا بالأوتاد، وكلما نُزِع وتد ازداد العمود وهناً. وكان يدعو فيقول: اللّهم إنى أسألك الطيّبات وترك المنكرات، وحُبّ المساكين، وأن تتوب علىّ، وإذا أردتَ لعبادك فتنة أن تتوفنى غير مفتون». - وكان يقول: أعلَم العلم: أن يعرف الإنسان نفسه، وذلك قمين أن يُنجيه علمه، فإذا كان الناس أعلم به من نفسه فذلك قمين أن يَهلَك». ويقول للمريدين: إذا أحدث الله تعالى لك علماً فأحدث له عبادة». وفلسفة أبى قلابة قوامها الوسطية: وسطية الإسلام، يقول: خير الأمور أوسطها. ويقول: لا تُقبلوا على الردىّ، فالله تعالى قد نزع من كل ردىّ بركته».

* * *

٨٠ - الجريرى (أبو محمد)...

أبو محمد أحمد بن الحسين، من كبار أصحاب الجنيد، وخلفه فى مجلسه، وتوفى سنة ٣١١ هـ، وكان يقول إنه ربّانى وقرّاء، ويدعو تلاميذه إلى أن يكونوا مثله ربّانيين، أى سامعين من الله وقائلين بالله، أى بالقرآن، والذى يقرأ القرآن بقصد الدرجات فى الجنة فقد رضى بالقليل بدلاً عن الكثير، لأن الجنة مخلوقة والقرآن غير مخلوق، ومعظم الفائدة فى قراءة القرآن ، والقرّاء يطلب الآخرة ويسعى لها سعيها، ويعرض عن الدنيا والاشتغال بها، لقوله تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ (الأعراف ١٤٦)، يعنى لا يفهمونها ولا يجدون لها لذة، فيصرف الله عن قلوبهم فَهْم مخاطباتها، ويغلق عليهم سبيل فَهْم كتابه، ويسلبهم الانتفاع بمواعظه، فلا يعرفون الحقّ ولا يسلكون سبيله.

والجـزيري أول صـوفي يتحـدّث عن دلائل وجـود الله ويعـدّدها ثلاثـة: مُلكه الظـاهر؛ ثم تدبيـره في مُلكه؛ ثم كلامـه الذي يستوفي كل شئ، فتلك أدلّ الأشياء على وجود الله .

ويذكر الجزيري في سبب تصوّفه: أنه رأى أن الأعمال لا تُوَصّل إلى الله تعالى، ولا تبلغ بالمريد مأموله، لان النبيّ ﷺ قال: «لن ينجي أحداً منكم عملُه»، وإنما الذي يُنجيه فضل الله، ومن صحّ اعتماده على فـضل الله فـذلك الـذي يُرجَى له الوصـول، ومن لم يحكّـم بينه وبين الله التـقوى والمراقـبة، لا يصل إلى الـكشف والمشاهدة.

* * *

٨١ - الجزولي...

والكُزولي، والغُزولي أيضاً، نسبةً إلى جـزولة أو كـزولة أو غـزولة، أحد بطون البربر من سوس المراكشية، ومنهم عبد الله ابن ياسين، منشئ حركة المرابطين الدينية والسياسية. والجزولي أو أبو عبد الله **محمد ابن سليـمـان بـن أبي بكر، الجـــزولي، السمـلالي، الشاذلي** (٨٠٧ ـ ٨٧٠ هـــ)، هو صاحب كتاب «**دلائل الخيرات**» واسمه على الحـقيـقة «**دلائل الخـيـرات وشـوارق الأنوار في ذكر الـصلاة على النبيّ المختـار**»، وهو مجموعة صلوات على النبيّ ﷺ ، مع وصف ضريحـه، وذكر أسمائه وغـير ذلك، طُبع عشرات المرات، وكان تصنيفه بفاس مستعـيناً بما في مكتبة القرويين من ذخائر، وكان قد توجـه في سياحة طويلة زار فـيـهـــا طنجـة ومكة والمـدينة وبيت المقـدس، ولما عـاد انضم إلى **الطريـقـة الشاذلية**، وله «حزب الفلاح»، و «حزب الجـزولي» ويعرف أيضـاً باسم «حـزب سبحان الدائم الذي لا يزول» كتبه بالعامية، وهو مـنشـئ **الطريقـة الجزولية الشاذلـية**، وأتباعه يرددون البسملة: **أربعة عـشر ألف مرة! ودلائل الخيرات مـرتين في اليـوم**، ويتلون في الليل دلائـل الخـيـرات مـــرة واحـدة، **هي والربع الأخـير** من القرآن. وكان الجزولي قد اعتزل لفـترة اشتغل فيها بالتعبّـد، ثم توجه إلى آسفي، وهناك زاد أتباعه زيادة كبيرة، فخاف والي المدينة من الجزولي وتنامي قوته، وطلب منه الخروج بهم، ويقـال إن الجزولي دعـا على المدينة فـوقعت في أيـدي البرتغـاليـين، وظلت خاضـعـة لهم مدة أربعـين سنة. ويبدو أن والي المدينة دسّ السـم للجزولي قبل أن يرحل، وقيل إنه مات مسمـوماً في بقعة يقال لـها **أفعـال**، قيل سنـة ٨٧٠، وقيل سنة ٨٧٣ هـ ، فما نفـعه ادّعاؤه الولاية. وقد أقـسم أحـد أتباعه ويدعى عـمـرو ابن **سليمان الشيظمي**، المعروف بالسيّاف، أن

يثأر له، وادّعى النبوة بعد ذلك، ووضَع جثمان الجزولي في تابوت لم يدفنه، وحفظه في رباط، يضاء حوله في الليل بشمعة في طول القامة، في إناء مملوء بالزيت، ولما توفي عمرو السيّاف عام ٨٩٠ هـ دُفن الجزولي بعد وفاته بعشرين سنة، وبعد ذلك بسبعة وسبعين عاماً أخرج السلطان أبو العباس أحمد الملقب بالأعرج، بعد دخوله مراكش، رفات الجزولي من مقبرته هي وبقايا رفات والد السلطان الذي كان مدفوناً إلى جواره، وربما كان ذلك لأغراض دينية أو سياسية، وأخذ معه التابوتين إلى مراكش، ودَفَن الجثتين هناك. وكان الجزولي إلى جانب ثقافته الواسعة بالطرق الصوفية، فقيهاً متمكّناً يحفظ عن ظهر قلب المدونة، والمختصر الفرعي لابن الحاجب، ومناقبه وأخبار طريقته مسرودة في كتاب «ممتع الأسماع بمناقب الشيخ الجزولي ومن له من الأتباع» لمؤلف مجهول. وقيل إن الجزولي مات عن ٢٦٦٥ مريداً.

* * *

٨٢ - الجشتي (أبو إسحق)...

صاحب الجشتية، طريقة هندية، قيل إنه من نسل سيدنا عليّ، يعني طريقته طريقة علوية، وهاجر الجشتي إلى بلدة جشت في خراسان، وإليها يُنسب، وقيل مُنشىء الطريقة أحمد أبدال الجشتي (من جشت)، واستقدمه إلى الهند معين الدين السجزي، واستقر في أجمير. وقيل إن معين الدين هو نفسه الجشتي، وهو صاحب الطريقة، وأطلقوا عليه ألقاب ملك هند، يعني شمس مملكة الهند، فقد كان من أكابر مشايخ الصوفية والأولياء، وكانت ولادته سنة ٥٣٧ هـ، وتوفي أبوه وهو في الخامسة عشرة، فتنقّل بين البلاد، وتعرّف في بغداد على أشهر صوفية زمنه، ومنهم: نجم الدين كبرى، وشهاب الدين السهروردي، وأوحد الدين الكرماني، ثم وفد سنة ٥٨٩ هـ إلى دهلي، ومنها انتقل إلى أجمير، وتوفي فيها عام ٦٣٣ هـ، وقبره مزار، وقد حجّ إليه الإمبراطور أكبر سيراً على الأقدام، وخلفه على الطريقة خواجه قطب الدين بختيار، ثم بابا فريد سكر كنج، وكان له مريدان، أحدهما عليّ أحمد صابر، وأتباعه يعرفون باسم صابر جشتي، والآخر نظام الدين أولياء، ويتسمّى أتباعه باسم نظامي، ومنهم نصير الدين محمود بن يحيى يزدي أودهي الملقب جراغ دهلي أي نور دهلي، وكان من أبرز مريدي الشيخ نظام الدين، وكان أبوه تاجر أقمشة وتوفي ومحمود في

الثامنة ، فأشرفت أمه على تربيته على المشايخ ، فما وافى الخامسة والعشرين إلا وقد اعتزل الناس لسبع سنوات، يشقّ فيها طريق مجاهدة النفس بالصلاة والصوم، فلما بلغ الثالثة والأربعين توجّه إلى دلهى أو دهلى كما كان يقال لها آنذاك ، وانتظم كمريد للشيخ نظام فى جماعة خانة ، وأقامه شيخه الذى كان وقتها فى الرابعة والتسعين خليفة له، وخلع عليه آثار شيخه وهى الخرقة، والمسبحة والسجادة، وغير ذلك، ونهج جراغ نهج شيخه فى طريق الفقر والصبر والتسليم لله والرضا ، وظل عزباً طوال حياته ، وبعد شيخه، ظل يهدى الناس اثنتين وثلاثين سنة ، وعاش وأتباعه مطيعين للشريعة، وشغلوا أنفسهم بتدريس العلوم، واستمسك بسُنّة أوليائه الجشتية، فلم يكتب أى كتاب، ولكن أحكامه جمعها حميد قلندر فى كتاب «خير المجالس» ، ويحتوى على مائة مجلس ، وراجعه الشيخ بنفسه ، وألحق به مؤلفه تكملةً بعد وفاة الشيخ. وكان لمحمود تأثير ضخم فى دهلى أو دلهى وخارجها ، وذلك واضح من الثبت الطويل لمشاهير مريديه وخلفائه مما نجده فى كتاب «أخبار الأخيار» لقلندر ، وتوفى الشيخ بعد مرض قصير سنة ٧٥٧ هـ ، ودفن فى داره دون أن يستخلف أحداً ، ودفنت الآثار التى تلقاها عن شيخه معه ، وذلك رمز لنهاية السلسلة الأولى من أئمة الجشتية فى الهند، وأقيم على قبره ضريح شيّده السلطان فيروز شاه .

والجشتية يركّزون فى الذِّكر على الشهادة ، ويؤكدون على «إلا الله» ، ويترنمون فى صلاتهم، ويلبسون الثياب المصبوغة بلحاء شجر السنط . ومن شعائر الدخول فى الطريقة: أن المريد يصلى أولاً ركعتين ، ثم تؤخذ عليه التوبة ، ويُلقّن معانى كلمات مثل الفقر، والقناعة، والرياضة، ويُكشف له عن اسم من أسماء الله ، ويُطلَب إليه أن يتوجّه إلى أحد الأضرحة ويلزمه صائماً أربعين يوماً، تُعرف باسم چلّة كشى ، ثم يلقن حدود الطريقة، ويُحرّم عليه من بعد ذلك تعاطى المسكرات أو المخدرات . وللجشتية أناشيد، وأكبر شعرائهم على ما يبدو هو بده شاه، وغلام شاه، وخواجه غلام فريد، ولهم كتب فى تراجم أوليائهم مثل «سِيَر الأولياء» لمحمد مبارك كرمانى، «وخزينة الأصفياء» لمفتى غلام سرور .

* * *

٨٣ - جعفر الصادق (الإمام الناطق)...

أبو عبد الله جعفر بن محمد الباقر ابن

علىّ زين العابدين بن الحسين السِبْط، صاحب الزمام السابق، لقّبوه الصادق لأنه ـ كما قيل ـ لم يعرف الكذب قطّ! وكان ذا علم غزير فى الدين، وأدب كامل فى الحكمة، وزهد فى الدنيا، وورع تام عن الشهوات. وكان ميلاده بالمدينة سنة ٨٠ هـ (٦٩٩م)، وبها توفى سنة ١٤٨ هـ (٧٦٥م)، وعاش بالعراق زمناً، فكان مستغرقاً فى العلم، وآثر العبادة والعزلة والخشوع، ونهى عن الرئاسة، وكان ناطقاً بالإمامة. والتصوّف انتفاع بالأسباب، وارتفاع بالأنساب. وقال فيه أبو حنيفة: ما رأيت أفقه من جعفر بن محمد». وساواه مالك بنفسه وابن جريج، وكانت له شبه مدرسة سقراطية، وروى عنه: يحيى بن سعيد الأنصارى، وأيوب السختيانى، وأبان ابن تغلب، وأبو عمرو بن العلاء، ويزيد بن عبد الله بن الهادى؛ وحدّث عنه من الأعلام: مالك بن أنس، وأبو حنيفة النعمان، وشعبة ابن الحجاج، وسفيان الثورى، وابن جريج، وعبدالله بن عمر، وروح بن القاسم، وسفيان ابن عيينة، وسليمان بن بلال، وإسماعيل بن جعفر، وحاتم بن إسماعيل، وعبد العزيز بن المختار، ووهب بن خالد، وإبراهيم بن طهمان؛ وأخرج عنه مسلم فى صحيحه. وكان له فى مسجد الكوفة وحده: تسعمائة شيخ من تلاميذه! ولم يحتج به البخارى لأن الجهّال اكتنفوه، يدخلون عليه ويخرجون من عنده، ويقولون: حدّثنا جعفر بن محمد، ويحدّثون بأحاديث كلها منكرات وأكاذيب موضوعة عليه، يستأكلون الناس بذلك، ويأخذون منهم الدراهم. ولمّا اشتد الصراع بين الفِرَق الإسلامية فى الجبر والخلق والصفات والقدر وغيرها، قال الصادق فى الإرادة: أراد الله بنا شيئاً وأراد منا شيئاً، فما أراده بنا طواه عنا، وما أراده منا أظهره لنا، فما بالنا نشتغل بما أراده بنا عمّا أراده منا ؟! وقال فى القدر : إنه أمرٌ بين أمرين، لاجبر ولا تفويض. وتبنّى الصوفية ذلك فقال ابن عربى:

فإن قلتُ بالتنزيه كنتُ مقيِّداً
وإن قلت بالتشبيه كنت محدِّداً
وإن قلتُ بالأمرين كنت مسوِّداً
وإن كنتُ إماماً بالمعارف سيداً

وكفّر الصادق: المرجئة، والقدرية، والحرورية، وقال قولته المشهورة : فإن الكلام فى الله لا يزداد صاحبه إلا تحيّراً». ولم يقل كالشيعة: بالغيبة، والرجعة، والبَداء، والتناسخ، والحلول، والتشبيه، ولكن الغُلاة تعلّقوا به حتى ألّهوه، وجعلوه مهدياً منتظراً! وقال الصادق

فيهم: «لا تقاعدوهم، ولا تؤاكلوهم، ولا تشاربوهم، ولا تصافحوهم، ولا تناكحوهم، ولا توارثوهم». وادّعى الغلاة أن عنده العلم بالجفر، وبجميع الدين فى العقليات والشرعيات.

والصادق يؤيد أن يكون للمولى أكثر من رأى بحسب المخاطَبين، وأن يلبس أكثر من لبس بحسب مستواهم الاجتماعى والاقتصادى. ولم يرضَ أن يلبس الصوف كالصوفية، ولا الخرقة، وارتدى جبّة من الخزّ وكساء خزّ، ودخل عليه الثورى فقال: يا ابن رسول الله! ليس هذا من لباسك ولا لباس آبائك! فقال جعفر: يا ثورى! كان ذلك زماناً مقفراً مُقتراً، وكانوا يعملون على قدر إفقاره وإقتاره. وهذا زمان قد أقبل كل شىء فيه»! ثم حسر جعفر عن رُدن (كم) جُبّته، وإذا تحتها جبة صوف بيضاء يقصر الذيل عن الذيل والرُدْن عن الرُدْن، فقال: ياثورى! لبسنا هذا لله، وهذا لكم! فما كان لله أخفيناه، وما كان لكم أبديناه»! وهو كلام فيه ازدواجية المعايير ولا يمكن به أن يكون صادقاً! ومع ذلك قد كان للصادق تصوّفٌ له فلسفته، وفيه المقامات والأحوال، يقول: عزّت السلامة حتى لقد خفى مطلبها، فإن تكن فى شىء فيوشك أن تكون فى الخمول؛ وإن طُلبت فى الخمول ولم توجد فيوشك أن تكون فى التَخلّى، فإن طُلِبت فى التَخلّى ولم توجد فيوشك أن تكون فى الصمت؛ فإن طُلِبت فى الصمت ولم توجد فيوشك أن تكون فى كلام السلف الصالح، والسعيد من وجد نفسه فى خلوة يشتغل بها. والخوف أساس كل شىء، يقول: من خاف الله أخاف الله منه كل شىء، ومن لم يخف الله أخافه الله من كل شىء.

ويقول: إذا حزبك أمر من سلطان أو غيره فأكثر من «لا حول ولا قوة إلا بالله». وسألوه: ما بالنا ندعو فلا يُستجاب لنا؟ قال: لأنكم تدعون من لا تعرفونه. فإذا عرفتم الله كانت لكم هذه المنزلة: لقد تجلّى الله لخلقه فى كلامه ولكن لا يبصرون، وخَلْقه هم أهل الخصوص.

وفلسفة الصادق فى التصوّف يوجزها قوله عن الله تعالى: أوحى الله تعالى إلى الدنيا أن اخدمى مَنْ خدمنى، وأتعبى من خَدَمكِ». وكان يقول فى طريقته لمّا طالبوه أن يعتذر: وكيف أعتذر وقد احتججت! وكيف أحتجّ وقد علمت»! - يعنى احتجاجه عن علم، فلمّا علم، احتج فليس من سبب يدعوه للاعتذار بعد ذلك. وأوصى فقال: يا بُنىّ اقبَل وصيتى،

واحفظ مقالتي، فإنك إن حفظتها تعش سعيداً، وتَمُت حميداً ! ـ يا بنى مَن رضى بما قُسم له استغنى، ومن مدّ عينه إلى ما فى يد غيره مات فقيراً، ومن لم يرض بما قَسَم الله له اتّهم الله فى قضائه، ومن استصغر زلّة نفسه استعظم زلة غيره، ومن استغفر زلّة غيره استعظم زلة نفسه!ـ يا بنى مَن كشف حجاب غيره انكشفت عورات بيته، ومن سلّ سيف البغى قُتل به، ومن احتفر لأخيه بئراً سقط فيها، ومن داخل السفهاء حقر، ومن خالط العلماء وقر، ومَن دخل مداخل السوء اتُّهم ! ـ يا بنى إياك أن تزرى بالرجال فيزرَى بك. وإياك والدخول فيما لا يعنيك فُتذَلّ لذلك ! ـ يا بنى قل الحقّ لك أو عليك، تُستشان (يكون لك شأن) من بين أقرانك! ـ يابنى كن لكتاب الله تالياً، وللإسلام فاشياً، وبالمعروف آمراً، وعن المنكر ناهياً، ولمن قطعك واصلاً، ولمن سكت عنك مبتدئاً، ولمن سألك معطياً. وإياك والنميمة فإنها تزرع الشحناء فى قلوب الرجال، وإياك والتعرُّض لعيوب الناس فى غير موجب! ـ يا بنى إذا طلبتَ الجود فعليك بمعادنه، فإن للجود معادن، وللمعادن أصولاً، وللأصول فروعاً، وللفروع ثمراً، ولا يطيب ثمر إلا بأصول، ولا أصل ثابت إلا بمعدن طيب ! ـ يابنى إنْ زرت فزر الأخيار ولا تزر الفجّار، فإنهم صخرة لا يتفجّر ماؤها، وشجرة لا يخضر ورقها، وأرض لايظهر عشبها!

ومن تعاليمه : لا زاد أفضل من التقوى، ولا شىء أحسن من الصمت، ولا عدو أضرّ من الجهل، ولا داء أدوى من الكذب. وقال: الصلاة قربان كلّ تقىّ، والحجّ جهاد كل ضعيف، وزكاة البرّ فى الصيام، والداعى للأعمال كالرامى بلا وتَر، واستنزلوا الرزق بالصدقة، وحصّنوا أموالكم بالزكاة، وما عال من اقتصد، والتدبير نصف العيش، والتودد نصف العقل، وقلة العيال أحد اليسارين، ومن أحزن والديه فقد عقّهما، ومن ضرب يده على فخذه عند مصيبة فقد حبط أجره، والصنيعة لا تكون صنيعة إلا عند ذى حسب ودين، والله تعالى مُنزل الصبر على قدر المصيبة، ومُنزل الرزق على قدر المئونة، ومَن قدّر معيشته رزقه الله تعالى، ومن بذّر معيشته حرمه الله تعالى.

ومن أقواله : إياكم والخصومة فى الدين فإنها تشغل القلب، وتورث النفاق. والإنسان بُنِىَ على خصال، فمما بُنِىَ عليه أنه لا يبنى على الخيانة والكذب. والفقهاء أمناء الرسل، فإذا رأيتم الفقهاء قد ركبوا إلى السلاطين فاتّهموهم. والمعروف لا يتم إلا بثلاثة: بتعجيله، وتصغيره، وستره.

ومن دعائه : اللهم أعزّنى بطاعتك، ولا تحزنى بمعصيتك. اللهم ارزقنى مواساة من قترتَ عليه رزقه بما وسّعت علىّ من فضلك.

وقال لتلميذه : قل أولاً : يا سابق الفوت، ويا سامع الصوت، ويا كاسى العظام لحماً بعد الموت، ثم ادعُ بما شئت.

ولفريد الدين العطار أقوالٌ فى الصادق يغلو فيه، يقول : ذلك سلطان الملّة المصطفوية، وبرهان الحُجّة النبوية، وهو العامل الصدّيق، عالم التحقيق، العارف العاشق جعفر الصادق، شيخ الإلهيين، وإمام المحمديين، ومُقدّم أهل الذوق، ودليل أهل العشق !

* * *

٨٤ - الجعفرى: الإمام الجَلِىّ...

الشيخ صالح الجعفرى (١٣٢٨-١٣٩٩هـ)، مؤسّس «الطريقة» الجعفرية الأحمدية المحمدية، عن شيخه أحمد ابن إدريس، وقد خلفه عليها ابنه عبد الغنى صالح الجعفرى.

والجعفرية مزيج من الشاذلية، والخلوتية، ولا جديد فيها عنهما سوى ارتباطها بالجعافرة؛ وتفرعّت منها الطريقة النوسية، فقد كان محمد السنوسى صاحب الجبل الأخضر من تلاميذه صالح الجعفرى؛ كذلك كان من تلاميذه السيد عثمان المرغنى، والشيخ المجذوب السواكنى، وإبراهيم الرشيد - وهذا الأخير وطريقته هى الأحمدية الإدريسية الرشيدية.

والجعافرة قبيلة تسكن مصر والسودان، وكانت ولادة صالح الجعفرى بدنقلا، ودرس بالأزهر وحصل على إجازة التدريس من كلية الشريعة، وعين إماماً ومدرساً بالجامع الأزهر، فاتخذ من رواق المغاربة مقراً له ،متفرّغاً لتدريس العلم والدعوة إلى الله تعالى تعالى، وكانت له خلوة يتعبّد فيها ولا يغادرها إلا للحج، فالتف حوله المريدون، وقد عكف على مؤلفات أحمد ابن إدريس، وسافر من أجل المخطوطات إلى المغرب، وزار خلوته التى كان يتعبّد فيها، والتقى بمشايخ الطريقة، وحصل منهم على أوراقه وكلماته، فنقّحها وصحّحها، وعلّق عليها وخرّج أحاديثها، ورقّم آياتها، وطبعها على نفقته، ونشرها، وجدّد بذلك تراث أحمد بن إدريس، وله فى التصوّف: «فتح وفيض من الله» يشرح فيه المعانى فى كلمة لا إله إلا الله، وما يتعلق بها من الإشراقات والنفحات؛ و«المُنتقَى النفيس» يتحدّث فيه عن أصل الطريق، ويترجم لحياة أحمد بن إدريس، ونهج الطريقة الإدريسية؛ و«مفتاح كنوز الأرض والسماء» - ويتناول الطريقة، وإشراقاتها الروحية والقلبية؛

و«المعاني الرقيقة» والمقصود بها الإشارات الصوفية؛ و«كيمياء اليقين»؛ و«لوامع البروق النورانية»؛ و«الإلهام النافع»؛ و«آداب وإرشادات»؛ و«النفحات والخبرات الجعفرية»؛ و« الذخيرة المعجلة »؛ و«رسالة الأوراد الإدريسية»؛ و«رسالة الكشف والبيان»؛ وله ديوان شعر جيد أطلق عليه اسم «الديوان الجعفري»، وهو مجموعة قصائد في مدح الرسول وأهل البيت ، وبعضها يشمل مواعظ قلبية، وأحكام فقهية، وإرشادات للمريدين والسالكين . ومن الكتب في نسب ومدرسة صالح الجعفري كتاب «الحقّ الجليّ» لمحمد طاهر خراشي العدوي. والعنوان من كلمات الشيخ صالح، ولذا سَمّوه «الإمام الجليّ».

* * *

٨٥ - الجلوتي (هدائي الإسكوداري)...

عزيز محمود هدائي الإسكوداري، مؤسس الطريقة الجلوتية، نسبةً إلى إسكودار من تركيا، حيث مقام الطريقة؛ والجلوتية من «الجلوة»، وهي مرحلة تأتي بعد «الخلوة»، فالخلوتي الذي ينزع عن نفسه الأنانية ويصبح مع الله فتتحقق له الجلوة، والجلوتي لا يبلغ هذه الدرجة إلا إذا صار خلوتياً .

وقيل إن الجلوتية ، فرع من الطريقة الهاشمية التي أسسّها في تركيا هاشم بابا، وهو شيخ جلوتي كان في وقت ما ملامتياً.

وقيل إن الجلوتية ينحدرون أصلاً من الطريقة البيرامية، نسبةً إلى حاجي بيرام، حيث كان هدائي تلميذاً للشيخ أوفتاده الذي تلقّى عن حمد الله جلبي ، الذي أخذ عن آق شمس الدين عن شيخه حاجي بيرام .

والجلوتية طريقة سنية تعتمد الذِّكر، ويكون بالأسماء السبعة الأصول من أسماء الله الحسنى، بالإضافة إلى خمسة أسماء فروع هي: الوهّاب، والفتّاح، والواحد، والأحد، والصمد. ويختار شيخ الطريقة للمريد الأسماء التي عليه أن تكون بها أذكاره ، بالإضافة إلى الصلوات والصيام من النوافل الخاصة بالطريقة .

وكان هدائي يطلق شعر رأسه، وتابعه مريدوه على ذلك. ويلبس الجلوتي عمامة يسمونها التاج، من ثلاث عشرة قطعة، ترمز إلى الأسماء الحسنى الإثنى عشر، والوحدة التي تجمع بينها جميعاً .

وهدائي من مواليد إحدى القرى التابعة لقونية، وقيل هو من مواليد سنة ٩٥٠ هـ، وتعلّم بأدرنه، واشتغل فيها بالتدريس، ثم خرج إلى الشام، ومنها

إلى مصر ، فلزم شيخاً خلوتياً، يقال له الشيخ كريم الدين الخلوتي ، فأخذ عنه الطريقة الخلوتية، إلا أنه عندما عاد إلى تركيا أقام في بروسه، وتلقى على الشيخ أوفتاده الجلوتي، ودخل الطريقة سنة ٩٨٥ هـ ، واستقر في استنبول بجوار جامع الجلوتية؛ وكان بليغاً، وله المصنفات الكثيرة ، قيل منها ثمانية عشر كتاباً بالعربية، واثنا عشر بالتركية ، أغلبها موجود بمكتبات إسكودار حيث ضريحه ، وهي عبارة عن رسائل أو مجالس أو كليات للوعظ وإرشاد المريدين ، ومنها رسالة في الطريقة المحمدية ، وطريقة نامه بالتركية ، ورسالة منظومة بعنوان نجاة الغريق ، وهذه الرسائل فضلاً عن أهميتها الصوفية فيها إشارات تاريخية هامة عن الحوادث والناس في زمانها ، وبعض القصائد كان نظمها للإنشاد في حلقات الذكر ، وقد لحنها هدائي بنفسه ، ومن المضمون العام لها نفهم أن هدائي كان متمسكاً بالشريعة ، ومنكراً على الغلاة من الصوفية ، وهو في بعض رسائله يستنجد بالسلطان ضد الغلاة من السماونة أتباع شرف الدين السماونة.

* * *

٨٦- الجمالي (حامد)...

حامد بن فضل الله الجمالي، المتوفى سنة ٩٤٢ هـ، صاحب «ديوان مرآة المعاني»، وكتاب «سِيَر العارفين» ، وكان شاعراً فذاً ، وله باع طويل في المثنويات ، إلا أن شهرته قامت على كتابه «سِيَر العارفين» ، وهو من كتب الطبقات في تراجم الصوفية، ألفه ليجمع فيه تراجم أولياء الطريقتين الجشتية والسهروردية ، وهما من الطرق الصوفية الهندية ، ويتبع فيه طريقة المؤلفين لكتب الطبقات.

والجمالي: سهروردي ، وكان كثير الأسفار، حتى قيل إنه لم يترك بلداً إسلامياً، سمع أن فيه ولياً من أولياء الله أو متصوّفاً مشهوراً، إلا قصده، وقيل إن أسفاره امتدت من الأناضول شمالاً إلى اليمن جنوباً ، ومن الهند شرقاً حتى المغرب غرباً ، وكانت له معارضات صوفية، ومعارضات شعرية مع غيره، كتلك التي جرت بينه وبين الشاعر الصوفي الكبير عبد الرحمن جامي.

وكان للجمالي ـ كغيره من الصوفية السهروردية ـ ارتباطات ببلاط دهلي، وقيل إنه المسئول عن انتقال الأسلوب الصوفي في

سباكة الشعر من هُراة حيث ولادته فى فارس، إلى دهلى فى الهند ، وأن ظهور ما يسمى فى الهند باسم «سَبْك هندى» فى الشعر الدينى كان من تأثيره . وبلغ من عُمق صلته بدهلى أن ابنه الشيخ عبد الرحمن صار صدراً فى حُكم الملك أكبر.

* * *

٨٧ - الجمالى (علىّ جلبى)...

مولانا علاء الدين علىّ بن محمد الجمالى، المعروف بعلىّ جلبى، أو زنبيللى على أفندى، شيخ الإسلام العثمانى من سنة ٩٠٨ حتى ٩٣٢هـ، وكان يلقب أيضاً بالصوفى علىّ جمالى، وقد بدأ حياته بالتدريس والإفتاء، وكان له نفوذ كبير على بايزيد الثانى، فعيّنه مدرساً فى مدرسة «ثمانيه»، وهى أكبر مدارس استنبول وقتها، واستمر فى منصب شيخ الإسلام فى عهده وعهدىّ سليم الأول وسليمان الأول، إلى أن أدركته الوفاة سنة ٩٣٢ هـ، وجرت بينه وبين السلطان سليم مشاحنات، فلمّا احتج السلطان بأنه - أى الجمالى - لا دخل له فى الحكم، قال الجمالى إنه مسئول عن حياة السلطان فى الآخرة ولا يحب له أن يخسرها بالدنيا! وكرّمه سليم بأن عيّنه أيضاً قاضى عسكر.

وله فى التصوّف «الرسالة فى حقّ الدوران» و «مختار الهداية».

* * *

٨٨ - الجنيد (شيخ الصوفية)...

أبو القاسم الجُنَيْد بن محمد الجنيد، أول مَن تكلّم فى علم التوحيد ببغداد، ومولده ونشأته بها، ووفاته سنة ٢٩٧ هـ، وأصله من نهاوند، ومذهبه يقيّده بالكتاب والسُنة، فمن لم يتفقّه فى الدين ويحفظ القرآن ويكتب الحديث، لا يُقتَدى به، فحفظ تصوّفه من شُبَه الغلاة، وصانه من العقائد الذميمة، فكان مقبولاً من الجميع، وكان الكتبة يحضرون مجالسه لألفاظه، والشعراء لفصاحته، والمتكلمون لمعانيه. وكان يُعرَف بالقوارِيرى نسبةً لعمل القوارير وهى مهنته، وبالزجّاج أيضاً، واشتغل فى بدايته بالفقه على أبى ثور صاحب الإمام الشافعى، وراوى مذهبه القديم، وكان يُفتى فى حلقته وبحضوره وسنُّه عشرون سنة! وصحب خاله السَرِىّ السَّقطى، وتلقى على المحاسبى والقصّاب، ولكنه كان ينفى أن يُنسَب إلى السرِىّ، وكان يثبت أستاذية القصّاب له، وكتب الكثير من الرسائل إلى إخوانه، منها ما اشتهرت عنه فى التوحيد والألوهية.

وأساس مذهب الجنيد: مراقبة الباطن، وتصفية القلب وتزكية النفس، والتخلّق بالأخلاق الحميدة. وطريقته تقوم على الصحو، وتابعه فيها أغلب الصوفية لأنها لا تتصادم مع الشريعة، وتجمع بين الظاهر والباطن، والجنيد في شرحه لأصولها وفروعها أستاذ، وكان مريدوه يلقبونه بالأستاذ، وهو مُربٍّ صوفي بالمعنى الاصطلاحي للمربّي، فهو العارف بفنون علوم التصوّف، والمؤيَّد بعلوم الفقه، وقيل لذلك إن طريقة الجنيد أصلح للمبتدئين، وخاصةً أن أصحاب طريقة السُكر، وهي الطريقة المقابلة لطريقة الجنيد، كما هي عند البسطامي، والخرقاني، وأبي سعيد ابن أبي الخير، والحسين بن منصور الحلاج، قد أثارت الفقهاء والمتشرّعين، وأهل الظاهر على الصوفية، حتى اعتبر البعض التصوّف كفراً أو بدعة، وأفتوا بقتل جماعة منهم. وأغلب كلام الجنيد لذلك تعاريف، ودوره في التصوّف هو دور المعلّم، وهو يقول إن ما يتكلم به هو علم لم يكن له فيه فضل، وكان هذا العلم عند من سبقوه تحقّقاً ولكنه صار اليوم تعاليم.

والتصوّف في مذهب الجنيد رسْمٌ للعبد، ولكنه بالنسبة لله تعالى حقيقة، والأخلاق فيه إلهية، وهي شمائل الأنبياء، فالسخاء فيه لإبراهيم، والرضا لإسحق، والصبر لأيوب، والإشارة لزكريا، والغربة ليحيى، ولبس الصوف لموسى، والسياحة لعيسى، والفقر لمحمد.

والتصوّف: هو صفاء المعاملة مع الله، وأصله التعزُّف عن الدنيا، والصوفية القدامى لم يأخذوه عن القيل والقال، وإنما عن الجوع، وترك الدنيا، وقطع المألوفات والمستحسنات، والمعرفة فيه منها ما هو للخاصة، وما هو للعامة، ولكنها في الحالين معرفة واحدة، لأن مدارها جميعاً على الله سبحانه وهو واحد، غير أن المعرفة لها أول وأعلى، فالخاصة في أعلاها وإن كانت لا يمكن الوصول فيها إلى نهاية، وكيف يمكن أن تكون معرفة محيطية، والمعروف فيها لا يحيط به فكر ولا يتوهمه ذهن ولا تتكيفه رؤية، وأعلم خلق الله أشدهم إقراراً بالعجز عن إدراك عظمته أو تكشُّف ذاته، لمعرفتهم بعجزهم عن إدراك مَن لا شئ مثله، إذ هو القديم وسواه مُحدَث، وهو الأزلي وغيره المبدأ، وهو الإله وما سواه مألوه، فسبحانه الأول بغير بداية، والباقي إلى غير نهاية ولا يستحق هذا الوصل غيره، ولا يليق بسواه، فأهل الخاصة من أوليائه في أعلى المعرفة من غير أن يبلغوا فيها نهاية؛

والعامة من المؤمنين فى أولها؛ ولها شواهد ودلائل من العارفين على أعلاها وأدناها، والشاهد على أدناها هو الإقرار بتوحيد الله، وخلع الأنداد عنه، والتصديق به وبكتابه وما فرضه فيه ونهى عنه. والشاهد على أعلاها هو القيام فيه بحقه، وإيثاره على جميع خلقه، واتّباع معالى الأخلاق التى كان أنبياؤه فيها القدوة والأسوة، فالمعرفة التى فضلت الخاصة على العامة هى عظيم المعرفة فى قلوبهم، بعظيم القدر والإجلال، والقدرة النافذة والعلم المحيط، والجود والكرم، وجميعها صفاته تعالى، فعَظُم فى قلوبهم قَدْرُه، وجلالُه وهيبتُه، ونفاذُ قدرته، وأليمُ عذابه، وشدةُ بطشه، وجزيلُ ثوابه وإحسانه، ورحمته وعفوه، فلما عظمت المعرفة بذلك عَظُم القادر فى قلوبهم فأجلّوه وهابوه، واستحيوا منه وخافوه ورجوه، فقاموا بحقّه وأعطوه المجهود من قلوبهم وأبدانهم، ولذلك قيل: فلان بالله عارف، وفلان بالله عالم، لمّا رأى المسلمون منهم هذه الأخلاق، وأنهم بها أعلم وأعرف من العوام.

والتوحيد الذى ينفرد به الصوفية، هو إفراد القِدَم عن الحَدَث؛ وعلم التوحيد كما يقول، هو علم قد طوى بساطه منذ عشرين سنة، والناس يتكلمون فيه حالياً، أى وقت الجنيد، فى الحواشى لا غير. ويعلّم الجنيد أصحابه: أن العلم له ثمنه فلا تعطوه إلا به، وثمنه هو وضعه عند من يُحسن حمله ولا يضيّعه، فتوسَّموه فى الحُرّ، وهو ذلك الذى خرج عن كل العلائق، وكان لله وحده ومما دونه حراً. والحر الحقيقى هو الذى عبوديته لله خالصة، ولن تكون على الحقيقة عبداً لله وشئ مما دون الله يسترقك. والعبودية لله: هى أن تُخلص له الحبّ، فتحبّ ما يحبّ الله، وتكره ما يكره الله. ومن يعرف الله لا يُسَر إلا به. والله تعالى يخلُص إلى القلوب من برّه حسب ما تُخلص له القلوب من ذِكره. والورع فى الكلام عند الجنيد أشد منه فى الاكتساب، لأن مذهبه أصلاً مذهب تعليمى، أو أنه يذهب فيه إلى الناحية التعليمية، وكان فيما يقوله لأصحابه ظريفاً يراعى كافة الاعتبارات، ولا يتبشّع جوابه على أحد، ويعطى الجواب بحسب السائل وثقافته الدينية، وإن كان دائماً يقول: إن العلم يشير إلى استعماله، وما يعلّمه للمريدين ليس ليعرفوه دون استعماله، وإنما العلم للاستعمال فى مراتبه، ويفسّر قوله تعالى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰ﴾ (الأعلى ٦)، أى

سنعلمك العلم فلا تنسى العمل به. ولما سألوه أيهما أتم: استغراق العلم فى الوجود أم استغراق الوجود فى العلم؟ أجاب: بل استغراق العلم فى الوجود، فليس العالمون بالله كالواجدين له.

* * *

٨٩ - ابن الجوزى...

أبو الفرج عبد الرحمن بن علىّ بن محمد الجوزى (٥٠٨ ـ ٥٩٧ هـ)، نسبةً إلى مَشْرَعة الجوز من أرباض بغداد حيث مولده، وهو عَلَمُ عصره فى التاريخ والحديث، وله نحو الثلاثمئة كتاب، منها «تلبيس إبليس» الذائع الصيت، والذى ينتقد فيه نهج الصوفية، ويأخذ عليهم فيه مآخذ يقول إنها من تلبيس إبليس عليهم، ويقول ربما كان التصوّف نتاجاً أفرزه الزهد الإسلامى عند الأوائل، إلا أن صوفية هذا الزمن قد انحرفوا عن السُّنّة، وصارت لهم سُنُنهم الخاصة بهم، والتى صنّفوا فيها الكتب، وأخصّها كتاب أبى نصر السرّاج الذى أطلق عليه اسم «اللمع الصوفية»، ونسب إليهم فيه الكثير من الاعتقادات القبيحة والكلام المرذول، وكتاب أبى طالب المكّى «قوت القلوب»، وضمّنه الأحاديث الباطلة، مما لا يستند فيها إلى أصل عن الصلاة فى الليل والنهار وغير ذلك، وكتاب «الحلية» لأبى نعيم الأصبهانى، الذى احتوى على أشياء منكرة قال فيها إنها حدود التصوّف، ولم يستحِ أن يضم إلى قائمة المتصوفة أسماء سادات الصحابة من أمثال أبى بكر، وعمر، وعثمان، وعلىّ، وذكر أن شريحاً القاضى، والحسن البصرى، وسفيان الثورى، وأحمد ابن حنبل من أهل التصوّف لأنهم زُهّاد، وكذلك أدرج السُّلَمى فى «طبقاته»: الفُضَيْل، وابن أدهم، والكرخى، وجعلهم من الصوفية. وصنّف القشيرى «رسالة فى التصوّف»، فذكر العجائب فيما أسماه المقامات والأحوال، عن الفناء والبقاء، والقبض والبسط، والوقت والحال، والوجد والوجود والمحاضرة، إلى غير ذلك من التخليط الذى ليس بشئ وتفسيره أعجب منه.

ومن تصانيفهم أيضاً كتاب «صفوة الصفوة» للمَقْدسى، ويشتمل على أشياء يستحى العاقل من سردها، وحتى كتاب أبى حامد الغزالى، المسمى «إحياء الدين»، فقد ألفّه على طريقتهم، وملأه بالأحاديث الباطلة وهو لا يعلم بطلانها، وتكلم عن المكاشفة فخرج عن الفقه، وفسّر الكواكب والشمس والقمر اللاتى رآهن إبراهيم عليه السلام بأنها حُجب لله عزّ

وجلّ وليست هى التى نعرفها، وكلامه من جنس كلام الباطنية، ومن ذلك ادعاؤه أن الصوفية فى أحوالهم يشاهدون الملائكة وأرواح الأنبياء، ويسمعون منهم أصوات، ويقتبسون فوائد، ثم تترقّى مشاهداتهم من الصورة إلى الأصل عبر مدارج يضيق عنها نطاق الكلام. والسبب فى كل هذه التصانيف التى تخالف الشريعة وتجانب الدين، قلّة علم الذين صنّفوها بالسنن والإسلام، ولعله لهذا كتب ابن الجوزى من جديد كتاب «الإحياء» للغزالى يُخليه من أحاديثه الباطلة، ويصحّح ما انزلق إليه من أخطاء عن جهل بالصواب.

وابن الجوزى من رأيه أن اسم الصوفية من الأسماء العربية الصميمة وليس اسمًا دخيلاً، ويرجعه إلى خدم الكعبة الذين انقطعوا للخدمة فيها، وكان الواحد منهم يسمى صوفة، وصوفان، أو أن صوفة هذا هو الغوث بن مرّ، ولم تكن أُمُّه يعيش لها أولاد، فنذرت إن عاش ابنها هذا أن تهبه لخدمة الكعبة وتُقطعه عليها، وتميّزه بأن تجعل فى رأسه صوفة، إشارةً إلى أنه «ربيط الكعبة»، ومن ثم فقد انتسب الصوفية إلى «صوفة» هذا لمشابهتهم إياه فى الانقطاع إلى الله.

وربما أن الصوفى نسبةً إلى الصوفانة، وهى بقلة من بقول الصحراء يتعيّش عليها كطعام، المنقطعون لعبادة الله فى الصحارى والفيافى، فنُسبوا إليها. وربما كان انتسابهم لصوفة القفا، أى شعراته المدلاّة التى يطلقها القوم نسياناً لأنفسهم فى التعبّد.

وعلى أى الأحوال فإن التصوّف، كان رياضة نفس ومجاهدة طبع عند الشيوخ الأوائل، إلا أن ذلك الوقت قد مضى وجاء قوم من الأدعياء تلبّس إبليس عليهم، فصدّهم عن العلم، وأراهم أن المقصود بالعبادة هو العمل، فلما أطفأ نور العلم عندهم تخبّطوا فى الظلمات، فمنهم من أراه أن التصوّف هو ترك الدنيا بالجملة، فرفضوا الكسب، وركنوا إلى البطالة، وأهملوا ما يُصلح أبدانهم، وشبّهوا المال بالعقارب، ونسوا أنه خُلق للمصالح، وبالغوا الحَمْل على أنفسهم حتى كان الواحد لا يذوق الطعام بالأيام، فيفسد بذلك تفكيره، ويتخلّط ذهنه، ويتوهّم أشياء، كأن تكلمه الملائكة ،أو يشاهد الله، وتنتابه الوساوس والخطرات من شدة الجوع، ووطأة الفقر، وقلة النوم، وقد صنف الحارث المحاسبى التصانيف فى ذلك باعتباره من الفضائل. وأفرد آخرون التصوّف بصفات ميّزوه بها،

من اختصاص بالمرقعة، والسماع، والوجد، والرقص، والتصفيق؛ وقال بعضهم بالحلول والاتحاد ، وادّعوا العشق الإلهي، ونسوا أن العشق في اللغة يقال للمنكوح، والله يُحِب ويُحَب، ولكنه لا يَعشق، ولا يُعشق. وترتب على هذا الترخُّص في القول ادعاء البعض النبوة ثم الربوبية، حتى قيل إن الحلاج أرسل في إحدى المرات كتاباً إلى أحدهم قال فيه: من الرحمن الرحيم إلى فلان بن فلان! وفسّر هذا التبجُّح منه بأن تلك طريقة الصوفية فيما يسمى «عين الجمع»، فالله على الحقيقة هو الذي يكتب ويملي وليست اليد التي تخط إلا مجرد آلة! وأطلق الصوفية على هذا العلم عندهم اسم علم الباطن، بينما الفقه هو علم الظاهر، وبلغ من تلبيس إبليس عليهم أن عادوا الفقهاء ودفنوا كتب الفقه أو أغرقوها في الماء، ثم جاءت أقوام أخرى من المتصوفة زاد من التلبيس عليهم، أنهم تشبُّهاً بأسلافهم، لبسوا المراقع مثلهم، ولكنهم لفّقوها من فاخر الثياب، وانتحلوا للمراقع نسباً يصلهم بالصحابة وآل البيت، وبعد أن كانت حياة السابقين قوامها الجوع والفقر والزهد، فإن هؤلاء استغرقتهم النعم، وعرفوا الطريق إلى الأمراء والحكام، وأقبلوا على لذّات الطعام والشراب، ومصادقة الولدان ومرافقة النسوان، وادّعوا أن الله يحلّ في الصورة الحسنة والجسم الجميل من الأولاد المُرد؛ واقتحمت جماعة منهم يقال لهم الملامتية الذنوب، بدعوى أن يسقطوا في أعين الناس، فيسلَمُوا بذلك من الجاه، وأظهروا من أنفسهم أقبح الصفات؛ ومنهم أيضاً إباحية المتصوفة، وهؤلاء ادّعوا أنهم لما زهدوا وراضوا أنفسهم وصلوا، فسقطت عنهم التكاليف والعبادات، أو أنه طالما أن المكتوب في القدر واقع، فلا ملامة عليهم فيما يصدر عنهم، أو أن الأمور تستوي في المعصية والطاعة طالما أن الله مستغن عن الأعمال ولا يتأثر بها، وأن رحمته وسعت الجميع فلا وجه للحرمان والمعاناة والتعب، وأما هم فقد تجوّهروا لما وصلوا، ولو تجوهر العامة لسقطت عنهم تلك الأوامر والنواهي، ومن بالغ منهم في الرياضة وفتح الله عليه بالكلمات اللطيفة، أو رأى الرؤى التي تثمرها الخلوة والتفكير، ادّعى الكرامات وكانت لهم شطحات ، مثلما قال البسطامي: إن النار إذا رأته تخمد، فيكون ظهوره عليها رحمة للخلق، أو أنه في الآخرة سيسأل الله أن يدخله النار ليعلّم الخلائق أن برّ الله ولُطفه في النار مع أوليائه، وذلك وغيره كله من أقبح

الأقوال والأفعال، ويتضمن تحقير ما عظّمه الله وحضّ عليه، وكان سُنة النبيّ ﷺ والسلف الصالح.

* * *

٩٠- الجُوعي (القاسم)...

القاسم بن عثمان، فيلسوف الجوع الصوفي، دمشقي مات سنة ٢٤٨هـ، ومذهبه الجوع، يقول: سُمّيتُ الجوعي لأن الله قوّاني على الجوع، فكنت أبقى شهراً لا آكل ولا أشرب، ولو تركوني لزدت، وكنت أقول: اللهم أنت فعلت ذلك فأنمه على بمنّك.

وقيل: «الجوعي» اثنان بنفس الاسم، أي القاسم بن عثمان، أحدهما يقال له «الكبير» حكى عنه ابن أبي الحواري، والآخر من أقران السَّرِيّ والحارث، وكان أبو تراب يصحبه، ولم يتأكد لدينا ذلك، ويبدو أنهم خالفوا بينهما بحسب الرواة عنهما، وعلى أي الأحوال فمذهب الجوعية يعني التصوّف، وكان الصوفية يُلقبون بالجوعية، إلا أن دعوة ابن عثمان أصلها أن المعدة أساس البلاء، والجوع مخ العبادة:

إصبرْ على كِسْرةٍ وملحٍ
فالصبر مفتاح كلّ زيْن
وافْنَع فإن القنوع عزّ
لا خير في شهوة بدَيْن

وكان يقول: الزهد في الدنيا هو الزهد في الجوف، فبقدر ما تملك من بطنك، فكذلك تملك من بطنك، فكذلك تملك من الزهد. وكان الجوع صفة الصوفية في الشام، مثلما أن لبْس الصوف كان صفة الصوفية في الكوفة، والتحنّي والبكاء صفتهم في البصرة.

وينتقد الجوعي الأولياء الذين قعّدوا مذاهبهم على المحبة دون الجوع، فأحبوا لذّات الأطعمة والأشربة والشهوات، ولذّات الدنيا، لأنهم تلذذوا بلذة ليس فوقها لذة هي لذة الطعام، فقطعتهم هذه اللذة عن كل لذة. والجوع الذي يقول به يُفلسفه بأنه: جوعٌ إلى المعرفة، فما عُبد الله بشيءٍ أفضل من المعرفة.

* * *

٩١- جولدتسيهر Goldziher...

(١٨٥٠- ١٩٢١) مستشرقٌ يهوديٌ مَجَريٌ، انتسب لفترة إلى الأزهر واستمع إلى الشيخ محمد عبده، وله مصنّفات مشهورة في الإسلام، وله في التصوّف «رسالة الحسين بن منصور الحلاج»، نقد فيها كتاب الطواسين لماسينيون، و«دراسة عن الأولياء وتكريمهم في الإسلام»،

و«دراسة عن الزهد الصوفي وعن الصوفية»، وهو كثير التحامل على المسلمين، وله الكثير من الأخطاء برغم إعجاب الكثير من أساتذة الجامعة المصريين به وبمؤلفاته، إلا أن آراءه ليس لها أسانيد وإنما اجتهادات، والمغالطات فيها فاضحة وخاصة في مجال التصوف، وخاصة كتابه هذا عن الصوفية.

* * *

٩٢- الجوني (أبو عمران)...

الواعظ البقظان أبو عمران الجَوْني، كان قصّاصاً يُكثر الرواية عن الجنّة والنار والحساب، وله دروس مستخلصة، وهو من جيل ابن واسع، وابن دينار، وروى عن أنس بن مالك، وروى عنه جعفر بن سليمان، وأحاديثه تأويلات لآيات القرآن عن الغيبيات؛ كأن يقول في تفسير: ﴿إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالاً وَجَحِيمًا﴾ (المزمل١٢)، أن الأنكال قيودٌ لا تُحلّ أبداً، ويقول: ليس بين الجنّة والنار طُرق ولا فيافٍ، ولا منازل هناك لأحد، فمن أخطأته الجنة صال إلى النار». ويقول في قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾ (الحاقة ١٨)، كالماء لا يخفى في الزجاجة، إلا من ستره الله عزّ وجلّ. وفي قوله: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ * لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ﴾ (الحاقة: ٤٤/ ٤٦)، والوتين هو الوريد الناجي في القلب. وفي قوله: ﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا﴾ (الإسراء ٨)، والحصير هو السجن.

والجوني من البكّائين، ويقول: العلم بالآخرة يبكينا. وكان يدعو: اللهم اغفر لنا علمك فينا، فإنك تعلم منا ما لا يعلمه أحد، وكفى بعلمك فينا استكمالاً لكل عقوبة، إلا ما عافيت ورحمت.

ومن قصص الجوني قال: بلغنا أنه إذا كان يوم القيامة، أمر الله تعالى بكل جبّار وكل شيطان، وكل من يخاف الناس من شرّه في الدنيا، فيوثقون في الحديد، ثم يأمر بهم إلى النار فيوصدها عليهم، فلا والله، لا تستقر أقدامهم على قرار أبداً، ولا واللّه ما ينظرون إلى أديم سماء أبداً، ولا والله لا تلتقي جفون أعينهم على غمض نوم أبداً، ولا والله لا يذوقون فيها بارد شراب أبداً. ثم يقال لأهل الجنة: يا أهل الجنة! افتحوا اليوم الأبواب فلا تخافوا شيطاناً ولا جباراً، وكلوا اليوم واشربوا هنيئاً بما أسلفتم في الأيام الخالية. هي والله يا إخوتاه أيامكم هذه!

وكشأن جيله من صوفية القرن الثامن الهجري، فإن النقل من التوراة كان مستشرياً فيهم، والجوني كثير النقل عن

التوراة والمزامير، وإسرائيلياته من نوع التسبيحات والتهاليل والتبريكات، والأثر الإسلامى فيه نتيجة لقاءاته بالصحابة واستماعه إليهم، أمثال أنس بن مالك، وجندب بن عبد الله، وعائذ بن عمرو، وأبى برزة رضى الله عنهم، ولولا ذلك لما ثبت على الإسلام من كثرة اطّلاعه فى التوراة والاقتباس منه.

* * *

٩٣- الجيلانى (قطب العارفين)...

أبو محمد محيى الدين عبد القادر ابن موسى بن عبد الله الجيلانى أو الجيلى (٤٧١ - ٥٦١ هـ) صاحب الطريقة القادرية، يقول عن نفسه:

أنا بُلْبُلُ الأفراح أملأ دوحها
طرباً وفى العلياء بازٌ أشهبُ

ويقول عنه الصوفية: شيخ الكلّ، والعارف الربّانى والمعدن الصمدانى، وباز الله الأشهب، ومحيى الدين.

ونسبة الجيلانى إلى جيلان من طبرستان، وفيها تلقى الطريقة من حمّاد الدبّاس، وأخذ الخرقة من ابن سعد المبارك، واشتغل بالقرآن فى مبتدئه، وتفقّه على مذهب ابن حنبل. وله فى التصوّف مصنفات «الغُنية لطالب طريق الحق»، و«الفتح الربّانى»، و «فتوح الغيب»، و«الفيوضات الربّانية».

وله القصائد والأشعار، منها قصيدته من بحر الطويل التى عنوانها «سقانى حبيبى»، يقول فيها:

سقانى حبيبى من شراب ذوى المجد
فأسكرنى حقاً فنبتُ على وَجْدى
وأجلسنى فى قاب قوسين سيدى
على منبر التخصيص فى حضرة المجد
حضرتُ مع الأقطاب فى حَضْرة اللقا
فغبتُ به عنهم وشاهدتُه وحدى
فما شرب العشاقُ إلا بقيّتى
وفضلَة كاساتى بها شربوا بعدى
ولو شربوا ما قد شربت وعاينوا
من الحَضْرة العلياء صافى موردي
لأمسوا سكارى قبل أن يقربوا المدا
م وأمسوا حيارى من مصادمة الورد

وأشهر قصائد الجيلانى قصيدته من بحر الوافر، وتعرف باسم «القصيدة الغوثية»، ويسميها بعضهم «القصيدة الخمرية»، يقول فيها:

سقانى الحبُّ كاسات الوصال
فقلتُ لخمرتى نحوى تعالى
سعت ومضت نحوى فى كئوس
فهمتُ بسُكرِى بين الموالى

ويقول :

أنا فى حضرة التقريب وحدى
يُصرّفنى وحَسْبى ذو الجلال
أنا البازىُ أشهبُ كلّ شيخ
ومن ذا فى الملا أُعطَى مثالى

ويقول:

أنا الجيلانى محيى الدين اسمى
وأعلامى على رُؤس الجبال

وكان الجيلانى يأكل من عمل يديه ، وبرع فى الوعظ، وتكلم للناس فى الزهد، فكثر مريدوه، وأقام فى مدرسته يدرّس فيها ويتخذها رباطاً إلى أن توفى.

وقالوا فيه إنه أول من نادى بالطرق الصوفية وأسّسها ، وأنه فاق أهل زمانه فى علوم الدين ، وكانت له القَدَم الراسخة فى المجاهدة، وقطع دواعى الهوى والنفس ، ووقع له القبول التام، حتى أن عبد الله ابن قُدامة (٥٤١ - ٦٢٠هـ)، الفقيه الحنبلى المشهور، وصاحب رسالة «ذمّ ما عليه مدّعو التصوّف» امتدحه فقال: لم أسمع عن أحد يُحكَى عنه من الكرامات أكثر مما يُحكَى عنه، ولا رأيتُ أحداً يعظّمه الناس للدين أكثر منه». وأشاد بسلوكه ابن كثير، لقيامه بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وزهده، ومكاشفاته وورعه وصلاحه ، وتأثر به الإمام ابن تيمية، وقال عن طريقته إنها الطريقة الشرعية الصحيحة .

والتصوّف عند الجيلانى ليس أقوالاً تقال، ولكنه طريقة فيها الجوع وقطع المألوفات والمستحسنات . والخصال التى ينبغى أن يأخذ الصوفى بها نفسه هى نفسها خصال الأنبياء عليهم السلام ، كالصبر الذى تحلّى به أيوب ، وكلّ نبىّ له خصلة، والمتصوّف يكون فى الابتداء ويتكلف هذه الخصال، وأما الصوفى فهو الذى انطبع بها، فزهد الدنيا وفنى عنها، بحيث تأتيه الأشياء فلا يريدها ولا يبغضها، وإنما هو المتمثّل لله فيها، والمنتظر لفعل الله معه بشأنها.

وتعريف التصوّف الذى يؤثره الجيلانى: هو أنه من الصفاء من أدران النفس والهوى، وأنه الصدق مع الحق، وحسن الخُلق مع الخَلْق، ويهدف من ذلك أن يخلّص التصوّف من البدعية، ويُلزم مريديه بالآداب الشرعية، سواء فى سلوكهم مع شيوخهم ، أو مع بعضهم البعض ، أو فى ذكرهم ومجالسهم وخدمتهم لإخوانهم.

وعند الجيلانى: أن كل حقيقة لا تشهد

لها الشريعة فهى زندقة، وأن المتصوّف لا ينبغى أن يخترع لنفسه عبادات وصلوات لم يكتبها الله عليه، فذلك شأن من ضلّوا السبيل وابتدعوا الرهبانية، وما كتبها الله تعالى عليهم. والصواب فى التصّوف كطريق للعبادة، أن يلتزم المتصوّف الكتاب والسُّنة التزاماً حرفياً، وخاصة فى الجانب المعرفى للتصوف، أو جانبه الكلامى، ولذلك يذهب الجيلانى إلى تعريف للفناء يخالف به الصوفية، ويربطه كأحد المقولات الرئيسية فى التصّوف بالسُّنة المحمدية، وهو عنده: أن يفنى العبد عن أهوائه، ويغلّب إرادة ربّه، بالالتزام بأوامره ونواهيه.

والجيلانى لذلك لا يشطّ فى التنظير لطريقته، ويحصرها فى عدد من المقامات يربط بينها وبين المعروف عند أهل السنة منها، وطريقة الجيلانى لذلك طريقة سهلة على المسلم ومفهومه، وتتفق مع روح الإسلام، ولا تباعد بين المتبِّع والسلف؛ فإذا كان الفناء هو أعلى مقام السالكين، فإنما هو كذلك لأن الذى يبلغه هو المتحقق بالقرآن والسُّنة، عَبدُ الأمر الإلهى وليس عَبْدَ هواه. وفى مقام الفناء يكون العبد مع الله كالطفل مع الظِّئر، والميّت مع الغاسل، والمريض المقلوب على جنبيه بين يدّى الطبيب.

والصوفى المتحقّق: هو الذى فى مقام الفناء يفنى عن الخلق، والهوى، والإرادة، والرغائب فيصل إلى الله، لا بالمعنى الاتحادى، ولكن بمعنى أنه يخرج عن خُلُقه، وهواه، وإرادته، ومناه.

والمريد اشتقاقها من الإرادة، وطريق الإرادة يقتضى معرفة المراد وهو الله تعالى، ثم تكون الإرادة هى إرادة ما يريده الله تعالى، باتّباع أوامره ونواهيه، وذلك هو معنى التوحيد، وتلك حقيقته.

والفناء فى هذا التوحيد: هو فناء المرسلين والمؤمنين، وهو أن تفنى بعبادة الحق عن عبادة سواه، فتطيعه وتسأله، وتخافه وترجوه، وتحبّه عن كل ما سواه.

وطريقة الجيلانى فى التصّوف أساسها: أن بلوغ مقام الفناء هو أن يعمل السالك على أن لا تكون له إرادة مع الله تعالى من حيث هواه، فهو يريد ما يريده الله بالتزام كتابه وسُنة نبيه.

والبقاء المقابل للفناء، هو البقاء بالشريعة، وتقديمها على أى ذوق صوفى يمكن أن تكون فيه مخالفة لها - أى للشريعة.

ومن اللازم دائماً أن يكون للمؤمن فى سائر أحواله ثلاثة أشياء: أمر يمتثله، ونهى يجتنبه، وقَدَرٌ يرضى به. وأقل

حالات المؤمن لا يخلو فيها من أحد هذه الأشياء، وينبغي له أن يلزم هَمَّها قَلْبَه، ويحدّث بها نفسه، ويأخذ جوارحه بها في كل الأحوال. والأصل عنده في الأكل: أنه بالسُّنّة وبالكسب من حلال الدنيا، لكن التعويل على الخَلْق فيه دون الله إشراك به. وكذلك الاطمئنان إلى الكسب، ونسيان فضل الله تعالى، هما شِرْك خفي. والأولى بالمؤمن أن يؤمن بأن الله وحده هو الرزّاق والمُعين على الكسب والميّسر له. فإذا كتب لك شيئاً من الكسب فإنه سبحانه يوجِد عندك الشهوة لتحصيله، فيكون سعيك إليه، وإظهار براعتك واستحقاقك له، فيسوقه إليك، ويواصلك به عند الحاجة، ثم يوفّقك إلى أنه منه، وأنه الذي يسوقه ويرزقك به. ومن يدرك ذلك ويعيه فإن الطمأنينة تلحقه، ولا يكون له القلق.

وأما البلايا والمصائب التي يمكن أن يأتيه بها القدر، فمن اللازم أن يعي أن الحياة فيها المرض والأوجاع والمصائب، وكذلك فيها أنواع النِّقم، ومن يجهل ذلك فقد جهل الدنيا، والرشيد هو من يفوّض أمره لله ويسلّم نفسه لقدره. والشأن مع الدنيا كالأجير الذي لابد له من أن يكد ويتعب، ويشقى ويتألم، ويطيع رغبة مخدومه، فيحصل في النهاية على ما تستقيم به حياته من مال. أفلا يكون ذلك أدعى مع المولى سبحانه، بأن نصبر على البلاء والمرض، وأن نروض أنفسنا على طاعة أوامره ونواهيه، طمعاً في حُسن ثوابه وطيب العيش في الآخرة؟

والفضائل أو الخصال الجامعة التي ينصح بها الجيلاني للمريدين سبعٌ، هي: مجاهدة النفس عن هواها، والتوكّل على الله، وحُسن الخلق مع الناس، والتذكّر لله، والصبر على قضائه، والرضا بقدره، والصدق في كل أمره، وهذه الخصال هي التي يحتاج إليها كلُّ أحدٍ في كافة أموره في الحياة.

ولإبراهيم بن علي القادري (نحو ٨١٦ ـ ٨٨٠ هـ)، الشافعي الحلبي، كتابُ «الروض الزاهر في مناقب الشيخ عبدالقادر»، وكان شديد الولع بجمع أخبار الصوفية حتى كتب منها مجلدين.

وترك الجيلاني بعده ذريةً كثيرة، وقام على الطريقة بعده أولاده وأحفاده، وخَلَفَهُ ابنه عبد الوهاب (٥٢٢ ـ ٢٩٣ هـ)، ولم يكن في أولاد أبيه من هو أميزُ منه، وتولى التدريس في المدرسة القادرية، وكان فقيهاً فاضلاً، فلما توفي خلفه أخوه أبو بكر عبد الرزاق (٥٢٨ ـ ٦٠٣ هـ)، وكان أشهر أولاد أبيه في الحديث، وتُروى عنه

أمورٌ عظيمة فى التصّوف، منها أنه ظل ثلاثين سنة لا يرفع رأسه إلى السماء حياءً من الله عزّ وجلّ. والطريقة القادرية فى مصر لها أربعة فروع، هى: القادرية الفارضية، والقادرية القاسمية، والقادرية الشرعية، والقادرية النيازية.

فأمّا الفارضية: فيستمدون اسمهم من أحد مشايخهم المتأخرين وهو الشيخ محمد الفارضى، وكانت تسميته كذلك لأنه كان المتولى إثبات فروض النساء على الرجال، وتوفى سنة ١٢٨٥هـ، ويتصل نسبه بالإمام الجيلانى، ومقر هذه الطريقة جامع السادة القادرية بالقرافة الصغرى بالقاهرة على يمين الشارع المسمى شارع السكة القادرية.

وأما الطريقة القادرية القاسمية: فاسمها كذلك من اسم أحد مشايخ القادرية المتأخرين، وهو الشيخ قاسم بن حمد الكبير، ويتصل نسبه بالإمام الجيلانى عن طريق ولد الإمام، المسمى: عيسى بن عبد القادر الجيلانى، صاحب كتاب «جواهر الأسرار ولطائف الأنوار»، وكان قد قدم إلى مصر وتوفى بها: ودفن بالقاهرة سنة ٥٧٣ هـ، والعامة تسميه «أبو رُمّانة»، على زعم كرامة له، حيث استحضر الرُمّان لامرأة تُعالَج به، وكان أبو الإمام قد وصفه لها فى غير موسمه، وعندئذ قال له أبوه: إن بغداد لن تسعهما معاً، وأمره بنزول مصر.

ومن أقطاب هذه الطريقة: الشيخ أحمد بن عبد الحىّ الأشهب، وله «هداية المريد» فى التوحيد؛ و«هداية السالكين»؛ و«النصيحة المُرْضية» فى العقيدة والأوراد القادرية.

وأمّا طريقة القادرية الشرعية: فتأخذ اسمها من اقتباس شيخها عبد المنعم القادرى، لأصول الطريقة من الأوراد الشرعية التى خلاصتها الكتاب والسُنّة، وله فى ذلك كتاب «الركائز الإيمانية فى أصول دعوة السادة القادرية الشرعية»؛ وكتاب «الدرر النورانية فى شرح مجلس ذكر طريقة السادة القادرية الشرعية».

وأمّا الطريقة القادرية النيازية: فتُنسب فى مصادرها للشيخ عبد الرزاق بن عبد القادر الجيلانى، وتنتسب فى تسميتها بالنيازية للشيخ عبد الرحمن نيازى المتوفى سنة ١٣١١ هـ، وكان وفوده إلى مصر من تركيا واستوطن الإسكندرية، ومقر الطريقة كذلك بالإسكندرية، بمسجد القادرية، بمنطقة فكتوريا شرقى الإسكندرية، ومن شيوخها الشيخ إبراهيم علىّ القادرى (١٣٢٢- ١٣٩٠هـ)، وله

المصنفات الذائعة، ومنها: «مدارج الحقيقية الرابطة عن أهل الطريقة»؛ وكتاب «القُرب فى محبة الربّ» وهو تحقيق لنفس الكتاب بهذا العنوان لزين الدين أبى الفضل عبد الرحيم بن أبى بكر بن إبراهيم، المصرى الشافعى المحدّث، المتوفى ٨٠٦هـ بالقاهرة؛ وكتاب «الجهاد»، ويحتوى على قصيدتين فى التصوّف، مطلع الأولى التى سمّاها «اللامية»:

هزت الوجدان قلبى فابتهل
طول ليلى من ضرامٍ ووَجَل

ومطلع الثانية التى سمّاها «معاهد البر»:

معاهد البر أوحت من أعالينا
أم الصبابة هاجت من تناجينا

وله كذلك «شرح تعليم المتعلّم»، وضعه على نهج كتاب: «تعليم المتعلّم طريق التعلُّم» لبرهان الدين الزُرنوجى؛ وله أيضاً كتاب: «جلال الحقّ فى كشف أحوال شرار الخلق»، وهو ردٌّ على دعاوى الوهابية؛ وكتاب «محو الشُّبهات فى ثبوت المحو والإثبات»، قيل فيه أنه تناولٌ ذوقىّ لقوله تعالى: ﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ (الرعد ٣٩)؛ و«السير والسلوك» عن آداب التصوّف للمريدين؛ وكتاب «العدوى الوباء» فى الأخلاق وأثر الصُحبة على المريدين. وله «القصيدة الغَوْثية» يقول فيها متوجّداً:

يا سيدى أنتَ الغيّاث ومَفْزَعى
ولَئِنْ بدا للغيرِ فهو تَمُنُّعى
لكم الوَلاَ، ودخيلُكم يشكو الضَنا
والعَبْدُ بُكرَمُ بالولاءِ الأرفَعِ

* * *

٩٤- الجيلى (فيلسوف الصوفية)...

(٧٦٧-٨٢٦هـ)، عبد الكريم ابن إبراهيم بن عبد الكريم، فارسى من جيلان، وُلد ببغداد العراق، وتوفى بزبيْد اليمن. وفى اليمن كان لقاؤه مع شيخه إسماعيل الجبرتى، المتوفى سنة ٨٠٦هـ، وورث عنه مشيخة الطريقة، وله نحوٌ من ثلاثة وثلاثين مؤلفاً، منها كتابه الأشهر: «الإنسان الكامل فى معرفة الأواخر والأوائل»، وهو المعروف اختصاراً باسم: «الإنسان الكامل» فقط، ويعرض فيه لنظريات التصوّف؛ وله تفسير صوفى للقرآن باسم «الخضَم الزاخر والكنز الفاخر»؛ وشرحٌ على الفتوحات المكية لمحيى الدين بن عربى، للباب التاسع والخمسين بعد الخمسمائة؛ بخلاف رسائل صغيرة، مثل: «كشف الغايات»؛

و«رسائل السبحات»؛ و«مسامرة الحبيب ومسايرة الصحيب»، ؛ و«السفر القريب نتيجة السفر الغريب»؛ و«كشف الستور عن مخدرات النور»؛ و«الكمالات الإلهية فى الصفات المحمدية»؛ و«إنسان عين الجود ووجود عين الإنسان الموجود»؛ و«المناظر الإلهيـة»؛ و«جنّة المعارف وغاية المريد والعارف» ... إلخ.

والجيلى يمت بصلة قرابة للصوفى الكبير عبد القادر الجيلانى، فهو مثله من جيلان، ولذلك فقد يطلق البعض عليه اسم الجيلانى كذلك، غير أنه اشتهر باسم الجيلى عن الجيلانى، ربما تمييزاً له عن عبد القادر الجيلانى.

وكان الجيلى شاعراً، وله القصيدة المشهورة باسم «النادرات»، اختصاراً لاسمها الطويل «النادرات العينية فى البادرات الغيبية»، وفيها يعرض لكل فلسفته الصوفية، وخاصة نظريته فى «الإنسان الكامل»؛ وهو من دعاة وحدة الوجود، ويعتبر مثل محيى الدين بن عربى : أن كل المتعبّدين هم عبّاد لله - وإنْ سجدوا للأوثان؛ وكل الظواهر الكونية مظهر لأسماء الله تعالى؛ وإنسانه الكامل هو تصويرٌ لفكرة القطب الغوث، ورُتبته أعلى مراتب أهل الغيب، وفيه يظهر أكبر تجلٍّ لله فى الكون، وهو الخليفة لله فى الأرض، والغاية من الخلق، والمقصود به هو النبيّ ﷺ، فهو أكمل الخلق، ومنه يستمد الكُمّل نورهم من فيض نوره ﷺ، وهو أول ما خلق الله تعالى، وكان آخر أنبيائه، وكلٌّ منهم أى الأنبياء - صورة من الحقيقة المحمدية تسمّت باسم صاحبها.

يقول الجيلى:

تجلّى حبيبى فى مرائى جماله
ففى كلِّ مَرْئىً للحبيبِ طلائعُ
فلمّا تجلّى حُسنُهُ متنوعاً
تسمّى بأسماءٍ فهن مطالعُ
وأبرزَ منه فيه آثار وصفه
فذلكُمُ الآثارُ مَن هو صانعُ

ويقول:

ألا إن الوجودَ بلا مُحال
خيالٌ فى خيالٍ فى خيال
ولا يقظان إلاّ أهلَ حقّ
مع الرحمنِ همْ فى كلِ حال

ويقول:

وفى أينما حقاً تُولُّوا وجوهكم
فثمةَ وجْهِ الله هل مَن يُطالعُ
ولا تنحصرْ بالاسمِ فالاسمُ دارسٌ
ولا تفتقر للعينْ فالعينُ تابعُ

ويقول:

فلمّا قضينا النُّسْكَ من حجّة الهوىَ
وتمّتْ لنا من حَيّ لَيْلَى مطامعُ
شددنا مطايا العزم نحوَ مُحمد
وطُفنا وداعاً والدموعُ هوامعُ

ويقول:

وما الخلق فى التمثال إلا كثلجة
وأنت بها الماء الذى هو تابع
وما الثلج فى تحقيقه غير مائه
وغيْران فى حكم دعته الشرائع
ولكن بذوب الثلج يُرفَع حكمُه
ويوضع حُكمُ الماء، والأمر واقع
تجمّعت الاضداد فى واحد البها
وفيه ثلاثت وهو عنهن ساطع

وفى كل ذلك يعبر الجيلى عن إيمانه بوحدة الوجود، ولذا كان يؤمن بوحدة الأديان، يقول:

وأسلمتُ نفسى حيث أسلمنى الهوى
وما لى عن حكم الحبيب تنازع
فطوراً ترانى فى المساجد راكعاً
وإنى طوراً فى الكنائس راتع
إذا كنتُ فى حُكم الشريعة عاصياً
فإنى فى عالم الحقيقة طائع

وفى تفسير «لا إله إلا الله» يقول: يعنى الله بها أن الإلهية المعبودة ليست إلا هو، فهو الظاهر فى تلك الأوثان والأخلاق والطبائع، وفى كل ما يعبده أهل ملّة ونحلة، فما تلك الآلهة كلها إلا هو - ويعنى الجيلى أن الإلهية فيهم حقيقة وليست مجازاً، وأنهم ما عبدوا فيها إلا هو، فقال «لا إله إلا الله»، أى ما ثم من يُطلَق عليه اسم الله أو الإله إلا هو، وكل من أطلقوا عليه اسم الإله فهو هو !! وتلك لعمرى هى الوثنية وليست توحيداً، ووثنية الجيلى تخرجه عن دائرة الإسلام. ويفسّر دفاع إبليس أنه لم يسجد لآدم، فقال: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ (الأعراف ١٢)، بأن أبليس قد دلّ بجوابه على أنه من أعلم الخلق بآداب الحضرة، وأعرفهم بالسؤال وما يقتضيه من الجواب !!! - فهل ذلك ما نفهمه من جواب إبليس حقاً ؟!!

ويقول الجيلى فى كتابه «الإنسان الكامل»: إن إبليس فى الفردوس يوم القيامة، فلا ينبغى لذلك أن يُلعن؛ وهو قبل يوم الدين مطرود من الحضرة الإلهية، ولكنه بعد ذلك لن يُطرد، لأجل ما يقتضيه أصله، فلأنه فى الدنيا فموانعها الطبيعية تمنع الروح أن تتحقق بالحقائق الإلهية، وأما بعد ذلك فإن الطبائع تكون لها من

جُملة الكمالات، ومن ثم لن يصبح ملعوناً، ويكون على العكس قريباً منه تعالى قُرباً محضاً، وحينئذ يرجع إبليس إلى ما كان عليه عند الله من القُرب الإلهى كما كان !!!

ويقول الجيلى: إن إبليس لما لُعن هاج وهام لشدة الفرح حتى ملأ العالم بفرحته بنفسه، فقيل له: أتصنع هكذا وقد طُردت من الحضرة الإلهية؟ قال: هى خِلْعة أفردنى الحبيب بها، لا يلبسها مَلَكٌ مقرّب ولا نبىٌّ مرسل!!! ـ وكل ذلك عكس ما جاء به القرآن تماماً ـ والجيلى يخرج بهذا الكلام من دائرة الإسلام، ويدين بدين ابن الفارض وابن عربى، ويذهب إلى ما ذهبا إليه، ويقول مثلهما: إن الحق تعالى من حيث ذاته يقتضى ألا يظهر فى شىء إلاّ ويُعبَد ذلك الشىء، وقد ظهر فى ذرّات الوجود. ـ ويزيد الجيلى عليهما أن الله ما هو إلا إنسان كامل! وأن الإنسان الكامل ما هو إلا الربّ الأكبر الجامع بين الحق والخلق!

ومن الغريب أن يسمى الدكتور عبد الرحمن بدوى الفيلسوف الإسلامى، يرحمه الله ـ هذه الفلسفة عند الجيلى: فلسفة إنسانية إسلامية! وابن عربى قال مثلما قال الجيلى، إلا أن الجيلى يزيد عليه، أنه أقام فلسفته فى التصوف جميعها على هذا الافتراض، وَوَصَفَ الذات الإلهية بأن حدّها أفق الربوبية، وهو حدّ الألوهية الأسمى. ويعتبر الجيلى نفسه تجسيداً للإنسان الكامل، ويعنى بالإنسان الكامل، العارف بالله، وهو فى وقته هو نفسه الجيلى، والإنسان الكامل عنده هو الله، وهو ـ أى الجيلى ـ لذلك هو الله فى صورته الإنسية!

يقول:

لى المُلك فى الدارين لم أر فيهما
سواى فأرجو فَضْلَه أو فأخشاه
وقد حُزتُ أنواع الكمال وإننى
جمال جلال الكل، ما أنا إلا هو

وعلماء الطبّ النفسى يسمون ذلك جنون العظمة أو البارانويا ـ وهى أسوأ أنواع الاضطرابات الذهانية!

ويقول الجيلى:

فمهما ترى من معدن ونباته
وحيوانه مع إنسه وسجاياه
ومهما ترى من أبحر وقفاره
ومن شجر، أو شاهق طال أعلاه
ومهما ترى من صورة معنوية
ومن مشهد للعين طاب مُحيّاه

ومهما ترى من هيئة ملكية
ومن منظر، إبليسُ قد كان معناه
ومهما ترى من شهوة بشرية
لطبْعٍ، أو رَفْرَفَ عَزّ مجلاه
فإني ذاك الكلُّ، والكُلُّ مَشْهدي
أنا المُتجلّي في حقيقته، لا هو
وإني ربٌّ للأنام وسيدُ
جميع الورى إسم، وذاتي مُسَمّاه

يقول: إن الشر من مقدمات الوجود الإلهي، وأن ذَنَبَه هو عين وجوده، وأن إبليس في غيّه هو عين الربّ، وأن كل اسم في الوجود هو اسمه تعالى، لأنه عَيْن كلّ مسمّى، وأن كل صفة لكائن هي صفة لله، لأنه تعالى عين الموصوف بها! ـ والجيلي بلا شك يجدّف، وهذا ليس تهريفاً ولكنه تجديف، ولذلك يقول:

لي الملك والملكوت نسجي وصنعتي
لي الغيب، والجبروت مني منشأه !!

ومن رأى الجيلي أن الله تعالى نقيضان وضدان. يقول: إعلم أن الله تعالى لمّا أطلق النفس المحمدية من ذاته (!!)، وذات الحق جامعة للضدين، خلق الملائكة العالمين من حيث صفات الجمال والنور والهُدى من نفس محمد (!!) وخلق إبليس وأتباعه من حيث صفات الجلال والظلمة من نفس محمد (!!) ويقول: إعلم أن الوجود والعدم متقابلان، وفُلك الألوهية محيط بهما، لأن الألوهية تجمع الضدين من القديم والحديث، والحق والخلق، والوجود والعدم، فيظهر فيها الواجب مستحيلاً بعد ظهوره واجباً، ويظهر فيها المستحيل واجباً بعد ظهوره فيها مستحيلاً، ويظهر الحق فيها بصورة الخلق، ويظهر الخلق بصورة الحق! ـ وسبحان الله، وكأن سارتر الفرنسي قد أخذ أفكاره عن الوجود والعدم من الجيلي! ـ ويقول الجيلي: وتقتضي الألوهية في نفسها شمول النقيضين وجمع الضدين:

وتجمعت الأضداد في واحد البها
وفيه تلاشت فهو عنهن ساطع

فكأن الله عند الجيلي موجود معدوم، وقديم حديث، مفعم بالحياة ويفنيه الموت، فهو الحيّ المليت في نفس الآن !! وهذا كلام ككلام سارتر الوجودي الفرنسي، وكلام الجيلي يخرجه من دائرة الإسلام، وكلام سارتر يخرجه من الدين بالكلية!

* * *

٩٥ - چينو...

رينيه چينو Guenon (١٨٨٦ـ ١٩٥١م)، ـ رحمه الله ـ فرنسي، تصوّفه

فلسفي سياسي، عكف الدكتور عبدالحليم محمود على كتابة سيرته، وضمّنها في كتابه عن المدرسة الشاذلية وإمامها أبي الحسن الشاذلي، يعني أن جينو كان على الطريقة الشاذلية، وكان مستشرقاً وأسلم، وتسمى باسم عبد الواحد يحيى، واختياره للاسم فيه أنه تحوّل إلى الإسلام لأنه صار يعبد الله الواحد، ومن ثم صار اسمه عبدالواحد، وأما اسم يحيى، فلأنه تزهّد كالنبيّ يحيى، فصار يحيا بعبادة الواحد الأحد، وصارت طريقته هي طريقة المتصوّفة، وهي التي كان عليها النبيّ يحيى. وجينو أنشأ مجلة المعرفة (سنة ١٩٠٩)، وكان إسلامه وتصوفه على شيخ يدعى عليش، وكان شاذلياً على المذهب المالكي، وعاش في حيّ الأزهر وتزوّج مصرية، وظل طابع المجلة التي يصدرها صوفياً، وقارن بين التصوف الإسلامي، والتصوف المسيحي، ونبّه إلى سمو التصوف الإسلامي. وكانت له كتابات كثيرة، ومقالات وبحوث اشتهرت عنه، وذكر الدكتور عبدالحليم محمود ـ عليه رحمة الله ـ أنها تضعه إلى جوار الغزالي وأمثاله، وكان إسلامه ثورة هزّت ضمائر الكثيرين من ذوي البصائر في أوروبا، فذهبوا إلى نفس ما ذهب إليه جينو، وأسلموا وتصوّفوا، وأصبحت لكتاباته المكانة الرفيعة التي تضعه بجوار أفلوطين السكندري، مؤسّس الأفلاطونية المُحدَثة وأمثاله.

ومن مؤلفاته كتاب «الشرق والغرب»، خالف فيه من قال «إن الشرق شرق والغرب غربٌ ولن يلتقيان»، ونبّه إلى إمكان التفاهم بين الصفوة هنا وهناك، لو خلصت النية وصحّ العزم. وفي كتابه «أزمة العالم المعاصر» الذي أصدره سنة ١٩٢٧، يذكر: أن للأسلام قوة هي قوة الحقيقة لا قوة الأوطان والأتباع، والإسلام ليس دين الأمة العربية فقط، ولا هو مجرد عنصر من عناصر قوميتها فحسب، ولكنه دين عالمي صالح لكل الطبائع والشعوب، والإسلام لا يهدد أوروبا في رأيه، ولكنه الدين القادر على إعادة التوازن إليها بعد تجربتها الأليمة مع محاكم التفتيش. ويقول جينو: إن العالم المعاصر يعاني أزمة، بمعنى أن الأمور فيه قد بلغت منعطفاً حرجاً، وأن تغيراً بعيد الأثر قد بات وشيك الوقوع، وأنه لا محالة أن يقع التحوّل في المسار إنْ طوْعاً أو كَرْهاً، وسواء حدث ذلك فجأة أو جاء على مهل، وفي ظل كارثة أو بدون كارثة. والتحول الذي لا محيص عنه، هو أن نكتشف أننا لا محيد لنا عن الإيمان بالله،

والإسلام فيه النجاة من الهلاك، وبه الخلاص إلى بَرّ الأمان. ومثلما نظر الشرق إلى الغرب حديثاً متطلعاً أن يبلغ إلى حضارته المادية، فكذلك الغرب لا بد له أن يطالع الحضارة الروحية في الشرق. وخير الحضارات هي الحضارة الإسلامية، وخير ما فيها هو الإسلام، وهو ملهمها ومُوجدها، والتقاء الغرب بالشرق لابد أن يكون حول الإسلام، وفي ظل إشراقاته، وفي كنف إلهاماته، وفي ربوع تجلّياته.

ولقد دأب اليهود على أن يردّدوا أن العلاقات بين الشعوب يمكن أن تزيد التجارة أواصرها، وفي مجال التجارة يتجالس أبناء الشعوب ليتفاهموا ويتناقشوا، فتتلاقى الحضارات، ولكن جينو لم ير رأى اليهود، وقال: فالمادة التي حول مدارها تتواصل نظراتهم وفلسفاتهم وتطلعاتهم، من شأنها أن تُحدث الفُرقة، وتثير الشقاق، وتخلق المنازعات، وهي سبب للصراعات، وليس الميدان الاقتصادي إلا ميدان صراع بين المصالح المختلفة للشعوب والأفراد. ويقول: جينو: والغرب بطبعه الموروث محبٌ للسيطرة، والفلسفات الإنسانية التي أبدعها الغرب لم تكن أبداً من منطلق خيري، وإنما صاغها من صاغها إظهاراً لتفوق «العقل الغربي الجدلي»، وسمو «الروح الأوروبية أو الآرية»، والادعاء بأن «الرجل الأبيض» هو الأصل في الخلْق، وأن من عداه من الأجناس ليسوا إلاّ تبعاً. وحضارة الغرب «حضارة استعلاء واستلاب»، و«حضارة مصالح وتفوّق»، و«لأنها حضارة مادية فمن الطبيعي أن يفرضها الرجل الأبيض بالقوة المادية الغاشمة». والتقدم المادي له أصل ثقافي، وبعد أن كان الغرب يفرض نفسه «مادياً» فإنه يتطرح الآن ثقافياً ومادياً، وبعد الغزو المادي يسهل الغزو الثقافي، «فالغزو» دائماً وأبداً هو الدافع، و«السيطرة» هي الغاية، سواء كان ذلك باسم «التبادل الاقتصادي» أو «التبادل الثقافي» أو «التفاهم السياسي»، والنتيجة أن «الشرق» الآن يعاني الانقسام، والتشرّذم، وسوء التوجّه، والاضطراب، والحيرة، والبلبلة، وتسوده الفوضى؛ و«ليست الحضارة الغربية ـ والغزو باسمها ـ إلا قناعاً يخفي نزعة السيطرة.

ويقول جينو: وعندما يدافع شعب من الشعوب الغربية عن نفسه ضد شعب غربي آخر، يقال عن ذلك «وطنية» تستحق الإطراء والثناء، فإذا قام شعب شرقي ملسم بالدفاع عن نفسه ضد حكومة غربية، بإصدار القوانين التي تحمي اقتصاده، وتحافظ على هويته، أو تدافع عن ثقافته، قيل إن ذلك

«تعصّب وعداء للأجانب» جديران بالاحتقار والازدراء. و«الغرب دائماً مصدر الشرّ»، و«الرأسمالية الغربية أساس كل بلاء»، و«التبشير الغربي مجلبة لكل مضرة». وباسم «الحق، والحرية، والعدل، والحضارة، والتقدّم» يفرض الغرب سيطرته على الشرقيين، ويُحكم قبضته، والشرقيون لم يهددوا أحداً، ولم يفكروا أن يغزوا الغرب، ومن الغريب أن مفكري وساسة الغرب يصورون الغرب باعتباره الضحية. - فيالله! فرغم أن چينو توفى سنة ١٩٥١، إلا أن ما قاله ما يزال صادقاً، ولن يزال صادقاً، وإن تغيّر اسم الاستعلاء والاستكبار إلى اسم الإرهاب، يدفعوننا إليه، ويصمونا به كلما قاومنا سيطرة الغرب! وليس هذا العداء من الغرب للعرب إلا لأنه على النصرانية واليهودية ونحن على الإسلام، والصراع إذن «صراع صليبي» كما قال بوش، والدرس المستفاد: هو ما قاله لنا نبيّنا ﷺ، يوصينا به، قال: لا تتركوا في بلاد العرب ديناً آخر سوى الإسلام! اطردوا النصارى واليهود من بلاد العرب - فقد نسأل: وما هي بلاد العرب؟ والجواب: هي كل بلد يتكلم أهله العربية. - والدرس المستفاد أيضاً - وقبل وصية نبيّنا ﷺ، فلنرجع إلى قوله تعالى: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ (البقرة ١٢٠). فالصراع إذن بيننا وبينهم صراع ديني - أو كما يقول بلير: صراع إيديولوچي، وظل لذلك مدة خمسة عشر قرناً حتى الآن، فالا يكفي ذلك لنتعلم. وأما التصوف وعلاقته بكل ذلك، فإنه يعلّمنا أن نكون أنفسنا، وأن نثق في إلهنا ونبيّنا، وأن نتعلم ونعتمد على قدراتنا، وأن نستغني عما يصدّره لنا النصارى واليهود من الكماليات وأسباب الرفاهية، وأن نتمسك بديننا وكتابنا ولغتنا وهويتنا، والتصوّف جهاد من أجل الدنيا والآخرة، والصوفي الحقّ شعاره: أنا أجاهد في الله فأنا إذن موجود - فهذا أيها الأخوة بعض ما تعلمته من چينو الصوفي، الذي كان نصرانياً وأسلم.

* * *



٩٦- الحافظ الشيرازي...

شمس الدين محمد بهاء الدين الحافظ الشيرازي، من أكابر الشعراء في الأدب الفارسي، وميلاده في شيراز سنة ٧٢١هـ-١٣٢٠/م، ووفاته بها سنة ٧٩١هـ / ١٣٨٩م، وقبره بها مزار، وتحيط به حديقة يطلقون عليها الحافظية. وكان الحافظ من أعبد أهل زمانه، وكان بالذكر أنيساً، وللحقّ جليساً، والتصوّف مذاكرةً للعهود، ومسامرةً للشهود. وكان والده قد مات وهو لم يزل صغيراً، فاضطر للعمل ليعول نفسه، ويساعد أمه، واشتغل صبياً في مخبز لقاء دريهمات، ولكنها كانت تكفيه ليقوت نفسه، وليلتحق بكتّاب يحفظ فيه القرآن، ولمّا أتمّه أطلقوا عليه اسم «الحافظ»، فجعله «تخلُّصه» بعد أن ذاعت أشعاره وعرفه الناس بها، وساعده على قرض الشعر معرفته بالقرآن، واطّلاعه الواسع على فنونه في السرد والرواية، واختيار المعاني والألفاظ، وقرأ في الشعر العربي، ودرس المتداول من الفلسفة والحكمة، واشتغل بالتدريس في مدرسة شيراز، فقد كان التدريس هو الأقرب إليه وهو الزاهد؛ والمعلم كالزارع، فهذا يحيي موات إنسان، وذاك يحيي موات نبات. وأشعار الحافظ تفيض بالحبّ، ويترنم فيها بالعشق، وتلهج بالجماليات الحسّية، حتى ليظن الحسّي أنها عبادة للجمال، ولكنه يقصد بها إلى ما هو دون الظاهر، ويهدف من ورائها إلى المعاني الكلية، وغزلياته لذلك صوفية، وراعى فيها أن يتوجه بها إلى قرّائه بحسب أعمارهم ولغاتهم وحاجاتهم، فالشباب لهم ما يستثيرهم ويوقظ فيهم الحماس؛ والشيوخ غذاؤهم الحكمة والقصّ الروائي عن الخبرات. وديوان الحافظ عامر ويتجاوز الستمائة منظومة، فيها أكثر من خمسمائة من الغزليات. وانتقد الكثيرون الحافظ لما تبدو عليه غزلياته من دنيوية، حتى لتحار : هل هو يقصد بها فعلاً التعبُّد ؟ وهل هي عبارات رمزية بحسب الصناعة الأدبية؟ حتى ليشق على القارئ التفريق بين الحقيقة والمجاز في أشعار حافظ العرفانية. ويقول جامي في نفحات الأنس : إن حافظاً رغم أنه لم يكن له شيخ ظاهر، ولم ينتم لطائفة صوفية، إلا أن أشعاره

وكلماته تتوافق مع ما يقوله الصوفية العرفانيون، وأغراضه الصوفية فيها واضحة جلية، وكانت هناك الكثير من التفسيرات والتأويلات لها. ومن قبيل هذه الغزليات قوله :

تجلّى نور حسنك بالتجلّى من الأزل
فظهر العشق وأحرق العالم كله
أنقذونى ليلة أمس وقت السحر من الغم
وسقونى ماء الحياة فى ظلام تلك الليلة
رأيت الملائكة ليلة أمس يطرقون باب الحانة
فعجنوا طينة آدم وصبّوها فى قوالب
وصار غبار جسدى حجاباً لمحيا روحى
ونادى هاتف الحانة فى السحر
وقال ارجع فأنت القديم فى هذه الحانة،
وروضة جنة الخلود هى خلوة الدراويش
وخدمة الدراويش هى أصل العز والحشمة

ومع ذلك فالشائع أن الحافظ كان شيخه شاه نعمة الله الولىّ، للتشابه بين غزلياتهما وكثرة الشطح فيهما، وظهور الكرامات، ومع ذلك انتقد نعمة الله شعر الحافظ وقال: إن الحافظ لو علم معنى التنزيل حقاً لقرأة بعشق قلبه، ولكنه هبط بينما ارتقينا نحن، فأنىّ يستطيع الحافظ أن يواكبنا فى طريقتنا؟

ورغم ذلك استاء الحافظ كثيراً من تأويلات الصوفية لأشعاره، وتغنّيهم بها، وما كان لحافظ ـ وهو الشاعر العرفانى ـ أن يصرّح، وإذن لالتبست المعانى على الناس، ولم يكن له إلا أن يرمز. وكان عاجزاً عن التصريح، لأن ما يشاهده بقلبه لا يصلح له تصريح، ولو صرّح لن يسلم من سوء فهم الظاهريين ومحاكمات الفقهاء. وكذلك فإن موضوع الحافظ هو المحبة والعشق العرفانيين، وأحوالهما فى عوالم الجذبة والمكاشفة الصوفية، وليس من سبيل للكلام فى ذلك بوضوح إلا مجازاً وبلغة اصطلاحية، ولو لم يكن العشق وَهَمَ العشق، فما كان يقول؟ ومن كان يسمع كل هذا الكلام اللطيف ؟ ولم يكن التصوّف نفسه يسلم من نقد حافظ، فكثيراً ما انتقد أهل النفاق سواء كانوا شيوخاً أو مشرفين على الخانقاوات، أو زهّاداً ومحتسبين. يقول :

لا تضلّنى عن الطريق أيها الشيخ بحبّات مسبحتك
لأن الطائر إذا كان فطنا لا يقع فى أى فخ
يا حافظ اشرب الخمر وكن عيّاراً فكهاً واهناً
ولكن لا تتخذ القرآن شَرَكاً للرياء كالآخرين

وحافظ إذن كان مهموماً بالتصوّف، ويحكى فى قصائده عن أصوله، وينسب التصوّف للصوف لباس الفقراء، وفى الفارسية فإن لابس الصوف يُسمَّى بشمينة

بوش ـ أى الصوفى، وكان حافظ يستعمل هذا الاسم بهذا المعنى، يقول:

إذا أحرق بَرْق العشق خرقة صوفى فلنحترق
وإذا وقع جور الملك المتصر على شحاذ فليقع
فإن لابس الصوف، حادّ الطبع، لم يشمّ شيئاً من رائحة العشق
وعندما تمرين ثملة مرتدية القباء الموشّى بالذهب
أنذرى قبلة واحدة لحافظ الذى يلبس الصوف

ويقول:

يا حافظ ! ألق بهذه الخرقة الصوفية لأننا
قد أتينا نتبع القافلة بنار الآهات
ونار الزهد والرياء ستحرق بيدر الدين
فألق يا حافظ بهذه الخرقة الصوفية واذهب
أما تخشى حسراتى النارية ؟
انك تعرف أن لديك خرقة صوفية

ولم يشك حافظ أن الولوج إلى عالم السلوك والصفاء والروحانية لابد فيه من ترويض النفس، يقول:

جرت العادة على الخلاف فاطلب الأمان
فإنى اكتسبتُ اجتماع الخاطر بهذه الطريقة الصعبة

يعنى أن مخالفة الرسم والعادة هى طريق النجاة. وربما كان حافظ من الملامتية، يريد أن لا تُعرَف عنه التقوى حتى لا يكون من المنافقين، فادّعى شُرب الخمر وترْك الشرع، حتى لا يمنعه مانع من السير والسلوك الصوفى والحياة الباطنية للعارفين، ولهذا كثرت فى شعره أوصاف الخمر والحانة، ودير المجوس والمجوسى وأبناء المجوس، والنار التى لا تخبو فى الدير المجوسى، والمجون، والقدرية، والقلاشية، وإحراق خرقة الصوفى، ورمى الدلق فى الحانات، وأمثال ذلك مما نراه فى غزلياته. يقول:

وضعت نقشى على الماء بعباءة الخمر
حتى أحطم نقش عبادة النقش
إن المقصود من ذلك هو كسر شوكة
أهل الرياء والرين والسخرية منهم

إلا أن حافظاً رغم كل شىء كان حاله هو حال المحبة والعشق فى غزلياته، فهما كل شىء، ويعرفهما فيقول :

إن الإنس والجن إنما وُجدا بفضل العشق
فأظهِر المحبة كى تنال السعادة

ويقول:

يا مَن تتعلم العشق من دفتر الهوى
أخاف ألا تستطيع تفهم ما يقال وأنت جاهل
فكلام العشق ليس ذلك الذى يجرى على اللسان
فأعطنا الخمر أيها الساقى وكفّ عن القيل والقال
وكل من لم يك حياً بالعشق فى هذه الحلقة
صلّوا من أجله صلاة الميت قبل موته بفتوى

ما أوقع تلك العين التى لا يذهب بمائها بكاء العشق

وما أشد ظلام القلب الذى ليس فيه شموع للمحبة

وطريق العشق طريق طويل طويل وليس ثمة حيلة إلا تسليم الروح

فالعشق هو كل التصوّف، وهو مجلبة للاطمئنان، والاطمئنان على ثلاثة أوجه: فاطمئنان العوام بذكر الله؛ واطمئنان الخواص بالرضا بقضاء الله؛ واطمئنان خاصة الخواص الذين يتيهون فى وادى الحيرة، لأنهم ماخوذون بجلال الله وعظمته. يقول فيهم حافظ :

فى هذه الليلة السوداء ضل الطريق المقصود

فابزغ من الركن يا كوكب الهداية

فأينما سرت ما ازددت إلا وحشة

فحذار من هذه البيداء وهذا الطريق اللانهائى

متى يمكن أن تأتى نهاية هذا الطريق

الذى له فى البداية أكثر من مائة ألف مرحلة !!!

وفى الختام أقول إن شعر حافظ الصّوفى لم أطرب له ولم أحبه، ولا يساوى كل هذا الضجيج من حوله!

* * *

٩٧ - الحافى (بشر)...

أبو نصر بِشْر بن الحارث بن على ابن عبدالرحمن المروزى (١٥٠ ـ ٢٢٧ هـ)، ولقبه الحافى: لأن نعله انقطع فذهب به إلى الإسكافُ يصلحه، فقال له الإسكاف: ما أكثر كُلفتكم على الناس (يقصد الصوفية) ! فألقى بشر النعل من يده والآخر من رجله، وحلف لا يلبس نعلاً بعدها، فكان يُرى وقد أسوّد أسفل قدميه من أثر التراب مما يمشى حافياً! ـ هذا ما يقال، فَلِمَ لا يكون معنى الحافى هو الفقير، ويكون الحفاء اسمٌ آخر للتصوّف؟!

وبشر أصله من مرو، وسكن بغداد، وصحب الفُضَيْل بن عياض. وسُئل ما كان بدء أمره، لأن اسمه بين الناس كأنه اسم نبىّ، فقال : هذا من فضل الله، فقد كنت ماراً فى يوم من الأيام، فإذا أنا بقرطاس فى الطريق، فرفعته فإذا فيه: بسم الله الرحمن الرحيم، فمسحته وجعلته فى جيبى، وكان عندى درهمان ما كنت أملك غيرهما، فذهبتُ إلى العطارين، فاشتريت بهما عطراً، وجعلتُ أمسح على اسم الله بالعطر، فنمتُ تلك الليلة، فرأيت فى المنام كأن قائلاً يقول لى: يا بشر بن الحارث! رفعتَ اسمنا عن الطريق وطيبّته ! لأطيبّن اسمك فى الدنيا والآخرة ! ثم كان ما كان؟. ويذكره الخليفة المأمون فيقول: لم يبق فى بغداد أحد يُستحيا منه غير بشر بن الحارث؛ ويذكره آخرون

فيقولون: كانت لذى النون العبارة، ولسهل التُستُري الإشارة، ولبشر بن الحارث الورع.

وطريقة بشر قوامها الورع، يقول للمريدين: لا تؤثروا على حذف العلائق شيئاً، إنى إن أجبتُ نفسى إلى ما تشتهى من المعطف والملبس، خفتُ أن أكون مكّاساً أو شرطياً». ويقول: «من لم يحتج إلى النساء فليتقِ الله تعالى ولا يألف أفخاذهن». ويعلل بشر: عدم زواجه، بشُغله بالفرض دون السُنّة، لأن الزواج سُنّة وليس فرضاً. وكان من ورعه يأنف من لقاء الناس، ويقول: حُبّ لقائهم من حُبّ الدنيا، ويتحرّج أن يسئ الظن بالناس، وأن يصاحب الأشرار، لأن صُحبتهم تورث سوء الظن بالأخيار، ولا يجد بأساً أن لا يعرفه الناس، ومن أجل ذلك كان يتحرّج أن يتحدث عن رسول الله ﷺ، ويتحرّج أن يطيل فى صلاته فى ركوعه وسجوده، ويسمى ذلك سرائر الشّرك، ؛ اختار صُحبة أصحاب رسول الله ﷺ على صُحبة الناس، وكان يقول: «ما أنا بشئ من عملى أوثق به منى بحبى أصحاب رسول الله ﷺ». والعلم عنده يسبق العمل ويترتب عليه، فمن عَلِمَ عَمِل وعلّم، وذلك هو الذى يُدعَى عظيماً فى ملكوت السماء. والعلم أداة الأنبياء، والنبىّ ﷺ أدّى علمه إلى أصحابه، فتمسكوا به، وحفظوه، وعملوا به، وأدّوه إلى قوم أدّوه إلى آخرين، حتى صار العلم إلى قوم يأكلون به!

ذهب الرجال المُرتَجى لفعالهم
والمنكرون لكل أمر مُنكر
وبقيتُ فى خَلَف يزيّن بعضُهم
بعضاً ليدفعَ معورٌ عن معوَر

وبشر لذلك لا يريد من أصحابه أن يحدّثوا، أو يشهدوا، أو يؤمّوا قوماً، أو يأكلوا لأحد طعاماً، ويقول عن نفسه: لو علمتُ أن أحداً يعطى لله لأخذت منه، ولكنه يعطى بالليل ويحدّث بالنهار. ويأمر أصحابه أن لا يكذبوا ويقولوا توكلنا على الله، لأنهم لو كانوا صادقين فى توكّلهم، لرضوا بما يفعله بهم ربّهم. ويصنف الفقراء ثلاثة: فقير لا يسأل، وإن أُعطى لا يأخذ، فهو من الروحانيين، فإذا سأل الله أعطاه، وإن أقسَم على الله أبرّه؛ وفقير لا يسأل، فإن أُعطى قَبِل، فهو من أواسط القوم، وعَقْدُه التوكل والسكون إلى الله، وهو ممن توضع له الموائد فى حظيرة القدس؛ وفقير اعتقد الصبر ومدافعة الوقت، فإذا طرقتْهُ الحاجة خرج إلى عبيد الله وقلبُه إلى الله بالسؤال، فكفّارة مسألته صدقة.

ويتحسّر بشر على ما كان للصوفية قديماً، ويقول فيهم: «حسبك أقوام موتى نحيا القلوب بذكرهم؛ وأنّ أقواماً أحياء تقسو القلوب برؤيتهم!» - فلما رأى بشر شاباً يلبس مرقعة قال له: «ثوب شُهرة يكرمك الناس من أجلها؟!» فأجابه الشاب: «إنى لبستها ليعلم الناس أنى أعبد الله فيكرمونى لأجله»، فقال بشر: أحسنت! مثلُك من يصلح له لبس المرقعة!

وينصح بشر مريديه فيقول: انظروا خبزكم من أين هو، وانظروا مساكنكم التى تتقلبون فيها كيف هى؟ والزموا الأسواق لكى لا تتكفّفوا الناس، ولا تحبّوا الثناء، ولا أن تُحمدوا، ولا أن تُعرفوا.

وسأله أحدهم: أين يعبُدُ الله؟ فقال له: أصلح سريرتك أولاً ثم اعبده حيثما شئت. وسأله أحدهم: لا تريد أن تصلى فى الصف الأول، فقال له: إنما يريد الله قُرب القلوب لا قُرب الأجساد.

ويقول بشر: أُولى درجات الطريق التوبة، وصدق التوبة فى اتّباع القرآن، فالقرآن يدل على الداء والدواء، والذنب لا يصلحه إلا الاستغفار، وإن لم تطع الله فلا أقل من أن لا تعصاه، وَهَبْ أنك لا تخاف منه، ألا تشتاق أن تعرفه؟ إن من يُحرَم المعرفة لا يجد للطاعة حلاوة، وحلاوة العبادة لن يجدها العبد إلا إذا جعل بينه وبين الشهوات حائطاً من حديد!

ويبدو أن بشراً كتب فى «الزهد»، فقد ذكر ذلك صاحب الفهرست، وتأثّر به الإمام ابن حنبل، وضمّن كتابه فى الزهد أيضاً شذرات من كتاب بشر. وربما لزهده الشديد أطلقوا عليه الحافى، يعنى المُعْدَم. وربما كان اسم الزهد هو الذى يفضله البعض للتصوف، وصنّف عبد الله بن المبارك كتاباً فيه، وحث الإمام أحمد ينصح تلاميذه بقراءته بدلاً من قراءة كتاب المحاسبى الصوفى «رعاية حقوق الله».

وبشر كان من المحدّثين ولكنه ترك رواية الحديث، فقد تحرّج أن يرويه بعد أن تصوّف وزهد؛ ويعدّه ابن حبّان من الثقات، ويبدو أنه فى كتابه «الزهد» قد أسنده بطريقة الإمام أحمد. ولم يكن بشر حنبلياً وإنما على مذهب الثورى، وإن تفوّق فيه عليه كما يقول النقّاد. ويعقد المؤرخون مقارنات بين الإمام أحمد وبشر، ويفضّل بشر الإمام أحمد على نفسه بثلاث: فالإمام طلب الحلال لنفسه ولغيره، بينما بشر طلبه لنفسه فقط؛ والإمام اتسع للنكاح أى الزواج، وبشر ضاق به؛ والإمام كان إماماً للعامة، وبشر طلب الوحدة لنفسه.

وكانت مسألة عدم زواج بشر من المسائل التى كثر الجدل حولها، ويعلق الإمام أحمد: بأن بشراً لو تزوج لتم أمره، والعامة يقولون إن بشراً بتركه للسُّنّة يتشبّه بالرهبان، وبشر يعتذر عن نفسه بالقرآن فى قوله تعالى: ﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ (البقرة ٢٢٨)، فكان يخشى لو تزوج، أن لا يُعطى مَن يتزوجها من حقوقها بقدر ما يتقاضاها من واجبات. ورغم هذا التبرير الذى يسوقه، فقد كان يعلم فى قرارة نفسه أنه مقصّر، فلما جاءه رجل يطلب منه أن يدعو له بالرزق بسبب ما يعانى من كثرة النفقة والعيال، أجابه بشر: «بل ادعُ أنت لنفسك لأن حالك عند الله خير منى». والسبب أن بشراً كان يرى أنه لم يأخذ بالسُّنّة التى أخذ بها الرجل، وكان يرى أن جُماع الأمر كله فى كتاب الله وسُنّة نبيّه، وأن المؤمن يُبتلى فيُمتَحن، فلما أخذوا الإمام أحمد وضربوه بالسياط فى محنة خلق القرآن، علّق بشر: أُدخل أحمد بن حنبل الكير فخرج ذهباً أحمر! وبلغ ذلك أحمد بن حنبل، فقال: «الحمد لله الذى أرضى بشراً بما صنعنا». وبشر من مذهبه أنه لا ينبغى أن يتصدّى للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر إلا من يروض نفسه على الصبر على الأذى؛ ومعرفة الخير والشرّ لا تكفى، وإنما لابد فيها من العمل كما أسلفنا.

والجدير بالذكر أنه كانت لبشر ثلاث أخوات حالهن هو حاله من الورع، وكانت كبراهن يقال لها مُضغة، وماتت فى حياته فحزن عليها حزناً شديداً. وكان يقول فى حسرة: قرأت فى بعض الكتب، أن العبد إذا قصّر فى خدمة ربّه سلبه أنيسَهُ، وهذه أختى مُضغة كانت أنيستى فى الدنيا! وأما الأخت الوسطى فكان اسمها مُخّة (أى قطعة مخ)، وكانت كثيرة التردد على الإمام أحمد بن حنبل تسأله فى أمور دينها، فيعجب لما تسأل ولشدّة ورعها، وجاءته يوماً تقول له: إن رأس مالها دانقان، تشترى بهما القطن لتغزله وتبيع نتاجه بنصف درهم، فتقوت بدانق من الجمعة إلى الجمعة، ولكنها فى ليلة من الليالى مرّ بمنزلها رجل يحمل مشعلاً، وجعل يكلم أصحابه، فانتهزت الفرصة واستأنفت شغلها فى نور المشعل، وظل الرجل يتحدّث مع إخوانه وهى تشتغل، فلما انصرف وجلستْ إلى نفسها، ساورتها الشكوك أنها فعلت إثماً، فقد أخذت من نور ينفق عليه غيرها، فلما عرضت مسألتها على الإمام طلبت أن يفتيها، فما كان منه إلا أن قال لها:

تخرجين الدانقين، وتبقين بلا رأس مال حتى يعوضك الله خيراً منه. وقال الإمام لأصحابه في تبرير فتواه: إن سؤالها لا يحتمل تأويلاً آخر غير هذا، لأنها أخت بشر، وصادقة كل الصدق في ورعها، فلابد أن يُصدقها النصيحة، ويعطيها جواباً يتفق مع مقامها وحالها. ولا أعتقد أن الفتوى صائبة، ولقد ظلمها ابن حنبل وظلم نفسه بها. وفي ظني أن الحديث منحول. وسألتُهُ مرة: هل أنين المريض شكوى من الله تعالى؟ فأجابها: أرجو أن لا يكون شكوى منه، ولكنه اشتكاء إليه عزّ وجلّ. وقال الإمام لأصحابه ما سمعت قط إنساناً يسأل عن مثل هذا إلا أن يكون هذا الإنسان أخت بشر!. أما الأخت الثالثة: واسمها زُبدة (خيار الشيء وأفضله)، فمن أقوالها: أثقل شئ على العبد الذنوب، وأخفّه عليه التوبة، وأعجب أن لا يدفع أثقل شيء بأخف شئ. ـ وهذه الأخت هي التي يقول عنها بشر: إنه تعلم الورع منها، فإنها كانت تجتهد أن لا تأكل ما لمخلوق فيه صنع ـ! فيا للعجب من هذه الأسرة المسلمة! ولكنها الذرّية الصالحة، من الأصل الصالح، والله يقول: ﴿ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ ﴾ (آل عمران ٣٤).

* * *

٩٨ ـ حَتّى (فيليب)...

فيليب حَتّى، مستشرقٌ كان أستاذاً بجامعة برنستون، والمشرف على الدراسات العربية بها، وله تلاميذ كثيرون من العرب، من سوريا ولبنان خصوصاً، وهو لبناني الأصل وأمريكي الهوية، وكُتبه وبُحوثه ومنشوراته في التاريخ والفكر العربيين لا تُحصَى. ويعقد في كتابه «تاريخ العرب» فصلاً عن التصوّف، فيه: أن التصوّف يمثل حركة معاكسة للنظر العقلاني في الدين، وأساسه نفسي وهو تشوّق المرء إلى التّقرّب من الله، والاتحاد الشخصي بالحقيقة الدينية، ويعود بأصله كسواه من الحركات الإسلامية، إلى القرآن والحديث، بل إن علاقة محمد بالله ترتكز على الشعور المباشر بالحضرة الإلهية، وقد أصبح أصحاب التصوّف يعدّون أنفسهم المفسّرين الحقيقيين لتعاليم النبيّ الباطنية الواردة في الحديث. وكان التصوّف في بدايته مقصوراً على الحياة الزهدية، القائمة على الاعتزال والتأمل، كما هو الحال عند النُسّاك النصارى، ثم أصبح في القرن الثاني للهجرة وما بعده، حركةً تجمع المعتقدات من مصادر شتّى، نصرانية وأفلاطونية جديدة وغنوسية وبوذية، وتتدرج من مذاهب السلوك إلى مذهب

الاتصال بالله وشمول الألوهية. أما لبس الصوف: فمأخوذ عن رهبان النصارى، ومنهم أيضاً أخذت فكرة **العزوبة** أو **التبتُّل** التى لم تكن من الإسلام فى شئ، وفى التأملات الفردية والتنبه الطويل والانصراف إلى الخلوات شئ من تأثير «**الصوامع السريانية**». أما نظام «**الطريقة**»، ومنه «**الشيخ والمريد**»، فكما كان عند النصارى «**الكاهن والمبتدئ**»، فهو نظام يحاكى «الرهبنة» بالرغم من الحديث المنسوب إلى النبىّ ﷺ «**لا رهبانية فى الإسلام**». وكذلك حلقات الذكر، وهى الطقس الدينى الوحيد فى الإسلام، فإنها تنم عن أصل مسيحى. وتشير التقاليد الصوفية المختصة بالآخرة وبالمسيح الدجّال، إلى أثر متصوّفين أصلهم نصارى ويهود. وأما حركة **الزهد** عند المسلمين، فإنها لم تلبث أن تأثرت بالمؤثرات النصرانية والأفكار الهيلينية، فأصبحت فى القرن الثانى للهجرة، طريقة تصوّفية هدفها المعرفة بالله، وهى شكل من الغنوستية عند اليونان. وقد أنشأ عقيدة المعرفة هذه: أبو سليمان الدارانى؛ ولكن أول صوفى أخذ بمذهب السلوك دون التزهُّد: هو معروف الكرخى، وكان نصرانى الأصل، أو لعله كان على مذهب الصابئة، واشتهر حين تصرّف بحب أو عشق الله. وتطوّر التصوّف النظرى إلى مذهب الاتصال بالله فى عهد الترجمة اليونانية، وبتأثير الأفكار الهيلينية، وتم الانتقال من مذهب الاتصال إلى القول بشمول الألوهية، بتأثير الفكر الهندى الإيرانى. وقد حفظ لنا صاحب الأغانى، صورة واحدة على الأقل، ظهرت فى تضاعيفها وجهة النظر البوذية. أما النُّساك الزنادقة الذين وصفهم الجاحظ، فهم إما من معاشر السادو الهنود والنسّاك البوذيين، أو من مقلّديهم؛ وقام بايزيد البسطامى ـ وكان جدّه مجوسياً ـ فأحدث القول بقانون الفناء، الذى تنعكس فيه فكرة النرفانا. ويمكن أن نعد **الصوفية المنظمة**: الكهنوتية الوحيدة فى الإسلام. وفضلاً عن التنسُّك والطقوس الدينية، أدخل المتصوّفون إلى الإسلام أموراً أخرى، منها استعمال السُّبحة عند المسلمين، وهى هندية الأصل، ولعل المتصوّفين استعاروها من البِّيَع النصرانية الشرقية وليس من الهند مباشرة. وفى زمن الحروب الصليبية اتصل أمرها بالعالم الغربى الكاثوليكى، ووردت أول إشارة إلى السُّبحة فى الأدب العربى فى شعر أبى نواس. وفوق هذا أخذ أهل التصوّف عادة تكريم الأولياء على طريقة النصارى.

وكان السهروردى صوفياً قُتل متَّهماً بالزندقة، وفى دعاء له يظهر أن مذهب المتصّوفين كان مديناً بفكرة الاتصال بالله، للفلسفة الأفلاطونية الجديدة، وللنصرانية أيضاً!! وفى التصّوف الإسلامى فإن العقيدة الثانية فى باب الإيمان، هى: أن محمداً رسول الله وخاتم النبيين؛ وفى عالم الإلهيات القرآنى ليس محمد إلا بشراً لم يتم الله على يديه من العجائب غير إعجاز القرآن، إلا أن التقاليد والأساطير التى اصطنعتها العامة من بعد، نسجت حول هامة الرسول هالةً من النور الإلهى، وقالوا إن الله قد خلقه ـ أى محمداً ـ من نوره، وخلق الخلق جميعهم من هذا النور، وهى أقوال تتنافى مع ما جاء به القرآن. وهى أشبه بتقديس النصارى للمسيح. وكما ترى فإن حتىّ هذا شديد التحامل على الإسلام والمسلمين، وعلى الصوفية، وليس من دليلٍ لما يقول، وكلامه مرسل، وقد أثبت غيره من المستشرقين أنه غير صحيح البتّة، وأن التصّوف عربىٌّ خالص، وأن أصوله فى القرآن والسُّنّة؛ وأمّا عن المسبحة فإن المسلمين كانوا يستخدمون الحصى للتسبيح، واستعملوا أصابعهم يعدّون عليها، وتطوّر ذلك إلى ما نعرفه من المسابح الآن. وأيضاً التبتُّل، عرفه المسلمون منذ البداية عند عثمان بن مظعون وغيره، ولم يفعله عثمان تقليداً أو محاكاة للنصارى، وإنما زهداً. والتصّوف الخالص هو مذهب أهل السنة؛ وما دَخَل التصّوف من أفكار شاذة ـ هو ما نقله النصارى واليهود من ثقافاتهم إلى شُذّاذ الصوفية، وهؤلاء خرجوا عن دائرة الإسلام بأقوالهم. وتثبت تقوّلات فيليب حتّىعن التصّوف والإسلام، أنه غير منصف، وباحث سىء، وأنه لا يحب المسلمين كدأب النصارى واليهود، وصدق الله العظيم لما قال: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ (البقرة ١٢٠)..

* * *

٩٩- الحرّاق (محمد)...

محمد بن عبدالواحد العَلَمى، الشاذلى، الدرقاوى، وشهرته الحرّاق، بالنظر إلى شدّته على تلاميذه، وله ديوان العَلَمى سلك فيه طريقة ابن الفارض، ويشتمل على تواشيح وأزجال، وشرح الصلاة المشيشية، نسبةً إلى عبدالسلام بن مشيش ـ الذى أخذ عنه الشاذلى التصّوف. ومن تلاميذه ابن العربى الدلّائى، المتوفى سنة ١٢٨٥هـ، وقد كتب ترجمته باسم «النور اللامع البرّاق فى ترجمة محمد الحرّاق».

وكانت وفاة الحرّاق بتطوان سنة ١٢٦١ هـ. وواضح أنه كان متضارباً مع نفسه، فكان شاذلياً، وفي نفس الوقت قلّد ابن الفارض، فالشاذلي صوفي سُنّي، وابن الفارض من أتباع نظرية وحدة الوجود!

* * *

١٠٠ - ابن حزم الأندلسي...

أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد ابن حزم، الأندلسي، صاحب «الفصل في الملل والأهواء والنحل»، وأحد أئمة الإسلام المنكرين على الصوفية والتصوّف، وأتباعه يسمون الحزمية. وميلاده بقرطبة سنة ٣٨٤ هـ، وكانت له رياسة الوزارة ولأبيه، وزهد فيها وانصرف إلى العلم والتأليف، وقيل بلغت مصنفاته نحو الأربعمائة مجلد، وكان شديد النقد حتى قيل: «لسان ابن حزم وسيف الحجّاج شقيقان»، وكان في أول أمره شافعياً، وانقلب ظاهرياً، وأبطل ما لا يستند إلى القرآن والحديث، ولم يأخذ إلا بظاهر لفظهما، وأنكر التوسّل بالأولياء، ومذاهب المتصوّفة الذين ادعوا أن الولي أفضل من النبيّ ومن الملائكة؛ أو قالوا أن مَن عرف الله حقّ معرفته فقد سقطت عنه التكاليف والشرائع؛ أو قالوا بحلول الباري تعالى في أجسام خَلقه كالحلاج وغيره؛ أو ذهبوا إلى تأويل كلام الله، وادعاء النبوة؛ أو تلاعبوا فقرروا صلوات غير الصلاة، أو عدداً لها غير عددها. ويقول ابن حزم محذّراً منهم جماعات المسلمين: فلا يغرّنكم أهل الكفر والإلحاد، ومن مَوّه الكلام بغير برهان بتمويهات ووعظ على خلاف ما أتى به كتاب الله وكلام نبيه، فلا خير فيما سواهما، فدين الله تعالى ظاهر ولا باطن فيه، وهو جهر ولا سرّ لحته، وكله برهان ولا مسامحة فيه، وكل من يدعو أو يتّبع بلا برهان فهو متّهم، وكل من ادعى للديانة سرّاً وباطناً فهي دعاوى ومخارق، ورسول الله لم يكتم من الشريعة كلمة، لا أطلع أخصّ الناس به من زوجة أو ابنة، أو ابن عم، أو صاحب، على شئ من الشريعة، كتمه عن الأحمر والأسود ورعاة الغنم، ولا كان عنده عليه السلام سرّ، ولا رمز، ولا باطن، غير ما دعا الناس كلهم إليه، ولو كتمهم شيئاً لما بلغ كما أُمر، ومن قال هذا فهو كافر، فإياكم وكلّ قول لم تَبِن سبيله، ولا وَضُح دليله، ولا تعوجّوا عما مضى عليه نبيكم ﷺ، وأصحابه رضي الله عنهم، فالزموا ما نص عليه ربّكم تعالى في القرآن بلسان عربي مبين، لم يفرّط فيه من شئ، تبياناً لكل شئ، وما صحّ عن نبيكم برواية الثّقاة من أئمة أصحاب الحديث، مسند إليه عليه السلام، فهما طريقتان يوصلانكم إلى رضا ربكم عزّ وجلّ».

ويبدو أن ابن حزم قد أكثر من خصومه فتمالأوا على بُغضه، وأجمعوا على تضليله، وألّبوا عليه أصحاب السلطان، وأثاروا عليه العامة، فاضطر أن يغادر إلى بادية لَبْلة، وتوفى فيها سنة ٤٥٦هـ، وما أشبه ما جرى له بما جرى للإمام ابن تيمية، فكلاهما لم يصانع أحداً، وكان فقيهاً يستنبط الأحكام من الكتاب والسُّنة، ودافع عن سنن السلف الصالح بأدلة لم يُسبق إليها، مع أنها مستقاة من القرآن والحديث، إلا أن حريته فى الجدل والمناظرة جلبت عليه عداوة الكثيرين من علماء سائر المذاهب ومشايخ الصوفية الذين انحرفوا بالتصوّف فلم يكن كلام ابن حزم فى صالحهم.

* * *

١٠١- الحسن البصرى (صاحب العمامة السوداء)...

قال فيه ثابت بن قرة: ما أحسد هذه الأمة العربية إلا على ثلاثة أنفس، أولهم: عمر بن الخطّاب؛ والثانى: الحسن بن أبى الحسن البصرى؛ والثالث: أبو عثمان الجاحظ.

وكان الحسن البصرى من درارى النجوم، علماً وتقوى، وزُهداً وورعاً، وعفةً ورقّة، وتألهاً وتنزيهاً ومعرفة، وفصاحةً ونصاحةً؛ تصل مواعظه إلى القلوب، وتلتبس ألفاظه بالعقول، وليس له ثان، لا مُقارباً، ولا مدانياً، وكان منظره وفق مخبره، وعلانيته فى وزن سريرته، يجمع مجلسه ضروباً من الناس وأصناف اللباس، لما يوسعهم من بيانه بالكلام الفَصْل، واللفظ الجَزْل، والصدر الرَّحْب، لا تثنيه لائمة فى الله، ولا تُذهله رائمة عن الله، يجلس تحت كرسيه قادة صاحب التفسير، وعمرو وواصل صاحبا الكلام، وابن أبى إسحق صاحب النحو، وفرقد السبخى صاحب الرقائق، وأشباه هؤلاء ونظراؤهم، فمن ذا مثله، ومن ذا يجرى مجراه؟ فلاعجب أن قال فيه محمد بن علىّ بن الحسين: ذاك الذى يشبه كلامه كلام الأنبياء!

ومعظم ما كتب أو قال الحسن رسائل ومواعظ، وجميعها موجهٌ لعمر بن عبد العزيز، وسياسته فيها «لاخروج ولا كتمان»، أى لا عصيان لولى الأمر، ولا تخلُّف عن إبداء النُصح له، وخير ما ينصح به الشعب إذا ابتلاه الله بطاغية أن يصبر، فإن لم يكن الأمر عقوبة من الله فما من سبيل لردّ عقوبة الله بالعصيان، وإن يكن بلاء فأحرى بالناس الصبر حتى يحكم الله - وهو خير الحاكمين. - وما أحرانا أن ننصاع لوصيته إلى أن يزول عنا حُكم الطغاة.

وينصح الحسن الناس إذا ابتلوا بالحكام الظالمين، فيقول: ليس للمؤمن أن يُذلّ نفسه. إن سيوفهم لتسبق ألسنتنا. وإذا تكلمنا قالوا بسيوفهم» وهو قولٌ حقٌّ وأيم الله!

ومثل الحاكم الظالم عنده الحجّاج، ومثل الحاكم العادل عمر بن عبد العزيز. وفى الحجّاج قال عمرو بن العلاء: لم أر قرويَيْن أفصح من الحسن والحجّاج. فسألوه عن أفصحهما؟ فقال: الحسن. وقال الحجّاج: أخْطَبُ الناس صاحب العمامة السوداء بين أخصاص (أى أكابر) البصرة، إذا شاء خطب وإذا شاء سكت. ـ يعنى الحسن البصرى.

وكُنيةُ الحسن البصرى: أبو سعيد، وكان أبوه إيرانياً من ميسان، وسباه المسلمون لدى فتح العراق، وسكن المدينة، وقد أعتقه من كان عندهم من الأنصار، وولد ابنه الحسن فيها سنة ٢١ أو ٢٢ هـ، وغادرها إلى البصرة سنة ٣٨هـ، وأقام بها إلى أن توفى سنة ١١٠هـ. ويقول عنه أبو طالب المكّى: كان الحسن أول من أنهج سبيل هذا العلم ـ علم التصوّف، وفتق الألسنة به، ونطق بمعانيه، وأظهر أنواره، وكان يتكلم فيه بكلام لم يسمعوه من أحد من إخوانه، فقيل له: يا أبا سعيد! إنك تتكلم فى هذا العلم بكلام لم نسمعه من أحد غيرك. ممن أخذت هذا؟ فقال: من حذيفة ابن اليمان. قيل، وقالوا لحذيفة بن اليمان: نراك تتكلم فى هذا العلم بكلام لم نسمعه من أحد من أصحاب رسول الله ﷺ، فمن أين أخذته؟ فقال: خصّنى به رسول الله ﷺ. ـ يعنى: أن علم الحسن من ثمّ أخذه عن رسول الله ﷺ ـ أى التصوّف.

ويقول الحسن فى التصوّف: مَن لبس الصوف تواضعاً لله عزّ وجلّ، زاده نوراً فى بصره وقلبه، ومن لبسه للتكبّر والخُيلاء كُوِّر فى جهنم مع المردة. وكان ينشد:

ليس مَن ماتَ فاستراح بميت
إنما الميت ميتُ الأحياء

وكان يقول لمريديه: كل من اتّبع طاعة الله لزمته معرفته، ومن أحب رجلاً صالحاً فكأنما أحب الله. ويبعث الله أقواماً يطلبون هذا العلم حسبةً، ليس لهم فيه نية، فيتعبهم فى طلبه كى لا يضع العلم، وتبقى عليهم تبعته.

ويعرّف الحسن الإسلام فيقول: السرّ والعلانية فيه مشتبهة، وهو أن يسلم قلبك لله، وأن يسلم منك كل مسلم، وكل ذى عهد. والمؤمن من يعلم أن ما قاله الله عز وجل هو كما قال، وهو أحسن الناس عملاً، وأشدّ الناس خوفاً، ولو أنفق جَبَلاً

من مال ما أمن دون أن يعاين، ولا يزداد صلاحاً وبراً وعبادةً إلا ازداد فرَقاً، يقول لا أنجو، والمنافق يقول سواد الناس كثير، وَسَيُغفر لي ولا بأس عليّ، فيُنسىء العمل ويتمنّى على الله تعالى. والمؤمنون شهود الله في الأرض، يَعرِضون الأعمال على كتاب الله، فما وافق كتاب الله حمدوا الله عليه، وما خالف كتاب الله عرفوا أنه مخالف لكتاب الله، وعرفوا بالقرآن ضلالة من ضلّ من خَلْق الله.

ويقول الحسن في المتصّوفة : قلوبهم محزونة، وشرورهم مأمونة، وحوائجهم خفية، وأنفسهم عفيفة، صبروا أياماً قصاراً تُعقب راحة طويلة، أما الليل فمُصافة أقدامهم، تسيل دموعهم على خدودهم، يجأرون إلى ربّهم : ربّنا !! ربّنا !! وأما النهار، فحكماء علماء، برره أتقياء، كأنهم القداح، ينظر إليهم الناظر فيحسبهم مرضى، وما بالقوم من مرض، أو خولطوا، ولقد خالط القوم من ذِكْر الآخرة أمرٌ عظيم.

ويقول الحسن في الصوفية: هم أهل التقوى، علاماتهم: صدق الحديث، والوفاء بالعهد، وصلة الرحم، ورحمة الضعفاء، وقلة الفخر والخيلاء، وبذل المعروف، وقلة المباهاة للناس، وسعة الخُلق مما يقرّب إلى الله.

والحسن البصري ينكر على الفقهاء المترّسمين برسم الفقهاء أنهم فقهاء حقاً. يقول له فرقد السبخي تلميذه : يا أبا سعيد ! إن الفقهاء يخالفونك ! فيسأل الحسن: وهل رأيت بعينك فقهاء ؟ إنما الفقيه: الزاهد في الدنيا، الراغب في الآخرة، البصير بدينه، المداوم على عبادة ربّه، الورع، الكافّ عن أعراض المسلمين، العفيف عن أموالهم، الناصح لجماعتهم.

وكان الحسن من الزهّاد ويكفيه من الزاد ما يكفي العُنَيْزة : الكفّ من التمر، والشربة من الماء. وزُهده في الدنيا جعله يرهب ويستتر عندما وليه الأمير القضاء، فكتب إليه: أيها الأمير ! فإن انكاره للأمر غير جدير بقضاء الواجب فيه، وإن العامل للعمل بغير نية حقيقٌ أن لا يُعان عليه، فعافني عافاك الله ـ فعافاه الأمير وأكرمه.

ويضرب الحسن نماذج للزهد من حياة المرسلين : فأمّا مُحمّد عليه الصلاة والسلام فشدّ الحجرَ على بطنه من الجوع ـ وأمّا موسى: فروُيت خُضرة البقل من صفاق بطنه من هُزاله، فما سأل الله تعالى يومَ أوى إلى الظل، إلا طعاماً يأكله من جوعه. ولقد جاءت الروايات عنه أن الله تعالى أوحى إليه أنْ : يا موسىﷺ إذا رأيت الفقر مقبلاً فقل: مرحباً بشعار الصالحين، وإذا رأيت

الغنيَ قد أقبل فقل: ذنبٌ عُجِّلت عقوبته ـ وصاحب الروح والكلمة، عيسى بن مريم، فى أمره عجيبة، فقد كان يقول : أدمِى الجوع، وشعارى الخوف، ولباسى الصوف، ودابتى رجلى، وسراجى بالليل القمر، وصلاّيتى فى الشتاء الشمس، وفاكهتى وريحانى ما أنبت الأرض للسباع والأنعام، أبيت وليس لى شىء، وليس أحد أغنى منى. ـ وسليمان بن داود عليهما السلام ليس دونهم فى العَجَب: يأكل خبز الشعير فى خاصته. ويطعم أهله الخُشكار أى الطحين الخشن، ويطعم الناس الدَرْمك، أى الطحين الأبيض، فإذا جنّه الليل لبس المسوح، وغلّ اليد إلى العنق، وبات باكياً حتى يصبح، يأكل الخشن من الطعام، ويلبس الشعر من الثياب !!

وكتب الحسن إلى عمر بن عبد العزيز لما سأله أن يعظه : أما بعد، فإن رأسَ ما مُصلحك ومُصلح به على يدك: الزهد فى الدنيا، وإنما الزهد باليقين، واليقين بالتفكر، والتفكر بالاعتبار، فإذا أنت تفكّرت فى الدنيا لم تجدها أهلاً أن تبع بها نفسك، ووجدت نفسك أن تكرمها بهوان الدنيا، فإنما الدنيا دار بلاء ومنزل غفلة.

ويقول : ما من وسواس نبذ فهو من إبليس، وما كان فيه إلحاح فهو من النفس؛ يعنى الوساوس تأتى وتروح، وتظهر فجأة وتتلاشى، وأما هواجس النفس فهى التى تلح عليها، ويسمون ذلك فى الطب النفسى العصاب الوسواسى، وعلاجه عند الحسن هو العلاج الدينى، يقول: يستعان فيه بالصوم والصلاة والرياضة.

والحُزْن فى مذهب الحسن ـ صفة الصوفية، والمؤمن يصبح حزيناً ويمسى حزيناً، ولا يسعه غير ذلك لأنه بين ذنب قد مضى لا يدرى ما الله يصنع فيه، وبين أجل قد بقى لا يدرى ما يصيب فيه من المهالك. يقول: ما يسع المؤمن فى دينه إلا الحزن، يعلم أن الموت مورده، والساعة موعده، والقيام بين يدىّ الله مشهده. وما يؤمن عبدٌ بالقرآن إلا حزن وذَبل، وإلانصب وذاب، وتعب. ولئن قرأتم القرآن وآمنتم به ليطولن فى الدنيا حزنكم، وليشتدن خوفكم، وليكثرن بكاؤكم. والحزن من أوصاف أهل السلوك.

ويقول أبو طالب المكى: وكان الحسن يجتمع مع خاصة أتباعه فى بيته، مثل: مالك بن دينار، وثابت البنانى، وأيوب السختيانى، ومحمد بن واسع، وفرقد السبخى، وعبد الواحد بن زيد، فيقول: هاتوا انشروا النور، فيتكلم عليهم فى علم اليقين والقدرة، وفى خواطر القلوب وفساد الأعمال ووسواس النفوس. وما يزال الحسن البصرى يعى

الكلمة حتى نطق بها وقال : المحب سكران لا يفيق إلا عند مشاهدة محبوبه.

ومن مواعظ الحسن: إن الدنيا دار عمل، من صحبها بالنقص لها والزهادة فيها، سعد بها ونفعته صُحبتها، ومن صحبها على الرغبة فيها والمحبة لها شقي لها وأجحف بحظه من الله عزّ وجلّ، ثم أسلمته إلى ما لا صبر له عليه، ولا طاقة له به من عذاب الله، فأمرها صغير، ومتاعها قليل، والفناء عليها مكتوب، والله تعالى ولي ميراثها. ويقول الحسن: وإنما الدنيا ساعة، أنت فيها فخدعتك تلك الساعة عن الجنة وصيرتك إلى النار. ويقول: وإنما الدنيا إذا فكّرت فيها ثلاثة أيام. يومٌ مضى لا ترجوه، ويوم أنت فيه ينبغي لك أن تغتنمه، ويومٌ يأتي لا تدري أنت من أهله أم لا، ولا تدري لعلك تموت قبله.

ويقول الحسن: يا ابن آدم ! عملُك عملك، فإنما هو لحمُك ودمُك، فانظر على أي حال تلقى عملَك، ويقول: يا ابن آدم ! إنما أنت أيام، كلما ذهب يومٌ ذهب بعضك.

وكان الحسن يتمثل بهذين البيتين :

سرّ الفتى ما كان قدّم من تُقَى

إذا عرف الداء الذي هو قاتله

وما الدنيا بباقية لحيٍّ

ولا حيٌّ على الدنيا بباقِ

وقيل إن الحسن لم يكن يرى الزواج بالنسبة إلى الزهد، وقال: إذا أراد الله بعبد خيراً في الدنيا لم يشغله بأهل ولا ولد»، وفي هذا ما يشير إلى أن نزعة تقرير العزوبة كانت بمثابة الفرض على من ينقطع لله ويبلغ منزلة الصدّيقين، إلا أن الحسن تزوّج! وبرواية أبي نعيم أن ابنه جاءه في مجلسه يطلب إليه أن يصلح سهمه الذي انكسر، وكان اسمه سعيداً، وكُنّي الحسن لذلك «أبا سعيد»، فهل كان الحسن يدعو إلى ما لا يطبّقه على نفسه في حياته، أم أن هذه الروايات عنه مختلقة ؟!

وروى عن الحسن أنه دخل على رابعة العدوية ومعه جماعة من الزهّاد، فعرضوا عليها الزواج ممن تختار منهم، فلما استفسرت عن أعلمهم قالوا لها الحسن البصري، فطلبت إليه أن يجيبها على أربع مسائل فتكون له أهل، فقال لها: سلي فأني مجيبك وفّقني الله ! ومعنى الحكاية: أن الحسن كان من دعاة الزواج، وأنه قد خطب رابعة فيمن تقدّم لخطبتها، على عكس ما يذهب إليه الدكتور عبد الرحمن بدوي في كتابه السيء عن رابعة العدوية ! ثم إن الحسن توفي سنة ١١٠ هـ ورابعة توفيت سنة ١٨٥ هـ فلم تحضره ولم يحضرها!

والحديث مختلق؛ واللقاء بينهما مزعوم! (انظر كتاب الدكتور الحفني عن رابعة).

ولما حضر الموت الحسن دخل عليه أصحابه فقالوا : يا أبا سعيد! زوّدنا منك كلمات تنفعنا بهن ؟ قال: إني مزودكم بثلاث كلمات، ثم قوموا عني ودعوني. قال: ما نُهيتم عنه من أمر فكونوا من أترك الناس له، وما أُمرتم به من معروف فكونوا من أعمل الناس له، واعلموا أن خطاكم خطوتان: خطوةٌ لكم، وخطوةٌ عليكم، فانظروا أين تغدون، وأين تروحون !ـ رحم الله أبا سعيد ورضى الله عنه وأرضاه.

* * *

١٠٢ - الحسن بن خليل (الصوفي المصري)...

صوفي مصري من أصول مصرية خالصة، ومصر كانت أصل الزهد الذي قام عليه التصوف عموماً، والتصوّف المصري كان يضم ثلاث طبقات من الصوفية، كعادة كل شيء في مصر، فهناك طبقة عامة الصوفية وهم المريدون، وطبقة الأولياء وهم الشيوخ، وفوق هؤلاء جميعاً كانت طبقة الأخلاء، وما كان مصطلح التصوّف قد ظهر بعد: وقيل إن الذين قتلوا عثمان كان منهم اثنان من المصريين هما كنانة بن بشر التجيبي وسودان ابن حمران المرادي، وهذان كانا من الأخلاء وضد الخروج على المُثل الإسلامية كما كانت على أيدي أبي بكر وعمر بن الخطّاب. ولقد كان اهتمام الرواة والمؤرخين ـ بحكم انتماءاتهم العصبية ـ بالتصوّف في الكوفة في البصرة وخراسان، وأسقطوا من كلامهم أية أخبار عن مصر. والتجيبي المصري الذي شارك في قتل عثمان، كان من بيت دين، منه حيوة بن شريح التجيبي وكان من البكّائين، ومنهم مصري آخر هو الفضيل بن فضالة، واشتهر من المصريين الليث بن سعد، المتوفى سنة ١٧٥هـ/ ٧٩١م، وكان على رأس جماعات الفتيان في مصر، وعاصره الحسن بن خليل، وكان كذلك فتى من الفتيان، ومن الدعّائين، وله الكرامات؛ وكان عبدالله بن وهب من الصوفية المصريين، وكان بكاءً، واشتهر برقّته بأكثر مما اشتهر به أبو بكر، وقيل إنه قُرىء عليه كتاب عن أهوال الآخرة، فاصفر وجهه وسقط مغشياً عليه، ولم يتكلم إلى أن مات بعد ذلك بأيام. (انظر أيضاً الليث بن سعد).

* * *

١٠٣ - حسين حلمي إيشيك (النوراني)...

مؤسس الطريقة الإيشيكية التركية في أواخر السبعينات وأوائل الثمانينات؛

وإيشيك بالتركية تعنى النور، فهى الطريقة النورانية، وتعرف كذلك باسم جماعة تركيا، نسبةً إلى جريدة تركيا التى تصدرها الجماعة. وكان إيشيك ضابطاً بالجيش وأحيل إلى الاستيداع بالنظر إلى ميوله الدينية، وانصرف إلى الاهتمام بجماعته ونَشْر طريقته فى التعبّد، وله كتاب «السعادة الروحية»، وهو الأساس الشكلى والتنظيرى للجماعة، ويطرح فيه وجهة نظره فى التصوّف، وطريقته، وما ينبغى أن يتحلى به المريد، وما يمكن أن يأتيه السالك.

وبعد وفاته تزعّم الجماعة الدكتور أنور أورن، وهو من كبار الرأسماليين، وكان يمّول إصدار جريدة تركيا التى تتحدث باسم الجماعة، ومحطة تلفزيون TGRT، وعدد من المجلات الأسبوعية والشهرية.

وكان إطلاق الإشيكية أو النورانية على الطريقة، لأن مؤسسيها أولاً أرادوا التمويه على السلطة التى تمنع النشاط الإسلامى، فابتعدوا عن اطلاق اسم «الإسلامية» على الطريقة. ثم إن النور يتكرر فى القرآن ثلاث وثلاثين مرة، ونقيض النور هو الظلام، والصوفية الإيشيكية هم لذلك «حزب النور»، ووليُّهم محمد ﷺ، وغيرهم «حزب الظلام»، ووليهم الطاغوت، أو «الدولة التركية»، كتقسيم القرآن للناس، بين أنصار حزب الله، وأنصار حزب الشيطان. والله ـ كما فى القرآن ـ نور السموات والأرض، ويهدى لنوره من يشاء، ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور، ومن يشرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربّه؛ والقرآن كتاب الله، هو نورٌ أنزله على رسوله ﷺ، ليخرج الذين آمنوا وعملوا الصالحات من الظلمات إلى النور. والصوفى هو المؤمن التقىّ، وهو العرفانى، يضىء للناس كالسراج المنير.

والإيشيكية إذن: من الصوفية الداعين إلى نظرية النور، أى القول بأن الذات العليا نور، وأن نفس المؤمن من النور؛ والإيشيكية: دعوة للعودة إلى الإسلام، والتخلُّق بخُلقه، والأخذ بالقرآن؛ وسبيلهم فى الدعوة: قول المعروف والأمر به، والنهى عن المنكر، والتنبيه إلى الخير، والإيمان بالله واليوم الآخر، وإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، والحفظ لحدود الله.

* * *

١٠٤- الحفنى (الفيلسوف الإسلامى)...

عبد المنعم بن محمد الحفنى، من مواليد بنها عاصمة محافظة القليوبية من مصر المحروسة، عام ١٩٣٠، وعائلته من كفر

حفنا، والبلاشون مركز بلبيس شرقية، قال عنه أنيس منصور: الحفنى مفكر موسوعى، وذكره أغلب النقّاد كواحد من أهل الفلسفة العربية، ونوّه به الإسلاميون كمفكر إسلامى عتيد؛ وله الموسوعة الصوفية: كتبها جامعة شاملة، وضمّنها أعلام الصوفية، ومذاهبهم وأقوالهم وأحوالهم ومواقفهم؛ ومعجم المصطلحات الصوفية: وهو جماع الغريب وغير المألوف من ألفاظ الصوفية، على مختلف مقاصدهم من استخدامها؛ ومعجم مصطلحات التصوّف المسيحى: حيث تكمل الفائدة بمقارنة هذين النوعين من التصوّف، الإسلامى والمسيحى، وبيان تهافت الدعوة بأن التصوّف الإسلامى قد تأثرّ بالتصوّف المسيحى؛ والبديع من أشعار الصوفية، وهو مجال قلما يتطرّق إليه بحث الباحثين؛ والتعريفات: وهو الكتاب المرجع للكثير من الألفاظ الصوفية وغيرها من ألفاظ الفلسفة والمنطق والفقه واللغة، والذى وضعه السيد الشريف علىّ بن محمد على الجرجانى، المتوفى سنة ٨١٦ هـ، وقوت القلوب: الموسوعة الإسلامية الكبرى، والكتاب المرجع فى التصوّف، لأبى طالب المكى؛ ورابعة العدوية: يردّ به على دعاوى الدكتور عبد الرحمن بدوى فى سيرة هذه العابدة الخاشعة؛ وعمر الخيام: وهو دراسة نفسية لهذا الشاعر، تحسم الزعم بأنه من غير الصوفية؛ والتفسير الصوفى للقرآن: يصحّح به ما ذهب إليه الشيخ الكبير محيى الدين ابن عربى؛ والبراهين العقلية لوجود الله، والردّ على الماديين والطبيعيين والمنكرين: وهو أقسام، فمنه البراهين التى أوردها الإسلاميون، والبراهين التقليدية فى الفلسفة والتى بدأت مع أرسطو، ومنه براهين ابتدعها المسيحيون أو طوّروها عن الإسلاميين، وبراهين عرضها فلاسفة كبار مثل كنت، وديكارت، وبراهين جديدة فى بابها مثل برهان الحرية، والبرهان الاجتماعى، وبرهان الوعى. والدكتور الحفنى درس فى القاهرة وكاليفورنيا وهايدلبرج، وعلّم بها، وله أكثر من مائة مصنف، منها: موسوعة الفلسفة؛ والموسوعة النقدية اليهودية؛ والفلسفة الوجودية؛ والمعجم الفلسفى باللغات العربية والإنجليزية والفرنسية والألمانية واللاتينية؛ وقاموس الألفاظ اللاتينية فى الفلسفة؛ وموسوعة علم النفس؛ وموسوعة التحليل النفسى؛ والتحليل النفسى للأحلام، ودراساته وعَرضُه لأية مفاهيم أوروبية، من منطلق إسلامى دائماً. والدكتور

الحفني، من بيت علم، اشتهر بحب المعرفة والاشتغال بها في مجالاتها المختلفة، العلمية والأدبية والفنية والدينية، وجدّه الأكبر الشيخ الإمام محمد الحفني، تبع الطريقة الخلوتية. وتولى مشيخة الأزهر عام ١١٧١ وتوفى سنة ١١٨١ هـ (١٧٦٧م)، وكان بارعاً في حواشيه الزاهرة على أمهات الكتب الإسلامية، وصحب مصطفى البكرى، وأرشد جمعاً كثيراً، قال فيه الناقد النابه رجاء النقاش: كان ملاكاً في صورة إنسان، وكان واحداً من العلماء وأصحاب العمائم، الذين تحوّلوا إلى مَثَل أعلى في النُبل والكرامة وسماحة النفس، وجعل حُبّ مصر وأهلها فناً من الفنون وأكثرها جمالاً وفتنة، فقد كان يشعر بالنشوة إذا قدّم خدمة إلى مواطن من أهل بلده، وخاصةً إذا كان المواطن ضعيفاً وقليل الحيلة، ولم يكن يمنّ على أحد بخدمته له، بل كان على العكس من ذلك، يحسّ أن الذين يخدمهم ويقضى حوائجهم هم أصحاب الفضل عليه، لأنهم يقدّمون إليه فرصة نادرة للتعبير عن حبّه لوطنه، وحُبّه لأهله وحرصه عليهم. وقال عنه راغب باشا الذى كان يشغل منصب الوالى التركى على مصر: «إن هذا الشيخ سَقْفٌ على أهْل مصر». ولهذا قيل إنه مات مسموماً، لأن أمراء المماليك الذين كانوا يحكمون مصر في ذلك الوقت، ضاقوا بهذا الشيخ ومواقفه القوية العنيدة من أجل أبناء مصر، وانتظروا موته، ولما طالت حياته، بسبب استقامته وقوة جسمه وسلامة نفسه، لم يجدوا أمامهم إلا أن يحتالوا لتقديم السمّ إليه، ولم يجدوا - كما يقول الجبرتى - في ذلك مانعاً ولا رادعاً!

والتصوّف عند الحفني جدّ كله لا هزل فيه، وعموده الجهاد، ورأسه الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وأساسه الدعوة إلى الإسلام؛ والصوفية: هم أهل الله، المقصودون بالآية: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (آل عمران ١٠٤)، قد انتصبوا للقيام بأمر الله في الدعوة إلى الخير، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وهم خاصة المسلمين، أى هم المُوَكَّل عليهم في حمل أمانة العلم، وإذاعته، وتعليم الناس، وهم الصفوة الذين ينهضون بأمر الجهاد. والخير في الآية: هو اتّباع القرآن، فمن رأى منهم منكراً من قول أو عمل، فعليه واجب التنبيه إليه، والتحذير منه، والمساعدة على تغييره، بأىٍّ من الطرق المشروعة، وبذل الجهد والمال في سبيل

ذلك، والتضحية بالنفس، وأنْ يعيش الصوفي الساكت عن الحقّ في مجتمع فاسد هو العقاب كل العقاب له، فسيلحقه منه الضرر حتماً، وستطبّق عليه قوانينه الجائرة، وفي الآية الأخرى: ﴿ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ * يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ * وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴾ (آل عمران ١١٣/ ١١٥)، والأمة في الآية أصحاب الطريقة، وهم الصوفية يجنّ عليهم الليل فيقومون بين يدى الله يتلون آياته، ويوحّدونه، وإذا أمَروا فبمعروف، وإذا نهَوا فعن منكر؛ وهم السابقون إلى الخيرات، والصالحون، ولذا كانوا هم الصفوة والأخيار، وبهذه الصفات قال الله تعالى فيهم: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ (آل عمران ١١٠): يعنى أن طريقتهم هى أفضل الطرق وأنفعها للناس. وفى رواية أحمد قال: قام رجلٌ إلى النبىّ ﷺ وهو على المنبر فقال: يارسول الله ـ أى الناس خير؟ قال: «خير الناس أقراهم، وأتقاهم لله، وآمرهم بالمعروف، وأنهاهم عن المنكر، وأوصلهم للرحم». وعنه ﷺ فى مسند أحمد وجامع الترمذى، قال: «أنتم توفون سبعين أمة ـ يعنى طريقتكم ـ أنتم خيرها وأكرمها على الله عزّ وجلّ»، أى بما لهم من تقوى، وبما ينادون من دعوى، وما هم عليه من منهج، وما اتّخذوه لأنفسهم من سبيل، وفى الحديث: «وجُعلت أُمتى خير الأمم»، أى الذين يتابعون شرعه، ويسبقون إلى ما يدعو إليه من الخيرات، وقال: «أُعطيت سبعين ألف يدخلون الجنة بغير حساب، وجوههم كالقمر ليلة البدر، قلوبهم على قلب رجل واحد، فاستزدت ربّى فزادنى مع كل واحد سبعين ألفا» والسبعون ألفاً للمبالغة، تُضرَب كمثال للكثرة العددية. وقال أبو بكر: فرأيت أن ذلك آت على أهل القرى، ومصيبٌ على حافات البوادى». رواه أحمد. والسبعون ألفاً ـ كمثال ـ هم الصفوة، وهم أهل العلم والتُّقى، وأهل الله والإيمان، وخلاصة الأمة، وخير ما فيها، وهم صوفية هذه الأمة، ومن الصوفية علماء وفلاسفة وأهل أدب، قال فيهم الرسول ﷺ: هم الذين لا يسترقون، ولا يتطيّرون، وعلى ربّهم يتوكلون» رواه الطبرانى. فمن اتّصف من المسلمين بهذه الصفات فهم المعنيون، وهم المؤسسون «لمدينة الله» فى الأرض،

و«الليوتوبيا الإسلامية» الموعودة، «مدينة السلام والعدل». وقال فيهم عمر ابن الخطاب: «من سَرّه أن يكون من هذه الأمة فليؤد شرط الله فيها» رواه ابن جرير. فالصوفية، الموحّدون، التائبون، المستغفرون، أصحاب الرأى والفكر، والمجاهدون، هم أهل القصد، وهم الشهداء على الناس، والمعنى أنه من بين هذه الأعداد الغفيرة من المسلمين سيكون أصحاب الإيمان والعمل الصالح من أهل العلم والدين، هم هؤلاء النخبة من الصوفية، الموحدون على سُنّة محمد ﷺ، وسيكون ظهورهم كلما فسد الزمان، وكثر الفسق والهرج، وعندئذ يذلّ المؤمن ويعز الفاجر، ويعود الدين غريباً كما بدأ غريباً، ويكون القائم فيه كالقابض على الجمر، وما أحوجنا عندئذ إلى قادة من نوع هؤلاء الأفذاذ من أهل الإيمان والتُّقى، ولهذا كانت دعوة الحفنى للتصوّف، لأنه باب النجاة، فى وقت كثر فيه الفساد واستشرى وطمّ، والله يؤتى فضله من يشاء.

١٠٥- حقّي (إسماعيل)...

(١٠٦٣ - ١١٣٧هـ / ١٦٥٣ - ١٧٢٥م) الشيخ البروسوى أو الإسكوداري، من مشاهير الصوفية الأتراك الفلاسفة، وحياته الوجدانية شديدة التوهّج، وله الشعر الصوفى الماجد، ويعتبر من أخصب شعراء الصوفية إنتاجاً، وولادته من أعمال الروملىّ، وأخذ الطريقة عن الجلوتى فضلى إلهى عثمان، وانتقل إلى أدرنة ليرتقى فى الطريقة الجلوتية، ولما بلغ العشرين سكن بروسة، وبدأ بها يؤلف، ولما كثر أتباعه نفته الحكومة بتحريض الفقهاء إلى بروسه، وكان قد ذاعت له بعض الرسائل الصوفية، ولم تسمح له السلطة بالسياحة عبر تركيا حتى لايغرى الناس على اتّباعه. وفى بروسه شيد مسجداً ورباطاً عام ١١٣٥ هـ. وله ما يزيد على المائة مصنف ما بين رسائل فى التصّوف، ومؤلفات لايزال الناس ينزلونها من أنفسهم منزلة رفيعة، ومن أبرزها كتاب «روح البيان»، ويعالج تفسير القرآن تفسيراً صوفياً، يطرح فيه خلاصة أو روح أو مضمون القرآن، وماذا يقصد إليه البيان القرآنى، والتفسير فى أربعة أجزاء. وله كذلك «روح المثنوى»، والمثنوى المقصود هو مثنوى جلال الدين الرومى، وهو شرح على المثنوى وطريقة الرومى فى التصوّف. وله «مرح الروح» وهو شرح لمحمدية يازجى أوغلى محمد بن صالح بن كاتب،

ونستطيع إجمالاً أن نقول أن التصوف الفلسفي عند حقيّ: هو شروح فلسفية لمؤلفات الصوفية البارزين ولكلام الله والنبيّ ﷺ. وله: «شرح الأربعين حديثاً»؛ و «كتاب الحُجّة البالغة» وهو قمة في التفلسف؛ و «التحفة الإسماعيلية»، وبقصد بالإسماعيلية، النسبة لنفسه حيث اسمه إسماعيل؛ و «شرح الكبائر»، و«شرح شُعَب الإيمان»، و «شرح البندنامة لعطائي».

* * *

١٠٦ - الحلاج (الشيخ الأكبر)...

الحسين بن منصور الحلاّج، الشاعر الصوفي صاحب المأساة المشهورة - في تاريخ الفكر والتصوف - باسم «مأساة الحلاج»، أو هكذا صنعها المستشرق الفرنسي ماسينيون، فقلّده فيما ذهب إليه المفكرن العرب المستغربون، أمثال الدكتور عبد الرحمن بدوي. ولذلك اختلف الناس فيه، فردّته جماعة وأنكرته، وقبلته جماعة وأثنت عليه وحكت عنه، وصحّحت له وجعلته من المحقّقين. وأصله من البيضاء من كورة اصطخر بفارس، وكان ميلاده سنة ٢٤٤هـ، وقيل في اسمه الحلاّج: أن أباه كان يعمل في صناعة الحلج؛ وقال أتباعه: إنما سمي كذلك لأنه كان يكاشفهم بما في قلوبهم ،فأطلقوا عليه حلاّج الأسرار: ويبدو أن دعوة الحلاّج كانت تتجاوز أن يكون شيخاً صاحب طريقة، وأن يكون له أتباع، فقد كان يجمع حوله جماعات الساخطين والمضطهدين والفقراء والمحزونين، ويتصل بالجماعات السياسية الثائرة التي تهدف إلى قلب نظام الحكم، وخلع الخليفة، وطرد العرب الغزاة، وإلغاء الثقافة العربية، والدين الإسلامي، يريد بذلك الحُكم حُكماً شيعياً فارسياً. ويقول ماسينيون : إن الحلاّج بعد أن تلقى علوم الصوفية على سهل بن عبد الله التُستُري، وتلقى خِرْقة الصوفية عن عمر المكّي، توجّه إلى مكّة مرتين، وظل بصحن الحرم صائماً وصامتاً لمدة عام، مثلما فعلت مريم بنت عمران، واستعداداً لميلاد الكلمة فيه، ثم اعتصم بقمة جبل أبي قبيس يتعبّد ويخلو بنفسه، وبعدها طاف ببلاد الإسلام وتوجه إلى تركستان والهند، وصعد في السِّند من ملتان إلى كشمير ثم طرفان، وقيل كان يبشّر بالإسلام ويعلّم الناس طريقته!! وكأنه يفكر في هداية الإنسانية كلّها عبر الإسلام، ولكنه في الحقيقة كان يدعو للشيعة، وأطلقوا عليه اسم المغيث، والمُقيت، والمصطلم ،والمُحيِّر، وادّعوا أن له

كرامات. فهذا ما كتبه عنه ماسينيون لأنه وجد فيه شبيهاً بالمسيح، فكتب عنه وكأنه يكتب عن المسيح!

وفى بغداد صحب الجنيد شيخ الصوفية، وكان صديقه الشِّبلى، والاثنان أسوأ من بعضهما البعض، وبهما عنصرية فارسية بغيضة، وجاهلية سمجة. وتكأكأ عليه المريدون وكلهم من الشيعة، ومذهبهم يلغى الإسلام ويُدخل فيه الخرافات والأساطير الفارسية. وكان يعظ الناس، ولعمرى لم أجد عبارة واحدة له فى الوعظ، والأحرى أن نقول: كان يُشكِّك الناس فى دينهم، ويلقى الشعر فيشدّ السامعين له إليه بغرابة ما يقول، حتى فُتنوا به، وحكوا عنه الروايات، وكانت تأخذه الجَذْبة، فيقف فى الأسواق وفى المساجد يصيح: يا أهل الإسلام! أغيثونى! فليس يتركنى ونفسى فآنس بها، وليس يأخذنى من نفسى فأستريح منها، وهذا دلال لا أطيقه!

تباركت مشيتك يا قصدى ومرادى
يا ذات وجودى وغاية رغبتى
يا حديثى وإيمائى ورمزى
يا جمعى وعنصرى وأجزائى

ويُعلن الحلاّج بهذه الكلمات والأشعار عن حبّه العميق المُدَّعى لله تعالى، يقول:

يا موضع الناظر من ناظرى
ويا مكان السرّ من خاطرى
يا جملة الكلّ التى كلُّها
أحَبُّ من بعضٍ ومن سائرى

ويعاتبه أهل الله على مخاطباته لله تعالى وأشواقه التى لا يدارى إعلانها فيقول:

الحبُّ ما دام مكتوماً على خطر
وغاية الأمن أن تدنو من الحذر
وأطيب الحبّ ما تم الحديث به
كالنار لم تؤت نفعاً وهى فى الحجر

ويردّ عتابهم بأن الأولى بالعتاب هو الله سبحانه:

ما زلت أطفو فى بحار الهوى
يرفعنى الموج وأنحطّ
فتارة يُرفعنى موْجُها
وتارةً أهوى وأنغطّ
حتى إذا صيّرنى فى الهوى
إلى مكان ما له شطّ
ناديت يا من لم أبح بسرّه
ولم أخنه فى الهوى قطّ
تقيك نفسى السوء من حاكم
ما كان هذا بيننا شرط

ويشكو إلى مولاه فقد عذّبه الحبّ وأضناه:

لبيك لبيك يا سرّى ونجوائى
لبيك لبيك يا قصدى ومعنائى
أدعوك بل أنت تدعونى إليك
فهل ناديت أم ناجيت إيائى
يا عين وجودى يا مدى همّى
يا منطقى وعباراتى وإعيائى
يا كلّ كلّى ويا سمعى ويا بصرى
يا جملتى وتباعيضى وأجزائى
يا من به عَلِقَتْ روحى فقد تلفَتْ
وَجْداً فصرتُ رهيناً تحت أهوائى
أبكى على شجنى من فُرقتى وطنى
طوعاً ويسعدنى بالنوح أعدائى

ولمّا قال:

حتى لقد عاينه خَلْقُه
كلحظة الحاجب بالحاجب

استجوبه صديقه الشبلى فى مجلس الشعر: من هو الذى عاينه خَلْقُه ؟ هل تقصد الحقّ سبحانه وتعالى ؟ فقال: وهو يخفى عينيه نصف إخفاءة بطرف كمّه: أنا الحق ! ويشرح ذلك فيقول:

يا سرّ سرّ يدق حتى
يخفَى على وَهْم كلّ حىّ
وظاهراً باطناً تجلّى
لكل شئ بكل شئ
إن اعتذارى إليك جهلٌ
وعظْمُ شكى وفرطُ عِىّ
يا جملة الكل لستَ غيرى
فما اعتذارى إذاً إلىّ ؟

ويقول:

أدنو فيعدنى خوفى فيقلقنى
شوقٌ مُكَنَّنٌ فى مكنون أحشائى
فكيف أصنع فى حبٍّ كلفتُ به
مولاى قد ملّ من سُقمى أطبائى
قالوا نداوى به منه فقلت لهم
ياقوم هل يتداوى الداء بالدائى
حبى لمولاى أضنانى وأسقمنى
فكيف أشكو إلى مولاى مولائى

يقصد أنه قد فنى فى الحقّ حتى صار الحقّ هو! ويجعله الحب محباً لكل المحبين لله مهما كانوا وكانت دياناتهم.

يعنى أنه قد فنى فى حبّه لله عن نفسه، فلم يعد هو لنفسه، وإنما صار هو لله، وانمحت بينه وبين الحقّ الأنا والهو، حتى قال:

أنا سرّ الحق ما الحقّ أنا
بل أنا حقٌّ ففرّق بيننا

أنا عيْن الله في الأشياء فهل
ظاهرٌ في الكون إلا عيننا

وقال :

سبحان من أظهر ناسوته
سرّ سنا لاهوته الثاقب
ثم بدا لخلقه ظاهراً
في صورة الآكل الشارب

والأبيات فيها الحلول والاتحاد ظاهران، وواضح أنه يترجم عن وحدة وجود، وهي مسائل لم يقل بها الإسلام، فقالوا: تزندق ! وشكوا إلى الخليفة المقتدر، فأمر بالقبض عليه وأتباعه، ونجا الحلاج، وقبضوا على أربعة من أتباعه، وبعد ثلاثُ سنوات قبضوا عليه في واسط، عندما استفحل خطره وتعاظم أمره. ويقول المستشرق نيكلسون: إن رجال الدولة ضاقوا بنفوذ الحلاج وصيحاته ونداءاته واستغاثاته، وخافوا أن توقظ همّة الناس. واقتادوه إلى بغداد، وناظر العلماء، وتطاولوا عليه، ونفى ادّعاء الألوهية، وذكر أنه ليس إلا عبداً لله يؤمن به وبرسُله، ولكنه يدعو إلى الحق وينشد الخير للمسلمين ولا يقرّ الظلم، وهي مقولة الشيعة المعروفة، وتبرأ من الشهود الذين استدعوهم، واستعاذ بالله من الدعوى، وهاجت الجماهير المحتشدة خارج المحكمة، واستمر الحلاج متحفّظاً عليه مدة تسع سنوات، وفيها وضع أهم ما كتب وخلده ـ كما يرى البعض ـ على مرّ الأيام !! وهو مصنفاته التى بلغ عددها ٤٨ كتاباً، والحقّ أنها ليست كتُباً بالمعنى الذى نعرفه عن الكتب، ولكنها كالرسائل. واستصدروا آخر الأمر الحكم بإعدامه، وراحوا يلاُحقون أتباعه ويستولون على ما لديهم من أوراق ومكاتبات له، فضاعت جميعها إلا كتاب طاسين الأزل الذى أنقذه من الفناء صديقه ابن عطاء، وما تبقّى من أشعاره التى لم يستطيعوا انتزاعها من صدور أحبائه، وشذرات من هنا وهناك عن التصّوف. ومن ذلك قوله عن الصوفى: «من أشار إليه فهو متصّوف، ومن أشار عنه فهو صوفى، والصوفى وحدانى الذات، لا يقبل أحداً». ـ ونحن نشكّ فى إمكان إعدام كتاب، فما بالك بإعدام كل ما ألفّ الحلاج؟ ولا سبيل إلا أن نجزم بأن الأمر كله مغالاة، اصطنعها الشيعة والعلويون، ووافقت هوى المستشرقين النصارى، لينشروا من خلال الحلاج نصرانيتهم، لأنه قال بالحلول والاتحاد، والنصرانية تقوم عليهما، فالله حلّ فى المسيح واتّحد به،

والمسيح يحلّ فى النصارى من أحبائه ويتحدّ بهم، وذهب الحلاّج إلى ذلك نفسه، فدعوة الحلاج تمهّد للتبشير المسيحى وتسهله. وقيل إن كلام الحلاّج عميق ويحتاج للشرح الكثير، وهو حقٌ، لأن المسلمين لايفهمون الحلول والاتحاد؛ ففى «طاسين التوحيد» يقول الحلاّج مثلاً: الحقّ واحد أحد، وحيد موحّد، والواحد والتوحيد فى علم التوحيد مفرد مجرد. والتوحيد صفة الموحِّد لا صفة الموحَّد. ـ وكما ترى فإن الكلام سهل ومعناه واضح، ولا شىء فيه إلا الصياغة المراد بها أن يكون المعنى غامضاً! وحتى أسماء كتبه غريبة عجيبة، فمنها مثلاً : «كتاب الصبهور فى نقض الدهور»، و«كتاب الأبد والمأبود»، و«كتاب كيف كان وكيف يكون»، و«كتاب هو هو»، و«كتاب لا كيف». ويقول المؤرخون أنه لما جئ به ليُقتَل، أخذ يتبختر فى قيده ويُنشد :

طلبتُ المستقر بكل أرض
فلم أر لى بأرضٍ مستقرا
فنلتُ من الزمان ونال منى
وكان مناله حلواً ومراً

ولما التفت ورأى الخشبة والمسامير التى سيصلبونه عليها، ضحك حتى دمعت عيناه وزعق على الشبلى : هل معك سجادتك ؟ ثم صلى ركعتين، فقرأ فى الأولى فاتحة الكتاب، ثم قوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ (آل عمران ٣/ ١٨٥)، وكأنه كان يزعق فى صلاته حتى سمعوه يقول ما قال !ـ فلما سلّم قال: اللهم إنك المتجلى عن كل جهة، بحقّ قدَمك على حدثى، وحق حدثى تحت ملابس قدمك، أن ترزقنى شكر هذه النعمة التى أنعمت بها علىّ، حيث غيّبت أغيارى عمّا كشفت لى من مطالع وجهك، وحرّمت على غيرى ما أبحتَ لى من النظر فى مكنونات سرّك. هؤلاء عبادك قد اجتمعوا لقتلى تعصُّباً لدينك، وتقرُّباً إليك، فاغفر لهم فإنك لو كشفت لهم ما كشفتَ لى، لما فعلوا ما فعلوا، ولو سترتَ عنى ما سترتَ عنهم، لما ابتُليت بما ابتُليت، فلك الحمد فيما تفعل، ولك الحمد فيما تريد». ـ وكل ذلك الكلام والمشهد، قد اصطُنع اصطناعاً. أفإن استطاعوا أن ينتحلوا كتاب نهج البلاغة على علىّ، أما يستطيعون أن ينتحلوا مشهداً وبضع كلمات ينسبونها إلى الحلاّج، ليصنعوا منه بطلاً، فتُصدَّق به الحكاية عن المسيح: أنه صُلب فداءً للناس، وهكذا كان الحلاّج، وطالما أن قصة الحلاج ممكنة، فلماذا لا تكون قصة المسيح ممكنة أيضاً؟ وقيل: ثم دنا منه الجلاّد وبدأ يضربه بسياطه حتى أتمها ألف جلدة !! فلمّا انتهى،

كان الحلاّج قد ذهب فى غيبوبة روحية، حتى جعل يقول وهو يترنحّ :

نديمى غير منسوب
إلى شئ من الحيف
دعانى ثم حيّانى
فعُلّ الضيف بالضيف
فلما دارت الكأس
دعا بالنّطع والسيف
كذا من يشرب الراح
مع التنين فى الصيف

ثم قال: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ (الشورى ١٨).

وتقدم السيّاف، فقطع اليد اليمنى، ثم اليسرى، فلم يتأوّه ولم يتألم !! وقال:

وحرمة الود الذى لم يكن
يطمع فى إفساده الدهر
ما نالنى عند هجوم البلا
بأس ولا مسّنى الضر
ما قُدّ لى عضو ولا مفصل
إلا وفيه لكم ذكر

وفى غفلة من الجنود الذين كانوا ينهالون على الجموع الغفيرة التى جاءت تشهد صَلْب وقتل ولىّ من أولياء الله، ضرباً وسبّاً، أوفد الشبلى: فاطمة الأموية إلى الحلاّج على الصليب تُبلغه: إن الله قد أئتمنك على سرّ من أسراره فأذعته، فأذاقك طعم الحديد». وطلب منها أن تحفظ ما يقول له وأن تسأله : وهذه هى النتيجة، فماذا يكون التصّوف؟ ـ ومضت المرأة وبلّغت الرسالة، هكذا قالوا، فأنشدها الحلاّج :

تجاسرتُ فكاشفتُ
لكَ لما غلب الصبر
وما أحسن فى مثلى
لك أن يُتهَك الستر
وإنْ عنّفنى الناس
ففى وجهك لى عذر
كأن البدر محتاج
إلى وجهك يا بدر

وقال لها: اذهبى وقولى له ما أذعتُ له سراً!. وسألته: والتصّوف؟ فقال: أهون مرقاة فيه ما ترين . قالت: فما أعلاه ؟ قال: ليس لك إليه سبيل، ولكن سترين غداً ما يجرى، فإن الغيب ما شهدته وغاب عنك. والله ما فرّقتُ بين نعمة وبلوى ساعةً قط! ـ فهل تعقلون ذلك الحوار بعد أن يُضرَب ألف جلدة، وتُقطع يُمناه ثم يُسراه؟

وقالوا: وفى اليوم التالى - فهل كان هناك يومٌ تال بعد قطع اليدين ؟! - وعذّبوه حتى كانوا يقطّعونه عضواً عضواً، فكان ينشد (كأنما كان يمكن أن ينشد وهم يقطعونه قطعا؟ - قالوا إنه نشدهم:

اقتلونى يا ثقاتى
إن من قتلى حياتى
ومماتى فى حياتى
وحياتى فى مماتى
أنا عند محو ذاتى
من أجل المكرمات
وبقائى فى صفاتى
من قبيح السيئات
فاقتلونى واحرقونى
بعظامى الفانيات
ثم مرّوا برفاتى
فى القبور الدارسات
تجدوا سرّ حبيبى
فى طوايا الباقيات

وقيل: وقبل أن يضرب السّياف عنقه كانت آخر كلمة له : «حسب الواجد إفراد الواحد له»، فما سمع بهذه الكلمة أحد من المشايخ إلا ورقّ له، ثم ضربوا عنقه، قيل: ولم يبق ببغداد إلا من شهد قتله، وصبّوا على الجسد النفط، وأشعلوا فيه النار، ثم حملوا الرماد على رأس منارة لتذروه الريح، وكان ذلك فى السادس والعشرين من ذى القعدة سنة ٣٠٩ هـ (٩٢٢م)؛ وقيل: ونصبوا الرأس يومين على الجسر، ثم طيف به فى خراسان !

وهذه الصورة الرومانسية المأسوية البشعة، هى ما أوردناه عن المؤرّخين من الشيعة والمستشرقين، فهل كانت هذه فعلاً هى حقيقة الحلاّج؟ والشيعة أرادوا أن يدينوا السُّنّة، فزادوا وزوّقوا الأحداث حول الحلاّج، وجعلوه بطلاً شعبياً يريد إصلاح الحُكم وإحقاق الحقّ ونشر العدل، والحلاّج ما كان مصلحاً اجتماعياً. وقارَنَ الشيعة بين مقتل الحسين، ومقتل الحلاّج، لتهويل الأمر وإظهار السُّنّة بمظهر السفّاحين!

وأيضاً: فإن المستشرقين رسموا للحلاّج صورة وكأنه المسيح! فإذا كان من الجائز أن يُصلَب داعيةٌ كالحلاّج، فلماذا يرفض المسلمون الإقرار بصلب المسيح؟ ثم إن الحلاّج ادّعى دعوة المسيح، بأنه الله أو ابن الله، وبذلك تكتمل الصورة المسيحية، ويبين أثر النصرانية على الإسلام! وإذا كان اليهود قد اقترفوا إثمًا كبيراً بقتل المسيح، فالمسلمون لايقل ذنبهم، لأنهم ارتكبوا كذلك إثم صلب الحلاّج. ومع ذلك، ورغم أن المستشرقين

من النصارى ربما لم يقصدوا إلى ذلك، فإن الصورة الرومانسية التى قدّموها لقتل الحلاج كانت أروع وأبشع من الصورة الرومانسية لقتل المسيح. ولم يقل المسيح نصف ولا ربُع ولا عُشر ما قاله الحلاّج.

فكل ما قاله أربع كلمات: إيلى إيلى، لِمَ سبقتنى؟! أى: إلهى إلهى، لماذا هجرتنى؟! ولو قلنا أى الصورتين أقرب إلى الواقع لاخترنا صورة صلب المسيح، فالمسيح لم يكن شاعراً وما قال شيئاً ذا بال، وما قاله يتسم بعدم الإيمان وبالإجذاب الروحى الشديد، وقياساً إليه كان الحلاج فى قمة الإيمان وقمة السموق الفكرى، فدلّت المقارنة على خيبة المستشرقين فيما دلّوا الناس إليه، فمن حيث أرادوا الطعن فى الإسلام، طعنوا فى دينهم وإلههم المسيح !!

والحلاّج إذن مُهِمّ للشيعة وللمستشرقين، وإذا كان التصّوف قد انحرف على يد الشيعة لخدمة السياسة، فإنه ابتداءً من الحلاّج قد امتزج بأفكار جديدة وافدة لاشك فى نصرانيتها، فابتدأ يتعقد تعقّد النصرانية ذاتها، وصار يقول بالحلول وبوحدة الشهود اللتين تأدّيا فيما بعد إلى القول بوحدة الوجود. والحلاّج ادّعى الحلول، وقال:

وأىّ الأرض تخلو منك حتى
تعالوا يطلبونك فى السماء
تراهم ينظرون إليك جهراً
وهم لا يبصرون من العماء

وهو القائل: «أنا الحق؛ أنا الحق»، فكان أول صوفى يقول بالحلول فعلاً؛ ويدّعى أن الله قد حلّ فيه، ولذلك قال ـ خيّبه الله: «أنا مُهلك عاد وثمود»!!ـ وقال:

لم يبق بينى وبين الحقّ تبيان
ولا دلائل آيات وبرهان
كلّ الدليل له، منه، إليه، به
حقٌّ، وجدناه فى علم وفرقان
هذا وجودى وتصريحى ومعتقدى
هذا توحُّد توحيدى وإيمانى
هذا تجلىّ طلوع الشمس نائرة
قد أزهرت فى ثلاثيها بسلطان
لا يستدل على البارى بصنعته
وأنتم حدثٌ يفنى لأزمان
هذا وجود الواجدين له
بين التجانس، أصحابى وخلاّنى

وتُنسب إليه الشيعة أنه لما وقع دمه على الأرض، كتب بها عن نفسه: «الله، الله»! يريد توحيد نفسه! وأتساءل: كيف كتب وهم قد قطعوا يديه الاثنتين؟ـ وراحوا

ينسبون إليه أقوالاً وأفعالاً تُنسب لعليّ بن أبي طالب، وللحسين، ولجعفر الصادق. والحلاج نفسه قال: «ما تمذهبتُ بمذهب أحد من الأئمة جملةً، دائماً أخذتُ من كل مذهب أصلَبه وأشدّه، وأنا الآن على ذلك»، ولذلك جاءت صورة الحلاج خليطاً من جميع مذاهب عصره، ففيها من صورة ابن الخطّاب الغالي الذي قُتل في الكوفة سنة ١٣٨ هـ (٧٥٥م)، وفيها الكثير من تعاليم الإثنى عشرية، وثبت أنه كان يقول عن نفسه أنه رسول المهدي المنتظر ووكيله، وكان يستغوي الرافضة إليه، وكتب إليهم بطريقتهم ليحرّضوا الناس ويخاطبونهم بحسب أفهامهم. واستخدم طريقة الإسماعيلية في الكتابة السرّية، وثبت أنه اتصل بالقرامطة ـ وهذا هو السبب المباشر في قتله، وليس كما يروّج تلميذ المستشرقين: الدكتور عبد الرحمن بدوي، يرحمه الله على كل حال. وكانت ضمن التهم التي وُجهت إليه، دعوته لإلغاء الحج! وأن يجعل المسلم حجّه في بيته متوجهاً إلى الكعبة دون تجشُّم السَّفر والطواف حول الكعبة. وهذا ما يطالبنا به الأمريكان هذه الأيام، فهل فهمتم؟ إن الكفر واحد! ـ والقرامطة الذين تابعهم الحلاّج، هم الذين أغاروا على مكة بعد موت الحلاّج! بتسع سنوات، واستولوا على الحجر الأسود، وألغوا الحج وحقّقوا مطلب الحلاج. ويذكر المستشرق ماسينيون: أن الحلاّج! ادّعى أنه القطب الغوث ومصدر التشريع. وقد ثبت أن الحلاّج كتب إلى دعاته يؤذنهم بعودة الدولة الفاطمية، وبسبب ذلك كان الكثيرون من الشعوبيين الفرس يكاتبونه باسم «أبي عبد الله الزاهد» وهو الاسم الشائع عندهم لأكبر دعاتهم للدولة العبيدية قبل انتقالها إلى مصر! وهذا تقسيم معقول للدعوة، ففي المشرق كان الحلاّج، وفي المغرب كان أبو عبد الله الشيعي! وبلغ من خطورة دعوة الحلاّج: أن تاريخ إدخاله بغداد سنة ٣٠١ هـ (٩١٣م) معلّقاً على جمل ـ وقد كتبوا عليه: «هذا أحد القرامطة فاعرفوه»، هو نفس تاريخ استيلاء الفاطميين على الإسكندرية، وأنه بعد قتل الحلاّج سنة ٣٥٩ هـ بسنتين دخل القرامطة البصرة ثم الكوفة بعد ذلك بسنة! ومما كتب إخوان الصفا عن العباسيين: أنهم كانوا يقتلون الأولياء، يشيرون بذلك إلى قتل الحلاّج. وإخوان الصفا كانت جمعية ماسونيةصوفية سرّية. وقال ابن النديم: «إن الحلاج كان يتشيّع مع الشيعة، ويتصوّف مع العامة»! يعني انه كان انتهازياً وبلا مذهب على

الحقيقة، وكانت البرانويا أو جنون العظمة يملؤه، فادّعى الإمامة، ثم الولاية ثم النبوة، وأخيراً الألوهية! وكان يقول بعلم الباطن فلا تستطيع أن تمسك عليه شيئاً، والشيعة هم الذين ساعدوه على انتحال ذلك، فقالوا: إن الله خلق محمداً وفوّض إليه تدبير العالم، ثم فوّض علياً بن أبي طالب. ومثل ذلك قال به الحلاّج: أنه مُفَوَّض من الحقّ! والحلاّجية: هم جماعة من الصوفية من أهل الإباحة والقول بالحلول. يعني أنهم لذلك مُفوَّضون. والحلاّج قال بقِدَم محمد، فقال: «إن أول ما خلق الله نور محمد، وأول ما أوجد من خلقه ذرّة محمد، وأول ما جرى به القَلم لا إله إلا الله محمد رسول الله». يريد بذلك أن يُفسد الإسلام ويجعله صورة من النصرانية، وأن يتعبّد المسلمون لمحمد تعبُّد النصارى للمسيح! فلا يكون الإسلام بأحسن حالاً من النصرانية! وثبت أن الحلاّج من أشدّ الغلاة بقوله: «يا إله الآلهة، ويارب الأرباب، ويا من لا تأخذه سنَةٌ ولا نوم: ردَّ إليَّ نفسي لئلا يفتتن بي عبادُك! يا من هو أنا وأنا هو، لا فرق بين إنيّتي وهويتك إلا الحَدَث والقِدَم». ـ يعني أنه يُقرّ: بأن الله قد حلّ فيه واتّحد به! ـ وفي أحد كتبه، قال: «من الرحمن الرحيم إلى فلان بن فلان». وقال: «وأنت الذي في السماء عرشه، وهو إله على الأرض، إلهٌ تتجلّى كما تشاء مثل تجلّيك في مشيئتك كأحسن الصورة» ـ يشير إلى إلهيته المنبعثة من إلهية الله، تفسيراً للآية: ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الأَرْضِ إِلَهٌ﴾ (الزخرف ٨٤).

ثم إن الحلاّج بعد ادّعاء الاتحاد أسقط التكاليف، يقول:

إذا بلغ الصَّبُّ الكمال من الهوى
وغاب عن المذكور في سطوة الذِّكر
يشاهد حقاً حين يشهده الهوى
بأن صلاة العارفين من الكفر!

وعن الحلول الذي ادّعاه، اشتهر عنه قوله: أنه: يُحيي الموتى، وتخدمه الجن ويُحضرونه ما يختار ويشتهي، وادّعى معرفته بالاسم الأعظم، والسِّحر، والنيرنجات، والشعبذة. وقال مرةً أنه: «الباب» (يعني الإمام)؛ ومرةً أنه: «صاحب الزمان» (يعني المهدي المنتظر)؛ ومرةً أنه: «الناموس الأكبر» (يعني النبي)، ومرةً أنه «هو هو» (يعني الله).

والخلاصة إذن: أن الحلاّجية لذلك ـ أي الحلاج وكل من دافع عنه ولفّ لفّه ـ مُلحدة وزنادقة، يموّهون على الناس بالدين، ويَدّعُون للحلاج بالأباطيل، ويجرون في

ذلك مجرى المجوس! ولو ظهر الحلاّج حالياً، وادّعى ما ادّعى، فلا أقل من أن يصدر الحكم عليه بست سنوات سجن بتهمة ازدراء الأديان، وربما يُحكم عليه بالبراءة إذا تنصّل مما قال وأنكره. وربما تقوم المظاهرات في العالم الغربي وأمريكا تأييداً من النصارى له! - ومع كل ما يمكن أن يحدث، وما قاله النصارى عنه، وتأليه الشيعة له، فإنه يصدق عليه ما قاله ابن النديم عنه: «كان الحلاّج محتالاً مُشعبذاً يتعاطى مذهب الصوفية»؛ وما قاله أبو العلاء المعري: أن من الصوفية للآن مع الأسف من يرفع شأنه، ومنهم من ينتظر خروجه!

وبعد، فهذا هو الحلاّج، عرضنا لوجهة نظر أتباعه والمعجبين به، ولوجهة نظر المنكرين عليه، ولم أر فيما كَتَب أية عبقرية سوى ما رآه فيه المستشرقون من شبه بينه وبين المسيح، انتحلوه هم أنفسهم، ولذا نبّهوا إليه وأكثروا من ذكره، وهو في الحقيقة لا هنا ولا هناك، ولا يعدو أن يكون مريضاً بالذهان، وما قاله ليس أكثر من هلاوس، وقد أذنت لنفسي أن أعلّمه لتلاميذي ضمن محاضراتي في الاضطرابات النفسية والذهانية عند الكثير من الصوفية!

* * *

١٠٧- الجلي (أحمد)...

جمال الدين أبو العباس أحمد بن فهد الحلّي، وُلد في الحلّة سنة ٧٥٦ هـ (١٣٥٥م)، وأهميته أنه كان صوفياً مرتاضاً وصاحب حال وذوق، وله مؤلفات مشهورة، منها «التحصين وصفات العارفين»؛ و«عدّة الداعي ونجاح الساعي»، ويقول في الصوفية: أنهم قوم شغلهم الله عن الشهوات، وأظهر لهم نوره فهداهم عن الغفلات، ولعقهم من شراب حبّه فسكروا في غيبته وتاهوا في الفلوات، ووثقوا به فأغناهم، وتوكلوا عليه فكفاهم، وصرف عنهم المحذورات.

ويقول الحلّي عن التصوّف: إن عماده ثلاثة أقطاب: الأول: الانقطاع إلى الله في كهف جبل، أو ظل مسجد، أو زاوية بيت، وقد يقال العزلة من الناس، والوحشة من الخَلْق، والاستئناس بالحق. ولا يتهيأ ذلك إلا لمن قرّت نفسه على هجر فضول الدنيا ومشتهياتها، وكانت نفسه وهواه من وراء عقله لما هو معلوم من أوصاف العارفين. والثاني: التوفر على المنقول عن الأئمة أقطاب التصوّف من أقوال مفيدة. والثالث: تعلُّم الإشارات. ويقول عن العزلة: هي الفرار من الخَلْق والإقبال على الحقّ، فإذا لم يفزع القلب من

شهوات الدنيا، ولم يقطع علائق التعلّقات بها، لم يُقبِل على الحقّ، لشدة ما فيه من الكدرات، وحُجب عن الوصول، وسُلب لذة المناجاة والعبادات، فالتحلّي بالفضائل مسبوق بالتخلّي عن الرذائل.

وقال الحلّي في الدعاء: الدعاء الملحون لا يصعد إلى الله ولا يقرب منه. والدعاء البليغ نوع من الأدب في مخاطبة الله، ويتعين لذلك أن يسلم من اللحن والعامية. يضاف إلى هذا عنصر آخر في الدعاء تعبر عنه عبارة لعلي بن أبي طالب: أنه عند الله منزلةٌ لا تُنال إلا بمسألة، ولو أن عبداً لم يسأل لم يُعط، فأسأل تُعط.

والحلي يجعل الدعاء من ضرورات الحياة، والداعي في إخلاصه وتوفيقه في الدعاء والإلحاح فيه، بمنزلة الغازي والحاج والمعتمر والمريض. والدعاء أداة للبناء أو نسخ ما قدّره الله على العبد، ولذلك قال الإمام الكاظم: إن الدعاء يردّ ما قُدِّر وما لم يُقدَّر. على مقولة: إن الدعاء والطلب إلى الله يردّ البلاء، وقد قُدّر فلم يبق إلا إمضاؤه، فإذا دُعي الله وسُئل صَرَفه.

وفلسفة الحلّي في التصوّف: يملؤها أخذه بالظاهر والباطن، وانعكس ذلك على تعاليمه إلى تلاميذه، وبُعده عن التعصّب، وارتفع به انصرافه إلى الزهد وميله إلى العزلة عمّا انشغل به الصوفية في وقته من توقّعات راجت بينهم عن قرب ظهور المهدي. وتوفي الحلي سنة ٨٤١هـ (١٤٣٨م) بكربلاء، وقبره بها يزار.

* * *

١٠٨- الحنفي (شمس الدين)...

أبو عبد الله محمد بن حسن، ولقبه الحنفي نسبةً إلى مذهبه، وطريقته هي الطريقة الشاذلية، وهو خامس الخلفاء فيها، سكن القاهرة واشتهر بحكاياته مع السلطان برقوق وغيره، وله «الروض النسيق في علم الطريق»؛ وله ديوان شعر ذكره بروكلمان، وفي شعره شطحات وعبارات، ومن ذلك:

فإن قلبي بيتٌ لربّي
نطوف من حوله القلوب

والحنفي نشأ يتيم الأبوين، وكان جميل السمت، وكفله خاله الذي حاول أن يعلّمه حرفة، فكان يهرب منها إلى الكُتّاب ليحفظ القرآن ويدرس على الفقهاء، ثم اختلى في الرابعة عشرة! وله «الأمثال» في التصوّف، ومن ذلك حكايته عن التوتة قال: قالت لي: زرعوني فلما سقوني أُسست، فلما أُسِّست فَرّعت، فلما فَرّعت أوْرقت، فلما أورقت أثمرت، فلما أثمرت أطعمت. وقال: فكان كلامها سلوكاً لي.

وكان الحنفي يحبّ الفاخر من الثياب، وينكره عليه القوم. وقال عن «الوليّ»: هو من قال لا إله إلا الله، وقام بشروطها؛ وشروطها: أن يوالي الله ورسوله، بمعنى أنه يوادّ الله بشهادته له بالوحدانية، ولمحمد ﷺ بالرسالة. وكان يقول: إذا مات الوليّ انقطع تصرّفه في الكون من الإمداد، وإذا حصل للزائر مدد بعد الموت، أو قضاء حاجة، فهو من الله تعالى على يد القطب «صاحب الوقت»، فيُعطَى الزائر من المدد على قدر المزور. وهو قول جديد في هذا الأمر من الحنفي يخرج به إلى دائرة التصوّف الشيعي. وقالوا في تفسير مقالته: ليس المزور في الحقيقة إلا الصفات لا الذوات، فإن الذوات تبلى وتفنى، والصفات هي الباقية. والناس في الزيارة إنما تتذاكر الصفات. وكان الحنفي نفسه يزور قبر أحد الصالحين، وكان في زمنه أبّاراً، وكلّمه أصحابه في سبب هذه الزيارات، فذكر أن الرجل كان كثيراً ما يطلب من الناس أن يقوموا لأهل العلوم الربّانية، ويعلل طلبه منهم أن قيامهم في حقيقته هو قيام لصفة من صفات الله أنار بها قلوب هؤلاء الأولياء. ومات الحنفي سنة ٨٤٧هـ.

* * *

١٠٩ - أبو حنيفة النعمان (الإمام)...

أبو حنيفة بن النعمان بن ثابت ابن المرزبان، العالم العابد الإمام، مُوَضِّح المشكلات، والمُفصِح عن المعضلات، ولد بالكوفة سنة ثمانين على القول الراجح، وتوفي ببغداد سنة ١٥٠هـ، وقيل كانت وفاته بالسجن، وقيل بل أطلق سراحه، وعاش لثمانية أيام أو تسعة، مرض منها ستة أيام، وقيل مات مسموماً، وهو الأغلب، وربما كان مرضه ووفاته لأنهم كانوا قد ضربوه ضرباً شديداً وأهانوه إهانات بالغة ! وكان الخليفة المنصور يخرجه أثناء ذلك من السجن لفترات ثم يعيده إليه، يريد أن يغصبه على أن يعمل قاضياً يأتمر بأمره وليس بأمر الله، فما بالكم هذه الأيام بفقهاء السلطة الذين يسعون للمناصب ، وفي سبيلها يطيعون الحكام، ويجيزون إغلاق المساجد، ويمنعون إنشاءها، ويحظرون أي تجمّعات إسلامية، ويلغون دراسة القرآن بقصد تجفيف منابع الإسلام، كما يخططون، حتى لم يعد هناك أيّ ذكر للإسلام أو القرآن في القرى المصرية؟! وكان السجن والضرب أهون على أبي حنيفة من أن يحكم بأمر السلطان وليس بأمر الله، وكان يقول للمنصور: يا منصور، اتّقِ الله ولا تُوَلِّ إلا من يخاف الله.

ويقول: والله ما أنا مأمون في الرضا، فكيف أكون مأموناً في الغضب؟! ومن أجل ذلك رفض كل المناصب، وأن يحكم باسم السلطان وليس باسم الله.

وهذا الورع وشدّة الخوف من الله هما أبرز سمات أبي حنيفة، حتى قال فيه عبد الله بن المبارك: «ما يقدرون أن يقولوا في رجل عُرضت عليه الدنيا بحذافيرها فنبذها وراء ظهره، فضُرِب بالسياط وقيل له: خذ الدنيا، فما طاوعهم!، وصبر على السرّاء والضراء. ولم يدخل فيما كان غيره يطلبه ويتمناه. والله لقد كان على خلاف من أدركناه، هم يطلبون الدنيا، والدنيا تهرب منهم، وهو تأتيه الدنيا فيهرب منها» ! ـ فهكذا كان إذن أبو حنيفة، والتصوّف سَبْرٌ للأحوال، واحتمالٌ للأهوال، وتطهيرٌ من الأغلال، ومداومةٌ دائبة بلا كلال. وأبو حنيفة عانى ما عانى الصوفية، وصبر واحتسب. ووفاته شهيداً كان وهو في السبعين، فكأنه كان صوفياً حتى مشاشه. وقال الشافعي فيه: «إن الناس عيالٌ على أبي حنيفة»، فأبو حنيفة كان الأستاذ، وسمّوه الوتد، لأنه كان يصلي ولا ينام الليل، فقيل فيه: جعل ليله للعبادة، ونهاره للعلم والإفادة. وقيل: كان يصلي الصبح بوضوء العشاء، وكان يختم القرآن في ثلاثة أيام ولياليها، ويتصدّق كل يوم بصدقة. وقيل: كان يختم القرآن في اليوم الواحد، وقيل: كان يقرأ القرآن كله في الركعة الواحدة !! وهذا مستحيل طبعاً! وقيل فيه: ما رأينا من هو أكثر منه اجتهاداً، صائماً بالنهار، قائماً بالليل، تالياً لبيان الله، خاشعاً، دائباً في طاعة الله، محتسباً في التعليم، وفي تنوير ما يُشكل على الناس من المعاني. وقيل: إنهم أحصوا على أبي حنيفة سنين كثيرة يصلي صلاة الغداة بوضوء الليل. وقيل: صلّى أبو حنيفة ثلاثين سنة صلاة الفجر بوضوء العتمة. وقيل عن زيارة له إلى مكة: أقام بها ستة أشهر ما وضع جنبه ولا نام، وكان لا يُرى إلاّ في صلاة أو طواف! ـ وكل ذلك غير حقيقي، لأن أبا حنيفة كان على سُنّة نبيّه ﷺ ، يقيم الليل وينام، ويصوم ويفطر، ويتزوّج النساء، وما قالوه فيه وإن كان من باب الحبّ له، إلا أنه غير حقيقي، لأن أبا حنيفة كان متزوجاً، فلابد أنه كان ينام، وكان يأتي امرأته، وكان يغتسل من الجنابة، فكيف إذن يقضي ثلاثين سنة يصلي الفجر بوضوء العتمة؟! وقال أبو مقاتل: صحبت أبا حنيفة الصُحبة الطويلة في حضره وأسفاره، فما رأيت

أحداً أكثر صلاة منه، ولا أعبد، ولا أورع منه، وأما الفقة فلم أر أحداً يتقدمه. وقال أحمد بن حنبل: رحم الله أبا حنيفة، كان ورعاً، ضُرِب على القضاء واحداً وعشرين سوطاً فأبى.

وكان معروف أبي حنيفة في الشهر درهمين! ولم يكن أحد يدخل بيته إلا رأى البوادي - يعني الخُضر. وهكذا التصوّف زهدٌ وتقشُّف، وخشوع وتقوى، ولكنه أيضاً نُصحٌ للناس وإرادة الخير لهم، وكان أبو حنيفة شديد البرّ بتلاميذه الفقراء، وكان يتعهّدهم بالنفقة سنين. وكان يذلّ نفسه لله، فإذا قام من المجلس فإنما ليعود مريضاً، أو يشيّع جنازة، أو يواسي فقيراً، أو يصل رحماً، أو يسعى في حاجة. وكان بكّاءً كالشأن مع الصوفية، فكان يقرأ القرآن ويبكي بشدة حتى يُسمِع بكاؤه جيرانه. ولم يكن يكثر النوم، فنومه ساعة بين الظهر والعصر؟! فإذا كان الشتاء نام ساعة أخرى أول الليل. وبلغ به الزهد في الدنيا أن اعتبر تناول الملح مع الخبز شهوة! وقال: لو لم تُبْغَض الدنيا لأن الله تعالى عُصِي فيها، لكانت تُبغَض مع ذلك. وقال: جالستُ الناس منذ خمسين سنة، فما وجدت رجلاً غفر لي ذنباً، ولا وصلني فقطعته، ولا ستر عليّ عورة، ولا اثتمنته على نفسي إذا غضب، فالاشتغال بهؤلاء حملٌ كبير».

ومع ذلك كان تلاميذه كُثُراً. وقيل: رَوَى عنه سبعمائة وثلاثون؛ وقيل: الذين أخذوا عنه ستة وثلاثون. وكان الصوفي الكبير شقيق البلخي يطري أبا حنيفة ويذكر مناقبه، قال:

شهدتُ لنعمان الأنام بسبقه
في العلم والتقوى مدى الأيام
وتألّبتْ وتظاهرتْ في مدحه
فِرَق الهدى وأئمة الإسلام
أهل الحجاز مع العراق بأسرهم
مدحوه قبل مديح أهل الشام
بل أهل كل الأرض قد مدحوا الرضا
مدحاً يجدّ على بِلَى الأنام
نادوا بأن أبا حنيفة للتُقَى
والعلم صار إمامَ كلّ إمام

* * *

١١٠- حنيونة (خادمة الله)...

الزاهدة العابدة، من حلقة جلساء رابعة العدوية، وكانت من أهل المحبة، ولها المخاطبات والمناجيات مع الله، ولها الشِّعْر في المحبة، والمواقف مع كبار الصوفية ومع رابعة نفسها، وتدلّ على ما بلغته في الطريق، وما ارتفعت إليه من مقامات.

ومن مناجياتها: يا واجدى ! تُمتّعنى بالليل التلاوة، ثم تقطعنى عنك بك فى ضياء النهار؟ إلهى ! وددتُ أن النهار ليلٌ حتى أتمتّع بقُربك!

وكانت حيّونة تصوم حتى اسوّدّت من الصيام، وعوتبت فى ذلك، فرفعت طرفها إلى السماء وقالت : قد لامنى خَلْقُك فى خدمتك! فوعزتك وجلالك لأخدمنك حتى لا يبقى لى عَصَبٌ ولا قَصَب ! ـ ولعله لهذا سُمّيت «خادمة الله»؛ وشعْرها أقل جودة من شعر رابعة، ولبست فيه على سجيتها، تقول:

يا ذا الذى وَعَد الرضا لحبيبه

أنت الذى ما إن سواك أريد

ونثرُها أيضاً ليست فيه مطبوعة، تقول: «من أحب الله أنس، ومَن أنس طَرِب، ومن طَرِب اشتاق، ومن اشتاق وَلِه، ومن وَلِه خَرِم، ومن خَرِم وصل، ومن وصل اتصل، ومن اتصل عرف، ومن عرف قَرُب، ومن قَرُب لم يرقد وتسوّرت عليه بوارق الأحزان». ـ ولا ندرى هل هذا كلام حيّونة أم كلام رابعة؟ غير أن ترتيبها مع ذلك للأحوال والمقامات فيه دراية وعقل وإعمال فكر وخبرة بالغة، مما للرجال عموماً وليس للنساء، وهى دائماً تأخذ زمام المبادرة كالرجال، وكانت لديها فى إحدى المرات رَيْحانة ـ وهى عابدة أخرى من حلقة رابعة، فلما جَنَّ الليل جاء المطر والريح الشديد، ففزعت ريحانة، وضحكت حيونة من فزعها، وقالت: لو علمتُ أن فى قلبى محبةً غيره، أو خوف سواه، لوجأته (أى قلبها) بالسكين! ـ وفى يوم كان شديد الحرارة قالت: عند المَبْلَغ يفرح الواردون، وعند العَرض تنقطع الأسباب، وعند قوله تُنشَر أعلام العارفين! ـ وكلامها كما نرى مُنضّد، وله ما وراءه، ولا يفهمه إلاّ خبير، حتى لنقول إنه من وَضْع الوضّاعين، أو أنه من إنشاء رابعة وتنزده حيّوية عنها، فَظُن أنه لها، والله أعلم.

* * *



١١١- الخراز (أبو سعيد)...

أبو سعيد أحمد بن عيسى الخرّاز، المتوفى سنة ٢٧٧ هـ، من أهل بغداد، وصحب ذا النون المصرى، وسَرِيّاً السقطىّ، وبِشْر ابن الحارث، وكنيته الخرّاز لاشتغاله بالخرازة، وكان الجنيد يقول: لو طالبنا الله بحقيقة ما كان عليه أبو سعيد الخرّاز لهلكنا، فإنه أقام كذا وكذا سنة يُخرّز، فما فاته الحقّ بين الخرزتين! وكان من أئمة القوم وجِلّة مشايخهم، وأول من تكلم فى علم الفناء والبقاء، وله الكتب المذكورة، ومنها كتاب «الصدق» الذى كان محاطاً بالكتمان من الصوفية، ويضنون به على غيرهم؛ وكتاب «الصفاء»؛ وكتاب «الضياء»؛ وكتاب «الكشف والبيان»؛ وكتاب «الحقائق»، وهى رسائل صغيرة لكنها نفيسة، ترسم الطريق بدقّة ووضوح.

وطريقة أبى سعيد يسمونها الخرّازية، وأساسها الفلسفى الفناء والبقاء، فالعبد الذى يسلك الطريق وينجح فى أن يفنى جهله فإنه يبقىَ بعلمه، والذى يُفْنَى هو فناؤه عن الأوصاف المذمومة، والبقاء هو بقاؤه بالصفات المحمودة؛ ومع ذلك فالبقاء بأية صفة بمثابة الحجاب أو المانع عن التقدّم فى الطريق إلى البقاء الخالص، حيث تمام الوصول يعنى الفناء الكامل عن كل الأوصاف، فلا بقاء بقاء تاماً خالصاً إلا بالله وحده، حيث لا عارف ولا معروف، ولا مقامات ولا أحوال.

وأوائل الطريق إلى الله التوبة، ثم يكون الانتقال إلى مقام الخوف، فالرجاء، فمقام الصالحين، فالمريدين، فالمطيعين، فالمحبين، فالمشتاقين، فالأولياء، فالمقرّبين، ولكل مقام عشرة شروط، إذا أحكمها السالك وعاناها، حلّ قلبه فى المقام، وأدمن النظر فى النعمة، وجالت روحه فى ملكوت الله بخالص العلم به. والله تعالى يعجّل لأرواح أوليائه التلذّذ بِذِكره، والوصول إلى قُربه، ويعجّل لأبدانهم النعمة بما نالوه من مصالحهم، فعَيْش أبدانهم عيش الجنّانيين (يعنى أهل الجنة)، وعَيْش أرواحهم عيش الربّانيين. والسالك يجد فى كل مقام أُنسه بالله، ويستبشر قلبه بقُربه من الله، ويُسَرُّ به، ويهدأ فى سكونه إليه وأمنه معه. وهو

دائم العطاء، وفرحه فى العطاء بالمُعطِى الذى أعطاه أولاً فأمكنه أن يُعطِى، ولذته فى اللّذات بخالق اللذات، وتنعُّمه فى النِّعَم بالمُنعِم دون النِّعم، لأن ذكر النعمة عند ذكر المُنعِم حجاب، ورؤية النعمة عند رؤية المنعم حجاب. **ومحور تفكير الخراز: كلّ ما فاتك من الله سوى الله يسير، وكلّ حظ لك سوى الله قليل.** والمحُب يتعلل إلى محبوبه بكل شئ ولا يتسلى عنه بشئ ، ويتبع آثاره ولا يدع استخباره:

أبَا مَن يرى الأسباب أعلى وجوده

ويفرح بالنيء الدنىّ وبالأنس

فلو كنتَ من أهل الوجود حقيقة

لغبتَ عن الأكوان والعرش والكرسى

وكنتَ بلا حال مع الله واقفاً

تُصان عن التذكار للجن والإنس

ويفسّر الخراز قوله تعالى: ﴿لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ (النساء ٨٣)، بأن المستنبط هو الذى يلاحظ الغيب أبداً، فلا يغيب عنه شئ، ولا يخفى عليه شئ. ويقول فى قوله تعالى: ﴿لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ (الحجر ٧٥)، أن المتوسّم هو الذى يعرف الوَسْم، وهو العارف بما فى سويداء القلوب، وبالاستدلال والعلامات، فيميّز أولياء الله من أعداء الله. والعارفون: هم خزائن الله، أودع الله تعالى فيهم علوماً غريبة وأخباراً عجيبة، يتكلمون فيها بلسان الأبدية، ويخبرون عنها بعبارات أزلية. وعندما يوالى الله تعالى عبداً من عبيده فإنه تعالى يفتح له باب ذكره، فإذا استلذ بالذكر فتح عليه باب القُرب، ثم رفعه إلى مجلس الأُنس، ثم أجلسه على كرسى التوحيد، ثم رفع عنه الحُجب فأدخله دار الفردانية، وكشف له عن **الجلال والعظمة**، فإذا وقع بصره على الجلال والعظمة بقى بلا هو، فحينئذ يصير العبد فانياً، فيقع فى حفظ الله، ويبرأ من دعاوى نفسه. وسألوه. فهل يصل العارف إلى حال يجفو عليه البكاء؟ فقال: نعم. إنما البكاء فى وقت سيره إلى الله عزّ وجلّ، فإذا نزل إلى حقائق القُرب، وذاق طعم الوصول ، زال عنه البكاء ، ولذلك ورد «**فإن لم تبكوا فتباكوا**» أى تنزّلوا فى المقام ليَقتدى بكم السائرون . والله تعالى يرزق العارف لسانين ، لسان فى الباطن يعرفه صُنع الصانع فى المصنوع ، ولسان فى الظاهر يعلمه علم المخلوقين ، فلسان الظاهر يكلّم جسمه ، ولسان الباطن يناجى روحه . والله تعالى جعل العلم دليلاً عليه ليُعرَف، وجعل الحكمة رحمةً منه عليهم ليؤلف، فالعلم

دليل إلى الله ، والمعرفة دالّة على الله، وبالعلم تُنال المعلومات ، وبالمعرفة تُنال المعروفات ، والعلم بالتعلّم ، والمعرفة بالتعرّف . والمعرفة تقع بتعريف الحق، والعلم يُدرَك بتعريف الخَلْق . وإذا كانت العين واحدة ، فمن أى شىء تلونت عليك؟ فاجْرِ فيها فإن التغيير من جهتك، لأن عين الحق لا تتقلّب .

وكان للخراز ولد صالح مات ، فرآه فى المنام ، فسأله الخراز أن يوصيه، فقال له : «لا تجعل بينك وبين الله تعالى قميصاً»، فما لبس أبو سعيد قميصاً منذ ثلاثين سنة ، ربما على الحقيقة ،وإنما معنى ذلك لا تجعل بينك وبين الله تعالى حجاباً ، وهى وصية الخرّاز لمريديه . وكان يقول لهم : ينبغى للصوفى أن يكون لطيف اللُّبسة ، ملازماً للخلوة ، حسن الصيانة، فلا يطلب إلا عند وجود الفاقات ، وإلا فهو والكذّابون سواء .

ويحكى الخراز أنه لقى مرة شخصاً يدّعى الجنون، فناداه: قف يا مجنون. ويقول الخراز : فالتفتَ إلى وقال : أتدرى من المجنون؟ فقلت لا، قال: المجنون من يخطو خطوة ولا يذكر ربّه فيها». وربما كانت الحكاية أمثولة يريد بها أن يعلّم المريدين. وكان يقول لهم: إن قلب الإنسان مجبول على حب من يُحسن إليه ، وإنى لأعجب ممن لم ير محسناً غير الله، فكيف لا يميل بكليته إليه ! غير أن شرف العبودية لله لا يمكن أن يتصف به العبد إلا إذا صارت له الأذكار غذاء ، والتراب له فراشاً . ولا ينبغى الاغترار بالعبودية فإن العبد قد ينسى فيها الربوبية ويكتفى بأن يكون عبداً . وسألوه : وما الخلاص ؟ فقال : أن تشهدوا صُنع الربوبية فى إقامة العبودية، فتنقطعوا عن نفوسكم ، وتسكنوا إلى ربكم، وهناك تَسْلَمون من الاستدراج . ويحكى لهم فيقول : دخلت المسجد الحرام فرأيت فقيراً عليه خرقتان يسأل شيئاً، فقلت فى نفسى: مثل هذا كَلٌّ على الناس! وقد علمنا أن الخرّاز كان يتعيّش من كسب يديه. ويقول: صَحِبتُ الصوفية ما صحبت، فما وقع بينى وبينهم خلاف، فقالوا: لِمَ؟ قال: لأنى كنت معهم على نفسى. وليس من طبع المؤمن أن يقول لا، وذلك أنه إذا نظر ما بينه وبين ربّه من أحكام الكرم، استحى أن يقول لا. ويضرب الخراز المثل فيقول: رأيت إبليس فى النوم وقد مرّ عنى، فقلت: تعال، فقال: وما عساى أعمل بكم؟ أنتم (بقصد الصوفية) طرحتم عن نفوسكم ما أخادع به الناس. فقلت:

وما هو ؟ قال: الدنيا. وقال: ورأيته مرة أخرى، وكان بين يدَّى عصا، فرفعتها حتى أضربه بها، فهتفت بى نفسى: هذا لا يفزع من العصا، وإنما فزعه من نور القلب. وقال: العارف يستعين بكل شئ ، فإذا وصل استغنى بالله وارتفعت همّته عن الوقوف عماً سواه وافتقر الناس إليه. اعرفوا نفوسكم، فمثل النفس فى الصفات كمثل ماء طاهر صاف، فإذا حرّكته ظهر ما تحته من الحَمَأ (الطين الأسود)، وكذلك النفس تظهر مرتبتها عند المحن والفاقة والمخالفة لأهوائها، ومن لم يعرف ما طويت نفسه من الصفات، فكيف يمكن أن يدعى معرفة ربّه؟ واعلموا أن كل باطن يخالفه ظاهر فهو باطل. وسألوه عن سبب معاداة الصوفية لبعضهم البعض؟ وبُغضهم لبعضهم البعض؟ فقال: لأنه لا رياسة عندهم، والله قدّر عليهم ذلك غَيْرةً منه عليهم، أن يسكن بعضهم إلى بعض، ولكنهم مع ذلك وعندما يقع لهم كمال السَّير تذهب بغضاؤهم، لأن الكامل لا يرى هناك من يرسل غضبه عليه من الخلق.

وسألوه عن علامة الواصلين؟ فقال: إن الورع، والزهد، والصبر، والتوكّل، والخوف، والرجاء، والمراقبة، والحياء، والمحبة، والشوق، والأنس، والصدق فى المواطن والإخلاص فيها، وكل خُلقٍ حسن جميل، هى منازل ينزلها العُمّال لله، ثم يرتحلون منها إلى غيرها، إلى أن يصلوا إلى المُنَى من قُرب سيدّهم، وكأنهم يشاهدونه، فيزدادون إقبالاً، ويديمون النظر ويصغون إليه بالآذان الواعية. ومن يذق طعم محبة الله بالحقيقة فهو الواصل إليه تعالى، وهو من أهل القُرب منه، وعلامته هى العلامات السالفة، من الورع والزهد والصبر إلخ. وما يستوطنه الواصلون من البرّ والكرم فهو معهم وسكن طبعهم، ويخفَى فى سرائرهم، لايحسنون غيره، لأنه غذاؤهم وعادتهم، لأنهم فرضوا ذلك على أنفسهم فرضاً، وعملوا فيه حتى ألِفوه، فلم يكن عليهم بعد الوصول كُلْفةٌ فى إتيانه والعمل به إذا حلّ وقت كل حال، وذلك لِما غلب على قلوبهم فى الإيثار لله والقُرب منه، فهم عاملون بلا مئونة، وبلا تشاغل.

وسألوه عن المُقرّبين؟ فقال: إنهم الذين يألفون أحكام ربّهم، ويستعذبون بلواه، ويسكنون فى حُسن تدبيره واختياره بالكلية، بلا تلكؤ من أنفسهم. والسكون إلى الله والطمأنينة به على قدر القُرب من

القلب. والمقرّبون لا يرضون من أنفسهم أن تقاوم الأمور عند حلولها، والأحداث عند نوازلها، ولا يحتاجون أن يصبروا عليها ويرضوا بها، بل الصبر والرضا لهم تابعٌ مضاف. ومن يشتد اتصاله بربّه، ووجْده به، ونزوله فى قُربه، لا يجد طعم اختلاف الأحكام، فعندئذ تكون الأمور من الدنيا والآخرة، وأعمال البرّ والطاعة، طالبةً للعبد ولاحقة به، وإليه محتاجة وإليه واصلة، بل إليه موصولة، لأنه عزف عنها، واستغنى بمالكها فوصلت إليه: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ (الزمر ٣٦)، وفى الحديث : «من جعل الهَمّ همّاً واحداً كفاه الله سائر همومه». والمريد الصادق فى إرادته لله، فهو عاملٌ فى جميع أموره بالمراقبة له، بالقيام على قلبه وهَمّه وجوارحه بالمحاسبة، فعند ذلك يتكلم والقلب يغلى بالذكر لله، وقد كمنت فى قلبه محبة الله، ولازمت ضميره لا تفارقه فى أكله وشُربه ونومه وكل حركاته، لأن قُرب الله تعالى إذا تمكّن فى القلب غلب على ما سواه من أعراض الهمَم، وظاهر حركات الجوارح، فعندها يكون العبد ذاهباً وجائياً، وآخذاً ومعطياً، والغالب عليه هَمّ ما قد مَلَك ضميره من محبة الله وقُربه، وفى قُربه تعالى تصحب العبد العصمة فيكون محفوظاً من النقصان.

* * *

١١٢ - ابن خضرويه البلخى...

أبو حامد أحمد بن الخَضِر، المعروف بابن خَضْرويه البَلْخى، توفى سنة ٢٤٦ هـ عن خمس وتسعين سنة، واشتهر بالفتوة والهِمّة، ويروون عنه أن زوجته وكان اسمها أم علىّ كانت كلما نظرت إليه ترجع إلى حظوظ نفسها، أى تجد نفسها كأنثى، وكلما نظرت أبا يزيد البسطامى فقدت حظوظ نفسها، فطلبت إليه أن يطلقها على أن يزوجها البسطامى، ففعل وحملها إليه، وكان يرى ذلك منها ومن نفسه صدقاً، فالذى يحب الله ينبغى أن يلزم الصدق معه، والله دائماً مع الصادقين، والتصوّف إيثار، وابن خضرويه كان يتخارج من الدنيا، وينزل عن ماله ويقترض ليخدم الفقراء، ويجد فى ذلك حريته أو تحرُّره من الدنيا والعلائق، وذلك وحده الطريق ليكون مع الله خالصاً، وليكون له عبداً على الحقيقة، فتمام العبودية لله هى حريته الحقيقية، والذى يميت نفسه، أى يقتل فيها شهواتها ونزواتها، هو الحرّ، وهو الغنى، وفى موات النفس حياتها، والهمّة هى قطع

النَفْس عن كل ما سوى الله وتلك حقيقة المحبة له.

* * *

١١٣ - ابن الخطيب (لسان الدين)...

صاحب «روضة التعريف بالحُبّ الشريف»، وهو من الكتب المعدودة فى التصوّف، ولد ونشأ بغرناطة (٧١٣ ـ ٧٧٦هـ)، واستوزره سلطانها أبو الحجاج يوسف بن إسماعيل، وكان أهله يُطلَق عليهم اسم بنى الوزير، لاستوزارهم، ثم أصبحوا يعرفون ببنى الخطيب، نسبةً إلى جدّهم الأعلى سعيد بن عبد الله، الذى اشتغل خطيباً، وعُرف بسعيد الخطيب.

وابن الخطيب هو أبو عبد الله محمد ابن عبد الله بن سعيد بن عبد الله بن على ابن أحمد السلمانى، من أسرة هاجرت من الشام إلى الأندلس، ولذلك فهو يعرف أيضاً باسم ابن الخطيب السلمانى، ويقال له ذو الوزارتين: وزارة السيف ووزارة القلم؛ وذو العُمرين: لأنه كان يشغل عُمْره نهاراً بالوزارة، وعمره ليلاً بالتصنيف؛ ولسان الدين: لعلمه الجمّ، ومؤلفاته الكثيرة التى بلغت فيما قيل ستين مصنفاً، معظمها فى التاريخ والجغرافيا والأدب والتصوف والفلسفة والطب، ولم يصلنا منها إلا ثلثها تقريباً. وقيل فيه إنه كان أعظم الكُتّاب والشعراء ورجال الدولة وخاتمهم فى غرناطة، إن لم يكن فى الأندلس كلها. وكتابه «روضة التعريف» فى المحبة الإلهية، وموضوعاته مرتّبة على هيئة شجرة وأرض. فالشجرة هى المحبة: مناسَبةً وتشبيهاً، وإشارةً إلى ما ورد فى الكتب المنزّلة؛ والأرض: هى النفوس التى تُغرَس فيها؛ والأغصان: أقسامها؛ والأوراق: حكاياتها؛ والأزهار: أشعار الصوفية؛ والثمرة: الوصول إلى الله تعالى. واستكثر ابن الخطيب من الأشعار فى الكتاب، لأن الأشعار بمنزلة النسيم الذى يحرك أفنان الشجرة، والمزمار الذى ينفخ الشوق فى قلمه؛ كما استكثر من الحكايات، لأنها تروّح عن القارئ جهد القراءة، وتخفّف الموضوع إن كان ثقيلاً.

والحُبّ الإلهى كما يعرضه ابن الخطيب: هو الأصل فى كل تصوف، والسلوك إلى الحبّ يكون بالذكر، والمعرفة العامة تسبق الحب، فتتحصل به المعرفة الخاصة. ويعدّد ابن الخطيب أوصاف العارف وعلومه، وأنواع المحبوبات، ويعرّف بالمحبين من الفلاسفة الأقدمين، والإشراقيين، والإسلاميين، والمتكلمين، والصوفية سادة المسلمين؛ ويذكر علامات المحبة وأخبار المحبين. والكتاب برمته

عرض لمذاهب التصوف، وأحواله ومقاماته وحقائقه، ومن ذلك مذهب أهل الحلول والاتحاد، فقد عرضه ابن الخطيب وشرحه واستوفاه، ووجد أعداؤه وحاسدوه من أهل السياسة فى تلك الشروح فرصتهم ليكيدوا له عند السلطان، وينالوا منه، ويوقعوا به، ففر ابن الخطيب سنة ٧٧٣ هـ إلى سبتة، فتلمسان، واستقر بها فى ضيافة السلطان عبد العزيز، ثم ابنه السعيد بالله، إلى أن خُلع هذا، وتولى أبو العباس المستنصر الذى ساعده الغنىّ بالله صاحب غرناطة، مشترطاً عليه شروطاً، منها تسليمه ابن الخطيب، وتم القبض عليه، وأُحضر إلى مجلس الشورى، ووُجّهت إليه تهمة الزندقة، وسلوك مذهب أهل الفلسفة، من ابن زُمْرُك وزير غرناطة الذى استقدموه على عجل ليحضر المحاكمة، وأفتى بعض الفقهاء بقتله، فأعيد إلى السجن، ويقول السلاوى المؤرخ: إن رئيس الشورى سليمان بن داود أوعز إلى بعض الأوغاد من حاشيته أن يتسللوا إلى السجن ليلاً ويقتلوه، وتحقق ذلك وقاموا بخنقه، ثم أشعلوا النار فى جثته ،ودفنوه فى مقبرة باب المحروق بفاس!!!

ومما أُخذ عليه قوله فى أصحاب وحدة الوجود والحلولية والاتحادية: أنهم تدرّجوا فى المراتب غير المكانية ولا الزمانية، يبتغون القُرب من الله، حتى صحّ أن حقيقتهم العدم»، يعنى أنّ خَلْق الله هم صفته، فالأشياء - سواء هى أفعاله أم صفاته، مع وجود الله، هى عدم، يعنى أن الأشياء هى الله، والله هو الأشياء، فإن قُلتَ الله فكأنك تُخفى فيه الأشياء، وإن قلت الأشياء فكأنك تُخفى فيها الله، والحقيقة: أنها هو، وهو هى. وفى ذلك أنشدوا:

تمنّىَ المحب يرى علوة

وقد شاع فى حبّه وصفها

أعارته طرفاً يراها به

فكان البصير لها طرفاً

وهذه الحالة لا تظهر إلا عند حُبّ الله إياه- أى حُبّه للمحب، فيكون سمعه وبصره ويده، فإذن ليس ثَمّ إلا الله، وأن الخلق له، ثم به، ثم لا شئ إلا الله فى الوجود. ألا كل شئ ما خلا الله باطل. وليس مرادهم أن شيئين صارا واحداً، وإنما مرادهم أن التوحيد الحقيقى هو التخلُّص من الكثرة والتعدّد، إلى الوحدة، ومن ضيق عالم الحدوث إلى فُسحة القِدَم. ومَن زعم أنه تلاشت رسومه وفنى عن وجوده، ثم فنى عن فنائه، وأدرك عند ذلك حقيقة ذاته،

لا يسعنا الحكم عليه بالردّ ولا بالإثبات، لأننا لا نعلم حقيقة ما يقول بالبرهان ولا بالنقل، ومدّعيها من أهل الاستقامة، ولا يصحّ الحكم على ما لا نعرف، وإنما مستند هذه الدعوى هو الوجدان. وهذا رأى المعارضين. ورأينا: أن الحُكْم واجب، ولا يصحّ تعليق الأحكام، فهذه لا أدرية، وإنما فى قضايا الرأى - كما فى قضية ابن الخطيب - فإن الحكم بالقتل والإعدام لا يستقيم مع جوهر القضية، فالرأى يقارعه الرأى، والقتل يساويه القتل، وقضية ابن الخطيب قضية رأى، وصيّروها قضية قتل، بفعلتهم وليس بفعلته، والرأى جنحة، والقتل جُرم عظيم، والذين أصدروا حُكم القتل ونفّذوه يُقدَّمون لمحكمة جنائية وليس لمحكمة رأى. وابن الخطيب مات من شهداء الرأى، ويُدرَج اسمه ضمن ضحايا إرهاب الدولة كما فى كثير من الحالات اليوم فى دولة الطغيان.

* * *

١١٤ - ابن خفيف (أبو عبد الله)...

أبو عبد الله محمد بن خفيف الشيرازى (٢٧٦ - ٣٧١ هـ)، من متصوّفى السُّنّة، وكان من أبناء الملوك وتصوّف كأبيه، وكان أول شيوخه هو شيخ أبيه أبا العباس أحمد بن يحيى، فلقيه بأول درس له فى الرياضة، بأن طلب منه توصيل لحم اشتراه إلى البيت، وخجل أن يحمل اللحم ويسير به وسط السوق، فركن إلى حائط أحد المساجد لا يدرى ماذا يفعل، واستخار الله وسار به، والناس يتصايحون عليه لمعرفتهم بأصوله، وعاد يتصبّب عرقاً إلى الشيخ، فاستعاده ما جرى له، فحكى ابن خفيف عن تجربته، ولكن الشيخ طمأنه وتنبأ له بمستقبل فى الطريق، وصار ابن خفيف من كبار الصوفية وشيخ المشايخ فى وقته، ودافع عن المتصوّفة والتصوّف، ومن ذلك قوله فى ابن جرير الطبرى، فى دعواه على أهل الله من المتصوّفة فى مسألة الرؤية: الطبرى فى كتابه «التبصير» ذكر اختلاف القائلين برؤية الله تعالى، وأن طائفة تثبت الرؤية فى الدنيا والآخرة، ونسب هذه المقالة إلى الصوفية قاطبة، ولم يخصّ أحداً - وعمّم ذلك على جهالة منه بأقوال المخلصين منهم، ومن بين من نسب إليه ذلك ابن أخت عبد الواحد بن زيد، والله أعلم بمحلة عبد الواحد بن زيد عند المخلصين، فكيف بابن أخته؟ وليس إذا أحدث الذائع فى نحلته قولاً نُسب إلى الجُملة. كذلك فى الفقهاء والمحدّثين، فليس من أحدث قولاً فى الفقه وليس فيه حديث يناسب ذلك، يُنسَب ذلك إلى

جملة الفقهاء والمحدّثين. ويضرب ابن خفيف المثل بجعفر بن محمد لمّا سُئل: هل رأيت الله حين عبدته؟ قال: رأيت الله ثم عبدته. فقال السائل كيف رأيته؟ فقال: لم تره الأبصار بتحديد الإيمان، ولكن رؤية القلوب بتحقيق الإيقان، ثم قال: وأنه تعالى يُرى في الآخرة كما أخبر في كتابه الكريم. وقال أبو عبد الله بن خفيف: ونعتقد أن الله تعالى يراه المؤمنون يوم القيامة كما يرون القمر ليلة البدر، لا يضامون في رؤيته، من غير إحاطة ولا تحديد حدّ مربع أو مستدبر، أو فوق أو تحت، أو يمنة أو يسرة. ويقول: والرؤية في الدار الدنيا محال.

ولابن خفيف كتاب «المعتقد»، وطريقته في التصوّف كما يوردها الهجويري في «كشف الظنون»، تقوم على الحضور كمقابل للغيبة، فمن غاب عن نفسه، فإنما حضوره مع الحق، وإلا فالغيبة بلا حضور جنون. وقد رجع الإمام ابن تيمية إلى أقواله في «المعتقد» في فتواه الحموية، وينقل عنه قوله في الحلولية: ومن زعم الإشراف على الخلق، يعلم مقاماتهم ومقدارهم عند الله بغير الوحي المنزّل، فهو خارج عن الملّة. ومن ادّعى أنه يعرف مآل الخلق ومنقلبهم، وعلى ماذا يموتون عليه، ويفتي لهم بغير الوحي المنزّل من قول الله ورسوله، فقد باء بغضب من الله. ومن زعم أن صفات الله تعالى بصفات العبد فهو حلولي قائل باللاهوتية والالتحام، فذلك كفر لا محالة. ومن قال إن شيئاً من صفات الله حالّ في العبد، أو قال بالتبعيض على الله، فقد كفر.

ويقول ابن خفيف في معتقده: إن الباري تعالى واحد، لا حالّ في الأشياء، ولا الأشياء حالة فيه، ولا يتجلى في شيء، ولا استتر بالحدث.

ويقول ابن خفيف في النبوة والولاية: الوصول من غير طريقة العبودية محال، والنبوة أجلّ من الولاية، ولا يبلغ النبيّ درجة النبوة بالعمل، والمعجزة للأنبياء، والكرامة للأولياء.

ومن أقوال ابن خفيف: عهدي بالصوفية يسخرون من الشيطان، والآن الشيطان يسخر منهم». والتصوف عنده هو: تصفيةٌ للقلب عن موافقة البشرية، وإخماد صفاتها، ومفارقة أخلاق الطبيعة، ومجانبة الدعاوى النفسية، ومنازلة الصفات الروحية، والتعلّق بعلوم الحقيقة، والوفاء لله على الحقيقة، واتّباع الرسول ﷺ في الشريعة- والإيمان: تصديق القلب بما أعلمه الحقّ من الغيوب؛ والتقوى: مجانبة ما يبعدك عن الله تعالى؛ والخوف اضطراب القلب بما

يعلم من سطوة المعبود؛ والتوكل: اكتفاه بضمان الحق وإسقاط التهمة عن قضائه؛ والرياضة: هي كسر التقوى بالخدمة؛ واليقين: هو أن تتحقق الغيوب؛ والقُرب: طيّ المسافات بلطيف المداناة، وقُربك منه بملازمة الموافقات؛ والأكل مع الفقراء قُربة إلى الله؛ والانبساط: سقوط الاحتشام عند السؤال؛ والمشاهدة: اطلاع القلب بصفاء اليقين إلى ما أخبر الحقّ عن الغيوب؛ والوصول: هو الاتصال بالمحبوب دون كل شئ سواه والغياب عن كل شئ سواه؛ والسُكر غليان القلب عند معارضات ذكر المحبوب.

والمطالبات بالنسبة للمريد شتّى: فمطالبة الإيمان: هي ما يحدوك عليه من صحة التصديق بوعده ووعيده؛ ومطالبة العلم: ما تتبين به أحكامه فتظهر دلائله ويطالبك الحق باستعماله؛ ومطالبة الحق: هي التي إذا بدت قهرتك وجذبتك إلى ما أراد بصولته سبحانه. وليس شئ أضر بالمريد من مسامحة النفس في ركوب الرخص وقبول التأويلات.

وكان رحمه الله يشكو وجع الخاصرة، فكان إذا أخذه أقعده عن الحركة، فإذا أقيمت الصلاة يُحمَل على الظهر إلى المسجد ليصلي، فقيل له لو خفّفت على نفسك لكان لك سعة في العلم، فقال: إذا سمعتم حيّ على الصلاة، ولم تروني في الصف، فاطلبوني في المقابر! وقال: سألت الله أن ألقاه ولا يكون لي شيء، ولا لأحد عليّ شيء، ولا يكون على بدني من اللحم شيء». ولما اشتدت به العلّة ظل طريح الفراش سنة وأربعة شهور لم يتحرك، وسألوه قُرب وفاته: كيف يجد العلّة؟ قال: سَلُوا العلة عني! فقالوا: قل لا إله إلا الله، فأنشد:

أفنيتُ كُلّي بكُلّك
هذا جزا من يُحبُّك!

* * *

١١٥ - ابن خلدون (عبد الرحمن)...

الفيلسوف المؤرخ الأشهر، الأندلسي الأصل، التونسي المولد (٧٣٢هـ) والنشأة، صاحب كتاب «العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العجم» في ستة مجلدات، أولها «المقدمة» التي ذاع صيتها، وتُرجمت إلى مختلف اللغات، ووضعت بشأنها المؤلفات، وتعدّ من أصول علم الاجتماع. وله رأي وفلسفة محايدة، في نشأة التصوّف ومذهب المتصوّفة، وما يهمنا هنا هو رأيه وفلسفته في التصوّف، وهو ينسب المتأخرين من المتصوّفة للفلاسفة، ويتولى الردّ على

أقوالهم فى الفصل الحادى عشر من المقدّمة، ويقول فيه: إن التصوف من العلوم الشرعية الحادثة ، وأصله ما كان عليه السلف من الصحابة والتابعين من العبادة والهداية ، والانقطاع إلى الله تعالى ، والإعراض عن زخرف الدنيا ، والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من اللذات والمال والجاه ، والانفراد عن الخلق فى الخلوة للعبادة ، فلما فشا الإقبال على الدنيا فى القرن الثانى وما بعده، اختص المقبلون على العبادة باسم الصوفية والمتصوفة ، من حيث أن الإدراك على نوعين: إدراك للعلوم والمعارف، من اليقين والظن والشك والوهم ؛ وإدراك للأحوال القائمة من الفرح والحزن ، والقبض والبسط، والرضا والغضب، والصبر والشكر وأمثال ذلك ، فإن الصوفية إدراكهم من هذا النوع الأخير ، فالروح العاقل والمتصرّف فى البدن تنشأ من الإدراكات والإرادات والأحوال، وتلك ميزة الإنسان على سائر المخلوقات، وهى إدراكات ينشأ بعضها من بعض كما ينشأ العلم من الأدلة ، ومن الفرح والحزن عن إدراك المؤلم أو المتلذذ به . والمريد ينشأ له عن مجاهداته أحوال، وهى من نوع العبادات التى ترسخ وتصير له مقامات ، أو لا تكون من نوع العبادات وإنما هى صفات حاصلة للنفس من الحزن والسرور، أو النشاط أو الكسل، أو غير ذلك من المقامات . ولا يزال يترقّى فى المقامات إلى أن ينتهى إلى التوحيد والمعرفة اللتين هما الغاية المطلوبة للسعادة ، فقد ذكر رسول الله ﷺ فى ذلك أن: «من مات يشهد أن لا إله إلا الله دخل الجنة» ، والمريد يترقّى فى المقامات نحو هذا الهدف ، وأساسها جميعاً الطاعة والإخلاص والإيمان، ولها ثمراتها من الأحوال والصفات ، وحدوث الخلل فى الترقّى معناه وجود تقصير فى المحاسبة ، والمريد فى مجاهداته ومحاسباته يمارس ذلك بذوقه ، والأذواق والمواجيد هما طريق الصوفية ، ولهم فيها آداب ومصطلحات تدور بينهم وليست لغيرهم من أهل الشريعة والكلام . وصار علم الشريعة بهم علمين: علمٌ اختص به الفقهاء يتعلق بالعبادات والأحكام والمعاملات؛ وعلم اختصوا به موضوعه هذه المجاهدات والمحاسبات، والأذواق والخلوة والمواجيد، والذكر والاصطلاحات ، وصارت لهم به مؤلفاتهم كما عند: القشيرى، والسهروردى، والغزالى؛ وصار علم التصوف يدّون بعد أن كان فى الصدور، وكانت الطريقة عبارة عن عبادات فقط.

ويقول الصوفية بالكشف ، أى كشف حجاب الحسّ، بمعنى الاطلاع على عوالم من أمر الله ، وسبب الكشف أن الروح تقوى بالمجاهدات والانصراف عن الحسّ الظاهر إلى الباطن ، والذكر للروح كالغذاء، ولا يزال ذلك يزيد بالصوفى حتى يتحول إلى ما يسمى الشهود بعد أن كان علماً ، ويُكشَف له حجاب الحس ، ويتم للنفس وجودها الذى لها من ذاتها ، وهو عين الإدراك ، فيتعرّض حينئذ للمواهب الربّانية والعلوم اللدنية والفتح الإلهى ، وتقترب ذاته فى تحقيق حقيقتها من الأفق الأعلى الذى للملائكة. وهذا الكشف يدرك به أهل المجاهدة واقعات قبل وقوعها ، ويتصرّفون به فى الموجودات السفلية فتصير طوع إرادتهم . والعظماء من الصوفية لا يعتبرون هذا الكشف ، بل يعدون ما يقع لهم منه محنة . والذى حدث أن جماعة منهم من المتأخرين انصرفت عنايتهم إلى كشف الحجاب والمدارك التى وراءه ، واختلفت عندهم طرق الرياضة بحسب تعليمهم فى إماتة قوى الحسّ، وتغذية الروح العاقل بالذكر، حتى يحصل للنفس إدراكها الذى لها من ذاتها بتمام نشوتها وتغذيتها ، فإذا حصل ذلك زعموا أن الوجود قد انحصر فى مداركها ، وأنهم كشفوا ذوات الوجود وتصوّروا حقائقها ، فتكلموا فيها علوية وسفلية ، وتعرّضوا لحقائق المَلَك والروح والعرش والكرسى وغير ذلك . والناس بين مُنكر ومُسلّم لهم ، بدعوى أن من لم يشاركهم طريقتهم فى الفهم عن ذوق وموجدة ، فإن البرهان والدليل لا ينفع معه، لأن قضايا التصوف لا ينفع فيها دليل وبرهان، بل هى من قبيل الوجدانيات .وربما قصد بعض المصنفين من الصوفية بيان مذاهبهم فى كشف الوجود وترتيب حقائقه، فأتوا بالغامض، كما فعل الفرغانى- عندما تصدّى لشرح قصيدة ابن الفارض ، فذكر أن الوجود كله صادر عن صفة الوحدانية مظهر الأحدية ، وهما معاً صادران عن الذات الإلهية التى هى عين الوحدة ، ويسمون هذا الصدور التجلّى ، وأولى مراتب التجلّيات عندهم تجلّى الذات على نفسه، بمعنى الكمال بإفاضة الإيجاد والظهور، كما فى الحديث القدسى الذى يتناقلونه بينهم: «كنت كنزاً مخفياً ، فأحببت أن أُعرف ، فخلقت الخَلق ليعرفونى» . وهذا الكمال فى الإيجاد المتنزّل فى الوجود ، وفى تفصيل الحقائق، هو عندهم عالم المعانى ، والحضرة الكمالية، والحقيقة المحمدية ،

وفيها حقائق الصفات ، واللوح ، والقلم، وحقائق الأنبياء والرسل أجمعين، والكُمَّل من أهل الملة المحمدية، وهذا كله تفصيل الحقيقة المحمدية . ويصدر عن هذه الحقائق حقائق أخرى فى الحضرة الهبائية ، وهى مرتبة المثال ، ثم عنها العرش ، ثم الكرسى ، ثم الأفلاك، ثم عالم العناصر ، ثم عالم التراكيب ، وهذا فى عالم الرَّتْق ؛ فإذا تجلّت فهى فى عالم الفتق ، ويسمى وهذا المذهب «المذهب أهل التجلّى والمظاهر والحضرات». وكلامهم السابق من الصعب تحصيل أهل النظر لمقتضاه لغموضه وانغلاقه ، وشتّان بين كلام مصدرُه المشاهدة والوجدان ، وبين كلام قوامه الدليل والبرهان ، ناهيك عن أن كلامهم قد يكون فيه ما يناهض الشرع صراحةً . وذهب آخرون إلى القول بالوحدة المطلقة ، وهو رأى أغرب من الرأى السابق، ويقوم على زعم أن الوجود عبارة عن قوى مفصّلة ، بها كانت الموجودات وصورها وموادها ، والقوة الجامعة لكل القوى هى القوة الإلهية التى تنبثّ فى جميع الموجودات، كلية وجزئية، وتجمعها وتحيط بها، بحيث تكون كلها واحداً هو نفس الذات الإلهية، وهى فى حقيقتها واحدة وبسيطة، ولكنها مفصّلة من جهة الاعتبار فقط . ويشبه هذا المذهب قول القائلين: بأن الألوان وجودها مشروط بالضوء، فإذا عدم الضوء لم توجد الألوان بوجه . وكذلك يرون أن الموجودات المحسوسة كلها مشروطة بوجود المدرِك أى الإنسان ، فإذا الوجود المفصّل كله مشروط بوجوده ، ولو لم يوجد لما كان هناك هذا التفصيل للوجود، بل هو البسيط الواحد . وما كانت الحرارة والرطوبة والبرودة، والصلابة واللين، والأرض والماء والنار والسماء إلا بسبب وجود الحواس المدركة لها. وهو مذهب فى غاية السقوط لأننا نقطع بوجود البلد الذى نحن مسافرون عنه وإليه يقيناً مع غيبته عن أعيننا ، وبوجود السماء والكواكب الغائبة عنا ، ونقطع بذلك ولا يكابر منا أحد نفسه. ويناقض هذا الرأى كذلك من المتصوفة أنفسهم أن المريد عند الكشف ربما يعرض له توهّم الوحدة ، وهو ما يعرفونه باسم مقام الجمع، إلا أنه يترقى عنه إلى التمييز بين الموجودات ، وهو ما يعرفونه باسم مقام الفرق، إلا أن هؤلاء المتأخرين من المتصوفة المتكلمين فى الكشف، ، وفيما وراء الحسّ، توغلوا فى ذلك، وذهبوا إلى الحلول والوحدة ، مثل الهروى، وابن عربى، وابن سبعين، وابن

العفيف، وابن الفارض . وخالط سلفهم الإسماعيلية المتأخرين من الرافضة، الدائنين أيضاً بالحلول وإلهية الأئمة ، وتشرّبوا مذاهب بعضهم البعض ، وتشابهت عقائدهم ، وظهر فى كلام المتصوفة القول بالقطب ومعناه رأس العارفين ، يزعمون أنه لا يمكن أن يساويه أحد فى مقامه فى المعرفة حتى يقبضه الله ، ثم يورث مقامه لآخر من أهل العرفان ، وقد أشار إليه ابن سينا فى كتاب الإشارات فى فصول التصوف، وهو كلام لا تقوم عليه حجّة عقلية ، ولا دليل شرعى ، وإنما هو من أنواع الخطابة ، وهو بعينه ما تقوله الرافضة ، ثم قالوا بترتيب وجود الأبدال بعد هذا القطب ، كمقالة الشيعة فى النقباء ، حتى أنهم لما أسندوا لباس خرقة التصوف ليجعلوه أصلاً لطريقتهم وتخلّيهم ، رفعوه إلى علىّ فى حين أن علياً لم يختص من بين الصحابة، بتخلية ولا طريقة فى لباس، ولا حال؛ وكان أبو بكر وعمر أزهد الناس بعد الرسول ﷺ، وأكثرهم عبادة ، ولم يختص أحد منهم فى الدين بشئ يؤثر عنه فى الخصوص، بل كان الصحابة كلهم أسوة فى الدين والزهد والمجاهدة . والحقيقة فى أهل التصوف أن كلامهم فى المجاهدات والمقامات ، وما يحصل من الأذواق والمواجد، ومحاسبة النفس ، لا مدفع فيه لأحد (وهذا رأى ابن خلدون)، وأذواقهم فيه صحيحة ، والتحقق بها هو عين السعادة، وأما الكلام فى كرامات القوم، وإخبارهم بالمغيّبات، وتصرفهم فى الكائنات، فأمر صحيح أيضاً غير منكر ، وإن مال بعض العلماء إلى إنكارها بمكابرة لا داعى لها ، لأن الوجود شاهد بوقوع الكثير منها ، وقد وقعت للصحابة والسلف مما هو معلوم ومشهور (وهذا قول مرسل ليس للعقل فيه نصيب). وأما الكلام فى الكشف، وإعطاء حقائق العلويات، وترتيب صدور الكائنات، فأكثر كلامهم فيه نوع من المتشابه ، بالنظر إلى أنه وجدانى عندهم ، وفاقد الوجدان عندهم بمعزل عن أذواقهم فيه ، واللغة لا تعطيه دلالة على مرادهم ، لأن اللغة وضعت للمتعارف ، وأكثره من المحسوسات ، وينبغى إذن أن لا نتعرض لكلامهم فى ذلك (أو بالأحرى أن لا نوافقهم عليه)، ونتركه فيما تركناه من المتشابه ، ومَن رزقه الله فَهْم شئ من هذه الكلمات على الوجه الموافق لظاهر الشريعة فهو المحظوظ؛ وأما الألفاظ المُوهِمة ، المعبَّر عنها بالشطحات -

ويؤاخذهم بها أهل الشرع ، فالإنصاف يقتضى أن ننوّه بأنهم أهل غيبة عن الحسّ، وتملكُهُم الواردات ، ولذلك فهم ينطلقون بما لا يقصدونه، وصاحب الغيبة غير مخاطَب ، والمجبور معذور ، فمَن علِمنا فيه فضلاً واقتداءً حملنا ما يقوله على القصد الجميل كما فى حالة أبى يزيد البسطامى ، ومن لم نعلم له فضلاً نؤاخذه بما صدر عنه إذا لم يتبين لنا ما يحملنا على تأويل كلامه ، وأما من تكلم بمثلها وهو حاضر فى حسّه ، ولم يملكه الحال ، فمؤاخذٌ أيضاً ، ولهذا أفتى الفقهاء وأكابر المتصوفة بقتل الحلاّج، لأنه تكلّم فى حضور وهو الكُ لحاله . ولم يُعرَف أن السلف من المتصوفة من أعلام الملة وأهل الرسالة ، كان لهم حرص على كشف الحجاب ، ولا هذا النوع من الإدراك ، وكان همهم الاتّباع والاقتداء ما استطاعوا ، ومَن عَرَض له شئ من ذلك أعرض عنه ولم يحفل به، بل يفرون منه ويرون أنه من العوائق والمحن، وأنه إدراك من إدراكات النفس ، مخلوقٌ حادث، وأن الموجودات لا تنحصر فى مدارك الإنسان ، وعلم الله أوسع، وخلقه أكبر، وشريعته بالهداية أملك، فلا ينطقون بشئ مما يدركون ، بل حظروا الخوض فى ذلك والوقوف عنده ، والتزموا طريقتهم فى عالم الحسّ قبل الكشف ، وأمروا أصحابهم بالتزامها، وهكذا ينبغى أن يكون حال المريد .

وواضح أن ابن خلدون فى قضية التصّوف لا يريد أن يدين أحداً أو يحكم على أحد، وقد توفى بالقاهرة عام ٨٠٨ هـ عن عمر يناهز السادسة والسبعين. (انظر البقاعى).

* * *

١١٦ - الخُلدى (أبو محمد)...

أبو محمد جعفر بن نصير الخُلدى (نحو ٢٥٢ ـ ٣٤٨هـ)، بغدادى المنشأ والمولد والوفاة ، صحب الجنيد والثورى ورويمًا ، وكان مرجعاً فى علوم القوم وكتبهم وحكاياتهم، ونسبته إلى الخُلد محلة ببغداد فى رأى البعض ، وأما هو فيقول كنت يوماً عند الجنيد، وعنده جماعة يسألونه: أنطلب الرزق؟ فأجبتهم: إن علمتم فى أى موضع هو فاطلبوه، وإن علمتم أنه نسيكم (أى الله) فذكّروه. فقالوا: أندخل البيت ونتوكل على الله؟ فقلت: أتجرّبون الله بالتوكل؟ هذا شك! قالوا: فكيف الحيلة؟ قلت ترك الحيلة . وعندئذ قال له الجنيد معجباً به : يا خُلدى (يعنى أنه من أصحاب الخُلد أى الجنة،

أى أن أقواله تدخله الجنة)، من أين لك هذه الأجوبة ؟ ويعلق جعفر : فجرى اسم الخُلدىّ علىّ إلى يومى هذا . ووالله ما سكنت الخُلد (ضاحية الخلد)، ولا سكنه أحد من آبائى ! - يعنى أن كُنيته «الخُلدى» أطلقها عليه الجنيد فصارت علماً عليه.

ويحكى جعفر عن حبّه للكتب وتتبعه لأخبار الصوفية، فيقول: إنه فى ابتداء أمره سمع فى المنام هاتفاً يأمره بأن يمضى إلى موضع ويحفر فيه ، فجاء المكان وحفر، فوجد صندوقاً به دفاتر فيها أسماء مشايخ من أهل الحقائق والأصفياء والأولياء، عددهم ستة آلاف من وقت آدم حتى زمنه(!) مع نعوتهم وصفاتهم ، وكلهم كانوا يدّعون التصوف، فقرأها وحفظ أسرارها ولم يدفعها إلى أحد، وكأنه يعنى أن التصوف ليس بالمستحدث وأنه قديم وفطرى فى الإنسان ، وأن له أسراره التى لا ينبغى البوح بها . والقصة طبعاً مختَلَقَة ورمزية.

وكان جعفر يفاخر بأن عنده مائة ونيفاً وثلاثين كتاباً من كتب الصوفية، ولما سأله أحدهم: فهل عندك كتب الحكيم الترمذى؟ قال لا، ما عددته من الصوفية، وربما ذلك لأن الترمذى ذهب إلى تفضيل الولاية على النبوة . . ولم يقل لنا أحدّ أن للخُلدى نفسه كتباً فى التصوّف.

وهذا العلم الذى كان يميّز جعفراً كصوفى، هو الذى جعل الناس فى زمنه يقولون هذا القول المأثور: **إن عجائب بغداد ثلاثة : إشارات الشِّبلى، ونُكَت المُرتعش، وحكايات جعفر** . وهذه الحكايات التى اشتهر بها، والتى كانت تُروَى عنه، هى التى قال هو نفسه بشأنها: **أخاف أن يوقفنى المشايخ بين يدىّ الله يقولون: لما أخرجتَ أسرارنا إلى الناس ؟!** - يعنى أنه لم يكن له كتب، وإنما كانت له حكايات لا غير عن الصوفية.

ومن طريف ما يرويه عن نفسه: أنه كان فى الصحراء فى إحدى رياضاته وضلّ الطريق وجاع، فرأى كوخاً فيه غلام يصلى، فقال انتظر حتى يأكل فآكل معه، وظل منتظراً للطعام فترة طالت، فقام مرتجلاً ، فلما كان فى بيته يقرأ، إذا بالغلام يدق بابه، فلما فتح له قال: يا جعفر أنت كما يقولون فى الأمثال : جاع فَرّ ، يقصد أنه لم يحتمل جوع البطن فادبر !!

ويقول الخُلدى أيضاً عن نفسه: أنه وقف بعرفة ستاً وخمسين وقفة ، منها إحدى وعشرون على المذهب ، ومعنى «على المذهب» أنه كان يصعد إلى قنطرة الياسرية فينفض كُمّيه على طريقة الصوفية، حتى يُعلَم أنه ليس معه زاد ولا ماء، فيلبى ويسير .

ويقول الخلدى شارحاً تحوّله، من طلب علوم الدنيا إلى طلب علوم الآخرة- أو علوم الصوفية: أنه فى حداثته كان يتلقى على أحد الشيوخ وكتب عنه أوراقاً وخرج، فلقى أصحابه من الصوفية فسألوه عمّا معه، فأراهم الورق، فقالوا له: تدع علم الخِرَق (جمع خرقة)، وتأخذ علم الوَرَق؟ ثم خرموا أوراقه، أى أفسدوها، فدخل كلامهم قلبه، ولم يعد إلى أستاذه وإنما انصرف إلى التصوّف، ومع ذلك فإنه لم يجعل للتصوف المكانة الفضلى على الشريعة، وهو يقول: إن الصوفى إن لم يزن أقواله وأفعاله وأحواله بالكتاب والسنة، ولم يتهم خاطره، فلا تعدّه فى ديوان الرجال. ولا أعرف شيئاً أفضل من العلم بالله وبأحكامه، فإن الأعمال لا تزكو إلا بالعلم، ومن لا علم عنده فليس له عمل، وإنما يُكره من العلم تضييعه ونبذه خلف الظهر. وسألوه: فهل طلب العلم عمل؟ فقال: هو من أكبر الأعمال، فبالعلم أعرف الله وأطيع، وبالعلم استحيا من الله المستحيون، وهو قبل الأعمال. قال الله تعالى: ﴿عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ (العلق ٥)، وقال: ﴿عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ (الرحمن ٣)، ولا يُكره العلم إلا إن كان منقوصاً. وكأننا بجعفر الخُلدى، حيال صورة للصوفى، فيها العلم والقراءة والعمل، بغاية التحقّق بالعبودية لله، والصوفى - القائم تصوّفه على العلم والعمل - هو الناظر إلى الحقّ بالكلية والملتزم لحُرمة الخلق.

* * *

١١٧ - الخوّاص (أبو إسحق)...

أبو إسحق إبراهيم بن أحمد ابن إسماعيل، وكان يبيع الخوص فلقّبوه: الخوّاص، ولد فى سُرَّ مَن رأى، ومات فى جامع الريّ سنة ٢٩١هـ، وقال الخطيب البغدادى: له كتُب مصنفة، وكان من أقران الجنيد والنورى، ويبدو أنه قَرَأ، فله مأثورات من التوراة، فيقول: قرأتُ فى التوراة كذا، أو صحبت يهودياً فقال؛ وأغلب كلامه قصص مرموزة، ومن ذلك هذه المأثورة من التوراة: ويح ابن آدم يُذنب ويستغفرنى فأغفر له، ثم يعود ويستغفرنى فأغفر له، فلا هو يترك الذنب، ولا هو ييأس من رحمتى! - وهذه القصة: تاه أحد أصحابنا أياماً فى البادية إلى أن أشرف على العَمار، وعثر على جارية تغتسل على عين ماء، فلما رأته تجللت بشعرها وقالت إليك عنى يا إنسان، فقال لها وكيف أذهب عنك والكل منى مشغول بك، فقالت على

العين الأخرى جارية أحسن منى، فهل رأيتها؟ فالتفتَ خلفه ولم ير شيئاً، فقالت له: ما أحسن الصدق وأقبح الكذب، تزعم أن الكلّ منك مشغول بنا وأنت تلتفت إلى غيرنا ! ويبدو أن غرامه بالقصص هذا من تأثير قراءاته فى التوراة، فصار نهجه فى التفكير كالنهج اليهودى، ولكن هذه القصص للأسف ليست من التوراة، وإنما هو يستوحى روح المزامير وليس الثوارة نفسها التى هى أسفار موسى الخمسة.

والخوّاص شاعر، وشعره كالحكمة يصوغ فيه تجاربه فى الحياة، أو هو يحكى فيه عن أحواله مع الحقّ تعالى، أو يمدح به الصوفية. يقول:

تعوّدتُ من الضر حتى ألفته
وأحوجنى طول البلاء إلى الصبر
وقطعتُ أيامى من الناس آيساً
لعلمى بصُنع الله من حيث لا أدرى

ويقول:

صبرتُ جهدى إن فى الصبر عزة
وأرضَى بدنيائى وإن هى قلّت

ويقول:

معطلةٌ أجسامهم لا عبونهم
ترى ما عليهم من قضاياه قد يجرى
جوارحهم عن كل لهو وزينة
محجّبة ما أن تمر إلى أمر
فهم أمناء الله فى أرضه
ملوكٌ كرامٌ فى البرارى وفى البحر
عدولٌ ثقاتٌ فى جميع صفاتهم
أرقُّ عباد الله مع صحة السرّ

ويقول:

عليلٌ ليس يبرئه الدواء
طويل الضر يعنيه الشقاء
سرائره بواد ليس تبدو
خفيات إذا برح الخفاء

وطريقة الخوّاص هى التوكل، وله فيه رياضات وسياحات؛ والتوكل فيه الثقة بالله، والمتوكلون الواثقون هم الصوفية، وهم العدول الثقات فى جميع صفاتهم؛ والرزق ليس فيه توكل وإنما فيه صبر حتى يأتى الله به فى وقته الذى وعد، وإنما يقوىَ صبر العبد على قدر معرفته بما صبر له أو لمن صبر، والصبر يُنال بالمعرفة، والصابر يحمل مؤونة الصبر حتى يستحق ثواب الصابرين، لأن الله تعالى جعل الجزاء بعد الصبر.

والتوكل فى مذهب الخوّاص يستلزم من العبد أن يعمل ويثق فى الله؛ والمريد

بالحركة - أي بالعمل - يتطهّر؛ ومعنى التوكل هو التوجه إلى الله، ومن يتوجه إليه وهموم الأرزاق فى قلبه فإنه لا يفلح . والتوكل على ثلاث درجات: الصبر والرضا والمحبة، لأنه إذا توكل وجب عليه أن يصبر على توكله بتوكله لمن توكل عليه، وإذا صبر وجب عليه أن يرضى بجميع ما حكَم عليه؛ وإذا رضى وجب عليه أن يكون محباً لكل ما فَعَل به موافقاً له.

ولم يكن الخوّاص يحب أن يُعرف عنه أنه من الصالحين، على طريقة الملامتية، ويحكى أنه دخل إحدى البلاد وخاف أن يعظّموه بسبب تقواه وورعه فدخل حمّاماً ووجد لباس أحد أبناء الملوك خلعه واحتفظ به عند الحمّامى، فغافل الخواص الحمامى عنه، ولبسه ومن فوقه ثيابه، وخرج يمشى رويداً ليلحقوا به وينسبوه إلى اللصوصية، فتزول عنه شهرة الصلاح، ولحقوه بالفعل وضربوه وأطلقوا عليه اسم لص الحمّام ، فقال لنفسه ههنا طاب المقام! واستقر فى البلد.

* * *

١١٨ - الخوّاص (علىّ)...

علىّ الخوّاص، أستاذ الإمام الشعرانى الذى نقل عنه فى كتابيه «الجواهر والدُّرر»؛ و«الطبقات»، وكانت حرفته ضَفْر الخوص، وهو مصرى من البرلس، وأُمّى لا يقرأ ولا يكتب، ومع ذلك تكلّم فى الطريقة، وله مذهب وتفسيرات وتأويلات للقرآن والسُّنّة حيّرت العلماء.

والخوّاص يحب للمريد أن تكون له حرفة، ولم يكن يقبل ضمن تلاميذه إلا من كان من أصحاب الحِرَف، ويقول: إن السوقة وأهل الصنائع والحِرف أعظم درجة عند الله، وأنفع من المجاذيب، لقيامهم فى الأسباب».

والعالِم عند الخوّاص: هو الذى علمه مستفاد منقول عن آخرين، فهو حاكٍ لعلم غيره، وله أجر الذى يحمل العلم فيؤديه؛ وأما الصوفى المتحقّق: فهو المُسلك، أى من أهل التسليك، وعلمه خَضرى - نسبةً إلى الخَضِر أو لَدُنّىّ - نسبةً إلى الآية: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ (الكهف ٦٥)، أى علّمناه علماً يكفى الناس كلهم فى سائر ما يطلبونه. ولو أراد العالِم أن يعلم مرتبته فى العلم، فليردّ كل قول حفظه إلى قائله، وسيرى أنه لن يتبقّى مما يعلمه إلا النزر اليسير، الذى لا يمكن أن يصنع منه عالماً.

وبداية التصوف: أن يعلم المبتدئ كل الشريعة بمجملها ومفصلها، وخاصها

وعامها، وناسخها ومنسوخها، وليس بالرجل فى اعتبار أهل الطريق من يجهل حكماً واحداً.

ويشرح الخوّاص قول الإمام أحمد ابن حنبل: أن التقرُّب إلى الله بتلاوة كلامه بفهم وبغير فهم: أن الفهم لعلماء الشريعة، فإن وسيلتهم للإحاطة بمضمون القرآن هو التفكير، وأما علماء الحقيقة أو العلماء من الصوفية، فطريقتهم للإحاطة بذلك المضمون هو الكشف والتعريف الإلهى، وذلك لا يحتاج إلى فهم. وأنكر الخواص على أهل المعرفة أن يخوضوا فى التدليل على وجود الله والبرهنة على وحدانيته لهذا السبب، وقال إن الحمار يكون حينئذ أعرف منهم بالله، فالإيمان بالله شئ لا يُتحدَّث عنه، لأنه وقر فى الصدر ولا يمكن التعبير عنه، وما ورد فى السُّنة من ألفاظ الإيمان يرجع إلى التصديق والإذعان اللذين يفتحان على العلم بالمعلوم المستقر فى القلب بالفطرة، ولذلك لم يسأل أحد رسول الله ﷺ عن حقيقة هذه الألفاظ، ولا ناقشوا أصحابها. ومن يصحّ توحيده ينتفى عنه الرياء والإعجاب وسائر الدعاوىَ المُضلّة، لأنه يشهد بأن كل الصفات والأفعال ليست له وإنما هى لله وحده، وكمال الإسلام والإيمان: فى التسليم والرضا، ومناط ذلك القلب، فإذا صلح القلب كان بيت الله ومهبط الوحى والأنوار، فالبيت لا يقبل إلا مُشاكلَه، فكما أن الأحرف وعاء المعانى، فكذلك القلب وعاء للحق والشرع والنور، وكما أن الحرف إذا تغيّرت بعض صورته، أو تغيرت نُقَطُه، فسد المعنى، فكذلك القلب إذا تغير بعض صورته وصفته فسد ما فيه؛ وإصلاح القلب يكون بإصلاح الطُّعْمة، وإصلاح الطعمة يكون بالكسب فى الكون مع التوكل على الله، والتوكل حقيقةٌ هو المراقبة لله. ومذهب الخواص الذى يعلنه هو ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ (الإسراء ٢٣).

ومع ذلك فإن الشعرانى فى الطبقات ينقل عن الخواص قوله: إن نوحاً عليه السلام أبقى من السفينة لوحاً على اسم عليّ بن أبى طالب يُرفع إلى السماء، فلم يزل - يقصد اللوح - محفوظاً فى صيانة القُدرة حتى رُفع عليّ بن أبى طالب!! وهو كلام فيه غلو وغير معقول، فالمعروف أن عليا قُتل، فلماذا يُرفع ؟ ومن قُتل إذن ؟ ومن كُفّن ودُفن ؟ وما علاقة تخرّصات كهذه بالتصوف ؟ وكيف نأخذ عن الخوّاص، إن كان هذا هو اعتقاده الخارج عن الإسلام ؟!

* * *

١١٩ - الخولانى (أبو مسلم)...

عبد الله بن ثُوَب الخَوْلانى، العابد الزاهد، توفى سنة ٦٢ هـ (٦٨٢م)، ونَعَتَهُ الذهبى فى «تذكرة الحُفّاظ»، فقال: هو «رَيحانة الشام»، وهذه هى شهرته، ومن أجل ذلك أوردنا عنه. ونذكر أن أحمد ابن أبى الحَوَارى كان يلقّب كذلك بريحانة الشام.

والخولانى أصله من اليمن، وأدرك الجاهلية، وأسلم قبل وفاة النبىّ ﷺ ولم يره، فقدم المدينة فى خلافة أبى بكر، وهاجر إلى الشام، وكانت وفاته غالباً فى دمشق، وقبره يزار بداريا.

* * *

١٢٠ - الخيام (حجة الحق)...

عمر بن إبراهيم الخَيّام، الشاعر، الإمام، الحكيم، حُجّة الحقّ، الفيلسوف، العالم، الصوفى، الزاهد، صاحب الرباعيات المشهورة باسمه «رباعيات الخيام»، كتب بالفارسية وإن كانت أصوله عربية، وله «الرسالات»، ومولده ووفاته بنيسابور (نحو ١٠٤٨-١١٢٢م)، وتصوّفُه هو التصوّف الفلسفى، واعتقاده: أن الاجتماع الإنسانى فى حاجة إلى الوجود الإلهى، والشرائع الأرضية ينبغى أن تكون هى الشرائع الإلهية، لأنها العادلة والمتسامية والمنزّهة عن الغرض، والقائمة على الحاجة العملية إلى افتراض وجود إله. والإنسان فى عُرفه -أى عُرف الخيام- موجود تاريخى، ولم يكن تقدّمه الاجتماعى إلا لأنه يؤمن بالله، والإيمان بالله هو القامع للشهوات والرادع للأهواء، ولولا الإيمان بأن للعالم صانعاً لاعتقد الإنسان أنه حرّ يفعل ما يريد، ويحوز ما يشاء. ومن دوافع الاجتماع الإنسانى طلب الثواب، وتجنّب العقاب فى الدنيا والآخرة. والاعتقاد فى الله وفى البعث والحساب، كان وازعاً قوياً يمنع من العدوان، ويقوّى إحساس الإنسان بالأمن وبالحق، وبدون هذا الإحساس لا يمكن أن تقرّ هيئة للاجتماع الإنسانى، ولا يستقر نظام المعاملات، ولا تصفو العلاقات بين الناس والشعوب. ولو كان قلب الإنسان خالياً من الإيمان بالله لوقر فى عقل آحاد الناس أن العلّة فى أعمالهم هى نفوسهم، فلا يؤمنون بثواب ولا عقاب ولا حساب. ولن يحمل الإنسان على التعاون والتراحم والبذل والإيثار والعطاء، إلا الإيمان بوجود إله قادر يَرضىَ فيثيب، ويغضب فيعاقب، وأنه تُرجى رحمته وعفوه ومغفرته. يقول الخيام:

آه ربّى ! رُحماك ربّى!

بين ميل ووازع حارَ لُبّي!
أيَّ داعٍ أعصي وأياً أُلَبّي!

* * *

ويقول:

ولأهل اليقين والإيمان
ولأهل الشكوك في الأديان
ولأهل الدنيا وأهل الجنان
سيقول الصوت الرهيب ضلالاً
قد ضللتم وكنتم جُهّالاً
لا هنا أنتم كنتم ثواباً
لا ولن تكسبوا هناك الثواب

والخيام له تجلّياته. يقول: سبحان الذي جلّ جلاله، وتقدّست أسماؤه، أعطى كل شيء خلقه ثم هدى، وأحصى كل شيء عدداً. تعالى الله عمّا يقول الظالمون الملحدون علوّاً كبيراً، ولا حول ولا قوة إلاّ به.

ويطرح الخيام تصوّفه كالوجوديين من خلال الشعر، ومدرجُه الروحي يبدأ لذلك بالمدرج الجمالي. يقول:

تخفى عن الناس سنا طلعتك
وكل ما في الكون من صنعتك
فأنت مجلاه وأنت الذي
ترى بديع الصُنع في آيتك

ويقول:

القلب قد أضناه عشق الجمال
والصدر قد ضاق بما يقال

وفي المدرج الأخلاقي الإنساني من مدارج معراج الخيام يتوجه بإحساسه الجمالي لا إلى الأشياء وإنما الأفعال، يقول:

لا تنظرن إلى الفتى وفنونه
وانظر لحفظ عهوده ووفائه
فإذا رأيتَ المرء قام بعهده
فاحسبه فاق الكل في عليائه

والمدرج الثالث من مدارجه هو الأخلاق الإلهية، فالأخلاق الوصفية نسبية وهو يريدها ثابتة، والأخلاق الإلهية تلزم الجميع لأن مصدرها المتعالي. والمتصوفة أعلى الناس أخلاقاً لأنهم ربّانيون، والفلاسفة منهم هم أهل البصيرة، ولذلك كانوا أصحاب تحيّر. يقول:

يارب! في فهمك حار البشر
وقصّر العاجز والمقتدر
تبعث نجواك وتبدو لهم
وهم بلا سمع بمى أو بصر
بيني وبين النفس حربٌ سجال
وأنت يارب شديد المحال

ويقول:

أوجدتني يارب من عدم ولي
أسديتَ فضلاً ما له مقدار
عذري بأني عند حُكمك عاجز
مادام يوماً من ثراي غُبار

ويقول:

إن تفصل القطرة من بحرها
ففي مداه منتهى أمرها
تقاربتْ باربّ ما بيننا
مسافةُ البُعد على قدرها
وإنما الدنيا خيالٌ يزول
وأمرُنا فيها حديثٌ يطول
مشرقها بحرٌ بعيد المدى
وفي مداه سيكون الأفول

ويقول:

يا قلبُ إنْ ألقيتَ ثوبَ العناء
غدوتَ روحاً طاهراً في السماء
مقامك العرش ترى حطّة
أنك في الأرض أطلتَ البقاء

ويقول:

كيف يحوم القلب يوماً على
غيرك أو يبقَى هوى غير هواك
إن دموعي لم تدع لحظة
عيني ترنو لحبيب سواك

ويقول:

قد هجرتُ الخَلْقَ جميعاً أرتجي
منك وصلاً فهو أقصى مُنيتي

وإننا لنجد شبهاً بين الخيام والمعرّي، فكلاهما له اجتهادات إشراقية، وتناول الزهد والدنيا والدين والأهل والناس والمجتمع ومسائل الفلسفة والميتافيزيقا، وربما كانت هناك ملابسات في حياتيهما وعصريهما تقضي بالمشابهة أيضاً في الثقافة والتربية. والمعرى يجيء قبل الخيام، وكانت ولادته سنة ٣٦٢ هـ، ومرض بالجدري فذهب بصره سنة ٣٦٨هـ، ويبلغ التأثير والتأثر بين الشاعرين إلى حدّ أن بعض الرباعيات عند الخيام تأتي كترجمة للمعرى، كهذا البيت الذى يقول فيه المعرى:

خطوبٌ نالت لا يزال معذباً
أخوها وحلّت كفّ وساعد

ومثيله في الوزن والقافية والكلمات عند الخيام:

إذا قنعت نفسي بميسور بُلغة
تُحلّها بالكدّ كفيّ وساعدي

وترجمات الخيام إلى العربية كثيرة منها سبع تراجم عامية، وثلاث عشرة ترجمة نثرية، وثنتان وثلاثون شعرية، وتتفاوت في قدرتها على توصيل المعانى. وأشهر الترجمات عندنا ترجمة رامى، وقد أعجبه من شعر الخيام نغمة التصوّف فيه، واختار رامى لترجمته بحر السريع، ويبدو أنه نفسه كان متصوّفاً. (انظر كتاب: عمر الخيام الإمام والحكيم، حُجّة الحق، الفيلسوف والعالم، شاعر الرباعيات، للدكتور عبد المنعم الحفنى).

* * *



١٢١ - الدارانى (القطب)...

أبو سليمان عبد الرحمن بن أحمد ابن عطية العبسى، يُنسب إلى داران أو داريا من قرى دمشق، ووفاته سنة ٢١٥ هـ، وكان فى زمنه وتداً وقطباً، وابنه سليمان من جِلّة القوم، وله لسان فى التصوف، وأخوه داود الدارانى زاهد ورع، وكلامه ككلام أبى سليمان فى الرياضة والمعاملة. ومن تلاميذه أحمد بن أبى الحَوارى «رَيْحَانة الشام». ومن أصحابه القاسم بن عثمان الجوعى، صاحب فلسفة التصوّف الجوعى.

وكان الدارانى بكّاء، يقول: لكل شئ علم، وعلم الخذلان ترك البكاء». وقد سأله تلميذه أحمد الحوارى عن بكائه مرة، فقال: ولِمَ لا أبكى، وإذا جن الليل ونامت العيون وخلا كل حبيب بحبيبه، وافترش أهل المحبة أقدامهم، وجرت دموعهم على خدودهم، وتقطّرت فى محاريبهم، وأشرف الجليل سبحانه وتعالى فنادى: يا جبريل، بعينى من تلذذ بكلامى واستراح إلى ذكرى، وإنى لطّلع عليهم فى خلواتهم، أسمع أنينهم وأرى بكاءهم، فَلِمَ لا تنادى فيهم يا جبريل - ما هذا البكاء؟ هل رأيتم حبيباً يعذّب أحباءه؟ أم كيف يجمل بى أن آخذ قوماً إذا جنّهم الليل تملقوا لى؟ فبى حلفت أنهم إذا وردوا علىّ يوم القيامة، لأكشفن لهم عن وجهى الكريم حتى ينظروا إلىّ وأنظر إليهم!

وأبو سليمان يرى أنه لولا رحمة الله ما عبده العابدون وأحبه المحبون. يقول: قرأت فى بعض الكتب، يقول الله عزّ وجلّ: بعينى ما يتحمل المتحمّلون من أجلى، ويكابد المكابدون فى طلب مرضاتى، فكيف بهم وقد صاروا فى جوارى وتبجحوا فى رياض خُلدى، فهنالك فليبشر المصغون إلى أعمالهم بالنظر العجيب من الحبيب القريب، ترون أن أضيع لهم عملاً وأنا أجود على المولّين عنى، فكيف بالمقبلين علىّ؟ ما غضبتُ على أحد كغضبى على من أذنب ذنباً فاستعظمه فى جنب عفوى، فلوكنتُ معجلاً أحداً، وكانت العجلة من شأنى، لعاجلت القانطين من رحمتى، فأنا الديّان الذى لا تحلّ معصيتى ولا أطاع إلا بفضل رحمتى، ولو لم أشكر عبادى إلا على خوفهم من المقام بين يدىّ لشكرتهم على ذلك، وجعلت ثوابهم الأمن مما خافوا، فكيف بعبادى لو قد رفعت قصوراً نحار لرؤيتها الأبصار ، فيقولون ربّنا

لمن هذه القصور؟ فأقول: لمن أذنب ذنباً ولم يستعظمه في جنب عفوي، ألا وإني مكافئ على المدح فامدحوني!

وحبُّه لله تعالى يدفعه إلى أن يؤثره على كل العلائق. يقول: ذهب المطيعون لله بلذيذ العيش في الدنيا والآخرة. يقول الله تعالى لهم يوم القيامة: رضيتم بي بدلاً دون خلقي، وآثرتموني على شهواتكم الدنيا، فعندي اليوم فباشروها، فلكم اليوم عندي تحياتي وإكرامي، فبي فافرحوا، وبقربي فتنعّموا، فوعزتي وجلالي ما خلقتُ الجنّات إلا من أجلكم.

ومن كانت تلك محبته لله تعالى لابد أن يقول: كل ما شغلك عن الله عزّ وجلّ من أهلٍ ومالٍ وولد، فهو عليك شؤم". وتحريضه لمريديه على عدم الاشتغال بما سوى الله هو ما يعجب الجنيد فيه، وقد تأثر بأفكاره فكان ينقلها عنه، وخاصة ما يتعلق منها بالزهد، لأنه زُهد - لا تقليلاً من شأن الدنيا وطيباتها، ولكن لأنها تصرف عن الاشتغال بالله.

ويحكى تلميذه أحمد أنه خرج معه فمرّا على زرع، وإذا طائران يلتقطان الحَبّ، فلما شبعا أراد الذكر الأنثى، فقال الدارانى: يا أحمد أنظر فيما كان لَمّا شبعا، دعته بطنه إلى ما ترى!

ويروى الدارانى قصة قرأها عن المسيح وابن خالته النبيّ يحيى عليهما السلام. وكان الدارانى كثير الاطلاع على الكتب المنزّلة - قال إنهما كانا يتماشيان فصدم يحيى امرأة، فقال له عيسى يا ابن خالة، لقد أصبت اليوم خطيئة ما أظن أن يُغفر لك أبداً. قال: وما هي يا ابن خالة؟ قال: امرأة صدمتها! قال: والله ما شعرتُ بها! قال سبحان الله! بدنك معي فأين روحك؟ قال: معلقٌ بالعرش، ولو أن قلبي اطمأن إلى جبريل لظننت أني ماعرفت الله طرفة عين!

والدارانى لا يعجبه أن ينصرف العبد بالكلية حتى ينسى نفسه، وينسى الدنيا التى يعيش فيها، وعدم الاشتغال بالدنيا لا يمكن أن يكون إلى الحدّ الذى يركن فيه الصوفى إلى الناس يطعمونه، وينتقد الصوفية الذين هذا دأبهم، ويقول لتلميذه مقالة لقمان الحكيم لولده: يا بنى لا تدخل فى الدنيا دخولاً يضر بآخرتك، ولا تتركها تركاً تكون كَلاً على الناس. ويستطرد قائلاً: ليست العبادة عندنا أن تَصُفّ قدميك وغيرك يفتّ لك، ولكن أبدأ برغيفيك فاحرزهما ثم تعبّد! ثم يقول: ولا خير فى قلب يتوقع قرع الباب فى انتظار إنسان يجئ يعطيه شيئاً!

وزُهد الدارانى ليس كالزهد الصوفى

الموغل فى تعذيب الجسد حتى ليصيبه منه الضرر، فيمنعه عن العبادة، أو يمنعه من أداء واجباته الزوجية، ولكنه الزهد المتوسط. يقول: فؤادى يلحسنى من الجوع، ولولا أننى أخاف أن أضعف عن أداء الفرائض ما أكلت شيئاً!

وانتقاد الدارانى لصوفية زمنه يجعله يقول: ما رأيت صوفياً فيه خير إلا واحداً: عبد الله بن مرزوق. ويقول: يا أحمد ما أعجب من أنجب إلا بالقبول من المعلمين، وأنا أقول لك لا تفتح أصابعك فى القصعة يا أحمد. عهدت ناساً يعدون الجوع فيهم غنيمة، كما تعد أنت وأصحابك الصوفية الشبع غنيمة! يا أحمد! كيف تنير قلوبهم وكل شئ يجدونه من الشبهات يأكلونه؟ إنى لأكل الشبهة فأجد ناراً على قلبى من الجمعة إلى الجمعة!

والتَّوسُّط هو فلسفة وطريق الدارانى. يقول: ليت قلبى فى القلوب مثل ثوبى فى الثياب! - وكانت ثيابه وسطى.

وما كان يحب الخوض فى كلام الصوفية وأحوالهم ومقاماتهم، ولمّا توفى رآه أصحابه فى المنام فسألوه: ما فعل الله بك ؟ قال غفر لى، وما كان شئ أضر علىّ من إشارات القوم! - يقصد التفلسف فى التصوّف والخوض فى كلام الصوفية!

* * *

١٢٢ - ابن داود (داعية المعروف)...

عبد الرحمن بن داود، الحنبلى الدمشقى الصالحى، مولده ووفاته بدمشق (٧٨٢ - ٨٥٦ هـ)، وكان من بيت دين، ونشأ نشأة صالحة، وانكبّ على العلم ينهل منه، وتوجه إلى التصوّف ينشد فيه الخلاص لنفسه كسبيل شريف إلى الله تعالى، ومن قراءاته وتجاربه كتب مصنّفاً فيه، وله الكتاب القيّم «الكنز الأكبر فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر»، اعتبر فيه ذلك الجانب من الجوانب التى يتغاضى الكثيرون عنه، مع أنه ركن الدين الركين، فبدون الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر لن تستقيم الدنيا ونخسر الآخرة، والسياسة الحكيمة أساسها الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، والتصوّف يعنى التفرّغ لذلك من منطلق الإيمان الخالص بوحدانية الله، فالله هو المطلق، وكل ما عدا الله فهو الجزئى والنسبى؛ وألّف ابن داود كتابه «فتح الأغلاق فى الحثّ على مكارم الأخلاق» ليكون نبراس الصوفى الداعى إلى المعروف. وتصوّف ابن داود كله من نوع التصوف السُّنّى الإيجابى.

* * *

١٢٣ - داود الطائي...

أبو سليمان داود بن نصير الطائي، من متصوّفة الكوفة، من الرعيل الأول، وكان ميلاده بها، وفيها توفى سنة ١٦٥هـ (٤٨١م)، وكان قد فقد بصره فى منتصف عمره، فألقى بكُتبه فى الفرات، وكان الأحرى به أن يعطيها لآخرين يفيدون بها،ومن الغريب أن نفس الحكاية رويت عن أحمد بن أبى الحَوارى، إلا أن أحمد أغرق كتبه فى البحر زهداً فيها.

وكان داود قد ورث عن أمه داراً من عدة حجرات ومبلغ أربعمائة درهم، فسكن الدار وظل ينفق من المبلغ مدة ثلاثين سنة إلى أن نفد، إلا ديناراً ظل يستبقيه لِكَفَنه! وعاش بعد ذلك على بيع خشب سقف الدار، يخلعه لوحاً لوحاً، وحجرة بعد حجرة، حتى صارت الدار عبارة عن خرابة بلا أبواب ولا شبابيك ولا أرضية ولا أثاث! وكان ينام يتوسط التراب، ويضع لبنة تحت رأسه، وليس فى بيته بُورى ولا قليل ولا كثير، ولا يُسرج سراجاً فى الليل، وطعامه عبارة عن رغيف خبز من شعير، يتقوّت به ليومه كله، وقد يبس الرغيف فيغمسه فى الماء، وحتى الملح ما كان يذوقه وكان ترفاً بالنسبة له، وفى الحجرة دنّان، واحد يضع فيه الخبز والآخر الماء، وما كان يستطيع السير من شدة النحول، وقد يبعث إليه بعض أصحابه بقصعة الطعام أو بعض التمر، فيأتيه السائل فيعطيها له.

ولم يتزوج الطائى، ونظريته فى الزواج هى نظرية الصوفية بعامة، وظل أربعة وستين سنة أعزب، حتى قيل له: كيف صبرت عن النساء؟ قال: «قاسيت شهوتهن عند إدراكى - أى فى المراهقة عند بلوغه الحلم، وظلت تلك المعاناة سَنَة، ثم ذهبت شهوتهن عن قلبى». وقال: كيف بقلب ضعيف لا يقوم بهمّه يجتمع عليه همّان!

وقضية الطائى إذن قضية الزهادة، وهى أولى مراحل التصوف، والطائى همزة وصل بين الزهد والتصوف، وكان أول زاهد يكون له مريدون ويقدّمونه شيخاً لهم ويتلقون عليه، وهذه هى أهميته.

وعندما كان الطائى لديه المال طلب منه أصحابه أن يتّجروا له بجزء منه، فخشى على نفسه أن تغلبه التجارة عليه فامتنع، وكان يقول طلّقتُ الدنيا وشهواتها فما أريد العودة إليها! وظل يلتمس ما يشقيه وليس ما يريحه، ويقول: هو الذى يريحنى من الدنيا وأهلها - يقصد الله. وقالوا عنه: كان الطائى من العمّال لله بالطاعة، والمكدودين فى العبادة. يقول:

إنى لأستحى من ربّى أن أنقل قدمى إلى ما فيه راحة بدنى! وكان الفُضَيْل ابن عِياض يزوره، فطلب منه أن يقلل من زيارته لأنه قد اعتزل الناس!!

والطائى تعلّم الفقه على أبى حنيفة فى بغداد، ولما أتقنه قال له أبو حنيفة: قد أحكمنا الأداة، فأى شىء بقى؟ وأجاب الطائى: نعم، أى شىء بقى؟ قال أبو حنيفة: بقى العمل. وأساء الطائى فَهْم أبى حنيفة، فأبو حنيفة كان يشتغل ويعول نفسه من عمله، والطائى فهم أن العمل هو أن ينصرف إلى العبادة!! وهو معنى ليس عند الصوفية غالباً، وخاصةً قديماً، فالصوفية يعملون ويتزوجون، ويبدعون ويجاهدون، وأما ما كان عليه الطائى فهو الزهد فى كل شىء، والانقطاع عن كافة العلائق، وحتى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر كان يخافهما على المتزهّد، ويُسمُّون ذلك أحياناً «التصوّف السلبى». ولابد أن تفعل العزلة والوحدة بأمثال الطائى إلى مثل ما انتهت عليه حياته، فقد أصابه الانقباض، ولزم الصمت، وترك الكلام.

والفارق بين المصاب بالاكتئاب والمصاب بالانقباض، أن الاكتئاب مرض، وصاحبه لا يفكر فى شىء بعينه، ويعجز عن التفكير بالمعنى المنهجى للتفكير، وأما الانقباض كما عند الطائى، فإنه كان دافعاً له إلى التفكّر، وبالتفكّر مَلَك نفسه وأصبح حراً، وأمثال الطائى طلاّب حرية ضمير، وفرارهم من الناس لأنهم يهددون حرياتهم، والطائى كان يفرّ من الناس فرار الخائف من السبع، لأنه كان يخاف الله، ولكنه الخوف من انصراف الحبيب عن مُحبّه، ومقام الطائى فى الزهد أو التصوّف هو مقام الخوف، يقول: «إن للخوف تحركات تُعرف من الخائفين، ومقامات يعرفها المحبون، وإزعاجات يفوز بها المشتاقون. وأين أولئك؟ أولئك هم الفائزون.

وطريقته تقوم على الإقلال من معرفة الناس إلا الجماعة، والرضا باليسير من الدنيا مع سلامة الدين. وسألوه فى وحدته: ألا تستوحش؟ قال: حالت وحشة القبر بينى وبين وحشة الدنيا. ويقول: توحّشوا من الناس كما تتوحّش السباع: لازمتنا الذنوب حتى صرنا نستحى من مجالسة الناس». ووحدته التى يؤثرها ليست هى الوحدة الجمعية، ولا الوحدة النفسية، وإنما الوحدة الروحية، وهذه أساسها اليقين، والزاهد المتوحّد يكتفى بأفكاره وأصحابه عن الناس، ومن أقواله: من علامة المريدين الزاهدين فى الدنيا

أنهم يتركون كل جليس لايريد ما يريدون».

وكان من أصحاب الطائى ـ الصوفى الكبير ابن السمّاك، فكان يقول فى الطائى: أوصانى أخى داود (الطائى) بوصية، قال: انظر أن لايراك الله حيث نهاك، وأن لا يفقدك حيث أمرك، واستح فى قُربه منك وقدرته عليك».

وكان جيران الطائى يسمعونه فى الليل يتحنن ولا يهدأ، وكان يقول: اللهم همّك عطّل علىّ الهموم، وحال بينى وبين السهاد، وشوقى إلى النظر إليك فنى منى اللذات والشهوات، فأنا فى سجنك أيها الكريم مطلوب». وربما يترنّم فى السحر بشىء من القرآن.

وللطائى تفسير لحالته، وله فلسفة فى اليأس عند الزهّاد، ومن أقواله: اليأس سبيل أعمالنا هذه، ولكن القلوب تحنّ إلى الرجاء». واليأس فيه التشاؤم، والطائى من فلسفته التشاؤم، وإن حنّ دوماً إلى الرجاء. وهو لذلك من المحزونين، ويردّ للحزن كل أقواله وأفعاله، يقول: «إن للحزن لحركات». وكان من شدّة حزنه لايشعر بما يدور حوله، فكان التفكير يستغرقه ويذهله عما حوله، حتى أنه فى إحدى المرات تأمل السماء من فوق سطح بيته، وكان يمشى، وظل كذلك حتى وقع فى صحن دار جاره؛ ويروى أبو نعيم أنه رآه وثملة تدور فى وجهه عَرْضاً وطولاً لا يفطن بها من الهمّ. وهَمُّه هو «الهَمّ الوجودى»، وهو يسبق فلاسفة الوجود بنحو سبعمائه سنة !! وكان أكثر مريديه رواية عنه صعب بن المقدام، وإسماعيل ابن علية، وزافر بن سليمان. ومن أقوال محمد بن بشر فيه، قال: «قدم علينا داود الطائى من السواد، فكنا نضحك منه، فما مات حتى سادنا». وقال عنه ابن المبارك: «وهل الأمر إلا ما كان عليه داود الطائى؟» ـ يعنى هو الأستاذ فى الزهد. وقال فيه سفيان بن عُيينة: «أبْصَر الطائى أمره» ـ يعنى اهتدى إلى الطريق. وأمّا داود فلم يكن يرى رأيهم، وقال: «سبقنى العابدون وقُطع بى، والهفاه!». وكان يقول عن أصحابه أنهم: «أهل تقوى»، ولم يسمهم زهّاداً ولا صوفية، وكان ينصحهم يقول: «اصحبوا أهل التقوى، فإنهم أيسر أهل الدنيا مؤنة عليكم، وأكثرهم لكم معونة»!ـ واسم أهل التقوى ـ هو ما أحبّ أن أسمّى به الصوفية، فإن التصوف اسم ليس من المصطلح النبوى، ولم يأتِ فى القرآن. وكان الطائى كثير الخصام لنفسه فاعتلّ، وكان سبب علّته أنه مرّ بآية فيها ذكر النار، فكررها مراراً فى ليلته، فأصبح

مريضاً، واشتكى أياماً، ولمّا حضره الموت اشتد نزعه وعلت حشرجته، وكانت القُرح على لسانه، ولمّا غدوا عليه لم يبرحوا حتى مات، وسار الناس خلف جنازته فكأنه يوم الخروج، وحتى النساء خرجن خلفه. وأبّنه ابن السّماك، فقال: «ياداود، سجنتَ نفسك قبل أن تُسجن، وحاسبتَ نفسك قبل أن تُحاسب، فاليوم ترى ثواب ما كنتَ ترجو، وله كنت تَنصَب وتعمل»!. وأما تلميذه أبو بكر ابن عيّاش فقال فيه: «اللّهم لا تكل داود إلى عمله!» وهذا حقّ، وأعجبتْ كلمته الناس، فإن داود لم يعمل ما يحبه منه الناس، وما يحبه منه ربّه، وإنما عمل ما أحبّه هو! فهناك فَرْق، فافْهَم يا أخي!

* * *

١٢٤ - الداوُودي (شارح البوصيري)...

الحاج الداوُودي التلمساني، أبو محمد، من أهل تلمسان، توفي سنة ١٢٧١ هـ (١٨٥٤م) بفاس، وكان قد ولي القضاء بتلمسان، ولكنه تصوّف وهاجر إلى فاس، حيث مراكز التصوف الكبرى، وفيها توفي، واشتهر بشرحه لهمزية البوصيري، وشرح البردة، وله كذلك حاشية على السعد، وشرحٌ للبخاري لم يكمله. وشرحُه للبردة فيه الكثير من علم التصوف.

* * *

١٢٥ - ابن الدبّاغ (معلم العشق الإلهي)...

هو أبو زيد عبد الرحمن بن محمد، الأنصاري، القيروانى (٦٠٥ - ٦٩٩هـ) المعروف بابن الدبّاغ، صاحب كتاب «مشارق أنوار القلوب ومفاتح أسرار الغيوب»، وهو من الكتب المعدودة التي تبحث في المحبة بمعناها الصوفي، وتتطرق إلى أقسامها ومعانيها، وعبارات الناس فيها، وأصناف السالكين من المحبين، وما يتصل بها من فضائل. والدبّاغ فقيه ومؤرخ، وله التصانيف في أهل القيروان وتاريخهم وملوك الإسلام، وكان شاعراً له نظم جيد، وعنده أن المحبة تنتظم كل المقامات والأحوال، ففيها الشوق والصبر، والخوف والرجاء، والوصال والقُرب والبعد، والزهد، والأُنس، والبسط والقبض، والمراقبة والهيبة، والفناء والبقاء، والمشاهدة، وسائر الأحوال؛ وأول مقامات المحبين الألفة، ثم الخُلّة، فالهوى، فالشغف، فالوجد، فالعشق. وأدنى مراتب المحبة: عندما يكون موضوعها الجسم الجميل، والصورة أو الهيئة البديعة؛ وأعلى المراتب: هي مرتبة محبة الحقّ تعالى.

ومن شروط السالك: أنه لا يزال يترقّى فى مراتب الكمال للمحبة. وأقصى الدرجات فيها هى العشق، والعشق شدّة الشوق إلى الاتحاد، ومحبة الله تعالى ومعرفته لا يوصلان إليها بشئ سوى الله، فهو العارف والمعروف، والمحب والمحبوب، وكل وجود هو وجوده، وكل شهود هو شهوده. ومحبة الله تعالى وقربه هما السعادة العظمى، ومحبة ما سواه بقصد الوصول بها إليه، من العبادات. يقول الرسول ﷺ: «اللهم ارزقنى حبّك، وحبّ من يحبّك، وحبّ من يقرّبنى حبّه إلى حبّك»، فقد سأل عليه السلام محبة الأسباب الموصلة إلى محبة ربّه تعالى، ليس لذاتها ولكن لأنها آلات موصلة إلى الحضرة الإلهية. ويقول عليه الصلاة السلام: «من عرف نفسه عرف ربّه»، ولا يعرف حقيقة نفسه إلا من يزكّيها بالرياضة القلبية التامة لتصفو وترقّ، فحينئذ تبصر ذاتها بشدّة صفائها، فإذا صارت كذلك تجلّى لها نور الحقّ المشرق، فتشاهد فيه نفسها وجمال الأكوان، وتتعلق بخالق الأكوان وبديعها وفاطر كل هذا الجمال.

والعارفون ينظرون إلى جمال الصنعة الإلهية فيتوصلون إلى صورة الجمال المجرّد، ثم منه إلى عالم الجمال الكلى، ثم إلى جمال الواهب للكل، الذى كل جمال فى العالم مستفاد منه، بالغيبة عن أنفسهم فى مشاهدته، حتى لا يبقى فيهم منهم شئ، وأولئك هم الذين اختارهم الحقّ تعالى واصطفاهم واختصّهم بمعرفته ومحبته. ومَن عَدِم هذا الذوق، وحُرِم هذا الحظ، فهو المغبون على الحقيقة.

والمؤلفات فى العشق، وفى العشق الإلهى، كثيرة لا تُعدّ، منها: «رسالة العشق والنساء» للجاحظ، نذكر أنها أول الرسائل فيه؛ وكتاب «الزهرة» لأبى بكر محمد بن داود المتوفى سنة ٢٩٧ هـ، والمعروف باسم «شهيد العشق»، وهو راوى الحديث: «من عشق وكَتَم وعفّ ومات فهو من الشهداء يوم القيامة»؛ وكتاب «اعتلال القلوب» لأبى بكر محمد بن جعفر السامرى الخرائطى، المتوفى سنة ٣٢٧هـ؛ وكتاب «مصارع العشاق» لأبى محمد جعفر بن أحمد السرّاج القارى، المتوفى نحو سنة ٥٠٠ هـ؛ وكتاب «طوق الحمامة» لابن حزم الأندلسى، المتوفى سنة ٤٥٩ هـ؛ و«روضة العاشق ونزهة الوامق» لأحمد بن سليمان بن حميد الكسائى، كتبه للملك الأشرف ابن المظفر موسى بن سيف الدين أبى بكر، المتوفى سنة ٦٣٥ هـ؛ وكتاب «منازل الأحباب ومنازة الألباب» لشهاب

الدين بن الشناء محمد بن فهد الحلبي، المتوفى سنة ٧٢٥ هـ؛ وكتاب «روضة المحبين» لابن قيم الجوزية، المتوفى سنة ٧٥١ هـ؛ وكتاب «الواضح المبين فى ذكر من استشهد من المحبين» للحافظ علاء الدين أبى عبد الله مغلطاى، المتوفى سنة ٧٦٢ هـ؛ وديوان «الصبابة» لابن أبى حجلة الحنبلى، المتوفى سنة ٧٧٦هـ؛ وكتاب «أسواق الأشواق» لإبراهيم بن عمر البقاعى، يتوسع فيه على كتاب «مصارع العشاق» للسرّاج؛ وكتاب «ترتيب الأسواق بتفصيل أشواق العشاق» لداود الأنطاكى، المتوفى سنة ١٠٠٨ هـ، يلخص به كتاب «أسواق الأشواق». ويعدّ كتاب «عطف الألف المألوف على اللام المعطوف» لابن الحسن علىّ بن محمد الديلمى، تلميذ الصوفى الكبير أبى عبد الله محمد بن خفيف، المتوفى سنة ٣٧١هـ، أقدم مؤلفات التصوف عن العشق، وبه فصل عن مكالمة أرسطو فى العشق ضاع أصلها اليونانى؛ ورسالتا «جمحة النها عن لمحة المها»، و«سرّ الأسرار وسرّ الأسكار» لفخر الدين أبى عبد الله محمد بن إبراهيم بن طاهر الخيرى الفيروزابادى، المتوفى سنة ٦٤٢هـ؛ وهذه الرسالة التى كتبها الصوفى الكبير الذى نحن بصدده: أبو زيد عبد الرحمن بن محمد الأنصارى القيروانى المعروف بابن الدبّاغ، يقول فى أسباب كتابته: كحالِ كُثَيّر عزة فى قوله:

لِمَ لا أُعَرِّض باسم عزّة أنها
أخذت علىّ موائقاً وعهودا
لا يسمعون كما سمعت كلامها
خرّوا لعَزّةَ رُكّباً وسجُودا

فلولا ذلك العهد بينه وبين الصوفية لما عَرّض بهم. والعشق الإلهى عنده هو مطالعة الجمال الإلهى الأسنَى؛ والتلذّذ بالعشق يكون فى القُرب، والمناسب يتقارب مع الذى يناسبه، والمقاربة موجبة للمحبة، وكلما زاد القُرب انمحت الفواصل:

أفنيتنى بك عنّى
يا غاية المنتمنّى
أدنيتنى منك حتى
ظننتُ أنك أنّى

وفى الخبر أن متحابين ركبا سفينة فزلّت قدم أحدهما فسقط فى البحر، فلم يتمالك صاحبه أن يسقط معه:

كلما منك شىء منّى
فإذا أنت أنا فى كل حال

وهذا ما يسمونه الاتحاد:

مـــا أرى نفـــــسى إلا أنـتم
واعـــتـــقـــادى أنكم أنـتـم أنا
عنـصـــر الأنفـس منّا واحـــدٌ
وكـذا الأجـــسام جـسمٌ عَـمَّنا

والنفوس إما مطمئنة، وهذه هى نفوس من أشرق عليهم الحقّ بنوره فجذبها إليه؛ أو نفوس شقية أعرضت عن الحقّ وغلب عليها حبُّ الدنيا والمحسوسات، فهى محجوبة عن نور الله، وتسمى كذلك النفوس الأمّارة؛ أو نفوسٌ لوّامة، تقبل على الدنيا فى توسط ولا تستغرقها المحسوسات، فإن استطاعت أن تتزكىّ بالرياضة لحقت برتبة السعداء، وهؤلاء هم المعنيون بالتصوف، وهم أصحاب الرياضة. ولا سعادة فى الدنيا ولا فى الآخرة إلا بمحبة الحقّ، ولا يوصّل إلى هذه المحبة إلا المعرفة بكمال المحبوب، فالمحبة ثمرة المعرفة، والمعرفة علّة المحبة وسببها، وتتقدم عليها بالسبب، والمحبة تتقدم عليها بالشرف، فإذا حصلت المعرفة على الكمال، وتوالت بتواليها المحبة، فحينئذ يكون المحب هو نفس العارف، والعارف هو عين المحب:

تُبدى لنا فى كل شىء حبيبُنا
فَتُهنا كما تاه الكليم به عُجبا
وما نحن إلا حُجبُه وهو سِرُّنا
ويفهم سرّ الحجب مَن فَهِم الحُجبا

ولذلك تأنس النفس السليمة الطباع بالجمال، وتحنّ إليه بقدر لطافتها، وتخضع له وتنقاد إليه:

وكم قد أذلّ الحبّ من متعزِّز
فأضحى وثوبُ العزّ عنه سليبُ
وإن خضوع النفس فى طلب الهوى
لأمرٌ إذا فكّرت فيه عجيبُ

والبهيمة لم يخلق لها الاستعداد لذلك، وإنما الإنسان وحده خلقه الله مستعداً لنيل هذا الكمال، وهو ردّنا على الماديين والمنكرين لله من المستشرقين العرب الجدد، وهم أبلس من المستشرقين الإفرنج، فهل يعيب الكاملون أن كمالهم لا يراه أشباه البهائم المتطعون:

ولم أر فى عيوب الناس عيباً
كنقص القادرين على التمام

والكاملون فى دأب وإقبال بكل الهمة على حبّ المعانى الأشرف؛ والناقصون عازفون فى شتات تحصيل اللذات الحسّية:

تركت هوى ليلى وسُعدى بمنزل
وعُدتُ إلى مصحوب أول منزلِ
وناديتنى الأشواق مهلاً فهذه
منازلُ منَ تهوى فدونك فانزلِ

وخذ بنعيم قد صفا لك شُربه
ودع ما سوى الأحباب عنك بمعزلِ

والمحبة لا يصبر عنها إلا من ذاقها، ومن ذاقها يستولى عليه الذهول حتى ليعجز عن العبادة، كمثل الذى يطفح سُكراً، إذا سُئل عن السُكر لا يمكنه العبارة لاستيلاء السُكر عليه:

كمّل بعشق جمال الكون نفسَك إنْ
أردتَ تكشفُ سرّ العالمين معا
فإنما النفس كالمرآة إذا ظهرت
أرتك فيها جمال الكلّ منطبعا
وجرّد الحُسْنَ عن ظلٍ بقاربه
تدركه فيك بأفق النفس قد طلعا
فاشهدهُ منك وغبْ عمّا سواك تجد
فى ضمن ذاتك معنى الكل قد جُمعا

والمحبة هناء على العموم، وعذابٌ جزئىٌّ، ولذة النفس فى المحبة لا تنفك عن شائب ألمٍ يشوبها، لأن الشوق من لوازمها؛ والشوق زاعجٌ يزعج النفس لطلب كمال الإدراك وتمام اللذة، والمحبة لذلك عذابٌ فى نعيم، ولذةٌ مشوبة بقهر:

فهل سمعتم بصبٍّ
صحيحِ قلبٍ سقيم
منعَّمٍ فى عذاب
معذَّبٍ فى نعيم ؟!

ونظرية الدباغ فى النبىّ مخالفة تماماً لما يقول به القرآن. والدباغ يقول فيه: اعلم أن أنوار كونات كلها من عرش وفرش، وسماءات وأرضين، وجنّات وحُجب، وما فوقها وما تحتها، إذا جُمعت كلها، وجدت بعضاً من نور النبىّ، وأن مجموع نوره لو وضع على العرش، لذاب، ولو وُضع على الحُجب السبعين التى فوق العرش، لتهافتت، ولو جُمعت المخلوقات كلها، ووضع ذلك النور العظيم عليها، لتهافتت وتساقطت!!

ونعلم أن النبىّ إنسان، والإنسان مخلوق من طين (المؤمنون ١٢)، وليس من نور، وأن محمداً ليس بدعاً فى الرسل (آل عمران ١٤٤)، وأنه بشر من بشر (الكهف ١١٠)، وأنه يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق (الفرقان ٧). ولم يذكر القرآن أن نور محمد ينتشر فى الكون ويحيط بالعرش، ولا صحة لكل هذه الفرىَ إلا إذا كان محمدٌ هو الله، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً!!

وكلام الدبّاغ تأليه لمحمد كتأليه النصارى للمسيح، وتأليه الشيعة لعلىّ، والنبىّ ﷺ مما يقول الدباغ وأمثاله بَراء. فإن كان ما يقوله الدبّاغ وأمثاله هو التصوّف،

فأنا برئ من هذا التصوّف، وإنما كبار الصوفية لم يقولوا بذلك، ولم يخرجوا عن القرآن والسُّنة، وأنا على القرآن والسُّنة والحمد لله.

* * *

١٢٦ - أبو الدرداء (حكيم الأمة)...

العارف المتفكّر، وامق العبادة: عويمر بن مالك بن قيس بن أمية، الأنصارى، الخزرجى، وشهرته أبو الدرداء، فقد كانت الدرداء ابنته قد ذهبت أسنانها، وكان من الصحابه الحكماء الفرسان القضاة، والتصوف حكمة وشجاعة وعدل، وفى الحديث: «عويمر حكيم أمّتى»، و«نعم الفارس عويمر». وكان أبو الدرداء ضمن ستة رهط من الأنصار جمعوا القرآن على عهد رسول الله ﷺ: معاذ بن جبل، وأُبىّ بن كعب، وزيد بن ثابت، وأبو الدرداء، وأبو زيد، وسعد بن عبيد؛ وانتهوا من جَمعه قبل أن يقضى الرسول ﷺ، ولم يكن مجمّع بن جارية تنقصه إلا سورتان أو ثلاث، وجمع ابن مسعود منه بضعاً وتسعين سورة وتعلّم بقيته من مجمّع. وقيل الذين جمعوه كانوا خمسة، منهم أبو الدرداء. واختار عمر معاذاً، وعبادة، وأبا الدرداء، علماء بالشام، يعلّمون الناس القرآن، وظل أبو الدرداء بالشام حتى مات، وهو إذن من الصوفية من أهل العلم، والتصوّف استباق ومداومة تعلّم، ومن تعلّم يعلّم، ولا يعلّم إلا من يتعلّم.

ولما سئلت أم الدرداء: ما كان أفضل عمل أبى الدرداء؟ قالت: التفكُّر والاعتبار. ومن أقواله: تفكُّر ساعة خير من قيام ليلة. وكان عبد الله بن عمر يقول: حدّثونا عن الغافلين؟ فيقال: مَن الغافلون؟ فيقول: معاذ وأبو الدرداء. وكان أبو الدرداء فى بداية حياته تاجراً، فلمّا عرف الإسلام أراد أن تجتمع له التجارة والعبادة فلم يجتمعا، فرفض التجارة وأقبل على العبادة. يقول: فما أُحبّ أن لى اليوم حانوتاً على باب المسجد لا تخطتنى فيه صلاة، وأربح من حانوتى كل يوم أربعين ديناراً أتصدّق بها كلها فى سبيل الله! ما أقول إن الله يحلّ البيع ويحرّم الربا، ولكنى أحبّ أن أكون من الذين لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله. - وكان يدفع عنه الدنيا بالراحتين فى النحر، وينصرف إلى العلم، ولا بركة فى علم لا يهدى صاحبه. ويقول: ويل لمن لايعلم ولو شاء الله لعلّمه! وويل لمن يعلم ولا يعمل. - وقال لأهل دمشق: يا أهل دمشق، أنتم الإخوان فى الدين، والجيران فى الدار، والأنصار على الأعداء، فما يمنعكم من

مودتي؟ وإنما مؤنتي على غيركم. فما لي أرى علماؤكم يذهبون، وجهّالكم لا يتعلمون؟ وأراكم قد أقبلتم على ما تكفّل الله لكم به، وتركتم ما أُمرتم به؟ ألاَ إن قوماً بنوا شديداً، وجمعوا كثيراً، وأحلوا بعيداً، فأصبح بنيانهم قبوراً، وأملهم غروراً، وجمعهم بوراً. ألا فتعلّموا وعلّموا، فإن العالم والمتعلّم في الأجر سواء، ولا خير في الناس بعدهما.

والعلم إذن مطلب هذا الصوفي العالِم، وليس من متصوّف إلا عن علم، ولن تلتقي بصوفي إلا وهو طالب علم ومعلّم. يقول أبو الدرداء: إنّ رَفْعَ العِلم ذهاب العلماء، إنما الناس رجلان: عالِم ومتعلّم، ولا خير فيما بين ذلك. وقال: إن العبد لا يكون تقياً حتى يكون عالماً، ولن يكون بالعلم جميلاً حتى يكون به عاملاً، ويقول: إنّ أخوف ما أخاف إذا وقفتُ على الحساب أن يقال لي: قد علمتَ، فما عملتَ فيما علمتَ؟ ـ ويقول: أخوف ما أخاف أن يقال لي يوم القيامة: ياعويمر، أعلمتَ أم جهلتَ؟ فإنْ قُلتُ علمتُ، لا تبقى آية آمرة أو زاجرة إلا أخذتُ بفريضتها: الآمرة ـ هل ائتمرتُ؟ والزاجرة ـ هل ازدجرتُ؟ وأعوذ بالله من علمٍ لا ينفع، ونفسٍ لاتشبع، ودعاء لايُسمع. ـ ويقول: إنما أخشى على نفسي أنّ يقال لي على رءوس الخلائق: يا عويمر، هل علمتَ؟ فأقول: نعم! فيقال: ماذا عملتَ فيما علمتَ؟ ـ ويقول: إن من شرّ الناس عند الله منزلةً يوم القيامة عالماً لاَ يُنتفع بعلمه. ويقول: اللهم إني أعوذ بك أن تلعنني قلوب العلماء. قيل: وكيف تلعنك قلوبهم؟ قال: تكرهني. ـ لأنه لا يعمل بما يعلم، أو لأنه لا يبلّغ ما يعلم.

ومن وصاياه إلى سلمان الفارسي وأصحابه من المريدين: يا أخي، اغتنم صحتك وفراغك قبل أن يُنزل بك البلاء ما لا يستطيع العباد ردّه، واغتنم دعوة المبتلَى- ويا أخي، ليكن المسجد بيتك، فإني سمعت رسول الله ﷺ، يقول: «إن المساجد بيت كل تقي»، وقد ضمن الله لمن كانت المساجد بيوتهم بالروْح والراحة، والجواز على الصراط إلى رضوان الربّ عزّ وجلّ - ويا أخي، ارحم اليتيم وادنُه منك، وأطعمه من طعامك، فإني سمعت رسول الله ﷺ وقد أتاه رجل يشتكي قساوة قلبه، فقال له ﷺ: «أتحب أن يلين قلبك؟» فقال: نعم. قال: «ادنُ اليتيم منك، وامسح رأسه، وأطعمه من طعامك، فإن ذلك يلين قلبك، وتقدر على حاجتك». ويا أخي، لاتجمع ما لاتستطيع شُكره، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يُجاء بصاحب الدنيا ـ يوم القيامة ـ الذي أطاع الله تعالى فيها، وهو بين يدَيّ ماله،

ومالُه خلفه، كلما تكفّأ به الصراط قال له مالُه : امضِ فقد أديّت الحقّ الذي عليك»، قال: ويجاء بالذي لم يطع الله فيه، ومساله بين كتفيه، فيُعثره مالُه ويقول له: ويلك! هلاّ عملتَ بطاعة الله عزّ وجلّ فيّ ؟ فلا يزال كذلك حتى يدعو بالويل». - ويا أخي، إني حُدّثت أنك اشتريت خادماً، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لايزال العبد من الله وهو منه ما لم يُخدَم، فإذا خُدم وجب عليه الحساب»، وإنّ أم الدرداء سألتني خادماً وأنا يومئذ موسر، فكرهت ذلك لما سمعتُ من الحساب. - ويا أخي، مَن لي ولك بأن نوافي يوم القيامة ولا نخاف الحساب؟ ويا أخي ، لا تغترن بصحابة رسول الله ﷺ، فإنّا قد عشنا بعده دهراً طويلاً، والله أعلم بالذي أصابنا بعده.

ومن حِكَمه قال: معاتبة الأخ خيرٌ لك من فقده، ومَن لك بأخيك كلّه؟ أعط أخاك ولنْ له، ولا تُطع فيه حاسداً فتكون مثله. غداً يأتيك الموت، فيكفك فقده ! وكيف تبكيه بعد الموت وفي حياته ما قد كنتَ تركتَ وصْله ؟

وقال: لو تعلمون ما أنتم راءون بعد الموت لما أكلتم طعاماً على شهوة، ولا شربتم شراباً على شهوة، ولا دخلتم بيتاً تستظلون فيه، ولخرجتم إلى الصعدات تضربون صدوركم، وتبكون على أنفسكم، ولوددتُم أنكم شجرة تُعضَد ثم تؤكل!

وكان أبو الدرداء كثيراً ما يتردد على الخرابات ويقول: ياخُرَب الخربين ! أين أهلُك الأولون ؟

وجُماع فلسفته في التصوف: ذروة الإيمان الصبر للحُكم، والرضى بالقدر، والإخلاص في التوكُّل، والاستسلام للربّ عزّ وجلّ.

ومن مواعظه: يامعشر أهل دمشق، ألا تستحيون ؟ تجمعون ما لا تأكلون، وتبنون ما لا تسكنون، وتأملون ما لا تبلغون. قد كانت القرون من قبلكم يجمعون فيوعون، ويأملون فيطيلون، ويبنون فيونقون، فأصبح جمعهم بوراً، وأملهم غروراً، وبيوتهم قبوراً. هذه عاد قد ملأت ما بين عدن إلى عُمان أموالاً وأولاداً، فمن يشتري مني تركة آل عاد بدرهمين؟

وقال: يا معشر أهل الأموال، برِّدوا على جلودكم من أموالكم قبل أن تكون وإياكم فيها سواء. ليس إلا أن تنظروا فيها وننظر فيها معكم. وإني أخاف عليكم شهوة خفية في نعمة ملهية، وذلك حين تشبعون من الطعام وتجوعون من العلم. إن خيركم الذي يقول لصاحبه: إذهب بنا نصوم قبل أن نموت، وإن شراركم الذي يقول لصاحبه:

إذهب بنا نأكل ونشرب ونلهو قبل أن نموت.

وعن ثابت البناني: أن يزيد بن معاوية خطب إلى أبي الدرداء ابنته الدرداء، فردّه؛ وخطب إليه رجل من ضعاف المسلمين فأنكحه، وقال أبو الدرداء: إني نظرت للدرداء، فما ظنكم بها إذا قامت على رأسها الخصيان، ونُظرت في بيوت يلتمع فيها بصرها - أين دينُها منها يؤمئذ؟

وكانت أم الدرداء من خير تلاميذه، وروت عنه، ولما توفي قالت: اللهم إن أبا الدرداء خطبني فتزوجني في الدنيا. اللهم فأنا أخطبه إليك وأسألك أن تزوجنيه في الجنة. - وكان لها جمالٌ وحُسن، فخطبها معاوية بعده، فقالت: لا والله لا أتزوج رجلاً في الدنيا حتى أتزوج أبي الدرداء إن شاء الله في الجنة.

وكان عيش أبي الدرداء خشناً، وفراشه من الجلد والصوف، وكان يلبس في مرضه الذي مات فيه كساء صوف، وسبتية من الصوف، وقد أخذه العرق. وكان أصحابه يبيتون من حوله فينامون على لبدة، أو على ثيابهم كما هي. وكان يدعو في مرضه: اللهم توفّني مع الأبرار، ولا تُبقني مع الأشرار. وقال: ثلاثٌ من مَلاك أمر ابن آدم: لا تشكُ مصيبتَك، ولا تحدّث بوجعك، ولا تُزَكِّ نفسك بلسانك. وقيل له: مالك لا تُشعر - يريدون أن كلّ صوفي قد بلغ ما بلغ لابد له يُشعر، فالتصوف علم القلوب، ولغته الشِّعر، قال:

يريد المرء أن يُعطى مُناه
ويأبى الله إلا ما أرادا
يقول المرءُ فائدتي ومالي
وتقوى الله أفضل ما استفادا

ولما احتضر أبو الدرداء جعل يقول: من يعمل لمثل يومي هذا؟ من يعمل لمثل ساعتي هذه؟ من يعمل لمثل مضجعي هذا؟ ﴿ونُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ (الأنعام ١١٠).

* * *

١٢٧ - الدردير (الشهاب)...

أحمد بن محمد العدوي المالكي، وشهرته أبو البركات الدردير، والشهاب الدردير (١١٢٧ - ١٢٠١هـ)، لأنه كالسَّنا المضيء؛ وطريقته تسمى الدرديرية، والسباعية أيضاً، نسبة إلى تلميذه أحمد السباعي، المدفون معه في ضريحه بمسجده بالغورية من أحياء القاهرة القديمة.

والدردبرية إحدى الطرق الخلوتية، وكان الدردير من كبار شيوخها في مصر، ووصفه الجبرتي بأنه كان شيخاً على أهل مصر كلها في وقته حسّاً ومعنى. وقيل

فيه إنه من المجددين للدين على رأس المائة الثانية عشرة، وله المصنفات العديدة فى علوم المعانى والبيان والفقه والعقيدة، ومنها «تحفة الإخوان فى آداب أهل العرفان»؛ و«شرح وِرْد الشيخ كريم الدين الخلوتى»؛ و«شرح مقدِّمة نظم التوحيد للسيد محمد كمال الدين البكرى»؛ و«شرحٌ على رسالة التوحيد للشيخ دمرداش الخلوتى»؛ و«منظومة أسماء الله الحسنى»؛ و«الصلوات» وتُعرف بالمسبِّعات، وجميعها فى التصوف.

ومدرسة الدردير مدرسة تربوية عملية أكثر منها عرفانية؛ وأوراده وأحزابه يحيل فيها إلى التراث الصوفى عند المتقدّمين، كالغزالى، وابن مشيش، والشاذلى، والبدوى، والدسوقى، ويبرز فى مذهبه قوله بالحقيقة المحمدية التى يُصدر فيها عن السلف من فلاسفة الصوفية، كالحلاّج، وابن عربى، وابن الفارض، باعتبار أن النبىّ عليه الصلاة والسلام، له فى زعمهم حقيقتان: الحادثة التى نعرفها، والقديمة التى يستمد منها كل الأنبياء والأولياء، وهى المصدر لكل وجود وعرفان، وكونها نوراً وصل من آدم إلى النبىّ ﷺ، فكلهم من نفس واحدة، باعتبارهم أشرف العالم وأكملهم، يعنى أنهم واحد على التحقيق هو الإنسان الكامل. وقول الدردير بهذه الحقيقة الثانية يخرجه من دائرة الإسلام.

* * *

١٢٨ - الدسوقى (العارف بالله)...

العارف بالله سيدى إبراهيم الدسوقى (٦٥٣ـ ٦٧٦هـ)، نزيل دسوق، من أجِلاّء مشايخ مصر أصحاب الخرقة، وطريقته البرهامية، تنتشر فى مصر، وسوريا، وتركيا، والحجاز واليمن وحضرموت، ومنها فروع كثيرة، كالشرنوبية، والشهاوية، والسعيدية الشرنوبية.

وللدسوقى كلام كثير على لسان أهل الطريق منشور فى كتبه، وأهمها: «الجواهر» المعروف باسم «جوهرة الدسوقى». وهو من أهل الحرف وكانت صناعته الفخار والحُصُر (جمع حصير)، وكان يكره للمريد أن يكون بطّالاً، ويطلب إليه أن يتكسّب لنفسه، وخطابه إليه بصيغة «يا ولدى»، و«يا أخى»، و«يا أولادى»، و«يا ولد قلبى»، و«يا أولاد قلبى». وللشعرانى ترجمة مطولة له فى طبقاته يقول: إن الدسوقى من نسل الحسين، وتفقّه على مذهب الإمام الشافعى، ثم اقتفى آثار الصوفية وجلس فى مرتبة الشيوخ، وحمل الراية البيضاء، وعاش

من العمر ثلاثاً وأربعين سنة، لم يغفل خلالها عن مجاهدة النفس والهوى والشيطان . وكلامه أغلبه نصائح، ومن ذلك أن يقول للمريد: اسمع يا عديم العقل والرشاد» ، ومنه كلام لا معنى له، إذ الكلام خطاب إنسانى، فما لم يكن مفهوماً من المخاطبين المقصودين به فلا طائل منه ، فقد كتب إلى بعض مريديه بعد السلام: وإننى أحب الولد، وباطنى خلى من الحقد والحسد، ولا بباطنى شظا، ولا حربق لظى، ولاجوى من مضى، ولا مضض عضا، ولا نكص نصا، ولا سقط نطا، ولا نطب غظا، ولا عطل حظا، إلى آخر ذلك! مما يدل على أنه كان يشكو لوثة عقلية كلامية، ويجعلنا ذلك نشك فى حقيقة نسبة ما كتب فى التصوّف إليه، والطب النفسى يشخّص هذه الحالة بأنها فساد فى القول dyslogia ، وفى اللّفظ dysarthia ، نتيجة اضطرابات فى المخ، ويتعارض ذلك بالكلية مع ما يُنسب إليه من أفكار، فقد قيل: إن مذهبه كله فى حرفين كما يقول: من عرف الله وعبّده فقد أدرك الشريعة والحقيقة،والحرفان هما الشريعة والحقيقة، فأحكموا الحقيقة والشريعة، ولا تفرطوا إن أردتم أن يُقتدَى بكم ، ولم يكن اسم الحقيقة إلا لأنها تحقق الأمور بالأعمار ، ومن بحر الشريعة تنتج الحقائق ، والشريعة هى الشجرة، والحقيقة هى الثمرة ، والشريعة أصل، والحقيقة فرع ، والشريعة تجمع كل العلوم المشروعة ، والحقيقة تجمع كل العلوم الخفية .

ويقول الدسوقى: إن مقصوده من طريقته أن يكون أولاده من الذائقين لا الواصفين، فإن القوم - يقصد الصوفية - لم يتكلموا من الطروس وإنما من الصدور، لما ذاقوا وامتلأت قلوبهم بعطاء الله ومواهبه، فغاضت منها قطرات من ماء الحياة هى علومهم . والتصوف ليس بلبس الصوف وإنما الصوف من بعض شعاره ، وحقيقة التصوف، معنوية، والصوفى الذى يصل إليها لا يرضى بلبس ما خشن، لأنه وصل إلى مقامات اللطافة وخرج من مقامات الرعونة ، بخلاف المريد فى بدايته يلبس الخشن ويأكل الخشن، ليؤدب نفسه فتخضع لمولاها، ويحصل لصاحبها تمهيد للمقامات التى يترقى إليها . ويفسّر الدسوقى سبب تسميته للمريدين بأولاد القلب: أن «ولد القلب» خير من «ولد الصلب»، فولد الصُلب له «إرث الظاهر» من الميراث، وولد القلب له «إرث الباطن» من السرّ. ويناشد الدسوقى أولاده بأن لا يسيئوه فى طريقته

ولا يرموها بالكلام ، وأن يقوموا بحقّها، وأن لا يتكلموا فى الطريقة إلا لمن يُقبل عليها ويُحبها ، وأن لا يتفرّقوا ، ولا يجالسوا أرباب الأقوال ، ولا يتحدّثوا إلا بدستور بما لا فائدة لهم فيه من الجدال .

ويبدو أن الدسوقى كان من أصحاب الفناء على شهود السِّوَى، فيقول: توبة الخواص محوٌ لكل ما سوى الله . ـ ومن شعره فى الحب الإلهى المفضى إلى الفناء وشهود الوحدة، والذى ينحو فيه منحى ابن الفارض ويقول فيه بالتناسخ :

تجلّى لى المحبوب فى كل وجهة
فشاهدته فى كل معنى وصورة
وخاطبنى منى بكشف سرائرى
فقال أتدرى من أنا قلت منيتى
فأنت منائى بل أنا أنت دائماً
إذا كنت أنت اليوم عين حقيقتى
فقال كذلك الأمر لكنه إذا
تعينت الأشياء كنت كنسختى
فأوصلت ذاتى باتحادى بذاته
بغير حلول بل بتحقيق نسبتى
فصرت فناء فى بقاء مؤبّد
لذات بديمومة سرمدية
وغيّبنى عنى فأصبحت سائلاً
لذاتى عن ذاتى لشغلى بغيبتى
وأنظر فى مرآة ذاتى مشاهداً
لذاتى بذاتى وهى غاية بغيتى
فأغدو وأمرى بين أمرين واقف
علومى تمحونى ووهمى مُثبتى
وخبّات له فى جنة القلب منزلاً
ترفّع عن دعد وهند وعلوة

إلى أن يقول :

وما شهدْت عينى سوى عين ذاتها
وإن سواها لا يلم بفكرتى
بذاتى تقوم الذات فى كل ذروة
أجدّد فيها حُلّة بعد حلة
فليلى وهند والرَّباب وزينب
وعلوى وسلمى بعدها وبثينة
عبارات أسماء بغير حقيقة
وما لوّحوا بالقصد إلا لصورتى

فكما ترى فإن الدسوقى يقول بالحلول والاتحاد ووحدة الوجود، مما يخرجه من دائرة التصوّف السُّنى، ويدخله ضمن التصوّف الشيعى أو العلوى.

* * *

١٢٩- الدسوقى (منكر التصوّف)...

إبراهيم بن محمد بن عبد الرحمن، الدسوقى ،الشافعى (٨٣٣ ـ ١٩١٩هـ)، من أهل دمشق ، وأصله مصرى ، يقول

فيه صاحب «شذرات الذهب»: أنه كان شديد الإنكار على صوفية عصره ، وله رسائل فى التصوّف ، ووصفه فقال: لم تر عيناى من أهل دمشق من هو أمثل منه، يريد فى والإنكار على الصوفية واستعداء السلطة والناس عليهم.

* * *

١٣٠ - الدمرداش (محمد)...

(المتوفى فى ٩٢٩هـ (١٥٢٣م)، وله الطريقة الدمرداشية، وتصوفه عملى أكثر منه نظرى، والجانب النظرى منه ينحو فيه إلى الفلسفة، يقلّد السابقين عليه الذين قالوا بوحدة الوجود، واسمه الحقيقى محمد دمرداش، وهو مصرى، جركسى الأصل، ويظهر ذلك من اسمه، يقول عن نفسه إنه: محمدى، خلوتى، ولقبه شمس الدين أبو عبد الله، وعرّفه صاحب الكواكب بالمحدّث، وسمّاه دمرداش من دون محمد، وكان من مماليك الأشرف قايتباى، وسافر إلى بلاد العجم وأقام مدة فى تبريز، وعاد إلى القاهرة، ومن هنا كان تأثره بالتصوّف الشيعى. وبعد عودته تصوّف، واشتهر بالصلاح، وأنشأ زاوية وغَيْطاً عُرفا باسمه، وعائلة الدمرداش تنتسب إليه، وصاروا من طبقة كبار المُلاّك؛ ومنهم الباشوات، ولهم أعمال خيرية، منها مستشفى الدمرداش، وتُعرف باسمه منطقة عَرب المحمدى، وله التصانيف فى التصوّف، ومنها «تحفة الطُّلاّب» وتعرف بـ «رسالة الدمرداش»، و«القول الفريد فى معرفة التوحيد»، و«مجموع الأسرار وكشف الأستار»، وفى هذا الكتاب الأخير يقول:

لقد كنتُ دهراً قبل أن يُكشَفَ الغطا
إخالُك أنى ذاكر لك شاكر
فلمّا أضاء الليلُ أصبحتُ شاهداً
بأنك مذكورٌ وأنك ذاكر

فها نحن نجد الأثر اللعين للحلاّج، وابن عربى، وابن الفارض، والبسطامى، ومدرسة وحدة الوجود.

ويقول:

هو الواحد الموجود فى الكلّ وحده
سوى أنه فى الوهم سُمِّى بالسُّوَى

بمعنى أنه ما ثمة شىء موجود، أو يدركه الحسّ، إلا وهو عين الله ذاتاً وصفةً، والوهم وحده هو الذى يمنع العقول أن تفهم هذه الحقيقة، وأن الذاكر والمذكور واحدٌ، وأن كل ما هو كائن محسوس، وكل ما تتصوره منه الأذهان ليس سوى الله، ولذا يقول الدمرداش مردداً مَن كانوا قبله: «فلا وجود سوى الله، والغَيْر وَهْم وخيال»!

-فهل فهمت أخي القارئ معنى هذا الكلام؟ معناه: إنكار الوجود كله، فكيف نقرّ إذن بالواجد إن جحدنا الموجودات؟ ومعناه: أن الله نفسه غير موجود كإله مُشخصن كما في الديانات، ولكن الموجود منه هو موجوداته، أي أنه موجود بموجوداته وفي موجوداته، وإلغاء وجود الله يبطل القول بالبعث والحساب والثواب والعقاب. فكما ترى: فإن الدمرداش والدسوقي، وكلّ من قال بوحدة الوجود، قد خرجوا من دائرة الإسلام، ودائرة التصوّف السُّنّي بالتبعية.

* * *

١٣١ - الدهلوي (مؤدب الصوفية)...

صدر الدين محمد بن يوسف بن عليّ ابن محمد الحسيني، أبو الفتح (٧٢١ - ٨٢٥ هـ)، له «المعارف» يشرح فيه كتاب «العوارف» للشهاب السهروردي، ونحو ١٢٥ كتاباً بالعربية والفارسية، منها «آداب المريدين» و «شرح فصوص الحِكَم» لابن عربي، وتفسير القرآن.

والدهلوي مفكّر تقليدي، لم يضف شيئاً للتصوّف، ويعتبر من الشُرّاح، ويميل إلى القول بوحدة الوجود، ويذهب إلى ما يذهب إليه التصوف الشيعي وليس التصوّف السُّنّي. وللشيخ محمد عليّ السامانويّ كتاب في سيرته سماه «السِّير المحمدي»، والسِّير Sir لقب بريطاني، بدعوى أن الدهلوي كان يلقّب The Mohammedan Sir.

* * *

١٣٢ - الدهلوي (شاه ولي الله)...

أحمد بن عبدالرحيم الفاروقي الدهلوي الهندي (١١١٠ - ١١٧٦ هـ) الملقّب «شاه ولي الله»، قيل فيه: أحيا الله به وبأولاده، وأولاد بنته وتلاميذهم - الحديث والسُنّة بالهند. وله مصنفات كثيرة منها «الخير الكثير»؛ و«الاعتقاد الصحيح»؛ و«البدور البازغة»؛ و«القول الجميل في بيان سواء السبيل»، وجميعها في التصوّف السُّنّي، ومن رأيه أن الفرقة الناجية هم الآخذون في العقيدة والعمل جميعاً بما ظهر من الكتاب والسُنّة، وجرى عليه جمهور الصحابة والتابعين. ويعالج الدهلوي المقامات والأحوال، ويتحدث عن التجلّي والإشراق، ويرفع من شأن المجذوبين من الصوفية، ويقول: إن الحقيقة تلزم لها الشريعة، مثلما أنه لا شريعة بدون حقيقة، ومن ثم فإنه يذهب إلى فتح باب الاجتهاد وعدم التقيّد بآراء الفقهاء الأربعة، حيث أن الإمام أبا حنيفة قد ذكر هو نفسه أنه لا ينبغي لمن لم يعرف دليله أن يفتي بكلامه،

وكذلك فقد ذكر الإمام مالك أنه ما من أحد إلا وهو مأخوذ من كلامه ومردود عليه إلا رسول الله ﷺ، وكذلك الإمام الشافعي والإمام أحمد ، ومن ناحية أخرى لابد من تنقية التصوف من الشوائب، وإبراز الجانب الإسلامي فيه، وملاشاة التأثيرات الفلسفية غير الإسلامية عليه، ولذلك فقد ذهب إلى ما ذهب إليه السهرندي وقال بـ «وحدة الشهود»: يعني أن لا تشاهد إلا الله، ولا ترى شيئاً سواه، بدلاً من «وحدة الوجود»: أي أن ترى الله في الموجودات، أو تراه عين الموجودات كما عند ابن عربي ، فذلك أليق بالتصوّف الإسلامي، ويربطه إلى السُنّة، ويجعل الناس أكثر إقبالاً عليه لمناسبته لديننا الحنيف. (انظر السهرندي).

* * *

١٣٣ - دي تاسي (المستشرق المحب)...

جارسن دي تاسي **Garcin de Tassy** (١٧٩٤ ـ ١٨٧٨) فرنسي، تخرّج على دي ساسي، وتولى بعده تحرير المجلة الآسيوية، ونشر وترجم الكثير من الإسلاميات ، ومنها في التصوّف ترجمته لمنطق الطير للشاعر الصوفي الفارسي فريد الدين العطار ، والرباعيات للخيام. وكان محباً للصوفية المسلمين من الشعراء، والكثير من كتاباته فيهم ينحو فيها إلى الشرح وليس إلى النقد، ولذلك فقد يبدو موضوعياً.

* * *

١٣٤ - دي ساسي (المستشرق المؤيد)...

أنطوان إسحق سيلفستر دي ساسي **De Sacy** ، مستشرق فرنسي (١٧٥٨ ـ ١٨٣٨م) كان في طليعة المستشرقين ، ومن أعضاء مجمع الكتابات والآداب، ترجم لفريد الدين العطار الشاعر الصوفي الفارسي(١٨١٩)، ونشر بمعاونة دي لا جرانج منتخبات من الشعر الصوفي لابن الفارض المصري ، وكان المظنون أن ابن الفارض من شعراء الغزل نتيجة الفهم الخاطئ للمستشرق البولوني فابريس **Fabrice** لشعره، وقد صحح دي ساسي صورة ابن الفارض، وترجم البردة للبوصيري، وله التعليقات على كتاب «البرق اليماني في الفتح العثماني» لشيخ الصوفية عمرو المكي، المتوفى سنة ٢٩٧ هـ؛ وكتاب «الجُمان» للمقري الفاسي، المتوفى سنة ٧٥٨ هـ؛ و«بلوغ المرام» للزبيدي؛ وقدّم لكتاب «نفحات الأنس» لعبد الرحمن جامي بدراسة شاملة للتصوّف. وهو من المستحسنين والمؤيدين

له، ويقول بنشأة مستقلة للتصوف الإسلامي دون تأثير من خارجه.

ودى لا جرانج De Lagrang (١٧٩٠ ـ ١٨٥٩)، تلميذه ومعاونه، اشتهر بشغفه بالصوفية العرب، وقد أكب على دراسة العربية وتأويلات وتخريجات ألفاظها ومرادفاتها كى يستطيع أن يفهم التصوّف الإسلامى وخصائصه التى تجعله فريداً ومتميزاً عن أى تصوّف هندى أو مسيحى أو عبرى، وله فيه التصانيف والبحوث التى نشرها فى المجلة الآسيوية.

* * *

١٣٥ - دى كورتى (المستشرق الأصولى)...

بافيه دى كورتى Pavet de Courteille (١٨٢١ ـ ١٨٨٩)، حفيد المستشرق دى ساسى، درس فى فرساى، وتعلّم على كاترمير، وبرسفال، ورينو، وانصرف باهتمامه إلى الآداب التركية، ومن ترجماته فى التصوف «تذكرة الأولياء» لفريد الدين العطار، وهى الكتاب العمدة فى الترجمة لأعلام الصوفية، وترجمته غير دقيقة، ويتميز بالرغبة فى ردّ الأفكار إلى أصحابها، والبحث عن أصولها من القرآن والسُّنّة.

* * *

١٣٦ - دى ماتيو (المستشرق البحّاثة)...

إجنازيو دى ماتيو De Matteo (١٨٧٢ ـ ١٩٤٨) إيطالى، كان شديد الاهتمام باللغة العربية والتصوّف الإسلامى، والجدل بين المسيحيين والمسلمين وتاريخه، وتوفر على ترجمة التائية الكبرى لابن الفارض، الشاعر المصرى الصوفى فى ٧٤٦ بيتاً، وتفسير ابن الفارض للتصوّف ومصطلحاته (مجلة الدراسات الشرقية سنة ١٩٢٠) وانتقده المستشرق نللينو بالنظر إلى ما ذهب إليه فى تفسير بعض المصطلحات الصوفية، أو ما فهمه منها عن ابن الفارض. وله بحوث فى الفكرة الإسلامية عمّا ينبغى أن يكون عليه الإيمان، أو ما تكون عليه الديانة الحقّة، وعن الروحانية فى الإسلام وفى النصرانية، وهى دراسة مقارنة، ونَشَر «الجواب الصحيح» لابن تيمية، وكتاب «الطبقات» لأبى بكر الزبيدى.

* * *

١٣٧ - دى مينار (المستشرق المعلم)...

باربيه دى مينار Barbier de Meynard (١٨٢٧ ـ ١٩٠٨)، له ترجمات عديدة من العربية إلى الفرنسية، ومن ذلك «المنقذ من الضلال» للإمام الغزالى، وبستان السعدى الشاعر الفارسى. وأسلوبه

تعليمي، وعباراته خبرية حافلة بالمعلومات، ولكنه ليس من المبدعين، ولا يضيف جديداً إلى فَهْم الأوروبيين للتصوّف الإسلامي.

* * *

١٣٨ - ابن دينار (مالك)...

كنيته أبو يحيى، فقد كان في زهده ونُسكه متشبّهاً بالنبيّ يحيى، وكان بكّاءاً كثير القراءة للتوراة والزبور والأناجيل ويقتبس منها، ويعتبر من أكثر الصوفية اقتباساً منها وذكراً لها، يقول: «مكتوب في الزبور: طوبى لمن يسلك طريق الأئمة ولم يجالس البطّالين»؛ و«بلغنا أنه لما بُعث عيسى ابن مريم أكبّ الدنيا على وجهها ثم رفعها الناس بعده»؛ «وقرأت في الحكمة أو في بعض الحكمة...»؛ و«قرأت في بعض الكتب...»؛ و«مكتوب في التوراة»: كان حبرٌ من أحبار إسرائيل»؛ و«بلغني أن عيسى عليه السلام...»؛ «رأيت جبلاً عليه راهب فناديت: ياراهب! أهدني شيئاً مما تزهّدني به في الدنيا...»؛ و«قرأت في الحكمة: إن الله يبغض كل حبر سمين...»؛ و«بلغنا أن بني إسرائيل خرجوا إلى مخرج لهم فقيل لهم: يا بني إسرائيل! تدعونى بألسنتكم وقلوبكم بعيدة عني. باطلٌ ما تذهبون». -وكان يتردد على الأديرة ويفعل فعل الرهبان، فكان يدعو إلى التجرّد ويقول لمن عرض عليه الزواج: «لو استطعتُ لطلّقت نفسي. أوَ ما تعلم أني قد طلّقت الدنيا؟ لا يبلغ الرجل منزلة الصدّيقين حتى يترك زوجته كأنها أرملة»، «يقولون الجهاد! الجهاد! - أنا من نفسي في جهاد». ومن حِكَمه: «كلام العالِم دواء للمخاطئين». و«الصدق والكذب يعتركان في القلب حتى يُخرج أحدهما صاحبه». ومن أقواله: «كنت مولعاً بالكتب أنظر فيها، فدخلت ديراً من الديارات، فأخرجوا كتاباً من كتبهم، فنظرت فيه، فإذا فيه: يا ابن آدم! لِمَ تطلب علْم ما لم تعلم، وأنت لا تعمل بما تعلم؟!». وقيل في ذلك إن مالكاً أول صوفي يظهر في كلامه الأثر اليهودي النصراني نتيجة غشيانه الأديرة. وأتساءل: هل كان مالك يعرف السريانية ليقرأ هذه الكتب؟ ثم إن أغلب ما ينسبه إلى التوراة والأناجيل والزبور ليس منها في شيء!! والكلام بأنه يقتبس منها هو كلام المستشرقين، ولم يبذل أي منهم جهده في تحقيق هذه الاقتباسات إن كانت موجودة حقاً. وعلى كلٍّ، فهذه الاقتباسات المدّعاة لا تبشّر بالخير، وتنبئ عن ثقافة غير إسلامية، وأن مرجعية هذا الصوّفي مرجعية مناقضة للإسلام وللسُّنّة.

وابن دينار كان مولى لامرأة من بني

ساقة بن لؤى، وصَحِب الحسن البصرى ومحمد بن واسع، ومات نحو سنة ١٣١ هـ، ولنلاحظ أن أغلب صوفية البصرة كانوا من الموالى، ولذلك أثره الكبير على التصوف فيما يسمى تلاقُح الثقافات. . ولا أقول إنهم كانوا يقتبسون من واحدة وينقلون ما يقتبسون إلى الأخرى، وإنما كانوا ينقلون روح الثقافة أو معناها، حتى ليبدو كلامهم كأنه من هذه الثقافة، وعند الفحص يتبين غير ذلك: ﴿يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾ (آل عمران ٧٨)، غير أن الأثر الثقافى يبدو فى المعانى أكثر منه فى العبارات. وذلك دليل على ان ابن دينار كان على النصرانية قبل أن يقال إنه تأسلم. وكان ابن مالك يتكسّب من شيئين: عمل الخوص، ونسخ القرآن، وكان يكتب المصحف فى أربعة أشهر ولا يأخذ أجراً عليه أكثر من عمل يده. وكان أُدْمُه كلَّ سنة ملحاً بفلسين، ونأتى عليه السنة لا يأكل فيها لحماً إلا فى يوم الأضحى ومن أضحيته. وكان يلبس إزاراً وعباءة، ويقول: لو صلح لى أن أعمد إلى بُرد لى، فأقطعه اثنتين، فأتزّر بقطعة، وارتدى بقطعة، لفعلت. ولولا أن يقول الناس جُن مالك لَلبست السوح (اصطلاح نصرانى!)، ووضعت الرماد على رأسى، أنادى فى الناس: من رآنى فلا يعصَ ربّه عزّ وجلّ. - وسئل عن لبس الصوف فقال: أما أنا فلا أصلح له، لأنه يطلب صفاءً. وكان بيته خالياً ليس فيه غير مصحف وإبريق وحصير، ويقول: هلك أصحاب الأثقال. - وكان يقول فى دعائه: اللهم لا تُدخل بيت ابن دينار من الدنيا شيئاً. - وقال فى الدنيا: اتّقوا السحّارة، (يقصد الدنيا)، فإنها تسحر قلوب العلماء. - وقال: خرج أهل الدنيا ولم يذوقوا أطيب شئ فيها. قالوا له ما هو؟ قال: معرفة الله عزّ وجلّ. إنما مثل الدنيا كالسم، أكله مَنْ لم يعرفه، واجتنبه من يعرفه. ومثل الدنيا مثل الحيّة، مَسُّها لين، وفى جوفها السم القاتل، يحذرها ذوو العقول، ويهوى إليها الصبيان بأيديهم». وكان كثيراً ما يحبس نفسه فى بيته ويبكى ويشهق، وكثيراً ما يُغشَى عليه من كثرة المواجيد، ودخل المقابر فى دفنة أحد الناس، ووقف على القبر وهم يوسّدونه التراب، فجعل يندب ويقول: «مالك غداً هكذا يصير» وظل يردد ذلك حتى أغشى عليه. وسمع قارئاً يقرأ القرآن: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ (الزلزلة: ٤)، فجعل ينتفض، حتى إذا

قرأ: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ (الزلزلة ٧)، أخذ يبكي ويشهق حتى غشي عليه. وكان يقول: لم يبق من رَوْح الدنيا إلا ثلاثة: لقاء الإخوان، والتهجّد بالقرآن، وبيت خال يُذكر الله فيه». وكان دائم الحزن، فإذا سُئل فيه، قال: القلب إن لم يكن فيه حزن خَرِبَ، كما أن البيت إذا لم يُسكَنْ يخرب». وكان يزجر حملة القرآن الذين لا يفيدون منه في سلوك الصلاح والتقوى، قال: «يا حملة القرآن، ماذا زرع القرآن في قلوبكم؟ فإن القرآن ربيع المؤمن، كما أن الغيث ربيع الأرض». وكان يقول: للأمراء قراء، وللأغنياء قراء، وللرحمن قراء»، وكان يزجر الولاة وينصح لهم، كأستاذه الحسن البصري. وسأله بعض الولاة: ادعُ لنا، فقال: كيف أدعو لكم، وألف واحد يدعون عليكم؟!! وكان يقول: إذا تعلّم العبد العلم ليعمل به كثر علمه، وإذا تعلّمه لغير العمل، زاده فجوراً وتكبّراً واحتقاراً للعامة». وقال: «خرج أهل الدنيا من الدنيا ولم يذوقوا أطيب ما فيها»، فسألوه: وما أطيب ما فيها؟ قال: «معرفة الله تعالى». وقال: «فما تنعّم المتنعّمون بمثل ذكر الله. ولقد قرأت في التوراة: أيها الصدّيقون: تنعّموا بذكر الله في الدنيا، فإنه لكم في الدنيا نعيم وفي الآخرة جزاء عظيم». وخير الذكر عند ابن دينار قراءة القرآن، يقول: إن الصدّيقين إذا قرئ عليهم القرآن، طربت قلوبهم إلى الآخرة»، وكان يمسك بالمصحف ويقرّبه لأصحابه ويقرأ ويقول: اسمعوا إلى قول الصادق من فوق عرشه!» وكان يسأل أصحابه إذا قرأوا القرآن أن يقرأوه بأصوات حزينة ويقول: وجدت في بعض الكتب ـ يقصد المزامير ـ: سبّحوا الله أيها الصدّيقون بأصوات حزينة» ولا أدري لماذا يقتبسَ أو ينسب كثيراً إلى التوراة أو غيرها ـ إن كانت هذه اقتباسات منها حقاً ـ ولدينا من الأحاديث العشرات تقول نفس المعنى بعبارات أجمل وأوقع في النفس؟! ولكن ثقافته كانت توراتية فيما يبدو، أو يزعم، أكثر منها قرآنية سنّية، فكان كثير الإحالة للتوراة، حتى أنه عندما يوصي أصحابه يقول: زمّرنا لكم فلم ترقصوا ـ أي وعظناكم فلم تتعظوا، والعبارة من الأسفار القديمة ومترجمة بالنص إلى اللغات الأوربية. ومن إحالاته للمزامير يقول: قال داود نبيّ الله: يامعشر الأتقياء تعالوا أعلمكم خشية الله. أيّما عبدٌ منكم أحبّ أن يحيا ويرى الأعمال الصالحة فليحفظ عينيه أن ينظر إلى السوء، وأن يحفظ لسانه أن ينطق بالإفك. عين الله إلى الصدّيقين وهو يسمع لهم».

ويقول: قرأت في التوراة: إبن آدم، لا تعجز أن تقوم بين يديّ في صلاتك باكياً، فإني أنا الله الذي اقتربت لقلبك، وبالعين رأيت نوري». والنص غير موجود في المزامير وإنما بمعناه أو بروحه.

ويرد اسم مالك في بعض الروايات عن رابعة العدوية كرفيق لسفيان الثوري والحسن البصري وشقيق البلخي، ويروى عنه أنه قال: ذهبتُ إلى رابعة فوجدتها تشرب من جرّة مكسورة، وقد فرشت على الأرض حصيرة عتيقة، ومخدتها من الطوب اللَّبن، فقلتُ وقلبي يغلي: يا رابعة! لي أصدقاء أغنياء، فإن سمحتِ لي سألتهم أن يعطوني شيئاً من أجلك! أجابت: لقد أسأت القول يا ابن مالك! إن الله تعالى هو الذي يرزقني ويرزقهم. أفمن يرزق الأغنياء لا يرزق الفقراء؟ ! فإذا كانت هذه مشيئته فنحن من جانبنا نرضى عنها كل الرضا.

وفي إحدى المرات كان مالك بصحبة الحسن والبلخي، فقال الحسن: ليس بصادق في دعواه من لم يصبر على ضرب مولاه. وقال البلخي: ليس بصادق في دعواه من لم يشكر على ضرب مولاه. وقال مالك: ليس بصادق في دعواه من لم يتلذذ بضرب مولاه. فصاحت رابعة: ليس بصادق في دعواه من لم ينس الضرب في مشاهدة مولاه، مثل نسوة مصر اللائي نسين آلام أيديهن لما رأين وجه يوسف!

وهذه الروايات ترسم صورة لرابعة في مقام أعلى من مقام مالك والحسن والبلخي، ومقامها مقام المشاهدة، بينما مقام مالك مقام التوجّد. وفي المشاهدة وصْلٌ بين رؤية القلب ورؤية العين، وقربٌ مقرون باليقين. ولذلك لم تشعر رابعة بالضرب من مشاهدة الله؛ وأمّا عند مالك فمن يشاهد الله بقلبه، يجد في الضرب تلذّذاً، أي حلاوة، وهو مايعنيه الوجد.

وكثرة مواجيد مالك كانت سمة عليه، فكان يبكي ويشهق حتى ليُغشى عليه، ومن مشهوراته لمّا سألوه أن يدعو في موته قارئًا، قال: إن الشكلى لا تحتاج إلى نائحة! ـ ومات مالك قبل طاعون البصرة بيسير، وكان الطاعون سنة ٦٣١ هـ، ولما حضره الموت قال : لولا أني أكره أن أصنع شيئاً لم يصنعه أحد قبلي ، لأوصيت أهلي إذا متُّ أن يقيّدوني ، وأن يجمعوا يديّ إلى عنقي ، فينطلقون بي على تلك الحال حتى أدفن ، كما يُصنع بالعبد الآبق!

وكان يخشى النار ويقول: لو وجدت أعواناً لفرقتهم ينادون في سائر الدنيا كلها: يا أيها الناس! النار النار!. أو يقول: لو وجدت أعواناً لناديت في منار البصرة بالليل: النار النار!

وكان يسير خلف الجنازات فإذا اقترب من المقابر أنشد بصوت حزين:

ألا حيّ القبور ومن بهنّه
وجوهٌ في التراب أحبهنّه
فلو أن القبور أجبن حياً
إذًا لأجبننى إذ زرتهنّه
ولكن القبور صمتن عنى
فأبتُ بحسرةٍ من عندهنّه

وقال يوماً: أتيت على قبر فإذا عليه مكتوب:

يا أيها الركب سيروا إن غايتكم
أن تصبحوا ذات يوم لا تسيرونا
حثّوا المطايا وأرخُوا من أزمّتها
قبل الممات وقضوا ما تقضونا
كنا أناساً كما كنتم فغيّرنا
دهرٌ فسوف كما كنا تكونونا

ومن شعره:

مُؤمِّل دنيا لتبقى له
فمات المُؤمِّل قبل الأمل
يربى فسيلاً ويُعنَى به
فعاش الفسيل ومات الرجل

* * *



١٣٩ - أبو ذرّ الغفاري (رابع الإسلام)...

التصوف تألُّه وتدلُّه، وأبو ذرّ عرف الله قبل الإسلام، وقال لا إله إلا الله، ولم يتعبّد لصنم. واسمه مختلف عليه، فهو جُنْدُب بن جُنادة من غفّار، وهو بُرَيْر بن جنادة. وسبب إسلامه أن قبيلته عانت القحط فارتحل بأمه وأخيه إلى مكة. يقول: صليت قبل أن ألقى رسول الله ﷺ بثلاث سنوات، أتوجه حيث يوجهني الله، أصلي عشاءً إلى السَّحر حتى تعلوني الشمس. وفي رواية قال: صليت قبل الإسلام بأربع سنين، وكنت أتأله، أي أعبد إله السماء، وكانت قبلتي حيثما وجّهني الله. وفي رواية قال: رأيتني أقوم عند الشمس فلا أزال مصلياً حتى يؤذيني حرّها. وكان قد بلغه ظهور رجل بمكة على دينه - دين أبي ذر - يزعم أن الله أرسله، يقولون شاعرٌ، أو كاهنٌ أو ساحرٌ، وشنّع عليه أهل مكة وتجهّموا له. وكانت السَّنَة - أي المجاعة - قد أصابت أهل غفار، فارتحل أبو ذر في يقصد مكة. وكان أبو ذر في بدايته يصيب الطريق ويقطعه على المسافرين - يعني أنه كان قاطع طريق، فكان يُغير على القوافل في عَماية الصُبح، على ظهر فرسه أو على قدميه، فيطرق المارة ويأخذ ما يأخذ، ولهذا أطلقوا عليه أبا ذرّ، أي الطَّلاّع، يطلع برأسه على القوافل كالنبات في أول خروجه من الأرض. فلمّا سمع بالإسلام جاء النبيّ ﷺ وهو بمكة يدعو متخفياً، فأقبل يسأل عن الصابئ، أي النبيّ كما كان أهل الشرك يسمونه حينذاك، لأنه صبأ من دين آبائه - أي تركه، وأتاه أبا ذرّ في منزله، فحيّاه تحية الإسلام، فكان أوّل من حيّاه بها، قال: السلام عليك، وردّ عليه الرسول ﷺ قال: وعليك رحمة الله. فسأله ما تدعو؟ قال ﷺ: «أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأني رسول الله». فكان أبو ذرّ رابع الإسلام، فلم يكن قد أسلم قبله إلا ثلاثة كان هو رابعهم. وانصرف من عند رسول الله ﷺ، فكان يعترض عيرات (جمع عير) قريش، فيقتطعها ويقول: «لا أردّ إليكم منها شيئاً حتى تشهدوا: «أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله»، فإنْ فعلوا ردّ عليهم ما أخذ منهم، وإن أبوا لم يردّ عليهم شيئاً.

ويقول أبو ذر: أنه لمّا أسلم، لم يُرِد أن يستتر بالإسلام، وطلب أن يُظهره، فضربه فتية قريش حتى صُرِع. وظل بعد إسلامه به بعض الجاهلية - يعنى المعارضة والتمرد والعصيان والثورة - حتى قال له رسول الله ﷺ: «ما ذهبتْ عنك أعرابيتك بعد». ولم يشترك أبو ذرّ فى بدر ولا أُحد ولا الخندق، وكان قدومه إلى المدينة بعد ذلك، وكان يحدّث عن النبىّ ﷺ فيقول: «قال لى خليلى»، أو «أوصانى خليلى» - وكان له ملازمًا وجليسًا، وعلى مسائلته والاقتباس منه، والقيام على ما استفاد منه حريصًا.

ولمّا كانت خلافة عثمان سكن الشام، وكانت قد كثرت الأموال فى ولاية معاوية عليها، أى على الشام، فاختلف مع معاوية «فى توزيع الأموال وطريقة إنفاقها»، واعتبر «المال مال الله»، وهو «للمساكين وليس للولاة»، واحتكم إلى الآية: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (التوبة ٣٤)، وقال معاوية: نزلتْ فى أهل الكتاب، وقال أبو ذرّ: «فينا وفيهم»، فكتب يشكوه إلى عثمان، واستقدمه عثمان إلى المدينة، وكان أبو ذر يفتى الناس ويؤلّبهم، فأغلظ له عثمان حتى ارتفعت أصواتهما، ونفاه عثمان إلى الربَذْة قريباً من المدينة، وأمر له بلقاح، فقال أبو ذر: لا حاجة لى فى دنياكم! وفى الربذة عرض عليه معارضو عثمان أن ينضم إليهم، فقال: يا أهل الإسلام لا تعرضوا علىّ ذاكم، ولا تذلّوا السلطان، فإنه مَن أذلّ السلطان فلا توبة له. والله لو أن عثمان صلبنى على أطول خشبة أو أطول جبل، لسمعتُ وأطعتُ وصبرتُ واحتسبت، ورُئيتُ أن ذاك خير لى - يعنى كان الشأن فى تصوّفه :المعارضة الإيجابية، دون الخروج على السلطان، ولسانه هو سلاحه فى المطالبة بالإصلاح. ولعله أول اشتراكى مسلم يطالب بالتوزيع العادل للثروة بين الطبقات، وتطارده من أجل ذلك الحكومات الإسلامية، لأنه ضد السلطة الظالمة، وأول من طالب بالتغيير السياسى، وأول من كان له برنامج إصلاحى. ولم يكن يعيب أبى ذر إلا رفضه الخروج على السلطة، دون أن يقدّم بديلاً للمعارضة، وهو ما ستلجأ إليه المعارضة من بعد، حين يُمنَع المعارضون من إبداء رأيهم. وكان أبو ذر صادقاً الصدق كله فى دعوته، وقال فيه الرسول ﷺ: «ما أقلّت الغبراء، ولا أظلّت الخضراء من رجل أصدق من أبى ذر». وكان شديد التواضع فقال فيه ﷺ: «من سرّه أن ينظر إلى

تواضع عيسى بن مريم فلينظر إلى أبي ذرّ».

ولما وقع أبو ذر مع معاوية، أمر معاوية بتوقيفه، وأن لا يجالسه أحدٌ حتى لا ينشر التمرد، ويفشي المعارضة، ويوغر صدور الناس ضد السلطة، ويُشربهم فهمه الاجتماعي لرسالة المال، ودور السلطة إزاءه. فكان ذلك أول توقيف سياسي إسلامي، وبلغ الحدّ بمعاوية أن أعلن هذا التوقيف مناد. وقال أبو ذر: «إن خليلي - يقصد النبيّ ﷺ - عهد إلى أنّ أي مال ذهب أو فضة أُوكي عليه، فهو جَمْر على صاحبه حتى يفرغه في سبيل الله». وكان عطاء أبي ذر في السنة أربعة آلاف، يقتطع منها ما يكفيه ليومه، وينفق الباقي في سبيل الله، وخاصم الأشعري لما رآه يبني للدنيا. واختار لنفسه زوجته «أم ذر» امرأة سحماء شعثة، وأنجب منها بنتاً. ولما توفي ترك: أتانين، وعفواً، وأعنزاً، وركائب. والعفو حمار ذكر. ولم يشأ له الرسول ﷺ أن يوليه إمارة لعصبيته.

ولم يحدث أن كان في بيته ما يساوي درهمين. وما كان يبالي في الله لومة لائم، وكان شحيحاً على دينه، حريصاً على العلم. ولما حضرته الوفاة بالربذة بكت امرأته لأنه ليس عندها ثوب تكفّنه فيه، فقال لها: لا تبكي فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: ليموتن رجلٌ منكم بفلاة من الأرض تشهده عصابة من المؤمنين». قال: وقد أصبحتُ بالفلاة أموت، فراقبي الطريق. - ورأت خيلاً عليها ناسٌ قادمون، فاستوقفتهم وقالت لهم: امرؤ من المسلمين تكفنونه وتُؤجَرون فيه! وعرفوا منها أنه أبو ذر صاحب رسول الله ﷺ، وقال لهم وهو يحتضر: «لا يكفنّي رجل منكم كان أميراً، أو عريفاً، أو مريداً، أو نقيباً». - وكان مع الركب عبد الله بن مسعود فقال وهو يبكي: صدق رسول الله ﷺ! يقول عن أبي ذرّ: «تمشي وحدك، وتموت وحدك، وتُبعث وحدك!».

وفي فلسفة أبي ذرّ في زواج الزاهد الراغب في الله، لما انتقدوا عليه زواجه من سحماء، قال: أتزوج من تصنعني أحَبُّ إليَّ ممن ترفعني.

وفي فلسفته في علاقاته الاجتماعية بالناس، قال: مازال لي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حتى ما ترك لي الحق صديقاً! وقال: إني لأقربكم مجلساً من رسول الله ﷺ يوم القيامة، وذلك أني سمعته يقول: «إن أقربكم مني مجلساً يوم القيامة مَن خرج من الدنيا كهيئة ما تركتُه فيها»، وإنه والله ما منكم من أحد إلا وقد تشبث بشيء منها غيري. وكان يقول: يكفني من الدنيا كل يوم شربة ماء أو لبن،

وفي الجمعة قفيزٌ (زنبيل) من القمح. وقال : كان قُوتي في عهد رسول الله ﷺ صاعاً (مكيال)، فلا أزيد عليه حتى ألقى الله.

وقال: إن بني أمية تهددني بالفقر والقتل، ولَبَطن الأرض أحَبُّ إليَّ من ظهرها، والفقر أحبُّ إليَّ من الغنىَ ! ـ وبلغ من حدّه في الزهد أن قال: لقد أصبحتُ وإن الفقر أحبُّ إليَّ من الغنى، والسُّقْم أحبُّ إليّ من الصحة، والموت أحبُّ إليَّ من الحياة.

وكان يقول: جزى الله الدنيا عني مذمةً بعد رغيفين من الشعير أتغدّى بأحدهما وأتعشى بالآخر. وبعد شملتيّ الصوف، أتزّر بإحداهما وأرتدي الأخرى».

ويروى عنه سفيان الثوري: أنه قام عند الكعبة، فقال: يا أيها الناس! أنا جُنْدب الغَفّاري. هَلُم أيها الأخ الناصح الشفيق». فاكتنفه الناس (أحاطوا به) فقال: أرأيتم لو أن أحدكم أراد سفراً، أليس يتخذ من الزاد ما يصلحه؟ فقالوا: بلى. قال: فسفر طريق القيامة أبعد ما تريدون، فخذوا منه ما يصلحكم. قالوا: وما يصلحنا؟ قال: حجّوا حجَّة لعظائم الأمور. صوموا يوماً شديداً حَرُّه لطول النشور. صلّوا ركعتين في سواد الليل لوحشة القبور. ثم قال: يا أيها الناس! قد قتلكم حرصٌ لا تدركونه أبداً.

ومن أقواله في الأموال: في المال ثلاثة شركاء: الأول ـ القَدَر لا يستأمرك أن يذهب بخيرها وشرّها من هلاك أو موت؛ والثاني ـ الوارث ينتظر أن تضع رأسك ثم يستاقها وأنت ذميم؛ وأنت الثالث ،فإن استطعت ألا تكون أعجز الثلاثة فلا تكوننه، إن الله يقول: ﴿ لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ (آل عمران ٩٢).

وقال له رجل: يا أبا ذرّ، مالك إذا جلست إلى قوم قاموا وتركوك؟ قال: إني أنهاهم عن الكنوز. وقال: يولدون للموت، ويعمّرون الخراب للخراب، ويحرصون على ما يفنى، ويتركون ما يبقى! ألا حبذا المكروهان: الموت، والفقر !

وكان يقول: ذو الدرهمين أشد حساباً من ذي الدرهم. ويقول: والله لو تعلمون ما أعلم، ما ابّاسطتم إلى نسائكم، ولا تقادرتم على فُرشكم. والله لوددتُ أن الله عز وجلّ خلقني يوم خلقني، شجرة تُعضَد ويوكل ثمرها!

وقال في انصراف الناس عنه: إن قيامي بالحقّ لله تعالى لم يترك لي صديقاً، وإنّ خوفي من يوم الحساب ما ترك على بدني لحماً، وإنّ يقيني في ثواب الله ما ترك في بيتي شيئاً.

ورُوي عنه أنه كان يبكي من خشية الله

حتى اشتكت عيناه. وقيل فيه إنه أول من تكلم في علم الفناء والبقاء. وهكذا كان أبو ذر من المتصوفة البكّائين، ومن أصحاب المواجيد، وعمل للآخرة والدنيا، وأقام الدين فأمر بالمعروف ونهى عن المنكر، ودعا إلى الخير، وقاوم المنكر بلسانه وهذا أضعف الإيمان، فذلك ما يسمونه التصوّف الإيجابي.

* * *

١٤٠- ذو النون المصري...

أبو الفيض ثوْبان بن إبراهيم، الأخميمي المصري، نوبيّ (٢٨٣ ـ ٣٥٣ هـ) كتب عنه أبو عمر الكندي في كتابه «أعيان الموالي» فذكر أنه كان «مولى لقريش ،وكان أبوه نوبياً» ، ووصفوه فقالوا كان نحيفاً طويلاً تعلوه «حُمرة» (والنوبيون يقولون عن الأسمر أنه أحمر)، وليس بأبيض اللحية!

وقيل في ذي النون أنه كان فائق هذا الشأن ـ يعني التصوّف ـ وأوحد وقته علماً وورعاً وحالاً وأدباً ، وقال فيه المستشرق العلامة نيكلسون: هو أحقّ رجال الصوفية على الإطلاق أن يُنسَب إليه أنه وضع أسس التصوف.

وقد اعترف لذي النون بالفضل كتّاب التراجم المؤرخون من المسلمين ، وفيه يقول جامي في كتابه «نفحات الأنس»: هو رأس هذه الفرقة (يعني الصوفية)، فالكل قد أخذ عنه وانتسب إليه. ولقد سبقه في التصوف مشايخ، ولكنه كان أول من فسّر إشارات الصوفية وتكلم في هذا الطريق، وكان أول من تكلم في مصر في الأحوال ومقامات أهل الولاية، وأول من عرّف التوحيد بالمعنى الصوفي، وكان له أكبر الأثر في تشكيل الفكرة الصوفية.

ويروى ابن خلكان: أن ذا النون كان عبداً أعتقته قبيلة قريش وأدخلته في ولائها، وأنه تتلمذ على الإمام مالك، وروى كتاب الموطأ نقلاً عنه.

وذو النون كان أستاذه في التصوف: شقران العبد، أو إسرافيل المغربي، وكان حكيماً، فصيح العربية، وشاعراً. وكان من الملامتية، لأنه أخفى نقواه بظهوره بين الناس بالاستخفاف بأمور الشرع، ولذلك عدّه المصريون زنديقاً، ولو أنهم اعترفوا له بالولاية بعد موته.

وذو النون يذكره صاحب الفهرست بين الفلاسفة الذين تكلموا في علم الكيمياء، وينسب إليه كتابين في هذه الصنعة. ويعدّه ابن القفطي في كتابه «إخبار العلماء بأخبار الحكماء» من طبقة جابر بن حيّان في انتحال صناعة الكيمياء

وعلم الباطن وعلوم الفلسفة. وكان كثير الملازمة لبلدة بربا أخميم، فإنها بيت من بيوت الحكمة القديمة، وفيها التصاوير العجيبة والمقالات الغريبة من آثار المصريين القدماء، التى تزيد المؤمن إيماناً والكافر طغياناً، ويقال إنه فُتح عليه علم ما فيها بطريق الولاية، وكانت له كرامات. وقيل فى اسمه «ذى النون» لأنه امتُحن فى دينه مثل النبىّ يونس، وأوذى كثيراً لكونه أتى بعلم جديد هو علم التصوف. ولقّبوه بـ «أبى الفيض» لأنه كانت له مواهب فيضية. ونسبه «المصرى» عند غير المصريين من الصوفية، فقد كان كثير الأسفار وطَلَبِ الإخوان؛ ويحكى هو عن نفسه حكايات كثيرة، فيها أنه كان فى مكة، وفى البصرة، والشام، وفيه بنى إسرائيل - يقصد سيناء، وساحل البحر، وجبال أنطاكية، والبصرة، وجبال بيت المقدس، وكان هو أيضاً ينادى على الصوفية تقول: يا خراسانى، ويا بصرى، ويا كوفى، وهكذا.

وينفرد ذو النون بغرامه بالطبيعة، فيحكى أنه بينما هو سائر على شاطئ نيل مصر، أو سائر بين الأشجار. وكان كثيراً ما يدعو، وفى دعواته أرق الأوصاف للطبيعة، من مثل قوله: إلهى ما أصغى إلى صوت حيوان، ولا حفيف شجر، ولا خرير ماء، ولا ترنُّم طائر، ولا تنعُّم ظل، ولا دوىّ ريح، ولا قعقعة رعد، **إلا وجدتها شاهدة بوحدانيتك، دالّة على أنه ليس كمثلك شئ.** - ويقول فى دعاء آخر وقد نظر إلى السماء والماء على ساحل البحر عند صخرة موسى: **سبحان الله ما أعظم شأنكما، بل شأن خالقكما أعظَم منكما ومن شأنكما».**

ولم نعثر فى كلام أحد من الصوفية على مثل كل هذه التعاريف لألفاظ الصوفية مثلما عند ذى النون، وتكلم فى كل شئ من: **معرفة وعارف، وأنس ووجد، وسماع وتوبة، وإخلاص وتقوى، وورع وتوكل، وغفلة وخوف إلخ،** ويفرّق بين **توبة الخواص وتوبة العوام، والعلم والمعرفة، والظاهر والباطن.** وعندما يتحدث إلى الإخوان يقول: «يا حبيبى»، ولا نعلم أحداً سبقه إلى ذلك. وكلامه أغلبه فى المحبة، وشعره ينصرف فى معظمه إلى المحبة وأشواقها ولواعجها، والحبيب، والغيبة، والوصال، ويؤسّس كل الذنوب على النظرة، ومن النظرة تكون الخَطرة، فإن تداركتَها ذهبتْ، وإلا امتزجت بالوساوس، فتتولد منها الشهوة، ثم الطلب.

ويبدو أنه كان يعانى من الحرمان

الجنسي، ولم نقرأ عنه أنه تزوج، ولكنه دائم التحذير من شهوة الفرج، وتكثر في حكاياته لقاءاته مع نساء، وقد أحصيتُ عدد النساء اللاتي التقى بهن فوجدتُ أنهن ثماني عشرة امرأة. يقول: بينما أنا أسير في جبال أنطاكية وإذا أنا بجارية؛ أو بينما أنا في بعض مسيري إذ لقيتني امرأة؛ وكنت على شاطئ النيل إذ بجارية تدعو؛ أو كنت في الصحراء فنظرت فإذا امرأة؛ ولقاءاته معهن تكون دائماً على خلفية من الطبيعة وليس معه والمرأة التي يلتقي بها أحد، ودائماً تتحدث إليه النساء عن المحبة، فتعاتبه إحداهن مثلاً عندما يتقدم محادثاً لها فتقول: ما للرجل ومخاطبة النساء؟ ويسألها عن المحبة فتتعجب منه أنه وهو العارف يزعم الجهل بها ، ولا تجد بأساً أن تعرّفها، فتقول :**أولها لهيج القلب بذكر المحبوب، والحزن الدائم، والتشوّق اللازم، فإذا صاروا إلى أعلاها شغلهم وجدان الخلوات عن كثير من أعمال الطاعات»!** ومن الغريب أن ذا النون يورد على لسان هذه المرأة ذاتها أبياتاً لرابعة العدوية في المحبة، وهي الأبيات المشهورة التي تقول فيها :

أحبُّك حبّين حبَّ الهوى
وحباً لأنك أهل لذاكا

فأمّا الذي هو حبّ الهوى
فذكرٌ شُغلت به عن سواكا
وأما الذي أنت أهلٌ له
فكشفُك للحُجب حتى أراكا
فما الحمد في ذا ولا ذاك لي
ولكن لك الحمد في ذا وذاكا

وقد نتساءل: هل تكون هذه المرأة رابعة؟ وهل التقى ذو النون ورابعة العدوية؟ إلا أننا نعلم أن رابعة توفيت حوالي سنة ١٨٥ هـ، بينما ذو النون توفي سنة ٢٤٥هـ. ومما ينسبه ذو النون لهذه المرأة التي قيل أنها رابعة، أو شبيهة رابعة، أو المحبة لرابعة، فتحب أن تنشد أبياتاً لها، قولها:

يامؤنس الأبرار في خلوتهم
يا خير من حلت به النُّزّال
من ذاق حبَّك لا يزال متيّماً
فَرِح الفؤاد متيماً بلبال
من ذاق حبك لايُرىَ متبسماً
من طول حزن في الحشا إشعال

وكل النساء اللاتي يَرِدن في روايات ذي النون عابدات زاهدات، أو لهن قصص مأساوية، كقصة المرأة التي خطف ابنها التمساح على النيل.

ومجلس ذي النون الذي يجمع أصفياءه

وأصحابه، كثيراً ما يتناول موضوع المحبة الذى يتطرق إليه أستاذهم فى شعره وحكاياته، وذو النون يحذرهم أن يتحدثوا بها أمام السفلة أو المدّعين لئلا يدّعوها. ويعتبر ذو النون المحبة ميزة الإنسان، وهى سرّ الله أودعه فى القلوب، وإلا كان الإنسان بمنزلة البهيمة. وحتى عندما اتّهموه بالزندقة، وأمَرَ الخليفة المتوكل باستحضاره من مصر إلى بغداد مكبّلاً فى الحديد، يحكى ذو النون أنه لقيته امرأة فقالت: إذا دخلت على المتوكل فلا تهبه، ولا تر أنه فوقك، ولا تحتجّ لنفسك مُحقاً كنتَ أو متّهماً، لأنك إن هِبته سلّطه الله عليك، وإن حاججت عن نفسك لم يزدك ذلك إلا وبالاً. ـ ويبدو أن هذه النصيحة التى يسردها ذو النون هى دفاعاته النفسية، نتيجة دوافع داخلية يجلّيها أنه كان نوبياً ومن الموالى. وله فى التواضع رأىٌ إذا طلب أحدٌ منك أن تكون متواضعاً يقول: **إن سؤاله إياك أن تتواضع يدل على تكبّره فى الباطن، وتواضعك له يكون عوناً له على أن يتكبّر**».

ولقد جاءه أحد مريديه وقال له: إن امرأتى تقرأ عليك السلام، فقال: لا تُقرءونا من النساء السلام! ـ وله نصيحة عجيبة عن نساء العراق فيقول: من أراد تجريد التوحيد وخالص التوكل، فعليه بالنساء الزُمنَى ببغداد!

ويبدو أن هذه الروايات من تضارب مؤرّخيه واختلاف اتجاهاتهم فيه، كمثل القول بأنه قرشى ومن مكة، ثم الادعاء بأن ثقافته مصرية فرعونية، واهتماماته بعلوم المصريين القدامى فى الكيمياء والسحر وغيره، والإلحاح فى نسبته بأنه مصرى متديّن، ومن النوبة. ومن الغريب فى ذلك المجال أنهم ينسبون إليه نبوءتين عن مصر، الأولى قوله وهو يومىء إلى موضع بمصر: كأنك عن قليل ترى هذه المدينة عامرة وتخرج منها الخيل المحذفة وقوم عُجم، وعن قليل تراها خراباً». ويعلق راويه بأنهم رأوها عامرة ورأوها كذلك خراباً. وقوله: سيأتى على الناس زمان تكون الدولة فيه للحمقى على الأكياس». ويفسر الشعرانى النبوءة بأن **الأحمق هو الذى يتّبع هواه، والكيّس هو الذى يدين نفسه ويعمل لما بعد الموت، أى تكون الدولة للمفسدين على الصالحين الذين يخشون الله.**

ومن الطريف أيضاً أن ذا النون تحدث فى الضمير، وهى أول مرة فيما نعلم يرد ذلك فى كلام صوفى، ولا نعلم أحداً من الصوفية المتأخرين قد ذكره بالاسم

الصريح، ويقول ذو النون: إذا اطّلع الخبير على الضمير، فلم يجد في الضمير غير الخبير، جعل فيه سراجاً منيراً.

ومما يروى عن لقاءاته بالنساء سلامه على جارية التقى بها في جبال الشام عرفته، وسألها كيف عرفته؟ فقالت: فتق الحبيب بيني وبين قلبك، فعرفتك باتصال حبّ الحبيب. ثم قالت: أسألك مسألة؟ قالت: أي شيء السخاء؟ قال: البذل والعطاء. قالت: هذا السخاء في الدنيا، فما السخاء في الدين؟ قال: المسارعة إلى طاعة المولى. قالت: فإذا سارعتَ إلى طاعة المولى تحبّ منه خيراً؟ قال: نعم. قالت: المسارعة إلى طاعة المولى أن يطّلع إلى قلبك وأنت تريد منه شيئاً بشيء. ويحك يا ذا النون! كأجير السوء، إذا عمل طلب الأجر. لكن اعمل طلباً لهيبته عزّ جلاله!

ويلتقي ذو النون وامرأة أخرى في مسيرة من مسيراته، وكانت تدعو وتقول: يا من عند فكرة الحامدين! يا من هو على نفوس الجبّارين والمتكبّرين! قد علمت ما كان مني يا أهل المؤمّلين!

ويحكى عن امرأة أخرى التقى بها في الكعبة كانت تنشد:

ذوّقتني طيب الوصال فزدتني
شوقاً إليك مخامر الحسرات

وقالت:

روّعت قلبي بالفراق فلم أجد
شيئاً أمرَّ من الفراق وأوجعا
حَسْبُ الفراق بأن يفرّق بيننا
وأطال ما قد كنت منه مودعا

وقالت: يا ذا النون! أما علمت أن الشوق يورث السُّقم! وتجديد التذكار يورث الأحزان. وأنشأت تقول:

لم أذق طعم وَصْلك حتى
زال عني محبتي للأنام

وقالت:

نِعْم المحب إذا تزايد وصله
وغلت محبته بعُقب وصال

والغالب أن كل من التقى ذو النون بهن من النساء إنما من تأليفه، وشعرهن من وحي خاطره.

ومن غريب أقواله في المريد: «طاعة المريد لشيخه فوق طاعته لربّه»، فجعل طاعة المريد للشيخ طاعة عمياء، ويقول بمقالته أبو علي الدقّاق عن شيخه أبي القاسم النصراباذي: «وكنت أفكر في نفسي كثيراً أنه لو بعث الله في وقتي رسولاً إلى الخلق، هل يمكنني أن أزيد في حشمته على قلبي فوق ما كان منه رحمة الله؟

وشعر ذى النون فيه رقة عِشقه وقوة إيمانه، يقول :

أموت وما ماتت إليك صبابتى
ولا رُويتْ من صدق حبك أوطارى
منای المنى كل المنى أنت لى منى
وأنت الغنى كل الغنى عند إقصارى
وأنت مدى سؤلى وغاية رغبتى
وموضع شكواى ومكنون إضمارى
تحمّل قلبى فيك ما لا أبثه
وإن طال سُقمى فيك أو طال إضرارى
وبين ضلوعى منك ما لولاك قد بدا
ولم يبد باديه لأهلي ولا جارى
وبى منك فى الأحشاء داء مخامر
فقد هدّ منى الركن وأنبت أسرارى
ألستَ دليل الركب إن هم تحيّروا
ومنقذ من أشفى على جرف هارى
أنرت الهدى للمهتدين ولم يكن
من النور فى أيديهم عُشر معشارى
فنلنى بعفوٍ منك أحيا بقربه
وغَثٌّ بيُسرٍ منك فقرى وإعسارى

* * *



١٤١ - رابعة العدوية (إمامة العاشقين والمحزونين)...

أم الخير، رابعة بنت إسماعيل، العدوية، البصرية، مولاة آل عتيك، المتوفية نحو سنة ١٨٥هـ، كانت البنت الرابعة لأبويها، وهي بخلاف رابعة بنت إسماعيل، الشامية، زوجة الصوفي أحمد بن أبي الحَواري والمتوفية سنة ٢٣٥هـ، والأولى دفنت بالبصرة، والثانية قبرها ببيت المقدس.

ويروون عن العدوية أنها وهي طفلة خرجت هي وأخواتها من شدّة الجوع، وقت أن نزل القحط بالبصرة، فوجدها رجل باعها بستة دراهم، وكانت تقرض الشعر وتغنيه، وتعزف على الناي، ولها مزاج فني رقيق، وميل طبعي إلى الحزن، ولعلها لذلك كانت تحبّ الشاي على العود. وشعرها أنثوي فيه لغة النساء، وربما استعملها سيدها للغناء في مجالسه، وكان ذلك يُسخطها عليه بسبب اتجاهاتها الدينية القوية، حتى أنها شرعت في الهرب وناجت ربّها قائلة: «إلهي! إني غريبة ويتيمة وأرسف في قيود الرّق، ولكن همّي الكبير هو أن أعرف: أراضٍ أنت عني أم غير راض؟»، أي أنها ربما كانت تخشى أن تبوء بغضب الله بسبب ما كان يجبرها عليه سيدها، وقد زادها ذلك من التهافت على العبادة والابتهال إلى الله، أن يقيلها من عثرتها، وقد تسمّع عليها سيدها في ليلة فوجدها تقول وهي ساجدة: «إلهي! أنت تعلم أن قلبي يتمنّى طاعتك، ونور عيني في خدمة عَتَبتك، ولو كان الأمر بيدي لما انقطعتُ لحظة عن خدمتك، لكنك تركتني تحت رحمة هذا المخلوق القاسي من عَبَدَتك!»، فلما كان الصباح طلبها سيدها وأعتقها، فكان ذلك مدعاةً أكثر للتوجه بالشكر لربّها، فانصرفت بكُلّيتها إليه وقد تحرّرت من رقّها، وكانت إذا انتهت من صلاة العشاء، تصعد إلى سطح دارها بعد أن تشدّ عليها درعها وخمارها، وتدعو: «إلهي أنارت النجوم، ونامت العيون، وغلّقت الملوك أبوابها، وخلا كل حبيب بحبيبه، وهذا مقامي بين يديك»، ثم تُقبل على الصلاة، فإذا كان السَّحَر وطلع الفجر قالت: «إلهي! هذا الليل قد أدبر، وهذا النهار قد أسفر، فليت شعري أُقبِلت

منى ليلتى فأهنأ، أم رددتها علىّ فأعزى؟
فوعزّتك هذا دأبى ما أحييتنى وأعتنتنى!».

وقد تقول فى حياتها الجديدة وقد طويت صفحة القديمة :

تركت هوى ليلى وسُعدى بمعزلٍ
وعدتُ إلى مصحوب أولِ منزلى
ونادت بى الأشواق مهلاً فهذه
منازلُ من تهوى رويدك فانزلى

وإنشادها الآن يتوجه لسيدها الحقيقى، وشعرها فيه من نسجها وليس أبياتاً من أشعار المحبين، كالتى كانت تحفظها وتقولها لمولاها من آل عتيك :

يا سرورى ومُنيتى وعمادى
وأنيسى وعُدتى ومرادى
أنت روح الفؤاد، أنت رجائى
أنت لى مؤنسٌ وشوقك زادى
أنت لولاك يا حياتى وأُنسى
ما تشتّتُّ فى فسيح البلاد
كم بدت منّةٌ وكم لك عندى
من عطاء ونعمةٍ وأيادى
حبُّك الآن بُغيتى ونعيمى
وجلاءٌ لعينِ قلبى الصادى
ليس لى عنك ما حييت براحٍ
أنت منى بمكّنٌ فى السواد
إن تكن راضياً علىّ فإنى
يا مُنّى القلب قد بدا إسعادى

وتزهَد رابعة فى الزواجُ وتُخطَب مرتين، فى الأولى: لعبد الواحد بن زيد، وهو صوفى مثلها؛ وفى الثانية: لأمير البصرة محمد بن سليمان الهاشمى، ويعدُها بمائة ألف مهراً، وبعشرة آلاف فى كل شهر دخلاً، فخاصمت الأول عدّة أيام إلى أن صالحها عليه إخوانهما من الصوفية، فجاءها على استحياء، فقالت له: «ياشهوانى! اطلب شهوانية مثلك! أىُّ شئ رأيتَ فىّ من آلة الشهوة؟!»، وكتبتْ إلى الثانى تقول: «ما يسرّنى أنك لى عبدٌ (كما ذكر لها فى خطبته)، وأن كلَّ مالَك لى، وأنت شغلتنى عن الله طرفة عين!».

وتقول رابعة :

راحتى يا إخوتى فى خلوتى
وحبيبى دائماً فى حضرتى
لم أجد لى عن هواه عوضاً
وهواه فى البرايا محنتى
حيثما كنت أشاهد حُسنه
فهو محرابى إليه قِبْلتى
إن متُّ وجداً وما ثم رضا
واعنائى فى الورَى واشقوتى

يا طيب القلب يا كلّ المُنى
جُدْ بوصلٍ منك يشفى مهجتى
يا سرورى وحياتى دائماً
نشأتى منك وأيضاً نشوتى
قد هجرتُ الخلق جمعاً أرتجى
منك وصلاً فهو أقصى منيتى

وأشهر أبيات رابعة فى الحبّ الإلهى هى التى تقول فيها :

أحبّك حبّين : حبّ الهوى
وحبّاً لأنك أهل لذاكا
فأمّا الذى هو حبّ الهوى
فشُغلى بذكرك عمّن سواكا
وأمّا الذى أنت أهلٌ له
فكشفُك للحُجب حتى أراكا
فلا الحمدُ فى ذا ولا ذاك لى
ولكن لك الحمد فى ذا وذاكا

ومعنى قولها حبّ الهوى: أنى رأيتك فأحببتك عن مشاهدة اليقين، لامن خبر وسمع وتصديق من طريق النِّعَم والإحسان، فتختلف محبتى إذا تغيرت الأفعال لاختلاف ذلك علىّ، ولكن محبتى من طريق العيان، فقربتُ منك، وهربتُ إليك، فاشتغلت بك لمّا تفرّغت لك. وأما الحب الثانى الذى هو أهلٌ له، فنتعنى به حبّ التعظيم والإجلال لوجه العظيم ذى الجلال. تقول ثم إنى مع ذلك لا أستحق هذا الحب ولا أستأهل أن أنظر إليك فى الآخرة على الكشف والعيان فى محل الرضوان، لأن حبى لك لا يوجب لك جزاءً عليه، بل يوجب علىّ كل شئ مما لا أطيقه ولا أقوم بحقّك فيه أبداً، إذ كنت قد أحببتك فلزمنى خوف التقصير، ووجب علىّ الحياء من قلة الوفاء، والخوف لما تعرضت به من حبك، إذ ليس كمثلك شئ، فتفضلتَ علىّ بفضل كرمك وما أنت له أهل من تفضُّلك، فأريتنى وجهك عندك آخراً كما أريتنيه اليوم عندى أولاً، فلك علىّ ما تفضّلت به فى ذاك عندك فى الآخرة، ولا حمد لى فى ذا هاهنا، ولا حمد لى فى ذاك هناك، إذا كنتُ أنا وصلت إليهما بك، فأنت المحمود فيهما لأنك وصلتنى بهما. وهذا هو وَجْد المحبين المحققين، فلا غرابة إن أطلقوا على رابعة العدوية لهذا أنها شاعرة المحبة الإلهية عند الصوفية، وأول من تكلم فى المحبة الإلهية وأدخل هذا المعنى فى التصوف الإسلامى، وتركت فيه الكثير من النفثات الصادقة. وما فاض به بعد ذلك الأدب الصوفى من شعر ونثر فى المحبة إن هو إلا نفحة من نفحاتها. تقول رابعة :

ياحبيب القلب ما لى سواك
فارحم اليوم مذنباً قد أتاكا
يارجائى وراحتى وسرورى
قد أبى القلبُ أن يجيب سواكا

ومن أقوالها النادرة فى مقام الخُلة :

وتخللتَ مسلك الروح منى
وبــه سُمِّىَ الخليــل خليلا
فإذا ما نطقتُ كنتَ حديثى
وإذا ما ســكتُّ كنتَ الغليلا

وفى مقام المحبة :

يا مؤنس الأبرار فى خلواتهم
ياخيــر من حلّت به النُّزّال
من ذاق حبَّك لا يزال متيّماً
فَــرِح الفؤاد، متيماً بلبال
من ذاق حبك لا يُرى متبسّماً
من طول حزنٍ فى الحشا إشعال

وقالت :

إنى جعلتك فى الفؤاد محدّثى
وأبحتُ جسمى مَن أراد جلوسى
فالجسم منى للجليس مؤانسٌ
وحبيب قلبى فى الفؤاد أنيسى

وقالت :

حبيبٌ ليس يعدله حبيب
ولا لسواه فى قلبى نصيب
حبيبٌ غاب عن بصرى وشخصى
ولكن فى فؤادى ما يغيب

وفى حال الخوف تقول:

وزادى قليل ما أراه مبلّغى
أللزاد أبكى أم لطول مسافتى؟
أتحرقنى بالنار ياغاية المنى
فأين رجائى فيك أين مخافتى؟

وسئلت عن المحبة فقالت : ليس للمحب وحبيبه بَيْن، وإنما هو نُطقٌ عن شَوْق، ووصْفٌ عن ذوْق، فمن ذاق عرف، ومن وصف فما انّصف، وكيف تصف شيئاً (تقصد الحبيب) أنت فى حضرته غائب، وبوجوده دائب، وشهوده ذاهب، وبصحوك منه سكران، وبفراغك له ملآن، وبسرورك به ولهان! فالهيبة تُخرس اللسان عن الإخبار، والحيرة توقف الجنان عن الإظهار، والغيرة تحجب الأبصار عن الأغيار، والدهشة تعقل العقول عن الإقرار، فما ثَمّ إلاّ دهشة دائمة، وحيرة لازمة، وقلوب هائمة، وأسرار كاتمة، وأجساد من السُّقم غير سالمة، والمحبة بدولتها الصارمة فى القلوب حاكمة:

وارحمتاً للعاشقين ! قلوبهم
فــى تيه ميــدان المحبة هائمة
قامت قيامة عشقهم فنفوسهم
أبداً على قديم التــذلل قائمة

إما إلى جنات وصل دائماً

أو نار صدٍّ للقلوب ملازمة

وسُئلت رابعة وهى مَن هى فى مقام المحبة، كيف سُمِّيت رابعة، فأنشدت :

كأسى وخمرى والنديم ثلاثة

وأنا المشوقة فى المحبة : رابعة

كأس المسرة والنعيم يديرها

ساقى المدام على المدى متتابعة

فإذا نظرتَ فلا أُرَى إلا له

وإذا حضرتُ فلا أُرى إلا معه

يا عاذلى إنى أحبّ جماله

تالله ما أذنى لعذلك سامعه

لا عبرتى نرقا ولا وصلى له

يبقى ولا عينى القريحة هاجعه

وأسوأ ما قيل فى رابعة هو كتاب الدكتور عبد الرحمن بدوى «رابعة العدوية شهيدة العشق الإلهى» ،وهو يجعل لها أصولاً فارسية أو مسيحية، ويجزم بأنها اشتغلت بغيباً ثم تابت!! وليس هناك ما يعتمد عليه الدكتور بدوى فيما ادّعى، إلا الفروض والاحتمالات، وفى الإسلام لا يجوز البتة اتّهام المؤمنة بالفسق وإشاعة الفُحش عن المسلمات، بقوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً ﴾ (النور ٤)، وبقوله: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (النور ١٩). وللدكتور الحفنى صاحب هذه الموسوعة الصوفية فى الردّ على الدكتور بدوى، كتاب: «العابدة، الخاشعة، رابعة العدوية، إمامة العاشقين والمحزونين».

وما قالته رابعة فى المحبة من الأدب الصوفى النسائى، وهى رائدة هذا الأدب الذى برعت فيه أمثال : معاذة العدوية، وماجدة القرشية، وعائشة بنت جعفر الصادق، وامرأة رياح القيسى، وأمة الجليل، وعُبيْدة بنت أبى كلاب، وحُفَيْرة العابدة، وشعوانة، وآمنة الرملية، ومنفوسة بنت زيد بن أبى الفوارس، والسيدة نفيسة ابنة الحسن بن زيد بن الحسن بن أبى طالب، وريْحانة، وحيّونة، وسلمونة، وميمونة.

وبعض أقوالهن تتشابه حتى ليمكن تمييز الأدب الصوفى للرجال عن الأدب الصوفى للنساء، وأكثر ما يكون ذلك فى مقام المحبة، والمحبة تخصُّص نسوى صوفى، وتكاد الكتابة فيها والتأليف لها، والعيش بمقتضاها، يقتصر عليهن. وفى التاريخ لدينا نموذج شجرة الدر للمرأة عندما تحب ثم تكره؛ ولدينا نموذج رابعة

عندما تحب فتسمو بحبِّها؛ وأدب النساء الصوفي يحفل بالألفاظ الأليق بالنساء، حتى لنقرأها فندرك فوراً أن قائلها لا بد أن يكون امرأة، وتلك طريقتهن في التعبير عن المحبة حتى لو كانت محبة الله، وكلما استبدت العاطفة بالمرأة كان الشعر وسيلتها في التعبير، وأشهر النساء في مجال المحبة الإلهية كن شاعرات، وكانت رابعة متميزة بالشعر، والشعر النسائي الصوفي: فيه التوتر، والوَجْد المرير، والحبّ الواله، والعشق الغالب. ولغة الحبّ هي اللغة الأولى في الشعر، لأن الشعر لغة القلوب، والحب قوت القلوب، والحب من الشعر عَصَبُه؛ والأحوال في التصوف معانٍ ترد على القلب وتحلّ فيه، فإن كانت كالبروق، وزالت في وقتها، فهي الطوارق، وإن استمرت فيه ودامت، فهي الأحوال وقد تمكّنت وطبعت الصوفي. والصوفي إنسان عابد، وهو في معراج الترقي في القمة، فالصوفي يتسامى بغرائزه وحاجاته، ويتحوّل بطاقته الشهوية إلى تربية نفسه ذاتياً، فإنْ ترقى في ذلك فإنه يتحوّل بها إلى الله، فتشغله محبته لله عن نفسه، والمعاملة إذا صارت إلى المحبة تستريح الجوارح بها، ويتحصّل للصوفي اليقين، وتتحقق له الطمأنينة. ورابعة راعت سرّها من خواطر نفسها، ومشغوليات الأسرة، وعوارض الجسم المذمومة، وتمكنت من المجاهدة حتى صارت لها بمثابة الوطن، تجد فيها لذة قلبها، وتتذوق لها حلاوة. ويُروَى عنها أنها كانت تصلي في اليوم ألف ركعة! وعملياً هذا غير ممكن، والألف هنا للتكثير وليس للحصر. وكانت تستلذ بالصلاة وترتاح إليها. ورسالة الحبّ هي رسالة المرأة، وليس بالمستغرب أن تكون المحبة حال رابعة، وإنما محبة رابعة في الذُرىَ. وقيل كانت لرابعة مع ذلك شطحات، وهي أغلاط بالأحرى، وقالوا غلطت أن تلتقي بالرجال وتسمع لهم ويسمعون لها في المحبة؛ وغلطت بإعراضها عن العلم شُغلاً بالزهد، فاستبدلت الذي هو أدنى بالذي هو خير؛ وانبسطت في دعواها فتطاولت على الله عزّ وجلّ فسألته: أما كان لك عقوبة ولا أدب غير النار؟! وقالت: أتحرقُ بالنار قلباً يحبُّك؟! وأمسكت في إحدى يديها ناراً وفي الأخرى ماء، وادّعت أنها ذاهبة إلى السماء حتى تُلقي بالنار في الجنة وتصبّ الماء في الجحيم، فلا تبقى الواحدة ولا الأخرى: وقالت: لا أريد الكعبة بل أريد ربّ الكعبة، فأمّا الكعبة فماذا أفعل بها؟:

ولم تشأ أن تنظر إليها! وقالت فيها: **الصنم المعبود في الأرض!** (كالكلام المستشرقين والملاحدة). وما عاب عليها ناقدوها ما عابوه من أقوالها إلا لبيان الحق، لا لإظهار عيب الغلط، والولي قد يكون من أهل الجنة وله غلطات مع ذلك فلا تمنع منزلته أن يبيّن العلماء غلطته، وانقيادنا إنما للشريعة لا للأشخاص، وكانت رابعة كما قيل فيها أم الخير العابدة، البكّاءة. ومن أقوالها المشهورة لما مرضت وسألوها: ما سبب علّتك؟ قالت: **نظرتُ بقلبي إلى الجنة فأدّبني، فلم العُتبَى لا أعود!** وسألوها عن حقيقة إيمانها، فقالت: **ما عبدتُ الله خوفاً من الله، فأكون له كالأمة السوء، إنْ خافت عملت، ولا حُباً للجنّة، فأكون كأمة السوء، إن أُعطيت عملت! ولكني عبدته حبّاً له وشوقاً إليه!**

وكانت لرابعة أمَةٌ تخدمها وتقوم على أمرها، واشتهرت باسمها عبدة بنت أبي شوال، وكانت من خير إماء الله، وتبتلّت كسيدتها، ومعظم ما وصلنا عن حياة رابعة الخاصة وصلنا عن طريقها، فكانت تروي عنها، وحدّثت بحديثها، وتناولتها في صلاتها، ونُسكها، وصيامها، وقيامها، وتهجّدها، وطعامها، ولباسها، وسكنها، وموتها، فقالت: كانت رابعة تصلي الليل كله، فإذا طلع الفجر هجعت في مصلاها هجعةً خفيفة حتى يسفر الفجر، فكنت أسمعها تقول إذا وثبت من مرقدها وهي فزعة: **يا نفسُ! كم تنامين وإلى كم تقومين! يوشك أن تنامي نومةً لا تقومين منها إلا لصرخة يوم النشور! فكان هذا دأبها دهرها حتى ماتت.** قالت عبدة: فلما حضرتها الوفاة دعتني فقالت: **ياعبدة! لا تؤذني بموتي أحداً، ولفّيني في جُبّتي هذه!** فكفّناها في تلك الجُبة، وخمار صوف كانت تلبسه. وقالت عبدة: رأيتها بعد ذلك بسنة أو نحوها في منامي، عليها حُلة استبرق خضراء وخمار من سندس أخضر لم أر شيئاً أحسن منه، فقالت عبدة لها: يا رابعة! ما فعلت بالجبة التي كفنّاك فيها والخمار الصوف؟ قالت: **إنهما والله نُزعا مني، وأُبدلتُ هذا الذي ترينه عليّ، وطويتْ أكفاني وخُتم عليها، ورُفعتْ في عليين، ليكمل لي بها ثوابها يوم القيامة!** قالت عبدة: قلتُ: **لهذا كنت تعملين أيام الدنيا!** قالت: **وما هذا وما رأيت من كرامة الله لأوليائه!** قالت عبدة: فمرضت بأمرٍ أتقرّب به إلى الله عزّ وجلّ! قالت: **عليك بكثرة ذكره. أوْشَكَ أن تغتبطي بذلك في قبرك.** ـ ولذا كانت طريقة عبدة في التصوف أساسها الذِّكر، وكان انشغالها به هو الذي جعلها تحلم برابعة، توصيها

بالذُكر. والفرق بين عبدة ورابعة: أن رابعة كان تستروح الأفكار، وعبدة كانت تشغلها الأذكار. وعن الزبيدي: أن رابعة قالت يوماً: من يدلّنا على حبيبنا ؟ يعنى أنها كانت تفكر فى الله، ومنها من ذلك حيرة، فأجابتها عبدة بيقين: حبيبنا معنا، ولكن الدنيا قطعتنا عنه! - وذلك مقام المعية، ولم يكن يخفى على رابعة، وإنما كانت فى مقام الاستغراق نتيجة المحبة، وهو مقام القُرب يتطلّب من السالك مَن يأخذ بيده ، فنبّهتها عبدة، وردّت شوقها إلى الله إلى انشغالها بالدنيا فافتقدته معها.

ومن الشُرّاح من يستكثر على عبدة - خادمتها - أن تنبّه رابعة رأس المعرفة فى المحبة، فقالوا إن حيرة رابعة تعنى أنها تفكر فى الله دون سواه، وهذا هو الذكر بعينه. وعند النورى قال:

أريد دوام الذُكر من فرط حبّه

فيا عجباً من غيبة الذُكر فى الوجد

وأعجب منه غيبة الوجد تارة

وغيبة عين الذُكر فى القرب والبعد

وأوحت رابعة للكثيرين أن ينسجوا قصتها، فكتبت سنية قراعة كتابها: «عروس الزهد رابعة العدوية»، واخترعت لحياتها قصة ملفقة مضمونها افتراءات الدكتور عبد الرحمن بدوى، وأقامت منها مغنية فى حانة، ومحظية عند أحد التجار يتنازعها منافسوه ويكيدون لبعضهم بسببها! واستحسن أحد المنتجين السينمائيين القصة فصاغوا لها فيلماً غنّت فيه سيدة الغناء الصوفى أم كلثوم فى دور رابعة، وألفّ لها الشعر الشاعر الصوفى طاهر أبو فاشا، ولولا أم كلثوم سيدة الغناء، وطاهر أبو فاشا، لسقط الفيلم سقوطاً ذريعاً، وأحسب أن أم كلثوم وأبا فاشا وملحنى القصائد: رياض السنباطى، وكمال الطويل، ومحمد الموجى، كانوا من الصوفية الزُهّاد حقيقةً، وتلبستهم روح رابعة، وحلّت بهم كراماتها وبركاتها، فجاءت القصائد الست من آيات الإبداع.

يقول طاهر أبو فاشا على لسان رابعة فى مقام المحبة :

عرفتُ الهوى مذ عرفتُ هواك

وأغلقت قلبى عمّن عداكا

وقمتُ أناديك يا من ترى

خفايا القلوب ولستا نراكا

أحبُّك حُبّين: حبَّ الهوى

وحباً لأنك أهل لذاكا

فأمّا الذى هو حبّ الهوى

فشُغلى بذكراك عمّن سواكا

وأمّا الـذى أنت أهـلٌ له
فكشفك للحُجب حتى أراكا
فلا الحمد فى ذا ولا ذاك لى
ولكن لك الحمد فى ذا وذاكا

* * *

أحبُّك حبَّين: حبَّ الهـوى
وحباً لأنـك أهـل لذاكا
وأشتاق شوقَيْن شوقَ النوى
وشوقاً لقرب الخطى من حماكا
فأمّا الذى هو شوق النوى
فمسرى الدموع لطول نواكا
وأمّا اشتياقى لقرب الحِمَى
فنار حياة فنت فى ضيـاكا
فلا الحمدُ فى ذا ولا ذاك لى
ولكن لك الحمد فى ذا وذاكا

ويقول أبو فاشا ـ هذا المتصوّف الربّانى ـ فى مقام الرجاء على لسان رابعة:

غريبٌ على باب الرجاء طريح
يناديك موصول الجوى وينوح
يهون عذابُ الجسم والروح سالمٌ
فكيف وروح المستهام جروح
ولبس الذى يشكو الصبابة عاشقاً
وما كل باكٍ فى الغرام قريح
ولى فى طريق الشوق والليل هائمٌ
معالمٌ تخفَى تارة وتلوح
ولى فى مقام الوَجْد حالٌ ولوْعةٌ
ودمعٌ أدارى فى الهوى ويبوح
وأنت وجودى فى شهودى وغيبتى
وسرُّك نورُ النور أو هو رُوح
وما دخلتْ إلا إليك مواجدى
وداعى الهوى بالواليهن يصيح
بسرّ الهوى يغدو وفيه يروح
غريبٌ على باب الرجاء طريح

ويقول فى مقام الجوى على لسان رابعة:

سألتُ عن الحبّ أهْلَ الهوى
سُقاةَ الدموع ندامى الجوى
وقالوا حنانك مـن شجـوه
ومـن جِدّه بـك أو لهـوه
ومن كدر الليل أو صفـوه
سلى الطيرَ إن شئت عن شدوه
ففى شدوه همسات الهوى
وبَرْح الحنين وشَرْخ الجوى
ورحتُ إلى الطير أشكو الجوى
وأسـأله سرّ ذاك الجـوى
فقال حنانَك مـن جمـره
ومن صحـو ساقيه أو سُكره

ومن نهيه فيك أو أمره
سلى الليلَ إن شئتِ عن سرّه
وفى الليلَ يُبعث أهل الهوى
وفى الليل يكمن سرّ الجوى

* * *

ولما طوانى الدجى والجوى
لقيت الهوى وعرفت الهوى
وتلك النجيمات سُمّارُه
وتحت خيام الدجى ناره
وفى كل شىء يلوح الهوى
ولكن لمن ذاق طعم الهوى

* * *

ويقول أبو فاشا على لسان رابعة فى حال الهوى يستبد بصاحبه :

لغيرِكَ ما مددتُ يدا
وغيرُك لا يفيض ندا
ولبس يضيق بابك بى
فكيف تردّ من قصدا
وركنك لم يزل صمدا
فكيف تزود من وردا
ولطفُك ياخفىّ اللطف
إن عادى الزمان عَدَى
على قلبى وضعتُ يدا
ونحوك قد مددت يدا

سرَى ليلى بغير هدى
ولا أدرى لأى مدى
يطاردنى الأسى أبدا
ويرعانى الجوى أبدا
وأطوى البيدَ طاوية
كأنى فى الفضاء صدى
نهارى والهجير لظى
وليلى والظلام ردى
فواكَبدى إذا أضحى
وإن أمسى فواكبدى
وليس سواك لى سند
فَقَدتُ الأهلَ والندا

* * *

ويقول أبو فاشا على لسان رابعة فى باب الدعاء والتوسُّل :

على عينى بكت عينى
على روحى جنت روحى
هواك وبُعد ما بينى
وبينك سرُّ تبريحى
على عينى على روحى
فواغوثاه ياغوثاه
ومن طول النوى
أواه ... آه ... آه

صحا من شجوه كأسى
وقد نام الخليّونا
وكيف أفرّ من نفسى
إذا هام المحبونا
على نفسى جنت نفسى
فيا ويلاه يا ويلاه
ومن طول النوى
أواه ... آه ... آه
حيائى منك يبعدنى
وداعى الشوق يُدنينى
ووجه الصفح يُخجلنى
ويقتلنى ويحيينى
وأيامى تقاضينى
على ما كان وآسفاه
ومن طول النوى
أواه ... آه ... آه
خلوت إليك باربّى
وقلتُ عساك تقبلنى
فما بالى أرى ذنبى
وأيامى تطاردنى
مددت يدى فخذ بيدى
إليك ومنك يا ربّاه
ومن طول النوى
أواه ... آه ... آه

رحم الله رابعة العدوية، وطاهر أبو فاشا، وأم كلثوم، ورياض السنباطى، وكمال الطويل، ومحمد الموجى.

* * *

١٤٢ - الرازى (أبو بكر)...

أبو بكر نجم الدين عبد الله بن محمد، الأسدى الرازى، المتوفى سنة ٦٥٤هـ، فى بغداد، وله فى التصوف «كشف الحقائق وشرح الدقائق»، والرازى فيه لا يقدم جديداً، ولم يشتهر كتابه لهذا السبب.

* * *

١٤٣ - الرازى (أبو زكريا)...

أبو زكريا يحيى بن معاذ بن جعفر الرازى، توفى بنيسابور سنة ٢٥٨ هـ، وكان يتكلم فى الرجاء، وله لسان فى المعرفة، وله شقيقان إسماعيل وإبراهيم من الزاهدين، وكان دائم الغم، يسائل نفسه لِمَ خلقه الله، ويتحدث كثيراً عن الفناء، ويرجو أن يغفر له الله ذنوبه فهو لم يختر أن يذنب، واختار أن يعرف، فلما عرف أدرك أن عليه أن يعمل، وابن معاذ يختار من العمل أشرفه وهو اثنان: بناء المنابر، وتعبية العساكر، يعنى أن شغله فى الدعوة وفى الجهاد، فالعبادة للعارف سلوك مع

الخَلق والخالق، والتصوّف أدب، وطريق العارفين يبدأ بالخوف فتكون التوبة فالزهد، والزهد يسلم للرضا ومحبة الحق، والمحبة تؤسّسها المعرفة، ومن عرف ذاق، ومن ذاق اشتاق. وأوثق الرجاء للعارفين هو رجاؤهم لربّهم، وأصدق ظنونهم حُسن ظنهم بالله. ولا يفهم ابن معاذ من التزهّد فى الدنيا أنها بغيضة كريهة فى ذاتها، فالدنيا مخلوقة لله تعالى، وهى خزانته، ولا يمكن أن تكون موضوعاً لكراهية الكارهين وبُغض المبغضين، وكل ما فيها من شجر أو مدر أو حجر يسبّح لله، وقد خيّرها أن تأتى كرْها أوطَوْعاً فأتت طوعاً، والمجيب لله تعالى بالطاعة لا يستحق أن يكون بغيضاً فى قلوب العارفين.

ويفسر ابن معاذ الزهد فى الدنيا بأنه عدم الطمع فيها، فمن يريد الزهد فعليه أن يُخرج من خصاله خصلة الطمع، وكلما كان طلب الدنيا كان الابتعاد عن الله، وعلى حسب اشتغال الفكر والقلب بالدنيا يكون انصرافهما عن الله، وبالتالى البُعد عنه، وابن معاذ يحاول بزهده أن يُقبل على الله معتمداً عليه، ممتلئ القلب من رجائه، ورطب اللسان من دعائه، ويقول: «فى قلبى من الذنوب زفرات، ومعى عليها نداءات» ويستعطف الله، ووسيلته إليه لا إله إلا الله، يعنى توحيده وتنزيهه، ويقول لمن يسأله عن انشغاله عن أصحابه:

أنا مشغولٌ بذنبى يا رجل
كفّ عنى إن قلبى فى شُغُل

وينتقد ابن معاذ الصوفية الجاهلين الذين يتعبّدون قبل تعلمهم فروض الدين، والصوفية الذين لا ينتفعون بأقوال المشايخ وبالتالى ليست لأفعالهم أصول ولا قواعد. ويقول فى هؤلاء وأولئك إن لبس الصوف والكلام فى الزهد عندهم حرفة، وليس هكذا العارف، فهو ولّى الله، وعدو الرياء والنفاق، وليست الدنيا همّه، ولا يريد بالزهد أن يتكسّب من الناس، وإنما هو فى الدنيا داع إلى الله، ومَثَله مثل الصياد، وهو يصطاد العباد من أفواه الشياطين، ولو لم يَصِد طوال حياته إلا عبداً واحداً لكان قد أوتى خيراً كثيراً.

والولى من صفاته أن يرجع إلى الله فى كلّ شئ، ويرجو الله فى كلّ شئ، وعبادته له حرفة، وحانوته فيها الخلوة، ورأس ماله الاجتهاد بالسُّنة، وربحه منها رضا الله ومحبته، وقلبه إذا عرف الخلوة، أوصلته معرفته بها إلى الأنس بالله، ومن يأنس بالله يستوحش من غيره.

والخلوة والقلّة والجوع أساس الزهد، والجوع بحسب الجائع، فالتّواب جوعه تجربة، والزاهد جوعه سياسة، والصِّدّيق جوعه تكرُمة.

والصوفي الجهول هو الذي يبدأ بلبس الصوف من غير إماتة نفس، وهو أيضاً الذي يترك المكسب مع الحاجة، فكل تعبُّد مع تضييع العيال هو جهل مؤكد. ويتساءل ابن معاذ: كم بين من يريد حضور الوليمة للوليمة، وبين من يريد حضورها ليلتقي الحبيب فيها ؟ والحبّ لله هو الذي يقوّي القلب لأن نسأل الله أن يغفر لنا مع التوبة ويعظ ابن معاذ أحباءه أن لا يجالسوا إلا أحباء الله، فهم المداومون على ذكره والملازمون لبابه.

* * *

١٤٤ - الرزاي (زين الدين)...

زين الدين محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي، المتوفى بعد سنة ٦٦٦ هـ، من فقهاء الحنفية، وله «حدائق الحقائق» في التصوف، كما أن له مصنفات أخرى كثيرة في مختلف العلوم على طريقة أهل عصره، واشتهر بقاموسه «مختار الصحاح»، و«شرح المقامات الحريرية»، و «أنموذج جليل عن أسئلة وأجوبة من غرائب آي التنزيل»، و«الذهب الإبريز في تفسير الكتاب العزيز»، «و روضة الفصاحة»، و«كنز الحكمة» إلخ.. زار مصر والشام، وكان في قونية سنة ٦٦٦ هـ - وهي آخر العهد به. وكتابه في التصوف صنّفه كعالم وليس كصوفي، وطريقته في الشرح تعليمية أكثر منها تثقيفية أو تربوية، والكتاب ليس «في» التصوف فعلاً، ولكنه «عن» التصوف.

* * *

١٤٥ - الرزاي (الفخر)...

فخر الدين محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين، التيمي، البكري (٥٤٤ - ٦٠٦ هـ)، الإمام المفسّر، أوحد زمانه في المعقول والمنقول وعلوم الأوائل، أصله من طبرستان، وهو قرشي النسب، ومولده في الرّي وإليها يُنسَب، وتوفي في هَرَاة، وله التصانيف، ومنها كتاب «اعتقادات فرق المسلمين والمشركين»، ويعقد فيه باباً في أحوال الصوفية، يقول فيه: إن أكثر مَن حَصَر فرق الأُمة لم يذكر الصوفية - وذلك خطأ، وما أورده الفخر الرازي عن الصوفية كفرقة أو فرق، هو الأول فيما نعلم، وحُجّة الرازي أن حاصل قول الصوفية أن الطريق إلى معرفة الله هو التصفية والتجرّد من العلائق البدنية، وهذا طريق حسن، ولكنهم فِرَق، الأولى

أصحاب العادات: وهم قوم منتهى أمرهم وغايته تزيين الظاهر، كلبس الخرقة، وتسوية السجادة؛ والثانية أصحاب العبادات: وهم المشغولون بأداء الفروض؛ والثالثة أصحاب الذكر: وهم قوم إذا فرغوا من أداء الفَرْض لم يشتغلوا بنوافل العبادات، بل بالفكر وتجريد النفس عن العلائق البدنية، وهم يجهدون أن لا يخلو سرّهم وبالهم عن ذكر الله، وهؤلاء هم خير الفِرَق؛ والرابعة النورية: وهم طائفة يقولون إن الحجاب حجابان، نورى وناري، وأما النورى فالاشتغال باكتساب الصفات المحمودة: كالتوكل، والشوق، والتسليم، والمراقبة، والأُنس، والوحدة؛ وأما الناري، فالاشتغال بالشهوة والغضب، والحرص والأمل، لأن هذه الصفات نارية، كما أن إبليس منهم، فهو نارى مثلهم؛ والخامسة الحلولية: وهم طائفة يرون فى أنفسهم أحوالاً عجيبة، وليس لهم من العلوم العقلية نصيب وافر، يتوهّمون أنهم قد حصل لهم الحلول أو الاتحاد، فيدّعون دعاوى كبيرة. وأول من أظهر هذه المقالة فى الإسلام الروافض، فإنهم ادّعوا الحلول فى حق أئمتهم؛ والسادسة الباحية: وهم قوم يحفظون طاعات وتلبيسات لا أصل لها، ويدّعون محبة الله تعالى، ويخالفون الشريعة، ويقولون إن الحبيب رفع عنا التكليف فصار كل شيء مباحاً لهم، وهؤلاء شرّ طوائف الصوفية، وهم على الحقيقة على دين مُزدك، يعنى على الإباحية.

* * *

١٤٦ - ابن رجب (المنكر على التصوف)...

أبو الفرج زين الدين عبد الرحمن ابن أحمد بن رجب (٧٣٦ ـ ٧٩٥ هـ)، كان يعقد المجالس للوعظ وتذكير القلوب، وكانت مجالسه جامعة، وللناس عامةً مباركة نافعة، فقد اجتمعت الفرق عليه، ومالت القلوب بالمحبة إليه.

وكان قدومه من بغداد إلى دمشق وهو صغير، وأجازه ابن النقيب وابن النووى، وله ضمن مصنفات أخرى «جامع العلوم والحكَم فى شرح خمسين حديثاً من جوامع الكَلِم»، تناول فيه التصوف بالنقد، برغبة بيان ما كان من علوم المتصّوفة عن الصحابة والتابعين، وما استحدث من ذلك بعدهم، ففرّق بين السُّنة والبِدْعة. ويقول إن بِدَع الأزمنة المتأخرة تَدرّجت من الحديث فى الحقيقة بالذوق والكشف، إلى الفصل بين الحقيقة والشريعة، ثم تطور الأمر فنادى بعض الصوفية بأن المعرفة

وحدها كافية مع المحبة، دون ضرورة للأعمال التى تعدّ عندهم حجاباً، ولا حاجة إليها إلا بالنسبة للعوام وحدهم.

وهو يعرض للغلو عند الصوفية فى العبادات، كالصوم المستمر الذى يضعف البدن، فيُعجز العبد عن القيام بحقوق الله، أو يُضعفه عن الكسب للأولاد، أو القيام بحقوق الزوجة، وقد نهى الرسول عن تعذيب النفس بتحميلها ما لا تطيق.

ولقد انصرف الصوفية عن العلم، وتحدّثوا فى الوساوس والخَطَرات، وكلامهم فيها لا يستند إلى دليل شرعى وإنما على الرأى والذوق. ويتقرّب البعض منهم إلى الله تعالى بسماع الملاهى، أو بالرقص، أو بكشف الرأس فى غير الإحرام، وما أشبه ذلك من المُحَدثات. والتقرب إلى الله ينبغى أن يتم بأداء الفرائض ثم النوافل، فاتّباع أى طريق يوصّل إلى التقرّب من الله وموالاته ومحبته سوى طاعته التى شرعها على لسان رسوله، تبيّن أن المدّعى ولايــة الله ومحبته، كاذبٌ فى دعواه. والاقتداء ينبغى أن يكون بالسُّنة وليس بهؤلاء الصوفية، لأن الرسول نهى عن التعسير وأمر بالتيسير.

والزُّهد عند ابن رجب ليس بتحريم الحلال وإضاعة المال، وإنما الزهادة فى الدنيا هو أن لا تكون فيما بين يديك أوثق مما فى يد الله، وأن تكون فى ثواب المصيبة إذا أنت أُصبت بها، أرغبَ فيها لو أنها بقيت لك.

وليست المحبة فى السُّنة عواطف تجعل صاحبها يهيم على وجهه، تاركاً الفروض والتكاليف، ومقبِلاً على النواهى، ومردداً الأذكار، ومهللاً بالتسابيح يتواجد بها، وإنما المحبة الصحيحة تقتضى المتابعة من العبد، والموافقة فى حُبّ المحبوبات وبُغض المكروهات.

وكذلك الشأن فى التوكل، فعلى العكس من الصوفية الذين قد يتعللون به لإبطال الأسباب وإسقاطها، فإنه يربط التوكل بالأسباب فى الطاعة لله، والطاعة من عمل الجوارح، والتوكل عليه سبحانه من عمل القلب.

ولابن رجب تفسيرات أخرى فى المعرفة والجهاد والمحبة. والجهاد: هو ذروة سنام الأمر كله وأرفعه. والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر: أفضل الأعمال بعد الفرائض - ولكن الصوفية عطّلوا هذه الفريضة، واعتزلوا الناس، واختلوا بأنفسهم دونهم.

* * *

١٤٧ - رشدي (ياسين)...

مصري إسكندراني، من الدعاة المعروفين، فحتى عام ١٩٩٧ كان يحاضر عن الإسلام، ويدعو إلى الطريق، وله المريدون والأحباب والأصحاب، واختفى فجأة فلم نعد نسمع عنه، ومؤلفاته كثيرة، منها «جوامع الكلم»، و«من أخلاقيات الإسلام»، و«التربية في الإسلام»، و«في رحاب الأصحاب»، و«نساء مؤمنات»، و«المحظورات»، و«الإسلام وأركانه»، و«التصوف ماله وما عليه».

والشيخ ياسين من العلماء المتحققين، يكلف الزهد، ويتورع بالتقوى، ويسلك بتواضع، ويلقى الناس بالأدب. والصوفية عنده: «م الكواكب، وشمسهم أحمد». وياسين رشدي: مُحمدي، قدوته النبيّ ﷺ، وحبّه له كالعشق، وكلامه فيه ككلام الصَبِّ، فبظهور شخص محمد ﷺ في الوجود قد رانه، وزان القلوب بصدقه، وزان العقول بفهمه، وزان العيون برسمه، وزان الأفواه باسمه. والتصوف هو متابعة الصوفي لحياة النبيّ، فيما فعل، وفيما قال، والتصوف لذلك يبدأ بالشريعة وينتهي إلى الحقيقة، وهو دخولٌ في الأخلاق السنية، والخروج من الأخلاق الدنية، واسترسال النفس مع الله فيما أراده الله، والصوفي قائم بالله لا بنفسه، ويحيا بالله ويموت بنفسه.

وأصل التصوف تربيةٌ وآداب، والدخول فيه شرطُه التمسك بالفقر والافتقار، والاستعواض بالله، ومن الله، في الآن، ومن الآن، فالصوفي ابن وقته، وأعواضه من أجل الأحوال الموجودة ولبس الملذات الموعودة، وفي أحواله يتشبّه بالنبيّ ﷺ، وبالأولياء الصالحين، تشبُّه الظاهر، وتشبُّه الباطن، وطريقه إليه هو طريق المحب المريد، يجاهد ليصل، والجهاد تفقُّه، والفقه صفة القلب الواعي، ولا يصفو القلب إلا بتزكية النفس، فإذا لم تشتغل بالدنيا تحقق زهدها، وانجلت مراية القلب بما صقلها من التقوى، فتعكس صور الأشياء على هيئتها وماهيتها، فتبين الدنيا بقبحها، وتظهر الآخرة بحُسنها، فإذا اختار الصوفي اختار عن بينّه، واستجاب عن خبرة، والاستجابة الحقّة بالاستقامة الصادقة، وشعار الصوفي الأبدي: «الله ناظرٌ إليّ! الله مُطّلِعٌ عليّ! الله يشاهدني! الله معي!». والاستجابة استجابات: استجابة توحيد، واستجابة تحقيق، واستجابة تسليم، واستجابة تقريب.

وعلم الصوفية هو علم الإخلاص،

وكشف آفات النفوس وما يُفسد الأعمال، وبه يتعرفون الخواطر، ويميزونه علم الوقت، وعلم الحال، وعلم الحلال، وعلم الباطن، وقوام كل ذلك بعلم التوحيد وتَقْوَى الأغيار، أي اتقاء أن يكون في القلب ما سوى الله، والطريق إليه بعلم الإخلاص أو علم الخالصة، فلكل إخلاص خالصة، وإذا رُزق الصوفي خالصة الإخلاص صار مُخلصاً، وشتّان بين المُخلِص (بالكسر) والمُخلَص (بالفتح)، ولكي يكون مخلَصاً لله يجب أن لا يرى فيما يفعل سوى الله، ولا يبتغي بما يفعل إلا الله. وإخلاص الصوفي معناه فناؤه عن رسومه، برؤية قيامه بقيومه، وأن يغفل عن رؤية الخلق بدوام النظر إلى الحق.

والذِّكر الصوفي: باللسان، وبالقلب، وبالسِّر، وبالروح. والذِّكر هو ذكرٌ لله: يقوم به اللسان، ويطمئن إليه القلب، ويتردد في السرّ، ويأتي على الخاطر بإلحاح حتى ليهتز به الجسم، وتضطرب له النفس، ويعتلج به القلب، ويرين على الروح.

والصوفي قد يبدأ الطريق مجذوباً مجرّداً، مشدوداً إلى الله، قد أحب الله فأحبه الله، فإذا كانت له مجاهدات فهو السالك المجرّد، يسلك إلى الله بالعبادة، يترضى بها الله. وإذا نَطَق نَطَق بالله، وإذا سكَت سكَت بالله، وإذا أعطى أعطى بالله، وإذا مَنَع منَع بالله، وليس لمراده شيءٌ وإنما هو بمراد الله، وهو من جنود الله، يسلك بما يريد وجه الله، وطريقه الاقتداء برسول الله، فيبادؤه الله بالكشوف، وينير سبيله بأنوار اليقين، ويرفع عن قلبه الحُجُب، ويستضيئ بالمشاهدة، ويتجافى عن دار الغرور، وينيب إلى دار الخلود. فإذا صحّ له المقام فهو الشيخ المطلق، والعارف المحقّق، نظرهُ دواء، وكلامه شفاء.

ولكي يسلك المريد لابد له أن ينخلع عن الإرادة والاختيار، ويحكّم الشيخ ويطيعه وينقاد له ظاهراً وباطناً، ولو اعترض فجزاؤه أن ينطرد.

وللشيخ: الخرقة الصوفية: وللمريد: خرقة الإرادة: وللمتشبّه: خرقة التبرُّك، ومن تشبّه بقوم فهو منهم. والنبيّ ﷺ حين بايعه أصحابه بايعوه كما في الحديث: على السمع والطاعة، وفي العسر واليسر، والمَنْشَط والمَكْره، وأن لا ننازع في الأمر أهله، وأن نقول الحقّ حيث كنّا، ولا نخاف في الله لومة لائم. وكان الرسول ﷺ كما قال أحد الصحابة: يعلّمنا كلّ شيء حتى الخراءة ـ يعني قضاء الحاجة.

وكان الرسول ﷺ يقول: «طوبى لمن رآنى وآمن بى، وطوبى لمن رأى من رآنى». والخرقة: قميص أو جلباب يُلبسه الشيخ للمريد عندما يبايعه، ودعوى الصوفية أن الخرقة تفعل للمريد عمل قميص يوسف الذى بعثه لأبيه يعقوب، فارتد بصيراً بإذن الله.

ورباط الصوفية: هو الزاوية أو الخلوة التى يلزمها أهل التصوف، ومرجعهم الحديث: «ألا أخبركم بما يمحو به الله الخطايا وتُرفع به الدرجات؟» قالوا: بلى يا رسول الله. قال: «إسباغ الوضوء على المكاره، وكثرة الخُطَى إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، فذلكم الرباط، فذلكم الرباط».

وأهل الرباط الصوفى: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾ (النور ٣٧)، ومنهم الصوفية السائحون: يتنقلون فى البلاد، داعين إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، وبالقدوة، وبالدعاء إلى الله، يبلّغون فيبلُغون، بالتواضع، والمداراة، واحتمال الأذى، والإيثار، والإحسان، والنزول إلى أخلاق الناس، وترك المجادلة والمراء إلا بالحقّ، والبشاشة، والتودد والتآلف، والشكر على الإحسان، وبذل الجاه.

والأدب الصوفى: منه العام مع الخلْق؛ والخاص مع الحق، وهو أدب الحضرة. ومن الأدب الخاص: أدب المريد مع الشيخ؛ وأدب الشيخ مع المريدين؛ وأدب المريدين مع بعضهم أو أدب الصحبة.

والتصوف: غايته معرفة الصوفى لنفسه ولربّه ولأمته، والأصل فى ذلك كله معرفة النفس، ومن عرف نفسه فقد عرف ربّه، وعرف ناسه.

وللصوفية أحوال: يتحوّلون فيها من حال إلى حال. ولهم مقامات: تدوم معهم وتثبت ويتحققون بها بالليل والنهار. ولبلوغ المقام لابد من التدرّج من الحال إلى المقام، فالأحوال مبادئ المقامات، ولابد لكل مقام من سابقة حال. والأحوال مواهب من الله، ومواريث الأعمال، وليس للعبد فيها إلا الكسب القليل؛ فأما المقامات فالكسب فيها أظهر، والمواهب فيها أقل. والارتقاء من المقام للمقام بالتدريج. ومن الأحوال: التوبة، والزهد، والمحاسبة، والمراقبة. ومقام التوبة أساس الأحوال والمقامات كلها. والمقام الحاكم: هو الخوف من الله، وعن النبىّ ﷺ برواية ابن مسعود: «رأس الحكمة مخافة الله». والخائف هو من لا يخاف نفسه وإنما يخاف إجلالاً لله. قال سهل التُستُرى:

كمال الإيمان بالعلم، وكمال العلم بالخوف. والعلم كسب الإيمان، والخوف كسب المعرفة. وإذا قيل لك هل تخاف الله فاسكتْ، فإنك إن قلت : لا، كفرت. وإن قلت: نعم، كذبت، فليس وصفك وصف من يخاف.

ومن المقامات: مقام الرجاء، ومقام الصبر، ومقام الزهد، ومقام التوكلّ، ومقام الرضا، ومقام الورع، ومقام المحبة، ومقام الشوق، ومقام الأنس، ومقام الحياء، ومقام القرب، مقام القبض، ومقام البسط، ومقام الشكر، ومقام الفناء، ومقام المشاهدة، ومقام حقّ اليقين.

ولأهل التصوف إشارات ومصطلحات، ومن ذلك «الوجد»: وهو ما يقذفه الله في قلب العبد من النور يضيء له ويقرّبه لله. ومن المصطلحات: التجلّي؛ والمشاهدة؛ والمحو والإثبات، : والمحو مثلاً هو إزالة أوصاف النفس؛ والإثبات المقصود به إثبات وجود الله في القلب بخالص النيات ورفيع الصفات. ومن المصطلحات أيضاً: الذوق؛ والشُّرب؛ والتفرقة والجمع وجمع الجمع، فإذا رأى الصوفي أعماله متفرّقة فهو في التفرقة، وإذا رآها كلها مجموعة من أجل الله، وبالله ومن الله، فهو في الجمع، فإذا خلص منها إلى نتائجها وبلغ بها مقام المشاهدات، فهو في جمع الجمع. والمشاهدة: من المقامات، ولا يشاهد إلا الخواص أرباب القلوب.

والشيخ ياسين رشدي يرفض التصوّف المزعوم، الذي يتّصف بالدجل وإرهاب المريدين وتخويفهم من بطش الشيوخ وغضبهم، وينكر الظهور بالكرامات، وينصح الصوفية: كن طالباً للاستقامة ولا تكن طالباً للكرامة. وإذا رأيتَ الرجل يمشي على الماء، أو يطير في الهواء فلا تنخدع بذلك، فالعبرة بمدى تمسكه بالشرع، واعرفْ الرجال بالحق ولا تعرف الحق بالرجال.. نسأل الله للشيخ رشدي عظيم الأجر.

* * *

١٤٨ - رضوان (حسن)...

حسن بن رضوان بن محمد بن حنفي (١٢٣٩ـ ١٣١٠ هـ)، ١٨٢٣ـ١٨٩٢م، له أرجوزة: «روض القلوب المستطاب» يشرح فيها عبارات القوم، ويسرها للطالبين من الطريقة الخلوتية. وكان مولده في بيا الكبرى من محافظة بني سويف، وأجداده كانوا من أهل الشام، وانتقل منهم إلى مصر جدّه الثاني، وتوفي والده وهو صغير فرعته أمه، وأرسلته لطلب العلم

فى الأزهر الشريف، فبلغ مقام التدريس وهو ابن سبع عشرة سنة، وأخذ الطريق وهو فى سن العشرين، ثم ترك القاهرة وانتقل إلى السريرية من المنيا، وأقام بزاوية أستاذه تسع سنين، تولى فيها مراقبة المريدين، وكانوا خمسمائة أو يزيدون، ثم انتقل بأهله إلى سفط أبى جرج من بنى مزار، واشترى داراً بجوار المسجد، فاجتمع عليه الناس لمدارسة العلم وتلاوة القرآن، ثم أمره أستاذه بالانتقال إلى أبى الوقف، فأقام بها خمس سنوات، وحج وانتقل إلى أبشاق الغزال بالقرب من سفط أبى جرج، وما زال ينتقل إلى أن وافته منيته. وحياته نموذج للصوفى المتحقّق، فقد كان من العلماء، وتوجه إلى نشر الثقافة الدينية والصوفية، فكان يلقى الدروس ويقيم الأذكار، وينشئ المؤلفات، ويذيع المُثلَ الطيب بسلوكه الشريف. ويقول الدكتور زكى مبارك نقلاً عن الشيخ مصطفى عبد الرازق: أن البلد الذى كان الشيخ رضوان يقيم فيه كان يكثر فيه العلماء والمدرسون، فهو من الهداة الصالحين الذين عرفتهم مصر فى القرن الثالث عشر، وله رسائل فى شرح بعض الأحاديث شرحاً صوفياً، وفى القراءات، وفى الصلاة على النبىّ، والتوسل بالاسم الأعظم. والتصوف عنده أفضل علوم العارفين، واختلاف عباراتهم فيه إنما لاختلاف المقاصد، فمنهم من يعبر بالفقر أو بالزهد، وبعضهم بأخذ الحقائق وترك الاختيار والتسليم إلى مراد العالم الحكيم، وبعضهم بقطع كل العلائق واليأس مما لدى الخلائق، وبعضهم كان تعبيره بالقيام بالأدب لكل وقت فى جميع ما طلب من شُكر النعم، والتوبة، وحُسن الصبر على البلاء، والصدق فى الرضا بالقضاء.

وأهل التصوف: هم الكاملون المتجرّدون عمّا سوى معبودهم، والمتقيّدون بامتثال أوامره. ولفظ الصوفى: اصطلاح، كل حرف منه إشارة إلى معنى الحرف، «فالصاد»: فيها صرف الهمة فى كلّ مُرضٍ، وصدق النية، وصدّ الهوى، والصدق بالحق، والصلح والصلاح وصقل القلب بالذكر، والصغار بمعنى التواضع؛ و«الواو»: تشير إلى وصل المولى ووده، والوعد فى وفائه؛ و«الفاء»: للفتوة، وفقد الشهود، وفتحه القريب، والفناء عن رسومه، والفرق والفرقان؛ و«الياء»: للنسبة المتحققة فى الصوفى بما يستحق عليه اسم الصوفى من حيث تعلق قلبه بأحوال الأولياء.

وعلم الصوفية: علم موروث عن النبىّ

ﷺ ؛ والعارف بالله: هو من أشرقت عليه أنوار حقائق آداب للنبيّ ﷺ . وأعظم العارفين رتبة: هو المستحق للخلافة والدعوة إلى الله نيابةً عنه، ولا يزال يرتقى وتتجلى علومه إلى المقام الأكمل وهو مقام الكشف، بالإيمان عمّا انطوى فى مشهد العرفان عن وجوده فى شهوده للحق، وعندئذ يندرج فى مقام «كنتُ سمعه» ويشاهد الأشياء به وله، فإذا رُدّ إلى العباد يكونَ داعياً بينهم بإذنه، ساعياً بالرشاد، يدلهم ويعرّفهم ليعبدوا الله بصدق العزم. وليست الطريقة: إلا سلوك المتصوفين نحو تلك الغاية؛ وأصولها: التوبة، والخوف، والرجاء، والقناعة، والزهد، والورع، والتوكل، والصبر، والشكر، والمجاهدة، والدعاء، والعزلة، والصمت .

وأرجوزته «روض القلوب»: تقع فى نحو اثنى عشر ألف بيت، وربما كانت لذلك أكبر منظومة فى قواعد التصوف، وتشير إلى شدّة تمكن الشيخ رضوان من علم التصوف، حيث لم يترك فيه شاردة ولا واردة إلا قيّدها بأسباب من النظم الوثيق كما يقول الدكتور زكى مبارك، وهو بكلماته «قعّد التصوف وصيّره من العلوم ذات القواعد والأصول، بحيث يرى المُطالع أنه ينظر فى فن مقعّد مضبوط. وهو فيما يشرحه من الإشارات يعنى ما يقول ويفهم ما يريد. ومن أعجب ما وقع منه أنه يبدأ منظومته بأصعب مسألة وهى وحدة الوجود ويختمها بأسهل مسألة وهى تعريف التصوف. ويقول عن وحدة الوجود:

وحسبه من ذلك المقصود

إشراف نور وحدة الوجود

ويعلق الدكتور مبارك أنه أجرأ من الشعرانى الذى تبرأ من وحدة الوجود، وأصرح من ابن عربى الذى دار حولها فى تهيّب واحتراس :

كل ما سواه نجمٌ آفل

بل فى شهود العارفين باطل

فليس إلا الله والمظاهر

لجملة الأسماء وهو الظاهر

فغيره فى الكون لا يقال

لأنه فى ذاته محال

ورتبة الإمكان لا تفارق

لممكن ما وهى فيه الفارق

فالحق ذاتاً واجب الوجود

لنفسه وعزّ فى الشهود

وكل مظهر بروحه استمد

من حضرة الأسماء بخبر ما استعد

ومن هنا اليقين والتمكين
في رتبة الشهود والتلوين
فمن صفت مرآته تحققاً
بما من الأسماء عليه أشرقا
وشاهد المشاهد المصونة
وأدرك المواهب المكنونة

ويقول:

فليس في الوجود شيء يشهد
سواه، فالأشياء به تُوحَّد
والكثرة الموجودة الموهومة
في ذاتها بوحدة معدومة
والحق في الأشياء جميعاً ظاهر
وسرُّه قامت به المظاهر
وكل ذرّة من الذرات
تنبي بأن الكل عين الذات
فوحدة الوجود لا نفارق
شيئاً ولكن يستفاد الفارق

ويقول:

ولا يزال نوره يزيد
حتى لديه يكمل التوحيد
وسرّ وحدة الوجود ينكشف
لعينه، ومنه ذوقاً يرتشف
فتضمحلّ الكثرة المشهودة
له بنور الوحدة المقصودة
فلا يرى بعينه الموحِدَّة
في الكون شيئاً غير ذات واحدة

* * *

١٤٩ - الرفاعي (أحمد)...

الشيخ الكبير السيد أحمد بن السيد أبي الحسن عليّ الرفاعي الحسيني، مؤسس الطريقة الرفاعية، أو البطائحية، ويُنسبَ إلى جدّه رفاعة المغربي الحسيني. وكانت ولادته بقرية حسن من أعمال واسط بالعراق سنة ٥١٢ هـ، ووفاته بقرية أم عبيده، بين واسط والبصرة سنة ٥٧٨ هـ، ولم يخلف كتباً إلا أن تلاميذه جمعوا ما قال في ثلاثة أسفار، هي: «جمع أسرار الشريعة والحقيقة والطريقة»، المشهور باسم «البرهان»؛ و«النظام الخاص لأهل الاختصاص»؛ و«رحيق الكوثر»، إلخ ومن أبرز هؤلاء التلاميذ: شرف الدين بن عبد السميع الهاشمي الواسطي، الذي صرف هَمّه ومعه نفر من الأصحاب إلى جمع بعض المخاطبات التي مفادها موضوع الطريقة، وآداب، المريد وأخلاق الصوفية، أصل التصوف، واشتقاق الكلمة، وكان ذلك هو كتاب البرهان. وأما كتاب النظام الخاص لأهل الاختصاص فهو أصعب على الفهم، وربما لذلك الأجدر به خاصة

المريدين، والكتاب لذلك أصغر حجماً، ومداره على الأخلاق، وهو مخاطبة واحدة، بينما كتاب البرهان عدة مخاطبات، ويبدأه الشيخ إما بـ «أيها السادة»، أو بـ «يا أخي». والكتاب الثالث، من وضع ابن المهذب صاحب كتاب عجائب واسط، ونسب فيه إليه شعراً، ومنه الأبيات التي تقول:

إذا جَنّ ليلي هام قلبي بذكركم
أنوح كما ناح الحمام المطوّق

وقد صنف كثيرون كتباً في الشيخ وفي الطريقة، منها «ربيع العاشقين» لعليّ ابن جمال الحدّاد، و«ترياق المجيب» لتقي الدين الطوسي، و«النفحة المسكية» لفاروق الواسطي، و«خلاصة الإكسير» لعليّ الواسطي، و«العقود الجوهرية» لأحمد عزت الفاروقي.

وكانت زينب ابنة الرفاعي من الدعاة لمذهب أبيها، وسلكت نفس الطريق، وحفظت القرآن، وسمعت الحديث، وتفقهت، وأخذ عنها أولادها، وكانت وفاتها سنة ٦٣٠هـ (١٢٣٣م) في أم عبيدة بين واسط والبصرة.

ونظرية التصوف عند الرفاعي أساسها احترام الشريعة أولاً وأخيراً، والطرق الصوفية التي تخالف الشريعة زندقة، وما لم تشرق مناهجها بنور علم النبيّ ﷺ وعمله فهي باطلة، فالطريق الحق هو طريق النبيّ ﷺ، والصوفي المتّبع هو الذي يعظّم شأن النبيّ ﷺ، لأنه الداعي إلى الله، والمخبر عنه، والآخذ منه، وهو باب الحضرة الرحمانية، ومن اتصل به اتصل، ومن انفصل عنه انفصل، والنبوة باقية بعد وفاة النبيّ كبقائها حال حياته، وجميع الخلق مخاطبون بشريعته، ومن ردّ أخباره الصادقة كمن ردّ كلام الله تعالى. والتصوف فيه تجديد للمراتب وإنزال الناس منازلهم، وأشرف النوع الإنساني هم الأنبياء، وأشرف الأنبياء هو محمد ﷺ، وأشرف الخلق بعده ـ آله وأصحابه، ثم التابعون أصحاب خير القرون.

والتصوف الحقّ لا يأخذ بالرأي، فما هلك من هلك إلا بالرأي، ولا يحكم بالرأي إلا في المباحات، فإن كان هناك تنازع في أمر فمرده إلى الله.

والأولياء ذكرُهم بالخير، فقد رفع الله تعالى البعض على البعض درجات، وتأييد الأولياء لا يكون بالدعوى.

والأساس في هذه الطريقة المحمدية: إحياء السُنّة، والصوفي على الطريق ما دام على السنة، فمتى حاد عنها زلّ عن الطريق.

والصوفية كانوا ربطاء الكمبة في الجاهلية، وكانوا يجيزون الحُجّاج، فلما أتى الإسلام أسلموا وكانوا عُبّاداً، ومن صحبهم سُمي بالصوفي، وكذلك مَن صحب مَن صحبهم أو تعبّد، ولَبسَ الصوف مثلهم، فينسبونه إليهم. وأهل الخرقة التزموا الصفاء والمصافاة فَسُمّوا الصوفية، وعملوا بالآداب الظاهرة وقالوا إنها تدل على الآداب الباطنة، وقالوا أحسن أدب الظاهر عنوان أدب الباطن، وقالوا من لم يعرف أدب الظاهر لا يؤتمن على أدب الباطن، وكل الآداب منحصرة في متابعة النبيّ لله قولاً وفعلاً، وحالاً وخُلقاً، فالصوفي آدابه تدل على مقامه، وأقواله وأفعاله وأخلاقه ميزانها الشرع، فمن ثقل ميزانه كان له من خلق النبيّ، ومَن لم يلتزم الآداب الظاهرة فهو فيهم ولكن حاله لا يلتبس بحالهم، لأن استعمال الآداب دليل الجنسية، وهي علّة الضم، والتصوف كله أدب.

والرفاعي من فرط أدبه الصوفي ينفي عن نفسه أنه شيخ أحد، أو أنه مُقدَّم على أحد، ويقول: لست بشيخ ولست بمُقدَّم عليكم، ولست بواعظ، ولست بمعلم، وحُشرت مع فرعون وهامان إن خطر لي أني شيخ على أحد من خلق الله، إلا أن يتغمدني الله برحمته فأكون كآحاد المسلمين، والإسلام هو حبل الوصلة إلى الله، فأحكموا رابطة الوصلة مع الله بشرائط الإسلام.

ويقول الرفاعي: وينقلون عن الحلاّج أنه قال أنا الحقّ، وقد أخطأ الحلاّج بوهمه، فلو كان على الحقّ ما قال أنا الحق، ويذكرون له شعراً يوهم الوحدة وكل ذلك ومثله باطل، وما أراه رجلاً واصلاً أبداً، وما أراه شرب أو حضر، وما أراه سمع إلا رنة أو طنيناً فأخذه الوهم من حال إلى حال، ومن ازداد قرباً ولم يزدد خوفاً فهو ممكور، فإياكم والقول بهذه الأقاويل، إن هي إلا أباطيل، وقد درج السلف على التزام الحدود بلا تجاوز، والمتجاوز هو الجاهل، فلا تخجلوني غداً بين يدّي العزيز سبحانه وقد سبقكم أصحاب الأعمال المُرضيات، وعليكم بالأدب، فأقرب الناس إلى الزندقة هم المتصوفة، المشغولون عن العبادات بالخوض في الكلام على الذات والصفات.

ويقول: ومدّعي الوحدة المطلقة محوز عن غيره بجهته ومكانه، والله تعالى منزهٌ عن الجهة والمكان، وهو محاط بثوبه، والله تعالى بكل شئ محيط، وهو مسور

بالعجز فى كل شئ، والله تعالى على كل شئ قدير، فكذب وهمه كما كذب وجوده ليدخل فى أعداد المؤمنين الصادقين، فكل ما يطرأ عليه الحَدث من جانب فهو حادث، فاتقوا الله ونزّهوا ربكم، فإن التوحيد إفراد القدَم عن الحادث، وطريقنا لذلك هو طريق شيخنا الجنيد أبى محمد، والمريد ينظر بزىّ من تزيا وبخُلعة مَن تلبّس، فإذا لَبس لباس الأنبياء والمرسلين وتزيّن بزىّ الأولياء الصالحين، فليحفظ حقّ زيّهم، بالتخلّق بأخلاقهم والعمل بأعمالهم. والطريق واضح أغلقت مناهجه جماعة اصطلح عليهم الحال، وما بلغوا مقام التمكين، فتجاوزوا بالشطح والدعوى الحدود، فتبعهم فريقان، فريق انقاد بحُسن الظن، وفريق قاده الجهل، وكلاهما على شفا جرف، إلا أن الطريق محجة بيضاء، وكل ما فيه من قول وفعل بَطَن أو ظَهَر، لا يتجاوز دائرة الشرع، وكل ما خالف الشرع فهو زندقة.

والطريق: أن تقول: آمنت بالله، ووقفت عند حدود الله، وعظّمت ما عظّم الله، وانتهيتُ عمّا نهى الله، ولا طريق بعد هذا أبداً، إذ ليس إلا بعد الحق الضلال. ولقد جاء جماعة من أهل هذا الطريق بعادات زائدة، جعلوها سُلّماً للعبادة، ونبّهوا على كونها بدعة معتادة تدخل فى البدع الحسان، إلا أن أهل النقص عظّموا تلك العادات حتى أدخلوها فى العبادات، واشتغلوا بها عن العبادات، فانقطعوا عن القافلة وبقوا بلا زاد ولا راحة، فإياك أيها السالك أن تُدخل العادة فى العبادة، فإن العادات المباحة أو المستحسنة صيغت بعقل مخلوق، والعبادات قامت بأمر الخالق، وبين عقل المخلوق وأمر الخالق الفرقُ بيّن، تعالى الله علواً كبيراً.

والرفاعية: أدخلها إلى مصر أبو الفتح الواسطى تلميذ الرفاعى الذى أقام بالإسكندرية وتوفى ودفن بها سنة ٥٨٠ هـ.

وقواعد الرفاعية عشرة: يبدأها بالبيعة يؤديها المريد للمرشد على السجادة، لاصقاً ركبتيه ،ويقرأ الفاتحة، كما يقرأ عليه المرشد البيعة، ويطلب منه الاستغفار والتوبة، ويردد خلفه الرضا بمشيخته وإرشاده بطريقة أحمد الرفاعى، ويقيمه المرشد مريداً على هذا العهد، ثم يجلسه ويوصيه بتقوى الله، ويلقّنه كلمة التوحيد، ويعلّمه الذّكر بلا إله إلا الله، يقولها مخلصاً منجرّداً من الأعماق، ثم يضع جبهته على جبهته ويده على صدره ويدعو له بالتوفيق والإخلاص والبركة، ويختم دعاءه

بالفـاتحـة، ويقـوم مع المريد إلى القِبلة ويصليـان على النبىّ ﷺ أول الخلـق؟! وخاتم الرسل والأنبياء أجمعين، ثم يثنّيان بالفاتحة.

ومن أقـواله: إن الطـريق لا يكمل إلا بمعـرفـة النبى ﷺ، ولـم تكن الأقطاب أقطاباً، والأوتاد أوتاداً، والأولياء أولياء إلا بمعـرفة النبىّ ﷺ.

ولمّا زار الرفاعى الروضة الشريفة وقف تجاهها وقال:

فى حالة البعد روحى كنت أرسلها
تُقبّل الأرض عنى وهى نائبتى
وهذه دولة الأشباح قد حضرت
فامدد بيمنك كى تحظى بها شفتى

(يقصد بيمنك يمين النبى ﷺ).

والقـاعدة فى سلوك الطريقة الرفـاعية: الأدب وصحة الصُحبة، وأول ذلك مـع المرشـد، فيخـدمه بطوْعه وعن رغـبته، لينطبع بطباعه بالمعاشرة، فتحسن أخلاقه، وينسـلخ من الدعـاوى والغرور والأقـاويل والـشطـح والـكسـل، ويسـلـك طريـق السلف، ويعـمل بمقتضى الكتـاب والسنة فيصير قريباً من أهل الحق، ولا تأخذه فى الحق لومـة لائم، فإذا ظـهرت عليـه هذه العـلامـات يعـطيـه المرشـد أول أوراد الرفاعية، وهى الصـلاة على النبىّ ﷺ بالعدد الذى يناسب اسـتعداده، ويلحق به الاسـتغـفار والتـوبة بالعـدد الذى يناسب استعداده أيضـاً، فإذا طاب له الذكر يزيد له العدد، ويسـاعده على ذلك بـالرياضة أحياناً، وبالسياحة حينا، وبالتجرد والخلوة والسهـر والتهجـد والخدمة والصـدقات، ويعرفه عقبات الطريق، وهى عند الرفاعية حبّ الشـيخ بالانقطاع إليـه عن غيـره، واسـتغـراق القلب واللسـان بمحبـة النبىّ ﷺ، والتمسُّك بشريعته وأحكام سننه، حتى لَيُـشهِـده ﷺ معه دائـماً فى كل مكان ووقت. ويستحـسن أن يقرأ السالك مع رواتبـه حزب التُّحفـة السَنيّة الخـاص بالرفـاعيـة، وهو عبـارة عن آيات قرآنيـة ومجموعة من الأدعـيات فى نحو الثلاث صفحات.

ومن قواعد الرفاعية: الخلوة، مرة كل سنة سـبعـة أيام، تبدأ باليوم الثـانى من عـاشـوراء، أى الحـادى عشر من محرّم الحرام، إلى مساء اليوم السابع عشر، فيكون للمـختلى فـراشـه الذى لا تشاركـه فيـه زوجتـه ولا غيرها، ويكـون على وضوئه باستمرار، ويخلو طعامه من كل ذى روح، ويصلى عـلى النبىّ الأمى الطـاهر الزكى وآله وصحبه مـائة مرة، وأن يكون ذِكره

بعد الراتب بالعدد الذى يسمح به استعداده، فى اليوم الأول لا إله إلا الله، وفى الثانى يا أله، وفى الثالث يا وهّاب، وفى الرابع يا حىّ، وفى الخامس يا مَجيد، وفى السادس يا مُعطى، وفى السابع يا قدّوس. ويلزم استغراق الوقت فى الذكر. ولا يتقيّد الرفاعية بزى مخصوص إلا العمامة السوداء عملاً بالسُّنة المحمدية، وأما الزى الأسود فذاك تخصيص إطلاق بلا قيد، إشارة إلى دوام السوددة وشرف الطريقة.

وغالباً ما يجعل للورد العام: ليلتى الجمعة والاثنين؛ وللورد الخاص: كل يوم بعد العشاء، وطريقته التحلّق، وكل فرد جاث على ركبتيه، ويقرأون الفاتحة، ويستأذنون على الرسول وآل البيت والصحابة والأولياء وسيد الأولياء الرفاعى، بقولهم دستور، ثم يختمون ذلك بطلب المدد، ويباشرون قراءة الورد، ويتضمن سُوَر: الأعلى، والقدر، والنصر، والإخلاص، والفلق، والناس، والفاتحة، ثم يقرأون عدداً من الصلوات والأشعار، ثم الفاتحة ويختمون. ومن مراسمهم عدة النوبة، وهى عبارة عن الدفوف والطبول الأحمدية الكبيرة، يضربونها فى ليالى الجمع، ويجتمعون عليها لتنشيط المريدين والترويح عن القلوب، ويمدحون النبىّ، ويذكرون الصالحين.

والقاعدة فى أدب المرشد والمريد: أن يكون المرشد كاملاً، منشرّعاً، متديناً، عارفاً بأصول الطريقة وأركانها، وآدابها، وخلواتها، وجلواتها، وأذكارها وأورادها، وسلوكها، وأسرارها، ناصحاً لإخوانه، محباً لهم، لا يلتفت للشطحات. وينبغى أن يكون المريد صاحب أدب وخشوع وخضوع، وعارفاً بمقدار شيخه، منقاداً له، لا يعترض عليه، حافظاً لحُرمته، وحُرمة أهله وأقاربه ومحبيه، لا يصاحب له عدواً، ولا يباعد له صديقاً، ولا يزور أحداً من صالحى الوقت بغير أمره وإذنه، ويكون بين يدىّ شيخه كالميّت بين يدىّ الغاسل.

ومن الأدب مع صاحب الطريقة: معرفة قرابته بالرسول ﷺ، ليعرف له المريد حقّ المودة فى القربى، وأن محبته من محبة النبىّ ﷺ. ومن الأدب معه معرفة سيرته ليتخلق أتباعه بأخلاقه، ولا يصح لمن انتسب إلى طريقته أن ينتسب إلى طريقة أخرى بعدها. ولبس الخرقة من القواعد الرفاعية، وقد لبسها صاحب الطريقة من خاله الشيخ منصور البطائحى، الذى لبسها ضمن سلسلة من خمسة عشر

إماماً، تنتهى بعلىّ كرم الله وجهه، التى لبسها من النبىّ ﷺ. ولهذا كانت للرفاعية اتجاهات علوية، وزعم الرفاعى أنه فى مقام يلى أئمة الآل الاثنى عشر.

ولما ناظر ابن تيمية الرفاعية فى مصر، انتقد شعبذتهم بدخول النار، وتكليم الموتى، وابتلاع السيوف والحيّات إلخ، بدعوى أنها كانت تُؤدَّى بحيل من الكيمياء والتمويه على الناس، فدخول النار كان يتم بطلاء أجسامهم بأدوية يصنعونها من دهن الضفادع وباطن قشرة النارنج وحَجَر الطَّلق؛ وأن تكليمهم الموتى فى القبور لم يكن إلا بإدخالهم رجلاً فى اللحد يتكلم منه؛ وأن رجال الغيب الذين زعموا أنهم يستطيعون إظهارهم، إنما كانوا رجالاً يمشون على خشب طوال. وكان القرامطة فى البطائح حيث مقر الرفاعية يفعلون نفس الشىء، ومارسوا الدخول فى النار بطلاء أجسادهم بِحَجَر الطلق. وكذلك فعل الحلاّج وتعلّمه فى واسط. وكان إبراهيم عليه السلام من البطائح، ومعروف أن النار لم تحرقه. هكذا قالوا. وذكروا عن المغيرة ابن سعيد، وبيان بن سمعان الغالبين، اللذين صُلبا فى واسط، أنهما كانا يمارسان هذا السحر. وفى التوراة أن شدرخ وميشخ وعبدنغو - وكانوا من أهل البطائح - ألقوا بهم فى النار ولم تؤثر فيهم.

وذكر الواسطى أن أحمد الرفاعى كان يدّعى المهدية، ويدّعى أنه مجدد للقرآن، وأنه يتصرف فى الأرض والسماء، وفى مقام الولاية. وعن ابن بطوطة: أنه رأى فى واسط آلاف الفقراء (أى الصوفية) وهم يذكرون ويدخلون النار بحضور أحمد بن العباس الرفاعى. وكانت هناك محاولات تنفى عن الرفاعى أنه كان يمارس هذه المخاريق، وأنها لم ترج إلا بعد مجئ التتار، إلا أن الواسطى فى كتابه «ترياق المحبين» روى عن أصحاب الرفاعى من الفقراء أنهم كانوا يمرون مواكب أمامه فى أرض البطائح، وأن الناس كانوا ينكرون هذه الفعال عليه.

* * *

١٥٠ - الرّقى (إبراهيم)...

برهان الدين إبراهيم بن أحمد بن معالى الرَّقِّىّ (٦٤٧ - ٧٠٣هـ)، له تصانيف منها «أحسن المحاسن»، اختصره من «صفة الصفوة» فى طبقات الصوفية لابن الجوزى. ولم يَخِلّ الاختصار بالمعانى المقصودة، ولا بالرتب الموعودة، وبه صار الكتاب فى متناول الجميع. وهذه هى كل قيمة الرَّقِّى.

* * *

١٥١- روزبهان (العاشق لله)...

أبو محمد روزبهان بن أبى نصر البَقْلى، ويلقب بشطّاح فارس، وروزبهان البَقْلى، وروزبهان المصرى، وله فى التصوّف نحو من ثلاثين كتاباً، منها تفسير صوفى للقرآن بعنوان «لطائف البيان»، يذكره معين الدين أبو القاسم جنيد الشيرازى فى كتابه «شدّ الإزار فى حَطّ الأوزار عن زُوّار المزار» عن أولياء بلده شيراز؛ وله مشارب الأرواح؛ و«منطق الأسرار»؛ «وعبير العاشقين» يتناول فيه العشق الإلهى وأحوال العاشقين؛ والشطحات. وقد اهتم المستشرق كوربان بالكتابين الأخيرين وأصدرهما عن المعهد الإيرانى الفرنسى، وكتب مقدمة شاملة عن الشيخ روزبهان، وبسبب الكتاب الأخير (الشطحات) كانت تسميته بشطّاح فارس.

ويبدو أن روزبهان كان كثير الأسفار فى شبابه كعادة الدراويش، فزار العراق وكرمان والحجاز والشام، ويبدو أن تسميته بالبقلى لأنه كان يبيع البَقْل أو الخُضْرة فى سياحاته الكثيرة. وقضى بمصر خمس عشرة سنة، وفيها تلقى الخرقة عن محمود بن محمود الصابونى، ولذلك أطلقوا عليه فى شيراز اسم روزبهان المصرى. ولما عاد إلى إيران لزم جامع شيراز المعروف بالجامع العتيق، وقيل إنه توفى عن أربع وثمانين سنة، ووصف نفسه فقال: فى هذا الزمان أنا المرشد إلى طريق الله، من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب، فهل يستطيع العارفون أن يدركونى حقاً، وأنا البعيد النائى عنهم بروحى، حيث مستقر الأرواح ؟

وروزبهان من مواليد سنة ٥٢٢هـ/١١٢٨م، بمدينة فسا من فارس، ونشأ وتوفى بشيراز سنة ٦٠٦هـ/١٢٠٩م، وأصابه الفالج فى آخر حياته، وكان قد أقام خانقاه لمريديه فى شيراز فى محلة باغ نو، ودفنوه بها، ومشهده بها يُزار.

وكان روزبهان سُنّياً. وكتابه فى تفسير القرآن صنّفه موجزاً لم يُطل فيه لمنع الإملال، وأسلوبه فيه لطيف، وعباراته شيقة. وفى كتابه «الإغانة» يشرح معنى الحديث : «إنه ليغان على قلبى وإنى لأستغفر فى كل يوم سبعين مرة»، ويقول: إن للأنبياء والأولياء إغانة على قدر كلٍّ، والغين صدأ يجتمع على القلب ويزول بالتصفية، والفرق بين الغين والرين، أن الأول رقيق والثانى كثيف. والغين ابتلاء ولكنه لا يحول دون الاعتقاد.

ومن أقواله فى العشق الإلهى عند الصوفية: أن قصة العشق دائماً هى أحسن

القصص، ومن ذلك قصة يوسف وزليخا في القرآن، يصفها المولى تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ (يوسف ٣)، وفي الحديث: «من عشق وعفّ، وكتم ومات، مات شهيداً»؛ ويورد روزبهان، قولا لذى النون المصري: «مَن استأنس بالله، استأنس بكل شيء مليح ووجه صبيح»، وقال: «المستأنس بالله يستأنس بكل شيء مليح وبكل صورة طيبة». ويقول روزبهان: فهل يجوز إطلاق العشق على الله تعالى؟ وهل يجوز أن يدّعي أحدٌ عشقه؟ وهل اسم العشق عند العشاق من الأسماء المشتركة؟ وهل يكون جواز العشق على الله، ومن الله، وبالله؟ ويردّ على أسئلته فيقول: شيوخ الصوفية مختلفون، فمنهم من ينكر العشق على الله، ومنهم من يجيزه، فمن أنكر أخفى سرّه عن أهل الدنيا غيرةً منهم، ومن أجازه فلأنه يجاهر بعشقه وينبسط. ويقول: فعموماً لايخشى العاشقون والمحبوبون في الله لومة لائم، فمحبتهم لله، أو محبة الله لهم من باب: ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (المائدة ٥٤). وأقوال روزبهان في العشق الإلهي يرددها ويضمّنها كتابه «ياسمين العشاق» ليكون هذا الكتاب لهم نزهة أنس، وريحاناً من حظيرة القدس.

والكتاب جامع شامل ومذهل حقيقةً بما حواه من موضوعات عددها اثنين وثلاثين فصلاً: في ملاطفات العاشق والمعشوق، وفي المحبة كمقدمة للعشق، وفي الشواهد الشرعية والعقلية على العشق الإنساني، وفي فضيلة المحبين، والفهم للحَسَن والمُستحسَن، والمحبوبين المستحسنين، وفي جوهر العشق الإنساني وماهيته، وفي سبب بقاء العشق في العاشقين، وفي السالكين الذين لم يكن منهم في البداية عشق إنساني ولا عشق إلهي، وفي وصف العاشقين الذين بدايتهم العشق الإنساني، وفي بداية العشق، وفي امتحانه، وفي لزوم العشق وتأثيره، وفي تربية العشق، وفي تنزّله على العاشقين، وفي طريق العشق في قلوب العاشقين، وفي مقدمات العشق الإنساني وترقّيه في مقامات العشق الربّاني، وفي خلاصة العشق الإنساني، وفي غلط أهل الدعوى في العشق، وفي بداية العشق الإلهي، وفي بداية هذا العشق وهو العبودية، وفي مقام الولاية في العشق، وفي المراقبة التي هي جناحٌ لطير الأُنس في مقام العشق، وفي خوف العاشقين من العشق، وفي رجاء العاشقين، وفي يقينهم، وفي قُربهم، وفي مكاشفاتهم، وفي مشاهداتهم، وفي

محبتهم، وفى شوقهم، وأخبراً فى كمالهم. والكتاب على هذا أجمل وأوسع وأشمل كتاب فى العشق فى العالم كله وبجميع اللغات حتى الآن!

والعشق عند روزبهان ألوانٌ وأصناف وأقسام، فمنه **العشق البهيمى**: وهو المحبة التى قوامها الرغبة الجنسية؛ **والعشق الطبيعى** ـ والناس فيه سواء: وهو فطرة فى الإنسان؛ **والعشق العقلى**: وهو الذى أساسه الالتقاء الفكرى ولا يكون إلا عند أرباب العقول؛ **والعشق الروحى**: ويخصّ المترفعين من الناس أصحاب التسامى والعازفين عن المألوفات؛ **والعشق الإلهى**: وهو فى قمة مدرج العشق، والإنسان فيه من الربّانيين أهل القُربى وأصحاب اليمين.

وربما كان اهتمام روزبهان بأحوال العشق والعاشقين أنه كانت له الأحوال فيه، وأنه سلك من أول الطريق فعانى العشق الإنسانى، ثم تصعّد به إلى العشق الإلهى، وكانت له فى الحرم ـ لمّا جاور بمكة ـ زعقات فى حال وَجْده، يحكى ابن عربى فى الفتوحات المكية، أنها كانت تشوّش على الطائفين بالبيت، وربما ـ كما قال ـ كان روزبهان فى بداية أمره واقعاً فى غرام مغنية، ولكنه كان الغرام العفيف من طرف واحد ولا تدرى به المرأة، وما كان روزبهان يستطيع أن يفصح عنه، ومن ثم كانت تأتيه الجذبات. وكتابه، وأسلوبه، وكلماته التى يستخدمها تعبيراً عن حُبّه، تكشف عن حسٍّ جمالى رهيف، وذوق عال، واستغراق فى الوجد، وعشق مُتيّم بالله تعالى، وكان كثير البكاء والعويل والتأوّه والزفرات، لايسكن روعه، ولا يرقأ دمعه، ويشفّ وجهه عن عذابات دفينة، وتنبئ حركاته بمعاناة لقلق عارم. ولم يكن يخفف عنه إلا أن يرى وجهاً مليحاً، أو جسماً جميلاً فيقول: ﴿ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ﴾ (غافر ٦٤)، أو ينقل عن النبىّ ﷺ «كان يحب الخضرة ويعجبه الوجه الحسن»، وقد يقول: «ثلاث تزيد فى قوة البصر: النظر إلى الخضرة، والنظر إلى الوجه الحسن، والنظر إلى الماء الجارى»، أو يقول: «إذا أرسلتم رسولاً فاجعلوه حَسَن الوجه الأسمر»، أو يقول: «اعتمدوا بحوائجكم صِباح الوجوه، فإن حُسْن الصورة أول نعمة تلقاك من الرجل»، أو يقول: «إن الله جميل ويحبّ الجمال». ولما قالت إحدى الأمهات لابنتها الجميلة: يابنية ! لا تظهرى حُسْنك لأحد فيُبتذَل! قال روزبهان: أيتها المرأة ! إن الحُسن لا يَرضَى بالانفراد إلاّ أن يُقرَن به العشْق، لأنهما تعهَّدا فى الأزل لا يتفارقان !

وروزبهان كان صاحب سماع. ومن تسابيحه: سبحان الذي استحق المجد والثناء، والحمد والبقاء، في قدَمه ودوام ديمومته. وكان يصلي على الرسول ﷺ فيقول: اللهم صلِّ وسلِّم على آدم خليفته (خليفة الله)، وبديع فطرته وسراج جماله المخصوص باصطفائيته، المنقوش بنقش خاتم قدرته، وعلى رئيس مملكته، محمد المُجتبَى بخُلته، المصطفى بمحبته، وعلى أزواجه وعترته المطهرة، وعلى صحبه الكرام البررة، وعلى إخوانه من الأنبياء والمرسلين، وعلى خُدّامه من الملائكة المقرّبين، وعلى عشاق أُمّته المعدودين في زمرة مُحبيّه - صلوات وسلامات دائمات أبداً.

ومن دعواته: «اللهم روّح قلوبنا بنور حكمتك، وثبّت قلوبنا بدوام ذكرك، وحلاوة مناجاتك، ولذة كلامك، وروّح أرواحنا بلطفك، ونوّر قلوبنا بنور قلبك، وقرر عيوننا بمحبتك، وطيّب أسماعنا بلذائذ مناجاتك، إنك على ما تشاء قدير. اللهم وأسعد قلوبنا بمشاهدة جلالك، وأرنا عجائب ملكوتك، واجعل لنا حظاً من نصيب أُنسك، واجعل لنا من عندك موقفاً يقرّبنا من نفسك، ويؤنسنا بأُنسك، ولا تخيّبنا من ذلك كله يا أرحم الراحمين». - ونحن نقول بعده: اللّهم آمين!

* * *

١٥٢ - الرومي (صاحب المثنوي)...

محمد بن محمد بن الحسين، البَلخي، الشاعر الكبير صاحب المثنوي، المعروف بالرومي، حيث كانت ولادته في بَلْخ عام ٦٠٤ هـ، وإقامته ووفاته بقونية تركيا عام ٦٧٢ هـ، ومن ثم كانت شهرته باسم القونوي أو الرومي، ومولانا ي روم، ويقصدون بروم: قونية؛ واختصاصه بلقب مولانا جاء بعد وفاته، ويذكرونه بمولوي، وينسبون إليه طريقة الدراويش المولوية، أي الدراويش الراقصين. وشعره أدب صوفي كامل، له كل المقومات الأدبية، وليس مجرّد فوران عاطفي يعبر به عن نفسه في بضعة أبيات، كما عند رابعة العدوية، فقد كتب المثنوي في ستة دفاتر أو مجلدات، تضم ما يقرب من خمسة وعشرين ألف بيت! وكتب «ديوان شمس تبريز»، ويشتمل على غزليات صوفية يبلغ عدد أبياتها ثلاثة آلاف وخمسمائة بيت تقريباً! وله غير ذلك الرباعيات وتشتمل على ١٦٥٩ رباعية، وعدد أبياتها ٣٣١٨ بيتاً! ومن مصنفاته كتاب «فيه ما فيه» ويشتمل على قصص ومواعظ وأمثال، وكتاب «المجالس السبعة» ويشتمل على مواعظ وخطب ألقاها أثناء اشتغاله بالتدريس، إلخ.

وكان الرومي يعمل مدرساً للعلوم الدينية، إلى أن التقى بالصوفي شمس الدين التبريزي فتأثر به، وكان علامة تحول كبرى وانقلاباً في حياته الروحية، حيث انقطع إلى الرياضة الصوفية، وسماع الموسيقى، ونظم الشعر. وكان شمس يلبس ملابس الدراويش، ويقول الرومي عنه: إن الشمس هوالذي أراني طريق الحقيقة، وهو الذي أدين له في إيماني ويقيني. وقد سأله شمس: ما المقصود من دراسة العلوم؟ فرّد الرومي بأنه الاطّلاع على آداب الشرع، فقال شمس: لا، بل الوصول إلى المعلوم، ثم ذكر بيتاً للشاعر الصوفي حكيم السنائي يقول: إن العلم إذا لم يجرّدك من نفسك فالجهل خيرٌ منه. ويذكر الرومي أنه حبس نفسه مع شمس معلمه أربعين يوماً في حجرة واحدة لا يدخلها عليهما أحد إلا من يخدمهما، امتلأ فيها الرومي بروح جديدة وانكشف له خلالها عالم جديد من الحقائق والأذواق. ويبدو أن الرومي كان دائماً في حاجة إلى هذه الصُّحبة الروحية، فبعد التبريزي كان شديد التعلّق بتلميذه حسام الدين جلبي، وهذا الأخير هو الذي طلب إليه تأليف هذا الأدب العظيم الذي اختص به الرومي ليكون تراثاً للأجيال من بعده، وزاد في طلبه بأن يجعله على طريقة «حديقة الحقيقة» للشاعر الصوفي السنائي، أو على طريقة «منطق الطير» للشاعر الصوفي فريد الدين العطار: وكان الرومي يملي على تلميذه، فجاء المثنوي كما يقول: «أصول أصول أصول الدين»، يعني أنه كتاب في علم الحقيقة الذي يعدّ أساساً لمعرفة الكتاب والسُّنة وهما أصل الدين، ومن أقوال الرومي في ذلك بأن من يريد الوصول بالظاهر فهو مخطئ، إذ الوصول يُبتنَى على الحقيقة وليس على الظاهر، ومن لا يعرف الحقيقة فإنه لا يدري ما الكتاب ولا الإيمان.

ويقول الرومي عن المثنوي أيضاً: «هو فقه الله الأكبر لاشتماله على مسائل تعدّ فقهاً أكبر، لانصرافها إلى تصفية القلب وتطهير النفس وتخلية العقل، وهذا هو الفقه الأكبر، لأن تلك مهمة أكبر من الفقة المتعلق بالنكاح والطلاق والبيع والشراء. ويبدو أن كتاب المثنوي لذلك هو كتابٌ لخاصة الناس، وهم الداخلون في التصوّف والغارقون في بحار معارفه، وأما كتابه «فيه ما فيه» فهو على العكس لعامة المثقفين.

وأسلوب الرومي في أدبه الصوفي: قوي البيان، فيّاض الخيال، بارع التصوير، يوضح المعنى الواحد في صور مختلفة، ويسوق المثل إثر المثل، والمعاني تأتيه

أرسالاً، والألفاظ تواتيه انثيالاً، وبحور الشعر تطاوعه حتى لينظم حول القصة القصيرة مئات الأبيات، ويصل بها ما يشاء من الآراء والنصائح والعظات والعبر، فقصة الأسد والوحوش والأرنب من قصص كليلة ودمنة، نظم فيها زهاء خمسمائة بيت، وقلبه فى شعره مفعم بالعشق الإلهى، ومستغرق فيه ، فكل شئ يذكّر بالله تعالى، وكل فكر يؤدى إليه، ويقول عن العشق إنه أسطرلاب أسرار الله، ويعجز عن تعريفه فيقول: الشمس دليل الشمس، يعنى أن العشق يُعرّف أو يعبّر عن نفسه، ويقول: العقل فى التعبير عن العشق مثل حمار نام فى الوحل. وفى قصته عن الجارية والملك والدرويش يقول: إن العشق الحقيقى هو عشق الحىّ لا عشق الموتى، لأن الحىّ هو الباقى أى الله تعالى، وينصح المريض فيقول: عليك أن تختار عشق الأنبياء الذين وجدوا بعشقهم القوة والمجد .

وعند الرومى يصح التعبير عن علاقة العبد بربه بالعشق، لأنه يعنى المحبة الخالصة، والعرفان الكامل، والوجد الصوفى، واستنارة أنوار الحق . وهو يقول: العشق جعل جسم الأرض يعلو على الأفلاك، فرقص الجبل وأضحى خفيف الحركة؛ والعشق حلّ فى روح الطُّور فسكَر الطور وخرّ موسى صَعِقاً.

وللناى عند الرومى مكانة خاصة لاتصاله بالعشق. وقصة الناى يبدأ بها المثنوى فيقول: استمع للناى كيف يقص حكايته، فهو يشكو آلام الفراق فى صوت هو الحُزن بعينه، ومنذ قطعوه من الغابة والناس يبكون ببكائه، وصدره يمزقه الفراق، يريد أن يشرحه، لأن كل ما بَعُد عن أصله يطلب الوصال ويذكر حلاوة الأيام التى كانت تجمعه بمحبوبه. ويقول الناى: أصبح أنينى يتردد فى كل جماعة ، وصرتُ صاحب البائسين والسمداء، ولا أحد يعلم الأسرار داخلى، فلا توجد للعيون الأنوار التى تدرك بها مأساتى، ولا توجد للآذان الأنوار التى تسمع بها أسرارى.

ويقول الرومى: كلّ من تغيّرت هيئته بسبب العشق، فإن العشق يطهّره من العيوب، فيا مَن عشقه الجميل هو سرّ هيامنا، ويا من هو الطبيب لكل ما نشكو من علل، ويا من هو الدواء لغرورنا وكبريائنا، إن المعشوق هو الكل ، والعاشق ليس سوى حجاب، والمعشوق هو الحىّ، والعاشق هو الميت .

ومنهج جلال الدين الرومى فى التصوّف أساسه هذا العشق الإلهى الذى

يبلغ حد الجذب، فيكون الترقّي في مدارج الكمال. وفلسفته في التصوّف أساسها وحدة الوجود التي تلخصها قصته عن الأستاذ والتلميذ الذي كان به حَوَل في عينيه، فقد أمره الأستاذ أن يستحضر زجاجة من إحدى الحجرات، فعاد إليه وسأله أي الزجاجتين؟ لأنه وجد هناك زجاجتين وليس زجاجة واحدة، لكن الأستاذ أكد له أنه لا توجد غير زجاجة واحدة، والتلميذ أكد له أنه توجد زجاجتان، ولم يجد الأستاذ بداً من أن يطلب إليه أن يكسر إحدى الزجاجتين ويستحضر الأخرى، فلمّا كسر التلميذ الزجاجة لم يجد أن هناك زجاجة أخرى كما كان يتوهم له ببصره الذي يعاني الحول، وعلم أن أستاذه كان على حقّ. ويقول الرومي: إن مضمون قصته هو نفسه مضمون الآية الكريمة التي تقول: ﴿ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ﴾ (البقرة ٢٨٥).

ويذكرنا الرومي بعداوة اليهود للمسيحيين وعداوة المسيحيين لليهود، ويقول: كلاهما مظهر لأنوار الله، فالناظر لأحدهما بالعداوة، وللآخر بالحب، يشبه الأحول الذي يرى الشيء شيئين، والحقيقة حقيقتين، وفي الحقيقة ليس عيسى إلا روح موسى، وليس موسى إلا روح عيسى!

يقول:

چه تدبير اى مسلمانان كه مَن خودرا نميدانم
نه ترسانه يهوديم من نه كَبْرَم نه مسلمانَم
نه شرقيّم نه غربيّم نه علويم نه سفليم
نه ز أركان طبيعيّم نه از أفلاك كردانم
نه از هندم نه أزچينم نه ازبلغار وسقسينم
نه از مُلك مراقينَم نه ازخاك خراسانَم
بنشانم بى نشان باشَد مكانَم لا مَكان باشد
نه تن باشد، نه جان باشد، كه مَن خودجان جانانم
دوئى راچون برون كردم، دو عالم رايكى ديدَم
يكى بينم، يكى جويم، يكى دانَم، يكى خوانَم

يعني:

أيها المسلمون، لبت شعري، ما التدبير؟ أنا لا أدري من أنا:
فلا أنا مسيحي ولا يهودي ولا زرادشتي ولامسلم
ولا شرقي ولا غربي ولا علوي ولا سفلي
ولا أنا من عناصر الطبيعة،
ولا أنا من الفُلك الدوّار
ولا أنا هندي، ولا صيني، ولا بلغاري،
ولا من سقسين، ولا عراقي، ولامن أرض خراسان
علامتي بلا علامة، ومكاني بلا مكان
ولا أنا جسم، ولا روح، ففنفسي روح الأرواح.
لما لفظتُ الإثنينة رأيت العالَم واحداً

إني أرى واحداً، وأنشد واحداً، وأعلم واحداً،وأقرأ واحداً !

والرومي كذلك لا يرى في اختلاف الأديان أي خير، ويرى أن المذاهب جميعها ألوان، واختلافها لأن الأصل فيها انعدام اللونية. يقول:

انعدام اللون، هذا أصل الألوان،
فلمّا تلوّن اللون اشتبك موسى مع موسى في القتال
ولمّا زال اللون تصالح موسى مع الفرعون
فصبغة الله أن تتحول الألوان إلى لون واحد
والقادر هو الطالب
والغالب الذي يُخرج العدم من الوجود
فلا يبقى غيره في الوجود،
بدليل أن كل من عليها فان
فإذا كانت لك عينان تنعرفان إلى الحق
فَطِرْ حتى ترى ساحة الدارين
وانظر إلى ما بعد «لا إله»، فإن بعدها «إلا الله»
وذهبتْ «لا إله» وبقيت «إلا الله»،
فالألوان إلى زوال إلا الواحد
والعين ترى أصل الشيء إذا كانت سليمة،
وترى الشيء الواحد اثنين إذا كانت حولاء
فالإثنينية من صفات الأحول،
وإلا فالأول آخر والآخر أول
وكل شيء ما خلا الله باطل،

فكيف أستطيع أن أفصح عن هذا السِّر وكلامي ليس له نهاية

فاصبر حتى تحصل على ذوق العلم الذي هو من لدن حكيم عليم.

وللرومي فلسفة في الصلة بين الروح أو القلب والعقل ، والوصول إلى الحق له طريقان، طريق الروح أو القلب، وطريق العقل، ويقول: عليك أن تقبل أوامر الروح. ويقول: لا تحسب كل وسوسة بحثاً وفكراً ، ولا تعتقد كل شئ صحيحاً ، ولا تجعل لروحك سجناً وعذاباً، ولا تجعلها رهينة للنفس التي تأكل وتشرب فقط. ويقول: اجلسوا في المشهد المقدس بالحضور القلبي، وإذا رأيتَ الروح واعظاً ومذكراً فلا تكن وراء الستار، بل اسمع من الروح. ويقول: افتح عينيك لترى بنور العقل، أن في كل ورقة شجر وكل حبّة، آثار تدل على أنه واحد لا شريك له. العقل أعزّ من كل شئ وهو مفتاح حريم الدولة ومصباح سرير الحشمة، والعقل يهدى إلى الرشد، ويأتي بالنصر في المعارك، ويُستدل به على وجود الله تعالى، ولكن العقل منه واصل ومنه ضال، وكلاهما يطلق عليه العقل، وعليك أن تعرف تفاوت العقول. ولو كان هذا العقل كافياً لمعرفة الحقائق الدينية لكان فخر الدين

الرازى أكبر العارفين. وأولئك أصحاب محمد صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم، أعمقُ الناس علماً وأقلهم تكلّفاً، ولم يقرأوا كتاب حكمة، ولم يتلقوا درس فلسفة. ويقول: إلى متى العكوف على الفلسفة اليونانية والحكمة المادية، وهى تباعد بين الإنسان والحقيقة وقتاً، وتورث الأخذ بالألفاظ والقشور، وساقُ أصحاب الاستدلال المنطقى ساقٌ خشبية لا مرونة فيها ولا تمكين؟ ويقول فى أولياء الله: إنهم وصلوا إلى ما وصلوا ونالوا الكرامات، لأنهم سيطروا على نفوسهم بعقولهم، ووجّهوا عقولهم إلى الأنوار فأخذوا منها. ويقول: نحن أطباء الروح تلاميذ الرحمن، انفلقت لنا البحار، وتفجّرت العيون من الأحجار. وأطباء الجسم يعرفون مرضى المرض بالنبض، ولكننا ننظر بنور الله ونتكلم بوحى الله. ويقول: ما دمتَ منهمكاً فى الشهوات فإبصارك مظلم، ولا أمل لهدايتك. ومن قُتلت فيه شهوات الحس يكون له ذوق روحى يُدرك به النور والحق. والحياة الروحية تحتاج للحرارة والماء، وحرارتها الدمع، وماؤها لهيب القلب ولوعة الشوق إلى المبادئ العالية.

ومبول الرومى شيعية، وله من الأشعار فى عليّ ضمن غزليات شمس التبريزى ما يعدّ من كلام الغلاة كل الغلو. يقول:

منذ كانت صورة تركيب العالم ...

كان عليّ

منذ نُقشت الأرض وكان الزمان ...

كان عليّ

ذلك الفاتح الذى انتزع باب خيبر بجملة واحدة...

كان عليّ

كلما تأملت فى الآفاق ونظرت فيها أيقنت بأنه فى الموجودات..

كان عليّ

إن من كان هو الوجود ولولاه لسرى العدم فى العالم الموجود...

كان عليّ

إن سرّ العالمين الظاهر والباطن الذى بدا فى شمس تبريز...

كان عليّ

فهل لهذا الكلام معنى آخر سوى أن عليّاً هو الله ؟!!! ـ وهذا الكلام يُخرج الرومى من دائرة الإسلام.

والرومى أبوه بهاء الدين محمد ابن حسين الخطيبى البلخى، ويعرف باسم بهاء ولَد، ولقبه سلطان العلماء، وله «كتاب المعارف»ـ وهو عبارة عن مواعظ ومجالس ألقاها ونظمها بنفسه، ورتبها وشرح فيها حقائق العرفان والدين وتأويلات الآيات، ويبدأ أغلب أبواب الكتاب بعبارة: «قلت

في نفسي» أو «فكرت مع نفسي»، وكان له تأثير كبير في توجّهات الرومي من صباه.

وفي وصف الرومي لحال والده ومجالسه في الوجد والسماع: أنه كان داعية للعشق، ودعوته كانت محل اعتراض الفقهاء، ويقول:

أصبح الحفّاظ جميعاً ينشدون الأشعار
وساروا في طريق المطربين
وأمسى الشيوخ والشباب يطلبون الغناء
ويركبون بَراق الولاء
وصارت أورادهم شعراً وغزلاً وليس لهم سوى هذا: صلاةٌ وعمل
وصار العشق طريقهم ومذهبهم، وكل ما عداه لم يعد شيئاً لديهم

فالعشق إذن ورثه الرومي عن أبيه، غير أن العشق مع الابن كان مدار حياته، ومن ذلك غزلياته الصوفية التي يقول فيها:

طالما أنت مقيّدٌ بالكفر أو الدين
فإنك تكون بمنأى عن الحبيب الرقيق
فانصرف عن الخلق إلى الحق
حتى تصبح فصّ خاتم العشق
وطالما أنت تجالس نفسك
فمتى تكون جليس الحبيب ؟
فضع قدمك على أم رأس الدنيا
فتصير أعلى من الفلك السابع
وطالما ليست لك عين تبصرك بالطريق
فكيف يمكن أن تبصر الطريق ؟
إنك تملك كنز الوحدة في زاوية الروح
فحتّام تكون حزين القلب من الفقر ؟
وكيف تصبح العزيز في مصر
وأنت حبيس الكبر والحقد ؟
فيا من أنت بذرة مزرعة الوجود
حتّام تبقى في الأرض ؟
ولقد انصرم العمر وأنت لم تذق طعم العشق
فإلام تبقى بالشمس هكذا ؟

وفي المجلد الثالث من المثنوى يورد الرومي «قصة الاختلاف في كيفية شكل الفيل في الليلة الظلماء»، للتدليل على أن الاختلاف في العقائد والتنوع في الآراء والمذاهب، وانبلاع المنازعات والخصومات، كلها ناشئة عن قصور الحس وسوء التعبير. والقصة أن جماعة من الهنود أدخلوا فيلاً في محل مظلم، وجاء كثير من الناس ممن لا يعرفون الفيل، واستطلعوا الأمر لعلهم يتبينون هذا الشيء. ولما كان المكان مظلماً، والرؤية غير ممكنة، كان كل منهم يتحسّس الفيل بيده لعله يعرف كنهه، فالذي مرّ بيده على الخرطوم قال إن الفيل كالزورق،

والذى لمس بيده أذن الفيل قال إنه كالمروحة، والذى لمس ساقه قال إنه كالعمود، والذى مرّ بيده على ظهره قال إنه كالسرير، وهكذا . ويقول الرومى :

ولو كان فى كفّ كل واحد منهم شمعة لانحسر خلافهم ولما ظهر اختلافهم. وعين الحسّ هى كراحة اليد، وليس للراحة سلطة على غيرها.

والقصة بذلك بالنسبة لأهل الحال وطلاب الحقيقة، أثمن من الدُّرّة. يقول الرومى :

اترك العقل ثم تنبّه، واصمّ السمع ثم اسمع
إنى لا أقول لك لازلت غفلاً ولا تزال فى الربيع
يا أيها العزيز إن مثل الدنيا كشجرة ونحن عليها كالفواكه الفجة
والفواكة الفجة تمسك بالغصن بشدة لأنها لا تصلح لعدم نضجها
وبعدما تنضج وتصير حلوة يضعف تشبثها بالأغصان
إن التشدّد والتعصب من عدم النضج
والجنين يمتص الدم مادام جنيناً

* * *

١٥٣ - رويم (أبو محمد)...

أبو محمد رويم بن أحمد بن يزيد، من أهل بغداد، توفى سنة ٣٠٣ هـ، وله بحوث فى التصوّف، لعلها أهم ما يسترعى القارئ من كلامه وأقواله، ومن ذلك قوله: **إن طالبى التصوف (فى وقته) تحيّروا، والمريدين فتروا، لما رأوا المنتسبين إلى التصوف على طبقات مختلفة ومقامات متفاوتة، فاستصغروا أهله وتراخوا عن الأعمال وتطاولوا إلى أحوال يعجزون عن بلوغها** . وشخّص رويم الداء فى سببين، وكل سبب منهما على أصلين، أحدهما: **استعجال المنزلة قبل وقتها عجزاً عمّا عمله الصادقون وبذله المحققون**؛ والآخر: **الجهل بطريق السالكين إليها وإغفال التقوى عمّا لها وعليها.** ويقول إن ذلك دعاه إلى التبيّن لأمورهم والتحذير من غرّتهم، واستدعى ذلك منه أن يسأل كبراءهم ويناقش أئمتهم، فوجد أن فرقة منهم قالت: إن حوادث الكون من الأفعال وغيرها من الأجسام والأعراض لا تخلو من أحد أمرين: إما مُحدَث ظهر إلى الكون بغير علّة ولا سبب، أو يكون حدثها ظهر عن علة وسبب، ومدار قول هذه الفرقة أن المخترعات أقوالها وأفعالها لله الواحد القهّار، ولكنهم لم يفرّقوا بين ما أحدثه المحدث من الخير والشرّ، والهُدى والغى، فذهب على هذه الفرقة ما فضّل الله به بعض الأشياء على بعض، وغاب عنها إحداث الله للخلق على طبائع مختلفة ودواع متباينة، ومن ثم تفاوتوا فى العبادة

لله والأخذ عنه، وإن بدا أن كل شئ فى قبضة التدبير وسلطان القهر وكأنه من الجبر. **وفرقة أخرى من الصوفية**: لهم عجائب فى المقامات والطرق والسير، إلا أنهم اغتروا، فكانوا صرعى تحت الإشارات فى بحور عميقة بين عالم الجمع والتفريق. **وفرقة أخرى**: قد أنسوا بالفناء، واستبطنوا البقاء، فلا هم يقومون بعلم الفناء، ولا هم دائمون على روح البقاء، فلم يعرفوا الحق من الباطل، ولم يفرّقوا بين المخلوق والخالق، ولا الفاعل والمفعول، ولا الفعل من الانفعال، ولم يميّزوا بين الظاهر والباطن. **وفرقة منهم**: رأوا أنهم مُكِّنوا فى المقامات، ولاحت لهم الأحكام، إلا أنهم علّقوها على الخلق لما رأوا آثارهم وحضور إرادتهم، فاستوثق منهم العُجْب، وتمكّن الجهل، لتعلّقهم بفقد من الوجد. فأما **الفرقة** التى علت بها الإشارة إلى علم التوحيد: فهم الذين صحبوا الأحوال فى أوقاتها بالوفاء، والأعمال بالإخلاص، فلم يرتقوا إلى مقام قبل إحكام المقام قبله، وتفقّهوا بعلومها إلى أن أدّاهم ذلك إلى علم المعرفة فأذعنوا لله إذعان المحققين. وهذه الفرقة هى التى يصفهم رويم بأنهم: «**قعدوا على الحقائق بينما غيرهم قعدوا على الرسوم، وطالبوا أنفسهم بحقيقة الورع ومداومة الصدق بينما طالب غيرهم أنفسهم بظواهر الشرع**». والتصوف بهذا المعنى الحقيقى: أقل ما فيه بذل الروح، «**فإنْ أمكنك الدخول مع هذا فبه، وإلا فلا تشتغل بترهات الصوفية**».

* * *



١٥٤ - زاده (خواجه)...

خواجه زاده أحمد حلمى، تركى، مؤلف موسوعة الطرق الصوفية: «حديقة الأولياء» (١٣١٨ هـ)، يؤرخ بها لأصول الطرق الكبرى ومؤسسيها ومشايخها والتابعين لهم فى تركيا، ويشرح أركانها شرحاً موجزاً مستشهداً بأقوال الأقطاب، وهذه الطرق هى: النقشبندية: ومؤسسها محمد بن محمد البخارى الأويسى، الشهير بالنقشبند، ومن أعلامها مولانا محمد باقى بالله كابلى، وأحمد فاروق سرنهدى، مجدّد الألف الثانى، وغلام على دهلوى مجدّد المائة الثالثة عشر؛ والچيلانية: ومؤسسها عبد القادر الچيلانى؛ والچشتية: ومؤسسها خواجه أبو أحمد أبدال چشتى؛ والسهروردية: ومؤسسها شهاب الدين أبو حفص عمر السهروردى؛ والكبروية: ومؤسسها نجم الدين كبرى، ومن أعلامها بهاء الدين أبو جلال الدين الرومى؛ والمولوية: ومن أعلامها محمد بهاء ولد، وشمس الدين تبريزى، وجلال الدين الرومى، وجلبى حسام الدين؛ والرفاعية: ومؤسسها أبو العَلَمَيْن أحمد الرفاعى، وشُعبات الرفاعية هى: الحريرية - لأبى الحسن على الحريرى؛ والكيالية: لإسماعيل مجذوب الكيالى؛ والنورية: لنور الدين حبيب الله الحديثى؛ والعزّية: لحسين أبى الفيض عزىّ المصرى؛ والفنارية: لشمس الدين محمد بن حمزه الفنارى؛ والبرهانية: لبرهان الدين إبراهيم عمر بن على العلوى؛ والفضلية: لجمال الدين محمد بن فضل؛ والجندلية: لجندل بن محمد الرفاعى؛ والديرينية: لعزّ الدين بن أحمد الديرينى الشافعى الرفاعى؛ والجميلية: لجمال الدين العراقى؛ والعطائية لمحمد عطية الرفاعى؛ والسبسبية: لسليمان سبسبى؛ والعمادية لسيد عماد الدين الأكبر؛ والصيادية: للشيخ سعيد عزّ الدين أحمد الصيادى - ومن الطرق الصوفية الكبرى بخلاف ما سبق: الأحمدية: للقطب الربّانى سيدى أحمد البدوى السطوحى المُلثّم، وشُعباتها هى: الشناوية :لعمر الشناوى الأشعث؛ والحلبية: للشيخ أحمد الأحمدى الحلبى؛ والعلوانية: لأحمد بن علوان؛ والعبد العالية :لعبد العال الأنصارى؛ والبرنسية: للشيخ يوسف برنس؛ والجوهرية: للشيخ عبد الوهاب

جوهرى؛ والبرهانية: لقطب الأقطاب أبى العينين سيد إبراهيم برهان الدين الدسوقى؛ وشعباتها: الشرنوبية لشهاب الدين أبى العباس أحمد بن عثمان الشرنوبى المالكى البرهانى: والتازية: للشيخ إبراهيم التازى؛ والسيوطية: لجلال الدين عبد الرحمن السيوطى؛ والعاشورية: للسيد صالح عاشور المغربى؛ والشاذلية لأبى الحسن الشاذلى، وشُعباتها: الحنفية: لشمس الدين محمد ابن حسين الحنفى؛ والوفائية: لمحمد وفا ابن محمد بن نجم الدين المغربى السكندرى المالكى الشاذلى؛ والبكرية: لأبى المكارم محمد بكرى؛ والزرّوقية: لأبى العباس شهاب الدين أحمد بن محمد بن عيسى البرنسى الفاسى المعروف بشيخ زرّوق؛ والراشدية: لأبى العباس أحمد بن يوسف الراشدى المليانى؛ والغازية: لأبى القاسم الغازى السلجماسى؛ والناصرية: لأبى عبد الله محمد ابن محمد بن أحمد بن ناصر بن عمرو الدرعى؛ والعفيفية: للشيخ عبد الوهاب بن عبد السلام عفيفى؛ والجزولية: لأبى عبد الله محمد بن سليمان الجزولى؛ والعيسوية: لمحمد بن عيسى المكناس الساعى المغربى؛ والمصطارية، أو المزطارية: للشيخ محمد بن المكناس المغربى؛ والعلمية: لأبى عبد الله الشريف بن إبراهيم علمى؛ والمدنية: لمحمد حسن بن حمزة ظافر المدنى؛ والوفائية: لإبراهيم بن يوسف بن عبد الباقى السعدى الدمشقى .

وتلك كانت كل الطرق التى رصدها الخواجه زاده، وقد ذيّل الموسوعة بخاتمة يمتدحها، من مشايخ المولوية بالموصل - الحافظ عثمان النورى. يقول: فقد أطلعنى الشاب السالك نهج هداه، والناشئ فى طاعة ربّه، والغالب وجده على قلبه، أحمد أفندى، نجل العَلَم الفرد الجامع لكل إخلاص، حضرة خلوصى أفندى، على نسخة ألّفها خدمةً للأصفياء، سمّاها «حديقة الأولياء»، ترجم فيها أحوالهم العَلِيّة، ونقل بعض أقوالهم الشهيّة، بأسلوب حسن عجيب ، وسَبْك بديع غريب، وذلك خدمة لأبناء جلدته، خصوصاً أهل طريقته ، مستجلياً من الكل الدعاء الألزم، لحضرة السلطان الأعظم، عبد الحميد خان الثانى، دامت تُنشَر بعصره ألوية المعارف:

حديقة سارت بطيع أحمد
بكل سالك وكل مرشد
ترجم فيها حال أرباب الصفا
أوضح نهجهم إلى المترشد
قد جمعت من طبقاء الأولياء
أنفس درّ صاغه فى مسجد

سلسل عنهم طُرقاً دائرة
على الوصول للمقام السرمد
نجل خلوصي الحبر من إخلاصه
سرى بنجله النجيب الأمجد

* * *

١٥٥ - الزاهد (أبو العباس)...

أبو العباس شهاب الدين أحمد بن محمد بن سليمان، المعروف بالزاهد، صنّف كثيراً من الرسائل للمريدين؛ ومنها: «رسالة النور» أربعة أجزاء؛ و«هدية المتعلّم وعمدة المعلّم»؛ و «تحفة المبتدي ولمعة المنتهي». وجميعها في التصوّف، وكان مولعاً برميم المساجد القديمة، وبنى جامعاً بالمقس يعظ فيه الناس ـ ولا سيما النساء، ونقموا عليه فتواه برأيه، من غير نظر في العلم.

* * *

١٥٦ - الزبيدي (أبو العباس)...

أبو العباس أحمد بن عبد اللطيف الشَّرْجي، الزُّبَيْدي، الحنفي (٨١٢ ـ ٨٩٣ هـ) نسبته إلى شَرْجة جنوبي زُبَيْد، واشتهر وتوفي في زبيد، وله «طبقات الخواص أهل الصدق والإخلاص» يقول فيه: إن كتب طبقات الصوفية من أمثال رسالة القشيري، والعوارف للسهروردي، والطبقات للسُّلَمي، ومناقب الأبرار لابن خميس، وغيرها، لم يتعرّض مؤلفوها لذكر «صوفية اليمن»، واقتصروا فيها على أهل الشام، والعراق، والمغرب، ونحو ذلك، ومن شأن ذلك أن يوهم أنه ليس في اليمن من هو مستحق للذكر، ممن يتصفون بصفات الأولياء، في حين أن أهل اليمن أهل إيمان صادق، وقلوب واعية رقيقة، وصلاح ظاهر، وصفاء باطن، بشاهد قول رسول الله ﷺ: **أهل اليمن أرقّ قلوباً وألْيَن أفئدة، والإيمان يماني، والحكمة يمانية**، إلى غير ذلك مما روى عنه في فضائلهم. ويقول: إن الإمام أحمد ابن موسى بن عجيل سُئل عن الأولياء الذين يُذكَرون في الكتب، فيقال فلان المصري، وفلان البَلْخي، وغير ذلك، ولا يقال فلان اليمني، فقال: إنما ذلك لكثرتهم، فإنهم عصائب عصائب. ويقول الشرجي: إنه من أجل ذلك فقد جمع كتابه هذا، يخصّ به أولياء اليمن دون غيرهم، ويبيّن فيه أحوالهم وأقوالهم ومناقبهم وكراماتهم، وقد جعل مراجعه كتُب: اليافعي، والجندي، والحرّجي، والأهدل، والمرزوقي، وإسماعيل الجبرتي، وطلحة الهتّار، وأبي بكر بن حسّان. ـ ويُثبت الشرجي: أن الصحابة لم يُروَ عنهم من الكرامات الكثيرة مثل ما اشتهر عن

الأولياء، بحُجّة ابن حنبل: أن أولئك كان إيمانهم قوياً لم يحتاجوا إلى زيادة، وغيرهم لم يبلغ إيمانهم إيمان أولئك فَقَوُّوا بإظهار الكرامات. ويتناول الكتاب ١٩٢ ترجمة، تلحق بها خاتمة على سبيل الإجمال.

* * *

١٥٧ - زرّوق (الصوفي المعلم)...

أبو العباس أحمد بن أحمد بن محمد ابن عيسى البُرنُسي الفاسي (٨٤٦ ـ ٨٩ هـ)، من أهل المغرب، قرأ بمصر، وتوفي في تكرين من طرابلس الغرب، وله التصانيف في التصوّف، والفقه، والشروح الكثيرة على الحِكَم العطائية، حتى قيل إن عددها تجاوز الثلاثين، فكان يستطيع أن يمليها عن ظهر قلب، وفي كل مرّة كان يمليها بعبارة جديدة.

ولعل أهم كتُب زرّوق في التصوف: «إعانة المتوجّه المسكين على طريق الفتح والتمكين»، و«قواعد التصوف على وجه يجمع بين الشريعة والحقيقة ويصل الأصول والفقه بالطريقة». وكان شديد النقد لبدع الصوفية وله: «البدع التي يفعلها فقراء الصوفية».

ويميل زَرّوق إلى الاختصار في كتاباته. وأصل تسميته بزرُّوق ـ كما قال عن نفسه أن جدّه كان أزرق العينين، فقالوا له «زرُّوق»، فسرت في عقبه.

ومذهبه: أن التصوّف لا يُعرف إلا مع العمل به، فالاستظهار به دون عمل تدليس، وإن كان العمل شرط كماله، وأنه لم تظهر حقيقة قط في الوجود إلا قوبلت بدعوى مثلها، وإدخال ما ليس منها عليها، ووجود تكذيبها، وكل ذلك ليظهر فضل الاستتار بها، وتتبين حقيقتها بانتفاء مُعارضها؛ وأن أصل التصوف: مقام الإحسان، وهو نوعان: أحدهما بدل من الآخر، وهما أن تعبد الله كأنك تراه، وإلا فإنه يراك، فالأول رتبة العارف، والثاني رتبة من دونه، وعلى الأول يحوم الشاذلية ومن نحا نحوهم، وعلى الثاني يحوم الغزالي ومن نحا نحوه، واتّباع الأحسن محبوبٌ طبعاً ومطلوبٌ شرعاً، وتعدّد وجوه الحُسْن يقضي بتعدّد الاستحسان، وحصول الحُسن لكل مستحسَن، فمن ثم كان لكل فريق طريق، فللعامي تصوّف ـ حوته كتب المحاسبي ومن نحا نحوه؛ وللفقيه تصوّف ـ رامه ابن الحاج في مدخله؛ وللمحدِّث تصوفٌ ـ حام حوله ابن العربي في سراجه، وللعابد تصوّف ـ دار عليه الغزالي في منهاجه؛ وللمتربّض تصوف ـ نبّه عليه القُشَيْري في رسالته؛

وللناسك تصوف ـ حواه القوت، والإحياء؛ وللحكيم تصوّف ـ أدخله الحاتمي (يقصد ابن عربي) في كتبه؛ وللمنطقي تصوف، نحا إليه ابن سبعين في تآليفه؛ وللطبائعي تصوف ـ جاء به البَوْني في أسراره؛ وللأصولي تصوّف ـ قام الشاذلي بتحقيقه. ـ ويعني زروق بذلك أنه لا ينبغي الحُكم على أحد من هؤلاء ومن نحا نحوهم، لأن كلامهم له مريدونه وطُلاّبه، وله تخصّصه أو زاوية رؤياه، وكل علم يؤخذ من أربابه، وأخذُ العلم والعمل يكون عن المشايخ أتم من أخذه دونهم، وأصل كل أصل من علوم الدنيا والآخرة مأخوذ من الكتاب والسُّنة، إلا أن الناس في أخذها ثلاث مسالك: أولها قوم تعلقوا بالظاهر مع قطع النظر عن المعنى جملة ً، وهؤلاء أهل الجحود من الظاهرية، ولا عبرة بهم؛ والثاني قومٌ نظروا لنفس المعنى جمعاً بين الحقائق، فتأوّلوا ما يُأوّل، وعدّلوا ما يُعَدّل، وهؤلاء أهل التحقيق من أصحاب المعاني والفقهاء؛ والثالث ـ قومٌ أثبتوا المعاني، وحققوا المباني، وأخذوا الإشارة من ظاهر اللفظ وباطن المعنى، وهم الصوفية المحقّقون والأئمة المدقّقون، وليس الباطنية الذين حملوا الكل على الإشارة، فلم يثبتوا المعنى ولا العبارة، فخرجوا عن الملّة، ورفضوا الدين كله. والقاعدة أنه لا يجوز أن يقدم أحد على أمر حتى يعلم حُكم الله فيه، وإتيان الشئ من بابه أمكن لتحصيله، ولا قول في باب الاعتقاد لُوهم ولا مُبهم، ولا يجوز لأحد أن يتعدّى ما انتهى إليه العلم بالوجه الواضح، والنظر للأزمنة والأشخاص ـ لا من حيث أصل شرعي ـ أمرٌ جاهلي، وينبغي دائماً النظر لعموم فضل الله تعالى من غير مبالاة بوقت ولا شخص إلا من حيث ما خصّه الله به، وكل صوفي أهمل أحواله من النظر لمعاملة الحقّ كما أُمر فيها، وصرف وجهه لنحو الحق دون نظر لِسُننه في عباده، فلابد له من غلط في أعماله، أو شطح في أحواله، أو وقوع طامة في أقواله.

ويتناول زرّوق دواعي الإنكار على الصوفية ولا يجد غضاضة في ذكرها، ليحذروا الغلط فيها، وهي خمسة: أولها: النظر لكمال طريق الصوفية، فإذا أتت منهم إساءة، أسرع الناس في الإنكار عليهم، لأن النظيف يظهر فيه أقل عيب؛ والثاني: رقّة علومهم، ووقع الطعن عليها، لأن النفس تُسرع إلى إنكار ما لم يتقدم لها علمه؛ والثالث: كثرة المُبطلين

فى الدعاوى والطالبين للأغراض، وذلك بسبب إنكار حال مَن ظهر منهم بدعوى؛ والرابع: خوف الضُلاّل على العامة، باتّباع البـــاطن دون الاعـــتناء بظاهر الشـريعـة، ؛ والخـامس: شُحّة النفـوس بمراتبهـا، إذ ظهور حقيقـة يبطل أخرى، ومن ثم أولع الناس بالصـوفيـة أكثـر من غيـرهم، وتسلّط عليهم أصـحاب المراتب أكثر من سواهم.

* * *

١٥٨ - ابن زقاعة ـ

إبراهيم بن محمد بن بهادر بن أحمد، أبو إسـحق، برهان الدين، القرشى، النوفلى، الغَزىّ، المعروف بابن زُقّاعة، ويقال: ابن سُقّاعة، يعنى أنه كان صيّاحاً، فإذا تكلم ارتفع صوته، وكان ينظم الشـعر ويلقيه، وأتقن طبّ الأعشاب، وكان يسترزق به، وتزهّد وســاح فى البلدان على طـريقـة الصـوفيـة، وجـاب الصحـراء فى طلب الأعـــشـــاب، وله حكايـات وروايات وماجريات، وأطلـقوا عليه شـيخ الطريقـة والحقيقة، وشاعت عنه مخاريق وشعبذات، وفى الصـوفيـة من قـال: إنه كان يعـرف الحرف والاسم الأعظم، وألّـف الرسائل، منهـــا: «لوامع الأنوار فى سـيـرة الأبرار»؛ وكتاب «الوجود»، وكان له حظ وافر مع ملوك مصر، يجلسونه فوق قضاة القضاة، وتوفى بالقـاهرة سنة ٨١٦هـ (١٤١٤م)، وكـان يحـب مـجـالـس العلـم ويقـول: **الجلوس إلى الناس نتعلم منهم أفضل وأنفع من الجلوس إليهم لتعليمهم، والجلوس مع من يفوقوننى علماً أحبّ إلىّ من أن أكون أنا أعلمهم.** وكان إذا جلس إلى أصـحابه يقول لهم: **برّوا الله كذا وكذا، وسبّحوه كذا وكذا، وأحمدوه كذا وكذا. ويقول: عليكم بالطريق فالزموه.** ويقـول: احـذروا الكذّابين. ويقول: وَددت أنى ما تكلمت». وكـان يشـتـرط على أصـحـابه أن يكون خادمهم!

* * *

١٥٩ - الزهراوى (المقتول)...

عبد الحـميد بن محمـد شاكر بن إبراهيم الزهـراوى، من العلمـاء الذين اشتـغلوا بالإسـلام السياسى، وله كـتاب «**الفقـه والتصوّف**»، يردّ به على أسئلة قرائه، فقد كـان يكتـب فى الصـحف على طـريقـة الأفغانى، ومحمد عبده، ومحمد رشيد رضا، وذمّـه للتـصـوف من منطلق سـيـاسى، باعتباره حركـة دينية انهزامية، ونشـاطاً إسـلامياً سلبـياً، وهو يقـول إن ادّعـاء الصوفية أنهم يُشبهون أهل الصُفّة ادّعـاء بـاطـل، فـأهل الصـفـة لم يـكونـوا من

المتعطّلين لأنهم أرادوا ذلك، وإنما لقلّة أسباب العيش فى زمانهم، فى حين أن الطريقة الصوفية تقوم على التجرّد من الأسباب وترك الاكتساب، ويتعمّد أصحابها أن يكونوا من الفقراء، ويسمون أنفسهم كذلك، وفى أيام الزهراوى، كان الاسم الشائع لهم هو الدراويش، وذلك لأنهم من الأعاجم فى رأى الزهراوى، واسم الصوفية نفسه يدل على عُجمة أصحاب هذا المذهب، فهو اسمٌ لا أصل له فى العربية، ولم يُعرف أن أحداً من أصحاب الرسول ﷺ، ولا التابعين، نعتوه بأنه صوفى، والاسم من تحريفات اللسان الأعجمى، والمذهب كله خلط، حيث يورد أصحابه كلام الفلاسفة الإلهيين القدماء، ويخلطونه بالآيات القرآنية وأحاديث الرسول، ويحاولون أن ينتحلوا ألفاظ القرآن لما يدّعونه من مقامات وأحوال، فصرفوا بذلك الألفاظ اللغوية عمّا وضعت له ، صرفاً لم يراعوا فيه العلاقة القريبة والقرائن الدالة، وأغرقوا فى صرف الألفاظ، وغلوا فى تأويلاتهم، فعبثوا بالفلسفة والدين معاً.

والزاهراوى من زعماء النهضة الإسلامية، ومن المجاهدين بالقلم، وأصدر صحف «المنبر» فى سوريا، و«الحضارة» فى الأستانة، وكتب بجريدة المقطم، ونُفى لفترة فى مصر، وأسهم فى تركيا فى تأسيس حزبىّ الحرية، والاعتدال ، المناوئين لحزب الاتحاديين. وعندما عُقد المؤتمر العربى الأول فى باريس، انتخب الزهراوى أول رئيس له، وحوكم بسبب مجاهداته الإسلامية، وقُضى عليه بالإعدام شنقاً فى دمشق سنة ١٣٣٤ هـ (١٩١٦م)، وكان صدور كتابه «الفقه والتصوّف» سنة ١٣١٩ هـ ، ومنه نسخة بمكتبة جامعة القاهرة.

* * *

١٦٠ - ابن زيد (عبد الواحد)...

وقيل أيضًا: ابن زياد، توفى سنة ١٧٧هـ ، وهو من الصوفية الكبار، واعتبره ابن تيمية «الصوفى الأول»، وأعظم من لحق الحسن البصرى، قيل: صلى الصبح بوضوء العتمة أربعين سنة! وهذا غير معقول طبعًا وينافى الطبع والواقع! وكان مولى أبى بشر البصرى، ويتخذونه دليلاً على أن التصوف اختص به الموالى غالباً، ويذكره ابن الملقن ضمن سلاسل خرقته، ومن أصحابه ـ بخلاف الحسن: عُتبة الغلام، وفرقد السبخى، ومحمد بن واسع، ومالك بن دينار؛ واشتهر بكثرة مواجيده وبكائه، حتى قالوا فيه: إنّ بثّه لو

قسموه على أهل البصرة لوسعهم جميعاً!

وكانت له طريقة فى الإلقاء والبكاء والنحنّن بحيث يؤثّر فى سامعيه، فيشهقون ويدمعون ويكون بالصوت المسموع، وكثيراً ما كان يغشى على بعضهم، وقد يموت البعض من رهاف القلوب من شدة الانفعال، وهو إذن من طبقة البكّائين ونموذج لهم، ويروى الحارث ابن عبيد يقول: كان عبد الواحد بن زيد يجلس إلى جانبى عند مالك بن دينار، فكنت لا أفهم كثيراً من موعظة مالك لكثرة بكاء عبد الواحد».

وزُهد ابن زيد مضرب الأمثال، فينصح مريديه، يقول: عليكم بالخبز والملح فإنه يُذهب شحم الكلى ويزيد فى اليقين. ويقول لهم: ما يسرنى لو أن جميع ما حوت البصرة من الأموال والثمار كانت لى بفلسين. مَن قَوِى على بطنه قوى على دينه، ومَن قَوِى على بطنه قَوِى على الأخلاق الصالحة، ومَن لم يعرف مضرته فى دينه من قِبَل بطنه فذاك رجل فى العابدين أعمى. وكان يكثر فى مواعظه من قول «يا إخوتاه». يقول: يا إخواتاه ألا تبكون خوفاً من النار! ألا وإنه من بكى خوفاً من النار أعاذه الله تعالى منها. يا إخوتاه ألا تبكون خوفاً من شدّة العطش يوم القيامة! يا إخوتاه ألا تبكون؟

وعند ابن الجوزى عن زيد بن عمر قال: شهدت مجلس عبد الواحد بن زيد بعد العصر، فكنت أنظر منكبيه يرتعدان، ودموعه تنحدر على لحيته وهو ساكت والناس يبكون، يقول: ألا تستحيون من طول ما تستحيون؟ وكان فى القوم فتى، فغشى عليه.

وفى رواية أخرى عن مسمع بن عاصم قال: شهدت عبد الواحد بن زيد ذات يوم وهو يعظ، فمات يومئذ فى المجلس أربعة أنفس قبل أن يقوم! - وبالطبع هذا تهويل غير معقول البتّة!

وفى رواية أخرى عن حصين بن القاسم قال: كنا عند عبد الواحد بن زيد وهو يعظ، فناداه رجل من ناحية المسجد: كف عنا يا أبا عبيدة فقد كشفت قناع قلبى... فلم يزل الرجل يقول ذلك وعبد الواحد لا يقطع موعظته، حتى حشرج الرجل حشرجة الموت ثم خرجت نفسه فمات! - وكان من دأب ابن زيد أن يحثّ إخوانه على البكاء إلى أن يبكوا ويُغشَى عليهم!

وفلسفته فى التصوف تقوم أولاً على الخوف من الله تعالى، وإجلاله ثانياً، والصبر على ما حكم، والرضا بما قسم. يقول: ما أحسب شيئاً من الأعمال يتقدم الصبر إلا الرضا، ولا أعلم درجة أرفع ولا

أشرف من الرضا، وهو رأس المحبة لله، ومحبة الله رأس كل حكمة وكل عبادة، يقول: منتهى الخوف إجلال الله، ومنتهى الرجاء أن تأمل فى الله على كل الحالات، ومنتهى محبة الله الفرح بلقائه.

وينفرد ابن زيد برواية هذا الحديث القدسى عن الحسن البصرى عن رسول الله ﷺ: إذا كان الغالب على عبدى الاشتغال بى جعلت نعيمه ولذّته فى ذكرى، فإذا جعلت نعيمه ولذته فى ذكرى عشقنى وعشقته، فإذا عشقنى وعشقته رفعت الحجاب فيما بينى وبينه وصرت معالماً بين عينيه، لا يسهو إذا سها الناس. أولئك الأبطال حقاً. أولئك الذين إذا أردت بأهل الأرض عقوبة وعذاباً ذكرتُهم فصرفت ذلك عنهم». وفى هذا الحديث يأتى ذكر «العشق» لأول مرة، وقيل فى ذلك الحديث إنه سبب ما ذهب إليه الصوفية فى مصطلحهم «العشق الإلهى»، الذى يُعاب عليهم، بدعوى أنه فى مقام الله تعالى نقول «المحبة» ولا نقول «العشق»، فالمحبة تكون بين العبد والله، وبين الله والعبد؛ وأما العشق فينصرف إلى الأشياه فيكون بين العبد والعبد، وابن زيد فيما يبدو كان أول من يذكر الصوفية باسم «أهل محبة الله». يقول مناجياً ربّه: بأبى أنت يا مُسبغ نِعَمه غادية رائحة على أهل معصيته، فكيف ييأس من رحمته أهل محبته؟ وفى الحديث الذى يُنسَب إلى النبىّ ﷺ يأتى أن أهل الذكر، أو أهل العشق لله هم الأبطال، وهو معنى جديد للبطولة. ومن رأى ابن زيد أن المؤمن إذا أخطأ فخطؤه عن سهو، وبتبقى دائماً الرجاء والأمل فى الله. يقول: السهو والأمل نعمتان عظيمتان على بنى آدم». وحياة ابن زيد لذلك هى حياة الصوفى المتكمّل، أو الصوفى البطل. وفلسفته نظرية ولكن أساسها العمل لله، وقمة العمل هى الجهاد، فليس التصوف مجرد عبادات ورياضات؛ ويحكى عن نفسه يقول: كنا فى غزاة لنا ونحن فى العسكر الأعظم، فنزلنا منزلاً، فنام أصحابى وقمت أقرأ جُزئى، إلى أن يقول: فغلبنى النوم، فرأيت فى منامى كأنى أرى شاباً جميلاً بيده ورقة مكتوب فيها:

ينام من شاء على غفلة

والنوم كالموت فلا تكل

تنقطع الأعمال فيه كما

تنقطع الدنيا عن المتقل

والجهاد ركن الدنيا، ولا ينسى ابن زيد الله فينساه تعالى، فحتى فى الحرب والنوم يذكر ابن زيد ربّه، وكان يردد على نفسه

هذين البيتين باستمرار ويقول: فرّق النوم بين المصلين وبين لذّتهم فى الصلاة، وبين الصائمين وبين لذّتهم فى الصيام». وكان إذا أقبل سواد الليل قام لمحرابه كأنه فرس رهان، وأقبل على صلاته فكأنه رجل مخاطَب. ويُروَى عنه أنه كان كثير السياحات والتردد على أماكن العبادة والإخوان، وكان يحرص على لقاء الرهبان والتحدث إليهم، ولعله لهذا الميل عند بعض الصوفية إلى لقاء الرهبان، قال من قال من المستشرقين بأثر المسيحية على التصوّف.

وكان حديث ابن زيد مع الرهبان فى الرياضات، وقال المستشرقون عن تأثره بأحدهم، وقوله من بعد ذلك إن شهادة «لا إله إلا الله» وحدها لا تكفى، ويروى عن ذلك قول الراهب له: كما لا يجوز الزيف من الدراهم، كذلك لا تجوز «لا إله إلا الله» إلا بنور الإخلاص، يعنى أنها لابد أن تقال بنية وإخلاص، ومحك ذلك العمل الصالح.

ويروى أيضاً عن أحد الرهبان قوله: يا عبدالواحد بن زيد! إن أحببتَ أن تعلم علم اليقين فاجعل بينك وبين الشهوات حائطاً من حديد! ـ يعنى أن تحصيل اليقين لابد له من إخلاص العبادة، وإخلاص العبادة لا محيد فيه عن الانصراف بالكلية عن الشهوات والملذات ـ ويحتمل أن روايات ابن زيد عن الرهبان كانت للتمثّل وليس عن حقيقة.

وفى السيرة لرابعة العدوية: أن عبد الواحد بن زيد خطبها. ومع علو شأنه هجرته أياماً حتى شفع له إليها إخوانه، فلما دخل عليها قالت له: ياشهوانى! اطلب شهوانية مثلك! أى شىء رأيتَ فىّ من آلة الشهوة؟! وربما يُحمل كلامها على أنها لم تكن جميلة كما يشاع عنها، وربما لم يكن عبد الواحد بن زيد قد رغب فيها عن شهوة، إلا أنها فهمت خطبته لها كذلك.

ولقد قيل إن ابن الهاشمى أمير البصرة قد خطبها أيضاً، وجاءت خطبته لها بناءً على ما أشاروا به عليه، ولم يكن قد شاهدها ولكنه خطبها لما علم زهدها وتقواها. فلماذا لا يكون عبد الواحد قد خطبها لنفس السبب، وخصوصاً أنه لم يكن من المتجرّدين، فقد كانوا يدعونه أبا عبيدةَ، وقالوا إن ابنه هذا كان متعبّداً، وكان يقوم على أموره وحوائجه كلها، فمات وهو بعد فتى، فوجد عليه عبد الواحد وجداً شديداً، وكان يقول: موته نغّص علىّ حياتى! وكان يستدرك فيقول:

وهل الحياة إلا مُنْغصة؟! ومع ذلك فقد قالوا: إنه صلى الغداة بوضوء العتمة أربعين سنة، يعنى أنه فى خلالها لم يكن متزوجاً، فلما تزوّج جاء زواجه من أم ولده متأخراً، أو أن زوجته ماتت فى وقت مبكر وظل بعدها فى عزوبة، وربما فى هذه الفترة قد رأى أن يتأهّل واختار لنفسه رابعة! وهناك رواية للفُضَيْل بن عياض: أن عبد الواحد سأل الله ثلاث ليالٍ أن يريه فى المنام رفيقته فى الجنة، وربما فى هذا الوقت كان طلبه أن يتزوج رابعة. غير أن اهتمامه هكذا بالزواج، حتى ليسأل الله أن يريه زوجته فى الجنة، هو انشغال بالجنس على مذهب أهل التحليل النفسى. وفى الرواية أنه قيل له فى المنام أن زوجته فى الجنة من الكوفة من آل فلان، فخرج إلى الكوفة وسأل عنها، وكانت امرأة من العابدات اسمها «ميمونة السوداء»، إلا أنها كانت مجنونة - أو كما نقول مصابة بهوس دينى، كالشأن مع الكثير من المغالين فى التديّن، وكانت ترعى غنيمات لقومها، وذهب عبد الواحد يبحث عنها حتى عثر عليها قائمةً تصلى، وبين يديها عكازٌ لها، وعليها جُبّة مكتوب عليها «الاتباع ولا تشترى»، وإذا الغنم مع الذئاب، لا الذئاب تأكل الغنم، ولا الغنم تفزع من الذئاب. فلما رأته أوجزت فى صلاتها ثم قالت: إرجع يا ابن زيد! ليس الموعد ههنا. إنما الموعد ثَمّ. فقال لها: يرحمك الله، وما يُعلمك أنى ابن زيد ؟ فقالت: أما علمت أن الأرواح جنودٌ مجندة، فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف؟ فقال لها: عظينى! قالت: واعجباً لواعظ يُوعَظ! يا ابن زيد، إنك لو وضعتَ معايير القسط (يعنى العطر) على جوارحك لَخَبَرتُك بمكتومٍ مكنونٍ ما فيها! يا ابن زيد! إنه بلغنى ما من عبدٍ أعطى من الدنيا شيئاً فابتغى إليه ثانياً إلا سلبه الله حُبّ الخلوة معه، وبدّله بعد القرب البُعد، وبعد الأُنس الوَحْشة، ثم أنشأت تقول:

يا واعظاً قام لاحتساب
يزجر قوماً عن الذنوب
تنهىَ وأنت السقيمَ حقاً
هذا من المنكر العجيب
لو كنتَ أصلحتَ قبل هذا
غيَّك أو ثُبتَ من قريب
كان لما قلتَ يا حبيبى
موقعَ صدقٍ من القلوب
تنهىَ عن الغَىّ والتمادى
وأنت فى النهى كالمريب

قال لها عبد الواحد: إنى أرى هذه الذئاب مع الغنم، لا الغنم تفزع من الذئاب، ولا الذئاب تأكل الغنم، فكيف ذلك؟ قالت: إليك عنى، فإنى أصلحت ما بينى وبين سيدى - تقصد ربّها. فأصلح بين الذئاب والغنم. وأنشأت تقول:

قلوبُ العارفين لها عيون
ترى ما لا يراه الناظرونا
وألسنةٌ بسرٍّ قد تناجى
تغيب عن الكرام الكاتبينا
وأجنحةٌ تطير بغير ريش
إلى ملكوت ربّ العالمين
فتسقيها شَراب الصِّدق صِرْفاً
وتشرب من كئوس العارفينا

والقصة من الأدب الدينى الرمزى، ولذا لا يثير العجب أن نفس القصة عن ميمونة السوداء تقال ضمن سيرة إبراهيم بن أدهم، وكان إبراهيم عزباً، فليس بمستبعد أن يرى لذلك مناماً حول أمنية زواجه، يكون له فيه التعويض عن الحرمان، وفى المَثَل «الجوعان يحلم بسوق الخبز»، ولا يثير العجب أن يكون اسم المرأتين واحداً، وأن تكون كل منهما سوداء، وأن تصلى كل منهما والشاة والذئب قد تسالما.

وحالة العزوبية هذه بعد زواج هى التى كانت تفجّر فى ابن زيد رغباته الجنسية، فيحلم بالنساء يحملنه ويهيئن له الفراش، ويحففنه بالريحان والياسمين، ويضعن أيديهن على مواضع علّته، ويطلين له الشفاء، فهكذا كانت الكثير من أحلامه التى تُروىَ عنه. ومع ذلك فقد كان من أهل الورع، يقول: جالسوا أهل الدين (يقصد الصوفية)، فإن لم تجدوهم، فجالسوا أهل المروءات فإنهم لا يرفثون فى مجالسهم». ويبدو أن تشدّده مع نفسه ومغالبته هواه، أصابته بعُصاب نفسى نسميه الآن «هستيريا تحولية»، فكان فى آخر حياته يسلك كمرضى الشلل، إلا وقت الوضوء والصلاة، فإنه يتوجه وحده ليؤديهما على أكمل وجه ودون معونة، وهذا هو الشلل نفسى المنشأ، وربما سببه حالة الكبت الجنسى التى كان يعانى منها.

* * *



١٦١ - ابن سالم (صاحب السالمية)...

السالمية هم المتكلمون السُّنيّون من المتصوّفة، وكانوا بالبصرة إبان القرنين الثالث والرابع الهجريين، وانتشرت طريقتهم بين المالكية. ورأس الطريقة فى الأصل أبو عبد الله سهل التُستُرى، المتوفى سنة ٢٨٣هـ، إلا أن أتباعها نسبوا أنفسهم إلى أكبر تلاميذه، وراوية كلامه أبى عبد الله محمد بن سالم، المتوفى ٢٩٧هـ، وإلى ابنه أبى الحسن أحمد، المشهور بابن سالم البصرى، المتوفى ٣٥٠هـ، وتتلمذ على هذا الأخير أبو طالب المكّى، صاحب كتاب «قوت القلوب» ذائع الصيت الذى استبطنه الغزالى فى كتابه الإحياء (أنظر تحقيق الدكتور الحفنى لكتاب القوت). وابن سالم الأب يُطلَق عليه: «ابن سالم الكبير»، كما يُطلَق على ابنه أحمد: «ابن سالم الصغير». وكلاهما من أهل الاجتهاد، وطريقتهما طريقة سهل التسترى. يقول ابن سالم الكبير فيها: يزول عن القلب ظلم الرياء بنور الإخلاص، وظلم الكذب بنور الصدق. والتصوف عنده صبرٌ على مخالفة النفس، ومن يصبر يبلغ مقام الأُنس. ومن تعاليمه لتلاميذه: الأولياء فى الخَلق يُعرفون بلطف اللسان، وبشاشة الوجوه، ودمائة الخُلق، وسخاء النفس، وقلة الاعتراض، وقبول عذر من يعتذر إليهم، وتمام الشفقة على كل الخلائق. وحال الصوفية السالمية هو حال التوكل، ويقولون هى حال رسول الله ﷺ، والتوكل لا يتنافى مع الكسب، والكسب سُنّة نبيّنا ﷺ، استنّه للضعفاء عن حال التوكل، فمن أطاق التوكل لا يُباح له كسب يعتمد عليه، ومن ضعف عن التوكل أبيح له طلب المعاش فى كسبه، وبذلك لا يسقط عن درجة السُنّة، حيث قد سقط عن درجة حاله. وتعاليم ابن سالم تحضّ على تعقُّل الأمور، والعورات لا يسترها إلا العقل والحلم والسخاء، وأيما امرىء عاقل فإن محك عقلانيته الصدق، وهو الذى يقوّم كل أحواله. والتوكل هو فلسفة ابن سالم فى التصوف، ومن يتوكل يتحصّل الحكمة، وفى القرآن: ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ (الطلاق ٣)، أى هو القائم له بكل كفاية، فيغنيه عن كل هَمّ، ويوصله إلى

كل محبوب. والتوكل على الله فريضة، لقوله تعالى: ﴿وَعَلَى اللهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ (المائدة ٢٣). وعلى المتوكل أن يجتهد فى المراعاة لتلحقه الرعاية، ومن كان فى رعاية الله فهو فى حصن حصين. والعاقل لا يمكن أن يعاشر المخالفين، وهو الزاهد فى صحبة أبناء الدنيا المشغولين بها، وعيب هؤلاء أنهم يَعْدُونه (من العدوى) بِشُغلهم بها، ولكن الأخطر من ذلك أنهم يشغلونه عمّا هو فيه من عبادة، فمن لم يخش ذلك فلا تثريب عليه. وصوفية السالمية من شعاراتهم: رِفعة القَدْر عن ملازمة الطباع الدنيئة، والذى يألفها تقطع به.

وكان لابن سالم مناظرات مع أبى نصر سراج الطوسى صاحب «كتاب اللُّمَع» فى التصوّف.

وقيل إن السالمية قوبلت فى وقتها بالمعارضة والنقد، ولم يصلنا ذلك عنهم مباشرة وإنما من طريق خصومهم الحنابلة، خاصة أبا يعلى الفرّاء المتوفى ٤٥٨هـ، والإمام الجيلانى.

* * *

١٦٢ - ابن سبعين (الفتى الشجاع)...

قطب الدين أبو محمد عبدالحق ابن محمد بن عبدالحق بن سبعين، والاسم «ابن سبعين» أطلقه على نفسه، ويعنى فى بلده فى ذلك الوقت اصطلاحاً «الفتى الشجاع صاحب المروءة والنخوة والكرم»، ويقابله قولنا «ابن سبعة» ويعنى الضعيف الذى قد يُعذَر لأنه لم يُكمِل فى بطن أمه تسعة أشهر.

ولابن سبعين «العبارات والإشارات»، و«المريدون والأتباع»، وطريقته تسمى السبعينية.

وقال عنه ابن دقيق العيد: جلست مع ابن سبعين من الضحوة إلى قرب الظهر، وهو يسرد كلاماً تعقل مفرداته ولا تعقل مركباته.

واشتهر عنه أنه قال: لقد تحجّر ابن آمنة (يقصد النبىّ ﷺ) واسعاً بقوله: «لا نبىّ بعدى»! فيقال أنه نُفِى من المغرب بسبب هذه الكلمة.

وكتاباته ومواعظه لمريديه كثر بها القول بوحدة الوجود، وهو أبرز ممثل لهذا المذهب، وبسبب ذلك كفّره فقهاء المغرب، فلجأ إلى المشرق، وجاور بمكة حتى وفاته سنة ٦٦٩ هـ.

واختلفوا فى وفاته، وقيل إنه قَصَد يديه وترك الدم ينزف حتى تصفّى.

وابن سبعين وإن كان يعتبر مغربياً إلا

أنه من مواليد مرسية الأندلس سنة ٦١٣ هـ، وظل بها حتى نحو العشرين من عمره، وفي المغرب كان له الأصحاب، وألّف كتبه أو رسائله كلها تقريباً، إلا كتاب «بُدّ العارف»، واشتهر بأنه من فلاسفة الصوفية، حتى أن ملك صقلية قصده للإجابة على أسئلته في الفلسفة، باعتباره من فلاسفة المسلمين، فيما سمي بالمسائل الصقلية. ولم يكن يُفلت فرصة تسنح له إلا وينقد الفلاسفة والصوفية، ويخص منهم المشّائين ورئيسهم أرسطو، وأتباعه من غير ملة الإسلام: ثامسطيوس، والإسكندر الأفروديسي، وفرفوريوس؛ وأتباعه من ملّة الإسلام: الفارابي، وابن سينا، وابن ماجه، وابن رشد، والسهروردي، والغزالي، والرازي، وعنده أن التصوّف لم يصل إليه هؤلاء، وما كان من الممكن أن يصلوا إليه لقصور إمكانياتهم وقدراتهم الفكرية. وفي «الرسالة الفقيرية» يجعل موضوعه «الفقر»، يقصد به التصوّف، ويقول إنه على أوجه: فهو الصبر على المكروه، وشُكر المنعِم الحكيم، والفتوة المحضة، ودفع الأذى كله، وفعل ما يجب كما يجب على ما يجب؛ وهو الخلافة الباطنة كما أن المُلك هو الخلافة الظاهرة، وهو الذي تُرسم بدايته بالإرادة والعبادة، وبالإسلام وعالم الشهادة، وبالخروج من الشرّ المحض إلى الخير المشترك، وبالمجاهدة، والتوكل، وبالتسليم، والتفويض، والتوبة الأولى، وبالخلوة المشوّقة، والأربعينيات المحرّكة والمهيّئة، والرضا، والإيمان، والعبودية، والسفر في الطريق، والتوبة الثانية، والفكر التابع للسكينة، والذكر المحرّك للتخلي، والتحلّي، والتجلّي، وبُعد الأهل والوطن، وحذف العلائق بالجملة، والتزام السوابع الكاشفة للمقصود، والإحسان، وصرف المحو إلى الصحو، والتوبة الثالثة. ويقول: الفقر هو الذي يجعل الفقير يمسك الشرع في يمينه، والعقل في شماله، وبينهما العلم، ويحرك الكل بالأدب والهمّة والحقيقة. وهو علم التحقيق أو العلم الإلهي الذي مداره الله سبحانه، الأصل في كل شئ، فلا حول ولا قوة إلا بالله، يجب عليها الأدب والاستغفار، ولا شك في الله، ولا شئ أعزّ من الله، ولا موجود على الإطلاق لا يفتقر إلى الله.

ويقول ابن سبعين لتلاميذه ناصحاً: أن يتشبّهوا بالله ! ويعظّموا سُنة حبيبه وخليله، مع أنه سمّاه قبل قليل: «ابن آمنة»!

ويقول للسالك: يا هُمَام، اهتمامك بماهية همّتك هو هَمّك الأهم، فعجّل باهتبال عين

كمالك، ويكون شوقك إليه لا يتبدل، ولابد لكل عارف من مقام، ومقامك التوحيد، وأنت فى وقتك فيه واحد الحال، ولا تلتفت فى حياتك إلى الموتى، ولا تتحدث بمعيشك إلا فى عيش الآخرة، وقل هو الله أحد، وأعوذ بربّ الناس من الوهم ومن الكون. الله فقط. اعتدل واملأ صدرك من الله، وقسّم ذلك النصيب الشريف على جملة قواك الروحانية والجسمانية، ولازم حبّ الله حتى يظهر لك جاه ذاته بذاته، ولا تنكر الله على أى حال كان، ولا تحب منه البعض وتكره البعض من أحكامه وأفعاله، وما وأحبب تعلم منه وما هو عليه. الله فقط.

ويقول ابن سبعين فى «الرسالة القوسية»: أصدق كلمة قالها قائل: ألا كل شئ ما خلا الله باطل.

وفى كتاب «العَقْد» يقول ابن سبعين فى عهده لتلاميذه: اجبر وقتك مع الله بتوبة صادقة، فإنّ بابه ما عليه بوّاب إلا رحمته خاصةً ورضوانه، وإياك من العمل المعدوم، وحبيبك من يدبّر أمر آخرتك ويُعينك عليها، ويهجرك ويصلك من أجلها.

وفى كتابه «الإحاطة» يشرح ابن سبعين مصطلحه «الإحاطة»، ويقصد به الوجود كله كوحدة واحدة: وفيه يختلط الزوج بالفرد، ويكون السبت هو الأحد، والموحد هو عين الأحد، والذاهب من الزمان هو الحاضر، والأول فى العيان هو الآخر، والباطن هو الظاهر، والمؤمن هو الكافر، والعابد هو المعبود، والمعبود هو العابد، والفقير هو الغنى، ومعنى ذلك التوحيد المطلق، أو الوحدة المطلقة فى الوجود: فالله هو الوجود، والوجود هو الله، فإذا قلنا الله «محيط»، يعنى أنه يستوعب الوجود لأنه هو الوجود، وأنه ليس ثَمّ غيْر ولا سِوَى، وكل شئ هو الله، وليس إلا «الأيس» فقط، أى ليس إلا الوجود فقط، وهو هو، الله الله ـ وهو كلام يشبه كلام الدكتور عبد الرحمن بدوى: أنه ليس ثمة إلا هذا الوجود، يعنى لا توجد آخرة! ومن ابن سبعين، ومن هايدجر وسارتر ونتيشة، أخذ بدوى فلسفته.

وأهم مصنفات ابن سبعين فى الفلسفة والتصوف، هو كتابة «بُدّ العارف»، وهو ينصح لمن يريد أن يطالع مذهبه أن يقصد هذا الكتاب الذى أثبت فيه ما لم يثبته فى أى من كتبه الأخرى، ويعتبره من أهم ذخائر العالم، وينصح مقتنيه بأن يحفظه «فإنه تاسع كتاب فى العالم»!! ـ أى فى الأهمية والثراء الفكرى.

والبُد فى اللغة: هو المعبود، وبُدّ العارفين هو اللهُ سبحانه «منبه المسترشد إلى

واجبه، ومُعطى الطالب جميع مطالبه، ومعلم السعيد علم سعادته، ومبصّر العابد حقّ عبادته، ومُخرج المُنكر من رعُونته وعادته، ومُنبط السالك بقصده، ومشوّقة إلى عالمه وبُدّه»، «فيا أيها السالك! لا يبقى لك توجه إلا إلى بُدّك الحقّ الواحد، الحقّ وحده» وهو «بُدّ الكل»، وبُدّ العارف والمعروف والمعرفة».

واختياره للفظة «بُـد» لأن البد اصطلاحاً هو الصنم المعبود، فحتى من يعبد الصنم هو عابد الله فى عُرف العارف، فالله واحد عند الوثنى والمسلم والنصرانى واليهودى، وهو واحد وإن تعددت أسماؤه أو وجوهه. والبد هو الاسم الجديد للّه عند ابن سبعين!

وطريقة ابن سبعين فى التصوف، أو الطريقة السبعينية، أطلق عليها قطب الدين القسطلانى اسم: اللّيّسية، وكان يقول: احذروا هؤلاء الليسية»، أى أتباع ابن سبعين، لأنهم كما يبدو كانوا يقولون فى ذكرهم: «ليس إلا الله»، بدلاً من «لا إله إلا الله»!!

ومن هؤلاء أبو الحسن الششترى الذى أقام بمصر وتوفى بدمياط سنة ٦٦٩ هـ، وكان أديباً له نظم على طريقة التحقيق، وموشحاته وأزجاله فى «غاية الحُسن»- هكذا قالوا، وكان الشاذلية يزكّونها.

ومنهم أبو إسحق بن دهاق المتوفى عام ٦١١هـ، تلميذ أبى عبد الله الشوذى.

ويتبقى أن نقيّم ابن سبعين، فمذهبه فى التصوف هو اتحاد الأضداد، ومن ذلك أن الإحاطة عنده تعنى: أن السالك محيط بالكل، والكل محيط به، والكثرة فيض الواحد، والواحد مصدر الكل، والزوج يختلط بالفرد، والنَّجْو (يعنى ما يخرج من البطن من ريح) يتّحد بالورد، والسبت يكون الأحد، ويلخّصه جميعاً قوله: «والموَحِّد هو عين الأحد»، فهذه العبارة هى عين قول الحلاّج: «أنا الحقّ»، أى: أنا العابد الإنسان، وأنا هو المعبود: الله، وفى كل موجود يجتمع الضدان، وحاصل جمع الجميع أو الوحدة الحاكمة على الوجود كله هو «الله»، فلا تمييز بين الموجودات والموجد!! وهى نفس فلسفة اليهود كشعب، وهذا هو إيمانهم. وفلسفته هذه فى التصوف أوقعته مع كل المتصوفة من الفلاسفة الإسلاميين، فقال فيهم مقالته دون تثريب، وهجاهم بلا تأنيب، فالغزالى عنده لسان دون بيان، وصوت دون كلام، فهو مرة صوفى، وأخرى فيلسوف، وثالثة أشعرى، ورابعة فقيه، وإدراكه فى التصوف أضعف من خيط العنكبوت، لأنه دخل الطريق بالاضطرار، نتيجة عدم

الإدراك، ويشفع له أنه عظّم التصوف ومال بالجملة إليه، ومات عليه. فلا غرابة أن ابن سبعين كرهه الناس أو أنه ظن كذلك، ولذا قال مقالته المشهورة: إن أرض الإسلام لا تسعه!! - تُرىَ كم لا تسع أرض الإسلام من أفراد كابن سبعين؟!!

وإذا كان ابن سبعين قد غيّر من المفاهيم الإسلامية الخاصة بالله، فإنه قد تناول كذلك مفهوم النبوة بالتغيير، ونظريته فى النبوة: أن النبىّ ﷺ نور محض، يعنى أنه ليس كآدم من تراب، وليس بشراً كالبشر، والله نور، فلماذا لا يكون محمدٌ ﷺ كذلك نور؟ وفى رسالته التى عنوانها «فى أنوار النبىّ» يزعم أن للنبىّ ﷺ أنواراً باختلاف متعلقاتها ومضافاتها، ومنها الأشد ومنها الأضعف، والأقل والأكثر، ويعدّدها ثلاثة وثلاثين: فمولده كان من النور، وعاش حياته نوراً، وإن كلامه لنور، واسمه نور، وخلقته نور، وتربيته نور، ونهايته كانت نوراً، وكان يدعو: اللهم اجعل لى نوراً فى قلبى، ونوراً فى جسمى، ونوراً فى شَعْرى»، وتتبّع جوارحه كلها ثم قال: واجعلنى نوراً، وعند موته طلب الرفيق الأعلى وهو محل الأنوار، فهو نور ومع الأنوار! وابن سبعين فى فلسفته الصوفية فى النبىّ ﷺ يتمثّل به، ليس بالتعلّق بأقواله كما يقول، والحرص على ما فى الكُتب عنه، وإنما بما فى ضمائر الكتب، وبالحقيقة الحيّة العينية لصاحب هذه الأقوال، أى الاقتداء والتأسّى بالنبىّ ﷺ نموذجاً عينياً حيّاً أعلى. وهذا الكلام وإن بدا لنا جميلاً، إلا أن له خبيئاً: فقد جعل من الإسلام نسخة أخرى من النصرانية، فالله هو المسيح، والمسيح الإنسان الحىّ هو الله، وحلول المسيح فى المؤمن، أو اتحاد المؤمن به، يجعل له خاصية المسيح، وهى الاتحاد بالكون أو الوجود، فالكل فى الواحد، والواحد فى الكل؛ وقال ابن سبعين فى الإسلام: إن الله هو الإنسان الكامل، أى النبىّ ﷺ، تماماً كما أن الله هو المسيح الحىّ أو الإنسان الحىّ، وفيما سبق قال: إن الله هو الوجود، ولا وجود خارج هذا الزمان المتعيّن، وذلك كله هو موضع النقد فى فلسفة ابن سبعين الصوفية، وبها يخرج ابن سبعين من دائرة الإسلام. ومن الغريب أن عبد الرحمن بدوى قال نفس هذا الكلام فى كتابه «الزمان الوجودى»، فنفى أن يكون هناك وجود خارج هذا الزمان، يعنى أن الله ليس له وجود متشخصن، وإنما هو موجود فى موجوداته المُتزمِّنة! ومن الغريب أن السلطة منحته أعلى جائزة على هذا الكلام، فكأنها تكافئ الكُفر!

* * *

١٦٣ - السرّاج الطوسي (طاووس الفقراء)...

أبو نصر عبدالله بن علي السرّاج الطوسي، الملقّب بطاووس الفقراء، وصاحب كتاب «اللُّمَع»، وهو من أكثر المراجع وفاءً بعلوم الصوفية، وبمذهبهم، وأخبارهم، وأشعارهم، ومسائلهم، وأجوبتهم، ومقاماتهم، وأحوالهم، وما انفردوا به من الإشارات اللطيفة، والعبارات الفصيحة، والألفاظ المُشْكِلة المنبئة عن حقائقهم، والدالة على مواجيدهم وأصولهم.

وكتاب «اللُّمَع» فريد فيما قصد إليه، ويُعدّ أقدم المراجع وأوثقها في التصوف. وكان الطوسي رائداً في هذا المجال، واقتفى أثره القشيري، والهجويري، والسُّلمي، والكلاباذي.

والطوسي من أوائل من حذروا من المتشبهيّن بالصوفية، والمتلبّسين بلباسهم، والمتسمّين باسمهم.

وتوفي الطوسي سنة ٣٧٨ هـ، أي أنه عاش في القرن الرابع الهجري، ومع ذلك فهو يكتب عن زمانه فيقول: إن الخائضين في علوم الصوفية قد كثروا، وألّفوا الكتب فيهم بكلام مزخرف من عندهم، وليس بالمستحسن، لأنهم غلطوا فيهم، وأقحموا على كلامهم ما لم يقولوه، وفسّروا ما قالوه بتفسيرات من عندهم جانبت الصواب، فالصوفية لم يكونوا كما رسمهم هؤلاء: فهم طائفة آمنت بربّها، ومنهم أبرار صدّيقون، وبدلاء مقرّبون، أحبّوا الله وأخلصوا له العبادة، واستغنوا به عمّن سواه، وآثروه على ما دونه، وانقطعوا إليه، وتوكلوا عليه، وعكفوا ببابه، ورضوا بقضائه، وصبروا على بلائه، وفارقوا فيه الأوطان، وهجروا له الإخوان، وتركوا من أجله الأنساب، وقطعوا فيه العلائق، وهربوا من الخلائق، مستأنسين به، ومستوحشين مما سواه.

ويقسّم الطوسي الناس في زمنه بالنسبة للتصوف إلى خمسة طوائف: فمنهم من يغلوا في تفضيل المتصوفة ورفعهم فوق مراتبهم؛ ومنهم من يخرجهم عن حدّ المعقول والتحصيل؛ ومنهم من يرى أن التصوف ضرب من اللهو واللعب وقلة المبالاة بالجهل؛ ومنهم من ينسب الصوفية إلى التقوى والتقشف ولبس الصوف؛ ومنهم من يسرف في الطعن وقبح المقال في الصوفية حتى ينسبهم إلى الزندقة والضلالة.

ويذهب الطوسي إلى أن أُولى العلم، القائمين بالقسط، الذين هم ورثة الأنبياء: هم المعتصمون بكتاب الله، والمجتهدون في متابعة رسوله، والمقتدون بالصحابة

والتابعين، والسالكون سبيل أوليائه المتّقين وعباده الصالحين، وهم ثلاثة أصناف: أصحاب الحديث، والفقهاء، والصوفية، وكل صنف من هؤلاء مترسّم بنوع من العلم، والعمل، والحقيقة، والحال، ولكل منهم فى معناه علم، وعمل، ومقام، ومقال، وفَهْم، ومكان، وفقه، وبيان، عَلَمَه مَن عَلِمه، وجَهِله مَن جَهِله، ولا يبلغ أحد الكمال الذى به يحيط بجميع العلوم والأعمال والأحوال. والصوفية قد اختصوا بالمعانى التى ترسّموا بها، ولهم فى ذلك آداب، وعلوم، ومقامات وحقائق ومشاهدات، ومراقبات، وأسرار، واجتهادات، ودرجات، وإرادات، وغلبات، ومعرفة بالنفس وأمارتها وخواطرها وخلاصها وآفاقها، ومستنبطات فى العلوم تشكُل على فهوم الفقهاء والعلماء، وهى لطائف مودعة فى إشارات لهم تخفَى فى العبارة من دقتها، فى معنى: العوارض، والعوائق، والعلائق، والحُجُب، وخبايا السّر، ومقامات الإخلاص، وأحوال المعارف، وحقائق العبودية. والصوفية اختصاصهم ذلك، وممارساتهم لها بالمنازلة والمباشرة، والهجوم عليها ببذل المهج، حتى يُخبِروا عن طعمها وذوقها ونقصانها وزياداتها. وإنما ينكر علم التصوف: جماعة من المتمرسّمين بعلم الظاهر، لأنهم لم يعرفوا إلا ما يتعلّق بظواهر الأحكام. وقد يكون إنكارهم للصوفية بسبب الغالطين فى التصوف من أبنائه، وهم طبقات: فطبقة منهم: غلطوا فى الأصول من قلة إحكامهم لأصول الشريعة، وضعف دعائمهم فى الصدق والإخلاص وقلة معرفتهم بذلك، كما قال بعض المشايخ: إنما حُرموا الوصول لتضييع الأصول؛ وطبقة ثانية منهم: غلطوا فى الفروع، وهى الآداب والأخلاق والمقامات والأحوال والأفعال والأقوال، فكان ذلك من قلة معرفتهم بالأصول ومتابعتهم لحظوظ النفوس ومزاج الطبع، لأنهم لم يدنوا ممن يروضهم ويُجرعهم المرارات ويوقفهم على المنهج الذى يؤدى إلى مطلبهم. فمثلهم فى ذلك كمثل من يدخل بيتاً مظلماً بلا سراج، فالذى يفسده أكثر مما يصلحه، وكلما ظن أنه قد ظفر بجوهر نفيس لم يجد معه إلا خزفاً خسيساً، لأنه لم يتّبع أهل البصيرة الذين يميزون بين الأشياء والأشكال والأخلاق والأجناس، فعند ذلك يقع لهم الغلط، ويكثر منهم الهفوة والشطط، فهم متحيّرون ومتفرقون، بين منهزم ومفتون، ومتجبّر ومحزون، ومغتر بالظنون، ومحترف للجنون، ومتلبّس بالمجون،

ومكمد بالشجون، ومدّع ومفتون ومتمنّ للمنون. وكل طبقة من هذه الطبقات على أحوال شتّى من التفاوت والإرادات والمقاصد والنيات، فمن غلط في الأصول فلا يسلم من الضلالة ولا يرجى لدائه دواء، والغلط في الفروع أقل آفة. وأغلاط الأصول منها: الغلط في معنى الحرية والعبودية، فيظن أن العبد ما دام بينه وبين الله تعالى تعبُّد فهو مسمى باسم العبودية، فإذا وصل إلى الله فقد صار حراً؛ ومنها الغلط في الإخلاص، فقد يزعم أن الإخلاص لا يصحّ للعبد حتى يخرج عن رؤية الخلق ولا يوافقهم في جميع ما يريد عمله، سواء كان ذلك حقاً أو باطلاً؛ ومنها الغلط في تفضيل الولاية على النبوة، والذي جرّهم في هذا الغلط قصة موسى والخضر، إذ استخلصوا منها أن الولي أفضل من النبّي، لأن الخضر في هذه القصة يبدو هو العالم بباطن الأمور وأسرار الحوادث، بينما موسى جهل هذه الأسرار والبواطن، فظنت هذه الطائفة الضالة أن ذلك نقص في نبوة موسى عليه السلام وزيادة للخضر عليه السلام على موسى في الفضيلة؛ ومنها الغلط في الإباحة والحظر، فقد زعمت طائفة أن الأصل في الأشياء الإباحة، وإنما وقع الحظر بسبب التعدّي، فإذا لم يقع التعدّي تكون الأشياء على أصلها من الإباحة، ومن ثم فقد أباحوا لأنفسهم المحظور الممنوع على المسلمين طالما أنهم لم يتعدوا في تناوله. ومنها غلط الحلولية الذين زعموا أن الحقّ اصطفى أجساماً حلّ فيها بمعاني الربوبية وأزال عنها معاني البشرية، ومن ذلك الغلط في فناء البشرية بالزعم بأن من تضعف بشريته يجوز أن يكون موصوفاً بصفات الإلهية، وادعائهم الرؤية بالقلوب في دار الدنيا مثل الرؤية بالعيان في دار الآخرة. وقريب من هؤلاء من زعموا أنهم يرون أنواراً، أو أن في قلوبهم أنواراً وكأنها مستمدة من الأنوار التي وصف الله بها نفسه. وكذلك غلط قوم في عين الجمع فلم يُضيفوا إلى الخلق ما أضاف الله تعالى إليهم، ولم يصفوا أنفسهم بالحركة فيما تحّركوا فيه احترازاً حتى لا يكون مع الله شئ سوى الله عزّ وجلّ، فأخرجهم ذلك من الملة، وتركوا حدود الشريعة، لقولهم أنهم مُجبَرون على حركاتهم، حتى أسقطوا اللائمة عن أنفسهم عند مجاوزة الحدود ومخالفة الأتباع. وكذلك غلط قوم في معنى الأنس والبسط، فتوهّموا أن بينهم وبين الله حالاً من القرب والدنو، فلم يراعوا الحشمة

والآداب والحدود، وهذا غلط لأن الآداب والأحوال والمقامات خُلَعٌ من الله تعالى على عباده، وكرامةٌ لهم، فإذا تجاوزوا الحدود وخالفوا نكصوا على أعقابهم، وسُلبوا الخلع التي أُكرموا بها من الطاعات. وكذلك الغلط في ادّعاء فقد الحس عن المواجيد، حتى لا يحسّوا بشئ ويخرجوا عن أوصاف المحسوسين، وقد غلطوا في ذلك لأن فقد الحسّ لا يعلمه صاحبه إلا بالحسّ، لأن الحسّ صفة بشرية. وآخر الأغلاط: الغلط في الأرواح، فقوم قالوا الروح نور وتوهموا أنه نور ذاته؛ وقوم قالوا حياة من حياة الله؛ وقوم قالوا الأرواح مخلوقة وروح القدس من ذات الله؛ وقوم قالوا أرواح العامة مخلوقة وأرواح الخاصة ليست بمخلوقة؛ وقوم قالوا الأرواح قديمة ولا تموت ولا تعذَّب ولا تبلَى؛ وقوم قالوا تتناسخ الأرواح من جسد إلى جسد؛ وقوم قالوا للكافر روح واحد، وللمؤمن ثلاثة أرواح، وللأنبياء وللصدّيقين خمسة أرواح؛ وقوم قالوا الروح خُلق من نور؛ وآخرون قالوا الروح روحانية من الملكوت، فإذا صفت رجعت إلى الملكوت؛ وقوم قالوا الروح روحان: روح لاهوتية وروح ناسوتية. وهؤلاء جميعاً غلطوا وضلّوا وجهلوا، وذلك من تعمّقهم وتفكُّرهم بآرائهم فيما لم يؤهل الله تعالى عقول العباد من التفكر فيه.

ولا نكاد نعرف شيئاً كثيراً عن الطوسي إلا بعض الكرامات، وأنه كان كثير التنقل بين بغداد ودمشق والقاهرة ودمياط والرملة والبصرة وتبريز ونيسابور، ينشر علوم التصوف، ومتعرفاً إلى أعلامه، وقد تكون له مؤلفات أخرى غير اللمع. وقد كتب عنه الذهبي ترجمة مختصرة نسبها إلى أبي عبد الرحمن السُّلَمي، المتوفى سنة ٤١٢هـ، قال: كان السّراج الطوسي من تلامذة جعفر الخلدي، وأبي بكر محمد ابن داود الرقّي، وأحمد بن محمد السايح، وكان من أبناء الزّهاد، واشتهر في موطنه بالقوة والمروءة بين الناس. - وذكره الهجويري مرتين في كتابه «كشف المحجوب»، إحداهما في كشف الحجاب السابع في الصوم فقال: وصحّ عن الشيخ أبي نصر السرّاج، طاووس الفقراء، صاحب اللمع، أنه قدم بغداد في شهر رمضان، وأعدّوا له داراً للخلوة في مسجد الشونيزي، وسلّموا إليه إمارة الدراويش، واستمر إماماً لأصحابنا حتى العيد، وختم القرآن خمس مرات في صلاة التراويح، فكان الخادم يحمل له في كل ليلة قرصاً من الخبز إلى بيته، وارتحل عندما حلّ يوم

العيد، فنظر الخادم، وإذا الأقراص الثلاثة لم تزل في مكانها.- ويقول **الهجويري** أيضاً في باب **كشف الحجاب التاسع في الصحبة مع آدابها وأحكامها**: وقد فرّق جيداً الشيخ أبو نصر السرّاج صاحب اللمع في كتابه فقال في الأدب: إن الناس فيه على ثلاث طبقات تقول بثلاثة آداب: **أحدها**: أدب أهل الدنيا، وهذا الأدب عندهم هو الفصاحة والبلاغة، وحفظ العلوم والرسوم، وأسماء الملوك وأشعار العرب. **وثانيها**: أدب أهل الدين، وهذا الأدب عندهم هو تأديب الجوارح، وحفظ الحدود، وترك الشهوات، ورياضة النفس. **وثالثها**: أدب الخواص، وهو أدب طهارة القلب، ومراعاة السرّ، ووفاء العهد، وحفظ الوقت، وقلّة النظر إلى الخواطر المتفرّقة، وجودة العمل عند الطلب، وزمن الحضور، ومكان القُرب.

وفي **نفحات الأنس للعطار** يقول عن السراج: إنه شيخ العصر، وكان إماماً بالحق، ونَسْجَ وحده بالمعنى المطلق، ومتمكناً، وأطلقوا عليه طاووس الفقراء، وقد بلغ الكمال في فنون العلم، وكان له شأن عظيم في الرياضات والمعاملات، وكان آية في الحال والقال، وكان من أهل طوس وأقام ببغداد في شهر رمضان وسلموا إليه إمامة الدراويش.

* * *

١٦٤ - الشرْغيني...

محمد بن محمد بن المعطى السَّرغيني، نسبةً إلى سَرغين من المغرب، وله «**روض الجنان**» في مناقب شيخه عبد الكبير الكتّاني، و«**المنحة العطوفية في جواز الرقص للصوفية**»، و«**حَلّ الطلاسم في شرح صلاة القاسم**»، وتوفي بمراكش سنة ١٣٢٩هـ.

١٦٥ - السعدي الشيرازي...

قيل اسمه: **أشرف الدين مصلح** الشيرازي؛ وقيل: هو شرف الدين مصلح ابن عبد الله، أو هو أبو عبد الله مُشْرِف ابن مُصلِح، وتخلُّصه سعدي، منسوبٌ إلى الأتابك سعد بن زنكي، أو حفيده سعد ابن أبي بكر بن سعد بن زنكي. وربما كان مولده سنة ٥٧١ هـ، أو أنه وُلد بين سنتي ٦٠٠ و٦٠٦ هجرية، وكانت ولادته بشيراز ولذا سمي الشيرازي، وكان من أسرة متدينة، والتحق بالمدرسة النظامية ببغداد في دور الشباب، ثم ارتحل إلى أصفهان في فتنة المغول، وقام برحلات عديدة قبل أن يستقر ويتفرغ للتأليف، وتوفي في شيراز سنة ٦٩١ أو ٦٩٤ هـ، وله مزار يُعرف باسمه حيث مدفنه، وله

تمثال من المرمر قرب بوابة أصفهان.

والسعدى صوفى اشتهر بالغزل الصوفى، وله كرامات، وخلف بالإضافة إلى كتابيه «بوستان» و«كلستان»، ست رسائل نثرية، وقصائد فارسية وعربية، وثلاث مجموعات من الغَزَل الصوفى، هى: «الطيّبات»، و«البدائع»، و«الخواتيم»، جُمعتْ مع مؤلفات أخرى باسم «الكُلّيات».

وعند السعدى فإن المعانى الذوقية، والإرادات القلبية، والأحوال والمشاعر، ليس أكثر ملائمة لها من لغة القلب ـ أى الشعر، والشاعر العارف يكشف عن سرّ الخليقة التى توجزها العبارة القدسية: «كنتُ كنزاً مخفياً فأحببتُ أن أُعرف، فخلقتُ الخَلْق لكى أُعرف»، ومن ثم يرتبط الخلق والخالق برباط «يحبهم ويحبونه»، وحكايته فى جامع بعلبك تشرح ذلك، يقول: تكلمت فى جامع بعلبك ببضع كلمات بطريقة الوعظ مع جماعة منقبضين ميّتى القلوب، لم يتطرقوا من عالم الصورة إلى عالم المعنى، فوجدتُ أن نفسى لا تلتهب، وناري لا تؤثّر فى الحطب الأخضر، فتأسفتُ من قيامى بتربية البهائم، وحملى المرآة فى حىّ العميان، ولكن باب المعانى لايزال مفتوحاً، وسلسلة الكلام ممتدة، فبلغ بى الكلام أن قلت فى معنى الآية: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ (ق ١٦) : «الصديق أقرب إلى نفسى منى، والمشكل فى هذا أننى بعيد عنه، فماذا أفعل؟ ولمن أقول أنه رغم أنه قريب منى فهو بعيد عنى!». فما كدت انتهى حتى كان هناك من تأثر بكلامى وصرخ صرخة، فصرخ الآخرون بتأثير صرخته، وبذلك ثارت ثورة الجامدين بالمجلس. ـ فالسبب كان الشعر، فالشعر يوقظ الغفلان، ويحيّ الموتى.

يقول السعدى:

استمع إلى صوت المطرب ودع البليل
فإنه لا يقول أحسن مما يقول السعدى

ونقول: إن أروع الشعر هو الشعر القصصى، وهو الذى برع فيه السعدى، ودعوته فيه للعشق؛ وفلسفته فيه تقوم على وحدة الوجود، لأن العارف عندما يعتقد بأن الله يسرى فى الوجود كله، وأنه ما سوى الله باطل، فلن يرى شيئاً إلا الله، وحينئذ يقول كما قال السعدى: «الكل معشوق، والعاشق يُظهر الحب، ويبدى العشق، ويلتاث بكل شىء، ويفرح بما حوله، ويحاول أن يتوافق والوجود من حوله، وأن يصبح هو والوجود واحداً، وأن يتوازن ويتعادل ويتمازج وينسجم وينتظم والوجود، وستحصل له الطمأنينة ويعمّ

العالم السلام». ويقول السعدى: أنا مبتهج بالعالَم، لأن العالَم مبتهج به (أى بالله)، وإنى لأعشق العالَم جميعاً، لأن العالم كله منه!

* * *

١٦٦ - السعودى (عبد اللطيف)...

المتوفى سنة ٧٣٦ هـ، اشتهر بمعارضاته للصوفية، وله فى ذلك «الردّ على بعض ما جاء فى فصوص الحِكَم لابن عربى»، وهو رسالة فى الأزهر؛ و«الغيث العارض فى معارضة ابن الفارض». ومدار معارضاته قول مَن قال من الصوفية كابن عربى، وابن الفارض: بوحدة الوجود، ولاجديد فيما قال. يعنى أنه كان من المنكرين على المتصوفة من الحلولية والاتحادية، ومن المنكرين على التَصوّف عمومًا.

* * *

١٦٧ - السعيدى نورسى (بديع الزمان)...

(١٨٧٣ - ١٩٦٠م) تركى، صاحب الطريقة النورسية أو النورچية، وُلد بقرية نورس وإليها يُنسب، من محافظة بتليس، وله الأتباع والتصانيف وأبرزها «رسائل النور»، أبدع فيها أيّما إبداع فلقّبوه بديع الزمان. وقيل أن أتباعه يلقبونهم بالنورية، لأنهم وراء نور هذه الرسائل، فنُسبوا إليها ولم يُنسَبوا إلى النورسى.

والنورسى عرفانى، يؤمن بالله كقوة عليا وخالق كل شىء، وعمدة الإسلام هو التوحيد، وإن تشابهت كل الأديان فإنها لا تتشابه فى تصوّرها لله، وأنزه تصوّر هو التصوّر الإسلامى، وكتاب القرآن لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ولو اجتمع الأولون والآخرون، والعقلاء والعالِمون، ما استطاعوا أن يبدعوا ولو سورة واحدة من القرآن، ومحمد هو أنبل وأفضل وأكرم الرسُل، لا تعصّباً ولكن عن واقع، وبالعِلم والعقل اللذين يقدّسهما العقلانيون. وسعيد النورسى ينكر على حزب كمال أتاتورك إلغاء الإسلام، ونعرة العَلمانية. وإذا كان أتاتورك ألغى عبادة الله، فإنما ليحلّ محلها عبادة التُرك له. وهذا حقّ والله، فهم فى تركيا يعبدون أتاتورك بدلاً من الله! ولم يحدث تشويه للتاريخ، ولا لحاضر أمة كما حدث لحاضر الأمة التركية، وأتاتورك أحال الأتراك إلى قرود يقلّدون (والتشبيه ليس من عندى وإنما من عند النورسى التركى)، على زعم أن تقبلهم أوروبا، ولم يحدث أن قبلتهم، ولا زاد احترامها لهم. وسعيد نورسى لذلك يؤكد على

الإسلام كطريقة، ويريد من المسلم السالك أن يُظهر إسلامه ما استطاع ليميّزه عن غيره، إلا لو اضطر أن يلجأ للتَّقية فى دار الحرب، ويريد للمسلمين أن يكون لهم سمتُهم الذى يُفرزهم ويميّزهم، ويقول إن المسلمين جماعة وليسوا أفراداً، وأن الإسلام يدعو إلى الجماعية، وإلى الوحدة، وأكثر ما يُعرف به المسلم والمجتمع الإسلامى هو هذه المبادىء الأربعة: تقوى الله، والخشية من الله، ومحبة نبيّه، والزود عن بيضة الإسلام وحياض المسلمين، ولذا فقد كان خطأ أتاتورك مضاعفاً، وأفصحَ عن جهل دفين، وعدم تبصّر وقلة عقل، ولقد قيل إن عصمت إينونو خلال معركة أتاتورك مع الإسلام اقترح عليه أن يحل محل الدين الإسلامى الذى ألغاه الديانة المسيحية، ويجعلها ديناً رسمياً للدولة!! وابتهج أتاتورك للاقتراح واحتفل به أيّما احتفال، فطرحه للنقاش على أعضاء جماعته الثورية، فنصحوه ألا يفعل برغم أنهم كانوا جميعاً ملاحدة!!!! وقيل إن أتاتورك ندم على إعلان الجمهورية وقتها، فلو كانت السلطنة كما هى لأعلن فى استبداد هذا القرار، وما كان أحد يجرؤ أن يرفضه أو يناقشه فيه ! أفلا تدل القصة على نقص فى إدراك أتاتورك احتمال نتائجة الشعب التركى؟- وهكذا حال الطغاة دائماً وليس أكثر من يزيدك علماً بحال الطغاة، من المسلمين فى العالم العربى، وفى مصر بالذات، إلا أن طغاة تركيا ليس لهم مثيل فى العالم الإسلامى كله! ولذا كان النورسى يقول بالشعار المشهور عنه: «لتحيا جهنم للظالمين»!! ولو كان أتاتورك مسلماً لما ظلم، ولما دخل التاريخ كظالم، صدق عليه قول الله: ﴿إِنَّهُ طَغَى﴾ (طه ٤٣)، واستغنى (عبس٥)، واستكبر (القصص ٣٩)، واستعلى (طه ٦٤) وبغَى (القصص ٧٦) فكان من أصحاب السعير. والنورسى يرى مع القرآن: أن الإسلام فيه الخلاص والنجاة فى الدنيا والآخرة: فى الدنيا من شقاء الملكية، وكدح الطمع، وخدمة شياطين الإنس والجن، ومتابعة الهوى؛ وفى الآخرة من النار وعذابانها. ومن رأيه أن الحياة فى الدنيا كما قال القرآن ابتلاء، وأن الحياة الحقّة هى الآخرة. وفى الحياتين يلزم لأن يعيشهما الإنسان بصدق وحقّ، أن يكون مسلماً لله، متوكلاً على الله، آخذاً بمنهج الله.- والتصوّف تَنقّى من الشكوك، وتَوقّى فى السلوك.

* * *

١٦٨ - سفيان الثورى (أمير المحدّثين)...

أبو عبد الله سفيان بن سعيد الثورى، أمير المؤمنين فى الحديث، والمربّى المُعلّم، سيد أهل زمانه فى علوم الدين والتقوى، الإمام المُرضى، والوَرِع الدُرّىّ. - والتصوّف علمٌ، ومن الأئمة العلماء بعد أصحاب رسول الله ﷺ، ثلاثة : ابن عباس، والشعبى، وسفيان الثورى، كلٌّ فى زمانه، وكان الثورى عالم الأمة وعابدها فى وقته، لايذكره الناس إلا وهو يفتى، وكان أفقه الناس. وعن الأوزاعى قال: **لو قيل لى اختر رجلاً يقوم بكتاب الله وسُنة نبيّه، لاخترت لهما الثورى».**

والثورى لقبه لأنه كان من الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر، وكان يغضب للحق. وقال الفُضَيْل بن عياض: كان سفيان الثورى أعلم من علىّ بن أبى طالب، ومن أبى حنيفة. ولم يكن يصحبه أحد إلا وعظه، ولا تراه فى مجالسه، إلا مرةً فى الورع، ومرقّ مصلياً، وإذا شئت رأيته غائصاً فى الفقه. وما كان عالمٌ يعمل بعلمه مثل سفيان، وما كان هناك من هو أورع منه، ولا أزهد . وكانت ولادته فى الكوفة ٩٧هـ (٧١٦م)، وبها نشأ، وراوده المنصور العباسى ليَلى القضاء فأبىَ، وخرج من الكوفة سنة ١٤٤هـ، وسكن مكة والمدينة، ثم طلبه المهدى فتوارى عن الأنظار وانتقل إلى البصرة، وعاش بها مستخفياً إلى أن مات سنة ١٦١هـ(٧٧٨م)، وله من الكتب «الجامع الكبير»، و«الجامع الصغير»، و«كتاب الفرائض»، وكان آية فى الحفظ، وما حفظ شيئاً فنسيه.

والثورى صوفى من طراز فريد من العلماء، وكان الأعقل والأعلم والأبصر، يقول فى أدب الحديث: **كان الرجل إذا أراد أن يطلب الحديث أو يكتبه، تأدّب وتعبّد قبل أداء ذلك بعشرين سنة! ويقول لتلاميذه: زيّنوا العلم بأنفسكم ولا تزيّنوا بالعلم.** ويقول: **الأعمال السيئة داء، والعلماء دواء، فإذا فسد العلماء فمن يشفى الداء؟**

ومقام الثورى فى التصوّف: **الخوف،** يقول: ما أطاق أحد العبادة ولا قوى عليها إلا بشدّة الخوف. ويقول: إنما يُطلب العلم لُيتّقى الله به، فمن ثمّ فَضْلُ العلم، فلولا ذلك لكان كسائر الأشياء. **وطريقته** تقوم على طلب العلم، والاستماع له، وحفظه، ثم **العمل** به. **والتصوّف لذلك** علمٌ وعمل، فلا العلم يستقيم بلا عمل، ولا العمل يستقيم بلا علم، كالساقين، بأيهما يعرج الإنسان، وبهما معاً تسير حياته. والإنسان فى الحياة مايزال يتعلّم

العلم ما وجده. والعلم يُورث الحزْن، والجاهل أقل حزناً. وطلب العلم نيّة. وكان سفيان زاهداً ليس له إلا قميصٌ عليه، يربطه عند وسطه، ويجعل عبّه مخزناً للكتب! ويأتيه تلاميذه فى أخلاق الثياب، ولا أذل من الأغنياء فى مجلسه، والضعفاء عنده هم طلّاب العلم، فكان يحييهم ويهشّ لهم ويقول: تقدّموا يامعشر الضعفاء». فذهبتْ مثلاً وشعاراً. وكان إذا عرّفوه بأحد الناس. يسأله: «سمعتَ من العلم شيئاً؟ فإن قال: لا، قال: لا جزاك الله عن الإسلام خيراً». وكان يحضّ مريديه على أن يعلّموا أولادهم، وأن يُكرهوهم على طلب العلم، فتلك مسئولية الآباء، فليس أنفع من العلم، فمن أراد به الدنيا، فدنيا؛ ومن أراد به الآخرة، فآخرة؛ ولو لم يأتِ المعلمون إلى المتعلمين فى المدارس لوجب أن يذهب المتعلّمون إلى المعلمين فى بيوتهم، وواجب العالِم إذا رأى أحداً ينشد العلم أن يعلّمه ولو يأتيه فى بيته. وكل علم له أهله، فلا تعلّموا سفْل الناس. وطلب العلم الخشية من الله، والأحرى بالشباب أن يعجّلوا بركة العلم، وأن يفِد بعضهم بعضاً.

وكان سفيان يسلك فى حياته فكأنه قد أُوقف للحساب، فلا يجترىء أصحابه أن يكلموه. ومرض سفيان بالبطن، ورقد لا حول له ولا قوة، فكان يقول: ذهب الثُّسترا! وتوفى فدفنوه ليلاً، وقال أصحابه يؤبّنونه :

من كان يبكى على حيٍّ لمنزلة
بكى الغداة على الثورىّ سفيانا
أبكى عليه وقد ولّى وسؤدده
وفضله ناضر كالغصن ريانا

وكان سفيان فى حياته يردد كثيراً :

إذا أنت لم ترحل بزاد من التقى
ولاقيت بعد الموت من قد تزوّدا
ندمت على أن لا تكون كمثله
وأنك لم ترصُد كما كان أرصدا

* * *

١٦٩ - سفيان بن عيينة (الإمام الأمين)...

أبو محمد بن سفيان بن عيينة، الهلالى، محدّث الحرم المكّى، حجّ سبعين مرة، وكان من الموالى، واسمه عيينة لأنه كان أعور، وميلاده بالكوفة سنة ١٠٧ هـ (٧٢٥م)، وسكن مكة وتوفى بها سنة ١٩٨هـ(٨١٤م)، وعلمه مشهور، وزهْده موفور، وكان عقله رصيناً، ورأيه ركيناً، وهو المعروف بتربيته للصوفية، وظل يعلّم التلاميذ ويتعهدهم ثلاثين سنة، وكان زاهداً يتناول

رغيفاً واحداً في اليوم من الشعير، ويقول لتلميذه حَرْملة : دع يا حرملة ما يقول الناس! هذا طعامي منذ ستين سنة. ـ وفي رواية كان معه قرصان من الشعير، فقال لتلميذه أبي يوسف الغسوي: يا أبا يوسف، أما إنهما طعامي منذ أربعين سنة. وكان يضع الرغيف أو الرغيفين في كُمّه. ويعرّف الزاهد بأنه: من لم تمنعه البلوى من الصبر، ولم تحجبه النعمة من الشكر. وهو الذي لم يغلب الحلال شكره، ولا الحرام صبره. ـ والإيمان عنده: صبرٌ وعمل. والإيمان يزيد وينقص. ـ والزهد: يكون فيما حرّم الله، فأما ما أحلّ فقد أباحه، فإن النبيين قد نكحوا وركبوا وأكلوا، ولكن الله نهاهم عن شيء فانتهوا عنه وكانوا به زُهّاداً. والزهد يكون فيما حرّم الله، والعبادة لا تصلح إلا بزهد، والزهد لا يصلح إلا بفقه، والفقة لا يصلح إلا بصبر.

ولم يتزوج ابن عيينة، يقول : أتزوج أمرأة تموت!؟ وقيل له : ألذلك لا تريد أن تبني بيتاً؟ قال: إني على طريق السبيل!

ومقامه التوكل، يقول: كان عيسى عليه السلام لا يخبيء غداءً لعشاء، ولا عشاء لغداء، ومع كل يوم وليلة يُرزقها، وليس له بيت يخرب! ـ وكان شديد التأثر بكتب العهد القديم والعهد الجديد، وينقل عن الأنبياء أو هكذا قيل، يقول لتلاميذه : قال عيسى عليه السلام لحواريه: إنما أعلّمكم لتعلّموا وليس لتعجبوا. وقال: لا تفسدوا ملح الأرض، فإن الشيء إذا فسد لم يصلح بشيء. وقال: لا تأخذوا الأجر مما تعلّمون إلاّ مثل الذي أخذتُ منكم. وقال: كونوا أوعية الكتاب، وينابيع العلم، وسلوا الله رزق يومٍ بيوم، ولا يضرّكم أن لا يكثر لكم.

وقال عن موسى: إن الله أوحى إليه: أن أول من مات إبليس، وذلك أنه أول من عصاني، وإنما أُعدُّ مَن عصاني من الموتى.

وقال ابن عيينة: ما تنعّم متنعّم بمثل ذكر الله. وكان داود عليه السلام يقول: ما أحلى ذكرك في أفواه المتعبدين ! وقال لقمان: خير الناس الحيي الغنيّ؟ وقالوا له: الغنيّ في المال؟ قال : لا، ولكن إذا احتيج إليه نفع، وإذا استُغني عنه نفع. قالوا : فمن شرّ الناس؟ قال:شرُّ الناس من لا يبالي أن يراه الناس مسيئاً!

وطريقة ابن عيينة قوامها: العقل والعلم. يقول: لم يُعبد الله بمثل العقل، ولا يكون العاقل عاقلاً حتى تكون فيه عشر خصال: حتى يكون الكبر منه مأموناً؛ والرشد منه مأمولاً؛ وحتى يكون

الذلّ أحَبّ إليه من العزّ، والفقر أحَبّ إليه من الغنى؛ وحتى يستكثر المعروف من غيره؛ ويستقل كثيره من نفسه؛ وحتى يكون نصيبه من الدنيا القنوت؛ وحتى يكون طالباً للعلم طول عمره؛ يُملِي بالعلم ذكره، ويشيد به مجده؛ ولا يلقاه أحد إلا رأى نفسه دونه.

والعمل الصالح: للعبد الصالح هو الذى: لا يحب أن يحمده عليه أحد إلا الله. وكل علم عنده يستوجب عملاً. وكل علم لا ينفع صاحبه ولاينفع الناس فهو مضرة. **والعلم النافع** نحصله بثلاث: بالإنصات؛ والاستماع؛ . وأحوج الناس إلى العلم هم العلماء، والجهل بهم أقبح، لأنهم غاية الناس ويُسألون.

وأفضل العلم عند ابن عيينة: **العلم بالله، والعلم بأمر الله**، فإذا كان العبد عالماً بالله، وعالماً بأمر الله، فقد بلغ. ولم تصل إلى العباد نعمة أفضل من العلم بالله، والعلم بأمر الله؛ ولم تصل إليهم عقوبة أشدّ من الجهل بالله، والجهل بأمر الله؛ **والعالم بأمر الله**: هو الذى يعلَم السُّنة، ولا يخاف الله؛ **والعالم بالله**: يخاف الله ولا يعلم السُّنة. **والعالم بالله وبأمر الله**، هو الذى يعلم السنة ويخاف الله، فذاك يُدعى «عظيماً» فى ملكوت السموات.

ويصف ابن عيينة لتلاميذه **الطريق** فيقول: دعوا المراء لقلّة خيره. وإذا أعجبكم **الصمت** فتكلموا، وإذا أعجبكم الكلام فاصمتوا. وقال: كان يقال عن حقّ : أن يكون لك عدو صالح خير من أن يكون لك صديق فاسد، لأن العدو الصالح يحجزه إيمانه أن يؤذيك أو أن ينالك بما تكره، والصديق الفاسد لا يبالى ما نال منك.

وينقد ابن عيينة **الفقهاء**، فيقول: لم أر فقيهاً قط يدارى ولا يمارى، ينشر حكمة الله، فإن قُبلت حَمَد الله، وإن رُدّت حَمَد الله! ويقول: من طلب العلم بايع الله.

وقال فى التصوّف : أنتم لن تبلغوا ذروة هذا الأمر إلا أن لايكون شىء أحب إليكم من الله، ومَن أحبّ القرآن فقد أحبّ الله، فافقهوا ما يقال لكم.

وكان ابن عيينة ينصح أصحابه بمجالسة الحكماء من أهل الله، فإن مجالستهم غنيمة، وصحبتهم سليمة، ومواخاتهم كريمة.

وأصحاب ابن عيينة أمثال: **الفُضَيْل ابن عياض، وعبد الله بن المبارك، وأحمد بن أبى الحوارى، وأبو عبد الله الرازى.** وكان يقول: إنى أخرج إلى المسجد فأتصفّح الخَلق، فإذا رأيت مشيخة وكهولاً جلست

إليهم، وأنا اليوم قد اكتنفني هؤلاء الصبيان! وكان يقول لهم : إني لأغضب على نفسي إذا رأيتكم تأتوني، أقول لِمَ يأتيني هؤلاء، إلاّ من خير يظنون بي !

وابن عيينة يُرفق «العلم بالعمل» ويقول: أول العلم الاستماع، ثم الإنصات، ثم الحفظ، ثم العمل، ثم النشر. يقصد بالنشر الدعوة، والصوفي الحقّ هو الداعية ـ وهذا حقّ فاحفظ ذلك يا أخي. ـ وكان إذا سُئل عن شيء لا يعرفه يقول: اسألوا العلماء. وطريقته في التعليم: التأويل وليس التفسير. يقول في الآية: ﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا﴾ (الرعد ١٧): أنزل من السماء قرآنا فاحتمله الرجال بعقولهم. ويقول في الآية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ (الأعراف ١٥٢)، قالوا: هذه لأصحاب العجل خاصة؟ قال: كلا، اتلوا ما بعدها: ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾ (الأعراف ١٥٢) فهي لكل مفترٍ ومبتدع إلى يوم القيامة.

وكان ابن عيينة من المحزونين، يقول: واحزناه على أن لا أحزن. وكان من البكّائين، فلا ينفك يبكي من خشية الله. وكان يستعين بالقصص والأمثال للإفهام، كقصته عن الحيّة التي أواها العبد الصالح ممن يتربص بها، فلما زال عنها الخطر هددته، فجاء إليه من ينقذه منها، وعرّفه بنفسه أنه من يقال له المعروف، فمن ضيّعه المصطَنع إليه لم يضع عند الله. وكان كلما بكى يقول:

خلت الديار فَسُدتُ غير مسود

ومن الشقاء تفردّي بالسودد

ولم يكن يعزّيه إلا القرآن، لا يشبع من كلام الله، وما كان يأتي عليه يوم ولا ليلة إلا وينظر في كلام الله، ويقول : من أعطى القرآن فمدّ عينيه إلى شيء مما صَغُر القرآن، فقد خالف القرآن. ألم تسمع قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ (طه ١٣١) يعني القرآن.

ولعل ابن عيينة نمط فريد من الصوفية، وهو لا يقول بالوجدان مثلهم، وإنما بالعقل كما أسلفنا، والعقل مخزن ومصدر الأفكار، يقول : الفكرة نور تدخل قلبك :

إذا المرء كانت له فكرة

ففي كل شيء له عبرة

والتفكّر مفتاح الرحمة، لأن الذي يتفكّر يتوب. ومن أبرع استنباطاته العقلية قوله في عدم زواج عيسى عليه السلام:

إنما كان عيسى عليه السلام لا يريد النساء، لأنه لم يُخلق من نطفة. - ومن أعقل مُلحه استشهاده بوصية بشر ابن منصور الزاهد له، قال بشر: يا سفيان! أقلل من معرفة الناس، لعله أن يكون في القيامة غداً أقل لفضيحتك إذا نودي عليك بسوء أعمالك؟ - والمجالس كما يقول سفيان: تطيب بخفة الجلساء، وبِشْر كان منهم!.

* * *

١٧٠ - السقاف (ولي الدويلة)...

السقّافية من تَريم بحَضْرموت، واشتهروا بالأدب والتصوف، وجدّهم عبد الرحمن السقّاف، وكان أبوه محمد ابن علي بن العلوي، ولقبه مولى الدُوَيْلة، أي وليّ البلد القديم يَحْضُر، ومنهم عليّ بن أبي بكر بن عبد الرحمن السقّاف العلوي، الفقيه المتصوّف (٨١٨ - ٨٩٥ هـ)، وكان مولده ووفاته بتَريم، وله كتب منها «معارج الهداية»، و«البرقة المَشيقة في ذكر الخِرْقة الأنيقة وشيوخ الطريقة» في تراجم الصوفية من الشيوخ ببلدة تَريم، وعدد ضخم من الشعر الصوفي الجيد.

ومن السقّافية: أبو بكر بن سالم السقّاف العلوي، صاحب «معراج الأرواح»، و«مفتاح السرائر»، و«فتح باب المواهب»، وكلها كتب في التصوّف، وكانت ولادته في تريم سنة ٩١٩ هـ، ووفاته في عينات سنة ٩٩٢ هـ، وكان مريدوه يسيرون في مواكب ويستقبلونه بالأعلام والطاسات؛ ولمحمد ابن عبد الرحمن سراج الدين الحضرمي المتوفى سنة ١٠١٩ هـ كتاب في مناقبه اسمه «بلوغ الظفر والمغانم في مناقب أبي بكر بن سالم».

ومن السقّافية: شيخان بن عليّ بن هاشم السّقاف العلوي (١٢٤٨ - ١٣١٣ هـ)، وُلد بقرية الغَرْف جنوبي تَريم، وأقام زمناً في سورابايا بجاوة، وتوفي بالمكلا، وله ديوان في التصوّف، وكلامه المنثور جمعه ابنه في ثلاثةمجلدات. (انظر باعلوي والعيدروسية).

* * *

١٧١ - السقطي (طيّب الغذاء)...

أبو الحسن سَرِيّ بن المغلّس السَّقَطيّ، أول من تكلّم في بغداد في لسان التوحيد وحقائق الأحوال، وكان تلميذاً لمعروف الكرخي، وتتلمذ عليه الجُنَيْد، والنصراباذي، وسَمنون، والخُلْدي.

ومولده ووفاته ببغداد سنة ٢٥٣ هـ. وكانت أكثر صُحبة الجنيد له، فقد كان خاله، وقال فيه: ما رأيت أعبد منه، فقد أتت عليه ثمان وتسعون سنة ما رؤى

مضطجعاً إلا فى علة الموت. وكان يتّجر فى السوق، فمرت عليه جارية معها إناء، فوقع منها وانكسر، فأخذ سرِيّ شيئاً من المال من دكانه فدفعه إليها بدل الإناء، وكان معروف الكرخي موجوداً، فأعجبه فعله، فقال له: بغّضَ الله إليك الدنيا»، فقام سرىّ لثوه من الدكان وليس شئ أبغض إليه من الدنيا، ولزم داره لا يراه أحد إلا من يقصده. ولولا الجمعة والجماعة لَسَدّ على نفسه الباب لم يخرج!

وطريقته قوامها: الورع والزهد، واشتهر بطيب طعامه (أى من الحلال)، وتصفية قُوته، حتى بلغ ذلك الإمام أحمد بن حنبل، فكان يصفه كذلك بأنه «الشيخ الذى يُعرَف بطيب الغذاء». وكان يقول: إن خير الرزق ما سلم من الآثام فى الاكتساب، والمذلة فى الخضوع فى السؤال، والغشّ فى الصناعة، ومعاملة الظلم». وكان يشكو اضطراب قلبه وقلة سكونه، خوفاً من الله، ورجاءً فيه، وحياً له، وحياءً منه، وأُنساً به. وكان كل همّه أن يجد الأكلة التى يأكلها وليس لله عليه فيها تبعة، ولا لمخلوق فيها منّه، ومَثَلُه الأعلى فى الورع أربعة: حذيفة المرعشى، وإبراهيم بن أدهم، ويوسف بن أسباط، وسليمان الخواص، فهؤلاء نظروا فى الورع، فلما ضاقت عليهم الأمور فزعوا إلى التقلّل. ويحكى أنه ذهب غازياً ودخل طرسوس، وبات مع فتية متعبّدين، وكانوا يخبزون فانكسر التنوّر، فأصلحه من ماله، فتورعوا أن يختبزوا فيه. ولما دخل أرض الروم كان معه أبو يوسف الغسولى، فكان الناس يأكلون من طعام الروم والغسولى يرفض، فسأله: أتشك أنه حلال؟ فيقول: لا أشك فهو حلال، وإنما الزهد فى الحلال؛ ويقارن ذلك بفقهاء زمنه الذين يأكلون بدينهم، ويصفهم بالنذالة، وإنما الفتى حقاً هو المستقيم على أمر الله، والمجتهد الذى ليس معه سهو، والمتيقّظ الذى ليس معه غفلة، والمراقب لله فى السرّ والجهر، كالغسولى صاحبه فى الجهاد، فذلك هو الشجاع البطل. ومجلس سَرِيّ مجلس علم، ورغم أنه ينتقى جلساءه لم يكن يأمن أحدهم على سرّه، وينصح الجنيد أن لا يصحب الأشرار، وأن لا ينشغل عن الله، وأن لا يكون اهتمامه إلا بمجالسة الأخيار، وأن لا يدع باطن علم ينقض ظاهر حُكم، وأن يكون أخوف ما يكون من الله. ويحكى أنه فى إحدى المرات صلى ليلة وقرأ وِرْده، ثم بسط ساقه فى المحراب فسمع كأن هاتفاً يقول له: يا سَرِيّ! كذا

تجالس الملوك ! فضمّ رجله وقال: وعزّتك لا مددتُ رجلى بعد ذلك أبداً! وورعه وخوفه من الله يهديانه إلى الطريق المختصر للوصول ـ يقول: لا تأخذ من أحد شيئاً، ولا تسل أحداً شيئاً، ولا يكن معك ما تعطى منه أحداً شيئاً. ـ وكان يشفق على نفسه ويتمنى مع ذلك لو أن حُزن الخَلْق كلهم ألقى عليه، ويعزو حُزنه، وهمّه، وخشيته، وكثرة بكائه وتضرعه فى الليل والنهار، إلى الخوف من الله، ويصف أحوال الخائف وَصْفَ العارف المُعانى، ويقول: إنه دائم الهرب من مواطن الراحة، وأنه كثير الوله، يستشعر الوجل فى قلبه، ويتنغّص عليه عيشه من مراقبته لله فى كل ما يقول ويفعل». ويقول: إنه لينظر إلى وجهه كل يوم مخافة أن يكون قد اسودّ، ويتمنّى لو يموت فى مكان لا يُعرف فيه، فسألوه عن السبب، فقال :أخاف أن لا يُقبلنى قبرى فأُفتَضح». وله فى الصوفى ثلاثة معان: فهو الذى لا يطفئ نور معرفته نور ورعه؛ ولا يتكلم بباطن فى علم ينقضه ظاهر الكتاب والسُّنة؛ ولا تحمله الكرامات على هتك أستار محارم الله». ويدعو :اللهم مهما عذّبتنى بشئ فلا تعذّبنى بذُلّ الحجاب» ـ يقصد بما يشغله عن الحق. ويذكر من علامات العارف: قيامه بحقوق الله، وإيثاره على النفس فيما أمكنته فيه القدرة. وكان ينشد :

لا فى النهار ولا فى الليل لى فرح
فلا أبالى أطال الليل أو قصرا
لأنى طُول ليلى هائمٌ دَنِف
وبالنهار أقاسى الهمّ والفكرا

* * *

١٧٢ - سلمان الفارسى (سابق الفرس)...

قال فيه الرسول ﷺ : «الفارسى المسكين المُكاتب»، وكان إسلامه بعد بدر وأُحد، وكان عبداً عند يهودى قُرَظىّ، اشترته منه امرأة، فأعتقه رسول الله ﷺ، وشهد معه الخندق وبقية المشاهد، وهو صاحب فكرة الخندق ـ هكذا يروّج الشيعة من أتباع فرقته السلمانية. وقيل: إن الرسول ﷺ تناول معوله ليضرب الصخرة التى اعترضت الحافرين، وكان سلمان معه،وإذن فقد شهد سلمان الخندق وكان ضمن من شاركوا فى الحفر. وقيل: لمّا انتصر المسلمون على الأحزاب بفكرته، نسبه كل واحد إليه، فقال المهاجرون: سلمان منا، وقالت الأنصار: لا، بل سلمان منا، فقال رسول الله ﷺ : «سلمان منا أهل البيت» ـ والحديث واضح أنه موضوع لإعلاء شأن سلمان وتبرير قُربه

من علىّ، حتى صار من رموز الدعوة العلوية الثلاثية التى قوامها: محمد، علىّ، سلمان (والتثليث فكرة النصارى) ـ والحقّ أن سلمان كان كادحاً لايبرح، وزارعاً لا يُنزح، وحكيماً وعابداً عليماً. وفى الحديث عنه، قيل: «السباق أربع: أنا سابق العرب، وصُهَيب سابق الروم، وسلمان سابق الفرس، وبلال سابق الحبشة». والسابق يعنى سَبْق قومه إلى الإسلام.

وقيل: كان سلمان يسمى نفسه «سلمان الإسلام»، والحقيقة أن أتباع فرقته هم الذين سمّوه كذلك، وأصله من مجوس أصبهان، وعاش عمراً طويلاً، ولم يُعرف ماذا كان يُسمَّى فى بلاده، وقالوا: نشأ فى قرية جيان، ورحل إلى الشام، ثم الموصل، ثم نصيبين، فعمورية، يطلب العلم وينشد الدين الصحيح. هكذا قالوا وكان أبوه كما زعموا قد حبسه وكبّله بالحديد حتى لايهرب، فتسلل ليعرف ربَّه، وقرأ كتُب الفرس والروم واليهود ولم يطمئن قلبه، فلقد كانت تعاليمهم فى واد وممارساتهم فى واد، فعافت نفسه المجوسية والنصرانية واليهودية، وسمع عن نبىّ جديد وديانة جديدة فى بلاد العرب فقصدها، ولقى جماعة من بنى كلب فاستخدموه، ثم استعبدوه، وباعوه، فاشتراه يهودى من قريظة، وجاء به إلى المدينة لسليمان خبر ظهور الإسلام، فقصد النبىّ ﷺ يُقباء، واستمع إليه ولازمه، وكان بوسعه أن يعلن إسلامه فيكون حراً، ولكنه آثر أن يتحرّر أولاً ثم يسلم وهو حرّ، وأعانه النبىّ ﷺ والمسلمون على شراء نفسه، فكان كما قيل: ابن الإسلام حقاً، ورافع لوبته وأعلامه، ورافق الرسول ﷺ، وكان نجيباً، تقياً، نقياً، ولما سألوا عنه علياً، قال: من لكم بمثل لقمان الحكيم؟ ذاك امرؤ منا وإلينا أهل البيت: أدرك العلم الأول والعلم الآخر، وقرأ الكتاب الأول والكتاب الآخر، بحرٌ لا يُنزَف. ومع كل هذا التقريظ وليس فى التراث الإسلامى ما يُنسب إليه!

وقيل: وكان سلمان دائم القلق، والتصوّف مقاساة القلق، ورأى فى الإسلام «أنه دين الوسطية والنسبية»، فلما شكت أم الدرداء إليه زوجها أبا الدرداء ـ وكان له صاحباً ـ أن أبا الدرداء لا يريد النساء، ويصوم النهار ويقوم الليل. قال له سلمان: إنّ لأهلك عليك حقاً، فَصَلِّ ونَمْ، وصُمْ وأفطر. وفى رواية قال: يا أبا الدرداء! إن لربّك عزّ وجلّ عليك حقاً، ولأهلك عليك حقاً، ولجسدك عليك حقاً! أعط كلّ ذى حقّ حقَّه: صُم وأفطر، وقُم ونَم، وأْتِ أهلك.

ويشبه سلمان في مقالته تلك لأبي الدرداء، مقالة رسول الله ﷺ لعثمان ابن مظعون، لمّا شكت زوجته اعتزاله لها، فإمّا أن واقعة أبي الدرداء كانت أولاً، وإمّا أن واقعة ابن مظعون كانت السابقة، والحقيقة أن واقعة ابن مظعون هي الأولى، وأن كلام النبيّ ﷺ أسبق من كلام سلمان؛ ومع ذلك فالأمر على السواء، وقد وافق القرآن عمر في ثلاث، قال: قلت يارسول الله، لو اتّخذت من مقام إبراهيم مصلى، فنزلت: ﴿وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ (البقرة ١٢٥)، وقلت: يارسول الله يدخل عليك البَرّ والفاجر، فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب، فأنزل الله آية الحجاب؛ قال: وبلغني معاتبة النبيّ ﷺ بعض نسائه، فدخلتُ عليهن، فقلت: إنْ انتهيتن، أو ليبدلنّ الله رسوله خيراً منكن، حتى أتيتُ إحدى نسائه فقالت: يا عمر! أما في رسول الله ما يعظ نساءه حتى تعظهن أنت؟! فأنزل الله: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَاتٍ﴾ (التحريم ٥). وموافقة سلمان لرسوله ﷺ من ذلك. قيل: ولمّا بلغت النبيّ ﷺ مقالة سلمان، قال: «لقد أوتي سلمان من العلم»، أو قال: «لقد أشبع سلمان علماً». وقيل إن سلمان وأبا الدرداء جاءا إلى النبيّ ﷺ، فذكرا له الأمر، فقال مخاطباً أبا الدرداء: «عويمر! سلمان أعلم منك»، قيل: قالها وهو يضرب على فخذ أبي الدرداء، وكررها ثلاث مرات: «عويمر! سلمان أعلم منك». وكان أبو الدرداء إذا كانت ليلة الجمعة، أحياها وصام يوم الجمعة، فأمر سلمان زوجة أبي الدرداء أن تصنع له طعاماً في يوم الجمعة، وتأتيه به، وأمره سلمان أن يأكل، وأصبح ابو الدرداء بصيامه، فلم يزل سلمان به حتى أكل. فقال النبيّ ﷺ لأبي الدرداء: «لا تخصّ ليلة الجمعة بقيام بين الليالي، ولا تخصّ يوم الجمعة بصيام بين الأيام». فهذه هي وسطية الإسلام التي قيل إن سلمان يتحلىّ بها؛ فأما النسبية، فيحكى حولها أبو البختري، قال: صحب سلمان رجلٌ من بني عبس، قال: فشرب من دجلة شربة، فقال له سلمان: عُدْ فاشرب. قال: قد رويت. قال: أترى شربتك هذه نقصت من مياه دجلة؟ قال: وما ينقص منها شربة شربتها؟! قال: كذلك العلم لا ينقص، فخذ من العلم ما ينفعك! ـ وقال سلمان لحذيفة: يا أخا بني عبس! إن العلم كثير، والعمر قصير، فخذ من العلم ما تحتاج إليه في أمر دينك، ودع ما سواه فلا تعانه». ـ والتصوف علمٌ بالمناسب، وأخذٌ بما يناسب ـ

وعن سلمان أنه قال: دخل رجل الجنة فى ذباب، ودخل آخر النار فى ذباب. قالوا: وكيف ذاك؟ قال: مرّ رجلان ممن كان قبلكم على ناس معهم صنم، لا يمر بهم أحد إلا قرّب لصنمهم. فقالوا لأحدهم: قرّب شيئاً. قال: ما معى شىء. قالوا: قرّب ولو ذباباً ! فقرّب ذباباً، ومضى فدخل النار ! وقالوا لآخر: قربّ شيئاً! قال: ما كنتُ لأقرّب لأحد دون الله !ـ فقتلوه فدخل الجنة.ـ فالأمر واحد ولكن الحكم مختلف، وهذه هى النسبية.

ومَثَل آخر عن النسبية يرويه زيد بن صوحان، فقد كان فى السوق، فشاهد سلمان يشترى وَسْقاً من طعام، فاستكثر عليه ذلك وهو صاحب رسول الله ﷺ، فقال سلمان: إن النفس إذا أحرزت رزقها اطمأنت وتفرّغت للعبادة، وأيس منها الوسواس !ـ ومثل آخر قاله سلمان: لو بات رجلٌ يطاعن الأقران، وبات آخر يتلو كتاب الله عزّ وجلّ ويذكر الله تعالى، لكان الذاكر التالى أفضل. يعنى: أن العملين كلاهما حسن، وإنما الأفضلية للثانى.ـ ومثل آخر على النسبية : أن أبا الدرداء كتب إليه أن هَلُمّ إلى الأرض المقدسة، فكتب إليه سلمان: إن الإنسان لا يقدّس الأرض ولكن يقدّس عمله. وقد بلغنى أنك صرت تعمل طبيباً، فإن كنت تبرىء فَنعِمّا لك، وإن كنت مُتطبّباً فاحذر أن تقتل إنساناً فتدخل النار.ـ فكان أبو الدرداء إذا قضى بين اثنين فأدبرا عنه، نظر إليهما وقال: مُتطبِّب والله ! ارجعا إلىّ ! أعيدا قصتكما!

وكان النبىّ ﷺ قد آخى بين سلمان وأبى الدرداء، فكانا نعمَ الأخَوان ، ولما بَعُدت بينهما الشُّقّة من بعد، سكن أبو الدرداء الشام، وسكن سلمان الكوفة، فكانا يتواصلان. وسلمان وأبو الدرداء كانا قمة فى علم التصوف، وعن يزيد بن عميرة السلسكى وكان تلميذاً لمعاذ: أن معاذاً أمره أن يطلب العلم من أربعة، منهم سلمان وأبو الدرداء. وكان عمر يكنّ لسلمان كل الاحترام، فلما قدم عليه من المدائن طلب من الناس أن يخرجوا للقائه، ولمّا وزّع عمر العطايا، جعل لسلمان فى السنة ستة آلاف، وقيل أربعة آلاف، بينما جعل لابنه عبدالله بن عمر ثلاثة آلاف وخمسمائه، فعابوا على عمر ذلك وقالوا: ما شأن هذا الفارسى فى أربعة آلاف، وابن أمير المؤمنين فى ثلاثة آلاف وخمسمائة؟ ـ ولعل ذلك لأن سلمان قد شهد من رسول الله ﷺ ولم يشهد ابن عمر. وسلمان عُيّن أميراً على ثلاثين ألفاً من الناس، فكان مع ذلك

يخطب فيهم فى عباءة يفترش نصفها ويلبس نصفها، وما كان يحصّله من مال كراتب كان يتصدّق به جميعه ولا يستبقى منه شيئاً، ولم يكن يأكل إلا من سفيف يديه - أى من عمل يديه، وكان يسفّ الخوص (أى ينسجه)، حتى وهو على فراش الموت! فما توقف عن العمل حتى مات. وكان يقول: إنى لأحب أن آكل من كدّ يدى. ومع أنه كان أميراً والإمارة عمل، إلا أنه لم يأكل منها، وإنما من كدّ يده فعلاً، وقال: إنى اشترى خوصاً بدرهم، فأعمله، فأبيعه بثلاثة دراهم، فأعيد درهما فيه، وأنفق درهماً على عيالى، وأتصدّق بدرهم، ولو أن عمر بن الخطاب نهانى عنه ما انتهيت». - وهكذا التصوف كدٌّ باليد، وتكسُّبٌ بالعَرَق - وقال عنه عبد الله ابن بُرَيْدة : إن سلمان كان يعمل بيديه، فإن أصاب شيئاً اشترى به لحماً أو سمكاً، ثم يدعو المجذوبين فيأكلون معه. وكان مثلما كان مع أهل الصُّفة - صوفية المسلمين الأوائل - إذا أكل لم يشبع، ويقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول : «إن أكثر الناس شبعاً فى الدنيا أطولهم جوعاً فى الآخرة». وقال له: «يا سلمان ! إنما الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر». وكان سلمان إذا أكل قال: الحمد لله الذى كفانا المئونة وأوسع علينا فى الرزق - أو قال: وأحْسَنَ الرزق.- ولم يكن له بيت، فاشترط كى يُبْنَى له بيت، أنه إذا اضطجع فيه وسعه ورأسه من جانب ورجليه من الجانب الآخر، وإذا قام أصاب السقف رأسه ! - يعنى بيتاً يستره فقط. وكان وهو أمير يركب حماراً، ويقود سرية الجيش وعليه سراويل، وخَدَمتاه (مُثَنّى الخَدَمة وهى الساق) تذبذبان، والجند خلفه يضحكون، فيبتسم لهم ويقول: إن الخير والشر بَعْد اليوم! - يعنى الهم الآخرة. وكان يحلق رأسه فيُعاب عليه فيقول: إنما العيش عيش الآخرة. ومن أحاديثه التى يشبهها ما قال به الفيلسوف المصرى عثمان أمين فى الجُوّانية والبرّانية: لكل امرئ جوّانى وبرّانى، فمن يُصلح جوانيه يَصلُح برانيه، ومن يُفسد جوّانيه يُفسد الله برّانيه. رواه الثورى. وعثمان أمين لا ينسب الفضل لصاحبه، وهو بطبيعة الحال يطوّر فلسفة الجوانية والبرّانية لأكثر من الجانب الأخلاقى الإسلامى، ولكنه فى هذا الجانب يلتزم بما قاله سلمان، ويقول عثمان أمين: الجوانية تُعنَى بالنية واستقامة القصد، وترتكز على الوعى، وخير مثال لها أخلاق الصوفية، فصوفية المحققين ليست تظاهراً، ولا ادعاءً، ولكنها

إخلاصٌ ومحبة، وشرط العمل فيها حضور القلب. - يقصد بذلك صوفية سلمان. ومن رأى عثمان أمين أن الأمة الإسلامية صاحبة رسالة جوّانية، لأنها أمة عقيدة ودعوة إيمان، وانصرافها إلى الحقّ والخير والسلام. والبُعد الجوّاني هو الدين عند الإنسان المسلم. ولا نأخذ على عثمان أمين إلا إغفال ذكره لسلمان الفارسي، وهو أول داعية للجّوانية والبرّانية بمصطلحيهما هذين. ومع كل هذه العظمة الفكرية لسلمان، فإنه كان وهو أمير يرتدي الرّثّ من الثياب، ويرتاد الأسواق يتسوّق طعامه وطعام أهله، وقد يظنه الناس حمّالاً فينادون عليه ليحمل مشترواتهم؛ ويقوم سلمان بذلك، حتى إذا نبّه الناس صاحب الأشياء، اعتذر له وهَمّ ليتناولها عنه، فيرفض سلمان إلا أن يبلغ بها منزله. - وكان إذا سجد له العَجَم طأطأ رأسه وقال: خشعت لله. وسألوه : ما يُكرهك في الإمارة؟ قال: حلاوة رضاعتها، ومرارة فطامها. - يعني: أنه يخشى أن يعتادها وينسى نفسه مثلما يفعل طغاة هذه الأيام. وكان الناس يشبّهونه في الإمارة باللُّعبة، فيقول لهم : لا عليهم، فإنما الخير فيما بعد اليوم. - يعني: المهم الآخرة. ولم يكن يأكل من الصدقة، ويقول عنها: غُسالة الناس. - يعني التي تكفّرّ عن ذنوبهم وتغسل عنهم آثامهم. وهذا تعبير رسول الله ﷺ، وسلمان يقتبس منه كثيراً دون أن ينسبه إليه، الأمر الذي يجعلنا نجزم بأن حديثه مع أبي الدرداء قد نقله عن حديث رسول الله ﷺ مع ابن مظعون.

وكان سلمان يخاف القَصاص لأنه يكره الضرب. ومن وصاياه لمريديه :من استطاع منكم أن يموت حاجّاً، أو معتمراً، أو غازياً، أو في نَقْل القراءة - أي تعليم القرآن، فليمت، ولا يموتن أحدكم فاجراً ولا خائناً.- والعمل الصالح عنده: إفشاء السلام، وإطعام الطعام، والصلاة والناس نيام. وقال: مثل القلب والجسد مَثل الأعمى والمُقعَد، يقول المُقعَد: أرى ثمرة ولا أستطيع أن أقوم إليها، فأحملني إليها، فيحمله، فيأكل ويُطعمه. - يعني: لا غنى للجسد عن علم القلب، وعلم القلب لا يكون عملاً وتطبيقاً إلا بالجسد. - وقال لرجل يلتمس مكاناً طاهراً يصلي فيه: التمس قلباً طاهراً وصلّ حيث شئت ! - يعني: المهم النيّة. وقال : إن الله تعالى يبتلي عبده المؤمن بالبلاء، ثم يعافيه فيكون كفارةً لما مضى، فيستعتب فيما بقي. وإن الله عزّ اسمُه، يبتلي عبده

الفاجر بالبلاء، ثم يعافيه، فيكون كالبعير، عَقَلَهُ أهله ثم أطلقوه، فلا يدرى فيما عقلوه حيث عقلوه، ولا فيما أطلقوه حين أطلقوه. - يعنى: المؤمن يعرف لماذا يُبتلى ثم يتعافى، وإنما الفاجر لا يعرف هذا ولا ذاك. وقال: أضحكنى ثلاث وأبكانى ثلاث: ضحكت من مؤمّل الدنيا والموت يطلبه؛ وغافل لا يُغفَل عنه؛ وضاحك ملءَ فيه لا يدرى أمُسخطٌ ربّه أم مُرضيه. وأبكانى ثلاث: فراق الأحبّة محمد وحزبه؛ وهَوْل المطلع عند غمرات الموت؛ والوقوف بين يدىّ ربّ العالمين حين لا أدرى إلى النار انصرافى أم إلى الجنة. وقال ينصح أحد تلاميذه: اذكر الله عند همّك إذا هممت، وعند لسانك إذا حكمت، وعند يدك إذا أقسمت.

وزوّجوه امرأة من كِنْدة، فبنى بها فى بيتها، فلما نظر البيت وجده مرتّباً مؤثثاً، فقال: ما بهذا أوصانى خليلى ﷺ ! أوصانى خليلى أن لا يكون متاعى من الدنيا إلا كزاد الراكب !- ورأى خَدَمًا فقال: ما بهذا أوصانى خليلى ﷺ ، ألاّ أمسك إلا ما أنكَح أو أُنكِح. ثم جلس عند امرأته فمسح بناصيتها ودعا بالبركة، فقال لها: هل أنت مطيعتى فى شىء آمرك به؟ قالت: بل أطيع، فمُرنى بما شئت، فقد نزلت منزلة المطاع. فقال: فإن خليلى أبا القاسم ﷺ أمَرنا إذا دخل أحدنا على أهله أن يقوم فيصلى، ويأمرها فتصلى خلفه، ويأمرها أن تؤمن - ولّما حضره الموت وكان قد أصيب بداء البَطَن - يعنى الاستسقاء، فكان يبدو عليه الجزع فسألوه: ما يُجزعك وقد كان لك السابقة فى الخير، وشهدت مع رسول الله ﷺ مغازى حسنة وفتوحاً عظاماً؟ فقال: يحزننى أن حبيبنا محمداً ﷺ عهد إلينا حين فارقنا، فقال: «ليَكْفِ المؤمن كزاد الراكب» فهذا الذى أحزننى. قالوا: فجُمع مال سلمان بعد موته، فكان قيمته خمسة عشر ديناراً !! وقالوا: بيع متاع سلمان فبلغ أربعة عشر درهماً !! - وكان اسم زوجته بُقَيْرة (تصغير بقرة، ربما لأنها تأكل كثيراً، وربما لأنها سمينة)، قالت: لّما حضر الموت دعانى وهو فى عليّة (يعنى حجرة منفصلة) لها أربعة أبواب، فقال: افتحى هذه الأبواب يا بقيرة، فإنّ لى اليوم زواراً لا أدرى من أى هذه الأبواب يدخلون علىّ! (يقصد ملاك الموت)، ثم دعا بمسْك له، ثم قال: أذيفيه فى تور (يعنى أذيبيه فى وعاء)، وانضحيه (أى رشّيه) حول فراشى، ثم انزلى فامكثى فسوف تطلعين فترينى على فراشى. ولما طلعت فإذا هو

قد أُخذت روحه، فكأنه نائم على فراشه! - يا سبحان الله! عجيبٌ أمر المؤمن!

وتوفى سلمان فى خلافة عثمان سنة ٣٦ هـ (٦٥٦م). وفى الحديث عن الرسول ﷺ: «نزل علىّ الروح الأمين، فحدّثنى أن الله تعالى يحب أربعةً من أصحابى، قيل: من هم يا رسول الله؟ قال: «علىّ، وسلمان، وأبوذرّ، والمقداد». والحديث ربما موضوع، فالأربعة من الشيعة الكبار!- أجل، كان سلمان من الشيعة الكبار، ونسبوا إليه أقوالاً تخرجه عن دائرة الإسلام، وجعلوا باسمه فرقة هى السلمانية كانت تؤلّهه وعلىّ بن أبى طالب!! غير أن ذلك لا يمنعنا من اعتبار سلمان من الصوفية وأنه كان له سلوكهم وفلسفتهم.

* * *

١٧٣ - السُلَمى (شيخ الصوفية)...

شيخ الصوفية، وصاحب تاريخهم، وطبقاتهم، وتفسيرهم: محمد بن الحسين ابن محمد بن موسى الأزدى، أبو عبد الرحمن، ونسبته إلى جدّه لأمه أبى عمرو إسماعيل بن نجيد السُلَمى، فقد كان أبوه رقيق الحال وأهله مُضيّقاً عليهم فى الرزق، بينما أهل أُمه من ذوى الثراء والسلطان، ولما مات أبوه وهو فى نحو الخامسة عشرة كفله جدّه، وورثه بعد وفاته، حيث لم يكن له ولد، وكانت ثروته كبيرة مّكنته من أن يعيش للعلم والتحصيل، وأن يشترى مكتبة ضخمة، جمع فيها ما لم يسبقه إليه أحد من طرائف كتُب الصوفية والمحدّثين، وكان شيوخ نيسابور، حيث وُلد وعاش، يستعيرون منه بعض ما تحويه من نفائس.

وكان أبوه رغم ضيق حاله صوفياً جليل القدر، صحب ابن منازل، وأبا علىّ الثقفى، ولما وُلد له أبو عبد الرحمن باع ما عنده وتصدّق به. وكانت ولادته سنة ٣٢٥ هـ على الأرجح، وفى أواخر أيامه ابتنى السُلَمى للصوفية خانقاه، اشتهرت فى نيسابور وما حولها، وفيها دفن بعد وفاته سنة ٤١٢ هـ. والسلمى تلقى على الكثيرين، أبرزهم السرّاج، والنصراباذى، وأبى عمرو بن نجيد. ومن أبرز تلاميذه: الحافظ الفقيه البيهقى؛ وأبو محمد الجُوَينى إمام عصره بنيسابور، ووالد أبى المعالى الجوينى؛ وأبو القاسم القشيرى صاحب «الرسالة»؛ وأبو سعيد بن أبى الخير الشاعر الفارسى؛ وغير هؤلاء بالعشرات، فقد رُزق من القبول عند الناس ما لم يُرزَق غيره من الشيوخ، حتى أقبل عليه المريدون يتأدّبون بأدبه، ويأخذون عنه.

وله من التصانيف مئة أو أكثر، منها: «الإخوة والأخوات من الصوفية»، و«أدب الصُّحبة»، و«آداب الصوفية»، و«جوامع آداب الصوفية»، و«تاريخ الصوفية»، و«رسالة فى غلطات الصوفية»، و«رسالة الملامتية»، و«سلوك العارفين»، و«محن الصوفية»، و«مقامات الأولياء»، و«مقدّمة فى التصوف»، و«مناهج العارفين»، و«حقائق التفسير»، يقول فى وصفه: لما رأيت المتوسمّين بعلوم الظاهر قد سبقوا فى أنواع فرائد القرآن، من قراءات وتفاسير، ومشكلات وأحكام، وإعراب ولغة، ومُجمل ومُفصّل، وناسخ ومنسوخ، ولم يشتغل أحد منهم بفهم الخطاب على لسان الحقيقة، إلا آيات متفرّقات، أحببت أن أجمع حروفاً استحسنها من ذلك، وأضم أقوال مشايخ أهل الحقيقة إلى ذلك، وأرتبه على السُّوَر على حسب وسعى وطاقتى». وانتقده الذهبى فى تذكرته، وقال: أتى السلمى فى حقائقه بمصائب وتأويلات للباطنية». ووصفه ابن تيمية بالكذب. وعدّ السيوطى تفسيره ضمن التفاسير المبتدعة، وقال عنه إنه غير محمود. غير أنه اشتهر من دون كل هذه المصنفات الصوفية بكتابه الأزهر «طبقات الصوفية»، وبه صار يقال عنه: نقّال الصوفية وراوى كلامهم. ويبدو أنه ألف كتابه «طبقات الصوفية» فى أواخر القرن الرابع الهجرى، والتزم فيه أن يصنّف الصوفية طبقات خمسًا، فى كل طبقة عشرون شيخًا، ولكنه مع ذلك كان يورد أكثر من شيخ تحت عنوان واحد، فقيل: إنّ عدد من ترجم لهم بلغ خمسمائة شيخ، وقد تَرْجَم فيه ضمنًا لثلاث ومائة شيخ! وكان للكتاب وما اتبّع فيه من منهج، أثره البالغ على المؤلّفين فى هذا الفن من بعده، مثل: أبى نعيم فى حلية الأولياء، والخطيب البغدادى فى تاريخ بغداد، والقُشَيْرى فى رسالته، وعبد الرحمن الجامى فى نفحات الأنس، والشعرانى فى طبقاته. ويذكر أبو عبد الرحمن فى هدفه وغايته من الكتاب: أنه لم يخلُ وقت من داعٍ إلى الله تعالى، والدعاة فى كل زمان طبقات، يخلف بعضهم بعضاً بالاتباع والاقتداء، والرسول قد نبّه إلى ذلك فقال: «خير الناس قرنى، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم» (الحديث)، وقال: «مثل أمتى مثل المطر، لا يُدرَى أوله خير أم آخره»، فعُلم أن آخر أمته لا يخلو من الأولياء والبدلاء، وهم خلفاء الأنبياء، وأرباب حقائق التوحيد، والمحدِّثون، وأصحاب الفراسات والآداب، وهو يقول: «لا يزال فى أمتى أربعون على خُلُق إبراهيم الخليل عليه السلام، إذا جاء الأمر قُبضوا». وكتاب

طبقات الصوفية يتناول أرباب الأحوال، والمتكلمين على لسان التفريد وحقائق التوحيد واستعمال طرق التجريد. وأبو عبد الرحمن فى ذلك يمثّل مدرسة فى التأليف الصوفى، هى مدرسة نيسابور، تدعو إلى متابعة الرسول ﷺ فيما بلّغ وشرّع، منها: أبو نصر السرّاج: صاحب اللُّمع؛ والقشيرى: صاحب الرسالة، وهؤلاء طريقتهم تعتمد على الإيراد والسرد، بعكس طريقة غيرهم - مدرسة بغداد مثلاً التى رأسها الجُنَيْد، وقوامها الرأى وأسانيده عند الآخرين، فما وافق الكتاب والسُنة قبلوه، وماخالفهما رفضوه. ولقد قيل إن السلمى لم يكن مع ذلك المؤرخ المدقق، واتهم بأنه كان يضع الأحاديث، ويؤلف العبارات وينسبها للصوفية بحسب مشاربهم ونزعاتهم؛ وقيل إن تفسيره للقرآن بغير إسناد من طرق العلم، حتى اتهمه بعضهم بالزندقة الباطنية والتخريف، والقرمطة، إلا أن السلمى لم يَعْدُ طريقته أو مدرسته فى التأليف، فاكتفى بإيراد تأويلات الصوفية على آيات القرآن وألفاظه. ويروى القشيرى أن أستاذه الدقّاق، طلب إليه أن يزور السلمى فى بيته، «فستجده بين كتبه، وعلى وجه الكتب مجلدة حمراء صغيرة فيها شعر الحسين بن منصور، يعنى الحلاج، فاحملها ولا تقل له شيئاً»، فصدع القشيرى للأمر، ووجد الحال كما وصف الدقّاق، وخاف أن يأخذ المجلدة دون إذنه، فقصّ عليه الحكاية. ويقول القشيرى: إن السلمى أخرج مجلدة أخرى من كلام الحلاج وقال: «احملها إليه وقل إنى أطالعها لأنقل منها لمصنفاتى»، فالدقّاق ينتقد طريقة السلمى، وكأنه بانتزاعه للمجلدة يحرمه أن «يسرق» منها، والسلمى لا يجد حرجاً فيما يفعل فهذه طريقته فى التأليف، ولا تثريب عليه، وقد كان مع ذلك محل ثناء من معاصريه، فأبو نعيم معاصره يقول فيه: «له العناية التامة بتوطئة مذهب المتصوفة، مفارقاً لما يُؤثَر عن المنحَرفين المتهوّسين من جُهّال هذه الطائفة، منكراً عليهم». ويقول فى خُلقه: «إنه ذو صيام وقيام، مقرئ الأئمة والأعلام على مدى السنين والأعوام، كان فى التعبُّد لبيباً، وفى التعليم أريباً».

ولم يكن السلمى أول من ألف فى طبقات الصوفية، فقد سبقه غيره، وأقدم الكتُب فيما نعلم «طبقات النسّاك» لأبى سعيد بن الأعرابى، المتوفى سنة ٣٤١هـ، واعتمد أبو نعيم فى الحلية عليه؛ و«أخبار الصوفية والزهّاد» لمحمد بن داود ابن سليمان، المشهور بأبى بكر الزاهد النيسابورى، المتوفى سنة ٣٤٢هـ؛ و«تاريخ

الصوفية» للنسوى الزاهد أبى العباس أحمد بن محمد بن زكريا، المتوفى سنة ٣٩٦هـ. وأما «حلية الأولياء» لأبى نعيم، و«تاريخ بغداد» للخطيب البغدادى، و«الرسالة» للقشيرى، فكان تأليفها بعد السلمى، وتُعتبَر تكملة له، وكذلك «نفحات الأنس» لجامى، و«لواقح الأنوار» للشعرانى.

وعندما أشرف السلمى على الموت، قال: إنى لأرجو ربّى وقد صُمت له ثمانين رمضاناً! - يعنى كان يصوم من سن السابعة. وقالوا فيه: أقرأ السلمى القرآن فى المسجد أربعين سنة. وكان يأتى بالطعام لنفسه إلى المسجد، فربما يستقبله الفقراء فى الطريق فيطعمه المساكين، فيقولون له: بارك الله فيك، فيقول: وبارك الله فيكم. - وأقول: إن مثل هذا لا يمكن أن يكذب؛ وقد استخار الله فى تأليف هذا الكتاب، وكل كتُبه فى التصوف، وبرىء فيها من حَوْله وقوّته، وسأل الله أن يعينه عليها ويوفقه لها، ويجعله من أهله - يعنى يجعله من أهل الله. وقد كان.

إلا أنه قيل فيه أنه كان يصنع الأحاديث للصوفية.

* * *

١٧٤ - سليمان حلمى تونا هان...

(١٨٨٨ - ١٩٥٩م) نقشبندى تركى، اندفع إلى السياسة بعد ثورة أتاتورك وعَلْمنة الدولة الإسلامية، وكان يعلّم الأولاد القرآن، ويعظ فى المساجد، فترك ذلك بعد الثورة التركية سنة ١٩٢٣، وكان يقول: كثرة النظر إلى الباطل تُذهب بمعرفة الحق من القلب. والتصوف وعىٌ بالأصول، ومداراة الجهول. وخرج سُلَيْمان إلى الشارع التركى يجمع المعارضين، ويتآمر ضد الحكومة، ويشارك فيما سُمى من بعد بـ«سيس الإسلام» فى تركيا، وسجنته الحكومة ثلاث مرات، فلجأ إلى العمل السرّى، ولكنه توفى فجأة، ربما سمُّوه، فأكمل عمله صهره كمال قاچار.

وتعاليم «تونا هان» تدور حول معانى دار الحرب، وأن تركيا صارت بعدائها للإسلام دار حرب، والجهاد ضد دار الحرب فريضة، والجهاد مطلوب فى السِّلم والحرب، وهو فى السلم: أمرٌ بالمعروف ونهىٌ عن المنكر؛ وفى الحرب: استنفارٌ وحملٌ للسلاح. وكمال أتاتورك فى مفهومه مستحَلّ الدم لأنه ارتدّ عن الإسلام، وخرج على الجماعة، وبغى فى الأرض واستكبر. وظلت تعاليم تونا هان تعمل عملها بعد وفاته، وما زال أتباعه يحملون صوره ويعلقونها فى سرادقات الاجتماعات العلنية، التى صاروا يدعُون

إليها ويعقدونها، بعد أن أباحت الحكومة قيام الأحزاب والجمعيات الإسلامية.

* * *

١٧٥ - السمرقندى (أبو الليث)...

إمام الهدى، أبو الليث نصر بن محمد بن أحمد بن إبراهيم السمرقندى، من الزُهّاد المتصوّفين، ومن أئمة الحنفية، له التصانيف النفيسة، منها: «تفسير القرآن»، و«عمدة العقائد»، و«تنبيه الغافلين»، و«المقدمة فى الفقة»، و«دقائق الأخبار فى بيان أهل الجنة والنار»، و«شرعة الإسلام»، و«رسالة فى أصول الدين»، وأهم مؤلفاته فى التصوّف هو كتاب: «بستان العارفين» ويطلق عليه اختصاراً اسم «البستان».

والسمرقندى توفى سنة ٣٧٣ هـ (٩٨٣م)، وفلسفته فى التصوف: أن الإيمان له علامات، فمن لم توجد فيه تلك العلامات ليس بمؤمن، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ (الأنفال٢)، إلى قوله: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ (الأنفال٤)، ولأن الله تعالى قال: ﴿قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾ (الحجرات١٤)، فنهاهم أن يسموا أنفسهم مؤمنين، وأمرهم أن يسموا أنفسهم مسلمين. ويذهب السمرقندى إلى القول: بأن الإيمان يزيد ولا ينقص، لقوله تعالى: ﴿لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ﴾ (الفتح٤)، وقوله: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ (التوبة : ١٢٤)، وروى عن النبىّ ﷺ أنه قال: «أشفع يوم القيامة فيخرج من النار من كان فى قلبه مثقال حبة من الإيمان، ثم أشفع فيخرج من النار من كان فى قلبه مثقال خردلة من الإيمان، ثم أشفع فيخرج من النار من كان فى قلبه مثقال ذرّة من الإيمان». وعن معاذ بن جبل قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الإسلام يزيد ولا ينقص»، وفى رواية أخرى «الإيمان يزيد ولا ينقص». والإيمان فى التعريف: هو معرفة الله بالقلب، والتصديق بالقلب، والإقرار باللسان، والعمل. والإيمان مخلوق وغير مخلوق، فأما أنه مخلوق، فلأنه فِعْل العبد، والإقرار والتصديق من أفعال العباد، لأن الإقرار فِعْل اللسان، والتصديق فعل القلب، والعبد مع جميع أفعاله مخلوق لله تعالى، وهو القائل: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ (الصافات٩٦). وأما أنه غير مخلوق، فلأن الإيمان شهادة أن «لا إله إلا الله»، وأن «لا إله إلا الله» من كلام الله، وكلام الله غير

مخلوق. ومن عرف ذلك وعمل به فهو من العارفين العاملين، المتعبّدين المتهجدين، الشاهدين المستشهدين، المعظّمين للأمانة، والمنظّمين للديانة.

وقال السمرقندي في العلم: إن طلبه فريضة، وعلينا بالعلم قبل أن يُقبض، وقبضه أن يذهب أصحابه، ولا ندري متى نفتقر إلى العلم، وينبغي أن نستزيد من العلم، وأن نشتغل بالعمل به، ولا خير في علم بلا عمل، ومن العمل أن نتعلم العلم فنعلّمه للناس، وخير الناس من ينفع الناس، وأفضل ما نتصدّق به أن نتعلم العلم ثم نعلّمه غيرنا. والعلم يقتضي الكتابة، ومن لم يكتب علمه فلا يُعَدّ علمه علماً. ولا يؤخذ العلم إلا من الأمين الثقة، والحديث في العلم ينبغي أن لا يطول فيملّ الناس، والإملال يُذهب ببركة العلم، وللقلوب نشاط وإقبال، وتولية وإدبار، والمتحدّث في العلم يواصل ما أقبل الناس عليه، وكل إنسان عنده العقل والفهم عليه أن يتعلم العلم ولا يقنع بالجهل، ولا خير فيمن لم يكن عالماً أو متعلماً. والصوفية أهل علم وتعلُّم، والتصوف تفقهٌ ويقظة، وتعبدٌ وإحسان، والصوفي في التعبدِّ لبيب، وفي التعليم أديب. وأساس علم التصوف النيّة، وتصحيح النية أن ينوي بتعلمه الخروج من الجهل، ثم منفعة الخلق، ثم إحياء العلم، لأن الناس لو تركوا التعلّم لذهب العلم، ثم أن ينوي الصوفي أن يعمل به لا بخلافه، ومن اللغو العمل لا بالعلم، فالعلم بلا عمل وبالٌ وضلال، والعلم خليل المريد، والعقل دليله، والحلم وزيره؛ والعلم قائدة، والصبر أمير جنوده، والرفق والده، والبرّ أخوه. وآداب النفس أكبر من آداب العلم.

وينبغي للمريد العاقل أن يتكلم بميزان، ولايتكلم بما لا يعنيه، ومَن اشتغل بما لا يعنيه فاته ما يعنيه. وأصلح المال ما كان من أجل الصالح، وأفضل الأغنياء والفقراء من كان له حرفة، والفقر من الدنيا مشقة، وفي الآخرة مسرة، والغنى في الدنيا مسرة، وفي الآخرة مشقة؛ والفقر أفضل من الغنى، ولاعيب في الغنى. والصوفية كانو دائماً أهل فقر، فلماذا لا يكونون أهل غنى؟ والأمر بالمعروف واجب، والكسب ضرورة، ومن يترك السوق تذهب مروءته وسوء خُلقه، والسوق عزّ لصاحبه، ويقال: تَرْكُ الكسب إما لتقوى أو لكسل أو لعار، فمن تركه تَقْوىً، ذلّ، ومن تركه كسلاً سأل، ومن تركه عاراً وحمية سَرَق. والعلم علمان: علم الأديان وعلم الأبدان، وعلى المرء أن يتعلم من

العلم ما يُصلح به دينه، وكذلك يتعلم من الحكمة ما يُصلح به بدنه، ويناى به عمّا يضرّه. والسمرقندى لذلك مع التصوف المستنير، الذى لا يصبح به الصوفى كَلاًّ على العباد، وإنما هو خيرٌ وبركة لهم، سواءٌ لدنياهم أو لآخرتهم.

١٧٦ - السملالى (أبو العباس)...

أبو العباس أحمد بن عبد الله بن يعقوب، السملالى، الجزولى، من أهل تزمورت بسوس المغرب، وله «مختصر كتاب التشوّف إلى رجال التصوّف»، و«أسماء بعض الصالحين»، و«الفوائد المحمدية لكل كُرْبة»، وتوفى سنة ١٠٩٣ هـ. والسملالى مقلّد، ولم يأت بجديد، وكتبُه تكرار لكتب السابقين، والصالحون الذين يوردهم من نوع أصحاب الكرامات وليسوا أصحاب فكر.

* * *

١٧٧ - السمنانى (ركن الدين)...

علاء الدولة ركن الدين أحمد بن محمد السمنانى (٦٥٩ - ٧٣٦ هـ)، مولده سمنان، ووفاته ببغداد، وكان ينكر على ابن عربى ويكفّره، وله مصنفات تزيد على الثلاثمئة من نوع الرسائل غالباً، ومن كتبه الباقية «الفلاح لأهل الصلاح»، و«العروة لأهل الخلوة»، و«صفوة العروة»، تناول فى الكتابين الأخيرين الآداب الشرعية، وصيانة خلوات المتصوفة عن الشطحات والترهات، و «تحفة السالكين». وكان نجم الدين دايةَ المتوفى سنة ٦٥٤هـ قد بدأ تفسير القرآن تفسيراً صوفياً تحت عنوان «التأويلات النجمية»، ولم يكمله فقام بذلك علاء الدين السمنانى.

* * *

١٧٨ - سمنون المحب...

سمنون بن حمزة، قيل أبو الحسن، وقيل أبو القاسم الخوّاص، فقد كان يشتغل بالخصوص، ويسكن بغداد، وتوفى سنة ٢٩٨ هـ تقريباً، وكان من أصحاب السَّرِىّ السقطى، والقصّاب، والقلانسى؛ وأصل تسميته بالمُحبّ: أنه كان يتكلم فى المحبة، ووصفوا كلامه فيها بأنه «أحسن كلام»؛ وأقواله أغلبها لا يدور إلا على الصدّ، والهوى، والجفا، والصبر، والرجا، والوجد، والعتاب، والشوق، والوصال، والبَيْن، والبكاء، والعذاب، والغياب، والصبابة، والحنان، والدموع؛ ولا يخاطب الناس إلا ويقول «يا حبيبى»، وما وصلنا من كلامه أغلبه شعر، وهو الأنسب للمحبة، وشعره رقيق للغاية، ويبرر سمنون رقّته فيقول: لا يعبِّر عن الشئ إلا بما هو أرق منه، ولا شئ أرق من المحبة. ومن أرقّ شعره :

أمسى بخدّى للدموع رسوم
أسفاً عليكِ وفى الفؤاد كلام
والصبر يحسُن فى المصائب كلّها
إلا عليكِ فإنه مذموم

ومنه:

أحنُّ بأطراف النهار صبابةً
وفى الليل يدعونى الهوى فأجيب
وأيامُنا تفنَى وشوقى زائدٌ
كأن زمانَ الشوق ليس يغيب

ومنه:

بُليتُ ودمع العين للنفس راحة
ولكن دمع الشوق يَنكَى به القلب
وذكرى لِما ألقاه ليس بنافعى
ولكنه شئ يهيج به الكرب
فلو قيل لى ما أنت قلت معذبٌ
بنار مواجيد يضرمها العَتَب

ومن الطريف أن سمنون أطلق على نفسه اسم الكذّاب، وكان سبب ذلك أبياتاً قال فيها يخاطب ربّه:

فليس لى فى سواكَ حظٌّ
فكيفَ ما شئتَ فامتحنى

فحُصر بوله - وذاك هو الامتحان، فكان يشكو ويتلوى من الألم مثل الحيّة، ويصرخ ويدور على الناس يسألهم أن يَدْعُوا لعمّهم الكذّاب، فلما أُطلق بوله قال: «يارب تبت إليك»، أى تبت عن طلب الامتحان.

وحكى علىّ بن الحسين أنه رأى سمنوناً يوماً على شاطئ الدجلة وبيده قضيب يضرب به ساقه وفخذه حتى تبدد لحمه وتناثر، وهو يقول:

كان لى قلبٌ أعيش به
ضاع منى فى تقلُّبه
ربٌ فاردُده عليه فقد
عيل صبرى فى تطلُّبه
وأغثْ ما دام لى رمق
يا غيّاث المستغيث به

وسُئل عن التصوّف، فقال: هو أن لا تملك شيئاً ولا يملكك شيء! يعنى هو الحرية الكاملة من الماديات ومن كل العلائق الدنيوية.

* * *

١٧٩ - سنائى الغزنوى...

أبو المجد مجدود بن آدم، أول الشعراء الصوفية الثلاثة الكبار الذين نظموا المثنويات، وهم على الترتيب: سنائى، ثم فريد الدين العطار، ثم جلال الدين الرومى؛ والرومى أعظم الثلاثة ولو أنه

يذكر فى تواضع يليق به: أن العطار هو الروح، وسنائى هو بمثابة العينين لهذه الروح، ثم يأتى دورى بعد سنائى والعطار!

ولانكاد نعرف شيئاً عن سنائى، سوى أنه فى بداية حياته كشاعر التحق بخدمة السلطان بهرامشاه، وكان مدّاحاً للغزنويين، ومن ثم لقبه الغَزْنَوِى؛ لأنه وُلد وعاش بغزْنَة، ولأنه قصر نفسه فى بداية حياته على مدح سلاطين غَزْنة، وأحياناً يقال له البَلْخى، لأنه قضى صدر شبابه فى بَلْخ، وهُراة، وسَرْخَس، ونيسابور، وأكثر شىء فى بلخ. وكان سقيماً فى شبابه وتعرّض لتجربة زواج فاشلة، وقام برحلات كثيرة تعرّض فى إحداها لانقلاب روحى. ويورد عبد الرحمن جامى فى "نفحات الأنس": أن سنائى، وكان يجلس فى إحدى الحانات، إذا بمجذوب يحضر ويسخر منه، لأنه كان ينشد الشعر فى مدح الملوك، ولا ينشده فى مدح ملك الملوك، فاغتم سنائى وتاب وأناب، وصار صوفياً لا يقول الشعر إلا فى الأحوال والمقامات. وقيل فى رواية أخرى: أن سنائى كان مُدَلّهاً بِحُبّ صبى!! وأن هذا الحب أذلّه وامتُهن فيه، فتحوّل من الحبّ الحسّى إلى الحبّ الإلهى وتصوّف! وفى رواية ثالثة: أن سنائى، وكان يمتدح الملوك من أجل المال ـ لم يحصل شيئاً وخسر نفسه، فانصرف عن هذا الطريق وتزهّد.

ويبدو أن سنائى ترجيحاً كان من مواليد ٤٦٥ هـ، وأنه لم ينظم «حديقة الحقيقة» التى عُرف بها، إلا فى أواخر حياته، ولم يكد يُتمها حتى وافته منيته سنة ٥٢٦هـ. ولم يخلف سنائى فيما نعلم إلا سبع مثنويات والديوان، واشتهرت منها «حديقة الحقيقة»، والست الباقيات هى: «طريق التحقيق»؛ و«غريب نامه»؛ و«سَيْر العباد إلى المعاد»؛ و«كار نامه» أو «كتاب الأعمال»؛ و«عشق نامه» أو «كتاب العشق»؛ و«عقل نامه» أو «كتاب العقل».

والحديقة التى يشتهر بها أهداها إلى بهرام شاه سلطان غزنة، ومضمونها صوفى أخلاقى، أى أن اهتمامه بالسلوك الصوفى أكثر من اهتمامه بالتصوّف النظرى، ويبلغ عدد أبياتها أحد عشر ألف بيت، ويقسمها إلى عشرة كتب أو فصول: الأول فى الثناء على الله؛ والثانى فى الثناء على النبىّ؛ والثالث فى مدح العقل؛ والرابع فى التنويه بعظمة المعرفة؛ والخامس فى ذم الإهمال؛ والسادس فى السماء وعلامات البروج؛ والسابع فى الفلسفة؛ والثامن فى المحبة؛ والتاسع يصف فيه ظروفه ويذكر

عن أحواله؛ والعاشر يخصصه لمديح بهرام شاه.

وفى هذه الأمثولة التى يطرحها فى ثنايا حكايات الحديقة قد نستطيع أن نتبين نوع الحكمة التى خلص إليها سنائى، ويعطيها عنوان «عن صحبة العميان وصفات الفيل»، يقول: «كانت مدينة شامخة ليست بالبعيدة، وسكانها جميعهم من العميان، وفى يوم من الأيام مرّ أحد السلاطين ونصب خيامه فى الوادى، وكان من مقتنياته فيل عظيم الجثة، مخيف الهيئة، يحتفظ به من باب الأبهة، وأن يستحدث الاحترام فى نفوس مشاهديه، وسمع سكان المدينة العميان بأمر الفيل، ولم يكونوا قد سمعوا بحيوان مثله، فأرسلوا وفداً عنهم يتعرّفه، ويتحرّى أمره، واقترب العميان من الفيل يتحسسونه، فمن أمسك بخرطومه وصفه لسكان المدينة العميان، بأن الفيل كالمخروط البشع، ومن أمسك بأذن الفيل قال إنه عريض وواسع كالسجادة، وهكذا، أى أن كل واحد حكى عن الجزئية التى تحسّسها، وكانوا جميعاً على خطأ، فلم يحدث أن عرفوا الفيل على حقيقته، وكذلك الناس فإنهم عميان يلجأون إلى عميان، عندما يحاولون أن يتحصّلوا على المعرفة بالله من خلال آخرين مثلهم.

ومن أشعاره :

مادمت مع الفتى فأنا ضال كل الضلال أعيش فى عدم
وعندما أكون مع الله أصبح كل العالم
ولقد ضحّيت بنفسى واخترتك كى لا أكون لى عدم
ولكى أتحرر من هذه المسامير فى أطرافى
الأربعة تقيّدنى داخل حجرة ضيقة
وكى أتخلص من ذبول روحى وأنا أعيش الزمان
جسمى يسقمنى فماذا أفعل به وأنا لست من الأرض؟
وروحى ترهقنى، فماذا أعمل بها وأنا لست من السماء؟
إنك الشمس وأنا الظل، ولا طريق أمامى إلا هذا
الطريق الواحد كى لا أبقى
فارفع عنى الحجاب كى أرى الجمال فلا أعرف
فانهمكْ أنت فى شغلك إلى أن نأتى جميعاً بأنفسنا

ويقول :

إلى كم تحتمل عيوب هذا العقل المثير للترهات؟
وحتّام تحتمل هذا الفُلك الدوّار المتلوّن الطباع؟
إن العلماء جميعاً ينكلمون هراء
والدين ليس على ما يهوى كل شخص

ويقول:

كل ما يؤخرك فى الطريق شؤم، سواء كان كفراً أو إيماناً
وكل ما يبعدك عن الطريق مذموم، سواء كان قبيحاً أو حسناً

ويقول:

لا تسكن الجسم ولا الروح، فهذا سافل وذاك سام
وضع القدم بعيداً عنهما ولا تكن هنا ولا هناك
وتنكب كل ما يضلك عن الطريق سواء كان كفراً أو إيماناً
وكل ما يبعدك عن الصديق مهما كان
فآية السالك أن تجده بارداً في الجحيم
وآية العشق أن تراه جافاً في البحر
ولم يكن خلو الجنة من آدم دليلاً على مذلته
ولم يكن عن عجزٍ أن تظل حبيبةٌ عذراء مع حبيبها
وكل ما نقوله عن الدين عبرانياً كان أو سريانياً سواء
وقول شهادة لا إله إلا الله هو أن تنجرع
أول مرة كل بحر الوجود كالنمساح
ولن تصادف القذى في الطريق إذا وقفت في حرف الشهادة

ويقول:

وإذا ألقت بك «لا» عن حدّ الإنسانية فلتنظر بنور الله في «إلا»
وطريق الدين يبلّغك المأمول إذا وصلت إلى المعنى
فلماذا تبقى في الدنيا مذلولاً من أجل أن تموت ميتة الغربان في النهابة
حطّم القفص وطِرْ محلقاً في العلياء
ولسوف تزيح عروس الحضرة القرآنية النقاب عن وجهها
إذا رأت دار مَلِك الإيمان وليس فيها غوغاء
وليس غريباً أن يكون كل ما حصّلته من القرآن لا يغدو نقشاً
فعين الأعمى لا يلحقها من الشمس إلا الدفء
فمُتْ أيها الصديق قبل الموت إن أردت الحياة
فإن إدريس صار من أهل الجنة بهذه المنية قبلنا
كن قتيلاً بسيف العشق حتى تنال الخلود
وإذا كنت تريد الدين فانقطع عن أمر الدنيا
ومادمت عالماً فكن خادماً، وزين الروح بعلم الدين
وإذا أردت النزهة فاخرج إلى صحراء القناعة
وإذا حفّت المتاعب فاقطع صلة الصحبة مع اللئام

وهذه الأبيات أو العبارات تدلّ على إيمان قوى بالله، وانصراف كامل عن الدنيا والحياة. والوجود عند سنائى أن يكون مع الله، والعدم أن يختار أى شيء عليه.

* * *

١٨٠ - السنوسى (الصوفى المجاهد)...

أبو عبد الله محمد بن علىّ (١٢٠٢ - ١٢٧٦ هـ)، السُّنوسى، الخطّابى، الإدريسى، مؤسس الطريقة السنوسية، وتصوفه من التصوف السياسى، وكانت ولادته فى محلة الواسطة من بلدة مستغانم على الساحل الجزائرى حيث كانت أسرته. واسم السنوسى: نسبةً إلى قبيلة بنى سنوس من قبائل تلمسان التى نزل عليها جدّه فنُسب إليها، وتُعزَى إلى

جبل هناك يسمى أسنوس. ولقبه الخطّابى من جدّه خطّاب بن يحيى، وكانت الأسرة تعرف باسم آل خطّاب. ولقبه الإدريسى: من الأدارسة الذين ينتسب إليهم، والذين أسس جدّهم إدريس الأكبر دولة فى المغرب الأقصى. وقد ربّته عمته فاطمة بعد وفاة أبيه، فأشغلته بعلم العقائد والتوحيد، وكفله بعدها ابن عم له يدعى الشارف، درس عليه الفقه والحديث والتصوف، ولما مات سافر السنوسى إلى فاس طلباً للعلم، وكانت مجمعاً للفرق الصوفية، فتعرّف فيها على الطُرق: القادرية، والشاذلية، والجازولية، والتجانية، والدرقاوية، والناصرية، والحبيبية، وغيرها، ورحل إلى القاهرة فترة، ثم غادرها إلى مكة لنقص الدراسات الصوفية بالأزهر؛ وفى مكة التقى بأستاذه أحمد بن إدريس الملقّب بأبى العباس العرائشى، وأخذ عنه التصوّف، فلمّا توفى سنة ١٢٥٣ هـ بنى لنفسه زاوية على جبل أبى قبيس بمكة، وبدأ يلقى دروسه وينشر دعوته، فالتف حوله المريدون والأتباع، وانتهز مواسم الحج فالتقى بالوافدين من أقطار العالم الإسلامى، واستجاب له عدد من أهل طرابلس الغرب. وكانت له طريقة فريدة، وهو أنه كان يأخذ أتباعه بالعبادة والنسك الشديدين، حتى يكاد الواحد منهم أن يشرف على الهلاك، فتصفو نفوسهم وعقولهم من سابق الأهواء والعلوم، وعندئذ يطلب إليهم أن ينتشروا إلى بلادهم، ينشئون الزوايا، وينشرون الإسلام، ويقيمون المجتمع الإسلامى.

وكانت الطريقة السنوسية فى التصوف سبباً فى أعمال المقاومة ضد الاحتلال الفرنسى فى الجزائر، والثورات المختلفة التى قامت ضد فرنسا، كثورة محمد بن عبد الله فى تلمسان وصحراء الجزائر سنة ١٨٤٨، وعصيان محمد بن تكوك فى الظهرا سنة ١٨٥١ .

ولما عاد السنوسى إلى المغرب اختار بَرْقة مركزاً لطريقته، لتوسطها فى الموقع، ولكونها مخرجًا لإفريقيا الوسطى، وأمر أتباعه ببناء الزاوية البيضاء، لأنها كانت بيضاء اللون فعلاً، وكان يختار لإقامة زواياه المواقع الاستراتيجية، لتوقعه مباغتة قوات الاستعمار لأتباعه. وقد أقام بالعزيات بالجبل الأخضر، ثم انتقل إلى واحة جغبوب إمعاناً فى الابتعاد عن عيون قوات الاحتلال الإيطالية فى ليبيا، وبالنظر إلى ارتياب الحكومة العثمانية فى نواياه. وظل بجغبوب حتى وفاته، وتحولت بعد انتقاله إليها إلى مركز تعليمى ،بسبب

مسجدها ومدرستها ومكتبتها التى أسسها السنوسى، وأصبحت مركزاً لتعليم مريدى الطريقة وتخريج الدعاة.

وللسنوسى ما يزيد على الأربعة والأربعين كتاباً ورسالة فى الفقه والتصوف، منها «المنهل الراوى الرائق فى أسانيد العلوم وأصول الطرائق» عن العلماء الذين تلقى عليهم، والطرق التى تعرّف عليها؛ و«السلسبيل المعين فى الطرائق الأربعين»، وقد انتخب فيه، من كل الطرق التى عرضها، أربعين طريقة وصفها بأنها سوية، أفردها برسالته، وذكر كيفيتها، وما يتعلق بها من تلقين الذكر وأخذ العهد ولبس الخرقة، ويقول إن الطرق إلى الله كثيرة بعدد أنفاس الخلائق، ولكنها فى الحقيقة واحدة، وقد بيّن السنوسى أن رسالته هذه هى ملخص رسالة لشيخ مشايخه حسن العجيمى، وجاء فى ختام الرسالة قصيدة له تجمع بين طرق الأقطاب فى طريقة واحدة هى طريقته. ويُكثر السنوسى من القصص الرمزية وضرب الأمثال، لتفهيم مريديه وتقريب المعنى الذى يقصد إليه. وبعد وفاته خلفه على الطريقة ابنه محمد المهدى (١٢٦٠ - ١٣٢٠ هـ)، وكانت له قوة قيادية وتنظيمية، وقد زادت الزوايا فى خلافته زيادة كبيرة يقدرها البعض بأكثر من أربعة أضعاف عددها فى عهد أبيه، وانتشرت فى الصحراء الليبية، وعلى طريق مصر وطريق تونس، وفى وداى وغيرها، وروّج أتباعه لمهدويته، وتردد هذا القول فى شعرهم وكتاباتهم، كهذين البيتين:

إمام جليل بشّرتنا به العلا
على أنه المهدى قد كان فى المهد

إمام إلى بيت النبوة ينتمى
ولا شك عند اثنين فى أنه المهدى

وساعد على ذلك أن اسمه محمد المهدى، وأن أباه اسمه محمد، وأمّه فاطمة، وأنه يبلغ الأربعين سنة ١٣٠٠ هـ، وله شامة على خدّه.

ولما خشى المهدى الغزو الأوروبى انتقل من جغبوب بعد حوالى ٣٦ سنة إلى واحة الكفرة، ثم إلى قرو فى الصحراء الإفريقية. وتعاليمة تقوم على مزج العبادة بالعمل، فلا تصوف بدون عمل، وكان يحثّ المريدين على تعلّم: ركوب الخيل، والرماية، والطراد، والجلاد، ويعظّم فريضة الجهاد، ويخصص لهم لكل خميس للعمل اليدوى، فيتركون الدروس، ويشتغلون بالحرف - من: بناء، ونجارة، وحدادة، ونساجة، وخاصةً الزراعة والغرس، وكان

المهدى نفسه يعمل بيديه، ويقول لهم: «كفيكم من الدين حُسن النية والقيام بالفرائض الشرعية»، وينخرط معهم فى العمل ويقول: «ظن أهل الورقات والسبحات أنهم يسبقوننا عند الله، لا والله ما يسبقوننا».

ونلاحظ أن السنوسية تعتمد فى كل نشاطاتها على الزاوية، وقد اقتبس السنوسى نظام الزاوية السنوسية من الزاوية الصوفية، ورتب لها خليفة يقوم فيها بتعليم القرآن وتدريس العلوم. وللزاوية بيوت للضيافة، ومساكن للخدم، ومخازن لحفظ المؤن، ومتجر، وفرن، وحجرة خاصة بالفقراء الذين لا مأوى لهم، وتقوم حولها المبانى الأخرى التى ينشئها القادرون، ولها أراضٍ موقوفة عليها لا تباع ولا تشترى، ومن وظائفها إحياء الأراضى البور وإصلاح الخربة.

وكانت غاية السنوسى توحيد الطرق الصوفية تمهيداً لتوحيد المسلمين. ويقول أحمد الشريف السنوسى، فى كتابه «الأنوار القدسية فى معالم الطريقة السنوسية»، أنه سأل عمّه المهدى عن الطريقة السنوسية لمن تُنسَب، فذكر له أنها تسمى السنوسية الإدريسية القادرية الناصرية الشاذلية، وكلها مرجعها محمدية، أى أنها تتابع السُّنّة فى القليل والكثير. ويبدو من أوراد الطريقة أنها إحدى فروع الشاذلية، ومبناها كما يقول أحمد الشريف: متابعة السُنة فى الأقوال والأفعال والأحوال، والاشتغال بالصلاة على النبىّ فى عموم الأوقات. ولعله لأنها التزمت السنة فإن الوهابيين لم ينتقدوها كتقدهم للطرق الصوفية الأخرى. وكان السنوسى يقول إن أعمال الصوفية موزونة بميزان الشريعة. وتجمع السنوسية بين الطريقتين البُرهانية والإشراقية، كأسلوب للوصول إلى الكمال، ويقول أحمد الشريف: إن الإشراقية دأبُ متصوّفيها تصفية النفوس من الأكدار، وتوجيهها نحو الحقّ لنهج المعارف والأسرار، بدون تعلّم ولا تعليم، من باب اتّقوا الله ويعلّمكم الله، وأما البرهانية فدأبُ متصوّفيها اتّباع الأوامر واجتناب النواهى، واقتباس العلوم الأربعة التى هى علوم الذات والصفات والفقه والحديث، والطريقة السنوسية جامعة بينهما، فمن أراد الإشراقية سلك بها سبيلها، ومن أراد البرهانية سلك بها سبيلها. وسبيل البرهانية هو تعمير الظواهر بالآداب على متابعة أقوال النبىّ ﷺ، وتعمير البواطن بمراقبة الله فى جميع الحركات والسكنات على السنن

النبوية والنهج المصطفوى. وكان السنوسى يأمر المريدين بقراءة صحيح البخارى، والموطأ، وبلوغ المرام فى الحديث، ورسالة ابن أبى زيد القيروانى فى الفقه، والرسائل السبع فى التصوف. وتقوم السنوسية على الصلة بين السالك والرسول ﷺ، وإمكان تحقيق الاتحاد به. وأتباع السنوسية كانوا يقولون إن محمداً المهدى يتلقى عن النبىّ ﷺ، وكان هو نفسه يقول إنه مأمور من النبىّ ﷺ! - ومن تقاليد السنوسية مناولة السبحة، والحزب، ولبس الجرّد - وهو الحرام الصوفى الليبى. ويتحدث المؤرخون للتصوّف السنوسى عن ثلاثة أمور أخرى، هى: الإمامة، والهجرة، والجهاد: فطاعة الإمام واجبة، والهجرة طلباً للتمكين، والجهاد لإعلاء كلمة الحق والدين. ولابن الشريف كتاب فى الحثّ على الجهاد بعنوان: «بُغية المساعد فى أحكام المجاهد». ويلخص بعضهم الطريقة السنوسية بأنها عبارة عن: جمعية مذهبية، وطريقة صوفية وسياسية واجتماعية. وكان تركيز ابن الشريف الذى خلف المهدى على الطريقة، على الجهاد، بسبب حروبه مع الفرنسيين والإنجليز، وفى عهده توقف نمو الزوايا للانصراف إلى الجهاد، ولولا ذلك لتابع انتشار السنوسية فى داخل إفريقيا كما كان مقدراً لها.

وفى عهد محمد بن محمد بن علىّ السنوسى (١٣٦٠هـ/ ١٨٤٤م - ١٣٢٠هـ/ ١٩٠٢م) زعيم السنوسية الثانى، عادت الطريقة إلى القوة، والتصوّف ليس دروشة وإنما هو جهاد، وانتشرت زوايا الطريقة من المغرب حتى الهند، ومن ودّاى حتى الآستانة، وأكثرها فى الصحراء الكبرى وشمال إفريقية، وكان فى كل زاوية خليفة يدير شئونها ويعلّم أولاد الناس، ويحببهم فى الزراعة واقتناء الماشية، وأن تكون لهم صنائع وحرف، وساعد مريديه بذلك على العيش الكريم الواجب للمسلم الحق، وحاربه السلطان التركى عبد الحميد، فرحل محمد إلى واحة الكفرة ثم إلى ودّاى وتوفى بها.

* * *

١٨١ - السهرندى (المجددى)...

أحمد الفاروقى، الحنفى، السهرندى (٩٧١ - ١٠٣٤ هـ)، ولد فى بلدة سهرند من أعمال لاهور، واشتغل بالطرق الثلاث: القادرية والسهروردية والجشتية، على والده الذى أذن له بالإرشاد والاستخلاف فى الطرق السابقة، وكان سنّه وقتئذ سبع عشرة سنة، إلى أن اجتمع بمحمد الباقى فأخذ عنه الطريقة النقشبندية، ويسمى المجدّدى، بدعوى أنه

يجئ على رأس الألف سنة ليجدّد الدين، وكان يُكثر من حديث رسول الله ﷺ عن داود قوله: «إن الله يبعث على رأس كل مائة سنة من يجدد لهذه الأمة أمر دينها». وكان يعلّق على ذلك فيقول: إن هذا ما يكون من أمر المائة سنة، فكيف بالألف، فأنا كمجدّد على رأس الألف بيني وبين المجدد على رأس المائة ما بين المائة والألف من تفاوت. ويصف رحلته الروحية الإيمانية فيقول: وجدتُ الله سبحانه أولاً عين الأشياء، كما قال أرباب التوحيد الوجودى من متأخرى الصوفية، ثم وجدت الله فى الأشياء من غير حلول وسريان، ثم وجدته سبحانه معها بمعية ذاتية، ثم رأيته بعدها ثم قبلها، ثم رأيته سبحانه وما رأيت شيئاً، وهو معنى التوحيد الشهودى، المعبَّر عنه بالفناء - وهو أول قدم توضع إلى الولاية، ثم ترقّيتُ إلى البقاء - وهو ثانى قدم فى الولاية؛ فرأيت الأشياء ثانياً، فوجدت الله عينها، بل عين نفسى، ثم وجدته تعالى فى الأشياء، بل فى نفسى، ثم مع الأشياء، بل مع نفسى، ثم قبل الأشياء، بل قبل نفسى، ثم بعد الأشياء، بل بعد نفسى، ثم رأيت الأشياء، وما رأيت الله تعالى أصلاً، وهى النهاية التى هى الرجوع إلى البداية والعود إلى مرتبة العوام، وهذا المقام هو أتم مقامات الخلق إلى الحق. وكان يقول: العلوم والمعارف الصادرة عنه إنما تخرج عن طور الولاية، وتقتبس من مشكاة النبوة، وجُددت بتجديد الألف الثانى بطريقة التبعية والوراثة، وهى وراء علوم العلماء ومعارف الأولياء، وعلوم هؤلاء بالنسبة لها قشر، وتلك العلوم هى لبابها، ولا تخالف الشريعة. ويقول: المقصود من الطريقة ازدياد علوم الشريعة لتتخلص من البرهان إلى الكشف. ويقول فى الصوفية: علومهم هى علوم الشريعة، والفرق بينهم وبين العلماء أن تلك العلوم بالنسبة إلى العلماء نظرية واستدلالية، وبالنسبة إليهم كشفية وضرورية. ويقول فى الشريعة: هى متكفلة بكل السعادات الدنيوية والأخروية، وأما الطريقة والحقيقة فهما خادمان للشريعة، وتحصيلهما لتكميل الشريعة، وأما الأحوال والمواجيد التى تظهر للصوفية فى أثناء الطريق فليست من المقاصد، بل أوهام وخيالات لتربية أطفال الطريقة. وقال فى القلب: المدار على القلب، ولا نتيجة للأعمال الصورية وسلامة القلب بعدم التفاته إلى ما سوى الله؛ وعلاج القلب بمتابعة المصطفى عليه الصلاة والسلام. والتوحيد قسمان: توحيد شهودى، وتوحيد وجودى،

والأول لابد منه ويتعلق به الفناء، ولا يخالف العقل ولا الشرع، بخلاف الوجودى، فإنه يخالفهما. وأقوال المشايخ لابد أن تُحمل على التوحيد الشهودى حتى لا تخالف العقل والشرع، فالتوحيد الوجودى من مرتبة علم اليقين، والشهودى فى مرتبة عين اليقين التى هى مقام الحيرة، كقول الحلاج «أنا الحق»، وقول أبى يزيد البسطامى «سبحانى»، فإنها جميعاً فى مقام عين اليقين، الذى هو مقام الحيرة، قبل الوصول إلى حق اليقين.

والوصول له طريقان: الجذبة والسلوك، أو التزكية والتصفية. والجذبة التى قبل السلوك ليست من المقاصد، والتصفية التى قبل التزكية ليست من المطالب. والجذبة التى تكون بعد تمام السلوك، والتصفية التى تكون بعد حصول التزكية، من المقاصد المطلوبة، فالجذبة والتصفية السابقة لأجل تسهيل السلوك على السالك، وبدون السلوك لا ينال المطلوب، وبلا قطع المنازل لا يظهر جمال المحبوب.

وللسهرندى مجموعة رسائل منها: «المبدأ والمعاد»؛ و«الرسالة التهليلية»؛ و«المعارف اللدنية»؛ و«المكاشفات الغيبية»؛ و«أدب المريدين»؛ و«شرح رباعيات خواجه باقى الله»، وغيرها، إلا أن أشهر هذه الكتابات فى التصوّف هى «المكتوبات» التى وجهها إلى مريديه يشرح فيها العقيدة والطريقة على المذهب السنّى، وتعتبر من أكبر الإسهامات فى نشر التصوف السنى فى الهند وأفغانستان وآسيا الوسطى وفارس وتركيا، وأتباعه يقال لهم المجتهدون، وكتاباته يحاول فيها التوفيق بين الموحدّين والقائلين بوحدة الوجود، ومذهبه الجديد فى وحدة الشهود هو إسهامه الذى استحدثه.

* * *

١٨٢ - السهروردى (صاحب العوارف)...

أبو حفص شهاب الدين عمر بن محمد بن عبد الله بن عَمَوَيْه (٥٣٩ - ٦٣٢هـ)، صاحب المتن الأشهر «عوارف المعارف»، ونسبه إلى سَهْرَوَرْد من بلاد زنجان، وقدم بغداد صغيراً، وصحب عمه الصوفى الكبير أبا النجيب عبد القاهر السُّهْرورْدى، وتتلمذ عليه فى التصوف، ثم انقطع مشتغلاً بالعبادة، ووعظ عند كبر سنه فى مدرسة عمّه على شاطئ دجلة، وكان يحضر مجلسه خلق كثير، واشتهر، وتاب على يده جمع غفير، وصار له أتباع، وأملى فى الردّ على الفلاسفة «رشف النصائح الإيمانية وكشف الفضائح اليونانية». وكان مليح الخُلق والخَلق،

متواضعاً جامعاً للمكارم، وما للمال عنده قدر، ولو حصل منه الألوف فرّقها، ولمّا طعن فى السن أُقعد، فكان يُحمل على محفة إلى المسجد، ومات ولم يخلف كفناً ولا شيئاً من أسباب الدنيا. ويقول فى أسباب تأليفه لكتابه «العوارف»: أنه كان يؤثر الصوفية ويحبهم، لعلمه بشرف أحوالهم وصحة طريقتهم المبنية على الكتاب والسُنة، وقد أغضبه كثرة المتشبّهين بهم والمتستّرين بزيّهم، حتى ساء ظن الناس بهم جميعاً، ووقعوا فيهم، ظناً أن حاصل التصوف يرجع إلى مجرد الرسم، وأن تخصص الصوفية يعود إلى مجرد الاسم. ـ ويقول: إن الله قد فتح عليه بمنّح وعوارف، وأجلّ المنح «عوارف المعارف». والكتاب يشتمل على نيف وستين باباً فى منشأ علوم الصوفية وفضيلة هذه العلوم، وماهية التصوف وسبب الاسم، وأحوال المتصوّفة المتشبّهة، والمتمنين للصوفية وليسوا منهم، والملامتية، وأخلاق الصوفية وآدابهم فى الرِبْط وغيرها، وفى الصيام والطعام واللباس والسفر، ومع الشيوخ والصُحبة والتلاميذ، وشروح الأحوال والمقامات، وبعض المصطلحات إلخ. والصوفى الذى يعنيه السهروردى فى كتابه هذا المرجع هو كما يقول: «المُقَرَّب»، فليس فى القرآن اسم الصوفى، وإنما وُضع الاسم للمُقرّب، فكم فى بلاد الإسلام من لا يسمون صوفية لأنهم لا يتزيّون بزىّ الصوفية، إلا أنهم فى الحقيقة كذلك، ولا مشاحة فى الألفاظ، فكل الصوفية الوارد ذكرهم فى كتب الطبقات كانوا فى طريق المقرّبين، وعلومهم علوم أحوال المقرّبين، ومن يتطلع إلى مقام المقرّبين من جملة الأبرار فهو المتصوّف ما لم يتحقق بحالهم، فإذا تحقق بحالهم صار صوفياً، ومَن عداهما ممن تميز بزى ونُسب إليهم فهو متشبّه.

وعلوم الصوفية منها: علم الحال؛ وعلم القيام؛ وعلم الخواطر؛ وعلم اليقين؛ وعلم الإخلاص، وعلم النفس ومعرفتها ومعرفة أخلاقها، وهو من أعز علوم الصوفية، وأقوَم الناس بطريق المقربين والصوفية أقومهم بمعرفة النفس؛ وعلم معرفة أقسام الدنيا ودقائق الهوى وخفايا الشهوات؛ وعلم الضرورة ومطالبة النفس بالوقوف عليها، قولاً وفعلاً، وأكلاً ولبساً ونوماً، ومعرفة حقائق التوبة؛ وعلم خفىّ الذنوب؛ وعلم المراقبة والمحاسبة والرعاية، وحقائق التوكل، والرضا، والزهد، ومعرفة الزهد فى الزهد، ثم زهد ثالث بعد الزهد فى الزهد؛ وعلم الإنابة والالتجاء والدعاء

والمحبة؛ وعلم المشاهدات كعلم الهيبة والأنس والقبض والبسط؛ وعلم الفناء والبقاء والجمع والفرق، واللوامع والطوالع، والصحو والسكر، إلى غير ذلك. ويجمع الصوفية فى كل علومهم شيئان، هما الوصف الذى إليه الإشارة فى قوله تعالى: ﴿ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴾ (الشورى ١٣)، فقومٌ منهم خُصّوا بالاجتباء الصرف، وقومٌ خُصّوا بالهداية بشرط مقدمة الإنابة. وأهل الخاصة أو الصوفية: هم الذين اجتباهم مولاهم وأكمل لهم النعمة، فأسقط عنهم حركات الطلب، فصارت حركاتهم فى العمل والخدمة والذكر، والتنعُّم بمناجاته والانفراد بقُربه. والمراد محمولٌ على حاله، مُعانٌ على حركاته وسعيه فى الخدمة، مكفىٌّ مصونٌ عن الشواهد والنواظر. والمريد: هو الذى مات قلبه عن كل شئ دون الله تعالى، فيريد الله وحده، ويريد قُربه، ويشتاق إليه. والصوفية هم الفقراء المؤثرون على الغنى تطلعاً إلى العوض عند الله؛ وهم الشكفتية: أى الذين يأوون إلى الكهوف والمغارات، يتعبّدون كما كان النبىّ ﷺ يتعبّد فى غار حراء؛ وهم الجوعية: لأنهم صائمون وصابرون على الجوع. والمتشبِّه: هو الذى اختار التشبُّه بهم دون غيرهم لمحبته إياهم، وهو صاحب إيمان؛ وأمّا المتصوِّف فهو صاحب علم. والملامتى: هو الذى لا يظهر خيراً ولا يضمر شراً، وقد تحقق بالصدق فلا يحب أن يطّلع أحد على حاله وأعماله، وقد يُدعَى إلى السماع فيمتنع، لأنه يعرف أنه إذا حضر فسيظهر عليه وَجْد، وهو يُؤثر أن لا يعلم أحد بحاله. والقلندرية: يقولون عن أنفسهم أنهم ملامتية، أى لا يحبون أن يظهروا بمظهر التصوف، إلا أنهم غالوا فقلّت أعمالهم من الصوم والصلاة إلا الفرائض، وربما اقتصروا على رعاية الرخصة ولم يطلبوا حقائق العزيمة؛ وهم من جانب آخر يتمسكون بترك الادخار والجمع والاستكثار، ولا يترسّمون بمراسم المتعشّقين والمتزهّدين والمتعبّدين. ويُذْكَر أن رجلاً كان يتحدث فى المعرفة، فقال للجنيد: أهل المعرفة بالله يقولون بترك الحركات من باب البرّ والتقوى إلى الله تعالى، فقال له الجنيد: إن هذا قول قوم تكلّموا بإسقاط الأعمال، ومن جملتهم قوم يقولون بالحلول، ويزعمون أن الله تعالى يحلّ فيهم ويحلّ فى أجسام يصطفيها، ويسبق لأفهامهم معنى من قول النصارى فى اللاهوت والناسوت.

ويُذكَر أن أبا سعيد الخرّاز قال: إن للعارفين خزائن أودعوها علوماً غريبة وأنباء عجيبة، يتكلمون فيها بلسان الأبدية، ويخبرون عنها بعبارة أزلية، وهي من العلم المجهول. ويقول السهروردي: إن قوله لسان الأبدية والأزلية إشارة إلى أنهم بالله ينطقون، وقد قال النبيّ ﷺ: «بي ينطق»، وهو العلم اللَّدُنّيّ الذي آتاه الله الخَضِر عليه السلام، وهو علم أرباب النهايات الذين استقامت بواطنهم وظواهرهم لله، وأرواحهم خلصت عن ظلمات النفس ووطئت بساط القُرب.

وعلامة العارف بالله: أن نور معرفته لا يطفئ نور ورعه، ولا يعتقد باطناً من العلم ينقض عليه ظاهراً من الحُكم، ولا تحمله كثرة نِعَم الله وكراماته على هتك أستار محارم الله، فأرباب النهايات كلما ازدادوا نعمة ازدادوا عبودية، وكلما ازدادوا جاهاً ورفعة ازدادوا تواضعاً وذلة. وكمال المعرفة ـ إذا اجتمعت التفرقات، واستوت الأحوال والأماكن، وسقطت رؤية التمييز. وحاجة العارفين دائماً إلى الخصلة التي تكمُل بها المحاسن كلها، ألا وهي الاستقامة، وكل من أتم معرفة كان أتم استقامة. وقد سُئل الجنيد عن النهاية فقال: إنها الرجوع إلى البداية، وفسّروها بأنه كان في ابتداء أمره في جهل، ثم وصل إلى المعرفة، ثم رُدّ إلى التحيّر والجهل.

وللسهروردي شعرٌ ذَوْقي منه:

وقائلة لي تمتَ ليلةَ وَصْلنا
فقلتُ لها لا عِلْمَ لي برضاكِ
ولو كنتُ أعْلَمُ أنها ليلة الرضى
سهرتُ الليالي كلهنَّ للقاكِ
عسى ليلة أخرى تَمُرُّ بنا هنيئًا
ويهجع قلبي من أليم جفاكِ

* * *

١٨٣ - السهروردي (أبو النجيب)...

أبو النجيب عبد القاهر بن عبد الله ابن محمد (٤٩٠ ـ ٥٦٣ هـ)، البكري، الصدّيقي، حيث نسبه ينتهي إلى أبي بكر الصدّيق، وولادته بسَهْرَوَرْد، ووفاته ببغداد، وقبره بها ظاهر يُزار. وكتابه العمدة «آداب المريدين». وكان فقيهاً واعظاً، تفقّه بالمدرسة النظامية على الميهني، ولكنه ترك ذلك وانقطع، وبنى لنفسه رباطاً وصار له خلق كثير من المريدين، وعليه تتلمذ أبو حفص شهاب الدين السهروردي، وسمع الحديث من أبي محمد بن سعيد بن نبهان وغيره، وروى عنه الناس.

والتصوف فى مذهب السهروردى يقوم فى أوله على العلم، فالعلم له هو الأساس؛ وفى أوسطه فإن التصوف عمل، وأما آخره فهو موهبة. والعلم يكشف مرادات التصوف، والعمل يُعين على الطلب، والموهبة تُبلغ الغاية، وعلى ذلك فأهل التصوف ثلاثة: المريد الطالب، والمتوسط الطائر، والمنتهى الواصل، فالمريد: صاحب وقت؛ والمتوسط: صاحب حال؛ والمنتهى: صاحب يقين. ومقام المريد: المجاهدات والمكابدات، وتجرّع المرارات، ومجانبة الحظوظ وكل ما للنفع فيه منفعة؛ ومقام المتوسط: ركوب الأهوال فى طلب المراد، ومراعاة الصدق فى الأحوال، واستعمال الأدب فى المقامات، وهو مطالب بآداب المنازل، وصاحب تكوين لأنه يرتقى من حال إلى حال، ودائماً فى زيادة؛ ومقام المنتهى: الصحو والثبات وإجابة الحق من حيث دعاه، والمنتهى قد جاوز المقامات وصار فى محل التمكين، لا تغيره الأحوال، ولا تؤثر فيه الأهوال، ويستوى فى حال الشدة والرخاء، والمنع والعطاء، والجفاء والوفاء، وأكله كجوعه، ونومه كسهره، فنيت حظوظه، وبقيت حقوقه، ظاهره مع الخلق، وباطنه مع الحق، وكل ذلك منقول من أحوال النبىّ ﷺ

* * *

١٨٤ - السهروردى المقتول...

شهاب الدين السهروردى، ويُلقّب بالمقتول وليس الشهيد، لأنه اتُّهم بالكفر والخروج على السُّنة، وناظره علماء حلب وكتبوا إلى صلاح الدين الأيوبى بأنه يثير البلبلة بما يتحدث به من فلسفة فى مجال الدين، وبما يدّعيه من تصوف، وكان صلاح الدين يحارب الفرنجة الذين غزوا الشام، وفى نفس الوقت يجاهد ضد الباطنية الذين كثرت دعاواهم، فكتب إلى ابنه بقتل السهروردى، وكان ابنه قد استمع إلى إحدى مناظرات السهروردى، وقامت بينهما صداقة، فلم يُرد أن يقتله، إلا أن العلماء بعثوا لصلاح الدين مرة أخرى، وهددوا بخلع ابنه. وتتباين الأخبار حول وفاة السهروردى، فقد قيل إنه مات مخنوقاً؛ وقيل بل مات قتلاً بالسيف؛ وقيل إنه امتنع بنفسه عن كل طعام حتى وافته منيته - أى مات صبرًا. ومصدر ذلك كله الشيعة الإسماعيلية، فهؤلاء ينسبون السهروردى لهم، ويشنّعون بقتله على المسلمين من السُّنة، وفى كُتبهم بأن كل منكريهم وأئمتهم ماتوا قتلاً واتّهم

الشيعة صلاح الدين بقتله، وصلاح الدين هو الذى أعاد المذهب السنّى إلى القاهرة بعد الفاطميين، وحارب الشيعة وأزال مذهبهم من مصر، فشنّعوا لذلك عليه.

والسهروردى يُنسَب لسهرورد التى وُلد بها من أعمال زنجان، واسمه الحقيقى أبو الفتوح يحيى بن حبش بن أميرك، وكان عمره وقت وفاته سنة ٥٨٧ هـ بين السادسة والثامنة والثلاثين، وهو يقول عن نفسه إنه من الفلاسفة المتألّهين، أى المتصوّفين، وينسب علمه للتراث الأفلوطينى، ويقول إنه التألُّه علم يحصل لمن يريده عن طريق الذوق الباطنى، ورغم أن مداره الفلسفة والتصوّف، إلا أن كتبه لا يصلح لقراءتها الفلاسفة ولا الصوفية، ولكنها تناسب طالبى التألّه، ولا تناسب الباحث الذى لم يتألّه ولم يطلب التألّه. ويقول عن ذوقه الذى ينفرد به بين المتصوّفة والفلاسفة: أنه التجربة التى قوامها الحكمة، أو هو الحكمة المجرَّبة، وهو ذوقُ إمام الحكمة ورئيس الحكماء: أفلوطين ومن سبقوه من زمن والد الحكماء هرمس، ومن جاءوا بعده مثل أنباذوقلس وفيثاغورس، وطريقته هى طريقة حكماء فارس، مثل جاماسف، وفرشادشور، وبوزرجمهر.

والسهروردى شعوبى: متعصّب للفارسية، يعنى كان يكره العرب والعربية، ولا يدين بالإسلام إلا ظاهراً، ويستخدم لذلك الأمثلة والرموز والقصص، ولا يريد بها المعنى الظاهر وإنما باطن الرمز، ويترك للقارئ أن يستشف منها المعنى الذى يريده! ويردد أقوال لأبى طالب المكى بما معناه: أن الله يقرأ على لسان كل قارئ للقرآن، بمعنى أن القارئ عندما يقرأ يتمثّل باطن النصوص، وأن ذلك ما يطلبه من قارئ كتُبه.

وللسهروردى نحو ٤٩ كتاباً، معظمها فى التصوّف، ومنها «رسالة أصوات أجنحة جبرائيل»، و«كلمة التصوف»، و«مقامات الصوفية ومعانى مصطلحاتهم»، و«الغُربة الغربية»، و«الكلمات الذوقية والنكتات الشوقية»، و«مؤنس العشاق»، و«الواردات الإلهية»، و«البارقات الإلهية والنعمات السماوية»، و«لوامع الأنوار».

وكان كثير الغشيان للتجمّعات الصوفية، ويلبس الرثّ من الثياب، وتبدو عليه القذارة وقد طال شعره وأظافره، ويضع عليه أحياناً خِرقة صوفية، وأحياناً يرتدى ثياباً فضفاضة وعمامة زاهية، وقيل فى تعاليمه الباطنة أنها إسماعيلية، وأن السهروردى من الدعاة الإسماعيلية، وأنه جاهر بالدعوة ولم يؤمر بذلك. ولما نزل

فى بلاط عماد الدين أمير خربوط أسس مدرسة إشراقية.

وكان يؤثر الوحدة ويكثر من التأمل، ويوجه كتبه على هيئة رسالات إلى من يسميهم إخوانه وأصحابه. وكتابه العمدة هو «حكمة الإشراق»، وفلسفته هى الإشراقية، وهى امتداد للسلسلة التى بدأها الحلاج، وهو يدعوه باسم أخيه، ويؤلف كتبه فى شكل حكايات لها توجهات صوفية، وعلى هيئة رؤى، ففى «أصوات أجنحة جبرائيل» يرى الرائى أنه أمام عشرة شيوخ لهم سمت حسن، وقد انتظموا صفوفاً، إلا العاشر القريب منه فإنه هو الذى يكلمه، ويقول له إن هؤلاء لايمكن أن يكلموك لأنك لست تشبههم، وأنه وحده الذى يستطيع أن يترجم له مرادهم، ويعنى بالشيوخ التسعة العقول المفارقة التى تهيمن على الأفلاك، أما العاشر الناطق فهو جبرائيل، الوحى المعبّر عنهم.

وفى رسالته «كلمة التصوف» يطلب من القارئ أن يقرأه بوَجْد وطرب وفكر؛ وفى «الغربة الغربية» يتمثل الإشارات القرآنية وبخاصة فى سورة الكهف. وهو يقول فى التوحيد إنه لا يقصد به ما هو ذائع من توحيد الله، وإنما معناه عنده تجريد النفس عن كل العلائق (وهو معنى ليس فيه شئ من الإسلام)، حتى ينطوى فى الربوبية كل نظر فى مبادئ الوجود ومراتبه، فلا يكون ثمة مقام وراء مقام. (يعنى أن الصوفى وقد تألّه أى تشبّه بالله، صار ربّاً، وتجاوز المقامات والأحوال). والحكيم المتألّه هو نفسه الصوفى المجرِّب الذى يتذوق. وفى «رسالة صفير سيمرغ» يبيّن وجوب نسيان الصوفى لذاته، بل ونسيان نسيانه، أى أن يفنى عن نفسه • لأنه طالما هو يقتصر على المعرفة فهو بعيد عن الهدف، ولن يبلغ الكمال ويتحقق له الوصول إلا فى اللحظة التى يُفنى فيها معرفته فى العارف، لأن الذى يرضى بمعرفته لا يزال فى حال من يتوجه بكل قصده إلى أن يعرف، ولا تعنى معرفته بالله أنه قد تحقق به.

وثمة أربع درجات من التوحيد تؤدّى إلى الدرجة النهائية: **الأولى** درجة العامة الموحّدين بلا إله إلا الله؛ **والثانية** من يقولون لا هو إلا هو، وهؤلاء ينفون عن الهو الإلهى كل أنواع الهو، أى أنه لا أحد إلا هو يمكن أن يتسمّى بذلك، فالكلّ صادر عنه ويشتق منه؛ **والثالثة** من يقولون لا أنت إلا أنت، وهم السابقون الذين لا يسمون الله بضمير الغائب، وينكرون كل أنت تريد أن تشهد على نفسها بذلك؛

والرابعة وهى درجة المشركين الذين يقوم خطابهم لله بأن تكون هناك مسافة بينه وبينهم، وخطابهم فيه ثنائية (يعنى أنه قَلَب الوضع، فالمؤمن بالله صار عنده هو المُشرِك). وأما الصيغة الكاملة للتوحيد عنده، فهى: «لا أنا إلا أنا» ، وهى صيغة يعدّها غير المتذوّقين من غير الصوفية كفراً، فلا أحد إلا الصوفى يعرف أن الأنا التى ينطق بها ليست هى الأنا فى الخطاب العادى، وإنما هى الأنا المفصول عن الأنا، أو أنه أنا قد تجاوز من الله إلى الإنسان ، أى يمكن أن يُنسب للإنسان مجازاً وليس على الحقيقة، ومع ذلك فإن من يقولها يكون ما يزال على الطريق ولم يصل بعد، لأنه عندما يصل يسقط الهو والأنت والأنا جميعاً، وتغرق فى بحر الفناء ، فلا تكون أوامر ولا نواه، وتختفى الإشارات حيث «كل شئ هالك إلا وجهه». ونسأل: وجه مَن وقد أفنى الله؟ وإذا لم يعد هناك لا هو ولا أنا ولا أنت، فماذا هناك إذن إلا العدم؟

ويتابع السهروردى حكاياته الرمزية، ففى رسالة «مؤنس العشاق» يدفع القلق الشهوة إلى التعلّق بالجمال الإلهى، فيولد الكون، ويأتى لزيارة يعقوب فى بلاد كنعان، ويسأله يعقوب من أين أتيت؟ فيقول أنا قادم من نالجا أباد، أى من حيث أين لا أين!! ونفس الشئ يحدث فى «رسالة أصوات أجنحة جبرائيل»، فالحكيم يقول للرائى إنه قادم من حيث أين لا أين؛ وفى «رسالة لغة النمل أو لغة موران» يذكر السهروردى أن أبا طالب المكّى ينقل عن الرسول أن المكان انطوى عليه، أى أن الكون والمكان قد زالا عنه، ويذكر قول الحلاج عن معراج الرسول أنه غمض العين عن الأين. وفى «رسالة الغُربة الغربية» يشير إلى لا مكان، ويقول بلاد ما وراء النهر، ونعرف من بعد أنه جبل سيناء، وسيناء هى المحنة، لأن موسى فيها امتنع عليه معاينة الله وجهاً لوجه. وينظر السهروردى لقضية موسى باعتبارها قضية التصوّف، لأن موسى يمثّل الحبّ الصوفى الكامل، وبتعبيره عن رغبته فى أن يشاهد الله يكون قد تمنّى الموت على الحقيقة. وسيناء هى السرّ المحجوب. وفى «رسالة الغربة الغربية» يستحضر السهروردى التاريخ من الماضى ، ويجعله تاريخ اللحظة وما يجرى للراوى نفسه، وإشاراته إلى موسى وسليمان ونوح ولوط وعزرا ينقلها إلى ضمير المتكلم والحاضر، إلى أن يقول فأنا فى هذه القصة، أى أنه هو الغريب المغترب فى القرية الظالم أهلها، ألقوا به فى بئر لا

يخرج منه إلا فى الليل فقط، ليشم من بعيد بَرْق نجد الممنوع دخولها، ولابد من الرحيل والخروج من مصر. وبلوغ سيناء هو بمثابة العودة إلى الوطن من الغربة كما تقول الآية: ﴿يا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾ (الفجر ٢٧)، والوطن ليس هو دمشق أو بغداد أو أى وطن أرضى وإنما هو الله. ويوضح ذلك أكثر فى رسالته «كلمات ذوقية ونكتات شوقية»، ويفسّر قول رسول الله: «حبُّ الوطن من الإيمان»، والوطن بالنسبة للنفس هو الكعبة، وليس وطنها هو الأبدان الأرضية، فهى أصنام ينبغى تحطيمها، وحب الأوطان أو الأجسام الأرضية أصل كل خطيئة، فعلى الذى ينشد الخلاص إذن الخروج من القرية الظالم أهلها، والذهاب إلى حيث تنمحى الحدود، إلى الله، يعنى أن نعيش هائمين بلا أوطان ولا أديان، والخروج من الكعبة هو الخروج من الإسلام! ويضرب السهروردى المثل بالقمر، فهو فى عشقه للشمس لا يتوقف، وينتقل من منزل إلى منزل حتى يكون بدراً، فتنعكس عليه الشمس وتبدو ظلمته، ولكنه لو سئل لَمَا أدرك إلا ما يظهر منه، وقد يقول من تنوّره: «أنا الشمس»، إشارةً إلى العبارة الشطحية للحلاّج: «أنا الحقّ»! ولم يكن الحلاّج أو البسطامى أو غيرهما ـ وهم يرددون أمثال هذه الشطحات ـ إلا كمثل القمر مع الشمس، فقد تلألأت قلوبهم بأنوار الله، فنطقوا بحالهم، وقالوا: «أنا الله»، وهو أعلى مراتب التوحيد لله عزّ وجلّ!! ـ وكما ترى أيها القارىء اللبيب، أنه يغالط ويقول ترهات وأكاذيب وأباطيل، وروايات ضد العقل والمنطق، والتصوّف تعقُّل وليس شطحات وأضاليل.

ومن شعره:

أبداً نحن إليكم الأرواح
ووصالكم ريحانها والراح
وقلوب أهل ودادكم تشتاقكم
وإلى لذيذ وصالكم ترتاح
وارحمنا للعاشقين تكلّفوا
ستر المحبة والهوى فضّاح
بالسرّ إن باحوا تباح دماؤهم
وكذا دماء البائحين تباح
وإذا هموا كتموا تحدّث عنهم
عند الوضاة المدمع السجّاح
وبدت شواهد للسقام عليهم
فبها لمشكل أمرهم إيضاح
خفض الجناح لكم وليس عليهم
للصبّ فى خفض الجناح جناح

فإلى لقاكم نفسه مشتاقة
وإلى رضاكم طرفه طمّاح
عودوا بنور الوصل من غسق الدجى
فالهجر ليلٌ والوصال صباح
صافاهم فصفوا له فقلوبهم
فى نورها المشكاة والمصباح
وتمتّعوا فالوقت طاب لكم وقد
رقّ الشراب ودارت الأقداح

* * *

١٨٥ - السيّارى (صاحب السيّارية)...

أبو العباس القاسم بن القاسم، من أهل مَرْو، وأول من تكلم عندهم فى حقائق الأحوال، وكان فقيهاً عالماً، كتب الحديث ورواه، ورأسَ طائفة السيّارية، ومات سنة ٣٤٢هـ، وتكلم فى علوم التوحيد على لسان الجبر، وصحب أبا بكر الواسطى، ومذهبه مبنى على الجمع والتفرقة، فكل ما يُنسَب إلى السالك فهو تفرقة، وكل ما يكون من جانب الله تعالى فهو جمع، ومعنى ذلك أن كل ما يرتبط بمكاسب العبد، وكل ما هو نتيجة قيامه بواجبات العبودية والأحوال البشرية هو تفرقة، وكل ما كان من المواهب الإلهية، وكل ما كان نتيجة للطف الله تعالى وإحسانه وفضله فهو جمع. والعبد مضطر إلى تحصيل الجمع والتفرقة، لأن من ليست له تفرقة فليست له عبودية، ومن ليس له جمع فليست له معرفة، وعلى العبد أن يكون له التفرقة والجمع؛ والتفرقة هى بداية الإرادة، والجمع نهايتها، وجمع الجمع هو المقام الأعلى والأكمل للجمع، لأن الجمع مشاهدة الأشياء بواسطة الله، وحيث لا يرى العارف فى مثل هذه الأحوال مؤثراً فى العالم إلا الله، بينما جمع الجمع هو مقام الفناء عمّا سوى الله، والذهول التام والانعدام الكامل، وهو مقام الاتحاد والاتصال، والعارف فى هذه الحالة يكون قد تخلص من عالم التعيّنات الذى هو عالم التفرقة.

ويقول السيارى: الحق فناء، ليس فيه التذاذ، ولا حظّ، ولا احتظاظ، ومن عرف الله خضع له كل شئ، لأنه عاين أثر مُلكه فيه. وما نطق أحد عن الحق إلا من كان محجوباً. والحق إذا لاحظ عبداً ببرّه، غيّبه عن كل مكروه فى وقته؛ وإذا لاحظه بسُخطه، أظهر عليه من الوحشة ما يهرب منه كل أحد؛ ومن حَفِظَ قلبه مع الله بالصدق، أجرى الله على لسانه الحكمة. والخَطَرة للأنبياء، والوسوسة للأولياء، والفكرة للعوام، والعزم للفتيان.

وسألوه عن معنى: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ

﴿التَّقْوَىٰ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾ (الفتح: ٢٦) فقال: أهلهم في الأزل للتقوى، فأظهر عليهم في الوقت كلمة الإيمان والإخلاص.

ومن أقواله: **الربوبية**: نفاذ الأمر والمشيئة والتقدير والقضية؛ **والعبودية**: معرفة المعبود والقيام بالعهود. وما أظهر الله تعالى شيئاً إلا تحت ستره، فستر سيئة الأشياء عن الأشياء حتى لا يستوي علمان، ولا معرفتان، ولا قُدرتان.

وقال للمريد ناصحاً: المريد يروض نفسه بالصبر على الأوامر، واجتناب النواهي، وصُحبة الصالحين، وخدمة الرفقاء، ومجالسة الفقراء، والمرء حيث وضع نفسه. فكُنْ شريف الهمّة، قريب المنظر، بعيد المآخذ، عزيزاً، غريباً، فلباس الهداية للعامة، ولباس الهيبة للعارفين، ولباس الزينة لأهل الدنيا، ولباس اللقاء للأولياء، ولباس التقوى لأهل الحضور. يقول الله تعالى: ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ (الأعراف ٢٦). ولقد قيل لبعض الحكماء: من أين معاشك؟ فقال: من عند من ضيّق المعاش على من يشاء من غير علّة، ووسّع على من يشاء من غير علّة. **والأغنياء أربعة**: غنى بالله، وغنيٍ بغنَى الله؛ والرسول ﷺ يقول: الغنىّ غنىّ القلب - وهذا هو الغنَى الثالث، ثم هناك غِنَى رابع هو الغِنَى باليقين؛ فهؤلاء أربعة. ويقول عليه السلام «كفى باليقين غِنَى»، **وغِنَى اليقين** ليس منه الغِنَى ولا الفقر.

وكان السيّاري يقول: لو جاز أن يُصلَّى ببيت من الشّعر لكان ذلك بهذا البيت:

أتمنى على الزمان محالاً
أن ترى مقلتاى طلعةَ حُرّ

والحرية هى أن يتحرر من نفسه ومن الدنيا!!

وكان ينشد:

صبرت على اللّذات حتى تولّت
وألزمت نفسى صبرها فاستمرت
وما النفس إلا حيث يجعلها الفتى
فإن أُطمعت ناقت وإلا سَلّت
وكانت على الأيام نفسى عزيزةً
فلما رأت عزمى على الذل ذلّت

* * *

١٨٦ - ابن سينا ...

أبو على الحسين بن عبد الله بن سينا، وكتبه فى الفلسفة والطب والمنطق معروفة ومشهورة، وصيته ذائع بين الأوروبيين

لاستيعابه الكامل لأرسطو وفضله فى ترجمته إليهم، ومن مؤلفاته كتاب الشفاء، وكتاب النجاة؛ وكتاب الإنصاف؛ ومنطق المشرقيين؛ والرسالة الأضحوية فى أمر المعاد؛ وعيون الحكمة (حقّقه ونشره الحفنى كاتب هذه الموسوعة)؛ ورسالة فى ماهية العشق؛ ورسالة فى أسباب حدوث الحروف؛ ورسالة فى الحدود؛ ورسالة فى أقسام العلوم العقلية؛ ورسالة فى إثبات النبوات؛ ورسالة حىّ بن يقظان؛ ورسالة الطير؛ وكتاب المباحثات؛ وكتاب التعليقات؛ وكتاب القانون.

ومن مؤلفاته أيضاً كتاب «الإشارات والتنبيهات» ويتضمن فى النمطين الثامن والتاسع بحثاً فى التصوّف وأحوال العارفين ومقاماتهم، وقيل إن ما كتبه ابن سينا فى ذلك يفوق بكثير ما كتبه أغلب أكابر الصوفية، ومع ذلك لم يعتبروه منهم، وكانت حياته فى مبتداها حياة ملذّات فى الطعام والشراب والجماع حتى أصيب من الإفراط بداء القولنج، وعاش متصوفاً زاهداً بقية عمره إلى أن توفى سنة ٤٢٨ هـ عن ثمان وخمسين سنة.

وابن سينا أصله من بَلْخ، وهاجر أبوه إلى بخارَى، وفيها نشأ وتعلم، وكان موته بهمذان، ويقول فى سيرته الذاتية: إنه انتهى من العلوم كلها فى الثامنة عشرة من عمره، وانخرط فى السياسة، وتقلّبت به الأحوال، واستوزره الأمراء، وكاد يُقتل مرة، ونُهبت كتبه. وما كتب ابن سيناه فى التصوف النظرى إنما هو استكمالٌ لمذهبه العقلى. وهو يقول: إن ذوى الخير والكمال يكونون على حال من السعادة والبهجة بإدراكهم وتعشّقهم وشوقهم للخير والكمال. والعارفون (أى الصوفية) من هؤلاء، وهم الذين تجرّدوا من كل الشوائب المادية، وخلصوا إلى عالم القدس، ولهم أمور خفية هى مشاهدات تعجز الأوهام عن إدراكها، وتكلّ الألسنة عن بيانها، وابتهاجهم بما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولهم أمور ظاهرة عنهم هى آثار كمال وإكمال، تظهر من أقوالهم وأفعالهم، ويستنكرها منهم من ينكرها عليهم. ويردّ ابن سينا سبب وصولهم إلى هذه المرتبة، إلى التجرّد عن الشهوات والانصراف إلى الحق، ويصور ذلك بقصته لمن أسماهما سلامان وأبسال، وهما رمزان للنفس الشهوانية والنفس الناطقة الكاملة، والصراع الأزلى بينهما. والعارفون طُلاّب الحق، وطالب الشئ يبتدئ بإعراض عمّا يعتقد أنه يبعده عن مطلوبه، ثم بإقبال على ما يعتقد أنه يقرّبه إليه، وينتهى عند وجدان

المطلوب. **وطالب الحق** يلزمه فى الابتداء أن يعرض عمّا سوى الحق ـ أى متاع الدنيا، وهو وإن كان فى بدنه إلا أنه كما لو كان قد خلع بدنه. **وطالب الحق** عند ابن سينا إما زاهد، وإما عابد، وإما عارف؛ **والزاهد**: هو المُعرض عن متاع الدنيا، وعمله عمل التاجر الذى يشترى متاع الآخرة بمتاع الدنيا؛ **والعابد**: هو المواظب على العبادات من قيام وصيام ونحو ذلك، كأن يعمل فى الدنيا لأجرة يأخذها فى الآخرة. وأما **العارف**: فهو المنصرف بفكره إلى قُدس الجبروت، ويستديم لنور الحق فى سرّه؛ وزهدُه تنزُّهٌ عمّا يشغل سرّه عن الحق، وعبادته رياضةٌ لهممه وقوى نفسه ليجرّها بالتعويد عن جناب الغرور إلى جناب الحق، فتصير مسالمة للسرّ الباطن حينما يستجلى الحق، فيخلص السرّ إلى الشروق الساطع، ويصير ذلك فيه مَلَكة مستقرة، فكلما شاء السرّ اطلّع إلى نور الحق. **وأولى درجات العارفين: الإرادة**، ومبدؤها تصور الكمال الذاتى، والتصديق بوجوده تصديقاً جازماً بسكون نفس، سواء كان يقينياً مستفاداً من قياس برهانى، أو كان إيماناً مستفاداً من قبول الأئمة الهادين إلى الله تعالى، فإنّ كلاً منهما اعتقاد يقتضى تحريك صاحبه إلى العالم القدسى، وغاية ذلك نيل روح الاتصال بذلك العالم. وما دامت هذه هى درجة العارف فهو مريد، والمريد يحتاج إلى رياضة، ورياضة النفس تنصرف إلى أغراض، وهى نهى النفس عن هواها وصرفها إلى طاعة مولاها، وذلك بالالتفات إلى الحق وحده لتنقطع إليه وتنصرف عمّا عداه، ويتوقف ذلك على حصول الاستعداد له، وزوال الموانع الداخلية والخارجية، وتطويع النفس الأمّارة بالسوء لسلطان النفس المطمئنة، حتى يتحول التخيّل عن الجانب السفلى إلى الجانب القدسى، ثم تلطيف السرّ للتنبّه بمعنى تهيئة باطن النفس كى تتمثل فيه الصور العقلية بسرعة، وينفعل عن الأمور الإلهية المهيّجة للشوق والوجد بسهولة. وتُعين المريد فى ذلك عبادته المقرونة بالفكر، **والألحان** التى ترقّ النفس، والكلام والوعظ الذى يفيد التصديق بما ينبغى أن يكون عليه السلوك، خصوصاً إذا اقترن ذلك بأن يكون القائل ذكياً، بليغ العبارة، رخيم الصوت. ويعين على تلطيف السر للتنبّه الفكر اللطيف، والعشق العفيف الذى يجعل النفس ليّنة رقيقة ذات وجْد، مُعرضة عمّا سوى المعشوق ولا سلطان للشهوة عليها. فإذا

ما ترقّى المريد فى رياضته حتى يبلغ حدّاً معيناً عنّت له خلسات من اطّلاع نور الحق، لذيذة كأنها بروق تومض إليه ثم تخمد عنه، وهو المسمى عندهم أوقاتاً. وكل وقت يكتنفه وجدان اثنان: وجْدٌ إليه، ووجْدٌ عليه، لأن الأول حزنٌ فى استبطاء الوجد، والآخر أسفٌ على فواته؛ ثم تكثر عليه الغواشى إذا أمعن فى الارتياض؛ ثم يوغل فى ذلك حتى تغشاه فى غير الارتياض ، فكلما لمح منها شيئاً عرج منها إلى جناب القدس، يتذكر من أمره أمراً، فيغشاه غاش، فيكاد يرى الحقّ فى كل شئ. ولعله إلى هذا الحد تستعلى عليه غواشيه ويزول هو عن سكينته ، فيؤثر كتمان ما يرد عليه، ويستعمل التلبيس فيه لاستنكافه عن التراثى بالكمال، إلا أن الرياضة قد تبلغ به بعد ذلك مبلغاً بحيث يصير المخطوف مألوفاً، والوميض شهاباً بيّناً، فتحصل له معارف مستقرة كأنها الصُحبة المستمرة، وينقلب وقته إلى سكينة، ويستمتع فيها ببهجته، فإذا زايلته أسفَ لمزايلتها؛ فإذا تغلغل فى ذلك أيضاً فإنه يصير فى هذا المقام وكأنه الحاضر الغائب، أو الغائب الحاضر، ثم يتدرج إلى أن تكون له هذه الحالة متى يشاء، ثم يتقدم فى الرتبة فلايتوقف أمره إلى مشيئته، بل كلما لاحظ شيئاً لاحظ غيره، وإن لم تكن ملاحظته لاعتبار، فيسنح له التعريج عن عالم الزور إلى عالم الحق يستقر به، فإذا تمّت رياضته واستغنى عنها لبلوغه مطلوبه، وهو الاتصال الدائم بالحق، صار سرّه مرآةً مجلوة محاذياً بها شطر الحق، ودرّت عليه اللذات العُلَى، وفرح بنفسه لما بها من أثر الحق، وكان له نظر إلى الحق، ونظر إلى نفسه، وكان بعد مترددا بسبب اتجاه نظره مرة إلى الحق ومرة إلى ذاته المبتهجة بالحق؛ ثم إنه ليغيب عن نفسه فيلحظ جناب القدس فقط، أى لا يرى ما سوى الله، وهنا تتم الغيبة عن النفس، وإن لَحَظ نفسه فمن حيث هى لاحظة لامن حيث هى بزينتها، وهناك يحق الوصول، أى أن ملاحظته لنفسه بالمجاز وليس بالحقيقة، لأنه متوجهٌ بكليته إلى الحق. وكأن درجات المريد كلها تسع درجات: الثلاثة الأولى منها تشتمل على مراتب بداية السلوك: وهى أول الاتصال المسمى بالوقت؛ وتمكّنه بحيث يحصل فى غير حالات الارتياض؛ واستقراره بحيث يزول معه الاستقرار. والثلاثة التى بعدها تشتمل على المراتب الوسطى: وهى ازدياد الاتصال الذى عبر عنه بصيرورة الوقت سكينة؛

وتمكُّن هذه الحال حتى يلتبس أثر الحصول بأثر عدم الحصول؛ واستقرارُها بحيث يحصل متى يشاء، لا في وقت دون وقت. والثلاثة الأخيرة تشتمل على مراتب المنتهي، وهي حصول الاتصال مع عدم المشيئة؛ واستقراره مع عدم الرياضة؛ وثبوته مع عدم ملاحظة النفس.

ثم إن ابن سينا بعد أن فرغ من درجات السلوك وانتهى إلى درجات الوصول، أراد أن ينبّه على تقلبات جميع الدرجات قبل درجة الوصول، فبدأ بالزهد: الذى هو تنزُّه عمّا يشغل عن الحق، وذكر أنه شاغل، وإذن الزهد مؤد إلى ما يُحترز منه. ثم عقّب بالعبادة: التى هى تطويع النفس الأمّارة للنفس المطمئنة، لتتقوى المطمئنة على أفعالها الخاصة، بإعانة الأمّارة إياها على ذلك، وذَكَر أيضاً أنه عجزٌ، أى اعتداد النفس بما يطيعها عَجْز، وإذن العبادة مؤدّية أيضاً إلى ما يحُترز منها. ثم عقّب بآخر درجات السلوك المنتهية إلى الوصول، فإن التنبيه على نقصانها يتضمن التنبيه على نقصان ما قبلها. وذَكَر أن الابتهاج بما يحصل لذات المبتهج وإن كان بالحق تيهٌ وحيرة، فإنه يقتضى ترددا من جانب إلى جانب يقابله، وابتغى بذلك الهداية عن التحيّر. والوقوف إذن فى هذه الدرجة من السلوك هو أيضاً يتأدّى إلى ما يُحترز عنه؛ ثم ذكر أن الخلاص من جميع ذلك بالوصول الأخير: الذى هو الإقبال بالكلية على الحق.

وينتهى ابن سينا إلى تقرير حقيقة العرفان، فيقول إنه مبتدئ من تفريق ونقض، وترك ورفض، فأما التفريق من ذات العارف وما عسى أن يشغله عن الحق؛ وأما النقض فاطّراح الشواغل؛ وأما الترك فالتخلص من الشواغل ابتغاء توخى الكمال لأجل ذاته؛ وأما الرفض فهو أن يرفض ذاته بالكلية. وتلك درجات التزكية، ويتلوها بدرجات التحلية، وبيانها بالإجمال: أن العارف إذا انقطع عن نفسه واتصل بالحق، رأى كل قدرة مستغرقة فى قدرته، وكل علم مستغرقاً فى علمه، وكل إرادة مستغرقة فى إرادته، بل وكل وجود، وكل كمال، فهو صادر عنه وفائض من لدنه، فيصير الحق حينئذ بصره الذى به يبصر، وسمعه الذى به يسمع، وقدرته التى بها يفعل، وعلمه الذى به يعلم، ووجوده الذى به يوجد، فصار العارف حينئذ متخلّقاً بأخلاق الله تعالى بالحقيقة، ويعبر ابن سينا عن ذلك بقوله: العرفان ممعن فى جميع الصفات، ومعناه جمع صفات الحق

للذات المريدة بالصدق. ثم إن المريد يعاين هذه الصفات، متكثّرة بالقياس إلى الكثرة، ومتّحدة بالقياس إلى مبدئها الواحد، فإن علمه الذاتي تعالى هو بعينه قدرته الذاتية، وهي بعينها إرادته، إذ لا وجود ذاتياً لغيره، فلا صفات مغايرة للذات، ولا ذات موضوعة بالصفات، بل الكل شئ واحد، كما قال عزّ من قائل: ﴿إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ (النساء ١٧١)، فهو لا شئ غيره، وهناك لا يبقى واصف ولا موصوف، ولا سالك ولا مسلوك، ولا عارف ولا معروف، وهو مقام الوقوف.

ويزيد ابن سينا في تعريف العارف فيقول: العرفان حالة العارف بالقياس إلى المعروف، فمن كان غرضه من العرفان نفس العرفان فهو ليس من الموحّدين، لأنه يريد مع الحق شيئاً غيره، وهذه حال المتبجّح بزينة ذاته وإن كان بالحق. وأما من عرف الحق وغاب عن ذاته، فهو غائب لا محالة عن العرفان الذي هو حالة لذاته، فهو قد وجد العرفان كأنه لم يجده، بل يجد المعروف فقط، وهو الخائض لجهة الوصول. وهناك درجات هي درجات التحلية بالأمور الوجودية التي هي النعوت الإلهية، وهي ليست بأقل من درجات ما قبله، أي درجات التزكية من الأمور الخُلقية التي تعود إلى الأوصاف العدمية، وذلك لأن الإلهيات محيطة غير متناهية، والخُلقيات محاط بها متناهية، وإلى هذا يقول الله تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي﴾ (الكهف ١٠٩)؛ فالارتقاء في تلك الدرجات سلوك إلى الله، وفي هذه سلوك في الله، وينتهي السلوكان بالفناء في التوحيد. والعبارة عن هذه الدرجات غير ممكنة، لأن العبارات موضوعة للمعاني التي يتصورها أهل اللغات، أما التي لا يصل إليها إلا غائب عن ذاته، فضلاً عن قوى بدنه، فليس يمكن أن يوضع لها ألفاظ، فضلاً عن أن يُعبَّر عنها. وكما أن المعقولات لا تدرك بالأوهام، والموهومات لا تدرك بالخيالات، والمتخيلات لا تدرك بالحواس، كذلك ما من شأنه أن يعاين عين اليقين فلا يمكن أن يدرك بعلم اليقين، فالواجب على من يريد ذلك أن يجتهد في الوصول إليه بالعيان دون أن يطلبه بالبرهان.

ثم يصف ابن سينا أخلاق العارفين بعد أن تناول درجاتهم فيقول: إن العارف رجل هشّ بشّ، أي طلق الوجه، طيب، بسّام، وله أحوال لا يحتمل فيها

الإحساس بشاغل يَرِد عليه من خارج أو من جهة نفسه، يمنعه من الوصول بالحق، ولا يعنيه التجسس والتحسّس، ولا يستهويه الغضب، وإذا أمر بالمعروف أمر برفق، وهو شجاع، صفّاح للذنوب. ويختلف العارفون في الهمم والخواطر. وقد يذهل العارف في حال اتصاله بعالم القدس فهو في حكم من لا يكلَّف، والناس لا يعرفون هذه الحقائق عن العارفين، وهم أعداء ما يجهلون، والله سبحانه ربما كان ذلك منه لأنه يجلّ جنابه أن يكون شريعة لكل وارد، أو يطّلع عليه الناس الواحد بعد الواحد.

ومن رسائل ابن سينا في التصوف: رسالته في **القضاء والقدر**، توفر على نشرها ضمن رسائل أخرى الدكتور عبد المنعم الحفني كاتب **هذه الموسوعة**، ويردّ فيها على رفيق له مغرم بالجدل على طريقة أهل الكلام، والرسالة من نوع المناظرات، ومن رأيه أن كل شيء في الوجود له علة، وكل فعل له سبب، ولكنه لا يذهب مذهب القدرية والمعتزلة: أن التقدير للإنسان وليس لله، وأن الأفعال مخلوقة للعباد ولم يخلق الله أفعالهم. وعند ابن سينا أنه خَلْف أي سبب يوجد دائماً السبب الأول أو العلة الأولى، وإلا صرنا إلى سلسلة من الأسباب والعلل لا تنتهي. والمسبب الأول أو العلة الأولى هو الذي سببه من ذاته وليس من غيره وهو الله، وهو الواجب الوجود من جميع جهاته، فليس له مثيل، والإنسان يفعل عن سبب، غير أن مسبب الأسباب هو الله، وعنايته شاملة للإنسان ولكل الوجود. وإيمان ابن سينا بالله **إيمان صوفي عميق** يعرضه بقوة في قصته **سلامان وأبسال**، التي تصور الصراع بين **النفس الناطقة الكاملة أو الروح**، وبين **النفس الشهوانية**، وقصته حيّ بن يقظان، ومرادها أنه **لا تعارض بين الدين والفلسفة**، وكلاهما حق، والحق لا يتعدد. ولابن سينا **قصيدة في النفس** يصور فيها رحلتها من العالم الحقيقي إلى العالم المتوهَّم، وهو الجسد الذي عاشت فيه عن كُره حتى ألفته، فإذا حان الفراق بكت، فقد نسيت في الدنيا عهود الآخرة، وأثقلها الجسد إلى الأرض، وعصفت بها الملذّات، وعاقها الشرك بالله، فلمّا دنا الأجل تكشّف الغطاء، وتذكرت ما كانت نسيته، وما كان هبوطها لعالم المادة إلا لتعرف نفسها وربّها. يقول ابن سينا في قصيدته «في النفس» وهي من بحر الكامل، ومن أجلّ قصائده وأشرفها:

هبطت إليك من المحل الأرفع
ورقاء ذات تعزُّز وتمنُّع
محجوبةٌ عن كل مقلة عارف
وهى التى سفرت ولم تتبرقع
وصلت على كُره إليك وربما
كرهت فراقك وهى ذات تفجُّع
أنِفت وما أنِست فلما واصلت
أنفت مجاورة الخراب البلقع
وأظنها نسيت عهوداً بالحمى
ومنازلا بفراقها لم تقنع
حتى إذا اتصلت بهاء هبوطها
فى ميم مركزها بذات الأجرع
علقت بها ثاءُ الثقيل فأصبحت
بين العالَم والطلول الخُضَّع
تبكى إذا ذكرت ديارا بالحمى
بمدامع نهمَى ولما تُقطع
وتظل ساجعة على الدِّمَن التى
درست بتكرار الرياح الأربع
حتى إذا قرب المسير إلى الحمى
ودنا الرحيل إلى الفضاء الأوسع
سجعتْ وقد كُشف الغطاء فأبصرت
ما ليس يُدرَك بالعيون الهُجَّع
وغدت مفارقةً لكل مُخلِّف
عنها حليف التُّرب غير مشيَّع
وبدت تغرِّدُ فوق ذروة شاهق
سامٍ إلى قعر الحضيض الأوضع
إن كان أرسلها الإله لحكمة
طويت عن الفطن اللبيب الأروع
فهبوطها إن كان ضربة لازب
لتكون سامعةً بما لم تسمع
وتعود عالمةً بكل خفيّة
فى العالمين فخرقُها لم يُرقع
وهى التى قطع الزمان طريقها
حتى لقد غَرُبت بغير المطلع
فكأنه برقٌ تألقّ للحمى
ثم انطوى فكأنه لم يلمع

ولقد توفر نصير الدين الطوسى على شرح الإشارات لابن سينا، وجمع كلامه فيها بين التصوف الفلسفى والاستدلال. ونصير هذا كانت له مراسلات مع صدر الدين القونوى، وكان من الصوفية الفلاسفة، وشملت مراسلاتهما أموراً فى التصوّف والمقامات ووحدة الوجود. وللطوسى كتاب «أوصاف الأشراف» تطرّق فيه إلى الحلول والاتحاد والغلو، وأشار إلى الحلاّج والبسطامى، وشرح قولهما «أنا الحق» و«سبحانى ما أعظم شأنى». فقال:

إن أياً منهما لم يدّع دعوى الألوهية، بل ادّعى نفى أنيّته ليثبت أنيّة غيره وهو المطلق.

* * *

١٨٧ - السيوطى (جلال الدين)...

كان من العلماء العاملين الصادقين، وله المكاشفات والعلوم والمصنفات، وقيل مصنفاته بلغت أربعمائة وستين، وقال عن نفسه: رزقنى الله تعالى التبحّر فى سبعة علوم هى: التفسير، والفقه، والحديث، والنحو، والمعانى، والبيان، والبديع، على طريقة أهل الفلسفات». وبلغ السيوطى مرتبة الاجتهاد المطلق. ولما بلغ سن الأربعين، أخذ فى التجرّد والعبادة، والانقطاع إلى الله، والإعراض عن الدنيا وأهلها، حتى كأنه لم يعرف أحداً منهم، وشرع فى تحرير مؤلفاته، وترك الإفتاء والتدريس. وله كتاب فى الدفاع عن ابن عربى سماه «تنبيه الغبى فى تبرئة ابن العربى»، ويذكر أنه قد قال لصوفية الخانقاه البيبرسية: لستم بصوفية، وإنما الصوفى من يتخلّق بأخلاق الأولياء، ومَن يأكل المعلوم من غير تخلّقٍ بأخلاقهم أكل حراماً. وتسبب له ذلك أن قام عليه هؤلاء، وسعوا فى قتله عند السلطان، فكان يقول: حسبنا الله ونعم الوكيل. وما كان يدعو على من آذاه، ولا يقابله بسوء. ومما انفرد به من المؤلفات كتاب «المعانى الدقيقة فى إدراك الحقيقة»، وكتاب «تزيين الأرائك فى إرسال نبيّنا إلى الملائك»، وكتاب «أنموذج اللبيب فى خصائص الحبيب». ومات سنة ٩١١ هـ، ودُفن بحوش طوسون خارج القرافة بمصر، وقبره ظاهر يزار. وكان شيخه فى التصوف محمد المغربى الشاذلى.

* * *



١٨٨ - الشاذلي (شيخ المشايخ)...

شيخ الطريقة الشاذلية، شيخ المشايخ، فأغلب الطرق الصوفية فى مصر والعالم العربى تخارجت من تحت عباءته، وعلى تعاليمه تربّى الكثيرون؛ والشاذلى هو اسم الشهرة، نسبةً إلى شاذلة إحدى قرى تونس التى هاجر إليها بعد أن غادر قريته "غروزم" من إقليم جبالة فى المغرب، واسمه علىّ ابن عبد الله بن عبد الجبّار، أبو الحسن، وكنيته التى اشتهر بها الشاذلى، وميلاده سنة ٥٩٣ هـ (١١٩٥م)، وهاجر إلى مكة، ثم العراق، واستقر بالإسكندرية، وفيها تزوج واقتنى الضياع، وكان له الولد والأهل والأحباب، ومات سنة ٦٥٦ هـ (١٢٥٨م) فى طريقة إلى الحج بالصحراء بين قنا والقصير، ودفن حيث مات، وقد استخلف من بعده أبا العباس المرسى. وتلقى الشاذلى علوم الطريقة على الشيخ عبد السلام بن مشيش، ومقامه فى المغرب كمقام الشافعى بمصر، وكان يقول له: «إلزم الطهارةَ من الشرك. كلما أحدثتَ تطهّرتَ من دنس حبِّ الدنيا، وكلما ملتَ إلى شهوة أصلحتَ بالتوبة ما أفسدتَ بالهوى أوكدتَ. وعليك بمحبة الله على التوقير والنزاهة، وأدمن الشُرب بكأس محبة الله، مع السُكر والصحو؛ كلما أفقتَ أوتيقظتَ شربت، حيث يكون سُكرُك وصحوُك بالله، وحيث تغيب بجماله عن المحبة والشراب والشُرب والكأس، بما يبدو لك من نور جماله، وقُدس جلاله». وابن مشيش تلقى علوم الطريقة عن أبى مدين التلمسانى.

وكان الشاذلى يأخذ زيته عند كل مسجد، ويتحلّى دائماً بالشياب الحسنة، ويعرض عن لبس زىٍّ (زىّ الصوفية) ينادى على سرّ اللابس بالإفشاء، وينصح عن طريقه بالإبداء، ومن لبس الزى متعمداً (كمشايخ الأزهر)، فقد ادّعى، وكان يقول: «إعرف الله وكن كيف شئت، ومن عرف الله فلا عليه أيضاً إن أكل هنيئاً مريئاً». وكان يأمر غلامه فيقول: «يا بنى أبرِد الماء، فإنك إذا شربتَ الماء السُخن فقلت الحمد لله، تقولها بكزازة، وإذا شربت الماء البارد فقلت الحمد لله، استجاب كل عضو منك بالحمد لله». وكان الشاذلى يركب الخيل الجياد ويقول: لاتسرف بترك الدنيا

فتغشاك ظلمتها، أو تنحلّ أعضاؤك لها فترجع لمعانقتها بعد الخروج منها». وكان فى المواسم يحتفل أيّما احتفال، بالمواكب والأعلام والصاجات.

وكان الشاذلى يقول عن طريقته الشاذلية: «ليس هذا الطريق بالرهبانية، ولا بأكل الشعير والنخالة، ولا ببقية الصناعة، وإنما هو بالصبر على الأوامر، واليقين فى الهداية». وقيل إنه جاهد فى موقعة المنصورة بين المسلمين بزعامة الظاهر بيبرس، والفرنجة بزعامة لويس التاسع ملك فرنسا، ورغم أن الشاذلى كان مُسِناً قد كفّ بصره، فإنه كان فى مقدمة المجاهدين. وكان يقول: «من ثبتت ولايته من الله، لا يكره الموت».

وكان يكره من المريد أن يكون متعطّلاً، وأن يسأل الناس، وكان يقول: لكل ولىّ حجاب، وأنا حجابى الأسباب. ويقول: من لا يعمل فليس من طريقتنا فى شىء». وكان الشاذلى يشارك فى الزرع والحرث والحصاد، ويربّى الثيران ويقول: إن أردتَ أن تكون من أصحابى، فلا تسأل أحداً شيئاً، وإن أتاك شئ من غير مسألة فلا تقبله. وإن كنت مقتدياً بالرسول فى الأخذ، فكن مقتدياً به كيف يأخذ. وكان ﷺ لا يأخذ شيئاً إلا ليثيب من يعطيه ويعوّضه عليه، فإن تطهّرتْ نفسُك وتقدّست هكذا، فاقبَل (أى الهدية)، وإلا فلا.

وكان يقول: نوديتُ: لا تختر مع الله شيئاً، وإن اخترتَ فاختر العبودية لله، إقتداء برسول الله ﷺ حيث قال «عبداً رسولاً»، وإن كان ولابد أن تختار، فاختر أن لا تختار، وفرّ من ذلك المختار إلى اختيار الله تعالى. ويستطرد فيقول: وانتبهتُ فسمعتُ إن الله اختار لك أن تقول: اللهم وسّع علىّ رزقى من دنياى، ولا تحجبنى عن أخراى، واجعل مقامى عندك دائماً بين يديك، وناظراً منك إليك، وأرنى وجهك، ووارنى عن الرؤية، وعن كل شئ دونك، وارفع البين فيما بينى وبينك، يا من هو الأول والآخر، والظاهر والباطن، وهو بكل شئ عليم.

ومن أقواله: إذا كُشف لك عن حقيقة من الحقائق، وعارضَ كشفُك الكتابَ والسُّنّة، فتمسّك بالكتاب والسنة، ودع الكشف، وقل لنفسك: إن الله تعالى قد ضمن لى العصمة فى الكتاب والسنة، ولم يضمنها لى فى جانب الكشف، ولا فى الإلهام والمشاهدة ـ «وإذا استحسنت شيئاً من أحوالك الباطنة أو الظاهرة، وخفت زواله فقل: ماشاء الله، لا قوة إلا بالله!ـ «ولا تضر كثرة السيئات مع الرضا بقضاء الله، والصفح عن عباد الله.

ومن أقواله: الحق أبوابه أربعة: التوحيد، والمحبة، والإيمان، والرضا؛ والتوحيد هو سرّ الله، والصدق سيف الله، ومدد السيف بسم الله، وترجمته: ماشاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، ولا حول ولا قوة إلا بالله ـ «ومن اتقى الشرك في التوحيد، ما عزم الله له بالمدد العزيز في كل خطواته، ولم يدخل عليه الخلل في عزائمه. ومن أخذ منه الميل إلى الشهوات، أبطأ عنه المدد على مقدار أوقات الفترات، وهذا بيان من الله لأهل التيقظ من الغفلات. قال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ (الشمس٧). «ومن لم يكن فيه شيء من خمس فلا إيمان له: «التسليم لأمر الله، والرضا بقضاء الله، والتفويض إلى أمر الله، والتوكل على الله، والصبر عند الصدمة الأولى. فاسكن لقضاء الله، وعلّق قلبك بالله، ولا تيأس من روْح الله، وانتظر الفرج من الله. وإياك والشرك بالله، وسوء الظن به، والنفاق مع رسول الله ﷺ، فإنها موجبة لدوائر السوء من الله، ولغضبته ولعنته.

وقيل له: ما النفاق مع رسول الله ﷺ؟ قال: التظاهر بالسُّنّة والله يعلم منك غير الذي قلت». فقيل له: وما الشرك بالله؟ قال: اتخاذ الأولياء والشفعاء دون الله». فقيل له: «فما سوء الظن بالله؟ قال: من رجا غير الله، واستنصر بغير الله، يأساً من الله أن ينصره، فقد ساء ظنه بالله: ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ﴾ (الحج١٥).

وقال: لاتدعْ ما هو لك لما ليس لك. ولا تَتَمنّ ما فضّل الله به غيرك. ولتكن عبوديتك التسليم والقبول لما تُوْتَى، وحُسن الظن بالله فيما تلقى، والاشتغال بما هو لك أولى: ﴿ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (الروم ٣٠).

وقال: واعلم أيّدك الله، أنك إذا أردت الوصول إلى الله فاستعن بالله، واجلس على بساط الصدق مشاهداً ذاكراً له بالحق، رابطاً قلبك بالعبودية المحضة على سبيل المعرفة، ولازم الذكر والمراقبة والتوبة والاستغفار. ولتكن همتك في ثلاث: التقوى، والتوبة، والحذر. وقوام ذلك بثلاث: الذكر، والاستغفار، والصمت الذي هو عبوديةٌ لله تعالى. وحَصِّن هذه السنن بأربع: الحبّ، والرضا، والزهد، والتوكل. وإذا فاتتك التقوى في الاستقامة فلا تفوتك في التوبة والإنابة. وألقِ بنفسك على باب الرضا، وانخلع عن عزائمك وإرادتك حتى عن توبتك بتوبته عليك.

وقال: رأيتُ النبيَّ ﷺ (يعني فهمت عنه) يقول: هُدى لسُنّتي من آمن بالله واليوم الآخر، وأعرَضَ عن الدنيا وأقبلَ على الآخرة، وعزَمَ أن لا يعصي الله، وإن عصى استغفر وتاب وأناب. فقيل له: فيم تاب وأناب؟ قال: تاب من معصية الله، وأناب من طاعة الله إلى الله».

وقال: أحْصَنُ الحصون الاستغفار، وحقيقته أن لا يكون لك مع غير الله قرار. ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ (الأنفال٣٣).

وقال: هممتُ بلقاء ملك من الملوك فعارضني ذنبي، فكلما استغفرت وتبت ضعفت. فقيل لي قل: اللهم أسألك الصلابة في الدين، والعمل باليقين، وأعوذ بك من لقاء ذنبي فإن ذلك يضعف قلبي. وأشهدني إياك بالإشهاد فهو أقوى لسرّي وأُبّي.

ومن دعائه: اللهم استرني بمغفرتك، وارحمني برحمتك، وأقدرني بقدرتك، وامددني بمشيئتك، وعلّمني علماً يوافق علمك، وهب لي حُكماً يصادف حكمك، وأوجد لي لسان الصدق في عبادك، وكن لي سمعاً وبصراً، ولساناً وقلباً وعقلاً، ويداً مؤيِّداً، واعصمني من الخطأ والزيغ والطغيان، والكذب في الأقوال والأفعال والأحوال، وفي العقود والظنون والأوهام، وفي البصائر والأبصار، والخواطر والأفكار، وفي خفيّ الهواجس والوساوس، والهَمّ والفكر، والقدرة والإرادة، والحركات والسكنات، وفيما علمتَ يا عالم الخفيات. أنت ربّي وعلمُك حسبي، اللهم إني تبت إليك، فقوّني وعضّدني، وثبّتني واعصمني، واسترني بين خلقك، ولا تفضحني عن سواك.

ومن أقواله في الوصية: أوصاني حبيبي فقال: لا تنقل قدميك إلا حيث ترجو ثواب الله، ولا تجلس إلا حيث تأمن غالباً من معصية الله، ولا تصحب إلا من تستعين به على طاعة الله، ولا تصطفي لنفسك إلا من تزداد به يقيناً.

وقال: عليك أيها السالك طريق الآخرة بتحصيل ما أُمرت به في ظاهرك، واعلم أنه ما من نَفَس من أنفاسك إلا والله متوليه، مستسلماً كنت أو منازعاً.

وقال: رأيت الصدّيق في المنام فقال لي: أتدري ما علامة خروج حبّ الدنيا من القلب؟ قلت: لا أدري. قال: علامة خروج حبّ الدنيا من القلب بذلُها عند الوجد، ووجود الراحة منها عند الفقد.

وقال: «الصدّيقون لهم في بداياتهم أحوال: طي الوجود عن أسرارهم، وكشف أمر الدنيا لأرواحهم، ومراقبة القلوب، ومراعاة العقول، وحفظ النفس. ولهم خمسة

فى نهاياتهم: التحقيق فى المحبة، والكفّ، والصمت، والثبات فى الخُلة، والإنصاف بالبقاء. وبساطهم المحبة. والمحبة أخذةٌ من الله لقلب عبده عن كل شيء سواه، فترى النفس مائلة لطاعته، والعقل متحصّناً بمعرفته، والروح مأخوذة فى حضرته، والسرّ مغموراً فى مشاهدته».

وقال: الأولياء درجات: بسطٌ لهم فى العلم والمعرفة، والنور والمحبة، والتوحيد واليقين، وكشف الغيب والرسوخ فيه، والتحقق بالغنى وبآثار أنوار البقاء.

وكان الشاذلى يسعى فى مصالح الناس، ويستشفعون به من أجل معايشهم، وكان يقول: إذا توجهت لشئ من عمل الدنيا والآخرة فقل: يا قوى، يا عزيز، يا عليم، يا قدير، يا سميع، يا بصير». وكان يقول: إذا ورد عليك مزيد من الدنيا أو الآخرة فقل: حسبنا الله، سيؤتينا الله من فضله ورسوله، إنا إلى الله راغبون». ويقول: إذا تداين أحدكم، فليتوجه بقلبه إلى الله تعالى، ويتداين على الله تعالى، فإن كل ما تداينه العبد على الله تعالى، فعلى الله أداؤه.

وكان يقول: رأيت فى النوم صائحاً يصيح فى جو السماء: إنما تساق لرزقك، أو لأجلك، أو لما يقضى الله به عليك، أو بك، أو لك، وهى خمسة لا سادس لها. ويقول: إياك أن تقف مع الخلق، بل انف المضار والمنافع عنهم، لأنها ليست منهم، واشهدها من الله فيهم، وفرّ إلى الله منهم، بشهود القَدَر الجارى عليك وعليهم، أو لك ولهم، ولا تخف خوفاً تغفل به عن الله تعالى، وتردّ القدر إليهم، تهلك.

وكان يقول: مريدٌ واحد يصلح أن يكون محلاً لأسرارك، خير من ألف مريد لا يكونون محلاً لوضع أسرارك.

ويقول: التصوف تدريب النفس على العبودية، وردها لأحكام الربوبية. والصوفى يرى وجوده كالهباء فى الهواء، غير موجود ولا معدوم، حسب ما هو عليه فى علم الله. والحقائق هى المعانى القائمة فى القلوب، وما اتضح لها وانكشف من الغيوب، وهى منح من الله تعالى وكرامات، وبها وصلوا إلى البرّ والطاعات.

ويقول: العارف بالله تعالى لا تنقصه حظوظ النفس، لأنه بالله تعالى فيما يأخذ وفيما يترك، إلا إن كانت الحظوظ معاص. وإذا ترك العارف الذكر على وجه الغفلة نَفَساً أو نَفَسين، قيّض الله له تعالى شيطاناً، فهو له قرين، وأما غير العارف فيُسامَح بمثل ذلك، ولا يؤاخذ إلا فى مثل درجة أو درجتين، أو زمن أو زمنين، أو ساعة أو ساعتين على حسب المراتب.

ويقول: من الأولياء من يسكر من شهود الكأس ولم يذق بعد شيئاً، فما ظنك بعد ذوق الشراب، وبعد الرى؟ واعلم أن الرى قَلّ مَن يفهم المراد به، فإنه مزْجُ الأوصاف بالأوصاف، والأخلاق بالأخلاق، والأنوار بالأنوار، والأسماء بالأسماء، والنعوت بالنعوت، والأفعال بالأفعال، وأما الشُّرب فهو سقياً القلب والأوصال والعروق من هذا الشراب حتى يسكر، وأما الكأس فهو معرفة الحق. ويكون الشرب بالتدريب بعد التذويب والتهذيب، فيُسقَى كلٌّ على قدره، فمنهم من يُسقَى بغير واسطة، والله سبحانه يتولى ذلك منه له، ومنهم من يسقى من جهة الوسائط، كالملائكة والعلماء والأكابر من المقربين، ومنهم من يسكر بشهود الكأس ولم يذق بعد شيئاً، فما ظنك بعد الذوق، وبعد الشرب، وبعد الرى، وبعد السكر بالمشروب؟

ولما سئل: لِمَ لم تضع الكتب فى الدلالة على الله تعالى وعلوم القوم، قال: كتبى أصحابى.

ومن وصاياه: إياك أيها الأخ أن تصغى إلى الواقعين فى هذه الطائفة (الصوفية)، المستهزئين بهم، لئلا تسقط من عين الله، وتستوجب المقت من الله، فإن هؤلاء القوم جلسوا مع الله على حقيقة الصدق وإخلاص الوفاء، ومراقبة الأنفاس مع الله، قد سلّموا قيادهم إليه، وألقوا أنفسهم سِلماً (يعنى مسالمين) بين يديه. تركوا الانتصار لنفوسهم حياءً من ربوبيته، واكتفاء بقيوميته، فقام لهم بأوفى ما يقومون لأنفسهم، وكان هو المحارب عنهم لمن حاربهم، والمغالب لمن غالبهم.

وأصحاب الشاذلى وفدوا معه من تونس، ومنهم أبو العباس المرسى، ولما توفى المرسى خلفه على الطريقة أبرز تلاميذه من المصريين - ابن عطاء الله السكندرى. وتصوُّفُ «الشاذلى والمرسى وابن عطاء الله» - وهم أركان الطريقة الشاذلية - كان تصوّفاً سنّياً، ابتعد عن الفلسفة، وسَلِم من تيار مدرسة ابن عربى ومذهبها فى وحدة الوجود، وبقدر ابتعاد الأقطاب الثلاثة عن ابن عربى ومن نحا نحوه، فقد اقتربوا كثيراً من الغزالى، وطلبوا من مريديهم أن يتّخذوه قدوة.

ويقول الشاذلى: إذا عرضت لكم إلى الله حاجة فتوسلوا إليه بالإمام أبى حامد الغزالى. وكتاب الإحياء للغزالى يُورث العلم، وكتاب قوت القلوب للمكى يورث النور.

وانتشرت الشاذلية فى العالم الإسلامى لما فيها من معايشة للواقع، وبلغت الأندلس وكان أبرز ممثليها هناك ابن عبّاد

الرفدي، المتوفى سنة ٧٩٠ هـ، والذي تولى شرح الحِكَم العطائية، وامتد تأثيرها إلى جنوب شرقي آسيا، وغرب إفريقيا، وتركيا، والبلاد العربية. وكان من السلسلة الشاذلية: أبو العباس الحسن القرافي، ومحمد بن يعقوب الحضرمي، وأبو العباس أحمد زرّوق، وعلي السوسي، ويوسف الصنهاجي، وأبو زيد عبد الرحمن الفاسي ومحمد بن عبد الله، وقاسم الخصّاص، وأحمد بن عبد الله، وأبو حسن مولاي عليّ ابن عبد الرحمن الفاسي، ومولاي العربي بن أحمد الدرقاوي، وإبراهيم المتبولي، وعليّ الخواص، وعبد الوهاب الشعراني، ومحمد ظافر المدني شيخ شاذلية الآستانة، وله «الأنوار القدسية» و«النور الساطع والبرهان القاطع» في الطريقة. والشاذلية هي أكبر الطرق الصوفية في مصر، وفروعها كثيرة بحسب أسماء مشايخها في أنحاء مصر المختلفة.

* * *

١٨٩ - الشاذلي (أبو المواهب)...

محمد أبو المواهب، له مؤلفات كثيرة في العلوم اللدنّية، أهمها كتابه «قوانين حكم الإشراق»، يشرح فيه للمريدين الأحوال والمقامات والسلوك. وكانت له خلوة فوق سطح الأزهر، ويغلب عليه سُكر الحال، وله الكثير من الموشحات الربّانية التي كانت تُنشَد في الموالد والمساجد والاجتماعات على رءوس العلماء والأخيار فيتمايلون طرباً. يقول: تفاخر الغَنيّ والفقير، فقال الغَنيّ: أنا وصْفُ الربّ الكريم، فمن أنت يا حقير؟ فقال له الفقير: لولا وصفي ما تميّز وصفك، ولولا تواضعي ما رُفع قدرك، وأنا وصفي وُسم بذُل العبودية، وأنت وصفُك نازع الربوبية!

وللشاذلي لطائف في التفسير، فقال في معنى قول الصوفية: «إن للربوبية سرّاً، ولو ظهر السرّ لعطّل نور الشريعة»: أن المراد بالسرّ الغيب، فلو أُعطي العبد ذلك لتعطلت أفعال الشريعة كلها، وبطل القول بالكسب، واختل النظام.

وقال في قول بعضهم: «يَصِلُ الوليّ إلى حدّ يسقط عنه التكليف»: المراد به سقوط كلفة الأعمال ومشقتها من باب «أرحنا يا بلال»، يعني يأتي الولي التكاليف تلقائياً فلا تصبح تكاليف، وهذا هو معنى إسقاطها.

وقال في معنى قول عمر بن الفارض: «وكلٌّ بلا أبواب بعض بَليتي»: لأن بلاء أيوب عليه السلام في الجسد دون الروح (؟)، وأما بلاء العارف فأعظم، لأنه فيهما (في الجسد والروح) معاً.

وقال فى معنى قول بعضهم: «مقام النبوة فى برزخ فويق الرسول ودون الولىّ»: أن مقام النبوة فيه الأخذ عن الله بواسطة وحى الله، ومقام الرسالة فيه تبليغ ما أمره الله به للعباد، وأما مقام الولاية فيه الأخذ عن الله بالله! وهذه الحقائق الثلاث كلها موجودة فيمن كان رسولاً، ومن المحال أن يعتقد أحد من أهل الله تعالى تفضيل الولاية على النبوة والرسالة!

وقال فى معنى قول محيى الدين ابن عربى:

توضأ بماء الغيب إن كنت ذا سرّ
وإلا تيمم بالصعيد وبالصخر
وقدّم إماماً كنت أنت إمامه
وصَلِّ صلاةَ الفجر فى أول العصر
فهذه صلاة العارفين بربّهم
فإن كنت منهم فانضح البَرّ بالبحر

المراد بالوضوء طهارة أعضاء الصفات القلبية من النجاسات المعنوية؛ وماء الغيب هو خلوص التوحيد، فإن لم يخلص لك بالعيان فتطهّر بصعيد البرهان؛ وقدم إماماً كان إمامك فى يوم الخطاب، ثم صرت أنت إمامه بعد سدل الحجاب، وصَلِّ صلاة الفجر التى هى صلاة نهار كشف المشهود بعد حجاب ظلمة الوجود، فى أولى العصر الذى هو أول زمان انفجار فجرك، ولا تتأخر لآخر دورك، لأن الحكم للوقت، والتأخير له مقت، فهذه صلاة العارفين بربّهم، وهم الذين لم يخرجوا عن متابعة الأحكام الشرعية فى جميع مشاهدة الربوبية، فإن كنت منهم فانضح، يعنى اغسل بماء بحر الحقيقة ما تدنّس من برّ الشريعة.

وقال فى قولهم: «النبىّ مُشَرِّع للعموم، والولىّ مشرِّع للخصوص»: النبىّ مبيّن للعوام برسالته، ومبيّن للخواص بولايته، لا أن الولى يشرّع الأحكام الشرعية، فإنه ليس له ذلك، وإنما له تبيين الحقائق الكشفية بطريق الولاء والوراثة للأنبياء عليهم الصلاة والسلام، كما أن الولى يبيّن أجمل ما فى السُّنّة، والنبىّ يبيّن أجمل ما فى القرآن.

وقال فى إنكار بعض المنكرين على قول بعض العارفين: «إن الخَضِر مقام لا إنسان»: لا إنكار، لأن الولىّ المحبوب يَعطَى من الكرامات ما للخَضِر من المعجزات، وذلك عند الوراثة ، والوراثة الخضرية قبل الوراثة الموسوية، ولا شك أن الوراثة مقام.

وقال فى إنكار بعضهم على من قال: «حدّثنى قلبى عن ربّى»: لا إنكار، لأن المراد أخبرنى قلبى عن ربّى من طريق الإلهام الذى هو وحىّ الأولياء، وهو دون وحىّ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام. وأيضاً لا إنكار على

من قال: «كلّمني الله تعالى كما كلّم موسى».

ويقول الشاذلي مخاطباً السالكين: لا تجالسوا العارفين إلا بالأدب. ويقول: من لم تؤدّبه الصوفية فليس بأديب. ويقول: التعبّد مفتاح باب الخير، فمن فاتته الأوراد في بدايته فقد حَرُم الواردات في نهايته، فللأعمال أنوار كما أن للمعارف أسرار، فعليك أيها السالك بالدوام على الأوراد.

ويقول الشاذلي في الاصطلاح الصوفي «فلان عنده استعداد»: أنه صَقَل مرآةَ قلبه بأنواع المجاهدات التي بسببها يكون الجلاء الموجب لتجلي صور الحقائق في القلب الصافي كما هو معلوم حسّاً في المحبين، وأما في المحبوبين فقلوبهم منوّرة مصقولة اختصاصاً إلهياً.

وكان يقول: ما ورد عليك هو ما ظهر منك لك، وما جلى عليك هو منك إليك، مثال ذلك النواة، إذا زُرعت فكل شئ ورد عليها من ورقها وثمرها كان فيها مودعاً بالقوة (الشفرة الوراثية)، كذلك أنت أيها الإنسان، لا يرد عليك قط خارج منك من غيرك، بل الوارد عليك فيك غيباً، ثم ظهر لك شهادةً لتعرف مقدار ما أنعم الله عليك.

ويقول: من وقف مع عاداته وعلومه، ولم يظن أن فوق علمه علوماً فهو محروم من جميع المواهب، حتى من أهلُ مذهبه، ويُسمّي هذا بالجاهل المركّب، فإياك والجدال مع مثل هذا المحاولة إقناعه، فإنه لا يرجع، وتتسع الهوة بينكما، وربما صار يستفتي عليك وينسبك إلى أمور أنت بريءٌ منها، فكفّ عنه ما دام يرى نفسه عليك، فإن الجاهل لا يُنصف المحق أبداً، لعدم ذوقه لحاله، إلا أن يتداركه الله تعالى بالتسليم فيؤمن أن فوق كل ذي علم عليماً.

ويقول الشاذلي في تفسير قول بعضهم: «ما فعلتُ كذا إلا بإذن من الله»: مراده بالإذن نور يقع بالقلب، ينشرح له الصدر، ولا يعني ذلك أن كل ما يقع للفقير حق، لأنه قد يكون على غير الشرع.

ويعرّف الشاذلي «الأستاذ» فيقول: هو من كمّل الدوائر، وانطوى فيه علم الأوائل والأواخر، ويُسمّى بالعالِم المطلق، فكل أستاذ شيخ، ولا عكس.

وينصح الشاذلي المريدين فيقول: إياكم وصحبة الأحداث والنساء والأمراء والسلطان وأرباب الدنيا الذين لا خير فيهم. ويقول: من صحب ظالماً فهو ظالم.

ويقول: اختلفوا أيّ الذِكْر أفضل؟ السّري أو الجهري؟ «والجهري» أفضل إن غلبت عليه القسوة من أهل البداية، والذِكر سراً أنفع في «الجماعة». ولقد اختار أهل التعريف ذكر «الله الله الله»، دون «لا إله إلا

الله»، مخافة أن يستخدموا «لا» فينفون الإلهية - وهم يريدون إثباتها، وأنا أقول: أن من غلبت عليه الأهواء فَذكرُ «لا إله إلا الله» أنفع له، ومن خلص من الأهواء فذكرُ الجلالة فقط - أى الله - أنفع له.

ويقول: ذكر أهل الحضرة: «الحمد لله، وأستغفر الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله، وزدت أنا عليهم آية من كتاب الله لتكون حرزاً عليهم، لأن كل أحد يحب دوام النعمة عليه، وهى قوله: «ما شاء الله، لا قوة إلا بالله»، وكانت تلك هجير (يعنى يلازم ترديدها) الإمام مالك، فكان يقولها دوماً حتى كتبها على باب داره. وقال الشاذلي: جنة الرجل داره، والله يقول: ﴿وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ (الكهف٣٩)، أى لو قالها الرجل لسلمت جنته من الآفات. ويقول الشاذلى: سألت الله أن يلهمنى حمداً أحمده فأعلى على لسانى الوارد فى الحال: الحمد لله، ولله الحمد بكل المحامد، على كل المحامد، بجميع المدائح المحمودة، فى جميع الحمد والمدح، بما يجب للحمد لك، حمداً أزلياً، لا أول لبداية حمده غير حمده، بحمده، لحمده، فى جميع المحامد الأزلية والأبدية، بلسان جمع الحمد وفَرْقه، فى جمع المحمود بذاته لذاته، وبصفاته لصفاته، وبفعله على فعله. - وبعد، فقد صدق منَ كنّى محمد الشاذلى أبا المواهب!

* * *

١٩٠ - الشاذلى (المغربى)...

محمد المغربى الشاذلى، مصرى، كان يرفض أن يؤلف كتُباً فى الطريق، بدعوى أنه لم يعد هناك من لديه الاستعداد أن يخرج عن ماله وعياله ليتصوّف. ويقول فى التربية الصوفية إنها نوعان: تربية سوقية يتعلم بها المريد كلمات هذيانية فى الفناء والبقاء وأحوال القوم؛ وتربية بيتية يشارك بها جميع أهل البلاد فى سائر أقطار الأرض فى بلائهم.

ويقول: السالكون ثلاثة: جلالى (بمعنى ربّانى)، وهو إلى الشريعة أميل؛ وحمّالى (باعتبار أنه حمّال للحقيقة)، وهو إلى الحقيقة أميل؛ وكمالى، جامع لهما على حدّ سواء، وهو منهما أكمل وأفضل.

ويقول: كفى شرفاً بعلم القوم قول موسى للخضر عليهما السلام: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ (الكهف ٦٦)، وهو أعظم دليل على وجوب طلب علم الحقيقة (حيث الخضر هو الولى، والولاية تصوّف)، مثلما يجب

طلب علم الشريعة(باعتبار موسى هو النبيّ وقد جاء بالشريعة).

وكان يقول: ابن الشريعة ناظر بعين الحُكم الظاهر، وابن الحقيقة ناظر بعين الحكمة الباطنة؛ وأدب الشريعة مبنى على شهود الخَلْق فى شهود الحق، وأدب الحقيقة مبنى على فناء الخلق فى شهود الحق، وتبايـن الامرين يعنى تعيّن إظهار الأمر الظاهر، وتحتّم إبطان الأمر الباطن، خشية المعارضة والتعطيل.

ويقول فى رؤية النبىّ ﷺ يقظةً: المراد بذلك أن الرؤية تكون يقظةً فى القلب، فيرى الرائى الرسول روحياً، من غير انتقال ذاته الشريفة من البرزخ إلى الدنيا.

ومات الشاذلى نحو سنة ٩١٠ هـ ودفن بالقاهرة.

* * *

١٩١ - الشاطبى (إبراهيم)...

إبراهيم بن موسى بن محمد، اللخمىّ الغُرناطىّ، الشهير بالشاطبىّ، المتوفى سنة ٧٩٠هـ، له كتاب «الاعتصام»، يعترض فيه على الصوفية استنادهم إلى الرؤيا فى استخراج الأحكام الشرعية، واجتماعهم للذكر بصوت مرتفع، ثم الغناء والرقص والزمر، والتواجد المبالغ فيه، والضرب على الصدور.

ويرى الشاطبى أن أحوال الصوفى ينبغى أن توزن بميزان الشرع، فإن وافقته كانت صحيحة وإلا فهى بدعة، ويحتج فى ذلك بأن الإمام أحمد لم ينكر على الحارث المحاسبى سلوكه هو وأصحابه، وكان الحارث المحاسبى نفسه ممن يُقتَدى بهم، ومن كبار مشايخ الصوفية.

* * *

١٩٢ - الشافعى (الإمام)...

أبو عبد الله إدريس الشافعى، الإمام الكامل، والعالم العامل؛ مولده بغزة أو بعسقلان، وفى الرواية عنه أنه ولد بغزة سنة خمسين ومائة هجرية، وحملته أمه إلى مكة وهو ابن سنتين، وقدم بغداد سنة خمس وتسعين ومائة هجرية، وأقام بها سنتين، ثم خرج إلى مكة سنة ثمان وتسعين ومائة فاقام أشهراً، ثم خرج إلى مصر فمكث بها نحو ست سنوات، حتى توفى سنة أربع ومائتين وهو ابن نيف وخمسين سنة.

وكان الشافعى تلميذاً لمالك بن أنس، وما يهمنا منه فى مقامنا هذا أقواله فى التصوف، وكان له من المنكرين، قال: «أُسّس التصوف على الكسل»، يريد بذلك

التصوف السلبي، وقال: صحبت الصوفية عشر سنين ما استفدت منهم إلا هذين الحرفين: الوقت سيف (يعني العمر ينصرم)، وأفضل العصمة ألا تجد. (يعني لا تجد فلا تكون هناك مناسبة للشطح والغلط).

وقال: لولا أنّ رجلاً عاقلاً تصوّف، لم يأت الظهر حتى يصير أحمق. (يعني من الحمق التصوف). ومع ذلك كانت حياة الشافعي أشبه بحياة الصوفية، أو أنه كان صوفياً وإنما من النمط الإيجابي، وهو القائل: السعي فريضة على كل مسلم». يعني أن العمل والتكسّب فريضة على الصوفي وغير الصوفي. طالما أنه مسلم. وكان يقول:

يريد المرء أن يُعطَى مناه
ويأبى الله إلا ما أرادا
يقول المرء فائدني ومالي
وتقوى الله أفضل ما استفادا

وكان يقول: ما كذبتُ قط، وما حلفتُ بالله لا صادقاً ولا آثماً». ولم يكن الشافعي يأتي النساء! فكان يشترى الجواري الحسان ويشترط عليهن أن لا يقربهن، لأنه كان عليلاً لا يمكن أن يقرب النساء، رغم أنه تزوج قبل أن يعتلّ وأنجب، إلا أنه كان يشتريهن ليصنعن لأصحابه ما يحبون، فكان من جُوده أن أفلس! يقول:

لستُ بكفّي كفَّه طَلَب الغنى
ولم أدر أن الجود من كفّه يُعدى
فلا أنا منه مما أفاد ذوو الغنى
أفدتُ، وأعدانى فأتلفتُ ما عندى

ويقول: أفلستُ من دهري ثلاثة إفلاسات، وكنت أبيع قليلي وكثيري، حتى حلىّ ابنتي وزوجتي، ولم أرهن قط».

فكما ترى كان سخياً وكريماً، والتصوف سخاء وكرم. وكان على سخائه يعيش كالفقراء، والصوفية اسمهم الفقراء. يقول الشافعي:

علىّ ثياب لو يباع جميعها
بفلس لكان الفلس منهن أكثرا
وفيهن نفسٌ لو يقاس جميعها
جميع الورى كان أجلّ وأخطرا
فإن تكن الأيام أزرت ببزتى
فكم من حسام فى غلاف تكسرا

وكان الشافعي كالصوفية دءوباً على العلم، وهو يقول: «ليس العلم ما حُفظ، العلم ما نفع». وسألوه: أخبرنا عن العقل، يولد به المرء؟ فقال: لا، ولكنه يلقّح من مجالسة الرجال ومناظرة الناس»، يعنى أنه

لا يرى الوراثة، وأن التعقُّل والتفكُّر مألتان كسبيتان، ومع ذلك فقد اشترط الذكاء على طالب العلم، يقول: طالب العلم يحتاج إلى ثلاث خصال، إحداها حُسن ذات اليد، والثانية طول العمر، والثالثة يكون له ذكاء»، وإذن فالذكاء عنده فطرى، وأما العلم فكسبى. ولذلك كان من فلسفة الشافعى كما يقول: «لوددت أن الخَلْق كلهم تعلموا». والعلم إذن ينبغى أن يكون مشاعاً من حق الجميع، بل إن العلم أصلح وأولى بالفقيه، يقول: لايصلح طلب العلم إلا لمفلس. قيل: ولا لغنى مكفىّ؟ قال: لا، لأن الغنى قد يشغله غناه، بينما الفقير سيصرف غايته إلى طلب العلم». ورغم هذا فإن الفقير يحتاج لتدبير القليل الذى عنده، ولذا قال الشافعى فى الحديث الأسبق إن طلب العلم يحتاج إلى حُسن ذات اليد. والعلم وطلبه عند الشافعى قضية القضايا وأساس مذهبه كله. يقول لتلميذه: لو قدرت أن أطعمك العلم لأطعمتك!!!!

وكالشأن مع الصوفية كان الشافعى يقول: ليس سرورٌ يعدل صُحبة الإخوان، ولاغمٌ يعدل فراقهم. ويقول: ليس بأخيك من احتجت إلى مداراته، ويقول: من علامة الصادق فى أخوة أخيه أن يقبل عللَه، ويسد خللَه، ويغفر زلله. ومن علامه الصدّيق أن يكون لصديق صديقه صديقاً. ويقول: من نَمَّ لك نمّ عليك. ومن إذا أرضيته قال فيك ما ليس فيك، وكذلك إذا أغضبته قال فيك ما ليس فيك. ومن وعظ أخاه سرّاً فقد نصحه وزانه، ومن وعظه علانية فقد فضحه وشانه. ومن سامى بنفسه فوق ما يساوى ردّه الله تعالى إلى قيمته. ومن تزين بباطل هلك ستره. والإكثار فى الدنيا إعسار، والإعسار فيها إيسار. والانبساط إلى الناس مجلبة لقرناء السوء، والانقباض عنهم مكسبة للعداوة، فكن بين المنقبض والمنبسط. وصُحبة من لا يخاف العار عار. ولا شكر للئيم، وما أكرمتُ أحداً فوق قَدْره إلا نقص من مقدارى بقدر ما زدتُ فى إكرامه. ومن يعاشر اللئام يُنسَب إلى اللؤم. ومن يسمع بأذنه صار حاكياً، ومن أصغى بقلبه صار واعياً، ومن وعظ بفعله كان هادياً. ومداراة الأحمق غاية لا تُدرك.

وكل ذلك مما يسميه الفلاسفة: «الحكمة العملية»، ويسميه أهل الله: «التصوّف العملى». ورغم أن الشافعى عقلانى، إلا أنه يقول كالصوفية بالعلم القلبى، يقول: ليس العلم بكثرة الرواية، وإنما هو نور يصنعه الله تعالى فى القلب.

ولذلك رأى الشافعى عدم الخوض فى

العلم فى مجلس لا يرى أصحابه بنور الله، يقول: لا ينبغى لعالم أن يتكلم بالعلم عند من لا يطيعه فإنه ذلٌ وإهانة للعلم.

* * *

١٩٣ - الشبستري...

سعد الدين محمود الشبستري، نسبةً إلى شبستر التى وُلد بها بإيران، بالقرب من تبريز، سنة ١٢٥٠م، ووفاته بتبريز سنة ١٣٢٠م، وديوانه «كلشن راز» قيل فيه أنه من أهم الأشعار الصوفية، ويعتبرونه من الكلاسيكيات التى يُعتَدّ بها فى الأدب الصوفى. وله رسالتان نثريتان بعنوان: «حق اليقين»، و«مرآة المحققين»، والرسالة الأولى: تشتمل على ثمانية أبواب تكلم فيها عن مسائل المبدأ والمعاد، والوحدة والكثرة، والجبر والقدر، والسلوك، والفناء والبقاء، وبرغم أنها رسالة صغيرة إلا أنه جمع فيها رؤوس المسائل الصوفية جميعها. وأما الرسالة الثانية: فضمّنها شروحه على معرفة النفس، وعلم معرفة الله، ومعرفة بقاء الحقّ بواسطة صنائع وبدائع وعجائب وغرائب قدرته فى الآفاق والأنفس.

والشبستري بديوانه كلشن راز، أو حديقة الورد كما قيل اسمه فى العربية - يبلغ الذروة فى المعرفة بعقائد التصوف أو التصوف العلمى أو الفلسفى الذى روّج له ابن عربى وتلاميذه. وكانت للشبسترى معرفة كبيرة بتأويل آيات القرآن، وتفسير لغة الصوفية وحقائق التصوف بلغة أهل العلم والفلسفة والوجدان، وهو من القائلين بوحدة الوجود، وكتب كلشن راز سنة ١٣١١م، وربما سنة ١٣١٧م، فى فترة عانى فيها الكثير نتيجة غزو التتار لبلاده وسقوط الدولة العباسية، وسُخط الناس أن تحكمهم حكومة غير إسلامية، فاضطر إلى الاعتزال والاتجاه للتصوّف وكتابة الشعر. وفى كلشن راز أعرب عن مكنونات قلبه.

وتُرجم الكتاب إلى اللغات الأوربية بدءاً من سنة ١٧٠٠م، اعتقاداً من الأوربيين أن الشبسترى تنصّر، طالما يؤمن بالاتحاد ووحدة الوجود، وازدهرت حركة ترجمة الكتاب إلى مختلف اللغات، واعتبروه أهم كتاب فى التصوّف. وأشعاره التى نقدمها هنا صورة من تفكيره المنحرف ومغالطاته الكثيرة، وخروجه الأكيد عن دائرة الإسلام. يقول:

خُلق عالم الخلق والأمر فى لمحة واحدة
وعاد فى اللحظة التى أتى فيها
ولكن ليس فى المنام من مجيء وعودة
ولو أنعمت النظر لرأيت أن الذهاب ليس إلا الإياب

تعالى الله القديم الذى هو فى لحظة واحدة
وكلهم ليسوا بمؤمنين وليسوا بكافرين

بدأ إنشاء العالم وإنهاءه
فحينا يستقبلون الجدار لسواد وجوههم

لقد أصبح عالم الخلق والأمر حين هنالك واحداً
وحينا يستقبلون المشانق لاحمرار وجوههم

وصار الواحد كثيراً والكثرة قلة!
أُخرجوا من رءوسهم الدلقة ذات الطيات العشر

وهذه الصورة المغايرة هى وهجك
وتجّردوا من كل لون ورائحة

فإن النقطة دائرة من سرعة السير
وأمسكوا بذيل الفتيان الخمّارين

والأنبياء فى هذا السبيل كالحُداة
واعتزلوا الشيخية والمريدية

أدلاّء القوافل وهداتها
ما هذه القيود من الشيخية والمريدية

وسيدنا من بينهم أمسى آمراً للركب
أى معنى للزهد والتقوى وماهذا الرياء

فهو الأول وهو الآخر فى هذه المهمة
إذا اتجهت فى عملك إلى الصغير والكبير

والفرق بين أحمد وأحد هو ميم واحدة
فالصنم والزنار والنصرانية خير لك حينئذ

وغرق العالم فى تلك الميم
لما كانت الأشياء مظاهر للوجود

والأنبياء فى هذا الطريق من خلف وأمام
فلا جرم أن يكون الصنم من جملتها أيضاً

يدلّون الناسَ على منازلهم
فكر جيداً أيها العقل

وحين وافق الكلام المنازل
فالصنم ليس بباطل فى عالم الحقيقة

وقع المشكل فى أفهام الخلائق!
وإنما يكون الوجود فإنه خير محض

والكلام لا يستوعب المعانى أبداً
فإن تكن فيه شرور فهى من غيره

لأن بحر القلزم لا يستوعبه إناء
ولو علم المسلم ماذا هو الصنم

ونحن من كلامنا فى ضيق وشدّة
لتيقن أن الدين هو فى عبادة الأصنام

فلماذا نزيد عليه كلاماً آخر
ولو كان المشرك مطلّعاً على الدين

والخرابات هى من العالم غير المثالي
لما وقع فى ضلال دينه

وهى مقام العشاق الذين لا يبالون
ولم ير من الصنم إلا الخَلْق الخارجى

فهناك جماعة ليست لهم أقدام ورءوس
فكفر بالشرع لهذه العلة

فإن لم تر أنت منه الشرع الخفى ... ولكن ذاته لا تستنار بنور الآيات

فلا يدعوك فى الشرع مسلما ... والمظاهر لا تستوعب نور الحق

لقد نظر من الإسلام المجازى ... وسيمات جلاله قاهرة

إذ ظهر منه الكفر الحقيقى ... وكلما اقترب المُبصر من البصر

وفى جوف كل صنم روح خفية ... يعجز البصر عن أن يدركه

وتحت الكفر إيمان خفى ... ولما كان عين الرأس لا تطيق الشعاع

من ذا الذى زيّن وجه الصنم بهذه الزينة ... لذا يمكن رؤية الشمس الساطعة فى المساء

فمن كان يعبد الصنم إذا لم يشأ الله ... والعدم مرآة الوجود المطلق

هو الذى فعل وهو الذى قال وهو الذى كان ... الذى يظهر منه انعكاس نور الحق

قال حُسْناً وفَعلَ حَسَناً وكان حَسَناً ... شاهدُ العالم بأسره فى نفسك

أنظر واحداً واعلم واحداً واقرأ واحداً ... وابدأ بالرؤية لكل ما يأتيه فى النهاية

فلقد اختُتم بهذا أصل القرآن وفرعه ... ولما جرى الوجود المطلق بالعبارة

ولما كان الشهود يتحققون بالوحدة ... أشاروا إليه بلفظة أنا

اتجهت النظرة الأولى إلى نور الوجود ... وأنا وأنت من عوارض ذات الوجود

والقلب الذى شاهد بالمعرفة النور والضياء ... وشباك مشكاة الشهود

شاهدَ الله قبل كل شىء أراد مشاهدته ... فاعرف أن الأبدان والأرواح نور واحد

ما أجهل ذاك الذى يبحث عن الشمس الطالعة ... يظهر تارة فى المرآة وتارة فى المصباح

بنور الشمعة فى الصحراء ... وأنا وأنت أفضل من الروح والجسد

أعرف أن العالم كله شعاع نور الحق ... لأن كليهما يعملان بأمري

والحق قد اختفى فيه لفرط ظهوره ... والوجود جنة والإمكان جحيم

والتفكير فى ذات الله باطل ... وأنا وأنت بينهما كالبرزخ

وتحصيل الحاصل محال محض ... فإذا أزيح عن وجهك هذا الستار

والآيات استنارات بالذات ... فلا يبقى عندئذ حكم للمذهب والدين

وإذا جاز قول «أنا الحق» من شجرة
فَلِمَ لا يجوز هذا القول من رجل سعيد ؟
والحلول والاتحاد هنا محال
والاثنينية فى الوحدة عين الضلال
والتعيّن لم يتجزّأ عن الوجود
فلا صار العبد حقاً ولا صار الحق عبداً
وليس سوى الحق، وليس بوجود آخر إلا الحق
فسواء قولك هو الحق أو أنا الحق
ووصال الحق هو أمر غير الخلق
والتخلى عن النفس هو المعرفة
فإذا نفض الممكن غبار الإمكان عن نفسه
فلن يبقى حينئذ إلا الواجب
فاسمع منى الحديث الصحيح الكامل
إنك ابتعدت عن نفسك بقربك
فما خوفك من نار الجحيم ؟
وقد تظهر جسمك وروحك عن الوجود
وليس أمامك شيء سواك ... فانقِ نفسك
وتزعم أن لك الاختيار
وتقول جسمى مركب وروحى راكبها
فاعلم أن هذه هى طريق عبادة النار
وكل آفة النحس من الوجود
ووجودك كله كالعدم
فقل لنا من أين جاءك الاختيار
فالمؤثر هو الزمن فى كل مكان
فلا تضع قدمك عن الحدّ المرسوم

فكما ترى أن تصوّف الشبستري من دائرة ثقافة أخرى بخلاف الإسلام، والاحتفاء به من الأوروبيين لأنه دعى بدعوتهم فى المسيح : أنه ابن الله أو هو الله، وكدعوة الحلاّج أنه الحق أى الله، فليس ثمة أنا ولا أنت ولا هو، والكل واحد؛ ودعوة التوحيد الإسلامية لا تجد صداها عند الشبستري ومن لفوا لفّه، واحتفاء الأوربيين به تصدُق عليه الآية : ﴿إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا﴾ (غافر ١٢)، وقوله «المؤثّر هو الزمان» حسب دعوى الدهريين! وفيهم يقول القرآن: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ﴾ (الجاثية ٢٤)، والشبستري فى فلسفة التصوف رافضىّ، وعدمىّ، ولم يكن من العلم فى شئ تقديمه فى موسوعة للتصوفّ الإسلامى، إلا لأنه محسوبٌ علينا زورًا وبهتانا كمسلم، وصوفى أيضًا!!

* * *

١٩٤ - الشبلي (أبو بكر)...

أبو بكر دلف بن جحدر، أو ابن جعفر، أو أنه جحدر بن دلف، فاسمه الحقيقى

مختلف فيه، وشهرته بكنيته «الشبلي»، وله شطحات عرفت عنه، كشطحات البسطامي، وإن كان البسطامي له السبق، والشبلي والحلاّج من أخلافه. وله شعر صوفي جميل، وسليقة شعرية فياضة، تضمنها كتابه: «ديوان أبي بكر الشبلي». وينسب الشبلي لقرية شبلة من خراسان، وولادته في سُرّمَن رأى سنة ٢٤٧ هـ، ببيت عزّ وجاه، فقد كان أبوه حاجب الحُجّاب للموفق، وخاله أمير الأمراء بالإسكندرية. وبلغ الشبلي في المناصب العامة إلى الحجابة، ثم الولاية على دنباوند من نواحي رستاق الري. وكتب في الحديث الكثير ورواه، وتفقّه على مذهب الإمام مالك، قال: كتبت الحديث عشرين سنة، وجالست الفقهاء عشرين سنة». ثم شغلته العناية عن الرواية، فقد التقى بالصوفي خير النسّاج، وحضر مجالسه، وفتن به، فانصرف عن الدنيا، وطلب من أهل الولاية التي هو عليها أن يعفوه من أمرهم، وبدأ المجاهدة والتصوّف، فصحب الجنيد شيخ الصوفية، وارتبط به حتى كانا إذا افترقا سعى الشبلي إليه يقول :

عَوّدوني الوصال، والوصل عذب
ورموني بالصدّ، والصدّ صعب
زعموا حين أزمعوا أن ذنبي
فرطُ حبي لهم وما ذاك ذنب
لا وحقّ الخضوع عند التلاقي
ما جزى من يحب إلا بحب

فيجيبه الجنيد :

وتمنيـــت أن أرا ك فلما رأيتكـــما
غلبت دهشة السرور فلم أملك البُكَما

وكان الشبلي كالجنيد فقيهاً وصوفياً، وقال فيه أبو عبد الله الرازي: لم أر في الصوفية أعلم من الشبلي. - ومن تفسيراته الصوفية للقرآن أنهم سألوه في معنى: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ (غافر ٦٠)، فقال: ادعوني بلا غفلة استجب لكم بلا مهلة؛ وفي معنى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾ (النور ٣٠)، قال: أبصار الرءوس عمّا حرم الله تعالى، وأبصار القلوب عما سوى الله ؛ وفي معنى: ﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ﴾ (الرعد ٣٩)، قال: يمحو ما شاء من شهود العبودية وأوصافها، ويثبت ما يشاء من شواهد الربوبية ودلائلها ؛ وفي معنى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ (المؤمنون٣)، قال: كل ما دون الله لغو. - والله تعالى هو كل دائرة تفكير الشبلي، وهو كل الحبّ الذي أودعه الله تعالى في قلبه، ومركز الدائرة في تفكيره

هو التوحيد. والتصوف بدؤه معرفة الله، ونهايته توحيده. ولم تكن تسمية الصوفية بالصوفية إلا لأنهم جرّدوا أنفسهم لله تعالى، فعرفوه فوجدوه فصفت نفوسهم من كل كدر. والتصوف ترويح للقلوب بمراوح الصفاء، وتجليل الخواطر بأردية الوفاء، والتخلّق بالسخاء، والبشر في اللقاء، - يعني أن الطريق هو التخلّق بالأخلاق الربّانية ونبذ الأخلاق الدنية. ويزيد الشرح فيقول: التصوف ضبط حواسك، ومراعاة أنفاسك. وهو لا حال يقل، ولا سماء يظل، يعني أن الصوفي ليس على حال واحدة ، وإنما طريقه هو الصعود باستمرار عبر مدارج الكمال. ويقول: ما أحد يعرف الله، قالوا كيف؟ قال: لو عرفوه لما اشتغلوا بسواه. وقال: ما أجوع الناس إلى سكْرة، فقالوا: أي سكرة؟ قال: سكرة تغنيهم عن ملاحظة أنفسهم وأفعالهم وأحوالهم والأكوان وما فيها . وقالوا : أليس يخطر الكون ببالك؟ قال: ليس يخطر الكون ببالي، وكيف يخطر الكون ببال من عرف المكوّن؟ وقال: أهل الغفلة عن الله تعالى هم أهل البلاء. مساكين هؤلاء «المماليك»: نظروا بعيونهم إلى الملكوت المخلوق، ورضوا بالجنّات المخلوقة، فبقوا معها خالدين فيها ؛ وأما «الملوك» فلم يرضوا بها، فنظروا بقلوبهم إلى ملك الملوك، فبقوا معه في مقعد صدق عند مليك مقتدر. وقال: طرفة عين في غفلة عن الله لأهل المعرفة شرك .

وكانت مجاهداته في بدايته فوق الحد، فلابد من الاجتهاد والمجاهدة، ولكنهما لا يوصلان إلى شئ من الحقيقة، لامتناعها عن أن تُدرك بجهد أو اجتهاد، وإنما هي مواهب يصل العبد إليها بإيصال الحق تعالى لا غير، ولولا أنه تعالى يبدأ العبد بالمحبة ويهديه لما أحبه، لما وَصَل إلى شيء. والمريد ليست له فترة، أي هو دائم المجاهدة مثابر عليها، ودائم الذكر لله. والاعتبار لذكر القلوب. يقول: ليس للأعمى من الجوهرة إلا لمسها، ولا للجاهل من الله إلا ذكره باللسان. والمريد الذي يبلغ الفلاح هو الألهج بذكر الله، والأسرع مبادرة لرضاه تعالى، فذكر الله تعالى على الصفاء ينسى العبد مرارة البلاء، ومع ذلك فليس من استأنس بالذكر كمن استأنس بالمذكور. ويقول الشبلي: إني لا استريح إلا إذا دخلتُ حضرة الشهود، لأنه لا ذكر فيها، استغناءً عنه بالشهود، لأن الذكر إنما هو للغائب.

والأمر في الزهد عند الشبلي أنه تحويل القلب من الأشياء إلى ربّ الأشياء.

وكذلك الشأن فى التوكل، يقول: إن أحدكم يزعم أنه يتوكل على الله وهو يكذب، فلو توكل عليه لرضى بفعله! وكذلك الرجاء، فهو أن ترجو أن لا يقطع بك دونه. وأما المحبة فهى صراط الأولياء، وتقويتها بالهمّة، فمن ملّت همته ضعفت محبته!!. والأعجب عند الشبلى من أمر المريد هو أن يعرف الله ثم يعصاه؟ وأما المحبّ الذى لا تفتر محبته فهو دائم الشوق للحقّ، ومحبته تدفعه إلى سرور من يشتاق إليه وموافقته. ولا بد له فى محبته من الأدب، يقول: الانبساط مع الحق بالقبول ترك الأدب. وليس للمحبة مع الحق إلا تعريف واحد: أنها اتباع أوامر المحبوب وتجنّب نواهيه، ويجب فيها الإخلاص والصدق وكتمان الحال. وهى الفراغ للحبيب وترك الاعتراض على الرقيب. والمحبة كأس لها وَهَج، إن استقرت فى الحواس قتلت، وإن سكنت فى النفوس أسكرت، فهى سُكر فى الظاهر، ومحبة فى الباطن. وسألوه: فهل تظهر صحة الوجد على الواجدين؟ فقال: تظهر نوراً، مقارناً بنيران الاشتياق، التى يلوح على الهيكل آثارها. والمحبة الكاملة لله تعالى هى أن تحبه من قبَله.

ليس تخلو جوارحى منك وقتاً
هى مشغولة بحمل هواك
ليس يجرى على لسانى شئ
علَمَ الله ذا - سوى ذكراك
وتمثلتَ حيث كنتَ بعينى
فهى إن غبتَ أو حضرتَ تراك

وكان الشبلى يبالغ فى تعظيم الشرع، وإذا جاء رمضان قام بتعظيمه لأنه شهر عظّمه ربّى، ويقول: لا تأمن على نفسك وإن مشيت على الماء». والمهم هو: موافقه الله فى أوامره ونواهيه». وكمال المعرفة هو: إذا كنت قائماً بما أُمرت، تاركاً لتكلف ما كُفيت، فأنت كامل العقل. وإذا كنتَ بالله متعلقاً لا بأعمالك، غير ناظر إلى سواه، فأنت كامل المعرفة». وسألوه عن معجزته فقال: هى أن تعرض خاطرى فى حال صحوى على خاطرى فى حال سكرى، فلا يخرجان عن موافقة الله تعالى.

والصوفى فى لغة الشبلى هو الفقير، لأنه فى كل أوقاته وأحواله فقير إلى الله تعالى؛ والإفلاس هو الاستئناس بالناس؛ ونصيحته لأتباعه: إلزم الوحدة وامح اسمك من القوم، والزم الجدار حتى تموت!!

واشتهر الشبلى بالشطح، وأهم ما أُثر عنه قوله لبعض من سمعوه «إيش أعمل بلظى وسقر (الجحيم)؟ عندى أن لظى وسقر

(بقصد القطيعة عن الله) فيها تسكن»، يعني أن الجحيم لا تعتبر شيئاً إلى جانب القطيعة والإعراض، لأن من عذبه الله بالقطيعة حتى لتصير سكنه ومستقره، فهو أشد عذاباً ممن عذّبه بلظى وسقر، وهو قول يعني أنه قد جرّد الجحيم فجعلها بمعنى القطيعة عن الله، فالمقطوع عن الله أشد إحساساً بالعذاب المعنوي من عذاب المعذّب بالجحيم. وعدم احتفاله بالنار يجعله يطلب أن يُلقَى فيها، فقال لما سمع قارئاً يقرأ عنها: ﴿اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ (المؤمنون ١٠٨) «ليتني كنت هناك، وإذن لبزقتُ عليها فأطفأتها، ربما اعتقاداً منه بأن عباد الله الصدّيقين بوسعهم إطفاء النار، يقول: «إن لله عباداً لو بزقوا على جهنم لأطفأوها»! وقوله - في رأي البعض - يقصد به المعنى الباطن، يعني تجريدها من المعنى الحسي، وهو ما يقصد إليه بالإطفاء، ولا يكون ذلك إلا لمن انصرف بكليته إلى الله، وهي درجة إذا بلغها العابد فلا يعود يهمه شئ أو أحد. يقول: إن مر بخاطرك ذكر جبريل وميكائيل عليهما السلام أشركت»، يعني أنه في هذا المقام فإن مجرد أن يمر شيء آخر دون الله بخاطره يكون شركاً بالله، وهذا هو مقام الولاية، وفي هذا المقام يقول: «يا قوم، أُمرُّ إلى ما لا وراء فلا أرى وراء، وأُمرُّ يميناً وشمالاً إلى ما لا وراء فلا أرى إلا وراء، ثم أرجع فأرى هذا كله في شَعرة من خنصري»، يعني أنه صار يساوي بين الأشياء فاللاوراء يستوي بالوراء، واللانهائية تستوي بالنهائية، وكلتاهما شعرة من خنصره، أي كل شئ مهما صغر فهو جزء من الوجود، والوجود هو وحدة كل الأجزاء، والكل هو الله تعالى، ولا شيء غير الله. يقول: إن قلت كذا فالله، وإن قلت كذا فالله، وإنما أتمنى منه ذرة»، يعني أنه بدأ يستشعر الاتحاد ويتمناه، ولذلك بدأ يشعر أن له عزة تزيد على عزة الناس، فإذا كانت العزة لله جميعاً فهو قد صار مع الله حتى صارت عزة الناس من عزته. يقول: «نظرت في كل عزّ، فزاد عزي عليهم، ورأيت عزّهم ذاك في عزّي. ومن كان يريد العزّة فلله العزّة جميعاً»، فإذا كان هذا ما آل إليه شعوره فهو يتوجه إلى من حوله ويقول: أنا معكم حيثما كنتم. أنتم في رعايتي وفي كلايتي». وهو يدرك الفرق بين ناسوته ولاهوته، فيقول مفرقاً بين نفسه وسرّه: «نفسي تطلب مني كسرة خبز. ولو التفتَ سرّي إلى العرش والكرسي لاحترق»، يعني أن نفسه مُحدَثة ومخلوقة، لكن سرّه قديم وأقدم من العرش والكرسي، ولذلك يحترقان لو

شاهدا سرّه. ويبلغ أقصى ما يمكن أن يبلغه الوجد عندما يقول: «أنا الوقت، ووقتي عزيز، وليس في الوقت غيري، وأنا مَحْقٌ»، يعني: أنه الدهر، والدهر هو الله، فليس يوجد سواه، وهو الباقي والكل يفنى عنه، والذي يبلغه يفنى به فيه، والبلوغ أو الوصول مَحْقٌ لكل ما عداه. وهو في هذه المرتبة يمر بمرحلتين، في الأولى يكون السلب فيقول لا إله إلا هو، ولا إله إلا الله، وفي الثانية هو الإيجاب فيقول «الله» لاغير، والصوفي الواصل هو الذي يتجاوز السلوب لأنه عدم، ويكون مع الوجوب لأنه وجود يخلو من العدم، ومن كان مع الله فهو الموجود به وجوداً أبدياً، لأنه هكذا يخبرنا الحق «خالدين فيها أبداً»، فأما وقد بقي بالله فصار كما يقول الحديث: «سمعه ويده إلخ» ومن ثم فقد صار لذلك يقول: «أنا أقول وأنا أسمع»، «ولو دبّت نملة سوداء، على صخرة صمّاء، في ليلة ظلماء، ولم أشعر بها أو أعلم بها، لقلت إنه ممكور بي»: يعني أنه لو كان دون هذه المرتبة كما وعد الحق، لقال إنه قد غرر به، ولكنه يعتقد أنه قد بلغ ما بلغ، ولذلك يقول إنه سيشفع في الناس: «والله لا رَضِيَ محمد وفي النار من أمته أحد. إن محمداً يشفع في أمته، وأنا أشفع بعده حتى لا يبقى فيها أحد»! يعني أنه يضع الولاية في مرتبة أعلى من النّبوة، وهو سيشفع في كلّ الناس يوم القيامة بحكم ولايته. ويقول: «أنا النقطة التي تحت الباء»، وتلك أعلى المقامات، فالنقطة في الباء هي التي تقوم بها، وكذلك الوجود كله، فبالشبلي قيام الوجود كله، يعني أنه «القطب الغوث» «وقائم الزمان»؟!

يقول: أنا أقول وأنا أسمع، فهل في الدارين غيري!! - يعني هو الله! - وتشخيصي لحالته أنه يشكو من برانويا - أو جنون عظمة، وهذه الخواطر عنده هي هذيانات وأضاليل المرض.

* * *

١٩٥ - ابن شرقاوي...

أحمد بن شرقاوي بن مساعد (١٢٥٠-١٣١٦هـ)، من أعلام التصوف في صعيد مصر، وشهرته أبو العباس الخلفي، نسبةً إلى قرية الخلفية أو الخلافية من قرى جرجا، وذكره الإمام محمد عبده فقال: إنه من العلماء العاملين، ومن بقايا شيوخ الطريق المخلصين.

ومذهب ابن شرقاوي في التصوف تربوي أساساً، وكان من أقطاب الخلوتية في الديار المصرية، وقد عمل على تجديد تعاليمها، وكان مصلحاً اجتماعياً دينياً، وله

مصنفات: «شمس التحقيق وعروة أهل التوفيق» فى التصوّف والأخلاق؛ و«نَضْحَة الذاكرين وإرغام المكابرين»، ويضم مباحث فى الحقيقة والشريعة والصلة بينهما؛ و«المورد الرحمانى»، وهو منظومة تبلغ مائتى بيت وسبعة، فى علمىّ التوحيد والتصوف، وقد استهلها بقوله:

يقول داعى المنهج الحفناوى
أحمد لجبل الخلفى شرقاوى

ويقصد بالحفناوى الشيخ محمد الحفنى الداعى الأول للطريقة الخلوتية، والذى ينتسب إليه ابن شرقاوى، ولعله لذلك يُكنّى بابن شرقاوى أو الشرقاوى، أى أن أصوله من الشرقية، وكان الشيخ محمد الحفنى شرقاوياً كذلك، وهو الجدّ الأعلى لكاتب هذه الموسوعة.

وابن شرقاوى تحدّث فى منظومته عن الطريق وآدابها، وله كذلك «منحة الفتّاح ورقية الأرواح» الموسومة بالنفسية والتى يقول فى مطلعها:

يا نفسى كُفّى عن سوى مولاك
وأبغى حماه فالسوى أرداك

يخاطب فيها النفس، ويحذرها من المعاصى، ويطلب إليها التقرّب من المَلِك العلاّم؛ وله أيضاً «الوسيلة الحسنى فى نَظْم أسماء الله الحسنى» ومطلعها:

يارب بالحسنى من الأسماء
أشرق شموسَ القُرب فى سمائى
وافتح صميم القلب يا الله
وامزجه بالتوحيد يا مولاه

ومن تلاميذ ابن شرقاوى: العارف بالله السيد يوسف الحجّاجى الأقصرى، المتوفى ١٣٣٣هـ، وقد ذكره ابن شرقاوى فقال مترجماً له: أنه السيد أحمد بن السيد يوسف الحجاجى مَحْتِداً، والأقصرى بلداً ومولداً، والشافعى مذهباً، والخلوتى سيراً ومَرْباً - ومن تلاميذه أيضاً أحمد الطاهر الحامدى، المتوفى سنة ١٣٣٢هـ، من الحامدية مركز الأقصر، وقد تولى شرح منظومة المورد الرحمانى لأستاذه بعنوان «الكشف الربّانى عن المورد الرحمانى»، ويقول فى المقدمة: إن أستاذه قد طلب إليه ذلك فى حياته، وقد وافقه على ما ذهب إليه فيها». وله أيضاً «مطية السالك إلى مالك الممالك»، وهو عند الخلوتية من أركان الطريق وآدابها، ويذكر فى المقدمة أنه صنّفه بناءً على طلب أستاذه ليكون نبراساً للمريدين، واختتمه بأن الطريقة الخلوتية: هى خلاصة جميع الطرق، وأنها تجمع آدابها. ومن تلاميذه أيضاً محمد حسنين مخلوف، والد حسنين محمد مخلوف مفتى الديار

المصرية الأسبق، وقد توفى سنة ١٣٥٥ هـ، وله «إتحاف الوارد بأشعة الأوراد للسادة الخلوتية»، ألّفه بأمر أستاذه؛ و«شرح المورد الرحمانى» فى التوحيد والتصوّف؛ و«شرح نصيحة الذاكرين» لأستاذه.

* * *

١٩٦ - الشرنوبى -

أحمد بن عثمان بن أحمد بن علىّ الشرنوبى (٩٣١ - ٩٩٤هـ)، له «طبقات الشرنوبى» فى مناقب بعض الأولياء، أملاه على تلميذه محمد البلقينى. ومن نظمه تائية «السلوك إلى ملك الملوك»، شرحها عبد المجيد الشرنوبى المتوفى سنة ١٣٤٨ هـ فى كتابه «شرح تائية الشرنوبى».

* * *

١٩٧ - الشريشى السّلوى -

أبو العباس تاج الدين أحمد بن محمد الشَّريشى، ولد سنة ٥٨١هـ فى سلا من ضواحى الرباط بالمغرب، وأخذ عن علماء فاس والأندلس وبغداد ومصر، وتصوّف على أبى حفص السهروردى، واستقر فى الفيوم بمصر، وتوفى بها سنة ٦٤١هـ/ ١٢٤٣م، واشتهر بقصيدته الرائية فى التصوف، سماها «أنوار السرائر وسرائر الأنوار»، وشرحها أحمد بن يوسف الفاسى، وتعرف بالرائية الشريشية، أولها:

إذا ما بدا من باطن حالة الزجر.. فما هو إلا البرّ مَن منح البرّ

* * *

١٩٨ - الششترى -

الصالح العابد الأديب، أبو الحسن علىّ بن عبد الله النميرى الششترى (٦١٠ - ٦٦٨ هـ)، وينسب إلى بنى نمير من بطون هوازن، وششتر إحدى قرى وادى آش بالأندلس حيث مولده، وله تقدُّم فى علم النظم والنثر على طريقة التحقيق، وشعره فى غاية الانطباع والملاحة، وتواشيحه ومقفّياته ونظمه الزجلى فى غاية الحُسن.

ويذكره الذاكرون فيقولون: كان من الأمراء وأولاد الأمراء، فصار من الفقراء وأولاد الفقراء - وقيل بدأ حياته تاجراً متجولاً ورحل إلى بلاد عدة، وفى إحدى رحلاته إلى بجاية حضر حلقة ذكر لأتباع أبى مدين، الصوفى المشهور، ولزم مجلس محيى الدين بن سراقة تلميذ السهروردى صاحب المعارف، وأخذ عنه التصوف.

وفى بجاية أيضاً التقى بابن سبعين، فافتتن به، رغم أنه كان يكبر ابن سبعين، وانجذب، كما يقول فى بعض قصائده، إلى «مغنطيس النفوس» و «إكسير الذوات»، وبلغ به الافتتان أن كان يطلق

على نفسه فى منظوماته اسم «عبد ابن سبعين».

ويقول بعض مؤرّخيه أنه كان وزيراً وعالماً قبل أن يلتقى بابن سبعين، فلما انضم إليه اشترط ابن سبعين عليه أن يخرج عن الأسباب ويتضّع. قال: «لا تنال منها شيئاً حتى تبيع متاعك وتلبس قشبانية (أى خرقة)، وتأخذ بندیراً (أى علماً)، وتدخل السوق»، ففعل جميع ذلك، وسأل ابن سبعين: فماذا أقول فى السوق؟ فقال له: قل: بدأتُ بذكر الحبيب». ففعل ولم يضف شيئاً مدة يومين، وفى الثالث بدأ يغنى فعلاً بعلوم الأذواق، إلهاماً وبعفوية، وقال:

بدأت بذكر الحبيب ∴ وعيشى بطيب
لما دار الكأس ∴ ما بين الجُلاّس
عنهم زال الباس
سقاهم بكأس الرضا ∴ عفا الله عما مضى

واستمر ينشد ويعزف على آلة بيده، سَمّيت الششترية على اسمه، والناس ينظرونه وهو يقول لهم:

شـــويخ من مكناس
فى وسط الأســواق يغنى
إيش علىّ من الناس
وإيش على الناس منى ؟

وتذكر الرواية أن ابن سبعين لما وجد الششترى متراوحاً بينه وبين أبى مدين، قال له: إن كنت تريد الجنة فسر إلى أبى مدين، وإن كنت تريد ربّ الجنة فهلم إلىّ!!!!

وقد تنقل الششترى وذهب إلى مصر، فلما دخلها كانت له طريقته التى تشعّبت عن السبعينية، إلا أنه كما قيل تبرأ من مذهب الحلول والاتحاد فى آخر حياته. وقيل إنه لما قدم إلى مصر دخلها فيما ينيف على أربعمائة فقير يخدمونه!وقد اعتكف الششترى أول الأمر بالجامع الأزهر، وكان اجتماعه بمريديه فيه أو بباب زويلة.

والششترى أول من استخدم الزجل فى التصوّف، وكذلك كان ابن عربى - وهو أيضاً من دعاة وحدة الوجود؛وأول من استخدم الموشح فى موضوعها. وخطورة الششترى - كما يقول خصومه - أنه يعبّر فى زجله أو شعره عن المذهب ببساطة تعوز ابن عربى، وذلك ما جعل ابن تيمية ينبّه إليه باعتباره صاحب الأزجال، وأنه يغوى الناس ويستلب عقولهم فلا يميّزون معانى الكلام، ولكنه يعجبهم لبساطته ولقربه من كلامهم.

وكان تلاميذ الششترى يرجّحونه على ابن سبعين، لأنه أقرب إلى التصوّف السنّى من مذهب وحدة الوجود. ولعله لهذا

السبب أيضاً لم يطعن فيه فقهاء مصر، وقد صنف عبد الغني النابلسي رسالة فيه بعنوان: «ردّ المفتري عن الطعن في الششتري».

واشتهرت الششترية كطريقة متميزة عن طريقة ابن سبعين، على الأقل في اعتمادها على السماع والموشحات التي كان يؤلفها الششتري، حتى أن ابن الرانده دعا إلى جمع تراث الششتري الشعري الإنشادي، وهاجم ابن سبعين لغموضه. ولكن الششتري في حياته كان يدافع عن أستاذه ويقول: «إنهم يفعلون ذلك لقصورهم عن فهم حقيقة الشيخ».

وفي مصر كان الششتري يتردد على الأديرة ويلتقي بالرهبان وعرف طريقتهم، لأن مذهبه وحدة الوجود هو نفسه النصرانية، فكان يتلقى منهم ويردد ذلك في شعره. ومع ذلك اعتبر الششتري نفسه من الشاذلية في مصر، وقال: «شيوخي... هم الشاذلية»! وورث رباطه الشاذلية من بعده، وأنشد هؤلاء موشحاته.

وللششتري «الرسالة العلمية، والمقاليد الوجودية في أسرار الصوفية»، و«الرسالة البغدادية». ويقسم اتباعه ديوانه الشعري قسمين، أحدهما يتضمن مذهبه الصوفي الفلسفي، من مثل قصيدته التي يقول فيها:

فكم واقف أردى وكم سائر هدى
وكم حكمة أبدى وكم مُلق أغنَى
وتيّم الباب الهرامس كلهم
وحسبك من سقراط أسكنه الدنّا
وجرّد أمثال العوالم كلها
وأبدأ أفلاطون في أمثل الحسنى

والقسم الآخر موشحات وأزجال لإنشاد وتعليم المبتدئين، من مثل:

يا حاضراً في فؤادي...بالفكر فيكم أطيب
إن لم يزر شخص عيني...فالقلب عندي ينوب
ما غبتُ لكنّ جسمي...من النحول يذوب

أو قوله:

دعني يا سالي ... لو ذقتَ سلسالي
عرفتَ حالي ... والذي في بالي

أو قوله:

مُدامُك يا شيخ الحضرة... مُدامٌ عجيب
وكل العالم به يسرا ... إيش ما يصيب

* * *

١٩٩ - الشعراني (الشيخ الإمام)...

أبو المواهب عبد الوهاب بن أحمد ابن علي الشعراني، نسبةً إلى قرية ساقية أبي

شعرة بالمنوفية، حيث هاجر إليها جَدّه من الصعيد واستوطنها، وكانت له بها زاوية للتعليم.

وعائلة الشعرانى أصلاً من تلمسان، وغادروها إلى الصعيد بناءً على نبوءة من الصوفى الإمام أبى مدين المغربى، ثم غادروها إلى المنوفية.

وكان ميلاد الشعرانى سنة ٨٩٨ هـ، وبعد أن توفى أبواه وتركاه يتيماً ليس له إلا الله نصيراً ووليّاً كما يقول، سافر الشعرانى إلى القاهرة سنة ٩١٠ هـ، وأقام فى مسجد سيدى أبى العباس الغمرى سبعة عشر عاماً، يتعلم ويعلّم، ويتهجّد ويتعبّد، واتصل بصفوة العلماء من يومه الأول، ومنهم جلال الدين السيوطى، وزكريا الأنصارى، وناصر الدين اللَّقانى، والرملى، والسمنودى، ودرس عليهم وعلى أضرابهم العلوم الإسلامية، واللغة العربية، والأصول، والفقه، والتصوف، والحديث، والتفسير، والأدب، حتى غدا بحراً زاخراً لا تُدرك أبعاده، ثم انصرفت همته إلى سلوك أهل التصوف، فاتصل بشيوخهم، وتردد عليهم، وفتح الله عليه بالشيخ علىّ الخواص، فكان معراجه وسُلّمه، وعلى يديه أصبح إمام عصره علماً وذوقاً.

والشعرانى عالم متحقق كانت له جهوده فى الدعوة إلى الله تعالى، وأسس زاوية يتلقّى فيها الطلاب علوم الظاهر والباطن، وأصبحت زاوية الشعرانى منارة إسلامية، وكانت مثابة للعلماء، ومنبراً للدعوة والإرشاد، وساحة للذكر والعبادة، ورواقاً يضم المريدين ويأوى السالكين، وأثرى المكتبة الإسلامية بعدد كبير من كتب التصوف، يذكر على باشا مبارك فى موسوعته الخُطَط التوفيقية، أنه رأى منها سبعين كتاباً، منها: «الأجوبة المُرضية عن أئمة الفقهاء والصوفية»؛ و«الأنوار القدسية فى معرفة آداب العبودية»، وبعضهم يجعل العنوان «معرفة آداب الصوفية»؛ و«بهجة النفوس والأسماع والأحداق فيما تميّز به القوم من الآداب والأخلاق»؛ و«تنبيه المغترين فى آداب الدين»؛ و«الجواهر والدُّرر الكبرى»؛ و«دُرَر الغوّاص من فتاوى الشيخ علىّ الخوّاص»؛ و«القواعد الكشفية فى الصفات الإلهية»؛ و«الكبريت الأحمر فى علوم الشيخ الأكبر»؛ و«لطائف المنن» المشهور بكتاب «المنن الكبرى»؛ و«لواقح الأنوار فى طبقات الأخيار» مسجلدان، ويُعرف بطبقات الشعرانى الكبرى؛ و«لواقح الأنوار القدسية فى بيان العهود المحمدية»؛ و«مدارك السالكين إلى رسوم

طريق العارفين»؛ و«مشارق الأنوار»؛ و«المنح السنية»؛ و«اليواقيت والجواهر في عقائد الأكابر».

ويقول الشعراني إن ما دعاه إلى كتابة هذه الكتب هو الحالة المتردّية التي كان عليها التصوّف والصوفية في زمنه، وينعى على من توفي من أكابر المشايخ، «فلما ذهبوا زالت حُرمة الطريق وأهلها، وصار الناس يسخرون بأحدهم ويقولون لبعضهم ما دريتم ما جرى، فلان الآخر عمل شيخاً، كأنهم لا يسلمون له ما يدّعيه لما هو عليه من محبة الدنيا وشهواتها، والتلذذ بمطامعها وملابسها ومناكحها، والسعي على تحصيلها»، ويحذر الشعراني من قراءة كتب العارفين إلا لعالم كامل أو من سلك طريق القوم، وأما من لم يكن كذلك فلا ينبغي له مطالعة شيْ منها، خوفاً عليه من إدخال الشُبَه التي لا يكاد الفطن أن يخرج منها، فضلاً عن غير الفطن. ومما يقع فيه كثير من الناس قولهم: «يا من يرانا ولا نراه»، وقولهم: «سبحان من كان العلا مكانه»، ونحو ذلك مما لا يجوز التلفّظ به، لما يورثه من الإيهام عند العوام، وقد أجمع أهل السُنّة على منع كل إطلاق لم ترد به الشريعة، وأجمعوا على وجوب تأويل أحاديث الصفات كحديث «ينزل ربّنا إلى سماء الدنيا». ومما يمنع شرعاً إطلاق بعضهم على الله تعالى اسم الخَمّار، والساقي وليلى، ولُبنى، وسُعْدَى، ودَعْد، وهِنْد، والكنز الأكبر، ونحو ذلك. وكذلك لا يجوز إجماعاً إرادة ذاته تعالى بقول بعضهم:

أنا من أهوى ومن أهوى أنا

نحن روحان حللنا بدنا

وقولهم:

تمازجت الحقائق بالمعاني

فصرنا واحداً روحاً ومعنى

فكل هذا وأمثاله لا يجوز عند أهل السُنّة. وكذلك مما ينبغي اجتنابه قول بعضهم: «ما في الوجود إلا الله»، وقولهم: «إن الله في قلوب العارفين»، وإنما الصواب أن يقال: «ما في الوجود في الأزل إلا الله»، و«معرفة الله في قلوب العارفين»، وإليه الإشارة بحديث: «وسعني قلب عبدي المؤمن»، أي وسع معرفتي من غير إحاطة بي. وكذلك ينبغي اجتناب قول بعضهم: «هذا زمان سوء»، لأن الزمان هو الدهر، والدهر هو الله. وكذلك يحذّر من مواضع في كتاب «قوت القلوب» للمكّي (انظر تحقيق الدكتور الحفني للكتاب)، من مثل قوله: «الله تعالى قوت العالم»، ومن

مواضع فى تفسير المكّى، ومن مواضع كثيرة فى كلام ابن ميسرة الحنبلي، ومن مطالعة كتب الشيخ محيى الدين بن عربي، لعلو مراقيها ولما فيها من الكلام المدسوس على الشيخ، لا سيما فى «الفصوص» وفى «الفتوحات المكية»، وكل ما فى كتبه من الأمور المخالفة مدسوس عليه. ويحذّر من قراءة كتب عبد الحقّ بن سبعين لما فيها مما يوهم الحلول والاتحاد والتشبيه، وأقوال عمر بن الفارض فى التائية، والجمهور على جواز تأويلها. ودافع الشعرانى عن ابن عربى وأوضح ما يريد من أقواله، من مثل: «حدّثنى ربّى عن قلبى»، أو «حدّثنى ربّى عن نفسه بارتفاع الوسائط»، فقال: ليس مراده أن الله تعالى كلّمه كما كلم الأنبياء، وإنما أن الله تعالى يُلهمه على لسان مَلَك الإلهام بتعريف بعض الأحوال.

وكتاب الشعرانى «المنن» من أفضل وأشرف كتب الأخلاق، ويوضح فيه معالم الآداب الإسلامية؛ وكتابه **«لواقح الأنوار القدسية فى بيان العهود المحمدية»** هو طرح لمعتقداته، مما يمكن أن يكون نبراساً للصوفى، ومثلاً حياً له فى الأخلاق باعتبار الرسول هو المثل الأعلى لكل مسلم. ويقول فى مقدمته: هذا كتاب نفيس لم يسبقنى أحد إلى وضع مثله، والباعث لى على تأليفه ما رأيته من تنافس الإخوان على ما ينقصهم من دنياهم، ولم أر أحداً يفتش على ما ينقصه من أمور دينه. - وفى سبيل الغاية نفسها ألّف الشعرانى كتاب **«الأنوار القدسية»**، وخصّصه لتوضيح المناهج الصوفية والصلات التى تربط الشيخ والمريد، والآداب ككل. وقد فضح الشعرانى الدجّالين والمشعوذين من مدّعى التصوف فى كتابه **«الطبقات»**، فقد رأى فيهم البلاء، وتعقّب شيوخ عهده مُظهراً جهلهم وكفرهم وسوء أدبهم، وهذا ما يجعل قرّاء هذا الكتاب يندهشون لإدراج الشعرانى لهؤلاء ضمن تراجم السلف الصالح، ولكنه جعل ذلك ليتيح للقارئ المقارنة بين هؤلاء وأولئك، وجعل كتبه **«تنبيه المغترين»**، و**«المنن الكبرى»**، و**«الأنوار القدسية»**، و**«قواعد الصوفية»**، كلها ليجلو الأخلاق الصوفية المثالية.

والشعرانى مصلح دينى واجتماعى، ويدعو الصوفى الحقّ إلى العمل، وأن تكون له حرفة يتعيش منها ولا يكون من المتبطّلين، وينتقد الفقهاء الذين يعلمون كثيراً ولكنهم لا يعملون بما يعلمون ولا يحضّون على الفضيلة وينهون عن المنكر، ويقول إن عداءه للصوفية والفقهاء الذين

ليسوا على الجادة، هو الذى ألّب هذه الفئات عليه، فكادوا له، وأضافوا إلى مقدمة كتبه ومتونها: إضافات من عندهم تخالف ظاهر الشريعة، واستفتوا عليه زوراً وبهتاناً، واستعدوا عليه الحاكم، وأخيراً لجأوا إلى محاولة اغتياله فى الطريق! ثم حاولوا دسّ السم له! وأفلحوا مع تلميذه المناوى فمات بتدبيرهم! ونجىّ الله الشعرانى، وحبّب فيه الناس، حتى أن الأمير حسن بك صنجق صار من مريديه، وخرج عن ماله وفرّقه على الناس، وصمم على أن يبنى ضريحاً للشعرانى! ويشاء الله أنه ما أن انتهى العمل فيه حتى وافته المنية سنة ٩٧٣هـ، وكانت آخر كلماته: «أنا ذاهب إلى ربّى الرحيم الكريم». ومع ذلك فمن المحتمل أن الشعرانى كتب ما رأينا أنه إضافات، وأن ماكتبه ربما كان هو اعتقاده فعلاً، وعندئذ يكون قد أغرب وانحرف، والحق أن مؤلفاته مليئة بالعجائب التى لو صحّ نسبتها إليه فربما لا تكون عقيدته قد فسدت، وإنما عقله أيضاً قد اختل ميزانه، ومن ذلك أنه كتب عن كرامات سيده العجمى الذى يتسمىّ به شاطئ العجمى بالإسكندرية. أنه قد وقع بصره على كلب فصارت الكلاب تنقاد إليه، ويهرع الناس إليه لقضاء حوائجهم، فلما مرض الكلب، اجتمعت حوله الكلاب يبكون ويعولون، وألهم الله الناس فدفنت الكلب، فكانت الكلاب تزور قبره، حتى ماتوا !!! يقول الشعرانى: فهذه نظرة من العجمى وقعت على كلب فكان له هذه البركات، فكيف لو وقعت على إنسان ؟ - ويقول الشعرانى عن العجمى: إنه كان يخرج من خلوته، فكل من وقع عليه نظره انقلبت عينه ذهباً خالصاً!!! - فهذا كلام إنسان قد اختل عقله ! وإنه لشىء عجيب أن يؤلّه الشعرانى كلباً، وأعجب منه أن يبتلى كل من ينظر إليه العجمى فتتحول عينه إلى حجر وإن كان ذهباً !! فأى ابتلاء هذا أن يُحرَم نعمة النظر لقاء بعض الذهب ويُظَن أن ذلك من العجمى كرامة !!

* * *

٢٠٠ - شقيق البلخى (الزاهد التائب)...

أبو على شقيق بن إبراهيم من أهل بَلْخ، ومن مشاهير مشايخ خُراسان، توفى شهيداً سنة ١٩٤ هـ، فى معركة كولان من بلاد الترك. ويقول عنه تلميذه حاتم الأصمّ: كنا مع شقيق البلخى ونحن مصافّو الترك، فى يوم لا أرى فيه إلاّ رءوساً تطير، وسيوفاً تقطع، ورقاباً تقصف. فقال لى شقيق ونحن بين

الصفَّيْن، كيف ترى نفسك ياحاتم؟ تراه مثل ما كنت فى الليلة التى زُفَّت إليك امرأتك؟ قال حاتم: ثم نام شقيق بين الصفَّين، ودَرَقته (أى ترسه) تحت رأسه حتى سمعت غطيطه.

وشقيق البلخي أول من تكلم فى علوم الأحوال ـ أى علوم الصوفية ـ من أهل خراسان، ولسانه يغلب عليه التوكُّل والزُّهد، أى أن كلامه ينصرف أغلبه فيهما، وكان أستاذاً لكثيرين، أشهرهم حاتم الأصم، وسافر مرة وفى صحبته ثلثمائة مريد. وتلقى التصوف عن إبراهيم بن أدهم، وهو يقول عن نفسه : كنت رجلاً شاعراً وموسراً ومرابياً، وأتفتّى ـ أى أفعل فعل الفتيان، فرزقنى الله التوبة، فخرجت من ثلثمائة ألف درهم. وذكر حفيده على ابن محمد بن شقيق، أنه كان لجّده ثلاثمائة قرية! وذكر شقيق أنه لما تصوّف فى أول عهده، ظن التصوف لبس الصوف، فلبسه عشرين سنة ولا يعرف التصوف! ثم إنه التقى بعبد العزيز بن رواد، فأخذ عنه التصوف وفهمه، وقال له ابن رواد: يا شقيق! ليس البيان فى أكل الشعير، ولا لباس الصوف والشّعر! إنما البيان المعرفة: أن تعرف الله، وتعبده ولا تشرك به شيئاً؛ والثانية: الرضا عن الله؛ والثالثة: تكون لما فى يد الله أوثق منك مما فى أيدى المخلوقين. قال شقيق: فقلتُ: فسّر لى هذا حتى أتعلمه؟ فقال: عندما تعبد الله ولا تشرك به شيئاً، يكون جميع ما تعمله لله خالصاً، من صوم، أو صلاة، أو حجّ، أو غزو، أو عبادة فرض، أو غير ذلك من الأعمال، حتى يكون لله خالصاً. ثم تلا هذه الآية: ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾ (الكهف ١١٠).

وقيل فى سبب زهده أنه كان فى سَفْرة للتجارة فى تركيا، فدخل بيتاً للأصنام، والعالِم الذى يعلّم عبدتها يقول كلاماً لم يعجبه، فقام فيهم وقال للرجل: ما أنت فيه باطل، ولهؤلاء (يقصد الأصنام)، ولك، ولهذا الخلق خالقٌ وصانعٌ ليس كمثله شئ، له الدنيا والآخرة، قادرٌ على كل شئ، رازقٌ كلّ شئ فردٌ عليه العالم بأن قوله لا يناسب فعله، إذ طالما أن الله خالق وقادر ورازق، أفما كان الأولى أن يتوكّل عليه فيُرزَق فى بلده، بدلاً من السفر والعناء طلباً للرزق فى بلاد الغُربة ؟! ـ وقول هذا العالم قول جاهل، لأن التوكل بخلاف التواكل، والله خلق الأرزاق، فمن سعى لها نالها. ولكن شقيقاً ما كان قد نضج فكره، فما استطاع

أن يجيب، وأخذ بردّه، فما كان أحراه أن يفعل ذلك فعلاً، فهكذا قال لنفسه، ومن يومها طلب أن يتزهّد وتاب توبته الثانية، وتوكّل على الله، ودخل الطريقة، ونقل الزُّهد من الجوع الشامي، والصوف الكوفي، والبكاء البصري، إلى أمرٍ قلبيّ باطنيّ. فهذه هي فلسفة تصوّف شقيق إذن، وطريقته المتميّزة.

وقيل أيضاً في سبب زُهده، أنه رأى يوماً مملوكاً يمرح ولا يحمل همّاً، في وقت اشتدت فيه ضائقة المسلمين وعانوا الجوع، فعاتبه سائلاً: ولماذا الفرح والناس في كرب؟ فردّ عليه بما يعني: ولماذا لا يفرح وينحّي عنه الهّم ومولاه غني ويكفيه رزقه؟! ويقول شقيق: فتنبهت وتُبتُ مما كنت فيه، وسلكت الطريق. ـ وكما ترى يا أخي، فالأسباب قد تتباين، وإنما هو الهُدَى يؤتيه الله معونةً لمن يأخذ به دلالةً.

ويحكى شقيق عن سبب تلمذته على ابن أدهم ـ وقد سأله هو عن ذلك، فقال : سرتُ في بعض الفلوات، فرأيت طيراً مكسور الجناحين، فقلت أنظر من أين يُرزق هذا، فإذا بطير قد أقبل وفي فيه جرادة وضعها في منقار الطير المكسور، فاعتبرت، وتركت الكسب، وأقبلت على العبادة! ـ ولكاتب هذه الموسوعة تجربة شبيهة، ففي نادٍ من النوادي أصاب الرُّماة غُرابًا في جناحه، فلم يستطيع النهوض من الأرض، واجتمعت إليه الغربان يحاولون استنهاض قدرته بلا فائدة، فما كادت الشمس تميل إلى المغيب حتى شاهدتُ الغربان قد عادت، ويمرّ كل غراب بزميله المصاب، ويلقمه شيئًا في منقاره. وأظلم الليل واختفت الغربان، وبعد صلاة الفجر رأيت نفس المشهد السابق، وظل الحال هكذا أسبوعاً إلى أن شفي الغراب، واستطاع الطيران، فاعتبرتُ كذلك مثل شقيق، وذكرت الله كثيرًا!

ويتبين من روايات شقيق السابقة أن طريقته في التصوّف تقوم ـ كما يقول ـ أولاً على التوحيد، وهو أن توحّد الله تعالى بقلبك ولسانك وعملك، فإذا وحّدته بقلبك أن لا إله غيره، ولا نافع ولا ضار غيره، فليس لك بد من أن تجعل عملك كله لله لا لغيره، فإذا صرتَ مخلصاً بهذا القول، عاملاً له، أنه لا إله إلا هو، فليكن هو أوثق عندك من كلّ الناس ومن كلّ مَن على ظهر الأرض، وتوكّل عليه وحده. والتوكل على الله، هو ثاني أركان طريقة شقيق، ومعنى التوكل: هو أن يطمئن قلبك بموعود الله؛ ومعناه أن ترضى بما قضى الله، فهو القادر

والرازق، وهو كلّ شئ، ومن لم يعرفه بذلك فهو لم يعرفه، ومن أراد أن يمتحن معرفته بالله فلينظر ما وعده الله ووعده الناس، بأيهما قلبه أوثق. وسأله تلاميذه: بأى شئ يعرف بأن العبد واثق بربّه؟ فقال: **يعرف بأنه إذا أبطأ عليه شئ من الدنيا يكون أحبّ إليه من أن يأتيه. ـ والزهد هو الركن الثالث بعد التوحيد والتوكل.** يقول شقيق: عملت فى القرآن عشرين سنة حتى ميزت الدنيا من الآخرة، فأصبته فى حرفين وهى قوله تعالى: ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ (القصص ٦٠). والزاهد فى تصوّف شقيق: هو المنقطع إلى الزهد بقلبه، يخاف على نفسه من حصول الغنى له كما كان يخاف عليها قبل توبته من حصول الفقر. وعلامة صدقه فى زهده أن يفرح بكل شئ فاته من الدنيا، ويغتم لكل شئ حصّله منها، ومثله فى ذلك كمثل الرجل يغرس نخلة ويخاف أن تحمل شوكاً، ومثل المنافق كمثل الرجل يغرس شوكاً ويطمع أن يُحصِّل رطباً. وإذا كان الفقير الذى يريد أن يُعرَف بالفقر، راغباً فى الدنيا والتنعّم بملابسها ومناكحها، فبمن يقتدى الراغب حتى يخرج عن رغبته؟ وإذا كان العالم طامعاً وللمال جامعاً، فبمن يقتدى الجاهل؟ وإذا كان الراعى هو الذئب، فمن يرعى الغنم؟ وفرقٌ بين الزاهد والمتزهِّد: فالأول يقيم زهده بفعله، والثانى يقيم زهده بلسانه. والزاهد يتّقى الأغنياء، لأن صحبتهم تورّث الطمع فيهم، فيتخذهم أرباباً من دون الله، وهو الذى يطهّر قلبه من حبّ عروض الدنيا، حتى يُدخل فيه حبّ الآخرة. والزهد أوله صبر وآخره رضا. والصبر فى الزهد: هو صبرٌ على الجوع بالسرور لا بالفتور، وبالرضا لا بالجزع؛ والصبر على العرى بالفرح لا بالحزن؛ والصبر على طول الصيام بالتفضّل لا بالتعسّف، كأنه طاعم ناعم؛ والصبر على الذل، بطيب نفسه لا بالتكرُّه؛ والصبر على البؤس، بالرضا لا بالسخط. فهذه سبعة أبواب يسْلُك بها الصوفى الحقّ طريق الزُهّاد. وقوام ذلك كله أو أساس الطريقة: **هو المعرفة ـ المعرفة أولاً بالله؛ وثانياً معرفة نفسه؛ والثالث معرفة أمر الله ونهيه؛ والرابع معرفة عدو الله وعدو نفسه.**

وتفسير **معرفة الله بقلبك**: أن الله وحده هو العاطى، وهو وحده المانع، وأنه لا ضار غير الله، ولا نافع غيره؛ **ومعرفة النفس**: أن يستيقن العبد أن نفسه لا تستطيع شيئاً بدون الله، فليس بوسعها أن تضر ولا أن تنفع إلا ما قدّره الله؛ **ومعرفة**

أمر الله ونهيه: أن تعلم أن أمر الله عليك، وأن ما يقضي هو ما يكون، وأنه ما أمر بما أمر، ولا نهى عما نهى، إلا لأن في ذلك قضاءه، وأن ليس للإنسان إلا أن يثق في قضائه، وفيما أمر ونهى، وأن يخلص العلم بما أمر ونهى، والإخلاص في اتّباع الأمر والنهي لا يكون إلا بخصلتين: أن لا يطمع، وأن لا يجزع؛ ومعرفة عدو الله هي أن تعلم أن من كان عدواً لله فهو العدو حقاً، فلا أقل من أن تحاربه، والمحاربة في القلب، وأن تحاربه يعني أن تكون مجاهداً. يقول شقيق: فهذه الخصال الأربع هي المنجية، ولو أن رجلاً أقام مائتي سنة لا يعرفها لم ينج من النار.

وفي رواية أخرى قال: من عمل بثلاث خصال أعطاه الله الجنة: أولاً: معرفة الله بقلبه ولسانه وسمعه وجميع جوارحه؛ وثانياً: أن يكون بما في يد الله أوثق مما في يديه؛ وثالثاً: أن يرضى بما قسم الله له وهو مستيقن أن الله هو الأعرف بما يصلح له وما يقيمه، فذلك هو حق المعرفة.

وفي معنى المحبة قال شقيق: إن كان من يعطيك أحبّ إليك، فأنت محبٌ للدنيا، وإن كان من تعطيه أحبّ إليك، فأنت محبٌ للآخرة.

وفي معنى التوحيد قال: ثلاثة أشياء لابد للعبد من الأخذ بهن جميعاً أو يتركهن جميعاً، فالثلاثة في الواحدة، أولهن: أن توحّد الله بقلبك ولسانك وعملك؛ فبقلبك: أن تؤمن أن لا إله إلا الله، وأنه لا ضار ولا نافع إلا هو؛ وبلسانك: أن تشهد أن لا إله غيره؛ وبعملك: أن تجعل عملك كله لله، فإذا صرت مخلصاً بالقلب والقول والعمل، ووثقت به فإنك حتماً ستتوكل عليه، والتوحيد والإخلاص والتوكل هي جماع الأمر كله.

وقال شقيق: استتمام صلاح عمل العبد بست خصال: التضرّع الدائم، وحُسن الظن بالمسلمين، واشتغال المرء بعيوبه لا عيوب الناس، والستر على عيوب أخيه رجاء صلاحه، واستعظام ما اطّلع عليه منها رجاء أن لا يتردى هو فيها، وأن يكون صاحبه عنده مصيباً.

وأسلوب شقيق به دائماً هذه الإحصاءات المحددة، يقول «ثلاثة أشياء»، أو «أربع صفات»، أو «عشر خلال» وهكذا، وعباراته جميعها تصنيفية يقيم بها ـ ولأول مرة ـ علماً للتصوّف له شروطه وأبوابه وطرقه ومواصفاته. ويلجأ إلى نفس الشيء تلميذه حاتم الأصم؛ ومع أن شقيقاً تتلمذ على إبراهيم بن أدهم، إلا أن تلك

الطريقة لم يعرفها ابن أدهم، وانفرد بها شقيق، وعلّمها لحاتم الأصم، وشقيق لذلك أقرب إلى العلمية من إبراهيم ابن أدهم.

* * *

٢٠١- الشلمغاني (الحلولي)...

أبو جعفر محمد بن علي، وينسب إلى شلمغان إحدى قرى واسط بالعراق، وكان يدّعي التصوّف، وقال فيه ابن الأثير: وكان من مذهبه أنه - أي الشلمغاني - إله الآلهة، يُحق الحقّ، وأنه الأول القديم والظاهر الباطن، والرازق التام، والموّما إليه بكل معنى. وكان يقول: إن الله سبحانه يحلّ في كل شئ على قدر ما يحتمل، وأنه خلق الضد ليدل على المضدود، فمن ذلك أنه حلّ في آدم لما خلقه، وفي إبليس أيضاً، وكلاهما ضدٌ لصاحبه، لمضادته إياه في معناه، وأن الدليل على الحق أفضل من الحق، وأن الضد أقرب شئ من شبهه، وأن الله عز وجل إذا حلّ في جسد ناسوتي أظهر من القدرة والمعجزة ما يدل على أنه هو.

وتأثر بآراء الشلمغاني بعض كبار رجال الدولة العباسية، ومنهم المحسن بن أبي الحسن بن الفرات، كما استمع له ناصر الدولة بن حمدان الذي تستر عليه بالموصل إلى أن رحل منها إلى بغداد، وقد تبعه إليها بعض الكبراء، ومنهم: الحسين بن القاسم ابن عبد الله بن سلمان بن وهب، الذي وزّره المقتدر بالله؛ وأبو علي بن بسطام، وإبراهيم بن أبي عون، وابن شبيب الزيّات. ولما استفحل أمر الشلمغاني في عهد الراضي (٣٢٢ - ٣٢٩ هـ) قبضوا عليه والكثير من أنصاره، وضبطوا لديه الكثير من المخطوطات المُثبتة لادعائه الألوهية، واستغراق أنصاره في تأليهه، وعُرضت الخطوط عليهم فأنكروها، وأثبتها الشلمغاني، وأمرهم الخليفة بصفعه فرفضوا، وخاطبه أحدهم قائلاً: إلهي وسيدي ورازقي! ولكن الشلمغاني تبرّأ مما قال، وادّعى أنه لم يقل لهم ذلك، واعترفوا أنه لم يَدّع ذلك صراحةً، ولكنه زعم أنه الباب إلى الإمام المنتظر، وأفتى الفقهاء بقتله، فصُلب الشلمغاني وابن أبي عون من أتباعه، في ذي القعدة سنة ٣٢٢ هـ، وأُحرقا بالنار. - ولو قلنا إن الداعية حرّ يدعو لما يشاء، وأن الإنسان لا ينبغي أن يسجن لجريمة رأى، ولا ينبغي أن يُحجَر على رأيه، فمعنى ذلك أن تتفشّى الفوضى، وتكون الغلبة للغوغائية والإباحية. والشلمغاني لم يكن له فكر حقيقي يدعو إليه، فهو لم يكن يدعو لإله وإنما لنفسه، ودعواه مضمونها: إسقاط

التكاليف والأخذ بالإباحية، ووسيلته في الدعوة: التغرير: بالعامة، والتلبيس على الكبراء ممن يميلون إلى ما يميل، ولذلك فقد نكص أن يحاور مجلس العلماء، وكذّب أتباعه، وتبرّأ مما نسبوه إليه، وذلك هو الدليل على أنه دجّال. وفي الطب النفسي: لا علاج لأمثال هذا المدّعى إلا بالعزل السياسي أو الفكري؛ وفي الولايات المتحدة يتصرّفون مع أمثاله بالتصفية الجسدية؛ ومريض الفصام، أو المريض بجنون العظمة: لا رجاء في شفاء أي منهما؛ وفي عصر الشلمغاني ليس من سبيل للحدّ من التخريب الذي يمكن أن يستحدثه أمثال الشلمغاني في النفوس والمجتمعات، إلا بالطريقة التي اتبعتها السلطة معه.

* * *

٢٠٢ - الشيباني -

تقيّ الدين أبو بكر الشَّيْبَاني، الشافعي(٧٣٤ ـ٧٩٧ هـ)، له في التصوّف «آداب المريدين»، و«الدُّرّة المُضيّة والوصايا الحُكميّة»، وتصانيف أخرى في اللغة والنحو.

والشيباني من مواليد الموصل، إلا أنه انتقل منها شاباً إلى دمشق، واستقر ببيت المقدس وتوفي بها. وكان من الصوفية الزاهدين. ولتلميذه محمد بن موسى الهذَيْاني كتابٌ في حياته وطريقته وأقواله ومواقفه من التصوف، باسم «فتوح الوهّاب». وأقوال الشيباني جميعها في الزهد، وقطع كل العلائق، وطريقته لذلك طريقة زرية ضد ما يدعونا إليه القرآن وما تأخذ به السُّنّة.

* * *



٢٠٣ - ابن الصبّاغ القوصي...

أبو الحسن علي بن أحمد بن الصبّاغ (نحو ٥٤٦ ـ ٦١٢ هـ)، شيخ التصوّف المصري في القرن السابع الهجري، ولادته بقوص، وتوفي بقنا، ودفن بالقرب من أستاذه عبد الرحيم القنائي، وكان أبوه صبّاغاً على الحقيقة، ويعيب عليه عدم معاونته له وانقطاعه إلى أهل التصوف. ومذهبه فيه يقوم في جانبه النظري على الحبّ الإلهي، ووحدة الوجود، والاتحاد، وقد روى عنه من الأشعار في الحب الإلهي:

بقائي فناء في بقائي من الهوى
فيا ويح قلبي في فناه بقاؤه
وجودي فناء في فناء فإنني
مع الأُنس يأتيني هنيئاً بلاؤه
فيا من دعا المحبوب سراً بسرّه
أتاك المنى يوماً أتاك فناؤه

ومما روى عنه في وحدة الوجود:

تسربل وقتي فهو مُسَربلٌ
وأفنيتني عني فعدتُ مجددا
وكلٌّ بكلٍّ الكلِّ وصلٌ محقق
حقائقُ حقّ في دوام تخلدا
تفرّد أمري فانفردت بقُربتي
فصرتُ غريباً في البرية أوحدا

ويبدو أنه لم يجد اضطهاداً له بسبب مذهبه كالذي تعرّض له ابن عربي، لأنه كان في الصعيد فلم يدر به أحد. وطريقته في التصوّف يقول فيها: ليس لأحد عليّ في هذا الطريق منّة إلا الله ورسوله»، وفي تعليمه للمريد يقول: لن يصفو قلبك إلا بتصحيح النية من الله عز وجل، ولن يصفو بدنك إلا بخدمة الأولياء، وما بك إلى حالة شريفة إلا بملازمة الموافقة، ومعانقة الأدب، وأداء الفرائض، وصُحبة الصالحين، وخدمة الصادقين. والذاكر لله تعالى لا يقوم له في ذكره عوض. والعارف مَن توافقه معرفته في الأوامر ولا تخالفه في شئ من أحواله. والسُّنّة التي لم يتنازع فيها أحد من أهل العلم هي الزهد في الدنيا، ومخاوة النفس، ونصيحة الخَلق. ومن علامة محبة الله للعبد محبة العبد إياه. وعلامة محبة العبد لله: أن لا يُؤثر عليه شيئاً سواه. ومن علامة عدم

الإيثار على الله: النظر إلى الدنيا بعين الاحتقار، وإلى الأكوان ببصر الاعتبار. والسعيد من أعطاه الله قلباً وفكراً وبصراً معتبراً، وأذناً تسمع من الله، ونفساً ناشطة فى خدمة الله. وأحق ما يفتقد العباد من حقوق الله سبحانه الشكر له، والشكر له ظاهر وباطن، فظاهره الموافقة، وباطنه شهود النعمة، فما شكره من لم يمتثل أوامره وحدوده، وما حفظه من ضيّع عهوده».

وكان للشيخ سماع وتواجد وبكاء، يقول:

غنّ لى فى الفراق صوتاً حزيناً
إن بين الضلوع داءً دفينا
ثم جُدْ لى بدمع عينك بالله
وكنْ لى على البكاء معينا
فأبكى الدماء فضلاً عن الدمع
ومع الفراق أبكى العيونا
كل أمر الدنا حقير يسير
غير أن يفقد القرين القرينا

وكما ترى فإن فكر ابن الصباغ يكاد يكون تقليداً لابن عربى، ويدعو لا للزهد فى الدنيا وإنما تركها بالكلية! ودعوته ليست دعوة خير ولا إصلاح ولا تعمير، والصعيد فى مصر يحتاج إلى فكر صوفى ثورى، يعلّم الناس الدين الصحيح، ويعينهم على حياتهم، وينشر بينهم حبّ العمل، والإقبال على تعلُّم العلم والحرف والصناعات، وأن ينظفوا بيوتهم، ويحسنوا معاملة نسائهم وأطفالهم، وأن يكفوا عن عادة الأخذ بالثأر وغير ذلك من الشرور مما يمتلىء به الصعيد، فهذا هو ما نحتاجه من الصوفية حقاً.

* * *

٢٠٤ - الصفّة (أهل) ـ

الصُّفّة فى اللغة هى الظُّلّة، وصُفّة الرسول ﷺ كانت مكاناً مظللاً فى مسجد المدينة كان يأوى إليه فقراء المهاجرين فيرعاهم الرسول ﷺ، وهم أصحاب الصُّفّة أو أهل الصفة، وقيل هم ضعفاء المهاجرين، وهم الأوفاض والمساكين، وأضياف الإسلام، ومع ذلك كانوا بمعيار السماء أخيار القبائل، وكان الغرباء منهم يقدمون على النبىّ ﷺ، فإذا كان الواحد منهم له عريفٌ بالمدينة نزل عليه، وإذا لم يكن له عريف نزل مع أصحاب الصفة.

وقيل فيهم: أخلاهم الحق من الركون إلى شئ من العروض، وعصمهم من الافتتان بها عن الفروض، وجعلهم قدوة للمتجرّدين من الفقراء، لا يأوون إلى أهل ولا مال، ولا يلهيهم عن ذكر الله تجارة

ولا حال، ولم يحزنوا على ما فاتهم من الدنيا، ولا يفرحوا إلا بما أُيدوا به من العقبى، وكانت أفراحهم بمعبودهم ومليكهم، وأحزانهم على فوت الاغتنام من أوقاتهم وأورادهم، وفيهم نزلت الآية: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ﴾ (الشورى ٢٧)، فزوى الله عنهم الدنيا وقبضها، إبقاءً عليهم، وصوناً لهم، لئلا يطغوا، فصاروا في حماه محفوظين من الأثقال، ومحروسين من الأشغال، فلا تُذهلهم الأموال، ورسول الله ﷺ سفيرهم ومؤدبهم.

وكان من أهل الصفة سبعون رجلاً ليس لواحد منهم رداء. وعن أبي هريرة - وكان منهم - قال: رأيت سبعين من أهل الصفة يصلّون في ثوب، فمنهم من يبلغ ركبتيه، ومنهم من هو أسفل من ذلك، فإذا ركع أحدهم قبض عليه (أي على ثوبه) مخافة أن تبدو عورته".

وعن فضالة بن عبيد قال: كان رسول الله ﷺ إذا صلى بالناس يخرّ رجالٌ من قامتهم في صلاتهم لما بهم من الخصاصة - أي الفقر، وهم من أصحاب الصفة - حتى يقول الأعراب إن هؤلاء مجانين!

وكان عدد قاطني الصُّفّة يختلف على حسب اختلاف الأوقات والأحوال، فربما تفرّق طارقوها من الغرباء والقادمين إليها فيقل عددهم، وربما يجتمع فيها وارِدوها من الرواد والوفود فيكثرون. والمشهور من أخبارهم غلبة الفقر عليهم، وإيثارهم القلّة واختيارهم لها، فلم يجتمع لهم ثوبان، ولا حضرهم من الأطعمة لونان، فإنهم لمّا هاجر الرسول من مكة تبعوه إلى المدينة، من مكة ومن غيرها من القرى، فلم يكن لديهم ما يُقيتهم، ولم يكن في المدينة ما يمكن أن يقوموا به من أعمال يؤجرون عليها، فتبطّلوا وتعطّلوا، وكوّنوا أول بروليتاريا عرفها الإسلام، وكانوا في الخضيض، بلا مسكن ولا مأوى، فلجأوا إلى رواق المسجد يستظلون بظُلّته من البرد والحر، وبلغ بهم الفقر أنه ما كان منهم من أحد عليه ثوب تام، وقد اتخذ العَرَق في جلودهم طوْقاً من الوسخ والغبار. وكان الرسول إذا أمسى قسم أهل الصفة بين الناس من أصحابه، فكان كلّ صحابي قادر يستضيف منهم الواحد أو الاثنين أو الثلاثة حتى العشرة، فكان ذلك أول تكافل اجتماعي في الإسلام.

وكان سعد بن عبادة مثلاً يرجع كل ليلة إلى أهله بثمانين منهم يُعيشهم. وكان الواحد منهم يتوارى منه من العرى. وقيل فيهم إنهم قوم استوطنوا الصُّفّة فَصَفُوا من

الأكدار، ونقوا من الأغبار. ومن حالهم واسمهم كان اشتقاق اسم التصوّف والصوفي.

وقيل فيهم: أهل الصفة هم أخيار الناس من مختلف الأقطار، ألبسوا الأنوار، واستطابوا الأذكار، واستنارت منهم البواطن والأسرار. وكان الرسول يحضرهم ويجعلهم مثل الحلقة، ورجل منهم يقرأ عليهم القرآن، فيقول فيهم: «الحمد لله الذي جعل في أمتي مَن أُمرت أن أصبر نفسي معهم»، وينادي عليهم: «ليبشّر فقراء المؤمنين بالفوز يوم القيامة قبل الأغنياء بمقدار خمسمائة عام. هؤلاء في الجنة ينعمون، وهؤلاء يحاسبون». ومرّ عليهم يوماً يقرأون فكفّوا فسألهم: «ما كنتم تقولون؟»، قالوا: نذكر الله ورسوله، قال: «فإني رأيت الرحمة تنزل عليكم فأحببت أن أشارككم فيها».

ومنهم: بلال بن رباح: وهو من السابقين المعذّبين في الله؛ والبراء ابن مالك: الذي قال فيه الرسول: «رُبّ أشعث ذي طمرين لا يؤبه له، لو أقسم على الله لأبرّه»؛ وثقيف بن عمر: وكان يخدم النبيّ ﷺ حتى إذا فرغ من خدمته أوى إلى المسجد فكان هو بيته؛ وجُعيْل ابن سُراقة: قال فيه الرسول: «فجعيل خيرٌ من هذا ملء الأرض»؛ وحارثة بن النعمان: من أهل بدر وأحد الثمانين الذين ثبتوا يوم حنين ولم يفروا؛ وحازم بن حرملة: قال فيه الرسول: «يا حازم أكثر من قول لا حول ولا قوة إلا بالله العظيم فإنها كنز من كنوز الجنة»؛ وحنظلة بن أبي عامر: الذي دعاه الداعي للجهاد وكان جُنباً، فلما مات على حاله قال فيه الرسول ﷺ: «لذلك غسلته الملائكة»؛ والحكم بن عُمَيْر: ويُروى أن الرسول توجه فيهم بخطابه: «كونوا في الدنيا أضياقاً، واتخذوا المساجد بيوتاً، وعوّدوا قلوبكم الرقة، وأكثروا التفكُّر والبكاء، ولا تختلفن بكم الأهواء، تبنون ما لا تسكنون وتجمعون ما لا تأكلون، وتأملون ما لا تدركون». ويروى من أقواله ﷺ لهم: «كفى بالمرء نقصاً في دينه أن تكثر خطاياه، وينقص حلمه، وتقل حقيقته، جيفةٌ بالليل، بطّالٌ بالنهار، كسولٌ هلوعٌ، منوع رتوع». «استحيوا من الله حقّ الحياء. احفظوا الرأس وما حوى، والبطن وما وعى، واذكروا الموت والبلى، فمن فعل ذلك كان ثوابه جنة المأوى»؛ ومنهم خنيس ابن حذافة: من المهاجرين الأوّلين، وزوجته حفصة بنت عمر من مهاجرة الحبشة، وتوفي بالمدينة في أول الإسلام، فلما تأيّمت منه حفصة تزوجها الرسول

ﷺ ؛ وخُرَيْم بن فاتك: قال فيه الرسول ﷺ : «أي رجل أنت! لولا أن فيك خصلتين: تسبيل إزارك وتوفير شعرك؟»، فرفع خريم إزاره وأخذ من شعره؛ وأبو رُزَيْن: قال له الرسول ﷺ: «يا أبا رزين ، إذا خلوتَ فحرّك لسانك بذكر الله، فإنك لا تزال في صلاة ما ذكرتَ ربّك، إن كنتَ في علانية فصلاةُ العلانية، وإن كنتَ خالياً فصلاةُ الخلوة. يا أبا رزين: إذا كابد الناس قيام الليل وصيام النهار، فكابد أنت النصيحة للمسلمين. يا أبا رزين : إذا أقبل الناس على الجهاد في سبيل الله فأحببتَ أن يكون لك مثل أجورهم، فالزم المسجد تؤدِّن فيه لا تأخذ على أذانك أجراً». وقال له: «ألا أدلك على مَلاك هذا الأمر الذي تصيب به خير الدنيا والآخرة؟ عليك بمجالس أهل الذكر، وإذا خلوت فحرّك لسانك ما استطعت بذكر الله، وأحبَّ في الله، وأبغض في الله. هل شعرت يا أبا رزين أن الرجل إذا خرج من بيته زائراً أخاه شيّعه سبعون ألف مَلك، كلهم يصلّون عليه: ربّنا إنه وَصَل فيك فصِله. فإن استطعت أن تعمل بذلك في ذلك فافعل»؛ ومنهم سالم بن عمير، والعرباض بن سارية: وكانا من البكّائين، وفيهما وفي أصحابهما ـ قيل كانوا سبعة ـ يعني البكّائين، منهم عبد الله بن مغفل المزني ـ نزلت فيهم: ﴿تَوَلَّوْا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ﴾ (التوبة : ٩٢)؛ وطخفة بن قيس: مات في الصُّفة؛ وطلحة بن عمرو: قال: وكان الرسول يُجرى علينا المُدّ من التمر كل يوم حتى ناداه رجل منا: يارسول الله قد أحرق التمر بطوننا، فقال له: «لقد مكثتُ أنا وصاحبي (يقصد أبا بكر) بضعة عشر ليلة ما لنا طعام إلا البرير (ثمر الأراك)، فقدمنا على إخواننا من الأنصار وعظَم (أغلب) طعامهم التمر، فواسونا فيه. فوالله لو أجد لكم الخبز واللحم لأطعمتكم، ولكن لعلكم تدركون زماناً تلبسون فيه مثل أستار الكعبة، ويُغدَى ويُراح عليكم بالجفان»؛ والطفاوي الدوسي: سيد من أصحاب الرسول ﷺ؛ وأبو ذَرّ الغفاري: وكان من قُطّان مسجد الرسول، فكان متوحداً متعبّداً؛ وأبو هريرة: أشهر من سكَن الصفة واستوطنها طوال عمر النبيّ ﷺ، ولم ينتقل عنها، وكان عريف من سكن الصفة من القاطنين، ومن نزلها من الطارقين، وكان النبيّ إذا أراد أن يجمعهم لطعام حضره، تقدّم إلى أبي هريرة ليدعوهم ويجمعهم، لمعرفته بهم وبمنازلهم ومراتبهم، وكان أحد أعلام الفقراء والمساكين، صبر على الفقر الشديد وعن مخالطة الأغنياء والتجار، وزهد في لبس

اللّين والحرير؛ وعبد الله بن عمرو: وهو الذى استشهد بأحد فقال رسول الله لابنه جابر: «أبشرك بخير. إن الله أحيا أباك فأقعده بين يديه، فقال تَمَنّ عليّ عبدى أعطيكه. قال يارب، ما عبدتك حقّ عبادتك. أتمنى عليك أن تردّنى إلى الدنيا فأقاتل مع نبيّك فأُقتل فيه مرة أخرى. قال: إنه قد سلف منى أنك إليها لا ترجع»؛ وعبد الله بن زيد الجهنى: أحد الأربعة الذى كانوا يحملون الألوية يوم الفتح؛ وعبد الله بن الحارث: وكان مكفوفاً اكتفى عن رؤية الناس بالأُنس بذكر الله وتقديسه؛ وعبّاد بن خالد الغفارى: وهو الذى نزل بالسهم فى البئر يوم الحديبية؛ وفضالة بن عبيد الأنصارى: الذى اشتهر وصفه لإخوانه من أهل الصفة: أنهم إذا صلوا مع رسول الله ﷺ خرواً من قامتهم فى الصلاة لما بهم من الخصاصة، فإذا قضى رسول الله ﷺ صلاته انصرف إليهم فيقول: لو تعلمون ما لكم عند الله لأحببتم أنكم تزدادون حاجة وفاقة؛ ومسطح بن أثاثة أبو عبّاد: وهو الذى ذُكر فى حديث الإفك، وكان الصدّيق ينفق عليه لفقره وقرابته، فلما خاض فيما خاض، آلى أن لا ينفق عليه، فلما نزلت: ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ (النور٢٢)، عاد أبو بكر إلى الإنفاق وقال: «بلى أنا أحب أن يغفر الله تعالى لى»؛ ورابصة بن معبد الجهنى: فلمّا استقر بالرقّة من بعد، ظل على حاله وفيّاً لإخوانه، فكان يجالس الفقراء ويقول: هم إخوانى على عهد رسول الله ﷺ؛ وهلال مولى المغيرة: قال فيه الرسول ﷺ: «ليدخلن من هذا الباب رجل ينظر الله إليه» - يعنى هلالاً. وقال: «ما أحبُّك على الله وما أكرمك عليه»؛ وخبّاب ابن الأرتّ: وكان من النوّاحين البكّائين؛ وعمّار بن ياسر: الصابر على المذلة والهوان؛ وصُهَيْب بن سنان: سابق العرب وسابق الروم إلى الإسلام: - وفى هؤلاء نزلت الآية: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (الأنعام ٥٢)، وكان الأقرع بن حابس التميمى، وعيينة بن حصين الفزارى، من الكفّار، قد جاءا إلى النبىّ ﷺ فوجدا هؤلاء عنده، فحقراهم واختليا به يقولان له: إنا نحبّ أن تجعل لنا منك مجلساً تعرف لنا به العرب فضلاً، فإن وفود العرب تأتيك، فنستحى أن ترانا العرب قعوداً مع هذه الأعبد، فإذا نحن جئناك فأقمهم عنا، فإذا نحن فرغنا

فأقعدهم إن شئت. قال: «نعم» قالوا: فاكتب لنا عليك كتاباً. فدعا بصحيفة ليكتب لهم، ودعا علياً ليكتب، فلما أراد ذلك ـ وهؤلاء ـ خباب وعمّار وصهيب وبلال ـ قعودٌ في ناحية، إذ نزل جبريل فقال: ﴿ولا تَطْرُدِ الَّذِينَ ...﴾ الآية السابقة، ثم ذكر الله تعالى الأقرع وعيينة فقال: ﴿ وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴾ (الأنعام ٥٣)، ثم قال: ﴿ وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ﴾ (الأنعام ٥٤)، فرمى رسول الله الصحيفة، ودعاهم فأتوه وهو يقول لهم «سلام عليكم»، وأدناهم منه حتى تماست رُكبُهم بركبته. ويقول خبّاب: فكان رسول الله ﷺ يجلس معنا، فإذا أراد أن يقوم، قام وتركنا، فأنزل الله عز وجل: ﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ (الكهف ٢٨)، وقال: ﴿ولا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾ يعني لكي تجالس الأشراف دونهم، وقال: ﴿ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴾(الكهف ٢٨)، فالذي أغفل قلبه هو عيينة والأقرع. قال خبّاب: فكنا بعد ذلك نقعد مع النبيّ ﷺ، فإذا بلغنا الساعة التي كان فيها يقوم، قمنا وتركناه حتى يقوم، وإلا صبر أبداً حتى نقوم.

وفي رواية لعبد الله بن مسعود قال: مَرّ الملأ من قريش على رسول الله ﷺ وعنده صُهَيْب وبلال وخبّاب وعمّار ونحوهم، وناسٌ من ضعفاء المسلمين، فقالوا: يارسول الله ! أرضيتَ بهؤلاء من قومك؟ أفنحن نكون تبعاً لهؤلاء؟ أهؤلاء الذين مَنّ الله عليهم؟ اطردهم عنك، فلعلك إن طردتهم اتّبعناك. قال: فأنزل الله عز وجل: ﴿ وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ (الأنعام٥١ / ٥٢).

وعن سلمان الفارسي ـ وكان من أهل الصفة ـ قال: جاءت المؤلّفة قلوبهم إلى رسول الله ﷺ : عيينة بن حصين والأقرع بن حابس، وذووهم، فقالوا: يارسول الله، إنك لو جلست في صدر المسجد، ونحّيت عنّا هؤلاء وأرواح جبابهم ـ يعنون أبسا ذرّ، وهو من أهل الصفة،

وسلمان، وفقراء المسلمين، وكان عليهم جُباب الصوف لها روائح كريهة، ولم يكن عندهم غيرها - جلسنا إليك وخالصناك وأخذنا عنك ! - فأنزل الله: ﴿وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ (الكهف ٢٧ / ٢٩). فقام رسول الله ﷺ يلتمسهم - أى سلمان وأبا ذرّ وفقراء المسلمين - حتى أصابهم فى مؤخر المسجد يذكرون الله، فقال: «الحمد لله الذى لم يُمتنى حتى أمرنى أن أصبر نفسى مع قوم من أمتى ! معكم المحيا، ومعكم الممات !».

وعن سعد بن أبى وقاص أن الآية: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ (الأنعام ٥٢) نزلت فى ضعاف المسلمين من المهاجرين أهل الصفة، ومنهم عبد الله بن مسعود، وكان يعدّ نفسه منهم فى بداية أمره، قال: كنا نستبق إلى النبىّ ﷺ ندنو إليه، فقالت قريش: تُدنى هؤلاء دوننا؟ فكأن النبىّ ﷺ هَمّ بشىء فنزلت الآية. وفى رواية أخرى قال: كنا مع رسول الله ﷺ ونحن ستة نفر، فقال المشركون: اطرد هؤلاء عنك فإنهم وإنهم... قال: فكنت أنا، وابن مسعود، ورجلٌ من هذيل، وبلال، ورجلان نسيت اسميهما. قال: فوقع فى نفس النبىّ ﷺ من ذلك ما شاء الله، فحدّث به نفسه، فأنزل عزّ وجلّ: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ (الأنعام٥٢).

ومن هؤلاء كذلك أسماء بن حارثة: المتوفى بالبصرة سنة ستين عن ثمانين سنة؛ والأعز المُزَنى من جُهَيْنة؛ ومنهم ثَوبان مولى رسول الله ﷺ: وكان من القانعين الأعفّاء الوفيين الظرفاء؛ وجرهد بن خويلد؛ وجارية بن جميل: خالط أهل الصفة مدة فنُسب إليهم، وقد ألبسه النبىّ ﷺ عباءته يستره بها؛ وحُذَيفة بن أُسَيْد: وهو من أصحاب الشجرة؛ وحجّاج بن عمرو الأسلمى؛ وحرملة بن إياس؛ وخُرَيم بن أوْس الطائى؛ وخُبَيْب بن يساف؛ ودُكَيْن بن سعيد المُزَنى؛ وذو البجادين: واسمه كذلك لأن عمّه كان يلى عليه، فلما أراد أن يسلم خلع عمّه

عنه كل ما عليه من ملابس، فأبى ذو البجادين إلا الإسلام، فأعطته أمه بجاداً - أى قماشاً مخططاً من شَعْر، فشقّه اثنتين، فأتزر بإحداهما وارتدى الأخرى، فلما دخل إلى النبيّ ﷺ وسأله عن اسمه، قال: عبد العُزَّى، فقال النبيّ ﷺ: «بل أنت عبد الله ذو البجادين»، ومات فى غزوة تبوك، ونزل النبيّ ﷺ قبره، ودفنه بيده؛ ورفاعة أبو لُبابة؛ وزيد بن الخطّاب؛ وسالم بن عُبيد الأشجعى؛ والسائب بن خلاد؛ وشُقران مولى رسول لله ﷺ؛ وشدّاد بن أُسَيْد؛ وعبد الله ابن عبد الأسد أبو سلمة المخزومى: وهو ممن هاجر الهجرتين؛ وعبد الله ابن حوالة الأزدى؛ وعبد الله بن أم مكتوم: وهو الذى نزلت فيه: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ﴾ (عبس١) وكان النبيّ ﷺ بعد ذلك إذا رآه، بسط له رداءه ويقول: «مرحباً بمن عاتبنى فيه ربّى»، ويسأله: «هل من حاجة؟»؛ وعبد الله بن أنيس: صاحب المِخْصَرة، أعطاه النبيّ ، مخصرته، وقال: «تخصّر بها حتى تلقانى بها يوم القيامة»، ولمّا توفى ابن أنيس وضعوها على بطنه وكُفِّن ودُفن ودُفنت معه؛ وعبد الله بن عمر بن الخطاب: وكان من أحلاس المسجد، يعنى كان يأوى إليه ويسكنه؛ وعبد الرحمن بن جبر؛ وعُقبة ابن عامر الجُهَنى؛ وعمرو بن عَوْف المُزَنى؛ وعمرو بن تغلب؛ وعَوِيْم بن ساعدة الأنصارى، وعُبَيْدٌ مولى رسول الله ﷺ؛ وعُكاشة بن مِحْصَن الأسدى؛ وعبد الله ابن حبشى الخثعمى؛ وعُتبة بن عبد السُّلَمى؛ وعُتبة بن الندر السُّلمى؛ وعمرو بن عنبسة السلمى؛ وعبادة بن قُرص أو قُرط؛ وعياض المجاشعى؛ وفُرات بن حيّان العجلى؛ وأبو فراث الأسلمى؛ وقُرّة بن إياس؛ وكُناز ابن الحَصَيْن؛ وكعب بن عمرو؛ وأبو كبشة مولى رسول الله ﷺ؛ ومسعود بن الربيع القارئ؛ ومُعاذ أبو حُليمة القارئ؛ ويسار أبو فُكيهة؛ وبشير بن الخصاصية؛ وأبو عُسَيْب مولى رسول الله ﷺ؛ وأبو رَيْحانة شمعون الأزدىّ؛ وأبو ثعلبة الخَشَنى؛ وربيعة بن كعب الأسلمى؛ وأبو بَرْزة الأسلمى؛ ومعاوية بن الحَكَم السلمى؛ فهؤلاء نحو الثمانين كانوا جميعاً من أهل الصفة، فانظر كم كان اتساع الصفة لتأوى كل هؤلاء، وخاصةً إذا ناموا وتوسّدوا الأرض. ومع ذلك فما أوردنا من أسماء هم بعض أهل الصفة الذين يقتدى الصوفية بسمتهم، ويلازمون طريقتهم، ويتتبعون آثارهم، وقد أحصاهم الكثيرون واختلفوا فى عددهم، ولم يكن إحصاؤهم إلا

لتوطئة مذهب المتصوفة وتهذيبه على ما بيّنوه، إذ حقيقة هذا المذهب متابعة الرسول ﷺ فيما بلّغ وشرّع .

* * *

٢٠٥ - الصفوي (الأردبيلي)...

صفيّ الدين الأردبيلي، من مريدى كمال الدين عربشاه الأردبيلي، توفى سنة ٧٣٥ هـ، وخلفه ابنه صدر الدين موسى المتوفى سنة ٧٩٤هـ، وطريقتهم تسمى الصفوية، نسبةً للشيخ صفيّ الدين. وابنه صدر الدين هو الذى أدخل الفتوة على الطريقة، فوصفه محمد نور بخش أنه من أوتاد الأولياء وفتيانهم، ولقّبوه بخليل العجم؛ وخلفه علاء الدين على سياه بوس، وظهرت فى أيامه ضمن المريدين اتجاهات عسكرية هدفها تكوين دولة فارسية، وتقويض الخلافة العربية، أو دحر العرب عن بلاد الفرس والترك، وأطلقوا على أنفسهم لأول مرة اسم الفدائيين. وفى خلافة الجنيد بن إبراهيم ابن علاء الدين، شرع فى تكوين طريقة من المتصوفة من الشيعة الغالية، وبعد قتله تولى ابنه حيدر، ثم إسماعيل بن حيدر.

والصفوية وإن كانت صوفية اسماً، إلا أنها شيعية جوهراً ومبنى. ومنها متصوفة الشبَك (طائفة من الأكراد يسكنون بالقرب من الموصل وهم الذين شعارهم «علىّ إلهى»)، وهم فى حقيقتهم بكتاشية، وتحوّلوا إلى صفوية، ويجمعون بين التصوف والتشيع، ويصدرون عن نزعة ملامتية جعلتهم يستخفّون بالتكاليف والشرائع فأبطلوها، وعاقروا الخمر، وأهملوا الاستنجاء، وتحللوا جنسياً، ومن ذلك احتفال دينى عندهم يسمى ليلة الكشفة، تجتمع فيها النساء والرجال، فتراق الخمور وتُكشَف العورات، وتباح الفروج. ومنهم الباجوان فى أنحاء الموصل على عقيدة الشبَك، وكذلك الماولية. وكل هؤلاء ليسوا من دائرة الإسلام، وليسوا صوفية على الحقيقة، ولا يعلمون شيئا عن التصوّف إلا اسمه.

والإبراهيمية هم صفوية تلعفر من أقضية الموصل من غلاة الشيعة، وكتابهم فى التصوف هو «مناقب الأولياء»، ويتناول التصوف كباطن للدين، ويَرِد فيه أن الإبراهيمية نسبةً إلى إبراهيم الزاهد الكيلانى، وتتصل طريقته بالطريقة العشقية، والتى يقال لها أيضاً الشُطّارية، لأنها تقوم على الشُطّار جمع شاطر، كما تقول الشاطر حسن، أى الذى لا تنضب حيله ولا يُهزم، والشطارية تصدر عن روح الفتوة فى زعمهم. وقيل إن نجم

الدين كُبرى، وروزبهان البَقْلي أستاذه، كانا من شيوخ الفتوة . (أنظر أيضاً ابن بزّاز).

* * *

٢٠٦ - الصوفي (عبدك)...

قيل : هو أول من أُطلق عليه اسم صوفي من أهل بغداد، وهو أصلاً من الكوفة، وكان أهل الكوفة يُنسب إليهم لبس الصوف أو صناعته زُهداً، وكان عبدك يلبسه أو يصنعه، فلمّا هاجر إلى بغداد تابع لبس الصوف فيها فأطلقوا عليه اسم عبدك الصوفي. واسم «عبدك» كمقابل لعَبْده، وعَبدي، وعبدنا، وفي الحديث يقول ﷺ عن نفسه في الدعاء: «اللهم إني عَبْدُك وابن أمَتك...»، ومن ثم كان الاسم «عَبْدُك» تيمُّناً. ويذكر كتاب «الأنساب» للمقدسي أن اسمه عبد الكريم، وحفيده هو محمد ابن علي بن عبدك الشيعي وكان مقدّم الشيعة. وعبدك نقلاً عن المستشرق ماسينيون، هو آخر شيوخ فرقة شيعية في الكوفة أطلقوا على أفرادها اسم الصوفي، فلما تركها إلى بغداد نادوه باسم الكوفي أو الصوفي. ويذكر الملطي في كتابه «التنبيه والردّ على أهل الأهواء والبدع» أن عبدك كان رأس فرقة زعموا أن الدنيا كلها حرامٌ محرمة، لا يحلّ لأحد منها إلا القوت نحصل عليه بطريق حلال، ولا يحلّ الحلال إلا إمامٌ عادل، وإلا فكل ما لم يحلّ فهو حرام، ومعاملة أهل الحرام حرام، ولأن الدنيا حرام لا يحلّ لك أن تأخذ القوت من حيث كان. ـ والأمر إذن في عبدك محل جدال، وربما كانت وفاته ببغداد سنة ٢١٠ هـ (٨٢٥م)، وكان قبل زمن بشر بن الحارث الحافي، والسري بن المغلس السقطي. ويبدو من تاريخه أن كلمة صوفي بمعنى التقي الورع الزاهد شاعت أولاً في الكوفة، ثم لاقت رواجاً بعد ذلك بخمسين سنة حتى عمّت العراق كله، بينما كانت كلمة «صوفي» في خراسان هي «كلامتي»، يعني من المتكلمين، وابتداءً من القرن الرابع اكتسحت كلمة صوفي ليتسمّى بها كل العرفانيين المسلمين.

* * *

٢٠٧ - الصوفي (محمد)...

من كبار العارفين، وكان يسكن الفيوم بمصر، ويأكل من عمل يده بالحياكة، وله عبارات يدق فهمها على العقول، ومن ذلك قوله: إن السَّير سيران، سيرٌ إلى الله، وسيرٌ في الله، فما دام السالك يسير في مسالك فانية فهو يسير إلى الله، وهي رتبة التحقق بالأسماء، ففي البداية أنت أنت،

والاسم الاسم، وفى منتصف الطريق تارةً أنت ، وتارةً الاسم، وفى النهاية أنت ولا اسم، فإن التحقق بالاسم يظهر فعله على ناسوتك لقوته، فلا يُرىَ منك إلا فعل الاسم.

وكان الصوفى يقول: طىّ المعانى هو مجال أهل العلم الأكبر، وطىّ المحسوسات هو مجال أهل العلم الأصغر.

وكان يقول: الصفات، وإن كانت راجعة إلى مصدر واحد، إلا أن بعضها متوقف على بعض، توقّف ظهور لاتوقف إيجاد.

وكان يقول: إنه يجتمع بالنبىّ فى اليقظة، وهو صادق لأنه ﷺموجود فى شريعته، ويمكن أن تلقاه فى أى وقت بمطالعتها فى أى كتاب، ومراعاة الشريعة فى كل فعل وقول .

ومحمد الصوفى آخر، هو أبو جعفر، المتوفى سنة ٢١٩هـ، وكانت العامة تلقبه بالصوفى لإدمانه لبس الصوف الأبيض، وكان زاهداً على طريقة الصوفية، إلا أن تصوفه كان تصوفاً سياسياً، وكان زيدياً جارودياً فخرج أيام المعتصم العباسى بالطالقان، واستفحل أمره، وتبعه خلق كثير، وحبسه عبد الله بن طاهر، ونقله إلى بغداد مقيّداً بالحديد، وسجنه المعتصم فى إحدى قباب قصره، فألقى بنفسه من النافذة وهرب، وانقاد إلى إمامته كثير من الزيدية حتى وقتنا هذا، ومنهم من يقول إنه لم يمت، وأنه حىّ يُرزق، وسيخرج فيملأ الدنيا عدلاً كما مُلئت جوراً، وأنه مهدى هذه الأمة.

ومحمد الصوفى آخر، أبو حمزة، المتوفى ٢٧٠هـ، وكان أول من تكلم ببغداد فيما يسمونه: صفاء الذكر، وجَمْع الهَمّ، والمحبة، والعشق، والأُنس، ولم يسبقه بهذا على رءوس المنابر ببغداد أحدٌ.

ومحمد الصوفى آخر، المتوفى سنة٣٤٢هـ، وكان **شيخ الصوفية فى نيسابور**، وله كتاب «الأبواب»، وكتاب «الشيوخ» فى التصوّف.

٢٠٨- الصومعى (محمد)...

ابن عبد الرحمن، الهروى المولد، والمغربى الأصل، قرأ على الحسن اليوسى، **وتنقّل بين تاوله وفاس والرباط وغيرها**، وكان يؤم الأديرة أو الصوامع، فلهذا سمّوه الصومعى، وله شرح همزية البوصيرى، وتوفى بالطاعون سنة ١١٦٣هـ .

* * *



٢٠٩ - ابن ضيف الله...

محمد النور بن ضيف الله السودانى، صاحب كتاب «**طبقات الأولياء والصالحين فى السودان**»، ويشتهر باسم «**وَدْ ضيف الله**» حيث وَدْ اختصار لولد - أى ابن. وكان أبوه يجمع بين تعاليم **القادرية والشاذلية**، ونشأ ابنه متأثراً بالمناخ الدينى الصوفى بالسودان، حيث كانت تسيطر عليه **الطرق القادرية والشاذلية والسمانية والمهدية والختمية**، وكان لشيوخها سلطان روحى عظيم على نفوس المريدين الذين التزموا بمناهجها الأخلاقية، واعتقدت العامة والملوك على السواء فى الأولياء، وذاع التصوف كثيراً نتيجة للتكريم الذى أولاه الملوك لمشايخ الصوفية، وخاصة ملوك **الفونج**، وكانت المساجد بالإضافة إلى أنها دور عبادة فقد اتخذها الصوفية **خلوات**، ويذكر ابن ضيف الله أن فكرة **الخلوة** بمفهومها الصوفى دخلت السودان مؤخراً، وتفرّع الصوفية للتعبّد بعد أن كانت بدايتهم الأولى دراسة الفقه وعلوم القرآن وتدريسها فى المساجد، وصارت **الخلوة** أكثر الأسماء استعمالاً ودلالة على معهد التعليم، وبمثابة المركز الثقافى والاجتماعى والروحى فى كل قرية، ويروى ابن ضيف الله أن لفظة «**فكى**» العامية صارت تعنى فى السودان **الفقيه والفقه الصوفى معاً**، فربما هى تحريف لفقيه، وربما لفقير. وكان للتصوف وانتشار الطرق الصوفية فضل نشر الإسلام وتعميم الدعوة الإسلامية، إلا أن الاهتمام بالتصوف كان على نواحيه العملية دون النظرية، ويقول **يوسف فضل حسن محقق** كتاب الطبقات: **أن السودان لم يشهد مولد نظريات أو فلسفات صوفية، وإن كانت بعض الترجمات التى ترد فى كتاب ابن ضيف الله تورد بعض اللمحات الفلسفية الروحية الأصيلة، وهناك نماذج من الحب الإلهى إلا أنها لا تعكس تجربة أصيلة.**

ويقرر المؤلف أن دافعه إلى تأليف هذا الكتاب **هو التنويه بمناقب الأولياء الأعيان للسودان**، وقد اقتدى فيه بمن تأثر بهم من المحدّثين والفقهاء والمؤرخين ممن ألّفوا فى التاريخ والمناقب، مثل: **عبد الغفار النيسابورى**، **والسيوطى**، **وابن حجر العسقلانى**، **والشيخ أحمد المقرى**، وكان أكثر تأثره بكتاب **الطبقات الكبرى**

للشعراني، الذى روى عنه الكثير من الأخبار، وكذلك طبقات الشافعية للسبكى، ويقول: إنه أراد أن يجمع الأعيان والعلماء والقرّاء، كلاً على حده، إلا أنه جمعهم جميعاً مع بعضهم البعض، ورتّبهم فى ترتيب أبجدى، ونوّه بأسماء العلماء منهم، وأسماء الصوفية ممن حفلت بهم مملكة الفونج. ويحتوى كتاب الطبقات على نحو ٢٧٠ ترجمة، تشتمل كل واحدة على اسم الصوفى أو الولى ونسبه ومولده، والعلوم التى درسها، وشيوخه الذين أخذ عنهم الطريق، والمريدين الذين تلقوا عليه. ويعتمد طول الترجمة على أهمية الشيخ، فتراجم الشيخ إدريس ود الأرباب، وبدوى أبى دليق، حسن ود حسونه، وخوجلى عبد الرحمن، وصالح بن نقا، طويلة ومنظمة، وبعض التراجم قصيرة لا تتجاوز السطور، مثل تراجم تاجورى النخاس، ومرزوق ابن الشيخ يعقوب، واعتمد المؤلف على المتواتر من أخبار الأولياء بين العامة، وجمع فى ثنايا ترجماته الكثير من حياة السودانيين الدينية والعلمية والأدبية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية، والكثير من التعابير والاصطلاحات والألفاظ المندثرة، وأسماء الأعلام غير العربية مثل تربجم وحتيك والكرسنى.

* * *



٢١٠ - أبو طالب المكّي...

محمد بن عطية الحارثي، الإمام صاحب كتاب «**قوت القلوب**»، وهو المرجع الثبت فى التصوف، تأثّر به الغزالى فى كتابه «**إحياء علوم الدين**»، وذكره كأحد المتون فى كتابه «**المنقذ من الضلال**»، واقتبس منه الكثير أبو حفص شهاب الدين السُّهروردى فى كتابه «**عوارف المعارف**».

والمكّى من أهل الجبل بين بغداد وواسط، وكانت نشأته وشهرته بمكة، وإليها يُنْسَب. والكتاب عنوانه الكامل «**قوت القلوب فى معاملة المحبوب، ووصف طريق المريد إلى مقام التوحيد**». وقيل إن المكّى رحل إلى البصرة، فاتّهموه بالاعتزال، وسكن بغداد ووعظ بها فحفظ الناس عنه أقوالاً هجروه من أجلها، وتوفى ببغداد سنة ٣٨٦ هـ. وقيل فى وصف هذا الكتاب إنه لم يؤلَّف فى هذا الباب مثله، وكان وما يزال مدرسة للمريدين والسالكين، وكل الطرق الصوفية تستقى منه وتصدر عنه فيما تأخذ به من أذكار وأدعية وصلوات وصيام، وقد اختصره محمد بن خلف الأموى، المتوفى سنة ٧٤٣ هـ بدمشق، وسمّاه «**الوصول إلى الغرض المطلوب من جواهر قوت القلوب**» ليسهّل مذاكرته على الطالبين.

وللمكّى أيضاً كتاب «**علم القلوب**»، وله تفسير كبير. وكتابه «**القوت**» يشتمل على ثمانية وأربعين فصلاً تناول فيها ما ينبغى للمريد من أعمال بالنهار وفى الليل، وصلواته وتسابيحه وقراءاته قبل وبعد كل صلاة، وما يستحب من الذكر والدعاء، وأوراد الليل والنهار، وتعريف النفس ومحاسبتها، ومواجيد العارفين، والمقامات، والغفلة، واعتقادات القلب ومعاملاته وخواطره، وعلوم الباطن، وعلماء الدنيا والآخرة، والإخلاص والمؤاخاة، والمحبة وأوصاف المحبين، ويحذّر من المبتدعين الضالين، والصوفية من أصحاب الشطح، الغالطين المتجاوزين للكتاب والسُّنة، والمُسقطين للعلم والاحكام.

والتصوّف من منظور أبى طالب المكّى: أساسه الصدق فى الإرادة، والعلم بالطريق، فإذا كان المطلوب محجوباً، والدليل مفقوداً، والاختلاف موجوداً، لم

ينكشف الحق، وتحيّر المريد. ولابد فى تربيته من خصال سبع: الصدق في الإرادة ـ وعلامته إعداد العدّة؛ والتسبب إلى الطاعة ـ وعلامة ذلك هجر قرناء السوء؛ والمعرفة بحال نفسه ـ وعلامة ذلك استكشاف آفات النفس؛ ومجالسة عالم بالله ـ وعلامة ذلك إيثاره على ما سواه؛ والتوبة النصوح، فبذلك يجد حلاوة الطاعة ويَثْبُت على المداومة ـ وعلامة التوبة قطع أسباب الهوى، والزهد فيما كانت النفس راغبة فيه؛ ولابد له من طُعمة حلال لا يذمها العلم ـ وعلامة ذلك الحلال المطالبة عنه، وحلول العلم فيه يكون بسبب مباح وافق فيه حكم الشرع؛ ولابد له من قرين صالح يؤازره على ذلك ـ وعلامة القرين الصالح معاونته على البر والتقوى، ونهيه إياه عن الإثم والعدوان؛ فبهذه الخصال السبع تقوى الإرادة، ولا قوام لها إلا بها.

ويستعان على هذه السبع بأربع من أساس بنيانه، وبها قوة أركانه: أولها الجوع، ثم السهر، ثم الصمت، ثم الخلوة ، فهذه الأربع: سجن النفس وضيقها، وضرب النفس وتقييدها، بهن تضعف صفاتها، وعليهن تحسن معاملاتها، ولكل واحدة من الأربع صنعةٌ حسنة فى القلب:

فأما الجوع فإنه ينقص من دم القلب فيصحّ، وفى صحته نوره، ويذيب شحم الفؤاد، وفى ذوبه رقّته، ورقّته مفتاح كل خير، لأن القسوة مفتاح كل شر، والقسوة سبيلها نقص الدم فيسهل مسلك العدو إلى القلب، فإذا راق القلب زاد الدم، فيضعف سلطان الشر على القلب .

والجوع مفتاح الزهد وباب الآخرة، وفيه ذلّ النفس واستكانتها وضعفها وانكسارها، وفى ذلك حياة القلب وصلاحه. ومن معانى الجوع إيثار الصمت، وفى الصمت السلامة وهى غاية العقلاء. ومن صفة الأبدال أن يكون أكلهم فاقة، ونومهم غلبة، وكلامهم ضرورة. وعلم التصوف ينجزئ على قسمين، نصفه سكوت، ونصفه أن تدرى أين تضعه.

ومن مستلزمات الجوع والصمت الخلوة. والخَلْوة هى أن تُفرغ القلب من الخَلْق، وتجمع الهمّ بأمر الخالق، وتُقوّى العزم على الثبات، إذ فى مخالطة الناس وَهْن العزم، وشتات الهَمّ، وضعف النية.

والخَلوة يكون بها الانصراف إلى الذِّكر، وجلاء القلوب بالذكر، وبه يبصر القلب؛ وعلم القلب هو حقيقة الفقه، والرسول يقول: «ما حاك فى صدرك فدعه،

والإثم حواز القلوب»، يعنى ما يؤثر فيها فينحرّها لرقّتها وصفائها ولينها ولطفها. وقال للرجل الذى سأله عن البرّ والإثم: «استفت قلبك وإن أفتاك المُفتُون،» أى أن المتقين يعلمون معانى التأويل والرخصة، ولولا أن علم القلوب هو حقيقة الفقه ما ردّ صاحبه من فتيا أهل الظاهر إليه، ولا حكَم على المُفتين به، فقد صار علم القلوب هو علم العلم، إذ جعله الرسول قاضياً على المُفتين بالحكم، وصار عالم الباطن هو عالم العلماء إذ لم يسعه تقليد العلماء.

وفى حديث آخر قال: «البِرّ ما اطمأن إليه القلب وسكنت إليه النفس وإن أفتوك وأفتوك»، فهذا وصف قلبٍ مُكاشَف بالذكر، ونعتُ نفسٍ ساكنة بمزيد السكينة والبر، كما وصف قلوب المؤمنين فى صريح الكلام وفى دليل الخطاب، فأما صريحه فقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ (الرعد ٢٨)، وقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِى أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ﴾ (الفتح٤)، وأما دليل الكلام الذى يشهد بالتدبُّر فقوله تعالى فى وصف قلوب أعدائه المحجوبين: ﴿الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِى غِطَاءٍ عَن ذِكْرِى وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾ (الكهف١٠١)، وقال ﷺ فى مُجمل صفة القلب: «التقوى ههنا» وأشار إلى القلب؛ وفى الخبر: «إذا أراد الله بعبد خيراً جعل له زاجراً من نفسه وواعظاً من قلبه»، وقال الله تعالى فى التوبة من ميل القلوب: ﴿يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ﴾ (التوبة ١١٧)، وقال فى تحقيق العَمَى للقلب: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِى فِى الصُّدُورِ﴾ (الحج ٤٦)، فأهل القلوب يتّعظون بلا واعظ ويزدجرون بلا زاجر. والقلب خزانة الله تعالى من خزائن الغيب، وهذه المعانى جنود الله تعالى مقيمة حول القلب يُخفى منها ما يشاء ويُظهر، ويبدى منها ما يريد، ويعيد ويبسط القلب بما يشاء منها، ويقبضه فيما شاء عنها. وإذا كان الإيمان فى ظاهر القلب، كان العبد محباً للآخرة والدنيا، فهو مرة مع الله ومرة مع نفسه، فإذا دخل الإيمان إلى باطن القلب أبغض العبد الدنيا وهجر هواه.

وقيل إن للقلب تجويفين، أحدهما باطن وفيه السمع والبصر، وهو قلب القلب، والآخر ظاهر القلب وفيه العقل، ومثل العقل فى القلب مثل النظر فى العين.

وخواطر القلب أولها الهِمّة، وهو ما يبدو من وسوسة النفس بالشئ ، فإن صرفها بالذكر انمحت، وإن تركها بالغفلة كانت خَطْرة، وهو خُطور العدو بالتزيين، وإن نَفَى الخاطر ذهب، وإن وَلّى عنه قوى فصار وسوسة، وهذه محادثة النفس للعدو وإصغاؤها إليه، وإن نَفَى العبد هذه الوسوسة بذكر الله خنّس العدو وصَفَت النفس، وإن طاولت النفس العَوْد بالإصغاء والمحادثة، قويت الوسوسة فصارت نيّة، فإن أبدل العبد هذه النية بنية خير، استغفر منها وتاب، وإلا قويت فصارت عَقْداً، والعقد بالإصرار يقوى فيصير عزماً - وهو القصد، فإن تداركه الله بَعْد العزم، وإلا تمكّن العزم فصار طلباً وسعياً، وأظهر العمل على الجوارح فصار من أعمال الجسم.

وبمثل هذه التحليلات الدقيقة يستمر أبو طالب المكّى فى الحديث عن أدقّ خلجات النفس فى التصوّف وفيما يُصَرّف عنه. والمكّى من «علماء نفس التصوّف»، وكلامه كله من مثل ما قرأناه، يدل على تمكّن وعلم عظيمين. وكان لكاتب هذه الموسوعة شرف تحقيق كتاب القوت، من منشورات دار مدبولى، ولله الحمد والمنة.

* * *

٢١١ - ابن طفيل...

أبو بكر محمد بن عبد الملك بن محمد بن أحمد بن طفيل القيسى، الأندلسى، والقرطبى، والإشبيلى أيضاً، والمعروف عند الفرنجة باسم أبو باكر **Abubacer**، تحريفٌ لأبى بكر، صاحب قصة حيّ ابن يقظان، أشهر ما دبّجه يراعٌ عن التصوف وطريق الصوفية، وقد تُرجمت بمختلف اللغات، ومنها الترجمة التى توفر عليها بوكوك باللاتينية، بعنوان «الفيلسوف الذى علّم نفسه -**Philosophus Autodidac-tus**»، فلمّا قرأها لايبنتس امتدحها أيمّا امتداح.

وابن طفيل فيها فيلسوف صوفى، والنهاية أو الدرس الذى نستخلصه منها هو درس صوفى خالص، وبرغم أن الطريق الذى اتّبعه فى تعليمه هو طريق الفلسفة، إلا أن ابن طفيل من بداية القصة يمهّد لها بنقد شديد للفلسفة عند أئمتها، ويعلن أنه إلى جانب الحكمة المشرقية - أى التصوّف، وليس إلى جانب الحكمة المغربية - أى الفلسفة، ولا يحاول أن يوفّق بين الفلسفة والدين، وإنما هو يقول أن الفلسفة مرحلة على الطريق، وأن العقل بوسعه أن يصل متحرراً من كل سلطة إلى المعرفة التى تتهايأ له بالشريعة، والفلسفة أقل

مرتبة من الدين، لأنها من تحصيل العقل، بينما الدين يعالج ما تعالجه الفلسفة بالإضافة إلى متطلبات الروح، غير أن رجل الدين تعلُّقه بالظاهر، والصوفى تعلقُّه بالباطن، وهو مشغوف ومشغول بالحقّ، ومرتبته لذلك أعلى المراتب فى الإنسانية، ويضرب ابن طفيل مثلاً لذلك بمكفوف البصر الذى كان كذلك منذ ولادته، ولكنه جيد الفطرة، قوى الحدس، ثابت الحفظ، مسدد الخاطر، فنشأ يتعرّف أشخاص الناس، وأنواع الحيوان والجمادات، والسكك والمسالك، والديار والأسواق، بما له من ضروب الإدراكات الأخرى، حتى صار يمشى فى مدينته بغير دليل، ويعرف كل من يلقاه ويسلم عليه لأول وهلة. وكان يعرف الألوان بشروح أسمائها، وبعض الحدود التى تدل عليها. ثم إنه بعد أن حصّل هذه الرتبة حدثت له الرؤية البصرية، فمشى فى تلك المدينة كلها، وطاف بها، فلم يجد أمراً على اختلاف ما كان يعتقده، ولا أنكر من أمرها شيئاً، وصادف الألوان على نحو وافق الرسوم عنده، غير أنه فى ذلك كله حدث له أمران هما زيادة الوضوح، واللذة العظيمة.

ويخلص ابن طفيل من هذا المَثَل إلى أن حال الناظرين الذين لم يصلوا إلى مراتب الصوفية أو مرتبة الولاية هى حالة الأعمى الأولى، وفى مرتبة الولاية يكون الوصول، وتكون اللّذة، وهى حال تعجز عنها العبارات، ولا يبلغها إلا الفرد بعد الفرد، ومن ظفر فيها بمعرفة لم يكلم الناس عنها إلا رمزاً، لأن الملة الحنيفية والشريعة المحمدية تمنع من الخوض فيها وتحذّر عنها، والفلسفة لا تزودنا بشئ عن هذه المعرفة، لأنها معرفة لا تتحقق بالبحث والنظر، وإنما بالذوق والمشاهدة، فمن أرادها ينبغى له الزمن غير اليسير، والفراغ من الشواغل، والإقبال بالهِمّة.

ويلجأ ابن طفيل للرمز والأساطير، وحىّ بن يقظان - كما يوحى اسمه - إنسان يوجد فى جزيرة منوحدة، ووجوده فيها على الفطرة، ومنذ البداية له فرضان، فإما أنه بحسب القصة إبن لأميرة شديدة الحُسن، لها أخ منعها من الزواج لأنه لم يجد لها كفؤاً، وكان لها قريب يقال له يقظان، تزوجها سراً فحملت منه وولدت، وخافت أن يفتضح أمرها فوضعت طفلها فى تابوت، وقذفت به إلى اليمّ، الذى دفعه إلى جزيرة تُكسّر خشب التابوت على ساحلها، وبكى الطفل فوقع بكاؤه على أذن ظبية فقدت ولدها، فأقبلت عليه

وأرضعته كولدها وتعهدته، وهذا افتراض من يقولون أن ولادة الإنسان لابد فيها من أبوين؛ وإما بحسب الافتراض الثانى أن التولّد من الممكن أن يحدث من تخمّرات الطين، فتحلّ فيه الروح الذى من أمر الله، فإنه تعالى فيّاض دائماً على جميع الموجودات، ولم يكن بالجزيرة شئ من سباع، فتربّى الطفل ونما واغتذى بلبن تلك الظبية، وتدرّج فى المشى، وكان يتبع الظبية فترفق به، وتعلّم الأشياء من حوله وصفاتها وخصائصها، وعرف معنى الموت، والأنواع، والأجناس، والفوارق بين الجماد والنبات والحيوان والإنسان، وأن الموجودات لها جسمية، ومعنى آخر زائد على الجسمية، ولاحت له صورة الأجسام على اختلافها، وهو أول ما لاح له من العالم الروحانى، لأنها صور لا تُدرَك بالحسّ، وإنما تدرك بضرب من النظر العقلى، وأدرك فى الحيوان النفس الحيوانية، وفى النبات النفس النباتية، وفى الجماد المادة والصورة. ونظر فى ارتباط الموجودات فعلم أن كل حادث لابد له من مُحدِث، فارتسم فى نفسه فاعلٌ للصورة ارتساماً على العموم، وتتبع الصور فرأى أنها كلها حادثة ولابد لها من فاعل، وتبين أن الأفعال الصادرة عنها ليست فى الحقيقة لها، وإنما لفاعل يفعل بها الأفعال المنسوبة إليها، فلما لاح له من أمر هذا الفاعل على الإجمال، حدث له شوق حثيث إلى معرفته على التفصيل، وجعل يطلبه على جهة المحسوسات، وطرحها كلها لما رأى أنه ما من شئ منها برئ عن الحدوث والافتقار إلى فاعل، وانتقل فكره إلى الأجسام السماوية، وكان عمره وقتها ثمانية وعشرين عاماً، فعلم أن السماء وما فيها من كواكب، أجسام، لأنها ممتدة فى الطول والعرض والعمق، وعرف بقوة نظره أن الفلك فى جملته بما يحتوى عليه شئ واحد متصل، وأن الأرض والماء والهواء والنبات والحيوان كلها ضمنه، وكأنه حيوان كبير هى منه بمثابة الأعضاء. فلما تبين أن الكون كله كشخص واحد فى الحقيقة، وأنه محتاج إلى فاعل مختار، أدرك أن هذا الفاعل لا يمكن أن يكون جسماً كالأجسام، ولو كان جسماً لكان من جملة العالم، وكان حادثاً واحتاج إلى مُحدِث، وإذن لابد من فاعل ليس بجسم، وإذا لم يكن جسماً فليس إلى إدراكه بشئ من الحواس من سبيل، لأن الحواس الخمس لا تدرك إلا الأجسام أو ما يلحق الأجسام، وإذا كان لا يمكن أن يُحَسَّ فلا يمكن أن يُتخيَّل، لأن التخيلَ ليس شيئاً

إلا إحضار صور المحسوسات بعد غيبها، وإذا لم يكن جسماً فصفات الأجسام كلها تستحيل عليه، وإذا كان فاعلاً للعالم فهو لا محالة قادر عليه وعالمٌ به، وإذا كانت كل الموجودات مفتقرة إليه فى وجودها ولا قيام لها إلا به فهو علّة لها، وهى معلولة له، ولقد تصفّح جميع الموجودات تصفحاً على طريق الاعتبار فى قدرة فاعلها، والتعجّب من غريب صنعته ولطيف حكمته ودقيق علمه، فتبيّن له فى أقل الأشياء، فضلاً عن أكثرها، من آثار الحكمة وبدائع الصنعة ما اقتضى منه كل العجب، وتحقق عنده أن ذلك لا يصدر إلا عن فاعل مختار فى غاية الكمال وفوق الكمال، أعْطَى كل شئ خلقه ثم هداه لاستعماله، فعلم بذلك أنه أكرم الكرماء، وأرحم الرحماء. وتتبّع صفات النقص إلا العدم المحض أو ما يتعلق بالعدم. وكيف يكون العدم قد تعلّق أو تلمّس بمن هو الموجود المحض الواجب الوجود بذاته، المعْطِى لكل ذى وجود وجوده، فلا وجود إلا هو، فهو الوجود، وهو الكمال، وهو التمام، وهو الحُسن، وهو البهاء، وهو القدرة، وهو العلم. وانتهت به المعرفة إلى هذا الحدّ وهو فى الخامسة والثلاثين من عمره، فشغل بأمر هذا الفاعل حتى صار بحيث لا يقع بصره على شئ إلا ويرى فيه أثر صنعته، فينتقل بفكره فوراً إلى الصانع ويترك المصنوع، ويشتد به الشوق إليه، وانزعج قلبه بالكلية عن العالم الأدنى المحسوس، وتعلق بالعالم الأرفع المعقول. ولما كان قد أدرك أن حواسه كلها لا تدرك إلا جسماً أو ما هو فى جسم، وأن الموجود الواجب الوجود برئ من صفات الأجسام لا سبيل إلى إدراكه إلا بشئ ليس بجسم، ولا هو قوة فى جسم، ولا تعلّق له بأى وجه من الوجوه بالأجسام، وقد تبين له أنه أدركه بذاته، فتبين له أن ذاته التى أدركه بها لابد أن تكون أمراً غير جسمانى، وأن كل ما يدركه من ظاهر ذاته من الجسيمات فإنها ليست حقيقة ذاته، وإنما حقيقة ذاته ذلك الشئ الذى أدرك به الموجود المطلق الواجب الوجود. فلما علم أن ذاته ليست هذه المتجسّمة التى يدركها بحواسه ويحيط بها، هان عليه جسمه بالكلية، وجعل يتفكّر فى تلك الذات الشريفة التى أدرك بها ذلك الموجود الشريف الواجب الوجود، ونظر فى ذاته هل يمكن أن تبيد أوتفسد أو هى دائمة البقاء، فرأى أن الفساد إنما هو من صفات الأجسام، وأما الشئ الذى ليس بجسم ولا يحتاج فى قوامه إلى

الجسم، وهو منزه عن الجسيمات، فلا يتصور فساده ألبتة. فلما ثبت له أن ذاته الحقيقية لا يمكن فسادها، أراد أن يعلم عن حالها إذا طرحت البدن وتخلت عنه، ولقد تبين له أن كل القوى المدركة تكون تارة مدركة بالقوة، وتارة تكون مدركة بالفعل، مثل العين في حال تغميضها أو إعراضها عن البصر، فإنها تكون مدركة بالقوة، ومعنى ذلك أنها لا تدرك الآن وتدرك في المستقبل، وفي حال فتحها واستقبالها للمُبصَر تكون مدركة بالفعل. وتبين له أن كل واحدة من هذه القوى إن لم تدرك قط بالفعل فهي ما دامت بالقوة لا تتشوق إلى إدراك شئ مخصوص، لأنها لم تتعرف به، مثل مَن خُلق مكفوف البصر، وإن كانت قد أدركت بالفعل تارة ثم صارت بالقوة، فإنها ما دامت بالقوة تشتاق إلى الإدراك بالفعل، لأنها قد تعرّفت بذلك المُدرَك وتعلّقت به، وبحسب ما يكون الشئ المُدرَك أتم وأبهى وأحسن يكون الشوق إليه أكثر، والتألم لفقده أعظم، فإن كان في الأشياء شئ لا نهاية لكماله، ولا غاية لحُسنه وجماله وبهائه، وهو فوق الكمال والبهاء والحُسن، وليس في الوجود كمال، ولا حُسن، ولا بهاء، ولاجمال، إلا صادر من جهته، وفائض من قِبَله، فمَن فقد إدراك ذلك الشئ بعد أن تعرّف به، فلا محالة أنه ما دام فاقداً له يكون في آلام لا نهاية لها، كما أن من كان مدركاً له على الدوام فإنه يكون في لذة لا انفصام لها، وغبطة لا غاية وراءها، وبهجة وسرور لا نهاية لهما. ومن كانت له مثل هذه الذات المُعَدّة لهذا الإدراك، فإنه إذا طرح البدن بالموت، فإما أنه قبل ذلك في مدة تصريفه للبدن لم يتعرّف قط بهذا الموجود الواجب الوجود، ولا اتصل به، ولا سمع عنه، فهذا إذا فارق البدن لا يشتاق إلى ذلك الموجود ولا يتألم لفقده، وكذلك جميع القوى الجسمانية، فإنها تبطل ببطلان الجسم ولا تشتاق لمقتضيات تلك القوى، ولا تتألم لفقدها، وهو حال البهائم غير الناطقة، سواء كانت في صورة الإنسان أو لم تكن؛ وإما أنه في مدة تصريفه للبدن، قد تعرّف بهذا الموجود، إلا أنه أعرض عنه، وأتبع هواه حتى وافته منيته على تلك الحال، فيُحرَم المشاهدة وعنده الشوق إليها، فيبقى في عذاب طويل وآلام لا نهاية لها، فإما أن يتخلّص من تلك الآلام بعد جهد طويل، ويشاهد ما تشوّق إليه قبل ذلك، وإما أن يبقى في آلامه بقاء سرمدياً بحسب استعداده لكل واحد من

الوجهين فى حياته الجسمانية؛ وأمّا مَن تعرّف بهذا الموجود الواجب الوجود قبل أن يفارق البدن، وأقبل بكليته عليه، والتزم الفكرة فى جلاله وحُسنه وبهائه، ولم يعرض عنه حتى وافته منيته على حال من الإقبال والمشاهدة بالفعل، فهذا إذا فارق البدن بقى فى لذة لا نهاية لها وغبطة وسرور وفرح دائم، لاتصال مشاهدته لذلك الموجود الواجب الوجود. فلما تبين له أن كمال ذاته ولذتها إنما هو بمشاهدة ذلك الموجود على الدوام، مشاهدةً بالفعل حتى لا يعرض عنه طرفة عين، لكى توافيه منيته فى حال المشاهدة بالفعل فتتصل لذته، جعل يتفكّر فيه كل ساعة، فما هو إلا أن يسنح لبصره محسوس، أو يخرق سمعه صوت، أو يعترضه خيال، فتختل فكرته ويزول عن حال المشاهدة إلى أن يرجع إليها بعد جهد، وخاف أن تفجأه منيته وهو فى حال الإعراض، فيفضى إلى الشقاء الدائم وألم الحجاب، وإلى ذلك أشار الجنيد شيخ الصوفية وإمامهم عند موته بقوله لأصحابه: هذا وقتٌ يؤخذ منه «الله أكبر» والإحرام للصلاة». . وساء حيّ ذلك، وجعل يتصفّح الحيوانات والنباتات، ورأى أنها لم تشعر بذلك الموجود الواجب الوجود ولا اشتاقت إليه، وأنها كلها صائرة إلى حال العدم أو شبه العدم. وأدرك أنه كإنسان مباين لسائر المخلوقات، وتفكر لِمَ اختُص هو بهذه الذات، ورأى أنه لابد قد خُلق لغاية أخرى، وأُعد لأمر عظيم لم يُعَدّ له سائر الحيوان، وأنه بهذه الذات أو هذا الجزء الأشرف الذى عرف الموجود الواجب الوجود، فيه شَبَهٌ منه، من حيث هو منزّه عن صفات الأجسام، كما أن الواجب الوجود منزّه عنه، ورأى أنه يجب عليه أن يسعى فى تحصيل صفاته لنفسه - أى صفات واجب الوجود، وأن يتخلّق بأخلاقه، ويقتدى بأفعاله، ويجدّ فى تنفيذ إرادته، ويسلّم الأمر له، ويرضى بجميع حكمه، رضاً من قلبه ظاهراً وباطناً. وكذلك رأى أنه الإنسان فيه شبهٌ من سائر الحيوان، بجزئه الذى من عالم الكون والفساد، وهو البدن المظلم الكثيف الذى يطالبه بالمحسوسات من المطعوم والمشروب وغيرهما، وعلم أن هذا البدن لم يخلق له عبثاً، ولا قُرن به لأمر باطل، وأنه يجب عليه أن يتفقده، ويصلح شأنه، وأن ذلك لايحصل له إلا بعد التمرُّن والرياضة، وألزم نفسه أن لا يأخذ لبدنه إلا بقدر الضرورى الذى به بقاؤه. وأن يتدرب

على قطع كل العلائق بالمحسوسات، فكان يغمض عينيه ويسد أذنيه ولا يفكر في شئ سوى الموجود الواجب الوجود حتى كأنه يشاهده، وكان يكدره أن لا تغيب عنه نفسه، وأن تكون ذاته مشاركة في الملاحظة، فما زال يطلب الفناء عن نفسه والإخلاص في مشاهدة الحق، حتى تحقق له ذلك، فغاب عن كل شئ وعن كل العوالم، وغابت ذاته في جملة الذوات، وتلاشى الكل واضمحل وصار هباء منثوراً، ولم يبق إلا الواحد الحقّ الموجود الثابت الوجود، واستغرقته حالته حتى شاهد مالا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، ومن رام التعبير عن هذه الحال فقد رام مستحيلاً ، وهو بمنزلة من يريد أن يذوق الألوان المصبوغة من حيث هي الألوان، ولا سبيل إلى التحقيق بما في ذلك المقام إلا بالوصول إليه. وعاد إلى عالم الحسّ، ثم تكلّف الوصول إلى مقامه بعد ذلك فكان أيسر عليه من الأول، وكان دوامه أطول، وما زال الوصول إلى ذلك المقام الكريم يزيد عليه سهولة، والدوام يزيد فيه طولاً حتى تمنّى أن يريحه الله تعالى من كل بدنه الذى يدعوه إلى مفارقة مقامه، فيتخلص إلى لذّته تخلّصاً دائماً، وبقى على حالته تلك حتى أناف على عمر الخمسين. وفي يوم من الأيام وقع بصره على إنسان، وكان ذلك الإنسان اسمه أبسال، وكان من جزيرة قريبة تعبد الله على الشريعة، ونشأ مع آخر يدعى سلامان نشأة فاضلة متدينة، إلا أن أبسال كان محباً للعزلة بطبعه، وأشد غوصاً على الباطن، وأكثر عثوراً على المعانى الروحانية، وأطمع في التأويل، بينما كان سلامان محباً للجماعة بطبعه، وأكثر احتفاظاً بالظاهر، وأشد بعداً عن التأويل والتأمل، وكان اختلافهما سبباً لافتراقهما، فقد اشترى أبسال بماله مركباً، وارتحل يطلب جزيرة متوحّدة، حتى عثر على جزيرة حيّ ابن يقظان، وكان التقاء أبسال وحيّ، وبعد خوف ووجل تعارفاً، وتعلم حيّ من أبسال الكلام، وحكى له قصته كما وعاها وما صار إليه أمره، وعرف من أبسال عن دينه، واستمع منه أبسال إلى وصف الحقائق التى أمكنه وصفها، مما عرفه عن الحقّ وشاهده عند الوصول من لذات الواصلين وآلام المحجوبين، فأدرك أنه أمام وليّ من أولياء الله، وأن ما عرفه بخاطره ووجدانه هو ما تحكى عنه الشريعة من أمور الله، وعند ذلك تبيّن التطابق بين المعقول والمنقول، وقربت عليه طرق

التأويل، ولم يبق عليه مُشكل فى الشرع إلا انفتح، وطمع أبسال أن يأخذه إلى أهل بلده يستمعون إليه، لعل الله يهدى على يديه طائفة من معارفه المريدين ، وتهيأت لهما الوسيلة للسفر، وبلغا بلده، وكان سلامان قد صار رأس الجماعة وكبيرها، وشرع حيّ بن يقظان يبث الناس أسرار الحكمة وما كاد يترقّى عن الظاهر قليلاً ويصف ما سبق إلى فهمهم خلافه، حتى انقبضوا واشمأزت نفوسهم مما أتى به، وتسخّطوا عليه فى قلوبهم، لنقص فطرتهم. وتصفّح حيّ طبقات الناس، فرأى كلّ حزب بما لديهم فرحون، وقد اتخذوا إلههم هواهم، ومعبودهم شهواتهم، وتهالكوا على الدنيا وألهاهم التكاثر. وبان له وتحقق أن مخاطبتهم بطريق المكاشفة مستحيلة، وتكليفهم فوق طاقتهم غير ميسور، وأن حظ أكثر الجمهور من الانتفاع بالشريعة إنما هو فى حياتهم الدنيا ليستقيم لهم معاشهم وليس أكثر من ذلك، وعندئذ انصرف إلى سلامان وأصحابه، وأوصاهم بالتزام ما هم عليه من حدود الشرع، والأعمار الظاهرة، وقلة الخوض فيما لا يعنيهم، وأمرهم بمجانبة ما عليه جمهور العوام من إهمال للشريعة والإقبال على الدنيا، وودّعهم مصطحباً أبسال إلى جزيرتهما، يعبد أبسال الله بالشريعة، ويطلب حيّ ابن يقظان مقامه الكريم بالنحو الذى كان عليه، واقتدى به أبسال حتى قرب منه أو كاد، إلى أن أتاهما اليقين .

والقصة كما يقول ابن طفيل، لن يفهمها حقّ فهمها إلا أهل المعرفة بالله، ولن يقدّر الدرس المستفاد منها إلا أهل العزة بالله، وهى من عيون الأدب الفلسفى الصوفى. ولا نعرف لابن طفيل أعمالاً أخرى بخلافها، سوى رسالتين فى الطب، وبعض الآراء التى نوّه بها البطروجى فى الفلك، ورسائل ومراجعات بينه وبين ابن رشد فى رسمه للأدوية فى كتابه الكليات. وكان ابن طفيل الطبيب الأول لأبى يعقوب يوسف سلطان الموحّدين، وكان أبو يعقوب به ميل للعلوم والحكمة والفلسفة، وقد جمع حوله المفكرين من كل الأنحاء، ومنهم ابن طفيل وابن رُشد. وتوفى ابن طفيل سنة ٥٨١ هـ (١١٨٥م)، فى مراكش ودفن بها، ولم يُعرَف تاريخ ميلاده، والأرجح أنه بين سنتى ٤٩٥ و٥٠٥ هـ. وقصة حيّ بن يقظان كما يوحى اسمها، هى قصة الإنسان الحيّ بالله، فهكذا وُلد وطُبع، يفكر فى الإلهيات، ويبحث عن جواب

للأسئلة المحيرة: كيف جاء؟ ومن خلقه؟ ومن هو الله؟ وكيف كان؟ بينما غيره ليس بيقظان، ولا يدرى عن أمر نفسه وربّه شيئاً، فهكذا نحن: إما هذا وإما ذاك. والصوفية هم قوم من نوع حيّ بن يقظان، وغيرهم إما يعرفون الله عن طريق الأنبياء كأبسال، وإما أنهم عامة، قد يؤمنون، ولكنهم على العموم طلاّب دنيا.

* * *

٢١٢ - الطمستانى (أبو بكر)...

يوصف الطمستانى بالصوفى الربّانى، فقد كان لا يقول إلا «جالسوا الله»، و«هاجروا إلى الله»، و«أصدقوا الله»، وكان مشايخ وقته يحترمونه لذلك، وهو أصبهانى لكنه قدم إلى نيسابور، وتوفى بها سنة ٣٤٠ هـ، ومذهبه فى التصوّف يقوم على النسبية فى المعرفة والأخلاق، وكلامه يقوم على المضادات، فالحياة لا تكون إلا فى الموت، وحياة القلب لا تتحصّل إلا بإماته النفس، واليقظة للآخرة، والغفلة للدنيا، وأهل اليقظة هم أهل الآخرة بينما أهل الغفلة هم أهل الدنيا، والطريق إلى الله بتعدُّد الخلَق، والحكمة أو المعرفة كل واحد يصيب منها على قدر ما يُكشَف له. وكان لُب تعليمه للمريدين: «جالسوا الله كثيراً والناس قليلاً»؛ و«مَن صحب الكتاب والسُّنّة، وعَزَفَ عن نفسه والخلق والدنيا، وهاجر إلى الله، فهو الصادق»؛ و«النفس لا يمكن الخروج منها بالنفس، وإنما بالله وبصحّة الإرادة من الله». ويحذرهم من العلم الذى يقطعهم عن الله، ويقول لهم: «إذا لم تقدروا أن تصحبوا الله بالأدب، فاصحبوا من يصحبه لتصل إليكم بركات صُحبته» - يعنى يصبحون صوفية مثلهم.

* * *

٢١٣ - الطهطاوى، أبو القاسم...

أبو القاسم بن عبد العزيز الطَّهْطاوى، نسبة إلى طَهْطا من صعيد مصر، وقبره فيها ظاهر يزار، ومسجده يُنعت بالعتيق، وكانت وفاته سنة ١١٨٣ هـ، ومن أحفاده رفاعة رافع الطهطاوى - من أركان النهضة العلمية فى مصر، وقد أوفدته الحكومة المصرية ضمن بعثة إلى فرنسا، فلما رجع كان رئيساً للترجمة فى المدرسة الطبية، وأشرف على مدرسة الألسن، وعلى جريدة الوقائع المصرية، وألفّ وترجم الكثير، ومن آثاره «تخليص الإبريز فى تلخيص باريز»، أو «الديوان النفيس بإيوان باريس»، ويعرف برحلة الشيخ رفاعة، والمرشد الأمين فى تربية البنات والبنين، وتوفى سنة ١٢٩٠هـ. والطهطاوى الصغير ورث زخم الخير هذا من جدّه

الطهطاوى الكبير، ذريةً بعضها من بعض كما قضى الله تعالى فى قرآنه. وللطهطاوى الكبير أقوال فى الطريق تدل على القَدَم الراسخة فيه، ومن ذلك قوله: المشاهدة هى ارتفاع الحجُب بين العبد والربّ، فيطّلع بصفاء القلب على ما أخفى من الغيب، فيشاهد الجلال والعظمة، وتتغير عليه المقامات والجلالات، فتداخله الحيرة والدهشة، ثم تخرجه الحيرة إلى البهتة، فتصير أبصاره خاشعة بالحق إلى الحق، فتارةً يشاهد الجلال، وتارةً يطالع الجمال، وتارةً يرى البهاء، وتارةً ينظر الكمال، وتارةً تلوح له الكبرياء والعزّة، وتارةً يبدو له الجبروت والعظمة، وتارةً يشاهد البهجة، فهذا يُسطه، وهذا يقبضه، وهذا يطويه، وهذا ينشره، وهذا يفقده، وهذا يعيده، وهذا يُبقيه، وهذا يفنيه، فهو زائل عن نعوت البشرية، قائم بصفات العبودية، لا يحسّ بالأغيار، ولا يشهد غير عظمة الجبّار. وكان الطهطاوى كثير الاستشهاد بهذه الأبيات :

بواجدِ حقٌ أوجد الخَلقَ كلها
وإن عجزتْ عنها فُهومُ الأكابر
وما الحبُّ إلا خطوةٌ ثم نظرةٌ
تنشى لهيباً بين تلك السرائر
إذا سكن الحقُّ السريرةَ قد عرت
ثلاثة أحوال لأهل البصائر
فحالٌ بعيد السرّ عن سكنه وجدُه
وتحضره الأشواق فى حال حائر
وحالٌ به رحبٌ وذو السرّ كاسبٌ
إلى نظرٍ أفناه عن كل ناظر

* * *

٢١٤ - طه عبد الباقى سرور...

التأليف عن التصوُّف من الاتجاهات الفكرية الحكيمة التى أبانات عن منزلة التصوُّف وتأثيره العظيم فى طبقة كبيرة من البشر، وكان من الخير فى عصر النهضة الإسلامية الحديثة أن يتابع المسلمون التأليف فى هذا الباب، وأن تكون مؤلفاتهم توسعاً فى نوع هذا التأليف، وتحسيناً له. ومن هؤلاء المؤلفين الكبار «طه بن عبد الباقى سرور»، المتوفى بالقاهرة سنة ١٣٨٢هـ (١٩٦٢م)، ومن كتبه المشهورة «الغزالى»، و«شخصيات صوفية»، و«من أعلام التصوف الإسلامى»، و«الحلاج»، و«رابعة»، و«محيىّ الدين ابن عربى»، و«أبو عبيدة بن الجرّاح»، و«الشعرانى والتصوف الإسلامى»، وجميعها تنبّه إلى الحياة الروحية فى الإسلام، وهى المجال الذى لا يزال أفقاً مجهولاً، وسماء محجوبة، عن الكثرة

الساحقة من الدارسين والباحثين، فهى لم تدرس بعد دراسة شمول وإحاطة، ولم توضع لها المناهج العلمية، وتحدد لها الأهداف والرسالة، لتوضيح مكانتها من القرآن، وموقفها من الفكر الإسلامى، وأثرها فى الحياة الإسلامية. وتكثر الكتابات فى التصوف إلا أنها أقاصيص مما تستهوى الأفئدة، والمستشرقون قصدوها بالشرح والتعقيب ولكن كتاباتهم فيها الكثير من الغل والحقد والحسد والغرض والهوى.

والحياة الروحية فى الإسلام هى المحيط الأعظم الذى تجرى فيه مختلف التيارات الإسلامية. والإسلام يجعل من المادية تياراً من التيارات الإسلامية يصطفق من داخل الحياة الروحية، **والأعمال المادية هى** أعمال الدنيا، وكل عمل دنيوى يوزن فى الإسلام بمقدار توجهه إلى الله، فهو عبادة مُثابة منه، وذلك هو السرّ الأعظم فى الإسلام، ومضمون رسالته الروحية، وفى هذا الإطار علينا أن نتفهّم القرآن، وندرك مرامى أعمال الرسول، وأهداف السُنّة، **فكل عمل دنيوى هو فى الإسلام الدليل الهادى والمؤشر النادى للروحانية الكامنة** وراءه، وبذلك تنطبع كل الأعمال بالخير والحق والعدل والجمال والكمال والجلال والبذل والسمو. وهذا التيار أو التفسير الروحى هو الذى يضفى على كل شئون الحياة فى الإسلام طابعاً ربّانياً. وليست الحياة قوة غالبة، ولا هى إرادة جامحة، ولا رغبات طامحة، ولا سياسة ناجحة، ولا تجارة رابحة، ولا هى تكاثر وتفاخر، ولكنها كل ذلك، وأكثر من ذلك، وقبل كل ذلك حياة روحية خالصة ترقب الله وتخشاه وتتجه إليه عابدة. والمسلم القرآنى فى مطعمه ومشربه وملبسه وعمله وتوجهه اليومى، ينظر إلى الأسباب ويأخذ بها، ولكنه لا يغفل عن مسببها، ويرى الأسباب كما يقول الغزالى: «ظاهرةً تلازم الشىء وليست هى علّة حدوثه»، وهو بعد ذلك وقبل ذلك، يسبّح لله ولا يفتر عن ذكره.

وسِمَة الإسلام الكبرى هى هذه الروحانية التى تؤهّل المسلم لخلافة الأرض. وليست الروحانية هى العبادات وإقامة الشعائر وتأدية الفروض، ولكنها النهج الروحى خلف الشعائر والفروض. وحول ذلك دار الجدل، واشرأب النفاق، وكثرت الفِرَق، ومع ذلك كان هناك فريق من الأمة يعبدون الله كما أمر، ويفهمون الحياة كما صوّرها القرآن وطبّقها الرسول ﷺ، وارتفعوا بأنفسهم فوق الجدل

والحوار، والخصومات والصراع، وقالوا ربّنا الله، ثم استقاموا على نهجه الذى ارتضى، وأمْرِه الذى قضى، وأخذوا الإسلام بعزم وقوة، وتميّزوا بما استنّوا لأنفسهم من أنماط الحياة والأقوال والأفعال، وعُرفوا بسيماهم، وأولئك هم الصوفية، وفيهم يقول ابن خلدون: إن طريقة هؤلاء القوم لم تزل عند سلف الأمة وكبارها من الصحابة والتابعين ومَن بعدهم، وهى طريقة الحق والهداية، وأصلها العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله، والإعراض عن زخرف الحياة وزينتها، والزهد فيما نقبل عليه الجماهير من لذّات ومال وجاه. وكان ذلك عاماً فى الصحابة والسلف. فلما نشأ الإقبال على الدنيا فى القرن الثانى وما بعده، وجنح الناس إلى مخالطة الدنيا، اختص المقبلون على الله بأنفاسهم باسم الصوفية».

ويخطىء المنكرون على التصوّف فى فهْمه، لأنهم أخطأوا فى فَهْم روح الإسلام ورسالته، فليس التصوف خمولاً ولا انهزاماً، ولا فتوراً وضعفاً ولصوقاً بالأرض، ولا تواكلاً وهواناً ورضاً بالذلّ، ولكنه قوة وبأس ونضال، وتصعيد بالحياة وتسامٍ بها، وارتفاع بالقيم.

والتصوف معرفة وإيمان وقوة روحية، وليس حركات زُهد وعبادة فحسب، ولكنه علم ويقين وعمل. وهو حركة بعث للقوى الروحية والعقلية والقلبية، كأقوى ما يكون البعث، وأشدّ ما تكون النهضة واليقظة.

ولن يعيب بعض الصوفية أن ينطووا على أنفسهم، زاهدين عابدين، مجاهدين لأهوائهم، فإن هؤلاء لهم جانبهم الإيجابى فيما اعتبروه أن الله قد خلق الوجود كله لحناً إيمانياً مسبّحاً يهتف بالوحدانية، ويترنم بالأشواق، ويتنادى بالأخلاق.

ولقد عُرِف الصوفية بمواجيدهم فى الحبّ الإلهى، وإنها لثروة ترتفع بالقيم الإنسانية وتسمو بها، وإنّ ألحان الضراعة لمثاليات ربّانية ترتقى بالجنس البشرى درجات ثم درجات. وإن معارف التصوّف فى الأخلاق، والدقائق والرقائق، وأمراض النفس، وأحابيل الشيطان، لتنطوى على رسالات ورسالات.

وكان الزهد هو السمة الأولى للتصوف، ورأس الزُهّاد هو الحسن البصرى. والزهد سمة من سمات الحياة الروحية فى الإسلام، وجزئية من جزئياتها، ولكنه ليس هدفها الأكبر، ولا غايتها التى تتوخّاها على الزمن الطويل، فالزهد خطوة على الطريق، وسُلّمة تيسر الصعود، ولذلك يخطىء من يجعل

الحسن البصرى رأساً لمدرسة المتصوفة الروحانيين. ولم يكن الحسن إلا البداية، وأثناء ذلك كان هناك آخرون من بعده، كما كان هناك آخرون من قبله، وبرز من هؤلاء وهؤلاء الذين قالوا بالحبّ الإلهى، لأن الحبّ فيض إيمان، وجذب إشراق، والحبّ هو كتاب التصوف الأكبر، ورسالته العظمى، وقطب رحاه، ومشرق أنواره وإلهامه. وسيظل العالم شرقُه وغربُه يردد مع الصوفية المسلمين، كلماتهم المضيئة المفعمة بالأمل، أمثال كلمات رابعة «ليس للمحب وحبيبه بَيْن، وإنما هو نطقٌ عن شوق»، وكلمات الجنيد: «أشرف المجالس وأعلاها الجلوس فى الخلوة والتنسُّم بنسيم المعرفة، والشُّرب بكأس المحبة من بحر الوداد»؛ وكلمات ذى النون المصرى: «إن لله عباداً ملأ قلوبهم من صفاء محبته ... إلهى لك تواضعتْ أبدانهم، وإلى الزيادة منك انبسطتْ أيديهم، فأذقتَهُم من حلاوة الفهم عنك، ما طيّبت به عيشهم، وأدمت به نعيمهم ... إليك حنّت قلوب العارفين، وبك أنِسَت قلوب الصادقين، وعليك عكفت رهبة الخائفين... لا يفترون عن التعب والسهر، ويناجون ربّهم بألسنتهم، ويتضرّعون إليه بمسكنتهم، يسألون العفو عن زلاّتهم، والصفح عمّا وقع من الخطأ فى أعمالهم، فهم الذين ذابت قلوبهم بفكر الأحزان، وخدموا خدمة الأبرار»؛ وكلمات ابن عطاء الله السكندرى: «إلهى ! ماذا وَجَدَ من فَقَدَك، وماذا فَقَد من وجَدَك ؟! لقد خاب من رضى دونك بدلاً، وخسر من بغى عنك متحوَّلاً. وكيف يُرجَى سواك وأنت ما قطعت الإحسان؟ أم كيف يُطلَبُ غيرك وأنت ما بدّلت عادة الامتنان »!؛ وكلمات ابن القيم: «إنهم قد امتلأت قلوبهم من معرفة الله، وعمرت بمحبته وخشيته وإجلاله ومراقبته، فَسَرَت المحبة فى أجزائهم، فلم يبق فيها عرقٌ ينبض، ولا مفصل إلا وقد دخله الحب، وقد أنساهم حبُّه ذكر غيره، وأوحشهم أُنسُه بمن سواه»؛ وكلمات أبى الحسن الشاذلى: «المحبة آخذة من الله لقلب عبده عن كل شىء سواه، فترى النفس مائلة لطاعته، والعقل متحصناً بمعرفته، والروح مأخوذة فى حضرته، والسرّ مغموراً فى مشاهدته، والعبد يستزيد فيزداد، ويُفاتَح بما هو أعذب من لذيذ المناجاة، ويُكسَى حُلَل التقريب، ويَمسّ أبكار الحقائق وثيّبات العلوم».

وهذه التعريفات جميعها ! إنما لتبيّن معانى التصوف وآفاقه ولكنها لا تحدده ولا تعرّفه، فكل صوفى له الحدّ والتعريف الذى يتذوقه ويحسّه، ومهما تسامقت الألفاظ بلاغةً وبياناً فإنها لن تصف النور

إلا بأنه نور، ولن تعبر عن الإشراق إلا بأنه إشراق، ولا تصوّر الوجه إلا بأنه وجه. وأما ما تنطوى عليه المسميات فأسرار يعرضها مَن ألهم بالنور وعاش به، ومَن نَعِمَ بالإشراق وأحسّه هُدىً ويقيناً، ومن احترق بالوَجْد حتى انضجته لُهْبُه. أو كما يقول جلال الدين الرومى: وهل يُشَمّ الأريج من الواو والراء والدال - وهى الحروف التى تكون كلمة ورد؟

ومذهب طه عبد الباقى سرور: أن التصوّف: حقائق ورقائق ودقائق، مستقرها القلب، ومستودعها الروح، ومبعثها الحب، وفيوضها من الله تتوالى، وجُلّ ما يقال فى مقامات التصوف وأحواله، أنها صحوة وجدان، ومشاعر، وحسّ، وجيشان عواطف، وانسياح فى القلب تنكشف له من خلالها رؤى لا يراها الناس، وعجائب وآيات لا يعرفونها، وإلهامات تزكو وتفوح - كلام طيب من صوفى طيّب!

* * *

٢١٥ - ابن طورخان (حسن)...

حسن بن طورخان بن داود بن يعقوب الأقحصارى، وكان صوفياً بلا تصوّف، وربما متقشفاً كثير الصيام، يبغض مشايخ الطرق فى زمانه، ويقرعهم بحجج الشرع، ويقول لو كانت الكرامة تُنال بالرياضة لنلتها. وله «رسالة فى ذمّ الصوفية» يقول فيها: إعلموا أن مذهب أهل التصوف مذهب باطل، وضلالتهم أشد من ضلالات الفرق الضالة كلها، وتفريق مذهبهم واجب. واعلموا أن صاحب الفصوص (محيى الدين بن عربى) قد كان فى أول حاله من أفضل العلماء، وفى آخره رئيس الملحدين، كالشيطان، كان فى أوله رئيس الملائكة، وفى آخره رئيس الكافرين، فقال: كل من عَبَد شيئاً من الممكنات فقد عَبَد الله. كما قال فى فصوصه: إن الحق المنزّه هو الخَلق المُشبَّه! وأن من سجد للصنم أعلم ممن كفر به وجحد! وقال: إن ترك عبادة الأصنام جهل! وقال فى قوم نوح: إنهم لو تركوا عبادتهم - أى الأصنام، جهلوا من الحق بقدر ما تركوا من هؤلاء!! وقال فى فصوصه: إن كل عبدة الأصنام ما عبدوا إلا الله! وقال عن قوم هود: إنهم لما أنذروا صار لهم القُرب فزال البُعد، فزال مسمى جهنم فى حقهم، ففازوا بنعيم القُرب من جهة الاستحقاق! وقال: إن من ادّعى الألوهية فهو صادق فى دعواه.!!!!

ومراد ابن عربى من هذه الأقوال: أن وجود الواجب الذى هو عين ذات الله هو وجود الممكنات، وإلا لما صحّ قوله: كل

من عبد شيئاً من الممكنات فقد عَبَد الله، لأنه من البيّن أن فيض المعبود لا يكون إلهاً معبوداً، وذلك منه كُفْر، فقد أحدث مذهب الوجودية، فقال إن حقيقة الواجب هو الوجود المطلق الذى هو عين ذات الله، وهو وجود الممكنات فى الظاهر، ولزم من ذلك أن جميع الأشياء من الممكنات واجب. كما صرّح فى الفصوص: لولا سريان الحقّ فى الموجودات بالصورة، ما كان للعالم وجود. ولزم أيضاً من هذا القول، أن لايكون للواجب تأثير فى وجود الممكنات لأنها عنده نفس الواجب، ومن البين امتناع تأثير الشئ فى نفسه. ولزم أيضاً من هذا القول تعطيل الصانع تعالى، وتكذيب جميع الرسُل والأنبياء وجميع الكتبُ المنزلة. ومذهب المتصوفين من الحلولية الوجودية هو نفس مذهب صاحب الفصوص.

وابن طورخان من أهل البوسنة، وُلد فى أقحصار سنة ٩٥١ هـ، وولى قضاءها، وتوفى بها سنة ١٠٢٥ هـ، ويقال له حسن كافى، واشتهر بكافى، وهو فقيه باحث له «أصول الحُكم فى نظام العالم» بالعربية، ومُترجَم للتركية والألمانية والفرنسية والبوسنوية، وكان تلاميذه يصفونه بالنبّى من أجل نبوءاته وزهده وتدينه، وله: «سمت الوصول إلى علم الأصول، وشرحه»، و«روضات الجنات فى أصول الاعتقادات»، و«تمحيص التلخيص فى المعانى والبيان»، نقّح فيه تلخيص الخطيب القزوينى، و«شرح مختصر القدورى»، فى أربعة أجزاء فى الفقه، و«شرح كافية ابن الحاجب فى النحو»، و«رسالة فى تحقيق كلمة جلبى»، و«نظام العلماء إلى خاتم الأنبياء». ذكر فيه سلسلة مشايخه فى الفقه إلى الإمام أبى حنيفة، ثم منه إلى رسول الله ﷺ، مترجماً كل واحد. وكان يجيد العربية والتركية والفارسية، وتلقى تعليمه فى الآستانة. ونقده لابن عربى صحيح ومبنى على الأصول، وابن عربى فيلسوف صوفى ولكنه لا يصدر عن الإسلام.

* * *



٢١٦ - عائشة الباعونية...

(أنظر الباعونى)

* * *

٢١٧ - عامر بن عامر...

عامر بن عامر، أبو الفضل عزّ الدين، توفى غالباً فى أواخر القرن الثامن الهجرى، ودُفن بالبصرة ، واشتهر بقصيدته التى يعارض بها تائية ابن الفارض الصوفى المصرى، ويبدو أنه قد انتهى من نظمها سنة ٧٠٥ هـ ، ويقول عن نفسه فيها أنه كان يسكن الغوير قرب السماوة على الفرات، وسافر إلى سيواس مركز الصوفية من أصحاب وحدة الوجود، حيث ألف ابن عربى الفتوحات المكية، وتزوج فيها أم صدر الدين القونوى.

وتُعرَف قصيدة عامر باسم التائية العامرية، ويكرر فيها معانى التوحيد عند ابن الفارض، بتصورات جديدة استدخل فيها المفاهيم الإسماعيلية الفلسفية بخصوص النفس والروح والمعاد والمبدأ والأدوار والأكوار وأوصاف المهدى، يقول:

ظهرتَ لنا فى صورة عيسوية
ومن بعده فى صورة أحمدية
وقد آن أن تبدو لنا الآن ظاهراً
بلا مرية فى صورة آدمية

ويقول :

تجلّى لى المحبوب من كل وجهة
فشاهدتُه فى كل معنى وصورة
وخاطبنى منى بكشف سرائر
تعالت عن الأغيار لطفاً وجلّت
فقال أتدرى من أنا ؟ قلتُ: أنت يا
مُنَاى أناء إذ كنتَ أنت حقيقتى
فقال كذاك الأمر لكننى إذا
تعينتْ الأشياء بى كنتَ نسختى
فأوصلتُ ذاتى بانحادى بذاته
بغير حلول بل بتخصيصِ نسبتى

وقوله تعالت عن الأغيار، فإن الصوفى يقول: تعالى الله عن الأغيار؛ فأما المسلم فيقول: تعالى الله عن الشريك، ويقول :

نظرتُ فلم أبصر سوى محض وحدة
بغير شريك، قد تغطّت بكثرة

تكثّرت الأشياء، والكل واحد
صفاتٌ وذاتٌ ضُمّنا في هويّة

وهي عبارات واضحة الدلالة على مذهب وحدة الوجود، فكأنه أراد بنقده لابن الفارض أن يعيب كُفْره، فقدّم لنا كُفْراً ربما ألعن من كُفْر ابن الفارض!. وتزيد دلالة هذا العبارات عنده في أبيات كهذه :

فأنت أنا ! لا، بل : أنا أنت. وحدةٌ
منزهةٌ عن كل غير وشركة

يريد أن يقول أنه هو الله!

* * *

٢١٨ - ابن عبّاد (الرندي)...

أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن عبد الله بن مالك بن إبراهيم بن يحيى بن عبّاد، النَّفْزي، الحميري، الرندي (توفي سنة ٧٩٢هـ/ ١٣٩٠م)، وشهرته ابن عبّاد ،له «غيث المواهب العلية بشرح الحِكَم العطائية»، يشرح فيه كتاب «الحِكَم» لابن عطاء الله السكندري، ويُعرّف بشرح النفزي على متن السكندري، و«بغية المريد» نَظَم به الحِكَم العطائية، بأن يذكر الفَصْل من الحِكَم ثم يأتي بعده بالأبيات بعنوان «ترجيزة»، وله كذلك «الرسائل الكبرى»، و«الرسائل الصغرى»، و«كفاية المحتاج»، في التصوّف والتوحيد.

وابن عباد الأندلسي، وُلد برندة، ونشأ بها، وتعلّم بفاس وتلمسان، ولازم في طنجة الصوفي «أبا مروان بن عبد الملك»، ثم استُدعي إلى فاس خطيباً لمسجد القيروان؛ ومن تلاميذه يحيى السرّاج، وابن السكّاك والخطيب بن قُنفذ. ويلفتنا تأثيره في الصوفي النصراني الأندلسي يوحنا الصليبي، فمذهبهما ولغتهما واصطلاحاتهما واحدة، وابن عبّاد سَبَقَ الصليبي بمائتي سنة، وكما يقول المستشرق آسين بلاثيوس: مما لاشك فيه أن الصليبي تأثّر بابن عبّاد.

* * *

٢١٩ - أبو العباس المرسي...

أبو العباس شهاب الدين أحمد بن عمر المرسي، شيخ الإسكندرية العتيد، ولأهلها فيه اعتقاد كبير، ويحلفون به، وأصله من مرسية الأندلس، وإليها يُنسَب، وبها توفي سنة ٦٨٦هـ (١٢٨٧م)، ويقولون إنه لم يرث علْم الشيخ أبي الحسن الشاذلي إلا أبو العباس المرسي، وكان أفضل تلاميذه، وأجلّ مَن أخذ منه، غير أنه لم يؤلف في التصوّف شيئاً، وله أقوال مع ذلك يرددها عنه تلاميذه ويضمّنونها كتبهم عنه، وهو يقول في علوم المتصوفة إنها علوم تحقيق، وعلوم التحقيق لا تستطيع أن تحملها

عقول عموم الخلق. ويكاد المرسى ينقل عن أستاذه أبى الحسن الشاذلى، ولأن أستاذه لم يضع كتباً فهو كذلك لم يضع الكتُب. ولعل ميزة أبى العباس أنه سُنّى متمسّك بالسُّنة. ومن كلامه: أن جميع الأنبياء خلقوا من الرحمة، ونبيّنا ﷺ هو عين الرحمة». وكان يقول: الفقيه هو من انفقأ الحجاب عن عينىّ قلبه» (هذا عن الفقيه، فما بالك بالولىّ؟!) وكان يقول: «رجال الليل (يعنى الصوفية قوّامين الليل) هم الرجال، وكلما أظلم الوقت قوى نور الولىّ ضرورة». ويقول: «ولىّ الله مع الله كولد اللبوة فى حجْرها، أتراها تاركةً ولدها لمن يريد اغتياله؟ لا والله»! ويقول: إن لله تعالى عباداً محق أفعالهم بأفعاله، وأوصافهم بأوصافه، وذاتهم بذاته، وحمّلهم من أسراره ما يعجز عامة الأولياء عن سماعه (يريد بهم الصوفية)». ويقول فى الحديث: «من عَرَف نفسه عَرَف ربّه» معناه: مَنْ عَرَف نفسه بذلّها وعَجْزها، عرف الله بعزّه وقُدرته». وكان يقول: «لو كُشف عن نور المؤمن العاصى، لَطبَق ما بين السماء والأرض، فما ظنك بنور المؤمن المطيع؟!». ومن تشبيهاته: قال مَلَكٌ من الملوك لبعض العارفين: تَمَنّ علىّ! فقال له العارف: تقول ذلك لى، ولى عبدان قد ملكتهما وملكاك، وقهرتهما وقهراك، وهما الشهوة والحرص، فأنت عبدٌ عندى، فكيف أتمنى عليك وأنت عَبْدُ عبدى»؟!!

- وكان يقول: سمعت الشيخ أبا الحسن الشاذلى يقول: من ثبتت ولايته من الله تعالى لا يكره الموت». ويقول: وهذا ميزان للمريدين ليزنوا به نفوسهم إذا ادّعوا ولاية الله، فإن من شأن النفوس وجود الدعوى للمراتب العالية من غير أن يُسلَك السبيل الموصّل إليها. قال تعالى: ﴿ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (البقرة ٩٤). وكان يقول: قد يكون الولى مشحوناً بالعلوم والمعارف، والحقائق لديه مشهورة، حتى إذا أُعطى العبارة كان كالإذن له من الله تعالى فى الكلام. ويجب أن نفهم أن من أُذن له فى التعبير جلّت فى مسامع الخلق إشاراته». ويقول: كلام المأذون له يخرج وعليه كسوة وطلاوة، وكلام الذى لم يُؤذَن له يخرج مكسوف الأنوار». ويقول: «من أحب الظهور فهو عَبْدُ الظهور، ومن أحب الخفاء فهو عبد الخفاء. ومن كان عبد الله فسواءٌ عليه أظهره أو أخفاه». وكان يقول: الطىُّ طيّان: طىٌّ أصغر وطىٌّ أكبر، فالطىُّ الأصغر لعامة هذه الطائفة: أن تُطوَى لهم الأرض من مشرقها إلى مغربها فى نَفَس

واحد. والطيّ الأكبر طيّ أوصاف النفوس».

وعند أبي العباس أن **أوصاف النفس مظهرها الوجه، فما أسهل أن يظهر على الوجه ما تضمره النفس**. يقول: دخل رجلٌ على وليٍّ من أولياء الله، وقد كان الرجل نظر إلى محاسن امرأة في الطريق، فقال الوليّ: يدخل أحدكم وآثار الزنا باديةٌ في وجهه !» - يعني النوايا والأفكار والأفعال يكشفها الوجه، **ولذا سُمِّيَ الوجه وجهاً أو واجهة**. وكان يقول: قد يُطلع الله الوليّ على غيبة إذا ارتضاه، بحكم التبع للرسل عليهم الصلاة والسلام، ومن هنا نطقوا بالمغيّبات، وأصابوا الحق فيها». وكان يقول: «طريقنا هذه لا تُنسب للمشارقة ولا للمغاربة، بل واحد عن واحد، إلى **الحسن بن عليّ بن أبي طالب** - وهو **أول الأقطاب**». - يعني أن طريقته طريقة علوية. ويقول: «إنما يلزم الإنسان تعيين المشايخ الذين استند إليهم، اذا كان طريقه ليس الخرقة ، لأنها رواية، والرواية يتعيّن رجال سندها. وطريقنا هذه هداية، وقد يجذب الله تعالى العبد إليه، فلا يجعل عليه منّة لأستاذ، وقد يجمع شمله برسول الله ﷺ فيكون أخذاً عنه، وكفى بهذا منّة».

وكان كثيراً ما يقول : «**قال الشيخ**» «**قال الشيخ**»، كلما ينقل كلاماً. فقال له إنسان: لا نراك قطّ تسند لنفسك كلاماً؟ فقال: لو أردتُ عدد الأنفاس أن أقول قال الله، لقلتُ، ولو أردت عدد الأنفاس أن أقول قال رسول الله ﷺ لقلت! ولو شئت أن أقول على عدد الأنفاس «قلت أنا» لقلتُ! ولكن أقول **قال الشيخ** وأترك ذكر نفسي أدباً». - ولكن إن كان القول قد قاله الشاذلي، وهو - أي المرسي - ينقل عنه، فليس في ذلك منّة من المرسي. وإن لم يكن قد قاله فكيف ينسب قوله هو - أي المرسي - للشاذلي أدباً كما يقول؟! أليس ذلك ضد الصدق؟ - وكان يقول: لم يزل الوليّ في كل عصر لا يلقى أكثر الناس إليه بالاً، حتى إذا مات قالوا فيه «كان فلان». وكان يقول: والله ما سار الأولياء والأبدال من ق إلى ق إلا ليلتقوا مع واحد مثلنا». يعني «بواحد مثلنا» ينقل عنهم ويذيع فكرهم. **وإذن فإن المرسي مجرد ناقل عن الشاذلي**.

وكان شيخه أبو الحسن الشاذلي يقول للناس: عليكم بالشيخ أبي العباس (المرسي)، فوالله إنه ليأتيه البدوي (يقصد السيد البدوي)، وما من وليّ لله كان - أو هو كائن - إلا وقد أظهره الله عليه، وعلى

اسمه، ونسبه، وحسبه، وحظه من الله تعالى ـ يريد أن يقول لهم إنه الأظهر والأفضل والأعلى مرتبةً، والصوفية مراتب، وأبو العباس ينسب للشاذلى قوله: لن تهلك طائفة فيها أربعة: إمام، ووليّ، وصدّيق، وشيخ. والإمام طبعاً هو أبو العباس.

وعن صُحبته للشاذلى، يقول أبو العباس: إن الشيخ أبا الحسن قال له: يا أبا العباس! ما صَحِبتُكَ إلا لتكون أنت أنا، وأنا أنت !!

وكان أكثر ما يتكلم فيه أبو العباس فى مجالسه موضوعات مما يثيره الصوفية عند مشايخهم، من أمثال ما هو العقل الأكبر، والاسم الأعظم، وشُعَبه الأربع، والأسماء والحروف، ودوائر الأولياء، ومقامات الموقنين، والأملاك المقربين عند العرش، وعلوم الأسرار، وأمداد الأذكار، ويوم المقادير، وشأن التدبير، وعلم البدء، وعلم المشيئة، والقبضة ورجالها (القبض يقابل البسط)، وعلم الأفراد، ويوم القيامة، وما فيه من حلم الله مع عباده، وإنعامه وجوده وانتقامه. ويقول ابن عطاء الله: إن الشيخ أبا العباس لم يكن يتزل إلى علوم المعاملة إلا فى قليل من الأيام، لحاجة بعض الناس إلى ذلك، ولذلك لم يكن أتباعه ـ من هؤلاء الذين هم فى حاجة إلى علوم المعاملة ـ كثيرين، وكذلك أتباعه من أهل الحق كانوا قليلين. ومن رأى أبى العباس أن معرفة الولى أصعب من معرفة الله، فإن الله معروف بكماله وجماله، وأما الولى فهو مثلنا، ونحن اعتدنا أننا ما نعرف من هو مثلنا ممن يأكلون كما نأكل، ويشربون كما نشرب.

ومن أقوال أبى العباس: علامة حبّ الدنيا خوف المَذَمّة وحبُّ الثناء، فلو زهد لما خاف، ولا أحبّ. والإنسان الورع هو من ورّعه الله، وينشأ ورع المنقطعين من سوء الظن وغلبة الوهم، بينما ورع الأبدال والصدّيقين على البيّنة الواضحة والبصيرة الفائقة. ومن ارتفع بهمتّه عن الخَلق عزّ. ولكلٍّ أسبابه فى القول والفعل، وسبب المتصوفة هو الإيمان والتقوى.

وكان أبو العباس يقول لمريديه: ما سمعتموه منى ففهمتموه، فاستوعوه الله يردّه عليكم وقت الحاجة، وما لم تفهموه فكلوه إلى الله يتولى بيانه، واسعوا فى جلاء مرآة قلوبكم يتضح لكم كل شىء.

وكان يقول: والله ما جلست بالناس حتى هُدّدت بالسلب، وقيل لى: «لئن لم تجلس لسلبناك ما وهبناك» وكان يقول:

«إذا ضاق الوليّ هلك من يؤذيه فى الوقت، وإذا اتسعت معرفته احتمل أذى الثقلين ولم يحصل لأحد منهم ضررٌ بسببه.

وكان يقول: لحوم الأولياء مسمومة ولو لم يؤاخذوك، فإياك ثم إياك !! (يحذّر من اغتيابهم).

وكان أبو العباس مريضاً ويشكو البواسير وحصى الكليتين وبَرْد الكلى، ومع ذلك كان يجلس للناس ويكتم شكواه ما أمكنه. ولم يكن يكاتب الولاة فى شىء بل يقول للسائل أنا أطلب لك ذلك من الله تعالى. وكان يكره للأشياخ إذا جاءهم مريد أن يقال لهم انتظروا فلربما انتظروا الكثير، ويقول: إن المريد يأتى إلى الشيخ بهمّته المتوقدة، فإذا قيل له انتظر، طفئ ما جاء به. وكان يحب من المشايخ أن يقولوا للمريدين: اصحبونى ولا أمنعكم أن تصحبوا غيرى إن وجدتم منهلاً أعذب من هذا المنهل. وكان إذا رأى مريداً دخل فى أوراده بنفسه وهواه أخرجه منها، وكان إذا مُدح بقصيدة يجيز المادح بإقباله عليه ويعطيه العطايا. وكان يقول لأصحابه إذا جاءنا رئيس القوم فأخبرونى به أخرج إليه، فإذا فارقه مشى معه خطوات ثم رجع، ويقول إن هؤلاء كلّفوا نفوسهم إلى زيارتنا ونحن لم نزرهم. وكان لا يأكل من طعام عُبّى له، ولا من طعام أُعلم به قبل أن يأتيه. وكان لا يدعو للمحسن حتى يخرج من مجلسه فيدعو له بظهر الغيب. وكان إذا أُهدى له شىء يسير تلقّاه ببشاشة وقبول، وإذا أُهدى له شىء كثير تلقّاه بعزة نفس وإظهار الغنى عنه. وكان لا يثنى على مريد بين إخوانه خشية الحسد، ويقول: ينبغى للمشايخ تفقُّد حال المريدين، ويجوز للمريدين إخبار الأستاذ بما فى بواطنهم، إذ الأستاذ كالطبيب، وحال المريد كالعورة، والعورة قد تبدو للطبيب لضرورة التداوى، وفى الحقيقة كل مريد رأى له عورةً مع شيخه فهو أجنبى عنه لم يتّحد به. وللشيخ أن يطالب المريد مادام قاصراً عن حقيقة دعواه، فإذا بلغ مبلغ الرجال لم يطالبه على دعواه ببرهان لخروجه عن مقام التلبيس.

وكان أبو العباس يقول لمن رآى أنه زهد فى الدنيا: لقد عظّمت - يا أخى - الدنيا حين رأيتَ لها وجوداً حتى زهدت فيها، فَقَدْرُها أصغر من ذلك. وكان يقول: الزاهد غريب فى الدنيا، لأن الآخرة وطنه. والعارف غريب فى الآخرة فإنه عند الله تعالى. ومعنى غُربته فى

الدنيا قلة من يعينه على القيام بالحق، وقلة من يشاكله فى القيام. وأما غُربة العارف فى الآخرة، فإن سيره مع الله بلا أين، والمدار على محل يكون فيه القلب لا على محل يكون فيه الجسم. كما أن الزاهد كذلك موطن قلبه فى الدنيا إنما هو الآخرة، فهى معشش روحه، ولولا ذلك لما صحّ له الزهد فى الدنيا.

ويفرّق أبو العباس بين العامة والخاصة فيقول: العامة إذا خوّفوا خافوا، وإذا روّحوا راحوا. والخاصة متى خوّفوا راحوا، ومتى روّحوا خافوا.

وكانت صلاته موجزة وتامة، ويقول: هى صلاة الأبدال. وإذا قرأ القرآن كان يقول كأنما أقرأه على الله. وكان إذا سمع أحداً ينطق اسم الله تعالى أو اسم النبىّ ﷺ يقرّب سمعه منه حتى يلتقط ذلك الاسم، إجلالاً أن يبرز فى الهواء. وإذا سمع أحداً يقول هذه ليلة القدر يقول: نحن بحمد الله أوقاتنا كلها ليلة قدر.

وكان يُلزم الناس على نحو رُتبهم عند الله، حتى أنه ربما يدخل عليه المطيع فلا يلتفت إليه، ويدخل عليه العاصى فيقوم له، لأنه دخل بذُل نفس وانكسار.

وكان من طريقته وطريقة شيخه أبى الحسن الشاذلى: الإعراض عن لبس الزى والمرقعات، لأن هذا اللباس ينادى على صاحبه «انا الفقير فأعطونى شيئاً»، وينادى على سرّ الفقر بالإفشاء، فمن لبس الزى فقد ادّعى. وكان يقول: لا ينبغى للفقير أن يأخذ من أحد شيئاً - يقصد نفع نفسه. إنما يأخذ ليثيب من يعطيه ويعوّض عليه، فمن تطهّرت نفسه وتقدّست فليقبل وإلا فلا!

وكان يقول: اختلف الناس فى اشتقاق الصوفى، وأحسن ما قيل فيه أنه منسوب لفعل الله تعالى به، أى صافاه الله تعالى فَصُوفى، فسمّوه صوفياً.

وكان يقول فى قول عيسى عليه السلام: يا بنى إسرائيل! بحقٍّ أقول لكم، لا يلج ملكوت السموات والأرض من لم يولد مرتين. أنا والله ممن وُلد مرتين: الإيلاد الأول إيلاد الطبيعة، والإيلاد الثانى إيلاد الروح فى سماء المعارف. فكان أبو العباس يقول: الولىّ لا يصل إلى الله حتى تنقطع عنه شهوة الوصول إليه، انقطاع أدب لا انقطاع مِلَل، لغلبة التفويض على قلبه». وعنده أن الأولياء لهم الإشراف على مقامات الأنبياء، وليس لهم الإحاطة بمقاماتهم، والأنبياء يحيطون بمقامات الأولياء.

وكان يقول: جميع أسماء الله تعالى

جاءت للتخلّق إلا الاسم «الله»، فإنه للتعلُّق فقط، إذ مضمونه الإلهية، والإلهية لا يُتخلَّق بها أصلاً.

وكان يقول نحن فى الدنيا بأبداننا مع وجود أرواحنا، وسنكون فى الآخرة مع وجود أبداننا. (يعنى الناس فى الجنة والنار بأبدانهم وأرواحهم).

وكان يقول: والله ما جلستُ حتى جعلت جميع الكرامات تحت سجادتى. (يعنى: مسألة الكرامات لا تهمه ولا تعنيه)، وكان كثيراً ما يتعرّض لأقوال الصوفية، فقال فى قول سهل بن عبد الله: «لاتكونوا من أبناء الدهر، وكونوا من أبناء الأزل»، معناه: لاحظوا ما سبق فى علم الله ولا تتكلوا على علمكم ولا على عملكم مدة عمركم. وفى قول الجنيد: «أدركت سبعين عارفاً، كلهم كانوا يعبدون الله على ظن ووهم، حتى أخى أبا يزيد، لو أدرك صبياً من صبياننا لأسلم على يديه»، معناه: أنهم يقولون ما بعد المقام الذى وصلنا إليه مقام، فهذا وَهْم وظن، فإن كل مقام فوقه مقام إلى ما لا يتناهى. ومعنى «لأسلم على يديه» انقاد له. وفى قول أبى يزيد: «خضتُ بحراً وقف الأنبياء بساحله»، معناه: أن أبا يزيد يشكر ضعفه وعجزه فى اللحوق بالأنبياء، وذلك لأن الأنبياء خاضوا بحر التوحيد، ووقفوا على الجانب الآخر، على ساحل الفرق، يدعون الخلق إلى الخوض، يعنى أن أبا اليزيد لو كان كاملاً لوقف حيث وقفوا.

وقال فى قول السَّرِىّ فى حدّ التوبة: التوبة أن لا تنسى ذنبك، قال: هو أولى من قول الجنيد وغيره: التوبة أن تنسى ذنبك، لأن كلام السرى يدل على مبادئ المقامات. وكان السرى مكلفاً الكلام على مقامات العباد لكماله، والجنيد وغيره لم يكن إذ ذاك قدوة للناس.

وكان يقول: كان الجنيد قُطباً فى العلم، وسهل التُستُرى قطباً فى المقام، وأبو اليزيد قطباً فى الحال.

وقال فى كتاب «الرعاية» للمحاسبى: جميع ما فى هذا الكتاب يغنى عنه كلمتان: اعْبُد الله بشرط العلم، ولاترضى عن نفسك أبداً. وكان يقول: الهالك بهذه الطائفة (أى الصوفية) أكثر من الناجى بها.ـ وهو قولٌ غريب فيمن ينتمى إليهم أبو العباس المرسى!

* * *

٢٢٠ - ابن عبد الحق الفاروقى الهندى...

أشرف علىّ بن عبد الحقّ الفاروقى، الهندى، من مواليد تأهانه بهَوَن، ناحية مظفرنكر، فى ١٢ ربيع الأول سنة

١٢٨٠هـ (١٩ مـــارس سنة ١٨٦٣)، وتوفى فى ٦ رجب سنة ١٣٦٢هـ (٩ يوليو سنة ١٩٤٣)، وكان من العلماء المبرّزين، ومن كبار المتكلمين، تلقّى تعليمه فى مسقط رأسه ديوبند، واشتغل بالتدريس، ثم توجّه إلى مكة حيث لقى أحد المجاورين من المتصوفة الهنود الكبار، وهو حاجى إمداد الله، فترك الدنيا، وسلك الطريق، وتبعه وصار من مريديه، واستقر فى تأهانه بَهَوَن، يدرّس ويعظ، ويكتب، ويحاضر، ويبيح مبلّغاً؛ وقيل فى مصنفاته تجاوزت الألف، ومعظمها فى التصوّف، والطريقة، والتفسير، والحديث، والمنطق، والكلام، والعقائد، وكان أول آثاره المثنوى الفارسى «زيرويم»، نظمه وهو طالب، وآخر مؤلفاته «البوادر النوادر» أصدره سنة ١٩٤٥، وأهم كتبه «بيان القرآن» وهو تفسير للقرآن بالأوردية فى إثنى عشر مجلداً، أتمّه فى سنتين ونصف، ونُشر أول مرة سنة ١٩١٦م، و«بهشتى زبور» فى عشرة مجلدات، بالأوردية، يوجز تعاليم الإسلام للمرأة، والمجلد الحادى عشر منه للرجال، بعنوان «بهشتى كوهر». وكانوا يعرفونه باسم حكيم الأمة، والمقصود أمة الهند وليس أمة الإسلام.

* * *

٢٢١ - عبد الرازق (مصطفى)...

مصطفى بن حسن بن أحمد عبد الرازق (١٣٠٢ - ١٣٦٦ هـ - ١٨٨٥ - ١٩٤٦م) المفكر الإسلامى، من أسرة عبد الرازق فى أبى جرج من قرى المنيا، ولد بها، وتخرّج بالأزهر، وتتلمذ على الشيخ محمد عبده، وأُرسل فى بعثة إلى باريس، وانتُدب للتدريس بليون، وعُيّن وزيراً للأوقاف المصرية، وله كتاب فى «التصوف» وكتَبَ التعليق على مادة التصوّف فى دائرة المعارف الإسلامية. ومن كتبه: «تاريخ الفلسفة الإسلامية»، و«فيلسوف العرب والمعلم الثانى، فى سيرة الكندى والفارابى»، و«الدين والوحى والإسلام»، و«سيرة محمد عبده الإمام» وغير ذلك.

والتصوّف فى المنظور الفلسفى عند مصطفى عبد الرازق: هو العلم الذى يصوّر المثل الأعلى الإسلامى فى الأخلاق، وإذا كان الصوفية هم البُناة لهذا المَثَل الأخلاقى الأعلى فى الإسلام، فإن للمرأة إسهامها فيه، مثل: أم الدرداء، ومعاذة العدوية، ورابعة القيسية، وحمادة الصفوية، وغزالة الشيبانية، والمِيلاء، وحميدة، وليلى الناعظية، ولهن من أشعارهن وأخبارهن ما يقوم مقام الكتب المدونة. ومنهن رابعة العدوية التى توفيت

عـام ١٨٥ هـ، وتركت فى الإسلام شـذا من ولايتها لا يزال أريجاً، واستعملت فى غير تهيب كلمة الحبّ فى العشق الإلهى، معتمدة على ما جاء فى القرآن. ويستنكر مصطفى عبـد الرازق الرواية التى تقول إن عبد الواحد بن زيد قد خطبها فأنّبته وقالت لـه: يـا شهـوانى! اطلب شهـوانية مـثلك! باعتـبارها رواية مخـتلَقة كـسائر الروايات الكثيرة عن رابعـة، التى مقصودها إعلاء شأنها وترسيخ ولايتها وتفوّقها على الكثير من أعلام الـصوفيـة! ومن الروايات التى ينكرها كذلك تلك الرواية التى تؤنّب فيها أحـد الصوفـيـة، إذا تراه يقـبّل ولداً من أولاده، بقولـها: «ما كنتُ أحـسب أن فى قلبك موضعاً فارغاً لمحبة غيره تبارك اسمه»، فيقول الشـيخ مصطفى: وليس من شأن المرأة مـهمـا بلغ بها التـصـوف أن تنكر الحنو على الأطفـال؟! ـ ويقول الـشيخ: إن رابعـة العدوية على عكس ما ينسَب إليها المستشرق ماسينيون ، لا يمكن أن تكون قد قصدت فى شعـرها إلى معـالجة المسائل الفـقهـية والكلامية والصوفية، وأنها ما كانت تتكلم فى ذلك إلا بما كـان يفـيض عن نفـسهـا الشاعرة، وكانت بحكم أنها امرأة، أول من أدخل الحبّ والحـزن فى هيكـل التـصـوف الإسلامى، بتـعبـيراتها الصـادقة فـيهمـا، وما فـاض به الأدب الصوفى بعـد ذلك من شعـر ونثر فـى هذين البابين هو نفـحة من نفـحات رابعة العـدوية إمام العاشقـين والمحزونين فى الإسلام!

(انظر كـتاب الدكتـور الحفنى عـن رابعة العدوية).

* * *

٢٢٢- عبد الرحمن بدوى (مُعلم التصوف)...

مدرس الفلسفة الـذى هاجر إلى فرنسا ومات بها، وقد ظل بهـا نحواً من خمسٍ وثلاثين سنة، وكان يكتب بالعربية ولكنه أخيراً كتب بالفرنسية، وأبدى الندم أنه لم يكتب منذ البداية بالفرنسيـة، ويتحسّر أنه ولد مصرياً ! (انظر كتابه «سيرة حياتى»).

وبدوى من مواليد الرابع من فبراير سنة ١٩١٧، بقرية شرباص مركز فارسكور دقهلية، وتعلّم بالمدارس المصرية، وحصل على الدكـتوراة من كلية الآداب جـامعة القـاهرة، ومـوضوعـاه فى الماچستـير والدكـتوراة من الموضوعـات التى يتناولها الفلاسفة الوجـوديون الغربيون، تابَعَ فيهما آراء معلمـيه من المستشرقين، وكتبـهما بالفـرنـسيـة، ولذا لا أرى فـيـه إلا أنه مستشرقٌ عربيٌ، وأسميه لذلك بالمُستغرِب، لأنه يتنـاول الموضـوعـات الإسـلامـيـة خصـوصاً، من وجـهة نظر المستشـرقين

الغربيين؛ وهو متصوّف بمعنى من المعانى، لأنه لم يتزوج، ولأنه كان يقتّر على نفسه ويعيش كالزهّاد، ولأن تدريسه كان غالباً للتصوّف الإسلامى، وله فيه المؤلفات، منها: «تاريخ التصوف الإسلامى من البداية حتى نهاية القرن الثانى»، و«شهيدة العشق الإلهى»، و«شطحات الصوفية»، و«رسائل ابن سبعين»، و«ابن عربى» ترجمة عن أسين بلاثيوس، و«الإنسان الكامل فى الإسلام»، وهو فيها جميعاً مدرس يؤرّخ للتصوّف، ومن رأيه أن اسم التصوّف لم يكن للمؤثرات الأجنبية أى إسهام فى صياغته، وهو من لبس الصوف، ومن الصوفى اشتق الفعل تصوّف، بمعنى سلك مسلك الصوفيه. وقد يفرّقون بين الصوفى والمتصوّف، كما يفرقون بين الفيلسوف والمتفلسف، كما فى قول الحلاج: مَن أشار إليه فهو متصوّف، ومن أشار عنه فهو صوفى»، باعتبار أن المتصوّف: لا يزال يفرّق بين الربّ والعبد؛ بينما الصوفى قد اتحدّ بالذات الإلهية حتى صار يتكلم عنها وباسمها.

والتصوّف عند بدوى: يتسم بالطابع العملى السلوكى غالباً، غير أن ما تبقّى منه عن السلف هو الجانب النظرى المعرفى، ولولا سيادة هذا الجانب لصار التصوّف مجرد أخلاق دينية، ويقوم هذا الجانب على توكيد المطلق، أو الموجود الواحد الأحد، وإمكان الاتصال به بحسب مراتب الواصلين، وأعلاها مرتبة الفناء فى الله عزّ وجلّ، وعند البعض الاتحاد التام به بحيث لا يبقى ثَمّ إلا هو. ومنهج التصوّف: الاستبطان الكامل للنفس فى علاقتها بالله، على أساس إيجاد صلة خُلّة به وعشق له، تسمح إذا ما تعالت، بالاتحاد به أو الفناء فيه، وكانت بداية هذا التطور النظرى برابعة العدوية فى النصف الثانى الهجرى، حتى قوّلة الحلاّج «أنا الحق» فى نهاية القرن الثالث. وتحليل النفس كان دائماً مطلباً للصوفية. وهناك فرق بين الصوفى والفيلسوف المتألّه، والأول أداة معرفته: الوجدان، أو الذوق أو العيان؛ والثانى أداته العقل أو البرهان. ويفرّق الصوفية بين علم الظاهر وهو علم الشريعة لأنه يتعلق بالأعمال الظاهرة وأعمال الجوارح، وبين علم الباطن وهو علم المقامات والأحوال، كالتصديق والتوكل، والمحبة إلخ. ويرتبط بذلك التفريق بين أن «نشاهد» وأن «نشهد»، فأن «نشاهد» تختص بالعلوم الظاهرة، وأن «نشهد» تختص بعلوم الحال. ومعرفة الصوفى لذلك مباشرة لا تتوسط فيها

البراهين، وهى معرفة حدسية قلبية فوق عقلية، وتسمى كشفاً. وللتصوف دور اجتماعى، من حيث أن الصوفية أطباء نفوس، بدأوا أولاً بشفاء قلوبهم ثم قلوب المحزونين، ولأنهم تخلّقوا بالأخلاق فقد جعلوها قاعدة حياة، وكانت التضحية عندهم والاستشهاد أغلى ما يصبون إليه. وكان لهم لذلك دورهم فى نشر الإسلام من خلال الطرق الصوفية، كالتيجانية، والسنوسية، والشاذلية، والنقشبندية. وكانت لهذه الطرق الصوفية طابعها الشعبى، وتغلغلت بين العامة. والصوفية مع ذلك أهل جهاد، وابتدعوا الزوايا والروابط ينشرونها على الثغور. وامتاز التصوف فى كل مراحل التاريخ بالنزعة الإنسانية وانفتاحه على الأديان والأجناس. ومن رأى بدوى أن القول بأن التصوف الإسلامى نشأ تحت مؤثرات أجنبية إيرانية، ونصرانية يهودية، وهندية، ويونانية، هو قول متهافت، وابتداءً من سنة ١٩٢٠ بدأ المستشرقون يتخلون عن هذا الاتهام بشأن نشأة التصوف، ويتحصل لهم الاعتقاد أن تكون أصوله إسلامية بحتة، تولّدت لدى الصوفية نتيجة تلاواتهم المتأملة للقرآن والحديث، وبسبب الظروف السياسية والاجتماعية، ونتيجة للمعاناة الفردية والأزمات النفسية لبعض الصوفية.

ويقول بدوى: إن التصوف الإسلامى كان تطوراً متصلاً طبيعياً لحركات الزهد منذ عهد الرسول ﷺ، وترتب على انتشاره وخروجه على الخط السنّى أن تعرّض للنقد ـ من الفقهاء والمتكلمين ـ لسلوك الصوفية مسالك لم يكونوا فيها يقتدون بالرسول ﷺ، وخرجوا بالتصوف إلى القول بوحدة الوجود، وبالاتحاد، وهو ما لا شبيه به فى القرآن ولا فى الحديث ويناقضهما. ولم ير الخوارج فى الصوفية إطاعتهم للسلطان الجائر وقولهم بتفضيل النّية على العمل.

ويقول بدوى: إن الشيعة يُنسَب إليهم أن الإمام جعفر الصادق لم ير التصوف، وقال فى أبى هاشم الكوفى الصوفى: أن عقيدته «التصوف» فاسدة جداً». وقال الإمام الرضا: لا يقول بالتصوف أحدٌ إلا لخدعة أو ضلالة أو حماقة، ومن سمى نفسه صوفياً للتّقية فلا إثم عليه». وأخذ المُلاّ صدرا الشيرازى على الصوفية تعطيلَهم لما وهبهم الله من المدارك والمشاعر، وتركَهم لتعلّم العلم، ورفضَهم العمل بالحديث والقرآن، وتحريمَهم لِنعم الله بسبب جهلهم وفساد إدراكهم، وادعاءَهم كذباً

مشاهدة الحق، وقولَهم بعلمٍ للمعرفة، ودعواهم الوصول إلى القُرب، ومعاينة الجمال الأحدى، والفوز باللقاء السرمدى، وحصول الفناء والبقاء، وترديدهم لهذه الأسماء كلها لا يعرفون معناها إلا أمانى. ويردّ المُلاّ صدرا «أغلاط الصوفية» إلى اشتغال بعضهم بالمجاهدة قبل إحكام العلم، وحسبانهم لما يقع لهم من خوارق العادات أنها كرامات، ولاتعدو أن تكون شعبذات مما يحتال به أهل المخاريق وأصحاب الفأل والزجر. ويقول بدوى: إن المُلاّ صدرا انتقد شطحات الصوفية ورأى أنها دعاوى عريضة، غير أنه لا ينكر الكشف، ويقول إنه من أدوات المعرفة بالله، وهى أرفع المعارف وأشرفها. وأما تلميذه الملا محسن فقد استنكر ادّعاء بعض الصوفية بلوغهم التألُّه حتى ليُسمع دعاؤهم فى الملكوت - كما يقولون - ويستجاب لندائهم فى الجبروت. وثمة مفكر شيعى آخر هو الأردبيلى هاجم فى كتابه «حديقة الشيعة» مذاهب التصوف وقسّمها إلى: حلولية، واتحادية، وعُنْاقية، وواصلية؛ ووصف الصوفية بأنهم طائفة ضالة من الغلاة والشذّاذ والمنحرفين، ونعت القائلين بالاتحاد مثل محيى الدين بن عربى والكاشانى والنسفى، بالكفر والزندقة، ونسب قولهم للصابئة والنصارى، وهاجم الملامتية منهم والإلهامية والتلقينية، وكتابه «حديقة الشيعة» يعتبر لذلك المُناظِر لكتاب «تلبيس إبليس» لابن الجوزى عند السُنّة، فكلاهما يهاجم الصوفية، ويصنف الأردبيلى التصوف ضمن المذاهب الباطنية.

ويقول بدوى: وأما أهل السُنة فهم الأشد هجوماً على الصوفية، ومؤلفاتهم فى ذلك كثيرة، منها كتاب «التنبيه والردّ على أهل الأهواء والبدع» لأبى الحسين الملطى، المتوفى سنة ٣٧٧ هـ، ويذكُر ضمنهم «الروحانية» - ويقصد بهم الصوفية، وهو اسم جديد عليهم، وأطلق عليهم كذلك «الفكرية»، لأنهم بزعمهم يتفكّرون، وجعلوا الفكر غاية عبادتهم ومنتهى إرادتهم، ينظرون بأرواحهم فى الأفكار، ويتلذذون بها كمخاطبات إلهية، وعندهم أن الجنة فكرة، والنار فكرة، وأن التلذّذ بالحور العين فكرة، فالمسألة كالتصوّر، ويربأون بكل ذلك أن يكون حسّياً. ومن هؤلاء جماعة يقال لهم الحُبّية، لأنهم قد غلبوا حبّ الله على إرادتهم، فمثلما الله عندهم فى أعلى منزلة، فكذلك هم عنده تعالى فى أعلى منزلة، لأن الحبيب والمحبوب كلاهما فى

المنزلة الواحدة، فأيّما فعلوا فالله لن يحاسبهم، لوقوع الخُلّة منه عليهم، فما يحسبه الناس سرقة، أو زنا، أو الفواحش، ليس عندهم كذلك كما اعتقدوا، وهو ليس حلالاً ولكنه مغفور لهم على وجه الخُلّة!!

ويقول بدوى نقلاً عن الملطى: من الروحانية - أى الصوفية - فرقة بلغوا السبقة فى تضمير أنفسهم وحملها على المكروه، حتى ليصير كل شيء مساوياً لكل شيء، فأراذل الأطعمة سواء مع أطايبها، والعسل كالخل ولا فرق، فاستوى عندهم حينئذ أن يفعلوا الشر والخير بلا تأثيم. ومنهم جماعة قالوا إن الاشتغال بترك الدنيا خطأ، والأصل أن يوجهوا همّهم إلى معرفة ربّهم، والأولى أن يكونوا مع شهواتهم ولا يحرموا أنفسهم شيئاً منها فتتحصل لهم المعرفة بها، ومن عرف نفسه عرف ربّه.

ويقول بدوى: وهذه الفرق كانت موجودة بين المتصوّفة عن حقّ ولم ينكرها السرّاج الطوسى فى كتابه «اللُّمَع»، وهو من أكبر المدافعين عن التصوف، ووصفهم بأنهم ليسوا صوفية وإنما هم متسرّسمون بالتصوف، وغلطوا فى فهم التصوف. وجاء أكبر هجوم سُنّى على التصوف من ابن الجوزى، المتوفى سنة ٥٩٧هـ، فى كتاب «تلبيس إبليس» السابق ذكره، وتلاه ابن تيمية المتوفى سنة ٧٢٨هـ، فقال عن الصوفية إنهم يجتهدون فى طاعة الله، فمنهم المذنب، ومنهم التقىّ، وصاروا ثلاث طبقات: صوفية الحقائق، وصوفية الأرزاق، وصوفية الرسوم؛ والأولون هم أهل المعرفة، وصوفية الأرزاق هم الذين يأكلون فى الخوانق، وصوفية الرسوم هم المتشبّهون فى اللباس والآداب الوصفية. ولاينكر ابن تيمية السماع والتواجد والمقامات والأحوال، والكرامات، وهذه جميعاً - للخاصة خاصتها، وللعامة عامتها، ولا يرى ما يراه الصوفية فى القطب والغوث من أوصاف خارقة، وما يدّعونه من أفضلية الولىّ على النبىّ، ويهاجم التصوف من نوع تصوف الحلاج، وابن عربى، والصدر القونوى، والعفيف التلمسانى، وهؤلاء قالوا بوحدة الوجود وبالحلول، ويسميهم: الحلولية والاتحادية؛ ويصنّفهم صنفين: فصنف يقول بأن الله يحلّ ببعض الأشياء دون البعض، ويتحد ببعض الناس دون البعض؛ وصنف يُعمّمون فيقولون بحلول الله واتحاده فى كل الموجودات، وهذا هو مذهب ابن عربى، وابن سبعين، وابن الفارض، والتلمسانى،

والبلبانى وغيرهم. ويقول بدوى : وفى الأندلس أخذ إبراهيم بن موسى اللخمى الشاطبى المتوفى سنة ٧٩٠هـ على الصوفية فى كتابه «الاعتصام» المبالغة فى التواجد، والتزام الرقص والزمر والدوران والضرب على الصدور. وصنّف أبو نصر السرّاج فى كتابه "اللُّمَع" الغالطين منهم بثلاث طبقات: فطبقة غلطوا فى الأصول من قلة معرفتهم، فحرموا الوصول؛ وطبقة غلطوا فى الفروع، وهى الآداب والأخلاق والمقامات والأحوال والأفعال والأقوال، من قلة معرفتهم بالأصول، ولمتابعتهم لحظوظ النفس ومزاج الطبع؛ وطبقة غلطوا ذلةً وهفوةً، لا علةً وجفوة. فمن غلط فى الأصول لا يسلم من الضلالة ولا يُرجى لبراته دواء؛ والغلط فى الفروع أقل آفة. ولابن عبد الرحمن السُّلمى رسالةٌ فى غلطات الصوفية لا تخرج فى مجموعها عمّا كتبه السرّاج. وانتقد الغزالى الصوفية فى وَجْدهم، باعتبار ما ينطقون من عبارات يُشتَمّ منها الحلول والاتحاد والوصول، وأخذ عليهم فى كتابه «المقصد الأسنَى» أن يقولوا أنهم قد عرفوا ذات الله، وعنده أنه لا يعرف الله إلا الله، وأما المقرّبون فحظوظهم من معانى أسماء الله وصفاته، فإن عرفوا من هذه المعانى فعلى سبيل المكاشفة والمشاهدة، فيتشوّقون أن يتصفوا بها تشبُّها بالملائكة المقرّبين، ويسعون إلى اكتساب الممكن منها والتحلّى بمحاسنها، فيصيرون ربّانيين. والغزالى إذن ضد الحلول والاتحاد، ولا يقر إمكان الوصول والقُرْب. ويقول بدوى: غير هؤلاء من المنتقدين أبو حفص عمر بن محمد السهروردى المتوفى سنة ٦٣٢هـ، صاحب كتاب «عوارف المعارف» وهو من أشهر متون التصوف، وقد حمل على المنتسبين للتصوف وليسوا منهم كالقلندرية، لتخريبهم العادات، واطّراحهم التقيّد بالآداب، وحَمَل على القائلين بالحلول بزعم أن الله يحل فيهم، كالحلاج والبسطامى.

ودراسات الدكتور بدوى فى التصوف قد يظن القارئ أنها عن معتقد مؤمن، وإنما الدكتور بدوى ملحد - وأكرر أنه ملحد، ودراساته الإسلامية جميعها كدراسات المستشرقين يزجيها كأستاذ للفلسفة والتصوف لا أكثر من ذلك ولا أقل. وفى كتابه «الزمان الوجودى» (١٩٤٣) ينكر صراحةً الاعتقاد بالله، ويسخّف فكرة الوجود المطلق (أى وجود الله)، وفكرة إفناء الشخصية فى الروح الكلية (يعنى الإيمان بالله)، كما ينكر

إفناء الشخصية في الناس (يعني الإيمان بالأمة)، وعنده أن فكرة الشخصية تقتضي بدورها فكرة الحرية، وكل إنسان حرّ بوسعه أن يختار لنفسه ما يشاء، والانتحار عنده لذلك من منصرفات الاختيار الحرّ «للشخصية»، وهو قول يكشف عن الجانب «العدمي» في فلسفة بدوى. والحرية عنده تعني: إمكان الشخصية أن تفعل الخير والشر معاً، ومن ثم فلا يمكن أن تكون الحرية صفة من صفات الله عند من لا يجوّزون على الله فعل الشرّ!

ويقول بدوى: إن جوهر الوجود هو الزمانية، فالوجود والزمان شيء واحد، والله عند القائلين به لا زمانى، ولكن الوجود الوحيد هو الوجود المتعين، وهو الوجود الذى تتحقق فيه إمكانيات الذات، وتحقيقها هو الآنية، أى الوجود الحاضر في الآن، أى في الزمان، والآن أو الزمان شرط تحقيق وجود الذات، ولا وجود للذات إلا في الزمان، وأى وجود خارج الزمان أو فوق الزمان ـ وهو المسمى الوجود الأزلى الأبدى (أى وجود الله) هو وجود زائف، ويعنى ذلك أن بدوى ينكر وجود الله، فلماذا إذن يبحث في التصوّف ويعلّمه للمسلمين، ويحاضر فيه النصارى باعتباره ممثل المسلمين، مع أنه غير مؤمن بالإسلام أصلاً ؟

وعندى أن الإلحاد إما عن جهل أو عناد، والجهل مرفوع عن بدوى، ويتبقى العناد وهو متوفر فيه، وبدوى شديد الصَّلَف، وعنيف مع الناس في الحياة اليومية، وليس صحيحاً أنه لم يتزوّج لأنه تزوج المعرفة كما يقول عن نفسه (فالناس لا يتزوجون المعرفة !!)، وإنما هو لم يتزوج لأنه لن ترضى به إحداهن لشراسة مَسْلكه، وقد حاول ذلك مع الكثيرات وتركنه لفرط أنانيته واستعلائه واستكباره، وأبان عن فساد طبعه في كتابه الأخير «السيرة».

ومذهبه في الوجودية قائم لذلك على المتقابلات المتطرفة، ففي ظنه أن رابعة العدوية مثلاً إذا كانت قد أسرفت في الاستغفار، فلابد أن ذلك كان لإسرافها في الإثم! ولابد أن تكون قد بدأت حياتها بغياً لتصبح بعد ذلك صوفية !! ولم يكن من فراغ أن لا يعجبه في الدراسات الإسلامية إلا دراسة أصحاب الشطح، وأصحاب الحلول والاتحاد، والملاحدة، والشخصيات القلقة في الإسلام وفي التصوّف، ومن هؤلاء في اعتقاده عمر الخيام، ولقد جعله من الحسيّين، وقال: إن حسيّته تميل إلى التسفُّل وليس الارتفاع إلى الأعلى روحياً وصوفياً! ولقد قارن رابعة العدوية في التصوف الإسلامي، بتريزا الأبيلاوية (لا

أدرى لماذا يقول الأبيلاوية وصحبها الأفيلية) فى التصوف المسيحى، وزعم أن رابعة تكلمت وتميزت بأقوالها فى العشق الإلهى، لأن أصولها كانت مسيحية!! ولم يكن إعجابه برابعة إلا لأن حياتها الروحية تناسب قوله بالتوتر الوجودى، فمن أعماق شهوة رابعة(!!!) انبثقت شرارة الطهارة المقدسة، ومن عمائق الإنكسار والتجديف(!!!) بدأت حماستها إلى التبشير بالله ونشر الإيمان!! ويقول بدوى: ولهذا فإنى أدعو إلى التطرّف المطلق لكل من يريد أن يكون خالقاً للقيم!!ـ وتطرُّف بدوى هو الذى جعله عنيفاً مع كل الناس، ومع شعب مصر، فى كتابه السيرة الذاتية، وجعله ينكر الله والبعث والآخرة، ويقول عن رابعة ـ وهى من هى فى التصوف: إنه من قبيل الخيال الجامح أن ينسب إليها أنها كانت يشع منها النور بحيث يملأ البيت ! ويصف بدوى هذا الكلام بأنه أسطورى، ويفسر الكرامات عند الأولياء تفسيراً نفسياً، ويردّها إلى الازدواجية النفسية ـ يعنى يردّها إلى فصام أصيل فيها فى الشخصية، ويقول إن البحث فى ذلك من الأمور العادية بمنهج البحوث النفسانية، إذا ما فهمت على أنها أحوال من الكلام النفسى الصادر عن ازدواج النفس حينما تلم بها الملمات. والمطبّ الذى يقع فيه بدوى أن هذه الكرامات فى حالة رابعة لم ترها فى نفسها لتكون أعراضاً لمرض نفسى فيها، ولكن الغير رأوها فيها، فإن كان هناك مرض ففى الغير يا دكتور !

ويضرب بدوى مثلاً آخر بالتوحيدى، فيقول إن تصوفه تصوف انحادى، وأنه لم يصدر عن زهد حقيقى، وإنما عن يأس، وإحساس محبط بأن الوجود لا يعدو نسيج أضداد ! ويغالى بدوى كل المغالاة عندما يفسّر مناجيات التوحيدى بأنها ليست علواً، وإنما هى مناجيات مع نفسه، ومن نظنه فيها أنه الله لا يعدو نفسه!

واعتقاد بدوى بالوجودية يجعله يخلط بين الصوفية وبين هذه الفلسفة، ويقلد فلاسفة الغرب فى القول بأن الفلسفتين الصوفية والوجودية يبدآن من الوجود الذاتى، ويجعلان الوجود سابقاً على الماهية ضد كل فلسفة تصورية. والصوفى ـ فى رأيه ـ لايعترف بأى وجود حقيقى غير الوجود الذاتى، ويضع ترتيباً تصاعدياً يقيم فيه الوجود الذاتى فوق الوجود الفيزيائى. ولأنه لا يبحث إلا عن الملاحدة فى الإسلام والأصوات النشاز، لم يجد، مثل المستشرقين من أساتذته، إلا نماذج الحلاج

والبسطامى، والسهروردى، وهم فى التصوف فى الحضيض، وكانوا حلوليين، والحلاج - كما يقول المستشرق الغربى ماسينيون والمستشرق العربى بدوى - لا يعترف بأى وجود إلا وجود الذات. حَسَنٌ، وبقية الوجود أين يكون؟ وإنكاره لا يفيد، لأنه موجود رغم الإنكار. والحلاج يتمثل الاتحاد على طريقة دعوى النصارى باتحاد الله والمسيح، ولذلك قال عبارته المشهورة التى يخرج بها عن الإسلام ويدين بها بالمسيحية : على دين الصليب يكون موتى»، وبتّهم المسلمين بدمه فيقول: «ليس فى الدنيا للمسلمين شُغل أهَمّ من قتلى !». ويشبّه بدوى السهروردى التصوف الإسلامى بكيركجارد فى التصوف النصرانى !! وعنده أنه إذا كان اليهود قد اتّهموا بقتل المسيح، فالمسلمون متّهمون بقتل الحلاج! والمسيح عند بدوى تجسيدٌ لفكرة الإنسان الكامل، والمتصوفة المسلمون الذين قالوا بالإنسان الكامل إنما قلّدوا المسيحيين، وعندهم أن الصوفى فى ارتقائه لمدرج الكمالات والتجرّد، إنما ليستحيل الإنسان الإله - أى يستحيل مسيحاً. وبدوى ضد فكرة الله المجرّد، ولكنه مع فكرة الإنسان الله - أى الإنسان الذى يرتقى صُعُداً لتصبح له كمالات الإنسان السوبرمان (الأعلى). والصوفى الذى يمكن أن يبلغ ذلك يكون أوحد مع نفسه، وحيداً أمام ذاته كما تقول تريزا الأبيلاوية وكيركجارد. وكما ترى فإن بدوى يتعسّف الأحكام، إذ يحاول أن يطبّق على التصوف الإسلامى القيم الفلسفية المسيحية، وطريقته أو منهجه فى الجدل كأسلوب حياته، يلخّصه فى سيرته الذاتية فى عبارة واحدة: «امتلئ ثقةً بنفسك وازدراءً للحاقدين» - يعنى قُلْ ما تشاء وليسخط الناس كما يحلو لهم، وليضربوا رءوسهم فى الحوائط. وفى محاضرة له بعنوان «الجانب الصوفى فى حياة النبىّ محمد ﷺ»، يقارن النبىّ بالمسيح، أو أنه بالأحرى يجعله تابعاً للمسيح! وفى سيرته الذاتية يقول عن طريقته فى الجدل: «ورأيت أن أبادئه بالهجوم لإرغامه على الوقوف موقف المدافع عن نفسه»، يعنى هذه طريقته فى الجدل، أن يتعسّف الأحكام وليذهب من يغضب إلى الجحيم! وفى سيرته الذاتية يقول: «والمصرى بطبعه لا يتمعّن من أى شىء يقرأه أو يسمعه، بل يصدق أى شىء حتى أكذب الأكاذيب، فإنه لا يتخلّى عنه بعد ذلك مهما أتيت إليه على عكسه بألف دليل ودليل، وذلك لأنهم لا يكلفون أنفسهم (يقصد

المصريين) عناء قراءة أى كتاب جاد فى أى موضوع خارج عن مهنتهم، ولا يحققون فى صحة ما يسمعون أو يقرأون، وهذا أفضل داء أصيبت به عقول المصريين !!! وكأن هذا الكلام نفسه لا يصدق عليه طالما هو مصرى! ويسمى بدوى ذلك الداء عند المصريين «الجهل المركّب العنيد»! وهذه التحليلات المبتسرة، وتحريفاته الموهمة إنما يطرحها ليُرضى بها المستشرقين على حساب أمته ومعتقداتها، وما قاله عن المصريين قد يصدق على من أعطوه مؤخراً أكبر جائزة للعلوم والآداب فى مصر! وكتاباه «دفاع عن القرآن»، و«دفاع عن النبىّ محمد» اللذان أصدرهما مؤخراً، ليسا لأنه قد تاب واستغفر وعاد إلى دينه كما ادّعى البعض، أو كما فهموا خطأ، ولكنه فيهما يقف موقف المستعلى من المستشرقين، ويحاكمهم، باعتبار ما قدّموه من نقد للقرآن وللنبىّ ﷺ يتهافت مع المناقشة، وليظهر أن علمه أكبر من علمهم، ومثله مثل القاضى الذى يحكم بين جماعتين متخاصمتين، فلما كانت دفوع المستشرقين ضعيفة ومحل مناقشة، فقد حكم ضدهم كقاضٍ وليس كمسلم، وهذا هو بدوى الذى كافأه التنويريون فى مصر، لأنه معلم فلسفة تنويرى، كما يدّعون، وفى الحقيقة فإنهم أعطوه الجائزة لأنه يهاجم الإسلاميين! وفى كتابه «مذاهب الإسلاميين» لم يقدم إلا المذاهب المنحرفة، ولم يحاول أن يناقش أهل السنة كمذهب من المذاهب، وسخّف ابن تيمية ،ونال منه دون سبب واضح. ولو حللنا عبد الرحمن بدوى من كتاباته، لأمكننا أن نرجع الكثير مما فى شخصيته العامة أو كفيلسوف لما عاناه فى طفولته، فقد كان ثامن إخوته وأخواته لأمه، والخامس عشر بين أبناء والده ! أى أن والده تزوج مرتين! وكانت أم بدوى هى الزوجة الثانية، وكان والده بتعبيره قوى الشخصية إلى أقصى حدّ، أى كان شديد القسوة على أولاده وزوجتيه، فهذا إذن هو سبب عُنف بدوى وميله إلى الهجوم لإرباك الخصم، فذلك ما تمرّس عليه بين إخوة بلغ عددهم خمسة عشر ولداً وبنتاً، فكان عليه أن يشتد فى تعامله معهم، وأن يكون مغالطاً عالى الصوت؛ وأعود إلى قوله: «ورأيت أن أبادئه بالهجوم لإرغامه على الوقوف موقع المدافع عن نفسه»، وبذلك كان ينال ما يريد. ولهذا أيضاً كره الزواج، فطبقاً لفلسفته - فإن كان أبوه قد تزوج وأفرط فى الزواج والإنجاب، فبدوى لن يتزوج، وسيفرط فى المقابل فى العزوبية. وأما

سبب كراهيته للإسلام والتصوف، وكثرة الكتابة فيهما فبسبب أبيه أيضاً، فالأب كان مسلماً في الظاهر ويأتي العبادات، وفي الباطن كانت ميوله مع النصارى - أي والله فهذا ما يقوله في سيرته الذاتية! والتصوّف لم يعجب بدوى منذ صغره، ويقول فيه: لم يكن في قريتنا شرياض من الطرق الصوفية إلا الشاذلية، ولم تكن لهم زاوية خاصة بهم، وكانوا يلتقون ليلة الجمعة في إحدى زوايا مسجد صغير، فيقيمون الذِّكر وتلاوة بعض الأوراد، فإذا كان بينهم صوفي وافد على القرية، عرتهم في إنشادهم هزات دينية، وكان الشيخ الواحد عادة ما يلجأ إلى أعمال الشعبذة، وفيها ما يسميه بدوى التشنُّج، والرَّبْ، والأول نوع من الشلل الوهمي في الجسم، وبدوى يقصد بذلك التخشُّب - وهو المصطلح العلمي عن ذلك، ولكن يبدو أن حصيلة بدوى ليس منها هذا المصطلح من الطب النفسي، ولا العلم بحقيقته، ويقول عن الربط أنه «العنّة» ويشكّل الكلمة بكسر العين ويضعها بين قوسين، وصحيحها العُنّة بضم العين، وهذا هو مدى علم الدكتور العالم الذي يتّهم المسلمين والمصريين وأساتذته العرب بالجهالة، ويبدى الازدراء للإسلام وللتصوّف، فهذا هو مدى علمه!!! ويقول بدوى: إن الشيخ الذى يقوم بالربط والتشنج يفعل ذلك بالإيحاء، من خلال التهديد والوعيد بالألفاظ الضخمة، يصرخ بها الشيخ بصوت مُروِّع يثير الرعب في نفس الشخص المطلوب إحداث ذلك التأثير فيه. وللقرية مولد، وفي الاحتفال به كان يكثر الشغب واللجوء إلى العنف. وكان يحدث لبعض أفراد القرية أحوال من الزُّهد من نوع اللَّمم الخفيف (واللمم هو الجنون الخفيف، يعنى أنه يعتبر الزهد نوع من الجنون الخفيف)، فيقيم الواحد منهم خلوة عند شاطىء النيل، هى عبارة عن كوخ صغير من البوص أو الغاب، ويفرشه بالقش، ويلبس بِشتاً من الصوف الخشن المصنوع في القرية، ويلبس في عنقه سلسلة من الحديد أو سُبحة طويلة، ويقتات من الخبز الذى يبعث به إليه أهله، أو مما يُحسن به عليه الناس، ومن أنواع البقل الموجود في الأرض المجاورة لكوخه. وإذا مات حمله الناس على نعش، حتى إذا كانوا على بعد مائة متر تقريباً من المقبرة هرولوا بالنعش، فيقول عامة الناس إن النعش «طار» به، وكان هذا دليلاً على صدق ولايته! ويطلق بدوى على الصوفية من هذا النوع اسم

«الخلويين» أى الذين يسكنون الخلاء، وبالإضافة إلى هؤلاء كان هناك آخرون يستمرون فى أعمالهم المعتادة ولا يختلون فى خلوة، وكانوا يأخذون عهداً على واحد من المشايخ المشهورين بالتقوى وسلوك الطريق الصوفى ممن كانوا يقيمون فى قرى أخرى، وما كانت تُعرف للناس فى قرية بدوى طريقة، ولا يتبعون إحدى الطرق الأعلام، لأن المشايخ كانوا جهلة أجلافاً، وفى الغالب أميين، ولهذا فإن مريديهم لم يكونوا يستفيدون منهم علماً من علوم أهل الطريق، ويقتصر الأمر عندهم على لبس البشت ووضع سلسلة حديدية أو سبحة فى الرقبة، وإحياء الذكر فى أوقات معلومة. ومن النادر جداً أن تتهذب نفوسهم، أو أن تتحسن أخلاقهم، وليس بين مختلف هؤلاء المشايخ تنظيم أو تضامن، وليس لهم هيئة تجمعهم، ولا مرجع يرجعون إليه، وكل واحد منهم له شأنه الخاص به، وأتباعه المتعلقون به وحده، ولهذا ليس لأحد أن ينتظر من هؤلاء المشايخ المنتشرين فى الريف المصرى وفى المدن المصرية، أى إسهام فى التصوف الإسلامى النظرى والعملى على السواء! - وبدوى بذلك يؤرخ للتصوف المصرى، ويشخّص علله ونقائصه - وهذا هو رأيه فى علم التصوف عند المصريين، وهو ليس بالرأى الجديد، فقد سبقه إليه صوفية من غير المصريين من باب الغَيْرة والحسد اللذين عند أهل التصوف عموماً، وهؤلاء قديماً قالوا: إن التصوف فى العراق أقوال؛ وفى الشام أعمال؛ وفى مصر لا أقوال ولا أعمال !!! وما يزالون يقولون من ذلك الكثير فى التصوف وفى غير التصوف، وبدوى ينقل عنهم حرفياً ! ويقول : لا فرق بين مشايخ مصر الذين ذكرهم الشعرانى فى طبقاته فى القرن العاشر الهجرى (السادس عشر الميلادى) وبين مشايخ مصر فى القرن العشرين ! ويصفهم بدوى فيقول: إنهم جميعاً من صوفية الأرزاق على تعبير ابن تيمية !!

وكما ترى فإن بدوى لا ينقد بموضوعية - كما هو متوقّع من أستاذ جامعى، ولا يكتب بموضوعية، ويلجأ إلى الصّغار، وكلامه كله كراهية وقُبح - لا غفر الله له.

* * *

٢٢٣ - عبده (الإمام محمد)...

الإمام محمد عبده بن حسن خير الله (١٢٢٦-١٣٢٣) مفتى الديار المصرية، وصاحب الدعوة إلى الإصلاح والتجديد فى الإسلام، ولد فى شنرا من قرى الغربية بمصر، ونشأ فى محلة

بالبحيرة، وتعلّم بالجامع الأحمدي بطنطا، ثم بالأزهر، وتصوّف وتفلسف، وكتب في الصحف، وناصر الثورة العرابية، وسُجن ونُفي إلى الشام، وأصدر مع جمال الدين الأفغاني جريدة العروة الوثقى في باريس، وتولى منصب القضاء ثم الإفتاء، وله «تفسير القرآن الكريم» (لم يتمه)، ورسالة «الواردات» في التصوّف. وللشيخ مصطفى عبد الرازق «سيرة الإمام الشيخ محمد عبده». وقد أكمل محمد رشيد رضا التفسير عن الإمام ونشره، وكان يكتب ما يلقيه من دروس في التفسير ويحفظه ويقرأه عليه، ولما استقل بالعمل بعد وفاة الإمام توسّع وزاد بما يمكن أن يخدم الدين، ويقول في الجزء الثاني عن أستاذه : إن بعض الباحثين اشتبه عليهم السبب في سقوط المسلمين في الجهل العميم، وبحثوا في تاريخ الإسلام وما حدث فيه، فكان له هذا الأثر الانقلابي، وكان من أهم ما عرض لهم في ذلك مسألة التصوف، وظنوا أنه من أعظم أسباب سقوط المسلمين في الجهل بدينهم، وبُعدهم عن التوحيد الذي هو أساس عقائدهم، وليس الأمر كما ظنوا فقد ظهر التصوف في القرون الأولى للإسلام فكان له شأن كبير، وكان الغرض منه في أول الأمر تهذيب الأخلاق وترويض النفس بأعمال الدين، وجذبها إليه، وجعله وجداناً لها، وتعريفها بأسراره وحكمه بالتدريج. وابتلى الصوفية في أول أمرهم بالفقهاء الذين جمدوا على ظواهر الأحكام المتعلقة بالجوارح والتعامل، فكان هؤلاء ينكرون عليهم أسرار الدين ويرمونهم بالكفر، وكانت الدولة والسلطة للفقهاء، لحاجة الأمراء والسلاطين إليهم، فاضطر الصوفية إلى إخفاء أمرهم، ووضع الرموز والاصطلاحات الخاصة بهم، وعدم قبول أحد معهم إلا بشروط واختبار طويل، فقالوا لابد فيمن يكون منا أن يكون أولاً طالباً فمريداً فسالكا، وبعد السلوك إما أن يصل وإما أن ينقطع، فكانوا يختبرون أخلاق الطالب وأطواره زمناً طويلاً ليعلموا أنه صحيح الإرادة صادق العزيمة، لا يقصد مجرد الاطلاع على حالهم والوقوف على أسرارهم، وبعد الثقة يأخذونه رويداً رويداً، ثم إنهم جعلوا للشيخ (المُسْلك) سلطة خاصة على مريديه، حتى قالوا يجب أن يكون المريد مع الشيخ كالميّت بين يدىّ الغاسل، لأن الشيخ يعرف أمراضه الروحية وعلاجها، فإذا أبيح له مناقشته ومطالبته بالدليل

تتعسّر معالجته أو تتعذر، فلابد من التسليم له في كل شئ من غير منازعة، وقالوا إن الوصول إلى العرفان المطلق لا يكون إلا بهذا، ثم أحدثوا إظهار قبور من يموت من شيوخهم والعناية بزيارتها، لأجل تذكّر سلوكهم ومجاهداتهم وأحوالهم والتأسّي بها، والتأسّي هو طريق التربية، فظهر من هذا الإجمال أن قصدهم في هذه الأمور كان صحيحاً، وأنهم ما كانوا يريدون إلا الخير المحض، لأن صحة القصد وحُسن النية أساس طريقتهم. فماذا كان أثر ذلك في المسلمين؟ كان منه أن مقاصد الصوفية الحسنة قد انقلبت ولم يبق من رسومهم الظاهرة إلا أصوات وحركات يسمونها ذِكراً، يتبرأ منها كل صوفي، وإلا تعظيم قبور المشايخ تعظيماً دينياً، مع الاعتقاد بأن لهم سلطة غيبية تعلو الأسباب التي ارتبطت بها المسببات، بحكمة من الله تعالى، بها يديرون الكون ويتصرفون فيه كما يشاءون، وأنهم قد تكفّلوا بقضاء حوائج مريديهم والمستغيثين بهم أينما كانوا، وهذا الاعتقاد هو عين اتخاذ الأنداد، ويخالف كتاب الله وسُنّة رسوله وسيرة السلف. وزادوا شيئاً آخر أظهر قبحاً وهدماً للدين، وهو زعمهم أن الشريعة شئ والحقيقة شئ آخر، فإذا اقترف أحدهم ذنباً فأنكر عليه منكر، قالوا في المُجرم أنه من أهل الحقيقة فلا اعتراض عليه، وفي المُنكِر أنه من أهل الشريعة فلا التفات إليه. ولقد جاء في كلام بعض الصوفية أن في كلام الله ورسوله ما يعلو أفهام العامة، ويشير إلى دقائق لا يعرفها إلا الراسخون في العلم، فحسْبُ العامة الوقوف عند ظاهره، ومن آتاه الله بسطةً في العلم فَفَهِمَ منه شيئاً أعلى مما تفهم العامة، فذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ممن يجدّ ويجتهد للتزيّد من العلم، فهذا ما يسمونه علم الحقيقة، وليس فيه شئ يخالف الشريعة، ومن آتاه الله نصيباً منه كان أتقى لله، وكان الصوفية الأوائل على هذا، فلما فسد التصوف وضعف الفقه، فصار مناقشات لفظية، اتفق المتفقهة الجامدون والمتصوّفة الجاهلون، وأذعن أولئك إلى هؤلاء، واعترفوا لهم بالسرّ والكرامة، وسلمّوا لهم بما يخالف الشرع والعقل على أنه علم الحقيقة، فصرتَ ترى العالِم الذي قرأ الكتاب والسنة والفقه يأخذ العهد من رجل جاهل أُمّي ويرى أنه يوصله إلى الله تعالى. فإنْ كان كتاب الله وسُنة رسوله، وما فَهِم الأئمة واستنبط الفقهاء منهما، كل ذلك لا يفيد معرفة الله تعالى المعبَّر عنها بالوصول إليه، فلماذا شرع الله هذا الدين والناس أغنياء عنه

بأمثال هؤلاء الأميين وأشباه الأميين؟ وهل القصور إذن فيما أنزل الله، أم فى بيان الرسول له وبيان الأئمة ؟ حاشا لله ، فلا طريق لمعرفته عزّ وجل غير ما نزله من الهدى، وإنما كان غرض الصوفية الصادقين فَهْم الكتاب والسنة، مع التحقيق بمعارفهما والتخلّق بآدابهما، من غير تقليد لأهل الظاهر والجمود على الظواهر . ولقد تشوّهت سيرة مدّعى التصوف فى هذا الزمان، وصارت رسومهم أشبه بالمعاصى والأهواء، وأقبح من رسوم الذين أفسدوا التصوف من قبلهم، وأظهرتها فى هذه البلاد الاحتفالات التى يسمونها «الموالد»، وهى أسواق للفسوق وإضحاك الناس، وبعضها يكون فى المقابر، وكلها منكرات، ولم يكن فى القرن الأول شئ من هذه التقاليد، ولا فى الثانى، ولا يشهد لهذه البدع كتاب ولا سُنّة.

وبعد، فهذا رأى الشيخ محمد عبده، ينعى ما وصل إليه التصوف والمتصوفة، وكلامه يرقى إلى تحريم هذه الموالد، ومحو هذه القبور، ومنع مفاسد حَضْرات الذكر، وفيها ما فيها من الدعاوى العريضة، وعهدُنا قريب بما نشرته الصحف عن الشيخة منال وما كان يحدث فى اجتماعات مريديها والمؤمنين بها!

* * *

٢٢٤ - عُتبة الغلام، غلام الرهان...

هو عُتبة بن أبّان، وشهرته عُتبة الغلام، فقد كان نصفاً من الرجال، أو أنه كان فى العبادة غلام رِهان، يعنى أنه رغم أن شكله وقوامه كانا كالغلام، إلا أنه مضمون الفوز والسبق كأنه الرجل الضخم الكامل، فقد كان عُتبة كأنه الغلام جسماً وسمتاً. وقيل هو عتبة بن أبّان بن صمعة، مات قبل أبيه، وكان من معاصرى عبد الواحد ابن زيد المتوفى سنة ١٧٧ هـ، وعبد الواحد أكبر منه سناً، وكان يسميه «غلاماً»، وإذا نادى عليه قال: يا غلام، وإذا ذكره فى مجلس قال: عُتبة، هذا الغلام. وكان يلحظ عليه حزنه، وكان أشبه بُحزن الحسن البصرى.

والتصوّف عند عُتبة: شهادةٌ وكلام وأعمالٌ عظام؛ وطريقته: الجهاد والمجاهدة؛ وكان من نُسّاك البصرة، ومن أصحاب الفِلْق، وفِلْق الخبز يعنى تقطيعه نصفين، فكان يطعم نفسه فى اليوم فلقتين، ويصوم الدهر، فإذا كان الإفطار أكل فِلْقة، وفى السحور يأكل فلقة. ورأسماله فلسٌ، يشترى به الخوص ويبيعه بثلاثة فلوس، ففلسٌ يتصدّق به، وفلسٌ يتخذه رأسماله، وفلسٌ يشترى به شيئاً يفطر به!! وخبزه عبارة عن سويق دقيق، يجعله فى خرقة،

فيصب عليه ماء وهو يأكل منه! وعيناه تذرفان الدمع رضاً وقناعة وامتنان! وقيل كان يأخذ دقيقه فيبلّه بالماء، فيعجنه ويضعه فى الشمس حتى يجف، فإذا كان الليل جاء فأخذه وأكل منه لقماً! ثم يأخذ كوزاً كان له فيغرف منه ماء كان فى الشمس نهاره، ويحمد الله أن جوعه قد سُدَّ !! وقيل كان عتبة يعجن دقيقه، ويجفّفه فى الشمس ثم يأكله، ويقول: كسرةٌ وملحٌ حتى يُهيأ فى الدار الآخرة الشواء والطعام الطيب! وكان يأوى إلى السواحل والجبابين، ويحيا حياةً كحياة المجانين! ومن أصحابه: المُرّى، ويحيى الواسطى، ومُشَمرخ الضَّبى، وسالم الأسوارى، وكانوا مثله يأوون إلى السواحل، وانتهوا إلى حلب والمصّيصة وأدَنة، واستشهد عُتبة وقُتل فى حرب الروم، فى قرية الحباب، وتلقى بصدره ست طعنات أو سبع، وسلبوه بعد قتله، فكان من الشهداء المرزوقين، وقالوا كان أول رجل استشهد فى تلك الوقعة من المسلمين.

وعُتبة كان يرى التصوف بشرط أن تكون للصوفى حرفة يرتزق منها. وكانت ملابسه زرية حتى كان من لايعرفه يراه أحقر زملائه، فيقول عتبة: الحمد لله الذى لم ير فيهم أحقر فى عينيه منى! ـ ولما افتتن به أهل البصرة كانوا يجيئونه عند الجبّانة، كما لو أن عتبة أضاع نفسه وفقد عقله، فكان يتكلم ذاهلاً عمّن حوله ويتصرف معهم كتصرفات هاملت فى رواية شكسبير، لا يبالى أصبح الناس ولا أمسوا. وكان يلبس الشَّعر تحت ثيابه، فإذا كان يوم الجمعة ألقاه عنه ولبس من صالح الثياب، وقيل كان لباسه كسائين أغبرين يتّزر بواحدة ويرتدى بأخرى، وإذا رأيته قلت بعض الأكَرة (جمع أكّار وهو الحراث الأجير)، وإذا دعوه إلى طعام ظل يخدم الطاعمين والدموع تملأ مآقيه، يذكر طعام أهل الجنة والخدم قيامٌ على رءوسهم فيشهق ويغشى عليه، وقلّده عبد الواحد بن زيد فصار مثله لا يأكل إلا أقل من شَبعه، ولا يشرب إلا أقل من رِيّه، ولا ينام من الليل والنهار إلا أقل من نَهْبة. وشعار عتبة فى ذلك: لا أنام ليلاً ولا نهاراً إلا وأنا مغلوب! فكان شِبه واله من فرط حاجته للنوم، ولايعقل بَحْره، فإذا سار فى الطريق لم يعرف أحداً من كثرة اشتغال فكره، وكلما جَنّ الليل يصلى القيامة ثم يضع رأسه بين ركبتيه ويبكى، وكلما قام يصلى يصيح صيحة، وقالوا: لا تنظروا إلى صيحته، وانظروا ما كان بين الصيحتين. ـ ويظل عتبة هكذا بين الفكر

والبكاء. وكان صاحبه الأثير يحيى الواسطي وهو مثله، فكأنما ربّتهما الأنبياء! وكثيراً ما كان ينتهي بكاؤه بأن يغشى عليه، وفي مرة غشي عليه وأفاق فقال يخاطب ربَّه: ارْحَم مَن تجرّأ عليك وأكَلَ بالدَّين. فنظروا في دَيْنه فإذا عليه فلسان!ـ وكان إذا بكى غزر دمعه، فإذا أشفقوا عليه ونبّهوه دعا ربّه أن يمنّ عليه بصوت حزين، ودمع غزير، وغذاء من غير تكلُّف، فكان إذا قرأ بكى وأبكى، وكانت دموعه جارية دهره، وإذا أوى إلى منزله يصيب قُوتَه، لا يدري من أين يأتيه. وكان له بيت يتعبّد فيه، فلما خرج إلى الشام أقفله، وقال لا تفتحوه إلى أن يبلغكم موتي، فلما بلغهم قتله فتحوه، فأصابوا فيه قبراً محفوراً!

وفاضلوا بين عتبة وإبراهيم بن أدهم، وكان مَخْلَد بن الحسين قد عرفهما وصحبهما، فقال مخلد: ما رأت عيناي أفضل من عتبة. يعني أن عتبة كان في التصوّف هو الأفضل. ولما مرض عتبة قالوا له: ألا تتداوى؟ فقال: دائي هو دوائي. وسألوه: كيف صلاح الإنسان ؟ قال عتبة: كيف يصلح إنسان يسرّه ما يضرّه ـ يعني الدنيا ـ هي تسرّ وهي تضرّ. أو أنها لا تسر بقدر ما تضر؛ أو أنها تسرّ قليلاً وتُحزن حزناً طويلاً.

والتصوف عند عتبة: هو معرفة الله والعمل على رضاه، يقول: من عرف الله أحبّه، ومن أحبّ الله أطاعه، ومن أطاع الله أكرمه الله، ومن أكرمه الله أسكنه إلى جواره، ومن أسكنه إلى جواره فطوباه وطوباه وطوباه !ـ وكان يقول في محبة الله كلاماً أشبه بكلام رابعة العدوية في المحبة ـ يقول : مَن سكن حبُّ الله قلبه لن يجد حرّاً ولا برداً ـ يعني من سكن الله قلبه شغله حتى لا يعرف الحرّ من البرد، ولا الحلو من الحامض، ولا الحار من البارد. وكان يقول: إلهي، إنْ تعذبني فإني لك محب، وإن ترحمني فإني لك محب. ـ وكان يصلي ليلاً طويلاً، فإذا فرغ رفع رأسه فقال: سيدي! إن تعذبني فإني أحبك، وإنْ تعفُ عني فإني أحبك!ـ وما أشبه قوله هذا بقول رابعة العدوية: تُراك مولاي تعذّب محبيك وأنت الحيّ الكريم؟ ـ وبقول عُتبة: جبّار السماء! إن المحب لفي عناء! ـ ومن دعائه : يا هادي المضّلين، وراحم المذنبين، ومُقيل عثرات العاثرين، ارحمْ عبدك ذا الخطر العظيم، والمسلمين كلهم أجمعين، والشهداء والصالحين، آمين يارب العالمين !.

والبكاء الذي كان عتبة ينخرط فيه لم يكن قاصراً عليه، وإنما كان دأب الكثيرين

من الصوفية في زمنه، من أمثال صالح المُرِّي، وسالم الأسواري، وعبد الواحد بن زيد، وهؤلاء الثلاثة وعتبة رابعهم، نزلوا ساحل عبادان مرة وجلسوا إلى الطعام، فمرّ رجل يغني بصوت عالٍ يقول:

وتلهيك عن دار الخلود مطاعمٌ
ولذةُ نفسٍ عَيُّها غيرُ نافع

فصاح عتبة وسقط مغشياً عليه، وبقي القوم، ورفعوا الطعام وما ذاقوا منه لقمة واحدة!

* * *

٢٢٥ - ابنْ عجيبة (شارح التصوف)...

أبو العباس أحمد بن محمد بن المهدي، الحسني الأنجري (١١٦٠ - ١٢٢٤ هـ)، دفن ببلدة أنجره من المغرب، وله التصانيف الكثيرة في التصوف، منها: «شرح صلوات بن مشيش»، و «الفتوحات الإلهية في شرح المباحث الأصلية»، و «الفتوحات القدوسية في شرح المقدمة الأجرومية»، جمع فيها بين النحو والتصوف، و «إيقاظ الهمم في شرح الحِكَم لابن عطاء الله».

ويبدو أن اسمه ابن عجيبة كان تعبيراً من أهل زمنه عن سعة اطلاعه، وتمكُّنه من ثقافته، وقدرته على شرح آراء غيره واستيعابها، ويقصد بذلك تيسير التحصيل على المريدين، وتثقيفهم بخير ما في الكُتُب الأمهات للتصوّف، تربيةً للأجيال. والتصوف عنده علمٌ بما كان عليه السلف الصالح من الصوفية الكبار، والمريد الذي يتحصّل له هذا العلم فهو الصوفي حقاً، لأنه لا عمل بغير علم، والعلم يأتي أولاً ثم يكون العمل.

* * *

٢٢٦ - ابنْ عربي (شيخ الصوفية)...

أبو بكر محمد بن عليّ، وتنعته الصوفية بأنه «الشيخ الأكبر»، و«الكبريت الأحمر»، ويخرّون له ساجدين! وشهرته محيي الدين، باعتبار مصنفاته في التصوف وتفسيراته في الدين - قيل إنه بها قد جدّد الدين وأحيا الملّة؛ وهو أيضاً ابن عربي حيث أنه الصوفي المتميز بعروبته، وليس من العَجَم كمشاهير الصوفية الفُرس وغيرهم، وأصوله عربية من قبيلة حاتم الطائي، ومذهبه لذلك يقال له الحاتمية على اسم حاتم؛ واسمه المرسي، حيث كانت ولادته بمرسية الأندلس سنة ٥٦٠هـ، ويعرف في الأندلس باسم ابن سُراقة، قيل: إن أباه سُرِق وهو صغير، إلى أن أعيد إلى أهله، فَسُمّي سُراقة، وهو الشيء المسروق. وفي الشرق أعطوه اسم

ابن عربي، بدون أداة التعريف، تمييزاً له عن القاضي أبي بكر ابن العربي، المتوفى سنة ٥٤٣ هـ.

ولابن عربي نحو الأربعمائة كتاب!! أشهرها موسوعته الكبرى في التصوف التي أطلق عليها اسم «الفتوحات المكّية» في خمسمائة وستين باباً، يلخصها جميعاً الباب التاسع والخمسون، وقد اختصرها الشعراني في كتابه «اليواقيت والجواهر». ولما طلب ابن عربي من ابن الفارض الشاعر الصوفي المصري أن يشرح للناس تائيته، أجاب ابن الفارض أنه لا يجد لها شرحاً خيراً من الفتوحات المكية. ويلي الفتوحات المكية في الأهمية كتاب «فصوص الحِكَم»، وهو الذي ألّب عليه الفقهاء، وأشهرهم: الإمام ابن تيمية - وله رسالة في التصوف كتبها حول ابن عربي ومن ذهب مذهبه من الحلوليين والاتحاديين؛ وعلى القاري- وله أيضاً رسالة في التصوف يردّ بها على كتاب فصوص الحكم لابن عربي؛ والإمام جمال الدين محمد بن نور الدين- وذكره في كتابه «كشف الظُّلمة عن هذه الأمة»؛ والتفتازاني -الذي تصدّى له بالردّ في إحدى رسالاته. وقد نُشر كتاب «فصوص الحِكَم» في مصر أول مرة، بشرح لعبد الرزّاق القاشاني سنة ١٣٠٩ هـ. ودافع عن ابن عربي كثيرون، منهم: الجلال السيوطي في كتابه «تنبيه الغبي في تبرئة ابن العربي»؛ وسراج الدين المخزومي في كتابه «كشف الغطاء عن أسرار محيي الدين». ومن أبرز المدافعين عنه مجد الدين الفيروزابادي صاحب القاموس المحيط؛ وكمال الدين الزملكاني؛ وشهاب الدين عمر السهروردي؛ وقطب الدين الحموي؛ وصلاح الدين الصفدي؛ ومحمد المغربي أستاذ جلال الدين السيوطي؛ وسراج الدين البلقيني؛ وتقيّ الدين السُّبكي.

ولابن عربي: «التفسير الصوفي للقرآن»، مشكوك في نسبته إليه، ولغته وشروحه وتأويلاته فيه ليست من نوع أسلوب وطريقة ابن عربي، ويذهب فيه مذهباً في التفسير تغمض فيه المعاني إلى حدّ الإغراب؛ وديوانان من الشعر الصوفي، أحدهما «ترجمان الأشواق» كان غزلاً صوفياً.

وقد بدأ ابن عربي التصوف في العشرين من عمره، ودخل الطريقة وأصبح صوفياً في الحادية والعشرين، وكان أبوه صالحاً، كما كان له خال ترك المُلك ليصبح صوفياً (هكذا قال محبوه وهو غير صحيح)، وآخر كان يصلي

طوال الليل حتى تَكِلّ قدماه فيضربهما مغضباً (وهذا غير صحيح أيضا). وكانت لابن عربى سياحات كثيرة فى الأندلس والمغرب والأناضول والعراق والشام والحجاز، وحاولوا اغتياله فى مصر، وقال فيه محبوه إنه «القطب»، و«العارف بالله»، و«الولى»، وقال أعداؤه إنه «الزنديق» و«المشرك». وكان كلما نزل بلداً يُجرى عليه أغنياؤها وحُكّامها معاشاً كبيراً ينفقه على إخوانه ومريديه، وفى أعمال البِرّ (هكذا قالوا)، واستقر فى دمشق، وبها توفى، ودفن بسفح جبل قاسيون سنة ٦٣٨ هـ/ ١٢٤٠م. وكتبه تنحو إلى الفلسفة، وهو من فلاسفة الصوفية، وقيل مذهبه: وحدة الوجود لم يصرح به ولكن كتبه تتضمن إشارات قصد أن تكون غامضة، ومدارها: أن الحقيقة الوجودية واحدة فى جوهرها وذاتها، متكثرة بصفاتها وأسمائها، ولا تعدد فيها إلا بالاعتبارات والنسب والإضافات، وهى قديمة أزلية لا تتغير وإن تغيرت الصور الوجودية التى تظهر فيها، فإذا نظرت إليها من حيث ذاتها قلت هى الحق، ومن حيث صفاتها وأسماؤها، أى ظهورها فى أعيان الممكنات، قلت هى الخلق، فهى الحق والخلق معاً، والواحد والكثير، والقديم والحادث، والأول والآخر، والظاهر والباطن، فسبحان من خلق الأشياء وهو عينها، ويا خالق الأشياء فى نفسه، وأنت لما تخلقه جامع، وتخلق ما لا ينتهى كونه فيك، وأنت الضيّق الواسع، فما نظرتْ عينى إلى غير وجهه، ولا سمعت أذنى خلاف كلامه.

وعند ابن عربى: لا فرق بين الواحد والكثير، والحق والخلق، والله هو الحقيقة الأزلية، والوجود المطلق الواجب الذى هو أصل كل ما كان، وما هو كائن، وما سيكون؛ ووجود العالم بالنسبة إليه كوجود الظلال أو كصور المرايا، والعالم فى نفسه خيال وحلم، والوجود الحقيقى هو وجود الله، وهو الوجود الجامع لكل وجود، والظاهر بصورة كل موجود. ولا يحاول ابن عربى أن يبرهن على وجود الله، فوجوده غنى عن كل برهان، لأن الحق ظاهر بصور جميع الموجودات، ولا شئ أظهر من الوجود، وأما وحدة الوجود مع الحق، فالبرهان عليها ذَوْقى وليس عقلياً:

فمِن الله فاسمعوا

وإلى الله فارجعوا

ويبنى ابن عربى على وحدة الوجود: وحدة الأديان، والكل عنده يعبدون الله الواحد المتجلّى فى صور كل المعبودات، وقيل إن ابن عربى قد غيّر عقيدة التوحيد

الإسلامي من: «لا إله إلا الله، ولا معبود بحق إلا الله»، إلى مذهب في وحدة الوجود، قوامه: ليس في الوجود على الحقيقة إلا الله، ولا معبود في الواقع غير الله». يقول:

لقد صار قلبي قابلاً كل صورة
فمرعى لغزلان، ودير لرهبان
وبيت لأوثان، وكعبة طائف
وألواح توراة، ومصحف قرآن
أدين بدين الحب أنى توجهت
ركائبه فالحب ديني وإيماني

يعني: أن كفر الكافر، وخطيئة الفاجر، هما عين إيمان المؤمن وصالحة الناسك، وإن دين إبراهيم هو دين أبيه آزر، وأن إيمان موسى هو عين كفر فرعون، ووثنية أبي جهل هي عين توحيد محمد، فكلٌ ربُّ الدين ورسولهُ، وكلٌ تعيُّنٌ للذات الإلهية. - وإن سُميتْ في تُعيُّنٍ بمحمد، وفي آخر بأبي جهل - فهي هي في مظهريها أو اسميها!

ووحدة الأديان التي يقول بها ابن عربي تزعم أن دين إبليس وإيمانه هما عين دين أمين الوحي جبريل وروح إيمانه، بل إن إبليس أعظم معرفة بآداب الحضرة الإلهية من أمين الوحي وأسمى مقاماً. ورَبُّ الصوفية عند ابن عربي فيه النقيضان والضدان، فهو الوجود والعدم، والخالق والمخلوق، ولهذا فقد جعل اليهود عبّاد العجل ناجين، وعبدة الأصنام مقدّسين، والصابئة عباداً موحدّين، وجعل ربّه يُحَدّ بما يُحدّ به الخلق. يقول: فما يُحَدّ شيء إلا وهو حَدّ الحق، فهو الساري في مسمى المخلوقات والمبدعات، وهو الشاهد من الشاهد، والمشهود من المشهود، فالعالم صورته، وهو روح العالم المدبّر له، فهو الإنسان الكبير!! - يعني أنه لا يؤمن بإله كإيماننا به، ولكن إيمانه بربٍّ هو المتعيّن في الإنسان، ويسميه الإنسان الكبير، وهو كل ما نرى من صور العالم، فالموجودات هي ظاهرُه وهو لذلك الظاهر، وهو باطن الموجودات فهو الباطن، وهو الأول لأنه كان ولم تكن هي، وهو الآخر لأنه عينها بعد ظهورها. وهو عين ما ظهر، وعين ما بطن حال ظهوره، وما ثم من يراه غيره، وما ثم من يُبطن عنه، فهو ظاهر لنفسه، وباطن عنه. وصفاته هي صفات الخلق، والخلق صفاتهم هي صفاته. وهو يستغرق كل نسبة عدمية أو وجوديه، فالعليّ لنفسه هو الذي يكون له الكمال يستغرق به جميع الأمور الوجودية والنسب العدمية، فلا يفوته نعت منها، سواء كانت محمودة عرفاً وعقلاً وشرعاً،

أو مذمومة عرفاً وعقلاً وشرعاً، وليس ذلك إلا لمسمى الله خاصة، يعنى أن الربّ وجود وعدم.. أقول: فأى ربّ هذا الذى يبعثه الوجود ويفنيه عدم ؟! وأى ربّ هذا يكون مناط الذم من العرف والعقل والشرع؟!!!- ولكن لمثل هذا الذى قاله ابن عربى، قيل إن فلسفته الصوفية هى مذهب فى الإنسية، أو الهيومانية Humanism.

ويقول ابن عربى: إن كل معبود هو مجلى للحق يُعبَد منه، وكلهم لذلك يسمونه إلهاً، مع اسمه الآخر الخاص بحجر، أو بشجرة، أو حيوان، أو إنسان، أو كوكب، أو مَلَك. فكأنه أعاد عبادة أحجار الجاهلية، وعبادة الحيوانات التى كانت آلهة الفراعنة واليهود، وعبادة الإنسان إله النصارى والشيعة، وعبادة الكواكب والملك، كما عند الصابئة!! ودين ابن عربى لهذا ليس الإسلام، ولكنه مُجمَع أديان.

وابن عربى يقول كقول ابن الفارض: إن الحقيقة الإلهية أنثوية، والفارق بين الاثنين أن ابن الفارض عبدها أنثى مستباحة، وابن عربى عبدها أنثى مصونة. يقول: لما أحبّ الرجل المرأة طلب الوصلة - أى غاية الوصلة التى تكون فى المحبة، أى النكاح، ولهذا تعمّ الشهوة أجزاءه كلها، ولذلك أُمر بالاغتسال منه، فعمّت الطهارة عند حصول الشهوة، كما عمّ الفناء فيها، فإن الحق غيور على عبده أن يعتقد أنه يلتذ بغيره، فطهّره بالغُسل. فإذا شاهد الرجل الحقّ فى المرأة كان شهوداً فى منفعل، وإذا شاهده فى نفسه من حيث ظهور المرأة عنه، شاهده فى فاعل، وإذا شاهده فى نفسه من غير استحضار صورة ما تكون عنه، كان شهوده فى منفعل عن الحق بلا واسطة، فشهوده للحق فى المرأة أتمّ وأكمل، لأنه يشاهد الحق من حيث هو فاعل منفعل، ويشاهده من نفسه من حيث هو منفعل خاصةً، فلهذا أحب النبىّ ﷺ النساء، لكمال شهود الحق فيهن، إذ لا يشاهد الحق مجرّداً عن المرأة أبداً، فشهود الحق فى النساء أعظم الشهود وأكمله، ولذا كانت أعظم الوصلة النكاح !!

وكلام ابن عربى عجيب إذ يرجع محبة رسول الله ﷺ للنساء الى اعتقاده أنهن الله فى أجمل صور تعيّناته وتجلياته، ورغبته فى الالتذاذ بالجسد المتنوع بربّه!!!

وابن عربى يعتقد أن ربّه يتجلّى أعظم تجلٍّ فى صورة أنثى ينتهبها ذكرا! وأن العاشقيْن لذلك وهما يتضاجعان طوال الليل هو نوع من العبادة! والعاشق عابد لا تستغرقه اللذة بأنثى، بل بالربّ المتجسّد فى

الأنوثة ! وأن ليس الربّ إلا مادة ولا يُرى إلا فى مادة ! ويقول: وهو من حيث الوجود عين الموجودات، فالمسمّى مُحدَثات هى العليّة لذاتها، وليست إلا هو!! - فهل رأيتم تجديفاً مثل هذا التجديف، وبعد ذلك يُطلق عليه الشيخ الأكبر ؟!!

ويبدو أن أصل هذه الفلسفة فى «الربّ المرأة» عند ابن عربى أنه وقع فى غرام أنثى فى مكة هى ابنه الشيخ مكين الدين، وتأبّت عليه، فنظم فيها ديوانه «ترجمان الأشواق» يشرح فيه ديانته فى الحبّ، فقال: إن الربّ يتجسّد فى صورة الأنثى، وأنه لم يحبّها إلا لأنها أجمل تعيُّنات الحقيقة الإلهية، وأنه وهو يعرب لها عن اشتياقه إنما يشتاق لأنوثة ربّه!!! - لعنة الله عليه!

وفى الإسلام فإن الله تعالى يقول: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ (فاطر ١٥)، غير أن ابن عربى يقول عكس ذلك: إن وجودنا وجود الله، ونحن مفتقرون إليه من حيث وجودنا، وهو مفتقر إلينا من حيث ظهوره لنفسه:

فيحمدنى وأحمده

ويعبدنى وأعبده

فأنت ترى: أن أقوال ابن عربى تخرجه عن دائرة الإسلام!!

ومن تخرّصات ابن عربى المترتبة على قوله "بوحدة الوجود"، قوله فى النبىّ ﷺ أنه الله، يقول: "اللّهم أرفضُ صِلَةَ صلواتك وسلامة تسليماتك على أول التعيّنات المفاضة من العماء الربّانى، وآخر التنزلات المضافة إلى النوع الإنسانى، المهاجر من مكة - كان الله ولم يكن معه شىء ثان - إلى المدينة، وهو الآن على ما عليه كان، مُحصِى عوالم الحضرات الخمس فى وجوده، سرّ الهوية فى كل شىء سارية، الجامع بين العبودية والربوبية، الشامل للإمكانية والوجوبية !! - وهذا كلام نصرانى يصلح مع المسيح وليس مع النبىّ ﷺ! وقوله «لم يكن معه شىء ثان»، يعنى بالشىء الثانى أبا بكر، أى أنه حتى أبو بكر، كان الله أيضاً متعيناً فى أبى بكر! وأقول : ولقد توفى رسول الله ﷺ، وتوفى أبو بكر، فهل على ذلك توفى الله ؟! وأى إله هذا الذى يتعيّن فى ناس يموتون، وفى كل ثانية يولد آلاف، ويموت آلاف، وهكذا يعيش الربّ فى حياة وموت دواليك آلاف المرات!!

ولقد كانت فكرة وحدة الوجود التى كان ابن عربى أول من قال بها فى الإسلام (لأن النصارى سبقوا إليها، وقبلهم اليهود، وقبلهم الهنود)، آخر مراتب

التصوّف التى تم فيها الانحراف بالتصوّف فى الإسلام. وكانت المهدية فكرة ثانية قال بها وألّف فيها كتابه «عنقاء مغرب». والكثير من أفكاره شيعية، فمثلاً فكرة الحقيقة المحمدية التى بنى عليها فكرته فى وحدة الوجود، فلولا أن الأولياء خُلقوا نورانيين من النور المحمدى لما كانوا معصومين، ولَمَا آلت العصمة إلى آل البيت وهم آل محمد، فمحمد وأهل البيت لا يتبعّضان، ومن مثل هذه الفكرة نفذ ابن عربى إلى وحدة الوجود، لأن آل البيت كلٌّ لا يتجزأ وصدروا عن نور النبوة، ولما كانت وحدة آل محمد الروحية والعلمية التى انسبغ بها الناس كافة. وقول الرسول ﷺ: «سليمان منا أهل البيت»، يعنى أن: كل الناس والأمة الإسلامية جميعها «هم أهل البيت وأسرة واحدة للنبىّ ﷺ. ومن فكرة الإمامة الباطنة أخذ ابن عربى فكرة الوليّ الباطن، ونَظَم دولة الأولياء، ورجع فى فلسفته إلى رسائل إخوان الصفا، ووصل مذهبه بها، وكانت بذلك رسائل إخوان الصفا المؤسس لمدرسة التصوف المتأخر. وتصوف ابن عربى يؤسس لديانة أخرى غير الإسلام، ومن الظلم والجهل معاً أن يُضَمّ ابن عربى إلى متصوفة الإسلام، فكونه كتب بالعربية، واسمه على اسم المسلمين، لا يعنى أبداً أنه مسلم، وتسميته باسم ابن عربى شَرَك يُراد به إقناعنا بالنصرانية عن طريقه، بدعوى أنه واحد منا!!

وابن عربى فى تأليفه لكتبه لم يكن يجرى فى التأليف مجرى المؤلفين، ولكنه كان يترك نفسه لفيوض الرحمن ويعكف بقلبه على باب حضرته هكذا يزعم!. وهو يقول إن الله سبحانه هو معلمه، وأن إرثه هو الإرث النبوى المحفوظ والمعصوم من الخلل، ويصف كلامه بأنه ذكر، ويجعل من التصوف بديلاً عن الفلسفة، وكانت النتيجة أن حيلته وحيلة النصارى به، انطلت على المسلمين، فصدّقوا أن مصنفاته فى أغلبها نصائح للمريدين والطالبين والسالكين، يشرح فيها لغة المتصوفة، وان له ما يشبه القاموس اعتاد الناشرون أن يلحقوه بكتاب التعريفات للجرجانى، ومصطلحاته هى التى غلبت على لغة المتصوفة، وتدرّس دائماً بالمقارنة إلى ما يفهمه عنها غيره من الصوفية، وشروحه عليها يغلب فيها التفلسف، وكثيراً ما تحتاج الشروح لشروح عليها. وطريقته فى التصوف يطلقون عليها اسم الأكبرية، نسبة إلى شهرته باسم الشيخ الأكبر. ومبنى طريقة ابن عربى (كما يقول) على أربع خصال،

هى: الصمت، والعزلة، والجوع، والسهر.

والفرق بين كتابات ابن عربى وكتابات الغزالى، أن الغزالى يكتب عن الصوفية «لجمهور المؤمنين»، أما ابن عربى فتوجهه «للمتصوفة» فقط دون غيرهم، سواء كانوا مؤمنين أم غير مؤمنين، مسلمين أم نصارى أو يهوداً أم صابئة! ولابد للمريد فى طريقة ابن عربى من أن يتلقى عن شيخ، ويقول ابن عربى: من لا شيخ له، فإن شيخه الشيطان. وشرط الشيخ أن يكون مجازاً من شيخ آخر، وأن يكون عالماً، وأن يكون مؤدباً متشدداً، يتجنّب كل ألفة بينه وبين المريد، وأن يطلب منه الطاعة التامة كى تنمحى إرادته فى إرادته. ويأخذ المريد العهد على الشيخ، ولا يلتزم بلباس معين، ولا يوصى ابن عربى إلا بأن يكون قماشة لباس المريد من النوع الزهيد، وألا يفيد إلا فى ستر العورة مع الخشمة، وأن يكون قصيراً. وإذا قبل المريد بالجماعة، خضع لسلطة الشيخ المطلقة، ويلزم الخلوة لا يبارحها إلا بإذن الشيخ، ولا يتصل المريدون ببعض إلا فى حضوره، وإذا خرجوا خرجوا جماعات ذاكرين الله، لا يلتفتون يمنة ولا يسرة، ولا إلى وراء، ويجتمعون للصلاة والطعام والنوم والذكر وإنشاد الأشعار الصوفية. وكل ذلك ليصنع لهم غسيل مخ لما عرفوه من الإسلام، وليمهّد عندهم لديانته الجديدة. ولذا كانت طريقته الأكبرية من أخبث طُرق التصوف، وأخطر الطرق بعامة لمحاربة الإسلام، ولا تقل خطورة عن مذهب الشيعة. وينصح ابن عربى المبتدئين أن يكسبوا قوتهم من حرفة يحترفونها إن لم يصلوا إلى رتبة التوكل! ومن كرامات الشيخ أنه يفهم ما يدور فى عقول ونفوس تلاميذه، ويمكنه أن يوجههم عقلياً من خلوته. ولا يدخل عليه أحد هذه الخلوة إلا خادمه، وعليه أن يطلب الإذن فى كل مرة حتى لا يفاجئه فى مباذله، وهو يسهر على نومه ويرقد بالقرب من بابه، وإذا دخل قبّل يده ووقف فى خشوع، وإذا أمره أن يجلس اقتعد الأرض خارج الحصيرة التى يجلس عليها الشيخ، وإذا صلى خلفه احتاط أن لا يزحمه، فإذا سار معه فى الطرقات يكون خلفه، وفى كل الأحوال فإنّ نَظَرَ الخادم إلى وجه الشيخ من سوء الأدب، وإذا مات الشيخ لا يتزوج أرملته، وإذا طلق زوجته لا يتزوج مطلقته، ويعادى من يعاديه، ويصادق من يصادقه.

والسير فى الطريق يتوقف على استعداد المريد، وملازمة الباعث، واستقامة الهمّة،

وصحة التوجه، وأن يعلم أن سيره أو سفره مبنى على المشقة، وأن لا تكون غايته فيه سوى تحصيل الكمالات، فأمّا الكرامات واشتهاء المقامات فإنْ طلبها انحرف عن الهدف.

وينصح ابن عربى المريد أن يستفيد من وقته دون توقف، وأن يحرص على التطهّر، والأصل فى ذلك أن النفس والقلب والروح فقدت روحانيتها بالاتصال بالبدن، وتجليتها تكون بالمجاهدة، والتجلية ضرورة لرفع الغشاوة عن البصر، والرَّين عن القلب، والكَدَر عن النفس، ولكى تسترد الروح صفاءها وشفافيتها، ويتحقق ذلك بالتوبة والخلوة والذِّكر؛ والتوبة تعنى الاقتراب من الله والبُعد عن المخلوقات؛ والجوع والسهر يسران التطهّر؛ والعزلة والصمت يقمعان النفس الغضبية، ويعبر ابن عربى عن ذلك رامزاً بالموت فيقول: إن عناصر الرياضة أربعة أنواع من الموت، هى الموت الأبيض وهو الجوع؛ والموت الأحمر وهو مخالفة الشهوات؛ والموت الأسود وهو احتمال أذى الخلق واحتمال الآلام الجسدية والمعنوية؛ والموت الأخضر وهو الزهد فى الفاخر من الثياب.

والزهد أولى درجات فضائل التصوف بعد التوبة، وحقيقته الإعراض الإرادى عن الدنيا، ويأتى بعده التجرّد، أى تخلية القلب وقطع كل العلائق، ويكون معه البذل عن رضا، والتضحية عن طواعية، والإحسان عن غنى نفسى، والقناعة عن اقتناع.

وبلوغ الكمال يكون بمحاسبة النفس صباحاً ومساءً، واستدامة استشعار حضور الله، والأُنس به عن كل الخلق، والذِّكر والتلاوة والدعاء والتفكر.

والله يهب المقامات بواسطة الفضائل، والمقامات: كالتوكل والشكر والصبر والرضا، والعبودية والاستقامة والإخلاص والصدق، والحياء والحرية، والولاية والرسالة والنبوة، والمحبة والأنس والخوف والرجاء. ومجموع الأحوال والمقامات والمنازل تؤلف الحياة الروحية للمتصوّف، وتكتمل الصورة بالكرامات، والكرامة خارقة يمنحها الله للخاصة مكافأة لفضائلهم فى الدنيا.

ويصنّف ابن عربى الكرامات إلى نوعين، ظاهرة أو مادية: باعتبارها ظواهر من خارج الشخص؛ وباطنة أو روحية: تتحقق فى نفس الصوفى أو فى غيره. وتتناسب الكرامة مع الفضيلة التى هى ثواب لها، فكرامات البصر هى ثواب عن

الفضائل المتعلقة بالبصر، وكرامات السمع والمشي تفيد مكافأة فضائل هذه الجوارح وهكذا. ولكل مقام صورة ابتلاء، ومن ينجح في الامتحان فإنه يكون قائماً بالعهد الذي قطعه على نفسه مع الله تعالى. والتجلّي والمكاشفة والمشاهدة من الكرامات، والنفس في المكاشفة تدرك المعاني الممثّلة للحقائق الإلهية، وفي المشاهدة تدرك ماهيتها، والتجلّي عبارة عن ظهور نورانى للذات الإلهية وصفاتها. وأعلى الكرامات هو الفناء في الله، ويظهر الوجد الفنائي في المراحل الأخيرة من الرياضات الصوفية، وخصوصاً في السماع والصلاة والخلوة عن طريق إنكار ما سوى الله، فيفقد العبد الشعور بالأفعال الإنسانية الخاصة به وبغيره، بأن يراها آثار الله الذي هو علتها الوحيدة، ثم يفقد الشعور بقواه وصفاته، فالله ـ وليس هو ـ هو الذي يبصر ويسمع ويفكر، ثم يزول شعوره بشخصيته، وتستغرق نفسه في مشاهدة الله والأمور الإلهية، ويفقد الشعور بأنه هو الذي يشاهد، ولا يتفطن إلى أن ما يشاهده هو الله، ثم تؤدي مشاهدته لله إلى إبعاد كل ما سواه عن النفس، ثم يتضاءل مجاله الشعوري أكثر فتزول الصفات الإلهية، ويتجلى الله تعالى للعبد في مشاهداته، بوصفه المطلق الذي ليس له علاقات ولا صفات ولا أسماء، ويتذوق خلال ذلك ظواهر انفعالية يصفها ابن عربي بالحلاوة والسعادة، ويحصل له خَدَر في الجوارح لقوة اللذة واستفراغ الطاقة. وطبيعة هذا الشعور لا يمكن التعبير عنها، والصوفية في هذا الصدد ثلاث طوائف، فأحياناً يكون الوارد الإلهي على الصوفي شديداً لا تحتمله قواه، فيستولي عليه ويجرّده من كل إرادة طوال مدة الحالة، وربما طوال الحياة، وأحياناً يكون هناك بعض التمييز، بحيث يمكن للصوفي المستغرق في الفناء أن يقوم بنفسه بتلبية بعض احتياجاته، ولكنه يفعل ذلك كما تفعله البهيمة بلا وعي، وأحياناً يكون الفناء مع الوارد طوال مدة بقائه فقط، فإذا زال زالت معه هذه الحالة. وهناك طائفة رابعة لا تظهر عليهم، وكأن شيئاً ما يجري في دخائلهم، مع احتفاظهم بحالتهم العادية. ويقول ابن عربي: والمردود، أي الذي يرجع من فنائه، أكمل من الواقف المستهلَك، لأنه يُرَدّ في حقّ نفسه، وهو العارف، يرجع لتكميل نفسه من غير طريقه الذي سلك فيه، وقد يُرَدّ إلى الخَلق بلسان الإرشاد والهداية، وهو العالم الوارث.

وتؤدى كل الطرق إلى غاية واحدة هى الاتحاد بالله عن طريق الحبّ، وحبّ الله هو غاية كل المقامات العالية، وثمرة ممارسة أعلى الفضائل، وهو ليس صفة عرضية أو مجرد علاقة بالحب، ولكنه خاصة جوهرية له، لأنه لا يتوقف أو يزول ما دام المحب موجوداً، ومن ثم يتحول حبّ الصوفى بحيث يستحيل فى نفسه المحب والمحبوب واحداً، وتتطابق إرادة المحب وإرادة المحبوب. وليس ثمة غير الحب الإلهى فى الواقع، لأن الله تعالى أحب أن يُعرَف فتجلّى فى خارج ذاته حتى تحبه المخلوقات، والله تعالى يحبنا من أجل ذاته، وأيضاً من أجل ذواتنا، لأنه خلقنا لكى نعرفه ونحبه، وخلقنا أيضاً من أجل أننا بحبنا وعبادتنا له نسعد السعادة الأبدية. وفى المشاهدة الصوفية تظل النفس مأخوذة بالجمال الإلهى فى تجلياته فى الموجودات، فتحب الله فى كل شئ، كما تحب كل شئ من أجل الله، ويستغرقها الحب لله، فإذا جاءت الغزليات لهند، أو لليلى، أو سعاد إلخ، فإنما المقصود هو الله، فهو وحده الجمال الحقيقى الجدير بالحب، وقد احتجب تحت نقاب الصور الجسمانية، فما ثم إلا الله، وما ثم غيره، وما ثم إلا عينه وإرادته، والوصول هو تلك الحالة التى يكون فيها، بحيث إذا نظر إلى معرفته فلا يعرف سوى الله، والعارف من يرى الله فى كل شىء، بل يراه عين كل شىء، وإن نظر إلى همّته فلا همّ له سوى الله، فيكون كله مشغولاً بكله، وينسلخ من نفسه ويتجرد له، فيكون كأنه هو، فالنفس لا تصير الله، بل تكون كأنها هو، والوصول ليس من قِبَل العبد، بل بعناية الله، وتصرُّف جذبات الألوهية، وسبب حصوله هو كسب العبد.

وقضية الحيرة فى تفسير أقوال ابن عربى توجزها قصة اتهامه بالحلول فى مصر، فإنه لما نزلها على ما يرويه فى كتابه «محاضرة الأبرار» وترجمته فى الفتوحات، ساكَنَ جماعة من مريديه من بلده، فى زقاق يقال له زقاق القناديل، وفى ليلة بغرفة دامسة الظلام، وقد جلسوا إلى عباداتهم ومجاهداتهم، تنوّرت أجسامهم ورأى ابن عربى كأن شخصاً له سمت جميل قد دخل عليهم مبلّغاً إياه رسالة من الحق يقول له فيها: إن الخير فى الوجود، والشر فى العدم، والحق قد أوجد الإنسان بجوده وجعله واحداً ينافى وجوده، فتخلّق بأسمائه وصفاته، وفنى عنها بمشاهدة ذاته، فرأى نفسه بنفسه، فعاد العدد إلى أُسّه، فكان هو ولا أنت. -وحكى ابن عربى عمّا شاهد واستمع، وبلغت هذه الأقوال له فقهاء

مصر، فناقشوها وفهموا منها الحلول، وكلموا أصحاب السلطان فيها وطلبوا محاكمته واتهّموه بالزندقة، وسعوا فى إراقة دمه، لكن الشيخ البجائى كان من مناصريه ودافع عنه، وفسّر مقالته تفسيراً رمزياً وتأوّلها، فلم يستمع السلطان لخصومه وأطلق سراحه. ويقول فى ترجمته إنه لام البجائى على الدفاع عنه، وقال له مقالة ما تزال تورده موارد الهلكة «كيف يُحبَس من حلّ منه اللاهوت فى الناسوت؟» -ومع ذلك فإن البجائى التفت إليه مباسطاً وقال: يا سيدى تلك شطحات فى محل سكر، ولا عَتَبَ على سكران»!!

وكانت هناك دائماً محاولات لتبرئة ابن عربى، ومن ذلك أن محبّيه طعنوا فى نسبة تفسيره للقرآن، وقال فى ذلك الشيخ محمد عبده: اشتبه على الناس فيه كلام الباطنية بكلام الصوفية، وينسبونه للشيخ الأكبر محيى الدين بن عربى، وإنما هو للقاشانى الباطنى الشهير. -وفى التفسير من النزعات ما يتبرأ منه دين الله وكتابه العزيز. والكتاب يحفل بدعاوى وحدة الوجود، ففى سورة المزمل الآية ٨: ﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً﴾، يقول: «واذكر اسم ربّك الذى هو أنت». وفى سورة الواقعة الآية ٥٧: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلاَ تُصَدِّقُونَ﴾ يقول: «نحن خلقناكم بإظهاركم بوجودنا وظهورنا فى صوركم».

- وهكذا فى كل ما كتب، كان حلولياً يقول بوحدة الوجود. وكانت أحاديثه نزهات وأضاليل إلى أن توفّاه الله، فخلف ابن عربى بعد وفاته ولدين، أحدهما سعد الدين محمد (٦١٨ - ٦٥٦هـ) وكان شاعراً صوفياً مجيداً وله ديوان شعر، ودفن بجوار والده؛ والآخر عماد الدين أبو عبد الله محمد، توفى بمدرسة الصالحية، ودفن بجوارهما. وكانت له بنت اسمها زينب، يحكى عنها ابن عربى أنها كانت تتلقى إلهاماً علوياً، فلما كانت دون السنتين كلّمها أبوها قائلاً: ما رأيك فى رجل جامع امرأته ولم ينزل - ماذا يجب عليه؟ فقالت بلسان فصيح وأمها وجدّتها يسمعان «يجب عليه الغُسل»، فصرخت جدتها وغشى عليها !- يعنى حتى أولاده - ولو كانوا فى المهد - كانوا ربّانيين، وهذه شائعات دعائية يروّجها ابن عربى نفسه وأدعياؤه، فالبنت عمرها سنتان ومع ذلك تتكلم وبالفقه !!! وقس على ذلك كل ما يقال عن كرامات له!!!

وبعد .. فقضية ابن عربى يمكن أن تستنفد كراسات وكراسات لشرحها ودحضها، والشواهد على فساد فكره

بالألوف فى كتاباته الكثيرة، وكل من تكثر كتاباته تكثر أخطاؤه. فاحذر يا أخى ما يقال لك عن ابن عربى أكثر مما يقوله ابن عربى نفسه عن نفسه.

* * *

٢٢٧ - ابن العَرِيف الأندلسى...

أبو العباس أحمد بن محمد بن موسى ابن عطاء الله، الصنهاجى (٤٨١ ـ ٥٣٦ هـ)، من أعلام التصوّف الأندلسى، وله كتاب «محاسن المجالس» الذى حققه وعلق عليه ونشره المستشرق الكبير أسين بلاثيوس سنة ١٩٣٣، واعتبره ابن عربى من أهم الكتب التى اعتمد عليها فى تأصيل مذهبه فى وحدة الوجود، وهو مذهب يُخرجه من دائرة الإسلام.

واسم ابن العَرِيف الذى اشتهر به يرجع إلى مهنة أبيه فى السابق، فقد كان عَرِيفاً، أى رئيساً للشرطة المنوط بهم الحراسة فى الليل فى طنجة، قبل أن يغادرها إلى المَرِيّة فى الأندلس، وكانت المرية قصبةً للفكر الصوفى، وخاصة بعد أن عرف الأندلسيون كتاب الإحياء للغزالى، فكان بمثابة الدم الجديد للفكر الصوفى المتقادم، والذى ران عليه طويلاً تأثير ابن مسرّة. ويدين ابن العريف، وابن برجان، وابن قسى، وأبو بكر الميورقى، بالكثير للغزالى، إلا أن التفكير الصوفى للثلاثة الأخيرين كان تفكيراً غير تقليدى، وقد جرّ عليهم لذلك نقمة الحكام، بينما ظلت لابن العريف مكانته حتى بعد اتهام قاضى المرية المدعو ابن الأسود له، واستدعائه من قبل علىّ بن يوسف ابن تاشفين إلى مراكش، مع ابن برجان والميورقى، ولقد هرب الميورقى، وامتُهن ابن برجان وزجّوا به فى السجن، فمات لتوه سنة ٥٣٦ هـ، وأُطلق سراح ابن العريف معززاً مكرّماً، فلم يرض بذلك القاضى ابن حمدين، وقيل إنه دسّ له السم فمات أيضاً بعد قليل! وكانت علاقة ابن العريف وثيقة بابن برجان، وقيل إن ابن العريف ربما تتلمذ على ابن برجان، غير أنه مع ذلك كان شديد التأثير عليه، وابن العريف لم يجعل من تصوفه وسيلة لاستحداث تغييرات اجتماعية أو سياسية، وغايته من التصوف معرفة الله وعبادته، وقيل إنه لم يعجبه ابن حزم الأندلسى، لأنه غلط فى الفقهاء، وفى التصوّف، وقال فيه عبارته المشهورة: «لسان ابن حزم وسيف الحجّاج بن يوسف شقيقان». وله شعر طيب ومنه البيتان المعروفان عنه :

يا واصلين إلى المختار من مصر
زرتم جسوما وزرنا نحن أرواحاً

إنا أقمنا على عذر وعن قدر
ومن أقام على عذر كمن راحا

* * *

٢٢٨ - أبو العزائم (صاحب العزمية)...

محمد ماضى أبو العزائم، شيخ الطريقة العزمية، توفى سنة ١٣٥٦ هـ، له المصنفات فى التصوف، ومنها «أصول الوصول إلى معية الرسول»، و«شراب الأرواح من فضل الفتّاح»، و«معراج المقرّبين ومذكرة المرشدين والمسترشدين»، و«النور المُبين لعلوم اليقين»، ولعل أبرز ما فى طريقته التربية الأخلاقية، ويقول فى ترجمته لنفسه أن اسمه: ماضى نسبةً إلى عين ماضى بالمغرب الأقصى، وأبوه من نسل إدريس الأكبر، وجدّه لأمه من نسل الشيخ عبد القادر الجيلانى، وقد وَفَد من بغداد إلى مصر وهى معه، وميلاد أبى العزائم برشيد من أعمال مصر، ثم انتقل والده إلى مسحلة أبى على من أعمال الغربية من بلاد مصر، ونشأ بها وتعلّم. وشقيقه أحمد ماضى أبو العزائم مشهور بعلوم الدين وخدمة الوطن، وأسّس جريدة المؤيد، ويبدو أن الدكتور جمال ماضى أبو العزائم قد انتقل إليه ميراث محبة علوم الحكمة والطب عن الشيخ، وكان مغرماً بها، ومحباً للتقرّب من المجاذيب، ومجالسة أهل العاهات ويؤثرهم على نفسه، وله تفسير للعلم ينصرف إلى معناه الحديث فيقول: إن كل من تعلم علماً من العلوم، له معلوم من علوم الدين وغيرها من علوم الدنيا، كالطب والبيطرة، وعلوم القضاء والفتيا للولاية، وعلوم اللسان والإنشاء للوزارة، وعلم حماية الثغور، واستحكام المعاقل، وأصالة الرأى وتدبير الأحكام، وعلم الحوادث والوقائع لقيادة الجيوش، وكل واحد من هؤلاء يسمى عالماً بعلم نافع، ويجب على العلماء أن يجالسوا العُبّاد ليتعلموا منهم العلوم النافعة، والعباد يجالسوا العلماء ليتعلموا منهم ما لابد لهم منه، حتى يكون المؤمنون كجسد واحد، ينتفع الجسد كله بكل عضو على حِدته، والجسد كله فى منفعة العضو الواحد، وبذلك يكونون رحماء بينهم، فيمنحهم الله العزّة على الكافرين، والمنفعة لإخوانهم المؤمنين، فيكونون جميعاً فى أى مكان كالبنيان المرصوص يشد بعضهم بعضاً.

وأبو العزائم يستخدم بدلاً من العارف بالله اسم «العالم بالله»، ويذكر له خمس علامات، هى: الخشية، والخشوع، والتواضع، وحُسن الخلق، والزهد. وأبو العزائم كان فى حياته ومع مريديه هكذا،

وكان كلامه في الأخلاق والتوحيد، وامتهن التدريس، وكان يصرف بقية وقته يعلّم العامة، حتى صار له إخوان يعينونه على مواجيده، وانتقل بعلّمه إلى المنيا، ثم الشرقية، فسواكن، فأسوان، ثم حلفا، ثم أم درمان، فالخرطوم. وكان علم التصوف هو علمه المفضل والذى أفاض فى الشرح له، ويعرّفه: بأنه العلم الذى يعرف منه أحوال النفس فى الخير والشر، وكيفية تنقيتها من عيوبها وآفاتها، وتطهّرها من الصفات المذمومة والرذائل والنجاسات المعنوية التى ورد الشرع باجتنابها، والاتصاف بالصفات المحمودة التى طلب الشرع تحصيلها، وكيفية السلوك، والسير إلى الله تعالى، والفرار إليه. وموضوعه القلب من ناحية ما يعرض له من اللمحات والخواطر، والهواجس والوساوس، والعلوم والنيات، والقصود والعزائم، والاعتقادات، وحديث النفس، ومسائلة الأحكام المتعلقة بهذه الخواطر والهواجس والنيات، وسائر أحوال النفس. وعلوم اليقين التى يكون بها الترقى الإيمانى للسالك، هى علوم أخلاقية تتناول: التوبة والصبر، والشكر والرجاء، والخوف والزهد، والتوكل، والرضا، وأعلاها علم المحبة، ومن عرف الله من طريق المحبة أحبه الله، فقرّبه وعلّمه ومكّنه، وذلك نهاية الطريق ومطلب المريد والسالك على السواء.

وأبو العزائم فى فلسفة التصوف يقول بالعقل الأول، وهو عنده النبىّ ﷺ، ويذهب إلى نظرية الأنوار، واعتقاده إشراقى، ويقول بوحدة الوجود، ويصف النبىّ ﷺ بأنه الصورة الحقّية، وأنه انتسخ منه أم الكتاب الحضرات الكمالية، وأنه هوية الوحدانية التى أعجزت الكل فى صفاته الآدمية، وسرّ الله السارى فى هيكل الموجودات، ومعانى أسمائه وصفاته ...إلخ، وذلك كله كلامٌ يخرجه من دائرة الإسلام. ويقول شارحه محمد على سلامة فى معنى قوله: اللّهم صلى وسلم على ألف البداية المشيرة إلى وحدة الكثرة واستقامة القيومية، المتنوعة فى مظاهر الجمال المدهش والجلال المحيّر، المتجلى عن حقائق القدس: لمّا خلق الله الموجودات بكثرتها الهائلة وأنواعها المتباينة، خلقها منه، أى من النبىّ ﷺ!!! فأصل هذه الأعداد المتكاثرة واحد وهو رسول الله !! وهو كلام ضد ما جاء فى القرآن عن الخلق ومحمد ﷺ، ويقول شارحه: إنه عليه السلام له وجود خفىّ فى كل ظاهر ومشهود من مشاهد الجمال ومظاهر الجلال والقهر!!

ويصل الغلو بالشارح إلى تفسير قول أبى العزايم «وزيت الزجاجة النورانية» يقول: وتلك الزجاجة هى قلب أصحاب الصورة الإلهية، وفيها مصباح اليقين الحق الذى يضاء من زيت المصطفى ومن علومه وتوجيهاته وأنواره، ولا يحيط بما فيها من الحقائق والمعانى أحد، لأنها مواجهة لأنوار رسول الله، مستمدة منه مباشرة وبلا واسطة !! - ولا شك أن ما يقوله ليس له من توصيف إلا أنه شركٌ خفىّ، وحاله فيما يقول كحال النصارى لما نسبوا إلى عيسى ما نسبوه، وألّهوه فأشركوا بالله!

* * *

٢٢٩ - ابن عطاء الأدمى...

أبو العباس أحمد بن محمد بن سهل ابن عطاء الأدمى، نسبةً إلى الأدم وهو الجلد، وكان الأدمى يعمل إما فى صناعة الجلود أو فى تجارتها، وتوفى سنة ٣٠٩ هـ، ووصفه أبو سعيد الخرّاز فقال: إن التصوف خُلُق، وما رأيت من أهله إلا الجنيد وابن عطاء الأدمى.

واشتهر الأدمى بتفسيراته التى ينفرد بها لآيات القرآن، والتى يسمعها السامع فيستملحها ويستظرفها منه، ومن ذلك تفسيره لقوله تعالى: ﴿ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ (ق ٣٧): أن الله خلق الأنبياء للمشاهدة، بينما خلق الأولياء للمجاورة، وخلق الصالحين للملازمة، لقوله تعالى: ﴿ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى ﴾ (الفتح ٢٦)، (وكلمة التقوى هى لا إله إلا الله)؛ وخلق العوام للمجاهدة، فقال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ (العنكبوت ٦٩)، وكأن ابن عطاء يقول بطبقات دينية، وبرسالة اجتماعية لكل طبقة، ثم جعل لكل منها آداباً تكون بها الصلاحية بمقام يسميه بساطاً، يقول: من تأدّب بآداب الصالحين صلح لبساط الكرامة؛ ومن تأدّب بآداب الأولياء صلح لبساط القُربة؛ ومن تأدّب بآداب الصدّيقين صلح لبساط المشاهدة؛ ومن تأدّب بآداب الأنبياء صلح لبساط الأنس والانبساط. ويشرح ابن عطاء قوله تعالى: ﴿ اسْجُدْ وَاقْتَرِبْ ﴾ (العلق ١٩): أى اقترب إلى بساط الربوبية نعتقك من بساط العبودية. ويقول فى قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا ﴾ (التوبة١١٨): يعنى أن الربّ ما لم يعطف على العبد بالرحمة لم يعطف العبد على الله بالطاعة.

وتكلم ابن عطاء يوماً على يوسف وأخباره، حتى ذكر تبرئته مما نسب إليه من مكروه، وتلا الآية: ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا

﴿الْمُخْلَصِينَ﴾ (يوسف٢٤)، فقام رجل من آخر مجلسه يريد أن يعرف عن نهايه المشهد، قال: يا شيخ! يا سيدنا! فإذا يوسف هَمّ وما تَمّ! فأجاب ابن عطاء فى ثُودة يلخّص مضمون المشهد بأبلغ بيان، قال: نعم، لأن العناية كانت من تَمْ! ـ فانظر إلى حلاوة العالم والمتعلّم، وإلى فطنة السائل فى سؤاله وهو العامى، وجواب العالم فى اختصاره واستيفائه! ولذلك قال بعض علماء الصوفية فى يوسف: إن فائدة قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾(يوسف ٢٢): إنما أعطاه الله ذلك بأنّ غلبة الشهوة عليه فى سن المراهقة، لتكون له سببا للعصمة.

ومن شروحه الطريفة لمعنى الطهارة مثلاً: الطهارة بالنفوس، والصلاة بالقلوب، فبغسل الوجه نعرض عن الدنيا، وبغَسْل اليدين نكفى الخلق يمنة ويسرة، وبمسح الرأس نبرأ عن أنفسنا، وبغَسْل القدمين نقوم لمناجاة ربّنا، فإذا كبّرنا للصلاة خرجنا من جميع كُلّيتنا لتصحّ لنا مناجاة ربّنا.

ومن أملح ما قال: أن الرسول لمّا قبُض، قام أبو بكر يسوُس الناس بقوة نسيم النبوة، فلما توفى أبو بكر تقدّم عمر على سياسة الناس، فأقام حدود الله بدرّته، ولم يقدر عثمان على سياسة الناس بالدرّة، فأخرج السوط فلم يستقم له الأمر كما استقام لصاحبيه، فلما استشهد لم يقدر علىّ على شئ يسوس به الخلق سوى السيف. وفى رواية مختلفة عن السابقة قال : كان أبو بكر يشمّ نسيم الرسالة؛ وعمر يشمّ نسيم النبوّة؛ وعثمان يشمّ نسيم الاصطفاء؛ وعلىّ يشمّ نسيم المحبة، فكان بيان إشاراتهم مما خُصّوا به من الكرامة فى هجيرهم (يعنى دأبهم)، فكان هجير أبى بكر: لا إله إلا الله، وكان هجير عمر: الله أكبر، وهجير عثمان: سبحان الله، وهجير علىّ: الحمد لله؛ فكان أبو بكر لم يشهد فى الدارين غير الله، فكان يقول: لا إله إلا الله؛ وكان عمر يرى ما دون الله صغيراً فى جنب عظمة الله، فيقول: الله أكبر؛ وكان عثمان لا يرى التنزيه إلا لله، إذ الكل قائم به غير مُعرًّى من النقصان ، والقائم بغيره معلول، فكان يقول: سبحان الله؛ وكان علىّ يرى نعمة الله فى الدفع والمنع والمحبوب والمكروه، فكان يقول: الحمد لله.

* * *

٢٣٠- ابن عطاء الله السكندرى...

أحمد بن محمد بن عبد الكريم ابن عطاء الله، وكُنيته تاج الدين، ويُنسَب إلى

الإسكندرية حيث ولد وعاش إلى أن غادرها إلى القاهرة بعد وفاة شيخه أبي العباس المرسي سنة ٦٨٦ هـ. وكانت له اليد الطولى في العلوم الظاهرة والمعارف الباطنة، وهو الإمام في التفسير والحديث والأصول، وصحب المرسي اثنتي عشرة سنة، وتلقى عنه الطريقة الشاذلية. ويعدّ ابن عطاء الله من أبرز ممثلي التصوّف المصري في القرن السابع الهجري، وكانت بدايته إنكاراً للتصوف، واعتراضاً على المُرسي، ثم استمع إليه وأعجب به وخلفه على الطريقة بوصاية أستاذه.

واشتهرت عنه خصومته للإمام ابن تيمية، فقد أغضبه أن الإمام يغلط في الصوفية وينتقد بعضاً من عبارات الشاذلي في أوراده. واستعدى ابنُ عطاء السلطانَ عليه، فخيّره السلطان بين الإقامة في دمشق أو في القاهرة بشروط، أو الحبس، فاختار ابن تيمية الحبس!

وابن عطاء هو الذي جمع أقوال الشاذلي وتلميذه أبي العباس المرسي، وترجم لهما، وحفظ تراثهما، وكان داعيةً للطريقة الشاذلية له أثره، وجميع الطرق الشاذلية في مصر ترجع بالسند إليه، وإلى ياقوت العرشي تلميذ المرسي.

ومن مصنفاته «الحِكَم العطائية» من عيون النثر الصوفي، ويستخدم فيها الرمز، وتلخص مذهبه، وأغلبها في صورة مخاطبات موجهة للمريد السالك؛ و«المناجاة العطائية» وتعدّ من روائع الأدب الصوفي؛ و«التنوير في إسقاط التدبير»، أي إسقاط الإنسان لتدبيره مع الله تعالى، والرضا بما يورده عليه؛ و«لطائف المنن في مناقب الشيخ أبي العباس المرسي وشيخه الشاذلي أبي الحسن»، يذكر فيه عن سيرتهما ومناقبهما وأحزابهما ومناقلاتهما؛ و«تاج العروس الحاوي لتهذيب النفوس» وهو مواعظ في التصوف؛ وكتُب أخرى كثيرة يتميّز فيها ابن عطاء كمربٍ ومعلمٍ، يتوجه بإرشاداته للمريدين والطالبين، فيقول: أصل كل معصية وغفلة وشهوة الرضا عن النفس، وأصل كل طاعة ويقظة وعفة، عدم الرضا عن النفس؛ وإذا التبس عليك أمران، فانظر أثقلهما على النفس فاتّبعه، فإنه لا يثقل عليها إلا ما كان حقاً. وينبغي عليك أن لا تيأس على فقد شئ، وأن لا تركن إلى وجود شئ، فإنّ من وجد شيئاً فركن إليه، أو فقد شيئاً فحزن عليه، فقد أثبت عبوديته لذلك الشئ الذي أفرحه وجوده وأحزنه فقده. ومتى كنت إذا أُعطيتَ بَسَطَكَ العطاء، وإذا مُنعتَ قبَضَكَ المنع، فاستدل بذلك على وجود

طفوليتك، وعدم صدقك فى عبوديتك. وليقلّ ما تفرح به، يقلّ ما تحزن عليه.

ويقول فى الإرادة والتسيير والمعصية والطاعة: يقول الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ (الذاريات ٥٦)، فبيّن الله تعالى أنه إنما خلق هذين الجنسين لعبادته، أى ليأمرهم بها، كما تقول لعبدك: ما اشتريتك أيها العبد إلا لتخدمنى، أى لآمرك بالخدمة فتقوم بها. وكما أنه خالق الطاعة بفضله، كذلك هو خالق المعصية بعدله. قل كل من عند الله. والله خلقكم وما تعملون.

ويقول: اعلم أن سرّ خلق التدبير والاختيار ظهور قهر القهّار، وذلك أن الله تعالى أراد أن يتعرّف إلى العباد بقهره، فخلق فيهم تدبيراً واختياراً، ثم فسح لهم بالحجة حتى أمكنهم ذلك، فلما دبّر العباد واختاروا، توجه بقهره إلى تدبيرهم واختيارهم، فزلزل أركانه، وهدم بنيانهم، فلما تعرّف للعباد بقهر مرادهم، علموا أنه القاهر فوق عباده فى خلق الإرادة. والغافل إذا أصبح، ينظر ماذا يفعل، والعاقل ينظر ماذا يفعل الله به. واعلم أنه ما من نَفَس تبديه إلا وله قَدَر فيك يمضيه، وأن الله تعالى أراد أن يجعل الحاجة للإنسان إما ليعرفه أو ليُعرَف به. والحاجة باب إلى الله، وسبب يوصلك إليه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ﴾ (غافر ١٥)، فيجعل الله الفقر إليه سبباً يؤدى إلى الوصول إليه والدوام بين يديه. ولعلك أن تفهم قول رسول الله: من عرف نفسه عرف ربّه، أى من عرف نفسه بحاجتها وافتقارها وذُلّها وفاقتها ومسكنتها، عرف ربّه بعزّه وسلطانه وجوده وإحسانه، إلى غير ذلك من أوصاف الكمال.

ويقول: اعلم أن المؤمن قد ترد عليه خواطر التدبير، ولكن الله لا يدعه لذلك: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ (البقرة٢٥٧). والمؤمن إذا وردت عليه خواطر الاضطراب والتدبير لا تثبت، لأن نور الإيمان قد استغرق قلوب المؤمنين.

ويقول ابن عطاء الله فى آداب المريد: هى عامة فى ظاهره وباطنه، وآداب الظاهر تبع لآداب الباطن، وآداب الباطن هى التحلى بمحاسن الأخلاق كلها.

ويقول: علامات السقوط من عين الله ثلاث: الرضا عن النفس، وعدم الرضا عن الله، ومزاحمة الحق بالقضاء والقدر.

وينصح ابن عطاء المريد فيقول: عليك بالخلوة والعزلة، فمن كانت العزلة دأبه كان العز له، ومن صدقت عزلته ظفر بمواهب الحق له بالمنن، وعلامتها كشف الغطاء

وإحياء القلب وتحقيق المحبة. واعلم أن طريق المجاهدات والرياضات لابد منها، فإنه لا يمكن للسالك أن يصفّى روحه ويطهّر ذاته، واللذات الحيوانية مستعلية على روحه، والشهوات الجسمانية متغلبة على نفسه. وإرادتك التجريد ـ مع إقامة الله إياك فى الأسباب ـ من الشهوة الخفية؛ وإرادتك الأسباب ـ مع إقامة الله إياك فى التجريد ـ انحطاط عن الهمّة العلية.

وتوفى ابن عطاء الله بالقاهرة سنة ٧٠٩هـ. ونالت حِكَمُه العطائية الكثير من اهتمام الشُرّاح، ومن ذلك كتاب «أحكام الحِكَم» فى تفسيرها لإبراهيم المواهبى المتوفى سنة ٩٠٨ هـ، و «غيث المواهب العلية بشرح الحكم العطائية» لابن عبّاد الرندى المتوفى سنة ٧٩٢ هـ، و «شرح الحكم العطائية» لأحمد بن أحمد زرّوق الفاسى المتوفى سنة ٨٩٩ هـ.

* * *

٢٣١ - العطار (فريد الدين)...

محمد فريد الدين العطّار النيسابورى، صاحب المثنويات الشعرية، وله «تذكرة الأولياء»، ضمّنها ١٠١ ترجمة صوفية، وكتاب «مقامات الطيور» المعروف باسم «منطق الطير»، برع فيه فى التعبير عن الأشواق الصوفية، والتضرّع، والاحتراق، والفناء. وفى كتبه ومصنفاته التى بلغت ١١٤ مصنفاً بعدد سور القرآن، طرح من أسرار التوحيد وحقائق الأذواق والمواجيد ما أشهره كمتصوف وصاحب طريقة، حتى اشتهر باسم فريد الدين، وكما قيل كان فريداً فى تديّنه وفى شعره، وكان أحد ثلاثة شعراء متصوّفة برزوا فى الأدب الفارسى، هم: سنائى، والعطّار، وجلال الدين الرومى. والعطّار: شاعر الحب الإلهى، وشعره بسيط، وسحره فى هذه البساطة، وقيل فيه إنه سوط السالكين، لأنه يهديهم إلى الحقيقة، ولكنهم أثناء ذلك يحرقهم الشوق الذى يستثيره فيهم الشعر، ويكتوون بنار المحبة. والقصص فى شعره رمزى، ويُكثر فيه من استخدام المجاز والاستعارة والحكمة. وقيل إن العطار، وكانت مهنته عطارة الأدوية، كان بباب دكانه يوماً فسأله درويش صَدَقَة، فلم يأبه له العطار، فأنّبه الدرويش: فكيف تصنع إذا جاءك الموت؟ فردّ العطار ساخراً بأنه سيصنع مثله! فما كان من الدرويش إلا أن قعد على الأرض واستند إلى حائط، ونظر إليه يصنع مثله لو استطاع، وقال «يا الله»، ثم أسلم الروح! واضطربت حياة العطار من ذلك اليوم، فتاب وانخرط فى التصوّف، وقرأ فيه، حتى ذكر أنه لكى يكتب تذكرة الأولياء

التى يؤرخ بها لسيَر الصوفية ، قرأ سبعمائة كتاب وعشرة ، وغايته منه: أن يقوّى به قلوب المريدين، ويفيدهم بكلام المشايخ السابقين، فيكون منه المدد الروحى على مواصلة الطريق.

ويقول العطّار: ويمكن القول بأن هذا الكتاب يجعل المختنثين رجالاً، والرجال أسوداً فحولاً، وفحول الأسُود أفذاذاً، فكل من يقرأ الكتاب كما ينبغي سيتضح له كيف كانت الأمراض تترسّخ فى أرواح هؤلاء الأفذاذ، وكيف تولّدت، وكيف صارت إليهم أمثال هذه الكلمات التى استوحتها قرائحهم، ووعتها قلوبهم، من أعماق الصحراء». ويورد العطار جملة غرائب للصوفية، يقول: بُروى أنه عندما كان يسمع سهل التُستُرى السماع كان يحصل له وَجْد، ويستمر فى ذلك الوجد خمسة وعشرين يوماً لايذوق فيها طعاماً !! وإذا كان فى موسم الشتاء كان يتصبّب عرقاً بحيث يبتل قميصه. ولمّا سأله العلماء عن تلك الحال أجاب: لا تسألونى فلن يصيبكم منى ومن كلامى أى فائدة قط». وجاء فى شرحه أحوال أبى بكر الشبلى: أنه كان يرقص عدة أيام تحت شجرة ويقول هو هو، قالوا: ما هذه الحال؟ قال: هذه اليمامة تقول على الشجرة كوكو، وأنا أوافقها وأقول هوهو!!!ـ وفى شرح حال أبى الخير الأقطع يورد العطار: أنه ظهرت فى يده عاهة، فقرر الأطباء قطعها، فلم يرض بذلك، فقال المريدون: اصبروا حتى يدخل الصلاة، فإنه حينذاك يفقد وعيه. ففعلوا ذلك، ولما فرغ من صلاته وجد يده قطعت!!! ـ أقول: أليس ذلك غريباً ؟ وكيف كان يقوم بالصلاة إذن وهو فاقد لوعيه، أو بالمصطلح الصوفى فانٍ عن نفسه!!!

وواضح أن العطّار قد خالط الدراويش منذ طفولته ، وأن مهنة عطارة الأدوية أطلعته على نواح من الإنسان ألهبت عقله بالتفكير، ولم يهتد بعقله إلى شئ، ولهذا فقد قال: إن الطريق إلى الله هو طريق القلب»، وقالها بعده بأربعمائة سنة بسكال فى فرنسا. وطريقة العطار فى التصوّف: تقوم على المجاهدة والرياضة وتزكية النفس وتصفية القلب وتجلية الروح. وهو يصف النفس الإنسانية بأنها كالكلب، أو كالموقد المتأجج بالنار، وإذا قيّدتَ الكلب وكبحتَ النار كنت الفتى الحقيقى، وتكون قادراً من بعد على كل شئ. ويَطَلُ العطّار فى «منطق الطير»، وهو المسمى شيخ صنعان، يطلب من مريديه أن لايستريحوا من الرياضة أبداً، وأن يكون صومهم

وصلاتهم بلا حدود، وأن لا يتركوا السنن، ويوصيهم بمراقبة أنفسهم والحذر الدائم، فإبليس ظل يعبد الله زمناً طويلاً ثم عصاه فأضاع نفسه وكل عباداته السابقة، وحلّت عليه اللعنة. وهو يقول الطريق إلى معرفة الله هو القلب وليس العقل، والعقل هو الذى اختلف به الناس حول الله وعبادته، ولكنهم بالقلب يتحابّون. وفى كتابه «مُصيبت نامة» يجعل العطار أحد السالكين يتوجه إلى العقل طلباً للإرشاد، فينصحه العقل نفسه بأن يستفتى قلبه، ويقول له العقل: «أجل، أعرفُ الحق، ولكن القلب أكمل منى فى معرفته». وليس للعقل وإن بلغ الكمال إلا أن يطيع الشريعة وإلا يكفر، والعقل البسيط هو أفضل العقول، والعقل قاصر فالخمر تؤثر فيه، وتستره فكيف يمكن الوثوق به؟

ويمتدح العطّار طريق الفقهاء ، ومنهم أبو حنيفة والشافعى وابن حنبل، ويهجو طريق الفلاسفة، وهو فى ذلك يشبه الغزالى، ويقول إن طريق المتدينين هو طريق الشوق إلى الحقّ وطريق الذوق.

وفى كتابه «أسرار نامة» ينصح العطّار المريدين، بالابتعاد عن الفلاسفة، وأن يسلّموا أنفسهم لمشايخهم فى الطريقة، يتعهدون أذواقهم ويرشدونهم فى رحلة الروح. ويقول العطار: يا ولد، الطريق طويل وكله مشاق وعثرات، وقد تسقط فى إحدى المهاوى وإن تكن أسداً حقاً، وأنت بدون من يأخذ يدك كالأعمى، فهل أبصرت أعمى يسير مستقيماً بدون عصا تقوده وتهديه؟

وفى إحدى الحكايات فى كتابه «مصيبت نامة» يقول العطار: السالك يا ولد يجد نفسه فى مفترق طرق ثلاثة، الأول مكتوب عليها: إن الطريق طويل وصعب ولكن له نهاية؛ والثانى مكتوب عليه: إنه طريق عظيم ولكن نهايته غير معلومة؛ والثالث الكتابة عليه تقول: الطريق مهلك ولا عودة منه للسالك؛ فهكذا «الشريعة، والطريقة، والحقيقة»، فالطريق الأول هو طريق «الشريعة»، والثانى هو طريق «الطريقة»، والثالث هو طريق «الحقيقة»، والسير فى هذا الطريق الثالث: معناه الفناء للسائر فى الله والبقاء به سبحانه، فمن فنى فيه بقى به؛ وأما الطريقة: فهى السفر فى النفس. ويقول العطار إن رحلة النفس مراحلها سبع بعدد المقامات، ويسمى المقام واد، والوديان التى يقطعها المسافر السالك هى أوديـــة الطلب، والعشق، والمعرفة، والاستغناء، والتوحيد، والحيرة، والفقر،

والفناء، وبعد ذلك فليس ثمة سير ولا طريق، لأنه بعد قطع تلك المسافات تقع «الجذبة» وينمحي كل شئ.

ويتحدّث العطّار عن مقام العشق، فيقول: إن حب الصورة أو الجسد هو أدنى مراتب المحبة، والجسد ليس سوى أخلاط ولحم ودم فأى جمال فيه؟ ليس الجمال إلا الجمال المعنوى. ويروى العطار حكاية عن تلميذ أحب وتدلّه فى الحب حتى أنساه المواظبة على الحَضْرة، فعلم الأستاذ، واستحضر جاريته التى أحبها التلميذ، وأعطاها مُسَهِّلاً وفَصَدَها، واحتفظ بأخلاطها ودمها فى طست أعدّه لذلك، ثم طلب التلميذ وأطلعه على الجارية بعد ذبولها ، وأشار إلى الطست وما فيه، فقد كان هو الفرق والذى كان يصنع جمالها المادى، وثاب التلميذ لرشده وعاد للمواظبة على الحضرة.

ويقول العطّار فى المعرفة: إن شمسها عندما تشرق يصيب منها كل أحد على قدر حاله. ويمثّل العطار لفناء الحبيب والطيب بالعُود والحَطَب، تُلقى بهما فى النار فيحترقان، ويتخلف عنهما رماد متشابه فى الظاهر، ولكنه ليس كذلك فى الحقيقة ، فأن ينعدم أحدهما فهذا هو الفناء، وأما ما يفنى عن الفناء فإنه يبقى بقاء العود بعد الاحتراق! وهو يمثل لفكرة الفناء بزيت المصباح الذى يحترق فيستحيل دخاناً أسود، فيخرج عن زيتيته، ولكنه يبعث النور. والذين يصلون إلى مقام الفناء قليلون، فيبلغون درجة الوصال والاتحاد بالله، وليس معنى الاتحاد الحلول، وإنما معناه الاستغراق فى الكل، ويقول العطار للمريد: لا تكن هنا حلولياً أيها الفضولى، إذ ليس الرجل المستغرق حلولياً.

وميلاد العطّار وموته مختلف فيهما، والأرجح أنه ولد بين سنتى ٥٢٨ هـ و ٥٣٦ هـ، وأنه عاش نحواً من سبعين إلى ثمانين سنة، ويبدو أنه تزوج قبل أن يتصوّف، وكان شيخه الروحى أبا سعيد ابن أبى الخير، ولم يثبت أنه قد مات مقتولاً على يد كُفّار التتار كما قيل. والأرجح أن وفاة العطّار كانت بالشيخوخة نحو سنة ٦٠٧هـ، أو نحو سنة ٦١٧هـ، وقبره فى نيسابور مزار عظيم.

ومن شعره يخاطب أهل الظاهر:

يا مَن ابتُليتَ بالتعصّب
وتورطت دائماً فى الحبّ والبُغض
انتبه الآن وكن عديم التعصّب وامضِ قُدماً
إن تعصُّبك أضنَى روحك
وشغلتَ نفسَك بإحصاء معاصى الناس
وتارةً تقبّل هذا، وتارة ترفض ذاك

فماذا يعنيك إن كان هذا فى نفسه أفضل أم ذاك؟
وكلّ عمرك قضيته تُقارن بين الناس
فمتى تتفرغ لعبادة الله؟
وغداً سترى مِن حولك فى الحضرة اثنتين وسبعين فرقة
فماذا يعنيك مَن منها على صواب ومن على خطأ
ولو تمحّصت فيهم لوجدتهم جميعاً عشاقاً جاءوا للعبادة
وإنى لأدعو الله أن يطامن من طغيان نفوسنا
ويُخرج الفضول من أدمغتنا
وأن يشغلنا بما فى قلوبنا ويُبعد عنا أهل التعصُّب!

والانشغال بما فى القلوب هو الالتباس بلسان حال الصوفية ومنطقهم وذوقهم الخاص الذى هو لسان ومنطق وذوق أُولى الألباب، والذى يترجم بحق عن أحاسيس ومشاعر ووجدان القلوب. يقول العطار :

استبدل بالعقل الفطرى القلب
حتى ترى الأبد والأزل شيئاً واحداً
واخْطِ إسار الطَّبع كالرجال،
وفِرّ فى باطن غار الوحدة
فلقد بقيتَ طويلاً ذاهلاً فى فروع الطريق
فقلل الادعاء فى هذه القواعد البعيدة عن الأصول
واعلم أن العقول بشأن الدنيا ملتوية
وأفكار الناس فى ترك الشهوات عقيمة
وهم فى إظهار فضائلهم مُرائون، وعديمو الوفاء كالدنيا

وفى كتابه «منطق الطير»، يقول العطار حين تسأل الطيور (وهم السالكون) الهدهد (وهو المرشد)، عن كيفية السير فى الطريق للوصول إلى العنقاء (أى الحق):

تكلموا طويلاً مع الهدهد
ولم يكن أحد أعرف منه بالطريق
سألوه: يا أستاذ الفن، كيف نؤدى حق العمل؟
ولم يكن يجب أن يسألوا هذا السؤال،
لأنه ليس فى حضرة هذا العالى المقام
يُستحسَن هذا السلوك من الضعفاء
فقال لهم الهُدهد : إن الذى يعشق لا يخاف على حياته
فإنك إن ضحيّتَ بروحك كنت عاشقاً،
سواء كنت زاهداً أم فاسقاً
فإذا ما أصبح قلبك خصماً لروحك،
فضحِّ بالروح لتكون للطريق نهاية
وانظر هناك فستحظى بالمشاهدة،
وضحِّ بكل شىء مقابل هذا
حتى لو طلبوا أن تنكر الإيمان وتكفر
فاستقبل ذلك راضياً وقل إن العشق فوق الإيمان والكفر
لأنه لا شأن للعشق بالكفر والإيمان

ولا شأن له بأن تحيا أو تموت
والعاشق لو وضعوا المنشار على رأسه لما اكترث
فالعشق أولى بالألم ودم القلب
وذرةٌ من العشق أحسن من كل الآفاق
وذرة ألم هى أعلى من كل العشاق
والعشق هو لباب الكائنات، ولا عشق بلا ألم
والألم لا يجدر إلا بالآدميين
وكل من تمكنت قدمه فى العشق
تجاوز عن الكفر وعن الإسلام أيضاً !!
والعشق يفتح لك الباب على الفقر،
والفقر يؤدى بك إلى الكفر
والعشق قريب الكفر، والكفر هو لب الفقر
فتقدم فى الطريق كالرجال ولا تخف
واترك الكفر والإيمان ولا تخف،
فإلى متى تظل خائفاً؟
اترك خوف الطفولة، وكن كأسود الرجال فى الطبيعة
ولو قامت دونك مائة عقبة فلا خوف منها لكونها فى هذا الطريق !!!

ولا أدرى ماذا يقصد العطار بمقالته؟ وهل يوجد عشق بدون إيمان؟ وإذن فأعشق ماذا ؟

* * *

٢٣٢ - ابن علوان (صفىّ الدين)...

صفىّ الدين أحمد بن علوان، (المتوفى ٦٦٥هـ)، له «الفتوح المصونة والأسرار المخزونة»، و«البحر المُشكِل الغريب»، وهما رسالتان فى التصوف، و «ديوان شعر» أغلبه فى التصوف.

وابن علوان يمنى من قرية يفرس من قرى تَعِزّ، واشتغل كاتباً فى بعض الدواوين السلطانية. وتصوفه تقليدى، ولا اجتهاد له ولا مذهب، وإنما هو كالمعلّم الشارح.

* * *

٢٣٣ - علىّ بن أبى طالب (الإمام)...

قال فيه الصوفية: إنه مُستنبِط الإشارات، ونور المطيعين، وولى المتقّين، وإمام العادلين.

وحياة علىّ بن أبى طالب لها منظوران أو جانبان، فحياته العملية شىء، وحياته الفكرية شىء آخر، أو أن المعروف الظاهر من حياته هو الجانب التاريخى، وأما الجانب الروحى فهو المستخفى والأسطورى. والصوفية خصّوا أنفسهم بالجانب الفكرى أو الروحى، واستنبطوه استنباطاً، ونسبوا الكثير من الأقوال فيه إلى علىّ، وحرّموا التصدّى له من العامة، وجعلوا البحث فيه وقفاً عليهم، فصار لدينا عنه جانبان، أحدهما عام، والثانى خاص.

وحياة عليّ التاريخية يلخصها أنه ابن عم النبيّ ﷺ، وكان ميلاده بعد ميلاد النبيّ ﷺ بثلاثين سنة، أي سنة ٦٠١م، وأسلم وعمره تسع أو عشر سنوات أو دون ذلك، وكان إسلامه بعد خديجة، ولم يكن قد تعبّد لوثن، وقيل إن أول أهل القبلة الذين استجابوا للدعوة: خديجة، واختُلف بعد ذلك فيمن يتلوها، هل هو أبو بكر، أم عليّ، أم زيد بن حارثة؟ فأما عليّ فلم يكن قد بلغ الحُلُم بعد ولا يعتد بإسلامه قبل الحادية عشرة، وهو الذي أوكل إليه أن يؤدي ودائع الناس عند النبيّ ﷺ بعد الهجرة، فأقام ثلاثة أشهر حتى أتم ذلك، وكانت هجرته للنصف من شهر ربيع الأول ورسول الله ﷺ بقُباء. ولم تكن المؤاخاة إلا قبل بدر، فآخى الرسول ﷺ بين الأنصار والمهاجرين على الحقّ والمؤاساة، وآخى بينه وبين عليّ، وقال له: أنت أخي ترثني وأرثك- هكذا قالوا لنا، فلما نزلت آية الميراث قطعت ذلك، وقيل إنه آخى بين عليّ وبين سهل بن حُنيف، وظل سهل منذ ذلك التاريخ يتضامن مع عليّ في كل شيء. وعيّنه الرسول ﷺ صاحب لوائه يوم بدر وفي كل المشاهد، إلا في تبوك. وكان عليّ يعلّم نفسه في بدر بصوفة بيضاء، وكان ممن ثبت مع الرسول ﷺ يوم أُحد حين انهزم الناس، وبايعه على الموت، وكانت معه إحدى رايات المهاجرين الثلاث يوم فتح مكة، وبعثه النبيّ ﷺ البعثات، ولم يتخلّف إلا في تبوك، فقد كانت الأمور قد ذهبت منحى آخر، وكان عليّ قد تشيّع له جماعة، وله مطالب كان يبعث بها إلى الرسول ﷺ مع ابنته وزوجته - فاطمة؛ وكان عليّ يريد أن يتزوج على فاطمة، وكره منه الرسول ﷺ تفكيره في الزواج على ابنته، وأن يجمع بين ابنته فاطمة وبين جويرية - ابنة أبي جهل عدوّه اللّدود في بيت واحد؛ وكره منه أن يجتمع إليه نفر اعتزلوا المسلمين دونه وهم الشيعة.

ولم يكن عليّ حسن الهيئة، فقد كان أصلع، طويل اللحية، كثير شعر الجسم، ضخم البطن، ومُشاشة المنكب، وعضلة الذراع والساق، وآدم شديد الأدمة، ثقيل العينين عظيمهما، وإلى القِصَر أقرب. واجتمعت عليه الفُرس منذ البداية، ولكنهم كلما رأوه قالوا «بوذا شكنب آمد» يعني ضخم البطن مثل بوذا، فكانت تلك أول إشارة إلى تأثير البوذية في متصوّفة المسلمين. وكان إذا سمعهم يقولون ذلك عليه قال: قولوا لهم: «إن أعلاي علم، وأسفلي طعام»!

وتاريخ عليّ في الدعوة والخلافة طويل، وما يهمنا هو أمره في التصوّف. ومن الصعب أن يقال إنه كان من الزاهدين، فلا شكله البطين! ولا زواجه من عشر نساء! وإنجابه ٣٣ ولداً وبنتاً! وطلبه للخلافة، من وقت مرض الرسول ﷺ، إلى أن حانت له الفرصة بعد قتل عثمان فاهتبلها! وظل في صراع مع المطالبين بدم عثمان إلى أن قتله ابن مُلجَم، وشبيبُ بنِ بَجَرة الأشجعي: ضرباه بالسيوف، وابن ملجم يقول: لله الحُكم ياعليّ، لا لك! ـ فلماذا قال ذلك؟ لقد قاله لأنه رأى وآخرون: أن علياً من طلاّب الحكم!

وتوفي عليّ ليلة الأحد لإحدى عشرة ليلة بقيت من شهر رمضان سنة ٤٠ هـ، وعمره ثلاث وستون سنة، ولم تثمر خلافته إلا أربع سنوات وتسعة أشهر. وهذا إذن هو الجانب العملي أو التاريخي من حياته، والمسلمون اختلفوا بشأنه وخرجوا عليه، وفيهم جُلّة من الصحابة، وأم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر زوجة رسول الله ﷺ. وأما الجانب الفكري والروحي فما قيل فيه مختلف تمامًا: فهو زينة العارفين، المطّلع على حقائق التوحيد، العارف بعلم التفريد، والممسوس في ذات الله، والأخيشن في دينه. والتصوف مرامقه ومصارمه.

والناس كانوا يشكون علياً للرسول ﷺ، وكانوا يسبّونه، ومع ذلك قال الصوفية فيه: الاستسلام والانقياد كان دأبه، والتبرؤ من الحول والقوة شأنه. -والذين قالوا فيه ذلك صوفية الشيعة، وروّج عنه الشيعة أحاديث نسبوها إلى النبيّ ﷺ، حتى أن كُتب السُّنة أوردتها من كثرة ما تناقلها الناس عنهم، ومن ذلك هذه الأحاديث: «أنت مني بمنزلة هارون من موسى»؛ و«مَن كنت مولاه فعليّ مولاه»؛ و«اللهم والِ مَن والاه وعاد من عاداه»؛ و«أنا مدينة العلم وعليّ بابها» إلخ. وروى عنه الصوفي الكبير أبو طالب المكّي أنه كان أزهد الصحابة، وجعله المتصوّفة مرجعهم، ورأسَ التصوّف والزهد، كيف؟ - لا أدري! -وقال غُلاتهم: إن علياً له حق الولاية والوراثة. لماذا؟ - لا أدري! -وقال الحسن العسكري: لمّا خلق الله آدم وسوّاه، وعلّمه أسماء كل شيء، وعرضه على الملائكة، جعل محمداً وعلياً وفاطمة والحسن والحسين أشباحاً خمسة في ظهر آدم، وكانت أنوارهم تضيء في الآفاق من السموات والحُجب والجنان والكرسي والعرش، فأُمروا مع الملائكة بالسجود

لآدم تعظيماً له، لأنه قد فضّله بأن جعله وعاءً لتلك الأشباح التى قد عمّ نورها الآفاق، فسجدوا إلا إبليس». - فكيف عرف الحسن العسكرى هذه الحكاية؟ وما هو مرجعه فيها؟ لا أدرى!

ونسبوا إليه فى نهج البلاغة أنه قال: «أنه ومن جاء من نسله يموتون وليسوا بموتى، ويبلون ولا يبلون». ونسبوا إلى النبىّ ﷺ أنه قال: «أنا وعلىّ من نور واحد»!! وقال: «كلنا واحد (أى آل البيت)، وسرُّنا واحد، وأمرُنا واحد، ونحن شىء واحد». ونسبوا إلى علىّ القول: «أنا آدم، وأنا نوح، وأنا إبراهيم، وأنا موسى، وأنا عيسى، انتقلُ فى الصور كيف أشاء، ومن رآنى فقد رآهم. ولو ظهرتُ فى صورة واحدة لهلك فىّ الناس». وقالوا: «هو لا يزول ولا يتغيّر». وواضح أنهم صاروا يعبدونه كما فعل النصارى مع عيسى! وقال علىّ: إنما أنا عبدٌ من عباد الله، لا تسمّونا أرباباً، وقولوا فى فضلنا ما شئتم، فإنكم لن تبلغوا كُنْه ما جعله الله لنا إلا معشار العُشر، لأنّا آيات الله ودلائله، وحُجج الله وخلفاؤه، وأمناء الله، ووجه الله، وعين الله، ولسان الله»!!

ونسبوا إليه القول: «أنا قسيم الله بين الجنة والنار، وأنا الفاروق الأكبر، وأنا صاحب العصا والميسم، وبهذا أقرّت لى جميع الملائكة والروح بمثل ما أقرّت لمحمد»!! وشرح ذلك الباقر، فقال: «إن علياً جرى له من الطاعة بعد رسول الله والفضل، ما لرسول الله، فإن رسول الله باب الله الذى لا يؤتى إلا منه، وسبيلُه الذى مَن سلكه وصل إلى الله عزّ وجلّ، وكذلك جرى لعلىّ من بعده وللأئمة»!

وادّعوا أن الرسول ﷺ قال له: «إن الله أشهدك معى فى سبعة مواطن، هى: الإسراء الأول والثانى، وفى بعثتى إلى الجن، وفى ليلة القدر». وقالوا: إنه ﷺ دعا الله فى علىّ: أن يُعطَى كل شىء، فأعطاه، إلا النبوة، وأنه كان معه فى صلاته بالأنبياء فى إسرائه إلى السماء، وكان معه فى هلاك الأحزاب!! وقالوا: إن النبىّ ﷺ قال: «إنه ليلة أُسرى بى إلى السماء، قال لى جبريل: أين أخوك؟ قلت: خلفته ورائى. قال أدعُ الله لعله يأتيك به. فدعوت، وإذا علىّ معى!!! وإذا الملائكة صفوف، فقلت: يا جبريل: من هؤلاء؟ قال: هم الذين يباهيهم الله بك يوم القيامة. والثانى حين أُسرى بى المرة الثانية، فكشط لى عن سبع سموات حتى رأيت سكانها وعُمّارها وموضع كلّ ملك منها»!!.

ونسبوا إلى الرسول ﷺ أنه قال لعلىّ: «عليك بالصدق فلا تخرجن من فيك

كذبة أبداً؛ والورع فلا تجترئ على خيانة أبداً؛ والخوف من الله كأنك تراه؛ والبكاء من خشية الله، يبْنى لك بكل دمعة بيتاً في الجنة؛ والأخذ بسُنّتي».

وعن ذلك كله يقول الطوسي: عليّ تاليه ﷺ في الفضل، ومؤازره في اللأواء والأزل، وسيف الله على أهل الكفر والجهل، والخازن علمه، والمستودع سرّه، والظاهر على مكنون أمره»!!.

أفلا يكون من المتوقع إذن أن يقول الصوفي الشيعي عند زيارة قبر عليّ: «السلام على ذات الله العليا!! السلام على ذات الله القائمة بالسُّنن!! السلام على المنّ والسلوى!!!

وهذه الأقوال هي الأسس التي بنى عليها متصوّفة الشيعة طُرقهم ومناهجهم في التصوف، وألّهوا عليا بها، وكانت هذه الأقوال هي سبب ما ذهبوا إليه في الحلول. والتأثير المسيحي واضحٌ جليٌّ في التصوّف الشيعي، وقد نسبوا إلى سلمان الفارسي قوله لمناسبة تفسير الآية: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ (الزخرف ٥٧)، فقال رسول الله ﷺ: يَدخُل عليكم الساعة شبه عيسى ابن مريم» فدخل عليّ بن أبي طالب !!!» - فقد أجمعوا في عليّ اللاهوتية كما عند المسيح، حتى أنهم قالوا فيه: «هو أخو المسيح الذي كلّم الجمجمة وأحيا الأموات، وهو البُشريّ الإلهيّ، معلّم فتية أهل الكهف». ونسبوا إلى عليّ أقوال المسيح في الزانية، أنه: لا يرجمها إلا من كان بلا خطيئة، فانصرفوا جميعاً ولم يرموها، لأنهم كانوا مثلها خطّائين!! وقال عليّ: أيها الناس! هذه حقوق الله لا يطلبها إلا من كان عنده لله حق مثله، فإنه لا يقيم الحدّ من كان عليه الحدّ، فلمّا قال ذلك انصرف الناس عن الزانية!! فكأنه أوقف حدّ الله لا لسبب سوى أن يتابع المسيح! وكأنه والله، قد صار نصرانيًا!! وفي ذلك قال الصوفية الشيعة في عليّ:

إذا قيل المسيح هو الإله

وأحمد مبتداه ومنتهاه

فمولانا عليّ روح أحمد

أحق من المسيح ومن سواه

يعني هو الأحق أن يقال عنه أنه الإله، لأنه روح أحمد، أي النبيّ محمد، والنبيّ محمد استبطن المسيحية ويعرضها من المبتدأ حتى المنتهى!! والمهم في ذلك كله أن علياً صار هو الإله، وهو الحقيقة، وهو كل شيء. وفسّروا القرآن تفسيرات تناسب أقوالهم فيه، فقالوا في الآية: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ

أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ . تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ (إبراهيم٢٥/ ٢٤): أن الشجرة رسول الله، والأصل الثابت هو النسب فى بنى هاشم، وفرع الشجرة هو علىّ، وغصنها فاطمة، وثمرتها الأئمة من ولدهما، وأوراقها هم الشيعة»!!

وقالوا فى سورة التين: إن التين هو رسول الله ﷺ، والزيتون علىّ بن أبى طالب، وطور سنين الحسن والحسين، والبلد الأمين الائمة. وعلىّ بن أبى طالب هو النبأ العظيم فى الآيتين: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ . عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ﴾ (النبأ ١/ ٢)، وهو النور فى الآية: ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنزَلْنَا﴾ (التغابن ٨)، وهو المؤذّن فى الآية: ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ (الأعراف ٤٤)؛ وهو الغمام فى الآية: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ﴾ (الفرقان ٢٥)؛ والإمام فى الآية: ﴿وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ (الفرقان ٧٤).

ونسبوا إليه أنه قال إن الآية: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾ (الأحزاب ٢٣) نزلت فىّ، وفى عمّى حمزة، وفى ابن عمى عُبَيْدة ابن الحارث بن عبد المطلب. وأما أنا فأنتظر أشقاها يخضب هذه من هذه. وأشار بيده إلى لحيته ورأسه !!؟

وعلىٌّ - إن كان ما ينسبونه إليه قد قاله حقّاً - هو الذى تسبّب فى هذه البلبلة، وفى إخراج الناس عن عبادة الدين إلى لهو الاعتقاد فيه، أى فى علىّ، فلقد ادّعوا عليه أنه قال: «لا يكمل للمؤمن إيمانه حتى يعرفنى بالنورانية، فإذا عرفنى بذلك فهو مؤمن ممتحَن: امتحن الله قلبه بالإيمان وشرح صدره للإسلام». وقال: «لو بُحتُ بما لدىّ من علم مكنون لاضطربتم اضطراب الأرشية فى القُطوى البعيدة». يعنى اضطراب المهيجين بالحرب فى الأماكن البعيدة.

ونسبوا إلى كميل بن زياد، الشيعى الصوفى، المقتول سنة ٨٣ هـ، أقوالاً لعلىّ كلها نصوص ظاهر. يقول علىّ: الحقيقة كشفُ سُبُحات الجلال من غير إشارة. قال كميل: زدنى بياناً؟ قال علىّ: محو الموهوم وصحو المعلوم. قال كميل: زدنى بياناً ؟ قال علىّ: هتك الستر لغلبة السِّرّ. قال كميل: زدنى بياناً؟ قال علىّ: نورٌ يشرق من صُبح الأزل فيلوح على هياكل التوحيد بآثاره. قال كميل: زدنى بياناً؟ قال علىّ: اطفئوا السراج فقد طلع الصبح !!! (أقول -هل فهمتم شيئاً ؟؟!).

وطريقة علىّ الصوفية قوامها قوله: العقل لمراسم العبودية لا لإدراك سرّ الربوبية. وقال: إن هاهنا لعلماً جمّاً - وأشار بيده إلى

صدره، وقال: سلونى قبل أن تفقدونى، فأنا بطُرق السماء أعلم منى بطرق الأرض !!! (يعنى هو مبعوث السماء وموطنه الأصلى السماء وليس الأرض، لأنه الإله!!)...

ويلخص علىّ طريقته فى «التصوّف الشيعى» فيقول: إن أمرنا صعب مستصعب، لا يحمله إلا عبدٌ امتَحن الله قلبه للإيمان. ولا يعى حديثنا إلا صدورٌ أمينة وأحلام رزينة. (يعنى كلامه يحتاج لمترجم!!).

وكشأن الصوفية كان علىّ من المتنبئين، قال: فالله الله عباد الله، فإن الدنيا ماضية بكم على سنن، وأنتم والساعة فى قرن، وكأنها قد جاءت بأشراطها، وأزفت بأفراطها، ووقفت بكم على صراطها، وكأنها قد أشرفت بزلازلها، وأناخت بكلاكلها، وانعدمت الدنيا بأهلها».

وقال: سلونى قبل أن تفقدونى، فوالذى نفسى بيده لا تسألوننى عن شىء فيما بينكم وبين الساعة، ولا عن فئة تهدى مائة وتضل مائة، إلا أنبأتكم بناعقها وقائدها وسائقها، ومناخ ركابها، ومحط رحالها، ومن يُقتل من أهلها قتلاً ويموت منها موتاً. (يعنى يعرف الغيب كالمسيح ويوسف!!!). وقال: أيها الناس، سيأتى عليكم زمان يُكفأ فيه الإسلام كما يكفأ الإناء بما فيه ! - يعنى أنه كان يتكلّم كأنه نبىٌّ فعلاً!

وكان لعلىّ الأصحاب يأخذون عنه ويستمعون إليه، ويحملون سرّه، وكان صاحبه رُشَيْد الهَجْرى الذى قيل إنه كان له كحذيفة بن اليمان للرسول ﷺ، فكان عارفاً بعلم البلايا والمنايا. - يعنى أنه كان يتشبّه بالنبىّ ﷺ !

وواضح أن كل ذلك ربما منحول على علىّ، حتى أنه تُنسب إليه أقوال هى أحاديث للنبىّ ﷺ، وتشابهت بأقوال لكثير من الصوفية، مثل الحسن البصرى، وعبد الواحد بن زيد، ورابعة العدوية، ومالك بن دينار، وعُتبة الغُلام، ومعروف الكرخى، وشقيق البَلْخى، وذى النون المصرى، مما يدل على أن انتحالها عليه تم فى مراحل تالية على فترات.

ومن ذلك هذا الكذب الفاضح المنسوب إليه عن التصوّف كعلم، فى وقت لم يكن التصوّف فيه قد عُرف بالمرة! قال: الصوفى مَن لبس الصوف على الصفا، وأطعم الهوى طعم الجفا، وكانت الدنيا منه على القفا، واستوى عنده الذهب والحجر والفضة والمدر، وإلا فالكلب الكوفى خير من ألف صوفى»! وهذا الكلام نفسه ورد عن الجنيد البغدادى المتوفى سنة ٢٩٨هـ

(٩١٠م)، وأورده الكلاباذى مسنداً إلى ابن علىّ الروذبارى!!!

وكذلك ورد عن علىّ قوله فى تقسيم الناس من حيث العلم إلى ثلاثة أقسام، قال: الناس ثلاثة، فعالمٌ ربّانى، ومتعلّم على سبيل نجاة، وهمجٌ رعاع أتباع كل ناعق». وورد كلام بمعناه عن ذى النون المصرى حيث يجعل المعرفة أقساماً ثلاثة: الأول حظ مشترك بين عامة المسلمين، والثانى معرفة خاصة بالحكماء والعلماء، والثالث خاص بالأولياء الذين يرون الله بقلوبهم». ولابد أن شُهرة علىّ بالزهد والورع هى التى حدت بالصوفية أن يتخذوا من عبارات علىّ أساساً لطريقتهم وبمهاراتهم فيه. ويروى أبو نعيم عن عباراته أنها وثيقة، وعن إشاراته أنها دقيقة، ومن ذلك قوله لأصحابه وكأنه يخاطب الصوفية: «كونوا لقبول العمل أشد اهتماماً منكم بالعمل، فإنه لن يقلّ عمل مع التقوى». ويقول: «ليس الخير أن يكثر مالك وولدك، ولكن الخير أن يكثر علمك، ويعظم حلمك، وأن تباهى الناس بعبادة ربك، فإن أحسنت حمدت الله، وإن أسأت استغفرت الله. ولا خير فى الدنيا إلا لأحد رجلين؛ رجلٍ أذنب ذنباً فتدارك ذلك بتوبة، أو رجلٍ سارع فى الخيرات»، ويقول: «احفظوا عنى خمساً: لا يرجو عبدٌ إلا ربّه، ولا يخاف إلا ذنبه، ولا يستحى جاهل أن يسأل عمّا لا يعلم، ولا يستحى عالم إذا سُئل عمّا لا يعلم أن يقول الله أعلم. والصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، ولا إيمان لمن لا صبر له». وقال: «إن أخوف ما أخاف اتّباع الهوى، وطول الأمل، فأما اتّباع الهوى فيصدّ عن الحق، وأما طول الأمل فينسى الآخرة. ألا وإن الدنيا قد ترحّلت مدبرة. ألا وإن الآخرة قد ترّحلت مُقبلة، ولكل واحد منهما بَنون، فكونوا من أبناء الآخرة، ولا تكونوا من أبناء الدنيا، فإن اليوم عملٌ ولا حساب، وغداً حساب ولا عمل»!. - وهذا كلام لا يقوله إلا واحد من كبار الصوفية المتأخرين وليس علمياً.

وأمثال هذه العبارات هى التى جعلت صوفى آخر هو السرّاج، المتوفى سنة ٣٧٨هـ ينبّه إلى هذه الخصوصية لعلىّ من بين جميع أصحاب رسول الله ﷺ، حيث انفرد دونهم «بمعان جليلة، وإشارات لطيفة، وألفاظ مفردة، وعبارة وبيان، للتوحيد والإيمان والعلم وغير ذلك». ويروى السراج عن علىّ أنه قال فى علم التصوف: علّمنى رسول الله ﷺ سبعين باباً من العلم لم يُعلّم ذلك أحداً غيرى». وعِلْم التصوف، أو العلم الباطن، هو الذى تعلمه علىّ كما يقول الصوفية الشيعة

عن النبىّ ﷺ ، الذى تعلّمه عن الله تعالى، وصدّق الجنيد حين قال هذه الفرية فقال: إنه «العلم اللَّدُنّى»، ومن ثَمّ يتحسّر على اشتغال علىّ بالحروب: فلولا ذلك لأفاد الصوفية من علمه معان كثيرة، ما كان يعلمه هو العلم الذى ورثه عن النبىّ ﷺ!!! - هكذا قالوا!

وصوفى آخر هو رويم البغدادى المتوفى سنة ٣٠٣هـ، كان يعتقد فى علىّ، وكذلك الحلاّج، وابن الفارض، وابن عربى، وهذا الأخير كان لا يذكر علياً إلا مقروناً باسم «السيد» - كما يفعل العلويون، وسمّاه بالإمام، وقال عن هارون الرشيد إنه الخليفة العلىّ المنيع، يحاكيه بعلىّ، وسَوّى بين النبىﷺ وبين علىّ فى النور والضياء!!!

وفسّرَ جلال الدين الرومى، المتوفى سنة ٦٧٢هـ، حينما ألّه علياً وجعله قديماً قدَم العالم، وقِدَم الزمان! وقال فيه إنه الوجود، ولولاه لسرى العدم فى العالم الموجود، وهو سرّ العالمين الظاهر والباطن!!! - يعنى بالاختصار هو الله!

ويتخارج صوفية البكتاشية تماماً عن الإسلام بقولهم: إن الحقّ ومحمداً وعلياً أوجُه لحقيقة واحدة وإن كانت ثلاثية، هى: «حقٌّ، محمدٌ، علىٌّ»!!! (يعنى قالوا بالثالوث أو بالتثليث كالنصارى وألّهوا علياً وعبدوه!.

وكان الصوفى علىّ الخواص يعتقد أن علياً لم يُقتل وإنما رُفع كعيسى !!!

ويقول ابن خلدون: إن الصوفية جعلوا مستند طريقتهم فى لبس الخرقة: أن علياً ألبسها الحسن البصرى، وأخذ عليه العهد بالتزام الطريقة، وقد اتصل ذلك عنهم بالجنيد من شيوخهم !!! - يعنى أن علياً هو كل شىء فى التصوّف.

وفى سنة ٦٠٤هـ(١٢٠٧م) أصدر الخليفة العباسى الناصر لدين الله منشوراً قال فيه: من المعلوم الذى لا يُتمادى فى صحته، ولا يُرتاب فى براهينه، أن علياً أمير المؤمنين كرّم الله وجهه، هو أصل الفتوة ومنبعها، ومَنْجَم أوصافها الشريفة ومطلبها، وعنه تروى محاسنها وآدابها، ومنه تشعبت قبائلها وأحزابها، وإليه دون غيره ينتسب الفتيان، وعلى منوال مؤاخاته النبوية الشريفة نسج الرفقاء والإخوان». والفتوة التى أشار إليها الخليفة الناصر: فرقة من الشيعة أصلاً، من الصوفية خصوصاً، كانوا يقومون بجلاتل الأعمال، ويدعُون لعلىّ تشبُّهاً بإبراهيم الذى كَسَر الأصنام، فقالوا عنه: إنه فتى يقال له كذا، هو الذى فعل هذا بآلهتهم. - وهكذا كان الفتى

علىّ، فإنه لم يسبق له أبداً التعبُّد إلى الأوثان.

والثابت أن علياً لم يكن يعرف التصوف، وإنما بالتأكيد قد انتُحل عليه ما أثر عنه من عبارات فى التصوف، وبنى عليها شُذّاذ المتصوفة، وأتوا بعبارات أخرى أدهى ليؤسّسوا بها لأحزابهم، كل حزب بما لديهم فرحون، وانتهى الأمر بقتل علىّ سنة ٤٠هـ، بسبب ما أحدث من بلبلة واضطراب وفتن فى العالم الإسلامى، وكانت بدايتها فى عهد الرسول ﷺ، ومات علىّ التاريخىّ، وما مات علىّ الأسطورىّ، وكان آخر البدع حوله أن قيل عن دفنه كما جاء فى مروج الذهب لابن عبد ربّه: أن جثمانه حُمل فى تابوت على جَمَل، وأن الجمل تاه ووقع إلى وادى طىْ !!!

وفى رواية ابن عساكر: لمّا قُتل حملوه ليدفنوه مع رسول الله، فبينما هم فى مسيرهم ليلاً إذ ندّ الجمل الذى هو عليه، فلم يُدر أين ذهب، ولم يُقدر عليه. ولذلك قال الغلاة من المتصوفة: هو فى السحاب، وقال غيرهم إن البعير وقع فى بلاد طىْ فأخذوه ودفنوه». وقال صوفية البكتاشية فى ذلك: إن علياً نُشر من جديد، وظهر ملثّماً على جمل، وقاد جنازته بنفسه إلى مدفنها!!!- فأكدوا بذلك أسطورة أنه إله!

وبعد... فهذه الصورة الروحية عن علىّ غريبةٌ علينا نحن أهل السنة،وما نعرفه عن علىّ هو الجانب التاريخى. وفى الصورة الروحية عنه كما يقول أبو نعيم: أنه كان يعيش عيشة الزهّاد، ويعجبه من اللباس ما قصر، ومن الطعام ما جشب، ويحب المساكين، ويبكى بكاء الحزين. فهل هذا ما نعرفه عن علىّ؟ وهل هذا ما يوحى به سَمْتُه والنمط الذى اختاره لحياته ؟!!- والذى يقول به التاريخ أن علياً وقع فى غالبية المسلمين، وادّعى عليه مَن حوله من الشيعة، ومن أتى بعدهم من الصوفية، حتى أن أهل الفكر اعتبروه فتنة، واعتبروا خلافته ابتلاء. وما قيل فيه، سواء من الشيعة أم من الصوفية، هو خروج عن دائرة الإسلام وأى خروج !!

وفى مثل ما قال الشيعة فى علىّ مقالات النصارى فى عيسى، وفى النصارى، وفى أمثالهم من أتباع علىّ من الصوفية وغيرهم، يقول الله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ

الْغُيُوبِ﴾ (المائدة ١١٦).ـ وحسبنا الله فى هؤلاء الشيعة!!

* * *

٢٣٤ - علىّ بن الحسين: زين العابدين السجّاد...

أبو الحسن علىّ بن الحسين بن علىّ ابن أبى طالب الهاشمى، القرشّى، الملقب بزين العابدين، فقد كان عابداً وفياً، وجواداً حفياً، وضربوا به المثل فى الحلم والورع، وفيه قال سعيد بن المسيب: ما رأيت أحداً أورع منه!

وكانوا يعرفونه بعلىّ الأصغر، للتمييز بينه وبين أخيه علىّ الأكبر، الذى قتل مع أبيه الحسين فى كربلاء. وما كان فى الهاشميين من هو أفضل منه ولا أصبر منه، ومولده ووفاته بالمدينة (٣٨ / ٩٤ هـ ـ ٦٥٨ / ٧١٢م). والتصوف عنده حفظ الوفاء لأهله، ونبذ الجفاء للناس، وكان مروان بن عبد الملك يبث من حوله العيون، ويوكل به الحفّاظ، وأثقله بالحديد، وحمله من المدينة إلى الشام، والغُلّ فى يديه ورقبته، ولم يكن المُلك يشغله وإنما الله. ولما مات كان الزهرى إذا ذكره يبكيه ويقول: زين العابدين!

وكان من عادة علىّ بن الحسين أن يحمل جراباً به خبز على ظهره كل ليلة، فيدور على بيوت الفقراء يتصدّق به ويقول: صدقةٌ تطفىء غضب الربّ. ولما مات وجدوه يقوت مائة عائلة من بيوت المدينة. ووصف ذلك جرير فقال: حين مات وجدوا بظهره آثاراً مما كان يحمل بالليل من الجُرُب إلى المساكين. وقال عمرو بن ثابت: لما مات علىّ بن الحسين غسّلوه. جعلوا ينظرون إلى آثار سواد بظهره فقالوا: ما هذا؟ فقيل: كان يحمل جُرُب الدقيق ليلاً على ظهره (جمع جِراب وهو الجوال) يعطيه فقراء أهل المدينة.

وعن محمد بن إسحق قال: كان الكثير من الناس من أهل المدينة يعيشون لايدرون من أين كان معاشهم، فلما مات علىّ ابن الحسين فقدوا ما كانوا يؤتون به فى الليل. قالوا: ما فقدنا صدقة السرّ حتى مات علىّ بن الحسين! ـ وكان يشترى العبيد ليعتقهم. ويحكى عنه ولده انه قاسم الله ماله مرتين.

وكان نقش خاتمه: «القوة لله جميعاً». وكان شعاره هذا قمة الإيمان بالنسبة لظروفه، فقد قتلوا جدّه وكان عمره سنتين، وقتلوا أباه وإخوته وأعمامه وعمره ثلاثة وعشرون، ولم ينج إلا بسبب رجل طمع أن يسلمه نظير مبلغ ثلاثمئة درهم لاغير! فلم يكن له من سبيل إلا أن ينقطع عن الدنيا ويتنسّك، ويصاحب الصوفية

والفقراء. وكان إذا ناول السائل الصدقة، قبّله ثم ناوله. وكان بكّاءً قلّما يضحك، والحزن يرين عليه، يقول: من ضحك ضحكة، مجَّ مجةً من العلم! يعنى كما لو كان قد انتُقص من علمه. وسألوه عن كثره بكائه فقال: لا تلوموني، فإن يعقوب فقد سبطاً من ولده، فبكى حتى ابيضّت عيناه ولم يعلم أنه مات. وقد نظرت إلى أربعة عشر رجلاً من أهل بيتى فى غزاة واحدة، أفترون حزنهم يذهب من قلبى ! - وربما لذلك كان بكاؤه وتعبُّده الشديد نتيجة لهذا الحادث الجلل، وفى الطّب النفسى يطلقون على ما يشكو منه اسم عصاب الصدمة.

وكان إذا مرض قال: إن الجسد إذا لم يمرض أشِر (يعنى بطر)، ولا خير فى جسد يأشر. - ولم يكن يلبس إلا ثوباً واحداً ويقول: فما كان لرسول الله ﷺ، ولا لأصحابه، إلا ثوب. -وكلما توضأ للصلاة، وصار بين وضوئه وصلاته، أخذته رعدة ونفضة، فقيل له فى ذلك فقال: ويحكم؟ أتدرون إلى مَن أقوم؟ ومن أريد أن أناجى؟!. وكان دائم الصلاة ولايُرى إلا ساجداً، فسمّوه السَجّاد. ولم يكن يضرب إنساناً ولا حيواناً، ويدعو ربّه: اللهم إنى أعوذ بك أن تُحسِّن فى لوائع العيون علانيتى، وتُقبّح فى خفيات العيون سريرتى! اللهم كما أسأتُ وأحسنتَ إلىّ، فإذا عدتُ فعُد علىّ. -

وفلسفة زين العابدين فى العبادة تنبىء عنه، يقول: إن قوماً عبدوا الله رهبةً فتلك عبادة العبيد؛ وآخرين عبدوه رغبةً فتلك عبادة التُجّار؛ وقوماً عبدوه شُكراً فتلك عبادة الأحرار!

وما كان حاله يؤرّقه وإنما ما رآه فى كربلاء، وأهل بيته مجندلون ويصرعون، ودماؤهم تسيل وتلطخ أديم الأرض السوداء بالحُمرة، والصرخات تدوى فى أذنيه، والذكرى ما تبارحه أبداً، وتجعل من حياته مأساة! ومع ذلك كان يقول: مَن قنع بما قُسم له فهو من أغنى الناس.

ولم يكره أبا بكر ولا عمر ولا عثمان ابن عفان، وأتاه أهل العراق يبغّضونهم إليه ويسبّونهم فقال لهم: ألا تخبرونني : أأنتم المهاجرون الأولون الذى أُخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلاً من الله ورضواناً وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون؟ قالوا: لا! قال: فأنتم الذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة، ومن يوق شُحّ نفسه فأولئك هم المفلحون؟ قالوا: لا ! قال: فقد تبرّأتم أن تكونوا من أحد هذين الفريقين. وأشهد

أنكم لستم من الذين قال الله فيهم: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (الحشر ٨ / ١٠). وقولة علىّ بن الحسين هى القولة الفصل فيمن يُظهر الكُره من الغُلاة الرافضين لأبى بكر وعمر وعثمان وعائشة.

وكان يقول لأهل العراق، والغلاة عموماً: أحبونا حُبّ الإسلام ـ لله عزّ وجلّ، فإنه ما برح بنا حُبكم حتى صار علينا عاراً!! ـ يا معشر أهل العراق! يا معشر أهل الكوفة! أحبّونا حُبّ الإسلام ولا ترفعونا فوق حقّنا. ـ فكان علىّ بن الحسين حافظاً للسانه، رابطاً قلبه وجنانه، مُعرضاً عن الشنآن والعصيان، والتصوّف إقبال على ذكر النعمة والمُنعم، وعزوفٌ عن كل سوْءة وشيطان.

وكان يحب الحقّ والعلم وهما شقان، فكان يذهب إلى حلقة زيد بن أسلم بمسجد المدينة يتعلّم عليه، وعابوا عليه وهو سيد الناس أن يتلقى على عبد، فقال: ينبغى للعلم أن يُتبع حيثما كان. ـ وكان يتخطى حلق القوم حتى يأتى زيداً فيجلس إلى جواره ويقول: إنما يجلس الرجل إلى من ينفعه فى دينه. ـ وكلما تكلم زيد بكى علىّ وأكثر البكاء.

وكانوا يتعجبون لصبره فيقول: إنّا أهل البيت نطيع الله فيما نحب، ونحمده فيما نكره! ـ ويلتفت إلى ابنه يعلّمه: يا بنى اصبر على النوائب ولا تتعرض للحقوق!

وكان واسع العلم، فلما التقى الزهرى وجماعته، قال الزهرى: ليس من الصوم شىء واجب إلا شهر رمضان. فقال علىّ: يازهرى! ليس كما قلتم. الصوم على أربعين وجهاً: عشرة منها واجبة كوجوب شهر رمضان؛ وعشرة منها حرام؛ وأربعة عشر خصلة صاحبَها الخيار، إن شاء صام وإن شاء أفطر؛ وصوم النذر واجب، وصوم الاعتكاف واجب. ـ وفسّر علىّ مقالته فقال: أما الواجب فصوم شهر رمضان، وصيام شهرين متتابعين ـ يعنى فى قتل الخطأ لمن لم يجد العتق. قال تعالى: ﴿وَمَن قَتَلَ مُؤْمِناً خَطَئاً...﴾ (النساء ٩٢)؛ وصيام الأيمان: ﴿فَصِيَامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ﴾ (المائدة ٨٩)؛ وصيام حلق الرأس: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضاً أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ﴾ (البقرة ١٩٦) صاحبُه بالخيار، إن شاء صام ثلاثاً؛ وصوم دم المتعة لمن لم يجد الهدى: ﴿فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ﴾ (البقرة ١٩٦)؛ وصوم جزاء الصيد: ﴿وَمَن قَتَلَهُ مِنكُم مُّتَعَمِّداً فَجَزَاءٌ

مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ﴾ (المائدة٩٥)، وإنما يقوّم ذلك الصيد قيمة، ثم يقص ذلك الثمن على الحنطة. وأما الذى صاحبه بالخيار، فصوم الاثنين والخميس، وصوم ستة أيام من شوال بعد رمضان، ويوم عرفة، ويوم عاشوراء، وكل ذلك صاحبه بالخيار، إن شاء صام، وإن شاء أفطر؛ وأما صوم الإذن، فالمرأة لا تصوم تطوعاً إلا بإذن زوجها، وكذلك العبد والأمة. وأما صوم الحرام فصوم يوم الفطر ويوم الأضحى، وأيام التشريق، ويوم الشك نُهينا أن نصومه كرمضان. وصوم الوصال حرام، وصوم الصمت حرام، وصوم نذر المعصية حرام، وصوم الدهر حرام. والضيف لا يصوم تطوعاً إلا بإذن صاحبه. قال رسول الله ﷺ : من نزل على قوم لا يصومَنّ تطوعاً إلا بإذنهم». ويؤمر الصبى بالصوم إذا لم يراهق تأنيساً وليس بفرض، وكذلك من أفطر لعلّة من أول النهار ثم وجد قوة فى بدنه أُمر بالإمساك، وذلك تأديب الله عزّ وجلّ وليس بفرض. وكذلك المسافر إذا أكل من أول النهار ثم قَدِم، أُمر بالإمساك. وأما صوم الإباحة فمن أكل أو شرب ناسياً من غير عمد فقد أبيح له ذلك وأجزأه عن صومه. وأما صوم المريض، وصوم المسافر فإن العامة اختلفت فيه، فقال بعضهم يصوم، وقال قوم لا يصوم، وقال قوم إن شاء صام وإن شاء أفطر، وأما نحن فنقول: يفطر فى الحالين جميعاً، فإن صام فى السفر والمرض فعليه القضاء. قال الله تعالى: ﴿فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ (البقرة ١٨٤).

فهذا إذن شأن القوّام الصوّام علىّ ابن الحسين، زين العابدين ومنار القانتين. ولننظر إلى فعل الله عزّ وجل فيه وفعله فى هشام بن عبد الملك، فعلىّ بن الحسين يذكره الذاكرون، وهشام بن عبد الملك أوتى الحُكم غصباً وظلماً، ينكره المؤمنون، وأسقطه التاريخ من حسابه، فلما حجّ هشام وهو الخليفة، اجتهد أن يستلم الحَجَر فلم يُوسّع له الناس، وجاء علىّ بن الحسين، فوقف له الناس وتنحّوا حتى استلمه ! فسبحان الله وله الأمر من قبل ومن بعد. ولما نصبوا لهشام فى الحج منبراً يستريح عليه، كان ينظر إلى هذا الذى يقبّله الناس، ويكادون يحملونه عن الأرض، فقال له أتباعه: من هذا يا أمير المؤمنين؟! فقال: لا أعرفه، فقال الفرزدق الشاعر: لكنى أعرفه ! هذا علىّ بن الحسين رضى الله عنهما :

هذا ابن خير عباد الله كلّهم
هذا التقى النقى الطاهرُ العَلَم

هذا الذى تعرفُ البطحاءُ وطأته
والبيتُ يعرفه والحل والحرم
يكاد يمسكه عرفان راحته
عند الحطيم إذا ما جاء يستلم
إذا رأته قريش قال قائلها
إلى مكارم هذا ينتهى الكرم
إن عُدّ أهل التُقى كانوا أئمتهم
أو قيل مَن خير أهل الأرض قيل هُم
هذا ابن فاطمة إنْ كنتَ جاهله
بجدّه أنبياء الله قد خُتموا
وليس قولك «مَن هذا؟» بضائره
ولا يكلّم إلا حين يبتسم

* * *

٢٣٥ - علىّ بن موسى الرضا (الصوفى الإمام)...

هو الذى غيّر لباس الصوفية الشيعة من الأسود إلى الأبيض، وكانت أمه نوبية، وَوَلِىَ الإمامة عشرين سنة، وكان كجدّه جعفر الصادق: وليًا وإمامًا، وكانت له صحيفة يرويها عن آبائه، ويشترك الصوّفى الكبير الإمام القشيرى فى سندها، وكانت أحاديثها فى التصوّف، وكان القشيرى فى بدايته أيام الرضا، ومنها الحديث عن النبىّ ﷺ إن لله تعالى وتبارك شراباً لأوليائه، إذا شربوا سكروا، وإذا سكروا طربوا، وإذا طربوا طابوا، وإذا طابوا ذابوا، وإذا ذابوا خلصوا، وإذا خلصوا، وصلوا، وإذا وصلوا اتّصلوا، وإذا اتّصلوا لا فَرْق بينهم وبين حبيبهم»، وواضح أن الحديث منحول، وأن المصطلح الصوفى ظاهر فيه بشدّة، وهو ما لم يُعرَف فى أحاديثه الصحيحة ﷺ؛ ومنها الحديث الآخر: اختُرتُ اللّبن واختبأتُ الخمر لأوليائى»، وهو تحريف لحديث آخر فى أفضلية اللبن على الخمر عند الرسول ﷺ، وارتباط اللبن بالفطرة. وحديث الخمر نَقَل معناه الحلاّج فقال: تاب وأصاب، ودُعى فأجاب، وأبصر فغاب، وشرب فطاب، وقرُب مهاب»، وفى صحيفة الرضا، من التصوّف قوله للمريد وهو يصلى: تذكّر رسول الله واجعل واحداً من الأئمة نُصْب عينيك»، وهو مما يُدخَل فى التصوّف المتأخر، قال: إنّ من شروط الذِّكر في الحلقة الصوفية، حضور صورة الشيخ الروحانية النورانية، التى هى هيكل ومظهر رسول الله، وأن الرسول رسولان: رسول ظاهرى ورسول باطنى» - وهذه عبارة نقلها عنه المتصوّف الشيعى الجنابذى، ونسبها إلى جعفر الصادق. وأطلق الرضا على الاتصال بالشيخ ومعرفته بحسب نورانيته:

الحضور، والفكر، وأول مرتبة لذلك يتمثل فيها المريد شيخه، ويفيد تمثُّله في الصلاة أن ينجلي قلبه من الأعيان، فإذا ظهرت له صورة الشيخ، واستشعر حضوره، فعندئذ يَرِد عليه كلُّ ما يفكر فيه ويحسُّه، وكأنه وارد من الشيخ. وكانت للرضا فوق ذلك اتصالاته بكبار صوفية وقته، كالسرّي السقطي، المتوفى سنة ٢٥٣ هـ/ ٨٦٧م، وأستاذه معروف الكرخي، المتوفى سنة ٢٠٠ هـ/ ٨١٥م، وقد أسلم معروف على يد عليّ الرضا وصار يخدمه، وكان قبر «معروف»: أقدم مقام صوفي يزوره الناس ويتبركون به، وجعلوه ترياقاً لهم من أمراضهم، وما كانت بركته إلا من بركة عليّ الرضا، وهو الذي علّمه الطريق، وأفاض عليه، واستلم منه مشيخة المشايخ، وأذن له بقبول المريدين، وأطلق الرضا على طريقته اسم: الطريقة الرضوية العلوية المصطفوية، لأن قوامها هؤلاء الثلاثة: عليّ الرضا، وعليّ بن أبي طالب، والمصطفى محمد ﷺ، وتقوم على العبادة وتزكية النفس وتصفيتها؛ والشيعة عموماً صنفان: ففريقٌ اختصاصه الشريعة وحفظها؛ وفريقٌ اختصاصه الطريقة. ومنهم عليّ الرضا، فكان من حَمَلَة السِّر، وهم السَّبعة: سلمان الفارسي، وأُوَيس القَرَني، ورشيد الهَجَري، وكميل ابن زياد، والشيخ أبو اليزيد البسطامي، وشقيق البلخي، ومعروف الكرخي، والسِّرّ الذي يحملونه هو العلم الباطن، أو العلم اللَّدُنّي وأما سواد الناس من المريدين والسالكين: فهم حَمَلَة العلم الظاهر. وقوام العلم الباطن: الأسرار العميقة، وهي اختصاص العارفين. ولقد اعتبروا عليّ الرضا: مجدِّد الدين في المائة الثانية، ومعروفاً الكرخيّ مُجَدِّده باعتباره الصوفي الخالص، وذلك أنّ عليّ الرضا له السياسة والدين؛ وأمّا معروف: فكان له الدين دون السياسة، ولذلك فإن علياً سلّم الطريقة في نهاية الأمر إلى معروف الكرخي، مع أنه كان يفضّلها على الإمامة، وكان عليّ بذلك آخر الأئمة العلويين اتصالاً بالتصوّف، فلما كانت إمامة عليّ الهادي ـ الإمام العاشر، صرّح علناً فقال: الصوفية كلهم مخالفون ـ يعني أنه نقد الصوفية جميعهم، وعاب على التصوّف. ويرجع السبب في ظهور روح التصوف عند عليّ الرضا، وأنه كان ضمن سلسلة لابسي الخرقة ورؤساء الطرق، وكان يلبس الصوف طوال حياته رغم غناه الفاحش. وما كان اتصاله بمعروف، إلا لأنه كان يريد أن يربط التصوّف بإمام صوفي من نسل النبيّ

ﷺ، ومن نسل عليّ، ومات عليّ ابن موسى الرضا مسموماً سنة ٢٠٣ هـ/ ٨١٨م كإمام شيعي وليس كصوفي.

* * *

٢٣٦- عمر بن الخطاب (الفاروق)...

عمر بن نُفَيل بن عبد العُزّى، وكنيته أبو حَفْص، ثانى شيوخ الإسلام بعد أبى بكر، أسماه الرسول ﷺ عمر الفاروق، فُرِق به بين الجِدّ والهزل، وكانت له الطَّوْلة فصارت له الصَّوْلة، وتأيّد به الحقّ، وزهق به الباطل، فظهرت الدعوة، وثبتت الدولة، - والتصوف ركوب الصعب واحتمال الكرب، وأن تجرى الحكمة على لسانك، وينطق بالحق بيانك. وعمر لازم التفريد، وأعلى التوحيد، وفى يوم بدر والحرب سجال، والنفوس تتنازعها الأهوال، كان ينادى بأعلى صوته: «الله أعلا وأجلّ. الله مولانا ولا مولى لكم»!!- والتصوُّف إبلاغ ما علُن، وظهور ما بَطُن- ولمّا أسلم عمر ونطق الشهادتين قال للنبيّ ﷺ: والذى بعثك بالحق لأعلنه (أى الإسلام) كما أعلنتُ الشِّرك! ألسنا على الحقّ إنْ متنا أوحيينا؟! - يقول عمر: «لقد رأيتنى وما أسْلَم مع النبيّ ﷺ إلا تسعة وثلاثون رجلاً، وكنت رابع أربعين رجلاً، فأظهر الله دينه، ونصر نبيّه، وأعز الإسلام». يقول عمر: «فمازلت أُضْرَب وأضرِب حتى أظهر الله تعالى الإسلام». - والتصوّف اختبار، وفيه الاندحار والانتصار، وهو موافقةٌ للحقّ، ومفارقةٌ للخلق.- يقول عليّ بن أبى طالب: «كنّا نتحدث أن مَلَكاً ينطق على لسان عمر». وقال: «ما كنا نبعد أن السكينة تنطق على لسان عمر». وعن رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى عزّ وجلّ، جعل الحق على لسان عمر وقلبه». ويقول عمر مخصِّصاً بالإنطاق، ومُشهِراً فى الأحكام الإصابة والوفاق: «وافقت ربّى عزّ وجلّ فى ثلاث: فى مقام إبراهيم، وفى الحجاب، وفى أسارَى بدر». وكذلك وافقه لمّا اجتراً على النبيّ ﷺ لا يريده أن يصلّى على عبد الله بن أبى سلول، فنزلت الآية: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ﴾ (التوبة٨٤)، فلم يصلّ رسول الله ﷺ بعدها على منافق حتى قبضه الله عزّ وجلّ. - يعنى: أن الله أنزل الوحى فى موافقته للحقّ، وأخلى همّه فى مفارقة الخلق، وأيّده فى أقاويله بالوفاق، وعصمه فى كثير من أحواله وأفاعيله من الشقاق. - والتصوّف هو استقامة المناهج، والتطرُّق إلى المباهج، وعمر ظل لرسول الله ﷺ فى حياته وبعد وفاته مجامعاً، وفى سياسته وأحكامه متابعاً، يقتدى به فى ظل أحواله،

ويتأسّى به في جميع أفعاله. ودعا له رسول الله ﷺ قال: «اللّهم أعز الدِّين بعمر». وقال: «لقد استبشر أهل السماء بإسلام عمر»، فما هو إلا أن أسلم عمر فظهر الإسلام بمكة. وآخى رسول الله ﷺ بين أبي بكر وعمر. ولمّا خلف عمر أبا بكر دعا ربّه قال: «اللّهم إني ضعيفٌ فقوّني، اللّهم إني غليظٌ فليّني. اللّهم إني بخيل فسخّني». ـ والتصوّف نبوٌّ عن رُتَب الدنيا، والسمو إلى المرتبة العليا. ـ وفي قدومه الشام عرضت له مخاضة، فنزل عن بعيره، ونزع خفّيه فأمسكهما، فقال له أحدهم: صنعتَ عظيماً عند أهل الأرض؟! قال عمر: إنكم كنتم أذلّ الناس فأعزّكم الله برسوله، فمهما تطلبوا العزّ بغيره يذلّكم الله». ورفض عمر أن يترك بعيره وهو يستقبل الشام، وأبى أن يركب برذوناً ليلقى عظماء الناس ووجوههم، وقال: «إنما الأمر من ههنا ـ وأشار إلى السماء ـ يعني هو أمر الله لا أمركم ولا أمر الوجهاء. وقال: «خلّوا سبيل جملي». ـ فكذا سبيل الأبرياء من الشرك والعناد، الأصفياء بالمعرفة والوداد، لا يلهيهم باطل من الفعال والمقال، ولا يثنيهم في توجههم إلى الحق حالٌ من الأحوال.

وكان عمر يتعهّد الفقراء والعجزة والمعوزين، ويخرج في سواد الليل يعود الناس ويأتيهم بما يصلحهم، ويُخرج عنهم الأذى. ولقد مرّ في إحدى المرات على مزبلة، فاحتبس عندها، وتأذّى منها أصحابه فقال: هذه دنياكم التي تحرصون عليها أو تتكلون عليها.

وتقرقر بطن عمر في عام الرمادة، وكان قد حرّم على نفسه السَّمن، وظل يأكل الزيت، فنقر بطنه بإصبعه، وقال: تقرقر ما تقرقر فليس لك عندنا غير الزيت حتى يحيا الناس». ـ وطلبت إليه ابنته حفصة أن يلبس ثياباً ألْيَن، ويأكل طعاماً أطيب، فقد وسّع الله من الرزق وأكثر من الخير، فحذّرها أن يخاصمها، وذكّرها بما كان يلقاه رسول الله ﷺ من شدّة العيش حتى أبكاها. وقال: نظرت في هذا الأمر فجعلتُ إذا أردتُ الدنيا أضُرُّ بالآخرة، وإذا أردتُ الآخرة أضُرُّ بالدنيا، فإذا كان الأمر هكذا فاضُرّوا بالفانية! وقال: «إني أنزلت مال الله (يعني مال الدولة) منزلة مال اليتيم، إنْ استغنيتُ استعففت، وإن افتقرت أكلت بالمعروف» ـ يعني أنه ما كان له مرتب من الدولة وكأن مال الدولة مال يتيم، حرّمه على نفسه، فما كان يأكل منه إلا عند الشديد القوي.

واشتكى شكوى فنُعِت له العسل، وفي بيت المال عُكّة (إناء فيه عسل) فقال: إنْ

أذنتم لى فيها أخذتُها، وإلا فإنها علىّ حرام»، فأذنوا له. وكان له فى اليوم ثلاث خُبَز، فربما آدمها بالزيت، أو بالسمن، أو باللبن، أو بقدائد يابسة دُقّت ثم أُغلِىَ بها، وربما وافقها باللحم الغريض - وهو قليل. وكان أحدهم يُحضر له طعامه، فسأله عمر: لماذا لا تأكل معى؟ قال الرجل: طعامك خشن غليظ!».

وكان مفهوم عمر للحكم بخلاف مفهوم الآخرين، قال: لم استعمل عليكم عُمّالى (حُكّامى) ليضربوا أبشاركم؛ ويشتموا أعراضكم، ويأخذوا أموالكم، ولكنى استعملتهم ليعلّموكم كتاب ربكم، وسُنّة نبيكم، فمن ظلمه عامله بمظلمة فلا إذن له علىّ، ليرفعها إلىّ حتى أقصّه منه». ولمثل ذلك قال أصحابه: نحن المؤمنون وعمر أميرنا، فدعى «أمير المؤمنين»، فهو أول من سُمّى بذلك؛ وأول من جمع القرآن فى الصُّحف؛ وأول من كتب التاريخ فى شهر ربيع الأول سنة ست عشرة، فكتبه من هجرة النبىّ ﷺ من مكة إلى المدينة؛ وأول من سنّ قيام شهر رمضان وجمع الناس على ذلك، وكتب به إلى البلدان فى رمضان سنة أربع عشرة؛ وأول من جعل قارئين، قارئاً يصلى بالرجال، وقارئاً يصلى بالنساء؛ وأول من اشتدّ على أهل الرِّيَب والتهم؛ وأول من عسّ فى عمله، وحمل الدرّة وأدّب بها، وقيل بعده: لَدرّة عمر أهْيَب من سيفكم؛ وأول من فتح الفتوح، ومسح السواد، ووضع الخراج والجزية (الضرائب)، وجعلها متدرّجة؛ وأول من مصّر الأمصار؛ وأول من استقضى القضاة، ودوّن الديوان، وقسّم القسوم (الدخول)؛ وأول من استكتب العمّال صحيفة - من أين لك هذا؟ يكتبها عند تعيينه، فإذا عزله حسم منه الزيادة! - فهكذا التصوّف، له مفاريد فى الأقوال والأفعال، تدل على حقائق الأحوال. - وكان عمر أكثر الناس صياماً، وأكثرهم سواكاً؛ وكان أصحابه يلزمونه يتعلمون منه الورع، وكان أشدّ الناس فى أمر الله، ومع ذلك يقول للناس: أحَبُّ الناس إلىّ مَن رفع إلىّ عيوبى. - وأتاه الهرمزان مضطجعاً فى مسجد رسول الله ﷺ فقال: هذا والله المَلِك الهنىء! وكان إذا استلقى رفع إحدى رجليه على الأخرى، وإذا جلس تربّع. يعنى لم يكن يجلس بكبرياء كالحكام، وإنما كأولاد البلد. وفيه تحقق العدل والمساواة، وفَرَض لكل مولود فى الإسلام؛ وما كان يَطعَم أدمين فى أكلة واحدة؛ وكان يرقّع ثيابه وهو أمير المؤمنين، فكانت الرُّقَع ظاهرة بين كتفيه؛ وحتى

الإزار والقميص كلاهما كانا مرقوعين، وقد تبلغ الرُّقع اثنتى عشرة رُقعة تشمل الظهر والمقعدة.

وطعنه الشعوبى الفارسى أبو لؤلؤة المجوسى غلام المغيرة، وكان يعمل لديه نجّاراً، فنحر نفسه، وأصاب ثلاثة عشر رجلاً من المسلمين، فمات منهم تسعة. - وهكذا التصوّف: استشهاد وتضحية، وبذلٌ وعطاءٌ حتى بالنفس. والأمر كله لله أولاً وأخيراً.

ومن كلمات عمر يعظ أصحابه أهل الله: كونوا أوعية الكتاب، وينابيع العلم، وسَلوا الله رزق يوم بيوم. وقال لتلميذه: لا تعترض فيما لا يعنيك، واعتزل عدوك، وتحفّظ من خليلك إلا الأمين، فإن الأمين من القدَم لا يعادله شيء. ولا تصحب الفاجر فيعلمك من فجوره، ولا تُفشى إليه سرّك، واستشر فى أمرك الذين يخشون الله.

ويقول العباس : ما رأيتُ أحداً من الناس كان أفضل من عمر: إنّ ليله صلاة، ونهاره صيام وفى حاجات الناس. - وكان عمر يدعو فيقول: اللّهم اجعل سريرتى خيراً من علانيتى، وأجعل علانيتى حسنة».

وكان عمر بكّاءً، وفى وجهه خطان أسودان من البكاء. وكان يمر بالآية فى وِرْده فتخنقه، فيبكى حتى يسقط، ثم يلزم بيته حتى يُعاد، يحسبونه مريضاً. وكان إذا صلى يُسمع له حنين من وراء ثلاث صفوف، وكان يكثر من التحسّر فى حزن، ويقول: ليتنى لم أخلق، ليت أمى لم تلدنى، ليتنى لم أك شيئاً، ليتنى كنت نسياً منسياً!.

ولمّا أشرف عمر على الموت كان عثمان ابن عفّان يضع رأسه فى حجره، فطلب إليه عمر أن يضع رأسه فى التراب. وقال: ويلٌ لعمر إن لم يغفر الله لى»! وطلب أن يُدفن إلى جوار صاحبيه، وكان طعنُه يوم الأربعاء لأربع بقين من ذى الحجة سنة ثلاث وعشرين، ومات يوم الخميس.

وهكذا أُسدل الستار على حياة أعظم أهل الزُّهد والتصوّف، وكان عمر يقول فيهم أو فى نفسه: «إن لله عباداً يميتون الباطل بهجره، ويحيون الحق بذكره، رغبوا فرُعِبوا، ورَهبوا فرُهِبُوا، خافوا فلا يأمنون، وأبصروا من اليقين ما لم يعاينوه، فخلطوه بما لم يزايلوه. أخلفهم الخوف، فكانوا يهجرون ما ينقطع عنهم لما يبقى لهم. الحياة عليهم نعمة، والموت لهم كرامة» - وهؤلاء هم الصوفية حقّاً.

***

٢٣٧ - عمر بن عبد العزيز (الصوفى الملك)...

فبرغم أنه خامس الخلفاء الراشدين إلا

أنه كان أوجد أُمّته فى الفضل، ونَجيبُها فى العدل، جمع فى نفسه الزهد والعفاف مع الورع والكفاف، وشَغَلَهُ آجل عيشه عن عاجله، وصرفه إقامة العدل عن عاذله، فتمكنّ منه أعداؤه، وتآمروا عليه، فما كان لصوفى أن يكون مَلِكاً، وكان هو الصوفى المَلِك، أو المَلِك الصوفى، ولذا دسّوا له السّم فى دير سمعان من أرضى المعرّة، بعد سنتين ونصف من الخلافة، كان فيها للرعية أمناً وأماناً، وعلى مَن خالفه حُجة وبرهاناً ـ والتصوّف إعراضٌ عن الدنىّ، وإقبالٌ على البهىّ، يتواثب للدنو، ويتعالى للسمو، فإن كان لهذه الأمة - أمة محمد ﷺ نجيب، فهو نجيبها وإن كان بها مهدىّ فهو مهديُّها، ويوم القيامة يُبعَث أمةً وحده، وكان أهل الله يجدونه من أئمة العدل - كما قالوا عن موضع رجب من الأشهر الحُرم، فهى أربعة، ثلاثة متوالية: ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، فهكذا كان الخلفاء بعد رسول الله ﷺ: أبو بكر وعمر، وعثمان، فأما رجب، وهو الشهر الرابع فمنفرد، فكذلك كان عمر بن عبد العزيز، ولىَ المُلْك بعد لأى، فترك الدنيا وما فيها، وزهد فى كل شىء من يعَمها، والناس يقولون إنه يشبه عمر بن الخطاب، وابن الخطاب كان رجل دين وسياسة، وعمر بن عبد العزيز كان رجل دين لا سياسة، حتى أنه كان موضع سخرية المستشرقين كسياسى، ولو كان مثل عمر ابن الخطّاب لما سخروا منه، وكان سلوكه سلوك الصوفية حتى نخاعه، فكان إذا انتهى من نظر أمور الناس أطفأ الشمعة، لأنها شمعة الناس، أى أنها ملْبة عامة، فيجلس فى الظلام، أو قد يوقد شمعة من ماله، وأبطل وأبطل، وهو الأموى، سَبّ علىّ بن أى طالب، فالمسلم ليس فحاشاً ولا ينبغى أن يكون، وكان يُسّمى أعمال الحكام بظالمّ، ويردد عليهم يقول: أوصيكم بتقوى الله ولزوم طاعته، فإنه بتقوى الله نجا أولياء الله من سخطه، وبها تحقق لهم ولايته، وبها رافقوا أنباءهم، وبها نضرَّت وجوههم، وبها نظروا إلى خالقهم، وهى عصمة قد فى الدنيا من الفتن، والمخرج من كُرب يوم القيامة». وما كان عمر عنده - وهو الخليفة - إلا قميص من واحد، فكان إذا اتسّخ لا يستطيع أهله أن يخلعوه عنه، ولما قارب الموت من أثر السُّم، بحثوا فى خزنته عن ما له، فلم يجدوا الا أحداً وعشرين ديناراً تكاليف جنازته، وكان فى حياته العامة لا يأكل يومياً الا العدس، ومن يوم أن تولّى المُلْك لم يذق الفاكهة، ولا عرف امرأة، فما كان يغتسل من الجنابة طوال مدة الخلافة. وقيل إنه لما صار إليه الأمر،

جمع نساءه من الجواري، وخيّرهن بين أن يعتقهن أو يبقين على أمته دون أن يقربهن، وحتى زوجته عهد إليها أن يرسلها إلى دار أبيها لانشغاله عنها بما في عنقه. وما كان عمر نسج وحده في الصلاة، والصيام، ولكنه ما كان أحد أشد خوفاً منه من ربّه، وكان إذا رحل بيته، ألقى نفسه في مسجده، فلا يزال يبكي ويدعو حتى تغلبه عيناه، ثم يستقظ فبعض مثل ذلك في ليلته كلها، وما كان الحذف والخشوع أبيّن على وجه أحد من عمر. وكان إذا ذهب للصلاة يوم الجمعة، يجلس في المسجد وقميصه مرفوع الجيب من بين يديه ومن خلفه، وكانت خُطبة كثيرة في صلوات الجمعة، وكان منبره من الطين، وهذا نموذج مما كان يقول للناس في خطبة الجمعة: أيها الناس، أصلحوا سرائركم تصلح علانيتكم، واعملوا لآخرتكم تكفوا دنياكم. والسلام عليكم. وأرسل يعظ ابنه فقال: فراع نفسك وشبابك وصحتك؛ وإنْ استطعت أن تُكثر تحريك لسانك بذكر الله حمداً وتسبيحاً وتهليلاً، فافعل، فإنّ أحسنَ ما وصلتَ به حديثاً حسناً، حَمْدُ الله وذكرُه، وإنّ أحسنَ ما قطعتَ به حديثاً سيئاً حَمْد الله وذكرُه.

وروى أن عمر استعمل عاملاً، فبلغه أنه عمل للحجّاج فعزله، فأتاه يعتذر إليه، فقال: لم أعمل له إلا قليلاً. فقال عمر: حسبك من صُحبة الشرّ، يومٌ أو بعض يوم! - فإن كان تصوّف عمر يتميز بجديد، فهو أنه كان خليفة ولبس المرقّعات، وأكل أردأ الطعام، وزهد في النساء، وكان زهده إسلاميّاً خالصاً، والزهد لُب الدعوة الإسلامية وملاك ما يدعو إليه الإسلام ويطلبه في خليفة المسلمين!

***

٢٣٨ - عنقا (علىّ)...

جلال الدين عليّ أبو الفضل عنقا (١٢٦٦ - ١٣٣٣ هـ)، له التصانيف العديدة في الكلام والمنطق والبيان والتصوّف، ومنها: «رسالة في الصحو»؛ و«رسالة الاصطلام»، و«مثنوي أنوار قلوب السالكين»؛ وديوان «حقائق المناقب». وهو فارسي ولد بقزوين، واشتغل بالتدريس، ثم انصرف إلى التصوّف، وانضم إلى الأويسية والنعمة اللّهية (نسبةً إلى شاه نعمة الله وَلِيّ)، والذهبية (نسبةً إلى سيد حسن حسين الموسوي الدزفولي الذهبي). ويقول: إن أساس العرفان هو النبيّ خير الأنام، وهو الذي ذكر أن لكل نبيّ حرفة، وحرفتي اثنان: الفقر والجهاد، والحرفة هي التي يحق للنبيّ بها القُربة، وصنعها الحقّ في روحه وقلبه، فواحد له الصبر، وآخر له الرضا، أو السخاء، أو الحزن، أو الإخلاص، أو الصفاء، أو التسليم، أو الغربة، أو الرجاء. ويقول عنقا: إن حرفة

روحه فى الجهاد، ووجوده هو نفسه من الاجتهاد والافتقار. وفى ديوانه «الحقائق» يردّ المقامات والأحوال إلى آل البيت؛ ومعظم قصائده تتحدث عن العشق كنهاية للطريق؛ والعشق ملةٌ ليس فيها كافر ولا مسلم، والمؤمن المتكمِّل هو العاشق بقلبه، والعشق لا يعنى إلا الإيمان، والعشق لا برهان له إلا العشق، والعشق هو الكنز المخفى فى قوله تعالى فى الحديث القدسى: «وأحببتُ أن أُعرَف»؛ والعشق المطلق عندما تجلّى ظَهَر العقل الكلّى، وليس الهدف من خلق العالم إلا ظهور العشق، والعقل الكلى هو الباعث على سيرة العشق.

ولما توفى علىّ عنقا خلفه على الطريقة ابنه قطب الدين محمد عنقا (١٢٧٤ - ١٣٤١ هـ)، وله «التجلّيات»؛ وكتاب «الإرشاد والمراقبة والشهود»، وكتب أخرى، وفيها نظمٌ ونثر كثير فى التصوّف.

***

٢٣٩ - ابن عياض (الفضيل)...

أبو على الفُضَيْل بن عياض بن مسعود، التميمى، اليربوعى (١٠٥ - ١٨٧ هـ)، شيخ الحرم المكّى، خراسانى من ناحية مَرْو؛ قيل وُلد بسمرقند، وقيل ببخارَى، ونشأ بأبيورد، وأصله من الكوفة، وتوفى بمكة، ومات بحبسة البول، وقبره بالأبطح مشهور مزور.

وقال عنه الذهبى فى «القسطاس»: «كان الفضيل ثقة فى الحديث بلا نزاع». وقال عنه ابن المبارك: «ما على ظهر الأرض أفضل من الفضيل. هو حُجّة أهل زمانه» وأخذ عنه خلق كثير ومنهم الإمام الشافعى.

وقيل إنه كان قاطع طريق - وهو قول غير حق، وعشق جارية، فبينما هو يرتقى الجدران إليها سمع تالياً يتلو: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ﴾ (الحديد ١٦)، فقال: يا ربِّ قد آن ! فرجع وأوى إلى خربة، فوجد بها جماعة قالوا نرتحل، وقال بعضهم بل نبقى حتى الصباح فإن فُضَيْلاً يقطع الطريق، فانتبه وتاب، وأمّنهم، وجاور الحرم حتى مات. والحكاية كلها تشنيع على ولىّ من أولياء الله، ورمز من رموز الإسلام السُّنّى، ومفكر إسلامى من كبار المفكرين.

وطريق الفضيل قوامها الخوف من الله، وكان من خوفه نحيفاً بادى الحزن والغم، فإذا ذُكِّر بالله، أو ذكره، أو سمع القرآن، استشعر الوجل، وفاضت عيناه وبكى حتى ليرحمه من بحضرته، وكان دائم السهوم شديد الفكرة، وقيل فيه: ما رأينا رجلاً يريد الله بعلمه، وأخذه وإعطائه، ومنعه وبذله، وبُغضه وحُبه ،وخصاله كلها، كالفضيل.

ووصف أحواله بعض أصحابه فقالوا: كنا إذا خرجنا مع الفضيل فى جنازة، لا يزال

يعظ ويذكّر ويبكي، حتى لكأنه يودّع أصحابه ويذهب إلى الآخرة، فإذا وصلنا إلى المقابر يجلس، فكأنه من الموتى من فسرط حزنه وبكائه، فإذا قمنا لنعود، فكأنه يرجع من الآخرة يخبر عنها!

وكان يخاف الموت ويقول: لو خاف الإنسان من الموت ما نفعه طعام ولا شراب ولا شيء من الدنيا. ولو عرف الموت حقّ المعرفة لما تزوّج ولا طلب الولد! وسألوه عن حاله فقال: عن أي حال تسأل؟ عن حال الدنيا، أو حال الآخرة؟ إنْ كنتَ تسأل عن حال الدنيا، فإن الدنيا قد مالت بنا وذهبت بنا كل مذهب. وإن كنت تسأل عن حال الآخرة، فكيف ترى حال من كثرت ذنوبه، وضعف عمله، وفنى عمره، ولم يتزود لمعاده، ولم يتأهب للموت، ولم يخضع للموت، ولم يتشمّر للموت، ولم يتزين للموت، وتزيّن للدنيا!!

وقال: ويحك! أما تذكر الموت؟ أما للموت في قلبك موضع؟ أما تدري متى تؤخذ فيرمى بك في الآخرة، فتصير في القبر وضيقه ووحشته؟ أما رأيت الميت حين دفنوه؟ أما رأيت كيف سلكوه في حفرته وهالوا عليه التراب والحجارة !!

وكان رحمه الله من فرط خوفه يتمنى لو لم يولد ،ولو لم يكن إطلاقاً! يقول: لو خُيّرت بين أن أُبعث يوم القيامة وأن لا أُبعث، لاخترت أن لا أُبعث. ولو خُيّرت بين أن أعيش كلباً وأموت كلباً، ولا أرى يوم القيامة، لاخترت أن أعيش وأموت كلباً !

وكانت قراءته للقرآن حزينة بطيئة مترسّلة كأنه يخاطب بها إنساناً ، وكان إذا مرّ بآية فيها ذكر الجنّة، تردّد فيها وسأل، وكانت صَلاتُه في الليل أكثر وهو قاعد ، فتُلقَى له حصير في مسجده، فيصلي من أول الليل ساعة حتى تغلبه عيناه، فيلقي نفسه على الحصير فينام قليلاً، ثم يقوم، فإذا غلبه النوم نام، ثم يقوم وهكذا حتى يصبح . وكان إذا حدّث عن رسول الله ﷺ صدق، ولكنه كان يتحرّج من ذلك ويقول: لو أنك تطلب مني الدراهم لأحَبُّ إليّ من أن تطلب مني الأحاديث، فقد كان يخشى الله ويخشى نبيّه، ويخشى أن يعرفه الناس كمحدّث وأن يظهر بينهم. يقول: إذا كنتَ في جماعة الناس فاخفِ شخصَك، وإنّ رهبة العبد من الله على قدر علمه به، والتعبير كله باللسان لا بالعمل، وأشد الورع في اللسان، فاحفظ لسانك، واعرف زمانك، واخف مكانك، وأقبِل على شأنك.

وحزُن الفضيل هو حُزن العابد وليس مرض الاكتئاب، ولقد ظل ثلاثين سنة لا يضحك، كما يقول أبو علي الرازي

الصوفي، ولكنه رآه مبتسماً يوم مات ابنه عليّ، فلما سأله عن ذلك قال: إن الله عزّ وجلّ أحبّ أمراً فأحببتُ ما أحبّ الله. وحزنه كما يصفه هو حزن التائب، وبسبب خوفه وحزنه زهد الدنيا، لعله بزهده ينصلح قلبه وعمله، وشعاره الذي ما يزال يردده على إخوانه: «أصْلَحُ ما أكون؛ أفقرُ ما أكون؛ وإني لأعصي الله فأعرف ذلك في خُلق حماري وخادمي». والصالح هو الخائف الذي يتزهّد كل شيء، ويتورّع عن كل فعل رديء، وصلاحه ينصلح به من حوله، حتى الحيوانات التي تعايشه، وخوفه من الله هو الذي يُحزنه على ما آل إليه أمر الناس، وإنه ليستحي أن يشبع والناس فيهم الظُّلم، والحقّ قد زال، فلماذا يفرح؟ يقول لأصحابه: «ألا أحدثكم حديثاً حسناً ؟ قالوا بلى قال: لا تفرحوا إن الله لا يحب الفرحين.

وينتقد الفضيل العلماء والصوفية الذين يراءون ولا يخشون الله، فقد رأى أصحاب الحديث يمزحون ويضحكون فناداهم: مهلاً يا ورثة الأنبياء! إنكم أئمة يُقتدى بكم! ويقول: إنما هما عالمان، عالم دنيا وعالم آخرة، فعالم الدنيا علمه منشور، وعالم الآخرة علمه مستور، فاتّبعوا عالم الآخرة، واحذروا عالم الدنيا. واذكروا قول الله إن كثيراً من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل. والعلماء كثير والحكماء قليل، وإنما يراد من العلم الحكمة، فمن أوتي الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً. وحامل القرآن حامل راية الإسلام، فلا ينبغي له أن يلغو مع من يلغو، ولا أن يلهو مع من يلهو، ولا أن يسهو مع من يسهو. ولا ينبغي على حامل القرآن أن يكون له إلى الخَلق حاجة، وينبغي أن تكون حوائج الخلق إليه. ولو كان مع علمائنا صبر ما غدوا لأبواب الملوك والخلفاء. ويقول: أف من الدنيا، إنها ليست دار إقامة، فما حاجتهم منها؟ إنما أهبطَ آدم إليها عقوبة. ولو أن الدنيا جميعها عُرضت عليّ حلالاً لا أُحاسَب بها في الآخرة، لكنت أتقذّرها كما يتقذّر أحدكم الجيفة إذا مرّ بها أن تصيب ثوبه !!

وأما الصوفية فقد كره الفضيل منهم لباسهم، ولما رأى جماعة منهم من الشبان وقد وضعوا الصوف قال لهم: وددت أني لم أركم ولم تروني حتى لا تحكون أني رأيتكم وأنكم رأيتموني. ـ ولما ناقشه أحدهم قال له: لا تكن مراثياً وأنت لا تشعر. تصنّعت وتهيّأت حتى عرفك الناس، فقالوا هو رجل صالح! فأكرَموك، وقضوا لك الحوائج، وسعوا لك في المجالس، ولولا أنهم عرفوك في الله لهُنتَ عليهم كما هان عليهم الفاسق: لم يكرموه، ولم يقضوه، ولم يوسعوا له في

المجالس. لو حلفتُ أنى مرائى لكان أحبّ إلىّ من أن أحلف أنى لست مرائياً. إن الناس تنظر إلى العالم وتنظر إلى الصوفى فيجتمعون حولهما، ومن الناس من لا يجتمع الناس حوله فلا يجوّد لهم كلامه. إنكم تفتنون الناس بينما كان الواحد من الصالحين من بنى إسرائيل لا يفتى ولا يحدّث حتى يتعبّد سبعين سنة. لأنْ آكل عند اليهودى والنصرانى أحبّ إلى من أن آكل عند صاحب بدعة، فإنى إذا أكلت عندهما - اليهودى أو النصرانى - لا يُقتَدى بى، وإذا أكلت عند صاحب بدعة اقتدىَ بى الناس. والله يغفر للجاهل سبعين ذنباً ولا يغفر للعالم ذنباً واحداً. وكذلك صاحب البدعة لا يرتفع له عمل إلى الله. وما أدرك فى الإسلام من أدرك بكثرة الصيام، ولا الصلاة، ولا التعالم، ولا التصوف، وإنما أدرك بسخاء الأنفس وسلامة الصدور ونُصح الأمة.

وفسّر الفضيل الآية: ﴿ ﴿لَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ (النساء ٢٩) قال: لا تغفلوا عن أنفسكم فإن مَن غفل عن نفسه فقد قتلها. وفسّر: ﴿إِنَّا لِلَّهِ ﴿إِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ (البقرة١٥٦) قال: قولُك إنا لله، تقول: أنا لله عبد، وأنا إلى الله راجع. فمن عَلِمَ أنه عبد الله، وأنه إليه راجع فليعلم بأنه موقوف، ومن علم بأنه موقوف فليعلم بأنه مسئول، ومن علم أنه مسئول فليُعدّ للسؤال جواباً. فقيل له: فما الحيلة؟ قال: تحُسن فيما بقى، يُغفر لك ما مضى وما بقى، فإنك إن أسأتَ فيما بقى، ضيّعتَ ما مضى وما بقى.

وسُئل: متى يبلغ الرجل غايته من حبّ الله تعالى؟ قال: إذا كان عطاؤه ومنْعُه إياك عندك سواء، فقد بلغتَ الغاية من حُبّه. وكان يدعو فيقول: أعزّنا بعزّ الطاعة ولا تذلنا بذلّ المعصية. وقال: المؤمن من الدنيا مغموم يتزود ليوم معاده، قليل فرْحُه. وكان يبكى كثيراً. ولما اجتمع وسفيان الثورى امتدح سفيان لقاءهما، واعتبر مجلسهما مجلس بركة، فقال الفُضَيل: أخشى أن لا يكون كذلك، فأنت لتلقانى نظرتَ إلى أحسن ما عندك فتزيّنتَ لى به، وتزينتُ لك به، فعبدتنى وعبدتك! فبكى سفيان حتى علا نحيبه، ثم قال: أحيينى أحياك الله! قال الفضيل: إنما سُمى الصديق لتَصْدُقه، وإنما سمى الرفيق لترفقه، ليس فى السفر وحده، وإنما فى السفر والحضر. فأمّا الصديق فإذا رأيت منه ما تكره فعظه ولا تدعه يتهور، وأما الرفيق فإن كنت أعقل منه فارفقه بعقلك، وإن كنت أحلم منه فارفقه بحلمك، وان كنت أعلم منه فارفقه بعلمك، وان كنت أغنى منه فارفقه بمالك.

ولابن الجوزى كتاب فى مناقب الفُضَيل، وفى كلامه وحِكَمه. وللفضيل تحذيرات

وإنذارات لمريديه من الملوك والحُكّام ورجال السلطة وفقهائها، يقول: ما لكم وللملوك ! ما أعظم منّتهم عليكم ! قد تركوا لكم طريق الآخرة فاركبوا طريق الآخرة، ولا تبيعونهم الآخرة بالدنيا وتزاحمونهم عليها.

ولمّا حجّ هارون الرشيد طلب لقاء الفضيل، فأدخلوه عليه، فقال الفضيل متسائلاً بدور بعينيه في المكان: أيكم هو؟ وقال: أنت هو يا حسَنَ الوجه!! واستطرد: لقد ولّيتَ أمراً عظيماً ! ما رأيتُ أحداً أحسن وجهاً منك، فإن قدرت أن لا تُسوِّد هذا الوجه بلفحة من النار، فافعل !ـ وقال له هارون الرشيد: عظني؟ فقال: ما أعظك؟ هذا كتاب الله بيّن الدفتين. انظر ماذا عمل بمن أطاعه، وماذا عمل بمن عصاه ! إني رأيتُ الناس يغوصون على النار غوصاً شديداً، ويطلبونها طلباً حثيثاً. أما والله لو طلبوا الجنة بمثلها أو أيسر، لنالوها.ـ وهَمّ الفضيل بالخروج، فسأله الرشيد أن يعود إليه، فقال الفضيل: لو لم تبعث إليّ لم آتك. وإنْ انتفعتَ بما سمعتَ مني، عُدتُ إليك.ـ قيل إنه لمّا سلّم على الرشيد هالته نعومة كفّه فقال: يا لها من كفّ ! ما ألينها إنْ نجتْ غداً من عذاب الله. ثم قال: إن عمر بن عبد العزيز لمّا ولي الخلافة دعا سالم بن عبد الله، ومحمد بن كعب القُرظي، ورجاء بن حيوة، فقال لهم : إني قد ابتليتُ بهذا البلاء ـ يقصد الخلافة والحكم ـ فأشيروا عليّ ـ قال له الفضيل: فعَدّ الخلافة بلاءً وعددتَها أنت ـ يقصد هارون الرشيد ـ وأصحابك نعمة! فقال له سالم بن عبد الله : إنْ أردتَ النجاة من عذاب الله فصُم الدنيا وليكن إفطارك منها الموتَ. وقال له محمد بن كعب : إنْ أردت النجاة من عذاب الله، فليكن كبير المؤمنين عندك أباً، وأوسطهم عندك أخاً، وأصغرهم عندك ولداً. فوقّرْ أباك، وأكرِم أخاك، وحنّن على ولدك. وقال له رجاء بن حيوة: إنْ أردت النجاة غداً من عذاب الله فأحبَّ للمسلمين ما تحب لنفسك، واكره لهم ما تكره لنفسك، ثم مُتْ إذا شئت. وقال الفضيل لهارون الرشيد: وإني أقول لك لأني أخاف عليك أشد الخوف، يوماً تزلّ فيه الأقدام. فهل معك ـ رحمك الله ـ مثل هذا ؟ أو من يشير عليك بمثل هذا ؟ ـ فبكى الرشيد بكاءً شديداً حتى غشي عليه. فقال للفضيل صاحبٌ للرشيد: ارفق بأمير المؤمنين! فقال الفضيل: تقتله أنت وأصحابك وأرفق أنا به؟!! وقال الرشيد: زدني رحمك الله؟ فقال الفضيل: يا أمير المؤمنين ! بلغني أن عاملاً لعمر بن عبد العزيز شكا إليه، فكتب إليه عمر : يا أخي ! أذكّرك طول سهر أهل النار مع خلود الأبد، وإياك أن ينصرفَ بك من عند الله فيكون آخر العهد وانقطاع الرجاء.ـ

قال الفضيل: فلما قرأ هذا العامل الكتاب، طوى البلاد حتى قدم على عمر بن عبد العزيز، فقال له: ما أقدمك؟ قال: خلعتَ قلبي بكتابك ! لا أعود إلى ولاية حتى ألقى الله عز وجل ـ فبكى الرشيد بكاء شديداً، ثم قال له: زدني رحمك الله! فقال الفضيل: يا أمير المؤمنين! إن العبّاس عم المصطفى ﷺ، جاء إلى النبيّ ﷺ، فقال: يارسول الله ! أمِّرْني على إمارة ؟ فقال له النبيّ ﷺ«إن الإمارة حسرة وندامة يوم القيامة، فإن استطعت أن لا تكون أميراً، فافعل!» فبكى هارون الرشيد بكاءً شديداً وقال له: زدني رحمك الله! فقال الفضيل: يا حَسَن الوجه ! أنت الذي يسألك الله عزّ وجلّ عن هذا الخَلْق يوم القيامة، فإنْ استطعتَ أن تقي هذا الوجهَ من النار، فإياك أن تصبح وتمسي وفي قلبك غشٌّ لأحد من رعيتك، فإن النبيّ ﷺ قال: «من أصبح لهم غاشّاً لم يرح رائحة الجنة». فبكى هارون الرشيد وقال له: عليك دينٌ؟ قال الفضيل: نعم، دينٌ لربي لم يحاسبني عليه، فالويل لي إن سألني، والويل لي إن ناقشني، والويل لي إنْ لم أُلهِم حجتي! قال الرشيد: إنما أعني من دَيْن العباد؟ قال الفضيل: إنّ ربيّ لم يأمرني بهذا، إنما أمرني أن أصدق وعده، وأطيع أمره، فقال عز وجل: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ * مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ * إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ (الذاريات ٥٦،٥٨).

فقال الرشيد: هذه ألف دينار، خذها فانفقها على عيالك وتقوّ بها على عبادتك. فقال الفضيل: سبحان الله ! أنا أدلّك على طريق النجاة، وأنت تكافئني بمثل هذا؟! سلّمك الله ووفّقك. فقال له الرشيد: ما أزهدك ! فقال له الفضيل: لأني أزهد في الدنيا، وأنت تزهد في الآخرة ! والدنيا فانية، والآخرة باقية. وقال: لو كانت لي دعوة مستجابة لم أجعلها إلا في إمام (يعني حاكماً)، لأنه إذا صلح الإمام أمن العباد. قال: وكيف ذلك؟ فقال: أما صلاح البلاد فإذا أمن الناس ظُلْمَ الإمام، عمروا الخرابات ونزلوا الأرض. وأما العباد فينظر الإمام إلى أهل الجهل منهم فيقول: قد شغلهم طلب المعيشة عن طلب ما ينفعهم تعلُّم القرآن وغيره، فيجمعهم في دار خمسين خمسين، أقل أو أكثر، يقول للرجلّ: لك ما يُصلحك، وعلّمْ هؤلاء أمرَ دينهم، وانظر ما أخرج الله عزّ وجلّ من فيهم مما يُزكي الأرض، فَرُدَّه عليهم. فذلك هو صلاح العباد والبلاد ـ وخرج الفضيل، فلما صار على الباب، قال الرشيد لمن حوله : إذا دللتموني على رجل فدلوّني على مثل هذا! هذا سيد المسلمين! ـ أيّ والله، إنه تَسيّد المسلمين حقّاً!

وفي الحب الإلهي يقول الفضيل: ينزل الله تعالى كلّ ليلة إلى سماء الدنيا، فيقول: هل من يدّعي محبتي إذا جنّه الليل نام عني ؟ أليس كل حبيب يحب خلوة حبيبة ؟ هأنذا مطّلعٌ على أحبّائي، إذا جنّهم الليل مَثَلَتْ نفسي بين أعينهم فخاطبوني على المشاهدة، فكلمّوني على حضوري. غداً أقر أعين أحبائي في جناتي.

ويقول الفضيل: ما من ليلة اختلط ظلامها وأرخَى الليل سربالها وسترها، إلا نادى الجليل جلّ جلاله: من أعظم مني جوداً، والخلائق لي عاصون، وأنا لهم مراقب،أكلأهم في مضاجعهم كأنهم لم يعصوني، وأتولى حفظهم كأن لم يذنبوا ! مَن بيني وبينهم، أجود بالفضل على العاصي، وأتفضل على المسيء ! مَن ذا الذي دعاني فلم أسمع إليه، ومن ذا الذي سألني فلم أعطه !! أم مَن ذا الذي أناخ ببيتي ونحّيته ! أنا الفضل، ومني الفضل، وأنا الجود ومني الجُود. وأنا الكريم ومني الكرم، ومن كرمي أن أغفر للعاصي بعد المعاصي، ومن كرمي أن أعطي التائب كأنه لم يعصني، فأين عني تهرُب الخلائق ؟ وأين عني يتنحّى العاصون!!!

وبعد: فهل تُصدّق الآن ما زعموا أنه كان قاطع طريق وعاشقاً للجواري؟! أمِثْل هذا تخرُج منه الدنية؟ رحم الله الفضيل فقد كان رأساً في العلم والعمل، وهذا هو التصوّف!

***

٢٤٠ - العيدروس -

العَيْدروسية من تَريم بِحَضْرَمَوْت، وكانوا من أهل العلم والتقوى، وطريقتهم انفرعت عن الطريقة العلوية، وجدّهم الأكبر محمد بن عليّ بن علوي، وكان رباطه في بيحر، ومنهم أبو بكر بن عبد الله الشاذلي العيدروس (٨٥١ ـ ٩١٤ هـ) وله كتاب: «الجزء اللطيف في علم التحكيم الشريف»، وثلاثة أوراد على الطريقة الشاذلية، وديوان شعر نَظْمُه ضعيف؛ ومن مريديه جمال الدين بحرق الحضرمي، وله فيه كتاب: «مواهب القدوس في مناقب ابن العيدروس»، ومما يرويه عنه أنه أثناء سياحاته في اليمن أطلعه أتباعه على البن، فاقتنات به مثلهم فأعجبه ، وعمّمه على أتباعه ، وكان يدعو زوّاره عليه ، فذاع استخدامه عن ذلك الطريق، وكان ارتباط البن اليمني باسم العيدروسية لهذا السبب. ـ ومن العيدروسية شيخ بن عبد الله بن شيخ بن عبد الله العيدروس (٩١٩ ـ ٩٩٠ هـ): ولد في تريم، واستقر في الهند، وتوفي في أحمد أباد، ومن كتُبه «العقد النبوي والسرّ المصطفوي»، و «حقائق التوحيد»، و«معراج»، و «نفحات الحكم على لامية

العَجَم» بلسان التصوّف. ـ ومنهم محمد بن عبد الله بن شيخ العيدروس الصوفي الزاهد، وله «إيضاح أسرار علوم المقرّبين»؛ ـ ومنهم: عبد القادر شيخ بن عبد الله ابن شيخ بن عبد الله العيدروس (٩٧٨ ـ ١٠٣٨ هـ)، وله كتب كثيرة، لعل أهمها «تعريف الأحياء بفضائل الإحياء»، و «الفتوحات القدسية في الخرقة العيدروسية»، و«الحضرة العزيزة بعيون السير الوجيزة»، و«غاية القُرب في شرح نهاية الطلب»، و«قرة العين في مناقب الولي باحسين»، و«الزهر الباسم من روض الأستاذ حاتم»؛ ـ ومنهم: جعفر بن عليّ بن عبد الله بن شيخ العيدروس (٩٩٧ ـ ١٠٦٤ هـ) وُلد في تريم واستقر في سورت بالهند، وبها توفي، وله مصنفات منها «تحفة الأصفياء بترجمة سفينة الأولياء»، وعبد الرحمن ابن مصطفى العيدروس الحسيني (١١٣٥ ـ ١١٩٢ هـ)، وله «لطائف الجود في مسألة وحدة الوجود»، و«إتحاف الخليل» في الطريقة النقشبندية، و «النفحات المدنية» في الأذكار، و«فتح الرحمن في شرح صلاة أبي الفتيان». (انظر أيضًا باعلوي والسقافية).

***

٢٤١ - عين القضاة الهمذاني...

أبو الفضائل عبد الله بن محمد، المقتول سنة ٥٢٥ هـ وكان أحد كبار العارفين في القرن السادس الهجري، ويُضرَب به المثل في حضور البديهة والذكاء والألمعية، وكان من تلاميذ أحمد الغزالي، الأخ الأصغر لحُجّة الإسلام أبي حامد الغزالي، وله معه مراسلات تكشف عن ذوقه وحاله، ويُنسَب إليه كتابان معروفان، أحدهما «التمهيدات» والثاني كتاب «زبدة الحقائق».

* * *



٢٤٢ - الإمام الغزالي (حُجّة الإسلام)...

حجة الإسلام أبو حامد محمد ابن محمد بن محمد الغزالي (٤٥٠ـ ٥٠٥ هـ)، وله المواقف من الفلسفة والتصوف، وكتبه نحوٌ من مائتي كتاب، منها «إحياء علوم الدين»، و«تهافت الفلاسفة»، و«فضائح الباطنية»، وما طرقه من موضوعات يجعل منه موسوعة كاملة، فقد طاف بميادين المعرفة، وانتهى به الأمر إلى الشك الفلسفي الذي أسلمه إلى التصوف، فوجد فيه النجاة، وعصمه وأوصله إلى اليقين. وكانت نشأته في غزالة من قرى طوس، ولعله لذلك سمي الغزالي ، أو أن تلك كنيته لاشتغال أهله بالغزل، وترعرع في جو صوفي منذ طفولته، وهو يقول في كتابه «المنقذ من الضلال»- الذي يترجم فيه لحياته الروحية- أنه لما فرغ من العلوم العقلية أقبل على طريق الصوفية، فعلم أن طريقهم: إنما تتم بعلم وعمل، وأن حاصل علومهم: هو قطع عقبات النفس، والتنزّه عن أخلاقها المذمومة وصفاتها الخبيثة، حتى يتوصل إلى« تخلية القلب» عن غير الله تعالى، و«تحليته» بذكره. وكان العلم أيسر عليه من العمل، فابتدأ بتحصيل علمهم من مطالعة كتبهم، مثل: «قوت القلوب» لأبي طالب المكي (انظر تحقيق الدكتور الحفني للكتاب)، وكُتب الحارث المحاسبي، والمتفرّقات المأثورة عن الجنيد، والشبلي، وأبي يزيد البسطامي، وغيرهم من المشايخ، فظهر له أن أخصّ خواصهم لا يمكن الوصول إليه بالتعليم بل بالذوق والحال وتبدّل الصفات، وهناك فرق بين أن تعلم حدّ الصحة والشبع مثلاً وأسبابهما وشروطهما، وبين أن تكون صحيحاً أنت نفسك وشبعان، وفرق بين أن تعرف حدود السُّكر، وأنه يتحصّل نتيجة أبخرة تتصاعد من المعدة وتستولي على الفكر، وبين أن تجرّب أنت نفسك أن تكون سكران، وكذلك هناك فرق بين أن تعرف حقيقة الزهد وشروطه وأسبابه ، وبين أن يكون حالك هو الزهد والعزوف عن الدنيا. وقد وجد الغزالي نفسه منغمساً في العلائق، وتبين له أن نيته في التدريس الذي كان يمتهنه لم تكن خالصة لوجه الله، وأدرك أنه هالك إن لم يتدارك نفسه، وظلت الهواجس تخترمه ويعاني

الصراع النفسي بين أن يترك كل شئ: التدريس، وبغداد، والأهل، والصحاب، والولد، والجاه، والشأن، أو أن يبقى فربما لا يستطيع أن يعود في الغد إلى ما ينوى تركه اليوم، ولم يحسم تردده إلا إصابته ما يسميه علماء الطب النفسي الحُبْسة الكلامية aphasia، وفي حالته يسمونه عُقال المدرس teacher's cramp، وتلك حالة يبلغها المرء حينما يتراوح بين أمرين كلاهما صعب عليه تحقيقه، ويتساويان في ضغوطهما عليه، وقد حدث أن «أقفل الله عليه لسانه» كما يقول، حتى اعتُقل عن التدريس، فكان لسانه لا ينطق بكلمة واحدة، وتداعى بالمرض النفسي، وعاف كل زاد، وحار فيه الأطباء، فدبّر السفر إلى الشام وتلطّف بالحيل ليخرج من بغداد، وفي دمشق أقام سنتين لا شُغل له إلا العزلة والخلوة والرياضة والمجاهدة، اشتغالاً بتزكية النفس، وتهذيب الأخلاق، وتصفية القلب لذكر الله تعالى كما سبق أن تعلّم من كُتب الصوفية، ثم رحل إلى بيت المقدس وكان يدخل كل يوم الصخرة ويغلق بابها عليه، وتحركت فيه داعية فريضة الحج والاستمداد من بركات مكة والمدينة وزيارة الرسول ﷺ، فسار إلى الحجاز، ثم جذبته الهمم ودعوات الأطفال إلى الوطن، فعاد إلى بغداد ولكنه استمر يحرص على خلوته، وداوم على ذلك عشر سنوات، وانكشف له في أثنائها: أن الصوفية هم السالكون لطريق الله خاصةً، وأن سيرتهم أحسن السير، وطريقتهم أصوب الطرق، وأخلاقهم أذكى الأخلاق؛ بل إنه لو جُمع عقل العقلاء، وحكمة الحكماء، وعلم الواقفين على أسرار الشرع من العلماء، ليغيّروا شيئاً من سِيَر هؤلاء الصوفية وأخلاقهم ويبدّلوه بما هو خير منه، لم يجدوا إليه سبيلاً، وذلك أن جميع حركات الصوفية وسكناتهم في ظاهرهم وباطنهم، مقتبسة من نور مشكاة النبوة، وليس وراء نور النبوة على وجه الأرض نور يُستضاء به. وماذا يقول القائلون في طريقة أولُ شروطها: تطهير القلب بالكلية عمّا سوى الله تعالى؛ ومفتاحها: هو استغراق القلب بالكلية بذكر الله؛ وآخرها: الفناء بالكلية في الله. ومن أول الطريقة تبتدئ للسالكين الطريق الصوفي، المكاشفات والمشاهدات، حتى أنهم في يقظتهم يشاهدون الملائكة وأرواح الأنبياء، ويسمعون منهم أصواتاً ويقتبسون منهم فوائد، ثم يترقّى الحال من مشاهدة الصور والأمثال إلى درجات يضيق عنها نطاق النطق، فلا يحاول معبّر أن يعبّر

عنها إلا اشتمل لفظه على خطأ صريح لا يمكنه الاحتراز منه . وعلى الجملة ينتهى الأمر إلى قُرب يكاد تتخيل منه طائفةٌ: الحلول؛ وطائفةٌ: الاتحاد؛ وطائفةٌ: الوصول، وكل ذلك خطأ، والذى تلابسه هذه الحالة لا ينبغى أن يزيد على أن يقول:

وكان ما كان مما لستُ أذكره

فَظُنْ خيراً ولا تسأل عن الخبر

وبالجملة فمن لم يُرزق منه شيئاً بالذّوْق، فليس يدرك من حقيقة النبوة إلا الاسم، وليست كرامات الأولياء على التحقيق إلا بدايات الأنبياء، وكان ذلك حال رسول الله ﷺ حين كان يُقبل على جبل حِراء، فيخلو إلى ربّه يتعبّد حتى قالت فيه العرب: إن محمداً عشق ربّه !! وهذه حالة يتحققها بالذوق من يسلك سبيلها، فمن لم يُرزَق الذوق فتيقُّنه لها يكون بالتسامع والتجربة، إنْ أكثَر الصُحبة مع الصوفية، حتى يفهم أحوالهم، ويستفيد الإيمان من مجالستهم، فهم القوم لا يشقى جليسهم، ومن دونهم «الجهلة،» الذين يقول الغزالى فيهم: إنهم الضالون عن التصوف، الذين يزعمون أنهم وصلوا فيه إلى مبلغ من الترقّى يُغنيهم عن العبادة، وقد يتعللون بشُبهة أخرى من شبهات الإباحة. ويغلو الغزالى على المدّعين منهم لإسقاط الأعمال، فيقول فى «إحياء علوم الدين»: إن من ينطق بشئ من ذلك فَقَتْلُه أفضل فى دين الله. ويعود إلى نفس المعنى فى كتاب «فَيْصل التفرقة» فيقول: إن ضرره فى الدين أعظم، لأنه يفتح فيه باباً من الإباحة لا ينسد». ويقول فى أصحاب الشطحات: إن كلامهم لا فائدة منه إلا تشويش القلوب، وتحيير الأذهان، وإدهاش العقول. ويصف هذا الصنف من الصوفية الضالة فيقول: ما أغلب الغرور على الصوفية، والمفترون منهم فرقٌ كثيرة. - ويقول فى أصحاب مذهب الاتحاد والحلول: إنهم كالنصارى القائلين باتحاد اللاهوت والناسوت. - ويؤيد ابن تيمية الغزالى فيما ذهب إليه فى كتابه «المنقذ من الضلال»، من عثوره على حلّ لأزمته الروحية فى التصوّف، لأنه عن طريق المشاهدات التى تحدُث للصوفى، يتأكد له صدق ما أخبر عنه النبىّ ﷺ، مع فارق أن المشاهدات التى تحصل للأنبياء أكثر شمولاً واتساعاً وتأثيراً من التى تحدث للأولياء، وكما أن لكل علم رواداً، فإن الأنبياء يكونون بذلك رواد طريق المكاشفات. وقد تبين مع ذلك للغزالى أن

طريق الصوفية إن كان يفيد منه الصوفي، إلا أنه لا يكفي، وذلك أن هناك من الصوفية من ضلّوا وأضلّوا، وأيضاً من الفلاسفة والتعليمية والمتوسمين من العلماء، ومن أجل ذلك فقد عاد الغزالي إلى التدريس، وأنهى عزلته، وخرج من الزاوية بعد إحدى عشرة سنة من العزلة، لينشر العلم، ويصلح به نفسه والناس، مخلصاً لله النية هذه المرة، فقد فَهِمَ التصوف أخيراً كإيجاب وفعل وعمل، وليس مجرد مكاشفات ومشاهدات.

ولكنه من ناحية أخرى، وبما ذكره في التصوف، أوسعَ المجال لبعض صوفية وحدة الوجود، وخلّصهم من عزلتهم، وأنقذ التصوّف من انفصاله عن الديانة الرسمية، وجعله باباً من العلم والممارسة يألفه الناس في الحياة الدينية اليومية. ومن أقواله في كتابه «مشكاة الأنوار»، يشرح بعض المصطلحات، ومنها «وحدة الوجود»: أن العارفين بعد العروج إلى سماء الحقيقة، اتفقوا على أنهم لم يروا في الوجود إلا الواحد الحقّ، ولكن منهم من كان له هذه الحالة عرفاناً علمياً، ومنهم من صار له ذوقاً وحالاً، وانتفت عنهم الكثرة بالكلية، واستغرقوا بالفردانية المحضة، فلم يبق عندهم إلا الله، فسكروا سُكراً وقع دونه سلطان عقولهم، فقال بعضهم: «أنا الحق»؛ وقال آخر: «سبحاني! ما أعظم شأني!»؛ وقال ثالث: «ما في الجُبّة إلا الله!». وكلامهم كلام عشّاق في حال سُكر، وكلام العشاق في حال السُكر يُطوَى ولا يُحكى، فلمّا خف عنهم سُكرهم، ورُدُّوا إلى سلطان العقل، عرفوا أن ذلك لم يكن حقيقة الاتحاد، بل يشبه الاتحاد، مثل قول العاشق في حال فرط العشق:

أنا من أهوى، ومن أهوى أنا

نحن روحان حللنا بدنا

والبيت للحلاّج، وتسمى هذه الحالة بالإضافة إلى المستغرِق فيها بلسان المجاز: «اتحاداً»؛ وبلسان الحقيقة: «توحيداً»، ووراء هذه الحقائق أسرار لايجوز الخوض فيها.

ومن أقواله في «لا إله إلا الله»: أن الله الكُلّ من نوره، بل هو لا هويّة لغيره إلا بالمجاز، فإذن لا نور إلا هو، وسائر الأنوار أنوارٌ من الوجه الذي تليه، لا من ذاتها، فَوَجْهُ كلٍّ مُوَجَّهٌ إليه، وَمُوَلٍّ شطره: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ (البقرة ١١٥). فإذن الإله عبارة عمّا الوجوه موليّه نحوه بالعبادة والتأليه، أعني وجوه القلوب، فإنها الأنوار والأرواح، وهو معنى «لا إله إلا هو»، فكما «لا إله إلا

هو»، «فلا هو إلا هو»، من حيث «هو» عباره عمّا إليه الإشارة، وكيفما كان فلا إشارة إلا إليه، بل مهما أشرت فهو بالحقيقة الإشارة إليه.ـ وهنا نجد أن الغزالى يفرق بين «لا إله إلا الله» ويقول عنها إنها توحيد العوام، و«لا هو إلا هو» ويقول عنها إنها توحيد الخواص، والأولى أعمّ، والثانية أخصّ وأشمل، وأحقّ وأدقّ، وأدخل بمن تقولها فى الفردانية المحضة، والوجدانية الصرفة. وعند الغزالى فإن منتهى معراج الخلائق بملكة الفردانية، فليس وراءها مرقاة، لأن الرُّقِّى لا يُتصوَّر إلا بكثرة، وهو نوع إضافة يستدعى ما منه وإليه الارتقاء، وإذا ارتفعت الكثرة تحققت الوحدة، وبطلت الإضافة، وطاحت الإشارة، فلم يبق علوٌّ ولا سُفْلٌ، ولا نازلٌ ولا مرتفع، فاستحال الترقى، واستحال العروج، فليس وراء الأعلى علوٌّ، ولا مع الوحدة كثرة، ولا مع انتفاء الكثرة عروج، فإن كان ثَمّ تغيير من حال، فالنزول إلى السماء الدنيا، بالإشراق من علوٍ إلى أسفل، لأن الأعلى وإن لم يكن له أعلى ـ فله أسفل، وهو من العلم الذى كنهه المكنون الذى لا يعلمه إلا العلماء بالله.ـ فبمثل أقوال كهذه أوسع الغزالى- كما -قلنا لصوفية وحدة الوجود. ولا ينبغى أن نتسرع فنفهم أن الغزالى هو أيضاً يقول ويؤمن بوحدة الوجود، ويكون قد خرج من دائرة الإسلام كما يحددها القرآن، فإننا سنفهم عمّا قليل إنه يقصد شيئاً آخر بوحدة الوجود.

ويقول الغزالى فى كتابه «المقصد الأسنى»: أن للمعرفة سببين، أحدهما السبيل الحقيقى وهو مسدود إلا فى حقّ الله تعالى، فلا يكاد يطلبه أحد من الخلق إلا وتردّه سُبحات الجلال إلى الحيرة، ويغض للدهشة طرفه. والسبيل الثانى هو معرفة الأسماء والصفات، وذلك مفتوح للخلق ، وفيه تتفاوت مراتبهم، ويستشهد بقول الجنيد: لا يعرف الله إلا الله تعالى. ويقول الغزالى: إن حظوظ المقرّبين من معانى أسماء الله تعالى ثلاثة: الأول معرفة معانى الأسماء على سبيل المكاشفة والمشاهدة؛ والثانى التشوّق إلى الاتصاف بما يمكن من تلك الصفات الإلهية ليقرُبوا بها من الحق قُرباً بالصفة لا بالمكان، فيأخذوا من الاتصاف بها شبهاً من الملائكة المقرّبين عند الله؛ والثالث السعىّ فى اكتساب الممكن من تلك الصفات والتخلّق بها والتحلّى بمحاسنها، وبه يصير العبد ربّانياً، أى قريباً من الله تعالى، فإنه يصير رفيقاً للملأ الأعلى من الملائكة،

فإنهم على بساط القُرب، فمن كان سعيه لينال شيئاً من صفاتهم، فإنه ينال شيئاً من قُربهم بقدر ما ينال من أوصافهم المُقرِّبة لهم إلى الحق تعالى. وكأن الغزالى يقول: إن «الوصول» الذى هو من مصطلحات الصوفية، هو هذا القُرب وحده بالمعنى السابق وليس بمعنى الحلول والاتحاد، وهو غاية نظريته فى التصوّف، فكأن وحدة الوجود عنده هى: أن تبلغ درجة القُرب. وفى كتابه الذى يخاطب فيه مريديه بأيها الولد، يشرح ذلك أكثر فيقول: خلاصة علم التصوف أن تعلم أن ماهية الطاعة والعبادة لله هى متابعة الشارع فى الأوامر والنواهى بالقول والفعل، فالعلم والعمل بلا اقتداء الشرع ضلالة، والطاعة والعبادة، والعلم والعمل، جميعها لتضمن لك درجة القُرب (وهو المعنى الآخر من الحلول والاتحاد ووحدة الوجود بطريقة الغزالى) والصوفية هم المقرَّبون، فلا ينبغى أن تغتر بشطح الصوفية كما فعل الحلاّج والبسطامى وغيرهما، ولا ينبغى أن نسىء فَهْم الكرامات التى يتحدّثون عنها، لأن سلوك هذا الطريق يكون بالمجاهدة، وقطع شهوة النفس، وقتل هواها بسيف الرياضة، لا بالطامات والترهات والشعبذة والخرافات.

* * *

٢٤٣ - الغزالى (أحمد)...

مجد الدين أبو الفتوح أحمد بن محمد الغزالى، المتوفى ٥٢٠ هـ، أخو الإمام أبى حامد الغزالى، له «الذخيرة فى علم البصيرة»، و«لُباب الإحياء»، اختصر فيه كتاب الإحياء لأخيه فى مجلد واحد؛ و «بحر الحقيقة» بالفارسية، يشرح فيه مدارج السالكين؛ وأشهر مؤلفاته «سوانح العشاق» عن أسرار العشق وأحواله ومراتب العشاق، وهو من المراجع الهامة فى التصوف. وكان من تلاميذه عَيْن القضاة الهمدانى، المقتول سنة ٥٢٠هـ، وله معه مراسلات أشهرها «الرسالة العينية»، وله عدة تصانيف، منها «زُبدة الحقائق». وأحمد أقل إبداعاً من أخيه، ولا يصدر عن مذهب مثله، وكلامه يخلو من التفلسف.

* * *

٢٤٤ - الغمرى (أبو عبدالله)...

أبو عبد الله شمس الدين محمد بن عمر، الواسطى، الغمرى، المحلى، وشهرته الغمرى، من فقهاء الشافعية، أصله من واسط، ومولده بميت غمر بمصر، وإليها نسبته، وسكنه بالمحلة الكبرى، وتوفى بها سنة ٩٠٥ هـ. وكتابه الأشهر «قواعد

الصوفية»، وهو تقليدي فيه ولا يضيف جديداً، وهو للتعليم أكثر منه لتقعيد علم التصوف، وقد قرأه على زكريا الأنصاري، وعنه أخذ الخِرْقة ،وأنشأ الكثير من الجوامع أو أصلحها، ودُفن بجامع المحلة .

* * *



٢٤٥ - الفارابي (الصوفي الحكيم)...

التصوّف فكرٌ ونظر، ومجاهدة نفس وعمل؛ والفارابي الذي اشتهر بأنه فيلسوف: كان متصوّفاً، وعن الدنيا عازفاً، ولخدمة الناس عاكفاً. واسمه أبو نصر محمد الفارابي، وعرف باسم "المعلم الثاني"، باعتبار أرسطو: «العلم الأول»، وغايته: أن يجعل من المسلم مواطناً عصرياً يعيش وقته، ويساير زمنه، ويعلم ما لم يكن يعلم، ويقول ما يعلم، لايُلبس الحق بالباطل، ولا يكتم الحق وهو يعلم، وليعلم علم اليقين. وعاش الفارابي لهذه الغاية، وله المريدون والأتباع، وكان يحب أن يكون على طبيعته، وأن يفعل ما تمليه عليه سجيته، وكان بسيطاً يعيش عيشة الصوفية، ولذلك لم يُعجب أصحابَ الجاه والسلطان، فقد كان زريّ الملابس، وأحياناً يضع قلنسوةً على رأسه، وهمّه أن يقرأ. أفلم يتنزّلَ المَلَك على النبيّ ﷺ بأول أمر من السماء، فقال: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ (العلق ١)، وقال: ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾ (العلق٣/ ٤)؟ وكان الفارابي يختار لنفسه وأتباعه جوار المنابع وعلى شواطئ الأنهار، ويجلس تحت الأشجار، ويتسمّع للطير، وتدغدغه نسمات الهواء، ولم يحفل هل أكل أم لم يأكل، ولم يَشْكُ الجوع، ولا تذمّر من مرض، وكان نحيفاً، هزيلاً، طاوي البطن، وضامر الخصر، وينتعل مركوباً مستهرَّئاً، وكثيراً ما ينتعل الأرض! وكان سيف الدولة قد أجرى له كل يوم من بيت المال أربعة دراهم لقاء أن يعلّم الناس، ولم يكن يملك إلا هذه الدراهم الأربعة لاتكاد تكفيه، وقد يكتفي في طعامه على الخبز، وأدمه الملح أو الخلّ كما كان الحال مع رسول الله ﷺ، وكشأن الصوفية عبر الأزمان. وعُرف عنه إيثاره للوحدة، فكان يعتزل الناس ولايجالسهم، ولايحب أن يكتب، ولكنه يعلم كشأن معلمه الأول رسول الله ﷺ. وكان الفارابي سوّاحاً، وميلاده بفاراب نحو ٨٧٣م، وبها لُقّب، وغادرها إلى حرّان، ثم إلى بغداد، وحلب، ودمشق، وارتحل إلى مصر، فبدون أن يبلغ مصر ويراها، ويعايش علماءها فكأنه ما عرف دنيا الفكر وعالم

التصوف، وفى مصر أكمل مؤلفه: «المدينة الفاضلة»، وفيه يشرح أصول الحكم المبنى على «الأخلاق»، والتصوف أخلاق وسلوك وتهذيب.

وفى كل تنقلاته كان لا يبيت إلا عند مجتمع الماء، أو مشتبك الرياض، وكانت وفاته فى طريقه من دمشق إلى عسقلان بفلسطين، فهاجمت القافلة جماعةٌ من قطّاع الطرق، ووقع القتال بينهما، وصُرِع الفارابى ولم يكن يقاتل، وكانت وفاته فى رجب سنة ٣٣٩ هـ (ديسمبر ٩٥٠م أو يناير ٩٥١م)، ودفنوه بظاهر دمشق خارج الباب الصغير.

وعلم الفارابى يمتاز على علم أرسطو، بأنه علم مؤسس على الأخلاق، وأرسطو لم يسأل: وبعد أن نتعلم ماذا نكون؟ وغاية الفلسفة عند أرسطو أن يكون الإنسان عالماً؛ وأما عند الفارابى فالفلسفة هى الحكمة، أو أن الحكمة فلسفة تقوم على الأخلاق، وهو يسمى أفلاطون وأرسطو الحكيمين، ويمزج بينهما، لأن أفلاطون أخلاقى وأرسطو علمانى، فيا حبذا لو خلطنا الأخلاق بالعلم! وماذا يجدى العلم إن لم يجعل صاحبه أخلاقياً؟! وكتب الفارابى فى ذلك «الجمع بين رأيى الحكيمين أفلاطون وأرسطو»، و«تحصيل السعادة» وهى الشاغل الأكبر للصوفية. ومزاجه الصوفى جعله يشتغل بالموسيقى، وكتابه فيها: «كتاب الموسيقى الكبير» من آثاره العظيمة. ونظريته فى النبوة من أركان حكمته.

ومن مآثر الفارابى برهانه على وجود الله تعالى، المشهور ببرهان الممكن والواجب، والفضل فيه لابن سينا، والواجب الوجود هو ما لا يُرَدّ وجوده إلى غيره، وهو الله؛ والممكن الوجود هو ما كان معلولاً لعلّة، ولا بد من انتهائه إلى ما هو واجب الوجود، وإلا كان حالنا فيه على سبيل الدور. وإذن فكل ممكن مردّه إلى الله- وهو الموجود الأول، الذى وجوده أفضل وأكمل وجود، وليس من وجود أقدم من وجوده، وليس ما هو فى مثل مرتبة وجوده، وهو المباين لكل ما سواه، وليس له نظير ولا شبيه ولا مثيل، فهو واحد لا كثرة فيه، وليس اثنين، ولا ينقسم فى ذاته، ولا مادة له.

وفى كتابه «عيون المسائل» يصف الفارابى الله تعالى فيقول: إذا قلتَ إنه موجود، فحدّ الموجود شىء، وحدّ الجسم شىء، والله تعالى لا جسم له، ولا ماهية، سوى أنه موجود وواجب الوجود، وهذا هو وجوده، وهو خيرٌ

محض، وعقلٌ محض، وحيٌّ، وعالمٌ، وحكيمٌ، وقادرٌ، ومريدٌ، وله غاية الكمال والبهاء والجمال والجلال، وعنه فاضت الموجودات المفارقة.

ويقول الفارابي في «آراء أهل المدينة الفاضلة» أحلى ما قيل في التصوف، فليس اجتماع الناس في مدينة ليتقاتلوا، وإنما ليعيشوا إخواناً متحابين، وعملهم ليس لتحصيل المال، وإنما بغاية أن يبلغوا السعادة، والصوفي المعلّم هو الذي يجلو للناس حقيقة السعادة، غير أن السعادة الحقّة مكانها وزمانها الآخرة، والسعادة المظنونة هي السعادة الدنيوية، من ملذات المناكح والمشارب والمطاعم إلخ، وهناك سعادة أخرى يتحصّلها الحكماء بعمل الخير، ومشاهدة الجمال، والتحلّي بالفضائل، وما سوى ذلك هو الشرور والقبائح والنقائص. ولكل عمل سعادة، والناس في المدينة لابد لهم من العمل بدءاً من رئيسها وانتهاءً بعُمالها، ولا أحد فيها إلا ويعمل، غير أن الأعمال تتفاوت فمنها الفاضل ومنها غير الفاضل؛ ورياسة المدينة ينبغي أن تكون فاضلة، غير أن الأغلب ـ استقراءً لواقع الحال ـ أن الرياسات جاهلية، وما ينبغي أن يُخَصّ الجهلاء بالرياسة. والمدينة الفاضلة كالجسم سواء بسواء، وسكانها إذا تعاونوا كانوا كأعضاء الجسم المتفاضلة فطرةً وقوةً، ورئيسها هو القلب، وكذلك رئيس المدينة، وكان الرئيس في مجتمع المدينة (المنورة) هو النبيّ ﷺ، ومن شروط رياسته الفاضلة: الحكمة، والتعقّل على التمام، والتقوى، وأن لايخدم برياسته أحداً ولا نفسه إلا بالحق، وهو النبيّ البشير المنذر، ويمثل أكمل مراتب الإنسانية، ومن ثم كان في أعلى درجات السعادة، فنفسه كاملة، ويتلقى عن الله عزّ وجلّ ـ واجب الوجود ـ إيحاءً صادقاً صدّيقاً، معرضاً عن الدنيا، ومحباً للعدل، ومبغضاً للجور، وصُنعه من أهل العزائم، فكان إذا نوى توكل على الله. وهذه خصال الإنسان الكامل في الإسلام، ويجسّده النبيّ محمد ﷺ، ولا يوجد إلا محمدٌ واحد، ومن بعده لا سبيل إلا أن تأتي الرياسات أقل كمالاً واكتمالاً، وبكل رئيس خصال من خصال النبيّ ﷺ، موزعة عليهم، كالحال مع أبي بكر الصديق، السابق إلى التصديق، والمؤيَّد من الله بالتوفيق، وعمر بن الخطاب، الفاروق، صاحب المقام الثابت المرموق. والتصوف تفرّد العبد بالصمد الفرد. وهو ركوب الصعب في جلال الكرب.

وإن صلحت الرياسة صلحت الرعية،

كما لو صحّ القلب صحّت أعضاء البدن، فإن فسدت الرياسة، وأقيمت على الناس رياسة جاهلة من أهل الضلال والهوى، واقتصر رئيس المدينة وأهلها على الضرورى، يظنون أن به تكون السعادة، فهذه المدينة يسميها الفارابى مدينة الضرورات؛ فإن ظن رئيسها وأهلها أنهم فى حاجة إلى المال والثروة - وهذه غايتهم - كانت مدينتهم البدّالة، بدّلت الخبيث بالطيب؛ وإن ظنوا أن متاع الدنيا من المآكل والمشارب والمناكح هو السعادة، سقطت مدينتهم، وكانوا أهل خسّة، وإن قصدوا من العمل أن يُمتدحوا ويذكرهم الناس كانوا أهل كرامة، وإن هدفوا إلى أن يغزوا كانوا أهل غلبة، وإن طلبوا الحرية وأن يفعلوا ما يشاءون فهم أصحاب رأى وشورى؛ وهناك غير ذلك مدينة الفسق؛ والمدينة الضالة وهكذا.

وغاية الفارابى من كل ذلك: أن يبيّن أن الخروج عن منهج الشريعة، وطرح عبادة الله، وعدم الأخذ بأوامره ونواهيه مجلبة للمفسدة، والالتزام بذلك غاية التصوف، ومقصود التقوى، وهدف الأخذ بالقرآن والسُّنة، والعامل على الاقتداء بالرسول ﷺ. فهكذا كان الفارابى رحمه الله: تقياً نقياً، ينشد أسمى الغايات. وله الدعاء العظيم إلى الله تعالى: ألفّه على طريقة أهل الحكمة، يقول:

«اللهم إنى أسألك يا واجب الوجود، ويا علّة العلل، يا قديماً لم يزل، أن تعصمنى من الزلل، وأن تجعل لى من الأمل ما ترضاه لى من عمل. اللهم امنحنى ما اجتمع من المناقب، وارزقنى فى أمورى حُسن العواقب. ونجّح مقاصدى والمطالب، يا إله المشارق والمغارب:

ربّ الجوارِ الكُنّس السبع التى
أنبجست عن الكون انبجاس الأبهر
هن الفواعل عن مشيته التى عمّت
فضائلها جميع الجوهر
أصبحتُ أرجو الخير منكَ وأسترى
زُحلاً ونفس عطارد المشترى

«اللّهم البسنى حُلل البهاء، وكرامات الأنبياء، وسعادات الأغنياء، وعلوم الحكماء، وخشوع الأتقياء.

اللهم انقذنى من عالم الشقاء والفناء، واجعلنى من إخوان الصفاء وأصحاب الوفاء، وسُكّان السماء مع الصدّيقين والشهداء. أنت الله الذى لا إله إلاّ أنت، علّة الأشياء، ونور الأرض والسماء. امنحنى فيضاً من العقل الفعّال يا ذا الجلال

والإفضال. هذّب نفسي بأنوار الحكمة، وأوزعني شُكر ما أوليتني من نعمة. أرني الحقّ حقاً وألهمني اتباعه، والباطل باطلاً واحرمني اعتقاده واستماعه. هذّب نفسي من طينة الهيولى إنك أنت العلّة الأولى:

يا علّة الأشياء جمعاً والذى
كانت به عن قبضة المتفجّرِ
ربّ السموات الطباق ومركز
فى وسطهنّ من الثرى والأبحرِ
إنى دعوتك مستجيراً مذنباً
فاغفر خطيئة مذنب ومقصّرِ
هذّب بفيض منك ربَّ الكل من
كدر الطبيعة والعناصر عنصرِ

«اللّهم ربّ الاشخاص العلوية، والأجرام الفلكية، والأرواح السماوية. غلّبت على عبدك الشهوة البشرية، وحبّ الشهوات والدنيا الدنيّة، فاجعل عصمتك مجنّى من التخليط، وتقواك حصنى من التفريط، إنك بكل شىء محيط.

«اللهم انقذنى من أسر الطبائع الأربع، وانقلنى إلى جنابك الأوسع، وجوادك الأرفع. اللهم اجعل الكفاية سبباً لقطع مذموم العلائق التى بينى وبين الأجسام الترابية والهموم الكونية، واجعل الحكمة سبباً لاتحاد نفسى بالعوالم الإلهية والأرواح السماوية».

«اللّهم روّح بروح القدس الشريفة نفسى، وآثر بالحكمة البالغة عقلى وحسّى، واجعل الملائكة بدلاً من عالم الطبيعة أنسى».

«اللّهم ألهمنى الهدى، وثبّت إيمانى بالتقوى، وبغّض إلى نفسى حُبّ الدنيا. اللّهم قوّ ذاتى على قهر الشهوات الفانية، وألحق نفسى بمنازل النفوس الباقية، واجعلها من جملة الجواهر الشريفة الغالية، فى جنّات عالية.

«سبحانك اللّهم سابق الموجودات التى تنطلق بألسنة الحال والمقال: إنك المُعطى على كل شىء منها ما هو مستحقة بالحكمة، وجاعلٌ على الوجود لها بالقياس إلى عدمها نعمة ورحمة، فالذوات منها والأعراض مستحقة بآلائك، شاكرة فضائل نعمائك: ﴿ *إِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ* وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ (الإسراء ٤٤). سبحانك اللّهم وتعاليت: إنك الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد.

«اللّهم إنك قد سجنت نفسى فى سجن من العناصر الأربعة، ووكلت بافتراسها سباعاً من الشهوات. اللّهم جُد لها بالعصمة، وتعطّف عليها بالرحمة التى هى بك أليق، وبالكرم الفائض الذى هو منك أجدر وأخلق، وامنن عليها بالتوبة العائدة بها إلى

عالمها السماوى، وعجّل لها بالأوبة إلى مقامها القدسى، وأطلع على ظلمائها شمساً من العقل الفعّال، وأمط عنها ظلمات الجهل والضلال، واجعل ما فى قواها بالقوة كائناً بالفعل، وأخرجها من ظلمات الجهل الى نور الحكمة، وضياء العقل: ﴿ يِلَّه وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ (البقرة: ٢٥٧)».

«اللّهم أرِ نفسى صور الغيوب الصالحة فى منامها، وبدّلها من الأضغاث برؤى الخيرات والبشرى الصادقة فى أحلامها، وطهّرها من الأوساخ التى تأثرت بها عن محسوساتها وأوهامها، وأمط عنها كدر الطبيعة، وأنزلها فى عالم النفوس الرفيعة. الله الذى هدانى وكفانى وآوانى. والحمد لله وحده، وصلى الله على من لا نبىّ بعده وسلّم تسليماً.

* * *

٢٤٦ - ابن الفارض (سلطان العاشقين)...

أبو حفص وأبو القاسم عمر بن أبى الحسن علىّ بن المرشد بن علىّ (٥٧٦ - ٦٣٢ هـ)، «الصوفى المصرى الأول بلا منازع، ورأس شعراء الصوفية من العرب» كما يصفه الشيخ مصطفى عبد الرازق، ولقبه «سلطان العاشقين»، فقد حفل ديوانه بأناشيد الحب الإلهى، فصار بها تحفة أدبية تزهو به العربية على آداب الأمم، وتراثاً روحياً فلسفياً يقول فيه ابن أبى حجلة: هو من أرق الدواوين شعراً وأنفسها درراً، براً وبحراً، وأسرعها للقلوب جرحاً، وأكثرها على الطول نوحاً، إذ هو صادر عن نفسة مصدور، وعاشق مهجور، وقلب بحرّ النوىَ مكسور، والناس يلهجون بقوافيه، وما أودع من القوى فيه، وكثر حتى قلّ من لا رأى ديوانه، أو طنّت بأذنه قصائده الطنانة».

والديوان فى جملته استوعب حياة الشاعر الروحية كلها، وكثرت فيه الشروح والتفاسير وخاصة لقصيدتيه التائية الكبرى، والخمرية، ولعل أوفاها وأخصبها شرح عبد الغنى النابلسى. وقصيدتاه المشار إليهما هما اللتان مطلع الأولى منهما :

سقتنى حميا الحب راحةُ مقلتى
وكأسى مُحيّا مَن عن الحُسن جلّت

ومطلع الثانية والتى تسمى الميمية :

شَربنا على ذكر الحبيب مُدامةً
سَكِرنا بها من قبل أن يُخلقَ الكَرْمُ

والقصيدتان تشتملان على الرموز والتلويحات والإشارات والمصطلحات، وليست التائية الكبرى: إلا الترجمة الذاتية للشاعر روحياً، وهو يقص فيها ما عانى من الرياضات والمجاهدات والمحن

والآلام؛ وأما الميمية: فالمقصود بالمدامة فيها الخمر؛ والمحبة الإلهية، أصل الوجود والخَلق. ويقول عبد الرازق القاشاني الصوفي في شروحه للتائية: فلما تصفحتُها مراراً، وقلّبتها أطواراً، واحتظيت بمعانيها على قَدر ما قدر لي من الاستعداد، واجتليت مبانيها على ما وفق لي من النظر بالفؤاد، وجدتها مبنية على قواعد العلم والعرفان، منبئة عن نتائج الكشف والوجدان، مشيرة إلى ما أطلع الله ناظمها عليه، ووصل قدمه إليه، من حقائق التوحيد ودقائق التفريد، والمواجيد الصحيحة، والمكاشفات الصريحة، والمعاملات النفسية، والمنازلات القلبية والمواصلات الروحية». ولعله لهذه الأوصاف عرفت التائية باسم آخر هو «نظم السلوك». ويذكر حفيد ابن الفارض الذي يؤرخ لسيرته أن القصيدة كان أول ما سميت به «أنفاس الجنان»، أو «نفائس الجنان»، ثم سميت «لوائح الجنان»، أو «روائح الجنان»، ثم رأى جدُّه النبيَّ ﷺ في المنام فأمره أن يسميها «نَظْم السلوك». وأما قصيدته الميمية فالغالب أن شُرّاحه هم الذين أطلقوا عليها اسم «الخمرية»، حيث كنّى الشاعر عن المحبة الإلهية بالخمر. ولم نعلم أن قصيدة من القصائد أو ديواناً من الدواوين حظي بمثل الشروح التي حظي بها ديوان ابن الفارض أو قصيدتاه، ولعل شرح القيصري للخمرية، المتوفى سنة ٧٥١هـ، هو أفضل هذه الشروح، حيث أنه يميل فيه إلى الفلسفة، ويقدم له بمقدمة في حقيقة المحبة وأقسامها. وقصائد ابن الفارض من الذيوع والشيوع في كل بلاد الإسلام، وتُنشَد في حلقات الذكر لإهاجة الانفعال وإثارة الوجدان، وقد ترجمها اللاتين بمختلف اللغات، ومن هؤلاء فابريسيوس، وچونز، وفالين، ودي ساسي، ولاجرانج، ودرمينجم، ونيكلسون، وفالرجا، ودي ماتيو.

وحقيقة تسمية ابن الفارض بهذا الاسم أن والده - وكان قد هاجر من حماه إلى مصر واستوطنها - عمل فارضاً، أي الذي يثبت الفروض للنساء على الرجال بين يدي الحاكم، وغلب عليه هذا الاسم. وكانت ولادة عمر بالقاهرة، وانطبع بالمصرية، وأحبّ مصر وفُتن بها حتى كان يقول:

وطني مِصْرُ وفيها وطَرى

ولَعَيْني مشتهاها مشتهاها

وقد اختلفوا في ابن الفارض حتى أدرجوه مع ابن عربي، والعفيف التلمساني، والقونوي، وابن هود، وابن سبعين، وتلميذه الششتري، وابن مظفر، والصفّار، ضمن من قالوا: «أقوالاً ردية أو غير مرضية».

ومن الذين انتقدوا عليه: القاضى عبد الرحمن ابن بنت الأعز المتوفى سنة ٦٩٥ هـ، وابن تيمية، وابن خلدون، والبقاعى المتوفى سنة ٨٥٨ هـ؛ ومن الذين ناصروه: السلطان قايتباى، والقاضى زكريا بن محمد الأنصارى الذى أصدر فتواه بتبرئته من التهم التى قال بها خصومه، وأحمد بن حجر الهيثمى، وجلال الدين السيوطى، وعبد الوهاب الشعرانى. وكانت تهمة ابن الفارض أنه «اتحادى»، ويقول بوحدة الوجود، وأنه تلميذ لابن عربى، وفى رأى البعض، ومنهم ماسينيون أن اتحاد ابن الفارض ليس من نوع الاتحاد الفلسفى كالذى عند ابن عربى، ولكنه اتحاد نفسى، أملاه أن ابن الفارض شاعر يرى تجلّى الله تعالى فى كل الطبيعة:

جلّت فى تجلّيها الوجود لناظرىّ
ففى كل مرئى أراها برؤية

وعنده أن كل الديانات واحده، وكلها تعبد الله:

وما عقد الزنّار حُكماً سوىَ يدى
وإنْ حُلّ بالإقرار بى، فهى حلّت
وإن نار، بالتنزيل، محرابُ مسجد
فما بارَ بالإنجيل هيكلُ بيعةِ
وأسفارُ توراة الكليم لقومه
يناجى بها الأحبارُ فى كُلّ ليلة
وإن خرّ للأحجار فى البُدّ عاكفٌ
فلا وجهَ للإنكار بالعَصبيّة

والزُّنّار: كناية عن المسيحية واليهودية والمجوسية، والبُدّ: صنم الهندوس والبوذيين، ويقصد بيت البد أو بيت الله؛ ويعنى بهذه الأبيات الجمع بين تجارب النصارى واليهود والبراهمة، ويرى أنها جميعاً لا تعدو أن تكون فروعاً لأصل واحد، ونابعة من مصدر واحد، وهو الإيمان والاعتقاد القائمان على أن الوجود كله وحدة واحدة، فيه الكون كله قد اتحدّ فى هذه الوحدة التى هى الله. أو أن اتحاد الكون هذا الاتحاد الصوفى هو حال من الأحوال التى تُدرَك فيها الوحدة فى مقام سُكر الجَمع، أو فى مقام صَحْو الجمع، والوحدة التى تُنسَب إليه هى لذلك - فى زعم البعض - «وحدة شهود» وليست «وحدة وجود»، بمعنى تجلّى الله فى مظاهر الكون، وشهود السالك للذات الإلهية شهوداً يرى فيه كل شئ على أنه عدم فى ذاته بالقياس إلى الوجود الحقّ الواحد. وفى أمثال هذه الأبيات:

وأُشهدت غَيبى إذ بدت فوجدتُنى
هنا لك إيّاها بجَلوة خَلوتى

أروح بِفَقْد بالشهود مؤلفي
وأغدو بوَجْد بالوجود مُشتّتي
يفرقني لُبّي التزاماً بمحضَري
ويجمعني سلبي اصطلاماً بغيبتي
أخال حضيضي الصّحو والسُّكر مَعرجي
إليها ومحوي منتهى قاب سدرتي
ففي الصّحو بعد المَحْو لم أكُ غيرَها
وذاتي بذاتي إذ تجلّت تجلّت

فإن الشهود عند ابن الفارض هو علّة فقده لوجوده الذاتي واتحاده بذات محبوبه، على عكس الوجود فإنه علّة وجوده لذاته وتفرقته عن ذات محبوبه.

وقضية الحب الذي استوعب حياة ابن الفارض والذي يفسّر به فلسفته، هي نفسها التي تجعل منه شاعر الحب الأول، فقد جعل من الحب ديناً ومذهباً يجمع فيه كل الأديان والمذاهب:

وعن مذهبي في الحبّ مالِيَ مذهبٌ
وإن ملتُ يوماً عنه فارقتُ ملّتي
ولو خَطَرت لي في سواكَ إرادةٌ
على خاطري سَهْواً قضيتُ بِرِدّتي

ونخلص من ذلك كله إلى أن ابن الفارض يرى: أن العبد هو الربّ، والمخلوق هو الخالق، والعدم الذاتي الصرف هو الوجود الواجب، أو بمعنى أن ربَّ الصوفية يتعين بذاته وصفاته وأسمائه وأفعاله في صور مادية أو ذهنية، فهو الحيوان، والجماد، والإنسان، والجن، والصنم، والوثن. وهو الوهم، والظن، والخيال، والحقيقة الموجودة القائمة، وصفاته وأسماؤه وأفعاله هي عين تلك الأشياء من صفات وأسماء وأفعال، لأنها هي هو في ماهيته ووجوده المطلق أو المقيّد، وأن كل ما في العالم من شرور وخطايا وآثام، وتجاوزات وتعدّيات، فهو فعل الربّ الصوفي، وأن ذاته - أي ذات ابن الفارض - هي لذلك ذات الربّ، وإذا تجلّت تجلّت، وهذا هو الفرق بين الصحو والمحو، غير أنه في عقيدته لافرق بين صحو ومحو، وأن الله هو عين خلقه، يقول:

إلى كم أُوَاخي السِّتر؟ ها قد هتكتُهُ
وحلّ أُوَاخي الحُجْب في عَقْد بيعتي

يعني أن ابن الفارض يعاهد الله حين يبايعه - أن يهتك كل ستر، ويكشف كل حجاب، ليرى كل من يُبصر أن الله غير مشخّص!! وإنما هو يتمثّل في صور خلقه، وتتعين ذاته بذواتهم، وأنه في الحقيقة ليس ثمة الله وإنما الموجودات! - وأقول: أنه حتى الموجودات التي يقول بها ابن الفارض لا توجد بمواصفاته إلا في مخيلته، وأما عندنا نحن المسلمين، فهي قائمة بما نراه

لها من مواصفات، وما ندركه ونعقله من وجودها، كما أن الله موجدها قائم، وهو فردٌ صمد، وحيّ وقيوم؛ غير أن ابن الفارض فى اعتقاده: ما ثم ربّ ولا مربوب، يقول بذلك ويخلق ربّه الذى تبدعه قريحته ويهديه إليه تفكيره، فهو ربّ مخصوص تميّع وجوده وجعله وجوداً هلامياً، مع أنه الخالق الوحيد وواهب الوجود! وأما الربّ الأكبر كالذى يقول به الأنبياء، فليس سوى أثر من آثار قدرته، أو هو جزئى تائه فى الفضاء بقيةٌ لكُلّيّة انقضت:

فَوَصْفِيَ إذ لم تُدْعَ باثنين وصْفُها
وهيئتُها ـ إذ واحدٌ نحن ـ هيئتى

ويزعم أن كل ما وصف به الله نفسه، هى أوصاف لابن الفارض، والموصوف بها على الحقيقة هو ابن الفارض! لأنه الوجود الإلهى الحق، فى أزليته وأبديته، وديمومیته وسرمدیته:

فإنْ دُعِيَتْ كنتُ للجبِ وإنْ أكُن
منادىً أجابت مَن دعانى ولبّت

يعنى إن دُعى الله أجاب هو ـ أى ابن الفارض ـ لأنه عين الله، وإنْ دُعى ابنُ الفارض لبّى الله، لأنه اسمه وسماه، فكأنه الأصل وأما الله فهو صورة متهافتة منه:

فقد رُفعت تاء المخاطب بيننا وفى
رفعها عن فُرقة الفَرْق رفعتى

يعنى: أنه لا فرق بين خالق ومخلوق، ولا بين ابن الفارض وربّه، وإذا تخاطبا كانا ندّين، فلا مخاطَب ولا مخاطِب، ولا مغايرة بين المتخاطبين. وكان قبلَ أن تظهر له الحقيقة وينكشف الغطاء، إذا قال، قال: أنت! أنت! يخاطب ربَّه، فلما عرف صار يقول: أنا! أنا! يعنى أنه قد عرف الآن أن الأنت هى فى حقيقتها الأنا ذاتاً ووجوداً، فابن الفارض هو الربّ الأكبر، بوحدانيته، وصفاته، وأسمائه، وأفعاله، وبمُلكه وملكوته، وبرحمته وجبروته، وبقهره وعلمه وإبداعه:

ولا فُلْك إلا من نور باطنى
به مَلَكٌ يهدى الهُدَى بمشيتى
ولا قُطر إلاّ حَلّ من فيض ظاهرى
به قطرةٌ، عنها السحائب سَحّت
ولولاى لم يوجد وجودٌ ولم يكن
شهودٌ، ولم تُعهد عهودٌ بذمة
فلا حيَّ إلاّ من حياتى حياتهُ
وطوعُ مرادى كل نفسٍ مريدة

يعنى أنه كان يرى أنه الأصل فى خلق الأفلاك والأنوار، والهُدى، والغيث، والوجود بأسره، والعهود يتعاهد بها

الناس، والأحياء، والأنفس. وليس هذا فقط:

وكلُّ الجهات الستّ نحوى توجّهت
بما تم من نُسكٍ وحَجّ وعُمرةِ
لها صلواتى «بالمقام» أقيمُها
وأشهد فيها أنها لىَ صلّتِ

يعنى الوجود بأسره وبجهاته متوجه إليه، وإليه يُرفع النسك والحج والعمرة والصلوات، فهى لا تُرفَع حقيقة إلى الله وإنما تتوجه إليه. ثم يؤكد ابن الفارض: أنه بلا شك الله، وكل الصلوات تُقصَد إليه:

كلانا مُصَلٍّ واحدٌ، ساجدٌ إلى
حقيقته بالجمع فى كل سجدة

وقوله كلانا يتنافى مع الوحدة، ولذا يقول:

وما كان لى صلىّ سواى، ولم تكن
صلاتى لغيرى فى أدا كُلِّ ركعة

يعنى: أنه هو جمع الكل، والكل إذ يصلون فإنما هو الذى يصلى، وصلاته لنفسه لا لغيره. فهل هذا كلام مسلم؟ وكما ترى فإنها أقوال تخرج ابن الفارض من دائرة الإسلام ولا تدرجه على الحقيقة ضمن صوفية المسلمين! وإنها لعجيبة أن يصر ابن الفارض على أن ربّه أنثى:

ففى النشأة الأولى تراءتْ لآدم
بمظهر حوّا قبل حُكم الأمومة
وتظهر للعشاق فى كل مظهر
من اللّبس فى أشكالِ حُسْنٍ بديعة
ففى مرة «لُبْنَى» وأخرى «بثينة»
وآونة تُدعَى «بعزّة» عزّتِ

يعنى أن ربّه ظهر لآدم فى صورة حواء، وظهر لقيس فى صورة لُبنى، ولجميل فى صورة بثينة، ولكُثيّر فى صورة عزّة، وليست حواء أو لبنى أو بثينة أو عزة سوى الحقيقة الإلهية، تعددت أشكالها وهى واحدة. يقول:

ولسن سواها، لا، ولا كُنّ غيرها
وما إن لها، فى حُسنها من شريكةِ

وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿إن يَدْعُونَ من دُونه إلاّ إنَاثًا وإن يَدْعُونَ إلاّ شَيْطَانًا مَّرِيدًا﴾ (النساء ١١٧).

وابن الفارض يقول عن نفسه أنه الله، وهو أيضاً آدم والملائكة جميعاً، وكل من يؤدى الصلاة لله من رسل أو عباد:

وفىّ شَهِدتُ الساجدين لمظهرى
فحققتُ أنى كنتُ آدمَ سَجْدَتى!!

وبعد.. فهذا هو ابن الفارض الذى بدأنا الحديث بتعظيم السلف لأقواله،

وكلها ترهات وأغاليط إنسان مخبول يدعو لنفسه ويعانى من هذاءات عظمة، والمعيار عند اختبار صدق الداعية، إذا كانت دعوته لنفسه أم لآخر، فإن كان يدعو لنفسه عرفنا أنه نوع من الخلط والهوس الدينى لا يُعتَدّ به، فبعد كل هذا الذى شرحناه ماذا أفدنا؟ لا شىء! وزال عنا الاحترام الذى تعلّمناه لأسماء مثل مصطفى عبد الرازق، وجلال الدين السيوطى، وعبد الوهاب الشعرانى ممن برّأوا وقرّظوا ابن الفارض!

* * *

٢٤٧ - الفاسى (سلطان العارفين)...

شمس الدين عبد الله الفاسى، رئيس المجلس الصوفى العالمى، وشيخ الطريقة الشاذلية الفاسية، ويطلق عليه أصحابه سلطان العارفين، وكانت وراثته للمشيخة عن أبيه، وولادته بمكة سنة ١٣٤٥ هـ، وتعليمه بالهند، وقد تخصّص فى القانون.

ويهدف الفاسى من إنشائه للمجلس الصوفى أن يجمع به شمل الطرق الصوفية تحت لوائه، وهو إذن صاحب طموحات دينية، وفلسفته فى ذلك أنه لا اختلاف بين الطرق الصوفية طالما أن مصدرها واحد، ولا تقود جميعها إلا للحق تبارك وتعالى، فلماذا التفرُّق الذى لا يخدم سوى أعداء الإسلام؟ ووحدة الصوفية هى حلم الدكتور الفاسى، وكما يقول فإنه إذا كانت الطريقة الشاذلية هى الأصل والأم بالنسبة للطرق الصوفية عموماً، فمسئولية من يتولى أمرها أن يحمل هذه الريادة، وأن تكون مهمة تكوين طليعة للجهاد المقدّس، وحرس خاص للمقدسات والحرمات والشريعة. وكان تأسيس المجلس الصوفى العالمى كمركز ومجلس للدعوة لوحدة الصوفية فى لندن، بعيداً عن الأوضاع السياسية التى تحكم العالم الإسلامى. وكانت البداية فى سريلانكا عام ١٩٨١ حيث مقر الطريقة الشاذلية الفاسية، وقد استجابت كل الطرق هناك لدعوته وعددها ٢٨ طريقة، بالإضافة إلى ١٨ هيئة إسلامية صوفية، ثم كان اختيار الفاسى للندن كمقر للمجلس لينأى بالدعوة للوحدة الصوفية العالمية عن الحركات الدينية الجديدة التى يموج بها الوطن العربى، لتتاح لهذه الحركات فرصة بلورة أفكارها وتوضيح مناهجها قبل أن تفكر فى الانضمام للمجلس وهى بعد فى طور التكوين ، وحتى لا يتسبب المجلس فى إحراج أية حكومة عربية، وليتسنى للفاسى أن يقول ما يشاء، فلا يُحَسب

قوله على أحد، ولا يتسبب لأحد فى مشاكل. وربما كان اختيار لندن كذلك لنشر الدعوة الإسلامية فى أوروبا، هو نفس الدور الذى لعبته الطرق الصوفية فى الماضى عندما انتشر الإسلام من خلالها فى إفريقيا وآسيا. والفلسفة التى يصدر عنها الفاسى: أن الإنسان الغربى قد أوصلته الحضارة المادية إلى غُربة عن العالم الذى صنعه بها، وأصبحت هذه الحضارة أضخم منه، وأصيب بسببها بالأمراض النفسية والتوتر والقلق، ومن الطبيعى أن يكون ردّ الفعل فى الاتجاه الآخر المضاد لحركة التحديث، أى الاتجاه الروحى الذى تمثّل الصوفية إحدى قيمه. وإذا قيّض للإسلام أن ينتشر فى أوروبا، فالمؤكد أن ذلك سيتم عن طريق الحركة الصوفية دون غيرها، فالتصوّف يملك مفاتيح الطريق الذى يعين الإنسان المغترب عن بيئته، وذلك من الأسباب التى دفعت الفاسى إلى الاعتقاد بأهمية وحتمية تكثيف النشاط الصوفى فى قلب أوروبا، وبالتالى من الأسباب التى دفعته إلى تأسيس المجلس الصوفى العالمى، حيث من الممكن اجتذاب المزيد من الباحثين عن الحقيقة. وقد أفلح الفاسى أن يضم إلى المجلس أكثر من ٣٢ طريقة صوفية من الهند، وتوالت البيعات له من أنحاء العالم الإسلامى. وهو يختار من بين المجالس الصوفية فى كل قطر واحداً من أعضائه ليكون رئيس المجلس الصوفى فى هذه البلد ويخلفه على رئاسته.

ويبدو أن تلك المرتبة التى يسعى إليها الفاسى هى مرتبة القطبية من مراتب الحكومة الصوفية، والتى كانت غيباً فى الماضى، ويشهدها العالم الإسلامى حضوراً فى شخصية الفاسى وما يمثله من أفكار تتجاوز العلاقة التعبّدية التى كانوا فى الماضى ينشدونها للصوفى مع ربّه، وفى ذلك يقول الفاسى: إن التصوف عملٌ وأخلاق، وأمانةٌ وفكر، وحرصٌ وتقوى، والله يحب الأقوياء.

ويقول الفاسى فى أحد الاجتماعات السنوية للمجلس احتفالاً بمولد الرسول: هل نكتفى بالاجتماع كل عام للاحتفال، أم نحوّل احتفالنا بمولد نبينا إلى جهاد، نجتمع فيه على الحقّ كالبنيان المرصوص، يداً واحدة تقاوم الفتنة والشر؟ أين منا فلسطين وصبرا وشاتيلا؟ أين منا مسجدنا وقبلتنا الثانية؟ هل نحتفل بمولد النبىّ الكريم دون عمل؟ نريد أن نجتمع لكى نجاهد فى سبيل الله وننتصر كما انتصر الرسول، فكونوا عباد الله إخواناً، وانبذوا

الفرقة بينكم. نريد أن نتحرك، نحن المسلمين، لنخلّص المسلمين، مما بهم ومما أصابهم في أرواحهم وقلوبهم وعقولهم. نحن الذين علينا أن نحرّرهم. الحاكم وظيفته أن يرعى البلاد، ويذود عنها شرّ المعتدين، ويحفظ شرع الله، ويؤدي الحقوق للناس بالعدل والقسطاس. ولكن كيف تُصلَح الإنسانية؟ إصلاحها ليس من حقّ الحاكم وإنما من حقّكم أنتم، حقّ الأئمة والزعماء، وحقّنا نحن المسلمين. ومن فضل الله على المجلس الصوفي الدولي أن يقود الصحوة الإسلامية ليجعل عصرنا هذا نموذجاً متواضعاً لعصر النبوّة، فيه أخوةُ الإيمان والعقيدة أقوى من أخوة الدم والنسب، وفيه وشائج الصحبة الروحية أمتن وأوثق من وشائج الأهل والأقارب. وصدق رسول الله ﷺ إذ قال: «لن يَصلُحَ آخرُ هذه الأمة إلا بما صَلُحَ به أوّلها»... نعم !! لا صلاح لأمتنا الإسلامية إلا بالوحدة، ولا نهضة لها إلاّ بالتماسك، ولا عزة لها إلا بالإيمان، ولا قوة لها إلاّ بتآلف القلوب وزوال الطغيان، وحُكم الشعوب، والأخذ بالمساواة والعدالة الاجتماعية. (كلام غريب يصدر من مليونير له طموحات سياسية).

والفاسي جَدُّه القطب الإمام محمد الفاسي (هذه الألقاب من عنده وليست من عندي)، وكان شعاره قول الإمام عليّ: «يابني! خف الله خوفاً ترى أنك لو أتيته بحسنات أهل الأرض، لم يتقبلها منك، وارجُ الله عزّ وجلّ رجاءً، ترى لو أنك أتيته سيئات أهل الأرض غفرها لك». وأبوه الشيخ الإمام عبد الله الفاسي كان يجمع بين الشريعة والحقيقة. والطريقة الشاذلية الفاسية التي نهجوا عليها تصدر عن القرآن والسُّنّة واجتهادات الأولياء، وأساسها الأخلاق المحمدية، والرسول ﷺ هو الذي قال: «بُعثت لأتمم مكارم الأخلاق».

ويفسّر الفاسي الآية: ﴿قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ﴾ (المائدة ١٥): أن النور هو النبيّ ﷺ، والأولياء يأخذون نورهم من القلب السراج ـ قلب النبيّ ﷺ، أي فطرته النورانية وهديه وسُنته، ونور النبيّ هو نور هداية وبصيرة، وكشف وشهود، وهو نور يقود إلى الحقائق فيجلّيها لقلوب العارفين، ويلازمهم في الآخرة: ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ﴾ (الحديد ١٢)، ولكن الفاسي يبدو من الغالية في النبيّ ﷺ عندما يقول: «إن الله ما خلق الدنيا إلا تكريماً للنبيّ»، فليس هكذا يعلمنا القرآن، بمثل قوله

تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ (آل عمران ١٤٤) وقال: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ (الكهف ١١٠)، وقال: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلاَّ بَشَراً رَّسُولاً﴾ (الإسراء ٩٣). وعند الصوفية عموماً، وصوفية الشيعة خصوصاً، فإن الأقطاب والأوتاد والأولياء ما كانوا كذلك إلا بمعرفته ﷺ، والمعرفة - كما يراها - تقود إلى التأسّي به، والنهج على منواله، وأي كلام في النبيّ ﷺ يخالف ذلك فهو إما غلو وإما شطط، وكلاهما يخرج عن العقيدة، ومن ذلك اعتقاد الفاسي أنه بعد وفاة النبيّ ﷺ يمكن رؤيته على الحقيقة! ويمكن سماع صوته! وذلك لمن صفى قلبه من الأغيار، وطهرت نفسه من الأكدار- والطب النفسي يفسّر ذلك بأن الرؤية والسماع للموتى من أعمال النفس وليست من أعمال الحواس، وقد أنكر عمر موت النبيّ ﷺ، فذكّره أبو بكر وردّد عليه قوله تعالى: ﴿أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ﴾ (آل عمران ١٤٤)، والمعنى: أن محمداً يمكن أن يموت، ويمكن أن يقتل، لأنه بشر، فمن كان يعبد محمداً فقد مات محمد، ومن كان يعبد الله فإن الله حيٌّ لا يموت! - ونحن نعبد الله ولا نعبد محمداً، وإنما نأخذ بنهجه، ومحمدٌ ﷺ يحيا فينا بنهجنا على منواله. فإن كان الفاسي يغالي في تفسيره للنور المحمدي، كما يذهب إلى ذلك متصوفة الشيعة، فإنه يقول في تصوّف جماعته: إنهم لا يوجد بينهم متشدّد أو غالٍ في دينه، والكل يقتدي بالنبيّ ﷺ، ويترسّمون خطاه، ويستضيئون بنبراس خُلقه، ويتقرّبون إلى الله بالصلاة فرضاً ونافلة، وبالصوم فريضةً وتطوعاً، وبالجهاد والحج والزكاة. والفاسي مع القول: أن التربية الإسلامية الصحيحة على نهج الصوفية، قوامها الأخذ بأدبهم، باعتبارهم مُثلاً عليا في الأخلاق والسلوك. غير أن «الأدب الصوفي» بخلاف «السلوك الصوفي»، والأخير بعيد عن أدب الإسلام، وأدب الإسلام يحثّ على العمل، والعمل فيه عبادة، والطرق الصوفية الفاسدة تترك العمل، والفاسي يتحدّث عن «العمل»، ويفرد له أبواباً في مذهبه وطريقته. والتصوف عند الفاسي له اثنان وثلاثون تعريفاً، وعند أصحاب الطُّرق فإن الصوفي هو من يلبس الصوف، لأنه زاهد ولا يرتدي أفخر الثياب؛ وعند الفاسي الصوفي: إنسان مثالي، مميز بين الناس بأخلاقه وتصرفاته، وبعد صلته بالله، وفهمه للعبادة الفهم المختلف عمّا درج

عليه الناس. والصوفي عنده أوقاته عامرة بذكر الله، ويحيا حياة روحية خالصة مع الله، ولله، وفي الله، وبالله، ويشعر بالافتقار إليه تعالى مهما كان حظه من الغنى والثراء، ولا تحجبه المرئيات عن المشاهدات، ولا الرسوم عن اللباب؛ ولا تبطره النعمة، ولا تحزنه المصيبة، ولا يعبد الله على حرف؛ ويصقل نفسه بالمجاهدات، ويتوب إلى الله في كل وقت، وتوبته يراها تحتاج إلى توبة. والصوفي يجلس على بساط التواضع، ويسعى في مناكب الأرض، ويشكر الله في كل الأحوال، ويخلص له قلبه، ويُسلم له وجهه، ويرعى الذمة، ويرى الطاعة، وعلمُه لَدُنّي واكتسابي، ويدرك انه في قبضة الله، وأن الموت يغاديه ويراوحه. والصوفية توّابون متطهّرون، وتوبتهم توبة خلاص وإخلاص، وتطهّرهم للنفس والقلب والبدن، ظاهراً وباطناً. والتوبة تأخذهم إلى الإنابة وتصفية القلب مما سوى الله، وعندهم الشريعة مفتاح الحقيقة، وعبادتهم موصولة، وأموالهم لله، وكان الصحابة طليعة للصوفية، وكانوا أهل شريعة وحقيقة، وسلوك الصوفية امتداد لسلوك الصحابة، وهم في سفر دائم إلى الله، وانتسابهم إلى الله انتساب عبودية مخلوق لخالق، ومربوب لربّ، وهم سلاطين الدنيا، تُغنيهم عزة نفوسهم، وعظمة إيمانهم، ويسقطون عن أنفسهم التدبير، ولا اختيار لهم مع الله، ولا تدبير لهم مع إرادته.

ومن ألفاظ التصوّف عند الفاسي لفظ «الصدر»، وصدر المرء تتردد فيه الألفاظ كلما نطق بها لسانه، أو همس بها قلبه، ومن ذلك. ترديده اسمه تعالى "الله"، بالقلب، دون التلفّظ به باللسان، فيدوى به الصدر ويرتج. والرسول ﷺ كانت تنام عيناه ولا ينام قلبه، وكان يذكر الله سراً فيُسمَع لصدره أزيز كأزيز المرجل. وأوراد وأحزاب طريقة الفاسي أدعيات مأثورة وضراعات وابتهالات، يلهج بها اللسان فتتردد في القلب، وتدوى في الصدر.

وينصح الفاسي للصوفي أن لا يقف عند ظاهر النصّ القرآني والمعنى اللغوي لكلماته. والنهج الصوفي لتفسير القرآن قوامه التذوق، ومن ذاق عرف، وبعض الصوفية زلّ تفسيره مثل أبي عبد الرحمن السُّلَمي (المتوفى سنة ٤٦٢هـ) في كتابه «حقائق التفسير»، والقاشاني الذي ذهب إلى وحدة الوجود، وأفضل التفاسير الصوفية تفسير القُشَيْري. والصوم الباطن شعيرة صوفية إضافةٌ لصوم الظاهر- الذي

هو إمساك عن الطعام البتة؛ والباطن هو صرف القلب عن الآفات. وصوم العابدين لكي يكمل، لابد له من صون اللسان عن الغيبة، والطرف عن النظر بالريبة.

والقبض والبسط من فلسفة التصوف، والله يقبض ويبسط الرزق ليمتحن الفقراء والأغنياء، ويقال القبض للمريدين، والبسط للمرادين؛ والقبض لقهره، والبسط لبرّه، والقبض لما غلب القلوب من الخوف، والبسط لما يغلب عليها من الرجاء ... وكل ذلك معروف من قبل، ولا جديد فيه، والفاسي ينقل من المراجع العلمية أو أن آخرين يكتبون له؛ وبوفاته انتهى كل شيء، ودالت دولته، واختلف ورثته على الميراث وكان بالملايين، وقد يذكره البعض ممن كان له الفضل عليهم، وهؤلاء قالوا فيه: إنه لم يسلم في حياته ممن يناصبه العداء، يختبر بهم عزيمته وهمّته، وصِدْق إيمانه وصبره، فأيده الله بعنايته وسام خصومه الخزي والمهانة؛ وانه كان يواجه هؤلاء، يقول لهم: طوبى للذين يعيشون بالله، ولله، ومع الله !

* * *

٢٤٨ - فاطمة (البتول الزهراء)...

هي الصفية الناسكة، الْوَطْءُ أولاده بقلبه ﷺ لصوقاً، وأكثرهم به شبهاً، وأولهم بعد وفاته لحوقاً به ؛قيل ولدت سنة ١٨ قبل الهجرة وماتت سنة ١١ هجرية، بعد رسول الله ﷺ بستة أشهر، وتزوّجها عليّ ابن أبي طالب في أول سنة للهجرة، وعمرها ١٨ سنة، وفي رواية العباس أن فاطمة كانت تقول لعليّ: أنا أسَنّ منك. وربما كانت كذلك فعلاً، أو ربما كانت تبدو أكبر سناً، فقد كانت نحيفة مهزولة، وقلّما تبتسم، وبها حزن دفين يظهر على وجهها كهيئة العبوس الخفيف. وقال لها العباس: وُلِدتِ وقريش تبني الكعبة، والنبيّ ﷺ ابن خمس وثلاثين، وأما أنتَ يا عليّ فولدتَ قبل ذلك بسنوات. - يقصد العباس أن علياً هو الأكبر. وكانت تشكو إلى الرسول ﷺ غلَظ عليّ وشدَّته عليها، ولولا ذلك فربما هان الفقر الذي كانت عليه حياتها مع عليّ، ولتحملت هذا الاكتئاب الذي كثيراً ما يلم بها. وعند ابن سعد قال عمرو بن سعيد: كانت في عليّ على فاطمة شدّة حتى أنها كانت تقول له : والله لأشكونك إلى الرسول ﷺ ! .

وكانت فاطمة زاهدة في الدنيا، وعليّ يطلب الدنيا، وكان يضغط عليها لتطلب من أبيها من مُتع الدنيا، وإنما كانت فاطمة عنها عازفة، وبغوامض عيوبها وآفاتها عارفة، وكانت تُعلّم علياً، وقد يأخذ عنها أو يأنف

منهـا. ولمّا سألـه رسول الله ﷺ ومن معـه: ما هو الأخبَـر للنساء؟ ذهب عليّ يستـفتى فاطمة فقالت له: فـهلاّ قلت: «خـيـرٌ لهن أن لا يَـرَيْن الرجـال ولا يرونهن»، فرجع فأخـبره، فسأله: «مـن علّمـك هذا؟» قال: فاطمة! قال: «إنهـا بضعةٌ منى»، أى فيها من علم النبوة. ومع أننا لا نعتـقد فى هذا الحديث لما فـيه من فلسفـة تناقض تقـدُّميـة الإسـلام، ولأنه حـديث يحضّ على القطيـعة بين النسـاء والرجال، ويخالف الاجـتماع الإسلامى، إلا أن مذهب فاطمة كـان فعلاً العزوف عن الدنيـا بالكليـة، حتى أن لا ترى الرجـال ولا يراها الرجـال. وعندما كان يضطرها علىّ أن تذهـب إلى الـنبىّ ﷺ تـسـأله حاجتـهم، كانت إذا بلغت بيته اسـتحيت ورجـعت. ولمّا تزوجت عليّـاً لم يكن فى بيتها إلا وسادة فـيها ليف، وقِرْبة، ومُنْخُل، ومنشفـة، وقدح، ورحا. وقالت أم أيمـن التى ولّيت جهـازها: كانت به مرفقة من أدم، حشوها ليف، وبطحـاء، وكانت تتغطّى بلحاف إذا غطت به رأسـها تكشّفت قدماها، وإذا غطّت قدميّها تكشّف رأسها. والفـقر سـمة الصـوفـية، وهو عـلامـة التقـوى والمتـقين. وفى بيت علىّ طحنت فـاطمـة حـتى مَجَـلت يداها، واشـتكى صـدرها، ووصفها علىّ فقال: جرّت بالرحا حتى أثّرت الرحا فى يديها، واستـقت بالقربة حتى أثرت القـربة بنحرها، وقَـمّت البيت حـتى أغبـرت ثيـابهـا، وأوقـدت تحت القـدر حـتى دنّست ملابسَها وأصابها من ذلك الضرُّ!

وأورثها الضرُّ علّة بصدرها ماتت بها، وكان الرسـول ﷺ قد ذكـر لها أنه إذا مات، فإنهـا ستكون أول من يلحـق به من أهله، وما كان يعلم الغيب و لا الآجال، ولكنه رأى صحتها المتهـافتة، والفناء يخترم جسدها، فاستقرأ الأعـراض، وقال ما قال. وأما فاطمة فكانت على كل حال صابرة، والصبر وقفٌ علـى البلاء بُحسن الأدب، وهو الفناء فى البلوى بلا ظهـور شكوى. وقيل الصبر ثلاثة: مُتَصبِّر، وصابر وصبّار، فالمُتصبّر: الذى يصبر مـرة ويعجز مرة، والصـابر: الذى لا يجـزع ولا يشكو: والصبّـار: الذى صبـره لله، وبالله، وفى الله، فهذا الذى لو وقعت عليه كل البلايا لا يجـزع، وكـان: مقـام فاطمـة الصبر، وحالها حال الصابر.

ولمّا وجـعت وعـادها النـاس مع النبىّ ﷺ يوماً، لم تجـد ملاءةً تسـتتر بها، فأخذ النبىّ ﷺ عباءته فغطّاها بها، ولم يجد عندها طعاماً، فقال القوم: بنت نبينّا ﷺ على هذا الحـال!! فالتـفت إليهـا

وإليهم ثم قال: «إنها سيدة النساء يوم القيامة»، وقال لها: «يا بنية! أما ترضين أنك سيدة نساء العالمين؟» قالت: يا أبت، فأين مريم ابنة عمران؟ قال: «تلك سيدة نساء عالمها، وأنت سيدة نساء عالمك!»، وعالَم فاطمة: الصبر؛ وعالَم مريم الإحصان؛ وفاطمة سيدة الصابرات، والصبر على البلاء هو عالَمُها، بينما مريم سيدة المحصنات. ولما مرضت وجاءها الموت كما تنبأ لها الرسول ﷺ، طلبت من جارينها سلمى غُسلاً فسكبت لها، واغتسلت كأحسن ما كانت تغتسل، ثم لبست ثيابها الجدد، وطلبت إلى سلمى أن تجعل فراشها وسط البيت، فاضطجعت عليه، واستقبلت القبلة، وقالت لها: إني مقبوضةٌ الساعة، وقد اغتسلتُ فلا يكشفنّ أحدٌ لي كتفاً»، وماتت بعد الشهور الستة الموعودة، وأخبروا علياً فلم يكشف لها كتفاً، واحتملها ودفنها ليلاً بغُسلها الذى غسّلته نفسها.

وقولهم عنها «البتول» - أى المنقطعة عن الدنيا؛ و«الزهراء» - الصبيحة الوضيئة؛ أو أنها الزهراء لأنها ماتت فى زهرة شبابها، فقد توفيت ابنة تسع وعشرين، ولم تر فى حياتها يوماً سَرّها، فأمها توفيت وعمرها خمس عشرة سنة، وكانت أكبر أخواتها، فكان عليها أن ترعاهن، فكانت الأخت والأم والابنة معاً! وتعذبّت باضطهاد قريش أبيها، ورأته مجاهداً، وتزوجت من علىّ، وكان يفارقها يضرب فى الأرض فى سبيل الله، ومات أبوها فكان يوم وفاته أتعس أيام حياتها، فلما مات لم تجد ما تعيش من أجله بعده، وكأنى بها اختارت الرفيق الأعلى كأبيها ﷺ عندما خيرّه ربُّه، وآثرت أن تموت بإرادتها واختيارها، وبحسب ما قال لها أبوها ونبيُّها، وللموت إرادة the will of death، كما أن للحياة إرادة the will of life، فلمّا دنا أجلها رقدت وماتت كما أرادت وأريد لها. وبعض أهل الفكر يسمون ذلك «الانتحار الصوفى»، ويختلف عن «الانتحار العادى»، أن الأول: انتحار تطلبه النفس إذا دنا الأجل، فتتوافق إرادة الصوفى وإرادة السماء. ـ والتصوف سلوٌ عن الأعراض بالسموّ إلى الأغراض.

* * *

٢٤٩ - فالين (المستشرق)...

جورج أوغسط فالين Wallin (١٨١١ ـ ١٨٥٢ م) فنلندى، ترجم الكثير من النصوص الصوفية الإسلامية، وأهمها ترجمته لشرح الشيخ عبد الغنى النابلسى لتائية ابن الفارض باللغة اللاتينية، وكانت

معظم مصنفاته عن الإسلام والمسلمين باللغة اللاتينية، وله كتاب باللاتينية عن الفروق في لهجات العرب المتأخرين والمتقدمين، وأستاذه للعربية كان الشيخ الطنطاوي بجامعة بطرسبرج (لينتجراد)، وقد غير فالين زيّه الأوروبي ولبس الزي العربي، وتسمّى باسم عبد الولي، وعاش صوفياً كالصوفية، يأكل مثلهم ويلبس كما يلبسون، ويخلص لله ربّ العالمين، وكان اختياره لاسم «عبد الولي» نأياً بنفسه أن يكون من الأولياء! وتأكيداً أنه ليس إلا عبداً من عباد الله كما كان النبيّ ﷺ يقول عن نفسه! ولما توفي أقاموا على ضريحه بهلسنكي شاهداً كتبوا عليه اسمه «عبد الولي» بحروف عربية، وله مذكرات في حياته الروحية، وعن إقامته بين المسلمين، وتجاربه الصوفية أو الدينية معهم.

* * *

٢٥٠ - الفرجي (العالم المجرب للتصوف)...

أبو جعفر محمد بن يعقوب بن فرج، وشهرته الفرجي، من أهل سامرا، ووفاته بالرملة سنة ٢٧٠ هـ أو نحو ذلك، وكان من علماء الصوفية الذين أحكموا علومهم وأتقنوها، وله التصانيف فيها، ومنها «كتاب الورع»، وكتاب «صفات المريدين»، نوّه بهما أبو نعيم، واتبع في تآليفه طريقة الحارث المحاسبي -فقد صحبه وأخذ عنه، وكتابته في التصوف عن تجربة وممارسة، وليست كتابة منقولة، وظل عشرين سنة كما يقول لا يسأل في مسألة إلا وينازلها، أي يجرّبها ويناقشها ويمحّصها قبل أن يتكلم فيها، وكان المدافع عن الصوفية المتحققين، ويرفع من شأنهم وينتصر لهم، بينما يضع المدّعين ويُزري عليهم، ومن ذلك أنه كان ينكر «الزعقة»، فلما عاتبوه في ذلك قال إنما أنكرها على الكذّابين؛ ويروى عن نفسه أنه زعق ثلاث مرات في حياته، وكانت مناسبتها أنه شاهد صوفياً من الشطّاحين وقد أخرجوه من السجن ليُضرب على جسر بغداد، وتجمع الناس للفرجة وكان هو منهم، والكل يتعجب من صبر الرجل على الجلد، فتقدم الفرجي منه ليسأله عن سّر ذلك، وهل هناك وقت يكون فيه الضرب سهلاً هكذا، فأجابه الرجل: نعم، إذا كان من ضُربنا له يرانا !- يريد إذا كان الله يشهد ما يفعلونه به، فعندئذ يصبح العذاب في سبيله محتملاً! وقد أبدهت الإجابة الفرجي ولم يتمالك نفسه فصاح. وأقول: مَن لا يملك من القرّاء إلا أن يصيح مثله عندما يقرأ هذه الإجابة !

* * *

٢٥١ - فرقد السَبَخي (التابعي الثقة)...

أبو يعقوب فَرْقَد السَبَخي، من المطّلعين على كُتُب اليهود والنصارى، والإسرائيليات لذلك كثيرة في كلامه، يقول: «قرأت في التوراة»، و«قال عيسى بن مريم»، «وكان ملوك بني إسرائيل». وحتى رواياته من الحديث النبوي يورد فيها ما يتصل بالإسرائيليات، يقول «أوحى الله تعالى إلى نبيّ من الأنبياء»، «ونِعْمَ الإخوة لكم بنو إسرائيل». وربما كانت إسرائيلياته مما تحوي كُتُب نشيد الإنشاد، وسفر الأمثال، والمزامير، وإنما ليست بكلماتها، وليس هناك ما يدل على أصل ما يقول نقلاً عن عيسى بن مريم، ولذا اختلفوا في تقييم مروياته من الحديث، وفي حفظه، وقالوا ليس بصاحب حديث، وأحاديثه بها ضعف ومُنكره، ولسنا ندري: أنعدّه دليلاً على تأثير اليهودية في التصوف الإسلامي، أم لا نعتد بردّه ما يقول إلى مؤلفات اليهود، ونعتبر ذلك منه حيلة يقوّي بها تأثير ما يقول ؟ ونحن نعتمد فيما يرويه على تلميذه جعفر ابن سليمان، ويقول جعفر إن فرقداً إنما أخذ عن أنس بن مالك، وسعيد بن جبير، وإبراهيم النخعي، ومُرّة الطيب، وجابر ابن زيد أبي الشعثاء. - ولكننا لا نعرف لما يقول مصدراً، ولم نستدل له على طريقة، ولم نر أنه يصدر عن فلسفة معينة، ثم إنّ وأمثاله ضحلة، وحِكَمُه عادية، ومع ذلك كانت له شهرة، وكانت وفاته في طاعون البصرة سنة ١٣١ هـ. وممن سمعوا له عبد الواحد بن زيد، والحَكَم بن أبان، وروى له عبد الله بن أحمد بن حنبل. ومن أقواله: أمهات الخطايا ثلاث: الكبر، والحسد، والحرص، ومن هؤلاء استُلّ ست، هي: الشبع، والنوم، والراحة، وحُبّ المال، وحُبّ الجماع، وحُبّ الرياسة، فصار الجميع تسعاً.- وقال: ويلٌ لذي البطن من بطنه، إنْ أضاعه ضعف، وإنْ أشبعه ثَقُل. وقال: من أصبح حزيناً على الدنيا أصبح ساخطاً على ربّه. ومن جالس غنياً فتضعضع له، ذهب ثلثا دينه. ومن أصابته مصيبة فشكاها إلى الناس فكأنما يشكو ربَّه عزّ وجلّ. وقال: كان ملوك بني إسرائيل يقتلون قُرّاءهم على الدين، وإن ملوككم إنما يقتلونكم على الدنيا، فدعوهم والدنيا أي يعني: يريدنا أن لا نجاهد ولا نأمر بمعروف ولا ننهى عن منكر. وأطلق فرقد على أصحاب القصور أنهم «أشباه اليهود»، وهو اسمٌ على مُسمّى! وقال: يا أصحاب القصور، يا أشباه اليهود! إنْ أُعطيتم لم تشكروا، وإنْ ابتليتم لم تصبروا، ليس فيكم خير بعد العذاب.- يعني لا ترعووا.- وقال: ما انتبهت من نوم لي قط

إلا ظننت مخافة أن أكون قد مُسخت.. يعنى مُسِخ كاليهود لأنهم عصوا الله. وقال: الغريب من ليس له حبيب.. وهو تعبير جميل وله معان كبيرة.

وفرقد السبخى كان يسكن البصرة، وكان تلاميذه كثيرين، وكان لا يطعم إلا كِسْر خبز الشعير الأسود والملح، وكان يُطعم منهما ضيوفه، والتصوّف طرحٌ للتلهى والتمنّى، والجِدّ فى اللحوق والتلقّى.

* * *

٢٥٢ - الفزارى (الصوفى المؤدب)...

أبو إسحق إبراهيم بن محمد بن الحارث بن أسماء بن خارجة الفَزارى، المتوفى سنة ١٨٨هـ (٨٠٤م)، من العلماء الكبار، وكان لأهل السنة إماماً، وعلى أهل الزيغ والبدعة زماماً. وميلاده بالكوفة، وقَدِم دمشق، وحدّث بها، وكان من أصحاب الأوزاعى ومعاصريه، والاثنان إماما السنة فى وقتهما بالشام. وقال فيه ابن عساكر: والفزارى هو الذى أدبّ أهل الثغر - يقصد بيروت وأطرافها - وعلّمهم السُنّة، ورحل إلى بغداد فأكرمه هارون الرشيد وأجلّه، وقال له: أيها الشيخ، إنك فى موضع من القُرب»، فقال الفزارى: إن ذاك لا يغنى عنى يوم القيامة من الله شيئاً!. وكان الفزارى والفُضَيْل ابن عياض كفرسى رهان، فقال الصوفية: فضيل رجل نفسه، والفزارى رجل عامة. وكان يقول: الناس ليس دأبهم الكُفر، وإنما هو الجهل وقلة التعقل، والصوفى عليه تعليمهم وتأديبهم، وإنما يُعرف الصوفى من غير الصوفى، أنّ الصوفى «معلم»، وخير تلاميذه الصغار، لأنه يشكل تفكيرهم ويصوغ عقولهم، ليروا الله بقلوبهم، فترسخ فى اعتقادهم «لا إله إلا الله». وكان يقول لمريديه: الناس فى حاجة إلى «المربى» فافعلوا كما فعل نبيكم. فلما مات الفزارى قال فيه عطاء: ما دخل على أهل الإسلام من موت أحد ما دخل عليهم من موت أبى إسحق الفزارى. وكان إذا حدّث تناقلوا حديثه، فإذا سئلوا من حدّث به قالوا: حدّثنا به الصادق المصدوق أبو إسحق إبراهيم الفزارى. وكان الناس فى وقته يتكلمون فى القدر فتصدّى لهم، والتصوف اتّباعٌ للنبىّ ﷺ، ومتابعة للجماعة، والكلام فى القدر بدعة. وسألوه: أمؤمنٌ أنت حقاً؟ فقال: إن السؤال فى ذلك بدعة، ولم نُكلَّف ذلك فى ديننا، ولم يشرّعه نبيّنا، والقول فيه جدل عقيم، والمنازعة حَدَث وهُزء. وردُّك على من يسألك: «نعم أنا مؤمن» لا توجب لك الإيمان إن لم تكن كذلك فعلاً. ورفضُك الجواب لا يُخرجك من الإيمان إن كنت

مؤمناً. وليس لبشر أن يكفّر الناس وينازع الله علمه بهم، فاصبر نفسك على السُّنّة، وقفْ حيث وقف القوم، وقل بما قالوا، وكفّ عمّا كفّوا عنه، واسلك سُبل سلفك الصالح، فإنه يسعك ما وسعهم، وقد قال فيهم الله: ﴿مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا﴾ (الفتح ٢٩).

وفلسفة الفزارى فى التصوف تقوم على أساس أن الفرائض من الإيمان، ولا يُطلب الإيمان بلا عمل، والناس يتفاضلون فى إيمانهم، وليس برُّهم وفاجرهم فى الإيمان سواء. ودليل الفزارى الحديث: «الإيمان بضعٌ وسبعون - أو بضعٌ وستون جزءاً، أولها شهادة لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق. والحياء شعبة من الإيمان»، وقول الله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ (الشورى ١٣)، فالدين هو التصديق، وهو «الإيمان والعمل»، فوصفَ الله الدين قولاً وعملاً، فالتوبة من الشرك قول، وهى من الإيمان، والصلاة والزكاة عمل.

ومقام الفزارى هو مقام التائبين والحامدين، يقول: من قال الحمد لله على كل حال، فإن كانت نعمة كانت لها شُكراً، وإن كانت مصيبة كانت لها عزاء. -والتوبة: أن تخشى الله فى نفسك، وتندم على ذنبك وتنتبه من غفلتك، وتحفظ لسانك، وكلما هممت بذنب أن تستحى من الله.

* * *

٢٥٣ - ابن فلاح (محمد)...

محمد بن فلاح المتوفى سنة ٨٦٦ هـ (١٤٦٢م)، وكانت أمه قد تزوجت بعد أبيه ابن فهد الحلّى، وكان محمد ما يزال طفلاً آنذاك، وابن فهد كان صوفياً مرتاضاً وصاحب حال وذوق، ونشأ ابن فلاح فى هذه البيئة الجديدة عليه وتصوّف منذ طفولته، وكان اهتمامه بذلك الفرع من المعرفة الدينية لما سمع من كرامات أولياء الصوفية، وكان يريد لنفسه أن يكون صوفياً صاحب كرامات، ولمّا كبر تزوج إحدى بنات شيخه ابن فهد، واعتكف مرة فى جامع الكوفة لمدة سنة كاملة، وكان يقتات بشىء من دقيق الشعير، وصار له سمت الصوفية، وكان يبهر من يلتقى بهم بشخصيته، وادّعى المهدية، ووعد بأن يغزو العالم ويفتح الممالك ويغزو البلاد ويوزعها على أتباعه، وتعلّم الشعبذة، وكان يتوجه إلى واسط حيث كان الناس يعيشون فى فقر شديد وجهل مطبق،

فيصنع شعبذاته ويدعوهم إليه، وكَسَب إلى صفه الكثير من العشائر في البطائح، وسمّى نفسه محمد بن فلاح المشعشع، وأطلق على حركته اسم المشعشعين، ومعنى الشعشعة أن المبدأ قد سَرَى من صاحبه إلى التابع حتى امتلأ به، وأن مبادئه كالنور يفيض ويتشعشع منه، فإذا تشعشع التابع فإنه يكتسب مناعة ويتخشّب جسمه ويتصلّب، ويمتنع أن ينال منه أحد، حتى لتغرس فيه السيف فما ينغرس، ويأكل صاحبه السيوف فما تؤذيه، والصوفية المشعشعين: هم الجهادية الذين تلقوا على محمد بن فلاح، وعُدوا منه، وخرجوا خلفه فدائية، يعارضون السلطة بالسيف تحت رايته، باعتباره المهدى المنتظر. وطوّر ابن فلاح دعوته من المهدية إلى النبوة، وادّعى بعد النبوة الإلهية، ووصف نفسه بأنه أعلم أهل الأرض، ووضع كتاباً في التصوف أطلق عليه «كلام المهدى»، ويتضمن خُطَبه ومنشوراته، وتشبه منشوراته منشورات المهدى السوداني، وكتاباً آخر أسماه «مشعشعان»، وعارض القرآن، فمثلاً عارض سورة الرحمن كالتالي : «بسم الله الرحمن الرحيم. صدق الله العظيم، المنّان الحليم، الغفور الديّان، مبدّل السيئات عفواً ومغفرةً وإحساناً، لا إله إلا هو الرءوف الحنّان. والأرض وضعها للأنام، فيها فاكهة والنخل ذات الأكمام، والحَبّ ذو العصف والريحان، فبأى آلاء ربكما تكذّبان. الرحمن الرحيم، واسع المغفرة عن المذنب الجان، ربّ المشرقين، وربّ المغربين، فبأى آلاء ربكما تكذّبان. الخالق البارئ المصوّر للإنسان، له الأسماء الحسنى، فَجَلّ عن الخلل والنقصان. مرج البحرين يلتقيان، بينهما برزخ لا يبغيان، فبأى آلاء ربكما تكذبان. اللطيف، المنعم على عباده بالغفران، الذى جعل أنبياءه وأولياءه بَحْرَىْ العرفان، يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان، فبأى آلاء ربّكما تكذبّان». وواضح أنه استخدم طريقة القَصّ واللصق، فكلمات من القرآن من هنا على كلمات من هناك وما أتى بشىء من عنده، الأمر الذى يدل على تشوّش في الفكر واضطراب في السلوك، ويجزم بأن صاحبه يعانى من الفصام، وينسب لنفسه لذلك ما ليس له، مدّعياً أنه له، وكم تُرتكب من مآس باسم التصوّف، وكم يقال من ترهات وأضاليل وأكاذيب باسم الدعوة الصوفية، ومن ذلك هذه السورة الأخرى، التى يزعم أنها من القرآن المُوحَى إليه. يقول :«بسم الله الرحمن الرحيم، فهذا أوان أخذ الثأر بأمر الملك القوى الجبّار، فالواجب

على سايرِ أهل الأبصار، السعى والدخول فى سلك الأنصار، ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون. أجيبوا داعى الله، وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم. اللّهم صَلّ على سايرِ الأنبياء والمرسلين والشهداء والمقربين، وأعنْ اللّهم وَلِيَّك القائم بأمرك، الصادع بما أمرته، القائم بوظائف ما حَمّلته، لأخذ ثأرك وثأر خاصتك من خَلْقك، وصفوتك من عبادك، حتى تُملّكه مشارق الأرض ومغاربها، بَرّها وبحرها، سهلها وجبلها، حتى تُبلغه نهاية المقصود، وترفعه إلى مقامك الرضىّ المحمود. اللّهم انصر ناصريه، واخذل خاذليه، ودمدم مَن غشّه وناواه. إنك تسمع وترى برحمتك يا أرحم الراحمين».

وواضح أن هذا منشور من المنشورات التى يمكن ان تستخدمها الجيوش «للغزو العقلى» قبل «الغزو العسكرى». وكانت هذه الطريقة متّبعة عند المشتغلين بالتصوف السياسى لهذا الزمان، وقد فعل ذلك محمد نور بخش، والاثنان يدينان بالطريقة إلى أحمد بن فهد الحِلّى، وكانا من تلاميذه وادّعيا المهدية.

وابن فلاح حلولى، وكتاباته فيها تخليط كثير، ولم تكن عبقرية منه أن اختار لطريقته اسم الشعشعانية، فالحلاج استخدم الشعشعانى، وكذلك الشريف الرضى، والشاعر محمد بن حُسام. والفارق أن مريض الفصام تكون له قدرة على السيطرة على من حوله حتى ليبدو أنه ينوّمهم مغناطيسياً، ثم إن ابن فلاح كان يعلمهم الكيمياء، ويطلى أجسامهم بحجر الطلق فلا يحرقها النار. ومنطقة البطائح التى اتخذها مقراً له مشهورة بمثل هذه الأشياء، وكان أحمد الرفاعى صاحب الطريقة الصوفية المشهورة من هذه المنطقة، والرفاعية اشتهروا بأنهم يأكلون الأفاعى أو يبلعونها ،ولا تحرقهم النار، ويلعبون بها؛ وتعلّم هو وأتباعه ذلك من أهل البطائح، واستغل أحمد الرفاعى ذلك أبشع استغلال، وتعلم الحلاّج هذه الشعبذة فى واسط، وكان المغيرة ابن سعيد، وبيان بن سمعان، من المشعبذين، ومن المفيد أن نعلم أن النبىّ إبراهيم عليه السلام كان من البطائح، والمعروف أنهم حاولوا إحراقه ولم تؤثر فيه النار. وربما ظلوا من وقت إبراهيم يحتالون ليقلّدوا فِعْل الرّب فى ذلك.

ولقد اتخذ ابن فلاح قرية الحويزة من البطائح مركزاً له، بينما اتخذ الرفاعى قرية أم عبيدة، ويبدو أن هذه المنطقة كانت توحى للمتصوّفة فيها بادّعاء المهدية،

وادّعى الرفاعى المهدية وقال عن نفسه أنه مجدّد القرآن، ويتصرّف فى الأرض والسماء. وكانت حركة المشعشعين التى قادها الصوفى الدعىّ محمد بن فلاح، شبيهة بحركة الخوارج والقرامطة، وبدأ المشعشعون دعوتهم باعتبارهم طريقة صوفية، وانتهوا إلى أن يكونوا حركة سياسية. وابن فلاح كمفكر صوفى، قيل فيه أنه: جمع بين المعقول والمنقول، وأنه كان صاحب رياضة ومكاشفة وتصرُّف، وأن طريقته أو حركته كانت من طرق أو حركات الغوالى، مثلها مثل الكشفية والبابية. وطريقته وطرق هؤلاء المدّعين، لا يمكن نسبتها إلى التصوّف الإسلامى، وأصحابها لا يمكن إدراجهم ضمن المسلمين.

* * *

٢٥٤ - الفوى (السنى)...

حسن بن علىّ بن منصور زين الدين الفُوّى، كان من المتصوفة الأفاضل، وأصله من فُوّة بقرب الإسكندرية، ولذا كان اسمه الفُوّى، ولكنه ليس مصرى الأصل وإنما هو من أهل مكة، وميلاده بها، وأتى إلى مصر، وبها أقام، واشتهر كمتصوّف، وجاءت وفاته بالقاهرة سنة ١١٧٦ هـ/ ١٧٦٣م، ولعل أبرز كتاباته كتاب «الحقائق والإشارات»، يتحدّث فيه فى الطريقة، ويشرح الاصطلاحات، ويهدى إلى السبيل القويم والمنهج السليم، وتصوُّفه هو التصوّف السُّنّى، وعنده أن مَن لم يكن على السُّنّة فهو ليس بالفتى، وله فى الفقة السُّنّى: «وُسْعُ الاطلاع على مختصر أبى شجاع» أربع مجلدات، وكان مولعاً بالتاريخ وسِيَرِ الأحداث، فكتب «الحجج القاهرة فى تاريخ مصر القاهرة» منظومة، وديوانه يجمع بين مقتضيات الحياة وتجلّيات العبادة.

* * *

٢٥٥ - الفيضى (العميد)...

السيد محمود أبو الفيض، المنوفى، الحسينى، عميد السادة الفَيْضيين، وولادته فى منوف من مصر المحروسة، سنة ١٨٩٢م، وكان والده من كبار رجال الأزهر والقضاء. والفيضى يجمع فى دعوته للتصوف بين الإصلاح الدينى والإصلاح الاجتماعى، وأسس لذلك أول مجلة إسلامية، هى: لواء الإسلام سنة ١٩٢٢، وأسّس ما سمّاه «الكلية الصوفية والفلسفية» سنة ١٩٢٦م، يعنى بها وحدة التصوف والفلسفة، وله المصنفات التى أهمها «كتاب الوجود»، و«وحدة الدين والفلسفة والعلم»، و«الله أكبر حكمة وعقيدة»، و«نفائس الحكمة»، و«نشيد

الأرواح»، و«بداية الطريق إلى مناهج التحقيق»، و«معالم الطريق إلى الله»، و«المدخل إلى التصوّف»، و«شرح منازل السائرين للهروى». ويقول الفيضى: إن التصوف علم وذوق ووجدان، وتحقيق وعرفان، لا يفهمه مَن جهله، ولا يعرفه إلا من تذوقه، وكُتُب المتقدّمين فيه على شدّة نفعها للسالكين، ونفاسة ما احتوت من أقوال الأولياء والعارفين، قد قلّ الانتفاع بها، لشدّة تعقيدها، وانغلاق عباراتها وتهويش دلالاتها. وموضوع التصوّف: هو عرفان الذات الإلهية وما يُنسب إليها من نعوت وأفعال، وما يقع بين العبد وربّه من مواجيد ومُعارَفة وأحوال ، وشَرَفُ العلم بشرف موضوعه وسمو غايته، ولقد أصبح أكثر المترسّمين له حرباً عليه، وتصدى لنقده قوم من غير أهله لم ينهلوا من بحره ، ولم يَخْبُروا قواعده، ولم يسلكوا نهجه، ومن أجل ذلك وضع الفيضى كتابه الشامل «معالم الطريق»: ليكون لهذا العلم كالأم، ولطلابه كالمرجع، أو هو دائرة معارف صغيرة شاملة لعلوم الصوفية وأقوالهم وأحوالهم ومكالماتهم ومصطلحاتهم؛ أما كتابه «المدخل إلى التصوف» فهو كمقدّمة لكتابه هذا الأكبر، ويضم أربعة أقسام أو كتب، هى: كتاب المفتاح، وكتاب الشريعة، وكتاب الطريقة، وكتاب الحقيقة، واستتماماً للفائدة فقد قفّى عليه بكتاب خامس هو: «جمهرة الأولياء وأعلام الصوفية» ليكون نموذجاً مكملاً لأخلاق القوم ونظمهم وحبانهم ومناهج طرقهم. ويفرق الفيضى بين التصوف والفلسفة: حيث يستمد الصوفية المعرفة من الله مباشرة بعد تهذيب النفس ورياضتها من النقائص، وتصفية القلوب من الشوائب، بينما يتحصّل الفلاسفة المعرفة بكفاية العقل والحسّ، وكلاهما قاصر عن إدراك الحقيقة الغائية ـ حقيقة الوجود المطلقة. والعارف الصوفى تشرق له حكمة الحقّ فى الكائنات، ثم يستقرئ وحدات الكائنات طلباً لزيادة الإيمان ، والفيلسوف تلمع له بوارق نوع الحق فتشغل ذهنه وعقله فيطلب المعرفة بالعلّة، ويستقرئ الوجود مستدلاً على العلّة بمعلولها، وعلى الصانع بالمصنوع.

ويقول الفيضى فى كتابه «بداية الطريق»: أنه لمّا وضع «معالم الطريق» فإنه كان للبالغين، فصنّف «بداية الطريق» ليكون صنواً له للمبتدئين، ومنهجاً للسير والسلوك فى شرح حقيقة التوحيد والتنزيه، وسيرة النبىّ الكريم، وكونه خاتم النبيين، والقرآن آخر الكتب، ومعانى القضاء والقدر والموت، والقيامة والحساب والميزان، والعلم وفضله، والأمر

بالمعروف والنهى عن المنكر، والطاعات والمعاصى والنية، ويتدرج من ذلك إلى التصوف ومصادره ، وأخلاق الصوفى، ومراحل السلوك، وعلاقة الشيخ بالمريد، وآداب الإخوان مع بعضهم البعض، وآداب المريد.

ومجموعة كتب الفيضى تشكّل موسوعة متكاملة وعصرية فى التصوف، يُستغنى بها عن كل القراءات الأخرى، وقد صاغها بأسلوب جميل وعبارة رائعة وإخلاص متدفق . وشَرْحُه للهروى قد أوفى فيه وبلغ الكمال.

* * *



٢٥٦ - القاري (الملا الهروي)...

علي بن محمد نور الدين، المُلاّ الهروي القاري، ولد في هُراة، وسكن مكة وتوفي بها سنة ١٠١٤ هـ، وكان يكتب في كل عام مصحفاً وعليه طُرز من القراءات والتفسير، فيبيعه فيكفيه قوته من العام إلى العام، وله تصانيف كثيرة، منها «بداية السالك»، و «تعليق على بعض آداب المريدين لعبدالقاهر السهروردي»، و «سيرة الشيخ عبدالقادر الجيلاني»، و«رسالة في الردّ على ابن عربي في كتابه الفُصوص، وعلى القائلين بالحلول والاتحاد»، ومن كلامه في ذلك: أن بعض جهلة المتصوفين يقولون للمريد عند تلقينه كلمة التوحيد، أن جميع الأشياء باعتبار باطنها متحدة مع الله، وباعتبار ظاهرها مغايرة له وسواه، فقلتُ هذا كلام ظاهر الفساد، مائل إلى وحدة الوجود أو الاتحاد، كما هو مذهب أهل الإلحاد، فالله خالق كل شئ، أي موجود ممكن، وفي عالم مشهود، ومن المحال أن يكون الحادث بباطنه متحداً بالقديم الذي هو الله سبحانه.

ويبيّن القاري بُطلان الأحاديث التي يستند ابن عربي وغيره إليها من الزاعمين بالحقيقة المحمدية والنور المحمدي، مثل: «كنتُ نبياً وآدم بين الماء والطين»، أو «كنت نبياً وآدم لا ماء ولا طين»، أو أنه ﷺ: «كان نوراً يسبح حول العرش»، أو «كوكباً يطلع في السماء»، مما ذكره عُمَر الملا في كتابه «وسيلة المتعبّدين»، وانتحلها ابن سبعين، فإنها أحاديث كلها كاذبة!

ويقول القاري عن نور النبيّ ﷺ: إنه في غاية الظهور شرقاً وغرباً، والله يسميه في كتابه نوراً، وفي دعائه عليه السلام يقول: «اللهم اجعلني نوراً»، وفي التنزيل: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ﴾ (الصف ٨)، فذلك ما ذكره الله عن نور النبيّ ﷺ، وليس ما يدّعيه هؤلاء.

وللقاري كتاب «تذكرة الموضوعات»، وفيه يقول: إن حديث «لولاك ما خلقتُ الأفلاك» الذي يزعمه ابن عربي، حديثٌ موضوع، وابن عربي كاذب، وإن كان معنى الحديث صحيحاً، فقد روى ابن عباس عن النبيّ ﷺ: أتاني جبريل فقال: يا محمد لولاك ما خلقت الجنة، ولولاك ما خلقت النار»، وفي رواية لابن

عساكر: «لولاك ما خلقت الدنيا»، والحديث قد يعنى كما يقول الغزالي: أنه كان مقدّراً أن النبيّ ﷺ يكون نبياً قبل الخلق، فالذى سبق الخلق هو «التقدير» لا «الإيجاد»، وليس يعنى أسبقية الوجود المحمدى أن نبينا كان موجوداً بشخصه قبل وجود آدم، ولكن وجوده كان الوجود الذهنى الذى يسبق الوجود العينى، والذى سبق الخلق هو التقدير لا الإيجاد. وهذا كلام يتوافق مع القرآن ويقضى به العقل.

* * *

٢٥٧ - القاشانى (أبو الغنائم)...

كمال الدين عبد الرزّاق الكاشى أو الكاشانى أو القاشانى، صاحب كتاب «اصطلاحات الصوفية»، وهو كتاب فى ألفاظ القوم، جاء شرح القاشانى لها بعد أن قام بشرح لكتاب «منازل السائرين للهروى»، وكتاب «فصوص الحكَم» لمحيى الدين بن عربى، فسألوه أن يفسّر لهم ما استعجم من الألفاظ. واعتبُر الكتابُ مرجعاً فى المصطلح الصوفى، واقتبس منه التهانوى فى الكشّاف، والكمشخانوى فى جامع الأصول، والحفنى فى المعجم. وكان القاشانى من أقطاب الطريقة السهروردية ورأسها لفترة، وكان من علماء التفسير، وله غير ما سبق مؤلفات «تحفة الإخوان فى خصائص الفتيان»، وكتاب الفتوة «فتوت نامه»، وكتاب «كشف الوجود الغر» فى شرح تائية ابن الفارض، و«السراج الوهّاج فى تفسير القرآن»، و«تأويلات القرآن»، و«رَشْح الزلال فى شرح الألفاظ المتداولة بين أرباب الأذواق والأحوال». وتوفى فى الثالث من محرم سنة ٧٣٦ هـ بشيراز، ودفن بها فى خانقاه صوفية زينى ماسترى بجوار المسجد الجامع.

ويقول القاشانى: «اصطلاحات الصوفية لم يتعارفها أكثر أهل العلوم المعقولة والمنقولة، ولم تشتهر بينهم». وجاء شرح القاشانى موجزاً ولكنه يفى بالغرض، وإن لم يستوف فيه كل ما ورد من المصطلح، وله فيه لوامع ولطائف، تزيد من ترويح القلوب، وتبين المهمل من ذلك، وتفصّل المجمل.

ويقول القاشانى فى التصوف: أنه التخلُّق بالأخلاق الإلهية، وأنه ينبنى على خصال ثلاث، هى: التمسك بالفقر والافتقار، والتحقق بالبذل والإيثار، وترك التعرُّض والاختيار. وغايته: تهذيب النفس باجتناب الرذائل وتزكيتها عنها، واكتساب الفضائل، وتخليص القلب عن الكون باستئثار المكوِّن. والعبادة للعامة هى: غاية التذلل لله تعالى، وللخاصة هى: تصحيح

النسبة إلى الله، بصدق القصد إليه فى سلوك الطريقة؛ ولخاصة الخاصة: هى أن يشهدوا نفوسهم قائمة به. وخرقة التصوف: هى ما يلبسه المريد من يد شيخه، إعلاناً للدخول فى إرادته والتوبة على يده، ويلتبس باطنه بصفاته كما يلتبس ظاهره بلباسه، وهو لباس التقوى ظاهراً وباطناً.

ويقول القاشانى عن الحقيقة المحمدية: هى الذات مع التعيّن الأول، والتجلى الثانى هو الذى تظهر به أعيان الممكنات الثانية. والقاشانى يتأسّى بابن عربى فيما قال، ومضمون كلامه: أن حقيقة نبيّنا محمد ﷺ وذاته موجودة قبل الخلق، باعتبارها عيناً وحقيقة ثابتة فى العدم والأزل، وقوله ذاك -وهو خروج واضح عن التوحيد، كُفرٌ بالله وبوحدانيته. وقانا الله شرّ اعتقاده، وفساد تأويله.

* * *

٢٥٨ - ابن قاضى سماونة...

بدر الدين محمود بن إسماعيل، وشهرته ابن قاضى سماونة، وكان أبوه قاضياً بهذه البلدة من أعمال كوتاهية بتركيا، وله كتاب «مسرة القلوب» فى التصوّف، وكتاب «الواردات الغيبية» الذى تولى شرحه الشيخ عبدالهادى إلهى. وهو فيهما من المؤيدين للتصوّف، واهتمامه به من الناحية الأخلاقية، أو أنه كان معنياً بالتصوّف الأخلاقى. وفى الكتابين يشرح مصطلحاته وما ينصح به للمريدين، والكتابان لذلك من الكتُب التعليمية. وفيهما: من أراد هذا العلم (يريد التصوّف)، فإن كان لنفسه فليقلّ منه، وإن كان بغاية خدمة الناس فليكثر. ومن أراد هذا العلم لنفسه فقد اكتفى، ومن أراده للناس شُغل به.

وابن سماونة كان فقيهاً حنفياً درس بالقاهرة، واشتغل مؤدِّباً لأولاد المماليك، ثم رحل إلى أرمينية، وكان شيخها حسيناً الأخلاطى، فتصوّف عليه، وناظر بعض الفقهاء فى تفليس فى حضور تيمور، وعاد مع حاشية تيمور إلى بلده، واتصل عقب وفاة بايزيد، وأثناء الحروب التى نشبت بسبب ذلك، بموسى الذى نادى بنفسه سلطاناً على تركية أوروبا، فعيّنه قاضى عسكر، ثم قتل موسى وعفا أخوه محمد الأول عن ابن سماونة، وحدّد إقامته فى إزنيق، ثم قامت حركة دينية يتزعّمها من يدعى بور كلوجه مصطفى من تلاميذه، وكان أتباعه يسمونه دَدّه سلطان، وهم فرقة من الإباحية، وهرب ابن سماونة إلى زغرة من ولاية روم إيلى،

واتهُّم بأنه يريد السلطنة فقتلوه بسيروز. سنة ٨٢٣ هـ/ ١٤٢٠م وله كتب فى الفقه عند الحنفية منها «لطائف الإشارات»، و«جامع الفصولين»..

* * *

٢٥٩ - ابن قرة (معاوية)...

أبو إياس، البنّاء بالنهار، والبكّاء بالليل، وشهرتُه ابن قُرّة، وطريقته يوجزها فى دعائه: «اللهم إن الصالحين أنت أصلحتهم ورزقتهم يعملون بطاعتك، فرضيت عنهم. اللهم كما أصلحتهم ورزقتهم فرضيت عنهم فارزقنا أن نعمل بطاعتك وارضَ عنا». وابن قُرّة يعتقد العمل ويقول: «نعم، لأن أغدو فيما غدوت به كل يوم أحَبّ إلىّ من أقوم الليل وأصوم النهار». والعمل لابد له من العلم المُوَثّق، يقول: «كنا لا نعدّ مَن لا يكتب العلم، عِلْمُه علماً». ومن العلم عدم الخصومات فى الدين، يقول: الخصومات فى الدين تحبط الأعمال.ـ وأخرى بالمؤمن أن ينشد مجالس العلماء فهم أهل العقل والحجى، يقول: «جالسوا وجوه الناس فإنهم أحكم وأعقل من غيرهم، ولديهم العلم». ويقول: مكتوب فى الحكمة لا تجالس بحلمك السفهاء، ولا تجالس بسفهك العلماء. ولما قال له أحد أصحابه: إنى لأحبك»، فقال: ولِمَ لا تحبنى ولست لك بجار ولا قرابة!ـ ويقول: «إن القوم ليحجّون ويعتمرون، ويجاهدون، ويصلّون ويصومون، وما يعطون يوم القيامة إلاّ على قدر عقولهم».ـ ويتحسّر ابن قرة على ما يُضيّع المسلمون من العمل فيقول: أدركت سبعين رجلاً من أصحاب محمد ﷺ، لو خرجوا فيكم اليوم ما عرفوا شيئاً مما أنتم عليه اليوم إلا الأذان !ـ ومقام ابن قرة الرجاء والخوف، وكان من أصحاب مسلم ابن يسار، (توفى فى ١٠٨ هـ/ ٧٢٦م) فدخل عليه فقال: ما عندى كبير عمل، إلا أنى أرجو الله وأخاف منه! فقال ابن يسار: من خاف من شىء حذر منه، ومن رجا شيئاً طلبه ـ يقول ابن قرة: فكنت كلما عنّت لى شهوة «أدعها لما أخاف»، وكلما ابتليت ببلاء «أصبر عليه لما أرجو»، وإذا تحدّث القوم عن الله «أمسكتُ».

* * *

٢٦٠ - قتادة بن دعامة...

أبو الخطاب، كان ضريراً أكمه (يعنى وُلد أعمى)، وميلاده بالبصرة سنة ٦١هـ، وتوفى بواسط بالطاعون سنة ١١٨ هـ (٧٣٦م)، وله تماليم ومدرسة، وكبار الصوفية من تابعيه، أمثال سليمان التيمى، وحميد الطويل، وأيوب السختيانى، ومطر

الورّاق، ومحمد بن جحادة، ومنصور بن زاذان؛ وروى عنه من الأئمة الأعلام: شعبة، وهشام، والأوزاعي، ومعمّر، وعمرو بن الحارث، ومعمر، وليث بن أبي سليم، يعني رغم عاهته كانت له شعبية كبيرة.

وكان أحفظ أهل زمانه حتى قال فيه سعيد بن المسيب: «أنت أهلٌ أن تحدّث، ولم أر أحداً أسأل عمّا يُختلف فيه منك». وإذا قال ذلك ابن المسيب فكلامه ثقة. وكان قتادة فارساً من فرسان العلم ومن عشّاقه وعُبّاده، وإذا سمع الحديث يخطفه اختطافاً، ويأخذه العويل والزويل - أي القلق والانزعاج - حتى يحفظه. ومازال متعلماً حتى مات. والتصوف عنده احتفاظ واتّعاظ، وتعليم وتعلُّم. ومن أقواله في العلم: كفى بالرهبة علماً في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ (فاطر ٢٨). وعنده: أن القول لا يجوز بلا عمل: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ (فاطر ١٠)، فمن أحْسَنَ العملَ قَبِلَ اللهُ قوله.

ويحذر قتادة من المبتدع، ويوجب التحذير منه. وطريقته في العلم تقوم على عدم التكرير في المجلس، فتكرير الحديث يذهب بنور الكلام. والصوفي: هو الذي يأتي الخير بنشاط، وهو المؤمن المتحامل، والمُتقوّي.

ولقتادة غرام بالمصطلحات، ويقول عن الصوفية إنهم «العجّاجون إلى الله بالليل والنهار» - أي الذين يرفعون أصواتهم. ويقول: مازال المؤمنون يقولون ربَّنا ربَّنا في السرّ والعلانية حتى استجاب لهم».

والاعتبار عند قتادة ليس بالمال ولا بالعيال، وإنما بالإيمان والعمل الصالح، والقول عملٌ: ﴿فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ﴾ (البقرة ٢٠٠)، فهذا عَبْدٌ نوى الدنيا ولها أنفق، ولها شَخَصَ ونَصَبَ وعَمِلَ، ولها هَمُّه ونِيَّتُه، وسَدَمُه (أي ولعه ولهجه) وطُلْبته. ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً﴾ (البقرة ٢٠١)، فهذا عبدٌ نَوَى الآخرة، ولها شَخَصَ وأنفق، وعَمِلَ ونَصَبَ، وكانت الآخرة هَمَّه وسدَمَه وطُلْبَته ونيّته. وقال: ما نهى الله من ذنب إلا وقد علم أنه موقوع، ولكن تقدمة وحُجّة (يعني ينبّه إليه ويحذّر منه فيكون الإعلام به مقدماً حُجّة في محاسبته عليه إن أتاه)، ويجتمع الذنب الصغير إلى غيره على صاحبه حتى يُهلكه، وأهْيَب الناس للصغير من الذنب أورعهم عن الكبير. والمؤمن: حيّ القلب، حيّ البصر، سمع كتاب الله، فانتفع به ووعاه وحفظه وعَقَلَهُ عن الله. والضال:

أصم أبكم، لا يسمع خيراً ولا يحفظه، ولا يتكلم بخير ولا يعلمه. وهو في الضلالة متسكّع لايجد منها مخرجاً ولا منفذاً.

ويحذّر قتادة أهل الله من التكلُّف، والتنطُّع، والغلو، والإعجاب بالنفس، والفتن، ويطلب إليهم أن يخافوا الله، وأن يعملوا ويَنْصَبُوا ويدأبوا بالليل والنهار: ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَّ بَيْعٌ فِيهِ وَلاَ خِلاَلٌ﴾ (إبراهيم٣١). علم الله أن في الدنيا خُلّالاً يتخاللون بها، فلينظر الرجل من يخالل ويصاحب، فإن كانت الصُحبة والخُلّة لله فليداوم، وإن كانت لغير الله فليعلم أن كل خُلَّة ستصير على أهلها عداوة يوم القيامة إلا خُلَّة المتقين. وقال في قوله تعالى: ﴿وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ﴾ (الكهف ٤٦)، أنها كل ما أريد بها وجه الله تعالى. ومن يتقِّ الله يكن معه، ومن يكن معه الله فمعه الفئة التي لا تُغلَب، والحارس الذي لا ينام، والهادي الذي لايضل، ومن يطع الله في الدنيا تخلص له كرامة الله في الآخرة.

ومن تعاليم قتادة لتلاميذه، قال: مَنَع البرّ النوم، وكانوا ينامون قبل الإسلام، فلما جاء الإسلام أخذوا من نومهم وليلهم ونهارهم وأموالهم وأبدانهم ما تقرّبوا به إلى ربّهم». وكان قتادة يكثر من وعظهم فيقول: يا أيها الذين آمنوا اصبروا على أمر الله، وصابروا أهل الضلالة، فإنكم على حق، وهم على باطل، ورابطوا في سبيل الله، واتقوا الله لعلكم تفلحون. ومن يتّقِ الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب، ومخرجه من شبهات الدنيا، ومن الكرب عند الموت، وفي مواقف يوم القيامة. ويرزقه من حيث لا يحتسب، أي من حيث يرجو ويأمل، ومن حيث لا يرجو ولا يأمل. والمؤمن لا يُعرَف إلا في ثلاثة مواطن: بيت يستره، ومسجد يعمره، أو حاجة من الدنيا ليس بها بأس. واعتزال الشر أوجب، فإن اعتزلته اعتزلك.

وبعد: فهذه فلسفة قتادة في التصوف، أوضحها بالبيان، وأقول: التصوف توثّقٌ بالأصول للتحقّق للوصول.

* * *

٢٦١-القسطلاني...

أبو العباس شهاب الدين القتبي (٨٥١ ـ ٩٢٣ هـ) من علماء الحديث، وكان شديد الورع، وقارئاً يبكي الناس من قراءته ويغشى عليهم وَجْداً، واسمه القَسْطِي لانحناء في كاهله. وله مصنفات كثيرة، منها في التصوّف: «المواهب اللدنية في المنح المحمدية»، و «الروض الزاهر في مناقب

الشيخ عبدالقادر». وواضح أنه كان ضمن الطريقة القادرية أو الجيلانية، وهو معلم أكثر منه مبدع، وكلامه فى النبىّ ﷺ لم يقل به القرآن ولا السُّنة، وتمجيده للشيخ عبد القادر، وإفراده له بالخوارق، لا يجعله ثقةً كمرجع من المراجع فى علم وتاريخ التصوّف.

* * *

٢٦٢ - ابن قَسِىّ...

أبو القاسم أحمد بن الحسين، أول من مزج التصوف بالثورة على الفساد، وسعى إلى إقامة إمامة فاضلة يحكمها الصوفية. وكان رومياً من بادية شلب من بنى قُسِىّ، انتحلوا الإسلام واستعربوا، ولم يُخلصوا إسلامهم ولا عروبتهم، وعملوا ما من شأنه تقويض الدولة الإسلامية فى الأندلس. وكان ابن قَسِىّ خليعاً أحاط نفسه ـ كما يقول ـ بأصحاب السوء، إلا أنه برحمة من الله تعالى تاب وأناب، وباع أملاكه وتصدّق بها على الفقراء، وسلك مسلك الصوفية، وكان له رباطٌ يجمع فيه المريدين فيحدثهم فى التصوف والفلسفة، ويقتبس من الغزالى، وقبل كانت إشاراته للغزالى تمويهاً، بسبب أن الغزالى كان مقبولاً كفقيه وصوفى، إلا أنه فى الحقيقة كان على مذهب ابن مسرّة، ويتبع مدرسة المَرِيّة فى التصوف، التى كان منها ابن العرِيف، وابن بُرجان، والمَيورُقى، وكلهم كانوا معادين للفقهاء، أو بالأحرى للسُّنّة، ولهم وطأة على القضاة أصحاب الفتاوى الذين يحللون الحرام ويحرمون الحلال للأمراء. وقيل فى ابن قسىّ: إنه كانت له مخاريق، ولكنه كان مشعبذاً وصاحب حيل، يقصد بها التأثير على العامة وجمع الناس حوله ليصدقوا أنه المهدى والإمام. ولمّا توفى ابن العريف وابن برجان سنة ٥٣٦ هـ بشُبْهة السم دسّه لهما قاضى مراكش ابن حمدين بعد محاكمتهما، أسفر ابن قَسِىّ عن نواياه الحقيقية التى من أجلها انتحل التصوف، وقام بالثورة بعد سنة واحدة، أى سنة ٥٣٧ هـ، من موت ابن العريف وابن برجان ـ وكان قد درّب مريديه على القتال بدعوى الجهاد، وملأهم حماساً، فقد كان شاعراً فصيحاً، وأطلق عليهم اسم المرابطين. فأشار بأن يستولوا على قلعة ميرتلة غربىّ الأندلس، ونشرهم فى القرى المجاورة مقتفياً أثر ابن برجان ومتابعاً طريقته، وداعياً لنفسه إماماً، إلا أنه كصوفى لم يستطع أن يُوفّق كسياسى، فحالف الموحّدين حتى ولّوه أمر شِلْب، وطلب محالفة الفرنجة، فتآمر عليه مريدوه وقتلوه سنة ٥٤٦ هـ. ويبدو أنه مصنّف كتاب «خَلْع النعلَيْن فى الوصول

إلى حضرة الجَمْعيْن» وهو مختصر فى التصوف، وترتبط شهرته بهذا الكتاب، وباقتران اسمه بالتصوّف السياسى، وقد تولى الشرح عليه ابن عربى بعد أربع عشرة سنة من مقتله، وابن عربى - كما يُجمع النقاد - يدين بالكثير له فى فلسفته الصوفية كما يدين لابن مَسَرّة، وابن العَريف، وابن بُرجان، فإن أردتَ معرفة فلسفة ابن قُسِىّ فى التصوف فعليك بدراسة ابن عربى، لأنه صورة طبق الأصل من هؤلاء الأربعة المتمردّين على الإسلام وإن انتحلوه وادّعوا التصوف، يعنى أنه كان من القائلين بوحدة الوجود، وبالحلول والاتحاد، أى كان خارج دائرة الإسلام.

* * *

٢٦٣ - القشّاشى...

صفىّ الدين أحمد بن محمد بن يونس، الدجّانى، القَشّاشى (المتوفى سنة ١٠٧١ هـ)، أصله من القدس وكان جده يجمع القُشَاشة، وهى لُقاطة القَشّ وأشباهه كالزبالة والقمامة، والعامة تقول قشّت المرأة الدار أى كنستها بالمقشّة، ومحتمل أن القُشاشة كسَر الصَدَف، والقَشّاش هو الذى يتعيّش على جمعها، والنسب قشّاشى لأنه لم يكن هو الذى يتعيّش على القشاشة وإنما جدّه، فنُسب إلى جدّه، وسُمّى القشّاشى.

وله نحو السبعين كتاباً، أكثرها فى التصوف، ومنها: «شرح الحِكَم العطائية» يورد فيه الحكمة وحديثاً يناسبها، يريد أن يثبت أن هذه الحِكَم لم يبدعها صاحبها من نفسه، وإنما لها أصول من السُنّة النبوية؛ و«حاشية على المواهب اللدنّية» يفسّر بها الذوق والكشف وأن من اختصّ بهما فذلك من فضل الله، ويشرح معنى الولاية، ويذهب إلى ما ذهب إليه الآخرون من أن للولاية علماً بخلاف علم النبوة؛ و«السمط المجيد» فى طريق القوم، ومعنى السمْط: الخيط ينتظم فيه الخرز أو اللؤلؤ، فكذلك طريق التصوّف، على سماط واحد، أى على نَظْم واحد؛ و«كلمة الجود فى القول بوحدة الوجود». يشرح به فلسفة وحدة الوجود ويبرّئ من قال بها! وواضح أن هؤلاء الوجوديين كانوا مرتدين ونصارى، نتيجة الغزو الفكرى الغربى للبلاد الإسلامية من خلال الفلسفة والتصوّف معاً، وبطريق الشيعة أولاً وأخيراً.

* * *

٢٦٤ - القشيرى (زين الإسلام)...

أبو القاسم عبدالكريم بن هوازن

القُشَيْرِي، شيخ خراسان فى عصره، زُهداً وعلماً فى الدين، ولقبه زين الإسلام، واسمه القُشَيْرِى نسبةً إلى قبيلة قُشَيْر العدنانية المتصلة بهوازن. وهو صاحب الرسالة القُشَيْرية المشهورة فى التصوف، تناول فيها شيوخ الطريقة فى آدابهم وأخلاقهم ومعاملاتهم وعقائدهم بقلوبهم، وما أشاروا إليه من مواجيدهم،وكيفية ترقّيهم من بدايتهم إلى نهايتهم، لتكون لمريدى هذه الطريقة قوة، وقد وجّهها لجماعة الصوفية ببلاد الإسلام سنة ٤٣٧ هـ ، باعتبارهم الصفوة الذين فضّلهم الله تعالى على الكافة من عباده بعد رسله وأنبيائه، واختصّهم بطوالع أنواره، لعل فيها السلوى عمّا وصلت إليه الطريقة من تفريط وتراخ، وقلة مبالاة واحترام بالدين والشريعة، على يد قلّة متشبّهة بالصوفية، والتصوّف منهم بُراء، فمع انقراض أكثر المتحققين من أهل القدوة، وقلة الشباب المهتدين، كثر الأدعياء المقلّدون للسوقة، والساعون وراء الحكّام والنسوان، والمزيّفون للطريقة بما نسبوه لأنفسهم من حقائق الوصال، والمكاشفة بأسرار الأحدية، وزوال أحكام البشرية.

وكانت هذه الرسالة وما تزال، مرجعاً من المراجع الكبرى فى التصوف وعلوم الصوفية وأخبارهم، وقد تصدّى لها بالشرح والتفسير أعلام المسلمين من أمثال زكريا الأنصارى والعروسى.

وكان تأليف القشيرى لها تصحيحاً للفكرة الصوفية حتى يظل لها نقاؤها، فيقصد إليها القاصدون، وينهلون من منهلها الصافى.

ومن رأى ابن تيمية أن تأليف القشيرى للرسالة كان رداً على الحلولية والاتحاديين، وليبيّن أن طريقة مشايخ الصوفية تخالف ما عليه هؤلاء، فإنهم يجعلون الربّ حالاً فى المخلوقات، محدوداً بحدودها، متكلماً بحروفها، حتى ليجعلونه هو المتكلم على ألسنتهم، وهؤلاء كثيرون فى المنتسبين إلى الصوفية، وعلى مثل ذلك قُتل الحلاّج.

ويأخذ ابن تيمية على القشيرى امتداحه لعلم الكلام، والقشيرى يبدى تعجبه ممن يقول ليس فى القرآن علم الكلام، فالآيات كثيرة فى القرآن التى فى الأحكام الاعتقادية ودلائلها، وفى الجملة لا يجحد علم الكلام إلا رجلان: رجل جاهل ركَن إلى التقليد، أو رجل يعتقد مذاهب فاسدة.

ويعلق الشيخ سلامة العزّامى الصوفى الكبير بما يعنى: أن الكلام المنهى عنه هو كلام المبتدعة الذى نهت الأئمة من الخوض فيه، مخافة أن تعلق بأذهان ضعفاء الأمة

مفاهيم لا يستطيعون الخلاص منه. ويذكر الشيخ سلامة أن هناك علم كلام غير منهى عنه مثل علم الكلام الذى سلكه القشيرى، لمّا اشتدّ جدل المبتدعة، ولم يجد أهل الحق بداً من التشمير عن ساعد الجدّ والنظر فى الكتاب العزيز، واستخراج أصول الدين منه، للردّ على المبتدعة من القدرية والجهمية والحشوية، فألّف أهل الحقّ كتُب العقائد والتوحيد للردّ على هؤلاء.

ولقد كان القشيرى فقيهاً أصولياً جمع بين طرق الأشعرى والشافعى وابن فورك والإسفراييني. وله «لطائف الإشارات فى تفسير القرآن» يجمع فى تفسيره بين الشريعة والحقيقة، وله «حياة الأرواح والدليل على طريق الصلاح والفلاح»، و«المعراج»، و«شكاية أهل السُّنة»، و«الفصول»، و«التوحيد النبوى»، و«التيسير فى علم التفسير»، و«ترتيب السلوك»، و«التمييز فى علم التذكير»، و«القصيدة الصوفية».

والقشيرى من أصول عربية ـ كما سبق ـ وإن كان قد ولد ونشأ بخراسان. وأهله القشيريون من العرب الذين استوطنوا أُستُواى، وكانت ولادته سنة ٣٧٦ هـ، ومات أبوه وهو صغير فتربّى يتيماً، وقرأ الأدب فى صباه، وحضر إلى نيسابور ليتعلم الحساب لأجل قريته، فاتفق حضوره مجلس الدقّاق الصوفى، فأعجبه كلامه، ووقع فى قلبه، فلازمه وسلك طريق الإرادة، وقبّله الدقّاق وقد تفرّس فيه فجذبه، فأقبل عليه، وزوّجه ابنته فاطمة مع كثرة أقاربها الراغبين فيها. وحجّ القشيرى فى رفقة الإمام البيهقى صاحب السنن، والجويني والد الإمام الجوينى وغيرهما؛ وسمع ببَغداد والحجاز، وكانت له فراسة وفروسية، وكانت له الإمامة فى مجلس التذكير، وتوفى سنة ٤٦٥هـ.

واتبّع القشيرى فى تفسيره الفريد للقرآن استبطان الألفاظ، وعدم التوقف عند ظواهرها، واستنباط الإشارات منها، ففى قوله تعالى: ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ﴾ (البقرة ١٩٦) يقول كمثال: إن إتمام الحج على لسان العلم هو القيام بأركانه وسننه وهيئته، وعلى لسان أهل الإشارة الحجّ هو القصد، فقصدٌ إلى بيت الحق، وقصدٌ إلى الحق، فالأول هو حجّ العوام، والثانى هو حجّ الخواص، كما أن الذى يحجّ بنفسه يُحرِم ويقف، ثم يطوف بالبيت ويسعى، ثم يحلق، فكذلك من «يحج بقلبه»، فإحرامه بعقد صحيح على قصد صحيح، ثم يتجرّد عن لباس من مخالفاته وشهواته،

ثم باشتماله بثوبَي صبره وفقره، وإمساكه عن متابعة حظوظه من اتّباع الهوى، وإطلاق خواطر المُنَى، وما فى هذا المعنى. ثم الحاج أشعث أغبر، تظهر عليه آثار الخشوع والخضوع والتلبية. وأفضل الحجّ الشّجّ والعجّ: فالشّجّ صبُّ الدم؛ والعجّ رفع الصوت بالتلبية، فكذلك سفك دم النفس بسكاكين مخالفتها، ورفع أصوات السرّ بدوام الاستغاثة وحُسن الالتجاء، والوقوف بساحات القُربة باستكمال أوصاف الهيبة. وموقف النفوس «عرفات»، وموقف القلوب «أسماء الله الحسنى وصفاته»، و«طواف القلب» حول مشاهد العز، و«السعى بالأسرار» بين صفّى كشف الجلال ولُطف الجمال، ثم «التحلّل» بقطع أسباب الرغائب والاختيار والمعارضات بكل وجه.

وذهب القشيرى فى تفسير قوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ * الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ (سورة الزمر١٨): فيقول «اللام» فى قوله «القول»: تقتضى التعميم والاستغراق، والدليل عليه - أى على التعميم والاستغراق، أنه مدحهم باتّباع الأحسن، وعلى هذا الأساس فسّر القشيرى أن «سماع الأشعار بالألحان الطيبة مباح فى الجملة». ويقول ابن تيمية إن هذا الرأى يذكره طائفة، منهم أبو عبدالرحمن السُّلَمى، وهو غلط لأن الله لا يأمر باستماع كل قول بإجماع المسلمين حتى يقال اللام فى «القول» للاستغراق والعموم، بل من القول ما يَحرُم استماعه، ومنه ما يُكره، واللام ليست لعموم كل قول، وإنما لقول معهود معروف بين المخاطِب والمخاطَب، وهذا القول هو الذى أثنى عليه الله وأمر باستماعه وهو القرآن الكريم، ويتضمن هذا السماع الوَجْد المشروع.

ويقول القشيرى فى تفسير: ﴿فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ﴾ (الروم١٥)، أنهم يحبرون يعنى بالسماع بالأشعار والألحان الطيبة والأنغام المستلهمة، ولا خلاف أن الأشعار أُنشدت بين يدَى الرسول ﷺ، وأنه سمعها ولم ينكر عليهم فى إنشادها، فإذا جاز استماعها بغير الألحان الطيبة فلا يتغير الحكم بأن تُسمع بالألحان. وقد جرى على لفظ رسول الله ﷺ ما هو قريب من الشعر، فكان الأنصار يحفرون الخندق ويقولون «نحن الذين بايعوا محمداً، على الجهاد ما بقينا أبداً»، فأجابهم الرسول ﷺ: «اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة، فأكرم الأنصار والمهاجرة». وقد سمع السلف والأكابر الأبيات بالألحان، وممن قال بإباحة الأكان من السلف: مالك بن

أنس، وأهل الحجاز كلهم يُبيحون الغناء، وكلهم مجمعون على إجازة الحُداء.

وينتقد ابن تيمية رأى القشيرى ويقول إنه منقول عن الغزالى والسُّلَمى، ويقول الشعر أعظم مما وصفه القشيرى، فقد ثبت عن النبىّ ﷺ أن من الشعر حكمة، فلا يتعين من حكمته أن يُسمَع بالألحان الطيبة، والسماع الحسن هو سماع القرآن، وسماع شعر الحكمة والمواعظ بدون ألحان.

ويستشهد القشيرى بأقوال للجنيد، فقد سألوه: ما بال الإنسان يكون هادئاً فإن سمع السماع يطرب؟ فقال الجنيد: إن الله تعالى لما خاطب الذَرّ فى الميثاق الأول بقوله: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى﴾ (الأعراف ١٧٢)، استفرغت عذوبة سماع الكلام الأرواح، فلما سمعوا السماع حرّكهم ذِكر هذا.

ويعلّق ابن تيمية بأن هذا الكلام لا يمكن أن يصدر عن الجنيد، لأنه أجَلّ من أن يقوله، ومذهب الجنيد يقوم على كراهة التكلُّف فى السماع فى الحضور والاجتماع عليه، وقد أُثر عنه قوله: السماع فتنة لمن طلبه، وترويح لمن صادقه.

والقشيرى وابن تيمية كلاهما على صواب، فابن تيمية ضد الغلو فى السماع، والقشيرى مع التوسط والاعتدال فيه.

وكتاب القشيرى «لطائف الإشارات» - كتفسير صوفى للقرآن- يوفّق فيه بين علوم الحقيقة وعلوم الشريعة، وينبّه إلى أنه لا تعارض بينهما، فكل شريعة غير مؤيدة بالحقيقة غير مقبولة، وكل حقيقة غير مقيدّة بالشريعة غير محصولة، والشريعة أولاً وأخيراً هى أن تعبده تعالى، والحقيقة هى أن تشهده تعالى. ومما لا شك فيه أن كتاب القشيرى «اللطائف» هو أبلغ أعماله، وهذا الكتاب بالذات يبين عن شخصية صاحبه، وهو شافعى أشعرى، وسُنّى متحفظ، والتصوف عنده: ليس ثوباً مرقّعاً أو خرقة بالية تُفرِد صاحبها عمن سواه، وتكون عَلَماً على تقواه، وإنما هو صفاء النفس من كدوراتها، ومن كان صادقاً فى طويته ونيّته فإنه محفوظ فى حالة اتحاته، ويُردّ فى حالة الجمع إلى حالة الفَرْق الثانى، ليؤدى الفرائض الواجبة عليه، ثم يعود إلى حالة الجمع مرة أخرى، وفى كل أحواله هو المُصرَّف بإرادة الله، ومن كان صادق البداية والوسيلة والغاية، كان المحفوظ من قِبَل الحق، فى كل كلمة ينطق بها، وكل حركة تصدر عنه، فإذا نطق نطق بالله، وإذا تحرّك تحرّك بالله، ومثله لا يكون غريب الأقوال أو الأفعال!

وقد عانى القشيرى أشد المعاناة لمعتقده، وكاد له الوزير أبو نصر الكندرى، وقبض عليه وإمام الحرمين، والرئيس الفراتى، وأبى سهل الموفق، ونفاهم ومنعهم من المحافل، وأوعز إلى الأوباش أن يعتدوا على القشيرى والفراتى، فجرّوهما فى الطرقات، وكالوا لهما أقذع السباب حتى وصل بهما الشرطة إلى محبس القهندر. ولولا أتباع القشيرى لظل فى السجن، ولكنهم اشتبكوا مع الشرطة وأخرجوا السجينين: الفراتى والقشيرى! وأما إمام الحرمين فكان قد فرّ إلى الحجاز، وكذلك هرب القشيرى وظل منفياً عشر سنوات! ولما قُتل الكندرى عاد إلى نيسابور، وعاش عشر سنوات يؤلف ويدرّس ويعظ. وكانت له بنت واحدة هى «أَمَة الرحيم» أم عبد الغفار الفارسى، وستة أبناء كلهم عبادلة وأئمة، سلكوا كأبيهم، وأبرزهم «أبو نصر» كان عالماً كأبيه، ومتصوفاً مثله، ومن شابه أباه فما ظلم، واستمع لإمام الحرمين وواظب عليه فحصّل طريقته فى المذهب، وكان يعظ فى المدرسة النظامية وفى رباط شيخ الشيوخ ببغداد، كما كان أبوه يفعل فى مسجد المطرز، ثم رجع فى أواخر حياته إلى نيسابور، يدرّس ويعظ بها إلى أن توفى سنة ٥١٤هـ. ﴿ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ﴾ (آل عمران ٣٤).

* * *

٢٦٥ - القصّار (شيخ الملامتية)...

أبو صالح حمدون بن أحمد، شيخ الملامتية الذى نشرها فى نيسابور وما حولها، وكان قصّاراً (أى صبّاغاً)، واشتغل بالفقه على مذهب الثورى قبل أن يتحوّل إلى التصوّف.

وقيل تلاميذه كانوا كثراً، وإنما أكثرهم أخذاً عنه كان عبد الله بن منازل، وربما كان ابن منازل من تابعى التابعين له، لأن القصّار توفى سنة ٢٧١ هـ، وابن منازل توفى سنة ٣٢٩ هـ.

والملامتية، الذين يرأسهم القصّار: هم الذين يسترون صلاحهم بأمورٍ يتداولها العوام وليست بمخالفات ولا معاصى، ويفعلون ذلك مبالغة فى الخفاء عن الشهرة. ولعل القصّار لذلك دائم اللوم لنفسه ولأصحابه، بدعوى أن سَيْر السلف تُشعره بالتقصير وبتخلّفه عن دَرْك درجات الرجال، وهم الذين قال فيهم الله تعالى: ﴿صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ (الأحزاب ٢٣).

وسأله تلاميذه عن سبب قلة نفع الكلام

فى التصوف فى أيامهم، وسمو وجَدْوَى كلام السابقين، فردّ القصّار أنه لإخلاص السابقين، فالسابقون تكلموا لعزّ الإسلام ونجاة النفوس، ورضا الرحمن، وهم يتكلمون لعزّ نفوسهم، وطلب دنياهم واعتقاد الخلائق فيهم.

وكان شديد القسوة فى نقد تلاميذه، ويلح عليهم فى سلوك طريقه المبنية على الضعف والفقر، والتضرّع والالتجاء؛ وينهاهم عن الكِبْر. وكان يقول: جمال الفقير فى تواضعه، فإذا تكبّر بفقره فقد أربى على الأغنياء فى التكبّر. ويقول: من رأيت فيه خصلة من الخير فلا تفارقه فإنه يصيبك من بركاته.

ولما طلب منه ابن منازل - هكذا قالوا - أن يوصيه: حذّره أن يغضب لشئ ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، وأن لا يهتم لشئ مما جرى عليه فى سابق العلم، وأن يصيبه الهَمّ طلبًا للقوت، فكلٌ تُساق إليه كفايته مُيسّرةً من غير تعب ولانَصَب، ومع ذلك فإن قعود المؤمن عن طلب القوت من حلال، وعن الكسب، إلحافٌ فى المسألة. والتعب ليس فى العمل وإنما التعب فى الفضول، فاحذر الفضول تَسْلم، ولا تُفتِش على أحد ما تحب أن يكون مستوراً منك، ولا تتكلم إلا لأداء فرض، أو لنجاة إنسان من بدعة تخاف هلاكه فيها.

وكان القصّار نفسه إذا أهين أو سَفِهَ عليه أحد، لا يرد ويحتمل، وينظر لأصحابه ويقول: فلأى شئ تعلّمنا العلم إذن إذا كنا سَنَسْفُهُ. ويقول الهجويرى: إن مذهب القصّار، أو طريقة أتباعه: هى إظهار ونشر الملامة، لأن الآفة العظمى والحجاب الكثيف للسالك، هو الإعجاب بنفسه وقبوله فى نظر الناس، أى أن يعجب الخَلق بسلوكه وأعماله ويمدحونه عليها، وذلك من شأنه تعويقه فى الطريق وانحرافه.

والملامتية كمذهب، تشبه مذهب الكلبية Cynicism عند اليونان، والفرق بينهما هو أن الكلبية لم يكونوا أصحاب دعوة دينية، بينما الملامتية يدينون بالإسلام، والملامة عندهم نقيض النفاق الدينى والاجتماعى، وأما فى غير ذلك فلا فرق بين المذهبين، فكلاهما يدعو لمجاهدة النفس، ومغالبة الشهوات، ومعرفة الذات، ويزعم أن الزهد أبو الفضائل وأبو التقوى.

وأتباع طريق الملامة مرادهم: الحقّ لا الخلق، وأن ينطلق السالك متحرراً لا يشغله عن الحقّ شاغل. وعلى الصوفى الملامتى: أن يترك السلامة، ويعرض نفسه للبلاء، ويؤدّب نفسه بالتحقير والمهانة التى تُوجَّه إليه من الخَلق.

ومن نوادر أتباع القصّار: أنه فى إحدى المرات سألهم أستاذهم عن الفتوة، فأجابه أحدهم: فتوتنا أم فتوتك؟، فقال القصّار: كلتاهما؟ وردّ التلميذ: فتوتى - أن أخلع هذا القباء، وأرتدى مرقّعاً، وأمارس العمل حتى أصبح صوفياً، فأتقى المعصية حياءً من الخَلق فى ذلك الثوب؛ وفتوتُك: هى أن تترك المرقّع حتى لا يفتتن الناس بك؛ فتوتى إذن: هى حفظ الشريعة بالإظهار؛ وفتوتك: هى حفظ الحقيقة بالأسرار!!

* * *

٢٦٦ - ابن قضيب البان...

أبو الفيض عبدالقادر بن محمد، وشهرته ابن قضيب البان (٩٧١- نحو ١٠٤٠هـ) وله التآليف الحسنة الدالة على رسوخ قدمه فى التصوّف والمعارف الإلهية، ومن جملتها «الفتوحات المدنية»، س الفّها على وتيرة «الفتوحات المكية» للشيخ الأكبر ابن عربى، وله «نهج السعادة» فى التصوف، و«ناقوس الطباع فى أسرار السماع»، و«شرح أسماءالله الحسنى»، و«رسالة فى أسرار الحروف»، وكتاب «مقاصد القصائد»، و«نفحة البان» و«حديقة اللآل فى وصف الآل»، و «كتاب المواقف الإلهية»، و«عقيدة أرباب الخواص»، وغير ذلك مما يفوق على الأربعين تأليفاً. نحا فيها منحى القوم.

وابن قضيب البان وُلد فى حماة، وتوطن أبوه فى حلب، وبها نشأ، ثم ارتحل إلى مكة وجاور بها، وتوجّه منها إلى القاهرة «بإشارة القطب»، وكان شيخ الإسلام يحيى بن زكريا قاضياً بمصر، فبشّره ابن قضيب البان بمشيخة الإسلام، وبايعه على الطرق الثلاث: النقشبندية، والقادرية، والخلوتية، ثم أقرّه على طريق النقشبندية، وأمره بالذّكر القلبى.

ولابن قضيب البان ديوان شعر على لسان القوم، وله تائية عارض بها تائية ابن الفارض، ومن لطائف شعره الصوفى:

أرى للقلب نحوكم انجذابا
لأسمع من جنابكم خطابا
فكم ليل بقربكم نقضّى
إلى سَحَر سجوداً واقترابا
وكم من نشوة وردت نهاراً
فلا خطأٌ وعيتُ ولا صوابا
وكم سحّتْ علينا من نداكم
غيوث لا تفارقنا انسكاباً
وكم نغمات أنس أسكرتنا
بها حَضَر الصفا والقبض غابا
توافقت القلوب على التدانى
فلم نشهد به منكم حجابا

لقد حاز الولىّ بكل حال
من الرحمن فيضاً مستطابا
تراه بين أهل الأرض أضحى
لداعى الحب أسرعهم جوابا
وغير الله ليس له مراد
وغير حماه لا يرجو انتسابا

ومنه أيضاً:

سقانى الحب من خمر العيان
فشُهتُ بسكرتى بين الدنان
وقلت لرفقتى رفقاً بقلبى
وخاطبت الحبيب بلا لسان
شربتُ لُحبّه خمراً سقانى
كصُحبتى فانتشى منها جنانى
شطحتُ بشُربها بين الندامى
ورشدى ضاع مما قد دهانى
فأكرمنى وتوّجنى بتاج
يقوم بسنْره قطب الزمان
وأمّرنى على الأقطاب حتى
سَرىَ أمدى بهم فى كل شان
وأطلعنى على سرٍّ خفىٍّ
وقال السِّتر من سِرّ المعانى
فهام أولو النُّهى من بعد سُكرى
وغابوا فى الشهود عن المكان
مريدى! لا تخفْ واشطح بسرّى
فقد أذن الحبيبُ بما حبانى

ومنه أيضاً:

نظرت إليك بعين الطلب
ومنك إذن طلبى والسبب
رأيتك فى كل شىء بدا
وليس سواك لعينى حجب
فأنت هو الظاهر المرتجَى
وأنت هو الباطن المرتقب
فأنت الوجود لأهل الشهو
د وأنت الذى كل شىء وَهَب
وعينى بعينك قد أبصرت
لعينك فى كل تلك النسب

ومنه أيضاً:

إذا أسأت فأحسِنْ
واستغفر الله تنجو
وتُب على الفور وارجع
ورحمة الله فارجو

ويحكى ابن قضيب البان بعضاً من هذه الأسرار للمعانى التى حباه بها الله تعالى فى كتابه «المواقف الإلهية»، وهى ٢٨ موقفاً، منها موقف نفس الرحمن، وموقف البرازخ العرشية، وموقف الغيب والشهادة، وموقف الإيمان بالغيب،

وموقف الإسراء، وموقف مقام العَلَىّ، وموقف مقام الولىّ، وموقف مقام الخلافة، وموقف مقام المحبة، وموقف العلم، وموقف السُّكر، وموقف الأنانية، والقطبية، والفناء، والغوثية، والحقيقة المحمدية، وسفر السالكين، وغير ذلك.

وابن قضيب البان هذا لقبه، لأنه كان مستقيم القصد، وربما كان لحُسنه واعتداله؛ والمعروف أن شجر البان، أغصانه كالقضبان معتدلة القوام، وورق لين، ويؤخذ من حبّه دهنٌ طيّب، ويُشبَّه به القدّ لطوله. ويبدو أن ابن قضيب البان كان آية فى الحُسن والجمال. أضف إلى ذلك حُسن الخُلق لتصوّفه. ويقول فى تعريف السلوك الصوفى: إنه الخلاص من القيود، وإزالة التعينات، وشهود أزل العين. وهو الدخول فى المقامات الشهودية والمنازل الوجودية، والحضور فى المراتب الغيبية والدرجات الكشفية، وكلها أمور لا أنهمها - أخى اللبيب - لا أنا ولا أنت، لأنا لم نعاينها يوماً، ولا نعرفها إلا وصفاً مما يقال لنا فى الكتُب!

ويتحدث ابن قضيب البان عن «الإنسان الكامل» فيقول: إنه الوجه لكل وجه، والجامع لأحكام الوجود والإمكان، ومجمع البحرين - أى الظهور والبطون، ويقصد به القطب. ويقول عن «العارف» إنه الذى يُكمل الأعمال بالعلم، والأحوال بالسرّ، والأفعال بالأدب. وجَمْعُ العارف: سقوط تَفْرِقته ومَحْو إشارته؛ ووصوله: استغراق أوصافه وتلاشى نعوته، وغَيْرته أن لا يعرف ولا يُعرف. والإخلاص: هو أن يغيب عن السالك جميع الخلق فى شهود حقّه. -وكما ترى- فالتجريد فى مصطلحات ابن قضيب البان شديد، ومعانيه غامضة، ومصطلحاته تحتاج للكثير من التفسير والشرح والتأويل! سامحه الله!

* * *

٢٦٧ - القنائى (عبدالرحيم)...

أبو محمد عبدالرحيم بن أحمد حجُّون (٥٢١ - ٥٩٢ هـ) شيخ قنا من صعيد مصر، وإليها ينتسب، جمع بين علمى الشريعة والحقيقة، مغربى من ترغة، من إقليم غمارة قريباً من تطوان، مات أبوه وهو صغير، فكفله أخواله فى الشام وبها تعلّم، وجاور مدة تسع سنوات بمكة، وفى الحج العاشر التقى بالشيخ مجد الدين القُشَيْرى من قوص، فأقنعه بمصاحبته إلى مصر، وزوّجه ابنته، وأقام بقنا يعظ ويتاجر، وتقوم طريقته على أن الإسلام: دين، وعمل، وأخلاق، فمن ترك واحدة

فقد ضل الطريق. -والتصوف: ليس هو القعود عن العمل، وليس فعل الأعمال المنكرة والمبتدعة فى الدين، فذكر الله يجب أن يفعله عاقل بإدراك، فإن لم يجده سقط عنه حقّ العبادة وأصبح مجنوناً، وأما إذا كان نفاقاً فهو مُطالب بالإقلاع عن البدعة حتى يثوب ويرجع إلى ربّه.

والتصوف ليس ركناً من أركان الإسلام، ولكنه ركن من أركان الأخلاق، والأخلاق الحسنة من دأبها الحضّ على الكمال، وإتيان الحَسَن من الأفعال، والقرآن كله كمال، واتّباع الدين وسيرة الرسول هو ذات الكمال. والأخلاق تنبع من امتزاج العلم الظاهر والباطن، والعمل المُنتج يغسل النفس الأمّارة من أدرانها، ويتحصّل به العقل على إدراك الأمور إدراكاً صحيحاً، وتتكون به المعارف السليمة، فينصلح حال الإنسان، ويتجه بكله إلى الله، وإلى كلام الرسول، وهذه تسمى «الأخلاق الزاكية»، وهى أعلى درجات الكمال، وبها اتصف الرسول ﷺ، فقال فيه الله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (القلم ٤). و نظريته فى الأخلاق جديدة كما ترى، لأنه لا يجعل العمل المُنتج تابعاً للأخلاق، ولكنه يُلحق به الأخلاق، فالأصل أن تُحسن الأعمال، وتعتاد ذلك فَتَحْسُن به أخلاقك وتزكو.

والعلم: مصدره الأحاسيس التى تصل بين العقل والإرادة، ويقوم عليها الإنتاج الفكرى، سواء كان جديداً فى بابه وبيانه، أم أنه قديم صادر عن الذاكرة مخزن الأسرار. والعلم علمان: علم الواقع والعلم الطبيعى: والأول حسّى ظاهرى، والثانى تحوطه المعرفة وهى ما يتبصّره الإنسان وينظر بها ظاهر الأشياء وأسبابها الخفية. ويرتبط العلم الطبيعى بالدين، وهو الذى يجر صاحبه إلى البحث والتنقيب وراء خالق الكون، ويدفعه إلى التعمق إلى ما وراء ذلك من أمور تتصل بكلام الله وأقوال الرسل، وأن يخلص نفسه جسماً وروحاً للارتقاء والسير فى الطريق، مجاهداً بنفسه، ليبلغ المرتبة العليا من هذا العلم، فيتحصّل أسمى حقائق الدين، وبه أخذ التصوف، بل هو التصوف نفسه. والعلم أصل العقائد الدينية. وكان الشيخ يدعو كل من يحضر مجالس علمه أن تكون له حرفة، والمزيد من العمل إلى جانب العلم، لأنه ضرورة، فبالإضافة إلى أنه سبب للرزق وسدّ الحاجات فهو استغلال للطاقة من أجل الخير والناس والحياة التى خلقها الله لنا، وتظهر به نعمة

العقل. وكان يقول: إن النبيّ ﷺ تصوّف قبل الرسالة بغار حراء، فانقطع عن الدنيا إلا ما يقيم صُلبه، ولم يمنعه هذا من أن يعمل قبل الرسالة وبعدها عَمَلَ أهل الأرض. ودعوة القنائى للعمل كأصل من أصول التصوف دعوة جديدة تناسب العصر وترفع التصادم التقليدى بين التصوف والاجتماع. وهو يقول إن العمل أصل نجاح العباد وعمران البلاد، ولا مصيبة أشدّ من أن يتمتع الفرد بكل مطالبه، وتصل إليه جميع حاجاته، بدون كدّ أو تعب. والأمة التى لا يميل شعبها إلى العمل والكد والكدح، وَجَب حذفها من بين الأمم، ووجب عزلها، لأنها أمة مريضة. ولا يخاطب القنائى الناس إلا بيا أمة محمد، لتعميق مفهوميهم بالجماعة، وبما يمكن أن تختص به ويكون سمة عليها، ويصل فى نظريته عن العمل إلى ربط عمل الدنيا بالآخرة. ويقول: إنه يجب أن يفهم الجميع أن الأعمال كلها تؤدى إلى أعمال الآخرة وثوابها، ما دام العمل فيها يرضى الله، فليست الصلاة والصيام والعبادات هى وحدها التى نسميها أعمال الآخرة وعليها الجزاء والمحاسبة، ولكن رجلاً يقوم بماله وقدراته ليقيم مصنعاً يستوعب مئات من الراغبين فى العمل ثم ينقدهم أجرهم، فهذا عمل يؤدى حتماً إلى الجزاء الحسن فى الآخرة، وهو عمل من أعمال الآخرة، ومن لم يتعلم صناعة ولا عملاً فهو حقير، والإمام عمر يقول: إنى لأرى الرجل، فيعجبنى، فأقول آله حرفة ؟ فإن قالوا لا، سقط من عينى!

وللشيخ عبدالرحيم تفسير للقرآن، ورسالة فى الزواج، وأحزاب وأوراد، وكتابٌ باسم «كتاب الأصفياء»، ومأثورات؛ وله كلام كثير فى التوحيد، وكان كلما سمع المؤذن يقول: «أشهد أن لا إله إلا الله» يقول: شهدنا بما شاهدنا، وويل لمن يكذب على الله تعالى. وكان يقول الهيبة فى القلب لعظمة الله تعالى: هى طمس أبصار البصائر عن مشاهدته بمن سواه حسّاً، فلا يُرى إلا بأنوار الجلال، ولا يُسمع إلا بسواطع الجمال. (يعنى الله لا يُشاهَد حسّاً وإنما بالقلب). وكان يقول الرضا: سكون القلب تحت مجارى الأقدار، بنفى التفرقة حالاً، وعلم التوحيد جمعاً، فتشهد القدرة بالقادر، ويشهد الأمر بالآخر، وذلك يلزمه فى كل حال من الأحوال. (يعنى الرضا بحُكم الله وأن نراه فى أحكامه). ويقول التمكن: هو شهود العلم كشفاً، ورجوع الأحوال إليه قهراً، والتصرف بالقادح حكماً، وكمال الأمر شرعاً. (يعنى أن التمكن استغراق الموحّد فى التوحيد). ويقول:

التجريد: نسيان الزمنين حكماً، والذهول عن الكونين حالاً، وغمض البصر عن الأين وقتاً، حتى تنقلب الأكوان باطناً لظاهر، ومتحركًا لساكن، فيسكن القلب بتمكين القدر على قطع الحكم، والابتهاج بمنفسحات الموارد، وانشراح الصدور بصور الأكوان، مع ثبوت المقام بعد التلوين، ورسوخ التمكين، فتكون السماء له رداء، والأرض له بساطاً (يعنى أن التجريد هو أن تنسى كل شيء إلا الله). ويقول: قطع العلائق: بقطع بحر الفقد، وظهور مقام العبد بعدم الالتفات إلى السُّوَى، وثقة القلب بترتيب القدر السابق. ويقول: الموحِّد: من عرف الواحد فاستراح، واعتمد في كل الأحوال عليه.

ولما توفى القنائى قيل إن أكثر من عشرة آلاف كانوا يسيرون فى جنازته، ودفنوه فى مكان إقامته ومحل درسه، وهو الذى به مزاره الآن فى مدينة قنا. رحمه الله رحمةً واسعة!

* * *

٢٦٨ -القونوى(محمد)...

صدرالدين محمد بن إسحق، نسبته إلى قونية من تركيا، وفيها ولد، وتوفى سنة ٦٧٢هـ، وكان من كبار تلاميذ محى الدين ابن عربى، وتزوّج ابن عربى أمّه وربّاه، ومصنفاته فى التصوّف كثيرة، وكلها مخطوطات، ما عدا «إعجاز البيان فى تأويل القرآن»، وفيه يتصدّى بالشرح لفاتحة الكتاب تفسيراً صوفياً ينهج فيه منهج أستاذه. وله «النصوص فى تحقيق الطور المخصوص» ، و«اللمعة النورانية فى مشكلات الشجرة النعمانية لابن عربى»، و«مفتاح الغيب»، و«النفحات الإلهية القدسية»، و«لطائف الإعلام فى إشارات أهل الإلهام». ويقول فى تفسير ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾: أن التسمية تنبيهٌ للغير أو ترهيب منه، فمتى نُبِّه الشخص، شَعَر فَرَغِب وسَعَى وطَلَب ليغنَم، أو اتّقى وحذر ليسلم. واختصاصه بهذه الحروف دون غيرها لسرّ يعرفه من يعرف أسرار الحروف، وما غاب من حروف هذا الاسم فى التلفظ والكتابة فإشارة إلى ما بطن من المسمَّى به، وما لا يقبل التعيُّن منه فى عالم الشهادة والغيب المقابل له. وأما الرحمن الرحيم فهو فى ذوق هذا المقام، المتكلَّم فيه اسم مركب، فلا يخلو كل منهما عمّا تضمّنه الآخر، فبعموم الحكم الرحمانى الذى هو الوجود، ظهر التخصيص العلمى، ثم الإرادى المنسوب إلى الرحيم، فبه تعينت الحصص الغيبية صوراً وجودية، كما أن بالرحيم ظهر الوجود الواحد متعدداً بالموجودات العينية ؟! -ويقول القونوى فى تكرار الرحمن

الرحـــيم: أن ذلك لـيس ترديداً لـما فى البـسملـة، بل للواحد تخـصـيص حكم التـعـمـيم، وللآخـر تـعـمـيم حكم التخصيص، ومتعلق أحدهما الحكم الدائم مقـتضى حكم معنى الأمـر باطناً مطلقاً، وللآخـر الحـكم المقـدّر المشـروط ظاهراً وباطناً. وسرّ ذلك وتفـصيله أن الرحـمة رحمتان: رحـمة ذاتية، مطلقة امتنانية هى التى وسـعت كل شئ، ومن حكمـهـا السارى فى الذوات رحـمة الشئ بنفـسه، وفيها يقع من كل رحيم بنفـسه، بالإحسان أو الإساءة، بصـور الانتقام والقهـر، فإن كل ذلك من المحـسن والمـنـتـقم رحـمـةٌ بنفـسه. ومن حـيث هذه الرحـمة وصف الحق نفسه بالحبّ وشدّة الشـوق إلى لقاء أحبابه، وهذه المحبة بهذه الرحمة لا سبب لها ولا مـوجب، وليست فى مـقابلة شئ من الصـفات والأفـعال وغيـرها، وإليـها أشارت رابعة العدوية:

أحـبّـك حـبّيْن حبَّ الـهـوى
وحـبـــاً لأنك أهل لـذاكـا
فـأمّـا الذى هـو حبّ الهـوى
فـشُـغلى بذكـرك عمن سـواكـا
وأمّـــا الـذى أنـت أهلٌ لـه
فكشـفُك للحُجب حـتى أراكـا
فـلا الحمـدُ فى ذا ولا ذاك لى
ولكن لك الحـمـد فى ذا وذاكـا

فـحبّ الهـوى لمناسبة ذاتية غـير معللة بشئ غـير الذات. وأما الحبُ لأنـك أهـل لذاكـا فـسببه المثـمر له هو العلم بالإلهية. والرحمة الأخرى هى الرحمة الفـائضة عن الرحمة الذاتية، والمنفصلة عنها بالقيود التى من جملتها قوله تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ (الأنعام ٥٤)، فهى مقيدة مـوجبـة بشـروط من أعـمـال وأحـوال وغيرهما.

وفلسـفـة القـونوى فى الله: هـى نفـس فلسفة ابن عربى وابـن الفارض، والله عنده هو الإنسان، والإنسـان هو الله، يقـول: الإنســـان هو الحق، وهو الـذات، وهو الصـفات، وهو العـرش، وهو الكرسى، وهو الـلوح، وهو القـلم، وهو المـلك، وهو الجن، وهو السموات وكواكبها، وهو الأرضون ومـا فيها، وهو العـالم الدنيوى والعالم الأخروى، وهو الوجود ومـاحواه، وهو الحق، وهـو الخلق، وهو القـــديم، وهو الحادث.

يعـنى أن الإنسـان هـو كل شىء، وهو الحقيقـة الإلهية، ودين القـونوى إذن: هو الدين الإنـســانى **humanism**. فـكـيـف نعتبره ضمن دائرة الإسـلام، وندرجـه ضمن صوفية الإسلام إذن ؟!!

* * *

٢٦٩ - ابن قيم الجوزية...

أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد، الزُرْعي، الدمشقي، تلميذ ابن تيمية، وولادته ووفاته بدمشق (٦٩١ - ٧٥١ هـ)، وله التصانيف والتآليف في علوم الشريعة والحقيقة، ومنها كتابه «مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين» الذي شرح فيه كتاب « منازل السائرين للهروي الأنصاري». وكتابته في التصوف بنفس العناية التي لكتابته في الفقه والحديث والتفسير، وقد اقتنى من كتبه ما لا يتهيأ لغيره، وكان به ميل لطريق العارفين والسالكين إلى الله، واستغرقته حياته الروحية وتعبده وانكبابه على كتب القوم، يلخصها في كتابيه: «مدارج السالكين» و«طريق الهجرتين» وغيرهما. ونظريته في المحبة الإلهية: من النظريات الصوفية التي تتخلل أغلب مصنفاته! والطريق الصوفي عنده: يبدأ من تحديد «المطلوب المحبوب»، فالله سبحانه هو المطلوب المحبوب وحده. وينتقد ابن القيّم صوفية وحدة الوجود، ومصدر الخطأ عندهم هو التأويل والإسراف فيه، فقد ثقلت عليهم النصوص فكرهوها، وأعياهم حملها فألقوها عن أكتافهم، وتفلتت منهم السُنَن أن يحفظوها فأهملوها، ولقد باعها ابن عربي بمحصّل من الكلام الباطل. ويفسّر قوله تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً * الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾ (الكهف١٠٣/ ١٠٤) بأنهم أرباب الأعمال التي لغير الله وليست على سنّة رسوله، وهم المتصوفة المتعبدون بأذواقهم ومواجيدهم، يعني: الذين هجروا السُنّة وحكموا في الأمور بأهوائهم. وفي مقدّمة كتابه: «مدارج السالكين» يشرح قوله تعالى: ﴿ وَالْعَصْرِ * إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾ (العصر ١/ ٣) فيقول إن الدلالة واضحة على أن كل أحد خاسر إلا من كملت قوته العلمية بالإيمان، وقوته العملية بالعمل الصالح، وكمّل غيره بتوصيته بالحق والصبر عليه، ومعنى ذلك أن «الإيمان» يقتضي «العمل»، ومدار ذلك القرآن بتفهمه وتدبُّره، فالحقيقة والطريقة والأذواق والمواجيد كلها لا تُقتَبس إلا من مشكاة القرآن، ولا تُستثمرَ إلا من شجرته، وكل علم أو عمل أو حقيقة أو حال أو مقام خرج من مشكاة النبوة فهو من الصراط المستقيم. و«الإيمان» عند ابن القيم

بالمصطلح الصوفي: ظاهره قول اللسان وعمل الجوارح، وباطنه تصديق القلب وانقياده ومحبته. وأصل هذا التقسيم للظاهر والباطن: أن الإنسان خلق من الأرض، ولكن روحه من ملكوت السماء؛ **والمؤمن**: هو المستكفي بالغذاء الإيماني عن الغذاء الحيواني، وهو لذلك يعكف على الله، والجمعية عليه، وحفظ الخواطر والإرادات معه، من تصحيح المحبة، والخوف والرجاء والتوكل والإنابة.

وخير المتصوفة عند ابن القيم: هم **الأوائل**، لأنهم كانوا يدأبون على اقتباس الحكمة والمعرفة، وظلوا ينشدون طهارة القلوب وزكاة النفوس وتصحيح المعاملة، وكلامهم وإن كان قليلاً إلا أن البركة فيه؛ بينما كلام متأخرى الصوفية كثير وبركته قليلة، وهو لذلك يستشهد بأقوال المتقدمين من الصوفية، كالجنيد عندما يقول مذهبنا مقيّد بالكتاب والسُّنة، فمن لم يقرأ القرآن ويكتب الحديث لا يُقتدى به فى طريقنا. وينتقد المُحدثين بشدّة، لأنهم ظنوا أن المتمسك بالكتاب والسنة صاحب ظواهر، وأن المقدَّمين لنصوصهما جهّال منقوصون، ويتعجب من موقفهم، ويقول: أفيظن المُعرض عن كتاب ربّه وسُنّة رسوله، أن ينجو من ربّه بالإشارات والشطحات وأنواع الخيال؟ والاتحادى والحلولى والإباحى الشطّاح والسماعى يجاهر بالقحَة والفرْية ويقول: حدثنى قلبى عن ربّى!! - ويستشهد ابن القيم بقول الدارانى الذى رؤى فى المنام، فسألوه عمّا فعل الله به ؟ فأجاب: غفر لى، وما كان شئ أضر علىّ من إشارات القوم". ويخطئ أصحاب دعوى إسقاط التكاليف لأنهم لم يفهموا معنى اليقين فى الآية: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ (الحجر ٩٩)، وفى الآية ﴿وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ * حَتَّىٰ أَتَانَا الْيَقِينُ﴾ (المدثر ٤٧)، فاليقين بالإجماع هو الموت عند أهل التفسير، فمن يزعم أنه يصل إلى مقام يسقط عنه فيه التعبُّد فهو زنديق كافر بالله وبرسوله.

وينتقد ابن القيم دعاوى أهل المجاهدات، الذين يجورون على أنفسهم بترك الزواج والطيبّات التى أباحها الله من المطاعم والملابس؛ وكذلك من تعبّدوا بالعبادات البدعية التى ظنوا أنها تجلب الحال والكشف؛ ودعوى الفصل بين الشريعة والحقيقة،وقال: إن كل إسلام ظاهر لا ينفذ منه صاحبه إلى حقيقة الإيمان الباطنة، فليس بنافع حتى يكون معه شئ من الإيمان الباطن، وكل حقيقة

باطنة لا يقوم صاحبها بشرائع الإسلام الظاهرة لا تنفع ولو كانت ما كانت.

وينعى ابن القيم على الهروى قوله بمقام الفناء وبالجبر، ويعرّف التصوف: بأنه تزكية النفس وتهذيبها لتستعد لسيرها إلى صُحبة الرفيق الأعلى ومعيّة مَن تحبه، فإن المرء مع مَن أحبّ، ودرجات ذلك ثلاث هى: تحسين الخُلُق مع الخَلق، وتحسينها مع الله، والدرجة الثالثة هى الفناء، ولكنه الفناء على قاعدته وأصوله: أى الإقبال بالكلية على الله تعالى، والاشتغال به وحده عمّا سواه، وفى هذا المقام تتحقق نظرية المحبة فى أكمل صورها، وهى المحبة لله ذاته، وترادف الرغبة فى تحقيق مرادات الله، فيكون المحب أصدق ما يكون عندما يصرح أريد أن أنفّذ أوامر ربّى.

والمؤمن عبر حياته يكون مسافراً إلى الله، ومنازل أو مدارج هذا السير هى المقامات والأحوال، ،يسميّها ابن القيم «منازل العبودية»، و«الأحوال» عنده: واردات ومنازلات تصبح مقامات إذا تمكنت وثبتت. وأول المنازل: هو اليقظة ثم تكون الفكرة، ثم البصيرة، ثم القصد، فيأخذ العبد مع صدق الإرادة إلى إعداد العدة للهجرة إلى الله، وقطع العلائق المانعة له. وآخر المنازل: هو العزم، وهو القصد الجازم المتصل بالفعل، ويحتاج فيه السالك إلى المحاسبة، وتأتى بعدها التوبة.

ويورد ابن القيم الكثير من مصطلحات الهروى، ومن ذلك «الكشف»، والكشف الصحيح عنده: هو المطابق لمراد الرّب الدينى من عبده؛ ويرى: أن «المشاهدة» من أوهام الصوفية، وغاية ما يصل إليه العبد هى «الشواهد»، وهى ما يغلب على القلوب الصادقة العارفة الصافية من ذكره ومحبته وإجلاله وتعظيمه وتوقيره، بحيث يكون ذلك حاضراً فيها، مشهوداً لها، غير غائب عنها.

***



٢٧٠ - الكازرونى (علىّ)...

له دقائق فى علم التوحيد، ورسائل فى الطريق، ومن كلامه: الإرشاد على ثلاثة أقسام: إرشاد العوام إلى معرفة ما يجب على المكلف معرفته من الحدود والأحكام، من فروض العين والكفاية؛ وإرشاد الخواص إلى معرفة النفس، ومعرفة الداء والدواء لما يرد على النفس وعلى الضمائر من الخواطر؛ وإرشاد خواص الخواص وهو معرفة ما يجب لله، وما يجوز، وما يستحيل، وتنزيه صفاته وأسمائه وذاته وأفعاله.

والطريق إلى الله: كمال الشهود، ولزوم الحدود. ومن ثبتت له الاستقامة فقد أذن له فى الكلام. والوقوف مع المظاهر حجاب ظاهر، والترقى عن المظاهر كشف ظاهر.

وقال: من يُصدّق ما يقال فيه من الذّم فقد سلك، ومن يصدّق ما يقال فيه من الحمد فقد هلك. ومن صَدّق فى طلب الله لم يبال بترك ما سواه. وفسّق العارف فى نهيانه: أن يتوسع وينعّم نفسه بالمباح فوق الكفاية.

وكان يقول: من نَفَى فقد أثبت، ومن أثبت فقد نَفَى، ومن أثبت ونَفَى ثبت. ومن ادّعى كمال الطريقة بغير أدب الشريعة فلا برهان له، ومن ادّعى وجود الحقيقة بغير كمال آداب الطريقة فلا برهان له.

وكان يقول: من تفقّه ولم يتصوّف فقد تفسّق، ومن تصوّف ولم يتفقّه فقد تزندّق، ومن تفقّه وتصوّف فقد تحقّق. والفَرْق المجرد شرك خفى، والجمع المجرد جحود جلىّ، وشهود الجمع فى الفرق كمال علىٍّ.

وكان يقول: فى باطن الزهد طمع فى الله، وفى باطن العزّ ذل له، وفى باطن الذل عزّ له، وفى باطن الإيمان به كفر بغيره، وفى باطن الكفر بغيره إيمان به، ومعنى ذلك الفناء عن شهود الكمالات. وكل معنى أو مقام يتعسّر على السالك، فإنما ذلك لأنه مازالت هناك بقية لوجوده، فإن أراد أن ينضح له فعليه أن يجتهد بإزالة تلك البقية.

ويقول: من نظر بعين الجمع كانت له الحقائق والأسرار أفلاكاً، ومن نظر بعين الفرق كانت المظاهر له أشراكاً، ومن عرف الواحد عند كل موجود، فى كل زمان، فقد

هُدِى إلى صراط مستقيم. والكمال فى شهود الجمع إعطاء كل ذى حق حقه فى مقام الفرق. ومات الكازرونى بالشام سنة ٩٦٠هـ.

* * *

٢٧١ - كُبرى (نجم الدين)...

أبو الجناب أحمد بن عمر الخيوهى، نسبةً إلى مدينة خُوه أو خوارزم، ويعرف باسم الشيخ نجم الدين كُبْرى، صاحب الطريقة الكبروية أو الذهبية فى التصوف، وقيل إن كُبْرى اختصار لعبارة الطامة الكبرى، وهو اللقب الذى أضفوه عليه بالنظر إلى مهارته فى الجدل، فكان كأنه المصيبة تحلّ بالمُناظِر؛ ويُلقّب أيضاً بلقب وَلِىّ تراش، أى «ناحتُ الأولياء»، لأنهم كانوا يعتقدون أنه إذا نظر إلى شخص وهو فى حالة الوجد والانجذاب، فإن هذا الشخص ينجذب ويصبيه اللطف، ويصبح من الأولياء المجذوبين، فهو ينحته - أى يصوغه ويشكّله ويصنعه.

ولقّبوه أيضاً «أبو الجناب»، وذلك - كما قيل - أنه رأى النبىّ ﷺ فى المنام، فناداه ﷺ به، واللقب بمعنى «المتجنّب للدنيا وما فيها».

واستشهد نجم الدين فى غارة للمغول على خوارزم سنة ٦١٨ هـ (١٢٢١م، وقيل سنة ١٢٢٦م). ويذكر جامى فى نفحات الأنس: أن جنكيز خان لما سمع بأمر هذا الوليّ أرسل إليه ليترك البلد، ولكنه رفض، ودعا للجهاد، وتمنطّق، وحمل الحجارة وحَرْبة، والتقى الكفار، ولكنهم رموه بالسهام، وقيل إنه قبض على خصلة من شعر كافر، ومات عليها ولم يستطيعوا تخليص الكافر من يده إلا بقطع الخصلة. وإلى هذه الواقعة يشير الشاعر الصوفى جلال الدين الرومى - وقد انتسب للكبروية، أو طريقة نجم الدين كبرى - يقول: نحن قوم نشرب خمر الإمام الصافية بإحدى اليدين، ونمسك بضفيرة الكافر بثانية الكفين!

ومن تلاميذه: مجد الدين البغدادى، وسعد الدين الحموى، وكمال الجندى، ورضىّ الدين على لالا، وجمال الدين الجيلانى، وبهاء الدين وَلَد - والد مولانا جلال الدين الرومى.

ومن مؤلفات الشيخ: رسالة «أقرب الطرق إلى الله» من صحيفتين أو ثلاث، وموضوعها قول الصوفية المعروف «الطرق إلى الله بعدد أنفس الخلائق»؛ ورسالة «صفة الآداب» عمّا ينبغى أن يتحلّى به المريد، و«فواتح الجمال وفواتح الجلال»، و«تفسير القرآن» فى ١٢ مجلداً على طريقة

الصوفية ـ وتحدث عنه جلال الدين الرومى ـ وكان تلميذاً لتلميذه مجد الدين البغدادى، وقد ظل مجد الدين يأخذ عنه إلى أن دخل فى روعه أنه قد تفوّق على شيخه، فقال: كنا بَيْضاً على ساحل البحر، فضمّنا الشيخ نجم الدين تحت جناحيه، وما زال يحمينا حتى أفرخنا، فلما صرنا بُطَيْطات قفزنا إلى البحر، وبقى الشيخ على الشاطئ! ـ فدعا عليه الشيخ أن يموت فى البحر الذى قفز إليه بالغرق! وقد كان، فيذكر جامى أن ملك خوارزم سكَرَ فأمر بإغراقه ـ وهى قصة منتحلة!! وقيل إن نجم الدين لما سمع بذلك دعا على الملك، وقد حاول الملك أن يسترضيه، فقال له نجم الدين: على العكس، فذلك مكتوب ولا مهرب منه، ستموت وسأموت معك، ومعنا خلق كثير! ـ خرافة أخرى! ثم إننا جميعاً سنموت حتماً فى يوم من الأيام، فما وجه العجب فى كلامه؟!

ويقول جامى: إن وفاة تلميذه مجد الدين كانت سنة ٦١٦ هـ، وكانت له مكاتيب فى أصول التصوف، وآداب المريدين، ومراتب السير والسلوك، وأحوال السالك ومقاماته، ورسالة بعنوان «رسالة سفر»، أى السفر من العالم الترابى إلى عالم الملكوت، و«رسالة فى علم السلوك».

ويخاطب الشيخ نجم الدين المريد بيا حبيبى، ويقول فى المجاهدة: إنها بذل الجهد فى دفع الأغيار ـ أو قتل الأغيار ـ والأغيار هم الوجود والنفس والشيطان. وطرق المجاهدة: بتقليل الغذاء بالتدريج، فإن مَدَدَ الوجود والنفس والشيطان من الغذاء؛ وترك الاختيار وإفناؤه، باختيار شيخ مأمون يختار له ما يصلحه؛ ثم التزام طريقة الجنيد: بدوام الوضوء، والسكون، والخلوة، والصيام، والذكر وهو: لا إله إلا الله، ودوام ربط القلب بالشيخ، ودوام نفى الخواطر، وترك الاعتراض على الله فيما يرد منه، سواء ما كان نافعاً أو ضاراً، وترك السؤال.

ويقول: إن الوجود مركبٌ من التراب والماء والنار والهواء، وأنت تحت هذا كله، ولامنجى منه إلا بأن يعود منك الشىء لمستحقه، فما كان تراباً منك يعود للتراب، وما كان ماءً يعود للماء، وما كان ناراً يؤول للنار، وما كان هواء مآله الهواء، فإذا أخذ كلٌ نصيبه انفصلت عن هذه الأحمال!لله؟! ـ ويصف الشيخ لذلك طريقته بأنها «طريقة الكيمياء»، وبها يستطيع المريد السالك أن يستخلص لطيفته النورانية من بين هذه الجبال.

ويقول فى إسقاط التكاليف: إن

التكاليف بمعنى المشقة، والتكليف يسقط عن «الواصل» فيعبد الله تعالى بلا مشقة ولا تكليف، لأنه لن يصبح تكليفاً، بل يتلذذ بالتكليف ويطرب، فالصلاة مثلاً تصبح مناجاة للحبيب.

ويقول إن للوجود ذكراً، فعندما تحترق في المريد أجزاؤه الخبيثة ولا يبقى إلا الطيّبة، فإنه حينئذ يستغرقه الوجود فيسمع لكل جزء في الوجود ذِكراً!!!

والنفوس ثلاثة، الأولى: النَفْس الأمّارة بالسوء وهي نَفْس العامة، وهي مظلمة، فإذا استغرقها الذكر، أنار ما حولها، فحينئذ تصبح لوّامة (والنفس اللوامة هي الثانية) : لأنها تبصر أن البيت ملآن بالنجاسات، فتجتهد أن تطهرّه منها، بملازمة الذكر، إلى أن يصبح للذكْر سلطاناً عليها فيخرجها، فتقرُب النفس من المطمئنة (والنفس المطمئنة هي الثالثة)، فلا تزال تجتهد النفس، وتزيّن البيت بالمحمودات، ليصلح أن ينزل به السلطان، ومعنى نزول السلطان تجلّي الحقّ، فحينئذ تطمئن النفس، ويظهر اطمئنان النفس المطمئنة على الوجه، فيتنوّر، وتتنوّر العينان وما بين الحاجبين واللسان والسمع.

وللقلب نصيبٌ من كل صفة من صفات الله عز وجلّ، ومن ذاته، وأرباب القلوب متفاوتون في ذلك، وتتجلى صفات الله تعالى للقلب بواسطة نصيب القلب منها. وأول التجلّي علمٌ، ثم مشاهدة، ثم يكون التجلّي بالاتّصاف، وهو أن يتخلّق القلب بهذه الصفات، وكلما تصعّد النور من القلب الى السماء بتأثير نور الشوق والمحبة والعشق، كلما نزل إليه نور يقابله، وتتفتح البصيرة، وأول ما يكون تفتّحها من العين، ثم من الوجه، ثم من الصدر، ثم يتفتّح البدن كله، ويصبح الشخص نورانياً، ويستحق أن يُسمى حينئذ باسم شيخ الغيب، وميزان الغيب، لأنه عندما تحرق نيران الذّكر والشوق لباس الوجود فيه، فإنه يغيب عمّن حوله ويتحول إلى سيّار، يسري في الكون ويقرأ آياته، وقد تكون مشاهدة، أو معقولة، أو مكتوبة، وقد يفهمها أو لا يفهمها، وقد ينتهي إليه السرُ وهو الاسم الأعظم، وكلّ سيّار قد يؤتى اسماً من الأسامي العظام، والاسم الأعظم ينبع من القلوب، ومركب من جميع الآيات، فما من آية في عالم الغيب والشهادة إلا وهي حَرف من حروف الاسم الأعظم، وبقدر ظهور الآيات له والبيانات والعلامات والأمارات، يزداد ظهوره بشواهد الاسم الاعظم، وظهور الآيات يورث الإيمان

والإيقان والعرفان، وبالعرفان تظهر الآلاء والنِعَم، فتتولّد المحبة، والمحبة تورث الفناء، بل إن الفناء حقيقة المحبة وحاصلها. والفناء يعني الفناء عن الصفات في صفات الحق المحبوب، وذلك فناء الفردانية، ويعني أيضاً الفناء عن الصفات في الذات وهو فناء الوحدانية، فإذا تجلّت الذات للسيّار تجلّت الهيبة فيندكّ السيّار ويندقّ، ويكاد يقرب من الموت، ولا يُسمَع حينئذ إلا «أحدٌ أحدٌ». فإذا فنى في ذاته بقي به ويحيا به. وقد يغيب السيار فيرفعه الحق إليه، فيجد ذوق الربوبية في نفسه، وعندئذ قد يقول: «أنت ربّي، لا ربّ لي سواك»، يدفعه إلى قولها نار العشق، وقد يفنى العاشق في العشق، فيكون العاشق هو العشق، ثم يفنى العشق في المعشوق، وكأنما لسان حال العاشق: أنت هلاكي في ديني ودنياي. وأنت كفري وإيماني وغاية رغبتي، وأنت أنا:

عجبت منك ومني ∴ أفنيتني بك عني
أدنيتني منك حتى ∴ ظننت أنك أني

* * *

٢٧٢ - الكاشفي (الواعظ)...

كمال الدين حسين بن علي البيهقي السبزواري (توفي سنة ٩١٠ هـ أو ١٥٠٤ م)، المعروف بالواعظ الكاشفي، من متصوّفة الشيعة، وكان موهوبًا في الوعظ، وصوته رخيم، وإيقاعه حزين. وُلد في بيهق بسبزاور، وغادرها إلى نيسابور، ثم هُراة، ليتلقى على عبد الرحمن جامي الطريقة النقشبندية، وتزوج أخته، واشتهر شهرة واسعة، وكانت به سماحة، وعادَى التعصُّب، وله «روضة الشهداء في مَقاتِل أهل البيت»، كتبها سنة ٩٠٨ هـ (١٥٠٣م)، يؤرِّخ بها لمحن الصدّيقين ولواقعة كربلاء، وترجمها عنه الشاعر التركي فضولي البغدادي، وسمّاها «حديقة السعداء»، وصارت الروضة تُتلَى في مجالس التصوف بدلاً من الذِّكر، ويبكي الناس؛ وكان كل من يتصدّى للقراءة، يقال له «روضة خوان»: يعني قارئ الروضة، واختصاراً «خوان»، تعني القارئ، ويعدّ هذا الكتاب: الأول في فلسفة المحنة والمعاناة، وكونهما بلاء من الله، وامتحاناً، كما قال: ﴿لَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ﴾ (محمد ٣١). واخترع الكاشفي حديثاً نسبه للرسول ﷺ، يقول: «من بكى على الحسين أو تباكى وَجَبَتْ له الجنة»، ونسب إلى الحسين أنه كان صوفياً مقامه الرضا والتوكل؛ وختَم الروضة بنص يأمر السامعين الطامعين في شفاعة الحسين أن يبكوا عليه وعلى آل البيت.

والكاشفي يعتبر الفتوة شُعبة من التصوف والتوحيد، وله كتاب «فُتُوَّتْ نامه سلطاني»، ويقول: إن «إبراهيم الخليل» هو مبدأ الفتوة ومظهرها، وقطبها «عليّ المرتضى»، وخاتمها «المهدي»، فجعل الفتوة كالنبوة إرثاً يسري في الأجيال، واستند إلى الخبر المشهور: لا فتى إلا عليّ. لاسيف إلا ذو الفَقار» لأن علياً هو الذي حطم الأصنام كإبراهيم، والكاشفي هو الذي كشف ذلك وأبانه، ولذلك أطلق على نفسه أنه «الكاشفي»، وعدّد الكاشفي فتيان الصوفية، فأوصل سلسلتهم عن طريق نجم الدين كُبرى إلى الجنيد، فمعروف، فعليّ ابن موسى الرضا، إلى النبيّ ﷺ.

* * *

٢٧٣ - كعب الأحبار...

أبو إسحق كعب بن ماتع بن ذي هجن الحميري، وكان في الجاهلية من أهل العلم من اليهود في اليمن - هكذا قيل، ثم أسلم في عهد أبي بكر، وقدم المدينة في دولة عمر، وخرج إلى الشام فسكن حمص وتوفي سنة ٣٢ هـ (٦٥٢م)، ولقبه كعب الأحبار، يعني أعلى أهل الصلاح شأناً، وهو لم يكن كذلك في اليهودية، ولا كان هذا الاسم هو اسمه، ولكن الإسلام رفع من شأنه، وأطلق المسلمون عليه ذلك تعظيماً له على اليهود، وصار يفتي ويفسّر ويؤوّل، ويروي الحكايات من التوراة ومن تأليفه، ويقصّ الأكاذيب والملفقات - للأسف - عن الأمم الغابرة! وكان من البكّائين، يقول: لَأن أبكي من خشية الله فتسيل دموعي على وجنتي، أحَبُّ إليّ من أن أتصدّق بوزني ذهباً. وكان يخوّف السامعين من النار والعذاب، فإذا أرادوا ذلك ليتّعظوا سألوه أن يخوّفهم، وإذا أرادوا أن يأملوا ويكون لهم مقام الرجاء، سألوه أن يبشّرهم! وكان يُبكي الناس حتى يُنشجهم، وكان يقول: إن الناس يبكون يوم القيامة حتى ليبل بكاؤهم كثبان رمل، ثم يبكون حتى يلجمهم العَرَق. وكان يحيل إلى التوراة فيقول: أنزل الله في التوراة، أو يقول: قال موسى، أو قيل عن بعض الأنبياء. وكان يفسّر القرآن بالتوراة! كأن يقول مثلاً: مَثَلُ العطاء والرزق في هذه الأمة مثل المَنّ والسلوى في بني إسرائيل. أو يقول: محمد مكتوب في التوراة: محمدٌ عبدي المتوكل المختار، ليس بفظ ولا غليظ، ولا سخّاب في الأسواق، ولا يُجزي السيئة السيئة، ولكن يعفو ويغفر - فكأنه جعل التوراة مهيمنة على القرآن، ومفسّرة له! ومولد كعب باليمن، وهجرته بطيبة، ومُلكه بالشام. ويقول: في الآية: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ (الأنعام ١٥١): والذي نفس كعب بيده

إنها لأول شيء نزلت في التوراة إلى آخر الآيات! ويقول: فاتحة التوراة فاتحة الأنعام، وخاتمة التوراة خاتمة سورة هود! ويقول: خُتمت التوراة: ﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ﴾. (الآية ١١١ الإسراء). وكل ذلك محض اختلاق فلا شيء منه في التوراة أبداً، وإنما سامعوه ما كانوا يقرأون التوراة ليراجعوا عليه، وكانوا يصدّقونه! وأعجب أن الأزهر لم يفرّغ أحد باحثيه لتحرّي افتراءات كعب الأحبار ؟!

وكان كعب يجلس إلى أصحابه يعلّمهم التقوى والزهد والورع، والتصوف، والمكتوم من القرآن وما يحوى من الأسرار!! ويشير على المشاهد والآثار، يقول: النُّطق حكمة، فعليكم بالصمت فإنه قلة وزْر، وخفّة من الذنوب، فأحسنوا باب الحلم فإن بابه الصمت والصبر، فإن الله يبغض الضحّاك من غير عجب، والمشّاء إلى غير أرب، ويحب الوالي الذي يكون كراعي ولا يغفل عن رعيته. واعلموا أن كلمة الحكمة ضالة المسلم، فعليكم بالعلم قبل أن يُرفع، ورفعُه أن تذهب رواته. وعليكم بالقرآن فإنه فهم العقل، ونور الحكمة، وينابيع العلم، وأحدث الكتُب عهداً بالرحمن. ومن يُرد أن يبلغ شرف الآخرة، فليكثر التفكير يكن عالماً، وليرض بقوت يومه يكن غنياً، وليكثر البكاء عند ذكر خطاياه، يطفيء الله عنه بحور جهنم. وطلب العلم مع السمت الحسن والعمل الصالح جزء من النبوة. والمؤمن العالم أشدّ على إبليس وجنوده من مائة ألف مؤمن عابد، لأن الله تعالى يعصم به من الحرام. ويوشك أن تروا جهّال الناس يتباهون بالعلم، ويتغايرون عليه كما يتغاير النساء على الرجال، فذلك حظهم من العلم. وإن موسى عليه السلام قال: يا رب! أيّ عبادك أعلم؟ قال: عالمٌ «غرثان للعلم» (أي جوعان). وطالب العلم كالغادي الرائح في سبيل الله، فاطلبوا العلم، وتواضعوا فيه، فإن الملائكة تتواضع لله. - وكل هذا الكلام من كلام الرسول ﷺ ولا اجتهاد لكعب فيه.

وقال كعب عن «أهل الله» : هم المتحابون في الله، والآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر، في الفردوس.

وقال فيهم: إني لأجد نعت قوم يكونون في هذه الأمة بمنزلة الرهبانية، قلوبهم على نور، تنطق ألسنتهم بنور الحكمة، تعجب الملائكة من اجتهادهم واتصالهم

بمحبة الله. قومٌ جوّعوا أنفسهم وظمّأوها لله. يُنادَى يوم القيامة: ألا ليقم أهل الجوع والظمأ ! فيُلتَقطون من بين الصفوف، فيُؤتَى بهم إلى مائدة منصوبة لم تر العيون ولم تسمع الأذن بمثلها، فيجلسون عليها والناس فى الحساب». ـ وأعجب: ما مصادر هذا الكلام؟ ومن أين له العلم بالغيب؟ ومن أعطاه الحقّ أن يتحدّث كالأنبياء؟

وأهل المحبة فى الله الذين يصفهم كعب الأحبار هم الصوفية، وهم أيضاً الجوعية، غير أن اسمهم الاصطلاحى عند كعب الأحبار الظمئية!!

* * *

٢٧٤ - الكلاباذى (تاج الإسلام)

محمد بن إسحق الحنفى البخارى الكلاباذى، أطلقوا عليه تاج الإسلام لعلمه وفضله، فقد كان موسوعة، وكان من علماء الصوفية، وله كتاب «التعرُّف إلى أهل التصوف»، جمع فيه مذهبهم وأحوالهم، وعرّف بطريقتهم وتسميتهم ومعتقداتهم، حتى قيل إن كتابه صورة للتصوف فى زمنه، وهو القرن الرابع الهجرى، فقد توفى الكلاباذى سنة ٣٨٠ هـ، ولم يكتب ما كتب عن التصوف إلا بعد أن عاشر الصوفية، واستمع إلى أعلامهم، وحفظ عنهم، وكتابته كتابة العارف المتحقّق مما يكتب، ولذلك فقد قالوا فى كتابه: «لولا «التعرّف» لما عُرِفَ التصوّف»، وهو قول بليغ يعكس أهمية الكتاب وفوائده والغاية منه، فقد استهدف به أن يُخرِص المتخرّصين والمتقوّلين على الصوفية، ويبيّن حقيقة ما ذهبوا إليه فى التوحيد والعبادة، والمعانى التى تنصرف إليها أقوالهم، والمقاصد من عباراتهم وإشاراتهم، ولطائف أقوالهم أو لطائف الله تعالى معهم.

وكان الكلاباذى عالماً أصولياً، ومن مؤلفاته: «الأربعون» فى الحديث، و«الإشعاع والأوتار»، و«آمالى» فى الحديث، و«بحر الفوائد»، المشهور بـ «معانى الأخبار»، وغير ذلك.

ومن أقواله فى كتابه «التعرّف»: أن اسم الصوفية لم ينتحله القوم لأنفسهم، ولكنه ألصق بهم للبسهم الصوف ربما، أو لتشبُّههم بأهل الصُفّة ربما، أو لصفاء سريرتهم ربما، ويورد أسماء أخرى لهم شاعت عنهم، فهم «الغرباء لتغرّبهم»، و«السيّاحون» لكثرة أسفارهم، و«الشكفتية» لأنهم يسكنون الشكفت، أى «الكهوف والمغاور»، و«الجوعية» لأنهم ينالون من الطعام بقدر ما يقيم الصُلب، و«الفقراء» لتخلّيهم عن الأملاك، و«النورية» لتنزّل الأنوار عليهم، ولأن قلوبهم منوّرة بنور الله تعالى.

وتجتمع الصوفية على أقوال في الله تعالى كان يقول بها السابقون، فالله: ليس بجسم، ولا شبح، ولا صورة، ولا شخص، ولا جوهر، ولا عرض، ولا اجتماع له ولا افتراق، ولا يتحرك، ولا يسكن، ولا ينقص ولا يزداد، وليس بذي أبعاض ولا أجزاء، ولا تأخذه السنات، ولا تتداوله الأوقات، وصفاته على الحقيقة، من العلم، والقدرة، والقوة، والعزة، والحلم، والحكمة، والكبرياء، والجبروت، والقدم، والحياة، والإرادة، والمشيئة، والكلام. وهو خالق لأفعال العباد كلها ولأعيانهم، ويفعلون بقضائه وقدره، وإرادته ومشيئته، ولولا ذلك لم يكونوا عبيداً ولا مربوبين ولا مخلوقين؛ وأجمعوا أنهم لا يتنفسون نفساً، ولا يطرفون طرفة، ولا يتحركون حركة إلا بقوة يحدثها الله تعالى فيهم، واستطاعة يخلقها لهم مع أفعالهم، ولا يوجد الفعل إلا بها. وأجمعوا على أن لهم أفعالاً واكتساباً على الحقيقة، هم بها مثابون، وعليها معاقبون. وأجمعوا على أن الدليل على الله هو الله وحده. وقالوا: المعرفة معرفتان، معرفة تعرُّف، ومعرفة تعريف، ومعنى التعرُّف أن يعرّفهم الله نفسه والأشياء به؛ والتعريف أن يريهم آثار قدرته في الآفاق وفي أنفسهم. وأجمعوا على إثبات كرامات الأولياء، وقالوا المعجزات للأنبياء، والكرامات تجري على الأولياء من حيث لا يعلمون، والأنبياء بالمعجزات عالمون. وقالوا في حقائق الإيمان أنها أربعة: توحيد بلا حدّ، وذكر بلا بت، وحال بلا نعت، ووَجْد بلا وقت. ومعنى حال بلا نعت: أن يكون وصفه حاله، ووَجْد بلا وقت: أن يكون مشاهداً للحق في كل وقت. - ويأخذ الصوفية بالأحوط والأوثق فيما اختلف فيه الفقهاء. وأجمعوا على إباحة المكاسب من الحِرَف والتجارات والحرث، وسبيلها الأعمال المُقرِّبة إلى الله عز وجل. وعلوم الصوفية: علوم أحوال، والأحوال مواريث الأعمال، ولا يرث الأحوال إلا من صحّح الأعمال؛ والتصوف أركانه عشرة: أولها تجريد التوحيد، ثم فهم السماع، وحُسن العشرة، وإيثار الإيثار، وترك الاختيار، وسرعة الوجد، والكشف عن الخواطر، وكثرة الأسفار، وترك الاكتساب، وتحريم الادخار. - والصوفية كشفوا عن الخواطر، وتكلموا في التوبة، والزهد، والصبر، والفقر، والتواضع، والخوف، والتقوى، والإخلاص، والشكر، والتوكل، والرضا، واليقين، والذكر، والأنس، والقرب،

والاتصال، والمحبة، والتجريد، والتفريد، والوجد، والغلبة، والسُكْر، والشهود، والغيبة، والجمع، والتفرقة، والتجلى، والاستتار، والفناء، والبقاء. وكلامهم فيه ألغاز تحتاج للشرح والتفسير، وهو لغتهم التى بها مخاطبتهم. وهم درجات: فهناك المراد، والمريد، والعارف. والمريد: هو الذى لا يريد إلا بإرادة الله؛ والمراد: هو الذى يجذبه الحق جذبة قوية فيكاشَف بالأحوال؛ والعارف: أعْرَف الخلق بالله وأشدّهم تحيراً فيه. وأول مقامات المعرفة: أن يُعطَى العبد اليقين فى سرّه لتسكن به جوارحه، والتوكل فى جوارحه لتسلم به دنياه، والحياة فى قلبه ليفوز بها فى عقباه.

* * *

٢٧٥ - الكمشخانوى...

ضياء الدين أحمد بن مصطفى ابن عبدالرحمن الكُمْشَخَانَوِى، النَّقْشَبَنْدى، المُجَدِّدِى، الخالدى (١٢٢٧ - ١٣١١ هـ)، ونسبه لكمشخانة من تركيا، وقد وفد إلى مصر وافتتح بها مطبعة، وله التصانيف التى منها «راموز الأحاديث»، و«لوامع العقول»، و«نجاة الغافلين» و«الأحزاب»، و«جامع الأصول»، ولعل أهمها هو الكتاب الأخير واسمه «جامع أصول الأولياء»، وهو من المراجع الهامة فى التصّوف، قيل فيه إنه : رسالة جامعة لأصول الطريقة العلية المحمدية، ومجموعة شاملة لآداب الصوفية الصدّيقية المفيدة لكل طالب سلوك إلى طريق الله، والرغاب إلى معرفته تعالى.

ويذكر الكمشخانوى فى أسباب تأليفه لهذه الموسوعة الصوفية : أنه قد رأى الناس ضيّعوا الطريق، فأراد أن يجمع نبذة من أصولها وأوصافها، والأولياء وأنواعهم، واصطلاحهم وأطوارهم، وبعض أسرارهم وآدابهم ومسلكهم وشروطهم إجمالاً. وهو يرصد المراجع للطرق الكبرى، فالقادرية مثلاً مراجعها فى : «بهجة الأسرار»، و«الغنية»، «وقلائد الجواهر»، «وفتوحات الغيب»، «ونفحات القدس»، «والمناقب»؛ والشاذلية فى: «المفاخر العلية»، «والكواكب الزاهرة»، «والمناقب»، «والواردات»؛ والرفاعية فى: «بهجة الرفاعى»، «والوصايا والمناقب»؛ والأحمدية فى: «بهجة البدوى» ، «وشرح متن الغاية»، «والوصايا»؛ والدسوقية فى: «الوصايا»، «والمناقب»؛ والأكبرية فى: «الفتوحات المكية»، «والحلية»، «والتدبيرات»، «وحوض الحياة»، و«المناقب»، «والفصوص»؛ «والملوية فى: «المثنوى»، «والمناقب»، و«فيه ما فيه»،

و«المناقب»؛ والكبروية فى: «رسائل نجم الدين»، و«التأويلات»، و«المناقب»؛ والسهروردية فى: «العوارف»، و«تعرّف علم التصوف»؛ والخلوتية فى: «معيار العلوم»، و«شرحه لعمر الفؤادى»، و«ترجمة الحال»، و«المناقب»؛ و«الجلوتية فى: «خطاب الحقى»، و«مجالس أربعين»، و«المسألة»، و«المناقب»؛ و«البكتاشية فى: «خطاب البيان»، و«الجاودان»، و«المناقب»؛ والغزالية فى: «الإحياء»، و«الحجة»، و«المناقب»؛ و«السعدية»، و«الجشتية»، و«الشعبانية»، و«الكلشنية»، و«الحمزوية»، و«البيرامية»، و«العشاقية»، و«البكرية»، و«العمرية»، و«العثمانية»، و«العلوية»، و«العباسية»، و«الزينبية»، و«العيسوية المغربية»، و«البحورية»، و«الحدادية»، و«الغيبية»، و«الخضرية»، و«الشطارية»، و«البيومية»، و«الملامية»، و«العيدروسية»، و«المتبولية»، و«السنبلية»، و«الأويسية»، و«غيرها، مذكورة فى: «الكواكب الدرية»، و«نفحات الأنس»، و«تذكرة الأولياء»، و«القاشانى»، و«طبقات الشعرانى»، و«النفحات القدسية»، و«منقبة الأولياء»، و«طبقات القاضى زكريا»، و«رسالة القشيرى»، و«طبقات المشايخ»، و«مقامات العارفين»، و«كتاب المنجلى»، و«لطائف الأعلام»، و«اصطلاحات الصوفية»، و«شمس البونى»، و«المناهج»، و«كشف الواردات»، و«درة الموحدين»، و«حقائق الدقائق»، و«أسرار السرور»، و«محاضرة الأبرار»، و«التجليات الإلهية»، و«الوصايا القدسية»، و«كتاب الإسراء»، و«التمهيد»، و«مفتاح الغيب»، و«مصباح الأنس»، و«الإنسان الكامل»، و«منازل السائرين»، و«مدارج السالكين»، و«كشف الحقائق»، و«الحدائق»، و«خالصة الحقائق»، و«الميزان للشعرانى»، و«التمييز»، و«مرآة الأصفياء»، و«الوصايا الإلهية»، و«كشف الأسرار الأزلية»، و«حاوى الأرواح»، و«مقامات بدر الدين»، و«روضة الواصلين»، و«زبدة الحقائق».

ولا تخفى قيمة هذا الرصد الذى يورده الكمشخانوى فهو جامع للمراجع الكبرى فى التصوف، وبعض الكتب التى يوردها لم يصل إليها علمنا. ويظهر المؤلف بمظهر الناقد المميز لخصوصية كل ولىّ والمنسب لها، ويقتبس الكثير من الشاذلى ويقول ذلك صراحة، من مثل «وقال الشاذلى»، ويترجم له ويذكر سلسلته وأسباب تسميته بالشاذلى، وطريقته، ويقارن بينها وبين النقشبندية، ويدافع عن التصوف عموماً

ضد من يسميهم بالمتفقهين المتعصبين، والسفهاء لا الفقهاء، فإنهم قد قصروا مرادهم على أن يُعرَفوا بين الناس بالعلم والفقه والرياسة لأغراض شيطانية، وشهوات نفسانية يفتشون بمقتضاها عن عيوب الناس، ويفشونها، لأنهم لا يرتفعون إلا بإنكار المناكر، خصوصاً على الكامل الخاشع، والعابد الذاكر. وأما الفقهاء أصحاب القَدَم الراسخ فى العلوم، فإنهم من شدة شفقتهم على عباد الله لا يكادون يجدون فى الناس منكراً أصلاً من كمال اشتغالهم بعيوب أنفسهم عن عيوب الناس، ومن هؤلاء شيخ الإسلام المخزومى، الذى يقول: لا يجوز لأحد من العلماء الإنكار على الصوفية إلا أن يكون قد سلك طريقهم، ورأى أن أفعالهم وأقوالهم مخالفة للكتاب والسُّنة والإجماع والسلف، وأما الإنكار عليهم بالإشاعة والظن، والخبر الكذب والبهتان، فلا يجوز الإنكار عليهم ولا سبّهم، وبالجملة فأقل ما يجب على المنكر حتى يسوغ له الإنكار على أقوالهم وأفعالهم أن يعرف سبعين أمراً ثم يسوغ له الإنكار، منها: غوصه فى معرفة معجزات الرسل وكرامات الأولياء؛ واطّلاعه على التفاسير سلفاً وخلفاً؛ والأحاديث ومنازع الأئمة والمجتهدين؛ وأسرار الكتاب والسنة؛ والتأويل وشرائطه؛ واللغة والمجازات والاستعارات؛ ومقالات السلف والخلف فى معنى آيات الصفات وأخبارها؛ واصطلاح القوم فيما عبّروا عنه من التجلى الذاتى والصورى، والذات وذوات الذوات، وحضرة الأسماء والصفات؛ والفرق بين الحضرات والأحدية والواحدية، والظهور والبطون، والأزل والأبد، وعالم الغيب والكون والشهادة، والشئون والماهية، والصحو والسكر والمحبة، والشطح وتأويله بما هو مصطلح عليه بينهم. والكتاب - «جامع أصول الأولياء» - فى جملته عظيم الشأن وكثير الفائدة، وأسلوبه سهل، ويقصد فيه إلى المعنى الذى يريده بإيجاز واقتدار.

* * *



٢٧٦ - لوليو Lulio...

رايموندو لوليو (١٢٥٢ ـ ١٣١٤م)، راهب فرانسيسكاني، ومستشرق قضى فى دراسة العربية وحفظ القرآن تسع سنوات (١٢٦٦ ـ ١٢٧٥)، وأنشأ مدرسة لتعليم العربية فى ميرامار، ومهّد بها لإنشاء معهد الدراسات الإسلامية فى مدريد، وقرأ فى التصوف الإسلامى وأخذ به فارتحل إلى تونس، وعاش مع الصوفية فيها، وكانوا يعرفونه باسم الصوفي النصراني، وكانت له معارضات لفلسفة ابن رشد على طريقة المتكلمين العرب، وأثمرت دعوته لإنشاء كراسى لدراسة العربية فى الجامعات الأوروبية فى باريس وأكسفورد وبولونيا وسلمنقه. وعرف لوليو من الصوفية المسلمين: ابن سبعين، وابن هود، والششتري، وأبا مدْيَن، وعفيف التلمساني، وكان حبُّه شديداً لابن عربى، فلما وضع لوليو مذهبه فى الإشراق كان بتأثير الصوفية المسلمين ومَن نهج هذا المنهج من صوفية وفلاسفة النصارى، وقد شرح ذلك فى كتابه الموسوعى «تأملات فى الله»، والذى كتب معظمه باللغة العربية، وله «الصديق والمحبوب»، كَتَبَهُ على طريقة الصوفية العرب، و«مناظرات بين رايموندو المسيحى وعمر العربى» وترجمه إلى اللاتينية.

* * *

٢٧٧ - الليث بن سعد، الإمام المجتهد...

أبو الحارث الليث بن سعد بن عبد الرحمن الفهمى، كبير الديار المصرية فى أمور الدين والدنيا، ورئيس المصريين، يستمعون إليه ويطيعونه، ويأتمر بأمره أهل السلطة، وهو الأمير المعلّى على القلوب، فلا أحد بمصر فى عصره إلا كان يكنّ له كل الحب، وكان القاضى والنائب من تحت أمره ومشورته، واستقل بالفتوى والكرم، قيل وُلد فى قلقشندة من خراسان سنة ٩٤هـ (٧١٣م)، وهاجر إلى مصر، وتوفى بها سنة ١٧٥هـ (٧٩١م)، وكان نسج وحده فى التصوف، وطرازاً جديداً، فهو «الأمير العالم الفقيه المتصوّف»، فلم تكن تمنعه الإمارة ولا الرياسة أن يسلك الطريق ويتزهّد، وكان دخله ثمانين ألف دينار فى السنة ينفقها جميعاً فى الخيرات، ولم تجب عليه زكاةُ قط فى درهم، لأنه ما كان يكنز مالاً يحول عليه الحول فتجب فيه الزكاة، وكان بذولاً لماله، يعطيه

بسخاء وفتوة ويسمى ذلك وصلاً وليس صدقة، والتصوف سخاءٌ ووفاء، وكان فى الفقه أعلم من مالك بن أنس، وأتبع للأثر منه، وإذا قال راعىَ أن يأتى كلامه مهذباً بالعقل وباللسان، وعنده تقدير العاطى لا المعطَى له.

والليث من البكّائين، واستمع إلى منصور بن عمّار فكان ينخرط فى البكاء الشديد ويقول: كأنك فتّتّ عضواً من أعضائى! وقال فيه تلميذه عبد الله ابن صالح: «صحبتُ الليث عشرين سنة، لا يتغذى ولا يتعشّى وحده إلا مع الناس، ولا يأكل اللحم إلا أن يمرض»! وهو أول من تحدث إلى أولى الأمر عن الحيف الواقع على العمال فى بلاد الإسلام، فهو ثانى إسلامى اشتراكى بعد أبى ذر الغفارى. وقال لهارون الرشيد بشأن السياسة فى مصر: يا أمير المؤمنين! صلاح بلدنا بإجراء النيل، وإصلاح أميرها، ومن رأسِ العين يأتى الكدر، فإذا صفا رأسُ العين صفت السواقى»! ولقد صدق، وأمّن الخليفة على كلامه. ـ فهلا نقلتم هذا الكلام لطالب حُكم مصر غصباً عن المصريين؟!

ومن مواعظه لتلميذه أبى السرى فيما ينبغى عليه أن يصونه من علم التصوف، قال: صن هذا الكلام أن تقف به على أبواب السلاطين، ولا تمدحنّ أحداً من المخلوقين بعد مدحتك لربّ العالمين. رحمك الله»! وكان يكثر الترديد لأحاديث بعينها وقد يكون بعضها موضوعاً، ولكنه كان يعتقدها ويدعو بها ويعمل بمقتضاها، ومعانيها جميعاً سامية، يقول: «إن أول ما خلق الله سبحانه وتعالى العقل، قال أقبل فأقبَل، ثم قال أدبِر فأدبَر، ثم قال: ما خلقت شيئاً أحسن منك. بك آخذ، وبك أعطى»؛ ويقول: «من كان له واعظ من نفسه كان له من الله حافظ. ومن أذلّ نفسه فى طاعة الله عزّ ممن تعزّز بمعصية الله»؛ ويقول: «شرار أمتى الذين غدوا فى النعيم، الذين يتقلّبون فى ألوان الطعام والشياب، الثرثارون، الشدّاقون بالكلام!. وخيار أمتى الذين إذا أساءوا استغفروا، وإذا أحسنوا استبشروا، وإذا سافروا قصروا وأفطروا». ـ وأقول: وتلك للمرء أعظم موعظة فى التصوف، وأساس كل تُقَى وورع وزهد! ـ وهو ما قصد إليه الليث عندما قال له أحدهم: أليس فى كتابك غير هذا؟ فقال: فى كتابى أو فى كُتُبنا، ما إذا مرّ بنا هذّبناه بعقولنا وألسنتنا». يعنى أن معيار الصدق عنده هو العقل، وأن الاجتهاد دأبه، وأن الرأى ولو كان للغير، علينا أن نهذّبه وفق العقل ونطوّعه لألسنة الناس.

* * *



٢٧٨ - ماسينيون...

لويس ماسينيون Massignon (١٨٨٣ - ١٩٦٢)، مستشرق فرنسي له في التصوف الإسلامي بحوثٌ ومقالات ومؤلفات بارزة، ولعله ونيكلسون الإنجليزي، يصنعان أهم من يشارك من المستشرقين في التعريف بالتصوف الإسلامي لدى الفرنجة، ويبدو أنه كان للحسين بن منصور الحلاّج تأثير كبير على ماسينيون حتى أنه شبّهه في حياته ووفاته بالمسيح، وله فيه «أخبار الحلاّج وبدوانه» و«الشيخ المصلوب»، و«الطريقة الحلاّجية»، وكتابه «طواسين»، واختار لينشر رسالته فيه باسم «عذاب الحلاّج شهيد التصوف في الإسلام»، تاريخ مرور ألف سنة على صَلْبه. ويبدو أن اهتمام ماسينيون بالحلاج، واحتفاله الشديد بحياته، إنما كانا ليدين به المسلمين، فإن كانت حكاية صَلْب الحلاّج حقيقية، فلماذا لا تكون حكاية، صَلْب المسيح حقيقية كذلك، والحكايتان تكادان تتطابقان؟ ثم إنه إذا كان اليهود مدانون بصلب المسيح، فالمسلمون كذلك مدانون بصلب الحلاّج، والفرقتان على خطأ، والنصارى هم الفرقة الناجية!!!

ومن كُتُب ماسينيون التي يعتز بها في التصوّف: «نشأة المصطلح الفني للتصوّف في الإسلام»، استعرض فيه تاريخ التصوّف الإسلامي منذ الرسول ﷺ حتى زمن الحلاج، مع دراسة لألفاظ التصوّف كما هي عند أعلام الصوفية.

وماسينيون يرفض النظرية التي ترّد التصوّف إلى التأثيرات المسيحية واليهودية والهندية والفارسية، ويؤكد على مصادره العربية الإسلامية من الكتاب والسُنّة. ومن الذين تناولهم ماسينيون بخلاف الحلاج: الخرّاز، والمحاسبي، والنَّوْبختي، والتُسْتُري، وابن سبعين، والشَّشْتري، والسَّقطي، والأُخَيْضر، والورّاق.

واشتغل ماسينيون بالتدريس في الإسلام والمذاهب الإسلامية في الكوليج دي فرانس والجامعة المصرية، وكان من طلابه الدكتور طه حسين، ومن الذين أخذوا عنه توّجهاته الدكاترة زكي مبارك، وعبدالحليم محمود، وعبدالرحمن بدوي،

وآخرون، ولمّا أنشئ المجمع اللغوى سنة ١٩٣٣ عيّن عضواً عاملاً فيه حتى عام ١٩٥٦، ثم عضواً مراسلاً من سنة ١٩٥٧ حتى وفاته.

ويحسم ماسينيون الخلاف حول أصل كلمة «تصوّف»، ويقول إنها مصدر من الفعل الخماسى المصوغ من «صُوف»، للدلالة على لبس الصُوف، وأنه ينبغى رفض ما عدا ذلك من أقوال، ويؤرّخ للفظ «الصوفى»: بأنه يردُ لأول مرة كلقب مُفرد فى القرن الثانى، كنعت لجابر بن حيّان، وأبى هاشم الكوفى؛ كما يؤرّخ للتصوّف الفلسفى بالقرن الرابع الهجرى؛ ويصنّف فلاسفة المتصوّفة ثلاثة أصناف - الاتحادية: كابن مسرّة، وابن قُسىّ؛ والإشراقية: كالسهروردى الحلبى، والجلدكى، والدرانى، وصدر الدين الشيرازى؛ والوصولية: كابن سينا، وابن سبعين، وابن طفيل؛ ويقصد بالوصولية، القول بأن النفس تصل إلى موافقة الحقّ، فتكون فى المنزلة الجامعة التى لا تكثّر فيها ولا تَعَدُّد، ولا تفرقة بأى شكل من الأشكال.

ويعرّف ماسينيون: الصوفية، بأنهم قوم أرادوا أن يفهموا كيفية وصول التبديل فى أحوال الإرادة، ويستندون على ذلك بالأحاديث والآيات؛ وعلم القلوب عندهم هو علم التقليب، أى التبديل فى أحوال الإرادة. وأول من دقق فى هذا العلم هو سهل بن عبد الله العشرى، المتوفى سنة ٢٨٣ هـ، وهو من الصوفية المقبولين بإجماع فقهاء الإسلام، وإذا رجعنا إلى ابن عربى فى كتابه الفتوحات، لوجدناه يقول: وكان سهل بن عبد الله يدّقق فى هذا الشأن، وهو الذى نبّه على نَقْر الخاطر.

ويقول ماسينيون: إن أبا حمزة البغدادى كان أول من تكلم فى المحبة بالمعنى الصوفى، وكان متذوّقاً للجمال، ومن تلاميذه من كان يتعشّق الجمال حتى فى الصورة، ويسجد لها. والحلاّج هو الشهيد الأول للمحبة الصوفية، وشعره لا يذكر فيه محاسن النساء ولا الغلمان مثلما فى أكثر رباعيات أبى سعيد بن أبى الخير، والمحبة فيه مجردة. والغزالى هو أول فلاسفة المتصوّفة، الذين قالوا بأن الله وحده هو المستحق للمحبة، ويعرّف الحب: بأنه حبُّ كلّ جميل، لذات الجمال وليس لحظ يُنال من وراء إدراك الجمال. وكان الدكتور عبدالرحمن بدوى من أكثر تلاميذ ماسينيون التزاماص بآرائه؛ وقد تتلمذ عليه من الصوفية المحدثين: الدكتور عبدالحليم محمود، ويذكره بالثناء عليه والاحترام.

ولماسينيون الأثر المُعلّى فى الدراسات العربية فى التصوّف بين الدارسين العرب، وله مكانة خاصة فى نفوسهم بصرف النظر عن آرائه فى الإسلام.

* * *

٢٧٩ - مبارك (زكى)...

زكى بن عبدالسلام بن مبارك (١٣٠٨ - ١٣٧١ هـ / ١٨٩١ - ١٩٥٢م)، أو الدكاترة زكى مبارك، من مواليد ستريس من أعمال منوفية مصر، حصل على أكثر من دكتوراه، وله «الأخلاق عند الغزالى»، و«التصوّف الإسلامى»، وكُتب أخرى فى الأدب، ويؤرّخ لتصوّفه هو نفسه فيقول: إنه كان فى حداثته كأكثر أهل الريف يشهد مجالس الصوفية، وكانت لأبيه صلات روحية بأهل الطريق، وعندما التحق بالأزهر انضم لنوادى الصوفية، وأخذ العهد على طريقة الشاذلية، ولكنه كان قليل الرعاية للتقاليد الصوفية، فنازعه شيخه، فاقتنع بأن الصوفية أرباب ظواهر وإنْ ادّعوا أنهم أرباب قلوب، وصنّف كتابه «الأخلاق عند الغزالى»، الذى حاز به على إجازه الدكتوراه من الجامعة المصرية سنة ١٩٢٤، وتجنّى فيه على التصوّف، ورمى أشياعه بالغفلة والجهل، وجعل سلوكهم سبباً فى انحطاط الأمم الإسلامية، ومما قاله فى أغلاط كتاب الإحياء للغزالى، استحسانه - أى الغزالى - لأشياء مبناها على ما لا حقيقة له، وقوله ليس فى الإمكان أبدع مما كان، وأن المقصود بالرياضة تفريغ القلب بالخلوة، والجلوس فى مكان مظلم، ومنها التقليل من الطعام، وعدم الركون إلى الدنيا بالزواج وغيره، والقيام طول الليل، وأن يضع الصوفى نفسه فى موضع التُّهم، ليخلّص نفسه من فتنة النظر إلى الخلق ومراعاتهم له، ودعوى أن الاشتغال بعلوم الظاهر بطّالة إلخ، وينتقد مبارك على الزبيدى، دفاعه عن الغزالى فى كتابه: «أعلام الأحياء بأغلاط الإحياء»؛ ويورد أقوال السبكى فى طبقاته عن الأحاديث التى تضمّنها الإحياء وليس لها إسناد، وينهم الغزالى بالغفلة، وعدم التثبُّت، فهو فى جمع الأحاديث كحاطب الليل، واتّهمه بالعناد، فقد قذف ناقديه ورماهم بالغباوة والحسد والكذب؛ وينسب له أنه أخذ كتابه الإحياء من كتاب قوت القلوب لأبى طالب المكى (انظر تحقيق الحفنى للكتاب)، ويجزم بأنه قد نقل عنه كل ما صحّ لديه وحَسُن عنده منه - وإن لم يشر إلى ذلك، ويكفى أن نقرأ باب التوكل مثلاً فى الكتابين» لنعرف أنهما يسيران فى طريق واحد إلى غاية واحدة،

ومن السهل إثبات أثر الرسالة القُشَيْرية على أكثر أبواب الإحياء، وكذلك أثر ابن مسكويه عليه، حيث يأخذ منه عبارات بكاملها. وينقد مبارك على الغزالى أن كتبه الإحياء، والأربعين، والميزان والمنهاج، والتِّبر المسبوك، والأدب فى الدين، وبداية الهداية، كلها يكرر فيها نفس الأفكار والعبارات والأمثلة، حتى ليمكن القول بأن بضاعته فيها واحدة، وفى خاتمة الكتاب يذكر مبارك أن الغزالى يبدو أنه لا يخلو من سذاجة، وأن العصور التى تلت عليه كانت مفقرة من النقد، ولذلك سادت فيها آراؤه مع ما تحتوى عليه من عناصر الجمود، وخلو كتبه من العلوم الكونية دليل على عدم أهميتها عنده.

ويبدو أن مبارك ندم على أحكامه فى التصوّف وفى الغزالى، التى أسّسها على العقل الخالص، بعد أن التقى بالمستشرق ماسينيون فى باريس، واستماعه لمحاضراته فى الكوليج دى فرانس عن التصوّف والحبّ، فصحّت عزيمته على معاودة الكتابة فى التصوّف، وقد تبيّن له أنه ليس وقفاً على الدراويش الذين يتعيّشون بالتسوّل، وإنما هو نزعة روحية، ولذلك فقد صنّف كتابه «التصوّف الإسلامى فى الأدب والأخلاق» ليكون رسالة دكتوراه للجامعة المصرية سنة ١٩٣٧، وفيه يذهب إلى أن مذاهب الصوفية فى جوهرها ترجع إلى شُعَب ثلاثة: الأولى عاطفة الحب الإلهى؛ والثانية نظرية وحدة الوجود، والثالثة حبّ الرسول. واهتمامه بالحبّ الإلهى لأنه يمثل السمو فى أذواق الصوفية، إذ كانوا يتشهّون الفناء فى الله، ويرون الأُنس به أشرف الأغراض. وهيام الصوفية بالحبّ الإلهى حوّلهم إلى أقباس روحية ذوقية، وجعل حياتهم أوتاداً تصدح بأعذب الألحان فى عالم الأرواح والأذواق. والحبّ الإلهى هو الذى جعل الصوفية لا يرون غير المعانى، ولا يعبأون بالأعمال. وتظهر أهمية هذه العاطفة السامية حين ننظر أثرها فى الأدب، ونتعرف ما تركت من أقباس الحنان. وعن الحبّ الإلهى تنشأ نظرية وحدة الوجود، فالصوفية لم يكفهم أن يكون لهم وجود ذاتى يمتاز عن وجود الناس، ولم يكفهم أن يُعرَفوا بالشوق إلى ذات الديّان، وإنما وثب فريق منهم فادّعوا أنهم جزء موصول بحقيقة أزلية هى حقيقة واجب الوجود، فالفريق الذى يحب الله كان يتشرّف بنسبة العاشق إلى المعشوق، وأما الفريق الثانى فلا يرى عاشقاً ومعشوقاً، وإنما يرى شوقاً يتمثّل فى حنين الجزء إلى الكل، وهى وثبة

جريئة فى عالم المعقول. وهذه النظرية شغلت كثيراً من الصوفية وشطرتهم شطرين، شطراً يؤثر الرفض، وشطراً يؤثر القبول، وكان لمعتنقيها ضحايا أشهرهم الحلاّج. ولابد من الاعتراف بأن التصوّف فى جملته يرجع إلى هذه النظرية، إذ كان الصوفى الحقّ لا يهمه إلا الفناء فى الله، فإن لم يكن فناء الجزء فى الكل فهو فناء العاشق فى المعشوق، وربما كان تهيبهم من إعلان هذه النظرية نوعاً من التقية، وإيثار السلامة من مكايد الناس. وعن نظرية وحدة الوجود ينشأ حبّ الرسول الذى أبدع فى اللغة العربية فنا جديداً هو فن المدائح النبوية، وإنما نشأ حبّ الرسول عن وحدة الوجود، لأن من قالوا بهذه النظرية قرروا أن محمداً عليه السلام هو أول مظهر للذات الأحدية، وأنه خاتم النبيين، وأول الأولين، وآخر الآخرين، وأنه البرزخ بين الذات الأحدية وسائر الموجودات.

ويقول زكى مبارك: إن حِكَم ابن عطاء الله السكندرى نموذج من الأدب الصوفى العالى، ولابن عطاء الله فيها كلمات تذكّر بمذهب الحلول، ومنها: «إنما يستوحش العبّاد والزُّهاد من كل شئ، لغيبتهم عن الله فى كل شئ، ولو شهدوه فى كل شئ، لم يستوحشوا من شئ»؛ وقوله: «عَلِم منك أنك لا تصبر عنه، فأشهدك ما برز منه». وهو يفصح إفصاحاً بأن العالَم هو الجزء البارز من الله، وأن على المؤمن أن يراه فى كل موجود.

وعن ابن عربى يقول زكى مبارك: كانت لابن عربى صبوات فى عالم الحسّ قبل أن ينقل صبواته إلى عالم الروح، وأنه فى قصائده فى ترجمان الأشواق كان مقهور النزوات والأهواء، ومحبوساً عن اللذات الحسية، فاندفع يطوف حولها فى رحاب عقلية لها رونق وبهاء. وهو يتناول المعانى بطرائق حسية ويواجه الدنيا بعين متشوّقة إلى الصور والأشكال، ومن ذلك قوله: رأيت ليلة أنى نكحت نجوم السماء كلها فما بقى منها نجم إلا نكحته بلذة عظيمة روحانية، ثم لما أكملت نكاح النجوم أُعطيت الحروف فنكحتها...». ويشبّه زكى مبارك ـ كمعلّمه ماسينيون ـ الحلاّج بالمسيح عليه السلام من نواح كثيرة، منها كثرة السياحات، وقوة التنسُّك، وكثرة الأتباع، وبشاعة المصير إلى الصَّلب، والتشابه بينهما قوى جداً من الناحية العقلية، فالمسيح كان يقول بوحدة الوجود، كما قال الحلاج بوحدة الوجود، والأساطير تُنطِق الحلاج باسم المسيح، ولعلها لم تكن أساطير، فالمسيح هو الربّ فى نظر أتباعه

من النصارى، والحلاج هو الربّ فى نظر مريديه من الصوفية، والقرآن يقول إن المسيح لم يصلب وإنما شُبِّه لمن صلبوه. وأتباع الحلاج يقولون إنه لم يُصلَب وإنما شُبِّه لمن صلبوه، وقصة الحلاج مع ربّه قصة نادرة المثال ـ هذا رأى زكى مبارك مع أنه لم يحاول مناقشة حقيقة القصة، ويقول إنها تغشى القلوب بالحزن والعيون بالدمع، وتُفهِم من لا يَفْهم أن الحب الصوفى لا يعرف اللعب ولا المزاح، وكان الحلاج يتمنى أن يكون المحب عين المحبوب ليصحّ له أن يقول :

سبحان مَن أظهر ناسوته
بسرّ سَنا لاهوته الثاقب
ثم بدا فى خَلْقه ظاهراً
فى صورة الآكل والشارب
حتى لقد عاينه خَلْقُه
كلحظة الحاجب بالحاجب

وعن ابن الفارض يقول زكى مبارك: إنه ـ أى ابن الفارض ـ مدين بخلود شعره إلى نزعته الصوفية، ولولا التصوّف لانطمس ذكره منذ زمان، والمعانى الرمزية هى السرّ فى إقبال الناس على شعره، وعنايته بالمعانى كانت فاتحة جديدة فى وزن المعانى بعد أن ظل الناس يحرصون على وزن الألفاظ، ويكفيه هذان البيتان:

وحياة أشواقى إليك
وحُرمة الصبر الجميل
ما استحسنت عينى سوا
ك ولا صبوتُ إلى خليل

وهما بيتان لا خطر لهما عند من يحفلون بجزالة الألفاظ، ولكنهما على جانب عظيم من القوة عند من يؤثرون المعانى، وهل فى الحبّ أجلّ وأشرف من توحيد المحبوب ؟ وابن الفارض شُغل بالشعر أربعين سنة، ولشعر الصِّبا لون، ولشعر الكهولة لون، والوحى واحد وهو الحبّ، إلا أن الحب فى العهد الأول كان حباً حسّياً، وحبه الحسّى كان أساس حبّه الروحى فى الكهولة، والهيام بالجمال الإلهى لا يقع إلا بعد الهيام بالجمال الحسّى، وابن الفارض شاعر عاشق تورّعت عواطفه بين عالم المادة وعالم الروح.

وكتاب التصوّف لمبارك موسوعة فى الأدب والشعر والأقاصيص الصوفية، واللهجات العربية فى مؤلفات الصوفية، وصور المجتمع الإسلامى فى كُتب الصوفية، وأثر التصوّف فى الفنون وفى الأخلاق؛ ويكفى الصوفية أنهم عطّروا

الأدب العربي بأريج الكرامة والعزّة والصيانة والعفاف، وهم الذين وصلوا المشرق بالمغرب، وحفظوا الإسلام بإذاعة المعاني الروحية والذوقية؛ وأدباء الصوفية هم الذين رعوا تاريخ الأدب العربي من وصمة التزلّف بالمديح إلى الملوك والرؤساء والأمراء والوزراء.

* * *

٢٨٠- ابن المبارك (شيخ الإسلام)...

هو المقدَّم في الأدب على سفيان الثوري، وقال فيه الثوري: **«جهدتُ أن أداوم ثلاثة أيام في السنة على ما عليه ابن المبارك - في تصنّوفه - فلم أقدر»!** وكان ابن المبارك سخياً جواداً، يتزوّد من الوداد، ويألف القرآن والحج والجهاد؛ وكان فعله مباركاً، وقوله مباركا، والتصوّف اعتدادٌ للازدياد، واستعدادٌ وارتياد، وكان أصحابه يقولون عنه: **ما رأينا مثله، وهو الأصلح للعبادة والزهد والريادة، والاقتداء بالعلم**، وكلنوا يصيبون عنده ما لا يصيبونه عند غيره، وعدّوه فقيه العرب في زمنه، وكان فصيح اللسان، حلو البيان، وتتلمذ عليه كثيرون منهم الواعظ البكّاء **الفُضَيل بن عِيَاض**.

وابن المبارك **شيخ الإسلام**، كان مجاهداً، حافظاً، وصاحب تصانيف، وُلد سنة ١١٨هـ (٧٣٦م)، وتوفي سنة ١٨١هـ (٧٩٧م)، وأصله من خراسان، وتوفي ببلدة هيث على الفرات، منصرفاً من غزاة الروم، والتصوّف جهاد واجتهاد، وله كتاب في **«الجهاد»**، وكان أول مَن صنّف فيه، وكتابٌ أسماه **«الرقائق»** في **الزهد والتصوّف**.

والعلم عند ابن المبارك: لدنّي وكسبي، فأما ما كان لدنياً، فذلك إلهام الله وفطرته في كل إنسان، والناس يتغايرون؛ وما كان كسبياً فبالتحصيل، ويحدِّد أصحابه على هذا المعيار، فهم إما أحياء من العُبّاد وأهل التَّقوى، وإما أمواتٌ جسوماً وأحياءٌ بالأفكار. وكان شديد المحبة لاقتناء الكتب والقراءة فيها، والسعي خلف الحقيقة تجتمع إليه من أفواه الناس. وسنده الكتاب، يقول للمريدين: **اعتمدوا على هذا** - ويشير إلى الكتاب - **وخذوا من الرأي ما يفيدكم إلى الحقيقة**. وسأله سائل: أي شيء أجعل فَضْلَ يومي؟ في تعلّم القرآن أو في طلب العلم؟ فسأله ابن المبارك: وهل تعرف من القرآن ما تقيم به صلاتك؟ قال: نعم، قال: **فاجعل فضل يومك إذن في طلب العلم الذي تعرف به القرآن»**. وسأله سائل: مما نستفيد؟ قال: من الكتب.

وكان ابن المبارك ـ هذا الصوفى ال الحَبْر ـ يحثّ على التعلّم، وتعلُّم الشىء يفيد فى تعلّم أشياء أخرى، ويقول: لو أن رجلاً اتقى مائة شىء ولم يتورع عن شىء واحد، لم يكن ورعاً، ومن كانت فيه خلة من الجهل كان من الجاهلين»! وقيل له: مَن الناس؟ قال: العلماء. قالوا: مَن الملوك؟ قال: الزُّهّاد، قالوا: مَن السِفْلة؟ قال: الذين يتعيّشون بدينهم ـ أو: من يأكلون بدينهم.

وكان يقول لأصحابه ومريديه: يكون مجلسكم مع المساكين، وإياكم أن تجلسوا مع صاحب بدعة؛ ويقول: أكثركم علماً ينبغى أن يكون أشدكم خوفاً من الله؛ ويقول: استعدوا للموت ولما بعد الموت؛ ويقول: إذا عرف الرجل قدر نفسه يصير عند نفسه أذلّ من الكلب؛ ويقول: الرفيع من يرفعه الله بطاعته، والوضيع من وضعه؛ ويقول متحسّراً: طلبنا الأدب حين فاتنا المؤدبّون، وأدركنا القرّاء وهم يؤتون أن تُسمع قراءاتهم، وأنتم تُدعَوْن اليوم كما يُدعَى المغنون ! ويقول: أُحِبُّ الصالحين ولستُ منهم، وأبغض الطالحين وأنا شرٌ منهم، وينشد :

الصمت أزين بالفتى
من منطق فى غير حينه
والصدق أجمل بالفتى
فى القول عندى من يمينه
وعلى الفتى بوقاره
سمةٌ تلوح على جبينه
فمن الذى يخفَى عليك
إذا نظرتَ إلى قرينه
رُبَّ امرءٍ متبرقنٍ
غلب الشقاءُ على يقينه
فأزاله عن رأيه
فابتاع دنياه بدينه

وكان يَكثُر أن يقول: يارب! عفوك! عفوك!. ويشرط للصوفى: أن لا تخطر الدنيا على باله؛ والنية عنده هى الأساس، فربّ عمل صغير تعظّمه النية، وربّ عمل كبير تصغّره النية. وكان يستشهد بهذين البيتين:

وهل بدّل الدين إلا الملوك
وأحبار سوء ورهبانها
لقد وقع القوم فى جيفة
يبين لذى العلم إنتانها

ويقول: لا تغترّوا بمال؛ ولا تحمّلوا معداتكم ما لا تطيقون؛ وتعلموا من العلم ما ينفعكم. ويقول: من علامة من عرف نفسه أن يكون أذلّ من الكلب. ويقول:

دعواكم الزهد من أنفسكم يخرجكم عن الزهد. والزاهد ينفر من الناس فيتّبعوه.

ولمّا قدم هارون الرشيد مدينة الرّقة، وَرَد عبد الله بن المبارك فانجفل الناس إليه، وتقطّعت النعال، وارتفعت الغبرة، فأشرفت أم ولد أمير المؤمنين من برج قصر الخشب، فلما رأت الناس وكثرتهم، قالت: ما هذا ؟ قالوا: عالم خراسان! فقالت: والله هذا هو المَلِك، لا المَلِك هارون الرشيد الذي يجمع الناس إليه بالسوط والعصا والشرطة والأعوان!!

وكان ابن المبارك إذا قرأ شيئاً من كتُب الوعظ كأنه بقرة منحورة من البكاء. وذُكر له ما يكون عليه صوفي مثل يوسف بن أسباط من العبادة، فقال: لقد ذكرتم قوماً يُستشفَى بذكرهم، ولكن إن فعل الناس جميعهم ذلك، فمن لسُنن رسول الله ﷺ ؟ ومَن لعيادة المرضى، وشهود الجنائز؟ وعدّ أنواعاً من القُرَب. وسألوه: كيف تعلم الملائكة أن الإنسان قد هَمّ بحسنة ؟ فقال: يجدون ريحها ! ـ وكان يعجب لطالب العلم، كيف تدعوه نفسه إلى محبة الدنيا مع إيمانه بما حَمّل من العلم؟! وكان يقول: إن الرحمة تنزل عند ذكر الصالحين. ويقول: كاد الأدب أن يكون ثلثي الدين. وكان قليل الخلاف على أصحابه، ويقول:

إذا تصحب فاصحب ماجداً
ذا عفاف وحياء وكرم
قوله للشيء لا إن قلتَ لا
وإذا قلتَ نعم قال نعم

ويقول: على العاقل أن لا يستخف بثلاثة: العلماء، والسلطان، والإخوان، فإنّ من استخفّ بالعلماء ذهبت آخرته؛ ومَن استخفّ بالسلطان ذهبت دنياه؛ ومن استخف بالإخوان ذهبت مروءته. وكان يقول: ليس من الدنيا إلا قوت اليوم فقط ـ وابن المبارك حدسيّ، ولذا يقول:

ما أودعت قلبي شيئاً قطّ فخانني.

وأنكر ابن المبارك أن يقال عنه أنه مرجئ، فإن المرجئة يزعمون أن الإيمان قول بلا عمل، وقال هو: الإيمان قولٌ وعمل. وزعموا أن تارك الصلاة لا يكفر، وقال هو: إنه يكفر. وزعموا أن الإيمان لا يزيد ولا ينقص. وقال هو: إنه يزيد وينقص.

وكان يقول لمريديه: رابطوا بأنفسكم على الحقّ وذلك أفضل الرباط. ـ وفي طرسوس حيث كان مرابطاً، أملى على الفضيل بن عياض سنة سبعين ومائة:

يا عابد الحرمين لو أبصرتنا
لعلمتَ أنك في العبادة تلعب

من كان يخضب خدّه بدموعه
فنحورنا بدمائنا تتخضّب
أو كان يُتعب خيله في باطل
فخيولنا يوم الصبيحة تتعب
ريح العبير لكم ونحن عبيرنا
رَهَجُ السنابك والغبار الأطيب
ولقد أتانا من مقال نبيّنا
قولٌ صحيح صادقٌ لا يكذب
لا يستوي غبار خيل الله في
أنف امرئٍ ودخان نار تلهب
هذا كتاب الله ينطق بيننا
ليس الشهيد بميّت لا يكذب

* * *

٢٨١ - مبارك (علىّ)...

علىّ بن مبارك بن سليمان (١٢٣٩ - ١٣١١ هـ) الوزير المصرى، والمؤرِّخ العالِم، صاحب «الخطط التوفيقية»، فى عشرين جزءاً، جرى فيه على نهج المقريزى فى خططه، فعدّد الزوايا والرُّبط والخانقاوات والتكايا الصوفية فى مصر، ويَذكُر أنها كانت لإقامة بعض الصالحين للتعبّد فيها، وأغلبهم من «الأجانب»، وينعى أن يكون هؤلاء المتمتعون بخير البلد أبعد الناس عن التصوّف كما عرّفه السهروردى فى كتابه عوارف المعارف. ويؤرّخ مبارك لأول خانقاه بديار مصر زمن صلاح الدين الأيوبى سنة ٦٥٩ هـ، وقد أنشأها برسم الفقراء الصوفية الواردين من البلاد الشاسعة ووَقَفها عليهم، ووقف عدة أملاك يصرف من ريعها عليها، ورتّب لهم كل يوم طعاماً ولحماً وخبزاً، وبنى لهم حماماً بجوارها، ثم لما انقرضت الدولة الأيوبية حذا حذوهم السلاطين الجراكسة وبعض الأمراء، فصار فى مصر إلى أول القرن التاسع عشر ٢٢ خانقاه، ثم لما زال مُلك السلاطين الجراكسة حصل الإهمال وعدم الصرف، وضياع الأوقاف التى عليها، فاندثر أغلبها، وتخرّب الكثير منها، واستُبدلت بالتكايا، وتنوسى اسم الخانقاه بالكلية، وهى كلمة فارسية معناها بيت العبادة. والتكايا جمع تكية، يسكنها الدراويش الأغراب غالباً، الذين ليس لهم كسب، وإنما تُجرَى لهم مرتبات شهرية وسنوية من ديوان الأوقاف العمومية، أو من أوقاف خصوصية، فلذا تسمى محال إقامتهم تكية، كأن أهلها متكئون، أى معتمدون فى أرزاقهم على مرتباتهم. وكان عدد هذه التكايا فى القاهرة وحدها حتى عهد مبارك: عشرون تكية، وأهمها تكية الخلوتية: وراء الحلمية، على يمين الذاهب

إلى شارع محمد على؛ وتكية المغاوري: بأعلى المقطم، وبها جملة من دراويش العَجَم، ويُشاع عنهم أنهم يشربون الخمر، ويحتفلون فيها بموسم عاشوراء، فيجتمعون ويذكرون، ويصيحون ويصرخون، ويذبحون الذبائح، ويفرّقون على الفقراء. ويتضمن كتاب مبارك تراجم لعدد من الأولياء والصوفية، ويُعدّ مع كتاب المقريزى أفضل المصادر عن الصوفية والصالحين أثناء حكم المماليك لمصر.

* * *

٢٨٢ - المتبولى (إبراهيم)...

برهان الدين إبراهيم بن علىّ بن عمر، الأنصارى المتبولى، من أصحاب الدوائر الكبرى فى الولاية، وينُسَب إلى متبول من قرى الغربية بمصر، وله كتاب «الأخلاق المتبولية» فى مكتبة عارف حكمت، وصفحاته ٦١٦، وكان يقول: «أنا أحمدى»، أى من أتباع سيدى أحمد البدوى، وليس الصوف ويتعمّم به، وله طُلَيْحية حمراء. وطريقته: قوامها الإخلاص وتطهير القلب. يقول: طهّر قلبك من محبة الدنيا يجرى ماء الإيمان فيه جداول، ومن لم ينظف قلبه لم يؤمن. - والتصوف عنده ليس تبطُّلاً، وهو يقول: لا أحب الفقير إلا كان له حرفة تكفه عن سؤال الناس. - وكان هو نفسه يعمل فى الغيط، ويدير الماء، وينظّف القناة من الأعشاب. ويصفه ابن إياس بأنه كان نادرة عصره وصفىّ وقته، وأخلاقه فى التصوّف أساسها البرّ والمعروف، وكانت حياته تماشى ما يدعو إليه، وأنشأ أماكن للعبادة كثيرة، منها جامع كبير بطنطا، وبرج بدمياط، وتوفى بأسدود.

ويروى عن المتبولى أنه اختلف مع السلطان قايتباى، فقال السلطان: إما أنا أو هو فى مصر، فخرج المتبولى يقصد القدس على حماره ولكنه لم يُكمل، وقيل مات عن ثمانين سنة، ولم يغتسل قط عن جنابة لأنه لم يحتلم قط ولم يتزوج.

* * *

٢٨٣ - المتقى الهندى (الصوفى المحدث)

الشيخ الإمام العالم المُحدِّث: علىّ ابن حسام الدين بن عبد الملك، المُتَّقى، الشاذلى، المدينى، الجشتى، البرهانبورى، وُلد بقرية برهانبور من أعمال الهند سنة ٨٨٥هـ (١٤٨٠م)، وكان أبوه قاضياً، والحقه صغيراً مريداً للشيخ الصوفى البرهانبورى، وظل معه طويلاً، ولما مات الشيخ لبس الخرقة من ولده عبد الحكيم ابن بهاء الدين البرهانبورى، وارتحل إلى الهند مصاحباً للشيخ حسام الدين المتقى

المُلتاني، وظل معه سنتين، وسافر إلى الحرمين يتتلمذ على الشيخ أبي الحسن الشافعي البكري، وأخذ عنه الطرق القادرية والشاذلية والمدينية، وعلّمه التصوّف الشيخ محمد ابن محمد السخاوي المصري، وقرأ الحديث على الشيخ شهاب الدين أحمد بن حَجَر المكّي، وأقام بالمدينة ثم بمكة مجاوراً. واسمه «المُتّقي» نسبةً إلى شيخه حسام الدين، إلا أن صُحبته له لم تدم طويلاً، ولم يتأثر به كثيراً، وغالباً أن اسمه اختاره لنفسه، وتعاليم القرآن لُحمتها وسُداها التقوى، والمتقون كما جاء فيه، هم طبقة الصفوة من أهل العلم وأولى الألباب، يحبّهم الله (آل عمران ٧٦)، وهو وليّهم (الجاثية١٩)، ويتقبّل منهم (المائدة ٢٧)، والتقوى خير زاد (البقرة ١٩٧)، وصنو البرّ، ونقيض العدوان (المائدة ٢)، والمتّقون نقيضهم الفُجّار (ص ٣٨)، والله يعدهم حُسن مآب (ص ٤٩).

والمتقي عاش بمكة عيْش فقراء الهنود، وكان أتباعه والمنقطعون إليه يملأون داره، وقد كان له مال أوقفه عليه السلطان محمود شاه، وما كان يضع على جسده إلا خرَق الصوف، وما كان يتناول إلا ما تستمر به حياته، ولو زاد فُولة واحدة على طعامه تقيّأ وأصابه المرض، وكان هزيلاً، يميل إلى الصمت، وينظر إلى محدّثه محملقاً. ولمّا تولى ابن محمود شاه السلطنة، وكان من مريديه دعاه يستوزره، ليحكم بالإسلام، ويزن قضايا الناس بميزان الشريعة، واستعان الشيخ بالأتباع ولكنهم خذلوه، ولمّا استعان بعُمّال الدنيا خانوا الأمانة:

والظلم من شيم النفوس فإن تجد
ذا عفة فلعلّة لا يظلم

ولم يجرّب الشيخ مرة أخرى أن يكون قاضياً، واجتمع بمن اختارهم السلطان قضاةً، يعظهم ويُسمعهم مقالة الدين في أهل الدنيا، ولا يطالبهم أن يكونوا زهّاداً وإنما طريقتهم التوسط، وفي الحديث «ليس خيركم من ترك الدنيا للآخرة، ولا الآخرة للدنيا، ولكن خيركم من أخذ هذه وهذه».

وأوصاهم بالإنابة إلى الله في سائر الأحوال، وإمضاء حكم الشرع، وإعزاز أهله، وصُحبة الصالحين، وتعظيم شعار الفقر، واتخاذ اليد عند الفقراء. وفي كتابه الأشهر «كَنْز العمال» أفرد المتّقي فصلاً عن أقوال المصطفى ﷺ في تحبيذ الفقر ومحبة الفقراء، ويقصد بالفقر الذي يختاره العبد لنفسه عن الغنى، الفقر الصوفي، ومن ذلك قوله عن أهل الصُفّة

وهم الذين يُنسَب إليهم الصوفية: «ابشروا يا أصحاب الصفة ؟ فمن بقي من أمتي على النعت الذي أنتم عليه، راضياً بما هو فيه، فإنه من رفقائي يوم القيامة».

والصوفية في المصطلح هم الصعاليك، وفي الحديث: «إذا رأيتم العبد ألمّ الله به الفقر والمرض، فإن الله يريد أن يصافيه»، قيل يصافيه منها الصفوة، ومنها الصوفية، والصفوة هم الصوفية. والمؤمنون إذا اجتمع عليهم الفقر، كان لهم تحفة الدنيا، وأسقط عنهم الحساب في الآخرة.

وللمتّقي فلسفة في الفقر، يقول: الفقر يورث الهَمّ، ومع طول الفقر يطول الحُزن، وأطول الناس حزناً في الدنيا أكثرهم فرحاً في الآخرة. والفقراء هم المستضعفون، والأغنياء هم المستقوون، والله مع الأولين وضد الآخرين، ودولة الدنيا للأغنياء، ودولة الآخرة للفقراء، فهكذا يكون الميزان: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ (الشورى ٢٠)، وفي الحديث: «اتخذوا عند الفقراء أيادي فإن لهم دولة يوم القيامة». ألا إنها دولة الفقراء !

وتوفي المتقي في مكة ليلة الثلاثاء، وقت السحر، ثاني جمادى الأول سنة ٩٧٥هـ (١٥٦٧م) عن سبع وثمانين سنة، ودفن في صُبح تلك الليلة، ومدفنه بالمعلاة بسطح جبل محاذي مقبرة الصوفي الكبير الفُضَيل ابن عِياض، وبين قبريهما طريق مسلوك عند محل يقال له ناظر الجيش.

وكانت للمتّقي كرامات لها شهرة بالغة في وقته، وقال فيه الشعراني في الطبقات: اجتمعتُ به في مكة سنة ٩٤٧، وترددتُ إليه وتردّد إليّ، وكان عالماً ورعاً زاهداً نحيف البدن، لا تكاد تجد عليه أوقية لحم من كثرة الجوع، وكان كثير الصمت، كثير العزلة، لايخرج من بيته إلا لصلاة الجمعة في الحرم، فيصلي في أطراف الصفوف، ثم يرجع بسرعة. وأدخلني داره فرأيت عنده جماعة من الفقراء الصادقين في جوانب حوش داره، كل فقير له خُصّ يتوجه فيه إلى الله تعالى، منهم التالي، ومنهم الذاكر، ومنهم المراقب، ومنهم المُطالع في العلم، وما أعجبني في مكة مثله.

وللمتّقي عدة مؤلفات، منها «ترتيب الجامع الصغير» للحافظ السيوطي، ومنها «مختصر النهاية» في اللغة، وكان قد أطلع الشعراني على مصحف بخطه، كل سطر ربع حزب في ورقة واحدة، وأعطاه فضة وقال له: لك المعذرة في هذا البلد. يقول الشعراني: فوسّع الله عليّ في الحج

ببركته حتى أنفقت مالاً عظيماً من حيث لا أحتسب. رضى الله عنه.

وقال الحلبى فى كشف الظنون فى ذكر جمع الجوامع للسيوطى: إن الشيخ العلاّمة علاء الدين علىّ بن حسام الدين، الهندى الشهير بالمُتّقى، رتّب هذا الكتاب الكبير كما رتّب الجامع الصغير، وسمّاه «كنز العمال فى سنن الأقوال والأفعال»، ذكر فيه أنه وقف على كثير مما دوّنه الأئمة من كتُب الحديث، فلم يُر فيها أكثر جمعاً منه، حيث جمع فيه من أصول السنة، وأجاد مع كثرة الجدوى وحُسن الإفادة.. وبوّب أولاً كتاب الجامع الصغير وزوائده وسمّاه «منهج العمال فى سنن الأقوال»، ثم بوّب بقية قسم الأقوال وسمّاه «غاية العمال فى سنن الأقوال»، ثم بوّب قسم الأفعال من جمع الجوامع وسمّاه «مُستدرَك الأقوال»، ثم جمع الجميع فى ترتيب كترتيب جامع الأصول وسمّاه «كنز العمال»، ثم انتخبه ولخّصه فصار كتاباً حافلاً فى أربع مجلدات. وله مؤلفات أخرى كثيرة فى التصوّف، مثل: «تلقين الطريق فى السلوك لما ألهمه الله سبحانه»، و«البرهان الجلىّ فى معرفة الولىّ».

رحمه الله ورضى عنه وأرضاه، فقد أثبت أن التصوّف يزيد فى العلم ولا يُنقصه، وأن المتصوّفة يمكن أن يكونوا كذلك علماء.

* * *

٢٨٤ - المحاسبى (الصوفى الأستاذ)...

أبوعبد الله الحارث بن أسد، من أهل البصرة، ووفاته ببغداد سنة ٢٤٣ هـ (٨٥٧م)، وشهرته المحاسبى، فقد كان شديد المحاسبة والمراقبة لنفسه، حتى تميّزت طريقته فأطلقوا عليها «المحاسبية»، ومنهجه تحليلى نفسانى، ويصفه المستشرق ماسينيون بأنه: إعجاز نادر. ويتحدث شيخ الصوفية الجنيد عن هذا المنهج فيقول: إن المحاسبى كان يمر عليه فى بيته ويقنعه بالخروج معه إلى الصحراء للتفكير والنقاش، فيبدأه بأن يقول له سَلْنى، فيقول الجنيد ما عندى سؤال أسأله، فيقول المحاسبى سلنى عما يقع فى نفسك، ويسأل الجنيد فيجيبه المحاسبى، ولكن السؤال يسلم لسؤال غيره، والإجابة تقتضى بدورها إجابة أخرى وهكذا. وكان ذلك حال المحاسبى مع كل أصحابه وتلاميذه. والمحاسبى أستاذ أكثر البغداديين، ولذا كان يقال له «الأستاذ»، وأكثر من روى عنه هو الجنيد، والأسئلة التى تُطرَح على المحاسبى وأجوبته التحليلية لها هى التى كان يملأ بها كتبه،

ويقول الجنيد: إنه كان يتوجه إلى بيته بعد المناقشة، فيعملها كتاباً ! - يقصد يعيد كتابة المناقشة ويصوغها كتاباً.

ومؤلفات المحاسبى كثيرة، ويقدّرها بعضهم بنحو المائتى كتاب، أشهرها كتاب «الرعاية لحقوق الله عز وجل»، وقيل فيه إن المحاسبى لو لم يؤلف إلا هذا الكتاب لكانت له نفس المكانة والأستاذية على أقرانه ومعاصريه، وأن أثر هذا الكتاب ليتجاوز وقته، وسيظل المحاسبى له المتلقون عنه وإن لم يعاصروه، ومن هؤلاء كان الإمام الغزالى، ومن النقّاد من يذهب إلى أن الغزالى فى كتابه الإحياء قد تبطّن كتاب الرعاية للمحاسبى ، فلولا الرعاية ما كان الإحياء، ومن قبل قيل مثل ذلك عن كتاب المكّى «القوت»، فذكروا أنه لولا القوت ما كان الإحياء!! ومن رأى الغزالى أن المحاسبى: هو خير أمة الإسلام فى علم المعاملات، والمقصود به علم الأخلاق النفسانية.

وطريقة المحاسبى فى التعليم طريقة فريدة حقاً وتذكّرنا بطريقة سقراط. يسأله سائل: بما تُحاسَب النفس؟ فيقول : بقيام العقل على حراسة جناية النفس، فيتفقد زيادتها من نقصانها. فيقال له: ومما تتولد المحاسبة؟ فيقول: من مخاوف النقص، وشَيْن البخس، والرغبة فى زيادة الأرباح. والمحاسبة تورث الزيادة فى البصيرة، والكيس فى الفطنة، والسرعة إلى إثبات الحجة، واتساع المعرفة، وكل ذلك على قدر لزوم القلب للتفتيش. فيقال له : ومن أين تَخَلُّفُ العقول والقلوب عن محاسبة النفوس؟ فيقول: من طريق غلبة الهوى والشهوة، لأن الهوى والشهوة يغلبان العقل والعلم والبيان، فيُسأل : ومما يتولد الصدق؟ فيقول : من المعرفة بأن الله يسمع ويرى، فالمعرفة أصل للصدق، والصدق أصل لسائر أعمال البر، فعلى قدر قوة الصدق يزداد العبد فى سائر أعمال البر. فيُسأل: وما هو الشكر؟ فيقول هو علم المرء بأن النعمة من الله وحده، وأن لا نعمة على خَلْق من أهل السماوات والأرض إلا وبدائعها من الله، فيشكُر الله عن نفسه وعن غيره، فهذا غاية الشكر. فيُسأل: عن الصبر ما هو؟ فيقول : هو حَمْل النفس على المكاره وتحمّل المؤمن واحتمال المكابدات، فيُسأل : فكيف السبيل إلى مقام الرضا ؟ فيقول: بأن يعلم القلب بأن المولى عَدْلٌ فى قضائه، غير متّهم، وأن اختيار الله خير له من اختياره لنفسه.

وكان المحاسبى من فرط حسّه

الأخلاقي الديني فيه خصلة نفسية بدنية، وهي أنه إذا استشعر حرجاً أخلاقياً دينياً في طعام يُدعَى إليه، تحرّك عِرْق في إصبعه كالمحذِّر له، فيمتنع لتوه، ويصف هو ذلك فيقول: بيني وبين الله علامة، إذا لم يكن الطعام عند الله مرضياً، ارتفعت إلى أنفي منه فورة فلم تقبله نفسي!. وفي ذلك أيضاً يقول الجنيد: إن الحارث ورث ثروة طائلة عن أبيه، ولكنه رفض أن يتسلم منها شيئًا لأنه كان يرى أباه في تصرفاته يسلك على غير مذهب السنة، وأن أهل الملتين (مَثْنَى مِلَة) لا يتوارثون.ـ يعني اعتبر أنه على ملة وأن أباه على ملة أخرى فلا يجوز لذلك أن يرثه !! ومنه أيضاً أن جماعة من أصحابه رأوه متعلقاً بأبيه والناس مجتمعون عليهما، وهو يقول له: طلق امرأتك فإنك على دين وهي على غيره.ـ وهذه أبشع من السابقة: أن يعتبر أن أباه على غير دين أمه فيطلب إليه أن يطلّقها! قيل: هو تزمّت ممقوت، والرسول ﷺ أمر أن نأخذ الدين برفق.

والمحاسبة التي يقول بها المحاسبي والتي ينْسَب إليها، هي محور تفكيره الصوفي ولبُّ مذهبه في التصوّف، وهي موازنة يقول إنها في ثلاث مواطن: فيما بين الإيمان والكفر؛ وفيما بين الصدق والكذب؛ وفيما بين التوحيد والشرك.

وطريقة المحاسبي القائمة على المحاسبة والموازنة والمراقبة، أساسها قوله: إن الإنسان ليس شيئًا بدون الله، وليس له إلا ما يناله من رضوان الله، وأنه إن أتقى الله وقاه شرّ مَنْ دونه، وإن صَلُح صلح به الناس، وإن فسد فسد به الناس، وأن عَدُوّه من نفسه طبائعه السيئة، وأولياءه منها طبائعه الحسنة، وأنه لذلك محل صراع نفساني بين الاثنتين. (ونظرية الصراع النفسي هذه لم يقل بها الأوربيون إلا بعد نحو ألف سنة!). والإنسان الأخلاقي المتدين هو الذي يقاتل بعضه بعضه، ويستخدم أولياءه ضد أعدائه، فيقاتل الغضب بالحلم، والغفلة بالتفكير، والسهو بالتنبيه.ـ وهذا كلام في ظني، هو أفضل ما قيل في العالم قاطبة، وعند كل الفلاسفة، في هذا الشأن. ويقول المحاسبي: ومراقبة الإنسان الأخلاقي لله على ثلاث خلال، على قدر عقل العاقلين ومعرفتهم بربّهم، والخلة الأولى: هي الخوف من الله، والثانية: هي الحياء منه، والثالثة: هي الحب له. والخائف مُراقَب بشدة الحذر من الله تعالى، والمستحيي من الله مُراقَب بشدة انكساره وغلبة إخباته، والمحب لله مُراقَب بشدة سروره وغلبة نشاطه وسخاء نفسه.

والمراقبة فى أحوال ثلاثة: أولها التثبُّت بالحذر قبل العمل بما أوجب الله والترك لما نهى عنه؛ فإذا دخل فى العمل فالتكميل للعمل مخافة التقصير، فمن لم يثبّت قبل العمل فهوغير مراقِب لله، ومن لم يبادر ويسارع إلى العمل بعد ما تبين له صوابه، فما راقب الله إذ أبطأ عن العمل وتثبّط عن القيام بما أمُر به. ومن لم يجتهد فى تكميل عمله فضعيف مقصّر فى مراقبة من يراقبه، وقد علم أن الله يحب تكميله وإحكامه. **والطاعة لله فيما أوجب وما نهى،** منتزعة من حب الله لعباده، وحبهم لله تعالى من حبه لهم أولاً، فالله سبحانه هو الذى بدأ فعرّف عباده بنفسه ودلّهم على طاعته، وتحبّب إليهم على غناه عنهم. ويحلل المحاسبى المحبة نفسياً كعادته، فيقول: إن **الحب لله هو الشوق إليه،** والشوق تذكار للقلوب بمشاهدة المعشوق، لأن المحب لا يشتاق إلا إلى حبيب، فلا فرق بين الحب والشوق. **وعلامات الحب** على المحبين تظهر على أبدانهم وفى ألفاظهم، والمحب لا يُعرَف بأخلاقه، وما يُجريه الله على لسانه بحُسن الدلالة عليه وما يوحيه إلى قلبه، **والمحبة أصلها فى القلب وفرعها فى اللسان.** وأظهر شواهد المحبة لله شدّة النحول بدوام التفكير فى الله، وطول السهر فى ذِكره، والقيام له، وسخاء النفس فى الطاعة والمبادرة. **والنطق بالمحبة** على قدر ما فى القلب منها، ولذلك قيل: **علامة المحبة لله** تَمكنُّها فى قلب المحب، وظهورها على لسانه. **والحب لله** استنارة للقلب بالفرح لقربه من حبيبه، فيستلذ الخلوة بذكر الحبيب، ويحل الأنُس بالقلب لله، فيستثقل كل أحد سوى الله، فإذا ألِف الخلوة بمناجاة حبيبه، استغرقت حلاوة المناجاة العقل كله، حتى لا يقدر أن يستوعب ما سوى الله.

وسألوا المحاسبى: **فكيف نستعين على الطاعة؟** فقال: بذكر حبيب العابدين، فإنكم لو سقيتم من حُبه لله مثلما ذاق غيركم، لتحصّلت الراحة وتقضّت الهموم. والمحاسبى **يجعل الحب والبُغض فى الله أعظم ثواباً من الزهد فى الدنيا.**

ويسبق المحاسبى الجنيد، حيث يشرح **التوحيد بإفراد تجريد الحق،** وهو **الاصطلاح الذى اشتهر عن الجنيد، وهو ينقله عن المحاسبى فى وصفه لأهل التحقيق والإيمان** - أى الصوفية - فيقول: إنهم الذين جعلهم الحق أهلاً لتوحيده وإفراد تجريده، والذابّين عن ادعاء إدراك تحديده، مصطنَعين لنفسه، مصنوعين على عينه، ألقى عليهم محبة منه له.

ويرسم المحاسبي الطريق النفساني للنجاة بالتوبة، ويقسّم الناس بإزائها إلى منازل ثلاث: فمن نشأ على الخير وأتى الزلة فمحنته أخف لطهارة قلبه، فيعود لرعاية حقوق الله في نفسه؛ والثاني التائب بعد الصبوة، وهو الراجع إلى الله بعد جهالة، والنادم على ما سلف منه؛ والثالث المُصرّ على الذنب، وهو المقيم على السيئة، فهو محتاج إلى ما يحل به إصراره من نفسه ليتوب إلى ربّه ويلحق بصاحبيه السابقين، ويبعثه على ترك الإصرار الخوف والرجاء.

ونظرية المحاسبي في الخير، كأنه ليس مفهوماً يفرض نفسه على العبد بالتفكير والتجريد، ولكنه الخير كما يحدده الدين. والرياء يحبط عمل الخير، والرياء هو القيام بالخير بإرادة محمدة الناس، وليس ابتغاءً لوجه الله تعالى. وأعظم المراثين في نظرية المحاسبي، هو من يراءي بالإيمان ويعتقد التكذيب مع ذلك ويضمر الشك.

ويقول المحاسبي: الشرّ من النفس، وعلاجه بالزهد وانقاء أصحاب السوء. ومن آفات النفس العُجب والكبر والغرة والحسد، ويصف المحاسبي العلاج منها بتصحيح الباطن فيجلو الظاهر. والعمل الصالح خيره ما كان مراقبة للنفس ومطالعةً للغيب، وذلك أشرف من العمل بحركات الجوارح. ومجاهدة الباطن تورث الهداية، والعلم بالنفس يورث الخوف من الله ومن المعصية، كما يورث الزهد في الدنيا. والمعرفة بالله تورث الإنابة، وحُسن الخُلق هوالغاية من كل سلوك، وهو ما ينبغي أن يكون هدف المريد ومنهجه اليومي.

ونظرية المحاسبي في التصوّف: أن الله تعالى أوجب التوكل كما أوجب السعي للرزق الضروري للحياة، على أساس من الورع الذي هو مجانبة كل ما يكره الله. والورع يُنال بالمحاسبة، والزهد أعلى منه، ودواعيه أن الدنيا لا قيمة لها، وأن الأولى أن نتحقق منها بالأقل من الكفاية. ومن وهبه الله التفويض زالت همومه واطمأنت نفسه، ومن توكل على الله ووثق به نال الرضا، وهو نعمة يسبغها الله على من يحبه من عباده. ورجاء المحبين في الله استدامة طاعته.

ومن رأى الهجويري في كتابه كشف المحجوب أن الرضا هو خصيصة مذهب المحاسبي، وأن المحاسبي يعتبره من جملة الأحوال وليس من جملة المقامات، والفرق في ذلك أن المقام من جملة الأعمال، أي أنه أمر اكتسابي واجتهادي، وأما الحال

فهو مَعْنًى يتصل بالسالك من جانب الحق من غير أن يستطيع دفع ذلك الحال بالسعي والمجاهدة عند حلوله. وصاحب المقام قائم بمجاهداته، فى حين أن صاحب الحال فانٍ عن نفسه. وظهور الحال لطف إلهى ينعكس فى قلب السالك. وقد أجاز المحاسبى دوام الحال، ولم يجز ذلك الجنيد، لأن الأحوال كالبروق تظهر للحظة ولا تدوم. وكان صوفية إيران ومنهم الهجويرى يعدّون الرضا من المقامات بينما يعده صوفية العراق من الأحوال. - وبعد، فاعتقادى أن المحاسبى هو أول عالم نفسانى صوفى مسلم، ولم أقرأ لصوفية الشرق والغرب كلام فى النفس كما للمحاسبى!

* * *

٢٨٥ - محمد إقبال (مجدّد الدين)...

فيلسوف باكستان الأكبر (١٨٧٧-١٩٣٨) وأعظم شعرائها، يصفه أبو الحسن الندوى بأنه أعمق مفكر أوجده الشرق فى عصرنا الحاضر. وُلِد فى سيالكوت بالبنجاب، وتعلم بكيمبردج، وحصل على الدكتوراه من زيورخ، وأهم كتبه «تجديد الفكر الدينى».

والتجربة الدينية - فى فلسفة إقبال - مركبة، عقلية وروحية وخُلقية، ولا تعارض فيها بين الدين والفلسفة، والدين جانب من الحقيقة. وكذلك الفلسفة. والقرآن عند إقبال ينطوى على مفهوم للعالم يندمج فيه الواقع بالمثال، وليس الإنسان فى القرآن مجرد مخلوق قد انتهى الله من صنعه، ولكنه مشروع يحقق نفسه باستمرار. ويدرك الإنسان هذه الحقيقة عن نفسه من خلال تجربته الحية التى لها جانبان، الظاهر منهما عملى اختيارى، والباطن روحى صوفى. وأرقى مراتب التديّن هو التصوّف، وهو خاصة التفكير الدينى الإسلامى. والتصوف طريقة ومنهج ونسق، ولكن الباطن وحده لا يكفى للترقىّ.

وينكر إقبال على أصحاب الطرق الصوفية ما يعوّدون به جماعاتهم من مناهج تعدم لديهم قوة التفكير، وتطمس قوة الابتكار، ويعارض مذهب وحدة الوجود كما دعا إليه أمثال محيى الدين بن عربى، لأن هذا المذهب يناقض الحضارة العصرية، ويصدر أساساً من أصول يهودية، مقصودها وغايتها أن يفنى الإنسان فى الأنا المطلق، بينما فى الحقيقة أن الذات الإنسانية لا تتجلى على صورتها المثلى إلا فى مصادمتها للعقبات وهى المادة أو الطبيعة، وفى ذلك يتحقق هدف الإنسان

الديني والأخلاقي، وهو إثبات الذات لا نفيها. ويسمي إقبال مذهب وحدة الوجود الطلسم الخيالي، ويعارض وصف المادة بالشرّ، فالمادة لا يُتعبَّد لها، وإنما هي وسيلة تعين الذات على الترقيّ.

ويقول إقبال إن التصوّف الإسلامي يتطلّع إلى الحقيقة النهائية من ثلاث وجهات نظر لا تتعارض فيما بينها ويكمل بعضها البعض، فبعض الصوفية يتصورون أن الماهية الأصلية للحقيقة هي الإرادة الواعية بالذات، وبعضهم يرى أنها الجمال، وبعضهم يزعم أن الحقيقة في جوهرها فكر ونور أو معرفة. والجانب الأول يمثله شقيق البلخي، وإبراهيم بن أدهم، ورابعة العدوية، وآخرون، وهؤلاء يرون الحقيقة النهائية إرادة، وأن الكون نشاط محدود لتلك الإرادة، ووجهة نظرهم توحيدية في أساسها، وطابعها سامي، ويميزهم التقوى والزهد والمحبة لله، وغايتهم ليست التفلسف ولا تحصيل المعرفة ـ وإنما استنباط مُثل خاصة للحياة.

والجانب الثاني يمثله أمثال معروف الكرخي، وهو يصف التصوّف بأنه إدراك الحقائق الربّانية. وصوفية هذه المدرسة لم تر أن الكون يصدر أو يفيض عن الله، وإنما هو انعكاس للجمال الأزلي، وكما يقول الجُرجاني: فإن السبب في الخلق هو تجلّي الجمال، ويترتب على ذلك أن تبلورت فلسفة للعشق، ويعرّفه جلال الدين الرومي أنه ـ أي العشق:

الجنون العذب، وطبيب كل الأدواء
وشفاء الكِبْر والبَطَر
وهو أفلاطون وجالينوس لأرواحنا

ونتيجة لذلك كان الاستغراق في تجلّي الكون بالشُكر لما أولانا الله من نِعَم وجمال، وكان أستاذ هذا الاتجاه أبا اليزيد البسطامي، وتولّد مذهب وحدة الوجود، وكبر عند الحلاّج، فصار الجوهر والكيف واحداً، وتلاشت الحدود فلا بدأ ولا انتهاء، ولا يمين ولايسار، ولا أعلى ولا أسفل، والطبيعة في هذا المذهب مرآة للوجود المطلق تظهر عليها الصورة المنعكسة وهي الطبيعة الخارجية، والجوهر الحقيقي. وهو الإنسان الذي هو حدّ للوجود المطلق ـ يظن نفسه صاحب وجود مستقل، مع أنه هو نفسه الوجود المطلق، ورئيس هذه المدرسة الرومي، يقول: إن الله في كل شيء، والحقيقة متكثرة وليست واحدة، والمادة في الكون تنتقل من صورة أدنى إلى صورة أعلى، يقول:

جاء الإنسان أولاً إلى إقليم الجماد
ثم عبر من الجمادية إلى النباتية

وعاش سنوات عديدة فى النباتية
ولم يذكر شيئاً عن حالة الجمادية
بسبب التفاوت الكبير
ولما عبر من النباتية إلى الحالة الحيوانية
لم يعد يذكر شيئاً عن حالته كنبات
اللهم إلا الميل الذى يحسّه نحو عالم النبات
خاصة وقت الربيع وتفتح الأزهار
مثل ميل الصغار إلى الأمهات
وهم لا يعرفون سرّ ميلهم إلى أحضانهن
ومرة أخرى فإن الخالق العظيم ـ كما تعلم ـ
نقل الإنسان من الحيوانية إلى حالة الإنسانية
وهكذا انتقل الإنسان من إقليم إلى إقليم
حتى أصبح عاقلاً قوياً، كما هو الآن
إنه الآن لا يتذكر شيئاً عن نفسه الأولى
وسوف يتحول عن نفسه الحالية من جديد

وعكس هذا الاتجاه كان ردّ الفعل اللاأدرى عند عمر الخيام الذى صاح فى يأسه:

أولئك الذين يشربون الخمر الصافية
وأولئك الذين يقضون الليل
كله فى المحراب
لا أحد منهم وجد اليابسة،
بل كلهم تائه فى اليم
واحدٌ فقط هو المتيقظ،
والآخرون جميعاً نيام

وكذلك ردّ الفعل التوحيدى عند ابن تيمية وأتباعه فى القرن الثالث عشر. وأنكر وحيد الدين محمود الواحدية، وقال إن الكون تألفٌ من أفراد، أو وحدات أساسية، أو ذرّات، وقانون الكون هو الكمال التدريجى للمادة الأولية، وكان حافظ الشيرازى يقول بذلك أيضاً.

وأما ثالثة مدارس التصّوف الكبرى فهى التى تتصور الحقيقة فى أصلها نوراً أو فكراً، وتذهب إلى أن التعدد التجريبى يستلزم بالضرورة وجود مبدأ التباين والاختلاف فى ماهية الحقيقة النهائية. ومن هذه المدرسة تصدّى للمنطق اليونانى مفكرون من الصوفية كشهاب الدين السهروردى الذى حاول فى كتابة «رشف النصائح الإيمانية وكشف الفضائح اليونانية» أن يثبت قصور المنطق اليونانى، وعجز العقل الخالص. وكان ردّ الأشاعرة ضد العقلانية. وفلسفة السهروردى الصوفية فلسفة إشراقية، واشتهر باسم شيخ الإشراق المقتول، واشترط لدراسة الفلسفة أن يكون الطالب ملماً بأرسطو، وبالمنطق، والرياضيات، وبالتصوّف، وأن يتزوّد بالذوق ـ أى الإدراك الباطن لجوهر الأشياء الذى يجلب المعرفة والطمأنينة للروح القلقة.

وعلى هذا المنوال ينهج إقبال في محاولاته إعادة فهم الإسلام تاريخياً، وفهم التصوّف الإسلامي باعتباره الرافد الفكري الأصيل للاعتقاد الإسلامي، ومحاولات إقبال ليست إلا ترجمة لجهده الدءوب أن يجدّد الدين ويناسبه إلى العصر، وكتاباته في ذلك «مشروع حضاري»، ومراجعة متأنية للتراث الصوفي وللفلسفة الإسلامية. وإقبال نفسه صوفي، ومذهبه يكشف عن بحوثه في الظاهرة الصوفية. وأصولها في القرآن والسنّة، وخلاصة مذهبه أنه بالرؤية الصوفية وحدها نستطيع إدراك الحقيقة من خلال الذات الواعية بالوجود الإلهي، ومن خلال عشقها الروحي للجمال الكلي.

* * *

٢٨٦ - محمد بن طلحة السجّاد...

أبو سليمان محمد بن طلحة بن عبيد الله، أبوه طلحة الجود، وطلحة الخير، وطلحة الفيّاض، لقّبه هكذا رسول الله ﷺ، ودعاه «الصبيح المليح الفصيح»، وكان أحد العشرة المبشّرين بالجنّة، وأحد الستة أصحاب الشورى، وأحد الثمانية السابقين إلى الإسلام، وكان عالماً وقريناً لأبي بكر، وحضر المشاهد كلها مع الرسول ﷺ، إلا بدراً، فكان الرسول ﷺ قد أرسله في مهمة يتحرّى فيها قوافل قريش قبل بدر، وقُتل يوم الجمل يدفع عن عائشة، وله في كتُب الأحاديث ٣٨ حديثاً. وأمُّه حَمْنة بنت جحش، وأمّها أميمة بنت عبد المطلب عمّة رسول الله ﷺ. وكانت زينب بنت جحْش زوجة رسول الله ﷺ أخت حمنة، وكانت حمنة شديدة التقوى وتقيم الليل فإذا تعبت أمسكت بحبل مشدود بين حائطين يمنعها من السقوط. وكل ذلك يعني أن محمد ابن طلحة كان طيّباً من طيبين، ورائعٌ وبيئةٌ. ولما ولدته أمه جاءت به إلى رسول الله ﷺ فقالت: سمِّه يا رسول الله. فقال: اسمُه محمد، وكنيته أبو سليمان، لا أجمع له بين اسمي وكنيتي. وفي رواية أخرى أنهم سمّوه محمداً وأتوا به الرسول ﷺ يباركه فقال: ما سميتموه؟ قالوا: محمداً. قال: هذا سَمِيّي، وكنيته أبو القاسم. - فكان محمد بن أبي بكر ومحمد بن طلحة يُكنيّان بأبي القاسم. وقيل بل كُنيته أبو سليمان كما ذكر الرسول ﷺ، ولما تزوّج ولَد ولداً فسمّاه سليمان، فبه كان يُكنّى كذلك.

وفي عهد عمر بن الخطاب لما وجد عمر الناس ممن اسمهم محمد يُسَبُّون، غيّر أسماءهم، إلا محمد بن طلحة، قال له:

هذا ما سمّانى به رسول الله ﷺ. وكان يُسمَّى السجّاد، لعبادته وفضله فى نفسه، والتصوّف نظرٌ وتقوى وعمل؛ وسمع من عمر فأمره أن ينزل فى قبر خالته زينب زوجة رسول الله ﷺ يوسّدها التراب بنفسه، ففعل. وكان من الصحابة، وسمع إلى رسول الله ﷺ وحدّث عنه، وكان ثقةً، وروى عنه أبو النضر هاشم بن القاسم الكنانى، وأبو عبد الله محمد بن بكّار، وبشر بن الوليد الكندى. وكانت الصلاة قُرّة عينه، والتصوّف حَذَرٌ من الدنيا وهربٌ، ورغبٌ فى العُقبى والطلب. وقبل الجمل أمّ أباه والزبير بن العوام فقرأ: ﴿سأل سائلٌ بعذاب واقع﴾ (المعارج ١)، حتى قوله تعالى: ﴿فاصبر صبراً جميلاً * إنّهم يرونه بعيداً * ونراه قريباً﴾ (المعارج ٥ / ٧) وكأنه كان يقرأ مصيره وأبيه ومصير الزبير، وأن الله متوفيهم فى الجمل، وقوله: ﴿فاصبر صبراً جميلاً﴾ على ظُلم هؤلاء الذين قتلوا عثمان ويُعملون القتل فى المسلمين من أجل المُلك: ﴿يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها والذين آمنوا مشفقون منها ويعلمون أنها الحق﴾ (الشورى ١٨). وجاهد محمد يوم الجمل مع عائشة، والتصوّف جهاد وصبر: ﴿أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولمّا يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين﴾ (آل عمران ١٤٢). والجهاد جهاد بالمال وجهاد بالنفس: ﴿جاهدوا بأموالكم وأنفسكم﴾ (التوبة ٤١)، وكان مثل أبيه وأكثر منه، باراً بأهله وولده وعشيرته، وقالوا: كان إذا صلى يقرأ حتى يقولوا لن ينتهى من القراءة، وإذا سجد ظل ساجداً حتى يقولوا لن يرفع، ولذا سمّوه محمداً السجّاد، من كثرة سجوده. وفى الجَمَل لمّا تحتم الأمر، وعُقر الجمل، وقُتل كل من أخذ بخطامه، تقدّم محمد بن طلحة فأمسك بالخطام، وعائشة على الجمل، فقال لها: ما ترين يا أمّه ؟ قالت: أرى أن تكون خير بنى آدم!- فلم يزل كافّاً، فأقبل عبد الله بن مُكعبر - رجلٌ من بنى عبد الله بن غطفان، حليف لبنى أسد، لا هو فى العير ولا فى النفير، فحمل عليه بالرمح، ولم يفعل محمد إلا أن يتلو القرآن ويقول للقاتل: حم، لا ينصرون ! - وقيل الذى قتله مليس الأزدى، وقالوا: بل معاوية بن شدّاد العبسى، وقالوا: بل عصام بن المُقشعَر النصرى، ونسب كل واحد بطولة قتله إلى نفسه! وتغنّى القاتل، فقال:

وأشعث قوّام بآيات ربّه

قليل الأذى فيما ترى العين مسلم

هتكتُ له بالرمح جيبَ قميصه

فخرّ صريعاً لليدين وللفم

يذكّرني حَم والرمح شارعٌ
فهلا تلاحَم قبل التقدُّم

على غير شيء غير أن ليس تابعاً
عَلِيّاً ومَن لا يتبع الحق يندم

والأشعث القوّام بآيات الله، المسلم الذى لا يؤذى أحداً هو: محمد السجّاد، وبعد الجمل مرّ عليّ على القتلى ومعه النيران يستضيء بها، وشاهد جثة محمد بن طلحة، فنادى على ابنه الحسن وقال: يا حسن ! هذا السجّاد وربّ الكعبة، قتيل، كما ترى !! ثم قال: أبوه صرعه هذا المصرع ؟!!! لولا أبوه وبرُّه بأبيه، ما خرج ذلك المخرج !ـ وكأن محمداً خرج فقط من أجل أبيه ؟ وكأنه لم يخرج يؤيد الحقّ وينشده! لم يأخذ الحسن بكلام أبيه عليّ، وتجرأ عليه فقال الحقّ : ما كان أغناك عن هذا يا أبى ! فقال له عليّ مغضباً: مالى ولك يا حسن !! ـ وقد كان عليّ قد قال لابنه الحسن قبل ذلك: يا حسن! ودّ أبوك أنه قد كان قبل هذا اليوم بعشرين سنة !! ـ مَقُولة ندم فى غير وقتها! وماذا ينفع الندم وقد كان ما كان !! ـ وقُتل السجّاد أشرف الناس، وأتقى الناس، وأطهر الناس، وأنقى الناس، ولم يكن يقاتل ولا سبق له القتال، ولا انتضى سيفاً، وكان ناسكاً، وخروجه وهذا حاله دليلٌ على أن جماعة عائشة ما كانوا يريدون قتالاً، ولا طلبوا مُلكاً ولا دنيا، وإنما رأوا الدعوة إلى الخير والصُّلح، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر. وأما عليّ وجماعته، فالشأن معهم شأن آخر ! وقيل نهى عليّ عن قتله فى الجمل، وقال محذراً: إياكم وصاحب البُرْنُس فإنه خرج مُكرَهاً! والبرنس قلنسوة طويلة كانت تلبس فى صدر الإسلام، وكان السجّاد يلبسها زهداً. وقيل إن محمد السجّاد لما أمسك بخطام جمل عائشة سألها: مُرين بأمرك. قالت: آمرك أن تكون كخير بنى آدم إن تُركتَ ـ تقصد إنْ نجوتَ اليوم. ـ وكان السجّاد يقول مقامى مقام الطاعة، ويقول: مالى وللدنيا ! ويقول: لا تكون زاهداً لتكون متواضعاً. ويقول: الناس أهلكهم الدينار والدرهم. وكان يعظ أن يبروّا الفقراء، ويقول: إنهم عيال الله. وكان يختم القرآن كل أسبوع مرة، ويصوم الدهر، ويضرب على جسمه ويقول: لا أريد له أن يتعذّب ! ويقول: الفرق بين العابد والكافر فى الصلاة، والعُصاة يميتون الصلاة، والأمراء يخففونها، وتارك الصلاة أشرّ الناس، وأكثرهم نفاقاً من يصلى لأنه لابد من الصلاة. ولو صلى المسلمون كما أراد لهم ربُّهم لصانوا دينهم وأنفسهم عن الزلل. وأعقل الناس من صلى بعلم.

وكان إذا رأى الناس تصطرع على الدنيا أمرهم بالصلاة، وإذا اختلف مع أحدهم لجأ إلى الصلاة. وكان يقول: إن المحبّ يتمنّى لو يلقى حبيبه. وأنا ألقى حبيبي في الصلاة! ويقول: زينة العُبّاد الصلاة. والمتمسك بالصلاة، يحفظها لأوقاتها كالذي يؤمن بعد كُفر. ومرةً أخرى أقول: إنه من أجل ذلك سمّوه محمداً السجّاد، لكثرة وطول صلاته وسجوده، رحمة الله عليه.

* * *

٢٨٧ - محمد بن عليّ، الباقر...

أبو جعفر محمد بن عليّ بن الحسين، المخلص العابد، والمجتهد الزاهد، أبوه زين العابدين، وكان الابن سرّ أبيه، وكان جابر ابن عبد الله الأنصاري قد زعم بشأنه: أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: إنك ستدرك رجلاً مني، اسمه اسمي، وشمائله شمائلي، يبقر العلم بَقْراً». قيل: كان هذا الولد محمداً بن عليّ، فأطلقوا عليه "الباقر"، من قولهم بقر العلم، يعني شقه، وكانت ولادته بالمدينة سنة ٥٧ هـ (٦٧٦م)، وكان ناسكاً عابداً، ذاكراً، خاشعاً، صابراً، وورث الإمامة عن أبيه، وتوفي على الأرجح بالحميمة سنة ١١٩هـ (٧٣٧م)، وكانت طريقته متوسطة، يقول لأصحابه: «كونوا النمرقة (يعني الوسادة) الوسطى، يرجع إليكم الغالي ويلحق إليكم التالي».

ومن مذهبه: أن الله أرحم بخلقه من أن يجبر خلقه على الذنوب ثم يعذّبهم عليها. والله أعزّ من أن يريد أمراً فلا يكون. وسألوه: هل بين الجبر والعُذر منزلة ثالثة؟ قال: نعم، أوسع مما بين الأرض والسماء. - يعني أنه ينفي الجبر على إطلاقه، والاختيار على إطلاقه، والجمع بينهما هو المنزلة الثالثة، فأحبه الصوفية والزُّهّاد لذلك، وقال فيه الكلاباذي مؤرخ التصوّف: ممن نطق بعلوم الصوفية، وعبّر عن مواجيدهم، ونشر مقاماتهم، ووصف أحوالهم قولاً وفعلاً - بعد الصحابة: عليّ بن الحسين زين العابدين، وابنه محمد بن عليّ الباقر، وابنه جعفر بن محمد الصادق - بعد عليّ، والحسن، والحسين، وأوس القرني، وهرم بن حيّان، والحسن بن أبي الحسن، وأبي حازم مسلمة بن دينار المديني، ومالك بن دينار، وعبد الواحد بن زيد، وعُتبة الغلام، وإبراهيم ابن أدهم، والفضيل بن عيّاض...

وكان الباقر لا يرى الخروج على الولاة، ولا استخدام العنف، ولا القتل، وقال: إن الله قال في الصيد: ﴿لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾ (المائدة ٩٥)، فقتل

الصيد أعظم، أم قتل النفس التى حرّم الله»؟ وقسّم العلم إلى علم ظاهر وعلم باطن، فما يعرفه الناس هو الظاهر، والباطن هو ما يعرفه الأولياء، وهو العلم اللَّدُنّىّ، وهو علم يتجدد يوماً بعد يوم، وساعةً بعد ساعة. وعلم الصوفية هو العلم المخصوص بدقائق العلوم ولطائف الإشارة.

وكان الباقر بكّاءً مثل أبيه، غير أن أباه كان يعلّل بكاءه بفقد الأهل الأربعة عشر، الذين قتلهم الأمويون تحت عينه وبصره فى كربلاء، وظل يبكيهم طوال حياته، وكانت صورهم لا تفارق خاطره ليل نهار، وكان يقول «فَقْدُ الأحبة غُربة»، وأما الباقر فكان يبكى خوفاً، وفَرَقاً من الله، يقول: «ما اغرورقت عين بمائها إلا حرّم الله وجه صاحبها على النار». وقال: «إن الدمعة إذا سالت على الخدين لم يرهق وجه صاحبها قتر ولا ذلة. وما من شىء إلا وله جزاء إلا الدمعة، فإن الله يكفّر بها بحور الخطايا؛ ولو أن باكياً بكى فى أُمّة، لحرّم الله تلك الأمة على النار».

والتوكل هو مقام الباقر، يقول: الغِنَى والعز يجولان فى قلب المؤمن، فإذا وصلا إلى مكان فيه التوكل أوطناه».

والمتوكل لا يدخله عُجب، والباقر يقول: ما دَخَل قلب ابن آدم شىء من الكبر، إلا نقص من عقله مثل ما دخله من ذلك ما قَلّ أو كَثُر». وكان الباقرلذلك متوكلاً فى يومه كله، ووصفه أحد أصحابه فقال: إذا جاء الليل وفرغ من ترديد الأوراد، قال فى صوت عال: إلهى وسيدى، حلّ الليل وآنت ولاية تصرُّف الملوك، وظهرت النجوم، ونام الخلائق».

وكان له كلام ككلام كبار الصوفية كالحلاّج والشبلى، ويروى المبارك عنه أنه سأله: من أين؟ قال: الله. وسأله: إلى أين؟ قال: إلى الله. فقال له: علام؟ قال: على الله. وسأله: ما زادك؟ قال: التقوى.

وقال فيه العطّار: هو حجة أهل المعاملات، وبرهان أرباب المشاهدات، صاحب الظاهر والباطن، أبو جعفر محمد الباقر.

وكلامه فى العوارض والخطرات، وكان ينهى عن المراء والخصومات، وإذا ضحك قال: اللهم لا تمقتنى. وكان الحزن حاله، يقول لتلميذه. إنى لمحزون، وإنى لمشتغل القلب. وسأله: ولِمَ حُزنك وشُغل قلبك؟ قال: من دخل دين الله صافى القلب، شغله الله عمّا سواه. وقال: ما الدنيا؟ وما عسى أن تكون؟ هل هى إلاّ مركبٌ ركبته أو ثوبٌ لبسته، أو امرأةٌ أحببتها؟ إن المؤمنين لم

يطمئنوا إلى البقاء في الدنيا، ولم يأمنوا قدوم الآخرة عليهم، ولم يُصمِهم عن ذكر الله ما سمعوا بآذانهم من الفتنة، ولم يُعمِهم عن نور الله ما رأوا بأعينهم من الزينة، ففازوا بثواب الأبرار. إن أهل التقوى أيسر أهل الأرض مئونة، وأكثرهم لك معونة، إنْ نسيتَ ذكّروك، وإنْ ذكرت أعانوك، قوّالين بحق الله، قوّامين بأمر الله، قطعوا محبتهم بمحبة الله، ونظروا إلى الله وإلى محبته بقلوبهم، وتوحّشوا من الدنيا لطاعة مليكهم، وعلموا أن ذلك منظورٌ إليهم من شأنهم، فأنزلُ الدنيا بمنزل نزلتَ به وارتحلتَ عنه، أو اعتبرها كمالٍ أصبتَهُ في منامك فاستيقظت وليس معك منه شيء، فاحفظْ الله تعالى ما استرعاك من دينه وحكمته.

وكان الباقر يصلّي كلّ يوم وليلة خمسين ركعة بالمكتوبة! وكان يقول لتلميذه: يابُنيّ ! إياك والكسل والضجر فإنهما مفتاحا كلّ شر. إنك إن كسلت لم تؤدِ حقاً، وإن ضجرت لم تصبر على حقّ.

ومن طريقة الباقر: الذّكر، يقول: أشدّ الأعمال ذكر الله. والصواعق تصيب المؤمن وغير المؤمن ولا تصيب الذاكر.

وعنده الإيمان في القلوب ثابت، واليقين خطرات، فيمر اليقين بالقلب فيشتد، فإذا خرج منه تهرّأ كأنه الخرقة البالية. وأوصى تلميذه فقال: لاتصحبن خمسة: الفاسق، والبخيل، والكذّاب، والأحمق، وقاطع الرحم». وكان ينهى أصحابه عن الخصومة، لأنها تفسد القلب وتورث النفاق. وقال لهم: «أبلغوا أهل الكوفة إني بريءٌ ممن تبرّأ من أبي بكر وعمر. وقال: من لم يعرف فضل أبي بكر وعمر فقد جهل السُّنّة». وكان يأمرهم بالخُلُق والرفق ويعظهم: مَن أُعطِيَ الخُلق والرفق فقد أُعطيَ الخير كله والراحة، وحَسُنَ حاله في دنياه وآخرته. ومن حَرُمَ الرفق والخُلق كان له ذلك سبيلاً إلى كل شرّ وبلية، إلا من عصمه الله». وسألهم: هل يُدخل أحدكم يده في كُم صاحبه فيأخذ ما يريد؟ قالوا: لا. قال: فلستم بإخوان كما تزعمون. وكان يعلّمهم: المودة في قلب أخيك مما له في قلبك». ويعلمهم الدعاء: ما من شيء أحب إلى الله من أن يُسأل، وما يدفع القضاء إلا الدعاء. والبرّ أسرع الخير ثواباً، والبغي أسرع الشرّ عقوبةً.

ويقول: كفى بالمرء عيباً أن يبصر من الناس ما يَعمَى عليه من نفسه، وأن يأمر الناس بما لايستطيع التحوّل عنه، وأن يُؤذي جليسه بما لا يعنيه.

ومن رواة الباقر من الصوفية: عمرو ابن دينار، وجابر الجعفي، وأبّان بن تغلب.

وروى عنه عطاء بن أبي رباح. وروى عنه من الأعلام: الليث بن أبي سُلَيْم، وابن جريج، وحجّاج بن أرطأة وآخرون.

* * *

٢٨٨ - محمود (عبد الحليم)...

الإمام، الدكتور، شيخ الأزهر، الأوّاب، الطيّب، دمث الخُلق، الحليم، له المصنفات الكثيرة في التصّوف، فقد انصرف بهمّته وبعلمه للدعوة إليه، وكان له المريدون من أهل العلم الذين حققوا الكثير من كتب التراث فيه. ومن آثاره: «التصّوف عند ابن سينا»؛ و«التصّوف الإسلامي»؛ و«الحارث المحاسبي»؛ و«أبو مدين الغوث»؛ و«الشبلي»؛ و«أحمد البدوي»؛ و«قضية التصّوف»، وللشيخ نحو من عشرين كتاباً في التصّوف ورجاله، وفي الفلسفة عموماً.

وكان ميلاد عبد الحليم محمود سنة ١٩١٠م، في قرية السلام من قرى مركز بلبيس بمصر، فهو شرقاوي مثلي وكان أبوه أزهرياً، فالحقه بالأزهر صغيراً، وحصل على العالمية منه، ثم الدكتوراه من جامعة السوربون سنة ١٩٤٠.

والمدرج الفكري للشيخ الإمام كله مجاهدات، وقد توجه منذ البداية إلى التصّوف، وكانت رسالته للدكتوراة بإشراف المستشرق ماسينيون، صاحب الدراسات المنيفة، والأثر غير المنكور على دراسات التصّوف الإسلامي، وقد وجّهه ماسينيون إلى دراسة الحارث المحاسبي، ويلخص الإمام مآخذ المنكرين على التصّوف في أربعة مواضع، فالفقهاء: يرون أن التصّوف دخيل على الإسلام، وأن الأدلة على وجود الله ووحدانيته وقدرته وإرادته في القرآن، ولا داعي لالتماسها في متاهات التصّوف، وأن التصّوف ليس في متناول الجميع فهو أرستوقراطية فكرية أو دينية، لا يتمشى مع ديموقراطية الإسلام، ولأنه ليس في متناول الجميع فهو تكليف بما لا يُطاق، وأن التصّوف فيه ضعف والإسلام قوة. والعقليون: ينتقدون التصّوف لاحتقاره للعقل، وهو هبة الله، والوسيلة الوحيدة لليقين في مجال الدين وكل مجال؛ والقرآن يحثّ على استعمال العقل. ويرى الشيخ الإمام أن الاستدلال على وجود الله لا يحتاج في نظر الصوفية إلى إعمال فكر، وإنما الإنسان في حاجة إلى ما يزيل القلق والشك من نفسه وعقله، إزاء طائفة من القضايا والأسئلة، مجالها ما وراء إثبات وجود الله، والتصّوف قد اتّبع طريق ثالث إلى نوع من المعرفة ليس هو طريق

الحسّ، وليس هو طريق العقل، ولا يستمد صراحة من الكتب النصّية، وهو طريق البصيرة أو الرؤيا، وهو طريق النبوة التى ليست المعرفة فيها حسيّة ولا عقلية، وليست تجريبية، وليست منطقاً ولا استقراءً ولا قياساً، ولكنها وحيٌ من الله.

وطريق الصوفية هو البصيرة، والمعرفة الصوفية معرفة إلهامية، ودليل صحتها كما يقول الإمام محمد عبده: ظهور الأثر الصالح من الصوفية، وسلامة أعمالهم مما يخالف الشريعة، وطهارة فطرتهم مما ينكره العقل الصحيح. والبصيرة فى نظر الشيخ الإمام عبدالحليم محمود، سبيلها تزكية النفس، وهى وسيلة صعبة المرتقى، لا تتوفر إلا لقلة من السالكين، ومن هنا كان اعتراض خصوم التصوّف بأنه أرستوقراطى. وطبيعة التصوّف تقتضى فعلاً أن يكون كذلك، لأنه نظام الصفوة المختارة، الذين وهبهم الله حسّاً مرهفاً، وذكاءً حاداً، وفطرةً روحانية، وصفاء يكاد يقرب من صفاء الملائكة، وطبيعةً تكاد تكون مخلوقة من النور. وإذا كانت الديموقراطية معناها التساوى فى كل شئ، فهى أسطورة من الأساطير، لأن التساوى لا يوجد فى الطبيعة، والله تعالى لم يُسَوِّ بين الناس فى ألوانهم وقواهم الجسمية وذكائهم وأرزاقهم وحظوظهم. والتصوّف فى أرستوقراطيته ينسجم مع طبيعة الأمور، ومن ثم يتهافت الاعتراض الرخيص بأن التصوّف لو شمل كل الناس لفسد العالم، ذلك أن الناس جميعاً لا يمكن أن يصبحوا متصوّفين، ولا يدعو الصوفية الناس جميعاً أن يكونوا متصوّفة، فأهل الحق نادرون، وهذه فكرة بديهية لا تحتاج إلى استفاضة، غير أن الصوفية إذا كانوا لا يدعون الناس جميعاً إلى التصوّف، فإنهم يعملون جهدهم للوصول إلى مجتمع أسمى تشيع بين جنباته الروحانية والرحمة والمحبة، والناس فيه إخوان متعاونون. والناس فى فهمهم للدين متفاوتون، والرسول ﷺ يقول: «إن مَثَل ما بعثنى الله من الهدى والعلم كمَثَل غيث أصاب أرضاً، فكان منها طائفةٌ طيبة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكان منها أجادب أمسك الماء، فنفع الله تعالى بها الناس، فشربوا منها وسقوا وزرعوا. وأصاب طائفة منها أخرى، إنما هى قيعان لا تمسك ماء ولا تُنبت كلأ، فذلك مثل من فقه فى دين الله تعالى ونفعه ما بعثنى الله تعالى به، فَعلِم وعلّم، ومَثَل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذى أُرسلت به». وكان التصوّف دائماً قوة، ونفوس

الصوفية عندهم هيّنة فى سبيل الله، وكان الكثير منهم مرابطين. والتصوّف روحانية، والروحانية قوة. والتصوّف فيه الجهاد الحربى، والمجاهدة الروحية، والمثل الأعلى للصوفية عن بكرة أبيهم إنما هو رسول الله ﷺ. والصوفية أهل علم، وكان الشيخ الأكبر محيى الدين بن عربى قمة من قمم العلم الشامخة، وكذلك كان الإمام الغزالى والجنيد والمحاسبى. وهم أيضاً أهل عمل، وألقاب الكثير منهم تدل على ذلك، مثل: القصّار، والورّاق، والخرّاز، والخوّاص، والبزّاز، والحلاّج، والزجّاجى، والحُصرى، والصيرفى، والمقرئ، والفرّاء، وكانت للمشاغل المزارع والثيران والتجارة.

ويرى الشيخ الإمام عبدالحليم محمود: أن لفظة التصوّف تنتسب إلى ملبس الصوف الذى كان مظهر وشكل ورسم المتصوفة، وأن الاسم وُضع لنمط من العزوف عن الدنيا، وكان لباسهم الصوف علامة الزاهدين والمتنسكين.

والتصوّف وإن كان زُهداً إلا أنه فى حقيقته يتجاوز ذلك، فهو معرفة، بل هو أسمى درجات المعرفة بعد النبوة، وهو مشاهدة، وطريقة إلى المشاهدة. وهذه المشاهدة التى هى غاية الصوفى، هى تعبير عما ننطق به فى كل حين، حينما نقول: لا إله إلاّ الله. وطريق الصوفية إلى هذه المشاهدة هو المقامات والأحوال؛ والمقامات منازل روحية يمر بها السالك إلى الله، ويقف فيها فترة مجاهداً فى إطارها. والأحوال سمات روحية تهبّ على السالك فتنتعش بها نفسه لحظات خاطفة.

والطريق الصوفى يستند إلى مقياس يزن الصوفى به نفسه، وهو الاقتداء برسول الله، والرسول هو الصورة الحيّة للقرآن. والصوفى الذى يقتدى بالرسول ﷺ لابد أن تتوفر فيه شروط ثلاثة: أن يرجو الله؛ وأن يرجو اليوم الآخر؛ وأن يذكر الله كثيراً؛ فإذا توافرت فيه هذه الشروط فقد أصبح جديراً بالتأسّى برسول الله ﷺ، وأصبح من الذين يحبونه، فيحاول أن يقترب منه، فيبدأ بالدخول فى النظام القرآنى، ويعزم على التخلّى عمّا هو ليس بقرآنى، وذلك هو التوبة، وإذا صدقت التوبة استلزمت الورع، وهو أن يترك الإنسان كل ما فيه شُبهة. والورع يكون فى الحديث والقلب والعمل، ويقتضى الزهد وهو أساس الأحوال الرضية والمراتب السنية، والزهد يُسلم إلى التوكل، وفيه الثقة بالله، والتفويض إليه والتسليم له والاعتصام به ومحبته، والمحبة

لله إذا صدقت كانت إيثاراً له فى جميع الأمور، فعلامة المحبة الموافقة للمحبوب، ويتبع الرضا المحبّة، لأن المحبّ يرضى دائماً عن أعمال محبوبه، ومعنى الرضا أن يجهد المحبّ ليصل إلى ما يحبّ الله. والرضا آخر المقامات، ثم يقتضى من بعد ذلك التفكُّر فى أحوال أرباب القلوب، ومطالعة واستقراء الغيوب، وتهذيب الأسرار لصفاء الأذكار، والمعايشة لحقائق الأحوال.

ويرى الشيخ الإمام عبدالحليم محمود: أن الكاتبين فى التصّوف، يخطئون إذ يقفون منه موقفهم من الثقافة الكسبية التى يتأتى فيها التأثر والتطور والتقليد، فاتجاه السالك إلى طريق التصّوف له مؤثراته الداخلية النفسية، وقد يكون المتّجه إلى التصّوف قارئاً للأفلاطونية أو لايكون، وقد يكون على علم بعقائد الهند أو لايكون، فذلك لا يفيده فى أن يكون صوفياً، لأن التصّوف لا يُكتسَب، ولكنه ذوق ومشاهدة، ولا يحتاج فى وجوده وتحققه إلى معارف مكتسبة سوى العقيدة الصحيحة.

ويقول : التصّوف فى الإنسان بالفطرة منذ أن وُجد الإنسان، ولم يكن التصّوف لذلك شيئًا أضيف إلى الدين الإسلامى، وإنما هو جزء جوهرى من الدين. وترشد السنّة النبوية إلى أن الشريعة والحقيقة كليهما طريق صحيح تعتمد على سلسلة تصل دائماً إلى النبىّ ﷺ .

ويقول: التصّوف الإسلامى يختلف عن مثيله المسيحى، لأن الهدف فى التصّوف الأول هو المعرفة، بينما الهدف فى الثانى هو المحبة. وهناك شروط فى التصّوف الإسلامى لا توجد فى التصّوف المسيحى، وذلك أنه يُشترط التأثير الروحى أو البركة، ولا تتأتى إلا بواسطة شيخ، وتنتقل سلسلة البركات من الشيخ إلى المريدين، والانتساب إلى السلسلة الصحيحة التى تتحصل عن طريقها البركة، ضرورى لبلوغ الولاية؛ والولى إما يظل ولياً أو يختاره الله لرسالة فيكون نبياً أورسولاً. والرسول نبىّ ولكن رسالته عالمية، وهو رحمة للعالمين، ومظهر الصفة الإلهية الرحمن، والنبوة بذلك أسمى من الولاية، ودرجة الرسول العالمية أسمى من درجة النبىّ المحدودة، ودرجة النبىّ المحدودة أسمى من درجة الولى الخاصة، ومقام الجميع القُرب من الله تعالى.

ويقول: المعرفة فى التصّوف تسمو على كل معرفة فى نطاق المُحَسَّات، ومن ثم فهى لا تدخل فى نطاق العقليات،

والله ليس كمثله شئ فكيف يُدرك بقياس أو بإنعام نظر؟ وعلم الكلام والفلسفة على النهج غير السلفى آراء من صُنع البشر، وقد يكون فيهما الكثير من البدعة والضلالة والعبث والانحراف عن سواء السبيل. والسبيل فى التصوف هو التحنّث، وكان الرسول يتحنّث فى غار حراء وينقطع للتأمل.

ويقول: طريق الكشف أو الإلهام أو الوحى هو طريق البصيرة والمشاهدة، وسمّاه الصوفية معارج القدس، ومنازل السالكين، ومدارج السالكين، ومنازل الأرواح.

ويقول: الصوفى يبدأ طريقه بالشك ولكنه الشك الصوفى الذى يتناول الحرام والحلال، والطيّب والخبيث، والحسن والقبيح، ومن ثم تكون توبته وورعه وتزُّهده، ويكون شكُّه فى خلجات نفسه من دقائق الرياء، ثم ينصرف من ذاته إلى الذات العليا فيستشعر الراحة، ويمنحه الله من فيضه، وتتحول خشيته من الله إلى محبة له، ورؤية الله فى كل ناحية وجانب ومكان، وبذلك يكون الصوفى فى تصفية، ولا يزال يصفّى الأوقات عن شوب الأكدار بتصفية قلبه عن شوب النفس.

وكانت حياة الشيخ الإمام عبدالحليم محمود حافلة كصوفى وداعية ومعلّم ومُربّ، وكرئيس للأزهر، وفى عهده تضاعف عدد المعاهد الأزهرية والكليات الجامعية، ولمّا انتقل إلى رحمة الله سنة ١٩٧٨م، بكاه خلْق كثير، وترحّم عليه كل المخلصين والأبرار، وقد عرفوه بكنية «أبو العارفين»، وهو تعبيرهم عن صورته التى عرفوه بها فى مجال المقبلين على الله، من طلاّب الحقائق، والباحثين عن مشارق الأنوار وأسرار الغيوب، وقد كان رحمه الله صورةً صوفية غير مكررة بما يفيض من القيم وما يُفاض عليه من المواهب.

* * *

٢٨٩ - أبو مدين شيخ الشيوخ...

شعيب بن الحسن الأندلسى التلمسانى (٥٢٠ ـ ٥٩٤هـ)، الغوث، والقطب، وشيخ الطريقة؛ وكان محيى الدين بن عربى يلقّبه بشيخ الشيوخ، ويعدّه واحداً من ثمانية عشر نفساً ظاهرين بأمر الله عن أمر الله، لا يرون سوى الله فى الأكوان، وهو القائل:

الله قل، وذَرِ الوجودَ وما حوى
إنْ كنتَ مرتاداً بصدق مراد

وكان يقول لأصحابه : أعلنوا بالطاعة حتى تكون كلمة الله هى العليا، كما يعلن هؤلاء بالمعاصى ولا يستحيون من الله.

وكان يقول فى قوله تعالى : ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ * وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾ (الانشراح ٨)، أى إذا فرغت من الأكوان فانصب قلبك لمشاهدة الرحمن، وإلى ربّك فارغب على الدوام، وإذا دخلت فى عبادة فلا تحدّث نفسك بالخروج منها، وقل: يا ليتها كانت القاضية. وكان يقول لهم: إياكم أن تميلوا إلى غير الله فيسلبكم لذة مناجاته، ويقول: الحضور مع الحق جَنّة، والغيبة عنه نار، والقرب منه لذة، والبُعد عنه حسرة، والأُنس به حياة، والاستيحاش منه موت.

وأبو مدين ولد فى قطنيانة من أعمال إشبيلية، وبدأ راعياً، ولم يكن يعرف الصلاة ولا يحفظ القرآن، ويرى النسّاك فى البرية يتعبّدون ويصلون فأصابه من ذلك الغم، وقويت عزيمته على الفرار ليتعلم القراءة والصلاة، وسار إلى أن وصل إلى البحر، ووجد خيمة خرج منها شيخ، ولما علم بقصته نصحه بالسفر إلى الحاضرة حتى يتعلم العلم، لأن الله تعالى لا يُعبَد إلا بالعلم، وارتحل إلى فاس ولزم جامعها وتعلم، وكان من شيوخه أبو الحسن بن حرزهم، وأخذ الطريقة على الصوفى الكبير أبى يعزّى، وبعد عدة سنوات انتقل إلى مكة والتقى فيها بالشيخ عبدالقادر الجيلانى واستمع إليه، ثم عاد واستقر فى بجاية، زاهداً ناسكاً حتى اشتهر بين الناس، فقصدوه وتابعوه، وكانت تعاليمه تخالف تعاليم الفقهاء، فشكوه إلى السلطان الذى توجّس من نواياه لما رأى أتباعه قد كثروا، ولم يكن أبو مدين يخشى السلاطين والأمراء، فاعتماده على الله، ولسانه لا ينقطع عن ترديد عبارةً الله الحقّ. ومن كلماته التى كان يبذرها بين أحبابه كالنبْت الطيّب: **حياتى قائمة بالوحدانية، وإشاراتى إلى الفردانية، وروحى راسخ فى علم الغيب؛ يقول: إذا ظهر الحق فليس بعده شىء حتى ولو لم يبقى معى غيره، والحقّ ما بان عنه أحد من حيث العلم والقدرة، ولا اتصل به أحد من حيث الذات والصفات».** وكلماته كلها مدارها الحقّ سبحانه، فالإخلاص عنده هو: **أن يغيب الحق فى مشاهدة الحق؛ والتقوى: هى أن ترى الله تعالى فى كل أعمالك؛ والتوكلُ هو الاعتماد على الله فلا يغلب على ذكرك إلا الله؛ والتصّوف: هو التسليم لله؛ وحقيقته ألاّ تذكر ولا تشاهد سواه.** وهو يقول :

الله ربّى لا أريـد سـواه

هـل فى الوجود الحىّ إلا الله

ذات الإله بها قوام ذواتـنا

هل كان يوجد غيره لولاه؟

وأبو مـدين من الصـوفيـة الذين يرقّ عـندهـم الوجـدان فـيرون المعـانى فى الأشيـاء، فيـأتيهم الوجـد أرسـالاً من العـبارات الموزونة التـى مدارها الحكمـة، وقـوامهـا التراكـيب والألفـاظ الجميـلة. وقصيـدته فى الصوفية التى يصفهم فـيها بأنهم الفقراء يقول فيها:

ما لذة العيش إلا صُحبة الفقراء

هم السلاطين والسادات والأمراء

فاصحبهموا وتأدّب فى مجالسهم

وخَلّ حظك مهما قدّموك ورا

إلى أن يقول:

بهوى التصوّف من أخلاقهم طرفا

حُسن التآلف منهم راقنى نظرا

لا زال شـملى بهم فى الله مجتمعاً

وذَنبُنا فيه مغفوراً ومغتفرا

ثم الصلاة على المختار سيدنا

محمد خير من أوفى ومن نذرا

وهذه القصيدة هى التى أعجبت الشيخ الأكبر محيى ابن عربى، فقام بتخميسها إرشاداً للسالكين فقال:

يا طالباً من لذاذات الدنا وطرا

إذا أردتَ جميع الخير فيك يُرَى

المستشار أمينٌ فاسمع الخبرا

ما لذة العيش إلا صُحبة الفقرا

هم السلاطين والسادات والأمرا

ولابى مدين تـصانيف، منهـا: كتـاب «أُسّ التـوحيـد»؛ و«مـفـاتيح الغيب لإزالة الريب وستر العيب». وقيل إنه تخرّج على يديه أكـثر من ألف تلميـذ! وكـانت لكل منهم الكرامـة والبركة، ولذلـك يقال له: «شـيـخ مـشـايخ الإسـلام، وإمـام العُـبّـاد والزُهّـاد». وكان يحب أن يلـقى مواعظه بالأمثلة، ومن ذلك قوله لهم: جاء رجلان إلى أبى عبـد الله التاودى يزورانه فـأبصرا بين يديه هرّين جعل كل واحد منهـما رأسه على الآخـر، فـقـالا له: هكذا يـنبـغـى أن تكون الأُخوّة، فـأخذ التاودى لقـمة خبـز ورمى بها إليهـما، فـوثبا كل واحـد منهـما على الآخر ليأخذ اللقمة، فـقال أبو عبد الله: هكذا كانت الأخوّة حتى دخلت الدنيا فأفسدتها. وقال: من اشتغل بطلب الدنيا ابتلى فيها بالذل. والله سبحانه جعل قلوب أهل الـدنيا محلاً للغفلة والوسواس، وقـلوب العارفـين محلاً لـلذّكر والاستئناس. ومن لم يصلح لخدمته شغله الله

تعالى بالدنيا، ومن لم يصلح لمعرفته شغله بالآخرة، وكل فقير (صوفى) ـ الأخذُ أحب إليه من العطاء ـ لم يَشُمّ للفقر (أى للتصوّف) رائحة!

والطريق عند أبى مدين يبدأ بالتوبة ثم الإرادة، يقول «طلبُ الإرادة قبل تصحيح التوبة غفلة». ومع التوبة تكون الطاعات: فمن يهمل الفرائض ضيّع نفسه. وبالمحاسبة يصل العبد إلى درجة المراقبة. ومَن رأيتَهُ يدّعى مع الله حالاً، لا يكون على ظاهره شاهدٌ منه، فاحذره. وإحدى آفات التصوّف هم هؤلاء الذين يدعّون المقامات، ويزعمون الكرامات، ويتحدّثون عن الدرجات السَنِيّة فى القُرب، مع أنهم فى أداء الفروض مقصّرون، وفى الذِكر فاترون. والدعاوى من رعونة النفس، فاحذر صُحبة المبتدعة إبقاءً لدينك، واحذر صحبة النساء إبقاء على إيمان قلبك. وإذا أردتَ الصفا فالزم الوفا، فالمهل فى الأحوال لا يصلح لبساط الحق، والحق ما عرف من لم يؤثره. والحقّ تعالى مطلعٌ على السرائر والضمائر فى كل نفس وحال، فأى قلب رآه مؤثراً له حفظه من الطوارىء والمحن ومُضلّات الفتن. وكل حقيقة لا تمحو أثر العبد ورسمه، فليست بحقيقة. والأساس فى التصوّف هو الزهد والاجتهاد.

ومن شِعْر أبى مدين فى الحسبّ لله تعالى ورسوله ﷺ:

أهل المحبة بالمحبوب قد شُغلوا
وفى محبته أرواحَهم بذلوا
وخربوا كل ما يفنى وقد عمروا
ماكان يبقى فيا حُسن الذى عملوا
لم تلههم زينة الدنيا وزخرفها
ولا جناها ولا حلى ولا حلل

ويقول :

إليك مددتُ الكفَّ فى كل شدّة
ومنك وجدتُ اللطف فى كل نائب
وأنت ملاذى والأنام بمعزل
وهل مستحيل فى الرجاء كواجب
وأنى لأرجو منك ما أنت أهله
وإن كنتَ خطّاء كثير المعائب
وصَلِّ على المختار من آل هاشم
شفيع الورى عند اشتداد النوائب

وعندما حضرته الوفاة كان آخر ما نطق به: «الله الحق. الله الحىّ». وقبره فى «العباد» على مشارف تلمسان، مزارٌ عظيم، ويلقّبه الناس فيها «والى تلمسان»، رضى الله عنه وعنا.

* * *

٢٩٠ - مرجليوث Margoliouth...

(١٨٥٨ـ ١٩٤٠) إنجليزى، وكان أستاذاً للعربية بجامعة أكسفورد. ومن أشهر المستشرقين، وله صلات وطيدة بكثير من أدباء العرب، ومن آثاره فى التصوف: «سيرة عبدالقادر الجيلانى» (١٩٠٧) ومبحث بعض الصوفية (١٩١٣). ومرجليوث فى كل ما كتب عن الإسلام كان يوحى أنه أولاً قسيس من قساوسة الكنيسة الإنجليزية، وأنه لم يُقبل على الدراسات العربية إلا للطعن على الإسلام، وكتابه «محمد وقيام الإسلام» من أسوأ الكتُب عن النبىّ ﷺ، وكتابه «تطور المحمدانية» شاهدٌ على سوء استخدام المناهج النقدية لاغتيال ما يرى النصارى اغتياله من الإسلام، واسم المحمدانية بديلٌ عن الإسلام، فلم يفهم مرجليوث أن الإسلام ليس كالمسيحية، فالمسيحية عقيدة أتباع المسيح، وأما الإسلام فديانة وليس عقيدة أتباع محمد، والإسلام هو أول اسم تتسمّى به ديانة لأنه أصل التدين جميعه، فكل ديانة تتسمى باسم الداعى لها، فالمسيحية باسم المسيح، والنصرانية باسم عيسى الناصرى، والموسوية باسم موسى، والبوذية باسم بوذا إلخ، ولكن حيث يوجد اسم للديانة كما فى الإسلام فلا يطلق اسم النبىّ عليها. واختيار مرجليوث لعبد القادر الجيلانى إنما لشهرة الطريقة القادرية. ويشتهر مرجليوث بتأثيره السىء على أمثال طه حسين، فلولا مرجليوث ما كان طه حسين قد ذهب إلى ما ذهب إليه من أراجيف ضد الإسلام والمسلمين. (انظر الجيلانى عبدالقادر).

* * *

٢٩١ - المرصفى (علىّ نورالدين)...

من الراسخين فى العلم، وكان فى أول أمره أُميًا، وله المؤلفات النافعة فى التصوّف، منها: «منهج السالك إلى أشرف المسالك» اختصر به مقاصد السلوك من الرسالة القُشَيْرية، ومنها أيضاً «أحسن التَّطلاب» فى آداب المريد. وينسب المرصفى إلى مرصفة، وكانت وفاته بالقاهرة نحو سنة ٩٣٠ هـ، ومن كلامه: أن المريد إذا وقع منه شئ مذموم عند شيخه، وهو محمود عند غيره، فالواجب عليه عند أهل الطريق رجوعه إلى كلام شيخه دون كلام غيره، وإذا قيل له إن كلام شيخه معارض لكلام العلماء، فعليه الرجوع أيضاً إلى كلام شيخه، ويكون ذلك أحرى به، خصوصاً إذا كان شيخه من الراسخين فى العلم؛ فإذا خرج المريد عن حكم شيخه وقَدَح فيه، فلا يجوز لأحد

تصديقه، لأنه فى حالة تُهمة، لارتداده عن طريقة شيخه، ومعرفته أن الناس تستنقصه حين يرون أن شيخه طرده، فلا يجد متنفساً من ضيقه إلا الحطّ من شيخه والزَّوْد عن نفسه، كأن يقول: لو رأينا فيه خيراً، يقصد الشيخ، ما فارقناه! فيزكّى نفسه. وإذا أراد الله بمريد خيراً، جمعه عند استحكام الخلاف بينه وبين شيخه، على من يصالحه عليه فيرجع إليه. وإذا خرج المريد عن حكم شيخه، وانقطع عن مجلسه حياءً من الشيخ أو من جماعته، أو لزلّة وقع فيها، أو فترة حصلت منه، فهو كالطلاق الرجعى، للشيخ أن يقبله إذا رجع، لأن معنى رجوعه أنه ما تزال عنده للشيخ حُرمة، لا سيما أن المريد فى هذه الفترة، أو أثناء هذا الاعوجاج، أحوج ما يكون للشيخ، فينبغى على الشيخ التلطفّ به. ولا يجوز للمريد أن يسأل شيخه عن سبب هجره أو غيظه، ولا يجوز له أن يجيب عن نفسه لو اتهمه شيخه بذنب، لأن الشيخ يرى ما لا يرى المريد.

* * *

٢٩٢- ابن مَسَرّة...

أبو عبد الله بن عبد الله بن مَسَرَّة (٢٦٩ ـ ٣١٩ هـ / ٩٣١م)، أندلسىّ، صاحب طريقة وتعاليم فى التصوّف، أساسها وحدة الوجود؛ وقيل إنه إسماعيلى، أو إشراقى، وكانت مدرسته تخلط التعاليم الإشراقية بفلسفة أنباذوقليس، واتخذ لنفسه منعزلاً على مشارف قرطبة، يجتمع فيه بمريديه، ويمارس شعائر طريقته، ويفرض على نفسه وعليهم القواعد التى يقوم عليها منهجه. وللمستشرق الأسبانى **أسين بلاثيوس** دراسة فى فلسفة التصّوف عند ابن مسرة، ويعتبره من فلاسفة المتصّوفة، والأصل لكل المدارس التى تلته، والتى قالت بوحدة الوجود وبتعاليم الإشراق. وكانت لتعاليمه الاستمرارية من خلال **ابن العَرِّيف**، ومحمد بن عيسى **الأبيرى الصوفى**، وأبى بكر **المَيورُقى**، وابن **بُرْجان**، وابن عربى، إلى أن أثرّت على الفكر الأوروبى عند الفيلسوف روجر بيكون، والمتصّوف ريموندو لوليو، ثم الشاعر دانتى فى الكوميديا الإلهية.

وقيل إن ابن مسرّة قد حرص على أن لا تقع تعاليمه فى أيدى غير أتباعه، وأنه التزم فيها السرّية، غير أن له كتاباً يسمى «توحيد الموقنين» قيل إنه يتكلم فيه عن الصفات الإلهية ووحدتها وتناهيها. ولا يوجد عن حياته ما نعوّل عليه سوى الشذرات التى كتبها ابن حزم القرطبى وسعيد الطُلَيْطِلى، عن الخصائص العامة

لفكره. وقد شاع بين الناس - برغم السرّية التى فرضها على تعاليمه - أنه يؤصل مذهبه على عقيدة المعتزلة فى الإرادة الحرّة، وعنده: أن علم الله وقدرته صفتان وقتيتان ومخلوقتان، وأن معرفته بالكليات، ولا تحيط بالجزئيات الحادثة إلا بقدر تحققها فى الزمان، وأن الأفعال الإنسانية لا دخل لقدرة الله فيها، لأن أمرها موكول بالإنسان، والعقاب والثواب ليس مكانهما النار والجنّة على الحقيقة بل على المجاز، فالنفوس بمقتضى الأفعال تنقلب إلى منقلبات يكون فيها تطهيرها من أدرانها فى هذا العالم ليُكتَب لها الخلاص، ومن ثم فالجحيم والنعيم لا يمكن أن يكونا على الدوام، وخلاص النفوس يكون بعودتها إلى العالم الروحانى الذى فاضت منه أصلاً، وطريقة الخلاص تكون بمحاسبة النفس حساباً يومياً يكون به تطهرّها ونقاؤها، والمحاسبة ترقى بها فى مدارج المقامات الصوفية، ويتحصّل بها العلم بالذات، ومتى تحصّل العلم بالذات عادت الروح إلى عالمها الأول: الذات الحقّة، وكذلك جميع الذوات المفارقة للمادة تعود إلى تلك الذات الحقة، ولذلك فما نراه كثيراً يصير عند الصوفى العابد شيئاً واحداً، والكثرة أمر اقتضته الحواس الظاهرة، وفرضه قصور العقل عن إدراك الوحدة الذاتية للأشياء أو مجموعها كمجموع، غير أن الوجود ليس إلا حقيقة واحدة.

وهذا الكلام لابن مسرة أوقع الناس فى كَرْب عظيم، وكانت لابن مسرة تأويلات لآيات القرآن، وجرت مساجلات حول حقيقة ما يقول ومقصوده مما قال، وما أوقع الناس فى اللبس حول مذهبه هو التناقض الذى عليه أفكاره فى جانبها الميتافيزيقى وتطبيقاتها الأخلاقية، فاتُّهم بالزندقة، وخرج فاراً من قرطبة إلى إفريقيا، واتجه إلى مكة، ولما تولىّ عبدالرحمن الثالث، عاد إلى قرطبة، واستأنف بث تعاليمه إلى أن توفى، وقيل كانت وفاته للإرهاق الذى ترتب على تنسكه الشديد، وقيامه على التدريس والجدل مع خصومه.

وقد تناول المسلمون مسائل ابن مسرة بالردّ عليها، وخاصة تأويلاته للقرآن. وفى تاريخ قضاة الأندلس أن ابن زَرْب القاضى (المتوفى سنة ٣٨١ هـ) تتبع أصحاب ابن مسرة لاستتابة من يعتقد مذهبه، وأحرق ما وجد عندهم من كتبه، ووضع كتاب «الردّ على ابن مسرة» فى نقض آرائه. ومن الذين تأثّروا به فى الأندلس: إسماعيل

الرعيني ـ تلميذه، المتوفى سنة ٤٥٦ هـ ، وأبو بكر المُيورقي، وابن بُرجان، وابن قُسيّ، وكان من نصيبهم جميعاً أن خلطوا تصوّفهم بالفلسفة الإشراقية أو الحكمة الأنباذوقلية. وبديهي أن تصوف ابن مَسَرّة لم يكن إسلامياً، وأخرجته فلسفته الإشراقية من دائرة التصوّف الإسلامي.

* * *

٢٩٣- ابن مشيش: القطب الأكبر...

عبدالسلام بن مشيش، له المقام العليّ في المغرب، قيل هو كالشافعي في مصر، وطريقته قوامها الإخلاص، يقول: «فاعبد الله مخلصاً له الدين ـ ألا لله الدين الخالص».

ويقول: والعارف: لا تنقصه حظوظ نفسه لأنه بالله تعالى فيما يأخذ ويترك؛ والصوفي: يرى نفسه حسب ما هو في علم الله، لا يختار من الأمر شيئاً، ويختار أن لا يختار، وربُّك يخلق ما يشاء ويختار، ما كان لهم الخيرة. وكل مختارات الشرع وترتيباته فهي مختارات الله ليس لك منها شئ؛ فاسمع وأطع، وهذا موضع الفقه الربّاني والعلم الإلهي.

وابن مشيش هو أستاذ أبي الحسن الشاذلي، والشاذلي ينقل عنه ويقول: «أوصاني استاذي»، ومن ذلك تلك العبارة الموجزة والمتضمنة للمذهب كله: حدّدْ بصر الإيمان تجد الله في كل شئ، وعند كل شئ، ومع كل شئ، وفوق كل شئ، وقريباً من كل شئ، ومحيطاً بكل شئ.. وامحق الكل بوصفه الأول والآخر والظاهر والباطن. كان الله ولا شئ معه. والزم الطهارة من الشرك، كلما أحدثتَ تطهرّتَ من دنس حبّ الدنيا، وكلما ملت إلى الشهوة أصلحت بالتوبة ما أفسدت بالهوى. وعليك بمحبة الله على التوقير والنزاهة، وأدمن الشُّرب بكأسها مع السُّكر والصحو، وكلما أفقت أو تيقّظت شربتَ حتى يكون سُكرك وصحوك به، وحتى تغيب بجماله عن المحبة وعن الشراب والشُّرب والكأس، بما يبدو لك من نور جماله وقُدس كمال جلاله. وأما الشُّرب فهو سقيا القلب، وأما الكأس فهو معرفة الحق. وإن أردت أن لا يصداً لك قلب، ولا يلحقك هَمّ ولا كرب، ولا يبقى عليك ذنب فأكثر من قول «سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم، لا إله إلا هو، اللهم ثبّتْ علْمَها في قلبي واغفر لي ذنبي». وإن أردتَ الصدق في القول فأكثر من قراءة: ﴿إنا أنزلناه في ليلة القدر﴾؛ وإن أردت الإخلاص في جميع أحوالك فأكثر من قراءة: «قل هو الله أحد». ومصدر ذلك كله صدْق الورع، وحُسن النية، وإخلاص العمل، ومحبة العلم؛ فإن أردت

أن تكون مرتبطاً بالحق فتبرأ من نفسك، واخرج عن حولك قوتك، وأسقط الخَلق من قلبك، ولا تُسرف بترك الدنيا. وإذا توجهت لشئ من عمل الدنيا فقل: «يا قوى يا عزيز، يا عليم يا قدير، يا سميع يا بصير»، وإذا ورد عليك المزيد من الدنيا فقل: «حسبنا الله، سيؤتينا الله من فضله ورسوله، إنا إلى الله راغبون».

غير أنه يرد ضمن وِرْد ابن مشيش فى الصلاة على النبىّ ﷺ : «اللّهم صلِّ على مَن منه انشقت الأسرار، وانفلقت الأنوار، وفيه ارتفعت الحقائق»، وهى عبارات يردّد بها نفس الأسطورة الصوفية عن «الحقيقة المحمدية»، ويقول عن النبىّ ﷺ : ولا شيء إلا وهو به منوط، إذ لولا الواسطة، لذهب - كما قيل - الموسوط! اللّهم إنه سرُّك الجامع الدالُّ عليك، وحجابك الأعظم القائم بين يديك !!»، مع أنه فى القرآن الرسولُ بشرٌ من بشر: ﴿إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ (الكهف ١١٠)، ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾ (الإسراء ٩٣)، ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ (آل عمران ٤٤). ويقول ابن مشيش: وزُجّ بى فى بحار الأحدية، وانشلنى من أوحال التوحيد، وأغرقنى فى عين بحر الوحدة، حتى لا أرى، ولا أسمع، ولا أجد، ولا أحسّ إلا بها، ويعنى بهذه العبارات أن ديانته الحقيقية هى وحدة الوجود! والغريب أنه يدعو ربّه أن ينشله من أوحال التوحيد ! وهو أغرب كلام، ويخرجه من دائرة الإسلام!

ولابن مشيش رسالة الصلاة المشيشية، تناولها الكثيرون بالشرح، كأبى العباس الكتانى فى كتابه «الحُلَل العبقرية على الصلاة المشيشية». ولأبى محمد عبد الله بن محمد الورّاق «رسالة فى مناقب ابن مشيش». وكان يقول: إن كنت مؤمناً فاتخذ الكل عدواً كما قال إبراهيم عليه السلام: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ (الشعراء ٧٧)! وهذا أغرب كلام ويدل على اضطراب نفسى أكيد من النوع الخطير المسمى الذهانات، وينبىء أنه مصاب بذهان الاضطهاد، فأن يعادى الجميع - فهذا شيء لا يطاق! وتبرير عدائه المستحكم بآية عن إبراهيم تعسُّفٌ فى الاستدلال، لأن إبراهيم لم يكن عدواً للناس إلا الوثنيين، ولم يكن عداؤه لهم لأشخاصهم وإنما لأنهم وثنيون، وابن مشيش عاش ومات فى بيئة إسلامية على عكس إبراهيم، فلماذا يعادى المسلمين؟

وكيف يعاديهم وهو معلّم التصوف؟ وهل يعادى المعلّم تلاميذه؟! - فلا عجب أن قتله أحد هؤلاء الذين صنع منهم أعداءً له، ويُدعَى ابن أبي الطواحين الكتامي، على يد جماعة بعث بهم إليه، وكانت وفاته أو استشهاده سنة ٦٢٢ هـ.

* * *

٢٩٤- مصطفى محمود (الطبيب المتصوف)...

الدكتور، صاحب الجامع الأغرّ - جامع محمود، أكبر ماجد الجيزة من أعمال مصر المحروسة، يتوالى عليه علماء الإسلام، يهدون ويرشدون ويبصّرون الناس، ولا يغلق أبوابه ليلاً ولا نهاراً، والحق به مستشفى ضخماً يعالج الأجسام استكمالاً لعلاج النفوس، وضمّ إليه مدارس للبنين والبنات، تأخذ بأيدى أطفال المسلمين منذ صغرهم، وتتعهدهم بالتربية والنماء الفكرى. ومشروع مصطفى محمود مؤسسة إسلامية كبرى، ومملكة عظمى، أقامها يتعبّد بها إلى الله، ومدرسة إلهية لتربية الضمائر، وتنمية السرائر، وصقل العقول.

والدكتور مصطفى من أهل العرفان، درس الطّب ليعالج الأجسام المريضة فاختار أن يضيف إليها طبّ الأرواح، ليعالج النفوس المضطربة، والعقول المنحرفة، وهو بكل المقاييس من أقطاب التصوّف في مصر، وإن لم يعلن لنفسه عن طريقة، ولكنه الأستاذ العلىّ، لا يملّ ولا يكلّ أن يدعو إلى الله، وأن يأخذ المسلمون بالعلم، ويعضّوا بالنواجذ على دينهم، ويمحوا عن أنفسهم غشاوة جاهلية هذا الزمان. وهو كاتب كبير، وصحفى مرموق، ومؤلف مسرحى له الاعتبار، وقصّاص لا يشق له غبار، وله إبداعات وإشراقات ومكاشفات. وكان ميلاده سنة ١٩٢١م، وتخرّج من طب القاهرة ١٩٥٢م، وهو أديب شديد الحياء، ومجاهد معاند يزود عن الحق بالمُهج والأرواح، ونفسه رهيفة، ويكتب الشعر، ويعزف الموسيقى كشأن أعاظم الصوفية، فلما تجرّدوا لربّهم من أهوائهم وشهواتهم، ولزموا بابه، وسجدت قلوبهم على أعتابه، أفاض عليهم من نور العرفان.

ومصطفى محمود من فلاسفة الصوفية، وكتاباته فى التصّوف دعوةٌ للعرفانية، وتبسيطٌ للمفاهيم، وشرحٌ للدلالات، واستيلادٌ للمعانى، ومؤلفاته فى ذلك بالعشرات، يترسّم فيها أن ينشر النور بين الناس، ويطهّرهم من أوساخ الحضارة، وأدران مدارس التقليد فى

الإسلام، وعبادات الجُهّال طوال عهود الظلام والاستعمار، فاستجلب على نفسه الخصوم، وصار له الحاقدون والحاسدون، وقالوا إنه يريد تقويض السُنّة، وما كانت طريقته وأقواله إلا تطهيراً للسنة مما علق بها من الشوائب من آثار كل ذلك، إضافةً إلى جهد اليهود الجهيد أن ينسبوا إلى الدين ما يفسّره بحسب أهوائهم، وينشروا بين الناس ما يصرفهم عن جوهره، ويسرع بهم إلى مهالكهم.

ومصطفى محمود من جنود السُنّة المُطهّرة، والدين عنده: معايشة وجودية للحرية والمسئولية، وإحساس قوى بأن الكون لم يُخلق عبثاً، وأنه من إبداع إله واحد خلاّق، وأن الموت ليس نهاية المطاف ،وإنما مَعْبَرٌ إلى غيب من حيث جئنا من غيب، وأن الوجود برغم الموت مستمر، وأن الإنسان هذه هى أزمنه الوجودية المتجدّدة: فهو يعيش بشعور متصل بالحضور الإلهى أبداً منذ ما قبل الميلاد إلى ما بعد الموت، وحيْن الدين هى هذه المعاناة، وهذا الإحساس بالوجود الإلهى، والشعور بما قد خلقه وأبدعه فى الكون من جمال ونظام وحكمة، ومُلك الله لا ينتهى. ورغم أنه تعالى غيب، إلا أن صفاته أو أسماءه الحسنى، هى أفعاله وآياته، وروح العبادة وجوهر الأحكام والشرائع هو الإحساس بالغيب. وكان محمدٌ ﷺ وصحبه مسلمين فى مجتمع كافر، ولا تمنع بيئة الكفر أن يكون المسلم مسلماً، وعلى المؤمن أن يدعو إلى الإيمان، ولا يضرّه أن يكفُر مَن حوله، وهو يستطيع أن يكون مؤمناً فى أى نظام وأية بيئة، لأن الإيمان معاناة شعورية، ومناطه القلب، والقلب يرى الغيب ولا يراه الإبصار، والقلب يرى ولو كان من يحطيون به قد عموا عما يرى، وكذلك المبصر يستطيع أن يمارس الإبصار ولو كان كل المحيطين به من العميان، فالإبصار ملكة لا تتأثر بعمى الموجودين، وكذلك رؤية الغيب ملكة لا تتأثر بغفلة الغافلين ولو كثروا. والإيمان بالغيب هو العُمدة فى كل تدين، وهو المؤشر الذى يدل على حقيقة الإيمان، وهو أكثر دلالة من الصلاة الشكلية، وفى القرآن ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ (العنكبوت ٤٥) أى أن الذكر أكبر من الصلاة برغم أهمية الصلاة، ولذلك قال النبىّ ﷺ لأصحابه عن أبى بكر: «إنه لا يفضلكم بصوْم أو بصلاة، ولكن بشىء وقر فى قلبه»، وبهذا الشىء الذى يقرّ فى القلب تتفاضل يوم القيامة بأكثر مما تتفاضل بصلاة أو بصوْم، وإنما تكون الصلاة صلاة بسبب هذا الشىء الذى فى القلب، وتكتسب الصلاة أهميتها العظمى من قدرتها على تصفية القلب،

وجمّع الهمة، وتحشيد الفكر، وتركيز المشاعر. وتفتح كثرة الصلاة هذه العين الداخلية، وتوسّع هذا النهر الباطن. والصلاة هى الجمعية الوجودية مع الله التى تعبّر عن الدين بأكثر مما يعبّر أى فعل، وهى رسم الإسلام الذى يرسمه الجسم على الأرض، سجوداً وركوعاً وخشوعاً وابتهالاً وفناءً، والله تعالى يقول: ﴿وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾ (العلق ١٩)، وبسجود القلب يتجسّد المعنى الباطن العميق للدين، وتنعقد الصلة - بأوثق ما تكون - بين العبد والربّ، وبالحسّ الدينى يشهد القلب الفعل الإلهى فى كل شىء، فى المطر والجفاف، وفى الهزيمة والنصر، والصحة والمرض، والفقر والغنى، والفرح والضيق، ويرى المؤمن الله - على اتساع التاريخ - فى تقلّب الأحداث، وتداول المقادير. ويرى الله - على اتساع الكون - فى النظام والتناسق والجمال، كما يراه فى الكوارث التى تنفجر فيها النجوم وتتلاشى فى الفضاء البعيد، ويراه فى خصوصية النفس فيما يتعاقب عليها من بسط وقبض، وأمل وحلم، وفيما يلقى فى القلب من خواطر وواردات، حتى لتكاد تتحول حياة العابد إلى حوار هامس بينه وبين ربّه طول الوقت، تتحصل له به بهجة داخلية بأنه قد عَرَف ربَّه، وأن الوجود كله يشيع فيه عَدْلُ الله، وحينئذ تتصالح نفسه مع الله ومع الدنيا، ويتقبل كل الآلام برضى وابتسام، والسعادة الحقة عند المؤمن نوعٌ من أنواع شهود الله فى آيات عظمته، والله هو الثابت الصامد الذى لا يتغير ولا يتقلب ولا تلحق به العوارض، وبين يدَىْ الله تأتيه السكينة فى الحال.

وفلسفة مصطفى محمود فى التصوف: أساسها المحبة بين العبد وربّه، ومن أجل ذلك محبته لعباد الله، وخلق الله، وفى ذلك يقول أحلى الكلام: فحينما نحب بعضنا البعض إنما نحب نور الله المتمثّل فينا، ونرى أثر يديه تعالى على صلصال جسومنا، ونفخة روحه التى نفخها فينا، وجماله الذى يطالعنا فى كل وجه جميل، وليست كل يد شافية وكل قبلة رحيمة إلا ترجُمان رحمته تعالى، ومهما تنوّعت المفاتن، واختلفت الوجوه، فإنما الله وحده هو المحبوب أينما توجّه قلب محب، وهو وحده المعبود أينما توجّهت نظرات العباد، وهو الرزّاق وإن تعدّدت الأيدى التى تعطى، فكل المصابيح تُستَمد من نوره، وكل مصباح يأخذ منه بحسب استعداده، ويعطى من نوره بحسب شفافيته، والعطاء فى الأصل منه، وكذا الجمال والنور، سبحانه لا شريك له، له الحمد، وله كل الحبّ، سبحانه، لا يُشكر على النعمة إلاّ هو، ولا نسبّح إلا باسمه، وإن نطقتْ ألسنتنا فى

كل مرة اسماً غير اسمه، فإنما هو ضلال اللسان في القراءة، وضلال العين في الرموز، فيا ربّنا، نسألك باسمك الرحمن الرحيم أن تنقذنا من عيوننا فلا ترينا الأشياء إلاّ بعينيك أنت، وتنقذنا من أيدينا فلا تأخذنا بها بل بيديك، تجمعنا بها على من نحب عند موقع رضاك حيث الحبّ الحقّ، فهناك نستطيع أن نقول لقد اخترنا، وأنت الوحيد الذي توثّق جميع الاختيارات، وتبارك كل الحريات، فأنت الحرية، ومنك الحرية، وبك الحرية. وأنت الحب، ومنك الحب، وبك الحب. وأنت الحق والحقيقة، وماعدا ذلك أضرحة ونحاس وخشب، وصلصال وحجارة، وأهداب وعيون، ومحاجر، وأوثان تسجد لأوثان، فلا تدعنا في الظلمة نلثم الحجارة، ونعانق الصلصال، ونعبد الأوثان. وما لثمنا هذه الأشياء إلا بشفة الشيطان وظننا أنها شفاهنا، وبذراعيّ الشيطان عانقنا وظننا أنهما أذرعنا، وإنّا لنستحلفك بضعفنا وقوتك، ونقسم عليك بعجزنا واقتدارك، ألا جعلت لنا مخرجاً من ظلمتنا إلى نورنا، ومن نورنا إلى نورك. سبحانك لا إله إلا أنت، لا إله إلا الله. هو سرّ الجمال والرحمة والحرية والحياة، وأسماؤه الحسنى مطبوعة على الوردة، وعلى إشراقة الفجر، وعلى إطلالة الربيع، وعلى كفتي الميزان، وعلى صولجان الحكم، فهو العَدْلُ الحَكَمُ، وبدونه يستحيل العدل، وتستحيل الرحمة، وينطمس الكون ويَظْلَم، فهو نور السموات والأرض. وهو الذي يمسك السماوات والأرض أن تزولا. والدين يبدأ به، والفلسفة تنتهي إليه، والعقل يتوقف عنده، فلا كيف، ولا كم، ولا أين، ولا متى !! وإنما هو، ولا إله إلا هو، ولا يملك العقل إلا السجود إعظاماً، ولا تملك العين إلا البكاء ندماً.

وفلسفة مصطفى محمود في التصوف: أنه حالة من حالات القُرب، وتعابير الصوفية لها عند الدكتور مصطفى صبغة فلسفية، والتصوف الفلسفي عنده كان شديد الغموض، لأن الصوفية طمعوا به أن يبلغوا أعماق الأسرار الكونية، ومن رأى مصطفى محمود أن القرآن والسُّنّة يحميان المبحر في مياه التصوف الصعبة من الانزلاق إلى الشطح، وأن مرجعيات التصوف الفلسفي مؤلفات خاصة يتوه فيها الغوّاص وقد لا يرجع، وأن مصطلحاته تحتاج لترجمان، إلا أنه لا تنافي بين الحقيقة والشريعة، والمسلم لا يُطالَب بالتصوف، ولا أن يتحدث فيه، بل عليه أن يكون مسلماً يعيش القرآن والسنة بكل قلبه أولاً قبل أن يكون متصوفاً. فإذا اعتاش التصوف فلن يرى في الأشياء إلا وجه الله، وكل ما في الدنيا هو من تجلّياته وتنزلات أسمائه الحسنى وصفاته.

وعند مصطفى محمود: الصوفي دائم الدهشة، لأن كل شيء يراه أو يسمعه هو شيء غير عادي، والوجود كله عجب، وكل ما يبدو له يُحدث عنده ذكراً، ويكشف حكمةً، ويجلو أمراً، وأينما تلفّت يقول مبهوراً «الله»، ولا مجاز ولا تشبيه فيما يقول، وإنما هو الكشف الروحي النوراني، والله ظاهر من حيث المظاهر، وباطن من حيث الهوية، ولا يتغير، ولا يتكثر مع تلك المظاهر، ويظل غيباً فيما ظهر، ونسبتنا منه نسبة الصفات والأسماء، وذاته في خفاء، وفي مرآة الظواهر لا نشاهد العين التي تبصر وإنما أحكام العين، ونشاهد الصفات والأسماء وتخفّى عنا الذات، ولا تظهر الصفات في أعين الممكنات إلا بقدر استعداد الممكنات، وما نرى من تكثّر وتنوع هي أحكام ونسب للصفات والأسماء الإلهية.

وأبلغ ما في أدب مصطفى محمود الصوفي: هو التغنّي بحب الله، وأن يسمو الإنسان على هذا المستوى المألوف إلى حبّ أسمى وأخلد وأعمق: حبّ الذات الإلهية.

وعند مصطفى محمود فإن بحر التصوف: فيه اللآلئ كما فيه الأصداف، والقراءة في التصوف كالملاحة في بحر الظلمات بقارب شراعي، وقد تنكسر الدفة ويتحطم المجداف، ويفقد السالك اتجاهه، وليس له من نور هاد إلا نور الكتاب والسنة، وبدون الشريعة لا يصل السالك إلى برّ الأمان، والشريعة دليله على ما يأخذ وما يدع، وما يأخذه من لغة الصوفية وعلومهم هو ما يوافق الشريعة، وما يتركه منهما غير نادم هو ما يخالفها. ولمصطفى محمود في ذلك مخاطبات كمخاطبات النَّفّري، بالإضافة إلى أنها دراما مسرحية يعيش من خلال شكلها الفني عصره، ويضيف إلى آداب التصوف مجالاً جديداً فيه أحسن الكلام، يقول: قالت لي نفسي: نارك وجنتك بين جنبيك! نارك وجنتك فيما تختار، وما تعجل إليه من أقوال وأفعال، وما تُبادر إليه من عمل، وما تمتد إليه بترك من حلال وحرام. إن يدك هي التي تحفر بها قبرك، وتصنع بها مصيرك، ولسانك هو الذي يهوي بك إلى الهاوية أو يصعد بك إلى أعلى عليين. أنت ما تقول وأنت ما تفعل. وانظر ماذا تفعل تعلم مَسْكَنك، وتشهد قيامتك قبل قيامك، وتعلم ساعتك قبل ساعتك!- عندئذ قال شيطان مصطفى محمود له مستنكراً: وأين أنت الآن من قيامتك؟ وأين أنت من ساعتك؟ هذا الوسواس الشؤم الذي تصحو وتبيت فيه! أنظر حولك يا فتى! أنت مازلت

فى الدنيا. اقطف زهرتها، وانعم بلذاتها، وأمامك فرص التوبة ممتدة بطول عمرك، وأنت ما عشت فأنت فى رعاية التوّاب الغفّار، غافر الذنب وقابل التوب. لا تعقّد أمورك، واضحك للأيام تضحك لك !ـ يقول مصطفى محمود: قلتُ وأنا أحسب كل كلمة: تضحك لى أو تضحك علىّ يا لعين!؟ ومن أدرانى أن ما أقول الآن هو آخر أقوالى، وما أفعل الآن هو ختام أفعالى، وأنى ميّت اليوم، ومن مات فقد قامت قيامته، وبدأت ساعته؟! ويقول مصطفى محمود: قال شيطانى: أعوذ بالله من غضب الله ! ما هذا الكابوس الذى تعيش فيه حياة كالموت، وموتاً كالحياة ؟! لم يبق إلا أن تصنع لنفسك تابوتاً وتنسج لك كفناً تتمدد فيه ! أين أنت من هذا اليوم يارجل؟! ـ يقول مصطفى محمود: قلت: ومن يدرينى أن بَعْدَ اليوم بَعْد ؟ يقول: قال شيطانى: هل أقمتَ من نفسك قابضاً للأرواح وفالقاً للإصباح، أم أنك المتنبى الذى لا تخيب له نبوءة؟! إلزم حَدَّك يا رجل! ما أنت إلا عبدٌ من عباد الله ! عشْ يومك كأنك تعيش أبداً. يقول: قلت: ما قالوها هكذا يا لئيم! بل قالوا: إعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً ! أرأيت كيف تقلب كل الحقائق؟! يقول: قال شيطانى: إنما أردتُ لك الحياة، وأردت أنت لنفسك الموت ! ومرادى كان دائماً مصلحتك! يقول: قلت: بل موت النفوس كان مرادك، وهلاكها فى الجحيم كان شغلك الشاغل وهمّك المقيم يا سمسار الجحيم !ـ رضى الله عنك يا مصطفى وأرضاك.

* * *

٢٩٥ - معاذ بن جبل، إمام العلماء...

التصوف علمٌ وعمل، وهو ليس اعتزال الدنيا ولكنه العمل على صلاحها، ومعاذ بن جبل كان مقدام العلماء، وإمام الحكماء، يقول: اعلموا ما شئتم، فلن يؤجركم الله بعلمٍ حتى تعملوا. ـ فكان يطلب العلم ويمارسه ويفيد منه الناس، حتى قال فيه الرسول ﷺ: «أعْلَم أُمّتى بالحلال والحرام معاذ بن جبل»، وقال: «إن العلماء إذا حضروا ربّهم عزّ وجلّ كان معاذ بين أيديهم رَتْوَةً بِحَجَر» أى قريباً منهم على مرمى حجر، وقال: «معاذ بن جبل إمام العلماء برتوة»، وقال: «معاذ بن جبل له نَبْذَة بين يدى العلماء يوم القيامة»، يعنى له مكان بين العلماء. وقال: «خذوا القرآن من أربعة : من ابن أم عبد، ومعاذ بن جبل، وأُبَى بن كعب، وسالم مولى أبى حذيفة».

ولما جُمع القرآن على عهد رسول الله ﷺ جمعه أربعة كلهم من الأنصار، ومنهم معاذ بن جبل.

وعن ابن مسعود: أن معاذ بن جبل كان أُمّة قانتاً لله ولرسوله. وقال: إنا كنا نشبّه معاذاً بإبراهيم. قيل له: فمن الأمة: قال: الذى يعلّم الناس الخير.

وروى عن معاذ كثيرون، وتلقوا عليه وسمعوا له، منهم: عبد الله بن مسعود، وأنس بن مالك، ومحمد بن سيرين، وأبو سعيد الخدرى، وأبو مسلم الخولانى، وشهر ابن حوشب، وأبو وائل، وسعيد بن المسيب، والأسود بن هلال، ويحى بن سعيد، وطاووس، ورجاء بن حيوة، ومحمد ابن سوقة، وطارق بن عبد الرحمن، وغيرهم كثيرون.

ومعاذ: خزرجىّ؛ وكُنيته أبو عبد الرحمن؛ وأبوه: عائذ بن عدىّ؛ وأمه هند بنت سهل من جُهَيْنة، وشهد العقبة مع السبعين من الأنصار، وآخى النبى ﷺ بينه وبين جعفر بن أبى طالب، وشهد بدراً وهو ابن عشرين أو إحدى وعشرين، وشهد أحداً والخندق والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ، وبعثه بعد غزوة تبوك إلى اليمن معلّماً وقاضياً، وأرسل معه كتاباً إليهم يقول فيه: «إنى بعثت إليكم خير أهلى». وقال لمعاذ: «بما تقضى إن عَرَضَ قضاءٌ»؟ قال: أقضى بما فى كتاب الله. قال: «فإن لم يكن فى كتاب الله» ؟ قال: أقضى بما قضى به الرسول. قال: «فإن لم يكن فيما قضى به الرسول»؟ قال: اجتهد رأيى ولا آلو - يعنى لا يُقصِّر. قال: فضرب رسول الله ﷺ صدرى وقال: الحمد لله الذى وفق رسول الله لما يُرضى رسول الله !- وبقى معاذ باليمن إلى أن توفى رسول الله ﷺ، وولى أبو بكر، فعاد إلى المدينة، ثم خرج مجاهداً إلى الشام مع أبى عبيدة الجراح، وأصيب أبو عبيدة بالطاعون فاستخلف معاذاً، وأقرّه عمر، فمات فى ذلك العام سنة ١٨هـ (٦٣٩م) وعمره ثمان وثلاثون سنة؛ وكان وضيئاً من أحسن الناس وجهاً، أكحل العينين، براق الثنايا، يسكت عن الكلام حتى يكلمه الناس إذا امتروا فى شىء. وكان شديد الأدمة، حلو المنطق، واتخذ فى الشام مسجد حمص مكاناً لوعظه، فكان مريدونه يزدحمون عليه. وكان سمحاً من خير شباب الأمة، لا يُسأل شيئاً إلا أعطى حتى استدان ونضب ماله. وكان يعلّم الناس الخير وطاعة الله ورسوله. ولم يكن يجلس مجلساً للذكر إلا قال: «الله حَكَمٌ قِسْطٌ (أى عادل).

تبارك اسمه. هلك المرتابون». وطريقته يوجزها فيقول: إن وراءكم فتناً يكثر فيها المال، ويُفتح فيها القرآن حتى يأخذه المؤمن والمنافق، والرجل والمرأة، والصغير والكبير، والحر والعبد. فيوشك قائل أن يقول: ما للناس لا يتبعوني وقد قرأت القرآن ؟ ما هم بمتبعي حتى ابتدع لهم غيره، فإياكم وما يُبتدع، فإنّ ما ابتُدع ضلالة، وأحذركم زيغة الحكيم، فإن الشيطان قد يقول كلمة الضلالة على لسان الحكيم، وقد يقول المنافق كلمة الحق ـ فسأله تلميذٌ من تلاميذه : ما يدريني ـ رحمك الله ـ أن الحكيم يقول كلمة الضلالة، وأن المنافق يقول كلمة الحق؟ قال: بلى، اجتنب من كلام الحكيم المستهترات فإن الضلالة كلمة تنكرونها من الحكيم وتقولون ما هذه ! ولا يثنيك عنه قوله للضلالة أحياناً، فلعله يرجع ويتّبع الحق إذا سمعه، فإن على الحق نوراً. وإن العلم والإيمان مكانهما إلى يوم القيامة، من ابتغاهما وجدهما.

والذكر أساس طريقة معاذ، يقول لتلاميذه: ما عمل آدمي عملاً أنجى له من عذاب الله من ذكر الله. قالوا: يا أبا عبدالرحمن: ولا الجهاد في سبيل الله ؟ قال: ولا ! لأن الله تعالى يقول: ﴿لَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ (العنكبوت ٤٥). وقال: لأن في ذكر الله تعالى من بُكرة حتى الليل أحبُّ إليّ من أن أحمل على جياد الخيل في سبيل الله من بُكرة حتى الليل.

وقال لتلميذه: من سرّه أن يأتي الله عز وجل آمناً، فليأت هذه الصلوات ولا يقل إن لي مُصلّى في بيتي فأصلي فيه، فإنكم إن فعلتم ذلك تركتم سُنة نبيكم، ولو تركتم سنة نبيكمﷺ لضللتم. وقال تلميذه الأسود ابن هلال: كنا نمشي مع معاذ فقال لنا: اجلسوا بنا نؤمن ساعة!ـ يعني نتكلم في الحكمة وننتصح.

وعن أبي إدريس الخولاني، قال: قال لي معاذ: إنك تجالس قوماً لا محالة يخوضون في الحديث، فإذا رأيتهم غفلوا فارغب إلى ربّك عزّ وجلّ. وقال له تلميذ: علّمني. قال: وهل أنت مطيعي؟ قال: إني على طاعتك لحريص. قال: صُم وأفطر، وصَلّ ونَمْ، واكتسب ولا تأثم، ولا تموتن إلا وأنت مسلم، وإياك ودعوة المظلوم.

ووَعَظ تلميذه فقال: يابني، إذا صليت صلاةً فصلِّ صلاة مودع. لا تظن أنك تعود إليها أبداً. واعلم يا بني أن المؤمن يموت بين حسنتين، حسنة قدّمها، وحسنة أخّرها.

وقال له: إني موصيك بأمرين إنْ حفظتهما حفظت : أنه لا غنى بك عن

نصيبك من الدنيا، وأنت إلى نصيبك من الآخرة أفقر، فآثر نصيبك من الآخرة على نصيبك من الدنيا. وقال لتلاميذه : ابتُليتم بفتنة الضرّاء فصبرتم، وستبتلون بفتنة السرّاء، وأخوَف ما أخاف عليكم فتنة النساء إذا تسورن الذهب والفضة، ولبسن رباط الشام (الثياب الرقاق)، وعصب اليمن، فأتعبنّ الغَنيّ، وكلّفن الفقير ما لا يجد.

وكان لا يبقى لنفسه مالاً، فإذا اجتمع له منه قدرٌ وزّعه على مستحقيه، فقيل فيه: «مُطعم الكرماء، السمح السخي، والوفي المصون، المؤتمن على العباد والأموال، والقانت الثابت المحب، والسهل السَرِيّ. والتصوف مزاولة الأنس، والصوفي هو الناصح المخلص، والواعظ الدءوب، حتى ولو كان للحاكم، فكان مما كتب لعمر: قد وليتَ أمر هذه الأمة أحمرها وأسودها. يجلس بين يديك الشريف والوضيع، والعدو والصديق، ولكل حصة من العدل، فانظر كيف أنت عند ذلك يا عمر، فإنّا نحذرك يوماً تَعنَى فيه الوجوه، وتجف فيه القلوب، وتنقطع فيه الحجج، والخلق داخرون لله يرجون رحمته ويخافون عقابه ... وإنا نعوذ بالله أن ينزل كتابنا إليك سوى المنزل الذى نزل من قلوبنا، فإنما كتبنا به نصيحة لك، والسلام عليك.

والعلم عند معاذ أساس كل تعليم، وهو البداية، ولو أن للعلم قيمة ما قال فيه الرسول ﷺ ما قال. ومما قاله معاذ لتلاميذه فيه: تعلّموا العلم فإنّ تعلمه خشيةٌ، وطلبهُ عبادة، ومذاكرته تسبيح، والبحث عنه جهاد، وتعليمه لمن لا يعلم صدقة، وبذله لأهله قُربة، لأنه معالم الحلال والحرام، ومنار أهل الجنة، والأنس فى الوحشة، والصاحب فى الغربة، والمحدث فى الخلوة، والدليل على السرّاء والضرّاء، والسلاح على الأعداء، والدين عند الأجلاء، يرفع الله تعالى به أقواماً، ويجعلهم فى الخير قادة وأئمة، وتُقتبس آثارهم، ويُقتدى بفعالهم، ويُنتهَى إلى رأيهم. ترغب الملائكة فى خلتهم، وبأجنحتها تمسحهم. يستغفر لهم كل رطب ويابس، حتى الحيتان فى البحر وهوامه، وسباع الطير وأنعامه، لأن العلم حياة القلوب من الجهل، ومصباح الأبصار فى الظلم. يبلغ بالعالم منازل الأخيار، والدرجة العليا فى الدنيا والآخرة. والتفكر فيه يعدل بالصيام، ومدارسته بالقيام. به توصل الأرحام، ويُعرَف الحلال من الحرام. إمام العمّال والعمل تابعه، يُلهَمه السعداء، ويُحرَمه الأشقياء.

ومما أوصاه به الرسول ﷺ وكان يوصى به تلاميذه، قال: «يامعاذ ! أوصيك بتقوى الله، وصدق الحديث، ووفاء العهد،

وأداء الأمانة، وترك الخيانة، ورحمة اليتيم، وحفظ الجار، وكظم الغيظ، وخفض الجناح، وبذل السلام، ولين الكلام، ولزوم الإيمان، والتفقة فى القرآن، وحُبّ الآخرة، والجزع من الحساب، وقصر الأمل، وحسن العمل».

وقال: «وأنهاك أن تشتم مسلماً، أو تكذب صادقاً، أو تصدق كاذباً، أو تعصى إماماً عادلاً» وقال: «يا معاذ ! اذكر الله عند كل حجر وشجر، وأحدث مع كل ذنب توبة، السرّ بالسر، والعلانية بالعلانية». وقال: «يامعاذ! أوصيك وصية الأخ الشفيق أوصيك بتقوى الله، وعُد المريض، وأسرع فى حوائج الأرامل والضعفاء، وجالس الفقراء والمساكين، وأنصف الناس من نفسك، وقل الحقّ ولا تأخذك فى الله لومة لائم». وقال: «يا معاذ ! والله إنى لأحبك»، فقال معاذ: بأبى وأمى يا رسول الله، وأنا والله أحبك. فقال: «أوصيك يامعاذ ! لا تدعن فى دبر كل صلاة أن تقول: اللهم أعنى على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك». وقال: «يا معاذ ! اخلص دينك يكفك القليل من العمل».

ودخل معاذ على رسول الله ﷺ فقال له: «كيف أصبحت يا معاذ؟» قال: أصبحت مؤمناً بالله تعالى. قال: «إن لكل قول مصداقاً، ولكل حقّ حقيقة، فما مصداق ما تقول؟» قال: يا نبى الله ! ما أصبحت صباحاً قطّ إلا ظننت أنى لا أمسى، وما أمسيت مساءً قطّ إلاّ ظننت أنى لا أُصبح، ولا خطوت خطوة إلا ظننت أنى لا أتبعها أخرى، وكأنى أنظر إلى كل أُمّة جاثية تُدعَى إلى كتابها، معها نبيها وأوثانها التى كانت تعبد من دون الله، وكأنى أنظر إلى عقوبة أهل النار وثواب أهل الجنة ! قال: «عرفتَ فالزم».

وسأله معاذ : يا رسول الله ! أرنا شرّ الناس! فقال: «سلوا عن الخير ولا تسألوا عن الشرّ. شرار الناس شرار العلماء فى الناس».

وأصيب معاذ فى ولد له واشتد وجده عليه، فبلغ ذلك النبىّ ﷺ فكتب إليه : «بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى معاذ بن جبل. سلامٌ عليك. فإنى أحمد الله الذى لا إله إلا هو. أما بعد ، فعظم الله لك الأجر، وألهمك الصبر، ورزقنا وإياك الشكر. إن أنفسنا وأهلينا وأموالنا وأولادنا من مواهب الله الهنيئة، وعواريه المستودعة، يُمتّع بها إلى أجل معلوم، ويقبض لوقت محدود. ثم افترض علينا الشكر إذا أعطى، والصبر إذا ابتلى. وكان ابنك من مواهب الله الهنيئة، وعواريه المستودعة. متّعك به فى غبطة وسرور، وقبضه منك بأجر كبير،

والصلاة والرحمة والهدى إن صبرتَ احتسبت، فلا تجمعن عليك يا معاذ خصلتين فيحبط لك أجرك، فتندم على ما فاتك، فلو قدمت على ثواب مصيبتك علمت أن المصيبة قد قصرت فى جنب الثواب، فتنجّز من الله موعوده، وليذهب أسفك ما هو نازلٌ بك. والسلام».

وكانت لمعاذ زوجتان، أصيبتا فى طاعون الشام، ماتا معاً، فدفنهما فى حفرة واحدة. وأصيب ولداه فهلكا، ومنهما ابنه عبد الرحمن الذى يُكنّى به. وأصيب هو فى إبهامه، وقد أنهكه الحزن وتهافتت مناعته النفسية والجسمية، ومرض، وكان أبو عبيدة وشرحبيل بن حسنة وأبو مالك الأشعرى قد أصيبوا فى يوم واحد وقضوا، فكان هذا كثيراً عليه. وجاءه أحد تلاميذه يعوده ويبكى ويقول: ما أبكى لقرابة بينى وبينك، ولا لدنيا كنت أصيبها منك، ولكن كنت أصيب منك علماً، فأخاف أن ينقطع. قال معاذ: لا تبك فإنه من يُرد العلم والإيمان يؤته الله تعالى كما أتى إبراهيم عليه السلام ولم يكن يؤمئذ علمٌ ولا إيمان.

وحضره الموت فقال وهو يهذى: مرحباً بالموت، مرحباً زائرٌ مُغب، حبيبٌ جاء على فاقة. اللهم إنى كنت أخافك فأنا اليوم أرجوك. اللهم إنك تعلم أنى لم أكن أحب الدنيا وطول البقاء فيها لجرى الأنهار ولا لغرس الأشجار، ولكن لظمأ الهواجر، ومكابدة الساعات، ومزاحمة العلماء بالركب عند حلق الذكر.

وتوفى معاذ بن جبل المُحكم العمل، والتارك للجدل، رحمه الله رحمة واسعة، فهكذا التصوّف: ثَبْتٌ على الشدائد كيما تكون لنا عند الرحمن الزوائد

* * *

٢٩٦- معروف الكرخى...

من جِلّة مشايخ العراق الذين يُذكرون بالورع والفتوّة، وقيل فيه: إن من مجددى الدين فى المائة الثانية من الزهّاد معروفاً الكرخىّ. وقيل: كانت طريقته الطريقة الرضوية العلوية المصطفوية، وملخصها العبادة، وتزكية النفس وتصفيتها. وقال فيه العطار: ذلك الذى هو مقتدى صدر الطريقة، ودليل طريق الحقيقة، وقطب العالم، وخلاصة العارفين. وقال: ربما لو لم يكن عارفاً لم يكن معروفاً.

والكرخى اسمه أبو محفوظ معروف ابن فيروز أو بن الفيرزان، قيل كان نصرانياً من موالى علىّ بن موسى الرضا، فأسلم وهو طفل على يديه، واضطر أبواه أن يسلما لما شاهدا منه الإصرار على الإسلام

أو هجرهما. وقد اشتغل حاجباً لعليّ بن موسى الرضا طوال حياته، إلى أن ازدحمت الشيعة على باب عليّ يوماً فانكسرت ضلوع معروف في الزحام، ومات سنة ٢٠٠ هـ، وقبره بظاهر بغداد يُتبرك به. وقيل كان معروف مستجاب الدعوة، وزعموا أنه قال يوماً لسَرِيّ السَّقَطيّ تلميذه: إذا كانت لك حاجة إلى الله فاقسم عليه بي! . والحكايات الكثيرة تروى عن إجابة الله تعالى، يريدون بذلك أن يثبتوا له الولاية.

واسم الكَرْخي نسبةً إلى الكَرْخ إحدى قرى بغداد حيث نشأ معروف. واسم «معروف» ـ كما جاء في ميثولوجيا الشيعة ـ لأن رجلاً جاء يسعى إليه من الشام، وسألوه عن السبب؟، فقال الرجل: رأيت في المنام يقال لي: «إذهب إلى معروف فسلّم عليه، فإنه معروف في أهل الأرض، ومعروفٌ في أهل السماء». ومن ثم أطلق عليه الناس اسم معروف، وقد صحب داود الطائي فقال له أصحابه وهو طفل: إياك أن تترك العمل فإنه الذي يقرّبك إلى مولاك، ولم يفهم، وسألهم أي عمل؟، فقالوا: دوام الطاعة لله وخدمة المسلمين والنصح لهم. ـ وقد ظلت هذه حاله منذ طفولته حتى مات، فكان أفضل المشايخ تعليماً للمريدين. ومن كلامه: إذا أراد الله بعبد خيراً فتح له باب العمل وأغلق عليه باب الكسل، وقيل وأغلق عليه باب الجدل.

وكان الكرخي بكّاءاً، ويعاتب نفسه دوماً ويقول: يا مسكين، كم تبكي وكم تندب! أخلِصْ تَخْلُصْ. ـ ووعى العلم الكثير فشغلته الوعاية عن الرواية. وقيل له في مرض موته: أوْصِ، فقال: إذا مت فتصدّقوا بقميصي فإني أريد أن أخرج من الدنيا عرياناً كما دخلتها عرياناً.

وكان حاله حال السُكر، فلما مات حلم به سريّ السقطي كأنه تحت العرش، فيقول عز وجل للملائكته: من هذا؟ فيقولون أنت أعلم يا ربّ! فيقول: هذا معروف الكرخي، سكر من حُبي فلا يفيق إلا بلقائي»! وسألوه في منام آخر: ماذا فعل الله بك، فقال: غفر لي، فسألوه: بزهدك وورعك؟ قال: لا، بقبولي موعظة ابن السمّاك، ولزوم الفقر ومحبتي للفقراء. ويقول معروف عن موعظة ابن السمّاك: أنه كان ماراً فسمع رجلاً يقال له ابن السمّاك يعظ الناس ويقول ضمن ما قال: من أقبل على الله بقلبه أقبل الله برحمته إليه، وأقبل بجميع وجوه الخلق إليه، ومن أعرض عن الله بكليته أعرض

الله عنه جملة، ومن كان مرة ومرة فالله يرحمه وقتاً ما. ويقول معروف: فوقع كلامه فى قلبى، فأقبلت على الله تعالى وتركت جميع ما كنت عليه إلا خدمة مولاى علىّ بن موسى الرضا. وذكرت ذلك لمولاى فقال يكفيك بها موعظة إنْ اتعظت!!

ولما مات معروف رآه تلميذٌ له فى المنام فقال: إن معروفاً لم يعبد الله شوقاً إلى جنته، ولا خوفاً من ناره، وإنما عبده شوقاً إليه». وهذا قولٌ فى المحبة لله سبقته إليه رابعة العدوية، فليس طمعاً فى الجنة، ولا خوفاً من النار يُعبَد الله، وإنما لمحبته. وقال المستشرقون: لولا أن ثقافة معروف كانت نصرانية ما قال ذلك، وقالوا نفس الشىء عن رابعة، وكأن المحبة لله ليست فى الإسلام، وفى القرآن أن الله تعالى يحب الصالحين ويحبّونه، : يقول: ﴿أَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي﴾ (طه ٣٩)، ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ (المائدة ٥٤)، ﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾ (البقرة ١٦٥)، ﴿فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ (آل عمران ٣١)، فالمحبة من الخَلق لله، ومن الحق لهم إحدى مقولات الإسلام والإيمان.

ومن كلام الكرخى: ما أكثر الصالحين وأقل الصادقين فى الصالحين. ـ وطلب منه أحد تلاميذه أن يوصيه، فقال: توكل على الله حتى يكون هو معلمك ومؤنسك وموضع شكواك، فإن الناس لا ينفعونك ولا يضرونك. وقال: غضّوا أبصاركم ولو عن شاة أنثى. وقال: علامة مقت الله للعبد أن يراه مشتغلاً بما لا يعنيه من أمر نفسه. وقال: طلب الجنة بلا عمل ذنب، وانتظار الشفاعة بلا سبب نوع من الغرور، وارتجاء رحمة من لا يطاع جهل وحمق. وسألوه عن الطائعين فى الله، بأى شئ قدروا على الطاعة، فقال: بإخراج الدنيا عن قلوبهم، ولو كان منها شئ فى قلوبهم ما صحّت لهم سجدة. وسئل: بما تخرج الدنيا من القلب، قال: بصفاء الود وحُسن المعاملة. وسُئل عن المحبة فقال: المحبة ليست من تعليم الخَلق، إنما هى من مواهب الحق وفضله. وقال: للفتيان علامات ثلاث: وفاء بلا خلاف، ومدح بلا جود، وعطاء بلا سؤال. ـ والفتيان جمع فتى، من الفتوة، وهى الإيمان والهداية، وكان إبراهيم عليه السلام، برواية القرآن، «فتى»: ﴿سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾ (الأنبياء ٦٠).

وسئل معروف: ما علامة الأولياء فأجاب: ثلاث، همومهم بالله، وشُغلهم فيه، وفرارهم إليه. وقال: ليس للعارف

نعمة، وهو فى كل نعمة، وقال: قلوب الطاهرين تشرح بالتقوى وتُزهر بالبِرّ، وقلوب الفجّار تظلّم بالفجور وتعمى بسوء النية.

وقال: من قال كل يوم عشر مرات: اللهم أصلح أمة محمد! اللهم فرّج عن أمة محمد! اللهم ارحم أمة محمد! كُتب من الأبدال». وقال عن حقيقة الوفاء: إفاقة السر عن رقدة التفلات، وفراغ الهمّ عن فضول الآفات». ومن دعائه: اللهم إنى أعوذ بك من طول الأمل، إن طول الأمل يمنع خير العمل». ومنه أيضاً: «اللهم لا تُرنا وجه من لا تحب النظر إليهم». ومنه أيضاً: «اللهم إن قلوبنا وجوارحنا بيدك لم تملكنا منها شيئاً، فإذا فعلت ذلك بهما فكن أنت وليّهما». ومن إنشاداته:

الماء يغسل ما بالثوب من دَرَن

وليس يغسل قلب المذنب الماء

* * *

٢٩٧- ابن مفلح (المنكر للتصوف)...

شمس الدين محمد بن مفلح (٧٠٨- ٧٦٣ هـ)، قال فيه ابن القيم: إنه ما تحت قبة الفلك أعلم بمذهب الإمام أحمد من ابن مفلح». وهو من تلاميذ ابن تيمية، وكان يقول له: ما أنت ابن مفلح، بل أنت مفلح.

وكانت ولادته ونشأته ببيت المقدس، ووفاته بصالحية دمشق، واشتهر بكتبه الثلاثة فى قواعد السلوك والآداب، وهى: «الآداب الشرعية الكبرى»، و«الآداب الشرعية الوسطى»، و«الآداب الشرعية الصغرى»، وتشتمل على جملة من الآداب الشرعية والمنح المرعية مما يحتاج إلى معرفته أو معرفة كثير منه، كل عالم أو عابد وكل مسلم، وقد حرص فيها على نقل آراء السابقين فى قواعد السلوك.

ويحرم ابن مفلح النظر فيما يمكن أن يُستجلب به الضلال، أو يكون به التردّى فى الشك والشبهة، من أمثال كتُب أهل الكلام والبدع المُضلة كالصوفية، ويقول إنه ليس أضّل من المتكلمين والصوفية، والأولون إفسادهم للعقول بالشبهات، والآخرون إفسادهم للأعمال، ويقول إنه خبر الطريقين، وأن غاية الأولين الشك، وغاية الآخرين الشطح، والمتكلمون عنده خير من الصوفية، لأن المتكلمين قد يردّون الشك، ولكن الصوفية يوهمون التشبيه والإشكال. ويحذر من الثقة بهؤلاء وهؤلاء، فإنما الثقة تكون بمن «يحدّثون عن الله فما أحدثوا، وعوّلوا على ما رووا وليس على ما رأوا». ونقده للتصوف من كراهيته

للكلام فى الخطرات والوساوس، وحضّه على التمسك بكتب الأثر. ويعارض الصوفية الذين يتمايلون ويصيحون، فقد كان الرسول والصحابة تفيض دموعهم وتقشعر جلودهم وتلين قلوبهم لذكر الله، ولم يحدث فيهم صعق أوغشيان، وعلى الرغم من أن الصعق والغشيان حدث لغير واحد من التابعين، فإن الصحابة أفضل منهم لقوتهم وكمالهم، وأما ما حدث بعد ذلك لغير التابعين، فإن الصادق منهم عظيم القدر بسبب حضور قلبه الحيّ وعلمه لمعنى المسموع وتقديره. وتنهى الشريعة عن تحريك الطباع بالرعونات، وتمنع دق الطبول والندب والنياحة والمرح وجو الخيلاء، فعلمنا أن الشرع يريد الوقار دون الخلاعة، فما بال الوجد، وتخريق الثياب، والصعق، والتماوت، مع هؤلاء المتصوفة ؟

ويرى ابن مفلح أن القلوب تضعف وتمرض، وربما ماتت من الغفلة والذنوب، وعلاجها ليس بالتصوّف، وإنما بالزهد من طريق السُّنة، ويعرّفه: بأنه الإياس مما فى أيدى الناس، والدعاء لله، فإن القلوب تحيا وتقوى وتصح بالتوحيد واليقظة، والذنوب تنكت فى القلب حتى يبقى أسود، ومخالفة النفس تمنع عن الذنوب، والصلاة والمجاهدة وسائر أنواع الرياضات تقوّى البدن والنفس، كتقويتهما بالتعلُّم والتأدُّب والصبر والسماحة وحبّ الخير، فتحصل للنفس القوة والانشراح، والجهاد أقوى من هذا المعنى وأولى.

* * *

٢٩٨- المقدسى (ابن القيسرانى)...

الإمام الحافظ أبو الفضل محمد بن ظاهر بن علىّ، المقدسى، وشهرته ابن القَيْسرانى، نسبةً إلى قيسارية إحدى بلاد الشام، أو بالأصح قيصرية Caesarea، من قيصر اللاتينية. وكان ميلاده فى بيت المقدس (١٠٥٦م/ ٤٤٨هـ)، ووفاته ببغداد (١١١٣م/ ٥٠٧هـ).

والمقدسى من المحدّثين، وروى عنه ابن سيرويه والأغاطى وغيرهما، وله التصانيف المطبوعة، منها: «أطراف الكتب الستة»، و«تذكرة الموضوعات أو الأحاديث المعلولة وبمن أُعلّت»، وفى التصوف له: «كتاب الجمع بين كتابىّ أبى نصر الكلاباذى وأبى بكر الأصبهانى من رجال البخارى ومسلم»، وكتاب «صفوة التصوّف»، و«السماع بين الإباحة والاستباحة»، و«كتاب عوالى الفُضَيْل بن عياض»، وقيل فيه كمتصوّف: كان حسن الاعتقاد، جميل الطريقة، صدوقاً.

ويؤرخ المقدسى للتصوف، فيقول :

كان الصوفية قوماً يقال لهم في القديم صوفة، انقطعوا إلى الله عزّ وجلّ، ومن تشبّه بهم فهم الصوفية، وكان المعروفون بصوفة ولَد الغوث بن مُرّ، أهل تميم بن مر، وهؤلاء كانوا في الجاهلية، وانقطعوا إلى الله، وقطنوا الكعبة، فمن تشبه بهم فهم الصوفية.

ويعلّمنا المقدسي أن المنكرين على التصوف في زمنه كانوا أكثر ممن يوافقه، وأن أصول آداب أهل التصوف صحيحة في التوحيد، والصوفية صانوا بها عقائدهم عن البدع، ودانوا بما وجدوا عليه السلف وأهل السُّنّة، وأمّا مَن يعرّض نفسه للتهم فلا يلومن إلا نفسه. وكان شيوخ التصوف على ما كان عليه أهل الصُّفة من اتّباع السُّنّة، وربما كانت نسبة التصوّف إلى أهل الصفة هؤلاء، أو أن الله عز وجلّ لمّا بعث نبيه مبشّراً ونذيراً، اشتغلت طائفة بتعلّم القرآن، وأخرى بحفظ السنن في الحلال والحرام، وثالثة اشتغلت بحفظ الفرائض، وأخرى بالجهاد والمحاربة، إلى آخر أمور الدين والدنيا، وبقيت طائفة ضعيفةٌ أجسادهم، وهي طائفة المتصوّفة الزُّهّاد، وإنما كان ضعف أجسادهم لزهدهم.

وقصر الأمل أول مدارج الزهد، والتعبير أخذه المقدسي من عليّ بن أبي طالب في قوله: «إنما أخاف عليكم خصلتين: طول الأمل واتّباع الهوى». وقال المقدسي بقَصْر الأمل كسُنّة من قول النبيّ ﷺ لطارق بن عبد الله: «ياطارق! استعد للموت قبل الموت». والاستعداد للموت يكون بجهاد النفس، وخير جهادها في الابتعاد عن النساء، فمن جعل وسادته أفخاذ النساء خاب، وفي السُّنّة أن النبيّ ﷺ اعتزل نساءه قبل موته بشهرين، وتعبّد حتى صار كالشيء البالي، كما يقول القشيري في الرسالة.

والزهد لايكون إلابخروج الزاهد مما يحب، فيتصدّق به وينفقه في سبيل الله على أهل الضعف والمسكنة، ويترك الادخار. وعن أنس قال: «كان رسول الله ﷺ لايدخر شيئا لغد». والصوفي الحقّ يؤثر الفقر على الغنى، وعنده أن المُثرين هالكون.

والتوكل هو المدرج الثاني من مدارج المقدسي: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ (الطلاق ٣)، ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (الطلاق ٥١)، فالتوكل صنو الإيمان، والإيمان فيه التوكل، والتوكل يزينه التواضع، ويشينه الكِبر والعُجب، وتعريفه أنه الرضا والتسليم، والصوفية

عند قول نبيهم ﷺ : «كونوا فى الدنيا أضيافاً واتخذوا المساجد بيوتاً».

والتصوف خُلق، فمن زاد فى الخلق، زاد فى التصوف. ويقول المقدسى عن المرقعة: أنها لبسة الصوفى، وهى للمريد، وتمثل توبته من أشياء، وينسبها المقدسى إلى النبىّ ﷺ. وفى الأخبار أنه ـ أى ﷺ ـ أتى بثياب فيها خميصة سوداء صغيرة فألبسها أم خالد بنت خالد، وألبس علياً عمامة تسمى السحاب، وألبس ابن عوف عمامة وأرخى لها عَذَبَة.

وينتقد المقدسى فرقة الملامتية التى أسسها أبو حفص الحدّاد، بدعوى تحسين الباطن على حساب سوء الظاهر، أو بتعمّد الظهور على السوء تجنباً للرياء. ويقول إن الملامتية زعمت أنها أصلحت بواطنها وأفسدت ظواهرها، وهذه طريقة مخوفة نهى الشرع عن سلوكها. فأقل ما تركت هذه الطائفة من طريقة أهل الصُّفّة حفظ الآداب، وأجل ما ارتكبت فى سلوكها هذه الحجة ترك أوامر الشريعة ونواهيها.

والصوفية كما يقول المقدسى على السُّنّة فى أحوالهم، والرسول ﷺ قد حدّد الأحوال للمؤمنين فقال: «إن المؤمن فى الدنيا كالغريب، لا يجوع من ذلها، ولا ينافس أهلها فى عزّها، فوضعُه يختلف، وحاله غير حالة أهلها، فنفسُه فى راحة، ونفسه منه فى شُغل». والحال عند المقدسى: هو ما يحل بالقلوب من صفاء الذكر لله تعالى. ولما قال أصحاب رسول الله ﷺ: يارسول الله ! إنا إذا كنّا عندك كانت قلوبنا على حال، فإذا خرجنا من عندك كانت على غير ذلك الحال ؟!» فقال رسول الله ﷺ : «لو كنتم تكونون إذا خرجتم من عندى على الحال التى تكونون عليها عندى لصافحتكم الملائكة».

وهذا هو الصفاء والثبات، وبالصفاء تكون المحبة، والمحبة كما يقول الغزالى : كانت أول حال رسول الله ﷺ حين أقبل على جبل حِراء حيث كان يخلو فيه بربّه ويتعبّد حتى قالت العرب: إن محمداً عشق ربّه. والمرء مع من يحب كما قال رسول الله ﷺ .

والمحبة غنى، والغنى لا يكون بالمال، لأن المال حاله فى النهاية حال رديّة، والغِنَى الحقّ هو غناء القلب، أو كما يقول الرسول ﷺ : «ليس الغِنَى عن كثرة العَرض، إنما الغنى عن النفس»، والمقدسى مع الفقر عنه مع الغنى، وقوله المأثور : الفقير أولى بالخرقة... يعنى إن كان التصوف، فالفقير ألزم له من الغنىّ،

والفقير هو الأقرب للتأسّي بالرسول ﷺ، وهو الأحفظ للسُنّة، والأسرع إلى النبع والأصل، وإيمانه بالدين، والسير على خطى الرسول ﷺ هو تصديق القلوب بما عَلِمه المشرّع من الغيوب.

وكان سعد بن مالك صحابياً، وآمن بالرسول وبرسالته، إلا أنه تخلّف عنه في بدر، وكان أحد الثلاثة الذين تاب الله عليهم وأنزل فيهم: ﴿وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا﴾ (التوبة ١١٨)، فقال الرسول ﷺ: «لا تكلم رجلاً تخلّف عنا»، فلما تاب عاد واشترك مع الرسول ﷺ، فالتوبة: ركن العابد الصوفي، وطريق التوبة: الاستغفار، ومن أقوال الرسول ﷺ فيه: «إنه ليُغان على قلبي فأستغفر الله في اليوم سبعين مرة».

وعلى المستغفر من السالكين أن يدأب على تقبيل يد شيخه، وقد فعلها ابن كعب، وقبل أبو عبيدة الجرّاح يد عمر بن الخطاب، فما كان من عمر إلا أن بكى، وبكى أبو عبيدة ببكائه، لأن عمر رأى في مسلك أبي عبيدة إحياءً للسُنّة.

والشيخ يحلّ من المريد محل الرسول ﷺ من المؤمن، والمريد يستأذن حتى في السفر، ويودّع الإخوان بالمصافحة والمعانقة، وعن الرسول ﷺ: «إن قُبلة المسلم المصافحة». والعناق سُنة عن نبيّنا إبراهيم عليه السلام، وكان إبراهيم أول من عانق. وكان الناس قبل الإسلام إذا حيّوا بعضهم البعض سجدوا لبعضهم البعض، فجاء الإسلام بالمصافحة.

ولم يكن بدعاً أن يبكى عمر وأبو عبيدة، والصوفية دأبهم البكاء، وعن الرسول ﷺ قال: «لا يلج النار رجلٌ بكى من خشية الله». وعن عبد الله بن الشخير قال: أتيت رسول الله ﷺ وهو يصلي، وبجوفه أزيزٌ كأزيز المرجل من البكاء»، وعن النبيّ ﷺ قال: «ليس شيء أحب إلى الله من قطرتين وأثرين. قطرة دمع من خشية الله، وقطرة دم تُراق في سبيل الله»، وخشية الله تكون بالقلب تواطنه، وكان المقدسي يردد عن الرسول ﷺ: «وأعوذ بك من قلب لا يخشع»، ومن كان قلبه خاشعاً فهو الصوفي الحقّ.

والقلب قد يتقلّب، ووصف الرسول ﷺ ذلك فقال: «مثل هذا القلب مثل ريشة ملقاة بفلاة الأرض تقلبها الرياح ظهراً لبطن». والقلب الخاشع لين، وعن الرسول ﷺ قال: «ألا أخبركم على من تحرم النار غداً؟ ـ على كل هيّن لين قريب، سهلٌ سهل». وعن الشافعي قال: «لو أن

رجلا تصوّف من أول النهار، لم يأت الظهر إلا وجدته أحمق»، فقد عاب الشافعي على الصوفية لينهم فوصفهم بالحُمق. ومن لين قلوبهم اشتياقهم لبعضهم البعض، وأهل الشوق كما يقول المقدسي ثلاثة : فمنهم من يشتاق إلى ما وعد الله من الثواب والكرامة والرضوان والفضل، ومنهم من يشتاق إلى محبوبه من شدة محبته، ومنهم من يشاهد بقلبه محبوبه، فهو له حاضر لا يغيب، ويذكره قلبه، فإن اشتاق فاشتياقه بلا شوق، ولا يصف نفسه بالشوق. والذكر بالقلب أفضل الوصال، والشاعر يقول:

أريد دوام الذِّكر من فرط حبه
فيا عجباً من غيبة الذِّكر في الوجد

وحقيقة الذِّكر: أن تنسى ما سوى المذكور في الذِّكر، وفي القرآن: ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ (الكهف ٢٤). وذكرهم فيه الفراسة، والصوفية يُختَصُّون بالفراسة، وعن الرسول ﷺ : «اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله». وتتجلى الفراسة في أمور كالسماع والرقص ومن لم يشتغل بالسنن ينكر هذه الأمور على الصوفية، مع أن الله تعالى قال في كتابه عن مهمة الرسول ﷺ ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾ (الأعراف ١٥٧)، والغناء من الطيبات، وكان النبيّ ﷺ يأذن لعائشة أن تسمع غناء جاريتين يوم العيد، وعاب عليها أن تزف عروساً من غير أن يصحبها من يغني لها. ولم يأذن الله تعالى بشيء للنبيّ ﷺ ما أذن له أن يتغنّى بالقرآن، وكان ﷺ يستمع إلى حَسَن الصوت بالقرآن، واستمع إلى غناء قَيْنة، وقال: «ليعلم اليهود والنصارى أن في ديننا فُسحة».

رحم الله المقدسيّ فقد كان كما قال ابن مَنْدَه: حَسَن الاعتقاد، جميل الطريقة، صدوقاً.

* * *

٢٩٩ - المقريزي (مؤرخ التصوف في مصر)...

أحمد بن عليّ بن عبدالقادر (٧٦٦ - ٨٤٥هـ)، نسبته المقريزي لحارة المقارزة في بعلبك، وله «المواعظ والاعتبار بذكر الخُطط والآثار»، ويُعرف بخطط المقريزي، ويؤرِّخ فيه للديار المصرية، ويفرد فيه أبواباً في أحوال الصوفية بمصر في زمنه، وما لهم من رُبُط وخانقاوات وزوايا، ويلقي الضوء على مكانة التصوف عند المصريين، وأجناس المتصوفة ،وطريقة معيشتهم، والنُظم والقواعد التي يأخذون أنفسهم بها، ومعاملاتهم مع السلطة والشعب. ويقول في باب ما ذاع عن تعاطي الصوفية

للمخدرات تحت عنوان «ذكر حشيشة الفقراء» ـ ويقصد بالفقراء الصوفية ـ أن مشايخ الصوفية فى خراسان من إيران، كانوا أول من اكتشف التأثير المبهج للحشيش (ألا لعنةُ الله على من اكتشف هذا الاكتشاف وعلى ما اكتشف)، وتبيّن لهؤلاء المشايخ أنه يقلّل من الشهية للطعام فيساعد على الصيام، ويمنع التهيّج الجنسى، فيصون الصوفى عن الرذيلة. ويقول المقريزى: إن بداية هذا الاكتشاف سنة ٦٥٨ هـ، وأن الصوفية تعاهدوا فيما بينهم أن لا يُطلعوا العامة على نبات القُنّب ومفعوله، فقد خصّ الله به الصوفية!! ولم تزل الحشيشة ذائعة فى إيران ولا يعرفها أهل العراق، حتى وفد عليهم هرمز، فاشتهرت هناك، ومنها انتقلت إلى مصر، فلمّا عرفها الناس أدمنوها، فقد كانت أحوالهم ردية، وحكوماتهم عصيّة. (أى أن المصريين لهم الآن نحو ثمانمئة سنة وهم يتعاطون الحشيش!!). ويقول المقريزى: الفقراء، أى الصوفية، يقصدون فى استعمال هذا المخدر، مع ما يجدون من اللذة، تجفيفاً للمنى، وقطعاً لشهوة الجماع (على عكس الشائع) كى لا تميل نفوسهم إلى ما يوقع فى الزنا!

ويقول المقريزى: إن انتشار الحشيشة كان من الصوفية إلى غيرهم، ولهذا السبب غلبت السفالة على الأخلاق، وارتفع ستر الحياء والحشمة من بين الناس، وجهروا بالسوء من القول، وتفاخروا بالمعايب.

ويقول المقريزى: إن «الخانقاه أو الخانكاه»، أى الموضع الذى يأكل فيه الملك، عُرفت فى الإسلام فى حدود الأربعمائة من سنى الهجرة، وجُعلت لتخلّى الصوفية للعبادة.

وبعد أن يتحدث المقريزى فى أصل كلمة صوفى، وأركان التصوف عند السلف، يعلّق قائلاً: ثم تدهور الآن حال الصوفية ومشايخها حتى صاروا من سقط المتاع، فلا يُنسَبون إلى علم ولا ديانة، وإلى الله المشتكى!

ويذكر المقريزى بعض أو أشهر هذه الخانقاوات، ومنها دار سعيد السعداء، وكانت أول دار تعرف فى الدولة الفاطمية. وسعيد هذا هو الأستاذ قنبر، ولقبه سعيد السعداء، وكان من عُتقاء المستنصر، وقُتل سنة ٥٤٤ هـ، فسكن داره الوزير رزيك، ثم شاور، فلما ولِى صلاح الدين الأيوبى جعلها برسم فقراء الصوفية الواردين من البلاد الشاسعة، ويقصد الأجانب عن مصر، ووَقَفَها عليهم سنة ٥٦٩ هـ، وولّى عليهم شيخاً، ووقف عليهم أوقافاً، وشرط أن من مات من الصوفية وترك عشرين ديناراً فما دونها تكون للفقراء،

ومن أراد منهم السفر يُعطَى أجرة السفر، ورتّب للصوفية فى كل يوم طعاماً ولحماً وخبزاً، وبنى لهم حماماً بجوارهم، فكانت أول خانقاه عملت بديار مصر وعرفت بدويرة الصوفية، ونُعت شيخُها بشيخ الشيوخ، واستمر ذلك إلى أن كانت الحوادث والمحن، وانضعت الأحوال، وتلاشت الرتب، فلقّب كل شيخ خانقاه بشيخ الشيوخ. وكان سكانها من الصوفية يُعرفون بالعلم والصلاح، وتُرجى بركتهم، وولى مشيختها الأكابر والأعيان، كأولاد شيخ الشيوخ ابن حمويه، مع ما كان لهم من الوزارة والإمارة، وتدبير الدولة، وقيادة الجيوش وتقدمة العساكر. ووليها ذو الرياستين الوزير الصاحب، وقاضى القضاة تقى الدين عبدالرحمن، وجماعة من الأعيان، ونزل بها الأكابر من الصوفية، وكان الناس يأتون من مصر إلى القاهرة يوم الجمعة، ليشاهدوا صوفية خانقاه سعيد السعداء عندما يتوجهون إلى صلاة الجمعة بالجامع الحاكمى، كى تحصل لهم البركة والخير بمشاهدتهم، وكان لهم فى يوم الجمعة هيئة فاضلة، فيخرج شيخ الخانقاه وبين يديه خدّام الربعة الشريفة، والصوفية خلفه يمشون فى سكون وخفر إلى باب الجامع فيكون هذا من أجمل عوايد القاهرة.

وكان عدد الصوفية النازلين بخانقاه سعيد السعداء نحو الثلاثمئة رجل، لكل منهم فى اليوم ثلاثة أرغفة فى العادة، زنتها ثلاثة أرطال، وقطعة لحم زنتها ثلث رطل فى مرق، وتُعمل لهم الحلوى كل شهر، ويُفرّق عليهم الصابون، ويُعطى كل منهم ثمن كسوة كل سنة مقداره أربعون درهماً. ولما اضطربت أحوال الدولة الاقتصادية رأى المختصون إغلاق مطبخ الخانقاه، وإبطال الطعام، فلم تحتمل الصوفية وتكررت شكاواهم.

ومن الخانقاوات المشهورة أيضاً خانقاه الظاهر بيبرس، وكانت أجَل خانقاه بالقاهرة بنياناً، وأوسعها مقداراً، وأتقنها صنعة، بناها بيبرس وهو أمير، وبنى إلى جوارها رباطاً كبيراً، وجعل بجانبها قُبّة بها قبره، وقرّر بالخانقاه أربعمائة صوفى، وبالرباط مائة من الجند وأبناء الناس الذين قعد بهم الوقت، وجعل بها مطبخاً يفرّق على كل منهم فى كل يوم اللحم والطعام، وثلاثة أرغفة من خبز البُر، وجعل لهم الحلوى، ورتّب بالقبة درساً للحديث النبوى له مدرس، وعنده عدة من المحدّثين، ورتّب القرّاء يتناوبون القراءة بالليل وبالنهار، ووقف عليها الأوقاف، فلما خُلع من السلطنة عُطّلت عشرين سنة ثم فُتحت من جديد،

ثم من بعد ذلك عُطِّل المطبخ بسبب الضائقة الاقتصادية، واستمر الخبز ومبلغ سبعة دراهم لكل صوفى فى الشهر بدل طعام، ثم زيد المبلغ إلى عشرة دراهم، ثم لما قصر مدّ النيل بطل الخبز وأغلق المخبز من الخانقاه، وصار الصوفية يأخذون فى كل شهر مبلغاً من المال.

ويقول المقريزى: أنه حضر الخانقاه وكانت لها مهابة، وقد ذهبت تلك المهابة ونزل بها الصغار والأساكفة (صغار الحرفيين) والعامة.

ويذكر المقريزى من الخانقاوات الأخرى خانقاه سرياقوس بسماسم سرياقوس، وكانت معالمها من أسنى المعالم بديار مصر، ويُصرف فيها لكل صوفى رطل لحم من الضأن فى طعام شهى، ومن الخبز النقى أربعة أرطال، ويصرف له فى كل شهر مبلغ أربعين درهماً فضة، ورطل حلوى، ورطلان زيتاً من زيت الزيتون، ومثل ذلك من الصابون، ويصرف له ثمن كسوة كل سنة، وتوسعة فى كل رمضان، وفى العيدين، وفى مواسم رجب وشعبان وعاشوراء، وكلما قَدمت فاكهة يصرف لهم مبلغ لشرائها. وفى الخانقاه خزانة بها السكر والأشربة والأدوية، وبالخانقاه الجرائحى والكحّال ومُصلح الشعر. وفى كل رمضان يفرّق على الصوفية كيزان (جمع كوز) لشُرب الماء، وتُبيّض لهم قدورهم النحاس، ويعطون حتى الأشنان (الأحماض) لغسل الأيدى من وَضَر اللحم. وبالحمام حلاق لتدليك أبدانهم وحلق رءوسهم، فكان المنقطع بها لا يحتاج لشئ غيرها، ويتفرّغ للعبادة، ثم استجد بها بعد سنة تسعين وستمائة، حمام آخر برسم النساء، ثم تدهور الحال فصار يُصرف لهم مبلغ من المال كمقابل للطعام. ـ وأقول: فأين ذلك كله من أحوال الصوفية الأوائل الذين اشتهروا بالزهد وفلسفوا الجوع والسهر، فلا عجب أن يتوافد الصوفية على مصر من كل بلاد الإسلام، ويعيشون فى هذه الخانقاوات عيشة الترف، وقد قيل إن الشيخ المغربى لما وفد إلى مصر نزل بها وبصحبته خمسمائة من الصوفية!!ـ أجل لقد جعلوا مصر تكية للأجانب قديماً، وها هى تصبح من جديد تكية النصارى فى عصر العولمة والتنوير، وفى ظل حُكم الحزب الوطنى وسدنته ! ويقول المقريزى إنه سمع عن أحد الصوفية كان ينام بالأربعين يوماً بلياليها فلا يستيقظ البتة!!ـ ألم أقل: كانت مصر تكية وما تزال !

ومن الخانقاوات المشهورة أيضاً خانقاه

أرسلان، وأول من وَلِى مشيختها محمد ابن جعفر، جدّ الشيخ عبد الرحيم القنائى. وعن الرِّبط يذكر المقريزى أنها بيوت الصوفية ومنازلهم، ولكل قوم دار، والرباط هو دار الصوفية، وقد شابهوا أهل الصفّة فى ذلك، ومن أشهرها: رباط الصاحب، وكان يسكنه عشرة من الفقراء المجرّدين غير المتأهلين. والربط يمكن أن تكون للنساء المتصوفة كما هى للرجال، ولا أحد أحسن من أحد! وقد علمنا أنهم أضافوا حماماً للنساء بخانقاه سرياقوس حيث يكون من الممكن أن جزءاً من هذه الخانقاه كان للنساء! ومنها أيضاً رباط البغدادية الذى بنته جليلة ابنة الملك الظاهر بيبرس فى مواجهة خانقاة أبيها ـ خانقاه بيبرس، وخصصته لسكنى الشيخة الصالحة زينب إبنة أبى البركات، المعروفة ببنت البغدادية، فأنزلتها بها ومعها النساء الصالحات، ومهمة الشيخة أن تعظ وتذكّر النساء وتفقّههن. وممن اشتهرن من النزيلات فاطمة بنت عباس البغدادية، وكانت فقيهة وافرة العلم، وزاهدة، عابدة، واعظة، انتفع بها كثير من نساء دمشق ومصر، وكان لها قبول زائد، وصار بعدها كل من قام بمشيخة هذا الرباط من النساء يقال لها البغدادية، ومن ثم كان القول المصرى الساخر «تتبغدد» أى صارت يعجبها هذا ولا يعجبها ذاك، ولِمَ لا وكل شىء مُيَسَّر وعلى التمام، ومن يجد الدلع ولا يتدلّع فهو أحمق، وصوفية ذاك الزمان كانوا أجانب، وربّوا على الدَلاعة رجالاً ونساء، وكانوا فى العالم الإسلامى قاطبة يسمعون بهذا العزّ فى مصر فيحضرون زرافات زرافات، وكأنه استعمار صوفى!! وكانت تودع فى هذا الرباط النساء اللاتى يطلّقن أو يُهجَرن ولا عائل لهن، حتى يتزوجن أو يرجعن إلى أزواجهن، صيانةً لهن، لما كان فيه الرباط من شدة الضبط وغاية الاحتراز والمواظبة على وظائف العبادات، حتى أن خادمة الفقيرات به كانت لا تمكّن أية امرأة من استعمال إبريق بيزبوز! وتؤدّب من تخَرج عن الطريق بما تراه.

ومن الزوايا التى يذكرها المقريزى زاوية القلندرية ـ ويقول فى القلندرية أنهم ينتمون إلى الصوفية، ويسمون أنفسهم أحياناً الملامتية. ويهمنا أن نتعرف إلى رأى المقريزى وما يقوله الناس فى زمنه عن القلندرية وغيرهم، ويجب أن نعرف أولاً: أنه ما من أحد من شعب مصر كان قلندرياً أو ملامتياً! وكان هؤلاء جميعاً وافدين ويتحدثون التركية أو الفارسية وغير

ذلك من الرطانات. ويقول المقريزى إن حقيقة القلندرية أنهم طرحوا التقيّد بآداب المجالسات والمخاطبات، وقلّت أعمالهم من الصوم والصلاة إلا الفرائض، ولم يبالوا بتناول شئ من اللذات المباحة، واقتصروا على رعاية الرخصة، ولم يطلبوا حقائق العزيمة... إلى أن يقول إن هذه الزاوية خارج باب النصر، أنشأها الشيخ حسن الجوالقى القلندرى أحد فقراء العجم القلندرية، ولما قدم مصر تقدم عند الأمراء وأقبلوا عليه واعتقدوه، فأثرى ثراء زائداً!! وهكذا كانوا جميعاً - حتى الشاذلى، والبدوى، والقنائى والقوصى... إلخ، كلهم اغتنوا فى مصر وباعوا الدين للشعب! وكان الجوالقى القلندرى هذا يحلق لحيته ولا يعتمّ... وفى عهد السلطان الملك الناصر قلاوون استدعى السلطان شيخ زاوية القلندرية، وأنكر عليه حلق لحيته واستتابه، وكتب توقيعاً سلطانياً منع فيه هذه الطائفة من أن يحلقوا لحاهم فقد كان المظنون أنهم مأبونون. ويعلّق المقريزى على بدعة القلندرية هذه أنها منذ ظهرت حتى وقته، لها ما يزيد على أربعمائة سنة، وكان أول ظهورها بدمشق سنة بضع عشرة وستمائة. وقد كتب السلطان إلى بلاد الشام بإلزام القلندرية بترك زى الأعاجم والمجوس وكانوا فيه أشبه بالنساء، وعدم تمكين أحد من الدخول إلى بلاد الشام حتى يتركوا هذا الزى المبتدع واللباس المستبشع، ومن لا يلتزم بذلك يُعزّر شرعاً. تُرى: أيخلّصلنا أحد من زىّ الأزهريين وهو أيضاً تركى؟!

* * *

٣٠٠ - ابن مكى (الشهيد الأول)...

محمد بن مكّى، الجزّينى، العاملى، المشهور باسم «الشهيد الأول»، قيل أعدم سنة ٧٨٢هـ، وفى مصادر أخرى سنة ٧٥٦هـ (١٣٨٤م)، ويُنسب إلى جزّين من قرى جبل عاملة، ولذا يقال له أيضاً الجزينى، والعاملى، وكان شديد المعرفة بالتصوّف، ويأخذ به ويميش مثل الصوفية، ويعتبر التصوف أهم مجالات المعرفة وأشرفها، وشعره يهاجم فيه الطرق الصوفية الظاهرية، أى التى تأخذ بالظاهر وتعتمد الصوفى إذا كانت له سبحة وخرقة وعكاز، وإذا كان يبدى الزهد ولو شكلاً. يقول:

الفقر سرّ، وعنك النفس تحجبه
فارفع حجابك تجلُ ظلمة التلف
وفارق الحبس وأقر النفس فى نفس
وغبّ عن الحسّ واجلُب دمعة الأسف

وكان ابن مكي يوجه مؤلفاته إلى الصوفية الحقيقيين، ويصفهم: بأنهم المشتغلون بالعبادة، المُعرضون عن الدنيا.

ويذهب ابن مكي إلى شروط في التصوف: أولها الفقر، ثم العدل، والاثنان تتحقق بهما المعاني المقتضية للفضيلة. وليس شرطاً للصوفي أن يسكن الرباط، أو يلبس الخرقة من شيخ معين، ولا أن يكون له زِيّ خاص.

وينجه ابن مكي في شعره لموضوعات تقرّبه من الحلاج، يقول:

الأولياء تمتعوا بك في الدجى
بتهجُّدٍ وتخشُّعٍ وحنين
فطردتني من قرع بابك دونهم
أترى لعظم جرائم، سبقوني؟
أوَجدتهم لم يذنبوا فرحمتهم
أم أذنبوا فعفوتَ عنهم دوني ؟

وتصوّف ابن مكي من نوع التصوف السياسي الجهادي، وهو يلجأ إلى العنف ويعلن التمرد على الطغاة، وسجنته السلطة لمدة عام، وقُدّم للمحاكمة بتهمة التحريض على قلب نظام الحكم، وإثارة الفتنة، وزعزعة استقرار البلاد، والإساءة إلى الحكام بتوجيه اتهامات إليهم ليس لها ما يثبتها، وأدين لكثرة الشهود الذين بلغوا أكثر من السبعين شاهداً، وقضوا في شأنه بالصلب، والرَّجم، والإحراق! وتنكر المراجع أن خصومه شهدوا عليه بالانحلال وفساد العقيدة، واستحلال الخمر وغير ذلك من القبائح. ويبدو أن اتهامه باستحلال الخمر كان نتيجة بعض أبيات له في التصوف تقول:

وادخل إلى خلوة الأذكار مبتكراً
وَحْولَ كعبة عرفان الصفا فَطُف
وإن سقاك مدير الراح من يده
كأس التجلّي فخذ بالطاس واغترف
واشرب واسْقِ ولا تبخل على ظمإٍ
فإن رجعتُ بلاديَ فوا أسفي

ومن الواضح من حياة هذا الصوفي أنه كان يدّعي التصوف، مثله في ذلك مثل الحلاج، وكان يتلقى توجيهات الشيعة من عليّ بن مؤيد الخراساني، وتصوفه لذلك أدخل في السياسة منه في العقيدة، وأطلق عليه الشيعة اسم الشهيد الأول، لا باعتباره شهيد التصوف، وإنما باعتباره شهيد التشيُّع، وكم من الدعاوى تُنتحل باسم التصوف والصوفية، وخاصة من أهل الشيعة، وربما يبررون هذا النفاق عندهم بما يسمونه التقيَّة، وهي ادّعاء شيء ولو كان مخالفاً للعقيدة نجاةً بالنفس. وأما الشهيد الثاني

فالمقصود به: زين الدين العاملى، وكان هو أيضاً يدّعى التصوّف على الطريقة النوربخشية، وأعدم لنفس أسباب إعدام ابن مكّى.

٣٠١ - الملطى (أبو الحسين)...

محمد بن أحمد بن عبدالرحمن، نَسَبُه الملطى لأنه من مَلَطية، وسكن بعسقلان، وتوفى بها سنة ٣٧٧هـ(٩٨٧م)، وهو من أوائل الذين نقدوا غلاة المتصوفة فى كتابه «التنبيه والردّ على أهل الأهواء والبدع» وأطلق عليهم اسم «الروحانية»، يقول: سُمّوا كذلك لأنهم زعموا أن أرواحهم تنظر إلى ملكوت السماوات، وبها يعاينون الجنان ويجامعون الحور العين. وسموا أيضاً «الفكرية»، لأنهم يتفكّرون حتى يصيرون إليه، فجعلوا الفكر بهذا غاية عبادتهم ومنتهى إرادتهم، ينظرون بأرواحهم فى تلك الفكرة إلى هذه الغاية، فيتلذذون - كما يزعمون - بمخاطبة الله لهم ومصافحته إياهم ونظرهم إليه، ويتمتعون بمجامعة الحور العين ومفاكهة الأبكار، على الأرائك متكئين، ويسعى عليهم الولدان المخلّدون بأصناف الطعام وألوان الشراب وطرائف الثمار. ولو كانت الفكرة فى ذنوبهم الندم عليها والتوبة منها والاستغفار، لكان الحق معهم وفى جانبهم، وأما هذه الفكرة التى يحكون عنها فبوّبها لهم الشيطان، فكيف يمكن أن يتلذذوا بلذات الجنة وهم فى الدنيا ؟ لأنه لا يتلذذ بلذات الجنة إلا من صار إليها يوم القيامة، وهكذا وعد الله عباده المؤمنين والمؤمنات.

ويقول الملطى: ومنهم صنف من الروحانية زعموا أن حُبّ الله يغلب على قلوبهم وأهوائهم وإرادتهم حتى يكون حبّه أغلب الأشياء عليهم، فإذا كان كذلك عندهم، كانوا عنده بهذه المنزلة، ووقعت عليهم الخُلّة من الله، فيحلّ لهم السرقة، والزنا، وشُرب الخمر، والفواحش كلها على وجه الخُلّة التى بينهم وبين الله، لا على وجه الحلال، ولكن على وجه الخلة كما يحلّ للخليل الأخذ من مال خليله بغير إذنه - ومن هؤلاء رياح، وكليب، وكانا يقولان بهذه المقالة ويدعوان إليها.

ويقول الملطى: ومنهم صنف من الروحانية زعموا أنه ينبغى للعباد أن يدخلوا فى مضمار الميدان حتى يبلغوا إلى غاية السبقة، من تضمير أنفسهم وحملها على المكروه، فإذا بلغت تلك الغاية أعطى نفسه كل ما تشتهى وتتمنى. وعنده أن أكل الطيبات كأكل الأراذل من الأطعمة، وأن الصبر والخبيص بمنزلة واحدة، والعمل

والخل عنده بمنزلة، فإذا كان كذلك فقد بلغ السبقة وسقط عنه تضمير الميدان وأتبع نفسه ما اشتهت، ومن هؤلاء ابن حيّان، وكان يقول هذه المقالة. ـ ومنهم صنف يقولون إن ترك الدنيا إشغال للقلوب وتعظيم للدنيا ومحبة لها، ولما عظمت الدنيا عندهم تركوا طيب طعامها ولذيذ شرابها ولين لباسها وطيب رائحتها، فأشغلوا قلوبهم بالتعلق بتركها، وكان من إهانتها مؤاتاة الشهوات عند اعتراضها حتى لا يشتغل القلب بذكرها ويعظم عنده ما ترك منها. ورياح وكليب كانا يقولان هذه المقالة. وكأني بفلسفتهما هي نفسها فلسفة راسبوتين الروسي الذي يقول: أغرق نفسك في الشهوات تطهّر الروح !

والظاهر أن السرّاج الطوسي قد تأثّر بالملطي في كتابه «اللمع»، فقد كان معاصراً له، فذهب إلى التنبيه إلى هؤلاء الغلاة وأطلق عليهم اسم المترسّمين بالتصوف، وبالطبع فإن هؤلاء خارجون على دائرة الإسلام، ولا يمكن اعتبارهم من الصوفية المسلمين.

* * *

٣٠٢ - ابن الملقن...

عمر بن عليّ بن أحمد، الأنصاري، الشافعي، سراج الدين، أبو حفص، الأندلسي، ثم المصري، ولد بالقاهرة سنة ٧٢٣ هـ، وتوفي بها سنة ٨٠٤ هـ، صاحب كتاب «طبقات الأولياء»، ويسمونه أحياناً طبقات الصوفية، مات والده وعمره سنة واحدة، وتركه في كفالة صديق له هو عيسى المغربي المُلقِّن، فقد كان عمله تلقين القرآن بجامع ابن طولون، أي يقرئه الناس ويحفظهم، ولذا سموه بالملقِّن، وتزوج الصديق الوصي الأم، وتعهد الابن بالتربية، فاشتهر باسم زوج أمه، ولكنه كان يؤثر عليه أن يُدعى ابن النحوي، فقد كان أبوه نحوياً، أي كان يشتغل بالنحو. وقد أحسن زوج الأم استثمار ماله، فأنشأ له به ربعاً يغل عليه كل يوم مثقال ذهب، فكان يكتفي بأجرته، وأعانته كثرة المال وقلّة العيال وانخفاض الأسعار على اقتناء مكتبة ضخمة خاصة به، جمع فيها من الكتب ما لا يدخل تحت حصر، وكان محباً للعلم والعلماء، كثير الأسفار، وقيل إن مَن أخذ عنهم ابن الملقن من العلماء من الكثرة بحيث يشق على الراصد رصدهم، ولقد صار من كبار مشايخ عصره ممن خدموا الحديث والفقه، وقيل إنه كان موسوعياً، اشتغل في كل فن، وقرأ في كل مذهب وأفتى فيه، وقيل إنه كذلك لم يكن محققاً مدققاً، وقال عنه

بعضهم إن أغلب تصانيفه كانت كالسرقات من الكتب؛ ولقد ساعده على كثرة التصنيف أنه بدأ به وهو لم يكن قد بلغ العشرين، واستمر فيه إلى فترة ثلاث سنوات قبل وفاته عن إحدى وثمانين سنة، وقيل كان له نحو ثلاثمئة مصنفاً، منها: «البدر المنير في تخريج أحاديث الشرح الكبير» في ست مجلدات؛ و«تحفة المحتاج إلى أدلة المنهاج» في ثماني مجلدات، و«جمع الجوامع» وهو قريب من مائة مجلد؛ و«حدائق الأولياء» ويشتمل على ألفي حديث؛ و«خلاصة الفتاوى» يقع في مجلدين ضخمين؛ و«دُرة الجواهر في مناقب الشيخ عبدالقادر» (عبدالقادر الجيلاني)، وشروح للألفية، ولزوائد جامع الترمذي، وسنن أبي داود، والنسائي، ومسلم، والعمدة، ومختصر التبريزي، ومختصر منتهى السؤل والأمل في علمي الأصول والجدل، والمنتقى من الأحكام، والجامع الصغير، وله طبقات الأولياء أو الصوفية، وطبقات القرّاء، وطبقات المحدثين إلخ.

وكتاب طبقات الأولياء (أو الصوفية) جمع فيه نحواً من مائتي وثلاثين ترجمة، بخلاف التراجم الفرعية، ابتداءً من منتصف القرن الثاني الهجري، بدءاً بإبراهيم بن أدهم المتوفى سنة ١٦١ هـ، حتى العقد التاسع من القرن الثامن الهجري، وانتهاءً بشهاب الدين القونوي المتوفى سنة ٧٨٧ هـ، ويقع في قسمين، الطبقات، ثم الذيول عليها، ويرتبه وفق الأبجدية، على غير ما جرى عليه الحال في التأليف لمثل ذلك، فالمألوف أن الطبقة هي الجيل الواحد من أهل الصنعة أو العلم، الذين يجمعهم زمان واحد، فيأخذون عن بعضهم البعض. وتضم الذيول تراجم للصوفية حسب الكُنية أو غير ذلك، أو أنها تراجم لمن أخذ عن الشيوخ أو عاصرهم. ويقدّم ابن الملقن للكتاب بهدفه وغايته من تأليفه فيقول: إنه جملة من أعلام الأعيان وأوتاد الأقطاب في كل قطر وأوان، جمعتُهم لأهتدي بمآثرهم، وأقتفي بآثارهم، رجاء أن أُنظَم في سلكهم، فالمرء مع من أحب، وأحيا بذكرهم ويزول عني النَصَب». ـ ويمتاز الكتاب بالذيول على التراجم، وكثرة الشعر الصوفي فيه، إلا أن ما يورده ابن الملقن غير موثق التوثيق الذي عليه تراجم السُلَمي في طبقاته، وبعض التراجم المعلومات فيها ضئيلة قد تفي بالتعريف دون التوصيف، وكما قال العسقلاني: لم يكن له ذوق في الفن الذي يكتب فيه، وكما قال ابن حجي:

لم يكن يستحضر ما يقول ولا يحقق العلم به.

وقيل إن ابن الملقن أصابه ذهول فى نهاية حياته، فقد أتى حريق على مكتبته بما حوت من ذخائر، فأصابه من ذلك حزن بليغ، فقد قضى عمره يجمع فيها النفائس ولا يضن على ذلك بالمال، وكان ابنه يعزّيه ويقول له:

لايزعجنك يا سراج الدين أن
لعبتْ بكُتبك السُّن النيران
لله قد قرّبتها فتُقبِّلت
والنار مسرعة إلى القُربان

واشتد به الاكتئاب حتى حجبه ابنه عن الناس، وما لبث أن توفاه الله، فدفنه ابنه بحوش سعيد السعداء، المعروف بالخانقاه الصلاحية، أو خانقاه سعيد السعداء، ويذكر المؤرخون أنها أول خانقاه للصوفية فى مصر، أنشأها صلاح الدين الأيوبى أو تُنسب إليه، ومكانها اليوم جامع سعيد السعداء بالجمالية.

* * *

٣٠٣ - موسى بن جعفر الكاظم (مستجاب الدعوة)...

أبو الحسن موسى بن جعفر الصادق ابن محمد الباقر، الإمام السابع من الأئمة الاثنى عشر عند الإمامية، وكانت إمامته سرّية وظلت ربع قرن، وكان من أعبد أهل زمانه، وكان صورة أخرى من علىّ زين العابدين فى زُهده وتألُّهه للقلوب، وكان يقول: ما أهان الدنيا قومٌ إلاّ هنّاهم الله إياها وبارك فيها لهم، وما أعزّها قوم إلاّ بغّضهم الله فيها.

والكاظم ولد فى الأبواء قُرب المدينة سنة ١٢٨هـ (٧٤٥م)، وسكن المدينة، فأقدَمه المهدى العباسى إلى بغداد ثم ردّه إليها، وجنى عليه شكّ الرشيد، وكان قد بلغه أن الناس يبايعون الكاظم فى المدينة، فلمّا حجّ مرّ بها سنة ١٧٠هـ، فاحتمله منه إلى البلدة وحبسه عند واليها عيسى بن جعفر سنةً واحدة، ونقله إلى بغداد فتوفى فيها سجيناً، والاحتمال الأكبر أنه قتل سنة ١٨٣هـ (٧٩٩م)!! فهو من شهداء الفكر أو شهداء السياسة. وربما كانت حكاية قتله شائعة شيعية لانهام أهل السُّنّة به!.

وكان الكاظم من الصوفية، ومن تلامذته الصوفى الكبير شقيق البلخى المتوفى سنة ١٩٤هـ (٨٠٩م)، والصوفى الكبير حاتم الأصم المتوفى سنة ٢٣٧هـ (٨٥١م)، وصحب الصوفى الكبير إبراهيم بن أدهم المتوفى سنة ١٦١هـ،

والصوفى الكبير معروف الكرخى وكان من مواليه ، وتاب على يديه الصوفى الكبير بشْر الحافى المتوفى سنة ٢٢٧هـ (٨٤١م)، ويقص شقيق البلخي عن ظروف تعرُّفه بالكاظم فيقول: قصدتُ إلى الحج فنزلت القادسية، فبينا أنا أنظر إلى الناس وزيتهم ، إذ نظرتُ شاباً حسن الوجه شديد السمرة، نحيفاً، فى رجليه نعلان، فجلس منفرداً ، فقلت : هذا من الصوفية يريد أن يكون كَلاًّ على الحجاج، فقلتُ: لأمضيَنّ إليه ولأُوبخنّه ! فدنوت منه، فقال: يا شقيق! اجتنبوا كثيراً من الظن، إن بعض الظن إثم! ثم تركنى وولّى. فقلت : هذا عبدٌ صالح كاشفنى! لألحقنّه ليستغفر لى! فأسرعت فى أثره ، فغاب عنى. فلمّا نزلنا، واقعته إذا هو قائمٌ يصلى، وأعضاؤه ترتجف ودموعه تجرى. قلت: هذا صاحبى فلمّا فَرغَ قال: يا شقيق اتلُ قوله تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ﴾ (طه ٨٢)، ثم تركنى. فقلت : هذا من الأبدال، كاشفنى مرتين! ثم رأيته على مورد وبيده ركوة (إناء صغير من جلد يُشرب فيه الماء) ، فسقط منه على البئر، فرمق إلى السماء بطرفه وقال:

أنت ربّى إذا ظمئت إلى الماء

وقوتى إذا أردتُ طعاما

ثم قال : اللهم سيدى ـ مالى سواك فلا تعدمنيها ! قال شقيق: فوالله لقد رأيت الماء ارتفع حتى تناول الركوة ، فتوضأ وصلى أربع ركعات، ثم مال إلى كثيب رمل فجعل منه فى الركوة وحرّكها وشرب. فجئت وسلّمت عليه وقلت: أطعمنى من فضل ما أنعم الله عليك! فقال : يا شقيق لم تزل نعم الله علينا ظاهرة وباطنة! فأحسنْ ظنّك بربّك! وناولنى الركوة فشربت منها سويقاً، ما شربتُ ألذّ ولا أطيب منه، وبقيت أياماً لا أشتهى طعاماً ولا شراباً. ثم رأيته بمكة وقد طاف ، وإذا له خدم وحشم وموالى يلقونه، وطافوا به يميناً وشمالاً، وانكفأ الناس يقبّلون أطرافه، فتعجبتُ وقلت: من هذا؟ قيل: هذا موسى الكاظم!

ولقّبوه بالعبد الصالح ، فكان يسهر ليله قائماً، ويقطع نهاره صائماً، وأسموه لفرط حلمه وتجاوزه كاظماً. وكان أهل العراق يعرفونه بباب الحوائج، لأنه ما خاب المتوسل به فى قضاء حاجة قطّ .

وللكاظم قبر يضعه مريدوه موضع التكريم، والصوفية يقيمون لأوليائهم القبور للزيارة، ويقولون إن دعوات المريدين مقبولة عندها، ويروى الغزالى عن الشافعى، أنه قال فى قبر الكاظم:

«قبر موسى الكاظم الترياق المجرَّب» يعنى الداعين عنده تُستجاب دعوتهم.

* * *

٣٠٤ - ابن منازل: الملامتى...

أبو محمد عبدالله بن محمد بن منازل، الملامتى، أو شيخ الملامتية بعد حمدون القصّار، قيل تلقّى عنه، والأغلب أنه كان من أكثر الرواة له، ذلك أن القصّار مات سنة ٢٧١ هـ، بينما كانت وفاة ابن منازل سنة ٣٢٩ هـ. وكان ابن منازل من المشتغلين بعلوم الظاهر، وكَتَب الحديث، واشتغل بالتصوف من بعد على طريقة القصّار، ونشر طريقة الملامتية فى التفكير والسلوك، وهو يؤكد فيما يقول على اجتناب الكِبْر والرياء ومجاهدة النفس والسلوك بالصدق. يقول: لا تحكى عن أحوال غيرك وإنما تناول أحوالك، والأولى أن لا تتكلم، وإذا انتحلت الفقر فليكن ذلك عن حقيقة، فلا خير فى الفقر إن لم يكن فضيلة.- يعنى أن الصوفى المتحقق هو الذى يخرج عن الدنيا وعن الخلق ويكون بالله ولله، فإذا استعان فليستعن بالله، وليتكسّب ولا يتكفّف ما استطاع؛ والملامتى هو الذى يعانى ذُلّ التكسب، ويُلزم نفسه ما يحتاج ولابد منه، وهو الذى لا يبتغى من سلوكه تعظيم الناس له، فإذا عظّموه خاف على نفسه واتهمها، وألزمها ذُلّ السؤال والانتضاع ليحتقره الناس، وإذا كان عليه أن يقاوم شيئاً فى نفسه فهو الميل إلى الوعظ، وأن يستشعر أنه العارف وغيره يجهلون، ومن يفعل ذلك فهو نفسه الجاهل، وأولى به أن يعظ نفسه وأن ينفعها بكلامه، وأن يشن عليها الحرب العوان ويساعد الناس عليها، فيستجلب عليها ما يستوجب لومها. ويضرب ابن منازل المثل بقول الله تعالى: ﴿الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْحَارِ﴾ (آل عمران ١٧) فيقول: إنه عزّ وجلّ ذكر أنواع العبادات ثم ختم المقامات كلها بالاستغفار، ليرى العبد تقصيره فى جميع أحواله وأفعاله فيستغفر منها. ويستشهد بسيرة الصوفى أبى علىّ الثقفى، المتوفى سنة ٣٢٨ هـ، ويقول إنه كان الواجب عليه أن يتكلم لنفسه لا للخلق، فالواعظ يُظهر من نفسه دعوى العبودية، ولكنه يضمر أوصاف الربوبية، وهو عاشق لنفسه ويعشق من يعشقها، ومن أجل ذلك يحب الظهور، وأن تصل إلى الناس كلماته، وكان الأولى به أن ينتفع هو نفسه بكلامه. ويقول ابن منازل: من دخل فى هذا الأمر، يقصد التصوف، بضعفٍ قوى فيه، ومن دخله بقوةٍ ضعفٍ افتُضِح.

* * *

٣٠٥- المناوى (عبدالرءوف)...

زين الدين محمد عبدالرءوف بن تاج العارفين، ابن علىّ بن زين العابدين، المناوى، القاهرى (٩٥٢هـ / ١٥٤٥م - ١٠٣١هـ ١٦٢٢/م)، له «الكواكب الدرية فى تراجم السادة الصوفية»، أخذ التصوف من جمع، وتلقّن الذِّكْر من عبدالوهاب الشعرانى، وتابع الخلوتية والبيرامية والشاذلية والنقشبندية، وأقبل على التأليف وانقطع له، فصنّف فى غالب العلوم، وَوَلِىَ التدريس فى المدرسة الصالحية، فورد عليه من كل مذهب فضلاؤه حتى كثر حاسدوه، ولم يخلُ من طاعن، فدسّوا له السم، فتوالى عليه بسبب ذلك نقص فى أطرافه وبدنه من كثرة التداوى، ولما عجز صار ولده تاج الدين يستملى منه التآليف ويسطرها، وهى كثيرة، قيل بلغت نحو الثمانين مصنفاً، وله شروح على «منازل السائرين» للهروى، و«حِكَم ابن عطاء الله السكندرى»، و«ترتيب الحِكَم للشيخ علىّ النقىّ»، سمّاه «فتْح الحِكَم» ولم يكمله، وشرحٌ على رسالة ابن سينا فى التصوّف، يشرح قصيدته العينية، وله شرح على «المواقف النفّرية» لم يكمل، وشرحٌ على رسالة الشيخ ابن علوان فى التصوف، وكتاب «الطالبين لمعرفة أسرار الطوّاعين».

ولما توفى دفن بجانب زاويته التى أنشأها بين زاوية سيدى أحمد الزاهد ومدين الأشمونى.

وقيل فى كتاب المناوى: «الكواكب» - وهو المشهور باسم «الطبقات الكبرى»، أو «طبقات المناوى» - إنه يتفوّق على طبقات السُّلَمى، وأبى سعيد النّقاش، وأبى العباس النسوى، وعبد الواحد الشيرزاى، وأبى نعيم الحافظ، وعبدالغفار القوصى. ويبدأها المناوى بمقدمة فى التصوف رداً على آراء المعتزلة، وتكلم عن كرامات الأولياء، ثم أتبع ذلك بثمانية أبواب من سيرة الرسول ﷺ ثم الخلفاء الراشدين، ويلى ذلك تراجم للصوفية، مُفرِداً طبقات كل قرن على حدة، حسب سِنّى وفاتهم، فكانت إحدى عشرة طبقة فى الجزء الأول، والباقى فى الجزء الثانى، فقارب ما ترجمه نحو الألف، وفرغ من تأليفه سنة ١٠١١ هـ، وبعد أن أتمّه وتداولوه فى حياته، اتجه تأليف تذييله وهو الطبقات الصغرى، المُسمّاة بأرغام أولياء الشيطان، وتمتاز عن الأولى باتساع القول فى إثبات كرامات الأولياء، وبأنه أكثر فيها من تراجم صوفية العجم والروم والحجاز واليمن والشام، بخلاف الأولى التى كان أغلب تراجمها لصوفية مصر. وصدّرها بمقدمة ذكر فيها

بعضاً من أصول علم التصوّف المهمة التى لا يُستغنَى عنها.

يقول المناوى: إن الله أفرد قلوب العارفين بحضرته، وشرح صدورهم لفهم سرائر القدرة، وفتح فيها لهبوط الملائكة الأبواب. واسم الله تعالى هو سيد الأسماء، يجمع به متفرقات الأمر والخلق، ويقيم به كل ظاهر، ويظهر به كل غائب.. والمناوى يقول بوحدة الوجود حيث «الكل فى الكل»، و«الله بيده ملكوت كل شئ»، وهو «بديع الكل وبارئه»، وهو «المطلق»، يظهر فى كل باطن وظاهر، واسمه «النور»، وبوجهه النور، وهو نور النور، ونسبة الوجود إليه نسبة لا شئ إلى لا شئ لا يتناهى. وهو أصنع الحكماء، وأحكم الصانعين، يظهر فى كل شئ ظهوراً مقدّساً عن التلبيس بالمحدثات، ويُوجد الكل بكاف الأمر، والكون رَقّه، والمُكوِّن أمره، والكائن خلقه، يصنع اللطف، ويجمع المتفرّقات، قد احتجب على الغير، وتلطفّ فى إيصال الخير، وأطلق أبناء الغفلات، وأعتق عبيد الطبع، وسرّح مساجين الحسّ، وحرّر أسارى الشهوات، وأجاب دعاء الداعين، فله الحمد، ومنه الفتح. ومع عظمة وسمو ما قال، فإنه خارج دائرة الإسلام لقوله بوحدة الوجود.

* * *

٣٠٦- ابن المنوّر (محمد)...

من أحفاد أبى سعيد بن أبى الخير، وأبوه هو أبو سعيد بن أبى طاهر، وله كتاب «أسرار التوحيد» صنّفه نحو سنة ٥٧٤ هـ، ويؤرِّخ فيه للشيخ أبى سعيد، ويذكر أحواله ورياضاته وحياته من الطفولة حتى وفاته، وأشهر الحكايات عنه، وكراماته ووصاياه، وهو بذلك يعتبر من أولى التصانيف التعليمية الفارسية فى تراجم الصوفية، وهو مرجع من المراجع الكبرى فى آداب المريدين والشيوخ والتقاليد الصوفية ومصطلحات القوم.

* * *

٣٠٧- المهدى (الإمام)...

محمد أحمد بن عبد الله (١٢٥٩ - ١٣٠٢هـ)، وشهرته «محمد المهدى»، لأنه ادّعى المهدية وتلقّب سنة ١٢٩٨ هـ بالمهدى المنتظر، وتصوفه من نوع «التصوف السياسى الإيجابى»، وتركيزه على فريضة الجهاد، وله رسالة يدعو فيها إلى تطهير البلاد من مفاسد الحكام، وأعوانه يُعرَفون بالدراويش، وقد حفظ القرآن وهو دون الثانية عشرة، ومات أبوه فكفله عمّه واشتغل معه فى تجارة السفن.

والمهدى من مواليد جزيرة ضرار بالسودان، وكانت هجرته مع والده إلى أمّ

درمان، ودرس الفقه فى مسجد ودّ عيسى بالجزيرة على يد الشيخ محمد الخير فى بربر، ثم تصوّف وأخذ الطريقة السَمّانية على يد الشيخ محمد شريف ثم الشيخ القرشى فى الحصاحيصا. ويفخر الغُبّش بأن المهدى تخرّج من مدارسهم، وفى المدة التى أقام فيها بين الغُبّش كانت له خَلوة بناها له عبدالماجد محمد الغبشاوى ابن أخ الشيخ محمد الخير.

وللتصّوف تاريخ كبير فى السودان، وخاصةً الطرق الصوفية، ومن ذلك الطريقة القادرية، والطريقة القادرية السَّمانية وشيخها هو محمد شريف نور أستاذ المهدى، وهو ابن السيد نور الدايم بن السيد أحمد الطيّب ودّ البشير من أهل المدينة المنورة، وإليه يُعزَى دخول الطريقة السمانية للسودان.

وكانت للتصوف رسالة تثقيفية فى السودان، وربما كانت المساجد التى يبنيها الصوفية هى منارات العلم الوحيدة فى وقت من الأوقات. والمجاذيب فى بربر كانوا منارة يُهتَدى بها فى التصوف، وكانوا على الطريقة الشاذلية. والطريقة الختمية كان دعاتها يجوبون السودان مبشّرين، ومن الختمية تفرعت الإسماعيلية على يد إسماعيل الولى الذى أخذ الطريقة على محمد عثمان الميرغنى. والطريقة التيجانية، اشتهر أتباعها بالصلابة فى الجهاد. وعموماً فإن التصوف بحكم الأحوال الاجتماعية والثقافية، وبحكم وجود الاستعمار، كان لابد أن يتجه أصحابه به إلى الجهاد، وذلك ما حدث مع السنوسية فى ليبيا، ونفس الشئ دعت إليه المهدية، ومثلما اضطر السنوسى إلى تعليم مريديه فنون الفروسية والقتال، فإن المهدى قاد ثورة على الجهل والظلم والاستعمار والفساد، فكان تصوّفه من نوع التصّوف الإيجابى، واتخذ اتباعه هتافهم «لا إله إلا الله، والله أكبر ولله الحمد»، وأرسل الرسائل بذلك إلى الخليفة فى تركيا لطرد الإفرنج من بلاد المسلمين، وإلى خديوى مصر، واتصل بأهل الشام، وعيّن لهم من يقودهم، واتصل بقبائل فاس ونجد والسنوسية والمدينة، يدعوهم إلى الثورة، غير أنه أصيب بالجدرى ومات فى أم درمان، وجمعوا ما وُجد من كتاباته فى كتاب اسمه «مجموع المناشير». وكانت البيعة التى يأخذ بها مريديه هكذا: «بايعنا الله ورسوله، وبايعناك على طاعة الله، وأن لا نسرق ولا نزنى، ولا نأتى بهتاناً نفتريه، ولا نعصيك فى أمر بمعروف ونهى عن منكر. بايعناك على الزهد بالدنيا وتركها،

وأن لا نفر من الجهاد، رغبةً فيما عند الله».
وهو نصٌّ يوجز طريقة المهدى فى التصوف، ويربطها بطرق السلف أو الطريقة المحمدية الجامعة، وأخص أركانها الجهاد.

* * *

٣٠٨- مؤيد الدين الجندى...

من تلاميذ الشيخ صدر الدين القونوى المتوفى سنة ٦٧٣هـ، وله المصنفات فى التصوف، ومنها «شرح نصوص الحِكَم» و«مواقع النجوم» للشيخ محيى الدين ابن عربى. ويقول الجامى: إن للجندى أشعار لطيفة على طريقة ابن الفارض فى بيان الحقائق والمعارف، ومن جملتها هذان البيتان أوردهما الشيخ فخر الدين العراقى فى كتابه اللمعات:

البحر بحر على ما كان فى القِدَم
إنّ الحوادث أمواج وأنهار
لا تحجبنّك أشكال تشاكلها
عمّن تشكّل فيها وهى أستار

والبيتان يجمعان فلسفته فى التصوف، وله بيت ثالث أبلغ من ذلك فى وحدة الوجود:

هو الواحد الموجود فى الكل وحده
سوى أنه فى الوهم سُمِّىَ سِوَى

ونظم قصيدة جواباً على القصيدة التائية الفارضية وفيها:

فما انفكّ يرضانى بكل محبة
ومازلتُ أهواه بكل مودة
فممتنعٌ عنه انفصالى واجبٌ
وصالى بلا إمكان بعد قربة

* * *

٣٠٩- مورينو...

مارتينو مورينو **Moreno**، مستشرق إيطالى ولد سنة ١٨٩٢م، كان شديد الاهتمام بالتصوّف الإسلامى، وله بحوث فى الإسلام، وترجمات للقرآن، وكُتب فى «خصائص الثقافة العربية»، و«التصوف العربى والتصوف الهندى»، وهو بحث مقارن نشره فى حوليات لاتران سنة ١٩٤٦، و«مختارات من التصوف العربى والفارسى» صدر بباريس سنة ١٩٥١.
ومن دأب مورينو: الانحياز والتحامل على الإسلام، وأن ينسب التصوف إلى أصول غير إسلامية، وقد اعتدنا ذلك من المستشرقين، فقلما نجد عندهم الموضوعية. ومقارنات مورينو فى التصوّف غير دقيقة وسطحية.

* * *

٣١٠- الميرغنى (الختمى)...

محمد عثمان الميرغنى (١٢٠٨ ـ ١٢٦٨

هـ) مؤسس طريقة الختمية التى قيل فيها أنها أكبر الطرق الصوفية شأناً في السودان، فليس فيها ما يضاهيها سعة نفوذ وعدد مريدين، وكان لها أكبرالأثر فى تاريخ السودان الفكرى والسياسى والاجتماعى.

والطريقة الختمية كما يقول مؤسسها جُماع خمس طرق هى: النقشبندية، والقادرية، والشاذلية، والجنيدية ،وطريقة الميرغنية التى كانت لجدّه عبد الله الميرغنى، المشهور بالمحجوب. والميرغنى أول من اشتهر من أسرته، وكانت ولادته بالطائف، وتعلّم بمكة، وتاقت نفسه إلى حياة التصوف فأخذ يتنقل بين الطرق الصوفية إلى أن استقرت به العناية إلى شيخه أحمد بن إدريس.

ومدرسة الميرغنى من «مدارس التصوف السُّنّى الإيجابية» التى اهتمت بالدعوة إلى الإسلام والتزام الكتاب والسُّنّة والأخذ عن السلف، وقد سافر الميرغنى بإشارة من أستاذه أحمد بن إدريس إلى مصر، وأقام فترة بقرية الزينية، ثم غادرها إلى السودان سالكاً طريق النيل حتى دنقلة، ومنها اتجه إلى كردفان ووصل الأبيّض، فأسس بها مسجداً، وتتلمذ عليه كثيرون، وأخذ عليه العهد علماؤها، واتجه إلى بارا، وتزوج إحدى سليلات بيوت العلم، فأولدها ابنه محمد الحسن الميرغنى، وسافر إلى سنّار، ثم شندى فأسس بها مسجداً، واتجه إلى الشرق إلى جبال التاكة، وأنشأ قرية السنية التى تعرف الآن باسم الختمية، وأسس بها مسجداً، وزار سواكن وأسس بها ثلاثة مساجد ومدرسة لتعليم المرأة هى الأولى من نوعها فى السودان. وكان للمساجد والزوايا التى ينشئها هو وأتباعه فضل اجتماع أبناء الختمية والطرق الصوفية الأخرى، ومقاومتهم للحكم الأجنبى، والاتجاه بالسودان نحو الإسلام والعروبة. وسافر الميرغنى إلى الحبشة وأرتريا، فاستقبلته قبائلها العربية بالحفاوة، وأخذوا عنه الطريقة، ودعا القبائل الوثنية إلى الإسلام فاعتنقه منها فى شهور قليلة عشرات الألوف من الرجال والنساء. وللميرغنى مؤلفات بلغت الثلاثين مؤلفاً، منها: «تاج التفاسير لكلام الملك الكبير»، و«المدائح النبوية فى المدائح المصطفوية».

وتصوف الميرغنى من نوع التصوف الذى يكثر فيه السالكون من الصلاة على النبىّ، وفى كتابه المسمَّى «فتح الرسول»، ويُعرَف بالصلاة الميرغنية، يقول إن طريقته هى: طريقة القطب النبوى السيد أحمد البدوى، والهيكل الربّانى عبدالقادر الجيلانى، والقطب الرفاعى، والقطب

الحقيقي إبراهيم الدسوقي، ومحيي النفوس السيد العيدروس، وأقطاب آخرين من حضرموت ومن غيرها، كالسيد المتبولي، وعبدالسلام بن مشيش، وأحمد بن إدريس، والبكري.

ويقول الميرغني: أن التعلّق بالذات المحمدية والصلاة عليها أقرب الطرق إلى حضرة الله العلية؛ وأن حُبّ النبيّ في السويداء، وأنه يقف بين يدىّ المصطفى ويستأذنه فيأذن له». ومن الصفات التي يجعلها للنبيّ في صلواته عليه وضمن طريقته أنه ﷺ: حبيب الله، وصفوة الله، وعبد الله، ومحبوب الحضرات الإلهية، ورئيس ديوان الكبرياء، وإمام أهل بساط القُرب، ذو الجمال المحبوب لأهل الحب، وجبل قاف (لا أعرف ماذا يعني بجبل قاف)، عظمة التجليات، وبحر محيط أسرار الصفات، ووسيلة آدم والخليل، وواسطة موسى ونوح، وعمدّ عيسى وداود ، وخزانة عطاء الملائكة، ووليّ الخزانة لكل الكائنات، والطبيب الشافي والغيّاث الكافي، باطن العلوم القرآنية، الفائض نور بيت الأنوار الإلهية».

وعبد الله الميرغني الجدّ، والد أبي محمد عثمان الميرغني، توفي سنة ١٢٠٧هـ، وطريقته تجمع بين الشريعة والحقيقة، وكانت نشأته بمكة وَوُلد بها، ودرس في المسجد الحرام وظهر فيه، وانتهت إليه الرئاسة، وكان عمدة المحدّثين في عصره، وصحب عمر البار، وعلي الأهدل، وتخرج عليه حسين ابن عبد الشكور من أهل المدينة، وله ديوان مدَحَ به شيخه يقول فيه:

كيف ترقى رقيك الأولياء

والمراقى لها إليك ارتقاء

أنت من نور مَن قبل فيه

يا سماء ما طاولتها سماء

وطريقة الميرغني طريقة محمدية كذلك، وله «ديوان العقد المنظم» أو «عقد الجواهر في نظم المفاخر»، يقول في مدح النبيّ ﷺ:

أنت شمس الوجود والأنبياء

بلا نجم له السناء والسناء

وبك العلم والمعالم طُرّاً

وجميع الرسوم والأسماء

وبك الذات والصفات جميعاً

والشئون العلى وذاك الثناء

وبك الكون والمظاهر كلا

والمجالى التي بهن الضياء

وبك الله قد بدا من عماء

وبك الختم حُسنه وابتداء

فإذا كنت أصل كل ظهور
كيف ترقى رقيك الأنبياء
إنما أنت مفرد ومثنى
وجموعٌ وكلُّ غيرك هاء

وكلامه شبيه بكلام فلاسفة المتصوفة القائلين بالحقيقة المحمدية، ولا يستقيم مع ما قاله القرآن فى النبىّ ﷺ : ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾(الكهف ١١٠)، ﴿سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾ (الإسراء ٩٣)، وأكد عبوديته ﷺ فى آيات مثل: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا﴾ (الإسراء ١)، و﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ﴾ (الكهف ١). ولكن الميرغنى جعله مَلَكاً، وله التصرّف فى أراضى الله فى الأرض، وأيضاً فى السماء، وقال عنه كما جاء من قبل أنه «باطن العلوم القرآنية»، «والطبيب الشافى»، و«وَلِىّ الخزانة لكل الكائنات» إلى آخر هذا الزيغ، وهو أمر عجيب. ويسمّى الرسول واحد الدهر. يقول:

ربَّ إنا بواحد الدهر ندعو
ونروم العلا ومنك العطاء

ويقول :

ولك الملك والتصرف دوماً
فى أراضى الإله ثم السماء!

وأصل تسمية الميرغنية ـ كما يقولون ـ أن الاسم كان لجدّهم السادس لأول مرة، وهو تحريف من «أمير غنى» الفارسية بمعنى الشريف الغنى، خُفّفت وصارت لقباً لأعقابه.

* * *

٣١١ - الميقاتى (عبد الخالق)...

مصرى، له الباع الطويل فى علم المعقولات، وعلم الهيئة، وعلم التصوف، وكان تلاميذه يحضرونه ليلة الجمعة، يتذاكرون عنده فى أحوال الطريقة إلى الصباح، وكان لا يعجبه أحدٌ من متصوفة زمانه ويقول : لا ينبغى لأحد أن يتظاهر بطريق القوم، إلا إن صدق فى طريقهم" ـ وكان يكره لبس الزىّ ويقول : ليست الطريق بمثل ذلك، وإنما كان السلف يلبسون الصوف والمرقعات لقلة الحلال المناسب لمقامهم"، ثم يقول : وماذا يعنى لبس مئزر الصوف والجبةَ، وصاحبها ينام الليل، ويفطر النهار، ولو أنه عكس الأمر لكان خيراً له؟! ـ ولم يذكر لنا أحد متى كان ميلاد الميقاتى، ولا متى كانت وفاته. ولا ندرى محل ميلاده ومحل دفنه.

* * *



٣١٢- النابلسى (عبدالغنى)...

عبدالغنى بن إسماعيل بن عبدالغنى، وشهرته النابلسى، كان حنفياً دمشقياً نقشبندياً قادرياً، ولد سنة ١٠٥٠ هـ، وقيل بلغت مؤلفاته ١٨٨ مؤلفاً، منها: «الحديقة الندية فى شرح الطريقة المحمدية»؛ و«جواهر النصوص فى حلّ كلمات الفصوص»، عن كتاب الفصوص للشيخ محيى الدين بن عربى؛ و«كشف السِّر الغامض فى شرح ديوان ابن الفارض»؛ و«زهر الحديقة فى ترجمة رجال الطريقة»؛ و«إيضاح المقصود فى معنى وحدة الوجود»؛ و«مفتاح المعية فى شرح الرسالة النقشبندية»؛ و«تحقيق الذوق والرشف فى معنى المخالفة بين أهل الكشف»؛ و«النظر فى معنى قول ابن الفارض عرفت أم لم تعرف»؛ و«السِّر المختبى فى ضريح ابن العربى»؛ و«الفتوحات المدنية فى الحضرات المحمدية»؛ و«ردّ المتين على منتقص العارف محيى الدين»؛ و«الفتح الربّانى والفيْض الرحمانى»؛ و«الصراط المثنوى فى شرح ديباجات المثنوى»، و«بداية المريد ونهاية السعيد»، و«العقود اللؤلؤية فى طريقة السادة المولوية» ألخ.

وكان النابلسى شارحاً فخيماً للطرق الصوفية فى وقته، وأدمن قراءة ابن عربى، وله المدافعات الجليلة فيه وعن مذهبه فى وحدة الوجود، وله لطائف فى تفسير شطحات الحلاج والبسطامى وابن الفارض والعطّار، واشتهر كتابه «تعطير الأنام فى تفسير الأحلام» الذى ذهب فيه مذهب تأويل الرؤى بالإشراقات والمكاشفات على طريقة الصوفية. ويقول الدكتور زكى مبارك فيه ـ أى فى النابلسى إنه كان موصول العهد بأسرة البكرى بالقاهرة، ويدل على ذلك اهتمامه بتخميس وتشطير ما أُثر من أبيات الشيخ محمد البكرى، ولذلك شواهد فى ديوانه «الحقائق ومجموع الرقائق». ـ واتصاله بأسرة البكرى يفسر وجود المواويل التى تغلب عليها العامية المصرية بين شعره، والتى ينشدها المنشدون فى حلقات الذِّكر، ومنها:

يا أُمّة العشق فوزوا بالبصر والسمع
قوموا اتركوا الفَرق عنكم واقبلوا الجمع
نور الشموع الذى يلمع عليكم لَمع
من حرقة القلب قد سالت دموع الشمع

ومنها:

قوموا بنا كلنا نخرج حجاب الطبع
ونتبع ياجماعة ما أتى فى الشرع
حتى نشاهد جمال الله بلمع لَمْع
ولا وجود لنا وهو الوجود الجمع

ومنها:

حبيبنا فى بديع الحسن حيرنا
بين الحياة وبين الموت خيّرنا
حكم علينا وبالهجران غيّرنا
وبعد هذا بسوء الحال عيّرنا

وهى مواويل كما ترى، تستقى من التعابير العامية المصرية.

وكان للنابلسى فضل إذاعة المعانى الطريفة بين المريدين، وهو صاحب الأنشودة العامية المشهورة والرائعة «الساقى»:

ساقى ياساقى
إسقينى من خمره الباقى
واكشف لى عن قيد إطلاقى
آه يا ساقى، آه ياساقى
أستاره راحت
عن عينى، والزهرة فاحت
والسكرة بالأسرار باحت
آه يا ساقى، آه ياساقى
اكشف لى عنّك
فى ذاتى وافنح لى دنّك
واجعلنى يا حبّى إنّك
آه يا ساقى، آه ياساقى
افتح لى باب الحان
واسمعنى من طيّب الألحان
وارشفنى من كاسى الملآن
آه يا ساقى، آه ياساقى
من يشرب بسكر
من خمرى لما يتفكر
والمغرور فى علمه أنكر
آه يا ساقى، آه ياساقى
لا يعرف أمرى
إلا من يشرب خمرى
أحشاؤه تصلَى فى جمرى
آه يا ساقى، آه ياساقى

ويقسم النابلسى ديوانه أربعة أقسام، الأول: فى صريح المواجيد الإلهية والتجلّيات الرّبانية والفتوحات الأقدسية؛ والثانى: نفحة فى مَدْحة الرسول؛ والثالث: فى رياض المدائح وحياض المنائح ونفحات المراسلات ونسمات المساجلات؛ والرابع: فى خمرة بابل وغناء البلابل.

ويعدّ النابلسي من أقطاب شعراء الصوفية ـ وإن كان لا يستطيع اللحاق بابن الفارض، وهو في أغراضه أوضح من ابن عربي، كما أنه في أشعاره أقرب إلى البيئات الشعبية، ولا يخرج عن دائرة التصوف إلا قليلاً. ويبدو أن النابلسي مع ذلك قد لقي العَنَت في دعوته، حيث قيل إن أهل دمشق أنكروه كثيراً وآذوه، فصارت تعتريه السوداء (أي الاكتئاب) ـ وهي من أخطر الذُهانات العقلية، وتداعى لها بالمرض سنة ١١٤٣ هـ.

وهذه النزعة السوداوية بدأت معه من صغره، وكانت تغيّر في شخصيته، حتى كان يعتريه الجَذْب، ومن ثم مهاجمة النقّاد، إلا أنه عموماً كان يأخذ بالأسباب والنتائج، والجزء والكل، والإفراد والتركيب، ويقول: إن العقلانية والأخذ بالأسباب هي طريقة التصوف، وكلاهما من السُنّة، فلابد لحصول كل مطلوب لأحد من الناس من تقدّم السبب. ويقول النابلسي عن علوم الصوفية: إنها علوم أحوال، والأحوال مواريث الأعمال، ولايرث الأحوال إلا من صحّح الأعمال، وأول تصحيح الأعمال معرفة علومها. والصوفي في فلسفة النابلسي: يشتغل باستعمال علمه، ويعمل بما علم، ووراء ذلك علوم الخواطر والمشاهدات والمكاشفات، وعالم الإشارة مما تفردّ به الصوفية، المعتقدون بوجود الله قبل وجود عالم المحسوسات والمعقولات، فهو تعالى: الحق القديم الأزلي والأبدي، وهومنزّهٌ عن كل محسوس وكل معقول أولاً وأخيراً. ويقول النابلسي: إن جميع أعمال العوالم كلها هي أعمال لله تعالى حقيقةً. والله هو العامل لها، ولكنه يحكم بنسبة تلك الأعمال إلى من أظهرها عليه نسبةً مجازية، وجعل عليها الثواب والعقاب.

ويقول النابلسي في وحدة الوجود: إن العوالم كلها بأنواعها وأجناسها وأشخاصها موجودة من العدم بوجود الله تعالى، لا بنفسها، محفوظ عليها الوجود في كل لمحة بوجود الله تعالى لا بنفسها، وإذا كانت كذلك فوجودها الذي هي موجودةٌ به في كل لمحة هو وجود الله تعالى، لا بوجود آخر غير وجوده تعالى. والأزل والأبدي في حقه تعالى سواء. والأزلي هو الأبدي. وأصول وحدة الوجود في القرآن بالآية: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ (البقرة ١١٥) فعمّم في المواضع والأشخاص بقوله ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا﴾، وخصّص في قوله: ﴿فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾، فكل ما يشعر به عقل أو حسّ فإنه مظهر لوجه الله، والمظاهر

كثيرة والوجه واحد، وكثرة المظاهر لا تنافى وحدة الوجه، كما أن وحدة الوجه لا تمنع كثرة المظاهر.

ويرى النابلسى أن فى القول بالفناء دليل على وحدة الوجود، لأن الغيبة عن الأشياء بالفناء هى دليل على أنه لا موجود إلا الله، والغائب بالفناء يشهد الأشياء كلها قائمة بالله حتى يصحو من سُكره. يعنى أننا حيال النابلسى نعثر على حالة أخرى من حالات الخروج عن دائرة الإسلام.

* * *

٣١٣- نجيب محفوظ (الروائى الصوفى)...

الكاتب الروائى نجيب محفوظ له رأى فى التصوّف، وهو من المفكرين من أصحاب الدعاوى الروحية، وحصل على جائزة نوبل سنة ١٩٨٨م، وكانت دراساته الجامعية فى الفلسفة، وتوجّه شغفه فيها إلى التصوف وجمالياته، وكانت له محاولات لدراسة الماجستير فيه تحت إشراف الفيلسوف الصوفى مصطفى عبد الرازق، وعنده أن التصوّف هو أعلى درجات الفلسفة الإسلامية، وهو من علوم الميتافيزيقا، وأرسطو جعل الميتافيزيقا أشرف العلوم. وقد يقابل البعض بين الفلسفة والتصوف، باعتبار الفلسفة من مجالات العقل، بينما التصوف أداته الوجدان، ولكن محفوظ لا يجعلهما متقابلين، ويوحّد بينهما متآزرين، فالفلسفة والتصوف شقّان متكاملان، وما ينقص العقل يكمله الوجدان، وما ينقص الوجدان يُكمله العقل. وربما نقابل بين الفلسفة والتصوف كالمقابلة بين العقل والروح، والفلاسفة الأوائل جميعهم كانوا عقليين روحيين، مثل: أفلاطون، وأفلوطين، وابن سينا، والفارابى. وقد تكون الفلسفة طريقاً أكيداً إلى الحقيقة، ومتصوفة المسلمين جعلوا الطريق إليها بالتصوف، ونجيب محفوظ جعله بالفلسفة والتصوّف معاً، وتصوف نجيب محفوظ تصوف فلسفى. وربما ينصرف معنى التصوّف عند البعض إلى تغييب الوعى، وتصوف نجيب محفوظ هو التصوف الواعى الذى يبحث فى التجربة الإنسانية عمّا بداخلها من قيم عالية، ويقتضى ذلك تنبيه الوعى لا تغييبه. ونجيب محفوظ ككاتب روائى مهتم بالتجربة الإنسانية فى مجملها، وفى كوُنيتها، وهى موضوع رواياته، وخاصة ما كان منها فلسفياً مثل: «أولاد حارتنا»، وسيرته الذاتية. والتصوف عنده هو: سلوك، واستشراف، ورؤية، وهو يتعشّقه: كمنهج، وكحالة شعورية، ومعايشة

فكرية، وكعلم ذوقي وطقوس احتفالية. والحكمة عند نجيب محفوظ عملية ونظرية، فأما العملية فهي العقلية التي تتصلح بها الخبرات اليومية، وأما النظرية أو الروحية أو الذوقية، فهي الرؤية الشاملة للحياة والكون؛ والعملية: حكمة تفكيكية وتفصيلية؛ والذوقية: حكمة بنائية تنسيقية وتوحيدية، والمبدأ الحاكم في الأولى هو العقل، وفي الثانية هو المحبة، ونجيب محفوظ على مبدأ التأليف بين الأجزاء، ودفع الذرات إلى بعضها البعض لتكوين كليّات، والقوة الدافعة لهذه التوليفات هي المحبة كمبدأ عام للحياة، يتجاوز عالم العقل والحسّ إلى عوالم الروحانيات. ويمتزج العقل والحسّ مع الروح في عالم نجيب محفوظ، وبدلاً من أن ينصهر الكل في حالة الفناء الصوفي، فإن شخصيات نجيب محفوظ يتحصّل لها وعي صوفي بالحياة ككل، وتعي كل شخصية ذاتها كأداة، وتنخرط في العالم، وتصبح لها اهتماماتها به التي تتحقق بها هويتها، وتتحدد بها انتماءاتها. وقد تتصرف الشخصية بثورية، لأنها تريد أن تغيّر العالم للأحسن وتصنع منه عالماً جديداً وجديراً أن يعاش. ونجيب محفوظ صوفي بالمعنى الإيجابي للتصوّف، والمبدءان الحاكمان في تصوّفه هما: الدعوة للخير، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهما مبدءان لا يمكن أن تنهض بهما إلا شخصية واعية مثقفة، ولهذا كانت شخصياته من هذا النمط المثقف الواعي من أنماط الشخصية المصرية من الطبقة الوسطى من طبقات السُّلَّم الاجتماعي المصري. والتصوف عنده: جهاد وتحصيل وترقٍ. وأدب نجيب محفوظ أدب تمرد، ويحفل بالانتصار ضد الظلم الاجتماعي، وقد تستشعر الشخصية ظلماً من نوع آخر، هو: الظلم الميتافيزيقي، والصوفي من هذا النوع الثوري الميتافيزيقي، في حوار دائم مع الله، وإرادة التغيير عنده تتوجه إلى القوانين الكونية، وهذه القوانين تنعكس بصورة مباشرة على القوانين الاجتماعية، ولا تملك الشخصية الصوفية عند نجيب محفوظ إلا أن تصطدم بالسلطة في المجتمع، وبالشخصيات السلطوية، ولا اختلاف البتة بين الوصف الذي يأتي به نجيب محفوظ لشخصية صوفية، وبين الوصف الذي نعثر عليه للشخصية الصوفية عموماً عند القشيري أو السُّلَمي، والمتصوف عموماً له نفس السمات والدوافع سواء كان صوفياً على الحقيقة أو صوفياً يعيش ضمن ما يرويه نجيب محفوظ من قصص وروايات.

* * *

٣١٤ - النخشبي (أبو تراب)...

عسكر بن حصين، إمام المتجرّدين، ولذلك كنّوه أبا تراب، وأما النخشبي فنسبةٌ إلى نَخْشَب مسقط رأسه من بلاد خراسان، وكان يقول: الفقير قُوتُه ما وجد، ولباسه ما ستر، ومسكنه حيث نزل. وكان يفضل لو يسف التراب على أن يتكفّف، ويحذر مريديه: مَن لبس منكم مرقعة فقد سأل (يعنى أنه بها يظهر حاله وكأنه بها يتسوّل)، ومن قعد فى خانقاه أو مسجد فقد سأل، ومن قرأ القرآن من مصحف كيما يُسمع الناس فقد سأل. ولذلك فقد نظر أبو تراب تلميذاً له يوماً أضناه الجوع، ولم يكن قد ذاق الطعام لمدة ثلاثة أيام، فمدّ يده يتناول قشرة بطيخ، فنهاه وصرفه قائلاً: أنت لا يصلح لك التصوّف؟!

وأبو تراب من الجَوْعَى، وهو أحد أسماء الصوفية، فهم الجوعية؛ والتصوف عنده هو الاستغناء عن كل الناس، فلا يشكو الفقير إلا لله، وتوكله دائماً على الله، ولذلك قالوا عن أبى تراب أنه أحد أئمة التوكل.

والفقير (أى الصوفى) فى مذهبه: لا ينبغى له أن يضيف إلى نفسه شيئاً من المال، فأخوف ما يُخاف عليه من النِّعَم، وإذا تواترت النعم عليه فأولى به أن يبكى على نفسه، لأنها تسلك به فى غير طريق الصالحين. وأنفع العبادات له التوكل وأن يُصلح خواطر قلبه، فالله هو خالقنا وعليه رزقنا، وهو الذى يحيينا ويميتنا، ومن يستفتح أبواب المعاشر بغير «مفاتيح الأقدار» وُكِلَ إلى حَوْله وقوته. و«مفاتيح الأقدار» التى يقول بها أبو تراب أهمها وعُمدتها: الرضا والقناعة بما يرد على العبد فى كل وقت من أسباب الغيب. وهو يعرّف القناعة: بأنها أخذ القوت من الله تعالى؛ ويقول عن التوكل: إنه طمأنينة القلب إلى الله.

وأبو تراب صحب حاتماً الأصم ولذلك فأبو تراب يروى كثيراً عن حاتم، كما أن أبا عبد الله بن الجلاّء صحب أبا تراب وروى عنه. وروى عنه الجلاّء: أن من شروط الأستاذ المعلم فى التصوف أربعة أشياء، هى: أولاً تمييز فعل الله عن فعل الخلْق؛ ثم معرفة مقامات الأعمال؛ وثالثاً معرفة الطبائع والنفوس؛ ورابعاً تمييز الخلاف من الاختلاف.

وأبو تراب على عكس المعروف عن الصوفية، لا ينصح المريدين بالأسفار، وهو يقول: لا أعلم شيئاً أضرّ عليهم من أسفارهم على متابعة قلوبهم ونفوسهم، وما فسد مَن فسد من المريدين إلا بالأسفار

الباطلة. وكان أصحابه كُثراً حتى أن ابن الفرحي قال: إنه رأى منهم حوله في إحدى اللقاءات مائة وعشرين! ومنهم: حمدون القصّار، وأبو الفوارس الكرماني، وأبو عبيد البُسري. وكان إذا رأى منهم ما يكره، يزيد في اجتهاده، ويجدد توبته، ويعتذر عن أخطائهم، ويقول: إنهم دُفعوا بشؤمي إلى ما دُفعوا إليه. ومع ذلك فلما مات كان وحده بالبادية فنهشته السباع سنة ٢٤٥هـ/ ٨٥٩م.

* * *

٣١٥- نظامي الجنجوي...

أبو محمد إلياس يوسف بن زكي مؤيد، وتخلصه الذي عُرف به في الشعر هو «نظامي»، عن لقبه «نظام الدين»، وله المثنوية الصوفية المشهورة «مخزن الأسرار».

ونظامي من شعراء الفرس النابهين، ولد في جنجة أو كنجة سنة ٥٣٥ هـ/ ١١٤٠م، وإليها يُنسَب، فيقال جنجوي أو كنجوي، وتوفي سنة ٥٩٩ هـ/ ١٢٠٢م، وشعره غزلي صوفي، ومنه منظومة «خسرو وشيرين» في سبعة آلاف بيت، و«ليلى والمجنون»، في أكثر من أربعة آلاف بيت. والمثنوية الأولى على طريقة سنائي في «حديقة الحقيقة»، وفيها المناجاة لله تعالى والكثير من الحمد له، ويتلو المقدمة موضوعات بعضها فقهي، وبعضها أخلاقي، يصوّرها الشاعر في شكل حكايات وأمثلة، ومن ذلك حكاية أنو شروان مع وزيره، حيث يمران على قرية خربة، ولا يعمّران فيها إلا على بومتين يتحادثان، فيسأل الملك وزيره عن مضمون حديثهما، فيقول الوزير إن أحد الطيرين قد خطب ابنة الآخر، وهما يحاولان الاتفاق على المهر، فيقول له: مهر ابنتي أن تترك هذه القرية لي وتبحث لك عن أخرى، فيقول له الآخر: اطمئن، فهذا الملك الذي يحكم هذه البقاع لو طال به العمر ستكون هناك قرى خربة كثيرة، وبدل القرية الخربة الواحدة ستكون لك مائة ألف غيرها !!

ويبدو أن نظامي كان يقصد من قصصه الشعري الغرامي تأكيد الفضائل، والدعوة إلى الحبّ الروحي، أو حبّ الله الدائم على حب الإنسان الفاني، وذلك ما نخلص إليه من منظومته خسرو وشيرين، فبعد أن يجتاز خسرو الصعاب، ويعاني الأهوال، ويعود منتصراً إلى حبيبته، تُحاك له كذبة تنطلي عليه، بأنها قد ماتت، فيموت بدوره كمداً، ويسلم روحه لله. ونفس الدرس نخلص إليه من «ليلى والمجنون»، ويتعبير نظامي: إن الدنيا لا تجني منها إلا

العناء، وقد عانت ليلى منها حتى توفاها الله، فأصابت المَلَك جُنّة؛ ونظامي يتخيلها في جَنّة إرَم، وفيها ينال المحرومون ما حُرِمُوا منه، وينهلوا من السعادة والهناء، وفي الجنة لا وَصَب ولا تَعَب، وإنما هناءٌ مقيم وسعادة أبدية، فإن الذي لا يتحصّل في دنياه على مناه، يتحصّله في أُخراه.

ويقول نظامي في منظومة «خسرو وشيرين»، في وصف جمال شيرين، وكلامه يذكّرنا بأوصاف جمال المحبوبات في «المزامير» اليهودية:

بنت حورية، بل هي قمر وملكة تحت حجابها
منوّرة في الليل كالبدر
سوداء العينين كماء الحياة
ممشوقة القامة كالنخيل الفضي

ويستمر في وصف ملامحها إلى أن يقول:

لا ترى لها اهتماماً بأي شخص بسبب دلالها
والصبا يكسو وجهها
وبوجهها غمازتان وبكل غمزة دلال
وذقنها كالتفاحة ونهدُها كرمانتين
وعلى النهد نَثَر وردُ البستان الدراهم
والغزال خفض عنقه تعظيماً لجمال عنقها
وغَسَل يديْها بدموع عينيه
وينبوع الشهد من عينيها الشبيهة بعيون الغزلان
يُلقي بالفرسان صارعي الأسود في الضياع كأنهم أرانب
ويراها ألف شخص في أحلامهم
ولا يرى أحد مثيلاً لشمسها ليلة

إلى أن يقول:

خرد سر كشته بر روى چو ماهش
دل وجان فتنه بر زلف سياهش
هنر فتنه شده بر چان پاكش
نبشته عهده عنبر بخاكش
رخش نسرين وبويش نيز نسرين
لبش شيرن ونامش نيز شيرين
شكر لفظان لبش را نوش خوانند
وليعهد مهين بانوش دانند
بريرويان كز آن كشور اميرند
همه در خدمتش فرمان بذيرند

يعني: العقل احتار من وجهها المنير كالقمر
والقلب والروح فتنا بذؤابتها السوداء
والفن افتتن بروحها الطاهرة
فكتب عهدة العنبر لترابها
ووجهها نسرين ورائحتها نسرين
وشفتها حلوة واسمها الحلوة شيرين

والشعراء يسمون شفتيها الشهد

ويرونها جديرة بمنصب الملكات

والأميرات ذوات الوجوه الملائكية

كلهن يرين أنفسهن فى خدمتها

* * *

٣١٦ - نعمة الله (الولى الشيعى)...

الصوفى العلوى، وميلاده بفارس سنة ٧٣١هـ/ ١٣٣٠م، وأبوه فى الأصل من حلب، وساح نعمة الله ولقى عبد الله اليافى فى مكة وتتلمذ عليه، وظل معه سبع سنوات حتى ظنوا أنه سيخلفه، ولكنه عاد إلى فارس واستقر فى ماهان من كرمان، وصار له مقام سام حتى أن مريديه كانوا يسجدون له، ويرون أنه المعنىّ بالآية : ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ﴾ (النحل ٨٣)! وطريقته فى التصوف يسمونها «النعمة اللهية»، وهى من طرق التصوّف السياسى عند الشيعة، وأمثالها عند السُّنّة السنوسية والمهدية إلخ، ولذلك كانت السلطات تتعقب نعمة الله وتطارده وتضيّق عليه. ويُذكَر أن حاكم سمرقند استدعاه وأمره بترك البلد لاستحالة أن يجتمع بها مَلِكان، وانتقل نعمة الله إلى سبز، وبنى بها بيتاً ومسجداً يمارس فيه طريقته، وعادت السلطة إلى مطاردته، فانتقل إلى جزيرة وسط النهر، وبنى عدداً من الخانقاوات فى كوينان وغيرها. ويبدو أن نعمة الله عاش ما يقرب من مائة سنة، ومات سنة ٨٣٤ هـ/ ١٤٣١م.

وتقوم فلسفته فى التصوّف على وحدة الوجود، وكان يعتقد فى سلاسل الأولياء، ويؤمن بالإنسان الكامل، واستقى فلسفته فى التصوف من نصوص «الحِكَم» لابن عربى، وفلسفتى الحلاج، وأبى يزيد البسطامى، وكان يجلّ هذا الأخير حتى ليقارنه بعلىّ بن أبى طالب، وكانت له عبارات يردّدها عن ابن سينا فى الإشارات، وعن نصير الدين الطوسى، وقطب الدين الشيرازى. وفى مذهبه الكثير من الفلسفة الحروفية، وفى ديوانه يكثر أن يردد أنه مظهر الله على الطريقة الحروفية.

وتتميز «النعمة اللهية» بالذِّكر، يمارسه المريدون جلوساً، يميلون يميناً ويساراً وقد وضعوا أيديهم اليمنى على ركبهم اليسرى، وأيديهم اليسرى على ركبهم اليمنى، ويقولون إنهم يفعلون ذلك حتى يمنعوا الواحد منهم أن يندمج فى الذكر فينهض للرقص أو يَختَلّ، أو يركُض، أو يُكثر الحركة، وهو ما يؤخذ دائماً على الصوفية، ويرددون أثناء ذلك «لا إله إلا

الله»، ويستعملون فى ذكرهم موسيقى الناى والدّفّ لاغير، ومن تقاليدهم قبل الشروع فى الذِّكر أن يسجدوا للشيخ نعمة الله!!

ومن علامات التحاق المريد بالطريقة أن يلبس الكسوة، ويضع على رأسه تاجاً من اللّبّاد من اثنتى عشرة شُقّة (بنج تَرْك)، إشارةً إلى أهل البيت من أصحاب الكساء، وبحسب عدد الأئمة، وكان نعمة الله يقول: إذا كنتَ محباً لآل البيت، فأنت مؤمن كامل لا مثيل لك»، وقال بإمامة علىّ وأولاده، ومأثرته قوله: بعد علىّ، أبناؤه الأحد عشر. ويقول: نعمة الله فى مكان رسول الله!!!!!

ويجمع نعمة الله كل المذاهب فى مذهبه، ويصفه بأنه «المذهب الجامع»، فهو «مظهر الله والعالم كله فى جملته». ونسب لنفسه أنه كان موجوداً منذ الأزل! وأنه معصوم! وكان يُنهى حَضَراتَه بالقول: نعمة الله الولىّ شيخنا، وهو تذكار محمد وعلىّ عندنا». وله رسالة فى «مناقب المهدى»، يعنى أنه كان يعتقد فى المهدية ويقول بها، وهى تأثير يهودى نصرانى. وكانت الحركة تضم إثنى عشر ألفاً من المريدين، ولاحظ العدد إثنى عشر، ونعمة الله كان من الإثنى عشرية، وكان يميل إلى التوسّع، وقد ضمّ إليه نقشبندية كرمان، والنقشبندية كان رئيسهم عبد الرحمن جامى، وأغاظ جامى انضمامهم إليه، فأسقط ترجمة نعمة الله من موسوعته الصوفية «نفحات الأنس»!! فهكذا كيد الصوفية لبعضهم البعض!. ولاحظ يا أخى فى الله، أن كل متصوفة الشيعة كانوا من غير دائرة الإسلام يعنى يقولون كلامًا يناقض القرآن والسُّنة، ولا يمكن مِن ثَمّ اعتبارهم من الصوفية المسلمين.

* * *

٣١٧ - أبو نُعَيْم الأصبهانى...

الحافظ أبو نُعَيْم أحمد بن عبد الله، الأصبهانى، الشافعى، صاحب الموسوعة الصوفية المشهورة «حلِيَة الأولياء وطبقات الأصفياء» فى عشرة أجزاء، كتبها لشرح ما أسماه بالتصوّف الصحيح، وأملاها من صدره بعد أن نيّف على الثمانين، وضمّنها زُهاء سبعمائة ترجمة. وكانت ولادته بأصفهان سنة ٣٣٦ هـ/ ٩٤٨م، ووفاته بها سنة ٤٣٠ هـ/ ١٠٣٨م وكان جدّه «محمد بن يوسف» من الصوفية المشهورين، وهو أول من أسلم من أجداده، ويذكره أبو نعيم فى الحلية، وأسماه: «عروس الزُّهاد». وكان والده من العلماء، وقد حرص على أن يلحق ابنه بكبار

المشايخ، مثل: جعفر الخُلدى، والأصمّ، منذ السادسة من عمره. ولقبه «الحافظ»، لأنه حفظ علم التصوف من الضياع وأرّخ للصوفية.

وأبو نُعَيم: قد يكون اسم ابنه نُعَيم؛ وقد يكون: وصفاً له بأن الله أنعم عليه بهذا العلم؛ ويقال أيضاً: أبو نَعيم كما فى قولهم رجلٌ نَعيم البال، أى مطمئن النفس، واطمئنان نفسه لأنه معلّم التصوّف وحكيم المتصوّفة؛ وكما فى قولهم: «سألته نُعَيم عين»، و«نُعْم عين»، أى إكراماً، فهو أبو نَعيم بالفتح أو نُعيمْ بالضم والسكون، يعنى المختص بهذا العلم أكرمه الله به. وهو أبو نَعيم: لأنه من الأبرار: ﴿إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾ (الانفطار ١٣)، أى فى نعمة العصمة وهم فى الدنيا، وغداً هم فى الكرامة والنعمة. وهو أبو نعيم: لأنه فى رَوْح الذِّكر، بما كَتَب وخَطّ من سيرة الصوفية، وبما أنس بهم فى خلوته. ـ وكل هذا التحليل لاسمه ـ لتكريمه، لأنه كرّم الصوفية بكتابه، فكرّمه كَتَبَة ومؤرخو الصوفية، بإغداق الألقاب الجميلة عليه.

ودَرَسَ أبو نعيم بالعراق والحجاز وخراسان، وكان يُعدّ طيلة أربعة عشر عاماً من خير الثقات فى الحديث، وإن لم يُدخله الخطيب البغدادى الذى عاصره، وياقوت، ضمن من ترجما لهم من المحدِّثين. ونشب الخلاف عنه بين الحنابلة والشافعية، ووجه إليه النقد الشديد أبو عبد الله بن مَنْده، مما تسبب فى أن يناله بعض الأذى بجسمه، وأن يتهجّم عليه الناس، وأخرجوه من جامع أصفهان، فدعا على من كان بالجامع وشارك فى العدوان عليه وإخراجه، وقيل إن سبكتكين غزا أصفهان وذبح الناس المجتمعين للصلاة فى الجامع، فنجا أبو نعيم، وكأن إخراجه كان لمصلحته، وعدّوا ذلك من كراماته!

ويقول أبو نعيم عن منهجه فى كتاب الحلية: أنه يورد الأسماء وقد اختار منها أعلام المتحققين والأئمة، بدءاً من قرن الصحابة فالتابعين وتابعيهم، ثم من يليهم، ممن عرف الأدلة وباشر الأحوال والطرائق، فيورد الأحاديث عنهم، وبعض كلامهم. ويقول أبو نعيم: إنه صنّف هذه الموسوعة وفى باله قدح القادحين، من المتنطعين، وأهل الدعاوى، والمتشبّهين، والفَسَقة، والإباحية، والحلولية، وليس ما يحلّ بهؤلاء من إنكار بقادح فى منقبة الأبرار من الصوفية. والمعيار الذى يحتكم إليه أبو نعيم فى اختياره لهذه الأسماء: هو ما يمكن أن يكون للصوفية المتحققين من

نعوت ظاهرة يُعرفون بها، وعدد هذه النعوت عنده نحو ثلاثة عشر نعتاً : فهم الصالحون العقلاء: الذين ينقاد لهم الصالحون والعقلاء مثلهم؛ والجلوس إليهم يفيد جلاّسهم براً وذكراً؛ وهم المسلمون من الفتن، والموقنون من المحن؛ المضرورون فى الأطعمة واللباس؛ والمبرورة أقسامهم؛ وليقينهم تنفلق الصخور وتنفتق البحور، وبإخلاصهم ينصرون؛ ولقد نظروا إلى باطن العاجلة فرفضوها، ووضعوا ظاهر بهجتها وزينتها، وصانوا أنفسهم أن يغتروا بالدنيا، ولم يبصروا منها سوى عظمة صانعها ومدبر أمورها، وشغفوا به وبودّه، وكلفوا بخطابه وعهده؛ فهم الأتقياء، والمخلصون؛ الحاكمون بالعدل، والباذلون للفضل؛ المنبسطون جهراً والمنقبضون سراً؛ الموفون بالطاعات، والموفون بالحقوق.

واسم التصوف عند أبو نعيم مشتق من الصفاء عند أهل الإشارات، وعند أهل اللغة: هناك أربعة احتمالات: فإما أنه مشتق من الصوفانة - وهى بَقلة صغيرة تنبت برياً، ويتقوّت بها الصوفية فى سياحاتهم، فعُرفوا بها لما اختُصّوا بها؛ وإما أنه اشتقاق من الصُّوفة - وهو اسم قبيلة عُرف أفرادها بخدمة الكعبة، وأنهم نذروا أنفسهم لهذه الرسالة، فكل من يفعل فعلهم صار منسوباً إليهم، فهو الصوفى؛ وإما أنه اشتقاق من الصوف المعروف على ظهور الضأن وهو لباس الصوفية لشدّة فقرهم؛ وإما أنه من صوفة القفا - وهى الشعرات النابتة فى القفا، بالنظر إلى أن هؤلاء القوم يطيلون شعورهم فتُرسَل على أقفيتهم، لقلّة اشتغالهم برسومهم، ولانشغالهم بالعبادة.

واسم التصوف يجمع فيه عشرة معان، هى: التقلّل من كل شئ من الدنيا عن التكاثر فيها؛ واعتماد القلب مع الله؛ والرغبة فى الطاعات؛ والصبر عن فقد الدنيا؛ والشُّغل بالله عن سائر الأشغال؛ والتمييز فى الأخذ عند وجود الشئ؛ والذِّكر الخفىّ عن جميع الأذكار؛ وتحقيق الإخلاص؛ واليقين؛ والسكون إلى الله عزّ وجل.

وكلام المتصوفة على ثلاثة أنواع: أولها إشاراتهم فى التوحيد؛ والثانى كلامهم فى المراد ومراتبه؛ والثالث كلامهم فى المريد وأحواله. ثم لكل نوع من الثلاثة مسائل فروع يكثر تعدادها: فأول أصولهم العرفان، ثم إحكام الخدمة، والمداومة عليها.

ومبانى المتصوفة المتحققة أركانها أربعة: معرفة الله تعالى، ومعرفة أسمائه وصفاته وأفعاله؛ ومعرفة النفوس وشرورها

ودواعيها؛ ومعرفة وساوس العدو ومكائده ومضاله؛ ومعرفة الدنيا وغرورها وتفنينها وتلوينها، وكيفية الاحتراز منها، والتجافي عنها.

ثم إلزام المتصوفة أنفسهم بعد توطئة هذه الأبنية: دوام المجاهدة، وشدة المكابدة، وحفظ الأوقات، واغتنام الطاعات، ومفارقة الراحات، والتلذذ بما أُيدوا به من المطالعات، وصيانة ما خُصّوا به من الكرامات.

وهم لم ينقطعوا عن المعاملات، ولا ركنوا إلى التأويلات، ولا رغبوا عن العلائق، ولهم الأحوال الشريفة والأخلاق اللطيفة، فالفرق يزعجهم، والقلق يهيجهم، وقد جعلوا حبّهم للحقّ، وفيه حياتهم وفناؤهم.

ويبدأ أبو نعيم كل فصل من فصول الموسوعة بعبارة «قال الشيخ» ويقصد نفسه. ويختلف كتابه عن الصوفية عن كتاب السُّلَمي «الطبقات»، أو كتُب ابن المُلقّن، والشعراني، والقُشَيْري، وغيرهم حيث أنه لم يقتصر على الأقوال بل ضمَّنه الحكايات. وقيل: إن أبا نعيم عندما انتهى من تأليفه سافر به إلى نيسابور، وعرضه هناك، فبيع بأربعمائة دينار. وهو مبلغٌ ضخمٌ جداً بحساب ذلك الزمن.

وكان أبو نعيم ثقةً في رواياته، فنقل عنه ابن الجوزي الكثير من المقتطفات في كتابه «صفوة الصفوة».

* * *

٣١٨ - نعيمي الحروفي...

كان تصوّفه سياسيًا وشيعيًا معًا، وجمع بين قُطبية الصوفية ومهدية الشيعة، وكان قد تَعلّم التَصوّف على أبيه وجدّه، وأطلق على نفسه اسم «نعيمي»، وكان يوقّع به على كتاباته؛ ولأنه وُلِدَ وعاش غالبًا في استراباذ، فقد أطلقوا عليه اسم الاستراباذي، وفي بداية حياته في فترة تحصيل التصوّف، كان لا يقرب الحرام، ولا يأكل إلا من طعامٍ من كسب يديه، فسمّوه حلال خور، يعني: المقتصر على الحلال؛ وكان يعيش من غزل الطواقي وبيعها، وما وافت سنة ٧٨٦هـ/ ١٣٨٤م حتى أعلن بين الصوفية أنه القُطب، وادّعى بين الشيعة أنه المهدي، وأمر أتباعه أن يلبسوا اللباس الأبيض على رءوسهم وأبدانهم، إشارةً إلى الكفن، وتذكيرًا بالموت، وطلباً للشهادة، وسعيًا وراء المجاهدة، وقال لأتباعه: أنهم قبله كانوا موتى، ولكنه أحياهم بدعوته وانصياعهم له لإنقاذ العالم؛ وقال: إنه خليفة الله كآدم وعيسى ومحمد، قد اجتمعت فيه مُثل

الصوفية، فكان الولّى الخاتم، وأطلق على مريديه اسم الغُرّ المحجّلين؛ وكان غُلوّه سببًا فى قتله وحَرْق جثته، وتَرَك فضل الله النعيمى ثلاثة كتب فى مذهبه الصوفى، هى: «جاودان نامه» - أى كتاب الخلود، و«محبة نامه»، و«عرف نامه»، والأخيران من كُتب الشعر فى المذهب الحروفى؛ وله عدد آخر من الكتب الصغيرة الأقل شأنًا: «جادوان صغير»، و«نونامه إلهى»، وبموته صار ولده «نورالله» خليفةً له، ورأس الطريقة، وسمّوه سلطان العُرفاء، فلما قُتل صارت المشيخة لأبى الحسن علىّ الأعلى، الذى سمّوه: القائم مقام فضل ربّ العالمين، وفى ذلك أن مريديه اعتبروه إلهًا، وهرب أبو الحسن إلى بلاد الروم، واستقر فى أناتوليا، واتّبع ظاهريًا الطريقة البكتاشية فى التصوّف، ولكنه كان يدرّس للناس الجاودان نامه سرًا. ويقوم التصوّف الحروفى: على التأويل الباطن لاسم الله الأعظم، الذى يتكوّن من فواتح سور القرآن، ومن المعانى الباطنة التى ترمز إليها الحروف المقطّعة فى أوائل بعض السور، تأويلاً يدل على الأمور الروحية التى تتنبأ بها، باعتبار القرآن فيه علْم كل شئ فى هذه الأحرف وأشكالها. والطريقة الحروفية: تجعل الحروف القرآنية جزءًا من العلم الصوفى السِّرّى، حتى صارت معالجة هذه الحروف من لوازم الصوفية فى أبحاثهم. وكان فَضْل الله الحروفى مؤسّس الطريقة، وقد لاحظ أن عبارة «فضل الله» تتردد فى القرآن كثيرًا، فرأى أن يسمّى نفسه «فضل الله»، فيصير هذا الاسم اسمه من وقت اعتناقه المذهب: فَضْل الله بن عبدالرحمن الحسينى. وتقوم فلسفته فى الحروف: على أن الألفاظ هى دائمًا مظهر المعانى، واللفظ يتقدّم المعنى، والتعبير عن المعانى بالحروف وأصواتها يظهر فى الحروف العربية، وعددها ثمانية وعشرون حرفًا، وفى الحروف الفارسية وعددها اثنان وثلاثون حرفاً، والتواصل بين الحروف فى اللغتين يَظهر فى الحرف التاسع والعشرين وهو اللام ألف، ويجمع فى حقيقته الحروف الفارسية الأربعة الزائدة على الحروف العربية، وهى پ، چ، ژ، گ، وبذلك تكون اللغة الفارسية مُفْسِّرة للغة العربية، ومن هنا بدأ الصوفية الحروفيون فى تطبيق العدد ٢٨ (عدد الحروف العربية)، والعدد ٣٢ (عدد الحروف الفارسية) على كل مظاهر العالم ظاهرًا وباطنًا.

والخلاصة: أن الحروفية تنتهى إلى أن تكون مذهبًا من مذاهب التصوف القائلة

بوحدة الوجود، والقائمة على الاعتقاد فى الاتحادية، بمعنى أن المتصوّفة من الحروفيين كانوا اتحاديين.

* * *

٣١٩ - النفرى: العارف بالله...

أبو عبد الله محمد بن عبد الله النِّفَرى، من نِفَر بين الكوفة والبصرة، ويُلقّب بالسكندرى، وبالمصرى، لأنه عاش فى مصر، وربما توفى بها. واشتهر بكتابيه: «المواقف»، و«المخاطبات»، وله فيهما الكلام العالى فى الطريقة، وكان من العلماء البارعين فى كل العلوم، ومات سنة ٣٥٤هـ (٩٦٥م).

وينسب كتاباه لحفيده محمد بن عبد الجبار النِّفَرى، لأنه الذى قام بترتيب الكتابين، وألّف بين فصوليهما أثناء حياته وبعد وفاته. وكان النفرى يُلقى مواقفه ومخاطباته، وابن أخيه يكتبها، ثم أخذ يُمليها على مريديه.

ومواقفه ومخاطباته تقوم على ما يسميه وقفات، يتوقف عندها وينعزل عن السِّوَى - أى كل ما سِوىَ الله، ويَفْنَى عن الأكوان إلا أحدية الله.

ولقد بدأ بالمواقف، اعتقاداً بأن الوقفة مع الله تعالى تتيح للسالك أن يرى ربّه بقلبه فى الحياة الدنيا، وطبيعى أنه بعد الوقفة تأتى المخاطبة، والمخاطبات على ذلك كانت التالية على المواقف.

ومن مواقفه: موقف الإسلام، يقول: أوقفنى الله عزّ وجلّ فى الإسلام، وقال لى: هو دينى فلا تتّبع سواه، فإنى لا أقبل. وقال لى: هو أن تُسلم لى ما أحكم لك، وما أحكم عليك. قلت: كيف أُسلم لك؟ قال: لا تعارضنى برأيك، ولا تطلب على حقّى عليك دليلاً من قِبَل نفسك، فإنّ نفسك لا تدلُّك على حقّى أبداً، ولا تلتزم حقّى طوعاً. وقلت: كيف لا أعارض؟ قال: تتّبع ولا تبتدع. قلت: كيف لا أطلب على حقّك دليلاً من قِبَل نفسى؟ قال: إذا قلت لك: إن هذا لك، تقول: هذا لى، وإذا قلتُ لك: إن هذا لى، تقول: إن هذا لك، فيكون أمرى لك هو مُخاطبك، وهو المستحق عليك، وهو دليلك، فتستدل به عليه، وتصل به إليه. قلت: فكيف اتبّع؟ قال: تسمع قولى، وتسلك طريقى. قلت: كيف لا ابتدع؟ قال: لا تسمع قولك، ولا تسلك طريقك. قلت: ما قولك، قال: كلامى. قلت: أيسن طريقك؟ قال: أحكامى. قلت: ما قولى؟ قال: تَحيُّرك. قلت: ما طريقى؟ قال: تحكُّمك. قلت: ما تحكُّمى؟ قال: قياسُك. قلت: ما

قياسى؟ قال: عجزُك فى علمك. قلت: كيف أعجز فى علمى؟ قال: إنى ابتليتك فى كل شئ منى إليك، بشئ منك إلىّ، فابتليتك فى علمى بعلمك، لأنظر أتتبع علمك أم علمى. وابتليتك فى حُكمى بحُكمك، لأنظر أتحكم بحكمك أو بحكمى. قلت: كيف أتّبع علمى، وكيف أعمل بحكمى؟ قال: تنصرف من الحكم بعلمى إلى الحكم بعلمك. قلت: كيف أنصرف عن الحكم بعلمك إلى الحكم بعلمى؟ قال: تحلّ بكلامك ما حرّمته بكلامى، وتحرّم بكلامك ما حلّلته بكلامى، وتدّعى علىّ أن ذلك بإذنى، وتدّعى علىّ أن ذلك عن أمرى. قلت: كيف أدّعى عليك؟ قال: تأتى بفعل لم آمرك به، فتحكم له بحكمى فى فعل أمرتك به، وتأتى بقول لم آمرك به، فتحكم له بحكمى فى قول أمرتك به. قلت: لا آتى بفعلٍ لم تأمرنى به، ولا آتى بقولٍ لم تأمرنى به. قال: إن أتيتَ به كما أمرتك، فقولى وفعلى، وبقولى وفعلى، يقع حكمى، وإن أتيتَ به كما لم آمرك به، فقولك وفعلك، وبقولك وفعلك، لا يقع حكمى، ولا يكون دينى وحدودى. وقال لى: إن سوّيت بين قولى وقولك، أو سوّيت بين حكمى وحكمك، فقد عدلت فى نفسك. قلت: لا حكم إلا لقولك وفعلك. قال: فَقِهت؟ قلت: فقِهت. قال: لا تَمِل. قلت: لا أميل. قال: من فقه أمرى، فقد فقه، ومن فقه رأىَ نفسه فما فقه.

ويقول النِّفَرى فى المخاطبات: يقول الله عز وجل: يا عبد: لو لم أكتبك فى العارفين قبل خلقك، ما عرفتنى فى مشهود وَجْدك لنفسك. يا عبد: إن لم تعرف من أنت منى، لم تستقر فى معرفتى. يا عبد: إن لم تستقر فى معرفتى، لم تدر كيف تعمل لى. يا عبد: إن عرفتَ من أنت منى، كنتَ من أهل المراتب. يا عبد: أتدرى ما المراتب؟ مراتب العزّة يوم قيامى، ومراتب التحقيق فى يوم مقامى، أولئك يلُونى، وأولئك أوليائى. يا عبد: اعرَفْ من أنت، يكن أثبت لقدمك، ويكن أسكن لقلبك. يا عبد: أنا أولى بك إن عقلت، وأنت بى أولى إن حَمَلت. يا عبد: لا أزال أتعرف إليك بما بينى وبينك، حتى تعلم من أنت منى، فإذا عرفت من أنت منى، تعرفتُ إليك بما بينى وبين كل شئ. يا عبد: أنا القريب منك، لولا قُربى منك ما عرفتنى، وأنا المتعرِّف إليك، لولا تعرُّفى إليك ما أطعتنى. يا عبد: إلجأ إلىّ فى

كل حال، أكن لك فى كل حال!!

ويبلغ عدد المواقف ٧٧ موقفاً، وعدد المخاطبات ٥٦ مخاطبة، ينهيها بمخاطبة أخيرة يطلق عليها مخاطبة وبشارة وإيذان الوقت، وينهى المواقف بموقف أخير يسميه موقف الإدراك. والكتابان لهما المكانة العالية بين فلاسفة الصوفية، وعند أهل الفكر عموماً، لما يتضمنان من نظرات بعيدة الغور، وتحليلات تبلغ شأوا كبيراً من الروعة والعظمة، وقد كثر النقل منهما عند الكثيرين، ومنهم محيى الدين بن عربى صاحب الفتوحات المكية.

والنفرى لا نعلم عنه الكثير إلا ما ذكرنا، وحياته يكتنفها الغموض، وكان العصر الذى عاش فيه من العصور المحتدمة بالأفكار المُلحدة لعموم الدين، وللإسلام خصوصاً، وكثرت أسفار النفرى لذلك، وكان يقول: إذا ضقتَ ذرعاً بدواعى نفسك فاسكن إلى زوجتك، فإنْ ضقت فإلى أهل علمك، فإنْ ضقت فإلى أهل معرفتك، فإن ضقت فسرّ فى الأرض، فإنْ ضقت فالزم باب الله، فإنْ ضقت فيه فاصبر حتى ينفتح لك نوره. وهى أصدق وأصحّ وَصْفة فكرية لأهل الإسلام فى بلادنا هذه الأيام، وقد انتشر الإلحاد وزاد الجهل بالدين، وعُبّت كل الأجهزة ضده، وكشّرت السلطة عن أنيابها لكل من يدعو بدعوته. ـ نسأل الله العفو والعافية!

* * *

٣٢٠ - النقشبندى ـ

أبو البهاء ضياء الدين خالد النقشبندى، المجدّدى العثمانى، تمييزاً له عن أحمد السهرندى، المجدّدى الهندى من أقطاب الطريقة النقشبندية أيضاً؛ وخالد هو الذى بشّر بالنقشبندية فى البلاد العربية. وكان ميلاده سنة ١١٩٠ هـ بقصبة قرهطاغ بالقرب من السليمانية بالعراق، وهاجر إلى بغداد فى صباه، ثم رحل إلى الشام فى أيام داود باشا والى العراق سنة ١٢٢٨ هـ، واستوطن دمشق وبنى بها مسجداً، وأصلح الكثير من الجوامع المندرسة، ومات بها سنة ١٢٤٢ هـ (١٨٢٧م) مصاباً بالطاعون. وله الكتب الكثيرة فى البلاغة والأصول والفقه والكلام، وجمع له أسعد الصاحب رسائله فى الطريقة، فى كتاب اسمه: «بغية الواجد فى كتابات مولانا خالد».

ومن وصايا النقشبندى للمريدين: أوصيكم وآمركم بشدّة التمسّك بالسُّنّة السَنِيّة، والإعراض عن الرسوم الجاهلية والبدع، وعدم الاغترار بالشطحات الصوفية، وترك صُحبة العوام والباشوات والأمراء

والوزراء، ولا تُدخلوا الطريقة أحداً منهم ومن أعوانهم، ولا من التجار الجشعين، ولا العلماء وطلبة العلم المستغلين الانتهازيين، ولا من البطّالين الذين يستندون إلى الطريقة بسبب البطالة. وأوصيكم بتقوى الله، وإكرام حملة العلم وحفظة القرآن، والاشتغال بالقراءة وبعلم الفقه».

ولعثمان بن سند كتاب فى النقشبندى هو: «أصفى الموارد من سلسال أحوال الإمام خالد»؛ وكتب فيه أيضًا محمود الألوسى: «الفيض الوارد على روض مرثية مولانا خالد»، وابن عابدين «سلّ الحسام الهندى فى نصرة مولانا خالد النقشبندى».

واسم النقشبندى مأخوذ من منهج الطريقة «نقشبند»، ويعنى «نقش بندر» أو «ربط النقش،» والمقصود بالنقش انطباع القلب بالذِّكر، وربطهُ - أى بقاؤه من غير محو، حيث تقوم هذه الطريقة فى التصوف على الذِّكر أساساً، وتسمى أيضًا بأسماء عدّة بحسب اسم إمام الوقت، فهى كما قيل صديّقية، نسبةً إلى «أبى بكر الصدّيق»؛ ولذا يقال أيضاً «صاحبية»، أى طريقة الصحابة؛ وهى «طيفورية» نسبةً إلى أبى يزيد «طيفور» البسطامى؛ و«خوجكانية» ونقشبندية أيضاً - فى عهد رئيس الجوجكان بهاء الدين محمد شاه نقشبند؛ و«أحرارية» بعد عُبيْد الله «أحرار»؛ ثم «مجددية» و«خالدية» وهكذا.

وكان إمامهم أحمد السهرندى المتوفى سنة ١٠٣٤ هـ قد اشتغل بالطرق الثلاث التى سادت فى أيامه، وهى: القادرية، والسهروردية، والچشتية، وارتاح إلى الطريقة النقشبندية وأخذ بها، بدعوى أنها الأيسر، والأصلح، والأفضل للمريد الذى ينشد الأصول. ويلاحظ أن الطريقة ظهرت وراجت فى أول الأمر بين المتحدّثين باللغة الفارسية، ولذلك فقد كانت الكلمات الفارسية بها كثيرة قبل أن يهاجر الإمام الثالث الذى يرتبط اسمه بها - وهو الشيخ خالد النقشبندى - إلى دمشق، مبشّراً بها، ومُرسِلاً دعاته إلى البلاد العربية، وقيل إن الكلمات الفارسية الأساسية الداخلة فى بناء الطريقة هى «أحد عشر مصطلحًا» لا غير، ولكنها مع ذلك المصطلحات الأم، أو المصطلحات الأساس، وهى: «هوش دردم هوش» حيث «هوش» بمعنى العقل، و«در» ظرف، و«دم» النفس، والمعنى المراد: أنه ينبغى على السالك العاقل أن يحفظ نفسه عن الغفلة ليكون قلبه حاضراً مع الله تعالى فى كل زفرة وشهقة من أنفاسه؛ و«نظر بر قدم» حيث «بر» بمعنى على، والمقصود أنه ينبغى على السالك أن

يستبقى نظره عند قدميه، فلا يصعد نظره إلى الآفاق فيشغله ما يشاهد عن الذكر والتفكر فى الله تعالى؛ و«سفر در وطن» أى السفر أو الانتقال إلى الوطن أو المقام، فهو انتقال السالك عبر المقامات، أو ذهاب السالك عن عالم الحقّ إلى جناب الحقّ؛ و«خلوة دار انجمن»، والانجمن تعنى جمعية الناس، والخَلوة منها: الخلوة الظاهرة التى تكون باختلاء السالك فى بيت خال؛ والخلوة الباطنة: بالذهاب عن الخلق إلى الحق، والمقصود أن يكون السالك برغم كونه مع الناس، غائباً عنهم وحاضراً مع الحق؛ و«يادر كرد»، و«ياد» بمعنى الذُكر، و«كرد» أصلها كردن وسقطت النون تخفيفاً، والمعنى: تكرار الذكر بالقلب أو باللسان؛ و«باز كشت»، حيث «باز» هى الرجوع، والمقصود رجوع الذاكر بذكره إلى الله، ليحصل له الوصول بالذكر إلى المذكور عزّ وجل؛ و«نكاه داشت»، ومعنى «نكاه» هو الحفظ، والمقصود: أن السالك ينبغى عليه أن يحفظ قلبه من دخول الخواطر إليه؛ و«ياد داشت»: بمعنى حضورالقلب مع الله على الدوام ؛ و«وقوف عددى»، أى الوقوف المتعلق بالعدد فى الذكر، ووعى الذاكر بعدد مرات الذكر؛ و«وقوف قلبى»: وهو الوقف المنسوب إلى القلب، يعنى وقوف قلب الذاكر على المذكور عند ذكره؛ و«وقوف زمانى»: أى مراقبة السالك لنفسه فى تغيّر أحواله فى زمنه وعبر مراحل أوقاته.

وفى تعريف الطريقة يقول النقشبندى: إنها دوام العبودية لله تعالى، ظاهراً وباطناً، بكمال الالتزام بالسنّة، واجتناب البدعة، والرخصة فى جميع الحركات والسكنات، سواء فى العبادات أو العادات أو المعاملات، مع دوام الحضور مع الله وبالله تعالى على طريق الذهول والاستهلاك. ولها أصلان؛ هما: كمال اتباع النبىّ ﷺ، ومحبة الشيخ الكامل. ولها شرائط لابد منها للمريد، عددها أحد عشر، منها: أن لا يعترض فى قلبه على أفعال الشيخ؛ وألا ينسب نفسه إلى القصور؛ وأن يُظهر خواطره بخيرها وشرّها لشيخه؛ وأن يَصدُق فى طلبه فلا تغيّره المحن؛ وأن لا يقتدى بجميع أفعال شيخه العادية إلا أن يأمره، ؛ وأن يبادر بإتيان ما يأمره، وأن يقطع علائقه بما سوى المقصود؛ وأن لا يكون مراده من الدنيا والآخرة غير الذات الأحدية؛ وأن يكون منقاداً مستسلماً لأمر الشيخ؛ وأن لا يُظهر حاجة لأحد سوى الشيخ؛ وأن لا يغضب على أحد لأن الغضب يذهب بنور الذكر.

وآداب الطريقة التى يتعيّن بها المريد خمسة عشر أدباً، منها: أن يقصر اعتقاده على الشيخ؛ وأن يكون راضياً بتصرفاته ومنقاداً لها؛ وأن يسقط اختيار نفسه باختيار الشيخ؛ وأن لا يفعل ما يكرهه شيخه؛ وأن لا يتطلع إلى تغيير الوقائع والمناسبات والمكاشفات؛ وأن يغضّ الصوت فى مجلس الشيخ؛ وأن يعرف أوقات الكلام معه؛ وأن لا يكتم عنه أياً من أحواله وخواطره وكشوفه والكرامات التى تقع له؛ وأن لا ينقل من كلام الشيخ إلى الناس إلا القدر الذى يناسبهم ويليق بأفهامهم وعقولهم؛ وأن لا يطلب من الشيخ بعد قبوله له سوى أن يخدمه عن ميل ورغبة؛ وأن لا يتحمّل تبليغ سلام الغير إلى الشيخ؛ وأن لا يتوجه إلا لما أراده الشيخ؛ وأن لا يتوضأ بمرأى الشيخ؛ وأن يبادر بإتيان ما أمره؛ وأن يأخذ بالتأدّب الإلهى والذوق والوجدان الوهبى.

وطُرق الوصول فى النقشبندية أربعة: أولها هو أقواها وأعلاها، :وهو صُحبة الشيخ الكامل السالك، بشرط أن تكون صحبته له هى لخدمة الشيخ والانتساب إليه والافتخار به والإقبال عليه، وأن لا يعترض على أفعاله ولا ينكر له قولاً، لا فى الظاهر ولا فى الباطن، وأن يكون بين يديه كالميت بين يدىّ الغاسل فلا يخالفه فى شئ؛ وثانيها: هو الرابطة أى الارتباط بالشيخ، وربط قلب السالك بقلبه وتعلقه به لأنه الكامل المتحقق بالصفات الذاتية، والموصل إلى مقام المشاهدة؛ وثالثها: الالتزام، أى أن يلزم السالك نفسه بما يتلقنه عن الشيخ؛ ورابعها: الذُكر، والمقصود أن يكون حال السالك هو حال الذاكر لله على الدوام، وحال المتأدّب بالذكر، فيتطهّر قلبه من المنهيات والهوى والحرص واتباع الشهوات. والذكر منه ما يكون باللسان، وما يكون بالقلب، وفى «ذكر اللسان» يحرص على أن يوقف قلبه على الله وينسى به ما سواه، وهو يفعله بالحرص الشديد على الأداء الأمثل، فيقول اسم الجلالة «الله»، لاصقاً اللسان بسقف الحلق، والأسنان بالأسنان، والشفة بالشفة، ويطلق تنفسه مع نطق الاسم بكل وعيه ووجدانه، وكأنه يتخلل به كل جسمه ويملأ به قلبه وبصره وعقله، مذكراً نفسه فى ابتداء الذكر، وبين كل مائة منه فيقول: اللهم أنت مقصودى، ورضاك مطلوبى.- وهناك ذكر آخر بخلاف ذكر اسم الذات، وهو «ذكر النفى والإثبات»، فالنفى هو «لا إله»، والإثبات

هـو «إلا الله»، ومع نطقها يتخيل «لا» تسرى فى الدماغ، ثم إذا وصل إلى «إله» كان السريان بتخيله قد وصل إلى الكتف، فإذا كان «إلا الله» كان قد بلغ القلب - يقولها بحرارة وفى صدق وإخلاص، وبجُماع نفسه وعقله وبدنه وقلبه، فينفى بالنفى فى «لا إله» كلَّ المحدثات، ويثبت بالإثبات فى «إلا الله» ذات الحق، ويقول فى آخرها «محمد رسول الله»، يريد التقيّد بالاتّباع، ويكرر ذلك على قدر طاقته واستعداده، وبكل ما يقدر عليه من نَفَس، ومع كل توحيدة يذكّر نفسه بأنه إنما يقصد إلى الله ، ويردد فى عقله: «اللهم أنت مقصودى ورضاك مطلوبى»، وذلك هو مناط الذكر: القصد إلى الله، وطلب رضاه والتحقق به عمّن سواه.

والطريق الرابع: هو المراقبة، بأن يسقط السالك كل تدبير إلا تدبير الله، وأن يحاسب نفسه ويراقبها واضعاً فى اعتباره أن الله مطّلع عليه فى كل ما يقول ويفعل، وفى كل شهقة وزفرة وخلجة وخطرة.

ولعبت الطريقة النقشبندية دوراً تاريخياً بارزاً فى تركيا، وكان وفودها إليها فى القرن الخامس عشر للميلاد على يد الشيخ عبد الله السماوى، وهو الذى زرعها فى الأناضول، ومنها انتشرت عبر تركيا حتى صار عدد أعضائها حاليًا ما يقرب من «المليونين». وأتاتورك هو الذى أشرك النقشبندية فى السياسة، فأعلنوا الجهاد وشاركوا معه فى حرب التحرير الوطنية فى المدة من ١٩١٩ حتى ١٩٢٣، إلا أنه انقلب عليهم وعلى جميع الطرق الصوفية، وحظر نشاطاتهم، فأعلنوه مرتداً، وألّبوا الناس عليه، وكان الشيخ سعيد الكردى هو صاحب أول انتفاضة نقشبندية على أتاتورك، بهدف إقرار الشريعة الإسلامية، ثم قام النقشبندية بانتفاضتهم الثانية سنة ١٩٣٠ بتحريض من الشيخ محمد أسد، وأوعزت السلطات مَن دسّ له السم فى السجن، فمات مسموماً !! وفى عام ١٩٣٥ خرج النقشبندية على الحكومة ثلاث مرات. ولمّا أُقرت التعددية الحزبية فى أواخر الأربعينات، عاودت الطريقة اجتماعاتها العلنية، وكثّفت حضورها على الساحة التركية، وانضم إليها كثير من أساتذة الجامعات والطلبة والمهنيون، وهؤلاء تعتمد عليهم الأحزاب التركية الإسلامية الآن، ويؤيدونها فى سياستها نحو «الأسلمة».

وتحت عباءة النقشبندية ظهرت طرق أو

منابر لكل منها شيخ، ويطلق على المنبر اسم دَرَك أو دركاه، ومن ذلك دركاه أو مشيخة أو طريقة إسكندر باشا، وهى التى تحلّقت فى جامع إسكندر باشا، حول الشيخ محمد زاهد كوتكو، وهو من أشدّ المعادين للنمط الحضارى الغربى، وخاصةً النمط الأمريكى، وتوفى كوتكو سنة ١٩٨٠، فخلفه فى المشيخة زوج ابنته محمد أسد جوشان (من مواليد سنة ١٩٣٨) ويعمل أستاذاً بجامعة أنقره. وتُصدر الجماعة مجلة «إسلام» من كبريات المجلات الإسلامية التركية، ولها أيضاً «مجلة المرأة والعائلة»، ومجلة «علم وفن». والدركاه تدعو إلى أسلمة السلطة من خلال التغلغل بالتدريج فى الجهاز الحكومى. وهناك مشيخة أو دركاه إيرينكوى، ومقرّها اسطنبول، وشيخها محمود سامى رمضان أوغلو، توفى سنة ١٩٨٤، وتروج طريقتها بين الطلبة الفقراء بخاصة، وتوزع عليهم أموال الزكاة، وتكاد تنصرف هذه المشيخة إلى أعمال البر.

ومن النقشبندين كذلك دركاه منزيل، ومؤسسها محمد راشد افندى، ومقرّها قرية منزيل فى ديار بكر وآدى يمان، وتعارض الاتجاهات العلمانية للدولة، وتؤيد الحقوق الكردية، ولكنها ضد الانفصال عن تركيا، فإذا كان المسلمون ينبغى عليهم ان يلتئموا فى وحدة الإسلام فيكف تغلب عليهم العرقية القومية وتفرّق بينهم؟ فالأحرى أن يبقى الأكراد ضمن الوطن الأم تركيا، وأن تراعى الدولة أن للأكراد حقوقاً ينبغى الوفاء بها والقيام عليها، ومن ثم كان انضمام أعضاء الطريقة إلى حزب «الوطن الأم».

وهناك دركاه تشارشامبا أو إسماعيل أغا، فى حىّ تشارشمبا، فى منطقة الفاتح من اسطنبول، وتتخذ جامع إسماعيل أغا مقراً لها، ومؤسّسها محمود افندى التفليدى، وهو نقلى عتيد، يشك فى كل ما هو جديد، ويحذر منه أهل الطريقة.

وحىّ تشار شامبا من أحياء الطبقة المتوسطة، والطريقة تروج بين هذه الطبقة، وتمثلهم دينياً وثقافياً، وهم رفاهيون، أى مع حزب الرفاه الإسلامى، بدعوى أن حزب الرفاه هو حزب الطبقة المتوسطة وحزب «الوسطية المسلمة».

وأيضاً فمن النقشبندين جماعة قبرص، وهى مشيخة أسسها الشيخ ناظم قبرصى، واسمه القبرصى، لأنه من قبرص التركية أساساً، ويعمل بالتجارة، ويتنقل كثيراً عبر أوروبا والشرق الأقصى، وضم إليه الأتراك فى هذه الأصقاع.

ولنلاحظ أن هذه المشيخات جميعها نقشبندية، وإنما جرفها تيار السياسة والصراع المستحكم منذ الثورة التركية، بين جماعة العلمانيين والجماعات الإسلامية. والنقشبندية تميّزوا بأنهم صوفية أساساً واضطروا إلى تعاطى السياسة، بينما غيرهم اشتغلوا بالسياسة أساساً وإن كانت أمانيهم تكوين الدولة الإسلامية وتغليب الشريعة الإسلامية على شريعة البشر.

* * *

٣٢١ - نللينو...

كارلو نللينو **Nallino** (١٨٧٢ - ١٩٣٨م)، مستشرق إيطالي، كانت عنايته بالتصوّف والفلسفة والفقه والفلك والأدب والتاريخ الإسلامي، وكان أستاذاً للتاريخ والدراسات الإسلامية بجامعة روما، وانتخب عضواً بالمجمع العلمي الإيطالي، والمجمع العلمي العربي بدمشق، والمجمع اللغوي بالقاهرة، وتولى الإشراف على مجلة الدراسات الشرقية، ومجلة الشرق الحديث، ونشر كتاب «البيان» لابن رشد، وحاضَر في الجامعة المصرية، وله «تاريخ الأدب العربي»، و«حياة محمد»، و«شعر ابن الفارض»، و«التصوف الإسلامي»، و«قصة سلمان وأبسال» لابن سينا، و«الفلسفة الإشراقية» لابن سينا، وقد نقله الدكتور عبدالرحمن بدوى فى كتابه «التراث اليونانى فى الحضارة الإسلامية». وكَتَب فى دائرة المعارف الإيطالية عن ابن رشد، وابن سينا، والفارابى، وجابر، والغزالى، وإخوان الصفا، والإباضية. وما يعنينا هو كتاباته فى الصوفية، وتعتبر كتابات عادية، بمفهوم غربى نصرانى، للتعريف بالتصوّف الإسلامى للقارىء الأوروبى، ولا أكثر من ذلك.

* * *

٣٢٢ - النهرجُورى...

أبو يعقوب إسحاق بن محمد، نسبته إلى نهرجور بالقرب من الأهواز بإيران، وكان من علماء الصوفية، صحب الجنيد بإيران، وعمرو ابن عثمان المكّى، وأبا يعقوب السوسى، وأقام بالحرم مجاوراً سنين كثيرة، ومات بمكة سنة ٣٣٠ هـ، وكلامه فى المعرفة، والفناء والبقاء، والصدق، فأعْرفُ الناس بالله أشدّهم تحيّراً فيه، والذى اجتمع عليه المحققون فى حقائقهم أن الله تعالى غير مفقود فيُطلب، ولا له غاية فيُدرك، ومن أدرك موجوداً فهو بالموجود مغرور. وعنده أن الموجود معرفة حال وكشف علم بلا حال، ومن عرف الله لم يغتر به. والمشاهدة كما يراها نوعان: مشاهدة أرواح - وهى تحقيق؛ ومشاهدة قلوب - وهى تعريف. وسُئل

عن التصوف فقال متحسراً: تلك أمة قد خلت.. يعنى لم يعد هناك تصوف. والطريق إلى الله تعالى تكون باجتناب الجهلاء ومصاحبة العلماء واستعمال العلم ودوام الذكر. وقال: لما طلب أهل الله الحقائق سادوا الخلائق. واليقين: مشاهدة الإيمان بالغيب؛ والجمع: عين الحق الذى قامت به الأشياء؛ والتفرقة: صفوة الحق من الباطن؛ والفناء: هو فناء رؤية قيام العبد لله؛ والبقاء: هو بقاء رؤية قيام الله فى الأحكام. والعارف لا يصل إلى ربّه إلا بقطع القلب عن ثلاثة أشياء: العلم والعمل والخَلق . يقول :

العلمُ بى منك وظَّ العُذرَ عندك لى
حتى اكتفيتَ فلم تعذل ولم تلم
أقامك علمُك لى، فاحتج عندك لى
مقامَ شاهد عدل غير متّهم

وقال: الناس بما يكون به شِبَعُهم، فمن كان شِبَعُهُ بالطعام لم يزل جائعاً، ومن كان غناه بالمال لم يزل مفتقراً، ومن قَصَد بحاجته الخَلق لم يزل محروماً، ومن استعان فى أمره بغير الله لم يزل مخذولاً. ـ والمفاوز فى الدنيا والآخرة، ومفاوز الدنيا تُقطع بالأقدام، ومفاوز الآخرة تُقطع بالقلوب. ـ والدنيا بحر، والآخرة ساحل، والمركب التقوى، والناس فى سفر.

* * *

٣٢٣ - ابن نوح...

عبد الغفار بن أحمد بن عبد المجيد بن عبد الحميد بن حاتم، الدَرَوِىّ المحتد، الأقصرىّ المولد، القوصىّ الدار، المصرىّ الوطن، وشهرته الشيخ ابن نوح، وله «التجريد فى عالم التوحيد»، وشعره صوفى حَسَن، وكانت بلسانه طلاقة، وله حضور وحال فى السماع، ورباطه معروف بقوص من أعمال صعيد مصر الجوّانى. وقد أوردنا عنه لصلته بالأحداث التى جرت فى الصعيد مؤخراً بين المتطرفين فيه وبين النصارى، والتصوف لا يعرف التطرف، وفى القرآن: ﴿ لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ ﴾ (الممتحنة ٨)، وكان النصارى يعيشون فى وئام مع المسلمين، إلا أن ابن نوح ألّب الناس، لمّا جاء مرسوم يبيح علنا أن يفتحوا الكنائس، فما كان من تلميذ لابن نوح إلا أن جاء فى صلاة الفجر وخطب فى الناس يقول: ﴿ إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ (محمد ٧) وقال بإيعاز من الشيخ : يا أصحابنا! الصلاة فى هدم الكنائس !!» فلم يأت وقت الظهر إلا وقد هُدمت ثلاث عشرة كنيسة ـ وإن كان ما هُدم يسمى تجاوزاً كنيسة، فلم تكن هذه إلا

زوايا صغيرة من الطوب النيء معروشة بالخشب، وفي غاية الفقر، إلا أن العمل في هدمها ـ سواء كانت كنيسة أم زاوية أم تعريشة، خطأ وإثم وعدوان، ونسب المعتدون الأمر كله للشيخ عبد الغفار. وحضرت الحكومة، فحرّض الشيخ العوام على رجال السلطة وضربوهم بالحجارة، وانتهى الأمر باشتباك الشرطة مع الصوفية، وأمروا بنفي الشيخ إلى القاهرة، وأقاموه بها إقامة جبرية، وحظروا عليه أي نشاط.

فهذا ما حدا بي أن أؤرّخ لهذا الشيخ الصوفي، فلأول مرة في التاريخ نقرأ عن شيء كهذا من الصوفية! وذلك ما يجعلنا ندرجه ضمن الصوفية الجهادية، وندرج تصوّفه ضمن التصوّف السياسي.

وظل الشيخ بالقاهرة إلى أن توفي سنة ٧٠٨ هـ (١٣٠٧م)، وبلغ من تزمّت هذا الشيخ وعدم فهمه للدين، أنه طلب أن يجرّدوه من كفنه بعد أن ينزلوه في القبر، وأن يبقوه كذلك ليلقى الله مجرّداً، وباع أصحابه كفنه بخمسين مثقالاً! والخطأ الذي تردّى فيه هذا الصوفي أنه لم يذكر أن من أصول الإسلام أنه: لا عدوان على أهل الكتاب طالما لم يقاتلوا المسلمين، ولم يخرجوهم من ديارهم، ولم يظاهروا عليهم، بل بالعكس فإنهم إن لم يفعلوا ذلك فعسى الله أن يجعل بين المسلمين وأهل الكتاب مودة فيصبحوا بنعمة الله إخواناً (الممتحنة ٧)، بل وأكثر من ذلك أمر الله تعالى أن نبرّهم ونقسط إليهم (الممتحنة ٨)، والبرّ هو الإحسان، و«أن تقسطوا» يعني تعدلوا، والمُقسط هو العادل، وفي الحديث: «المقسطون على منابر من نور»، وقال ﷺ في وصفهم: «الذين يعدلون في حكمهم وأهاليهم وما ولوا».

* * *

٣٢٤ - نوربخش ـ

محمد نوربخش مؤسّس الطريقة النوربخشية، وكلمة «نوربخش» فارسية وتعني «واهب الأنوار»، وكان في البداية همذانياً، يعني من أتباع السيد علي الهمذاني، وخلفه على الطريقة.

ونوربخش من مواليد سنة ٧٩٥ هـ (١٣٩٣م)، وطريقته ثورية جهادية تعتمد الجهاد، وكان نوربخش يلبس السواد باعتباره رمزاً للنور والحياة الكامنين، ويضع عمامة سوداء صارت شعاراً للطريقة ومدعاة لحماس الناس، فصادرتها الدولة لذلك ومنعته وأتباعه أن يضعوها. ولقد أعلن الثورة وادّعى المهدية، وهاجم قلاع ختلان، ولكنه فشل، فقصد الري، يمارس

فيها التصوف، وتوفى هناك سنة ٨٦٩هـ (١٤٦٥م)، وورث المشيخة ابنه قاسم فيض بخش، ومن خلفائه خواجه محمد ابن خواجه محمد السمرقندى، وشمس الدين اللاهيجى المتخلّص بأسيرى.

ولنوربخش كتاب «الشجرة الوفية فى ذكر المشايخ الصوفية»، وبضع رسائل منها «الرسالة المعراجية»، و«الرسالة الاعتقادية». ولقّبه أنصاره بالإمام، والخليفة على كافة المسلمين. وقال نور بخش عن طريقته: أنها تجمع بين الولاية والنبوة، وقال: أنا فى النسب قرشى، هاشمى، علوى، فاطمى، حسينى، كاظمى.

وله نظرية فى الولاية المحمدية وكونه ﷺ إمام الأولياء، وكان من أصحاب وحدة الوجود، وقال بانتقال الولاية من آدم والأنبياء إلى أقطاب التصوف، ومن شعره:

سواء أكنا هادين أو مهديين
فنحن بالمقارنة بالقدَم أطفال مهديون
قطرة نحن من محيط الوجود
ولا عبرة بمدى طاقتنا من الكشف والشهود
فيا إلهى منى أعود من القطرة
ويا إلهى أبلغنى بحسر النور

ويقول:

منذ اليوم الذى استجليت فيه طلعة حبيبى
غدوت متميزاً من الخلائق أجمعين
وذلك أنى صرت مبرأ من العقيدة والمذهب
والملّة كلياً وأصبحت ولا دين لى

يعنى أنه منذ أن وعى الله، لم يعد يعرف سواه، ولم تعد له ديانة ولا مذهب ولا عقيدة سوى الله، أى أنه لم يعد يتّبع الإسلام!!

وقواعد الطريقة النوربخشية سبع عشرة قاعدة، هى قوام سلوك المريدين واعتقادهم: فلا يسجدون لغير الله، ويطيعون النبىّ والأئمة (لاحظ التناقض مع الأبيات السابقة)، ويتطهرون ويكونون على وضوء دائم، ويراعون أوقات الصلاة، ويتلون الأوراد، ويستعملون المسبحة، ويذكرون الله، ويستحضرون صورة الشيخ دائماً، ويعتبرون كل بلاء رحمة، ولا يسكتون على الظلم، ويرددون باستمرار أسماء الرسل والأئمة (وهذا تناقض آخر)، مع وضع السبابة على الجبين عند رؤية الهلال، ويتنظّفون، ويحترمون والديهم، ويكتمون أسرار السلسلة، ويتوجهون لله بقلوبهم، ويتعاملون بالرحمة مع بعضهم والناس ولا يظلمون أحداً، ويسلمون كل شىء لله ويقابلون كل عمل بالشكر.

* * *

٣٢٥ - النوري (أبو الحسين)...

أحمد بن محمد النوري، المتوفى سنة ٢٩٥هـ، ويعرف بابن البَغَوي نسبةً إلى قرية اسمها بغشور بخراسان وإن كان قد ولد ونشأ ببغداد، وقيل اسمه النوري نسبةً لقرية يقال لها نور، أو لنور أو حُسن في وجهه. وطريقته يسمونها النورية، وتشبه طريقة الجُنَيْد فقد كان من أقرانه.

والنوري صحب السَّرِي السَّقَطيَ، وابن أبي الحواري، والقصّار؛ وأساس طريقته الإيثار؛ وهو اجتماعي، يكره العزلة ويذمّ الانزواء، ويعلمّ مريديه الصُحبة وحُسن العشرة. وحقيقة الإيثار عند النورية: أنهم يحفظون حق صاحبهم في الغيبة، ويضحّي كل منهم بنصيبه لصاحبه، ويحتمل التعب ليريحه.

ويُروَى عن النوري، أنهم لمّا سعوا عند الخليفة عن متزندقة الصوفية، قبض العسكر على النوري وجماعته ضمن من قبضوا عليهم، وقضى الخليفة بإعدام الجميع بتهمة نشر الإلحاد، وجاء السيّاف وصفّهم بعد أن قيّدهم، فطلب النوري منه أن يسبق أصحابه، ولما ناقشه برّر عمله بأن طريقته مبنية على الإيثار، وهؤلاء أصحابه يفتديهم ولو بهذه الأنفاس القليلة، مبيّناً أن النَفَس الواحد في الدنيا خير من ألف سنة في الآخرة، لأن الدنيا هي دار الخدمة، والآخرة دار القُربة، ولا تُنال القُربة إلاّ بالخدمة. وحمل السيّاف ما جرى بينه وبين النوري إلى الخليفة، فتعجّب وأمر بإعادة محاكمة جماعة النوري، واستمع القاضي لهم فكتب إلى الخليفة: لو أن هؤلاء ملاحدة فليس على وجه الأرض موّحد واحد ! فأطلق الخليفة سراحهم.

وروى عن النوري أيضًا أنه كان يحمل غداءه من بيته في الصباح متوجهاً إلى حانوت،ه فيتصدّق به في الطريق، ويظل صائماً بقية اليوم، فيظن أهل بيته أنه يأكل في الحانوت، ويظن أهل السوق أنه يأكل في بيته، وظل على هذه الحال عشرين سنة!

ومذهبه في التصوف: تَرْكُ كل حظوظ النَّفْس، وأن التصوف ليس رسوماً ولا علوماً ولكنه قبل كل شئ أخلاق، وهو المعرفة بالله، ولكنها معرفة تكون في الدنيا قبل الآخرة، فمن لم يعرفه أولاً في الدنيا لن يعرفه في الآخرة، ويقول: أنه منذ أن عرف ربّه ما اشتهى شيئا ولا استحسن شيئاً، وأن الانقطاع عن ذِكر الله عقوبة يُنزلها العارف بنفسه، وأن الجمع بالحق هو

التفرقة عن غيره، والتفرقة عن غيره هى سبيل الجمع به:

ذكرتُ ولم أذكر حقيقة ذكره
ولكن بَوادى الحق تبدو فأنطق
إذا ما بدا ذكرٌ لذكرٍ ذكرته
يغيّبنى عن ذِكر ذِكرى فأغرَقُ
وأعرفُ بالذكر الذى قد ذكرته
عن الذكر بالذكر الذى هو أسبَقُ

ورُوى أنه أصابته علّة، وأصابت الجُنيد مثلها، فالجنيد أخبر عن حاله، والنورى كتم، فقيل له: لِمَ لم تُخبر كما أخبَرَنا صاحبك؟ فقال: ما كنا لنُبتَلى ببلوى فنشكو ونوقّع على الشكوى باسم الشاكى:

إن كنتُ للسقم أهلاً
قد كنتُ للشكر أهلاً
عَذُبْ فلم يبق قلبٌ
يقول للسقم مهلاً

ولما توفى النورى أتته الجنيد، فقال: منذ مات رحمه الله لم يُخبرعن حقيقة الصدق أحد.

* * *

٣٢٦ - النووى (شيخ الإسلام)...

السيد، الحصور، الإمام، أستاذ المتأخرين، وحجّة الله على اللاحقين، والداعى إلى سبيل السالفين: **يحيى ابن شرف بن مُرِّى بن الحسين بن محمد ابن محمد بن جمعة بين حزام**، أبو زكريا محيى الدين النووى (٦٣١ - ٦٧٦هـ/ ١٢٣٣ - ١٢٧٧م)، الصوفى الفقيه، الشافعى، المحدِّث، الزاهد، العابد، الورع، صاحب التصانيف المفيدة، يُنسب إلى «نَوَى» من قرى حوران من نواحى دمشق، وهى مدينة أيوب النبىّ عليه السلام، وبها قبر سام بن نوح، والنسبة إليها نووى ونواوى. وله فى التصوّف: «رياض الصالحين»، و«بستان العارفين»، و«حلية الأبرار وشعار الأخيار».

ومن جملة مؤلفاته: «شرح الجامع الصحيح للبخارى»، و«شرح صحيح مسلم»، وله «الترخيص فى الإكرام بالقيام لذوى الفضل والمزية من أهل الإسلام»، و«مناسك النووى»، و«الأربعون»، وقيل فى هذا الكتاب الأخير: أن مدار الإسلام عليه.

وكان النووى من العابدين: يقرأ الأوراد، ويسرد الصوم، ويداوم على الذكر، ويصبر على العيش الخشن والملبس الجاف؛ إدامه الخبز والملح والخلّ، ولا يأكل إلا مرة واحدة فى اليوم، ولم يحدث أن جمع بين إدامين، ولم يأكل فاكهة من فواكه بساتين

دمشق، وكان يقول إنها محاصيل أوقاف تؤخذ غصباً أو سرقة، ويؤثر أن يكسب عيشه بعرقه، ويجاهد بنفسه، ويراقب حاله، ولم يكن له إلا ثوب خام وعمامة صغيرة، وقلما يتنعّم بحمام، ويتأبىّ أن يدانيه طرحاً للرفاهية، وخوفاً من المرض يمنعه من العبادة، وكان يشرب في اليوم شربة واحدة عند السحر، ولمّا حجّ مرض أكثر الطريق إلى الحج، وحُمّ إلى يوم عرفة، فما تأوّه ولا تضجّر، وكان يكره أن يدعوه الناس «محيي الدين»، وله رسالة مشهورة إلى الملك الظاهر في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وكان يقول: التصوّف عماده ثلاثة أمور: العلم، والزهد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وكان لا يبالي بالأمراء ويغلظ لهم القول، ويُكرم الزّهاد والمتصوّفة ويصاحبهم، وكان قدوته منهم الشيخ العارف بالله ياسين المزيّن، وكان يتأدّب معه، ويجالسه، ويقبل إشاراته، وكان هذا الشيخ أسود اللون يعمل بالحجامة، والصوفي المتحقق هو الذي يحترف لعيشه، ويعيش الدِّين بكُلّه. ولما توفي النووي بكاه الآلاف، وساروا خلف نعشه، وقيل فيه :

فمثل فقدك ترتاع العقول له
وفَقْد مثلك جُرْحٌ ليس يندمل

زهدتَ في هذه الدنيا وزُخرفها
عزماً وحزماً فمضروبٌ بك المثل
أعرضتَ عنها احتفالاً غير محتفِل
وأنت في السعي في أخراك محتَفِل

ومن أقواله : إن المسلم يخلص دينه لله، ويخلص نيّات أعماله، والصبر له ضياء، والصدق يطمئنه، والكذب يريبه. ومن يحفظ الله حفظه، ومن يستعن بالله يعينه، والتقوى عماد كل أمر، ومن يتقى الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب، والله حسيب المسلم ووكيله، والاستقامة تقريبٌ وتسديدٌ، وإصابة وقصدٌ، والدين لا غلوّ فيه ولا تقصير، وطرق الخير كثيرة، والسبل فيه متعددة، والمجاهدة للنفس من سبل الخير، وخير الناس من حسن عمله، ولمّا سئل رسول الله أي الأعمال أفضل، قال: «الإيمان بالله، والجهاد في سبيله»، والجهاد خير العمل، والجهاد صلاة، والصلاة جهاد، والصلاة عمل، والحكمة جهاد، والحكمة دعوة إلى الخير بالموعظة الحسنة، وتعاونٌ على البر والتقوى، وخير الجماعات، وخير الأمم هي الجماعة أو الأمة التي تدعو إلى الخير وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، فمن كان يؤمن بذلك فالأحرى به أن يكون ضمن الجماعة والأمة، بأن يتولى أمثاله ويتناهى معهم المنكر والسوء، ويغيّرهما بيده إن استطاع، وبلسانه

وقلمه إن قدر، وبقلبه وهو أضعف الإيمان، وأن يقول الحق إينما كان، لايخاف فيه لومة لائم، ولا سلطان حاكم، والناس يأتى عليهم من الحكام الصالح والطالح، فيعرفون وينكرون، فمن عرف وكره فقد برئ، ومن أنكر فسقد سلم، ومن رضى وتابع قد باء بالخسران وذهب دينه - يعنى ذهبت إنسانيته وأفلست رسالته. ومن يكره بقلبه ولم يستطع إنكاراً بيده ولا بلسانه فقد برئ من الإثم وأدّى وظيفته، ومن أنكر بحسب طاقته فقد سَلِم من المعصية، ومن رضى بالسوء وتابع فاعله فهو العاصى، وأفضل الجهاد كلمة عدل عند الحاكم الجائر.

ويقول النووى فى أمر النساء - وهن المستضعفات فى المجتمعات الإسلامية: معاشرة المرأة بالمعروف، والمعروف هو إقامة الميزان وأن يعدل الرجال مع النساء، والوصاية بالنساء واجبة، والنساء إما أمّ، وإما أخت، وإما زوجة، وإما جدة أو خالة أو عمة، أو امرأة صديق أو جار، والأدب معهن فيه صون للأعراض، والنساء شقائق الرجال، وهن عوان الرجال، وليس للرجال أن يملكوا منهن شيئاً غير المعروف. وعلى النساء للرجال حقوق، ولهن عليهم حقوق، فحق الرجال على النساء أن لا يوطئن فرشهم من يكرهون، ولا يأذنّ فى بيوتهم لمن يكرهون، وحقّهن على الرجال الإحسان إليهن فى كل أمر. والمسلم المؤمن هو الكامل الخلق الذى يحسن للنساء ولامرأته وبناته، لا يضرب، ولا يقبّح، ومن يسىء الأدب فهو ليس من خيار الناس. وأفضل نفقة المرء ما كان على عياله، يؤكلهم بها، ويكسوهم، ويعلّمهم، وما من نفقة ينفقها يبتغى بها وجه الله إلا ويؤجر بها. رحم الله الإمام وأجزل له الثواب.

* * *

٣٢٧ - النيسابورى (أبو حفص)...

عمر بن سلمة، أبو حفص، ويُنسَب لنيسابور، وصناعته الحدادة، ولذلك يقال أبو حفص الحدّاد، قيل توفى سنة ٢٧٠ هـ أو نحوها، وتخرّج عليه عامة أعلام صوفية نيسابور، ومنهم أبو عثمان النيسابورى، وشاه الكرمانى، وكان من أصحاب أحمد ابن خضرويه.

وكلام أبى حفص وسلوكه فى الفتوة، فهو الفتى حقاً، والتصوف عنده ليس إلا الآداب، ولكل وقت أو مقام أدبه، ومن لزم الآداب بلغ مبلغ الرجال، ومن ضيّع الآداب فهو بعيد من حيث يظن أنه قريب، ومردود من حيث يرجو القبول. وعلامة الفتوة عنده: أن الفتى إذا رأى الفتيان لا يستحى منهم فى شمائله

وأفعاله، فهو مثلهم إن لم يزهم، والفتوة سلوك وليست أقوالاً، وهي أداء الإنصاف للناس وترك الانتصاف لنفسه، والرجولة هي التي يقول فيها الله تعالى: ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ (الأحزاب ٢٣)، أي كانوا بفعلهم وقولهم عندما عاهدوا الله عليه، فتركوا ما لهم والتزموا ما أمرهم به؛ والرجولة أخذ وعطاء، ومن لا يعطي ولا يأخذ فهو «هَمَج» لا خير فيه. ويفسّر أبو عثمان كلامه بأن من يأخذ من الله ويعطي لله فهو «الرجل»، لأنه لا يرى فيه نفسه بأي حال من الأحوال؛ ومن يعطي ولا يأخذ فهو «نصف رجل»، لأنه يرى نفسه كريماً وصاحب فضل؛ ومن لا يأخذ ولا يعطي فهو «الهَمَج»، لأنه يظن أنه الآخذ والمعطي دون الله تعالى. واسم «السخي» لا يستحقه من يذكر العطاء وإنما بقلبه؛ واسم «البخيل» يستحقه من لا يؤثر والناس في حاجة. والفتوة مع النساء: تعني معاشرتهن بالمعروف، وحُسن الخلق فيما ساءك منهن، ومع من تكره صحبتها.

وأبو حفص لا يدّعي الخُلق، فهو يعرف حدّاد، أو كان حدّاداً، يعني أنه سريع الغضب وقوي، وينسى نفسه في الغضب في كثير من الأحوال، ومن نسيانه أنه أدخل يده في النار ليخرج الحديد منه حتى أن غلامه لما شاهد ذلك غشي عليه! وكان يحاول جاهداً أن لا يظهر عليه غضبه، وأن يكبت غيظه، وابتدع لنفسه طريقة طريفة، فكان إذا استشعر الغضب تحدّث في الأخلاق وما ينبغي أن يتحلّى به المرء منها، وعندئذ يهدأ روبداً، فإذا هدأ استأنف ما كان فيه من عمل. وتعليمه لمريديه كله رجولة وفتوة، ومؤداه حُسن العشرة مع الإخوان، وحفظ حرمات الشيخ، والنصيحة للأصاغر، وترك الخصومات، وملازمة الإيثار، ومجانبة الادخار، وترك صُحبة من ليس على طريقتهم، ومعاونة الإخوان في أمور دنياهم وآخرتهم. ويشخّص أبو حفص الفساد في التصوف: بأنه بسبب فسق العارفين وكذب المريدين، ويشرح أبو عثمان ما يقصد إليه أستاذه فيقول: فسق العارفين هو تهافتهم على الدنيا ومنافعها، وكذب المريدين أن يكون ذكرهم للخَلق أغلب على قلوبهم من ذكر الله، وشوقهم لرؤية الناس أشد من شوقهم لرؤية الله تعالى.

* * *

٣٢٨- نيكلسون -

رينولد ألن نيكلسون Nicholson (١٨٦٨ ـ ١٩٤٥م)، مستشرق إنجليزي،

اشتهر بتحقيقاته وبحوثه فى التصوف، ومن ذلك إخراجه للمختارات من ديوان شمس تبريزى الرومى سنة ١٨٩٨؛ وتذكرة الأولياء للعطار (بين سنتى ١٩٠٥ و ١٩٠٧)؛ وفاوس نامه بالاشتراك مع لسترانج سنة ١٩٠١؛ والمثنوى والمعنوى لجلال الدين الرومى، مع ترجمة إنجليزية له (بين سنتى ١٩٢٥ و ١٩٣٠).

ونشر نيكلسون بالعربية الكتاب المرجع فى التصوف، وهو: اللمع للسرّاج سنة ١٩١٨، وترجمان الأشواق لابن عربى، مع ترجمة وتعليق سنة ١٩١١، ومن ذلك ترجمته لكشف المحجوب للهجويرى سنة ١٩١١، وأسرار النفس لإقبال سنة ١٩٢٠، وكلها أعمال عظيمة فى التصوف.

ومن بحوثه القيمة «دراسات فى التصوف الإسلامى»، و «مذكرات عن كتاب فصوص الحِكَم لابن عربى»، وكتابه «صوفية الإسلام»، وكتابه «فكرة الشخصية فى التصوف الإسلامى». وهو يقول فى مقدمة كتاب اللمع: أنه قد آل على نفسه أن يؤرّخ للتصوف الإسلامى وبخاصة لنشأته، وأن الزهد بخلاف التصوف ويمهد له، والزهد إسلامى خالص، ولكن التصوف يرجع فى نشأته إلى عوامل كثيرة، نظرية: أبرزها الأفلاطونية المحدثة المتأخرة، متمثلة فى أفكار ذى النون المصرى ومعروف الكرخى، وفى الديانة المسيحية، والمذهب الغنوصى، وعوامل عملية: نتيجة احتكاك المسلمين بثقافات الهند وفارس الدينية، متمثلةً فى مذهب أبى يزيد البسطامى. وعلى ذلك فلا يمكن القول بأن التصوف إسلامى خالص، أو أنه هندى فارسى، أو مسيحى، وإنما هو جماع كل ذلك.

ولنيكلسون ترجمات لابن الفارض، ومعروف الكرخى، ومحيى الدين بن عربى، وإبراهيم بن أدهم، وبحث فى تطور التصوف، ونَبْتٌ بمصطلحات التصوف عند الصوفية. وخلاصة الأمر: أنه كان من أنشط المستشرقين فى هذا المجال، وربما كان أنصفهم للتصوّف وللإسلام.

* * *



٣٢٩ - أبو هاشم الكوفي...

أبو هاشم عثمان بن شريك الكوفي، ورغم أنه كوفي الأصل إلا أنه عاش بالشام، وعاصر سفيان الثورى، وفى زعم البعض أن الثورى قال فيه: «لولا أبو هاشم ما عُرفت دقائق الرياء». يعنى أنه: أول من تحدّث فى الرياء. واشتهر بأنه: أول من تسمى بالصوفى من أهل السُنّة، فكان يقال «أبو هاشم الصوفى»، ووصفه الجاحظ فقال: «كان من النسّاك، وينطق الشعر». وبنى أبو هاشم: أول خانقاه للصوفية فى الشام، بناها فى الرملة. وسبب تسميته بالصوفى: أنه كان يلبس لباساً طويلاً من الصوف كما تفعل الرهبان، وينتسب للشيعة، وقال بالحلول والاتحاد كالنصارى، فهو أول مسلم يقول بهما، والنصارى - كما نعرف - يضيفون الحلول والاتحاد إلى عيسى، وأبو هاشم أضافهما إلى نفسه، فمرة يقول: إن الله حلّ فيه؛ ومرة يقول: إنه اتحدّ به، ولم نعرف على وجه اليقين على أيهما استقر فى النهاية!

وقيل فيه أنه لم يكن من الشيعة، وإنما كان أموياً، إلا أن الثابت أنه كان شيعياً، وشيعاً متزّمتاً أيضاً. وقال بالجبر، إلا أن دعواه تلك كانت من باب التقية وظاهرياً، ولكنه فى الحقيقة كان باطنياً ودهرياً. ويبدو أنه كان على مذهب النصارى فعلاً وادّعى الإسلام، وأدخل مفاهيم النصرانية على المسلمين ليبلبل أفكارهم، وليظهر الإسلام بمظهر الدين المهتزّ المضطرب غير المتيقن من شىء. ولعل إظهاره الإسلام وهو النصرانى، إنما لأنه كان من الموالى، واسمه أبو هاشم عثمان بن شريك، لم يكن إشارة إلى أصوله العرقية، وإنما نسبةً إلى الهاشمية والعثمانية والشريكية، فتارة يكنّونه بهذه الأسماء، وتارة ينطقون بها باعتبارها أسماء له أصولية. وحتى اسمه الصوفى مختلَفٌ بشأنه، فقد قيل إنه اسمه للبس الصوف، وقيل بل هو اسمه كما كان الصوفى اسم جابر بن حيّان.

والصوفى كلمة يونانية المبنى والمعنى، بدليل أنها لم تُستخدم فى زمن النبىّ ﷺ. وهى بالعربية تعنى الحكيم، من Sophos بمعنى حكمة، كما نقول «أستاذ» - وهى فارسية - بمعنى المتمكّن من العلم. ويشككنا فى أصلها اليونانى أن الصوفية

كانوا يلبسون الصوف، ولم يفعل ذلك حكماء اليونان، والمرجّح إذن أن الصوفي هو الذي يلبس الصوف، وكان أبو هاشم فعلاً لا يلبس إلا الصوف، وقد قال سفيان الثوري في أبي هاشم: «لولا أبو هاشم ما عرفنا دقائق الرياء»، فإذا كان أبو هاشم يعلّم الناس أن لا يراءوا، فالذي يعلّمهم هذا العلم لابد أنه كان هو نفسه يتنكّب الرياء، ولبس الصوف كعلامة على الزهد أو التصوف من الرياء، فكيف يحذّر من الرياء ويراثي ؟! فلابد إذن أن «الصوفي» بمعنى «الحكيم» أو «الأستاذ»، ويسقط من ثم قول الشيعة فيه أنه «مخترع الصوفية»؛ غير أن جعفر الصادق قال عنه: «أنه فاسد العقيدة جداً، وأنه ابتدع مذهباً يقال له التصوف وجعله مقراً لعقيدته الخبيثة»، فلابد إذن أنه كان يلبس الصوف فسُمّي بالصّوفي، لأنه طالما هو فاسد العقيدة، فهو مراثي، ولِبْس الصوف لِيُقال أنه صوفي من الرياء!

وربما لم يوجد أصلاً شخص باسم «أبو هاشم الصوفي»، وأنه اختراع شيعي كاختراعهم لأسطورة «جابر بن حيّان الصوفي»، وربما كان أبو هاشم هذا هو نفسه خالد بن يزيد بن معاوية «الكيميائي» مثل جابر، وكان يُكنّى هو أيضاً «أبو هاشم». ولعلهم نسبوه إلى الكوفة، ووصفوه بالصوفي، لاشتهار الكوفة بصناعة الكيمياء وبعلم التصوف.

وقيل فيه: إنه أول من تسمّى باسم الصوفي من أهل الكوفة، فشرطوا تصوفه بالكوفة، ووصفوه فقالوا: إنه كان يلبس ثياباً كثياب الرهبان الضافية من الصوف. ومع ذلك هناك رأي مخالف يقول: إن الكوفة كانت تُشتهر بصناعة الصوف، وأن اسم الصوفي لذلك كان مساوياً لاسم الكوفي، ولهذا قيل في أبي هاشم أنه: أبو هاشم عثمان بن شريك الكوفي الصوفي! ويبدو أنه توفي نحو سنة ١٥٠ هـ، ولربما يكون أبو هاشم من الملامتية، وإن لم يكونوا قد ظهروا بعد كطائفة متميزة. وأبو هاشم رغم كل ما قالوه فيه، لم يختلف أحد في زهده ولو تظاهراً، وهو يقول في الدنيا: إن الله تعالى وسمها بالوحشة ليكون أُنس المريدين بها دونها، وليَقبل المطيعون له بالإعراض عنها، فأهل المعرفة بالله فيها مستوحشون، وإلى الآخرة مشتاقون.

وقيل: إن أبا هاشم كان على خُلُق عال، وقد نبّه إلى آفة الخُلق السيّ، وإلى أول خطيئة في الوجود، قال: إنها الاستكبار، والله لا يحب المستكبرين، والكِبْر يكون في القلب ويحيل المتكبّر جبّاراً،

وكذلك يطبع الله على كل قلب متكبّر جبّار. والكبر يكون في الصدور، ومن صوره الإنكار والإصرار. ونقيض الاستكبار الاستضعاف، والكبر يورث استنكاف العبادة. وكان إبليس أول المستكبرين. وقيل إنه قال: لفّلح الجبال بالإبر أيسر من إخراج الكِبْر من القلوب، وذلك أن إبليس أبى واستكبر.

وأبو هاشم لذلك، لأنه أراد التصوّف تَرك الكوفة وبغداد واتّجه إلى الشام، لعله فيها يجد الإخلاص، ويعيش الورع، ولا يصافح النفاق، ويطلب الآخرة على الدنيا، ومثّله في ذلك قوله: لو أن الدنيا قصور وبساتين، والآخرة أكواخ، لكانت الآخرة أهلاً أن تُؤثَر على الدنيا، لبقاء تلك ونفاد هذه.

* * *

٣٣٠- الهجويري...

أبو الحسن علي بن عثمان بن عليّ، الغزنوي، الجلاّبي، الهجويري، صاحب كتاب «كشف المحجوب»، ويُعدّ أقدم الكتب باللغة الفارسية في التصوف وأشهرها، ولسنا نعرف الكثير عن الهجويري، ومن المحتمل أنه توفي بين سنتي ٤٦٥ و ٤٦٩ هـ في لاهور، وقبره بها يزار، ويذكر الهجويري أن له كتابين، هما: «الديوان»، و«منهاج الدين»، وهما في التصوّف أيضاً، إلا أنهما يُنسبان إلى غيره، ولذلك فقد تحاشى في تأليفه لكتاب كشف المحجوب، أن يتمكن أحد من نسبة الكتاب إليه، فذكر نفسه فيه كثيراً.

وكان تأليفه للكتاب من الذاكرة، وذلك أنه كما يقول احتُجز في لاهور عندما بلغها، ولم يُسمح له بمغادرتها، فألفّه فيها، وكان ذلك احتمالاً في أواخر حياته، وكان بناءً على أسئلة قُدّمت إليه من واحد من أصحابه يدعى أبا السعيد الهجويري، وتوخّى أن يجئ كتابه بحيث يقدّم صورة متكاملة عن التصوف، لا مجرد أسماء وحكايات ومأثورات للصوفية. ويخاطب المؤلف القارئ على طريقة المعلّم الذي يدرّس لتلاميذه، ويناقش الآراء التي يقدمونها ويفنّد بعضها إذا لزم الأمر، وعلى ذلك، فإن طريقته تتميز على طريقة القشيري في الرسالة، فضلاً عن أن المؤلف له ميول فلسفية واضحة، وإن كان من السُنّة وليس من الشيعة، وهو يحاول أن يؤلف بين الدين والفلسفة، وتقوم نظريته على مقولة الفناء، ولكنه لا يذهب فيها إلى حد أن يُدمج مع أصحاب وحدة الوجود، ويؤثر مع الجنيد حالة الصحو

على حالة السُّكر، ويحذر المريدين من نبذ الشريعة، فالعمدة فى التصوف هو التزام الكتاب والسُّنة، ومع ذلك فهو يدافع عن الحلاج ضد خصومه الذين اتّهموه بانتحال الكرامات، وافتعال ما من شأنه أن يبدو أن له كرامات، ويقول إن الحلاج قد يبدو من ظاهر كلامه أنه من أصحاب وحدة الوجود، ولكنه ليس كذلك، وإن كان الهجويرى لا يتابعه على أفكاره، ومع ذلك فإن ادعاء الهجويرى التزام السُّنة لا يستقيم مع شروحه التى يبديها لمختلف مدارس التصوف التى يعرضها، فهو فى كثير من الأحيان يبدو متعاطفاً معها، ويحاول باستمرار أن يستعين بالتأويل لمدافعة الاتهامات التى قد تكال ضد هذه المدارس أو تلك!

وعلى أى الأحوال فإن خصيصة الهجويرى فى هذا الكتاب أنه فارسى المشرب، وأنه ينتمى لنفس المدرسة التى أنجبت أبا سعيد بن أبى الخير، وفريد الدين العطار، وجلال الدين الرومى. ويبدو واضحاً أنه رغم نقله عن الذاكرة - كما يدّعى - فإنه قد قرأ لُمَع الطوسى، وطبقات السُّلَمى، وأن هذين الكتابين فى باله وهو يعدّ مصنفه فى التصوف.

وكتاب «كشف المحجوب» يتضمن خمسة وعشرين فصلاً عن: التصوف؛ والفقر؛ ولبس الخرقة؛ والملامة والملامتية؛ وأهل الصُّفّة؛ والتابعين وتابعيهم؛ والمُحدَثين من أهل التصوف؛ ومعرفة الله (وبها ينكشف الحجاب الأول)؛ والتوحيد (ويكشف الحجاب الثانى)؛ والإيمان (ويكشف الحجاب الثالث)؛ والتطهُّر من الذنوب (ويكشف الحجاب الرابع)؛ والصلاة (وينكشف بها الحجاب الخامس)؛ والزكاة (وينكشف بها الحجاب السادس)؛ والصيام (وبه ينكشف الحجاب السابع)؛ والحجّ (ويكشف الحجاب الثامن)؛ والصُّحبة وقواعدها وأصولها (وهى مناط كشف الحجاب التاسع)؛ ولغة الصوفية ومدلولاتها وفهمها (فينكشف الحجاب العاشر)، ؛والسماع (وفيه يُكشف الحجاب الحادى عشر). وهذا الكشف هو المقصود من عنوان الكتاب: «كشف المحجوب».

ويبدو أن أهم فصول الكتاب هو الفصل الرابع عشر، ويتناول أفكار بعض أعلام الصوفية: كالجنيد، والخوّاص والتُّسترى، واختلافها عن أفكار الآخرين فى موضوعات كالفناء والأحوال والمقامات، وتباينها فى تراتبها، ويوردها كمدارس عقائدية، فالجنيدية نسبةً للجنيد، والخرّازية للخرّاز، والسهلية لسهل

التُّستَرى، والنورية لأبى الحسين النورى، والطَّيفورية لأبى يزيد طيفور البسطامى، والحلاّجية عند الحلاج، والحكيمية عند الحكيم الترمذى، والخفيفية لابن خفيف الشيرازى، والسيّارية للسيّارى، والمحاسبية للحارث المحاسبى. وكل مدرسة لها مشربها وروحها واهتماماتها التى تصطبغ بميول صاحبها الفكرية والمزاجية والنفسية، وتتأثر بمحيطه الثقافى، وبالشيوخ الذين أخذ عليهم، ويذكر الهجويرى من أئمة الصوفية من الصحابة: أبا بكر الصديق، وعمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان، وعلىّ ابن أبى طالب، ويقول فيهم: إنهم أصحاب آيات ودلائل ظاهرة فى المعاملات والحقائق، وهم قادة أهل الإيمان، وخير أهل الإحسان. ومن أئمتهم من آل البيت: أبو محمد الحسن بن علىّ؛ وسيد زمانه أبو عبد الله الحسين بن علىّ؛ ووارث النبوة ومصباح الأمة، زين العُبّاد، ونور الأوتاد: أبو الحسن علىّ بن الحسين ابن علىّ؛ وحُجّة أهل التقوى وأرباب المشاهدة: أبو جعفر محمد بن علىّ ابن الحسين، الملقّب بالباقر؛ وزَيْن الصفوة وجمال الطريقة: أبو محمد جعفر الصادق. وبلغ عدد من نوّه بذكرهم من أئمة الصوفية من التابعين، وتابعى التابعين، والمتأخرين، نحو السبعمائة. وعلى ذلك فهذه الدراسة: هى أول دراسة من نوعها فى التصوف، وقد أثارت لذلك اهتمامات المستشرق نيكلسون، فنقل الكتاب إلى اللغة الإنجليزية، واشتهرت ترجمته كما اشتهر الكتاب عن طريقه.

* * *

٣٣١ - الهروى (شيخ الإسلام)...

شيخ الإسلام: أبو إسماعيل عبدالله ابن محمد بن على، الأنصارى، الهروى، الحنبلى (٣٩٦ - ٤٨١ هـ) ونسبته الأنصارى: لأنه من نسل الصحابى أبى أيوب الأنصارى؛ ونسبته الهروى: لأنه من مواليد هَراة، وبها نشأ وتوفى؛ وكان حنبلى المذهب وشديد التحمس للإمام أحمد بن حنبل، وصنّف فيه كتاب «سيرة الإمام أحمد بن حنبل»، وكان قد بدأ شافعياً، وتسبب له انتماؤه للحنابلة وتصوفه فى نفس الوقت فى الكثير من الحرج، حتى تهددت حياته خمس مرات، ونُفى من بلده ثلاث مرات، فلا هو انتهى عن التحنبُل، ولا هو امتنع عن مريديه، ولا سكت عن مخالفيه، وكان شديد الوطأة على خصومه واشتهر بكتابه «ذمّ الكلام وأهله»؛ وله فى التصوف:

«المناجـــاة»، و«منازل الســائرين إلى ربّ العـالمين» ، و«طبقات الصـوفية»؛ وأشهر هذه الكتب الـثـلاثة: «كـتـاب مـنـازل الســائرين»، ولو لم تكن له قيمة فى ذاته فقـد اكتـسب هذه القيـمة بالشـروح التى صُنِّفت عـلـيـه، ولـعل أبرزها «مـــدارج السالكين» لابن قيم الجوزية؛ ومع أن كتاب الهروى لا يعدو الوريقـات فإن كتاب ابن القيم كان فى ثلاثة مجلدات، وربما كان تطلُّع ابن القيم لشرح كتاب الهروى، من منطلق: أن الهروى كان حنبلياً وصوفياً فى نفس الوقت، وهو الاتجـاه الذى اصطلح النقاد على إطلاق اسم «التصـوف السنّى» عليه، تمييزاً له عن التصوف الشيعى عند المـولويـة، والنوربخـشيـة، والصـفـويـة، والنعـمـة اللّهيـة والكبـروية إلـخ؛ وعـــن «التصوف الفلسفى» عند ابن عربى، وابن سبـعين، وابن مَسَرَّة، وغيـرهم، ممن قيل فيـهم إنهم من أصحـاب مذهب وحـــدة الوجود. ولقد اتُّهم الهروى بأنه من أنصار هذا المذهب، فـقـد ذهب فى تـعـريفـه للفناء والتوحيد مـذهباً يقرّبه من الاتحاديين، وقد عظّمـه الاتحاديون لهـذا السبب، وعـدّره منهم، وانتقده ابن تيمية، وأخذ عليه هذه السفسطة المستبشعة من شيخ كـبير وعالم جليل مـثله، مـشـهـود له بمجـاهدة أهل الباطل، وهو الذى يصف نفسه فيقول:

أنا حنبلىٌ ما حييت، وإن مت

فوصيتى للناس أن يتحنبلوا !

والحقيقة أن تعريف الهروى كان تعريفاً مُشكلاً، وربما كان تناول ابـن القيم لكتابه لرفع اللبس عنه أولاً، ولإعـادة الهـروى إلى المدرسة السلفية كواحد من أقطابها، قائراها بانجـاهاته الصوفيـة التى كان لابن القيم نفسه ميول إليـها، فبنى على كتابه، وطوّر أفكاره ووسّع مـنـهـا. وقـد حـاول الأئمـة أن يدفعـوا تهمـة التجـسيم عـــن الحنابلة، كما حاولوا أيضـاً أن ينتبهوا إلى أن الهروى لا يمكن أن يكون اتحادياً، وأن التـفـسيرات التى أضـيفت إليـه من باب الاعـتـسـاف أو الإنكار عليه، فـقد كـان الهروى حرباً على المتكلمين، وراسخاً فى السُّنة لا يتزلزل ولا يلين، وقال بعض من أصحابه: ليته لم يصنّف هذا الكتاب، أو ليته كتب فى الزهد مثلما فعل ابن حنبل. ولكن يبدو أن التصوف كان غـالباً على العصر، وابن حنبل نفسه ما كان يمتنع عن مجالسة الصوفية، وكـان لا يستنكف عن سؤالهم فى مجلسه كلما كـان هناك من المسائل ما كان جوابه عند الصوفية.

والتصوف عند الهروى: عبارة عن أربعة أمـور: الصفاء، والوفـاء، والفناء، والبقاء.

واعتقاده أن التصوف يتصل بالإسلام فى مصدره الأول القرآن والسُّنّة. ويوافق ابن تيمية الهروى فى تصنيف التوحيد باعتباره فى أعلى المراتب، وتوحيد الخاصة هو أعلاها جميعاً. والتوحيد عند الهروى ثلاثة أصناف: توحيد باللسان مع صحة الاعتقاد والانقياد؛ وتوحيد بالاستدلال بالآثار ووضوح العلم بلا ارتياب؛ وتوحيد بالحال وكمال البصيرة وهو توحيد الصوفية، ويسميه توحيد الخاصة، وهو أن لا يشهد الصوفى فى التوحيد دليلاً، ولا فى التوكل سبباً، ولا للنجاة وسيلة. وهو توحيد اختصه الحق لنفسه، واستحقه لقدره، وألاح منه لائحاً إلى أسرار صفوته، وأخرسهم عن نعته، وأعجزهم عن بثه:

ما وحّد الواحد من واحد

إذ كل من وحّده جاحد

توحيد من يخبر عن نعته

عارية أبطلها الواحد

توحيده إياه توحيده

ونعت من ينعته لاحد

والهروى عندما يتناول التصوف فإنه يؤرخ لصوفية وقته ويذكر غيرهم، ومنهجه فى طبقات الصوفية يتوسط منهجى عبد الرحمن السلمى وعبدالرحمن جامى. وعندما يذكر الصوفية يقول عنهم الفقراء، وتأريخه لهم كان بناء على طلب مريديه، وهو يكتب عنهم وعن أحوالهم ومقاماتهم سواء منهم من كان من أهل هراة أو من الغرباء على حدّ وصفه. وهو فى منازل السائرين يرتب هذه المقامات ترتيباً يشير إلى تواليها ويدل على الفروع التى تليها، ويخلى كلامه من كلام غيره، ويختصره ويربط المقامات بالقرآن والحديث ، ليكون الكلام ألطف فى اللفظ وأخف على الحفظ، وجعل عدد المقامات مائة، وقسّمها إلى عشرة أقسام، وعنده أن العبد لا يصحّ له مقام حتى يرتفع عنه، ثم يشرف عليه فيصحّحه. ويعيب على من سبقوه من المصنفين فى مجال التصوف أن تصانيفهم غير كافية ولا مغنية، حيث قد أشار بعضهم إلى الأصول ولم يف بالتفصيل، وجمع بعضهم الحكايات ولم يلخصها، ومنهم من لم يميز مقامات الخاصة وضرورات العامة، ومَنْ عد شطح المغلوب مقاماً، وجعل بوْح الواجد ورمز المتمكن شيئا عاماً، غير أن الاتفاق بين الجميع على أن النهايات لا تصح إلا بتصحيح البدايات، كما أن الأبنية لا تقوم إلا على الأساس، وتصحيح البدايات كما

يراه الهروى هو إقامة الأمر على مشاهدة الإخلاص، ومتابعة السُنّة وتعظيم النهى، ورعاية الحرمة، وبذل النصيحة، ومجانبة كل صاحب يفسد الوقت، وكل سبب يفتن القلب. والناس فى هذا الشأن ثلاثة نفر: رجل يعمل بين الخوف والرجاء، شاخصاً إلى الحب مع صحبة الحياء وهو الذى يسمى المريد، ورجل مُختطَف من وادى التفرق إلى وادى الجمع ويقال له المراد، ومن سواهما مدعٍ مفتون مخدوع. وجميع هذه المقامات تجمعها رتب ثلاث، الأولى أخذ القاصد فى السير، والثانية دخوله فى الغربة، والثالثة حصوله على المشاهدة الجاذبة إلى عين التوحيد فى طريق الفناء. والإسناد فى الرتب الثلاث إلى قول الرسول فى الأولى: «سيروا سبق المفردين». قالوا: وما المفردون ؟ قال: المهتزون الذين يهتزون فى ذكر الله عز وجل، يضع الذكر عنهم أثقالهم فيأتون يوم القيامة خفافاً». وفى الثانية قوله: «طلب الحق غربة». وفى الثالثة ـ أى معنى المشاهدة ـ قوله فى الإحسان: «أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك». والفرق بين المقامات الثلاثة هو الفرق بين درجة العامة، ودرجة السالك، ودرجة المحقق، ولكل منهم شرعة ومنهاج ووجهة.

والأقسام العشرة التى يقسم المقامات إليها هى: البدايات، والأخلاق، والأحوال، والأبواب، والأصول، والولايات، والنهايات، والمعاملات، والأودية، والحقائق. والبدايات مثلاً عشر، هى: اليقظة، والتوبة، والمحاسبة، والإنابة، والتفكر، والتذكر، والاعتصام، والفرار، والرياضة، والسماع، وكل واحدة منها يقسمها بدورها ثلاثة أقسام، فالتوبة مثلاً لا تصح إلا بعد معرفة الذنب، وهى أن تنظر إلى ثلاثة أشياء: إلى انخلاعك من العصمة حين إتيان الذنب، وفرحك عند الخلاص منه، وقعودك على الإصرار عن تداركه، مع يقينك بنظر الحق إليك. وشرائط التوبة ثلاثة أيضاً : الندم، والاعتذار، والإقلاع. وحقائق التوبة ثلاثة كذلك: تعظيم الجناية، واتهام التوبة، وطلب إعذار الخليقة. وسرائر حقيقة التوبة ثلاثة : تمييز التقية من العزة، ونسيان الجناية، والتوبة من التوبة أبداً. وهكذا فى كل شىء ثلاثة، فلطائف سرائر التوبة ثلاثة، وتوبة العامة تدعو إلى ثلاثة، وكذلك توبة الأوساط، وتوبة الخاصة، وأيضاً فإن مقام التوبة لا يتم إلا بثلاثة. وهكذا فى كل الأقسام فإنه يُجملها عشرة، ثم يجعل كل قسم ثلاثة. وكلامه

فى التعريفات شديد الإيجاز وقد يغمض لذلك فى كثير من الأحيان، وهو ما استدعى من الشارحين أن يشرحوه، وقد حمّلوه أحياناً ما لا يحتمل فجرّحوا الهروى، وكان نقد الكثيرين له، سواء من الأشاعرة خصوم،ه أو من السلفية من أصحابه ـ كما سبق أن نوهنا.

ويتبقى مع ذلك كتاب «منازل السائرين» تُحفة فى الأدب الصوفى، بأسلوب الهروى الرفيع فيه، وهو ما اشتهر عنه، فقد كان مبدعاً غاية الإبداع فى تخريجاته وألفاظه ومصطلحاته وتعبيراته. وضمن له الكتاب الكثير من المريدين حتى الآن، نذكر منهم من معاصريه: «أنسا الوقت عبد الأول السجزى»، ومؤتمن الساجى، ويزّهم جميعاً يوسف الهمذانى وارث أفكاره.

* * *

٣٣٢ - ابن هود المرسى...

الحسن بن عضد الدولة علىّ، أخو المتوكل على الله ملك الأندلس، بن يوسف، ابن هود، الجذامى، المرسى، أبو علىّ؛ مولده بمرسية الأندلس سنة ٦٣٣ هـ (١٢٣٥م)، من بيت مجد، وكان أبوه نائب السلطنة فى مرسية.

وابن هود من فلاسفة الصوفية، ولكن تصوفه تصوّفٌ يهودى، فقد انتحل ديانة اليهود، وتصوّف على طريقة النصارى، واشتغل كالرهبان بالطب والحكمة! ورغم انحرافه العقدى فقد حجّ! غير أنه انتقل إلى الشام، ففيها يكثر اليهود والنصارى، واستقر فى دمشق، وفيها توفى سنة ٦٩٩هـ (١٢٩٩م).

ويبدو أن اضطرابه العقدى كان نتيجة اضطراب ذهنى، ربما كان الفصام، وكان يعانى من حالة ذهول، وصفُوها بأنها انجذاب، وكان كالزاهد أو الراهب، يعتزل الناس، ولايريد من الدنيا شيئاً، ويأكل إذا لزم الأمر وإلا فهو صائم صيام الدهر، يُسرد الصوم بالأيام، ومن الغريب أن تلاميذه كانوا من اليهود! وكان يقرئهم كتاب «دلالة الحائرين» لموسى بن ميمون فيلسوف اليهود من دائرة الثقافة الإسلامية!! والكتاب بالعربية وإنما كتابته بالحرف العبرى، لا يستطيع المسلمون قراءته، وكان ابن هود يقرأ العبرية ويتحدثها، ويعرف التوراة والتلمود والمتن وكتُب اليهود جميعها، ويستطيع أن يحاضر فيها، الأمر الذى يشككنا فى جدّية إسلام هذا المتصوّف، ونادراً ما كان يؤم مجالسه المسلمون، وكان حدثاً فى وقته أن يأتى إليه من علماء هذا الوقت عماد الدين الواسطى يقول له: أريد أن تسلكنى؟ فردّ

عليه ابن هود: من أى الطرق؟ من الموسوية، أو العيسوية، أو المحمدية ؟ فكأنه متصوف فقط، وليس على أى من الديانات، فهو يعرفها ويمكن أن يدرسّها ويُسلك أياً من يكون ضمن أىّ من الطرق الصوفية، لأى من هذه الديانات!

وابن هود كان من الدعاة لوحدة الوجود، ويبدو أن صوفية الأندلس الفلاسفة كانوا غالباً من هؤلاء، ومن شعره :

علِم قومى بى جَهْلٌ
إن شأنى لأجلُّ
أنا عبدٌ، أنا ربٌّ
أنا بعضٌ، أنا كلٌّ
أنا معشوقٌ لذاتى
لستُ عنه الدهر أسلو

وواضح أن منطقه منطق الأضداد تجمعها وحدةٌ وجودية، وأنه من عقيدته أنه هو الله، أو أن الإنسان هو الله، كأنما عقيدته إنسانية. وقال فيه المناوى: ابن هود فاضلٌ تفنّن، وزاهدٌ تسنّن، عنده من علوم الأوائل فنون». وقال ابن أبى حجلة فيه : ابن هود، شيخ اليهود، عقدوا له العقود، على ابنة العنقود. ـ يعنى ان ابن حجلة لم يكن يشك فى يهوديته، وكان يردّ انجذابه أو سُكره ـ بلغة الصوفية ، إلى أنه كان يشرب الخمر حقيقةً ويواظب عليها، حتى أنه كان يذهل نهاره كله! فهل ندرج ابن هود هذا ضمن صوفية المسلمين من الفلاسفة؟ أبداً فهو يهودى بإقراره، وبِعلمه، وباعتقاده، وبفلسفته!

* * *

٣٣٣ - هيارHuart ...

(١٨٥٤ ـ ١٩٢٣م) مستشرق فرنسى كانت له اهتمامات بالطرق الصوفية، خاصة البكتاشية والمولوية، وتوفر على دراسة القيمة التاريخية لمذكرات الدراويش، وروى الكثير من الطرائف والحكايات عنهم، وترجم منتخبات من الشعر الصوفى لعفيف الدين التلمسانى، وكتاب مناقب العارفين لشمس الدين أحمد الفلكى، وكانت له الكثير من البحوث الموضوعية فى المجلة الآسيوية، واشترك فى مؤتمر المستشرقين الذى عقد بالجزائر سنة ١٩٠٥ ، ثم فى مؤتمر كوبنهاجن سنة ١٩٠٨ ، وأقواله علمية. وكان أستاذاً للعربية والفارسية والتركية بمدرسة اللغات الشرقية، ومديراً لمدرسة الدراسات العليا، وكان يحاضر فى تفسير القرآن باللغة العربية، وفى التصوّف وأصوله ومصطلحاته، وانتخب رئيساً لمجمع

الكتابات والآداب، وعضواً بالمعهد الفرنسي، والجمعية الآسيوية، والمجمع العلمي بدمشق.

* * *

٣٣٤ - الهيبة (الصوفي المجاهد)...

الصوفي العتيد والمجاهد العنيد، الإمام أحمد الهَيْبة بن مصطفى ماء العينين، القلقمي، الصحراوي، وكان فقيهاً وأديباً، وحارب ضد الاحتلال الفرنسي ليعيد المغرب عربياً إسلامياً كما كان. وميلاده ونشأته في الصمارة، وهي الدار التي أنشأها أبوه في الصحراء، ولما مات أبوه خلفه على تزنيت من السوس، وقد رأى الناس قد انحرفت عن الدين وضلت السبيل بعدما استفحلت شرور الحماية الفرنسية التي وقعها المولى عبد الحفيظ مع الفرنسيين، وعمّ الناس السخط، فأجمع علماء تزنيت في أبريل سنة ١٩١٤م (رجب ١٣٣٠) على توليه الجهاد، وخلعوا بيعة عبد الحفيظ. وسيّس الهيبة التصوّف، وقصد إلى المتصوفة في الزوايا يستنهضهم الجهاد، وأرسل بهم إلى القبائل لنفوذهم هناك، وغزا بجيشه مدينة مراكش ودخلها في رمضان سنة ١٣٣٠هـ، وكان العام خصيباً فهبطت الأسعار وعدّوا ذلك من بركاته، وعظم فيه اعتقاد الأهالي به فلم تقع حوادث سرقة مدة الأربعة والعشرين يوماً التي أقام فيها في مراكش، ولاحقه الفرنسيون فهرب إلى الجبال، واستقر في كردوس، واعتقد فيه أهل الجبال، ودخل مع الفرنسيين في وقائع، وقُتل من المغاربة كثيرون، ومرض الهيبة وتوفي بكردوس، وكانت حياته مثلاً لما يمكن أن يصنعه التصوف في المسلمين إذا فُرض القتال عليهم. والجهاد فريضةٌ على كل مسلم إذا انتُهبت أرض المسلمين، وأُخرجوا من ديارهم، كقوله تعالى: ﴿وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ﴾ (البقرة ١٩١)، وقوله: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ﴾ (البقرة ٢١٦)، وقوله: ﴿وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ﴾ (الشورى ٤١)، وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ﴾ (الأنفال ٦٥).

* * *



٣٣٥ - ابن واسع (زين القرّاء)...

أبو بكر محمد بن واسع بن جابر، الأزدى، المتوفى سنة ١٢٣هـ/ ٧٤١م، كان قرّاءً وبكّاء، ووصفه الحسن البصرى فقال إنه: «زين القُرّاء»، وقال مالك بن دينار: القرّاءون ثلاث طوائف، فقرّاءون للأغنياء أو للدنيا، وقرّاءون للملوك، وقرّاءون للرحمن. ومحمد بن واسع من قرّاء الرحمن».

ومن أقوال ابن واسع: القرآن بستان العارفين، فأيتما حلّوا منه حلّوا فى نزهة». وكان يبكى لدى سماعه القرآن، وكلما تفكّر فى الله، وفى الآخرة. وبكاؤه متكتم، وكان يعيب على من يسمع القرآن ولا يبكى، ويعيب على من يكون بكاؤه مسموعاً، ويقول: أدركنا الناس وهم ينامون مع نسائهم على وسادة واحدة، ويبكون حتى تبتل الوسادة من دموعهم فلا تشعر نساؤهم ببكائهم لعشرين سنة، ولقد أدركت رجالاً يقوم أحدهم فى الصف، فتسيل دموعه على خدّه ولا يشعر به الذى إلى جانبه».

ومرض ابن واسع يوماً فجاءه يحيى البكّاء يعوده، فلم يعرف من يكون لأنهم وصفوا يحيى بالبكّاء، فقال ابن واسع: إن شرّ أيامكم (يقصد الصوفية) يوم نُسبتم فيه إلى البكاء».

وكان يلبس الصوف، ودخل على الوالى يوماً فسأله ما دعاه إلى لبس الصوف، فسكت، فقال له: أكلمك فلا تجيبنى؟! - فقال: أكره أن أقول: «زاهد» فأزكّى نفسى، أو «فقير» فأشكو ربّى عزّ وجلّ. وكان يقول: «من زهد فى الدنيا فهو مالك الدنيا والآخرة». ويقول: «من أقبل بقلبه على الله أقبل بقلوب العباد إليه».

وكان شديد الإحساس بالذنب حتى قال: «لو كانت للذنوب ريح ما قدرتم أن تدنو منى من نتن ريحى»، يقصد أنه كثير الذنوب. وكان يصلى الليل أجمع جالساً يومئ برأسه ويقول: قريباً أجلّى، بعيداً أملى، سيئاً عملى! وعرضوا عليه قضاء البصرة فرفض، وهدده الوالى فقال: ذُلّ الدنيا ولا ذُلّ الآخرة. وعاتبته زوجته على رفضه وقالت: «لك عيال وأنت محتاج»، فقال: «ما دمت ترينى أصبر على الخَلّ

والبَقْل، فلا تطمعي في هذا مني»، يقصد قبول منصب القضاء.

وكان رحمه الله من ثقات أهل الحديث، وروى أنه دخل على بلال بن أبي بردة، وقال له: يا بلال، إن أباك حدّثني عن أبيه عن النبيّ ﷺ قال: «إن في جهنم وادياً يقال له هبهب، حقاً على الله أن يسكنه كل جبار»، فإياك يا بلال أن تكون من يسكنه.

وأقام ركن الجهاد واشترك مع يزيد ابن المهلب في غزو خراسان، واستأذن منه للحج فأذن له، فسأله: أتأذن به للجيش كله؟ فقال يزيد: لا، فقال ابن واسع: إذن لا حاجة لي بالحج». وتلك سخاوة نفس (والسخاوة هي الكرم)، فلم يرخّص لنفسه دون إخوانه في الجهاد.

وكان مع قتيبة بن مسلم في خراسان، وخرج عليهم الترك، فأرسل قتيبة يجمع المجاهدة، وسأل عمّن يكونون بالمسجد، فقيل له: ليس إلا محمد بن واسع يُغضْنِض بإصبعه نحو السماء (يشير بإصبعه إشارة التوحيد)، فقال: تلك الإصبع أحَبُّ إليّ من ثلاثين ألف سيف.

وفلسفة ابن واسع فلسفة عمل، فلمّا سأله الأمير عن القضاء والقدر، قال: أيها الأمير! إن الله عزّ وجلّ لا يسأل يوم القيامة عباده عن قضائه وقدره. إنما يسألهم عن أعمالهم!

ومن كلامه في الخطايا: «أربع يُمِتن القلب، الذنب على الذنب، وكثرة مشافهة (مفاخذة) النساء وحديثهن، وملاحاة الأحمق - تقول له ويقول لك - ومجالسة الموتى». وسألوه: ما مجالسة الموتى؟ قال: «مجالسة كل غنيّ مترف وسلطان جائر». وكان يسمي هؤلاء موتى! وكان يدعو الله ويقول: «استغفرك ربّي من كل مقام سوء. استغفرُ منه، فاغفر لي، وأتوب إليك منه، فتب عليّ».

وكان يصوم الدهر ولا يُظهر للناس صيامه، والمبدأ الذي يصدر عنه في زهده عن الطعام أن: مَن قلّ طعامه فَهِمَ وأفْهَمَ، وصَفّ ورَقّ، وأن كثرة الطعام لتثقل صاحبه عن كثير مما يريد. فلا تبيتن وأنت شبعان، ودع الطعام وأنت تشتهيه. - وهكذا ينصح ابن واسع أطباء الدنيا وأطباء طريق الآخرة.

ومن حِكَم ابن واسع: ليس للملول صديق، ولا لحاسد غِنَى، وإياك والإشارة على المعجَب برأيه، فإنه لا يقبل رأيك».

* * *

٣٣٦- الوراق (أبو بكر)...

هو أبو بكر محمد بن عمر، الحكيم،

الورّاق؛ فأمّا اسم الحكيم فلأنه عُرف بالحكمة، وأمّا اسمه الورّاق، فلأنه كان يتكسّب عيشه ببيع الكُتب، وأصله من ترمذ، وأقام ببلخ، ولا نعرف تاريخ مولده ولا وفاته، ولكننا نعلم أن أحمد ابن خضرورية كان من أصحابه، والمعروف أن ابن خضروريه توفى سنة ٢٤٦ هـ؛ فهو إذن من صوفية القرن الثالث الهجرى، أى أنه من الطبقة الثانية للصوفية. ولم يكن الورّاق صاحب طريقة، ولكنه فيلسوف صوفى، له كلام كثير فى التصوف ومواصفاته، وفى المعاملات والآداب؛ وكان سُنّيا، وأسند الحديث، وكان يكتب لخاصة الصوفية ويفكر لهم، ولذلك قلنا إنه من فلاسفة المتصّوفة، وهو مثل الفلاسفة المسلمين، قسّم الناس إلى طبقات أو فئات، وجعلهم ثلاث طبقات أوفئات: فئة العلماء ـ وهذه هى أرفع وأسمى وأرقى الفئات؛ وفئة الأحرار ـ يقصد بهم الحكّام؛ وفئة القُرّاء ـ وهؤلاء هم المعلّمون للدين، ولكل شىء من علوم الدنيا.. وإذا فسدت فئة العلماء، فسد فكر الأمة بِرُمّتها، وانتهى الناس عن الدين، وأساءوا المعاملات، وأفسدوا الآداب، فضياع الأمة بضياع علمائها. وإذا فسدت فئة الأمراء- أى الحكّام، سادت الفوضى، وساء العيش، وانحلّ المجتمع، وتحوّلت الأمة إلى قُطّاع طُرق ولصوص وقتلة ومجرمين. وإذا فسدت فئة القُرّاء ساء التعليم وفسدت الأخلاق..

وقال الورّاق عن القلب، بيت الإيمان: هو الوجدان: وله ست حالات، فهو إما فى موت أو فى حياة، وفى صحة أو فى سُقم، وفى يقظة أو فى نوم. وحياة القلب: هُداه؛ وموته فى ضلالته؛ وصحته فى طهارته وصفائه، وسُقمه فى كدورة مشاعره، وتهافت علاقاته؛ وأيضاً فإن صحته فى يقظته فى الذِّكر؛ فإذا نام القلب كان فى غفلة. ولكل حالة من هذه الحالات علامة؛ فعلامة الحياة: أن تكون للمرء رغباته ورهباته، وأن يكونا هما الدافعان له على العمل، والقلب فى الموت هو عكس ذلك. وعلامة الصحة: القوة واللذة؛ والسُّقم بخلاف ذلك. وعلامة اليقظة: السمع والبصر، والقلب فى النوم بخلاف ذلك. ومن يكتفى بالكلام من العلم دون الزُّهد تزندق؛ ومن يكتفى بالزهد دون الكلام والفقه فإنه يبتدع؛ ومن يكتفى بالفقه دون الزُّهد والكلام فإنه يتفسّق؛ ومن يتفنّن فى هذه الأمور كلها فانه يتخلّص.. وينصح الورّاق بمصاحبة العقلاء بالاقتداء؛ وبالتعامل مع

الزُهّاد بُحسن المدارة، ومع الحمقى بجميل الصبر - وسأله أحدهم: علمّني شيئاً يقرّبني إلى الله، وإلى الناس؟ فقال: أما الذي يقرّبك من الله فأن تسأله ولا تسأل سواه. وأما الذي يقرّبك إلى الناس فأن لا تسألهم أبداً.. - وقال له رجل: إني أخاف من فلان؟ فقال: لا تخف منه، فإنّ قلب من تخافه بيد من ترجوه.. - وكتب إلى صديق له، فكان فيما كتب: راحة الدنيا تؤدي إلى عناء عقابها، وتعب الدنيا بالحقّ يؤدي إلى راحة ثوابها، وتارك الشهوات هو المصيب للشهوات. - وقال: الأدب للعارف كالتوبة للمستأنف؛ وخضوع الفاسقين أفضل من حَوْقَلة المطيعين. ولوقيل للطمع: مَن أبوك؟ لقال: الشك في المقدور. ولو قيل: ما حِرْفتك؟ لقال: اكتساب الذُل ..ولو قيل: ما غايتك؟ لقال: الحرمان.

وقال الورّاق: أصل غلبة الهوى مقارفة الشهوات، فإذا غلب الهوى أظلم القلب، وإذا أظلم القلب ضاق الصدر، وإذا ضاق الصدر ساء الخُلق، وإذا ساء الخُلق أبغضه الخَلق، وإذا أبغضه الخلق أبغضهم، وإذا أبغضهم جفاهم، وإذا جفاهم صار شيطاناً.-

وقال: الناس كلهم في أحوال الدنيا أربعة: مرحومٌ، ومخدوعٌ، ومُعاقَبٌ، ومُكرَمٌ. ومَن صحّت معرفته بالله ظهرت عليه الهيبة والخشية. - وإذا فسدت العامة: غلب الفُسّاق على أهل الصلاح، وغلب وُلاة الجَوْر على ولاة العدل، والكُفّار على المسلمين. - وعوام الخَلق: هم الذين سلمت صدورهم، وحَسُنت أعمالهم وساعدوا الحكّام على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأهل العلم والدين على صدق الخير، وطَهُرت ألسنتهم، فإذا خلوا من هذا، فهم الغوغاء لا العوام.- والخاصة: هم الذين فقهت قلوبهم، وحَسُنت أخلاقهم، وكانوا أئمة، يدعون الناس إلى الخير والعمل به؛ ويساعدون الحكام على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأهل العلم والدين على صدق الخير، والعامة على ظاهر الأمور، فإذا خلوا من ذلك فهم «المفترون». واذا فسدت الخاصة غلب الكَذِبَة على الصادقين، والكُهّان على الموقنين، والموسوسون على المخلصين. - وقال: الحكماء هم ورثة الأنبياء، وليس بعد النبوة إلا الحكمة، والحكمة هي إحكام الأمور، وأولى علامات الحكمة: طول الصمت، والكلام على قدر الحاجة. - وقال يعظ مريديه: احذروا صُحبة الحكام إبقاءً على أنفسكم، والأغنياء إبقاءً على عيشكم، والسُوقة إبقاءً على خُلقكم، والنساء والصبيان إبقاءً على قلوبكم، والفُسّاق والمبتدعين إبقاءً على دينكم. - وقال: ازهدوا أن تترأسوا على الناس، وأن تعلوا

عليهم. ولا تصحبوا من يمدحكم بخلاف ما أنتم عليه، أو يغيّر ما فيكم، والمرائين إذا غضبوا عليكم ورموكم بما ليس فيكم. ـ واجتنبوا أن تعشقوا أنفسكم، فإن من يعشق نفسه، يسكنه الكبر والحسد، ويصيبه الذلّ والمهانة. ـ وقال الورّاق: ختام ما ننصح به: أن نحمدوا الله دائماً وأبداً، فالحمد لله، والثناء عليه، وله المنّة، وعليه التُّكلان.

٣٣٨ - ابن الورد (الصوفي الحكيم)...

وهيب بن الورد، من أهل مكة، وبها توفي سنة ١٥٣ هـ، وكان من أقران إبراهيم بن أدهم، وتلقى عليه سفيان الثوري، فإذا حدّث سفيان الناس في المسجد الحرام وفرغ، قال: قوموا إلى الطبيب! يقصد وهيباً. وكان اسمه عبد الوهاب فصغّره فقيل وُهَيْب. ومن أصحابه الفضيل بن عياض، وعبد الله بن المبارك، ومحمد بن المنكدر.

وعن بشر بن الحارث، قال: أربعة رفعهم الله بطيب المطعم: وهيب بن الورد، وإبراهيم بن أدهم، ويوسف بن أسباط، وسالم الخوّاص.

وعاش وهيب على السُّنّة وتزوج، فكانوا ينادونه يا أبا أمية. وقيل فيه: الوَرِع التقي الحييّ، ظفر بالحيا ونعم بالحيا، والتصوّف كله حياء. وقال في سبب حيائه: أنه كان واقفاً فإذا بأحدهم يأخذ بمنكبه ويقول له: يا وهيب! خَفِ الله لقدرته عليك، واستحيي منه لقربه منك، ولما التفت لم ير أحداً. فكأنه كان يحدّث نفسه، ويهمس لها بما ينبغي عليه.

ووهيب كان بكاءً، فكان كثيراً ما يظن حديث نفسه إليه من الشيطان، فيشتد في البكاء، فإذا لاموه قال عن النبيّ زكريا: بين الجنة والنار مفازة لا يقطعها إلا كل بكّاء. ـ فقيل إن وهيباً حلف أن لا يراه الله ضاحكاً، ولا أحداً من أصحابه. ولمّا رأى جماعة يضحكون يوم الفطر، قال: ألا يخاف هؤلاء أن يكون صيامهم لم يُتَقَبَّل؟ فإن كانوا غير واثقين، فما هذا فعل الخائفين؟ وكان يقول لتلميذه: لا تملّن من البكاء من خشية الله.

ووهيب مذهبه في التعليم: الحكايات، وضرب الأمثال، وإلقاء المواعظ؛ وحكاياته معظمها فيها ذكر التوراة والإنجيل والأنبياء موسى وعيسى ونوح وزكريا. وواضح أن تأثره كبير بحكايات التلمود وأسفار العهد القديم ورسائل الرسل وبالثقافة العبرية: يقول عن الخضر لموسى: انزع عن اللحاح، ولا تمش في غير حاجة، ولا تضحك من غير عجب، والزم بيتك، وابكِ على خطيئتك. ويقول عن نوح: لمّا عاتبه الله في ابنه فأنزل عليه: ﴿إِنِّي

﴿أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ (هود ٤٦) بكى ثلاثمائة سنة حتى صار تحت عينيه مثل الجدول من البكاء!! (كيف عرف ذلك؟ لا أدري!) ويقول عن عيسى: أنه قال لحواريه عن الدنيا: لا خير في دار قد عُصي الله فيها، ولا تُدرك الآخرة إلا بتركها، فاعبروها ولا تعمروها، واعلموا أن أقتل كل خطيئة حبّ الدنيا، ورُبّ شهوة أورثت حزن أهلها طويلاً. ويقول عن موسى: إنه سأل ربّه عن آية رضاه عن عبده، فأوحى الله تعالى إليه: إذا رأيتني أهيء له طاعتي وأصرفه عن معصيتي فذاك آية رضائي عنه. ويقول عن يحيى: إن الشيطان لما أعيا عنه سأله يحيى: أخبرني عن بني آدم، فقال له الشيطان: هم ثلاثة أصناف، فصنفٌ أشدّ الأصناف علينا، نُقبل حتى نفتنه ونتمكن منه، ثم يفزع إلى الاستغفار والتوبة، فيُفسد علينا كل شيء أدركناه منه، ثم نعود له فيعود، فلا نحن نيأس منه، ولا نحن ندرك منه حاجتنا، فنحن من ذلك في عناء؛ وصنفٌ آخر في أيدينا بمنزلة الكرة في أيدي صبيانكم، نُلقيهم كيف شئنا وقد كفونا أنفسهم؛ وصنف آخر مثلك، معصومون لا نقدر منهم على شيء. فقال له يحيى: على ذلك، هل قدرت مني على شيء؟ قال: لا، إلاّ مرة واحدة، فإنك قُدِّمتَ طعاماً تأكله، فلم أزل أشهّيه لك حتى أكلتَ أكثر مما تريد، فنمت تلك الليلة ولم تقم إلى الصلاة كما كنت تقوم إليها. فقال له يحيى: لا جَرَمَ لا شبعتُ من طعام أبداً حتى أموت! فقال له الشيطان: لا جَرَمَ لا نصحتُ آدمياً بعدك!

ومن مواعظه للعلماء: عجبتُ للعالِم كيف تجيبه دواعي قلبه إلى ارتياح الضحك وقد عَلِمَ أن له في القيامة روعات ووقفات وفزعات. وقال: رُبّ عالم يقال له فقيه وهو مكتوب عند الله من الجاهلين.

ومن مواعظه لمريديه: يا عطاء، إياك أن تطلب حوائجك إلى من غلق دونك أبوابه، وجعل دونها حُجّابه، وعليك بمن أمرك أن تسأله ووعدك الإجابة. وقال: ياعطاء، أوصيك أن لا يعرض لك أمر إلا آثرت فيه محبة الله على ما سواها. وقال: اتق أن يكون الله أهون الناظرين إليك. وقال: الحكمة عشرة أجزاء، تسعة منها في الصمت، وواحدة في العزلة، فأردتُ نفسي من الصمت على شيء فلم أقدر عليه، فصرت إلى العزلة فحصلت على التسعة. وقال: وجدت العزلة في اللسان. وقال: من عدّ السلامة من عمله قلّ

كلامه. وقال: حُبّ الفردوس وخشية جهنم يورثان الصبر على المشقة، ويبعدان العبد من راحة الدنيا.

وسأله تلميذه: أيجد طعم العبادة من يعصى الله ؟ قال : لا، ولا مَن هَمّ بمعصية. وقال : لم أجد شيئاً أرق للقلوب، ولا أشد استجلاباً للحقّ من قراءة القرآن لمن يتدبره. وقال: قيل لرجل ألا تنام ؟ قال: إن عجائب القرآن أذهبت نومي.

وقال ينصح أحد إخوانه: أنظر أن تتكلم بصدق، وإن كنت ترى أنه يضرك فإنه ينفعك، وانظر إلى الكذب فلا تتكلم به وإن كنت ترى أنه ينفعك، فإذا انقضى عملك انقض ظهرك. وقال: ما يُقضى من أمر يكن. وقال: قد بلغتَ بظاهر علمك عند الناس منزلة وشرفاً، فاطلب ببباطن علمك عند الله منزلة وزلفى، واعلم أن احدى المنزلتين تمنع الأخرى.

وسأله سفيان الثورى: أتحب أن تموت ؟ قال: لا فإنى أحب أن أعيش لأتوب.

ومن دعائه: ياربّ ! عجبت لمن عرفك، كيف يطلب رضا غيرك بسخطك ؟!

ومن تسابيحه : سبحان الذى تعطف بالمجد وتكرّم به ! سبحان الذى لبس العزّ وقال به ! سبحان الذى أحصى كل شيء بعلمه! سبحان الذى لا ينبغى التسبيح إلا له! سبحان ذى المنّ والفضل ! سبحان ذى العز والتكرم ! سبحان ذى الطَّوْل ! اسألك بمعاقد عزّك من عرشك، ومنتهى الرحمة من كتابك، وباسمك الأعظم، وبكلماتك التامات التى لا يجاوزهن برٌّ ولا فاجر، أن تصلّى على محمد وعلى آل محمد !

رحم الله وهيباً ورضى عنه وأرضاه.

* * *

٣٣٩ - وفا (أبو الحسن)...

أبو الحسن على بن محمد بن وفا، القرشى، الأنصارى، الشاذلى، المالكى، كان مولده سنة ٧٦١ هـ بالقاهرة، ووفاته بها سنة ٨٠٧ هـ ، وله التصانيف منها: المسامع الربّانية؛ ومفاتيح الخزائن العلية؛ والباعث على الخلاص فى أحوال الخواص؛ والعروش؛ والكوثر المُترع من الأبحُر الأربع؛ وله ديوان شعر وموشحات، وشعره كما يقول السخاوى ينطق بالاتحاد، وكذلك كان شعر أبيه محمد وفا فى مرحلته الأخيرة، وكثر أتباعه وأتباع أبيه من أصحاب الطريقة الوفائية، وكان يرتب لهم الأذكار بالتلاحين التى يستميل بها القلوب، وقال عنه المقريزى والشعرانى: إنه كان مهيباً عظيماً، وفى غاية الظرف والجمال حتى لم يُرَ فى مصر من هو

أجمل منه وجهاً ولا ثياباً، وأعطاه الله لسان الفرق والتفصيل زيادة على الجمع، وله كلام عالى فى الأدب، ووصايا نفيسة، ومن ذلك قوله فى العارف بالله والمريد والأستاذ والدعاة: كل ما أرضى العارف بالله أرضى معروفه، وكل ما أغضبه أغضب معروفه، فاعملوا أيها المريدون على أن يرضى عنكم العارفون إن أردتم رضا ربكم، واحذروا فإن العكس فى العكس. والمريد الصادق ليس له أن يفارق إمام حضرة هدايته أبداً، واعرف يا مريد من هو مرادك، ويا تلميذ من هو أستاذك، والزم تغنم. وأستاذك أعلم بك منك، لأنه حقيقتك وأنت ظله، ومعرفتك بحقيقتك على قدر معرفتك بأستاذك. وما لم يرتفع حكم المغايرة لأستاذك عندك فأنت بالحقيقة لا شك ضائع. وصورة الأستاذ الناطق مرآة سرّ المريد الصادق، إذا نظر فيها ببصيرته شهدها على صورة سريرته، فأول مبادئ المريد أن تتحلى طويته بسمات أهل الفلاح والولاية، فإذا كُشف لبصيرته عن أستاذه رأى صورة صلاحه وولايته فى صفاء صورة أستاذه، فينطق أن أستاذه هو الصالح المولى (الأخ والسيد والولى والشريك)، فيستمد من بركات ملاحظته المتوالية وهممه العالية، ولا يزال مطلبه من الأستاذ دعواته وخواطره، فيتودد إليه ويراه عظيماً فيسفر حجاب صورته الآدمية عن جمال ما خصّه الله من الروح المحمدية، فهناك يشهد أستاذه سيداً محمدياً، ويكون له عبداً، ولا يجعل له فى سواه أرباً ولا قصداً، إلى أن ينزع الله منه نزعة الزيغ، ويغشى سدرة سر الأنوار الروحانية، فينظر إلى أستاذه، فلا يرى إلا الواحد يتجلّى فى كل مشهد على قدر وسع الشاهد، فيصير عدماً بين يدىّ وجوده، ومحواً فى حضرة شهوده، فهكذا يكون المريد الصادق مع أستاذه: أول أمره توفيق، وأوسطه تصديق، وآخره تحقيق. واعلموا أن من ليس له أستاذ ليس له مولى، ومن ليس له مولى فالشيطان به أولى.

والمريد: مَن تحقق بمراده فى عين أستاذه. ومن وافق أستاذه فى أفعاله، ومن طابقه فيما أخبر له من معارفه، ومن خالفه فى أفعاله فَقَدَ المطابقة بتوهم معانى أقواله.

ولفلاح المريد مع أستاذه ثلاث علامات: أن يحبه بالإيثار، ويتلقى منه كل ما سمعه بالقبول، ويكون معه فى شئونه كلها بالموافقة. ومن تقرّب إلى أستاذه بالخدَم تقرّب الله إليه بالكرم. ومن آثر أستاذه

على نفسه كشف الله تعالى له عن حظيرة قدسه. ومن نزّه حضرة أستاذه عن النقائص زاده الله تعالى من الخصائص. ومن احتجب عن أستاذه طرفة عين أوثقه الله فى موابق البين، وما بين المريد وبين مشاهدة أستاذه إلا أن يجعل مراده بدلاً عن مراده، ومن لم ينبه أستاذه عن النقائص لم تكن له فرحة بحضرة الخصائص، ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور.

وسئل ابن وفا: هل لمريد الحق أن يتعاطى ما يشغله عن مراده ؟ فقال: لا ، فقيل: فما الحكمة فى إذن الشارع ﷺ لأمته فى التزويج، وفيه من الشغل ما لا يخفى؟ فقال: لأنه لما رأى النفوس البشرية مغلوبة لعوارضها المزاجية، أذنَ لها فيما يفك عنها غلبة تلك العوارض عليها، لئلا تشغلها عنه، وشرط عليها مساس الحاجة ليكون الشغل فى ذلك به لا عنه. ألا ترى قوله تعالى : ﴿ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا﴾ (النساء٣)، والعول الزيادة، أى أدنى أن لا تميلوا عن مولاكم إلى ما دونه، فمن تزوج بنيّة صالحة كان عابداً لله تعالى بتزوّجه، مع أن ذلك من ضمنه العصمة له من الزنا الذى هو أعظم الحُجب عن الله تعالى، وأما من تزوج لمحض الشهوة فقط، فذلك الذى يشغله الزواج عن ربّه. والأحق بالعبد هو مبدأ حقيقته الروحانية من مبدأ حقيقته الجسمانية، فإذا علمت هذا فقدّم أمر ربّك الذى هو مبدؤك. يقول تعالى: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ (الحجر٢٩)، فهو تعالى أحقّ بك وأرحم، وأفرح بك من أمك وأبيك ومن كل شئ دونه، فافهم.

ورأى أبى الحسن فى المرأة رجعى ومتخلّف للغاية، يقول: ولما كانت حواء مظهر صورة شهوة آدم الباطنة، كانت المرأة لا ترى قط إلا شهوة جسمية، لا تدرى ما فوق ذلك، ولا تتوجه همتها إلى ما هو أعلى منه، ولا تنظر قط فى العواقب، وإنما تسرع إلى ما يحرك الوهم البهيم شهواتها إليه. وكم من الأشياء تعدّ كمالاً فى الخلق وهى نقص فى الحق، كالأزواج والذرية، فإن قيل لولا الزواج ما حصل النتاج، فقل لهم بل كان يحصل من حيث حصل فى آدم عليه السلام، وإنما محض التعريف للأسباب هو كلمة النهى، الموجبة لتسليط ما فى الضرورات من العقاب، فافهم. - وهو قولٌ غريب للغاية!

ويروى الشعرانى: أن ابن وفا كان يقول: «إن علىّ بن أبى طالب رُفع كما

رُفع عيسى عليه السلام، وسينزل كما ينزل عيسى» ـ فأى بهتان هذا الذى يقوله وأى هراء؟! وقول ابن وفا مثل قول عبد الله بن سبأ، فهل كان ابن وفا من السبأية ويموّه على أتباعه؟! أم كان شيعياً من الغلاة ويدّعى أنه من أهل السُّنّة ؟

* * *

٣٤٠ - وفا (الشيخ)...

محمد بن محمد بن عمر بن شاهين (١١٧٩ ـ ١٢٦٤هـ)، ولقبه الشيخ وفا الرفاعى، أو الشيخ وفا، أو وفائى، من شيوخ حلب، وله «الفصول الوفية فى السادة الصوفية»، ورسالة فى جوامع حلب وتكاياها وأسماء الأولياء المدفونين فيها، وله موشحات وقدّد ـ يعنى فِرَق تقوم بالغناء ـ كانت تنشد بين يديه فى حلقات الذِّكر. وكلامه فيه «شِبْه وحدة وجود واتحاد».

* * *

٣٤١ - وفا (أبو الفضل)...

أبو الفضل محمد بن محمد بن محمد السكندرى، رأس الوفائية، كان شاذلياً، ولد بالإسكندرية سنة ٧٠٢ هـ، وتوفى بالقاهرة سنة ٧٦٥ هـ، وأصله مغربى، وقيل أصل الوفائية من صفاقس، وقيل كنيته كذلك أبو الفتح، وأبو التدانى، وفى بعض المراجع اسمه محمد وفاء، وسبب التسمية بوفاء فيما يظهر، أن الشيخ كما يدّعى العامة من أتباعه ـ كانت له كرامات، ومنها أن النيل تأخّر فيضانه، وتهدّدت المزروعات، فكان أن ذهب الشيخ إلى الشاطئ فى الرَّوْضة، وأمر النيل بالوفاء! فحدث أن الماء زاد فيه فى تلك الليلة زيادة كبيرة حتى أوفى، فظنوا ذلك من كراماته فسمّوه «وفا»!!

وكان نابغاً فى النظم رغم أنه أُمّى! وأنشأ القصائد على طريقة عمر ابن الفارض، يعنى كان من القائلين بوحدة الوجود، وكان قد ترك الإسكندرية إلى أخميم من الصعيد، وصار له المريدون والأتباع، فانتقل إلى القاهرة، وكان واعظاً وله لسان غريب فى التصوف، وله مؤلفات كثيرة، منها نفائس العرفان من أنفاس الرحمن، وشعائر العرفان فى ألواح الكتمان، والمقامات السُّنية المخصوص بها السادة الصوفية. ولما حضرته الوفاة خلع منطقته على الأبزارى صاحب الموشّحات، واستودعها عنده حتى يكبر ابنه علىٌّ فيسلمها له (يعنى الأمر وراثة؟!)، فلما كبر وأسلمها له، قيل إنه لم يعد يعرف عمل الموشحات كالسابق!

ومن كلامه: أعوذ بالله من شياطين

الحق والكون، وأبالسة العلم والجهل، وأغيار المعرفة والنكرة . اللهم إنى أعوذ بك وبسبق قدمك من سرّ حدودك ... وأعذنى يا الله بك منك، واغننى بديمومتك وبإحاطة وجودك وقيوميتك.. وغيّبنى فى ظلمة ذاتك التى تعجز فيها الأبصار والبصائر، ويستحيل فيها معارف العقول الإلهية ذات الأسرار والسرائر. واستغفرك بلسان الحق لا بلسان الوقاية والنظر، وبعين التلاشى لا بعين الرعاية. سبحانك من وجه ما أنت، لا من وجه ما أنا ... وسبحانك فى الحيث الذى لا يلتحق به البقاء ولا الفناء... اللهم أرنى وجهك لا من حيث كل شئ هالك. اللهم إنى أسألك بذات عدمك وبذات وجسودك، وبالذات المجردة، وبالذات المتصفة بذات التكوين والتلوين، وبالذات الفاعلة، وبالذات المنفعلة. اللهم اجعلنى عيناً لذات الذوات، ومشرقاً لأنوارها المشرقات، ومستودعاً لأسرارها المكتتمة فى غيوبها المبهمات. اللهم إنى أنزهك عن أوصاف الجسم والنفس والعقل والقلب، وأنزهك عن كل ذلك ونِدّه ومثله وخلافه وغيره، تنزيهاً معجوزاً عن تصوره وتوهمه.

ومن مخاطباته : قال لى الحق : أيها المخصوص، لك عندى كل شئ مقدار، ولا مقدار لك عندى، فإنه لا يسعنى غيرك، وليس مثلك شئ. أنت عين حقيقتى، وكل شئ مجازك، وأنا موجود فى الحقيقة معدوم فى المجاز. يا عين مطلعى، أنت الحد الجامع المانع لمصنوعاتى إليك، يرجع الأمر كله إلى مرجعك، لانك منتهى كل شئ، ولا تنتهى إلى شئ. طويت لك الأرضين السبع فى سبع من الحَبّ والنوى، المتنوعة بالفعل إلى أصناف من نبات شتى، فإذا شئت نَشْرها أولجت فيها جواهر السماء فاهتزت وربت، وأنبتت من كل زوج بهيج. إن الذى أحياها لمحى الموتى وهو على كل شئ قدير، فإذا تكامل خلقها وتكوّن ، وتزين كونها، سعت على أقدام الإقدام لمسجدك الأقصى بحكم الاستقصا، فتخر ساجدة سجود العبودية لأرباب حواسك الكلية والجزئية، تسبحك بألسنة التقديس، وتقدّسك بأفواه التنزيه، وتعظّمك تعظيم مخلوق لخلاّق، فأملاكها تسبح وتحمد، وأفلاكها تقوم وتسجد، وأنت جالس فى مجلس سلطانك، مستو على عرش ناطقة إنسانك، قد تلا لسان الإحسان بمحضر الأكوان، وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع إلا همساً !!!

ومن الوفائية: مرتضى الزبيدى (١١٤٥/ ١٢٠٥هـ - ١٧٣٢ / ١٧٩٠ م)، وكان علاّمة باللغة والحديث والأنساب والرجال، ومن كبار المصنّفين، وله فى الطريقة: «رفع نقاب الخفا عمن انتمى إلى وفا وأبى الوفا»، ومن مؤلفاته فى التصوف: «العرائس المجلوة فى ذكر أولياء فوة»، و«إتحاف السادة المتقين فى شرح إحياء علوم الدين للغزالى» فى عشرة مجلدات، و«كشف اللثام عن آداب الإيمان والإسلام»، و«عقد الجُمان فى بيان شُعَب الإيمان»، و«بَلْغَة الغريب فى مصطلح آثار الحبيب»، و«تنبيه العارف البصير على أسرار الحزب الكبير».

والزبيدى أصله من واسط بالعراق، ومولده بالهند فى بلجرام، ومنشؤه فى زبيد باليمن، وبها لُقِّب، ورحل إلى الحجاز، وأقام بمصر، واشتهر بالفضل حتى قيل فى فترة عيشة فى الحجاز: إن من حج ولم يزر الزبيدى لم يكن حجُّه كاملاً!! - وكأنه النبىّ؟!!

* * *

٣٤٢- أبو الوفاء (تاج العارفين)...

من أعيان مشايخ الطرق، وانتهت إليه رياسة الصوفية فى زمنه، وتتلمذ عليه كثيرون، حتى أنه كان يحيط به منهم أربعون يلازمونه ليل نهار، وجميعهم من أرباب الأحوال.

وقال فيه عبد القادر الجيلى: ليس على باب الحق كُردىّ مثل أبى الوفاء، وهو أول من سُمىّ بتاج العارفين بالعراق. وكان يقول: من انقطع فى مفاوز الأشواق لم يلتفت فى الآفاق، والذكر ما غيّبك عنك بوجوده، وأخذكَ منكَ بشهوده، فإن الذكر شهود الحقيقة، وخمود الخليقة.

وأبو الوفاء يحكى عن أحواله فى مختلف المقامات. يقول: الأجسام أقلام، والأرواح ألواح، والنفوس كئوس، والوَجْد حسرة تلهب، ثم نظرة تسلب، والقوة محادثة السرّ عند اصطلام العبد بشاهد الحضور، واستغراق القلب فى بحر المشاهدة، لغلبة المشهور. والتسليم بإرسال النفس فى ميادين الأحكام، وترك الشفقة عليها من الطوارق.

وميلاد الشيخ ووفاته غير معروفين.

* * *



٢٤٣ - اليافعي...

عفيف الدين عبد الله بن أسعد اليافعي (٦٩٨ - ٧٦٨ هـ)، نسبته إلى يافع من حِمْيَر، ومولده ونشأته في عدن، وله «نشر المحاسن الغالية في فضل مشايخ الصوفية أصحاب المقامات العالية»، و«روض الرياحين في مناقب الصالحين»، و«أسنى المفاخر في مناقب الشيخ عبدالقادر»، قال فيه الدكتور زكي مبارك: مؤلفاته الصوفية تعدّ من المراجع، وفيها أدب وذوق، وأشهر كتبه «روض الرياحين» ويفيض بأخبار الكرامات، وهو من هذه الناحية كتاب ضعيف، لأنه «يضيف المؤلف إلى طائفة المغفلين الذين يصدقون كل شئ» ؟!! وهذا القدح في اليافعي يبرره تحامل زكي مبارك على التصوّف. وزكي مبارك اعتبر الكتاب مهماً جداً لما فيه من الأخبار الصوفية التي تنفع من يهمه أن يعرف شمائل أولئك الناس. وأما كتابه «نشر المحاسن الغالية» فهو ممتع لأنه شرحٌ للأحوال والمقامات بأسلوب جميل، ولأنه دوّن فيه أكثر ما أنشأ من المنظومات الصوفية. ومنظومات اليافعي فن وسط، فلا هي بالشعر المطبوع، ولا هي بالنظم المتكلف، وهي في جميع أحوالها من أثر الصدق، وأظهر ما فيها الشعر الرمزي الذي تجري فيه الصبابة على الأساليب الحسيّة وهي في ذاتها معنوية كقوله:

شربنا حُمَيّا الكأس في قُدس حضرة
وأكرم بها في حضرة القدس من خمر
لنا عُصرت من كَرْم نور جمال مَن
سقانا وقد غبنا وحرنا فما ندري
سكرنا بها من شمّها قبل شُربها
نشاوىَ بَرَيّاها إلى آخر الدهر
أو السكر ذا من رؤية الكأس أو أتت
به رؤية الساقي إلينا ذوى السكر

واليافعي له شعر في الصوفية يقول:

رجال لهم علم بما جهل الورى
لهم صار مكشوفا مُنحّى حجّابه
فأسرار غيب عندهم علم كشفها
وقد سكروا مما يطيب شرابه
أولئك هم أهل الولاية نالهم
من الله فيها فضله وثوابه

وقُربٌ وأُنسٌ واجتلاءُ معارف
ووارِدُ تكليمٍ لذيذ خطابه
بترك الهوى أمسوا يطيرون فى الهوا
ويمشون فوق الماء أمْنٌ جنابه
ملوك على التحقيق ليس لغيرهم
من المُلك إلا اسمه وعقابه

واليافعى من أشد المدافعين عن الحلاّج وعبدالقادر الجيلانى، ويفرد كلاماً كثيراً يشرح به قول الجيلانى «قَدَمى هذا على رقبة كل وليّ»، والبيت الذى يختم به منظومته التى أولها:

ما فى المناهل منهل مستعذب
لا ولى فى الألذ الأطيب

ويقول فيه:

أفَلتْ شموسُ الأولين وشمسُنا
أبداً على فُلك العُلىَ لا تغرب

ولعل الجديد عند اليافعى هو اعتذاره عما يصدر من بعض الصوفية من التخريب المقتضى للإنكار، كتعاطى ما يؤدى إلى إساءة الظن بهم وسقوطهم من قلوب الخلق ورميهم لهم بالعظائم، لا يحتفلون بمدح الخلق ولا بذمهم، استجلاباً لكمال الإخلاص، واستبراءً للنفس من شوائب الشرك الخفى الذى لا يسلم منه إلا الحَذِر، لا يبالى أحدهم بكونه بين الخلق زنديقاً إذا كان عند الله صدّيقاً، فبعضهم يوهم الناس أنه لا يصلى ولا يصوم، وهو يصلى ويصوم فى الباطن فيما بينه وبين الله تعالى، وبعضهم يكشف عورته بين الناس، وبعضهم يشتم الناس بالألفاظ القبيحة، وبعضهم يجعل قصبته بين رجليه ويعدو عليها كأنها فرسه، وبعضهم يشتمل ببعض الحرف الدنيئة، وبعضهم جاء بعض الملوك فاستدعَى بطعام وجعل يأكل أكلاً بشيعاً شنيعاً، وبعضهم يأخذ شيئاً للناس حتى ينسبوه إلى اللصوصية وتزول عنه شهرة الصلاح، وإلى ذلك يشير اليافعى فى شعره فيقول:

كما فعل الخوّاص فى لبس خُلعة
ابن ملك بحمام لغسل مجرداً

حيث أن الخوّاص وقد أراد أن يزيل عنه شهرة الصلاة فدخل الحمام ووجد لباس ابن الملك قد نزعه ووضعه عند الحمامى ليحفظه له، فغفل الحمامى عنه فلبسه الخواص، ولبس من فوقه ثيابه وخرج يمشى رويداً حتى يلحقوه وينسبوه إلى اللصوصية، فتزول عنه شهرة الصلاح، وقد لحقوه فعلاً وضربوه وأطلقوا عليه اسم «لص الحمام»، فقال لنفسه: ههنا طاب المقام!!

ويقول الدكتور زكى مبارك إن أهمية

شعر اليافعي أنه ينشر الثقافة الصوفية، ولكن غرامه بنظم الشعر في كل شئ، وفي جميع المعاني والأغراض، يدل على أنه كان في أكثر أحواله من المتكلّفين.

* * *

٣٤٤ - ياقوت العرشي...

ياقوت بن عبد الله الحبشي، تأتي شهرته من أنه تلميذ أبي العباس المرسي، وخلفه على الطريقة الشاذلية، وكان أسود وفي لسانه عُجمة الحبش، وكان أبو العباس يقول فيه: هذا هو الياقوت البهرمان. - وكان عبداً لدى امرأة تعرف بزوجة الشريفي ،وأعتقته لمّا رأت شدة تقواه وتعبُّده وغشيانه لمجالس الشاذلية، واستأذن ياقوت الشاذلي في الاقتداء به، ففكرّ الشاذلي ثم قال: وجدتُ أسمك في أصحاب أصحابي - ويقصد بصاحبه الأول أبا العباس المرسي، يعني أن ياقوتاً في الشاذلية من الطبقة الثانية.

وقيل فيه كان إماماً في المعارف، وعابداً زاهداً، وتسميته باسم ياقوت العرشي: لأن قلبه كان لم يزل تحت العرش وما في الأرض إلا جسده، يعني أن قلبه معلقٌ بالسماء وإن كان يعيش بجسده على الأرض مع الناس. وقيل إنما سمي العرشي: لأنه في زعمهم كان يسمع أذان حملة العرش!!!

وياقوت من نزلاء الإسكندرية وتوفي بها سنة ٧٠٧ هـ، وفي قول سنة ٧٣٢هـ، وكان متزوجاً وله بنت، ولم ينقل عنه كلام كثير، ومما قاله : إن القلوب أوعية، وقد يكون الإيمان ملء القلب فهذا هو القلب الشفوق بالمسلمين، وصاحبه دءوب على معاونة الضعيف، وإنصاف المظلوم، وقضاء حاجة المحتاج. وقد يكون القلب منبع النفاق، فصاحبه حاقد، غلول، وغشاش حسود. وكان كثيراً ما ينشد :

أنْحلَ الحبُّ قلبه والجفونا
ومحاه الهوى فما يستبينا
ما تراه الظنون إلا ظنونا
وهو أخفى من أن تراه العيونا

وكان يقول : الصوفي إذا قصد أن يُطلع الناس على عمله فهو مُراء، فإذا قصد أن يطالع الناس حاله فهو مدّعٍ كذّاب. والمؤمن لا تُظن به الفتن، ومن يظنه مفتوناً فهو المفتون. - وكانت الإسكندرية تعج بالأجانب والملل فسألوه عنهم، وهي قضية وطنية ودينية أيضاً كانت تلحّ على الناس وتتطلب الإجابة العاجلة، فقال: الخيّر من هؤلاء أسلمهم صدراً للمسلمين.

* * *

٣٤٥ - ابن يزدانيار...

أبو بكر الحسين بن على بن يزدانيار، من أُرْمِيَة - وإن كان الشعرانى والقشيرى يذكران أنها أرمينية، وأرمية إحدى مدن أذربيجان، وقيل هى مدينة زرادشت. وابن يزدانيار عاش قبل القرن الرابع الهجرى، وكان شديد النقد على الصوفية، وله طريقته الخاصة وتعريفاته، ومما يروى له: أن صوفية خراسان عمل ولا قول؛ وصوفية بغداد قول ولا عمل؛ وصوفية البصرة قول وعمل، وصوفية مصر لا قول ولا عمل!! وهو فيما نعلم أول قول تظهر فيه الشعوبية فى مجال التصوف، ويظهر التحامل على مصر والمصريين بشدة، لدرجة تجريد التصوّف المصرى من كل قول وعمل، بما يعنى أنه لا وجود للتصوف فى مصر! وقد يكون لابن يزدانيار العذر طالما أنه شعوبى، فأى عُذر للدكتور عبد الرحمن بدوى وهو مصرى، وقد ردّد نفس هذا الكلام ونسبه لنفسه، عن صوفية مصر فى كتابه المقيت فى سيرته الذاتية؟ ويبدو أن هذا الصوفى الفارسى قد ووجه بالإنكار عليه من قبل صوفية العراق، فتراجع عن قوله فيهم، وادّعى أنه رأى فى المنام أنه كما لو كان يوم القيامة وآدم عليه السلام يسلّم عليه الناس، فذهب ليصافحه، فقال له آدم: اغرب عنى! (أى ابتعد) أنت الذى وقعت فى أولادى الصوفية وقد قرّت عيناى بهم !! ويعقّب ابن يزدانيار فيقول: أترانى تكلمت بما تكلمت به إنكاراً على التصوف والصوفية ؟ والله ما تكلمت إلا غيْرة عليهم، حيث أفشوا أسرار الحقّ وأبدوها إلى غير أهلها، فحملنى ذلك على الغَيْرة عليهم والكلام فيهم ، وإلا فَهُم السادة، وبمحبتهم أتقرّب إلى الله .. واعتذاره مع ذلك لم يَحِلّ الإشكال، لأن كلامه التصنيفى على الصوفية ما زال قائماً حتى الان، واشتهر عبر التاريخ، وردّده آخرون عنه.

وقيل فى طريقة وكلام ابن يزدانيار: أنه كان أميل إلى الظاهر فقد كان من علماء الظاهر، وأن أغلب كلامه فى المعاملات والمعارف، وفى الحياء خصوصاً، حتى ليدور مذهبه فى التصوّف عليه، ويقسّمه إلى واحد وثلاثين قسماً ، منها: حياء الجناية: كالذى جرى لآدم بعد أن ارتكب جنايته أو معصيته فى الجنة، فأوحى إليه ربّه: أفراراً منى يا آدم ؟ فقال: بل حياءً منك يارب !؛ وحياء التقصير: كقول الملائكة تعتذر لربّنا: سبحانك ما عبدناك حقّ عبادتك؛ وحياء الإجلال: كما روى أن إسرافيل تسربل بجناحيه حياءً من ربّه؛ وحياء الغَيْرة: كما روى أن النبىّ دخل

عليه عيينة بن حصن وعنده عائشة: فرفع النبيّ ﷺ يده فسترها عنه، فسأله عيينة عن ذلك، فقال النبيﷺ ما يعني: أن هذا هو الحياء الذي أعطيناه ومُنعتموه. ومنها حياء الكرم: لقوله تعالى في تأديب الصحابة: ﴿فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا وَلَا مُسْتَئْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ﴾ (الأحزاب ٥٣)؛ وحياء الحق: كما في قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ﴾ (الأحزاب ٥٣)؛ وحياء الوقار: كحياء النبيّ من عثمان وقوله: «ألا أستحي ممن تستحي منه الملائكة»؛ وحياء الغُربة: كقوله تعالى في حق ابنة شعيب: ﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ﴾ (القصص ٢٥)؛ وحياء الأمثال: لبيان الحقّ كقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾ (البقرة ٢٦)؛ وحياء المراجعة: كما جاء عنه ﷺ في ليلة الإسراء: «إني قد استحييت من ربّي»؛ وحياء الواجب: كما روى عن عائشة في ثنائها على نساء الأنصار بقولها: «إنهن لم يكن يمنعهن الحياء أن يسألن رسول الله ﷺ عن الصُّفرة والكُدرة» يعني من دم الحيض؛ وحياء المعرفة: كما رأى بعض الصالحين في منامه أن يخاطب أهل البصرة فيقول: يا أشباه اليهود، كونوا على حياء من ربكم؛ وحياء الإيمان: كما روى عن النبيّ ﷺ قوله: «الحياء من الإيمان، الحياء من الجنة»؛ وحياء المراقبة: في الاتّعاظ، كما في قول الله تعالى لعيسى عليه السلام في الحديث: «يا عيسى عظْ نفسَك، فإن اتّعظتْ فعظْ الناس، وإلا فاستحي مني»؛ وحياء قصر الأمل: كما في قول النبيّ ﷺ: «استحيوا من الله حقّ الحياء»؛ وحياء الإحسان: كما قال النبيّ ﷺ في حقّ المتورّعين عن المحارم: «إن الله يقول، إني لأستحي أن أحاسبهم»، وهو حياء إحسان لأنه يقول: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ (الرحمن ٦٠)، فجزاهم بإحسان وزَعهم إحساناً بترك المحاسبة؛ وحياء المعاودة: كما في الخبر: إن العبد إذا دعا الله تعالى ياربّ فيعرض عنه، ثم يقول ياربّ فيعرض عنه، فيقول الثالثة والرابعة، فيقول الله: إني استحييت من عبدي من كثرة ما يقول ياربّ... إلى آخر الأقسام التي يستوفيها ابن يزدانيار، وهو دليل تمكُّن ودراية وعقلية تصنيفية نافذة.

* * *

٣٤٦ - ابن يسار المحبّ الراجي...

أبو عبد الله، مسلم بن يسار، البصري، الأموي، حدّث عنه جعفر بن حيّان،

وكهمس، ومعاذ بن معاذ، وعبد الله بن المبارك، وعبد الله ابن أحمد بن حنبل، وأخذ عنه مالك بن دينار.

ومدرسة ابن يسار: هي مدرسة الحُبّ في الله، يقول: ما من شيء من عملي إلا وأنا أخاف أن يكون قد دخله ما يفسده عليّ، وليس من الحُبّ في الله عزّ وجلّ، فإني لا أجدني أحبّ إلا في الله.

ومقام ابن يسار مقام الصدّيقية، وابن يسار على الرجاء دائماً: يقول إني لأرجو الله. ويقول: ما ينبغي للصدّيق أن يكون لعّاناً، ولو لعنتُ شيئاً ما تركته في بيتي - يعني هو يرجو أن لا يلعن شيئاً.

والتصوّف عند ابن يسار: تمتُّع بالحضور، وتتبُّع للخطور، فكان إذا صلى نسي كل شيء من حوله، حتى أنه وقع حريقٌ إلى جنبه وهو يصلي فما شعر به حتى أطفئت النار. وكان إذا صلى ظنوه مريضاً، فكان يسجد ويطيل السجود، حتى لقد سقط حائط المسجد فما شعر به، وما التفت، وعرف أهل بيته عنه ذلك فكان إذا دخل البيت صمتوا، فإذا دخل الصلاة تكلموا فما كان يسمعهم ولا ينشغل بهم، وقيل فيه: كان يصلي كأنه ثوب ملقى.

وكان كثير الصمت، وكان يقول: من عَرَف صَمَتَ. والتكلُّم بالحق خيرٌ من السكوت عنه. والسكوت عن الباطل خيرٌ من التكلُّم به.

وكان يدعو كلما سجد، يقول: إلهي! متى ألقاك وأنت عني راضٍ؟ متى ألقاك وأنت عني راضٍ!- ورضاً الله شرطه العمل، والمسلم من أهل العمل. ويقول لأصحابه: اعملوا عمل الرجل لا ينجيه إلا عمله، وتوكّلوا توكُّل الرجل لا يصيبه إلا ما كتبه الله عزّ وجلّ.

وكانت وفاة ابن يسار سنة ١٠٨ هـ (٧٢٦م) عليه رحمه الله.

* * *

٣٤٧ - اليسَوي (الصوفي الشاعر الشعبي)...

أحمد إبراهيم اليسَوي (نحو٤٩٩هـ / ١٠٩٣م - ٥٦٢ هـ / ١١٦٧م) نسبةً إلى مدينة يَسّي من تركستان، وله ديوان الحكمة أو المناجاة بالتركية العامية، وقصائده فيه تهذيبية بلغة شعبية، تعبّر عن السنن الإسلامية والمعتقدات الصوفية، وكانت أساس لون جديد من الأدب التركي هو الأدب الشعبي الصوفي.

واليسوي أصلاً من مواليد سيرام، ولكنه انتقل مع أسرته إلى يَسّي بعد وفاة أبيه وهو في السابعة، فتتلمذ على بابا أرسلان، وبعد وفاته ارتحل إلى بخارى وأصبح من مريدي الشيخ يوسف

الهمذاني، وخلفه على الطريقة سنة ٥٥٥هـ، وعاد إلى يَسَّى وأقام بها حتى وفاته، وانتشرت منها الطريقة اليسوية فى آسيا الوسطى جميعها.

وقيل إن اليسوى لم يلجأ إلى العامية إلا لكى يمكّن بها لطريقته، وليحظى بالقبول لدى العامة، ولعلها لذلك أكثر الطرق الصوفية شعبية ورواجاً لدى جمهور الناس. واليسوى من الموحّدين، وأفكاره لا يميل فيها إلى الفلسفة، ولكنها تلهج بمحبة الله والإخلاص له والتوكل عليه، فهو الرزّاق، والشافى، والمعافى، والمعين، والميسّر، والمغنى، والمرجوّ فى الشدائد، وله الأسماء الحسنى والصفات الفُضْلى.

وأسلوبه الشعرى رمزى، ويلجأ فيه إلى القصة وسرد الحكايات والحِكَم والأمثال، ولغته سهلة وإن قيل إن أتباعه من بعده أدخلوا على لغته الكثير من التعديلات بحسب الأحوال، لتناسب التغيير فى وسائل التعبير مع انتشار التعليم.

وأكثر ما تروج اليسوية بين البدو من التركمان، وهو يحاكى فى لغته فى الشعر لغة هؤلاء البدو، ويضم فى شعره كل الأدب التركمانى الشعبى قبله، وما كان سائداً بين الناس من أساطير. ولما مات اليسوى، بَنَى تيمور على مدفنه ضريحاً فخماً، وخلفه على الطريقة أبناؤه وأحفاده.

* * *

٣٤٨- اليَشْرُطى (الصوفى المخالف)...

علىّ بن أحمد المغربى اليَشْرُطى الشاذلى، شيخ الطريقة اليشرطية، من الطرق الشاذلية. وكان ميلاده فى بنزرت سنة ١٢١١ هـ، ولما تصوّف استقر فى عكا من أعمال فلسطين، وسكن قرية ترشيحا سنة ١٢٦٦ هـ، وبدأ يبشر بفلسفته فتبعه خَلْق كثير، وانتشرت طريقته فى بلاد الشام.

وكان اليشرطى يُسقط التكاليف بدعوى الوصول! وفى كتاب «إعلام النبلاء»: أن تابعيه كانوا يفاخرون بمخالفة الشريعة، ويجهرون بذلك، وحجتهم فى ذلك أن الشريعة كما يقول رئيسهم حجابٌ، أى تحجبهم عن الحقيقة، فالأحرى بهم أن يخرقوا الحجاب ليعرفوا الحقيقة، وتمثّلوا بآدم، فالشريعة هى الشجرة التى نهاه عنها الله تعالى، وعصا آدم ربّه لأنه أراد أن يعرف، فلمّا عرف كان الخير العميم بنزوله إلى الدنيا وإعمارها والتناسل فيها. وأمثال هذه الأفكار صادمت اليشرطية مع السلطة، فقد كانوا إباحيين، وطريقتهم - كما يقولون - هى فعل المنكرات، وبذلك

يصلّون للربّ كما كان راسبوتين يفعل فى روسيا، فارتكبوا الفواحش، حتى شكاهم الناس إلى البشرطى، فكان يقول للناس: عظوهم وعرّفوهم أن هذا محرم!! وإنما كان يقول ذلك ليوقع الناس فيهم، فكانوا يسخرون ممن يعظهم كما يأمرهم بذلك البشرطى نفسه، وكانوا يعدّون من يعظهم من أهل الجهالة.

ولما كثرت الشكوى منهم قبضت الشرطة على البشرطى ونفته السلطات العثمانية إلى قبرص، فظل بها ثلاث سنوات ينشر فسقه، وعاد إلى عكا بشفاعة الأمير عبد القادر الجزائرى، وأخذ عليه وإلى عكا المواثيق بأن يترك ما كان عليه، إلا أنه لم يلبث أن أعاد سيرته الأولى، وتجدّدت حركته، والناس تميل مع الجهل إلى إتيان المنكرات، فظهرت من البشرطى حقيقته المشئومة، وأتى وأتباعه الأمور المذمومة، وانفضحت اعتقاداته المرجومة، ففتنه الحكومة إلى قبرص، ولاحقت أتباعه، وقيّدت حرية البشرطى فى بيت الأمير عبد القادر، ثم لمّا تعهد الأمير بحُسن سيرته، أعادت الحكومة إلى البشرطى حريته، ورجع إلى عكا هو وأنصاره، فرجع إلى طريقته أكثر من الأول، واستمر على ذلك إلى أن توفى سنة ١٣١٦ هـ (١٨٩٩م)، وبوفاته انتهى أمر جماعته، ولم يعد أحد يسمع بهم، واندثرت تعاليمه: ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ﴾ (الرعد ١٧) صدق الله العظيم. - فهل كان البشرطى من صوفية الإسلام؟ وهل يُحسَب علينا؟!

* * *

٣٤٩ - أبو يَعزّى...

يَلَنوّر بن ميمون، المتوفى سنة ٥٧٢ هـ، عاش فى فاس، وله زاوية يؤمها الناس فى بُلَيْدة، وحول قبره أقيمت قرية تسمى باسمه «مولاى بوعزّى»، وشهرته أنه قد تخرّج بصحبته جماعة من أعلام الصوفية بالمغرب، ومنهم أبو مدين الغَوْث، وكتبت فيه رسالات منها: «المُعْزّى فى مناقب أبى يعزّى» لأحمد الصَّوْمعى، المتوفى سنة ١٠١٣ هـ.

وعند أبى يعزى: أن طلب الحق دون أن يكون الطالب من الصوفية يوصل إلى المطلوب، فليس شرطاً أن يكون طالب الحق صوفياً، غير أن التحقيق يكون بالفضل. وليس التصوف مسألة كلام، فإن اللغة فيه أولى أن تكون إشارات، والإشارات فيه أنفع من كل كلام، وخاصةً إذا كانت تعبيراً عن مشاهدات. والولىّ لا يكون ولياً حتى يكون له قَدَم

ومقام وحال ومنازلة وسرّ، والقَدَم هو ما يسلكه من الطريق إلى الحق، والمقام ما تقرّه عليه سابقته فى العلم، والحال ما بعثه من فوائد الأصول وليس نتائج السلوك، والمنازلة ما خُص به من تحف الحضور بنعت المشاهدة، والسرّ ما أودعه من اللطائف عند هجوم الجمع ومحق السوى وتلاشى الذات، وتبرير ذلك أن حِفظ حُكم المقام يفيد الفقه فى الطريق، ويفيد الاطلاع على خبايا معانيه، وحفظ حكم الحال يفيد بسطة التصريف لله وبالله، وحِفظ حُكم المنازلة يؤيد الفتح اللدنى، وحِفظ حُكم السرّ يوسّع قدرة الاطلاع على مكامن المكنونات، وحِفظ حُكم الوقت يورث المراقبة، وحِفظ الأنفاس يوصّل إلى مقام الغيبة فى الحضور.

ويحكى عن طريقته مع مريديه: أنه كان لا يجامل ولا يدارى، وإنما يصف الكذّاب بالكذب، والسارق بالسرقة، ويستعمل الألفاظ الجارحة، فتكون النتيجة استشعار المسئ بإساءته، فيكون الندم والتوبة والاستغفار والاستقامة، فإذا خوطب أبو يعزى فى الرفق قال إنه مأمور، ولولا ذلك ما فضحت أحداً، ولسترت على الخلق. وشكاه مؤذّنه وقال عنه مقالة المنكرين عليه: «إن الرجل جاهل، لا علم عنده، فيقول للمواصلين إليه سرقتَ يا هذا، وزنيتَ يا هذا، وفعلتَ يا هذا كذا وكذا، فيذكُر لكل واحد فعله»، ومرض المؤذن، فعاده الشيخ ومسح عليه، وقال: يا بنى صدقت فأنا جاهل ولا أعلم ما علمنى مولاى، فقال المؤذن : أتوب إلى الله تعالى، فقال أبو يعزى: مما تتوب يا بنى وأنت قلت الحق؟ أنا جاهل لا أعرف إلا ما عرّفنى مولاى. ـ والإجابة كما ترى لها خبيئ، لأنه إن كان يعلم فقط ما علّمه مولاه، فمولاه ـ الله ـ علّمه كل شىء، فكيف يكون جاهلاً ؟ وزيارته للرجل من باب: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ (فصلت٤١/ ٣٤).

ويحكى أبو مدين عن طريقته معه فيقول: إنه لما سمع عنه توجّه إليه فى جماعة حتى دخلوا جبل إيروجان على أبى يعزى، فأقبل على القوم دونه، فلما حضر الطعام منعه من الأكل، فقعد أبو مدين فى ركن الدار، فكلما أحضر الطعام وقام إليه نهره أبو يعزى، وظل على هذه الحال ثلاثة أيام وقد أجهده الجوع وناله الذل، فلما انقضت الثلاثة أيام قام أبو يعزى من مكانه. يقول أبو مدين: «فأتيت إلى ذلك

المكان ـ حيث كان بو يعزى، ومرّغت وجهى فيه، فلما رفعت رأسى نظرت فلم أر شيئاً وصرت أعمى، فبقيت أبكى طول ليلتى وأنشد:

قليلٌ لمثلى زفرةٌ ونحيب

وليس له إلا الحبيب طبيب

وأمثل ما يلقى المحب خضوعه

إذا كان من يدعوه ليس يجيب

يقول أبو مدين: فلما أصبحت استدعانى، وقال لى: قرّب يا أندلسى، فدنوت منه، فمسح بيده على عينى فأبصرت، ثم مسح بيده على صدره وقال للحاضرين: هذا يكون له شأن عظيم ـ أو قال كلاماً هذا معناه، وأذن لى فى الانصراف». وعلى الرغم من هذا اللقاء القاسى عاد أبو مدين إليه مرةً ثانية وثالثة، وكرر الجلوس إليه، فقد كانت هذه طريقة أبى يعزى فى تربية مريديه. وما أشبه فعله بفعل الصينيين ـ فيما يسمى فى الحرب النفسية «التعمين بالعدو»، فأولاً تمسح به الأرض، وتذيقه الذل، ثم إذا استكان تظهر له العطف وتُحسن إليه، فبرعة يتخلّى عن موقفه المعاند، ويصبح من أقرب الناس للخصم السابق.ـ والغالب أن بويعزى توسّم فى أبى مدين شيئاً، فأراد أن يغيّره ويضمه إليه، وتلك هى طريقته.

* * *

٣٥٠ - يونس المصرى...

يونس بن حسن المصرى، المتوفى سنة ٨٩٦ هـ، له فى التصوّف «غايات السرائر وآيات البصائر» الذى فرغ من تأليفه سنة ٨٩٦ هـ، يدعو به إلى التصوف، ويعلّم الناس أسراره ولغته ومصطلحاته، والكتاب صغير، ولكنه تعليمى وعظيم الفائدة.

* * *

وهكذا ينتهى بحمد الله ومنته القسم الخاص بشيوخ التصوّف ورواده، وكبار المفكرين عليه، قدّمنا منهم ٣٥٠ شخصية؛ ويبدأ الآن إن شاء الله، قسم مصطلحات التصوّف. نسأل الله التوفيق.

* * *

القسم الثانى

معجم مصطلحات الصوفية
ويشمل ألفاظ الصوفية ولغتهم
الاصطلاحية ومفاهيمهم
ومعانى ذلك ودلالاته



بسم الله الرحمن الرحيم

رب يسّر

سئل الصوفى الكبير ابن عطاء: ما بالكم أيها المتصوفة قد اشتققتم ألفاظاً أغربتم بها على السامعين وخرجتم بها عن اللسان المعتاد. فهل هذا للتمويه أو لستر عوار المذهب؟

فقال ابن عطاء: ما فعلنا ذلك إلاّ لغيْرتنا على المذهب، ولعزّته علينا كيلا يُشْربها غيرنا. وأنشد:

إذا أهل العبارة ساءلونا أجبناهم بأعلام الإشارة

نشير بها فنجعلها غموضاً تقصرعنه ترجمة الإشارة

فلغة أهل التصوّف هى لغة الإشارة، لا يعرفها سوى الدارس للتصوّف والآخذ به، ولعله لهذا كان من الضرورى تجميع ألفاظ الصوفية وتفسير لغتهم الاصطلاحية، ومتابعة تطور هذه اللغة، واختلاف مدلول اللفظ باختلاف العصور واتجاهات الأعلام من الصوفية واهتماماتهم وثقافاتهم، وما عانوا من تحولات نفسية وانقلابات روحية وأزمات فكرية.

ولقد قيل إن المصطلح الصوفى الإسلامى يرجع إلى أصول هندية وإيرانية وهيلينية ويهودية ومسيحية، وتبيّن بالدراسة وبموضوعية كاملة أن هذه الدعاوى لم تكن إلاعن غيْرة وحسد، وأن التصوف مثله مثل التوحيد والفقه الإسلاميين، أصوله إسلامية،ومنشؤه القرآن والسنّة. ولا يوجد مصطلح من مصطلحات الأحوال والمقامات الصوفية إلاّ وله أصل قرآنى أو سند من أحاديث رسول الله ﷺ.

ولم يكن التصوف وليد مؤثرات ثقافية أجنبية، وإنما كان تطوراً طبيعياً للزهد الإسلامى. ومن هؤلاء الزاهدين من كانت حياته العملية والروحية حافلة وملفتة للانتباه أكثر مما كانت عليه حياة الكثير من أعلام الصوفية، فالزهد الإسلامى هو أصل التصوف ومنه يصدر. غير أن التصوف الإسلامى يعنى المعرفة الصوفية، بينما الزاهد زهدُه سلوك. والصوفى هو العارف المتحقق بعلوم الصوفية، وهى علوم كثيرة، وأخصّها علوم النفس والأخلاق والإلهيات. وللصوفية أقوال وكتابات ليست للزهّاد، ولهم طرق ورُبط ومراتب فى المعرفة، وحكومة باطنية يقوم بها انتظام العالم. ولابد أن تكون هناك حوارات بين الثقافات المختلفة، وتلاقح ثقافى، وتأثير وتأثر،

وأما النقل الثقافي والغزو الثقافي فليس منهما في التصوف شيء. ومن أعلام الصوفية من كان نتاجه الفكري عبقرياً، وله شعر وفلسفة وتفسيرات وتأويلات ترقى إلى حد الإعجاز. وأغلب الصوفية، لهم نظرات في النفس، وتحليلات تسبر الأغوار والدخائل والبواطن، وتقصر دونها كتابات كثير من علماء التحليل النفسي، وسيظل بها التصوف الإسلامي فخاراً للفكر الإسلامي، والإسهام الأكبر للمسلمين في الثقافة العالمية القديمة والمحدثة. وسيظل المستشرقون حديثهم عن الفلسفة الإسلامية هو الحديث في التصوف ما شاء لهم الحديث عن التفكير الإسلامي. وإنه لابْتسار في القول أن يستشهدوا على التأثيرات الأجنبية في التصوف الإسلامي، بأقوال للحلاج، والبسطامي، ورابعة العدوية، وابن عربي، والسهروردي، وأن يقال بسببها أن هذا التصوف أو ذاك، من الحلوليين، أو من دعاة وحدة الوجود، أو من المتأثرين بالأفلاطونية، أو أنه من أصول مسيحية، أو مجوسية. فالأمر أكبر من ذلك بكثير، وربما كان سبب إغراب ألفاظهم ونظرياتهم وأفكارهم: حضور القلب والمشاهدة وهما اللذان يجعلان الصوفي من المقربين الذين يرقبون خواطرهم، حتى ليخرج كل خاطر يخطر بقلب الصوفي وكأن الحق يخاطبه، أو كأنه يخاطب به الحق. وما قول هذا أو ذاك من كلمات بها مسحة الإغراب عن الفكر الإسلامي إلا تعبيرات تخصّ الصوفية من النساء والرجال على السواء، وتصف فناء الصوفي أو فناءه عن فنائه، من أمثال: سبحاني ما أعظم شأني؛ وأنا الحق؛ وأنا من أهوى ومن أهوى أنا، فإذا أبصرتني أبصرتنا، نحن روحان معاً في جسد، ألبس الله علينا البدنا؛ وأحبك حبين، حبّ الهوى، وحبّاً لأنك أهل لذاك، إلخ، وقيل في تفسير أمثاله ما رووه عن رسول الله ﷺ من أحاديث مشابهة، مثل: ما زال عبدي يتقرّب إليّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت عينه التي يبصر بها، إلخ ونحن إن كنا نعرف حقيقة الوجْد بين المحبين من البشر، فما يمكن أن يكون عليه الوجد من المخلوق للخالق لابد أن يكون أكبر وأخطر. وقد قيل إن المحبين لا يبلغون حقيقة المحبة حتى يقول الواحد للآخر «يا أنا»، وذلك نفسه ـ كما قيل ـ ما قصد إليه الحلاّج بمقولته «أنا الحق». فهل في ذلك ما يمكن أن يفسر ما اصطلح عليه القوم وأطلقوا عليه اسم الشطح الصوفي؟ وسوف نرى في هذا الكتاب الكثير من التفسيرات الكاشفة والهادية، ولعل فيها الغناء والفائدة. والأمر لله من بعد ومن قبل.

عبد المنعم الحفني

* * *

باب الألف

* * *

١ - آخرة...

عند أهل السلوك عبارة عن أحوال النفس الناطقة فى السعادة والشقاوة، وتسمى بالمعاد أيضاً. ويقولون: **الدنيا مزرعة الآخرة، ومحسوس الآخرة أقوى من محسوس الدنيا، وملذوذها أعظم لذة من لذة الدنيا، ومكروهها أعظم كراهة من كراهة الدنيا**، وسبب ذلك أن الروح فى الآخرة متفرغة لقبول ما يرد عليها من المحبوب والمكروه، بخلاف الدنيا فإن الجسم لكثافته يمنع الروح من قوة التفرغ للملائم وغير الملائم، فمن احتكم فى الدنيا لله تعالى وأطاعه فإن الله تعالى يجعله حاكماً فى حقائق الآخرة، يفعل فيها ما يشاء، وهؤلاء هم أهل الجنة.

٢ - آدم...

فى الاصطلاح الصوفى هو خليفة الله، وروح العالم، ويجوز إطلاق صفات الله على خليفته.

٣ - آل...

المقصود بالآل فى المجال الصوفى: هم آل بيت النبوة، ومن يؤول إلى النبىّ ﷺ بحسب النسب أو النسبة، كأولاده النسبية بحسب حياته الجسمانية، أو كأولاده الروحانية بحسب حياته العقلية، وهم العلماء الراسخون، والأولياء الكاملون، والحكماء المتألهون - المقتبسون من مشكاة أنواره، أى هديه وتعليمه، فإذا اجتمعت النسبتان كما فى الأئمة المُنَسَّبون كان ذلك هو النور على النور.

٤ - آن...

الآن: هو العشق، يقال فلان عنده آن، أى: عنده عشق؛ وفى اصطلاح الصوفية: العشق هو الآن، والعشق المقصود هو العشق الإلهى.

والآن الدائم: هو امتداد الحضرة الإلهية، فيندرج الأزل فى الأبد فى الوقت الحاضر، لظهور ما فى الأزل على أحيان الأبد، فيكون كل حين منها بمثابة المجمع للأزل والأبد، فيتّحد الأزل والأبد فى الوقت الحاضر، ولذلك يقال إن السرمد هو باطن الزمان وأصل الزمان، لأن الآنات الزمانية هى نقوش عليه، وتغيرات يُظهر بها أحكامه وصُوَرَه وهو سرمد، أى ثابت على حاله دائم، وقد يضاف إلى الحضرة العندية لقوله عليه السلام ليس عند ربّك صباح ولا مساء.

٥ - آية...

عبارة عن الجمع، والجمع هو شهود

الأشياء المتفرّقة بعين الواحدية الإلهية الحقيقية. والآيات عبارة عن حقائق الجمع، كل آية تدل على جمع إلهى من حيث معنى مخصوص، ونعلم ذلك الجمع الإلهى من مفهوم الآية المتلوة. ولابد لكل جمع من اسم جمالى وجلالى، ويكون التجلّى الإلهى فى ذلك الجمع من حيث ذلك الاسم. والآية هى الجمع، لأنها العبارة الواحدة من كلمات شتى.

وآية العهد: هى التى يقول فيها الحق: ﴿وإذْ أخذَ ربُّكَ من بنى آدمَ من ظُهُورهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وأشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أنفُسِهِمْ ألَسْتُ بربِّكُمْ قالُوا بَلَىٰ﴾ (الأعراف١٧٢). وفى التفسير الصوفى: أن الله أخذ على بنى آدم عهد المحبة بينه وبينهم، ويُقسم ابن الفارض بهذا العهد فيقول:

ومحكمِ عهدٍ لم يخامره بيننا
تخيُّلُ نسخٍ وهو خيرٌ ألِيَّةٍ
وأخذُكِ ميثاق الولا حيث لم أبِن
بمظهر لَبْس النفس فى فىء طينتى
لأنتِ مُنَى قلبى وغايةُ بُغيتى
وأقصى مرادى واختيارى وخيرتى

٦- إباحية...

فرقة من المتصوفة المبطلة، قالوا: لا قدرة لنا على اجتناب المعاصى وإتيان المأمورات، وليس لأحد فى هذا العالم مِلك رقبة ولا ملك يد، والجميع مشتركون فى الأموال والأزواج.

وقالوا: لا نبالى ما يصدر منا، سواء كان مع الشرع أو ضده، وأن الشريعة مقصودها ضبط العوام. ومن الإباحية فتح الدين محمد اليَعْمُرى الذى قال:

ما شروط الصوفى فى عصرنا اليو
م سوى ستة بغير زيادة
وهى نيك العلوق والسُّكر
والسَّطلة والرقص والغنا والقيادة
وإذا ما هَذَى وأبدَى المحالاً
وحلولاً من جهلٍ أو إعادة
رأىَ المنكرات عقلاً وشرعًا
فهو شيخ الشيوخ ذو السجادة

والإباحية قيل: إنهم من المندسّين فى الصوفية أو المتشبّهين بهم، دخلوا التصوف ظاهراً وهم فى الباطن كفرة، وقالوا: إذا كانت السعادة والشقاوة قد كُتبت علينا، وأن الأعمال فى الأصل لا تراد إلا لاجتلاب السعادة ودفع الشقاوة، فإنّ الأولى أن تتوجه العبادة إلى مساعدة المقدور على الوقوع، بأن نترك النفوس على سجيتها ولا نمنعها عن ملذوذ مقدور

لها تحصيله. وقالوا: إن الله كما وصف نفسه مستغن عن أعمالنا وغير متأثر بها سواء في المعصية أو الطاعة ، وإذن فلا ينبغي إلا أن نترك أمورنا على سجيتها بحسب أن كلاً ميسر لما خلق له. وزعموا أن الله هو الرحمن الرحيم، والرحمة أليق به، فلا موجب للخوف من العقاب أو العذاب ولا وجه لحرمان النفوس والأجسام مراداتها.

ومنهم جماعة راضوا نفوسهم على المجاهدات ولكنهم لم يحققوا لها الخلاص من كدوراتها، فاستباحوا كل محرّم ، فقد ظنوا أن التصوف هو الخلاص من الصفات البشرية وإزالة ما في الطبع بالرياضة، وما علموا أن الله قد خلق الشهوات لفائدة، إذ لولا شهوة الطعام لهلك الإنسان ، ولولا شهوة النكاح لانقطع النسل ، وإنما المراد من الرياضة كفّ النفس عمّا يؤذى من جميع ذلك، وردّها إلى الاعتدال فيه، ولذلك فمَن طلب الرياضة لتغيير الطباع فقد ادّعى المحال.

ومنهم جماعة راضوا أنفسهم على الرياضة، وظنوا أنهم بلغوا بها غاياتهم ، وأنهم قد تجوّهروا فقالوا :إذن لا نبالي ما يصدر منا، سواء كان مع الشرع أو ليس معه، لأن الشرع للعوام، ولو قد بلغوا مبلغنا وحققوا ما حققنا وتجوّهروا كما تجوهرنا، لسقطت عنهم الأوامر والنواهي. وادّعوا أن الشريعة القصد منها ضبط العوام ، وأن هؤلاء ليسوا من العوام حتى يمكن أن يشملهم التكليف، حتى لقد قالوا إن الكمال لا يتحقق إلا لمن يتخلص من الحمية ، وجعلوا مقياس الخلاص منها أن يرى الواحد منهم أهله مع الأجنبي فلا يهمه من ذلك شئ! وقالوا في مرتبة الكمال ترتفع الغيرة، وكمال النفس أن يكون التفاتها لحظوظها وليس لحظوظ الناس من حولهم . وذكر ابن الجوزي وابن جرير: أن هؤلاء الإباحية كانوا يستحلّون الحرمات، فيدعو الرجل منهم الجماعة إلى بيته فيطعمهم ويسقيهم ويحملهم على امرأته.

ومنهم جماعة قالوا بالمؤاخاة بين الرجال والنساء، فيقول أحدهم للمرأة تؤاخيني على ترك الاعتراض فيما بيننا .

وقيل من هؤلاء الإباحية: ابن خفيف البغدادي، وكان شيخ الصوفية في شيراز ، وكان يتكلم في الخطرات والوساوس ويحضر حلقته ألوف من الناس، واستغوى الضعفاء، وحدث أن رجلاً من أصحابه مات، وخلف زوجة صوفية، فاجتمع بها النساء الصوفيات، فلما فرغ

العزاء دخل ابن خفيف هذا يعزيها، وقال لها لماذا الهموم وتعذيب النفس بها، ولماذا نترك امتزاج الأجسام لتلتقى الأنوار وتصفو الأرواح وتحصل البركات، وما زال بها حتى رضيت هى والنساء اللاتى معها، واختلط الرجال بهن طول الليل، وذلك هو مذهبهم: الممازجة فى الوطء، بدعوى أن فى جسم كل واحد منهم نوراً إلهياً، والوطء يمزج الأنوار، ويكون به التقاؤها، فيتحصّل الخير وتتنزل البركة!

٧- ابتلاء...

للصوفية فى الابتلاء فلسفة عن النبىّ ﷺ. والابتلاء يأتى فى القرآن إحدى وثلاثين مرة، ومعناه الاختبار، ليُعرَف المؤمن من الكافر؛ والابتلاء يكون بالمرض والجوع، وبالخير والشرّ، ويُمحِّص به الله الصابرين. والصبر عند الصوفية صُبران: صبر عن معصية الله، فهذا للصوفى المجاهد؛ وصبر على طاعة الله، فهذا للصوفى العابد؛ وصبر الصوفى يورثه الرضا بقضاء الله، وعلامة الرضا عند الصوفى سكون القلب بما يرد على النفس من المكروهات والمحبوبات. وعند رويم الصوفى: الصبر على البلاء هو ترك الشكوى. وقال ذو النون: الصبر على الابتلاء هو الاستعانة بالله. وقال أبو علىّ الصوفى: الصبر على الابتلاء هو ألاّ تعترض. ولا ينافى الصبر إظهار البلوى غير وجه الشكوى. - والمثل الأعلى للصوفية فى الصبر على الابتلاء وهو أيوب، قال تعالى: ﴿ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِراً نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ (ص ٤٤). وفى الحديث: المؤمن شُدِّد عليه فى مرضه ليُحَطّ به خطاياه. ولمّا ابتُلى الرسول ﷺ بمرضه الذى مات فيه، كان يومك وعكاً شديداً، وصفه فقال: إنى أوعك كما يوعك رجلان منكم. وقال: والذى نفسى بيده، ما على الأرض مسلم يصيبه أذى من مرض فما سواه، إلا حطّ الله عنه خطاياه كما تحطّ الشجرة ورقها. - وسألوه: من أشدّ الناس بلاءً؟ قال: النبيّون ثم الأمثل فالأمثل، فيُبتلى الرجل على حَسب دينه، فإن كان صُلب الدين اشتد بلاؤه؛ وإن كان فى دينه رقّة ابتُلى على حسب دينه، فما تبرح البلايا على العبد حتى تدعه يمشى فى الأرض ليست عليه خطيئة. - والصوفية أشدّ الناس صلابة فى الدين، ولذلك كانوا أشد الناس ابتلاءً!

٨- أبجد...

حروف الأبجد هى: حُطِّى كَلَمُنْ سَعْفَص قَرَشَتْ ثخذ ضظغ. والحديث: ويل لعالم جهل من تفسير حروف الأبجد.

وفسّر الصوفية الأبجد فقالوا: معنى

أبجد أى وَجَدَ آدم فى المعصية؛ وهوّز أى اتّبع هواه فزال عنه نعيم الجنة؛ وحُطِّ أى حُطّ عنه ذنبه بالتوبة والاستغفار؛ وكَلَمُن أى تكلّم بكلمات فتاب عليه بالقبول والرحمة؛ وسَعْفَص أى ضاقت عليه الدنيا فَغُوض عليه؛ وقَرَشَت أى أقر بذنبه فبرّ عليه بالكرامة؛ وثخذ أى أخذ من القوة؛ وضظغ أى شُجّع عن وساوس الشيطان بعزيمة لا إله إلا الله محمد رسول الله.

٩- أبد...

الأبد: دوام الوجود فى المستقبل، كما أن الأزل: هو دوامه فى الماضى.

وأبد الله وأزله: هما عين كل منهما، فالأبد عين الأزل، والأزل عين الأبد، والله سبحانه عبارة عن انقطاع الطرفين الإضافيين عنه ليتفرّد بالبقاء لذاته، فتعقُّل الإضافة الأولية عنه ووجوده قبل تعقلها هو الأزل؛ وتعقُّل الإضافة الآخرية عنه وبقاؤه بعد تعقُّلها هو الأبد؛ والأبد والأزل: صفتان لله تعالى أظهرتهما الإضافة الزمانية لتعقُّل وجوب وجوده، وإلا فلا أزل ولا أبد، وإنما كان الله ولم يكن معه شىء.

١٠- أبدال-

من مصطلحات صوفية الشيعة الإسماعيلية، جمع بَدَل، وهم بدلاء أيضاً، قيل: فى أمة الإسلام ثلاثون رجلاً على قلب إبراهيم خليل الرحمن، كلما مات منهم واحد أبدله الله بآخر مكانه.

وقيل: من الأبدال ثلاثمئة شخص على قلب آدم، لكل واحد منهم من الأخلاق الإلهية ثلاثمئة خُلُق، وأربعون شخصاً على قلب نوح؛، وقيل: هم على قلب موسى.

وقيل: إن الإبدال على قلب الخليل سبعة، وخمسة على قلب جبرائيل، وثلاثة على قلب ميكائيل، وواحد على قلب إسرافيل؛ وقيل: واحد على قلب نبيّنا محمد ﷺ. وقيل: هناك عشرة قلوبهم على قلب داود.

ومقام الأبدال لذلك مقام شريف، ويليهم فى المرتبة: النجباء، والرُّجباء، والنُّقباء، وغيرهم، وكلهم من أهل الغيب والنجدة، ولهم رسالاتهم.

وفى رأىٍ أن الأوتاد أفضل من الأبدال، لأن الأبدال يتبدّلون الأحوال والمقامات، وأما الأوتاد فقد ثبتت أركانهم، وبهم قوام العالم كالأوتاد للخيمة، وهم فى مقام التمكين.

وقيل: إذا رأيت الرجل يعمل الطيّبات فطريقه التّقوى، وإذا رأيته يحدّث بالقرآن فطريقه طريق الأبدال، والأبدال تتنزّل

رقائق العلوم على قلوبهم، لكل يوم علم.

وقيل: الأبدال، والنُّجباء، والعصائب، والنقباء، والأوتاد، موزّعون على الأرض.

وكان يحيى بن معاذ الرازي (المتوفى سنة ٢٥٨هـ) يقول: إذا رأيت الرجل يشير إلى الآداب والكرامات، فطريقه طريق الإبدال؛ وإذا رأيته يشير إلى الآلاء والنعماء، فطريقه طريق أهل المحبة، وهو أعلى من الذى قبله؛ وإذا رأيته يشير إلى الذكر، فطريقه طريق العارفين.

وعن معروف الكرخي (المتوفى سنة ٢٠٠ هـ) قال: مَن قَال فى كلّ يوم عشر مرات: اللهم ارحم أمة محمد، اللّهم فرّج عن أمة محمد؛ اللهم أصلح أمة محمد، كُتب من الأبدال.

وعند ابن عربى: الأبدال سبعة لايزيدون ولا ينقصون، ولهم من الأسماء أسماء الصفات، وموزّعون على الأقاليم، وعارفون بما أودع الله فى الكواكب من الأمور والأسرار. وسُمُّوا أبدالاً لأنهم إذا فارقوا موضعاً خلفوا به بدلاً منهم فى ذلك الموضع، لأمرٍ يرون فيه مصلحة، ولا يشك أحد ممن أدرك رؤية ذلك الشخص أنه عين ذلك الرجل، وليس هو فى الحقيقة، بل روحانى يتركه بدله بالقصد على علمٍ منه، فكل من له هذه القوة فهو البدل.

ويقول ابن تيمية: إن الأبدال رجال الغيب؛ وهذا حقّ، لأننا لا نعرف فى الحقيقة عنهم شيئاً، والمصطلح صوفى محض؛ وقيل فى الآية: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ (البقرة ٢٥١): أن هؤلاء الناس المدفوع بهم الفساد هم الأبدال، وهم أربعون رجلاً، كلما مات واحد بدّل الله آخر، إلى أن تقوم القيامة، اثنان وعشرون منهم حالياً بالشام، وثمانية عشر بالعراق: فلماذا الشام والعراق وحدهما؟ لا ندرى! ورُوى عن علىّ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **إن الأبدال يكونون بالشام، وهم أربعون رجلاً، كلما مات منهم رجل، أبدل الله مكانه رجلاً، يُسقى بهم الغيث، ويُنصَر بهم على الأعداء، ويصرف بهم عن أهل الأرض البلاء.** والحديث كما نرى مصنوع، فما كانت الشام ولا العراق من دون الإسلام فى زمن الرسول ﷺ، ولا كان مصطلح الأبدال من مصطلحاته ولسنا نعتقد فى وجود آدميين هذه وظيفتهم فى الكون، ولو وُجد من لهم هذه الوظيفة فلابد أن يكونوا من الملائكة وليسوا من

البشر. وقيل فى ذلك أيضاً: إن الأنبياء كانوا أوتاد الأرض، فلما انقطعت النبوة بعد النبىّ ﷺ، أبدل الله تعالى مكان الأنبياء قوماً من أمة محمد ﷺ يقال لهم الأبدال، ما لم يَفضُلوا الناس بكثرة صوم ولا صلاة، ولكن بحُسن الخلُق، وصِدْق الورع، وحُسن النية، وسلامة القلوب لجميع المسلمين، والنصيحة لهم ابتغاء مرضات الله، بصبر وحِلْم ولُبّ، وتواضع فى غير مذلة، فهم خلفاء الأنبياء، قومٌ اصطفاهم الله لنفسه، واستخلفهم بعلمه لنفسه، وهم أربعون صدّيقاً، منهم ثلاثون رجلاً على مثل يقين إبراهيم خليل الرحمن، يدفع الله بهم المكاره عن أهل الأرض، والبلايا عن الناس، وبهم يُمطرون ويُرزقون، لا يموت الرجل منهم حتى يكون الله قد أنشأ من يخلفه.

١١ - أبدية...

الفرق بين الأبدية والأزلية: أن الأزلية لا بداية لها ولا نهاية؛ والأبدية: لا نهاية لها ولا آخرية. والأبد والأبدية نعت من نعوت الله.

١٢ - أبرار...

المرادف للأخيار، وقيل بل الأبدال، وقيل الأبرار فى العالم ثلاثمائة، ويطلق عليهم النقباء أيضاً. واللفظة قرآنية ولكن استعمالها شيعى. وفى القرآن: ﴿وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ﴾ (آل عمران ١٩٣)، ﴿وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ﴾ (آل عمران ١٩٨)، و﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾ (الإنسان ٥)، و﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾ (الانفطار ١٣)، و﴿إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ﴾ (المطففين ١٨).

والأبرار: هم المؤمنون فى روْح الذكر والعرفان، وراحة الطاعة والإحسان، ونعمة الرضا، وأُنس القربة، وبسط الوصلة. وصوفية الشيعة جعلوا الأبرار مرتبة من مراتب دولة أو حكومة الغَيْب فى الأرض.

١٣ - إبليس...

مشتق من الالتباس، وقيل: لم يكن يُدعَى قبل ذلك بهذا الاسم، فتحقق بدعوته بهذا الاسم أن أمره قد فُرِغ منه، فلم يجزع ولم يندم ولم يُنِب، ولم يطلب المغفرة، لعلمه أن الله يفعل ما يريد، وأن ما يريده الله هو الذى تقتضيه الحقائق، فطَرَده الحق من حضرة القُرب إلى حضيض البُعد الطبيعى، وهذا هو الرجم: لأن الرجم هو طرح الشىء من العلو إلى السفل: ﴿قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ * وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ﴾

(الحجر: ٣٤/ ٣٥)، واللعنة هى الإيحاش والطرد وقوله إلى يوم الدين قيل إنه على سبيل الحصر، فإذا انقضى يوم الدين فلا لعنة عليه، لارتفاع حكم الظُلمة الطبيعية فى يوم الدين. وقال: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (ص ٨٢)، لأنه يعلم أن الكلّ تحت حكم الطبيعة، وأن الاقتضاءات الظُلمانية تمنع من الصعود إلى الحضرات النورانية: ﴿إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ (الحجر ٤٠)، يعنى الذين أخلصوا من ظلمة الطبائع بعبادته سبحانه. ولايختص مظهر إبليس بأحد دون أحد، ولا يعرفه إلا آحاد الأولياء، فإذا عرفه الولى صار ما كان يريد أن يغويه به هداية فى حق العارف، يتقرّب به إلى الحضرة الإلهية. فينقطع حكم إبليس حينئذ، فذاك فى حقّه يوم الدين، إذ ليس يوم الدين إلا القيامة، والعارف إذا فنى فى الله فقد قامت به قيامته الصغرى.

وإبليس: أول من كفر، والكفر إما يكون جهلاً وإما عناداً، وإبليس كفر جهلاً وعناداً، وكُفره أدلّ على جهله وعناده، والجهل فقط من غير عناد، أو العناد فقط من غير جهل - مستحيل.

وفى الحديث عند مسلم: خُلقت الملائكة من نور، وخُلق إبليس من مارج من نار»، فكان مزاجه نارياً، ولذلك جهل، فلما جهل عاند وكفر.

وإبليس أول من قاس قياساً فاسداً، وقياسه دليل جهله، وقال: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ (الأعراف: ١٢)، وهو أول من تكبّر وحسد، ولذلك حلف بالعزة فقال: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (ص ٨٢)، فمن كان متكبراً فلا يناسبه أن يحلف إلا بالعزة. وقوله تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ﴾ (ص ٧٥)، أى: استكبرت، ولا كِبْر لك، ولم أتكبر أنا حين خلقته بيدىّ والكِبْر لى. والاستكبار خلاف الاستعلاء الذى هو ادعاء العلو.

وكُفر إبليس دليل على أن الولى ليس عليه أن يعتمد على ما سبق من حياته، وفى الصحيح: «وإنما الأعمال بالخواتيم»، ولا تعديل على أن تكون للولى كرامات، وأن يعرف أنه من الأولياء، إلا بأن يموت وهو مؤمن، وعندئذ يُقطَع فيه بأنه كان ولياً، لأن الولى لا يؤمن إلا بالإيمان، وليس من سبيل أن نقطع لولى أنه يوافى بالإيمان إلا بعد مماته فمن يعلم؟ فلربما يحدث له فى حياته مثلما حدث لإبليس!

١٤- ابن...

الاختيار الإلهي بالتبني الروحي هو وحده المعتبر عند الصوفية، وتفسيرهم لقول النصارى: أن المسيح ابن الله، أنه نُبذة روحية. وكان إبراهيم الدسوقي ينادي تلاميذه ويقول: أنتم أبناء القلب ولستم أبناء الصُّلب. - ومثلما يفعل النصارى في التناول، فإن الخبز بدعوى أنه جسد المسيح، والخمر على زعم أنها دم المسيح، فأن يتناول المريد من الخبز ويشرب من الخمر، بهذه الدعوى، وهذا الزعم، يحلّ فيه المسيح ويتّحد به، وكذلك فإن روح الشيخ تحلّ في المريدين، كما أن روح النبيّ تحل في المشايخ، وتنتقل الروح من شيخ إلى شيخ، ومن مريد إلى مريد. وفي فترة لاحقة تطورت هذه الأفكار إلى ألوهية الشيخ أو الولي، ولم يعد الشيخ أو الولي ابناً روحياً، واحتجوا بالآية: ﴿ وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الأَرْضِ إِلَهٌ ﴾ (الزخرف ٨٤)، ووقعوا لولادة دولة الأولياء في الأرض هذه بمحمد بن إسماعيل بن جعفر، والذين قالوا ذلك - مثل الحلاّج، وابن عربي، والشلمغاني - تعلّموا الشعبذة والنارنجات والنجوم والكيمياء، واحتالوا على الناس، وأظهروا الزهد وغالوا فيه، وبثوا الدعوى في تلاميذهم أن كل واحد منهم يُوحَى إليه، فصارت الإلهية شاملة، ومن ثم قال القشيري مؤرّخ الصوفية في تفسير آل البيت: أن كل تقيّ هو من آل البيت، ولذلك قال أغلب الصوفية بعصمة الأئمة والمشايخ، على أساس أن النبيّ مسدّد بالوحي، فلما ارتفع الوحي صار الإمام أو الشيخ مسدّداً بالعصمة. والعصمة أصولها يهودية نصرانية، فالحاخامات والباباوات معصومون، وفَعَل الأئمة والمشايخ نفس الشيء، وكان ذلك في القرن الثاني الهجري، وفي ذلك القرن أيضاً وُضع الحديث المشهور: «إن الله خلق آدم على صورته أو على صورة الرحمن»، ليؤكد الوضّاعون للناس فكرة الشبه بين الله والإنسان، وهذه الفكرة صارت من أهم أركان التصوف. وما دام الله يشبه الإنسان فيجوز أن يحلّ فيه ويتّحد به، وأن يتخذه ابناً كما يشاء!

١٥- أبو تراب...

الكُنية التي كَنّى بها النبيّ ﷺ علياً، فقد وجده نائماً على التراب، فأيقظه وناداه بهذه الكُنية، غير أن الصوفية من الشيعة جعلوا من هذه الكنية موضوعاً فلسفياً، فقيل: إن علياً أجاب رجلاً سأله: مَن أنت؟ فقال: أنا طين، ومن الطين، وإلى الطين؛ فأنا لذلك أبو تُراب.

وقال الصوفية: المراد بأبي تراب: أنه المربّي والمُرشد والروح القيّم على هذا الجسد ومربيّه؛ أو أنه أبو الموجودات ومبدؤها وحقيقتها ومعناها، أي أنه الله جلّ وعلا! وقول عليّ أنه أبو تراب، يعني أنه أصل كل شيء؛ وقوله أنا طين، لأن الطين تراب خُولط بالماء، وفي الآية: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ (الأنبياء ٣٠)، يعني: أنه تعالى خلق كل شيء من الماء، وحفظ حياته بالماء، وجعل من الماء أي المنيّ كلّ شيء حيّ، ولما سأل أبو هريرة رسول الله ﷺ: يا رسول الله، أنبئني عن كلّ شيء؟ أراد بسأله أن يعرف عن كلّ شيء خُلق من الماء، بدليل جوابه ﷺ: كل شيء خُلق من الماء. وإذن فالماء أبو الأشياء، والقول بأن عليًا أبو تراب، الأشياء يعني: أنه أبو كل شيء - هكذا قال الصوفية الشيعة، ومنهم الحافظ البُرسي (المتوفى نحو ٨٤٣هـ/ ١٤١١م، وفضل الله الإستراباذي (المتوفى ٧٤٠/ ١٣٣٩م) وغيرهما كثيرون.

١٦ - اتحاد...

تصيير ذاتين واحدة، وهو حال الصوفي الواصل؛ وقيل: هو شهود وجود الحق الواحد المطلق من حيث أن جميع الأشياء الموجودة بوجود ذلك الواحد، معدومة في أنفسها، لا من حيث أن لها سوى الله وجوداً خاصاً به يصير متحداً بالحق، تعالى الحق عن ذلك علواً كبيراً. وقيل: هو شهود الوجود الحق الواحد المطلق الذي لكل موجود بالحق، فيتحد به الكل من حيث كون كل شيء موجوداً به معدوماً بنفسه، لا من حيث أن له وجوداً خاصاً اتحد به فإنه محال.

١٧ - اتحادية...

جماعة الصوفية الذين قالوا بالاتحاد، كابن مسرّة، وابن قُسَيّ.

١٨ - اتصال...

هو أن يرى العبد ذاته متصلة بالموجود الأحدي، وألا يتقيد بوجود نفسه، وأن يرى السالك اتصال المدد والجود من غير انقطاع حتى يبقى الموجود باقياً بالله.

وقال بعضهم: الاتصال وصول السرّ إلى مقام الذهول. وقال بعضهم: الاتصال أن لا يشهد العبد غير خالقه، ولا يتصل بسرّه خاطر لغير صانعه. وقيل: الاتصال مكاشفات القلوب ومشاهدات الأسرار.

١٩ - إثبات...

هو إقامة أحكام العبادة، وضده المحو: وهو رفع أوصاف العادة، فمن نَفَى عن أحواله الخصال الذميمة، وأتى بدلها

بالأفعال والأحوال الحميدة، فهو صاحب محو وإثبات.

والمحو ما نفاه الحقّ وستره؛ والإثبات ما أظهره الحقّ وأبداه. قال الله تعالى: ﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ﴾ (الرعد٣٩)، قيل يمحو عن قلوب العارفين ذِكْر ما سوى الله، ويثبت على ألسنة المريدين ذِكْر الله.

٢٠- أثر...

هو علامة لباقي شيء قد زال. وقيل مَن مُنع من النظر استأنس بالأثر، ومن عَدِم الأثر تعلل بالذِّكْر.

والأثر: هو التفريد لله عزّ وجلّ في كلّ الأشياء، وذلك بالإعراض عمّا يلحق النفس من آثار الأشياء.

وسرائر الآثار: هي الأسماء الإلهية التي هي بواطن الأكوان.

٢١- اجتباء...

يجمع حالَ الصوفية شيئان، إليهما الإشارة بقوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ (الشورى١٣)، فقومٌ من الصوفية خُصوا بالاجتباء الصرف، وقوم منهم خُصوا بالهداية بشرط مقدمة الإنابة. قال الخرّاز: أهل الخالصة الذين هم المرادون، اجتباهم مولاهم فأكمل لهم النعمة، وهيأ لهم الكرامة، فاسقط عنهم حركات الطلب.

والاجتباء المحض غير مُعَلّل بكسب العبد، وهذا حال المحبوب المراد، يبادئه الحق بمِنَحه ومواهبه من غير سابق كسب منه.

٢٢- اجتهاد...

استفراغ الوُسْع في تحصيل أمر من الأمور مستلزِم للكُلفة والمشقة.

٢٣- احتلام...

هو عقوبة عند الصوفية، لأن المُراعِي المتحفّظ، بحُسن تحفظه وعلمه بحاله، يقْدر ويتمكن من سدّ باب الاحتلام. ولايتطرق الاحتلام إلا على جاهلٍ بحاله، أو مهملٍ حُكْم وقته وأدب حاله. وقد يكون من ذنبه الموجِب للاحتلام أن ينام النومة المريحة على وسادة ووطاء.

٢٤- أحد...

هو اسم الذات باعتبار انتفاء تعدّد الصفات والأسماء والنِّسب والتعينات عنه.

٢٥- أحدية...

مجلّى ذاتي، ليس للأسماء ولا للصفات ولا لشيء من مؤثراتها فيها ظهور، فهي اسم لصرافة الذات المجردة

عن الاعتبارات الحَقّية والخَلقية. وليس لتجلّى الأحدية فى الأكوان مظهر أتم من ذلك، إذا استغرقتَ فى ذاتك ونسيتَ اعتباراتك، وأخذتْ بك فيك عن خواطرك، إذن لكنت أنت فى أنت من غير أن تنسب إليك شيئاً مما تستحقه من الأوصاف الحقّية، أو مما هو لك من النعوت الخَلقية، فهذه الحالة من الإنسان أتم مظهر للأحدية فى الأكوان.

والأحدية أول ظهور ذاتى، وامتنع الاتصاف بها للمخلوق، لأنها صرافة الذات المجردة عن الحقية والمخلوقية، والعبد قد حُكم عليه بالمخلوقية فلا سبيل إلى ذلك.

ولوجود الحق سبحانه مراتب: **الأولى** مرتبة اللاتعين والإطلاق والذات البحت، وتسمى بالمرتبة الأحدية، وهى كنه الحقّ سبحانه، وليس فوقها مراتب أخرى، بل كل المراتب تحتها؛ **والثانية** مرتبة التعيّن الأول، وتُسمّى بالوحدة، وهى عبارة عن علمه تعالى لذاته وصفاته ولجميع الموجودات على وجه الإجمال من غير امتياز بعضها عن بعض؛ **والثالثة** مرتبة التعين الثانى وتسمى بالواحدية، وهى عبارة عن علمه تعالى لذاته وصفاته ولجميع الموجودات على التفصيل وامتياز بعضها عن بعض، ولايجوز إطلاق مراتب الالوهية ـ وهى **الأحدية والواحدية** والوحدة ـ على مراتب الكون والخلق.

وأحدية الجمع: اعتبارها من حيث هى هى، بلا إسقاطها ولا إثباتها، بحيث يندرج فيها نسب الحضرة الواحدية.

٢٦ - إحرام...

ترك شهوة المخلوقات.

والخروج عن الإحرام: عبارة عن التوسّع للخَلْق والنزول إليهم بعد العندية فى مقعد الصِّدْق.

٢٧ - إحسان...

هو أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك.

وقيل **الإحسان** مقام دون **مقام المشاهدة** يكون العبد فيه ملاحظ لأكثر أسماء الحق وصفاته، فيتصور فى عبادته كأنه بين يدّى الله تعالى، فلا يزال ناظراً إلى هذه الكينونة، وأقل درجاته أن ينظر إلى أن الله ناظر إليه. وهذه أولى درجات **المراقبة**. ولايصح هذا إلا بشروط سبعة هى: **التوبة، والإنابة، والزهد، والتوكل، والتفويض، والرضا، والإخلاص.**

والشكر على الإحسان من أخلاق الصوفية، وذلك منهم مع كمال توكلهم

على ربّهم وصفاء توحيدهم، وقطعهم النظر إلى الأغيار، ورؤيتهم النعم من المنعم.

٢٨- إحصاء...

إحصاء الأسماء **الإلهية** هو التحقق بها في الحضرة الواحدية بالفناء عن الرسوم الخَلْقية، والبقاء ببقاء الحضرة الأحدية؛ وأما إحصاؤها بالتخلّق بها فهو يوجب دخول جنة الوراثة بصحة المتابعة، وهي المشار إليها بقوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ * الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (المؤمنون ١٠/١١)؛ وأمّا إحصاؤها بتيقن معانيها والعمل بفحاويها فإنه يستلزم دخول جنة الأفعال بصحة التوكل في مقام المجازاة.

٢٩- إحصان...

هو التحقق بالعبودية على مشاهدة حضرة الربوبية بنور البصيرة، أي رؤية الحق موصوفاً بصفاته بعين صفته، فهو يراه يقيناً ولا يراه حقيقة، ولهذا قال الرسول ﷺ: «صلِّ كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»، لأنه يراه من وراء حُجب صفاته، فلا يرى الحق بالحقيقة، لأنه تعالى هو الرائي، ووصفه بوصفه وهو دون مقام المشاهدة في مقام الروح.

٣٠- أحمدية...

طريقة صوفية أسسها أحمد البدوي المتوفى سنة ٥٩٦هـ. ومقرُّها طنطا من مدن مصر، وهي من أكبر الطرق الصوفية في مصر والعالم العربي، وتقوم على التقوى والشفقة والرحمة وكثرة الذِّكر. وهي أخلاقية أكثر منها عرفانية.

والأحمدية أيضاً طريقة أحمد الرفاعي المتوفى سنة ٥٧٨هـ، وتقوم على الشرع، وأن كل ما يخالفه زندقة؛ وأمّا الطريق لأن تكون أحمدياً فهو أن تقول: آمنت بالله، ووقفت عند حدود الله، وعظّمت ما عظّم الله، وانتهيت عمّا نهى الله. (انظر أيضاً أحمد البدوي، وأحمد الرفاعي).

٣١- أحوال...

الغيبة والحضور، والصحو والسُّكر، والوَجْد والهجوم والغَلَبات، والفناء والبقاء، كلها من أحوال القلوب المتحققة بالذكر والتعظيم لله، وسميت أحوالاً لتحوّل العبد بها عن الرسوم الخَلْقية ودركات البُعد إلى الصفات الحقّية ودرجات القُرب، وذلك هو الترقّي.

والأحوال إما مواهب واردة على العبد لصالح أعماله وتزكيته لنفسه وتصفيته لقلبه، وإما نازلة من الحق امتناناً محضاً.

٣٢- إحياء...

هو حصول التجلّي للنفس وتنوّرها بالأنوار الإلهية.

٣٣- أخ...

الأخ ثلاثة: الأخ من الأبوين أو أحدهما، وهو الأخ من الصُّلب؛ والثانى الأخ القلبى: وهو الصدوق عند الملمات والنكبات، والأمين والمعين والأقرب إلى النفس والقلب؛ والثالث الأخ فى الله: كما فى قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ (الحجرات ١٠)، وقوله ﷺ : «المسلم أخو المسلم»، وفى الصحيح: «الله فى عون العبد ما كان العبد فى عون أخيه»، وفى الصحيح أيضاً: « إذا دعا المسلم لأخيه بظهر الغيب قال الملك: آمين، ولك بمثله»، وعند أبى يعلى: «لا تتبعوا عوراتهم، فإنه من يتبع عورة أخيه يتبع الله عورته»، وفى القرآن: ﴿ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ (الحجرات ١٢)، فحقّ الأخ على أخيه كبير، وأخوك كنفسك، ومعنى المؤمنين إخوة أن جميعهم كالواحد، وواحدهم كالكل، وما ينقص من الواحد ينقص من الكل، وما ينهك الكل ينهك الواحد. وفى القرآن مثلان للأخوّة: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَىْ آدَمَ ﴾ (المائدة ٢٧)، وهما قابيل وهابيل، وقد عدا أحدهما على الآخر بغيا وحسداً: ﴿ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (المائدة ٣٠)، ويذكر رسول الله ﷺ ذلك فيقول: « إن الله ضرب لكم ابنىّ آدم مثلاً فخذوا من خيرهم ودعوا شرّهم» أخرجه ابن جرير عن الحسن البصرى مرفوعًا. وذهبت مقتلة هابيل على يد أخيه مثلاً، وقال الله :﴿ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾ (المائدة ٣٢).

والأخ الآخر موسى قال:﴿ اجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي * هَارُونَ أَخِي﴾ (طه ٣٠)، وعن عائشة أم المؤمنين: أنها سمعت أعرابيا يقول: « أى أخ كان فى الدنيا أنفع لأخيه؟ قالوا له: لا ندرى. قال: أنا والله أدرى! هو موسى حيث سأل لأخيه النبوة». رواه ابن أبى حاتم. وعكس ذلك أخوة يوسف وفيهم آية ورأى آية، فقد حسدوا يوسف على حب أبيه وإيثاره له وأضمروا الشر فى قلوبهم، وتآمروا أن يقتلوه أو يطرحوه أرضاً ليخلو لهم وجه أبيهم، وألقوه فى غياهب الجب، فذهبوا مثلاً. ووصف علماء النفس حالهم بأنه تنافس أو سباق الإخوة SIBLINGS' RIVALRY .

ومن الإخوة السيئين الذين تحدّث عنهم القرآن: ﴿ إِنَّ هَٰذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ * قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ

نَعْجَتِكَ﴾ (ص٢٣ / ٢٤)، وهذا الأخ الظالم كان داود، وكان مثلاً فى التوبة والإنابة، فغفر الله له ما كان منه، فكان مما قيل فيه: «حسنات الأبرار سيئات المقرّبين».

وفى الدنيا مثلما يكون البعض إخواناً فى الله، فآخرون قد يكونون إخواناً للشياطين: ﴿إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا﴾ (الإسراء ٢٧)، ولكلٍ ـ للإخوان فى الله وإخوان الشيطان ـ علامات، والأخ الأول لإخوته بشير ونذير: ﴿وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ (الأحقاف٢١)، والأخ الحقيقى: يغير أهله ويحفظهم (يوسف٦٥)، ويأمرهم بالتقوى (الشعراء ١٢٤)، ويسأل لهم الرحمة (الأعراف ١٥١)، ويشدّ عضدهم (القصص ٣٥)، ويعفو عنهم (البقرة ١٧٨)، ويصلح بينهم (الحجرات ١٠)، ويخالطهم (البقرة ٢٢٠)؛ والأخ الزائف: يساند إخوانه فى السوء، ويمدهم فى الغى، ويزين لهم الكفر، ويُحسّن لهم النفاق، ويدعوهم إلى الشر، وشتّان.

٣٤ - إخاذات...

اصطلاح أخذه الصوفية من حديث الرسول ﷺ: «**مثل ما بعثنى الله من الهُدَى والعلم، كمثل الغيث الكثير أصاب أرضاً، فكانت طائفة منها قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكانت منها طائفة إخاذات أمسكت الماء، فنفع الله تعالى بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا، وكانت منها طائفة أخرى قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ، فذلك مثل من فقه فى دين الله ونفعه ما بعثنى الله به فعَلِم وعلّم، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذى أُرسلت به**». ـ والناس فى قبولهم لما جاء به الرسول قد ظهر تفاوت الصفاء عندهم، واختلاف التزكية فى تفاوت الفائدة والنفع، فمن القلوب مثل الأرض الطيبة التى تنبت، ومثلها من ينتفع بالعلم فى نفسه ويهتدى به، ومن القلوب من هو بمثابة الإخاذات. أى الغدران، جمع إخاذة. فنفوس العلماء الزاهدين من الصوفية تزكّت، وقلوبهم صفت واختصت بمزيد الفائدة، فصارت إخاذات. وفى ذلك أيضاً يقول مسروق: «**صحبت أصحاب رسول الله فوجدتهم كإخاذات**»، لأن قلوبهم كانت واعية فصارت أوعية للعلوم بما رُزقت من صفاء الفهوم.

٣٥ - إخبات...

هو من بَدَوات الطمأنينة، وهو أن تستغرق العصمة الشهوة، والإرادة الغفلة، والطلب السلوى، وألاّ تنقص الإرادة بسبب، ولايقطع الطريق فتنة، وأن يستوى المدح والذم، وتدوم اللائمة للنفس، وتعمى عن نقص الخَلْق.

٣٦ - اختيار...

امتحان الحق للصادقين، ليعمر بذلك منازل المخصوصين، ويستخرج بامتحانه لهم منهم صدقهم، إثباتاً لحجته على المؤمنين، ليتأدّب بهم المريدون.

والاختيار: أن يختار العبد «الحقّ» على اختياره، أو أن يختار الله للعبد، ويختار العبد بعناية الله له، حتى يختار باختيار الله لا باختيار نفسه.

٣٧ - أخذ...

الأخذ والعطاء لهما آداب، والصوفى لا يسأل أحداً، ولا يأخذ من أحد شيئاً، ولا يكون معه شيء يعطيه لأحد. ويقول الجنيد: **لايصح لأحد الأخذ حتى يكون الإخراج أحبُّ إليه من الأخذ.**

و«الأخذ» لا يكون إلا لله، كما أن «الترك» لايكون إلا له، وكلاهما يفعله الصوفى بعزّ، على عكس من أخذ وترك لغير الله فإنه يفعله بذُل.

٣٨ - إخلاص...

هو أن لايفعل العبد المخلص فعلاً إلا لله تعالى، وألا تكون حركاته وسكناته وقيامه وقعوده وتقلباته وأقواله لسوى الله، بمعنى أن يجرّد بواعثه للواحد.

والاشتراك يضاد الإخلاص. وقيل: **الإخلاص**: هو أن لايعلم بعملك ملَك فيكتبه ولا شيطان فيفسده، والله وحده هو الشاهد عليه.

والفرق بين **الإخلاص والصدق**: أن الصدق أصل وهو الأول، والإخلاص فرع وهو تابع. وفرق آخر: أن **الإخلاص** لايكون إلا بعد الدخول فى العمل.

وفى شرح القصيدة الفارضية أن كل ما يظهر من العبد قولاً وفعلاً، وعملاً وحالاً، فله وجهٌ إلى الخَلق ووجهٌ إلى الحق سبحانه، فمن **أخلص** وجه الحق يسمى **مخلِصاً** (بالكسر)، وفعله يسمى **إخلاصاً**، وينقسم إلى إخلاص، وإخلاص **إخلاص**، فأما الأول فينقسم بحسب ما يظهر من العبد أربعة أقسام: **الأول**: **إخلاص فى الأقوال**: بأن يخلص عبارة فعل الحق فيما يظهر على لسانه من الأقوال، عن عبارة فعل نفسه، وعبارة نظره تعالى عليه عن عبارة نظر غيره؛ والثانى: **إخلاص فى الأفعال**: بأن يخلص

فى كل عمل وَجْه طلب رضاء الحقّ تعالى فيما يفعله عن وجه طلب حظه من الدنيا، مِن جرّ نفع أو دفع مضرة، ولا يفعله إلا لوجه الله تعالى؛ والثالث: **إخلاص فى الأعمال**، أى فى العبادات الشرعية: بأن **يخلص** فى كل عمل وَجْه طلب رضا الحق عن وجه طلب حظه، وتربص حُسن ثوابه فى الآخرة؛ والرابع: **إخلاص فى الأحوال**، أى فى الإلهامات القلبية والواردات الغيبية: بأن يخلص فى كل حال وجه نظر الحق عليه عن وجه نظر الخلق، ولايبالى بنظرهم أصلاً مبالاته بوجودهم.

وأما الثانى، أى **إخلاص الإخلاص**: فهو أن يخلص وجه فعل الله تعالى فى إخلاصه عن فعله، فلا يرى **الإخلاص** فعله، بل يراه محض فعل الله تعالى، فالمخلص (بالكسر) حقيقةً هو الله تعالى، وهو مُخلَص (بالفتح)، وهذا نهاية **الإخلاص**.

وقال الجنيد فى الإخلاص: إنه سرّ بين العبد وبين الله، لا يعلمه مَلَك فيكتبه، ولا شيطان فيفسّره، ولا هوى فيميله؛ وعن القشيرى وغيره، عن النبىّ ﷺ أنه قال: سألت جبريل عن الإخلاص: ما هو؟ فقال: سألت ربّ العزّة عن الإخلاص، ما هو؟ قال: سرٌّ من سرِّى، **استودعته قلب من أحببته من عبادى**.

وقال رويم: الإخلاص من العمل، هو ألا يريد صاحبه عليه عِوَضاً فى الدارين، ولا حظاً مِن المَلَكين.

٣٩ - أخلاق...

مِن أحسن أخلاق الصوفية: **التواضع**. ومن **أخلاقهم**: **المداراة، واحتمال الأذى من الخلق**. ومن **أخلاقهم**: **الإيثار والمساواة**، ويحملهم على ذلك فرط الشفقة والرحمة وقوة اليقين. ومن **أخلاقهم**: **التجاوز، والعفو، ومقابلة السيئة بالحسنة**. ومن **أخلاقهم**: **السهولة ولين الجانب**، والنزول مع الناس إلى أخلاقهم وطباعهم، وترك التعسُّف والتكلُّف، والإنفاق من غير إقتار، وترك الادخار، والقناعة باليسير من الدنيا، وترك المِراء والمجادلة والغضب إلا بحقّ، واعتماد الرفق والحلم والتودّد والتألّف، والموافقة مع الإخوان وترك المخالفة، وشُكر المحسن على الإحسان والدعاء له، وبذل الجاه للإخوان والمسلمين كافة.

وليس فى القرآن كلّه آية أجمع لمكارم الأخلاق من هذه الآية: ﴿**خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ**﴾(الأعراف: ١٩٩)، والصوفية يعتزّون بها، لأنها

جُماع الشريعة فى المأمورات والمنهيات، والآية عبارة عن ثلاث كلمات، والعدد ثلاثة من أعداد الوتر يحبونه، فالوضوء لكل عضو ثلاث مرات، والتسبيح فى الركوع، والسجود ثلاث مرات، والكلمة الأولى فى الآية: تأمر بصلة القاطعين، والعفو عن المذنبين؛ والكلمة الثانية: تأمر بصلة الأرحام، والتقوى فى الحلال والحرام، والكلمة الثالثة: تأمر بالإعراض عن أهل الظلم، والتنزّه عن منازعة السفهاء، ومساواة الجهلة الأغبياء، وذلك كله من صميم الأخلاق الحميدة التى يحب الصوفية أن يتحلّوا بها، وهى خصال يحبّون أن يفسّروها كتفسير رسول الله ﷺ لها لجابر بن سليم، فقد بسطها له فقال له: اتّق الله ولا تحقّرنّ من المعروف شيئاً، وأن تلقى أخاك بوجه منبسط، وأن تُفرغ من دلوك فى إناء المستسقى؛ وإنْ امرؤ سبّك بما لا يُعلَم منك، فلا تسبُّه بما تعلم فيه، فإن الله جاعلٌ لك أجراً، وعليه وِزراً. ولا تسبنّ شيئاً مما خولّك الله.

قيل: فلهذا لا يمكن أن يسبّ صوفى أحداً، وما رُوى لنا أن صوفياً سبّ أحداً، وكأن رسول الله ﷺ نبّيهم ومعلمهم قد خاطبهم وحدهم من الأبدية بهذا الحديث، فهم لا ينسونه أبداً: إنكم لا تسعون الناس بأموالكم، ولكن يسعهم بسط الوجه وحُسن الخُلق. وروى أن النبىّ ﷺ - معلّم المتقين وأهل الله قاطبة، لما سمع الآية: ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ (الأعراف ١٩٩) قال لجبريل يستفهمه وقد أعجبة إيجازها: ما هذا يا جبريل ؟ قال له: إن الله يأمرك أن تعفو عمّن ظلمك، وتعطى مَن حرمك، وتصل مَن قطعك - وقد أعجَبَتْ الآية والحديث البعض من العارفين، فقال فيها، وفى حديث الرسول معلّمنا الأول ﷺ:

مكارم الأخلاق فى ثلاثة

من كَمُلت فيه فذلك الفتى

إعطاءُ مَن ترمه وَوَصْلُ مَن

تقطعُه والعفو عَمّن اعتدى

ورُوى عن نبيّنا ﷺ أنه قال: أمرنى ربّى بتسع: الإخلاص فى السرّ والعلانية، والعدل فى الرضا والغضب، والقصد فى الغنى والفقر، وأن أعفو عمّن ظلمنى، وأصل مَن قطعنى، وأُعطى من حرمنى، وأن يكون نطقى ذكراً، وصمتى فكراً، ونظرى عبرة. - وروى عن الحرّ بن قيس بن حصن، وكان من النفر الذين يدنيهم عمر، أن عمّه عيينة بن حصن جاءه يسأله أن يستأذن له على عمر، فأذن له عمر، فقال له عيينة لما دخل عليه: يا ابن

الخطاب! والله ما تعطينا الجزْل (يعنى الكثير)، ولا تحكم بيننا بالعدل! فغضب عمر حتى هَمّ بأن يقع به، فقال له الحرّ: يا أمير المؤمنين: إن الله تعالى قال لنبيه ﷺ: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ (الأعراف ١٩٩) - وإن هذا من الجاهلين.

٤٠ - إخوان الصفا...

إخوان الصفا: هم خلاّن الصفاء، أى الجماعة التى تنزّه أفرادها عن مقتضيات الكَدَر البشرى، وتحلّوْا بأوصاف الكمالات الروحية. وسُمّوا كذلك لكى يلتبس على أهل السُّنّة أن هؤلاء من الصوفية، والحقيقة أنهم إسماعيلية، ويقلدون طرق اليهود بإنشاء الجمعيات السرّية، كالماسونية وغيرها، وكانوا جماعة سرّية، قيل: هدفها تهذيب العامة. والفرق بين إخوان الصفا والماسونية: أن الأولى جمعية ثقافية، والثانية جمعية سياسية. ولإخوان الصفا ٥٢ رسالة، ومن مؤلفيها - أو من أعضاء الجماعة - أبو سليمان المقدسى، وأبو حسن الزنجانى، والنهرجورى، والعوفى، وزيد بن رفاعة، ورسائلهم تشبه الموسوعة وفيها عن التصوف. وقد اعتمد الصوفى الكبير ابن عربى كلياً على هذه الرسائل فى تكوين مذهبه فى التصوّف. ويذكر إخوان الصفا أن من متصوفة الشيعة من كان يتكسّب بالقراءة عند المشاهد والقبور، لقاء أجور يتعيّشون بها.

٤١ - «أخى»...

كان المريد الصوفى، وما يزال، يُدعى فى تركيا باسم «أخى»، كأخى أوران، وأخى أمير علىّ، وأخى ميرمير، وأخى شادى، من أصحاب الطرق الصوفية. وكلمة أخى هى الكلمة التركية للفتى، وهى عربية أصلاً وإنما صار لها معنى اصطلاحياً فى فلسفة ومذهب الفتوة من فلسفات ومذاهب التصوف التركى. (انظر أيضاً فتوة، وانظر أورانية).

٤٢ - أخيار...

الأخيار من رجال الغيب، ومكانهم فى الترتيب بعد العُمُد وقبل النجباء، وعددهم سبعة، يسمون جميعا باسم الحسين - وكما ترى فالاصطلاح شيعى علوى، وهم فى سياحة دائمة، فلا مسكن لهم ولا مستقر. وقيل مقامهم فى مصر: ربما لأن مصر عُرف عنها بما فيها من تكايا وخانقوات أنها مأوى الصوفية. ويقول الصوفية إن الأخيار قد أمرهم الله بالسياحة ليرشدوا الطالبين والعابدين.

وفى رواية أخرى أن الأخيار عددهم ثلاثمئة، ويسمونهم الأبرار أيضاً. وهذه الأسماء والتقسيمات شيعية وليست من

السُّنّة فى شىء، رغم أنها قرآنية كألفاظ، ففى سورة ص يأتى: ﴿لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الأَخْيَارِ﴾ (٤٧)، ﴿وَكُلٌّ مِّنَ الأَخْيَارِ﴾ (٤٧)، والأخيار هم المختارون المجتبون، ويذكرهم القرآن تحديداً، أنهم: إبراهيم، وإسحق، ويعقوب، وإسماعيل، واليسع، وذو الكفل، فكأن الصوفية يجعلون بعض الأولياء من رتبة هؤلاء الأنبياء، والله هو الذى يختار ويصطفى وليس الصوفية!

٤٣ - إدام ..

إدام الصوفية هو طعامهم، وكل ما يوافق ويلائم الطعام فهو إدام؛ وإدام الطعام: هو ما يُجعل مع الخبز فيؤتدم به، ويُطيّبه.

وعند الصوفية الإدام: هو الخل والتمر، وهما طعام النبىّ ﷺ، فلما أخذ جابر بن عبد الله إلى بيته يدعوه للطعام، سأل أهل البيت: «ما من أُدُم؟» فقالوا: لا شىء إلا الخلّ، قال: «فإن الخلّ، نعْمَ الأُدُم». قال جابر: فمازلت أحب الخلّ منذ سمعتها من نبىّ الله ﷺ. ـ ولذلك يؤثره أهل العرفان وعامة المتصوفة كطعام لهم. وقال النبىّ ﷺ لعائشة: «ما أفقر من أُدُم بيتٌ فيه خلّ»!. ولما خرج عليه أناسٌ قال لهم: «ما لى أرى أجسامكم ضارعة»؟ (أى ضاوية، وهزيلة)؟ «أما ببلادكم أُدُمٌ»؟ قالوا: ما ببلادنا إلاّ الخلّ! فقال: «الخلّ أُدُم» رواه ابن النجار. وكذلك التمر أُدم، فعن النبىّ ﷺ قال: «لا يجوع أهل بيت عندهم التمر»، وقال: «بيتٌ ليس فيه تمر كأن ليس فيه طعام»، وقال لعائشة: «ياعائشة! بيتٌ لا تمر فيه جياعٌ أهلُه» أو قال «جاع أهلُه». والتمر طعام عالى السعرات، وكلام الرسول ﷺ: أن أهل الله يختارون الزهيد من الطعام، وقليل الكمية، ولكنه عالى السعرات، وإلا انفتل الصوفى ومات من الضَّوَر.

٤٤ - أدب ..

يريدون به أدب الشريعة، ووقت أدب الخدمة ووقت أدب الحق، والأول هو الوقوف عند رسومها ـ أى رسوم الشريعة، والثانى الفناء عن رؤيتها مع المبالغة فيها، والثالث أن تعرف مالك وما له.

وقيل الأدب: عند أهل الشرع الورع، وعند أهل الحكمة صيانة النفس. وقيل إذا حضر الأدب حضرت الطريق، وإذا غاب الأدب فلا أدب ولا طريق.

وللصوفية آداب شتّى تميّزوا بها، منها: القناعة بقليل الدنيا عن كثيرها، والاكتفاء بالقوت الذى لابد منه، والاقتصار على ما لا بد منه من الملبوس والمفروش والمأكول

وغير ذلك، واختيار الفقر على الغنى، ومعاناة القلّة، ومُجانبة الكثرة، وإيثار الجوع، وترك العلو والترفّع، وبذل الشفقة للخلق، والتواضع للصغير والكبير، وحُسن الظن بالله، والمسارعة إلى جميع الخيرات، والتوجه إلى الله تعالى، والعكوف على بلائه، والرضا عن قضائه، والصبر على المجاهدة، ومخالفة الهوى، ومراعاة الأسرار، ونفى الخواطر المذمومة، وسلوك سبُل أوليائه، واختيار الموت على الحياة.

وسُمّيت المأدبة من الأدب، وفيها تظهر كل الآداب الحميدة، والذى تجتمع فيه خصال الخير فهو أديب. **والصوفى الأديب**: هو الواقف مع المستحسنات ويعامل الله بالأدب سرًا وعلانية.

والناس فى الأدب على ثلاث طبقات: **فأهل الدنيا** أكثر آدابهم الفصاحة والبلاغة وحفظ العلوم؛ **وأهل الدين** أكثر آدابهم فى رياضة النفس وتأديب الجوارح وحفظ الحدود وترك الشهوات؛ **وأهل الخصوصية** أكثر آدابهم فى طهارة القلوب، ومراعاة الأسرار، والوفاء بالعهود، وحفظ الوقت، وقلة الالتفات إلى الخواطر، وحُسن الأدب فى مواقف الطلب وأوقات الحضور ومقامات القُرب. وللصوفية آداب فى الصُحبة والأكل والسياحة، وفى المشى، وفى الزواج والعزوبة.

٤٥ - إدراك...

فى اصطلاح الصوفية **الإدراك** نوعان: **إدراك بسيط**: وهو إدراك وجود الحق سبحانه مع الذهول عن هذا الإدراك وعن أن المُدْرَك هو الوجود الحق؛ **وإدراك مركّب**: عبارة عن إدراك الحق سبحانه مع الوعى بهذا الإدراك وأن المُدْرَك هو وجود الحق سبحانه.

٤٦ - إرادة...

قال الجنيد: **الإرادة** هى أن يعتقد الإنسان الشىء ثم يعزم عليه ثم يريده. وقيل الإقبال بالكلية على الحق، والإعراض عن الخلق، وهى ابتداء المحبة.

وللإرادة فى المخلوقات تسعة مظاهر: **الأول** هو **الميل** وهو انجذاب القلب إلى مطلوبه؛ فإذا قوى ودام سمى **ولعاً** وهو المظهر **الثانى**؛ ثم إذا اشتد وزاد وأخذ فى الاسترسال فيمن يحب، فكأنه انصب الماء، إذا أُفرغ لا يجد بداً من الانصباب، وهذا مظهر ثالث وهو **الصبابة**؛ ثم إذا تفرّغ له بالكلية وتمكّن ذلك منه سمى شغفاً وهو المظهر الرابع؛ ثم إذا استحكم فى الفؤاد سمى هوى وهو المظهر

الخامس؛ ثم إذا استولى حكمه على الجسد سمي غراماً وهو المظهر السادس؛ ثم إذا نما وزالت العلل الموجبة للميل سُمّي حُبّاً وهو المظهر السابع؛ ثم إذا هاج حتى يفنى المحب عن نفسه سمي وداً وهو المظهر الثامن؛ ثم إذا طفح حتى أفنى المحب والمحبوب سمي عشقاً هو المظهر التاسع.

وقيل للإرادة صفة تجلّى علم الحق على حسب المقتضى الذاتي. وذلك المقتضى هو الإرادة، وهي تخصيص الحق تعالى لمعلوماته بالوجود على حسب ما اقتضاه العالم، فهذا الوصف فيه يسمى إرادة.

والإرادة المخلوقة فينا هي عين إرادته تعالى، لكن بما نسبت إلينا كان الحدوث اللازم لنا لازماً لوصفنا، فقلنا بأن إرادتنا مخلوقة، وإلا فهي بنسبتها إلى الله تعالى عين إرادته تعالى، وما منعها من إبراز الأشياء على حسب مطلوباتها إلا نسبتها إلينا، وهذه النسبة هي المخلوقية، فإذا ارتفعت النسبة التي لها إلينا ونسبت إلى الحق على ما هي عليه انفعلت بها الأشياء، كما أن وجودنا بنسبته إلينا مخلوق، وبنسبته إليه تعالى قديم، وهذه النسبة هي الضرورية التي يعطيها الكشف والذوق، إذ العلم قائم مقام العين.

وفي الفتوحات المكية لابن عربي: أنه لايجوز أن يسمى الله تعالى مختاراً فإنه لا يفعل شيئاً بالاختيار، بل يفعله على حسب ما يقتضيه العالَم من نفسه، وما اقتضاه العالم من نفسه إلا هذا الوجه الذي هو عليه فلا يكون مختاراً. ويغلّطه أغلب الصوفية فإن الإرادة الإلهية المخصصة للمخلوقات على كل حال وهي هيئة صادرة من غير علّة ولا سبب، بل بمحض اختيار إلهي، لأن الإرادة حكم من أحكام العظمة، ووصفٌ من أوصاف الألوهية، فألوهيته وعظمته لنفسه، لا لعلّة.

٤٧ - أرباب...

أرباب القلوب: هم الذين وصفهم الله تعالى فقال: ﴿الَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ (المؤمنون٦٠)، فهم من وجلهم يقبلون على الله بصدق اللجأ وإظهار الفاقة ودوام الافتقار.

وأرباب النهايات: هم أولياء الله الذين ماتت أهويتهم، وخلصت أرواحهم، واستقامت بواطنهم وظواهرهم لله، كما قال رسول الله ﷺ: «من أراد أن ينظر إلى ميّت يمشي على الأرض فلينظر إلى أبي بكر»، إشارة منه إلى ما كوشف به من

صريح العلم الذى لا يصل إليه عوام المؤمنين إلا بعد الموت، حيث يقال: ﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ (قّ ٢٣)، فأرباب النهايات انطفأت أهواؤهم وتخمّر فى بواطنهم صريح العلم وانكشفت لهم الآخرة.

وأرباب التوحيد: مصطلح «الآملى» لأصحاب وحدة الوجود من الصوفية، باعتبارها عقيدة فيها فلسفة وعقل وليس فيها مواجيد ولا كرامات.

٤٨ - أربعينية...

رياضة الصوفية، فيها يضبطون أحوالهم بالاعتزال من الناس، وقلة المنام والطعام، ومداومة الذِّكر؛ وهى المخصوصة بالذِّكر فى قول رسول الله ﷺ: «من أخلص لله أربعين صباحاً ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه»، وفى قوله تعالى: ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ (الأعراف١٤٢).

وكان جماعة من الصالحين يزعمون أن ذا القعدة وعشراً من ذى الحجة، هى أربعون موسى عليه السلام! ولا أدرى من أين جاءوا بهذا الكلام، والتقويم العربى لا يتوافق مع التقويم العبرى؟ - واختار الله تعالى مع موسى التاريخ بالليالى دون الأيام فقال: ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً﴾ (الأعراف١٤٢)، لأن الليالى أوائل الشهور، والمشركون يخالفون فى ذلك فيحسبونها بالأيام، لأن معولهم على الشمس، ومعول أهل الله على القمر، وحساب الشمس للمنافع، وحساب القمر للمناسك. ومن الإسرائيليات القول بأن سن مفارقة الصبا هى الثلاثون، كثلاثين موسى، وأن الله يعذر ابن آدم إلى الأربعين كما أعذر موسى؛ وقال الإسلاميون فى الأربعين يكون الشيّب، ثم بعد ذلك نُعذَر إلى الستين، وذلك غاية الإعذار؛ والستون سن الإنابة والخشوع والاستسلام لله، وترقُّب المنية ولقاء الله، وفى هذه السن إعذار بعد إعذار، الأول بالشيّب عند كمال الأربعين، كقوله تعالى: ﴿وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ﴾ (الأحقاف ١٥)، فذكر الله تعالى أن من بلغ الأربعين، فقد آن له أن يعلم مقدار نِعَم الله عليه وعلى والديه ويشكرها، والصوفية هذا رأيهم: يطلبون الدنيا ويخالطون الناس حتى يبلغ الواحد منهم الأربعين سنة، فإذا بلغوها اعتزلوا الناس، فإذا أتتهم الستون يكونون قد عرفوا، ومن عَرَف وَجَد، ومن وَجَد فقد اتّصل، ومن اتّصل فقد غنى عن أوصافه

فى أوصاف الله، وفى الحديث قال رسول الله ﷺ: أعذَرَ الله إلى امرىء أخّر أجَلَه حتى بلغ ستين سنة».

٤٩ - ارتضاع...

للمريدين مع الشيوخ أوان ارتضاع، وأوان فطام. وأوان الارتضاع: أوان لزوم الصُحبة، والشيخ يعلَم وقت ذلك، فلا ينبغى للمريد أن يفارق الشيخ إلا إذا أذن له بأنه قد آن له أوان الفطام، وأنه يقدر أن يستقل بنفسه، واستقلاله بنفسه أن يفتح الله له باب الفهم.

٥٠ - أزل...

معناه القدم، لأن القديم يسمى به غير البارى. والأزل والأزلية لله تعالى، ولا يسمّى بالأزل شيء غير الله جلّ جلاله. والأزل اسم من أسماء الأولية، فهو الله القديم الذى لم يزل ولا يزال، والأزلية من صفاته.

وفى شرح الفصوص للجامى: الأعيان الثابتة وبعض الأرواح المجردة أزلية، والفرق بين أزليتها وأزلية المبدع تعالى، نعتٌ سلبى ينفى الأولية، بمعنى افتتاح الوجود عن العدم، لأنه غير الوجود.

وأزلية الأعيان والأرواح: دوام وجودها مع دوام مبدعها مع افتتاح الوجود عن العدم لكونه من غيرها.

٥١ - أستاذ...

هو إمام الطريقة وفقيهها ومرشدها، وهو بخلاف القطب - وهو أعلى درجات التصوف.

يقول طيفور البسطامى: من لم يكن له أستاذ فإمامه الشيطان. - يعنى من لم يكن له أستاذ يصله بسلسلة الأتباع، ويكشف له عن قلبه القناع، فهو من التصوّف لقبط لا أب له، ودعىٌّ لا نسب له.

وقال القشيرى: حقوق الأستاذين (جمع أستاذ، وهو أساتذة أيضاً) لا تؤيه منها.

٥٢ - استتار...

أن تكون البشرية حائلة بينك وبين شهود الغيب، والاستتار الذى يعقب التجلّى: هو أن تستتر الأشياء عنك فلا تشاهدها.

٥٣ - استدراج...

هو الخارق الذى يظهر من الكفّار وأهل الأهواء والفُسّاق، أى مَن كان مردوداً عن طاعة الله، وهو أنواع: فمنه المكر، والكيد، والإملاء، والإهلاك. وفى الاستدراج يعطى الله بلا حساب، حتى إذا فرح المُعطَى بما آتاه الله، أخذه بغتة كما قال: ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ (القلم ٤٥)، نعوذ بالله من سُخطه ومكره! -

وقال ﷺ : إذا رأيتم الله يعطي العباد ما يشاءون على معاصيهم، فإنما ذلك استدراج منه لهم.

والفرق بين الكرامات والاستدراجات: أن صاحب الكرامة لا يستأنس بتلك الكرامة، بل عند ظهور الكرامة يصير خوفه من الله أشدّ، وحذره من قهره أقوى، فإنه يخاف أن يكون ذلك من باب الاستدراج؛ وأما صاحب الاستدراج فإنه يستأنس بذلك الذى يظهر عليه، ويظن أنه إنما وجد تلك الكرامة لأنه يستحقها، وحينئذ يستحقر غيره، ويتكبّر عليه، فيحصل له من مكر الله وعقابه.

٥٤- استطاعة...

أجمعوا أنهم لا يتنفسون نفساً، ولا يطرفون طرفة، ولا يتحركون إلا بقوة يحدثها الله تعالى فيهم، واستطاعة يخلقها الله تعالى على أفعالهم، لايتقدمها ولا يتأخر عنها ولايوجد الفعل إلا بها، ولولا ذلك لكانوا بصفة الله تعالى يفعلون ما يشاءون ويحكمون ما أرادوا، ولم تكن للخلق حاجة إلى الله تعالى عند أفعالهم، ولا كانوا فقراء إليه، ولكان قولهم: ﴿إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ (الفاتحة ٥) لا معنى له.

٥٥- استغراق...

أن لا يتلفت قلب الذاكر إلى الذكر فى أثناء الذكر، ولا إلى القلب، ويعبّر العارفون عن هذه الحالة بالفناء.

٥٦- استغفار...

الاستغفار باللسان مع حضور القلب! وفى لفظ الاستغفار مارُوى عن النبىّ ﷺ، قال: سيد الاستغفار أن تقول: اللّهم أنت ربىّ، لا إله إلا أنت، خلقتنى وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت.أعوذ بك من شرّ ما صنعت.أبوء لك بنعمتك علىّ، وأبوء بذنبى، فاغفر لى، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت.- وروى أن النبىّ ﷺ أخذ بيد علىّ ثم قال: ألا أُعلّمك كلمات تقولهن لو كانت ذنوبك كَمَدَبّ النمل (أى المكان الملىء بالنمل)، لغفرها الله لك؟ تقول: اللّهم لا إله إلا أنت سبحانك، عملت سوءاً وظلمت نفسى فاغفر لى، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت...

والاستغفار فعل المتقين، والسَّحَر خير أوقاتهم للاستغفار: ﴿وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْحَارِ﴾(آل عمران ١٧)، خصّ السَّحر لأنه مظان القبول ووقت إجابة الدعاء. وقال ﷺ فى تفسير استغفار يعقوب لأولاده: ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي﴾(يوسف ٩٨): أن يعقوب أخّر استغفاره إلى السَّحر، وهو قوله: ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ﴾، واستغفار أولياء الله لذلك بالسحر؛

ولما سأل الرسول ﷺ جبريل: أي الليل أسمع؟ قال: لا أدري، غير أن العرش يهتز عند السحر ـ أي من كثرة استغفار الناس؛ والسحر: هو من حين يدبر الليل إلى أن يطلع الفجر الثاني؛ والاستغفار: هو إعلان التوبة لله، وأن يُسقط عنا ما ارتكبنا من الذنوب، وقال ﷺ: ينزل الله عزّ وجلّ إلى سماء الدنيا كلّ ليلة حين يمضي ثلث الليل الأول، فيقول: أنا الملك! من ذا الذي يدعوني فأستجيب له؟ من ذا الذي يستغفرني فأغفر له، فلا يزال كذلك حتى يطلع الفجر. وعن أنس قال: أُمرنا أن نستغفر بالسحر سبعين استغفارة، وقال: سمعت النبيّ ﷺ يقول: إن الله يقول: إني لأهمّ بعذاب أهل الأرض، فإذا نظرت إلى عمّار بيوتي، وإلى المتحابّين فيّ، وإلى المتهجدّين والمستغفرين بالأسحار، صرفت عنهم العذاب بهم. وفي كتاب الحلية لأبي نعيم: إذا كان في أُمّة خمسة عشر رجلاً، يستغفرون الله كل يوم خمساً وعشرين مرة، لم يؤاخذ الله تلك الأمة بعذاب العامة. وروى أن عبد الله بن مسعود كان في السحر، في نواحي المسجد، يناجي ربّه يقول: يا ربّ، أمرتني فأطعتك، وهذا سَحَر، فاغفر لي!ـ وعن النبيّ ﷺ أنه قال: من قال استغفر الله الذي لا إله إلا هو الحيّ القيوم وأتوب إليه، غُفر له وإن كان قد فرّ من الزحف (يعني الجهاد). ـ وعن أبي هريرة قال: ما رأيت أكثر استغفاراً من رسول الله ﷺ. وعنه ﷺ قال: لا توبة مع إصرار. ـ وعن سهل بن عبدالله قال: الجاهل ميّت، والناسي نائم، والعاصي سكران، والمُصرُّ هالك. ـ وعن النبيّ ﷺ قال فيما يحكي عن ربّه: أذنبَ عبدٌ ذنباً، فقال: اللّهم اغفر لي ذنبي، فذكر مثل ذلك مرتين، وفي آخر الحديث قال له ربُّنا جلّ وعلا: اعمل ما شئتَ فقد غفرتُ لك. وقال ﷺ: إن العبد إذا اعترف بذنبه، ثم تاب إلى الله، تاب الله عليه. ـ وقال أحدهم:

يستوجب العفو الفتى إذا اعترف
بما جَنَى من الذنوب واقترف

وقال آخر:

أقرِرْ بذنبك ثم اطلب تجاوزه
إن الجحود جحود الذنب ذنبان

وقال ﷺ: والذي نفسي بيده، لو لم تُذنبوا، لذهب الله بكم، ولجاء بقوم يذنبون ويستغفرون فيغفر لهم.

٥٧ - استقامة...

هي أن تجمع بين أداء الطاعة واجتناب المعاصي، وحقيقتها لا يطيقها إلا الأنبياء وكبار الأولياء، وهي على ثلاثة أضرب:

استقامة اللسان على كلمة الشهادة، واستقامة الجنان على صدق الإرادة، واستقامة الأركان على الجهد فى العبادة. ولها مدارج ثلاثة : أولها التقويم وهو تأديب النفس، وثانيها الإقامة وهى تهذيب القلب، وثالثها الاستقامة وهى تقريب الأسرار.

ومن أمارات استقامة أهل البداية: أن لا تشوب معاملتهم فترة؛ **ومن أمارات استقامة أهل الوسايط:** أن تصحب منازلهم وقفة؛ **ومن أمارات استقامة أهل النهاية.** أن لا تتداخل مواصلتهم حجة.

وقالوا فى معنى قوله تعالى ﴿ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ (فصلت ٣٠): استقاموا على انفراد القلب بالله تعالى.

وقالوا **الاستقامة فى الأقوال** بترك العيبة، **وفى الأفعال** بنفى البدعة، **وفى الأعمال** بنفى الفترة، **وفى الأحوال** بنفى الحجبة.

والاستقامة توجب إدامة الكرامة، يقول الله تعالى: ﴿وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا﴾ (الجن١٦)، لم يقل سقيناهم بل قال أسقيناهم، يقال أسقيته إذا جعلت له سقياً، فهو يشير إلى الدوام.

٥٨- استواء...

قال الصوفية فى تأويل الآية: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ﴾ (طه ٥): استوى من كل شىء، فليس شىء أقرب إليه من شىء، ما لم يبعد منه بعيد، ولم يقرب منه قريب.

وقالوا: استوى علمه بكل شىء، فليس شىء أقرب إليه من شىء.

٥٩- إسقاط...

إسقاط الإضافات والاعتبارات، هو اعتبار أحدية الذات فى كل الذوات، وهو التوحيد الحقيقى.

٦٠- إسلام...

الإسلام فى كلام العرب: هو الخضوع والانقياد للمستسلم، وليس كل إسلام إيماناً، بينما كل إيمان هو إسلام، لأن من آمن فقد استسلم وانقاد لله، لأنه قد يوجد من يُسلم خوفاً ورهباً وهو غير مؤمن؛ فأمّا من يؤمن فهو المسلم حقّاً، فكل إيمان إذن هو إسلام. وبعض الصوفية قالوا: **الإسلام** هو الإيمان، فكل مؤمن مسلم، وكل مسلم مؤمن، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلَامُ﴾(آل عمران ١٩)، فدلّ على أن **الإسلام بخلاف الإيمان،** بدليل قوله تعالى: ﴿قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ

﴿ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا ﴾(الحجرات: ١٤)، فأخبر الله تعالى أنه ليس كل من أسلم مؤمناً، فدلّ على أنه ليس كل مسلم مؤمناً. ولما قال سعد بن أبي وقّاص للنبيّ ﷺ : أعط فلاناً فإنه مؤمن، ردّ عليه النبي ﷺ فقال: أوَ مسلم..الحديث، فدلّ على أن الإيمان ليس الإسلام، فإن الإيمان باطن، والإسلام ظاهر.

وقد يُطلق الإيمان بمعنى الإسلام، ويطلق الإسلام ويُراد به الإيمان، للزوم أحدهما الآخر، وصدوره عنه، كالإسلام الذي هو ثمرة الإيمان ودلالة على صحته.

٦١-اسم...

هو حروف جُعلت ليستدلّ المُسمَّى بالتسمية على إثبات المُسمَّى، فإذا سقطت الحروف فإن معناه لا ينفصل عن المسمَّى. يقول الشبلي: ليس مع الخَلق منه إلا اسمه. أي اسم الله تعالى، يعني أن الناس لا يعرفون من الله تعالى سوى اسمه.

والأسماء الإلهية تنقسم باعتبار الذات والصفات والأفعال إلى : **الأسماء الذاتية** كاسم الله، **والأسماء الصفاتية** كاسمه العليم، **والأسماء الأفعالية** كاسمه الخالق.

وتنحصر الأسماء باعتبار الأنس والهيبة لدى مطالعتها في: **الأسماء الجمالية** كاسم اللطيف، **والأسماء الجلالية** كاسم القهار.

ولكل مخلوق سوى الإنسان حظ من بعض الأسماء دون الكل، كحظ الملائكة من اسم السبُّوح والقدّوس، وهم لذلك يقولون: ﴿ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ﴾ (البقرة ٣٠).

واختص الإنسان بالحظ من الأسماء جميعها، ويقول الله تعالى في ذلك: ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ﴾ (البقرة ٣١)، أي ركّب في فطرته من كل اسم من أسمائه لطيفة، وهيّأه بتلك اللطائف للتحقق بكل الأسماء الجلالية والجمالية.

وتسمى الأسماء الذاتية: أسماء أولية، ومفاتيح الغيب، وأئمة الأسماء، وأمهات الأسماء، لأنها لا تتوقف على غيرها ولا تتعلق به، وهي الأسماء السبعة : الحيّ، والعالم، والمريد، والقادر، والسميع، والبصير، والمتكلم.

وقيل اسم الحيّ هو إمام الأسماء، لتقدمه على كل الأسماء، لأن الحياة بشرط العلم والإرادة والقدرة والسمع إلخ... وقيل اسم العالم أولى بالإمامة، لأن الإمامة أمر نسبي يقتضي مأموماً، والحياة لا تقتضي غير الحيّ، فهي عين الذات ولا تقتضي النسبة، والعلم أعرف منها، لأنه أول ما تتعين به الذات.

وبعضهم أورد مكان السميع والبصير: الجواد والمُقسط، ولكن الجود والعدل يحتاجان إلى العلم والإرادة والقدرة وما هو أكثر من ذلك، ومن ثم فهما من الأسماء الثانية وليسا من الأسماء الأوَل.

والاسم الأعظم: هو الاسم الجامع لجميع الأسماء، وقيل هو الله، لأنه اسم الذات الموصوفة بجميع الصفات، أى المسماة بجميع الأسماء، ولهذا يطلقون اسم الحضرة الإلهية على حضرة الذات مع جميع الأسماء.

٦٢- إسماعيلية...

كانت للإسماعيلية آثارها الكبيرة على التصوّف، فلجأ متصوّفة الشيعة، إلى التأويل مثل الإسماعيلية، ثم إلى تأويل التأويل، فمثلاً أوّلوا الوضوء بموالاة الإمام، والتيمم بالأخذ عن المأذون عند غيبة الإمام أو الشيخ الذى هو الحُجّة، والغُسل بتجديد العهد إلخ؛ وقالوا: إن الأنبياء أصحاب الشرائع لسياسة العامة، وأما الفلاسفة كابن عربى والحلاّج فهم أنبياء الحكمة الخاصة؛ وقالوا مثلهم بمراتب للتصوّف سبع، فإذا بلغ المريد مرتبة الحلول، فقد اتصل به العقل الأول، فلا يعود ثمة حاجة لإفهامه عللَ الشرائع، وفيها يمكن للصوفى أن يقول صراحةً: أنا الله!- وقالوا أيضاً مثلهم بالنقباء، فذكر ابن عربى أن عدد النقباء فى كل زمان، لا يزيد ولا ينقص عن ١٢، وهو عدد بروج الفلك. وقالوا بالحلول، فالإسماعيلية يركعون حينما يرون الحاكم فى الشارع ويصيحون: أنت الواحد الأحد، والمحيّ المُميت، وكذلك اعتقد الحلاّج فى نفسه فقال: أنا الحقّ. وأضافت الإسماعيلية الكثير إلى التصّوف، كفكرة القطب، والأبدال.

٦٣- إشارة...

هى الإخبار من غير الاستعانة بالتعبير باللسان، وقيل ما يخفى عن المتكلم كشفه بالعبارة للطافة معناه، وتكون مع القرب، ومع حضور الغيب، وتكون مع البُعد. والإشارة إبانة عما يتضمنه الوجد من المشار إليه.

وعلم الصوفية علم إشارة، فإذا صار علم عبارة خفى. وهو علم إشارة لأن مشاهدات القلوب ومكاشفات الأسرار لا يمكن العبارة عنها على التحقيق، بل تُعلم بالمنازلات والمواجيد، ولا يعرفها إلا من نازل تلك الأحوال وحلّ تلك المقامات.

والإشارة كما فى قوله عز وجل: ﴿تَبَارَكَ الَّذِى نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ﴾ (الفرقان١)، و﴿الَّذِى﴾ فى الآية كالكناية، والكناية كالإشارة فى لطافتها،

ولايدركها إلا الأكابر من أهل العلم.

وفلان صاحب إشارة: معناه أن يكون كلامه مشتملاً على اللطائف والإشارات وعلم المعارف.

والإشاريون: هم المشتغلون بعلوم الإشارة من علوم الصوفية التى تسمى علوم الأحوال، ومنها علوم المشاهدات والمكاشفات. وانفردت الصوفية بهذه العلوم. ووصفُها بأنها علوم إشارة: لأن مشاهدات القلوب ومكاشفات الأسرار لا يمكن العبارة عنها على التحقيق، بل تُعلَم بالمنازلات والمواجيد، ولا يعرفها إلا من نازل تلك الأحوال وحلّ تلك المقامات.

٦٤- اشتباه...

إشكال الحال فى طرفى الحكم بين الحق والباطل.

٦٥- اشتياق...

إنجذاب باطن المحب نحو المحبوب فى حالة الوصال من أجل الوصول إلى زيادة اللذة أو دوامها.

٦٦- إشراق...

مذهب الإشراق قال به السهروردى، أساسه فكرة أن الله تعالى هو نور، بل إنه نور الأنوار، وفى كتابه «هياكل النور» يقول: ياقيّوم، أيّدنا بالنور، وثبّتنا على النور، واحشرنا إلى النور، واجعل منتهى مطالبنا رضاك.

٦٧- إشراقية...

جماعة الصوفية الذى قالوا بالإشراق كالسهروردى الحلبى، والجلدكى.

٦٨- أشرف...

الأشرف عند الصوفية: عبارة عن ارتفاع الوسائط، وكلما كانت الوسائط بين المُوجَد والمُوجِد أقل، وكانت أحكام وجوبها تغلب على أحكام إمكانها، كان ذلك الشىء أشرف، وإذا كانت الوسائط بينه وبين الحق أكثر كان ذلك الشىء أخسّ، ومن أجل هذا فإن العقل الأول والملائكة المقربين أشرف من الإنسان الكامل.

٦٩- إشكال...

هو الحيرة عند الإقرار عن الحق أو الباطل.

٧٠- أصحاب...

هم مَنْ رأى رسول الله ﷺ أو جلس معه مؤمناً به، وبالتبعية هم المريدون الذى يصحبون القطب ويسلكون على طريقته.

وأصحاب الحديث: المحبّون للرسول ﷺ والمتابعون له، أبْلَغَ وأتمّ محبة

ومتابعة، ولهذا سمُّوا أهل السُّنّة والجماعة، والمقصود بالسُّنة سنة الرسول ﷺ، فهم على نهجه ويقتدون به، وهم الجماعة لأنهم الغالبية من أُمّة الإسلام.

ولمّا سُئل ﷺ عن الناجين يوم القيامة، قال: هم أصحابه ومن ساروا على دربه. ودربُهم، وجُملة ما هم عليه: الإقرار بالله وملائكته وكُتبه ورسُله، وما جاء من عند الله، وما رواه الثقات عن الرسول ﷺ، وأن الله سبحانه إله واحد، فردٌ صمد، لا إله غيره، وأن محمداً عبده ورسوله، وأن الجنة حقّ، والساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله يبعث مَن في القبور، وأنه سبحانه على عرشه، له يدان بلا كفّ، وعينان بلا كيف، ووجه. وأثبتوا السمع والبصر له، وأقرّوا له علماً، وأنه الخالق، وأن الخير والشرّ بقضائه وقدره، والحساب منه، وأن الإيمان قول وعمل، ويزيد وينقص، وأن الجهاد لله، والدعاء لله، والنصيحة للمسلمين، وأن أهل الايمان على مراتب، أرفعهم أهل الصلاح، الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والداعون إلى الخير.

وأصحاب الإجماع: هم أهل الاتفاق في أُمّة محمد ﷺ في العصر والمصر، والمراد بالاتفاق: الاشتراك في الاعتقاد والأقوال والأفعال. وهم أهل اجتهاد، والاجتهاد في الشرع والعقل، والحسّيّ والحربيّ. وشرط الإجماع موافقة العوام والخواص.

وأصحاب التفسير: الذين تأوّلوا القرآن.

وأصحاب الإباحة: هم صوفية ـ أو أنهم ادّعوا التصوّف، وقالوا مع ذلك بإسقاط التكاليف وتعطيل العبادات، وتعلّموا القرآن ويقرأونه ولا يرون الجهاد، وكثيرمن الغُلاة كانوا على الإباحة.

وقيل، أصحاب الحقيقة: هم الصوفية، شغلهم الفكر عن الفرض، فتركوا الفرض إلى الفكر.

وأصحاب الانتظار: هم الصوفية الذين قالوا بالمهدى المنتظر، ويرون صدق الأحاديث عنه، ويقولون بالرجعة.

وأصحاب الرأى: هم الصوفية الذين عنايتهم بالعقلانيات، قالوا: علْمُنا هذا الرأى، وهو أحسن ما قدرنا عليه، فمن قدر على غير ذلك فله ما رأى، ولنا ما نرى.

وأصحاب السؤال: هم أهل النظر، يعنى الفلاسفة من الصوفية، وأغلب ما يقولون به أسئلة، وأقلّه الجواب على ما يسألون.

وأصحاب الصحاح الستة: هم الذين جمعوا الحديث، وأثبتوا صحيحها، وهم: مسلم، والبخاري، والترمذي، وابن ماجه، والنسائي، وأبو داود، وقد يُدرج معهم الدارمي فيصير المجموع سبعة، والمشهور أنهم ستة. ويقال للمتابعين لهؤلاء من الصوفية أنهم أصحاب الصحاح.

وأصحاب الصحيفة: هم أمة الإسلام، والصحيفة هي دستور الأمة. **ويقال عن أصحاب الطرق الصوفية أنهم أصحاب صحيفة،** لأنهم يتّبعون دستورهم الخاص بهم.

وأصحاب الطبائع: هم الطبائعيون الذين يقولون: بالطبائع.

وأصحاب العادات: الصوفية الذين يلتزمون العادات في العبادات فتكون لهم بها مظهرية تميّزهم عن سواهم، كلبس الصوف أو الخرقة عند الصوفية، وكل **الطرق الصوفية من أصحاب العادات.**

وأصحاب العبادات: هم **الصوفية** الذين اشتغلوا بعبادة الله عمّا سواه، وانصرفوا إلى شعائرهم يلتزمونها، ويستغرقهم الذكر ولم يهتموا بالعلائق، وهؤلاء من زُهّاد الصوفية.

وأصحاب العدل والتوحيد: هم الصوفية الذين ينفون الصفات عن الله وينزّهونه غاية التنزيه، ولذلك سموا **أصحاب توحيد** أيضاً كشأن المعتزلة، وقد نزّهوا الله أن يُضاف إليه شرّ أو ظلم أو كفر أو معصية، ولذلك كانت تسميتهم ـ كالمعتزلة ـ **أصحاب العدل.**

وأصحاب الكساء من الصوفية، قالوا: نتّبع النبيّ ﷺ، وعليّ بن أبي طالب، وفاطمة، والحسن، والحسين، فهؤلاء الخمسة كساهم الله، وهم الذين شملتهم عباءة الرسول ﷺ وقال عنهم أهل البيت.

وأصحاب المعاني: هم **الصوفية** الذين يقولون الأعراض تختص بمحالها لمعانٍ سواها.

وأصحاب النصّ: هم جماعة من الصوفية يرفضون التأويل ويصرّون على الاقتصار على النصّ.

وأصحاب الاثنين: هم الزنادقة.

وأصحاب الخرقة الصوفية: هم **الصوفية** باعتبار أن كل من لبس الخرقة عن شيخ فهو الصوفي، ورئيسهم الذي يُرجع إليه عليّ بن أبي طالب، قالوا: هو أول من أوصل ما تحصّل له من تعاليم إلى مريديه، وينسب إليه قوله: لا تخلو الأرض من قائم لله، لئلا تبطل آياته وتدحض حجته. أولئك الأقلون عدداً، الأعظمون عند الله

قدرأه، وواضح أن الحديث منحول على عليّ، لأن مصطلحاته ليست من مفردات عليّ ولا من مفردات زمنه. والحديث يقصد بالأقلين عدداً الأعظمين عند الله قدراً: الصوفية أصحاب الخرقة.

٧١- اصطفاء...

هو أن يجعل الله تعالى قلب العبد فارغاً لمعرفته حتى تبسط معرفته الصفاء فى قلبه، ويتساوى فى هذه الدرجة خواص المؤمنين وعامتهم، من عاص ومطيع وولىّ ونبىّ، لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ﴾ (فاطر٣٢).

واصطفاء الأنبياء: بالعصمة والتأييد والوحى وتبليغ الرسالة؛ واصطفاء المؤمنين : بصفاء المعاملة، وحُسن المجاهدة، والتعلّق بالحقائق والمنازلة.

٧٢- اصطلام...

الوله الغالب على القلب، وهو قريب من الهيمان. وقيل هو غلبات الحق الذى يجعل كلية العبد مغلوبة له بامتحان اللطف فى نفى إرادته.

٧٣- اصطناع...

فى الآية: ﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾ (طه ٤١) استخلصتك لمرادى، وأفردتُ سرّك لى، يعنى أن الله تعالى يقطع الصوفى عن كل أحد. والاصطناع: هو أن يجعله الله مهذباً، بفناء كل ما يصيبه منه، وزوال جميع الحظوظ من يده، ويبدّل أوصافه النفسانية حتى يصير ذاهلاً عن نفسه بزوال أوصاف النعوت، ويختص الله الأنبياء بهذه الدرجة. وفى الآية اختص باصطناع موسى.

٧٤- أصلح...

الأصلح هو أن يفعل الله بعباده ما يشاء، ويحكم فيهم بما يريد، سواء كان ذلك هو الأصلح لهم أو لم يكن، لأن الخلق خلقه، والأمر أمره، لا يُسأل عمّا يفعل وهم يُسألون، ولولا ذلك لم يكن بين العبد والربّ فرق. وعسى أن يكره العباد شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً، وقد يحسبونه شراً وفيه الخير العميم، والله خير الحاكمين والرازقين والفاتحين والغافرين والناصرين، وهو يخلق ما يشاء ويختار، وما كان لهم الخيرة، واختياره تعالى هو الأصلح يقيناً.

٧٥- أصول...

الأصل هو الشىء الذى يكون له تزايد، فأصل الأصول الهداية. والفرع ما تزايد عن الأصل، فإذا تزايد من الفرع

زيادة تسمى باسم الأصل، فالأصل حجة للزيادات، والزيادات هى الفروع مردودة إلى الأصول.

والأصل الهداية والتوحيد، والمعرفة والإيمان، والصدق، واليقين، والإخلاص، وزيادتها بزيادة الهداية. والأحوال والمقامات والأعمال والطاعات زيادات هذه الأصول وفروعها، وهى مسماة باسم الأصول لتزايدها وزيادة فروعها. وقيل النقصان فى الأحوال لأنها فروع، فإذا أحكمت الأصول لم يضر النقص فى الفروع.

وقيل أصول مذهب التصوف خمس خلال، هى: صيام النهار، وقيام الليل، وإخلاص العمل، والتوفر على الأعمال بطول رعاية، والتوكل على الله فى كل حال.

وقيل الأصول ثلاثة هى: أن لايطالب الصوفى أحداً بحق له؛ وأن يطالب نفسه على العكس بحقوق الناس؛ ويلزم نفسه عدم التقصير فيما يأتيه.

وقيل الأصول سبعة، وهى: التمسك بكتاب الله، والاقتداء برسوله، وأكل الحلال، وكفّ الأذى، واجتناب الآثام، والتوبة، وأداء الحقوق.

وقيل الأصول خمسة، هى: رفع الحدث، وإفراد القِدَم، وهجر الإخوان، ومفارقة الأوطان، ونسيان ما عُلِم وما جُهِل.

وقيل الأصول سبعة هى: أداء الفرائض، واجتناب المحارم، وقطع العلائق، ومعانقة الفقر، وترك الطلب، وترك الادخار، والانقطاع إلى الله فى جميع الأوقات.

٧٦ - أطوار...

هى أطوار سبعة يتغير عليها الصوفى، عبارة عن: الطبع، والنفس، والقلب، والروح، والسرّ، والخفىّ، والأخفَى.

٧٧ - اعتبار...

هو أن يرى الصوفى الدنيا للفناء، والعاملين فيها للموت، وعمرانها للخراب.

والمُعتَبرة: هى الدنيا تنزل عنده باعتبارها فانية، وما كان جزء منه فانياً فكله فانٍ.

وقد يكون الاعتبار من العَبْر وهو شق النهر والبحر، يعنى يرى المعتبر نفسه على حرف من مقامات الدنيا.

٧٨ - اعتصام...

هو المحافظة على الطاعة ومراقبة الأمر، ومنه اعتصام بالجسوم؛ واعتصام بالانقطاع؛ واعتصام بالانصال وهو شهود الحق تفريداً، وهو الاعتصام بالله.

٧٩- اعتكاف...

تفريغ الصوفى لقلبه عن شُغل الدنيا، وتسليم نفسه إلى المولى، وقيل هو الإقامة، ومعناه: لا أبرح عن بابك حتى تغفر لى.

٨٠- أعراف...

هو المَطْلَع، وهو مقام شهود الحقّ فى كل شىء متجلّيا بصفاته التى ذلك الشىء مظهرها، وهو مقام الأشراف على الأطراف، أى مقام الصوفية.

وقيل فى الآية: ﴿وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَن سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ (الأعراف ٤٦): أن الأعراف سور يضرب بين الجنة والنار، يحولُ بين أهلهما؛ وأصحاب الأعراف: قومٌ استوت حسناتهم وسيئاتهم، فقعدت بهم سيئاتهم عن دخول الجنّة، وتخلّصت بهم حسناتهم عن دخول النار، فوقفوا هنالك على السور حتى يقضى الله فيهم. وقال ﷺ: توضع الموازين يوم القيامة فتوزن الحسنات والسيئات، فمن رجحت حسناته على سيئاته مثقال صؤابة (بيضة القملة) دخل الجنة. قيل: يا رسول الله، فمن استوت حسناته وسيئاته؟ قال: أولئك أصحاب الأعراف لم يدخلوها وهم يطمعون.

٨١- أعيان...

الأعيان الثابتة عند الصوفية: هى حقائق الممكنات فى علم الحق تعالى، وهى صور حقائق الأسماء الإلهية فى الحضرة العلمية، لا تأخُّر لها عن الحق إلا بالذات لا بالزمان، فهى أزلية وأبدية.

وفى اصطلاح أهل الفلسفة من الصوفية: الأعيان الثابتة هى الوجود الماهوى، وتسميتها بالأعيان إنما لتوكيد إضافة الوجود الحقيقى إليها، فهى ليست مجرد معقولات فى عقل الله، بل لها كيانها ووجودها الثابت.

٨٢- أفق...

الأفق المبين: هو نهاية مقام القلب؛ والأفق الأعلى: هو نهاية مقام الروح، وهى الحضرة الواحدية وحضرة الألوهية.

٨٣- أقصرية...

طريقة صوفية، مؤسسها أبو الحجاج الأقصرى، نسبةً إلى الأقصر من مدن مصر، وله منهجه فى التربية للمريدين، وأساسه التزام الكتاب والسُّنّة. وتخرّج على الأقصرى كثيرون.

٨٤- أكبرية...

طريقة محيى الدين بن عربى، نسبةً إلى شهرته باسم الشيخ الأكبر، وتسمى كذلك

الطريقة الحاتمية، بالنسبة إلى أنه ينحدر من قبيلة حاتم الطائي، وتقوم على وحدة الوجود باعتبار الحقيقة الوجودية واحدة في جوهرها وذاتها وإن كانت متكثّرة بصفاتها وأسمائها، وإنما في الحقيقة ليس غير الله.

٨٥ - اكتساب...

هو أن يفعل الصوفي لجر منفعة أو دفع مضرة، لقوله تعالى: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ (البقرة ٢٨٦)، ومعنى ذلك أن للعباد أفعالاً واكتساباً على الحقيقة، وهم بها مثابون وعليها معاقبون، وأنهم مختارون لاكتسابهم، مريدون له، وليسوا بمحمولين عليه ولا مجبرين فيه، ولا مستكرهين له، ومن طعن على الاكتساب كمن طعن على السُّنة، وكذلك من طعن على التوكل فقد طعن على الإيمان.

ويقول الصوفية: إنه لا خير فيمن لايذوق ذلّ المكاسب. والمكاسب لا تمنع التفويض والتوكل إذا لم تضيعهما في كسبك.

وأدب المكاسب هو: أن لاتمنعك عن الفرائض في أوقاتها، وأن لا ترى رزقك منها، وتعاون المسلمين، ولاتجمع، ولا تمنع.

٨٦ - أكل...

في الحديث: «لأن يأخذ أحدكم حبلاً فيحتطب على ظهره، فيأكل ويتصدّق، خيرٌ له من أن يأتي رجلاً فيسأله أعطاه أو منعه، فإن اليد العليا خير من اليد السفلى». وأيضاً: «أحلُّ ما أكل المؤمن من كسب يده».

والأكل من الفتوح جائز، لقول رسول الله ﷺ: «من وُجّه إليه شيء من هذا الرزق من غير مسألة ولا إشراف فليأخذه».

والفقير الصادق إذا سكن الرباط وأراد أن يأكل فليأكل من ماله وكسب يده، فإذا كان عنده من الشغل بالله ما لايسعه الكسب فله أن يأكل من مال الرباط، لأن الرباط لا تجوز فيه البطالة، ولأن طعام الرباط لأقوام كَمُل شغلهم بالله، إلا أن يرى شيخه أن يطعمه من مال الرباط لتوفره على خدمة القوم، فيكون ما يأكله مقابل خدمته. وقد يُعذَر الشيخ العاجز عن الكسب في تناول طعام الرباط ولا يُعذَر الشاب، والرسول ﷺ يقول: «فأطعموا طعامكم الأتقياء وأولوا معروفكم المؤمنين». وليس أضر على المريد من الأكل الكثير، والبطن إذا امتلأت أذهلت الذهن. والصوفية أكلهم كالمرضى، وشرّ الناس من أكل وحده، وابتداء الطعام

ببسم الله الرحمن الرحيم، والانتهاء منه بحمد الله ربّ العالمين، والتناول باليمين، ومع الانتهاء غسل اليدين.

٨٧- ألف...

الألف من **الأبجدية** إشارة إلى الذات الأحدية، أى الحق تعالى، من حيث أنه هو أول ما فى أزل الأزل.

٨٨- ألفة...

الألفة من مراتب **المحبة**، وهى ميلان القلب إلى المألوف.

وقالوا: **للألفة** خمس درجات: **الأولى** النظر فى أفعال الصانع وفى كل شىء له آية تدل على أنه الواحد؛ **والثانية** كتمان الحب فيُخفى الأليف حقيقة حاله؛ **والثالثة** مرتبة التمنّى وفيها لا يعنيه وجود أو هلاك نفسه؛ **والرابعة** الإخبار والاستخبار، والأليف فى هذا المقام يريد الإخبار والاستخبار من أحوال مألوفه فقد يتحدث بسرّه؛ **والخامسة** التضرّع، وفى هذا المقام يقوم الأليف بالتضرّع والخضوع لمألوفه.

٨٩- الله...

اسم خماسى، لأن الألف التى قبل الهاء ثابتة فى اللفظ، ولايعتد بسقوطها فى الخط، لأن اللفظ حاكم على الخط.

وقال أبو بكر الواسطى: إن كل اسم من أسماء الله تعالى يُتخلق به إلا اسمه الله، واسمه الرحمن، لأنهما للتعلّق دون التخلّق، وكذلك الصمدية ممتنعة عن الإدراك والإحاطة. يقول الله تعالى: ﴿**ولا يحيطون به علماً**﴾ (طه ١١٠).

وقيل: إن اسم الله الأعظم هو الله، لأنه إذا ذهب عنه الألف يبقى لله، وإن ذهبت عنه اللام يبقى له فلم تذهب الإشارة، وإن ذهبت عنه اللام الأخرى يبقى هاء، وجميع الأسرار فى الهاء، لأن معناه هو، وجميع أسماء الله تعالى إذا ذهب عنها حرف واحد يذهب المعنى ولم يبق فيه موضع للإشارة ولا معنى للعبارة، فمن أجل ذلك لايسمى به غير الله تعالى.

وعن سهل بن عبد الله قال: **الألف** أول الحروف وأعظم الحروف، وهو الإشارة فى الألف، أى الله الذى ألّف بين الأشياء، وانفرد عن الأشياء.

والألف الأولى فى اسم الله: عبارة عن الأحدية التى هلكت فيها الكثرة ولم يبق لها وجود بوجه من الوجوه، وذلك حقيقة قوله تعالى: ﴿**كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ**﴾ (القصص: ٨٨)، يعنى وجه ذلك الشىء، وهو أحدية الحق فيه ومنه، له الحكم فلا يُقيَّد بالكثرة، إذ ليس لها حكم. ولما كانت الأحدية أو تجليات

الذات في نفسه لنفسه بنفسه، كان الألف من أول هذا الاسم، وانفراده بحيث لايتعلق به شيء من الحروف تنبيهاً على الأحدية التي ليس للأوصاف الحقّية ولا النعوت الخَلقية فيها ظهور، فهي أحدية محضة، اندحضت فيها الأسماء والصفات والأفعال والتأثيرات والمخلوقات، وإليه إشارة بسائط هذه الحروف باندحاضها فيه، إذ بسائط هذا الحرف الألف، ولام، وفاء، فالألف من البسائط يدل على الذات الجامعة للبساطة والمنبسطة فيه، واللام بقائمته يدل على صفاته القديمة، وبتعريفه يدل على متعلقات الصفات وهي الأفعال القديمة المنسوبة إليه، والفاء يدل على المعقولات بهيئته، ويدل بنقطته ـ نقطة الفاء ـ على وجود الحق في ذات الخلق، ويدل باستدارة رأسه وتجويفه ـ تجويف الفاء ـ على عدم التناهي للتمكن من قبوله للفيض الإلهي، واستدارة رأس الفاء محل الإشارة لقبوله الفيض، إذ المجوف لابد أن يقبل شيئاً يملأه، والنقطة التي في رأس الفاء كأنها هي التي دائرة رأس الفاء محلها، وهنا إشارة لطيفة إلى الأمانة التي حملها الإنسان، وهي، أعني الأمانة، كما الألوهية، كما أن السماء والأرض وأهليهما من المخلوقات لم تستطع حمل هذه الأمانة، وكذلك جميع الفاء ليس محلاً للنقطة سوى رأسها المجوف الذي هو عبارة عن الإنسان، وذلك لأنه رئيس هذا العالم، فتَحصَّل من هذا أن أحدية الحق يبطن فيها كل شيء من حقائق أسمائه وصفاته وأفعاله ومؤثراته ومخلوقاته ولا يبقى إلا صفة ذاته المعبر عنها من وجه الأحدية.

والحرف الثاني: من اسم الله هو اللام الأول فهو عبارة عن الجلال، ولهذا كان اللام ملاصق للألف، لأن الجلال أعلى تجليات الذات، وهو أسبق إليها من الجمال. وقد ورد في الحديث القدسي: «العظمة إزاري والكبرياء ردائي»، ولا أقرب من الرداء والإزار إلى الشخص، فثبت أن صفات الجلال أسبق إليه من صفات الجمال، ولاينافض هذا قوله تعالى: «سبقت رحمتي غضبي»، فإن الرحمة السابقة إنما هي شرط العموم، والعموم من الجلال، وإذا استوفت الصفة الواحدية الجمالية كمالها في الظهور أو قاربت، سُمّيت جلالاً لقوة ظهور سلطان الجمال، فمفهوم الرحمة من الجمال، وعمومها وانتهاؤها هو الجلال.

والحرف الثالث: هو اللام الثاني، وهو عبارة عن الجمال المطلق الساري في مظاهر

الحق سبحانه، وجميع أوصاف الجمال ترجع إلى وصفين هما العلم واللطف، كما أن جميع أوصاف الجلال ترجع إلى وصفين هما العظمة والاقتدار، ونهاية الوصفين الأولين إليهما، فكأنهما وصفٌ واحد، ومن ثم قيل إن الجمال الظاهر للخلق إنما هو جمال الجلال، والجلال إنما هو جلال الجمال، لتلازم كل واحد منهما للآخر، فتجلياتهما كالفجر الذى هو أول مبادى طلوع الشمس إلى نهاية طلوعها، فنسبة الجمال نسبة الفجر، ونسبة الجلال نسبة شروقها، وهذا الإشراق من الفجر، وذلك الفجر من هذا الإشراق، فهذا معنى جمال الجلال وجلال الجمال. ولما كانت هذه اللام إشارة إلى هذين المظهرين لكن باختلاف المراتب، وكانت بسائطه لام ألف ميم، وجملة هذه الأعداد واحد وسبعون عدداً (اللام = ٣٠ + الألف = ١ + الميم = ٤٠، والمجموع = ٧١)، وتلك هى عدد المجموع التى أسدلها الحق دونه بينه وبين خلقه، وقد قال النبىّ ﷺ: «إن لله نيفاً وسبعين حجاباً من نور»، وهو الجمال، «وظلمة» ـ وهى الجلال ـ «لوكشفها لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره»، يعنى الواصل إلى ذلك المقام لا يبقى له عين ولا أثر، وهى الحالة التى يسميها الصوفية المحق والسحق، فكل عدد من أعداد هذا الحرف إشارة إلى مرتبة من مراتب الحجُب التى احتجب الله تعالى بها عن خلقه، وفى كل مرتبة من مراتب الحجُب ألف حجاب من نوع تلك المرتبة، كالعزّة مثلاً فإنها أول حجاب قيّد الإنسان فى المرتبة الكونية، لكن له ألف وجه، وكل وجه حجاب، وكذلك بواقى الحجب.

والحرف الرابع: من اسم الله هو الألف الساقط من الكتابة ولكنها ثابت فى اللفظ، وهى ألف الكمال المستوعب الذى لا نهاية ولا غاية له، وإلى عدم غايته الإشارة بسقوطه فى الخط، لأن الساقط لا تُدرَك له عين ولا أثر، وفى ثبوته فى اللفظ إشارة إلى حقيقة وجود نفس الكمال وفى ذات الحق سبحانه وتعالى، فعلى هذا الكامل من أهل الله فى أكمليته يترقى فى الجمال، والحق سبحانه وتعالى لا يزال فى تجليات، وكل تجلٍّ من تجلياته فى ترقٍ فى أكمليته، فإن الثانى يجمع الأول، فعلى هذا تجلياته أيضاً فى ترقٍ، ولهذا قال المحققون إن العالم كله فى ترقٍ فى كل نفس، لأنه أثر تجليات الحق وهى فى الترقى، فلزم من هذا أن يكون العالم فى الترقى، فإن قلت بهذا الاعتبار أن الحق

سبحانه فى ترق، وأردت بالترقى ظهوره فى خلقه، جاز هذا الحديث فى الجناب العالى الإلهى، تعالى الله سبحانه عن الزيادة والنقصان، وجلّ أن يتصف بأوصاف الأكوان.

والحرف الخامس: هو الهاء، إشارة إلى الذات فى حضورها وتجلّيها، أو أنها الهُو وهو فى حق الله إشارة إلى كنه الذات أو الغيب الذى لا يصح شهوده للغير. واستدارة رأس الهاء إشارة إلى دوران رحى الوجود بين التجلّى والمشاهدة والغياب والفقد.

واسم الله بحروفه: يتوه فيه العلم، والخليقة تتوه فى العلم، والاسم يتوه فى الذات.

واسمه تعالى: يدل على الإله الحق دلالةً جامعة لمعانى الأسماء الحسنى، وهو رأس الأسماء الربّانية، وعن أبى هريرة، عن النبىّ ﷺ قال: «إن لله تسعاً وتسعين اسماً ـ مائة إلا واحدة» ـ وإن كنا نرى أن أسماءه تعالى أضعاف ذلك بكثير. وبعض هذه الأسماء صفات جمال، مثل العليم والرحيم والهادى، وبعضها صفات جلال، مثل الكبير والمتعال والعظيم، وبعضها صفات كمال، مثل الرحمن والرحيم، وبعضها صفات ذات، مثل العزيز والقادر، وبعضها صفات أفعال، يوصف بها وبضدّها كالرضى والغضب.

والصوفية فى معرفة الله على أصناف: منهم أهل تقليد، ومنهم أهل نظر؛ وأهل تنزيه؛ وأهل تشبيه؛ وأهل عجز (يُقرّون بعجزهم عن دركه)؛ وأهل حلول واتحاد (لا يفرّقون بين الله وخلقه، ويقولون إنه فى خلقه قد اتحد بهم، فإذا أردت أن تعرفه فلتعرف خلقه؛ وأهل تحقيق يجمعون بين الخبر والنظر.

والدلائل على وجود الله كثيرة: منها «دليل ظهور الحياة فى المادة» وهو برهان التناسل بين الأحياء لدوام البقاء، ويختصره البعض باسم «برهان النسل»؛ وبرهان التمانع، كقوله تعالى: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ (الأنبياء٢٢)؛ ودليل الاختراع، يقول: إننا لم نسمع أن للكون ربّاً سوى الله، فلم يدّع أحد أنه هو الذى اخترعه؛ ودليل العناية، يقول: إن الكون مستمر ولابد أن هناك من يرعى هذا الاستمرار ويخترع له القوانين وهو الله؛ والدليل البديهى، يقول: إن الإنسان تظهر عليه فطرة أنه مخلوق وأنه يعرف خالقه ـ كلما ألمّت به مصيبة، أو نزل به بلاء، وعندئذ لا يتجه إلا لله؛ والدليل الصوفى، بأن الإيمان يُلقَى فى النفس

إلقاءً؛ والدليل الاجتماعي أن الإنسان مركوزٌ فيه أنه ليصحّ اجتماعه لابد من الثواب والعقاب والاعتقاد بالآخرة والبعث والحساب؛ وبرهان الوعي، أن المتيقن لدى كل إنسان أنه لابد من موجود أعظم يقوم على الكون؛ وبرهان الحرية، أنه حالما يستشعر الإنسان أنه حرّ حقيقةً يأتيه اليقين بوجود الله؛ والبرهان الأخلاقي، أو برهان الواجب أو الضمير أو الوازع الخُلقي، فمن أين يعرف الإنسان الحقّ والعدل إن لم يكن للوجود من يغرس فيه وجوب الحق والعدل؟؛ وبرهان الجمال والخير فلو لم يكن هناك معيار شامل كامل يُرجع إليه فيهم هو الله، فمن أين يتسنّى للإنسان أن يعرف بهما ويعتقدهما ويمارسهما؟ وهناك حُجج كونية أخرى كثيرة على وجوده تعالى، كحجّة الحركة والمُحرّك الأول، وحجّة الممكن والواجب، وحجّة العلّية أو العلّة الأولى.

ومن دلائل وجوده تعالى: الحجة الغائية، باعتبار أن المسيطر على الكون الانسجام والنظام، ويفترض ذلك وجود غاية وعلّة عاقلة.

والبرهان الوجودي، أو برهان المثل الأعلى، أو برهان الاستعلاء والاستكمال: هو أن العقل كلما تصوّر شيئاً عظيماً يتصور ما هو أعظم منه، وما من شيء كامل إلا والعقل يتطلّع إلى ما هو أكمل منه، والله هو غاية الكمال ولا مزيد عليه ولا نقص فيه، وعندما تلح الفكرة على عقولنا وتكون موجودة في تصوّرنا، نعرف وقتها أن احتياج الفكرة إلى الاستكمال ليس على جهة الصورة، ولسنا نحن علّتها، فيلزم بالضرورة أن نستشعر وجود الله، وهذا هو الدليل الأنطولوجي أو الوجودي. وكل هذه الدلائل والحجج لإبطال حُجّة الناس أنهم ما بلغهم عن الله ولم يعرفوه.

وفي الآية: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾ (الفتح ٢٦)، فإن كلمة التقوى هي «لا إله إلاّ الله» وكان عطاء يقول: هي: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمدُ وهو على كل شيء قدير. وقال عليّ: هي: لا إله إلا الله والله أكبر. وقال ابن عباس: لا إله إلا الله يشهد بها، وهي رأس كل تقوى. وقال سعيد بن جبير: هي لا إله إلا الله والجهاد في سبيله. وقوله تعالى: ﴿وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾: أنهم أهل الله، ولذا هم أحق بها، وهم المسلمون.

وفي الآية: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ (محمد ١٩)، إخبارٌ بأنه لا إله إلا الله،

يأمر الله أهل العرفان بالثبات عليها، وكان إمامهم الرسول ﷺ يقول: «أنا أعلمكم بالله وأخشاكم له» أخرجه البخارى، وقوله تعالى «فاعلم» الأمر له ـ أى لله، وكان عالماً.

وفرّقٌ بين أن يقول المسلم كلمة «لا إله إلا الله» وبين أن يقولها الصوفى من أهل الله، فالعامة تقولها من باب العادة والغفلة على الحقيقة، وليس لقولهم كثير قيمة، كأن تقال عند التعجب من شيء؛ أما عندما يقولها الصوفى مخلصاً فيها، ذاكراً لمعناها، ومتحققاً بحقيقتها، فإن كان بنفسه فهو فى وطن التفرقة، وعند الصوفية هذا من الشرك الخفىّ، وإنْ قالها بحقّ فهو الإخلاص، والصوفى الذى يقول لا إلـه إلا الله يعلم ربّه أولاً بالدليل والحُجة، وعِلْمُه كسبى، وهو أصل الأصول، وعليه ينبنى كل علم استدلالى. ثم كلما زادت الحُجج زاد بيان معنى «لا إلـه إلا الله». وكلما غلب ذِكْر الله على قلب الصوفى غاب عن نفسه فى الحضور الإلهى، فإذا استولى ذلك عليه صار علمه بلا إله إلا الله ضرورياً وليس علماً مكتسباً، ويقلّ إحساسه بنفسه، حتى يصير علْمه بنفسه كأنما بالاستدلال، وكأنما هو غافلٌ عن نفسه، أو ناسٍ لنفسه. وفى الأمثال: الذى على البحر يغلب عليه ما يأخذه من البحر، فإذا ركب البحر قويت هذه الحالة، فإذا غرق فى البحر فلا إحساس له بشيء سوى ما هو مستغرق فيه ومُستهلَك!

وأهل التعريف: اختاروا ذِكر «الله الله الله» دون «لا إلـه إلا الله» مخافة أن يستخدموا «لا» فينفون الإلهية وهم يريدون إثباتها.

ومن يخلص من الأهواء يذكر اسم الجلالة فقط «الله» فهو الأنفع له. وأهل الحضرة يذكرون: «الحمد لله، وأستغفر الله، ولا حول ولا قوة إلاّ بالله». وكان هجير الإمام مالك «ما شاء الله ولا قوة إلا بالله» حتى كتبها على باب داره، وقال: جنّة الرجل داره، والله يقول: ﴿ **وَلَوْلا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ** ﴾ (الكهف ٣٩)، أى لو قالها الرجل لسلمت جنّته من الآفات

٩٠- ألم...

من أخلاق الصوفية الصبر على الألم، ويروون أن رابعة العدوية سألت مرة جماعة منهم عن معنى الصدق، فقال أحدهم: ليس بصادق فى دعواه من لم «يصبر» على الوجيعة ينزلها به مولاه. وقال آخر: ليس بصادق فى دعواه من لم «يشكر» على الوجيعة ينزلها به مولاه.

وقال آخر: ليس بصادق فى دعواه من لم «يتلذذ» بالوجيعة ينزلها به مولاه. فصاحت رابعة: بل ثمت ما هو أفضل من ذلك كله! فليس بصادق فى دعواه من لم «ينس» الوجيعة فى مشاهدة مولاه، مثل نسوة مصر اللاتى نسين آلام أيديهن لما رأين وجه يوسف!

ورابعة العدوية يقال إنها أول من ذهبت إلى تمجيد الألم من الصوفية، والدعوة لما يمكن أن يسمى بعبادة الألم عندهم، مما أنشأ فى الحياة الروحية للصوفية وتراً جديداً، ظل الصوفية - وعلى رأسهم الحلاّج - يعزفون عليه من بعدها. وكانت رابعة ترى فى الألم نعمة يختص بها الله عباده المخلصين. وعندما هرمت وتهافتت عليها الأوجاع والآلام سألها سفيان الثورى أن تدعو ربّها ليخفف آلامها، فقالت: كيف أتوجه إليه بالدعاء وهذه إرادته!

٩١ - ألم (ألف لام ميم)...

هذه الحروف المقطّعة فى أوائل السُّور نقول: إن لكل كتاب سرّه، وسرّ الله فى القرآن هذه الحروف المقطعة؛ وعند بعض الصوفية أنها: مفاتيح أسمائه، فالألف من اسمه تعالى «الله»، واللام يدل على اسمه «اللطيف»، والميم يدل على اسمه المجيد، واسمه المَلِك. - وقالوا: إن الله تعالى يقسم بها لشرفها، لأنها بسائط أسمائه وخطابه. - وقالوا: الألف تدل على اسم «الله»؛ «واللام» على اسم جبريل؛ والميم على اسم محمد ﷺ. والمعنى: أن هذا الكتاب نزل من الله، على لسان جبريل، إلى محمد ﷺ. - وقالوا: إن الألف فى الله لا تتصل بحرف فى الخط، بينما سائر الحروف تتصل به غالباً، كما أن سائر الخلق يحتاجون إليه تعالى، وهو مستغنٍ عن الجميع. - وقالوا: الصوفية كلما رأوا الألف عرفوا تقدُّس الحقّ سبحانه عن التخصّص بالمكان، فإن سائر الحروف لها محل من الخلق أو الشفة أو اللسان، إلى غيره من المدارج، غير الألف - فإنها هويته تعالى، فلا تضاف إلى محل. - وقالوا: الصوفى كالألف، ينفرد لله، وكذلك الألف لا يتصل بحرف، ولا تزول عن الاستقامة والانتصاب، وكذلك الصوفى. - وقالوا: الصوفى كلما يقرأ «ألم» من الحروف المقطّعة ينفرد قلبه إلى الله تعالى، فإذا نطق اللام لان قلبه، فإذا اقرأ الميم فَهِم أمره فيما يكلّفه. - وقالوا: كل حرف من الحروف المقطّعة سواء فى «ألم» أو فى غيرها، يختص بصيغة مخصوصة. والألف تنفرد باستواء القامة وتتميز بذلك عن غيرها من الحروف، ولذلك تتصدر الحروف، فدلّ ذلك على

أن مثيلها يحظى بالرتبة العليا، ويفوز بالدرجة القصوى، وهكذا هو الله تعالى.
- وفلسفة الحروف مما انفرد به فلاسفة الصوفية، ولهم فيها كلام كثير، ومنهم طريقة اختُصّت بها هى الطريقة الحروفية. (انظر الحروفية).

***

٩٢- إلهام...

ما يُلقى فى الروع بطريق الفيض. وقيل **الإلهام** ما وقع فى القلب من علم، ويدعو إلى العمل من غير استدلال بآية ولا نظر فى حجة. **والإلهام** حجة عند الصوفية وليس بحجة عند العلماء.

والعلم الإلهامى: علم وهبى، وهو إما يكون وحياً للأنبياء والمرسلين، وإما يكون إلهاماً للأولياء والصالحين.

والعلوم الإلهامية أو علوم الوجد: موارد تتوالى من الربّ على خاطر العبد. ويفرق الشعرانى بين **وحى الكلام ووحى الإلهام**. ولم يسكن ابن عربى يصدر فى كتبه عن روية، ولكنه بتعبيره كان ينفث عن روعه على يد **مَلَك الإلهام**، من إملاء إلهى وإلقاء ربّانى، بحكم الإرث للأنبياء والتبعية لهم، وليس بحكم الاستقلال، وإنما هى فيوض إلهية.

٩٣- إلهامية...

فرقة من المتصوفة المبطلة، أوّلوا الشرائع بدعوى أنهم مُلهَمون بما يقولون، فقالوا مثلاً الوضوء بحسب ما أُلهمتْ به عبارة «عن موالاة الإمام»، **والتيمم** هو الأخذ من المأذون عند غيبة الإمام، **والغُسل** تجديد للعهد، **والزكاة** تزكية للنفس. وهذه الفرقة يحكمها الهوى فضلّوا الدين برأيهم، بدعوى أن الوحى للنبىّ **والإلهام** لهم.

٩٤- الهية...

هى أحدية جمع جميع الحقائق الوجودية، كما أن آدم عليه السلام أحدية لجمع جميع الصور البشرية، إذ **للأحدية الجمعية الكمالية** مرتبتان، إحدهما قبل التفصيل، لكون كل كثرة مسبوقة بواحد هى فيه بالقوة، والله تعالى يقول: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ﴾ (الأعراف ١٧٢)، فإنه لسان من السنة شهود المفصّل فى المجمل مفصلاً، ليس كشهود العالم من الخلق فى النواة الواحدة النخيل، الكامنة فيه بالقوة، فإنه شهود المفصّل فى المجمل مجملاً لا مفصلاً. وشهود المفصّل فى المجمل مفصلاً يختص بالحق، وبمن جاء بالحق أن يشهده من الكُمَّل وهو النبىّ

خاتم الأنبياء، وخاتم الأولياء كما يقول الصوفية الشيعة.

٩٥- ألوهية...

اسم مرتبة جامعة لمراتب الأسماء والصفات كلها، وقيل إنها جميع حقائق الوجود وحفظها فى مراتبها، والمراد بحقائق الوجود أحكام المظاهر مع الظاهر فيها، أعنى الحق والخلق، فشمول المراتب الإلهية والكونية وإعطاء كل ذى حق حقه من مرتبة الوجود هو معنى الألوهية. والله اسم لربّ هذه المرتبة، ولا يكون ذلك إلا لذات الواجب الوجود، فأعلى مظاهر الذات ـ الألوهية، ولها الحيطة على كل مظهر، فالألوهية أم الكتاب، والقرآن هو الأحدية، والفرقان هو الواحدية، والكتاب المجيد هو الرحمانية. وأعلى الأسماء تحت الألوهية الأحدية، وأما الواحدية فهى أولى تنزلات الحق من الأحدية، وأعلى المراتب التى شملتها الواحدية هى الرحمانية، وأعلى مظاهر الرحمانية فى الربوبية، وأعلى مراتب الربوبية فى اسمه المَلِك، فالملائكة تحت الربوبية، والربوبية تحت الرحمانية، والرحمانية تحت الواحدية، والواحدية تحت الأحدية، والأحدية تحت الألوهية، لأن الألوهية إعطاء حقائق الوجود وغير الوجود حقها مع الحيطة والشمول، والأحدية حقيقة من حقائق الوجود، فالألوهية أعلى، ولذا كان اسمه «الله» أعلى الأسماء، وأعلى من اسمه «الأحد».

٩٦- إلياس...

هو إدريس يُعبَّر به عن القبض، لارتفاعه إلى العالم الروحانى، فاستهلكت قواه المزاجية فى الغيب وقُبضت فيه، كما نقول القصة التى تُروَى عنه، ولذلك عُبِّر به عن القبض.

٩٧- أمّ...

أمّ الهيولى: هو اللوح المحفوظ، لأن الهيولى لا تقتضى صورة إلا وهى منطبعة فى اللوح المحفوظ، فإذا اقتضت الهيولى صورة ما، وجُدت هذه الصورة فى العالم على حسب ما اقتضته الهيولى من الفور ـ أى بلا إبطاء، والمُهلة ـ أى التؤدة والرفق، لأن القلم الأعلى جرى فى اللوح المحفوظ بإيجادها حسب ما اقتضته الهيولى.

وأم الكتاب: عبارة عن العقل الأول، وقيل عبارة عن ماهية كنه الذات، المعبَّر عنها من بعض وجوهها بماهيات الحقائق التى لا يطلق عليها اسم ولا وصف ولا نعت، ولا وجود ولا عدم، ولا حق ولا خلق. والكتاب هو الوجود المطلق الذى لا عدم فيه، فكانت ماهية الكنه أم

الكتاب، لأنها التى تولّد منها الكتاب، **والكتاب** النازل على محمد ﷺ عبارة عن أحكام الوجود المطلق، وهو علم الكتاب، وإليه أشار الحق: ﴿وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ (الأنعام٥٩). ويقول فيه: «وإنه فى أم الكتاب» يقصد القرآن، فهو محفوظ من العبث والنسيان والامتهان: أو ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ * فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ * لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ (الواقعة٧٧/ ٧٨)، ﴿مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾ (آل عمران ٧)، والمحكمات واضحة الدلالة، والمتشابهات تلتبس على الكثيرين أو بعضهم. **والمحكمات** هى **أم الكتاب**، أى أصله الذى يُرجَع إليه عند الاشتباه؛ والمتشابهات تحتمل دلالاتها موافقة المحكم، وهى الفرائض والأمر والنهى والحلال والحرام، نجدها فى كل الكُتب السماوية: التوارة والأناجيل والقرآن على السواء، وهى حُجّة الربّ وعصمة العباد.

وأمهات الأسماء: هى أمهات الأسماء الإلهية، وهى: **الأول، والآخر، والظاهر، والباطن**.

٩٨- إمام...

القرآن هو الكتاب السماوى **الإمام**. **واللوح المحفوظ إمام**. وخليفة رسول الله فى إقامة الدين هو **الإمام**. وهو المحدّث والشيخ فى الطريقة، ويجب اتباعه من الجميع.

وأئمة الأسماء: هى أصول مجموع **الأسماء الإلهية**، وهى سبعة أسماء، هى: الحىّ، والعالم، والمريد، والقادر، والسميع، والبصير، والمتكلم.

٩٩- إمامان...

هما شخصان عن يمين ويسار **القطب الغَوث**، **والذى عن اليمين**: نظرُه فى الملكوت، وهو مرآة ما يتوجه من المركز القطبى إلى العالم الروحانى من الإمدادات التى هى مادة الوجود والبقاء؛ **والذى على اليسار**: نظُره فى **المُلك**، وهو مرآة ما يتوجه منه إلى المحسوسات من المادة الحيوانية، وهو أعلى من صاحبه ويخلف القطب إذا مات.

١٠٠- إمامة...

هى **الخلافة** فى الدين، والجمهور فى **شروط الإمامة** على أن مستحق الإمامة هو المجتهد فى الأصول والفروع، العدل، العاقل، البالغ، الذَكَر، الحر، الشجاع، ذو الرأى. ويقسّم بعض الصوفية **الإمامة** إلى ظاهرية وباطنية. والصوفية مع الإمامة الباطنية.

١٠١ - أمّة...

الأُمّـة: هي كل من بُعث إليـهم نبيّ، ويُسـمُّون أُمّـة الدعـوة، أو كل المؤمـنين بالنبيّ، ويُسـمُّون أمة الإجابة.

١٠٢ - امتحان...

هو بلاء يأتي من الحق تعـالى ويصيب ثـلاثـة: قوماً هو لهم عـقوبة، وقوماً هو لهم تمحيص وكـفّـارة، وقـومـاً هو لهم استدعاء الزيادة وارتفاع الدرجة.

والامتـحان: اختبار، وتربـية، وصبر، وتوكل، ورضـا، وإسـقـاط لـلتـدبيـر، ويخضع فـيه العبـد لبعض المنن والعطايا، أو لبعـض التجارب القـاسيـة كنقص في الأموال والأولاد أو غير ذلك: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْـرٌ عَظِيمٌ﴾ (الحـجـرات ٣)، وتلك لعمرى درجة عالية.

١٠٣ - أمر...

في اصطلاح الصوفية يطلق على عالم الغـيب أو عـالم الملكوت الذى وُجـد بلا مادة ولا مُدة. والأمر في القرآن ينصرف إلـى أربعة عشـر وجهاً: فهـو الديـن: أى الإسلام، كقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ (التوبة ٤٨)؛ وهو القول: كـقـولـه تعـالـى: ﴿فَـإِذَا جَـاءَ أَمْـرُنَا﴾: (المؤمنـون٢٧)؛ وهو العـذاب: كقـولـه تعالى: ﴿لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ﴾ (إبراهيم ٢٢)؛ ثم هو ما يَرى الله تعالى وقوعه: كقوله: ﴿إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا﴾ (آل عمران ٤٧)؛ ومـا يُقدّره، كقوله: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ (غافر ٧٨)؛ وهو إرادته: كقوله: ﴿فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾ (التوبة ٢٤)؛ وهو ما يرى أن يفعله: كقوله: ﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْـرِهِ﴾ (البـقـرة ١٠٩)؛ وهو القيـامة: كقوله: ﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ﴾ (النحل ١)؛ وهو قضاؤه تعالى، كقوله: ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ﴾ (السجدة ٥)؛ وهو أمْر الخلق، كقوله: ﴿أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُـورُ﴾ (الشـورى٥٣)؛ وهو النصـر، كقوله: ﴿يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِن شَيْءٍ﴾ (آل عمران ١٥٤)؛ وهو الذنب، كقوله: ﴿فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا﴾ (الطلاق ٩)؛ وهو الشأن والعقل، كقوله: ﴿وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾ (هود٩٧).

١٠٤ - أمر بالمعروف...

الأمر بالمـعـروف : هو الإرشـاد إلى المراشد المُنجـية؛ **والنهى عـن المُنكر**: هـو الزجر عمّا لا يلائم الشريعة.

وقيل: الأمر بالمعروف: إشارة إلى ما يُرضى الله تعالى من أفعال العبد وأقواله؛ **والنـهـى عن المـنكـر** تقبـيح ما تصـدّ عنه الشريعة وتنفّر منه العفة. **والأمر بالمعروف**،

والنهى عن المنكر، والدعوة إلى الخير، فى قوله تعالى: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ﴾ (آل عمران ١٠٤) فرضُ كفاية، يعنى أنه يكفى فى الدولة أن تتخصص أمة منها - أى جماعة - فى هذه الدعوة، وأفرادها متضامنون ويعملون كعصبة، وهم خير أبناء الدولة، لأن عندهم العلم والدراية، ورؤيتهم الأشمل، وهم أهل صلاح وتقوى وإيمان، ولهم الحل والعقد. وفى قوله تعالى: ﴿وَلْتَكُن﴾ أن وجود مثل هذه الجماعة لازم وضرورى، وأن الدولة والمجتمع لا ينصلحان إلا بها. فإذا كثرت فى المجتمع أمثال هذه الجماعات فإنه يصدق عليها قوله تعالى: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ (آل عمران ١١٠)، والأمة المعنية هى أمة الإسلام بالمعنى الواسع لكلمة إسلام، وهى الأمة المؤمنة بالله، فأيّما أمة تعمل بالدين، وتقوم بمقتضياته، وتدعو دعوته، فهى خير الأمم، وطالما هى تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتطيع الله فالخيرية محفوظة لها ومستمرة معها، فإذا تنكبّت ذلك سقطت عنها الخيرية، ولذا قال الله: ﴿ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ (التوبة ٦٧) فأن يوجد فى المجتمع من يأمر بمنكر وينهى عن معروف، يعنى أن هناك من لا يطيع الله، ولا يعمل صالحاً، ولا يدعو لصلاح، ويظهر خلاف ما يبطن، فذلك هو النفاق، يمرد عليه الفاسقون الذين لا يتناهون عن منكر فعلوه، وصفهم الله تعالى بأن: ﴿بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ﴾ (التوبة ٦٧)، يعنى أنهم من جنس واحد وطبيعة واحدة، فكان داؤهم واحداً؛ وأما الإيمان، وحبّ الخير والدعوة إليه، والقيام على إصلاح الناس، فكلها أفعال اختيار وليست أمراضاً، والقائمون على ذلك يقول الله فيهم: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ﴾ (التوبة ٧١)، وقوله فيهم: ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ لأنهم يتناصرون عن قناعة وإدراك سليم وإيمان صادق، ولأن ولاءهم لدعوة الخير ولنُصرة الإيمان وليس لبعضهم البعض. وفى الصحيح: «المؤمن للمؤمنين كالبنيان يشدّ بعضه بعضا»، و «مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد».

وعلامة صدق خيريّة أمة الدعوة والبلاغ: أنها ليست أمة أقوال ولكنها كذلك أمة أفعال، ومعيار الخيرية طاعة الله والرسول، وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، فإن صارت الأمة إلى التراخي في الدعوة إلى الخير وإتيانه، سقطت خيريتها، فالخيرية مشروطة بهذه الدعوة، فإذا التزمت بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والدعوة إلى الخير وطاعة الله يصدق عليها قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ﴾ (الحج٤١)، فهي الأمة المنصورة في الدنيا، وفي الآخرة هي المرحومة بإذن الله.

ويفرض المنطق على أهل العقل أن تكون رسالتهم هي هذه الدعوة، لأنهم لو تركوا الحبل على الغارب للمنافقين والفاسقين لفَسَد المجتمع، وعندئذ يلحقهم الضرر كل الضرر، وفي الحديث عند البخاري: «مثل القائم على حدود الله والواقع فيها، كمثل قوم استهموا على سفينة، فصار بعضهم أعلاها، وبعضهم أسفلها، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مرّوا على مَن فوقهم، فقالوا: لو أنّا خرقنا في نصيبنا خرقاً، ولم نؤذ مَن فوقنا! فإنْ تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً، وإنْ أخذو على أيديهم نجوا، ونجوا جميعاً».

واليهود كانوا من المتقاعسين عن هذه الدعوة، وفسقوا عن أمر ربّهم، وكابروا وعاندوا فقال فيهم: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ * كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ﴾ (المائدة ٧٧/ ٧٨)، ولهذا كان تحذيره ﷺ فيما رواه الترمذي: «والذي نفسي بيده لتأمرنّ بالمعروف، ولتنهونّ عن المنكر، أو ليوشكنّ الله أن يبعث عليكم عقاباً منه، ثم تدعونه فلا يستجاب لكم». والناس في ذلك على ثلاثة أقسام كما في الآية: ﴿وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ (الأعراف ١٦٣/ ١٦٥)، فقسمٌ من الناس رأوا الخروج على أمر الله وتحايلوا على ذلك وعصوا ما ذُكّروا به؛ وقسمٌ رأى النصح للفاسقين عسى أن تردهم النصيحة؛ وقسمٌ رأى أن يتوقف عن النصحية ويترك الناس لأفهامهم؛ فنجىّ الله الذين أمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر، وأهلك الذين فسقوا عن أمر ربّهم، وكان حال من توقف عن الأمر بالمعروف كحال من فعل المنكر ولم ينتاه

عنه، والمتوقّفون لم يكتفوا بأنهم عطّلوا أمر الله، بل إنهم دعوا إلى تعطيله وجادلوا الآمرين بالمعروف حول جدوى قيامهم بهذا الأمر، فكانوا كما تقول الآية: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (المائدة ١٠٥) فهذه نزلت فيمن يقوم بالدعوة فلا يجد أذناً صاغية، فيفعلوا ما أنيط بهم أن يفعلوه، وأدّوا ما عليهم أداؤه، وسعوا وليس عليهم إدراك النجاح، ولم يقصّروا، وقد ذمّ الله من يقولون ما لا يفعلون، فقال: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ * كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ ﴾ (الصف٧)، وقال: ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ ﴾ (البقرة ٤٤).

والأمر بالمعروف يتوجب فيه الرفق، وقد وُعظ به موسى وهارون في دعوتهما: ﴿ اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ * فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾ (طه ٤٣/ ٤٤)، ووُعظ به نبيّنا ﷺ: ﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ (النحل: ١٢٥).

والآمر بالمعروف والناهي عن المنكر: عليه أن ينهض بذلك بحسب وسعه، فقد يستلزم ذلك أن يستخدم يديه يعين بهما أو يمنع، وقد يلجأ إلى القول يستنفر به الناس إلى ما يدعو، وقد يكتفي في حضرة الطغاة والسفلة أن يستنكر خفيةً ما يحدث دون أن يفصح عن ذلك. وفي الحديث مما أخرجه مسلم: «من رأى منكم منكراً فليغيّره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان». ومن ذلك ماجاء في الحديث: «علّموا أولادكم الصلاة وهم في سن السابعة، واضربوهم على تركها وهم في سن العاشرة، وفرّقوا بينهم في المضاجع»؛ وفي القرآن: ﴿ وَاللاَّتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً ﴾ (النساء ٣٤). ومن ذلك أيضاً: ﴿ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ (النحل١٢٥)، ولا يكون الجدل بالباطل (الكهف ٥٦)، ولا يكون بغير علم (الحج ٨). وليس التصوّف إلا تشمماً للورود واللحوق، وتبصراً في الوجود والطروق. وأمة الصوفية خير الأمم - يعني الفرق، لأنها تدعو إلى الخير وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر.

١٠٥ - أمل...

طول الأمل داء عضال ومرض مزمن، وهو آفة الصوفية في تصوّفهم، ومتى

تمكّن من قلوبهم فسد مزاجهم واشتد علاجهم. وفي الحديث: أربعة من الشقاء: جمود العين، وقساوة القلب، وطول الأمل، والحرص على الدنيا.

وطول الأمل لم يفارقه داء، ولا نجع فيه دواء، بل أعيا الأطباء، ويئس من بُرئه الحكماء والعلماء.

وحقيقة الأمل: الحرص على الدنيا، والانكباب عليها، والحبّ لها، والإعراض عن الآخرة.

وروى عن الرسول ﷺ قال: نجا أول هذه الأمة باليقين والزهد، ويهلك آخرها بالبخل والأمل.

ويروى عن أبي الدرداء: أنه قام عن دَرَج مسجد دمشق، وقال: يا أهل دمشق، ألا تسمعون من أخ لكم ناصح؟ إنّ من كانوا قبلكم كانوا يجمعون كثيراً، ويبنون مشيداً، ويأملون بعيداً، فأصبحهم جمعهم بوراً، وبنيانهم قبوراً، وأملهم غروراً. هذه «عاد» قد ملأت البلاد، أهلاً ومالاً، وخيلاً ورجالاً. فمن اشترى مني اليوم تَرِكَتَهم بدرهمين! ـ وأنشد:

يا ذا المؤمّل آمالاً وإن بَعُدت
منه ويزعم أن يحظى بأقصاها
أنىَّ تفوز بما ترجوه ويْكَ وما
أصبحت في ثقة من نَيْل أدناها

وقال الحسن البصري: ما أطال عبدٌ الأمل إلا أساء العمل. ـ وهذا كلام سليم، لأن الأمل يُكسل عن العمل، ويورث التراخي والتواني، ويُعقب التشاغُل والتقاعُس، ويُخلِد إلى الأرض، ويُميل إلى الهوى؛ وهذا أمر قد شوهد بالعيان، فلا يحتاج إلى بيان، ولا يُطالب صاحبه ببرهان. كما أن قصر الأمل يبعث على العمل، ويحيل إلى المبادرة، ويحثّ على المسابقة.

١٠٦ - أمناء...

هم الملامتية، وهم الذين لم يُظهروا مما في بواطنهم اثراً على ظواهرهم، وتلامذتهم يتقلبون في مقامات أهل الفتوة. وقيل الأمناء: من أهل الغيب وعددهم سبعة.

١٠٧ - أمير...

يسميه الصوفية البيشر بمعنى الأمير أيضاً، وذلك أن كل جماعة عليها أن تختار لنفسها أميراً عليها، والرسول ﷺ يقول: «إذا كنتم ثلاثة في سفر فأمّروا أحدكم»، ونحن في الدنيا في سفر، والصوفية في الطريقة في سفر.

والأمير أو البيشر أزهد الجماعة في الدنيا، وأوفرهم حظاً من التقوى، وأتمهم مروءة وسخاوة وأكثرهم شفقة. وعن

الرسول ﷺ أنه قال: «خير الأصحاب عند الله خيرهم لصاحبه». ويُروَى أن «الرباطى» الصوفى صحب أحدهم فسأله: أيّنا الأمير، أنا أم أنت؟. - فقال الآخر أنت، فلم يزل «الرباطى» يحمل الزاد عن الآخر وعن أبيه على ظهره، ولما أمطرت السماء قام على رأس رفيقه يغطيه بكسائه من المطر، وكلما استكثر الآخر منه ذلك يرد عليه الرباطى: ألستُ أنا الأمير؟ فإذَنْ عليك الانقياد والطاعة!

وللممالك ملوك، وللإمارات أمير، وفى المصطلح «إمارة السفهاء» قال عنها رسول الله ﷺ: «أمراء سيكونون من بعدى، من دخل عليهم فصدَّقهم بكذبهم، وأعانهم على ظلمهم، فليس منى ولا أنا منه، ولن يَردوا على الحوض. ومن لم يدخل عليهم، ولم يصدقهم بكذبهم، ولم يُعنهم على ظلمهم، فأولئك منى وأنا منهم. أولئك يردون على الحوض. لا يدخل الجنة لحمٌ نبت من سُحت، وكل لحم نبت من سحت فالنار أولى به».

١٠٨ - أنا...

قول الصوفى «أنا بلا أنا، ونحن بلا نحن»، يعنى بذلك تخلّيه عن أفعاله. ولمّا سئل أبو سعيد الخرّاز عن معنى قوله: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ (النحل ٥٣) قال: أخلاهم من أفعالهم فى أقوالهم.

وأما قول القائل: «أنا أنت، وأنت أنا»: فمعناه الإشارة إلى ما أشار إليه الشبلى حيث قال: ياقوم، هذا مجنون بنى عامر، كان إذا سُئل عن ليلى يقول: «أنا ليلى»، فكان يغيب بليلى عن ليلى حتى يبقَى بمشهد ليلى، ويغيّبه عن كل معنى سوى ليلى، ويشهد الأشياء كلها بليلى!!

والذى يقول: «أنا أنت وأنت أنا» متوهم لأنه فى لحظة سُكر وشطح، وإذا قال ذلك فغالباً أن المعنى أنه فنى عن أوصافه المذمومة وبقيت له أوصافه المحمودة. والصوفية عموماً يفرقون بين مقام العبودية ومقام الربوبية: لو علمته لم يكن هو ولو جهلك لم تكن أنت فبعلمه أوجدك وبعجزك عبدته.

١٠٩ - إنابة...

الرجوع من الغفلة إلى الذِكْر؛ وقيل الرجوع إلى الله من كل شىء. والمنيب: مَن لم يكن له مرجع سواه، فيرجع إليه من رجوعه، ثم يرجع من رجوع رجوعه، فيبقى لا وصف له، قائماً بين يدّى الحق تعالى، مستغرقاً فى عين الجمع.

والإنابة على ثلاثة أوجه: إنابة من السيئات إلى الحسنات، وإنابة من كل ما سوى الله إلى الله، وإنابة من الله إلى الله.

وقيل إنابة العبد أن يرجع إلى ربّه بنفسه، وبروحه. وإنابة النفس أن يشغلها بخدمته، وإنابة القلب تخليته عمّا سواه، وإنابة الروح دوام الذكر حتى لا يذكر غيره ولا يكتفى إلا به.

١١٠- أنانة...

قولك أنا.

١١١- أنانية...

الأنانية والأنينية: عبارة عن الحقيقة التى يضاف إليها كل شىء من العبد، كقولك نفسى وروحى ويدى، وتكون حقيقتك وباطنك غير الحق.

ونفى الأنينية: هو أولاً عين معنى «لا إله»، ثم إثبات الحق سبحانه فى باطنك ثانياً هو عين معنى «إلاّ الله».

١١٢- انتباه...

زجْرُ الحق للعبد، بإلقاءات مزعجة، منشّطة إياه من عقال العزة على طريق العناية به. وقيل الانتباه زوال الغفلة من القلب.

١١٣- إنجيل...

قال بعضهم الإنجيل عبارة عن تجلّيات أسماء الذات، يعنى تجلّيات الذات فى أسمائه. وأول الإنجيل «باسم الآب والأم والابن»، والمراد بالآب هو اسم الله، والأم كنه الذات المعبَّر عنها بماهية الحقائق، وبالابن الكتاب، وهو الوجود المطلق، لأنه فرع ونتيجة عن ماهية الكنه. ومن هذه التجلّيات تجلّيه فى الواحدية التى ظهر بها على قوم عيسى فى عيسى، وفى مريم، وفى روح القدس. فشهدوا الحق فى كل مظهر من هذه المظاهر. وليس فى الإنجيل إلا ما يقوم به الناموس اللاهوتى فى الوجود الناسوتى، وهو مقتضى ظهور الحق فى الخلق كما يراه الحلوليون والاتحاديون.

١١٤- انزعاج...

تحرُّك القلبُ إلى الله تعالى بتأثير الوعظ والسماع فيه، أو تحرُّكه للوجْد والأنس، أو تحرُّكه للمراد باليقظة من سِنَةِ الغفلة.

والانزعاج والازدعاج بمعنى الانكساب والاكتساب.

١١٥- أنس...

والمؤانسة أيضاً، ويقابلها الوحشة. يقول الجنيد: ما أطيب الألفة والمؤانسة، وما أوحش مقامات المخالفات والوحشة.

والأنس يطلق على أنس خاص هو الأنس بالله، وهو التذاذ الروح بكمال الجمال، وهو من آثار مشاهدة الحضرة الإلهية فى القلب، وهو جمال الجلال.

وقيل الأنس ضد الهيبة، فمن تظهر له عظمة الله يستشعر الهيبة، ومن يسبق إليه جماله يستشعر الأنس، وأصحاب الهيبة مبتلون، وأصحاب الأنس مبتهجون. وقال الجنيد: الأنس ارتفاع الحشمة مع وجود الهيبة. وقيل: الأنس أن تستأنس بالأذكار فتغيب عن رؤية الأغيار. وقيل: إن لله تعالى عباداً استأنسوا بالله فكانوا فى وحدتهم أشد استئناساً من الناس فى كثرتهم.

والأنس على أحوال، والمؤتنسون هم أهل الأنس، فمنهم من يأنس بالذكر ويستوحش ما سوى الله؛ ومنهم من يذهب عن رؤية الأنس بوجود الهيبة والقُرب. ويصف الإمام علىّ «أهل الأنس» فيقول: هم قوم هجم بهم العلم على حقيقة الأمر، فباشروا روح اليقين، واستلانوا ما استوعر المترفون، وأنسوا بما استوحش منه الجاهلون، وصحبوا الدنيا بأبدان، وأرواحهم معلقة بالمحل الأعلى، أولئك خلفاء الله فى أرضه والدعاة إلى دينه.

١١٦- إنسان...

هو الكون الجامع، وهو موجود ليس بجسم ولاجسمانى.

والإنسان الكامل عند الصوفية: أريد به النبىّ محمد ﷺ، والحديث المشهور عندهم، وهو حديث موضوع: «كنت نبياً وآدم بين الماء والطين»، أى قبل خلق جسد آدم، ويذكر الجيلى وهو من أتباع هذه النظرية: أن أول شىء خلقه الله هو الروح المحمدى أو النور المحمدى، وهو الروح الإلهى الذى نفخ الله منه فى آدم! أو الكلمة الإلهية مصدر الوحى، وهو كلام يخرجه من دائرة الإسلام.

ويفسّر الصوفية الحديث الموضوع: «إن الله خلق آدم على صورته»، أنه تعالى حىّ، عليم، قادر، سميع، بصير، متكلم وكذلك الإنسان حىّ، عليم، قادر، سميع، بصير، متكلم. والإنسان الكامل هو الذى يستحق الأسماء الذاتية والصفات الإلهية استحقاق الأصالة والمِلْك بحكم المقتضَى الذاتى، فإنه المُعَبِّر عن حقيقة خَلْق الله للإنسان، ومثاله للحق مثال المرآة التى لايرى الشخص صورته إلا فيها، وإلا فلا يمكنه أن يرى صورة نفسه بمرآة الاسم «الله»، فهو مرآته، فإن الله تعالى أوجب على نفسه ألاّ تُرى أسماؤه وصفاته إلا فى الإنسان الكامل، ولهذا يعتقد الصوفية أن النبىّ ﷺ قد قال: «من رآنى فقد رأى الله». وعند الجيلى وابن عربى: أن النبىّ ﷺ هو المصدر الذى

يستمد منه جميع الأنبياء والأولياء، علمهم بالله، وهو الحقيقة الإلهية السارية فى الوجود بأسره، والعلّة الأولى فى خلق كل ما هو مخلوق، والعقل الكلى الذى يصل ما بين الوجود المطلق وهو الله وبين عالم الطبيعة، وهو ممثل العناية الإلهية التى تحفظ على العالم كيانه وتدبيره، وهو خليفة الله الذى ظهر فى هذا العالم لكى يُظهر فيه جلال مَن أوجده، وليس العالم إلا صورة الحقيقة المحمدية، كما أن الحقيقة المحمدية ليست إلا صورة الله تعالى، فالإنسان الكامل هو العالم الأصغر، والعالم نفسه هو العالم الأكبر، ولهذا قال بعضهم فى وصف الإنسان الكامل ـ أو الحقيقة المحمدية ـ كل جمال فى الوجود مستعار من جماله، أى جمال النبىّ ﷺ، وجماله هو المُشاهَد فى كل جمال، ونُوره هو المشاهَد فى كل نور، وعلى الذين يحبون النبىّ ﷺ أن يشاهدوا كماله فى كل ما هو جميل، ويتأملوا ويثنوا عليه بألسنتهم ويصلّوا. وكان الجيلى كلما رأى شيئاً جميلاً، أو أراد أن يتذكر ما نسيه، أو يتفكّر فى شىء ويُحسن التفكير فيه، يقول: اللّهم صَلِّ عليك يارسول الله». وأمّا المؤمنون حقّاً فيقولون: تبارك الله فيما خلق!

وفكرة الإنسان هذه تناظر فى الفلسفة فكرة الأوحد Das Einzige; L'Unique. والصفات التى عليها الأوحد فى الفلسفة هى نفسها الصفات التى يجعلها الصوفية للإنسان الكامل كما يتخيلونه فى التصوّف الإسلامى، فالأوحد يحيا فى ذاته، صامتاً كالقبر، هادئاً كالموت، ووطنه الوحدة، والصمت يمدّه دوماً بنشوة لا تنتهى، وفيه تنمو حياته الباطنة، ويكون أمام ذاته وأمام الله.

١١٧- انشراح الصدر...

فى الحديث: «مَن يُرد الله به خيراً يفقّهه فى الدين»، ونظير هذا الحديث الآية: ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾ (الأنعام١٢٥)، والانشراح: هو التوسعة، ويَشرَح الله صدره: يوسّعه بكشف ما كان مستغلَقاً عليه؛ وفى الحديث: إن الدين عند الله الإسلام؛ والصوفى ليَنشرح صدره يزيد فهمه للإسلام، وسُئل رسول الله ﷺ: هل ينشرح الصدر؟ قال: نعم، يدخل القلب نور، فقيل له: وهل لذلك من علامة؟ قال: التجافى عن دار الغرور، والإنابة إلى دار الخلود، والاستعداد للموت قبل نزول الموت.

١١٨- انصداع...

هو الفرق بعد الجمع بظهور الكثرة واعتبار صفاتها. (أنظر الفرق والجمع).

١١٩- أنية...

أنيّة الحق تعيُّنه بما هو له. يقول الله تعالى: ﴿إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا﴾ (طه ١٤). والهوية التي يشير إليها قوله تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ﴾ (الحشر ٥٩/ ٤٢) هي عين الأنية المشار إليها بلفظة ﴿أَنَا اللَّهُ﴾، فالهوية معقولة في الأنية، وهذا معنى قول الصوفية: أن ظاهر الحق عين باطنه، وباطنه عين ظاهره، لا أنه باطن من جهة، وظاهر من جهة أخرى.

وقد يطلق الصوفية الأنية على معقول العبد، لأنها إشعار بالمُشاهَد الحاضر، وكل شهود فالهوية غيبه. وأطلقوا الهوية على الغيب، وهو ذات الحق، وأطلقوا الأنية على الشهادة ـ وهو معقول العبد.

١٢٠- أهل الأهواء...

قيل: تسبيح الصوفية بالسُّبحة من الأهواء، وسُمّوا كذلك لأنهم يهوون في النار.

وقيل: إن المعتزلة من أهل الأهواء، فقد استحدثوا البدع في الإسلام، وقالوا: القرآن مخلوق، ولا جنّة مخلوقة ولا نار مخلوقة، ولا صراط، ولا شفاعة، ولا يدخل النار أحدٌ من المؤمنين، ولا يخرج أحدٌ من النار من مذنبي أمّة محمد ﷺ، ولا يوجد عذاب قبر، ولا منكر ولا نكير، ولا رؤية لربّنا في الآخرة، وزعموا أن علم الله مخلوق. ولم ير المعتزلة ضرورة لصلاة الجمعة؛ وقالوا كل ذلك مبتدعات أملاها الهوى، وأصحابها هم المقصود بهم أصحاب الأهواء وهم أهل السُّنة!ـ وأهل السُّنة يقولون إن المعتزلة هم من أهل الأهواء. ومنهم كذلك الصوفية، والفلاسفة. وكان الصوفي الكبير الفُضَيْل بن عياض من أهل السُّنة، وكره المبتدعات، وقال: من أحبّ صاحب بدعة أحبط الله عمله، وأخرج نور الإسلام من قلبه.

١٢١- أهل التصوف...

هم الصوفية. (انظر صوفية).

١٢٢- أهل الحق...

هم الصوفية الذين كانوا يوجدون في الأقاليم بين السليمانية وخانقين داخل الحدود الإيرانية. وطريقتهم شعبية ساذجة يستمدونها من كُتب يسمونها «البويروق» و«مناقب الأولياء»، و«تذكرة أعلى»، ومدارها جميعاً الطريقة الصفوية وتعاليم الأردبيلي.

١٢٣- أهل الذوق...

هم الصوفية عمومًا، وذوقهم نورٌ في

قلوبهم يميّزون به بين الحق والباطل. (انظر ذَوْق).

١٢٤- أهل السلوك...

هم الصوفية، عمومًا والواحد منهم هو **السالك**، أى السائر فى طريق الله حتى يبلغ الكمال. (انظر السلوك).

١٢٥- أهل الفتوة...

هم الصوفية الفقراء الذين كانت لهم أرفع الصفات، وخاصةً: الكرم، والسخاء، والمروءة؛ والفتوة من الفتاء أى الشباب؛ والفتى هو الشاب ذو المروءة، الجامع للمُثُل، والجمع فتيان، والاصطلاح نشأ أصلاً فى الكوفة، وفى القرن الثانى للهجرة، وإن كانت له أصول فى القرآن، ونسبت فيه أحاديث للرسول ﷺ؛ وكان المقابل له فى بغداد اسم الشُّطّار، والعيّارين، وأحياناً يُطلق الاسم مركباً، فيقال فتى الفتيان، وفتى العشيرة، وفتى العرب، وفتى قريش، وفتى العسكر، وكان الصوفى الكبير الفُضَيْل بن عِيَاض يقال له: شيخ الفتيان، كما يقال: الحسن البصرى: سيد الفتيان. وكان الصوفية الشيعة يقولون عن علىّ بن أبى طالب: لا فتى إلا علىّ، وزعموا أن من يشرب من ماء الفتوة فهو الفتى؛ واشتهر ثوب الفتوة، وهو لباس خاص بالفتيان ويميّزهم عن غيرهم، كلباس الصوف للصوفية، ومثل الخرقة عندهم. ولشيخ الفتيان الصوفى خليفة، وقيل رأسهم جميعاً هو علىّ بن أبى طالب، وإليه ينتسب أربابها أصحاب الفتوة؛ ولأن الصوفية الشيعة من الفتيان انتسبوا إلى علىّ فى بغداد، فإن الصوفية الفتيان فى دمشق، وكانوا من السُّنة، أطلقوا على أنفسهم اسم: الصوفية النبوية، يعارضون الصوفية العلوية؛ ولم يقتصر وصْل التصوف الشيعى بعلىّ، وإنما كان الحسين بن علىّ «فتى» له مُثُله الإسلامية العليا، وقرنوه بالمسيح، وزعموا أنه مثله ضحّى بنفسه، ليغسل ذنوب البشر بدمه؛ والبعض قرنوا الحلاّج به، لموته مثله شهيداً. وكان الحسين يصل المساكين، وكان يحمل على كتفه، ما تجود به نفسه ليغدقه عليهم، فيترك ثقله آثاراً لا تمحّى فى جسده. ووضع الصوفية الشيعة حديثاً نسبوه للرسول ﷺ فى أوصاف فتيان أُمّته، قال: لفتيان أمتى عشر علامات: صدق الحديث، والوفاء بالعهد، وأداء الأمانة، وترك الكذب، والرحمة باليتيم، وإعطاء السائل، وبذل النائل، وإكثار الصنائع، وقِرَى الضيف، ورأسُهن الحياء. وفى دمشق كان الصوفية الفتيان - واسمهم هناك الشُّطّار أو العيّارون، طائفةً من

شباب محمد، شديدى التقوى، ويفهمون الإسلام بمعنى سياسى، فكانت غايتهم استنهاض الناس واستنفارهم، وتوعيتهم بمعنى «أمّة محمد»، و«الإسلام» كهوية، وكانوا من الفقراء والمستضعفين الذين اعتقدوا أنهم لن يغيّروا ما بالمسلمين حتى يتغيّر المسلمون أنفسهم، ولذلك كانوا دُعاةً ومعلّمين، وكانوا لا يرون جدوى من العمل الفردى، ويرون العمل جماعات، وكانت المسيرة منهم تضم المثات، يلبسون الأُزُر أو المآزر، يلفون بها أوساطهم، وكانوا جماعات من عشرة؛ ويرأس كل جماعة: عريف، وعلى كل عشرة عرفاء: نقيب؛ وعلى كل عشرة نقباء: قائد؛ وعلى كل عشرة قواد: أمير. وكانوا مجاهدين؛ وحال الفتى منهم مثلما يقول شاعرهم:

ويقول الفتى إذا طعن الطعنـ

ـة خُذها من الفتى العيّار

وكانت لبعضهم كرامات، فأبو حفص عمرو بن سلم (أو مسلمة الحدّاد النيسابورى، المتوفى سنة ٦٢٤ هـ/ ٨٧٧م، كان فى حالة من حالات الفناء عن نفسه فأدخل يده فى النار ليُخرج الحديد منها؛ وأحمد بن خضروية الفتى الصوفى من خراسان - المتوفى ٢٤٠هـ/ ٨٥٤م - أتى بزوجه إلى أبى يزيد البسطامى ليزوّجها إياه، إيثاراً له على نفسه! وحمدون القصّار - المتوفى سنة ٢٧١هـ/ ٨٤٤م. . وكان إذا اشتغل لفائدة يتيم، يوقد شمعة، فإذا انتهى من عمله لصالح اليتيم، أطفأها وجلس فى الظلام، محافظةً منه على مال اليتيم! - فهذه هى فُتُوّتهم، ولهذا سُمّوا الصوفية باسم الفتيان. (انظر أيضًا فتوة، وأورانية).

١٢٦ - أهل الله ...

الأهل فى اللغة: ذوو القُربى؛ وفى الاصطلاح الصوفى: هم **أصحاب الطريقة الواحدة**. ونقول «**أهل المذهب**» لمن يدين به؛ و«**أهل القرية**» أو المدينة؛ و«**أهل النار**»؛ و«**أهل الجنة**» هم أصحابها؛ و«**أهل الكتاب**»هم اليهود والنصارى؛ و«**أهل الإنجيل**» هم النصارى؛ و«**أهل التقوى**» هم المؤمنون والمتقون؛ «**وأهل المغفرة**» هم الذين استحقوا الغفران؛ «**وأهل الذِّكْر**»: هم الذين يُرجَع إليهم فى الأمر؛ و«**أهل الحقّ**»: هم الذين أضافوا أنفسهم إلى ما هو حقٌّ عند ربّهم بالحجج والبراهين؛ و«**أهل الإيمان**»: هم المصدّقون بالله؛ و«**أهل القِبْلة**»: هم أصحاب الفِرَق، فلئن كان توجّههم إلى قِبْلة واحدة، إلا أن مقاصدهم شتّى واعتقاداتهم متباينة؛ و«**أهل الإفراط والغلو**»: هم الذين أفرطوا

فى حقّ أئمتّهم وغلوا فيهم؛ و«أهل الإثبات» أو «أهل الحق والإثبات»: هم الذين أثبتوا لله صفات وللإنسان صفات؛ و«أهل الأهواء» هم أهل البدع والباطل، وهم «البدعية» أيضاً، ونقيضهم «أهل الأديان»؛ «وأهل الذمة»: وهم أيضاً الذميّة، هم المعاهدون من النصارى واليهود الذين يقيمون فى دار الإسلام؛ و«أهل العموم»: هم العامة؛ و«أهل الخصوص»: هم أصحاب علوم الحقائق، وهم المنفردون عن العامة؛ و«أهل الحديث» هم الذين يشرّعون بالحديث، ويقابلهم «أهل الرأى» الذين يُحكّمون العقل؛ و«أهل الحلّ والعَقْد»: هم علماء الأُمّة من أهل التقوى والصلاح؛ و«أهل الذوق» هم الذين يحكّمون الوجدان؛ وهم الصوفية، هم كذلك «أهل السلوك»؛ و«أهل الزَّيغ»: هم أصحاب الضلالات؛ و«أهل السُّنّة والجماعة»: هم أصحاب الحديث؛ و«أهل الغُلُوّ»: هم المنحرفون لمّا أفرطوا وشبّهوا؛ و«أهل الفقه» هم الداعون إلى الدين اعتقاداً وعملاً؛ و«أهل الفلسفة» هم الذين سلكوا مسلك اليونان، وقيل هم سوفسطائية المسلمين، وبدْعية المتصوّفة؛ و«أهل الكلام»: هم الكلاميون يصنعهم النظر والاستدلال؛ و«أهل النظر»: هم الذين يقولون بالفكر يُطلب به العلم، ويقال لهم كذلك «أهل الفكر»؛ و«أهل الحكمة»: هم الحكماء؛ و«أهل الصُّفّة»: هم الصوفية الأوائل من المسلمين الذين كان اجتماعهم تحت صُفّة مسجد الرسول ﷺ فى المدينة، وقد تجرّدوا من الدنيا وكانوا قدوة للمتجرِّدين؛ و«أهل البيت»: هم نساء النبىّ ﷺ، وعموماً هم أُمّة الإسلام، أوصى بها ﷺ، ونبّه إليها، ودعا لها؛ و«أهل الله»: هم الصوفية عمومًا كما سبق، صفت نفوسهم، وأخلصوا قلوبهم لله، وفنوا عن أنفسهم وبقوا به. وفى الحديث: أن أُمّة الإسلام خمس طبقات، الأولى: «أهل علم ويقين»، وفى رواية «أهل العلم والإيمان»؛ والثانية: «أهل رحمة وتقوى»، وفى رواية «أهل برٍّ وتقوى»؛ والثالثة: «أهل تواصٍ وتراحم»؛ والرابعة: «أهل التقاطع والتظالم والتدابر»، والخامسة: «أهل هَرْج ومَرْج»، وفى رواية «أهل الهرج والحروب».

١٢٧ - أهل المحبة...

الطريق الصوفى يتميّز بمراحل، فإذا كان الصوفى يهمّه فى المقام الأول: الآداب والكرامات، فطريقه طريق الأبدال؛ وإذا كان يهمّه فى المقام الأول: الآلاء والنعماء، فطريقة طريق أهل المحبة، وهو أعلى من الذى قبله؛ فإذا كان ما يهمّه هو

التذكّر - بمعنى أن يذكر الله آناء الليل والنهار، فطريقه طريق العارفين. ومقام المحبة إذن من المقامات الصوفية؛ ورتبة الصوفى فيه من أعلى الرتب.

١٢٨- أهل الملامة...

هم الصوفية الملامتية، إلا أن هناك فَرْقاً، فالصوفى ينم ظاهره عن باطنه، وتظهر عليه أنوار أسراره فى أقواله وأفعاله، ولذلك لا يتحرّج الصوفى عن إظهار الدعاوى كما كان يفعل الحلاّج وغيره؛ وأمّا الملامىّ من أهل الملامة، فحفيظٌ على سرّ الله فيه، ويكتم فى نفسه ما بينه وبين ربّه. ومن الملامتية أو أهل الملامة: حمدون القصّار، وأبو حفص الحدّاد، وأبو عثمان الحيرى. إلخ: ومن أقوال شهاب الدين السهروردى: أن أهل الملامة هم صوفية؛ يسمون أنفسهم قلندرية تارةً، وملامتية أخرى. يعنى أن الملامتية هم أنفسهم فرقة القلندرية. (انظر قلندرية).

١٢٩- أوّاهون...

التأوُّه: من سلوك الصوفية الذاكرين، كما فى الآية: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ (التوبة ١١٤)، والآية: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ﴾ (هود ٧٥)؛ والأوّاه: هو الدعّاء؛ ولمّا سألوا النبىّ ﷺ: ما الأوّاه؟ قال: المُتضرِّع»؛ وقال الثورى: سُئل ابن مسعود عن الأوّاه، فقال: هو الرحيم بعباد الله؛ وقال ابن عباس: الأوّاه هو المؤمن الموقن؛ وقال سعيد بن جبير: الأوّاه: هو المسبّح لله؛ وعن أبى الدرداء قال: لا يحافظ على سُبحة الضحى إلا الأوّاه؛ وعن مجاهد قال: الأوّاه هو الحفيظ، وهو الرجل يُذنب الذنب سرًّا ثم يتوب عنه سرًّا؛ وعن ابن عباس: الأوّاه هو تلاّء القرآن؛ وأصحّ الأقوال: أنه الصوفى الدعّاء.

وفى الرواية أن عبد الله المزينى - وهو ذو البجادين، كان يتيماً فى حجر عمّه الذى كان يُحسن عليه، وبلغ هذا العم أن ابن أخيه أسلم، فنزع منه كلّ شىء أعطاه، حتى جرّده من ثوبه؛ فأتى عبدالله أمه، فقطعت له بجاداً لها باثنتين - والبجاد هو الثوب المخطّط - فأتزر نصفاً، وارتدى نصفاً، ثم أصبح فقال له النبىّ ﷺ: أنت عبد الله ذو البجادين، فالتزمْ بسابى! فلزم بابه، وكان يرفع صوته بالذّكر، فسأل عمر: أمُراء هو؟ (لأن المراءى هو الذى يجاهر بالذّكر، يريد أن يعرف عنه الناس ذلك). فقال له رسول الله ﷺ: «بل هو أحد الأوّاهين»؛ وإذن فالأوّاهون كانوا جماعة، وإمامهم إبراهيم عليه السلام، وهم أهل الله: يُكثرون

الذكر، ويتحسرّون على ما كان منهم من ذنوب. وفى الحديث عن الرسول ﷺ، عن ذى البجادين لمّا توفى: «اللّهم إنى أمسيت عنه راضياً فارْضَ عنه». رواه البغوى. ورضاه عنه لأنه كان من «أهل الله»، أو «الصوفية الأوّاهين».

١٣٠ - أوبة...

اصطلاح صوفى شيعى. والأوْبة هى الرجعة والتوبة ، مراعاةً لأمر الله، من غير خوف العقاب ولا طمع الثواب، وهى فعل الأنبياء والمرسلين. ومقام الأوبة أو التوبة من مقامات مَدْرَج الترقّى الصوفى.

١٣١ - أوتاد...

اصطلاح صوفى شيعى. والأوتاد هم أربعة رجال من رجال الغيب، منازلهم على منازل الجهات، الأربع من العالم، شرق، وغرب، وشمال، وجنوب، ومع كل واحد منهم مقام تلك الجهة، ويحفظ الله بهم تلك الجهات، لكونهم محل نظره تعالى، والولىّ يتنوّر بصورهم.

وقيل: الأوتاد الأربعة، يمثلون: عيسى، وإدريس، وموسى، والخَضِر، عليهم السلام. ولم يذكر الصوفية سبباً لاختيار أىّ من هؤلاء لهذه المهمة.

والأوتاد أخصّ من الأبدال، لأن الأبدال يتبدّلون ويتقلّبون فى المقامات، ولكن الأوتاد تثبت بهم أركان العالم كثبوت الخيمة بالأوتاد. والإمام أخصّ من الأوتاد، والقطب أخصّ أهل الغيب من شخوص الحكومة الباطنية.

١٣٢ - أورانية...

الصوفية أتباع «أوران»، وكلهم من العمال السالكين أصحاب الحرف، وطريقتهم أساسها الفتوة. ويقال لأوران - أو لأىّ من أصحابه: «أخى»، يعنى الفتى بالتركية وليس لها المعنى العربى، واشتهر من هؤلاء: أخى أمير على، وأخى مير مير، وأخى شادى، وأخى فرج الزنجانى، وأخى علىّ المصرى. (انظر أيضًا مادة «أخى»، وفتوة، وأهل الفتوة).

١٣٣ - أولاد...

المريدون هم أولاد شيخ الطريقة، وكما فى الولادة الطبيعية، ذرّات الأولاد فى صُلب الأب مودعة، وتُنقَل إلى أصلاب الأولاد، بعدد كل ولد ذرّة، وهى الذّرات التى خاطبها الله تعالى لمّا أخذ الميثاق على آدم فقال يخاطب الذّرات فى صُلبه: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى﴾ (الأعراف ١٧٢)، وكان قد مسح على ظهر آدم فسالت الذّرات من مسام جسده كما يسيل

العرق، بعدد كل ولد من أولاد آدم ذرّة، ثم لما خوطبت وأجابت رُدّت إلى ظهر آدم، فمن الآباء من نفذت الذرات فى صُلبه، ومنهم من لم يودع فى صُلبه شيء فينقطع نسله. وهكذا المشايخ، فمنهم من يكثر أولاده ويأخذون منه العلوم والأحوال، ويودعونها غيرهم كما وصلت إليهم من النبيّ ﷺ بواسطة الصُحبة. ومنهم من يقل أولاده، ومنهم من ينقطع نسله، وهذا النسل هو الذى ردّه الكفار، حيث قالوا: محمد أبتر لا نَسْل له، فقال الله تعالى: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ (الكوثر٣)، وإلاّ فنسل الرسول ﷺ باقٍ إلى أن تقوم الساعة فى أولاده من الشباب المحمديين، ومن المؤمنين الذين يصلّون عليه ليل نهار.ـ والأولاد بالنسبة المعنوية، أو الولادة المعنوية: هم الذين يصل ميراث العلم إلى من كان منهم من أهل العلم، وفى ذلك يقول السهروردى: ولدى من سَلَكَ طريقى واهتدى بهديى.

والأولاد عمومًا: منهم أولاد الصُلب، ومنهم أولاد القلب: أى المتابعون للشيخ من المريدين. وكان إبراهيم الدسوقى ينادى مريديه يقول: يا أولاد قلبى!

١٣٤- أولوا العلم...

هم القائمون بالقسط، ورثة الأنبياء، المعتصمون بكتاب الله، والمجتهدون فى متابعة رسوله، والمقتدون بالصحابة والتابعين، والسالكون سبيل أوليائه وعباده الصالحين، وهم ثلاثة أصناف: أصحاب الحديث، والفقهاء، والصوفية، فهؤلاء أولوا العلم.

١٣٥- أوليائية...

المتصوفة المبطلة، آمنوا بعصمة الوليّ وطهارته، وعظّم قُدرته فى حياته وبعد مماته، وخافوا الإنكار عليه ولو أتى المنكرات واقترف الفواحش، وفضّلوا الولاية على النبوة، وحجتهم أن الأنبياء يوحى إليهم بواسطة، والأولياء يتلقون من الله بلا واسطة، وكان الجنيد مثلاً يقول: خضنا بحراً وقف الأنبياء بساحله. ـ يعنى أن تجربة الولى أكبر وأعرض وأعمق من تجربة النبيّ.

١٣٦- أولياء الله...

العارفون بالله من أهل الله، سُمُّوا كذلك لأن الله تولاّهم، وتولى حفظهم لما فقدوا الدنيا، ومن ثم رضى عنهم، فلا عليهم لذلك من يوم القيامة والفزع الأكبر، ولا يحزنون، فقد سبقت لهم الحسنى فأُبعدوا عن جهنم؛ ولما سئُل عنهم النبيّ ﷺ قال: هم الذين يُذكَرُ الله برؤيتهم. وقال عمر ابن الخطاب: سمعت رسول الله ﷺ

يقول: إن من عباد الله عباداً ما هم بأنبياء ولا شهداء، تغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة، لمكانهم من الله تعالى. قيل: يا رسول الله خبّرنا من هم، وما أعمالهم، فلعلنا نحبّهم؟ قال: هم قوم تحابّوا في الله على غير أرحام بينهم، ولا أموال يتعاطون بها، فوالله إن وجوههم لنور، وإنهم على منابر من نور، ولا يخافون إذا خاف الناس، ولا يحزنون إذا حزن الناس. وقال عليّ ابن أبي طالب: أولياء الله صُفر الوجوه من السهر، عُمش العيون من العبَر، خُمص البطون من الجوع، يُبس الشفاه من الذَّوىّ (أي الذبول). وقال بعض أهل الله: إذا استنقعتَ (أي الغرغرة اجتمعت في فمه)، جاء ملك الموت وقال: السلام عليك وليّ الله. الله يقرئك السلام!

١٣٧ - أويسية...

طريقة صوفية عند الشيعة الإيرانية، ينسبون أنفسهم إلى أُوَيْس القُرَني، وهم الأويسيون، والقُرَنيون أيضاً. وأويس هذا قيل إنه عاش زمن النبيّ ﷺ ولم يره، ويبدو أن قصته كلها ملفقة من وضع الشيعة، لأنه - كما قيل - لم يظهر إلا في حرب عليّ ومعاوية، وحارب مع عليّ ومات شهيداً في وقعة صفين - يعني أنه كان من الشيعة، فالشيعة إذن على الحق، لأن أويس كان معهم، ولأنه - كما زعموا - قال فيه النبيّ ﷺ: القيامة في عدد من أُمتي يساوي ما لربيعة ومضر من أغنام"!! - يقصد أويس القُرني. وكان الداعي للأويسية - كطريقة، محمود الصابوني، تلقاها عن روزبهان البقلي.

١٣٨ - إيثار...

من أخلاق الصوفية الإيثار: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ (الحشر٩)، وإيثارهم تشير إليه الآية: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ (الأعراف ١٩٩)، ويحملهم عليه قوة اليقين شرعاً، وفرط الشفقة والرحمة طبعاً. ويقول ذو النون المصري: من علامة الزاهد المشروح صدره ثلاث: تفريق المجموع، وترك طلب المفقود، والإيثار بالقوت.

والإيثار على نوعين: إيثار الصُحبة: بمعنى القيام بمعاونة الأغيار؛ وإيثار المحبة: بمعنى بذل الروح وعدم الامتناع عن المحبوب كقوله تعالى: ﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ (آل عمران ٩٢)، فماذا بعد بذل الروح؟

والإيثار من وجهة المعرفة يستشكل والاختيار؛ وإيثار الله ترك كل ما عداه، كقول الشبلي:

غبتُ عنى فما أحسّ بنفسى
وتلاشت صفاتى الموصوفة
فأنا اليوم غائب عن جميع
ليس إلا العبارة المألوفة

والإيثار: هو تقديم الغير على النفس وحظوظها الدنيوية، رغبة فى الحظوظ الدينية، ومنشؤه قوة اليقين عند الصوفى، وتوكيد المحبة، والصبر على المشقة؛ ويُروَى عن عائشة: أن مسكيناً مرّ بها وسألها ـ وهى صائمة وليس فى بيتها إلا رغيف، فقالت لمولاتها: أعطيه إياه، فقالت: ليس لك ما تفطرين عليه؟ فقالت: أعطيه إياه.ـ فلما أمسوا، أهدَى لهما أهل بيت شاةً وكفنها، فقالت عائشة لمولاتها: كلى من هذا فهو خيرٌ من رغيفك! وكفن الشاة: أنهم كانوا إذا ذبحوا الشاة وسلخوها غطّوها كلها بعجين البُرّ، وكفّنوها به، وعلّقوها فى التّنوّر، فلا يخرج من دسمها شىء إلا فى ذلك الكفن. ـ **والإيثار بالنفس فوق الإيثار بالمال** وإن عاد إلى النفس؛ ومن الأمثال السائدة عند الصوفية: **والجودُ بالنفس أقصى غاية الجود**. ومن عباراتهم الرشيقة فى حدّ المحبة: أنها **الإيثار**. ـ **وأفضَلُ الجود بالنفس هو ما كان على حماية رسول الله ﷺ**، كمَثَل أبى طلحة الذى وقاه بيده فَشُلّت. وقال **أبو اليزيد البسطامى**: ما غلبنى أحدٌ ما غلبنى شاب مّن أهل بَلْخ، قدم علينا حاجّاً، وقال لى: يا أبا يزيد، ما حدّ الزهد عندكم؟ فقال له: إن وَجَدنا أكلنا، وإنْ فَقَدْنا صبرنا: فقال: هكذا كلاب بَلْخ عندنا! فقال أبو يزيد: وما حدّ الزهد عندكم؟ فقال: **إن فقدنا شكرنا، وإن وجدنا آثرنا!** ـ وسئل **ذو النون المصرى**: ما حدّ الزاهد المنشرح صدره؟ قال: حدّه ثلاث: تعريف المجموع، وترك طلب المفقود، والإيثار عن القوت.ـ وروى عن **أبى الحسن الأنطاكى**: أنه اجتمع عنده نيّف وثلاثون رجلاً بقرية من قُرَى الرّى، ومعهم أرغفة معدودة لا تشبعهم جميعهم، فكسروا الأرغفة، وأطفأوا السراج، وجلسوا للطعام، فلما رُفع، فإذا الطعام بحاله لم يأكل منه أحد شيئاً، **إيثاراً** من كل واحد منهم لأصاحبه على نفسه.

١٣٩- إيلية...

إضافة إلى **إيل** العبرانية، أى الله، كما فى **جبرائيل، وميكائيل، وعزرائيل**. والإيلية عند الصوفية: هى **الإلهية**، وهى أحدية جمع جميع الحقائق الوجودية.

١٤٠- إيماء...

إشارة بحركة جارحة، يقول الشبلى:

من أومى إليه فهو كعابد وثن، لأن الإيماء لا يصلح إلا للأوثان. ـ يقول الشبلي: ذلك لأن الإيماء لغة إشارات للبُكم، والأوثان بكماء.

وقيل فى الإيماء: هو مخاطبة الناس بالتلميح بدون عبارة ولا إشارة.

١٤١ - إيمان...

هو أن يكون الكلّ منك مستجيباً فى الدعوة، مع حذف خواطر الانصراف عن الله بسرّك، فتكون شاهداً لما له، غائباً عمّا ليس له.

وقيل: الإيمان بالله مشاهدة ألوهيته. وقيل: الإسلام ظاهر، والإيمان باطن، والإيمان تحقيق واعتقاد، والإسلام خضوع وانقياد.

وحقائق الإيمان الصوفى أربع: توحيد بلا حدّ، وذكر بلا بتّ، وحال بلا نعت، وَوَجْد بلا وقت.

وقيل: الإيمان من الله لايزيد ولا ينقص؛ ومن الأنبياء يزيد وينقص؛ ومن غيرهم يزيد ولا ينقص. وعنه ﷺ: «الإيمان بالله الإقرار باللسان، وتصديقٌ بالقلب، وعملٌ بالأركان». رواه الشيرازى. وهو معرفة وإقرار وقبول للأعمال، وله أصل وفرع؛ والأصل: هو التحقيق فى القلب؛ والفرع: هو ملاحظة الأمر والنهى. والإيمان هو عمل الإنسان مصحوباً بتوفيق الله: ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ (الأنعام ١٢٥)، والذين قالوا إن الإيمان يأتى من الله فقط قالوا بالجبر؛ والذين قالوا إن للإنسان فيه اختياراً عارضوا الجبر؛ والصوفية غالباً على مذهب التوحيد ـ أى دون الجبر وفوق الاختيار. ـ [1] وُجد الإيمان ذهب الشرك، كما قيل: «إذا طلع الصباح بطل المصباح»، لأن المعرفة إذا سيطرت على قلب العارف اندرست فيه مخايل الشرك، وسيطرت المعرفة فيجعلها فى طاعة الله، فيحفظ نظره وفعله بحصون الإيمان. وعنه ﷺ برواية الحاكم: «إن حُسن العهد من الإيمان». والعهد هو الذّمة أو اليمين. وبرواية البيهقى قال: «إن كرم الود من الإيمان». وعند الخرائطى قال: «إن الحياء من الإيمان، والإيمان فى الجنة» وفى رواية ابن عمر: الحياء والإيمان قُرِناً جميعاً، فإذا رُفع أحدهما رُفع الآخر. ـ وعند البزّار: أنه سئل أى الأعمال أفضل؟ فقال: إيمان بالله، وجهادٌ فى سبيل الله، وحجٌّ مبرور»، فقرن الإيمان بالجهاد والحجّ فى منزلة واحدة. وعن عائشة قالت: ما كان رسول

الله ﷺ يبوح (يصرح) أن أحداً على إيمان الملائكة - يعنى ما من إنسان وإيمانه كإيمان الملائكة.

وفى الخبر: الإيمان ثلاثمئة وثلاث وثلاثون طريقة، من لقى الله بالشهادة على طريقة منها دخل الجنة، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلاً﴾ (الإسراء ٨٤)، فدلّ على أنهم كلهم مهتدون، وبعضهم أهدى من بعض، أى أقرب إلى الله وأفضل، وقد ندب الله إلى القُرب فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ (المائدة ٣٥)، والوسيلة تعنى القُرب، فالأقرب من الخَلْق من الله أعلاهم عنده، وأعلاهم عنده أعرفهم به وأفضلهم لديه. وقوله: «كلٌّ يعمل على شاكلته» يعنى بالطريقة التى يرى أن يتعبّد بها وتوافق شخصه، وإنما كل الطرق تؤدى فى النهاية إلى عبادة الله وتوحيده والإخلاص له وتقواه. ومن كلام علىّ بن أبى طالب: لكل مؤمن سيدٌ من عمله»، فهذا السيد من العمل - يعنى أقصى ما بوسعه والذى يقيس إليه المؤمن كافة أعماله - هو الذى يرجو به المؤمن النجاة ويفضُل به عند مولاه. والإيمان فى الأول وفى النهاية وُسْع، والله لا يكلفّ الأنفس إلا وسعها.

والإيمان: بضع وسبعون باباً، فأعلاها قوله: لا إله إلا الله، وأدناها: إماطة الأذى عن الطريق. وفى حديث لعلىّ: إن الإيمان ليبدو لُمظةً بيضاء فى القلب، كلما ازداد الإيمان، ازدادت اللُّمظةَ. واللُّمظةَ مثل النُّكتة، أو النقطة، أو نحوها من البياض، وبازدياد الإيمان يزداد البياض حتى يشمل القلب كله. وكذلك النفاق، لُمظةَ سوداء، كلما ازداد النفاق أسوّد القلب حتى يسوّد كلّه.

وفى الآية: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ (الأعراف ١٨٥) وجوب نظر الصوفى - والمؤمن عموماً - فى آيات الله والاعتبار بمخلوقاته، غير أنهم اختلفوا فى أول الواجبات: هل هو النظر والاستدلال، أم هو الإيمان الذى هو التصديق الحاصل فى القلب الذى ليس من شرط صحته المعرفة؟ فالعقليون قالوا: إن أول الواجبات النظر والاستدلال لأنه تعالى لا يُعلَم ضرورة، وإنما يعلَم بالنظر والاستدلال، وبالأدلة التى ينصبها الله تعالى لمعرفته، لقوله تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ﴾ (محمد ١٩). فمن لم يكن عالماً بالله فهو جاهل، والجاهل به كافر. وعند ابن رشد: أن الإيمان لا يُشترَط له النظر والاستدلال، ويصحّ باليقين، الذى

قد يحصل لمن هداه الله بالتقليد أو بالاعتبار، بما أرشدنا إليه في غير ما آية. والمسلمون في كل بلاد الإسلام بعامة، وفي كل العصور، أجمعوا على تسمية العامة والمقلّدين مؤمنين، فلو كان لا يصحّ أن يسمّى مؤمناً من ليس عنده علمٌ بالنظر والاستدلال ـ لما ذهب المسلمون بعامة إلى تسمية هؤلاء المقلّدين والعامة، مؤمنين، ولذلك قال ﷺ: **أُمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، ويؤمنوا بي وبما جئت به، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها، وحسابهم على الله.** ومعنى الحديث: أنه ﷺ لن ينتظر إلى أن يؤمن المؤمن بالنظر والاستدلال، ولو كان النظر والاستدلال ستطول مُدّتهما عند صاحبهما، لكان له الحق أن يقول: إنه لن يؤمن حالاً، ولا مستقبلاً، ولا يعرف متى يؤمن، لأن من دينكم أن **الإيمان** لا يصحّ إلا بالنظر والاستدلال، فأخّرونا حتى ننظر ونستدل؟!! وإذن فليس النظر والاستدلال هو وسيلة كل الناس **للإيمان**، والغالبية الغالبة من الناس يؤمنون بالحدس وليس بالنظر والاستدلال، وأولى الواجبات عندهم: **الإيمان بالله وبرسوله**، وبجميع ما جاء به، ثم بعد ذلك يأتي النظر والاستدلال. ولقد خلق الله الإنسان، فإما أنه عقلاني مفكر، وإما أنه حدساني يَجِدُ ويعرف بالقلب. فمن كان عقلانياً يؤمن **بالنظر والاستدلال**، ومن كان حدسانياً فهو يؤمن بقلبه أولاً ثم يعرف. وطالما أن الغالبية هكذا، فهذا هو الأقرب للصواب، والأرفق بالخَلْق، لأن أكثرهم لا يعرفون بالنظر والاستدلال، ولا يقضون بهما، وإنما بالحدس والقلب. ولو قلنا إن أُولى الواجبات المعرفة بالله، لكان معنى ذلك أننا نكفّر الجمع الغفير والعدد الكثير، وألاّ يدخل الجنّة إلا آحاد الناس، وذلك بعيد، لأن الرسول ﷺ قد قطع بأن أكثر أهل الجنة من أُمّته، وأن أمم الأنبياء كلهم صف واحد، وأمته ثمانون صفاً. وإذن فمن يُكفّر مسلماً لأنه يؤمن وكفى، جاهلٌ بكتاب الله وسُنّة نبيّه. وأي صوفي يطالب المسلمين بالنظر والاستدلال، ويجعلهما سابقيْن على **الإيمان**، قد ضيّق من رحمة الله الواسعة. ولهذا كره الناس **المتكلمين، أصحاب النظر والاستدلال**، وأحبوا الصوفية في مُجملهم، دعاة **الإيمان بالقلب** والحدس. فأين هؤلاء العقلانيون من الأعرابي الذي كشف عن فرجه ليبول فانتهره الناس، فقال ببساطة وطيبة: اللهم

ارحمنى ومحمداً، ولا ترحم معنا أحداً، فقال له رسول الله ﷺ: لقد حجرتَ واسعاً. - فهل يا تُرى عَرَف هذا الأعرابى الله بالدليل والبرهان والحُجّة والبيان؟!! وإنما هو الإيمان فطرىٌّ فى النفس، ويُستَنفَر تلقائياً لدى الأكثرية، وكم من مثل هذا الأعرابى بين الناس! وخاصة بين عامة الصوفية، ويُحكم لهم بالإيمان! وقد اكتفى ﷺ من أغلب الناس بنطق الشهادتين، حتى لو أشاروا بهما. وقد قال للسوداء: أين الله؟ فقالت: فى السماء! فقال لها: من أنا؟ قالت: أنت رسول الله. فقال لصاحبها: اعتقها فإنها مؤمنة. ولم يكن هناك نظر ولا استدلال، بل حُكمٌ بإيمانها من أول وهلة. ولقد أخطأ الذين أوقفوا إيمانهم على النظر إلى الوجوه الحسنة، وما خلق الله من المخلوقات الحسان من المرد والنسوان، بدعوى أن إيمانهم يزداد ويترسّخ بالنظر والاعتبار والاستدلال بالصنعة على الصانع، وهذا يقيناً من باب الهوى ومخادعة العقل ومخالفة العلم، ولم يحدث أن أجلّ الله النظر إلى السموات والأرض وآياته فيهما، ولاحظّ فى ذلك للهوى، بل جميعها للعبرة التى لا تمازجها شهوة، ولا تقارنها لذة. وأرى أن ذلك ربما كان هو السبب الأكبر لأن لا يبعث الله امرأةً برسالته، ولا جعلها قاضياً ولا إماماً، ولا مؤذّناً، لأنها محل شهوة وفتنة، وإنى لأكذّب كل من يقول أنه يجد فى الصور المستحسنة فى الغيد والصبيان، عِبَراً، وكل من مَيز نفسه بطبيعة تخرجه عن طبيعة الإنسان بعامة، وإنما هذه خُدع الهوى للمدّعين. فإن أردنا النظر والاستدلال للإيمان، فعلينا النظر إلى العالم الكبير، لأن كل ما فى العالم الصغير له نظير فى العالم الكبير، فإن أردت الجمال فلا تنظر إلى النسوان، وانظر إلى السماء وكيف نظامها، وإلى الكواكب والنجوم وكيف اصطفت فى جمال وجلال. وكان شيوخ الصوفية إن أحبوا أن ينظروا ويستدلوا، أمعنوا النظر فى أنفسهم وفى أحوالهم وكيف يتفكّرون ويحلمون ويتناسلون ويعملون، كقوله تعالى: ﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ (الذاريات ٢١).

وقد يستحبون أن ينظروا فى الأشعار، وفيها الكثير من الحكمة والاعتبار. والحمد لله ربّ العالمين.

* * *

بابـ الباء

* * *

١٤٢-باء...

قالوا: الباء أول الموجودات الممكنة، والمرتبة الثانية من الوجود. بينما الألف أول الحروف وأعظم الحروف، لأن الإشارة بها لله تعالى الذى ألف بين الأشياء. هكذا قال الصوفية.

١٤٣-باب...

الباب هو الداعى، وقيل هو علىّ ابن أبى طالب. وباب الأولياء: هو التوبة، لأنها أول مايدخل به العبد حضرات القرب من جنان الربّ.

١٤٤-بابائية...

نسبةً إلى كلمة بابا أى أبّ، بمعنى الشيخ أو الإمام، أو ربما الرسول بالمعنى الدينى. والبابائية: حركة صوفية شيعية ينسبونها إلى بابا إسحق الكفر سودى التركمانى الذى مات سنة ٦٣٨ هـ (١٢٤٢م)، وقيل: إن زعيم الحركة هو بابا إلياس؛ ويذكر ابن العبرى: أن بابا إسحق كان مجرد رسول لشيخ الطريقة ويسميه «بابا» فقط، بعثه إلى التركمان على الحدود التركية السورية وملطية.

وتؤكد مصادر أخرى: أن بابا إسحق هو الرئيس، بينما بابا إلياس كان شريكاً بقى بعد قتل إسحق، وعُفِى عنه.

وعلى أى الأحوال فإن الحركة كانت صوفية خراسانية، وأن رئيسها كان يسمى نفسه «بابا» أو «بابا رسول»، يعنى أنه كان البابا الرسول، ولذا كان شعار أصحابه: «لا إله إلا الله، البابا وليّ الله»، وسموه أحياناً أمير المؤمنين، وادّعوا أن البابائية يقتدون بالخلفاء الراشدين. وتقوم فلسفة التصوف عندهم: على المجاهدة لتأسيس مدينة الله التى تقوم على الفضيلة، وهى مدينة تركمانية خيالية كمكة التى بها الكعبة بيت الله، أو كبيت المقدس.

والمجاهد البابائى فى فلسفة التصوف البابائى: ـ مجاهد مغوار لا يُهزم، لأن قضيته عادلة، وقضية خصومه خاسرة، ولذا فإنه عند احتدام المعركة وانحسارها عن هزيمة العدو فللمجاهد البابائى أن يغنم ما يتركه العدو، إلى أن أُسر بابا إسحق وزميله فى إحدى المعارك وقُتلا، أو أن بابا إسحق اغتيل، وقُتل أصحابه جميعاً إلا بابا إلياس.

وتصوف البابائية: هو من نوع التصوف الغسالى. وإذا كانت عسكرة التصوف

وتأسيسه على الجهاد، لم يهيء لتحقيق أهداف الحركة، إلا أن تلميذ بابا إسحق، والمسمى«نورة الصوفي» استطاع بالمداهنة واصطناع التصوف والتقوى، أن يتقرّب إلى السلطان علاء الدين كيقباد، وأن يقنعه بزهده، وأن يزوجه ابنته، ويُقطعه إحدى إماراته، ويحقق له حلم التركمان فى دولة مستقلة. وصارت البابائية بعد الحركة الدانشمندية: أساس الطريقة البكتاشية من طرق التصوف، وهى طريقة أخرى قوامها كذلك عسكرة التصوف.

١٤٥- باد...

البادى : هو الذى يبدو على القلب فى الحين من حيث حال العبد، فإذا بدا بادى الحق يبيد كل بادٍ غير الحق. وبتعبير إبراهيم الخوّاص: إذا بدا بادى الحق أفنى كل بادٍ.

وبادى بلا بادى: هو مايبدو على قلوب أهل المعرفة من الأحوال والأنوار وصفاء الأذكار، فإذا قال البادى أشار إلى ذلك، فإذا قال بلا بادى أشار إلى أن البادى مبدى، وهو يبدى هذه البوادى على القلوب. قال الخوّاص: الحق إذا بدا، بدا بلا بادى من حيث لا بادى، لأن البادى أفنى كل بادى من حيث البادى، فلا بادى وهو بادى من حيث لابادى، وإنما ذلك على قرب مشاهدة الحق منهم.

١٤٦ بارقة...

لائحة تلوح على السالك، وتردُ من الجانب الأقدس ثم لاتلبث أن تنطفىء، وهى من أول الكشف ومباديه.

١٤٧- باطل...

هو المعدوم، وهو كل ما كان سوى الله، فليس فى الحقيقة وجود سوى الله، لقوله عليه الصلاة والسلام: «أصدق بيت قاله العرب قول لبيد: ألا كل شيء خلا الله باطل». ومن أقوال الصوفية: طول الاستماع إلى الباطل يطفى حلاوة الطاعة من القلب.

١٤٨- باطنية...

فرقة من المتصوفة المبطلة، قالوا: إن الشريعة للعوام اهتمامهم بظواهر الأشياء، وأما الخواص فليس لهم التقيّد بالظواهر والرسوم، وإنما يتوجهون إلى ما وراء ذلك ويهتمون بحضور الباطن، وعلى ذلك فقد أباحوا المحظورات، لأن ما ورد منها فى القرآن على الجملة وليس على التفصيل. وقالوا: إن الأصل الإباحة ما لم يرد التحريم صراحة. ولهذا جرت بينهم أحوال، فرفعوا الحشمة ،وأوجدوا

البَسْط بين بعضهم البعض، بدعوى أنهم أصحاب، فكان الصاحب يمر بدار صاحبه، فيتناول طعامه، ويأخذ من كسبه، ويستحل امرأته، وينام فى بيته، ولهذا سُمّوا الباطنية، والإباحية، والصاحبية، والقرامطة، والخُرّمية، والبابكية، والإسماعيلية، والسبعية، والمحمِّرة، والتعليمية، وهى أسماء بحسب المقصود من التسمية.

١٤٩-باقٍ...

الباقى بحظوظ غيره: بأن يفنَى عن حظوظه؛ والباقى بالحقّ: هو الفانى عن نفسه، يفعل - لا لجرّ منفعة أو دفع مضرة، ولا للذة نفسه، ولا لطمع ثواب ولا خوف عقاب، غير أنه يرغب فى ثواب الله لموافقة الله تعالى.

١٥٠-بالغ...

كمال البلوغ: يكون بالسِّن وحده، وبلوغ الكمال: لايكون إلا إذا كملت فى العبد أربع صفات: الأقوال، والأفعال، والمعارف، والأخلاق الحميدة.

١٥١-بَتُول...

هى المنقطعة إلى الله عن الدنيا واتصالها فى العقبى، وهو نعت فاطمة بنت النبىّ ﷺ، يقال «فاطمة البتول». واسم البتول عربى خالص وليس من العبرية كما يدّعى البعض، ومن الفعل بتل وتبتّل، أى انقطع عن الدنيا إلى الله، وليس صحيحاً أن مريم اسمها البتول، ولم يرد ذلك فى الأناجيل كلها، والاسم مِن ثَمّ وقْفٌ على فاطمة دون سواها.

١٥٢-بحر...

«بَحْرى بلا شاطىء»: عبارة تُذكَر عن الشبلى، قال: أنتم أوقاتكم مقطوعة، ووقتى ليس له طرفان، وبَحرى بلا شاطىء - يعنى أن الحال الذى خصّه الله تعالى به من التعظيم لله وخالص الذكر له والانقطاع إليه، لا نهاية لها ولا انقطاع، والشىء إذا لم تكن له نهاية ولا غاية فلا يعبر عنه بأكثر من ذلك.

وقال بعضهم: من عرف الله أحبه، ومن أحبه غرق فى بحر الهمّ. وقال الله عز وجل: ﴿قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾ (الكهف ١٠٩)، فلم يجعل الله لكلماته نهاية، لأن المتكلم بها ليست له نهاية.

١٥٣-بدء...

هو التحقق بالأسماء والصفات، وهو البرزخ الأول من برازخ الإنسان، لأن الإنسان مخلوق، وكل مخلوق له بداية.

١٥٤- بدائية...

الصوفية من الشيعة المبطلة، جوّزوا البدء على الله تعالى، أى جوّزوا أن يريد شيئاً ثم يبدو له، أى يظهر عليه ما لم يكن ظاهراً له فيغيّر رأيه، ويلزمهم من ذلك أن لايكون الربّ عالماً بعواقب الأمور مقدماً!

وهذه هى وجهة نظرهم فى النَّسْخ فى القرآن، باعتبار أن النسخ تغيير للحكم بعد أن بدا لله شيء آخر، والسبب قلة معرفتهم بالأصول، ولمتابعتهم لهواهم فغلطوا، فالله تعالى يتنزّه عن البداء، ولم يتنزه عن النسخ، لأن البدء ينافى إحاطة علم الله تعالى بما كان وما سيكون، وأما النسخ فليس إلا بياناً لمدة الحكم الأول على ما سبق فى علم الله، وإنْ كان رفعاً لهذا الحكم بالنسبة لنا. والنسخ ليس فيه تغيير لعلم الله تعالى، والبدء يفترض التغيير، وحجتهم الآية التى تقول: ﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ﴾ (الرعد ٣٩)، فقالوا إن مجال المحو والإثبات هو صفة العلم لله تعالى، فعلمه يتبدل، والنسخ مظهر لتبدل علم الله تعالى، مع أن الآية خاصة بالشرائع السابقة، فالله هو الذى يمحو شريعة رسول ليحل محلها شريعة رسول آخر.

والحجة الثانية لهم قال بها المختار الثقفى وهو شيعى، فادّعى أنه يُوحَى إليه، وأن الإمام علىّ ذكر له أنه لولا البداء لحدّثنا بما هو كائن إلى يوم القيامة، يعنى لولا البداء لكانت الأمور مستقرة ولأحاط بها وحدّثنا عنها؛ وأن الإمام جعفر الصادق ذكر له أنه ما بدا لله تعالى شيء كما بدا فى إسماعيل (ابنه)، كوارت للإمامة عند الشيعة، يعنى أن البداء طُبِّق فى حالة إسماعيل. وقال موسى بن جعفر: إن البداء كان اعتقاد الناس دائماً منذ الجاهلية. أى أنه ليس شيئاً مستحباً.

١٥٥- بخور...

كان البخور منتشراً فى الطقوس الدينية قبل الإسلام، وخاصةً عند السامين، وكانوا يحرقونه كمرسم مصاحب للتعزيمات والدعاء، وفى الأحراز، وللتعطير. واستخدم اليهود اللّبان كبخور فى المباخر يوم الغفران، ولم يمكن ذلك يعدّ ترفاً. والصوفية يستعملون البخور والتجمير به كتبيهٍ ﷺ.

١٥٦- بدعة...

البدعة عند الصوفية: شيء فى السلوك على غير مثال، والمبتدع هو من يفعل البِدَع. وفى الخبر أن الرسول ﷺ خطّ خطّاً وقال: هذا سبيل الله، ثم خطّ خطوطاً عن يمينه وخطوطاً عن يساره وقال: هذه

سُبل، على كل سبيل منها شيطان يدعو إليها.. وهذه السُّبل تعمّ اليهودية والنصرانية والمجوسية، وسائر أهل الملل، وأهل البدع والضلالات، من أهل الأهواء والشذوذ فى الفروع. والصوفية الذين أغربوا، من أهل البدع، مثل: الحلاّج، والبسطامى، والرفاعى، وابن عربى إلخ، وهم أهل الشذوذ فى الفروع، وأهل التعمّق فى الجدل، وأهل الخوض فى الكلام، وكلها عُرضة للزلل، ومظنة لسوء المعتقد. والرسول ﷺ حذّر أهل الإيمان من أمة الإسلام، من التنطُّع والتعمُّق، ومن البدع، وأوصى بالعتيق - يعنى الشيخ الذى ثبتت صحته واستمر مع الناس منذ القدم، فذلك هو الصحيح. والسُّبل فى قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾(الأنعام ١٥٣) هى البدع، والصراط المستقيم هو السنن القديمة التى سلكها السلف الصالح، وفيها المتجر الرابح، والرسول ﷺ يقول: ما أمرتكم به فخذوه، وما نهيتكم عنه فانتهوا. وليس هناك حديث فى المبتدعة أشد ولا أقسى من هذا الحديث: «حجب الله الجنّة عن صاحب البدعة» وما سُمّى أصحاب الأهواء بهذا الاسم، إلا لأن مصيرهم أن يهووا فى النار. وتهمة الابتداع تبادلتها الفرق الإسلامية؛ وأهل السنّة على القول بأن كل الفِرَق من أهل البدع، وأن الفرقة الوحيدة الناجية هم أهل السُّنّة، أو الجماعة. - ومن الصوفية كثيرون أدانوا البدع،كالفضيل ابن عيّاض، قال فى أصحابها: من أحبّ صاحب بدعة أحبط الله عمله، وأخرج نور الإسلام من قلبه. وقال سفيان الثورى: البدعة أحبّ إلى إبليس من المعصية، فالمعصية يُتاب منها، والبدعة لا يُتاب منها. - ومن أقوال أهل السنّه: النظر إلى الرجل من أهل السُّنّة يدعو إلى السُّنّة وينهى عن البدعة، هو عبادة. وقالوا: عليكم بالأمر الأول الذى كانوا عليه قبل أن تفترق الفِرَق، وفى الحديث: تفرّقت بنو إسرائيل على اثنتين وسبعين فرقة، وأن هذه الأمة - أمة محمد - ستفترق على ثلاث وسبعين. - وقال المتأوّلون: هذه الفرقة التى زادت على عدد فرق اليهود، هم أصحاب البدع، وقال ﷺ يعرِّف بهم: يكون فى أمتى قومٌ يكفرون بالله وبالقرآن وهم لا يشعرون كما كفرت اليهود والنصارى. فسئل النبّى ﷺ: جُعلنا فداك يا رسول الله، فكيف ذاك؟ قال: يُقرّون ببعض. ويكفرون ببعضٍ وسئُل: جُعلنا فداك، فكيف يقولون؟ قال: يجعلون إبليس عدلاً لله . . . ويقولون الخير من الله، والشرّ من

إبليس، فيكفرون بالله، ثم يقرءون على ذلك كتاب الله، فيكفرون بالقرآن بعد الإيمان والمعرفة». وقال: فما تلقى أمتى منهم من العداوة والبغضاء والجدال ـ أولئك زنادقة هذه الأمة». يقصد بهؤلاء «أهل الأهواء»؛ والحُكم فى «أهل الأهواء»: أن لا يُجالسوا لكى ينتهوا، فإن لم ينتهوا ألحقوا بالمقصودين بهذه الآية: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَىٰ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (الأنعام ٦٨)، والآية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ (الأنعام١٥٩)، وقال فيهم ﷺ: هم أهل البدع والشُّبهات، وأهل الضلالة من هذه الأمة». وقال لعائشة: إن لكل صاحب ذنب توبة، غير أصحاب البدع وأصحاب الأهواء، ليس لهم توبة، وأنا برىء منهم، وهم منا بُرآء» ـ. والبدعة إذا صدرت من أهل الله، فلا يخلو أن يكون لها أصل فى الشرع أولاً، فإن كانت كذلك، كانت واقعة تحت عموم ما ندب الله إليه وحضّ رسوله عليه، فهى فى حيّز المدح. وقد زكّى عمر ـ البدعة المحمودة، وقال فيها: نِعْمت البدعة هذه!

ومن البدع القبيحة عند الصوفية، الرقص، ولُبس الطراطير والخيش، قال فى أمثالها النبىّ ﷺ: وشرّ الأمور مُحْدَثاتها، وكل بدعة «ضلالة». ـ فالبدعة القبيحة إذن هى التى لا توافق الكتاب، ولا السُّنة، ولا عمل الصحابة، وبيّن الرسول ﷺ ذلك فقال: مَن سنّ فى الإسلام سُنّة حسنة، كان له أجرها وأجر من عمل بها من بعده، من غير أن ينقص من أجورهم شىء. ومن سنّ فى الإسلام سُنّة سيئة، كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده، من غير أن ينقص من أوزارهم شىء».

١٥٧ - البدلاء...

من رجال الغيب أو مملكة الصوفية، وهم أعوان القطب فى حكومة الصوفية؛ وعددهم سبعة، فمن سافر عن موضعه وترك جسداً على صورته، حيّاً بحياته، ظاهراً بأعمال أصله، بحيث لا يعرف أحدٌ أنه فُقد، فذلك هو البدل لاغير. وهو فى تلبُّسه بالأجساد والصُّور على صورته، على قلب إبراهيم عليه السلام، يعنى هو بدلٌ من إبراهيم.

وقيل: البدلاء أربعون»؛ والأمناء سبعة؛ والخلفاء من الأئمة ثلاث؛ والواحد هو القطب؛ والقطب عارفٌ بهم جميعاً ومشرفٌ عليهم، فى حين أنه لا يعرفه أحد ولا يتشرّف عليه؛ وهو إمام الأولياء. والثلاثة الذين هم الخلفاء، من الأئمة ويعرفون السبعة، وكذلك يعرفون الأربعين ـ أى البدلاء؛ والأربعون يعرفون سائر

الأولياء من الأئمة ولا يعرفهم من الأولياء أحد، فإذا نقص واحد من الأربعين، أُبدل مكانه من الأولياء. ويتعلّل الصوفية بحديث ينسبونه للنبيّ ﷺ، يقول: «في هذه الأمة أربعون على خُلُق إبراهيم، وسبعةٌ على خُلق موسى، وثلاثةٌ على خُلق عيسى، وواحدٌ على خُلق محمد، عليهم الصلاة والسلام، فهم على مراتبهم سادات الخلق».

وهذه الأفكار تخصّ صوفية الشيعة لا غير، والمتأثرين بهم من غير ملّتهم، ولا تخصّ صوفية السُّنة في شئ.

١٥٨ - بدن...

البَدَن: سهو الجسم الكثيف، والبَدَنة: كناية عن النفس الآخذة في السير، والقاطعة لمنازل السائرين ومراحل السالكين.

١٥٩ - بذل...

بَذْل المُهَج: بذل مجهود استطاعة العبد على قدر طاقته في توجّهه إلى الله، وإيثاره الله عزّ وجلّ على جميع أحبابه.

ولايصحّ الفقر للفقير الصوفي الفقر إلا إذا خرج من الاملاك، فإذا خرج منها يتولد له من ذلك جاه، فينبغي أن يبذل جاهه حتى لايبقى له جاه، فإذا بذل جاهه بقيت عليه قوة نفسه، فيبذل ذلك لأصحابه، بالخدمة لهم والحركة في أسبابهم، فعند ذلك يصلح له الفقر.

١٦٠ - برابرة...

المصطلح لعائشة أم المؤمنين، كانت ترسل الشيء صدقةً لأهل الصُفّة وتقول: **لا تعطوا منه بربرياً ولا بربرية، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «هم الخَلَف الذين قال الله عزّ وجلّ فيهم: ﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ ﴾ (مريم٥٩).**

والبربرى: هو المنافق المتشدّق بالدين، ولا يقيم الصلاة ولا أركان الدين، ويُكثر من الكلام في الصلاح وليس منه في شيء. ولا علاقة بين «البربر» سكان الجزائر والصفة «البربرى»، مثلما لا علاقة بين gypsy الإفرنجية بمعنى الغجر وEgyptians بمعنى المصريين، كما لا علاقة بين «القبط» وبين «النصارى» في مصر، والقبط هم أهل مصر جميعاً، مسلمين ونصارى، وليس النصارى فقط.

ويشرح ابن جرير المصطلح فيقول: البرابرة هم في هذه الأمة يتراكبون تراكب الأنعام والحُمُر في الطريق، لا يخافون الله في السماء، ولا يستحون من الناس في الأرض.

وعن كعب الأحبار قال: البرابرة هم المنافقون، شرّابون للقهوات، تراكون للصلوات، لعّابون بالكعبات، وقّادون عن العتمات، مفرّطون في الغَدَاوات، تراكون للجماعات. ـ وكان هؤلاء كُثُراً عند صُفّة

رسول الله ﷺ بالمدينة، فلم يكن أهل الصُّفة كلهم من المؤمنين، إنما بهم منافقون، وهم البرابرة المعنيون.

١٦١ - برانس...

امتاز بعض الزهّاد بلبس البرانس، لأنها أغطية كاملة للجسم، وتستر رثاثة الثياب إن كانت رثّة، ومنهم عُتبة الغلام (المتوفى ٧٨٠م)، وكان يلبس ثوبين مغبَّرين، أحدهما رداء والآخر إزار.

١٦٢ - برزخ...

قيل البرزخ: هو الروح الأعظم وعالَم المُثُل، سُمِّي به لأن البرزخ هو الحائل بين الشيئين، وهو يحول بين الأجسام الكثيفة والروح المجردة، وبين الدنيا والآخرة، والشيخ والمرشد، وهو حدّ بين النار والجنة، فهو منطقة متوسطة، وأرض محايدة.

والبرزخ الجامع: هو الحضرة الواحدية والتعيّن الأول الذى هو أصل البرازخ كلها، فلهذا سمى البرزخ الأعظم والأكبر، ويعبر عنه بالنور المحمدى، والحقيقة المحمدية.

١٦٣ - بَرْق...

هو أول ما يبدو للعبد من اللوامع النورية، فيدعوه إلى الدخول فى حَضرة القُرب من الربّ للسير فى الله.

١٦٤ - برهامية...

طريقة الشيخ إبراهيم الدسوقى (ولد ٦٥٣هـ) وتقوم على العمل والعبادة، وكان الدسوقى يعمل بيده فى الفخار والحصير، وكان يقول: طريقتنا طريق تحقيق وتصديق، وجهد وعمل، وتنزّه وغضّ بصر، وطهارة يد وفرج ولسان، فمن خالف شيئاً منها رفضه الطريق طوعاً أو كرهاً. (انظر الدسوقى، فى المتصوّفة).

١٦٥ - بسط...

البسط فى مقام القلب بمثابة الرجاء فى مقام النفس، وهو حال من الأحوال، ووارد تقتضيه الإشارة إلى القبول واللطف والرحمة والأنس، ويقابله القبض، كالخوف فى مقابله الرجاء فى مقام النفس.

والبسط فى مقام الحق: هو أن يبسط الله للعبد مع الخلق ظاهراً، ويقبضه إليه باطناً رحمةً بالخلق، لأن الله يسع كل شىء، ويؤثر فى كل شىء ولا يؤثر فيه شىء.

والبسط والقبض، والخوف والرجاء: مراتب قريبة، ولكن الخوف والرجاء فى مقام المحبة العامة، والقبض فى مقام الأوائل محبة خاصة، فالذى يلتزم حدود الأوامر والنواهى مؤمن لا يبلغ مرتبة القبض والبسط، وإنما عنده خوف ورجاء يشبهان حال القبض والبسط فيظنهما قبضاً

وبسطاً، فمثلاً إذا اعتريته حيرة وحزن يظنهما قبضاً، وإذا اعتراه انفعال نفسي ونشاط في الطبع ظنهما بسطاً، والحزن والحيرة والنشاط والانفعال من طبيعة النفس الأمّارة، حتى إذا وصل العبد إلى بداية المحبة الخاصة صار صاحب الحال وصاحب النفس اللوّامة، وحينذاك تعتريه حال القبض والبسط، لأن ذلك العبد قد انتقل من مرتبة الإيمان إلى مرتبة أسمى، فيقبضه الحق تارةً، ويبسطه أخرى.

والخلاصة: أن وجود البسط متعلق بغلبة القلب وظهور تأثيره، لأن النفس ما دامت أمّارة فلا قبض ولابسط، وإذا كانت النفس لوّامة فإن القلب يكون مغلوباً حيناً وغالباً أحياناً. ووجود القبض والبسط للسالك في هذه الحال إنما يكون باعتبار غلبة النفس وظهور تأثيرها.

١٦٦ - البسطامية...

وهي أيضاً الطيفورية، طريقة بايزيد البسطامي (١٨٨ ـ ٢٦١هـ)، ومذهبه مذهب وحدة الوجود، يقول: صفاتي صفات الربوبية، وإشاراتي إشارات الأزلية؛ واشتهر بشطحاته، من مثل: سبحاني سبحاني، ما أعظم شأني! (انظر البسطامي في الوصفية).

١٦٧ - بسم الله ...

هي الخروج عن الحول والقوة، بمعنى التسليم بأن كل شيء بالله. واستعمال البسملة عند الصوفي لرفع الدعاوى الظاهرة والباطنة، وفي محاضرة المعبود.

ويقول ابن عربي: إن جميع ما أدركته العلوم وألحقته الفهوم مستنبط من حرفين من أول كتاب الله، وهو قول بسم الله والحمد لله، لأن معنيهما بالله ولله، والإشارة في ذلك أن جميع ما أحاطت به علوم الخلق وأدركته لا تقوم بذواتها وإنما هي بالله ولله.

وقيل للشبلي: ماذا تشير إليه «الباء» في «بسم الله»؟ فقال: أي بالله قامت الأرواح والأجساد والحركات، لا بذواتها.

وقيل لأبي العباس بن عطاء: إلى ماذا سكنت قلوب العارفين؟ فقال: إلى أول حرف من كتاب الله وهو الباء من بسم الله الرحمن الرحيم، فإن معناه أن بالله ظهرت الأشياء، وبه فنيت، وبتجلّيه حسُنت، وباستتاره قبُحت وسمُجت، لأن في اسمه «الله» هيبته وكبرياءه، وفي اسمه «الرحمن» محبته ومودته، وفي اسمه «الرحيم» عونه ونصره. و«بسم الله»: إخبارٌ عن وجود الحقّ بنعت القِدَم و«الرحمن الرحيم»: إخبارٌ عن بقائه بوصف العُلا والكرم.

والنُّطق بالبسملة كاشف للأرواح فَيُهَيّمها، وقوله: «الرحمن الرحيم» يكشف

النفـوس فَيُتَيِّمها، فـتدهش الأرواح فى كشف جلاله، وتعطش النفوس إلى لطف جماله.

وتخبر «بسم الله» عن إلهية الله، وأنه المستحق لنعوت المجد والتوحّد، وصفات العزّ، والتفرّد، فـمن يتجرّد فى طلبه عن الكسل، ولا يستـوطن مـركب العـجز والفشل، وصل بدليل العـقل إلى عيانه. ومن بذل روحه ونفسه ويودّع فى الطلب راحتـه وأنُسه، ولـم يُعرِّج فى أوطان الوقـفة، ظَفَـر بحكم الوصْل إلى شهـود سلطانه، والناس فيه بين موفق ومخذول، أو مؤيد ومردود.

والناطق ببـسم الله، فـيـهـا أن كلمـة «اسـم» هى السمو والسـمة، فمن ينطق ببـسم الله عليـه أن يتـسـم ظاهره بأنواع المجاهـدات، ويسـمو بهمّـته إلى مَـحَالّ المشـاهدات. ومـعـنى «الله» الذى له الإلهية، ومعنى «بسم الله» بسم من تفرّد بالقوة والقدرة.

والباء فى «بسـم الله» حرف تضمين، أى بالله ظهـرت المخـلـوقـات، وَوُجـدت المُحدَثات، فما من شىء مخلوق حادث، من عين وغيْر، ومـن حَجَر ومَدَر، ونجم وشجر، ورسْم وطلل، وحُكم وعلل، إلا كان بالحق وجوده، فبـاسمه كان ويكون، ومن الحق كان ابتداؤه، وإلى الحق معاده، وكل من وحّـدَ وُحِّد به، وكل مَن ألْحَـد كان به جـحوده، فـالذى اعتـرف عرف، والذى جحد اقترف.

ولما قالهـا الله تعالى قال: «بسـم الله» ولم يقل «بـالله»، وفى الحالتين تقال هذه وتلك تبرّكاً، إلا أن من يقول «بسم» إنما يستعـد بها لينطق «الله» بعدها، فيـستعد لها، ويـستصـفى قلبه من الـعلائق أولاً، وليُعدّ نفسه لاستخـلاص أسرارها ثانياً، فـيكون قـوله «الله» على قلب نقىّ وسـرٍ صفىّ.

وفى «بسم الله» كل المعـانى الجـمـيلة والدُّرَر الثـمينة، لأنه عـندمـا ينطق بهـا الناطقون يتـذكرون من البـاء بِرَّه تعـالى، ومن السين سرّه مع أصفيائه، ومن الميم مِنَّتُه على أهل ولايته، فـيعرفون سرّه ببِرِّه بهم، وأنهم بمنّته حـفظوا أمره، وبه تعالى عرفوا قدْرَه.

أو أن الناطق ببسـم الله يتذكر بالباء براءة الله من كل سوء، وبالسـين سلامـته عن كل عيب، وبالميم مجده بعزّ وصفه.

أو أن الناطق ببسم الله يذكر عند الباء بهاءه تعالى، وعند السـين سناءه، وعند الميم مُلكه. ـ فهكذا قال الصوفية.

١٦٨ - بشير...

هو الأمير الذى فيه الحديث: «إذا كنتم ثلاثة فى سفر فأمّروا أحدكم». وينبغى أن يكون أمير الجماعة أزهدهم فى الدنيا، وأوفرهم حظاً من التقوى، وأتمّهم مروءة وسخاوة، وأكثرهم شفقة، ولذا سُمّى البشير لأنه المنوط بإبلاغ كل بُشْرَى. والمقابل للبشير هو النذير، والرسُل مبشرون ومنذرون، والصوفية مبشرون فقط.

١٦٩ - بَصَر...

بصر الحقّ سبحانه عبارة عن ذاته باعتبار شهوده بمعلوماته، فعِلْمه سبحانه عبارة عن ذاته باعتبار مدى غاية علمه، لأنه بذاته يبصر، ولا تعدد فى ذاته، فمحل علمه محل بصره، وهما صفتان وإن كانتا بالحقيقة شيئاً واحداً، فليس المراد ببصره إلاّ تجلّى علمه له فى المشهد العيانى، وليس المراد بعلمه إلا الإدراك بنظره له فى العالم العينى، فهو يرى ذاته بذاته، ويرى مخلوقاته أيضاً بذاته، فرؤياه لذاته عين رؤياه لمخلوقاته، لأن البصر وصفٌ واحد، وليس الفرق إلا فى المرئى، فهو سبحانه لايزال يبصر الأشياء، لكنه لاينظر إلى شىء واحد إلا إذا شاء ذلك. ومن هذا القبيل قوله ﷺ: «إن لله كذا وكذا نظرة إلى القلب فى كل يوم». وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ﴾ (آل عمران٧٧) ليس من هذا القبيل، بل النظر ههنا عبارة عن الرحمة الإلهية التى رحم بها مَن قرّبه إليه، بخلاف النظر الذى له إلى القلب، فإنه على ما ورد فى الحديث السابق عن النبىّ ﷺ.

١٧٠ - بصيرة...

قوةٌ للقلب منوّرة بنور القدس، منكشف حجابها بهداية الحق، تُرى بها حقائق الأشياء وبواطنها، وتسمى القوة القُدسية، بمثابة البصر للنفس الذى ترى به صور الأشياء وظواهرها.

١٧١ - بطلان...

خلاف الحقّ.

١٧٢ - بَطْن...

الظهر لفظ القرآن، والبطن تأويله. وقيل الظهر صورة القصة، والبطن عظتها وما تُنبّه إليه. وقيل ظهر القرآن تلاوته، وبطنه التدبّر والتفكر فيه. وقيل ظهره تنزيله الذى يجب الإيمان به، وبطنه وجوب العمل به. هكذا قال الصوفية.

١٧٣ - بُعد...

عبارة عن بُعْد العبد عن المكاشفة

والمشاهدة، وقيل هو الإقامة على المخالفة.

١٧٤ - بقاء...

هو رؤية العبد قيام الله على كل شيء. وقيل بقاء رؤية العبد بقيام الله له فى قيامه لله بالله. وقيل هو أن يفنى عمّا له ويبقى بما لله، وهو مقام النبيين.

والباقى: هو العبد تصير الأشياء كلها له شيئاً واحداً، وتكون حركاته فى موافقات الحق دون مخالفاته، فيكون فانياً عن المخالفات وباقياً فى الموافقات. وليس معنى ذلك أن يستوى المنهى عنه مع المأمور به، ولكن معناه أن لا يجرى عليه إلا ما أمره الله به وما يرضاه الله دون ما يكرهه، ويفعل ما لله، لا لحظ له فيه فى عاجل أو فى آجل. وهذا معنى قولهم «يكون فانياً عن أوصافه، باقياً بأوصاف الحق»، لأن الله تعالى إنما يفعل الأشياء لغيره لا له، لينفع الأغيار لا ليضرّهم، فالباقى بالحق الفانى عن نفسه، يفعل الأشياء أيضاً لا لجرّ منفعة لنفسه، ولا لدفع مضرة عنها، وإنما هو يرغب فى ثواب الله. والبقاء يقابله الفناء، والفناء: فناء العبد عن رؤيته العبودية، والبقاء: بقاء العبد بشاهد الإلهية، بمعنى أن العبد لا ينظر أعماله ويفنى عن رؤيتها حتى لا يراها، ويبقى فقط عن طريق مشاهدة أعمال الله. ولذا يقال: صحة العبودية فى الفناء والبقاء»: يعنى لا يكون العبد جديراً بعبوديته لله إلا إذا تخلّص من ذاتيته، ولذا فالتخلّص من الآدمية فناء، والإخلاص فى العبودية بقاء، بمعنى أن العبد عندما تظهر له عظمة الله لا يعود يذكر أى عظمة أخرى تقارن بعظمته، ويفنى عن العالمَ، وعن العقل والنفس، وعن الفناء نفسه، ولا يذكر سوى الله:

ففى فنائى فنى فنائى

وفى فنائى وجدتُ أنت

محوت اسمى ورسم جسمى

سئلتُ عنى فقلت أنت

١٧٥ - بقرة...

كناية عن النفس إذا استعدّت للرياضة وبدت فيها صلاحية قمع الهوى الذى هو حياتها، كما يكنّى عنها بالكبش قبل ذلك، وبالبَدَنة بعد الأخذ فى السلوك. هكذا اصطلح الصوفية.

١٧٦ - بكاء...

البكاء عند الصوفى، من الله، وإلى الله، وعلى الله. فالبكاء من الله: لطول تعذيبه بالحنين إليه إذا ذَكَر طول المدة إلى لقائه؛ والبكاء من الفَرَق لما توعده المقصّر؛

والبكاء من الفزع للإشفاق مما يُحرَم من الوصول إليه.

والبكاء إلى الله: بالحنين، وولّه العقل، والتأوّه، والوقوف بين يديه برقة الشكوى إليه، والتمرّغ على بساط الذل زلفى إليه، ومخافة أن ينقطع الطريق فيعسر الوصول إليه، وحياءً منه.

ثم البكاء على الله: إذا أبطأ عليه مما عوّده، والفرح من الوصول إليه إذا أصابه العسر، كالصبي الرضيع يرتضع ثدي أمه وهو يبكي.

والبكاء من بقية الوجود.

وللباكين عند السماع مواجيد مختلفة، فمنهم من يبكي خوفاً، وهؤلاء هم البكّاءون، ومنهم كهمس بن الحسن، الذي قيل إنه ظل يبكي على خطيئته أربعين سنة.

ومنهم من يبكي شوقاً، ومنهم من يبكي فرحاً.

وبكاء الوجدان أعز رتبةً. وحدوث ذلك في بعض المواطن حق اليقين. ومن حقّ اليقين في الدنيا لمامات يسيرة، فيوجد البكاء في بعض مواطنه لوجود تغاير وتباين بين المُحدَث والقديم، فيكون البكاء رشحاً هو من وصف الحَدَثان لوهج سطوة عظمة الرحمن.

وقد يتحصّل البكاء عند أهل الله بالعدوى، وفي الخبر أن عبد الله بن رواحة وضع رأسه في حجر امرأته فبكى، فبكت امرأته. فسألها: ما يبكيك؟ قالت: رأيتك تبكي فبكيت. قال: إني ذكرت قول الله عزّ وجلّ: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا ﴾ (مريم٧١)، فلا أدري أأنجو منها أم لا؟

وفي القرآن يأتي عن البكاء سبع مرات، وفي قوله تعالى: ﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ ﴾ (الدخان ٢٩) أن السماء تفتقد أهل الله تصعد إليها أعمالهم الصالحة فإذا ماتوا انقطع صعودها، والأرض تفتقدهم لما كانوا يعبدون الله عليها. وعن أنس، عن النبي ﷺ قال: «ما من عبد إلا وله في السماء بابان: باب يخرج منه رزقه، وباب يدخل منه عمله وكلامه، فإذا مات فقداه وبكيا عليه». وتلا هذه الآية: «فما بكت عليهم السماء والأرض».

وسأل رجلٌ عليَّ بن أبي طالب: هل تبكي السماء والأرض على أحد؟ فقال: لقد سألتني عن شيء ما سألني عنه أحد قبلك! إنه ليس من عبد إلا له مُصلّى في الأرض ومَصْعَدٌ يصعد بعمله إلى السماء.

وسُئل ابن عباس هذا السؤال فقال: ليس أحدٌ من الخلائق إلا وله باب في السماء

منه ينزل رزقه، وفيه يصعد عمله، فإذا مات المؤمن فأُغلق بابه من السماء الذى كان يصعد فيه عمله وينزل منه رزقه، ففقده، بكى عليه. وإذا فقده مصلاه من الأرض التى كان يصلّى فيها، ويذكر الله عزّ وجلّ فيها، بكت عليه!

وقال الصوفى العالم سفيان الثورى: تبكى الأرض على المؤمن أربعين صباحاً! وعند «مجاهد» الصوفى القرآء السجّاد، تساءل متعجباً: وما للأرض لا تبكى على عبد كان يعمرها بالركوع والسجود! وما للسّماء لا تبكى على عبد كان لتكبيره وتسبيحه فيها دويّ كدويّ النّحل! - وقيل إن مجاهداً هذا، مات وهو ساجد!

وكان الناس فى الزمن الأول إذا تُلى القرآن يخرّون سجداً ويبكون: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴾ (الإسراء١٠٧)، و﴿ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ﴾ (مريم ٥٨).

والعلماء من أهل الله عندما يتأثرون يتأثرون بالتبصُّر، والفلاسفة يتأثرون بالتحيُّر، وتبصُّر العلماء بالاستدلال، وتحيُّر الفلاسفة بشهود الجمال والجلال، وبكاء كل واحد على حسب حاله، فالتائب يبكى لخوف عقوبة لما أسلفه من زلّته وحَوْبته، والمطيع يبكى لتقصيره فى طاعته، لكيلا يفوته ما يأمله من مِنّته. وقومٌ يبكون لاستبهام عاقبتهم وسابقتهم عليهم، وآخرون بكاؤهم بلا سبب متعين، وسبحانه له فى خلقه شئون: ﴿ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴾ (النجم ٤٣)، وآخرون يضحكون ولا يبكون، لقوله تعالى: ﴿ أَفَمِنْ هَٰذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ * وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ * ﴾ (النجم ٥٩/ ٦٠)؛ وقوله: ﴿ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ (التوبة٨٢)؛ وهناك من يبكون تحسّرًا على ما يفوتهم من الحق.

والبكاء عند الأكابر معلول، وهو فى الجملة عند غالب الناس ضعفٌ فى الأحوال، وعجزٌ فى المآل، وفى معناه أنشدوا:

خُلقنا رجالاً للتجلدُّ والأسى
وتلك الغوانى للبكا والمآتم

إلا بكاء أهل الله، فإنه صلاة وتسبيحٌ لله!

ومن أشهر مشاهد البكاء عند الصوفية: مشهد لقاء يعقوب بابنه يوسف، فقد تقدّم من ابنه يحييه كما يقول الصوفية، وقال: السلام عليك يا مُذهب الأحزان- وبكى الأب المكلوم، وبكى معه ابنه، وكان بكاء يعقوب من الفرح، وبكاء ابنه من الحزن.- والبكاء عند أهل الله أربعة: بكاء من الخوف؛

وبكاء من الجزع؛ وبكاء من الفرح؛ وبكاء من الحزن، وبكاء رياء. وقال يعقوب: الحمد لله الذى أقرّ عينى بعد الهموم والأحزان.

١٧٧ - بكّاءون...

قيل أشهر البكّائين من أهل الله سبعة، كانوا ضمن غزوة تبوك فى رجب سنة تسع من مُهاجَره ﷺ، فلما علم أن الروم جمعت الجيوش له، وأن هرَقل قد أعدّ جنوده أحسن الإعداد، ندب رسول الله ﷺ الناس إلى الخروج، وبعث إلى مكة والقبائل كلها يستنفرهم، وكان الحرّ شديداً، وأمرهم بالصدقة، وهرع المسلمون للجهاد فى سبيل الله، وجاء البكّاءون يستحملونه، فأين له بما يحملهم؟! قال: ﴿لا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ (التوبة٩٢)، فانهزموا، و﴿تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلاَّ يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ﴾ (التوبة ٩٢).

وهؤلاء السبعة كانوا احتمالاً: سالم ابن عُمير، وهَرَمى بن عمرو، وعُلبة بن زيد، وأبو ليلى المازنى، وعمرو ابن عَنَمة، وسلمة بن صَخْر، والعرباض بن سارية.

والعدد سبعة كثيراً ما يرد عند العرب تعبيراً عن كثرة الشىء وليس لأنه عددٌ صحيح عن حقيقة الشىء. والسبعة ربما كانوا سبعين أو سبعمائة، أو أكثر أو أقل من ذلك. وقيل: فيهم عبد الله بن المُغفَّل، ومعقل بن يسار. وقيل كان المخيَّبون كثيرين ولكن السبعة فقط هم الذين انفعلوا بالبكاء، وقيل: إن بنى مُقرّن السبعة - وهم من مُزَينة - هم الذين بكوا حتى أنهم عُرِفوا بالبكّائين، وكانوا على تقوى وورع شديدين ولكنهم من أفقر الفقراء.

ثم اشتهر اسم البكّائين على من عُرِفت عنده رهافة الوجدان الدينى، وكان أبو بكر بكّاءً، فلمّا أمره النبىّ ﷺ فى مرضه الذى مات فيه أن يصلّى بالناس، اعتذرت عنه عائشة رضى الله عنها بأنه «رجل أسيف وشديد البكاء فى الصلاة».

وكان النبىّ ﷺ بكّاء، فكان فى قيامه من الليل يدعو ويبكى، وتقول عائشة: كان يبكى حتى أن الأرض لتبلّ! وعائشة كانت كأبيها بكّاءة كلما ذُكِر الله عندها، أو ذُكِّرت بالآخرة عندما اشتد بها المرض فى أواخر حياتها. وكانت رابعة العدوية من البكّاءات النائحات. وكان البكاء يشتد على عمر بن الخطّاب كلما ذُكِرَ زُهد الرسول ﷺ وعيشه الشديد.

وممن اشتهروا بالبكاء من أهل الله: الحسن البصرى، وابن سيرين، ومالك ابن دينار، وأبو الدرداء وله كتاب «الرّقة

والبكاء»، وإبراهيم النخعي، وأبو سليمان الداراني، والفُضَيْل بن عياض، وحبيب العجمي، وعبد الواحد بن زيد، وسفيان الثوري، وذو النون المصري، ويحيى بن معاذ الرازي.

وحديثاً عرفنا من البكّائين: الشيخ متولي الشعراوي، والشيخ عبد الحليم محمود، والمفتي الدكتور عليّ جمعة، ومن أصحاب الوجدان العالي الدكتور مصطفى محمود.

ولم يشتهر باسم البكّاء إلا قلة مثل يحيى البكّاء، وأبي سعيد أحمد بن محمد البكّاء، وابن طريف البكّاء، وابن سوقه البكّاء، وابن أبجر البكّاء، وابن مُرّة البكّاء، وسيّار النبّاجي وشهرته الباكي، وهيم البكّاء، وصفوان بن محرز البكّاء، وهشام بن حسّان البكّاء، وإبراهيم البكّاء.

واشتهر بالبكاء: صالح المُرّي، وغالب الجَهضَمي، وكَهمَس، ومحمد بن واسع.

وكان إطلاق اسم «بكّاء» على من يُكثر البكاء حُزناً وخوفاً وفَرَقاً، كما أطلقوا اسم «حمّاد» على مَن يُكثر التسبيح بحمد الله في كل حين، وفي كل حال.

وعند أبي الدرداء: فإنه كان يبكي كما يقول من هَوْل المَطْلَع، وانقطاع العمل، وموقفه بين يدَيّ الله لا يدري أيأمر به فيُلقَى في الجنة أم في النار.

وعند يزيد بن ميسرة: فإن البكّائين ربما بكَوا امتناناً وشُكراً، وربما بكوا إذا اشتد بهم الفرح. وقد يأخذ البكاء المنافقين فيقلّدون البكّائين زوراً وبُهتاناً.

وعند أبي سعيد الخرّاز: فالأسباب كثيرة للبكاء، عددّها ثمانية عشر سبباً، أبرزها: أن يستشعر العبد أنه بعيدٌ عن الله، أو أنه قد اشتدّ قُربُه منه تعالى، أو أنه قد صار مع الله. وفي الخبر أن النبيّ يحيى بن زكريا عليهما السلام كان في خدّيه خطّان من البكاء، فلما سأله عنهما أبوه قال له: يا أبت! إن جبريل عليه السلام أخبرني أن بين الجنة والنار مفازة لا يقطعها إلاّ كلّ بكّاء!. وقيل كان عمر بن الخطاب بخدّيه خطان كذلك من كثرة البكاء. ـ فالبكّاء إذن مع الله، فلمّا اختار البكّاء الله، اختاره الله.

والمسلم أكثر بكائه على السجادة، وعند الكعبة، وعلى عرفات، وأمام قبر الرسول ﷺ، وهو يرفع يديه راجياً متوسلاً، أو يتعلّق بالأستار، أو يتمسّح بالسياج، أو يقبّل الحجر الأسود بولَه.

وبعض القرّائين يُحبّرون قراءة القرآن تحبيراً حتى ليبكي السامعون وتتصدّع منهم

القلوب. وأكثر البكاء يستحدثه القُصّاص ـ هؤلاء الذين يستعبرون القصص ويلقون المواعظ وينبّهون الغافلين، فتذرف دموعهم حتى أن بعض هؤلاء القصّاص ليخاطب مستمعيه فيقول: «أعيرونى دموعكم»، بدلاً من أن يقول «أعيرونى أسماعكم أو انتباهكم»!

وتقام الحَضْرات للبكاء، وقد يلتقى المسلم أخاه المسلم فيتذاكران ويبكيان، ومن أشهر أهل الله الذين فعلوا ذلك محمد بن سوقه، وضرار بن مُرّة، وكانا يجتمعان كل جمعة للتباكى. ومنهم أيضاً بديلٌ، وشُمَيط، وكهمس، وكانوا فى كل اجتماع لهم يذكرون نعمةً من نعم الدنيا سيُحرمانها فى الآخرة، فيبكون من أجل ذلك، ويرتفع دعاؤهم من بين الدموع: ياعالم الغيب والشهادة ! لا توفيق لنا إنْ لم توفقنا، ولا قوة لنا إن لم تقوّنا!

وتُروى القصص العجيبة عمّا كان يذرفه هؤلاء البكّائين فى مجالس بُكائهم، ومن ذلك أن أحدهم ظل يبكى فى إحدى المرات ثلاثة أيام وليال سوياً ـ وهذا كَذِبٌ بالطبع لأنه ضد طبيعة البشر الفسيولوجية والسيكولوجية، فلا العين بوسعها أن تبكى مستمرة ثلاثة أيام، ولا الغدد الدمعية يمكنها أن تفرز كل هذه الدموع، ولا الاستعداد النفسى يمكن أن يتوعب هذا الأمر، وإذن لانفجر الباكى ميتاً أو مفلوجاً!

وقيل من قبيل المغالاة: أن آخرين بكوا حتى ابتلت وسائدهم واخضلّت لحاهم. وفى الحديث أن النبىّ ﷺ بكى حتى ابتلّت ملابسه، حتى أنها لَتُعصَر، وابتلت أرضية الحجرة!

وقيل إن بعضهم بكى حتى بلّلت دموعهم أكياساً من الرمال! وكانت الدموع تنزل مدرارة من أحدهم حتى لَيُسمع لها وقعٌ على الأرض! وتوضأ أحدهم بدموعه!! ونبت العشب من الأرض حين بللتها دموع أحدهم الغزيرة! وقيل عن بعض البكّائين: أن أهدابهم تساقطت، وكلّ بَصَرُهم، وأصابهم العمى! ولمّا قُرىء القرآن على بعض أهل اليمن فى زيارتهم لأبى بكر: بكوا، فقال أبو بكر: هكذا كنّا قبل أن تقسو القلوب!

والبُكاء إذن دليل رقة القلب وخشية الله، ويقول الدارمى: إن الامتناع عن البكاء إنما لانعدام الخشية من الله. وظن يوسف بن حسين أن قلبه قد خالطته القسوة، وصدره قد غمره الكُفر، لمّا رأى نفسه يقرأ القرآن ولا يبكى. وكان البنّان على عكس ذلك يرى البكاء من نِعمَ الله

التى يُحمَدُ عليها. وفى الحديث عن ابن عمر قال: كان من دعاء رسول الله ﷺ: «اللهم ارزقنى عينين هطالتين، تشفيان القلب بذرف الدمع من خشيتك، قبل أن يكون الدمع دماً والأضراس جَمْراً». وقال ﷺ لأصحابه: «فإن لم تجدوا بكاءً فتباكوا». والتباكى فعلٌ إرادى، والبكاء لا إرادى، وشتّان. وسواء كان تباكياً أو بكاءً، فإن إتيان أيهما يزيل الأسى ويمحو الحزن، فالراحة النفسية تتحصّل بالبكّاء، وقال ابن عيينة: إن حبس الدموع يستبقى الحزن.

والبكاء مسألة شخصية لا ينبغى أن يطّلع على ذات الباكى إلا الباكى دون غيره. وقد يموّه البكاء على الناس، وفى الأمثال «دموع التماسيح» أى الدموع المخادعة، وإخوة يوسف أجرموا وبكوا لأبيهم كذباً! وكان ابن سيرين يبكى إذا ضحك، فهل بكاؤه دليل الحزن؟ وإنما البكّاء الحقّ هو الذى يغذّيه القلب، وأشد الناس محاسبة لنفسه أكثرهم بكاء، ويوم القيامة هو أشد الناس فرحاً، بينما أكثر الناس ضحكاً فى الدنيا أكثرهم بكاء يوم القيامة.

ومن علامات البكّائين عند سماعهم للقرآن: الخشوع، كقوله تعالى: ﴿وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ (الإسراء ١٠٩)، وحقٌّ لكل من توسّع فى التقوى وانخرط ضمن أهل الله، أن يبلغ هذه المرتبة، فيخشع عند استماع القرآن، ويتواضع ويذلّ. ومَن أُوتى من العلم ما لم يُبكه لخليقٌ ألاّ يكون قد أوتى علماً. وكان كلامه تعالى قبل الآية السابقة عن الذين أوتوا العلم، قال: ﴿قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾ (الإسراء١٠٧)، والذى يُتلَى عليهم هو القرآن، فكان هؤلاء - أهل العلم - إذا سمعوا القرآن خشعوا وسجدوا وسبّحوا: ﴿وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾ (الإسراء ١٠٨)، والأذقان جمع ذقن - وهو مجتمع اللَّحيَيْن، واللَّحَى عبارة عن الذقن، أى يضعونها على الأرض فى حال السجود، وهو غاية التواضع - وقيل: يخرّون للأذقان أى للوجوه، وإنما خُصَّت الأذقان لأن الذقن أقرب شىء من وجه العابد وهو راكع، فلا يجوز إذن السجود على الذقن، فيكون المعنى: خرّوا لوجوههم ساجدين، وإن كانوا لم يسجدوا على الخدود ولا العيون، ولا الأذقان. والآية دليل على جواز البكاء فى الصلاة من خوف الله، أو على معصيته، فلا يقطعها البكاء ولا يضرّها، وكان النبىّ

ﷺ يصلى ولجوفه أزيز كأزيز المِرْجل، أو كأزيز الرَّحى، من البكاء.

وعاب ابن واسع على البكّائين أن يُعرَفوا بهذا الاسم، وأن يأتى بكاؤهم علناً، فقال: لقد أدركتُ رجالاً، كان الرجل يكون رأسه ورأس امرأته على وسادة واحدة، قد بَلّلت دموعه ما تحت خدّه، فلا تشعر به امرأته!! ولقد أدركتُ رجالاً يقوم أحدهم فى الصفّ، فتسيل دموعه على خدّه، فلا يشعر به الذى إلى جانبه!! وذلك لعمرى هو البكاء المحكى عنه فى القرآن: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَٰنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ (مريم ٥٨).

١٧٨ - بكتاشية...

البكتاشية كطريقة صوفية فرعٌ من الطريقة البابائية، وكان مؤسس الطريقة الحاج بكتاش - وهو اسم تركى بمعنى الأمير - من أتباع بابا إسحق شيخ البابائية؛ وقواعد الطريقة: هى القواعد الصوفية المتعارف عليها مع شدة الزهد والفقر، والتسامح مع النصارى، فقد كانت الطريقة منتشرة بين العسكر العثمانية، وهؤلاء العسكر كانوا فى الأصل من رقيق النصارى من الصبيان، يضمّونهم إلى الإسلام وكونوا منهم الجيش الذى عرف باسم الانكشارية، بمعنى الجيش الجديد (وأصل الانكشارية كلمة بالينكيجرية)، وعلى ذلك كانت البكتاشية: هى الطريقة التى تجمع المتصوفة المسلمين من أصول نصرانية، وجعلت شعارها «الله. محمد .علىّ»، فأعلنت أنها طريقة علوية، وصارت البكتاشية هى الصورة التركية للإسلام العربى، ودعاؤهم المأثور: «نادِ علياً مظهر العجائب تجده عوناً لك فى النوائب». واستطاعوا أن ينشروا تكاياهم البكتاشية فى تركيا، ويبلغ عدد المنتمين إليهم اليوم ثلاثة عشر مليوناً (هكذا يزعمون)، يتزعمهم ده ده بابا، واسمه الحقيقى: دكتور بدرى نويان، وهو من أساتذة جامعة اسطنبول، ولا نعرف عن البكتاشية الآن شيئًا.

١٧٩ - بكرية...

البكرية: طريقة خلوتية، وفرع من الشاذلية، وينسبونها لأبى بكر الصدّيق، والذين قاموا عليها صار اسمهم لذلك البكرية، منهم محمد بن عبد الرحمن البكرى، ومصطفى بن كمال الدين بن علىّ البكرى.

والبكرية كذلك طريقة من طرق الدراويش، تنسب إلى أبى بكر وفائى، المتوفى فى حلب سنة ٩٠٢ هـ. وكان

رأس البكرية فى مصر الشيخ البكرى، الذى أصبح نقيب الأشراف سنة ١٨٦١م، وأصبح شيخ مشايخ الطرق الصوفية سنة ١٩٠٦م.

١٨٠- بلاء...

امتحان الأجسام بأنواع المشاق والأمراض والمتاعب، فبقدر ما يزداد البلاء على العبد يزداد تقرباً وسبيلاً إلى الحق تعالى. ويقول الجريرى: الإنسان حيثما كان بلاء. وفى الحديث: «نحن معاشر الأنبياء أشد الناس بلاء».

١٨١- بوادة...

البادهة ما يفجأ القلب من الغيب فيوُجب بسطاً أو قبضاً.

١٨٢- بَوْن...

معناه البينونة، ونقيضه الكوْن.

والكوْن والبَوْن معناهما ما قاله الجنيد يصف الموحّدين: «كانوا بلا لَون، وبانوا بلا بون»، أى أن الموحّدين يكونون فى الأشياء كأنهم لا يكونون، ويبينون (يتّضحون) عن الأشياء كأنهم لايبينون، لأن كونهم فى الأشياء يعنى بأشخاصهم، وبوْنهم عن الأشياء يعنى بأسرارهم، فهذا معنى الكون والبون.

١٨٣- بيت...

عند الصوفية هو القلب.

والبيت المعمور: هو المحل الذى اختصه الله لنفسه، فرفعه من الأرض إلى السماء وعمره بالملائكة؛ ونظيره قلب الإنسان، فهو محلّ الحقّ، ولا يخلو أبداً مما يعمره.

والبيت الحرام: هو قلب الإنسان الكامل، الذى هو النبّى أو الولىّ، والذى يحرم على غير الحقّ.

وبيت الحكمة: هو القلب الغالب عليه الإخلاص.

وبيت العزّة: هو القلب الواصل إلى مقام الجمع حال الفناء فى الحقّ.

وبيت المَقدس أو البيت المُقدَّس: هو قلب تطهّر عن التعلّق بالغير.

وكانت للنبىّ ﷺ خمسة بيوت تناوب عليها فى حياته؛ فبيته وهو طفلٌ كان مضْرَب حليمة السعدية، ضمن مضارب بنى سعد بن بكر، وكان ينام فيه مع ولدها عبدالله بن الحارث وابنتيها: أنيسة، وجُدامة التى شهرتها الشَّيماء، وكانت هى التى ينام إليها وتحضنه وتُوَرِّكه، فلما صار يمشى، كان يرعى الغنم مع أخيه من الرضاع عبدالله ابن

حليمة، ومع أبيه من الرضاع أبى ذُؤيب. وما كان بمضرب حليمة سوى حصير، وقِرْبة ماء، وشَنّ للخبز، وحَبْل تُعلّق عليه الأشياء؛ وكان إذا نام بالبادية افترش التراب وعصاه الصغيرة يهشُّ بها على الغنم - إلى جواره. فلما بلغ الخامسة وعاد إلى بيت جدّه، كان ينام فى حُجرة أعمامه على الحصير، وكانوا أكبر منه سنّاً، فكانوا لا يراعونه إلا لو نام فى كنف حاضنته أم أيمن. فلما انتقل إلى حضانة عمه أبى طالب فى الثامنة، كان ينام مع أولاده، فكان يصحو مبكراً ويغتسل ويتمشّط، بينما يصحو أولاد عمّه شُعثاً عماص العيون، ولما شبّ عن الطوق كان كثيراً ما ينام فى الحِجْر فى البيت الحرام. ولم يكن له بيت إلا عندما تزوّج خديجة، وفيه كانت له حجرة نوم، وحجرة يتعبّد فيها، وكانت لبناته حجرة خاصه بهن، فظل على ذلك خمس عشرة سنة إلى أن بُعث. وخلال ذلك كان يسكن مغارة فى حِراء خلال رمضان. ولما هاجر، اختار قطعة أرض جافة التراب، وهواؤها طيّب، وبنى عليها مسجده، وإلى جواره بنى حجرات أزواجه، فكلّما تزوّج يُضيف حجرة، وكان يبنيها من الطين وجريد النخل، ويسقفُها بالجريد وجذع النخل، ولا تتسع إلا لسرير وبعض الأشياء كالرَّحى والقربة وشَنّ الخبز، وحَبْل يمتد عبر الحجرة يضع عليه ملابسه، وكانت مَرْتبة سريره من القشّ، وكذلك وسادته، وليس له إلا ثوب واحد وقميص. فذلك كان بيته. فإذا كان فى غزوة كانوا ينصبون له قُبّة من جلود الأنعام. والنبى ﷺ شيخ الزُّهاد، ما عرف الترف إلا عندما كان ينفرد ويبيت فى هذه الخيام المقبّبة، والله تعالى سمّاها عن حقّ سكناً، بينما كانت حجرات زوجاته مجرد حجرات، والسبب أن خيمته فى الغزو وفى الحَجّ كان يهدأ فيها أكثر ويسكن إليها، فكانت من نِعَم الله عليه، لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾ (نحل ٨٠)، وقد كانت للنبىّ ﷺ قُبّة من أدَم الطائف، وناهيك من أدَم الطائف غلاءً فى القيمة، واعتلاءً فى الصنعة، وحُسناً فى البَشَرة، ولم يَعُدّ النبىّ ﷺ ذلك ترفاً، ولا رآه أصحابه سَرَفاً، فكان يعيش على قَدْر رزقه ونصيبه فى الحياة، فإذا أعطاه الله وامتنّ عليه، كان يأذن لنفسه أن يستمتع قليلاً، لقول ربّه له: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ

الرِّزْق﴾ (الأعراف ٣٢). وقد كان كثير من الزهّاد يفعلون عكس النبيّ ﷺ ويزايدون عليه، فكانوا يسكنون الخيام مثله، ولكنهم لا يختارونها من الأدَم وإنما من الكتّان، فتزيد عليهم الحرارة ويُغرقهم العَرَق، وينتنّ به جو الخيمة. والمَثَل على ذلك الصوفي الكبير إبراهيم بن آدم، فلو خيرّ بين بيت وخيمة، لاختار الخيمة دون البيت، لأنها أكثر عليه مشقة، وكان يستكثر على نفسه حتى هذا الخباء المتواضع، فإذا قيل له: كان رسول الله وهو رئيس الزُّهّاد، إذا وَجَد بيتاً فيه راحة أكثر له آثره، فكان مثلاً ينام عند أم أيمن لأنها كانت تهيىء له منامةً أفضل، ويؤثر بيت عائشة، لأنها كانت تهيىء له كلّ ما يسرّه من طعام ومنام، وما تزوّج خديجة إلا كي يستشعر السكينة والراحة التي سيوفرهما له بيتها؛ وكان يسعد في بيت أم رومان زوجة أبي بكر وأم عائشة، وبيت أم سليم بنت مَلحان أم أنس بن مالك، وبيت أم حرام بنت مَلحان، وبيت نسيبة بنت كعب، المشهورة بأم عمارة، وبيت أم عطية الأنصارية - وكان يقيل عندها؛ فالرسول ﷺ لم يَحرم نفسه البيت الجميل، وكانت قُبّته من الأدَم الطائفي، تسافر معه كلما غزا، ويستظل بها، وما كان من المتزهّدين الغافلين!

ومما ورد عن التأويل في سورة يوسف - ويوسف كان صدّيقاً، والصدّيقية درجة من الولاية، قوله تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ﴾ (يوسف ٦)، وتأويل الأحاديث هو تأويل الرؤيا، والتأويل يكون بفك رموزها؛ والتفسير يكون بتبيان معاني كلماتها وعباراتها. والأحاديث ما يراه الناس في المنام، والرؤى الصادقة من النبوّة، وتبدأ النبوة بها كما في حالة النبيّ ﷺ. وكان يوسف يُفصح عن تأويله للأحلام، فَيَظهر صدقُه ولو بعد أربعين سنة، كما في رؤياه عن الشمس والقمر وقد سجدا له. وكان النبيّ ﷺ يعلم تأويل الأحاديث، ولم يلحقه في تأويلها خطأ أبداً، وكان من أعبد الناس لها. ومن أولياء الله الذين كان لهم ذلك ابن سيرين، وحقّق فيه تقدماً عظيماً.

والرؤى والأحلام لغتها قديمة من الفطرة، وتحتاج للواعي بها، وبما تعنيه، ولها ميكانيزمات معينة: كالتأويل بالقلب، أي قلب الأحداث إلى ضدها، كأن نحلم بأننا نموت، فعلى العكس يكون المعنى أننا سنعيش. ومن التأويلات المشهورة تأويلات الخضر للأحداث، فالتأويل لا

يتناول الأحلام فقط، ولكنه لسائر النشاط الإنسانى، فالسلوك له تأويل، وأشهر التأويلات له تأويلات سلوك الصوفية، فكل حركة لهم فيها غرض وغاية وسبب. وفى الآية: ﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ (الكهف٧٨)، طرحٌ لمقالة العبد الصالح: الخَضِر، وليّ الله، لموسى نبيّ الله، أى سأخبرك لِمَ فعلتُ ما فعلت. وقد كانت الآيات التى وقعت لموسى مع الخَضِر حُجة على موسى، ذلك لأنه لما أنكر أمر خَرْق السفينة نودى: يا موسى، أين كان تدبيرك هذا وأنت فى التابوت مطروحاً فى اليم؟ ألم تفعل أمك معك كفعل الخضر مع أصحاب السفينة؟ فأمك ألقت بك فى البحر لتنقذك من فرعون، والخَضِر خَرَق السفينة يعرّض أهلها للخطر، لينقذها وينقذهم من الملك الذى يأخذ كل سفينة غصباً. واحتاج الأمر إلى تأويل فعلَة أمّه معه، مثلما احتاج خرق السفينة إلى تأويل الخَضِر. فلما أنكر موسى قتل الغلام، قيل له: أين كان إنكارك هذا مِنَ وكَزِك للذى كان من عدوك وقضائك عليه؟ واحتاج الأمر إلى تأويل من موسى ومن الخضر. ولما أقام الخضر الجدار وطلب موسى أجراً ليعمل معه، بدعوى أن أهل القرية لم يضايفوهما، نودى عليه: أين هذا يا موسى من رفعك حجر البئر لبنات شعيب دون أجر؟ واحتاج ذلك أيضاً إلى تأويل من موسى ومن الخضر.

١٨٤-بيرامية...

طريقة تُنسب لمؤسسها حاجى بيرام وليّ، وتشتق من الطريقة الخلوتية، وتقوم على الذِّكر الخفى الذى تأخذ به الطريقة النقشبندية، وأصولها ملامتية، وانقسمت الطريقة بوفاة حاجى بيرام إلى: بيرامية شمسية، وبيرامية ملامتية، والأولى كان شيخها آق شمس الدين، وهذا أخذ بالذكر الجلىّ. والذكر الخفى كان عليه أبو بكر الصديق، والذكر الجلىّ كان عليه علىّ ابن أبى طالب - أو هكذا قالوا. والطريقة الثانية كان شيخها عمر دده البورسوى، وهؤلاء اتبعوا الملامتية وظهروا بمظهر غير المتدينين.

١٨٥-بيشرع...

اسم فارسى يطلق على الصوفية الذين يزعمون أن التكاليف تسقط عن الواصلين، بدعوى أن الصوفى عندما يتنوّر بنور الله لا يكون من أتباع أحد الأنبياء، ولا يكون من المكلّفين بأى من الديانات المُنزّلة، وهؤلاء هم مُعطلة الصوفية، واعتقادهم وَهْم.

١٨٦ - بيضاء...

يطلق على العقل الأول فإنه مركز العماء، وأول منفصل من سواد الغيب، ولذلك وُصف بالبياض ليقابِل بياضه: سواد الغيب، فيتبين بضده كمال التبيين. ولأنه هو أول موجود، ويرجُع وجوده على عدمه، والوجود بياض، والعدم سواد، ولذلك قال بعض العارفين فى الفقر أنه بياض يتبين فيه كل معدوم، وسواد ينعدم فيه كل موجود، وهو يريد بالفقر فقر الإمكان.

١٨٧ - بيومية...

أصحاب علىّ البيومى، وتضم أفقر طبقات الصوفية. وهى أساساً فى مصر. والبيومى خلوتى، أحمدى، وله مصنفات عديدة فى التصوف، وشروح على الحِكم العطائية، والإنسان الكامل للجيلى، والطريقة الخلوتية الدمرداشية، والطريقة الأحمدية. (انظر البيومى ضمن المتصوفة).

* * *

باب التاء

* * *

١٨٨ - تاء...

يُكنّى بها عن الذات باعتبار التعيّنات والتعددات. **والتائية الكبرى** قصيدة ابن **الفارض** المولود بالقاهرة سنة ٥٧٦ هـ، والتى يصف فيها مراجه الروحى وصفاً قيل إنه يبلغ حد الروعة، سواء فى رمزيته أو فى دقة نظمه وبديع صياغته، وإن كنا لا نرى ذلك البتة. ويتكلم ابن الفارض فى التائية بلسان الصوفى الذى وصل إلى مقام الاتحاد، ويخاطب فى أوائلها واحداً من أصحابه فيذكر عهده الأول بالحب الإلهى، وما عاناه فيه من مشاق، وما صادف من عقبات لقصوره عن درجة الكمال، ويشرح سعيه للتفريج عن لواعجه وهمّه بأن يبث المحبوب حبه، ويصف الفناء بأنه الحال التى تتجرد فيها النفس عن رغباتها وتتعطل إرادتها لتصبح طوع الإرادة الإلهية، وهذا هو حب الله لها، ولكن المحب والمحبوب شىء واحد هو جوهر النفس وباطنها، وبذلك يتحد العبد والمعبود والعاشق والمعشوق.

١٨٩ - تأنيس...

هو التجلّى فى المظاهر الحسية تأنيساً للمريد المبتدى بالتزكية والتصفية. ويسمى **التجلى الفعلى**، لظهوره فى صور الأسباب.

١٩٠ - تأهُّل...

(انظر زواج وعزوبة).

١٩١ - تأويل...

صرف الآية إلى معنى تحتمله إذا كان المحتمل الذى يراه **المؤول** يوافق الكتاب والسُّنّة، ولذلك فهو يختلف باختلاف حال **المؤول** من صفاء الفهم ورُتبة المعرفة. ويقول **أبو الدرداء** : وهذا كلام يحرّض كلّ طالب همّة أن يُصفّى موارد كلام القرآن ويفهم دقيق معانيه.

وللصوفى - بكامل الزهد فى الدنيا وتجريد القلب عما سوى الله تعالى - **مَطلع** من كل آية، وله فى كل مرة فى التلاوة مطلع جديد وفهم عتيد، وله بكل فهم عمل جديد. وليس المطلع بالوقوف بصفاء الفهم على دقيق المعنى وغامض السر فى الآية، ولكن المطلع أن يطّلع عند كل آية فى شهود المتكلم بها، لأنها مستودع وصف من أوصافه ونعت من نعوته، فتتجدد له التجليات بتلاوة الآيات وسماعها.

والتأويل يعتمد على الاجتهاد،

ويتوصل إليه بمعرفة مفردات الألفاظ ومدلولاتها، واستعمالها بحسب السياق، واستنباط المعانى من كل ذلك. ويقابله التفسير، ويخص الآيات المحكمات لتفصيل مجملها، وشرح غامضها، ويعتمد على النقل مما ورد عن الرسول ﷺ وعن الصحابة، وخاصة فى الأمور التوفيقية التى ليس للعقل فيها مجال كبير.

وقد دعا النبىّ ﷺ لابن عباس فقال: «اللهم فقهه فى الدين وعلّمه التأويل»، وقال ابن عباس عن نفسه: «أنا ممن يعلم تأويله».

وعن التُستَرى فى علم الصوفية بالتأويل قال: إن الله ما استولى وليّاً من أمة محمد ﷺ إلا علّمه القرآن إما ظاهراً وإما باطناً. وعلمُه الباطن هو العلم المستنبط، والاستنباط على قدر التقوى ظاهراً وباطناً. وكان الحسن البصرى أول من مارس الاستنباط والتأويل.

ومن الآيات التى سار فيها الصوفية بالتأويل آيات الصفات، مثل: «الرحمن على العرش استوى» وكذلك المتشابهات، وفسّر التسترى «أم القرى» فى الآية: ﴿وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾(الأنعام ٩٢) قال: ظاهرها مكة، وباطنها القلب ومن حوله الجوارح، فأنذرهم لكى يحفظوا قلوبهم وجوارحهم عن لذة المعاصى واتّباع الشهوات.

١٩٢ - تاج...

عبارة عن عدم التناهى، وإشارة إلى ماهية الذات التى لانهاية لها.

١٩٣ - تبتل...

التبتُّل: هو الانقطاع بتجريد الصوفى عن الحظوظ والمبالاة، لشهود الحقيقة، وبتجريده عن التعريج عن النفس، بمجانبة الهوى، وتنسّم الأنس وشمّ الكَيف؛ وبتجريده إلى السبق والنظر إلى أوائل الجمع.

وفى زمن النبىّ ﷺ أراد نفرٌ من أصحابه أن يتبتّلوا، فاجتمعوا فى دار عثمان بن مظعون، وقد قرّ قرارهم أن: يصوموا النهار، ويقوموا الليل، ولا يناموا على الفُرُش، ولا يأكلوا اللحم، ولا الوَدَك (أى اللحم السمين)، ولا يقربوا النساء والطِّيب، ويلبسوا المسوح (أى ثياب الصوف)، ويرفضوا الدنيا، ويسيحوا فى الارض، ويترهبّوا، ويجبُّوا المذاكير. وسمع بهم النبى ﷺ، فجاءهم وقال لهم: ما بال أقوام قالوا كذا وكذا؟ ولكنى أصلّى وأنام، وأصوم وأفطر، وأتزوج النساء، فمن رَغِب عن سُنّتى فليس منى؛ و قال:

أأنتم الذين قلتم كذا وكذا؟ أما والله إني لأخشاكم لله، وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر وأصلّي، وأرقد، وأتزوّج النساء، فمن رغب عن سُنّتي فليس مني.ـ وفي رواية أن رجلاً جاءه يقول: يا نبيّ الله، إني مررت بغار فيه ما يقوتني من الماء والبَقْل، فحدّثتني نفسي بأن أقيم فيه وأتخلّى عن الدنيا. فقال له النبي ﷺ: إني لم أُبعث باليهودية ولا النصرانية، ولكني بُعثت بالحنيفية السَّمحة. والذي نفسُ محمدٌ بيده، لَغَدْوَةٌ أو رَوْحَةٌ في سبيل الله خيرٌ من الدنيا وما فيها؛ ولَمَقام أحدكم في الصّف (بعض صفّ الصلاة مع الجماعة) خيرٌ من صلاته ستين سنة.ـ وفي هذه الروايات ردٌّ على غُلاة المتزهّدين، وعلى أهل البطالة من المتصوّفين، فلا يجوز لصوفي أياً كان أن يحرِّم شيئًا مما أحلّ الله لعباده على نفسه، من طيبات المطاعم والملابس والمناكح، وقد عاتب الله نبيّه ﷺ لما حرّم على نفسه ما أحلّه الله، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ﴾ (التحريم١).

والصوفي ليس حرّاً أن يفعل ما يريد طالما أنه لا يدعو الناس أن يحاكوه، فالصحيح أنه وإن كان لم يدعُ الآخرين إلى طريقته، إلا أنه بسلوكه هذا السلوك، واطلاع الناس عليه، وبجعله كأنه يدعوهم إلى أن يفعلوا مثله، فكل سلوك هو دعوة للآخرين أن يحاكوه.وفي هذه الروايات ردّ الرسول ﷺ طريقة ابن مظعون وجماعته، فثبت أنه لافضل في ترك شيء مما أحلّه الله لعباده، والفضل والبرّ إنما هو في فعل ما ندب عباده إليه، وعَمِل به رسول الله ﷺ، واستّنّه بذلك لأُمّته، واتّبعه على منهاجه الراشدون من الأئمة، فإنّ خير الهدى هو هُدَى نبيّنا ﷺ، ومن ثم يتبيّن خطأ الصوفية الذين يؤثرون اللباس الخشن على اللباس الناعم إذا كان في مقدورهم من حلالهم، ويؤثرون الخشن من الطعام، وأن يتركوا اللحم وغيره، حذراً من عارض الحاجة إلى النساء، وتوفيراً للمال لإعطائه للفقراء والمساكين، فالأولى بالإنسان صلاح نفسه وأهل بيته، ولا شيء أضرّ للجسم من الطعام الرديء، لأنه مفسدة للنفس والعقل والتفكير، ومَضْعَفة لإرادته، بشرط أن يكون المال حلالاً، وأوجه الإنفاق ليست في الحرام، فإنْ فسد الدين في المجتمع، وفسد الحكام والرعية، وعَمّ الحرام، فالتبتّل أفضل، وتَرْك اللّذات أولى. وإذا وُجد الحلال فطريقة النبيّ ﷺ هي الأفضل، وهي الطريقة الشرعية، والعقلانية، والنبي ﷺ

لم ينْه عن التبتل والترهُّب لأنه كان لا يحب التبتُّل والترهُّب، وإنما لأنه كان يريد أن يتزاوج المسلمون، وأن يكثر نسلهم، فهو فى الآخرة مُكاثِر بعددهم، والكثرة فى العسكرية الحديثة قوة استراتيجية، والنبىّ ﷺ كان بالكثرة العددية يريد المدافعة من أجل إعلاء دين الله، ولرفع شعار لا إله إلا الله. وفى أحاديث آخر الزمان، تظهر الحاجة الشديدة للكثرة العددية للمسلمين، نظراً لتكاثر الأمم علينا مثلما الآن، فقد تحالفوا على المسلمين واجتمعت جيوش ثمان وستين دولة لمحاربتنا، ولدحرنا، وغزو بلادنا، وإبطال ديننا، وتحكيم الطغاة والمعتدين علينا، وحسبنا الله!

١٩٤- تجريد...

خلو قلب العبد وسرّه عمّا سوى الله، بمعنى أن يتجرّد بظاهره عن الأعراض، وبباطنه عن الأعواض، وهو ألاّ يأخذ من عرض الدنيا شيئاً، ولا يطلب عمّا ترك منها عوضاً من عاجل ولا آجل، بل يفعل ذلك لوجوب حق الله تعالى لا لعلة غيره، ولا لسبب سواه. ويتجرّد بسرّه عن ملاحظة المقامات التى يدخلها، والأحوال التى ينازلها، بمعنى السكون إليها والاعتناق لها.

١٩٥- تجلٍ...

رؤية أهل التجلّى لله تكون بقلوبهم، وهى رؤية ليست عيانية. وقيل التجلّى عبارة عن ظهور ذات الله وصفاته، وهذا هو التجلى الربّانى، وتجلّى الروح أيضاً.

وقيل التجلّى إشراق أنوار إقبال الحق على قلوب المقبلين عليه. وقيل التجلّى ما ينكشف للقلوب من أنوار الغيوب. وهو على ثلاثة أحوال: تجلّى الذات، وتجلّى صفات الذات، وتجلّى حكم الذات، والأول: هو المكاشفة أو كشوف القلب فى الدنيا، كقول عبد الله بن عمر: كنا نتراءى الله فى ذلك المكان، يعنى فى الطواف. وفى الحديث: اعبُد الله كأنك تراه. وأما كشوف العيان فتكون فى الآخرة. والثانى: هو موضع النور، وهو أن تتجلّى له قدرته عليه فلا يخاف غيره، وتتجلى له كفايته فلا يرجو سواه. والثالث: يكون فى الآخرة، فريق فى الجنة، وفريق فى السعير.

وأما علاقة التجلّى بالأسرار، فهو أن لا يظهر سر التجلّى فى عبارة تدل على الفهم، لأن من يعبر أو يفهم فذلك هو خاطر الاستدلال وليس نظراً للإجلال. وقيل إن الحق عندما يتجلّى للعبد فإن ذلك بالنسبة إلى الحق يسمى شأناً إلهياً،

وبالنسبة إلى العبد يسمى حالاً. ولا يخلو هذا التجلّى من أن يكون الحاكم عليه اسماً من أسماء الله تعالى أو وصفاً من أوصافه، فذلك الحاكم هو المتجلَّى. وإن لم يكن له وصف أو اسم مما بأيدينا من الأسماء والصفات الإلهية، فحال اسم ذلك الوليّ المتجلَّى عليه هو عين الاسم الذى تجلّى به الحق عليه، وذلك معنى قوله عليه الصلاة والسلام: أنه سيحمده يوم القيامة بمحامد لم يحمده بها من قبل. وقوله: «اللّهم إنى أسألك بكل اسم سمّيت به نفسك واستأثرت به فى علم عندك»، فالأسماء التى سمّاه بها هى نفسها أسماء أحوال المتجلَّى عليه. ومعنى قوله أسألك أدعوك، وهو القيام بما يجب عليه من آداب ذلك المتجلى، وهذا لا يعرفه إلا من ذاق هذا المشهد.

والتجلّى الأول: هو التجلّى الذاتى، أو تجلّى الذات لذاتها، وهى الحضرة الأحدية التى لا نعت فيها ولا رسم، إذ الذات هى الوجود الحق المحض، لأنه ما سوى الوجود من حيث هو وجود ليس إلا العدم المطلق. وهو لا يحتاج فى أحديته إلى تعين يمتاز به عن الأشياء إذ لا شىء غيره.

والتجلّى الثانى: هو الذى تظهر به أعيان الممكنات التى هى شئون الذات لذاته تعالى، لأنها معلوماته الذاتية القابلة للتجلّى الشهودى، وبهذا التجلّى يتنزل الحق من الحضرة الأحدية إلى الحضرة الواحدية بالنسب الأسمائية.

والتجلّى الشهودى: هو ظهور الوجود المسمى باسم النور، أى ظهور الحق بصور أسمائه فى الأكوان التى هى صورها، وذلك الظهور هو النفس الرحمانى الذى يوجد به الكل.

والتجلّى الصفاتى: ما يكون مبدؤه صفة من الصفات من حيث تعينها وامتيازها عن الذات.

وسرّ التجلّيات: هو شهود كل شىء فى كل شىء، وذلك بانكشاف التجلّى الأول للقلب فيشهد أحدية الجمع بين الأسماء كلها، لاتصاف كل اسم بجميع الأسماء، لاتحاد الأسماء بالذات الأحدية وامتيازها بالتعينات التى تظهر فى الأكوان التى هى صورها، فيشهد كل شىء فى كل شىء.

١٩٦ - تحقق...

التّحقُّق: وقوف القلب بدوام الانتصاب بين يدّى من آمن به.

١٩٧ - تحقيق...

صور الحقّ فى صور الأسماء الإلهية،

وقيل هو تكلّف العبد لاستدعاء الحقيقة جهده.

١٩٨ - تحلّ...

التحلّي: هو التلبُّس والتشبُّه بالصادقين بالأقوال وإظهار الأعمال، وهو مقبوح عند أهل التحقيق. وفي الحديث: **ليس الإيمان بالتحلّي ولا بالتمنّي، ولكن ما وقر في القلب وصدقه العمل**». أخرجه ابن النجار والديلمي.

١٩٩ - تحيُّر...

منازلة تتولى قلوب العارفين بين اليأس والطمع في الوصول إلى المطلوب والمقصد، ولا تُطمعهم في الوصول فيرتجوا، ولا تؤسّيهم عن الطلب فيستريحوا، فعند ذلك يتحيّرون. وسئل بعضهم عن المعرفة فقال: **هي التحيّر، ثم الانصال، ثم الافتقار، ثم الحيرة.**

٢٠٠ - تختُّم...

التختُّم علامة الحق على القلب من العارفين.

٢٠١ - تخلّ...

التخلّي: اختيار الخلوة، والإعراض عن كل ما يشغل عن الحق.

وقيل التخلّي هو العزلة، لأن السالك لم يقو على نفسه وضعفه، فاعتزل من نفسه إلى ربّه.

٢٠٢ - تدانٍ...

عند الصوفية التداني في الآية: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ * فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾ (النجم ٩) هو القُرب، وهو معراج المقرّبين، ومعراجهم الغائي بالأصالة، أي بدون الوراثة، ينتهي إلى حضرة «قاب قوسين»، وبحكم الوراثة المحمدية ينتهي إلى حضرة «أو أدنى» وهذه الحضرة هي مبدأ رقيقة التداني. والدنوّ يكون بما يودع في العبد من لطائف المعرفة وزوائدها. والدنوّ: دنو كرامة لا دنو مسافة.

٢٠٣ - تدبير...

هو النظر في العواقب لمعرفة الخير، أو لإجراء الأمور على علم العواقب، وهو لله تعالى حقيقة، وللعبد مجاز.

٢٠٤ - ترقّ...

الترقّي: هو انتقال السالك صُعداً في سلم الأحوال والمقامات، وأول مقامات النفس هو مقام النفس الأمّارة، فإذا تحقق الارتقاء فهو مقام النفس اللّوامة، ثم مقام النفس الملهَمة، فالنفس المطمئنة، فالنفس الراضية، فالمرضية، وأخيراً مقام النفس الكلية، وهو غاية الوصول ومقام

الصدّيقين والأولياء والصالحين، ودرجتهم درجة المقرّبين.

٢٠٥- تروُّح...

الـرَّوْح: نسيم تتنسم به قلوب أهل الحقائق، فتتروّح من تعب وثُقل ما حملت من الرعاية بحُسن العناية. يقول يحيى بن معاذ: الحكمة من جنود الله، يرسلها إلى قلوب العارفين حتى تروِّح عنها وهج الدنيا.

وفي الآية: ﴿فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ﴾ (الواقعة٨٩)، الرَّوْح الاستراحة، أو أن الرَّوْح يكون في القبر، وكانت قراءة النبيّ ﷺ «رُوح» بالضم، أي أن للمقربين الحياة الدائمة؛ أو أن الرَّوْح هي رؤية الله.

٢٠٦- تساكر...

التساكُر: من السُّكر؛ وهو ما يمتزج من اكتساب العبد بالاستدعاء للوجد والسُّكْر، وتكلُّفه للتشبُّه بالصادقين من أهل الوجد والسُّكر. - يعني هو ادعاء السُّكر.

٢٠٧- تسبيح...

تنزيه الحقّ عن نقائص الإمكان وإمارات الحدوث، وعن عيوب الذات والصفات.- يعني هو التعظيم لله. والكون كله دأبُه التسبيح لله، والسموات والأرض تُسبّح بحمده، وإن من شئ إلا يسبّح بحمده، فَلِمَ لا يسبِّح له الصوفية وهم أهل الله؟ وعلامة الصوفي: التسبيح بُكرةً وأصيلا، وبالغدوّ والآصال، وبالعشى والإشراق، لا يفتر بالليل والنهار؛ وكان النبيّ ﷺ - وهو شيخ الصوفية، يسبّح بحمد ربّه، قبل طلوع الشمس وقبل غروبها، ومن آناء الليل وأطراف النهار، ويسبّح باسم ربّه العظيم، وباسم ربّه الأعلى، وكان كثيرًا ما يقول: سبحان الله، وسبحان ربّي، وسبحانه وتعالى عمّا يصفون. والمسبّحون اسمٌ يستحقه أهل الله بعد الملائكة: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ﴾ (الصافات ١٦٦)، وكان ذو النون من المسبّحين: ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ (١٤٣) لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ (الصافات ١٤٣)، وقوله في بطنه يقصد في بطن الحوت، فلما سبّح ذو النون (يونس) تسبيحته المشهورة، أنجاه الله؛ وكانت سُبحته دعاء؛ وقول الصوفي: سبحان الله: هو تنزيه لله وتمجيد له؛ فيقصد بها إجلاله تعالى، أو أنه يقصد بها إبراءه تعالى من السوء؛ والسيَّاحة في لغة الصوفية: هي الإصبع السبّابة المُسبِّحة لله؛ والصوفي تلازمه مسبَحتُه وهي الخرزات التي يسبّح بها؛ ومن تسبيحه أن يقول:

سُبُّوحٌ (وسَبُّوحٌ أيضًا) يقصد الله تعالى، لأن التسبيح له من صفاته.

والتسبيح والتحميد والتهليل قد يُسمَّى دعاء، وكان الرسول ﷺ يسبح عند الكرب داعياً: لا إله إلا الله العظيم الحليم. لا إله إلا الله ربّ العرش العظيم. لا إله إلا الله ربّ السموات وربّ الأرض وربّ العرش الكريم. وكان السلف يسمون هذا التسبيح دعاء الكرب. وكان تسبيح ذي النون أو دعاؤه في بطن الحوت: لا إله إلا أنت سبحانك، إني كنت من الظالمين، وكان رسول الله ﷺ يقول: فإنه لن يدعو بها (أي بهذه الدعوة) مسلم في شيء إلا استجيب له. والصلاة عند الصوفي تُسمَّى تسبيحًا؛ لما فيها من تسبيح لله، ومن ذلك سُبحه الضحى - أي صلاة الضحى. وكان النبيّ ﷺ شيخ المسبحين، وكان يسبّح دُبُر كلّ صلاة، يقول: لا إله إلا الله وحده لا شريك له. له المُلك وله الحمد، وهو على كلّ شيء قدير. اللهم لا مانع لما أعطيت، ولا مُعطي لما منعت، ولا ينفع ذا الجَدّ منك الجَدّ. (انظر أيضا سُبحة).

٢٠٨- تسليم...

الانقياد لأمر الله تعالى، وترك الاعتراض فيما لا يلائم. وقيل: هو الثبات عند نزول البلاء من غير تغيّر في الظاهر والباطن.

٢٠٩- تشبيه...

التشبيه الإلهي عبارة عن صورة الجمال، لأن الجمال الإلهي له معان، وهي الأسماء والأوصاف الإلهية، وله صور، وهي تجلّيات تلك المعاني فيما يقع عليه من المحسوس أو المعقول، فالمحسوس كما في قوله: رأيت ربّي في صورة شاب أمرد. والمعقول كقوله: أنا عند ظن عبدي بي فليظن بي ما يشاء. وهذه الصورة هي المرادة بالتشبيه. ولا شك أن الله تعالى في ظهوره بصورة جماله باق على ما استحقه من تنزيهه.

وللحق تشبيهان: «تشبيه ذاتي»، وهو ما عليه من صور الموجودات المحسوسات، أو ما يشبه المحسوسات في الخيال، و«تشبيه وصفي»، وهو ما عليه من صور المعاني الأسمائية المنزهة عما يشبه المحسوس في الخيال. هكذا يقول الصوفية.

٢١٠- تصلية...

في الآية: ﴿ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴾ (الواقعة ٩٤)، يعني الإدخال في الجحيم، وإنما ذلك للمكذّبين الضالين، وأما أصحاب اليمين فتصلية نعيم؛ والتصلية في حق

الذاكرين وجود الرحمة لأهل الظواهر والبواطن، وللأولياء والأنبياء وأهل الحضرة.

٢١١- تصوف...

هو التخلق بالأخلاق الإلهية، وبالوقوف مع الآداب الشرعية، ظاهراً: فيرى حكمها من الظاهر فى الباطن، وباطناً: فيرى حكمها من الباطن فى الظاهر، فيحصل للتأدّب بالحُكمين كمال.

والتصوف مذهب كله جدّ، يقوم على عشرة أركان: أولها تجريد التوحيد، ثم فهم السماع، وحُسن العشرة، وإيثار الإيثار، وترك الاختيار، وسرعة الوجد، والكشف عن الخواطر، وكثرة الأسفار، وترك الاكتساب، وتحريم الادخار.

ومعنى تجريد التوحيد أن لايشوبه خاطر تشبيه أو تعطيل. وفهم السماع أن يسمع بحاله لا بالعلم فقط. وحُسن العشرة أن يترك العلوّ والترفُّع، ويتواضع للصغير والكبير، ويبذل الجاه، ويشفق على الخلق. وإيثار الإيثار أن يؤثر على نفسه غيره بالإيثار، ليكون فضل الإيثار لغيره. وترك الاختيار أن يختار الله للعبد، أو أن يختار العبد الحق على اختياره. وسرعة الوجد أن لايكون فارغ السرّ مما يثير الوجد، ولا ممتلىء السرّ مما يمنع من سماع زواجر الحق. والكشف عن الخواطر أن يبحث عن كل ما يخطر على سرّه فيتابع ما للحق ويدع ما ليس له. وكثرة الأسفار لشهود الاعتبار فى الآفاق والأفكار. وترك الاكتساب لمطالبة النفوس بالتوكل. وتحريم الادخار لرفع الأسباب والانخلاع عن الحول والقوة.

وسألوا معروفاً الكرخى: ما التصوّف؟ قال: التمسُّك بالحقائق، والتكلُّم بالدقائق، والاستغناء عن كل ما فى يد الخلائق.

وقال الجنيد: التصوف ذكرٌ بالاجتماع، ووجدٌ بالاستماع، وعملٌ بالاتباع ونعتٌ فيه مقام العبد، قالوا: نعت الحق أو نعت الخلق؟ قال: حقيقته نعت الحق، ورسمه نعت الخلق. والتصوف: هو أن يميتك الله من نفسك ويحييك بنفسك، وأن تكون مع الله بغير واسطة، وهو ذِكر، ثم وَجْد، ثم لا هذا ولا ذاك كى لا يبقى كما لم يكن. والتصوف: هو تصفية القلب من مراجعة الخلقة، والمفارقة من أخلاق الطبيعة، وإماتة الصفات البشرية، والابتعاد عن الدواعى النفسانية، والنزول على الصفات الروحانية، والسمو إلى العلوم الحقيقية، واستعمال ما كان هو الأولى إلى الأبد، ونصيحة الأمة كلها،

والوفاء فى العمل بالحقيقة، ومتابعة النبىّ ﷺ فى الشريعة.

وسألوا رويماً عن ذات التصوف، فقال: عليك أن تكون بعيداً عن هذا الكلام. خذ بظاهر التصوف ولا تسأل عن ذاته. وقال: التصوف مبنى على ثلاث خصال: التعلّق بالفقر والافتقار، والتحقق بالبذل والإيثار، وترك الاعتراض والاختيار. وهو الوقوف على الأفعال الحسنة.

وقال عمرو بن عثمان المكى: التصوف هو أن يكون العبد مشغولاً دائماً بشىء يكون هو الأولى فى ذلك الوقت.

وقال أبو سعيد الخرّاز: التصوف تمكينٌ من الوقت. والتصوف هو أن تكون صافياً من ربّك ومليئاً بالأنوار، وتكون فى عين اللذة من الذكر.

وقال سهل التُستُرى: التصوف فى الأكل القليل، والاطمئنان مع الله، والفرار من الخلق.

وقال أبو الحسن النورى: ليس التصوف برسوم ولا بعلوم، لكنه أخلاق قوم تخلّقوا بأخلاق الله، والظهور بخُلق الله لا يتأتى بالرسوم ولا بالعلوم. وقال: التصوف حرية، ومروءة، وبساطة، وسَخاء. وقال: التصوف هو ترك كل حظوظ النفس، للحصول على النصيب الحق. وقال: التصوف هو عداوة الدنيا ومحبة المولى.

وقال سمنون المحب: التصوف هو أن يكون كل شىء ملكاً لك، ولا تكون أنت ملكاً لأى شىء. وأصل التصوف: المحبة، وهى قاعدة الطريق إلى الله. وكل الأحوال والمقامات بالنسبة للمحبة لهو.

وقال أبو الحسن البوشنجى: التصوف تقصير الأمل، والدوام على العمل.

وقال أبو بكر الكتانى المعروف بسراج الحرم: التصوف هو الصفوة والمشاهدة.

وقال أبو عبد الله محمد الخفيف: التصوف هو الصبر تحت مجارى الأقدار، والتعلّم على يد الملك الجبّار، وقطع البوادى والقفار.

وفرّق أبو حفص عمر بن محمد السهروردى بين الزهد والفقر والتصوف، قال: التصوف غير الفقر، والزهد غير الفقر كذلك، كما أن التصوف غير الزهد أيضاً، ولكن التصوف اسم جامع لمعانى الفقر والزهد مع أوصاف وإضافات أخرى لا يُعدّ الشخص بغيرها صوفياً ولو كان فقيراً زاهداً.

والتصوف نظرى أو إشراقى، وعملى؛

والنظرى غايته معرفة الله بالأذواق، واكتناه أسرار الربوبية بالمواجيد، والفناء فيه، والاتحاد به فى وحدة بين الخلق والخالق. والتصوف العملى: قوامه الرياضات والمجاهدات، بالذكر والزهد والعبادة. والنظرى وليد العملى، لأن النظرية وليدة الممارسة. والعملى تطبيق للنظرى، لأن من ينظر لابد أن يختبر نظرياته ليتأكد انها قابلة للممارسة والتطبيق.

ويؤرخ المستشرق ماسينيون للتصوّف بالقرن الثانى الهجرى، بظهور مصطلح الصوفى منسوباً إلى جابر بن حيّان، وأبى هاشم الكوفى، كما يؤرخ للتصوف الفلسفى بالقرن الرابع الهجرى، ويصنّف فلاسفة المتصوفة ثلاثة أصناف: الاتحادية: كابن مسرّة، وابن قسىّ؛ والإشراقية: كالسهروردى الحلبى، والجلدكى، والدارانى، وصدر الدين الشيرازى؛ والوصولية: كابن سينا، وابن سبعين، وابن طفيل.

والمصنّفات عن التصوف كثيرة أوردناها مع الأعلام، غير أن هناك من غير الأعلام مؤلفات كثيرة بالمئات، نذكر منها كتاب «كشف القناع عن اعتقاد طوائف الابتداع» للمولى عبد الحفيظ، المتوفى سنة ١٣٥٦هـ (١٩٣٧م)، وفيه يرد على المتصوفة؛ وكتاب «منهاج السالكين وعمدة البصراء الساترين» للمَنْبجى شمس الدين، المتوفى سنة ٧٨٥هـ (١٣٨٣م)، ويشرح أصول التصوف والسير فى الطريق، وكتاب «الكواكب السيارة فى ترتيب الزيارة» لابن الزيات الأنصارى، المتوفى سنة ٨١٤هـ (١٤١٢م) ويُعرَف بكتاب السيارة، وكانت وفاة ابن الزيّات فى خانقاة سرياقوس بمصر؛ وكتاب «هداية السالك إلى أهدى المسالك» للمزجاجى أبى القاسم من أهل زبيد باليمن، نسبةً إلى قبائل مزجاج، وتوفى سنة ٨٢٩هـ (١٤٢٦م)؛ ولسبط المرصفى زيد العابدين المصرى، المتوفى سنة ٩٦٦هـ (١٥٥٩م) كُتُب كثيرة، منها «الزجاجة البلورية» وهى شرح لقصيدة ابن الفارض الخمرية، و«الجلوة فى بيان أقسام الكشف والعزلة والخلوة»، و«تقديس الفؤاد عن اعتقاد الحلول والاتحاد» ضد فلسفة ابن عربى فى التصوف؛ وكتاب «شرح البردة» للبخشى، الخلوتى الحلبى، المتوفى سنة ١٠٩٨هـ (١٦٨٧م)؛ وكتاب «حقيقة كلمة التوحيد عند الكلاميين والصوفية» للخادمى أبى سعيد البخارى، المتوفى سنة ١١٧٦هـ (١٧٦٣م)؛ وكتاب «محبوب القلوب»، وكتاب «كشف الغطاء ورفع الحجاب» لابن حموية سعد الدين الحموى، المتوفى سنة

٦٥٨هـ (١٢٦٠م)؛ وكتاب «نُزُل السائرين إلى الله ربّ العالمين» للدركزينى، المتوفى سنة ٧٤٣هـ (١٣٤٢م)؛ وكتاب «الكشاف» للزمخشرى فى تفسير القرآن، وهو شديد الإنكار على المتصوفة، ووفاة الزمخشرى سنة ٥٨٣هـ (١١٤٤م)؛ وكتاب «شطحات الصوفية» للبرهانبورى الهندى، وكان من القائلين بوحدة الوجود، المتوفى سنة ١٠٢٩هـ (١٦٢٠م)؛ وكتاب «الزهد والرقائق» للبُرجالانى أبى جعفر، المتوفى فى ٢٣٨هـ ٨٥٢م)؛ وكتاب «فوائد فى التصوف» لابن المسناوى أبى عبد الله المغربى، المتوفى فى ١١٣٦هـ (١٧٢٤م)؛ وكتاب «رسالة تصوّفية» لابن علوان صفى الدين اليمانى، المتوفى سنة ٦٦٥هـ (١٢٦٧م)؛ وكتاب «الردّ على الصوفية» للأصبهانى اليمانى المتوفى بعد سنة ١١١٨هـ (بعد ١٧٠٦م)؛ وكتاب «نظم منية المريد» للشنقيطى التجانى، المتوفى بعد ١٢٦٠ق (بعد ١٨٤٤م)؛ وكتاب «رسائل فى التصوف» للدسوقى أبى إسحق الدمشقى، المتوفى سنة ٩١٩هـ (١٥١٣م)، وكان شديد الإنكار على صوفية عصره؛ وكتاب «التصرُّف فى التصوف» للقونوى، المتوفى سنة ٧٢٩هـ (١٣٢٩م)؛ وكتاب «نشر المحاسن الغالية فى فضل مشايخ الصوفية أصحاب المقامات العالية» لليافعى اليمنى، وله كذلك «روض الرياحين فى مناقب الصالحين»، وتوفى سنة ٧٦٨هـ (١٣٦٧م).

٢١٢- تصوّف جوعى...

برز تصوف الشام فى مجال جديد هو الجوع، ويقابل لُبْس الصوف فى التصوف الذى ساد الكوفة، والبكاء الذى اتّسم به متصوّفو البصرة، وسّمى الناس صوفية الشام باسم الجوعيين، ولم يكونوا يجوعون عن عوز، أو لأن بلادهم فقيرة، ولكنهم كانوا يجيعون أنفسهم مخافة الأشر، وكان رائد الجوعيين: قاسم ابن عثمان الجَوْعى، المتوفى سنة ٢٠٠هـ/ ٨١٥م. (انظر أيضاً «الجوعيون»، وقاسم بن عثمان الجوعى، الصوفى الجوعى).

٢١٣- تصوّف سنّى...

التصوّف منه السُّنّى الذى يأخذ بالسُّنّة، ومنه الشيعى الذى قوامه التعاليم الشيعية؛ والنقشبندية من الطُّرق السُّنية - أى التى تصوّفها سنّى، وتتّبع السُّنة، بينما البكتاشية من الطرق الشيعية، التى تصوّفها شيعى؛ وهناك غير هذين من يجعل من طريقته الصوفية طريقةً مستقلة بذاتها، ومن ذلك قول حافظ الشيرازى: لا تلم الاثنتين والسبعين فرقة على منازعاتها، لأنها

لا ترى الحقيقة، وإنما تطرُق باب الخرافة. وعنده أن الفرقة الناجية هى الفرقة الصوفية التى هو منها. وأما التصوّف السنّى فقد بيّنه القشيرى فى رسالته المشهورة إلى المتصوّفة سنة ٤٣٠هـ/ ١٠٣٨م، قال: اعلموا رحمكم الله، أن شيوخ هذه الطائفة بنوا قواعد أمرهم على أصول صحيحة فى التوحيد، صانوا بها عقائدهم عن البدع، ودانوا بما وجدوا عليه السلف وأهل السنّة من توحيد ليس فيه تمثيل ولا تعطيل. - ومن أئمة التصوف السنّى: الجُنيد المتوفى سنة ٢٩٨هـ/ ٩١٠م، وكان فقيهًا على مذهب أبى ثور، وقال الجنيد فى التصوف السنّى: مذهبنا هذا مُقيّد بأصول الكتاب والسنّة. - وكان الصوفى الكبير الشيخ عبد القادر الجيلى من الحنابلة، أى من أهل السنّة؛ وقال سهل التسترى فى تفسير قوله تعالى: ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ ﴾ (النساء ١٧١): أى لا تجاوزوا دينكم بالبدع وتعلوا عن الحقّ - وهو الكتاب والسنّة والإجماع - محيلاً إلى هوى أنفسكم، وقال النصراباذى: أصل التصوف ملازمة الكتاب والسنة، وترك الأهواء والبدع، وتعظيم حرمان المشايخ، ورؤية أعذار الخلق، والمداومة على الأوراد، وترك ارتكاب الرُّخص والتأويلات. وقال أبو بكر الطمستانى: الطريق واضح، والكتاب والسُّنة قائمان بين أظهرنا، وفَضْل الصحابة معلوم، لسبقهم إلى الهجرة، ولصُحبتهم، فمن صحب الكتاب والسُّنة، وتغرّب عن نفسه والخَلْق، وهاجر بقلبه إلى الله، فهو الصادق المصيب. وجمع أبو عبد الرحمن السُّلَمى من أسماء مشايخ الصوفية نحوًا من ألف اسم، وجمع إشاراتهم وأحاديثهم، ولم يوجد فى جملتهم قطّ من يُنسب إلى الشئ من بِدَع القدرية والروافض والخوارج والشيعة.

٢١٤ - تصوّف سياسى أرستوقراطى وعسكرى وثورى...

هو نمط التصوف الذى أساسه فلسفة مدنية وسياسية، تتطلّع إلى تكوين مجتمعات جديدة، وأنظمة لها طابع خاص، وتقوم عليها طُرز من الحياة متميزة. **والبوتوبيا الصوفية**: حقيقةٌ تهدف إلى منافسة أصحاب المذاهب الفقهية والعقلية فى الزعامة الروحية، وتدخل فى صراعات مع أصحاب الأرستوقراطيات والمتغلّبين والطغاة والمستبدين، والطامعين فى الحُكم والزعامة المادية. وكان صفىّ الدين مؤسّس الدولة الصفوية، صوفياً أطلقوا عليه اسم «الأمير الصوفى»، وكانت ولايته بداية لما عُرف باسم: «التصوّف الأرستوقراطى»، ولتصوّف صفىّ الدين سمّوه لما اعتلى المُلك: المَلك الأخروى - بادشاه أخروى. ولم يكنّ كل الصوفية من أتباع المذاهب والطرق

الصوفية، فبعضهم لم يتبع إلانفسه، ولم يكن له من اللباس ما يجعل الناس يدرجونه ضمن الصوفية، وهؤلاء كانوا بالأحرى ثواراً ومتمردّين وخارجين على الحكومات أو المذاهب الفقهية، واسّسوا ما سُمّي باسم التصّوف العسكرى، والمثال على ذلك الجيش الجديد أو الينكى جرى الذى كوّنه الحاج بكتاش الوليّ؛ وأيضاً الطريقة السنوسية، والمهدية السودانية، وكان طابعهما عسكرياً. وهذا النمط من التصوف هو من نوع التصوف الثورى عموماً، ولكن القائمين عليه لكى يؤكدوا توجّهاتهم الدينية أطلقوا على أنفسهم اسم «الصوفية»، وكمثال لذلك: جابر بن حيّان الصوفى، وأبو هاشم الكوفى الصوفى؛ واشتهر من الخوارج: محمد ابن القاسم الخارج سنة ٢١٩هـ (٨٣٤م)، وأبو بكر ابن محمد الخراسانى، وكانوا يُلقَّبون بالصوفية. وكذلك لُقّب الحسن بن عُتبة، وأبو الحسن علىّ بن محمد بن علىّ العُمَرى، وأحمد بن يحيى بن حكيم، وغيرهم كثيرون، لا عن اعتقاد منهم أو ممارسة للتصّوف، وإنما كتعبير للمبالغة فى الزهد؛ وما نزال حتى اليوم كلما زهد منا أحد قالوا تصوّف. والبعض أطلقوا عليهم «صوفية» لأنهم فعلاً كذلك، رغم أنهم كانوا يشتغلون بالسياسة، وكانت تلاحقهم الحكومات وينشدون قلب نُظُم الحكم، وإقامة ما يسمّونه «الحكومة الإسلامية العادلة»، مثل أبى حمزة الخراسانى المتوفى سنة ٢٩٠هـ، وكان من أصحاب أبى سعيد الخرّاز، وأبى تراب النخشبى؛ وكذلك محمد بن الحسن ـ الذى روى الهجويرى: أن الحلاّج نزل ببيته فى الكوفة؛ ومحمد بن عبد الله الحسينى ـ وكان راوية جعفر الخُلدى؛ وزيد بن رفاعة الهاشمى أحد جماعة إخوان الصفا، وكان من أصحاب الشّبلى وأخذ عنه؛ ومحمد ابن أبى إسماعيل وقد اضطر إلى الهجرة إلى الشام هرباً من السلطة، وفى الشام صار من كبار الصوفية.

وربما كانت مقاطعة الصوفية لهؤلاء لأنهم ثوار وخوارج، والتصوف غالباً فيه ضعف واستكانة وإعراض عن الدنيا والسلطة والحكم والمادة، وكلها عصب السياسية والعسكرية والتمرد والثورة، والتصوّف السياسى والعسكرى والثورى إيجابى، إما بالسيف كجهاد إبراهيم ابن أدهم الذى قُتل فى غزوة، وإما بالدعوة كتصوّف عبد الحليم محمود، والتفتازانى، ومصطفى محمود وغيرهم.

وبالطبع كان هناك أدعياء تصوّف، وما كانوا من المتصوفة فى شىء، وإنما تصوّفهم تقيّة، مثل: أبو عبد الله الشيعى الذى وطّد للفاطميين بناءهم، وأسّس دولتهم، وكان يتظاهر بالزهد الشديد

لدرجة أنّ عدّه الفاطميون من الصوفية. ولا شك عندنا أن الحلاّج كان تصوّفه سياسياً، فقد كان داعياً إسماعيلياً أو قرمطياً، وأكثر من ذلك أن الإسماعيلية أطلقوا على أنفسهم اسم «الصوفية» فى فاتحة رسائلهم، وسمّوا جماعتهم الثقافية باسم صوفى، هو: «إخوان الصفا وخلاّن الوفا»، وجعلوها جماعة سرّية، وأخفوا أسماء أعضائها. والأعجب أن الحاكم بأمر الله الفاطمى، المقتول سنة ٤١١هـ (١٠٢٠م)، كان يظهر بمظهر صوفى، ويلبس الصوف كالصوفية، وادّعى الإلهية، مثله مثل الحلاّج. وكان أبو ركوة الذى قوّض الدولة الفاطمية يعتبر نفسه من الصوفية، وكان يجمع الناس حوله بناءً على زهده وتصوفه اللذين يتمثّلان فى ركوته التى كان يحملها معه دوماً، وهى من التقاليد الصوفية. ومن الأمثلة الواضحة كالشمس فى الظهيرة، حالة أبى عبدالله الشيعى الذى وطّد للفاطميين بناءهم، وأسّس دولتهم، فقد كان يتظاهر بالزهد الشديد، فعدّه الفاطميون من الصوفية. وكان الحلاّج داعيًا إسماعيليًا، وربما قرمطيًا، وأياً كان فالمؤكد أنه كان شيعيًا، واستخدم طائفته الصوفية وتأثيره الروحى فى الناس، ليدعوهم لنصرة الفاطميين أو القرامطة، وهؤلاء كانوا فرعين للإسماعيلية. وما كان نفور الناس المعاصرين للحلاّج من دعوته، إلا لأنهم اكتشفوا أنه داعية سياسى أكثر منه شيخ صوفى. ولمثل هذه الأغراض السياسية أطلق الإسماعيلية على أنفسهم اسم «الصوفية»، فى فواتح رسائلهم المشهورة باسم «رسائل إخوان الصفا». وليست تسمية جماعتهم باسم إخوان الصفا، إلا لأن هذه الجماعة جعلت المجاهدة الصوفية هى سبيلهم للترقّى من مقام إلى مقام، للوصول إلى مقام «الحُجّة»، وهو عندهم أرقى المقامات التى يمكن أن يبلغها المريد الصوفى الإسماعيلى من المعرفة والتصفية معًا. فلم يكن غريبًا لذلك أن يظهر الحاكم بأمر الله الفاطمى (٤١١هـ/ ١٠٢٠م) بمظهر صوفى كامل، ليس بلبس الصوف وحده، وإنما بادّعاء الألوهية، فكأنه كان إرهاصاً بظهور الحلاّج بعده بقرن من الزمان. والحاكم بأمر الله أعاد صورة أبى يزيد الخارجى الذى كاد يقوّض الدولة الفاطمية فى صورة أبى ركوة الصوفى كما ذكرنا من قبل. وكان ظهور الفتوة مظهرًا من مظاهر التصوف السياسى، وكانت كل ألبسة الفتوة لها معان دينية صوفية. وحال هؤلاء الثوار الصوفية أو مدّعى التصوف يوجزه البيت:

وكان بالحرب يلقى من ينافره
فصار يلقى الأعادى بالمحاريب

٢١٥- تصوف شيعي...

نوع التصّوف السياسى والأرستوقراطى والعسكرى، والشورى عموماً الذى ادّعاه بعض زهّاد الشيعة، ومنه تصّوف زيد ابن علىّ، والثوار الزيديين من بعده، الذين لَبِسوا الصوف، مثل محمد بن جعفر الصادق، وقيل: «وكان الصادق يصلّى بمائتين من أصحابه ومريديه وكلهم يلبس الصوف»، ويحيىّ بن عبد الله الذى خرج أيام الرشيد، وإبراهيم بن محمد بن يحيّى، الثائر بمصر سنة ٢٥٦هـ (٨٧٠م)، وأبى محمد القاسم بن حمزة، وجميع هؤلاء كانوا من الشيعة، وكانوا يُلَقَّبون بالصوفى، ولم يكن يُذكر أىٌّ منهم إلا ويُقرن اسمه بالصوفى، فيقال: إبراهيم بن محمد ابن يحيّى الصوفى، وأبو محمد القاسم بن حمزة الصوفى، وقيل: إن عبد الله بن معاوية وهو شيعى معدود من الغلاة، قد لبس الصوف كذلك وتصوّف؛ وكل ذلك نوع جديد من التصوف يراد به كسب الأتباع، والاشتهار بالزهد والتقوى، حتى لا يكون الداعى محل طعن فى دينه، ولتكون له شعبية، فإذا تم له قَلْب نظام الحكم لصالحه، ضَمِنَ مناصرة العامة له. ومع ذلك فقد كان من بين هؤلاء المتصوفة المدّعين من الشيعة، صوفية حقيقيون، مثل: أبى الحسن العلوى ـ تلميذ الخوّاص؛ وأبى حمزة الخراسانى ـ صاحب أبى سعيد الخرّاز؛ وأبى تُراب النخشبى، وبهاء الدين العاملى، وحيدر بن علىّ الآملى، ومحمد تقىّ المجلسى، وغيرهم، كما أسلفنا عن ذلك فى التصوّف السياسى، والتصوّف الأرستوقراطى، والتصوّف العسكرى.

٢١٦- تعبّد...

التعبُّد إتيان ما فرض الله من واجبات، وشرط الواجب الإتيان به على غير مطالبة عوض وإن شهدته فضلاً، بل يستوفيك عن رؤية الفضل.

٢١٧- تعرّف...

«التعرف لمذهب أهل التصوف» هو كتاب للإمام العارف تاج الإسلام: أبى بكر محمد بن إسحق الكلاباذى، المتوفى سنة ٣٨٠ هـ/ ٩٩٠م؛ والكتاب قليل الصفحات ولكنه موسوعة فى التصوّف، قيل فيه: لولا التعرّف لَما عُرِف التصوّف. وأطلق عليه الكلاباذى هذا الاسم إخباراً عمّا فيه، ببيان نحلة المتصوّفة وسيرتهم، واعتقاداتهم ولغتهم.

٢١٨- تعوّذ...

التعوّذ هو اللجوء؛ ويلجأ الصوفى إلى التعوذ عند النزغات الشيطانية فى الخواطر الجسمانية أو الروحانية، أو من الخواطر عموماً فيما سوى الله.

٢١٩- تفريد...

يقال تفرّد بالأمر عمله وحده وخلا به،

والتفريد أن يتفرّد عن الأشكال، وينفرد في الأحوال، ويتوجد في الأفعال، بمعنى أن تكون أفعاله لله وحده، فلايكون فيها رؤية نفس، ولا مراعاة خَلْق، ولامطالعة عِوَض. وينفرد في الأحوال عن الأحوال، فلا يرى لنفسه حالاً، بل يغيب برؤية تحولاتها عنه، ويتفرّد عن الأشكال، فلا يأنس بها، ولايستوحش منها. وقال بعضهم: الموحدون لله من المؤمنين كثير، والمفردون من الموحدين قليل.

٢٢٠- تفرقة...

التفرقة فَصْلٌ، ويقابلها الجمع؛ والتفرقة توزُّع الخاطر للاشتغال من عالم الغيب. والتفرقة التي هي عقيب الجمع: هي أن يفرق بين العبد وحظوظه فلا تكون حركاته لها.

٢٢١- تفسير...

التفسير الصوفي كمثل تفسير عبد الله ابن عباس للآية: ﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا﴾ (الرعد ١٧)، قال: الماء هو العلم، والأودية القلوب، فصفاء القلوب من وصول ذلك الماء إليها. وقال بعض الصوفية: الماء هو النور، غمر القلوب فأضاءت. وقالوا: أنزل من السماء ماء هو الكرامات، فسالت أودية علماء التفسير والحديث بقدرها، وسالت قلوب الصوفية من العلماء الزاهدين في الدنيا، المتمسكين بحقائق التقوى بقدرها.

ومن أشهر التفاسير الصوفية للقرآن تفسير التُّسْتُرِي، وتفسير السُّلَمي، و«تفسير القرآن العظيم» للشيخ الأكبر العارف بالله العلاّمة محيي الدين بن عربي، وهو كتاب سيء للغاية، «ولطائف الإشارات» للإمام القشيري.

والتفسير يقابله التأويل. والتفسير كشف معنى اللفظ وإظهاره، والإبانة عن المقصود منه ومن استخدامه، وكشف المُغَطَّى من المفاهيم. وكان توجّه الصوفية في التفسير على المنقول مما ورد عن الرسول والصدر الأول، وخاصةً في الأمور التوقيفية التي ليس للعقل فيها مجال كبير، كأسباب النزول، والناسخ والمنسوخ. وفي الآية: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ (آل عمران ٧) فإن التفسير يتعلق بالآيات المحكمات، لتفصيل مجملها، وشرح غامضها؛ والتأويل ينصب على المتشابهات، لبيان دلالاتها الصحيحة، وردّ أحد الاحتمالات إلى ما يطابق الظاهر.

ويكون التأويل للراسخين فى العلم الباطن. وأما أصحاب العلم الظاهرى فليس لهم أن يأوّلوا، وإنما مجالهم التفسير فقط.

٢٢٢ - تفكر...

التفكرُ: هو سراج القلب يرى به خبره وسرّه، ومنافعه ومضاره. وكل قلب لا تفكُّر فيه فهو فى ظلمات يتخبّط.

وقيل التفكُّر: هو إحضار ما فى القلب من معرفة الأشياء. وقيل هو تصفية القلب.

والعبد يتفكّر فى نفسه، وفى كتاب الله تعالى، وفى صفاته وأفعاله تعالى. والتفكّر فى ذات الله لا سبيل إليه إلا بمجرد الذكر، وبقدر ما تتفكّر فى مُلْكه وملكوته وصفاته تزداد حباً لانكشاف جماله، وذلك بتدبُّرنا فى معانى أسمائه وصفاته. ومجال التفكّر: السماوات والأرض والكواكب وكل شىء سوى الله تعالى، فإن ذلك كله هو خلْقُه وصُنْعُه. قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ﴾ (فصلت٥٣)، وقال: ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ (الذاريات ٢١).

٢٢٣ - تفويض...

التفويض والتسليم واحد وبينهما فرق يسير، وهو أن المسلّم قد لا يكون راضياً بما يصدر إليه ممن سلّم إليه أمره. وهما، أى التسليم والتفويض، قريبان من الوكالة، والفرق بين الوكالة وبينهما، أن الوكالة فيها رائحة من دعوى الملكية للمُوكِل فيما وَكلَ فيه الوكيل، بخلاف التسليم والتفويض فإنهما خارجان عن ذلك، فتفويض المحسنين ومَن دونهم للحق فى جميع أمورهم: هو إرجاع الأمور التى جعلها الله لهم إلى الحق، فهم بريئون من دعوى الملكية لما صرفوه إلى الحق تعالى من جميع أمورهم.

وتفويض الشهداء: سكونهم إلى الحق تعالى فيما يقلّبهم فيه، فهم ملاحظون لأفعال الله تعالى، مفوّضون إليه زمام الأمر.

وتفويض الصدّيقين: ملاحظة الجمال الإلهى حيث تنوعات التجليات، فهم غير مقيدين بتجلٍّ دون غيره، وهم مفوضون أمر تجلياته إلى ظهوره، ففى أيهما ظهر شاهدوه على حسب المقام والاسم والصفة والإطلاق والتقييد.

وتفويض المقرّبين: عدم الجزع على ما اطلعوا عليه بما جرى به القلم فى المخلوقات، فلا يتصرفون فى الوجود بشىء، بل يفوّضون إلى الحق تعالى يتصرف فى مُلكه كيف يشاء، وهؤلاء هم الأمناء الأدباء، لايفشون أسرار الله، ولا

يطلبون بذلك علواً على غيرهم، ولا فساداً في أمور الناس، بل يعاملون الخلق بما يعامل بعضهم بعضاً، فلا يتعاطون شيئاً من هتك ستر ولا نفوذ أمر، بل كائنون مع الحق بأجسادهم، بائنون بأرواحهم في حضرة القرب الإلهي.

٢٢٤- تقبيل...

تقبيل يد المشايخ عند الصوفية بعد الاستغفار، ولها أصل في السُّنّة، فقد روى أن التابعين كانوا يقبّلون يد الرسول ﷺ، وقبّل أبو عبيدة الجراح يد عمر بن الخطاب، فهذه رخصة في جواز تقبيل اليد، وكذلك تقبيل الرأس والوجنتين، وأحياناً يكون التقبيل للكتف. وأدب الصوفي أنه متى رأى نفسه تتعزز عن ذلك أو تظهّر (تتأبّى)، فعليه أن يمتنع من ذلك، فإن سَلِمَ من ذلك فلا بأس بتقبيل اليد ومعانقة الإخوان عُقَيْب الاستغفار، لرجوعهم إلى الألفة بعد الوحشة، وقدومهم من سفر الهجرة بالتفرقة إلى أوطان الجمعية، فبظهور النفس تفرقوا وبعدوا، وبغيبة النفس والاستغفار قدموا ورجعوا.

٢٢٥- تقليد...

آفة الصوفية الغُلاة كالحلوليّة والاتحادية: التقليد، فهم قلّدوا أهل الكتاب، وقالوا مثلهم. وأمة محمد أجمعت على إبطال التقليد في العقائد؛ وهو ليس طريقاً للعلم، ولا يوصّل إليه، لا في الأصول ولا في الفروع. والصوفية الغلاة جُهّال، وقالوا بالتقليد طريقًا مضمونةً لمعرفة الحق، والتقليد واجب، والنظر والبحث حرام. والذين قالوا بالتقليد من الصوفية من عامة المتصوفة، لأنهم لم يشتغلوا باستنباط الأحكام من أصولها، وكانوا غير أهل لذلك، فأقنعوا أنفسهم بالآية: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (النحل٤٣)، وراحوا يسعون لمعرفة أعلم أهل أوقاتهم، وجوّزوا التقليد في التوحيد بحجّة الآية: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ﴾(الزخرف٢٢)، وهؤلاء هم أهل الزيغ، أكثروا على من تمسّك بالكتاب والسُّنّة.

٢٢٦- تقوى...

التَّقْوى: مشاهدة الأحوال الدالّة على قِدَم انفراده تعالى، أو أن لا ترى في قلبك شيئاً سوى الله.

وقيل التقوى: أن تزيّن سريرتك للحقّ كما تزين علانيتك للخَلق.

وقيل: التقوى ترك ما دون الله. وقيل ترك حظوظ النفس ومباينة النهى.

وقيل: التقوى أن لاترى نفسك خيراً

من أحد. وقيل: هى الاقتداء بالنبىّ عليه السلام قولاً وفعلاً.

وفى الآية: ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ (الأعراف٢٦)، فإن اللباس الظاهر يقى آفات الدنيا، ولباس التقوى يصون عن الآفات التى توجب سخط المولى. ولباس التقوى بجميع أجزاء العبد وأعضائه.

وللنفس لباسٌ من التقوى: وهو بذل الجهد والروح والقلب، وهو صدق القصد بنفى الطبع.

وللروح لباس من التقوى: وهو ترك العلائق وحذف العوائق.

وللسِّر لباس من التقوى: وهو نفى يعنى المساكنات والتصاون من الملاحظات.

ويقال: تقوى العباد ترك الحرام؛ وتقوى العارفين: نفى مساكنة الأنام.

ويقال للعوام: التقوى؛ وللخواص لباس التقوى، عن شهود التقوى.

ولباس التقوى عند الصوفية الخرقة.

وقال ابن مسعود يوماً لابن أخيه: يا ابن أخى، ترى الناس؟ ما أكثرهم! قال: بلى. قال: لا خير فيهم إلا تائب أو تقىّ. وقال أبو اليزيد البسطامى: المتقى مَن إذا قال: قال الله؛ ومَن إذا عمل: عمل الله. يعنى قوله كله هو قول الله، وعمله كله لله. وقال أبو سليمان الدارانى: المتّقون الذين نزع الله عن قلوبهم حبّ الشهوات. والتقوى فيها جماع الخير كله؛ وهى وصية الله فى الأولين والآخرين؛ وهى خير ما يستفيده الانسان. وقد قيل لأبى الدرداء: إن أصحابك يقولون الشعر، وأنت ما حُفظ عنك شىء؟ فقال:

يريد المرء أن يُؤتى مُناه ∴ ويأبى الله إلاّ ما أرادا
يقول المرء فائدتى ومالى ∴ وتقوى الله أفضل ما استفادا

٢٢٧.تقية...

التَقيَّة عند الصوفية: هى استواء السرّ والعلانية بالإجماع. وقالوا: هى ترك الشبهات. وقال قوم: التقية حرم المؤمن كما أن الكعبة حرم مكة.

والتقية: كتمان الحق، وستر الاعتقاد فيه، ومكالمة المخالفين وترك مخالفتهم بما يعقب ضرراً فى الدين والدنيا، وفرض ذلك إذا عُلم بالضرورة، وقوى فى الظن، فمتى لم يُعلم ضررٌ بإظهار الحق، ولا قوى فى الظن، لم يجب فرض التقية.

وصوفية الشيعة على التقية، يتأوّلون الآية: ﴿أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا﴾ (القصص٥٤)، وكان أول من أتى بالتقية عمّار بن ياسر، فعندما أسلم

عذّبوه ولم يتركوه حتى نال من رسول الله ﷺ، وجاء إليه، فسأله: «ما وراءك؟» قال: شرّ يا رسول الله! والله ما تُرِكتُ حتى نلتُ منك وذكرتُ آلهتهم بخير! فسأله: «فكيف تجد قلبك؟» قال: مطمئن بالإيمان. قال: «فإن عادوا فَعُدْ»، فقد أقرّه الرسول ﷺ على التظاهر بالشّرك وسبّ النبيّ ما دام قلبه مطمئناً بالإيمان وحياته يتهددها الخطر. ونزلت فى ذلك الآية: ﴿ مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ ﴾ (النحل١٠٦)، ومن ثم فقد جعل الشيعة التقية مبدأ من مبادىء الإسلام، وأخذت به الصوفية حتى أن منصور بن المعتمر كان يقضى الليل فى النواح والبكاء، فإذا أصبح الصباح كحّل عينيه ودهن رأسه وخرج إلى الناس، وكان ذلك منه تقية من نوع إخفاء الزهد فى القلب دون المظهر، وصار ذلك دأب الملامتية.

وتستّر الجنيد بالتقية، فلم يكن يتكلم أبداً فى علم التوحيد إلا فى قعر بيته بعد أن يغلق أبواب داره ويأخذ مفاتيحها تحت وركه، ويقول: أتحبون أن يكذّب الناس أولياء الله وخاصته ويرموهم بالكفر والزندقة؟. فقد كان يخشى السلطة أن تسئ تفسير كلامه كصوفى، مع أنه من السُّنّة.

ولما شددوا على الحلاج يريدون مناظرته أخذ بالتقية، وقال للمشايخ: تريدون مناظرتى؟ على ماذا أناظر؟ أعترف أنكم على الحق وأنا على الباطل! وقد لام الشبلى الحلاّج أنه صرّح لما صار واضحاً أنهم سيقتلونه، لأنه فى التقية إذا بلغ الدم فليس تقية، وقال له الشبلى: ألم تنهك عن العالمين؟ وهى دعوة إلى التقية محافظةً على النفس.

ومما جاء عن الشعرانى بخصوص التقية قوله لإخوانه: فعليكم أيها الإخوان باحتمال الأذى ممن يجادلكم. وقال: ولو قام لى ألف مجادل يجادلنى على ترجيح مذهب على مذهب بغير دليل واضح لا أرجع إليه فى قلبى، وإنما أرجع إليه - إن رجعت - مداراةً لحجاجه، لقلتُ له: نعم، مذهبك أرجح! أعنى عنده لا عندى! - يقصد أنه يقرّ على مذهبه أنه الأرجح عنده هو - أى عند المناظر - وليس عند الشعرانى، ويكون الشعرانى ليس بكاذب، لأنه قال الحق وضحك على الثانى! وكان الشعرانى سُنّياً.

٢٢٨ - تكلّف...

من أخلاق الصوفية ترك التكلّف،

وذلك أنه تصنُّع وتعمُّل وتمايل على النفس لأجل الناس، وذلك يباين حال الصوفية.

٢٢٩ - تكبير...

معناه العظمة، وفائدته في الدرجة الأولى تحقير الدنيا، وفي الدرجة الثانية تحقير ما سوى الله حالاً، وفي الثالثة تعظيم الله كشفاً.

٢٣٠ - تكليف...

أصل التكاليف مشتق من الكُلَف وهي المشقات. والعوالم تقسّمت فتقسّمت التكاليف، فعالَم كُلفتهم في أداء العبادة، وعالم كلفتهم في حيرتهم في موافقة الأمر والإرادة، وعالم كلفتهم في ردّ الخطاب الإلهي على هذا العالم الكياني مع ردّ الأفعال إليه واستحالة التكليف عليه.

٢٣١ - تكية...

التكية: هي خانقاه الدراويش، وجمعها تكايا، والمريد فيها يقضي طَوْرَيْ الرضاعة والفطام، وهما الطَّوْران الخاصان بالتعلّم على المشايخ، إلى أن يستقل الصوفي الدرويش عن معلّمه.

والتكية مصطلح تركي، فالأتراك هم الذين أنشأوا التكايا لتحلّ محل الخانقاه الفارسية. وهي ليست خَلَوات، ولا هي رِبَط. وكانت الخانقاه - وهي الأقرب للتكية - للعلم، بينما التكية للعيش وهذا هو الفرق الأساسي بينهما، والأسلوب السائد في الخانقاه تعليمي، بينما في التكية هو أسلوب حياة، ولذلك اختلفت عمارة كلٍّ بحسب الوظيفة التي تؤديها، فالتكية: عبارة عن صحن به حديقة وفسقية تحيط بها إيوانات تفتح على الصحن، وعلى الإيوانات قباب صغيرة، وحولها حجرات الدراويش وعليها نفس القباب، ولكل تكية مسجد وسبيل. وإذا توفي أحد الدروايش يدفن في التكية وليس في حوش الخانقاه كما عند الصوفية. والدرويش صوفي وإنما على الطريقة التركية، واللغة المتداولة هي التركية، وأشهر التكايا: تكايا الدروايش المولوية، وفي مصر كانت لهم تكية ملحقة بمدفن حسن صدقة، وكانت تكية البكتاشية للدراويش البكتاشية، وتكية الكلشني لدراويش القادرية. (انظر الخانقاه والرباط والخلوة).

٢٣٢ - تلبيس...

هو إرادة شيء للخلق بخلاف حقيقة ذلك الشيء. وقيل هو تجلّي الشيء بنعت ضده، كأن يلتبس على الفرد أمره، فيظهر

بمظهر الإيمان وهو فى حقيقته كافر ويظن أنه قد وصل إلى مقام القرب، وقد تظهر له خوارق فيظن أنها فتح وكشف، وهو فى الحقيقة تلبيس ليمعن فى الضلال، ولذلك قيل: إن للأنبياء معجزات وللأولياء كرامات، وللأعداء مخادعات، أى يُخدَعون عن واقع أحوالهم. فإذا أراد الصوفى أن يخفى صفةً حميدة فيه تحت حال قبيح، قيل هو يُظهر التلبيس، فأما المنافق والمرائى فسلوكه هو التلبيس فعلاً.

٢٣٣ - تلف...

هو الحَتْف، والحتف والتلف ما يُنتظر منه الهلاك فى حينه، فإذا دخل القلب الافتتان، أو الحسد، أو الغيرة، أو السخط، أو النقمة، يقال: إن الصوفى قد انتكس وتلف.

٢٣٤ - تلقى...

التلقى هو استقبال الواردات والإلهامات والخواطر، أو الأخذ عن الشيخ أو الأستاذ.

٢٣٥ - تلوين...

تلوُّن العبد فى أحواله. قال قوم: علامة الحقيقة التلوين، لأن التلوين ظهور قدرة القادر، ويكتسب منه التغيُّر. ومعنى التلوين التغيير، فمن أشار إلى تلوين القلوب وتغير الأحوال قال علامة الحقيقة رفع التلوين، ومن أشار إلى تلوين القلوب والأسرار الخالصة لله تعالى فى مشاهدتها، وما يرد عليها من التعظيم والهيبة وغير ذلك من تلوين الواردات، قال علامة الحقيقة التلوين، وأما تلوين الصفات فهو كما قال القائل:

كل يوم تتلوّن ∴ غير هذا بك أجمل

والتلوين مقام الطلب والفحص عن طريق الاستقامة. يقول ابن عربى: التلوين مقام ناقص عند أكثر العرفاء ولكنه عندنا هو أكمل المقامات، لأن حال العبد فى التلوين هو حال يقول الله تعالى بشأنها ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ (الرحمن ٢٩).

وقيل التلوين لأرباب القلوب، وأما التمكين - وهو نقيضه - فأصحابه خرقوا حجب القلوب وباشرت أرواحهم سطوح نور الذات. والخلاصة: التلوين تغيُّر، والتمكين استقرار وثبات.

٢٣٦ - تمكين...

هو مقام الرسوخ والاستقرار على الاستقامة، وما دام العبد فى الطريق فهو صاحب تلوين، يعنى يتغير ويتحول، لأنه يرتقى من حال إلى حال، وينتقل من وصف إلى وصف، فإذا وصل واتصل فقد حصل التمكين، يعنى استقر وسكن،

ولذا قال ابن عربى: إن التمكين هو حال أهل الوصول، فأهل المقام من المبتدئين، وأهل التمكين من المنتهين.

والتمكين عبارة عن إقامة المحققين فى محل الكمال والدرجات العليا. وقالوا: لا تمكين مع التلوين، أى المتمكّن لا يكون متردداً، ولا يتحول من حال إلى حال، ولايطرأ عليه التغيير، ولايجرى بشأنه عمل بغير الحكم الظاهرى فيه، ولايكون له حال بغير الحكم الباطنى فيه.

والتمكين على نوعين، أحدهما يشير إلى شاهد الحق، والآخر إلى شاهد النفس، ومن كان تمكينه من النوع الأخير فهو ثابت الصفة، أما من كان من أهل المقام الأول فليس له صفة، ولا يلحقه محو ولا صحو، ولا لحق ولا محق، ولا فناء ولا بقاء، ولا وجود ولا عدم، لأنه قد فنيت صفاته.

٢٣٧ - تناسخ...

هو انتقال النفس الناطقة من بدن إلى بدن آخر. ويقول أهل التناسخ المنكرون للمعاد الجسمانى: إن النفوس الناطقة إنما تبقى مجردة عن الأبدان إذا كانت كاملة بحيث لم يبق لها شىء من كمالاتها بالقوة فإنها تتردد على الأبدان الإنسانية وتنتقل من بدن إلى بدن حتى تتحقق لها الغاية فيما هو كمالها من علومها وأخلاقها، فحينئذ تتجرّد وتتطهر عن التعلّق بالأبدان، ويسمى هذا الانتقال نسخاً.

وقيل إنها ربما تنزل من البدن الإنسانى إلى بدن حيوان يناسبه فى الأوصاف، كبدن الأسد للشجاع، والأرنب للجبان، ويسمى هذا الانتقال مسخاً.

وقيل إنها ربما تنزل إلى الأجسام النباتية ويسمى رسخاً. وقيل وربما إلى الجمادية كالمعادن والبسائط ويسمى فسخاً.

وقالوا إن هذه التنزلات هى مراتب العقوبات. وقالوا إن النفس فى جميع مراتب التنزلات المذكورة سابقاً تتردد على الأجسام إلى أن تنتقل أخيراً إلى بدن الإنسان، وتتردد فى الأمم إلى أن تتخلص من مادياتها وتبلغ كمالها من العلوم والأخلاق.

وقيل إن النفوس الكاملة يكون اتصالها حين بلوغ كمالها بعالم العقول العلوية، والمتوسطة بأجرام سماوية أو أشباح مثالية لأنها ما تزال بحاجة إلى الاستكمال، وأما وأما النفوس التى لم يزل لها شىء من كمالاتها بالقوة فإنها تتردد على الأبدان الإنسانية وتنتقل من بدن إلى بدن حتى تتحقق لها الغاية فيما هو كمالها من علومها وأخلاقها، فحينئذ تتجرّد وتتطهر عن التعلّق بالأبدان، ويسمى هذا الانتقال نسخاً.

الناقصة فاتصالها بأبدان حيوان يناسبها إلى أن تتخلص من الظلمات.

ويقول الإمام الرازى فى التفسير الكبير فى سورة الأنعام: ذهب القائلون بالتناسخ إلى أن الأرواح البشرية إن كانت سعيدة مطيعة لله تعالى، موصوفة بالمعارف الحقة والأخلاق الطاهرة، فإنها بعد موتها تنتقل إلى أبدان الملوك، وربما قالوا إنها تنتقل إلى مخالطة عالم الملائكة، وأما إن كانت شقية جاهلة عاصية فإنها تنتقل إلى أبدان الحيوانات المناسبة لها. واحتجوا بقوله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ (الأنعام: ٣٨)، لأن لفظ المماثلة يقتضى حصول المساواة فى جميع الصفات الذاتية. ثم إن القائلين بهذا القول زادوا عليه وقالوا: أرواح الحيوانات كلها عارفة بربها، وربما تتحصل من معرفتها سعادة أو شقاوة، والله تعالى أرسل إلى كل جنس منها رسولاً من جنسها، لأنه يثبت بهذه الآية أن الدواب والطيور أمم، ثم إنه تعالى قال: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ (فاطر٣٤)، فهذا تصريح بأن لكل طائفة من هذه الحيوانات رسولاً أُرسل إليها.

وربما الذين قالوا بالتناسخ لسوء تفسيرهم أو تأويلهم للآية: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ (البقرة ٦٥)، والآية: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾ (المائدة ٦٠)، فظنوا أن الله مسخهم على الحقيقة قردة وخنازير، وإنما كما قال ابن مسعود: إن الله لم يغضب من قوم قط فيمسخهم ويكون لهم نسل مسخ، ولكن هاتين الآيتين تفيدان أن الله غضب عليهم «فمسخهم» أى جعلهم مثل القردة والخنازير، بدليل أن قال وجعل منهم من عَبَدَ الطاغوت، فهم المغضوب عليهم يقلدّون الأمم فى الكفر فهم القردة، ولا يستشعرون الدنية فهم الخنازير، وانفردوا بعبادة الشيطان فهم عبدة الطاغوت، فالمسخ أو النسخ إنما جرى للقلوب وليس للجسوم، فلم يعرفوا الله ونسوه فنساهم، وغلط الطوسى عندما ردّ هذا النسخ لسؤالهم عن أشياء من الغيب، فكل إنسان له أن يسأل ويبحث. ويقول الطوسى فى اللمع: إن القائلين بالتناسخ قد غلطوا وضلوا ضلالاً مبيناً، وجهلوا ما يلزمهم فى ذلك من الخطأ، وذلك فى تعمّقهم وتفكّرهم بآرائهم فيما منع الله تعالى قلوب العباد من التفكّر فيه بقوله تعالى:

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ (الإسراء ٨٥).

٢٣٨ - تنزيه...

عبارة عن تبعيد الربّ عن أوصاف البشر، ويقال له انفراد القديم بأسمائه وأوصافه وذاته كما يستحقه لنفسه من نفسه، بطريق الأصالة والتعالى، لابطريق أن المُحدَث مائله أو شابهه، فانفرد الحق سبحانه عن ذلك، فليس بأيدينا التنزيه إلا التنزيه المُحدَث، والتحق به التنزيه القديم، لأن التنزيه المحدث هو ما يكون بإزائه تشبيه من جنسه، وليس بإزاء التنزيه القديم تشبيه من جنسه، لأن الحق لايقبل الضدّ، ومن أجل ذلك قال الصوفية: تنزيهه عن التنزيه بتنزيهه لنفسه لا يعلمه غيره. ولا نعلم إلا التنزيه المحدث لأن اعتباره عندنا تعرِّى الشيء عن حكم كان يمكن نسبته إليه فتنزّه. ولم يكن للحق تشبيهاً ذاتياً يستحق عنه التنزيه، إذ أن ذاتيته هى المنزهة فى نفسها عمّا لا يقتضيه كبرياؤه على أى اعتبار كان، وفى أى مجلى ظهر، وبأى تشبيه كان، كما فى الحديث الذى يقول به الصوفية: «رأيت ربّى فى صورة شاب أمرد»، أو بأى تنزيه كان، كالحديث عند الصوفية أيضاً: «نورانياً أراه»، فإن التنزيه الذاتى له حكم لازم لزوم الصفة للموصوف، وهو من ذلك المجلى على ما استحقه من ذاته لذاته بالتنزيه القديم الذى لا يُسوِّغ إلا له ولا يعرفه غيره، فانفرد فى أسمائه وصفاته وذاته ومظاهره وتجلياته بحكم قِدَمه من كل ما يُنسَب إلى الحدوث ولو بوجه من الوجوه، فلا تنزيهه كالتنزيه الخَلْقى، ولا تشبيهه كالتشبيه، تعالى الله وانفرد.

وأما من قال إن التنزيه راجع إلى تطهير محلك لا إلى الحق، فإنه أراد بهذا التنزيه الخَلْقى الذى بإزائه التشبيه يعم، لأن العبد إذا اتصف من أوصاف الحقّ بصفاته سبحانه وتعالى فإنه يتطهر محله ويتخلص من نقائص المحدَثات بالتنزيه الإلهى، فرجع إليه هذا التنزيه وبقى الحق على ما كان عليه من التنزيه الذى لايشاركه فيه غيره، فليس للخلق فيه مجال، أعنى ليس لوجه الخلق من هذا التنزيه شيء، بل هو لوجه الحق بانفراده كما يستحق لنفسه.

٢٣٩ - توابون...

هم الذين دأبوا على التوبة من أهل الله، يقول فيهم: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا﴾ (التوبة ١١٨)، فلم يعجّل عقابهم، وأفسح لهم، فلمّا تابوا ثبّتهم على توبتهم، وأرجعهم إلى حال الرضا

عنهم، وقد خلقهم للتوبة وأقدرهم عليها: «اعملوا فكلٌّ ميسر لماخُلق له»، فلما صَدَق منهم اللجاء تداركهم بالشفاء، وأسقط عنهم البلاء.

والتوّابون تاريخياً كانوا بضعة وثمانين رجلاً، وأشهرهم كعب بن مالك، ومرارة بن الربيع العامري، وهلال بن أمية الواقفي، فمن صَدَق منهم أنجاه صِدْقُه، ولا يصلح من الكذب جدّ ولا هزل، والله يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ (التوبة ١١٩)، وتوبته عليهم أنه تدارك قلوبهم حتى لم تزغ، وكذا سُنّته سبحانه مع أوليائه، إذا أشرفوا على العطب، وقاربوا من التلف، واستمكن اليأس من قلوبهم، ووطّنوا أنفسهم على البأس، فإنه يُمطر عليهم سحائب الجود، فتعود إليهم الحياة بعد موتٍ في الدنيا، وتصير أحوالهم كما قال بعضهم:

كنا كمن أُلبس أكفانَه
وقُرِّب النَّعش من اللَّحد
فجال ماء الرُّوح في وَحْشَةٍ
وردّه الوصل إلى الوَرْد

تبارك الله سبحانه، هو التوّاب وهو الرءوف الرحيم.

وأهل الله التوّابون بين خطاب العموم من الله تعالى: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (النور ٣١)، وخطاب الخصوص: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ (التحريم ٨)، وفي الأول: أن التوبة لنيل المعاد والبقاء ببقاء الله في نعيم لا زوال ولا نفاد، وفي الثاني: أن التوبة خالصة لله من النُصح على وزن فَعول للمبالغة فيه، أو من النصاح وهو الخيط، أي مجردة لا تتعلق بشيء، وهي الاستقامة على الطاعة من غير رَوَغان إلى معصية كما تروغ الثعالب، وأن لا يحدّث التائب نفسه بعود إلى ذنب متى قَدَر عليه، وأن يترك الذنب لأجل الله خالصاً لوجهه، فمتى أتى الله بقلب سليم من الهدى، وعملٍ خالص مستقيم على السُنّة، فقد خُتم له بِحُسن الخاتمة، وهذه هي التوبة النصوح. والتائب المُتَّصِح هو التوّاب المتطهِّر يقول الله فيه: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ (البقرة ٢٢٢)، وفي الحديث: «التائب حبيب الله، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له».

وكان الحسن البصري، وسهل بن عبد الله، والسريّ السقطي، ويحيى بن معاذ،

وأحمد بن أبى الحوارى، وسليمان الدارانى، والفضيل بن عياض، من التوّابين.

وعند الحسن البصرى: التوبة النصوح ندمٌ بالقلب، واستغفارٌ باللسان، وتركٌ بالجوارح، والإضمار أن لا يعود إلى الذنب.

وعند سهل بن عبد الله: «أنه لا شىء أوجب على المؤمن من أن يتوب، ولا عقوبة أشدّ عليه من أن يفقد علْم التوبة»، ويقول: «إن علْم التوبة يجهله الناس». وكأن التوّابون هم العالمون بعلم التوبة. وقال: «من يقول إن التوبة ليست بفرض فهو كافر، ومن سمع ذلك منه ورضى بقوله فهو كافر». ويغلو سهل غلواً كبيراً عندما يكفّر الناس بهذه السهولة. وشروطه فى التوّاب شديدة على الناس، فهو يقول فى تعريف التائب: «إنه الذى يتوب عن غفلته فى كل طرفة ونَفَس ـ يعنى أنه يتوب حتى عن التوبة. وكان علىّ بن أبى طالب على هذا الرأى، فالذى يغفل عن التوبة فى مقام الأعمى، ومن عَمِىَ أن يتوب نسى أن يذكر ربَّه وأن يطلب المغفرة واستكان للذنوب.

والتوبة فى علم التوّابين فرضٌ، والمؤمن لا يكون مؤمناً إلا إذا أتى التوبة دوماً، وصدق إيمانه بصدق توبته، وإقراره بالذنب، واعترافه بالظلم، وأن يمقت نفسه على الهوى، ويحلّها من الإصرار، ويطيب مطعمه بغاية ما يقدر، لأن الطُعمة أساس الصالحين، ثم الندم على ما فات من الجنايات. وحقيقة الندم: أن لا يعاود إلى مثل ما وقع الندم عليه، وأن يعقد عزمه على الاستقامة ومجانبة النهى. وحقيقة الاستقامة أن لا يأتى فيما يستقبل من حياته اعوجاجاً كالذى أتاه فيما أسلف منها، وأن يتّبع سبيل مَن أناب إلى الله، وأن لا يصحب جاهلاً فيُردِيه، وأن ينصرف بشُغله إلى إصلاح ما أفسد فى أيام بطالته، ليكون من المصلحين الذين تابوا وأصلحوا، لأن الله لا يُصلح عمل المفسدين كما لا يضيع أجر المحسنين. والمستقيم على التوبة يستبدل السيئات بالصالحات: ﴿فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾ (الفرقان ٧٠)، وحينئذ تُقرّن له التوبة بالإنابة، والله تعالى يقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ (الرعد١١).

وحقيقة الندم والحزن عند التوّابين: أن لا يفرّطوا، ولا ينوا، ولا يرجعوا، ولا ينثنوا. وكان أبو سليمان الدارانى يبكى فيما بقى من عمره على فوْت ما مضى منه فى غير الطاعة. وكان على ذلك

حزيناً أشدّ الحزن إلى مماته. وقال سهل بن عبد الله: إن التائب لا عيْش له إلا بما هو ضرورى لاستمرار حياته، ويغتمّ على ما مضى، ويجدّ فى الأمر، ويباين النهى فيما بقى، وليس له من سبيل إلى ذلك إلا باسترجاع ما استوعبه من علم اليقين، يجربه على كل شىء، فلا يأتيه إلا بعلم كامل ودراية تامة، ثم يتبع ذلك بعمل الصالحات ليكون ممن قال الله تعالى فيهم: ﴿ويدرءُونَ بالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾ (الرعد ٢٢)، وفى حديث رسول الله ﷺ يعظ أبا ذرّ قال: «فإذا عملت سيئة فاعمل بعدها حسنة ـ السرّ بالسرّ، والعلانية بالعلانية»، وفى وصية معاذ قال: «اتبع السيئة الحسنة تمحها».

وجُملة ما عليه التوّابون عشر خصال: أنهم يرون التوبة فرضاً، والإصرار عليها ينفى التوبة، وليست التوبة إلا لله، والندم يصحب التوبة، والتائب يعقد الاستقامة على الطاعة، ويخاف العقوبة، ويرجو المغفرة، ويعترف بالذنب، وأن الله يعين التائبين، وأن المتابعة على العمل الصالح علامة بينة على التوبة.

وسأل بعضهم: متى أعرف أن الله قد غفر لى؟ قيل: إذا تاب عليك. وقال بعضهم: إننى مِن أن أُحْرَم التوبة أخوَف منى من أن أُحْرَم المغفرة. وفى القرآن: ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ﴾ (البقرة ١٨٧)، ﴿وَهُوَ الَّذِى يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ﴾ (الشورى ٢٥)، ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا﴾ (التوبة ١١٨).

ونعت الله تعالى التائبين فيقول: ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (التوبة ١١٢)، فهؤلاء هم التائبون حقاً، وقد تاب الله على الثلاثة المخلفين لما صدقت توبتهم: ﴿حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا﴾ (التوبة ١١٨)، وقال الحسن البصرى: إن أردتَ أن تكون من الصادقين ـ أى الذين صدقت توبتهم ـ فعليك بالزهد فى الدنيا». وكان سالم بن عمير من أهل الصُّفّة من الصادقين والتوّابين، وفيه نزلت الآية: ﴿تَوَلَّوا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ﴾ (التوبة ٩٢)، كبعضهم عندما أنشد:

منك أرجو ولستُ أعرف ربّاً
يُرتَجى منه بعض ما منك أرجو
وإذا اشتدت الشدائد فى الأر
ض على الخلق فاستغاثوا وعجّوا

وابتليتَ العبادَ بالخوف والجو
ع وصرُّوا على الذنوب ولجّوا
لم يكن لى سواك ربّى ملاذ
فتيقنتُ أننى بك ألجو

٢٤٠ - تواجد...

استدعاء الوجد، وقيل إظهار حالة الوجد من غير وجد.

والمتواجدون على ثلاثة أصناف فى تواجدهم، فصنف منهم: المتكلّفون والمتشبّهون وأهل الدعابة ومن لا وزن لهم؛ وصنف منهم: الذين يستدعون الأحوال الشريفة بالتعرّض بعد قطع العلايق المُشغلة والأسباب القاطعة، فذلك التواجد يجمل منهم وإن كان غير ذلك أولى بهم، لأنهم نبذوا الدنيا وراء ظهورهم، فتواجدهم مطايبةٌ وفرحاً وسروراً بما قد عانقوا من خلْع الراحات وترك المعلومات؛ وصنف ثالث: هم أهل الضعف من أبناء الأحوال وأرباب القلوب والمتحققين بالإرادات، فإذا عجزوا عن ضبط جوارحهم وكتمان ما بهم تواجدوا، ونفضوا ما لا طاقة لهم بحمله، ولاسبيل لهم إلى دفعه عنهم وردّه، فيكون تواجدهم طلباً للتفريج والتسرية، فهم أهل الضعف من أهل الحقائق.

٢٤١ - تواضع...

قالوا: لولا شرف التواضع لكنا إذا مشينا نخطر. والصوفى الذى يرى لنفسه قيمة فليس له من التواضع نصيب، والذى يجب أن يتواضع قلبه، فعليه أن يصحب الصالحين.

وقالوا خمسة أنفس هم أعزّ الناس فى الدنيا: عالم زاهد، وفقية صوفى، وغنى متواضع، وفقير شاكر، وشريف سُنّى.

ومن علامات التواضع: تصغير النفس معرفةً بالغيب، وتعظيم الناس حُرمةً للتوحيد، وقبول الحق والنصيحة من كل واحد.

والتواضع على ضربين: الأول: أن يتواضع العبد لأمر الله ونهيه؛ والثانى: أن يضع نفسه لعظمة الله.

وقيل التواضع: قبول الحق من الحق للحق. وفى الحديث: ما بعث الله نبياً إلا كان متواضعاً.

٢٤٢ - توبة...

أول مقام من مقامات الانقطاع إلى الله، أو أول مقام من مقامات السالكين، وصفها السرى السقطى فقال: هى أن لاتنسى ذنبك، وقال الجنيد: هى أن تنسى ذنبك. ولاتناقض بين العبارتين، فإنها

بالمعنى الأول فى حق المبتدى، وبالمعنى الثانى فى حق المنتهى الكامل، فإن العبد إذا بلغ النهاية ينبغى له أن ينسى ذنوبه، لأن ذكر الجفاء فى حالة الوفاء جفاء. والتائب حبيب الله، وحبيب الله يكون فى مشاهدة الله.

وقال الثورى يصف التوبة: هى أن تتوب عن كل شىء سوى الله تعالى.

وقال رويم: التوبة هى أن تتوب عن التوبة. وقال المغازلى: التوبة على نوعين، توبة الإنابة وتوبة الاستجابة، والأولى أن تخاف الله من أجل قدرته عليك، والثانية أن تستحى من الله بقربه منك.

وقال ذو النون: توبة العوام من الذنوب؛ وتوبة الخواص من الغفلة، فإن الغفلة من الله أكبر الكبائر؛ وتوبة الأنبياء من رؤية عجزهم عن بلوغ ما ناله غيرهم؛ وتوبة المحسنين من الذنب؛ وتوبة أهل مقام الشهادة من خاطر المعصية؛ وتوبة أهل مقام الصدّيقية من أن يخطر غير الله فى البال؛ وتوبة المقرّبين من الدخول تحت حكم الحال فلا تملكهم الأحوال.

وقال ذو النون أيضًا: التوبة توبتان: توبة الإنابة، وتوبة الاستجابة، والأولى أن يتوب العبد خوفًا من عقوبة، والثانية أن يتوب حياءً من كرم الله.

وقيل التوبة ثلاثة أنواع: فتوبة من الخطأ إلى الصواب، كقوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ ﴾ (آل عمران ١٣٥)؛ وتوبةٌ من الصواب إلى الأصوب، كقول موسى: ﴿تُبْتُ إِلَيْكَ﴾ (الأعراف ١٤٣)؛ وتوبة من نفسك إلى الله، كقوله ﷺ: إنه ليغان على قلبى وإنى استغفر الله فى كل يوم سبعين مرة». رواه البخارى.

وقال أبو دقاق: التوبة ثلاثة أقسام: الأول التوبة، والثانى الإنابة، والثالث الأوبة، فمن يتوب لخوف العقاب صاحب توبة، ومن يتوب طمعاً فى الثواب صاحب إنابة، ومن يتوب لمحض مراعاة أمر الله فهو صاحب أوبة.

والتوبة صفة عامة المؤمنين. قال الله تعالى: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ﴾ (النور ٣١)؛ والإنابة صفة الأولياء والمقرّبين، قال الله تعالى: ﴿وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾ (ق ٣٣)، والأوبة صفة الأنبياء والمرسلين، قال الله تعالى ﴿نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ (ص ٣٠).

وأول التوبة: الندم على ما كان من التفريط فى أمر الله ونهيه، والعزيمة على ترك التعود فى شىء مما يكره، ودوام الاستغفار، وردّ كل مظلمة للعباد،

والاعتراف بالذنب، ولزوم الخوف والحزن والإشفاق ألاّ تُقبَل التوبة، وكان الحسن البصري يقول: أخاف ألا يقبل الله تعالى توبتي ويطرحني في النار ولا يبالي».

وفي الحديث: **الندم توبة**، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له» أخرجه الطبراني. وعند عمرو بن نجيد: فإن السماء تقول للتائب الذي يعود للذنب ثم يتوب: أطعتنا فشكرناك، ثم تركتنا فأمهلناك، فإذا عدتَ إلينا قبلناك.

وحزن الثكالى يبلى، وحزن التائب ما يفنى. ومن صدْق التوبة: ترك الإخوان والأصحاب الذين أعانوا على تضييع أمر الله، والهرب منهم، واعتبارهم الأعداء حقاً، وخروج المآثم من القلب، والحذر من خفايا التطلّع إلى ذكر شيء مما أنَبْتَ إلى الله منه: ﴿ وَذَرُوا ظَاهِرَ الإِثْمِ وَبَاطِنَهُ ﴾ (الأنعام ١٢٠)، وكان النبيّ ﷺ يقول: «إنه ليُغان على قلبي فأستغفر الله وأتوب إليه كل يوم مائة مرة». رواه أحمد ومسلم، ومعنى يُغان على قلبي يغشى عليه.

٢٤٣ - توحيد...

هو معرفة وحدانيته الثابتة له في الأزل والأبد، وذلك بأن لا يحضر في شهوده غير الواحد جلّ جلاله.

وأركان التوحيد سبعة : إفراد القِدَم عن الحدث؛ وتنزيه القديم عن إدراك المحدث له؛ وترك التساوي بين النعوت؛ وإزالة العلة عن الربوبية؛ وإجلال الحق عن أن تجري قدرة الحدث عليه فتلونه؛ وتنزيهه عن التمييز والتأمل، وتبرئته عن القياس.

وعن الحلاّج: أول قدَم في التوحيد فناء التفريد»، لأن القدَم في التوحيد هو إنكار شريك لله، وفناء التفريد أن لا تكون الفردانية إلاّ له.

وعن الحصري: أصولنا في التوحيد خمسة: إزالة رفع الحدث؛ وإثبات القِدَم؛ وهجر الأوطان ومفارقة الإخوان؛ ونسيان ما عُلِم وما جُهِل»، يعني أن الحدث أو الإحداث لا علاقة له بالتوحيد، وإثبات القدم هو إثبات أن الله واحد دائماً، وهجر الأوطان هو ترك المسرات، ومفارقة الإخوان هو اعتزال الناس، ونسيان ماعُلم وما جهل يعني النظر إلى الأشياء بوجهة نظر واحدة تسقط التعارض بينها.

وعند الجنيد: التوحيد أن يكون العبد شبحاً بين يدَيْ الله، يجري عليه تصاريف تدبيره في مجاري أحكام قدرته في لجج بحار توحيده، بالفناء عن نفسه»، يعني أن الموحّد لا إرادة خاصة له.

ومما قاله سهل بن عبد الله شاملاً لكل أصول التوحيد: توصف ذات الله بالعلم،

لا تدركها إحاطة، ولا تراها الأبصار فى دار الدنيا، ولكنها موجودة بحقائق الإيمان من غير حدّ، ولا إحاطة، ولا حلول. وترى العيون ذاته تعالى ظاهرًا فى مُلكه وقدرته، قد حجب الخلق عن معرفة كنه ذاته، ولكنه دلّهم عليه بآياته. والقلوب تعرف الله تعالى، والعقول لا تدركه، والمؤمنون ينظرون إليه من غير إحاطة ولا إدراك نهاية».

وعن الجنيد: إن أعلى كلمة فى التوحيد هى ما قاله أبو بكر: سبحان من لم يجعل لخلقه سبيلاً إلى معرفته إلا بالعجز عن معرفته»، يعنى أن التوحيد هو حُكم الله فى قلوب عباده، وهو سرّ يكاشفه الله لعباده، لا يمكن التعبير عنه بالكلام، وهو أدق من أن يشار إليه بأكمل العبارات.

وللتوحيد مراتب: علمٌ، وعينٌ، وحقٌ؛ وعلمُه ما ظهر بالبرهان، وعينه ما ثبت للوجدان، وحقّه ما اختص بالرحمن. والتوحيد العينى الوجدانى: هو أن يجد الموّحد بطريق الذوق والمشاهدة عين التوحيد. وهو على ثلاث مراتب: الأولى: توحيد الأفعال بإثبات الفاعلية لله تعالى مطلقاً ونفيها عن غيره. والثانية: توحيد الصفات وهو إثبات الصفة لله تعالى مطلقاً ونفيها عن غيره. والثالثة: توحيد الذات وهو إثبات الذات لله تعالى مطلقاً ونفيها عن غيره، فيرى صاحب هذا التوحيد كل الذوات والصفات والأفعال متلاشية فى أشعة ذاته وصفاته وأفعاله، ويجد نفسه مع جميع المخلوقات، ويرى ذاته فى الذات الواحدة، وصفته فى صفتها، وفعله فى فعلها، لاستهلاكه بالكلية فى عين التوحيد، وليس للإنسان وراء هذه الرتبة مقام فى التوحيد، وهو التوحيد الأخصّ أو توحيد الخاصة. وأما توحيد العامة: فهو الانفراد.

وتوحيد أهل الحقائق على الظاهر: هو الإقرار بالوحدانية بذهاب رؤية الأسباب والأشباه، بإقامة الأمر والنهى فى الظاهر والباطن.

وقيل توحيد العامة معناه: توحيد الإقرار باللسان والتحقق بالقلب بما يقرّ به اللسان، بإثبات ما أثبت الله نفسه من الأسماء والصفات والأفعال، ونفى ما نفى الله عن نفسه.

والتوحيد الرحمانى: هو أن يشهد الله سبحانه على توحيده نفسه، بإظهار الوجود، إذ كل موجود مختص بخاصية لا يشاركه فيها غيره وإلاّ لما تعين، وهذه

الوحده فيه دليل على وحدانية موجده، كما قيل:

ففى كل شىء له آية ∴ تدل على أنه واحد

فإظهار الموجودات على صفة الوحدة شهادة الحق تعالى أنه واحد لاشريك له شهادة أزلية أبدية.

وتوحيد المطلب: هو أن يتحقق للطالب أنه لايمكنه الوصول إلى مطلوبه إلا من هذا الشيخ أو الأستاذ المستجمع لشرائط الشيخية.

وأرائك التوحيد: هى الأسماء الذاتية لكونها مظاهر الذات أولاً فى الحضرة الواحدية.

٢٤٤- توراة...

عند الصوفية هو التورية أيضاً، بمعنى أنه الكتاب الإشارى أو لسان الإشارة، أى الذى تجلّت فى لغته المعانى الإلهية بما ذكر الله تعالى فيه من أسماء له هى أدلة على صفاته، وليس من سبيل إلا ذلك مع العامة، حيث أن فطرتهم بسيطة وخالية من المعانى الإلهية، ولكنها كالثوب الأبيض ينتقش فيها ما يقابلها، فأورد الحق فى التوراة بلسان الإشارة من الأسماء له ما يستطيع بها عامة الناس أن يستدلوا على صفاته، وجعل الصفات دلائل على ذاته، ولولا ذلك ما عرفوا الله تعالى. فهذا هو التأويل الصوفى لكلمة التوراة أو التورية.

٢٤٥- توسُّط...

التوسط هو موقف بين طرفين، فالشجاعة تتوسط الجبن والرعونة. والتوسط هو الخيار: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ (البقرة ١٤٣)، فجعل هذه الأمة خيار الأمم، لأنها أمة وسط، والصوفية خيار الخيار، فهم الأصول وعليهم المدار، وهم القطب، وبهم يحفظ الله جميع الأمة، وكل ما قبلته قلوبهم فهو المقبول، ومن ردّته قلوبهم فهو المردود، والحكم الصادق لفراستهم، والصحيح حُكمهم، والصائب نظرهم. وهذا فى التصوّف الصحيح!

٢٤٦- توسُّل...

هو التقرُّب إلى الله، والوسيلة هى القُربة والشفاعة، بقول الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ﴾ (الإسراء ٥٧). وفى التصوف يتوسل البعض بالمشايخ فى حياتهم ومماتهم، وزيارة القبور والأضرحة والتوسل بالمقبور، من أفظع ما يمكن أن يفهمه العامة عن الصوفية، وهى وثنية لا شك فيها، وربما كان الولاء لأصنام الأضرحة

والمقابر والمشايخ هو بسبب ما يدره ذلك على البعض من نذور، وليس من شيء أشد خروجاً على السُنّة من هذا التقديس المبتدع المفسد لجوهر الإسلام وحقيقته. وأهالي الإسكندرية مثلاً يحلفون بالمرسي أبي العباس، كما يحلف أهالي طنطا بالسيد البدوي، وكلٌ يقسم بوليّه المحليّ، والتوسل شِرْك صُراح، كما لو أن أولياء الصوفية ليسوا بشراً وإنما آلهة تجسّدت فيهم الذات الإلهية، فهي مرة تيجانية، ومرة نقشبندية، ومرة رفاعية، ومرة شاذلية، ومرة بدوية، وهكذا.

٢٤٧- توسُّم...

التَوَسُّم والتَفرُّس: من مدارك المعانى وليستا من مدارك الأحكام.

والتوسم تفعُّل من الوَسْم، وهى العلامة التى يستدل بها على مطلوب غيرها.

يقال: توسمتُ فيه الخير، إذا رأيت مَيْسَم الخير فيه، ومنه قول ابن رواحة فى النبى ﷺ:

إنى توسمت فيك الخير ∴ والله يعلم أنى ثابت البصر

والواسم: الناظر إليك من فَرْقك إلى قدمك. وأصل التوسُّم: التثبُّت والتفكُّر، مأخوذ من الوَسْم، وهو التأثير بحديدة فى جلد البعير وغيره، وذلك يكون عند أهل الله خصوصاً، بجودة القريحة، وحدّة الخاطر، وصفاء الفكر، وتفريغ القلب من حشو الدنيا، وتطهيره من أدناس المعاصى، وكُدورة الأخلاق، وفضول الدنيا.

وتزعم الصوفية: أن التوسم كرامة؛ وقيل: بل هو استدلال بالعلامات، ومنها ما يكون ظاهراً لكل أحد، وبأول نظرة، ومنها ما يخفَى فلا يبدو لكل أحد، ولا يُدرَك بمبادىء النظر. (انظر أيضاً المتوسمون).

٢٤٨- توفيق...

هو العناية التى للعبد عند الله قبل كونه؛ والتوفيق يتفضّل به عليه عند إيجاده إياه وتعلّق خطابه به. والتوفيق هو القدرة على الطاعة عند الاستعمال، والمطيع يعينه ربّه بالقدرة، والقدرة على طاعة الله تسمى توفيقاً.

٢٤٩- توكُّل...

سُئل يحيى بن معاذ: متى يكون الرجل متوكلاً؟ فقال: إذا رضى بالله تعالى وكيلاً.

والتوكل يقتضى مقام الرضا بأحكام الله. وعرّفه السرىّ السَقَطى: أنه الانخلاع

من الحول والقوة، أى أن يترك المتوكل نفسه لله كما يكون الميتّ فى يد المُغسِّل؛ وعرّفه ابن مسروق: أنه الاستسلام لجريان القضاء فى الأحكام.

والتوكل المقصود هو توكل العناية لا توكل الكفاية، والأول: هو أن يطالب العبد ربّه بالأعواض، يعنى أنه نوع التوكل الذى يترك العبد أموره فى يد الله يعوّضه بتوكله عليه عن كل ما يفوته لو بذل جهده. وأما توكل الكفاية: فهو اقتناع بأن الله يكفيه.

والتوكل اشتراطه مقام الإحسان؛ وتوكل المحسنين: عبارة عن صرف الأمر إلى الله تعالى. وتوكل الشهداء: عبارة عن رفع الأسباب والوسائط، بنظرهم إلى المسبِّب سبحانه وتعالى، وتصريفه فيهم، فجعلوا توكلهم عليه، بجعل إرادته عين مرادهم، وأشهدوا على ذلك، فليس لهم اختيار يتميّزون به فى طلب، بل جميع ما يريده الله تعالى هو اختيارهم وإرادتهم.

وتوكل الصدّيقين: إرجاع شأن ذواتهم إلى شأن ذات الحقّ تعالى، فلا يقع نظرهم على أنفسهم، فهم متوكلون على الله تعالى بالاستغراق فى شهوده، والاستهلاك فى وجوده.

واتكال المُحقّقين: هو عدم الانبساط بعد التمكنّ فى البساط. وقيل توكل العامة: هو الاسترسال مع الله على ما يريد. وتوكل أهل الخصوص: هو أن لا تتوكل على الله لغير الله، لكن على الله وبالله ولله، وتكون متوكلاً على الله فى توكلك لا لسبب آخر. وأما توكل خصوص الخصوص: فهو أن تكون لله كما لم تكن، ويكون الله تعالى لك كما لم يزل.

ولا ينافى التوكل تعلّق القلب بالأسباب فى الرزق، وفى الحديث: لو توكلتم على الله حقّ توكله، لرزقكم كما يرزق الطير، تغدو خماصاً وتروح بطاناً. وبعض مشايخ الصوفية قالوا: إنما يغدو ويروح فى الطاعات فيكون الرزق، فكأن هذا الغدو والرواح فى الطاعات هو سبب الرزق، والدليل عليه قوله تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ﴾ (طه ١٣٢)، وقوله: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ (فاطر ١٠)، فليس ينزل الرزق من محله وهو السماء، إلا إذا صعد الذكر الطيِّب والعمل الصالح، وليس بالسعى فى الأرض، لأن أصل الرزق فى السماء وليس فى الأرض. والصحيح ما أحكمته السُّنّة: وهو العمل بالأسباب الدنيوية: بالتجارة والصناعة والزراعة والعمارة إلخ، بلا سؤال؛ وكان الصحابة

يفعلون ذلك والنبيّ ﷺ بين أظهرهم. وقد أمر الله عباده بالإنفاق من طيّبات ما كسبوا، وأحلّ للمضطر ما كان قد حرّمه عليه ولم يأمره بانتظار طعام ينزل عليه، من السماء، ولو ترك السعي لقَتَل نفسه، وكان رسول الله ﷺ يتلوى من الجوع لا يجد ما يأكله، ولم ينزل عليه طعام من السماء، وكان يدّخر لأهله قوت سنته حتى فتح الله عليه الفتوح؛ وفي الرواية أن رجلاً أتى إلى النبيّ ﷺ على بعير، ونزل عليه، وسأله: يا رسول الله، **أأعقله وأتوكل، أو أطلقه وأتوكل؟** قال: أعقله وتوكّل. ولا يحتجّ صوفيّ بأهل الصُفّة، فقد كانوا فقراء عاطلون ولا يجدون العمل، وكانت المدينة تشكو فائض عمالة، لكثرة الهجرة إليها، وكان الجيش يستوعبهم، فلا يُعتَدّ بذلك الآن، لتغيّر الأحوال والظروف، وكان مَخْرجهم الوحيد من حالة التبطُّل هذه، هو أن يحتطبوا ويبيعون بأحمال الحطب يبيعونها، والناس كانوا يطبخون على الحطب، وكلهم كان يفعل ذلك، فهو لازم، وكان الاحتطاب مخرجهم، وكانوا يسوقون الماء إلى البيوت، ويقرأون القرآن على الناس، بركةً للبيت، فكانوا يُرزَقون، فهذا تَسَبُّبٌ. ورغم ذلك كانت الصدقات مَعيناً لا ينضب لهم، وخاصةً أن النبيّ ﷺ كان كلما جاءته هدية طعام، أكلها معهم، وإن كانت صَدَقة خصّهم بها، فلما كثُر الفتح وانتشر الإسلام، وزادت المغانم، صاروا يملكون وأثروا - كأبي هريرة، وعمّار، وخبّاب، وبلال، وابن مسعود وغيرهم، بل إن بعضهم صاروا أمراء، وهذه هي الأسباب.

٢٥٠ - تولّى...

التَولّي عند الصوفية: هو الرجوع بعد التجلّي والمكاشفة، فيتولى بعد أن يكون قد شرب، وينكص بعد الوصول والقُرب.

٢٥١ - تهليل...

هو التسبيح، من القول: «لا إله إلا الله»، من الهيللة - كالبسملة، والحوقلة. يقال: سبّح فلان وهلّل. ولذا قيل في تعريف التهليل أنه: إفراد المعبود في كل وجود.

٢٥٢ - تيم...

التَّيْم: هو أن تجعل نفسك عبداً للمحبة، وأن تتصف بالتجريد الظاهري والتفريد الباطني، - يعني أن تُفرد محبتك لحبيب - هو فيما نحن بصدده الله تعالى، وأن تتجرّد له لا غير. والمُتيَّم: المحب الولهان؛ والتَيِّم: هو المستعبد، تقول: هو تيم الله، يعني عَبْد الله.

* * *

باب الثناء

* * *

٢٥٣-ثناء...

جمعُه أثنية؛ وجوامع الأثنية: هي أن تذكر الحق بأسمائه الذاتية دون الوصفية والفعلية، مع المعرفة بها وشهودها، وذلك أن الذات المطلقة أصل جميع أسمائه تعالى، والذكر إذا أثنى عليه بأسمائه الذاتية، كالقدوس، والسلام، والسبُّوح، والعليّ، والحقّ، وأمثالها فقد عمّم التعظيم بجميع كمالاته.

والثناء والحمد والشكر والمدح بمعناه، غير أن الثناء أكثر من المدح لأن فيه معاودة المدح، وفيها جميعاً الوصف بالجميل، وفي الحديث: «لا أحصي ثناءً عليك، أنت كما أثنيت على نفسك»، والإحصاء هوالعدّ على سبيل الاستقصاء. والحمد أخصّ من ذلك كله، لأن الحمد هو الثناء باللسان على الجميل الاختياري، بينما المدح ثناء باللسان على الجميل مطلقاً؛ والثناء لا يُعدّ ولا يُحصَى، وحديث رسول الله ﷺ فيه العجز عن مثل ثناء الله تعالى على ذاته، والأليق بالرسول ﷺ أن يحمد الله، وأما الله تعالى فالثناء على ذاته هو فِعْله تعالى المناسب؛ وأما الشكر فأقل من ذلك، وهو الفعل الذي يشعر بتعظيم المُنعم لكونه منعماً. ط

* * *

باب الجيم

* * *

٢٥٤- جاه...

يقول الصوفية لايصح الفقر للفقير حتى يخرج من الأملاك، فإذا خرج منها يتولد له جاه، فينبغى أن يبذل جاهه حتى لايبقى له جاه، فإذا بذل جاهه لم تبق إلا قوة نفسه فيبذلها لأصحابه بالخدمة والحركة فى أسبابهم فعند ذلك يصح له الفقر.

٢٥٥- جبر...

لايكون إلا بين الممتنعين، وهو أن يأمر الآمر ويمتنع المأمور فيجبره الآمر عليه.

ومعنى الإجبار أن يستكره الفاعل على إتيان فعل هو له كاره ولغيره مؤثر، فيختار المجبر إتيان ما يكرهه ويترك الذى يحبه، ولولا إكراهه إياه لفعل المتروك وترك المفعول.

ولم نجد هذه الصفة فى اكتساب الإيمان والكفر والطاعة والمعصية، بل يختار المؤمن الإيمان ويحبّه ويريده ويؤثره على ضده، ويكره الكفر ويستقبحه، والله خلق له الاختيار والاستحسان والإرادة للإيمان، والبُغض والكراهية والاستقباح للكفر، وليس المؤمن ولا الكافر بممنوع عن ضد ما اختاره، ولا بمجبور على ما اكتسبه، ولذلك رجحت حجة الله عليهم: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ﴾ (الزخرف٧٦).

والجبرية: فرقة من المتصوفة غلطت فى عين الجمع، فلم يضيفوا إلى الخلق ما أضاف الله تعالى إليهم، ولم يصفوا أنفسهم بالحركة فيما تحركوا فيه، وظنوا أن ذلك منهم احتراز حتى لا يكون مع الله شىء سوى الله، فقالوا إنهم مجبرون على حركاتهم حتى أسقطوا اللائمة عن أنفسهم عند مجاوزة الحدود ومخالفة الاتّباع، وقالوا إنهم معذورون فيما هم عليه مجبرون.

وقال أحدهم: أنا مثل الباب لا أتحرك إلا أن يحركونى. وهو قول جائر لو كان يعنى أن قوام كل شىء بالله ومن الله وإلى الله؛ وأما أن يكون ما يقوله يقصد به أن يضيف معاصيه إلى الله، ويرفع عن نفسه اللوم، فهذا هو الغلط بعينه.

٢٥٦- جبروت...

عالَم الملكوت للعبد فيه اختيار مادام فى هذا العالَم، فإذا دخل عالم الجبروت صار مجبوراً على أن يختار الحق، وأن يريد ما يريد، ولا يمكنه مخالفته أصلاً.

والجبروت: هو عالم العظمة، بمعنى أنه عالم السماء والصفات الإلهية. والجبروت صيغة المبالغة بمعنى الجبر، والجبّار الملك تعالى كبرياؤه، متفرّد بالجبروت لأنه يُجرى الأمور مجارى أحكامه، ويجبر الخلق على مجارى إلزامه، أو لأنه يستعلى عن درك العقول.

وقيل: الجبروت عبارة عن الذات القديمة؛ والملكوت الصفات القديمة، ويتضمن من فوق العرش إلى ما تحت الثرى، وما بين ذلك من الأجسام والمعانى والأعراض.

٢٥٧- جدل...

الجدل من المجادلة؛ والجدل هو الفَتْل، ويكون بين خصمين، كلّ واحد منهما يقاوم صاحبه حتى يغلبه. وهو عند الصوفية: المماراة، والاختلاف، والسباب، والفخر بالآباء، والصوفية لا يحبون الجدل لذلك.

ويُضرَب المثل لحب الجدال بغير علم: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ﴾ (الحج: ٨) بالنضر ابن الحارث، وكان يقول: أن الإنسان وقد بلى وصار تراباً وعظاماً نخرة، يستحيل أن يُبعَث إنساناً من جديد؛ وأن القول بأن الله قادر على أن يبعث فى الموتى الحياة، قولٌ يتجاوز الواقع والتجربة، فإن أردتَ أن نضرب المثل بمادىّ لا يؤمن إلا بالأسباب فليكن ذلك هو النضر بن الحارث. والإنسان عموماً محبٌّ للجدل: ﴿ وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴾ (الكهف: ٥٤)، والصوفية يتبعون نبيَّهم وربّهم، قال له: ﴿ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ (النحل: ١٢٥). وكان النضر من شياطين قريش وصناديدها فى الحرب، وكان صاحب لواء المشركين ببدر، وله معرفة بالفارسية، ويقرأ الكتب، ويعزف على العود، وكان أول عربىّ يتغنّى بألحان فارسية. ومع كل بُغضه للنبىّ ﷺ، فإنه كان ابن خاله! وكان يؤذيه أشدّ الأذى، ويحبّ أن يجادله بالباطل: ﴿ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ ﴾ (الكهف: ٥٦) وكان كلما جلس النبىّ يتحدّث فى الأمم السابقة، يجلس النضر قُبالته ويتحدّث بأخبار فارس وملوكها رستم واسفنديار، ويقول: أنا أحسن منه حديثاً. إنما يأتيكم محمد بأساطير الأولين! وقُتل النضر بعد بدر.

٢٥٨- جذب...

هو أن يجذب الله تعالى عبده إلى حضرته. وقال الصوفية فى المجذوب: هو مَن ارتضاه الحق تعالى لنفسه واصطفاه لحضرة أُنسه، وطَهّره بماء قُدسه، فحاز من المنح والمواهب ما فاز به بجميع المقامات والمراتب بلا كلفة المكاسب والمتاعب.

وهذا صفات لا يمكن أن تكون لمجذوب!! ولا يمكن أن يكون المجذوب صوفياً!! وكذبَ من يدّعى أن المجذوب يمكن أن يكون صوفياً!

وقيل: إن جذب الأرواح: هو مايكون عليه العبد من سمو القلب والمناجاة والمخاطبة والمشاهدة، وما يشاكل ذلك مما يبدو عليه من أنوار الهداية، بما يدل على مقدار قُربه وبُعده وصدْقه في وَجْده. ويصف الخَرّاز هذه الحالة فيقول: إن الله إذ يجذب إليه أرواح أوليائه يلذّذهم بذكره والوصول إلى قُربه، فيعيّش أبدانهم عيش الحيوانيين، ويعيّش أرواحهم عيش الربّانيين. كيف؟ لا أدري؟!!

والذى تأتيه الجَذْبات ويقال عنه «مجذوب»، يروى الشعرانى عن أمثاله، عن الشيخ إبراهيم العريان، وكان مجذوبًا: فكان يطلع المنبر ويخطب فى الناس عرياناً، ويقول أى كلام لا معنى له - وهو المسمى الهَذْر، وفعله وقوله من أعراض المفصومين والمصابين بالهوس الدينى. ويقول الشعرانى: إن الشيخ العريان هذا، كان يُخرج الريح بحضرة الأكابر، وينسبها إليهم ويحلف على ذلك. ومثل هذا الكلام لا يصدر عن الشعرانى، ولا يمكن أن يضمّن كتابه أناساً على هذه الهيئة يدرجهم ضمْن الصوفية! وفى الغالب أنها إضافات زُوِّرت عليه.

ويقول الدباغ: عن أفعال بعض المجذوبين مثل إبراهيم العريان: أنهم كانوا لا يستحون، ولكن الملائكة ما كانت تبالى بهم. وقال: إن غير الولى لو انكشفت عورته تنفر منه الملائكة! - وهو قول عجيب، فهل الملائكة تنفر من عورات ولا تنفر من عورات؟!! ويقول الدباغ: العورة عورتان: عورة حسّية وعورة معنوية، فإذا انكشفت عورة الولى لم تنفر منه الملائكة، لأن الولىّ إذا فعل ذلك فلغرض! فأى غرض هذا إلا أن يكون مجذوبًا؟

ويروى الكمشخانوى: أن الرحمانيين ثلاثة يجلسون عند الوحى عرايا، وليسوا مجذوبين، ويسمعون الوحى ويفهمون ما يريده منهم. فلماذا هم عرايا؟ لا ندرى، فهذا اجتهاده!

وعن الشعرانى، عن الضمرى: أن الشيخ محمد بن شعيب: كان يجلس على الهواء وله سبع عيون!! وأن الشيخ أبا علىّ كان يظهر مرة جندياً، ومرة سبعاً، ومرة فيلاً، ويقبض تراب الأرض فيعطيه الناس فضة وذهباً! - كلام مجاذيب!

وأقر الشيخ يوسف بن الحسين الرازى بأن به آفة الصوفية - وهى صُحبة الأحداث، ومعاشرة الأضداد، وأرفاق النسوان! - يعنى كان لديه كل أنواع الشذوذ والانحراف الجنسى! وكان الخرّاز به صُحبة الأحداث! يعنى أنه لوطى! وقال:

وقَلّ أن يتخلص من هذه أحدٌ من الصوفية. ـ يقصد: أنهم جميعاً إلا أقل القليل، بهم هذه الانحرفات والشذوذ والاضطرابات العقلية. وهى اضطرابات عقلية فعلاً وليست نفسية، بدليل أنها لا علاجات نفسية لها، وهم لذلك مجذوبون، والمجذوب هو المهووس، وفى الحالات السابقة يقال: مهووساً بالأحداث أو بالنسوان إلخ. ويبلغ هذا حداً شديداً عند الشعرانى فى حكايته عن دخوله على امرأته على قبر الشيخ البدوى! وكان قد تزوّج بها وظلت بكراً خمسة أشهر إلى أن سمح له الشيخ بالدخول عليها فوق ضريحه!!!

ويزيد الشعرانى فيروى: أن مولد الشيخ كان يحضره الأحياء والأموات! وأن شيخه الحريثى خرج من قبره بدمياط يمشى حتى القاهرة ثم اختفى!! وهذه كلها هلوسات سمعية وبصرية، وجنون عظمة، ونوهٌم قدرات غير محدودة، وهُذاءات مؤكدة تنبىء عن اضطرابات مرضية عقلية بأصحابها.

والصوفية عموماً وسيلتهم فى التمييز الذوق وليس العقل، فمن قال من الصوفية شيئاً، أو فعله على غير المألوف، ولم يخرج عن المعقول، فهو الصوفى، ومن يخرج عن المعقول فهو المجذوب، وهو أدنى مستويات الصوفية تفكيراً، إن كان من الصوفية أصلاً! وقد يرى المجذوب فى الشىء أنه حق، ويراه غيره أنه باطل، والفيصل أن لا يعترض معترض على الصوفى، فإذا قوبل فعله أو قوله بالاعتراض، فعندئذ لا شك أنه مضطرب التفكير ومشوّش الذهن ومشتت النفس، وربما مجذوب! وعندئذ يتوجب أن يُطرد من الجماعة. واعتراض صوفى على جماعته يوجب طرده، وشعارهم: «من اعترض انطرد».

ومما يؤخذ على الجنيد عندما أشرف على الموت، سألوه: أيزنى العارف؟ قال: نعم، وكان أمر الله قدراً مقدوراً! ونقول عمّا ادّعى أو عمّا تقوّلونه عليه: حقٌ لوّنوه ببباطل! ـ فلا أدرى كيف يكون عارفاً ويزنى؟ أو كيف يزنى ويقال له عارف! إلا إذا كان مجذوباً؟

٢٥٩ - جذبة...

هى جذب الله للعبد إلى حضرته وتفريده عناية منه، فهكذا قالوا ـ فيهيء له الله كل ما يحتاج إليه فى طىّ المنازل شطر الحق، بلا كُلفة ولا سعى منه. ـ لماذا؟ لا أدرى!

٢٦٠ - جَرَس...

إجمال الخطاب الإلهى الوارد على القلب بضرب من القهر، ولذلك شبّه النبىّ ﷺ الوحى بصلصلة (صوت)

الجرس، وبسلسلة علَى صفوان ـ أى على صخر، وقال إنه أشدّ الوحى.

٢٦١ - جسد...

الصورة المثالية، وكل روح تمثُل وتُبصَر فى الخيال، وتظهر فى جسم نارى كالجن، أو نورى، كما فى الملائكة، تصوراً، أو فى الإنسان مرئياً.

٢٦٢ - جشتية...

طريقة هندية، مؤسسها أبو إسحق الجشتى، من جشت بخراسان، وقيل هو أحمد أبدال الجشتى استقدمه إلى الهند معين الدين السجزى واستقر فى أجمير. وربما كان معين الدين هو نفسه الجشتى صاحب الطريقة، وأطلقوا عليه أفتاب ملك هند، يعنى شمس مملكة الهند، فقد كان من أكابر الصوفية ومن الأولياء.

والجشتية : يركزون فى الذكر على الشهادة، ولهم كُتب فى سِيَر أوليائهم.

٢٦٣ - جعفرية...

الطريقة الجعفرية الأحمدية المحمدية، مؤسسها الشيخ صالح الجعفرى (١٣٢٨ ـ ١٣٩٩هـ)، عن شيخه أحمد بن إدريس، وله فى التصوف «فتح وفيض من الله»، و«المُنتقَى النفيس».

٢٦٤ - جفر...

كُتُب الجَفْر ونظائره من كتُب الصوفية السرّية، أدخلها جعفر بن محمد الصادق، وقال الجفريون إن الجفر علمٌ يُتحصّل عن طريق الكرامة والكشف مما يقع للأولياء. وقيل: كان جعفر يحتفظ من ذلك فى جلد ثور صغير، ـ وكان يسميه لذلك باسم «الجُلْد»، وروى ذلك عنه هارون بن سعيد العجلى، إلا أن هارون هذا لما سألوه تبرأ من الجفر وممن تجفّر. وكثيراً ما تناول الصوفية موضوعات من الجفر، ومنهم محيى الدين بن عربى، والغزالى، واجتمع لجابر بن حيّان من الجفر الكثير فى رسائله، والصوفى عند جابر: هو العارف بعلم الباطن، والجفر ظاهر وباطن، وقيل كان ذو النون المصرى جفرياً.

وقيل الجَفْر اسمه كذلك بمعنى العلم الواسع، أو لأن علىّ بن أبى طالب، أو جعفر الصادق عندما كتب أبيهما هذا العلم، كتباه على جلد الجديان (جمع جَدْى)، لأنه جلدٌ يتحمّل ويستوعب الكثير من الكتابة. والجَدْى يقال له الجفر.

٢٦٥ - جلال...

صفة القهر، ويطلق أيضاً على الصفات السلبية، مثل أن لايكون الله تعالى جسماً ولا جسمانياً، ولا جوهراً ولا عَرَضاً، ونحو ذلك من السوالب.

والجلال صفة العظمة والكبرياء والمجد والسناء، وكل جمال فإنه لشدة ظهوره

يسمى جلالاً، كما أن كل جلال فإنه فى مبادى ظهوره على الخلق يسمى جمالاً، ومن هنا قيل: إن لكل جمال جلالاً، ولكل جلال جمالاً، وأن الخلق لايشهدون من الله إلا جمال الجلال، أو جلال الجمال، وأما الجلال المطلق، والجمال المطلق، فإن شهودهما لايكون إلا لله وحده.

٢٦٦ - جلوة...

الجِلْوَة (بالكسر) فى اللغة: ما يعطيه الزوج عروسه وقت الزفاف؛ وعند الصوفية الجَلوة (بالفتح) خروج العبد من الخلوة بالنعوت الإلهية، إذ عَيْنُ العبد وأعضاؤه ممحوة عن الأنانية، والأعضاء مضافة إلى الحق بلا عبد، فهو يعطى الله كل شىء، كقوله تعالى: ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ ﴾ (الأنفال ١٧)، وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾ (الفتح ١٠)، وهذه هى عطية العبد لله: أن لا يرى من المُلْك شيئاً لنفسه وإنما كله لله.

٢٦٧ - جلوتية...

طريقة صوفية أسسها عزيز محمود هدائى الإسكوداري، نسبةً إلى إسكودار من اسطنبول بتركيا، حيث مقام الطريقة الجَلْوَتية، من الجَلْوة وهى مرحلة تأتى بعد الخلْوة، فالخَلوتى الصوفى الذى ينزع عن نفسه الأنانية ويصبح مع الله تتحق له الجَلوة، ولا يبلغ الجلوتى هذه الدرجة إلا إذا كان فى الأصل خَلوتياً.

والجلوتية: فرع من **الطريقة الهاشمية** التى أسسها فى تركيا هاشم بابا سنة ١٧٧٣م، وقيل إنها تتفرع عن الطريقة **البيرامية**، وكان هدائى تلميذاً للشيخ أوفتاده الذى تلقى عن **حمد الله چلبى**، الذى أخذ عن **آق شمس الدين**، عن شيخه **حاجى بيرام**.

والجلوتية: طريقة سُنِّية تعتمد الذِّكر، ويكون بالأسماء السبعة الأصول من أسماء الله الحسنى، بالإضافة إلى خمسة أسماء فروع، هى: **الوهّاب، والفتّاح، والواحد، والأحد، والصمد.** ويختار شيخ الطريقة للمريد الأسماء التى عليه أن تكون بها أذكاره، بالإضافة إلى الصلوات والصيام من النوافل الخاصة بالطريقة.

وكان هدائى يطلق شعر رأسه، وتابعه مريدوه على ذلك. ويلبس الجَلوتى عمامة يسمونها التاج، من اثنتى عشرة قطعة، ترمز إلى **الأسماء الحسنى الإثنى عشر** والوحدة التى تجمع بينها جميعاً.

٢٦٨ - جلوس...

الجلوس مستحب فى المساجد، قيل إنها حوانيت بلا أبواب. وكان حسن

القَزاز يُكثر الجلوس فى الليل، فلما سألوه عن التصوّف فقال : هذا الأمر (يقصد التصوف) بُنِى على ثلاثة : أن لا تأكل إلا عن فاقه، ولا تتكلم إلا عن ضرورة، ولا تنام إلا عن غلبة. يقصد أن ليله أغلبه جلوس.

ويروى عن أبى يزيد البسطامى أنه قال: قمتُ ليلةً أصلّى فعييت، فجلست ومددت ساقى، فسمعت هاتفاً يقول: من يجالس الملوك ينبغى له أن يُحسن الأدب. ـ يعنى للجلوس آداب بالنسبة للصوفى.

٢٦٩ - جمار...

الجمار: ثلاث جَمَرات، واحدتها جَمرة، عبارة عن النفس، والطبع، والعادة، يحصب العبد كلاً منها بسبع حصوات، يفنيها ويدحضها بقوة آثار الصفات الإلهية السبع، وهى: الحىّ، والعالم، والمريد، والقادر، والسميع، والبصير، والمتكلم.

٢٧٠ - جمال...

يطلق على معنيين، أحدهما: الجمال المكتسب: الذى يعرفه العامة، مثل صفاء اللون ولين الملمس وغير ذلك، وهى مسائل مكتسبة؛ وثانيهما: الجمال الحقيقى، وهو التناسب بين الأعضاء، وأن يكون كل عضو على أفضل ما ينبغى فى نفسه ومع سائر الأعضاء.

والجمال الحقيقى الذى يعنى الصوفية: هو الجمال الإلهى، وهو صفة أزلية لله تعالى، شاهده فى ذاته مشاهدة علمية فأراد أن يراه فى صُنعه مشاهدة عينية، فخلق العالم كمرآة شاهَدَ فيه جماله عياناً.

والجمال من الصفات: ما يتعلق بالرضا واللطف، أو هو أوصاف لُطف الله ورحمته.

والجمال مطلق ومقيد : فالمطلق ما يستحقه الحقّ وينفرد به؛ وأما المقيدّ فكلىّ وجزئى، فالكلىّ يفيض من الله على العوالم والنفوس وسائر الأشياء، فما من ذرة إلا وقد أشرق عليها هذا الجمال الإلهى بقدر احتمالها وما قدّر لها مولاها، ولا يخلو موجود من هذا الجمال الكلى، ولا يدركه إلا من كانت ذاته كلية، مثلما أن الجمال الجزئى يدركه من كانت ذاته جزئية. والفرد الكلى الذات: هو الذى تناسب ذاته كل الذوات فيكون كلها وتكون كله. والعارف الذى يناسب الأشياء كلها بما له معها من الاشتراك فى النور الجمالى الإلهى، يرى فى ذاته والأشياء أنها ذلك النور الجمالى يضمها

جميعاً وتضمه، فكان هو كلها وكانت هي كله. والجمال الجزئي نور علوي يسنح للنفس عند إدراك الصورة الجميلة، فتبتهج به وتسعد بذلك الابتهاج لقبول إشراق نور آخر أشد روحانية، لأن النور يستدعي النور وينجذب إليه للمناسبة بينهما، وذلك الابتهاج هو المعبَّر عنه بأنه حُبّ الجمال والذي يشتد فيصبح تَعشُّق الجمال.

والجمال ظاهر وباطن، والظاهر يتعلق بالأجسام ويُدرَك معها، والباطن هو الجمال المجرد. والجمال الظاهر وإنْ بدا تعلقه بالأجسام، إلا أن العقل يدركه بإشراق النفس على البدن وتجلّيها عليه، فإذا كنا لانكتفي في إدراك الجمال الظاهر بالحواس، فإن معنى ذلك أن إدراكه يكون بنور العقل، فهو الذي يهدي الحواس إليه، والعقل نور والجمال نور، ولايدرك النور إلا نور مثله. وأما الجمال الباطن فهو محصلة إشراق النور الجمالي الإلهي على العقول الزكية، فتتكون لها به العلوم والمعارف الربّانية وسائر الكمالات والفضائل. ولايدرك هذا الجمال إلا العقول التي هي في غاية الصفاء.

وجمال الله تعالى عبارة عن أوصافه العلية وأسمائه الحسنى، هذا على العموم، وأما على الخصوص فهو أوصافه: الرحمة، والعلم، واللطف، والنعمة، والجود، والرازقية، والخلاقية، والنفع، وأمثال ذلك، وكلها صفات جمال. ثم أن هناك صفات مشتركة لها وجه إلى الجمال ووجه إلى الجلال، كاسم الربّ فإنه باعتبار التربية والإنشاء اسم جمال، وباعتبار الربوبية والقُدرة اسم جلال. ومثله اسم «الله»، واسم «الرحمن»، وأما اسم «الرحيم» فإنه اسم جمال.

وجمال الحق وإن كان متنوعاً فإنه نوعان، معنوي: هو معاني الأسماء والصفات؛ وصوري: هو عالم المخلوقات، والقبيح منها كالمليح باعتبارهما مجلى الجمال الإلهي.

وباعتبار تنوّع الجمال فإن من الحُسن إبراز جنس القبيح على قُبحه لحفظ مرتبته من الوجود. والقبح في الأشياء إنما هو بالاعتبار لا بنفس ذلك الشيء، فلا يوجد في العالم قبيح إلا بالاعتبار، فارتفع حكم القبيح المطلق من الوجود، فلم يبق إلا الحُسن المطلق.

وأيضاً فإن قبح المعاصي لم يظهر إلا باعتبار النهي، فعُلِمَ أن الوجود بكماله هو صورة لحُسن الله تعالى ولمظهر جماله.

والصوفية طلاّب جمال، ويهزّ وجدانهم مشاهدته. وأعلام الصوفية إما شعراء، وإما أصحاب فكر ويكتبون النثر البديع،

ومنهم من يكتب الخط ويرسمه، وسلوكهم فى الحياة سلوك جمالى خالص، والسبب أنهم يطالعون فى كل ما يكتبون أو يقولون أو ينشدون أو يسلكون ـ الجميل الذى هو الله.

٢٧١ - جَمْع...

من الألفاظ كثيرة التداول عند الصوفية **الجمع والتفرقة**؛ **والجمع**: هو جمع متفرقات؛ **والتفرقة**: تفرقة مجموعات. وإذا قلت الله ولا سواه فقد جمعت، وإذا قلت الدنيا والآخرة والخَلق فقد فرّقت. وما يكون كسباً للعبد من إقامة العبودية ويليق بأحوال البشرية فهو فرق، وما يكون من قِبل الحق من إبداء المعانى وإسداء اللطف والإحسان فهو جمع؛ ومَن يُشهده الحق ما يوليه من أفعال نفسه سبحانه فهو عبدٌ يشاهد الجمع، فإثبات الخلق من باب التفرقة، وإثبات الحق من نعت الجمع، ولابد للعبد من الجمع والتفرقة، لا يستغنى بأحدهما عن الآخر، فمن أشار إلى جمع بلا تفرقة فقد أنكر قدرة القادر وهذا إلحاد وزندقة، ومن أشار إلى تفرقة بلا جمع فقد جحد البارى وهذا تعطيل. والعبد الذى يجمع بين الحالين إنما هو موحِّد. وإذا إختُطف العبد عن شهود الخلق ونسى نفسه وأُخذ بالكلية عن الإحساس بما حوله واستولى عليه سلطان الحقيقة فإن ذلك يسمى جمع الجمع، وبعد ذلك يحدث **الفرق الثانى** وهو أن يُرَدّ العبد إلى الصحو عند أوقات الفرائض ليقوم بها فى أوقاتها، فيكون رجوعه لله بالله، لا للعبد بالعبد، لأنه يطالع نفسه فى هذه الحالة فى تصريف الحق سبحانه، ويشهد مجرى أفعاله وأحواله عليه.

والجمع والفرق: هو تصريف الحَق لجميع الخلق، فجَمَع الكل فى التصريف من حيث أنه خالقهم ومنشىء صفاتهم، ثم فرّقهم فى التنويع، ففريقاً قرّبهم وأسعدهم، وفريقاً أبعدهم وأشقاهم، وفريقاً هداهم، وفريقاً أضلّهم؛ وفريقاً خلقهم جنساً أصفر، وفريقاً جنساً أبيض، وفريقاً جنساً أسود؛ وفريقاً جعلهم عرباً، وفريقاً عجمًا، وهكذا.

٢٧٢ - جمعية...

اجتماع الهمّة فى التوجّه إلى الله تعالى والاشتغال عما سواه، وبإزائها **التفرقة**، وهى توزُّع الخاطر للاشتغال بالخلق.

٢٧٣ - جنائب...

هم السائرون إلى الله فى جنابه، حاملين لزاد التقوى والطاعة، وأكثر سيرهم فى الليل، أى أكثر تعبُّدهم لله تعالى فى الليل.

٢٧٤ - جنة...

جنّة الأفعال: هى الجنة الصورية من جنس المطاعم والمشارب والمناكح، ثواباً للأعمال والأقوال الصالحة، وتسمّى جنّة الأعمال، وجنّة النفس.

وجنةّ الوراثة: هى جنة الأخلاق الحاصلة بحُسن المتابعة للنبىّ ﷺ ورائثةً عنه.

وجنّة الصفات: هى الجنة المعنوية من تجلّيات الصفات والأسماء الإلهية، وتكون فى الدنيا والآخرة، وهى جنّة القلب أيضاً.

وجنّة الذات :هى من مشاهدة جمال الأحدية، وهى جنة الروح أيضاً.

ولمّا سألوا النبىّ ﷺ عن الجنة قال: «من يدخلها ينعم ولا ييأس، ويخلد ولا يموت. لا تبلى ثيابه، ولا يفنى شبابه».

٢٧٥ - جنيدية...

طريقة أبى القاسم الجنيد المتوفى ٢٩٧هـ (٩١٠م)، وتقوم على الصحو، وتوفق بين الشريعة والحقيقة، وتجمع بين الظاهر والباطن، وقيل لذلك هى أكثر ملائمةً للمبتدئين.

٢٧٦ - جهاد...

المجاهدة صدق الافتقار إلى الله تعالى بالانقطاع عن كل ما سواه. وقال جعفر الصادق : هى بذل النفس فى رضاء الحق.

وقال أبو عثمان : هى فطام النفس عن الشهوات، ونزع القلب عن الأمانى والشبهات. والجهاد الأكبر مع النفس الأمّارة.

٢٧٧ - جهة...

اعتبار الذات بحسب تنزيهها عن كل ما يُفهم ويُقال، وهو اعتبار الوحدة الحقيقية التى لا اتساع معها للغير، لا وجوداً ولا تعقلاً، وهو الضيق كقولهم: لا يعرف الله إلا الله، بينما اعتبارهم بحسب ظهورها فى جميع المراتب باعتبار الأسماء والصفات المقتضية للمظاهر غير المتناهية هو السعة. كما قيل :

لا تقل دارها بشرقى نجد
كلُّ نجد للعامرية دار
ولها منزل على كل ماء
وعلى كلّ دمْنة آثار

وفى القرآن: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ (البقرة ١٦٥).

٢٧٨ - جهمية...

كان الصوفية دائمًا ضد مذاهب المبتدعة، ومنهم القدرية، والجهمية والحشوية، ولعل رسالة القشيرى فى التصوف فيها الردّ على أمثال هؤلاء.

والجهمية نسبةً إلى جَهْم بن صفوان، وهو الذى وضع المذهب، يقول: لا قُدرة للعبد أصلاً، لا مؤثرة ولا كاسبة، بل هو بمنزلة الجمادات، يعنى أنه والجهمية جميعًا، أنكروا الاختيار، وأسقطوا من ثَمّ مسئولية الإنسان عن أعماله. وقال: إن الجنة والنار تُفنيان بعد دخول أهلهما، فلا يبقى موجود سوى الله، يعنى أن الوجود إلى فناء! - وذلك ما رفضه متصوّفة السُّنة أمثال القشيرى.

٢٧٩ - جهنم...

جَهنّم المأوى، وجهنم النُّزُل، وجهنم الحصير، وجهنم المثوى، وجهنم القرار، وجهنم المهاد، وجهنم النار، وجهنم المصير، وجهنم السعير، وجهنم المحشر، وجميعها أسماء لجهنم الأفعال، أو جهنم الصورية؛ أما جهنم الصفات أو جهنم المعنوية: فهى من تجليات أو صفات الجبروت، يُساق إليها المجرمون وردًا، لا يموتون فيها ولا يحيون، وهم حَصَبُها وحَطَبُها، أى وقودها، يُحشَرون على وجوههم، وتمتلىء بهم، ويدعون (يدفعون ويساقون) إليها دعًّا، فيقال لها: هل امتلأت؟ فتقول: هل من مزيد!

فهذه جهنم التى كذّبوا بها، وهى لهم بالمرصاد، يحيط بهم سرادقها، ويساق إليها القاسطون والمنافقون والمكذّبون ومَن خفّت موازنيه، جزاءً بما كفروا، كلما خبت نارها زيدت سعيرًا، يلقون فيها مذمومين مدحورين، ويُسقَوْن من ماء صديد، ونارها الأشد حرًا تُكوَى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم، ومن فوقهم غواش أو لُحُف من النار، ومن تحتهم مهاد من نار، وجميع ذلك جزاء الذين خسروا أنفسهم وكفروا بربِّهم، لا يجدون عن النار محيصاً. فهذه جهنم الكبرى فى الآخرة، وهناك جهنم الصغرى فى الدنيا، وهى الحال من الوحشة وظلمات النفس وضيق الاختيار، كى يتردّى فى مراده، فيقع بامتمرار فى العقوبة والمحنة: ﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الأَكْبَرِ ﴾ (السجدة ٢١). (انظر جهنمية).

٢٨٠ - جوامع الكلم...

هى الألفاظ القليلة تحوى المعانى الكثيرة، وفى الحديث: «أوتيتُ جوامع الكلم»، ومن ذلك عن عائشة أنه ﷺ قال: «الموت غنيمة، والمعصية مصيبة، والفقر راحة، والغنى عقوبة، والعقل هدية من الله، والجهل ضلالة، والظلم ندامة، والطاعة قُرّة العين، والبكاء من خشية الله النجاة من النار، والضحك هلاك البدن، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له». وكلام الصوفية من ذلك تشبُّهًا بالنبىّ ﷺ، كقول القائل: أنا

أنت وأنت أنا، فهى عبارة جامعة، وكان يشار إلى مجنون ليلى ويقال: هذا مجنون بنى عامر، إذا سئل عن ليلى يقول: أنا ليلى، - يغيب بليلى عن ليلى، وعبارته جامعة.

٢٨١ - الجوّانية...

هى علم الباطن أو الدخائل، وقد شاع المصطلح بكتاب الدكتور عثمان أمين بنفس الاسم، فقد روى عن عليّ بن أبى طالب أن النبىّ ﷺ قال له: يا عليّ! ما من عبد إلا وله جوّانى وبرّانى - بمعنى سريرة وعلانية - فمن أصلح جوّانيّهُ أصلحَ الله برانيّه، ومن أفسد جوّانيّه أفسد الله برانيّه.

ويعرّف جابر بن حيان «العلم الجوّانى» بأنه: العلم بالشىء المدبَّر من داخل؛ و«العلم البرّانى»: هو العلم بما يدبَّر من خارج، ومعنى الجوّانى هو البطون والاتصال، ومعنى البرّانى هو الظهور والانفصال.

والحلاّج فى الطواسين يقول: المنكَر هو فى دائرة البرّانى، ويتحدث الحلاج عن الفوقانى، والتحتانى، والوسطانى.

والمعرفة الكشفية عند الغزالى جوّانية، يصل إليها السالك بعد مجاوزة المعطيات الحسية والاستدلالات العقلية، وتحصيلها عن طريق القلب، يقول: لو فرضنا حوضاً محفوراً فى الأرض، احتمل أن يساق إليه الماء من فوقه بأنهار تفتح فيه، ويحتمل أن يحفر أسفل الحوض ويرفع منه التراب إلى أن يقرب من مستقر الماء الصافى، فيتفجر الماء من أسفل الحوض، ويكون ذلك الماء أصفى وأدوم، وقد يكون أغزر وأكثر، فذلك القلب مثل الحوض، والعلم مثل الماء، وتكون الحواس الخمس مثل الأنهار. وقد يمكن أن تساق العلوم إلى القلب بواسطة أنهار الحواس - والاعتبار بالمشاهدات - حتى يمتلىء علماً. ويمكن أن تسد هذه الأنهار بالخلوة والعزلة وغضّ البصر، ويعمد إلى عمق القلب بتطهيره ورفع طبقات الحجُب عنه حتى تنفجر ينابيع العلم من داخله.

وطرق الجوانية عند الغزالى مدار علم الأعمال بما يفسدها ويهيّج الوسواس ويشوّش القلب ويثير الشر، وهو طريق صعب لا يميل إليه أكثر الناس، وإنما ميلهم للأوفق لطابعهم، لأن معرفة القلب وصفاته وتطهيره عن الأخلاق المذمومة هو مجاهدة دائمة للنفس.

والجوانية عند الصوفية المحققين: مراعاةٌ للأسرار، ومحافظةٌ للقلب بالإخلاص، بالتوقّى عن ملاحظة الخلق ومطالعة النفس.

والجوانية: هى رؤية النفس وأحوالها،

وأشد من ذلك مطالعة الأغراض على أفعالها، فلا خير فى قول ولا فعل إلا مع النية.

٢٨٢ - جُود وسخاء...

فى الحديث: «السخى قريب من الله، قريب من الجنة، بعيدٌ من النار. والبخيل بعيدٌ من الله، قريبٌ من النار، بعيدٌ من الجنة. والجاهل السخى أحب إلى الله من عابد بخيل». رواه الترمذى والبيهقى. والجود والسخاء للإنسان عارية، وأما الله فإنه جواد ولكنه لم يُسَمَّ سخياً. وفى القرآن شبيه بذلك: أن الله عالم ولكنه لا يسمى عاقلاً أو فقيهاً. ثم إن من دأب السخى أن يمن فى نواله وليس كذلك الجواد. وكان إبراهيم عليه السلام سخياً، بينما نبّينا عليه الصلاة والسلام كان جواداً. والصوفية دأبهم الجود، وكما يقول سهل بن عبد الله التسترى: إن الصوفى دمه هدر، وملكه مباح».

٢٨٣ - جوع...

الجُوع عند الصوفية على أربعة أوجه: جُوعٌ للمريدين فهو رياضة؛ وجوعٌ للتائبين فهو تجربة؛ وجوعٌ للزُّهّاد فهو سياسة؛ وجوعٌ للعارفين فهو مكرمة.

والجوع عند الصوفية: سرٌّ من أسرار الله لايبذله لمن يفشيه، ولذلك قالوا: لو كان الجوع يباع فى الأسواق فإنه ما كان ينبغى لطلاّب الآخرة أن يشتروا غيره. وفى الحديث: بطنٌ جائع أحبُّ إلى الله من سبعين عابد غافل». والجوع: عمارة الباطن؛ والشبع: عمارة البطون. والصوفية: يأكلون ليعيشوا، وغيرهم يعيش ليأكل. والجوع طعام الصدّيقين ومسلك المريدين. والمريد: أكله فاقة، ونومه غلبة، وكلامه ضرورة. والفاقة: هى الامتناع عن الأكل يومين بلياليهما، وقيل ثلاثة أيام بلياليها، وقيل أسبوع، وقيل أربعين يوماً.

ومن آدابهم فى الجوع: أن الفقير لايعانق الجوع إلا وقت الشبع، حتى إذا جاع يكون الجوع أنيسه.

٢٨٤ - جوعية...

الجُوْعية: هم الصوفية عند أهل الشام، لأنهم ينالون من الطعام قدر ما يقيم الصلب للضرورة، كما قال النبىّ ﷺ: «بحسب ابن آدم أكلات يقمن صُلبه». وقال السَّرِىّ السقطى: أكلهم أكل المرضى، ونومهم نوم الغرقى، وكلامهم كلام الخرقى.- وكان كعب الأحبار يسميهم كذلك الظمئية بدلاً من الجوعية، لأنهم يُظمئون أنفسهم كما يجيعونها على سواء. ويقابل هذا التَصَوف الجوعى فى الشام، لِبس الصوف فى الكوفة، والتحنُّن

والبكاء عند صوفية البصرة. وكان فيلسوف التصوّف الجوعي في الشام: قاسم بن عثمان الجوعي. (انظر أيضًا قاسم ابن عثمان الجوعي فيلسوف التصوّف الجوعي).

٢٨٥ - جوهر...

ماهيةٌ إذا وجدت في الأعيان كانت لا في موضوع. وينحصر الجوهر في خمسة: هيولى وصورة وجسم ونفس وعقل، لأنه إما أن يكون مجرداً أو غير مجرد، فالأول: إما أن يتعلق بالبدن تعلق التدبير والتصرف وهو العقل، أو لا يتعلق وهو النفس؛ والثاني: وهو غير المجرد، فإما أن يكون مركباً وهو الجسم، أو لا، فيكون حالاً وهو الصورة، أو محلاً وهو الهيولى. وتسمى أيضاً بالنفس الرحماني، والهيولى الكلية، وما يتعين منها وصار موجوداً من الموجودات يسمى بالكلمات الإلهية. قال الله تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾ (الكهف ١٠٩).

٢٨٦ - جهنميون...

هم الموحِّدون، أذنبوا ولم يتوبوا، فيُطلَق عليهم اسم الجهنميين، وفي الحديث عند الطبري عن أنس مرفوعاً: أن ناساً من أهل لا إله إلا الله يدخلون النار بذنوبهم، فيقول لهم: اللات والعُزّى (يعني من كانوا يتعبّدون لهم من غير الله): ما أغنى عنكم قولكم لا إله إلا الله وأنتم معنا في النار! فيغضب الله لهم، فيخرجهم، فيلقيهم في نهر الحياة (يعني المَطْهَر) فيبرءون من حَرْقهم (يقصد حروقهم التي أصابتهم في النار) كما يبرأ القمر من خسوفه (يعني يعود إليهم البهاء الذي لهم أصلاً بإقرارهم بوحدانية الله)، ويُدخلون الجنة، ويُسَمُّون فيها الجهنميون»، (يعني يُميَّزون عن أهل الجنة الأصليين). وفي الرواية أيضاً: فيُسَمُّون في الجنّة الجهنميين من أجل سواد في وجوههم، فيقولون: يارب! أذهبْ عنّا الاسم، فيأمرهم فيغتسلون في نهر الجنة، فيذهب ذلك الاسم عنهم». فكأن الجهنميين موسومون بميسم أهل جهنم، وهو سواد الوجه، رغم أنهم في الجنة، فإذا اغتسلوا منه بماء الجنة زال عنهم الميسم، وكذلك الجهنميون في الدنيا إذا اغتسلوا بماء التوبة النصوح (انظر جهنم).

٢٨٧ - جيلانية...

طريقة عبد القادر الجيلاني المتوفى سنة ٥٦١هـ (١١٦٧م)، وهي أيضاً الطريقة القادرية، قيل كانت أول طريقة صوفية، أساسها: التكسُّب والعمل باليدين، والغناء عن الخلق، والبقاء بالشريعة.

* * *

باب الحاء

* * *

٢٨٨- حال...

هو مايرد على القلب أو يحلّ به من كَرْب أو حُزن أو بسط أو قبض، وتسمى الحال بالوارد أيضاً، ولذا قالوا: لا ورد لمن لا وارد له.

وقيل: **الأحوال** هى المواهب الفائضة على العبد من ربّه، إمّا واردة عليه ميراثاً للعمل الصالح المزكّى للنفس، المصفّى للقلب، وإمّا نازلة من الحق تعالى امتناناً محضاً. وإنما سميت **الأحوال أحوالاً** لحول العبد بها من الرسوم الخَلْقية ودركات البُعد إلى الصفات الحقية ودرجات القُرب، وذلك هو معنى الترقّى.

وقيل: معنى **الأحوال** هو ما يحلّ بالقلوب من صفاء الأذكار، وقيل **الحال** هو الذكْر الخفىّ. وقال الجنيد: **الحال** نازلة تنزل بالقلوب، فلا تدوم.

ويقال: إن أيوب عليه السلام كان «صاحب وقت»، يشعر بالغيبة، والدنيا له كالنار؛ بينما إبراهيم عليه السلام كان «صاحب حال» لا يميز البلوى عن النعمى. (انظر وقت).

وسرّ **الحال**: هو ما يُعرف من مَدَد الله فى كل حال.

٢٨٩- حالية...

فرقة من المتصوفة غلطوا فى **الأحوال**، فظنوا أن ما بهم من **حال** الدنوّ والقُرب يمكن أن يصرفهم عن الآداب التى كانوا يراعونها، والحدود التى كانوا يحفظونها قبل ذلك، فانبسطوا إلى ما كانوا محتشمين، وأنسوا بأشياء كانوا عنها مستوحشين، وتوهموا أن ذلك هو **حالهم** فى القرب والدنوّ، وغلطوا فى ذلك لأن تجاوزهم للحدود ومخالفتهم لما أُمروا به يطردهم من الباب، وتصير سمتهم سمة المطرودين، فى حين أنهم يحسبون أنهم من المقبولين، وكلما توهموا ذلك ازدادوا سُحقاً وبُعداً.

٢٩٠- حبّ...

الصوفية هم أهل الحُبّ، والحُبّ أصناف، فحبّ الله والرسول، والحبّ فى الله عمومًا، هما أعلى صنوف الحُبّ عند الصوفية: يحبّون الله ورسوله، ويحبّون بعضهم البعض والناس جميعاً، يقول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ (البقرة ١٦٥)، ويقول: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ (آل عمران ٣١) ويقول: ﴿مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ

﴿يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ (المائدة ٥٤). وفي هذا الحبّ يقول أبو العزائم :

قلوب براها الحبّ حتى تعلّقت
مذاهبها في كل غرب وشارق
تهيم بحبّ الله والله ربُّها
معلقةٌ بالله دون الخلائق
هو الحبُّ نورٌ يكشف الحجب عن قلبي
فاهتز حالَ الذِّكر شوقاً إلى ربّي
سقانا رسول الله خمرة حبه
فأسكرنا طه فهمْنا إلى الربّ

وتقول رابعة العدوية :

أحبّك حبّين حبّ الهوى
وحبّاً لأنك أهل لذاك
فأمّا الذي هو حبّ الهوى
فشُغلي بذكرك عمّن سواك
وأمّا الذي أنت أهلٌ له
فكشفك للحجب حتى أراك
فلا الحمد في ذا ولا ذاك لي
ولكن لك الحمد في ذا وذاك

وفي هذه الأبيات تميز رابعة بين حبّين: هما حب الهوى، والحبّ للحقّ تعالى، ومعنى حبّ الهوى أني رأيتك فأحببتك عن مشاهدة اليقين لا من خبر وسمع تصديق، من طريق النعَم والإحسان، فتختلف محبتي إذا تغيرت الأفعال لاختلاف ذلك علي، ومع ذلك فإني بمحبتك وهروبي إليك قد اشتغلت بك لما تفرغت لك. وأما الحب الثاني الذي هو أهلٌ له: فهو حبّ التعظيم والإجلال لوجهه العظيم ذي الجلال، أي الحب الذي ليس باعثه نعمة بل باعثه المحبوب لذاته وبذاته، فهو سرّ من أسرار الله؛ وذو النون المصري يرى أن هذا الحب خاص بالعارفين، ولا يجب أن يذاع بين العامة؛ ومعروف الكرخي يقول فيه إنه منحة إلهية وليس اكتساباً بالتعلّم، ومعروفٌ هذا هو الذي قال تلميذ له بعد وفاته أنه رآه في المنام تحت العرش، والله تعالى يسأل الملائكة: مَن هذا ؟ فيقولون أنت أعلم يارب! فيقول: هذا معروف الكرخي، سَكِرَ من حبّي فلا يفيق إلا بلقائي.

وقال سهل بن عبدالله: علامة حبّ الله حبّ القرآن؛ وعلامة حبّ القرآن حبّ النبيّ ﷺ؛ وعلامة حبّ النبيّ ﷺ، حبّ السُّنّة؛ وعلامة حب الله، وحبّ القرآن، وحبّ النبيّ، وحبّ السُّنّة، حبّ الآخرة؛ وعلامة حبّ الآخرة أن يحبّ المحبّ نفسه؛ وعلامة حبّ نفسه أن يبغض الدنيا؛ وعلامة بُغض الدنيا ألا يأخذ منها إلا الزاد والبُلغة. وفي الحديث: إن الله إذا أحبّ عبداً

أحبّه أهل السماء، فيوضع له القَبُول فى الأرض، وإذا أبغض عبداً بغضه أهل السماء، فتوضع له البغضاء فى الأرض».

وأصل كلمة الحُبّ ربما من الحَبّ - أى البذور، لأنها أصل النباتات، كما أن الحُب أصل الحياة؛ وربما من الحِبِّ وهو قِدْر الماء، لأن القلب مثله، والحُب يملأ القلب كما يملأ الماء القِدْر؛ وربما من الحُباب وهو غليان الماء، كغليان القلب يشتاق للحبيب؛ وربما لأن الحُبّ مثل حَبّة العين وهى أصل العين، كما أن الحب يكون فى سويداء القلب وهو أصل القلب.

والحبّ هبة ربّانية وليس بالصفة المكتسبة، وهو عند الزُهّاد أظهر من الاجتهاد، وعند التائبين أوجَدُ من الحنين والأنين. وقصص الحب والأحبة أشهر ألوان الأدب الصوفى الأريب. (انظر المحبة).

٢٩١- خبز...

من التحبير وهو التحسين، والأحبار هم الذين يُحبِّرون العلم؛ وفى التصوّف: الأحبار - مثل السهروردى صاحب العوارف، والشاذلى شيخ المشايخ، والشّعرانى الشيخ الإمام، وابن عربى الصوفى العالِم، والإمام عبدالحليم محمود، والإمام الشعراوى، وأبى طالب المكّى، والإمام الغزالى، والسرّاج الطوسى، وابن عطاء الله السكندرى، والهجويرى، والكلاباذى، والدكتور التفتازانى إلخ.

٢٩٢- حَبَشِيّة...

فرقة من المتصوفة المُبطلة، جعلوا همّهم فى الحُبّ، وشُغلوا به وأداروا حديثهم حوله، وشربوا الخمر بدعوى أنها خمرة المُحب، ومارسوا السُكْر على الحقيقة، وخالطوا النساء، وكانت لهم ممارسات مع بعضهم البعض، فارتكبوا الآثام واستباحوا المحرّمات، واعتقادهم أن العبد إذا وصل إلى درجة المحبة سقطت عنه التكاليف!

٢٩٣- حَجّ...

الاهتمام بحجّة الإسلام من آداب الصوفية، وهو همّهم ما استطاعوا، إلا أنهم فى ذلك أصناف: فصنف يكتفون بحجة واحدة، ومنهم سهل بن عبد الله، وأبو اليزيد البسطامى، والجنيد، وحُجتهم أن الرسول ﷺ لم يحجّ إلا مرة واحدة؛ وطبقة أخرى تكرر الحجّ ولا يتقصّى وطرهم منه؛ وجماعة تختار أن تجاور فيحبسون أنفسهم على مكة، ولهم فى المجاورة آداب. والصوفى فى الحجّ لا يُقصر الصلاة، ولايتيمم بدعوى أنه على

سفر، فالصوفية فى السفر والحضر على سواء.

والحجّ فى المصطلح الصوفى: إشارة إلى استمرار القصد فى طلب الله تعالى. **والإحرام**: إشارة إلى ترك شهود المخلوقات. **وترك المخيط**: إشارة إلى التجرّد عن الصفات المذمومة بالصفات المحمودة. **وترك حلق الرأس**: إشارة إلى ترك الرياسة البشرية. **وترك تقليم الأظافر**: إشارة إلى شهود فعل الله فى الأفعال الصادرة منه. **وترك الطِّيب**: إشارة إلى التجرّد عن الأسماء والصفات لتحققه بحقيقة الذات. **وترك النكاح**: إشارة إلى التعفف عن التصرّف فى الوجود. **وترك الكُحل**: إشارة إلى الكفّ عن طلب الكشف بالاسترسال فى هوية الأحدية. **والميقات**: عبارة عن القلب. **ومكة**: عبارة عن المرتبة الإلهية. **والكعبة**: عبارة عن الذات. **والحجر الأسود**: عبارة عن تلوثه الإنسانية، واسوداده: عبارة عن تلوثه بالمقتضيات الطبيعية. **والطواف**: عبارة عمّا ينبغى من أن تدرك هوية الإنسان ومحتده ومنشأه ومشهده، وكونه سبعة: إشارة إلى الأوصاف السبعة التى بها تمت ذاته تعالى، وهى: الحياة، والعلم، والإرادة، والقدرة، والسمع، والبصر، والكلام. **والصلاة مطلقاً** بعد الطواف: إشارة إلى بروز الأحدية وقيام ناموسها فيمن تم له ذلك، وكونها يستحب أن تكون خلف مقام إبراهيم: إشارة إلى مقام الخلّة. **وزمزم**: إشارة إلى علوم الحقائق. **والصفا**: إشارة إلى التصفّى من الصفات الخَلقية. **والمروة**: إشارة إلى الارتواء من الشُّرب بكاسات الأسماء والصفات الإلهية. **والتقصير**: إشارة إلى من قصّر فنزل عن درجة التحقيق التى هى مرتبة أهل القربة فهو فى درجة العيان. **والخروج عن الإحرام**: عبارة عن التوسع للخلق والنزول إليهم بعدم العندية فى مقعد الصدق. **وعرفات**: عبارة عن مقام المعرفة بالله. **والمزدلفة**: عبارة عن شيوع المقام وتعاليه. **والمشعر الحرام**: عبارة عن بلوغ المنى لأهل مقام القربة. **والجِمار الثلاث**: عبارة عن النفس والطبع والعادة، فيحصبها، أى يفنيها ويُذهبها بقوة آثار الصفات الإلهية السبع. **وطواف الإفاضة**: عبارة عن دوام الترقّى لدوام الفيض الإلهى. **وطواف الوداع** إشارة إلى الهداية إلى الله تعالى بطريق الحال.

وقيل: أظلم الأشياء دار الحبيب بلا حبيب، فليست الكعبة المقصودة بالحجّ وإنما

المشاهدة والفناء فى دوام الخُلّة التى تمثلها الكعبة.

والحج: سفر من المعاصى، وقطع للمقامات فى الطريق من مقام إلى مقام؛ والإحرام تخلى عن صفات الآدمية؛ والوقوف بعرفة وقفةٌ لمشاهدة الله؛ والمزدلفة زُهدٌ فى المقاصد الشهوانية؛ والطواف بالكعبة مشاهدةٌ للجمال الإلهى؛ والصفا والمروة مقام؛ والنَّحر تركٌ للطبائع البشرية؛ ورمى الجمارة رمى للآمال الدنيوية.

والحجّ الأكبر: إشارة إلى قمة البلوغ فى مقصد الحج، وهو الإعلان عن نقض العهد مع الغى والضلال، وقطع الوصلة على وجه المُهْلَة، فقد برح الخفاء أن المكذّبين ليس لهم ولاء، وما يصحّ معهم وفاء، وقد وجب لذلك إعلام الكافة أنهم أعداء: ﴿وَأَذَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ﴾ (التوبة ٣).

ويوم الحج الأكبر: هو يوم النحر الذى هو أفضل أيام المناسك وأطهرها وأكبرها جميعاً، وإنما قيل الأكبر من أجل قول الناس الحج الأصغر. وكان عمر بن الخطاب يقول عن يوم الحج الأكبر: هذا يوم عرفة. هذا يوم الحج الأكبر فلا يصومنه أحد. وكان ابن عمر ينهى عن صومه ويقول: هو يوم الحج الأكبر. وقال المغيرة بن شعبة فيه: هذا يوم الأضحى، وهذا يوم النحر، وهذا يوم الحج الأكبر. وعرّفه ابن أبى أوْفَى فقال: يوم النحر يوم الحج الأكبر، يهراق فيه الدم، ويوضع فيه الشَّعْر، ويُلقى فيه التَّفَث (الوسخ)، وتَحلّ فيه الحُرم. - فهو اليوم الذى فيه الحج كله، وفى ليلته يكون الوقوف، وفى صبيحته الرمى والنحر والحلق والطواف. وربما كان معنى اليوم فى قولهم يوم الحج الأكبر هو الحين والزمان كما يقال يوم صفين، ويوم الجمل، ويوم بُعاث، فيكون يوم الحج الأكبر: أيام مِنَى كلها.

وبعض الصوفية قالوا: الحج الأكبر: هو القران، والأصغر: الإفراد. وبعضهم قال: الحج الأكبر: الذى فيه الوقوف بعرفة، والأصغر: العُمْرة.

والبعض قال: إنما سمى يوم الحج الأكبر لأن فى ذلك العام الذى نزلت فيه الآية أن يحجّ المسلمون والمشركون، فاتفقت فيه أعياد المِلَل: اليهود والنصارى والمجوس.

وقال آخرون: بل هو الحج الأكبر لأن فيه حجّ النبىّ ﷺ حجة الوداع، وحجّت معه فيه الأمم.

وأول أمير أقام الحج فى الإسلام: عتّاب بن أُسَيْد، وكان نسيج وحده فهو الصوفى الأمير، وكان ورعاً فاضلاً.

وكـــانت آخر حجّة يحج فيهـا أهل الصوفية العراة سنة تسع، وآلت إمارة الحج فيها إلى أبى بكر.

٢٩٤ - حجاب...

يقول النصرى: الجهل حجاب الرؤية، والعلم (أيضاً) حجاب الرؤية، وكل شىء لا يواصلك صلةً بالله تـعـالى فـــإنما يختدعك. والعارف بالله يرى الله فى كل شىء يحتجب به.

والحَـــجْب: عبارة عن انطباع الصور الكونيـة فى القلب لأنها مـانعة من قـبول التجلّى الإلهى. والحجاب الذى يحتجب به الإنسان عن قُرب الله قد يكون ظُلمانياً بتأثير ظُلمة الجسم، وكل المدركات الباطنة من النفس والعقـل والقلب والسرّ والروح والخفى لها حُجُب تحجبها عن الله تعالى، فحجاب النفس الشهوات، وحجاب القلب الملاحظة فى غـير الحق، وحـجاب العـقل وقوفه مع المعانى المعقولة، وحجـاب السرّ هو الوقـوف مع الأسرار، فإذا انكـشفت للسالك بعض أسرار الخلق واكتفى بها فإن الحجـاب يقطع طريقه، فـيجب أن يخطو خطوة للأمام. وحجـاب الروح المكاشفة ويسمون ذلك الكشف الروحانى، وفى هذا المقـام تظهر الكرامـات، فإذا اكـتفى بهـا يُقـطَع. والحجاب الخفى: هو العظمـة والكبرياء، وهذا مقـام الكشف الصفاتى، وينبغى التـقدم منه إلى الأمام لبلوغ مـقام تجلّى الذات والنور الحقـيقى، فإن الواصل بإذن الله هو من ليس له الـتفـات إلى مـا دون ذلك.

وكان السرى السقطى يقول : اللّهم مهـما عذّبتنى بشىء فـلا تعذبنى بـــذُلّ الحجـاب. وقال محمـد بن على الكتانى: رؤية الثـواب حـجاب عن الحـجـاب، ورؤية الحجاب حجـاب عن الإعجاب، ومعناه أن رؤية العبد الثواب لعبادته ولذكره حجـاب له عن الحجاب المنهى عنه، ورؤيتـه للحجاب حجاب له عن إعجابه بعلمه.

وحجاب العزة: هو العمى والحيرة، إذ لا تأثيـر للإدراكـات الكـشـفـيـة فى كنه الذات، فعدم نفوذها فيه حجاب لا يرتفع فى حق الغير أبداً.

٢٩٥ - حجاز...

الحجـاز: هو مكـة، لأنها تحجـز عن الشـهوات واللذات، فـاختـارها البـعض مقامـاً وجواراً، وحبسوا أنفـسهم هناك لما خصّ الله به تعـالى تلك البقـاع والمشاهد من الفضيلة والشرف.

٢٩٦- حجة...

حُجة الحق على الخلق هو الإنسان الكامل، كآدم عليه السلام حيث كان حجة على الملائكة في قوله تعالى: ﴿قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ (البقرة ٣٣).

٢٩٧- حجر...

الحجر الأسود: هو الحجر المعروف في البيت الحرام، واسوداده عبارة عن تلوّنه بالمقتضيات الطبيعية، وإليه الإشارة بقوله عليه الصلاة والسلام: «نزل الحجر الأسود أشد بياضاً من اللبن، فسودته خطايا بني آدم». والإشارة في الحديث أن الحجر هو اللطيفة الإنسانية، لأن الإنسان مفطور بالأصالة على الحقيقة الإلهية، وذلك معنى قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ (التين ٤). ورجوع الإنسان إلى الطبائع والعادة والعلائق والقواطع هو اسوداده، وكل ذلك خطايا بني آدم، وهذا معنى قوله: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾ (التين ٥). هكذا قال الصوفية.

٢٩٨- حدّ...

الحدّ: هو الفصل بين العبد والحق، وقد يتجاوز العبد الحدّ، كقول أبي اليزيد البسطامي: سبحاني، سبحاني، ما أعظم شاني». والأولياء لا تتغير أحوالهم، ويعرفون لعبوديتهم حدّها.

٢٩٩- حدث...

«صُحبة الأحداث» من أخطر الآفات في الطُرُق الصوفية. ومن هوان الله على الشيخ أن يشغل قلبه بمخلوق. والمريد منهيٌ عن معاشرة الأحداث ومخالطتهم، فإن اليسير منه يفتح باب الخذلان.

٣٠٠- حُرّاس المُثل الإسلامية...

هم الصوفية، يدفعون عن تعاليم القرآن والرسول ﷺ، وأشهر من أطلق عليه ذلك أبو ذرّ الغفار، وكان قد سبق إلى التوحيد والصلاة قبل ظهور النبيّ ﷺ، وكان أول صوفي اشتراكي، وأول اشتراكي مسلم، وكان يقول إن محمداً ﷺ هو نبيّ المستضعفين والمحرومين، وأن الإسلام دين تنزّل على الفقراء بخاصة ليخلّصهم من جور الأغنياء، ولتحقيق العدالة الاجتماعية. ومن أقوال أبي ذرّ: لقد أصبحتُ وإن الفقر أحبّ إليّ من الغنى، والسُّقم أحبّ إليّ من الصحة، والموت أحبّ إليّ من الحياة. - ومن أقواله: جزى الله الدنيا عني مذمةً بعد رغيفين من الشعير أتغدّى بأحدهما وأتعشّى بالآخر، وبعد شملتي الصُّوف، أأتزر بإحداهما وأرتدي

الأخرى. ـ وفى هذه العبارة نرى الزُّهد العملى قد اقترن منذ أيام النبىّ ﷺ بلبس الصوف، يُتمم مظهر الفقر، ومن الصوف كان اسم الصوفية، ومن الفقر كان اسمهم الفقراء. وكان أبو ذرّ يبكى لمرأى الفقراء، حتى اشتكى عينيه، وكان لذلك أول فقير يتكلّم فى علم الفناء والبقاء.

٣٠١- حرف...

هو ما يخاطبك الحق به من العبارات. ويقول أهل الجفر : الحروف النورانية هى الحروف فواتح السور، ومجموعها صراط على حق نمسكه، والباقية ظُلمانية. ومنهم من يسمى الحروف النورانية: بحروف الحق، والظُلمانية بحروف الخَلق.

والحروف فى الاصطلاح الصوفى: هى الحقائق البسيطة من الأعيان. والحروف العالية: هى الشئون الذاتية الكامنة فى غيب الغيوب، كالشجرة فى النواة.

وعلم الحروف عند أهل الكشف: موضوعه حروف الألفاظ والأرقام، ويقولون إن الحروف حيّة ناطقة تلقى بأسرارها مكاشفةً. وعلم الحروف فى اعتقادهم هو علم الأولياء، فيتعلمون ما أودع الله فى الحروف والأسماء من الخواص التى تنقلها لهم الأشياء من عالم الحقيقة والخيال. والحروف كالطبائع والعقاقير، لها خواص بانفرادها، ولها خواص بتركيبها، وفعلها ليس لأعيانها بل لأحدية جمعية، فالفاعل هو الواحد وهو الله، وخاصيتها المفردة خلاف خاصيتها التركيبية مع غيرها، كما عند العرب الحرف ق عند السامع: أن يقى نفسه؛ والحرف ع أن يعى ما يسمعه، وأمّا كُنْ: فهو من فعل الكلمة لا من فعل الحرف. ـ هكذا يقول الصوفية، ومنهم سهل ابن عبدالله التُستُرى (المتوفى ٢٨٣هـ/ ٨٩٦م)، وكان كلامه فى علم الأسماء والصفات وعلم الحروف؛ والحلاّج: فقال: فى القرآن علم كل شئ؛ وعلم القرآن فى الأحرف التى فى آخر السور؛ وعلم الأحرف فى لام ألف؛ وعلم لام ألف فى الألف فى النقطة، وعلم النقطة فى المعرفة الأصلية، والألف عنده هو الله؛ والغزالى وله كتاب «المقصد الأسنى فى شرح أسماء الله الحسنى»، وبذلك صارت معالجة الحروف من علوم التصوّف، فكتب ابن عربى فى الحروف كمقابل للموجودات؛ ثم إن أبا العباس البونى (المتوفى سنة ٦٣٦هـ/ ١٢٣٨م) طبّق هذه المعارف الدينية تطبيقات معاشية فى مجال الرزق والعمل؛ ثم كتب صدر الدين القونوى ـ خليفة ابن عربى فى الحروف كمفاتيح للغيب؛ وكتب اليافعى فى خواص الأسماء الحسنى،

واستمر ذلك عند الصوفية حتى مجئ الصوفى فضل الله الحروفى وما بعده.

٢٠٢- حرق...

الحَرْق: هو أواسط التجليات التى تجذب السالك نحو الفناء، وأوائلها: البَرق، وأواخرها: الطمس فى الذات أو الفناء.

٢٠٣- حركة...

عند الصوفية: هى السلوك فى سبيل الله تعالى.

٢٠٤- حروفية...

فرقة من الصوفية، أطلقوا عليها هذا الاسم بسبب المعانى الصوفية التى وضعوها لحروف الهجاء وما يتركّب منها من كلمات، ومنهم الشاعر التركى النسيمى الذى كان من أشدّ المعجبين بالحلاّج، وجعله فضل الله الحسروفى - مؤسّس الحروفية - رأساً من رءوسهم، وقُرِن فضل الله بالحلاّج، لأنه ادّعى ما ادّعاه وقُتل كما قُتل، واعتقد الناس ولايته بعد مدة، وترحّموا عليه. وقال فيه نسيمى: لقد صرتُ أردّد مثل الحلاّج «أنا الحق» واشتهرتُ بها، فمن يرفعنى إلى المشنقة مثل الحلاّج ؟!

وأدخل الحروفيون كذلك الشبلى لأنه قال: «ما فى الجنة أحد سوى الله»؛ وأبا اليزيد البسطامى لأنه قال: «سبحانى ما أعظم شأنى»، وكل مقالة من هذه المقالات عند الحروفيين لها شأن عددىّ وتفسير، وتُدخل القائل فى سلسلة الولاية، وتثبّت قول الحروفية بوحدة الوجود، وأن الإنسان الأول - آدم - كان خليفة الله عن حقّ، فإن تأتى صورته على صورته - أى صورة آدم على صورة الله سبحانه وتعالى - هو دليلٌ نَصَبَهُ الله تعالى على نفسه، لنعرفه مشاهدةً لا بطريق العقل، ويصدُق به قول ابن عربى:

أنا القرآن والسبع المثانى

وروحُ الروح لا روح الأوانى

وقال الحروفيون إن الله واحد ولا يصدر عنه إلا الواحد، وربما لايصدر عنه موجود إلا هو. واعتقاد الحروفية أوسع مدى من التصوّف، يقولون:

الشبلى قطرةٌ من بحرنا

وأدهم نقطةٌ من حروفنا

ويرفض الحروفيون «الجوع» كطريق لمعرفة الله، وينكرون الكرامات الصوفية، وسمّوا الصوفية من أجلها أهل الظاهر، ونسبوهم إلى الشِّرك، لتمييزهم بين الأحدية والواحدية؛ وأنكروا على الطرق الصوفية، واتهموها بالعمالة للسلطة، كقول شاعرهم:

يا من نحسب نفسك في مرتبة بايزيد ! أفٌّ أفٌّ!
إنما أنت قاتل نفس الحسين وحليف يزيد! أفٌّ أفٌّ!

وانتقدوا ابن عربى نفسه من بعد ذلك، وشبّهوه بإبليس، ووصفوا فُصوصَه بقطع الزجاج بدل الجواهر، لأنه ادّعى ختم الولاية التى قصرها الحروفيون على فَضْل الله. ولنُميّز بين الصوفية السنّية والصوفية الشيعية أو الحروفية، نجد أنه فى الصوفية الحروفية الشيعية، تعكس حروف اللغة الثمانية والعشرون مظاهر الكون جميعها؛ فكل حرف له معنى ظاهر، وآخر باطن؛ وقول الحلاّج مثلاً: أنا الحقّ، معناه الباطن: أنه الوجود المطلق، أى الله؛ وكذلك قول البسطامى: سبحانى، ما أعظم شأنى. والله عند الحروفية يمثله الألف، ويأتى بعده الباء، والحروف التى بعدها، وتُمثّل سلسلة الأنبياء، لأن تسلسل الأنبياء كتسلسل حروف الهجاء، هو استمرار الإلهية فى الأرض؛ وكان النبىّ آدم: أول الأنبياء؛ وأما عيسى فهو المثل الأعلى للأنبياء، ومن ثم للحروفية، لأنه يجمع فى نفسه أنه نبىّ ورسول وكلمة الله وروحه؛ وأمّا النبىّ محمد ﷺ: فهو المبعوث بجوامع العلم، يعنى هو مظهر الحقائق، ومرشد الخلائق، وخاتم الأنبياء، وناسخ ما قبله من أديان وملل؛ وبمجىء علىّ تبدأ الولاية بعد النبوّة؛ والفرق بين النبىّ والولىّ، أن النبوّة بوحىّ من الله، بينما الولاية من نفس الولىّ؛ ومع ذلك فالنبىّ محمد يتساوى والولىّ علىّ!! لأنهما كما قال النبىّ ﷺ: خلقا من نور واحد؛ وولاية علىّ إذن تمثّل طموح الصوفية الشيعة، ولذلك نهجوا على أقوال فضل الله الحروفى، كأساس للتصوّف الحروفى، كقوله المُدّعى: جميع أسرار الله فى الكتب السماوية، وجميع ما فى الكتب السماوية فى القرآن العظيم، وجميع ما فى بسم الله فى باء بسم الله، وجميع ما فى باء بسم الله فى نُقطة الباء، وأنا هذه النقطة تحت الباء - يعنى بالاختصار: أنه - أى فضل الله الحروفى، سرّ هذا الكون، وهو الله!! وفسّر الحروفيون تكليف النبىّ ﷺ لعلىّ بقراءة سورة براءة على الناس، أنه أراده أن يخلفه، لأنه من أهله، يعنى من معدنه، فلما قرأها علىّ بدون بسم الله الرحمن الرحيم، فسّروا ذلك بأنه هو نفسه بسم الله الرحمن الرحيم! وأنه منها بمكان نقطة بسم، فهو الجامع للحقائق، فسمّوه - أى علىّ - صاحب النقطة، أى الذى تُختزل فيه كل الحقائق. وقال الحروفيون: إن ظهور علىّ بعد استفسار، أغلق باب النبوة للأبد، وفتح باب الولاية، وصار علىّ: رئيس الأولياء، فهو العارف بسرّ الحروف الأبجدية الثمانى والعشرين - مظاهر الكون والخَلْق؛ فكان ذلك الكلام بمثابة إقرار صريح من الحروفيين بأن علياً هو الله!!

بمعنى أنه تشخّص فى علىّ، مثلما كان المسيح هو الله تشخّص فى عيسى!! وبعد علىّ تنتقل الولاية الصوفية إلى مشايخ الصوفية الشيعة. والاختلاف بين تصوّف الحروفية والتصوّف الشيعى: أنه فى التصوّف الشيعى، يُعتبر الجوع وسيلة لمعرفة الله، والكرامات مظهر من مظاهر هذه المعرفة؛ وفى التصّوف الحروفى: لا مكان للجوع، ولا إقرار بالكرامات للأولياء، والذين قالوا بالجوع وبالكرامات من متصوّفة الشيعة، وصفهم صوفية الحروفية: بأنهم أهل ظاهر، ونسبوا إنكارهم إلى تأثير الأمويين فيهم، وقالوا عنهم إنهم من أتباع يزيد قاتل الحسين. ولم يسلم ابن عربى من نقدهم، وقالوا فى فصوصه إنها قطع زجاج وليست جواهر كلام وأفكار!! مع أن فضل الله مؤسس الصوفية الحروفية، أخذ الكثير من ابن عربى، إلا أن ذلك لم يشفع له عنده ولا عند أتباعه، لما رأوا أدنى مخالفة فى الرأى بينه وبينهم! - والأمر من قبل ومن بعد زيغٌ وضلال وبُهتان وتخرّصات، وحَسْبُنا الله!

٣٠٥- حرية...

انقطاع الخاطر من تعلّق ما سوى الله تعالى بالكلية، وهى على مراتب: حرية العامة عن رقّ الشهوات؛ وحرية الخاصة عن رقّ المرادات، لفناء إرادتهم فى إرادة الحق؛ وحرية خاصة الخاصة عن رقّ الرسوم والآثار، لانمحاقهم فى تجلّى نور الأنوار.

وعند الجنيد: الحرية هى آخر مقام العارف. وقال بشر فى الحرية، ينصح أحد أتباعه من الصوفية: إن الله تعالى خلقك حراً، فكن كما خلقك، لاترانى أهلك فى الحضر، ولا رفقتك فى السفر، واعمل لله، ودع عنك الناس.

وقالوا: الحرية هى حرية القلب لا غير. والحرّ من كملت فيه ثمان: الأقوال، والأفعال، والمعارف، والأخلاق، والتّرك، والعزلة، والقناعة، والفراغ، فإذا كانت الأربع الأولى لأحد العباد فهو البالغ وليس الحرّ.

وقالوا: الأحرار طائفتان: بعضهم يختار الخمول وينجنب الاختلاط بأهل الدنيا، بحجة أن مصاحبتهم تزيد الفُرقة، وبعضهم يرى أن مخالطتهم أو عدمها يستويان، وحتى لو كانت فى مخالطتهم مضرة فالواجب الرضا والتسليم، كقوله تعالى: ﴿وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ (البقرة ٢١٦).

وقالوا: سعى الأحرار لإخوانهم لا لأنفسهم.

وأما الدعوى التى تقول أنه فى مقام الحرية تزول العبودية فهى دعوى باطلة، لأن الرسول لم تَزل عنه العبودية، وفى العبودية الحقّة تكون الحرية غاية، وهى هداية وهو يسعى إليها.

٣٠٦- حزْن...

حال يقبض القلب عن التفرق فى أودية الغفلة. يقول الدقاق: صاحب الحزن يقطع من طريق الله تعالى فى شهر ما يقطعه عن فقد حزنه سنين. - وفى الخبر أن الله تعالى يحب كل قلب حزين. - وفى الأثر: إذا أحب الله عبداً جعل فى قلبه نائحة، وإذا أبغض عبداً جعل فى قلبه مزماراً.

٣٠٧- حسّ...

الحسّ هو رسم ما يبدو من صفة النفس. قال عمرو المكى: من قال إنى لم أجد حسّاً عند غلبات الوجد فقد غلط، لأنه لا يدْرك فقد الحسوس إلا بحسّ.

٣٠٨- حسبنا الله ونعم الوكيل...

احتساب الصوفية دائمًا هو أن يقولوا فى المُلِمّات: حسبنا الله ونعْم الوكيل؛ قالوا: قالها إبراهيم الخليل حين أُلقى فى النار، وقالها محمد ﷺ حين قال الناس لأصحابه: ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ (آل عمران ١٧٣).

٣٠٩- حسد...

الحسد عند أهل السلوك إرادة زوال نِعَم المحسود؛ وقيل الحسد أحسن أفعال الشيطان وأقبح أحوال الإنسان. والقول بأن الحسد يؤثر، شركٌ بالله. وتأثير الحسد نفسى على المحسود.

وقيل من علامات الحاسد أن يتملق إذا أشهد، ويغتاب إذا غاب، ويشمت بالمصيبة إذا نزلت.

وأشهر الحاسدين هم اليهود، حسدوا المسلمين، والنبىّ ﷺ قال: إن اليهود قومٌ حُسَّد، وإنهم لا يحسدوننا على شىء كما يحسدوننا على السلام، وعلى آمين». - ولما أُوتى النبىّ ﷺ النبوّة، حسد اليهود قريشاً: أن النبوّة صارت فيهم. - وعن الحسن البصرى فى الحسد، قال: ما رأيت ظالماً أشبه بمظلوم من حاسد: اكتئابٌ دائمٌ، وحُزْن لازمٌ، وعَبَراتٌ لا تنفد. - وقال ابن مسعود: لا تعادوا نِعَمَ الله، فقيل له: ومن يُعادى نِعَمَ الله؟ قال: الذين يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله! - ونسب بعض الاوليـاء إلى الله تعالى قوله: الحسود عدو نعمتى، مُتسخّطٌ لقضائى، غيرُ راضٍ بقسمتى. - وقال أحد الصوفية:

ألا قل لمن ظل لي حاسداً ∴ أتدري على من أسأت الأدب
أسأت على الله في حُكمه ∴ إذا أنت لم ترض لي ما وهَبَ

والحسد: أول ذنب عُصي الله به في السماء، وأول ذنب عُصي به في الأرض، فأمّا في السماء: فحسدُ إبليس لآدم، وأمّا في الأرض: فحسد قابيل لهابيل.. ومن الحِكَم الصوفية: إذا سرّك أن تسلم من الحاسد، فَغُمَّ عليه أمرك، كقول القائل:

حسدوا النعمة لما ظهرت ∴ فرموها بأباطيل الكَلِم

ولن يُجدي مع الحاسد إلا الصبر، كقول القائل:

اصبر على حسد الحسود ∴ فإنّ صبرك قاتلُه
فالنار تأكل بعضَها ∴ إن لم تجد ما تأكله

وقال بعض الصوفية في تفسير الآية: ﴿رَبَّنَا أَرِنَا اللَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ﴾ (فصلت٢٩): أنه إنما أراد بالذي من الجن: إبليس؛ وبالذي من الإنس: قابيل؛ وذلك أن إبليس: كان أول مَن استنّ الكُفر؛ وكان قابيل: أول مَن استن القتل؛ وكان الدافع الذي دفع بهما إلى ارتكاب ما ارتكبا هو الحسد، كقول الصوفي الحكيم:

ان الغراب وكان يمشي مشيةً ∴ فيما مضى من سالف الأحوال
حَسَدَ القَطاةَ فرامَ يمشي مَشْيَها ∴ فأصابه ضربٌ من النقال

والقطاة: طائرٌ في حَجم الحمامة؛ والتَّعقال: هو التعثُّر في المشي، كأنه مُقيّد بحَبْل هو العِقال.

٣١٠-حَسَن...

الحُسن جمعية الكمالات في ذات واحدة، وهذا لا يكون إلا في ذات الحق سبحانه. والحَسَن كل ما طابق أمر الله.

٣١١-حسنية...

الحَسَنية: نسبةً إلى الحسن البصري المتوفى سنة ١١٠هـ (٧٢٨م)، وهو أول شخصية في الزهد، ومذهبه يؤسّسه على الحزن، ونزعته عقلية، ويُعدّ مؤسس مذهب الإرجاء، وكان أول من أنهج علم التصوف، وفتَقَ الألسنة به، ونطَق بمعانيه.

وتلاميذ المدرسة الحسنية كثيرون، أبرزهم مالك ابن دينار، وأيوب السختياني، وثابت البنّاني، ومحمد بن واسع، وفرقد السبخي، وعبد الواحد بن زيد.

٣١٢-حَشْر...

هو البعث والمعاد، وهو جسماني - أي بالجسم، وروحاني - أي بالروح؛ واختلفوا فيه، وأكثر الصوفية على أن الحشر جسماني وروحاني.

٣١٣-حشوية...

طائفة من المبطلة المتشبهة بالملامتية من حيث عدم الرياء، ويُنسب إليهم حُبّ

الجمع والاستكثار من الأسباب الدنيوية، ويقنعون بطيبة القلب، ويطلقون الحشو على الدين، فإن الدين يتلقى من الكتاب والسُّنّة، وهما حشو، أى واسطة بين الله ورسوله وبين الناس.

٣١٤- حصير...

الحصير يستخدمها الصوفية امتثالا بالنبىّ ﷺ، وكان يكثُر أن ينام ويصلى على الحصير.

وفى اللغة: الحصير جمعها حصائر، وتُنسج من البوص أو من سَعَف النخل، ويقال لها كذلك الخُمرة، وهى حصيرة صغيرة سُمّيت كذلك لأنها تخمر الوجه، أى تستره من الأرض (انظر حمزة).

وفى الحديث عند أحمد عن عائشة: أن النبىّ ﷺ كان يصلى على خُمرة، فأتته عائشة بحصير، فصلى عليه ثم قال لها: «ياعائشة ارفعى عنا حصيرك هذا، فلقد خشيت أن يفتن الناس»، وتتأتى الفتنة من أن الحصير أكبر وأوجه من الخُمرة، ولا خلاف بين الفقهاء فى جواز الصلاة على الحصير، وقوله ﷺ: «جُعلت لى الأرض مسجداً وطهوراً» رواه البخارى، لا يعنى أن مباشرة الأرض شرطٌ للصلاة. وعن الحصير عند البخارى بطريق أنس قال: فقمتُ إلى حصير لنا أسود من طول ما دُهِس فنضحته بماء، فقام رسول الله ﷺ فصلى عليه ركعتين». - ونضحُه بالماء لتليينه، أو لتنظيفه، أو لتطهيره. وعن شريح بن هانىء برواية ابن أبى شيبة: أنه سأل عائشة: أكان النبىّ ﷺ يصلى على الحصير والله يقول: ﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا﴾ (الإسراء ٨)، فقالت: لم يكن يصلى على الحصير! - وشريح كان يقصد شيئاً، وعائشة تقصد شيئاً آخر، فحصير عائشة هو الحصير المنسوج من سعف النخل، وحصير شريح هو مضمون الآية أنّ جهنم تَحصُر أو تسجن الكافرين. ولم تقل عائشة أن الرسول ﷺ لم يستخدم الحصير المنسوج إطلاقاً، ولا أنه كان يستخدمه دائماً، وفى حديث عائشة برواية البخارى: أنه كانت لرسول ﷺ حصير يبسطها بالنهار ويحتجرها بالليل فيصلىّ فيها» - وقولها يحتجرها يعنى يجعلها كالحُجرة له.

وكل زوايا وخانقاوات ومساجد الصوفية مفروشة بالحصير فى مصر، وفى الشام، وفى العراق، عاينتُها بنفسى، والصوفية على السُّنّة ومع الزهد والتقشُّف.

وفى الحديث عند البخارى عن عائشة: أن الحصير الذى كان ينام عليه رسول الله ﷺ أثّر بجنبه. وعند البخارى عن زيد

ابن ثابت: أن رسول الله ﷺ نام على حصير، فقالت له عائشة: يا رسول الله، هذا كسرى وقيصر فى مُلك، وأنت رسول الله لا شيء لك! تنام على الحصير وتلبس الثوب الردىء؟!

والصوفية يقتدون بنبيّهم وأصحابه، وعند ابن أبى شيبة: أنهم كانوا يكرهون أن يصلوا على الطنافس والفراء والمسوح - والحصير لهذا من العموم عند الصوفية.

٣١٥ - حضرة...

المقصود بها الحَضْرَة الإلهية، وبعض الصوفية يرونها خمس حضرات: فحضرة الغيب المطلق عالمها عالم الأعيان الثابتة فى الحضرة العلمية؛ وحضرة الشهادة المطلقة تقابلها، وعالمها عالم الملك؛ وحضرة الغيب المضاف، وتنقسم إلى ما هو أقرب من الغيب المطلق، وعالمه عالم الأرواح الجبروتية والملكوتية، وهو عالم العقول والنفوس المجردة؛ وإلى ما يكون أقرب من الشهادة المطلقة، وعالمه عالم المثال ويسمى بعالم الملكوت؛ والخامسة هى الحضرة الجامعة للأربعة المذكورة، وهى الحضرة الواحدية، وهى مظهر الحضرة الأحدية، وتسمى حقيقة الحقائق، وحضرة الجمع، وحضرة الوجود. والحضرة المحمدية هى الوجود المحمدى، فضّل الله أن جعل نورها هو الفيض الأول، وجعل سائر الأنوار تشرق منها وتتشعشع عنها، وجعل لها السبق الأول هكذا قال الصوفية الغُلاة فى النبىّ ﷺ.

وللوقوف فى الحضرة الإلهية آداب. وآداب العارف فوق كل أدب. ويقتضى الوقوف فى الحضرة الإمساك عن القول فى طلب المآرب، والانبساط فى القول تركٌ للأدب. ومن حُسن الأدب فى الحضرة الإلهية حفظ آداب الخطاب فى مواقف القُرب. ويقول ذو النون: إذا خرج المريد عن حدّ استعمال الأدب، فإنه يرجع من حيث جاء.

٣١٦ - حضور...

حضور القلب لما غاب عن عيانه بصفاء اليقين، فهو كالحاضر عنده وإن كان غائباً عنه. يقول النورى: إذا تغيّبتُ بدَا، وإن بدا غيّبنى.

٣١٧ - حظوظ...

هى حظوظ النفس، وهى لا تجتمع مع الحقوق، لأنهما ضدان لا يجتمعان. والحقوق هى الأحوال والمقامات والمعارف والإرادات والقصود والمعاملات والعبادات. قال الطيالسى الرازى: إذا ظهرت الحقوق غابت الحظوظ، وإذا ظهرت الحظوظ غابت الحقوق.

٣١٨ - حفظ...

حفظ العهد : هو الوقوف عند ما حدّه الله تعالى لعباده، فلا يفقد حيث ما أمر، ولايوجد حيث ما نهى.

وحفظ عهد الربوبية والعبودية: هو أن لا يُنسب لا إلى الربّ ولا إلى العبد نقصاناً.

٣١٩ - حق...

اسمٌ من أسمائه تعالى : ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ﴾ (لقمان ٣٠). ويقول الخرّاز: عبدٌ موقوف مع الحق بالحق للحق، يعنى موقوف مع الله بالله ولله. وقال ابن عربى : الحق كل ما فُرض على العبد من جانب الله، وكل ما أوجبه الله على نفسه.

والمتحقّق بالحقّ: هو الذى يشاهد الحق متعيناً فى كل متعين دون تعينه، لأن الله ولو أنه مشهود إلا أنه ليس منحصراً ومقيداً فى كلِ مقيدٍ باسمٍ أو صفةٍ أو اعتبارٍ أو تعين أو حيثية، لأن المطلق يكون مقيداً فى هذه الأشياء، **والحقّ** سبحانه منزّه عن التقيد وغير التقيد، والإطلاق وغير الإطلاق.

والمتحقّق بالحقّ والخَلق: مَن يرى أن كل مطلق فى الوجود له وجه إلى التقيد، وكل قيد له وجه إلى الإطلاق، ويرى كل الوجود حقيقة واحدة، له وجه مطلق ووجه مقيد بكل قيد. ومن شاهد هذا المشهد ذوقاً كان متحققاً بالحقّ والخَلق والفناء والبقاء.

وحقّ اليقين: عبارة عن فناء العبد فى الحقّ، والبقاء به علماً وشهوداً وحالاً، لا علماً فقط، فعِلْم كل عاقل للموت هو علم اليقين. وقيل: علم اليقين هو ظاهر الشريعة؛ وعين اليقين: هو الإخلاص فيها؛ وحق اليقين هو المشاهدة فيها.

٣٢٠ - حقوق...

حقوق النفس عند الصوفية: هى ما يتوقف عليها حياتها وبقاؤها، وما زاد فهو حظوظ.

٣٢١ - حقيقة...

هى إقامة العبد فى محل الوصال إلى الله، ووقوف سرّه على محل التنزيه.

وقيل **الحقيقة:** سلبُ آثار أوصافك عنك بأوصافه، بأنه الفاعل بك فيك منك لا أنت.

والحقائق ثلاث: حقيقة مع العلم، وحقيقة معها العلم، وحقيقة تشطح عن العلم. وأصحّ الحقائق وأتمها ما قارن العلم، والعلم كله حقيقة، والحقيقة كلها علم.

وعلم الحقيقة لايخالف علم الشريعة، وكل حقيقة تخالف الشريعة فهى كفر.

وأهل الحقائق: هم الصوفية، ولسانهم لسان الحقيقة، وهي ما أوصل إلى الله تعالى بلا واسطة.

وحقائق أهل الحقائق: أن الله تعالى غير مفقود فيُطلَب، ولا ذو غاية فيُدرَك.

وحقيقة الإنسانية: أن لا يتأذّى منك إنسان لأن حقيقة الاسم فيه، واسم الإنسانية حقيقته أن يكون كل شيء بك مستأنساً.

ولقد سئل بعض الصوفية عن حقيقة الوصول فقال: هي ذهاب العقول. ويقول الواسطي: إن الحقائق المختزنة إذا بدت حجبت الحقائق المستترة.

وحقيقة الحقائق: هي المرتبة الأحدية الجامعة لجميع الحقائق، وتسمى حضرة الجمع، وحضرة الوجود.

وحقائق الأسماء: هي تعيّنات الذات ونسبها، لأنها صفات تتميز بها الأسماء، بعضها عن بعض.

وسرّ الحقيقة: ما لا يُفشَى من حقيقة الحقّ في كل شيء.

وقيل **الفرق بين الحقّ والحقيقة**: أن الحقّ هو الذات، والحقيقة هي الصفات، فالحقّ اسم الذات، والحقيقة اسم الصفات، ذلك لأن المريد إذا ترك الدنيا وتجاوز عن حدود النفس والهوى ودخل في عالم الإحسان، فإنهم يقولون إنه دخل في عالم الحقيقة، ووصل إلى مقام الحقائق وإن كان قد بَعُدَ عن عالم الصفات والأسماء، فإذا وصل إلى نور الذات يقولون إنه وصل إلى الحق وصار شيخاً لائقاً للاقتداء به.

وقد يريدون بالحقيقة كل ماعدا عالم الملكوت، وهو عالم الجبروت، والملكوت عندهم: عبارة عن «من فوق العرش إلى تحت الثرى» وما بين ذلك من الأجسام والمعاني والأعراض، فأما الجبروت: فهو ما عدا الملكوت.

وقيل الحقيقة هي التوحيد، وقيل هي الربوبية.

والحقيقة المحمدية: هي الذات مع التعين الأول، وهو الاسم الأعظم. والحقيقة المحمدية يقول بها الصوفية المتشيّعة، أمثال ابن عربي وعبد الكريم الجيلي. يقول الجيلي: إن الله خلق محمداً من كماله، وجعله مظهراً لجماله وجلاله، وخلق كل حقيقة في محمد من حقيقة من حقائق أسمائه وصفاته، ثم خلق نفس محمد من نفسه، وليست النفس إلا ذات الشيء، ثم لما خلق الله نفس محمد، خلق نفس آدم نسخةً من صورة من محمد أو من حقيقته، ومن هذه

الحقيقة خلق العرش والملأ الأعلى، وخلق الأنبياء والأولياء، وبذلك فإن الوجود أو الحقيقة المحمدية، كانت منذ الأزل. - وهذا كلام غريب ليس له مثيل فى القرآن، وهو شِرْكٌ صُراح.

٣٢٢ - حكمة...

هى معرفة آفات النفس والشيطان والرياضات. وقيل: هى معرفة الحق لذاته، والخير لأجل العمل به.

ويقال: الحكمة صواب الأمور. والحكمة: ألاّ تحكم عليك رعونات البشرية، ومن لا حُكم له على نفسه، لا حُكم له على غيره. والحكمة: موافقة أمر الله؛ والسَّفَه: مخالفة أمره؛ والحكمة: شهود الحق، والسفه: شهود الغير. والحكمة: الإصابة فى العقل والعقد والظن، ومتابعة الطريق من حيث توفيق الحقّ لا من حيث همّة النفس. والحكمة: ألا تكون تحت سلطان الهوى. وهى الكونُ بحكم من له الحُكم، ومعرفة قدر نفسك حتى لا تمدّ رجليك خارجاً عن كسائك.

والحكمة الإلهية: هى العلم بحقائق الأشياء وأحوال الموجودات الخارجية. والحكمة المنطوق بها: هى علوم الشريعة والطريقة. والحكمة المسكوت عنها: هى أسرار الحقيقة التى لايطّلع عليها علماء الرسوم والعوام على ما ينبغى، فيضرّ بهم أو يهلكهم، كما روى أن النبىّ ﷺ كان يختار بعض سكك المدينة ومعه أصحابه، فأقسمت عليهم امرأة أن يدخلوا منزلها فدخلوا، فرأوا ناراً مضرمة وأولاد المرأة يلعبون حولها، فقالت المرأة: يا نبىّ الله، الله أرحم أم أنا بأولادى؟ فقال: «بل الله أرحم، فإنه هو أرحم الراحمين»، فقالت: أترانى يارسول الله أُحبُّ أن أُلقِّى أولادىّ فى النار؟ فقال: لا، فقالت: فكيف يُلقى الله عباده فيها وهو أرحم بهم؟ ... ويقول الراوى: فبكى رسول الله وقال: هكذا أَوْحَى الله تعالى إلىّ.

والحكمة المجهولة: هى ما خفى وجه الحكمة فى إيجاده، كإيلام بعض العباد، وموت الأطفال، والخلود فى النار، فيجب الإيمان به.

والحكمة الجامعة: هى معرفة الحقّ والعمل به، ومعرفة الباطل واجتنابه، كما قال عليه السلام: «اللّهم أرنا الحقّ حقاً وارزقنا اتّباعه، وأرنا الباطل باطلاً وأرزقنا اجتنابه».

والحكمة تنطق فى قلوب العارفين بلسان التصديق؛ بينما نُطقها فى قلوب الزاهدين بلسان التفضيل؛ وفى قلوب العباد بلسان التوفيق؛ وفى قلوب المريدين

بلسان التفكُّر؛ وفى قلوب العلماء بلسان التذكُّر.

وأول علامات الحكمة طول الصمت والكلام على قدر الحاجة. والحكماء خلَف الأنبياء، وليس بعد النبوة إلا الحكمة: وهى إحكام الأمور.

والحكمة مصدر من الإحكام، وهو الإتقان فى القول والفعل.

والحكمة فى الدين: هى الفقه فيه، والورع، والتفكُّر فى أمر الله والاتّباع له، وطاعته وخشيته، والفهم فى القرآن؛ وكتاب الله حكمة، وسُنّة نبيّه حكمة. ويقال: للعلم حكمة، لأنه يُمتنع به، وبه يُعلم الامتناع من السَّفَه الذى هو كل فعل قبيح، وفى الآية: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ (البقرة ٢٦٩)، أن من يرد به الله خيراً يفقّهه فى الدين، وقد كرر الله تعالى لفظ الحكمة فى الآية ولم يضمرها، اعتناءً بها، وتنبيهًا على شرفها وفضلها؛ وفى الأمثال: إن الله ليريد العذاب بأهل الأرض، فإذا سمع تعليم المعلّم الصبيان الحكمة، صرف ذلك عنهم. وقال بعض الحكماء: مَن أُعطى العلم والقرآن، فإنما أُعطى أفضل ما أُعطى أصحاب الدنيا، لأن الله تعالى سمّى الدنيا متاعاً قليلاً، قال: ﴿قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾(لنساء٧٧)، وسمّى العلم والقرآن: ﴿خَيْرًا كَثِيرًا﴾ (البقرة: ٢٦٩).

٣٢٣ - حكيم...

هو صاحب الحكمة، وتأتى الحكيم فى القرآن إحدى وثمانين مرة، وصفاً لله تعالى مقرونة مرات بالعليم، ومرات بالعزيز، ومرات بالخبير، وقد تقرن بالحميد، وبالتواب، وبالواسع؛ وقد يوصف بها القرآن، والذِّكر، والأمر. ووصفُه تعالى بالحكيم يعنى أن ما يفعله أو يقوله فهو الحق والصدق، فليس لأحد عليه حُكم، ولا منه تعالى سفهٌ وقُبح.

والحكمة: هى معرفة الصانع تعالى بما له من صفات الكمال والتنزّه عن النقصان، وبما صدر عنه من الآثار والأفعال فى النشأة والآخرة.

وطريق أهل التصوّف إلى الحكمة بالرياضة التى توافق الشريعة.

وفى شرح إشراق الحكمة: مراتب الحكماء عشر: أولاها: رتبة الحكيم الإلهى المتوغل فى التألُّه عديم البحث، وهذا كأكثر الأنبياء وشيوخ التصوف كأبى يزيد البسطامى وسهل بن عبد الله ونحوهما من أرباب الذوق؛ والثانية: الحكيم البحّاث عديم التألّه المتوغل فى البحث كأكثر المشّائين، وهذه مرتبة عكس الأولى؛

والثالثة: الحكيم الإلهي المتوغل في البحث والتأله، ووجوده نادر لأنه إن كان موغلاً في التأله فهو يتوغل في البحث؛ **والرابعة والخامسة: الحكيم الإلهي المتوغل أو الضعيف في البحث؛ والسادسة والسابعة: الحكيم الإلهي المتوغل في البحث، أو المتوسط، أو الضعيف في التأله؛ والثامنة: الطالب للتأله والبحث؛ والتاسعة: الطالب للتأله فحسب؛ والعاشرة: الطالب للبحث فحسب.**

فإن اتفق وكان الحكيم متوغلاً في التأله والبحث فله الرياسة، أي رياسة العالم العنصري، لكماله في الحكمتين، وهو خليفة الله لأنه أقرب الخلق منه تعالى. وإن لم يتفق فالمتوغل في التأله المتوسط في البحث، وإن لم يتفق فهو المتوغل في التأله عديم البحث، ولايمكن خلو الأرض من مثلهما أبداً، بخلاف الأولين فإنه يجوز خلو الأرض منهما لندرتهما.

ولا رياسة في الأرض للباحث المتوغل في البحث فقط، إذ لابد في الخلافة من التلقّي من الباري.

وليس المراد بالرياسة التغلُّب بل استحقاق الإمامة، فقد يكون الإمام المتأله مستولياً ظاهراً كسائر الأنبياء ذي الشوكة وبعض الملوك الحكماء، وقد يكون خفياً وهو الذي سمّاه الكافة القطب، فله الرياسة وإن كان في غاية الخمول كسائر المتألهين الحكماء والصوفية المشهورين أو الخاملين.

والمتأله الخفي يسمى قطباً. وفي كل عصر وزمان يكون منهم جماعة، إلا أن الأتم كمالاً يكون واحداً كما في الأخبار الصوفية. وإذا كانت السياسة في يده كان الزمان نورياً، لتمكّنه من نشر العلم والحكمة والعدل ونحوها، كزمان الأنبياء والأولياء والمشايخ. وكل ذلك نوع من **الحكومة المخصوصة**، يقال لها **الحكومة الدينية**، أو الثيوقراطية theoratic، لأن الدين وأحكامه هما المسيطران والموجهان للحكم فيها.

٣٢٤ - حكيمية...

أتباع أبي عبد الله محمد بن علي الحكيم الترمذي المتوفى نحو ٢٩٦ هـ، وتصانيفه تبحث في حقيقة الولاية ودرجات الأولياء واصطفائهم وإتيانهم الكرامات. وهو القائل: لله تعالى أولياء اصطفاهم من بين الخلق، انقطعت همّتهم عن المتعلقات وفتح عليهم باباً من المعاني.

٣٢٥ - حلاجية...

فلسفة التصوف عند الحسين بن منصور الحلاّج (٢٤٤ ـ ٣٠٩هـ)، أو هي الجماعة التي شايعته إلى ما ذهب إليه من مذهب

وحدة الوجود، وملخصه: أن الحقيقة الوجودية واحدة، وأن الكثرة الظاهرة مظاهر وتعينات فيها.

وكذلك فإن الحلاّجية قالوا بالحلولية وكانوا حلولية، يقصدون بذلك أن الله يصطفى من العباد من يشاء ويحلّ فيهم بمعانى الربوبية ويزيل عنهم معانى البشرية. وإلى ذلك أشار الحسين ابن منصور الحلاّج الذى صُلب ببغداد بسبب فلسفته هذه، وكان يقول: «أنا الحق؛ أنا الحق» وكان يقرأ فى وقت الصُّلب: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ (النساء ١٥٦).

٣٢٦ - حلال...

ما لابد فيه من العلم، ولايكون فيه شُبهة. وقيل: هو الذى قد انقطع عنه حقّ الغير، وما لاتعصى الله فيه. والحديث: من أكل الحلال أربعين يوماً نوّر الله قلبه، وتجرى ينابيع الحكمة من قلبه. والصوفية أكلُهم حلال، ولباسهم حلال؛ وعن سهل ابن عبدالله، قال: النجاة فى ثلاثة: أكل الحلال، وأداء الفرائض، والاقتداء بالنبىّ ﷺ؛ وقال أبو عبدالله الساجى: خمس خصال بها تمام العلم، وهى: معرفة الله عزّ وجلّ، ومعرفة الحقّ، وإخلاص العمل لله، والعمل على السُّنّة، وأكل الحلال، فإن فُقدت واحدة لم يرُفع العمل. وقال سهل: ولا يصحّ أكل الحلال إلا بالعلم، ولا يكون المال حلالاً حتى يصفو من ست خصال: الربا، والحرام، والسُّحْت، والغُلول، والمكروه، والشُّبهة.

٣٢٧ - حلاوة...

تطلق عند الصوفية على ظهور الأنوار عن طريق مشاهدة الحاصل مجرداً عن المادة.

٣٢٨ - حلمانية...

طريقة أبى حلمان الدمشقى، وكان فيما يبدو من تلاميذ أبى سليم البصرى المتوفى سنة ٢٩٧هـ، وكان أبو حلمان يقول بالحلول والإباحة.

٣٢٩ - حلول...

قال بعضهم إن الله تعالى يحلّ فى العارفين، وقيل إن الله تعالى لا يحلّ فى غيره، لأن الحلول هو الحصول على سبيل التبعية فينفى الوجوب الذاتى، وكما لا تحلّ ذاته فى غيره لا تحلّ صفته فى غيره، لأن الانتقال لا يُتصور على الصفات وإنما هو من خواص الأجسام والجواهر. والمخالف فى هذا الأصل من المتصوفة قالوا مثل النصارى: لقد حلّ البارى تعالى فى عيسى عليه السلام، وقالوا لا يمتنع

أن يظهر الله تعالى في صورة بعض الكاملين، وأكملهم العترة الطاهرة، ولم يتحاشوا أن يؤلّهوا أئمتهم، بل وألّهوا النبيّ ﷺ وقالوا: إن الوحي إنما هو نزول الله نفسه إلى النبيّ أو الإمام، وأن كل كلمة كان يتلقاها النبيّ ﷺ إنما هي حلول يستمر باستمرار الوحي؛ ومن بعد النبيّ ﷺ ألّهوا علياً ثم الأولياء. والحلول بدأ جزئياً ثم تطوّر إلى الاتحاد المطلق الذي أسموه وحدة الوجود؛ والحلول الصوفي بدأ كتواصل بين الصوفي وربّه، وانتهى إلى التواصل بين الصوفي الشيعي وعليّ بن أبي طالب. وهذه ضلالة بينة.

٣٣٠- حلولية...

فرقة من المتصوفة المبطلة، زعموا أن الحق اصطفى أجساماً حلّ فيها بمعاني الربوبية وأزال عنها معاني البشرية، فمنهم من قال بالحلول النورانى، ومنهم من قال بالحلول على الدوام، ومنهم من قال بالحلول وقتاً دون وقت. وقد غلط هؤلاء حيث أن الأجسام التي اصطفاها الله تعالى هي أجسام أوليائه وأصفيائه، اصطفاها لطاعته وخدمته، وزيّنها بهدايته، وبيّن فضلها على خَلقه، والله تعالى لا يحلّ في الأجسام، وموصوف بما وصف به نفسه: ليس كمثله شيء.

وقالوا إن الله يحلّ في القلوب، وقد غلطوا لأنه تعالى لا يحلّ في القلوب، وإنما يحلّ في القلوب الإيمان به والتصديق له ومعرفته وتوحيده. والإيمان والتصديق والتوحيد أوصاف لمخلوقاته من البشر المؤمنين من جهة هدايته لهم إليه، وليس من جهة أنه هو بذاته أو بصفاته يحلّ فيهم.

وحلولية المتصوفة: قيل إنهم يحللون النظر إلى الرجال والنساء، ولهم رقص وغناء، ويقولون إن هذه من صفات الله أنزلها عليهم، وأن هذا الأمر حلال ومباح، ولهم اجتماعات ومجالس يعرضون فيها على الناس وهم يلبسون ملابس الدراويش المزركشة، يتأوّهون وينوحون ويبكون، ويشقّون جيوبهم وأكمامهم، ويقذفون بعمائمهم إلى الأرض وما شابه ذلك، وذلك كله بدعة وضلال.

ومن الحلولية: الحسين بن منصور الحلاّج الذي صُلب ببغداد حيث كان يقول: «أنا الحق؛ أنا الحق»، وكان يقرأ في وقت الصلب: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ (النساء ١٥٦)؛ ومنهم أبو اليزيد البسطامي الذي قال: «سبحاني، سبحاني! ما أعظم شاني!».

والحلولية: يرون فى أسماء الله الحسنى التسعة والتسعين كلها، وصفاً للصوفى السالك إلى الله، ويعدّ من جملة السائرين إلى الله لا من زمرة الواصلين. وعلى ذلك نفسه مذهب النصارى فى اتحاد اللاهوت بناسوت عيسى، حتى سمّاه بعضهم إلهاً، وبعضهم سمّاه ابن الإله، وبعضهم قال إنه ذو طبيعتين: إنسية وإلهية - أى أنه نصف إله، فلما قُتل قالوا: إنما قُتل منه الناسوت دون اللاهوت! - وتخيل الروافض ذلك فى علىّ بن أبى طالب، وزعموا أنه الإله، وأن الله قد حلّ فيه، أو اتحد به، حتى أنه لمّا سمع بما يقولون أمر بإحراقهم بالنار فلم يرجعوا، وقالوا: بهذا صَدَقنا فى قولنا أنه الإله، لأن رسول الله ﷺ قال: لا يعذّب بالنار إلا ربُّها! وبطلان هذا الكلام واضح بالنظر العقلى.

٣٢١ - حمد...

لسان الحمد ثلاثة: اللسان الإنسانى وهو للعوام، وشكره به التحدّث لإنعام الله وإكرامه مع تصديق القلب بأداء الشكر؛ واللسان الروحانى وهو للخواص، وهو ذكر القلب لطائف اصطناع الحق فى تربية الأحوال وتزكية الأفعال؛ واللسان الربّانى وهو للعارفين، وهو حركة السرّ لقصد شكر الحق جلّ جلاله بعد إدراكه لطائف المعارف وغرائب الكواشف، بنعت المشاهدة، والغيبة فى القُربة، واجتناء ثمرة الأُنس، وذوق الأسرار بمباشرة الأنوار.

وحقيقة الحمد: إظهار الصفات الكمالية، وذلك قد يكون بالقول، وقد يكون بالفعل وهذا أقوى، لأن الأفعال التى هى آثار السخاوة تدل عليها دلالة قطعية، بخلاف دلالة الأقوال فإنها وضعية قد يتخلف عنها مدلولها، ومن هذا القبيل حمد الله وثناؤه على ذاته، وذلك أنه تعالى حين بسط بساط الوجود على ممكنات لاتحصى، ووضع عليها موائد كرمه التى لا تتناهى، فقد كشف عن صفات كماله وأظهرها بدلالات قطعية تفصيلية غير متناهية، فإن كل ذرة من ذرات الوجود تدل عليها، ولا يتصور فى العبارات مثل ذلك.

وقولنا: «الحمد لله» اللام للاستغراق، فجميع المحامد لله إما وصفاً وإما خَلْقاً، فله الحمد لظهور سلطانه، وله الشكر لموفورات إحسانه. وله الحمد لاستحقاقه لجلاله وجماله، وله الشكر لجزيل نواله وعزيز أفضاله. وإننا لنحمده تعالى على إنعامه وطَوْله، وجلاله وجماله، وهو المستحق لصفات العلا ونعوت العزّ والسمو. وله تعالى الوجود القديم، وله

الجود الكريم، وله الثبوت الأحدى، والسكون الصمدى، والبقاء الأزلى، والبهاء الأبدى، وله تعالى السمع والبصر، والقضاء والقدر، والعزّة والطوْل، والجمال والجلال، وهو الواحد المتعال، والأحد فى ملكوته. تبارك سبحانه ما أعظم شأنه. حَمَد نفسه بقوله: «الحمد لله» فابتهج المؤمنون حينما سمعوه وهو الحق يثنى عن نفسه بخطاب الحق، فقال نبيُّهم ﷺ - نبىّ المؤمنين - يتقاصر لسانه عن حمده تعالى: «لا أحصى ثناءً عليك. أنت كما أثنيت على نفسك».

والحامدون طبقات: يتباين أحوالهم: فطائفة يحمدونه على ما ينالونه من إنعامه وإكرامه، وما يعقلونه من إحسانه، ويعرفونه من أفضاله: وإنْ يعدوا نعمة الله لن يحصوها، وحمدهم لذلك لا يُحصَى؛ وطائفةٌ تحمده على ما يلوح فى قلوبهم من عجائب لطفه، وما يودع فى سرائرهم من مكنونات برِّه، وما يكاشفهم من خفىّ غيبه؛ وطائفةٌ تحمده لمّا آمنوا به فامتلأت به قلوبهم وصدورهم وقد بلغوا فيه غاية التوحيد، يقولون: «أحَدٌ صَمَدٌ، لا مثيل له ولا كفوأ». ولم يكن إيمانهم إقراراً بشُكره على نعمه، ولا خوفاً مما توعّدهم به من عقابه، وإنما هم يمدحونه بعزّ جلاله، بما يرون فى الوجود من دلائل وجوده، فتضطلم نفوسهم بحقائق توحيده كما قال شاعرهم:

بيان بيان الحق أنت بيانه

وكل معانى الغيب أنت لسانه

ومن المحامد المأثورة: الحمد لله، ولله الحمد بكل المحامد، على كل المحامد، بجميع المدائح المحمودة، فى جميع الحمد والمدح، بما يجب للحمد له تعالى، حمداً أزليًا لا أول لبداية حمده غير حمده، بحمده لحمده، فى جميع المحامد الأزلية الأبدية، بلسان جمع الحمد وفَرْقه، فى جمع المحمود بذاته لذاته، وبصفاته لصفاته، وبفعله على فعله.

٣٣٢ - حمدونية...

طريقة حمدون القصّار (انظر القصّارية)، وتقوم على خدمة الفقراء واحترامهم. وكان حمدون من الملامتية (انظر الملامتية).

٣٣٣ - حنظل...

الحنظل عند أهل الله تُشبَّه به الكلمة الخبيثة، كقوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾ (إبراهيم ٢٦)؛ والكلمة الخبيثة: هى كلمة الكفر، أو هى الكافر نفسه.

والحنظل سام، ويُضرب المثل بمرارته، فيقال: أمَرُّ من الحنظل؛ ومن دأبه أنه لا

يضرب بجذوره فى الأرض ومن ثم يسهل خلعه واجتثاثه.

٣٣٤ - حنفاء...

الحُنَفاء فريق من الزهّاد العرب قبل الإسلام، نفروا من الأوثان ورفضوا عبادتها، ودانوا بالتوحيد، وجاهدوا النفس، ولبسوا الصوف، وحرّموا على أنفسهم أنواع الطعام؛ قيل اتّبعوا ملّة إبراهيم، وكان إبراهيم حنيفاً، أى على الفطرة التى فطر الله الناس عليها، وهى عبادة الله مخلصاً له الدين.

(البقرة ١٣٥ - آل عمران ٩٥ - الأنعام ٧٩ - الروم ٣٠ - البينة ٥)

٣٣٥ - حواريون...

هم واحد أو أكثر فى كل زمان، وقيل كان فى زمن رسول الله ﷺ الزبير بن العوام، وقد نبّه الرسول ﷺ إليه؛ والحوارية هى عائشة وفى زمن عيسى كان الحواريون اثنى عشر.

٣٣٦ - حورية...

فرقة من الصوفية المبطلة، ومذهبهم مثل مذهب الحالية، الذين كانوا يعتقدون الوجود الحالى، وأن مآلهم هو نفسه ما عليهم من حال، إلا أن الحورية يقولون إن حور الجنة يأتينّ إلينا فى حالة سُكْرنا فنواقعهنّ، فإذا أفقن اغتسلن!

حويزة...

مركز حركة المشعشعين - وهى حركة صوفية فى بدايتها، وكانت أم عُبيدة القريبة منها، مركز الرفاعيين فى البطائح من العراق، وهى منطقة معزولة كلها مستنقعات كان يلجأ إليها الهاربون من وجه الشرطة والطغاة، وفيها تعلموا السحر والشعوذة التى اشتهر بها الرفاعية. ويذكر مؤرخو التصوف أن محمد بن فلاح شيخ المشعشعين، وأحمد الرفاعى شيخ الرفاعية، ادّعى كلٌّ منهما المهدية، وأنهما مجددان للقرآن، ويتصرّفان فى الأرض والسماء، وأنهما فى مقام أئمة آل البيت الاثنى عشر.

٣٣٧ - حياء...

انقباض النفس من شىء، وتركه حذراً من اللوم فيه، والحياء الإيمانى يمنع المؤمن من فعل المعاصى خوفاً من الله تعالى، وهو بخلاف الحياء النفسانى الذى خلقه فى النفوس كلها، كالحياء من كشف العورة.

والحياء على الوصف العام والوصف الخاص، فأما الوصف العام فهو ما أمر به الرسول ﷺ فى قوله: «استحيوا من الله حق الحياء، بحفظ الرأس وما وعى، والبطن وما حوى، وتذكّر الموت والبلى، وترك زينة الدنيا، ومن يفعل ذلك فقد استحيى من الله حق الحياء».

وأما الحياء الخاص فمن الأحوال، فقد ذكر عثمان: أنه لَيغتسل في البيت المظلم فينطوي حياءً من الله. وقال ذو النون: الحياء وجود الهيبة في القلب مع حشمة ما سبق منك إلى ربك. وقيل العلم الأكبر هو الهيبة والحياء، فإذا ذهبت عنه الهيبة والحياء فلا خير فيه.

وعند الرسول ﷺ «الحياء من الإيمان، والإيمان في الجنة» وقال: «ولو كان الحياء رجُلاً لكان صالحاً». وقال: «لا تقولوا أفسدها الحياء. لو قلتم أصلحه الحياء لصدقتم». رواه الخرائطي.

والبذاء نقيض الحياء، وفي الحديث عن أبي نعيم، عنه ﷺ: «البذاء من الجفاء، والجفاء في النار». والبذاء هو الفُحش، والجفاء هو الباطل.

وفي رواية عمران بن حصين: «الحياء خيرٌ كله». وعند الديلمي قال: «من لم يكن له حياء فلا دين له، ومن لم يكن له حياء في الدنيا لم يدخل الجنة».

٣٣٨- حياة...

وجود الشيء لنفسه حياته التامة، ووجوده لغيره حياة إضافية له، فالحق سبحانه موجود لنفسه فهو الحيّ، وحياته هي الحياة التامة فلا يلحق بها ممات، والخلق من حيث الجملة موجودون دون الله، فليست حياتهم إلا حياة إضافية، ولهذا التحق بها الفناء والموت؛ وقيل: إن حياة الله في الخلق واحدة تامة، لكنهم متفاوتون فيها. ومن الخلق مَن يرى أنه موجود لنفسه ويعلم أنه موجود، ولكن هذا الوجود له غير حقيقي لقيامه بغير قربه تعالى، فكانت حياته حياة غير تامة لهذا السبب. ومن الخلق مَن ظهرت له الحياة فيه، فلا يرى نفسه، فهو كالحيوان وإنْ تميّز بالوعي. ومن الخلق من بطلت فيه الحياة فكان موجوداً لغيره لا لنفسه كالنبات والمعادن والحيوان وأمثال ذلك، فكأن الحياة صارت في جميع الأشياء، فما ثم من الموجودات إلا وهو حيّ، لأن وجوده عين حياته، وما الفرق إلا أن يكون تاماً أو غير تام، بل ما ثم إلا مَنْ حياته تامة، لأنه على القدر الذي تستحقه مرتبته، فلو نقص أو زاد لعدمت تلك المرتبة، فما في الوجود إلا من هو حيّ بحياة تامة، ولأن الحياة عين واحدة فلا سبيل إلى نقص فيها ولا إلى انقسام، لاستحالة تجزئة الجوهر الفرد، فالحياة جوهر فرد موجود بكماله لنفسه في كل شيء، فمشيئة الشيء هي حياته، وهو حياة الله التي قامت الأشياء بها، وذلك هو تسبيحها له من حيث اسمه الحيّ.

ويقول الجنيد: إن الحيّ من تكون حياته بحياة خالقه، لا من تكون حياته ببقاء هيكله؛ ومن يكون بقاؤه ببقاء نفسه فإنه ميت فى وقت حياته، ومن كانت حياته به كان حقيقة حياته عند وفاته، لأنه يصل بذلك إلى رتبة الحياة الأصلية.

وعين الحياة: هى باطن الاسم «الحيّ»، الذى مَن تحقق به، شَرِب من ماء عين الحياة، الذى مَنْ شَرِبه لا يموت أبداً، لكونه حياً بحياة الحقّ، وكل حيّ فى العالم يحيا بحياة هذا الإنسان لكون حياته حياة الحق.

٣٣٩ - حيرة...

بديهة على قلوب العارفين عن تأملهم وحضورهم وتفكّرهم، تحجبهم عن التأمل والفكرة، قال الواسطى: حيرة البديهة أجلّ من سكون التولّى عند الحيرة.

والتحيُّر: منازلة تتولى قلوب العارفين فترديهم بين اليأس والطمع فى الأصول، فلا هم يصلون حقًا فيرتجوا، ولا فشلهم يؤيسهم عن السعى فيستريحوا، فعند ذلك يتحيّرون. وعند هؤلاء العارفين فإن المعرفة تحيُّر، ثم اتصال، ثم افتقار، ثم حيرة:

قد تحيّرتُ فيك خُذ بيدى
يا دليلاً لمن تحيّر فيك

* * *

باب الخاء

* * *

٣٤٠ - خاتم...

الخاتم هو العبد الواصل الذى قطع المقامات ووصل إلى نهاية الكمال. وخاتم الأولياء يتبع فى الحكم ما جاء به خاتم الرُّسل من التشريع فى الظاهر، كما هو آخذ عن الله فى السرّ ما هو بالصورة الظاهرة متّبعٌ فيه. وكل نبىّ ابتداءً من آدم إلا ويأخذ من مشكاة خاتم النبيين، وإن تأخر وجود طينته فإنه بحقيقته موجود، وهو قوله ﷺ فى الحديث المنسوب إليه: «كنت نبياً وآدم بين الماء والطين»، يعنى أن غيره من الأنبياء ما كان نبياً إلا حين بُعِث.

وكذلك خاتم الأولياء، كان ولياً وآدم بين الماء والطين، وغيره من الأولياء ما كان ولياً إلا بعد تحصيله شرائط الولاية من الأخلاق الإلهية، فى الاتصاف بها، من كون الله تعالى تَسمَّى بالولى الحميد (الشورى ٢٨)، فخاتم الرسل من حيث ولايته، نسبتُه مع الخاتم للولاية نسبةُ الأنبياء والرسل معه، فإنه - أى النبىّ ﷺ - الولىّ الرسول النبىّ؛ وخاتم الأولياء هو الولىّ الوارث الآخذ عن الأصل، المشاهد للمراتب، هكذا فى فصوص الحِكَم لابن عربى.

٣٤١ - خادم...

الخادم الذى يخدم فى رباط الصوفية يختار هذا الطريق لأنه يرى أنه الموصّل له، وهو طريق البذل والإيثار، ولا يتبع الهوى فى خدمته، وإلا فهو المتخادم وليس الخادم، والفرق: أن المتخادم له ثواب الخادم فى كثير من تصاريفه، لكنه لا يبلغ رتبته لتخلفه عن حاله، فهو يخدم لمنال يصيبه أو حظ عاجل يدركه، فهو فى الخدمة لنفسه لا لغيره، ولو انقطع رفق الجماعة به ما خدم، وهو مع حظ نفسه يخدم من يخدمه. (انظر خدمة).

٣٤٢ - خارق...

الأمر الذى يخرق ظهوره العادة، وهو: إما يظهر على يد مؤمن، أو كافر؛ والأول: إما أن لا يكون مقروناً بكمال العرفان - وهو المعونة، أو يكون، وحينئذ إما مقروناً بدعوى النبوّة وهو المعجزة، أو لا، وحينئذ لا يخلو إما أن يكون ظاهراً من النبىّ قبل دعواه وهو الإرهاص، أو لا وهو الكرامة. والثانى الظاهر على يد كافر: إما أن يكون موافقاً لدعواه وهو الاستدراج، أو لا وهو الإهانة.

والسِّحر ليس من الخارق، وإطلاق الخارق عليه على سبيل المجاز.

وظهور الخوارق على يد إنسان من غير دعاوى، فذلك الإنسان إما أن يكون صالحاً مرْضيّاً عند الله، أو يكون خبيثاً مذنباً؛ والأول هو القول بكرامات الأولياء، واتفق الصوفية على جوازه؛ وإما أن تظهر الخوارق على من هو مردود عن طاعة الله، فهذا هو المسمى بالاستدراج. ومعنى الاستدراج أن يعطيه الله كل مطلوبه في الدنيا، ليزداد غيّه وضلاله وعناده. يقول الله تعالى: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ﴾ (الأعراف ١٨٢). (انظر أيضاً مخاريق).

٣٤٣ - خاطر...

تحريك السِّرّ لا بداية له، وإذا خطر بالقلب فلا يثبت، فيزول بخاطر آخر مثله، ويقال إن الخاطر الصحيح: أول الخاطر، أي أول ما يخطر من الخواطر. وقيل الخاطر ما يرد على القلب ويفر منه بورود خاطر آخر. والخاطر كل ما أمكن العابد رفضه من قلبه، وأهل الواردات يلزمهم اتباع أول وارد، لأنه وارد من الله.

ومعنى الخاطر أيضاً ما لا يكون للعبد نسبةٌ في ظهوره في الأسرار. والخاطر أيضاً قهرٌ يستوعب الأسرار ويسمونه نقر الخاطر، وقد نبّه إليه سهل بن عبد الله العشري المتوفى سنة ٢٨٣هـ.

وقيل: الخاطر ما يرد على القلب والضمير من الخطاب، ربّانياً كان أو مَلَكياً أو نفْسياً أو شيطانياً من غير إقامة، وقد يكون كل وارد لا تعمُّل لك فيه.

وقيل: الخاطر الربّاني: أول الخواطر، وهو لايخطىء أبداً، وقد يُعرف بالقوة والتسلط وعدم الاندفاع.

والخاطر الملكي :هو الباعث على مندوب أو مفروض ويسمى إلهاماً.

والخاطر النفساني: هو ما فيه حظ النفس ويسمى هاجساً.

والخاطر الشيطاني: هو ما يدعو إلى مخالفة الحق ويسمى خاطر العدو، إذ الشيطان عدو للمؤمن يدعوه للمعاصي.

وبعض المشايخ زاد على الخواطر الأربعة: خاطر الروح، وخاطر القلب، وخاطر الشيخ. وبعضهم زاد خاطر العقل، وخاطر اليقين. فأما خاطر الشيخ: فهو أمداد همّة الشيخ تصل إلى قلب المريد الطالب وتشتمل على كشف أمر معضل أو حل مشكلة من المشاكل، حيث يستمد المريد كشفه من ضمير الشيخ.

وخاطر اليقين : وارد بتجرّد من أية معارضات أو شكوك؛ وأما خاطر العقل: فإن كان في أمداد الروح والقلب فهو من

قبيل خواطر المَلَك، وإن كان فى أمداد النفس والشيطان فهو من قبيل خواطر العدو.

والخاطر إن لم يشهد له ظاهر فهو باطل، فإذا كان من قبيل المَلَك فإنما يُعلَم صدقه بموافقة العِلم، وإذا كان من الشيطان فأكثره يدعو إلى المعاصى، وإذا كان من النفس فأكثره يدعو إلى اتباع شهوة أو استشعار كِبْر.

والخَطَرات: كل ما يمر بالقلب من أحكام الطريقة.

٣٤٤- الخال...

الخال هو العلامة السوداء تكون على الوجه، وفى اصطلاح الصوفية: إشارة إلى نقطة الوحدة من حيث الخفاء التى هى مبدأ الكثرة ومنتهاها، منه بدأ وإليه يرجع الأمر كله، لأن الخال بواسطة السواد مشابه لجنس الغيبية الذى هو محتجب عن الإدراك والشعور ومخفى عنه: لا يرى الله إلا الله، ولا يعرف الله إلا الله.

وقيل الخال: عبارة عن ظلمة المعصية التى تكون بين أنوار الطاعة. وقيل الخال عبارة عن نقطة الروح الإنسانية. وقيل الخال هو الوجود المحمدى، يعنى وجود العالم.

٣٤٥- خالصة...

أهل الخالصة هم المرادون بالآية: ﴿ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ * وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الأَخْيَارِ﴾ (ص ٤٦/ ٤٧)، اجتباهم مولاهم وأكمل لهم النعمة، وهيأ لهم الكرامة، فأسقط عنهم حركات القلب، فصارت حركاتهم فى العمل والخدمة على الألفة والذكر والتنعّم بمناجاته والانفراد بقُربه.

٣٤٦- خانقاه...

لفظ مأخوذ من الفارسية، معناه «البيت» الذى ينزل فيه الصوفية، أو بيت الصوفية، وقيل سمى خانقاه من الخنق لتضييقهم على أنفسهم. والعامة يعرّبون الاسم خانقاه إلى خانكاه، والجمع خوانك وخوانق.

وقيل كان بناء أول خانقاه للصوفية بالرَّملة فى فلسطين، فى نهاية المائة الثامنة الميلادية على ما يظهر، ولكن البقاء فى الخانقاوات لم يكن من الأمور التى أباحها جميع الصوفية، وقد استنكره أبو تراب النخشبى (المتوفى ٨٥٩ م) وعدّه مساوياً للتسوّل، فقال: من لبس منكم مرقعة فقد سأل، ومن قعد فى الخانقاه أو فى المسجد فقد سأل، ومن قرأ القرآن كيما يُسمِع الناسَ فقد سأل.

ويذكر المقريزى: أن الخانقاوات وُجدت فى الإسلام فى القرن الخامس الهجرى المقابل للقرن الحادى عشر الميلادى. ويقول القزوينى: إن أبا سعيد بن أبى الخير (المتوفى ١٠٤٩م) هو مؤسس نظام الرهبنة فى التصوف الإسلامى، وأول واضع لقواعده وقوانينه، وبعد ذلك بمائتى سنة زيد فى نظام الرهبنة، وانتشر على أيدى مشايخ الطُرق، كالعدوية والقادرية والرفاعية. ويذكر السهروردى فى كتابه «عوارف المعارف» الكثير من التفاصيل عن حياة المتصوفة فى الرُبُط، وهى بخلاف الخانقاوات، وبخلاف التكايا. (انظر الخلوة والتكية والرباط).

ولم تكن الخانقاه مجرد بيت للإيواء لمن نذر نفسه للزهد والنُسك من أرباب الحِرف والمهن، ومن أبناء الشعب الذين أقبلوا على التعمّق فى الفقه، ودراسة المذاهب، والسير على نظام أهل الطريقة، والتتلمذ على المشايخ، وكانوا من طبقات المريدين والسالكين، وأخذوا العهد على التفرّغ والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر. وإنما كانت الخانقاه كذلك بمثابة الخان لاستضافة الغرباء، والمدرسة للمذاهب الفقهية وللحديث والقراءات. وتشتمل كل خانقاه على مكتبة ومسجد، ويُلحق بها مدرسون لكل العلوم والمعارف. ولكل خانقاه شيخ، وإمام، وناظر وقف، وخازن للكتب، وكاتب للغيبة، ومؤذّن، ومشرف للحمام، ومشرف للمطبخ، وكحّال، وحجّام، وسوّاق للساقية، ووقّاد، وفرّاش، وخادم للشيخ، وآخر للربعات، ويصرف فيها الطعام مجاناً، وتزوّد بالصابون للغسيل والاغتسال، ويُصرف للصوفية ملابس سنوياً وحلوى فى الأعياد، ويشتمل الأكل على اللحم، والأرز، واللبن، والخضروات!

ويذكر المقريزى أن زيد بن صَوْحان فى عهد الخليفة عثمان، لما رأى أن العُبّاد كثروا فى البلدة وقد تفرّغوا، وكانوا ينادون فى المساجد والحارات من حولها، أفردهم بمساكن لهم تشبّهاً بأهل صُفّة الرسول ﷺ فى المدينة؛ وبين وفاة الرسول ﷺ وذلك الزمن لم يكن يزيد على خمس وعشرين سنة أو نحوها. ولم يكن وقتها اسم الخانقاه قد أطلق على بيوت الصوفية، إلا أنه فى مصر من بعد ذلك استقر الاسم، وكانت أول خانقاه تُخصَّص لهم هى الخانقاه الصلاحية وتُعرَف بدار سعيد السعداء، وأوقفت على فقراء الصوفية، واشتهرت باسم دويرة الصوفية، وما تزال بحى الجمالية حتى الآن وتعرف بجامع الخانقاه.

وفى إيران سبقت بيوت الكرامية التى شيّدها جماعة محمد بن كرام فى القرن الثالث الهجرى، ولم تشتهر الخانقاوات إلا فى القرن الخامس الهجرى، وكانت عبارة عن دار للجماعة وباحات للخلوات وأبنية للمطبخ والحمام وغيره. واتُّخذ التعليم فى المسجد، وتُدار فيه حلقات الذكر بالإضافة إلى الصلوات. وكان كل شيخ له اسطوانة أو سارية أو عامود بالمسجد يستند إليه وهو يدّرس لمريديه، وبعض المشايخ انتحوا بمريديهم وكانت لهم بالمساجد زوايا خاصة بهم.

واشتملت مناهج الدراسة على علوم الطريقة، بالإضافة إلى العلوم النقلية والعلوم العقلية، وكانت بيوت الصوفية لذلك نواة تأسيس بيوت الحكمة والمدارس الكبرى كالمدرسة النظامية.

وفى خلافة الفاطميين خصّص يعقوب ابن كلّس لفقهاء الأزهر داراً لإيوائهم، ورتّب لهم الرواتب والجرايات. وعمارة الخانقاوات إسلامية خالصة روعى فيها الجمال والوظيفة، وروعى أن يأتى بناؤها بعيداً عن حركة الناس ورحامهم. ويتألف المبنى من طباق تتراص فى صفوف متوازية هى الرُّبُط، وليس لها فتحات، وطرازها من نوع الطباق الحبيس، والواجهة من النوع المشهر من مداميك أفقية من اللونين الأحمر والأصفر، ومقرنصات وخوذات، والقباب الصغيرة تُبْنَى فوق المحاريب أو المداخل. والخلوات تغطيها الحجارة الجيرية غالباً والحُصُر، ولها مصاطب. والخلاصة: أن هذه الخانقاوات بدءاً من فارس وانتهاءً بالرُّبط فى المغرب، أسهمت فى تأصيل الجمال روحياً وتعليمياً، وكانت لها إشراقات موحية.

٣٤٧- خبيث...

رحمة الله أوجدها فى الخبيث والطيّب: ﴿وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا﴾ (الأنفال ٣٧)، وليس الخبيث إلا ما يُكْرَه، ولا الطيب إلا ما يُحَب: ﴿وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا﴾ (الأعراف ٥٨)، و﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ (آل عمران ١٧٩)، و﴿لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ﴾ (المائدة ١٠٠).

والعالَم على صورة الحق، فمن حيث هو إلهى بالأصالة فكله طيّب، والإنسان على صورتين، فمزاجه يُدرك الطيّب من الخبيث، مع علمه بأنه خبيث بالذوق، طيب بغير الذوق، فيشغله إدراك الطيب منه عن الإحساس بخُبْثه، وما ثَمّ شىء طيب إلا وهو من وجه فى حق مزاج ما

خبيث، وكذلك بالعكس، ولذلك فرفع الخَبَث من الكون غير ممكن، وليس هو حجة ضد الله. هكذا عند أغلب الصوفية.

٣٤٨- ختام...

عند ابن عربى: الختام هو مقام الإنسان الكامل الذى ينتهى إليه فى مدارج الرقى والكمال، ففى المدرج الأول ويسمى البداية يكون تحقق الإنسان بالأسماء والصفات، وفى المدرج الثانى يكون التوسط، وفيه تحتك الرقائق الإنسانية بالحقائق الرحمانية، وفى المدرج الثالث تتحصل معرفة التنوع الحكمية فى اختراع الأمور القَدَرية، فإذا تمكن من هذا المدرج حلّ فى المقام المسمى بالختام: ﴿خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ (المطففين ٢٦).

٣٤٩- ختم...

فى تصوّف ابن عربى، الختم واحد فى العالم، يختم به الله الولاية المحمدية، فلا يكون فى الأولياء المحمديين أكبر منه.

وقال: أصل الختم ختمان: ختم يختم به الله الولاية المطلقة، وختم يختم به الولاية المحمدية. فأمّا ختم الولاية على الإطلاق فهو عيسى عليه السلام، فهو الوليّ بالنبوة المطلقة فى زمان هذه الأمة (لأنه روح الله)، ولذلك حيل بينه وبين نبوة التشريع والرسالة، فينزل آخر الزمان وارثاً خاتماً، لا وليّ بعده بنبوة مطلقة، كما أن محمداً خاتم النبوة، ولا نبوة تشريع بعده. وهذا الكلام عن عيسى لا يوجد فى الأناجيل ولا فى القرآن، واصطلاح النبيّ الخاتم اصطلاح قرآنى محض يوصف به محمد ﷺ: ﴿رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ (الأحزاب ٤٠).

وأما ختم الولاية المحمدية فهو اصطلاح لابن عربى نفسه، فهو - فى اعتقاد نفسه - الوليّ الختم، ولا وليّ بعده، ولا حامل لعهده. وابن عربى شيعى - أو أن كلامه يستقيه من الشيعة. والختم لذلك هو عنده، كما قال: بوىّ المحتد، وعلوىّ المشهد. يقول:

رتبتى فى الإلهيات يعلمها
ما قالها أحد قبلى من العرب
إلا النبىّ رسول الله سيدنا
ورائةٌ للذى عندى من الأدب
من جملة القوم عيسى وهو خاتم
قد كان من قلبه حباً بلا كذب

٣٥٠- خدمة...

شأنُ مَن دخل الرباط مبتدئاً ولم يذق طعم العلم، ولم ينتبه لنفائس الأحوال، أن يؤمر بالخدمة لتكون عبادته خدمة، ويَجذب بحُسن الخدمة قلوب أهل الله

فتشمله بركة ذلك، ويُعين الإخوان المشتغلين بالعبادة.

ولا يحب المشايخ خدمة من ليس منهم، فإنه قد لا يحب طريقتهم، وربما استضرّ بالنظر إليهم أكثر مما ينتفع.

والخادم المتصوف واقف مع نيته، وهو يفعل الشيء لله تعالى، وهو في مقام الأبرار لاختياره البذل والإيثار. وربما جهل حال نفسه فيظن نفسه شيخاً لقلة علمه، وربما ظن الناس أنه كذلك لكونه أكثر إطعاماً، فهو عندهم أولى بالمشيخة ولا يعلمون أنه خادم.

٣٥١- خرابات...

الخرابات في اللغة بمعنى الحانة، وفي اصطلاح الصوفية عبارة عن خراب الصفات البشرية وفناء الوجود الجسماني والروحاني.

والخراباتي هو العبد الكامل الذي تصدر عنه المعارف الإلهية دون إرادة.

وهم يقولون أيضاً أن الخراب هو خراب عالم البشرية. وقيل الخرابات عبارة عن مظهر الجلال، فالسالك ينمحي ويفنى من تجلّي القهّار. يقول الله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾ (الأعراف ١٤٣)، كناية عنه.

وقيل الخرابات: مكان الاعتكاف بالنسبة للشيخ والمريد. وقيل المراد بالخرابات مقام الوحدة.

ويطلقون كلمة الخرابات على الرجل الفاني، الذي فرغ من أمر نفسه، وألقى بنفسه في غياهب العدم، فهو يرى إضافة الفعل والوصف والوجود إلى نفسه في الحقيقة كفراً.

٣٥٢- خرّازية...

طريقة أبي سعيد الخرّاز من القرن الثالث الهجري، وتقوم على موضوع البقاء والفناء (انظر الخرّاز).

٣٥٣- خرقة...

لِبْس الخرقة ارتباط بين الشيخ والمريد، وتحكيم من المريد للشيخ في نفسه، وفيها معنى المبايعة، وهي عتبة الدخول في الصُحبة، وبالصحبة يُرجَى للمريد كل الخير، ويأخذ الشيخ على المريد عهد الوفاء بشرائط الخرقة، ويعرّفه حقوقها.

والخرقة خرقتان: خرقة الإرادة، وخرقة التبرُّك. والأصل الذي يقصده المشايخ للمريدين خرقة الإرادة. وخرقة التبرك تُشبَّه بخرقة الإرادة، فخرقة الإرادة للمريد الحقيقي، وخرقة التبرك للمتشبِّه، ويسمونها

لذلك خرقة التشبُّه أيضاً، ومن تَشبّه بقوم فهو منهم.

وسرّ الخرقة: أن الطالب الصادق إذا دخل فى صُحبة الشيخ وسلّم نفسه، وصار كالولد الصغير مع الوالد، يرقّيه الشيخ بعلمه المستمد من الله تعالى، وبصدق افتقاره وحُسن استقامته. ويكون للشيخ بنفوذ بصيرته الإشراف على بواطن المريد.

وقد اختار الصوفية الملوَّن من الخرق حتى لا يظهر فيها الوسخ لعدم تفرّغهم لغسل الثياب، ولأنهم رعاية لوقتهم فى شُغل شاغل، وإلاّ فأى ثوب ألبس الشيخ المريد من أبيض أو غير ذلك فللشيخ الاختيار والولاية.

ومن المشايخ من لا يلبس الخرقة ويسلك بجماعته من غير لبس الخرقة.

وقد كان طبقة من السلف الصالحين لا يعرفون الخرقة ولا يُلبسونها المريدين، ومَن يُلبسها، له مقصد صحيح، وله شاهد من الشرع، وأصل ذلك كما قيل، أن النبىّ إبراهيم لمّا أُلقى فى النار جرّدوه من ثيابه، فأتاه جبريل بقميص من الجنة، وظل القميص عنده، وأورثه ابنه إسحق، وأورثه إسحق لابنه يعقوب، ثم أورثه يعقوب لابنه يوسف. فذلك كان قميص إبراهيم الذى ردّ به يوسف بصر أبيه يعقوب، كما ورد فى تفاسير الصوفية. والخرقة لذلك فيها البركات والطيبات، ويورثها الشيخ للمريد، وحالها حال قميص يوسف، تردّ بصيرة المريد وتورثه العلم.

وفى الخبر أن النبىّ ﷺ قد ألبس بيده أم خالد بنت خالد خميصةً سوداء، وقال لها: «أبْلِي وأخلِقي» يقولها مرتين. والخميصة ثوب. فكأن هذه الخميصة السوداء - بالنسبة للنساء - هى المقابل للخرقة - بالنسبة للرجال، فكأن التصوف للنساء كما هو للرجال.

وعن ابن الجوزى أن النبىّ ﷺ كان يرقّع ثوبه، وقال لعائشة: لا تخلعى ثوباً حتى ترقّعيه. وكان عمر بن الخطاب يرقّع ثوبه، وربما كانت به ثلاث أو أربع رُقَع فى الظهر والكتفين والمقعدة. وكان أويس القرنى يلتقط الرقاع من المزابل فيغسلها فى الفرات ثم يخيطها فيلبسها. وتلك إذن حكاية «المرقعة» عند الصوفية! (انظر أيضاً مِرْقعة).

وكان اليمان بن معاوية الأسود يفعل كَأُوَيْس القُرَنِى، ويغسل ما يلتقط من الخرق من المزابل، ثم يطبّقها على بعضها ويستر بها عورته ويقول: أمامنا اللبس إن شاء الله فى دار البقاء! ويذهب كثيرون إلى

أنه: كان أول زاهد يستعمل الخرقة بالمعنى الصوفي الاصطلاحي، وكان ذلك في بداية التصوف في نهاية القرن الثاني وبداية القرن الثالث.

وكان الرسول ﷺ قد ألقى بُردةً على الشاعر كعب بن زهير، واشتراها معاوية بعد ذلك من أولاده بعشرين ألف درهم، ويشيع أهل التصوف أن هذه البردة هي التي آلت إلى سلاطين الصوفية من بعد، ولابد أنها قد بليت وصارت خرقة، ولعلها المقصودة عندما نتحدث عن الخرقة الصوفية.

ويزعم الشيعة أن عليّ بن أبي طالب قد ألبس الخرقة الحسن البصري، وأخذ عليه العهد بالتزام الطريقة، ولعله لذلك كان التصوّف تشيُّعاً في أساسه. والخرقة كما نرى حلّت في التصوف محل لباس الصوف.

وينسب البعض الخرقة إلى الخَضِر عليه السلام، الذي أخذها عن رسول الله ﷺ، هكذا قالوا، وكان الصوفية يُلبسونها بعضهم البعض، كابراً عن كابر، فالجنيد أخذها عن خاله سريّ السقطي، وهذا أخذها عن معروف الكرخي، وأخذها معروف عن داود الطائي، الذي أخذها عن العجمي، عن الحسن البصري، عن عليّ بن أبي طالب! فلماذا علىّ في نهاية المطاف؟ والجواب: لأن التصوّف أصله شيعي، أو أن الشيعة أرادوا أن ينسبوا إليهم التصوف، وهذا أسوأ ما فيهم: أن كل المفكرين الكبار، وكل المذاهب الكبرى، يحاولون أن ينسبوها أو يردّوها إلى التشيُّع!

وفي الخبر أن الشبلي: كان أول من ألبس الخرقة واصطلح عليها؛ وكان أول من لبسها منه الفضل بن عبد الواحد بن عبد العزيز التميمي.

وأصل الخرقة في القرآن، الآية: ﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ (الأعراف٢٦). ويقال للخرقة خرقة، لأنه في زمان الشبلي: كان كلما لبس شيئاً خَرَق فيه موضعاً ليعيبه فلا يتكبّر به، فقلّده تلاميذه فكانوا يخرقون ملابسهم. ويقول محيي الدين بن عربي: إن لبس الخرقة من التبرّك بفعل السلف، ولم أجد في ذلك دليلاً.ـ يعني أن الخرقة ليس لها توثيق تاريخي. ويقول ابن عربي: ما كنت أعرف الخرقة إلا الصُحبة والأدب لاغير، ولهذا لا يوجد إلباسها متصلاً برسول الله ﷺ. وأحياناً يكون الشيخ في وقت غلبة حاله عليه، ويريد أن يكمل أحد مريديه، فينزع عن نفسه الثوب الذي عليه ويلبسه للمريد

الذى يريد تكملته، فيرى فيه ذلك الحال، فيكمل حاله فى الأخلاق إذ ذاك، والخرقة لذلك كانت بين العارفين، كالخُلْعَة من الملك. وأمّا من يلبسها بغيرحال فإنما ذلك من باب التشبّه والتبرُّك لا غير. وفى الأحوال العادية يجب على من يُلبس المريدين الخرقة أن يعيّن رجال سنده إليها، وأما أصحاب الجَذَبات الإلهية فهؤلاء معفون من ذكر السند فى أحوال جذبهم.(انظر المرقعة).

٣٥٤- خروج...

الكثير من الصوفية مع الجهاد والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، والكثير منهم أيضاً أعلنوا أنهم : لا يرون الخروج على الولاة بالسيف ولو كانوا ظلمة، وهو قول قد يبدو مسالماً وتقتضيه الحكمة، ولكنه أيضاً يمكّن للظلمة والمستقويين والحكّام المتغلّبين. وكان نصر خسرو المتوفى بعد سنة ٤٥٣ خـ (١٠٦١م) من متصوفة الشيعة، ومن تلاميذه الصوفى الكبير الحسن الخرقانى المتوفى سنة ٤٢٥ هـ (١٠٣٤م) وكانا يريان الخروج، ومتصوفة الشيعة على أى الأحوال مع الخروج، بينما متصوفة السنّة ضد الخروج، وتزعّم هذا الاتجاه سهل التُسْتُرى، والجنيد البغدادى، وأبو بكر الطمستانى، والنصراباذى، والقشيرى، والغزالى.

٣٥٥- خسروية...

هى تصوُّف ناصر خسرو المتوفى بعد سنة ٤٥٣ هـ (١٠٦١م) من نوع التصوف السياسى، واعتبروه من صوفية الشيعة، فهكذا ذُكر فى طرائق الحقائق، ورياض العارفين. وقيل فى تصوفه إنه تصوف إصلاحى، فقد عاب على الصوفية لبسهم للصوف طلباً للشهرة ورياء الناس، وذكر فى كتابه «سفر نامه»: أنه لما وصل إلى قومس، قصد إلى زيارة قبر الشيخ أبى يزيد البسطامى، وكان ذلك سنة ٤٣٧ هـ (١٠٤٥م)، وذكر أنه قد أخذ مذهبه عن أبى اليزيد البسطامى، وذى النون المصرى، وإبراهيم بن أدهم. ومن شعره فى نقد الصوفية :

أهل التصوف قد مضوا

صار التصوف مخرقة

صار التصوف صيحةً

وتواجداً ومطْبَقة

ويعدّه الصوفية الشيعة من تلاميذ أبى الحسن الخرقانى المتوفى سنة ٤٢٥ هـ (١٠٣٤م).

٣٥٦- خشبية...

هؤلاء غلاة الصوفية من الشيعة، زعموا أن الجهاد لايكون بسيف من حديد وإنما من

خشب، وابتداءاً من علىّ، فقد ردّ أحدهم عليه لما طلب منه الخروج للجهاد، أن النبىّ ﷺ قد عهد إليه إذا اختلف الناس، أن يتخذ سيفاً من خشب، وقد اتخذ محمد بن مسلمة (المتوفى ٤٣هـ/ ٦٦٣م) سيفاً من خشب بعد وفاة النبىّ ﷺ. وقيل: إن النبىّ ﷺ أعطى عبدالله بن جحش يوم أحد عسيباً من نخل، فصار يعمل فى يده كالسيف. ـ ولما انقطع سيف عُكاشة بن محصن فى غزوة، أعطاه الرسول ﷺ جريدة نخل يحارب بها، فصارت فى يده أشدّ من السيف. وقد استمسك الصوفية من الشيعة الغلاة بالفكرة، وحاربوا مع أبى الخطّاب الأسدى: بالقصب والحجارة والسكاكين، وكانوا يؤمنون بأن قصبهم يعمد فى خصومهم عمل الرماح وسائر السلاح. وربما كان لجؤوهم إلى فكرة الجهاد بأعواد الخشب، بسبب الفقر والعجز عن توفير ثمن السلاح. ولعل ذلك سبب لجوء أطفال جماعة حماس الإسلامية فى فلسطين إلى الحجارة يحاربون بها اليهود. والغالب أن الفكرة كانت مع الصوفية إيمانية أكثر منها لأسباب اقتصادية، بدليل أن ابن فلاح الصوفى كان يقتنى سيفاً من الخشب، ويسميه لُعاب المنيّة، وكان الصوفية من النصيرية يجاهدون بقضبان الآس.

٣٥٧- خشوع...

هو الانقياد للحق، وقيل هو قيام القلب بين يدىّ الحق سبحانه. وقال الحسن البصرى الخشوع هو الخوف الدائم اللازم للقلب. وقيل عن علامات الخشوع: أن صاحبه إذا أُغضب أو خُوّف أو رُدّ عليه فإنه يستقبل ذلك بالقبول.

والخشوع من أسباب الخشية: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ (الحشر ٢١) فلأنه يخشى الله فإنه يظهر الخضوع والخشوع. ثم إن الخشوع علامة الفلاح عند المؤمن: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ (المؤمنون ٢).

والخاشعون والخاشعات من أصحاب الدرجات العلا فى الفلاح، وفى الآية: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ (الأحزاب ٣٥) يأتى ترتيب الخاشعين والخاشعات السادس فى مراتب المغفور لهم المأجورين. والخشوع

نوعان : خشوع لله رَغَباً ورهبة (الأنبياء ٩٠)، وخشوع من الذُّل (الشورى ٤٥)، ثم إن الخشوع مكانه القلب: ﴿تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ﴾ (الحديد ١٦)، وموضع ظهوره الأبصار : ﴿خُشَّعاً أَبْصَارُهُمْ﴾ (القمر ٧)، ﴿خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ﴾ (القلم ٤٣)، وأكثر ما يبين في الأصوات : ﴿وَخَشَعَتِ الأَصْوَاتُ﴾ (طه ١٠٨)

٣٥٨ - خشية...

تألمّ القلب بسبب توقع مكروه في المستقبل، تارة يكون بكثرة الجناية من العبد، وتارة يكون بمعرفة جلال الله وهيبته. وخشية الصوفية من هذا القبيل.

وفي الآية ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ (فاطر ٢٨)، «إنما» حكمة تحقيق تجرى مجرى التحديد، أى التخصيص والقصر، فمن فقد العلم بالله فلا خشية منه من الله.

والفرق بين الخشية والرهبة : أن الرهبة خوف يوجب هرب صاحبه، فيجرى في هربه، والخشية إذا حصلت كبحت جماح صاحبها فيبقى مع الله، فُقُدمت الخشية على الرهبة.

وأما الخوف فهو قضية الإيمان : ﴿وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ (آل عمران ١٧٥)، والخشية قضية العلم، والهيبة توجب المعرفة.

وخشية العلماء من تقصيرهم في أداء حقّه تعالى؛ وخشية الصوفية من استحيائهم من اطلاع الحقّ عليهم، حذراً من أن يحصل لهم سوء أدب وترك احترام، وانبساط في غير وقت الانبساط، بإطلاق لفظ أو ترخّص بتَرْك الأولى.

٣٥٩ - خصوص...

أهل الخصوص هم الذين خصّهم الله تعالى من عامة المؤمنين بالحقائق والأحوال والمقامات. وخصوص الخصوص هم أهل التفريد وتجريد التوحيد، ومَن عَبَرَ الأحوال والمقامات، وسلكها وقطع مفاوزها. يقول الله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ﴾ (فاطر ٣٢)، فالمقتصد خصوص؛ والسابق: خصوص الخصوص.

٣٦٠ - خضر...

سيدنا الخَضِر هو عبد الله الصالح في القرآن: ﴿فَوَجَدَا عَبْداً مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْماً﴾ (الكهف ٦٥)، والله لا يسمى إنساناً عبداً إلا إذا كان قد جعله من جملة الخواص، فإذا قال: «عبدى» فقد جعله من خواص الخواص، وآتاه رحمة: أى صار مرحوماً بتلك الرحمة التى خصّه بها الله، ويكون بها راحمًا على عباد الله. وعلّمه علمًا من لدنّه هو العلم بطريق الإلهام، لا يتكلف في طلبه، وبه يعرف أولياء الله ما فيه

صلاح عباد الله. والخضر في المصطلح الصوفي يعبَّر به عن البَسْط، فإن قواه المزاجية مبسوطة إلى عالم الشهادة والغيب، وكذلك قواه الروحانية. والبسط نقيضه القَبْض، والأخير يعبَّر به عن النبيّ إلياس أو إيليا Elijah.

والخَضِر في الأسطورة الدينية العالمية هو المشهور باسم the green man، أي الرجل الأخضر، وهو أخضر لأنه لا يشيخ أبداً، والخَضَار دليل الحياة والحيوية، وكانت للخضر طُنْفُسة خضراء، وكان يفرشها على كَبِد البحر ويستلقي عليها مُستجًى بثوبه، قد جعل طَرَفه تحت رجليه، وطرفه تحت رأسه، وهذه كانت هيأته لما توجّه إليه موسى وفتاه كما أوحى إليه جبريل؛ وقيل: إن الخضر كشف عن وجهه، وقال: هل بأرضك من سلام؟ من أنت؟ قال: أنا موسى. قال الخضر: أعرف أنك موسى بنى إسرائيل؟ قال موسى: نعم. قال: فما شأنك؟ قال: جئتُ لتعلّمني مما عُلّمتَ رُشْداً.

وقيل: إن موسى وفتاه وجدا الخضر وهو نائم على طنفسة خضراء على وجه الماء، وهو متّشح بثوب أخضر، فسلّم عليه موسى، فكشف عن وجهه، فقال: وأنىّ بالأرض السلام! ثم رفع رأسه، واستوى جالساً، وقال: وعليك السلام يا نبيّ بنى إسرائيل. فقال له موسى: وما أدراك بي؟ ومن أخبرك أني نبيّ بني إسرائيل؟ قال: الذي أدراك بي ودلّك عليّ! ثم قال: يا موسى، لقد كان لك في بني إسرائيل شُغل. قال موسى: إن ربيّ أرسلني إليك لأتّبعك وأتعلم من علمك. ثم جلسا يتحدّثان، فجاءت خَطّافة، وحملت بمنقارها من الماء. فقال الخضر: إن مثَل ما أعرف من علم الله تعالى، مثل مقدار ما أخذت هذه الخَطّافة بمنقارها من ماء هذا البحر!.

وقيل: إن موسى قد أوحى إليه أن يتوجه إلى الخضر، لمّا خطب قومه مرة، فأبان عن علمه، انبرى له رجل من بني إسرائيل، قال: هل أحدٌ أعلم منك على وجه الأرض يا نبيّ الله؟ قال: لا؛ فعتب الله عليه أنه لم يردّ العلم إلى صاحبه الأصلي: الله؛ فبعث إليه جبريل، قال: إن ربّك يقول لك: وما يدريك يا موسى أين أضع علمي؟ بلى يا موسى! إن لي عبداً بمجمع البحرين هو أعلم منك!

قيل: علم موسى والخضر علْمان، فإن كانا عن أحكام ووقائع مفصّلة، ونوازل معينة، إلا أن علمهما ليس هو العلم المطلق كعلم الله تعالى، فعلْم كلٍّ محدودٌ بحدوده، وكان الخضر على علْمٍ علّمه من

ربّه ولا يعلمه موسى؛ وكان موسى على علمٍ علمه من ربّه لا يعلمه الخضر وذلك نفسه ما تشوّق موسى أن يعلمه من الخضر بحكم نفسه المتشوّفة، وهمّته العالية، لتحصيل كل علم لم يعلمه، وللقاء مَن قيل له فيه: إنه أعلم منك. أجل: كان علم موسى هو العلم الظاهر، وكان علم الخضر هو العلم الباطن؛ أو أن علم موسى كان علم الأسباب، وعلم الخضر هو علم علّة العلل، أو سبب الأسباب كلّها: العلة الأولى، والسبب الأول.

وفى القصة أنه كان لموسى فتى، أى خادم، فعُلِم أن الصوفى فى مثل قامة موسى لابد له من خادم، والصوفية تسميه خادم الخرقة ،والخضر باعتبار أن موسى جاء، يتعلّم، وموسى هو بمثابة الشيخ الصوفى للمريد، فهو المعلّم المتعلّم عليه والمتلقّى منه. وقوله تعالى فى قصة موسى وفتاه: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ (الكهف٦٥) قيل: إن العبد الصالح هو الخضر، وعنه ﷺ - كما فى الرواية قال: سُمِّى الخضر لأنه كان إذا صلى اخضرّ ما حوله. وفى رواية أخرى قال: إنما سُمِّى الخضر لأنه جلس على فروة بيضاء فإذا هى تهتز تحته خضراء. والحديث رمزى، والفروة هى وجه الأرض. والخضر نبىّ عند السواد، والآية تشهد بأنه نبىّ، لأن بواطن أفعاله لا تكون إلا بوحى، ولأن الإنسان لا يتعلّم ولا يتّبع إلا مَنْ كان فوقه فى العلم والقَدْر، وليس يجوز أن يكون فوق النبىّ مَن ليس بنبىّ، وذلك ما جعل الشيعة يقولون إنه ولىّ من أولياء الله، وهو قوله تعالى أنه: ﴿عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا﴾ (الكهف ٦٥) فأضافه تعالى إليه، وهذه مكانة الولىّ؛ لأن علمه فوق علم النبىّ، قالوا: إن علم الولىّ وقدره فوق علم النبىّ وقَدْره؛ ولكن الشيعة انتهت إلى أن الإمام ولىّ، ولا سند لذلك فى القرآن، ومن ثم جعلوا أئمتهم معصومين!

والرحمة فى الآية: هى النبوّة أو الولاية التى آتاها الله الخضر؛ وقيل: هى النعمة التى أنعم بها الله عليه. وقوله: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ (الكهف ٦٥) قيل: هو علم الغيب.

وقيل: كان علم الخضر هو علم معرفة بواطن الأمور، وكانت أحكامه لذلك مُتناسبة مع علمه الباطن أو علمه اللدُنّى - أى من لَدُنْ الله، فى حين أن أحكام موسى وفُتياه كانت بظاهر أقوال الناس وأفعالهم.

وفى قصة موسى مع الخضر الكثير من دروس التصوّف، فالمريد فى الكثير من

الأحيان، لا يفهم ما يفعله الشيخ، وقد يتمرد عليه. وكان مجيء موسى أصلاً إليه ليتعلم مما يعلم، غير أن الخضر بحكم علمه السابق كان يعرف أن موسى لن يستطيع معه صبراً. والشيخ كذلك، قد لا يتوسم فى المريد أنه سيصبر ويتابعه على ما يفعل، ويقول ويحاول أن يفهم - والمسألة فى الصبر على ما لم يُحط المريد به خُبراً. وفى الآية: ﴿سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾(الكهف ٦٩): أن المريد أو المتعلّم يتّبع شيخه أو العالِم؛ وفى حالة موسى والخضر، برغم أن موسى كان نبياً، إلا أنه كان عليه أن يطيع ويصبر، وهو ما لم يفعله. ولا تدلّ تلمذه موسى على الخضر أن موسى كان الفاضل، والخضر كان أفضل منه، فقد يشذّ عن علم الفاضل ما يعلمه المفضول، ولكنه لا يعنى أنه الأفضل؛ وإن كانت الأفضلية ليست واردة هنا، فالخضر وإن كان ولياً وموسى نبياً، فما يعنى الناس منهما هى النبّوة وليست الولاية، لأن النبّوة أعمالها ظاهرة لهم مرتبطة بهم، وليست كذلك الولاية، ومن ثم كان موسى بحسب ذلك هو الأفضل، وفضلُه هو الرسالة والبلاغ وهداية الناس وصرف وجوهها الصحيحة إلى عبادة الله، وتلك مهمة فى غاية الصعوبة والمشقة.

ويبدو أن موسى لما قال للخضر: ﴿سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾(الكهف ٦٩) قد ألزم نفسه الطاعة، واستثنى فى الصبر فصبر، ولكنه لم يستثن فى قوله: ﴿وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾ (الكهف٦٩)، فاعترض عليه، لأن الصبر خاص بالمستقبل، ولا يدرى كيف يكون حالة فيه، ونفى المعصية معزوم عليه فى الحال، والاستثناء فيه لا يصحّ، لأنه ينافى العزم عليه. والصبر لا نكتسبه بخلاف المعصية، فالأول لا يُستثنى فيه، والثانى يمكن الاستثناء فيه. وفى الآية: ﴿فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾(الكهف ٧٠)، تأديبٌ من الشيخ للمريد، وإرشادٌ له لما يقتضى دوام الصُحبة بينهما. فلما خرق الخضر السفينة بلا سبب ولا غاية، وصف موسى عمله بأنه شىء إمْر، فكانت هذه هى المرة الأولى التى يسأل فيها عن شىء جَرَىٰ، وكانت من موسى نسياناً، واعتذر عنها فقال: ﴿لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ﴾ (الكهف٧٣). وكانت الثانية لما قَتَلَ الغلام، فقال له هذه المرة: ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا﴾(الكهف ٧٤)، والنُّكْر أشدّ من الإمْر، والإمْر هو الشديد، والنُّكْر هو الأشدّ حتى لَيُنكَر. واعتذر موسى وقال: ﴿إِن سَأَلْتُكَ عَن

شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا﴾(الكهف ٧٦). والقول بأنه غلام يعنى أنه لم يبلغ ولم يُكلَّف؛ ويقوّى ذلك قول موسى: ﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾(الكهف ٧٤)، يعنى أن الغلام كان زكياً لم يُذنب، لأنه ما يزال طفلاً بعد، ولكن الخضر قتله لما عَلِم من سرّه، وأنه طُبع كافراً، ولو أدرك لأرهق أبويه كُفراً. وعن المرتين اللتين اعتذر فيهما موسى، قيل فى أدب الصوفية: إن الاعتذار بالمرة الواحدة يقوم مطلقاً، ولا تقوم عليه حجة إلا من المرة الثانية. وقوله: ﴿إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلا تُصَاحِبْنِي﴾ (الكهف ٧٦) شرطٌ لازم، يُلزم موسى، والمسلمون عند شروطهم، وأحق الشروط أن يوفَّى بما التزمه الأنبياء والتُّزم لهم. والتأجيل للثالثة يبدو أنه أصل للآجال فى الأحكام بثلاثة مرات، أو بثلاثة أيام. وفى عدم صبر موسى واشتراطه علي نفسه، قال النبىّ ﷺ : رحمة الله علينا وعلى موسى، لولا أنه عَجَّل لرأى العجب، ولكنه أخذته من الخضر ذمامة (أى مذمة)، ولو صَبَر لرأى العَجَب. وفى رواية أخرى عند البخارى، قال: يرحم الله موسى، لوددنا أنه صبر حتى يقصّ علينا من أمرهما. وكانت الثالثة لما لم يعجبه أن الخضر أقام الجدار لأهل قرية أبوا أن يطعموها، ولو شاء لاتخذ عليه أجراً. والثالثة. كما قيل ثالثة الأثافى، يعنى أنه بها يجب الفراق بينهما. وفى التصوف: هناك فرق بين سفر التأديب وسفر الهجرة، وموسى لم يطلب أجراً لما سقى لبنات شعيب، ولكنه طلب أجراً لإقامة الجدار لأهل القرية البخلاء، والفرق فى الحالتين أن موسى كان فى سفره بنات شعيب مهاجراً، وفى سَفْرة أهل القرية وأصحاب الجدار ينشد العلم والتأديب، ويريد أن يعرف، يعنى كانت رحلته طلباً للعلم، وفى طلب العلم يكون دائماً والسؤال، وليس كذلك فى سفرة الهجرة، فالإنسان يتأدب مع الناس ويتلطف إليهم بكريم الأعمال دون انتظار أجر.

وفى طلب موسى درسٌ عملى: أن لكل عمل أجر، وأن الجوعان له أن يسأل القوت، وجُهّال المتصوفة لا يقولون بذلك، ولا يسألون حتى لو ماتوا من الجوع! وقد ذمّ موسى القرية وأهلها لبخلهم، وكذلك فعل نبينا ﷺ، فقال يعلّق على قوله تعالى: ﴿اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا﴾ (الكهف ٧٨): شرّ القُرَى: التى لا تُضيف الضيف، ولا تعرف لابن

السبيل حقّه! والخضر وموسى لم يسألا إلا حقّ ابن السبيل، وهذا هو الأليق بحال الأنبياء، وأشبهه حال الفضلاء والأولياء وأهل الله من الصوفية. وقول الخضر: ﴿وما فعلتُه عَنْ أمْري﴾(الكهف ٨٢)، يدل على نبوّته، وأنه يُوحَى إليه بالتكليف والأحكام، كما أوحى إلى موسى وإلى نبينّا ﷺ، وإلى كل الأنبياء؛ غير ان الخضر ليس برسول، ولم تكن له رسالة يبلّغها. وثمة فرق ثان بين موسى كنبيّ والخضر كوليّ: أن موسى له معجزات، بينما الوليّ له كرامات، وكانت مريم كالخضر صاحبة كرامات، فكانت تظهر عندها الفواكة الشتوية في الصيف، والصيفية في الشتاء، والله قد خصّ كلّ فصْل من فصول السنة بفاكهته المناسبة، والتي يحتاجها الناس في ذلك الفصل دون سواه، وظهور هذه الفواكه الصيفية في الشتاء، والشتوية في الصيف، دليل على أن مريم وهي حامل، كانت تتوحم، شأنها شأن الكثيرات من الحوامل. ومسألة أخرى مرتبطة بهذه، وهي ما زعمه البعض: أن الخضر حيٌّ، هو وإلياس والمسيح للآن، ويُرجَى ظهورهم بعد النبيّ ﷺ، ومعنى ذلك أن نبينّا ﷺ لن يكون خاتم الأنبياء، ولكننا لا نعتقد أن الدوام يمكن أن يكون لغير الله، وأن هؤلاء لابد قد ماتوا، وكانوا أحياء في أوقاتهم وانتهى أمرهم، فافْهم يا أخي، وافهمي يا أختاه! ـ وكذلك لا وجود للمهدي، ولا رجعة له، ولا للمسيح أو غيره. والذين يزعمون أن الخضر حيّ ينسبون إليه أنه شرب مما يسمونه عين الحياة، وأنه سيظل في الأرض، كأنما هو إله!! وعهدنا بالآلهة أنهم ليسوا بشرا! ومما يقضي بموت الخضر وسواه، قوله ﷺ في الحديث الصحيح: أرأيتكم ليلتكم هذه فإنه على رأس مائة سنة منها لا يبقى ممن هو اليوم على ظهر الأرض أحد، ويفسّره هذا الحديث: «تسألوني عن الساعة، وإنما علمها عند الله، وأقسم بالله ما على الأرض من نفس منفوسة (أي مولودة) تأتي عليها مائة سنة ـ يعني ما تذهب مائة سنة على ولادة هؤلاء إلا ويكونون جميعاً قد ماتوا، وبالتالي فإن كل من كان من بني آدم موجوداً في وقت ما كما قال النبيّ ﷺ في الحديث ـ لن يزيد عمره عن مائة سنة. والمراد بالنفس المنفوسة مواليد بني آدم دون غيرهم، والغالب لما هو مشاهد، أن الإنسان لا يزيد عمره عن ذلك، والقول إذن بأن الخضر والمسيح والدجّال أحياء، هو وَهْم ـ لأنهم بَشَر من بَشَر، وحتى عيسى كان بشراً، يجوع ويتبول ويخرَى ويحزن ويفرح، وأُمُّه مريم بشرٌ من بَشَر؛ ومن الغريب أن الصوفية الذين قالوا بدوام

الحياة للخضر والمسيح، وإلياس، والدجّال، والمهدى المنتظر، قالوا كذلك بالحياة لأهل الكهف، وزعموا أنهم أحياء، ويحجّون مع عيسى، وكذلك فتى موسى! ـ فافهموا أيها الإخوة! ـ وقد ظن هؤلاء أن الخضر نبيٌّ معمَّر محجوبٌ عن الأبصار. وقالوا: الخضر من ولد فارس، وإلياس أو إيليا من بنى إسرائيل، يلتقيان كل عام فى موسم الحج. وقيل: إنهما سيظلان أحياء فى الأرض ما دام القرآن، فإذا رُفع القرآن رفعا معه. وفى صحيح مسلم: أن الدجّال ينتهى إلى بعض السباخ (أى سبخة وهى الأرض المالحة) التى تلى المدينة، فيخرج إليه يومئذ رجل هو خير الناس، أو من خير الناس: هو الخضر، وادّعوا على علىّ ابن أبى طالب أنه لقى الخضر وعلّمه هذا الدعاء: يا من لا يشغله سمع عن سمع، ويا من لا تغلطه المسائل، ويا من لا يتبرم من إلحاح المُلحّين، أذقنى بَرْد عفوك، وحلاوة مغفرتك! ـ وادّعى الصوفية الشيعة: أن إلياس التقى مع النبىّ ﷺ، وأنهما يجتمعان عند البيت فى كل حَوْل، وأنهما يقولان عند افتراقهما: ما شاء الله. ما شاء الله، لا يصرف السوء إلا الله، حسبنا الله ونعم الوكيل.

وادعّى الصوفية من الشيعة على علىّ ابن أبى طالب أنه قال: لما توفى النبىّ ﷺ وسُجّى بثوب، هتف هاتف من ناحية البيت، يسمعون صوته ولا يرون شخصه: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته. السلام عليكم أهل البيت: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ (آل عمران ١٨٥). الآية. إنّ فى الله خَلَفاً من كل هالك، وعوضاً عن كل تالف، وعزاء من كل مصيبة، فبالله فثقوا، وإياه فارجوا، فإن المصاب من حُرِم الثواب. ـ فكانوا يرون أنه الخضر ـ يعنى أصحاب النبىّ ﷺ أن الخَضِر جاء يُعزّى فى النبىّ ﷺ! !

ووردت حكايات غريبة عن أصل الخضر، وأصل اسمه، ومصدر هذا الكلام كله اليهودى ابن مُنَبّه، قال: إن اسمه كان أَيْليا بن مَلْكان ـ يعنى كان من بنى إسرائيل، وأن أباه كان مَلِكاً، وكانت أمه اسمها أَلَمى، وولدته فى مغارة، وأنهم عثروا عليه هناك ترضعه شاة فى كل يوم، من غنم رجل من القرية، وأن صاحب الغنم أخذه وربّاه، ولا شىء عن سبب ترك أمه لأبيه، ولا لولادته فى المغارة، ولا أين ذهبت أمه بعد ذلك. وأنه لما كبر ضمّه الملك إلى حاشيته لمعرفته، وعرف أنّه ابنه فولاّه على الناس، ولكنه فرّ لأسباب يطول ذكرها، إلى أن وَجَد عين الحياة، وشرب منها، فهو حىّ إلى أن يخرج الدجّال. وكلها ـ كما ترى ـ يا أخيتخرّصات لا سند لها من

مرجع ولا مصدر، ولكنها كما نقول إسرائيليات، روّج لها اليهود، واستطاعت أن تنفذ إلى بناء الإسلام وتخترق التراث، وأصبحت منه وحسبنا الله.

٣٦١ - خطرة...

ما يطرأ على القلب ويذهب فوراً. والخطور أن تطرأ الفكرة على القلب. وجعلوا خطرة الواجب للحق؛ والخطرة الحرام للشيطان؛ والخطرة المندوبة (التي تستحث على الطاعات وترغّب في الخيرات) للمَلَك؛ وخطرة الشهوات والملذات للنفس. والخطرات جمع خطرة، وهي كل ما يمر في القلب من أحكام الطريقة.

والخطرة للأنبياء، والوسوسة للأولياء، والفكرة للمتحققين، والعزم للفتيان.

٣٦٢ - خفيّ...

الخَفيّ: لطيفة ربّانية مودعة في الروح بالقوة، فلا يحصل بالفعل إلا بعد غلبات الواردات الربّانية، ليكون واسطة بين الحضرة والروح في قبول تجلّي صفات الربوبية وإفاضة الفيض الإلهي على الروح.

٣٦٣ - خفيفية...

طريقة أبي عبد الله محمد بن خفيف، وأساسها الغيبة والحضور، والمراد بالحضور: حضور القلب بدلالة اليقين حتى يصبح حكم الغيبي حُكماً عينياً. والمراد بالغيبة: غياب القلب من دون الحق بحيث يغيب عن نفسه حتى لاينظر في حال غيبه إلى حال نفسه، وعلامة ذلك الإعراض عن حُكم الرسوم (انظر أيضاً ابن خفيف).

٣٦٤ - خلافة...

الخلافة في التصوّف هي الإمامة، وقيل هي قسمان، خلافة صغرى: وهي الإمامة والرياسة الظاهرية، وخلافة كبرى: وهي الإمامة والرياسة الباطنية كما كان لعليّ بن أبي طالب عند الصوفية الشيعة، وعند بعض صوفية السُنّة، فكان الخليفة الظاهر بعد عثمان، وكان الإمام الباطن بعد النبيّ ﷺ. (انظر خلفاء). واختيار الخليفة هو اختيار إلهي، ويتبنّى الخليفة السابق خليفةً له بالتبنّي الروحي، باعتبار الخلافة نبوة روحية تنتقل المشيخة من صوفي إلى آخر.

٣٦٥ - خِلّ...

الخَلُّ طعام أهل العرفان وعامة المتصوّفة، ويؤثرونه قناعةً في المَطْعَم، وكان النبيّ ﷺ يزكّيه، وعنه ﷺ

قال: «نِعْمَ الإدام الخلّ»، والإدام ما يؤكل من طعام مع الخبز.

وعن جابر بن عبد الله: أن النبيّ ﷺ أخذ بيده ذات يوم إلى منزله، فأخرج إليه فلقاً من خبز، فقام رسول الله ﷺ يسأل أهل بيته: «ما من أُدُم؟»، فقالوا: لا، إلا شيء من خلّ. قال: «فإن الخلّ نِعْمَ الأُدُم». قال جابر: فما زلتُ أحبُّ الخلّ منذ سمعتها من نبيّ الله ﷺ.

وروى الطبراني في الأوسط عن عائشة رضي الله عنها: أن رسول الله ﷺ قال: «يا عائشة! هذا إدام». وقال: «ما أقفرَ مِن أُدُم بيتٌ فيه خلّ» رواه الحكيم الترمذي.

وقالت عائشة رضي الله عنها: خرج على النبيّ ﷺ أناسٌ فقال: «ما لي أرى أجسامكم ضارعة» (يعني هزيلة ممروضة)؟ «أما ببلادكم أُدُم»؟ قالوا: ما ببلادنا إلا الخلّ! فقال: «الخلّ أُدُم» رواه ابن النجّار.

٣٦٦ - خلة...

الخُلّة معناها تخلُّل شمائل المحبوب روحانية المحب حتى تتكيف بها النفس والروح وسائر الجملة الإنسانية، فتتحرك أعضاء المحب عن إرادة المحبوب المتحرك بها القلب فتستحيل المخالفة، ولهذا قال عليه السلام: المرء على دين خليله، يعني أن الذي أشرق في هذا من النور الإلهي هو الذي أشرق في الآخر لاتحاد محلهما، فكان دينهما واحداً، أي مطلوبهما وفهمهما الذي يدركان به الحقائق واحداً، ولا يكون هذا التخلل إلا تابعاً للصفاء والخلوص، اللذين معناهما زوال العوارض الزائدة عن الذوات، حتى تبقى مجردة واحدة فتنطبع فيها صورة الوجود كله.

وقيل: الخُلّة تخلية القلب عمّا سوى المحبوب. واختلفوا في أن مقام المحبة أرفع أم مقام الخلة؟ فقال قوم: المحبة أرفع، لخبر البيهقي أنه تعالى قال ليلة الإسراء: «يامحمد سَلْ تُعْطَ»، فقال يارب إنك اتخذت إبراهيم خليلاً، وكلمت موسى تكليماً، فقال: ألم أعطك خيراً من هذا»، إلى قوله و«واتخذتك حبيباً» ـ لأن الحبيب يصل بلا واسطة، بخلاف الخليل، قال تعالى في نبيّنا: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾ (النجم٩)، وقال في إبراهيم: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ (الأنعام ٧٥)، فكما ترى نبيّنا الأرفع مقاماً.

ومن ناحية أخرى قال قومٌ: الخلة أرفع، ورجّحه جماعة متأخرون، لأن

الخلة أخصّ من المحبة، إذ هي توحيد الأخلاء فهي نهاية، ومن ثم أخبر نبيّنا ﷺ بأن الله اتخذه خليلاً، ونفى النبيّ أن يكون له خليل غير ربّه، وقال: لو كنت متّخذاً خليلاً غير ربّي لاتخذت أبا بكر خليلاً»، وذلك إخبار بمحبة أبي بكر، ومع ذلك تكون الخلة أخصّ، بمعنى تخلية القلب عمّا سوى الله.

والخلة مرتبة من مراتب المحبة، وهي أعلاها جميعاً، والخلة مع الله، والعشق مع العباد، وقد تقع الخلة من الله للعابد كما في قوله تعالى: ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً﴾ (النساء ١٢٥)، والخلة من العابد لله تكون بأن تتخلل محبته القلب فلا تدع فيه خللاً إلا ملأته، كقول الشاعر:

قد تخللتَ مسلك الروح مني
وبه سُمِّيَ الخليل خليلاً

ولفظة خليل على وزن فعيل بمعنى فاعل أيضاً، كالعليم بمعنى العالم. وقيل بمعنى المفعول كالحبيب بمعنى المحبوب. وإبراهيم كان محباً لله ومحبوباً لله. والنبيّ ﷺ يقول: «وقد اتخذ الله صاحبكم خليلاً». يعني وقعت الخلة من الله له، وعندئذ لا يكون المعنى تخلل المحبة للقلب، وإنما تعني الاختصاص، أي أن الله اختص بها إبراهيم، فلما اختص بها الله رسوله محمداً لم يعد ثمة موضع لخلة منه ﷺ لأي من أصحابه ولو كان أبا بكر، وهذا معنى قولنا إن الخلة أخص.

وذهب الشيخ الشعراوي في تفسيره للخليل إلى المعنى: أن التخلل يذيب الخليلين حتى ليتخللا بعضهما البعض، حتى كأنما الاثنان يفنيان عن بعضهما البعض ويبقيان ببعضهما البعض. فلو كان هذا هو المعنى لخلة إبراهيم لله، وخلته تعالى لإبراهيم، لكانت الخلة أشبه بالحلول والاتحاد، وإنما في الخلة مع الله فإن الخليل محتاج، فقولنا إبراهيم خليل الله، يعني أنه الفقير إلى الله، كأنه الذي به اختلال، ولم يجعل فقره ولا فاقته إلا إليه:

وإن أتاه خليلٌ يومَ مسغبة
يقول لا غائبٌ مالي ولا حَرَم

وفي رواية جابر عن الرسول ﷺ قال: اتخذ الله إبراهيم خليلاً لإطعامه الطعام، وإفشائه السلام، وصلاته بالليل والناس نيام»، فمعنى الخليل أنه الذي يوالي ويعادي في الله. وأما بين الناس فالخلة هي الصداقة، مشتقة من تخلُّل الأسرار بين المتخالّين، أو أنها من الخُلّة، فكل واحد من الخليلين يسدّ خَلَّة صاحبه، أي حاجته، ولذلك قال ﷺ: «الرجل

على دين خليله، فلينظر أحدكم من يخالل»، والشاعر يقول:

من لم تكن فى الله خُلّته
فخليله منه على خطر

ويقول:

إذا ما كنت متخذاً خليلاً
فلا تثقن بكل أخى إخاء
فإن خُبِّرتَ بينهم فألصِق
بأهل العقل منهم والحياء
فإن العقل ليس له إذا ما
تفاضلت الفضائل من كفاء

ويقول حسان بن ثابت:

أخِلاّء الرجال هم كثير
ولكن فى البلاء هم قليل
فلا تغررك خُلّة من تؤاخى
فمالك عند نائبة خليل
وكل أخ يقول أنا وَفِىّ
ولكن ليس يفعل ما يقول
سوى خُلّ له حسبٌ ودين
فذاك لما يقول هو الفعول

٣٦٧ - خلع...

الخَلْع عند المعطلة: هو الطمأنينة إلى إسقاط التكاليف.

وعند الصوفية، وخلع العادات: هو التحقق بالعبودية موافقةً لأمر الحق بحيث لا يدعوه داعٍ إلى مقتضى طبعه وعاداته.

٣٦٨ - خلفاء...

الخلفاء عند الصوفية ثلاثة، هم من سادات الحق والأئمة فى الحكومة الباطنية، قيل هم عيسى عليه السلام، وخلفه علىّ، ثم ثالث لا يعرفه إلا الله. وقيل: علىّ هو الخليفة الظاهر بعد عثمان، والإمام الباطن بعد النبىّ ﷺ. وقيل: الخلافة عند الصوفية هى الخلافة المعنوية، وكان أبو منصور العجلى (المقتول سنة ١٢١هـ)، والذى زعم أنه عُرِّج به إلى السماء، وأن الله «مَسَح» على رأسه بيده، وقال له: بلِّغ عنى، وقال: إنه خليفة الله فى الأرض، وأن الله إذا أراد أن يخلق خَلقاً للخلافة، مَسَح على ناصيته بيمينه. ـ وكان العجلى شيعياً، والخليفة فى التصوّف اصطلاح من اصطلاحات الصوفية الشيعية، ويعنى الإمام أو المهدى.

٣٦٩ - خلق...

الخُلُق العظيم: هو الإعراض عن الكونين والإقبال على الله تعالى بالكلية. وقال الواسطى: الخُلق العظيم أن لا يخاصِم ولا يتخاصم. وقالت عائشة: الخلق العظيم للنبىّ ﷺ، المشار إليه فى قوله تعالى:

﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (القلم ٤) هو القرآن، يعنى أن العمل بالقرآن كان جبلّة له من غير تكلّف. وقيل الخلق العظيم هو العزوف عن الكونين والتوجه إلى خالقهما. والأصح أن الخُلُق العظيم، والخُلُق جميعاً، هو السلوك بما يرضى الله.

والصوفية أوفر الناس حظاً فى الاقتداء برسول الله ﷺ وأحقُّهم بإحياء سُنّته، وكان خُلق النبىّ ﷺ عظيماً، لأنه لم يكن له همّة سوى الله تعالى. وكان ﷺ يعاشر الخَلْق بخُلقه وبباينهم بقلبه، والتصوف هو الخُلق مع الخَلق، والصِّدْق مع الحق. ولقد عَظُم خُلُقه ﷺ حيث صَغُرت الألوان فى عينيه بمشاهدة مكوِّنهما، وسُمّى خُلُقُه عظيماً لاجتماع مقام الأخلاق فيه.

ومن أخلاق الصوفية: التواضع، فيقول النبىّ ﷺ: «إن الله تعالى أوحى إلىّ أن تواضعوا ولا يبغى بعضكم على بعض». ومن تواضعه ﷺ إجابة دعوة الحرّ والعبد، وقبول الهدية ولو كانت جَرْعة لبن، ويكافىء عليها ويأكلها، ولا يستكبر على إجابة الأمَة والمسكين.

ومن أخلاقهم: المداراة، واحتمال الأذى من الخَلْق، وكان ﷺ يقول: «المؤمن الذى يعاشر الناس ويصبر على أذاهم خيرٌ من الذى لا يخالطهم ولا يصبر على أذاهم».

ومن أخلاقهم: الإيثار والمواساة، ويحملهم على ذلك فرط الشفقة والرحمة طبعاً، وقوة اليقين شرعاً، وفى القرآن: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ (الحشر ٩).

ومن أخلاقهم: التجاوز والعفو ومقابلة السيئة بالحسنة، وفى الحديث: «رأيتُ قصوراً مُشرفةً على الجنة، فقلت ياجبريل: لمن هذه؟ قال: للكاظمين الغيظ والعافين عن الناس».

ومن أخلاقهم: البِشْر وطلاقة الوجه، والصوفى لا يبكى إلا فى خَلوته، وأما مع الناس فهو طلق الوجه مستبشر، وفى الحديث: «كل معروف صدقة، وإن من المعروف أن تلقى أخاك بوجه طلق».

ومن أخلاقهم: الإنفاق من غير إقتار، وترك الادّخار، وفى الحديث أن النبىّ ﷺ قال لخادمه: «ألم أنْهَكَ أن تخبىء شيئاً لغد، فإن الله تعالى يرزق كل غد»، وقال: «اللّهم اجعل رزق آل محمد قوتاً».

ومن أخلاقهم: التودد والتآلف، والموافقة مع الإخوان، وترك المخالفة، وفى الحديث: «المؤمن آلفٌ مألوف. لا خير فيمن لا يألف ولا يُؤلَف».

٣٧٠- خلق...

الخَلْق الجديد: هو اتصال أمداد الوجود من نفس الرحمن إلى كل ممكن لانعدامه بذاته، مع قطع النظر عن موجده، وفيضان الوجود عليه منه على التوالي، حتى يكون في كل آن خَلْقاً جديداً لاختلاف نسب الوجود إليه مع الآنات واستمرار عدمه في ذاته.

والزهد في الخَلْق من شيم الصوفية، لا أن يرفض أن يعاونهم أو يتعاون معهم، بل أن يحتاج إليهم، فاكتفاؤه بالله لذلك، فإذا سأل لا يسأل إلا الله، وإذا اشتكى لا يشكو لأحد من خلقه. ويشبّه القشيري تعلُّق الخَلْق بالخُلْق بتعلّق المسجون بالمسجون، والعامة في مصر يقولون أعمى يستند إلى أعمى. وعن الحسن البصري فإن الزهد في الدنيا: أن تبغض أهلها وتبغض ما فيها، لا بُغض الكراهية، ولكن بُغضَ أن تشاركهم حُبّ الدنيا والانشغال بها.

٣٧١- خلوة...

الخَلْوة: هي العُزلة عند بعضهم، وغير العُزلة عند البعض الآخر، فالخَلْوة من الأغيار، والعُزلة من النفس وما تدعو إليه ويشغل عن الله، فالخلوة كثيرة الوجود، والعزلة قليلة الوجود، ومن ثم فالعزلة أعلى من الخلوة.

وقيل بل العزلة أعلى لأنها من الأغيار. وقيل هي الخلوة عن جميع الأفكار إلا عن ذكر الله.

وقال بعضهم الخلوة والعزلة تعنيان الانفراد، وذلك شيء لا يقوى عليه إلا الأقوياء، وعند ابن عربي الخلوة اختلاء بالله حيث لا ملك ولا أحد، والمخاطبة والمناجاة أسرار. والاجتماع للصوفية أنفع.

وكانت الخلوات تلحق بالخانقاوات في شكل حجرات لها مصاطب وليست لها نوافذ.

٣٧٢- خليفة...

عند الصوفية الشيعة: الخليفة هو الإنسان الكامل الظاهر بالصورة الإلهية، لم يعطه الله هذا الكمال إلا ليكون بدلاً من الحقّ تعالى، ولهذا أسماه خليفة، قال: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ (البقرة ٣٠)، وما بعده من أمثال خلفاء له، فالأول وحده هو خليفة الحقّ، وهو آدم، أظهره على صورته، ونصبه دليلاً على نفسه، وعرفه أولاً عن طريق المشاهدة، ثم عن طريق العقل، ومَن خَلْفه من البشر كانوا الأئمة والأقطاب، والمهدي هو الخليفة الأكبر، يكون تجسيداً

للقرآن، وجوهراً للسبع المثانى، وهو الروح الإلهى الخالد فى قول ابن عربى:

أنا القران والسبع المثانى
وروح الروح لا روح الأوانى

هكذا قال الصوفية الشيعة.

٣٧٣ - خليل...

يسمى الخليل خليلاً لتخلله وحصره جميع ما اتصفت به الذات الإلهية، كما يتخلّل اللون المتلوّن، فيكون العَرَض من حيث جوهره ما هو، كالمكان والمتمكّن، أو لتخلّل الحق وجود إبراهيم الخليل عليه السلام.

٣٧٤ - خمار...

الخِمَار احتجاب المحبوب بحُجُب العزة، وظهور حُجُب الكثرة على وجه الوحدة، وهذا مقام تلوين السالك.

٣٧٥ - خمرة...

الخُمرة سجادة تُنسَج من سعف النخل وتُرمَّل بالخيوط، وهى حصيرة صغيرة، وصغرُها قَدْر ما يسجُد المصلى، فإذا كُبِّرت عن ذلك حتى تكفى الرجل لجسده كله فهو حينئذ الحصير (انظر أيضاً حصير).

والصوفية يؤثرون الصلاة على الأرض، وفى الحديث: «وجُعلت لى الأرض مسجداً وطهوراً» أخرجه البخارى، يعنى أن الأرض صالحة أن يُصلَّى عليها وإنما ليست شرطاً لصحة الصلاة.

وخَلَوات الصوفية تكثر بها الخُمُر، فلكل صوفى خلوته وخُمرته أو سجّادته.

وإيثار الخُمرة للصلاة عند الصوفية اقتداءً بالنبىّ ﷺ، فعن عائشة برواية ابن سعد: أن النبىّ ﷺ كان يصلى على الخُمرة، وكان يؤثر الخُمرة على الحصير. وفى الرواية أنه قال لعائشة: «ارفعى عنا حصيرك هذا فلقد خشيت أن يفتن الناس». وقال لها من المسجد: «ناوليني الخُمرة» وعند البخارى عن ميمونة زوجة رسول الله ﷺ قالت: وكان يصلى على الخُمرة.

واسمها الخُمرة لأنها تخمر وجهه، أى تستره عن أن يلامس التراب ويغبّر. ويُروىَ عن عمر بن عبد العزيز: أنه كان يأمر بالتراب فيوضع أو يُنثر على خُمرته فيسجد عليه، قيل مخافة أن يكون ترفع عن السجود على الأرض أو التراب، وعند ابن شيبة: أن أصحاب رسول الله كانوا لهذا يكرهون أن يصلوا على الطنافس والفراء والمسوح، ويؤثرون الخُمُر عليها، واتخذها الصوفية للصلاة لهذا السبب حتى صارت من العموم.

٣٧٦ - خوارج...

الذين خرجوا على علىّ لخلافات

مذهبية، وهؤلاء أخذوا على الصوفية والتصوّف: القول بطاعة السلطان حتى لو كان جائراً، وقولهم بأن النيّة أفضل من العمل.

٣٧٧ - خنزيرة...

يسمّي الصوفية الدنيا خنزيرة، ولو وجدوا لها اسماً شراً من هذا سمّوها به. وعندما تُقبل الدنيا على أحدهم تراه يقول لها: إليك عني يا خنزيرة! لا حاجة لنا بك. إنّا قد عرفنا إلهنا عزّ وجلّ.. عرفوه بالابتلاء بالدنيا لينظر كيف يعملون في الزهد فيها والأثرة له.

٣٧٨ - خوف...

هو الحياء من المعاصي والمناهي والتألّم منها. يقول النبيّ ﷺ: أنا أخوفكم لله تعالى، وأوْحَى إلى داود: خِفني كما يخاف السبع الفأر». وقال: من خاف الله خافه كل شيء، ومن خاف غير الله خوّفه الله من كل شيء».

وقيل الخوف على ضربين: رهبة وخشية، فصاحب الرهبة يلتجيء إلى الهرب إذا خاف، وصاحب الخشية يلتجيء إلى الربّ.

وقال مالك بن دينار: علامة الخوف اجتناب ما نهى الله عنه. وقال أبو سليمان: ما فارق الخوف قلباً إلاّ خرب.

وقيل الخوف على ثلاثة أوجه: فقد ذكر الله الخوف وقرنه بالإيمان: ﴿فَلا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ (آل عمران ١٧٥)، فهذا خوف الأجلّة؛ وقوله: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾ (الرحمن ٤٦)، فهذا خوف الأواسط؛ وقال: ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾ (النور ٣٧)، فهذا خوف العامة. وأمّا أهل الخصوص من الخائفين فهم الذين لو قُسّمت ذرة من خوفهم على الأرض لسعد كل الناس بما قُسِم لهم من هذا الخوف المبارك، وخوفهم هو خوف الأكابر، يخافون القطع، بينما الأصاغر يخافون العقوبة.

والخوف سُنّة الله في أنبيائه وأوليائه، والآية: ﴿قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى﴾(طه ٤٦) دليلٌ على خوف موسى وهارون، برغم تأكيد الله لهما أنه معهما يسمع ويرى. وفي ذلك رواية عن أهل الله - عن أحدهم واسمه عامر بن عبدالله: أنه نزل مع أصحابه في طريق الشام على ماء، فحال الأسد بينهم وبين الماء، فجاء عامر إلى الماء فأخذ منه حاجته، فقيل له: فقد خاطرت بنفسك! فقال: لأن تختلف الأسنّة في جوفي، أحَبُّ إليّ من أن يعلم الله أني أخاف شيئاً سواه. قد خاف من كان

خَيْراً من عامر: موسى عليه السلام حينما قيل له: ﴿إِنَّ الْمَلأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ (٢٠) فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾(القصص: ٢٠/ ٢١)؛ وقال حين ألقى السحرة حبالهم وعصيّهم: ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى (٦٧) قُلْنَا لا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الأَعْلَى﴾(طه ٦٧/ ٦٨).

ومن الخوف عند الأنبياء والأولياء: حَفْرُ النبيّ ﷺ الخندق حول المدينة، تحصيناً للمسلمين وأموالهم، مع أنه من التوكل والثقة بربّه، بمحل لم يبلغه أحد. وكان من أصحابه - من الأولياء - من لا يجهلهم أحد، من تحوّلهم عن منازلهم مرة إلى الحبشة، ومرةً إلى المدينة، تخوّفاً على أنفسهم من مشركي مكة، وهرباً بدينهم أن يفتنوهم عنه بتعذيبهم. وقد قالت أسماء بنت عميس لعُمر، لمّا قال لها: سبقناكم بالهجرة، فنحن أحقّ برسول الله منكم -: كذبت يا عمر! كلا والله! كنتم مع رسول الله ﷺ يُطعم جائعكم، ويعظ جاهلكم؛ وكنا في أرض البُعَداء البُغَضاء في الحبشة، وذلك في الله ورسوله. وأيم الله، لا أطعَم طعاماً، ولا أشرب شراباً حتى أذكر ما قلتَ لرسول الله ﷺ، ونحن كنا نُؤذَى ونُخاف! وعن سهل ابن عبدالله أنه قال: اجتمع بعض الصدّيقين إلى إبراهيم الخليل فقالوا: ما الخوف؟ فقال: لا تأمن حتى تبلغ المأمن. وقال سهل: وكان الربيع بن خيثم إذا مرّ بكير (كير الحدّاد وهو الزّق الذى ينفخ فيه) يُغَشى عليه، فقيل لعليّ بن أبى طالب ذلك، فقال: إذا أصابه ذلك فأعلموني. فأصابه فأعلموه، فجاءه فأدخل يده فى قميصه، فوجد قلبه يدقّ بشدّة، فقال: أشهد أن هذا أخوف أهل زمانكم» فالخائف من الله هو أن يخاف أن يعاقبه، إما فى الدنيا وإما فى الآخرة، ولهذا قيل: ليس الخائف الذى يبكى ويمسح عينيه، بل الخائف الذى يترك ما يخاف أن يُعذَّب عليه. ولهذا فرض الله تعالى على العباد أن يخافوه، فقال: ﴿وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾ (البقرة ٤٠)، ومَدَح المؤمنين بالخوف فقال: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾(النحل ٥٠).

وللصوفية كلام كثير فى الخوف، فقال أبو عليّ الدقّاق: دخلتُ على أبى بكر بن فُورَك عائداً، فلما رأنى دمعت عيناه، فقلت له: إن الله يعافيك ويشفيك. فقال لى: أترى أنى أخاف من الموت! إنما أخاف مما وراء الموت. وقال رسول الله ﷺ وهو فى أعلى درجات الخوف من الله: إنى أرى ما لا ترَوْن، وأسمع ما لا تسمعون:

أطّت السماء (أحدثت أنيناً) وحقّ لها أن تئط، ما فيها موضع أربع أصابع إلا وملَك واضعٌ جبهته ساجداً لله! والله لو تعلمون ما أعلم، لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً، وما تلذذتم بالنساء على الفُرشات، ولخرجتم إلى الصُّعُدْات (الطُّرق)، تجأرون (ترفعون أصواتكم) إلى الله. والله لَوَدِدْتُ أني كنتُ شجرة تُعْضَد (يعنى تُقطع)!

وذلك كله من الخوف من الله، سِمَة الصوفية الكبار.

٣٧٩ - خيال...

الخيالى ضد الواقعى، والناس يعيشون فى خيال، أى أنهم لايعيشون الواقع وإنما يحيون فى عوالم متوهمة من صنعهم، ترين عليهم الغفلة، والرسول ﷺ يقول: **الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا**»، يعنى تظهر عليهم الحقائق التى كانوا عليها فى دار الدنيا، فيعرفون أنهم كانوا نياماً، أى فى غفلة وفى وَهْم، غير منتبهين للحقيقة، وبالموت يحصل الانتباه الكلّى، ومن أجل ذلك فالناس فى كل العوالم وأينما كانوا، مقيّدون بالخيال والوهم، وكل أمّة مقيّدة بالخيال والوهم، فأهل الدنيا مقيّدون بخيال وَوَهْم معاشهم أو معادهم، وكلا الأمرين غفلة عن الحضور مع الله، فهم نائمون والحاضر مع الله هو المتنبّه.

وأهل البرزخ نائمون ولو أن نومهم أخف من نوم أهل الدنيا، وهم مقيدون بالخيال وبالوهم، ومشغولون بما كان منهم وما هم فيه عن الحضور مع الله؛ وكذلك أهل القيامة يشغلهم الحساب، ولو أن نومهم أخف من نوم أهل البرزخ؛ وكذلك أهل الجنة والنار يشغلهم النعيم أو العذاب الذى هم فيه عن الحضور مع الله، وهذه غفلة لكنهم أخف غفلة ونوم من أهل المحشر.

ولا انتباه إلا لأهل الأعراف ومن فى الكثيب فقط، فإنهم مع الله، وعلى قدر تجلّى الحق عليهم يكون الانتباه حاصلاً لهم.

ومن تحقق له فى الدنيا من العارفين أن تجلى عليه الحق فعرفه، فهو يقظان لا يعيش الخيال والغفلة، ولايرين عليه النوم. ولذا يخبر الرسول ﷺ أن الناس نيام، فإذا عرفت أن أهل كل عالم محكوم عليه بالنوم، فاحكم على تلك العوالم جميعها أنها خيال، لأن النوم عالم الخيال، وتطلق عبادة الوهم والخيال على العبادة التى تكون بغير تمكين واستقامة فى مشاهدة الحق ومعاينته، وأما التى بتمكين واستقامة فهى عبادة الخواص، وإلا فإنها عبادة الوهم والخيال اللذين يستوليان على

العوام. وفى ذلك يقول الجنيد : إنى وجدت سبعين ولياً يعبدون الله بوهم وخيال، يعنى هم فى عبادة ولكنها عبادة أوهام وخيالات وليست عبادة الله.

٣٨٠ - خير...

الوجود خَيْر محض وبالذات، لكونه مستنداً إلى العزيز الحكيم. والعدم شرٌ محض وبالعَرَض لعدم استناده إليه، فإنك إذا قابلت المنافع بالمضار تجد المنافع أكثر، وإذا قابلت الشّر بالخير تجد الخير أكثر، وكذلك لو قابلت المؤمن بالكافر؛ وكذلك الإنسان لا يمكن أن يترك الخير الغالب من أجل الشّر اليسير، كما أنه لايمكن أن يترك الحركة اليسيرة لما فيها من بعض المشقة؛ والحكمة أن وقوع الخير المشوب بالشّر القليل هو من لطف الله، وإلى هذا أشار الله بقوله: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ (البقرة ٣٠)، فقال الله فى جوابهم: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، أى إنى أعلم أن ذلك يناسب الحكمة، لأن الخير فيه كثير، والشرّ فيه قليل، وبيّن لهم الحق خيره، فقال: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ (البقرة ٣١)، يعنى: أيها الملائكة، إن خَلْق الشر المحض الغالب، والشر المساوى للخير، لايناسب الحكمة؛ وأما خَلْق الخير الكثير فمناسب. وقولهم: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾ إشارة إلى الشر، وردّه عليهم: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ وذلك خير، أى أن التعليم خير. فإن قال قائل فالله قادر على تخليص العالم من الشر بحيث لا يوجد فيه شر، قلنا ما قاله الله: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ (السجدة ١٣)، يعنى لو شئنا خلّصنا الخير من الشر، لكن حينئذ لا يكون خلق الخير هو الغالب، وهو المعقول، فتركُه للشر القليل يناسب الحكمة، ولايوجد فى العالم شرّ محض أو شرٌ يساوى الخير، والخير فى العالم واقع بالقصد الأول، وواقع فى القضاء دخولاً أصلياً ذاتياً، والشر واقع بالضرورة، وداخل فى القضاء دخولاً بالتبع والعَرَض، وليس من الحكمة أن نطلب انتهاء المطر الذى به حياة العالم لئلا تنهدم به بعض الدور، والإنسان إذا لُدغ فى إصبعه فإنه يأمر بقطعها لسلامته من الهلاك، فسلامة البدن خير كثير يستلزم شراً قليلاً، ولا بد للعاقل أن يختاره، وإذا احترز عنه حتى يهلك لم يعد عاقلاً، فضلاً عن أن يكون حكيماً.

* * *

باب الدال

* * *

٣٨١- دائرة...

صورة الكثيب في جنة عدن الذي يجتمع الناس عليه لرؤية الحق والكثيب أصلاً هو التل من الرمل.

٣٨٢- دار السلام...

هي الجنة، كقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ﴾ (يونس ٢٥)، والسلام هو الله، وداره: الجنة، سُمّيت كذلك لأن من دخلها سلم من العذاب. وقال بعض أهل الله: دار السلام هي دار التحيّة، والسلام هو التحية، لأن أهلها هذه تحيتهم من الله تعالى كقوله: ﴿تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾ (إبراهيم ٢٣)؛ فلا ينقطع السلام عن أهل الجنة. وقيل: يا ابن آدم، دعاك الله إلى دار السلام، فانظر من أين تجيبه؟ فإن أجبته من دنياك دخلتها، وإن أجبته من قبرك نُعتها. ـ وقالوا: الجنات سبع: دار الجلال، ودار السلام، وجنّة عَدْن، وجنّة المأوى، وجنّة الخلد، وجنّة الفردوس، وجنّة النعيم.

٣٨٣- دار المقامة...

دار المُقامة: هي دار الإقامة لأهل الله، لا يبغون عنها حولاً، ولا يتمنون منها خروجاً. وهي الجنان يجعلها لمن أورثهم الكتاب واصطفاهم من عباده: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ * جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ * وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ * الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ (فاطر: ٣٢/٣٥). وفي الخبر أنه لما نزلت هذه الآيات قال عليه السلام: «أُمّتي وربِّ الكعبة» ثلاث مرات. قال ذلك لأنها أُمّة تحققت بحقائق الرضا. والحَزَن سمي حَزَناً لحزونة الوقت ـ أي صعوبته ـ على صاحبه، وليس في الجنة حزونة، وإنما هو رضاً واستبشار. وهي دار مُقامة لا نَصَب فيه ولا لُغوب، يلقون فيها تحيةً وسلاماً، وليس عليهم وحشة، ويقولون الحمد لله الذي أذهب عنا الحَزَن. وهي دار مُقامة من فضله، يعني بمنّه ورحمته، فعنه ﷺ قال: «لن يُدخل أحداً منكم عملُه الجنّة»، قالوا: ولا أنت يارسول الله؟ قال: «ولا أنا، إلا أن يتغمدّني الله تعالى برحمة منه وفضل». أخرجه البخاري ومسلم.

٣٨٤- دبور...

صولة نفسية داعية هوى شبّهت بريح

الدَّبُور، التى تأتى من دبّر الكعبة، من جهة المغرب، لانتشائها من جهة الطبيعة الجسمانية التى هى مغرب النور؛ ويقابلها القَبُول، وهى ريح الصَّبَا التى تأتى من جهة المشرق، وهى صولة داعية الروح، ولهذا قال الرسول ﷺ: نُصرتُ بالصَّبَا وأُهلكتْ عادٌ بالدَّبُور.

٣٨٥ - دراويش...

الاسم الفارسى للصوفية، وكان يقال لأتباع طريقة الرومى: الدراويش المولوية، أو الدراويش الراقصون، لأنهم كانوا يُنسبون إلى مولانا جلال الدين الرومى، أو ولأنهم كانوا يرقصون فى الإنشاد على الناى. ولباس الدراويش أساسه الخرقة والصوف، والمفرد «درويش»؛ وطريقتهم التخلى عن أموالهم وقطع علائقهم، ولهم تكايا تغنيهم عن السؤال.

ويبدو أن الصفويين المنسوبين إلى الشيخ صفىّ الدين الموسوى الأردبيلى، جدّ مؤسس الدولة الصفوية فى إيران، هم أول من مارسوا طريقة الدراويش، ورأسهم فى ذلك صلاح الدين رشيد بن محمد الحافظ، وكان قد انتقل إلى قرى أردبيل، ووزّع أمواله كلها على الفقراء، ولبس ملابس الدراويش ـ فكان قدوة.

٣٨٦ - درة...

الدُّرة البيضاء هى العقل الأول، لقوله ﷺ فيما يُنسَب إليه: أول ما خَلَق الله تعالى دُرَّة بيضاء (الحديث)... يعنى العقل. وقال الصوفية الشيعة: الدُّرَّة البيضاء: هى النبىّ ﷺ، القطب الأوحد المُمِدّ لجميع الأنبياء والأولياء عبر الزمان والمكان. ومعنى درة بيضاء أنه لؤلؤة فريدة.

٣٨٧ - درجة...

الدرجة الرفيعة هى جَنَة الصفات من حيث الاسم، وجنة الذات من حيث الرَّسم، ويُسمَّى أهلها أهل التحقق بالحقائق الإلهية. هكذا قال الصوفية الشيعة.

٣٨٨ - درويش...

الدرويش لفظة فارسية ومعناها فقير، والجميع دراويش، وهم صنفان: مقيم ومسافر؛ والدراويش المقيمون يعتبرون المسافرين أرقى منهم، لأنهم يروُحون ويغدون فى صالح أنفسهم، وأما المقيمون فإنهم أقاموا فى طاعة ربّهم.

٣٨٩ - دعاء...

مفتاح الحاجة، ومُسْتَرْوَح أصحاب الفاقات، وملجأ المضطرين. وقيل أقرب الدعاء إلى الإجابة «دعاء الحال»، وهو أن يكون صاحبه مضطراً لابد له مما يدعو لأجله.

واختلف المشايخ فيما إذا كان الأفضل الدعاء أم السكوت والرضا، فمنهم من قال الدعاء فى نفسه عبادة، وقال النبىّ ﷺ: «الدعاء مُخّ العبادة»، فالإتيان بما

هو عبادة أولى من تركه، ثم هو حقّ الحقّ سبحانه، لأنه إظهار فاقة العبودية. وطائفةٌ من الصوفية قالوا: السكوت والرضا بما اختار الحقّ أولى. وفى الخبر: «من شغله ذكرى عن مسألتى، أعطيته أفضل ما أُعطى السائلين». وقال قوم: يجب أن يكون العبد صاحب دعاء بلسانه، وصاحب رضا بقلبه، ليأتى بالأمرين جميعاً.

ومن أبلغ الدعاء ما أثر عن ذى النون المصرى. يقول: إلهى! وسيلتى إليك نعمُك علىّ، وشفيعى إليك إحسانك إلىّ! إلهى! أدعوك فى الملأ كما تُدعَى الأرباب، وأدعوك فى الخلا كما تُدعَى الأحباب. أقول فى الملأ يا إلهى! وأقول فى الخلا ياحبيبى! أرغبُ إليك، وأشهد لك بالربوبية، مُقراً بأنك ربّى، وإليك مَرَدّى. ابتدأتنى برحمتك من قبل أن أكون شيئاً مذكوراً، وخلقتنى من تراب ثم أسكنتنى الأصلاب، ونقلتنى إلى الأرحام، ولم تخرجنى برأفتك فى دَوْلة أيمة، ثم أنشأت خلْقتى من منىّ يُمنَى، ثمّ أدخلتنى فى ظلمات ثلاث بين دم ولحم مُلتاث، وكونتنى فى غير صورة الإناث، ثم نشرتنى إلى الدنيا تاماً سوياً، وحفظتنى فى المهد طفلاً صغيراً صبياً، ورزقتنى من الغذاء لبناً مَرِيّاً، وكفلتنى حجور الأمهات، وأسكنت قلوبهم رقةً لى، وشفقةً علىّ، وربّيتنى بأحسن تربية، ودبّرتنى بأحسن تدبير، وكلأتنى وسلّمتنى وصُنتنى، من زيادة فى بدنى تشيننى، ومن نقص فيه يُعيبنى، فتباركتَ ربىّ وتعاليتَ يارحيم! فلمّا استهللتُ بالكلام أتممتَ علىّ سوابغَ الإنعام، وأنبتنى زائداً فى كل عام، فتعاليت ياذا الجلال والإكرام، حتى إذا ملّكتنى شأنى، وشدَدْتَ أركانى، أكملتَ لى عقلى، حجابَ الغفلة عن قلبى، وألهمتنى النظر فى عجيب صنائعك، وبدائع عجائبك، ورفعتَ وأوضحت لى حُجّتك، ودللتنى على نفسك، وعرّفتنى ماجاءت به رسُلُك، ورزقتنى من أنواع المعاشر وصنوف الرياش بمَنّك العظيم، وإحسانك القديم، وجعلتنى سوياً، ثم لم ترْض لى بنعمة واحدة دون أن أتممت علىّ جميع النعم، وصرَفْتَ عنى كل بلوى، وأعلمتنى الفجور لأجتنبه، والتقوى لأقترفها، وأرشدتنى إلى ما يقرّبنى إليك زلفى، فإن دَعَوتُك أجبتنى، وإن سألتُك أعطيتنى، وإن حمدتُك شكرتنى، وإن شكرتُك زوّدتنى. - إلهى! فأى نعَم أُحصى عدداً ؟ وأى عطائك أقوم بشُكره ؟ ما أسبغت علىّ من النعماء أو ما صرفت عنى من الضرّاء ؟ - إلهى! أشهد لك بما شهد لك باطنى وظاهرى وأركانى. - إلهى! إنى لا أطيق إحصاء نعَمك، فكيف أطيق شكرك

عليها ؟ وقد قلتَ وقولُك الحقّ: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا﴾ (إبراهيم ٣٤)، أم كيف يستغرق شكرى نعمك، وشكرُك من أعظم النعم عندى، وأنت المُنعم به علىّ كما قلتَ سيدى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ (النحل ٥٣)، وقد صدقتَ قولك. ـ إلهى وسيدى! بلّغتُ رسلُك بما أنزلتَ إليهم من وَحيك، غير أنى أقول بجهدى، ومنتهى علمى، ومجهود وُسْعى، ومبْلغ طاقتى: فالحمد لله على جميع إحسانك، حمداً يَعْدلَ حَمْد الملائكة المقربين، والأنبياء والمرسلين. ـ اللهم إليك تقصد رغبتى، وإياك أسأل حاجتى، ومنك أرجو نجاح طُلبتى، وبيدك مفاتيح مسألتى. ـ لا أسأل الخير إلاّ منك، ولا أرجوه من غيرك، ولا أياس من روْحك بعد معرفتى بفضلك، يا مَن جَمَعتَ كلّ شىء حكمتُه، ويا مَن نفذ فى كل شىء حُكمه، يا مَن الكريمُ اسمُه، لا أحَدَ لى غيرك فأسأله، ولا أثق بسواك فآمله، ولا أجعل لغيرك مشيئة من دونك أعتصم بها وأتوكل عليه، فَمَنْ أسأل إن جهلتك؟ وبمن أثق بعد إذ عرفتُك ؟ ـ اللَّهُم إنّ ثقتى بك، وإنْ الهَتْنى الغَفلات عنك، وأبعدتنى العثرات منك بالاغترار. ـ يامُقيل العثراتَ إنْ لم تتلافنى بعصْمة من العثرات، فإنى لا أحول بعزيمة من نفسى، ولا أروُم على خليقة بمكان من أمرى. أنا نعمةٌ منك، وأنا قَدَرٌ من قَدَرك، أجْرى فى نعَمك، وأسرحُ فى قَدَرك، ازداد على سابقة علمك، ولا أنتقص من عزيمة أمْرك، فأسألك يا مُنتهى السؤلات، وأرغب إليك يا موضع الحاجات، سواك من قد كَذَب كلّ رجاء إلاّ منك، ورغب من رغب عن كل ثقة إلا عنك، أنْ تهب لى إيماناً أقْدُم به عليك، وأوصل به عظَم الوسيلة إليك. وأن تهب لى يقيناً لا توهنه بشبهة إفْك، ولا تهنُه خَطرةُ شك، تُرحِّب به صدرى، وتيسّر به أمرى، ويأوى إلى محبتك قلبى، حتى لا ألهو عن شكرك، ولا أنعم إلاّ بذكرك. يا مَن لا تملُّ حلاوة ذكره ألسُنُ الخائفين، ولا تكلّ من الرغبات إليه مدامع الخاشعين! أنت مُنتهى سرائر قلبى فى خفايا الكتْم، وأنت موضعُ رجائى بين إسراف الظُلم. من ذا الذى ذاق حلاوة مناجاتك فلَهَا بمرضاة بَشَر عن طاعتك ومرضاتك؟ ـ ربِّ! أفنيتُ عُمرى فى شدّة السهو عنك، وأبليتُ شبابى فى سَكْرة التباعد منك، ثم لم استبطىء لك كلاءةً ومَنَعةً فى أيام اغترارى بك، وركونى إلى سبيل سُخطك. وعن جهل ياربّ قرّبتنى الغرّة إلى غضبك! أنا عَبْدُك ابنُ عَبْدك، قائمٌ بين يدَيك، متوسلٌ بكرمك إليك، فلا يُزلنى عن مقام أقمتنى فيه غيرُك، ولا ينقلنى من موقف السلام من نعمك إلاّ أنت، أتصل إليك بما

كنتُ أواجهك به، من قلة استحيائى من نظرك، وأطلب العفو منك ياربّ إذ العفو نعمةٌ لكرمك. ـ يا مَن يُعصَى ويُتابُ إليه فيرضى، كأنه لم يُعْصَ، بكرم لا يوصف، وتحنّن لا يُنعت، ياحنّان بشفقته، يامتجاوز بعظمته، لم يكن لى حولٌ فأنتقل عن معصيتك إلاّ فى وقت أيقظتنى فيه لمحبتك، وكما أردتَ أن أكون كنتُ، وكما رضيتَ أن أقول قلتُ، خضعتُ لك، وخشعتُ لك! ـ إلهى لتُعزّنى بإدخالى فى طاعتك، ولتنظر إلىّ نظر مَن ناديته فأجابك، واستعملته بمعونتك فأطاعك. ـ ياقريبٌ لا تَبعُد عن المعتزين، ياودودٌ لا تعجل على المذنبين! اغفر لى وارحمنى يا أرحم الراحمين!

ومن دعاء يوسف: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ (يوسف١٠١) قيل إن بعض المشايخ قالوا: لم يتمنّى الموت أحدٌ، لا نبيٌّ ولا غيره، إلا يوسف عليه السلام، حين تكاملت عليه النِّعَم، وجُمع له الشمل، فاشتاق إلى لقاء ربّه عزّ وجلّ.

وقال التُّستُرى: لا يتمنى الموت إلا ثلاثة: رجلٌ جاهل بما بعد الموت؛ أو رجلٌ يفرّ من أقدار الله تعالى عليه؛ أو مشتاق محب للقاء الله عزّ وجلّ.

وعن معلّمنا ونبيّنا ﷺ قال: لا يتمنين أحدكم الموت لضرٍّ نزل به، فإن كان لابد متمنياً، فليقل: اللهم أحيِنى ما كانت الحياة خيراً لى، وتوفّنى إذا كانت الوفاة خيراً لى. وقال: لا يتمنينّ أحدكم الموت، ولا يدْعُ به من قبل أن يأتيه، فإنه إذا مات أحدكم، انقطع عمله، وإنه لا يزيد المؤمن عمره إلا خيرا». ـ وإذا ثبت هذا، فكيف يقال أن يوسف تمنّى الموت والخروج من الدنيا وقطع العمل؟! ـ اعتقادنا أن هذا بعيد، إلا أن يقال: إن ذلك كان جائزاً فى شرعه. وقد يجوز تمنّى الموت والدعاء به عند ظهور الفتن وغَلَبتها، وخوف ذهاب الدين؛ وقيل إن الأسرى العراقيين فى سجن أبى غريب، والأسرى المسلمين فى سجن جوانتانامو، كانوا يتمنون الموت ويدعون الله أخلص الدعاء، أن يتوفاهم! والرجل يدعو على نفسه أو ماله أو ولده إذا غضب، يقول: اللهم أهلكه! لا تبارك له فيه! والعنه! ـ أو نحو ذلك، فلو استجيب منه كما يستجاب بالخير، لقضى الله تعالى إلى الناس آجالهم. وقال رسول الله ﷺ: إنى سألت الله عزّ وجلّ ألاّ يستجيب دعاء حبيب «على» حبيبه. وقال لرجل لعَنَ بعيره: أنزِل عنه فلا تصحبنا بملعون! وقال: لا تدعوا على أنفسكم، ولا

تدعـــوا عـلـى أولادكم؛ ولا تدعـــوا عـلـى أموالكم؛ لا توافقـوا من الله ساعة يسأل فـيها عطاء فيستجاب لكم»

وقيل: إن اليهـود سألوا النبيّ ﷺ : أنت تزعم أن بيننا وبين السماء خـمسمائة عام، وسُمك كل سماء مثل ذلك، فكيف يسـمع ربّنا دعـاءنا؟ فنزلـت الآية: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ (البقرة ١٨٦)، فشرط استـجابته لدعوتهم أن يـستجيبـوا كذلك لدعوته، وليـؤمنوا به إلهاً واحـداً، وأكد قُربه لهم أكثر مما قـالوا، فهو أقرب إليهم من حـبل الوريد، وهـذا أقـرب بالـعلم والإجابة. والدعـاء أصلاً عبادة ـ كـما قال النبيّ ﷺ؛ والذي يدعـوالله يتعبّد له؛ والنبيّ ﷺ أُعطَى ثـلاثاً لم يُعْطَهـا نبيّ من الأنبيـاء: أولها أن الله تعـالى كان إذا بعث نبيـاً، قال له: ادعني استـجب لك، بينما قال لأُمتّه ﷺ : ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ (غافر ٦٠)، وقال تعالى للآخرين: ﴿فَـادْعُـوا اللَّهَ مُـخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ (غافر١٨)، فلم يضع للاستجابة لدعائهم شرطاً.

ودعاء الصوفي الصادق دعاء وليّ، ومع ذلك فلا يطمع أن يُستجاب له فوراً ودائماً وفي كل شيء، فالنبيّ ﷺ دعا بثلاث دعوات، فاستُجيبت اثنتان ومُنعت واحدة؛ ودعـا فـي مسجـد الفتح، يومَيّ الاثنين والثـــلاثاء، فلم يُســتـجَب له إلا يوم الأربعاء. وقد ثبت عنه ﷺ قوله: مَن فُتح له الدعاء، فُتحت له أبواب الجنة ـ يعني أن دليـل دخـوله الجـنة أن دعـــوتـه تُستجاب. وقال ﷺ: ما من مسلم يدعو بدعوة، ليس فيهـا إثم ولا قطيـعة رحم، إلا أعطاه الله بهـا إحدى ثلاث: إمّا أن يُعجّل له دعـوته، وإمّا أن يدّخـرها له، وإمّـا أن يكُفّ عنه من السـوء بمثلها؛ فلهذا إذن استُجيبت دعوتان للنبّي ﷺ ومُنعت واحدة، وهي فى الحـقيـقـة لم تُمنع ولكنهـا ادُّخـرت له. وفي رواية أخـرى قـال: لا يـــزال يُستجاب للعبـد ما لم يَدْعُ بإثـم أو قطيـعة رحم، ما لم يستعجل". وسألوه: يا رسول الله، فما الاسـتعجال؟قـال: يقول: قـد دعوتُ وقد دعوتُ، فلم أره تعـالى يستجيب لي، فيـستـحسر عند ذلك ويَدع الدعـاء» ـ ويستحسر يعني يملّ ـ. ولا يستجاب لأكل الحرام لقوله تعالى ﷺ عن الرجل: يمدّ يديه إلـى الســمـاء يقـــول يا ربّ يا ربّ، ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغُذّيَ بالحرام، فأنّى يُستجاب له؟! ـ فـمن شـروط الداعي ـ إذا كان من الصوفية: أن لا يكون حلولياً، ولا اتحادياً، ويعلم أن لا

قادر على تلبية حاجته إلا الله، وأنه تعالى يملك الوسائط ويُسخّرها؛ وأن يدعو بصدق نية وحضور قلب، فالله تعالى لا يستجيب لدعاء من قلب غافل لاه؛ وأن يجتنب أكل الحرام، ولا يملّ من الدعاء.ـ وأما المدعو به، فمن شروطه: أن لا يكون أمراً لا يجوز طلبه شرعاً.ـ والصوفية وضعوا للدعاء ضوابط، فقال ابن عطاء: للدعاء أركان وأجنحة، وأسباب، وأوقات، فإن وافق الدعاء أركانه قَوِيَ، وإن وافق أجنحته طار في السماء، وإن وافق مواقيته فاز، وإن وافق أسبابه نجح.فأما أركانه، فهي: حضور القلب، والرأفة، والاستكانة، والخشوع؛ وأما أجنحته فهي: الصدق؛ وأما مواقيته، فهي: الأسحار؛ وأما أسبابه: فهي الصلاة على النبيّ ﷺ ، والتبرّك باسمه، وطلب شفاعته؛ وشرائط الدعاء المستجاب أربعة: حفظ القلب بالعزلة؛ وحفظ اللسان مع الخلق؛ وحفظ العين عن النظر إلى ما لا يحلّ؛ وحفظ البطن من الحرام. وقيل من شروط الدعاء المستجاب: أن يسلم من اللحن.

وسُئل إبراهيم بن أدهم من مريديه: ما بالنا ندعو فلا يستجاب لنا؟ قال: لأنكم عرفتم الله فلم تطيعوه، وعرفتم الرسول فلم تتبعوا سُنّته، وعرفتم القرآن فلم تعملوا به، وأكلتم نِعَم الله فلم تؤدوا شُكرها، وعرفتم الجنّة فلم تطلبوها، وعرفتم النار فلم تهربوا منها، وعرفتم الشيطان فلم تحاربوه ووافقتموه، وعرفتم الموت فلم تستعدوا له، ودفنتم الأموات فلم تعتبروا، وتركتم عيوبكم واشتغلتم بعيوب الناس.ـ وقال عليّ بن أبي طالب يعظ صاحباً له يُدعَى نَوْف: يا نوف، إن الله أوحى إلى داود أن مُر بني إسرائيل ألاّ يدخلوا بيتاً من بيوتي إلا بقلوب طاهرة، وأبصار خاشعة، وأيد نقية، فإني لا أستجيب لواحد منهم ما دام لأحد من خَلْقي مظلمة.يا نوف، لا تكونن شاعراً، ولا عريفاً، ولا شرطياً، ولا جابياً ولا عشّاراً، فإن داود قام في ساعة من الليل فقال: إنها ساعة لا يدعو عبد إلا استجيبَ له فيها، إلا أن يكون عريفاً، أو شرطياً، أو جابياً، أو عشّاراً، أو صاحب طبل.ـ ودعاء أهل الله ليس فيه أن يقول الداعي: يا ربّ إن شئتَ أن تعطيني كذا فافعل! والرسول ﷺ قال: إذا دعا أحدكم فليعزم المسألة» ـ يعني ينبغي للصوفيّ المؤمن حقاً أن يجتهد في دعائه برجاء الإجابة، ولا يقنط من رحمة الله، لأنه يدعو كريماً.ولا يمنعنّ أحداً من الدعاء ما يعلمه عن نفسه من السوء، فإن الله تعالى قد أجاب دعاء شرّ الخلق إبليس، قال: ﴿رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ

فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ﴾ (الحجر٣٧). - وروى أن أم الدرداء سألت واحداً من أهل الله: ألا تجد القشعريرة؟ قال: نعم. قالت: فادعُ الله حينئذ، فإن الدعاء يُستجاب - يعني يُستجاب الدعاء إذا استشعر الخوف والخشوع.

٣٩٠ - دعوة...

الدعوة إلى الله والحق والخير من التكاليف الإسلامية، وكل نبيّ ورسول له دعوة يدعو بها قومه جهاراً نهاراً، وقد لا يستجيبون أو لا يستجيبون، والمؤمنون يدعون إلى الله، وغيرهم يدعون لغير الله، والفيصل بين الحق والباطل هو مقصود الدعوة ومرادها، وأصحاب الباطل لا يسمعون لدعوة الحق، كأنما في آذانهم وقر وقلوبهم في أكنّة، ومن يدعُ مع الله إلهاً آخر لا برهان له به فإنما حسابه عند ربّه.

وفي كل أمة دعاةٌ للخير، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر. والدعوة سبيلها الحكمة والموعظة الحسنة، وتستلزم في الداعي الاستقامة. والصوفية دعاة اجتماعيون كما هم دعاة إسلام، ومنهجهم الاستبطاني يجعل منهم معالجين نفسانيين يعملون على شفاء الناس من أدرانهم، وبعث السكينة والطمأنينة في نفوسهم، بفضل ضياء الحكمة الإلهية فيهم، وبدأوا بأنفسهم، فلما حازوا الشفاء توجهوا لمواساة قلوب المحزونين وتطمين عقول الحائرين.

ولم يكن التصوف مجرد معرفة بأسماء الصوفية، ولا بمدارسهم، ولكنه المعرفة بعلم التطبيب وممارسته في خدمة الناس، والصوفي طبيب نفسي، أحاط بصيدلية الطب النفسي وجرّبها على نفسه، فلمّا عرف أثرها، وخبر فوائدها، اتجه إلى الناس يفيدهم بعلمه وخبرته، وبهذا لم يكن التصوف نظريات بل هو أخلاق نظرية وتطبيقية، وأسلوب في العيش، وطريقة في الحياة، وكما يقول الجنيد: ما أخذنا التصوف عن القيل والقال، ولكن عن الجوع، وترك الدنيا، وقطع المألوفات والمستحسنات». ولم تكن عظمة التصوف الإسلامي في اعتزال البعض للحياة، وفي زهدهم في الدنيا، وترفُّعهم المحزون عن الانخراط فيها والتعامل مع الناس، ولكنها في الرغبة العارمة التي تكتنف مشاعر الصوفي، وتختزم أفكاره: «أن يخدم الناس»، و«أن يضحّي بنفسه من أجلهم»، و«أن يستشهد في سبيلهم».

والصوفي وهو يحلل نفسه، ويتحرى نقائصه ويتتبعها، إنما يخدم بذلك الناس،

لأنه يجعل من نفسه بعد ذلك قدوة لهم، فهو واحد منهم، وإن لم يكن أقلهم شأناً، ومع ذلك صار من أعاظمهم، بطريقته ومنهجه، يريد بذلك حُبّ الله، ويطلب هذا الحب ويتولّه فى الطلب، ليرضى عنه الله فيكون جديراً بأن يتشفّع عند حبيبه وخليله للناس. ولما سألوا الحلاّج: ما حدّ التصوّف؟ قال وهو على الصليب: ما ترون! ـ يشير بذلك إلى حاله وما انتهى إليه أمره، وهو: الاستشهاد. ولهذا كان الناس كلهم يدعون لأنفسهم يوم عرفة بينما كان الحلاّج يدعو ـ كما قيل ـ لأمة الإسلام. ولذلك أيضاً دعا البسطامى لليهود والمسلمين على السواء لما مرّ بمقابر هؤلاء وهؤلاء، وكذلك سلّم ابن سبعين على المؤمنين والكافرين دون تمييز.

وكانت الدعوة الصوفية سبباً فى انتشار الإسلام فى الهند، ولم ينتشر بالسيف وإنما بفضل الطرق الصوفية، من أمثال: الجشتية، والكبروية، والشطارية، والنقشبندية، وكان الصوفية يعطون ولم يطلبوا مقابلاً، فآمن الناس فى الهند بالإسلام، ومزج التصوف بين الهندوسية والإسلام، وقامت ديانة السيخ على أساس من التصوف الإسلامى، واستعان نانك مؤسس مذهبهم، بقصائد الصوفى المسلم «فريد شكر كنجى».

وكذلك كان للدعوة الصوفية الفضل فى انتشار الإسلام فى إفريقيا، : فى السنغال، ومالى، والنيجر، وغينيا، وغانا، ونيجيريا، وتشاد، من خلال الطرق الصوفية التى كانت تعايش الناس فى أحيائهم وقراهم، ويلتمسون من مشايخها البركة، ويطلبون الشفاء، ويتلقون العلم.

وأيضاً فإن الدعوة الصوفية لعبت دوراً كبيراً فى توعية الناس وتثقيفهم، واتسعت بها نظرتهم للحياة، ورابط الصوفية فى الثغور ومشارف المدن وأطراف الصحراوات يحرسون البلاد، لا يشكون شظفاً ولا عنتاً، فقد كانت هذه الحياة عينها هى ما يطلبون. ولم يكن المتصوفة متعصبين، وكانت المحبة ديدنهم، ولم تعرف قلوبهم البُغض ولا العصبية ولا التطرُّف والمغالاة، وعبّروا عن وسطية الإسلام، وكانوا همزة الوصل بين طبقات الشعب وفرقه ومذاهبه، فتأكدت محبة الناس لهم، وعرفوا إخلاصهم، وبادلوهم المحبة، وأحبوا الإسلام فيهم.

٣٩١ - دعوى...

إضافة النفس إليها ما ليس لها. قال سهل بن عبد الله: أغلظ حجاب بين العبد وبين الله الدعوى. يعنى أن يدّعى أنه

على حال ليست له، فيضفى على نفسه ما ليس فيها، فذلك يحجبه عن القُرب من الله، ولذا قيل: من ليست له دعوى، ليس له معنى، أى أن من يدّعى لنفسه بدعوى ليست فيه، فهو محجوب عن الله.

٣٩٢ - دليل...

سئل أحد العارفين عن الدليل على وجود الله، فقال: الله. فقيل له: فما العقل ؟ فقال: العقل عاجز لا يدل إلا على عاجز مثله. ويقول ابن عطاء الله السكندرى: إذا كان من الكائنات ما هو غنى بوضوحه عن إقامة الدليل، فالمكوّن أولى بغناه عن الدليل منها. ويقول: إننا لننظر إلى الله ببصائر الإيمان فأغنانا عن الدليل والبرهان.

ويقول أبو الحسن الشاذلى: ومن عجب العجاب أن تكون الكائنات موصلة إليه، فهل لها وجود معه حتى توصل إليه ؟ أو هل لها من الوضوح ما ليس له حتى تكون هى المُظهِر له ؟ وكيف تكون الكائنات مُظهِرةً له وهو الذى أظهرها؟ أو مُعرّفةً له وهو الذى عرّفها ؟

٣٩٣ - دمس...

يعنى الإخفاء والدفن، ويقال للمقبرة الديماس. قال الجنيد فى رسالة إلى يحيى ابن معاذ : ثم أدمس شاهده فى دمس الاندماس، وهى إشارة إلى حقيقة التوحيد بذهاب الخلق فيما كان كأنه لم يكن.

٣٩٤ - دنيا...

الدنيا عند الصوفية: هى ما شغلك عن الله تعالى. قال ﷺ: «الدنيا دار من لا دار له، ومال من لا مال له، ولها يجمع من لا عقل له». رواه أحمد.

والدنيا عبارة عن حظوظ النفس، بمعنى أن كل ما تتلذذ به نفسك هو دنياك، وكل ما بعد الموت يسمى آخرة. ويقولون كل ما لك فيه حظ قبل الموت فهو دنياك، إلا ما يبقى معك بعد الموت. وفى الحديث: «الدنيا لا تصفو لمؤمن، وهى سجنه وبلاؤه» رواه ابن لال.

وفى التحذير منها قال ﷺ: «فوالله ما الفقر أخشى عليكم، ولكنى أخشى عليكم أن تُبسَط الدنيا عليكم» رواه مسلم. وقال: «الدنيا خَضِرة حلوة، فمن آتيناه منها شيئاً بطيب نفس منا وطيب طُعمة ولا إشراه، بورك له فيها. ومن آتيناه منها شيئاً بغير طيب نفس منا، وغير طيب طعمة، وإشراه منه، لم يبارك له فيها» رواه أحمد.

وفى رواية أخرى قال: «إن الدنيا حلوة خضرة، فمن أخذها بحقّها بارك الله له فيها. ورُبّ مُتخوِّض فى مال الله وله النار يوم يلقاه» رواه الطبرانى. وقال: صوتان

ملعونان فى الدنيا والآخرة: مزمار عن نعمة، ورنّة عند مصيبة. رواه أبو نعيم. والصوفى على قول الله تعالى: ﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ (الحديد ٢٣). والمقصود بالمزمار: إعلان الفرحة بالنعمة عند وقوعها؛ والرّنة هى الصُراخ لدى المصيبة، وخير الأمور الوسط: أن نحمد الله عند النعمة، ونسترجع عند المصيبة.

ومبدأ النبى ﷺ: أن الدنيا دار ابتلاء، كقوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ (الكهف ٧)، والآية فيها النُّصح لأمة محمد: أن لا تهتم بالدنيا وأهلها، فإنها دار امتحان واختبار، ومَن أهلها من يتدبّر ويؤمن، ومنهم من يكفُر؛ والصوفية ذهبوا مذهبه ﷺ، وسمعوا له يقول: إن الدنيا خَضِرة حلوة، والله مستخلفكم فيها، فينظر كيف تعملون؛ ويقول: إن أخوف ما أخاف عليكم ما يُخرج الله لكم من زهرة الدنيا. وسألوه: وما زهرة الدنيا؟ قال: بركات الأرض. ـ والمعنى: أن الدنيا مستطابة فى ذوقها، مُعجبة فى منظرها، كالثمر المُستحلَى المُعجب المَرْأى، فابتلى الله بها عباده، لينظر أيهم أحسن عملاً ـ أىّ مَن أزْهَدُ فيها وأترَكُ لها، ولا سبيل للعباد إلى أن يتجنّبوا معصية ما قد زيّنها لهم، إلا بأن يعينهم عليها، ولذا قال ابن عمر ـ كما قال الصوفية بعده والزهّاد: اللهم إنّا لا نستطيع إلا أن نفرح بما زيّنته لنا! اللهم إنى أسألك أن أنفقه فى حقّه؛ فكان ابن عمر ومن جاء بعده من أهل الله، يدعون ربّهم أن يعينهم على أن ينفقوا ما آتاهم من نِعَمه وزينته، فى مجاله، وهو قوله ﷺ: فمن أخذه بطيب نفس، بورك له فيه، ومن أخذه بإشراف نفس، كان كالذى يأكل ولا يشبع، فالمكثر من الدنيا لا يقنع بما يحصل له فيها، بل همّته جمعها، لأنه لم يفهم عن الله ورسوله، فإن الفتنة مع الدنيا حاصلةٌ، وعدم السلامة غالبة، وقد أفلح من أسلم ورُزق كفافاً، وقنعه الله بما آتاه. والأحسن عملاً فى الآية، هو الذى يأخذ الأخذ من الدنيا بحقّ، وينفق فى الحقّ مع الإيمان، ومع أداء الفرائض، واجتناب المحارم، والإكثار من المندوب إليه.

ولم يقل الله تعالى: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ (الأنعام٣٢) إلا لقصر مدة الحياة الدنيا، كقول هذا الصوفى:

ألا إنما الدنيا كأحلام نائم ∴ وما خير عيش لا يكون بدائم
نأمّل إذا نلت بالأمس لذّةً ∴ فأفنيتَها هل أنت إلا كحالم

وقال آخر:

فاعمل على مهل فإنك ميّت ∴ وأكدح لنفسك أيها الإنسان فكأن ما كان لم يكُ إذ مضى ∴ وكأن ما هو كائن قد كان

وقيل: إن سليمان بن عبدالملك نظر يوماً في المرآة، فقال: أنا الملك الشاب! فقالت له جاريته:

أنت نِعْمَ المتاعُ لو كنت تبْقَى ∴ غير أن لا بقاء للإنسان ليس فيما بدا لنا منك عيبٌ ∴ كان في الناس غير أنك فان

وذمّ رجلٌ الدنيا عند عليّ بن أبي طالب، فقال علي: الدنيا دار صدق لمن صَدَقَها، ودار نجاة لمن فَهِم عنها، ودار غنىً لمن تزوّد منها ـ وقال واحدٌ من أهل الله:

لا تُتبِع الدنيا وأبهاها ∴ ذمّاً وإنْ دارت بك الدائره من شَرَف الدنيا ومن فَضْلها ∴ أن بها تُستدرَك الآخرة

وروى عن أبي سعيد الخدريّ عن رسول الله ﷺ أنه قال: الدنيا ملعونةٌ، ملعونٌ ما فيها، إلا ما كان فيها من ذكر الله، أو أدّى إلى ذكر الله؛ والعالم والمتعلّم شريكان في الأجر، وسائر الناس هَمَجٌ لا خير فيهم؛ وقال: من هوان الدنيا على الله، ألاّ يُعصَى إلا فيها، ولا يُنال ما عنده إلا بتركها؛ وقال: لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة، ما سَقَى كافراً منها شَرْبة ماء ـ وقال واحدٌ من العرفانيين وكان شاعراً:

سَمْعٌ من الأيام إنْ كنت حازماً ∴ فإنك منها بين ناءٍ وآمِر إذا أبقت الدنيا على المرء دينَه ∴ فما فات من شيء فليس بضائر ولن تعدل الدنيا جناح بعوضة ∴ ولا وَزْنَ زِفٌ من جناح لطائر فما رضيَ الدنيا ثواباً لمؤمن ∴ ولا رضي الدنيا جزاءً لكافر

(وسمّع يعنى اذكر من أيامها؛ والزِّف هو الريش الصغير). والناس كلهم في أحوال الدنيا أربعة: مرحوم، ومخدوع، ومُعاقَب، ومُكرَه. ولو قيل للطمع في الدنيا: من أبوك ؟ لقال: الشكّ في المقدور. ولو قيل للطمع في الدنيا: ما حِرْفتك؟ لقال: اكتساب الذُّل. ولو قيل: ما غايتك؟ لقال: أن لا أشعر أني محروم.

٣٩٥ - دهر...

الدَّهر عند الصوفية: هو «الآن الدائم» الذي هو امتداد الحضرة الإلهية، وهو باطن الزمان، وبه يتّحد الأزل والأبد. والدهرية: فرقة زعمت أن الدهر قديم فعبدوه من حيث الهوية.

٣٩٦ - دهشة...

الدهشة عند الصوفية: سطوة تصدم عقل المحبّ من هيبة المحبوب إذا لقيه عند الإياس، ولا عاهة لها إذا انقضت. ـ يعني لا تُخلف أذى في النفس. وكان الشِّبلي يقول: يا دَهَشاً كله!! ـ ومعناه كل شيء مع الخلق منك دَهَشٌ كله! ـ يعني أن كل منه للخلق موضع استغراب وإعجاب.

٣٩٧ - دواء...

في قوله تعالى: ﴿فيه شفاءٌ للناس﴾ (النحل٦٩) ردٌ على الصوفية الذين

يزعمون أن الولاية لا تتم إلا إذا رضى العبد بجميع ما نزل به من البلاء، وأنه لا يجوز له المداواة، ولا معنى لمن أنكر ذلك منهم، وعنه ﷺ قال: لكل داء دواء، فإذا أصاب الدواءُ الداءَ برأ بإذن الله.وسأله بعضهم ـ قالوا: ألا نتداوى يا رسول الله؟ قال: نعم.يا عباد الله، تداووا فإن الله لم يضع داءً إلا وضع له شفاء (أو قال: دواء)، إلا داءً واحداً. قالوا: يا رسول الله، ما هو؟ قال: الهَرَم. (يعنى الشيخوخة). وسأله أحدهم: يا رسول الله، أرأيت رُقًى نسترقيها، ودواءً نتداوى به، وتُقاةً نتقيها، هل تَرُدُّ من قَدَر الله شيئاً؟ قال: هى من قَدَر الله ـ وذكر ﷺ بعض العلاجات الشعبية، والصوفية يكثرون من استعمالها، قال: إن كان فى شىء من أدويتكم (لاحظ قوله أدويتكم، يعنى أنها أدوية شعبية) خير، ففى شَرْطة مِحْجم، أو شَرْبة من عسل، أو لَذْعة نار، وما أحبُّ أن أكتوى. ـ وكان أغلب الصوفية يكتوون من اللَّقوة (داء يكون فى الوجه يعْوَجّ منه الشدق)، ويرقون من العقرب، ومن كان له ولد يسقونه الترياق (دواء للسموم). وفى مثل مَن لا يلجأ للطِّب ولا للأطباء، ولا عُمْره اكتوى ولا تطيّر، قال ﷺ : دَخَلتْ أُمّةٌ بقضّها وقضيضها (يعنى جميعها) الجنة.كانوا لا يسترقون، ولا يكتوون، ولا يتطيّرون، وعلى ربّهم يتوكلون.ـ وأهل الله ممن لا يتداوون يتعللون بهذا الحديث، ويدافعون عن رأيهم: بأن المؤمن عليه أن يترك التداوى اعتصاماً بالله، وتوكلاً عليه، وثقةً به، وانقطاعاً إليه، فالله يقدّر للمرض أياماً، وللصحة أياماً، فلو أن الخَلْق عملوا على تعاطى الدواء لتقليل مدة المرض، ما قدروا، لقوله تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا﴾ (الحديد ٢٢). وقد ذهب إلى هذا كثيرون، حتى من صحابة رسول الله ﷺ ، كابن مسعود، وأبى الدرداء، قيل دخل عثمان بن عفان على ابن مسعود فى مرضه الذى قُبض فيه، فقال له عثمان: ما تشتكى؟ قال: ذنوبى! قال: فما تشتهى؟ قال: رحمة ربّى.قال: ألا أدعو لك طبيباً؟ قال: الطبيب أمرضنى قال: أفلا نأمر لك بعطائك؟ قال: لا حاجة لى فيه، حبسته عنى فى حياتى، وتدفعه عند مماتى؟! قال: يكون: لبنائك من بعدك.قال: أتخشى على بناتى الفاقة من بعدى؟ إنى أمرتهن أن يقرأن سورة الواقعة كل ليلة، فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: من قرأ سورة الواقعة كلّ ليلة لم تصبه فاقةٌ أبداً.

ومرض أبو الدرداء فعادوه، وقالوا: ألا

ندعو لك طبيباً؟ فقال مثل مقالة ابن مسعود: الطبيب أضجعني! - وإلى مثل ذلك القول والفعل، ذهب كثيرون من أهل الله، وما يزالون. وكان الحسن البصري يكره شُرب الأدوية كلها، بل وشُرب أي سائل إلا الماء واللبن والعسل. ورغم كراهية البعض للدواء فإنهم قد يضطرون إليه، وكان النبيّ ﷺ يكره الكَيّ، ولكنه كوى أُبيّ بن كعب على أكحله يوم الأحزاب لمّا رُمي.

٣٩٨ - دين...

عند الصوفية: الدِّين ديّنان: دين عند الله وعند من عرّفه الحق تعالى، ومن عرّف من عرّفه الحق؛ ودين عند الخَلْق؛ فالدين الذى عند الله هو الذى اصطفاه الله وأعطاه الرتبة العليا على دين الخَلْق، فقال تعالى على لسان يعقوب: ﴿يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ (البقرة ١٣٢).

وجاء «الدين» بالألف واللام للتعريف والعهد. فهو دين معروف معلوم، وهو الإسلام، كما فى قوله تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ (آل عمران ١٩)، والإسلام: هو الانقياد، فالدين: عبارة عن انقيادك؛ والذى من عند الله تعالى: هو الشرع، الذى انقدتَ أنت إليه؛ فالدين إذن هو الانقياد، بينما الناموس هو الشرع الذى شرعه الله تعالى، فمن اتّصف بالانقياد لما شرعه الله، فذلك الذى قام بالدين وأقامه، أى أنشأه كما يقيم الصلاة، فالعبد هو المنشئ للدين، والحق هو الواضع للأحكام، فالانقياد هو عين فعلك، فالدين من فعْلك.

والدين أيضاً من الدون، فكل شىء اتّضع فهو دون، فالدين أن يضع الإنسان نفسه لربّه.

٣٩٩ - ديوان...

الديوان الصوفي: هو حكومة الشيعة الصوفية، أو حكومتهم الباطنة، أو مملكتهم، يقول الدبّاغ: إن الديوان باطن، ويحكم فيه القطب الأكبر أو الغوث بما يشاء، ويصرِّف مع من معه من الأقطاب، أقدار الوجود، وهو بمثابة محكمة أحكامها نهائية لا تُنسَخ، وحكامها بالإضافة إلى القطب الأكبر، أربعة عن يمينه، وثلاثة عن يساره. وكان المعتقد أن مكان هذه الحكومة أو المحكمة غار حِراء، أو أنه بباب زويلة، والعامة فى مصر تسميه لذلك بباب المتولى، لأنه مركز الوليّ الأكبر، وقد تجتمع الحكومة ويعقد الديوان فى أماكن أخرى مثل قبر السيد البدوى، ويقولون إن رئاسة هذه الحكومة الدائمة

للخَضِر، وغيره من الأقطاب يسمونهم أصحاب الدرك. وكل التصوف للأقطاب السبعة بأمر الغوث، ويحضر الديوان بعض الكُمّل من الأموات، ويحضره الأنبياء جميعاً في ليلة القدر، وكذلك الملأ الأعلى من الملائكة المقرّبين!

ولغة الديوان: السريانية(؟!)، وقد يتغيّب القطب الغوث فلا يحضر الديوان، فيحدث الخلاف بين أهل الديوان ويتقاتلون، وإذا حضر الغوث أحضر معه أبا بكر، وعمر، وعثمان، وعلياً، والحسن والحسين وفاطمة (يعنى أنها حكومة ائتلافية من السُّنّة والشيعة)، ويتكلمون في القضاء، ويتصرّفون في العوالم والحُجُب (يعنى بدلاً من الله، باعتبارهم الوكلاء عنه؟!) وقد يجتمعون خلال العام في مكان يقال له زاوية أسا، خارج أرض سوس بغرب السودان. لماذا، لا أدرى؟!، وأحصى الهجويرى حكومة الأولياء في ترتيب تصاعدى: الأخيار ٣٠٠، والأبدال ٤٠، والأبرار ٧، والأوتاد ٤، والنقباء ٣ (يعنى أن مجلس الحكم يتكوّن من ٣٥٨ نائباً؟!) وهذه أول حكومة نيابية في العالم قاطبة). وجميعها أفكار عجيبة، وكلها من وضع الشيعة!

* * *

باب الذال

* * *

٤٠٠ - ذات...

مطلق الذات: هو الأمر الذى تستند إليه الأسماء والصفات فى عينها لا فى وجودها، فكل اسم أو صفة استند إلى شئ فذلك الشئ هو الذات، سواء كان معدوماً كالعنقاء، أو موجوداً. والموجود نوعان: نوع موجود محض، وهو ذات البارى سبحانه، ونوع موجود ملحق بالعدم وهو ذات المخلوقات. وذات الله سبحانه عبارة عن نفسه التى هو بها موجود لأنه قائم بنفسه، ويستحق الأسماء والصفات بهويته.

وذات الله تعالى: غيب الأحدية، لا تُدرى بمفهوم عبارة، ولا تُفهم بمعلوم إشارة، وليس لذاته فى الوجود مناسب ولا مطابق ولا منافٍ ولا مضاد.

وجنّة الذات: هى من مشاهدة جمال الأحدية، وهى جنة الروح أيضاً.

٤٠١ - ذخائر...

الذخيرة: ما خُبِّئ لوقت الحاجة، وما أُعدّ للدنيا أو للآخرة. وذخائر الله قوم من أوليائه تعالى يدفع بهم البلاء عن عباده، كما يدفع بالذخيرة بلاء الفاقة.

٤٠٢ - ذكر...

هو أفضل الأعمال، قيل يا رسول الله: أى الأعمال أفضل؟ قال: **أن تموت ولسانك رطب بذكر الله تعالى**». وقال أيضاً: **مَنْ أكثَرَ من ذكر الله برئ من النفاق**». ويقول الله تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ (البقرة ١٥٢). ويقول أيضاً: ﴿إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ (العنكبوت ٤٥). فنبّه إلى أن الذِّكر أكبر من الصلاة.

والذِّكر: هو الخروج من ميدان الغفلة إلى فضاء المشاهدة على غلبة الخوف أو لكثرة الحب. وهو بساط العارفين، ونصاب المحبين، وشراب العاشقين، وحقيقته أن تنسى ما سوى المذكور؛ **وأقسامه**: ذكر العوام: وهو ذكر اللسان المستمد من القلب يردّده المحب ويستعذب ترداده ويحب سماعه؛ وذكر الخواص: وهو ذكر القلب، ومعناه تصور حقيقة المحب فى القلب والاستجماع له بالكلية، وهذه هى المناجاة، وتسمى مناجاة الروح، ومن شرط هذا الذِّكر أن لا يتحرك فيه لسان، إذ اللسان يوجب التفرقة، وإن كان يترجم عن المعنى الذى فى النفس.

وليست للمريد فترة عن ذكر الله، فهو دائم الذِّكر له. والاعتبار لذكر القلوب. وليس للأعمى من الجوهرة إلا لمسها، وكذلك الجاهل من الله ليس له إلا ذكره باللسان. والمريد الذى يبلغ الفلاح هو الآله بذكر الله، وذِكره تعالى على الصفاء ينسى العبد مرادة البلاء، ومع ذلك فليس من استأنس بالذِّكر كمن استأنس بالمذكور. وفى حضرة الشهود يُستغنى عن الذِّكر بالشهود، لأن الذكر إنما هو للغائب.

وذكر السرّ: من مقامات الواصلين من خاصة الخاصة، ومعناه غيبة الذاكر فى المذكور بالجملة حتى لا يبقى له رسم، فيكون المذكور هو الذاكر، ويشترط فى هذا عدم الذاكر كما اشترط فى الثانى عدم اللسان.

وتعقد الصوفية للذِّكر مجالس تُقرأ فيها الأوردة والأدعية والقرآن، ويكثرون من ذكر أسماء الله ولا إله إلا الله. والذِّكر عندهم من أركان الدين، بل هو الركن الأساسى فى العبادة. يقول القشيرى هو ركن قوى من طريق الحق سبحانه، بل هو العمدة فى هذا الطريق، ولا يصل أحد إلى الله تعالى إلا بدوام الذكر.

ومن خصائص الذِّكر أنه غير مؤقت، بل ما من الأوقات إلا والعبد مأمور بذكر الله إما فرضاً أو ندباً. والصلاة وإن كانت أشرف العبادات فقد لا تجوز فى بعض الأوقات، والذِّكر فى القلب مستدام فى عموم الأحوال.

ويصحب الذِّكر فى بعض الأحيان أعمال يقوم بها الزاهد للتكفير أو لتقريع نفسه عن غفلة، كما يُحكَى عن حازم الحنفى، أنه كان يحمل معه حزمة من القضبان، فكان إذا دخلت قلبه غفلة ضرب نفسه بتلك الخشبة حتى يكسرها على نفسه، فربما كانت الحزمة تفنى قبل أن يُمسى، فكان يضرب بيديه ورجليه على الحائط.

ومن محاذير الذِّكر الجماعى الترديد الآلى أو الغفلة بسبب هذا الترديد الآلى، ولذلك لا يشجع البعض هذه الأساليب فى العبادة لأنها مجال لإظهار الرياء.

وليس كل من ادّعى الذِّكر فهو بذاكر، والذِّكر مختلف، والمذكور واحد، ومحل قلوب الذاكرين متفاوت.

ووجه الذِّكر: الأول هو التهليل والتسبيح وتلاوة القرآن؛ والثانى تنبيه القلوب بالتذكير بالله وأسمائه وصفاته وانتشار إحسانه ونفاذ تقديره على كل خلقه، فذِكْر الراجين على وعده، وذِكْر

الخائفين على وعيده، وذكرُ المتوكلين على ما كُشف لهم من كفايته، وذكر المراقبين على مقدار ما طلع عليهم باطلاع الله تعالى عليهم، وذكر المحبين على قدر تصفُّح النعماء.

والصوفية ذِكْرهم تكبير، وتهليل، وتسبيح، والحمد لله، ولاحول ولاقوة إلا بالله. وعندهم ﴿كَلِمَةَ التَّقْوَى﴾ (الفتح ٢٦) هي «لا إله إلا الله»، وفي الآية ﴿وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا﴾ (الكهف ٤٦)، المقصود بالباقيات هو التكبير، والتهليل، والتسبيح، والحمد لله، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

والذاكرون من أهل الله: هم المتعبّدون في الله من النوازع ـ يعني الأشتات، ما كان شيء يجمعهم سوى أنهم جاءوا لذكر الله، وهم في الذِّكر ينتقون أطايب الكلام كما ينتقى الأكول أطايب الطعام.

وجوامع الذِّكر عند الصوفية كما قال ﷺ: تسبيح الله في دُبُر كل صلاة عشراً، وحمده عشراً، وتكبيره عشرا. أو كما قال: تسبيحُه دُبُرَ كل صلاة ثلاثاً وثلاثين، وحمده ثلاثاً وثلاثين، وتكبيره أربعاً وثلاثين، فتلك مائة.

ومن جوامع الذِّكر الصوفي: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، يُحيي ويميت وهو على كل شيء قدير. اللهم لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت، ولا رادّ لما قضيت، ولا ينفع ذا الجدّ منك الجدّ.

ومن الذِّكر في الصباح والمساء: «حسبي الله، لا إله إلا الله، عليه توكلت وهو ربّ العرش العظيم» سبع مرات.

والتفكُّر ذكرٌ، كأن تذكر ما كنت فيه من جاهلية وما صرتَ إليه من إيمان. وذكر الأمائل عبادة، وكان المسلمون الأوائل يكثرون من الصلاة على النبيّ ﷺ، ومن ذكر عمر، وبذكر عمر يُذكَر العدل، وإذا ذُكِر العدل ذُكِر الله.

ولما سئل النبيّ ﷺ عن أولياء الله قال: «هم الذين إذا رُئُوا ذُكر الله». والذكر منه الخفي لا يعلنه صاحبه، وفي الحديث: «لَفَضلُ الذِّكر الخفي الذي لا يسمعه، سبعون ضعفاً»، وميزة هذا الذِّكر الخفي أنه لاياتيه الذاكر نفاقاً، وإنما هناك أيضاً الذِّكر الجهري، يقوله الذاكر ولا تثريب عليه إن انتفى عنه النفاق، وقد امتدحه النبيّ ﷺ عند ذي البجادين، وصحّح لعمر أن ذا البجادين «أحد الأوّاهين» والأوّاه هو الدعّاء، التوّاب، المستغفر.

ومن الذِّكر الصوفي ـ عند الدراويش والمولوية والرفاعية ـ المصاحبة بالدّف والعود

والتـرنيـم والرقص، يأخـذون ذلك عن اليهود، ففى المزمور التاسع والأربعين بعد المائة يـأتى : ليبتهج بنو صـهيون بمُلكهم، ليسبّحوا اسمه برقص، ودفٍّ، وعود، ليرنّموا ـ هللويا، سبّحوا الله فى قُدسه، سبّحوه بدفٍّ ورقص، سبّحـوه بأوتار، ومـزمار، سبّحـوه بصنوج الهتاف.

ويـردّد الذاكـر فـى الذِّكـر : مَـدَد ـ يستمده من أستاذه الذى يستمده من النبىّ ﷺ، ويـسـتأذنه فـيقـول: دستـور يا أسـتـاذى، ويسـتـأذن أصحـاب الطريق والقَـدَم، أهل السلسلة فيقول: دستور يا أصحـاب الطريق والقَدَم. ويهتز أثناء ذلك من رأسه إلى قـدميـه، يقول من اليـمين «لا»، ويرجع بـ «إله»، ويتوسط ويختم بـ «إلا الله» (لا إله إلا الله). وقد يـقول «هو الله» فيوطئ ذقنه إلى صدره.

والذِّكر الـصوفى جماعى، ويأتـى من السُـرّة إلى القلب. ولكل طريقة ذِكـرها، فقد يكون ذكر طريقة بـ «الله» فقط، وقد يكون الذِّكر بـ «هوهو»، وقد يكون بـ «آه آه»، فإذا كـان الوجد فقـد يكون الأنسب للعامة أن يقـولوا فى ذكرهم «عَـفُـو» ولا تليق بالسالكين، فإذا كانوا من أهل النقلة قـالوا «باعـث»، ولا يذكـره أهل الفناء. ويُلَقّن عوام التلاميـذ أن يقولوا «غافـر»، ويضر أرباب الخلوة أن يقولوا «متين».

وأصل الذِّكـر: التنبُّه بالقلب للمذكور، والتيقُّظ له. وسُمّى الذِّكر باللسان ذكراً لأنه دلالة على الذكـر القلبى، ولما كان إطلاق الذكر على القول اللسانى، صار هو السابق للفـهم. وذكر العامة لسانى، وذكر الصوفية قلبى؛ وفى الآية: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ (البـقـرة ١٥٣): أن من يـذكـره تعـالى بالطاعـة، فـإنه تـعـالى يذكـره بالثـواب والمغفرة. وذكره تعالى هو طاعته، ومن لم يطعه لم يذكره وإنْ أكثَر التسبيح والتهليل وقراءة القـرآن، وقال النبىّ ﷺ : مـن أطاع الله فـقـد ذكـر الله، وإنْ أقَلّ صـلاتَه وصومَه وصنيعَه للخير. ومن عصى الله فـقد نسى الله، وإنْ كثُر صلاته وصـومه وصنيعه الخيـر. ـ وسُئل أبو عثمـان الصوفى: نذكر الله ولا نجـد فى قلوبنا حـلاوة؟ فـقـال: احـمدوا الله تعـالى على أن زيّن جارحـة من جوارحكم بطاعته. وقال ذو النون المصرى: مَن ذكر الله ذكراً على الحقيقة، نسى فى جنب ذِكـره كلّ شىء، وحفظ الله عليـه، كل شىء، وكان له عـوضاً من كل شىء. وقال معـاذ ابن جبل: ما عمل ابن آدم من عمل أنجى له من عذاب الله مـن ذكر وحقّ. وجاء الرسول ﷺ أعـرابىٌ يقـول له: إن شـرائع الإسـلام قد كَـثُرت علىّ، فـانبئنى منهـا

بشيء أتشبث به؟ قال: لا يزال لسانك رطباً من ذكر الله عزّ وجلّ.وقال: إن الله عزّ وجلّ يقول: أنا مع عبدى إذا هو ذكرنى وتحرّكت بى شفتاه.ـ وَرُوى عن موسى عليه السلام أنه سأل ربّه: يا ربّ، أقريبٌ أنت فأناجيك، أم بعيد فأناديك؟ قال: يا موسى، أنا جليس من ذكرنى.قال: يا ربّ، فإنّا نكون من الحال على حال نجلُّك ونعظّمك أن نذكرك.قال: وما هى؟ قال: الجنابة والغائط.قال: يا موسى اذكرنى على كل حال.

٤٠٣ - ذنب...

الأنبياء معصومون عن الذنب دون الزلة، وأهل الشرع يقسمون الذنوب إلى كبائر وصغائر، والصوفية يقولون: جميع الذنوب والمعاصى كبائر، لأنهم يأخذون بالأحوط ويثقلون على أنفسهم. يقول سفيان الثورى: الكبائر: ما كان من المظالم بينك وبين العباد؛ والصغائر: ما كان بينك وبين الله تعالى، لأن الله تعالى كريم يعفو

٤٠٤ - ذهاب

هو ذهاب الحسّ والقلب عن المحسوسات بمشاهدة ما شاهد، ثم يذهب عن ذهابه، أى يفنى، والذهاب الفناء فى ذات الله والبقاء فى الحق، والغيبة عن الصفات المذمومة. والفرق بين الذهاب والغيبة: أن الغيبة ذهول، والذهاب فقدان تام فلا يشعر الذاهب لا بغياب ولا بفناء.

٤٠٥ - ذوالعقل...

هو الذى يرى الخلق ظاهراً، ويرى الحق باطناً، فيكون الحق عنده مرآة الخلق لاحتجاب المرآة بالصور الظاهرة .

٤٠٦ - ذوالعين...

هو الذى يرى الحق ظاهراً والخلق باطناً، فيكون الخَلق عنده مرآة الحق، لظهور الحق عنده واختفاء الخلق فيه اختفاء المرآة بالصورة .

وذو العقل والعين: هو الذى يرى الحق فى الخلق، والخلق فى الحق، ولا يحتجب بأحدهما عن الآخر، بل يرى الوجود الواحد بعينه حقاً من وجه، وخلقاً من وجه آخر، فلا يحتجب بالكثرة عن شهود الوجه الواحد الأحد، كما لا يحتجب بكثرة المرائى عن شهود الواحد الرائى، ولا تزاحم فى شهود الكثرة الخَلقية ، وكذا لا تزاحم فى شهود أحدية الذات المتجلية فى المجالى كثرة.

٤٠٧ - ذوالفقار...

اسم سيف علىّ بن أبى طالب، ومعناه أنه البتّار، وجعل الصوفية الشيعة منه

أسطورة، وقالوا فيه قولتهم المشهورة:

لاسيف إلا ذو الفقا

ر ولا فتى إلا علىّ

يدّعون أن الذى قال ذلك مناد يوم أُحد، وأنه هاتف إلهى، وجعلوا السيف وراثة، س باعتباره سيفاً مقدساً لم يخطئ ضربة، وقال فيه جلال الدين الرومى : إن الله نفسه قد تجلىّ فيه، من جنس الآية ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ ﴾ (الأنفال ١٧). يقول الرومى:

فى كل لحظة يُغير علينا كغارة العيّارين

فينهب القلب ويغيب

فمرة يتنكر فى زى الأحبة

شاباً وشيخاً

انقلب سيفاً تقلّدته كفه الكرّار

فدعى بقتال الوقت

لا، لا،بل كان هو الذى قال: أنا الحق

فى صورة أبى الحق.

وواضح أن الرومى قد خرج من دائرة الإسلام، فالكرّار المقصود هو علىّ بن أبى طالب، وهو مرة يقول بلسانه أنا الحق، ومرة يقول أبى الحق، فكأنه يقول بمقالة النصارى عن عيسى، مرة أنه الربّ، ومرة أنه ابن الربّ. تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

٤٠٨ - ذَوْق...

نورٌ عرفانى يقذفه الحق بتجلّيه فى قلوب أوليائه، يفرقون به بين الحق والباطل من غير أن ينقلوا ذلك من كتاب أو غيره. وهو كالشُّرب، لكن الشُّرب لا يستعمل إلا فى الراحات، والذَّوْق يلائم الراحات والمتاعب. وأول التجليات الذَّوْق، ثم الشُّرب، فإذا بلغ النهاية يسمى رياً . وفى الأمثال يقولون: ذقتَ البلاء، وذقتَ الراحة، ـ فهذا جائز أن تذوق الاثنين وفى القرآن عن الذوق والشُّرب: ﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا ﴾ (الطور ١٩)، فالشُّرب للهناءة؛ وكذلك الذَّوْق: ﴿ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ﴾ (القمر ٤٨) فالذَّوْق هنا للبلاء، وفى الآية: ﴿ أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً ﴾ (الروم ٣٦)، و ﴿ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ ﴾ (هود ١٠) والذَّوْق أيضاً للهناء.

وأهل الذَّوْق: من تكون أحكام تجلياتهم نازلة من مقام أرواحهم وقلوبهم إلى مقام نفوسهم وقواهم، كأنهم يجدون ذلك حساً ويدركونه ذوقاً، ويلوح ذلك من وجوههم.

غير أن وسيلة الذَّوْق قد تستعمل خطأ فى التصوّف، لأن ما تراه بعقلك خطأ قد

لايكون كذلك بذوقك. والعقل فى عُرف البعض لا يُعتمَد عليه، وهو طاغوت أخرق، وفى عُرف البعض أيضاً الشرع نوع من العبادة لشىء قد مات، وأما **الذوق** فهو العرفان، وهو عرفان حاضر، ومن الذين ذهبوا إلى ذلك الجنيد، ولذا قال: «**إن العارف قد يزنى**»، ويعتذر عن ذلك بأن الزنا فى هذه الحالة حقٌ يلوّنه الباطل!!

وقد يُسمَّى الذَّوْق «**الوحى**»، فيقال: عَلِمه بالذَّوق، أى بالوحى؛ وقد يوصف الذَّوْق بأنه «**قدسى**»، يعنى «**إلهى**»، أى من الله.

ومن الاصطلاحات الصوفية المشهورة «**مَن ذاق عرف**»، يعنى: **من يجعل الذَّوْق وسيلة المعرفة كان من العارفين.**

والعلوم الذَّوْقية : هى علوم الصوفية عن المعارف والأسرار المتعلقة بأحوال كالشُرب والرِّى والمشاهدة والمكاشفة والمحاضرة، وهى علوم ليس لها منطق مدارها القلب، وتحصيلها بالرياضة والمجاهدة والمكابدة والإخلاص لله. ومنها علوم يغيب كل متعلم وباحث صاحب نظر وبرهان. والذَّوْق هو طريق الإيمان، والمؤمن المتذوِّق، يُكاشف ويشاهد ويراقب بالذَّوق والبصيرة وليس بالفكر ولا العقل.

* * *

باب الراء

* * *

٤٠٩ - رابطة...

ما يربط قلب المريد إلى الحضور إلى حَضْرة الحق، أو إلى حضرة الرسول ﷺ، يستحضرهما إليه، ويجلس كأنما فى صلاة، يستقبل القِبلة، ويذكر الله أو الرسول بلا إله إلا الله و صلى الله عليه وسلم . والرابطة هى التى تربط المريد بشيخه فيتخلق به .

٤١٠ - راسخ...

الراسخون فى العلم (آل عمران٧)، (والنساء١٦٢): هم الذين رسخوا بأرواحهم فى غيب الغيب وفى سرّ السرّ، وخاضوا فى بحر العلم بالفهم لطلب الزيادات، فانكشف لهم من خزائن وعجائب الخطاب فنطقوا بالحكم.

وقيل الراسخ من اطّلع على محل المراد من الخطاب. وقيل الراسخون هم الذين كملوا فى جميع العلوم فعرفوها ، واطّلعوا على همم الخلائق ودوافعهم وبواعثهم. ولا يعنى ذلك أنهم وقفوا عند الجزئى، وإنما علْمُهم كلى، ولم يغنهم أن يراجعوا فى الجزئى أهل العلم بجزئيات العلوم .

٤١١ - راع...

الراعى فى علم الصوفية: هو المتحقّق بمعرفة العلوم السياسية، المتمكن من تدبير النظام الموجب لصلاح نظام العالم .

٤١٢ - راهب...

العامل بالرياضة الشاقة وترك اللذات، والانقطاع من الخلق والتوجه إلى الحق، ولا رهبانية فى الإسلام، ولكن فى التصوّف هناك مَن ترهّب.

٤١٣ - ربّ...

الربّ اسم للحقّ عزّ اسمه، باعتبار نسبة الذات إلى الموجودات العينية، أرواحاً كانت أو أجساداً ، فإن نسبة الذات إلى الأعيان الثابتة هى منشأ الأسماء الإلهية: كالقادر والمريد؛ ونسبتها إلى الأكوان الخارجية هى منشأ الأسماء الربوبية: كالرازق والحفيظ، فالربّ اسم خاص يقتضى وجوب المربوب وتحققه، والإلهة يقتضى ثبوت المألوه وتعينه، وكل ما ظهر من الأكوان فهو صورة اسم ربّانى يرى به الحق، وبه يأخذ وبه يفعل، وإليه يرجع فيما يحتاج إليه، وهو المعطى إياه ما يطلب منه.

وربّ العالَمين: أن الربّ هو السيد،

والعالَمون جميع مخلوقاته من العقلاء والجمادات والنبات والحيوان، فهو مالك الأعيان الذى أنشأها، وهو موجد الرسوم والديار بما فيها.

واسم الربّ يدل على تربية الخلق، لأنه تعالى مربى نفوس من يعبده بالتأييد، وهو المربى لقلوب الطالبين بالتسديد، ومُربّى أرواح العارفين بالتوحيد. وهو تعالى مُربّى الأجسام بوجود النعم، ومربى الأرواح بشهود الكرم. وهو تعالى الذى يُربّى الذاهدين بجميل رعايته، ويصلح أمور العابدين بحسن كفايته.

وربّ الأرباب: هو الحق باعتبار الاسم الأعظم والتعين الأول الذى هو منشأ جميع الأسماء وغاية الغايات، وإليه تتوجه الرغبات كلها، وهو الحاوى لجميع المطالب النسبية، وإليه الإشارة بقوله: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ﴾ (النجم ٤٢)، قيل لأنه عليه الصلاة والسلام مظهر التعين الأول، فالربوبية المختصة به فى هذه الربوبية العظمى.

وربّ حال: معناه أن السالك مربوط بحال من أحوال المحبة والخوف والرجاء والشوق وغير ذلك، فإذا كان الأغلب على العبد حال من هذه الأحوال يقال له ربّ حال.

٤١٤- رباط...

أصل الرباط ما تُربَط فيه الخيول، ثم قيل: لكل ثغر يدفع أهله عمّن وراءهم رباط، فالمجاهد المرابط يدفع عمّن وراءه، والمقيم فى الرباط: مرابط مجاهد لنفسه، وهو الجهاد الأكبر على ما روى عن النبىّ ﷺ حينما رجع من بعض غزواته: «رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر». وقال: «ألا أخبركم بما يمحو الله به الخطايا ويرفع به الدرجات؟ قالوا بلى يا رسول الله. قال: «إسباغ الوضوء فى المكاره وكثرة الخطى إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، فذلكم الرباط فذلكم الرباط». وهذا وأشباهه هو وظيفة صوفية الرُّبُط، يلازمونها ويتعاهدونها، والرباط بيتهم ومضربهم.

ولكل قوم رباط، وهو يحتوى على شبّان وشيوخ وأصحاب خدمة وأرباب خلوة، واجتماعهم على السجادة، وسجادة كل واحد زاويته، وهَمّ كل واحد همّه، ولعل الواحد منهم لا يتخطّى همُه سجادته.

وفى الرباط زوايا خاصة للخلوة، والمشايخ بالزوايا أليق، نظراً لما تدعو إليه النفس من النوم والراحة والاستبداد بالحركات والسكنات، فللنفس شوق إلى التفرّد والاسترسال فى وجود الرفاق.

وفى الرباط حجرة عامة يسمونها بيت الجماعة. ووجود الشيخ بين الجماعة يضبطهم. ويقوم المبتدئون بالخدمة، وهى من أعمال التقوى. والصوفية لا يسمحون بالخدمة عندهم إلا لصوفى مثلهم، بالنظر إلى ما قد ينكشف عنهم مما ينكره الجاهلون بأمورهم. والفقير الصادق الذى يسكن الرباط يأكل من كسب يده، إلا إذا شغلته العبادة عن التكسُّب فله أن يأكل من مال الرباط، لأن الرباط لا تجوز فيه البطالة. (أنظر أيضا الخانقاه).

والربُط أصلاً تُلحَق بالثغور، والمرابطون بها من الصوفية المجاهدين، وليس التصوف عبادة وزهد فقط، ولكنه عند البعض جهاد فى سبيل الله، والذين اختاروا الرباط من الصوفية إنما اختاروه لأنه الطريق المضمون إلى الجنة، ولذلك كانت عمارة الرباط كعمارة المبانى الجهادية، تحيط به الأبراج، وبجانب من الرباط مصلى، وبالجانب المقابل حجرات صغيرة بغير نوافذ يرابط فيها الجنود الصوفية. وللرباط مدخل واحد شُدّدت الحراسة عليه، وفى القرآن: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ﴾ (الانفال ٦٠) نتأوّلها عصرياً بأن الرباط هو القوة العسكرية، وكما قال الرسول ﷺ: «القوة الرَّمْى» أخرجه مسلم وأحمد، والرمى هو أقوى ما تُزوَّد به الجيوش، والرباط فى سبيل الله أشرف الرباط، والإسلام كان دائماً مستهدفاً، والقوة للمسلمين ستر، ويخوَّف بها أعداء الله والآخرين من دونهم ممن يكنون لهم الكراهية العرقية.

والمرابط قد لا يكون من أهل الله، وإنما إن كان من أهل الله فهو الأرقى والأسمى والأرفع قدراً ومنزلة فى مدرج الإنسانية، وعندى أن كوجيتو الصوفى المرابط: «أنا أجاهد فى سبيل الله وإذن فأنا موجود»، فوجوده كإنسان مرابط يجاهد فى سبيل الله، هو فى سلم مدارج الإنسانية فى القمة، وهو المعنىّ بقول الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (آل عمران ٢٠٠)، فسّرها الصوفى الجليل الحسن البصرى فقال: أُمروا أن يصبروا على دينهم الذى ارتضاه الله لهم وهو الإسلام، فلا يدعونه لسرّاء ولا لضراء، ولا لشدّة ولا لرخاء، حتى يموتوا مسلمين، وأن يصابروا الأعداء الذين يكتمون دينهم.

وأقل الرباط فى السلم: الرباط على

الإيمان وعلى التقوى ومصابرة النفس والهوى. وفى الحديث: «رباط يوم فى سبيل الله خير من الدنيا وما فيها»، وقال: «رباط يوم وليلة خير من صيام شهر وقيامه»، وقال: «رباط يوم فى سبيل الله خيرٌ من ألف يوم فيما سواه من المنازل»، وقال: «حُرِّمت النار على عين سهرت فى سبيل الله»، وقال: «طوبى لعبد أخذ بعنان فرسه فى سبيل الله، أشعث رأسه، مغبرة قدماه». ويوجز الصوفى عبد الله بن المبارك الفارق بين الصوفى العابد، والصوفى المرابط فيقول:

يا عابد الحرمين لو أبصرتنا
لعلمت أنك فى العبادة تلعب
من كان يخضب خده بدموعه
فنحورنا بدمائنا تتخضّب
أو كان يتعب خيْلَه فى باطلٍ
فخيولنا يوم الصبيحة تتعب
ريح العبير لكم ونحن عبيرنا
رهج السنابك والغبار الأطيب
ولقد أتانا من مقال نبيّنا
قولٌ صحيحٌ صادق لا يكذب
لا يستوى غبّار خيل الله فى
أنف امرئ ودخان نار تلهب
هذا كتاب الله ينطق بيننا
ليس الشهيد بميت لا يكذب

ولهذا السبب كان ظهور الرباطات قبل الخانقاوات بزمن، فالخانقاه للتعبّد أصلاً، بينما الرباط للتعبّد والجهاد فى سبيل الله، فاحفظ أنك يا أخى، ولذا كان بناء الخانقاوات فى الحضر، والرباطات فى مداخل البلاد وهى المسماة بالثغور، كرباط المنستير بتونس، ورباط سوسة، وهما رباطان قديمان مشهوران، ونشأت الدعوة السياسية للمرابطين فى المغرب فى أمثال هذه الرباطات، والمرابطون الذين حكموا المغرب أصلاً من أهل هذه الرباطات. ولنلاحظ أن سكان الخانقاوات كانوا من العجم، بينما سكان الرُّبُط كانوا من العرب، فليس الأعجمى كالعرب فى الدعوة إلى الإسلام.

ومن شروط الصوفية المرابطين: أن تكون معاملاتهم مع الله، وأن يتركوا التعامل مع الخلق، وأن يحبسوا النفس عن المخالطات، ويواصلوا العبادات بالليل والنهار، ويحفظوا الأوقات، ويلازموا الأوراد وانتظار الصلوات واجتناب الغفلات، وأن يكتفوا بما يدور عليهم من أرزاق.

وكما تكون الرباطات للرجال فكذلك كانت الرباطات للنساء، فلا فرق بين نساء

ورجـــال فى الإسلام، والـنساء شقـائق الرجال. ولكن الربـاطات بالنسبة للنساء كانت بمثابة دور الإيواء للعـابدات المُؤثرات لحيـاة النُسك والزهد، وللمطلقـات والأرامل واليتيمات. غير أن النســاء عليهن كذلك جهاد كجهاد الرجال، والمرأة المتصوّفة قمة فى العظمة والشموخ، وأمّا المرأة المتصوفة المجاهدة فى سبيل الله فكانت قمة القمم، وكان النـساء يغزين مـع الرسول ﷺ، ويحـملن الماء، ويـداوين الجـرحى، وكن يحملن الخناجر معهن، ودافعت امرأة عن الرسول ﷺ ونافحت عنه الأعداء.

ورباط النســاء له شيـخة منهن. ومن أشهـر هذه الرباطات النسائية فى مـصر: رباط البغدادية، الذى أنشأته الشيخة زينب ابنة أبى البركات المعروفة بالبغدادية.

٤١٥ - ربّانى...

الربّـانى: العالم العامـل؛ وقيل العالِم الراسخ فى العلم والدين؛ وقـيل الفـقيـه المعلّم.

والربّانيـون من الصوفـية: هم المشـــايخ الحكمـاء كـالجُنَيْـد، وكان من علـمائهم؛ والفرق بين الربّانى والعالِم: أن الربّانى من أهل الله، ومن أهل البـاطن، ومرجـعه إلى الحـدس؛ والعالِم من أهل العِـلم، أو من الفقهاء، ومرجعه العلوم المسطورة، وسيلة الفهم والقياس والاستنباط.

٤١٦ - ربوبية...

اسم للمرتبة المقـتضية للأسـماء التـى تطلب الموجودات، فدخل تحـتها العلـيم، والسـمـيع، والبـصـيـر، والقـيّـوم، والمريد، والمـلـك، ونحـو ذلك، فكانت الربوبيـة عرشاً، أى مظهراً ظهر فيها وبها الرحمن إلى الموجودات.

وللربوبيـة تجلّيـان، مـعنوى وصـورى، فـالمعنوى ظهوره فى أسمـائه وصفاته على مـا اقـتـضاه القـانون التـنزيهى من أنواع الكمالات؛ والصورى ظهوره فى مخلوقاته على ما اقتضاه القـانون الخَلقى التشبيهى، وما حـواه المخلوق من أنواع النقص، فإنه على ما هو له من التنزيه.

والربوبيـة: نفاذ الأمر والمشيئة والتقدير والقضية، والعبـودية تقابلها وهى معرفة المعبود والقيام بالعهود.

وسرّ الربـوبية: توقُّفها على المربـوب، لكونها نسبة لابد لها من المنتسبين، وأحد المنتسبين هو المربوب، وليس إلا الأعيان الثابتـة فى العدم، والموقـوف على العدم معدوم، ولهذا قال أحدهم: للربوبيـة سرّ لو ظهر لبطـلت الربوبية، وذلك لبطلان مـا يتوقف به.

وقيل: سرائر الربوبية هي ظهور الربّ بصور الأعيان، فهي من حيث مظهريتها للربّ القائم بذاته، الظاهر بتعيناته، قائمة به وموجودة بوجوده، فهي عبيد مربوبون من هذه الحيثية، والحقّ ربّ لها، فما حصلت الربوبية بالحقيقة إلا بالحقّ والأعيان معدومة بحالها في الأزل، فلسرّ الربوبية سرّ ظهرت به ولم تبطل.

٤١٧ - رتب...

الرتبة هي المنزلة، والصوفية مراتب بحسب اعتبارات العلم والمواهب، ومن المراتب الصوفية: **الأبدال، والنقباء، والنجباء، والعصائب، والأوتاد، والقطب، والغوث.** والمراتب شاملة لسائر التنظيمات الصوفية. ومن ذلك مراتب الربوبية، والمراتب الأسمائية إلخ، فمثلاً رتب الأسماء ثلاث: ذاتية ووصفية وفعلية، لأن الاسم إنما يطلق على الذات باعتبار النسبة أو التعين، فالأولى: كالغنيّ، والأول، والآخر؛ والثانية: كالقدّوس والسلام، ويسمى هذا القسم أسماء الذات؛ أو يطلق باعتبار معنى وجودي يعتبره العقل من غير أن يكون زائداً على الذات خارج العقل، وفي هذه الحالة فهو إمّا أن لا يتوقف على تعقّل الغير دون وجوده، كالعالم، والقادر، وتسمى هذه أسماء الصفات، وإمّا أن يتوقف على وجود الغير كالخالق، والرازق، وتسمى أسماء الأفعال لأنها مصادر الأفعال.

٤١٨ - رتق...

الرَّتق ضد الفتق؛ والرتق هو إلحام الفتق وإصلاحه، وعند الصوفية إجماد مادة الوحدانية التي يسمونها **العنصر الأعظم المطلق** الذي كان **مرتوقاً** قبل خلق السماء الأرض، **ومفتوقاً** بعد تعيّنهما بالخلق. وقد يطلق على نسب الحضرة الواحدية، باعتبار لاظهورها، وعلى كل بطون وغيبة كالحقائق المكنونة في الذات الأحدية قبل تفاصيلها في الحضرة الواحدية مثل الشجرة في النواة.

٤١٩ - رجاء...

هو إسكان القلب بحُسن الوعد، وهو من جملة مقامات الطالبين وأحوالهم.

والرجاء على ثلاثة أقسام: رجاء في الله، ورجاء في سعة رحمة الله، ورجاء في ثواب الله.

والفرق بين الرجاء والتمنّي: أن التمني يورث صاحبه الكسل، ولا يسلك طريق الجهاد والجدّ، وبعكسه صاحب الرجاء، فالرجاء محمود، والتمنّي معلول.

والرجاء ثلاثة: رجلٌ عمل حسنة فهو

يرجو قبولها؛ ورجلٌ عمل سيئة ثم تاب فهو يرجو المغفرة؛ والثالث الرجل الكاذب يتمادى في الذنوب ويقول أرجو المغفرة.

ومن عَرَف نفسه بالإساءة ينبغي أن يكون خوفه غالباً على رجائه. والخوف والرجاء هما كجناحي الطائر، إذا استويا استوى الطائر وتمّ طيرانه، وإذا نقص أحدهما وقع فيه النقص، وإذا ذهبا ذهب الطائر إلى حدّ الموت.

ومعنى الخوف استشعار فوات محبوب أو هجوم مكروه، والرجاء طمع النفس في مثل مطلوبها من محبوبها، إلا أن الرجاء من صفات من شاهد الجمال، والخوف من صفات من عاين عزّ الجلال، فإذا داما وصار كل واحد منهما ملكة سمي مقاماً، ولا شك أن هذين المقامين يلزمان المحب في أول سلوكه، فإنّ من أحبّ شيئا رجا ثبوته ودوامه، وخاف فقده أو الانقطاع عنه، لكن إذا غلبت على المحب إحدى هاتين الصفتين ودامت معه سمي المحب بتلك الصفة، وانفراده بإحداهما مع عدم الأخرى نقص، إذ مجرد الخوف يوجب الوحشة من المحبوب وذلك من أعظم الحُجُب، ومجرد الرجاء يوقع المحب في الإعجاب فيسقط بسوء الأدب، ولا يصح سلوك السالك إلا باعتدالهما فيه.

٤٢٠ - رجال...

رجال الله، ورجال الغيب: في الأدب الشعبي الصوفي الشيعي هم: أقطاب وغوث وأئمة: وزيران قطبان، وأوتاد، وأبدال، وأخيار، وأبرار، ونقباء، ونجباء، وعُمُد، ومكتومون، ومفردون.

والنقباء: ثلاثمئة نفس، قيل يسمون جميعاً باسم عليّ. والنجباء: سبعون يسمون جميعاً باسم الحسن. والأخيار: سبعة يسمون جميعاً باسم الحسين. والعُمُد: أربعة يسمون جميعاً باسم محمد. وواحد غوث اسمه عبد الله، وإذا مات الغوث حلّ محله واحد من العُمُد، ويحلّ محل هذا واحد من النجباء، ثم واحد من النقباء، ثم واحد من الخَلق يختارونه ليحل محله.

وكانوا قديما يقولون مسكن النقباء أرض المغرب، ومسكن النجباء أرض مصر، والأخيار في سياحة دائمة، ويعيش العُمُد في زوايا الأرض، ولذلك هم عُمُد جمع عمود.

وقيل المكتومون: أربعة آلاف، مستورون، فليسوا من أهل التصرّف، والذين هم من أهل الحلّ والعقد ومقربون من الحضرة عددهم ثلاثمئة فقط. وفي رواية أخرى أن الأخيار والسيّاح: مقامهم

فى مصر، ومأمورون بالسياحة ليرشدوا الطالبين والعابدين؛ والنجباء سبعون، ومكانهم المغرب؛ والأبدال: أربعون ومكانهم الشام؛ والأبرار: سبعة ومكانهم الحجاز؛ والعُمُد: خمسة، بهم قوام العالم ومكانهم أطراف الأرض؛ والأوتاد: أربعة بهم مدار استحكام العالم؛ والنقباء: ثلاثة هم نقباء الأمة؛ والقطب والغوث: واحد، يغيث العالم كله، وإذا انتقل من العالم يحلّ محلّه آخر، وهكذا فى كل المراتب، يحلّ واحد محلّ من يذهب من هؤلاء الأربعة.

وفى رواية أخرى أن الأولياء أقسام: ثلثمئة وليّ يسمون الأخيار والأبرار؛ وأربعون الأبدال، وأربعة الأوتاد، وثلاثة النقباء، ووليّ هو القطب.

وفى رواية أخرى النجباء: أربعون من رجال الغيب، يُصلحون أمور الناس، ويحلّون مشكلاتهم. وفى رواية أخرى النجباء: سبعة يقال لهم رجال الغيب؛ والنقباء: ثلاثمئة يطلق عليه الأبرار؛ وأحط مرتبة من مراتب الأولياء هى مرتبة النقباء.

وفى رواية أخرى أن الأولياء: أربعون من الأبدال؛ وأربعون من النقباء؛ وأربعون من النقباء؛ وأربعون من النجباء؛ وأربعة من الأوتاد؛ وسبعة من الأمناء؛ وثلاثة من الخلفاء.

وقيل أيضا البدلاء أربعون ، والأمناء سبعة، والخلفاء من الأئمة ثلاثة، والواحد هو القطب، وهو إمام الأولياء يعرفهم جميعاً. والثلاثة الذين هم الخلفاء من الأئمة يعفون السبعة ويعرفون الأربعين وهم البدلاء، والأربعون يعرفون سائر الأولياء من الأئمة ولا يعرفهم من الأولياء أحد، فإذا نقص واحد من الأربعين أُبدل مكانه من الأولياء ، وكذا فى السبعة والثلاثة، والواحد، إلى قيام الساعة.

وعلى ذلك فحكومة الصوفية الباطنية أو الخفيّة: تتألف فى المتوسط من ٣٩١ عضوًا، وربما ٣٨٢ ، وربما ٣٤٨، وهى أول حكومة بتوقراطية فى العالم.

٤٢١ - رجبيون...

فى الأدب الشعبى الصوفى: هم أربعون، ولا يكون لهم هذا المقام إلا فى شهر رجب، ويقع لهم فيه من الكشوف والتجليات والاطّلاع على المغيبات.

٤٢٢ - رجعة...

الرجعة الصوفية عند المتصوفة الشيعة، وكان عليّ وفا، المتوفى ٧٨١هـ (١٣٧٦م)، يقول: إن عليّ بن أبى طالب

رُفع كما رُفع عيسى، وسينزل أو يرجع كما ينزل عيسى - يعنى أنه سيرجع. وقال الجيلى بالرجعة، ولكنه لا يخص جماعة بها، وإنما يجعلها عامة لكل الناس. ويفسّرها ابن عربى بأنها القيامة الصغرى لكل فرد، وأما القيامة الكبرى فهى النبأ العظيم، أى يوم القيامة وكان أنصار الحلاّج يعتقدون رجوعه بعد موته كاعتقادهم برجوع المسيح:

يبعثون إذا قام العباد معاً

مع المسيح لتنويه وتعيين

وقال الكندى: يرجع عيسى فى وقت صلاة العصر، فيُصلح الناس، وتمشى الشاة مع الذئب. وقال: يرجع المسيح فيحكم فى الأرض ما شاء الله. والصوفية الشيعة اعتقدوا رجعة أئمتهم، وأولهم محمد بن الحنفية، وكانوا يعدّونه المهدى الأول، وأنه المهدى المنتظر - يعنى المنتظر رجوعه، ليُحقّ الحقّ ويقيم العدل؛ وفكرة المهدى فكرة يهودية، فاليهود جاء فى أسفارهم أن إيليا رُفع، وقالوا أنه سيعود ليُحقّ الحقّ ويقيم العدل، فلما جاء المسيح، قال النصارى مثل ذلك: أن المسيح رُفع، وأنه سيرجع ليُحقّ الحقّ ويقيم العدل، فقال: المتصوّفة الشيعة: إذا كان الرسول ﷺ قد قال أنّ أُمّته ستفترق كأمة اليهود، وأنه ما من شىء فعله اليهود إلا وتفعله أُمّته، فإذن سيكون فى أُمته إمام سمّوه «المهدى المنتظر»، سيُرفع ثم يرجع، ليحقّ الحقّ كذلك، ويقيم العدل فى الإسلام كما إيليا فى اليهودية، وكما المسيح فى النصرانية. فهذه فكرة المهدى المنتظر إذن، وفكرة الرجعة عند الصوفية الشيعة. فكما ترى أنهما فكرتان يهوديتان أصلاً، وساعد على القول بهما أن النبىّ ﷺ لما مات أنكر عمر بن الخطّاب وعامة الناس موته، وادّعى عمر أنه سيغيب أربعين ليلة كما غاب موسى، ثم قال إنه رُفع كما رُفع عيسى، وأنه فى الحالتين سيرجع ويُنزل العقاب بالمتقوّلين بموته. وإذن فالإمام يمكن أن يختفى حسّياً وإن كان يعيش معنا معنوياً، وأنه سيرجع، ولذا قال صوفية الشيعة بإمامة محمد بن الحنفية، ثم باختفائه - ولكنه حتماً سيرجع، ثم تطوّر الأمر فقالوا بالرجعية الجمعية، فاين الحنفية كان أصحابه أربعين، وهؤلاء اختفوا معه، وسيرجعون معه جميعًا رجعةً جمعية!!

٤٢٣ - رجوع...

قال الجنيد: الرجوع إلى البداية، أى الله، لأنه تعالى مبدأ كل شئ. وقيل الرجوع إلى الصفاء الذى كان له فى عالم الأرواح. وقيل معناه أن نهاية المريد وغايته أن

يبلغ إلى حال بدايته حيث خلقه الله في بطن أمه، وأنه كان في هذه الحالة في غاية الفقر والحاجة إلى الله والتوكل، ولا حافظ له إلا هو.

وقيل معنى الرجوع أن السالك لما كان في الابتداء كان جاهلاً، فصار عارفاً، ثم يصير متحيّراً جاهلاً، كالأطفال فإنهم في البداية يكون حالهم الجهل، ثم يكبرون ويحصّلون العلم، ثم يشيخون وينتهون إلى الجهل. يقول الله تعالى: ﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا﴾ (الحج ٥). وقيل معناه أن المريد في البداية عَبْدُ الله، والله تعالى ربّه، يعني كما أنه في البداية عبدٌ فكذلك في النهاية.

٤٢٤ - رحمانية...

هي اسم جميع المراتب الحقّية دون الخلقيّة، فهي أخص من **الألوهية** لانفرادها بما يتفرّد الحقّ سبحانه، والألوهية جميع الأحكام الحقية والخلقية، فالرحمانية بهذا الاعتبار جمعٌ أعزّ من الألوهية. والاسم الظاهر في المرتبة الرحمانية هو الرحمن، وهو اسم يرجع إلى **الأسماء الذاتية والأوصاف النفسية**. والأوصاف النفسية سبعة: هي الحياة، والعلم، والقدرة، والإرادة، والكلام، والسمع، والبصر. **والأسماء الذاتية**: كالأحدية والواحدية والصمدية ونحوها. واختصاص هذه المرتبة بهذا الاسم للرحمة الشاملة لكل المراتب الحقية والخَلقية، فإنه لظهورها في المراتب الحقية ظهرت في المراتب الخلقية، فصارت الرحمة عامة في جميع الموجودات.

٤٢٥ - رحمة...

رحمة امتنانية، والمقصود بها إسباغ النعم على الناس، وهو ما يستوجب إظهار الامتنان بها؛ ورحمة وجوبية وهي التي أوجبها الله للمتّقين والمحسنين، فإذا كانت الامتنانية وقتها للعباد قبل أن يعملوا، فإن الوجوبية لهم بعد العمل.

٤٢٦ - رحمٰن...

اسم للحق باعتبار الجمعية الأسمائية في الحضرة الإلهية الفائض منها الوجود وما يتبعه من الكمالات على جميع الممكنات.

٤٢٧ - رحيم...

هو اسمٌ لله تعالى باعتبار فيضان الكمالات المعنوية على أهل الإيمان كالتوحيد والمعرفة.

ومعنى «الرحمن الرحيم» أنه تعالى المتوحّد بالفضل والنصرة. وسماع الرحمة يوجب القُربة والاكرام. والذي ينطق أو

يسمع «بسم الله الرحمن الرحيم» يُردّ بين صحو ومحو، وبقاء وفناء، فإذا وجّه خاطره إلى «الرحمن الرحيم» بنعت الإلهية، يشهده الله جلّ جلاله، وعندئذ يكون حاله حال المحو، وإذا نعت رحمته تعالى يُشهده جماله، فيكون حاله آنذاك هو حال الصحو. وهو فى «بسم الله الرحمن الرحيم» بين محو وصحو وبقاء وفناء، كقول الذى قال:

أغيب إذا شَهِدتُك ثم أحيا
فكم أحيا لديك وكم أبيد

٤٢٨ - رُخّ...

الرُّخّ فى اللغة طائر وهمى كبير، وعند الصوفية: هو ظهور التجلّى الجمالى الذى هو سبب وجود أعيان العالم وسبب ظهور أسماء الحق.

والرُّخّ عبارة عن الوحدانية، أى مرتبة تفصيل الأسماء. والرُّخّ أيضاً إشارة إلهية باعتبار ظهور كثرة الأسماء فى الصفات منها. ويطلق الصوفية الرُّخّ أيضاً على التجلّيات الإلهية التى تكون فى المادة.

٤٢٩ - رداء...

هو الظهور بصفات الحق.

٤٣٠ - رِدَى...

الرِّدَى هو إظهار العبد صفات الربّ بالباطل، كما قال الله تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ (الأعراف ١٤٦) فيلحقهم الرِّدى الذى هو الهلاك.

٤٣١ - رزق...

ما يسوقه الله إلى عباده وكافة مخلوقاته من الأقوات والأموال والخيرات عموماً، فيكون متناولاً للحلال والحرام.

والرِّزْق الحسن: هو ما يصل إلى صاحبه بلا كد فى طلبه، وما يؤتيه الله بغير ارتقاب ولا احتساب ولا اكتساب.

والرِّزق الطيب: هو الحلال. وهو تعالى يرزق من يشاء بغير حساب، وكما توحّد بكونه خالقاً، تفرّد بكونه رازقاً، وكما لا خالق سواه فلا رازق سواه. وكما لا شريك له فى الرزق ولا فى الخلق، فلا شريك له فى استحقاق العبادة والتعظيم.

واختلفوا فى سبب الرِّزق، فقال قوم سببه التكلّف والعناية وهو قول القَدَرية؛ وقال قوم سببه التقوى حيث يقول الحق: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ﴾ (الطلاق ٢/ ٣)، أى يضرب عليه سرادقات عنايته، ويدخله فى كنف الإيواء، ويصرف الأشغال عن قلبه، ويخرجه من ظلمات تدبيره، ويجرّده من كل أمر. وقال قوم: إن الخلقة سبب

الرزق، فالله خلق الخلْق ثم رزقهم: ﴿خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ﴾ (الروم ٤٠)، فلم يخصّ مؤمناً دون الكافر، ورزقنا فى بطون أمهاتنا، وأغنانا عن الرزق آجنّة، ورزقنا بعد ذلك على الوجه المعهود فى الوقت المعلوم، ثم أرزاق القلوب والسرائر من الإيمان والعرفان، وأرزاق التوفيق من الطاعات والعبادات، وأرزاق اللسان من الأذكار. وقيل إنه فى وجود الرزق من غير طلب دلالة على أن الرزق مأمور بطلب صاحبه. ولن تجد الرزق إن طلبته قبل أو بعد وقته، ولكنك ستجده إن طلبته فى وقته: ﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ﴾ (النحل ٧١)، فأرزاق المخلوقات مختلفة، فمن مضيّق عليه رزقه، ومن موسّع عليه، وأرزاق للنفوس، وغيرها للقلوب، وللأرواح، وللأسرار؛ وأرزاق النفوس لقوم بتوفيق الطاعات، ولآخرين بخذلان المعاصى؛ وأرزاق القلوب لقوم هى حضور القلب باستدامة الفكر، ولآخرين باستيلاء الغفلة؛ وأرزاق الأرواح لقوم صفاء المحبة، ولآخرين اشتغال أرواحهم بأمثالهم؛ وأرزاق الأسرار لا تكون إلا بمشاهدة الحق.

٤٣٢ - رسالة...

«الرسالة القشيرية» كتبها عبد الكريم ابن هوازن القشيرى إلى جماعة الصوفية ببلدان الإسلام سنة ٤٣٧هـ، ذكر فيها بعض سيَر شيوخ هذه الطريقة فى آدابهم وأخلاقهم ومعاملاتهم وعقائدهم بقلوبهم، وما أشاروا إليه من مواجيدهم، وكيفية ترقّيهم من بدايتهم إلى نهايتهم، لتكون لمريدى هذه الطريقة قوة فى وقت ارتحلت فيه عن القلوب حرمة الشريعة، فعدّ الناس قلة المبالاة بالدين أوثق ذريعة، ورفضوا التمييز بين الحلال والحرام. وتتسم الرسالة بالعمق وتمكّن صاحبها من المصطلح، ودرايته الواسعة بعلم التصوف.

٤٣٣ - رسم...

هو الخَلق وصفاته، لأن الرسوم هى الآثار، وكل ما سوى الله آثاره الناشئة من أفعاله، وإياه عَنَى مَن قال: الرسم نعتى يجرى فى الأبد بما جرى فى الأزل. والرَّسم هو ما رُسِم به ظاهر الخَلق. - أى ما هم عليه من شكل ومظهر.

والرَّسْم والوَسْم: هما القِدَم والأزل، أو ما أحدثه وأجراه الأحد الصمد القديم، وما حكم به فى الأزل والأبد، فالرسم هو ما رسم به ظاهر الخَلق، أو هو الظاهر المتحقق، وأما الوسم فهو الصورة التى

وسم بها الله تعالى عباده فى سالف علمه قبل أن تتحقق وتصبح رسماً.

ورسوم العلوم ورقوم العلوم: هى مشاعر الإنسان، لأنها رسوم الأسماء الإلهية، كالعليم والسميع والبصير، ظهرت على ستور الهياكل البدنية المرخاة على باب دار القرار بين الحق والخَلق، فمن عرف نفسه وصفاتها كلها بأنها آثار الحق وصفاته، ورسوم أسمائه وصورها، وعرف وضعها أو رقمها بين أوضاع وأرقام سائر الأسماء والصفات، فقد عرف الحق.

٤٣٤ - رضا...

الرضا آخر مقامات السالك. والرضا سكون القلب تحت جريان الحكم. قال الدقّاق: ليس الرضا أن لا تحسّ بالبلاء، وإنما الرضا أن لا تعترض على الحكم والقضاء، وشرطه: أن يكون بعد القضاء. وأما قبله فإنه عَزْمٌ على الرضا.

ورضا المحسنين عن الله تعالى بالقضاء، لكن لا يلزم من هذا أن يرضوا بالمقضى، لأن الله تعالى قد يقضى مثلا بالشقاوة، فرضاهم عن الله بالقضاء، إذ القضاء حكم الله تعالى، فيجب الرضا بحُكمه، ولا يلزمهم أن يرضوا بالشقاء، بل يجب عليهم أن لا يرضوا به، ويعملوا عكسه ونقيضه، ولا يتعللوا به كقضاء، والله يهديهم ويعينهم.

ورضا الشهداء: هو محبتهم لله تعالى من غير طلب وصول أو نفوذ من هَجر أو بُعاد، بل على البُعد واللقاء، والسخط والرضاء، لا يرجعون عن محبتهم، ولا يلتفتون إلى راحتهم.

ورضا الصدّيقين: هو سكونهم إلى الحق كلما ضاق بهم الطريق أثناء ترقّيهم فى الحضرة الإلهية. ورضاهم لا يُدرَك بالعقل ولكنه أمر ذوقى. وأما رضا المقرّبين ففى رجوعهم من الحقّ إلى الخلْق.

وقيل الرضا على ثلاثة أحوال، فمن المتصوفة مَن يُسقط الجزع حتى يكون قلبه مستوياً لله فيما يجرى عليه من حكم الله؛ ومنهم من ذهب عن رؤية رضاه عن الله عز وجل برؤية رضا الله عنه؛ ومنهم من جاوز هذا وذهب عن رؤية رضا الله عنه، ورضاه عن الله، لما سبق من الله تعالى لخلقه من الرضا.

٤٣٥ - رعاية...

كل ما أمر الله عزّ وجلّ بالقيام به فقد أمر برعايته. وفى الحديث: «كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته»، فعلى العباد أن يقوموا بما أوجب الله عليهم فى أنفسهم

وفيمن استرعوهم، فرئيس الجمهورية والوزراء والمسئولون رعاة على الناس، ويجب عليهم حفظ ما استُرعوا من أمورهم. وكذلك كل الخاصة والعامة .

وأول ما بدأ الله عزّ وجلّ به خلقه إيجاب الرعاية فيه لحقّه، فبدأهم برعاية حقوقه فى قلوبهم من محابّها ومكارهها، وعند منازعة خطراتها التى هى بدء دواعى كل خير وشر، ثم رعاية حقوقه تعالى فى جوارحهم من الأسماع والأبصار والألسن والأيدى والأرجل والمآكل والمشارب والمباشرة بالأبدان، فعلى العبد أن يبدأ بما بدأ به الله عز وجل، فيبدأ برعاية حقوق الله فى قلبه، فيوقفه حيث أوقفه الله من الرعاية لحقوقه، وهى ثلاث خلال: اعتقاد الإيمان ومجانبة الكفر، واعتقاد السُّنّة ومجانبة البدعة، واعتقاد الطاعة ومجانبة الإصرار على كل ما يكره الله من عمل قلب وبدن . وجملة حقوق الله فى الجوارح التى على الطالب مراعاتها هى القيام بالحركات فيما أوجب الله، وتركُ الحركات عمّا كره. ثم رعاية حقوق الله عند خطرات القلوب الداعية إلى كل خير وشر. ومَن أحسنَ رعاية حقوق الله رعَى حقوق الناس - وهى المظهر الحقيقى للعبادة.

٤٣٦ - رُعونة...

هى الوقوف مع حظوظ النفس ومقتضى طباعها. والمريد إذا ظهرت منه أثرة أو مخالفة أو اعتراض نقول إنه صاحب رعونة (حُمق)، ويجب تقويمه وتربيته بمزيد من المجاهدات والرياضات. ولا تظهر الرعونة إلا فى بداية الطريق لأنها وقوف مع الطبع.

٤٣٧ - رغبة...

رغبة النفس فى الثواب؛ ورغبة القلب فى الحقيقة؛ ورغبة السرّ فى الحقّ؛ ورغبة الجسد فى الشهوات؛ ورغبة العقل فى المعرفة.

٤٣٨ - رفاعية...

والبطائحية أيضاً: طريقة أحمد الرفاعى، المتوفى سنة ٥١٢هـ، وأبى الفتح الواسطى، المتوفى سنة ٥٨٠هـ، يشرحها الرفاعى فيقول: طريقتنا دين بلا بدعة، وهمّة بلا كسل، وقلب عامر بالمحبة.

ولكن ابن تيمية كان يرى فى الرفاعية إضعافاً للوازع الدينى المتصل بالفقه الإسلامى مباشرة، وأنها حركة تهدف إلى تخدير الناس وتغييبهم عن الوعى، ولما ناقش ابن تيمية: صالح بن عبد الله البطائحى فى الرفاعية، وظهرت حجة ابن تيمية على

حجة صالح، قال صالح قولته المشهورة : نحن ما ينفع حالنا إلا عند التتر، وأما عند الشرع فلا»، وذلك أن الرفاعية رحبوا بالتتار في بلاد الإسلام، واعتز بهم التتار وكانوا صُحبة معاً، وحذّر ابن تيمية الناس من فلسفة الرفاعية وَحْملهم الناسَ على الخمول والكسل والتسليم، وقال إن ذلك «كان أكبر أسباب ظهور التتار». ولاحظ ابن تيمية أنه مع قدوم التتار واستيلائهم على الحكم في بلاد الإسلام، ارتفع قدر الصوفية وأعلنوا صراحةً أنهم يدعون إلى الاتحاد - يعني النصرانية - أو يدعون إلى وحدة الوجود وهي عقيدة اليهود. ألا لعنة الله على الرفاعية! (انظر أيضًا الرفاعي).

٤٣٩ - رفق...

من شأن المريد ترك قبول رفق النسوان، وعلى هذا كانت وصايا الشيوخ وطريقة السالكين. والرفق بالنفس والناس ومخلوقات الله ألزم للمتقين، ومن كان به الرفق كان له زينة، وحَسُن أمره عند الله والناس.

٤٤٠ - رفرف...

الرفرف طرف الشيء، والرفرف الأعلى عبارة عن المكانة الإلهية من الموجودات، وهو من الامور الذاتية التي اقتضتها الألوهية بنفسها ولو اختلف مقتضاها، ولكل منها من حيث شأنها الذاتي عين المكانة فلا تفضيل في بعضها على بعض، لأن التفضيل لا يقع إلا في مقتضيات الصفات والأسماء. وهذه الأمور هي ذاتيات الحق كالعزة مثلاً والكبرياء، ولا تفاضل بينهما، لأن الرفرف عبارة عن كل منهما، ولا يصح أن يقال إن العزة أفضل من الكبرياء، ولا الكبرياء أفضل من العزة.

٤٤١ - رق...

الرِّق الصحيفة البيضاء، والرَّقّ المنشور هو اللوح المحفوظ، ونظيره روح الإنسان باعتبار وجود الأشياء في الروح بالانطباع الفطري الأصلي بحيث لا تفقد شيئاً، ويعبر عنه بالمنشور.

٤٤٢ - رقص...

الرقص عند الصوفية المولوية وغيرهم، وهو ليس كالرقص المعروف فهذا لهو ولعب وهزل، ولكن رقص المولوية لف ودوران يوافق الإيقاع، ويعبّر عن الحال والتواجد، ويواقع ضربات الدُّف والمزمار، ومتى اضطرب القلب وزاد الانفعال وغلب الوجد، اهتزت الأعضاء، وآلات الموسيقى تنظم اهتزازها، ومن لم يذق لم يدر.

٤٤٣ - رقم...

قالت الصوفية بأسرار للأرقام، وكما

أن الله يصطفى من عباده من يشاء، وفضّل بعض الأيام والشهور علىَ بعض، فكذلك فضّل بعض الأرقام على سواها، ومن ذلك الرقم ٧، والرقم ١٢، والرقم ٣، والرقم ١٩، والرقم واحد، إلى آخر ذلك، واعتبروا أن سرّ الخلق يكمن فى سرّ هذه الأرقام، ونقلوا هذه الفلسفة الفيثاغورية عن اليهود، فالقول بالأرقام وأسرارها إسرائيلى، وكان بعض الصوفية يجعل أصحابه بأعداد معينة، وبعض المذاهب عند الشيعة فعلوا نفس الشىء، كالسبعية، والإثنى عشرية؛ وفلسفة الأرقام دخلت التصوف من خلال الشيعة، وربطوا ذلك كله بعدد الأنبياء أولى العزم، وبعدد السماوات، وبعدد الأرضين والسموات، وأعداد الكواكب السيارة، وطبّقوها على الجسم البشرى وما فيه من مجموعات ثنائية أو أحادية أو خماسية، أو سداسية، أو سباعية إلخ، وربطوها بمظاهر الطبيعة كأشهُر وأيام السنة، وأيام الشهر، والأسبوع، وساعات النهار والليل، والمدّ والجزر.

٤٤٤- رقيقة...

هى اللطيفة. والمدد الواصل من الحقّ إلى العبد يقال له رقيقة النزول، والوسيلة التى يتقرّب بها العبد إلى الحقيقة من العلوم والأعمال والأخلاق السنية والمقامات الرفيعة يقال لها رقيقة الرجوع، ورقيقة الارتقاء. والرقيقة على ذلك لطيفة روحانية، وواسطة، وقد تطلق على علوم الطريقة والسلوك وكل ما يلطُف به سرّ العبد وتزول به كثافات النفس.

٤٤٥- ركوع...

هو إشارة تصدر من العبد يشير بها إلى أن الموجودات الكونية تنعدم تحت وجود التجلّيات الإلهية، وعندئذ يركع لله ويفنى عن كل ما عداه، فلا يشتغل به خاطره ولا ذهنه.

٤٤٦- رمز

فى التصوف «الرمز» معنى باطن تحت الكلام الظاهر لا يدركه إلا أهل الطريق. وقال بعضهم: من أراد أن يقف على رموز مشايخنا فلينظر فى مكاتباتهم ومراسلاتهم، فإن رموزهم فيها لا فى مصنفاتهم. وهذا تنبيه هام، فالرموز فى المكاتبات والمراسلات إشارية، وفى المصنفات قد تكون الرموز رموزاً لرموز أخرى تحتاج إلى ما يشبه فك الشفرة، ولكل صوفى شفرته الخاصة احتمالاً.

٤٤٧- رمس...

يعنى الدفن، ومعناه أن يقبر الصوفى

الخَلْق وكأنهم غير موجودين. قال الجنيد: وأرْمَسَ مَرْمَسَهُ فى غَيْبٍ غافرِ الارتماس، وهى إشارة إلى حقيقة التوحيد بذهاب الخَلق فيما كان، وكأنه لم يكن، فالصوفى عندما يدفن نفسه، أى يميت شهواتها فلا يبقى له منها حظ ظاهر، فإن قلبه يتعلق بالعرش، أى يتجه بكليته إلى ملكوت الله، فهو يدفن نفسه عن الخَلْق فى الحق.

٤٤٨- رهبة...

رهبة الظاهر فى تحقق الوعيد؛ ورهبة الباطن لتقليب العلم؛ ورهبةٌ لتحقق أمر السبق.

٤٤٩- رهبانية...

طريقة الرهبان، من رَهَب، كالخشيان من خشى، والرهبنة اسم من معنى الراهب، أى اتخاذ طريقة الرهبان. وفى القرآن: ﴿وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ (الحديد ٢٧)، والمعنى أنهم لم يقوموا بما التزموه حقّ القيام، ولذلك جاء أيضاً: ﴿إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ﴾ (التوبة ٣٤)، والأحبار رهبان اليهود؛ والرهبان عند النصارى، وفى الحديث «لكل أمة رهبانية، ورهبانية هذه الأمة الجهاد فى سبيل الله» أخرجه أحمد وأبو يعلى، وفى وصيته ﷺ قال: «وعليك بالجهاد فإنه رهبانية الإسلام» أخرجه أحمد.

والراهب النصرانى: لايتزوج؛ والحبر اليهودى: يتزوج؛ والمسلم المجاهد: يتزوج إن استطاع، وهذه هى وسطية الإسلام. وعند الدارمى: ولو أن الأحبار والرهبان لم يتّقوا زوال مراتبهم وفساد منزلتهم بإقامة الكتاب وتبيانه، ما حرّفوه ولا كتموه، ولكنهم لمّا خالفوا الكتاب بأعمالهم، التمسوا أن يخدعوا قومهم عمّا صنعوا مخافة أن تفسد منازلهم، وأن يتبين للناس فسادهم. وكتاب اليهود: التوراة؛ وكتاب النصارى: الأناجيل.

وعند الصوفية المراد بالرهبانية: الترهُّب فى الجبال والصحارى فراراً من الفتنة فى الدين، وطلباً للخَلْوة، واعتزالاً عن النساء، وزُهداً فى الدنيا ومباهجها.

وعند التوحيدى: الرهبانية رفض الدنيا وشهواتها من النساء وغيرهن، واتخاذ الصوامع.

وقوله تعالى فى الآية ٢٧ من سورة الحديد ﴿ابْتَدَعُوهَا﴾ لا يعنى ذمّها، وإنما المذموم أن بعض الرهبان لم يوفّها حقّها. وقد وصف عمر بن الخطاب «قيام رمضان»

فقال: «نَعَمْتُ البدعةُ هذه»، فكأن هناك «بدعة هُدَى»، و«بدعة ضلال»، وقوله ﷺ «لكل نبيّ رهبانية، ورهبانية هذه الأمة الجهاد في سبيل الله» : فيه تحبيذ للرهبانية بهذا المعنى الجديد المناقض للمعنى النصراني.

وقد استخدم الصوفية المصطلح «راهب»، فقالوا عن أُوَيْس القُرَنى «راهب الأمة»، وقالوا عن المردار: «راهب المعتزلة»، وأطلقوا على أبي بكر المخزومي: «راهب قريش» ولقّبوا الدارمي: «راهب الكوفة».

ومعنى كلمة رهبانية في الأحاديث النبوية: التوفر على الاشتغال بالشيء وعدم الانصراف عنه، ولذا جاء في مسند ابن حنبل الحديث عن الرسول ﷺ : «لو كنت في النصارى لكنت من رهبانهم» والاشتغال بالجهاد في الإسلام هو في القمة، قال: «ذروة سنام الإسلام في الجهاد»، فمن أراد الترهُّب في الإسلام فليشتغل بالجهاد ويُخلص له، والصوفية كانوا مجاهدين، فكانوا رهبان الإسلام.

وفي الأخبار أن بعض الصوفية كانوا يستشيرون الرهبان النصارى، ويروى ذلك عبد الواحد بن زيد، والعتابي، وأبو سليمان الداراني، ومن ذلك ما يروونه من أقوال فينسبونها إلى المسيح وصاغها الشاعر فقال:

مواعظ رهبان وذِكْر فعالهم
وأخبار صِدْق عن نفوسٍ كوافر
مواعظ تشفينا فنحن نحوزها
وإن كانت الأنباء عن كل كافر
مواعظ برّ تورث النفس عِبْرةً
وتتركها وَلْهاء حول المقابر
مواعظ ما تسأم النفس ذكرها
تهيّج أحزاناً من القلب ثائر
فدونك يا ذا الفهم إن كنت ذا نُهَى
فبادر فإن الموت أولُ زائر

ويروى الصوفي عبد الله بن الفرج العابد : أن أحدهم قال له: يا أبا محمد، هؤلاء الرهبان يتكلمون بالحكمة وهم أهل كفر وضلالة، فمِمّ ذلك ؟ قال : ميراث الجوع ـ مُتّعتُ بك، ميراث الجوع ـ مُتّعتُ بك.ـ يعني أنهم أجاعوا أنفسهم فماتت شهواتهم وزكت قلوبهم ففاحت منهم الحكمة.

٤٥٠-روح...

الروح شئ استأثر الله بعلمه ولم يُطلع عليه أحداً من خلقه. والروح جسم لطيف عن الحسّ ويكبر عن اللمس، فهو لطيف قام في كثيف، كالبصر لطيف قام في كثيف، ولا يعبر عنه بأكثر من أنه موجود.

والله خلق الأرواح قبل الأجساد، وأجمع الجمهور على أن الروح معنى يحيا به الجسد، ولم يحدث أن أدخل الله تعالى الروح تحت ذُلّ «كن»، بمعنى أنه - أى الروح - ليس إلا الإحياء، والحىّ والإحياء صفة المحيى، كالتخليق صفة الخالق، والدليل ما ذكره الله عن الروح: ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ (الإسراء ٨٥)، والأمر كلام من الله، وكلامه سبحانه ليس بمخلوق، كأنّ مَن استدلوا بذلك يقولون إنما صار الحىّ حياً بقوله تعالى كن حياً، والروح على ذلك ليس معنى فى الجسد يحلّ فيه حلولاً مخلوقاً كالجسد، وقد استدرك البعض على ذلك وغلّطوه، وقالوا إنما الروح معنى فى الجسد ومخلوق مثله. وقيل الأصوب أن الروح رَوْحان: روح به حياة الخلق، وروح به ضياء القلب؛ وفى الحديث: **الأرواح جنودٌ مجندة، ما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف»** رواه البخارى وأحمد ومسلم وأبو داود والطبرانى. وإذا حدث وأساءت الجوارح الأدب أحياناً حُجبت الروح، وبالعكس فإنها ترقّ بما يعرض لها من الملحوظات والمخاطبات والمعاينات الروحانية.

وقيل الثواب والعقاب على الروح والجسد معاً، لأن الطاعة والمعصية لم تظهر من الجسد دون الروح. وقد غلطت الفرقة التى تقول بالتناسخ والتنقل والقِدم.

وقالوا: الأرواح على عشرة مراتب: **أرواح المخلصين، وأرواح الطاهرين، وأرواح المريدين، وأرواح المتمكنين، وأرواح أهل الوفاء، وأرواح الشهداء، وأرواح المشتاقين، وأرواح العارفين، وأرواح الأحباب، وأرواح الفقراء. وأرقاها جميعاً أرواح العارفين،** فهذه مكانها حظيرة القدس؛ وأرواح الأحباب فى مقام الكشف ومشاهدة الجمال؛ وأرواح الفقراء فى مقام الفناء.

ويطلق الصوفية اسم الروح الخفىّ على روح أبلغ فى الاستتار من السرّ والروح والقلب، والأصوب أنه الروح الأخفى، لقوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ (طه ٧). وسُمى «أخفى» لاختفائه عن الخواطر والفهوم، وقيل «الأخفى» نور ألطف من السر والروح، وأقرب إلى عالم الحقيقة، فهو كالحاجب للنفس فى الحضرة الصمدية إذا ذهلت النفس والقلب والسرّ والروح عن الحضرة، فيلتفت إليهم الأخفى شذراً بلمحة لطيفة، فيتنبه الكل لله تعالى عقيب ذلك، فذلك التنبيه من الله تعالى إنما يتم بوسيلة الروح الأخفى. وهذا الذهول عن الحضرة الصمدية إنما يطرأ لعامة الأولياء أو لعامة المؤمنين، وأما الأنبياء وكبار الأولياء

فإن أسرارهم قلما يلفتها الأسفل عن الأعلى، وهم الذين يقول الحق فيهم: ﴿وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ﴾ (الأحزاب ٣٩).

والروح الأعظم: هو الروح الإنسانى مظهر الذات الإلهية من حيث ربوبيتها، ولذلك لا يمكن أن يعلم كنهها إلا الله تعالى. وقال فلاسفة الصوفية من الشيعة: **الروح الأعظم هو العقل الأول**، والحقيقة المحمدية، والنفس الواحدة، والحقيقة الأسمائية ، **وهو أول موجود خلقه الله على صورته، والخليفة الأكبر.** والجوهر النورانى جوهريته مظهر الذات ونورانيته مظهر علمها، ويسمى باعتبار الجوهرية نفساً واحدة، وباعتبار النورانية عقلاً أول. وكما أن له فى العالم الكبير مظاهر وأسماء من العقل الأول، والقلم الأعلى، والنور، والنفس الكلية، واللوح المحفوظ، وغير ذلك، فإن له أيضاً فى العالم الصغير الإنسانى مظاهر وأسماء بحسب ظهوراته ومراتبه .

وروح القدس: هو روح الأرواح، وليس كالأرواح لأنه روح الله، وهو المنفوخ منه فى آدم: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ (الحجر ٢٩)، فروح آدم مخلوق، وروح الله ليس بمخلوق، فهو روح القدس، أى الروح المقدس عن النقائص الكونية، وهو المعبّر عنه بالوجود الإلهى فى المخلوقات، والمعبّر عنه فى الآية الكريمة: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ (البقرة ١١٥)، يعنى هذا الروح المقدس الذى أقام الله به الوجود الكونى، فأينما تُوَلُّوا بإحساسكم فى المحسوسات، أو بأفكاركم فى المعقولات ، فإن الروح المقدس متعين بكمال فيه ، لأنه عبارة عن الوجه الإلهى القائم بالوجود .

وروح الإلقاء: هو المُلقِى إلى القلب علم الغيوب، وهو جبرائيل عليه السلام، اقتضت الحقيقة الإلهية فى علم الله سبحانه أن لا يخلق شيئاً إلا ولهذا الملك فيه وجه يدور ذلك المخلوق عليه، فهو قُطبه، ولا يتعرف هذا المَلَك إلى أحد من خلق الله إلا أن يكون نبياً أو ولياً، فإذا عَرَّفه علّمه أشياء. وقد يُطلق روح الإلقاء على القرآن، وهو المشار إليه فى قوله تعالى: ﴿ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ (غافر ١٥)، وبالقرآن تحصل حياة الأرواح .

وجنة الروح: هى من مشاهدة جمال الأحدية، وهى جنة الذات أيضاً .

٤٥١ - رَوْح وريحان...

فى الآية: ﴿فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ *

فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ ﴾ (الواقعة ٨٨ / ٨٩)، والمقـرّبون هم الذين قـرّبهم الله بفـضله، فلهم روْح وريحـان. والـرَّوْح الاستراحة، والريحان الرزق؛ أو الرّوْح فى القبر، والريحان فى الجنة. ويقال: إنّ المؤمن لا يخـرج من الـدنيـا حـتى يؤتى بريحـان من رياحين الجنة فيشمه فيطمئن أين سيُـذهب به، فـالرَّوْح راحـة عند الموت، والرَّيْحان راحة فى الآخرة.

وكانت قراءة النبىّ ﷺ - كما قيل، وهذا مستبعد - رُوح بضم الراء، أى لهم فيها حياة دائمة. ويقال: الرَّوْح لقلوبهم؛ والريحـان لنفوسهم؛ والجنـة لأبدانهم. ويقال: روْح وريحان مُعجّلان، وجنّة نعيم مـؤجّلة؛ أو روْح نسـيم القُـرب؛ وريحـان كمال البَسْط؛ وجنة نعيم فى محل المناجاة. أو أن «الرَّوْح» رؤية الله، و«الرَّيْحـان» سماع كلامـه بلا واسطة، و«جنة نعيم» أن يدوم هذا ولا ينقطع.

٤٥٢ - روحانية...

الرُّوحانية هم طائفة من الصوفية، فقد ورد ذلك فى «كتاب التنبيه»، يقولون: إن أرواحهم تنظر إلى ملكوت السـموات، وبها يعـاينون الجنات، ويجـامعـون الحور العـين، ويسـرحون فى الجنة.

والروحـانيـة يغـلب حُـبُّ الله علـى قلوبهم وأهوائـهم وإرادتهم، حـتى يكون حُبُّـه أغلب الأشيـاء عليهم، فـتكون لهم عنده تعـالى نفس المنزلة، وتقع عـلـيـهم الخُلّة من الله.

٤٥٣ - رؤيا...

قال ﷺ: **الرؤيا من الله، والحُـلم من الشـيطان.** وقـال: **من رآنى فى المنام فـقد رآنى.**

والرؤيـا قد لا تحتاج إلى تأويل كـرؤيا إبـراهيـم، وقد تحـتاج إلى بعض الـتأويل كـرؤيا يـوسـف، أو تحتاج كلهـا للتأويل كرؤيا ملك مصر.

والرؤيا الصـالحة: هى المـؤيّدة بالـنور الإلهى، ولا تكون إلا للـنبىّ أو للولىّ أو للمـؤمن، وهى جـزء من أجزاء النبـوة، وقـيل **الرؤيـا** للولىّ نوع من الكرامـات. **والرؤيـا** بهذا المعنى هى عـلم أهل الباطن الذين ينظرون بنور الله فـيدركـون الباطن من الظاهر، فكأن **الرؤيا** بالنسبة للصوفى تعادل الوحى.

وتحقيق الرؤيا: خواطر ترد على القلب وأحوال تُتصوَّر فى الوهم، مرة تكون من الشيطان، ومرة من هواجس النفس، ومرة بخواطر المَلَك، ومرة تكون تعريفاً من الله تعـالى، يخلق تـلك الأحـوال فى القلب

ابتداء. وفى الخبر: أصدقكم رؤيا أصدقكم حديثاً.

واعلم أن السالك قد يكون فى عالم النفس والهوى، فيرى فى المنام أو الحال، أنه رأى الربّ، فتكون الرؤيا صحيحة تحتاج إلى التعبير، وتعبيرها: أن ذلك الشخص يحبّ نفسه ويعمل لها ما يُحب، فيكون ممن اتخذ إلهه هواه، فيرى فى الرؤيا: أنه الربّ المعبود له، فيجب عليه أن يجتنب أهواء نفسه، وعليه أن يكسر شرّتها بالمجاهدة والرياضة، ولا يظن أن ما رآه هو عينه تعالى، إذ ليس له تعالى حلول ، مثلما يرى سائر العوام فى منامهم أنه آدم، أو نوح، أو موسى، أو جبريل، أو أنه طائر أو سبع أو ما أشبه. والرؤى لذلك مفيدة للسالكين، يستطيعون من خلالها أن يستعمقوا بواطنهم ويحللوا أنفسهم، وأن يدركوا إلى أين وصلوا، وفى أى مقام هم، وعلى هذا الأساس يعالجون أمرهم.

وهناك رؤى فى اليقظة رُويت عن المشايخ، وفى ذلك يقول الإمام الغزالى فى «المنقذ من الضلال»: إن أرباب القلوب يشاهدون فى اليقظة الملائكة وأرواح الأنبياء، ويسمعون كلمات عنهم، ويكتسبون منها الفوائد. ويذكر علماء التحليل النفسى: أن رؤى أولياء الله الذين عرف الناس عنهم الصلاح والحكمة، ليست هى المقصودة فى مصطلح أهل التحليل النفسى بالهلاوس، فهذه أخيلة مرضية يصاب بها المرضى بأنواع الذُهان والفصام، ولها مواصفاتها المرضية الخاصة المختلفة تماماً.

٤٥٤- رؤية...

المقصود بها رؤية الحقّ، أى رؤية الله تعالى، وهى عند الصوفية رؤية قلبية من شواهد الأحوال والمقامات؛ وقيل فيها - وهو خير ما قيل: إن لم تر الحق لم تكن به، وإن رأيت غيره لم تره.

ورؤية النبىّ ﷺ يقظةً: والمراد بها أن الرؤية تكون يقظةً بالقلب وفى القلب، فيرى الرائى الرسول ﷺ روحياً من غير انتقال ذاته الشريفة من البرزخ إلى الدنيا.

وأهل العرفان يقولون أنهم سيرون الله فى الآخرة كما رآه محمد ﷺ ليلة المعراج، فى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى﴾ (النجم٨) : تدلّى الرفرف له فجلس عليه، ثم رُفع فدنا من ربّه - كما قالوا - دنو كرامة، فتدلّى - أى هوى للسجود. وقال أهل الله: إن ما وقع من إضافة الدنو والقُرب من الله أو إلى الله، ليس بدنو مكان ولا قُرب مدى، وإنما إبانةُ عظيمِ

منزلته، وتشريفُ رتبته، وإشراق أنوار معرفته، ومشاهدة أسرار غيبه وقُدرته، تأنيسٌ للنبيّ ﷺ، يتأوّله قوله: يَنزِل ربُّنا إلى سماء الدنيا»، فهو نزول قبول وإحسان، ونهاية قُرب، ولُطف محل، إجابةً لرغبته، يتأوّل فيه قوله ﷺ عن ربّه: مَن يتقرّب منى شبراً، تقرّبت منه ذراعاً، ومن أتانى يمشى، أتيته هرولةً؛ وقالوا: رأى محمد ﷺ ربّه بفؤاده، فَجعُل بصره فى فؤاده ليراه، وجُعل ذلك «رؤية»، يعنى أنه رآه ـ إن كان قد رآه ـ بقلبه، فهى حقيقة بالبصر استهداها قلبه، فكانت «الخُلّة» لإبراهيم، و«الكلام» لموسى، و«الرؤية» لمحمد ﷺ، وسأله أهل العرفان: يا رسول الله، هل رأيت ربّك؟ قال: رأيته بفؤادى مرتين، وقرأ الآية: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ﴿١١﴾ أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ﴾ (النجم١١/ ١٢)، والآية: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ﴾ (النجم١٣/ ١٤). وقيل: رأى جلاله وعظمته. وفى رواية أخرى لمّا سُئل: هل رأيتَ ربّك، قال: رأيت نهراً، ورأيت للنهر حجاباً، ورأيت وراءالحجاب نوراً، ولم أر غير ذلك. ـ وفى رواية أبى ذرّ عنه، قال: «نورٌ أنّى أراه. ـ يعنى كان نوراً يهده فمنعه من رؤيته. وقوله تعالى: ﴿أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ﴾ (النجم١٢)، أى أتجادلونه وتدافعونه فى أنه رأى الله؟ وكانت رؤيته مرتين، لأنه كان له صعود ونزول بحسب الصلوات التى سأله عنها، فلكلّ عَرْجة نَزْلة، ولذلك قال: ﴿عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ﴾ (النجم١٤)، أى والنبيّ ﷺ عند سدرة المنتهى فى بعض تلك النزلات. ورؤيته له تعالى هى التى قال فيها: ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ﴾ (النجم ١٧/ ١٨).

٤٥٥ - رياء...

هو ترك الإخلاص فى العمل بملاحظة غير الله فيه. وسئل لقمان الحكيم عنه، فقال: هو أن تطلب ثواب عملك فى دار الدنيا، بينما غيرُ المراءين يعملون للآخرة. قيل له: فما دواء الرياء؟ قال: كتمان العمل. قيل له: فكيف يُكتم العمل؟ قال: ما كُلِّفتَ إظهاره من العمل، فلا تدخل فيه إلا بالإخلاص، وما لم تُكلَّف إظهاره، يجب ألا يطّلع عليه إلا الله. وكل عمل اطّلع عليه الخلق فلا تعدُّه من العمل. ـ وقال الصوفى الكبير أيوب السختيانى: ما هو بعاقل من أحبّ أن يُعرَف مكانه من عمله. وقال عبدالله التُّسْتُرى: الرياء على ثلاثة وجوه، أحدها: أن يعقد فى أصله فعلَه لغير الله، ويريد به أن يُعرف أنه لله، فهذا صنف من

النفاق وتَشكُّك فى الإيمان. والآخر: يَدخُل فى الشيء لله، فإذا اطَّلع عليه غير الله نَشِط، فهذا إذا تاب يريد أن يعيد جميع ما عمل. والثالث: يدخل فى العمل بالإخلاص ويخرج به لله، فيُعرف بذلك، ويُمدح عليه، ويسكن إلى مدحهم، فهذا هو الرياء الذى نهى الله عنه.

ونقيض الرياء: الإخلاص، وسُئل الحسن البصرى عن الإخلاص والرياء، فقال: من الإخلاص أن تحب أن تكتم حسناتك، ولا تحب أن تكتم سيئاتك، فإن أظهر الله عليك حسناتك، تقول: هذا من فضلك وإحسانك، وليس هذا من فعلى ولا من صنيعى، وتذكَّر قوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ (الكهف ١١٠)، وقوله: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ (المؤمنون ٦٠)، يؤتون الإخلاص وهم يخافون ألا يُقبل منهم؛ وأما الرياء: فطلب حظّ النفس من عملها فى الدنيا. ومَن طلب بعمل بينه وبين الله تعالى سوى وجه الله تعالى والدار الآخرة، فهو رياء. وقد يفضى الرياء بصاحبه إلى استهزاء الناس به، وقد سُئل الصوفى المروزى: منذ كم سنة صرتَ إلى العراق يا أبا عبدالله؟ قال: دخلت العراق منذ عشرين سنة، وأنا منذ ثلاثين سنة صائم. فقيل له: يا أبا عبدالله، سألناك عن مسألة فأجبتنا عن مسألتين!! - فهذا هو الرياء، أن يحكى عن نفسه ما لم يسأله الناس. - وحُكى أنّ أعرابياً صلّى فأطال الصلاة وإلى جانبه قوم، فقالوا: ما أحسن صلاتك! فقال: وأنا مع ذلك صائم!! فعرَّف أنه صائم فوق أنه يصلى، وهذا رياء.

وبالمقارنة روى عن الصوفى الأشعث ابن قيس - وقد صلى فخفّف، فقيل له: إنك خفّفت؟ فقال: إنها صلاة لم يخالطها رياء! - فخلص من تنقُّصهم بنفى الرياء عن نفسه، ونفى التصنُّع عن صلاته!

والمُرائى: ثوبه نظيف وقلبه نجس، يزهد فى المباحات، ويكسل عن الاكتساب، ويأكل بدينه، ولا يتورّع جملة، ويُحب الحرام، ويَسخَى أمرُه على العوام، ولا يَخفَى على الخواص، وزهده وطاعته فى ظاهره، وظاهره عامر، وباطنه خراب. هكذا المرائى عند الصوفية!

٤٥٦ - رياضة...

هى أنواع: رياضة أدب: هى الخروج عن طبع النفس، ورياضة طلب: وهى صحة المراد له. وبالجملة فإن الرياضة

عبارة عن تهذيب الأخلاق النفسية، وتهذيبها تمحيصها عن خلطات الطبع ونزعاته.

ومن الرياضة ملازمة الصلاة والصوم والمحافظة عن موجبات الإثم آناء الليل واليوم، وسدّ باب النوم، والبعد عن صحبة القوم. هكذا الرياضة عند الصوفية.

٤٥٧ - ريح...

الريح أنواع: منها الريح الطيب، والعاصف، والمشتد، والقاصف، والهادى، والرخاء، والساكن، والراكد، والعقيم، والصرصر، والمُصْفِر.

وتأتى **الريح** على الأعمال كالتى تصيب حرث القوم الظالمين، والتى تثير البحر فتغرق الآثمين، وفيها العذاب الأليم، وقد تكون بها الحياة، يرسلها الله بالمطر، وتجرى بها الفلك. وجمع الريح «الرياح»، وهى نسيم كل شىء، **والريح** والرياح آيات يرسلها الله لقوم يعقلون، قيل هى أربع: الجنوب قبلية، والشمال شمالية، والصبا شرقية، والدبور غربية. والله تعالى يرسل الريح بُشْرَى بين يدىّ رحمته، فتثير سحاباً يبسطه فى السماء ويسوقه إلى بلد كان ميتاً فيحيى به الأرض بعد موتها، وله فى ذلك تصاريف، ويجعله كسفاً فيخرج الودق من خلاله.

وقيل السبب فى هبوب **الريح** فروق الضغط الجوى، فتدفعها من المناطق ذات الضغط العالى إلى المناطق ذات الضغط المنخفض، وتدور الأرض حول محورها، ويدور معها الغلاف الجوى فتدور الريح، فتحيد جهة اليمين فى نصف الكرة الشمالى، وتحيد جهة اليسار فى نصفها الجنوبى. وتولد فروق الضغط نتيجة اختلاف ميل أشعة الشمس على الأرض، وكلما تعامدت الأشعة زاد التسخين كما فى المناطق الاستوائية، وكلما زاد الميل قلّ التسخين كما فى المناطق القطبية، وينتج عن ذلك تغير فى كثافة الهواء فتصعد وتهبط تيارات الهواء، وتنشأ دورة الرياح، وكلما زاد الفرق بين الضغط العالى والضغط المنخفض زادت سرعة الرياح، فتثير السحاب فتفرغه من مياهه، وتتساقط الأمطار، بقدرة الله وحدها، فهو المدبّر لكل ذلك سبحانه، فإذا عرفته فسبّح بحمده تعالى.

٤٥٨ - رَيْن...

الرَّيْن حجاب القلب، لا يمكن كشفه إلا بالإيمان، وذلك الحجاب هو الكفر والضلال، لقوله تعالى: ﴿بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (المطففين ١٤).

وقيل: **الرَّين** هو الحجاب الحائل بين

القلب وبين عالم القُدس، باستيلاء الهيئات النفسانية عليه، ورسوخ ظُلمات الجسمانية فيه، بحيث يحتجب عن أنوار الربوبية بالكلية .

والرّين: هو الصدأ الذى يقع على القلوب، وهو للكافرين، ويقابله الغَيْن وهو للمقرّبين، فبينما الرّين حجاب كثيف، فإن الغَيْن حجاب شفاف، وفى الحديث: «إنه لَيُغان على قلبى (يعنى تتغشّاه الشهوة)، فأستغفر الله وأتوب إليه مائة مرة». والغين يزول إذن بالتوبة والتصفية، ولكن الرين باقٍ لا يزول، يتلبّس بالقلوب من كثرة الذنوب والخطايا. وفى الحديث: «إن العبد إذا أذنب ذنباً كانت نُكتة سوداء فى قلبه، فإنْ تاب منها صَقَل قلبه، وإن زاد زادت، فذلك قول الله تعالى: ﴿كلا بل رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (المطففين ١٤) أخرجه الترمذى والنسائى. وبرواية النسائى قال: «إن العبد إذا أخطأ خطيئة، نُكِتَ فى قلبه نكتة سوداء، فإنْ هو نزع واستغفر وتاب، صَقَل قلبه، فإن عاد زيد فيها حتى تعلو قلبه»، أى ترين على قلبه، كقوله تعالى: ﴿كلا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾» (المطففين ١٤).

وعند الحسن البصرى، الرّين يُعمى القلب فيموت. (انظر الغين).

* * *

باب الزاى

* * *

٤٥٩ - زاجر...

واعظ الحقّ فى قلب المؤمن، وهو النور المقذوف فيه، الداعى له إلى الله.

٤٦٠ - زاوية...

ركن فى المسجد، أو دار مستقلة تقام فيها الصلاة، وتعقد حلقات الدرس والذكر داخلها.

وكانت الزاوية وما تزال من بيوت الصوفية، ولعلها الأرخص تكلفة والأكثر شيوعًا عن الخانقاه والرباطات. والزاوية مسجد صغير وتختلف عن الجامع أنها بلا منبر، ويأوى إليها الفقراء والمتصوفون، وبسبب كثرة الزوايا انتشر التصوّف، ولأن الزوايا ارتبطت بمشايخ بعينهم فكانت مدارس لطُرق معينة، ومع كثرة الزوايا كثرت هذه الطرق، ومن أشهر هذه الزوايا زوايا السنوسية فى المغرب، والزوايا التيجانية فى الشرق الإفريقى، والزوايا القادرية فى المغرب الإفريقى، وكانت عاملاً من عوامل انتشار الإسلام.

٤٦١ - زبور...

الزبور كتاب داود، وهو المسمى عند النصارى واليهود المزامير Psalms، ومنه مزاميز لداود، ولغير، أضيفت إليه.

والزبور عند الصوفية قيل فيه: إنه تجلّيات أفعال الحقّ، والتوراة تجلّيات جملة الصفات والأسماء الذاتية والصفاتية مطلقاً؛ والقرآن: عبارة عن الذات المحض.

ومعنى أن الزبور تجليات الأفعال: أنه تفصيل للتفاريع الفعلية الاقتدارية الإلهية، ولذلك فإن داود وهو من أنزل الله عليه الزبور بقوله تعالى: ﴿وآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا﴾ (الإسراء ٥٥)، كان خليفةً على العالم بأفعاله، فهو يسيّر الجبال الراسيات، ويلين الحديد، ويحكم على أنواع المخلوقات، والمقصود أنه كان متصرِّفاً. هكذا يقول الصوفية.

٤٦٢ - زجاجة...

المشار إليها فى آية النور: ﴿مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ﴾ (النور ٣٥)، وهى القلب، والمصباح هو الروح، والزجاجة التى هو فيها كأنها والشجرة التى تتقد منه الزجاجة المشبّهة بالكوكب الدرّى: هى النفس، والمشكاة هى البدن. هكذا يقول الصوفية.

٤٦٣ - زكاة...

من آداب الصوفية فى الزكاة: أن كل ما

يجتمع عندهم من مال فهو لله، والله قد روى عنهم من أموال الدنيا ما يجب عليهم فيه الزكاة والصدقة. ومن آدابهم أنهم لا يأكلون منها، ولا يطلبونها، ولا يأخذونها ، وإن كان الله قد أباحها لهم، إلا أنهم يريدون بذلك إيثار الفقراء، لأنهم هم أنفسهم أغنى خلق الله، لأن غناهم بالله ومن يبتليهم الله ببعض الحاجة ويضطرهم إلى أخذها فإنما ليمكّن أهل الدنيا من أدائها.

والزكاة في المصطلح الصوفي: طهارة للنفس، بلغت حدّ الكمال بإفاضة ما فضل عن حاجتها من الفيض الربّاني على المحتاجين إليه، وهي في الحقيقة شكر على وصول النعمة، والشكر يلزم أن يكون من جنس النعَم، وعلى ذلك فكل عضو من أعضاء الإنسان تجب فيه زكاة مفروضة، وهي التزكّي بإيثار الحق على الخلق، أي بؤثر المُزكّي شهادة الحق على شهود الخلق .

٤٦٤ - زمان...

لا يجرى الزمان على الحق، أي لا يتعين وجوده بزمان، بمعنى أن وجوده ليس زمانياً. والفرق بين كان الله ويكون، وبين كان زيد ويكون، أن وجوده تعالى مستمر مع الزمان لا فيه، بخلاف وجود زيد فإنه في الزمان ومنطبق عليه، ولا يوجد بدون هذا الزمان لتعلّقه بأمور منطبقة عليه. وكما أن الزمان لا يجرى عليه تعالى، فكذلك لا يجرى على صفاته القديمة.

٤٦٥ - زمردة...

هي النفس الكلية، شُبِّهت بالزمردة التي هي حجر كريم شفّاف شديد الخضرة، وأشدّه خضرة أجوده وأصفاه جوهراً.

٤٦٦ - زمزم...

إشارة إلى علوم الحقائق، وكأنها الماء الكثير من النبع المبارك: بئر زمزم عند الكعبة، والشُرب منها إشارة إلى التضلّع من ذلك.

٤٦٧ - زنادقة...

فرقة متشبِّهة مُبطلة، قد كفرت، لأنها مع وجود الاعتراف بنبوّة محمد ﷺ فإن في عقائدها الكفر، حيث تُثَنّي وتجعل للوجود إلهين للخير والشرّ.

وقيل الاسم زنديق معرَّب من زندى، أي الذى يؤمن بكتاب الزند، لنبيّ فارس المسمّى عندهم زرادشت. - وفي صلة الزندقة بالتصوّف، يُروَى أن أهل مصر أتهموا ذا النون المصرى بالزندقة، فلماذا؟

لأنه كان يتكلم بالعلوم اللّدنية - يعنى بعلوم الغَيْب، وهم لا يعرفون هذه العلوم، وما يجهلونه فلابد أن يكفروا به.

٤٦٨ - زُهد...

الزهد: خلوّ القلب عمّا خلت منه اليد، وأن تترك الدنيا لا تقول: أبنى بيتاً أو مسجداً.

والزاهد لا يملك مع الله سبباً، ولا يبلغ أحد حقيقة الزهد حتى تكون فيه ثلاث خصال: عملٌ بلا علاقة، وقول بلا طمع، وعزٌّ بلا رياسة.

والزُّهد فى الحرام، لأن الحلال مباح، وهو فى الحرام واجب، وفى الحلال فضيلة.

وزُهد المحسنين - ومَن تحتهم من الصالحين والمؤمنين والمسلمين - إنما هو فى الدنيا ولذّاتها؛ وزهد الشهداء فى الدنيا والآخرة جميعاً؛ وزهد الصدّيقين فى سائر المخلوقات، فلا يشهدون إلا للحقّ وأسمائه وصفاته؛ وزهد المقرّبين فى البقاء مع الأسماء والصفات، فهم فى حقيقة الزهد.

ويفرّق السهروردى بين زهد الصوفية - وخَلْوتهم التى يحصل عنها الإشراق فى قلوبهم، وبين زهد الفلاسفة والبراهمة والدهريين - وخَلْوتهم التى غايتها منع الشواغل عن الحواس بقصد تحصيل المعارف العقلية.

والزُّهّاد - ويسمون كذلك رجال الزهد - على ثلاث طبقات: فمنهم المبتدئون الذين خلت أيديهم من الأملاك، وخلت قلوبهم مما خلت منه أيديهم؛ ومنهم المتحقّقون الذين يتركون حظوظ النفس من جميع ما فى الدنيا؛ والفرقة الثالثة: الذين زهدوا فى الزهد وتابوا من زهدهم، لأن الدنيا لا شئ، والزهد فى لا شئ غفلة.

وقالوا الزهد قسمان: زهد مقدور هو ترك الطلب والتبرّع بالموجود؛ وزهد غير مقدور هو أن يبرد قلب الزاهد من الدنيا بالكلية فلا يحبها أصلاً.

والفرق بين الزهد والفقر: هو أن الفقر يمكن وجوده بدون الزهد، كأن يترك الفقير الدنيا بعزم ثابت إلا أن ميله إليها لا يزال باقياً. والزهد أيضاً يمكن وجوده بدون الفقر، كأن يزهد الشخص فى الدنيا رغم إقبالها عليه.

والنبىّ ﷺ كان فى الذُّرَى فى الزهد، والصوفية تقتدى به، وهو نموذجهم الأعلى، وعن عائشة قالت: بلغنى أن الرجل منكم يأكل من ألوان الطعام حتى يلتمس لذلك دواءً يُمرئه، فذكرتُ نبيكم ﷺ، فذاك الذى أبكانى: خرج من الدنيا ولم يملأ بطنه

فى يوم من طعامين. كان إذا شبع من تمر لم يشبع من الخبز، وإذا شبع من الخبز لم يشبع من التمر. وقالت: ما شبع رسول الله ﷺ فى يوم مرتين، حتى لحق بالله، ولا رَفَعْنا له فَضْل طعام عن شِبَع حتى لحق بالله.

وعن أنس قال: إن النبىّ ﷺ لم يُجمَع له غذاء ولا عشاء من خبز ولحم إلا على ضَعْف - يعنى شدّة وتضييق. وقالت عائشة: كان ضجاعه من أدَم محشوًا ليفًا.

وكان ﷺ يزهد فى النساء، وما كان يتزوّج إلا ليوثق صلته بأصحابه، كأبى بكر وعمر، أو بكبريات القبائل والعشائر: كزواجه من جويرية بنت الحارث سيد بنى المصطلق؛ أو لأنه كان يخلّص النساء العاليات المكانة بين قبائلهن من وضع زرىّ: كزواجه من ريّحانة بنت زيد ابن عمرو، وكانت من بنى النضير، ومتزوجة من بنى قريظة ممن يُدْعَى الحكَم، قُتِل فى غزوة الرسول ﷺ لبنى قريظة؛ وزواجه من صفية بنت حيّى بن أخطب، من بنى قريظة، إخوة بنى النضير، تزوّجها سلاّم ابن مشكم القرظى، ثم فارقها، فتزوجها كنانة ابن الربيع بن أبى الحقيق النضرى، فقُتل عنها فى خيبر. وكان أبوها من أشدّ يهود عداوةً للنبىّ ﷺ حتى قتله الله، وكان يرأس بنى قريظة، ثم لما هاجر إلى خيبر صار رئيسهم؛ وكزواجه من أم حبيبة بنت أبى سفيان التى تَنَصّر زوجها فى الحبشة، وكان أبوها أبو سفيان رئيس قريش وأعدى أعدائه؛ أو لأنه عطف على إحداهن: كزواجه من سودة بنت زمعة، ومن أم سَلَمة، ومن ميمونة بنت الحارث الهلالية؛ أو خلاصًا للمرأة من وضع اجتماعى متردٍ وُضِعت فيه: كزواجه من زينب بنت جحش. وكانت عائشة تقول: لم يكن يستكثر منا - أى من زوجاته. وقالت: كان مِسقامًا - يعنى كثير المرض؛ ثم إنه لم يكن يتناول طعاماً يتقوّى به على الباه، فكيف يكون زئر نساء وهو لا يستطيع أن يصلب طوله إعياءً من الجوع؟! تقول عائشة: كانت تأتى عليه أربعة أشهر ما يشبع من خبز بُرّ! وقالت: ما شبع آل محمد غداء وعشاءً من خبز الشعير ثلاثة أيام متتابعات، حتى لحق بالله؛ وكذلك فإنه ظل متزوجًا بخديجة - وكانت أكبر منه بخمس عشرة سنة، وكانت يوم أن تزوّجها فى الأربعين، فهل لو كان مزواجًا، كان تزوّج منها - وهى بتعبير عائشة عجوزٌ فى الأربعين؟ وظل معها خمس عشرة سنة حتى صار فى الخمسين، وكانت هى فى الخامسة والستين! فلما قضت تزوّج سودة - وكانت قبيحة الشكل، حمقاء، ضخمة،

ليس فيها أى جمال، وإنما تزوّجها عطفًا ولترعى بناته. وما كان بعائشة شئ مما يشتهى الرجال فى النساء يوم تزوّجها وهى فى التاسعة من عمرها، وكان هو فى الثالثة والخمسين!! فمن كانت هذه أحواله وسوابقه، فهل يتزوج شهوةً، أم كان زواجه لأسباب اجتماعية أو سياسية سامية، لمصلحة الأُمّة والدعوة ؟ ولم يكن النبىّ ﷺ بدعاً فى تعدّد الزوجات، فإبراهيم أبو الأنبياء جمع عدّة زوجات، وكذلك يعقوب، وإسحق، وإسماعيل، وموسى، وسليمان؛ وكانت لداود عشرات الزوجات؛ ولسليمان مئات من الزوجات والسراري، قيل بلغن فى التوراة (٣ملوك/ ١١-٣) الألف زوجة وسرية !!! والصوفية اقتدوا برسول الله ﷺ، وبمن يعرفون عنه من الأنبياء، ومنهم من آثر العزوبة اقتداءً بعيسى عليه السلام، ويحيى الحصور، أو عملاً بالحديث الذى يقول: « من استطاع منكم الباءة فليتزوج وإلا فليستعفف».

والأحاديث تترى عن تحبيذ الزهد والفقر، يقول ﷺ : « كن فى الدنيا كأنك غريب، أو كأنك عابر سبيل، وعُدّ نفسك من أهل القبور»؛ وقال: «إن الله يحبّ عبده المؤمن الفقير المتعفّف أبا العيال»؛ وقال: «اللهم أحينى مسكينًا، وأمتنى مسكينًا، واحشرنى فى زمرة المساكين»، وقال: «ما أنا والدنيا ! إنما أنا والدنيا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها»؛ وقال: «ازْهَد فى الدنيا يُحبّك الله»، وقال: «ليس لابن آدم حقّ فى سوى هذه الخصال: بيت يسكنه، وثوب يوارى عورته، وجِلْف الخبز والماء »، والجلف هو الوعاء. ولا يتعارض ذلك مع زواجه ﷺ، ولامع حبّه للطِّيب والطعام؛ ولم يُصب ﷺ الطعام فى حياته، وأصاب النساء وما أصابهن، فكثيرًا ما اعتزلهن، وكان يقول إنه رجل له ضرائر! وأما الطِّيب: فكان يُحبّ منه المسك والعنبر، ولا يتنافى الطيب ولا النساء ولا الطعام مع الزهد، فلم يجعل نفسه عَبْدَ فرجه ولا بطنه، ولم تكن الدنيا همّه، فلم يفرّق الله عليه أمره، ولم يجعل فقره بين عينيه، وجعل غناه فى قلبه. وهذا ما جعل الصوفية يقتدون به ﷺ، ويتّبعون أقواله وأفعاله، ويأخذون سُنّته.

وتطوّر الزهد فى الإسلام إلى التصوّف مؤخرًا فى مدن بعينها، مثل: خراسان، والكوفة، والبصرة، وكان الزهّاد يكثرون بها، وكان أبرز زهّاد الكوفة: الفُضَيْل ابن عياض الخراسانى (المتوفى سنة ٧٢٣هـ/ ٨٠٣م)، من سواد الناس؛ وعاصر المأمون بداية تحوّل الزهد إلى التصوّف. وكان

الزهّاد فى حياة النبىّ ﷺ هم أهل الصُفّة غالبًا، وكانوا فقراء فقراً مدقعًا.

وفى عهد المأمون بدأ الزهد يكون شيمة الموسرين وأبنائهم، حتى أن بشر ابن الحارث المتوفى سنة ٢٢٥هـ / ٨٣٩م)، كان يعظ الزّهّادَ فيقول: عليكم بالرفق والاقتصاد فى النفقة، فلأن تبيتوا جياعاً ولكم مال،خيرٌ من أن تبيتوا شباعًا وليس لكم مال.

والأدهى من ذلك أن بعضهم، مثل أبى عبد الله محمد بن يوسف البنّاء كان يفتى الناس بالأجر، فيأخذ من أجره دانقاً لنفقته ويتصدّق بالباقى.

ولم يَرَ الصوفية الخروج على الولاة بالسيف وإن كانوا ظلمة، وكانوا فى البداية يخرجون عليهم ويرون الجهاد. فصار الصوفية الجدد يزهدون أى فعل ولو كان جهاداً. وصار للزهد معنى جديداً، كما يقول الجنيد، هو: الزهد فى الناس، حتى أن الصوفية ما كانوا يحبون أن يجتمعوا ببعضهم البعض، وصاروا يغيرون من بعضهم البعض، ويقعون فى بعضهم البعض. ولم يَرَ رويم البغدادى أن الوفاق بين الصوفية يصلحهم، وطلب منهم أن يختلفوا ويتعاركوا، ونصح لهم بالعزلة.

والزهد فى النساء: أن تختار المرأة الفقيرة أو اليتيمة، على المرأة الغنية أو ذات الحسب والنسب. وكان ذلك رأى الدارانى وابن دينار وابن حنبل. ورأى سهل بن عبد الله: أنه لا يصحّ الزهد فى النساء، لأن سيّد الزهّاد رسول الله ﷺ حبّب فيهن. وقال ابن عيينة: ليس فى كثرة النساء ذنب، لأن أزهد الصحابة: علىّ ابن أبى طالب، كان له أربع نسوة وبضع عشرة سرية. - وقال الجنيد لا أحب للمريد أن يشغل قلبه بهذه الثلاثة وإلا تغيّر حاله: التكسُّب، وطلب الحديث، والتزوّج.- والزهد عند النساء كحال رابعة العدوية التى عفّت ولم تر الزواج، وحال عبدة بنت أبى شوال، وحيّونة، وبنت أم حسّان، ومُلَيكة بنت المنكدر، وفاطمة بنت محمد بن المنكدر، وخنساء بنت خدّام، وعائشة المكّية، وأخوات بشر الحافى، وعشرات غيرهن رفضن الزواج ووهبن أنفسهن للعبادة.

ويعنى الزهد الآن: قلة الطلب على الدنيا مع الرغبة، والعمل فى إصلاح أحوال الناس وما جُبلوا عليه من نواميس الاقتصاد والسياسة، وأن يتعلموا العلم. وقيل فى زهد الصوفية الآن: أنه الزهد فى الباطل والإقبال على الحقّ، ويسمّون ذلك التصوف الإيجابى. وهو عندهم : قصر الأمل، ولا يكون بأكل الخشن، ولبس

العباء، ومن يقصُر أملهُ لا يتأنق فى المطعومات، ولا يتفنن فى الملبوسات، ويأخذ من الدنيا ما يتيسر، ويجتزىء منها بما يُبَلِّغ.

والزهد عند المُحدثين: هو بُغض المحمدة والثناء. وقيل: تَرْكُ الدنيا كلها هو الزهد، سواء أحببنا تركها أم كرهنا. ومن أقوال بشير بن الحارث: حبُّ الدنيا هو حُبُّ لقاء الناس؛ والزهد فى الدنيا هو الزهد فى لقاء الناس. والذين قالوا بذلك وما يزالون هم فلاسفة المتصوفة، فعن الفُضَيْل بن عياض: علامة الزهد فى الدنيا الزهد فى الناس. وعن إبراهيم بن أدهم: لا يكون الزاهد زاهداً حتى يكون ترك الدنيا أحبّ إليه من أخذها. وعن ابن المبارك: الزهد هو أن تزهد فى الدنيا بقلبك. وأشد ما قاله منهم جماعة: الزهد حبُّ الموت، وإن ذلك ليشبه قول الفيلسوف الغربى نيتشه (توفى سنة ١٩٠٠ م)، وكان زاهداً ولكنه كان ملحداً، ولم يكن صوفياً. وكذلك قال ذلك النُّسَّاك الهنود، ولكنهم ما كانوا يرون الآخرة؛ ولم يقولوا بحبّ الله عن حبّ الدنيا. وعندى: أن الزهد إن كان هو الزهد فى الدنيا، فإنما ينصرف ذلك إلى زهد المناصب والأملاك، مع محبة إصلاح الأحوال، وتوعية الناس، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، ومحاولة تغيير الأوضاع المتردّية فى المجتمعات، ومقاومة الظلم الاجتماعى، والاستبداد الطبقى، وحكومات الطغيان، وهذا هو الزهد السياسى: أن نزهد فى كل ما يشين الحياة الاجتماعية، ويحطّ من قدر الإنسان الذى خلقه الله فى أحسن تقويم.

وعلى كل حال، فكل من تكلّم فى الزهد من الصوفية، إنما نطق عن وقته وأشار إلى حدّه. والزهد كما جاء به الإسلام: هو ذلك الزهد الذى تكلم فيه الرسول ﷺ وجاء به القرآن، وأمّا زُهد الصوفية أهل الله، فقد كان زهداً منظماً ومُنهجاً systematic. وقد جاء الإسلام ليحارب الطبقية والتفاوت فى الدخول، ويرتفع بمستوى معيشة وثقافة الفقراء والمستضعفين، ولولا ذلك لما اعتنقه ضعفاء الناس والأجراء والموالى. وسبب كلام الإسلام فى الزهد تنازل مسلمون عن ثرواتهم، مثلما فعل أبو بكر، وعثمان، وعبدالرحمن بن عوف: فكأن الزهد فى الإسلام أريد به نزول الأغنياء والكبار إلى مستوى الفقراء، فاصطبغ - زهد الإسلام - بصفات هؤلاء الفقراء، فكان المسلمون الأوائل إذا تصّوفوا - يعنى إذا تزهّدوا - يلبسون لذلك الخشن من الثياب، ويتناولون

الطعام البسيط، ولم يكن ذلك منهم عبادة مُضافة، وإنما كان من طبيعة الإسلام الذى اعتنقوه. ولو كانت العزوبة من الزهد فى الإسلام لامتنع المسلمون عن الزواج، ولكن الإسلام كان يمنع الرهبنة ويحضّ على الزواج، ولذلك قال: ابن عباس: لا يتم نُسك الناسك إلا بالنكاح»؛ فعرفنا أن كل ما يقال عن أصول الزهد، وأنه مأخوذ عن المسيحية ورهبتها، هو محض اختلاق؛ وعرفنا أن قول المستشرق فيليب حتّى: أن الزهد عند المسلمين هو اعتزال الناس، من الأكاذيب، لأن الاعتزال يعنى الرهبنة، ولا رهبنة ولا اعتزال للناس فى الإسلام! ولم ير المستشرق نيكلسون أن الزهد، ولا التصوّف الذى تطور إليه، من تأثير المسيحية على الإسلام. ونيكلسون وجولدتسيهر رأيا فى الزهد الإسلامى أنه أدّى إليه عاملان: أحدهما اجتماعى إسلامى، كمظهر للإسلام ضد رفاهية المجتمع المكّى القرشى، والآخر عَقَدِىّ نفسى، أملاه الخوف من الحساب والعقاب فى الآخرة.. وكان أهل الصُّفة: أول تجمُّع صوفى إسلامى، وكانوا نيفاً وثلاثمئة، لا يرجعون إلى زرع، ولا ضرع، ولا تجارة، أكلُهم فى المسجد، ونومُهم فى المسجد، يؤانسهم رسول الله ﷺ ويأكل معهم، ويحثّ على مؤاكلتهم ومعرفة فضلهم؛ وكان رئيسهم أبو هريرة، يتبّعون أوامره، ويجتنبون زواجره، وكأنه شيخ طريقتهم؛ ويُروَى أن الواحد منهم كان ينام على التراب بجلده، ويطرح ثوبه فوقه ويقول: ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ (طه٥٥) ، ولو اخترنا من بين صحابة النبىّ ﷺ من يصدق عليه أوصاف الصوفية، لما وجدنا خيراً من عبدالله ابن عمرو بن العاص، فقد كان من أتقى الصحابة وأشهرهم غَيْرةً على الدين، وكان صوّاماً قوّاماً، حرّم عينيه الرقاد ليقضى الليلفى تلاوة القرآن؛ ولما طلبوا من علىّ أن يصف الزاهدين من أهل الله قال: هم خُمص البطون من الطوى، يُبس الشفاة من الظمأ، عُمْش العيون من البكا! - فهؤلاء إذن هم زُهّاد الصوفية، وذلك هو الزُّهد فى الإسلام الذى تطوّر إلى التصوّف.

٤٦٩ - زوائد...

من زيادة الإيمان بالغيب واليقين، وكلما ازداد الإيمان واليقين، زاد الصدق والإخلاص فى الأحوال والمقامات والإرادات والمعاملات. فهذه هى الزوائد عند الصوفية؛ فلكل سالك حال ومقام، فإذا فتح الله عليه بزيادة، أو بمعرفة أكثر مما

هو عليه فى مقامه، سميت بالزوائد، يُنقم بها عليه كعطايا وهبات.

٤٧٠ - زواج وعزوبة...

من الصوفية من تزوّج حتى لا يخرج عن حديث رسول الله: «لارهبانية فى الإسلام». وتزوج بعضهم بالنصاب الشرعى كاملاً كحاتم الأصم البلخى (المتوفى ٨٥١م). وقيل كان بشر الحافى - وهو أعزب - يفضل على نفسه أحمد ابن حنبل الذى اتّبع السُّنّة وتزوّج. ومع ذلك فقد عاش كثيرون بلا زواج، وبعضهم تزوّج اسماً كما أمره الرسول ﷺ، ولكنه لم يتزوج فعلاً، ولم يكن يقرب امرأته، حتى أنها ظلت بكراً أربعين سنة فى عصمته!

وفى العزوبة يقول إبراهيم بن أدهم: من تعوّد أفخاذ النساء لا يفلح. وقال الحسن البصرى: إذا أراد الله بعبد خيراً فى الدنيا لم يشغله بأهل ولا ولد. وقال مالك بن دينار: لا يبلغ الرجل منزلة الصدّيقين حتى يترك زوجته كأنها أرملة. يعنى لا يقربها كامرأة. وقيل فى تبرير ذلك إن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ﴾ (التغابن ١٤)، وقال: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ (الكهف ٤٦). ففى الآية الأولى: تحذيرٌ من الأهل والولد، للرجال كما للنساء، وإن لم يدعُ إلى تركهم فهو يحذّر منهم، وهذا التحذير يمكن أن يفسّره من يأخذ بالاحوط على أنه نوع من النهى. وفى الآية الثانية: تفضيلٌ بين حالتى التأهل والتجرّد، والدعوة بأن التجرّد أو ما فى معناه - وإن لم يُنطَق به صراحةً هنا - هو خيرٌ عند ربّك ثواباً وخيرٌ أملاً، فضلاً عمّا فى كلمة زينة الحياة الدنيا هنا من معنى لا يخلو من القدح. والزوّاج: خيرٌ لمن فضّلوا الاجتماع بالناس، وتكوين الأسرة؛ والعزوبة: حلْية الطالب المتجرّد عن الدنيا الذى اعتزل الناس. وفى الحديث: «سيروا، سَبَق المفردون»، والمفردون هم العُزّاب وقال الحسن البصرى: نجا المخفون وهلك المُثقّلون. والمخفّون هم العُزّاب، والمُثقّلون هم المتزوجون الذين يعولون. وقيل لبشر الحافى: إن الناس يتكلمون فيك، يقولون إنه تاركٌ للسُّنّة - يعنى للزواج؟ فقال: قولوا لهم أنا مشغولٌ بالفرض عن السُّنّة. وعندما طلب عبد الواحد بن زيد الزواج من رابعة العدوية استغربت طلبه - وهو وهى من الصوفية. وقالت له: يا شهوانى! اطلب شهوانية مثلك! أىّ شئ رأيتَ فىّ من

آلة الشهوة؟ ـ وما كان الصوفية غالباً يتزوجون إلا النوبيات، لفقرهم الشديد، فلا يستطيعون إعالة بنات العائلات، ولا التسرِّي بالجواري الغاليات، وكان الكثيرون من آل البيت من العباسيين يتعففون بالزنجيات أو السُّنديات.

ومن آداب الصوفية: أن من يتزوج أو يكون له ولد، لا يكل أمر عياله إلى الله تعالى، ولكن عليه القيام بفرضهم، إلاّ أن يكونوا مثله في الحال. وليس من آدابهم أن يتزوجوا ذوات اليسار. ومن أدب الفقير أن يتزوج بفقيرة مثله، وأن ينصفها، وإن رغبت فيه امرأة غنية أن لا يرتفق منها. ومن آداب الصوفية أن لا يرتفقوا النساء.

٤٧١-زواهر...

زواهر الأنباء هي أبهجها؛ وزواهر العلوم أحسنها؛ وزواهر الوصل، من المصطلحات الصوفية، ومن علوم الطريقة، ويقولون أنها من أشرف علومهم، لأن الوصال بالله يتوقف عليها.

٤٧٢-زيتونة...

هي النفس المستعدة للاشتغال بنور القدس بقوة الفكر. والصوفية اختاروا للنفس اسم الزيتونة، كقوله تعالى في وصف نوره: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لاَّ شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (النور: ٣٥) لأن النفس الإنسانية، بطبيعتها وطبعها، من أعظم ما خلق الله. حتى النفس الحيوانية من أعظم ما خلق الله، لأنها لا شرقية ولا غربية، أي ليس كمثلها شيء، كالزيتونة ـ يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار، مبالغةً في حُسن خِلْقتها وروعتها، فإذا اهتدت وتنوّرت، أضاء نورها حتى تصير كأنور ما تكون، وكأنها كوكبٌ دُرِّي، ولا يتحقق ذلك للنفس إلا عند طبقة الأنبياء والأولياء، فهذه نفوسهم كأصفى ما تكون.

٤٧٣-زيت...

نور الاستعداد الأصلي للنفس، كقوله تعالى: ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ﴾ (النور: ٣٥)، أي يكاد إيمانها يظهر للناس، لأن الإيمان فطرة فطر الله النفس عليها، فإذا أسلمت ظهر نورها وشعشع كقوله تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ﴾ (الزمر ٢٢).

٤٧٤-زينة...

يلبس بعض الصوفية الفُوَط والمرقعات،

وليس ذلك من لبس السلف، وإنما كانوا يُرقّعون عن ضرورة، وهؤلاء يرقعون محاكاةً، والترقيع عن دعوى هو ادعاء للفقير، وقد أُمرنا أن نُظهر أثر نعمة الله علينا؛ وعند هؤلاء فإن الترقيع إظهار للتزهّد، وقد أُمرنا بستر التزهّد، وهو تَشبُّه بهؤلاء المُتزحزحين عن الشريعة، ومن تشبّه بقوم فهو منهم. ولقد أخطأ من آثر لباس الشَّعر والصُّوف على لباس القطن والكتان - مع وجود السبيل إليه؛ وأخطأ من آثر البقول والعدس واختارهما على خبز البُرّ أو القمح، ومن ترك أكل اللحم خوفاً من عارض شهوة النساء.

وسئل بشر الحافي عن لبس الصُّوف، فشق عليه وتبينت الكراهةُ في وجهه. وقد كان السلف يلبسون الثياب المتوسطة، لا المترفِّعة ولا الدون، ويتخيّرون أجودها للجمعة والأعياد، وللقاء الإخوان، ولم يكن تخيُّر الأجْوَد عندهم قبيحاً. وأما اللباس الذي يُزرى بصاحبه، فإنه يتضمن إظهار الزهد والفقر، وكأنه لسان شكوى من الله، ويوجب احتقار اللبس، وفي القرآن: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ (الأعراف: ٣٢)، وذلك أن الإنسان كما خلقه الله فأبدع خَلْقَه، فإنه يجب أن يُرَى جميلاً. وإن قيل: تجويد اللباس هوى النفس، وقد أُمرنا بمجاهدتها، وهو تزيُّن للخَلْق، وقد أُمرنا أن تكون أفعالنا لله لا للخلق؟ فالجواب: ليس كل ما تهواه النفس يُذَمّ، وليس كل ما يتزيّن به الناس يُكره؛ والله خلقنا وحظ النفس فينا أن نتجمّل، ولا نلام لو تجملّنا، ولهذا كان النبيّ ﷺ يُسرِّح شعره، وينظر في المرآة، ويسوّي عمامته، ويلبس بطانة الثوب الخشنة إلى داخل، وظهارته الحسنة إلى خارج؛ وروت عائشة: أن النبيّ ﷺ نظر في ركوة فيها ماء قرب مدخل داره، يُسوّي لحيته وشعره، فقالت له: وأنت تفعل هذا يا رسول الله؟ قال: نعم، إذا خرج الرجل إلى إخوانه، فليهيئ من نفسه، فإن الله جميلٌ يحبّ الجمال. وسأله سائل: إن الرجل يحبّ أن يكون ثوبه حسناً وفعله حسناً، فهل هذا من الكِبْر؟ قال: إن الله جميلٌ يحبّ الجمال. الكِبر بَطَر الحق، وغَمْط الناس. وكان رسول الله ﷺ يسافر ومعه المشط، والمرآة، والدهن، والسواك، والكُحل. وكان مشطه من العاج. وكان يُكثر دَهْن رأسه، ويُسرِّح لحيته بالماء. وكانت له مُكحلة يكتحل بها عند النوم ثلاثاً في كل عين، اعتقاداً بأن الكحل أحلى للعينين.

* * *

باب السين

* * *

٤٧٥- سائحون...

يطلق على الصوفية أنهم السائحون، لأنهم طلاّب علم، يطلبونه ولو فى الصين، ويسعون بالسفر إلى لقاء المشايخ والإخوان الصادقين. ثم إن استكشاف دقائق النفوس يتحصّل بالسفر، ولذلك يسمى السفر سفراً لأنه يُسفر عن الأخلاق.

ويرد ذكر السائحين فى القرآن: ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾ (التوبة ١١٢)، وأيضا: ﴿مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ﴾ (التحريم ٥). والمقصود بالسائحين والسائحات هم الصائمون والصائمات عن شهود غير الله، والممتنعون والممتنعات عن خدمة غير الله، يكتفون من الله بالله.

وقيل: السائحون هم الذين يسيحون فى الأرض على جهة الاعتبار طلباً للاستبصار؛ ويسيحون بقلوبهم فى مشارق الأرض ومغاربها بالتفكّر فى جوانبها، والاستدلال بتغيّرها على مَنْشئها؛ ويسيحون بأسرارها فى الملكوت، فيجدون روح الوصال، ويعيشون بنسيم الأُنس، بالتحقق بشهود الحق.

٤٧٦- سائر...

هو الصوفى صاحب القُوَى التى تزكّى لطيفته السيرية، وسَيْره إلى الله بالله وفى الله.

والسير مدعاة للتفكير والتفكُّر، وأداة التفكر العقل: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِى الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا﴾ (الحج ٤٦)، أى يسيروا بفكرهم فتكون لهم القلوب يعقلون بها ويعتبرون: ﴿فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِى فِى الصُّدُورِ﴾ (الحج٤٦)، أى ليس العمى عمى البصر، وإنما العمى عمى البصيرة، والسائرون إلى الله وفى الله وبالله لهم القوة الباصرة التى تنفذ إلى العبر إلى أن تحيط بالخبر، فكأن البصر: بصر نافذ إلى العقل والإدراك، وبصر نافذ إلى القلب، والأول للنظر، والثانى للاعتبار، والسَّير يفيد للحالين. وقد قيل السائر فى الأرض له أربعة عيون، اثنان فى رأسه لدنياه، واثنان فى قلبه لآخرته، فإن عميت عينا رأسه وأبصرت عينا قلبه لم يضرّه عماه، وإن أبصرت عينا رأسه وعميت عينا قلبه لم ينفعه نظره شيئاً. هكذا قال الصوفية.

٤٧٧- سائل...

السؤال بداية العلم، والسائل طالب علم، والصوفية من السائلين؛ وعن إبراهيم ابن أدهم قال: نِعْم القوم السُّؤَّال، يحملون زادنا إلى الآخرة. وقال النخعي: السائل يريد الآخرة، يجيء إلى باب أحدكم فيقول: هل تبعثون إلى أهليكم بشيء؟ - وروى عن النبيّ ﷺ أنه قال: لا يمنعن أحدكم السائل، وأن يعطيه إذا سأل، ولو رأى في يده قُلْبين من ذهب. والقُلْب هو السوار؛ وقال: ردّوا السائل ببذل يسير - أو قال بـ «ردّ جميل» - والصوفية فقراء إلى الله، وقد يسألون ما يغنيهم، وقوت الصوفية هو طعام الدنيا وطعام الآخرة، يتزوّدون من الأول من أجل الثاني. وجواب السائل عن الله وملكوته فرضٌ على العالِم على الكفاية، كإعطاء سائل البرّ سواء. وكان أبو الدرداء ينظر إلى أصحاب الحديث وبسط رداءه لهم يقول: مرحباً بِاحِبَّة رسول الله ﷺ. وكان أبو سعيد الخدري يقول لهم: مرحباً بوصية رسول الله ﷺ قال: إن الناس لكم تَبَعٌ، وإن رجالاً يأتونكم من أقطار الأرض يتفقّهون، فإذا أتوكم فاستوصوا بهم خيراً» - وفي الرواية عن النبيّ ﷺ قال: سألت ربّي مسألة وددتُ أني لم أسألها. قلت: يا ربّ اتخذتَ إبراهيم خليلاً، وكلّمت موسى تكليماً، وسخّرت مع داود الجبال يسبّحن، وأعطيتَ فلاناً كذا، فقال عزّ وجلّ: ألم أجدك يتيماً فآويتك؟ ألم أجدك ضالاً فهديتك؟ ألم أجدك عائلاً فأغنيتك؟ ألم أشرح لك صدرك؟ ألم أوتك ما لم أوتِ أحداً قبلك: خواتيم سورة البقرة؟ ألم أتخذك خليلاً كما اتخذتُ إبراهيم خليلاً؟ قلت: بَلى يا ربّ! - ويا سبحان الله، أفإن كان الرسول ﷺ من السائلين، ألا يكون الصوفية - ونكون نحن - من السائلين؟!

٤٧٨- سابق...

هو صاحب الأحوال الذي أسقط مراده بمراد الله فيه، يعبد على الهيبة ولا ينسى ربّه، ويتلذّذ بالبلاء. يقول الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ (فاطر ٣٢). فأصناف أهل الله ثلاثة: فصنفٌ "ظالمٌ لنفسه" يفرط في فعل بعض الواجبات دون البعض، وأثناء ذلك يرتكب بعض المحرّمات؛ وصنفٌ "مقتصدٌ" يؤدي الواجبات جميعها بقدر استطاعته، ويترك المحرّمات ما وسعه تركها، وفي كل ما يفعل من الترك والفعل هو المقتصد غير المفرّط، يقتصر

على الواجبات والمستحبات ويأتيها شحيحاً، ويعزف عن بعض المحرمات والمكروهات والمباحات ويأتي بعضها لماماً؛ وصنفٌ «سابق بالخيرات» يسعى سعياً لأداء الواجبات، ويجهد أن يأتي المستحبّات، ويأنف عن المحرّمات والمكروهات. وفي الحديث بطريق أبي سعيد الخدري عن النبيّ ﷺ قال: «هؤلاء كلهم بمنزلة واحدة وكلهم في الجنة» رواه ابن أبي حاتم وابن جرير. وعند أحمد بطريق أبي الدرداء، قال ﷺ: «فأما الذين سبقوا فأولئك الذين يدخلون الجنة بغير حساب، وأما الذين اقتصدوا فأولئك الذين يحاسبون حساباً يسيراً، وأما الذين ظلموا أنفسهم فأولئك الذين يُحبَسون في طول المحشر، ثم هم الذين تلافاهم الله برحمته، فهم الذين يقولون: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ * الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ (فاطر ٣٤/ ٣٥).

وعند الطبراني عن أسامة بن زيد، قال ﷺ: «كلهم ـ أي الأصناف الثلاثة ـ من هذه الأمة». وعند ابن أبي حاتم عن عوف بن مالك، عن رسول الله ﷺ قال: «أُمتي ثلاثة أثلاث، فثُلثٌ يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب، وثُلثٌ يُحاسبون حساباً يسيراً ثم يدخلون الجنة، وثلثٌ يمحّصون ويُكَشفون، ثم تأتي الملائكة فيقولون: وجدناهم يقولون «لا إله إلا الله وحده». يقول الله تعالى: صدقوا: «لا إله إلا أنا». أدخلوهم الجنة بقولهم «لا إله إلا الله وحده». احملوا خطاياهم على أهل النار»، قال: وهي التي قال الله تعالى: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ (العنكبوت ٣).

وقالت عائشة: هؤلاء في الجنة: أما السابق بالخيرات فمن مضى على عهد رسول الله ﷺ، شهد له رسول الله ﷺ بالحياة والرزق. وأما المقتصد فمن اتّبع أثراً من أصحابه حتى لحق به. وأما الظالم لنفسه فمثلي ومثلكم. ـ فجعلت عائشة نفسها مع أهل الله المُقلّين، من باب التواضع، وإلا فهي من أكبر السابقين للخيرات، وفضلها على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام.

وقال محمد بن الحنفية ـ وكان من السابقين: إنها أمة مرحومة ـ الظالم مغفور له، والمقتصد في الجنان عند الله، والسابق بالخيرات في الدرجات عند الله. والعلماء أخصّ أهل الله، ولهم السبق والدرجات العاليات». وعنه ﷺ: «فضل العالم على العابد كفضل القمر على

سائر الكواكب. والعلماء هم ورثة الأنبياء، ولم يورث الأنبياء ديناراً ولا درهماً وإنما ورثوا العلم، فمن أخذ به أخذ بحظ وافر» أخرجه أحمد ورواه والترمذى وأبو داود وابن ماجه.

وفى المتقين من أهل العلم والعرفان، يقول الله تعالى على لسان نبيّه ﷺ، مخاطباً العلماء يوم القيامة: «إنى لم أضع علمى وحكمتى فيكم إلا وأنا أريد أن أغفر لكم على ما كان منكم ولا أبالى» رواه الطبرانى.

ويأتى عنه ﷺ فى تعريف السابقين قال: «الذين إذا أُعطوا الحق قبلوه، وإنْ سُئلوه بذلوه، والذين يحكمون للناس كحكمهم لأنفسهم» رواه الحكيم الترمذى.

والصوفية قالوا فى هذه المراتب الثلاث: إن السابق هو الأفضل عن الظالم والمقتصد. والله تعالى قد قرن الظالم بقرينة وهى قوله «لنفسه»، وقرن السابق بقرينة وهى قوله «بإذن الله»، فالظالم كانت له زَلّة، والسابق كانت له صَوْلة، فالظالم رفع الزلة بقوله «لنفسه»، والسابق كسر الصولة بقوله «بإذن الله»، وكأنه قال: يا ظالم ارفع رأسك، ظلمتَ ولكن على نفسك. ويا سابق اخفض رأسك، سبقتَ ولكن بإذن الله.

وقيل الظالم من غلبت زلاته؛ والمقتصد من استوت حالاته؛ والسابق من زادت حسناته.

والظالم يزهد دنياه؛ والمقتصد يرغب فى عقباه؛ والسابق يؤثر على الدارين مولاه.

والظالم يطلبه تعالى؛ والمقتصد يجده؛ والسابق هو باقٍ معه.

والظالم يترك المعصية؛ والمقتصد يترك الغفلة؛ والسابق يترك العلاقة.

والظالم يجود بماله؛ والمقتصد لا يبخل بنفسه؛ والسابق يجود بروحه.

والظالم صاحب مودة؛ والمقتصد صاحب خلّه؛ والسابق صاحب محبة.

والظالم يترك الحرام؛ والمقتصد يترك الشبهة؛ والسابق يترك الفضل فى الجملة.

والظالم صاحب تواجد؛ والمقتصد صاحب وجد؛ والسابق صاحب وجود.

والظالم صاحب محاضرة؛ والمقتصد صاحب مكاشفة؛ والسابق صاحب مشاهدة.

وقيل: وأهل الخصوص هم المقتصدون الذين خصّهم الله بالحقائق والأحوال والمقامات؛ وأهل خصوص الخصوص هم السابقون، أهل التفريد وتجريد التوحيد،

الذين عبروا الأحوال والمقامات وسلكوها.

٤٧٩ - سادات...

السادات والسادة جمع سيد، وفى الاصطلاح هو الذى يملك تدبير السواد الأعظم. وكان أبو حفص الحدّاد من السادات، يعنى من السلالة النبوية.

٤٨٠ - ساعة...

الساعة الكبرى: هى ظهور الحقيقة الإلهية؛ والساعة الصغرى: هى ظهور الحقيقة الإنسانية؛ وكل فرد له ساعته الصغرى، والجميع يلتقون فى الساعة الكبرى أو العامة، وللساعتين علامات وأشراط، ومن علامات الكبرى: أن تلد الأَمَةُ ربَّتها، وأن ترى الحفاة العراة رعاء الشاء يتطاولون فى البنيان؛ وظهور يأجوج ومأجوج فى الأرض حتى يملكوها فيأكلون الثمار ويشربون البحار؛ وخروج دابة الأرض تكلمهم؛ وخروج الدّجال، وأن تكون له جنة عن يساره ونار عن يمينه؛ وخروج المسيح وأن تكون دولته أربعين عاماً؛ وطلوع الشمس من مغربها وأن يُغلق باب التوبة فى مغربها.

وهذه الأحاديث وأمثالها من الإسرائيليات فاحذرها يا أخى! فالقول بالدجّال، ونزول المسيح، من العقيدتين النصرانية واليهودية، وهما مكمّلان لهذه العقيدة، ولا شىء من ذلك فى الإسلام، ولكنها أقوال الصوفية والشيعة وأضرابهم والكثير منهم يستقى ويصدر عن اليهودية والنصرانية.

وقيل كذلك من علامات قيام ساعة الإنسان الخاصة: أن تظهر ربوبية الله فى ذاته، فذات الإنسان هى الأَمَة، والولادة ظهور الأمر الخفىّ من باطنه إلى ظاهره، فيتحقق العبد بحقيقة «كنتُ سمعه الذى يسمع به، وبصره الذى يُبصر به، ويده التى يبطش بها، ورجله التى يمشى بها». وتجرّد العارف عن الأسماء والصفات بمثابة حال العراة، وأنه دائم الملاحظة لله بمثابة رعاء الشاء. وكونه يأخذ فى الترقّى فى المعارف الإلهية بمثابة تطاول البنيان. وظهور الخواطر الفاسدة والوساوس المعاندة قبل أن يتمكن من نفسه، فتملك قلبه وتأكل لُبّه، وتشرب بحار سرّه، فلا يظهر لمعارفه وأحواله أثر، ويرجع عن سُكره إلى حقيقة صحوه، بمثابة ظهور يأجوج ومأجوج. وانصرام عالم الدنيا إلى الآخرة بمثابة خروج دابة الأرض، فتبرز روح الإنسان فى حضرة القدس بخروجها من أرض الطبيعة البشرية لترك الأمور العادية، فيتحقق له الكشف، ويكلّمه روح القدس

ببواطن الأستار. وخروج النفس الدجّالة المسماة بشيطان الإنس وشيطان النفس هى خروج الدّجال. والمقام المحمدى بمثابة خروج المهدى. وعدد مراتب الوجود بمثابة الأربعين عاماً مدة دولته. وطلوع شمس شهود الإنسان من مغرب وجوده بمثابة طلوع الشمس من مغربها، ومعنى ذلك اطّلاع الإنسان على السرّ الكتمى من الباطن الكشفى فيُطوى عنه بساط الوصل والفصل. هكذا قال بعض الصوفية، وكل من تناول ذلك أو وافق عليه منهم، كان من صوفية الشيعة.

وساعة العسرة هى ساعة الشدّة، وهى شديدة الوطأة على أهل الله، والاصطلاح من القرآن: ﴿لَقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (التوبة ١١٧)، فاجتمعت على أهل الله أشدّ الساعات التى مرّت بهم.

والعُسرة صعوبة الأمر، اجتمعت عليهم عُسرة الظَّهْر - الركوبة، وعُسرة المئونة، والصوفية على ذلك أبداً: مشيهم جهاد، وجوعهم صيام. وفى تبوك كان زادهم التمر المتسوس، والشعير المتغيّر، والإهالة (الدهن) المنتنة، وكانوا يخرجون وما معهم إلا التمرات يقتسمونها بينهم، فإذا بلغ الجوع من أحدهم أخذ التمرة فلاكها حتى يجد طعمها، ثم يعطيها صاحبه حتى يشرب عليها جرعة من ماء، حتى إذا بلغت آخرهم لم يبق منها إلا النواة.

ومضى هؤلاء الذين جاهدوا مع نبيّهم ﷺ، وسار على دربهم من تلاهم، وكانوا دائماً على الصدق واليقين. ولقد كان أهل الله يسمون فى كل العصور «أهل العُسرة»، وجيوش المسلمين يقال عنها «جيوش العسرة». ولم يطلق على تبوك اسمها ذاك إلا لأن النبىّ ﷺ رأى أصحابه يبوكون حِسْى تبوك، أى يدخلون فيه القدح ويحركونه ليُخرج الماء، فقال لهم: «ما زلتم تبوكونها بوكاً» فسميت تلك الغزوة غزوة تبوك - من البوك. والحِسْى بالكسر ما تنشفه الأرض من الماء، فإذا صار المسلم إلى صلاته أمسكت الأرض الماء، فيحفر المسلم عنه الرمل فيستخرجه، وهو الاحتساء.

٤٨١ - ساعد...

يطلق على صفة القوة، والساعد فى بعض رسائل الصوفية عبارة عن محض القدرة.

٤٨٢ - ساقي...

الساقي يطلق على فيض الموصّلين والمرغّبين الذين يمررون قلوب العارفين بكشف الرموز وبيان الحقائق.

ويُطلقون الساقي أيضاً على الصور المثالية الجمالية التي تظهر على السالك بسبب رؤيتها نشوة السُّكر الإلهية.

وقيل: المقصود بالساقي عند السالكين: الشيخ الكامل والمرشد المُكمِّل.

وقد صارت كلمة الساقي أيضاً صفةً للحق تعالى لأنه يهب العاشق شراب العشق والمحبة فيتحقق له المحو والفناء، وهي الحالة التي لا يعرفها إلا أرباب الذوق والمشاهدة من صرعى العشق الإلهي.

٤٨٣ - سالك...

السالك هو مَن سلك، ويقال سَلَك الطريق: أي ذهب فيها؛ والسالك إلى الله هو المتصوّف الذي تاب إلى الله عن هوى نفسه، واستقام في طريق الحق، وهو الذي مشى على المقامات بحاله لا بعلمه وتصوّره. والسالكون أربعة أقسام: سالك مجرد لا يؤهَّل للمشيخة، ولا يبلغها، لبقاء صفات نفسية عليه، فيقف عند حظه من رحمة الله تعالى في مقام المعاملة والرياضة، لا يرتقي إلى حال يروّح بها عن وهج المكابدة؛ ومجذوب مجرّد، أي مجرّد من السلوك الذي يرفع عن قلبه بعض الحجاب؛ وسالك متداركٌ بالجذبة، أي تُدُورك بالجذبة، فكانت بدايته بالمجاهدة والوفاء بالشروط، ثم أُخرج إلى روح الحال، ومن الضيق إلى المساهلة، وأُونس بالقرب والمشاهدة، فصدرت منه الحكمة، ومالت إليه القلوب، ويُؤهَّل مثل هذا للمشيخة وأن يكون له أتباع، وقد يحبس نفسه في حاله ويقف عند حظه؛ ومجذوب متداركٌ بالسلوك وله المقام الأكمل، ويبادئه الحق بالكشوف وأنوار اليقين، ويرفع عن قلبه الحجاب، ويرتوي من بحر الحال، ويتخلص من الأغلال، فيصير قلبه بطبع الروح، ونفسه بطبع القلب، وذلك هو السائد حقّاً.

٤٨٤ - سبب...

هو الواسطة، والأسباب والوسائط هي التي بين الخلق وبين الله تعالى.

٤٨٥ - سُبْحة...

من أقوال الصوفية: أن السُّبحة هي الهَبَاء، فإنه ظُلمةٌ خَلَق الله فيها الخلق ثم رشّ عليهم من نوره، فمن أصابه من ذلك النور اهتدى، ومن أخطأ ضلّ وغوى؛ ويقولون لذلك: أن التسبيح تنزيه الحقّ عن نقائص الإمكان وأمارات

الحدوث ، وعن عيوب الذات والصفات، وكذلك التقديس، كقولهم: نُقدّس لك. وعندهم أن التسبيح فى قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ (الإسراء ٤٤) يعنى تسبيحه تعالى، تسبيح دلالة لا تسبيح عبادة. يعنى أنهم لا يتعبّدون بهذا التسبيح، وإنما هم يدلّون به على وحدانيته وعظمته.

وأصل السُّبحة: الحَصَى والنَوى، كانوا يجعلونه للتسبيح. ومن أقوال الحاكم: أن صفية بنت حُيَى، كان عندها أربعة آلاف نواة تُسبح بهن، وأن النبىّ ﷺ دخل عليها وهى تسبّح، فعلّمها ما هو أفضل من أن تسبّح كل ذلك، قال: ألا أُعلّمُكِ بأكثر مما سبّحت به؟ قولى : «سبحان الله عدد خلقه» أو قال: «سبحان الله عدد ما خلق من كلّ شىء».

وكان لمولى من موالى رسول الله ﷺ بزبيل (قُفّة كبيرة) فيها حَصَى أو نَوَى، فيسبح بها إلى نصف النهار ثم يرفع، فإذا صلى الأولى سبّح حتى يمسى.

وكان لأبى هريرة خيطٌ له ألفا عُقدة، فلا ينام حتى يسبّح به. وكذلك كان عنده كيس فيه حصًى أو نَوى، يسبّح بها حتى ينفد ما فى الكيس.

٤٨٦- ستر...

السَّتر: كلّ ما يسترك عمّا يفنيك، ويقابله التجلّى. وعامة الصوفية: عيشهم فى التجلّى وبلاؤهم فى السَّتر. وأما خواص الصوفية: فهم بين طَيْش وعَيْش، لأنه إذا تجلّى لهم طاشوا، وإذا سَتَر عليهم عاشوا!!

والسَّتر للعوام عقوبة، وللخواص رحمة، إذ لولا أنه يستر عليهم ما يكاشفهم به، لتلاشوا عند سلطان الحقيقة؛ وهو كما يظهر للخواص، فإنه يستر عليهم رحمةً بهم.

والستائر: صور الأكوان، لأنها مظاهر الأسماء الإلهية تُعرَف من خَلفِها، فهى تستتر بها.

والستور: هو التخفّى بالهياكل البدنية الإنسانية المرخّاة بين عالم الغيب والشهادة، وعالم الحقّ وعالم الخلق.

والمستورون: هم المكتومون أيضاً، وهم الأولياء الذين ليسوا من أهل التصرّف ولا يعرفهم أحد، لأنهم من رجال الغيب والحكومة الباطنية. فالعامى من أهل الله يسأل الله السَّتر، والصوفى من الأولياء، يسأله تعالى أن لا يُعرَف أنه من أهل الله.

٤٨٧- سبعة...

العدد سبعة له عند صوفية الشيعة رؤية

خاصة، ويرمز عندهم فى السباعات التى تتحكم فى العقيدة، ولذلك كانت منهم جماعة أو طريقة هى السبعية. والعدد ١٢ يتعلّقون به كتعلقهم بالعدد ٧، ويقولون: الأئمة إثنا عشر وندور أحكامهم على سبعة، كأيام الأسبوع، وكالسموات السبع، والكواكب السبعة؛ والنقباء عندهم تدور أحكامهم على العدد ١٢؛ ويجمع العدد ١٩ الذى هو عدد حروف البسملة بين عدد الأئمة وعدد نقبائهم.

٤٨٨ - سَجّادة...

من المصطلحات الصوفية: السَّجّادة: وهو من يستقيم على الشريعة والطريقة والحقيقة، ومن لم يكن كذلك لا يسمى سجّادة إلا رسماً ومجازاً. وغلط من قال أن الاسم معرّب من سه جاده الفارسية، فالصحيح أنه عربى قُح، من سَجَد، يعنى وضع جبهته بالأرض متعبّداً، فهو ساجد، والجمع سُجَّد، وهى ساجدة. ويقال «ساجد المنخر»، و«عين ساجدة»، و«نخلة ساجدة».

والسَّجّاد: كثير السجود، وكان محمد بن طلحة يُكنّى «السَّجّاد» وكان من أطول الناس صلاةً؛ ومن أوائل المتّقين الذين كانت لهم صفات الصوفية؛ والمسجَد بالفتح: مكان السجود من الجبهة. والمسجد بالكسر: موضع السجود، ومكان التعبُّد. والمسجدان: هما المسجد الحرام، والمسجد الأقصى. والسَّجّادة المراد بها ثلاثة أشياء: الشريعة، والطريقة، والحقيقة. وقيل السَّجّادة سُنّة الرسول ﷺ. وسَجّادة الرسول ﷺ على الحقيقة كانت حصيرة من اللّيف فى رواية لعائشة. والصوفية فى الرباط يجتمعون على السَّجّادة؛ ومع ذلك فسَجّادة كل واحد زاويته، بمعنى أن هَمّ كل واحد هو همُّه وحده، ولعل الواحد منهم لا يتخطّى همّه سجّادته. ومن سُنّتهم أن لا يجلس أحدهم على سجادة الآخر، فقد ورد عن الرسول: «لا يؤمّ الرجل فى سلطانه، ولا فى أهله، ولا يُجلَس على تَكْرِمَته إلا بإذنه». والتَّكرمة هى السَّجّادة التى يُجلَس عليها تكريماً وتعظيماً.

والصحيفة السَّجّادية: مجموعة من الأدعيات والمناجيات، نُسبت إلى علىّ ابن الحسين، ويتضح من أسلوبها أنها موضوعة لأن طابعها طابع عصر متأخر، لما فيها من الصنعة. فعبارات علىّ ابن الحسين فيها تتسم بالقوة والوضوح فى تحديد أنواع العبادات للصوفى الشيعى، وتشبه عبارات رابعة العدوية فى الحبّ الإلهى، وتخلُص إلى نوع من الفناء الصوفى، وتعتبر رأساً فى التوكّل الصوفى الشيعى.

٤٨٩- سجود...

هو سحق آثار البشرية ومحقها، باستمرار ظهور الذات المقدّسة، وذلك هو السجود عند الصوفية، يعنى أن يفنى الصوفى عن بشريته.

وسجود القلب: عبارة عن الفناء فى الله عند شهود العبد له، بحيث لا يمنعه استعمال الجوارح عن تلك الحالة، بل يصير غافلاً عن استعمال الجوارح ـ يعنى أن ينسى نفسه.

وفى الآية عن إخوة يوسف وأبويه: ﴿وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا﴾ (يوسف ١٠٠)، أن السجود سُنّة تحية عند اليهود، ولم يكن كسجودنا فى الصلاة، ولكنه انحناء كالركوع؛ ولم يكن خروراً على الأرض إلا لله، والصوفية على ذلك، واليهود سلامهم بالتكفّى والانحناء، وقد نسخ الله تعالى كل ذلك من الشرع، وسلام أهل الله بالكلام ـ أن يقولوا: السلام، أو السلام عليكم، بدلاً من الانحناء.

٤٩٠- سَحَر...

السَّحَر: من حين يُدبر الليل إلى أن يطلع الفجر الثانى؛ وقيل: هو سُدس الليل الآخر. والسَّحَر الوقت المُفضّل لعبّاد الله، وقوله تعالى: ﴿وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾ (آل عمران ١٧) هم الذين يصلّون ويستغفرون عند السحر، خصّه الله تعالى بالذكر، لأنه مظان ووقت إجابة الدعاء؛ وقال النبىّ ﷺ فى تفسير قول يعقوب: ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي﴾ (يوسف ٩٨)، إنه أخّر استغفاره إلى السحر؛ وسأل النبىّ ﷺ جبريل: أىّ الليل أسمع؟ قال: لا أدرى، غير أن العرش يهتز عند السحر؛ وقال ﷺ: ينزل الله عزّ وجلّ إلى سماء الدنيا كل ليلة حيث يمضى ثُلث الليل الأول، فيقول: أنا المَلك، أنا المَلك، مَن ذا الذى يدعونى فأستجيب له؟ من ذا الذى يسألنى فأعطيه؟ من ذا الذى يستغفرنى فأغفر له؟ فلا يزال كذلك حتى يطلع الفجر» ـ وكان الرسول ﷺ يستغفر عند السحر أكثر من سبعين استغفارة، وعند أهل الله: أنه إذا جاء الليل نادى المنادى فى أوله: ليقم القانتون، فيقومون يصلون إلى السحر؛ فإذا كان السحر نادى المنادى: أين المستغفرون؟ فيستغفر أولئك؛ فإذا طلع الفجر نادى المنادى: ليقم الغافلون، فيقومون من فُرُشهم كالموتى، نُشروا من قبورهم ـ وقال أبو نعيم: إذا كان فى أمة خمسة عشر رجلاً يستغفرون الله، كلّ سحر، لم يؤاخذ الله تلك الأمة بعذاب العامة ـ وكان ابن عمر يحيىّ الليل، ثم ينادى على غلامه: أسْحَرْنا؟

فيقول: لا، فيعاود الصلاة، ثم يسأل، فإذا قال: نعم، قعد يستغفر. وكان ابن مسعود يستغفر ربّه طوال السحر، وكان كثيراً ما يناجي ربّه في نواحي المسجد، يقول: يا ربّ، أمرتني فأطعتك، وهذا سَحَر فاغفرلي!. اللّهم اغفر لنا جميعاً يا أرحم الراحمين.

٤٩١ - سحق ومحق...

عند الصوفية: هو الاضمحلال، أي ذهول الصوفي تجاه قهر الحق. والمَحْق يلي السَّحْق، فلا يبقى للصوفي شئ من نفسه، فهو الفناء في عين الله تعالى.

والسحق: ذهاب كثافة المادة عن المتصوّف فلا يبقى له حسّ ولا وعي، وعندئذ يُمحق، أي يكون في حالة فناء كلّي. والمحق: أسرع وأتم من السحق، فكذا يقول الصوفية، ويسمون المحق محواً.

وعند ابن عربي: السحق ذهاب التركيب البدني تحت سلطان القهّار؛ والمحق هو الفناء في عين الله. وكان ابن عربي كثير المعاينة لحالتي السحق والمحق. - هكذا قيل.

٤٩٢ - سدرة...

سدرة المنتهى: هي نهاية المكانة التي يبلغها المتصوّف في سيره إلى الله تعالى، وما بعدها إلا المكانة المختصة بالحق تعالى وحده فلا يمكن البلوغ إلى ما بعدها، لأن المتصوف وقد بلغ هذه المكانة، يكون هناك مسحوقًا ممحوقًا، ومدموسًا مطموسًا، ملحقًا بالعدم المحض، لا وجود له فيما بعد السِّدرة.

وقيل: شجرة السدرة هي الإيمان، لأن الرسول ﷺ يقول: «مَن ملأ قلبه نبقاً ملأ الله قلبه إيماناً». والنَّبق هو ثمر شجرة السدرة، فمن ملأ من نبقها قلبه، دخله الإيمان ورسخ فيه.

٤٩٣ - سرّ...

يقول الله تعالى: ﴿فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ (طه ٧)، والسِّرّ: لطيفة مودعة في القلب كالروح في البدن، ونور روحاني هو آلة النفس، ونلحظه عند الصوفية بخاصة.

والسِّرّ محل المشاهدة، كما أن الروح محل المحبة؛ والقلب: محل المعرفة، وبدون السِّرّ تعجز النفس عن العمل. وقيل السِّرّ بعد القلب، وقيل بعد الروح وأعلى من القلب والروح وألطف؛ وقيل: إن ما أسموه سراً ليس كذلك، لأن السِّرّ ليس شيئاً مستقلاً بنفسه، ولكن حينما تصفو النفس، يعرج القلب من مقامه، أو تعرج الروح من مقامها، وهذا

هو الذى يسمونه سراً، وهذا السّرّ يظهر من كل من القلب والروح . والسّرّ ينفرد به الأولياء والعارفون بالله بما خصّهم الله به من الأسرار الإلهية والحقائق الربّانية. ولمّا أفشى الحلاّج السرّ، قال فيه الجنيد: لقد فَضَحَنَا الحلاّج، لأنه فشا بسرّ كان يجب أن يكتمه». وبسبب إفشاء السّرّ قُتل السهروردى، فقال:

وارحمتا للعاشقين تكلّفوا
ستر المحبة، والهوى فضّاح
بالسّرّ إنْ باحوا نُباح دماؤهم
وكذا دماء العاشقين تباح

وأسرار الصوفيه مع ذلك بِكر، لا يفتضّها وَهْم واهم.

والسّرّ سرّان: سرٌّ للحق: وهو ما أشرف عليه بلا واسطة؛ وسرٌّ للخلق: وهو ما أشرف عليه الحق بواسطة .

ويقال سِرٌّ من السِّرِّ للسِّرّ: وهو حقٌّ لا يظهر إلا بحق، وما ظهر بِخَلْقٍ فليس بسرّ

والسّرّ من جانب الحَقّ: هو ما يختص بكل شئ من جانب الحق عند التوجه الإيجادى إليه، المشار إليه بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ (النحل ٤٠)، ولهذا قيل لا يعرف الحقّ إلا الحقّ، ولا يطلب الحقّ إلا الحقّ، ولا يحبّ الحق إلا الحقّ، لأن ذلك السّرّ هو الطالب للحقّ، والمحبّ له، والعارف به، كما قال النبىّ ﷺ: «عرفتُ ربّى بربّى».

والسّرّ المجرّد، والهَمّ المجرّد: بمعنى واحد، وهو هَمُّ العبد وسِرُّه إذا تجرّد من جميع الأشغال، وتفرّد بمراقبة ذى الجلال، فلا تعارضه خواطر قاطعة، ولا عوارض مانعة، عن التوجه والإقبال، والقُرب والاتصال.

وسرّ السّرّ: ما انفرد به الحقّ عن العبد، كالعلم: ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ﴾ (الأنعام ٥٩) .

وسرّ التجلّيات: هو شهود كلّ شئ فى كل شئ.

وسرّ العلم: هو حقيقة سرّ العالم به، لأن العلم عين الحق فى الحقيقة، وغيره بالاعتبار.

وسرّ القَدَر: ما عَلَمَهُ الله من كل عين فى الأزل، مما انطبع فيها من أحوالها التى تُظهر عليها وجودها، فلا يحكم على شئ إلا بما علمه فى حال ثبوتها .

وسرّ الحال: ما يُعرف من مراد الله فيها.

وسرّ الحَقيّة: ما لا يُفشَى من حقيقة الحقّ في كل شئ.

وسرّ الربوبية: هو توقُّفها على المربوب.

وسرائر الآثار: هي الأسماء الإلهية التي هي بواطن الأكوان. والآثار هي الألوان أو الأعيان؛ والسرائر هي البواطن.

وسرائر الربوبية: هي ظهور الربّ بصور الأعيان، فهي من حيث مظهريتها للربّ القائم بذاته، الظاهر بتعيّناته، قائمةٌ به وموجودة بوجوده، فهي عبيد مربوبون من هذه الحيثية، والحقّ ربّ لها، فما حصلت الربوبية إلا بالحقّ والأعيان معدومة بحالها في الأزل، فلسرِّ الربوبية سرٌّ به ظهرت ولم تبطل. قال سهل: للربوبية سرّ، لو ظهر لبطلت الربوبية، لبطلان ما يتوقف به.

والسريرة: هي النية، يقال هو طيّب السريرة، أي صافي القلب وسليم النية. والعبد تخفى سريرته على الناس ولا تخفى على الله؛ والصالحون يخافون أن تكون سرائرهم أقبح من علانيتهم، فإذا كانت كذلك فذلك هو الجور، فإذا استوت السريرة والعلانية فذلك هو العدل، وإذا فضلت السريرة على العلانية، فذلك هو الفضل. وعن سفيان الثوري قال: ما أعبأ بما يظهر من عملي. وفي الحديث: «**إن عمل السرّ يفضل على عمل العلانية سبعين ضعفاً**». ويُروَى عنه ﷺ قوله: «**إن العبد ليعمل العمل في السرّ، فيدعه الشيطان عشرين سنة، ثم يدعوه إلى أن يُظهره ويذكّره، فيُنقَل من ديوان السرّ، إلى ديوان العلانية، فُينقص من ثواب العمل وفضله، ثم لا يزال يذكّره بذكره أعماله، حتى يذكرها للناس، ويتحلّى اطلاعهم عليها، ويسكن إلى ثنائهم، فيصير رياء**». وواضح أن الحديث موضوع لأن كلمة ديوان ليست من مفردات الرسول ﷺ.

٤٩٤ - سرار...

السَرار هو الأفضل، وفي الاصطلاح الصوفي: هو السالك الذي ينمحق في الحقّ عند الوصول التام. والسِرار أيضاً، وإلى ذلك الإشارة في الحديث عنه تعالى: **أوليائي تحت قبائي لا يعرفهم غيري، فهم أسرار أو سِرار**»، أي هم المحض والأفضل، والخالصون بيّنوا الخلاص، لأنهم وصلوا فاتّصلوا، فصاروا بالله وفي الله.

٤٩٥ - سرمدي...

ما لا أول له ولا آخر؛ والأزليّ مالا أول له؛ والأبديّ ما لا آخر له؛ والسَّرمديّ صفةٌ لله تعالى. والمصطلح صوفي أكثر منه فلسفي.

٤٩٦ - سَرير...

المرتبة الرحمانية التى هى فى المكانة الإلهية - باعتبار الرحمن اسمه تعالى وصفته يسبق كل الأسماء والصفات وترتبط به؛ والرحمانية كالسرير مستقر كل المراتب، ويقال ذهب عن سريره، يعنى ذهب عزّه ونعمته.

٤٩٧ - سعادة...

عند الصوفية هى الدعوة الأزلية. **والسعادة** نقيضها التعاسة. ومظاهر السعادة: الفرح والنشوة والزهو والرضا، وكلها أحوال تتقلب على النفس وتعتور المزاج، وترتبط بمواقف وأحوال. والسعادة حال من الأحوال، وعند الصوفية هى الرضا، وتتباين فى الشدّة، ويتمايز الناس بإزائها. وسعادة العامة لأسباب من خارجهم، وسعادة الصوفية لأسباب من داخلهم. والسعادة الفضلى هى المرتبطة بأحوال الذات والباطن، ويحصلها الصوفى بالتزام الاعتدال ونشدان الفضائل ورضا الله، وينالها بالعلم والعمل، وأولى مراتب العلم معرفة الناس، وأعلاها معرفة الله. وأولى مراتب العمل مجاهدة هذه النفس، وأعلاها مراقبة الله فى كل عمل. والصوفى العارف يعى أنه حُرّ، وترتبط السعادة بوعى الحرية، والسعادة عنده انسجام مع وجوده.

٤٩٨ - سعدية...

طريقة صوفية، وهى الجَبَاوِيّة أيضاً، نسبةً إلى سعد الجباوى، المتوفى سنة ١٣٣٥م، (انظر الطرق الصوفية) قيل عن مشايخها أنهم يشفون من الأمراض - وأهمها الجنون، بسقاية العليل ماء يطرحون فيه ورقة عليها كتابة دينية من خطّهم، ولهم عادات طقوسية وسحرية. وهذه الطقوس وأمثالها تمارس حتى الآن فى مصر.

٤٩٩ - سعة...

سعة القلب: هى تحقق الإنسان الكامل بحقيقة البرزخية الجامعة للإمكان والوجوب، فإن قلب الإنسان الكامل هو هذا البرزخ، ولهذا قال ﷺ عن ربّه: **﴿ما وسعنى أرضى وسمائى، ووسعنى قلب عبدى المؤمن﴾**.

٥٠٠ - سفر...

سُمّى السفر سفراً، لأنه يُسفر عن أخلاق الرجال. وليس من آداب الصوفيه السَّفَر للدوران والنظر إلى البلدان وطلب الأرزاق، ولكنهم يسافرون إلى الحج، والجهاد، ولقاء الشيوخ، وصلة الأرحام، وردّ المظالم، وطلب العلم، ولقاء من يفيدون منهم شيئاً من علوم أحوالهم، أو يسافرون

إلى مكان له فضل وشرف. ولا يتركون فى أسفارهم شيئاً من أخلاقهم وأورادهم، ولا يغتنمون قصراً لصلاة وإفطار شهر رمضان.

وقالوا يحتاج الصوفى المسافر إلى أربعة أشياء: علم يسوسه، وورع يحجزه، ووجد يحمله، وخُلُق يصونه.

ويروى أن بشراً الحافى قال: يا معشر القراء، سيحوا تَطيبوا، فإن الماء إذا كثر مكثه فى موضع تغيّر. - وفسّر بعضهم كلامه فقال: صِرْ بحراً حتى لا تتغير.

والسياحة أو السَّفر بمعنى مداومة المريد سَيْر الباطن، بقطع مسافة النفس الأمّارة بالسوء، فيبدّل أخلاقها المذمومة بالمحمودة، ويعانق الإقبال على الله بالصّدق والإخلاص، فتجتمع له المتفرّقات، ويستفيد فى سفره أكثر من حَضَره، وإلا فالسّفر لا يخلو من المتاعب والكُلَف، والمشوّشات والطوارق والنوازل، وخاصةً بالنسبة للضعفاء، والصوفية قوم بهم رقة حال وَوَهَن جسد، ولا يقدرون على السفر.

والسَّفر فى الاصطلاح: هو توجُّه القلب إلى الحق. والأسفار أربعة، الأول: السَّيْر إلى الله من منازل النفس إلى الوصول إلى الأفق المبين، وهو نهاية مقام القلب ومبدأ التجليات الأسمائية؛ والثانى: هو السَّير فى الله بالاتصاف بصفاته والتحقق بأسمائه إلى الأفق الأعلى وهو نهاية مقام الروح والحضرة الواحدية؛ والثالث: هو الترقّى إلى عين الجمع والحضرة الأحدية، وهو مقام «قاب قوسين» ما بقيت الإثنينة، فإذا ارتفعت فهو مقام «أو أدنى» وهو نهاية الولاية؛ والرابع: هو السير بالله عن الله للتكميل، وهو مقام البقاء بعد الفناء والفرق بعد الجمع. ونهاية السفر الأول: رفع حجُب الكثرة عن وجه الوحدة؛ ونهاية السفر الثانى: هو رفع حجاب الوحدة عن وجوه الكثرة العلمية الباطنية؛ ونهاية السفر الثالث: هو زوال التقييد الظاهر بالضدين الظاهر والباطن بالحصول فى أحدية عين الجميع؛ ونهاية السفر الرابع عند الرجوع عن الحق إلى الخلق فى مقام الاستقامة: هو أحدية الجمع والفرق بشهود اندراج الحق فى الخلق، واضمحلال الخلق فى الحق، حتى يرى عين الوحدة فى صور الكثرة، وصورة الكثرة فى عين الوحدة، وهو السير بالله عن الله للتكميل، وهو مقام البقاء بعد الفناء والفرق بعد الجمع.

٥٠١- سفلة...

السِّفلة فى المجال الصوفى، هو الاسم الذى أطلقه المشركون على أتباع محمد

ﷺ من الصوفية الأوائل من أهل الصُّفة، أمثال: خبّاب، وبلال، وصُهَيْب، وأبى هريرة، وابن مسعود وغيرهم، وكانوا نيفاً وثلاثمئة، وهم المقصودون بالآية: ﴿الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ (الأنعام ٥١)، والآية: ﴿الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ (الأنعام ٥٢)، وبقوله ﷺ : الحمد لله الذى جعل فى أمتى مَن أمرنى ربّى أن أبدأهم بالسلام»، يشير إلى الآية: ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (الأنعام ٥٤)، فهؤلاء هم السُّفلة إذن من أهل الله؛ وأمّا السِّفلة فى اللغة فبخلاف ذلك، فمنهم الذين يأكلون الدنيا بدينهم؛ وسِفْلة السِّفلة: هم الذين يُصلحون دنيا غيرهم بفساد دينهم؛ وهم الذين يأتون أبواب أصحاب السلطان يطلبون الشهادات؛ والذين ينافقون أصحاب النفوذ الجُدُد ويستقبلونهم بالترحاب، ويقال إنهم يتفلّسونهم، أى يستقبلونهم باللهو. فانظر يا أخى الفرق بين الحال والمقال: أهل الصُّفة الذين هم أهل الله، وأفضل الناس يقال أنهم سفلة الناس!!

٥٠٢-سُكْر...

السُّكْر: هو دَهَش يلحق سرّ المحبّ عند مشاهدة جمال المحبوب «فجأة»، فيذهل الحسّ، ويلم بالباطن فرحٌ وهزّة وانبساط، لتباعده عن عالم التفرقة. ويصيب السرّ الدهش والوله لتحيّر النظر فى شهود جمال الحق، وتسمى هذه الحالة سُكْراً، لمشاركتها السُّكر الظاهر فى الأوصاف المذكورة، سوى أن سبب ذهول العقل فى السُّكر المعنوى هو غلبة نور الشهود، وفى السُّكر الظاهر أو الطبيعى هو غشيان ظُلمة الطبيعة! والنور كما يستتر بالظلمة فإنه يستتر بالنور الغالب، كاستتار نور الكواكب بغلبة نور الشمس. وقلنا «فجأة» لأن صدمة نور الجمال فى النظرة الأولى تكون أقوى، وتقل بالتدريج فى النظرات بعدها، بعد حصول الأُنس، واستقرار نازل الحال، وعودة العقل إلى عالم النفس، وتسمى هذه الحالة صحواً، كالمحبّ الذى دخل على محبوبه فجأة فأذهله مشاهدته حتى غاب متحيراً عن العقل والتمييز، فلما كرر النظر إلى محاسنه وجماله، واستأنس بلقائه ووصاله، عاد إليه التمييز وزال الدهش والتحير.

والسُّكر سكران: سُكرٌ بخمر المودة، وسُكرٌ بكأس المحبة، والأول منشؤه النظر إلى النعمة، والثانى لاعلة له سوى النظر إلى المُنعم.

والسُّكر حال شريف يعتور عليه صحوان: صحوٌ قبله هو تفرقة محضة وليس من الأحوال فى شئ، وصحوٌ بعده ويسمى الصحو الثانى، وصحو الجمع، والصحو بعد المحو، وهو حال يصير مقاماً، ويكون أعزّ من السّكر لاشتماله على الجمع والتفرقة، ولا يبلغه صاحبه إلا إذا مرّ على السُّكر والجمع. وحال الشهود فى السُّكر لا تدوم فى البداية ولكنها تتراوح السائر بين الصحو الأول والسُّكر الماحى له، وتسمى هذه الحالة تلويناً، فإذا استقر حال المشاهدة سميت هذه الحالة تمكيناً، لدوام وجدان السكران على حال سُكره، إلا أن صاحب السُّكر لا يدوم وجدانه ، وإنما هو يجد تارة ويفقد أخرى، ويكون حاله حال التلوين، ومناط تلوينه الوجود الذى هو موضوع الصحو الأول. والسالك لا يستغنى عن السُّكر طالما أنه لم يتخلص من الصحو الأول ويتعاوره أو يعود إليه، فإذا تخلّص منه وخلص إلى الصحو الثانى صار غنياً عن السُّكر .

وصاحب السُّكر: قد يكون حاله هو حال الانبساط فقط إذا لم يستوف حال سُكره، وقد تكون حاله هو حال المتساكر إذا لم يستوف الوارد الذى يستحدث فيه السُّكر. وقد يزيد سُكره لدرجة الغيبة، والغيبة تَحدُث بالنظر إلى ما يغلب على وعى صاحبها من رهبة وخوف ورغبة ورجاء، ولكن السُّكر لا يكون إلا لأصحاب المواجيد عندما يُكاشَف العبد بنعت الجمال، فتطيب الروح ويهيم القلب ويحصل السُّكر.

والسُّكر، والغَلَبَة: لفظان اصطلح عليهما القوم للدلالة على غلبة المحبة لله. وكان أبو يزيد البسطامى يفضّل السُّكر على الصحو. وكان الجنيد يفضّل الصحو على السُّكر.

والصَّحو طريق أهل السُّنّة، لأن السُّكر يشيع الاضطراب النفسى ويفقد العقل. والسُّكر أن يشهد العبد فناء نفسه مع وجود صفاته وهذا حجاب، وأما الصَّحو فشهود البقاء مع فناء الصفات وهذا كشفٌ حقيقى للحجاب.

والصَّحو يكون بحسب السُّكر، فمن كان سُكره بحقّ كان صحوه بحقّ. . والصحو والسُّكر لا يكونان إلا بعد الذَّوْق والشُّرب (انظر أيضاً الصحو).

٥٠٣-سكوت...

السكوت ضربان: سكوت الظاهر، وسكوت بالقلب والضمائر، فالمتوكل يسكت قلبه عن تقاضي الأرزاق، والمتعفف يسكت قلبه مقابلةً للحكم بنعت الوفاق، فهذا بجميل صُنعه واثق، وهذا بجميع حكمه قانع.

وربما يكون سبب السكوت حيرة البديهة، فإنه عند ورود الكشوف تخرّس العبارات، فلا بيان ولا نطق، وتُطمس الشواهد هناك فلا علم ولا حس.

وقيل في السكوت الصوفي أيضاً: إن المحب إذا سكت هلك، فالأصل أن ينطق المحب، والعارف إذا سكت مَلَك، والأصل أن يصمت العارف ليزداد معرفة.

٥٠٤-سكون...

هو الاستقرار في عين أحدية الذات.

٥٠٥-سكينة...

ما يجده القلب من الطمأنينة عند تنزُّل الغيب، وهي نور في القلب يسكن إلى شاهده ويطمئن. ويُروى أن واحداً من أهل الله كان يقرأ ليلةً سورة الكهف، وعنده فرسٌ مربوط، فجعل الفرس يدور ويدنو وينفر، فلما أصبح الرجل، أتى النبيّ ﷺ، فذكر له ذلك، فقال النبيّ ﷺ: تلك السكينة تنزّلت للقرآن. - وقيل إن اضطراب الفرس كان لنزول الملائكة تستمع للقرآن، فنفرت الفرس، ثم اطمأنت. وهكذا نفس الصوفي يضطرب قلبه ويسكن بالذُكر.

٥٠٦-سلام...

السلام هو تجمُّل النفس عن المحنة في الدارين؛ والسلام عند لقاء أهل الله: بالكلام، وهم منهيون عن السلام: بالإشارة بالإصبع، أو باليد، إلا إن كان الآخر بعيداً لن يسمعك، وقد نهى الرسول ﷺ عن السلام: بطريقة اليهود والنصارى، قال: لا تسلّموا تسليم اليهود والنصارى، فإن تسليم اليهود بالأكفّ، والنصارى بالإشارة» والتسليم بالأكف: هو أن يضرب كفّه بكفّ الآخر؛ والتسليم بالإشارة: يعني التحية باليد أو بالإصبع. وما كان النبيّ ﷺ ينحني إذا سلّم، وإنما يقول «السلام» - وكفى، وما كان يُقبّل يداً، ونهى عن القيام له أو لأي أحد كما يفعل الأعاجم، وإنما كان «يصافح»، أي «يسلّم باليد في هدوء»، فإذا كان الآخر قادماً من سفر فربما تعانقا بلا تقبيل. وهكذا يفعل الصوفية من أهل السُنة.

٥٠٧-سلب...

يطلق على سلب اختيار السالك في

جميع الأحوال والأعمال الظاهرة والباطنة.

٥٠٨- سلسلة...

جُعلت السلاسل الصوفية: من أجل تثبيت مصادر الصوفي، وتلقيه الطريقة والسرّ عن شيخ أو قيّم أو إمام؛ والمريد الصادق إذا دخل تحت حكم الشيخ وصحبه وتأدّب بآدابه، يسرى من باطن الشيخ حالٌ إلى باطن المريد، كسراج يقتبس من سراج، وكلام الشيخ يلقّح المريد، ويكون مقام الشيخ مستودع الحال، وينتقل من الشيخ إلى المريد بواسطة الصُّحبة وسماع المقال.

والسلسلة الصوفية: بمثابة شجرة النسب، تحدد أسلاف صاحب الطريقة من الصوفية. والمثال لذلك ما يورده ابن النديم عن جعفر الخلدى، يقول: أخذتُ عن أبى القاسم الجنيد بن محمد، الذى أخذ عن ابن الحسن السَّرىّ بن المغلس السَّقطى، والسَّرى أخذ عن معروف الكرخى، الذى أخذ عن فرقد السبخى، الذى أخذ عن الحسن البصرى، الذى أخذ عن أنس بن مالك، ولقى الحسن سبعين من البدريين.

وعن القشيرى يروى عن سلسلة أبى علىّ الدقّاق، قال: إنه أخذ هذا الطريق عن النصراباذى، عن الشبلى، عن الجنيد، عن السرىّ، عن معروف الكرخى، عن داود الطائى، وداود الطائى لقى التابعين. وهكذا.

ومن أشهر السلاسل: السلسلة الأدهمية، نسبةً إلى إبراهيم بن أدهم؛ والسلسلة الطيفورية - نسبةً إلى البسطامى، ومنها شعبة تسمى الشطّارية؛ والسلسلة المعروفية؛ والسلسلة السهروردية؛ والسلسلة المولوية، نسبةً إلى مولانا جلال الدين الرومى؛ والسلسلة النوربخشية، نسبةً إلى محمد نوربخش؛ والسلسلة النعمة اللهية نسبةً إلى نعمة الله الولىّ؛ والسلسلة الكبروية نسبةً إلى نجم الدين كبرى؛ والسلسلة الكميلية نسبةً إلى كميل بن زياد؛ والسلسلة الذهبية الاغتشاشية المتصلة بعبد الله المشهدى؛ والسلسلة البكتاشية، نسبةً إلى الحاج بكتاش ولىّ؛ والسلسلة الرفاعية، نسبةً إلى أحمد الرفاعى؛ والسلسلة النقشبندية، نسبةً إلى بهاء الدين النقشبندى؛ والسلسلة الجمالية، نسبةً إلى جمال الدين الأردستانى؛ والسلسلة القونيوية، نسبةً إلى صدر الدين القونيوى؛ والسلسلة القادرية، نسبةً إلى عبد القادر الجيلانى؛ وسلسلة بيرحاجات، إلخ. وبعض هذه السلاسل قد تُسمّى بأسماء أخرى، كالهمدانية التى تُنسب إلى على الهمدانى، فإنها هى نفسها

الذهبية النوربخشية، وتنتهي بالذهبية الاغتشاشية؛ والخلوتيون نسبةً إلى محمد الخلوتي، هي نفسها سلسلة الخواجكان التي تنتهي بالخواجة يوسف الهمداني؛ كذلك النقشبندية. وتُنسب الشاذلية إلى أبي الحسن الشاذلي.

٥٠٩- سلوك...

هو تهذيب الأخلاق ليستعد العبد للوصول بتطهير نفسه عن الأخلاق الذميمة، مثل حُبّ الدنيا والجاه، ومثل الحقد والحسد، والكِبْر والبخل، والعُجب والكذب، والغيبة والحرص والظلم، ونحوها من المعاصي، بالنهج على الأخلاق الحميدة، مثل العلم، والحلم، والحياء، والرضا، والعدالة ونحوها.

والسلوك يسمونه السعي، لأن السالك يسلك سعياً في طريق الله حتى يبلغ المقصود. والمجذوب السالك هو الذي انجذب بقلبه لله فرجع إليه وسلك الطريق، فإذا أتمّه ووصلته جذبة الحق سُمّي السالك المجذوب ، وإذا لم تصله جذبة الحق، لا في الأول ولا في الآخر، فهو السالك فقط.

والسالك يمارس السلوك نحو الكمال، وقد تصيبه وقفة كأن يعجز عن تذوق الطاعة فيسمى حينئذ «الواقف»، فإذا تاب واستأنف فإنه يواصل ويسمى «مواصلاً»، وإذا ظل مكانه يسمى «راجعاً».

والسالكون ثلاثة: سالكٌ جلالي، أي ربّاني، وهو الأميَل إلى الشريعة؛ وسالكٌ جمّالي، باعتبار أنه جمّال للحقيقة، وهو إلى الحقيقة أميَل؛ وسالكٌ كماليّ، وهو يجمع بين الاثنين على حدّ سواء، وهو منهما أكمل وأفضل.

والتعثّر في السلوك على سبعة أقسام: الإعراض، والحجاب، والتفاصل، وسلب المزيد، وسلب القديم، والتسلّي، والعداوة، فمثلاً إذا أتى عاشق حركة غير مستحبة أعرض عنه المعشوق - وذلك هو الإعراض؛ فإذا لم يتب وأصرّ على خطئه فذلك هو الحجاب؛ وإذا تباطأ فذلك حجاب التفاصل، أي أن ينفصل المعشوق عنه؛ فإذا لم يتب فذلك سلب المزيد - أي المزيد من الطاعة؛ فإذا لم يعتذر فذلك سلب القديم - أي الطاعة القديمة التي كانت له قبل المزيد؛ فإذا لم يعتذر أيضاً فذلك هو التسلّي- أي يستقر القلب على فراق المعشوق؛ فإذا لم يعتذر رغم ذلك فتلك هي العداوة.

والسالك يتوسط المريد والمنتهي، وهو نوعان: سالك هالك يكون في الابتداء وعاجز عن إدراك الحقيقة؛ وسالك واصل

يتقيّد بالحقيقة من بداية السلوك، فلا يبقى عليه أثر غيرى، ويفنى فى التوحيد ويصير بلا اسم ولا رسم.

٥١٠-سماع...

يقول النبىّ ﷺ : حسّنوا القرآن بأصواتكم فإن الصوت الحسن يزيد القرآن حُسناً. ويقول: لكل شئ حلية، وحلية القرآن الصوت الحسن.

والسماع فى رأى الدقّاق: حرام للعوام لبقاء نفوسهم، ومباح للزهّاد لحصول مجاهداتهم، ومستحب للصوفية لحياة قلوبهم.

وفى رأى الجنيد: السماع وارد حق يزعج القلوب إلى الحق، فمن أصغى إليه بحق تحقق، ومن أصغى إليه بنفس تزندق.

وعند الشبلى: السماع ظاهرُه فتنة، وباطنه عِبْرة، فمن عرف الإشارة يحلّ له استماع العبرة، وإلاّ فقد استدعى الفتنة.

والسماع يحتاج لثلاثة أشياء: زمان ومكان وإخوان؛ والسمّاعون ثلاثة: فمنهم من يسمع بالطبع - ويشترك فى ذلك الخاصة والعامة، وكل من يستطيب الصوت الطيب؛ ومنهم من يسمع بالحال، فإنه يتأمل إذا سمع حتى يَرِد عليه معنى يوافق حاله، فيكون كالقادح يهيّجه، فتظهر عليه صفاته فيتحرك ويضطرب؛ ومنهم من يسمع بالحقّ فلا تهيّجه الأحوال، لأنها ممزوجة بالبشرية، حتى يكون سماعه بالله ولله ومن الله وإلى الله، وهؤلاء هم الذين وصلوا إلى الحقائق وفنوا عن الأفعال والأقوال، فشهدوا من موارد السماع على أسرارهم إظهار حكمته وآثار قدرته وغرائب علمه.

وقالوا السماع على ثلاثة أوجه: فوجهٌ منه للمريدين المبتدئين ويُخشَى عليهم منه الفتنة؛ ووجهٌ للصدّيقين يطلبون الزيادة فى أحوالهم؛ ووجهٌ لأهل الاستقامة من العارفين فلا يتأبّون على الله فيما يرد على قلوبهم عند السماع من الحركة والسكون.

ومن الصوفية من يطلب القرآن ويُقصِر السماع عليه، ومن يطلب سماع القصائد، وقد قال النبىّ ﷺ إن من الشعر لحكمة. وقال هؤلاء التطريب فى الشعر والألحان وليس فى القرآن. ومنهم من يؤثر الذكر، والمقصود فى كل ما يسمعون ما يصادف قلوبهم من المواجيد فيقوَى الوجد. والمعوّل عليه مقاصد المستمعين فيما يسمعون. (أنظر الصوت).

ومن آدابهم فى السماع: أن لا ينفعلوا فيه خوفاً من الوقوع فى النفاق. ولهذا

قيل: السماع لاهى وإلهى.. وسئل ذو النون المصرى عن السماع عند الصوت الحسن فقال: معلول، وإن كانت فيه مخاطبات وإشارات. وقال: السماع وارد حق يزعج القلوب إلى حب القُرب من حضرة الحق تعالى، فمن أصغى إليه بحق تحقق، ومن أصغى إليه بنفس تزندق - أى خالف باطنه ظاهره. وقال الجنيد: السماع فتنة لمن يطلبه، وترويح لمن يصادفه. ومن مثل السماع المُحدِث للوجد عند الصوفية قول القائل :

لى بالحجاز وديعةٌ خلّفتها

أودعتها يوم الفراق دموعى

وفى رواية عن الشبلى: السماع ظاهره فتنة، وباطنه عبرة، فمن عرف السماع وفتنته خاف منه. ولا يصلح السماع إلا لمن ذبح نفسه بسيوف المجاهدات، وحىّ قلبه بنور الموافقات، وهو لأهل المعرفة غذاء لأرواحهم.

وقال أبو عثمان المغربى: من ادّعى السماع بصدقٍ ولم يستمع من صرير الباب، وصوت الطيور، وتصفيق الرياح، فهو مفترٍ مدّعٍ، وذلك لأن الباعث للسماع عند الصادقين شهودهم أن كل شىء ورد عليهم إنما ورد من حضرة الله تعالى، فهم مع صاحب الحضرة لا مع من ورد عليهم، ولذلك تساوى عندهم صوت الحمار وصوت أحسن الناس صوتاً.

ثم إذا غلب حال القوم فى السماع، فمن الأدب التسليم لهم إذا صاحوا أو مزّقوا ثيابهم أو بكوا، على حسب ما يكون من أحوالهم.

وكان الشيخ محيى الدين يقول: إذا كان الرجل ممن لا يجد قلبه مع الله تعالى إلا فى السماع، فالواجب عليه ترك السماع أصلاً، لأن فى ذلك مكراً إلهياً خفياً لايعرفه كل أحد. وإنْ كان يجد قلبه فيه وفى غيره، ولكن يجده فى النغمات أكثر، فحضوره حرام. ولا نعنى بسماع النغمات الغناء بالشعر فقط، وإنما نعنى سماع النغمات بالغناء وغيره. قال: وإذا وجد الفقير (يعنى الصوفى) قلبه فى سماع القرآن لحُسن صوت القارئ، ولم يجد قلبه فيه إذا سمعه من قارئ آخر، فسماعه معلول.

وقيل لإبراهيم الخوّاص: ما سبب تحرّك الإنسان عند سماع الأشعار، ويجد فى سماعها ما لايجد فى سماع القرآن ؟ فقال: إنما لم يغلب على الناس الشواجد عند سماع القرآن لثقل ما فيه من التكاليف، فكأنه صدمة لايمكن التحوّل معها، بخلاف سماع الأشعار، لأنها تروح القلب لعدم التكاليف فيها.

وعن الشيخ محيى الدين : إن من أدب القوم فى السماع، أن لا يكون هناك من ليس من أهل طريقتهم، أو من ينكر السماع ولا يقول به، لأن النفس تحب السماع بالطبع، وإنما تكرهه لمشاهدتها حالة أخرى أعظم من السماع، حيث يقبض من ينكر السماع القوم عنه، ويجب فى صحة السماع أن يكون السامعون على قلب رجل واحد.

ولا ينبغى للفقراء (الصوفية) أن يطلبوا من القوّال إنشاء شىء معين، بل يتركوه على حسب ما ينطقه الله به. وإذا ظهر للقوم سآمة من القوّال أو كسل، أو رأوا صوته يفرق قلوبهم، فمن الأدب أن يُسكتوه.

ولا ينبغى أن يُنشَد فى مجالس الفقراء إلا الشعر الذى قصد به قائله ذكر الله بلسان التغزُّل أو غيره، بخلاف الشعر الذى قَصَد به قائله غير الله، فإنه بمنزلة من يتوضأ بالنجاسة! والغزل فى النساء مما أُهل به لغير الله، والنية لها أثر فى الأشياء.

٥١١- سمع...

هو لله وصفٌ نفسىٌّ اقتضاه كماله فى نفسه، فهو سبحانه يسمع كلام نفسه وشأنه، كما يسمع مخلوقاته من حيث منطقها وأحوالها، فسماعه لنفسه اقتضته أسماؤه وصفاته من اعتباراتها وطلبها لمؤثراتها، وإجابته لنفسه هو إبراز تلك المقتضيات بظهور تلك الآثار للأسماء والصفات. ومن هذا الإسماع الثانى تعليم الرحمن القرآن لعباده المخصوصين بذاته، الذين نبّه عليهم الرسول بقوله: أهل القرآن أهل الله وخاصته، فيسمع العبد الذاتى مخاطبة الأوصاف والأسماء للذات فيجيبها إجابة الموصوف للصفات. وهذا السماع الثانى أعزّ من السماع الكلامى، فإن الحق إذا أعار عبده الصفة السمعية، يسمع ذلك العبد كلام الله بسمع الله؛ بخلاف السمع الثانى الذى يعلّم الرحمن عباده القرآن، فإذا الصفة السمعية تكون هنا للعبد حقيقة ذاتية غير مستعارة ولا مستفادة، وإلى ذلك الإشارة فى قوله لمحمد ﷺ : ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ (العلق١)، فإن هذه القراءة قراءة أهل الخصوص، وهم أهل القرآن، أعنى الذاتيين المحمديين؛ أما قراءة الكلام الإلهى وسماعه من ذات الله بسمع الله تعالى، فإنها قراءة الفرقان، وهو قراءة أهل الاصطفاء، وهم النفسيون الموسويون. قال الله تعالى لموسى عليه السلام: ﴿اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي﴾ (الأعراف١٤٤)، وقال: ﴿وَاصْطَنَعْتُكَ

لِنَفْسِي﴾ (طه٤١)، وهم لذلك نفسيون، أقصد أهل الفرقان، بينما أهل القرآن ذاتيون، وبينهما من الفرق ما بين مقام الحبيب ومقام الكليم.

٥١٢- سمسمة...

هي اللطيفة تشبه نبات السمسم؛ وعند الصوفية: السِمْسِمة معرفة تدق على العبارة والبيان.

٥١٣- سنة...

السُّنة الطريقة؛ والسُّنة النبوية: هي طريقته ونهجه ﷺ، وقال: ما أمرتكم به فخذوه، وما نهيتكم عنه فانتهوا؛ وقال في موعظته قبل أن يقضي: قد تركتكم على المحجة البيضاء، ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك. من يَعِشْ منكم فسيرى اختلافاً كثيراً، فعليكم بما عرفتم من سُنّتي وسُنّة الخلفاء الراشدين المهديين بعدي. عَضُّوا عليها بالنواجذ، وإياكم والأمور المُحْدَثات، فإن كل بدعة ضلالة.... ـ الحديث. ووعظ عمر بن عبدالعزيز أحدهم فقال: أوصيك بتقوى الله والاقتصاد في أمره، واتباع سُنّة رسول الله ﷺ، وتَرْك ما أحدثَ المُحدثون بعد ما جرت به سُنّته وكُفُوا مئونته، فعليك بلزوم الجماعة فإنها لك بإذن الله عصمة. وقال سهل بن عبدالله التُستري: عليكم بالاقتداء بالأثر والسُنّة، فإني أخاف أنه سيأتي عن قليل، زمانٌ إذا ذَكَر إنسانٌ النبيّ ﷺ والاقتداءَ به في جميع أحواله، ذمّوه ونفروا عنه، وتبرّأوا منه، وأذلّوه وأهانوه. أو قال: الذي أظهر البدع هم السُنّة، فقد ظاهروا أهل البدع وقاولوهم، فظهرت من ذلك اليوم أقاويل أهل البدع في العامة، وسمعها من لم يكن يسمعها. ولو كانوا قد تركوا أهل البدع، ولم يكلموهم، لمات كل واحد منهم على ما في صدره، ولم يظهر منه شيء، وجمعه معه إلى قبره.

وليس هناك حديث أشدّ من هذا الحديث في المبتدعة أعداء السُنّة:

«حجب الله الجنّة عن صاحب البدعة».

وقال سهل: من أراد أن يحافظ على سُنّة رسوله ﷺ، فلا يتعاون مع الحكام، أهل الجور والسلطان، ولا يخلونّ بالنسوان؛ وقال: اتّبعوا سُنّة نبيكم ﷺ، ولا تبتدعوا. أجل: اتّبعوا ولا تبتدعوا، فقد كُفيتم.

وسُنن الصوفية: أي آدابهم، وهي كثيرة في كل مجال، ومن ذلك شدّ الوسط، فقد أمر به الرسول ﷺ أثناء الحج. ومن ذلك العصا، والصوفية لاتفارقهم العصا. وفي السفر والحضر لاتفارقهم الإبرة والخيط والمقراض والسواك والمشط والسجادة. وكون أحدهم لا يقعد على سجادة الآخر مسنونٌ، فقد ورد في

الحديث: لا يؤُمّ الرجل فى سلطانه ولا فى أهله، ولا يُجلَس على تَكْرِمتـه إلا بإذنه. (والتكرمة السجادة التى يجلس عليها إكراماً وتعظيماً).

وأهل السُّنّة هم أهل الجماعة، وهم أشد الفرق إنكاراً للصوفية والتصوّف، قالوا هؤلاء تغلب عليهم قلوبهم وأهواؤهم وإرادتهم، فيكون حبهم أغلب الأشياء عليهم، ويدّعون الخُلّة من الله؛ وجعلوا للصوفى أن يسرق ويزنى ويشرب الخمر ويفعل الفاحشة على وجه الخُلّة التى بينه وبين الله، لا على وجه الحلال، وإنما على وجه الخلّة، كما يحل للخليل الأخذ من مال خليله بغير إذنه. ومن الصوفية الذين قالوا بذلك رباح وكُلَيْب. وبعضهم يدّعى الدخول فى مضمار الميدان ليبلغ غاية السبقة من تضمير أنفسهم وحملها على المكروه؛ وبعضهم يقولون إن مَن تَرَك الدنيا ترك طِيب طعامها، ولذيذ شرابها، ولين لباسها، فاشتغلت قلوبهم بالتعلّق بتركها، فأهملوا عوائلهم وبيوتهم والمجتمعات والناس، وتركوا العِلْم والتعلُّم، والعمل والتعمُّل، وأهملوا القرآن والحديث، واهتموا بالخطرات والمواعظ، وقالوا بالحلول، وتجاوزوا الحدود فى العبادات، ودعوا إلى الخروج من الأموال، واتخذوا ملابس خاصة، واصطنعوا السماع والرقص واستدعاء الوَجْد، وأولعوا بصُحبة الأحداث، ودعوا إلى التوكل، وترك الاحتراز فى الأموال، وترك التداوى، وآثروا الوحدة والعزلة، وعدم الزواج وعدم الإنجاب، ودعوا إلى السياحة إلى لا مكان، ولا إلى طلب علم، وادّعوا الكرامات، وكانت لهم شطحات ودعاوى، وقالوا بوحدة الوجود، والاتحاد العام، والحلول، ولم يفرّقوا بين المطلق والمعين، واستندوا إلى الرؤى فى استخراج الأحكام. وكل ذلك باطل، وأهل السُّنّة على الحقّ، ومع ذلك فليس كل الصوفية على هذا الحال، وإنما أغلب المنحرفين صوفية الشيعة، وتابعهم بعض صوفية السُّنّة عن غير وعى.

٥١٤-السنية...

الطريقة السُّنّية طريقة أهل السُّنّة، ومنها الطريقة السعدية، نسبةً إلى سعد الدين محمد ابن المؤيد بن حمويه، المتوفى سنة ٦٥٠هـ (١٢٥٢م)، وتقوم الطريقة السُّنّية عموماً على التفرقة بين الظاهر والباطن؛ وهى سُنّية فى الظاهر، من حيث نسبتها إلى سُنّة رسول الله ﷺ؛ وسُنّية فى الباطن، من حيث نسبتها إلى سُنّة وجه الله، فالسعيد من سعد بمتابعة النبىّ ﷺ، وهذه أدنى مراتب السعادة، وأعلى مراتب السعادة أن يتبع سُنّة وجه الله، ومن تكون هذه المرتبة له

فهو سعيد السعداء، وعلى هذا الاسم كانت خانقاه سعيد السعداء فى مصر والشام، وكانت سَمية الطريق باسم الطريقة السعدية والسعيدية أيضاً.

والسُّنّية عموماً: أصلها طريقة الجنيد الذى قال: كلّ الطرق مسدودة على الخلق إلا من اقتفى أثر رسول الله ﷺ، واتّبع سُنّته، ولزم طريقته، فإن طرق الخيرات كلها مفتوحة عليه (انظر أيضاً الطريقة السعدية).

515 - سهروردية...

طريقة شهاب الدين السهروردى، المقتول سنة ٥٨٧هـ، وفلسفته فيها إشراقية، وامتداد للسلسلة التى بدأها الحلاّج. (انظر أيضاً السهروردى والحلاّج فى الجزء الأول).

516 - سهلية...

طريقة سهل بن عبد الله التُسْتُرى، المتوفى سنة ٢٨٣هـ، وتقوم على الاجتهاد ورياضة النفس والمجاهدة. (انظر أيضاً سهل فى الجزء الأول).

517 - سؤال...

الصوفية لا يسألون إلا الله، والقول فيهم: ﴿لا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا﴾ (البقرة ٢٧٣)، فإذا سألوا فعلاً فلا ينبغى ردّهم: ﴿وَأَمَّا السَّائِلَ فَلا تَنْهَرْ﴾ (الضحى ١٠)، وإن سألوا فليسألوا إخوانهم، وفى الحديث: «اطلبوا الحوائج عند حِسان الوجوه». والأصوب عدم السؤال حتى لا يشتغلوا بغير الله، وقد يسألون ليذوقوا ذُلّ السؤال. والأمر بالسؤال للتربية لا للكسب، وسؤالهم لغير الله علامة حضور والتفات عن غيره، لا علامة استغناء عن الله.

وسؤالا الحضرتين: الأول: هو السؤال الصادر عن حضرة الوجوب بلسان الأسماء الإلهية، الطالبة من نفس الرحمن ظهورها بصور الأعيان؛ والثانى: هو السؤال الصادر عن حضرة الإمكان بلسان الأعيان، الطالبة ظهورها بالأسماء. وإمداد النفس على الاتصال هو إجابة سؤالهما أبداً.

518 - سواء...

هو بطون الحقّ فى الخَلْق، وبطون الخلق فى الحق، فإن التعيّنات الخلقية ستائر الحق تعالى، والحق ظاهر فى نفسها، فإن الخلقية معقولة باقية على عدميتها فى وجود الحق المشهود الظاهر بِحَسَبها.

519 - سواد...

سواد الوجه فى الدارين: هو الفناء فى الله بالكلية بحيث لا وجود لصاحبه أصلاً، ظاهراً وباطناً، دنيا وآخرة.

والسواد: الأعظم: هو الفقر الحقيقى والرجوع إلى العدم الأصلى.

والسواد اختاره الصوفية الشيعة شعاراً لهم ومظهر حزن، يقولون:

ومَن الذى أنكر من تسويدنا
ومن عليه لجّ فى تفنيدنا
وإنما كان حِداد الهيم
علىَ الحسين وعلى إبراهيم

والحزن ليس على الحسين بن علىّ وإبراهيم الإمام فقط، ولكنه على شهداء الحق عموماً، فعندما قُتل الحلاّج وصُلب لبس الحلاجيون السواد وناحوا على «سيد الشهداء» ـ هكذا قالوا، وفعل الإشراقيون على السهروردى المقتول نفس الشىء، وذلك ما استثار المستشرق ماسينيون فى قصة الحلاّج: أن الحلاّج «سيد الشهداء»، تماماً كالمسيح «سيد الشهداء». ونُسب هذا الحزن المنظم الجماعى، الذى اتسمت به هذه الفرق من الصوفية، إلى النّوْح الجماعى عند الشيعة على مقتل الحسين سيد الشهداء، والفكرة أصلاً من الأدب الشعبى الدينى لدى الشعوب القديمة، ففى ملحمة جلجامش التى ترجع إلى نحو سنة ٣٢٠٠ ق. م، أن عشتار ظلت تبكى تموز حبيبها سنة بعد سنة، ومن ثم كان الندب والبكاء على تموز إله الربيع، الذى قيل إنه كان يستشهد أوائل كل خريف، وكان البابليون ينشدون أناشيد الحزن لذكرى موته أوائل تموز، ودعى الشهر بهذا الاسم لهذا السبب، وانتقلت البكائيات إلى الإله مردوك فى اليوم السابع من نيسان، حينما يموت ويرتفع إلى السماء، وانتشر التقليد إلى أنحاء العالم القديم. وعند الإسرائيليين كانت النسوة تبكين على الربّ المسفوح، وفى مصر كان الإله أوزيريس، وفى اليونان صار اسمه أدونيس، وتقوم قيامته فى اليوم الخامس لدفنه مثلما فى النصرانية، وذكرى أدونيس تكون فى نفس اليوم لذكرى المسيح، يعنى المسألة فولكلور وليس حقيقة، وما يسمى «الجمعة الحزينة»، و«جمعة الآلام»، و«يوم عاشوراء»، إحياء لهذه الذكرى، ودخل هذا اليوم فى العراق عند الصابئة فيما يسمونه عيد البوقات ـ أى النساء الباكيات، وفى ظل هذه الأحوال كان الناس يتشحون بالسواد، ومن الغريب أن الصورة الدرامية التى صُوِّر بها مقتل الحلاج وحرقه، ثم تذرية ترابه، هى نفسها الصورة التى عليها احتفالات الصابئة بموْت إلههم، ولقد نصب الشيعة مأتم الحسين «ثلاثة أيام» كالذى يجرى الآن للموتى حتى عند

السُّنة، والنصارى قالوا إن المسيح قام من قبره فى اليوم الثالث من موته. وخلاصة الأمر: أن الصوفية لبسوا السواد، تشبهاً بالنصارى والصابئة، وغيرهم من الحلوليين والمهدويين، وتنافروا حول ذلك، ولكنهم كما قيل فيهم: إنهم بخير ما تنافروا، فإن اصطلحوا هلكوا، حتى قال فيهم الشُّشْترى المتوفى سنة ٢٨٣هـ (٨٩٦م): إن الصوفية لا يستنكرون شيئاً، ولكل فعل عندهم تأويل، وهم يعذرون كل أحد على ما يفعل. - ويظل السؤال: فلماذا لبسوا السواد؟ والثابت أنهم هم أنفسهم لا يعرفون! والغالب إذن أن يقال: لبسوه حزناً، لأن مزاجهم النفسى مزاج سوداوى!!

٥٢٠ - سُورة...

السُّوَر عبارة عن الصور الذاتية الكمالية، وهى تجلّيات الكمال. وأصل تسمية السورة لتمامها وكمالها من قول العرب للناقة التامة: سُورة، وجمعها سُوَر.

٥٢١ - سيّاحون...

السيّاحون هم الصوفية، أُسمُوا كذلك لكثرة أسفارهم وسياحاتهم، طلباً للعلم، وتواصلاً مع الإخوان، وللحج أو الجهاد. والصوفى السيّاح تلزمه سجادة بالإضافة إلى ما يلزم المسافر، وقديماً كان الصوفية يصحبون المرقعة، ومشطاً، ومقصاً، وإبرةً، ومكحلة.

٥٢٢ - سيّار...

فى اللغة هو الكثير السَّيْر والسيّارات أجرام سماوية تدور حول الشمس وتستمد منها نورها. وفى التصوف، السيّار: هو الصوفى المتجرِّد، يغيب فى الذِّكر عمّن حوله، ويتحول إلى سيّار يسرى فى الكون ويقرأ آياته ويحيط بغيبه.

٥٢٣ - سيّارية...

طريقة صوفية أسّسها أبو العبّاس السيّارى، بمرو، أواسط القرن الخامس الهجرى، وتقوم على مذهب الجمع والتفرقة، فكل ما ينسب إلى السالك هو تفرقة، وكل ما كان من جانب الله فهو جمع، وكل إنسان لابد له من تفرقة إذا كانت له عبودية لله، وكل من ليس له جمع فليست له تفرقة، والتفرقة بداية الإرادة والجمع نهايتها. وجمع الجمع هو المقام الأعلى والأكمل للجمع، لأن الجمع مشاهدة الأشياء بواسطة الله فلا يرى العارف فاعلاً فى هذه الحال إلا الله، بينما جمع الجمع هو مقام الفناء عمّا سوى الله، والذهول التام، والانعدام الكامل، وهو مقام الاتحاد والاتصال.

٥٢٤- سياسة...

عند الصوفية هى استصلاح الخَلق بالإرشاد إلى الطريق المُنجى فى العاجل والآجل ، على الخاصة والعامة، فى ظواهرهم وبواطنهم ، وتكون من الأنبياء وتسمى سياسة مطلقة، أى كاملة من غير إفراط ولا تفريط، لجميع الخَلق وفى كل الأحوال، ومن العلماء ـ ورثة الأنبياء حقاً ـ على الخاصة فى بواطنهم لا غير، أى لا تكون على العامة، لأن إصلاحهم مبنىٌ على القهر والسلطان ، ولذلك لا تكون على الخاصة فى ظواهرهم، وتسمى بالنسبة لهم سياسة نفسية .

والسياسة نوعان: عادلة تُخرج الحق من الظالم الفاجر فهى من الشريعة؛ ومدنية من أقسام الحكمة العملية.

والسياسة تلزم الصوفى الشيخ مع المريدين والطالبين ، وهى سياسة نفسية ، وتلزم الإخوان مع بعضهم ، وتلزم الصوفية عموما مع الناس كافة.

٥٢٥- سَيْر...

السَّير نوعان: سَيْرٌ إلى الله، وسَيْرٌ فى الله: والأول متناه لأنه عبارة عن العبور على ما سوى الله، فإذا كان ما سوى الله متناهياً فالعبور عليه متناه؛ والثانى غير متناه؛ لأن نعوت جماله وجلاله غير متناهية، فلا يزال العبد يترقّى من بعضها إلى بعض، وذلك أولى مراتب حق اليقين.

وهناك أيضاً ما يسمونه سَيْر القلوب، وهو انتقالها من حال إلى حال، ومن مقام إلى مقام.

وقالوا: «نحن مسيّرون»، فأهل الفلسفة يقصدون أنهم مُجْبَرون، وأما أهل التصوف فمن يقول منهم ذلك يقصد تسيير القلوب وانتقالها فى الأحوال والمقامات.

وقالوا: «الزاهد سيّار، والعارف طيّار»، يقصدون سرعة انتقال العارفين عن الزاهدين فى المقامات والأحوال .

٥٢٦- سِيرة...

والجمع سِيَر ومعناها الطريقة، وغلبت فى التصوف على سلوك المشايخ. نقول سِيرة النبىّ ﷺ، وهى كيفية تعامله فى الحياة والمصائر التى انتهى إليها، والمقاصد التى ابتغاها، والطرق التى اتّبعها. وسُمّيت المغازى: سِيَراً، لأن أول أمورها السَّيْر إلى الغزو؛ وفى قولنا «كتاب السَّيْر» لأصحاب الطريقة، هو نهجهم ومعاملاتهم؛ ونقول: سار أبو بكٍ بسيرة رسول الله ﷺ. والصوفية سِيرَتُهم سيرة رسول الله ﷺ، فهو قُدْوَتُهم وبه يتأسّون، وعلى منواله يسيرون.

٥٢٧-سيمرغ...

قصة السيمرغ أوردها العطّار، والسيمرغ هى العنقاء، قال: نهض السيمرغ من جبل قاف فصار الخَلْق وجودًا واحدًا. وقال: لهذا يجب السجود للسيمرغ الذى هو اسم «الوجود الواحد». والواحد لا يصدر عنه إلا الواحد، وربما لا يصدر عن الواحد موجودٌ إلا نفسه. والعطّار أشرك شِرْك الطبيعيين من الصوفية، الذين قالوا: إن الله هو موجوداته»؛ والعطّار كان إذن من الطبيعيين لمّا قال بالسيمرغ الذى هو الوجود الواحد.

٥٢٨- سيواس...

مركز الصوفية من أصحاب وحدة الوجود، حيث ألّف ابن عربى موسوعته «الفتوحات المكية»، وتزوّج بها أم تلميذه وخليفته «صدر الدين القُونَوى». وفى سيواس أيضًا ألف عامر بن عامر البصرى - الذى عُرف باسم أوشيذر - قصيدته المشهورة فى التصوف. التى سمّاها «ذات الأنوار»، عارض بها تائية ابن الفارض.

* * *

باب الشين

* * *

٥٢٩ - شأن ...

لكل تجلٍ من تجلّياته سبحانه حُكمٌ إلهى هو المعبَّر عنه بالشأن، ولذلك الحُكم فى الوجود أثر لائق بذلك التجلّى، واختلاف الوجود - أى تغيُّره فى كل زمان - إنما هو أثر **للشأن الإلهى** الذى اقتضاه التجلى الحاكم على الوجود بالتغيّر، وهو معنى قوله تعالى: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ (الرحمن ٢٩).

وإذا تجلّى الحق سبحانه على العبد سُمّى ذلك التجلّى بنسبته إلى الحق «شأناً إلهياً»، وبنسبته إلى العبد «حالاً».

والشئون: هى صور العالم فى مرتبة التعين الأول. وقبل للعالم ثلاثة مواطن: أحدها التعيّن **الأول** ويسمى فيه شئوناً، وثانيها اليقين الثانى ويسمى فيه أعياناً ثابتة، وثالثها التعيّن فى الخارج ويسمى فيه أعياناً خارجية.

والأفعال والشئون الذاتية: اعتبار نقوش الأعيان والحقائق فى الذات الأحدية، كالشجرة وأغصانها وأوراقها وأزهارها وثمارها فى النواة، وهى التى تظهر فى الحضرة الواحدية وتنفصل بالعلم.

٥٣٠ - شأن محمد ...

فى كتاب **النفحات الأقدسية** للبيطار: أن **شأن محمد هو شأن الله !!** فما فى الوجود إلا محمد، لا يُدرَى لحقيقته غاية، ولا يُعلَم لها نهاية، فهو من الغيب الذى نؤمن به. وبشريته نور محض ولذا كانت فضلاته مقدّسة طاهرة! ولم يكن لجسمه الشريف ظلٌ كالأجسام الكثيفة. وهذا **النور المحمدى** هو المعنى الذى نقصد إليه بقولنا **بروح الله المنفوخ فى آدم، فروح الله هو نور محمد !** - وهو تجديفٌ صُراح، وفى القرآن: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ (الكهف ١١٠).

٥٣١ - شاذلية ...

طريقة أبى الحسن الشاذلى والذين نهجوا نهجه، وتقوم على الأخذ بعلم الله الذى أنزله على رسوله، والاقتداء بالخلفاء والصحابة والتابعين، وبالأئمة الهداة، والتمسُّك بالكتاب والسُّنة إذا تعارض الكشف معهما باعتبار العصمة فيهما وليست فى الكشف.

وأساس الشاذلية العمل مع العبادة، وكان الشاذلى يعمل فى الزراعة. والشاذلية من الطرق التى يُفضَّل فيها المريد

الغنى الشاكر على الفقير الصابر، باعتبار الصبر فضيلة الدنيا، والشكر فضيلة الدنيا والآخرة.

ولايهم فى الشاذلية لبس اللباس اللين، **وأكل الطعام الشهى، وشُرب الماء البارد**، فذلك لا يوجب العتب من الله إذا كان معه الشكر (انظر أيضاً الشاذلى).

٥٣٢- شاطر...

من مصطلحات بعض الصوفية، وهو مَن شُطرت نفسه عن الباطل.

٥٣٣- شاهد...

هو التجلّى، وقيل هو الحاضر، فكل ما هو حاضر فى القلب وغلب عليه ذكره حتى كأنه يراه ويبصره وإن كان غائباً عنه فهو شاهد؛ فإن كان الغالب عليه العلم فهو شاهد العلم؛ وإن كان الغالب عليه الوجد فهو شاهد الوجد؛ وإن كان الغالب عليه الحق فهو شاهد الحق.

وشواهد الحق: هى حقائق الأكوان فإنها تشهد بالمكوِّن.

وشواهد التوحيد: هى تعيّنات الأشياء، فإن كل شئ له أحدية بتعيّن خاص يمتاز بها عن كل ما عداه، ففى كل شئ له آية تدل على أنه واحد.

وشواهد الأسماء: اختلاف الأكوان بالأحوال والأوصاف والأفعال، كالمرزوق يشهد على الرازق، والحىّ على المحيى، والميّت على المميت وأمثالها.

٥٣٤- شجرة...

عند الصوفية تشير إلى **الإنسان الكامل** مدبّر هيكل الجسم الكلى، فإنه جامع الحقيقة ومنتشر الدقائق إلى كل شئ؛ **فهو شجرة وَسَطية، لا شرقية وجوبية، ولا غربية إمكانية**، بل أمر بين الأمرين، **أصلها** ثابت فى الأرض السفلى، **وفرعها** فى السموات العلى، وأبعاضها الجسمية عروقها، وحقائقها الروحانية فروعها، والتجلّى الذاتى المخصوص بأحدية جمع حقيقتها الناتج فيها بسرّ: ﴿**إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ**﴾ (القصص ٣٠) هو ثمرتها.

٥٣٥- شرّ...

العدم **شرّ** محض وبالذات، لأنه لا يستند إلى الحقّ سبحانه. **والشرّ** ضد الخير، وهو قسمان: **شرٌّ بالذات** هو العدم، وهو **الشرّ المحض**، **وشرٌّ بالعرض** هو العدم بمعنى الحابس للكمال على مستحقه. والصوفى الحق يعى وجود النوعين، ويعرفهما، وفلاسفة الصوفية يطلقون عليهما اسم **الشرّ الفلسفى**، وعندهم أن **الشرّ الطبيعى** هو ما يكون بالأشياء من نقص، كالجهل والضعف والتشوّه فى الخلقة، وأما **الشرّ الأخلاقى** فيطلقونه على الأفعال المذمومة.

٥٣٦- شراب...

عند السالكين عبارة عن العشق والمحبة والغياب عن الوعى والسُّكر، وتحصل جميعاً من استجلاء طلعة المحبوب، وتجعل العاشق صامتاً غير واع.

وشراب السمع: نور العارفين الذى يضئ قلب العارف صاحب الشهود.

٥٣٧- شرب...

الشُّرب: تلقّى الأرواح والأسرار الطاهرة لما يرد عليها من الكرامات، وتنعّمها بذلك، فشبّه ذلك بالشُّرب لتهنّيه وتنعّمه بما يرد على قلبه من أنوار مشاهدة قُرب سيده.

ومن آداب الصوفية فى الشُّرب قوله ﷺ: «إذا شربتم فاشربوا بثلاثة أنفاس، فالأول شُكرٌ لشرابه، والثانى شفاءٌ فى جوفه، والثالث مَطْرَدةٌ للشيطان. فإذا شربتهم فمصُّوه مصّاً، فإنه أجدر أن يجرى مجراه، وإنه أهنأ وأمرأ» رواه الحكيم الترمذى.

والذَّوْق والشُّرب من جملة ما يجرى على ألسنة الصوفية، وأول ذلك الذَّوْق، ثم الشُّرب، ثم الرِّىّ: فصفاء معاملاتهم يوجب لهم ذوق المعانى، ووفاء منازلاتهم يوجب لهم الشُّرب، أى الحلاوة واللذة، ودوام مواصلاتهم يقتضى لهم الرِّىّ، أى الشبع. وصاحب الذَّوْق متاكر (يعنى يدّعى السُّكر)؛ وصاحب الشرب سكران؛ وصاحب الرِّى صاحٍ.

والشُّرب يكون فى كل مدارج الترقّى الصوفى، ففى أى حال يكون المريد فإنه يشرب حتى يرتوى فيثبت فى مقامه، حتى إذا أتاه حال آخر فإنه يشرب حتى يرتوى فيرتضى إلى مقام آخر.

٥٣٨- شرك...

الشِّرْك على أنواع، فشرك الاستقلال: هو إثبات إلهين مستقلين، كشرْك الثنوية؛ وشرك التبعيض: هو الاعتقاد فى مجموعة آلهة مرة واحدة بعضهم من بعض، كشرك النصارى الذين قالوا بالأب والابن وروح القدس، أو بالثالوث؛ وشرْك التقريب: وهو عبادة غير الله ليقرّب إلى الله زلفى؛ وشرك التقليد: وهو عبادة غير الله تبعاً للغير؛ وشرْك الأسباب: وهو إسناد التأثير للأسباب؛ وشرْك الأغراض: وهو العمل لغير الله. والذين قالوا من الصوفية بالاتحاد والحلول، أشركوا كشرك النصارى الذين قالوا المسيح ابن الله؛ وأما الذين قالوا بوحدة الوجود، فهؤلاء أشركوا شرك الطبيعيين الذين قالوا إن الله هو موجوداته، وكشرك اليهود الذين جعلوا من شعب إسرائيل شريكاً لله فى مُلكه.

وقال رسول الله ﷺ: «قال الله تبارك وتعالى: أنا أغنى الشركاء عن الشرك. من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه»؛ وقال: «يُجاء يوم القيامة بصُحُف مُختمة، فتُنصَب بين يدى الله تعالى، فيقول الله تعالى للملائكة: ألقوا هذا، واقبلوا هذا، فتقول الملائكة، وعزتك ما رأينا إلا خيراً. فيقول الله عزّ وجلّ. وهو أعلم - إن هذا كان لغيري، ولا أقبل اليوم من العمل إلا ما كان ابتُغي به وجهي»؛ وقال: إن الله تعالى يقول: أنا خير شريك، فمن أشرك معي شريكاً فهو لشريكي. يا أيها الناس، أخلصوا أعمالكم لله تعالى، فإن الله تعالى لا يقبل إلا ما خلص له، ولا تقولوا هذا لله وللرحم، فإنها للرحم وليس لله تعالى منها شيء. ولا تقولوا هذا لله ولوجوهكم، فإنها لوجوهكم، وليس لله تعالى منها شيء». - وفيما يبدو إذن، فإن الشرك على ثلاث مراتب، وكله محرّم، وأصله: اعتقاد شريك لله في ألوهيته، وهو الشرك الأعظم، وهو شرك الجاهلية، وهو المراد بقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ (النساء ٤٨)؛ ويليه في الرتبة اعتقاد شريك لله تعالى في الفعل، وهو قول من قال: إن موجوداً ما غير الله تعالى يستقل بإحداث فعل وإيجاده، وإن لم يعتقد كونه إلهاً، كالقدرية، يعتقدون أن هذا الآخر هو القدر؛ ويلي هذه الرتبة الإشراك في العبادة: وهو الرياء: وهو أن يفعل لغير الله شيئاً من العبادات التي أمر بفعلها له - أي لله، وهذا هو الذي سيقت الآيات والأحاديث لبيان تحريمه، وهو مُبطل للأعمال، وخفيّ لا يعرفه الجاهل الغبي، ونبهّ إليه المحاسبي - الصوفي الأكبر في كتابه الرعاية، وبيّن إفساده للأعمال. - ومن أقوال رسول الله ﷺ: إذا جمع الله الأولين والآخرين ليوم القيامة، ليوم لا ريب فيه، فنادى مناد: من كان أشرك أحداً في عمل عمله لله عزّ وجلّ، فليطلب ثوابه من عند غير الله، فإن الله أغنى الشركاء عن الشرك؛ وقال ﷺ: إن أخوف ما أتخوّف على أُمّتي: الشِّرك الخفي: أن يقوم الرجل ليصلي، فيزيّن صلاته بما يرى من نظر رجل. وقال: إن أخوف ما أتخوّف على أُمّتي، الإشراك بالله. أما إني لست أقول يعبدون شمساً ولا قمراً، ولا وثناً، ولكن أعمالاً لغير الله وشهوة خفية. (انظر الشهوة الخفية). وقال ﷺ كذلك في الشِّرْك الخفيّ: هو فيكم أخفى من دبيب النمل، وسأدلُّك على شيء إذا فعلتهَ أذهبَ عنك صغار الشِّرك وكباره، تقول: اللهم إني أعوذ بك أن أُشرك بك وأنا أعلم، وأستغفرك لما لا أعلم. تقولها ثلاث مرات.

٥٣٩- شرود ...

هو نَفْر الصفات من منازلات الحقائق وملازمة الحقوق، حتى ليصدق على الكثيرين قول القائل: «في كل وادٍ يهيمون، وكل بارق يتّبعون»، وذلك من شدّة إعمالهم للملاحظة وتربية أحوالهم. والصوفي الشارد تنفر نفسه من الرياضة والمجاهدة ومخالفة حظوظ النفس، وهي حال تلمّ ببعض السالكين. ولئلا يرد عليهم ذلك الشرود ينبغي على المتصوف أن يكون في الفاقة واللجأ في أيام حياته، وما لم يفعل ذلك سيحسّ بذُلّ الشرود ويطلب من كل أحد عوناً بدعاء وبكلمة. ولو كانت أوقاته مصحوبة بصحة الوجد ما أصابه الشرود .

٥٤٠- شريعة ...

لا حقيقة بلا شريعة، وكل علم عن طريق الكشف والإلقاء يأتي بحقيقة تخالف الشريعة المتواترة فإن ذلك العلم وذلك الكشف لا يعوّل عليهما، وأما إذا كان علم الحقيقة يوافق الشريعة فهو صحيح، فإذا ردّته الشريعة فلا يعوّل عليه.

وعلم الشريعة هو علم الظاهر والباطن؛ والظاهر هو عمل الجوارح، والباطن عمل القلوب وأهل الباطن هم الصوفية، والتصوف هو علم الباطن الذي ورثه عليّ بن أبي طالب عن النبيّ ﷺ - هكذا يقول الصوفية الشيعة. - والقرآن ظاهر وباطن، ولا غناء للظاهر عن الباطن، ولا غناء للشريعة عن الحقيقة. وقد كذب من ادّعى من أهل الشريعة أنه لا شيء اسمه الحقيقة، فالشريعة هي الحقيقة، والحقيقة هي نفسها الشريعة. وكذلك كذب من قال من أهل الحقيقة أنه لا وجود للشريعة. وكذلك كذب من قال من أهل الحقيقة أنه لا وجود للشريعة مع الحقيقة، فإذا كُشفت الحقيقة بطلت الشريعة. والصحيح أن الشريعة تثبتها الحقيقة، والحقيقة لا تثبت بدون مراعاة الشريعة، والصلة بينهما كالصلة بين الجسد والروح، فلو فارقت الروح الجسد مات، ولو لم يوجد الجسد لما وجدت الروح مجالاً لها للعمل، فالشريعة بدون الحقيقة رياء، والحقيقة بدون الشريعة نفاق، وفي الآية: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ (العنكبوت ٦٩)، المجاهدة هي الشريعة، والهداية هي الحقيقة؛ والشريعة من المكاسب، والحقيقة من المواهب. وابن الشريعة ينظر بعين الحُكم الظاهر؛ وابن الحقيقة ينظر بعين الحكمة الباطنة، والظاهر والباطن متلازمان. وأدب الشريعة: مبنى على شهود الخلق في

شهود الحق؛ وأدب الحقيقة: مبنى على فناء الخلق فى شهود الحق، وتباين الأمرين يعنى تعيّن إظهار الأمر الظاهر، وتحتّم إبطال الأمر الباطن، خشية المعارضة والتعطيل.

٥٤١- ششترية...

طريقة أبى الحسن الششترى (٦١٠ - ٦٦٨هـ)، تلميذ ابن سبعين، وله التواشيح فى التصوف، وكان أول من استخدم الزجل فيه، ومذهبه وحدة الوجود وإنما بطريقة أقل من ابن عربى، وفى مصر أعلن الششترى أنه شاذلى، وتواشيحه تستخدمها الشاذلية. (انظر أيضاً الششترى وابن عربى، والشاذلى).

٥٤٢- شطح...

كلام يترجمه اللسان عن وَجْد يفيض عن معدنه مقرون بالدعوى، إلا أن يكون صاحبه مستلَباً ومحفوظاً.

وقيل **الشَّطح**: كلمة عليها رائحة رعونة، ودعوى تصدر من أهل المعرفة باضطرار واضطراب، وهو من زلاّت المحققين، فإنه دعوى حق (!!) يفصح بها العارف لكن من غير إذن إلهى.

والشَّطح فى لغة العرب هو الحركة، وهو عند الصوفية: حركة أسرار الواجدين إذا قوى وجدهم، فعبروا عنه بعبارة مُشكلة يستغربها السامع إلا من كان من أهلها ـ يعنى على رأى صاحب الشطح ـ ويكون متبحّراً فى علمها.

وقيل **الشطح**: عبارة مستغربة فى وصف وَجْد فاض بقوته، وهاج بشدة غلياه وغلبته، وقيل: **ظاهر الشطح** مستشنع، **وباطنه** صحيح مستقيم، وهذا خطأ طبعاً!

والمنكرون **للشطح** يأخذون على الصوفية قولهم إن **الشطح** يكون من العارف ولم يُؤذَن له فيه، **فهل صحيح أن هناك ما هو مأذون به وما هو غير مأذون به ؟** وهل يستشعر العارف أنه عندما **يشطح** إنما يذيع أسراراً محرّمة ؟ وما هى تلك الأسرار المحرّمة ؟ وهل عبارة «أنا الحق» التى نطق بها الحلاّج سرّ محرّم، أم هى قولٌ أرعن؟ والأحرى أنها قول أرعن، فلما أُخذ الحلاج بقوله وحكموا عليه بالصَّلب، داخل الخوف قلوب الصوفية فألغزوا، وقالوا ما أرادوا قوله دون أن يُفصحوا، و وآخرون التزموا الصمت:

بالسرِّ إن باحوا تباح دماؤهم
وكذا دماء البائحين تُباح

ويعتبر القطب الكبير الشبلى أول من حظر على الصوفية أن يمارسوا البَوْح، وكان الشبلى صديقاً للحلاّج، وشاهده

يُصلب، واستمع إليه وتأثر أيّما تأثر، وكان مثله شطّاحاً، فقال لذلك: أنا والحلاج في شيء واحد - يعني نشترك في شيء واحد وهو الشطح - فخلّصني جنوني وأهلكه عقله!». ويقصد بالجنون أنه جبان. وفي عبارة أخرى قال: «كنت أنا والحسين بن منصور شيئاً واحداً، إلا أنه أظهر وكتمتُ». فلولا التنكيل بالحلاج إذن لاستمر الصوفية في الشطح وزادوا فيه، وكان ذلك نحو سنة ٣٠١ هـ أو ٩١٣م. وأول ما ظهر الشطح بالكلية كان عند إبراهيم بن أدهم ورابعة العدوية، وظهر جلياً عند البسطامي المتوفى سنة ٢٦١هـ (٨٧٥م)، ثم إن الشطح توارى بعد حادثة الحلاج وتحذيرات الشبلي، وتهافت وضَعُف. وربما كان الشطح قبل كل شيء مدسوساً على الصوفية، فمن يدري ماذا يمكن أن يفعل اليهود والنصارى والملاحدة لطعن الإسلام؟ وأكثر ما يمكن أن يُطعَن منه جبهته الداخلية.

ومن كلمات الشطح الغبية قول القائل: «أنا عرش الله». ومن الصعب أن نعتبر كلمات رابعة من مثل قولها عن الكعبة: هذا الصنم المعبود في الأرض! ما وجه الله ولا خلا منه! - من الشطح، فالعبارات لا يمكن تفسيرها ولا تأويلها بمعزل عن السياق الذي قيلت فيه، والمعنى الذي تُقصَد به. والقول المنسوب لرابعة «أن الكعبة صنم معبود» غير معقول أن يصدر من عابدة مثل رابعة، ومن المحتمل أن يكون معناه أنه لولا ما يُذكر فيها من الذكر لما كانت سوى حجر كالحجارة. وقولها «ماوجه الله» صحيح، وقولها «ما خلا منه» مناقض لقولها «ما وجه الله» إلا أن يكون المعنى أن الكعبة لم تخلُ يوماً أن يُذكر فيها الله تعالى ويتعبّد له. وعاب ابن تيمية على رابعة أن يُنسب إليها في تأويل الآية: ﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ﴾ (يس ٥٥) أن تقول: «مساكين أهل الجنة! في شُغل هم وأزواجهم!»، فقال: إنها ما عرفت وإنها المسكينة! فإنما شُغلهم إنما هو بالله! وقال: وهذا مكر الله الخفي بالعارفين في تجريح الغير ببادئ الرأي والتعريض في حقّ نفوسهم، وهم مُنزّهون عن ذلك!».

وما قيل عن شطح رابعة إن هو إلا شيء بسيط مما يقال عن شطح أبي اليزيد البسطامي الذي اختلف الناس فيه وفي مقاصده من كلماته التي قالها، والحق أنه ما من عارف يمكن أن يخطئ مثلما نسبوا إليه أو إلى الحلاّج ورابعة وغيرهم. والخطأ في التأويل الحسّي للشطح من ظاهر

المعنى، فـأن يقول أبو اليـزيد: «كنتَ لى مرآة فصرتُ أنا المرآة» قد تعنى أنه من فرط محبته له تعالى صار يعيش بالله ولله، أى صـار ربّانياً، وكـمـا يكون السـيـد يكون خادمه، فمن يريد أن يرى فعل الله فلينظر إلى الربّانى الآخذ عن الله. وأنْ يقول أبو اليزيد: سبحانى سبحانى ! إنما هو تمجيد لله فى نفسه وهو الربّانى، وكما يقال عن الرسول ﷺ إنما خُلُقه القرآن، فكذلك العارف بالله إنما يسلك ويقـول بحسب ما يُرضى الله، ويحب منه، فقـال عن نفسه مثلمـا يُقال عن سيده، وعظّم نفـسـه لأنه بتعظيمها إنما يعظّم سيده.

ولا جدال أن مواقف الصـوفى العارف من أشدّ المواقف تعقيداً، وأن سرَّها يكمن فيـما يعانى من عذابات روحـية يفنى من خـلالهـا فيـمن يحب ويتـوه عن وجـود السِّوَى وشهوده وعـبادته إلـى وجود الله وشهـوده وعبادته وحـده دون سواه، وأنه بشـرٌ من بشـر ولايقـوى على حَـمْل مـا يعـتمل بـه باطنه، وأن لسانـه قد يفـيض بترجمة مـا يعانى فتكون ظاهرة الشـطح، كما فى قصيدة عزّ الدين المقدسى المتوفى سنة ٦٦٠ هـ (١٢٦٢م)، يقول:

أباحت دمى إذ باح قلبى بحبِّها
وحلّ لها فى حُكمها ما استحلّت
وما كنتُ ممّن يُظهر السرّ إنما
عروس هواها فى ضميرى تجلّت
فألقت على سرّى أشعة نورها
فلاحت لجُلاّسى خفايا طوَيّتى
فإنْ كنتُ فى سُكرى شطحتُ فإننى
حكمتُ بتمزيق الفؤاد المفتّت
ومن عَجَب أن الذين أحبّهم
وقد أغلقوا أيدى الهوى بأعنّة
سقونى وقالوا لا تُغنّى ! ولو سَقَوْا
جبالَ حُنَيْن ما سقونى ـ لَغنّت !

فـإن قلنا رغم ذلك أن العـارفـين لهم شطحات، فعذرهم أنه لا معصوم إلا الله، فحتى الأنبياء غير معصومين. ومن الجائز أن يتردّى العارف فى الغلط!

٥٤٣ - شعر...

ليس أبدع ولا أقوى من الشعر الصوفى لتـحريـك الوجدان الدينـى، وهو شعـر إيقاعى للتـغنّى به ويُصاحَب بالموسـيقى، ويعترى الصوفيـة لدى سماعه من الحادى حالات من الجـذب والوجد، وأغلـبه من نوع الغزل الصوفي، الذى كثيراً ما يلتبس على البعض، باعتباره غزلاً ـ لو لم نقف على غرض الشـاعر أو الحـادى منه، وقد يتعـذّر أحياناً التـمييـز بين قصيـدة يتغنّى صاحبهـا بالحبّ الإنسـانى، وأخرى يتغنّى

فيها بالحبّ الإلهى. ولم يرتفع الشعر الفارسى إلى أعلى عليين إلا بسبب النغمة الصوفية التى هو عليها، وأشهره الرباعيات كما عند فريد الدين العطّار، وجلال الدين الرومى، وعبد الرحمن جامى، ومحمود شبسترى. وفى اللغة العربية اشتهرت أشعار رابعة العدوية، وابن الفارض، وابن عربى، وفى اللغة التركية شعر النسيمى.

والشاعر الصوفى يفيض شعره بالمعانى الوجودية وبالحب لله تعالى أصل المطلق، المعشوق على الحقيقة فى كل جميل. والحبّ سرّ الوجود وعلّته الأولى، وفيه يقول ابن عربى:

لقد صار قلبى قابلاً كل صورة
فمرعى لغزلان ودير لرهبان
وبيتٌ لأوثان وكعبةُ طائف
وألواحُ توراة ومصحفُ قرآن
أدين بدين الحبّ أنّى توجّهت
ركائبه فالحبّ دينى وإيمانى

وبمقدار الحبّ لله عز وجل يكون علم الشاعر بأسرار القَدَر، فالحب كُحل عين القلب، به ينجلى بصرها.

ومن كمال الحبّ أن تتحد إرادة المحبّ والمحبوب، وفى ذلك يقول جلال الدين الرومى: من أجل الحب كرهت كلمة الجبر، فإن المجبور لا حب له، والحب الذى هو غاية القرب من الحق لاجبر فيه».

وليس صحيحاً أن عظمة الشعر الصوفى بسبب الوعى الفنى للشاعر، فالشعر الصوفى من وحى أحوال الوجد الصوفى، ومن خصائصه أن أوزانه وأساليبه تساعد على انتقال أحوال الوجد من الشاعر إلى السامعين، ويزداد أثرها إذا أُنشد الشعر مصحوباً بالموسيقى.

والوجد الصوفى مكانه القلوب، وأدواته المشاعر والأحاسيس، وليس أكثر تأثراً فى الإنسان من قلبه، وأى كلام يمكن أن ينفذ إلى القلب متى استجاب لرغبات القلب، وأعلى ما يستشعره القلب هو العشق، والعشق دليل أرباب الذَّوْق، واعتناق الصوفى للتصوف بخلاف اعتناقه للدين، فالديانة اعتقاد عقلى، والتصوّف منهج قلبى، وغايته تصفية القلب وإزالة الصدأ عنه، والذى يريد الفقيه بلوغه من فقهه بعقله، يبلغه الصوفى بجناح العشق، ومَدَد الذوق، وقوة الوله والشوق. ومذهب الصوفى هو العشق، ومادته هى الذَّوْق، ووسيلته الشعر والكلام عموماً، يُراعَى فيه أن يكون لطيفاً مؤثراً، ولهذا صارت لغة التصوف لغةً جذابة رقيقة كألحان الموسيقى الأخّاذة.

ويوصف الشِّعر بأوصاف مختلفة، وفى تعريف أرسطو أن كل مقدمة تسبب الانشراح أو الحزن فى القلب هى شعر، والشعر يمكن أن يكون نظماً أو نثراً، وميزة الشاعر الصوفى أنه لا يعبر فقط عن شوقه وهيامه وما يشعر به من ألم ولذة، وإنما ينقل ذلك إلى الآخرين، فيشعرون فى قلوبهم بما يشعر به من أفراح أو أتراح، وما يعانى من أشواق.

ولقد انتشر التصوف وذاع أمره بسبب لغة الصوفية، وما قالوا من أشعار، وما كان عليه أدبهم من سموق ورقىّ وتسام، وما تحلّوا به من عواطف رقيقة وحالات ملهمة، وكان هدف الصوفية تربية الأولياء، والأخذ بيد المريدين، وتهذيب السالكين، وهو ما جعل الصوفية أصحاب قلوب، وأهل معنى وباطن. يقول جلال الدين الرومى :

ما التدبير أيها المسلمون فإننى لا أعرف من أنا؟

لا أنا بالمسيحى ولا باليهودى ولا بالمجوسى ولا بالمسلم!

ولا أنا بالشرقى ولا بالغربى ولا بالبَرِّى ولا بالبحرى!

ولا أنا من عناصر الطبيعة ولا أنا من الأفلاك الدوّارة!

ولا أنا من تراب! ولا أنا من هواء! ولا من ماء ولا من نار!

ولا أنا من العرش ولامن الفرش، ولا أنا من الكون ولا أنا من المكان!

ولا أنا من الهند ولا من الصين ولا من البُلغار ولا من السكسون!

ولا من بلاد العراقين ولا من أرض خراسان!

ولا من الدنيا ولا من العقبى ولا من الجنة ولا من النار!

ولا من آدم ولا من حواء ولا من فردوس رضوان!

مكانى فى اللامكان، وعلامتى أن ليس لى علامة

لست جسماً ولا روحاً، بل إننى روح من روح الحبيب

جرّدت نفسى من الإثنينية فوجدت العالمين وحدة واحدة

إننى أبحث عن واحد، وأقول واحداً، وأعرف واحداً، وأدعو واحداً

هو الأول، هو الآخر، هو الظاهر، هو الباطن

لا أعرف إلا هو ولا أقول إلا يا من هو،
ولا أعرف سوى هو

إننى ثمل من روح العشق ! وقد ذهب العالمان من يدى

ولا أملك شيئاً سوى الشطارة والتسول!

إذا تنفست يوماً فى العمر بعيداً عنه

فإننى نادم على ذلك الوقت وتلك الساعة

وإذا أسعدنى الوقت يوماً مع الصديق فى الخلوة

أضع العالمين تحت قدمى وأرقص طرباً!

يا للعجب أيها الأحباب ! أى طائر أنا إذ أطير وأنا فى البيضة

فأنا بكُلّيّتى عشق وروح فى جسم من الماء والطين

ألا يا شمس تبريز إننى ثمل فى هذه الدنيا

بحيث لا يداوينى شيء سوى السُّكر والتسول!

هذا هو الشعر الصوفى إذن، والبعض يسميه علم القلوب، ويعرفونه بأنه الكلام الذى يقوم على الهياج والعشق والوجد، ويبعث على الهياج والعشق والوجد. والشاعر العطّار يقول فيه: إذا تجاوزت القرآن والأحاديث فليس ثم كلام يعلو على كلام مشايخ الطرُق، وكلامهم شعر منثور، فما بالكم بشِعْرِهم المشعور؟ إن الشعر الصوفى من العالم اللّدنّى لا من العالم الكسْبى، ومن الثورة والهيام لا من العمل والإقدام، ومن عالم «أدّبنى ربّى» لا من عالم «علّمنى أبى»، وشعراء الصوفية هم ورثة الأنبياء. ومما قيل فى ذلك الشعْر: لو جاز أن يُصلّى ببيت من الشعر لجاز أن يُصلّى بهذا البيت:

أتمنّى على الزمان مُحالاً
أنْ ترى مُقلتاى طلعة حرّ

وقد روى عن النبىّ ﷺ أنه قال: إن من الشعر لحكمة. وقيل: الحكمة ضالة المؤمن. وإنشاد الشعر لا يضاد الدين، سواء كان إنشاده بالنغمة الطيبة والصوت الحسن، أو يكون إنشاده بالحَدْو، والحَدْر، والنَصْب، والرَّمَل، والرَّجز، طالما مقاصده ليست فاسدة، وليست إرادته باطلة، ولا يجاوز الحدّ ويخالف ويعاند. هدانا الله.

٥٤٤-شعشعة...

طريقة محمد بن فلاح المتوفى سنة ٨٦٦هـ (١٤٦٢م)، والشعشعة فى اللغة تعنى تفرُّق الضوء، ومنها الشعاع، ويقال شعشعة الخمر يعنى تفريقها للدم والمزاج والإدراك. ومن الشعشعة يقال الشعشانى، والشعشعان، والشعشاع، ويقال رجل شعشاع يعنى طويل ورفيع كشعاع الضوء، والحلاّج تكلم عن النور الإلهى بأنه

شعشعاني، يعني يتشعشع ويسري أشعةً. ويقال شعشعة الأنوار يعني إشراقها.

والحركة الشعشعانية أو حركة المشعشعيين، هي التي قامت على التصوف ابتداءً من سنة ٨٤٠هـ (١٤٣٧م)، ولكن ابن فلاح الذي أعلنها لم يكن صوفياً على الحقيقة، وإنما ادّعى التصوف وصدّقه أتباعه لما قال لهم أنه المهدي، وأنه سيفتح العالم ويوزعه على أصحابه وأتباعه، ويُسمَّى ابن فلاح بالمُشعشِع.

فعندما يتشعشع أتباعه، أي يمتلئوا بتعاليمه ويتحمّسوا لها، تحدث لهم تغيّرات فسيولوجية حتى أن أبدانهم لتتخشب فيمكن أن يطعنهم الناس بالسيوف، أو يطعنوا أنفسهم بها، ويمروا داخل النار، ويأكلوا الحيّات والسيوف ولا يتأثرون.

والشعشعة أصلاً قال بها أولاً الحافظ البُرسي، وهو صوفي عراقي من الحلّة بجوار الكوفة، توفي نحو ٨٤٣هـ (١٤١١م)، فقال: إن النبيّ محمد ﷺ كان النور الذي تشعشع عنه الوجود، يعني فاض كالشعاع.

وحركة المشعشعيين تشبه حركة الخوارج، ولولا أنها قامت على دعاوى صوفية لأدرجناها ضمن حركات الإسلام السياسي.

ثم إن دعاوى المشعشعيين خروجٌ صريح على الإسلام، وكان محمد بن فلاح زعيم الحركة، ثم ابنه عليّ، ثم ابنه محسن، وكلهم ادّعوا الألوهية، وكانوا يدعون إلى عبادة عليّ، وانتهت الحركة تماماً بسقوط دولة المشعشعيين سنة ٩١٤هـ (١٥٠٩م).

٥٤٥- شعوبية...

هؤلاء هم العَجَم الذين كانوا يرون تفضيل صوفية العجم على صوفية العرب، بل إن الشعوبيين من الصوفية كانوا يرون أن التصوف عجمي وليس عربيًا، وكان من المتصوفة الشعوبيين من يقول إن التصوف في بلاد العجم: فكرٌ وعمل، وهو في بلاد العراق: فكر بلا عمل، وفي بلاد الشام: عملٌ بلا فكر، وفي مصر: لا فكر ولا عمل! وهكذا وُجد بين الصوفية من يعتنق العصبية الجنسية أو العرقية.

٥٤٦- شغف...

من مراتب المحبة، وهو الكَلَف والولوع بالمحبوب؛ وهو عند أهل اللسان العرفي: بلوغ الحب إلى شُغاف القلب. وليس القلب في الحقيقة هذا الشكل الصنوبري الذي تحيط به الضلوع كما هو للبهيمة، ولكن القلب سرّ الإنسان ومحلّ اطلاع الربّ.

والشغف له خمس درجات، أولاها:

امتثال المحبوب طوعاً ورغبة. وثانيتها: حفظ الباطن عن غير المحبوب. يقول عليه السلام: استر ذهبك وذهابك، ومذهبك». والمذهب عبارة عن كمال المرء في المحبة، والذهاب السفر نحو محبوب لم تره. وقد أظهر الرسول ﷺ مذهب الشريعة لكل شخص ولم يظهر مذهب المحبة من الله له، وهو يقول: «استرني بسرّك الجميل». وثالثتها: معاداة أعداء المحبوب. قال عليه السلام «تُعادي بعداوتك مَن خالفكَ من خَلْقك». ورابعتها: محبة محبّي المحبوب، قال عليه السلام: «أسألك حبّك وحبّ مَن أحبّك». وخامستها: إخفاء الأحوال بين المحب والمحبوب. قيل: لولا الدموع الفاضحة فكتمان الحال من منازل الرجال.

٥٤٧- شفاعة...

هي وساطة عند الله لمن يرتضى دينه من أهل الكبائر والصغائر، ولا يحتاجها التائبون من الذنوب.

ومن فلسفة الشفاعة: استهوال خلود العاصين في النار ممن لهم إيمان بالله، وفي القرآن: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ (النساء ٤٨). وقال السرّاج: والتزم الصوفية بالشفاعة، لأنهم أجمعوا على الإقرار بجملة ما ذكر الله في كتابه وجاءت به الروايات عن النبيّ ﷺ. وقد لاحظ المستشرقون تجاوز حدود الشفاعة، وخاصة عند الصوفية من الشيعة؛ أما الصوفية من السُّنّة فقد قصروها على النبيّ ﷺ. وحاول المستشرقون أن يردّوا الشفاعة إلى تأثير المسيحية - وفيها مثل هذه الشفاعة للأولياء وللمسيح. وعند أبي اليزيد البسطامي: أنه - أي أبو يزيد نفسه - سيشفع في جميع المخلوقين، وبعدهم بها يوم القيامة وفي الدنيا؛ وكان يقول: يا إلهي! إنك خلقت هؤلاء الخلق بغير علمهم، وقلّدتهم أمانة بغير إرادتهم، فإنْ لم تُعنهم فمن يعينهم؟

وقال الشبلي بعد قتل الحلاّج: والله ما يرضى محمد وفي النار من أمته أحد! إن محمداً يشفع في أمته، وأنا أشفع بعده، حتى لا يبقى فيها أحد.

وصوفية الشيعة على مذهب: أن عليّ بن أبي طالب يشفع للشيعة، ومحمد يشفع للمسلمين عامة!

ووسّع أبو طالب المكّي من الشفاعة فقال: يشفع يوم القيامة الأنبياء، ثم العلماء، ثم الشهداء- غير أن الغزالي نفى إطلاق الشفاعة إلى هذا المدى، فلو كان كل ذنب تُقبل فيه الشفاعة، لما أمر النبيّ ﷺ

بالطاعة، ولما نهى فاطمة ابنته عن المعصية.

وذهب الشاذلي إلى القول: بأن الشفاعة من جوهر النبوة، وتتصل بالصدّيق من النبيّ، فهو يجعل الشفاعة حقاً من حقوق الصدّيق ولىّ الله، كما كانت من لوازم النبيّ. يقول: الشفاعة انصباب النور على جوهر النبوة، فينبسط من جوهر النبوة إلى الأنبياء، ومن الأنبياء إلى الصدّيقين، وتندفع الأنوار من الأنبياء والصدّيقين إلى الخَلْق.

وعاب المستشرقون شفاعة الصالحين عند المسلمين حتى أنه لم يعد من الممكن فصلها عن اعتقادهم، بينما كان النبيّ ﷺ يلعن اليهود والنصارى بحسب الحديث، لعبادتهم قبور أنبيائهم والصالحين: ويقول المستشرق هرجرونيه: يكاد يكون لكل قرية مسلمة وليّها الخاص بها، ولكل شعب مسلم وليّه القوى، ولكل ناحية فى الحياة الإنسانية أولياؤها الإنسانيون، وهم الصوفية الوسطاء بين الخالق والمخلوق!!!

٥٤٨-شفع...

هو الخَلق، وأقسم الله بالشَّفْع والوَتْر، كقوله تعالى: ﴿وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ﴾ (الفجر٨٩/٣)، لأن الأسماء الإلهية إنما تتحقق بالخَلق، فما لم تنضم شفعية الحضرة الواحدية إلى وِتْرية الحضرة الأحدية لم تظهر الأسماء الإلهية. وقيل خَلَق الله كلّ شيء شفعًا أى زوجاً، والله تعالى هو الوِتْر (بكسر الواو وفتحها أيضاً)، ليعلم الناس أن خالق الأزواج واحد. وقال الصوفية: الشفع تضاد أوصاف الخلق، كالعلم والجهل، والقدرة

العجز، والحياة والموت. والوِتْر انفراد صفات الله عمّا يضادها: علمٌ بلا جهل، وقدرةٌ بلا عجز، وحياةٌ بلا موت... وقالوا: الشّفع: الزاهد والعابد، لكلٍ منهما شكل وقرين؛ والوتر: المريد فهو كما قيل:

فريد من الخلان فى كل بلدة
إذا عَظُم المطلوب قلّ المساعدُ

(أنظر الوتر).

٥٤٩-شفقة...

الشفقة على الخَلق هى أن تعطيهم من نفسك، ولا تحملهم ما لا يطيقون، ولا تخاطبهم بما لا يعلمون.

٥٥٠-شكر...

هو الاعتراف للمُنعِم والإقرار بالربوبية، وينقسم إلى شكر باللسان: وهو اعترافه بالنعمة بنعت الاستكانة؛ وشكر بالبدن والأركان: وهو اتصاف بالوفاق

والخدمة؛ وشكر بالقلب: وهو اعتكاف على بساط الشهود، بإدامة حفظ الحُرمة.

والشاكر: مَن يشكر على العطاء؛ **والشكور**: من يشكر على المنع. والشاكر على مزيد؛ **والشكور** فى نهاية المزيد، ويتكرر منه الشكر والثناء على الشيء الواحد من النِعَم.

والشُكر نصف الإيمان، وفى الحديث: **الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر**». والشاكر على مزيد من نِعَم الشُكر: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ (إبراهيم ٧).

ومن الشُكر: أن يشكر العبد الله على اليسير، لأن القليل من الحبيب كثير. والموقن يشكر فى القبض والمنع، كما يشكر فى العطاء والبسط.

ومن الشُكر: شُكر الجوارح، بأن لا نعصاه بنعمة من نعمه. ومن الشكر: العمل الصالح: ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا﴾ (سبأ١٣). وشُكر العمل: اتصال الشكر بدوام المعاملة.

وأول الشُكر عند العارفين: أن لا تعصيه بنعمة. وشُكر الشاكرين هو أن تطيعه بكل نعمة. وحقيقة الشكر: التقوى.

وللشاكر طريقان: أحدهما أعلى من الآخر، أولهما شُكر الراجين، وأعلاهما شُكر الخائفين. وعلى العبد بكل نعمة: شكر. وتحت كل شعرة من الجسم نعمة، وبكل عِرْق نعمتان فى تسكينه وتحريكه، وبكل عظمة أربع نِعَم، وبكل مفصل سبع نعم، وفى الجسم ثلاثمئة وستون مفصلاً، ومثل ذلك من العظام، وفى كل طرفة نعمتان، وكذلك بكل نَفَس، وفى كل دقيقة تأتى على الإنسان نِعَم لا تحصى، والدقيقة جزء من اثنى عشر جزء من شُعَيْرة، والشعيرة جزء من اثنى عشر جزء من الساعة، والأنفاس أربعة وعشرون ألف نَفَس فى اليوم والليلة! وكل ذلك يستوجب عد الصوفية الشكر عليه وبأعدامه.

ولو قارنا **الصَّبر والشَّكر** فقد يفضل أحدهما على الآخر، غير أن خصوص الشاكرين أفضل من عموم الصابرين، لحُسن يقينهم وعلو مشاهدتهم.

وقيل: **الشكور** هو: من يرى عجزه عن الشكر، وهو الباذل وسعه فى أداء الشكر بقلبه ولسانه وجوارحه، اعتقاداً واعترافاً وعملاً.

والصبّار الشكور فى الآية: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ (إبراهيم٥): هو الكثير الصبر، **والشكور** الكثير الشكر، وهو العبد: يُعطَى فيشكر الله؛ ويُبتلى: فيصبر؛ وفى الحديث: **الإيمان نصفان: نصفٌ صبر، ونصفٌ شُكر.**

والشُّكر عند الصوفية عمومًا: هو الاجتهاد في بذل الطاعة مع اجتناب المعاصي في السِّر والعلن. وقيل: الشكر هو الاعتراف في تقصير الشكر للمُنْعِم، ولذلك قال تعالى: ﴿ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا ﴾ (سبأ ١٣)، فقال داود: كيف أشكرك ياربّ، والشكر نعمةٌ منك ؟ قال: الآن قد عرفتني وشكرتني»، لأنه عرف أن الشكر نعمةٌ من الله. وقال موسى لربّه: ياربّ، كيف أشكرك، وأصغر نعمة وضعتها بيدي من نعمك ليُجازَى بها عملي كله !؟ فأوحى الله إليه: ياموسى الآن شكرتني!

وقال الجنيد: حقيقة الشُّكر العجز عن الشكر. وقال: كنت بين يدي السَّري السَّقطي ألعب وأنا ابن سبع سنين، وبين يديه جماعة يتكلمون في الشُّكر، فقال لي: يا غلام، ما الشُّكر ؟ فقلتُ: ألاّ يُعصَى الله بنعمة. فقال لي: أخشى أن يكون حظك من الله لسانك. قال الجنيد فلا أزال أبكي على هذه الكلمة التي قالها لي السَّريّ!

- وقال الشبليّ: الشُّكر: هو التواضع، والمحافظة على الحسنات، ومخالفة الشهوات، وبذل الطاعات، ومراقبة ربّ الأرض والسموات وقال ذو النون المصريّ أبو الفيض: الشُّكر لمن فوقك بالطاعة؛ ولنظيرك بالمكافأة؛ ولمن دونك بالإحسان والإفضال.

٥٥١- شكفتية...

الشكفت بلغة الصوفية هو الغار والكهف. والصوفية سُمّوا شكفتية من سياحاتهم في البراري وإيوائهم إلى الكهوف عند الضرورات، وذلك أمر مألوف حتى يومنا هذا.

٥٥٢- شلمغانية...

طريقة محمد بن علي الشلمغاني، المعروف بابن أبي العذافر، نسبةً إلى قرية قرب واسط بالعراق، فقد تصوّف ثم ادّعى المهدية، وبعد ذلك ادّعى الربوبية، وقال: إن النور الإلهي قد حلّ فيه بعد تنقله في الأنبياء والأئمة، وتابعه كثيرون وخاصة من المترفين، ودائماً المترفون يشايعون الطرق الفاسدة التي تعطيهم مكاسب ولا تأخذ منهم، وتسقط عنهم التكاليف، وانضم له وزراء وكتّاب.

والشلمغانية أساسها الحلاّجية، وطريقة الحلاّج تتكرر مع الشلمغاني، والعهد بينهما قريب، لأن الشلمغاني ظهر سنة ٣٢٢هـ (٩٣٤م)، والحلاّج توفي سنة ٣٠٩هـ، وتتشابه أقوال الشلمغاني وأقوال الحلاج إلى حدّ بعيد.

وتصوف الشلمغانى كتصوف الحلاّج، من نوع التصوف السياسى، وكلاهما - كما روى ابن الأثير - كان يستهدف: القضاء على حكومة العرب، سواء كانوا من العباسيين أو الطالبيين، وسواء كانوا فى الحكم أو خارجه، أو من المعارضة، وانتهى الأمر بالشلمغانى بأن قبضوا عليه هو وجماعته من مدّعى التصوف، وقُتل الشلمغانى وأحد أنصاره ثم أُحرقا، وانتهت بذلك حلقة من حلقات دعاوى التصوف. (انظر أيضاً الشلمغانى).

٥٥٣ - شمائل...

هى امتزاج الجماليات والجلاليات، أى تشتمل كل منهما على الأخرى.

٥٥٤ - شمس...

هى النور مظهر الألوهية ومجلى لتنوعات أوصافه المقدسة النزيهة، فالشمس أصل لسائر المخلوقات العنصرية، والله سبحانه جمّل الوجود بأسره مرموزاً فى قرص الشمس، تبرزه القوى الطبيعية فى الوجود شيئاً فشيئاً بأمر الله تعالى، فالشمس نقطة الأسرار ودائرة الأنوار.

والشمس أيضا كناية عن الروح، لأن الروح فى البدن بمنزلة الشمس، والنفس بمنزلة القمر، ولذلك قالوا إذا رأى السالك نوراً كنور الشمس فإنه يعلم أن هذا النور هو الروح.

وفى الآية: ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا﴾ (الشمس ٩١/ ١) يقسم الله تعالى بها، فقد جعلها أهم مقومات الحياة بما ترسله من طاقة ودفء وضياء، ولولا الشمس ما كانت الرياح ولا المياه، ولا الأخشاب والفحم والبترول، ولما كان نماء، ولاحيوان، ولا إنسان.

والشمس كرة هائلة من الغازات المتقدة، يبلغ حجمها حجم الأرض أكثر من مليون مرة، وحرارة سطوحها نحو ٦٠٠٠ درجة مئوية وتتدرج فى الداخل إلى أن تبلغ عشرين مليون درجة تقريباً عند المركز، وبذلك تحدث التفاعلات النووية اللازمة لإنتاج الطاقة الشمسية.

والعالم المتصوّف الذى يؤمن بالله يدرك عظمته تعالى من عظمة مخلوقاته وموجوداته. وتحتوى كتلة الشمس على ٧٠٪ هيدروجين، و٢٨٪ هيليوم، ٢٪ عناصر متبخّرة من نوع عناصر الأرض وغيرها من الأجرام السماوية، وجميعها مردُّها واحد، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا﴾ (الأنبياء ٣٠)؟

ولا يصل إشعاع الشمس كله إلى

الأرض، فالسحب وغيرها تمتص منه ١٩٪ تقريباً، والأرض تستقبل ٤٧٪، وينعكس أو يتشتت ٣٤٪ بواسطة الجو وسطح البحار واليابسة، فكأن الله سبحانه لا يسمح أن يصل للأرض إلا ما يلزمها من شعاع الشمس، ولولا ذلك وتوازن توزيع هذه الأشعة لما كانت دورة الحرارة وما يصاحبها من ظواهر كونية بما يكفى حاجة الناس وييسر تواصل حياتهم، وسبحانه تعالى !

٥٥٥ - شَمَع...

عند الصوفية: هو النور الإلهى، تقول: أشْمَعَ السراج أى سطع نوره.

٥٥٦ - شهوة...

الشهوة حركة فى النفس طلباً للملائم، وهى توقان إلى المستلذات. والشهوات منها المشروعة وغير المشروعة، وفى المشروعة يقول الله تعالى: ﴿ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الأَنفُسُ وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ ﴾ (الزخرف٧١)، ثواباً للمتقين لأنهم قاسوا فى الدنيا بحكم المجاهدات، وتحملوا وجوه المشاق، فيُجازون فى الجنة بوجوه من الثواب مما يشتهون. والشهوات منها المادى، ومنها المعنوى، وقد خصّ الله أهل الماديات بما يشبع شهوات النفس من الماديات؛ وأما أهل المعرفة والمحبون لله: فهؤلاء أهل المعنويات، فلهم ما يلذّ أعينهم من المعنويات، وأعلاها لقاء الله، لطول ما قاسوه من فرط الاشتياق بقلوبهم، وما عالجوه من الاحتراق لشدّة غليلهم، يقول تعالى: ﴿ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴾ (الزخرف٧٠)، ومحبرون: تُسرُّون سروراً يَظْهَر حبارُه - أى أثره - على وجوههم. وهم يحبرون من لذة السماع.

وفى الشهوة المذمومة قال تعالى: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ﴾ (آل عمران١٤)، وقال: ﴿ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ ﴾ (الأعراف٨١).

والشهوات جمع شهوة، واتّباعها مُرْدٍ، وموافقتها مهلكة، وعنه ﷺ قال: حُفّت الجنّة بالمكاره، وحُفّت النار بالشهوات - والمعنى: أن الصوفى عليه لكى ينال الجنّة أن يقطع مغاور المكاره بالصبر عليها؛ وأمّا النار فلا يُنجى منها إلا ترك الشهوات وفطام النفس عنها، وكم يَصدُق حديثه ﷺ عند الصوفية، يقول طريق الجنة حَزْنٌ بربوة، وطريق النار سَهْلٌ بسَهْوة.

وعند الشاذلى قال: من الشهوات ما يقوم على المخالفات، ومنها ما يناقض

الطاعات، ومنها ما يدعو إلى الراحات، ومنها ما يقعد عن أداء الواجبات. وجهاد الشهوات بالعلم فى كلّ حركة، والخوف عند كل خطوة، واللجوء إلى الله بالذّكر.

وعند الغزالى: قُوَى النفس أربع: قوة شهوانية، وقوة غضبية، وقوة شيطانية، وقوة ربّانية؛ والصوفى الحق: هو الذى إذا اتجهت نفسه بقوة الشهوة، تحرّكت فيه القوة الغضبية، فيستعين بالقوة الربّانية التى تُسكن الشهوة والغضب.

٥٥٧ شهوة خفية...

سئل رسول الله ﷺ يوماً عمّا جعله ساهماً، فقال: أمرٌ أتخوّفه على أُمّتى من بعدى. فقيل له: ما هو يا رسول الله؟ قال: الشِّرك والشهوة الخفية. فقيل له: يا رسول، أوَ تُشرِكُ أُمتك من بعدك؟ قال: إنهم لا يعبدون شمساً ولا قمراً، ولا حَجَراً ولا فنّاً، لكنهم يُراءون بأعمالهم. فسألوه: والرياء شِرْك؟ قال: نعم. فسألوه: وما الشهوة الخفية؟ قال: يصبح أحدهم صائماً، فتعرض له شهوات الدنيا فيفطر، وقال: من صلّى صلاة يرائى بها فقد أشرك؛ ومن صام صياماً يراءى به فقد أشرك. وفى رواية: سُئل عن الشهوة الخفية؟ فقال: هذا الرجل يتعلم العلم يُحبّ أن يُجلس إليه.

٥٥٨ - شواهد ...

شواهد الأشياء: اختلاف الأكوان بالأحوال والأوصاف والأفعال، كالمرزوق يشهد على الرازق، والحىّ على المحيى، والميّت على المميت.

وشواهد التوحيد: هى تعيّنات الأشياء، فإن كل شئ له أحدية بتعيين خاص يمتاز به عن كل ما عداه.

وشواهد الحق: هى حقائق الأكوان فإنها تشهد بالمكوِّن.

٥٥٩ - شَوْق...

هو هيجان القلب عند ذكر المحبوب، وهو فى قلب المحب كالفتيلة فى المصباح، والعشق كالدهن فى النار.

وقيل: مَن اشتاق إلى الله أنس إلى الله، ومن أنس طرب، ومن طرب وصل، ومن وصل اتصل، ومن اتصل طُوبَى له وحُسْن مآب.

والفرق بين الشوق والاشتياق: أن الشوق يَسْكُن باللقاء، والاشتياق لا يزول باللقاء، بل يزيد ويتضاعف.

٥٦٠ - شهادة...

هى عالم المُلك، وهى نوعان: شهادة صغرى، وشهادة كبرى. والصغرى على أقسام، كمن مات غريقاً أو غريباً - وأمثال ذلك، وأعلى مقاماتها الموت فى سبيل الله. والكبرى قسمان، أعلى وأدنى، فالأعلى شهود الحق تعالى بعين اليقين فى

سائر مخلوقاته، فإذا رأى العارف شيئاً من المخلوقات فإنه إنما يشهد الحقّ تعالى فى ذلك الشئ من غير حلول ولا اتصال ولا انفصال، بل بما أخبر به سبحانه بقوله: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ (البقرة ١١٥)، فإن صحّ للعبد هذا المشهد فهو مُشاهد لله تعالى، وهذا أعلى مناظر الشهادة، وما بعدها إلا أول مراتب الصدّيقية وهو الوجود، فيفنى عن نفسه بوجود ربّه، وحينئذ يدخل فى دائرة الصدّيقية.

وأما القسم الأدنى من الشهادة الكبرى، فهو انعقاد المحبة لله تعالى من غير علّة، فتكون المحبة لله تعالى لصفاته وكونه أهلاً أن يُحَب.

وقيل: أنه لمّا ظهر النبىّ ﷺ فى المدينة يدعو لله، قَدِمَ عليه جبران من الشام، فسألاه عن أعظم شهادة تشهد لله تعالى فى كتابه القرآن، فقال: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (آل عمران ١٨)، فكان عُبّاد الله من الصوفية، إذا تهجّدوا، قرأوا بها، يقولون: ونحن نشهد بما شهد الله به، ونستودعه تعالى هذه الشهادة، وهى لنا عنده وديعة. وقيل عن عبدالله بن مسعود، عن النبىّ ﷺ، أنه قال: يُجاء بصاحبها (أى صاحب هذه الشهادة) يوم القيامة، فيقول الله تعالى: عبدى عَهِدَ إلىّ، وأنا أحقُّ مَن وَفَّى. أدخلوا عبدى الجنة». وقيل: من أقرّ بهذه الشهادة عن عَقْد من قلبه، فقد قام بالعدل. وقيل: كان حول الكعبة ثلاثمائة وستون صنماً، لكل حىّ من أحياء العرب صنم أو صنمات، فلما نزلت هذه الآية، كانت إيذاناً بهدمها جميعاً، فلما فُتحت مكة أمر الرسول ﷺ فحطّموها، فكانت تُشاهَد بقاياها كأنما خرّت ساجدة لله.

٥٦١- شهرُ حرام...

سمّاه النبىّ ﷺ «شهر الله»، لأن الله منّته وشدّده؛ وكان أيضاً يسميه «شهر آل الله»، لأن أهل الحرم كانوا يُسَمُّون «آل الله».

٥٦٢- شهود...

هو رؤية الحق بالحق. وقيل الشهود أن يرى العبد حظوظ نفسه، وتقابله الغيبة: وهى أن يغيب عن حظوظ نفسه فلا يراها.

وشهود المُجمَل فى المُفصَّل: هو رؤية الأحدية فى الكثرة؛ **وشهود المُفصّل فى المجمل**: هو رؤية الكثرة فى الذات الأحدية.

ووحدة الشهود: أن لا تشاهد إلا الله

فيما تطالعه من أشياء، ويقابلها وحدة الوجود: وهى إقرار بأن الأشياء موجودة وليست معدومة كما فى وحدة الشهود، ولكنك ترى فيها الله، أو أن الله هو عين وذات هذه الموجودات.

٥٦٣- شيخ...

هو الذى سَلَك طريق الحق، وعمله فى الطريقة أن يرشد المريدين والطالبين، ويقرر الدين والشريعة فى قلوبهم، ويحببهم إلى الله، ويحبب الله إليهم، ثم إنه هو نفسه من أحب عباد الله إلى الله، قُدسىّ الذات، فانىّ الصفات، شرطُه أن يكون عالماً بالكتاب والسُّنة، متحلياً بأخلاق النبىّ ﷺ، قد أخذ هذا الطريق عن شيخ محقق تسلسلت متابعته إلى رسول الله ﷺ، وارتاض رياضة بالغة. ولا يصلح للمشخة مجذوب ولا سالك فقط.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن المريد إذا وصل إلى الشيخ فينبغى أن يجتهد فى التعرّف إلى حقيقته، وما إذا كان صالحاً للمشيخة أم لا، فإن هلاك كل مريد الاقتداء بالأئمة المُضلّة، ومن ثم كان عليه أن يتفحّص أمر الشيخ ليعلم استقامته، وأنه على الطريقة والحقيقة، فإن كان مبتدئاً فيتوسل لمعرفته من خلال كلام الناس وأحوال الجماعة الذين يحبونه ويقتدون به، فإن علم أنهم لا ينكرونه ويجلّه أهل العلم ويرجعون إليه، والشبان والشيوخ يُقبلون عليه ويبايعونه، فذلك دليل على مهارته فيقتدى به، وحينئذ عليه أن يثق فيه عن اعتقاد لا يرقى إليه شك، أنه لا شيخ آخر يصلح له سواه، ليوصّله إلى الله، وهذا يسمى توحيد المطلب.

ويذهب آخرون فى الرأى إلى أن المريد لا يجب عليه أن يتخذ شيخاً واحداً لا يتجاوز عنه، وإنما يفعل فعل التلاميذ فيختار الأفضل من المعلمين، فيكونون له كالأب الحقيقى أو المُرضع، يتعهدونه بالرعاية والتثقيف والإرشاد والتربية إلى أن يبلغ سن الفطام وينضج فكرياً ووجدانياً، ويرتقى فى مدارج الكمال والمقامات. وقد يخلف أستاذه وشيخه على الطريقة بحسب الأحوال.

وعند الصوفية الشيعة: فإن الشيوخ هم الأشخاص الأربعة الذين منحهم الإمام علىّ خرقة خلافة الفقر التى وصلت إليه - كما يقولون - من الرسول ﷺ، وأول هؤلاء هو الإمام الحسن بن علىّ، وثانيهم الإمام الحسين بن علىّ، وثالثهم الشيخ كميل ابن زياد، ورابعهم الحسن البصرى. وعند الشيعة الصوفية أيضاً: أن علياً أعطى الحسن

البصري وحده خِرْقة الفقر، وأنه قد تسلسلت عن البصري أربع عشرة أُسرة صوفية. أو أن خرقة الفقر وصلت من الإمام عليّ إلى شخصين هما الحسن البصري وكميل بن زياد، وهما الشيخان السابقان اللذان عليهما وما يزال يتخرّج الكثيرون من الطالبيين بواسطة ما وَصَلنا عنهم من السيرة والعلم الصحيحين. فأمّا البصري فكان مدرسةً في التصوف وتتلمذ عليه كثيرون، وغلب عليه الخوف حتى أنهم أطلقوا على أتباعه اسم الخائفين، وأما كميل فإنه كان من المتصبّرين، وشهد صفّين مع عليّ، وقتله الحجّاج صبراً.

وفي حركة التوّابين سنة ٦١هـ التي انتهت بالفشل سنة ٦٥هـ، كان قائد الحركة من مشايخ الصوفية، وكانوا يلقبونه شيخ الشيعة. (أنظر المشيخة).

وقد أوجز مصطفى البكري أدب المريد مع الشيخ فقال: أن تجلس جلوس الصلاة عنده، وأن تفنى فيه، وألا تجلس فوق سجادته، ولا تتوضأ بإبريقه، ولا تتكيء على عكازه. ومن يقل لشيخه «لِم» لا يفلح، وإن تغفل عنه وقتاً فهذا من مقتك، واجتهد أن تنال مقام الفناء فيه، فمن ثم ترقى إلى مقام البقاء به:

وسَلِّمْ الأمر له لا تعترض
ولو بعصيانٍ أتى أذىً فُرِض
وكن لديه مثل ميّتٍ فان
لدى مُغَسِّلٍ، لتمسى دانى
ولا تطأ له على سجادة
ولا تنم له على وسادة

وأوجزها الچيلي فقال:

وكن عنده كالميّت عند مُغسِّل
يُقلّبه كيف يشاء وهو مطاوع

وعند الشعراني: من أشرك بشيخه شيخاً آخر وقع في الشرك بالله! ومن أخذ الطريق على غير شيخه كان على غير دين! - ولا أعتقد أن الشعراني يفتي بذلك!

وعند القشيري: من صحب شيخاً من الشيوخ ثم اعترض عليه بقلبه، فقد نقض عهد الصحبة ووجبت عليه التوبة. - والتوبة طبعاً للشيخ.

٥٦٤-شيطان...

الشيطان من الغيب وليس مجالاً لأي كلام علمي. وقيل هو نار غير صافية ممتزجة بكلمات الكفر، تجري من ابن آدم مجرى الدم.

واختلف الصوفية في قوله تعالى: ﴿شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ﴾ (الأنعام ١١٢)

على رأيين، **الأول**: أن الشياطين كلهم ولد إبليس إلا أنهم جعلوا على قسمين: فقسمٌ يوسوس للإنسان، وهؤلاء شياطين الإنس؛ وقسم يوسوس للجن، وهؤلاء شياطين الجن. والثاني: أن الشيطان هو كل عات متمرد من الإنس والجن، ولذا قال عليه السلام لأبي ذرّ: «هل تعوذون بالله من شرّ شيطان الإنس والجن»، فقال أبو ذرّ: وهل للإنسان شيطان؟ فقال الرسول ﷺ: «نعم وهو أشرّ من شياطين الجن».

والشيطان في المصطلح الصوفي: النفس الأمّارة. وهذا أكثر معقولية. وعن عبد الله بن مسعود قال: للمَلَك لَمّة، وللشيطان لَمّة، فلَمّة الملك إيعاز الخير، ولمة الشيطان إيعاز الشّر، وهي الوسوسة، والهمزات، والنزغات، والمسّ ويكون على خطوات ويطول أمره، والشيطان فيه كالطائف، ليفتن ويُزِل.

وعَبَدة الشيطان هم أولياؤه، وهم إخوان الشياطين، وحزبهم هو حزب الشيطان، أولئك الضالون المُضلّون، يستحوذ عليهم، ومنهم من المتصوفة: أصحاب الطُّرق الإباحية، والمتصوّفة المبطلين، وفي الحديث: «ما من ثلاثة في قرية ولا بدو، لا تقام فيهم الصلاة، إلا وقد استحوذ عليهم الشيطان، فعليك بالجماعة، فإنما يأكل الذئب القاصية»، والقاصية أي البعيدة، والصلاة ذكر، وصلاة الجماعة أفضل من صلاة الفرد. وفي القرآن: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ (الزخرف: ٣٦)، والقرين الصاحب الملازم.

٥٦٥-شيعة...

اسم اصطلاحي يدل على الحزب العلوي - أي حزب عليّ بن أبي طالب، ولم يتخذ الاسم صورته الاصطلاحية إلا بعد مقتل الحسين، ابتداءً من سنة ٢١هـ (٦٨٠م)، ولم يبرز الشيعة كجماعة لأول مرة إلا في الكوفة والبصرة والمدائن، ومنهم جماعات صوفية سياسية، اصطبغت أفكارهم بالفلسفة وبالتصوّف، وكان مدارها الحلول والاتحاد ووحدة الوجود، وارتبط ذلك بالضرورة بمتصوّفة كبار، وبرز من فلاسفة الشيعة أصحاب التوجه الصوفي: نصير الدين الطوسي، وكمال الدين ميثم البحراني، وحيدر الآملي، ورضيّ الدين عليّ بن طاووس، والعلاّمة الحلّي، وعامر البصري إلخ.

فأمّا الطوسي: فكان له كلام في التصوف الفلسفي، جمع فيه بين العرفان والاستدلال، وراسلَ القونوي حول مفاهيم الاتحاد والحلول ووحدة الوجود؛ وفي كتابه

«أوصاف الأشراف» دافع عن الحلاّج، والبسطامي، وذكر أن قول الأول «أنا الحق»، والثانى «سبحانى ما أعظم شأنى»، ليست فيه أى دعوى بأن أياً منهما قد تألّه، وإنما هما ينفيان أنّيتهما، ويثبتان أنيّة الله.

وأما ميثم البحرانى - وهو الحكيم المُدقّق والفيلسوف المُحقّق - فقد تصدّى لنهج البلاغة - المنسوب لعلىّ - بالشرح، وبدأه بداية صوفية، وذهب إلى الكثير من التأويلات، كقوله: إن آدم هو النفس الناطقة؛ وأن قارئ القرآن يتجلّى له الله من خلال كلامه - وإن لم ير الله رأى العين، وإنما يبصره بقلبه؛ وأنه فى الحج ليس المقصود طواف الجسم بالبيت، وإنما طواف القلب؛ وأن عالم الملك والشهادة مرقاةٌ ومدرجةٌ إلى عالم الغيب والملكوت. وقال البحرانى عن التبرّى الذى يعنى عند الشيعة، أن نبرأ من أعداء علىّ، أن المراد به أن يبرأ الإنسان من حَوْله وقُوّته، ولا يلتفت إلى نفسه بعين الرضا والتزكية.

وأما ابن طاووس، فقد ذهب إلى القول بأن المقصود بالأسرار الصوفية، هو نفسه ما تعنيه كلمة التقية عند الشيعة.

وذهب الحلّى مذهب الحلاّج، وقال بالتسامح الصوفى فى أمثال هذه الأبيات:

لو كنتَ تعلمُ ما علِم الورى
طُرّاً، لصرتَ صديقَ كلّ العالَم
لكن جهلتَ، فقلت إن جميع مَن
يهوَى خلافَ هواك، ليس بعالِم

وهو قول قريب فى معناه من البيت المشهور للحلاّج:

أدين بدين الحبّ أنّى توجهتْ
ركائبه فالحبّ دينى وإيمانى

ونسبوا له شعراً فى الحبّ الإلهى، مثل:

لى فى محبّته شهودٌ أربع
وشهودُ كل قضية اثنان
خفقان قلبى واضطراب جوانحى
وشُحوب لونى واعتقال لسانى

وأما الآملى، فقد نسب نفسه كمتصوّف إلى البسطامى، وله كتاب «جامع الأسرار ومنبع الأنوار فى أن عقائد الصوفية موافقة لمذاهب الإمامية الاثنا عشرية»، وكتاب فى شرح فصوص الحكَم لابن عربى، وقال عن أصحاب وَحدة الوجود، أنهم أرباب التوحيد، وميّز بين الشيعى والصوفى، فقال: إن الأول مؤمن عادى، بينما الثانى مؤمن مُمتحَن؛ وأن الشيعة والصوفية اسمان متغايران لحقيقة واحدة هى الحقيقة المحمدية؛ واعتبر علياً

نفس محمد وخليفته، واخترع حديثاً نسبه لعلي: «كنتُ ولياً وآدم بين الماء والطين» قياساً على الحديث الموضوع والمنسوب إلى النبيّ بنفس المعنى، وبذلك صيّر علياً ومحمداً شخصاً واحداً على التحقيق.

وأما عامر بن عامر البصري، فكان إسماعيلياً، وله قصيدة يعارض بها تائية ابن الفارض، صوّر فيها المهدي تصويراً صوفياً فقال:

ظهرتَ لنا في صورةٍ عيسوية
ومن بعده في صورة أحمدية
وقد آن أن تبدو لنا الآن ظاهراً
بلا مَرْية في صورة آدمية

وبدأ القصيدة بعرضٍ لوحدة الوجود، يقول:

تجلّى لي المحبوب من كلّ وجهة
فشاهدتُه في كل معنى وصورة
وخاطبني منّي بكشف سرائر
تعالت عن الأغيار لطفاً وجلّت

فقال: أندري مَن أنا؟ قلت: أنت يا منادي، أنا. وكنتَ أنت حقيقتي

فقال: كذاك الأمر، لكنني إذا
تعينتُ الأشياء بي كنتَ نسختي
فأوصلتُ ذاتي بالمحادي بذاته
بغير حلول بل بتخصيص نسبتي

ومن صوفية الشيعة كذلك محمد ابن مكّي الجزيني، ويسمونه بالشهيد الأول، وكان من سكان جزين، وله نظمٌ في التصوّف، يقول:

الفقر سرٌّ وعنك النفس تحجبه
فارفع حجابك تَجْلُ ظلمة التلف
وفارق الجنس وأقرّ النفس عن نفس
وغبْ عن الحسّ واجلب دمعةَ الأسفا

وَوَصَف الصوفية: بأنهم المشتغلون بالعبادة، المُعرِضون عن الدنيا، وآدابهم ورسومهم تشترط الفقر، والعدالة فيهم لتحقيق المعاني المقتضية للفضيلة. ولم يشترط للصوفي سُكنَى الرباط، ولا لبس الخرقة من شيخ معين، ولا زيًا مخصوصًا. ومن أشعاره الشبيهة بأشعار الحلاّج:

الأولياء تمتعوا بك في الدُّجَى
بتهجدٍ وتخشعٍ وحنين
فطردتني من قرع بابك دونهم
أترى لعظْم جرائم سبقوني؟
أوَجدتَهم لم يذنبوا فرحمتهم
أم أذنبوا فعفوتَ عنهم دوني؟

ومع ذلك فقد كان من الشيعة من انتقد التصوّف، ومن ذلك جعفر الصادق

فيما نقل عنه الأردبيلي في كتابه: حديقة الشيعة في ردّ التصوّف؛ وأُملاً صدرا فيما أثر عن المتصوفة من القول بالخوارق والكرامات، والشعبذة، والفأل، والزجر، والشطحات، ومُلاّ محسن فيض فيما ادّعوه من أسماء كالشيخ، والدرويش؛ والأردبيلّي قسّمهم إلى مذاهب، هي: الحلولية، والاتحادية والعُشّاقية، والواصلية.

٥٦٦-شيعة محمدية...

هم الصوفية من الشيعة، جمعوا بين التشيُّع والتصوّف، وقالوا إنهم على مذهب أهل السُنّة! والاصطلاح للآملي في كتابه «جامع الأسرار».

* * *

باب الصاد

* * *

٥٦٧- صابئة...

أشعل العنصر الفارسى سلسلة من الثورات على الجنس العربى عبر التاريخ، عن طريق التظاهر بالتصوّف والتشيّع، وجعلوا سلمان الفارسى قطباً من أقطاب التصوّف العجمى، وأفردوا هذا التصوّف بادّعاء أن الله سيبعث رسولاً من العجم، وينزّل عليه كتاباً دفعةً واحدة وليس على دفعات كالقرآن، ولذلك فقد دان دهاقنة التصوف العجمى بشرائع غير شريعة محمد ﷺ، وهؤلاء أُعطوا اسم الصابئة، أى الذين خرجوا عن دينهم إلى دين آخر، كالحلاّج مثلاً، والبسطامى، والقونوى إلخ.

٥٦٨- صاحب...

صاحب إشارة: مصطلح صوفى، معناه أن يكون كلامه مشتملاً على اللطائف والإشارات وعلم المعارف.

وصاحب إذن: معناه أنه مأذون بالدعوة إلى الطريقة، ويتضمن ذلك الدعوة إلى الله، والأمر بالمعروف، والنهى عن المنكر.

وصاحب بصيرة: هو العابد المشغول بالله، فيفتح عليه من أسراره، ويكشف له ما غمض من الأمور العبادية والإلهية والوجودية، ويجعله على بصيرة.

وصاحب النقطة: عند الصوفية الحروفيين هو علىّ، لقوله: العلم نقطة كثّرها الجاهلون - ومعنى أن العلم نقطة، أنه جوهر يكون فى القلب، باعتبار القلب موضع الوحى الإلهى وخزانة كلماته. ومعنى النقطة عنده وعندهم: أنها التى تُختزل فيها العلوم، وفيها تجتمع مادة الحروف أساس كل علم، من الألف إلى الياء. والنقطة إذن هى سرّ حروف الكتابة والقراءة الثمانية والعشرين عند العرب، والثلاثين عند العجم، وهى مظاهر لله، ومنها تتألف عبارات الوحى الإلهى الأزلى، المتمثّل فى القرآن وما فيه من أسرار مكنونة فى الحروف المقطّعة. وعلىٌّ إذن عند الصوفية الحروفية هو باب العلم، وهو العلم نفسه، وهو بصراحة: الله!!

وصاحب الزمان، وصاحب الوقت والحال: هو المتحقّق بالله، المطّلع على حقائق الأشياء، الخارج عن حكم الزمان وتصرفاته، ماضيه ومستقبله، إلى الآن الدائم، فهو ظرف لأحواله وصفاته وأفعاله، ومن ثم يتصرّف فى الزمان: بالنشر والطىّ؛ وفى المكان: بالبسط والقبض، لأنه المتحقّق بالحقائق والطبائع، والحقائق تكون سواء، فى القليل ومثلها

فى الكثير، وفى الطويل وفى القصير، وفى العظيم وفى الصغير، إذ الوحدة والكثرة والمقادير كلها عوارض. والمتحقّق بالحقّ المتصرّف فى الحقائق يفعل ما يفعل فى طورٍ وراء الحسّ والوهم والعقل، ويتسلّط على العوارض بالتغيير والتبديل.

وصاحب قلب: يعنى ليس له عبارة اللسان، وفصاحة البيان، عن العلم الذى اجتمع فى قلبه.

وصاحب مقام: يعنى أن يكون مقيماً فى مقام من مقامات القاصدين، مثل التوبة والورع والزهد والصبر، وغير ذلك، فإذا عُرف بالمقام فى شئ من ذلك، قيل له أنه صاحب مقام.

وصاحب ليل: الذى يقوم الليل متعبّداً؛ **وصاحب نهار** الذى تعبُّده بالنهار أكثر. والناس أربعة: أحدهم صاحب ليل ولم يكن صاحب نهار؛ والآخر صاحب نهار ولم يكن صاحب ليل. وبعضهم صاحب سرّ ولم يكن صاحب علانية، والآخر صاحب علانية ولم يكن صاحب سرّ.

٥٦٩- صاحبية...

فرقة من المتصوّفة المبطلة، أباحوا كل شئ بين **الأصحاب فى الطريقة**، فكان الصاحب ينزل بيت صاحبه وإن لم يكن موجوداً به، فيأكل طعامه، وينام على وسادته، ويلبس لباسه، ويأخذ من ماله، وقد يستبيح امرأته! وطريقتهم طريقة الخلطة والمشاعية فى المال والعيال.

٥٧٠- صَبَا...

الصَّبا: هى الريح تهب من جهة الشرق؛ وعند **الصوفية**: هى النفحات الرحمانية الآتية من جهة مشرق الروحانيات، وهى الدواعى الباعثة على الخير.

وقيل: هى صولة الروح واستيلاؤها بطريقة تجعل الشخص يصدر عنه شئ موافق للشرع والعقل.

٥٧١- صبر...

هو الوقوف مع البلاء بحُسن الأدب، والفناء فى البلوى بلا ظهور شكوى. وهو على **أقسام**: فصبرٌ على ما هو كسبٌ للعبد، وصبرٌ على ما ليس بكسب.

والصبر على المكتسَب قسمان: صبرٌ على ما أمر الله تعالى به، وصبرٌ على ما نهى عنه. وأما **الصبر على ما ليس بمكتسب للعبد فصبره على مقاساة ما يتصل به من حكم الله فيما يناله فيه من مشقة**.

وقيل أيضاً الصبر ثلاثة أوجة: متصبّر، وصابر، وصبّار؛ فالمتصبِّر: من صبر فى الله، فمرةً يصبر على المكاره، ومرة يعجز؛ والصابر: من يصبر فى الله ولا

يجزع، ولا يتمكن منه الجزع ولا يُتوقع منه شكوى؛ والصبّار: الذى صبره فى الله ولله وبالله، فهذا لو وقعت عليه كل البلايا لا يجزع ولا يتغير من جهة الوجوب والحقيقة، لا من جهة الرسم والخلقة.

والصبر على ضربين: صبر العابدين وصبر المحبّين؛ فصبر العابدين: أحسنه أن يكون محفوظاً؛ وصبر المحبين: أحسنه أن يكون مرفوضاً.

وقيل: الصّبر ضربان: بدنى، كالصّبر على الضرب الشديد؛ ونفسانى، وهو منع النفس عن مقتضيات الشهوة. وفى الحديث: «الصبر لا يمر بذنب إلا محاه» رواه أبو نعيم. وقال ﷺ: «لم يُعط المؤمن أفضل من الصبر»، وقال: «إن كنوز البرّ كتمان الأمراض والمصائب». وقال: نحن معاشر الأنبياء أشد الناس بلاء، ثم الأمثل، فالأمثل، ويُبتَلى الرجل على حسب دينه، فإن كان فى دينه صلابة فيكون بلاؤه أشد». وقال: الصبر مفتاح الفرج»:

ما أحسن الصبر فى مواطنه
والصبر فى كل موطن حسن
حسبك من حُسنه عواقبه
عاقبة الصبر ما لها ثمن!

والصوفية على الصبر على المصائب وكتمانها، والصبر على الأذى، والصبر على المجاهدة والخشونة وكراهية الترفُّه والتنعُّم، وفى الحديث: «تمعددوا واخشوشنوا وامشوا حفاةً»، وقال: «البذاذة من الإيمان» يعنى التقشف والصبر على المكاره.

والصبر أيضاً اسمٌ لمعان ظاهرة وباطنة، والظاهرة أربعٌ: أولها: الصبر على أداء الفرائض، وفى الشدّة والبلاء؛ وثانيها: الصبر على ما نهى الله عنه؛ وثالثها: الصبر على النوافل وأعمال البرّ مما يقرّب العبد إلى الله، وفى الحديث عن أبى هريرة فيما رواه النبىّ ﷺ عن ربّه: «ما تقرّب إلىّ عبدى بمثل ما افترضتُه عليه، ولايزال عبدى يتقرّب إلىّ بالنوافل حتى أحبه»؛ ورابعها: الصبر على قبول الحق ممن جاء به من الناس، فمن ترك قبول الحق ورفض أن يردّه فإنما يرفضه من الله ويردّه على الله.

وهذه المعانى هى ظاهر الصبر الواجب على الخلق. فأما حقائق الصبر: فهو احتمال مكروه الناس. والصبر: أن تتجرع النفس ما يقع لها مما تكرهه، وأن تأنف الجزع منه، وتترك البث والشكوى، وتكتم ما ينزل بها. وفى الحديث: «من بثّ فقد شكا»، والله تعالى يقول: ﴿الْكَاظِمِينَ

الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾ (آل عمران ١٣٤)، فالذى يكظم ما يكره يصير صابراً، والذى يبدى الجزع ولايعفو عمّن يسىء إليه، يخرج من حدّ الصبر.

والصبر على المكاره من حُسن اليقين، والصبر نصف الإيمان، واليقين الإيمان كله.

ولأهل الصبر ثلاث مقامات: الأول: ترك الشكوى وهو درجة التائبين؛ والثانى: الرضا بالمقدور وهو درجة الزاهدين؛ والثالث: المحبة. أى محبة ما يفعله المولى به وهو درجة الصدّيقين.

٥٧٢ - صبيح...

قيل الصباحة هى الجود، والصبيح هو الذى يتحقق فيه اسم «الجواد» باطناً وظاهراً. وكان الرسول عليه الصلاة والسلام صبيحاً، أى جواداً، باطناً وظاهراً. وكل متحقق بوراثته فى جُوده هو صبيح كذلك.

وقيل الصباحة نوع من الفتح الربّانى، وهى إشراقة فى الروح والنفس والقلب والسِّر تظهر على الوجه، والرسول يقول: اطلبوا الحوائج عند صباح الوجوه». وقد يكون العبد أشعث أغبر إلا أنه عند الله صبيح بحسب النية ودرجة الوصول، لحديث رسول الله ﷺ: رُبَّ أشعث مدفوع بالأبواب لو أقسم على الله لأبرّه.

٥٧٣ - صحابة...

قال النبىّ ﷺ: «أصحابى كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم».

وقال الواسطى: أول لسان الصوفية ظهر فى هذه الأمة كان لسان أبى بكر ﷺ.

وقال الطوسى: ولأهل الحقائق أسوة وتعلق بعمر لمعانٍ خُصّ بها، وجميعها من اختياره، وهى: لبس المرقعة؛ والخشونة؛ وترك الشهوات؛ واجتناب الشبهات؛ وإظهار الكرامات؛ وقلة المبالاة من لائمة الخلق عن انتصاب الحق؛ ومحق الباطل؛ ومساواة الأقارب والأباعد فى الحقوق؛ والتمسُّك بالأشد من الطاعات.

أما عثمان: فقد خُصّ بالتمكين، وهو من أعلى مراتب المتحققين، ومما يتعلق به أهل الحقائق من أهل التصوف. ويتشبّه الصوفية به فى تضحيته بالحياة والمال، والتسليم فى شئونهم لله.

وقال الجنيد: رضوان الله على أمير المؤمنين علىّ، لولا أنه اشتغل بالحروب لأفادنا من علمنا هذا - يعنى التصوف - معان كثيرة، وذلك امرؤ أُعطى العلم اللدنى - ويقصد العلم الذى خُصّ به الخَضِر ولىّ الله.

ومن الصحابة: أهل الصُّفّة، وهؤلاء هم الصوفية الأوائل، ومنهم الداعي إلى حضرة الجبّار: بلال بن رباح؛ والمتوجه لله الغفّار: أبو عبيدة بن الجرّاح؛ وكنز الحلم عبد الله بن مسعود؛ وراعي التقوى: خباب بن الأرت إلخ.

وكان الصحابة من أهل الله، خير جيل، وأفضل من اعتنق الإسلام، وقال فيهم الرسول ﷺ: خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم»، وأنزل فيهم الله تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ﴾ (التوبة ١٠٠).

٥٧٤ - صُحبة...

الصُّحبة للصوفي تفتح باطنه ويكتسب بها علم الحوادث والعوارض ويتقوّى قلبه. وأحب الناس إلى الله الذين يُؤلَفون ويألفون وتكون لهم بالناس علاقات الأصحاب. واعتزال الأصحاب مرغوب فيه لوقته. والصحبة بمعنى التحابّ في الله هي خير صُحبة. والأنس بالله هو أن تستوحش من الخَلق إلا من أهل ولاية الله، فإنّ الأنس بأهل ولاية الله هو الأنس بالله. وقد نبّه أحدهم إلى المعنى الجامع للصُّحبة والخَلوة فقال:

وحدة الإنسان خيرٌ
من جليس السوء عنده
وجليس الخير خيرٌ
من قعود المرء وحده

والفساد بالصحبة متوقع، والصلاح بها متوقع. واختيار الصحبة يتوقف على النية، وكان سعيد الخراز يقول: صحبت الصوفية خمسين سنة فما وقع بيني وبينهم خلاف، لأني كنت معهم على نفسي.

وعلامة خلوص الصحبة لله: أن لا يكون فيها شائبة حظ عاجل، لأنها لو كانت معلولة تزول بزوال العلة.

ومن أدب الصوفية في الصحبة: القيام بخدمة الأصحاب واحتمال الأذى منهم، والتغافل عن زلّاتهم، والنصح لهم، وتقديم من يعرفون فضله في المجالس، ولين الجانب، وترك الصَّوْلة، وحذر المفارقة، وعدم التكلّف للأصحاب، ورعاية الاعتدال، والمداراة، وستر العورات، والاستغفار للأصحاب.

والصحبة على ثلاثة أقسام: صحبة مع من فوقك: وهي في الحقيقة خدمة؛ وصحبة مع من دونك: وهي تقضي على المتبوع بالشفقة والرحمة، وعلى التابع بالوفاق والرحمة؛ وصحبة الأكفاء والنظراء: وهي مبنية على الإيثار والفتور. ومن ثم فالمريد الذي يصحب شيخاً فوقه في الرتبة فيؤدّبه، ينبغي عليه أن يترك الاعتراض،

ويحمل ما يبدو منه على وجه جميل، ويتلقى أحواله بالإيمان به .

وقيل إن الله تعالى قد أوحى إلى نبيّه موسى عليه السلام قائلاً: كن يقظاً، مرتاداً لنفسك أخداناً (أى أصحاباً)، وكل خدن لا يؤاتيك على مَسَرَّة فاقصه ولا تصحبه، فإنه يقسّى قلبك، وهو لك عدو .

وقيل أيضاً: اجتنب صُحبة ثلاثة أصناف من الناس: الجبابرة الغافلين، والقُرّاء المداهنين، والمتصوّفين الجاهلين .

٥٧٥ - صحو ...

هو رجوع العارف إلى الإحساس بعد الغيبة، وعكسه السُّكر: وهو غيبةٌ بوارد قوى. ومعنى الصحو والسُّكر قريب من معنى الحضور والغيبة، والفرق بين الحضور والصحو: أن الصحو حادث، والحضور على الدوام. والصحو والسُّكر أقوى وأتم وأقهر من الحضور والغيبة. والسُّكر يعتور عليه صحوان: صحوٌ قبل السُّكر، وهو تفرقة محضة ليس من الأحوال فى شئ؛ وصحو بعد السُّكر وهو الرجوع بعد الغيبة، ويسمى الصحو الثانى، وصحو الجمع، والصحو بعد المحو .

وبعض الصوفية يفضلون حال الصحو على حال السُّكر، وبعضهم يفضل حال السُّكر، بدعوى أن الصحو يحدد الصفات الإنسانية التى هى أكبر حجاب بين الربّ والعبد، بينما السُّكر هو هدم هذه الصفات. وكان الجنيد وأتباعه يفضلون الصحو على السُّكر، لأنهم قالوا إن السُّكر شرّ، ويُفقد العقل، ويثير الاضطراب فى النفس، وليس من سبيل إلى التحقق إلا بالصحو .

وقيل فى السُّكر إنه ملعب أطفال، وأما الصحو فهو موقع الأبطال. ومع ذلك فالصحو صحوان: صحو الغفلة، وصحو المحبة، والأول من أكبر الحجُب، والثانى هو أرق المكاشفات. وفى الحقيقة فإن صحو الغفلة سُكر، بينما صحو المحبة هو الصحو حقًا برغم ما فيه من سُكر، وكما ترى فإنهما نسيان، ونهاية أحدهما بداية الآخر، وفى التوحيد لا صحو ولا سُكر:

إذا طلع الصباح بنجم راح

تساوى فيه سكران وصاح

٥٧٦ - صحيفة ...

الصحيفة السَّجّادية مجموعة أدعيات ومناجيات صوفية تُنسب زوراً لعلىّ ابن الحسين زين العابدين؛ المتوفى سنة ٦٤هـ (٧٦٣م)، والسبب فى الحُكم عليها بالتزوير، أن أسلوبها فيه سمات العصور

التالية وليس عصر علىّ بن الحسين، ويتّسم بالصنعة والتكلُّف. وتشبه الصحيفة فى بعض عباراتها عبارات لرابعة العدوية فى الحبّ الإلهى وفى الفناء، ويبرز من بين مقاماتها مقام التوكل، ويعدّ بها علىّ بن الحسين رأساً فى التوكل الصوفى.

والصحيفة الرضوية تُنسب إلى علىّ الرضا، المتوفى سنة ٢٠٣هـ (٨١٨م)، وكان يلبس الصوف طول عمره، مع أنه كان غنياً غنىً خرافياً، وله الضياع الكثيرة. والصحيفة عبارة عن مجموعة من الأحاديث النبوية فى شتّى الموضوعات، ويدخل فى سلسلة سندها القشيرى، صاحب «الرسالة» فى التصوف؛ ومن جملة هذه الأحاديث هذا الحديث - وهو منحول قطعاً بالنسبة لما فيه من مصطلحات لم ترد فى عهد النبىّ - يقول الحديث: إن لله تبارك وتعالى شراباً لأوليائه، إذا شربوا سكروا، وإذا سكروا طربوا، وإذا طربوا طابوا، وإذا طابوا ذابوا، وإذا ذابوا خلصوا، وإذا خلصوا وصلوا، وإذا وصلوا اتّصلوا، وإذا اتّصلوا لا فرق بينهم وبين حبيبهم». وهذه العبارات ورد ما يشبهها عند الحلاّج؛ وفسّر جلال الدين الرومى الشراب بأنه الخمر الإلهية.

٥٧٧ - صدأ...

الصدأ والصداء أيضاً، وهو الغطاء على وجه القلب من ظُلمة النفس وصور الأكوان، وهو يحجب القلب عن قبول الحقائق وتجلّيات الأنوار، فإذا ترسّخ فإن ذلك يعنى الحرمان، فيبقى الفرد أسير هذا الحجاب ولا يكون للقلب حاصل البتة.

٥٧٨ - صداقة...

هى استواء القلب فى الوفاء والجفاء والمنع والعطاء. قال ذو النون: ما بَعُد الطريق إلى صديق. وقال النورى: الصديق لا يُحاسَب، والعدو لا يُحسَب له شئ. وقال الجنيد: إذا كان لك صديق فلا تسوءه فيك بما يكرهه.

٥٧٩ - صِدق...

الصِّدق من أبرز صفات الصوفى، فهو صادقٌ مع نفسه، وصادقٌ مع إخوانه وشيخه، والصِّدق: هو استواء السرّ والعلانية، والاستقامة مع الله تعالى ظاهراً وباطناً، سِراً وعلانيةً، بأن لا يخطر بالبال سوى الله، فمن اتّصف بهذا الوصف، أى استوى عنده الجهر والسِّر، وتَرَك ملاحظة الخلق بدوام مشاهدة الحق، يسمى صدّيقاً، لقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ﴾ (الحديد ١٩)، ووصف الله تعالى مريم فقال: ﴿وَأُمُّهُ

صدّيقةٌ﴾ (المائدة ٧٥)، والرتبة العالية للصدّيقين: ﴿فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ﴾ (النساء ٦٩)، وكانت لإبراهيم من ربّه رتبة الصدّيقية: ﴿كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾ (مريم ٤١)، وكذلك إدريس: ﴿كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾ (مريم ٤١)، فلأنه كان صدّيقاً جاءته النبوة، ويوسف عرفه الناس بالتزام الصدق فنادوه: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ﴾ (يوسف ٤٦).

وكان إسماعيل ﴿صَادِقَ الْوَعْدِ﴾ (مريم: ٥٤) فكذلك آية الصدّيقين، بينما علامة المنافقين خُلف الوعد. ووعد الله هو ﴿وَعْدَ الصِّدْقِ﴾ (الأحقاف ١٦)، وفيه أيضاً: ﴿رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾ (الإسراء ٨٠)، فلسان الصدق هو الذكر الجميل بعد الموت، ومدخل ومخرج الصدق: هما دار الكرامة والرضوان والفضل والامتنان.

ومن صفة الصوفي الصادق في القصد إلى الله، أن يدعو نفسه إلى طاعته وطلب مرضاته، فإن أجابته حمده تعالى وأحسن إليها، وعندما رأوا أبا هريرة يوطىء شيئاً يفترشه، سألوه فأجاب: إن نفسي إن لم أُحسن إليها لم تحملني» - فإن لم تُجبه إلى ما يُرضي ربّه وتباطأت عنه، منعها ملذاتها من العيش، وخالفها عندما تهوى، وعاداها في الله ولله، وما شكاها إلى الله حتى يصلحها له.

وفي الأثر عن أحد الصوفية الصالحين قال: «قد علمت أن من صلاح نفسي علمي بمفاسدها.

وعلامة الصوفي الصادق: كتمان الطاعة؛ **وحقيقة الصدق** القول بالحق في مواطن الهلكة.

وصدق النور: هو الكشف الذي لا استتار بعده، شبّه بالبرق الذي أمطر فَسُمّي صادقاً، لأن الذي لا يمطر يُسَمّى كاذباً، فإن السالك إذا تعاقب عليه التجلّي والاستتار اشتبه حاله، فإذا بلغ الكشف به مقام الجمع، سُمّي صادق النور، إذ لا استتار بعده ولا اختفاء.

٥٨٠- صَدَقة...

ليس عند الصوفي ما يؤدي منه صدقة، لأن الله قد زوى عنه من أموال الدنيا ما يجب عليه فيه **الزكاة والصدقة**.

ولا يأكل الصوفي، في رأي، من صدقة ولا يطلبها. وبعض الصوفية يرفضونها لأنفسهم ولأصحابهم. وبعضهم يقولون من أخذ من الله تعالى أخذ بعزّ، ومن أخذ لغير الله تعالى أخذ بذل.

وطبقة أخرى من الصوفية اختاروا **الزكاوات والصدقات** على الهدايا والهبات، وقالوا قد جعل الله تعالى

للفقراء حقاً فى أموال الأغنياء، فإذا أخذنا حقوقنا التى جعل الله تعالى لنا فلا معنى لتركها. وقالوا لانختار على ما اختار الله تعالى ورسوله لنا.

وقد روى عن النبىّ عليه الصلاة والسلام أنه قال: «لا تحلّ صدقة لغنى ولا لذى مِرّة»، فالذى كره للمتصوّفة أخذ الزكاة والصدقة كرهه لهذا السبب، لأن النبىّ عليه الصلاة والسلام قال: «ليس الغنَى عن كثرة العَرَض، إنما الغنى غنَى النفس أو القلب»، فهؤلاء وإن كانوا فقراء من أعراض الدنيا فإنهم أغنى من الأغنياء، لأن غناهم بالله عزّ وجلّ.

٥٨١ - صدّيق...

الصِّدّيق هو الذى فى تصديق كل ما جاء به الرسول ﷺ، علماً وقولاً وفعلاً، بصفاء باطنه وقُربه، بباطن النبىّ ﷺ، لشدّة مناسبته له، ولهذا لم تتخلل فى كتاب الله تعالى مرتبة بينهما فى قوله تعالى: ﴿فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ﴾ (النساء ٦٩).

والصدّيق هو أبو بكر، قال الصوفية فيه: إنه أول لسانهم يظهر فى أمة الإسلام، وأن أشرف كلمة فى التوحيد هى التى قالها: سبحانه من لم يجعل للخلق طريقاً إلى معرفته إلا العجز عن معرفته.

٥٨٢ - صدّيقية...

الصدّيقية عند الصوفية: درجة أعلى من درجات الولاية، وأدنى من درجات النبوة، ولا واسطة بينها وبين النبوة، فمن جاوزها وقع فى النبوة، وأركانها ستة: الإسلام، والإيمان، والصلاح، والإحسان، والشهادة، والركن السادس المعرفة - وهى عبارة عن حقيقة مقام: مَن عرف نفسه فقد عرف ربّه. وهذه المعرفة لها ثلاث حضرات، الأولى: حضرة علم اليقين؛ والثانية: حضرة عين اليقين؛ والثالثة حضرة حق اليقين، فعلامة الصدّيق فى تجاوز هذه الحضرات: أن يصير غيب الوجود مشهداً له، فيرى بنور اليقين ما غاب عن بصر المخلوقات من أسرار الحق تعالى.

والصدّيق فى المصطلح الصوفى: هو التقىّ، الصادق دوماً فلا يمازج صدْقَه شىء، وفى كل أعماله وأحواله يصدُق مع نفسه، فلا يناقض سرُّه علَنه، ويصدق مع الناس فلا يردّ سائلاً، ويصدُق مع ربّه فهو معه فى كل الأوقات.

٥٨٣ - صراط...

هو الطريق إلى الكشف عن تجليات الحق تعالى لنفسه بنفسه. وفى «فصوص

الحِكَم» لابن عربي: ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها. إن ربّي على صراط مستقيم، فكلُّ ماشٍ فعلى صراط الربّ المستقيم، فهم غير مغضوب عليهم من هذا الوجه، ولا ضالون، فكما كان الضلال عارضاً فكذلك الغضب الإلهي عارض، والمآل إلى الرحمة التي وسعت كل شئ، وهي السابقة.

ولمّا سأل أحدهم عائشة أم المؤمنين: أرأيت إلى قول الله: ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ ﴾ (إبراهيم ٤٨)، أين الناس يومئذ؟ قالت: أنا أول الناس سأل رسول الله ﷺ عن هذه الآية. قالت: أين الناس يومئذ يا رسول الله؟ قال: «على الصراط».

والصراط جسر موضوع على متن جهنم، والجنة وراء ذلك. قيل: فيمر عليه الناس بحسب أعمالهم، فمنهم الناجي - وهو من زادت حسناته على سيآته، أو استويا، أو تجاوز الله عنه؛ ومنهم الساقط، وهو من رجحت سيئاته على حسناته إلا من تجاوز الله عنه، فالساقط من الموحّدين يعذَّب ما شاء الله ثم يخرج بالشفاعة وغيرها، والناجي قد يكون عليه تبعات وله حسنات توازيها أو تزيد عليها، فيؤخذ من حسناته ما يعدل تبعاته فيخلص منها.

وعن أبي سعيد الخدري فيما يروى البخاري عن النبي ﷺ أنه قال: «يُخلَص المؤمنون من النار، فيُحبسون على قنطرة بين الجنة والنار، فيُقضى لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم في الدنيا...»، قيل: القنطرة المذكورة من تتمة الصراط، وهي طَرَفُه الذي يلي الجنة. وكل ذلك من الغيب لا يعلمه إلا الله. فلا شيء مؤكدٌ فيه من أيِّ مَن كان.

٥٨٤- صعق...

الفناء في الحق عند التجلي الذاتي. والصوفي عند مطالعة أنوار الحقائق يصيبه الدهش وقد يخر صعقاً، كما في قوله تعالى: ﴿ وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ﴾ (الأعراف١٤٣)، فعندما تجلى الله تعالى للجبل جعله دكاً فغشي على موسى، والغشية تسمى صعقة.

٥٨٥- صفا...

إشارة إلى التصفّي من الصفات الخَلْقية، وعكسه الكدر، وفي الحديث: «قد ذهب صفو الدنيا وبقي كدرها». والصوفي - في قول - من الصفا، والصوفي الحقيقي هو من يترك الكدر وراء ظهره:

إن الصفا صفةُ الصدّيق

إذا أردت صوفياً على التحقيق

وللصفا أصل وفرع، فأصله انتزاع القلب من الأغيار، وفرعه نفض اليد من الدنيا الخادعة. والصفا ليس من صفات البشر، لأن البشر مدر، والمدر يحفل بالكدر. غير أن الصفا سمة الأحباب، وهو شمس بلا سحاب. **والصفا** أن يتّصف الصوفي بالصفات الحميدة، ويتخلص من الصفات البغيضة، فيصبح حضوره مع الله بلا ذهاب، ووجوده بلا أسباب، ويكون حاضراً بلا غيبة، وفانياً عن الدنيا والعقبى. وقيل: **مَن صافاه الحب فهو صافٍ، ومن صافاه الحبيب فهو صوفي - كلامٌ جميل!**

٥٨٦- صفاء...

ما خلص من ممازجة الطبع ورؤية الفعل من الحقائق في الحين. قال الجريري: ملاحظة ما صفا بالصفاء جفاء، لأن معه ممازجة الطبع ورؤية الفعل. وقال ابن عطاء: لا تغتروا بصفاء العبودية فإن فيها نسيان الربوبية، لأنها ممازجة بالطبع ورؤية الفعل. وقال الكتاني: **الصفاء مزايلة المذمومات أو مزايلة الأحوال والمقامات والدخول إلى النهايات؛ وصفاء الصفاء إبانة الأسرار عن المُحدَثات لمشاهدة الحقّ بالحقّ على الاتصال.**

٥٨٧- صفائية...

طائفة من الصوفية ادّعت الصفاء والطهارة على الكمال والدوام، وأن ذلك لا يزول عنهم، وزعموا أن العبد يصفو من جميع الكدورات والعلل، بمعنى البينونة منها.

٥٨٨- صفة...

ما لا ينفصل عن **الموصوف** ، وهي على نوعين: **صفة فضائلية** تتعلق بالذات كالحياة؛ **وصفة فاضلية** تتعلق به وبخارج عنه كالكرم. وقيل: أصل **الوصف** في **الصفات الإلهية** اسمه الرحمن، فإنه مقابل لاسمه الله في الحيطة والشمول، والفرق بينهما أن الرحمن مع جمعه وعمومه مظهر للوصفية، والله مظهر للإسمية.

وصفات الله على الحقيقة هو بها **موصوف**، وهي ليست بأجسام ولا أعراض ولا جواهر، فهو سميع وبصير على الحقيقة ليس كالأسماع والأبصار والأيدي والوجوه، وليست بجوارح ولا أعضاء ولا أجزاء، وليست هي الله تعالى، وليس معنى إثباتها له أنه محتاج إليها وأنه يفعل الأشياء بها، لكن معناها

نفى أضدادها، وإثباتها فى أنفسها وأنها قائمات به. وهى من حيث ما تقتضيه حقائقها على أربعة أقسام: فقسم منها صفات جمال: كالعليم، والرحيم، والسلام، والمؤمن، والبارى، والمصور؛ وقسم منها صفات جلال: كالكبير، والمتعالى، والعزيز، والعظيم، والجليل، والقهار؛ وقسم منها مشترك بين الجمال والجلال، وهى صفات الكمال: كالرحمن، والملك، والربّ، والمهيمن، والخالق والسميع، والبصير، والولى، والأول، والآخر، والظاهر، والباطن، وليس كمثله شئ.

وقيل الصفات الجلالية: هى ما يتعلق بالقهر والعزة والعظمة والسعة؛ والصفات الجمالية: ما يتعلق باللطف والرحمة؛ والصفات الذاتية: هى ما يوصف بها ولا يوصف بضدها، كالقدرة والعزة والعظمة وغيرها؛ والصفات الفعلية: هى ما يجوز أن يوصف بضده، كالرضا والحكمة والسخط والغضب ونحوها؛ والصفات الكمالية تشترك بين الجمال والجلال، كالعدل والحكمة.

وتجليات الصفات: عبارة عن قبول ذات العبد الاتصاف بصفات الربّ، فإن العبد إذا أراد الحقّ سبحانه أن يتجلّى عليه بصفة، فإنه يفنى العبد فناء يعدمه عن نفسه، ويسلبه عن وجوده، فإذا طُمس النور العبدى وفنى الروح الخَلقى أقام الحق سبحانه من ذاته لطيفة غير منفصلة عنه فى الهيكل العبدى لا تتصل به، وتكون عوضاً له عمّا يسلبه منه، لأن تجلّيه على عباده من باب الفضل والجود، وتلك اللطيفة هى المسماة بروح القدس. فإذا أقام الحق لطيفة من ذاته عوضاً عن العبد، كان التجلى على تلك اللطيفة، فما تجلى سبحانه إلا على نفسه، لكنا نسمى تلك اللطيفة الإلهية عبداً باعتبار أنها عوض عن العبد، وإلا فلا عبد ولا ربّ، إذ بانتفاء المربوب انتفى اسم الربّ، فما ثم إلا الله وحده الواحد الأحد. هكذا قال بعض الصوفية.

والصفات أو الأسماء السبعة، هى: الحىّ، والعالم، والمريد، والقادر، والسميع، والبصير، والمتكلّم.

وجنة الصفات: هى الجنة المعنوية من تجليات الصفات والأسماء الإلهية، وهى جنة القلب أيضاً.

وللصوفية صفات اشتهروا بها، كأن يقال: إمام المصر، وفريد الدهر. الحسن البصرى؛ وشجاع الطريقة، ومتمكن الشريعة: حبيب العجمى؛ وخطير الفقراء، وأمير كل الأولياء: حبيب بن سالم الراعى؛

وداعى أهل المجاهدة، والقائم بمحل المشاهدة: محمد بن واسع؛ وسيد الزُهّاد، وقائد الأوتاد: عبد الله بن المبارك، وملك أهل الحضرة: الفُضَيْل بن عياض، إلخ.

٥٨٩- صفّة...

الصُفَّة هى الظُلّة، وأهل الصُفّة نسبة إلى صُفّة مسجد الرسول ﷺ فى المدينة، وكان فقراء المهاجرين يأوون إليها، وينامون ويأكلون تحتها، وهم أوائل الصوفية، ذكرهم القرآن فقال: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ (البقرة٢٧٣)، ومنهم ابن أم مكتوم الذى عاتب الله تعالى نبيّه ﷺ فى شأنه، فقال: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ ۝ أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ﴾ (عبس١، ٢)، فكان إذا رآه رسول الله ﷺ بعد ذلك يقول: يا من عاتبنى فيه ربّى عزّ وجلّ.

وكان أهل الصُفّة كما جاء فى الخبر نيفاً وثلاثمئة، ليست لهم تجارة ولا مال ولا مأوى. وكان الرسول لا يقوم من مجلسه إذا جلس أهل الصُفّة حوله حتى يقوموا، وكان إذا صافحهم لا ينزع يده من أيديهم قبلهم، وربما كان يفرّقهم على أهل الجدات والسعة، على كل واحد على مقداره، يبعث بهم مع واحد ثلاثة، ومع الآخر ـ الأربعة أو الخمسة. وقال أبو هريرة رأيت سبعين من أهل الصُفّة يصلّون فى ثوب، منهم من لا يبلغ ركبتيه، فإذا ركع أحدهم قبضه بيديه مخافة أن تبدو عورته. وكان أبو موسى الأشعرى يشبّه رائحتهم برائحة الشاة من لبس العباءة. وفى الخبر أن النبىّ كثيراً ما كان يقف على الجماعة منهم وقد استتر بعضهم ببعض من العُرى، وقارئ يقرأ عليهم القرآن وهم يبكون. **وقد قيل لهذا: إن أصل تسمية الصوفية من أصل الصُفّة.**

٥٩٠- صفو...

عدم المعارضة، **وصفو الوجد** معناه أن لا يعارضك شئ فى وَجْدك سوى وجودك.

٥٩١- صفوة...

هم المتصفون **بالصفاء** من كدر الغيرية، ويقال للمؤمنين «عامة الصفوة»، وللأئمة الحافظين الحدود، القائمين على أمر الدين والداعين له «خاصة الصفوة»، وهؤلاء هم المقتدون برسول الله، وعلى سنته وآدابه وأخلاقه وأفعاله وأحواله وحقائقه، وهم المعنيون بقوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ (آل عمران ٣١)، وهؤلاء هم الصوفية.

٥٩٢- صفوية...

الطريقة الصفوية التى أسسها صفىّ

الدين إسحق الأردبيلي سنة ٧٠٠هـ (١٣٠١م)؛ وصفيّ الدين من مواليد سنة ٦٥٠هـ، وكانت أمّه زاهدة حتى ليقارنوها برابعة العدوية، والتحق صفي الدين بالشيخ الصوفي إبراهيم الزاهد، وورث عنه مشيخة الطريقة، وانتقل بها إلى أردبيل، وجعلها مركز الطريقة، ومن ثم كانت تسميته بالأردبيلي، ولقبوه بالملك الأخروي (بادشاه أخروي)، وكانت مصادره الصوفية كتاب «الإحياء» للغزالي، وكتاب «عوارف المعارف» للسهروردي، و«مرصاد العباد» لنجم الدين الرازي.

وبعد وفاة صفيّ الدين سنة ٧٣٥هـ (١٣٣٤م) تولى المشيخة ابنه صدر الدين، وكان من أوتاد الأولياء وفتيانهم، وكُمّال الفتوة، ومُطعمي الفقراء والمساكين، وتوفى سنة ٧٩٤هـ (١٣٩٢م)، فورث المشيخة أخوه علاء الدين، وكان يديم لبس السواد فلقبوه سياسي بوش (أي المسوَّد)، وبالغ في الزهد، وتخرّج على يديه لأول مرة الفدائيون الصوفية، وهم جماعة كحركة الفتيان؛ وورثها عليّ سباه، أطلقوا عليه شيخ صوفية العراق، وتولى الجنيد المشيخة سنة ٨٥١هـ (١٢٤٨م)، وفي عهده انتحلت الصفوية السياسة، وتحوّلت من طريقة صوفية بحتة إلى طريقة صوفية سياسية، والجنيد ترك طريق القوم إلى طريق الملوك، وصارت له أطماع سياسية، تحققت على يد إسماعيل الصفويّ سنة ٩٠٥هـ (١٤٤٩م)، ولأول مرة يظهر جلياً استغلال الدين والتصوف لخدمة أهداف سياسية، وإدخال النظم العسكرية على الجماعات الصوفية، ومن أجل ذلك تمت مصاهرات بين الصفويين ورؤساء الطرق النوربخشية، والنعمة اللهية، إلى أن غلبت السياسة تماماً فانقلب الصفويون على التصوف، وهوجم شيوخ الزهد والتصوف، وحرّضت السلطة شيخ الإسلام محمد باقر المجلسي أن يهاجم لبس الصوف، وأعلن أن الغِنَى أفضل من الفقر الذي كان يدعو به الصوفية، وأجلى العسكر الصوفية عن العاصمة أصبهان، ومُنعوا إقامة الأذكار، وحُرموا كل ما يتعلق بالتصوف، فلم يجد الصوفية الصفوية إلا أن يرتحلوا إلى الهند مهاجرين بطريقتهم.

٥٩٣ - صلاة...

الصلاة لغةً هي ذكر الله تعالى والانقياد إليه. والصلاة المفروضة أكمل ضروب العبادة. والعبد إذا كان متأدّباً بآداب الصلاة قبل دخول وقت الصلاة فكأنه في صلاة، وذلك أن من آداب الصوفية قبل الصلاة المراقبة ومراعاة القلب من الخواطر

والعوارض، فإذا قاموا إلى الصلاة بحضور القلب فكأنهم قاموا من الصلاة إلى الصلاة، وإذا خرجوا من الصلاة رجعوا إلى حالهم من حضور القلب والمراقبة، فكأنهم فى صلاة وإن كانوا خارجين من صلاة .

ومن آداب الصوفية فى الصلاة أيضاً: أنهم يكرهون الإمامة والصلاة فى الصف الأول، لأنهم يكرهون أن يزاحموا الناس ويضيّقوا عليهم، وأما التطويل فلأنه كلما طالت الصلاة كثرت الهفوات والوساوس.

ومن آدابهم فى الصلاة أيضاً: أن للصلاة أربع شعب: حضور القلب فى المحراب، وشهود العقل عند الوهّاب، وخشوع القلب بلا ارتياب، وخضوع الأركان بلا ارتقاب، لأنه عند حضور القلب يُرفع الحجاب، وعند شهود العقل يُرفع العقاب، وعند خشوع القلب تُفتح الأبواب، وعند خضوع الأركان يوجد الثواب، فمن أتى الصلاة بلا حضور قلب فهو مُصَلٍّ لاه، ومن أتاها بلا خشوع قلب فهو مُصَلٍّ خاطئ، ومن أتاها بلا خضوع الأركان فهو مُصَلٍّ جافٍ، ومن أتمها فهو مُصَلٍّ وافٍ .

وأما عن الصلاة نفسها من حيث الاصطلاح الصوفى، فإنها تعنى واحدية الحق تعالى؛ وإقامتها: إشارة إلى إقامة ناموس الواحدية بالاتصاف بسائر الأسماء والصفات؛ فالوضوء: عبارة عن إزالة النقائص الكونية، وكونه مشروطاً بالماء إشارة إلى أنها لا تزول إلا بظهور الصفات الإلهية التى هى حياة الوجود، لأن الماء سرّ الحياة؛ وكون التيمم يقوم مقام الطهارة للضرورة: فهو إشارة إلى التزكى بالمخالفات والمجاهدات والرياضات؛ ثم استقبال القبلة: إشارة إلى التوجّه فى طلب الحق؛ ثم تكبيرة الإحرام: إشارةً إلى أن الجناب الإلهى أكبر وأوسع مما عسى أن يتجلّى به عليه؛ وقراءة الفاتحة: إشارة إلى وجود كماله فى الإنسان، لأن الإنسان هو فاتحة الوجود، فتح الله به أقفال الموجودات؛ ثم الركوع: إشارة إلى شهود انعدام الموجودات الكونية تحت وجود التجليات الإلهية؛ ثم القيام: عبارة عن مقام البقاء، ولذا تقول فيه سمع الله لمن حمده، وهذه كلمة يستحقها العبد لأنه أخبر عن حال إلهى، فالعبد فى القيام الذى هو إشارة إلى البقاء خليفة الحق تعالى؛ ثم السجود الذى هو عبارة عن سحق آثار البشرية ومحقها باستمرار ظهور الذات المقدسة؛ ثم الجلوس بين السجدتين: إشارة إلى التحقق بحقائق الأسماء

والصفات، لأن الجلوس استواء فى القعدة وذلك إشارة إلى قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ (طه ٥)؛ ثم السجدة الثانية: إشارة إلى مقام العبودية وهو الرجوع من الحق إلى الخلق؛ ثم التحيات وفيها إشارة إلى الكمال الحقّى والخُلقى لأنه عبارة عن ثناء على الله تعالى وسلام على نبيه وعلى عباده الصالحين، وذلك هو مقام الكمال، فلا يكمل الولى إلا بتحققه بالحقائق الإلهية، وباتباعه للنبىّ ﷺ، وبتأدّبه بسائر الصالحين.

وعن حاتم لَمّا سُئل: كيف تقيم الصلاة؟ قال: حينما يدخل الوقت أتوضأ ظاهرًا وباطناً، ظاهراً بالماء، وباطناً بالتوبة، ثم أدخل فى المسجد، وأعلم أن الجنة على يمينى، وأن النار على يسارى، وأن الصراط تحت قدمىّ، وأن ملك الموت وراء ظهرى، فأكبّر بإجلال، وأقوم بتوقير، وأقرأ بهيبة، وأسجد بتضرع، وأركع بتواضع، وأجلس بحلم ووقار، وأسلّم بشُكر». وعن النبىّ ﷺ قال: «جُعلت قُرّة عينى فى الصلاة» لأن الصلاة هى فرحة وبهجةُ المؤمن. والمصلّى يحتاج أربعة أشياء: فناء النفس، وذهاب الطبع، وصفاء السرّ، وكمال المشاهدة.

٥٩٤- صلاح...

هو مداومة العبادة لتمكُّن القداسة من القلب، فيكون العبد الصالح فى حقائقه مقيداً بشرائعه، والفرق بينه وبين المحسن: أن الإحسان مرتبة أعلى من الصلاح، فالصالح يخاف العذاب ويطمع فى الثواب لنفسه، ولذلك فهو يعبد الله رهبة ورغبة، والرجاء شرط عبادة الصالحين؛ وأما المحسن فهو أيضاً يعبد الله رهبةً ورغبة، وإنما رهبته من جلال الله، ورغبته فى جماله تعالى، فالمحسن مخلص لله، والصالح صادق فى الله.

٥٩٥- صلصلة...

الصلصلة التى تكثر فى أحاديث الصوفية هى صلصلة الجرس، وذلك أن العبد إذا أخذ يتحقق بالحقيقة الإلهية فإنه فى البداية يسمع صلصلة جرس، فالحقائق الإلهية بعظمتها يجد لها أمراً يقهره فيسمع لذلك أطيطاً من تصادمها بعضها على بعض، وذلك شئ من صفات المشهد، ومن شأنه أن يمنع القلوب عن الجرأة على الدخول فى الحضرة العظموية لله سبحانه، لقوة قهره الواصل إليها، فهى الحجاب الأعظم الذى يحول بين قلوب العباد وأن تبلغ المرتبة الإلهية، وهى الإذن الذى يسبق دخول هذه المرتبة.

٥٩٦- صمت...

هو من آداب الحضرة، وفيه السلامة وهو الأصل. يقول أبو بكر الفارسي: ومن لم يكن الصمت وطنه فهو من الفضول وإن كان صامتاً.

والسكوت في وقته صفة الصوفي، كما أن النطق في موضعه من أشرف خصال العارف.

وقيل إن السالك لا يصح له أن يُلزم نفسه الصمت إلا إذا دخل الخَلوة، ولا تصلح له التوبة حتى يُلزم نفسه الصمت.

والصمت لا يختَص به اللسان، لكنه على القلب والجوارح كلها.

وصمت السر: هو ترك الاشتغال بالماضي والمستقبل، وقد سئل أحدهم عن الصمت والنطق، أيهما أفضل للسالك؟ فقال: لو علم الناطق ما آفة النطق لصمت إن استطاع. وفي الحديث: «من صمت نجا». وقد يجبر العبد على الصمت خوفاً أو حياءً. والكلام نوعان، وكذلك السكوت: فالكلام إما حق وإما باطل، والسكوت إما لهدف أو غفلة، فمن تكلم الحق كان كلامه أفضل من سكوته، ومن تكلم الباطل كان سكوته أفضل.

٥٩٧- صمدية...

مصطلح السهروردي المقتول، من الآية ﴿اللَّهُ الصَّمَدُ﴾ (الإخلاص٢)، والصمد هو الباقي الذي لا يزول، والكل مفتقر إليه. وعند السهروردي: صمدية تعني تامة كاملة لا تنقسم أجزاء، فالهيولى مادة لا شكل لها، وهي بالصورة تكتمل وتصبح لها صمدية.

٥٩٨- صنم...

عند الصوفية: كل ما يشغل العبد عن الحق فهو صنم، وكل شئ يقيّدك إليه فأنت له عبد وهو لك صنم.

وقيل: الصنم من حيث الحقيقة هو الحقّ، وليس الصنم هو الباطل والعبث؛ وعابد الصنم هو عابد الحق، لأن الحق يظهر في صورة الصنم: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ﴾ (الإسراء ٢٣)، فإذا كان ذلك صحيحاً فالكل عابد بالضرورة، سواء كان يعبد الحق أو يعبد الصنم. وفي بعض الروايات الصنم يطلق على الحقيقة الروحية في ظهور تجلي الصورة الصفاتية. فهكذا يقول بعض الصوفية.

٥٩٩- صواب...

الصواب فيما يخص التصوّف، هو أنه لاصواب إلا التوحيد، وأن كل نطق بالصواب أن يكون عن إذن.

٦٠٠- صوت...

الصوت الحسن: مخاطبات وإشارات

إلى الحق أودعها كل صاحب أو صاحبة مثل هذا الصوت.

والصوت الحسن رَوْحةٌ من الله تعالى لقلب فيه حُبّ الله تعالى. ويقول المحاسبي: إن حُسن الصوت مع الديانة، وحُسن الوجه مع الصيانة، وحُسن الإخاء مع الوفاء: ثلاث نِعَم إن توفرت كانت المتعة بها. ـ وهي للأسف لم تعد متوفرة.

ومن لطائف الله على الإنسان والتي اختص بها الحق الأصوات الطيبة، أن الطفل في المهد يبكي لوجود الألم، فيسمع الصوتَ الطيّب فيسكت وينام. والمشهور أن الأوائل كانوا يعالجون أصحاب العلل من الاكتئاب بالأصوات الطيبة، فيرجعون إلى حال صحتهم، وما أشبه ذلك بالعلاج النفسي بالموسيقى والغناء. وحتى الجِمال في البادية، إذا عيبت فقصرت في السير، يحدو لها الحادي فتصغي وتجود في السير.

وأحسن القرآن ما كان بالصوت الحسن، إلا أن بعض الصوفية يخشون الصوت الحسن في القرآن فقد يصرفهم عن تدبّر معانيه.

ولكن ما هو الصوت الحسن؟ وكيف يكون؟ يجيب إسحق بن إبراهيم الموصلي: إن الصوت الحسن يكون للمنشد أو المغني المتمكّن من أنفاسه، والمتفرّغ في إحباسه، واللطيف في اختلاسه. ـ يعني هو الذي له السيطرة على صوته رفعاً وخفضاً، مع حلاوة الجرس، وحُسن الوقع، وعَذْب التوجّع والتحسّر. (انظر السماع أيضاً).

٦٠١- صورة...

صورة الحق: عند الصوفية الشيعة عبارة عن الذات المقدسة للنبيّ بواسطة تحقق الذات النبوية بالحقيقة الأحدية.

والصورة الإلهية: عبارة عن الإنسان الكامل بواسطة تحققه بالأسماء الإلهية.

وصورة الإرادة: هي انقطاع النفس عن رؤية وقوع شئ بإرادة غير الله، وشهود وقوع جميع الأشياء بإرادة الحق تعالى.

وقيل الصور علوية وسفلية، والعلوية حقيقية وإضافية، والحقيقية هي صور الأسماء الربوبية والحقائق الوجوبية، والإضافية هي حقائق الأرواح العقلية. وأما الصور السفلية فهي صور الحقائق الإمكانية، وهي أيضاً منقسمة إلى علوية وسفلية، فمن العلوية صورة عالم المُثل، وأما السفلية فمنها صورة عالم الأجسام غير العضوية كالعرش والكرسي، وصور العناصر، والصور النباتية، والحيوانية، وكل من هذه العوالم يشتمل على صور لا تتناهى ولا يحصيها إلا الله سبحانه،

والحقيقة الفعّالة الإلهية فاعلة، باطنها من الصور الأسمائية، وظاهرها الذى هو الطبيعة الكلية أصل صور العوالم كلها.

والصورة المحمدية عند الصوفية الشيعة:

قيل خلقها الله تعالى من نور اسمه البديع القادر، ومنها خلق الله صورة آدم عليه السلام، نسخة من تلك الصورة المحمدية، فلما نزل آدم من الجنة ذهبت حياة صورته لمفارقته عالم الأرواح، فكان آدم لا يتصور فى نفسه شيئاً فى الجنة إلا ويوجده الله له فى حسّه، ولما نزل إلى دار الدنيا لم يبق له ذلك، لأن حياته المصوّرة فى الجنة كانت بنفسها، وحياته فى الدنيا بالروح، فهى ميتة لأهل الدنيا، إلا من أحياه الله تعالى بحياته الأبدية، ونظر إليه بما نظر به إلى ذاته، وحقّقه بأسمائه وصفاته، فإنه يكون له فى دار الدنيا ما كان لأهل الجنة، فلا يتصور شيئاً فى نفسه إلا أوجده الله تعالى فى حسّه. فهكذا قال بعض الصوفية.

ومن الصور التى نعرفها، عن عائشة فيما رواه ابن ماجه: أن الرسول ﷺ قال: «إن أصحاب الصور يعذّبون يوم القيامة»، والمراد بالصور تلك التى يصنعها أصحابها للتعبُّد لها، وفى المصطلح النبوى هم «أصحاب الصور»، وشبيه بذلك ما يقال له التماثيل ذات الأرواح، يعنى التى يصنعها أصحابها أشباهاً لله تعالى كما يفعل النصارى بتماثيل المسيح أو العذراء، فيركعون لها ويسجدون ويصلون. ويقول ابن عباس فيما رواه البخارى من طريق عكرمة: «إن رسول الله ﷺ لما قدم مكة أبى أن يدخل البيت وفيه الآلهة، فأمر بها فأُخرجت» - أى أخرجت تماثيلها.

ويقول عبد الله بن مسعود فى رواية البخارى من طريق أبى معمر: «دخل النبىّ ﷺ مكة يوم الفتح وحول البيت ستون وثلاثمئة نُصب، فجعل يطعنها بعود فى يده ويقول: «جاء الحقّ وزهق الباطل. جاء الحقّ وما يبدئ الباطل ومايعيد». والنُّصُب صنم أو تمثال.

ويروى أبو داود فى حديث جابر عن ابن سعد: «أن النبىّ ﷺ أمر عمر ابن الخطاب أن يأتى الكعبة فيمحو كل صورة فيها، فلم يدخلها رسول الله ﷺ حتى مُحيت الصور. وكان عمر هو الذى أخرجها»- أى أخرج كل الأصنام. وعمر هو الذى محا كل ما كان مدهوناً، أى مرسوماً من الصور، وأخرج المخروط - أى المنحوت - من التماثيل.

وعن أسامة: أن النبىّ ﷺ دخل الكعبة فرأى صورة إبراهيم فدعا بماء فجعل يمحوها».

وعن ابن جريج قال: «أخبرني عمرو ابن دينار، أنه بلغه أن النبيّ ﷺ أمر بطمس الصور التي كانت في البيت». وعن عمير مولى ابن عباس عن أسامة: أن النبيّ ﷺ دخل الكعبة فأمرني فأتيته بماء في دلو، فجعل يبلّ الثوب ويضرب به على الصور ويقول: «قاتل الله قوماً يصوّرون ما لايخلقون» ـ يعني يصنعون صوراً لأناس أو لأشكال من الخلق ليست لهم القدرة على أن يخلقوا شيئاً مما خلق الله، ومع ذلك يتعبدون لها باعتبارها آلهة تخلق.

والصور وخلافها عند الصوفية منهيٌّ عنها إذا كانت النية والغاية منها عبادتها دون الله، أو مشابهتها بالله، ولايحرم غير ذلك من فنون اليوم. ولذلك تخلو الحانقاوات والرباطات والتكايا والزوايا ـ وهي دور الصوفية ـ من الصور.

وفي حديث عائشة عند أحمد والنسائي عن رسول الله ﷺ قال: «أشدّ الناس عذاباً عند الله تعالى يوم القيامة الذين يضاهون بخلق الله». وفي رواية أخرى: «الذين يشبّهون بخلق الله». ويضاهون يعني يخلقون على مثاله، وجريمتهم أنهم يخلقون أو يبدعون لما يسمى الفن للفن، ومن هذه المدرسة من يقول: إن الرسّام والمصوّر الكبير دافنشي مثلاً يتفوّق على الطبيعة، والمعروف أن الطبيعة لا تخلق وإنما الله. وقولهم يرقى إلى القول بأن: هؤلاء المصورين يتفوّقون على الله! أولئك شرار الخلق!

وفي رواية لمسلم عن عائشة قالت: ذكرت أزواج النبيّ ﷺ كنيسة بأرض الحبشة، يقال لها مارية فيها تصاوير، فذكرتا للنبيّ ﷺ فقال: «إن أولئك إذا كان فيهم الرجل الصالح فمات، بنوا على قبره مسجداً (أي كنيسة)، وصوروا فيه الصور، فأولئك شرار الخلق عند الله يوم القيامة».

والنهي عن التصاوير لأنهم عبدوها، وإنما فن التصوير إظهارٌ لما خلق الله من جمال، والشيء في ذاته ليس شراً، وإنما الشر في استخدامه أو النية منه بغرض يخالف عبادة الله عن حق. وفي القرآن: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ﴾ (الأنبياء ٥٢)، فحرّمها لما عبدوها.

والتصاوير في أيامنا: لتربية الحسّ الجمالي وليست للعبادة، ومتاحف الفن في كافة بلاد العالم بمثابة الذاكرة الجمالية للأمم، والفن يرقّق الحسّ، ويُحفز إلى التحضر والسمو، ويُعرِّف بعظمة الله المُبدع.

والتصاوير أيضاً للعلم والمعرفة، فهل يمكن أن نتصور كتاباً فى الطب أو فى علم الحيوان أو علم الإنسان أو الفلك بلا تصاوير؟ وهل يمكن أن نرجع القهقرى ونلغى الصحف والمجلات، والتصوير بالألوان، والتصوير الفوتوغرافى، والسينما، والتليفزيون، لأنها جميعاً فنون وعلوم تقوم على التصوير؟ وإنما الشأن مع التصوير كالشأن مع «الغرائز»، يمكن أن تُستخدم فيما يضر، ويمكن أن يُستعان بها فيما يفيد.

وغريزة الجنس مثلاً هى وسيلة التكاثر والزواج وتكوين الأسرة والاستمرار فى الحياة، وإساءة استخدامها بالبغاء والانحرافات الجنسية والشذوذ منهىٌ عنه تماماً، فكذلك التصاوير.

والوعيد الشديد فى الحديث للمصورين لأنهم يضاهون بصورهم خلق الله، أى يبدعونها بقصد إثبات ذواتهم وكأنهم آلهة، وترسيخ الفهم أنهم يتفوّقون على الطبيعة، ويبزّون الواقع، أى أنهم أبرع من الله، أو على الأقل هم أشباه آلهة، أو أنصاف آلهة، فمن كان ذلك مقصده فإنه يصير إلى الكفر.

وكان أهل الجاهلية - برواية القرطبى - يعملون الأصنام من كل شىء، حتى أن بعضهم عمل صنمه من عجوة ثم جاع فأكله!

وأخرج ابن أبى شيبة من طريق عاصم عن عكرمة قال: كانوا - أى فى الإسلام - يكرهون من نصب من التماثيل نصباً، ولا يرون بأساً بما وطئته الأقدام - يعنى إذا أجاز المصور أن توطأ تصاويره بالأقدام فلا بأس بها، لأنها حينئذ لم تُصنع ليُتعبّد لها. ومن طريق ابن سيرين وسالم بن عبد الله وعكرمة بن خالد وسعيد بن جبير قالوا: «لا بأس بالصورة إذا كانت توطأ».

ومن طريق عروة أنه ﷺ كان يتكئ على المرافق فيها تماثيل الطير والرجال - يعنى: أن الفن إذا كان للاستخدام، ولتجميل البيئة والبيت والمدرسة والشارع والميدان والكتاب، فذلك جائز ومشروع. والفنون استعلاء بالقدرات، وتسامٍ بالمواهب، وليست امتهاناً وانحلالاً وحطة.

٦٠٢- صُوف...

لم يُعرف الصوف كلباس للزهّاد إلا أوائل القرن الثانى الهجرى، وإليه نُسب الصوفية والتصوّف، وذاع هذان الاسمان الاصطلاحيان، حتى أنشد بعض أشياخهم:

تشاجر الناس فى الصوفى واختلفوا
فيه ظنوه مشتقاً من الصوف
ولست أنحل هذا الاسم غيرَ فتًى
صافَى فصُوفِىَ حتى سُمِّى الصوفى

غير أن المستشرق جولدتسيهر يزعم أن أول استخدام الصوف كلباس، كان فى عهد عبد الملك بن مروان، الذى حكم بين سنتى ٦٥هـ(٦٨٤م) و ٨٦هـ (٧٠٥م)، وزعم المستشرق ماسينيون أن الصوفية لبسوا الصوف يحاكون النُسَّاك النصارى، وهو قولٌ ينافيه التاريخ، وذلك أن الصوف معروف من عهد النبىّ ﷺ وقبله كذلك، وكان النبىّ ﷺ يفضّله، فهكذا روت عنه عائشة رضى الله عنها، وقالت: كان يلبس الصوف، ويتنعل المخصوف، ويخصف نعله، ويرقّع ثوبه. - وكان أهل الصُفّة لا يلبسون غير الصوف صيفاً وشتاء، فكانوا يعرقون فيه صيفاً فتفوح رائحة الضأن منهم متنة كلما أصابه المطر.

وزعم أبو طالب المكى والسّرّاج: أن عيسى ويحيى عليهما السلام، كانا يلبسان الصوف، ولكن لا إشارة فى الأناجيل لذلك؛ وقالا إن الصوف كان دأب الأنبياء والصدّيقين، وشعار المساكين والمتنسكين، ولباس الصالحين والمتقين ، وشارة الصحابة والتابعين، واختيار الزهّاد والعارفين، ويُلبَس ليّناً وخشناً، وجيداً ومقارباً ورديئاً .

وعند ابن الجوزى: أن الزهّاد فى الكوفة لبسوا الصوف فى القرن الأول؛ وكان أويس القُرَنى يلبس الصوف، وأويس توفى سنة ٣٧هـ (٦٥٧م). وإذن فماسينيون وجولدتسيهر كانا كاذبين ومغرضين فيما زعماه خاصةً أن العرب كانوا رعاة غنم، فكانوا يعرفون الصوف من البداية.

وقيل إن أول من لبس الصوف فى مصر: أبو عبد الله الصوفى، إلا أنه لم يكن مصرياً بل كان أندلسياً خارجاً، لجأ إلى مصر سنة ١٩٩هـ (٨١٤م)، ولم يسمه أحدٌ صوفياً للبسه الصوف، بل لأنه كان حكيماً، أى Sophos باليونانية. ولم تلبس عائشة رضى الله عنها الصوف، بل لبست الفرو، وكذلك لبسه داود الطائى، وكلاهما عاش زاهداً. ويتبقّى دائماً أن المؤكد أن لبس الصوف مع أهل الله بدأ من الكوفة، وأنه انحصر فى ثلاثة من هذا البلد، كانوا من الحكماء قبل أن يكون صوفية، وهم: جابر بن حيّان، وأبو هاشم الكوفى، وعبدك الصوفى.

وجابر يقيناً لم يكن متصوّفاً، وكذلك أبو هاشم، وأما عبدك فكان صوفياً فعلاً.

٦٠٣- صوفة...

قالوا: الصوفية من النسبة صوفى، من الاسم صُوفة، فلما كان الغَوْث بن مُرّ من مُضَر، من أجداد النبىّ ﷺ، قد ولى

إجازة الناس بالحجّ من عرفة، وكانت أمه من جُرهم عاقراً لا تلد، فنذرت لله إن هي ولدت ذكراً أن تصدّق به على الكعبة، عبداً لها يخدمها ويقوم عليها، فولدت وتحقّق نذرها، فعلّقت أُمّه برأسه صوفة، وجعلته ربيط الكعبة، فكان الناس ينادونه: يا صوفة. وقيل: سُمّي صُوفة لأنه بمنزلة الصوف، فيه القصير والطويل، والأسود والأحمر. ولمّا كبر صوفة وتزوج وَوَلَد، صار أولاده اسمهم كذلك صوفة للمفرد وللجمع، وصارت لهم طريقة هي نفسها طريقة الصوفية، مع تعديلات طفيفة لا تتناول الجوهر، فكانوا ربطاء الكعبة، حبسوا أنفسهم على خدمة الدين. وقيل: إن أم الغَوْث لمّا ولدت ابنها، وكان أكبر ولد مُر، ربطته عند البيت، أي حبسته عليه، فأصابه من الحبس والحرّ الذبول، فكانت تعوّده وتقول عنه: ما صار ابني إلا صوفة، تُشبّهه استرخاءه من الهُزال والحرّ، باسترخاء قماش الصوف. وكان «الصوفة» زمن النبيّ ﷺ، وقبل أن يتقرّر الحجّ، وقبل أن يحجّ حجّة الوداع - يدفعون الناس من عرفة، ويُجيزون بهم إذا نفروا من منًى، فإذا كان يوم النفر أتو لرمى الجمار، بينما رجلٌ من صُوفة يرمى للناس، فلا يرمون حتى يرمى، فكان ذوو الحاجات يستعجلون الرمى، فيأتون به ليرمى، فلا يقوم حتى تميل الشمس، فيرمى، ويرمى الناس معه، فإذا فرغوا من الرمى، يأخذ صوفة بجانبيّ العقبة، فلا يجوز الناس حتى يمرُّوا هم أولاً، فإذا نفرت صوفة، نَفَر الناس. فلمّا انقرضت صوفة، وَلِى أمْرَ الإجازة صفوان بن جناب وبنوه، وآخرهم كَرِب بن صفوان، وهو الذى قام عليه الإسلام.

٦٠٤-صوفى...

قيل: أول من استعمل لفظ «الصوفى» هو الجاحظ البصرى؛ وأول من أطلق عليه اسم الصوفى هو أبو هاشم الكوفى (المتوفى سنة١٥٠هـ). وقيل: أن الاسم أحدثه البغداديون، ولم يُسمَع به فى ذكر أصحاب رسول الله ﷺ، ولا فيمن كان بعدهم، وقد غلّط البعض هذا الرأى وزعموا أن الاسم كان معروفاً وقت الرسول ﷺ وبعده، كما كان معروفاً قبل الإسلام، فقد كان الصوفية يطوفون بالبيت ويُعرَفون بفقرهم، ويقال لهم «صوفة»، وكانوا ولد الغوث بن مُرّ وانقرضوا فى الجاهلية، فورث ذلك عنهم آل صفوان بن شجْنة من بنى سعد بن زيد مناة من تميم، وانقطعوا إلى الله، وقطنوا الكعبة، فمن تشبّه بهم فهم الصوفية.

والصوفي في الاصطلاح: هو الفاني بنفسه، الباقي بالله تعالى، وهو من **صفا قلبه لله**، وسمي **صوفي** لأنه **في الصف الأول** بين يدي الله، بارتفاع همّته إليه، وإقباله بقلبه عليه؛ أو لقرب اسمه من اسم **أهل الصُفّة** وأوصافهم على عهد النبيّ ﷺ؛ أو لأنه يلبس **الصوف**، **والصوف** يعبر عن ظاهر أحواله، وذلك أنه قد ترك الدنيا وخرج عن الأوطان وساح في البلاد، وأجاع الكبد، وأعرى الجسد، ولم يأخذ من الدنيا إلا ما يستر عورته ويسدّ جوعه.

ولخروج **الصوفية** عن البلاد سُمُّوا «**الغرباء**»؛ ولكثرة أسفارهم سُمُّوا «**سيّاحين**»؛ ومن سياحاتهم الكثيرة في الفيافي والقفار وإيوائهم إلى الكهوف سموا «**شكفتية**»، و«**الشكفت**» هو الغار والكهف؛ وأهل الشام يسمونهم «**جوعية**»، أو «**ظمئية**»، لأنهم لا يتناولون من الطعام والشراب إلا بقدر ما يقيم الصلب للضرورة؛ ومن تخليهم عن الأملاك سموا «**الفقراء**»؛ ومن لبسهم وزِيّهم سموا **صوفية**، لأنهم لم يلبسوا لحظوظ النفس ما يلين ملمسه ويحَسُّن مظهره، وإنما لبسوا لستر العورة، الخشن من الشعر، والغليظ من الصوف، وكل ذلك من أحوال **أهل الصُفّة** على عهد الرسول ﷺ، وكان لباسهم **الصوف** حتى كان يصيبهم منه العرق الشديد، فيوجد منه ريح الضأن إذا أصابه المطر، ثم إن **الصوف** ـ **كما قيل** ـ كان لباس الأنبياء والأولياء.

فلما كانت هذه الطائفة بصفة **أهل الصُفّة** سُمُّوا **صُفّية**، **وصُوفية**؛ وسُمُّوا أيضاً نورية لقوله ﷺ: «**من أحب أن ينظر إلى عبد نوّر الله قلبه، فلينظر إلى حارثة**»، **وحارثة من أهل الصُفّة**، والرسول بذلك يخبر **أن أهل الصفة منورة قلوبهم**. ثم إن **صوفي** على وزن **عوفي** بمعنى **عافاه الله**، وعلى وزن **كوفي** أي **كافأه الله** ، **وجُوزي** أي **جازاه الله**، فهو من الأسماء العربية، **والصوفي** هو من **صافاه الله**، وفِعْل الله له ظاهر في اسمه.

ولكل أمة صفوة، هم وديعة الله الذين أخفاهم عن خلقه، وإن يكن منهم في أمة الإسلام فهم الصوفية، وهم قوم يرون أن الله اختارهم وفضّلهم وآثرهم بمحبته، ويتحابون في الله ومن أجل الله، وفي ذلك يقول **أبو سعيد بن أبي الخير**: قبل أن يخلق الله أبدان الخلق، فإنه خلق النفوس وصفّها إلى جانب العرش، ورشّ عليها من نوره بالمقدار الذي قدّره لكل منها،

فتحصّل لها الإشراق، وظلت زمناً حتى ارتوت من النور، فما كان منها سعيداً فى هذا العالم وعلى وفاق مع كل النفوس فهو كذلك فى العالم الآخر، وفى هذه الحياة تحب كل نفس نفساً أخرى، ويُسمّى الجميع أحباء الله وأخلاءه، وهم جميعاً أهل الله، ومن أجل محبة الله وفى محبته فهم: إخوان؛ وهذه النفوس تعرف بعضها بعضاً بالشمّ كالخيل، ومهما فرّقت بينها المسافات فإنها لن تعدم الوسيلة أن تستمتع بحديث كل منها للأخرى، وأن تستروح به، ولو عاشت إحداهما فى زمن متأخر عن زمن الأخرى، وتلقت عنها العلم واتعظت بكلامها.

والصوفى: كالأرض: يطؤها البَرّ والفاجر، ويُطرَح عليها كل قبيح، ولا يخرج منها إلا كل مليح.

وهو كالسحاب: يُظل كل شىء؛ وكالقطرة يسقى كل شىء؛ وهو مَن يُرى دمه هدراً، وملكه مباحاً، ونعته السكون عند العدم، والإيثار عند الوجود.

وعند الشبلى: فإن الصوفى ينقطع إلى الخَلوة، ويتصل بالحق، لقوله تعالى ﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾ (طه ٤١)، فقطعه عن كل غير، ثم قال: ﴿لَن تَرَانِي﴾ (الأعراف ١٤٣).

والصوفى لا يُتعبه طلب، ولا يزعجه سلب. **والصوفية**: هم أهل بيت واحد، ولا يدخل فيهم غيرهم؛ وهم أطفال فى حِجْر الحق؛ وهم القائمون بمقولهم على همومهم، يعكفون عليها بقولهم، ويعتصمون بسيدهم من شِرّة نفوسهم؛ وهم العلماء بالله وبأحكامه، يعملون بما علّمهم، ويتحققون بما استعملهم، ويجدون بما تحققوا، ويفنون بما وجدوا.

ويفرّقون بين الصوفى والمتصوف: كالفرق بين الفيلسوف والمتفلسف، وعن الحلاّج قال: من أشار إليه فهو متصوف، ومن أشار عنه فهو صوفى، والأول يفرّق بين الرّبّ والعبد، والثانى صار الربّ والعبد واحداً، حتى ليتكلم العبد باسم الربّ.

والصوفى: كالأرض يلقون عليها كل خبيث ويخرج منها كل طيّب. **والصوفى**: هو الذى سَلِم قلبه، كقلب إبراهيم، من حُبّ الدنيا، وصار بمنزلة الحامل لأوامر الله، وتسليمه تسليم إسماعيل، وحزنه حزن داود، وفقره فقر عيسى، وصبره صبر أيوب، وشوقه شوق موسى وقت المناجاة، وإخلاصه إخلاص محمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

والصوفية: هم الذين قيامهم لله، لايعرفهم إلا الله. والصوفى هو كل من صفا من كافة البلايا، وخلص من جملة العطايا. وهو كل من لبس الصوف على الصفا، وأذاق الهوى طعم الجفا، ورمى بالدنيا خلف القفا. وهو كل من أعجبه ما قضى به الحق حتى يرضى الحق عما يعمله.

ويفرق **الهجويرى** بين **الصوفى والمتصوّف والمُتَصَوِّف**؛ **فالصوفى**: هو ما كان فانياً فى نفسه، وباقياً فى الحق، ومتطلّقاً من قبضة الطبائع، ومتصاغراً بحقيقة الحقائق. **والمتصوّف**: هو من يبغى هذه الدرجة بطريق المجاهدة، ويجعل نفسه جديرة بمتابعتهم فى المعاملة؛ **والمستصوف**: عند **الصوفية** كالذباب، وعند غيرهم كالذئاب، **فالمستصوف** حقير فى نظر **الصوفى** كالذبابة، وكل ما يعمله يعتبره **الصوفى** هوساً. وعند الآخرين هو كالذئب الذى كل همّته منصرفة نحو الفساد، أى كل همّه التمزيق وأكل بعض الجيف. **فالصوفى** هو صاحب الوصول، **والمتصوف** صاحب الأصول، **والمستصوف** صاحب الفضول. وكل من قدر له نيل المقصود وصل إلى نصيبه. وبلوغ المراد إنما يحصل لمن ليس له أى مراد، كما أن بلوغ المقصود يتحقق لمن لا يكون له أى مقصود. وكل من حصل له المقصود الأصلى مِلك التصرف فى أحوال الطريقة، واستقر وتمكّن فى لطائفها. وكل من نصيبه الفضول حُرم منها جميعاً، وقعد على أعتاب الظواهر، وحجبه الظاهر عن الباطن، وحُرم بالحجاب عن الوصال.

وقال ذو النون المصرى: **الصوفى** هو من إذا تكلم كان كلامه كاشفاً لأسراره، وإذا ما سكت كان فعله فقداً كله. ـ يعنى انسحب وانزوى وابتعد.

وقال **الشبلى**: **الصوفى** هو الذى لايرى فى النشأتين سوى الله.

وللصوفى فى حياته الوجدانية سيكولوچية خاصة تقوم على مجاهدة النفس والتقلّب فى المقامات والأحوال، وهى معادن ترد على القلب من غير تعمّد ولا اجتلاب ولا اكتساب، والأحوال أزواج من الأضداد كالخوف والرجاء، والقبض والبسط، والحضور والغيبة. **والصوفى صاحب الحال** يترقّى عن حاله وينتقل من حال إلى حال، وأرقى أحواله حال الجذب أو الوجد، وفيه يفنى الواجد أو المجذوب عن نفسه بحقيقة وجوده فى الحضرة الإلهية. وهو وإن فَقَدَ نفسه فَقَدْ

وَجَدَها، وفناؤه عن كل ما هو صفة للخلق، وبقاؤه بالحياة الإلهية الأبدية بالتحقق بالصفات الإلهية، وذلك علامة الإنسان الكامل الذى لا سير له إلا السير إلى الله ومع الله وبالله، فإذا كان فى حال الوجد فهو يفنى عن الكثرة ويبقى بالوحدة، وإذا رجع إلى عالم الظاهر الذى منه ابتدأ فإنه يرجع أيضاً مع الله ويكون فى نفسه مجلى للوحدة فى الكثرة، أى يعيش مع الخلق مظهراً الحق لهم ويقوم بما يقتضيه الشرع. وتلك هى سيكولوجية الصوفى العارف أو السالك الواصل.

والصوفى الحقّ: هو الذى يتفق مع الفقهاء وأصحاب الحديث، ويرجع إليهم إذا استشكل عليه حكم أو حدّ، وإذا اختلف معه فاستحبابه فى مذهب التصوف الأخذ بالأحسن والأولى والأتم، ولا ينزل إلى الرُخَص ويطلب التأويلات والسعات.

ومن المتصوفة مع ذلك مبطلون يعتبرون أنفسهم صوفية وليسوا منهم فى شئ، وهم عدة فرق، منهم: الحبّية، والأوليائية، والشمراخية، والإباحية، والحالية، والحلولية، والحورية، والواقفية، والمتجاهلية، والمتكاسلية، والإلهامية، وكلهم غلطوا بطريقة أو بأخرى، إما فى الأصول، أو فى الفروع، أو فى الاثنين معاً.

وللصوفية مراتب ودرجات، أعلاهم الواصلون الكاملون، ثم السالكون طريق الكمال. والواصلون قسمان، **الأول: مشايخ الصوفية وهم الكاملون المكملون، والثانى**: جماعة لم يكفّوا بعد الوصول عن الرجوع إلى الخلق وهدايتهم فأصبحوا غرقى بحر الجمع، أى الجمع بين الحق والخَلْق، وذابوا فى بحر الفناء فلم يصلوا إلى ناحية البقاء، **والسالكون أيضاً** قسمان، فمنهم من يطلبون وجه الله، ومنهم من يطلبون الجنة والآخرة.

وقيل طبقات الصوفية سبع: الطالبون، والمريدون، والسالكون، والسائرون، والطائرون، والواصلون، وهؤلاء ستة، والسابع هو القطب الذى قلبه على قلب النبىّ ﷺ، وهو وارث العلم الذى لحضرة الرسول دون الخلائق. وقيل إن رجال الله هم: **أقطاب، وغوث، وأئمة: وزيران قطبان؛ وأوتاد، وأبدال، وأخيار، وأبرار، ونقباء، ونجباء، وعُمُد، ومكتومون، ومفردون** أى محجوبون. (أنظر كلاً فى بابه)و وهؤلاء يشكّلون حكومة الصوفية الباطنة أو السرّية عند الصوفية من الشيعة.

٦٠٥- الصوفى الأول من التابعين...

هو بُسْر بن سعيد، مولى ابن الحضرمىّ، وكان ينزل دار الحضرميين ببنى حُدلية،

وروى عن سعد بن إلى وقّاص، وعبدالله بن أنيس، وزيد بن ثابت، وأبى هريرة، وأبى سعيد الخُدْرى، وعُبَيْد الله الخَوْلانى.

وقيل: هو من الطبقة الثانية من التابعين من الموالى، وقد اختار أن ينقطع للعبادة، وتزهّد، وكان تزهّده مضرب الأمثال، وحدث أن مات عبد الله بن عبدالملك فى المدينة، فى نفس اليوم والساعة، إلا أن بُسر بن سعيد لم يترك ما يورثه لأهله أو ينهض بتكاليف جنازته، وترك ابن عبدالملك أموالا سائلة من الذهب الخالص تملأ ثمانين جوالاً!! فلما قالوا لعمر ابن عبدالعزيز عن هذه المفارقة بين الاثنين، تعجّب، وهاله ما ينظر الاثنين عند الحساب، إلا أنه مع ذلك لم يؤثر أن يموت مثل بُسر!! - فهل كان عمر بن العزيز حقاً كما يشيعون عنه، وكما يحاولون أن يدرجوه مع الخلفاء الاربعة، باعتباره الخليفة الخامس، لتقواه وورعه وعدله؟ هل كان كذلك؟ أشك فى هذا! فالقصة تقول إنه كان يكره الفقر، والتصوّف فقر. فكيف يكون صوفياً؟

٦٠٦- صوفية...

هم أهل الله الذين يأخذون الأعمال عن الله، ويرجعون إليه فيها:

قومٌ همومهم بالله قد عَلقت

فما لهم هِمَم تسمو إلى أحد

فمطلب القوم مولاهم وسيدهم

يا حُسْن مطلبهم للواحد الصمد

والصوفية: فيهم العوام، وفيهم الخواص؛ ومن أجلة مشايخهم: الحسن البصرى، وإبراهيم بن أدهم، وسفيان الثورى، وذو النون المصرى، والشاذلى، والبدوى، والدسوقى، وغيرهم كثيرون؛ وممن نطق بعلومهم، وعبّر عن مواجيدهم، ونشر مقاماتهم، ووصف أحوالهم قولاً وفعلاً: القشيرى، والكلاباذى، وأبو نعيم الأصفهانى، وعبد الرحمن جامى، وأبو العلا عفيفى، والبكرى، والمناوى، وماسينيون، وبول كراوس، وعبد الهادى أبو ريده، ونيكلسون، وقاسم غنى، وفريد الدين العطار، والتادلى، والجرجانى، والتهانوى، والمقدسى، والذهبى، والسهروردى، وابن قتيبة، وابن عربى، وحاجى خليفة، وأبو طالب المكى، والمحاسبى، وابن خلدون، والغزالى. وكانوا قديماً يطلقون على أبى سعيد الخراز لسان التصوف، وإن كان الأجدر بالاسم آخرين لهم التصانيف المعلاّة والكتب المزجّاة؛ والمؤلفون فى علوم الإشارة كالجنيد، وفى المعاملات كالمحاسبى. وهناك محدثون كثيرون كالشرقاوى، وبدوى، والحفنى.

والصوفية: على القول بالتوحيد، وأن الله

على ما وصف نفسه في القرآن: ليس بجسم، ولا يحويه مكان، ولا يجري عليه زمان، ولم يسبقه قبل ولا يقطعه بعد، وليس لذاته تكييف، ولا لفعله تكليف، ولا تدركه العيون، ولم يزل كذلك، ولا يزال كذلك، وهو الأول والآخر، والظاهر والباطن، وله صفات على الحقيقة هو بها موصوف، من العلم، والقدرة، والعز، والقوة، والحكمة، والكبرياء، والجبروت، والقدم، والحياة، والإرادة، والمشيئة، والكلام. والقرآن كلامه على الحقيقة وليس بمخلوق. وهو تعالى خالق لأفعال العباد ولأعيانهم، وأنهم لا يتنفسون نفساً، ولا يطرفون طرفةً إلا بقوة يحدثها فيهم، واستطاعة يخلقها لهم، وللعباد أفعال واكتساب على الحقيقة، يثابون بها ويعاقبون عليها، وللعبد أن يختار ما يفعله ويستحسنه، وليس بممنوع عن ضد ما يختار، ولا بمحمول على ما اكتسب، وما يفعله الله بعباده من الإحسان والصحة والسلامة والإيمان والهداية واللطف تفضُّلٌ منه، ولا يكون منه ظلم ولا جور، ووعيده للكفار، وعده للمؤمنين المحسنين، وشفاعة النبيّ ﷺ لأهل الكبائر.

والصوفية: يشهدون لعامة المؤمنين بالإيمان في ظاهر أمورهم، ويوكلون سرائرهم إلى الله، ويقرون أن الدار دار إيمان وسلام، وأهلها مؤمنون مسلمون.

ويرى الصوفية: الصلاة خلف البَرّ والفاجر، والصلاة على كل من مات من أهل القِبْلة، ويوجبون الجماعة وصلاة الجماعة، والجهاد، والحج، والخلافة، ويقدّمون أبا بكر وعمر وعثمان وعلياً، ولا يرون الخروج على الولاة بالسيف وإن كانوا ظلمة، ويرون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ويؤمنون بعذاب القبر، ومعراج النبيّ ﷺ، ويصدّقون الرؤيا، وعندهم أن من مات أو قُتل فبأجله، وبأن أطفال المؤمنين مع آبائهم في الجنة، وأرجأوا أمر أطفال المشركين، وجوّزوا أن يرزق الله الحرام، وأنكروا المِراء في الدين، وأوجبوا طلب العلم، وقالوا لا مقام للعبد تسقط معه آداب الشريعة، وأجمعوا على أن السعادة والشقاوة سابقتان بمشيئة الله، وأن السعيد من سعد في بطن أمه، والشقيّ من شقي في بطن أمه، وأن نعيم الجنة لمن سبقت له السعادة من غير علة، وأن الأفعال علامات وأمارات على ما سبق للعباد من الله، وقالوا الأعمال كسوة العبودية، والله يثيب عليها ويعاقب، وعلى العباد بذل المجهود في أداء ما كلّف.

والصوفية على القول: بأن الدليل على الله

هو الله وحده، وأن العلم يثبت بالمعرفة، والعقل يثبت بالعلم، والمعرفة تثبت بذاتها، وأن الله أباح العلم للعامة وخصّ أولياءه بالمعرفة،وأن دلالة معرفة الأولياء له تعظيمهم لقدره.

والصوفية يرون: أن الروح استأثر الله بعلمه، ويجمعون على أن الأنبياء أفضل البشر، ولا يفضلهم لا صدّيق، ولا وليّ، وأن ما يجرى على الأنبياء من ذلل إنما جرى على الظواهر، وأن الأنبياء ليسوا بمعجزاتهم، وإنما كانوا أنبياء بإرسال الله لهم ووحيه إليهم، وأن للأولياء كرامات لا تجعلهم أنبياء ولاتقدح فى نبوة النبيّ، وإنما هى لأن الأولياء يدعون بدعوة الأنبياء، والكرامة تظهر صدق الدعوة.

والصوفية على القول: بأن الإيمان قول وعمل ونية، ويزيد وينقص، والإيمان عندهم هو التعظيم لله ومشاهدة ألوهيته، ويأخذون لأنفسهم بالأحوط الأوثق فيما اختلف فيه الفقهاء، وهم مع إجماع الفريقين إن أمكن، ويقولون بإباحة المكاسب من الحرف والتجارات والحرث مما أباحته الشريعة، ولذلك كانوا غالباً أصحاب حرف وظهر ذلك فى أسمائهم وكناهم، مثل الحدّاد، والنحّاس، والعطّار، والقصّار، والخبّاز، والصائغ، والصيرفى، والصابونى، والسمّاك، والنجّار، والحصرى، والحلاّج، والدبّاغ، والبزّاز، والبردعى، والورّاق، والصفّار، والحمّال، والقوارىرى، والمؤذّن، والصيّاد، والواعظ، والقطّان، والفرّاء، والجزّار، والقصّاب، والسرّاج، وكلها مهن كانوا يتكسبون منها ليقيتوا أنفسهم ولا يتكففون الناس، وللتعاون وحسم الأطماع، ونية العود على الأغيار، والعطف على الجار.

وعلوم الصوفية: علوم الأحوال، وعلوم الخواطر، والمشاهدات والمكاشفات، والإشارة، وتُعلم بالمنازلات والمواجيد، وكلها سرّ من الأسرار، ولذا اصطلحت الصوفية على ألفاظ فى علومهم، تعارفوها بينهم، ورموزا بها، وفى ذلك يقول قائلهم:

أحسن ما أظهره ونظهره
بادىء حق للقلوب نشعره
يخبرنى عنى وعنه أخبره
أكسوه من رونقه ما يستره
عن جاهل لا يستطيع ينشره
يفسد معناه إذا ما يَعْبُرُه
فلا يُطبّق اللفظ بل لا يَعْشُرُه
ثم يوافى غيره فيخبرُه
فَيَظهرُ الجهل وتبدو زُمَرُه
ويَدْرس العلمُ،ويعفو أثره

ولذا كان كتابى هذا فى المتصوّفة وفى ألفاظهم ولغتهم

٦٠٧- صوفية روملو...

هم الأسرى الذين وقعوا فى قبضة تيمور فى حروبه فى بلاد الروم سنة ٨٠٤هـ (١٤٠٢م)، ووهبهم إلى صوفية الصفويين زمن على سياه بوس، فنشأوهم على التصوف، وأطلقوا عليهم هذا الاسم الذى يعنى أنهم الصوفية الروميين، وقد أسكنهم على سياه بوش عند مدافن آبائه فى أردبيل واستندّ بهم تنظيم القزلباش - أى الرءوس المطربشة بالطرابيش الحمر.

٦٠٨- صوفية فدائيون...

هؤلاء ظهروا عند الصفويين لأول مرة من بين مريدى سياه بوس، وانفرعوا عن الصوفية الفتوة الذين كان تأسيسهم عند صدر الدين الأردبيلى، المتوفى سنة ٧٩٤هـ (١٣٩٢م).

٦٠٩- صوفية متفلسفة...

مصطلح الغزالى فى كتابه «رسالة معراج السالكين»، والغزالى نفسه كان منهم، وله «تهافت الفلاسفة»، و«فضائح الباطنية»، و«المنقذ من الضلال»؛ وكذلك فخر الدين الرازى، ونصير الدين الطوسى، وامتزج التصوف بالفلسفة الوافدة على الفكر العربى الدينى، وكان البيرونى قد ذكر فى أصل التصوف أنه ليس عربياً وأن اللفظة أصلها الإيتيمولوجى هو «صوفيا» اليونانية، و«صوفيا» هى الحكمة أو الفلسفة، فمن باب التواضع لا يسمى الحكيم «فيلسوفاً»، ولكنه «محب للحكمة أو الفلسفة»، حيث الكلمة فيلسوف من مقطعين : «فيلا» أى محبة، و«صوفيا» أى الفلسفة، وتلك فوارق وتخريجات لم يعرفها العرب، والأصوب أن العرب اعتبروا الصوفى هو الحكيم، فإذا كان الفيلسوف هو محب الحكمة، فالصوفى هو الحكيم نفسه، غير أن نسبة التصوف فى الصوفى المتفلسف قد تزيد وقد تنقص، ويزيد عليها التفلسف فى هذه الحالة، فالسهروردى المقتول يُظهر من التفلسف أكثر من التصوف، وكذلك الحلاج، وكذلك البسطامى. والسهروردى والحلاج كلاهما قُتل لأنه متفلسف أكثر منه متصوف. ويُذكر ابن عربى كفيلسوف وليس كصوفى، بسبب نظريته فى وحدة الوجود، وهذه النظرية هى ما بقى منه، أى أن الصوفى المتفلسف الذى يسمونه الشيخ الأكبر لم يعد الناس يذكرون له سوى ما قاله كفلسفة وليس كتصوف. وربما كانت فلسفة ابن عربى أصولها مسيحية يستقيها من الحلول والاتحاد ووحدة الوجود فى النصرانية، وورث

ذلك عن طريق الأندلس، وربما كانت مدرسته فى وحدة الوجود هى رسائل إخوان الصفا، وهى حافلة بالفلسفة اليونانية أو الأفلاطونية المحدثة، وظهر ذلك جلياً فى أقوال الجنيد الذى قيل إنه مؤسس التصوف، ومنها: قوله: «فأين ما لا أين لأينه، إذ مؤين الأينات مبيد لما أينه»، «فكان حيث لم يكن، ولم يكن حيث كان، ثم كان من بعد ما لم يكن حيث كان»!!

٦١٠- صوْل...

الصَّوْل: هو الاستطالة باللسان من المريدين والمتوسطين على أبناء جنسهم بأحوالهم، وهو مذموم . وَصَوْل المريد على من فوقه قسحة، وعلى من دونه معرفة، وعلى من هو مثله سوء أدب.

فأما الصادقون وأهل النهايات فإنهم يصولون بالله لقلة المساكنة إلى ما سوى الله. ويقول النبىّ ﷺ : **اللهم بك أصُول وبك أحُول»** .

٦١١- صوم...

إشارة إلى الامتناع عن استعمال المقتضيات البشرية ليتصف بصفات الصمدية، فعلى قدر امتناعه، أى صيامه، تظهر آثار الحق فيه. وكونه شهراً كاملاً إشارة إلى الاحتياج إلى ذلك فى مدة الحياة الدنيا جميعاً، فينبغى للعبد أن يلزم الصوم، وهو ترك المقتضيات البشرية مادام فى دار الدنيا ليفوز بالتمكين من حقائق الذات الإلهية .

وللصوم مراتب، هى: صوم العوام: وهو عبارة عن ترك الأكل والشرب والجماع؛ **وصوم الخواص:** وهو عبارة عن منع السمع والبصر واليد والرجل وسائر الأعضاء من ارتكاب الذنوب؛ **وصوم خواص الخواص:** وهو عبارة عن منع القلب من الأمور الدنيوية وجميع ما سوى الله .

وللصوفية آداب فى الصيام، فمنها أن لا يصوم واحد من بين الجماعة إلا بإذن أصحابه حتى لا يشغل قلوبهم بإفطاره، وإن صام برضا أصحابه وحضر المفطرين شئٌ من الطعام فليس يلزمهم أن ينتظروا إفطاره، لأنه يكون منهم من هو فى حاجة إلى الطعام. وليس للصائم أن يدخر لوقت إفطاره نصيباً لأن ذلك ضعفٌ فى حاله، إلا أن يكون ضعيفاً فيفعل ذلك لضعفه. وإن كانوا جماعة بعضهم معتاد على الصوم وبعضهم على الإفطار فليس للصوّامين أن يدعوا المفطرين إلى أحوالهم إلا إن أحب هؤلاء مساعدتهم على الصوم. ومساعدة الصائم للمفطر على الإفطار أحسن من مساعدة المفطر للصائم

على الصوم، إلا أن تقع الصُحبة فتكون مساعدة المفطر للصائم بالصيام معه أحسن. وإن كانوا جماعة ومعهم مريد يحنّوه على الصيام، فإن لم يساعدوه يهتموا لإفطاره ولا يحملون حاله على أحوالهم. وإن كان معهم شيخ، فإنهم يصومون ويفطرون بصومه وإفطاره إلا إذا أمرهم بغير ذلك، لأنه أعلم بما يصلح لهم.

يقول عبد الواحد بن زيد: من قوى على بطنه قوى على دينه، ومن قوى على بطنه قوى على الأخلاق الصالحة، ومن لم يعرف مضرة فى دينه من قِبَل بطنه فذاك رجل فى العابدين أعمى.

وكان سهل التُسْتُرى معروفاً بصيامه، وهو يقول عن نفسه: عزمت على أن أطوى ثلاث ليال ثم أفطر ليلة، ثم خمساً، ثم سبعاً، ثم خمساً وعشرين ليلة، وأمضيت على هذا الحال عشرين سنة». ويذكره الغزالى من بين من صاموا أربعين يوماً متتالية لم يذق خلالها طعاماً قطّ. ويبدو أن الصوفية بعد التُسْتُرى قد تفوّقوا عليه فى الصيام، فإن أبا عثمان المغربى يقول إن الرجل هو الذى لا يأكل إلا مرة كل ثمانين يوماً !!

٦١٢- صومعة...

صوامع الذكر عند الصوفية: هى الأحوال والمواطن المعنوية التى تصون الذاكر عن التفرق عن مذكوره وتجمع همته عليه بالكلية.

* * *

باب الضاد

* * *

٦١٣ - ضاغط...

هو الله عـزّ وجلّ، وهو الأمـين الحارس. وكل إنسان عليه ضاغط يضغط عليه ألاّ يفعل الشّر، وهو الضمير والأنا الأخـلاقى، وأكـثر مـا يكون ذلك عند الصوفية وفى الخبر أن معاذ بن جبل أرسله عمر بن الخطاب على بنى كلاب، فـقسم فيهم حتى لم يدع شيئاً، حتى جاء بحلسه (ما يوضع على ظهر الدابة تحت السرج) الذى خرج به يحمله على رقبته، فقالت له امرأته : أين مـا جئتَ به مما يأتى به العمال عراضة أهليهم (هديةً لهم من السفر)؟ فقال: كان معى ضـاغط ! فقالت: قد كنتَ أميناً عند رسول الله ﷺ وأبى بكر رضي الله عنه، فبعث عمر معك ضاغطاً؟! واشتكت إلى عمر فدعا معاذاً وسأله : أنا بعثت معك ضاغطاً ؟! فقال: لم أجد شيئاً اعتذر به إليها إلا ذلك! (يعنى تعلّل بأن عمر أرسل معه أميناً فلم يستطع لذلك أن يستحضر هدية لها)، فضحك عمر وأعطاه، وقال له: ارضها به. رواه عبد الرزّاق والمحاملى فى أماليه.

٦١٤ - ضَحِكَ...

فى الخبر: كثرة الضحك تُميت القلب، والصوفى يريد قلبه حيّاً دائماً، ولذلك لا يضحك، وهو أميل إلى البكاء منه إلى الضحك. وكان ابن سيرين من الذين يضحكون، بينما كان الحسن البصرى لا يضحك، فكان يحتج على الحسن ويقول: الله أضحك وأبكى! إشارةً إلى قوله تعالى فى القرآن: ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى﴾ (النجم٤٢).

وقيل: الصوفية لا يضحكون خوفاً وإن كانوا عباداً صالحين. وكان النبىّ ﷺ يُخوِّف من الضحك ويقول: والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً، ولخرجتم إلى الصُّعُدات (أى الطرق)، تجأرون إلى الله تعالى. لوددتُ أنى كنت شجرة تُعضَد !(أى تُقطع وتُجتث، يعنى لودّ لو لم يكن حياً فى الدنيا).- وكان الصحابة يضحكون، وكان النبىّ ﷺ يضحك ويستغرقه الضحك، إلا أنه كان يحذّر من كثرته، ومن ملازمته حتى يغلب على صاحبه. وأما البكاء من خوف الله وعذابه وشدّة عقابه، فمحمود. وكان ينصح بالبكاء أحياناً، وبالتباكى أحياناً. قال: ابكوا، فإن لم تبكوا فإن أهل النار يبكون حتى تسيل دموعهم فى وجوههم كأنها جداول، حتى تنقطع الدموع فتسيل الدماء! فتقرح العيون، فلو أن سفنا أُجريت فيها لَجَرَت!

٦١٥ - ضلال...

من ضلّ ضد اهتدى، أى جار عن دين أو حق أو طريق، فهو ضال. والفرق بين الضلال والباطل، أن الباطل فى الحق، بمعنى إفساده، والضلال شرود عن الحق، والبطّال هو الفاسد، والضال هو الخارج الآبق، وهو الذى يتبدّل الكفر بالإيمان، ويشرك بالله، ويكفر بملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر. والصوفية: لا يضرهم أن يضل البعض ويفتروا ويكذبوا على أنفسهم، وهم على الإيمان أن من يهتدى فإنما يهتدى لنفسه، ومن يضل فإنما يضل عليها. وأخوف ما يخافونه أن يضل سعيهم فى الحياة الدنيا. وأسوأ الضلال ما كان عن هوى، ودعوة الصوفية: ﴿لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (الأعراف ١٤٩). وفى الآية: ﴿مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَن يُضْلِلْ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (الأعراف ١٧٨)، فالله يهدى قوماً بالأدلة والبراهين، وقوماً بكشف اليقين، وإيمان هؤلاء مسألة استدلال، وإيمان الآخرين مسألة وصال، وهؤلاء مع البرهان، وهؤلاء كأنهم أصحاب عيان. وفى الآية: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ﴾ (الأعراف٦١)، قال الصوفية: إن نوحاً دافع عن نفسه وتولىّ إجابة الكفار بنفسه، وأما نبيّنا ﷺ فقد دافع عنه الله ونفى عنه الضلالة، وقال: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾ (النجم ٢)، فشتّان.. والضلال يتمايز، فهناك «مطلق الضلال»؛ وهناك « الضلال البعيد»، وهو الأشدّ وطأة والأكثر كُفراً، وهناك «الضلال المبين» وهو السافر الصريح، والواضح الجلّى الذى لا يحتاج لدليل ولا برهان.

٦١٦ - ضنائن...

هم الخصائص من أهل الله تعالى - أى الصوفية - يَضِنُّ بهم لنفاستهم عنده تعالى، كما قال عليه الصلاة والسلام: إن لله ضنائن من خَلْقه، ألبسهم النور الساطع، يحييهم فى عافية، ويميتهم فى عافية».

٦١٧ - ضياء...

عند الصوفية: هو رؤية الأغيار بعين الحق، فإن الحق بذاته نور لا يُدرَك ولا يُدرَك به، ومن حيث أسماؤه نورٌ يُدرَك ويُدرَك به، فإذا تجلّى للقلب من حيث كونه يُدرَك به شاهدت البصيرة المنوَّرة الأغيار بنوره، فإن الأنوار الأسمائية من حيث تعلقها بالكون مخالَطةً بسواده، وبذلك استتر انبهاره تعالى فأدركت به الأغيار، كما أن قرص الشمس إذا حاذاه غيم رقيق يُدرَك .

***

باب الطاء

* * *

٦١٨ - طائر...

هو الصوفى الذى يصل إلى اللطيفة الروحية، فيسمى حينئذ طائراً، شبيهاً له به.

٦١٩ - طاعة...

طاعة المريد لشيخه واجبة، ويقول ذو النون: **طاعة المريد لشيخه فوق طاعته لربّه**»، لأن الشيخ - كما يقولون - أفْهَمُ من المريد للطاعات والشرع، وبدون الشيخ قد يسئ المريد الفهم، أو يختار من الطاعات ما لا يناسب حاله.

والطاعة فى المصطلح: عدم الغفلة عن ذكر الله، وعدم المخالفة والاعتراض.

والطاعة للرسول: لأنه القطب المُمِدّ لجميع الأقطاب من الأولياء.

والطاعة فى الفرائض والتكاليف فى الظاهر.

٦٢٠ - طالب...

يطلق على المريد، أو السالك، أو الراغب المنضم إلى **الطريقة** اسم **الطالب**؛ وقيل إنه صاحب قوى تزكّى فيه اللطيفة الجسمية الخفية، وربما تزيد أعداد هذه القوى فتبلغ ٣٦٥ نوعاً مثل عدد الأيام الشمسية. هكذا يقول الصوفية.

٦٢١ - طاهر...

الطاهر: هو مَن عصمه الله تعالى عن المخالفات.

وطاهر الباطن: هو من عصمه الله تعالى عن الوساوس والهواجس والتعلّق بالأغيار.

وطاهر السرّ: من لا يذهل عن الله طرفة عين.

وطاهر السرّ والعلانية: من قام بتوفية حقوق الحقّ والخَلق جميعاً، لسعيه برعاية الجانبين.

وطاهر الظاهر: مَن عصمه الله عن المعاصى.

٦٢٢ - طاووس الفقراء...

هو أبو نصر عبد الله بن علّى السرّاج الطوسى، المتوفى سنة ٣٧٨هـ، وله الكتاب المشهور «**اللُّمَع**» فى مصطلحات الصوفية، واشتهر باسم «**طاووس الفقراء**»، فقد كان أكثر كلامه فى الفقر؛ **والطاووس** هو الطائر المزهو بنفسه، كبير الحجم ولكنه صغير الرأس، والعالِم الذى يُشبِّه به قد يقول الكثير من العلم، وقد يخطىء أيضاً ويجانبه الصواب، وكان إبليس طاووس الملائكة، وقيل عن الجنيد

أنه: طاووس العلماء، لأنه كان عالماً كبيراً وصوفياً عتيداً، ولكنهم كثيراً ما شهدوا عليه بالكفر والزندقة.

٦٢٣ - طب...

الطب الروحانى: هو العلم بكمالات القلوب وآفاتها وأمراضها وأدوائها، وكيفية حفظ صحتها واعتدالها.

والطبيب الروحانى: هو الشيخ العارف بطب القلوب وكمالاتها، القادر على الإرشاد والتكميل.

٦٢٤ - طبائعية...

فى التصوّف: هم طائفة عبدوا الله من حيث صفاته الأربع: الحياة والعلم والقدرة والإرادة، التى هى أصل بناء الوجود، والحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة مظاهرها فى عالم الأكوان؛ فالرطوبة مظهر الحياة؛ والبرودة مظهر العلم؛ والحرارة مظهر الإرادة؛ واليبوسة مظهر القدرة. وحقيقة هذه المظاهر هى ذات الله سبحانه الموصوفة بها، فلمّا لاحت لهؤلاء الصوفية الطبائعيين تلك اللطيفة الإلهية، وعاينوا أثر الأوصاف الإلهية الأربعة، علموا أن تلك الأوصاف معان لهذه الصور، أو ظواهر لهذه المظاهر، فعبدوا هذه الطبائع لهذا السِّر، ومنهم منَ علم، ومنهم مَن جهل، والعالم سابق، والجاهل لاحق، فهم عابدون للحقّ من حيث الصفات- هكذا زعم بعض الصوفية!!

٦٢٥ - طبع...

ما سبق به العلم فى حقّ كل شخص.

والطبع الصوفى هو الطبع الزاهد.

٦٢٦ - طبقات...

«طبقات الصوفية»، كتابٌ من تأليف أبى عبد الرحمن بن محمد الحسين السُلَمَى النيسابورى، المتوفى سنة ٤١٢هـ، ويعدّه ابن الجوزى من أقدم المؤلفات التى تناولت الصوفية من حيث تواريخهم وأقوالهم، ولكن قيل إن كتاب «طبقات النساك» لأبى سعيد بن الأعرابى (٣٤٢هـ) هو أقدم الكتب فى طبقات الصوفية. ويبدو أن السلمى قد استعار طريقة الكتابة فى شكل طبقات من علماء الجرح والتعديل، وعندهم أن الطبقة: هى الجيل من العلماء الذين يعيشون فى زمن واحد، فتكون لهم نفس الثقافة، ويؤثّرون ويتأثرون ببعضهم البعض. وقد ظل علماء الحديث يأخذون بنظام الطبقات فى التراجم، وأشهر كتبهم فى ذلك كتاب «طبقات الحفاظ» للذهبى. غير أن لابن الملقن كتاباً أيضاً فى الترجمة للصوفية هو «طبقات الأولياء»، لم يأخذ فيه بنظام السُلَمى، ولكنه رتّب التراجم للصوفية وفق النظام الأبجدى كما فى هذه

الموسوعة. وترجع أهمية الكتاب إلى أنه قد تَرجَم للصوفية فى القرنين السابع والثامن الهجريين .

٦٢٧ - طبقة...

هى الجماعة تشترك فى السن ولقاء المشايخ والأخذ عنهم. (أنظر طبقات) .

٦٢٨ - طبيعة...

عند الصوفية: الطبيعة هى الحقيقة الإلهية الفعّالة للصور كلها .

٦٢٩ - طرق صوفية...

الطريقة الصوفية: هى مجموعة من القواعد والرسوم، التى يضعها المشايخ لبلوغ المريدين الغاية، مع بعضهم البعض، وغايتهم كصوفية هى التحقّق بالحقّ سبحانه وتعالى.

وتتعدد الطرق الصوفية بتعدد المشايخ، فهناك مثلاً الطريقة الرفاعية، والطريقة الشاذلية إلخ، ولكل طريقة مذهبها، ورياضاتها، وأساليب ذكرها، وأورادها، وربُطها والمقامات التى تأخذ بها السالكين، ومراتبهم فيها، وآدابهم مع بعضهم ومع الأغيار. وكان الشيخ عبد القادر الجيلانى المتوفى ٥٦١هـ (١١٦٦م) أول من نادى بالطرق الصوفية وأسّسها. وكانت الطريقة الرفاعية هى ثانى طريقة، ومؤسسها أحمد الرفاعى المتوفى سنة ٥٧٠هـ (١١٧٣م)، وتلت هذه الطريقة - الطريقة المولوية التى تنسب إلى الشاعر الفارسى مولانا جلال الدين الرومى، المتوفى فى قونية سنة ٦٧٢هـ (١٢٧٣م)، وعاصرتها الطريقة البكتاشية، لمؤسّسها الحاج بكتاش الوليّ، فى القرن السابع، وبعد ذلك توالت الطرق، وأبرزها: الشاذلية، والتجانية، والسمانية، والميرغنية، والإسماعيلية، والسنوسية إلخ. وأصحاب هذه الطرق إما علوية، وإما مهدية، وإما شيعية، وإما سُنّية، وإما أنها وراثية؛ والوراثة الصُلبية تتناقض والأساس الذى يقوم عليه التصوّف، حيث المشيخة فى التصوّف تقوم على المجاهدة والسلوك، فلا يمكن أن يرث الابن الطريقة عن أبيه، ومع ذلك فإن الطريقة المولوية ظلت متوارثة فى أبناء جلال الدين الرومى وأحفاده، وكذلك الطريقة القادرية التى يتوارثها خلَفَ مؤسّسها، وكذلك أغلب الطرق الإيرانية، ومنها النعمة اللهية. وينتظم النسب العلوى: عبد القادر الجيلانى، وأحمد الرفاعى، والدسوقى، وأحمد البدوى، وأبا الحسن الشاذلى، والسنوسى، والمهدى، والشعرانى، وبكتاش الولىّ إلخ. وتُسلَك المهدية فى السودان ضمن الطرق المهدية، وكان الصوفى الحاج عمر المتوفى سنة ١٨٦٥ مهدياً، وثار على

الفرنسيين فى الكونغو، وكذلك جلال الدين الرومى. والمولوية وراثية، وكذلك الطريقة القادرية.

والطريقة الصوفية هى طريق يوصل إلى الله تعالى مثلما أن الشريعة موصلة إلى الله، غير أن الطريقة الصوفية أخصّ من الشريعة، لأنها تشتمل على أحكام الشريعة بالإضافة إلى الأعمال القلبية، والرياضات والعقائد المختصة بأعضائها. وتنتشر الطرق الصوفية وتتشعب منذ القرن الرابع عشر فى جميع الاتجاهات من السنغال غرباً، إلى بلاد الصين شرقاً، وتظهر فيها نظم معقدة تتوسع فيما تأخذه من معان على الأصل، وتضيف إليها الجديد، وفى كثير من الأحيان يتغيّر فيها روح الأصل تحت تأثير العوامل المحلية أو التيارات السياسية، إلا أنها جميعاً تتفق فيما بينها، فى أن هناك أصولاً مرعية خاصة، وزياً يأخذون به بحسب الطريقة، وأذكاراً يرددونها، وقد يصاحبونها بالإيقاعات بالصفقة، أو حركات البدن، أو الدقّ على النحاس، والموسيقى عموماً؛ ومن أصولها ضرورة تلقى المريد من أحد المشايخ، وأن تكون هناك خلوات ورِبُط، وجماعة لهم آدابهم مع بعضهم البعض، ومع الأغيار، ولهم لغتهم الاصطلاحية، وروايتهم عن بعضهم البعض وعن الغير، والكرامات التى يعتقدون فيها، ومفاهيمهم عن الولاية وحدودها، وفلسفاتهم الإلهية التى يمكن أن تؤدّى بهم إلى الطريق، وهو عبارة أصلاً عن: مراسم الله تعالى وأحكامه التكليفية المشروعة التى لا رخصة فيها، فإنّ تتبُّع الرُخَص سببٌ لتنفيس الطبيعة المقتضية للوقفة والفترة فى الطريق.

والطريق إلى الله أوله التوبة، ثم الخوف، فالرجاء، فمقام الصالحين، فمقام المريدين، فمقام المطيعين، فمقام المحبين، فمقام المشتاقين، فمقام الأولياء، فمقام المقرّبين.

والطريق يقرّب ولا يبعّد، ويرفع المنازل ولا يخفض، وفيه يتنوّر القلب، وينفرد بالذكر، وتجول الروح فى ملكوت عزّ الله، كقول القائل:

أرعَى سواد الليل أُنساً بِذكره
وشوقاً إليه غير مستكره الصبر
ولكن سروراً دائماً وتعرّضاً
وقرعاً لباب الربّ ذى العزّ والفخر

وقالوا الطريق الصوفى منازل سموها مقامات، يسلكها السالك بالتدريج والترتيب، ليحصل على الفناء فى الله، فيتحصّل له البقاء بالله. والمقامات سبعة هى: التوبة، والورع، والزهد، والفقر، والصبر، والتوكل، والرضا.

ولكل مقام حال، والأحوال نفسية، وقيل إنها عشرة أحوال، هي: المراقبة، والقُرب، والمحبة أو العشق، والخوف، والرجاء، والشوق، والأُنس، والاطمئنان، والمشاهدة، واليقين.

والطرق الصوفية كثيرة، - كما قلنا - وقد أحصينا منها نحو ثلاثمئة طريقة، والطريقة أصلاً مجموعة من الرسوم والقواعد يضعها مشايخ كل طريقة بحيث تختلف عن غيرها من رسوم وقواعد الطرق الأخرى، وبذلك تتمايز فيما بينها بحسب غاياتها ومقاصدها وفلسفاتها، وقد تكون هناك الطريقة الواحدة وإنما تختلف بحسب الأمصار والعصور. وبالطريقة يتحقق للشيخ أن يصل بالمريدين إلى مطلوبات التصوّف وهي في نهاية المطاف التحقّق بالحقّ سبحانه وتعالى.

ومن هذه الطرق ما استطعنا جمعه في الشرق الأوسط دون بقية الأقطار الإسلامية، وحتى في البلاد العربية فليست هذه الطرق هي كل الطرق، وهي بحس ترتيبها الأبجدي:

١ - الإباحية: طريقة الإباحيين أو المتصوّفة المبطلين، ويوجد الكثير منهم في العراق، وقرأنا عن بعض الفرق الإباحية في مصر مؤخراً بثغر الإسكندرية.

٢ - الاتحادية: طريقة مَن قال بالاتحاد، ومن هؤلاء الحلاّجية.

٣ - الأحمدية: طريقة السيد البدوي المتوفى سنة ١٢٧٦م، ولها عدة فروع، منها:

٤ - الشناوية؛ ٥ - والمرازقة؛ ٦ - والكُنّاسية، ٧ - والإنبابية؛ ٨ - والحمودية؛ ٩ - والمنافية؛ ١٠ - والسلامية؛ ١١ - والحلبية؛ ١٢ - والزاهدية؛ ١٣ - والشعيبية؛ ١٤ - والتسقيانية؛ ١٥ - والعربية؛ ١٦ - والسطوحية؛ ١٧ - والبندارية؛ ١٨ - والمسلمية؛ ١٩ - والشرنبلالية؛ ٢٠ - والبيومية.

ومعظم هذه الفروع بحسب أسماء المشايخ أو الأماكن.

٢١ - والإدريسية: فرع من الطريقة الخاضرية في العسير.

٢٢ - والأدهمية: تنسب إلى إبراهيم ابن أدهم.

٢٣ - والإسماعيلية: طريقة نوبية في كردفان.

٢٤ - والإشراقية: أتباع السهروردي الحلبي.

٢٥ - والأشرفية: فرع تركي من الطريقة القادرية، لمؤسسها عبد الله الأشرفي الرومي (٨٩٩ هـ)، وتسمى أيضاً الواحدية.

٢٦ ـ والإعت باشية: فرع تركى من الطريقة الخلوتية.

٢٧: والأغاخانية: فرع من الإسماعيلية يدينون بإمامة نزار بن المستنصر الفاطمى.

٢٨ ـ والاغتشاشية: فرع خراسانى من الطريقة الكبراوية (إسحق خـتّلانى المتوفى فى القرن الخامس عشر).

٢٩ ـ والأكبرية: هى الحاتمية.

٣٠ ـ والأميرغنية: فرع نوبى من الطريقة الإدريسية.

٣١ ـ والأمى سنانية: طريقة تركية.

٣٢ ـ والأويسية: تنسب لأويس القُرَنى المنسوب الصحابة.

٣٣ ـ والبابائية: طريقة تركية فى أدَرْنة.

٣٤ ـ والبحورية: معروفة بالاسم فقط

٣٥ ـ والبدوية: نسبةً لأحمد البدوى.

٣٦ ـ والبُراقية: مؤسسها بُراق بابا من تركيا.

٣٧ ـ والبرهانية: أو البرهمية طريقة إبراهيم الدسوقى، وفرعاها: ٣٨ ـ الشهاوية؛ ٣٩ ـ والشرابنة.

٤٠ ـ والبسطامية: أو الطيفورية، نسبةً إلى أبى يزيد طيفور البسطامى.

٤١ ـ والبكتاشية: طريقة أناضولية، ولها فرع ألبانى مركزه آقجه حصار.

٤٢ ـ والبكرية: أنظر الصدّيقية، وتطلق أحياناً على بيت البكرى شيوخ الصوفية فى القاهرة منذ القرن السادس عشر، وهى فرع سورى مصرى من الشاذلية وطريقة خلوتية.

٤٣ ـ والبكائية: فرع سودانى للقادرية، ولها فرعان ٤٤ ـ الفضلية، ٤٥ ـ والآل سيدية.

٤٦ ـ والبناوة: فرع القادرية فى الدكن.

٤٧ ـ البهائية: ينسبون إلى الطرق الإسلامية زوراً.

٤٨ ـ والبهرة: فرع من الإسماعيلية يدينون بإمامة المستعلى الفاطمى.

٤٩ ـ والبوعلية: فرع جزائرى مصرى من القادرية.

٥٠ ـ والبونوحية: طريقة مغربية.

٥١ ـ والبيرية: طريقة من طرق قيليقية.

٥٢ ـ والبيرحاجات: طريقة أفغانية من أتباع الأنصارى الهروى.

٥٣ ـ والبيرامية: مؤسسها حاجى بيرام، فرع تركى من الطريقة الصفوية، وانقسمت إلى: ٥٤ ـ والحمزاوية، ٥٥ ـ والشيخية، ٥٦ ـ والهمتية.

٥٧ ـ والبيومية: فرع من الأحمدية.

٥٨ ـ والتبانية: طريقة تونسية.

٥٩ ـ والتجانية: طريقة جزائرية مغربية انتشرت إلى السودان.

٦٠ ـ والترابية: هي العلوية.

٦١ـ والتشتية: طريقة هندية أفغانية مركزها أجمير.

٦٢ ـ والتلقينية: زندقة.

٦٣ ـ والتهامية: هي الطيبية.

٦٤ ـ والجباوية: هي الطريقة السعدية.

٦٥ ـ والجراحية: فرع تركي من الخلوتية.

٦٦ ـ والجزولية: من فروع الشاذلية، ومنها فروع ٦٧ ـ والدرقاوة، ٦٨ ـ والحمادشة، ٦٩ ـ والعيسوية، ٧٠ ـ والشرقاوة، ٧١ ـ والطيبية.

٧٢ ـ والجلالة: فرع القادرية في المغرب.

٧٣ ـ والجلالية النجارية: فرع هندي من السهروردية (مؤسسها مخدوم جهانيان المتوفى ١٣٨٣م).

٧٤ ـ والجمالية: فرع فارسي من السهروردية، مؤسسها أردستاني المتوفى في القرن الخامس عشر الميلادي. ٧٥ ـ والجمالية أيضاً طريقة تركية مكانها استنبول.

٧٦ ـ والجلوتية: فرع تركي للصفوية، وفروعها ٧٧ ـ الهاشمية، ٧٨ ـ والروشنية، ٧٩ ـ والفنائية، ٨٠ ـ والهذائية.

٨١ ـ والجنيدية: تنسب للجنيد، وتسمى أيضًا السُّنِّية؛ وتفرّع منها ٨٢ ـ الخواجكان، ٨٣ ـ والكبراوية، ٨٤ ـ والقادرية.

٨٥ ـ والحاتمية: تنسب لابن عربي.

٨٦ ـ والحبيبية: فرع من الشاذلية في نافيلالت.

٨٧ ـ والحروفية: زندقة.

٨٨ ـ والحريرية: فرع حوراني من الرفاعية.

٨٩ ـ والحنفية: أو الحنفاوية، أو الحنفية، فرع مصري من الخلوتية (وتُنسب للشيخ الإمام محمد الحنفي الجدّ الأكبر لمؤلف هذه الموسوعة، توفي ١٧٦٧م).

٩٠ ـ والحكيمية: تنسب للحكيم الترمذي في القرن الثالث الهجري، وأساسها الولاية.

٩١ ـ والحلاّجية: تنسب للحلاج.

٩٢ ـ والحلمانية: فرقة حلولية أتباع أبي حلمان الدمشقي (نحو سنة ٩٥٠م)، وتلاميذ ابن سليم البصري، وتسمى الفرقة المطرودة.

٩٣ ـ والحلولية: زندقة.

٩٤ ـ والحمادشة: فرع مغربي من الجزولية، ولها فروع هي: ٩٥ ـ

الدغوغية، ٩٦ ـ والصداقية، ٩٧ ـ والرباحية، ٩٨ ـ والقاسمية.

٩٩ ـ والحمزاوية: مزيج من البيرامية والملامية.

١٠٠ ـ والحنصلية: طريقة مغربية.

١٠١ ـ والحيدرية: فرع فارسى من القلندرية.

١٠٢ ـ والخاضرية: أو الخضرية، طريقة ابن الدباغ بالمغرب، وتفرّعت منها

١٠٣ ـ الميرغنية، ١٠٤ ـ والإدريسية، ١٠٥ ـ والسنوسية.

١٠٦ ـ والخرّازية: تنسب لأبى سعيد الخرّاز فى القرن الثالث الهجرى، وتقوم على البقاء والفناء.

١٠٧ ـ والخفيفية: تنسب لابن خفيف الشيرازى، وأساسها الغيبة والحضور.

١٠٨ ـ والخفية: لقب النقشبندية فى الصين والتركستان.

١٠٩ ـ والخلوتية: جماعة الشيخ محمد الخلوتى وفرع السهرووردية فى خراسان، وفروعها فى تركيا: ١١٠ ـ الجراحية، ١١١ ـ والاغتباشية، ١١٢ ـ والعشاقية، ١١٣ ـ والبازية، ١١٤ ـ والسنبلية، ١١٥ ـ والشمسية، ١١٦ ـ والكلشنية، ١١٧ ـ والشجاعية، وفى مصر: ١١٨ ـ الضيفية، ١١٩ ـ والحفنوية، ١٢٠ ـ والسباعية، ١٢١ ـ والصاوية، ١٢٢ ـ الدرديرية، ١٢٣ ـ والمغازية، وفى النوبة والحجاز والصومال: ١٢٤ ـ الصالحية.

١٢٥ ـ والخليلية: طريقة تونسية.

١٢٦ ـ والخموسية: طريقة تونسية.

١٢٧ ـ والخواجكان: فى إيران متفرعة من الجنيدية؛ وفى تركستان هى ١٢٨ ـ اليسوية، نسبةً إلى يوسف الهمذانى المتوفى سنة ١٤٤٠م.

١٢٩ ـ والخواطرية: فرع ابن عراق للطريقة ١٣٠ ـ المدنية بالحجاز.

١٣١ ـ والدردبرية: فرع مصرى من الخلوتية.

١٣٢ ـ والدرقاوه: فرع جزائرى مغربى من الجزولية؛ وفروعها: ١٣٣ ـ البوزيدية، ١٣٤ ـ والكتانية، ١٣٥ ـ والحراقية، ١٣٦ ـ والعلوية.

١٣٧ ـ والدسوقية: هى البرهانية.

١٣٨ ـ والدهرية: اليمن والصين وتركستان.

١٣٩ ـ والذهبية: الاسم الفارسى للكبراوية أو للهمدانية. والذهبية اثنتان: ذهبية كبروية، وذهبية نوربخشية.

١٤٠ـ والرحالية: مغربية.

١٤١ ـ والرحمانية: فرع خلوتى فى بلاد القبائل.

١٤٢ ـ والرسولشاهية: هندية.

١٤٣ ـ والرشيدية: الجزائر، منشقة عن اليوسفية.

١٤٤ـ والرضوية: تُنسب لعلىّ بن موسى الرضا، وهى علوية.

١٤٥ـ والرفاعية: البصرة، ثم دمشق واستنبول؛ وفروعها السورية: ١٤٦ ـ الحريرية، ١٤٧ـ والسعدية، ١٤٨ ـ والسيادية؛ وفروعها المصرية: ١٤٩ ـ البازية، ١٥٠ ـ والمالكية، ١٥١ ـ والحبيبية.

١٥٢ ـ والركنية: فرع عراقى للكبراوية أسّسها علاء الدولة السمنانى المتوفى سنة ١٣٣٦م.

١٥٣ ـ والروشنية: فرع خلوتى مصرى وتركى (الكلشنى المتوفى ١٥٥٣م). والروشنية فرع أفغانى من ١٥٤ ـ السهروردية.

١٥٥ ـ والرومية: هى الأشرفية.

١٥٦ ـ والزروقية: فرع إيرانى من الشاذلية.

١٥٧ ـ والزريقية: أو الزرقية، زندقة.

١٥٨ ـ والزيانية: فرع مغربى من الشاذلية.

١٥٩ ـ والزينية: فرع تركى من السهروردية فى بروسه.

١٦٠ ـ والسانية: رباط حرفى فى سوريا والأناضول.

١٦١ ـ والسالمية: فرع من السهلية.

١٦٢ ـ والسبعينية: طريقة ابن سبعين.

١٦٣ ـ والسعدية: فرع سورى من الرفاعية.

١٦٤ ـ والسقطية: تركية (نسبةً إلى السقطى المتوفى ٨٦٧ م).

١٦٥ ـ والسلامية: وهى العروسية أيضاً.

١٦٦ ـ والسلطانية: تركستانية.

١٦٧ ـ والسليمانية: تركية.

١٦٨ ـ والسمانية: فرع مصرى وسودانى من الشاذلية.

١٦٩ ـ والسنبلية: فرع تركى من الخلوتية.

١٧٠ ـ والسنان أمية: تركية.

١٧١ ـ والسنانية: تونسية.

١٧٢ ـ والسنوسية: ليبية.

١٧٣ ـ والسهروردية: عراقية (نسبةً إلى عبد القاهر السهروردى، وعمر السهرودرى)، وتسمى الصدّيقية على اسم أبى بكر الصديق؛ وفروعها: الجلالية، والجمالية، والخلوتية، والروشنية، والصفوية، والزينية.

١٧٤ ـ والسهلية: نسبة إلى سهل التسترى، وطريقته الاجتهاد والمجاهدة ورياضة النفس وقبول البلاء.

١٧٥ ـ والسهيلية: فرع جزائرى للشاذلية.

١٧٦ ـ والسيّارية: نسبةً لأبى العباس السيّارى، وتقوم على الجمع والتفرقة.

١٧٧ـ والسينية: تُنسب إلى سليمان الفارسى، وهى علوية.

١٧٨ ـ والشاذلية: فروعها فى المغرب:

١٧٩ ـ والغازية، ١٨٠ ـ والحبيبية،

١٨١ ـ والكرزازية، ١٨٢ ـ والناصرية،

١٨٣ـ والشيخية، ١٨٤ ـ والسهيلية،

١٨٥ ـ واليوسفية، ١٨٦ ـ والزروقية،

١٨٧ ـ والزيانية. وفروعها المصرية:

١٨٨ ـ البكرية، ١٨٩ ـ والخواطرية،

١٩٠ ـ والوفائية، ١٩١ ـ والجوهرية،

١٩٢ـ والمكية، ١٩٣ ـ والهاشمية،

١٩٤ ـ والسمانية، ١٩٥ ـ والعفيفية،

١٩٦ ـ والقاسمية، ١٩٧ ـ والعروسية،

١٩٨ ـ والهندوشية، ١٩٩ ـ والقاووجية. ولها فروع فى استنبول ورومانيا والنوبة وجزائر القمر.

٢٠٠ ـ والشرقاوة: فرع مغربى من الجزولية.

٢٠١ ـ والشرقاوية: مصرية من الخلوتية.

٢٠٢ ـ والشطارية: هندية وسومطرية وجاوية. نسبةً إلى شطار المتوفى ١٤١٥م.

٢٠٣ ـ والشعبانية: تركية خلوتية.

٢٠٤ ـ والشمسية: تركية خلوتية.

٢٠٥ ـ والشوذية: تركية سبعينية.

٢٠٦ ـ والشيخية: أولاد سيدى شيخ فى وهران، وهم شاذلية.

٢٠٧ ـ والصفوية: فرع آذرى من السهروردية.

٢٠٨ ـ والطالبية: مغربية.

٢٠٩ ـ والطيبية: مغربية جزولية.

٢١٠ ـ والطيفورية: نسبةً إلى أبى يزيد طيفور البسطامى، وهى طريقة الغلبة والشكر.

٢١١ ـ والعاشقية: زندقة.

٢١٢ ـ والعروسية: طرابلسية قادرية.

٢١٣ ـ والعزوزية: تونسية.

٢١٤ ـ والعشاقية: تركية خلوتية.

٢١٥ ـ والعشيقية: هندية شطارية (أبو يزيد عشقى المتوفى فى القرن الخامس عشر).

٢١٦ ـ والعلوانية: حجازية.

٢١٧ ـ والعمارية: تونسية جزائرية قادرية.

٢١٨ ـ والعلوية: جزائرية درقاوية.

٢١٩ ـ والعلوية: نسبةٌ إلى عليّ بن أبي طالب.

٢٢٠ ـ والعوامرية: تونسية عيسوية.

٢٢١ ـ والعيدروسية: يمنية كبراوية.

٢٢٢ ـ والعيسوية: مغربية جزولية.

٢٢٣ ـ والغازية: مغربية شاذلية.

٢٢٤ ـ وغزالية: مدرسة الغزالي.

٢٢٥ ـ والغوثية: هندية شطارية.

٢٢٦ـ والفارسية: أتباع فارس الدينوري (نحو سنة ٩٥٠م)، وتدين بالحلول كالحلاجية، وتسمى الفرقة المطرودة.

٢٢٧ ـ وفردوسية: هندية كبراوية.

٢٢٨ ـ وقادرية: نسبةٌ لعبد القادر الجيلاني، ولها فروع في اليمن والصومال: ٢٢٩ ـ اليافعية، ٢٣٠ ـ والمشارعية، ٢٣١ ـ والعرابية؛ وفي الهند: ٢٣٢ ـ البناوة، ٢٣٣ ـ والكرزمر؛ وفي الأناضول: ٢٣٤ ـ الأشرفية، ٢٣٥ ـ والهندية، ٢٣٦ ـ والخلوصية، ٢٣٧ ـ والنابلسية، ٢٣٨ ـ والرومية، ٢٣٩ ـ والوصلنية؛ وفي مصر: ٢٤٠ ـ الفارضية، ٢٤١ـ والقاسمية، وفي المغرب: ٢٤٢ ـ العمارية، ٢٤٣ ـ والعروسية، ٢٤٤ ـ والبوعلية، ٢٤٥ ـ والجلالة؛ وفي السودان الغربي: ٢٤٦ ـ البكائية.

٢٤٧ ـ والقرّائية: تونس.

٢٤٨ ـ والقشيرية: تنسب للقشيري.

٢٤٩ ـ والقصّارية: نسبةٌ إلى حمدون القصّار، واسمها الملامتية، ومرادهم الحق لا الخَلْق.

٢٥٠ ـ والقلندرية: ملامتية فارسية، ومن قواعدهم هدم العادات.

٢٥١ ـ والقونوية أو القونياوية: نسبةٌ لصدر الرومي ـ انبثقت من الحاتمية.

٢٥٢ ـ والكبراوية: خراسانية، من الجنيدية. وفروعها: ٣٥٣ ـ العيدروسية، ٢٥٤ـ والهمذانية، ٢٥٥ ـ والاغتشاشية، ٢٥٦ ـ والنوربخشية، ٢٥٧ ـ والنورية، ٢٥٨ ـ والركنية.

٢٥٩ ـ والكارزونية: فارس من الخفيفية.

٢٦٠ـ والكاكائية: علوية.

٢٦١ـ والكرزارية: شاذلية في تافيلالت.

٢٦٢ ـ والكرزمر: هندية قادرية.

٢٦٣ ـ والكلشنية: الروشنية.

٢٦٤ـ الكميلية: علوية، ونسبتها إلى كميل بن زياد.

٢٦٥ ـ والمتبولية: مصرية.

٢٦٦ ـ والمحاسبية: نسبةٌ إلى الحارث

المحاسبي (توفى سنة ٢٤٣ هـ ببغداد).

٢٦٧ ـ والمحمدية: نسبةً إلى النبيّ ﷺ، استعمل الاسم علىّ الخواص، والشعراني.

٢٦٨ ـ والمدارية: هندية.

٢٦٩ ـ والمدنية: اسم الشاذلية أولاً.

٢٧٠ ـ والمرادية: تركية.

٢٧١ ـ والمرازقة: فرع الأحمدية.

٢٧٢ ـ والمرازقة: فرع الأحمدية.

٢٧٣ ـ والمشارعية: يمنية قادرية.

٢٧٤ ـ والمشيشية: أتباع ابن مشيش.

٢٧٥ ـ والمصرية: النيازية.

٢٧٦ ـ والمطاوعة: الأحمدية.

٢٧٧ ـ والمعروفية: فرع من الليفورية.

٢٧٨ ـ والمغربية: مريدو الشاعر الفارسى مغربى.

٢٧٩ ـ والملامية: خراسانية.

٢٨٠ ـ والملامتية: الاسم الآخر للقصّارية.

٢٨١ ـ والمنصورية: الحلاجية.

٢٨٢ ـ والمولوية: أتباع جلال الدين الرومى، وفروعها: ٢٨٣ ـ البوسننشينية، ٢٨٤ ـ والإرشادية.

٢٨٥ ـ والميرغنية: سُنّية سودانية.

٢٨٦ ـ والناصرية: مغربية شاذلية.

٢٨٧ ـ والنبوية: رابطة حرفية فى سوريا.

٢٨٨ ـ والنزارية: فرع من الإسماعيلة.

٢٨٩ ـ والنعمانية: أتباع أبى عبد الله النعمان المتوفى ٦٨٣ هـ بالإسكندرية.

٢٩٠ ـ والنعمت اللّهية: طريقة شيعية فى كرمان فارس من القادرية اليافعية.

٢٩١ ـ والنقشبندية: تركستانية من الطيفورية، وفروعها فى الصين وقازان وتركيا والهند وجاوه.

٢٩٢ ـ والنقشبندية، الخالدية: نسبةً إلى خالد النقشبندى.

٢٩٣ ـ والنوربخشية: خراسانية كبراوية (محمد نور بخش المتوفى ١٤٦٥م).

٢٩٤ ـ والنور الدينية: الجراحية.

٢٩٥ ـ والنورسية: تركية.

٢٩٦ ـ والنورية: مدرسة أبى الحسن النورى، وتقوم على الإيثار.

٢٩٧ ـ والنيازية: تركية جلوتية.

٢٩٨ ـ والهدارة: مغربية.

٢٩٩ ـ والهمذانية: كشميرية كبراوية.

٣٠٠ ـ والوارث عليشاهية: هندية.

٣٠١ ـ والوحدنية: زندقة.

٣٠٢ ـ والوصولية: زندقة.

٣٠٣ ـ واليسوية: فرع خواجكان بتركستان.

٣٠٤ ـ واليوسفية: شاذلية مغربية.

٣٠٥ ـ ويونسية: سورية (الشيبانى المتوفى ١٢٢٢م).

* * *

٦٣٠ - طس...

التفكير فى معانى الحروف فى القرآن، بدأ مع الصوفية فى القرن الرابع الهجرى، واستدعاه البحث عن معانى الحروف المقطّعة فى أوائل الكسور، وكان أول من عرض لذلك: **محمد بن سهل بن هارون ابن راهبون**، وكان **الكندى أول من حاول استخراج الدلالات العددية من الحروف** وارتباطها بالأسرار الكونية، وتليها بالظواهر التاريخية، وتابع ذلك **الغزالى**، وبعده دخلت معالجة الحروف جدّياً فى التصوّف، وصارت من لوازمه، وتحوّلت إلى وسيلة لاستجلاء السرّ ومتشعبة **للحروف المقطعة فى أوائل السور**، فمن ذلك «طس» التى تأتى فى أول سورة النمل، و«طسم» التى تأتى فى أول سورتى الشعراء والقصص، ومن أجلها سُمّيت هذه السور باسم الطواسين والطواسيم، مثلما سُمّيت السور التى تبدأ بالحرفين «حم» بالحواميم، وعددها سبع سور. وقال الصوفية: «طسم» قسم، فالطاء قسَمٌ له تعالى؛ وقيل: الطاء من الطاهر؛ والسين من القدوّس - أو من السميع، أو من السلام؛ والميم من المجيد ومن ذلك قول ابن سينا فى معنى طس: أنها اشارة إلى العالم الهيولانى، وأن ق التى تبدأ بها سورة ق، إشارةٌ إلى عالم التكوين وعالم الأمر. وقال: لم يكن أن يكون للحروف الأولية تفسير على غير هذا البتة.

٦٣١ - طعام...

من آداب الصوفية فيه أن لا يكونوا إذا أقبلوا عليه متكلّفين، ولا مستوحشين، ولا مغتمّين، ولا يختاروا الكثير الرديّ على النظيف الجيد، ولا يكون لأكلهم وقت معلوم، وإذا حضر الطعام فلا يلقمون بعضهم بعضاً، وإن لُقِّموا فلا يردّون ، ويكرهون الطعام الكثير الجافى. والصوفية، ومَثَلُهم النبىّ ﷺ، كلما كانوا أشدّ جوعاً يكون أدبهم فى الأكل أحسن. وفى الحديث عن عائشة أنه ﷺ قال: «أكثر من أكلة فى اليوم سَرَف»، وكان طعامه الأسودين: التمر والماء. ومن أقوال الجنيد: تنزل الرحمة على الفقراء (يعنى الصوفية) فى ثلاثة مواطن: عند أكلهم الطعام، فإنهم لا يأكلون إلا عن فاقة؛ وعند مجاراة العلم فإنهم لا

يتكلمون إلا في أحوال الصدّيقين والأولياء؛ وعند السماع فإنهم لا يسمعون إلا من حقّ، ولا يقومون إلا بوجدة.

وكان إبراهيم بن أدهم يرى أن خير طعام الزهّاد: هو الخبز الساخن مع الخلّ أو التمر أو زيت الزيتون؛ وفضّل غيره الخبز والملح، أو ثريد الشعير. وقد امتنع بعضهم عن أكل اللحم امتناعاً تاماً. ومن تقاليدهم أنهم كانوا يأخذون العهد على أنفسهم ألا يقربوا ألواناً خاصة من الطعام، كالجزر مثلاً. لماذا؟ لا أدري.

وتردّ الآية: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ (الإسراء ٧٠) على ما رُوي عن عائشة، قالت: قال رسول الله ﷺ: حرّموا أنفسكم طيب الطعام، فإنما قوى الشيطان أن يجري في العروق منها. وبهذا الحديث يستدل الكثير من الصوفية في ترك أكل الطيّبات، ولسنا نرى أصلاً لذلك، لأن القرآن يردّه، والسُّنّة الثابتة بخلافه. وقد حكى الطوسي قال: كان سهل يقتات ورق السبق مدة؛ وأكلَ دُقاق ورق التوت ثلاث سنين؛ وذكر إبراهيم بن البنا، قال: صحبت ذا النون من إخميم إلى الإسكندرية، فلما كان وقت إفطاره، أخرجت قرصاً وملحاً كان معي، وقلت: هُلمّ. فقال لي: ملحُك مدقوق؟ قلت: نعم. قال: لستَ تُفلح! فنظرت إلى مزوّده، فإذا فيه قليل من سويق شعير، يَسِفُّ منه. وقال أبو يزيد: ما أكلت شيئاً مما يأكله بنو آدم أربعين سنة!! - وأقول: وهذا ما لا يجوز حمل النفس عليه، لأن الله تعالى أكرم بني آدم بكل أنواع الخضروات والبقول والفواكه واللحوم، وأنعم عليهم، وجعل قشورها لبهائمهم، فلا يصحّ مزاحمة الدواب في طعامه، وترْك طعام الآدميين، ثم إنه تعالى سمّى هذه الأطعمة «طيّبات» وأحلّها؟!!. وأما سويق الشعير الذي يُقبل عليه الصوفية، فإنه يورث مرض القولون، وإذا اقتصر الإنسان على خبز الشعير والملح الجريش، فإنه بمزاجه نحرف، لأن خبز الشعير جاف، والملح يابس قابض، مما يضر بالهضم ويخلّ بالصحة، ويورث العينين كلالة، والبدن ضعفاً. والطعام الجيد مطية الآدمي، ومتى لم يرفق بالمطية لم تُبلّغ. وروى عن إبراهيم بن أدهم: أنه اشترى زبداً وعسلاً وخبزاً، فقيل له: هذا كله؟ فقال: إذا وجدنا أكلنا أكل الرجال، وإذا عدمنا صبرنا صبر الرجال. وكان الثوري يأكل اللحم والعنب والفالوذج (المهلبية) ثم يقوم إلى الصلاة.. ومن هذه القصص كثير إن صحّ عنهم، وعكس ذلك

الحرمان، وهو غلوٌّ في الدين، كقوله تعالى: ﴿ وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ﴾ (الحديد٢٧)، فالصوفي الحقّ لا يحرم نفسه من شئ حلال (انظر طيبات).

٦٣٢ - طلاع الأرض...

طلّاع الأرض: هو الذي يحبّ الاطّلاع على خبايا الناس، ويحشر نفسه في كل الأمور تطفُّلاً، ومن باب حبّ الاستطلاع، وهو داء عند بعض المتصوفة، وقيل: طلّاع الأرض. خصيم الصوفية، يثير الفتن ويوغر الصدور ضدهم. والاصطلاح أصلاً للنبيّ ﷺ، أطلقه على عُيَيْنة بن حصن الفزّاري، وكان قد دخل على رسول الله ﷺ ولم يستأذن فسأله: «فأين الاستئذان؟»، فقال: يارسول الله! والله ما استأذنت على رجلٍ من مُضر منذ أدركت. ثم قال: مَن هذه الحميراء إلى جانبك؟ (يقصد عائشة) فقال رسول الله ﷺ: «هذه عائشة أم المؤمنين!». قال: ألا أنزل لك عن أحسن الخلق؟ - يقصد أن ينزل له عن أحلى زوجاته مقابل أن ينزل النبيّ ﷺ عن عائشة له. فقال له رسول الله ﷺ: «ياعيينة! إن الله تبارك وتعالى قد حرّم ذلك!»- يقصد البدل بالزوجات، في قوله تعالى: ﴿ وَلَا أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ ﴾ (الأحزاب ٥٢). فلما خرج قالت عائشة: من هذا؟ قال رسول الله ﷺ: طلّاع الأرض؛ «أحمق مطاع، وإنه على ما ترين سيد قومه»، وقد ذهب ذلك مثلاً بين الصوفية، يصفون الكبار المحبّون لتقصّي أسرار مَن حولهم، أو الذين يعادون أولياء الله خصوصًا، فيقال للواحد منهم: «طلّاع الأرض»؛ أو يقال عنه: «الأحمق المطاع».

٦٣٣ - طمأنينة...

هي حال رفيع تكون لعبد رجح عقله، وقوى إيمانه، ورسخ علمه، وصفا ذِكره، وثبتت حقيقته.

والطمأنينة على ثلاثة ضروب: فضربٌ منها للعامة، لأنهم إذا ذكروه سبحانه اطمأنوا إلى ذِكرهم له، فحظّهم منه الإجابة للدعوات باتساع الرزق ودفع الآفات، وهو ما قال عنه عز وجل ﴿ النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾ (الفجر ٢٧)، يعني المطمئنة بالإيمان، بأن لا دافع ولا مانع إلا الله؛ والضرب الثاني: للخصوص، لأنهم رضوا بقضائه، وصبروا على بلائه، وأخلصوا واتّقوا، وسكنوا واطمأنوا إلى قوله عزّ وجلّ: ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ (النحل ١٢٨)، وأيضاً: ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (البقرة ١٥٣)، فاطمأنوا وسكنوا إلى قوله «مع»،

فكانت طمأنينتهم ممزوجة برؤية طاعتهم؛ والضرب الثالث: الخصوص الخصوص، الذين علموا أن سرائرهم لا تطمئن إليه وتسكن معه، هيبةً وتعظيماً له سبحانه، لأنه ليس له غاية تُدرَك، وليس كمثله شئ، ولم يكن له كفواً أحد.

٦٣٤ - طمس...

هو ذهاب سائر الصفات البشرية فى صفات أنوار الربوبية، أى تفنّى صفات العبد فى صفات الحق تعالى. يقال طُمست معالمه: أى ذهب عن صورته، ودرس. وفى القرآن: ﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ ﴾ (يس: ٦٦)، وقال: ﴿ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ ﴾ (يونس ٨٨)، وقال: ﴿ فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ ﴾ (المرسلات ٨) يعنى انطمس ضوؤها وذهب، وفى نفس المعنى يقول الجنيد: وأنت فى سُبل ملتبسة ونجوم منطمسة»؛ والنجوم المنطمسة، والطرقات المنطمسة: هى التى يكون عليها حال الصوفى فى مختلف الأوقات، لأنه ابن وقته ولا يعرف ماذا سيكون عليه حاله فى غير وقته، وهو من أصحاب التلوين، فإذا استطاع أن يجوز هذه الطرقات المنطمسة صار من أصحاب التمكين.

٦٣٥ - طه...

من مصطلحات القرآن والصوفية، وهى عند القشيرى الصوفى: «الطاء» فى «طه» فى أول سورة طه، إشارة إلى قلبه ﷺ من غير الله، و«الهاء» إشارة إلى اهتداء قلبه إلى الله. وقال آخرون: إن «طه» أمرٌ يعنى: طأ بسرّك بساط القُربة، فإنه ﷺ - أو الإنسان عمومًا - لن يهتدى إلى غيره تعاليمهما بحث وفكّر وقيل: «طه» تعنى: أنه تعالى طَوىَ عن سرّه ذِكْر غيره، وأنه تعالى هُدى إليه، فهو وحده إلهه ولا إله له سواه. وقيل: إن «طه» تعنى: طُوبى لمن اهتدى به ﷺ، وكأن طه هو اسمه، واسم كل من هُدى إلى الله، ومن ثم قال له تعالى: ﴿ طه (١) مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ ﴾ (طه ١/ ٢) فالخطاب له، والخاصة المؤمنين من بعده، وهم أهل الله: الصوفية. وقيل: إنها تعنى: طاب عيش من اهتدى به، وهم أهل الله بخاصة.

٦٣٦ - طهارة...

هى النظافة للصلاة، وضوءاً أو غسلاً أو تيمماً، وهى نوعان: ظاهرية وباطنية، وللصلاة: طهارة الظاهر؛ وللمعرفة: طهارة الباطن، وللأولى يلزم طهارة الماء، وللثانية يلزم صفاء الاعتقاد؛ والصوفية على طهارة الظاهر والباطن: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ (البقرة ٢٢٢)، وفى الحديث: اللهم طهّر قلبى من النفاق». والصوفى العابد متى غسل يديه

متطهراً، يلزمه أن يغسل قلبه من الاشتغال بالدنيا، وكما يُطَهِّر من النجاسة الظاهرة، ينبغي أن يُطَهِّر باطنه من نجاسة الحرام، وأن يُطهِّر فمه من ذكر غير الله، وأن يُحرِّم على نفسه أن يستنشق رائحة الشهوات، وأن يغسل وجهه فلا يلتفت إلى ما سوى الله، وأن يمسح رأسه من كل ما يشين تفكيره مع الله، وأن يغسل رجليه فلا يقف بهما إلا على ما أمره به الله. وعن الشبلي: أنه كلما اغتسل يسمع هاتفاً من داخله يقول: لقد غسلتَ ظاهرك، فأين طهارة باطنك؟

وأحبُّ الأشياء إلى المتصوفة النظافة والطهارة، ومنهما: غسل الثوب، والمداومة على السواك، والنزول عند المياه الجارية والفضاء الواسع، والمساجد التي في الأطراف، والخَلْوة، والاغتسال كل يوم جمعة في الشتاء والصيف، والرائحة الطيبة. وأطيب الطيب الماء الجاري، والمداومة على الاغتسال، وتجديد الوضوء وإسباغه.

والطهارة تكون لقلب الصوفي من الغِلّ والحسد والشِّرك والتُّهم.

٦٣٧ - طوارق...

هي عند الصوفية: ما يرد إلى القلب من بشارة أو زجر في أثناء مناجاة الليل.

٦٣٨ - طواف...

الطواف في الحج أو العمرة، عند الصوفية: عبارة عمّا ينبغي للصوفي من أن يدرك هويته تعالى ومحتده تعالى ومشهده. وكونه سبعة إشارة إلى **الأوصاف السبعة** التي بها تمت ذاته، وهي: **الحياة، والعلم، والإرادة، والقدرة، والسمع، والبصر، والكلام**. واقتران هذا العدد بالطواف ليرجع من هذه الصفات إلى صفات الله تعالى، فينسب حياته إلى الله، وعلمه إلى الله، وقدرته وسمعه وبصره وكلامه إلى الله، فيكون كما قال عليه الصلاة والسلام: «**أكون سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به**» (الحديث).

ثم **طواف الإفاضة**: عبارة عن دوام الترقّي لدوام الفيض الإلهي؛ ثم **طواف الوداع**: إشارة إلى الهداية إلى الله تعالى بطريق الحال.

٦٣٩ - طوالع...

أول ما يبدو من تجليات الأسماء الإلهية على باطن الصوفي العابد، فتحسن أخلاقه وصفاته بتنوير باطنه.

وقيل **الطوالع**: هي أنوار التوحيد تطلع على قلوب أهل المعرفة - وهم الصوفية - فتطمس سائر الأنوار.

٦٤٠- طور...

فى التأويل، المراد بالطُّور نفسك. يقول الله تعالى: ﴿وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الأَيْمَنِ﴾ (مريم ٥٢)، أى جانب النفس، ونعلم أن ثمة طوراً غير أيمن، وهو الجبل الذى كان موسى يتجلّى فيه كما يتجلى أهل الله فى الكهوف والمغارات والأودية، فالتجلّى الحاصل هنالك على موسى، إنما كان من حيث نفسه لا من حيث الجبل، ولم يكن الجبل إلا محلاً لمكان موسى. هكذا يقول الصوفية.

واندكاك الجبل: عبارة عن فناء نفسه بالله؛ وصعقه: عبارة عن المحق والسحق، فَعَدِمَ موسى، وكذلك الصوفى العابد فإنه ينعدم كأن لم يكن، ويستمر الحق كما لم يزل، فما رأى موسى ربّه وإنما كما قيل - رأى اللهُ اللهَ، وما ثم إلا المعبَّر عنه بموسى، وإلى هذا أشار الحق سبحانه بقوله ﴿لَن تَرَانِي﴾ (الأعراف ١٤٣)، أى يا موسى، لأنك إن كنت موجوداً فأنا مفقود عنك، وإن وجدتنى فأنت مفقود. ولا يمكن للحادث أن يثبت عند ظهور القديم، وإلى هذا المعنى أشار الجنيد بقوله: المُحدَث إذا قورن بالقديم لم يبق له أثر. وقال علىّ: إن غبتُ بدا، وإن بدا غبتُ.

وهناك مُصطلح الأطوار السبعة عند الصوفية: وهى عبارة عن: الطبع، والعقل، والنفس، والقلب، والروح، والخفى، والأخفى.

٦٤١- طيب...

لا تعارض فى التصوّف بين الزهد والتطيُّب، والطِّيب سُنّة عن النبىّ ﷺ، وعن عائشة قالت: كان نبىّ الله ﷺ يعجبه من الدنيا ثلاثة أشياء: الطِّيب، والنساء، والطعام، فأصاب اثنتين ولم يُصب واحدة: أصاب النساء والطِّيب، ولم يُصب الطعام.. وكان النبىّ ﷺ يتطيّب حتى كان أصحابه يعرفون خروجه بريح طِيبه، وما عُرض عليه طِيب قطّ فردّه، وكان يتطيّب بالمِسْك والعنبر، وكان له حُقّ يتطيّب منه، وكان إذا استجمر، يجعل الكافور على العود ثم يستجمر به. وكثير من الصوفية يتطيّبون كما عند الشاذلية.

٦٤٢- طيب-

ليس الخبيث إلا ما يُكره، ولا الطَّيب إلا ما يُحَب. ويرى الصوفية أن العالَم على صورة الحق، والإنسان على الصورتين، وما حُبِّب إلى رسول الله ﷺ إلا الطَّيِّب من كل شئ.

٦٤٣- طيبات...

فى الآية: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي

أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ (الأعراف ٣٢): والزينة: المقصود بها اللباس الجميل؛ والطّيّبات من الرزق: ما طاب من الكسب والطعم، وكانوا فى الجاهلية يحرمون البحائر، والسوائب، والأصائل، والحوامى؛ والصوفية حرّموا للأسف كلّ مستلذ من الطعام، فخالفوا! وليس ذلك من القُربات، وقيل إنه ليس قُربة فى ذاته، وإنما هو سبيل إلى الزهد فى الدنيا وقصر الأمل فيها، وترك التكلّف لأجلها، وذلك مندوب إليه، والمندوب قُربة. وقال عمر ابن الخطاب: لو شئنا لاتخذنا صِلاءً وصَلائق وصَنابأ، ولكنى سمعت الله تعالى يذمّ أقواماً، فقال: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا﴾ (الأحقاف ٢٠). والصدائق والصلائق: ما تفوح رائحته من اللحوم والبقول عند الطبخ؛ والصِّلاء هو الشواء؛ والصِّناب الخردل بالزبيب، وما ذكره عمر من أطايب الطعام المترف، وبرغم ما قاله كان النبىّ ﷺ يأكل الطيّبات ولم يرفضها قط، بل كان يأكل الحلوى والعسل والبطيخ والرُّطب، وإنما يكره التكلُّف، لما فيه من التشاغل بشهوات الدنيا عن مهمات الآخرة. وقد كره بعض الصوفية أكل الطّيبات، واحتجّوا بقول عمر: إياكم واللحم، فإن له ضَراوة كضراوة الخمر. - والجواب: إن ذلك من عمر قولٌ يصدق على من يخشى إيثار التنعُّم فى الدنيا، والمداومة على الشهوات، وإرضاء النفس من الملذّات، ونسيان الآخرة، والإقبال على الدنيا، ولذلك كان عمر يكتب إلى عماله: إياكم والتنعُّم وزىّ أهل العجم، واخشوشنوا. - وما كان وهو يقول ما قاله، يحرّم شيئاً أحلّه الله، ولا كان يحظر ما أباحه الله، والأولى أن نمتثل لقوله تعالى فى الآية: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ﴾ (الأعراف ٣٢)، وقول رسوله ﷺ أحرى أن نعتمد عليه من قول عمر، قال: سيد إدام الدنيا والآخرة اللحم. - وروى أنه ﷺ كان يأكل البطيخ بالرطب، ويقول: يكسر حرّ هذا برد هذا، وبرد هذا حرّ هذا - يعنى اختصاراً، أنه ﷺ: كان يأكل الطيّبات، لا ما يدعونا إليه بعض الصوفية!

٦٤٤ - طيفورية...

أتباع أبى يزيد طيفور بن عيسى البسطامى، وطريقته طريقة الغلبة والسُّكر، وأتباعه يقولون إن الصحو يتحقق بتمكين صفة الإنسانية واعتدالها، ويتحقق السُّكر بنقض الصفات البشرية وذهاب التدبير والاختيار. (انظر أيضاً البسطامى).

* * *

باب الظاء

* * *

٦٤٥ - ظالم...

الظالم لنفسه الذى يجزع من البلاء، ويعبد على الغفلة والعادة، ويذكر الله بلسانه ويحبه من أجل الدنيا، فهو ظالم لنفسه لأنه جار عليها وبخسها حقّها، ولذا قيل إنه صاحب أقوال. وقيل الظالم لنفسه يفرط فى فعل بعض الواجبات ويرتكب مع ذلك بعض المحرّمات.

وفى الآية: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ ﴾ (فاطر ٣٢)، فالظالمون لأنفسهم تُلث أمة الإسلام، والثلث الثانى المقتصدون، والثلث الثالث السابقون بالخيرات. والأولون يمحَّصون، والثانون يُحاسَبون حساباً يسيراً، والثالثون يدخلون الجنة بغير حساب.

وقال محمد بن الحنفية: **الظالم لنفسه** مغفور له. وعند **القشيرى**: **الظالم لنفسه** مَن ظلم نفسه لكثرة ما حمّلها من الطاعات. ويقال: إن العزيز إذا رأى ظالماً قصمه، والكريم إذا رأى مظلوماً أخذ بيده، **والمظلومون**: هم المفلحون يوم القيامة؛ **والظالم لنفسه**: مظلوم من نفسه، غلبته زلّاته فزهد دنياه. (انظر ظلم).

٦٤٦ - ظاهر...

الظاهر من ظَهَر أى برز بعد الخفاء، **والظاهر** خلاف الباطن، وعند **الصوفية**: الظاهر عبارة عن أعيان الممكنات؛ **وظاهر الممكنات**: هو تجلى الحق بصور أعيانها وصفاتها، وهو المسمى بالوجود الإلهى، وقد يطلق عليه ظاهر الوجود، وهو عبارة عن تجليات الأسماء، فإن الامتياز فى ظاهر العلم حقيقى، والوحدة نسبية، وأما فى ظاهر الوجود فالوحدة حقيقية والامتياز نسبى.

٦٤٧ - ظرف...

الظُّرْف: هو الكياسة؛ وعند **الصوفية**: هو اجتناب كل خُلق دَنِىّ واستعمال كل خُلق سَنِىّ، وأن تعمل لله ثم لا ترى أنك عملت.

٦٤٨ - ظل...

ظل الشىء يبقى ببقائه ويزول بزواله؛ **والظل عند الصوفية**: هو الوجود الإضافى، يضفيه الله تعالى على الممكنات من نوره تعالى، فيبدو النور الظاهر بصورها كالظل يستر عدميتها، يقول الله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ ﴾ (الفرقان ٤٥)، أى بسط الوجود الإضافى

على الممكنات، والعدم بالنسبة لها هو بمثابة ظُلمة، وكل ظُلمة عبارة عن عدم النور عما شأنه أن ينوَّر.

والظل الأول: هو العقل الأول، لأنه أول التعيّنات الممكنة التى ظهرت بنوره تعالى، وقبلت صورة الكثرة التى هى شئون الوحدة الذاتية.

وظل الإله: هو **الإنسان الكامل** المتحقّق بالحَضْرة الذاتية، ومعنى أنه **فى ظله**، أى فى كنفه، وقيل هو ظله، يعنى صورته.

والظلال والظلالات: هى الأسماء الإلهية. وفى قوله: ﴿ وَظِلَالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ (الرعد ١٥)، أى ظلال الخلق ساجدة لله بالغدو والآصال، لأنها تبين فى هذين الوقتين، وتميل من ناحية إلى ناحية، يصرفّها الله على ما يشاء، كقوله: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴾ (النحل ٤٨): قال المشايخ: **ظل المؤمن يسجد وهو طائع، وظل الكافر يسجد كرهاً وهو كافر**، فجُعلت للظلال عقول تسجد بها، كما جُعلت للجبال أفهام حتى خاطبت وخوطبت وقيل الجبل عين ويمكن أن يكون له عقل، وأما الظلال فآثار وأعراض ولا يتصوّر لها حياة. وسجود الظلال بمعنى ميلها. يقال سجدت النخلة بمعنى مالت.

٦٤٩ - ظلم...

الظُّلم: هو الجوْر، **والظُّلم** مستحيل على الله تعالى، لأن معنى **الظلم** هو التصرف فى حق الغير بغير حق، أو مجاوزة الحد، وكلاهما محال على الله تعالى، إذ لا ملك ولا حق لأحد معه، بل هو الذى خلق المالكين وأملاكهم وتفضّل عليهم بها، وعهد لهم الحدود، وحرّم وأحل، فلا حاكم يتعقّبه، ولا حق يترتب عليه.

وفى الحديث: **اتقوا الظُّلم فإن الظُّلم ظُلمات يوم القيامة**». وفيه أيضاً: **الظلم ثلاثة، فظلمٌ لا يغفره الله؛ وظلمٌ يغفره الله؛ وظلمٌ لا يتركه. فأما الظلم الذى لا يغفره الله فالشِّرك**، قال تعالى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ (لقمان ١٣). «**وأما الظلم الذى يغفره، فظلم العباد أنفسهم فيما بينهم وبين ربّهم؛ وأما الظلم الذى لا يتركه الله، فظلم العباد بعضهم بعضاً حتى يدين بعضهم من بعض**». رواه الطيالسى والبزار عن أنس.

وفى الحديث أيضاً: «**إياكم والظلم فإنه يخرب قلوبكم**» رواه الديلمى عن علىّ. وقال ﷺ: «**اتقوا دعوة المظلوم**». وقال: «**اتقوا المظالم ما استطعتم**». وقال ربّ العزة: ﴿ لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ﴾ (النساء ١٤٨)، فالظالم تصحّ

وقعة السوء عليه من باب ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ (الشورى ٤٠)؛ وقال تعالى: ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا﴾ (الحج ٣٩)، فالمظلوم منصور ولو بعد حين، ودولة الحق تغلب دولة الباطل، والمظلوم حميد العقبى، والظالم وشيك الانتقام منه، شديد البلوى.

٦٥٠ - ظلمة...

الظُلمة: ذهاب النور، وعند الصوفية: هى العلم بالذات الإلهية، لان العلم بالذات يُعطَى، ولا يُدرَك به شئ، كالبصر حيث يغشاه نور الشمس عند تعلقه بوسط قرصها الذى هو ينبوعه، فإنه حينئذ لا يُدرِك شيئاً من المبصرات، فنحن نعرف الله ولا نعلم به حقيقةً.

وكل ظلمة: عبارة عن عدم النور عمّا شأنه أن ينوّر، والعدم بمثابة ظلمة، ولهذا سمى الكُفر ظلمة لعدم نور الإيمان عن قلب الإنسان الذى من شأنه إنْ وُجد أن يتنوّر به، ويقول الله تعالى: ﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ (البقرة ٢٥٧)، فهو وليّهم، يعنى يتولى أمرهم، ويتفرّد بإصلاح شئونهم، ويخرجهم من الظلمات إلى النور، يعنى يصرف عنهم الكفر والضلال والبدع، فكأنهم عرفوا الله وما علموه. وفى القرآن: ﴿ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾ (النور ٤٠): يعنى أن الظلمة ظلمات؛ وكان دعاء يونس فى الظلمات: ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (الأنبياء ٨٧). ويقال ظلمة الطبيعة، وظلمة القلب، فالطبيعة لها ظلمات، كالليل وعَتَمة أعماق البحر؛ والقلب له ظلمات، وظلماته الكفر، وقد يصيبه الغَمّ ويستقبله الهَمّ.

٦٥١ - ظمئية...

هم الصوفية. والاصطلاح لكعب الأحبار يصف به أهل المحبة فى الله، يتعطّشون لحبه تعالى، فهم دائماً ظمئى إلى هذا الحبّ، يريدون الشُرب حتى الرّىّ ولكن هيهات، وحتى الماء الطبيعى لا يجدونه كالماء المعنوى؛ وأهل الشام يسمونهم «الجوعية»، لأنهم يعوزهم الطعام الطبيعى كما يعوزهم الطعام المعنوى.

* * *

باب العين

* * *

٦٥٢ - عار...

العار هو العيب، وكل ما يُعيَّر به الإنسان من قول أو فعل؛ والعار العظيم: هو نقض العهد بأن تقول ما لا تفعل، أو تعد بما لا تفي. يقول الله تعالى: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ (الصف٣)، ويقول: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (البقرة ٤٤). وفي تجهيلهم بقوله: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ مقتٌ كبير وعار عظيم.

٦٥٣ - عارف...

العارف مَن أشهده الربّ عليه فظهرت الأحوال عن نفسه، والمعرفة حاله. وكان أبو العباس المرسي عارفاً بالله؛ يعني أشهده الله ذاته وأسماءه وصفاته وأفعاله، فالمعرفة حالة تحدث عن شهود؛ بينما القشيري والكلاباذي إلخ علماء بالله، فما حصّلوه عن وجوده تعالى هو علم كالعلوم. وأيضاً: يقال الله تعالى عالم، ولا يقال عارف، لأن ما عنده تعالى هو علم وليس معرفة. هكذا قال الصوفية.

وعلامة العارف ثلاثة: أن لا يطفئ نور معرفته، ولا يعتقد باطناً من العلم ينقض عليه ظاهراً من الحكم، ولا تحمله كثرة نعم الله وكراماته عليه على هتك أستار محارم الله تعالى.

وأولى الدرجات التي يرقاها العارف هي التحيّر، ثم الافتقار، ثم الاتصال، ثم التحيّر. والحيرة الأولى في أفعاله ونعمه عنده، فلا يرى شكره يوازي نعمه. والحيرة الأخيرة: أن يتحيّر في متاهات التوحيد، فيضل فهمه في عظم قدرة الله وهيبته وجلاله. ونهاية العارف تتحقق فقط: إذا كان العارف كما كان حيث كان قبل أن يكون: ومعنى ذلك أن يشاهد الله وأفعاله دون شاهده وأفعاله.

ووقت العارف: تعبر عنه هذه اللطيفة، «لون الماء هو لون الإناء»: يعني أنه لا وقت له، وأنه ابن وقته، وأنه يكون في كل حال بما هو أولى، ومن ثم تختلف أحواله.

وقد سُئل ذو النون عن العارف فقال: كان ها هنا فذهب - يعني: أنك لا تراه في وقتين بحالة واحدة، لأن مُصَرِّفه غيره. والعارف إذا ترك أدبه عند معرفته فقد هلك مع الهالكين، أي تلف ورجع.

والعارفون على ثلاثة أصناف: صنف

منهم ليس لهم من الحق نفس؛ وصنف منهم يحشهم الوجد إلى الحال الذى يتولاهم الحق بالحفظ فيه؛ وصنف منهم غاب عنهم العرف والعادة، واستوى عندهم النطق والصمت وغير ذلك بعناية الحق لهم، فإن سكتوا فللّه، وإن نطقوا فعن الله ينطقون .

وفى رأى آخر أن أقسام العارفين سبعة، تتفرع منها إحدى وعشرون زُمرة: الزمرة الأولى هم أهل التقليد: وهم ثلاثة أصناف: المقلدون لآبائهم، والمقلدون لعلمائهم، والمقلدون لأنبيائهم. ومعرفة كل هؤلاء خبرية.

والزمرة الثانية هم أهل النظر: وهم ثلاثة أصناف: قوم استدلوا بالصنعة على الصانع، وقوم استدلوا بالصانع على الصنعة وهم أشرف وأعسر، وقوم جمعوا بين الدلالتين. ومعرفة كل هؤلاء قياسية.

والزمرة الثالثة هم أهل التنزيه: وينقسمون إلى ثلاثة أصناف: الأولى نزّهوا معروفهم - أى الله تعالى - عن لواحق الأشباح؛ والثانية نزّهوه عن لواحق الأرواح؛ والثالثة نزّهوه تعالى عن لواحق العقول القدسية.

والزمرة الرابعة هم أهل التشبيه: وهم ثلاثة أصناف: الأولى شبّهوه بصفات الجسوم وهم الظاهرية، فحكموا عليه تعالى بما حكموا عليها من اليد والرجل؛ والثانية شبّهوه بالنفوس؛ والثالثة شبّهوه بالعقول.

والزمرة الخامسة هم أهل العجز: وهم ثلاثة أصناف: الأولى عجزوا عن معرفته من غير نظر ولا استبصار؛ والثانية عجزوا عنها بعد بحث ونظر؛ والثالثة عجزوا عن إدراك إدراكهم، وخرجوا إلى النور المحض الذى لا تصور فيه ولا شوب، ولا يخلقه غيره.

والزمرة السادسة هم أهل الاتحاد: وهم ثلاثة أصناف: الأولى الذين قالوا بالاتحاد فى الظواهر؛ والثانية الذين قالوا به فى البواطن؛ والثالثة الذين قالوا بالاتحاد المطلق.

والزمرة السابعة هم أهل التحقيق: وهم ثلاثة أصناف: الأولى جمعوا بين الخبر والنظر؛ والثانية جمعوا بين التشبيه والتنزيه؛ والثالثة جمعوا بين العجز والاتحاد المقدس.

أما دلائل هؤلاء وأولئك: فأهل الخبر دليلهم القرآن والحديث، ومن ذلك: ﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ﴾ (الصافات ٤)، و ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ (الإخلاص ١)، وقوله ﷺ: «وإنى لأعرفكم بالله وأشدُّكم خوفاً منه». وغير ذلك من أخبار عن الله وما يناسبه.

وأهل النظر: أدلتهم كثيرة، منها:

﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ (آل عمران ١٩١)، و: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ (الأعراف ١٨٥).

وأهل التنزيه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ (الشورى ١١)، و﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ (الصافات ١٨).

وأهل التشبيه: دليلهم قوله عليه الصلاة والسلام: «من عرف نفسه عرف ربّه»، وقوله حاكياً عن ربّه: «لم تسعني أرضي ولا سمائي ووسعني قلب عبدي المؤمن»، أي عرفني وقبل صورة معرفتي.

وأهل العجز: دليلهم من الكتاب: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ (آل عمران ٢٨)؛ ومن السُّنة: «تفكروا في آلاء الله ولا تتفكروا في ذات الله، فإن التفكر في ذات الله يقدم الشك في القلب»، وقوله ﷺ: «لا أحصي ثناءً عليك، أنت كما أثنيت على نفسك»، ومن الأثر: العجز عن درك الإدراك إدراك.

وأهل الاتحاد: دليلهم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾ (الفتح ١٠)، ومن السُّنة ما أخبر به عن ربّه في حديث التقرّب بالنوافل.

وأما العارف الحق في هؤلاء جميعاً فهو: من أعطى كل شئ حقه في حضرته المعنية.

والفرق بين المؤمن والعارف: أن المؤمن ينظر بنور الله، والعارف ينظر بالله عزّ وجلّ. وللمؤمن قلب، وليس للعارف قلب. وقلب المؤمن يطمئن بالذكر، ولا يطمئن العارف بسواه.

والفرق بين المعرفة والإيمان: أن المعرفة للعارف موهبة ووجْد، والإيمان نور وعطاء.

وفي الحديث: «من عرف نفسه عرف ربّه»، ولايعرف حقيقة نفسه إلاّ من زكّاها، ولاتحصل تزكيتها إلا بالرياضة القلبية حتى تصفو وترق وتلطف، فإنها حينئذ تبصر ذاتها بشدة صفائها، فإذا صارت كذلك تجلّى لها نور الحق يُشرق على كل ذات صافية تتوجه إلى ربّها، وعندئذ تدرك عالم الجمال، فتتعلق بعشقه فيرقى بها إلى محبة واهب هذا الجمال، وفي الخبر عن واهب الجمال قال: «كنت كنزاً لا أُعرَف فأردت أن أُعرَف، فخلقتُ خلقاً وتحبّبتُ إليهم بالنعَم حتى عرفوني، فبي عرفوني»، فلولا أنه تعرّف إليهم لما عرفوه، فلما وصلوا إليه دلّهم، ولولا أنهم عرفوا أنفسهم أولاً لما عرّفهم بنفسه،

فصحّ أن: معرفة النفس شرطٌ فى معرفة الله.

٦٥٤- عالم...

العالم (بكسر اللام): هو من أطلعه الله على ذاته وصفاته وأسمائه وأفعاله، لا عن شهود بل عن يقين، بعكس العارف: فهو من أشهده الله تعالى ذلك، فالمعرفة حال تحدث عن شهود. وشيوخ الصوفية يطلقون على علوم التعبُّد والحال اسم «المعرفة»، ويطلقون اسم «العلم» على كل ما لا صلة له بالدين، ولا يحمل فى معناه أية صفة روحانية أو تعبُّدية، ومن يعلم العلم فهو العالم، ومن يعرف المعرفة فهو العارف؛ وعند الصوفية إذا أرادوا النقد والاستنكار على أحدهم يسمونه عالماً، والعالم عندهم قائمٌ بعلمه، وأما العارف فقيامه بربّه. إلا الله تعالى فهو العالم والعليم والعلاّم، وسع كل شئ علماً، وعلمه هو العلم المحيط، وهو العليم بما فى القلوب والسرائر.

وكل صوفى عابد عليه أن يتعلم ويعلّم ويُعلّم بقدر وسعه، وفى الحديث عن عائشة عنه ﷺ: «مثل العابد الذى لا يتفقه، كمثل الذى يبنى بالليل ويهدم بالنهار» رواه الديلمى. يعنى على العالم أن لايكون علمه ظاهرياً، أو أن يأخذ قشور العلم دون اللباب، وعنه ﷺ: «إن طالب العلم تبسط له الملائكة أجنحتها وتستغفر له». رواه البزار. يعنى إذا بدأت تنهل من العلم يعينُك الله، يقول: «إن الله تبارك وتعالى أوحى إلىّ أنه من سلك مسلكاً فى طلب العلم، سَهلتُ له طريق الجنة»، ويقول: «فضلٌ فى علم خيرٌ من فضل فى عبادة» رواه البيهقى. ويقول: «من انتقل ليتعلم علماً غُفر له قبل أن يخطو» رواه الشيرازى. وفى مزايا العلم يقول: «كفى من العلم الخشية» رواه أبو نعيم، ويقول: «اغدوا - أى بكّروا - فى طلب العلم» رواه الطبرانى. والذين يؤتون العلم، لكلٌ مبلغه من العلم، وفوق كل ذى علم عليم، والله تعالى يرفع الذين أوتوا العلم درجات، ويخشى الله من عباده العلماء.

ويقارن ﷺ بين المتّقين وبين العلماء فيقول: «المتّقون سادة، والعلماء والفقهاء قادة، أخذ عليهم أداء مواثيق، والجلوس إليهم بركة، والنظر إليهم نور» رواه الخطيب.

ويقول ﷺ فى المُعلّم: «معلم الخير يستغفر له كل شىء». رواه البزار والطبرانى. ويقول فى موت العالم: «موت العالم ثُلمة فى الإسلام لا تُسَدّ» رواه البزار. والثلمة هى الشرخ أو الكسر.

ويقول: «إن الله لا ينتزع العلم من الناس انتزاعاً، لكن يقبض العلماء، فيُرفع العلم معهم، ويبقى في الناس رءوساً جهّالاً يفتونهم بغير علم فيَضلون ويُضلون» رواه البخاري. والإسراع إلى العلم أحرى بأهل التقى، يقول ﷺ: «خذوا العلم قبل أن يُقبض أو يرفع». وقال: «ألا إن ذهاب العلم ذهاب حَمَلَته». وكان عمر بن عبد العزيز يطالب أهل العلم أن يكتبوا علمهم ويقول: فإني خفت دروس العلم - أي انقضاءه - وذهاب العلماء». ويقول: ولتفشوا العلم، ولتجلسوا حتى يعلم من لا يعلم، فإن العلم لا يهلك إلا أن يكون سراً». - وعنه ﷺ: «إن الله تبارك وتعالى لا ينزع العلم من الناس انتزاعاً بعد أن يؤتيهم إياه، ولكن يذهب بالعلماء، فكلما ذهب عالمٌ ذهب بما معه من العلم» رواه البزار. وقال: «إن من أشراط الساعة أن يُرفع العلم ويثبت الجهل» رواه البخاري.

وقَبْض العلماء هو منعهم من نشر العلم وحقائقه، سواء بالموت أو الاضطهاد والحظر والسجن، ففي عصر النهضة كان العلماء في أوروبا يودعون السجون، وأودع ابن تيمية السجن، وسُجن وضُرب ابن حنبل وأبو حنيفة.

والعلماء هم كل أصحاب العلم على تنوع العلوم والفنون والصنائع. والصوفي الحق - إن كان صانعاً - عَلِمَ في صنعته وعلّمها، وإن كان فناناً عَلِمَ في فنه وعلّمه. وكان التفتازاني وأبو ريدة من أهل العلم الكبار، ولهما التلاميذ، وكانا من الأتقياء وأصحاب التصوّف، والعلم صنو التقوى، والتقوى لا تكون إلا عن علم.

وما أكثر الذين أودعوا السجن من العلماء الأتقياء، وما أكثر من قضى منهم بالإعدام، وحُرّقت كتبهم، وصودرت أوراقهم، وعندئذ يُمكّن للجهل فيفشو الفساد، وتضطرب الأحوال، وتندلع الفتن والحروب، ولا يتبقى إلا جُهّال يشتغلون بالسياسة، ويحكمون، ويُستفتون فيفتون بضلالاتهم وأهوائهم وعمالتهم فيضلون ويضللون. ألا ترون أن ذلك هو الحادث الآن؟

٦٥٥ - عالم...

العالَم (بفتح اللام) عند أهل العلم هو كل مخلوقات الله، وقيل يوجد ثمانية عشر ألف أو خمسون ألف عالَم؛ وعند الفلاسفة يوجد عالَمان: عالَم علوي وعالَم سفلي؛ وعند علماء الأصول العالَم: كل ما بين عرش الرحمن والأرض؛ والصوفية يقصدون بالعالَم عالَم الأرواح أو عالَم النفوس. نقول: عالَم الجبروت: وهو عالَم الأسماء

والصفات الإلهية؛ **وعالَم الأمر**: وهو ما وُجد عن الحق بغير سبب، ويطلق بإزاء الملكوت؛ **وعالَم الخلق**: وهو ما وُجد عن السبب، ويطلق بإزاء **عالمَ الشهادة**؛ **والعالَم الدنياوي**: وهو الذى ينظر إليه الحق سبحانه بواسطة الإنسان، ويسمى **شهادة وجودية**. وكل **عالَم ينظر إليه من غير واسطة الإنسان فهو غيب**. **وعالَم القُدس**: عبارة عن المعانى الإلهية المقدسة عن الأحكام الخلقية والنقائص الكونية، وقيل هو **عالَم أسماء الحقّ وصفاته**. **والعالَم الكبير**: هو ما فوق السماوات. **والعالَم الصغير**: هو ما تحتها؛ وقيل **العالَم الكبير** هو ملكوت السموات، **والعالم الصغير** هو ملكوت الأرض؛ وقيل **الكبير** هو القلب، **والصغير** هو النَّفْس؛ وقيل **الكبير** هو السماوات والأرض، والصغير هو الإنسان

٦٥٦- عالون...

مِن عَلا عُلواً بمعنى ارتفع وظهر، فهو عالٍ والجمع عالون: وهم الملائكة المخلّوقون من النور الإلهى وهذا هو عُلوهم، وهم المأمورون بالسجود لآدم .

٦٥٧- عامة...

العامة من المؤمنين: هم من أوجب الله عليهم الوفاء إذا عهدوا بألسنتهم عهداً، ويقابلهم **الخاصة**: وهم من أوجب الله عليهم الوفاء إذا عقدوا بقلوبهم عقداً.

والعامة اقتصروا فى علمهم على الشريعة، ويسمون **علماء الرسوم**.

٦٥٨- عوام الخلق...

هم الذين سلمت صدورهم، وحَسُنت أعمالهم ، وطَهُرت ألسنتهم، فإذا خلوا من هذا فهم **الغوغاء** لا العوام.

والعامة: إذا فسدت غلَبت الفسّاق على أهل الصلاح، وولاة الجَوْر على ولاة العدل، والكفّار على المسلمين.

والعامة تقابلها الخاصة: وهم الذين فقهت قلوبهم، وحسُنت أخلاقهم، وكانوا أئمة يدعون الناس إلى الخير والعمل به، وسالموا السلطان على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وسالموا العلماء على صدق الخبر.

والعامة على ظاهر الأمور، فإذا خلَوا من ذلك فهم المُفْتَرون. وإذا فسدت الخاصة غلبت الكذبة على الصادقين، وغلب الموسوسون على المخلصين.

٦٥٩- عبادة...

هى نهاية التعظيم ولا تليق إلا فى شأنه تعالى، إذ نهاية التعظيم لا تليق إلا بمن يصدر عنه **نهاية الإنعام**. و**نهاية**

الإنعام» لا تتصور إلا من الله تعالى. وهى على ثلاث مراتب: فمن الناس من يعبد الله لرجاء الثواب وخوف العقاب، وهذه هى العبادة المشهورة، وبها يعبد عامة المؤمنين؛ ومنهم من يعبده لينال بعبادته شرف الانتساب بأن يسميه الله باسم «العبد»، وهذه يسميها بعضهم «العبودية»؛ و«العبادة»: لعوام المؤمنين، والعبودية: لخواصهم، والعبودة: لخاصة الخاصة الذين شهدوا نفوسهم قائمة به فى عبوديته، فهم يعبدونه به فى مقام أحدية الفرق والجمع.

٦٦٠- عبادلة...

هم أرباب التجليات الأسمائية إذا تحققوا بحقيقة اسم من أسمائه تعالى، واتصفوا بالصفة التى هى حقيقة ذلك الاسم، وينسبون إليه تعالى بالعبودية، لشهودهم ربوبية ذلك الاسم، وعبوديتهم للحق من حيث ربوبيته لهم بكمال ذلك الاسم خاصة، فيقال لأحدهم عبد الرزّاق، وللآخر عبد المُنعم، وكذا عبد العزيز، وغيره.

فمثلاً عبد الله: هو العبد الذى تجلّى له الحق بجمع أسمائه، فلا يكون فى عباده أرفع منه مقاما وشأناً، لتحققه باسمه الأعظم واتصافه بجميع صفاته، ولهذا خُصّ به نبيّنا فى قوله تعالى: ﴿لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ﴾ (الجن ١٩).

وعبد الرحمن: مظهر للاسم الرحمن، فهو رحمة للعالمين جميعاً.

وعبد الرحيم: مظهر للاسم الرحيم، وهو الذى تختص رحمته بمن اتقى وأصلح ورضى الله عنه.

وعبد الملك: هو الذى يملك نفسه وغيره بالتصرف فيه بما شاء الله تعالى وأمره به، فهو أشد خلق الله على خليفته.

وعبد القدوس: هو الذى قدّسه الله عن الاحتجاب، فلا يسع قلبه غير الله: «ويسعنى قلب عبدى المؤمن».

وعبد السلام: هو الذى تجلّى له الله باسم السلام، فسلمه عن كل نقص.

وعبد المؤمن: هو الذى أمنه الله عن العقاب والبلاء، وأمنه الناس على ذواتهم وأعراضهم وأموالهم.

وعبد المهيمن: هو الذى يشاهد كون الحق رقيباً شهيداً على كل شئ، فيرقب نفسه وغيره بإبقاء حق كل ذى حق عليه، لكونه مظهراً لاسم المهيمن.

وعبد العزيز: هو الذى أعزّه الله بتجلّى عزته فلا يغلبه شئ وهو يغلب كل شئ.

وعبد الجبار: هو الذى يجبر كسر كل شئ ونقصه، لأن الحقّ جبر حاله وجعله بتجلى هذا الاسم جابراً لأحوال كل شئ مستعلياً عليه.

وعبد الخالق: هو الذى يقدر على الأشياء على وفق مراد الحق لتجلّيه له بوصف الخلق والتقدير، فلا يقدر إلا بتقديره تعالى.

وعبد البارى: وهو قريب من عبد الخالق، وهو الذى تبرّأ عمله من التفاوت والاختلاف فلا يفعل إلا ما يناسب حضرة البارى متعادلاً متناسباً بريئاً من التنافر.

وعبد الغفّار: هو الذى غفر جناية كل من يجنى عليه، وستر عن غيره ما أحب أن يستر منه، لأن الله تعالى ستر ذنوبه وغفر له بتجلى غفاريته، فيعامل عباده بما عامله به.

وعبد الوهّاب: هو من تجلى له الحق باسم الوهّاب، فيهب ما ينبغى لمن ينبغى على الوجه الذى ينبغى بلا عوض ولا غرض.

وكذلك الاسم عبد الجواد من اسمه تعالى الجواد، يجود بما ينبغى بلا مقابل.

وعبد الرزّاق: هو الذى وسع الله رزقه فيؤثر به عباده، لأن الله تعالى جعل فى قدمه السعة والبركه فلا يأتى إلا حيث يبارك فيه ويفيض الخير به.

وكذلك الاسم عبد المنعم، وعبد الفتاح: وهما اللذان أعطاهما الله علم أسرار النِّعم ومفاتيحها على اختلاف أنواعها، وأرسل بهما فتوحات الخير وأبواب الرحمة.

وعبد العليم: هو الذى علّمه الله العلم الكشفى من لدنه بلا تعمّل ولا تفكّر، بل بمجرد الصفاء الفطرى.

وعبد الباسط: من بسطه الله تعالى فى خلقه فيرسل عليهم بإذنه من نفسه وماله ما يفرحون وينبسطون به موافقاً لأمره تعالى، لأنه ينبسط بتجلى اسمه الباسط.

وعبد المعز: مَن تجلّى الحق له باسمه المعز، فيعز من أعزّه الله بعزّته من عباده.

وعبد السميع: من تجلى الله تعالى فيه بهذا الاسم فاتصف بسمع الحق.

وكذا الاسم عبد البصير: فيتصف ببصره، كما قال الله تعالى: كنت سمعه الذى به يسمع، وبصره الذى به يبصر .. فيسمع عبد السميع، ويبصر عبد البصير، يسمعان ويبصران الأشياء بسمع الحق وبصره.

وعبد الحكم: هو الذى يحكم بحكم الله على عباده.

وعبد العدل: هو الذى يعدل بين الناس

بالحق لأنه مظهر عدله تعالى، وليس العدل هو التساوى بل توفية حقّ كل ذى حق.

وعبد اللطيف: من يلطف بعباده لكونه بصيراً بمواقع اللطف للطف إدراكه، فيكون مطّلعاً على البواطن وواسطة لطف الحق بعباده، وهم لا يشعرون به للطفه بتجلى اسم اللطيف فيه.

وعبد الخبير: هو الذى أطلعه الله على علمه بأوجه الخير قبل كونها وبعده.

وعبد الحليم: هو الذى لا يعاجل من يجنى عليه بالعقوبة ويحلم عنه ويتحمل أذية من يؤذيه.

وعبد العظيم: هو الذى تجلّى له الحق بعظمته، فيتذلل له غاية التذلل أداءً لحق عظمته، فيعظمه الله فى أعين عباده ويرفع ذكره بين الناس.

وعبد الغفور: وهو أبلغ فى ستر الجناية وغفرانها من عبد الغفار، فهو دائم الغفران بينما عبد الغفار كثير الغفران.

وعبد الشكور: هو الدائم الشكر لربّه لأنه لا يرى النعمة إلا منه، ولا يجد منه إلا النعمة، وإن كانت فى صورة البلاء والنقمة.

وعبد العلىّ: مَن علا قدره على أقرانه وارتفعت همته فى طلب المعالى.

وعبد الحفيظ: هو الذى حفظه الله فى أفعاله وأقواله وأحواله وخواطره وظواهره وبواطنه عن كل سوء، فتجلى فيه باسمه الحفيظ حتى سرى الحفظ منه إلى جلسائه.

وعبد الحسيب: من جعله الله حسيباً لنفسه حتى فى أنفاسه.

وعبد الجليل: من أجلّه الله تعالى حتى هابه كل من رآه لجلالة قدره.

وعبد الكريم: هو الذى أشهده الله وجه اسمه الكريم، فتجلى له بكرمه، وتحقق بحقيقة العبودية بمقتضاه، فإن الكرم يقتضى معرفة قدره وعدم التعدّى عن طوره، فلا يرى ذنباً من أحد إلا ويستره بكرمه، ولا يجنى عليه أحد إلا ويعفو عنه ويقابله بأكرم الخصال.

وعبد المجيب: هو الذى أجاب دعوة الحق حين يسمع قوله: ﴿أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ﴾ (الأحقاف ٣١)، فأجاب الله دعوته حتى تجلى له باسمه المجيب، فيجيب كل من دعاه من عباده إلى حاجة.

وعبد الواسع: هو الذى وسّع كل شئ فضلاً وطولاً، ولا يسعه شئ لإحاطته بجميع المراتب، فلا يرى مستحقاً إلا أعطاه من فضله.

وعبد الحكيم: هو الذى بصّره الله

بمواقع الحكمة في الأشياء، ووفقه للسداد في القول والصواب في العمل، فلا يرى خللاً في شئ إلا يسدده، ولا فساداً إلا يصلحه.

وعبد الودود: من كملت مودته لله ولأوليائه فأحبه الله تعالى وألقى محبته على جميع خلقه.

وعبد المجيد: مَن مجّده الله بين الناس بكمال الأخلاق والصفات فيمجّده الناس لفضله.

وعبد الشهيد: هو الذى يشهد الحق شهيداً على كل شئ فيشهده في نفسه وفي غيره ممن خلقه.

وعبد الحق: هو الذى تجلى له الحق، فعصمه في أفعاله وأقواله وأحواله عن الباطل.

وعبد الوكيل: من يرى الحق في صور الأسباب، فاعلاً لجميع الأفعال، فيعطّل الأسباب، ويكل الأمور إلى من توكلها منه ويرضى به وكيلاً.

وعبد القوى: هو الذى تقوّى بقوة الله على قهر الشيطان وجنوده التى هى قُوَى نفسه من الغضب والشهوة والهوى، ولا يناوئه أحد من خلق الله إلا قهره.

وعبد المولى: من يتولاه الله من الصالحين والمؤمنين فإنه تعالى يقول: ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ (الأعراف: ١٩٦)، وكذلك: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ (البقرة ٢٥٧).

وعبد الحميد: هو الذى تولى له الحق بأوصافه الحميدة فيحمده الناس وهو لا يحمد إلا الله.

وعبد الحىّ: من تجلى له الحق بحياته السرمدية فحىّ بحياته الديمومية.

وعبد القيوم: هو الذى شاهد قيام الأشياء بالحق، فتجلت قيوميته له، فصار قائماً بمصالح الخلق، قيّماً بالله، مقيماً لأوامر الله تعالى في خلقه، مُمِداً لهم فيما يقومون به من معايشهم ومصالحهم وحياتهم.

وعبد الماجد: هو الذى شرّفه الله بأوصاف، وأعطاه ما استطاعه، وأطاق تحمله من مجد.

وعبد الواحد: هو الذى أبلغه الله الحضرة الواحدية، وكشف له عن أحدية جميع أسمائه الحسنى.

وعبد الأحد: هو وحيد الوقت صاحب الزمان الذى له القطبية الكبرى والقيام بالأحدية الأولى.

وعبد الصمد: هو مظهر الصمدية، الذى يصمد لرفع البليات وإيصال إمداد الخيرات.

وعبد القادر: هو الذى شاهد قدرة الله فى جميع المقدورات، بتجلى الاسم القادر، فهو صورة اليد الإلهى الذى به يبطش ويمدّ، ويرى نفسه معدوماً بذاته مؤثراً بقدرة الله فى الأشياء.

وعبد الظاهر: هو الذى ظهر بالطاعات والخيرات حتى كشف الله له عن اسمه الظاهر، فعرفه واتصف بظاهريته، فيدعو الناس إلى الكمالات الظاهرة.

وعبد المتعالى: هو المتعالى المبالغ فى العلو، وهو من لا يقف بكل كمال وعلو، بل يطلب بهمته الأعلى منه، لأنه شهد العلو الحقيقى المطلق المقدس، فلا يزال يطلب العلو فى جميع الكمالات.

وعبد البَرّ: من اتصف بجميع أنواع البرّ، معنىً وصورة.

وعبد التوّاب: هو الرجّاع إلى الله دائماً عن نفسه وعن جميع ما سوى الحق، وقَبِل توبة كل من تاب إلى الله تعالى عن جريمته.

وعبد الرءوف: من جعله الله مظهر الرأفة والرحمة، فهو أرأف خلق الله بالناس إلا فى الحدود الشرعية.

وعبد الغنى: هو الذى أغناه الله بلسان تحققه بفقره الذاتى وافتقاره إليه.

وعبد المغنى: هو الذى جعله الله بعد كمال الغنى مغنياً للخلق، بإنجاح حوائجهم وسدّ خللهم، بما يمدّه الله تعالى به من غناه بتجلى اسم المغنى فيه.

وعبد النور: هو الذى تجلى له باسمه النور، فيكون نوراً يهتدى به الخلق. يقول ﷺ: اللهم اجعل لى نوراً.

وعبد الهادى: جعله الله هادياً لخلق الله، ناطقاً عن الحق بالصدق.

وعبد البديع: هو الذى شهد كونه بديعاً فى ذاته وصفاته وأفعاله، وجعله الله مظهراً لهذا الاسم فيبدع ما عجز عنه غيره به.

وعبد الباقى: من أشهده الله بقاءه، وجعله باقياً ببقائه عند فناء الكل.

وعبد الوارث: مظهر هذا الاسم، وهو من لوازم عبد الباقى، لأنه إذا كان باقياً ببقاء الحق بعد فنائه عن نفسه، لزم أن يرث ما يرثه الحق من الكل بعد فنائهم من العلم والملك، فهو يرث الأنبياء علومهم ومعارفهم وهدايتهم لدخولهم فى الكل.

وعبد الرشيد: من أتاه الله رشده بتجلى هذا الاسم فيه، كما قال لإبراهيم عليه السلام: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ﴾ (الأنبياء ٥١)، ثم أقامه لإرشاد الخلق إليه

وإلى مصالحهم الدنيوية والأخروية فى المعاش والمعاد.

وعبد الصبور: هو المثبَّت فى الأمور بتجلى هذا الاسم فيه، فلا يعاجل ولا يستعجل ويصبر.

وعباد الرحمن فى الآية: ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا﴾ (الفرقان٦٣) هم هؤلاء جميعاً الذين ينتسبون لله، فكانوا أهل الله، ونسبهم لاسمه الرحمن، لصفاتهم العالية، وسماتهم الغالية، وهم الصوفية، أضافهم إلى عبوديته تشريفاً لهم، ووصفهم باثنتى عشرة صفة، فمشيهم هوناً وتحيتهم سلام، وليلهم قيام، وقولهم دعاء، وذكرهم توحيد، وانفاقهم قوام، لا يقتلون، ولا يزنون، ولا يشهدون الزور، ولا يغلون، وإنا تُليت عليهم آيات الله وجلت قلوبهم، فيخرّون سجداً وبُكياً. وكان الرعيل الأول من الصوفية، من أصحاب محمد ﷺ، لا يأكلون طعاماً للتنعُّم واللذة، ولا يلبسون ثياباً للجمال، وإنما يأكلون ما يسدّ عنهم الجوع ويقوّيهم على عبادة ربّهم، ويلبسون من اللباس ما يستر عوراتهم، ويكنّهم من الحرّ والبرد، فصحّ تشريفهم بأنهم عباد الرحم، باختصاصهم بإضافتهم إليه، فكان ابن عمر يخاطب الصالحين حوله يقول لهم: **إنكم أيها الرهط أئمة يُقتدى بكم.**

٦٦١- عَبْدٌ...

هو الذى تحرر قلبه من جميع ما سوى الله، وعندئذ يكون فى الحقيقة عبداً لله، وما سمى الله تعالى المؤمنين باسم أحسن من العبد فقال: ﴿ وَاذْكُرْ عَبَادَنَا﴾ (ص ٤٥)، وقال: ﴿ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا﴾ (ص ١٧)، وقال: ﴿ نِعْمَ الْعَبْدُ﴾ (ص ٣٠). وكان رسول الله يصلى حتى تتورم قدماه فيسألونه: ألم يغفر الله لك ما تقدّم وتأخّر من ذنبك؟ فيقول: **أفلا أكون عبداً شكوراً؟!** وقال: **إنه خُيِّر بين أن يكون نبياً مَلِكاً ونبياً عبداً، فاستشار جبريل عليه السلام، فأشار عليه بأن يتواضع ويختار «النبيّ العبد»**، ولو كانت هناك درجة أعلى من العبودية لما تردد جبريل وأشار بها على النبيّ ﷺ، ولما بخل الله تعالى بها عليه، **فالعبودية لله أعلى درجات الكمال. والصوفية من عباد الله.**

٦٦٢- عبرة...

ما يُعتبَر به من ظواهر أحوال الناس فى الخير والشر، وما جرى عليهم فى الدنيا، وما يئول إليه أمرهم فى الآخرة.

ويقول النبيّ ﷺ: «**أُمرت أن يكون**

نطقي ذكراً، وصمتي فكراً، ونظري عبرة». ويدخل في العبرة، العبور من رؤية الحكمة في ظواهر الخليقة إلى رؤية الحكيم، ومن ظواهر الوجود إلى بواطنه حتى يرى الحق وصفاته في كل شئ.

٦٦٣- عبودة...

هي العبادة له تعالى إجلالاً وهيبة، وحياءً منه ومحبةً له، وهي أعلى من العبودية التي هي أعلى من العبادة، فالعبادة محلها البدن، وهي إقامة الأمر؛ والعبودية محلها السرّ.

وكان أبو بكر الصديق يعبد الله إجلالاً وتعظيماً، وفي ذلك يقول الرسول ﷺ: لم يفضلكم أبو بكر بكثرة صيام ولا صلاة، وإنما فضلكم بشئ وقر في صدره، وذلك الشئ هو تعظيمه وإجلاله لله تعالى.- يعني كان يعبده بالتعظيم والإجلال، ولذلك كان عظيمًا جليلاً، وكان عمر يعبده خوفاً وهيبة، ولذلك كان مهيباً، ومن خاف الله خاف منه كل شئ. وكان عثمان يعبده حياءً، وقال فيه الرسول إن الملائكة لتستحي من عثمان، وكان عليّ يعبده محبة، وفيه قال الله تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا﴾ (الإنسان ٨). وهكذا حال الصوفية.

٦٦٤- عبودية...

العبادة لعوام المؤمنين، والعبودية لخواصهم: وهي أن ترضى بما يفعل ربّك.

وللعبودية أربعة مظاهر: الوفاء بالعهود، والرضاء بالموعود، والحفظ للحدود، والصبر على المفقود.

وقيل: للعبودية ثلاثة مظاهر: منع النفس عن هواها، وزجرها عن مناها، والطاعة في أمر مولاها.

وقيل: نهاية العبودية: الحرية، وإنما غلطت تلك الفرقة التي توهمت أن العبد ما دام بينه وبين الله تعالى تعبُّد، فحاله مسمى باسم العبودية، فإذا وصل إلى الله فقد صار حرّاً، وإذا صار حراً فقد سقطت عنه العبودية. وخفي على هذه الفرقة أن العبد لا يكون في الحقيقة عبداً حتى يكون قلبه حراً من جميع ما سوى الله عزّ وجلّ، فعندئذ يكون في الحقيقة عبداً لله. يعني أن حريته تكون في عبوديته له تعالى، ومن كانت عبوديته لله انمحت عبوديته للخلق. وهكذا حال الصوفية.

٦٦٥- عُجْب...

هو أن تنظر إلى نفسك وعملك، يعني أن تعظّم نفسك، وقد رُوي أن ثلاثاً مهلكات: شُحّ مطاع، وهَوىً متّبع، وإعجاب المرء بنفسه. وليس هكذا الصوفية.

والعُجب في الدين: هو أن تستعظم

عـملك أو علـمك أو رأيك. **والإدلال:** معنى زائد فى **العُجب**، وهو أن تُعجب بعـملك أو علمـك وترى أن لك عند الله قدراً عظيـماً قد استحقـقت به الثواب لما بذلت من رأى أو ما أتيت من عمل.

والعُجب قد يكون بالنفس، وقد يكون بالمال، أوبالحسب، أوبالكثرة من الولد والعشيرة والأصحاب، وقد يكون بالجمال، أوبالجسم، أوبالعقل أوالذهن أوالفطنة .

٦٦٦- عدالة...

هى الانزجار عن المحظورات الدينية، وهى متفاوتة، وأقصاها أن يستقيم كما أُمر: ﴿وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ (الشورى ١٥)، **والاستقامة هى** روح العدالة، أمر الله بها الكل من الخلق، وأفرد الإنسان المؤمن بالتزامها. وهو التزام الصوفية.

٦٦٧- عدل...

العدل هو ما هو صواب وحسن، وهو نقيض الجور والظلم، يقول تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ﴾ (النحل ٩٠)، ويقول: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ (النساء ٥٨). واالصوفية عادلون مع أنفسهم، ومع الناس، ومع ربّهم. ومن العدل إقامة العدالة الاجتماعية، والله لم يأمر الإنسان أن **يعدل فقط** فيما بينه وبين نفسه، وفيما بينه وبين ربّه، ولكنه أمره أيضاً **بالعدل** فيما بينه وبين الناس، وفيما بين الناس وبعضهم البعض، وفيما بين الحكومات والناس، ببذل النصيحة والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وأن يكون الناس **سواء أمام القانون**، وأن تكون لهم نفس الفرص، **وأن تُوَزَّع الثروة القومية بينهم بالعدل**، وكذلك **الالتزامات. والعدل** بين **العوام**: هو بذل الإنصاف، وبين **الخواص**: هو ترك الانتصاف، وإسداء الإنعام. وقيل: **العدل** تنزيه البارى تعالى وجماعة المؤمنين عن فعل القبيح والإخلال بالواجب .

٦٦٨- علم...

كان الإنسان بعد أن لم يكن، وسيفنى بعد أن كان ، فهو من كلا طرفيه عدم، وهو نفسه، ومعنى ذلك أن الكائنات لا تثبت لها رتبة الوجود المطلق ،لأن الوجود الحق إنما هو لله وله الأحدية فيه، ومن كان وجوده من غيره فالعدم وصفه فى نفسه.

والصوفى: من يرى الخَلْق، لا موجودين، ولا معدومين، وإنما كما هم بحسب ما هم فى علم ربّ العالمين .

٦٦٩- عرافة...

هى عمل العَرّاف، قال ﷺ: من أتى

عرّافاً فسأله عن شيء، لم تُقبَل له صلاة أربعين ليلة؛ ومع ذلك فالكثير من الصوفية كانوا يمارسون العرافة من غير أجر، كالحلاّج، وابن عربي، وابن سبعين؛ والعرّاف هو الحازر والمنجّم الذى يدّعى علم الغيب، ويستدل على الأمور بأسباب ومقدّمات يدّعى معرفتها. وقد يعتضد بعض الصوفية من أهل العرافة فى ذلك بالزّجر والطَّرْق، والنجوم، ويقولون هى فن وليست علماً، وهو نفسه فن العياقة، وجميع ذلك يُطلَق عليه اسم الكهانه، وأصحاب الطرق الصوفية كثيراً ما يتكهنون، وكان إبراهيم الدسوقى يتكهّن، وأحمد البدوى، وابن مشيش، وابن مَسرّة. والكهانة ادعاء علم الغيب.

٦٧٠- عرش...

عند الصوفية، هو مظهر العظمة ومكانة التجلّى وخصوصية الذات، ويسمى جسم الحضرة ومكانها، لكنه المكان المنزّه من الجهات الست. وهو فلك يحيط بجميع الأفلاك المعنوية والصورية، وله باطن وظاهر، فباطنه عالم القدس، وهو عالم أسماء الحق سبحانه وصفاته، فمتى قيل العرش مطلقاً فالمراد به هذا الفلك المذكور، ومتى قُيّد شئ من الصفات فالمراد به ذلك الوجه من الفلك، كقوله «العرش المجيد» فإنه المراد به من عالم القدس المرتبة الرحمانية التى هى منشأ المجد، وكذلك «العرش العظيم» فإن المراد به الحقائق الذاتية والمقتضيات النفسانية التى مكانتها العظمة.

وقيل «العرش الأكبر» هو قلب الإنسان الكامل.

٦٧١- عُرفاء...

اصطلاح صوفى، والعُرفاء من الصوفية: هم حملة القرآن، وهم عرفاء أهل الجنة، والمفرد، عريف، ورتبته أقل من رتبة النقيب، وأعلى المراتب للنقيب - وهو شيخ الطريقة: والأمين عليها.

٦٧٢- عرفات...

عند الصوفية: عبارة عن مقام المعرفة بالله.

٦٧٣- عزّ...

لا يستقل بالعزّ من دون الله شئ، ولا يصلح العزّ من دون الله لشئ، والله هو العزيز الذى لا يُستطاع مجاورته، ولا تُرام مداومته. ولو أبدى الله لغة العزّ لخُطِفَت الأفهام. ولو نطق ناطق العزّ لصمتت نواطق كل وصف.

وقيل: أولياء الله الواقفون بين يديه ثلاثة: فواقف بعبادة يتعرّف عليه بالكرم؛

وواقف بعلم يتعرّف عليه بالعزّة، وواقف بمعرفة يتعرّف عليه بالغلبة.

وقيل الكرم ينطق بالوعد الجميل، والعزة تنطق بإثبات القدرة، والغلبة تنطق بلسان القرب.

٦٧٤- عزلة...

لابد للمريد فى ابتداء حاله من العزلة، ولا يُقصَد بها اعتزاله عن الخلق لسلامة الناس من شرّه أو سلامته من شرّهم، وإنما هى فى الحقيقة اعتزال الخصال المذمومة. والتأثير الذى تستحدثه العزلة هو تبديل الصفات وليس التنائى عن الأوطان.

ويقول الجنيد: من أراد أن يَسْلَم له دينه، ويستريح بَدَنُه وقلبه، فليعتزل الناس، فإن هذا زمان وحْشة، والعاقل من اختار فيه الوحدة. (أنظر الخلوة). ومن ذلك عزلة أهل الكهف فى قوله تعالى: ﴿وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلاَّ اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا﴾ (الكهف ١٦).

٦٧٥- عسل النحل...

من الأدوية التى يَستشفى بها الصوفية، لقوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ﴾ (النحل ٦٩). والنحل سُمّى نحلاً لأنه ينحل العسل الذى يخرج منه، وفى الحديث: «الذُّباب كلها فى النار، يجعلها الله تعالى عذاباً لأهل النار إلا النحل». والذُّباب عند العرب: يطلق على الذباب المعروف والزنابير والنحل والبعوض والنبىّ ﷺ نهى عن قتل الذّباب الذى هو النَّحل ومن عجيب ما خلق الله فى النحل أن ألهمها اتخاذ بيوتها مسدسة لتكون مخازن للعسل والبيض. وتختلف ألوان عسل النحل بحسب ما يغتذى عليه النحل من الزهور، وهو يخرج من أفواه النحل. ومن عجائب ما نبّه إليه أهل الله: أن أشرف لباس ابن آدم، فيه لُعاب دودة القَزّ، وأشرف شرابه من رجيع النحل!

وشَطَح بعض الصوفية فقالوا: الذى فيه شفاء للناس هو القرآن، غير أن الآية عن العسل، ويراد بها أهل البيت، فهم النحل؛ وأمّا الشراب فهو القرآن والحكمة - أى السُّنّة. وأىُّ صوفى - إذا اشتكى قرحة أو شيئاً - جعل عليه عسلاً، حتى الدمامل يَطْليها بالعسل؛ وكان الصوفى الكبير ابن عربى يكتحل بالعسل، ويستمشى بالعسل، ويتداوى بالعسل. ووَعَك الجُنَيْد فأمر بالماء، فإن الله تعالى قال: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا﴾ (ق ٩)؛ وبالعسل،

فإن الله تعالى قال: ﴿فيه شفاءٌ للناس﴾ (النحل٦٩)؛ وبالزيت، فإن الله تعالى قال: ﴿من شجرة مُبارَكة زيتونة﴾ (نور٣٥، ٣٦)، فجاءوه بذلك، فخلطه ثم شربه، فبرىء. وكانت عائشة تخلط العسل بالخلّ وتطبخه للنبيّ ﷺ، وهو الذى أمر الذى يشتكى بطنه أن يشرب العسل، فلما أخبره أخوه بأنه لم يزده إلا استطلاقاً، أمره بعوْد الشراب فبرىء، فقال: صَدَق الله وكذب بطن أخيك». والعسل إذن دواء وشفاء على الخصوص، ولا يقتضى العموم فى كل العلل، ولكنه يشفى بعضها، وعلى حال دون حال، كما يشفى غيره من الأدوية. والصوفية اتّخذوه دواء لما كثر الشفاء به، وصيّروه خليطاً ومُعيناً للأدوية فى الأشربة والمعاجين، غير أن طائفة منهم من أهل الصدق والعزم، يستشفون به من كل الأوجاع والأمراض، ويشفون من عللهم ببركة القرآن، وبصحة التّصديق والإيقان. وأمّا من تضعف نيّته وتغلب عادته، فإنه يأخذه مفهوماً على قوى الأطباء، وكانت هذه عادة الدكتور التفتازانى نقيب الصوفية رحمه الله، الشفاء بالعسل على العموم من حِكَم الفعّال لما يشاء.

٦٧٦ - عشق...

المقصود به العشق الإلهى، والبعض يقول إن العشق فى جانب الله جائز ولكنه لا يصدر من الله، فالإنسان له أن يعشق الله، ولا ينطبق هذا الاصطلاح عليه سبحانه، فالعشق لا يتحقق إلا بالإدراك، وذات الله لا تُدرك؛ والمحبة قد تحدث بالسماع، وإنما العشق لا يحدث إلا بالمشاهدة، وعلى ذلك لا ينطبق على الله. والعشق ليس له ضد، كما أن الله ليس له ضد حتى يجوز عليه العشق. ثم إن العشق أقصى درجات المحبة، وسائر مقاماتها كلها مندرجة فيه، ومعناه اتحاد ذات المحبوب بذات المحب، اتحاداً يوجب غفلة المحب، شُغلاً بشهود محبوبه فى ذاته بذاته، وفيه قال ابن عربى:

أدين بدين الحبّ أنّى توجهّت

ركائبه فالحب دينى وإيمانى

ومثله قول نوربخش:

منذ اليوم الذى استجليت فيه طلعة حبيبى

غدوتُ متميزاً من الخلائق أجمعين

فقد صرت مبرأ من العقيدة والمذهب

والملّة كليةً، وأصبحتُ ولى دينٌ لى

ولذا قيل: إن العشق أقصى مقامات الذهول والغيبة، وأولى هذه المقامات: الغرام: وهو الانتشاء من خمر المحبة؛ ثم الافتتان: وهو خلع العذار وعدم المبالاة

بالخلق؛ ثم **الوله**: وهو مقام الحيرة؛ ثم **الدَّهَش**: وهو الذهول؛ ثم **الفناء** عن رؤية النفس: وهو أن يكون العاشق لا يسمع إلا لمحبوبه، ولا يبصر إلا به، ولا يدرك إلا به وله، ومنه فناء به عن نفسه وعن الأشياء، فإذا وصل المحب إلى هذا الحد اطّلع على أسرار الغيوب، وأخبر بها معاينةً لا على سبيل الحدس وغلبات الظنون، بل على الكشف والمشاهدة. **فهكذا يقول الصوفية.**

والعشق هو آخر مراحل الوصول والقرب، وفيه ينكر العارف معروفه فلا يبقى عارفاً ولا معروفاً، **ولا عاشقاً ولا معشوقاً**، ولا اسم ولا نعت ولا وصف.

والعشق في ابتداء ظهوره يُفني العاشق، حتى لا يبقى له اسم ولا وصف ولا رسم، فإذا امّحق العاشق وطُمِس، أخذ العشق في فناء المعشوق، فلا يزال يفنى منه الاسم ثم الوصف ثم الذات، فلا يبقى عاشق ولا معشوق، وحينئذ يظهر العشق بالصورتين، ويتصف بالصفتين، فيسمى بالعاشق ويسمى بالمعشوق، كما روى عن مجنون ليلى، أنها مرّت به ذات يوم، فدعته إليها لتحدّثه، فقال لها: **دعيني عنك، فإني مشغول عنك بليلى!!**

والعشق عموماً يسري في الكون في جميع الكائنات، حتى في الأجسام الحجرية، حتى لتجد بعضها يجذب بعضاً بقوة عشقية خفية:

فواعجباً للدهر لم يُخلِ مهجةً
من العشق حتى الماء يعشقه الخمر

وكل شيئ في العالم لابد له من مغنطيس يجذبه، لطيفاً كان أو كثيفاً، ومغنطيس النفوس: تقرُّب الطبائع؛ ومغنطيس الأبدان: الجماع، غير أنه في الحديث: «مَن عشق، فعفّ وكتَم، ثم مات، مات شهيداً»، ولهذا كان تعاشُق الأرواح وانجذاب بعضها إلى بعض، حتى تتّحد وتمتزج، كامتزاج الماء بالماء، والهواء بالهواء، والنار بالنار. وإذا كان العشق جنوناً فالجنون فنون:

ولقيتُ في حبِّك ما لم يلقه
في حبِّ ليلى قيسُها المجنون
لكنى لم اتّبع وحش الفلا
كفعال قيس والجنون فنون

٦٧٧- عشيرة...

العشيرة المحمدية: دعوة صوفية لا تتقيّد بمذهب لخدمة التصوّف الشرعي، وهدفها إدماج التصوف في الحياة اليومية.

والعشيرة المحمدية والطريقة المحمدية: كلاهما يقوم على الكتاب والسُّنّة.

والسبب فى تسمية العشيرة بالمحمدية تأكيد انتساب الدعوة للنبىّ ﷺ، على زعم أنه لا يوجد مسلم يفضل على نسبته إلى النبىّ ﷺ نسبة أخرى.

والفرق بين «المسلم» و«المحمدى»: أن كل من نطق بالشهادتين «مسلم»، وإنْ فسق وفجر، ولكن «المحمدى» : هو من يحاول أن يكون ما استطاع بين الناس، صورة قريبة من رسول الله ﷺ، قولاً وفعلاً وحالاً.

فالمحمدية، كتاب وسُنّة فى رفق وسماحة، وفقهٌ، وسعةُ أفق، وهى لذلك «تصوّفٌ مستنير»، وهى طلب الكمال، للساعى إلى الحقيقة. وباسم المحمدية اشتهرت العشيرة المحمدية والطريقة المحمدية.

والطريقة المحمدية: طريقة سلفية شرعية موصولة السند إلى النبىّ ﷺ، ولهذا سميت الطريقة بالمحمدية، لأنها من الكتاب والسُّنة، وتربط بينهما وبين الحياة العامة؛ وشعارها: حُسن الظن، وحُسن الخلق، وحُسن العادة، بهدف تخريج القادة وليس حشد الجماهير. وكل مسلم مخالف للمحمديين فى الرأى لا يُكفَّر؛ وكذلك لا يُكفر من ارتكب المعاصى، فلا يمكن أن يُخرِج أحدٌ أحداً من أهل القِبْلة من دينه، لخلاف مذهبىّ أو حُكم فرعى، له فيه رأيه واجتهاده.

والمحمديون لا يؤمنون بالشعوذة، والكهانة، ولا الودع، والبخت، والورق، والفنجان، ولا الزواج العرفى، ولا زواج المسيار، ولا زواج البنت بدون ولىّ، ولا زيارة القبور، ولا النَّعى فى الصحف، ونَصْب السرادقات، وإقامة الأفراح. وفى عُرف المحمديين، فإن كل الطرق الصوفية الشرعية صحيحة من جهة أصحابها، مهما اختلفت مشاربها ومناهجها وأسماؤها.

٦٧٨- عصا...

الصوفية لا تفارقهم العصا، وهى من السُّنة. ورُوى عن النبىّ ﷺ أنه قال: **أنْ أتخذ منبراً فقد اتخذه إبراهيم، وأن أتخذ العصا فقد اتخذها إبراهيم وموسى».**

٦٧٩- عصمة...

هى مَلَكة نفسانية واستعداد فطرى يمنع صاحبه من ارتكاب المعاصى، ويتوقف ذلك على العلم بماهية هذه المعاصى وعواقبها ومناقب الطاعات، وهذا العلم هو الزاجر عن المعاصى والداعى إلى الطاعة، لأن الهيئة المانعة من المعاصى إذا تحققت فى النفس، وعَلِم صاحبها ما يترتب على المعاصى من المضار، وعلى الطاعات من المنافع، تصير راسخة، فيطيع ولا يعصى.

وتتأكد هذه الملكة فى الأنبياء بتتابع الوحى إليهم بالأوامر والنواهى، والاعتراض عليهم على ما يصدر عنهم من الصغائر سهواً أو عمداً، عند من يُجوِّز تعمدها ويترك الأولى والأفضل، وتكون الصفات النفسية فى ابتداء حصولها أحوالاً غير راسخة، ثم تصير ملكات راسخة فى محلها بالتدريج. وقيل العصمة خاصية فى نفس الشخص أو فى بدنه، يمتنع بسببها صدور الذنب عنه، وتردّ عن النفس أو العقل ما يكون منه الذنب، ويرده معهما ما اكتسباه بالنقل. فأما أن العصمة تكون بالعقل، فدليله أن الذى يعصم نفسه يُمتدح على فعله. وأما أنها قد تكون بالنقل، أن الاعتصام عن المعاصى أمر تكليفى، وفيه النهى والزجر والثواب والعقاب. ويرد فى النقل قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ ﴾ (الكهف ١١٠)، وهذه الآية تدل عند بعض الصوفية على أن الأنبياء يجوز صدور المعصية عنهم، لأنهم بشر وليسوا ملائكة معصومين. ولقد علمنا عصمة الملائكة من الآية التى يقولون فيها: ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ﴾ (البقرة ٣٠)، فعلمنا من تعجبهم وتزكيتهم لأنفسهم أنهم معصومون، ويؤكد ذلك الآية: ﴿ لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ (التحريم ٦).

والإجماع على وجوب عصمة الأنبياء عن تعمدّ الكذب فى دعوى الرسالة وما يبلغونه عن الله، وأما غير ذلك فيجوز صدور الكذب عنهم سهواً أو نسياناً؛ وأنكر الغالبية ذلك عنهم، وإنما لا خلاف فى عصمتهم من الكفر، ومن الكبائر، لا سهواً ولا نسياناً، ويمتنع ذلك عقلاً، وأما الصغائر فلا تجوز الخسّة منها، وتجوز غير الخسّة سهواً.

ولم يقل بالعصمة للأنبياء والأولياء إلا صوفية الشيعة؛ والعصمة من أركان التشيّع، ومعناها أن لا يأتى الصوفى الخطأ؛ وصوفية السُّنة أطلقوا عليها، اسم «الحفظ»؛ يقولون إنّ الله تعالى هو الحافظ من الرّدى فى الزلل عمومًا.

وعن الكلاباذى قال: ولطائف الله فى عصمة أنبيائه وحفظ أوليائه من الفتنة.

وعن القشيرى: أن الولىّ لا يكون معصوماً وجوباً كما الأنبياء، ولا يمتنع أن يكون محفوظاً. ويجوز أن يكون من جملة كرامات الولىّ أن يعلم أنه مأمون العاقبة وأنه ولىّ. ومن أجَلّ الكرامات دوام التوفيق للطاعات والعصمة عن

المعاصي والمخالفات. ويجوز في الوليّ أمران: أن تتوالى طاعته من غير معصية، وأن يتولى الله حفظه على الإدامة والتَّوَلِّيْ، فيديم له الرفيق الذي هو قدرة الطاعة، ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ (الأعراف ١٩٦).

وعن أحمد الرفاعي المتوفى سنة ٥٧٠هـ (١١٧٤م) يقول للمريد: ولا تعمل عمل أهل الغلو فتعتقد العصمة في المشايخ.

وكان ابن عربي يرى العصمة للوليّ، قال: فإن وحي الرسُل إنما هو بالمَلَك، فلا خبر لهم بهذا الذي في عين إحضار العين في عالم الشهادة. وقال: فإن من شرط الإمام الباطني أن يكون معصوماً وليس الظاهر، إن كان غيره يكون له مقام العصمة.

وعن أحمد أمين قال: لقد دخل على المسلمين من جرّاء العصمة والمبالغة في الشفاعة ضررٌ كبير، ولم يقتصر الضرر على الشيعة، إذ تسربت تعاليمهم إلى غيرهم من الفرق الإسلامية، فكان السنيّون إذا رأوا الشيعة ينسبون عملاً وفضلاً لإمام، نسبوا مثله للأنبياء على الأقل، فغلا بعضهم في القول، بعصمة الأنبياء من الكبائر والصغائر قبل النبوة وبعدها، وهو مخالف لصريح القرآن.

وعن الشاذلي يقول: عليك بالاستغفار وإن لم يكن هناك ذنب، واعتبر باستغفار المعصوم الأعظم ﷺ، مع أنّه قد تيقن بمغفرة ما تقدّم من ذنبه وما تأخر.

وعن إبراهيم بن أدهم قال: «يارب اعصمني حتى لا أعصيك أبداً».

وقال التُستُري بالعصمة؛ وفي الآية: ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾ (يوسف ٥٣)، قال: إن النفس موضع العصمة.

وبرّز الرومي عصمة الحلاّج، فقال: إن قلب الصوفي محل أمر الله، وإنه لا يشاء إلا أن يشاء الله. (انظر المعصومون).

٦٨٠- عُقاب...

قبل القلم هو العقل الأول، وُجد أولاً لا عن سبب، إذ لا موجب للفيض الذاتي الذي ظهر أولاً بهذا الموجود الأول غير العناية، فلما كان أعلى وأرفع مما وجد في عالم القدس سُمِّي بالعُقاب الذي هو أرفع صعوداً في طيرانه نحو الجو من الطيور.

٦٨١- عَقَبة...

عقبات السالك سبع: عقبة العلم: ولابد للعبادة من العلم، بأن للمرء إلها واحداً لا شريك له؛ وعقبة التوبة: فمن لم يتخلص من ذنوبه لا يمكن أن ينشط في الطاعة والعبادة؛ وعقبة العوائق:

والمقصود بالعوائق ، الدنيا والخلق والشيطان والنفس الأمارة بالسوء؛ **وعقبة العوارض**: والعوارض هى الرزق والأخطار الباطنة كالشك، والأخطار الظاهرة كالوقوع فى المعاصى، والقضاء والمصاعب؛ **وعقبة البواعث**: وهى الخوف والرجاء؛ **وعقبة القوادح**: وهى العُجب والرياء؛ **وعقبة الحمد والشكر**.

٦٨٢- عقد...

عَقْد السرّ: هو ما يعتقد العبد بقلبه بينه وبين الله تعالى أن يفعل كذا أو لا يفعل كذا. يقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ (المائدة ١). وقيل لأحدهم: بما عرفتَ الله ؟ فقال بحلّ العقود - يقصد العقود بينه وبين الخلق، بإنهاء كل العلائق بينه وبين ما سوى الله تعالى.

٦٨٣- عقل...

قيل للنورى: بما عرفتَ الله؟ فقال بالله، فقيل: فما بال العقل؟ قال العقل عاجز لا يدل إلا على عاجز مثله. وقيل: النورى يقصد بالعقل: **عقلُ المعاش**، لأن العقل عقول، فهناك **العقل الأول**، **والعقل الكلّ**، **وعقلُ المعاش**. **والعقل الأول**: هو مرتبة الوحدة، وقيل: هو محل تشكيل العلم الإلهى فى الوجود، لأنه العلم الأعلى، ثم ينزل منه العلم إلى اللوح المحفوظ، فهو إجمال اللوح، واللوح تفصيله، بل هو تفصيل علم الإجمال الإلهى، واللوح محل تنزّله. ثم العقل الأول فيه من الأسرار الإلهية ما لا يسعه اللوح، كما أن فى اللوح من العلم الإلهى ما لا يكون العقل الأول محلاً له. **والعلم الإلهى**: هو **أُمُّ الكتاب**، **والعقل الأول**: هو الإمام المُبين؛ **واللوح**: هو الكتاب المبين .

والفرق بين **العقل الأول**، **والعقل الكلّ**، **وعقل المعاش**: أن العقل الأول: هو أول تفصيل الإجمالى الإلهى، ولذا ينسبون إليه قوله ﷺ: **"إن أول ما خلق الله تعالى العقل"**. فهو أقرب الحقائق الخَلْقية إلى الحقائق الإلهية.

والعقل الكلّ: هو **القسطاس المستقيم**، وهو **ميزان العدل**، وبالجملة هو **العاقلة**: أى المُدركة النورية التى ظهرت بها صور العلوم المُودَعة فى **العقل الأول**.

وعقل المعاش: هو النور الموزون بالقانون الفكرى، فهو لا يُدرِك إلا بآلة الفكر.

والعقل الكَلّ قد يُستدرَج به أهل الشقاوة فيقبَّح عليهم أهويتهم، فيظفرون على أسرار القدرة كالطبائع والأفلاك والنور والضياء وأمثالها، فيذهبون إلى

عبادة هذه الأشياء، فيدركها هؤلاء بالعقل، فيقولون بأنها هي الفعّالة والآلهة.

وكذلك عقل المعاش فإنه ليس له إلا جهة واحدة وهي النظر والفكر، فصاحبه إذا أخذ في معرفة الله به فإنه يخطئ، ولهذا إذا قيل بأن الله لا يُدرَك بالعقل فإن المقصود هو عقل المعاش، ومتى قيل إنه يعُرف بالعقل فإن المقصود هو العقل الأول.

وفي حديث العقل المنسوب إلى النبيّ ﷺ الذي يقول: لمّا خلق الله تعالى العقل قال له: أقبل فأقبلَ، ثم قال: أدبِر فأدبرَ، فقال: ما خلقتُ شيئاً أحسن منك! بك آخذ، وبك أعطي»: أن العقل هو أعلى ما خلق الله، والعاقل من عقل عن الله مواعظه وعرف ما يضرّه مما ينفعه. وفي الحديث: «من كان له واعظٌ من نفسه كان له من الله حافظ»، يقصد بالواعظ من النفس، العقل، ويسميه ﷺ «العقل النافع»، ويعرّفه بأنه: «الكفّ عن معاصي الله، والحرص على طاعة الله عز وجلّ» رواه الديلمي.

وقد اتفق أهل الحقّ على أن العقل كائن موجود، ليس بقديم ولا معدوم، لأنه لو كان معدوماً، لما اختص بالاتصاف به بعض الذوات دون بعض. وإذا ثبت وجوده فيستحيل القول بقدمه، لأن الدليل قد قام على أنه لا قديم إلا الله تعالى. وقد صارت الفلاسفة إلى أن العقل قديم، وصار الصوفية إلى أن العقل جوهر لطيف في البدن، فعلُه فيه بمنزلة السراج في البيت، يفصل به بين حقائق المعلومات؛ ومنهم من قال: إنه جوهر بسيط، أي غير مركب. واختلفوا في محله، فقال جماعة: محله الدماغ. لأن الدماغ محل الحسّ؛ وقالت جماعة: محله القلب، لأن القلب هو مادة الحواس. وهذا كلام باطل، فلو كان الجوهر عقلاً، لكانت كل الجواهر عقولاً. وقيل: إن العقل هو المُدرِك للأشياء على ما هي عليه من حقائق المعاني، وهذا القول وإن كان أقرب مما قبله، فيبعد عن الصواب، لإن الإدراك من صفات الأحياء، والعقل عَرَض يستحيل ذلك منه، لأنه يستحيل أن يلتذ ويشتهي.

وقيل: العقل هو العلم، بدليل أنه يقال عَقلتُ ولا علمتُ، ولا يقال علمتُ وما عقلتُ. وقيل: العقل علوم ضرورية بوجوب الواجبات وجواز الجائزات واستحالة المستحيلات. وقيل: العقل صفة يُدرَك بها العلوم. وقيل: العقل غريزة؛ وقيل: هو التمييز؛ وقيل: هو قوة التمييز، وقال بعض الصوفية، منهم المحاسبي، قال: العقل أنوار وبصائر. وكل

هؤلاء أخطأوا، فلا العقل آلة - ولو قلنا ذلك فيه فنحن نقصد أنه آلة مجازاً؛ ولا هو قوة، فإن القوة تعني القدرة، والعقل لا يقدر؛ ولا هو صورة ولا نور، وإنما هو يُستفاد به الأنوار والبصائر. وكل ذلك عن العقل البشري في مقابل العقل الإلهي الذي يفيض بالعلم وله التدبير. وقيل العقل الإلهي هو العقل الأول، ويقابله العقل الفعّال وهو الحضرة المحمدية. والعقل النوراني هو العقل الصادر عن الله، والمقصود به آدم - وهذا كلام الصوفية الشيعة.

٦٨٤ - علائق...

هي الأسباب التي يتعلّق بها الطالبون ويفوتهم بسببها المراد. **وقطع العلائق**: هو منع انشغال العبد بها حتى لا تقطعه عن الله تعالى.

٦٨٥ - علة...

العلّة: تنبيه الحق لعبده بسبب أو بغير سبب. وقيل **العلّة** كناية عن بعض ما لم يكن فكان. قال **ذو النون المصري**: **علّة كل شئ صُنعه، ولا علة لصُنعه**: يعني أن وجود النقصان في كل شئ مصنوع كائن، لأنه لم يكن فكان، وليس في صنع الصانع لمصنوعاته علة. وفي نفس المعنى يقول الشبلي في صفة الخلق: إن الذُلّ كائنهم، والعلة كونهم - ولهذا كان اهتمام الصوفية بالصانع لا بالمصنوع.

٦٨٦ - علَم...

العَلَم - والجمع **أعلام**: هو الرسوم في الثوب وغيره؛ وفي الحديث عن عائشة: أن رسول الله ﷺ صلّى في خميصة لها **أعلام**، فنظر إلى **أعلامها** نظرةً، فلما سلّم قال: **اذهبوا بخميصتي هذه إلى أبي جَهْم فإنها ألهتني عن صلاتي، وأتوني بأنْبَجانية أبي جَهْم**». أخرجه البخاري ومسلم وابن ماجة.

وفي رواية أخرى عند مالك قال: «**فإني نظرت إلى عَلَمها في الصلاة فكاد يفتنني**». **والخميصة**: الثوب له أعلام. والخشية عنده ﷺ أن يصرفه التأمل في رسوم الخميصة عن الصلاة، ولم ينصرف عن الصلاة فعلاً، وإنما خشي ذلك، وفيه المبادرة إلى مصالح الصلاة، والتخلص من كل ما يخدش فيها، وكراهية ما يشغل عنها من أصباغ ورسوم، وعلى ذلك كان إنكاره للصور إذا كان فيها منصرفٌ عن العبادة التي تتطلب ذهناً صافياً، وقلباً خالصاً، ونفساً زكية. **والصوفية على كراهية الأعلام في الثوب**، والمَقْدسي ينبّه إلى ذلك فيهم امتثالاً للنبيّ ﷺ.

٦٨٧ - علم...

العِلْم فريضة على كل مسلم، وعلى الصوفي بالأحرى. والعلم المقصود هو

العلم بالعالَم: كيف هو؟ ولماذا هو؟ والعلم بالأمر والنهي، وما يثاب على فعله ويعاقب على تركه، وما يعاقب على فعله ويثاب على تركه.

والعلماء الزاهدون ومشايخ الصوفية والمقرّبون، رزُقوا سائر العلوم وقالوا إنها فرض، فمن ذلك: علم الدنيا؛ وعلم الآخرة؛ وعلم التصوّف: ومنه علم الحال، وعلم القيام، وعلم الخواطر، وعلم اليقين، وعلم الإخلاص، وعلم النفس ومعرفة أخلاقها ـ وهو من أعز علوم الصوفية، وأقوم الناس بطريق المقرّبين والصوفية، أقومهم بمعرفة النفس؛ وعلم معرفة أقسام الدنيا، ووجود رقائق الهوى وخفايا شهوات النفس وشرورها؛ وعلم الضرورة، ومطالبة النفس بالوقوف على الضرورة ومعرفة حقائق التوبة؛ وعلم خَفِيّ الذنوب؛ وعلم المراقبة؛ وعلم المحاسبة؛ وعلم حقائق التوكل، وذنوب المتوكل فى توكله، وما يقدح فى التوكل وما لا يقدح فيه، والفرق بين التوكل والواجب بحكم الإيمان، وبين التوكل الخاص المختص بأهل العرفان؛ وعلم الرضا، وذنوب مقام الرضا؛ وعلم الزهد وتحديده بما يلزم من ضرورته وما لا يقدح فى حقيقته، ومعرفة الزهد فى الزهد، ومعرفة زهد ثالث بعد الزهد فى الزهد؛ وعلم الإنابة والالتجاء، ومعرفة أوقات الدعاء ووقت السكوت عن الدعاء؛ وعلم المحبة، والفرق بين المحبة العامة المفسَّرة بامتثال الأمر والمحبة الخاصة، والفرق بين مقام المحب والمحبوب والمريد والمراد؛ ثم علوم المشاهدات: كعلم الهيبة، والأُنس، والقبض والبسط والفرق بينهما؛ وعلم الفناء والبقاء، وتفاوت أحوال الفناء والتجلى، والجمع والفرق، واللوامع والطوالع والبوادى، والصحو والسُكر إلى غير ذلك.

وعلم الله: صفة أزلية، فعلمه سبحانه بنفسه وخَلْقه علمٌ واحد غير منقسم ولا متعدد، ولكنه يعلم نفسه بما هو له، ويعلم خلقه بما هم عليه. وقيل علم الله سبحانه بذاته هو نفس ذاته، فالعالم والمعلوم واحد، وهو الوجود الخاص. ويُسمّى الحق «عليماً» بنسبة العلم إليه مطلقاً، و«عالماً» بنسبة معلومية الأشياء إليه، و«علاّماً» بنسبة العلم ومعلومية الأشياء إليه معاً.

والعلم الأعلى: هو العلم الإلهى.

وعلم الباطن: هو علم أعمال الباطن التى هى على الجارحة الباطنة وهى القلب. قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ (النساء ٨٣). والعلم المستنبط: هو

العلم الباطن، وهو علم أهل التصوف، لأن لهم مستنبطات من القرآن والحديث وغير ذلك. ويسمونه أيضاً: **علم الحقائق، وعلم الإشارة، وعلم القلوب، وعلم المعارف، وعلم الأسرار**، وفى ذلك يقول كبار مشايخ أهل الباطن: ينبغى للمرء بعد تحصيل علم المعرفة والتوحيد والفقه والشرائع أن يتعلّم **علم آفات النفس**: لأن نفس السالك إذا استقامت على الواجبات صلح طبعُه وتأدّب بآداب الله، فيتمكن من مراقبة خواطره وتطهير سرائره. ومراقبة الخواطر تكون بالاتجاه الكلى لله، فيتمكن من بلوغ **علم المكاشفة والمشاهدة**: وهو الذى يسمونه **علم الإشارة**: وهو لا يحصل بالتعليم والتعلّم ولكن بالمجاهدة. ويقال إن أصل جميع ما تكلموا فيه من **علم الباطن** أربعة أحاديث: **حديث جبريل** حيث سأل رسول الله ﷺ عن الإيمان والإحسان فقال: «**الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه**» الحديث؛ **وحديث عبد الله ابن عباس** أنه قال: أخذ الرسول ﷺ بيدى وقال لى: «**يا غلام! احفظ الله يحفظك**»؛ **وحديث وابصة: الإثم ما حاك فى صدرك، والبرّ ما اطمأنت إليه نفسك**»؛ **وحديث النعمان بن بشير** عن النبىّ ﷺ: «**الحلال بيّن والحرام بيّن**». وكذلك قول النبىّ ﷺ: «**لا ضرر ولا ضرار فى الإسلام**».

وعلم الظاهر: هو علم الأعمال الظاهرة التى هى على الجوارح الظاهرة. **والعلم ظاهر وباطن**، والقرآن ظاهر وباطن، وحديث الرسول ظاهر وباطن، والإسلام ظاهر وباطن، ولا يستغنى الظاهر عن الباطن، ولا الباطن عن الظاهر.

وعلم الشريعة: علم واحد يجمع المعنيين: **الرواية والدراية**، فإذا جمعتهما فهو علم الشريعة الداعية إلى الأعمال الظاهرة والباطنة، لأن العلم متى كان فى القلب فهو باطن فيه إلى أن يجرى ويظهر على اللسان، فإذا جرى على اللسان فهو ظاهر.

والعلم اللَّدُنّى: هو العلم الذى يتعلّمه العبد من الله تعالى من غير واسطة مَلَك أو نبىّ، بالمشافهة والمشاهدة، كالعلم الذى كان للخضر عليه السلام. قال تعالى: ﴿**وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا**﴾ (الكهف ٦٥).

وقيل **العلم اللدنى**: هو المعرفة بذات الله تعالى وصفاته يقيناً من مشاهدة وذوق ببصائر القلوب. وقيل: هو ما يتحصّل بطريق الإلهام دون التكلُّف بالتطلُّب؛ وما يعرِّف به الحق الخواص من عباده، وما يعرِّف به أولياءه فيما فيه صلاح عباده. وقيل: هو ما لا يعود منه نفع إلى

صاحبه، بل يكون نفعه لعباده مما فيه حق الله. ويقال: هو ما لا يجد صاحبه سبيلاً إلى جحده، وكان دليلاً على صحة ما يجده، فلو سألته عن برهانه لم يجد عليه دليلاً.

والعلم النوراني: هو العلم بحقيقة النور الفائض على الكلّ، وَحدُّه العلْم الظُلماني: وهو العلم بالضّد للنور، وكيفية مضادته له وللميِّته (من أداة الاستفهام لِمَ).

وعلم الوراثة: هو الفقه في الدين، والصوفية أخذوا حظاً من علم الوراثة فأفادهم العمل بالعلم، فلما عملوا بما علموا أفادهم العمل علم الوراثة، فهم مع سائر العلماء في علومهم وتميّزوا عنهم بعلوم زائدة هي علوم الوراثة.

وعلم الموهبة: وهو علم يورثه الله لمن عمل بما علم، وإليه الإشارة بحديث: من عمل بما علم ورّثه الله علم ما لم يعلم».

وعلم اليقين: وهو ما كان بشرط البرهان، وهو علم أرباب العقول.

وبعد: فهذه العلوم مشتركة بين أهل الله جميعًا، (فأما العلوم الخالصة للصوفية) فهي علم الأحوال: والأحوال مواريث الأعمال، ولا يرث الأحوال إلا من صَحح الأعمال. وأول تصحيح الأعمال معرفة علومها، وهي علم الأحكام الشرعية من أصول الفقه وفروعه: فأول ما يلزم العبد الصوفي: الاجتهاد في طلب هذا العلم وأحكامه، بعد إحكام علم التوحيد، والمعرفة على طريق الكتاب والسُّنة والإجماع؛ ثم وراء هذا علوم الخواطر والمشاهدات والمكاشفات: وهي التي تختص بعلم الإشارة: وهو العلم الذي تفرّدت به الصوفية، وإنما قيل علم الإشارة: لأن مشاهدات القلوب ومكاشفات الأسرار لايمكن التعبير عنها على التحقيق بل تُعلَم بالمنازلات والمواجيد، ولا يعرفها إلا من نازل تلك الأحوال وحلّ تلك المقامات. يقول رسول الله ﷺ: «إن من العلم كهيئة المكنون لايعلمه إلا أهل المعرفة بالله، فإذا نطقوا به لم ينكره إلا أهل العزة بالله». وقال أيضاً: «سألت جبريل عن علم الباطن، فقال سألت الله عز وجل عن علم الباطن، فقال: هو سرٌّ من سرّي، أجعله في قلب عبدي، لايقف عليه أحد من خَلْقي».

تلك إذن هي علوم التصوف، العام منها والخاص، ولكل مقام في علم التصوف بدء ونهاية، وبينهما أحوال متفاوتة، ولكل مقام علم، وإلى كل حال إشارة، ومع كل مقام إثبات ونفي، ولأصحابها مصطلحات تعارفوها بينهم، ورمزوا بها، تخفَى على

السامع من غير الصوفية، فإما أن يُحسن الظن بالقائل فيقبل ما يقول، أو أنه يراجع نفسه ويحكم على نفسه بقصور فهمه عنه، أو سوء ظنه به، فيقضي في أمر القائل بأنه مهووس، أو ينسب ما قاله إلى الهذيان.

وسرّ العلم: هو حقيقة سرّ العلم به، لأن العلم عين الحق في الحقيقة، وغيره بالاعتبار.

وأولوا العلم: هم الذين ذكرهم الله تعالى، فقال: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾ (آل عمران ١٨). وهم ورثة الأنبياء الذين قال عنهم الرسول ﷺ: «العلماء ورثة الأنبياء». وهم ثلاثة أصناف: أصحاب الحديث، والفقهاء، والصوفية.

وكذلك علم الدين ثلاثة علوم: علم القرآن، وعلم السنن والبيان، وعلم حقائق الإيمان، وهي العلوم المتداولة بين هؤلاء الأصناف الثلاثة من العلماء، وكل منهم مترسّم بنوع من العلم والعمل والحقيقة والحال، ولكل صنف منهم مقام ومقال وفَهْم ومكان وفقه.

وكان النبيّ ﷺ يقول لمن جاء يطلب العلم: «مرحبا بطالب العلم». وعنده أن طلب العلم يكفّر عن ذنوب الطالب، وأن العلماء لهم فضل كفضل الأنبياء على عامة الناس. وكان يكثر من ترديد الآية: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ (فاطر ٢٨)، وفي الحديث: «إن الناس ثلاثة، فهم إما علماء ربّانيون، وإما أناس يتعلّمون ليمرفوا دينهم فينجوا بأنفسهم، وإما هم رعاعٌ هَمَجٌ، أتباع كل ناعق، يميلون مع كل ريح، ما لم يستضيئوا بنور العلم ولم يلجأوا إلى ركن وثيق».

وفي المقارنة بين أن تحوز علماً أو تحوز مالاً، يجيء: العلم خيرٌ من المال، فالمال يحرسك بينما أنت تحرس المال. والعلم يزيد باستخدامه والمال ينقص بإنفاقه.

وفي المقارنة بين العلم والعمل: أن العلم يزكو على العمل، وهل يصحّ عملٌ بلا علم؟

وصاحب العلم: ما لم يعمل به ويعلّمه للناس ليعملوا به، فعلمه هو العلم العقيم، وكان الرسول ﷺ يتعوّذ من علم لا يُعمَل به.

وللعلم فوائد للعالم: فمن شأنه أن يطيعه الناس في حياته بسبب علمه، ويتحدثوا عنه بالخير بعد مماته، بينما صنيعة المال تزول بزواله. وخزنة الأموال يموتون، بينما العلماء أحياء باقون ما بقي الدهر، فأعيانهم مفقودة ولكن أمثالهم في القلوب موجودة.

وفى الحديث : تعلّموا العلم فإن تعلُّمه لله تعالى خشية، وطلبه عبادة، ومذاكرته تسبيح، والبحث عنه جهاد، وتعليمه لمن لا يعلم صَدَقة، وبذله لأهله قُربة، لأنه معالم الحلال والحرام، ومنار أهل الجنة، والأنس فى الوحشة، والصاحب فى الغربة، والمحدّث فى الخلوة، والدليل على السرّاء والضرّاء، والسلاح على الأعداء، والدين عند الأجلاّء، يرفع تعالى به أقواماً، ويجعلهم فى الخير قادة وأئمة تُقتَبس آثارهم، ويُقتَدى بفعالهم، وينتهى إلى رأيهم».

ومن الحِكَم: «اغدُ عالماً أو مسلماً، ولا تغدُ فيما بين ذلك». قيل ما بين ذلك: الجاهل، وقيل الإمعة، وقيل المُتّبِع، وقيل المُبتدِع، وفى رواية: فإن لم تفعل فأحبّ العلماء ولا تبغضهم.

ومن مواعظ ابن مسعود: يا أيها الناس! عليكم بالعلم قبل أن يُقبَض، وقبضُه ذهاب أهله. وقال: عليكم بالعلم فإن أحدكم لا يدرى متى يفتقر إلى ما عنده. وقال: عليكم بالعلم وإياكم والتنطّع.

ومن مواعظ أبى الدرداء قال: مالى أرى علماءكم يذهبون، وجهّالكم لا يتعلّمون ؟! ألا فتعلّموا وعلّموا، فإن العالم والمتعلّم فى الأجر سواء، ولا خير فى الناس بعدهما. وقال: إنما الناس رجلان: عالم ومتعلّم، ولا خير فيما بين ذلك.

وفيما يروى عن أبى هريرة قال: لَبَابٌ يتعلمه الرجل أحَبُّ إلىّ من ألف ركعة تطوعاً.

وعن رسول الله ﷺ قال: «إذا جاء الموت لطالب العلم وهو على هذه الحال، مات وهو شهيد». وفيما يروى عنه ﷺ: أنه جىء إليه برجل، قالوا له إنه علاّمة، فسأل: وما العلاّمة ؟ قالوا: أعلم الناس فى كذا وكذا ـ أى فيما لا ينفع الناس، فقال: هذا علمٌ لا ينفع، وجهلٌ لايضر». وشبّه رسولُ الله ﷺ العلم يتلقاه المتلقون، بالغيث الكثير يصيب الأرض، والناس فى العلم إما يستوعبونه ويفقهونه ويُنفَعون به، ويعلّمونه، فمثلهم كالأرض الطيّبة تقبل الماء وتمسكه، فتُنبت الكلأ والعشب الكثير، وينتفع به الناس، فيشربون ويسقون ويزرعون؛ وإما أنهم فى العلم لا يُقبِلون عليه ولا يفيدون به، فمثلهم كالأرض القيعان، لا تُمسك الماء ولا تُنبت الكلأ. وقال: إن عالماً واحداً خيرٌ من ألف عابد، ومثلما التعلُّم واجب فالتعليم أوجب، وعلى كل قوم أن يُعلّموا جيرانهم ويتعلّموا منهم». وقال: من يُرِد العلم والإيمان يؤته الله تعالى. وقال: واتقوا زلّة العالم». ـ يقصد: أنه حتّى العالم قد يزلّ، فلنأخذ الحق ممن يجئ به، ونردّ الباطل

على من يجيء به، كائناً من كان. فهكذا يعلّمنا الرسول ﷺ.

ومن مواعظ سلمان الفارسي: إن العلم كثير والعمر قليل، فخذ من العلم ما تحتاج إليه ودع ما سواه. والعلم لا ينقص منه ما تأخذ منه، فخذ منه ما ينفعك.

ومن مواعظ ابن عمر: تسألني عن العلم؟ فالعلم أكبر من أن أكتب به إليك.

والصوفي حياته بالعلم، ومما يتعلم ويعلّم: الدين، وأخصّه الصلاة والقرآن، والأذكار، والأدعية، وأن يَجمَع بين الجهاد والعلم، وبين الكسب والعلم، وأن يَعلَم أن الأولى أن يبدأ العالِم بتعليم أهله، وأن يتعلم البعض لسان الأعداء. وكان عمر يقول لأصحابه: تعلّموا من هذه النجوم ما تهتدون به، وتعلّموا من الأنساب ما تتواصلون به.

وأمر عليّ بن أبي طالب أبا الأسود الدؤلي أن يصنع للناس ما يستدلون به على صلاح ألسنتهم، فرسم لهم الرفع والنصب والخفض، وتوارث الصوفية عنه ذلك.

وليس العلم مما يُلتمس عند الأصاغر أو الأراذل، وكان عمر بن الخطاب يقول: إن الناس لن يزالوا بخير، ما أتاهم العلم عن أكابرهم. وعن ابن مسعود قال: لا يزال الناس بخير ما أخذوا العلم عن أكابرهم، فإذا أخذوه عن أصاغرهم وشرارهم هلكوا. وقال: إنكم لن تزالوا بخير مادام العلم في كباركم، فإذا كان العلم في صغاركم سفّه الصغير الكبير. والمقصود بكبير القوم صاحب العلم والتقوى فيهم.

وأراذل أهل العلم في مجال التصوّف: هم المتصوّفة المدّعون، وأمّا الصوفية الحقيقيون، فلاينبغي لهم وهم أهل الإيمان، أن يقبلوا العلم إلا من ثقة، ولا أن يسألوا فيه إلا أهل الذُكر، وإذا جاءهم من يريد العلم استوصوا به خيراً، وعلّموه مما علّمهم الله، وأوسعوا له، وفقّهوه. وفي الحديث عن أبي هريرة: أن النبيّ ﷺ قال: «سيأتيكم أقوام من بعدي يطلبون العلم، فرحّبوا بهم وحيّوهم وعلّموهم».

وفي التصوف لا شيء بلا علم. وكانت مجالس رسول الله ﷺ حلقات، وكان أكثر المتلقين فيها من الصوفية، أي من أهل الله، أهل الإيمان. وفي رواية أبي سعيد الخدري: أن الرسول ﷺ أطلق على هؤلاء اسم «صعاليك المهاجرين»، وهم «أهل الصُفّة» من الفقراء الراغبين في العلم، المواظبين على تلقّيه، بشّرهم بالنور يوم القيامة.

وعن عبد الله بن عمرو: أن مسجد الرسول ﷺ كان فى عهده كثيراً ما يضم مجلسين، كان فى أحدهما جموعٌ يدعون الله ويرغبون إليه؛ وفى الآخر جموع يتعلمون ويعلّمون، فقال رسول الله ﷺ بشأنهما: «كلا المجلسين على خير، وأحدهما أفضل من الآخر صاحبه. أما هؤلاء فيدعون الله ويرغّبون إليه، فإن شاء أعطاهم وإن شاء منعهم. وأما هؤلاء فيتعلمون ويعلّمون الجاهل. وإنما بُعثت معلماً». أخرجه الدارمى.

وعن ابن مسعود قال: نعْم المجلس الذى تُذكر فيه الحكمة. أو قال: نعم المجلس تُنشر فيه الحكمة وتُرجى فيه الرحمة.

وعن ابن جحفة ينصح أهل الله: جالس الكبراء، وخالل العلماء، وخالط الحكماء. ووعظهم أبو الدرداء فقال: من فقْه الرجل، ممشاه ومدخله ومخرجه مع أهل العلم.

ومن شأن المشايخ الكبار أنهم فى تعليمهم يتكلمون ثلاثاً لكى يفهم المريدون عنهم. والعالم منهم من لا يُقنط الناس من رحمة الله، ولم يرخّص لهم فى المعاصى، ولم يؤمّنهم مكر الله. ويقول لهم دوماً: لاخير فى عبادة بلا علم، ولاخير فى علم ليس فيه فهم.

وعن ابن عمر يقول فى تعليمه: لا يكون الرجل من العلم بمكان حتى لا يحسد مَن فوقه، ولا يحقّر مَن دونه.

وكان عمر يقول لأصحابه: تعلّموا العلم وعلّموه الناس. وتعلّموا له الوقار والسكينة، وتواضعوا لمن تعلمتم منه ولمن علّمتموه، ولا تكونوا جبابرة العلماء فلا يقوم جهلكم بعلمكم.

وقال علىّ يعظ السالكين: من حقّ العالم أن لا تُكثر عليه الأسئلة ولا تُعنته فى الجواب، وأن لا تلح عليه إذا أعرض، ولا تأخذ بثوبه إذا كسل، ولا تشير إليه بيدك، وأن لا تغمزه بعينيك، وأن لا تنهمك فى الحديث مع الآخرين وهو يتكلم، وأن لا تتحيّن منه سقطة، وإن أخطأ تأنّيت أوبته، وقَبلت فيئته، وأن لا تعارضه بأقوال غيره، ولا تفشى له سراً، ولا تغتاب عنده أحداً، وأن تحفظه شاهداً وغائباً، وأن تعمّ القوم بالسلام، وتخصّه بالتحية، وتجلس بين يديه، وإن كانت له حاجة سبقتَ القوم إلى خدمته، وأن لا تمل من طول صُحبته، وإنما هو كالنخلة تنتظر متى يسقط عليك منها منفعة. وإن العالم كالصائم المجاهد فى سبيل الله، فإذا مات العالم انثلمت فى الإسلام ثُلمة (يعنى خللاً) لا تُسَدّ إلى يوم القيامة.

ومن تعاليم عمر لمن كان يصحبه يتعلم عليه: إذا أردت أن تسألنى فاسألنى، فإن

كان عندى منه علم أخبرتك، وإلا قلت لا أعلم، فسألتَ مَن يعلم.

ولمّا سأل المتحلّقون حول جبير ابن مطعم سؤالاً لم يكن لهم عنده الجواب. قال: لا علم لى، ولكن أرسلوا معى حتى أسأل لكم عنه ـ فكان جبير خير معلّم، فقد سُئل عمّا لا يعلم فقال: لا أعلم.

وقال أبو هريرة يصف حاله من أستاذه رسول الله ﷺ: كنت أطلب منه الكلمة يعلمنيها ـ مجرّد الكلمة!

وقالت عائشة تمتدح نساء الأنصار يسألن العلم: نِعْمَ النساء نساء الأنصار، لم يكنّ يمنعهن الحياء أن يسألن ويتفقّهن.

وقالت أم سلمة تثنى على المرأة أن تسأل العلم: إن الله لا يستحى من الحقّ، ولنا أن نسأل عمّا أُشكل علينا، فذلك خيرٌ من أن نكون منه على عماء.

والعلم منه: علم الطب، والهندسة، والتاريخ، وعلوم الحياة، وعلم الحروف، وعلم الدين، والعلم السرّى، وعلم الفراسة، وعلم القلوب، وعلم النفس إلخ: والصوفى الحقّ هو الذى يتعلّم العلم ليخدم الناس، فى كل المجالات: الصحة، والمال، والاقتصاد، والبناء ...إلخ، وتصوّفه هو التصوف الإيجابى، نقيض التصوف السلبى للمتصوّف الذى يعتزل الناس، ويركن إلى الوحدة، وليس له عمل.

وقال ﷺ: العلم علمان ـ علمٌ فى القلب، فذلك العلم النافع؛ وعلمٌ على اللسان، فذلك حُجة الله تعالى على ابن آدم.

وكان جابر بن حيان ـ كما قيل ـ «يعتنق» التصوف وينتحل الكيمياء، وابن عربى «يعيش» التصوف و«يمارس» الطب، ومما قال:

سبحان مَن صيّرنى عالماً
من بعد ما كنت كالغمر

والغَمْر: الغارق فى الجهل.

والصوفية فى مجالسهم وتصانيفهم يصدرون فيما يتكلمون فيه أو يكتبون، عن القرآن والسنّة الصحيحة، ولا يخرجون عن ذلك ما استطاعوا؛ وإن كان علمهم يقصر عن الردّ على مسألة قالوا: لا علم لنا بذلك؛ أو يقول الواحد منهم: إلى هنا انتهى علمى؛ أو: ما عندى من ذلك علم؛ أو: ليس لى أن أقول ما لا علم لى به؛ أو: الله أعلم.

وليس كل ما يُعلَم يقال، ولا يقال لكل من هبّ ودبّ، وإنما لكل قوم أهله. والصوفية هم عباد الله، يكونون له به وبأنفسهم، وغيرهم قد يكونون من العامة فلا يقال لهم نفس الكلام فإنهم جاهلون.

وعلم الصوفية ـ كما يقولون ـ لا يقال لأصحاب النظر العقلى، وإنما يتوجه به

الصوفية لأهل البصائر والأبصار، وأما العوام فليس لهم معهم كلام. هكذا يقول الصوفية:

علمي بربّي ليس يعرفه
إلا الذي ذاقه من خَلقه أحد
وهم رجال ذوو علم ومعرفة
لأنهم وجدوا عين الذي أجد

وإذا قال صوفي أو غيره بخلاف ما يعلم الأولياء أو يعلّمون، اتسعت له صدورهم، وربما يقيمون له العذر، وعادة لا ينكر الصوفي على المدّعي ما يدّعيه، إلا الإنكار المأمور به شرعاً.

٦٨٨- عماء...

سئل النبيّ ﷺ: أين كان ربُّنا قبل أن يخلق الخلق؟ فقال: كان في عماء. وقال أيضاً: إن العماء ما فوقه هواء، وما تحته هواء. ـ يعني لا حق ولا خَلْق، وبذلك يكون العماء حقيقة الحقائق، ويقابله الأحدية التي تضمحل فيها الأسماء والصفات ولايكون لشيء فيها ظهور، فكذلك العماء ليس لشيء من ذلك فيه مجال ولا ظهور، والفرق بينهما أن الأحدية: حُكم الذات في الذات بمقتضى التعالي ـ وهو الظهور الذاتي؛ والعماء: حكم الذات بمقتضى الإطلاق، فلا يفهم منه تعالٍ ولا تدانٍ، وهو البطون الذاتي العمائي.

٦٨٩- عمد...

يقول تعالى: ﴿رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ (الرعد ٣)، فقوله: بغير عمد ترونها، يساوي قوله: بعَمَد لا ترونها: وهذه حقيقة العالم وقلبه ونفسه، وحقيقة كل شيء، وحقيقة الإنسان الكامل الذي لايعرفه إلا الله، كما قال تعالى: «أوليائي تحت قبائي لا يعرفهم غيري». وبديهي: أن كل شيء بعَمَد، نرى منها ما نرى، ولا نرى منها ما لا نرى.

٦٩٠- عمدة...

العُمدة: من مراتب الأولياء، والعُمُد في العالم أربعة يسمّون جميعاً باسم محمد، هكذا قال صوفية الشيعة. وإذا مات القطب الغوث حلّ مكانه واحد من العُمُد. وفي رواية أن العمد خمسة، بهم قوام العالم كقوام المنزل على الأعمدة، ويستقرون في أطراف العالم.

٦٩١- عمل...

الصوفية على العمل وكسب الرزق، وشرط العمل الإتقان، وفي الحديث: «إن الله عزّ وجلّ يحبّ إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه» رواه أبو يعلى والبيهقي، وقال: «يحبّ الله العامل إذا عمل أن يتقن»، وقال:

«إن الله يحب من العامل إذا عمل أن يحسن».

والاكتساب من العمل بالطيب، فعنه ﷺ قال: «رحم الله امرأ اكتسب طيباً، وأنفق قصداً، وقدّم فضلاً ليوم فقره وحاجته» رواه ابن النجار. وإنفاق القصد يعني الاعتدال.

والصوفي العالم يبادر باكراً إلى العمل، وفي الحديث: «باكروا في طلب الرزق والحوائج، فإن الغدّو بركة ونجاح» رواه الطبراني. والغدو البكور.

وليس للعامل أن يصيب فوق ما يستحق، وفي الحديث: «أيمّا عامل أصاب في عمله فوق رزقه الذي فُرض له فإنه غلول» رواه ابن جرير. والغلول خيانة وسرقة، وعنه قوله تعالى: ﴿وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ (آل عمران ١٦١).

وعنه ﷺ: «أَحَبُّ الأعمال إلى الله أدومها وإن قلّ» رواه البخاري، وفي معناه: «إن أحبّ الدين إلى الله ما دووم عليه وإن قل»، يعني أن المداومة على أي من أعمال البرّ أو العبادة ـ ولو كان مفضولاً ـ أحبّ إلى الله من عمل يكون أعظم أجراً ولكن ليست فيه المداومة على العمل وإن كان يسيراً وأقلّ أجراً. وفي الحديث: «اكلفوا من الأعمال ما تطيقون» رواه البخاري.

والعمل في خدمة الناس عبادة، واليسير من الأعمال للناس مثل اليسير من أعمال العبادة. ولما قيل للرسول ﷺ عن الحولاء بنت تويت: أنها لا تنام، وتقوم الليل بطوله، تعجّب وقال: «لا تنام ؟! خذوا من العمل ما تطيقون، فوالله لا يسأم الله حتى تسأموا»، أو قال: «فإن الله لا يملّ حتى تملّوا»، وقالت عائشة في تفسيره: وكان أحب الدين إليه ﷺ مادام عليه صاحبه.

وكانت حمنة بنت جحش تصلي الليل، حتى إذا أعيت تعلقت بحبل ممدود في المسجد بين ساريتين، فقال ﷺ: «لتصلي ما أطاقت، فإذا أعيت فلتقعد».

وكثير من أهل التصوف من النساء كن يفعلن ذلك، مثل رابعة العدوية. ومقصود العمل في هذه الأحاديث مطلق العمل، ومفهوم الإيمان أنه العمل، أو أن الإسلام الحقيقي والدين الحقيقي هو «العمل»، والإيمان شرطه العمل، والعمل لكي يستمر لابد أن يكون مما يطيقه صاحبه، وليس مطلوب الإيمان ولا الإسلام مجاهدة النفس إلى حد المغالبة. وقوله ﷺ: «عليكم ما تطيقون» أي اشتغلوا من الأعمال ما في

الوسع، وهذا الشعار أسبق من شعار القائلين بالاشتراكية: «من كل حسب جهده إلى كل حسب عمله». فانتبه يا أخي إلى سبق رسولك ﷺ وعظمته كمفكّر!

ومفهوم النص الإسلامي عدم التكلّف، وأن يكون الأجر بحسب استحقاق العمل. وخطاب الرسول ﷺ جاء جامعاً، فقال «عليكم»، مع أنه كان يردّ على سؤال السائلة وهي امرأة واحدة، وربما قد يكون لها نظائر من النساء فكان الأحرى أن يقول «عليكن»، إلا أنه توجه به إلى الجميع: النساء والرجال، والشباب والشيوخ، وقال «عليكم». وقوله ﷺ: "أحب الأعمال" فيه أن الحبّ مراتب، والأعمال مراتب، والأحبّ إليه منها هو الدائم، والديمومة عند الله تعالى مطلوبة، يقول: ﴿الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾ (المعارج ٢٣). وفي مراتب الأعمال العبادية قال ﷺ: «أفضل الأعمال الصلاة، ثم قراءة القرآن في غير الصلاة، ثم التسبيح والتحميد والتهليل والتكبير، ثم الصدقة، ثم الصيام» رواه الديلمي. وجميع الأعمال عند الصوفية إن تميّزت بشيء فهي هذه «الديمومة».

٦٩٢- عموم...

أهل العموم: هم عامة الناس؛ وأهل الخصوص: هم أهل الذوق ـ أي الصوفية ـ أصحاب علوم الحقائق، يختصّهم الله بفتوحاته.

٦٩٣- عنقاء...

يقول أصحاب التصوف الفلسفي: العنقاء هي الهيولى (مادة افتراضية قيل هي الأصل الأول للأشياء)، لأنها لا تُرى كالعنقاء، وهو اسم لطائر خرافي يسمعون عنه ولم يروه؛ والهيولى مثل العنقاء، لا توجد إلا مع الصورة، فهي معقولة فقط وإن تكن مجهولة. وتسمى الهيولى المشتركة بين الأجسام كلها بالعنصر الأعظم أو السيمرغ، بمثابة النفس للعالَم.

٦٩٤- عوارض...

العوارض أربعة: الرزق، والأخطار، والقضاء، والمصائب،؛ وهي من عقبات الطريق الصوفي، فطلب الرزق: ضد التفرغ للعبادة؛ والأخطار: هي أخطار الباطن والظاهر، فأخطار الباطن كالشك، وأخطار الظاهر كالوقوع في المعاصي والرضوخ للفتنة؛ والقضاء: عقبته السخط عليه؛ والمصائب: هي المحن التي يُبتلَى بها العبد في الدنيا.

٦٩٥- عوض...

هو ما لله على الصوفي في العمل، في قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم﴾ (التوبة ١١١)، قيل ليعبدوه

بالحُبّ، لا بالطمع وطلب العوَض. (وهو الخَلَف والبدل، والجمع أعواض).

٦٩٦- عهد...

حفظ العهد: هو الوقوف عند ما حدّه الله تعالى لعباده، فلا يُفقَد حيث أمر، ولا يوجد حيثما نهى.

وحفظ عهد الربوبية والعبودية: هو أن لايُنسَب كمالٌ إلا إلى الربّ، ولا نقصان إلاّ إلى العبد.

والعهد: اسم للجنس، **وعهد الله** هو أوامره ونواهيه، وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ﴾ (الرعد-٢٠)، من صفة أهل الله، ويدخل في عهوده ومواثيقه التزام الفروض وتجنّب المعاصي، وقد نهى الله تعالى في القرآن عن نقض المواثيق في بضع وعشرين آية، وكان الرسول ﷺ يأخذ **العهد بالبيعة**: أن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئاً، وأن يصلّوا الصلوات الخمس، ويسمعوا ويطيعوا، وأن لا يسألوا الناس شيئًا، حتى أن بعض الصوفية ما كان يقدر أن ينحني، فإذا سقط منه شيء لم يسأل أحداً أن يناوله إياه. وقالوا: من أعظم المواثيق في الذِّكر ألا تسأل سوى الله. وكان أبو حمزة الخراساني من كبار العبّاد، وسمع أن الناس كانوا يبايعون الرسول ﷺ على أن لا يسألوا الناس شيئاً، فقال: ربِّ، إن هؤلاء عاهدوا نبّيك، وأنا أعاهدك أنت، ألا أسأل أحداً شيئاً. فخرج حاجاً من الشام إلى مكة، فبينما هو في الطريق من الليل وقد تأخر عن أصحابه لعذر، ثم أتبعهم، سقط في بئر على حاشية الطريق، فلما حلّ في قعره قال: أستغيث لعل أحداً يسمعني، ولكنه تذكّر فقال: إن الذي عاهدته يراني ويسمعني! والله لا تكلمت بحرف للبشر. ومرّ به نفر ورأوا البئر فخافوا أن يقع فيه أحد، فسدّوه بالخشب والتراب. وأراد أبو حمزة أن يستغيث فتذكر عهده مع الله، أن لا يسأل أحداً شيئاً سواه. فسكت وتوكّل، وفجأة وقع الخشب والتراب، وتساند أبو حمزة على الله، وخرج وقد استعان بالخشب، وكأن هناك من كان يكلمه يقول: هات يدك!!! ـ وقيل: هذا رجل عاهد الله فوجد الوفاء على التمام والكمال. ـ وأقول: من قال ذلك، أخطأ استخلاص النتيجة، كما أخطأ أبو حمزة في توكله. ولو فَهِم معنى التوكّل لعلم أنه لا ينافي استغاثته في تلك الحالة؛ كما أن رسول الله ﷺ لم يكن مفارقًا للتوكل بإخفائه خروجه من مكة، واستئجاره دليلاً، واستكتامه الأمر، واستتاره في الغار، وقوله لسُراقة: أخفِ عنّا! والله تعالى قد خلق للصوفي وغير

الصوفى آلة يدفع بها عن نفسه الضرر، وآلة يجتلب بها لنفسه النفع، وأبو حمزة عطّل الآلتين مّدعياً التوكل، وذلك جهل بالتوكل، لأن التوكل اعتمادُ القلب على الله، وليس من ضرورته قطع الأسباب، ولو أن إنساناً جاع ولم يسأل حتى مات دخل النار! ونحن لا ننكر أن يكون الله تعالى قد لطف به، ومدّ إليه يد العون، ولكننا ننكر فعله الذى هو كسبه، وهو إعانته على نفسه التى هى وديعة لله تعالى عنده وقد أمره بحفظها!

٦٩٧- عيد...

ما يعود على القلب من التجلى أو وقت التجلى كيف كان.

٦٩٨- عيسى...

كان النبىّ عيسى عليه السلام تحتذيه الصوفية، فهو لم يعرف النساء وكان يأكل أوراق الشجر، ويلبس الشعر، ويجلس على التراب، ويأوى حيث جنّه الليل، ولا مسكن له ـ وهذا الذى ينسبه الصوفية إلى عيسى خطأ، والذى كان ذلك دأبه هو النبىّ يحيى بن زكريا وليس عيسى! والاثنان عيسى ويحيى يشتركان فقط فى استغنائهم عن النساء.

٦٩٩- عين...

إشارة إلى ذات الشىء الذى تبدو منه الأشياء. قال الواسطى: وقوم علموا مصادر الكلام من أين، فوقعوا على «العين»، فأغناهم عن البحث والطلب: أى أن مقصودهم كان الله تعالى وليس سواه.

وعين الله: هو الإنسان الكامل، لأن الله تعالى ينظر بنظره إلى العالَم كما قال: «لولاك ما خلقتُ الأفلاك»، والإنسان هو عين العالَم، لأنه متحقّق بالاسم البصير، لأن كل ما يُبصَر فى العالم من أشياء فإنما يُبصَر بهذا الاسم. هكذا قال الصوفية.

وعين التحكُّم: هو أن يتصرّف الولىّ بتحدٍّ، إظهاراً لمرتبته لمن يراه.

والعين الثابتة: هى حقيقة فى الحضرة العلمية ليست موجودة فى الخارج بل معدومة، ولكنها ثابتة فى علم الله تعالى.

وعين الجمع: اسم من أسماء التوحيد، فكل الأسماء والصفات تجتمع فيه تعالى: وهو الواحد الذى تجتمع فيه الكثرة.

وعين الحياة: مظهر الحقيقة الذاتية من هذا الوجود، وباطن الاسم «الحىّ» الذى مَن تحقّق به شرب ماء عين الحياة.

وعين الشىء: هو الحقّ.

وعين اليقين: ما أعطته المشاهدة والكشف من اليقين.

* * *

باب الخين

* * *

٧٠٠- غالطون ـ

الغالطون في التصوف ثلاث طبقات: فطبقة غلطوا في الأصول: من قلة إحكامهم لأصول الشريعة، وضعف دعائمهم في الصدق والإخلاص، وقلة معرفتهم، فُحرموا الوصول لتضييع الأصول؛ وطبقة ثانية غلطوا في الفروع: وهي الآداب والمقامات والأخلاق والأحوال والأفعال والأقوال، من قلة معرفتهم بالأصول، ولمتابعتهم لحظوظ النفوس ومزاج الطبع، لأنهم لم يدنوا ممن يروضهم ويجرعهم المرارات، ويوقفهم على المنهج الذي يؤديهم إلى مطلوبهم، فمثلهم في ذلك كمثل من يدخل بيتاً مظلماً بلا سراج، فالذي يفسده أكثر من الذي يصلحه، وكلما ظن أنه قد ظفر بجوهر نفيس لم يجد معه إلا خزفاً خسيساً، لأنه لم يتّبع أهل البصيرة الذين يميزون بين الأشياء والأشكال والأخلاق والأجناس، فعند ذلك يقع لهم الغلط، وتكثر منهم الهفوة والشطط. والطبقة الثالثة كان غلطهم زلة وهفوة لا علّة وجفوة: فإذا تبين لهم ذلك عادوا إلى مكارم الأخلاق، فسدّوا الخلل، ولمّوا الشعث، فعادوا إلى الأحوال الرضية والأفعال السنية.

فمن غلط في الأصول لا يسلم من الضلالة؛ والغلط في الفروع أقل آفة. والأغلاط في الفروع، منها: تفضيل الغنَى على الفقر؛ وفتور الهمة بطول المجاهدة؛ وترك الطعام؛ والإقبال على العزلة؛ والتشبّه بالكبار في الملبس والإشارات؛ واعتقاد التصوّف سماعاً ورقصاً.

والأغلاط في الأصول، منها: الغلط في معنى الحرية والعبودية؛ والغلط في الإخلاص؛ والغلط في تفضيل الولاية على النبوة؛ والغلط في الاعتقاد أن الأصل في الأشياء الإباحة؛ وغلط الحلولية أن الله اصطفى أجساماً حلّ فيها بمعاني الربوبية؛ والغلط باعتقاد الفناء عن البشرية بصفات الألوهية؛ والغلط بادّعاء الرؤية بالقلوب في دار الدنيا؛ والغلط في عين الجمع بتجريد الخلق مما لهم من صفات حتى لايكون مع الله شيء؛ والغلط في معنى الأُنس والبسط فرفعوا الكلفة مع الله ولم يراعوا الحشمة؛ وغلط من قال منهم انهم لما فنوا عن أوصافهم دخلوا في أوصاف الله؛ والغلط في ادّعاء فَقْد الحسّ عن المواجيد حتى لايحسّوا بشيء، ويخرجوا عن أوصاف المحسوسين؛ والغلط فيما ادّعوا عن الروح، مع أنه تعالى قال إنها من أمره ولا يعرفها إلا هو.

٧٠١- غالية ـ

عند الصوفية هم الذين غلوا في

أفكارهم، وهؤلاء كانوا من الشيعة، ومنهم الترابية: نسبةً إلى أبي تراب الذى هو عليّ بن أبي طالب، باعتباره ـ فى رأيهم ـ مؤسّس التصوف، ويُرجَع إليه فى الخرقة؛ والخشبية: قيل سُمّوا كذلك لأن الجهاد كُتب عليهم ولا يريدونه، فكانوا يقاتلون بالخشب!

والكوفة قديماً كانت أكبر مراكز الغلو الصوفى، وحالياً ينتشر الجهل بين الصوفية، وتكثر بينهم أفكار الشيعة المغلوطة والشاذة، والتى تخرج عن دائرة الإسلام. وكان الصوفية الغلاة قديماً أصحاب حِرَف، ولذلك كان منهم التبّان، والخرّاز، والقزّاز، والحدّاد، إلخ، ولا يزال التصوف رائجاً بين صغار الموظفين والعمال، وما يعرفونه منه يندى له الجبين. وصدق من قال:

مَن تحلّى بغير ما هو فيه
فضحهُ لسانُ ما يدّعيه

والغُلوّ ـ لغةً: هو التجاوز عن الحدّ والخروج عن القصد، واصطلاحًا: فى مجال التصوف يُقصد به الذين غلوا فى حقّ أنفسهم وشيوخهم حتى أخرجوهم من حدود الخَلْفة، وحكموا فيهم بأحكام إلهية، فربما شبّهوا أنفسهم أو مشايخهم بالآلهة، وربما شبّهوا الله تعالى بالخَلْق. وهناك حقيقة ينبغى أن نتنبه لها: أن الغلو كان غالبًا من غير العرب من الصوفية، وجاء هؤلاء عن طريق التأثير والتأثر بغير العرب. والغلو من صفات الثقافات غير العربية، وخاصةً فى مجال التصوف، ولعلّ أهمّ ما يميّز الإسلام عن غيره من الأديان التى سبقته، والمذاهب التى تلته، أنه يؤكد فى الكثير من آيات القرآن واحاديث النبىّ ﷺ، على بشرية محمد ﷺ وعبوديته لله، وأحيانًا كان يشقّ على المتصوّفة من العرب، أن يعتبروا النبىّ ﷺ إنسانًا مثلنا، إلى حدّ أن عمر ابن الخطاب لم يصدّق أن الرسول ﷺ يمكن أن يموت مثلنا، وقد ظل مع النبىّ كل سنوات صحبته له وهو يعتقد أنه فوق الموت. وكان غريبًا أن يكون صوفيًا كابن عربى حلوليًا والحاديًا، مع أنه عربى، ولم يكن غريبًا على صوفىّ كالحلاّج أو البسطامى ـ وهما من غير العرب ـ أن يقولا بالاتّحاد والحلول، فذلك يتوافق مع اللاشعور الجمعى الدينى فى ثقافاتهم. ومن الغلو أن يسلك الصوفية مع الشيخ مسلكًا يفوق مسلك الصحابة مع النبى ﷺ؛ والغُلاة قالوا: مَن وصل إلى الشيخ وعرفه ارتفع عند الحرج فى جميع ما يفعل ويقول ووصل إلى الكمال والبلوغ!! ـ وأدهى من ذلك قولهم: إن المعرفة الصوفية إذا تحصّلت للسالك، لم يبق شئ من الطاعات واجبة عليه!! ـ وهذا الكلام اليك على الطاعة المطلقة التى يدين بها المريد

الصوفي لشيخه، حتى أن ذا النون المصري - وهو نوبي وليس عربيًا أن - قال: طاعة المريد لشيخه فوق طاعته لربّه!! ولم يكن لذلك غريبًا نجد فكرة تَمثُّل الله في شيوخ الصوفية، عند الحلاّج مثلاً، في قوله:

سبحان من أظهر ناسوته

سرّ سنا لاهوته الثاقب

ثم بدا لخلقه ظاهرًا

في صورة الآكل والشارب

حتى لقد عاينه خلقُه

كلحظة الحاجب بالحاجب

والحلاّجية إذن ضربٌ من مدارس أصحاب الغلو في التصوّف، وهم أصحاب الإباحة والقول بالحلول، وكان الحلاّج: مُلحدًا زنديقًا يموّه على الناس ويخفي عنهم حقيقته، بمظاهرة كل فرقة من فرق التصوّف التي لا غلو فيها. فتنبّه لذلك يا أخي المسلم!

٧٠٢- غراب...

الغُراب سُمّي كذلك لأنه يُغرب، يعني يبعد كثيراً، ولأن لونه أسود غريب. والغراب عند الصوفية: هو الجسم الكلي، ولمّا كان هذا الجسم هو أصل الصور الجسمية الغالب عليها غَسَق الإمكان وسواده، فكان في غاية البُعد من عالم القدس وحضرة الأحدية، سُمّي بالغُراب الذي هو مثله في البُعد والسواد.

٧٠٣- غربة...

تقال الغُربة في الاغتراب عن الحال. والغربة عن الحق غُربة عن المعرفة بالدَّهَش. والغربة عن الوطن فلا معين إلا الله. والصوفية سوّاحون، يغتربون كثيراً كي يبعدّوا عن المعارف فلا يشغلهم أحد عن الله.

٧٠٤- غرباء...

يُسمّى الصوفية غُرباء، لخروجهم عن الأوطان، وما من بلد فيه من الصوفية أحياءٌ أو أمواتٌ إلا وهم من الغرباء. والصوفي بطبعه ميّال للأسفار، ويسمونه طيّاراً لهذا السبب، وهو غريب وإنْ كان قريباً، لأن قربه من الله تعالى وليس من الأغيار، ويروى عن الرسول ﷺ أنه قال: «أحَبُّ شيء إلى الله الغرباء». قيل وما الغرباء يارسول الله؟ قال: الفرّارون بدينهم». وعاش ابن عربي، والحلاّج، والبسطامي، والشاذلي، والبدوي، والدسوقي، والقنائي إلخ.. غرباء، وماتوا في الغربة!

٧٠٥- غرة...

الغرّة بالله: تكون من الكافرين والعاصين والعُبّاد المتنسكين، وكل من اغترّ بشيء من الأشياء فقد ضيّع أمر الله.

والغرة بالله: إنما هي خدعة النفس بصنيع الله بالعبد، أو ببعض العباد

والعلم، فيغتر كثير من العُبّاد بذلك، ويرون أنهم من المحسنين أو من المهتدين، فيعصون الله عن غرور بأنفسهم، أو يعصون الله على علم ويرون أنه مغفور لهم ناجون من العذاب.

وغِرّة الكافر: أن يُخدَع عن نفسه بظاهر الدنيا عن الآخرة، وهو مضمون قول الله عز وجل: ﴿فلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ (لقمان٣٣).

واغترار الكافرين عن الله: هو ما رأوه من فعل الله بهم وإكرامهم بالدنيا ورفعتها وسعتها، فظنوا أن ذلك لمنزلتهم عند الله، وفِرْقةٌ منهم شكّاك فى الآخرة.

٧٠٦- غرور...

أصناف المغترين كثيرة، فمنهم العلماء، ومنهم العبّاد، ومنهم المتصوّفة، ومنهم أرباب الدنيا وأصحاب الأموال.

والمتصوّفة المغترون فِرَق، فمنهم من اغترّوا بزيّهم، ورضوا بمجرد الزىّ والآداب الظاهرة، وظنوا أن الأمر إلى هذا الحد وكفى؛ ومنهم من زاد فلبس المرقّعات واغتر بظاهره عن باطنه؛ وفرقة تلقّنت ألفاظ القوم فى علوم المعرفة فاغترّت بمعرفتها وادّعت المعرفة؛ ومنهم من وقع فى الانخلاع من فرط غروره، زاعماً أنه ليس فى حاجة إلى إتيان مسالك الصوفية، وكأن فعله لغيره وليس لنفسه؛ **ومنهم من انبسط من حاله فانبسط من جميع أنواع النعَم، لا** يفرّق ولا يميّز، ولا يدرى أن التكثير من الحلال يخالف شأنه فكيف من الحرام؟ **ومنهم من فُتح له الطريق فلما أحسّ بنسيم** المعرفة اغتر ووقف حيث هو وظن أنه بذلك قد وصل.

وفرقة أخرى جاوز غرورهم كل هؤلاء، ولم يلتفتوا إلى ما يفيض عليهم من الأنوار فى الطريق، ولا إلى ما يتيسر لهم من العطايا الجزيلة، وجدّوا فى المسير حتى قاربوا، فوصلوا إلى حدّ القربة إلى الله عز وجل، فظنوا أنهم وصلوا فغلطوا.

٧٠٧- غشاء...

الغشاء والغشاوة أيضاً، هما ما يَرْكَب وجه مرآة القلب من الصدأ، ويكلّ عين البصيرة ويعلو وجه مرآتها.

٧٠٨- غشية...

الغَشْيَة: غيبة القلب بما يرد عليه ويظهر ذلك على ظاهر العبد.

٧٠٩- غضب...

من الأدب الشعبى الصوفى يقال: لعل الغضب أصله من النار التى خُلق منها الشيطان. ويقول الرسول ﷺ: ما غضب أحد إلا أشفى على جهنم.

وللناس فى الغضب ثلاث درجات: أولهما التفريط وهو فقد هذه القوة أو

ضعفها، وذلك عدم الحمية وهو مذموم، وهو المراد بقول الشافعي: من استُغضب ولم يغضب فهو حمار.

والمطلوب من الصوفي عند الغضب: الاعتدال فيه وهو الدرجة الثانية من الغضب. والدرجة الثالثة عند المتصوفة وليست عند الصوفية، وهي درجة الإفراط، وهو أن يخرج المرء عن الحدّ فيغلب صاحبه، بحيث لا يدخل تحت سياسة العقل وإشارة الشرع، فيصير المرء معه كالمضطر، وهذا مذموم.

والغضب لا يمكن إزالته بالكلية، فيمكن أن يُقلّل ويُجاهَد، بأن يعرف العبد نفسه ويعلم خستها، وأنه لا ينبغي لها الاستعلاء مع تلك الخسّة والدناءة.

٧١٠- غلبة...

حال تبدو للعبد، لا يمكنه معها ملاحظة السبب ولا مراعاة الأدب، ويكون مأخوذاً عن تمييز ما يستقبله، ويكون الذي غلب عليه خوف أو هيبة أو إجلال أو حياء أو بعض هذه الأحوال.

وقيل «صاحب الغلبات» له هجوم، وذلك عند قوة رغبة الطالب، إذا لاحت له أعلام المزيد في حالة طلبه المطلوب، فلو ظن أن مطلوبه وراء بحر، سَبَحَه، أو في تيه، سَلَكَه بالهجوم، عند غلبات الإرادة وقوة سلطان المطالبة عليه.

٧١١- غم...

قالوا إن سبب الغَمّ الذي قد يخالط المزاج الصوفي ولا يُعرف له سبب، أن الروح تتحفظ الذنوب على النفس، وتنساها النفس، فإذا وجدت الروح صحواً من النفس، عرضت عليها ذنوبها فيغشاها الانكسار، وهو الغمّ الذي يجده الصوفي أحياناً ولا يدري من أين دخل عليه.

٧١٢- غنا...

الغنا: هو سكون القلب بموعد الله، والرضا بالموجود، والصبر على المفقود، وهو قوت القلوب مع القلة، وسرّ الحال وقطع الآمال وترك القيل والقال.

والافتقار إلى الله يوجب الغنا بالله، وهما حالان لا يتم أحدهما إلا بتمام الآخر.

وعلامة الغنا: أن الغَنيّ لا يكون غناه للدنيا بل للدين؛ والغَنيّ يكون محموداً في غناه، إذا لم يتعلق قلبه بما له دون الله.

والغنا الجامع: هو الغنا عن الغنا، لأنك إذا استغنيت بالغنا، كنت محتاجاً إليه من أجل استغنائك، وإذا كنت غنياً بالله عزّ وجلّ - لا بالغنا - تكون مستغنياً عن الغنا وغير الغنا.

٧١٣- غناء...

الصوفية يحبون الغناء وإنشاد الشعر،

وكان النبيﷺ يحبهما، ومن الغناء ما هو ماجن، وما يتضمن الحكمة وتُستحسن معانيه شرعًا وطبعًا، والصوفية أغلبهم يقولون الشعر وينشدونه، وكثير منهم من الشعراء، ولهم أغان وأناشيد؛ وكل الطُّرق الصوفية تقوم على الإنشاد في الحَضْرات، فكذلك تفعل ـ النقشبندية، والمهدية، والميرغنية، والأحمدية، والبكتشاية، والبيرامية، والمولوية، والبيومية، والجيلانية، والحفنوية، والدرديرية، والجعفرية، والرفاعية إلخ. والغناء المذموم كالشعر المذموم، لا يأتيه الصوفية، ولا يحلّون سماعه، وأصحابه ملومون، يتكلمون بالباطل. وحُسن الغناء كحُسن الشعر، وحُسن الكلام عمومًا، وحُسن جَرْسه. وفي العادة يكون المُغنّ أو المُنشد الأصلي، ممن يحسنون الغناء والإنشاد، صوتًا ونطقًا، ويردّ عليه مَن في الحَضْرة بلازمات يكررونها؛ ومن المنشدين من يكون له صوت جهير. وحتى في حضرات النساء، تتولى توجيه المنشدات أو المغنيات أحسنهن وأقواهن صوتًا وقُدرةً على التعبير. وقد يصاحب الغناء الضَّرب على الدُّفوف، والنفخ في المزمار، وقد يَحْمَى الغناء وتصاحبه الصَّفْقات، ويزيد تمايل الحاضرين على نغمة الغناء أو الإنشاد، وقد تكون هناك جلسات خاصة يُعزَف فيها قديمًا على آلة الطنبور، أو العود حديثًا. وينتقد معارضو التصوّف جلسات السماع عند الصوفية، وما فيها من رقص وغناء، حتى المحبّون للتصوّف «العادي»، انتقدوا ذلك فيه ـ كابن تيمية. ولا نرى في ذلك وجهًا للإنكار طالما كان الشعر حسنًا، والغناء حسنًا.

٧١٤- غَنِيّ...

عند الصوفية، الغَنِيُّ بالذات: ليس إلا الحق، إذ له ذات كلّ شيء. والغَنِيّ من العباد: مَن استغنى بالحق عن كل ما سواه، لأنه إذا فاز بوجوده، فاز بكل شيء، بل لا يَرَىَ لشيء وجوداً ولا تأثيراً، فظفر بالمطلوب واستبشر بشهود المحبوب.

٧١٥- غوث...

هو القطب حينما يُلتجأ إليه، ولا يسمى غَوْثاً في غير ذلك الوقت.

وفي الميثولوجيا الصوفية رواية تقول: إن الغوث اسمه عبد الله، وهو على رأس رجال الله. وإذا مات الغوث حلّ محله واحد من العُمُد. وقيل مسكن الغوث بمكة. وقيل كان الجيلاني غوثاً ولم يكن يسكن مكة بل بغداد. (انظر أيضًا القطب والعُمدة).

٧١٦- غيب...

هو الأمر الخفيّ الذي لا يدركه الحسّ ولا تقتضيه بديهة العقل، وهو قسمان: قسمٌ لا دليل عليه، لا عقلي ولا سمعي،

وهو المعنيّ بقوله تعالى: ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا﴾ (الأنعام ٥٩)، وقسمٌ ينصبّ عليه الدليل العقلي أو السمعي، كالصانع وصفاته، واليوم الآخر وأحواله، وهو المراد بالغيب في قوله تعالى ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ (البقرة ٣). والصوفية يؤمنون بالغيب، بالمعنيين وهذا الإيمان قوام مذهبهم.

ورجال الغيب: هم دعوى الصوفية من الشيعة أن لله عباداً أوكل بهم شؤون العالم، ويُشكّلون ما يسمى حكومة الصوفية، وهي حكومة باطنية، أي مستترة أو خفيّة ومن أعضاء هذه الحكومة: الأبدال والنقباء، والقطب إلخ، فالبدلاء مثلاً عددهم فيها سبعة، أو أربعون؛ والأمناء: سبعة؛ والخلفاء من الأئمة: ثلاثة؛ والواحد هو القطب: وهو يعرف كل مجموعة للأدنى منها، وخُلُق هؤلاء على خُلُق الأنبياء: إبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمد؛ سلام الله عليهم؛ ورجال الغيب على مراتبهم سادات الخَلق، واسمهم البدلاء لأنه لو غاب أحدهم كان له البديل.

سومن رجال الغيب: النجباء: وهم أربعون، يتصرّفون في حظوظ غيرهم، ولذا كان اسمهم النجباء.

ومن رجال الغيب: النقباء المطّلعون على خفايا الضمائر، وهم ثلاثمائة؛ وقيل: ثلاثة؛ وقيل أربعون؛ ومعنى النقيب: شاهدُ القوم وعرّيفهم وضمينهم وسيدهم.

والقطب: هو صاحب أعلى الدرجات في حكومة رجال الغيب، وهو موضع نظر الله من العالم في زمان، ويسمى بـ «الغوث»، باعتبار التجاء الملهوف إليه.

وشيخ الغيب، ويُسمى أيضاً ميزان الغيب: فعندما يستغرق السالك ذكر الله، وتتطهر نفسه وتزيّن بالمحمودات، تتنزّل عليه الطمأنينة، وتلفه السكينة، فيتنوّر قلبه وسمعه وعيناه، وتتفتح بصيرته، ويصبح السالك نورانياً، فيستحق حينئذ أن يسمى شيخ الغيب، لأن نيران الذكر تحرق لباس الوجود فيه، فيغيب عمّا حوله ويتحوّل إلى سيّار يسري في الكون، ويحيط بغيبه، ويفهم آياته، ويعمل على حفظه، ولذا يسمى ميزان الغيب.

٧١٧- غيبة...

الغيبة في التصوف المقصود بها «غيبة القلب» عن علم ما يجري من أحوال الخَلق، لاشتغال الحسّ بما ورد إليه. وقيل: الغيبة هي أن يغيب الصوفي عن حظوظ نفسه فلا يراها، لأنه غائب عنها بشهود ما للحقّ.

ويُروىَ أن ابتداء حال أبي حفص الحدّاد

فى ترك حرفته، أنه كان على حانوته، فقرأ قارئ آية من القرآن، فورد على قلب أبى حفص واردٌ تغافل عن إحساسه، فأدخل يده فى النار، وأخرج الحديدة المحماة بيده، فرأى منه ذلك تلميذٌ له، فلم يزل به حتى نبّهه، فنظر أبو حفص إلى ما ظهر عليه، وترك الحرفة لذلك، وقام من حانوته. فهذه هى الغيبة. وعند الصوفية من الشيعة هناك الفترات بين الأئمة، فتكون «غيبة صغرى»، لأنه لا يجوز أن تخلو الأرض من حُجّة، فإذا مات آخر الأئمة فذلك يعنى الإيذان ببدء «الغيبة الكبرى»، وهى التى ما زالت قائمة كما يقولون.

٧١٨- غيب...

كل ما ستره الحقّ منك لا منه. والحقّ تعالى له عوالم كثيرة، وكل عالَم ينظر الله إليه بواسطة الإنسان يسمى شهادة وجودية، لان الإنسان يشهد بوجوده عيانًا؛ وكل عالَم يُنظَر إليه من غير واسطة الإنسان يسمى غيباً، لأنه يغيب عن بصر الإنسان ومن ثم بصيرته وعلى ذلك فالغيب على الحقيقة قد جعله الله نوعين: فغيبٌ جعله مُفصّلاً فى علم الإنسان؛ وغيبٌ جعله مُجمَلاً فى قابلية الإنسان، والأول يسمى غيباً وجودياً، وهو كعالَم الملكوت، والثانى يسمى غيباً عدمياً، وهو كالعوالم التى يعلمها الله تعالى ولا نعلمها، فهى عندنا بمثابة العدم، فذلك معنى «الغيب العدمى».

و«الغيب المكنون»، و«الغيب المصون»: هو السرّ الذاتى وكنهه الذى لا يعرفه إلا هو الله، ولهذا كان هذه الغيب مصوناً عن الأغيار، ومكنوناً عن العقول والأبصار.

وغيب الهوية، وغيب المطلق: هو ذات الحقّ باعتبار اللاتعين.

٧١٩- غَيْرة...

هى كراهية مشاركة الغير، وهذه «غَيْرة البشرية»، وإذا وُصِف الحقّ سبحانه بالغيرة، فمعناه أنه لا يرضى بمشاركة الغير معه فيما هو حقٌ له من طاعة عبده، وهذه هى «الغيرة الإلهية».

وفى الحديث عن أسماء بنت أبى بكر أن رسول الله ﷺ قال: «لا شىء أغير من الله»؛ وعن أبى هريرة قال: «إن الله يغار، وغيرة الله أن يأتى المؤمن ما حرّم الله». وعن عائشة أنه ﷺ قال: «يا أُمة محمد! إنه ليس أحدٌ أغْيَر من الله عزّ وجلّ، أن يزنى عبده أو أمَتُه!».

والغيْرة من التغيّر - وهذا فى حقّ الآدمى، وكما يقول ابن عربى: التغيّر

محال على الله فيجب تأويله. ولذلك كان أحسن ما قيل في معنى الغيرة المنسوبة إلى الله، أنها: أنْ يأتي المؤمن ما حرّم الله.

وفي الحديث عند أبي داود والنسائي وأحمد والديلمي: أن رسول الله ﷺ قال: «من الغيرة ما يحب الله، ومنها ما يبغض الله، فالغيرة التي يحب الله الغيرة في الريبة، والغيرة التي يبغض الله الغيرة في غير ريبة».

والغيرة من لوازم المحبة، ويوصف بها المحبّ والمحبوب، وغيرة كل واحد منهما على نفسه وعلى حبيبه، فأمّا «غيرة المحبّ على نفسه»: فلئلا يكون فيها نصيب لغير محبوبه وإن دقّ، بل يرى نفسه أهلاً لحبّ حبيبه، حتى لايحبه بشيء هو غيره، بل يحبه به لا بسواه، ولهذا، يفنى نفسه عند مشاهدته.

وأما «غيرته على حبيبه» فلئلا يتصف بمحبته من ليس من أهلها من أهل الدعاوى والمخارق، ومن لم تكن له قَدَم راسخة في الحقائق.

وأما «غيرة المحبوب على نفسه»: فتنتشئ من علمه بكمال ذاته وبدائع جمال صفاته وما ينفرد به من نعوت الجلال والكمال، دون افتقار إلى غيره واحتياج إلى سواه، وهذا لايليق إلا بالحقّ تعالى.

ومن أعجب أحوال المحبة أن يغار المحبوب على قلبه أن يلتفت لسوى محبوبه، وفاءً لوده وحفظاً لعهده، فلا يَخُصُّ بأسراره سواه، ولا ينيل غيره ما ينيله من تقريبه واصطفائه، إذ لا يستوى مَن بذَل نفسه في حقّ محبوبه ومَن بخَل بها فيما يروم من مطلوبه.

٧٢٠- غين...

قال الرسول ﷺ: «إنه ليُغان على قلبي فأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم مائة مرة».

وقال الصوفية في الغَيْن الذي كان يعارض قلب النبيّ ﷺ وكان يتوب منه: إنّ مثله مثل المرآة، إذا تنفّس فيها الناظر ينقص من ضوئها، ثم تعود إلى حالة ضوئها.

وقول الصوفية: الغَيْن دون الرَّيْن: أنّ الغين: حجاب رقيق يزول بالتصفية ونور التجلّي لبقاء الإيمان معه؛ والرَّيْن: حجاب كثيف يحول بين القلب والإيمان، ولذلك قالوا: الرَّيْن هو الاحتجاب عن الشهود مع صحة الاعتقاد، وهو للكافرين يعترى قلوبهم؛ بينما الغَيْن للمقرّبين.

* * *

باب الفاء

* * *

٧٢١- فؤاد...

الجمع أفئدة، من فَأَد، نقول فَأَدُه الخوف أى أصاب قلبه الخوف؛ وعند الصوفية: ربما يعنى الفؤاد القلب، وربما يعنى العقل، وربما يعنى ما هو خلاف العقل والقلب، والفرق بين الثلاثة: العقل، والقلب، والفؤاد: أن العقل: مَلَكة إدراك؛ والقلب: ملكة إحساس؛ والفؤاد: ملكة شعور؛ والثلاثة جواهر مضيئة خلقها الله تعالى، كُلاً فى مكانه، فالعقل مكانه الدماغ؛ والقلب مكانه جهاز القلب فى الصدر؛ والفؤاد مَلَكة كلّية فيها من العقل والقلب مما؛ فالعقل يكون عند دَرْك المدركات، والتمييز بينها، والإحاطة بكنهها؛ والقلب يكون عند درك المحسوسات من ألم ولذة؛ والفؤاد يكون عند درك المشاعر والتمييز بين المستحسنات والمستقبحات. وفى القرآن: أن دليل العقل عند المؤمن: إيمانه بالله الواحد، ورفضه الشّرك والكفر، وإقباله على الطاعات والعبادات، وتقبُّله للنصح والإرشاد؛ بينما دليل اللاعقل عند الكافر والمُشرك: كُفرهما وشركهما. وبينما يوصف العقل بالبلادة أو النجابة، يوصف القلب بالفظاظة أو الرِّقة، وبالسلامة والإنابة. والنبوة مكانها القلب لا العقل؛ والرسالات تَتنزلّ على القلوب. والفؤاد يكذِّب ويصدِّق؛ والفؤاد قد يَفْرَغ من المشاعر، مثلما يفرغ القلب من الأحاسيس، ومثلما يفرغ العقل من المُدرَكات؛ والأفئدة الهواء: هى الخاوية الخربة، لا خير فيها ولا عقل. والصوفية قومٌ أفئدتهم ملآنةٌ يَعمُرها الإيمان.

٧٢٢- فاتحة...

قيل: فاتحة الكتاب، وهى السبع المثانى، هى السبع صفات النفسية التى هى: الحياة، والعلم، والإرادة، والقدرة، والسمع، والبصر، والكلام. يقول النبىّ ﷺ: «إن الله قسم الفاتحة بين عبده وبينه»، إشارةً إلى أن الوجود منقسم بين الخَلق والحق، فالإنسان هو الخلق باعتبار ظاهره، وهو الحق باعتبار باطنه، فالوجود منقسم بين باطن وظاهر، والفاتحة بما دلت عليه إشارة إلى هذا الهيكل الإنسانى الذى فتح الله به أقفال الوجود، وانقسامها بين العبد وربّه إشارة إلى أن الإنسان ولو كان خلقاً فالحق حقيقته، فكما أنه حاوٍ لأوصاف العبودية، كذلك هو حاوٍ لأوصاف الربوبية، لأن الحق حقيقته، فهو الحق والخلق. وقد قسم الله تعالى الفاتحة بين

الثناء على الله وبين الدعاء للعبد، فالعبد ينقسم بين كمالات إلهية حُكمية غيبية وجودية، وبين نقائص خَلقية غيبية شهودية، فهو فاتحة الكتاب، وهو السبع المثاني.

٧٢٣ - فارسية...

طريقة فارس الدينوري الخراساني، فقد اجتمع جمعٌ من تلاميذ الحلاّج بعد قتله حول فارس نحو سنة ٩٥٠م، وهو أيضاً أتهم بمذهب الحلول وبالقول بتناسخ الأرواح.

وطريقة فارس، وكذلك طريقة الحلمانى المسماة الحلمانية - يطلق عليهما كذلك اسم الطريقتين المطرودتين، لقولهما بالحلول.

٧٢٤ - فاضل ومفضول...

هذه الفكرة دخلت التصوف عن طريق ابن عربى كما جاء فى الفتوحات المكية، وعالجت مسألة الخلافة بين عليّ وأبى بكر وعمر وعثمان، على اعتبار أن علياً كان الأفضل، ولكن الخلافة فُوِّضت إلى الفاضل: أبى بكر، ثم عمر، ثم عثمان، لمصلحة رآها المسلمون.

٧٢٥ - فانٍ...

الفانى عمّا له، باقٍ بما للحق، والمفارقُ مجموعٌ، لأنه لا يشهد إلا الحق؛ وليس الفانى بالصعق، ولا المعتوه، ولا الزائل عنه أوصاف البشرية، فيصير مَلكاً أو روحانياً، ولكنه مَن فَنِىَ عن شهود حظوظه. وهو أحد عينين، فإما لم ينصّب إماماً ولا قدوة، فيجوز أن يكون فناؤه غيبة عن أوصافه، فيرى بعين العناهة وزوال العقل لزوال تمييزه، ومن هؤلاء هلال الحبشى، عَبْدُ المغيرة بن شعبة، وقد نبّه عنه الرسول ﷺ، وأُوَيْسُ القَرَنى فى عهد عمر ابن الخطاب، وعليان المجنون، وسعدون، وغيرهم، أو يكون إماماً يُقتدَى به، ويُربَط به غيره ممن يسوسه، يُنقَل إلى حالة الفناء، فيكون تصرفه بأوصاف الحق لا بأوصاف نفسه.

والصوفية يشيرون بالفناء: إلى سقوط الأوصاف المذمومة؛ وبالبقاء: إلى قيام الأوصاف المحمودة، فمن فَنِىَ عن أوصافه المذمومة ظهرت عليه الصفات المحمودة، ومن غلبت عليه الخصال المذمومة استترت عنه الصفات المحمودة. والتارك لمذموم أفعاله بلسان الشريعة يقال أنه فَنِىَ عن شهواته، فإذا فنى عن شهواته بقى بنيّته وإخلاصه فى عبوديته. ومن زهد فى دنياه بقلبه، فنى عن رغباته، فإذا فنى عن رغباته فيها، بقى بصدق إنابته. ومن

عالج أخلاقه ونفى عن قلبه الحقد والغل والكِبْر والعُجب وأمثالها يقال إنه فنى عن سوء الخُلق، فإذا فنى عن سوء الخُلق فإنه يبقى بالفتوة والصدق. ومن استولى عليه سلطان الحقيقة حتى أنه لا يشهد من الأغيار لا عيناً، ولا أثراً ولا رسماً ولا طللاً، يقال إنه فنى عن الخلق وبقى بالحق.

ويحذر المشايخ من الغلط فى الفناء، كمن قال إنه عند فنائه عن أوصافه قد دخل فى أوصاف الحق، فأضاف نفسه بجهله وغروره إلى معنى يؤدى به إلى الحلول أو إلى مقالة النصارى فى المسيح عليه السلام.

وصحيح معنى الفناء أن العبد إذ يخرج عن أوصافه ليدخل فى أوصاف الحق، ويخرج من إرادته ليدخل فى إرادة الحق، وبذلك ينقطع بالكلية إلى الله تعالى، وهو منه نزولٌ بمنزلٍ من منازل أهل التوحيد.

٧٢٦- فتح...

عند الصوفية، الفتح القريب: هو ما انفتح على العبد من مقام القلب، وظهور صفاته وكمالاته عند قطع منازل النفس، وهو المشار إليه بقوله تعالى: ﴿نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾ (الصف ١٣).

والفتح المبين: هو ما انفتح على العبد من مقام الولاية وتجليات أنوار الأسماء الإلهية المفنية لصفات القلب وكمالاته، وهو الفتح المشار إليه بقوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا * لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ (الفتح ١/ ٢)، يعنى من النفسية والقلبية.

والفتح المطلق: هو أعلى الفتوحات وأكملها، وهو ما انفتح على العبد من تجلى الذات الأحدية، والاستغراق فى عين الجمع بفناء الرسوم الخلقية كلها، وهو المشار إليه بقوله: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ (النصر ١).

والفتوح: كل ما يُفتَح على العبد من الله تعالى بعد ما كان مغلقاً عليه من النِعَم الظاهرة والباطنة، كالأرزاق والعبادات والعلوم والحقائق والمكاشفات وغير ذلك. وفتوح العبادة فى الظاهر، وفتوح المكاشفة فى الباطن.

ومقام صاحب فتوح العبادة: الصدق فى جميع أقواله وحركاته وسكونه، يتنزّل عليه فتكون له فى قلبه حلاوة. وهناك فتوح الحلاوة: وهو إحساس فى الباطن، وهى حلاوة معنوية فى غير مادة محسوسة ولا تشبه حلاوة حصول العلوم المعشوقة ولا حلاوة العسل، بل هى أعلى وأجلّ وأثرها فى الحسّ أعظم، ولا تُحصّل إلا بالعطف الإلهى.

والفتوحات المكية: قيل هى أعظم وأشهر ما كتب الحكيم الإلهى، والشيخ الأكبر، محيى الحق والدين، والبحر الزاخر فى المعارف، العارف بالله محيى الدين بن عربى، جمع فيه علوم الدين كلها وأورد فيه الكثير من جوانب حياته وتطوراته الروحية، ويحتوى على خمسمائة وستين فصلاً، ويعتبر الفصل التاسع والخمسون بعد الخمسمائة خلاصة الكتاب.

وحزب الفتح: دعاه لأبى الحسن الشاذلى، ويسمى أيضاً حزب الأنوار، ومنه : الله لا إله إلا هو، عليه توكلت وهو ربّ العرش العظيم. لا إله إلا الله نور العرش. لا إله إلا الله نور لوح الله. لا إله إلا الله نور قلم الله. لا إله إلا الله نور رسول الله. لا إله إلا الله نور سرّ ذات رسول الله. لا إله إلا الله آدم خليفة الله.

٧٢٧- فترة...

هى خمود نار البداية المُحرقة لدى السالك، بالرجوع إلى الطبيعة وإلحاحاتها على بدنه، وإعاقاتها لذلك للقوى الطلبية عنده.

٧٢٨- فتق...

يقال فتق الشىء شقّه، والفتق عند الصوفية: هو ما يقابل الرتق من تفصيل المادة المطلقة بصورها النوعية، أو ظهور كل ما بطن فى الحضرة الواحدية من النسب الأسمائية، وبروز كل ما كمن فى الذات الأحدية من الشئون الذاتية، كالحقائق الكونية بعد تعينها فى الخارج.

٧٢٩- فتوة...

الفتوة هى المروءة، وعند **الصوفية**: هى أن تُؤثِر الخَلق على نفسك بالدنيا والآخرة، وأن لا ترى لنفسك فضلاً على غيرك، وأن تكفّ الأذى وتبذل الندى وتترك الشكوى.

والفتوة أدخلها الفرس إلى التفكير الصوفى الإسلامى بوصفها عقيدة صوفية تطبيقية، تمثل المَثَل الأعلى للخُلق الصوفى، وتقدّم صورة مُثلى للتضحية وبذل النفس، وأدخلت الدولة منظمات الفتوة رسمياً، تحت إشرافها سنة ٥٧٨ هـ (١٢٨٢م)، وقد رأسها أول مرة الخليفة الناصر لدين الله العباسى، وجعل علىّ بن أبى طالب: المثل الأعلى للفتيان وهو شيخهم الروحى، ووزّع الخليفة الناصر منشوراً بهذا المضمون. وكان ضمن أهداف هذا التنظيم، ضرب الروافض بالفتيان أو بالفتوات. وفى التصوف المصرى يقال عن السيد البدوى: «أبو الفتيان».

والفتى من الفتوة : والفتوة هى الإيمان

والهداية. يقول الحقّ سبحانه: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾ (الكهف ١٣).

والفتية: هم الشباب والأحداث، وأهل الكهف صاروا فتية لمآ آمنوا بلا واسطة، ورأس الفتوة الإيمان. والفتى كما يقول الجنيد: هو من يبذل الندى، ويكفّ الأذى، ويترك الشكوى. والفتوة بالمعنى الديني: احتساب المحارم، واستعجال المكارم. وفتية أهل الكهف لمّا صحّت نيّاتهم زادهم الله هدى، أي إيماناً، فربط على قلوبهم، وصاروا لا يخافون أن يقولوها جهاراً نهاراً: لا إله إلا الله.

والفتى كما قال الله تعالى عن إبراهيم: ﴿سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾ (الأنبياء ٦٠). وفتوة إبراهيم عليه السلام: كَسْرُه لأصنام الشِّرك الحسّية، وأصنام النفس المعنوية.

والفتى عند صوفية الشيعة: هو عليّ بن أبي طالب، باعتبار نشأته في كنف الرسول ﷺ، وأنه حارب حروبه، وانتصر للحقّ منذ حداثته. ولذا قيل فيه:

لاسيف إلا ذو الفقا
ر ولا فتى إلا عليّ

والفتيان من السالكين: أصنامهم الهوى والشيطان والدنيا والعُجب. وصنم كل إنسان نفسه، فمن خالف هواه فهو فتى على الحقيقة.

والفتوة عند الفيروزابادي من «الفتاء» بمعنى الشباب، والفتى بمعنى الشاطر، وهو الذي أعيا أعداءه ذكاءً، وبمعنى العيّار، وهو الذكي كثير التطواف. والشُطّار كانوا صوفية ينتصرون للفقراء، وكانوا أصحاب فتن وصولات وجولات.

وعند ابن الجوزي: العيّارون يسمون الفتيان؛ وكان العرب يقولون فتى الفتيان على بعضهم؛ وفتى العشيرة - وكان يُسَمَّ به خالد بن الوليد؛ وفتى العرب وكان يسمى به محمد بن عبد العزيز بن زرارة الكلابي، وكان يقال فتى قريش: لمصعب بن الزبير؛ وفتى العسكر: لأبي عبد الله محمد بن منصور بن زياد الغسّاني؛ وشيخ الفتيان: للفضيل بن عيّاض؛ وسيد الفتيان: للحسن البكري.

ويقال إن الفتى هو الذي شرب ماء الفتوة. وكان سعيد بن جبير من الفتيان وقد قُتل بأمر الحجّاج، وكذلك إبراهيم ابن شريك قتله الحجّاج صبراً.

والفتوة عند عثمان المكّي هي حُسن الخلق؛ وعند الجُنَيد: كفّ الأذى، وبذل الندى.

وكان الفتى يرتدي ثوب الزعفران أو

العُصفر؛ وكان إبراهيم بن يزيد النخعي يلبسه. والفتيان تاريخياً ـ كانوا قبيلة من بجيلة، منهم ربيعة الفتياني.

ولابن الرسول رسالة فى الفتوة يبدؤها فيقول: الحمد لله معزّ الفتيان والفتوة، وجاعلها إرث الإمامة والنبوّة، وجَعَل لأهلها أنساباً.

ولما ظهر الغلوّ بين شيعة علىّ، باعتباره فتى الفتيان، عارضتهم جماعة أطلقوا على أنفسهم اسم «الفتوة النبوية»، كنقيض للفتوة العلوية التى نسبها الغلاة لعلىّ. ومن الفتيان المذكورين من الصوفية العلوية: علىّ ابن الحسين، وكان يصل المساكين، ويحمل على ظهره أجولة الزاد، حتى تركت آثارها على ظهره. وروى جعفر الصادق حديث نسبه للنبىّ ﷺ: «لفتيان أمتى عشر علامات». قيل وما تلك العلامات يارسول الله ؟ قال: «صدق الحديث، والوفاء بالعهد، وأداء الأمانة، وترك الكذب، والرحمة باليتيم، وإعطاء السائل، وبذل النائل، وإكثار الصنائع، وقِرَى الضيف. ورأسهن الحياء». وقال جعفر عن هذه العلامات لفتيان الصوفية: إن الفتوة والمروءة طعامٌ موضوع، ونائلٌ مبذول، واصطناعٌ معروف، وأذى مكفوف. وقال: إن أُعطينا آثرنا، وإن مُنعنا شكرنا.

وكانت حركة العيّارين فى الكوفة سنة ٦٠٤هـ (١٢٠٧م) أصل جماعات الفتوة؛ والعيّار هو الصوفى الكثير التجوال والتطواف، ويتردد بلا عمل، يُخلى نفسه لهواها. ومضمون حركة العيّارين اجتماعى، ومجال عملها الطبقات الفقيرة الكادحة. وكان لكل جماعة عرّيف يرأس كل عشرة منهم، وزاد عدد العيّارين فى عهد الخليفة المأمون فى بغداد حتى وصل إلى خمسين ألفاً، يرتدون لباساً خاصاً يميّزهم، وشعارهم: «الفتى لايزنى، ولا يكذب، ويحفظ الحُرُم، ولايهتك ستر امرأة». وبذلك صارت الفتوة تصوفاً إيجابياً، أو تصوفاً اجتماعياً.

وكان الصوفى الكبير حاتم الأصم من الفتيان، وكان يعلّم مريديه إطعام الطعام إذا حضر الضيف، وتجهيز الميّت إذا مات، وتزويج البِكر إذا أدركت، وقضاء الدَّين إذا وجب، والتوبة من الذنب إذا أذنب.

وصنّف حاتم الجهاد ثلاثة : جهادٌ فى سرّك مع الشيطان حتى تكسره؛ وجهادٌ فى العلانية فى أداء الفرائض حتى تؤدّيها كما أمر الله؛ وجهاد مع أعداء الله فى غزو الإسلام.

وعند الصوفى الكبير عمرو بن سلم الحدّاد النيسابورى، كان يثبت فتوته بأن يُدخل يده فى النار ويُخرج الحديد منها، وقال: الفتوة أداء الإنصاف، وحُسن أدب الظاهر والباطن، وتؤخذ استعمالاً ومعاملة لا كلاماً.

وكان الملامتية من أبرز فرق الفتيان، وحصروا آدابها عند الصوفية فى: الاعتذار كما اعتذر آدم؛ والصلاح كما طلبه لنفسه نوح؛ والوفاء الذى اتّصف به إبراهيم؛ والصِّدق الذى كان لإسماعيل؛ والإخلاص الذى ميّز موسى؛ والصبر الذى تحلّى به أيوب؛ والبكاء الذى كانت عليه أحوال داود؛ والسخاء الذى عُرف به محمد ﷺ ، والرأفة التى كان عليها أبو بكر؛ والحمية التى أظهرها عمر؛ والحياء الذى كان دأب عثمان؛ والعلم الذى اشتهر به علىّ.

ومن الفتيان البارزين: الصوفى حمدون القصّار، المتوفى سنة ٢٧١هـ (٨٨٤م). واعتبر الفتيان هم الزُّهّاد والصوفية الحقيقيون. وقال ابن عربى: الفتيان تلامذة الملامتية، والملامتية شيوخهم، لا تُظهر ظواهرهم ما فى بواطنهم، ويتقلّب تلامذتهم فى أطوار الرجولية.

وللفتيان قُطب، وخلفاء يشملون الجهات الأربع. وفى التصوف التركى فإن «فتى» تساوى «أخى»، تقول: أخى شادى، وأخى ميرمير، وكانت فرقة الصكندرية من الصوفية الأخوية ويسمونها فرقة الفتيان، ومؤسّس الأخّيّة: صدر الدين موسى الأردبيلى (٧٠٤هـ/ ١٣٠٤م)، وكان تابعًا لوالده صفىّ الدين إسحق مؤسّس الدولة الصوفية، ويلبس صفىّ الدين للخرقة الصوفية بدأت مدرسة التصوّف الأرستوقراطى، ولقبوا صفىّ الدين باسم المَلك الأخروى (باد شاه أخروى)، وسمّوا ابنه صدر الدين «خلل العجم» مثل النبى إبراهيم الخليل.

٧٣٠- فرار...

هو الهرب من الخَلق، وهو على مراتب: الأولى: الفرار من الجهل إلى العلم؛ والثانية: الفرار مما دون الحق.

ويُحكَى عن إبراهيم الخواص: أنه تاه فى الصحراء، وظل أحد عشر يوما لا يأكل حتى تطلّعت نفسه أن يأكل من حشيش البَرّ، فرأى الخَضِر مقبلاً عليه فهرب منه، وسألوه لما هربتَ، فقال: تشوّفتْ نفسى أن يغيثنى». فهؤلاء هم الفرّارون بدينهم، الذين قال فيهم الرسول ﷺ : أحبُّ شئ إلى الله الغرباء . قيل:

ومن الغرباء يا رسول الله؟ قال: الفرّارون بدينهم.

٧٣١- فراسة...

مكاشفة اليقين ومعاينة الغيب، وهى من مقامات الإيمان. قال رسول الله ﷺ: اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله».

والمتفرِّس هو المصيب بأول مرماه إلى مقصده، ولا يعرّج على تأويل وظن وحسبان. والفراسة أول خاطر بلا معارض، فإن عارض معارض من جنسه فهو خاطر وحديث نفس. والفراسة ظن وافق الصواب، والظن يخطىء ويصيب، فإذا تحقق فى الفراسة، تحقق فى حكمها، لأنه إذ ذاك يحكم بنور الله بلا بنفسه.

وفراسة المريدين: تكون ظناً يوجب تحقيقاً، وفراسة العارفين: تحقيق يوجب حقيقة. والمتفرِّسون هم المتوسِّمون، يذكرهم القرآن: ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾ (الحجر٧٥).

والفراسة مشتقة من فريسة، والفراسة خاطر كالفريسة، يحصل من غير أن يعارضه ما يخالفه عند ظهور برهان عليه. وصاحب الفراسة: لا يكون شرط التفرُّس فى كل شىء وفى جميع الأوقات، وقد تُسَدّ عليه أحياناً عيون الفراسة كما حدث للنبىّ ﷺ عندما سأل عائشة فى الإفك - إن كان ذلك قد حدث فعلاً، قال: «إن كنت فعلت، فتوبى إلى الله»، وكما حدث لإبراهيم ولوط عليهما السلام، فلم يعرفا الرسُل.

٧٣٢- فرْجية...

دعوى محمود بن الفرج النيسابورى الذى جاهر بها فى زمن المتوكل العباسى نحو ٢٤٧هـ (٨٦١م) فى سُرَّ مَن رأى، وكان قد تصوّف وادّعى الزهد ولبس الخرقة، ثم ادّعى أنه ذو القرنين، وأن الله قد أنزل عليه مصحفاً، وكان له مريدون بلغوا سبعة عشر رجلاً. ولما سألوه: لماذا ادّعيت أنك ذو القرنين ولم تدّع النبوة؟ قال: لأن رجلين فى بغداد يدّعيان النبوة، فكرهتُ أن أكون ثالثهما. وقُبض عليه واستتيب فتاب وأناب.

٧٣٣- فرع...

هو ما تزايد من الأصل، فإذا تزايدت من الفرع زيادة تسمى باسم الأصل، فالأصل حُجة للزيادات التى هى الفروع، والزيادات التى هى الفروع مردودة إلى الأصل.

والأصل: الهداية، والتوحيد، والمعرفة، والإيمان، والصدق، والإخلاص، وزياداتها بزيادة الهداية.

والأحوال، والمقامات، والأعمال، والطاعات: زيادات هذه الأصول وفروعها ، وهي مسماة باسم الأصول لتزايدها وتزايد فروعها .

٧٣٤ - فرق...

الفَرْق ما نُسب إليك؛ والجَمْع ما سُلب عنك، يعنى أن ما يكون كسباً للعبد من إقامة العبودية وما يليق بأحوال البشرية فهو فرق، وما يكون من قِبَل الحق من إبداء المعانى وإسداء اللطف والإحسان فهو جمع، فمن أشهد الحقّ سبحانه أفعاله من طاعاته ومخالفاته فهو عبد يوصف بالتفرقة، ومن أشهده الحقّ سبحانه ما يوليه من أفعال نفسه سبحانه فهو عبد يشاهد الجمع، فإثبات الخَلق من باب التفرقة، وإثبات الحق من نعت الجمع، ولابد للعبد من الجمع والفرق، فإنّ منَ لا تفرقة له، لا عبودية له، ومن لا جمع له، لا معرفة له .

والفَرْق الأول: هو الاحتجاب بالخلق عن الحق وبقاء رسوم الخليقة بحالها.

والفرق الثانى: هو شهود قيام الخلق بالحق، ورؤية الوحدة فى الكثرة، والكثرة فى الوحدة، من غير احتجاب بأحدهما عن الآخر .

وفَرْق الوصف: ظهور الذات الأحدية بأوصافها فى الحضرة الواحدية.

وفرق الجمع: هو تكثُّر الواحد بظهوره فى المراتب التى هى ظهور شئون الذات الأحدية ، وتلك الشئون فى الحقيقة اعتبارات محضة لا تَحقُّق لها إلا عند بروز الواحد بصورها .

والفرق بين المتخلِّق والمتحقِّق: أن المتخلِّق: هو الذى يكتسب فضائل الأخلاق والأوصاف الحميدة تكلفاً وتعمُّلاً، ويجتنب الرذائل والذمائم، فله من الأسماء الإلهية آثارها؛ والمتحقِّق بها: هو الذى جعله الله مظهراً لأسمائه وأوصافه وتجلى فيه بها فمحا رسوم أخلاقه وأوصافه .

والفرق بين الكمال والشرف والنقص والخِسّة، هو: أن الكمال عبارة عن حصول الجمعية الإلهية والحقائق الكونية فى الإنسان، فكل من كان حظه أوفر من الأسماء الإلهية والحقائق الكونية، وظهوره بها أتم، وكانت الجمعية الإلهية بجمع صفاته تعالى وأسمائه فيه أكثر، كان هو الأكمل. وكلما كان حظه منها أقل كان أنقص وأبعد عن مرتبة الخلافة الإلهية.

وأما الشرف: فهو عبارة عن ارتفاع أو قلة الوسائط بين الشئ وموجده، فكلما

كانت الوسائط بين الحق والخلق أقل، وأحكام الوجوب على أحكام الإمكان أغلب فيه، كان الشئ أشرف. وكلما كانت الوسائط بينه وبين الحق تعالى أكثر، كان الشئ أخسّ. وعلى هذا يكون العقل الأول والملائكة المقرّبون، أشرف من الإنسان الكامل الذى هو الوليّ، وذلك الإنسان الكامل أكمل منهم.

٧٣٥ - فرقان...

الفُرقان: هو العلم التفصيلى الفارق بين الحق والباطل؛ وأمّا القرآن : هو العلم اللدّنى الإجمالى الجامع للحقائق كلها.

وقيل أيضاً إن **الفرقان عند الصوفية:** هو عبارة عن حقيقة أسماء الله تعالى وصفاته على اختلاف تنوعاتها ، فباعتباراتها تتميز كل صفة واسم عن غيرهما، فحصل الفرق فى نفس الحق من حيث أسماؤه الحسنى وصفاته، فإن اسم الرحيم غير اسمه الشديد، واسمه المنعم غير اسمه المنتقم، وصفة الرضا غير صفة الغضب. وقد أشار إليه فى الحديث النبوىّ عن الله تعالى أنه يقول: «سبقت رحمتى على غضبى» لأن السابق أفضل من المسبوق. وكذلك فى الأسماء المرتبية، فالمرتبة الرحمانية أعلى من المرتبة الربّية، والمرتبة الألوهية أعلى من الجميع، فتميزت الأسماء بعضها عن بعض، فحصل الفرق فيها، وكان الأعلى أفضل ممن له الحكم عليه، فاسمه الله أفضل من اسمه الرحمن، واسمه الرحمن أفضل من اسمه الربّ، واسمه الربّ أفضل من اسمه المَلِك، وكذلك بقية الأسماء والصفات، فإن الأفضلية ثابتة فى أعيانها، لا باعتبار أن فى شئ منها نقصاً ولا مفضولية، بل لما تقتضيه أعيان الأسماء والصفات فى أفضليتها، ولذا حكمت بعضها على بعض، فقال ﷺ: «أعوذ بمعافاتك من عقوبتك، وأعوذ برضاك من سخطك، وأعوذ بك منك، لا أحصى ثناء عليك»، فأعاذ المعافاة من العقوبة، لكون فعل العفو أفضل من فعل العقوبة، وأعاذ الرضا من الغضب، لأن الرضا أفضل من الغضب، وأعاذ بذاته من ذاته، فكما أن الفرق حاصل فى الأفعال، فكذلك فى الصفات، وكذلك فى نفس واحدية الذات التى لا فرق فيها، لكن من غرائب الذات جمع النقيضين، فالذى يستحيل فى العقل ولا يسوغ فى العبارة والنقل، فإنك تشهده من الأحكام الواجبة فى الذات، فإنه تعالى يجمع جميع النقائض والأضداد بالشأن الذاتى، وهويته عبارة عن ذلك.

٧٣٦ - فصل...

فَوْت الشئ المرجو من المحبوب.

ويُروىَ عن بعض الشيوخ أنه كان يقول: من زعم أو ظن أنه قد وصل فليوقن أنه قد انفصل.

٧٣٧- فصوص...

«فصوص الحِكَم» للشيخ الأكبر محيّ الدين ابن عربي، من أمهات كتب التصوف، قيل فيه أنه حوى مصطلحاته التى ضمنها كتابه الموسوعى «الفتوحات المكيه»، وأنه أضفى عليها من الدقة العلمية والنضج الفكرى ما لا نجده فى كتاب آخر فى بابه. ويرى المنكرون على التصوف، أن هذا الكتاب يحوى من الأفكار ما يُخرج الكتاب وصاحبه عن الإسلام. ويبدو أن من العسير فهم ما يقصد إليه ابن عربى، ولذلك احتاج الكتاب دائماً إلى تفسير المفسرين، أو لأنه غلط فيه فاحتاج إلى مدافعة المدافعين عنه والمبررين له.

٧٣٨- فضيلة...

الفضيلة عند الصوفية هى الدرجة الرفيعة من الفضل، وهو ضد النقص. وقيل: الفضيلة من فَضَل بمعنى الغلبة، ومن فَضُل بمعنى الزيادة فى الخير. والرذيلة نقيض الفضيلة. وعند فلاسفة الصوفية: أن النفس بها ثلاث قوى: ناطقة ملكية، وشهوية بهيمية، وغضبية سبعية. والحكمة فضيلة النفس الناطقة، والعفة فضيلة النفس الشهوية، والشجاعة فضيلة النفس الغضبية،، والتقوى فضيلة جامعة تحدث من اجتماع الفضائل الثلاث، وتفاعلها مما يولّد فى النفس اتجاهين، ينطويان على شطرين للنفس: العالمة والعاملة، وتفاعلهما لازم للصوفى، لأنه لا عمل بغير علم، ويشتمل تفاعلهما على الرياضة ومجاهدة الهوى من جهة، والمعاملات مع الأهل والناس والمجتمع من جهة أخرى. والفلاح فى الدنيا والآخرة يقتضيى لذلك تزكية النفس وتكميلها بالفضائل التى هى الأوامر بالمعروف والنهى عن المنكر.

٧٣٩- فطام...

للمريدين مع الشيوخ أوان ارتضاع، وأوان فطام؛ وأوان الارتضاع هو أوان لزوم الصحبة، ولا ينبغى للمريد أن يفارق الشيخ إلا بإذنه، ولا يأذن الشيخ للمريد بالمفارقة إلا بعد علمه بأن أوان الفطام قد آن له، وأنه يقدر أن يستقل بنفسه، وفطامه هو استقلاله بنفسه، بأن يفتح له باب الفهم من الله، فإذا بلغ هذه المرتبة فقد بلغ أوان الفطام.

٧٤٠- فطور...

هو تميُّز الخلق عن الحق بالتعين وتوابعه، والطيبون يُفطَرون على الطية،

والخبيثون يُفطَرون على الخبث، فالسلوك تبعًا للفطرة، وهذا قولٌ بالجبر. وإنما الفطرة هى ما يميّز الإنسان كإنسان من غيره من المخلوقات، كما فى الغرائز، فهناك منها ما يميز الإنسان وما يميز الحيوان، وكل شئ فيها بالفطرة.

٧٤١ - فعل...

هو صرف الممكن من الإمكان إلى الوجود. وجنة الأفعال هى الجنة الصورية من جنس المطاعم اللذيذة والمشارب الهنية والمناكح البهية، ثواباً للأعمال الصالحة، وتسمى جنة الأعمال، وجنة النفس أيضاً.

٧٤٢ - فقد...

الفَقْد: هو ذهاب القلب عن حسّ المحسوسات بمشاهدة ما شاهد.

وفقد الفقد: يكون بعد الذهاب، بأن يذهب عن ذهابه.

٧٤٣ - فقر...

الفقر مقام شريف، وهو يقتضى مقام الصبر؛ والفقير: هو الذى أُحصر فى سبيل الله، ولا يستطيع ضرباً فى الأرض، يحسبه الجاهل غنياً من التعفف، وتعرفه بسيماه، لا يسأل الناس إلحافا (البقرة ٢٧٣).

والصوفية سُمُّوا فقراء: لتخلّيهم عن الأملاك.

وحقيقة الفقر الصوفى: أن لا يستغنى العبد إلا بالله. ورسْمُ هذا الفقر: عدم الأسباب كلها.

ونعت الفقير الصوفى: السكون عند العدم، والبذل والإيثار عند الوجود. وأحكام الفقر وآدابه عند الصوفية: حِفْظ حُرمات المشايخ، وحُسن العشرة مع الإخوان، والنصيحة للأصاغر، وترك الخصومات فى الأرزاق، وملازمة الإيثار، ومجانبة الادخار، وترك صحبة من ليس من طبقتهم، والمعاونة فى أمور الدين والدنيا.

والفقير له جمال، وجمال الفقير فى تواضعه، فإذا تكبّر الفقير بفقره فقد أربى على الأغنياء فى التكبُّر. يقول الجنيد: إذا لقيت الفقير (يقصد الصوفى) فلا تبدأه بالعلم، وابدأه بالرفق، فإن العلم يوحشه، والرفق يؤنسه.

وقيل ليس الفقر عند الصوفية الفاقة والعدم، ولكنه: الفقر المحمود الثقة بالله تعالى والرضا بما قسم.

والفقراء على ثلاث طبقات: فمنهم من لا يملك شيئاً، ولا يطلب بظاهره ولا بباطنه من أحد شيئاً، ولا ينتظر من أحد شيئاً، وإنْ أُعطِى شيئاً لم يأخذه، فهذا مقامه المقرّبون؛ ومنهم من لا يملك شيئاً،

ولا يسأل أحداً، ولا يطلب، ولا يعرض، وقُوته ما وَجَد، ولباسه ما ستر، ومسكنه حيث نزل، وإن أُعطِى شيئاً من غير مسألة أخذ؛ ومنهم من لا يملك شيئاً، وإذا احتاج انبسط إلى بعض إخوانه ممن يعلم أنه يفرح بانبساطه إليه، فكفارة مسألته صدقُه.

ولقد تناظر الصوفية فيما إذا كان الغنىّ الذى أنعم الله عليه بنعمة المال، فشكر الله على نعمته أفضل، أم الفقير الذى يعلن الرضا بما قسم الله له من غير شكوى؟ فقال بعضهم: إن الغَنِىّ - وهو صفة من صفات الله- أفضل من الفقر الذى هو من صفات العبد، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ (لقمان ٢٦)، وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ (فاطر ١٥)، واستشهدوا بالحديث: «اليد العليا خير من اليد السفلى»، أى اليد التى تعطى خير من اليد التى تأخذ. أما كبار الصوفية مع استثناء عدد قليل منهم، فيفضلون الفقر على الغنى، ويستشهدون بأمثال الحديث: «اللهم أحيِنى مسكيناً وأمتنى مسكيناً واحشرنى مع المساكين»، والحديث: «يدخل فقراء أمتى الجنة قبل الأغنياء بخمسمائة عام»، والحديث: «الفقر فخرى.. إلخ.

وفى الخبر عن موسى قال: إذا رأيت الفقر مقبلاً إليك، فقل: مرحباً بشعار الصالحين وإذا رأيت الغِنىَ مقبلاً إليك، فقل ذنبٌ عُجِّلت عقوبته.

وبلخص سرىّ السقطى - المثل الأعلى للفقر- حيث قال: لا تأخذ من أحد شيئاً، ولا تسل أحداً شيئاً، ولا يكون معك ما تعطى منه أحداً شيئاً. - وهو مفهوم أساسه ما يعنونه بالتوكل، فقد عرّفوه بأنه: التجرّد عن الإرادة والفعل وترك الأمر كله لله، والرضا بكل ما جاء به، وأن يكون العبد مع الله كالميّت فى يد الغاسل الذى يعدّه للدفن. وهم إذ يطبقون فكرتهم فى التوكل بهذا المعنى على شئون حياتهم العملية، ليس فى وسع الصادقين منهم فى توكلهم أن يعملوا عملاً يكسب لهم قوت يومهم بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، ولا أن يفكروا فى كسب ذلك الوقت للغد، ولا أن يُكتَروا فى عمل، أو يلتزموا تجارة أو حرفة، بل اعتمدوا فى قُوتهم على ربّهم الذى عنده خزائن السماوات والأرض، يرسله إليهم تفضّلاً، أو يُوصله على يد أحد من عباده، ويقال حينئذ أن رزق العابدين قد أتاهم من الفتوح، أى من الأبواب التى يفتحها الله عليهم.

٧٤٤- فقهاء...

جمع فقيه، وهو من كان شديد الفهم عالماً ذكياً، وهو العالم بالفقه.

والفرق بين الصوفية والفقهاء: أن «الصوفية» يفهمون من القرآن والأحاديث ما لا يفهمه الفقهاء وسائر المؤمنين، وما يفهمه الصوفية يسمونه «المستنبطات الصحيحة» فى فهم القرآن والحديث، ومنهجهم فى الفهم مختلف، وعلمهم فى ذلك هو علم الإشارة، ويختص بالمعانى المذخورة، واللطائف والأسرار المخزونة، وغرائب العلوم، وطرائف الحِكَم فى معانى القرآن ومعانى الحديث، من حيث الأحوال والأوقات، وصفاء الأذكار.

وفى القرآن: ﴿ أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ (محمد ٢٤)، وفى الحديث: «من عمل بما علم ورثه الله تعالى علم ما لم يعلم»، وهذا العلم تُخْتَص به الصوفية دون غيرهم من أهل العلم. وأقفال القلوب هى ما يقع على القلوب من الصدأ لكثرة الذنوب، واتباع الهوى، ومحبة الدنيا، وطول الغفلة، وشدة الحرص، وحبّ الراحة، وحب الثناء والمحمدة، وغير ذلك من الغفلات والزلّات والمخالفات والخيانات.

والصوفية لهم اختلافاتهم فيما يستنبطون من ظاهر القرآن والحديث، غير أن اختلافاتهم ليست كاختلافات الفقهاء تؤدى إلى الغلط والخطأ، وإنما علم الباطن فيه الاختلاف ولكنها فضائل ومحاسن، ومكارم وأحوال، وأخلاق ومقامات ودرجات. والقول بأن اختلاف الفقهاء رحمة فذلك أيضاً مع الصوفية، ومتعلق اختلاف الفقهاء علم الظاهر، ومتعلق اختلاف الصوفية علم الباطن، أى علم التصوف. ومن شأن الاختلاف فى علم الظاهر أن يرد المعيب على المخطئ ويبيّن غلطه، وأما فى علم الباطن فليس ثمة ردود ولا معارضات، لأن كل صوفى عندما يتكلم فهو يتكلم من حيث وقته، ويجيب من حيث حاله، ويشير من حيثُ وجْده. والاختلاف إذن بين الصوفية ليس اختلافاً ولكنه تنوع فى الآراء، لأن كل رأى لم يأت للمعارضة وإنما للتعبير عن الأحوال الذاتية والمواجيد الشخصية للصوفى.

ويستنبط الصوفية الكثير من مصطلحاتهم ومفرداتهم الدلالية من القرآن، ومما ورد عن الأنبياء والمرسلين، فمثلاً شَرْحُ الصدر استنبطوه من القرآن عن موسى: ﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾ (طه٢٥)، والخلة استنبطوها عن إبراهيم

من الآيـة : ﴿ وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً ﴾ (النساء ١٢٥)، والرضا استنبطوه من النبيّ ﷺ من الآية : ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى ﴾ (الضحى٥)، والتوبة عن آدم من الآيـة : ﴿ ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى ﴾ (طه ١٢٢)، والمغفرة عن النبيّ ﷺ من الآية : ﴿ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾(الفتح ٢)، وكذلك عن سليمان من الآية: ﴿ رَبِّ اغْفِرْ لِي ﴾ (ص ٣٥)، والصبر من النبيّ ﷺ ﴿ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ ﴾ (القلم: ٤٨).

٧٤٥- فكر...

هو إحضار معرفتين فى القلب ليستثمر الصوفى منهما معرفة ثالثة، ومثاله أن يعرف أن الآخرة خير وأبقى، وما كان خيراً وأبقى كان بالاختيار أحرى.

والغرض من التفكُّر: تحصيل العلم فى قلب الصوفى، فيوجب ذلك حالاً وفعلاً بهما نجاته، وهما من ثمرات العلم، والعلم ثمرة التفكُّر.

والفرق بين الفكر والتفكُّر: أن التفكُّر جولان القلب؛ والفكر وقوف القلب على ما عرف.

ويروى أن النبى ﷺ مرّ بقوم يتفكّرون فى الله، فقال: فكّروا فى الخلق ولا تتفكّروا فى الخالق، فإنكم لن تقدروه قَدْره. - وروى أن سفيان الثورى رفع رأسه إلى السماء، فلما رأى الكواكب أغشى عليه من التفكُّر فيها. وروى أن النبىّ ﷺ قال: لا عبادة كتفكُّر؛ وقال: تفكُّر ساعة خير من عبادته. وكان النّبى ﷺ أكثر شأنه التفكُّر. وقد يبدو أن التفكّر أسمى من العبادة فعلاً، ولكن النبىّ ﷺ كان يجمع بينهما. وروى أنه قام يصلى فى الليل، فتوضأ ثم قرأ الآيات العشر من آل عمران ، ثم صلّى، يعنى: مثلما تفكّر مثلما صلّى. وروى أن الصوفية يخطئون عندما يبقون متفكرين بالأيام والشهور لا يفترون . ويُروَى أنهم أحيانًا يبيتون فى المساجد مستلفعين ، فإذا كان الفجر يقومون للصلاة بلا وضوء، فلما قيل لشيخهم قال منشداً :

مُسْجَّى الجسم غائب حاضر
مُنَبَّهُ القلب صامتٌ ذاكر
منقبضٌ فى الغيوب مُنبسط
كذاك من كان عارفاً ذاكر
يبيت فى ليلة أخا فِكر
فهو مدى الليل نائم ساهر

وكما ترى ، فكلامهم يشبه قول الرسول ﷺ : تنام عينى ولا ينام قلبى؛ والصوفية عموماً تَعبُّدهم تفكُّر. والفكر أحد

مفاتيح الغيب، فإن مفاتيح الغيب نوعان: نوع حقّي يختص به الله تعالى نفسه، وهو معرفته بنفسه؛ ونوع خَلْقي وهو كالمعرفة بالإنسان والأكوان .

والترقّي في الفكر: يكون بالانتقال من المحسوسات إلى الروحانيات ، إلى أن يبلغ الصوفي نقطة المركز، فيظفر بالتجلّي المصون في الكتاب المكنون، الذي لا يمسه إلا المطهّرون.

٧٤٦- فكرية...

الفكرية: هم الصوفية، سُمّوا كذلك لأنهم يتفكرّون في ملكوت السموات حتى يصيروا إليه، فجعلوا «الفكر» غاية عبادتهم، ومنتهى إرادتهم، تتراوحهم الأفكار مخاطبةً لله تعالى، فيتصافحون معه وينظرون إليه فكراً، ويتلذذون بالجنّة ومفاكهة الأبكار ومساراة الحور العين فكراً، ويسعى عليهم الولدان بأصناف الطعام وألوان الشراب، كل ذلك فكراً.

٧٤٧- فلاسفة...

هم الذين يعبدون الله من حيث أسماؤه سبحانه، ويعبدونه من حيث أنه حقيقة الوجود. وما في الوجود مفكر يفكّر في الله إلا ويعبد الله تعالى، إما على التقييد بالمظاهر والمحدّثات، وإما على الإطلاق، فمن عبده على الإطلاق فهو موحِّد، ومن عبده على التقييد فهو مُشرك، وفلاسفة المشركين مع ذلك عباد لله على الحقيقة، لأنه ليس ثمة إلا الله في المُحدَثات، وما كان ظهوره تعالى من حيث ذاته في هذه المحدّثات إلا ويوجب إجلالها وتقديسها، ومن ثم لا يعود هناك موجود مفكر إلا ويعبد الله في شيٍ من العالم، إلا الفلاسفة المحمديون، فإنهم عرفوا الله وعبدوه من حيث الإطلاق .

٧٤٨- فناء...

هو تبديل الصفات البشرية بالصفات الإلهية دون الذات، فكلما ارتفعت صفة قامت صفة إلهية مقامها، فيكون الحقّ سمعه وبصره كما يقول حديث رسول الله ﷺ .

وقيل الفناء: سقوط الأوصاف المذمومة، والبقاء عكسه: وهو ثبوت النعوت المحمودة. وقيل الفناء: هو الغيبة عن الأشياء كما كان فناء موسى حين تجلّى ربّه للجبل فجعله دكاً، وخرّ موسى صعقاً.

وقيل الفناء عن الخلق: هو الانقطاع عنهم، وعن التردد عليهم ، واليأس مما لديهم.

وعلامة فنائك عنك وعن هواك: هو ترك التكالب والتعلق بالسبب في جلب

النفع ودفع الضر، كما لو كنتَ مغيّباً فى الرحم، وكونك رضيعاً فى المهد.

وعلامة فناء إرادتك بفعل الله تعالى: هو أنك لا تريد، ولا يكون لك غرض، ولا تقف لك حاجة ومراد، إلا ما أراده الله تعالى، فلا إرادة للمخلوق الفانى مع إرادة الله تعالى الباقى، فيجرى فعل الله فيك فتكون أنت إرادة الله وفعله، ساكن الجوارح، مطمئن الجنان، مشروح الصدر، منوّر الوجه، غنياً عن الأشياء بخالقها بقلبك.

وقيل: **الفناء:** أن لا ترى شيئا إلا الله، ولا تعلم إلا الله، وتكون ناسياً لنفسك ولكل الأشياء سوى الله. وقد غلط من ظن عند هذه الدرجة أنه هو نفسه الله، إذ لا يرى ولا يعلم شيئا إلا هو، فيعتقد أنه لا شئ إلا هو، فيظن أنه هو، فيقول «أنا الحق»، كما فعل الحلاّج، أو يقول «ليس فى الدار إلا الله»، و«ليس فى الجبة إلا الله».

٧٤٩- فئانية...

هم الفرقة الغالطة الذين ظنوا الفناء هو فناء البشرية، فوقعوا فى الوسوسة وتركوا الطعام والشراب، وتوهموا أن البشرية هى القالب، والجثة إذا ضعفت زالت بشريتها، فيجوز أن تكون موصوفة بصفات إلهية. ولم تحُسن هذه الفرقة الضالة أن تفرق بين البشرية وبين أخلاق البشرية، لأن البشرية لا تزول عن البشر، كما أن لون السواد لا يزول عن الأسود، ولا لون البياض عن الأبيض، وأخلاق البشرية تتبدل وتتغير بما يرد عليها من سلطان أنوار الحقائق، وصفات البشرية ليست هى البشرية.

٧٥٠- فهم...

قال **أبو سعيد: أول الفَهْم** للصوفى: هو فَهْم كتاب الله؛ **وأول فَهْمه** للفَهْم: العمل به - أى بكتاب الله، لأن فيه العلم والفهم والاستنباط. **وأول الفهْم:** إلقاء السمع والمشاهدة لقول الله: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ (ق ٣٧)، ولقوله الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ (الزمر ١٨).

* * *

باب القاف

* * *

٧٥١ - قاب...

قاب قوسين فى اللغة كناية عن القُرب؛ وفى التصوف قيل: هو مقام القرب الأسمائى باعتبار التقابل بين الأسماء فى الأمر الإلهى المسمى بدائرة الوجود، كالإبداء والإعادة والنزول والعروج والفاعلية والقابلية، وهو الاتحاد بالحق مع بقاء التميز المعبَّر عنه بالاتصال، ولا أعلى من هذا المقام إلا مقام «أو أدنى» الذى تشير إليه الآية: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾ (النجم ٩)، لارتفاع التميز والإثنينية الاعتبارية هناك، بالفناء المحضّ والطمس الكلى للرسوم كلها.

٧٥٢ - قابل...

هو الأعيان الثابتة من حيث قبولها فيض الوجود من الفاعل الحق وتجليه الدائم الذى هو فعله.

والقابلية الأولى هى أصل الأصول، وهو التعيّن الأول.

وقابلية الظهور: هى المحبة الأولى المشار إليها بقوله: أحببتُ أن أُعرَف.. (الحديث).

٧٥٣ - قادح...

من قدح النار بالزناد؛ والقادح الذى يستوقد النار. وعند الصوفية: القادح قريب من الخاطر، إلا أن الخاطر لقلوب أهل اليقظة، والقادح لأهل الغفلة، فإذا تقشّعت عن قلوبهم غيوم الغفلة، قدح فيها قادح الذكر.

٧٥٤ - قادرية...

طريقة عبد القادر الجيلانى (٤٧١ - ٥٦١هـ)، وهو أول من نادى بالطرق الصوفية وأسّسها، وقال ابن تيمية عن طريقته: إنها الطريقة الشرعية الصحيحة، لأنها تلتزم الكتاب والسُّنّة التزاماً حرفياً، وخاصة الجانب المعرفى للتصوّف.

٧٥٥ - قبض...

هو حال شريف لأهل المعرفة، إذا قبضهم الحق أحشمهم عن إتيان المباحات وتناول الأكل والشرب والكلام، ويقابله البسط، فإذا بسطهم ردّهم إلى هذه الأشياء، وتولى حفظهم فى ذلك. فالقبض: حال رجل عارف ليس فيه فضل لشئ غير معرفته، والبسط: حال رجل عارف بسطه الحق وتولى حفظه حتى يتأدب الخلق به. يقول الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (البقرة ٢٤٥).

والقبض: أكثر ما يقع عقيب البسط بسوء أدب يصدر من السالك في حال البسط.

والفرق بين القبض والبسط وبين الخوف والرجاء: أن تعلق الخوف والرجاء بالمكروه والمرغوب المتوقع في مقام النفس، **والقبض والبسط** إنما يتعلقان بالوقت الحاضر، ولا تعلق لهما بالآجل.

٧٥٦- قبيح...

ما يكون متعلق الذم في العاجل والعقاب في الآجل. (أنظر الجمال).

٧٥٧- قدر...

قال عمر بن الخطاب: «يا رسول الله، أرأيت ما نعمل فيه، أعلى أمر قد فُرغ منه، أو أمر مبتدأ؟ فقال: على أمر قد فُرغ منه». فقال عمر: أفلا نتكل وندع العمل؟ فقال: اعملوا فكل مُيسّر لما خُلق له».

وسئل النبيّ ﷺ: «أرأيتَ رُقىً نسترقيها، ودواءً نتداوى به، هل يردّ من قَدَر الله؟ قال: إنه من قدر الله». وقال: والله لا يؤمن أحد حتى يؤمن بالله، وبالقدر خيره وشره من الله».

وإجماع مشايخ التصوّف من أهل السُنّة: على أن حركة المريض بالرعشة هي من خلق الله، وكذلك حركة طالب الرزق، إلا أن الحركة الأولى ليست باختيار المريض، بينما الحركة الثانية بالاختيار. وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ (القمر٤٩)، وقوله: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ (الرعد ١٦): أن الله خالقٌ للأفعال والأعيان، وأن كل ما نفعل فبقضاء الله وقدره، وبإرادته ومشيئته، ولولا ذلك ما كنا عبداً لله ولا مخلوقين ولا مربوبين له. وما نفعله هو أشياء مما خلقه تعالى، وإذن فالله خلق ما نفعل. وما نفعله أكثر من الأعيان، فلو كان الله قد خلق الأعيان، والأعيان أو الناس يخلقون أفعالهم، لكان الناس أولى بالمدح في الخلق من الله، ولكانوا أكثر قدرة منه تعالى، وأكثر خلقاً، ولذلك قال: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ (الرعد ١٦) فنفى أن يكون هناك خالق غيره، وقال: ﴿وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ﴾ (سبأ ١٨) فأخبر أنه قدّر سير العباد، وقال: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ (الصافات ٩٦).

وكان عبادة بن الصامت من أهل الله، فلمّا مرض دخل عليه ابنه الوليد يتخايل فيه الموت، فقال: يا أبتاه! أوصني واجتهد لي! فقال: يا بني! إنك لم تُطعَم الإيمان، ولم تبلغ حقّ حقيقة العلم بالله، حتى تؤمن بالقدر خيره وشره! قال الوليد: يا أبتاه!

وكيف لى أن أعلم ما خير القدر وشرّه ؟ قال: تعلّم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك، وما أصابك لم يكن ليخطئك ! يا بنى ، إنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن أول ما خلق الله القلم، ثم قال له اكتب، فجرى فى تلك الساعة بما هو كائن إلى يوم القيامة» !

وعن المحتسبة المبرّأة عائشة: أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله خلق الجنة، وخلق لها أهلاً وهم فى أصلاب آبائهم؛ وخلق النار، وخلق لها أهلاً وهم فى أصلاب آبائهم».

وبرواية الصابر الراضى معاذ بن جبل عن رسول الله ﷺ، قال: «إنما هما قبضتان، فقبضةٌ فى النار، وقبضةٌ فى الجنة».

وفى القرآن: ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ (القمر ٤٩).

وعن المحزون المتقى عبد الله بن عمر: أنه نهى صديقاً له بالشام أن يكاتبه لمّا علم أنه ينفى القدر، وقال : فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: «سيكون فى أمتى أقوامٌ يُكذّبون بالقدر».

وقال الحكيم الشهيد علىّ بن أبى طالب: لايكون فى الأرض شىء حتى يُقضَى فى السماء، وليس من أحد إلا وقد وُكل به ملكان يدفعان عنه ويكلآنه حتى يجىء قدره، فإذا جاء قدره خلّيا بينه وبين قدره. وقال: والله لايجد أحدُنا طعم الإيمان حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه».

وكان العادل الورع عمر بن الخطاب كثيراً ما يخطب، ويقول على المنبر:

خَفِّض عليك فإن الأمور
بكفِّ الإله مقاديرُها
فليس يأتيك مُنْهَيُّها
ولا قاصرٌ عنك مأمورُها

وسرّ القدر: ما علمه الله عن كل عين فى الأزل مما انطبع فيها من أحوالها التى تظهر عليها وجودها .

٧٥٨- قدرة...

القُدرة: قوة ذاتية لا تكون إلا لله، وشأنها إبراز المعلومات إلى العالم العينى على المقتضى العلمى، فهى مجلى، أى مظهر، أعيان معلوماته الموجودة من العدم، لأنه يعلمها موجودة من عدم فى علمه، فالقدرة هى القوة البارزة للموجودات من العدم، وهى صفة نفسية بها ظهرت الربوبية، وهى ـ أى القدرة، عين هذه القدرة الموجودة فينا، فنسبتها إلينا تسمى قدرة حادثة، ونسبتها إلى الله تعالى تسمى قدرة قديمة .

٧٥٩ - قدرية...

وصحيحها القادرية، من القُدرة بمعنى الاستطاعة، وأن الإنسان مريدٌ لأفعاله، قادرٌ عليها. وصوفية القدرية: لا يرون أن الكفر والمعاصي بتقدير الله، وإنما هي توجُّه للعبد يفعل بنفسه ما يريد، ومن ثم فأعمال الإنسان محسوبة عليه. والمحاسبي من فلاسفة هذا التوجُّه عند الصوفية. وعكس القدرية: الجبرية: الذين قالوا أنه لا قدرة للعبد أصلاً، لامؤثرة ولاكاسبة.

والحديث الذى يُنسَب للرسول ﷺ: «القدرية مجوس هذه الأمة» موضوع، لأن اصطلاح القدرية لم يكن قد ظهر بعد أيام الرسول ﷺ، وليس من مفردات لغته.

٧٦٠ - قِدَم...

القِدَم (بكسر القاف): عبارة عن حُكم (بضم الحاء) الوجوب الذاتى، فالوجوب الذاتى هو الذى أظهر اسمه القديم للحق، لأن من كان وجوده واجباً بذاته لم يكن مسبوقاً بالعدم، ومن كان غير مسبوق بالعدم لزم أن يكون قديماً بالحكم، وإلا فتعالى الله عن القدم، لأن القديم تطاول مرور الزمان على المسمى به، تعالى الحق عن ذلك، والصوفية على الاعتقاد أن قِدَمه تعالى إنما هو الحُكم اللازم للوجوب الذاتى، وإلا فليس بينه سبحانه وتعالى وبين الخلق زمان ولا وقت جامع، بل تقدُّم حُكم وجوده على وجود المخلوقات هو المسمى بالقِدَم.

٧٦١ - قَدَم...

القَدَم (بفتح القاف): ما ثبت للعبد على علم الحق من باب السعادة والشقاوة. ويقول الله تعالى: ﴿لا تزال جهنم تقول هل من مزيد، حتى يضع الجبار فيها قدمه فتقول: قطْ قطْنى﴾، (وقَطْنى يعنى حسبى) وإنما يُكنَّى عنها بالقَدَم، لأن القدم آخر شئ من الصورة، وهى آخر ما يقرّب به الحق إلى العبد من اسمه الذى إذا اتصل به وتحقق به كمل. وفى قوله: «يضع فيها قدمه»: أن الله تعالى له قدم من غير تجسيم، وليست كأقدامنا، وهو تعالى ليس كمثله شىء؛ والقَدَم فى الحديث للتأويل مجازاً وليس على الحقيقة. فهكذا يرى الصوفية.

وقَدَم الصدق: هى السابقة الجميلة والموهبة الجزيلة التى حكم بها الحق تعالى لعباده الصالحين المخلصين فى قوله تعالى: ﴿وبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ (يونس ٢)، والصدق: هو الخيار من كل شئ، وهو ما قدموه لأنفسهم من طاعات أخلصوا فيها، وفنون عبادات صدقوا فى القيام بقضائها؛ أو أن

قدم الصدق: هو ما يُقدِّم الله لهم يوم القيامة من مقتضى العناية والرعاية؛ أو أن قدم الصدق: هو سابق ماضيهم فى العبادة فى بدايتهم لا ينساه الله تعالى لهم، والشاعر يقول:

من ينْسَ داراً قد تخوّنها
رَيْبُ الزمان فإنى لست أنساكا

٧٦٢- قديم...

القديم: يطلق على الموجود الذى لا يكون وجوده من غيره، وهو القديم بالذات.

ويطلق القديم على الموجود الذى ليس وجوده مسبوقاً بالعدم، وهو القديم بالزمان. وكل قديم بالذات هو قديم بالزمان، وليس هذا سوى الله، والصوفية على الاعتقاد: بأن الله تعالى قديم بالذات وقديم بالزمان.

٧٦٣- قرآن...

هو كل قول أو مصطلح أو نظرية للصوفية لها دليلها فى القرآن؛ والقرآن ظاهر وباطن. وعند الصوفية الشيعة: أن علم الصوفية هو علم القرآن الباطن الذى ورثه علىّ بن أبى طالب عن النبىّ ﷺ

وعند الصوفية عموماً: تنكشف معانى القرآن لكل صوفى بحسب ما منحه الله من الاستعداد الروحى؛ ويقول أبو سعيد الخرّاز: إذا كان العبد مجموعاً على الله تعالى ﷻ، لا ينصرف منه حاجة إلى غير الله تعالى، فعندها تقع له حقائق الفهم عند تلاوة كتاب الله عزّ وجل. وقال أيضاً: كلما بدا حرف من كتاب الله عزّ وجلّ على قدر قُربك وحضورك عنده، فله مخرج وفهم غير مخرج الفهم الآخر، وعلى قدر المحبة وصفاء الذِّكر ووجود القُرب يقع التفاوت فى الفهم.

ويقول أبو سليمان الدارانى: ربما جاءت الآية خمس ليال، فلولا أنى أترك الفكر فيها ما جُزتُها أبداً، وربما جاءت الآية من القرآن فيطير معها العقل.

والصوفية على رأى من يقول معلّقاً: لقد نظرنا فى هذه الأحاديث والآداب عند الصوفية فلم نجد شيئاً أرقّ لهذه القلوب، ولا أشدّ استجلاباً للحزن، من تلاوة القرآن وتدبُّره.

والقرآن فى الاصطلاح الصوفى (عند الجيلى مثلاً): عبارة عن الذات التى تضمحل فيها جميع الصفات، فهى المجلى المسمّى الأحدية، أنزله الحق تعالى على نبيّه ﷺ؛ ومعنى هذا الإنزال أن الحقيقة الأحدية المتعالية فى ذُراها ظهرت بكمالها فى جسده، مع استحالة العروج

والنزول عليها، لكنه ﷺ لما تحققت بجسده جميع الحقائق الإلهية، وكان مجلى الاسم الواحد بجسده، كما أنه بهويته مجلى الأحدية، وبذاته عين الذات، فلذلك قال ﷺ: «أُنزل عليّ القرآن جملة واحدة»: يعبّر عن تحقُّقه بجميع ذلك تحققاً ذاتياً كلّياً جسمياً. وهذا هو المشار إليه بالقرآن الكريم، لأنه أعطاه الجملة، وهذا هو الكرم التام، لأنه ما ادّخر عنه شيئاً، بل أفاض عليه الكل كرماً إلهيا ذاتياً.

وأما القرآن الحكيم: فهو تنزُّل الحقائق الإلهية، بعروج العبد إلى التحقّق بها في الذات شيئاً فشيئاً، على مقتضى الحكمة الإلهية التي تترتب الذات عليها، فلا سبيل إلى غير ذلك، لأنه لا يجوز من حيث الإمكان أن يتحقّق أحد بجميع الحقائق الإلهية بجهده من أول إيجاده، لكن من كانت فطرته مجبولة على الألوهة، فإنه يترقّى فيها، ويتحقق منها، بما ينكشف له من ذلك شيئاً بعد شيء، مرتباً ترتيباً إلهياً. وقد أشار الحقّ إلى ذلك بقوله: ﴿وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً﴾ (الفرقان ٣٢). وهذا الحُكم لا ينقطع ولا ينقضي، بل لا يزال العبد في ترقٍ، ولا يزال الحق في تجلٍ، إذ لا سبيل إلى استيفاء ما لا يتناهى، لأن الحق في نفسه لا يتناهى.

وقد ورد في الحديث عن النبيّ ﷺ أنه قال: **إن القرآن أُنزل دفعه واحدة إلى سماء الدنيا، ثم أنزله الحق عليه آيات مقطّعة بعد ذلك**، فإنزال القرآن دفعة واحدة إلى سماء الدنيا إشارة إلى التحقق الذاتي، ونزول الآيات مقطّعة إشارة إلى ظهور آثار الأسماء والصفات، مع ترقّي العبد في التحقق بالذات شيئاً فشيئاً.

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾ (الحجر ٨٧)، فالقرآن العظيم هنا عبارة عن الجملة الذاتية، لا باعتبار النزول، ولا باعتبار المكانة، بل باعتبار مطلق الأحدية الذاتية، التي هي مطلق الهوية الجامعة لجميع المراتب والصفات والشئون والاعتبارات مع جملة الكمالات، ولذا قُرن القرآن بلفظ العظيم لهذه العظمة.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ﴾ (الواقعة ٧٧) لأنه يدل على مكارم الأخلاق، ومن عند ربٍّ كريم على رسول كريم، على لسان مَلَك كريم، لا يجد طعمه وبركته إلاّ من آمن به. وفي الآية ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ﴾ (البروج ٢١)، يعني شريف يدعو إلى الخير، وفيه المأثور من المكارم. واسم المجيد من أسماء الله الحسنى، أي الوافر المجد.

وفي الخبر أن رجلاً كان يكثر غشيان باب عُمَر بن الخطاب ـ يعني يسأله الحاجة، فوعظة عمر، قال: إذهب فتعلّم القرآن ! فذهب الرجل، ففقده عمر، ثم لقيه، فكأنه عاتبه، فقال الرجل: وجدتُ في كتاب الله ما أغناني عن باب عمر ! ـ وقال أهل العرفان تعليقاً على ذلك: لهذا فهو قرآن كريم، عظيم، ومجيد، وحكيم!

وقيل: لابد للصوفي أن يتعلّم من القرآن ست سور: سورتين لصلاة الصبح، وسورتين للمغرب، وسورتين لصلاة العشاء. ونصح عمر أصحابه فقال: تعلّموا سورة البقرة، والنساء، وسورة المائدة، وسورة الحج، وسورة النور، فإن فيهن الفرائض. وقال: وعلّموا نساءكم سورة النور.

وعن أبي ريحانة صاحب النبيّ ﷺ، أنه أتى إليه يشكو تفلُّت القرآن ومشقته، فقال له: لا تحمل عليك ما لا تطيق، وعليك بالسجود !! - يعني: لا يحفظ أكثر مما لا تستطيعه حافظته، وعليه أن يشكر الله على كل ما يحفظ.

وكان عمر يقول: جَوِّدوا القرآن، ولا تأخذوا للعلم والقرآن ثمناً. وإن قراءة القرآن مع الصلاة كنز مكنون، وخيرٌ موضوع، فاستكثروا منه ما استطعتم، فإن الصلاة نور، والزكاة برهان، والصبر ضياء، والصوم جُنّة، والقرآن حُجة لكم أو عليكم، فأكرموا القرآن لا تهينوه، فإن الله مُكرِمٌ مَن أكرمه، ومهينٌ من أهانه، وأعلموا أنه من تلاه، وحفظه، وعمل به، واتّبع ما فيه، كانت له عند الله دعوة مستجابة، إن شاء عجّلها له في دنياه، وإلا كانت له ذخراً في الآخرة، واعلموا أن ما عند الله خير وأبقى للذين آمنوا وعلى ربهّم يتوكلون.

ووعظ أبو موسى القُرّاء فقال: أنتم قُرّاء أهل البلد، فلا يطولن عليكم الأمد، فتقسو قلوبكم كما قست قلوب أهل الكتاب.

وعن ابن مسعود يقول لمريديه: وينبغي لحامل القرآن أن يكون باكياً محزوناً، حكيماً، حليماً، عليماً. ولا ينبغي لحامل القرآن أن يكون جافاً، ولا غافلاً، ولا صخّاباً، ولا صيّاحاً، ولا حديداً. وإذا سمعتَ الله يقول: يا أيها الذين آمنوا، فاوعها سمعك، فإنه خيرٌ يأمره به، أو شرٌ ينهى عنه. ـ وكل ذلك هو من دأب الصوفية من أهل العرفان.

٧٦٤ - قراء سبعون...

القُرّاء عموماً، كانوا من الشيبة الأنصار، اشتهروا بأنهم من خير حفظة القرآن، ومن المنفقّهين في الدين، وكانوا من الفقراء، وجماعتهم تمثّل أهل الصُّفة، فهم مِثْلهم من أهل الله، إلا أن أهل الصُّفّة: كانوا من المهاجرين، بينما القُرّاء: كانوا

من الأنصار، وقد ورد عنهم فى واقعة بئر معونة، أن من الأنصار القرّاء السبعين الذين أوفدهم النبىّ ﷺ فى حمى عامر ابن مالك، مُلاعب الأسنّة، إلى قومه من بنى كلاب من أهل نجد، ليعلّموهم القرآن ويفقّهونهم فى الدين، وكان منهم من كبار صحابة الرسول ﷺ: عمرو بن أمية الضَّمرى، وعامر بن فُهَيرة، وسليم ابن ملحان، والحَكَم بن كَيْسان، والمنذر بن عمرو الساعدى، فلما وصلوا إلى بئر معونة، تقدّم منهم عمرو بن أُمَيّة بكتاب رسول الله ﷺ لعامر بن الطُّفيل، إلا أن عامراً وثب على ابن أُمَيّة الضَّمرى وقتله، واستنفر من مُضَر: بنى سُليم، وعُصَيّة، ورِعْلاً، وذَكوان، وآخرين، فنفر معه جماعة منهم، والتقوا بالمسلمين وقتلوهم، إلا ابن أُمَيّة الضَّمرى فقد استطاع أن يفلت ويعود إلى رسول الله ﷺ يخبره بالأمر، وكان فى عودته يحبو على قدميه وذراعيه من شدّة الضعف، مما ناله من الأذى، وقيل إن المنذر بن عمرو - وكان على رأس السبعين، ظل يقاتل إلى آخر رَمَق، فلما عَلِم الرسول ﷺ بما كان منه قال: أعْنَقَ ليموت - فذهب قوله مثلاً: يعنى أنه تقدّم إلى الموت وهو يعرفه. وقيل إن عامر بن فُهَيْرة - وهو الذى صحب الرسول ﷺ وأبى بكر فى رحلة الهجرة من مكة إلى المدينة - قتله من جماعة ابن طفيل، رجلٌ من بنى كلاب يُدعَى جبّار بن سُلمى، فلما ضربه بسيفه، رفعته الضربة عن الأرض، فقيل إن جسده طار فى الهواء واختفى فى السماء! فلما رأى جبّار ما حدث، هاله الأمر وأسلم، وقال النبىّ ﷺ عن ذلك كما رووا: إن الملائكة وارت جثته وأُنزل علّيين". والقصة خيالية من الفولكلور الشعبى الإسلامى.

وحزَن الرسول ﷺ على مقتلة القُرّاء، وظل يدعو مدة شهر على قاتليهم ويقول: اللهم أشْدُد وطأتك على مُضَر! اللهم سنين كسنى يوسف! اللهم عليك ببنى لحيان، وعَضَل، والقارة، وزِغب، ورِعل، وذكوان، وعُصَيّة، فإنهم عصوا الله ورسوله! - وهذا كلام مشكوك فيه، لأن الرسول ﷺ، ما كان أحد. وعلى العكس كان يدعو له بالهداية. - وعن أنس ابن مالك: أن القُرّاء من فقراء الأنصار، كانوا إذا جَن الليل، آووا إلى مُعَلِّم لهم بالمدينة، يبيتون عنده يدرسون القرآن، فإذا أصبحوا، فمن كانت عنده قوة أصاب من الحطب، واستعذب من الماء؛ ومن كانت عنده سعة أصابوا غنم القوم فأصلحوها. وقال: إن خاله حرام بن ملحان كان مع القُرّاء السبعين الذين قُتلوا فى بئر معونة، فلما قُوتل قتَله رجل استقبله برمح فأنفذه به، فلما وجد حرام مسّ الرُّمح فى جوفه، قال: الله أكبر! فُزتُ وربّ

الكعبة - فإلى هذا الحدّ كان إيمانهم وإيثارهم للشهادة!.

٧٦٥ - قرار...

القرار كمصطلح صوفى هو: زوال التردد عن حقيقة الحال.

٧٦٦ - قرب...

حال القُرب يقتضى حال المحبة وحال الخوف. والقُرب: هو قُرب العبد من الحقّ سبحانه بالمكاشفة والمشاهدة والانقطاع عما دون الله، ونقيضه البُعد.

وقيل القُرب: هو الدنو من المحبوب بالقلب، وهو على نوعين: قُرب النوافل: وهو زوال الصفات البشرية وظهور صفاته تعالى على البَشَر، بأن يسمع المسموعات من بعيد، ويبصر المبصرات من بعيد، ويحيى ويميت بإذنه تعالى، وهذا معنى فناء الصفات فى صفات الله تعالى، وهو ثمرة النوافل؛ وقُرب الفرائض: وهو فناء العبد بالكلية عن الشعور بجميع الموجودات حتى نفسه أيضاً، بحيث لم يبق فى نظره إلا وجود الحق سبحانه، وهذا معنى فناء العبد فى الله تعالى، وهو ثمرة الفرائض.

٧٦٧ - قربة...

القُربة: هى ظهور العبد فى نوعات الأسماء والصفات بقريب من ظهور الحق فيها، لأنه يستحيل أن يستوفى العبد حقيقة صفة من الصفات، لكنه إذا تصرّف على سبيل التمكين فى الصفة، بحيث لا يستعصى عليه شئ مما يطلبه، فيعلم ما يتشوّف أن يعلمه، ويفعل ما يريد حدوثه فى العالم، كأن يُبرئ الأكمه ويُحيى الميّت، مثلما فعل عيسى عليه السلام، وغير ذلك مما هو لله تعالى، فإنه يكون قد قارب من الحق، أى صار فى جوار الله تعالى، فهذا القُرب هو الجوار.

ومقام القُربة حيث يتمكن الولى تمكُّناً يَقرُب من تمكُّن الحقّ فى صفاته، وهو مقام «قاب قوسين».

٧٦٨ - قزلباشية...

الصوفية من أتباع الصفويين، وشعارهم القزلباش، وهو القلنسوة الحمراء ذات اثنتى عشرة شقة تُلف حولها العمامة! والصوفية أصحاب القزلباش، يوجد منهم الآن فى تركيا، ويطلقون على القلنسوة التى يتعمّمون بها هناك هذا الاسم، ومنهم جماعات فى أطراف الموصل فى العراق، فى القرى التى يسكنها الشَّبَك والماولية والإبراهيمية والباجوان.

٧٦٩ - قسيس...

الرهبانية عند النصارى، والراهب هو صوفى النصارى، والقسيس هو عالِمُهم،

مِن قَسَّ إذا تتبعّ الشيء فطلبه، لأنه يتتبّع العلم ويطلبه، ويفتّش عن عباد الله، ويسعى إليهم يصاحبهم، ويقال فى الجمع قسّيسون وقساوسة. والرهبان: مكانهم الصوامع؛ والقساوسة: مكانهم المحاريب. وقيل: الذى ضيّع النصارى هم القساوسة، وضيّعوا الإنجيل، وأدخلوا فيه ما ليس منه، وكانوا كثيرين تجاوزوا الثلاثين قسيسًا، هم الذين اهتموا بالكتابة عن المسيح، فأقرّ النصارى بما وضعوه من الكتب أربعة، هى أناجيل: متّى، ومُرقُس، ولوقا، ويوحنا. وكير من الصوفية كانوا يلجأون إلى الأديرة، ويقرأون الأناجيل، ويروون عن الرهبان، ولم تكن رواياتهم فى معظمها صحيحة.

٧٧٠ - قشر...

القشْر هو الشريعة، ولا حقيقة بدون شريعة، والناس إما أصحاب شريعة أو أصحاب حقيقة، وهم الذين يطبّقون الشريعة فتصبح سلوكاً وأخلاقاً، غير أن «اللُّب» يخفَى على أهل الدنيا، وعلى الذين لا يزيد فهمهم للشريعة عن القشر.

وقيل: إن القشر يطلق على كل علم ظاهر يصون العلم الباطن الذى يكون له كاللُّب. والشريعة هى القشر، والطريقة هى اللُّب. وأيضاً الطريقة قشر بالنسبة للحقيقة التى هى اللُّب. والصوفى الذى لا يصون حاله وطريقته بالشريعة، يفسد عليه حاله، وتستحيل طريقته هوى ووسوسة وهوساً. وإذا لم يتوسل بالطريقة إلى الحقيقة، ولم يحفظها بها، فسدت حقيقته وآلت إلى الزندقة والإلحاد.

٧٧١ - قصّارية...

القصّارية: طريقة أبى صالح حمدون ابن أحمد بن عمارة القصّار، وأساسها إظهار ونشر الملامة، ولذا تسمى كذلك باسم الملامتية. (أنظر الملامتية والقصّار).

٧٧٢ - قصم...

القَصْم: هو الكسر. قال الواسطى: ظهرت الأمور كلها فى حقائقها على الدهور، فمن شاهدها بشاهد القِدَم انقصم فى المقابل لذلك. يعنى صارت له حقيقتان، واحدة ظاهرية، وأخرى باطنية، أو صار له علمان: علم ظاهر وعلم باطن.

٧٧٣ - قصود...

معناه الإرادات والنّيات الصادقة المقرونة بالنهوض إليه. قال ابن عطاء: مَن قَصَدَ فى قُصوده غير الحقّ، فقد عظمت استهانته بالحق، أى أن قصود غير الحق تعظيمٌ لما هو سوى الحق دون الحق سبحانه.

٧٧٤ - قطب...

هو صاحب أعلى الدرجات فى

الطريقة. والقطبية لا يبلغها أساتذة الطريقة إلا بجهد جهيد؛ ويسمونه السلطان، والمهدى، والغالب اسم المهدى، وأوتاده يسمونهم الخلفاء. ومن الطريف أن ابن عربى سمّى نفسه نائب المهدى، وادّعى الحلاّج هذه النيابة، وقال الحكيم الترمذى: إن مهدى الصوفية هو خاتم الأولياء. وفى رواية ابن زنجى: أن أعوان الحلاّج كانوا ينتظرون عودته، حتى أنهم ادّعوا وأنه ما صُلب ولا قُتل، ولكنه شُبِّه لهم، وأنه رُفع وسيعود فى آخر الزمان!

وقيل: القطب عبارة عن رجل واحد هو موضع نظر الله تعالى من العالم فى زمان، ويُسمَّى أيضاً «الغوث»، باعتبار التجاء الملهوف إليه.

وقيل: إن القطب خُلق على قلب محمد ﷺ؛ وقيل: على قلب إسرافيل عليه السلام، ويُسمَّى أيضاً: قطب العالم، وقطب الأقطاب، والقطب الأكبر، وقطب الإرشاد، وقطب المدار. وهذا كله كلام الشيعة.

ويقول القاشانى: والقطب إما كذلك بالنسبة إلى ما فى عالم الشهادة من المخلوقات، يُستخلف عند موته من أقرب الأبدال منه؛ وإما أنه قطب بالنسبة إلى جميع المخلوقات فى عالم الغيب والشهادة، ولا يُستخلف، ولا يقوم مقامه أحد من الخلائق. وهو قطب الأقطاب المتعاقبة فى عالم الشهادة لا يسبقه قطب، ولا يخلفه آخر. وهو الروح المصطفوى المخاطَب بـ «لولاك ما خلقتُ الكون» (وهذا حديث منسوب إلى الرسول ﷺ).

وواضح أن كلام القاشانى فيه - فى المعنى الأول: أن القطب عبارة عن النبىّ، للعصر المعين، وللأمة المعينة، فإذا ذهبت أمّة وولىّ عصر، جاءت أُمّة أخرى لها أنبياؤها؛ وفيه من المعنى الثانى ما يقوله النصارى عن عيسى باعتباره ابن الله، وليس له ابنٌ سواه على تعاقب الأيام فى عالم الشهادة؛ وفيه ما يقوله بعض الصوفية عن الروح المصطفوى، وهو معنى يرتقى عن المعنى النصرانى عن عيسى، فالنبوة اصطفاء، وروح تجديد، وخَلق، وترقٍّ باستمرار، طالما الحياة مستمرة ولها عطاء.

ويقول التيجانى عن «علم القطب»: إن الله يُكرمه بعلمٍ ما قبل وجود الكون، وبعلم ما وراءه، وما لا نهاية له، ويعلّمه جميع الأسماء القائم بها نظام كل ذرة من جميع الموجودات، ويخصّصه بأسرار دائرة الإحاطة، وجميع فيوضه، وما احتوى عليه!! ويقول: إن قطب الأقطاب لا تقع بينه وبين الرسول حجابية أصلاً، وحيثما جال رسول الله من حضرة الغيب، ومن

حضرة الشهادة، إلا وعين قطب الأقطاب متمكنة من النظر إليه، لايحتجب عنه فى كل لحظة من اللحظات!ـ فكأنما القطب: «و العين الساهرة على العالم، والعليم بكل ما يجرى فيه.

ويقول الكمشخانلى عن أعوان القطب: إنهم الإمامان: بمثابة الوزيرين، أحدهما لعالم المُلك، والآخر لعالم الملكوت؛ والأوتاد الأربعة أو الثلاثة: فكلما مات قطب أقيم مكانه واحد منهم، وعلمهم يفيض عليهم من قطب الأقطاب، وهؤلاء إن ماتوا فسدت الأرض؛ والأبدال: والبدل حقيقة روحانية تجتمع إليها أرواح أهل الجزيرة التى رحل عنها الولىّ. والأبدال أربعون؛ والنجباء: وهم دون الأبدال، وعددهم سبعون، يحملون عن الناس أثقالهم وهمومهم؛ والنقباء: وعددهم ٣٠٠ أو ٥٠٠، وهؤلاء عملهم الكشوف للخبايا فى الأرض وإظهار ما بها من خيرات. وتلك إذن هى مملكة الصوفية، لم يتحدث فى شىء من ذلك لا القرآن ولا الحديث، ولكنها تصورات الصوفية، وهى تصورات إبداعية على أى حال وليست شطحات ولا هلاوس.

وعن عفيف التلمسانى: أن مرتبة القطب هى مرتبة الإنسانية الكاملة، وله أن يهدى الناس إلى سبيل ربّه، ولا يطلب على ذلك إذناً من أحد. وقبل أن يوصد باب النبوة كان القطب يُدعَى نبياً! وهو يُدعَى الآن شيخاً. يريد أن يقول: أن الشيخ هو القطب، وأصله نبىّ!! يعنى أن عفيفاً التلمسانى نبىٌّ!!

٧٧٥ - قطبية...

قيل: هى القطبية الكبرى، وهى مرتبة قطب الأقطاب، وهى باطن نبوة محمد ﷺ، ولذلك لا تكون إلا لورثته، لاختصاصه ﷺ بالأكملية، فلا يكون «خاتم الولاية» و«قطب الأقطاب» إلا على باطن «خاتم النبوة».

وعند أحمد التيجانى يُسمَّى القطبية: قطبانية، ويقول: إن حقيقة القطبانية هى الخلافة العظمى عن الحقّ مطلقاً فى جميع الوجود جملة وتفصيلاً: ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ (البقرة ٣٠)، يعنى هو خليفة الله دوماً وأبداً فى الوجود، فحيثما كان الربّ إلهاً، كان هو خليفة فى تصريف الحكم وتنفيذه فى كل مَن له عليه ألوهية لله تعالى، فلا يكون لأىٍّ من الموجودات كائناً ما كان، شىءٌ من الله إلا من خلال القطب؛ ثم إنه القائم فى الوجود بروحانيته فى كل ذرّة من ذرّات الوجود، وذلك القطب هو الإنسان، أو الروح الإنسانى، فلا شىء فى الوجود

يتعرّف إليه الإنسان ويصبح ضمن نطاق علمه، إلا وقد صار شيئاً، فالإنسان أو الروح الإنساني، هو المتصرَّف في الموجودات جملةً وتفصيلاً، ثم هو المتصرِّف في رواتب الأمم والناس بحسب عرفانيتهم وعلمانيتهم، فلا تكون مرتبة في الوجود إلا للأمم والأفراد العارفين، فهو - أي الروح الإنساني، المتصرّف فيهم جميعاً، والمُمِد للأمم، وبه تُرحَم، وبه يبقى الوجود في بناء الوجود رحمةً لكل العباد، ووجوده - أي الروح الإنساني - في الوجود حياةٌ لروح الوجود الكلية، وتنفُّسُه - أي حركته في الوجود، يُمِدُّ الله به العلوية والسفلية. والإنسان أو الروح الإنسانية؟ يشهد فيها كل قاصد مقصده.. ونقول هذا كلام أليق: الصوفية الشيمة منه بالصوفية السُّنة.

٧٧٦ - قطع...

قَطع العلائق: هو شُغل الصوفي بأسبابه الدنيوية التي تعلّق بها حتى قطعته عن الله تعالى. والعلائق هي الأسباب التي يتعلّق بها الطالبون ويفوتهم بسببها المراد.

٧٧٧ - قلب...

قالت الصوفية: للقلب معنيان: أحدهما أنه اللّحم الصنوبري الشكل، المودع في الجانب الأيسر من الصدر، وهذا القلب يكون للبهائم أيضاً، بل وللميت كذلك؛ وثانيهما: لأنه لطيفة ربّانية روحانية، لها تعلّق بالقلب الجسماني كتعلّق الأعراض بالأجسام، والأوصاف بالموصوفات، وهو حقيقة الإنسان، وهذا هو المعنى المراد كلما ذكر القلب في القرآن أو السُّنة، وإلى هذا المعنى أشار الله بقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾ (ق ٣٧)، فهو النور الأزلي، والسرّ العليّ المنزّل في عَيْن الأكوان، لينظر الله تعالى به إلى الإنسان، ويعبّر عنه في الكتاب بروح الله المنفوخ في روح آدم، حيث قال: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ (الحجر٢٩). ويسمى هذا النور بالقلب لمعانٍ: منها أنه لبابة المخلوقات وزبدة الموجودات جميعها، فسمي بهذا الاسم، لأن قلب الشيء خلاصته وزبدته؛ ومنها أيضاً أنه سريع التقلُّب، وذلك لأنه نقطة يدور عليها محيط الأسماء والصفات؛ ومنها أن القلب لحقائق الوجود كالمرآة للوجه. ولما كان العالم سريع التغيّر في كل نفس، انطبعت صورته في القلب، فهو كذلك سريع التغيّر. وقيل كذلك إن العالم هو مرآة القلب وليس العكس، فالأصل هو القلب، والفرع هو العالم، ولهذا قال الله تعالى: «ما وسعني أرضي

ولا سمائي، ووسعني قلب عبدي المؤمن»، ولو كان العالَم هو الأصل لكان أولى بالوسع من القلب، فَعُلِم: أن القلب هو الأصل، وأن العالَم هو الفرع. وهذا الوسع على ثلاثة أنواع: الأول: وُسع العِلم، وذلك هو المعرفة بالله وبمخلوقاته وأسبابه؛ والثاني: هو وسع المشاهدة، وذلك هو الكشف الذي يطّلع القلب به على محاسن جمال الله تعالى في مخلوقاته؛ والثالث: وسع الخلافة، وهو التحقّق بأسمائه تعالى وصفاته حتى أنه ـ أي العبد المؤمن ـ ليرى ذاته تعالى في ذاته هو نفسه ـ أي يرى أسماءه وصفاته في نفسه، فتتنزّل من قلبه كأنما هو المكوِّن، فتكون هوية الحق عين هوية العبد، فيتصرف في الوجود تصرف الخليفة في مُلك المستخلِف، وهذا وسع المحققين. ـ هكذا قال الصوفية.

وأرباب القلوب: هم أهل الحقائق من المريدين والعارفين والمتحققين والواجدين، وأهل المجاهدات والرياضات والمتقرّبين إليه بأنواع الطاعات ظاهراً وباطناً.

وحضور القلب بالحق: يكون بالغيبة عن الخَلْق.

وجنّة القلب: هي الجنّة المعنوية من تجليات الصفات والأسماء الإلهية، وهي جنّة الصفات أيضاً.

ويُنسب إلى كعب الأحبار الحديث الموضوع أن النبيّ ﷺ قال: «العينان دليلان، والأذنان قُمعان، واللسان تُرجمان، واليدان جناحان، والرِّجلان بريدان، والكبد رحمة، والطحال ضحك، والرئة نَفَس، والكُليتان مكر، والقلب مَلك، فإذا صحّ الملك صحّت رعيته، وإذا فسد الملك فسدت رعيته». رواه أبو نعيم.

وعند الصوفية القلوب أنواع: كالقلب المؤمن، والقلب الكافر، والسليم، والآثم، والقاسي، والفظّ، والمريض، والمطمئن، والواعي، والمختوم، والمربوط عليه، والخصيم، والناكر، والمنيب، والمهدي، والتقيّ، والمجرم، والمشمئز، والمتألّف، والمُمَحَّص، والطاهر، والخيّر، والعاقل، والأعمى، والصاغي، والغُلف، والغليل، والفظّ، والوَجِل، والمكنون، والمستحور، والمتشابه، والرحيم، والمنافق، والعاقل، والمُغلَق إلخ.

والقلوب ثلاثة: قلب مثل الجبل: لا يزيله شيء؛ وقلب مثل النخلة: ثابت والريح تميلها؛ وقلب كالريشة: يميل مع الريح يميناً وشمالاً. والله قد خلق القلوب مساكن للذِّكر، فصارت مساكن للشهوات، ولا يمحو الشهوات من القلوب إلا خوفٌ مزعج أو شوق مقلق.ـ

ومـوضع السرّ فى الإنسان أربعة لا غير: العين، واللسان، والقلب، والهوى؛ فمن أراد النجاة، فلينظر عينه: لا ينظر بها إلى مالا يحلّ له؛ ولينظر لسانه: لا يقول به شيئاً يعلم الله خلافه من قلبه؛ ولينظر قلبه: لايُكنّ فيه غلّ ولا حقد على أحد؛ ولينظر هواه: لا يهوى شيئاً من الشّر.

وأشرف القلوب: قلبٌ حىّ بنورالفَهْم عن الله. ـ والتقوى تشرح قلوب الطاهرين، والبرّ يُزهرها. ـ **وقلوب الفُجّار** تَظْلَمُ بالفجور، وتعمّى بسوء النية. ـ وليس من العبادات ما هو أنفع من إصلاح خواطر القلوب.

٧٧٨ - قلم...

القلم: رمزٌ عند الصوفية، وهو علم التفصيل، فإن الحروف ـ التى هى مظاهر تفصيلها ـ مجملة فى مداد الدواة، ولا تقبل التفصيل ما دامت فيها، فإذا انتقل المداد منها إلى القلم، تفصّلت الحروف به فى اللوح، وتَفَصّل العلم بها إلى لا غاية، كما أن النطفة التى هى مادة الإنسان، ما دامت فى ظهر آدم، فإن مجموع الصور الإنسانية مجملةٌ فيها، ولا تقبل التفصيل ما دامت فيها، فإذا انتقلت إلى لوح الرحم، بالقلم الإنسانى، تفصّلت الصورة الإنسانية.

والقلم الأعلى: هو العقل الأول؛ قيل: هو نور واحد، وبنسبته إلى العبد يسمى **العقل الأول**، وبنسبته إلى الحقّ يُسمّى **العلم الأعلى**.

٧٧٩ - قلندرية...

فرقة من الصوفية تركوا العادات والآداب، وأهملوا التقيّد بتقاليد المجالس والمعاملات، ولا يجيزون الزيادة على الفرائض، ولا يحرمون أنفسهم من اللذات المباحة، أى أنهم ـ بينما يلزمون أنفسهم على ألا يدخروا ولا يجمعوا حطام الدنيا، فإنهم لا يبالغون فى نفس الوقت فى التعبّد والتزهّد، وليس من شئ يهتمون به إلا صفاء القلب مع الله.

ويقول **السهروردى شهاب الدين:** إن **القلندرية** أحياناً يقال لهم الملامتية؛ وذكر أنهم قوم مَلكهم سُكر طيبة قلوبهم حتى خرّبوا العادات، وطرحوا التقيّد بآداب المجالسات والمخالطات، وساحوا فى ميادين طيبة قلوبهم، فقلّت أعمالهم من الصوم والصلاة إلا الفرائض، ولم يبالوا بتناول شىء من لذّات الدنيا من كل ما كان مباحاً برخصة الشرع، وربما اقتصروا على رعاية الرخصة ولم يطلبوا حقائق العزيمة، ومع ذلك تمسكوا بترك الادّخار، وترك الجَمْع والاستكثار، ولم يترسّموا

بمراسم المتقشّفين والمزهّدين والمتعبّدين، وقنعوا بطبيعة قلوبهم مع الله تعالى، واقتصروا على ذلك لا يتطلعون إلى طلب مزيد سوى ما هُمْ عليه من طيبة القلوب.

والفرق بين القلندرى والملامتى: أن القلندرى يسعى إلى تخريب العادات، والملامتى يسعى إلى كتم العبادات.

ولا يتقيد القلندرى بهيئة، ولا يبالى بما يعرف من حاله، وما لايعرف، ولا ينعطف إلا على طيبة القلوب، وهو رأسماله.

وكان ظهور اسم القلندرية ضمن أشعار الصوفى الكبير: أبى سعيد بن أبى الخير (٣٥٧ - ٤٤١ هـ)؛ وادّعى أهل الطريقة أن ظهورها صحب الإسلام منذ نشأته. ويبدو أن اسمهم القلندرية بحسب البلد الذى ظهروا فيه، قيل كان اسمه قلندر؛ وقيل بل كان اسمه قلندرى، ويعنى «الصوفى الطيّب».

وأقدم ما يرد من أسماء الشيوخ للقلندرية، اسم شيخهم: قطب الدين حيدر التونى، المتوفى سنة ٦١٨هـ (١٢٢١م)، ويقال إنه أباح لأتباعه تناول الحشيش الذى أُطلق عليه فيما بعد اسم «مُدامة حيدر»، وصار ذلك تقليداً فى الطريقة، والقلندرية لذلك من الحشّاشين المتعاطين للمخدرات، وربما كان من يقال عنهم تشنيعات عليه من خصومهم. ـ ومن تقاليدهم: حلق شعر الوجه كله ـ الحاجبين واللحية، وإعفاء الشارب، على عكس السُّنّة الإسلامية، ولذلك كانوا يبدون كالمأبونين، (أى بهم شذوذ جنسى أو بالأحرى لواطة سالبة)، وهذا ما كان الناس يحترقونه فيهم، وشنّعون به عليهم.

٧٨٠- قناعة...

الاكتفاء بالقوت الضرورى، والاختصار على ما لابد من الملبوس والمفروش والمأكول، وإيثار القليل على الكثير. قال أبو هريرة، قال رسول الله ﷺ يوماً: يا أبا هريرة، إذا اشتد بك الجوع، فعليك برغيف وكوب ماء، وعلى الدنيا العفاء»!

٧٨١- قهر ولطف...

القهر: هو ما يمدنا به الله فى فناء إرادتنا ليحفظنا من الوقوع فى أهوائنا. واللطف هو معونة الله لنا فى بقاء قلوبنا ودوام مشاهداتنا. فأهل اللطف يقولون: إن ما يتحقق لهم إنما بلطف الله؛ وأهل القهر يقولون: بل هو يقهرنا بمراده؛ والأولون مع الآية: ﴿ اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ ﴾ (الشورى ١٩)؛ والآخرون مع الآية: ﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ ﴾ (الأنعام ١٨).

٧٨٢ - قوامع...

كل ما يقمع الإنسان عن مقتضيات الطبع والنفس والهوى ويردعه عنها؛ وهى الإمدادات الأسمائية والتأييدات الإلهية لأهل العناية فى السير إلى الله والتوجه نحوه .

٧٨٣ - قونوية...

طريقة صدر الدين القونوى، نسبةً إلى قونية، وفيها وُلد وتوفى سنة ٦٧٢هـ. والقونوى على مذهب محيىّ الدين ابن عربى، وابن عربى ربّاه وكان قد تزوّج أمه. (أنظر القونوى ضمن الصوفية).

٧٨٤ - قيام...

القيام بالله: هو الاستقامة عند البقاء بعد الفناء، والعبور على المنازل كلها، والسير إلى الله بالله وفى الله ، بالانخلاع عن الرسوم بالكلية .

والقيام لله: هو الاستيقاظ من نوم الغفلة، والنهوض عن سِنة الفترة عند الأخذ فى السير إلى الله . وفى الخبر: عليكم بقيام الليل، فإنه مرضاة لربكّم، وهو دأب الصالحين قبلكم.

وقد كان جمع من الصالحين يقومون الليل كله، حتى نُقل ذلك عن أربعين من التابعين، فكانوا يصلون الغداة بوضوء العشاء، ومنهم: سعيد بن المسيب، وصفوان بن سليم، والفضيل بن عياض، ووهيب بن الورد، ووهب بن منبّه، وأبو سليمان الدارانى، وعلىّ بن بكار، وحبيب العجمى، وكهمس بن المنهال، وأبو عبدالله الخوّاص، والحكَم بن عُيَيْنَة، ومالك بن دينار، وسليمان التيمى، ويزيد الرقاشى، ويحيى البكّاء، ومحمد بن المنكدر، وغيرهم، عدّهم وسمّاهم بأنسابهم الشيخ أبو طالب المكّى فى كتابه قوت القلوب (انظر تحقيق الدكتور الحفنى للكتاب). والمناسب فعل النبىّ داود، فقد أمره ربّه أن يقوم وسط الليل، فإنه مَن قام أوله نام آخره، ومن قام آخره نام أوله .

ويأمر الصوفية أصحابهم بنومة واحدة فى الليل، وأكلة واحدة لليوم والليلة. وعندما يشتكى المريد من أنه لا يستطيع القيام، يقال له إن ذنوبه بالنهار تقيّده عن القيام.

والاحتلام أثناء النوم عقوبة على عدم المراعاة وعدم التحفّظ بالنهار. والذى يخل بقيام الليل: كثرة الاهتمام بأمور الدنيا وأشغالها، وإتعاب الجوارح، والامتلاء من الطعام ، وكثرة الحديث واللغط، وإهمال القيلولة. والموفق من يغتنم وقته، ويعرف داءه ودواءه ، ولا يُهمِل فيُهمَل .

وفى قوله تعالى عن فتية أهل الكهف : ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا﴾

(الكهف ١٤)، أنهم لما لم يعودوا يخافون إلا الله، لما ربط على قلوبهم - من قولنا فلان رابط الجأش، إذا كانت نفسه لا تَفْرُق عند الفزع والحرب، قاموا أمام الملك الكافر الظالم، فقالوا كلمة الإخلاص: ﴿رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَهًا لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا﴾ (الكهف ١٤). وربط بعض الصوفية «الربط على القلب» بالقيام والقول فى الحضرة، أى الذكر. وعندهم أن القيام الذى يعنى الذكر، يكون بضرب الأرض بالأقدام والرقص بالاكمام (أى القلانسى المدوّرة، وهي أغطية الرأس، والمفرد كُمّ، وخاصة عند بعض الطُرق عند سماع الأصوات الحسان فى هذه الأزمان، من المُرد والنسوان. وأهل السُّنة على القول بالنهى عن ذلك القيام لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا﴾(الإسراء ٣٧). وقيل: إن الرقص والتواجد عند الصوفية، أول من أحدثه اليهود أصحاب السامرىّ، لما اتخذ لهم عِجْلاً جسداً له خوار، فقاموا يرقصون ويتواجدون، فكأن القيام والقول على طريقة هؤلاء، هو دِين الكفّار وعُبّاد العِجْل.

٧٨٥- قيامة...

القيامة الصغرى: هى أن نُبعث بعد الموت إلى حياة فى أحد البرازخ العليا أو السفلى بحسب حال الميت فى الحياة الدنيا، لقوله عليه السلام: **كما تعيشون تموتون وتبعثون**.

والقيامة الكبرى: هى أن نُبعَث بعد الفناء فى الله إلى الحياة الحقيقية عند البقاء بالحق.

وقيامة الأحياء الأموات: أن يتوبوا إلى الله وتُبعث ضمائرهم من جديد؛ **والتوبة قيامة، والاستغفار بعث.**

ومن أسماء القيامة: **الواقعة** (الواقعة ٥٦/١): لأنه ليس لوقعتها كاذبة؛ **والحاقة** (الحاقة ٦٩/١): ففيها يتحقق الوعد والوعيد؛ **والطامة الكبرى** (النازعات ٧٩/ ٣٤): لأنها تطمّ على كل أمر هائل؛ **والساعة**، (القمر ٤٦): وسُمّيت القيامة **بالساعة** لسُرعة الحساب فيها؛ **والصاخة** (عبس ٨٠/ ٣٣): لأنها تصخّ الأسماع حتى تكاد تصمّها؛ **والغاشية** (الغاشية ٨٨/١): لأنها تغشى الناس وتعمُّهم؛ **والقارعة** (القارعة ١٠١/١): لأنها تقرع المكذّبين بالأهوال.

ويوم القيامة: يُنفخ فى الصور نفخةً واحدة، وتُحمَل الأرض وتُدَك دكةً واحدة، وتُرجّ وتُزلزل، خافضة رافعة، وتُخرج أثقالها، وتُلقى ما فيها وتتخلّى، وترجف راجفةٌ تتبعها رادفة، وتسيّر الجبال

كالسراب وتنكثب مهيلاً، وتُنسف حتى لتصبح كالعهن المنفوش؛ وتنفتح السموات كالأبواب، وتنشق واهيةً، وتنفطر كالمهل وتنكشط؛ وتنتثر الكواكب وتنكدر النجوم وتنطمس، وتُجمع الشمس والقمر، ويُخسف القمر، وتُكوَّر الشمس، وتُسجّر البحار وتنفجر؛ وتُبعثر القبور ويخرج الناس من الأجداث ينسلون إلى ربّهم كأنهم جراد منتشر، أو كأنهم يوفضون إلى نُصب؛ وتُعطّل العشار، وتُحشَر الوحوش، وتُنشَر الصحف، وتُسعّر الجحيم، وتُزلَف الجنة، وتعلم الأنفس ما قدّمت وأخّرت، وتُرصَد جهنم للطاغين مآباً، ويقول الإنسان أين المفر؟ ويقال للمكذّبين انطلقوا إلى ما كنتم به تكذّبون، إلى ظل ذى ثلاث شعب، لا ظليل ولا يُغنى من اللهب، والنيران ترمى بشرر كالقَصْر، كأنه جُمالاتٌ صُفْر.

ويوم القيامة: هو يوم البعث، وهو اليوم الحق، واليوم الموعود، ويوم الفصل، وهو الميقات، ويقوم فيه الروح والملائكة صفاً، ويقول المكذّب ياليتنى كنتُ تراباً. ونبأ القيامة لذلك: هو النبأ العظيم؛ والمتقون فيه فى الجنات والعيون، والأشقياء فى ظل يحموم. وفيه يفر المرء من أخيه وأمه وصاحبته وبنيه، والوجوه فيه إما مسفرةٌ ضاحكةٌ مستبشرة، وإما عليها غبرة وترهقها قترة، ولا عاصم منه من أمر الله إلا من رحم، والمَلَك على أرجاء الوجود، وعرش الله تعالى يحمله ثمانية، والأرض فى قبضته تعالى، وهو على الناس شهيد، وكلهم آتيه فرداً، ويُحشَر المكذب أعمى مقبوحاً يسأل عمّا افترى، وهو الخاسر الذى خسر نفسه وأهله، فإذا كان فى الدنيا يفرقه الناس اتقاء فُحشه، فهو أشر الناس منزلة عند الله فى ذلك اليوم.

ولما سألت عائشة رسول الله ﷺ: **هل نذكر أهلينا يوم القيامة؟** قال: **أما فى ثلاثة مواطن فلا يذكر أحدٌ أحداً حتى يعلم أيخف ميزانه أم يثقل، وعند الكتُب حتى يقال هاؤم اقرءوا كتابيه، حتى يعلم أين يقع كتابه، أفى يمينه أم فى شماله، أو من وراء ظهره؛ وعند الصراط إذا وُضع بين ظهرى جهنم؛ حافتاه كلاليب كثيرة، وحَسَكٌ كثير، يحبس الله بها من يشاء من خلقه، حتى يعلم أينجو أم لا».** رواه الحاكم.

وسألته عائشة: كيف يُحشَر الناس يوم القيامة؟ قال: «حفاةً عُراةً غُرلاً». - فلما أبدت اندهاشها. إذ كيف تكون النساء عاريات يوم القيامة والرجال ينظرون إليهن؟ قال: **الأمر أهم من أن ينظر بعضهم إلى بعض.** فقالت: وكيف بالسوءات؟ قال:

«لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه» رواه ابن ماجة ومسلم والطبرى.

والصوفية لذلك تخشى يوم القيامة، ومنهم من لا يعبد الله مخافة العقاب ولا طمعاً فى الثواب، ولكنهم يحبونه تعالى لأنه جدير بالحب، ويوم القيامة عندهم هو يوم اللقاء، وأنْ يشاهدوه تعالى على الحقيقة.

٧٨٦- القيوم...

من أسماء الله تعالى: ﴿هُوَ الْحَىُّ الْقَيُّومُ﴾ (البقرة ٢٥٥)، صيغة مبالغة من قائم، أى الشديد القيام على الأشياء الحافظ عليها. والصوفى إذا علم أنه تعالى الحىّ القيوم الذى لا يموت، فإنه لا يركن لمخلوق، ومن يركن إلى الخَلق فقد يأتيهم الموت وقت الحاجة إليهم، ومن كان اعتماده على الله استراح من كثرة التدبير والاشتغال بأمور نفسه.

* * *

باب الكاف

* * *

٧٨٧ - كاظم...

الاسم الذى عُرف به موسى بن جعفر، لكظمه الغيظ وزهده، وأطلقوا عليه اسم «العبد الصالح»، وكان أستاذاً لشقيق البلخى المتوفى سنة ١٩٤هـ (٨٠٩م)، وتاب على يديه بشر الحافى المتوفى سنة ٢٢٨هـ (٨٤١م).

٧٨٨ - كبائر...

كبائر السيئات نقيض صغائرها، واختلفوا فيها وفى عددها، فقالوا هى أربع، أو من أربع إلى سبع، أو أنها تسع، أو إحدى عشرة، وربما أكثر من ذلك، وكان ابن مسعود يعدّدها: أربعاً، وابن عمر: سبعاً، وعبد الله بن عمرو: تسعاً، وابن عباس صحّح ذلك وقال هى إلى سبعين أقرب منها من سبع، وقال: كل ما نهى الله عنه من أول سورة النساء إلى رأس ثلاثين آية منها فهو من الكبائر.

وعند الصوفية من كل ذلك مجتمعاً: أن الكبائر سبع عشرة، تفصيلها: أربعة من أعمال القلوب، وهى: الشرك، والإصرار على المعاصى، والقنوط من رحمة الله، والأمن من مكر الله؛ وأربعة فى اللسان، هى: شهادة الزور، وقذف المحصن، واليمين الغموس، والسحر؛ وثلاثة فى البطن، وهى: السُّكر، وأكل مال اليتيم ظلماً، وأكل الربا؛ واثنتان فى الفرج، هما: الزنا، واللواط؛ واثنتان فى اليدين، هما: القتل والسرقة؛ وواحدة فى الرجلين، وهى: الفرار من الزحف؛ وواحدة فى كل الجسد، وهى: عقوق الوالدين.

وعن أبى هريرة فى الحديث: أن من الكبائر: استطالة الرجل فى عرض أخيه بغير حق، والسباب. - وعن عبادة بن الصامت وآخرين قالوا: إنكم لتعملون أعمالاً هى أدقّ فى أعينكم من الشَّعْر، كنا نعدّها من الكبائر. - وفى بعض الروايات من الموبقات.

والصوفية فيما يخصّ الكبائر على أوسط الأقوال وأعدلها، وعلى أن أكثر ما يوبق الناس من الكبائر: المظالم. والجهل عندهم من الكبائر، والجهل أعظمها، وهو: أن يكون العبد جاهلاً ولا يعلم أنه جاهل، أو يحسب بجهله أنه عالم فيسكت عن جهله ويرضى به فلا يتعلم. وقالوا: قسوة القلب بالجهل أشدّ من قسوته بالكبائر، لأن الجهل ظُلمة لا ينفع البصر فيه شيئاً. ومن أجل ذلك كان الصوفية طلاّباً للعلم وأعداءً للجهل.

٧٨٩- كبر...

الكِبْر: هو التعظُّم، فإن من جهل قدر نفسه عَظُمُ قدرها عنده، فيتعظّم على الناس، وإن كانوا أفضل منه وأعلم وأتقى.

والكبر أصله العُجب، والحقد، والحسد، والرياء؛ وله وجهان، أحدهما الكبر بين العبد وربّه، والآخر الكبر بين العبد والعباد، فلا يأمنه العلماء والنسّاك والصوفية على أنفسهم. وحتى فى لبس المرقعة فقد يتكبّر بها المتصوف، حتى ليكون أشد كبراً من صاحب مطرف الخز.

والكبر قد يكون بالدنيا: بالحَسَب، والجمال، والقوة، والمال، وكثرة العدد؛ وقد يكون فى الدين: فيعجب العبد بعمله ويحمد نفسه عليه، وربما يخرجه العُجب إلى أن يرى أنه خير من غيره.

ونَفْى الكبر: بأن يعرف العبد قدره بمعرفته ببدايته وحياته وعاقبته. وفتنة العالِم بعلمه أكبر الكبر. والسالك الواصل هو الذى يتفقد نفسه عند الداعى من القلب إلى الكبر، وعند الأعمال التى يأنف منها المتكبّرون، مثل الخطرات تهيّج النفس بالإعجاب، وتدعوه إلى أنه خيرٌ من أخيه، وكذلك إن أَنِفَ من الاكتسابُ ـ أو من إجابة دعوة الفقير.

والذى يتكبّر يستحق من الله تعالى أن لا يفهّمه العلم، ولا يفقّهه فى الدين. يقول تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ﴾ (الأعراف١٤٦)، يعنى سأرفع فهم القرآن عن قلوبهم، وسأحجب قلوبهم عن الملكوت، أى عن النظر إلى ما غاب باليقين، وما شاهدوا من العبر، فلا يتفكّرون فيها ولا يعتبرون.

ويقول المسيح: إن الزرع إنما ينبت فى السهل ولا ينبت فى الصفا، وكذلك الحكمة تعمر فى قلب المتواضع، ولا تعمر فى قلب المتكبر. ألا ترى أنه من شمخ برأسه إلى السقف شجّه، ومن تطأطأ أظلّه وأكنّه؟

٧٩٠- كبروية...

طريقة نجم الدين كُبْرى المتوفى سنة ٦١٨هـ، وتقوم على: المجاهدة، والتزام طريقة الجنيد، بدوام الوضوء، والخلوة، والصيام، والذكر؛ وذكره: «لا إله إلا الله»؛ وأساس الطريقة: ربط قلب المريد بالشيخ، ودوام نفى الخواطر، وترك الاعتراض على الله فيما يرد منه (انظر كُبرى ضمن أسماء الصوفية).

٧٩١- كبرياء...

الصوفية أحذر الناس من الكبرياء، لأنه من صفات الله وحده. يقول الله عز

وجل: «الكبرياء ردائى، والعظمة إزارى، فمن نازعنى فيهما أدخلته نارى».

ويقول النِّفَّرى: أوقفنى الحقّ فى كبريائه وقال لى: أنا الظاهر الذى لا يُكشَف ظهوره، وأنا الباطن الذى لا ترجع البواطن بدرك من علمه. وقال لى: الكبرياء هو العزّ، والعزّ هو القُرب، والقُرب فَوْت عن علم العالمين.

٧٩٢- كتاب...

رمزٌ صوفى، وهو الوجود المطلق الذى لا عدم فيه. و«الكتاب المسطور»: هو الوجود المشهود فى الملكوت. و«الكتاب المبين»: هو اللوح المحفوظ المراد بقوله تعالى: ﴿ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ (الأنعام ٥٩).

٧٩٣- كتمان صوفى...

الصوفية يحترزون على إفشاء الأسرار الإلهية، وعن علىّ قال: والله لو شئت أن أخبر كل رجل منكم بمخرجه ومولجه، وجميع شأنه، لفعلت، ولكنى أخاف أن تكفروا فى رسول الله. ـ وفى الحديث الموضوع: سلمان منا أهل البيت»، أن أهل البيت اختُصّوا بأسرار كتموها حتى قيل: لو أن أبا ذرّ علم ما فى قلب سلمان من الحكمة لكفّره ـ ورُوى لقتله، ويعنى ذلك أن سلمان كان عنده من الأسرار المودعة أشياء مهولة؛ وروَى شيعة علىّ فى ذلك عبارة ادّعوها على النبىّ ﷺ، قال: استر ذَهَبَك، وذهابك، ومَذْهبك! ـ وبذلك يّدعى الصوفية أن علياً كان عنده أسرار يكتمها. والصحيح أن النبىّ ﷺ ما كانت عنده أسرار، ولم يحدِّث أحداً بأسرار، وإلا فإنه يكون قد قصّر فى تبليغ الرسالة، وحجب بعضها ليخصّ به البعض، وأنه بالاختصار لم يبلِّغ! ـ والصوفية على الزعم بأن التَّقية تعنى كتمان الأسرار، وهى عندهم أسرارٌ إلهية، وإذن فهناك أسرار فى الرسالة يُخصّ بها البعض دون الباقين، وهذا غير صحيح، لأن النبىّ ﷺ كان عليه أن يبلّغ ـ والبلاغ لا يتم إلا بتمام الرسالة.

٧٩٤- كثيب...

رمز من رموز الصوفية، وهو عالم القدس ومجلاه.

٧٩٥- كرامة...

عند الصوفية: المعجزات للأنبياء، والكرامات للأولياء. وظهور الكرامات على الأولياء جائز عقلاً وصِدقاً، طالما أن ذلك معلقٌ بقُدرة الله تعالى.

والفرق بين المعجزة والكرامة، أن الأنبياء عليهم السلام مأمورون بإظهار معجزاتهم، والولىّ يجب عليه ستر كراماته وإخفاؤها. وليست الكرامات للأولياء إلا تأديباً لنفوسهم وتهذيباً لها وزيادةً لهم.

وأكبر الكرامات: أن تبدِّل خُلقاً مذموماً من أخلاق نفسك بخُلق محمود.

ويقول ابن معاذ: إذا رأيت الرجل يشير إلى الآيات والكرامات فطريقه طريق الأبدال؛ وإذا رأيته يشير إلى الآلاء والنعماء فطريقه طريق أهل المحبة، وهو أعلى من الذى قبل؛ وإذا رأيته يشير إلى الذِّكر، ويكون معلَّقاً بالذِّكر، فطريقه طريق العارفين، وهو أعلى درجة فى جميع الأحوال.

ومن شطحات المناوى: أن للصوفية كرامات كثيرة من كافة الأنواع، منها: إحياء الموتى وهو أعلاها! ومن ذلك أن عبيد اليسرى غزا ومعه دابة فماتت، فسأل الله أن يُحييها، فقامت تنفض أذنيها!! وأن مفرجاً الدمامنى أحضر له فراخاً مشوية، فقال لها طيرى بإذن الله، فطارت!! وأن يوسف الدهمانى مات لتلميذه ولد فجزع عليه، فقال له الشيخ: قُم بإذن الله، فقام الولد وعاش طويلاً! وأيضاً فإن طفلاً سقط من الغارقى فمات، فدعا له الله فأحياه!! ـ ونقول: فى القرآن عنه تعالى: ﴿لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِى وَيُمِيتُ﴾ (الدخان ٨)، فهو وحده ﴿الَّذِى يُحْيِى وَيُمِيتُ﴾ (البقرة ٢٥٨)، وهو تعالى يؤكد هذه الحقيقة فيقول: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِى وَنُمِيتُ﴾ (الحجر ٢٣)، وإذن فإنّ ادّعى أحدهم أنه يحيِّى فهو من باب الرعونة والشطح لا غير.

ويقول الكلاباذى: أجمعوا على إثبات كرامات الأولياء، كالمشى على الماء، وكلام البهائم، وطىّ الأرض، وظهور الشىء فى غير موضعه، ونَظَم ذلك حسن رضوان، فقال:

وإن تجلّى جلّ شأنه على
وليِّه بقُدرة تجمّلا
وشاهَدَ الأشياءَ تحت قبضه
وأنها تكوّنت عن قُدرته
شهود غيب غير أنه ظهر
عليه منه فى الشهادة الأثر
ومن هنا أحوال أرباب الهمم
كمشيهم فوق المياه بالقَدَم
أو الهواء أو على السحاب
أو طىٍّ أو خبزٍ من التراب
أو غير هذا من أمور خارقة
لعادة، والشرط أن توافقه

وعن الكوهنى، عن معجزات سلامة الراضى: أن زوجة أحد تلاميذه حملت ومات الجنين فى بطنها، وبقى عشرة أيام ميّتاً، لكن الشيخ دعا لها بإذن الله، فولدت طبيعياً طفلاً صحيحاً بعد أن كان قد مات؛ وأن أحد تلاميذه فَقَد بصره فأعاد له البصر، وشفى ابنة أحد الإخوان من الخَرَس!

ويحكى على بن حرازم عن أولياء يملكون كلمة التكوين، فيقولون للشيء: كن فيكون! ويقول أبو السعود: إن الله أعطاه التصرّف منذ خمس عشر سنة - وكل ذلك حكايات وهلاوس!

ومن الكرامات التى تُنسَب لابن عربى: سماع نطق الجمادات على مراتب نطقها، مع أن الله تعالى يقول: ﴿ولكن لا تفقهون تسبيحهم﴾ (الإسراء ٤٤)، يعنى لا تفهمون ما ينطقون به، فنفى أن يفهم أحد نطق الجمادات!. وزعم البيومى: أنه كان يرى النبىّ ﷺ فى الخَلوة، وأنه رآه على زاوية الدمرداش، ودخل عند السيد البدوى فرآه، ورأى عنده الدمرداش! - حكايات وهلاوس!

وكان الدبّاغ يقول عن كراماته: إنى أرى السموات السبع والأرضين السبع والعرش، داخلة وسط ذاتى، وكذا ما فوق العرش من السبعين حجاباً!

وروى المناوى أن الخوّاص كانت تتنزّل عليه الموائد، وأن الخضر كان يسقيه.- حكايات وهلاوس!

وقيل إن الدسوقى كان يدّعى من كراماته أن الجنة والنار بيديه، يقول: أنا بيدىّ أبواب النار أغلقتها، وبيدىّ جنة الفردوس فتحتها، فمن زارنى أسكنته جنة الفردوس!، وقال: كل ما أُعطى لسليمان فى مُلكه، وما سُخّر لداود، وما أُكرم به عيسى، أعطاه الله وزيادة لأهل التصوّف من أمة النبىّ، ومكنّهم من القدرة على إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى! - كلام!

وقال بعضهم: إن كرامات الأولياء تجرى عليهم من حيث لا يعلمون، والأنبياء تكون لهم المعجزات وهم بها عالمون، وبمرتباتها ناطقون.

وأنكر المعتزلة الكرامات. ويقول القشيرى: إن الكرامات للأولياء لاحقة بمعجزات النبىّ ﷺ، لأن كل من ليس بصادق فى إيمانه لا تظهر عليه الكرامة، وكل نبىّ ظهرت كرامة على واحد من أمته فهى معدودة فى جملة معجزات هذا النبىّ، لأنه لو لم يكن ذلك الرسول صادقاً لم تظهر على يد من تابعه الكرامة!

وقال السرّاج: إن ظهور كرامات التابعين ومن بعدهم، إنما يكون إكراماً للنبىّ.

والكرامة بخلاف الاستدراج، فعند ظهور الكرامة على صاحبها يخاف من الله ويحذر قهره، بينما صاحب الاستدراج يستأنس بالكرامة تظهر عليه، ويظن أنه يستحقها ويستحقر غيره ويتكبّر عليه، فيحصل له من مكر الله وعقابه.

وممن قيل أنه من أصحاب الكرامات من الصوفية: إبراهيم بن أدهم، وحبيب

الفارسى، ومعروف الكرخى، والسَّرى السقطى، وذو النون المصرى، وأبو يزيد البسطامى، والحلاّج، وعبد القادر الجيلى، وقيل فى هذا الأخير أنه ما كان يرضع ثدى أمه فى رمضان وهو طفل!ـ كلام!

وبعد، فالتصوف ليس كرامات، ولا لبس الخرقة وادّعاء الأحوال، وإنما التصوف هو الخدمة العامة للناس والإخلاص لله فيها. وهذا هو مذهبنا!

٧٩٦ - كرسى...

هو تجلّى جملة الصفات الفعلية، فهو مظهر الاقتدار الإلهى، ومحل نفوذ الأمر والنهى والإيجاد والإعدام، ومنشأ التفصيل والإبهام، ومركز الضر والنفع، والفرق والجمع، فهو محل فصل القضاء، والقلم محل التقدير، واللوح المحفوظ محل التدوين والتسطير. يقول الله تعالى: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ﴾ (البقرة ٢٥٥)، والوسع وسعان: وسعٌ حُكمى، ووسعٌ وجودى عينى؛ فالحكمى هو لأن السماوات والأرض صفة من صفاته الفعلية، والكرسى: هو محل مظهر جميع الصفات الفعلية؛ والوجودى العينى لأن الوجود بأسره، أى الوجود المقيد الخَلقى، هو المأمور، أى المنفوذ فيه الأمر، فهو المجلَى والمظهَر المعبَّر عنه بالكرسى.

٧٩٧ - كريم...

عند الصوفية: هو الذى لا يبالى لمن أعطى، وهو الذى لا يُحْوِجك إلَى وسيلة.

٧٩٨ - كشف...

هو الاطّلاع على ما وراء الحجاب من المعانى الغيبية والأمور الحقيقية، وجوداً وشهوداً. ومن شعر ابن عربى:

العلم أشرف ما يؤتيه من منح
والكشف أعظم منهاج وأوضحه
فإن سألت إله الحق فى طلب
فسله كشفاً فإنّ الله يمنحه
وادمِنِ القَرْعَ إن الباب أغلقه
دعوى الكيان وجود الله يفتحه

وعلم العقل قابل للشُبَه، ولهذا اختلفت آراء وكشوف أهل العقل. والعلم فى عُرف الصوفية هو ما لا يقبل شُبهة، وهو عندهم علم الأذواق، أى أنه علم كشفى، فذلك الذى يقولون فيه أنه علم، فيجعلون الأذواق بمنزلة الأدلة عند أصحاب العقل فى العلوم.

والعلم الصحيح عند الصوفية: هو ما يقذفه الله فى قلب العالِم، وهو نور إلهى يختص به من يشاء من عباده. ومن لا كشف له لا علم له، وكل علم ليس عن ذوق هو علمٌ ليس من علوم أهل الله، وأهل الله ما

علموا الذي علموه إلا ذوقاً، وليس عن فكر ولا عن تدبُّر.

وتبدأ المكاشفات في عالم الشهادة عند أهل السلوك في مبتدأ الطريق، ويُكشَف للمريد أول ما يُكشَف عن المحسوسات، ثم ينتقلون إلى عالم الغيب ـ هكذا يقولون، وهو عالمَ لا يُدرَك إلا بعين البصيرة، وترتفع عن البصيرة الغشاوات بالمجاهدات، وعندئذ تلوح أعلام الغيوب بقدر ما يريد الله تعالى أن يكشف للسالك منها. ولا يخطىء الكشف ولكن مدلوله والتعبير عنه يخطئان ويصيبان. وإذا خالف الكشف الصوفي كشف الأنبياء، يكون المرجع كشف الأنبياء وليس الكشف الصوفي.

وأهل الكشف: هم الذين يستوى عندهم الحيّ وغير الحيّ، فيسمعون عن النبات والجماد والحيوان، وإنْ منها إلا يُسبِّح لله ويحمده، وفي القرآن من الحجارة: ﴿ لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ (البقرة ٧٤). وحديث الله في الصوامت عند العامة علماء الرسوم حديث حال، وعند أهل الكشف الحديث ناطق بالثناء على الله، وله روح تبطُن عن إدراك غير أهل الكشف! وصاحب الكشف يرى في المداد الذي في الدواة جميع ما فيه من حروف وكلمات وصور. ولا يسوغ عند أهل الكشف أن لا معنى لوجودهم في وجود النبيّ ﷺ، فالصوفي الصادق لا ينتمي لمذهب، وإنما هو مع الرسول ﷺ المشهود له في وقته. هكذا يقول الصوفية.

٧٩٩ - كعبة...

عبارة عن الذات. وفي الأدب الشعبي الصوفي: أن لله عباداً تطوف بهم الكعبة تقرّباً إلى الله. ويقال: لا تغرب الشمس من يوم إلا يطوف بهذا البيت رجلٌ من الأبدال؛ ولا يطلع الفجر من ليلة إلا طاف به واحد من الأوتاد،؛وإذا انقطع ذلك يصبح الناس وقد رُفعت الكعبة. وإذا لم يحجّها أحد خلال سبع سنوات رُفعت، ثم يرفع القرآن من المصاحف، ويُنسَخ من القلوب. ولا تقوم الساعة حتى يُرفع الركن والمقام. وفي الخبر: استكثروا من الطواف بهذا البيت قبل أن يُرفع، فقد هُدم مرتين ويُرفع في الثالثة.

وسميت الكعبة كعبة، لأنها مربعة وأكثر بيوت العرب مُدوّرة؛ ولأنها ناتيء بارزة، وكل ناتيء بارز كَعْبٌ، سواء كان مستديراً أو غير مستدير، ومنه كعب القدم؛ والكعبة تُسمّى بيت الله الحرام، وهي بيت: لأن كل ما له سقف وجدار يسمى بيتاً، وساكن البيت هو الله ـ يعني لا

يُذكَر فيه إلا اسمه تعالى، وهو تعالى الذى سمّاها هكذا، وقال تعالى: ﴿جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِلنَّاسِ﴾ (المائدة ٩٧)، فهى بيت لأن المؤمنين يبيتون فيه ليلاً يقيمون الصلاة، والبيت هو كل ما أقيم فيه ليلاً؛ وهو حرام بتحريم الله تعالى إياه، كقوله ﷺ: إن مكة حرّمها الله ولم يحرّمها الناس.وقيل بيت الصوفى: هو سجادته، وكعبته: اسم الله، يطوف حوله ولا يكُفّ لسانه عن ذكره وينبض به قلبه، فاسمه تعالى هو مدار حياة الصوفى.

٨٠٠- كفّار...

الكُفّار عبدوا الله تعالى بالذات، لأنه لما كان الحق سبحانه حقيقة الوجود بأسره، والكفار من جملة الوجود، وهو حقيقتهم، فكفروا أن يكون لهم ربّ، لأنه تعالى حقيقتهم، فعبدوا حقيقتهم، أى الربّ المطلق فيهم، من حيث تقتضيه ذواتهم التى هو عينها . هكذا قال بعض الصوفية: عبدوا ذواتهم!

٨٠١- كلّ...

الكُلّ واحد مطلق، وهو الحق سبحانه، ولهذا قيل: أحدٌ بالذات، كلٌّ بالأسماء ، باعتبار الحضرة الإلهية الواحدية الجامعة للأسماء كلها.

والكلّية: اسم لجُماع الشئ الذى لم يبق منه بقية، فإذا قال قائل: «الكل»، يريد بذلك أنه لم يبق منه بقية إلا بمعناه. وقالوا: لا يكون العبد عبداً بالكلية ويكون منه لغير الله بقية. وأيضاً: إن أقبلتُ عليك بكليتك، أُقبِلُ عليك بكل الكل.

٨٠٢- كلام...

هو تجلّى علم الله سبحانه باعتبار إظهاره إياه، سواء كانت كلماته نفس الأعيان الموجودة، أو كانت المعانى التى يفهمها عباده، إما بطريق الوحى أو المكالمة أو أمثال ذلك، لأن الكلام لله تعالى فى الجملة صفة واحدة نفسية، لكن لها جهتين، الأولى على نوعين، الأول: أن يكون الكلام صادراً عن مقام العزة بأمر الألوهية ليجرى الكون على ما أمره به، وإلى هذا أشار الله تعالى بقوله للسماء والأرض: ﴿ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ (فصلت١١)، والثانى: أن يصدر الكلام من مقام الربوبية بلغة الإنس، كالكتُب المنزّلة على أنبيائه، والمكالمات لهم ولمن دونهم من الأولياء، ولذلك وقعت الطاعة والمعصية فى الأوامر المنزّلة، لأن الكلام صدر بلغة الإنس، فهم فى الطاعة كالمخيّرين. وأما الجهة الثانية: فكلام الحق نفس أعيان الممكنات، وكل ممكن كلمة

من كلماته ، ولذا لا نفوذ للممكن. قال تعالى: ﴿ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي ﴾ (الكهف ١٠٩)، فالممكنات هي كلمات الحق سبحانه، والموجودات كلمات الله تعالى في الصور المتعيّنة المحسوسة والمعقولة الوجودية، وإن شئتَ قلتَ صور الجمال، وإن شئت قلت معلومات الحق، وإن شئتَ قلتَ الحروف العاليات، فكما أن المتكلم لابد له في الكلام من حركة إرادية للتكلم، ونَفَس خارج بالحروف من الصدر، الذي هو غيب ، إلى ظاهر الشَفَة، كذلك الحق سبحانه في إبرازه لخلقه من عالم الغيب إلى عالم الشهادة، يريد أولاً، ثم تبرزه القدرة، فالإراده مقابلة للحركة الإرادية التي في نفس المتكلم، والقدرة مقابلة للنفس الخارج بالحروف من الصدر إلى الشفة، لأنها تبرز من عالم الغيب إلى عالم الشهادة، وتكوين المخلوق مقابل لتركيب الكلمة على هيئة مخصوصة في نفس المتكلم.

وعلم الكلام من العلوم الشرعية المدوّنة ويبحث عن ذات الله وصفاته وأحوال الممكنات من المبدأ والمعاد.

والمتكلمون: هم العارفون بعلم الكلام، وهؤلاء يأخذون على الصوفية فساد اعتقادهم وابتداعهم للتصوف، وتعطيلهم المشاعر والمدارك عن أعمالها، وتحريم ما يرزقهم الله، واستغراقهم في بحار اللذات، وادعاءهم علم المعرفة، ومشاهدة الحق والوصول إلى القُرب، ومعاينة الجمال الأحدي، والفوز بالعطاء السرمدي، وحصول الفناء والبقاء، ولا يعرفون من ذلك إلا الأسامي، وأن لهم شطحات ودعاوى في العشق والوصال مع الحق، تضر المستمعين لهم من المسلمين، وتُوقعهم في التشويش، ويدّعون الاتحاد بالذات الإلهية، مثل ابن عربي، والكاشاني، وعزيز النسفي، وبعضهم بطّالون لا يشتغلون بالرياضة والمجاهدة حقيقةً وإنما بالشهوات وأكل الحرام والشبهات.

وكلمات الله التامة: هي ما تعوّذ بها النبيّ ﷺ حين قال: أعوذ بكلمات الله التامات من شرّ ما خلق»؛ ويروى: بكلمة الله التامة على الإفراد، فالجميع لمّا كانت هذه الكلمة في الأمور كلها، فإذا قال تعالى لكل أمر كُنْ، ولكل شيء كُنْ، فهي كلمات، يدل على هذا ما روى أبو ذرّ عن النبيّ ﷺ فيما يحكي عن الله تعالى، قال: عطائي كلام وعذابي كلام».

والكلام على الإفراد بمعنى كلمات، فلمّا

تفردّت الكلمة الواحدة في الأمور وفي الأوقات، صارت كلمات، ومرجعها إلى كلمة واحدة يقولها الله تعالى، وإنما وصفها ﷺ بأنها تامة، لأنها كلمة من ربّنا تعالى بغير أدوات تعريف ولا تبعيض ولا شيء، فهي تامة، وقوله كُن كلمة تامة، وكلماته كلها تامة، تعالى الله عن كل نقص.

٨٠٣- كلب أصحاب الكهف...

قال ابن عباس: اسم كلب أصحاب الكهف قطمير، وأصحاب الكهف قال فيهم ربُّهم: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾ (الكهف١٣)، وكانوا سبعة من الفتيان يعبدون الله سراً، فرُفع خبرهم إلى المَلِك، وخافوه، فهربوا ليلاً، ولجأوا إلى الجبال، ومرّوا براعٍ معه كلب، فتبعهم الكلب، فآووا إلى الكهف، وتبعهم المَلِك ومن معه إلى فم الغار، فوجدوا أثر دخولهم، ولم يجدوا أثراً لخروجهم، فدخلوا وراءهم، فأعمى الله أبصارهم فلم يروا شيئاً، وظل أصحاب الكهف به ثلاثمئة سنة وتسعة أيام، يغلب عليهم النوم؛ ثم بعثهم الله، وكان كلبهم نائماً مثلهم، باسطاً ذراعيه بالوصيد، أي بفناء الكهف، وهي صفة من صفات الكلاب. وكانت صُحبة الكلب لهم بعد أن حاولوا طرده، ولكنه كان يعود، فعرفوا حبّه لهم، فضمّوه إليهم، وفي ذلك الحبّ للأصحاب رواية عن النبيّ ﷺ رواها أنس، قال: إن رجلاً سأل النبيّ ﷺ يوماً: يا رسول الله، متى الساعة؟ فسأله الرسول ﷺ: ما أعددت لها؟ قال الرجل: ما أعددتُ لها كثيرَ صلاة، ولا صيام، ولا صدقة، ولكني أحبُّ الله ورسوله. فأجابه الرسول ﷺ: فأنت مع من أحببت. قال أنس: فما فرحنا بعد الإسلام فرحاً أشدّ من قول النبيّ ﷺ: فأنت مع من أحببت. قال أنس: فأنا أحبّ الله ورسوله، وأحبّ أبا بكر وعمر، فأرجو أن أكون معهم، وإن لم أعمل أعمالهم. - وهكذا كان كلب أهل الكهف معهم، فلما أحبّهم صحبهم، فأحبّوه وجعلوه منهم!

وما تمسّك به أنس وتمسّك به كلب أهل الكهف مع أصحابه، نتمسك به نحن كذلك - كلّ المسلمين، وإنّا لطامعون أن نكون مع نبيّنا ﷺ، وإنْ كنا مُقصّرين، ونرجو رحمة الرحمن وإن كنا غير مستأهلين، ويسلّينا ويعزّينا ويُحيّي موات آمالنا، أن كلباً أحب قوماً، فذكره الله معهم! فكيف بنا وعندنا عَقْد الإيمان، وكلمة الإسلام، وحُبّ النبيّ ﷺ؟!! فمن أحبّ أهل الخير نال من بركتهم، وهذا كلبٌ أحبّ أهل فضل وصحبهم، فذكره الله في محكم تنزيله، ويُقرأ قرآنا؟!! وإذا كان بعض الكلاب قد نال هذه الدرجة العليا

بصحبته ومخالطته الصلحاء والأولياء، حتى أخبر الله تعالى بذلك فى كتابه جلّ وعلا، فما ظنُّكم بالمؤمنين الموحّدين المخالطين، المحبّين للأولياء والصالحين؟!!! أليس فى ذلك سكينة وأنس للمؤمنين المُقصّرين عن درجات الكمال، المحبّين للنبّى ﷺ وآله وصحبه الميامين الأخيار؟!

٨٠٤- كلمات...

عند الصوفية: **الكلمات القولية والوجودية**: عبارة عن تعيّنات واقعة على النفس، إذ **القولية**: واقعة على النفس **الإنسانى**؛ **والوجودية** على **النفس الرحمانى**، الذى هو صور العالم، كالجوهر الهيولانى، وليس إلا عَيْن الطبيعة، فَصُوَر الموجودات كلّها طارئة على النفس الرحمانى وهو **الوجود**.

والكلمات الإلهية: ما تعيّن من الحقيقة الجوهرية وصار موجوداً.

٨٠٥- كلمة...

يُكنّى بالكلمة عن عين من الأعيان الثابتة فى العلم الإلهى، الداخلة تحت الإيجاد، وعند الصوفية: كل واحدة من الماهيات والأعيان والحقائق والموجودات الخارجة هى كلمة، وفى الجملة كل متعيّن هو كلمة. وقد تُخص المعقولات من الماهيات والحقائق والأعيان بالكلمة المعنوية أو الغيبية، والخارجيات بالكلمة الوجودية، والمجرّدات المفارقات بالكلمة التامة.

وكلمة الإخلاص: هى التى ألزمها الله تعالى محمداً ﷺ وأصحابه، وهى كلمة التقوى فى قوله تعالى: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾ (الفتح ٢٦)، والكلمة الباقية فى قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ﴾ (الزخرف٢٨)، وهى شهادة: لا إله إلا الله، التى دعا إليها نبىّ الله ﷺ عَمّه أبا طالب عند الموت، وهى رأس كل تقوى؛ وقيل هى: لا إله إلا الله، والجهاد عنها؛ وقيل هى الدعوة إلى الله: أنه الواحد الأحد لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير. وهى «الكلمة السواء» التى يُدعَى إليها أهل الكتاب فى قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ (آل عمران٦٤)، و«الكلمة الطيبة» فى قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ (إبراهيم٢٤).

والأحق بالنطق بلا إله إلا الله والعمل بمقتضاها ـ أهل الإسلام، وهم أهل الأخذ بها والدعوة إليها.

وفى قوله تعالى: ﴿مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ (آل عمران٣٩): الكلمة من الله

للشيء: كن فيكون؛ وكان عيسى ابن مريم من كلماته تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ (آل عمران ٤٥). وقوله: ﴿كَلِمَةٍ سَوَاءٍ﴾ (آل عمران ٦٤) هي: كلامه تعالى كله، كقوله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾ (الأنعام ١١٥)، والصِّدق فيها في القول، والعدل في الحكم؛ أو أن الصِّدق فيها في الإخبار، والعدل في الطلب، فكل ما أخبر به لا مرية فيه ولا شك، وكل ما أمر به لا عدل سواه، وكل ما ينهى عنه باطل، وهو إذ يأمرنا وينهانا فإنما يأمرنا بالمعروف، وينهانا عن المنكر، وكلماته لا مبدّل لها، ولامعقّب عليها، لا في الدنيا ولا في الآخرة، وكل كلمة يقولها هي الكلمة العليا، كقوله: ﴿وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا﴾ (التوبة ٤٠)، وهي الكلمة الحق، كقوله: ﴿وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ﴾ (غافر ٦)، ونقيضها ﴿كَلِمَةَ الْكُفْرِ﴾ (التوبة ٧٤). والكلمة الطيبة نقيضها الكلمة الخبيثة، كقوله تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾ (إبراهيم ٢٥، ٢٦)؛ وقيل: الكلمة الطيبة هي: لا إله إلا الله؛ والشجرة الطيبة هي المؤمن. والصوفية هم أهل التوحيد والإيمان. وقيل لذلك: الكلمة الطيبة هي الإيمان. وفي الحديث: «إن مثل الإيمان كمثل شجرة ثابتة: الإيمان عروقها، والصلاة أصلها، والزكاة فروعها، والصيام أغصانها، والتأذّي في الله نباتها، وحُسن الخُلُق ورقها، والكفّ عن محارم الله ثمرتها». والصوفية من السُّنة: كلامهم كلّه طيّب. والكلمة الطيبة شبّهها الرسول ﷺ بالنخلة، في حين أن الكلمة الخبيثة شبّهها بالحنظل. وكان من أصحابه ﷺ من سأله: ما هي الشجرة الطيبة التي تشبهها الكلمة الطيبة؟ فقال: النخلة، فهي كشجرة لا يسقط ورقها، مثل المؤمن، ولا تسقط لها أُثلة، وكذلك المؤمن لا تسقط له دعوة. ـ والكلمة الخبيثة هي كلمة الكُفر، قالها لتصبح مثلاً ـ عبد الله بن أبيّ، قال: والله ما مَثَلُنا ومَثَلُ محمد إلا كما قال القائل: سَمِّن كَلْبَك يأكُلك!! وقال: لئن رجعنا إلى المدينة لَيُخرجنّ الأعزّ منها الأذلّ!! ـ فهذه هي الكلمة الخبيثة تاريخياً.

وقد نتساءل: فلماذا الكلمة الخبيثة مثلُها عند الله تعالى مثل الشجرة الخبيثة؟ والجواب: لأنها لا أصل لها ولا ثبات، وإذا اجتُثّت واستُؤصلت ما لها من قرار. فهكذا الكلمة الخبيثة؛ وأمّا الكلمة الطيّبة،

فَمَثَلُها مَثَل الشجرة الطيبة، أصلها ثابت فى الأرض، وفروعها باسقة، وثمراتها وافية، تؤتى أُكلها كل وقت، ويَنتفع بها أهل كل حين. - وعند الصوفية من أهل الإيمان، فإن أصل تلك الشجرة - هو المعرفة، تصحّحها الأدلة والبراهين، وفروعها الأعمال الصالحة، وأوراقها القيام بآداب العبودية، وأزهارها الأخلاق الجميلة، وثمارها حلاوة الطاعة ولذة الخدمة. وتختلف الثمار فى الطبع والرائحة والصورة، وكذلك ثمرات الطاعات تختلف حلاوتها فى قلوب العابدين، فالعارف يجد بسطاً، والمريد يجد راحةً، والمحبّ يجد سَكَناً. وتتوالى الطوارق والشوارق واللوائح واللوامع كأنها الثمار، فلا هى مقطوعة ولا ممنوعة.

وفى بحوث الطِّب النفسى عن نسبة الناقلات العصبية المضادة للاكتئاب فى المخ - مثل الفورأدرينالين والدوبامين: تبين ارتفاع هذه النسبة لدى أصحاب الكلمة الطيبة، وانخفاضها لدى أصحاب الكلمة الخبيثة. وفى البحوث على كلماتنا اليومية: تبين أن ما نستخدمه منها عامةً، ما بين ألفىّ كلمة إلى ثلاثة آلاف كلمة، منها أربعمائة وخمسون كلمة طيبة، وضعفها من الكلمات الخبيثة! وعند تحليل نفسية أصحاب هذه الكلمات تبيّن أن أصحاب الكلمات الطيبة متفائلون. وعندهم الصدق والصراحة والمحبة والمودة والعطف والحنان والرضا إلخ، والآخرين سوداويون متشائمون، وعندهم الكآبة، والكراهية، والكذب، والحقد، والنفاق، واليأس، والاستعلاء، والسخط إلخ، ويعنى ذلك أن مخزون كلمات الطيّبين طيّب، ومخزون كلمات الخبيثين خبيث. والصوفية من أهل الإيمان والتحقيق، كلامهم كلّه طيّب، لأن الطيّب لا يقول إلا الطيّب.

وكلمة الحضرة: إشارة إلى قوله تعالى «كن»، صورة الإرادة الكلية.

٨٠٦-كمال...

هو التنزيه عن الصفات وآثارها.

وكمال الله: عبارة عن ماهيته، وماهيته غير قابلة للإدراك وليس لكماله غاية ولا نهاية، وكماله سبحانه لا يشبه كمال المخلوقات، لأن كمال المخلوقات بمعان موجودة فى ذواتهم، وتلك المعانى مغايرة لذواتهم، وكماله سبحانه بذاته لا بمعان زائدة عليه.

٨٠٧-كن...

قال ابن الفرغانى: ما من خطرة ولا حركة إلا بأمره تعالى، وهو قوله «كن»، فله الخَلق بالأمر، وله الأمر بالخَلق، والخَلق صفته، فلم يَدّع بهذين الحرفين لعاقل يدّعى

شيئاً من الدنيا والآخرة ما لا له، ولا به، ولا إليه.

وقالوا في «كن»: الكاف من كينونه، والنون من نوره، وهي المراد بقوله ﷺ: أعوذ بكلمات الله التامة من شرّ ما خلق، ويُروَى: بكلمة الله التامة، بدلاً من كلمات، وكلمته التامة هي كُنْ. ـ وكن: قد تكون كلمات أو كلمة، يدل على ذلك قوله تعالى في الحديث القدسي: «عطائي كلام وعذابي كلام». وقوله تعالى: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ (البقرة ١١٧) يعني أمرُه للشيء بـ «كن»، لا يتقدم الوجود ولا يتأخر عنه، فلا يكون الشيء مأموراً بالوجود، إلا وهو موجود بالأمر، ولا موجوداً إلا وهو مأمور بالوجود، كما في البعث، لا يتقدم أمرُه ولا يتأخر عنه، كقوله: ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ (الروم ٢٥).

٨٠٨- كنز...

عند الصوفية: الكنز المخفي: هو الهوية الأحدية المكنونة في الغيب، وهو أبطن كل باطن.

٨٠٩- كنود...

عند الصوفية: الكَنود في الشريعة: هو تارك الفرائض؛ وفي الطريقة: هو تارك الفضائل؛ وفي الحقيقة: هو من أراد شيئاً لم يُرده الله تعالى، لأنه ينازع الله تعالى في مشيئته فلم يعرف حقّ نعمته.

٨١٠- كنية...

الكُنْية اسمٌ يُطلق على الشخص تعظيماً له أو علامة عليه؛ وفي التصوّف ينادي المريدون على شيوخهم بالكُنّى، ويتنادى الشيوخ فيما بينهم بها، فمثلاً كانت كنية السقطي: أبا الحسن؛ والسرّاج الطوسيّ: أبا نصر؛ وروزبهان: أبا محمد؛ ويحيى الرازي: أبا زكريا؛ ورابعة العدوية: أم الخير؛ وذي النون المصري: أبا الفيض؛ ومالك ابن دينار: أبا يحيى؛ وأحمد بن محمد العدوي: أبا البركات الدردير، والشهاب الدردير؛ وعويمر بن مالك: أبا الدرداء؛ وعليّ بن عبد الله بن عبد الجبّار: أبا الحسن الشاذلي؛ ودلف بن جحدر: أبا بكر الشبلي؛ ومحمد بن عطية الحارثي: أبا طالب المكّي؛ وعبدالوهاب الشعراني: أبا المواهب؛ وهكذا. وقلما تجد من مشايخ الصوفية أحداً ليست له كنية، فالكنية يتنادى بها الصوفية، وينادِيهم بها الناس، لأنها علامة عليهم، وطريقة من طرق تعظيمهم. وكانت كنية النبيّ ﷺ: أبا القاسم؛ والصوفية يحبّون تقليد النبيّ ﷺ في كل شيء ويتّخذونه أسوة لهم، ويتّخذون طريقته طريقتهم.

٨١١- كهانة...

الكهانة: عِرافة، وهي ادّعاء بالغيب،

وكثير من الصوفية ينسبون إلى أنفسهم ادعاء الغيب، ويقولون أنه من الكرامات. وإتيان المنجّمين والكهّان والعرّافين كثير في مصر، لانتشار الأمية الأبجدية والدينية، ولتدنّي الأحوال الاقتصادية، لسوء توزيع الثروة، وتحكّم الطغاة والطبقة الغنية، إذ أن ٨٦٪ من شعب مصر يعاني الأميّة؛ ومن الغريب أن حُكام البلاد بعد عبدالناصر كانوا يعلنونها صريحة أنهم ضد تعليم الشعب، وفي سنة ٢٠٠٤ أعلنت حكومة الحزب الوطني برئاسة مبارك، أنها لا تنوي بناء مدارس جديدة ولا جامعات، فتردّت الطبقات الفقيرة أكثر، وزاد الفقر وطأةً على الناس، وراجت الكهانة، وانتشرت الطرق الصوفية، يروّج لها أدعياء، وكثُر المشايخ الكُهّان، يهرّجون على الناس وأُولى الأمر بالمُحال، ويستخرجون الأموال من الأغنياء، ومع ذلك لم تكن النتيجة ما طمعوا فيه، ولم يحصّلوا من أقوالهم إلا على السراب والآل (والسراب خداعٌ إدراكي يكون نصف النهار، والآل سرابٌ يكون بالضحى)، ولم يحققوا مما روّجوه إلا الفساد والضلال، فالكهانة من الكبائر، كقوله ﷺ لمّا سأله أناسٌ عن الكُهّان: إنهم ليسوا شيئًا. فقالوا: يا رسول الله، إنهم يحدّثونا أحياناً بالشيء فيكون حقاً؟! فقال: تلك الكلمة من الحقّ يخطفها الجنّي فيُقرّها في أذن وليّه قَرّ الدجاجة، فيخلقون منها مائة كذبة!. وعن عائشة: أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن الملائكة تنزل في العنان - وهو السحاب - فتذكُر الأمر قُضي في السماء، فتسترق الشياطين السمع، فتسمعه، فتوحيه إلى الكهّان، فيكذبون معها مائة كذبة من عند أنفسهم. - فهؤلاء هم كهنة الصوفية، وهذا هو فعلهم، تجدهم حيثما كان الفساد في الحكم، وحكومات الطغاة!

٨١٢- كهيعص...

تأوّل الصوفية الحروف المقطّعة في أوائل السور، مثل كهيعص، والم، والر، إلخ، وقالوا: إن فيها المعاني التي خصّ الحقّ المخاطَب بها من أوليائه بالفهم دون الناس، فإذا كان الصوفية قد استطاعوا أن يعوها ويذكروها، فالرسول ﷺ أحق بفهمها والإحاطة بأسرارها؛ ولكن الرسول ﷺ لم يبيّنها؛ ومع ذلك فقد تحدّث الصوفية في معانيها، فمثلاً قالوا: الكاف في كهيعص: تشير إلى أنه تعالى الكافي في الإنفاق والانتقام، وفي الرفع والوضع على ما سبق به قضاؤه وحكمه؛ وفي الكاف تعريفٌ بكونه مع أوليائه، وتخويفٌ بخَفيّ مكره في بلائه. وفيها إشارة إلى كتابته الرحمة على نفسه، قبل كتابة الملائكة الزلّة على عباده. والهاء تشير إلى هدايته المؤمنين إلى عرفانه، وتعريف

خواصه باستحقاق جلال سلطانه، وما له من الحقّ بحكم إحسانه. والياء: إشارة إلى يُسر نِعَمه بعد عُسر مِحَنه، وإلى يده المبسوطة بالرحمة للمؤمنين من عباده. والعين: تشير إلى علمه بأحوال عباده في سرّهم وجهرهم، وأحوالهم ومآلهم، وقدر طاقتهم وحقّ فاقتهم. وفي الصاد: أنه الصادق في وعده. - ومثل ذلك ككثير عند الصوفية في معاني الحروف المقطّعة عموماً.

٨١٣- كوكب...

من مصطلحات الصوفية: كوكب الصبح: وهو أول ما يبدو من التجلّيات، وقد يُطلق على المتحقّق بمظهرية النفس الكلية من قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا﴾ (الأنعام ٧٦).

٨١٤- كون...

الكون: من مصطلحات الصوفية: عبارة عن وجود العالَم من حيث هو عالَم، لا من حيث أنه حقّ.

وكون الفطور غير مشتّت الشمل: من عباراتهم، ومعناه أن تكثُّر الواحد الحقّ بتميز التعيّنات، لا يوجب تفرّق الجمعية الإلهية ولا الأحدية الذاتية.

٨١٥- كيمياء...

الإكسير والكيمياء من علوم خاصة الصوفية، وكان ذو النون المصري كيميائيًا. والذين تعلّموهما من الصوفية كانوا يريدون استخدامهما في الشعبذة والتارينجات والنجوم. وتمتلئ رسائل إخوان الصفا بالكلام في الكيمياء، وفي الطلاسم، والسيمياء، والهيمياء، وأخَذَها عنهم ابن عربي، والبُرْسي وآخرون، يقصدون بها تحصيل الأسرار والمكاشفات الفلكية، والمشاهدات الملكوتية، والمعاني الجبروتية، والتجلّيات الإلهية، وخلطوا فيها الفلسفة اليونانية بالأسرار والغنوص. واستخدام الرفاعية الكيمياء، وكانوا يصنعون أدوية من دهن الضفادع وباطن قشر النارنج وحجر الصلّق، ويطلون بهذا الحجر أجسامهم، فيستطيعون دخول النار دون أن تحرقهم، فيموّهون على الناس! والكيمياء في تفلسف بعض الصوفية: هي القناعة الموجودة وترك التشوّف للمفقود، وقالوا فيها: إنها كنز لا يفنى.

ومن المصطلحات الصوفية: كيمياء السعادة: وهي تهذيب النفس باجتناب الرذائل، وتزكيتها عنها واكتساب الفضائل وتحليتها بها. - وكيمياء العوام: وهي استبدال المتاع الأخروي الباقي بالحطام الدنيوي الفاني. - وكيمياء الخواص: وهي تخليص القلب عن الكون باستئثار المكوِّن.

* * *

باب اللام

* * *

٨١٦- لا أدرى...

من أقوال الصوفية: العلم ثلاثة: العلم الرسمى، والعلم العُرفى، و«لا أدرى». وقيل: «لا أدرى» نصف العلم، ولا يقولها إلا أهل العلم، ويقولونها من الورع؛ والتورّع والتوقّف عن إصدار الأحكام والفتاوى عن غير علم، هو سيرة الصوفية المؤمنين - وإن لم يكونوا علماء.

٨١٧- لا إله إلا الله...

فى قوله تعالى: ﴿ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا ﴾ (طه١٣): أن الأغيار فى وجوده تعالى فَقْد، والرسوم والأطلال عند ثبوت حقّه تعالى محو. وأنه تعالى تقدّس عن الأعلال فى أزله، وتنزّهَ عن الأمثال والأشكال باستحقاقه لجماله وجلاله؛ ولأنه «لا إله إلا هو» فلا أحد يوصف بوصفه، فهو: ﴿ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴾ (البقرة ١٦٣)، ﴿ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴾ (البقرة ٢٥٥)، ﴿ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (آل عمران ٦)، ﴿ الْمَلِكُ الْحَقُّ ﴾ المؤمنون ١١٦)، ﴿ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ (ص ٦٥)، ﴿ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلامُ ﴾ (الحشر ٢٦)، ﴿ لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴾ (طه ٨).

٨١٨- لاهوت...

عند الصوفية اللاهوت: عبارة عن الذات فى مقابل الجبروت وهو الصفات؛ والجبروت والعظيمة بمعنى واحد؛ والجبّار: هو الله تعالى، كبرياؤه متفرّد بالجبروت، لأنه هكذا يُجرِى أحكامه والأمور، ويُجبر الخلق على مقتضيات إلزامه؛ أو لأنه يستعلى عن دَرْك العقول. وأمّا الملكوت: فهو هذا العالَم، والعبد له فيه اختيار، فإذا دخل فى عالم الجبروت، صار مجبوراً على أن يختار ما يختار الحقّ، وأنْ يريد ما يريده. وإضافة الجبرت لله تعالى عبارة عن إضافته لذاته، يعنى للاهوته، كإضافة المُسمَّى إلى اسمه.

٨١٩- لُبّ...

اللُّب: جمع ألباب، وهو عند الصوفية: خالص كل شىء، أو أنه العقل الخالص من الشوائب، أو ما ذكا من العقل، فكل لبٍ هو عقلٌ، وليس العكس. واللُّب: ما صِين من العلوم عن القلوب المتعلّقة بالكون؛ وقيل هو العقل المنوَّر بنور القُدْس الصافى عن قشور الأوهام والتخيّلات.

ولبُّ اللُّباب: هو مادة النور الإلهى القدسى الذى يتأيّد به العقل، فيصفو عن القشور المذكورة، ويدرك العلوم المتعالية

عن إدراك القلب المتعلّق بالكون، المصونة عن الفهم المحجوب بالعلم الرسمي، وذلك من حُسن السابقة المقتضى لخير الخاتمة ولحُسن العاقبة.

٨٢٠- لباس...

الفقراء في لباسهم مع الوقت، فإذا وجدوا الصوف، أو اللِّبد، أو المُرَقَّعة لبسوا، وإذا وجدوا غير ذلك لبسوا. والفقير الصادق لا يتكلّف ولا يختار. ولبْس الخشن من الثياب هو الأحبّ والأَوْلى، والأسلم للعبد، والأبعد عن الآفات.

وعند الصوفية: **ولباس الهوية**: للعامة؛ **ولباس الهيبة**: للعارفين؛ **ولباس الزينة**: لأهل الدنيا؛ **ولباس اللقاء**: للأولياء؛ **ولباس التقوى**: لأهل الحضور. قال الله تعالى: ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ (الأعراف ٢٦). وكان الصوفية العلوية يحبون أن يلبسوا الثياب البيض كعليّ، وكان إذا انضم إليهم مريد بيّضوه، أي أمروه أن يلبس الأبيض من الثياب. فلما كان حُكم المأمون، بعث بعد انتصاره إلى علي بن موسى بن جعفر، وعقد له العهد، وسمّاه الرضا، وزوّجه ابنته، وخضّر الثياب واللباس والرايات، وأمر بطرح السواد والبياض، فصار اللون الأخضر هو ثياب الصوفية العلوية.

واللَّبس (بفتح اللام): هو الخلط، وهو عند الصوفية الصورة العنصرية التي تلبس الحقائق الروحانية. قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾ (الأنعام ٩)، ومنه «لبس الحقيقة الحقّانية بالصور الإنسانية» كما أُشير إليه في الحديث القدسي بقوله: «أوليائي تحت قبائي لا يعرفهم غيري».

٨٢١- لجأ...

تقول ألجأ أمره إلى الله: يعني أسنده. واللَّجأ توجُّه إلى الله تعالى بصدق الفاقة والرجاء.

٨٢٢- لحظ...

اللَّحْظ: هو النظر في ترقُّب؛ وعند الصوفية: هو إشارة إلى ملاحظة إبصار القلوب لما يلوح لها من زوائد اليقين، بما آمنت به من الغيوب، فاللحظ يشهد الحقائق لا بالبصر وإنما بالبصيرة، وبالفتح الربّاني والوهب الرحماني، فيزداد صاحب اللحظ عرفاناً وإيماناً.

٨٢٣- لسان...

اللسان: رمز صوفي، معناه البيان عن علم الحقائق. ولسان العلم: ما يتأدّى إلينا بواسطة. ولسان الحقيقة: ما يتأدّى إلينا بلا واسطة، أي من الله. ولسان الحق: ما ليس للخلق إليه طريق. يقول الجيلي:

لسان الحق هو الإنسان الكامل. وقال غيره: ولسان الحق هو الإنسان المتحقّق بمظهرية الاسم المتكلِّم أو الإنسان الكامل.

ولسان الصدق في الآية: ﴿ وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴾ (الشعراء ٨٤): هو الثناء الحسن على لسان أمة محمد ﷺ، ويقال: **لا أذكرك** إلا بك، ولا أعرفك إلا بك. ويقال: **أذكرك** ببيان آلائك. **وأذكرك** بعد قبض روحي إلى الأبد بذكر مُسَرْمَد. **والذِّكر باللسان** وبالجنان. ويقال: أذكرني على لسان المخبرين عنك. وفي قوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ﴾ (مريم ٩٧): أنه تعالى أجرى القرآن على لسان الرسول ﷺ، أجراه بالصدق، ونقيض الصدق في الآية: ﴿فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾ (الأحزاب ١٩).

٨٢٤- لسَنَ...

تقول لَسَنَ فلان، يعني فصح أو تناهى في الفصاحة. واللَّسَن: ما يقع به الإفصاح الإلهي لآذان العارفين عند خطابه تعالى لهم على سبيل التعريف الإلهي، على لسان نبيّ أو وليّ أو صدّيق.

٨٢٥- لطف...

اللُّطف: هو الرفق والرِّقة واللين؛ واللطيف وذو اللطافة: هو الحَسَن ذو الرفق. **واللطيفة**: النكتة إذا كان يحدث لها في الأنفس شيء من الانبساط. **والألطاف**: تكون من قِبَل الله، وتعني التوفيق والعصمة. والمراد **باللُّطف** عند الصوفية تأييد الحق ببقاء السرور، ودوام المشاهدة، واستقرار الحال في درجة الاستقامة.

٨٢٦- لطيفة...

الجمع لطائف: وهي إشارات عن دقائق الحال تحضر القلب. وقيل **اللطيفة**: هي الجزء المدرك من الإنسان - إشارةً إلى القلب - لدقائق الأحوال، وقيل **اللطيفة**: إشارة تلوح في الفهم وتلمع في الذهن ولا تسعها العبارة لدقة معناها. ويقول **القشيري**: سُنّة الله حفظ كلّ لطيفة في طي كلّ كثيفة، فجعل في التراب الكثيف معدن الذهب والفضة وغيرهما من الجواهر.

ويقول **أبو سعيد بن الأعرابي**: الحقّ يريدك **بلطيفة** من لدنّه تدرك ما يريد بك إدراكه.

واللطيفة الإنسانية: هي النفس الناطقة المسماة عند الصوفية **بالقلب**، وهي في الحقيقة تنزُّل الروح إلى رتبة قريبة من النفس مناسبةً لها بوجه، ومناسبةً للروح بوجه، ويسمى الوجه الأول: **الصدر**، والثاني: **الفؤاد**.

ويُطلَق على اللطيفة الروحانية من الحقّ إلى العبد: رقيقة نزول، ومن العبد إلى الحق: رقيقة رجوع، أو رقيقة ارتقاء. والفرق بين اللطائف والرقائق: أن اللطائف: وسائل إدراك، والرقائق: وسائل يتقرّب بها العبد من الربّ عن طريق الأخلاق السَنيّة والمقامات العَليّة. ويقال رقائق السلوك، ولطائف الفكر والفهم.

٨٢٧- لمع...

كتاب اللُّمَع لأبي نصر السرّاج الطوسي (٣٧٨ هـ)، الصوفي الزاهد، وكان يلقب بطاووس الفقراء، وكتابه موسوعة في التصوف يرسم مبادئه النقية ويرشد السالكين ويعلّم العلماء. واللُّمع جمع لُمْعة: وهي الشيء اللامع البرّاق الأخّاذ، ويقصد السرّاج باللُّمع: المشهور من أقوال مشايخ الصوفية، وهي الدقائق واللطائف، مثل قول الكتّاني: رؤية الثواب حجاب عن الحجاب»، فهذه لُمعة ـ يعني قولاً ذكياً وعبارة نابهة.

٨٢٨- لوامع...

يقال تلمّع البرق: يعني أضاء؛ ولوامع البرق: أضواؤه؛ واللوامع عند الصوفية: أنوار ساطعة تلمع وتومض لأهل البدايات، فتنعكس من الخيال إلى الحسّ المشترك، فتصير مشاهدتها بالحواس الظاهرة، فترى لها أنواراً كأنوار الشهُب والقمر والشمس، فتضئ ما حولهم، فهي إمّا عن غلبة أنوار القهر والوعيد على النفس فتضرب إلى الحُمرة، وإمّا عن غلبة أنوار اللطف والوعد فتضرب إلى الخضرة والنصوع.

٨٢٩- لوائح...

هي ما يلوح من الأسرار الظاهرة لزيادة السمو والانتقال من حال إلى حال.

واللوائح والطوالع واللوامع متقاربة المعنى، وهي من صفات أصحاب البدايات الصاعدين في الترقّي بالقلب، فكلما أظلمت عليهم سماء القلوب بسحاب الحظوظ سنحت لهم فيها لوائح الكشف، ونلألأت لوامع القُرب، فتكون أولاً لوائح، ثم لوامع، ثم طوالع؛ فاللوائح كالبروق، ما ظهرت حتى استترت؛ واللوامع أظهر من اللوائح، وليس زوالها بتلك السرعة، فقد تبقى اللوامع وقتين وثلاثة، والطوالع أبقى وقتاً وأقوى سلطاناً، وأدوم مُكثاً، وأذهب للظلمة.

٨٣٠- لوح...

كل صحيفة عريضة يقال لها لَوْح، وعند الصوفية، اللوح: هو الكتاب المُبين

محل التدوين والتسطير المؤجّل إلى حدّ معلوم.

والألواح أربعة: لوح القضاء السابق على المحو والإثبات، وهو **لوح العقل الأول**؛ **ولوح القدر**، أى **لوح النفس الناطقة الكلية**، وهو المسمى **باللوح المحفوظ**؛ **ولوح النفس الجزئية** التى فيها كل ما فى العالم، وهو المسمى بالسماء الدنيا؛ **ولوح الهيولى** القابل للصور فى عالم الشهادة.

واللوح المحفوظ : نور إلهى حقّى متجلّ فى مشهد خَلقى، انطبعت الموجودات فيه انطباعاً أصلياً، فهو أم الهيولى، لأن الهيولى لاتقتضى صورة إلا وهو منطبع فى اللوح المحفوظ؛ وعلم **اللوح المحفوظ**: نبذة من علم الله أجراه الله على قانون الحكمة الإلهية على حسب ما اقتضته الحقائق الحقّية. وجمع ما فى اللوح المحفوظ هو علم مبدأ الوجود الحسّى إلى يوم القيامة.

والمقضىّ به المُقدّر فى اللوح على نوعين: مقدّر لايمكن التغيير فيه: من الأمور التى اقتضتها الصفات الإلهية فى العالم؛ **ومقدّر يمكن التغيير فيه**: فهو الأشياء التى اقتضتها قوابل العالم على قانون الحكمة المعتادة، فقد يجريها الحق على ذلك الترتيب فيقع المقضىّ به، وقد لا يجريها عليه بالنظر إلى أن قوابل العالم من حُكمها العجز لاستناد أمرها إلى غيرها، فلأجل هذا قد يقع وقد لايقع، بخلاف الأمور التى اقتضتها الصفات الإلهية فإنها واقعة ضرورة بالاقتدار الإلهى.

وأيضاً **قوابل العالم** ممكنة، والممكن يقبل الشىء وضده، **فإذا اقتضت القابلية شيئاً ولم يجر القدر إلا بوقوع نقيضه، كان ذلك النقيض أيضاً من مقتضى القابلية التى من** الممكن وقوعها، فيقول بإيقاع ما اقتضته قوابل العالم لكن بخلاف قانون الحكمة، وإذا وقع ما اقتضته القابلية بعينه قلنا بوقوعه على القانون الحُكمى، وهذا أمر ذوقى لا يدركه إلا صاحب الكشف، فالقضاء **المُحكم**: هو الذى لاتغيير فيه ولا تبديل؛ **والقضاء المبرم** : هو الذى يمكن فيه التغيير والتبديل، قال الله تعالى: ﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ (الرعد ٣٩)، بخلاف القضاء المُحكم فإنه المشار إليه بقوله: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ (الأحزاب ٣٨).

٨٣١ - ليسية...

من **لَيْسٌ**، وهى كلمة دالة على نفى الحال؛ **واللّيسية مصطلح صوفى**، يقولون **اللّيسيّة**: هى الفناء، فعن أبى اليزيد **البسطامى** قال: أشرفتُ على ميدان الليسية،

حتى صرتُ من ليس، في ليس، بليس»، وذلك يعني أول النزول في حقيقة الفناء، والذهاب عن كل ما يُرى ولا يُرى. وفي أول وقوع الفناء انطماس آثارها. وقوله «ليس بليس» هو ذهاب ذلك كله عنه، وذهابه عن ذهابه؛ ومعنى «ليس، بليس» أي ليس شيء يُحَس، وليس شيْ يوجد، وقد طُمس على الرسوم، وقُطعت الأسماء، وغابت المحاضر، وذهب ذلك كله بكل الذهاب عنه ـ وهو الذي يسميه قومٌ «الفناء»، ثم غاب الفناء في الفناء، فضاع في فنائه، فهو التضييع الذي «وفي ليس به»، «وبه في ليس»، وذلك حقيقةُ فقد كل شيء، وفَقْد النفس بعد ذلك، وفَقْد الفَقْد في الفَقْد، وهذا شيء ليس له أمد ولا وقت.

٨٣٢- ليلة...

ليلة القدر: ليلة يُختص فيها السالك بتجلٍ خاص، يعرف به قدره ورتبته بالنسبة إلى محبوبه، وهو وقت ابتداء وصول السالك إلى عين الجمع ومقام البالغين في المعرفة.

* * *

باب الميم

* * *

٨٣٣- مأجوج...

يأجوج ومأجوج فى التاريخ أُمتان من التتر، وقيل هم الذين سكنوا الأرض بين **بحر قزوين والبحر الأسود**، وفى سنة ٦٢٤ ق.م وصلوا مصر فأعطاهم الملك بسماتيك بعض المال وصرفهم عن بلاده، ولكنهم لم يُطردوا من آسيا **الصغرى** قبيل نهاية القرن السادس الميلادى. وفى سِفْر حزقيال، **الفصل التاسع والثلاثين**، يأتى عن يأجوج ومأجوج أنهما أشرار، وأن ابن البشر يدحرهما فى آخر الزمان، وقد ذكرهما القرآن فى الآيتين ٩٤ من الكهف، و٩٦ من الأنبياء. وعند **الصوفية** فإنهما من علامات **الساعة الكبرى**، فيملكان الأرض، ويأتيان على الثمر والبحر، حتى يكون خلاص الله. وكذلك فإن **مأجوج الإنسان**، هو من علامات ساعته **الصغرى**، وهو خواطره الفاسدة ووساوسه، فيرجع عن سُكره إلى حقيقة الصحو، ثم تأتيه العناية الربّانية بالنفحات الرحمانية، وحينئذ تفنى تلك الخواطر النفسانية وتكون قيامة الإنسان.

٨٣٤- مأخوذ...

هو المُستلَب، إلا أن المأخوذ أتم فى المعنى، وهو الذى وصفه الحديث المروى عن النبىّ ﷺ: **«يظن الناس أنهم خولطوا وما خولطوا، ولكن خالط قلوبهم من عظمة الله تعالى ما أذهب بعقولهم»**.

٨٣٥- مأذون...

هو الذى أَذِن له شيخ الطريقة أن يكون من أعضائها؛ وفى مراتب **الصوفية** عند **الشيعة** : تأتى رتبة **المأذون** كأول رتبة، وتليها رتبة الداعى، ثم الباب، ثم **الحُجّة**، ثم **الشيخ** أو **الإمام**، ثم الوصىّ، ثم النبىّ.

٨٣٦- ماء...

ماء **القُدس**: هو العلم الذى يطهّر النفس من دنَسِ الطباع ونَجَس الرذائل؛ أو هو الشهود الحقيقى بتجلى القديم الرافع للحدث، فإن الحدث نجس.

٨٣٧- مائية...

هى نفسها **الماهية**، وفى بحث **الصوفى** عن أصول الأشياء، يتطرّق إلى أربعة أشياء لا يتم البحث إلا بها: **الهلّية**: من أداة الاستفهام «هل»؛ **والمائية**: من أداة الاستفهام «ما»؛ و«**اللِّمية**»: من أداة **الاستفهام** «لِمَ»؛ والكيفية: من أداة الاستفهام «كيف».

٨٣٨- مالك...

مالك المُلك: هو الحق فى حال المجازاة للعبد على ما كان منه بعين الحق مما أمر به.

٨٣٩- ماهية...

ماهية الحقائق: هى أمّ الكتاب، وهى عبارة عن ماهية كنه الذات المعبّر عنها من بعض وجوهها بماهيات الحقائق التى لايطلق عليها اسم، ولا وصف، ولا نعت، ولا وجود، ولاعدم، ولا حق، ولا خلق. والصوفية قد يشيرون إلى: الماهية الجزئية؛ باعتبار الكل؛ والماهية الحقيقية باعتبار حقيقة الشىء؛ والماهية الاعتبارية بحسب الاعتبارات للشىء بالنسبة لغيره؛ وقد يطلقون على الماهية أنها الحقيقة، والذات، على سبيل الترادف.

٨٤٠- مبادى...

المبادى العالية: هى العقول والنفوس السماوية.

ومبادى النهايات: هى فروض العبادات، أى الصلاة والزكاة والصوم والحج، يُبتدأ بها حتى النهاية، وذلك أن النهاية فى الصلاة هى كمال القُرب والمواصلة الحقيقية؛ والنهاية فى الزكاة هى بذل ما سوى الله لخلاص محبة الحق؛ والنهاية فى الصوم هى الإمساك عن الرسوم الخَلقية وما يقوّيها بالفناء فى الله، ولهذا يقول الحديث القدسى: «الصوم لى وأنا أجزى به»؛ والنهاية للحج الوصول إلى المعرفة والتحقق بالبقاء بعد الفناء، لأن المناسك كلها وضعت بإزاء منازل المسالك إلى النهاية ومقام أحدية الجمع والفرق.

٨٤١- مبتدئ...

المبتدئ (بالكسر): هو الذى يبتدئ بقوة العزم فى سلوك طرقات المنقطعين إلى الله تعالى، ويتكلّف لآداب ذلك، ويتأهّب للتأدّب بالخدمة والقبول، من الذى يعرف الحال الذى ابتدأ به وأشرف عليه من بدايته إلى نهايته.

أما المريد: فهو الذى صحّ له الابتداء وقد دخل فى جملة المنقطعين إلى الله تعالى، وشهدت له قلوب الصادقين بصحة إرادته، ولم يترسّم بعد بحال ولا مقام.

٨٤٢- مبدأ...

يطلق على الأسماء الكلية الكونية.

والمبدأ الفيّاض: هو الله تعالى، وقيل العقل الأول، وقيل العقل العاشر المسمى بالعقل الفعّال. وذلك كلام فلاسفة الصوفية، وفيه التأثُّر بالأفلاطونية المحدثة.

٨٤٣- مبطلون...

هم المتشبّهون بالصوفية، يظهرون أنفسهم فى صورة الصوفية ولا يعملون

مثلهم، ويبطلون الشرائع، ويسمون أحياناً باطنية، وأحياناً إباحية، وأحياناً صاحبية، ويقولون إن التقيّد بأحكام الشرع وظيفة العوام الذين يحفلون بالظواهر، أما حال الخواص فاهتمامهم بمراعاة حضور الباطن.

٨٤٤- متأهل...

المُتأهل: هو المتزوّج؛ **والتأهُّل**: هو الزواج؛ **والصوفي الفقير** إذا تزوج وكان له ولد فليس له أن يكل أمر عياله إلى الله تعالى، ويجب عليه أن يقوم بفرضهم، إلا أن يكونوا مثله في الحال.

وليس من آداب الصوفية الفقراء: أن يتزوجوا ذوات اليسار، ولا أن يدخلوا في رفق النساء.

ومن أدب الصوفي الفقير: أن يتزوج بفقيرة مثله، وأن ينصفها، وإن رغبت فيه امرأة غنية أن لا يرتفق منها.

٨٤٥- متجرّد...

المُتجرِّد: هو غير المتأهّل، فإن التأهُّل والزواج يدعوان إلى الدعة. والزواج رفاهية لا يقدر عليه إلا المتيسّر، ويمنع المرأة من كثرة الاشتغال بالله وقيام الليل وصيام النهار.

ويتسلّط على باطن الصوفي في حالة زواجه خوف من الفقر ومحبة إلى الادخار، وكل هذا بعيد عن المتجرّد.

وقد ورد عن النبيّ ﷺ قوله: **«إذا كان بعد المائتين أُبيحت العزوبة لأمتي»**. وقال: **«خيركم بعد المائتين رجل خفيف الحاذ»**. قيل يا رسول الله: وما خفيف الحاذ؟ قال: **«الذي لا أهل له ولا ولد»**. وواضح أن الحديثين موضوعان لمخالفتهما للقرآن والسنة.

وكان إبراهيم بن أدهم يقول: **«من تعوّد أفخاذ النساء لا يفلح»**.

ومن حُسن أدب المريد في عزوبته: أن لا يمكّن خواطر النساء من باطنه، وكلما خطر له خاطر النساء والشهوة يفرّ إلى الله تعالى بحُسن الإنابة، فيتداركه الله تعالى بقوة العزيمة.

٨٤٦- متحقق...

المُتحقّق بالحقّ: هو من يشاهده تعالى في كل متعين بلا تعيين به، فإنه تعالى وإن كان مشهوداً في كل متقيد باسم أو صفة أو اعتبار أو تعيّن أو حيثية، فإنه لا ينحصر فيه ولا يتقيّد به، فهو المطلق المقيد، والمقيد المطلق، المنزّه عن التقيّد واللاتقيد، والإطلاق واللا إطلاق.

والمتحقق بالحق والخَلق: هو من يرى أن كل مطلق في الوجود له وجه إلى التقيّد، وكل مقيّد له وجه إلى الإطلاق، ويرى كل الوجود حقيقة واحدة، له وجه مطلق، ووجه مقيّد بكل قيْد، ومن شاهد

هذا المشهد ذوقاً كان متحققًا بالحق والخلق والفناء والبقاء.

٨٤٧- متسبب...

اختلف الصوفية فى الوقوف مع الأسباب والإعراض عن الأسباب، فمنهم من كان على الفتوح لا يركن إلى معلوم، ولا يتسبب بكسب ولا سؤال؛ ومنهم من كان يكتسب ومن كان يسأل وقت فاقته، ومنهم المُتَسَبِّب الذى يأخذ بالأسباب، وفى كل ذلك فإن الفهم يأتيه من الله فيما يدخل فيه من سبب أو يتركه من سبب. والصوفى لا ينبغى له أن يسأل الناس، وقد حثّ النبىّ ﷺ على ترك السؤال بالترغيب والترهيب، فأمّا الترغيب فقد قال: **لا تسأل الناس شيئاً**». وقال فى الترهيب: **لا تزال المسألة بأحدكم حتى يلقى الله وليس فى وجهه مُزْعة من لحم**».

٨٤٨- متشبه...

هو الذى اختار التشبُّه بالصوفية لمحبة لهم، وهو وإن قصّر عن القيام بما هم فيه، إلا أنه يكون معهم لموضع إرادته ومحبته. والمتشبِّه: صاحب إيمان؛ بينما الصوفى: صاحب علم.

٨٤٩- متصوف...

هو المتطلّع إلى حال الصوفى، وهو فى مرتبة متوسطة بين المتشبِّه والصوفى، فالصوفى صاحب ذَوْق، وللمتصوِّف الصادق نصيب من حال الصوفى، وللمتشبِّه نصيب من حال المتصوِّف. والصوفى فى مقام المفردين المستترين بذكر الله؛ والمتصوِّف فى مقام السائرين؛ والصوفى فى مقام الروح صاحب مشاهدة؛ والمتصوِّف فى مقام القلب صاحب مراقبة.

والفرق بين المتصوِّف والمُتَقَرِّى: أن الصوفى مَن اختاره الله فصافاه، وعن نفسه براّه، ولم يُرده إلى تعمُّل وتكلُّف بدعوى. وصُوفِى على وزن عُوفِى، أى عافاه الله، وكُوفِى أى كافاه الله، وجُوزِى أى جازاه الله، فَفَعْلُ الله ظاهرٌ فى اسمه. وأمّا المُتَقَرِّى: فهو الناسك المتعبّد المتكلف بنفسه، المُظهر لزهده، مع كمون رغبته، وتربيته لبشريته، فاسمه مُضْمَر فى فِعْله، لرؤية نفسه ودعواه.

٨٥٠- متكاسلية...

فرقة من المتصوفة المبطلة، والاسم مأخوذ من الكسل، لأنهم يُبطلون العمل، ويعيشون على الصدقة.

٨٥١- متنبئة...

دعوة الشاعر المشهور أبى الطَّيِّب المتنبّى، المتوفى نحو سنة ٣٥٥ هـ (٩٦٥م)، وكان قد ادّعى النبوة، فسُمّيت دعوته مُتَنَبِّئة، وإن

كان الدكتور طه حسين يرفض ما روى عنه من ادّعائه النبوة والزعم أنه كان له معجزات أو كرامات، وأن قرآناً كان يتنزّل عليه، وأن أصحابه وأتباعه كانوا يحفظونه. ولكن يبدو أن المَعَرّي كان له رأي آخر، وكان من المتابعين له حتى أنه صنّف لديوانه تفسيراً سماه «معجز أحمد»، وأكد المعري نبوته وكرامته ومخاريقه، وسمى ركوب ناقة صعبة، وإبراء خُرّاج بريقه، وتنبأه بموت كلب نَبَحه، كرامات، ومنها وقوفه تحت المطر دون أن يبتل!.. خرافات!

وقيل إن المتنبي أطلق على الآيات التي ادّعى أنها تتنزّل عليه اسم «العَبَرات»، ومنها زعمه أن الوحي قال: .. امضِ على سُنَنك، واقْفُ أثر من كان قبلك من المرسلين، فإن الله قامعٌ بك زَيْغَ مَن ألحد في الدين، وضَلّ عن السبيل». فلا عجب أن يُقتل المتنبي في الطريق!

وقد أسقط عنه التنويريون أنه من مُدَّعي التصوّف، وقصر الفلاسفة ذكره على اعتباره منهم، وأنه كانت له اتصالات بالفارابي والقرامطة، وأنه في الفكر العالمي قريبٌ من نيتشه الفيلسوف الألماني، المتصوّف المُلحد، الذي أصيب بالجنون، وكتاباته هذاءات عظمة.

٨٥٢ - متوسّمون...

هم المتفرّسون في الدين، المتعرّفون لحقائقه، والمتبصّرون الذين يتثبّتون في تفرُّسهم ليصلوا إلى الحقيقة، ذكرهم الله تعالى: ﴿إنَّ في ذلكَ لآيات لِلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ (الحجر ٧٥). (انظر فراسة، وَوَسْم).

٨٥٣ - متوكل...

استعمل لفظ المتوكل دلالة على الصوفي الذي يهيم على وجهه ويعيش على التوكل، وكان من عادة أمثال هؤلاء الصوفية أن يحجّوا إلى مكة بلا زاد، وأن يعتقدوا أنهم - لو أخذوا معهم زاداً، أفسدوا عهد التوكل الذي أخذوه على أنفسهم.

والتوكل إذا روعي بكل دقة فإنه يعرّض صاحبه لا محالة للهلاك، ومن المرجح أن بعض المتوكلين قضى نحبه على هذا النحو، وربما كان ذلك هو الذي حمل سفيان الثوري على أن يقول: «مَن رفض السؤال فمات جوعاً ألقى الله به في النار»، وهو قول يرفض هذا الوضع الذي آل إليه التوكل مع الغالبية من الصوفية، وقد تعدل هذا المفهوم للتوكل بحيث أصبح لا يتنافى التوكل مع التكسُّب. وكذلك حُلّت مشكلة التطبّب بالدواء. وكانت إحدى الفرق الصوفية ترفض التطبّب

بالدواء إعمالاً للتوكل، ويُسمَّون لذلك بالمتوكلية، وكان يرأسهم شيخ يدعى أبا الخير بن بابا، وكان طبيباً ينصح مرضاه بالتوكل على الله كما يفعل الأطباء الروحانيون.

ومن توكُّل المتوكلية أن يسافروا من غير استصحاب الزاد، وذلك عندهم أعلى درجات المتوكلية. ومن التوكل عندهم أن يقعد المتوكل فى بيته أو مسجده تاركاً للكسب، مع أن الاكتساب على مذهب أهل السُّنة، لا يُخرج المتوكل عن توكله - وإن قال البعض أنه أضعف المقامات. وعلامة المتوكل المتكسِّب: أن لا يكون اتكاله على بضاعته ولكن على الله تعالى، وأن لا يحزن بالسرقة وضياع المال. ولا يصحّ للمتوكل توكُّله فى حق عياله، ولابد له من الكسب لهم، كما نُقل عن الصدّيق، وأما مَن ليس له عيال وظهر له مال بسبب من الأسباب، فأعلى الدرجات فى التوكل أن يأخذ قدر الحاجة لوقته، ويفرّق الباقى ولا يدّخره لغد.

وفى صحيح البخارى: أن أناساً من أهل اليمن كانوا يحجّون زمن النبىّ ﷺ، ويقولون: نحن المتوكلون، فإذا قدموا إلى مكة سألوا الناس، فأنزل الله تعالى: ﴿وتَزَوَّدُوا﴾ (البقرة ١٩٧).

وموسى - كمثل لعباد الله الصالحين فى أسفارهم، فى رحلته طلباً للاستزادة من علْم الخَضِر- قيل له: احمل معك حوتاً مالحاً فى مِكتل - وهو الزنبيل، وكان ذلك هو زاده هو وفتاه، فهو وإن كان من المتوكلين إلا أنه تزوّد، وكانا يصيبان من حوتهما غداءً وعشاءً، فلما انتهيا إلى الصخرة على ساحل البحر، وضع فتاه المكتل، فأصاب الحوت ماء البحر فتحرّك فى المكتل وقَلَبه وانسرب، ولم يكن مع موسى شيءٌ آخر يطعمه، وكان قد مشى إلى حيث مناجاة ربّه فبقى أربعين يوماً لم يحتج طعاماً، فلما عاد أدراجه - وكانت غايته هذه المرة البَشَر وليس ربّه، استشعر الجوع، فقال لفتاه: ﴿آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا﴾ (الكهف ٦٢). وموسى كان المَثَل للصوفية، واتخاذ الزاد للأسفار من مقومات حياتهم، وهو ردٌّ على من يدّعى منهم جهلاً أنه مُتَوَكِّل، ولا حاجة له إلى زاد، فيقتحمون المهامة والقفار. وهذا موسى وفتاه يوشع بن نون، قد شكيا النَصَب - أى التعب والمشقة، يعنى الجوع المتحصِّل بهما، وفى هذا دليل: على أن الصوفى حتى لو كان موسى أو يوشع بن نون، يجوز له الإخبار بما يجده من الألم والمرض والجوع. وأن شكواه لا

تقدح فى الرضى، ولا فى التسليم للقضاء، بشرط أن لا يصدر ذلك عن ضجر ولا سخط.

٨٥٤- مثل...

المثل: هو الإنسان فى الصورة التى يظهر عليها. والمثل هو الأفضل الذى يُحتذىَ، ولكل صوفى مَثَل أعلى هو أستاذه أو الإمام، أو القطب، أو الشيخ، الذى يترسّمه فى سلوكه.

٨٥٥- مجالسة...

الجلوس والمجالسة فيهما آداب عند الصوفية. والجلوس فى المساجد من أحب الأشياء إليهم، وكما يقولون: الفقير ينبغى أن تكون سجادته على إليته، ويقصدون بذلك كثرة الجلوس. والجالس فى الصلاة فجلسته ينبغى أن تكون حسنة، لأن من يجالس الملوك فعليه أن يُحسن الأدب. ومجالسة المخالفين تعمى الروح، ومن المروءة أن ننصف الناس فى المجالسة.

٨٥٦- مجاهدة...

هى صدق الافتقار إلى الله تعالى بالانقطاع عن كل ما سواه. وقيل بذل النفس فى رضاء الحق، وقيل فطام النفس عن الشهوات، ونزع القلب عن الأمانى والشبهات. والحقّ أن التصوفّ الخالص لا يطلب من المريد الصوفى أن يعتنق مبادئ معينة، وإنما يطلب منه أن يكون صوفيًا ينتهج منهج المتصوّفة وطريقتهم فى المجاهدة والقول. والصوفية يقولون دومًا فى مجالسهم: لا يزال الصوفية بخير ما تنافروا، فإن اصطلحوا هلكوا. وسأل أحدهم التُّستُرى: مَنْ يصحب من الطوائف؟ فقال له: عليك بالصوفية، فإنهم لا يستنكرون شيئًا، ولكل فعل عندهم تأويلٌ، فهم يعذرونك على كل حال.

٨٥٧- متجاهلية

فرقة مُبطلة من المتصوفة، تجاهلوا المحرمات والمحظورات والنواهى والزواجر، وتحرروا من كل قيد بدعوى ما وصلوا إليه من المقامات الرفيعة المدّعاة.

٨٥٨- متوسمون...

فى الآية: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ (الحجر ٧٥)، وعن رسول الله ﷺ: أن المُتَوَسِّمين هم المتفرِّسون، وقال ﷺ: اتّقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله. وقيل: المتوسِّمون هم المتفكِّرون، أو الناظرون.

والمتوسِّمون من أهل الله: هم الذين يتوسَّمون الأمور، وما كان أحد يسأل واحداً من أهل الله سؤالاً، إلا ويعرف إنْ كان السائل من العارفين أو من غير

العـارفين. ويروى عن اثنين من أهل الله أنهما كانا بفناء الكعبة، ورجلٌ على باب المسجد، فقال أحدهما: الرجل أراه نجّاراً! وقال الآخر: أراه حدّاداً فقال الرجل: كنتُ نجاراً وأنا اليوم حدّاد! ـ فكما ترى أنهما كانا من المتوسِّمين، أى الذين يقرأون الوَسْم أو العلامة.

وروى عن عثمان بن عفان، أنه دخل عليه أحدهم، وفى عينيه أثر تطلّعه إلى أمرأة فى السوق، فقال عثمان: فى عينيه أثر الزنا! ـ وقد كان! فقال أنس بن مالك وكان حاضراً: أوَحْياً بعد رسول الله ﷺ؟ فقال عثمان: لا، ولكنْ بُرهان، وفراسة وصدْق!

٨٥٩- مجذوب...

العامة تقول إنه فاقد العقل، وأنه لتصوّفه، أكثر النظر إلى السماء أو إلى القمر فانجذب. وفى المصطلح الصوفى المجذوب: من ارتضاه الحق تعالى لنفسه، واصطفاه لحضرة أُنسه، وطهّره بماء قُدسه، فحاز من المنح والمواهب ما فاز به بجميع المقامات والمراتب بلا كلفة مكاسب ومتاعب.

٨٦٠- مجلى...

المجالى الكلية والمطالع والمنصّات: هى مظاهر مفاتيح الغيوب التى انفتحت بها مغالق الأبواب المسدودة بين ظاهر الوجود وباطنه، وهى خمسة: الأول: هو مَجْلَى الذات الأحدية وعين الجمع ومقام «أو أدنى»، والطامة الكبرى، ومَجْلَى حقيقة الحقائق، وهو غاية الغايات ونهاية النهايات. والثانى: مَجْلَى البرزخية الأولى، ومجمع البحرين، ومقام قاب قوسين، وحضرة جمعية الأسماء الإلهية. والثالث: مَجْلَى عالم الجبروت وانكشاف الأرواح القدسية. والرابع: مَجْلَى عالم الملكوت، والمدبّرات السماوية، والقائمين بالأمر الإلهى فى عالم الربوبية. والخامس: مَجْلَى عالم المُلك بالكشف الصورى وعجائب عالم المثال والمدبّرات الكونية فى العالم السفلى. وجميع هذه المصطلحات من إبداع الصوفية ومعانيها غامضة لأنها من أنباء الغيب.

ومَجْلَى الأسماء الفعلية: هى المراتب الكونية التى هى أجزاء العالم وآثار الأفعال.

٨٦١- مجمع...

مَجْمَع الأهواء: هو حضرة الجمال المطلق، فإنه لا يتعلق هوى إلا برشحة من الجمال، ولذلك قيل:

نقّل فؤادك حيث شئتَ من الهوى
ما الحب إلا للحبيب الأول

وقال الشيبانى:

كل الجمال غدا لوجهك مجملاً

لكنه فى العالمين مفصّل

ومَجْمَع البحرين: هو حضرة قاب قوسَيْن، لاجتماع بَحْرَىّ الوجوب والإمكان فيها. وقيل هو حَضْرة جَمْع الوجود، باعتبار اجتماع الأسماء الإلهية والحقائق الكونيه فيها.

ومَجْمَع الأضداد: هو الهوية المطلقة التى هى حضرة تعانق الأطراف.

٨٦٢- مجوس...

فرقةٌ عبدوا الله من حيث الأحدية، فكما أن الأحدية مُفنية لجميع المراتب والأسماء والأوصاف، فكذلك النار فإنها أقوى العناصر وأرفعها، فإنها مفنية لجميع الطبائع بمحاذاتها، لا تقاربها طبيعة إلا وتستحيل إلى النارية لغلبة قوتها، فكذلك الأحدية لا يقابلها اسم ولا وصف إلا ويندرج فيها ويضمحل، فلهذه اللطيفة عبدوا النار، وحقيقتها ذاته تعالى. هكذا يقول بعض الصوفية.

٨٦٣- محادثة...

خطاب الحق للعارفين من عالم المُلك والشهادة، كالنداء من الشجرة لموسى عليه السلام.

٨٦٤- محاسبة...

مَن حاسَبَ نفسه على اللحظات والخطرات، خفّت فى القيامة حساراته، ومن لم يحاسب نفسه دامت حساراته، وكثرت فى عَرَصَات القيامة وَقْفَاتُه، والأولى: مرابطة النفس أولاً بالمشارطة، ثم بالمراقبة، ثم بالمحاسبة، ثم بالمعاقبة، ثم بالمجاهدة، ثم بالمعاينة، فهذه ستة مقامات.

٨٦٥- محاسبية...

طريقة الحارث المحاسبى (المتوفى٢٤٣هـ ببغداد)، وكان يقال له المحاسبى لشدّة محاسبته لنفسه ومراقبته لنواياه، فتميّزت طريقته بهذه الميزة، وأطلقوا على تلاميذه وأصحابه المحاسبيين. ومنهج المحاسبى تحليلى نفسانى، فالسؤال الذى يحتاج إلى جواب يُسلم لسؤال غيره، وتقتضى الإجابة إجابة أخرى، والأسئلة والإجابات كلها تدور حول النفس، والنوايا، والخواطر، والهواجس، والأفكار، والخطرات، وهكذا. (انظر أيضاً المحاسبى فى قسم الصوفية).

٨٦٦- محاضرة...

حضور القلب مع الحق فى الاستفاضة من أسمائه تعالى.

وقيل المحاضرة: هى الرؤية قبل رفع الحجاب. وقيل المحاضرة ابتداءً، ثم

المكاشفة، ثم المشاهدة؛ فالمحاضرة: حضور القلب وتشير إلى آيات الله؛ أما المكاشفة: فتتلو المشاهدة، وهى دليل المشاهدة. وعلامة المحاضرة: دوام التفكر فى آيات الله؛ وعلامة المكاشفة: دوام التفكُّر والحيرة فى جلال الله، وهناك فرق بين من يتأمل فى أحكام الله، وبين من هو فى حيرة من جلاله، والأولى مقامها الخلة، والثانية مقامها المحبة. وإبراهيم الخليل فى المحاضرة رأى آيات الله، كقوله: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ (الأنعام ٧٩)، ومحمد حبيب الله كاشفه ربّه بنفسه فلم ير إلا الخالق، لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ * فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾ (النجم ٩).

٨٦٧- محبة...

محبة الصوفى لله تعالى ولرسوله ﷺ: ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ (التوبة ٢٤). يقول عبد الله بن هشام فى تفسير معناها: كنا مع رسول الله ﷺ وهو آخذ بيد عمر بن الخطاب، فقال عمر: والله يا رسول الله، لأنت أحبُّ إلىّ من كلّ شئ إلا من نفسى، فقال رسول الله ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه»، فقال عمر: فأنت الآن أحبّ إلىّ من نفسى، فقال الرسول ﷺ: «الآن يا عمر!» أى الآن وقد صار الرسول أحبَّ إليك من نفسك فقد استقامت أمور الإيمان عندك وصرتَ إلى ما أحبَّ الله ورسوله.

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ (المائدة ٥٤)، وقوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾ (البقرة ١٦٥)؛ وفى الحديث: ولا يزال عبدى يتقرّب إلىّ بالنوافل حتى أحبّه» رواه البخارى، و«إذا أحبّ الله العبد قال لجبرائيل: ياجبرائيل إنى أحبّ فلاناً فأحبّه» أخرجه أبو نعيم.

والمحبة الأصلية: هى محبة الذات عينها لذاتها، لأنها أصل جميع أنواع المحبّات.

والمحبة بين كل اثنين: إما لمناسبة فى ذاتيهما، أو لاتحاد فى وصف أو مرتبة أو حال أو فعل.

وحقيقة المحبة: أن تهب كُلَّك لمن أحببت، فلا يبقى لك منك شئ.

وأهل المحبة على ثلاثة أحوال: الأول: محبة العامة، وهى المحبة الفعلية، وتتولد من إحسان الله تعالى إليهم وعطفه عليهم، وفيها قال الرسول ﷺ: «جُبلت القلوب على حُبّ من أحسن إليها»؛ والثانى: حال المحبة الصفاتية، وتتولد من

نظر القلب إلى غناء الله وجلاله وعظمته وقدرته وعلمه، وهى محبة الخواص، أو محبة الصادقين والمتحققين، وفيها قال النورى: المحبة هتك الأستار وكشف الأسرار؛ والثالث: هو حال المحبة الذاتية، وهى محبة خاصة الخاصة، أو محبة الصدّيقين والعارفين، وتتولد من نظرهم ومعرفتهم بقديم حبّ الله تعالى بلا علّة، فكذلك أحبّوه بلا علّة.

وللمحبة مدرج: وبدايتها الموافقة، ثم الميل، ثم المؤانسة، ثم المودة، ثم الهوى، ثم الخلة، ثم المحبة، ثم الشغف، ثم التيم، ثم الوله، ثم العشق.

وتنقسم المحبة بحسب المبادئ والغايات إلى عشرة أقسام، خمسة منها مقامات المحبين السالكين: فأولها: الألفة، ثم الهوى، ثم الخلة، ثم الشغف، ثم الوجد. وأما مقامات العُشاق، فأولها: الغرام، ثم الافتتان، ثم الوله، ثم الدَّهَش، ثم الفناء. واسم المحبة يشتمل على الكل، إلا أن المحب لا يخلو إما أن يستعمل المحبة أو تستعمله، فإن استعملها وكان له فيها كسب واختيار سمى «محباً» اصطلاحاً، وإن استعملته المحبة بحيث لا يكون له فيها كسب ولا اختيار ولا نظر لنفسه فهو «عاشق».

والمحب يتعلّل إلى محبوبه بكل شىء، ولا يتسلّى عنه بشىء، ويتبع آثاره، ولا يدع استخباره:

أسألكم عنها، فهل من مخبرٌ؟

فما لى بِنُعْم ـ مذ نأت دارُها ـ علم

فلو كنت أدرى أين خَيّم أهلُها؟

وأى بلاد الله ـ إذ ظعنوا أمُّوا!

إذن لسلكنا مسلك الريح خلفها

ولو أصبحت نُعْمٌ ومن دونها النجم!

ولقد قيل: مَن أحبَّ فهو العيّش، ومن أحبّ فلا عيش له. ـ والمحبوب فى هذا الكلام هو الله، فمن أحبّ الله يتلذذ بالعيش ويستشعر طعماً للوجود وللحياة. وإذا أحببتَ الله، فإنك تزهد الدنيا والخَلْق، ولا ترى أن تعيش إلا معه تعالى وبه وله.

والمحبة قسمان بحسب جنسها وبحسب نفسها: والأولى ذاتية وعرضية، والذاتية هى التى يُحَب المحبوب فيها لذاته، والعرضية التى يُحَب فيها لغيره، كمن يحب من يُحسن إليه، فلولا الإحسان ما أحبّه، والإنسان مجبول على هذه المحبة لأنها مركوزة فى طباعه، وحاصلها يرجع إلى محبته لنفسه، فجميع ما يعينه على كمال وجوده ودوام أمره محبوب عنده، ولذلك كانت المحبة للولد لأن فيه بقاء

اسمه وميراثه، وكذلك محبة الصديق لأنه مُعين على جلب المنافع ودفع المضار، ومحبة المعلّم لأنه سبب الإفادة المكملة لسعادة المرء، ومحبة الطبيب إلخ، فذلك كله من المحبة العرضية. ومن أحب شخصاً لصفة تعود منها عليه بالمنفعة فما أحبّ على الحقيقة إلا نفسه. وأما المحبة الثانية، وهى المحبة لذات المحبة وليس لذات المحبوب، فمنها محبة الجمال، ومحبة الكمال، ومحبة الألفة الروحية.

وسبب المحبة: أنها ميل الجميل إلى الجمال بدلالة المشاهدة، كما ورد أن الله جميل يحب الجمال، وذلك لأن كل شئ ينجذب إلى أصله وجنسه، وينزع إلى أُنسه ووصله، فانجذاب المحب إلى جمال المحبوب ليس إلا لجمال فيه. والجمال الحقيقى صفة أزلية لله تعالى، شاهَدَهُ فى ذاته أولاً مشاهدة علمية، فأراد أن يراه فى صُنعه مشاهدةً عينية، فخلق العالم كمرآة شاهد فيه عين جماله عياناً.

والحُبُّ الإلهى وراء حُبّ العقلاء، فإنه صفة قديمة قائمة بذاته تعالى، وصفته عين الذات، وهى صفة قائمة بنفسها، وكذلك حُبّ العقلاء قائمٌ بهم، فيحبّونه بحبّه إياهم، وذلك معنى قوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِى اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ (المائدة ٥٤). والكتاب والسُّنّة مع حبّ الله للعبد، وحب العبد لله. والمحبة مشتقة من الحَبّ (بالفتح) وهى البذور، فاسم الحُبّ قد جُعل لمثل هذه المحبة، لأن المحبة أصل الحياة كما أن الحَبّة أصل النبات. أو أن المحبة مشتقة من الحِبّ (بالكسر)، وهو القدر الملىء بالماء، والقلب مثله إذا امتلأ بالمحبة لم يعد فيه مكان لشىء آخر سوى المحبوب. أو أن المحبة مشتقة من الحِبّ الذي يوضع عليه قدْر الماء، لأن المحِبّ يتحمل طواعيةً كلّ ما يفرضه عليه المحبوب. أو أن المحبة مشتقة من الحَبّ، جمع حَبّة، وهى سويداء القلب. أو أنها مشتقة من حباب الماء وغليانه لأن المحبة هى غليان القلب. أو أنها من حَبّة العين كما يسمون سويداء القلب بحَبّة القلب، وهى مكان المحبة.

٨٦٨- محبوب...

هو قطب الوحدة، وعند بعض الصوفية هو الحقيقة الروحية التى هى ذات الحق.

والمحب والمحبوب شئ واحد، وفى هذا المقام لا تكون المحبة حجاباً لقيامها بذاتها عند فناء جهتى المحبوبية والمحبية فيها. وما قيل أن المحبة حجاب، لاستلزامها الجهتين وإشعارها بالانفصال، أريد به محبة غير

محبوبية. وبداية المحبية والمحبوبية أمر مبهم، لأن المحب لا يكون إلا بعد سابقية جذب المحبوب إياه، ولا يجذبه إلا لمحبته إياه، فكل محبوب مُحب، وكل مُحب محبوب، ومن هذه الجهة يتكلم المحب عن نفسه بخصائص المحبوب. وتخصيص أحد الأوليـاء بالمحبية وبعضهم بالمحبوبية، بظهور أحد الوصفين فيهم، وبطون الآخر، فمن ظهرت عليه أمارات المحبية، قيل محب، لبطون وصف المحبوبية فيه، ومن ظهرت عليه علامات المحبوبية قيل محبوب، لبطون وصف المحبية فيه. ولا يصل المحب إلى المحبوب إلا بالمحبوبية، ليتمكن الوصول بزوال الأجنبية وحصول الجنسية.

والمحبوب الأول: هو الله؛ **ومن الخَلْق،** هو محمد ﷺ، ثم مَن كان أقرب منه بحُسن المتابعة لأنها تفيد المحبوبية. يقول الله تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾ (آل عمران ٣١)، فمن اتّبعه يصل إليه، فتسرى منه خاصية المحبوبية فيه، بحيث يتأتى منه جذب آخر إلى نفسه وإعطاؤه إياه الخاصية المحبوبية، كما أن المغنطيس يجذب الحديد إلى نفسه لجنسية روحانية بينهما فيعطيه خاصيته، بحيث يتأتى منه جذب حديد آخر وإعطاؤه إياه الخاصية المغنطيسية. وهذا الروح هو المظهر النبوى بالنسبة إلى الحضرة الإلهية، كالحديدة الأولى بالنسبة إلى المغنطيس، جذبته مغنطيسية الذات الإلهية، بخاصية المحبة الأزلية أولاً بلا بواسطة، ثم أرواح أفراد أُمتّه ﷺ بواسطة روحه، روحاً فروحاً، متعلقةً به، كالحديدات التى يتعلق بعضها ببعض إلى الحديدة الأولى، وكل حديدة ظهرت فيها خاصية المغنطيس وإن تغاير الجوهران، وإلى هذا أشار ﷺ فى الحديث المنسوب إليه: «من رآنى فقد رأى الحق». وقول الحلاّج من أُمّة محمد ﷺ : أنا الحق!

٨٦٩- محفوظ...

المحفوظ من الصوفية: هو الذى حفظه الله تعالى عن المخالفات فى القول والفعل والإرادة، فلا يقول ولا يفعل إلا ما يرضى به الله، ولا يريد إلا ما يريده الله، ولا يقصد إلا ما أمر الله به، فلا نقول معصوماً وإنما محفوظ.

٨٧٠- محق...

المَحْق: من مَحَقَ، أى أبطله ومحاه وذهب ببركته. **والمحق عند الصوفية:** هو فناء وجود العبد فى ذات الحق تعالى؛ كما أن المحو: هو فناء أفعاله فى فعل الحقّ؛ والطَّمْس: هو فناء الصفات فى

صفات الحق؛ فالأول: صاحب الفناء، لا يرى فى الوجود فعلاً لشئ إلا للحق؛ والثانى: صاحب المحو، لا يرى لشئ صفةً إلا للحق؛ والثالث صاحب الطَّمْس، لا يرى وجوداً لشئ إلا وجود الحق.

٨٧١- محمد...

الوجود الإلهى عند بعض الصوفية من الشيعة، له أطوار، أولاها «العماء»، وفيه لا يوصف الوجوب الإلهى بوصف، ولا يسمى باسم، ولا يُعرَّف بحد ولا برسم، ولكى يُعرَّف لابد أن يتعيّن بصفة، وأول التعّينات علمه تعالى بذاته، وهذه الصفة تتنزّل من الحضرة الإلهية الذاتية التى لا نعت لها، إلى الحضرة الواحدية التى هى حضرة الأسماء والصفات، وقد يُسمَّى الربّ عند الصوفية فى تلك المرتبة باسم: الوجود المطلق. وهذا الوجود المطلق، أو العماء، يقولون إنه يتعيّن صورةً ليُعرَف ويَعرِف نفسه، ويكون تعيُّنه فى صورة ما يسمونه: «الحقيقة المحمدية»، وهى التعيُّن الأول للذات الإلهية، أو هى الفتق بعد الرتق، أو معبَر الوجود من المطلق إلى المقيّد، ومن العماء إلى الأحدية ثم الواحدية.

والحقيقة المحمدية فى قولهم: هى الذات مع التعيّن الأول، ولها الأسماء الحسنى، ومنها اسم الله الأعظم، يعنى أن صورة الله هى الصورة التى تتحصّل لنا نحن البشر، ومحمدٌ هو صورة ربّه، فمن أراد أن يعرف الربّ فى صفاته فليعرف محمدًا فى صفاته.

ومحمد ﷺ فى التصوف الشيعى: ليس بشراً ولا رسولاً. وإنما هو الذات الإلهية فى أسمى مراتبها. وهو حقيقة الحقائق والمرتبة الإنسانية الكمالية الإلهية الجامعة لسائر المراتب، وهى المسماة بحضرة الجمع، وبأحدية الجمع، وهى أول مرتبة تعيّنت فى تعيّنات الذات الإلهية.

ومحمد ﷺ عند الصوفية الشيعة: هو صورة الحقّ، لأن محمداً قد تحقق بالحقيقة الأحدية والواحدية.

ومحمد ﷺ فى التصوّف الشيعى: هو الاسم الأعظم، وهو الاسم الجامع لجميع الأسماء، أو هو اسم الذات الإلهية من حيث هى هى أى الذات المطلقة.

ومحمد ﷺ فى تصوّر صوفية الشيعة: هو محمد الأحدية، ومَجلَى الذات الإلهية. وهو الواحدية ومجلى ظهور الذات فيها. والفرق بين الأحدية والواحدية أن الأولى لا تظهر فيها الأسماء والصفات، والثانية تظهر فيها الأسماء والصفات. فكأن الصوفية الذين يقولون

بذلك: يعتقدون أن محمداً ﷺ هو الله سبحانه، ذاتاً وصفات!!!

هذا هو محمد ﷺ في نظرية التصوّف الشيعي، وأما محمد الإسلام، خاتم النبيين، فهو كما قال عنه الله جلّ شأنه: ﴿إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ (الكهف ١١٠).

ولمحمد ﷺ عند الشيعة مظهران أو اعتباران: فهو عبدٌ أو خلقٌ باعتبار ظاهره؛ وهو ربٌّ أو حقٌّ باعتبار باطنه، ولهذا يصفه ابن عربي باعتبار باطنه بأن له الربوبية، وباعتبار ناسوته بأن له الإمكانية، وباعتبار لاهوته بأن له الوجوبية !!!

ولذا يقول ابن مشيش: ما صلى على محمد إلا محمدٌ !!! لأن صلاة العبد عليه صدرت منهم بأمره من صورة اسمه!!!

ويقول صوفية الشيعة في كتاب «حزب الرحيم» لعمر بن سعيد القُرَشي: إنه ﷺ يحضر كل مجلس أو مكان أراده بجسده وروحه، وأنه يتصرّف ويسير حيث شاء في أقطار الأرض والملكوت وهو بهيئته التي كان عليها قبل وفاته لم يتبدّل منه شيء!!

وهو أغرب كلام!! ونقيضه في القرآن، قوله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ﴾ (آل عمران ١٤٤)، وقوله: ﴿مَالِ هَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ﴾ (الحج ٧)، وقوله: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ (الزمر ٣٠)، وقوله: ﴿وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَّاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا * وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا * إِذًا لَّأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾ (الإسراء ٧٣/ ٧٥)، وقوله: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا﴾ (الإسراء ١)، وقوله: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ (الجن ١٩)، وقوله: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ﴾ (البقرة ٢٣)، وفي كل هذه الآيات: أن محمداً ﷺ عبدٌ من عباد الله، وبشرٌ من البشر، وقد نهى الرسول ﷺ أصحابه أن ينسبوا إليه من الصفات ما ليس فيه، فقال: «لا تطرونى كما أطرت النصارى المسيح ابن مريم! إنما أنا عبدٌ، فقولوا عبد الله ورسوله». فلما اشتد الوَجْد بأحدهم فقال: أنت سيدنا ! صاح به الرسول ﷺ ليصمت وقال: «إنما السيد الله تبارك وتعالى» أخرجه النسائي. وأقول: وهذا ردٌّ على من يقول «سيدنا محمد،» و«سيدنا علي»، و«سيدنا عمر» إلخ.

وفي الصلاة يشهد المسلمون جميعاً

عكس الصوفية الشيعة: أن محمداً ﷺ عبدُ الله ورسولهُ. وفى ذلك ذَكَر المستشرق نيكلسون: أن الفرق شاسع بين صورة النبىّ ﷺ فى القرآن، وصورته عند الشيعة؛ ويقول: إن الشيعة جعلوا للولىّ أو لإمامهم المعصوم صورة أكبر من صورة النبىّ ﷺ، ووصفوه بكل الصفات الإلهية، بينما فى المقابل أعلوا من صورة النبىّ ﷺ، وجعلوه مرجع كل الأنبياء والأولياء، والحقيقة الإلهية السارية فى كل الوجود، وراحوا يلحّون دوماً على أن العالَم ليس سوى صورة الحقيقة المحمدية، وأن الحقيقة المحمدية ليست إلا صورة الله.

وقال المستشرق جولدتسيهر: إن صورة النبىّ كما تصورها الصوفية الشيعة دخلت العقائد الشعبية وجعلت الصورة الشعبية له متعارضة تماماً مع كل ما صوّره به القرآن.

وأرجع هيرشفيلد بكر هذه الصورة الصوفية عند الشيعة: لتأثير الغنوص العرفان المسيحي، الأمر الذى ترتب عليه أن صارت لمحمد ما يشبه العبادة، وجعلت لأولياء الله الصوفية صورة الكائنات الروحية الوسيطة بين الذات الإلهية وبين المادة، حتى أن بعض الصوفية ذهب إلى تصوير محمد فى صورة العقل الأول، والبشير الشفيع المخلّص، وقال الدبّاغ الصوفى مثلاً: إن أنوار المكوّنات كلها، من عرش وفرش وسماوات وأرضين وجنات وحُجب، وما فوقها وما تحتها، إذا جُمعت كلها فإن بعضها من نور النبىّ، ولو جُمع نوره ووُضع على العرش لذاب العرش، ولو وُضع على الحُجب السبعين التى فوق العرش، لتهافتت. ولو جُمعت المخلوقات كلها ووضع ذلك النور العظيم عليها لتهافتت وتساقطت!!!!

وعند التيجانى قال: لمّا خُلق النور المحمدى، جَمَع هذا النور المحمدى أرواح الأنبياء والأولياء جميعاً جمعاً أحدياً، قبل التفصيل فى الوجود العينى، وذلك فى مرتبة العقل الأول.

ويقول الحلوانى:

أنشأك نوراً ساطعاً قبل الورى
فرداً لفرد، والبرية فى العدم
ثم استمد جميع مخلوقاته
من نورك السامى، فيا عظم الكرم
فلذا إليك الخلق تفزع كلهم
فى هذه الدنيا، وفى اليوم الأهم
وإذا دهتهم كُربة فرّجتها
حتى سوى العقلاء وذاك انتظم
جُد لى فإن خزائن الرحمن فى
يدك اليمين وأنت أكرم من قسم

وفى القرآن غير ذلك تماماً، فمحمد بشَرَ،

من طين: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ﴾ (المؤمنون ١٢)، وعنه ﷺ قال: «خُلقت الملائكة من نور، وخُلق الجان من مارج من نار، وخُلق آدم مما وُصف لكم» أخرجه مسلم وأحمد، وقال عن نفسه فيما يحكيه عن ربّه: ﴿مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ (الأحقاف ٩)، وقال: ﴿ قُلْ إِنِّي لا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلا رَشَدًا * قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾ (الجن ٢١/ ٢٢).

وفي تفسير الآية: ﴿ وَلا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾ (طه ١١٤) قال ابن عربي: إعلم أن رسول الله ﷺ أُعطي القرآن مجملاً قبل جبريل من غير تفصيل الآيات والسور، فقيل له: لا تعجل بالقرآن الذي عندك قبل جبريل، فتلقيه على الأمة، فلا يفهمه أحد عنك لعدم تفصيله!.. وفي القرآن غير ذلك تماماً، كقوله تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ ﴾ (الشورى ٥٢)، وقوله: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ * قُل لَّوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلا أَدْرَاكُم بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴾ (يونس ١٥/ ١٦).

ولما فتر عنه ﷺ الوحي حزبه الأمر، وبلغت به الشدّة مبلغها، إلى أن جاءه جبريل، فقال له النبيّ ﷺ: «لقد رثتَ عليّ (أبطأتَ علي) حتى ظن المشركون كل ظن»، فنزل قوله تعالى: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلاَّ بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ (مريم ٦٤).

وبعد، فكما ترى: أن متصوفة الشيعة وعلى رأسهم ابن عربي، هذا الموصوف بالشيخ الأكبر، هو السبب في كل هذا التجديف، ومعه جماعة تابعوه وشايعوه، والعملية كلها بدأت بالشيعة، لا غفر الله لهم!

٨٧٢- محمدية...

المحمدية: هم الصوفية الذين يدعون إلى التأسّي بالنبيّ محمد ﷺ؛ والمحمدي: هو الذي يحاول أن يكون صورة قريبة من رسول الله ﷺ؛ ويُروى عنه ﷺ أنه قال عن نفسه: أدّبني ربّي فأحسن تأديبي. - وقال: أنا أعلمكم بالله وأخشاكم له. - وقال: خُيّرتُ بين أن أكون نبياً ملكاً أو أكون نبياً عبداً، فاخترتُ أن أكون نبياً عبداً: أشبع يوماً وأجوع يوماً. - وقال: عُرض عليّ الدنيا

فأبيتُها. ـ وكان يقول: اللهم ارزق آل محمد قوت يوم بيوم. ـ وكان يدعو: اللهم أحيِنى مسكيناً، وأمتنى مسكيناً، واحشرنى فى زمرة المساكين. ـ وكان من خُلقه: الحياء، والسخاء، والتوكل، والرضا، والذكر، والشكر، والحلم، والصبر، والعفو، والصفح، والرأفة، والرحمة، والصدق، والزهد، والخشوع، والخشية، والدعاء، والبكاء، والخوف، والرجاء. ـ وكان متواصل الحزن، دائم الفكرة. وكان يجلس على الأرض، ويمشى فى الأسواق، ويعلف الناضح، ويقمّ البيتَ، ويخصف النعل، ويرقّع الثوب، ويحلب الشاة، ويأكل مع الخادم، ويشدّ الحَجَر على بطنه من الجوع. وكان يقول: ليكن بُلغة أحدكم كزاد المراكب. ـ يعنى أقل شىء. ـ وقال: أنا ابن امرأة كانت تأكل القديد. ـ والقديد هو اللحم المقدّد المخزون، وهو من أردأ اللحوم وأرخصها. ـ فهذا هو محمد الذى يتأسّى به المحمديون، قال فيه ربّه: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ (القلم ٤)، وقال هو عن رسالته: «بُعثت لآت بمكارم الأخلاق». فصارت القدوة به ﷺ، والاتّباع له، والطاعة لأمره، واجباً على جميع خلق الله ممن شهد أو غاب إلى يوم القيامة.

٨٧٣ - محو...

المحو هو رفع أوصاف العادة بحيث يغيب العبد عندها عن عقله، ويحصل منه أفعال وأقوال لا مدخل لعقله فيها كالسُّكر. يقول الله تعالى: ﴿ يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ ﴾ (الرعد ٣٩)، قيل: يمحو عن قلوب العارفين الغفلة عن الله، وذكر غير الله عن ذكر الله، ويثبت على ألسنة المريدين ذكر الله، فالمحو لكل أحد، والإثبات لكل أحد على ما يليق به. و«المحق» فوق المحو، لأن المحو يُبقى أثراً، والمحق لا يبقى أثراً.

ومحو أرباب الظواهر: هو رفع أوصاف العادة والخصال الذميمة، ويقابله الإثبات: الذى هو إقامة أحكام العبادة واكتساب الأخلاق الحميدة.

ومحو أرباب السرائر: هو إزالة العلل والآفات، ويقابله المواصلات، وذلك برفع أوصاف العبد ورسوم أخلاقه وأفعاله بتجليات صفات الحق وأفعاله وأخلاقه، كقوله تعالى: كنتُ سمعه الذى به يسمع.. (الحديث).

ومحو الجمع، والمحو الحقيقى: هو فناء الكثرة فى الوحدة.

ومحو العبودية، ومحو عين العبد: هو إسقاط إضافة الوجود إلى الأعيان، فالوجود ليس إلا عين الحق تعالى، والإضافة نسبة ليس لها وجود فى الخارج، والأفعال والتأثيرات ليست إلا تابعة للوجود دون المعدوم، وإذا المعدوم لا

يؤثر فلا فاعل ولا موجود إلا الحق تعالى وحده، فهو العابد باعتبار تعيّنه وتقيده بصورة العبد التى هى شأن من شئونه الذاتية، وهو المعبود باعتبار إطلاقه، وعين العبد باقية على عدمها، فالعبد مَمْحُوّ كما قال تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ﴾ (الأنفال ١٧)، وكما قال: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ﴾ (المجادلة ٧)، وكما قال: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾ (المائدة ٧٣)، فأثبت أنه رابع الثلاثة، ونفى أنه ثالثهم، لأنه لو كان أحدهم لكان «ممكناً» مثلهم، تعالى الله عن ذلك وتقدّس، أما إذا كان رابعهم فإنه يكون غيرهم.

٨٧٤ - مخاريق...

هى الأعاجيب الشاذة، جمع مخراق. وبعض الصوفية يدّعون لأنفسهم مخاريق، كما عند الحلاّج، والحركة المشعبية، والصوفية الرفاعية، كأن يدخلوا فى النار، ويطعنوا أنفسهم بالسيوف، ويأكلوا الآلات الحادة إلخ. (أنظر أيضاً خارق).

٨٧٥ - مخالفة...

مخالفة النفس رأس العبادة؛ وسئل المشايخ عن الإسلام، فقالوا: هو ذبح النفس بسيوف المخالفة.

٨٧٦ - مُخبتون...

المفرد مُخبت، وهو من أهل الله: المتواضع الخاشع؛ والخَبْت أصلاً المنخفض من الأرض؛ وفى الآية: ﴿وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ﴾ (الحج ٣٤) أى بشّرهم بالثواب، وهم الذين لا يظلمون، وإذا ظُلموا لم ينتصروا، لأن المُخبت مطمئن بأمر الله، ووصفهم الله تعالى بالوَجَل كلما ذُكر اسمه تعالى، كقوله: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ (الحج ٣٥)، أى خافوا وملئوا رعباً، لقوة مراعاتهم لربّهم، فأكثر ما يميّز العارف بالله، هو شدة وَجَله كلما ذُكر الله عنده، وهو لذلك مُخبت، أى متواضع، وكان الجنيد كذلك، ولم يكن كذلك ابن عربى، ولا الحلاّج، ولا البسطامى، ولا رابعة العدوية، فالإخبات: درجة عالية رفيعة فى المراتب العرفانية؛ وكان أبو بكر من أشدّ الناس إخباتاً، وعمر من أكثرهم وَجَلاً من الله؛ وقيل: كان علياً من أولياء الله المُخبتين الوَجِلين، وهؤلاء هم الذين قال الله تعالى فيهم الآية السابقة: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ (الأنفال ٢) وقال: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ

إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ (الزمر: ٢٣)، وهذه حالة العارفين بالله، الخائفين من سطوته وعقوبته، لا كما يفعله جُهّال العوام من الدراويش المبتدعة الطُّغام، من الزعيق والزئير، والنُّهاق الذى يشبه نُهاق الحمير، والدوران والرقص كالأطفال، وكان الجنيد يعيب ذلك وينتقده، ولا يعتبره من الوَجَل والخشوع، وأمثال هؤلاء لم يبلغوا حال رسول الله ﷺ، ولا حال أصحابه، فى المعرفة بالله تعالى، والخوف منه، والتعظيم لجلاله، والفهم عنه، والبكاء خوفاً منه. ووصف الله تعالى أحوال أهل المعرفة عند سماع ذكره وتلاوة كتابه، ومن لم يكن كذلك فليس على هَدْيهم ولا على طريقتهم، فقال تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ (المائدة:٨٣)، فهذا وصف حالهم وحكاية مقالهم، فمن كان مُتَنَاً فَلْيَتَنّ، ومن تعاطى من المتصوفة أحوال المجانين فهو من أخسّهم حالاً، والجنون فنون! - وفى الصحيح أن الناس سألوا النبىّ ﷺ حتى أحفوه فى المسألة، فخرج ذات يوم، فصعد المنبر، فقال: سلونى، لا تسألونى عن شىء إلا بيّنته لكم ما دمتُ فى مقامى هذا، فلما سمع القوم مقالته رهبوا أن يكون بين يديه أمر قد حضر، فإذا كل إنسان لاف رأسه فى ثوبه يبكى من خشية التوقّع. ثم إن الرسول ﷺ وعظهم موعظة بليغة عظيمة، ذَرَفت منها العيون، ووجلت منها القلوب، وما زعقوا، ولا رقصوا، ولا زَفَنوا (أى تمايلوا)، ولا قاموا كما يفعل الصوفية المولوية مثلاً! فسبحان الله!

٨٧٧ - مخدع...

المخدع: للقطب، وهو موضع ستره عن الأفراد الواصلين، فإنهم خارجون عن دائرة تصرفه، لأنه فى الأصل واحد منهم، متحقق بما تحققوا به فى البساط، غير أنه اختير من بينهم للتصرّف والتدبير.

٨٧٨ - مخيط...

ترك المخيط إشارةٌ إلى تجرّد المريد عن صفاته المذمومة بالصفات المحمودة.

٨٧٩ - مدّاحون...

المدّاح: هو المنشد يستنفر مشاعر الصوفية فى حلقة الذكر، ويستحوذ على الحضرة بصوته الشجىّ وكلامه الهنىّ. والمدّاح الحقيقى هو الذى يتغنّى بما فى القلوب من كلام الحقائق، ولا يكون كلامه مما يتعارض مع الطريقة، أو لا يستحسنه شيخها، والمدّاح أعرف الناس

بأحوال الشيخ ومذهبه، وهو ليس حرَفياً صناعته المدح، فهو لا ينشد بأجر، وأجره عند الله، وهو قبل كل شيء صاحب حال ووجد، ومأذونٌ من الشيخ، وأكثر ما ينشد الأشعار مع الذِّكر، وتصاحبه الأنغام أو الإيقاعات ببعض آلات الموسيقى، وأحياناً تكون هناك صفقات ورقص، وقد يرافقه جمع من المنشدين يرددون ما يقول جماعةً، وقد يتطرّق إلى موضوعات يبث فيها لواعج حبّه لله، ويشكو حاله، أو يمدح الرسول ﷺ. ويقولون إن المدّاح الذى يُخلص المدح، له من الفقر سبعة قراريط - أى له جزيل الثواب عند الله. - ومن أمثال إنشاد المدّاحين:

يا سائق العَيْس المُضَمَّم فى الثرى
قف للذى تحدوكم أشجانه
بلّغ حديثاً قد رونه مدامعى
إذ مَتْعَتْه مسلسلاً فيضانُه
أسند لهم ضعفى وما قد صحّ من
متواتر الخبر الذى جريانه
يرويه عن عبراته عن مقلتى
عن أضلعى عمّا روت نيرانه
عن مهجتى عن شجوها عن خاطرى
عن عشقه عمّا حواه جنانه
عن ذلك العهد القديم عن الهدى
عمّن همو روحى وهم سكانه

٨٨٠ - مداراة...

المداراة واحتمال الأذى: المداراة: هى الملاحظة والمخاتلة؛ واحتمال الأذى من المداراة: قال أنس بن مالك: خدمتُ الرسول عشر سنين فما قال لى أف قط». - يعنى أنه كان يقوم بكل شيء وما كان يشكو ولا يقصّر فى شيء، ولذا لم يحدث أن تأفف الرسول ﷺ منه... ومداراة الصوفى مع كل أحد من الأهل والجيران، ومن الأصحاب والخَلق: قال رسول الله ﷺ: «المؤمن الذى يعاشر الناس، ويصبر على أذاهم، خير من الذى يخالطهم ولا يصبر على أذاهم». والصوفية كما قيل فيهم:

هيّنون ليّنون أيسار بنو يُسْر
سُوّاسٌ، مَكرَمَةٌ، أبناء أيسار

والسُّوّاس جمع سائس، وهو المجرّب الأديب؛ ومَكرَمَة جمع كريم.

٨٨١ - مُدامة حَيْدر...

مُدامة حيدر هى الحشيشة، فقد أجاز شيخ القلندرية قطب الدين حيدر التونى، المتوفى سنة ٦١٨ هـ (١٢٢١م)، أن يتعاطى الحشيشة - المريدون من أتباع الطريقة - وصار ذلك تقليداً من تقاليد القلندرية، وأطلقوا عليها اسم مدامة حيدر، حيث المدامة أصلاً هى الخمر،

والحشيشة هنا هى خمرة حيدر المخصوصة التى أجاز لهم تعاطيها، فلأنها تُذهب العقل فهى كالخمر، والاختلاف: أن الخمر تُسكر، والحشيشة تَسطل، والنهاية واحدة فى الحالتين.

٨٨٢ - مدد...

المَدَد الوجودى: هو وصول كل ما يحتاج إليه الممكن فى وجوده حتى يبقى، فإنه الحق يمدّه من النفس الرحمانى بالوجود حتى يترجّح وجوده على عدمه.

وَمُمِدُّ ألهمَم: هو النبىّ ﷺ، لأنه الواسطة فى إفاضة الحق للهداية على من يشاء الله من عباده، وإمدادهم بالنور والأيد.

٨٨٣ - مدقق...

المُدقِّق: هو الكامل الذى تظهر عليه حقائق الأشياء كما ينبغى، ويتحقق هذا للعبد الذى يكون قد تجاوز مرتبة الحجة والبرهان، ووصل إلى مرتبة الكشف الإلهى، فيشاهد بعين العيان حقيقة جميع الأشياء على وجهها الحق، وأنه لا يوجد موجود آخر غير وجود الواحد المطلق، وأن الموجود بالأشياء الأخرى ليس إلا مجرد إضافة.

٨٨٤ - مرآة...

مرآة الكون: هى الوجود المضاف الوجدانى، لأن الأكوان وأوصافها وأحكامها لم تظهر إلا فيها، وهى تخفى بظهورها كما يخفى وجه المرآة بظهور الصور فيه.

ومرآة الوجود: هى التعيّنات المنسوبة إلى الشئون الباطنة التى صورتها الأكوان، فإن الشئون باطنة، والوجود المتعيّن بتعيّناتها ظاهر، فمن هذا الوجه كانت الشئون مرايا للوجود الواحد المتعيّن بصورها.

ومرآة الحضرتين: أى حضرة الوجوب والإمكان، هو الإنسان الكامل، أى النبىّ أو الولىّ، وهو أيضا مرآة الحضرة الإلهية، لأنه مظهر الذات مع جميع الأسماء.

٨٨٥ - مُرائى...

علامة المرائى فى نفسه: أن يحبّ الحمد على طاعة الله عز وجل، ويكره الذّم فيدع طاعة الله مخافة الذم، وإذا عمل عملاً لم يعلم به إلا الله لم تقنع نفسه حتى يطلب أن يعلم به غيره لينال به الحمد منه فيسعده ذلك. ولا تسخو نفسه بإتيان طاعة لله لا يعلم بها أحد.

والمرائى يرائى ببدنه وبزّيه، وبالقول والعمل. وللرياء منازل وخطرات وأوقات. وأعظم المرائين عند الله من راءى بالإيمان بإظهار النُسُك والورع.

والرياء يورث أرذل الأخلاق، ومن ذلك المباهاة بالعلم والعمل والتفاخر بالدين والدنيا. وأولى بالمريد أن يلزم نفسه بعمل العمل لا يريد أن يعلم به إلا الله عزّ وجلّ.

٨٨٦- مرابط...

هو ساكن رباط الصوفية، ومقيم فيه على الطاعة، يدفع عن العباد والبلاد. يقول النبيّ ﷺ: «إن الله تعالى ليدفع بالمسلم الصالح عن مائة من أهل بيته ومن جيرانه البلاء»، ويقول: «لولا عباد الله رُكّع، وصبية رُضّع، وبهائم رُتّع، لصب عليكم العذاب صبّا، ثم يرضّ رضّا». ويقول: «إن الله تعالى ليصلح بصلاح الرجل ولده، وولد ولده، وأهل دويرته، ودويرات حوله، ولا يزالون في حفظ الله مادام فيهم».

ويقول السَّرِيّ السَّقطي في قوله تعالى: ﴿اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا﴾ (آل عمران ٢٠٠)، المعنى: اصبروا عن الدنيا رجاء السلامة، وصابروا عند القتال بالثبات والاستقامة، ورابطوا أهواء النفس اللوامة، واتقوا ما يعقب لكم الندامة لعلكم تفلحون غداً على بساط الكرامة. وقيل، المعنى: اصبروا على بلائي، وصابروا على نعمائي، ورابطوا في دار أعدائي، واتّقوا محبة من سوائي، لعلكم تفلحون غدا بلقائي.

وهذه شرائط ساكن الرباط: قطع المعاملة مع الخلق؛ وفتح المعاملة مع الحق؛ وترك الاكتساب اكتفاءً بكفالة مسبب الأسباب؛ وحبس النَفْس عن المخالطات؛ واجتناب التبعات؛ ومعانقة العبادة بالليل والنهار مستعيضاً بها عن كل عادة؛ لا يشغله إلا حفظ الأوقات، وملازمة الأوراد، وانتظار الصلوات، واجتناب الغفلات، ليكون بذلك مرابطاً مجاهداً.

ثم إن المرابط يُدرَّب على القتال، وركوب الخيل، ومصارعة الرجال، والرماية، يعني يُدرَّب على الجندية وفنون القتال، ولذا كان المرابطون من نوعية خاصة من الصوفية فيهم القوة والاحتمال.

٨٨٧- مراد...

هو العارف الذي لم تبق له إرادة، وقد وصل إلى النهايات، وعبر الأحوال والمقامات والمقاصد والإرادات، فهو مراد: أريد به ما أريد، ولا يريد إلا ما يريد.

٨٨٨- مراقبة...

هي حال شريف، وهي محافظة القلب عن الرَّديّة. وقيل: هي أن تعلم أن الله تعالى على كل شئ قدير.

وقيل: حقيقة المراقبة أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك.

وقيل: إنها على ضربين: مراقبة العام، ومراقبة الخاص؛ فمراقبة العام من الله تعالى خوف، ومراقبة الخاص من الله رجاءٌ. ولقد سُئل ابن عطاء: ما أفضل الطاعات، فقال: مراقبة الحق على دوام الأوقات.

وقيل: علامة المراقبة إيثار ما آثره الله، وتعظيم ما عظّمه، وتصغير ما صغّره.

وفى أسرار الفاتحة: المراقبة مراعاة السرّ بملاحظة الحق. وقال الخواص: هى خلوص السرّ والعلانية لله تعالى.

وأهل المراقبة على ثلاثة أحوال فى مراقبتهم: فحال الابتداء: هو حفظ السرائر، لأن الله مطّلع على الضمائر؛ والحال الثانى: هو مراقبة الحق بالحق، ومتابعة المصطفى فى أفعاله وأخلاقه وآدابه؛ والحال الثالث: حال الكبراء من أهل المراقبة، فإنهم يراقبون الله وأن يرعاهم فيها، لأنه تعالى قد خصّ النجباء من خاصته بألاّ يكلهم فى جميع أحوالهم إلى أحد، وهو الذى يتولى أمرهم.

٨٨٩- مرتبة...

المرتبة الأحدية: قيل هى ما إذا أُخذت حقيقة الوجود بشرط أن لا يكون معها شئ، فهى المرتبة المستهلكة لجميع الأسماء والصفات فيها، وتُسمّى جمع الجمع، وحقيقة الحقائق، والعَماء أيضاً.

والمرتبة الإلهية: قيل هى ما إذا أُخذت حقيقة الوجود بشرط شئ، فإما أن تؤخذ بشرط جميع الأشياء اللازمة لها كليتها وجزئيتها، المسماة بالأسماء والصفات، فهى المرتبة الإلهية، المسماة بالواحدية ومقام الجمع؛ وإذا أُخذت بشرط كلّيات الأشياء تسمى مرتبة الاسم الرحمن، ربّ العقل الأول، المسمى بلوح القضاء، وأمّ الكتاب، والقلم الأعلى؛ وإذا أُخذت بشرط أن تكون الكلّيات فيها جزئيات منفصلة ثابتة، من غير احتجابها عن كلياتها، فهى مرتبة الاسم الرحيم، ربّ النفس الكلية، المسماة بلوح القدر، وهو اللوح المحفوظ والكتاب المبين؛ وإذا أُخذت بشرط أن تكون الصور المفصّلة جزئيات متغيّرة، فهى مرتبة الماحى والمُثبت والمحيى، ربّ النفس المنطبعة فى الجسم الكلى، المسماة بلوح المحو والإثبات؛ وإذا أُخذت بشرط أن تكون قابلة للصور النوعية الروحانية والجسمانية، فهى مرتبة الاسم القابل، ربّ الهيولى الكلية، المشار إليها بالكتاب المسطور والرّق المنشور؛ وإذا أُخذت بشرط الصُّور الحسّية العينية، فهى مرتبة الاسم

المصوِّر، ربّ عالم الخيال المطلق والمقيَّد؛ وإذا أُخذت بشرط الصور الحسية الشهادية فهى مرتبة الاسم الظاهر المطلق، ربّ عالم المُلك.

ومرتبة الإنسان الكامل: قيل عبارة عن جميع المراتب الإلهية والكونية من العقول والنفوس الكلية والجزئية، ومراتب الطبيعة، إلى آخر تنزّلات الوجود، وتسمى المرتبة العمائية أيضاً، فهى مضاهية للمرتبة الإلهية، ولا فرق بينهما إلا فى الربوبية والمربوبية، ولذلك صار هذا الإنسان الكامل خليفه الله تعالى.

ومراتب رجال الله: هى: الأقطاب، والغَوْث، والأئمة، والأوتاد، والأبدال، والأخيار، والأبرار، والنقباء، والنجباء، والعُمُد، والمكتومون.

وهناك مراتب السلوك: وهى: الواصل، والطائر، والسائر، والمريد، والطالب.

ويُطلق كذلك على هذه المراتب اسم مراتب الصوفية، وتقوم على فكرة أن الروح المحمدى - أى روح النبوّة - يسرى فى الأولياء والأئمة، حتى أنهم ليتراتبون. بحسب ما فى كل منهم من هذه الروح، فكأن نظرية المراتب هذه فى عالم الصوفية، تقوم أصلاً على الحلول والاتحاد، وإذن يكون القول بها أثرًا من آثار التشيّع، ومن ذلك المراتب التسع التى على الإسماعيلى أن يمر بها حتى يصل إلى مرتبة النقيب، وهى مرتبة ترتبط بالبروج الاثنى عشر، وكلّ مرتبة تعنى توجُّهًا معرفيًا خاصًا، وتقرّبٌ من الله؛ وتنتظم المراتب فى شكل هرمى، يبدأ من القطب، وينفرّع إلى الأبدال، والأوتاد، والأفراد، والركبان، والملامية إلخ. ولعلنا نلاحظ الأثر الشيعى الظاهر فى نظرية المراتب الصوفية، فى التشبُّع أن المهدى يقابل القطب فى التصوّف، وابن خلدون قد نبّه إلى ذلك، غير أنه فى التصوّف تغيّرت النظرية المهدية وتطوّرت، وقالت بمَملكة روحية، على رأسها القطب، وسمّاها البعض مملكة الباطن، على أساس أنها تقوم على سلسلة من المراحل، لخّصها يحيى بن معاذ الرازى - المتوفى سنة ٢٥٨ هـ، فقال: إذا رأيت الرجل - يقصد الصوفى.. يشير إلى الآداب والكرامات، فطريقُه طريق الأبدال؛ وإذا رأيته يشير إلى الآلاء والنَّعماء، فطريقه طريق أهل المحبة، وهو طريق أرقى وأعلى من الذى قبله؛ وإذا رأيته يشير إلى الذِّكر، فطريقه طريق العارفين. - وهذه المراتب - أو المقامات أو الرُّتب الصوفية، لم تظهر مرة واحدة، وإنما على مراحل خلال العصور، ولم تكن بدايتها فى القرن الثالث كما أكّد المستشرف نيكلسون، لأن اصطلاح الأبدال

مثلاً، لم يجئ أول مرة إلا فى أقوال معروف الكرخى، المتوفى سنة ٢٠٠هـ، فى قوله: مَن قال فى كلّ يوم عشر مرات: اللّهم ارحم أمة محمد. اللّهم فَرِّج عن أمة محمد. اللّهم أصلِح أمة محمد، كُتب من الأبدال.

٨٩٠- مرشد...

هو الذى يصل على الطريق المستقيم قبل الضلالة. والمرشد الكامل هو القطب العارف القُدْسى، وكان ذلك اسم الحلاّج، وسمّوه كذلك الشيخ الإلهى.

٨٩١- مرض...

للصوفية فى المرض آداب، والمرض ابتلاء، والإنسان قد يطغى بالعوافى، والصّبْر على المرض واجب، وصَبْر المريض وأهله دليل صدقهم مع الله، وقمة الصِّدق أن تعتبر الابتلاء نعمة. ومن أقوالهم: لا تقل من شدّة المرض «آخ»، فإنه اسم من أسماء الشيطان، وقل «آه» فإنه اسم من أسماء الله!!! - فيا سبحان الله!

وقيل: إن بِشْر الحافى مرض فدخل عليه الطبيب، فكان بِشْر يصف له ما به، فقالوا له: ألا تخشى أن تكون هذه شكاية؟ فقال: لا، وإنما أُخبره بقُدرة القادر علىّ! - لا إله إلا الله!

وقيل اعتلّ الجنيد، فكان يدعو: يا من يُشكَر على ما يهب، هَبْ لنا ما نشكر.

وفى الحديث: «إنا لَنُجْزَى بكل ما عملناه. نعم يُجْزَى المؤمن فى الدنيا من مصيبة فى جسده مما يؤذيه. رواه أحمد. وقال ﷺ لأبى بكر: ألستَ تمرض؟ ألستَ تحزن ؟! فهذا ما تُجْزَوْن به: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ (النساء ١٢٣)؛ وقال: «إن المؤمنين شُدِّد عليهم، لايصيب المؤمن نكبةٌ من شوكة فما فوقها، ولا وجعٌ، إلا رفع الله له به درجة وحطّ عنه خطيئة» رواه الحاكم. وقال: «إذا مرض المؤمن أخلصه ذلك كما يخلص الكير خبث الحديد» رواه البخارى. وقال: «هذه معاتبة الله العبد بما يصيبه من الحمى والنكبة». وقال: «أنين المريض تسبيح، وصياحه تهليل، ونَفَسُه صدقة، ونومُه على الفراش عبادة، وتقلّبه من جنب إلى جنب كأنما يقاتل العدو فى سبيل الله» رواه الديلمى.

وعن علىّ بن أبى طالب قال: «يُكتَب أنين المريض، فإن كان صابراً كان أنينه حسنات، وإن كان أنينه جزعاً كان هلوعاً لا أجر له».

والنبىّ ﷺ أمر بالتداوى، ولا يتعارض التداوى مع التوكل، وقال ﷺ: ما من داء إلا له دواء، عرفه مَن عرفه، وجهله

من جهله، إلا السام» - يعنى الموت. وقال: تداووا عباد الله». وسُئل عن الدواء: هل يردّ من قَدَر؟ فقال: هو من قدر الله». - والتداوى رخصة وسَعَة، وتَرْكُه ضَيْقٌ وعزيمة، والله يحبّ أن تُؤخذ رُخَصه كما يُحبّ أن تؤتى عزائمه. وكان مذهب سهل بن عبد الله - وكثير من الصوفية - تَرْكَ التداوى.

٨٩٢- مرقعة...

هى شعار الصوفية، وكان عمر ابن الخطاب يلبس المرقعات، وأمر النبىّ ﷺ عائشة أن لا تصنع الثوب حتى تَرْقَعه. ومن النفاق أن يلبس المرقّعة غير الصوفى. والمرقعة :زينة الأولياء، وعزّ العامة، وذلّ الخاصة. وقيل: هى لباس النَّعَم للعوام، وجَوْشَن (أى محط) البلاء للخواص؛ والمقلّدون يلبسونها باعتبار من أحب قوماً فهو معهم. ويُروَى أن عيسى ابن مريم كان يلبس المرقعة عندما رُفع إلى السماء. واللون الأزرق يناسب المرقعة من حيث أن الصوفى سيّاح ولا يناسبه الأبيض؛ واللون الأزرق شعار الحزانى المظلومين، وهو حداد الصوفية على هذه الحياة التى ليس فيها إلا القوت. ولا يلبس المرقعة السالك الجديد إلا بعد ثلاث سنوات. والإشارة إليها بأن - جيبها: الصبر؛ وأكمامها: الخوف والرجاء؛ وحشوها القبض والبسط؛ وحزامها: مخالفة النفس؛ وطرفها: صحة اليقين؛ وإطارها: الإخلاص. - وقيل: طرفها اعتزال الناس؛ وأكمامها الحفظ والعصمة، وحشوها الفقر والصفوة؛ وحزامها الإقامة فى المشاهدة. - وقيل: طرفها الأمن فى الحضور؛ وإطارها القرار فى المحل. - وانتزاع المرقعة يعنى ترك الطريق. - أقول: إن ذلك كان فى الماضى وتغيّر كل شىء الآن. (انظر الخرقة).

٨٩٣- مروة...

المُرُوّة: هى أن لا تستكثر لله عملاً عملته، وكلما عملت عملاً كأنك لم تعمل شيئاً وتريد أكثر من ذلك. والمروة: إشارة إلى الارتواء من الشُّرب بكاسات الأسماء والصفات الإلهية.

٨٩٤- مريد...

من انقطع إلى الله تعالى عن نظر واستبصار، وتجرّد عن إرادته ، لمّا علم أنه ما يقع فى الوجود إلا ما يريده الله تعالى، لا ما يريده غيره، فيمحو إرداته، فلا يريد إلا ما يريده الحق.

ولا ينبغى للمريد أن يشغل نفسه فى ابتداء أمره بالتزويج، فإن ذلك يمنعه الهمّة على الله تعالى، ولذلك قال الدارانى: من تزوّج فقد ركن إلى الدنيا. وقال: ما رأيت مريداً تزوج فثبت على ما كان.

ويجب على المريد أن يتأدّب بشيخ، فإن لم يكن له أستاذ فقد لا يفلح، وإن كان البعض لم يكن لهم أستاذ ومع ذلك أفلحوا. وقد قيل: من لم يكن له أستاذ فإمامه الشيطان. فالشجرة إذا نبتت بنفسها من غير غارس، فإنها تورق لكن لا تثمر. وكذلك المريد، إذا لم يكن له أستاذ يأخذ منه طريقته نَفَساً، فنَفَساً فهو عابد هواه.

ورؤية المريد المتحقّق تُفرح الأستاذ أو الشيخ، وهو من تغلب عليه الرقة والشفقة والتلطف والبذل واحتمال المكاره، ويكون المريد للأستاذ أو للشيخ كالابن، وللصبي كالأب الشفيق، وإنك لتراه يتشكّى شكوى كلّ الخلق، وبغتم لمصائبهم، ويصبر على أذاهم. وعلامة المريد: تركه: مخالطه الذى لا يريد مثلما يريد، وأن يسلم منه عدوه كما يسلم منه صديقه. وعلامة المريد: أنّ وجْدانه فى القرآن، ففيه كل ما يريد أن يتعلّم.

ولا بد للمريد المحقّق فى إيمانه، والمطالب لسلوك سبيل النجاة، من معرفة ثلاثة أصول يعمل بها، فبذلك يقوى إيمانه، وتقوم حقائقه، وتثبت فروعه، فتصفو عند ذلك الأعمال وتخلص: فأولها: الإخلاص لله، كقوله تعالى: ﴿فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ * أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ (الزمر ٢/ ٣)، وقوله: ﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ (غافر ١٤)؛ ثم الصدق، كقوله تعالى: ﴿وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ (التوبة ١١٩)، وقوله: ﴿فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ﴾ (محمد ٢١)؛ ثم الصبر، كقوله تعالى: ﴿اصْبِرُوا وَصَابِرُوا﴾ (آل عمران ٢٠٠). ولا تتم هذه الأصول الثلاثة إلا ببعضها البعض، فلو فُقد أحدها تعطّل الآخران.

٨٩٥- مزاح الصوفية...

لم يُحرِّم النبىّ ﷺ المزاحَ والمُداعبة، ومَن لا هزل له لاجِدّ له، طالما كل ذلك فى نطاق الحلال، ولم يقرُب حرامًا، ولا أحلّ فاحشة، ولا أهدر كرامة. والصوفية من أكثر الناس تعبّدًا لله، والتزامًا بشرائعه، غير أنهم يحبّون المداعبة والمزاح، ولهم نوادر كثيرة تجلّ عن العدّ.

وفى الرواية أن النبىّ ﷺ صنعوا له فى غزوة تبوك قُبّةً من أدَم - يعنى من طين - ليلجأ إليها من الحرّ، وجعلوا لها مدخلاً صغيراً، وجاء عوف بن مالك الأشجعى، فطلب الإذن له بالدخول، فأذن له، وكان الرجل طويلاً وممتلئًا، فاستغرب كيف يدخل والفتحة صغيرة! فقال للنبىّ ﷺ مازحًا: أكُلِّى يا رسول الله أم بعضى؟!

فضحك الرسول ﷺ وقال: كُلُّك! - ومِثْل ذلك كثير عن النبيّ ﷺ، وعن الصوفية الكبار، وكان الشيخ الشعراوى - رحمه الله - من أكثر الناس مداعبةً لإخوانه.

٨٩٦ - مسألة...

المسألة الغامضة: هى إضافة وجود الحق إلى الأعيان، وتعيّنه بها مع بقائها على عدمها الأصلى، لأنه لا وجود على الحقيقة إلا لله، ولولا تجلى الحق فى صورها، وظهوره بأحكامها، وبروزه فى صورة الخَلق الجديد، لما ظهرت به. وهذا أمر كشفى ذوقى، ينبو عنه الفهم ويأباه العقل، إذ كيف تكون معدومة وهى موجودة ؟

٨٩٧ - مسافر...

هو الذى سافر بفكره فى المعقولات والاعتبارات، فعبّر من عدوة الدنيا إلى عدوة القصوى.

٨٩٨ - مسامرة...

المسامرة: هى حديث الإخوان فى مجالس السَّمَر؛ وعند الصوفية: هى خطاب الحقّ للعارفين، ومحادثته لهم فى عالم الأسرار والغيوب. وقيل: هى استدامة طول العتاب مع صحة الكتمان، وهى نظر القلوب إلى ما وارته الغيوب. وقيل: هى عتاب الأسرار عند خفىّ التذكار. والفرق بين المسامرة والمحادثة: أن الأولى بين العبد وربّه ليلاً، والثانية بينهما نهاراً، وعلى ذلك فالمناجاة فى الليل تسمى «مسامرة»، والدعاء نهاراً يسمى «محادثة»، والأولى فى عُرف المحبة أكمل من الثانية.

والمسامرة، مثل قوله تعالى: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ﴾ (النجم ١١)، فعلى معنى علىّ بن أبى طالب لَمَّا سُئل: هو نرى ربّنا؟ فقال: وكيف نعبد مَن لم نره! ثم قال على سبيل المسامرة - يعنى على سبيل إزجاء الكلام: لم تره العيون فى الدنيا بكشف العيان، ولكن رأته القلوب بحقائق الإيمان. - وعلىّ فى مسامرته أثبتَ على ذلك الرؤيةَ «بالقلب» فى الدنيا.

٨٩٩ - مستريح...

المستريح من العباد: هو من أطلعه الله تعالى على سرّ القدر، لأنه يرى أن كل مقدور يجب وقوعه فى وقته المعلوم، وكل ما ليس بمقدور يمتنع وقوعه، فاستراح من الطلب والانتظار لمّا لم يقع، والحزن والتحسّر على ما فات، والصبر والتسليم على ما وقع، ولهذا قال أنس بن مالك: خدمتُه ﷺ عشر سنين فلم يقل لشئ فعلتُه لِمَ فعلتَه، ولا لشئ تركتُه لِمَ تركتَه ؟

٩٠٠- مستقدمون...

يقابلها مُستأخرون، فى الآية: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ﴾ (الحجر ٢٤)؛ **والعارفون مستقدمون بهمّهم؛ والعابدون مستقدمون بقَدَمهم؛ والتائبون بندمهم. وأقوام مستأخرون بقدَمهم وهم العُصاة، وآخرون مستأخرون بهمومهم، وهم الراضون بخسائس الحالات.**

ويقال المستقدمون الذين يسارعون فى الخيرات، والمستأخرون المتكاسلون عن الخيرات.

ويقال المستقدمون الذين يستجيبون لخواطر الحق من غير تعريج إلى تفكر، **والمستأخرون** الذين يرجعون إلى الرُخص والتأويلات.

ويقال المستقدمون الذين يأتون على مراكب التوفيق، **والمستأخرون** الذين تثبطهم مشقة الحذلان.

٩٠١- مستلب...

المُستلَب: هو المأخوذ الذى يظن الناس أنه قد خولط، وما خولط، ولكن خالط قلبه من عظمة الله ما أذهب بعقله. قال رسول الله ﷺ: **لا يبلغ العبد حقيقة الإيمان حتى يظن الناس أنه مجنون**، أى مُستلَب أو مأخوذ قد خولط. (انظر مجذوب).

٩٠٢- مستنبط...

للصوفية مُستنبَطات تَشْكُل على أفهام الفقهاء والعلماء، لأنها لطائف مودعة فى إشارات لهم تخفى فى العبارة من دقتها، وذلك فى معنى العوارض والعلائق، والحُجب وخبايا السرّ، ومقامات الإخلاص وأحوال المعارف، وحقائق العبودية، وعبور الأحوال والمقامات.

والصوفية مخصوصون بذلك مما يقوم به **علم الإشارة**، وعلم مواريث الأعمال التى يكشف الله تعالى لقلوب أصفيائه، من المعانى المذخورة واللطائف والأسرار المخزونة، وغرائب العلوم، وطرائف الحِكَم فى معانى القرآن، ومعانى أخبار رسول الله ﷺ، من حيث أحوالهم. - أى الصوفية - وأوقاتهم، وصفاء أذكارهم. **والاختلاف بين أهل الحقائق فى المستنبطات على قدر تفاوتهم واختصاصهم ودرجاتهم**، لأن كل واحد يتكلم من حيث وقته، ويجيب من حيث حاله، ويشير من حيث وجده، فتكون فيهم لكل واحد من أهل الطاعات وأرباب القلوب والمريدين والمتحققين فائدة من كلامهم.

٩٠٣- مستند...

مستند المعرفة: هي الحضرة الواحدية التي هي منشأ جميع الأسماء.

٩٠٤- مستهلك...

المستهلَك: هو الفاني في الذات الأحدية بحيث لا يبقى منه رسم.

٩٠٥- مسجد...

الصوفية يطلقونه على مظهر التجلّي الجمالي، وقيل هو مقر الشيخ والمرشد.

٩٠٦- مسخ...

مسخ القلوب: للمطرودين من الباب، وكانت لهم قلوب متوجهة، فمُسخت بالإعراض عنها، وجُعلت توجهها إلى الحظوظ دون الحقوق، فإذا قال قائل: فلان قد مُسِخ، فمعناه: أنه أعرض بقلبه.

٩٠٧- مسلم...

المسلمون على الصراط المستقيم، وهو الطريق الموصّل إلى السعادة من غير مشقة، والموحِّدون هم من المسلمين، وهم أهل حقيقة التوحيد على صراط الله، وهذا الصراط أخصّ وأفضل من الأول، فإنه عبارة عن تنوعات تجليات الحق تعالى لنفسه بنفسه. والصراط المستقيم عبارة عن الطريق إلى الكشف عن ذلك، فالمسلمون أهل التوحيد، والعارفون أهل حقيقة وتوحيد، وما عدا هؤلاء فكلهم مشركون، فلا موحد إلا المسلمون. ثم إن الله تعالى تعبّد المسلمين من حيث اسمه الربّ، فهم مقتدون بأوامره ونواهيه، لأن أول آية أنزلها الله تعالى على نبيّه محمد ﷺ كانت: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ (العلق ١)، فقرن الأمر بالربوبية، لأن الربوبية محلها الأمر، ولذلك افتُرضت العبادات على المسلمين، لأن المربوب تلزمه عبادة ربّه، فجميع المسلمين عابدون لله تعالى من حيث اسمه الربّ، ولا يمكنهم أن يعبدوه من غير ذلك.

٩٠٨- مسوحي

نسبةً إلى المُسوح، وهو اللباس من الشَّعر. وجرت العادة أن يلبس الزُّهّاد، رجالاً كانوا أو نساء: جُبّة، أو مِدْرعة (ثوب) من الصوف، وأن تلبس المرأة أحياناً غطاءً على الرأس من القماش نفسه هو الخُمار.

٩٠٩- مسيح...

ادّعى بعض الصوفية أنهم المسيح، ولذلك قال المستشرقون بأثر المسيحية في التصوّف، والعجيب أنه ما ادّعى من الصوفية بأنهم المسيح إلا صوفية الفرس، وقيل: كان لهم غرام بادّعاء المسيحية، لأنها الديانة الأدخل في الروحانيات، والأبعد

عن العنصر العربى والنسب العلوى، ولأنها كانت أعْمَر من المهدية. وسَمّى الشلغمانى نفسه بالمسيح مرةً، وبروح القُدُس مرة. وفى التاريخ من أمثال الشلغمانى ثلاثة أشخاص من الصوفية، وكان الأول: صوفيًا فارسيًا يسكن دمشق، وادّعى أنه المسيح، وصُلب سنة ٥٩٦ هـ/ ١١٩٩م؛ وكان الثانى: صوفيًا من سُتر، وادّعى أنه المسيح أيام التتار، وكان اسمه «كى» أو «لى» وقُتل؛ والثالث: كان علىّ بن الفخر الأردستانى، وادّعى أنه المسيح، فأُخذ وقُتل وأُحرق فى رمضان سنة ٦٩٦هـ/ ١٢٩٧م. وكان سبب ادّعاء هؤلاء بأنهم المسيح، أنه فى المسيحية يقال أن المسيح سينزل فى آخر الزمان، وهناك شائعة تقول بذلك بين المسلمين، وإذن فليس أسهل من ادعاء الصوفى بأنه المسيح قد رجع!

٩١٠- مسيِّرون...

قال الصوفية: نحن مُسيَّرون - يريدون بذلك تسيير القلوب، وسيْرها هو انتقالها من حال إلى حال، ومن مقام إلى مقام. يقول ابن معاذ: الزاهد سيّار، والعارف طيّار. - يعنى فى سرعة الانتقال فى المقامات والأحوال.

وأما المسيَّرون عكس المخيّرين، فهؤلاء هم الصوفية الجبرية، قالوا: لا قُدرة للعبد أصلاً، لا مؤثّرة ولا كاسبة، بل هو بمنزلة الجمادات، وهؤلاء هم الصوفية المسيَّرون، أو الصوفية الجبرية الخالصة؛ ومنهم الصوفية المسيّرون، أو الصوفية الجبرية المتوسطة، وهؤلاء من صوفية أهل السنّة، ذهبوا إلى القول بالتوسّط بين الجبر والتفويض، وأثبتوا للعبد كسباً بلا تأثير فيه.

٩١١- مشارق...

مشارق الفتح: هى التجليات الأسمائية، لأنها مفاتيح أسرار الغيب وتجلّى الذات.

ومشارق شمس الحقيقة: هى تجليات الذات قبل الفناء التام فى عين أحدية الجمع.

٩١٢- مشاهدة...

تعنى المحاضرة والمداناة، وقيل: هى رؤيا روحانية لأن الله ليس بمحدود فيُشاهَد، وفرقٌ بين مشاهدة الشىء وشهادته. وقيل المشاهدة: رؤية الحق ببصر القلب من غير شُبهة، كأنه رآه بالعين. كقول رسول الله ﷺ: «أعبد الله كأنك تراه». - ولما سُئل الجنيد: هل تحبّ أن ترى ربّك؟ قال: لا. فَسُئل: لِمَ؟ قال: إن موسى لما طلب أن يراه لم يره!

والمشاهدة يفسّرها ابن واسع: ما رأيت شيئاً قط إلا رأيت الله فيه. - يعنى بصحة اليقين.- وقال الشبلى: لم أر شيئاً قط إلا

الله - يعنى فى حال غلبة الحبّ يرى الإنسان العادى الأشياء بعين بصره، وأما الصوفى فيشاهد ما وراءها بعين بصيرته.

والمشاهدة حال تقتضى اليقين. وأهل المشاهدة على ثلاثة أحوال: فالأول منهم: الأصاغر، وهم المريدون، يشاهدون الأشياء بعين العِبَر، ويشاهدونها بأعين الفِكَر؛ والثانى: الأواسط، وهؤلاء قال فيهم الخرّاز: الخلق فى قبضة الحق وفى ملكه، فإذا وقعت المشاهدة فيما بين الله وبين العبد، لا يبقى فى سرّه ولا فى همّه غير الله تعالى؛ والثالث: ما أشار إليه عمرو بن عثمان المكى: إن قلوب العارفين شاهدت الله مشاهدة تثبيت، فشاهدوه بكل شئ، وشاهدوا كل الكائنات به، فكانت مشاهدتهم له ولهم، به، فكانوا غائبين حاضرين، وحاضرين غائبين، على انفراد الحق فى الغيبة والحضور، فشاهدوه ظاهراً وباطناً، وباطناً وظاهراً، وآخراً وأولاً، وأولاً وآخراً، كما قال عز وجل: ﴿هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (الحديد ٣).

والمشاهدات للقلوب، والمكاشفات للأسرار، والمعاينات للبصائر، والمراعات للأبصار.

٩١٣- مشبهة...

المُشبِّهة: قوم شبَّهوا الله تعالى بالمخلوقات، ومثّلوه بالمحدَثات. والتشبيه فى حق الله: عبارة عن تصوير للجمال الإلهى، لأن الجمال الإلهى له معان، وهى الأسماء والأوصاف الإلهية، وله صور هى تجليات تلك المعانى فيما تقع عليه من المحسوس أو المعقول، فالمحسوس كما فى القول المنسوب إلى النبىّ ﷺ: «رأيت ربّى صورةَ شاب أمرد»، والمعقول كقوله تعالى: «أنا عند ظن عبدى بى، فليظن بى ما يشاء». وهذه الصور هى المراد بالتشبيه، ويقابله التنزيه، والله تعالى فى ظهوره بصور جماله باق على ما استحقه من تنزيهه، فالتشبيه ممكن فى حدود ليس كمثله شئ، والتشبيه خلاف التجسيم، والمشبِّهة يقابلهم المجسِّمة.

٩١٤- مشعر...

المشْعَر الحرام: عبارة عن تعظيم الحُرُمات الإلهية، بالوقوف مع الأمور الشرعية.

٩١٥- شعشعة...

اصطلاح صوفى لصق بالضوء والشعاع، ولهذا وصف الحلاّج النور الإلهى بالشعشعانى، وعنده أن العارف بمنزلة شعاع الشمس من الله، منها يبدأ وإليها يعود، ومنها يستمد نوره. - ولقد صارت الشعشعة: حركة سياسية صوفية على يد محمد بن فلاح، المتوفى سنة

٨٦٦هـ/ ١٤٦٢م، وكان قد بدأ تصوفه في جامع الكوفة لمدة سنة كاملة، وكان لا يقتات إلا بالقليل من دقيق الشعير، وسمّى نفسه بالمُشَعْشَع، وادّعى أنه المهدي، وسمّى حركته حركة المُشَعْشَعين، وسمّاه مريدونه ولسيّ الله، ووضع كتابًا سمّاه «مُشَعْشَعيان»، وميوله فيه حلولية، وقال عن طريقته: إنها طريقة الشَّعْشَعة. ومريدونه يدخلون حلقة الذِّكر يرددون فيها عبارة: عليّ الله، وغيره باطل!!! وعندئذ يأذن لهم شيخهم بالشعشعة: فتتحجَّر أجسامهم، ويقطعون أنفسهم بالسيوف، ويُعرِّضون أجسادهم للنار، ويبتلعون السيوف، وما إلى ذلك من الخوارق؛ وأثناء ذلك إذا كانوا في الحرب، كانوا يخوضون أضرى المعارك في حال من الذهول والغيبة عن الحسّ، وكانوا يعتقدون: أن عليًا هو الله، ومحمدًا رسوله، وفاطمة أمّته، والأئمة الأحد عشر ملائكته!! وحركة المشعشعين تشبه حركة الخوارج، والقرامطة، وتقوم على السلب والنهب، وإن كانت في بدايتها حركة صوفية، وُصف ابن فلاح مؤسّسها بأنه: صاحب مكاشفة ورياضة وتصرُّف.

٩١٦- مشهود...

هو الكَوْن، قال عزّ وجلّ: ﴿وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾ (البروج ٣)، وقال الجنيد: الشاهد الحقّ في ضميرك وأسرارك مُطَّلِعٌ عليها، والمشهود ما يشهده الشاهد.

٩١٧- مشى...

مَشْى الصوفي هو مَشْى الهوينا، والصوفي يتقدّم الجماعة، ويلزم النظافة في لباسه ومظهره؛ وحاله في المشي لو سأله السائل لقال: ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ (الصافات ٩٩).

٩١٨- مشيئة...

مشيئة الله: عبارة عن تجلّية الذات والعناية السابقة لإيجاد المعدوم أو إعدام الموجود؛ وإرادته عبارة عن تجليته لإيجاد المعدوم، فالمشيئة أعمّ وجه من الإرادة.

٩١٩- مشيخة...

المَشْيَخة: هي الدلالة في الطريق، ويشترط لها أن يكون الصوفي موصوفاً بصفات الكمال، ومعرِضاً عن حب الدنيا والجاه وما أشبه ذلك، ويكون قد أخذ هذا الطريق النقي عن شيخ محقق عارف عالم، تسلسلت متابعته إلى رسول الله ﷺ، وارتاض بأمره رياضة بالغة، من قلة الطعام والكلام والمنام، وقلة الاختلاط مع الأنام، وكثرة الصوم والصلاة والصدقة ونحو ذلك، وبالجملة يكون متخلّقاً بخُلق النبيّ ﷺ.

ولا يصلح للتربية وللمشيخة المجذوب، فإنه وإن ذاق المقصود، لكنه لم يذق

الطريق إلى الله؛ وكذا لا يصلح لها السالك فقط. (أنظر الشيخ).

٩٢٠- مصافحة ومعانقة...

لا بأس بالمصافحة والمعانقة بين الصوفية، فقد صافح الرسول ﷺ جعفر بن أبي طالب وعانقه لما قَدِم من السفر. وقال: تصافحوا يذهب الغِلّ. وكان وأصحابه إذا التقوا تصافحوا، وإذا قَدِموا من سفر تعانقوا.

ولقي البَراء بن عازب رسول الله ﷺ فأخذ بيده يصافحه، فقال له البَراء: يا رسول الله كنت لأحْسَب أن المصافحة للأعاجم؟ فقال: نحن أحقّ بالمصافحة منهم. وقال: ما من مسلمَيْن يلتقيان فيأخذ أحدهما بيد صاحبه، مودةً بينهما ونصيحةً، إلا أُلقيت ذنوبهما بينهما».

٩٢١- فصبر...

المُصِرُّ على الذنب والمُقيم على السيئات: هو من غلبه هواه وضَعُف خوفه. والمُصرّون في منازل شتىّ، فمنهم من كثرت ذنوبه وما عاد الخوف من الله تعالى يداخل قلبه لطول غفلته، ومنهم من قلّت ذنوبه ولم تطل به الغفلة، ومنهم تائب من بعض ذنوبه ومصرٌ على بعضها، وهؤلاء في مطالبة الخوف متفاوتون.

٩٢٢- مضاهاة...

المضاهاة بين الشئون والحقائق: هي ترتُّب الحقائق الكونية على الحقائق الإلهية التي هي الأسماء، وترتُّب الأسماء على الشئون الذاتية، فالأكوان ظلال الأسماء وصورها، والأسماء ظلال الشئون.

والمضاهاة بين الحضرات والأكوان: هي انتساب الأكوان إلى الحضرات الثلاث: حضرة الوجوب، وحضرة الإمكان، وحضرة الجمع بينهما. فكل ما كان من الأكوان نسبته إلى الوجوب أقوى كان أشرف وأعلى، وكانت حقيقته علوية أو روحية أو ملكية أو بسيطة فلكية. وكل ما كانت نسبته إلى الإمكان أقوى، كان أخسّ وأدنى، وكانت حقيقته سُفلية عنصرية بسيطة أو مركبة. وكل ما كانت نسبته إلى الجمع أشد، كان أكمل وكانت حقيقته إنسانية. وكل إنسان كان إلى الإمكان أميل، وكانت أحكام الكثرة الإمكانية فيه أغلب، كان من الكفار. وكل من كان إلى الوجوب أميل، وأحكام الوجوب فيه أغلب، كان من السابقين من الأنبياء والأولياء. وكل من تساوت فيه الجهتان كان مقتصداً من المؤمنين. وبحسب اختلاف الميل إلى إحدى الجهتين اختلف المؤمنون في قوة الإيمان وضعفه.

٩٢٣- مطاع...

طاعة الشيخ من طاعة الرسول ﷺ، والله تعالى يقول: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ (النساء٦٤). والطاعة سواء للرسول أو للشيخ من تقوى الله: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ (الشعراء ١٧٩)، وكان أبو هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية هو الذى قال بالعلم الباطن، وعبارته المشهورة: «لكل ظاهر باطن، ولكل شخص روح، ولكل تنزيل تأويل، ولكل مثال فى العالم حقيقة»، ولذا قال الصوفية: علم الباطن هو علم الحقيقة. وأبو هاشم هو صاحب فكرة تجديد الإسلام كل مائة عام بدعوى: أنه لم يمض مائة سنة من نبوة إلا انقضت أمورها، وهو الذى نبّه إلى مبدأ الطاعة هذا عند الصوفية، يقول: «الدين طاعة الشيخ»، وذو النون المصرى هو الذى طبّقه فى التصوف وقال: «ليس مريد البتة من لم يكن أطوع لشيخه من ربّه».

والمطاع: هو القطب رأس الصوفية، وهو الصورة المثالية التى يسمونها الحقيقة المحمدية أو الروح المحمدى، وهو قوة كونية يتوقف عليها نظام العالم وحفظه. ويشير القرآن إلى أن الروح من أمر الله، ويقول الجيلى فى تفسير ذلك أن «أمر الله» اسم من أسماء الروح الإلهى الذى تجلى فى أكمل صوره فى محمد عليه السلام، فكان محمداً عليه السلام هو الأمر الإلهى أو الكلمة الإلهية. يقول الله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ (آل عمران ٣١)، وأيضاً: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾ (آل عمران ٣٢). وكأن الجيلى جعل محمداً كلمة الله مثلما أن المسيح كلمة الله، وهذا ما لم ينزل به القرآن.

٩٢٤- مطالعة...

هى توفيقات الحق للعارفين، ابتداءً أو عن سؤال منهم فيما يرجع إلى الحوادث، وقد تطلق على استشراف المشاهدة عند بداياتها.

٩٢٥- مطلع...

المَطلَع هو المصعد، يصعد عليه طالب العلم، فيكون المطلع هو الفهم، يفتح الله تعالى على كل قلب بما يرزقه من النور.

وقيل: المَطلَع مقام شهود المتكلّم عند تلاوة آيات كلامه تعالى ﷻ متجلياً بالصفة التى هى مصدر تلك الآية، وفى ذلك يقول الإمام جعفر الصادق: «إن الله يتجلّى لعباده فى كلامه ولكنهم لا يبصرون». وكان يوماً فى الصلاة فغشى عليه فلما أفاق سألوه، فقال: «ما زلت أكرر الآية حتى سمعتها من قائلها»؟!

يعنى سمعها من الله! ويعلّق على هذه الواقعة السهروردى فيقول: كان لسان جعفر الصادق فى ذلك الوقت كشجرة موسى عند ندائه منها: ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ﴾ (القصص ٣٠). والمَطْلَع أعمّ من ذلك، فهو مقام شهود الحق فى كل شئ، متجلّياً بصفاته التى ذلك الشئ مظهرها، إلا أنهم خصّوا به كلام الله دون سواه بالنظر إلى ما ورد عنه فى الحديث المنسوب للنبىّ ﷺ: «ما من آية إلا ولها ظهر وبطن، ولكل حرف حدّ، ولكل حدّ مطلع».

٩٢٦- مظهر...

هذا هو الاسم الذى سمّى به نفسه الصوفى نعمة الله الولى، وكان يصاحب عبد الله اليافعى، وشبّهه صُحبته به فى مكة بصحبة موسى لشُعَيْب، فنعمة الله كان المَظهر، وعبدالله اليافعى كان المبطن؛ وكان هو مظهر عصره الذى كثرت فيه الحركات الصوفية، وانعكست روحها فى كلمات وتصوّف نعمة الله.

٩٢٧- معجزة...

الآيات لله، والمعجزات للأنبياء، والكرامات للأولياء ولخيار المسلمين، وإنما سميت معجزات لإعجاز الخلق عن الإتيان بمثلها، فمن أثبت من ذلك شيئاً لغير الأنبياء عليهم السلام فقد ساواهم بهم ولم يفرق بين النبىّ وغير النبىّ.

والفرق بين المعجزة والكرامة: أن الأنبياء عليهم السلام مأمورون بإظهار المعجزات، بينما أن الواجب يفرض على الولىّ أن يستر كراماته ويخفيها.

وفرق ثان: أن الأنبياء يحتجّون بمعجزاتهم على المشركين؛ وعند الصوفية: الأولياء يحتجون بالكرامات على أنفسهم، حتى تطمئن وتوقن ولا تضطرب، وإمامهم فى ذلك - كما يقولون - إبراهيم عليه السلام، حيث قال: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ (البقرة ٢٦٠). - ويقولون: والدليل على جواز الكرامات للأولياء أن مريم قيل لها: ﴿وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ﴾ (مريم ٢٥)، ومريم لم تكن نبيّة.

والآيات والكرامات ربما تنقضى لوقتها، ولكن أكبر الكرامات: هو أن تبدّل خُلُقاً مذموماً من نفسك بخُلُق محمود. والصوفية فى ذلك يقولون: لو أن رجلاً بسط مصلاة على الماء، وتربع الهواء، فلا تغتروا به حتى تنظروا كيف تجدونه فى الأمر والنهى، ففى ذلك الكرامة الحقيقية، وأما الكرامات المدّعاة فهى من جملة الشعبذات، وكان الحلاّج أستاذاً فى الشعبذات..

٩٢٨- معدوم...

هو الذى لا يوجد ولا يمكن وجوده، فإذا عدمت شيئاً ويمكن وجوده فذاك مفقود وليس بمعدوم.

وقيل: العالم وجود بين طرفى عدم، لأنه موجود، كان عدماً معدوماً، ويصير عدماً معدوماً، ولا يشهده العارف إلا بعدم معدوم.

٩٢٩- معذرون...

المُعْذَرون هم الصوفية الضعفاء، لم يكلّفهم الله إلا وسعهم فقال: ﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ﴾ (التوبة ٩١)، والضَّعف هو العجز عن الشىء، قد يكون فعلاً وقد يكون غُرماً، ولا فرق بين العجز من جهة القوة: ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ (الفتح ١٧)، وبين العجز من جهة المال: ﴿لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ﴾، وهؤلاء وهؤلاء مُحبَطون، وصفهم الرسول ﷺ فقال «حَبَسَهُم العُذر»، يعنى أعجزهم أن يلبوا داعى الله، كارباب الزمانة والهَرَم والعَمَى والعَرَج والفقراء، وهم قد عرفوا الحق وأحبّوا أولياءه وأبغضوا أعداءه، وهذا أقصى عزائمهم. وعندما وقف عمرو بن الجموح لا يستطيع حراكاً، قال له رسول الله ﷺ: «إن الله قد عذَرَك»، وكان أعرج. وأمثال هؤلاء المَعْذُورين أو المُعْذَرين، وَصَفَ أحوالهم عبدالله بن مسعود فقال: لقد كان الرجل يُؤتى به يهادى بين الرجلين حتى يقام فى الصف!

وعند الصوفية تظهر قيمة الفقر عند سقوط الأمر، ولو لم يكن فى القلة خير إلا أنها تعتذر عن صاحبها، لكفى بها بهذا فضيلة. والقلّة هى الفقر.

والبقاء فى الأوطان وعدم مفارقة المنازل امتحان، ومن يكتفى بنصيحة القلب وأن يعتقد أنه لو قدر لخرج فقد أبان وأعان. وإنما يُرفع الحرج عن التقىّ الورع بشرطه تعالى: ﴿إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ﴾ (التوبة ٩٢)، فإذا لم يوجد هذا الشرط فالحرج غير مرتفع عنهم. وقوله تعالى: ﴿مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ﴾: أن المحسن من أهل الله هو من لا يكون للشرع منه مطالبة، لا فى حق الله ولا فى حق الخلق. وفى الآية: ﴿وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ﴾ (التوبة ٩٠) فإما تُقرء بالتشديد «مُعَذِّرُونَ» من أعذر، فهم المبالغون فى العُذر، وإما مخفّفة، «المُعْذِرُونَ» أى المعتذرون المُحقّون فيما أبدوا من الأعذار؛ أو أنهم المعتذرون ولا

عذر لهم، واعتذارهم بالكذب، وفيهم قال ابن عباس: لعن الله المعذرين ـ لعنهم لأنهم المتعللون من غير ما سبب لاعذارهم.

والمعذِّرون تاريخياً هم رهط عامر ابن الطفيل، اعتذروا للنبيّ ﷺ بأن آخرين سيعتدون على أهاليهم لو غابوا عنهم. وقيل هم قوم من غفار، اعتذروا فلم يعذرهم النبيّ ﷺ، وهم الذين قال الله فيهم: ﴿وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ (التوبة ٩٠)، وكذبهم أنهم قالوا: إنا مؤمنون، وهم متقاعسون، وليس كذلك التصوّف: لأنه مداومة العمل استباقاً، وحُبّ اللقاء اشتياقاً.

٩٣٠- معراج...

عُرِجَ بالنبيّ ﷺ إلى السماء بعد الإسراء، فقال بعض الصوفية من أصحاب الشَّطح: أن لهم كذلك معارج. ـ ومن هؤلاء أبو يزيد البسطامي، وقد نُفي بسبب ما قال لمدة سنتين.

٩٣١- معرفة...

ما يسميه الصوفية معرفة: هي نوع من الذَّوق لا دخل للعقل فيه، وهي شهود القلب الذي استضاء بنور الله للحقّ سبحانه، وتأتي القلب من وجهين: من عين الوجود، ومن بذل المجهود، فهي فيض من الله، واكتساب وجُهد.

ثم إن المعرفة تتضمن فوق ذلك فناء إنية العبد، بذهاب صفات البشرية عنه والبقاء بصفات الله. وينسب الصوفي كل معرفة بالله إلى الله نفسه، لأنه تعالى هو الذي يرفع عن العارف حجاب الغيرية والإثنينية، بحيث يصبح العارف عين المعروف: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ (الذاريات ٥٦)، وفي رواية لابن عباس «إلا ليعرفون»، ولذا قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ﴾ (الأنعام ١٢٢)، وقال عليّ بن أبي طالب: عرفتُ الله بالله، وعرفت ما دون الله بنور الله»، يعني هو الذي خلق الخلق وجعل لهم المعرفة به نوراً يستضيئون بها، فمن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور، أي من لم يجعل الله له معرفة فما عرف شيئاً، وصار إلى الجهل والظلام والكفر والضلال: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ﴾ (البقرة ٧)، فالقبض والبسط منه، والشرح والختم، وكما قال النوري: لا دليل على الله بسواه، وإنما العلم يُطلب لأداء الخدمة»، وحقيقة المعرفة: أن تعرف أن الله هو الجامع المانع. وعن ذي النون: المعرفة إطلاع الخلق

على الأسرار بمواصلة لطائف الأنوار»، يعنى أن الله هو الذى ينوّر القلوب لمعرفته. وعن ابن المبارك: المعرفة لا تتعجب من شىء»، يعنى أن العارف لا يتعجّب مما فوق قدرته، لأنه يعلم أنه ما يحدث ما حدث إلا بالله. وعن الشبلى: المعرفة دوام الحيرة»، والحيرة إما فى الذات وهذه كفر، وإما فى الصفات فهذه مفهومة، وهى التى جعلت من قال: يا دليل المتحيّرين زدنى تحيّراً» يثبت بها وجود الله أولاً ثم يتحيّر فى صفاته؛ والأقرب أن يتحيّر فى صفات نفسه، فلو عرف نفسه لعرف عظمة الله فيها، ولذا قال الرسول ﷺ: «من عرف نفسه فقد عرف ربّه»، وقال البسطامى: المعرفة: أن تعرف حركات الخلق وسكناتهم بالله». وقال محمد بن واسع: من عرف الله قلّ كلامه ودام تحيره»، يعنى كلما عرف عن عظمة الخالق قلّ تحيره، فى عظمة المخلوقين. وقال أبو حفص الحدّاد: منذ عرفت الله تعالى ما دخل فى قلبى حق ولا باطل»، يعنى لما عرف ربّه تطهّرت نفسه. وقال أبو بكر الواسطى: من عرف الله انقطع، بل خرس وانقمع»، يعنى أنه بمعرفته لله، انقطع عن كل كلام، وصار عاجزاً عن القول، وصار الحال بلا حال، والله هو الله، فإما أن يكون قوله لنفسه أو لله، فإن تحدّث لنفسه حُجب عن قُربه، وإذن فلا يقول. وفى ذلك يجىء دعاء الرسول ﷺ: «لا أحصى ثناء عليك»، يعنى: لا يقول الثناء أفضل.

وقيل: المعرفة معرفتان: معرفة حق، ومعرفة حقيقة، فمعرفة الحق هى إثبات وحدانيته على ما أبرز من الصفات؛ ومعرفة الحقيقة لا سبيل إليها لامتناع الصمدية واستحالة الإحاطة بالربوبية. يقول الله تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ (طه ١١٠) لأنه تعالى الصمد الذى لا تُدرَك حقائق نعوته وصفاته.

وقيل: المعرفة على ثلاثة أوجه: معرفة إقرار، ومعرفة حقيقة، ومعرفة مشاهدة. ويفرق الصوفية بين معرفة الصوفى بالله وبين علم الفلاسفة والعلماء بالله عن طريق العقل والبرهان. والمعرفة بالله: ليست العلم بوحدانيته التى يؤمن بها المؤمنون جميعاً، وليست من علوم البرهان والنظر التى للحكماء والمتكلمين، ولكنها معرفة صفات الوحدانية التى تتحصل لأولياء الله خالصة، لأنهم هم الذين يشاهدون الله بقلوبهم فيكشف لهم ما لا يكشفه لغيرهم من عباده.

ومعرفة الولىّ العارف: هى صفة مَن عرف الحق سبحانه بأسمائه وصفاته،

فَصَدق الله فى معاملاته، وتنقّى عن الأخلاق الرديئة، وطال بالباب وقوفه، وداوم الاعتكاف، فتحقق له من ذلك خواطر، وتدوم مناجاته لله فى السرّ، فيصير محدِّثاً من قبل الحق، بتعريف أسراره فيما يجريه من تصاريف أقداره. وهذه الحالة هى التى يسمونها المعرفة، وبمقدار أجنبية العارف عن نفسه تحصل معرفته بربّه.. ومن أمارات حصول المعرفة له: أنها تضفى عليه هيبة لم تكن له، وتزداد هذه الهيبة كلما زادت معرفته بالله، وقيل تزداد سكينته. ولهذا كانت معاشرة العارف كمعاشرة الله، فإنه يحتملك ويحلم عنك، تخلّقاً بأخلاق الله عز وجل.

ومنتهى المعرفة: هى الحضرة الواحدية، وفيها يكون الدنو من الحق، ويفيض جود الحق وتظهر للوجود المعانى.

٩٣٢- معصومون...

الصوفية من الشيعة على القول بأن النبىّ يُسدَّد بالوحى، والإمام بالعصمة بعد ارتفاع الوحى بموت النبىّ؛ وقالوا: إن الأئمة المعصومين عددهم أربعة عشر، لأنه لم يكن نبىّ إلا وكان معه اثنا عشر إمامًا، ففى اليهودية كان الأسباط اثنى عشر، وبالإضافة إلى موسى وهارون يصير العدد أربع عشرة، وعنده النصارى كان الحواريون اثنى عشر، وعيسى ومريم، فيصير العدد أربع عشرة، وعند المللمين ـ والمقصود بهم فى التصوّف الشعبى: الشيعة، فإن الأئمة اثنا عشر، فبالإضافة إلى محمد وفاطمة يصير العدد أربع عشرة!! (انظر أيضًا عصمة).

٩٣٣- معلم...

المُعَلِّم الأول ومُعَلِّم الملائكة: هو آدم عليه السلام، لقوله تعالى: ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ﴾ (البقرة ٣١)، وقال: ﴿ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ ﴾ (البقرة ٣٣)، ومعلم الجميع: هو الله تعالى: علّم آدم والملائكة، وعلّم بالقلم، وعلم الإنسان ما لم يعلم، وقال لعيسى: ﴿ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ ﴾ (المائدة ١١٠)، وبذلك أقرّ يوسف: ﴿ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ ﴾ (يوسف ١٠١) وقال فيه ربّه: ﴿وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ﴾ (يوسف ٦٨)، وقال فى داود: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ﴾ (الأنبياء ٨٠)، وقال فى داود عن نفسه: ﴿عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ﴾ (النمل ١٦)، وفى كل ذلك فإن الله تعالى هو المعلّم، يعلّم مما يشاء (البقرة ٢٥١)؛ ويعلّم القرآن؛ ويعلّم البيان (الرحمن ٤)، وعلّم العبد الصالح؛ وعلم من يتعلم أن يعلّم غيره، فالربّانيون علّمهم أن يعلّموا الكتاب،

وغيرهم يعلّمون مما علّمهم الله، وعلّم نبينا ﷺ الكتاب والحكمة، وعلّمه القراءة، وأن يتلو الكتاب، وفى ذلك قال نبيّنا ﷺ «إنما بُعثت معلماً»، وفى ذلك قال حسّان بن ثابت:

إمامٌ لهم يهديهم الحقّ جاهداً
معلّمُ صِدْقٍ إنْ يطيعوه سَعَدوا

وقال شوقى:

أخوك عيسى دعا ميتاً فقام له
وأنت أحييت أجيالاً من الرِّمَم

وقال له ربُّه: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾ (النساء ١١٣)، فآتاه المعارف والعلوم، وخصّه بالاطّلاع على أخبار السَّلَف من الأمم، وعرّفه قصص الأنبياء والرُّسل، وأخبار الجبابرة، وما مضى من قرون وأيام الله فيهم، ومعارضات أهل الكتاب وما كتموه، وكان ﷺ عالماً بلغة العرب وأمثالهم، وآتاه جوامع الكلم، فهو إمام العلماء عن حق، وكبيرهم عن صدق، وكان يكره الأمية، فجعل فداء الأسير أن يعلّم عشرة من المسلمين الأميين القراءة والكتابة، والإسلام يُعلى من شأن العلم وأهله، ويرفعهم إلى السِّماكين: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ (فاطر ٢٨)، والرسول ﷺ يجعل طلب العلم فريضة، ويقول: «إن طالب العلم منهوم لا يشبع»، ويقول: «من خرج فى طلب العلم فهو فى سبيل الله».

والصوفى الحق هو من يتعلّم ويعلّم، وله أجران؛ وشيوخ الصوفية من كبار المعلّمين.

٩٣٤ - مغرب...

مغرب الشمس: يعنى استتار الحق بتعيّناته، واستتار الروح بالجسد.

٩٣٥ - مغربون...

المُغَرَّبون اصطلاح رسول الله ﷺ، وهم الذين تتلبّسهم الشياطين فيتصرّفون ويتكلمون بغرابة، ونقول عنهم ممسوسين، والمَسّ اضطراب نفسى أصيل، وعلاجه نفسى. والاصطلاح يستخدمه الصوفية كثيراً لوصف الأشخاص من هذا النوع، وفى اللغات الأجنبية: المُغَرَّب alien بالإنجليزية، وبالفرنسية aliéné، وبالألمانية Gelsteskranker. وحديث رسول الله ﷺ عن عائشة أخرجه أبو داود، قال: «هل رؤى فيكم المغربون؟» قالوا: وما المغربون ؟ قال: «الذين يشترك فيهم الجن»، يعنى خولطوا فى عقولهم، أو هم أهل الهوى والضلال.

٩٣٦ - مفتاح...

هو اندراج كل الأشياء فى الغيب الذى هو أحدية الذات، كالشجرة فى النواة، ولذا يسمى مفتاح السِّر، والمفتاح الأول.

ومفاتيح الغيب ـ كما قال رسول الله ﷺ ، خمس، لا يعلمها إلا الله : لا يعلم ما يغيض الأرحام إلا الله؛ ولا يعلم ما في غد إلا الله؛ ولا يعلم متى يأتي المطر إلا الله؛ ولا تدري نفسٌ بأي أرض تموت إلا الله؛ ولا يعلم متى تقوم الساعة إلا الله. وعنه ﷺ قال: إنّ من الناس مفاتيح للخير، مغاليق للشرّ، وإنّ من الناس مفاتيح للشرّ مغاليق للخير، فطوبى لمن جعل الله مفاتيح الخير على يديه؛ وويل لمن جعل الله مفاتيح الشرّ على يديه.

٩٣٧- مفرد...

قال رسول الله ﷺ : «سيروا! سَبَقَ المُفَرِّدون». قيل: من المفردون ؟ قال: المستهترون بذكر الله، وَضَعَ الذكر عنهم أوزارهم، فوردوا القيامة خفافاً».

وقيل المفرِّد هو الموحِّد الذاكر لله وحده دون سواه، في سرّه وعلنه، وباطنه وظاهره. والصوفي الحقيقي في مقام المفرِّدين.

٩٣٨- مفقود...

ما خرج من حيّز الوجود إلى حيز العدم. والمفقود والموجود متضادان. قال ذو النون: لا تحزن على مفقود يكون ذكراً لعبد موجود.

٩٣٩- مُفيض...

المُفيض: اسم من أسماء النبيّ ﷺ عند الصوفية، لأنه المتحقق بأسماء الله تعالى، ومظهر إفاضته نور الهداية وواسطتها.

٩٤٠- مقام...

المقامات، مثل: التوبة، والورع، والزهد، والفقر، والصبر، والرضا، والتوكل، وغير ذلك.

والمقام في التصوف معناه: مقام العبد بين يدي الله عزّ وجلّ، بما يقوم به من مجاهدات ورياضات وعبادات ، وشرطه أن لا يرتقي من مقام إلى مقام إذا لم يستوف أحكام ذلك المقام، ففي مقام القناعة مثلاً، ما لم يتحقق العبد بها لتكون القناعة له مَلَكة، لم يصحّ له الارتقاء إلى مقام التوكل، ومن لم يتحقق بعد بالتوكل لم يصحّ له مقام التسليم، وهكذا في كل المقامات. وليس معنى الاستيفاء أنه تنعدم به أية بقايا من درجات المقام السافل حتى يمكن له الترقّي إلى المقام العالي، فإن أكثر بقايا السافل إنما تستدرك في العالي، بل المراد أنه يتملّك على المقام بالتثبيت فيه، بحيث يصدق عليه اسمه بأنه قانع أو متوكل، ولذلك يسمى مقاماً، لإقامة السالك فيه. قال تعالى: ﴿ وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴾ (الصافات ١٦٤). وقيل مقام آدم: التوبة؛ ومقام نوح: الزهد؛ ومقام إبراهيم:

التسليم؛ ومقام موسى: الإنابة؛ ومقام داود: الحزن؛ ومقام عيسى: الرجاء؛ ومقام يحيى: الخوف؛ ومقام محمد ﷺ: الذكر.

والطريق إلى الله على ثلاثة أنواع: مقام وحال وتمكين. والمقامات قيل مائة وأربعة وعشرين مقاماً أو فوق ذلك، وصارت للمقامات أحوال، فظهر التمكين، **والمُتمكِّن** هو الذى وصل النهاية فى المقامات فسكن فى النهاية.

والمقام المحمود: هو جنّة الذات، قال فيه الرسول ﷺ أنه أعلى مكان فى الجنة، ولا يكون إلا لرجل واحد.

والمقام المحمدى: هو المعبَّر عنه فى الاصطلاح بالصحو الثانى، **أو الصحو بعد السُّكر.**

ومقام التنزُّل الربّانى: هو النفس الرحمانى، أعنى ظهور الوجود الحقّانى فى مراتب التعيّنات.

٩٤١- مقتصد...

المُقتصد: هو المعتدل. يقال قَصَد، أى اعتدل وتوسّط؛ والمقتصد صاحب أفعال، وهو الذى يصبر عند البلاء، ويحب الله من أجل العُقبَى. يقول الله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ﴾ (فاطر ٣٢). **والمقتصد من أهل الخصوص** الذين خصّهم الله من دون المؤمنين بالحقائق والأحوال والمقامات. **والسابق من أهل خصوص الخصوص، أو أهل التفريد** والتوحيد، الذين عَبَرُوا الأحوال والمقامات وسلكوها.

والمقتصد يفعل الواجبات فى أقل الحدود، وينتهى عن المحرمات فى أقل الحدود.

وعن ابن عباس: **المقتصد** يحاسب حساباً يسيراً. وقال: **المقتصد** يدخل الجنة برحمة الله. وفى الحديث: «**أمتى ثلاثة أثلاث**»: أن ثلث الأمة مقتصد، يحاسبون حساباً يسيراً ثم يدخلون الجنة. وقالت عائشة: **المقتصد** هو من اتّبع أثراً من أصحاب رسول الله ﷺ.

والمقتصد هو الذى يدّخر، ولا يضرّ الادخار مع توكل الصوفى إذا كان مدّخراً لله، وكان ماله موقوفاً على رضا مولاه، فهو بإذن مقتصد ومدخر لحقوق الله. وتَرْكُ **الاقتصاد والادخار** حالٌ من قصَر الأمل. وكان الخواص الصوفى يذكر أن الاقتصاد والادخار يُخرج من حد التوكل.

٩٤٢- مقذرون...

المُقذَّرون: هم أصحاب البدع

والضلالات، فعن أنس بن مالك: أن رسول الله ﷺ قال: «الله حجب التوبة عن كل صاحب بدعة».

وعن عائشة عن النبيّ ﷺ أنه قال: «هلك المُقَشَّرون»، فاعتبر البدع والضلالات قذارات، وفي القرآن: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ (الأنعام ١٥٩)، وشرح الرسول ﷺ الآية فقال: يا عائشة! إن الذين فرّقوا دينهم وكانوا شيعاً هم أصحاب البدع وأصحاب الأهواء وأصحاب الضلالات، ليس لهم توبة. أنا منهم بريئ، وهم مني بُرآء» رواه الطبري. وفي رواية أبي نعيم عن عمر بن الخطاب، قال ﷺ عن المقشّرين: إن لكل صاحب ذنب توبة إلا أصحاب الأهواء والبدع، وأنا منهم بريئ، وهم مني بُرآء».

٩٤٣- مقرّبون...

المُقَرَّبون أو أهل القُرَب: هم الصوفية، ولكن قد يكون الرجل مقرَّباً وليس من الصوفية، لأنه لم يلبس لباس الصوفية، غير أن مشايخ الصوفية من الأعلام كلهم كانوا في طريق المقرَّبين، وعلومهم علوم أحوال المقرَّبين، ومع ذلك ما كانوا يلبسون لباس الصوفية. ويقول الله تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ * أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ﴾ (الواقعة ١٠ - ١١)، لم يقل «المتقرِّبون»، بل قال «المقرَّبون»، وهذا عين الجمع، فعلم أنهم بتقريب ربّهم.

ويقال: مقرَّبون إلا من الجنة، فمحال أن يكونوا في الجنة ثم يقرّبون من الجنة، وإنما يقرَّبون من بساط القُربة، ويقرّبون من حيث الكرامة لا من حيث المسافة، وقلوبهم مقرّبة من بساط المعرفة، بينما أرواحهم مُقَرَّبة من ساحات الشهود.

٩٤٤- مقصود...

هو الله، يقصد إليه الصوفي بدون حول منه، وكل عزيمته وحركته متجهة إليه، فهو قاصد، والله مقصود.

٩٤٥- مكاسب...

قال ابن المبارك: لا خير فيمن لا يذوق ذل المكاسب. وقال: مكاسبك لا تمنعك عن التفويض والتوكل إذا لم تضيّعها في كسبك.

وقال الخواص: إذا عرج المريد على الأسباب بعد ثلاثة أيام، فالعمل في المكاسب ودخول السوق أولى به، يعني أن ذلك منه بمثابة رجوع.

وقد يفضّل التارك للتكسُّب شُغلاً بالعبادة عن المتكسِّب. والتارك للتكسُّب متوكل.

٩٤٦- مكاشفة...

مكاشفات العيون «بالإبصار»، ومكاشفات القلوب «بالاتصال».

والمكاشفة: حضور القلب بنعت البيان، فيكشف له الله عز وجل ما يستتر عليه فهمه فكأنه يراه رأى عين.

٩٤٧- مكان...

المكان لأهل الكمال، والتمكين والنهاية، فإذا كمل العبد فى معاينة تمكّن له المكان، لأنه قد عبَر المقامات والأحوال، فيكون صاحب مكان.

٩٤٨- مكانة...

هى المنزلة، وهى المشار إليها بقوله تعالى: ﴿فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ (القمر٥٥)، ويبلغها العارف المتحقّق والوليّ المتمكّن.

٩٤٩- مكة...

من مشايخ الصوفية من يختار مكة مقاماً يجاور بها، فيحبس نفسه فيها لما خصّها الله تعالى بالفضل والشرف. ومن فضلها وشرفها أن المقام بها يُغير الأخلاق ويكشف الأستار. والبعض كان يكره المجاورة بها، ويحب قصد البيت للحج والخروج منه، خشية الخطايا فيه، أو ليعودوا إليه من بعد، وهو معنى الآية: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾ (البقرة ١٢٥)، فيثوبون إليه، أى يعودون إليه المرة، بعد المرة ولا يقضون منه وطراً. وليس بعد مكة إلا المدينة، والأعمال فيها مضاعفة، ثم بعد ذلك الأرض المقدسة. وفى الخبر: لا تُشَدّ الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، ومسجدى هذا، والمسجد الأقصى»، وبعد ذلك فأى موضع صَلُح فيه قلبك، وسلم لك دينك، واستقام فيه حالك، فهو أفضل المواضع لك.

وقيل: إن الصوفية الذين يقدرون بها على الصبر على الجوع، يوماً وليلة، فإن بوسعهم الصبر عليه فى سائر الدنيا ثلاثة أيام.

ومكة عند أصحاب الإشارات عبارة عن المرتبة الإلهية.

٩٥٠- مكتومون...

مصطلح صوفى شيعى، والمكتومون عددهم أربعة آلاف، يظلون مستورين، فليسوا من أهل التصرّف، أما أهل الحلّ والعقد والتصرّف، فهم المقرّبون من الحضرة الإلهية وعددهم ثلاثمئة.

٩٥١- مكر...

هو إرداف النِّعم مع المخالفة، وإبقاء الحال مع سوء الأدب، وإظهار الكرامات

والآيات من غير أمر ولا حدّ. وفى القرآن يقول تعالى: ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (النمل ٥٠)، ويقول: ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ (آل عمران ٥٤)، فالصوفى الحقيقى هو الذى يخاف أن يسلبه الله إيمانه، فما من أحد آمن أن يُسلَب إيمانه، وعلى الصوفى أن يخاف مكر الله، وعليه أن يستثنى فى كلّ شىء ويقول: ربما كان عملى رياء، وربما لا يتقبَّل الله منى مثلما لم يتقبَّل من قابيل، وربما لا تَحسُن خاتمتى، فهو دائماً على حذر، ويُفنى إرادة نفسه، ويُسقط تدبيره مع الله.

والمكر مكران: الأول أن يُظهر العبد شيئاً ويخفى ضده؛ والثانى أن يكشف ما كان قد ستره، ويُفشى ما كان قد أسرّه. وفى الحالين هو ضعيفٌ مغرور، وجاهلٌ لا يدرى أن العمل غير القول.

٩٥٢ - ملأ...

الملأ الأعلى: هى العقول المجرّدة والنفوس الكلية.

٩٥٣ - ملامتية...

فرقة صوفية أنشأها حمدون القصّار (المتوفى ٢٧١هـ)، وهو شيخ الملامتية بنيسابور، ومنه انتشر مذهب الملامتية. ولعل أبرز مثال على الملامتية، هو منصو ابن المعتمر السُّلَمى المتوفى سنة ١٣٢هـ (٧٤٩)، فقد صام أربعين سنة، قام ليلها وصام نهارها، وكان الليل يبكى فتقول له أمه: يابنىّ! أقتلت قتيلاً؟ فيقول: أنا أعلم بما صنعتْ نفسى. - فإذا أصبح الصُّبح، كحّل عينيه، ودَهَن رأسه، وبرّق شفتيه، وخرج إلى الناس، يُظهر لهم خلاف ما فى بطنه.- وأصل مذهب الملامتية خراسان، وسلك بعض الصوفية المسلك الملامتى فى الكوفة، وإنما لم ترج فيها رواجها فى خراسان. - والملامتية قالوا: برفع التكاليف، وأخفوا تعبّدهم وطاعاتهم، كما يكتم العاصى المعاصى، بدافع الخوف من مدح الناس أو إتيان الرياء، فآثروا أن يظهروا فيهم بما يستجلب عليهم الملامة والذّم.

وقيل إن الملامتية: هم الذين لم يظهر على ظواهرهم مما فى بطونهم أثرٌ البتّة، ويجتهدون فى تحقيق كمال الإخلاص، فيضعون الأمور مواضعها حسبما هى فى الغيب، فلا تخالف إرادتهم وعلمهم إرادة وعلم الحق تعالى، فلا ينفون الأسباب، ولا يثبتونها إلا فى محلٍ يقتضى نفيها أو ثبوتها. والملامتى لذلك لا يظهر خيراً ولا يضمر شراً، وإنما هو مخلص مقيم فى أوطان إخلاصه، غير مُتطلّع إلى حقيقة خلاصه، وهذا فرق بين الملامتى والصوفى،

فالصوفي: ينم ظاهره عن باطنه، وتظهر عليه أنوار أسراره في أقواله وأفعاله، ولا يتحرّج لذلك عن إظهار الدعاوى؛ بينما الملامتي: حفيظٌ على سرّ الله، يكتمه في نفسه. وكان الشاعر جلال الدين الرومي ملامتياً، وتطوّرت عن الملامتية الطريقة القلندرية لمؤسّسها قطب الدين حيدر النوني المتوفى سنة ٦١٨هـ (١٢٢١م). (انظر أيضاً القصّار، والرومي ضمن الصوفية، والقلندية ضمن الألفاظ).

٩٥٤- ملجأ...

الملجأ هو الملاذ والمعقل والحصن؛ وملجأ الصوفية هو الله، وإخلاص اللجوء إليه فيه النجاة كلّ النجاة، وكان ذلك حال كعب بن مالك في غزوة تبوك لمّا تخلّف عن النبيّ ﷺ بلا عُذر، فهجره المسلمون واعتزلوه خمسين يومًا، إلى أن نزلت فيه الآية: ﴿حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا﴾، (التوبة ١١٨)، وقوله تعالى: ﴿لَّا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ﴾ فيه أن التوبة النصوح للصوفي ملجأٌ له من الذنب، وبدونها فإن الأرض بما رَحُبت تضيق على التائب، وتضيق عليه نفسه، كتوبة كعب بن مالك.

٩٥٥- ملك...

المُلك: عالم الأجسام والأعراض، ويسمى **بعالم الشهادة**. وكل شئ من أشياء الوجود ينقسم بين **ثلاثة أقسام: قسم ظاهر** ويسمى بالمُلك؛ **وقسم باطن** ويسمى بالملكوت؛ **والقسم الثالث منزّه عن الملَكيّ والملكوتي، فهو قسم الجبروتي الإلهي، المعبَّر** عنه **بلسان الإشارة بالثلث الأخير**، كما وقع في قوله ﷺ: «**إن الله يَنزل في الثلث الأخير من كل ليلة إلى سماء الدنيا فيقول هل..هل..**» (الحديث)، ومعناه مفصّل مذكور فيه.

ومَلِك المُلك: هو الحقّ في حال مجازاة العبد على ما كان منه مما أمر به.

ومَلِك الناس: هو الحقّ ربُّ كل شيء ومليكه وإلهه، فجميعها مخلوقة له مملوكة.

٩٥٦- ملكوت...

عالم الغيب المختص بالأرواح والنفوس. (انظر لاهوت).

٩٥٧- مُمِدّ...

المُمدّ أو مُمدّ الهمَم، بلغة الصوفية: هو النبيّ ﷺ، لأنه الواسطة في إفاضة الحقّ الهداية على من يشاء من عباده، وإمدادهم بالنور والأيْد (أي القوة).

٩٥٨- مملكة صوفية مغيبة...

هذه المملكة يرأسها القطب، وهى مُغيّبة، لأنها مملكة أشباح، والأمر فى المملكة الحسّية موكول بأعضاء هذه المملكة التى على قائمتها الهدى المنتظر - وهو خاتم الأولية، والقطب الأكبر المختفى، ولكنه يظهر فى آخر الزمان، والله تعالى يُصرّفه فى المملكة بما يراه، وقد ينازع ولىٌّ ولياً آخر ويأمره، فيقول له: اخرج من بلادى، فيردُّ عليه الثانى: بل هى بلادى أنا، فاخرج أنت! - والاثنان صادقان إذا كان ما يقولانه من قِبَل الحقّ سبحانه. - وكذلك قد ينازع القطب من هو دونه فى ولاية التصريف فى المملكة، أو الذى يدّعى أنه أعلى منه مقامًا. - وهذا هو مدى تصوّر الصوفية الشيعة فى مملكة التصوّف الغيبية أو المُغيّبة، التى تصوّروها لتحكم عالمهم وفق أخيلتهم، وأقاموا عليها رجالاً من الأولياء على شكل هرمى، يبدأ من أعلى بالقطب، ويتفرّع إلى الأبدال، والأوتاد، والنقباء، والنجباء إلخ. (انظر كل هذه الأسماء فى أماكنها).

٩٥٩- مناجاة...

المناجاة هى: مخاطبة الأسرار عند صفاء الأفكار للملك الجبار، كقول ذى النون: إلهى ما أصغيت إلى صوت حيوان ولا حفيف شجر، ولا خرير ماء، ولا ترنُّم طائر، ولا تنعُّم ظل، ولا دوىّ ريح، ولا قعقعة رعد، إلا وجدتها شاهدة بوحدانيتك، دالة على أنه ليس كمثلك شىء؛ ومثل قول القائل:

يا من يرانى ولا أراه

كم ذا أراه ولا يرانى

وقول الآخر:

ومن أنت يارب؟ أجبنى فإنى..

رأيتك بين الحُسن والزهر والماء

والقرآن يحدد للمناجاة آداباً يعلّمها أهل الله. يقول: ﴿وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ﴾ (المجادلة ٩)، ويقول: ﴿فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً﴾ (المجادلة ١٢).

ومناجاته تعالى بالذِّكر والطاعات والعبادات، فلا يرى الصوفى فى نفسه إلا نور ربّه، وفى قلبه الإلهية له، وفى الكون من حوله إلا إبداعه تعالى والجمال الذى حبا به المخلوقات، والجلال الذى يكتنف الكون من جلاله تعالى.

٩٦٠- مناصفة...

هى الإنصاف، أى حُسن المعاملة مع الحق والخَلق.

٩٦١- منافقون...

من نَفَقَ ونَفِق نَفْقاً اليربوع، يعنى خرج من نفقائه أى جُحره. ونافق فى دينه: ستَر

كفره بقلبه، وأظهر إيمانه بلسانه، فهو منافق، والنفاق فعل المنافق، وهو إبطان الشرّ والضُّر والسوء، ويقابله الرثاء، وهو من النفاق، ولكنه إظهار الطيبة والخير، وإضمار الشرّ. والدهان: فعل الاحتيال والمخادعة والختل، بإظهار الممالأة وإضمار نقيضها. وقيل الرياء: ترك الإخلاص فى العمل بملاحظة غير الله فيه، وحدُّه فعل الخير لإرادة الغير، والفرق بين الرياء والسُّمعة: أن الرياء يكون فى الفعل، والسمعة تكون فى القول. ومن المنافقين من إذا مُدح بما ليس فيه أعجبه ذلك. والصوفية على الاعتقاد بأن النفاق من أشر ما يفسد الإيمان، وكان حذيفة بن اليمان يحذّر العارفين ويقول عن زمن رسول الله ﷺ: كان الرجل ليتكلم بالكلمة يصير بها منافقاً حتى يلقى الله». وكان يقول: تأتى على القلب ساعة يمتلىء بالإيمان حتى لا يكون للنفاق فيه مغرز إبرة، وتأتى عليه ساعة يمتلىء بالنفاق حتى لا يكون للإيمان فيه مغرز إبرة». وكان أصحاب رسول الله يقولون للعارفين: إنكم تعملون أعمالاً هى أدق فى أعينكم من الشّر، كنا نعدّها على عهد رسول الله ﷺ من الكبائر. وفى لفظ آخر من الموبقات. وكان الحسن البصرى يقول: لو أنى أعلم أنى بريء من النفاق، كان أحب علىّ مما طلعت عليه الشمس». وقيل: لا يَعْرَى من النفاق إلا ثلاث طبقات من المؤمنين: الصدّيقون، والشهداء، والصالحون. وقيل: مَن أمن النفاق فهو منافق. وكان بعض الصوفية يقولون: علامة المنافق: أن يحب على شيء من الجور، وأن يبغض على شيء من الحق. ـ وعلامات النفاق أكثر من أن تُحصَى، ويقال هى سبعون علامة، والحديث عن رسول الله ﷺ فى أربعٍ هن أصول هذه العلامات، وتتشعب منها الفروع، قال: أربعٌ مَن كنّ فيه فهو منافق خالص، وإنْ صام وصلى وزعم أنه مسلم؛ وإنْ كانت فيه خصلة منهن، ففيه شُعبة من نفاق حتى يدعها: مَن إذا حدّث كذب، وإذا وَعدَ أخْلَفَ، وإذا أُتُمن خان، وإذا خاصم فجر». وفى لفظ آخر: إذا عاهد غدر»، فصارت خمساً. والصوفية على بُغض المبتدع، والفاجر المجاهر، والمنافق، والظالم المعتدى. وفى الخبر: أن الله أخذ على كل مؤمن فى الميثاق أن يبغض كل منافق، وأخذ على كل منافق أن يبغض كل مؤمن. والمرء مع من أحَبّ وله ما احتسب.

وقال رسول الله ﷺ: «اللهم لا تجعل لفاجر عندى يداً فيحبه قلبى». ـ والمداهنة والممالأة من أكبر أبواب الدنايا،

ومن يسارع بالإدهان يجعل له الله علمين من أعلام النفاق: الأول: قوله تعالى: ﴿كُلَّ مَا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا﴾ (النساء ٩١)، والثاني: قوله: ﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ﴾ (المائدة ٥٢)، والمرض في الآية هو النفاق في القلوب، والمريض بالنفاق يمرد عليه ولا ينتهي نفاقه. والصوفية الملامتية كانوا مكروهين لأن فعلَهم يرقى أن يكون نفاقاً، وكذلك متصنّع التصوّف.

وقيل في أصحاب المعجزات والكرامات: أنهم أهل نفاق، وكان رسول الله ﷺ يدعو ويقول: «اللهم طهّر قلبي من النفاق»، وكان يعتبر المعجزات والكرامات غيراً من الله، ومن النفاق إثبات الغير في التوحيد، وما دام العبد يشغل نفسه بالكرامات فإنها تكون حجاباً كثيفاً بينه وبين ربّه، ولذلك قال أبو يزيد: نفاق العارفين أفضل من إخلاص المريدين»، يعني أنه ما يكون مقاماً للمريد أو العبد يكون حجاباً للشيخ أو الواصل، فمراد العبد، أو المريد أن يجد الكرامات، لكن العارف يطلب واهب الكرامات. ومثل مقالة أبي يزيد وردت عن رويم: رياء العارفين أفضل من إخلاص المريدين. ـ ومثلها عند السلَّمي: كُفر أهل الهمّة أسلم من إيمان أهل المنّة.

٩٦٢- منصة...

المَنَصَّة: هي المكان المرتفع للجلوس عليه، وفي المصطلح الصوفي: هي تجلّي الأعراض على الساحات، يعني البوارق واللوامع، وهي تجلّيات روحانية.

٩٦٣- منقطع...

المنقطع الوحداني: هو حضرة الجمع التي ليس للغير فيها عين ولا أثر، فهي محل انقطاع الأغيار وعين جمع الأحدية، وتسمى منقطع الإشارة، وحضرة الوجود، وحضرة الجمع.

٩٦٤- منكرون...

المُنكرون: هم الذين أنكروا على الصوفية قديماً وحديثاً، وتوجّه إنكارهم للمتشبّهين بالقوم قولاً، المتباينين لهم فعلاً، الذين لم يتأدّبوا بشيخ صحبوه، ولا تفقّهوا في علم درسوه. وأنكروا على الذين جعلوا الطريقة ذريعةً إلى بلوغ أغراضهم في الدنيا، وتحصيل آمالهم في الرياسة. فمن عرّض نفسه للتُّهَم فلا يلومن مَن أساء به الظن. ومن ادّعى الوحي من الصوفية يستحق أن يُنكر عليه، فالوحي كان على عهد الرسول ﷺ وقد انقطع، والناس أحرى أن تأخذ الصوفية بما يظهر من أعمالهم، فمتى أظهر الخير فهو المُقرَّب والمؤتمن، وليس للناس إلى سريرته شيء.

ويروى أن أحد العلماء استمع إلى بعض الجهّال يطعن على الصوفية، فقال: يا هذا! ما الذين نقصهم عندك؟ فقال: يأكلون كثيراً! فقال: وأنت أيضاً لو جُعتَ كما يجوعون لأكلت كما يأكلون! ثم قال: ويتزوّجون كثيراً؟ فقال العالم: وأنت أيضاً لو حفظت فَرْجك كما يحفظون لتزوّجت كما يتزوجون.

ويروى أن بعض العلماء سُئل عن القُرّاء ـ وهم أشباه الصوفية الذين يحسنون قراءة القرآن: لِمَ يكثرون الأكل، وتعجبهم الحلاوة؟ فقال: لأنه يطول جوعهم، ويتعذر عليهم موجود الطعام، فإذا وجدوه استكثروا منه. وأما الحلاوة فإنهم تركوا شُرب الخمر وكثرة لذّات النفوس، فاجتمعت لذّتهم في الحلاوة. وأما الجماع فإنهم غضّوا أبصارهم في الظاهر فضيّقوا على قلوبهم في الخاطر، فاتسعوا في النكاح فأكثروا منه لمّا ضيّقوا على جوارحهم عن الانتشار في الإبصار. وكان الجنيد لذلك يقول: احتاج إلى الجماع كما أحتاج إلى القوت.

٩٦٥- منه...

مِنْهُ، به، له: يعني: مِنْ الله، وبالله، ولله. وقد يعني في مواضع أخرى ما يكون من اكتساب العبد بالعبد، كما قال أبو علي السندي: كنتُ في حال مني، بي، لي، ثم صرتُ في حال منه، به، له.

٩٦٦- منهج...

من أشهده الله تعالى رُتَب الأسماء والصفات في جميع رُتَب الذات، فقد دلّه على أقرب السُّبُل من المنهج الأول، وهو منهج المُتحقّق بالأسماء الإلهية من مناهج الطريق. وللتصوف مناهج يأخذ بها المريد والسالك، وتتراتب مع تراتب الارتقاء في الطريقة.

٩٦٧- مُنى...

هي عند أهل الإشارة عبارة عن بلوغ المُنَى لأهل مقام القربة.

٩٦٨- مهدي...

المهدية أو القول بالمهدي المنتظر، من أفكار التصوّف الشيعي، ودخلت فيه ابتداءً من الحلاّج، وكان متصوّفاً من غُلاة الشيعة، وشبّه نفسه بالحسين بن عليّ في اقتدائه عقيدته بدمه، وقال الحلاّج إنه: نائب المهدي.

والمهدي في تعبير الصوفية: خاتم الأولياء، ويسمونه مهدي الصوفية، وحدّد النفري ـ وهو صوفي شيعي ـ أنصار المهدي في التصوف بأنهم الأولياء، وعددهم ٣١٣ رجلاً عِدّة من شهدوا بدراً،

ويقول النُّفَري عن المهدى فى كتابه «المخاطبات»: فلست أغيب بعد هذا إلا مرة واحدة ثم أظهر ولا أغيب»، فى إشارة إلى «الغيبتين» اللتين قال بهما الشيعة: الغيبة الصغرى التى انتهت بانتهاء السفارات؛ والكبرى التى تنتهى يوم ظهور المهدى. والشيعة من الصوفية يُسمُّون المهدى قطبًا، وهو الإمام؛ وأكثر من تكلّم فيه من المتصوفة الشيعة: ابن عربى فى كتاب «عنقاء مغرب»، وابن قسىّ فى كتاب «خلع النعلين»، وعبدالحقّ بن سبعين، وبن أبى واصل تلميذه، فى شرحه لكتاب «خلع النعلين».

ويعرّفه ابن عربى فيقول: إن لله خليفة يخرج وقد امتلأت الأرض جوراً وظلماً فيملؤها قسطاً وعدلاً، ولو لم يبق من الدنيا إلا يوم، يُطيل الله ذلك اليوم حتى يلى هذا الخليفة. ويقول: وإذا خرج هذا الإمام المهدى فليس له عدوٌّ مبين إلا الفقهاء خاصة، فإنه لا يبقى لهم رياسة ولا تمييزاً عن العامة. ولولا أن السيف بيد المهدى لأفتى الفقهاء بقتله، ولكن الله يُظهره بالسيف والكرم، فيطمعون ويخافون، فيتقبّلون حكمه من غير إيمان به، بل يُضمرون خلافه!! وقال: وطالما الرسول ﷺ موجودًا، فنائبه المهدى - وهو علىّ، وبعد وفاتهما يكون المهدى خاتم الأولياء، مثلما محمد ﷺ خاتم الرسُل. ولقد اختار الله تعالى للنبوّة والولاية من بُعدت نسبته من البشر، فكان المهدى الأول وهو عيسى، نصفه بشر، ونصفه الآخر روحٌ مطهرة، لأن جبريل وهبه لمريم بشراً سوياً، ورفعه الله إليه مَلَكًا، ثم يُنزله وليًا وخاتم الأولياء فى آخر الزمان، قيل: بِشَرْع محمد ﷺ فى أُمّته؛ وما يكون نزول عيسى إلا باعتباره خاتم الأولياء، أى ختمًا للولاية، يحكم بشرْع محمد خاتم النبيين. ويقول ابن عربى: الختم ختمان - ختم يختم به الله الولاية المطلقة، وختم يختم به الولاية المحمدية. فأمّا ختم الولاية على الاطلاق فهو عيسى، فهو الوليّ بالنبوّة المطلقة، لأنه روح الله، فلما حيل بينه وبين نبوّة التشريع والرسالة، فإنه ينزل فى آخر الزمان، وارثًا خاتمًا، لا وليّ بعده، وبنبوّة مطلقة، كما أن محمدًا ﷺ خاتم النبوّة ولا نبوة تشريع بعده، ولكنه لم يكن المهدى المُسمَّى المنتظر، وما يكون المهدى من سلالته - أى سلالة محمد الحسّية، ولكنه من سلالة أعراقه وأخلاقه، وهم الشيعة!! فهل قرأتم كلاماً أغرب من هذا الكلام؟!! فلاشك أن ابن عربى وإن كان فيلسوفاً متصوّفاً، إلا أنه خارج دائرة الإسلام.

٩٦٩- مهدية...

المتصوّفة المهدية أمثال متصوّفة الطريقة المهدية فى السودان، يعتقدون فى إمام يخرج آخر الزمان يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما مُلئت ظلماً وجوراً. وكان

المهدى السودانى يتوقع أن يكون هذا المهدى علوياً أو سُنّياً، أو جامعاً للوصفين، ويرى أنه المنتظر الذى سيعيد الشريعة النبوية إلى سابق عهدها. وأسفرت الصوفية المهدية عن نفسها عند المهدى السودانى بالذات. وكان الحلاّج يقول بالمهدية، وكان ينادى أصحابه فيقول: أنت نوح، وأنت موسى، وأنت محمد، قد أعَدْتُ أرواحهم إلى أجسامكم. - ومن الصوفية المهدية حركة الصوفى الحاج عمر المتوفى سنة ١٨٦٥م، الذى ثار على الفرنسيين فى الكونغو، واعتبره الناس المهدى المنتظر. وأيضاً فإن الشاعر الصوفى جلال الدين الرومى ادّعى المهدية.

والمهدية: فكرة الصوفية المتشيّعين، أسبغوها على محمد بن الحنفية، قالوا إنه الصورة الجديدة من محمد ﷺ، للتشابه القائم بينهما فى الاسم والكنية. ولما مات ابن الحنفية قالوا برجعته، وربط المستشرق اليهودى جولدتسيهر فكرة الرجعة بفكرة رجعة إيليا عند اليهود. ويحتج الصوفية على صحة مذهبهم بأن عمر بن الخطاب، لما مات النبىّ ﷺ، قال برجعته - أى مهديته، مما يوحى بأن فكرة المهدية فكرة إنسانية وإسرائيلية، وذلك أن عمر قَرَن موْت النبىّ ﷺ بغيبة موسى أربعين ليلة. وما لبثت فكرة المهدية أن طبعت صوفية فارس والعراق، وصار كل إمام مهدياً، إما فى حياته أو بعد مماته، ليعود من جديد قطباً يرعى العالم، ووصلوا ظهوره بظهور المسيح وبنهاية العالم. كما يقول النصارى، وبرجعة إيليا كما يقول اليهود وهذا الباب من العلم مما يشتمل عليه علم الباطن أو علم الحقيقة عند الصوفية.

٩٧٠- مؤانسة...

هى أن تهرب من الجميع، وأن تبحث عن الحق فى كل وقت، ومَن أنِسَ بالله استوحش من غير الله.

٩٧١- مؤمن...

المؤمن ينظر بنور الله، والعارف ينظر بالله عزّ وجلّ؛ وللمؤمن قلب، وليس للعارف قلب؛ وقلب المؤمن يطمئن بالذِّكر، ولا يطمئن العارف بسواه.

والمؤمنون حقاً وصفهم الله تعالى فقال: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ (الأنفال/٢/ ٤)، فهذه خمسة شروط تُميّز الصوفى الحق من المتصوّف أو من غير الصوفى. وفى الاصطلاح الصوفى: الصوفى هو المؤمن الحقّ، وصفه الله تعالى بالخوف والوَجَل عند ذكره،

لقوة إيمانه ومراعاته لربّه، وكأنه يقف بين يديه، ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ (٣٤) الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾(الحج ٣٤/ ٣٥)، وقوله: ﴿وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ﴾ (الرعد: ٢٨)؛ وذلك راجع إلى كمال المعرفة وثقة القلب عند المؤمن حقّاً أو الصوفي حقّاً، وفي المعنيين: الوَجَل والخشية من الله، قال تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ (الزمر ٢٣)، فهذه حالة العارفين بالله، يخافون سطوته وعقوبته، ولا يفعلون فعْل المبتدعة المتصوفة، وهم عوامٌ جهلة من الطَّغَام، يزعقون ويزأرون وينهقون كلما انفعلوا وخافوا وخشعوا ووجلوا. والمؤمن الحقّ هو الرسول ﷺ، وهو المثال والقدوة، وأصحابه هم تلاميذه المتلقون عنه، وكان النبيّ أعرف الناس بالله وأتقاهم وأخشاهم لله، وكان ذلك حال أصحابه في المعرفة بالله، والخوف منه، والتعظيم له؛ وكانوا مؤمنين حقاً، يعرفون عن الله، وعن رسوله ﷺ، ويفهمون عنه، ويبكون من الله خوفاً، فكانوا أهل المعرفة الحقّة، ووصفهم الله عند سماع ذكره وتلاوة كتابه، فقال: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾(المائدة ٨٣) فهذا هو وصف حال المؤمنين حقاً، وهذه هي حكاية مقالهم صدقاً، وهم الصوفية عن حقّ وصدق. وما قال الله تعالى فيهم أنهم المؤمنون حقاً، إلا لأنهم كمؤمنين قد استوى الإيمان فيهم ظاهراً وباطناً، فدلّ ذلك على أن: لكل حقّ حقيقة، وقد قال النبيّ ﷺ: إن لكل حقّ حقيقة، ثم انثنى فسأل صاحباً له: فما حقيقة إيمانك يا فلان؟ - وسُئل أحد أهل الله نفس السؤال بطريقة أخرى. قيل له: أمؤمن أنت؟ قال: الإيمان إيمان. فإن كنت تسألني عن الإيمان بالله وملائكته، وكتبه ورسُله، والجنة والنار، والبعث والحساب، فأنا به مؤمن؛ وإن كنت تسألني عن قوله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ (الأنفال الآية ٤٢)، فوالله ما أدري: أأنا منهم أم لا؟! - وقال أبو بكر الواسطي: من قال: أنا مؤمن بالله حقّاً، قيل له: الحقيقة تشير إلى إشراف واطّلاع وإحاطة، فمن فقد هذا الإشراف والاطّلاع والإحاطة، فقد بطلت دعواه فيها. - يريد بذلك ما قاله أهل السُّنّة: إن المؤمن الحقيقي هو: من كان محكوماً له بالجنة، فمن لم يعلم ذلك من سرّ

حكمته تعالى، فدعواه بأنه مؤمن حقاً غير صحيحة!

٩٧٢- موافقة...

هى بداية المحبة، وهى أن تعادى أعداء الحق، مثل الدنيا والشيطان والنفس، وأن تحب أحباب الحق، وتصادقهم، وتخدمهم حتى تجد لك مكاناً فى قلوبهم.

٩٧٣- موت...

باصطلاح الصوفية: هو قمع هوى النفس فإن حياتها به، وإذا مالت النفس إلى الجهة السفلية جذبت القلب الذى هو النفس الناطقة إلى مركزها فيموت عن الحياة العلمية الحقيقية. فإذا ماتت النفس عن هواها بقمعها لهذا الهوى، انصرف القلب بالطبع والمحبة الأصلية إلى عالمه: عالم القدس والنور والحياة الذاتية التى لا تقبل الموت أصلاً. وإلى هذا الموت أشار أفلاطون بقوله: مت بالإرادة تحيا بالطبيعة. ويقول الإمام جعفر الصادق: الموت هو التوبة. ويقول الله تعالى: ﴿فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ﴾ (البقرة ٥٤)، فمن تاب فقد قتل نفسه، ولهذا فقد صنّفوا الموت، وخصّوا مخالفة النفس بالموت الأحمر.

ويروى أن الرسول ﷺ لما رجع من جهاد الكفّار قال: رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر، فقيل له وما الجهاد الأكبر يا رسول الله؟ فقال: «مخالفة النفس». - وفى حديث آخر قال: «المجاهد من جاهد نفسه، فمن مات عن هواه فقد حىّ بهداه عن الضلالة، وبمعرفته عن الجهالة». - ويقول الله تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ﴾ (الأنعام ١٢٢): يعنى ميتاً بالجهل فأحييناه بالعلم، وقد سمّوا هذا الموت باسم «الموت الجامع لجميع أنواع الموتات».

والشاعر يقول:

ليس مَن مات فاستراح بميّت
إنما الميّت ميّت الأحياء

ويقول:

كم مات قومٌ وما ماتت مكارمهم
وعاش قوم وهم فى الناس أموات

والأحياء الموتى هم الخطاة الذين فسقوا عن أمر الله فصاروا أمواتاً بالروح، أو الذين عرفوا الله وتقاعسوا عن نصرته، والنصرة لله تكون بالعمل الصالح إعماراً للأرض. والسقوط هو الموت، وهو أن يعتاد المذنب على الخطيئة فيموت ضميره، والقيامة للحىّ الميت تكون ببعث ضميره ليحيا من جديد، والذى ينسى الله ينساه الله

فيتردّى فى الموت الروحى، والخطيئة ظلام والله نور، ولا اجتماع للظلمة مع النور.

وأهل الله يفرقون بين موت الجسد وموت الروح، والأول أن تخرج الروح من الجسد وتنفصل عنه، والثانى أن تنفصل الروح عن الله، وسواد الناس يقال لهم أحياء وهم ميتون، فأنفاسهم تتردد وهم جسدياً أحياء، وروحياً أمواتاً. والبعث فى الدنيا أو قيامة هؤلاء الأموات فى الدنيا تكون بالتوبة، فيوجدون بعد ضلال، ويحيون بعد موات. ومن يردّ خاطئاً يبعثه من الموت، والذى يعظ بالتوبة إنما يعيد الحياة لموتى القلوب والأرواح، وفى القرآن: ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ (الروم ١٩)، وفيه أيضاً ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ (الروم ٢٤)، يعنى أنه تعالى يخرج المؤمن من الفاسق، والفاسق من المؤمن، وتكون أوقات قبض للمؤمن تتخلل أوقات بسطه، وأوقات بسط تتخلل أوقات قبضه، ولا يعصى العاصى دوماً ويفسق أبداً. والمؤمن قد يتدنى إيمانه أحياناً. والتوبة للعاصى والفاسق كالماء للأرض، والأرض تحيا بها بعد موات، والمطر أو الماء هو هذه التوبة تأتى العاصى والمؤمن على السواء، والاستغفار فيه الخلاص، والربيع دائماً يأتى بعد وحشة الشتاء، وكذلك قيامة الحى الميت فى الدنيا، وقيامة الميّت الحىّ يوم النشور.

والموت الأبيض: هو الجوع، لأنه ينوّر الباطن ويبيّض وجه القلب، فهو أبيض لهذا السبب، والسالك الذى لا يأكل حتى الشبع فإنه يموت بالموت الأبيض، وحينئذ تحيا فطنته. وقد قالوا: إن البِطنة تميت الفِطنة، وبناءً عليه، فمن ماتت بطنته حييت فطنته.

والموت الأخضر: هو لبس المرقّع من الخرق البالية، ومن يقنع بذلك ويقتصر على ما يستر منها العورة وتصحّ فيه الصلاة فقد مات الموت الأخضر، لأن القناعة تخضرّ بها عيناه، وينضر بها وجهه بنُضرة الجمال الذاتى الذى استغنى به عن الجمال العارض من فاخر الثياب. والشاعر يقول:

إذا المرء لم يدنس من اللؤم عرضه
فكل رداء يرتديه جميل

والموت الأسود: هو الذى يكون باحتمال الأذى والبلاء والصبر على المكروه، فلا يجد العبد حرجاً فيما يصاب به، ولا ما يعاينه ويستقبله استقبال الراضى، ومن يفعل ذلك فقد مات بالموت

الأسود، وحاله حال المحب الذى يعانى من محبوبه ويلتذ بما ينزله به، وكذلك من أحب الحق تعالى، وقد قال الشاعر :

أشبهت أعدائى فصرت أحبّهم
إذا كان حظى منك حظى منهم
وهو الهوى لى حيث أنت فليس بى
متأخر لى عنك إلا متقدم

وسكرة الموت: حشرجته والتوهان الذى يكون عليه المائت: ﴿ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴾ (ق ١٩)، فيصدق عليها قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴾ (ق ٢٢)، فعند الموت يكون الاستبصار على أشدّه، فنرى رشدنا وغيّنا، ويرى الكافر نفسه كافراً والمؤمن مؤمناً، والظالم ظالماً، والفاسق فاسقاً، فأحوال الناس فى الموت مختلفة، فمنهم من يزداد خوفه ولا يتبين حاله إلا وقتها، ومنهم من يُكاشَف قبل خروجه من الدنيا فيسكن روعه، ويحفظ عليه عقله، ويتم له حضوره وتمييزه، فيُسلم الروح على مهل من غير استكراه ولا عبوس، ومنهم ... ومنهم، وفى معناه :

أنا إن متُّ والهوى حشو قلبى
فبداء الهوى يموت الكرام

ورُوى أنه لما ثقل أبو بكر وجاءه الموت تمثلت عائشة بهذا البيت :

لعمرك ما يغنى الثراء عن الفتى
إذا حشرجت يوماً وضاق بها الصدر

فكشف أبو بكر عن وجهه وقال: ليس كذلك يا بُنيتى ولكن قولى: ﴿ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴾.

وفى الصحيح عن النبىّ ﷺ أنه لما تغشّاه الموت، جعل يمسح العرق عن وجهه ويقول: «سبحان الله! إن للموت لسكرات».

والموت بإذن الله كتابٌ مؤجل، وما تدرى نفس بأى أرض تموت، وفى الجنة والنار لا يموت الناس، والله لا يموت وهو يميت، وكان الناس أمواتاً فأحياهم الله ثم أماتهم ثم يحييهم يوم القيامة، وكل نفس ذائقة الموت، وللموت ملك، ولاينفع الفرار من الموت، ولو كنا فى بيوتنا لبرز الذين كُتب عليهم الموت، وأينما نكون يدركنا الموت ولو كنا فى بروج مشيّدة. والنوم شبه موت، وفى الموت يمسك الله النفس التى قضى عليها به، وفى المنام يرسل النفس التى يقضى عليها بالموت، وكل نفس لا تذوق إلا ميتة واحدة هى الموتة الأولى.

والله خلق الموت والحياة ليبلو الناس، ودليل البعث بعد الموت هو دليل الإحياء للأرض والنبات بعد مواتهما، فكما أحيا الأرض بعد موتها فكذلك نُبعث. ومن يُقتل فى سبيل الله حيٌّ عنده تعالى يُرزق. وكان عيسى يُحيى الموتى بإذن الله. والموتى لايسمعون. والميتة مُحرّمٌ أكلُها. والله عند الموت أقرب إلى العبد من حَبْل الوريد، حتى إذا حشرجت الروح كفّ الملقيان عن اليمين وعن الشمال أن يكتبا ما توسوس به النفس. وينقطع العمل، ويرفع القلم.

ويروى الشعرانى أن الموتى فى اعتقاد الصوفية أحياء يعيشون بيننا وهو ما لم يقل به دين ولا ملة، وأن سيده أحمد البدوى فى مولده، كان يدعو العرب والعجم، والأحياء والأموات، ويكشف الستر عن الضريح، ويسوق الناس إلى مولده، وأن الشيخ الحريثى قام من قبره ومشى من دمياط إلى مدرسة أم خوند بمصر وقال له عليك بالصبر ثم اختفى. وتلك أقوال صدرت عن رعونة وشطح أو أنها تنسب إليه زوراً!

٩٧٤- موجود...

ما خرج عن حيّز العدم إلى حيّز الوجود. والموجود والمفقود متضادان.

٩٧٥- موحد...

لا سبيل إلى توحيد الحق بلا قال ولا حال. والمُوَحِّد بالقول لا يشهد بالسرّ منفرداً به، والمُوَحِّد بالحال غائب بحاله عن الأقوال. وعلامة المُوَحِّد أن لا يجرى له خاطر لا حقيقة له عند الحق، فالشواهد عن سرّه مصروفة، والأعواض عن قلبه مطرودة، فلا شاهد يشهده، ولا عوض يعبده، ولا سرّ يطالعه، وهو فى حظه الذى هو فيه عن سائر حظوظه مسلوب، وفى حقه عن كل حق آخر محجوب، فلا نصيب له فى نصيب، وهو مأسور فى نصيبه وهو أوفر نصيب، والحق أوفر نصيب، ومن فاته الحق فليس له شئ وإن ملك الكون، ومن وجد الحق فله كل شئ وإن لم يملك ذرة.

٩٧٦- مودة...

المودة: هى أن تشغل القلب فى الخلوة بالعجز والضراعة، وتكون فى غاية الاشتياق والقلق.

٩٧٧- موفون مطيبون...

المصطلح لرسول الله ﷺ، والموفون هم الموفون بالعهد، والمُطيِّبون الذين يؤمّنون الناس ويُكنّونهم، أو هم المطيَّبون - بالفتح - أى الذين يتّسمون بالطيبة. وفى حديث رسول الله ﷺ عن عائشة،

قال: «إن خيار عباد الله يوم القيامة الموفون الطيِّبون» رواه أحمد. والصوفية تجعل ذلك من أخلاق أتباعهم وتلاميذهم.

٩٧٨- مولوية...

طريقة جلال الدين الرومى، نسبةً إلى «مولانا» وهو الرومى نفسه، الصوفى والشاعر العظيم صاحب «الكتاب المثنوى». وكانت تكايا المولوية كثيرة الانتشار فى تركيا خاصة، ويعتمدون فى طريقتهم على الموسيقى والأذكار والغناء وإنشاد الأشعار، وللناى عندهم مكانة وحُرمة خاصة. (انظر الرومى ضمن الصوفية).

٩٧٩- ميزان...

ميزان أهل الظاهر: هو الشرع؛ وميزان أهل الباطن: هو العقل المنور بنور القدس؛ وميزان الخصوص: هو علم الطريقة؛ وميزان خاصة الخاصة: هو العدل الإلهى الذى لم يتحقق به إلا الإنسان الكامل وهو النبىّ أو الولىّ.

والناس فى الدنيا يخسرون الميزان، وقد أمروا أن يوفوا الكيل ويزنوا بالقسطاس المستقيم، ولا يبخسوا الناس أشياءهم.

والميزان وضعه الله تعالى وأنزله بالحق، والوزن يوم القيامة بالحق، ولا يقيم الله تعالى للمكذّبين يوم القيامة وزناً، ومن ثقلت موازينه فقد أفلح وهو فى عيشة راضية، ومن خفّت موازينه فأمُّه هاوية، وهو الخاسر لنفسه. وفى الحديث عن عائشة وأخرجه الديلمى: أن النبىّ ﷺ قال: «خلق الله تعالى كفتى الميزان ملء السموات والأرض».

* * *

باب النون

* * *

٩٨٠- نار...

قال الصوفية: **النار الصورية**: نار الدنيا؛ **والنار الفعلية**: نار الآخرة؛ **والنار النفسية** للعبد المذنب؛ **ونار الذات** للعبد الآبق.

وأصحاب النار، وأهل النار الذين استحقوها؛ **وعذاب النار** بالحسّ والنفس، وما هم بخارجين منها، يأكلونها في بطونهم، أُعدت للكافرين، وهي مثوى المشركين والظالمين، ليس لهم سواها في الآخرة، وهم وقودها وحطبها وحصبها، جزاءً وفاقاً لما أشركوا وظلموا.

وللنار درك أسفل للمنافقين؛ **والنار الكبرى** للأشقياء؛ **والنار المؤصدة** لأصحاب المشئمة؛ **والحُطَمة هي النار الموقدة أُعدت للكافرين**، وهي أيضاً **الهاوية**؛ **وسَقَر**، نارها حامية تلظّى، وماؤها حميم يقطع الأمعاء، وتُقلَّب فيها وجوههم، تلفحها النار وتكلحها، ومن فوقهم ظُلل منها، ومن تحتهم ظلل، ويُزَعون إليها، ويُسحبون فيها على الوجوه، وثيابهم منها، وسرابيلهم من قطران، ولهم فيها زفير وشهيق، وما هم بخارجين، وهي مثواهم وبئس المثوى والمهاد.

وفي قوله تعالى ﴿ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ﴾ (آل عمران ١٣٣)، سأل يهودي (ومايزال المستشرقون يسألون): فأين النار؟ فقال عمر: أرأيت النهار إذا جاء الليل يملأ الأرض، فأين الآخر؟ قال اليهودي: حيث شاء الله؟ فقال عمر: **والنار حيث شاء الله!**

وبَعْثُ النار ـ في المصطلح ـ من غالبية الناس، وفي الحديث عند أحمد وابن أبي حاتم أنهم يشكلون **تسعمائة وتسعة وتسعين** من كل ألف، وواحد فقط هو **بعث الجنة**، ويقول ﷺ: «**فإنها لم تكن نبوة قطّ إلا كان بين يديها جاهلية**»، يعني أن الإسلام يكون موجوداً ومع ذلك فالغالبية على دين الجاهلية، فيؤخذ العدد ـ التسعمائة والتسعة والتسعين ـ من الجاهلية، فإن تمّ فيها وإلا استكمل العدد من المنافقين المدّعين للإسلام أو الإيمان، **وما هم بمسلمين ولا مؤمنين**. وفي الحديث أن الواحد في الألف وإن كان قليلاً إلا أنه ظاهر كالشامة، يقول ﷺ: «**وما مثلكم ومثل الأمم إلا كمثل الرَّقمة** (أي العلامة) **في جنب البعير**». وفي الحديث عند البخاري يقول ﷺ: **إن بعث النار من قوم يأجوج ومأجوج أصحاب الضلال، وأن**

الواحد فى الألف وهم المسلمون، مَثَلُهم: «كالشعرة السوداء فى جنب الثور الأبيض، أو كالشعرة البيضاء فى جنب الثور الأسود».

ومن شطحات أبى اليزيد البسطامى المشهورة فى النار، قال: ما النار؟ لأستندنّ إليها غداً وأقول لربّى: اجعلنى لأهلها فداء، أو لأبلعنّها! ـ ما الجنّة؟ لعبة صبيان! والمعنى: أن أبا اليزيد يريد لو يتحمّل عن الخطاة جميعاً العقاب، وأن يتّسع وجوده ليشمل النار فلا يكون للناس مكان فيها لغيره. يقول: إلهى! إن كان فى سابق علمك أن تعذّب أحداً من خَلْقك بالنار، فعظّم خَلْقى فيها حتى لا تسع معى غيرى! ـ أقول: لم يذق أبو اليزيد عذاب النار، ولذا فإنه يُهَرِّف ويتكلم بما لا يعرف!

٩٨١- ناس...

الناس اسمٌ من أسماء الجموع، جمع إنسان وإنسانة، على غير اللفظ، وتصغيره نُوَيْس، فالناس من النّوس وهو الحركة، يقال: ناسَ ينُوس، أى تحرك. وآدم نسى عهد الله فَسُمِّى إنساناً، وقال ﷺ: نَسِىَ آدم فَنَسِيَت ذريته. ـ وقيل: سُمّى آدم إنساناً لأنسه بحواء، وقيل: لأُنسه بربّه. وقال الصوفية: الناس اسم جنس، واسم الجنس لا يُخاطَب به الأولياء.

٩٨٢- ناسوت...

محل اللاهوت، ويطلق على عالَم الشهادة، أى الدنيا.

واستخدم الحلاّج الناسوت فى كتابه طواسين، تعبيراً عن آدم والإنسان عموماً، وقد خلقه الله تعالى على هذا النحو الذى خلقه به، حيث اختاره الحقّ صورةً من صفاته وأسمائه، فعظّمه ومجّده لهذا السبب، وكان آدم، والإنسان عموماً، من حيث ظهور الحق بصورته فيه وبه هو هو. يقول الحلاج:

سبحان من أظهر ناسوته
سرَّ سنا لاهوته الثاقب
ثم بدا لخلقه ظاهراً
فى صورة الآكل والشارب
حتى لقد عاينه خلقه
كلحظة الحاجب بالحاجب

٩٨٣- ناطق...

هو الرسول. والنطق هو الكلام بصوت وحروف تُعرَف بها المعانى، والناطق هو العاقل، وهو المبلّغ، وهو المبيّن؛ والاصطلاح من القرآن عن الرسول ﷺ: ﴿ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ * وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴾ (النجم ٣)، ونُطقه ﷺ هو القرآن والسُّنّة، وما ينطقه من

ذلك لا ينطقه بالهوى، وفى هذا تخصيص له بالشهادة، إذ قال تعالى لداود: ﴿فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ﴾ (ص ٢٦)، وقال فى صفة نبيّنا ﷺ: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ﴾، فكأن النُطق نطقان: نطقٌ بالحق (المؤمنون ٦٢)، ونطق عن الهوى. وكيف له أن ينطق عن الهوى وهو فى الظاهر مزموم بزمام التقوى، وفى السرائر فى إيواء المولى، مُرقّى إلى شهود الأحدية، مُكاشَف بجلال الصمدية، مُختطفٌ عنه بالكُلّية، لم تبق منه للحقّ بالحقّ بقية، ومن كان بهذا النعت، فكيف ومتى ينطق عن الهوى؟

٩٨٤- نبوة...

النبوّة: هى الإخبار عن الحقائق الإلهية، أى عن معرفة ذات الحق وأسمائه وصفاته وأحكامه، والصوفية قسموا النبوة على قسمين: نبوة التعريف، ونبوة التشريع، والأولى هى الإنباء عن معرفة الذات والصفات والأسماء، والثانية هى جميع ذلك مع تبليغ الأحكام والتأديب بالأخلاق، والتعليم بالحكمة، والقيام بالسياسة، وهو ما يختص به الرسول.

والصلاة على النبىّ: منبع الأنوار والبركات، وقال أكثر المشايخ من أصحاب نظرية النور، ومن الإشراقيين، أنه عندما يُفتَقد طريق السداد فإن التزام الصلاة على النبىّ هو الطريق الموصّل بالنسبة للطالب الصادق والمريد الواثق.

ويذهب الغزالى إلى أن مسلك الصوفية، وكل حركاتهم وسكناتهم فى ظاهرهم وباطنهم، مقتبس من نور مشكاة النبوة، وليس وراء نور النبوة على وجه الأرض نور يستضاء به، ومن لم يُرزَق من أحوال الصوفية شيئاً بالذوق، فليس يدرك من حقيقة النبوة إلا الاسم.

وكرامات الأولياء هى على التحقيق بدايات الأنبياء، وكان ذلك حال النبىّ ﷺ فى البداية حين أقبل على غار حراء يخلو بربّه ويتعبّد.

والله تعالى لا يعرفه على الحقيقة إلا الذين تحققوا بمعنى التوحيد فى حال فنائهم الصوفى، فى حين أن إرادته وتدبيره يتجليان فى الكون بواسطة الروح الذى نفخ الله منه فى آدم، ويطلق عليه فلاسفة الصوفية اسم الروح المحمدى أو الحقيقة المحمدية، وهو الذى ظهر فى جميع الأنبياء من آدم إلى عيسى، ثم ظهر أخيراً فى النبىّ محمد ﷺ، وهو المثل الأعلى للولىّ، أو المجلّى الأعظم لتلك الدرجة الرفيعة التى يطلق عليها الصوفية اسم الولاية. والنبىّ فى نظرهم هو

الإنسان الكامل الذى تجلّت فيه جميع الصفات الإلهية، فهو ولىّ من حيث باطنه، ورسول من حيث ظاهره، ومقامه عندهم من حيث الولاية والنبوة والرسالة فى المكان الأعلى، وهم أنفسهم خلفاء النبىّ فى خلافته عن الله، ولولا هذه الخلافة الباطنة لخرب العالم، وعمّته الفوضى، ولولا وساطتهم عن النبىّ لما وصلت رحمة الله إلى الخلق. وأقوالهم فى ذلك فيها تجديف وشطح فيما تكلموا به، وهم يشعرون أن النبىّ حىّ فيهم (الحلول)، فعّال فى أخلاقهم وسلوكهم وسكناتهم وحركاتهم (الاتحاد).

ورغم أن الولاية كانت لمشايخهم، فلم يساور الشك أياً منهم فى فضل النبىّ وأسبقيته على أوليائهم. وقد سئل يوماً أبو اليزيد البسطامى، عن جواز تفضيل الأولياء على الأنبياء فقال: مَثَل ما حصل للأنبياء عليهم السلام، كمَثَل رق فيه عسل، ترشح منه قطرة، فتلك القطرة مثل ما لجميع الأولياء، وما فى الظرف مثل ما لنبيّنا محمد ﷺ.

والصوفى إذا توسل برسول الله ﷺ كان له هدى فى حيرته، وعوناً فى ملمته، وسلوى فى أحزانه. ووساطته قد تكون جائزتها أكبر، فقد تُعطى مشاهدة وكشفاً وحضوراً إلهياً.

ويروى أن أبا حمزة البغدادى عرضت له حال الوجد، فزعم أنه رأى الله تعالى ﷻ. ويعلّق فريد الدين العطار على ذلك بقوله: إن الله تعالى إذا أنعم على أحد من المؤمنين بمشاهدته، فإن هذه المشاهدة لا تحصل له من ذاته، بل بواسطة نور روح النبىّ عليه الصلاة والسلام، وأن مائة من الأولياء لا يبلغون مقام رتبة النبىّ، وإنما النبىّ يعطى أمّته جزءاً مما حظى به من السعادة الحاصلة عن رؤية الله عندما أُسرى به. وكان أبو العباس القصّاب يقول: لم يمت محمد!! وإنما الذى مات هو استعدادك لأن تراه بعين قلبك!

وفكرة النبوة عند الصوفية من الخصائص المميزة للتصوّف الإسلامى، كما أن فكرة الألوهية فى التصوّف من أوضح ما تعرف الديانات والفلسفات.

وبين الألوهية والنبوّة كما بين الله والإنسان، أو ما بين المطلق والمتعيّن. والنبىّ هو الوسيط بين الله والناس، لأنه يستحيل أن يعرف الناس إرادة الله فيهم بدون نبىّ. ولا يتصل الوسيط نفسه بالله مباشرة، وإنما يوسّط الله ملكاً يقوم بذلك أو يكلّم الله النبى من وراء حجاب فلا يراه، وإنما هو تجلّى الألوهية الكامل على النبىّ. وعند الصوفية المسلمين تمثّلت تلك

الصورة عن النبوة أروع تمثيل، وفيها أن النبي ﷺ تنامى شعوره بالرسالة بدءاً من التحنُّث، وانتهاءً بحجة الوداع، في تصاعد دائري، قمته سنة بعثه في الأربعين من عمره، فكانت تأتيه الرؤى الصادقة كفلق الصبح، والرؤيا الصادقة جزء من النبوة. وتقول عائشة : وحبّب الله تعالى إليه الخلوة فلم يكن شيء أحب إليه من أن يخلو وحده. وعندما أراده الله بكرامته وابتدأه بالنبوة كان إذا خرج لحاجته أبعد حتى تحسر عنه البيوت، ويفضي إلى شعاب مكة وبطون أوديتها، فلا يمر بحجر ولا شجر إلا قال له الحجر والشجر: السلام عليك يارسول الله، فيلتفت حوله يمنةً ويسرةً وخلفه، فلا يرى إلا الشجر والحجر. ومكث على هذا الحال إلى أن جاءه جبريل بما جاءه من كرامة الله وهو بحراء في شهر رمضان». ويعني ذلك أن شعوره بالرسالة يتنامى ويقوى حتى صار كأنما الكون كله يستشعر هذه الرسالة، وحتى استشعر هو نفسه أن رسالته ليست مجرد رسالة وبلاغ ولكنها كونية وعالمية، وأنه بها يتناسق ويتناغم ويتوافق مع الكائنات والمخلوقات. وامتلاؤه بالرسالة على هذا النحو هو معنى قوله: أنه بُعث للعالمين. ونبوته ﷺ العالمية لذلك كانت روحية وسياسية، فأن يبلّغ أن الله واحد لن تعنى شيئاً إن ترك الأمور كما هي دون أن يناسقها ويناظمها، والدين في نبوته ﷺ لا ينفصل عن الدولة، والذي يرقى اعتقاده ويتجاور الصغار إلى الكونيات ويؤمن بإله وصاحب لهذا الكون لا يمكن إلا أن يرى ضرورة إعادة تنظيم الأمور في الكون كما شاء لها الله أولاً: بدون ظلم، ولا طاغوت، وبتراحم وتكامل وعدل ومساواة وسلام. وخاصية التصوف الإسلامي أنه يرى أن رسالة النبوة هي التي كان به تحقيق التوحيد بين الدين والدولة. ولقد فشلت اليهودية أن تكون لها هذه النظرة، وأن تتبنى هذه الغاية، وتقاصرت النصرانية أن تدعو إلى مثل ذلك، واندحرت الشيوعية، وحبطت الرأسمالية، وأيست العولمة، ولهذا هُم يحاربون الإسلام الآن ويصوّبون إليه السهام من كل الجبهات، وفي جميع الجبهات، ويخصّون أهل الله بطغيانهم، ويقتلونهم أو يودعونهم السجون. ومن لم يفهم من الصوفية رسالة النبوة ذهب إلى الغلو في الرسول ﷺ، وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرُّسُل، إلا أنه الرسول الخاتم المتمّم للرسالات، والمكمّل لها، ولم تكن نبوته ناسخة لنبوات من

قبله. والقرآن الذى أُنزل عليه على لسان جبريل كأنما نقشه فى قلبه مرآة للوح المحفوظ عند الله، وخُتم على رسالته أو نبوته أنها إنسانية لأن الله خلَق لها ندّها وهو الإنسان، خلقه من عَلق، وعلّمه بالقلم ما لم يعلم، ولم يبق إلا أن يقرأ، وما يقرأه على النبىّ، أو ما تُقرئه إياه النبوة هو الإلهى الذى اختص بمعرفته الإنسان، فلما عرفه وعمل به صار إلهياً. وهذه إذن نبوة محمد ﷺ، وإنما هو بشر مثلهم من البشر، فلا تأليه ولا تقديس له، وقد يغضب، وقد يخطئ، ويمشى فى الأسواق، ويَطعَم الأسودَيْن: التمر والماء؛ وينام على الليف، ويصلّى ويقوم الليل حتى لتتورم قدماه، ولا يورث درهماً ولا ديناراً، وأمره بين أصحابه شورى، ولهذا كان النبىّ ﷺ المثال والقدوة للصوفية، وصاغوا الولاية التى قالوا بها لتكون على منهاج النبوة.

٩٨٥-نبوية...

اسم فرقة كانت عدوة لمتصوّفة الشيعة وخاصةً الغلاة منهم، وأطلقت على نفسها (سنة ٥٨١هـ/ ١١٨٥م) اسم «النبوية»، أو «الفتوة النبوية»، أى المنسوبة إلى النبىّ ﷺ، معارضةً للفتوة العلوية. ويقول ابن جبير: إن النبويين كانوا سُنيين يدينون بالفتوة أيضاً، وكان من معارضتهم للصوفية الشيعة أنهم كانوا يعتبرونهم روافض.

٩٨٦-نجباء...

النجباء: من الأسماء الدائرة على ألسنة الصوفية ضمن حكومة الغيب. والنجباء جمعُ نجيب، وهو كريم الحسب أو الذى يُحمَد فى نظره أو فى قوله. ويُنسَب لعلىّ ابن أبى طالب الحديث عن رسول الله ﷺ: أن كلّ نبىّ أُعطِى معه نجباء رفقاء (أى أصحاب) - أو قال رقباء، وأُعطيتُ أنا أربعة عشر. فقلنا: من هم؟ قال: أنا وأبنائى، وجعفر، وحمزة، وأبو بكر، وعمر، ومصعب بن عمير، وبلال، وسليمان، وعمّار، وعبد الله ابن مسعود. وقال (أى النبىّ ﷺ - والكلام ما يزال لعلىّ فى هذا الحديث المزعوم): «لم يكن قبلى نبىّ إلا أُعطِى سبعة نجباء وزراء ورفقاء، وإنى أُعطيت أربعة عشر: حمزة، وجعفر، وأبو بكر، وعمر، وعلىّ، والحسن، والحسين، وسبعة من قريش، وابن مسعود، وعمّار، وحُذيفة، وأبو ذر، والمقداد، وبلال»، وواضح أن الحديث موضوع، لأنه - فضلاً عن اضطراب الأعداد فيه، فإن المصطلح ليس من مفردات النبىّ ﷺ، وواضعو الحديث هم قطعاً الشيعة الصوفية. وفى الميثولوجيا الصوفية الشيعية: أن حكومة الباطن، أو رجال الغيب، منها النجباء،

وهم أربعون رجلاً، قائمون بإصلاح أحوال الناس وحمل أثقالهم، لاختصاصاتهم برحمة فطرية، ولكنهم لا يتصرفون إلا فى حظوظ غيرهم، أما حظوظهم أنفسهم فلا مزية لهم فيها.

وقيل: النجباء سبعون، يسمون جميعاً باسم الحسن.

وقيل: النجباء سبعة. وقيل النجباء ثمانية فى كل زمان، لا يزيدون ولا ينقصون، وهم الذين تبدو عليهم أعلام القبول وأحواله وإن لم يكن لهم فى ذلك اختيار، لكون الحال يغلب عليهم، ولا يعرف ذلك لا مَن فوقهم ولا مَن دونهم، وهم أصل الصفات الثمانى أو السبع المشهورة، وهى: الحىّ، العالم، المريد، القادر، السميع، البصير، المتكلم ـ والإدراك الثامن.

٩٨٧- نجوى...

من نجا مناجاةً، أى سارّه بما فى فؤاده من الأسرار والعواطف، والاسم النجوى وهى السرّ، والجمع نجاوَى، من المناجاة، وهم المُسارّون. والنجوى فى المصطلح الصوفى: إخفاء الآفات عن اطّلاع الغير. وفى القرآن من ذلك: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَىٰ ﴾ (المجادلة ٨)، وفيه: ﴿ إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ ﴾ (المجادلة ٩)، وأصل النجوى كما فى القرآن: ﴿ إِنَّمَا النَّجْوَىٰ مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ (المجادلة ١٠)، فحكم النجوى البطلان إذن إذا كانت المشاهدة غالبة، والقلوب حاضرة، والتوكل صحيحاً.

٩٨٨- نخلة...

عند أهل الله، المؤمن نخلة، منبتها الإيمان، وارتفاع عمله فى السماء كارتفاع فروع النخلة، وثواب الله له ثمرها. والشجرة الطيبة فى قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾ (إبراهيم ٢٤)هى النخلة، أصلها ثابت فى الأرض، فتشرب عروقها من الأرض، وتسقيها السماء من فوقها، فهى زاكية نامية، وكذلك الكلمة الطيبة. وفى علم الحقيقة المؤمن كالنخلة، وهى شجرة لا يسقط ورقها، وكذلك المؤمن لا تسقط له دعوة، والنخلة إذا قُطعت رأسها يبست، وتشبه الإنسان وسائر الحيوان فى الالتفاح لأنها لا تحمل حتى تُلقَّح، وفى الحديث: «خير المال سكة مأبورة ومُهرة مأمورة». والسكّة هى الطريق المصطف من النخل، ومنها قيل للأزقة سكك، لاصطفاف الدور فيها، والمأبورة

الملقَّحة؛ **والإبار** اللقاح. وفى الحديث: «أكرموا عمَّتكم. قالوا: ومن عمّتنا يا رسول الله؟ قال: النخلة». ـ قيل سمّاها عمّتنا، لأن الله تعالى لما صوّر آدم من الطين، فضلت قطعة من طين آدم، فصوّرها بيده نخلة وغرسها فى الجنّة، ولذلك قال هى عمّتنا، لأنها شقيقة آدم من أصل واحد. ـ هكذا يقول الصوفية.

٩٨٩ - ند...

النِّدّ: هو المثل، تقول: ما له ند، أى ما له نظير. والند هو كلّ شئ يمنع العبد عن خدمة سيده، ومن جملتها النفس والهوى، كما فى قوله تعالى: ﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾ (الجاثية ٢٣)؛ ومنها الخَلق لأجل الرياسة؛ ومنها الدنيا والشيطان، فهؤلاء هم الأنداد أو الأغيار فى الآية: ﴿ فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَاداً وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة ٢٢).

٩٩٠ - نساء...

ليس أضرّ على الصوفى من النساء، إلا لو استمتع بهن بحق الله.

والنساء من مفاتن الدنيا، وبتعبير القرآن: ﴿ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ (طه ١٣١)، والصوفية يزهدون فى الدنيا والنساء.

وفى الحديث: «إن الدنيا حلوة خضرة، وإن الله مستخلفكم فيها فينظر كيف تعملون. فاتقوا الدنيا، واتقوا النساء، فإن أول فتنة بنى إسرائيل كانت النساء» رواه مسلم. وعنه أيضاً أنه قال: «ما تركت بعدى فى الناس فتنة أضرّ على الرجال من النساء». ولم يكن سقوط الدولتين الأموية والعباسية ودولة العثمانيين، إلا بسبب حب الدنيا ومباهجها وهزلها، عن حبّ الجدّ فيها والعلم والرفعة والسمو، وكان سقوط رجالها لمّا فتنتهم النساء فكانوا أضحوكة التاريخ.

٩٩١ - نسب علوىّ...

الكثير من الطرق الصوفية يدّعى شيوخها أنهم علويون، أو مهديون، أو يجعلون طريقتهم وراثية على نهج وراثة الإمامة عند الشيعة. والتصوف يقوم على المجاهدة والسلوك، فالذين يذهبون هذا المذهب لا يقولون بالوراثة، وأما الذين يقولون بالاصطفاء فيؤكدون على الوراثة. والمصطفويون علويون، والنَّسَب العلوى ينتظم الكثيرين، منهم: عبد القادر الجيلانى، وأحمد الرفاعى، وبكتاش الولى، وإبراهيم الدسوقى، وأحمد البدرى، وأبا الحسن الشاذلى، والسنوسى، والمهدى السودانى، وعبد الوهاب الشعرانى إذا اعتبرناه صاحب طريقة. وكان عبد القادر

الجزائرى صوفياً علوياً، كما أن السنوسيين كانوا علويين.

٩٩٢- نسبة...

من كان هَمُّه الدنيا فنسبته إلى الدنيا، ومن كان همّه الآخرة فنسبته إليها، ومن كانت نسبته لا إلى هذه ولا إلى تلك، وإنما إلى الله فنسبته إليه تعالى. والمنتسب للدنيا مشغولٌ بحظوظ نفسه، والمنتسب للآخرة يعمل لآخرته ويطلب المثوبة على صلاحه، وأما المنتسب لله فهو عبدٌ لله، يرى ويسمع ويقول ويفعل بالله، ولله، وفى الله؛ فالنسبة إذن هى الحال التى تعرف بها صاحبها. والنسبة نسبتان: نسبة حظوظ، ونسبة حقوق، فإذا غابت الخليقة ظهرت الحقيقة، وإذا ظهرت الخليقة غابت الحقيقة.

٩٩٣- نصارى...

هم دون المحمديين، لأنهم طلبوا الله فعبدوه فى الآب والابن وروح القدس، وقالوا بالتجزئة، أى جزّأوا الله تعالى فجعلوه ثلاثة، وبقدمه على وجوده فى مُحدث عيسى، فنزلوا عن درجة الموحّدين.

٩٩٤- نعت...

هو إخبار الناعتين عن أفعال المنعوت وأحكامه وأخلاقه. ويحتمل أن يكون النعت والوصف بمعنى واحد، إلا أن الوصف يكون مجملاً، والنعت يكون مبسوطاً، فإذا وصَفَ جَمَع، وإذا نَعتَ فَرّق.

والذات هى الشئ القائم بنفسه، والاسم والنعت والصفة معالم للذات، فلا يكون الاسم والنعت والصفة إلا لذى ذات، ولا يكون ذو ذات إلا مسمّى منعوتاً موصوفاً، وذلك أن القادر: اسم من أسماء الله تعالى، والقُدرة: صفة من صفات الله تعالى، والتقدير: نعتٌ من نعوت الله تعالى.

٩٩٥- نعمة الإلهية...

طريقة نعمة الله الوليّ، العلوى الحلبى الأصل، المتوفى سنة ٨٣٤هـ (١٤٣١م)، وتقول بوحدة الوجود، وتتميز بذكر يمارسه المريدون جلوساً، ويميلون بأجسامهم من اليسار إلى اليمين، يرددون لا إله إلا الله، وتعتمد فى إحمائهم على موسيقى الناى والدّف.

٩٩٦- نغم...

يحصل الوَجْد تارةً من فهم المعانى، وتارةً من سماع النغمات والألحان، فما كان من قبيل المعانى تُشارك النفس والروح فى سماعه عند المُبطل، ويشارك القلب عند المُحقّ. وما كان من قبيل مجرد النغمات تتجرّد الروح لسماعه، ولكن عند

المُبطل تسترق النفس السمع، وعند المُحق يسترق القلب السمع .

ووجه استلذاذ الروح النغمات أن العالم الروحانى مجَمْعَ الحُسن والجمال، ووجود التناسب فى الأكوان مُستحسن قولاً وفعلاً، ووجود التناسب فى الهياكل والصور ميراث الروحانية، فمتى سمع الروح النغمات اللذيذة والألحان المتناسبة تأثر به الوجود الحسّى. ووجه آخر هو أن الروح يستلذ النغمات، لأن النغمات بها نَطَق النفس مع الروح بالإيماء الخفى، إشارةً ورمزاً بين المتعاشقين، وبين النفوس والأرواح تعاشق أصلى بحكم أنوثة النفس وذكورة الروح. والميل والتعاشق بين الذكر والأنثى بالطبيعة، وبذلك يستطيب الروح النغمات ، لأنها مراسلات بين المتعاشقيْن، ومكالمات بينهما.

٩٩٧- نفاق...

النفاق: أشدّ ما يحذره الصوفية؛ والملامتية منهم فرقةٌ كانت ضد النفاق أصلاً، وإن كانت تُظهر خلاف ما تُبطن، فلكى لا ترائى الناس بالتقوى، صارت تتظاهر باللاّ تقوى، فصارت تنافق كى لا تنافق، وباعدت بينها وبين النفاق بنفاق.

والنفاق عند الحسن البصرى: نفاقان: نفاق الكذب، ونفاق العمل؛ فأمّا نفاق الكذب: فكان على على عهد رسول الله ﷺ؛ وأما نفاق العمل: فلا ينقطع إلى يوم القيامة.

وروى عن حذيفة: أن النفاق كان على عهد رسول الله ﷺ، فأما اليوم فإنما هو الكفر بعد الإيمان. وللنفاق علامات تحدّث فيها رسول الله ﷺ، قال: ثلاث مَن كنّ فيه فهو منافق ، وإنْ صام وصلىّ وزعم أنه مؤمن: إذا حدّث كذب، وإذا وَعَد أخلف، وإذا ائتُمن خان.ومن كانت فيه خصلة منهن ففيه ثلُث النفاق». ـ ومن المنافقين مضرب الأمثال: عبدالله بن أُبَىّ بن سلول ـ رأس النفاق عند الأنصار، والذى قال عن النبىّ ﷺ : سَمِّنْ كلبَك يأكُلك، ولئن رجعنا إلى المدينة لَيُخرجنّ الأعزُّ منها الأذل. ـ وهى كلمة كُفر سبّ بها النبىّ ﷺ . و هَمّ المنافقون بقتل النبىّ ﷺ ليلة العقبة فى رجوعه من تبوك، وكانوا أربعة عشر من المنافقين، يعرفهم النبىّ ﷺ بأسمائهم، فسأله أصحابه: ألا تبعث إليهم تسألهم وتحاكمهم فإذا أُدينوا قُتلوا؟ قال: أكره أن تقول العرب: لمّا ظفر بأصحابه، أقبل يقتلهم! وقال: بل يكفيهم الله بالدُّبيلة ـ أى يكفيهم عقاب الله لهم بأن أصابهم بالدبيلة، وهى داء عضال ـ والمثل الثانى فى النفاق ،كان ثعلبة بن حاطب

الأنصارى، سأل النبىّ ﷺ أن يدعو له يُغنيه الله، فقال له: ويحك يا ثعلبة! قليلٌ تؤدى شُكرَه خيرٌ من كثير لا تُطيقه. أمَا ترضىَ ألا تكون مثل نبيِّك، لو شئتُ أن تسير معى الجبال ذهباً لسارت! ـ ولكن ثعلبة أقسم لو أغناه الله ليعطين كلّ ذى حقّ حقّه، فدعا له، فاغتنى ثعلبة، واتّجر فى الأغنام حتى كثرت وضاقت بها المدينة، فاتخذ لنفسه مَرْبًى وادياً من أوديتها، ونسى الصلاة، حتى صلاة الجمعة، ولما جاء رجلٌ من طرف النبىّ ﷺ يجمع الصَّدقة، رفض ثعلبة أن يعطيه الصدقة، بدعوى ضخامتها، وقال إنها أخت الجزية، فقال الرسول ﷺ لمّا سمع القصة: يا وَيْحَ ثعلبة ـ قالها ثلاثاً، وقد حاول ثعلبة أن يرسل صدقاته إليه من بعد، فرفض أن يقبلها منه، ورفضها أبو بكر لمّا صار خليفة، ثم عمر، بدعوى أن ما رفضه صاحباهما لا يجيزانه، وهكذا لما مات ثعلبة مات منافقاً!! ـ وبعد، فهل يمكن أن يكون الصوفى ثعلبة آخر أو بن سلول؟ والجواب: هذا جائز وقد كان، وكل من قالوا بالحلول والاتحاد ووحدة الوجود من الصوفية، منافقون، يُظهرون بخلاف ما يضمرون!

٩٩٨- نفس...

(بفتح الفاء) النَفَس هو ترويح القلب عند الاحتراق، وقيل ترويح القلوب بلطائف الغيوب.

و«صاحب الأنفاس» أرقى وأصفى من «صاحب الأحوال»، ولذلك فإن «صاحب الوقت» مبتدئ، بينما «صاحب الأنفاس» منته، و«صاحب الأحوال» بين الاثنين، فالأحوال وسائط، والأنفاس نهاية الترقّى، والأوقات لأصحاب القلوب، والأحوال لأرباب الأرواح، والأنفاس لأهل السرائر.

٩٩٩- نفس...

(بسكون الفاء) النَفْس خمسة أضرب: حيوانية، وأمّارة، ومُلهَمة، ولوّامة، ومطمئنة، وكلها أسماء للروح، إذ ليست حقيقة النفس إلا الروح، وليست حقيقة الروح إلا الحق، فالنفس الحيوانية: تُسمّى الروح باعتبار تدبيرها للبدن؛ والنَّفْس الأمّارة بالسُّوء: هى التى يقول عنها الحق: ﴿ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ ﴾ (يوسف ٥٣)، باعتبار ما يأتيها من المقتضيات الطبيعية الشهوانية، للانهماك فى اللذات الحيوانية، وعدم المبالاة بالأوامر والنواهى؛ والنفس اللّوّامة: هى التى يقسم بها الحقّ إذ يقول: ﴿ وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ﴾ (القيامة ٢)، باعتبار أخذها فى الرجوع والإقلاع، فكأنها تلوم نفسها، وتتوب عن سيئاتها،

وتستغفر الله الغفّار التواب؛ **والنفس المطمئنة**: هى التى تتنور بنور القلب فتتخلع عن صفاتها الذميمة وتتخلق بالأخلاق الحميدة، وتترقّى إلى جناب عالم القدس، مساكنةً إلى حضرة رفيع الدرجات، حتى خاطبها ربّها فقال: ﴿ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً * فَادْخُلِي فِي عِبَادِي * وَادْخُلِي جَنَّتِي ﴾ (الفجر٢٧/ ٣٠) .

وقيل النفس: ناطقة، وصالحة، وحُكمية، ونبوية: وهى ناطقة: من حيث علمها بالأمور المرتبة على أسبابها؛ وصالحة: من حيث اشتياقها إلى الكمال وحرصها على الخير، وقلقها من النقص، واهتمامها بالنجاة؛ وحكمية: من حيث إصدارها للأحكام ومعرفتها بالمذاهب وأجناس العلوم، واستدلالها على التوحيد، وتحقيقها مفهوم الصفات وسرّ الوحدانية، وبحثها فى الهوية والوحدة الإلهية المطلقة والجواهر الروحانية؛ ونبوية: من حيث تمثيلها للسعادة، وإقامتها البراهين السهلة المفهومة، ومخاطباتها بالخطاب الملائم، وتحدّيها بالمعجزات .

والنفس الرحمانية: هى الوجود الإضافى الوحدانى والمتكثّر بصور المعانى التى هى الأعيان وأحوالها فى الحضرة الواحدية، تشبّهاً بنفس الإنسان المختلف بالصور مع كونه هواءً ساذجاً فى نفسه، وترويحاً للأسماء الداخلة تحت اسم الرحمن عن كَرْبها، بحكم كمون أعيانها فيها بالقوة، كترويح الإنسان بالنفس .

وحظوظ النفس: هى ما راد فى حقوقها، وحقوقها هى ما يتوقف عليه حياتها وبقاؤها .

وفلان بلا نفس: معناه أن لا تظهر عليه أخلاق النفس، لأن من أخلاق النفس الغضب والحدّة والتكبّر والشَرَه والطمع والحسد، فإذا كان عبدٌ قد سلم من هذه الآفات وما شاكلها يقال إنه بلا نفس، يعنى كأنه ليس له نفس .

١٠٠٠ - نفى...

النفَى: محو الصفات المذمومة، ويقابله «**الإثبات**»، أى إثبات الصفات الحميدة؛ أو أن **النفى** لمراد الإنسان، **والإثبات** لمراد الله؛ والمحبة هى نفى مراد المحب بإثبات مراد المحبوب، وقيل فى ذلك: اختيار الحق لعبده مع علمه بعبده، خيرٌ من اختيار العبد لنفسه مع جهله بربّه.

١٠٠١ - نقباء...

من مصطلحات صوفية الشيعة الإسماعيلية؛ والنقيب - والجمع نقباء، هو

شاهد القوم وضمينهم وعريفهم وسيّدهم، سُمّي بذلك لأنه ينقّب عن أمورهم.

والنقباء في حكومة الغيب الصوفية: هم المطّلعون على خفايا الضمائر، لانكشاف الستائر لهم عن وجوه السرائر، ويُسَمُّون أيضًا الحُجَج، وعن ابن عربي، وابن قسيّ، وعبد الحقّ بن سبعين، وابن أبي واصل ـ تلميذه ـ أنهم اثنا عشر، وقيل: هم ثلاثمئة في كل زمان؛ وقيل ثلاثة، وقيل أربعون، وعند الصوفية يُسَمُّون علىَ اسم علىّ، وقيل النقباء اثنا عشر نقيباً في كل زمان، لا يزيدون ولا ينقصون، على عدد البروج الاثني عشر؛ وكلّ نقيب يُعلَم بخاصية كل برج، وجعل الله بأيديهم علوم الشرائع المنزّلة، ولهم استخراج خبايا النفوس وغوائلها، ومعرفة منكرها وخداعها.

١٠٠٢ - نقد التصوف...

كان التصوّف محل نقد شديد من الخوارج والشيعة والسُّنة؛ فالخوارج انتقدوا المتصوّفة لقولهم بالنّية عن العمل؛ والشيعة انتقدوا قولهم بالخوارق والشطح، وممن نقدوهم من الشيعة: جعفر الصادق، والأردبيلي في كتابه: حديقة الشيعة، والشيخ المفيد، وابن بابويه، وحملوا على ابن عربي، والكاشاني، والنسفي، والملاّمتية، والإلهامية، والتلقينية، ونعتوهم بالكفر والزندقة. ومن المؤلفات ضدهم «كتاب» الشيخ المفيد بعنوان: «الردّ على الحلاّج»، وانصب نقد المُلا صدرا على فئة البطّالين المشتغلين بالشهوات من المتصوّفة. وكان أول كتاب لأهل السُّنة ضدهم: هو كتاب «التنبيه والردّ على أهل الأهواء والبدع» للملطي، وسمّاهم فيه الروحانية، والفكرية، والحيّة، وقال فيهم السّراج في كتابه، «اللُّمَع» أنهم من المترسّمين بالتصوّف؛ والجوزي في كتابه «تلبيس إبليس»، لاصطناعهم السماع والرقص واستدعاء الوَجْد، والدعوة إلى التوكل والعزلة، والميل إلى الشطح والمخاريق؛ وابن تيمية وقد صنّفهم إلى صوفية حقائق، وهم المخلصون؛ وصوفية أرزاق يسكنون الخوانق ويتعيشون من الأوقاف؛ وصوفية رسوم يتشبهّون بالصوفية في اللباس والآداب. ـ وكان ابن تيمية شديد الوطأة على القونوي، والتلمساني، والرومي وحمل على ابن عربي في كتابه «نُصوص الحِكَم»، وعلى ابن سبعين في كتابيه «البُد» و«الاحاطة»، وابن الفارض في «نظم السلوك» وانتقدهم في الأندلس الشاطبي في كتابه «الاعتصام» ـ فهذه أهم الكتب ضد التصوف، وهؤلاء أبرز النقاد. ومن الصوفية من نقدوا أنفسهم، كالسّراج في «اللُّمع»؛ والسُّلمي

فى «غلطات الصوفية»؛ والغزالى فى «المنقذ من الضلال»، وفى «المقصد الأسنى»؛ والسهرودى فى «عوارف المعارف».

١٠٠٣ - نقشبندية...

طريقة صوفية، مؤسسها محمد نقشبند المتوفى ٧٩١هـ، وتسمى أيضاً خوجكانية، وأحرارية، ومجددية، وخالدية، بحسب اسم الخليفة المؤسس للطريقة. ومعنى نقشبند - أو بالأحرى نقش بندر - ربط النقش، والنقش هو انطباع الذكر على القلب، وربطُه - أى بقاؤه من غير محو، والطريقة على ذلك أساسها الذكر.

١٠٠٤ - نقيب...

عند الصوفية، النقيب: هو كبيرهم، القائم بأمورهم، ينقّب عنها وعن مصالحهم فيها؛ **النَّقَّاب**: هو شيخ الطريقة؛ **والنُّقباء**: هم الضُمّان وهم شهود الناس، سموا كذلك لأنهم يعرفون مناقب الجماعة، والطريقة الموصّلة، وهم الأمناء؛ **والنقيب** أكبر من العَرِيف؛ **وحَمَلة القرآن** هم عُرفاء أهل الجنة. **والنقباء** فى بنى إسرائيل اختارهم موسى من كل سِبْط ليرأسهم، وهؤلاء هم المتقون. ونقباء ليلة العقبة: هم الذين بايعوا الرسول ﷺ، وعددهم سبعون رجلاً وامرأتان، فاختار منهم رسول الله ﷺ اثنى عشر رجلاً، وسمّاهم النقباء، ثم صار هو النقيب عليهم من بعد.

١٠٠٥ - نكاح...

هو الزواج، وهو توجه حىّ يطلقون عليه اصطلاح «النكاح السارى فى كل الذرارى»، يعنى فى كل الكائنات، وهو ميل أصلى وذاتى فيها لأن تخرج من الخفاء والغيبة والإطلاق إلى الظهور والتعيّن. ووصف هذا النكاح بأنه «سارى فى جميع الذرارى» أنه فى كل شئ، حتى فى القياس بحدّيه والنتيجة، وفى الاتحاد بالفاعلية والمفعولية، وفى الأحياء بالذكر والأنثى، وفى مرتبة الحضرة الواحدية بأحدية الذات فى صور التعيّنات، ثم بأحدية جميع الأسماء، ثم بأحدية الوجود الإضافى فى جميع المراتب والأكوان.

وهناك حديث، قيل هو موضوع، يقول: كنت كنزاً مخفياً فأحببت أن أُعرَف»، وقوله أن أُعرَف هو الوصلة بين الخفاء والظهور، وتلك الوصلة هى أصل هذا «النكاح السارى فى جميع الذرارى» والذى يجعل كل شئ يميل إلى الظهور عن طريق النكاح، المقتضى لوجود المحبية والمحبوبية. (انظر أيضًا الزواج والعزوبة، والتأهل).

١٠٠٦ - نواب...

المقصود هم نواب القطب. ونائب الإمام يعرف أن الإمام غيره، وأنه نائب عنه.

وأكثر الأولياء من عامة الصوفية لا يعرفون القطب والإمامين والأوتاد، إلا النواب فإنهم يعرفونهم.

١٠٠٧ - نوالة...

والنَّوال أيضاً: وهو كل ما ينيله الحق أهل القُرب من خِلَع الرضا؛ **والنوالة** تطلق على كل خِلْعة من الله على كل أحد.

١٠٠٨ - نور...

النور عند الصوفية: عبارة عن الوجود باعتبار ظهوره في نفسه وإظهاره لغيره في العلم والعيْن، ويسمى شمساً أيضاً.

والنور: هو الحقّ، ويسمى **نور الأنوار**: لأن جميع الأنوار منه؛ وهو **النور المحيط**: لإحاطته بالوجود كله، ولكمال إشراقه ونفوذه في كل الموجودات للطفه؛ **والنور القيّوم**: لقيام الجميع به؛ **والنور المقدّس**: أي المنزّه عن جميع صفات النقص؛ **والنور الأعظم الأعلى**: إذ لا أعظم ولا أعلى منه؛ **ونور النهار**: لأنه يستر جميع الأنوار، كالشمس تستر جميع الكواكب.

وقد يطلق النور على كل ما يكشف المستور من العلوم اللدنّية والواردات الإلهية التي ترد على القلب.

وعند **الصوفية الشيعة**: أن أصل النور عند أهل الله، ما كان منه يظهر على عبد الله بن عبد المطلب، والد النبيّ ﷺ، وانتقل منه إلى النبيّ ﷺ، ومنه إلى الحسن والحسين وذُرّيتهما، ويعنى ذلك التنبيه إلى الروحانية في الأئمة والمشايخ، وإلى شمول الله لهم بالعناية والرعاية. ونُورهم هو العلم الإلهي الذي يضفيه عليهم، ولكنهم لا يكلّمون به الناس إلا على قدر عقولهم. وعند الغُلاة من متصوفّة الشيعة، فإن هذا النور الإلهي يجعل من الأئمة والمشايخ آلهة، أو كما قالوا: فَهُم آلهة كلهم، وكما قالوا: الله ثلاثة أنوار، أول وثان وثالث، فالأول محمد الحبيب ﷺ، لأن الله لما أراد أن يخلق محمداً، أظهر من نوره نوراً، أنار به الكون كله، فلما بلغ النور حدّ العظمة، سجد له محمد، فخلق الله من سجدته عمود نور شفّاف كالزجاجة، يُرىَ باطنها بظاهرها، وظاهرها بباطنها، ظل يراه محمد وهو بين يدىْ ربّ العالمين مدة ألف عام، يتكشّف له فيها الغيب قبل بدء الخلق بألف عام. وخلق الله آدم من نور محمد، ثم خلق المرادين من نور آدم، ثم

خلق المريدين من نور المرادين!! - وكل ذلك ترهات وهلاوس صوفية!

١٠٠٩-نوربخشية..

طريقة صوفية، صاحبها محمد نوربخشي المولود سنة ٧٩٥هـ (١٣٩٣م)، والمتوفى سنة ٨٦٩هـ (١٤٦٥م)، وكان قد ورث الطريقة الهمدانية عن خواجه إسحق الختلاني. ومعنى نوربخش: «واهب الأنوار»، وتقوم الطريقة: على لبس السواد باعتباره الرمز للنور والحياة الكامنين؛ وعلى فكرة الولاية المحمدية، وأن محمداً ﷺ إمام الأولياء؛ وتقول بوحدة الوجود، وما يسميه نوربخش «البروز»، أى التناسخ. ولطريقته ١٧ قاعدة هى قوام التقاليد والسلوك والاعتقاد، وهى: (١) ألا يسجد الأتباع إلا لله؛ (٢) وأن يطيعوا النبىّ والأئمة الاثنى عشر؛ (٣) وأن يكونوا على وضوء دائم؛ (٤) ويراعوا أوقات الصلاة؛ (٥) ويتلوا الأوراد بعد كل صلاة؛ (٦) وأن يستعملوا السُّبحة؛ (٧) ويرددوا هذا الذِّكر دائماً: اللهم أنت المعبود، بحق لا إله إلا أنت. أنت القدوس. أنا المسكين العاصى ولكنك غفّار الذنوب؛ (٨) وأن يجعلوا صورة المرشد دائمة الحضور فى بصائرهم؛ (٩) وأن يعتبروا كل بلاء ومصيبة رحمة؛ (١٠) وألا يسكتوا على ظلم يقع عليهم أو على الناس؛ (١١) وأن يرددوا أسماء الرُّسُل والأئمة الاثنى عشر، مع وضع السبابة على الجبين لدى رؤية كل هلال؛ (١٢) وأن يُحلّوا مطعمهم ويُطهّروا لباسهم عنواناً لنظافة الظاهر والباطن؛ (١٣) وأن يحترموا الوالدين غاية الاحترام؛ (١٤) وأن يكتموا أسرار السلسلة؛ (١٥) وأن يتوجّهوا إلى الله بقلوبهم دائماً؛ (١٦) وأن يعاملوا الناس برأفة وشفقة؛ (١٧) وأن يسلموا كل شىء لأمر الله.

والنوربخشى كان ثورياً، وقام بحركة لقلب نظام الحكم، و ثوريته تتصادم مع قواعد الطريقة فى بعض بنودها كتسليم الأمر لله، وتتفق مع البعض كرفض الظلم. وكان شاعراً، وله شعر بالفارسية فى وحدة الوجود، وفى العشق الإلهى، يقول:

قطرةٌ نحن من محيط الوجود
فيا إلهى متى أعود من القطرة
ويا إلهى أبلغنى بحر النور

ويقول:

منذ اليوم الذى استجليت فيه طلعة حبيبى
غدوت متميزاً من الخلائق أجمعين
وذلك أنى صرت مُبرّأً من العقيدة والمذهب
والملة كليةً، وأصبحت ولا دين لى!!!؟

١٠١٠-نورية...

سميت الصوفية بالنورية لقول الرسول عليه الصلاة والسلام: من أحب أن ينظر إلى عبد نوّر الله قلبه فلينظر إلى حارثة»، فأخبر أنه منوّر القلب. وقال: إذا دخل النور في القلب انشرح وانفسح. قيل وما علامة ذلك يا رسول الله؟ قال: التجافي عن دار الغرور، والإنابة إلى دار الخلود، والاستعداد للموت قبل نزوله».

والنورية طريقة أبي الحسين النوري المتوفى سنة ٢٩٥هـ، وتشبه طريقة الجنيد - وكان النوري من أقرانه؛ وأساسها الإيثار، وتلتبس طريقتهم مع طريقة أخرى باسم النورية كما سيأتي بعد.

والنورية فرقة من المتصوفة غلطوا في الأنوار، وزعموا أنهم يرون أنواراً، وأن قلوبهم فيها أنوار من الأنوار التي وصف الله تعالى بها نفسه، ويصفون ذلك النور بصفة أنوار الشمس والقمر، ويزعمون أن ذلك من أنوار المعرفة والتوحيد والعظمة، ويزعمون أنها ليست مخلوقة، ونسوا أن الأنوار كلها مخلوقة، وأنه ليس لله نور موصوف محدود، والذي وصف الله به نفسه ليس بمحدود، ولا بمدرك، ولا يحيط به علم الخلق، وكل نور تحيط به العلوم فهو مخلوق، وأنوار الله كلها هدايات الخلق، وأنوار المصنوعات دلائل يستدل بها على معرفة التوحيد. ومعنى تنوُّر القلب: معرفة الفرقان والبيان من الله عز وجل.

١٠١١-نوم...

النوم على أقسام: نوم غفلة، ونوم عادة؛ ونوم الغفلة - غير محمود، بل هو معلول لأنه أخو الموت.

وقيل لو كان في النوم خير لكان في الجنة نوم. وقيل: لما ألقى الله على آدم النوم في الجنة أخرج منه حواء، وكل بلاء إنما حصل حين حصلت حواء! وهذه أقوال من الإسرائيليات.

وقال الشبلي: من نام غفل، ومن غفل حُجِب. وقيل: المريد أكله فاقه، ونومه غلبة، وكلامه ضرورة. وقيل: نوم المريدين والطالبين نوم الغرقى، لأنهم ينامون عن غلبة، وأما الواصلون فإن نفوسهم يزعجها صدق عزيمتهم فلا تسترسل في الاستقرار، وهو التجافي الذي يقول فيه الله تعالى: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾ (السجدة ١٦).

ثم إن للناس نظرين: نظرٌ إلى تحت لاستيفاء الأقسام البدنية، ونظرٌ إلى فوق لاستيفاء الأقسام العلوية الرحمانية. والنفس بتركيبها تستلين النوم، وأرباب

الهمم يزعجون النفس عن طبيعتها بالنظر إلى اللذات الروحية، فتتجافى جنوبهم عن المضاجع، ويخرجون عن صفة الغفلة، ومن ذلك أن يغيّروا عادات نومهم، ومن كان منهم ذو وسادة يترك الوسادة، ومن كان ذو وطاء يترك الوطاء، وفى ذلك يقول أحدهم: لأن أرى فى بيتى شيطانًا أحبّ إلى من أن أرى وسادة، فإنها تدعونى إلى النوم. (أنظر قيام الليل والاحتلام).

١٠١٢ - نون...

النون فى قوله تعالى: ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ﴾ (القلم ١)، حيث النون هو انتقاش صور المخلوقات بأحوالها وأوصافها كما هى جملة واحدة، فهو العلم الإجمالى فى الحضرة الأحدية، والقلم هو التفصيل، فتكون المخلوقات على حسب ما جرى به القدر فى اللوح المحفوظ الذى هو مظهر الحضرة.

١٠١٣ - نهاية...

هى الرجوع إلى الله مبدأ كل شئ؛ وقيل الرجوع إلى الصفاء الذى كان فى عالم الأرواح قبل التعلّق بالقالب؛ وقيل: معناه أن نهاية المريد وغايته أن يبلغ إلى حال بدايته حيث خلقه الله فى بطن أمه، وأنه كان فى هذه الحالة فى غاية الفقر والحاجة إلى الله والتوكل، ولا حافظ له إلا هو؛ وقيل: معناه أن السالك لما كان فى الابتداء كان جاهلاً فصار عارفاً، إلا أن معرفته صيّرته بدورها متحيّراً جاهلاً، وكان فى طفولته جاهلاً، ثم يكبر فيصير له علم، ثم يشيخ فيصبح جاهلاً، والله تعالى يقول: ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا﴾ (النحل ٧٠)؛ وقيل معناه أن المريد فى البداية عبدٌ لله، والله تعالى ربّه، يعنى كما أنه فى البداية عبد، فكذلك يكون فى النهاية.

وأرباب النهايات: هم الذين استقامت بواطنهم وظواهرهم لله، وحقيقتهم عند الله تعالى، جعلهم من جنوده فى خلقه، وبهم يهدى، ويُرشد، ويجذب أهل الإرادة، وظاهرهم محفوظ، وباطنهم معمور بالعلم.

ونهايات السفر إلى الله أربع، فنهاية السفر الأول: برفع حُجُب الكثرة عن وجه الوحدة، والسير إلى الله من منازل النفس، بإزالة التعشق من المظاهر والأغيار، إلى أن يصل العبد إلى الأفق المبين، وهو نهاية مقام القلب؛ ونهاية السفر الثانى: برفع حجاب الوحدة عن وجوه الكثرة العلمية الباطنية، والسير فى الله بالاتصاف بصفاته والتحقق بأسمائه،

وهو السير فى الحق بالحق إلى الأفق الأعلى، وهو نهاية حضرة الواحدية؛ ونهاية السفر الثالث: هو زوال التقيّد بالضدين الظاهر والباطن، بالحصول فى أحدية عين الجمع، وهو الترقّى إلى عين الجمع والحضرة الأحدية، وهو مقام قاب قوسين أو أدنى، وهو نهاية الولاية؛ ونهاية السفر الرابع: عند الرجوع عن الحق إلى الخَلق فى مقام الاستقامة، بشهود اندراج الحق فى الخلق، واضمحلال الخلق فى الحق حتى يُرىَ عين الوحدة فى صورة الكثرة ، وصورة الكثرة فى عين الوحدة، وهو السير بالله عن الله للتكميل، وهو مقام البقاء بعد الفناء، والفرق بعد الجمع.

١٠١٤ - نيّة...

النيّة: موضوعها القلب، فهى قلب القلب، يعنى لولا محل النّية فى القلب لما كانت تُعرف قيمة القلب، وهى زمام القلب، وروح العمل وقائده، وباطن العلانية من الحركات والسكنات والنطق والسكوت، وموضع نظر ربّ العالمين من سرّ العبيد.

والنية: هى القصد، وعزم القلب، وانبعاثه نحو ما يراه موافقاً. وفى الحديث : **إنما الأعمال بالنيات ولكل امرىء ما نوى**».

وصدْق النية: صلاح القول والعمل، ولا قولٌ ولا عمل إلا بنيّة. **والصوفية على النية: فى المطعم والمشرب والملبس والنوم وكافة شئون حياتهم**، وربما تتفق فى العمل الواحد نيات كثيرة على مقدار ما يحتمل العامل من النوايا والعلم، ومن ىخلص نيته كفاه الله ما بينه وبين الناس، وبقدر **النية بقدر عون الله**. ولا يجمع الخير إلا حُسن النية، ورُبّ عمل صغير تعظّمه النية، ورُبّ عملٍ كبير تُصغّره النية، **ومُخلص النية** يكفيه القليل من العمل، ولابد للنية أن تكون بين يدّ العمل. وعن الثورى قال: كانوا يتعلمون النية للعمل كما يتعلمون العمل. وقالوا: **اطلبوا النية قبل العلم. والنية خير من العمل، ونية المؤمن دائمة ومتصلة بينما الأعمال منقطعة، ونيّة المؤمن من عمله.**

والنية من أعمال القلوب، وفى الحديث أن الله يقول: ليس كل كلام الحكيم أنقبل، ولكنى أنظر إلى همّه وهواه، فمن كان همّه وهواه لى جعلت صمته ذكراً، ونظره عبراً»، وفيه أيضاً : **إن الله لا ينظر إلى أجسامكم ولا إلى أموالكم، إنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم**» .- أى ينظر إلى نواياكم وما يتمخض عنها من عمل.

وعن عبد الله بن عمر قال : من تكن الدنيا نيته جعل الله فقره بين عينيه،

وفارقها أرغب ما يكون فيها؛ ومن تكن الآخرة نيته، جعل الله غناه فى قلبه، وجمع عليه ضيعته، وفارقها أزهد ما يكون فيها. وفى الحديث : إنما يقتتل المقتتلون على النيّات. ومن مات على مرتبة من المراتب بُعث عليها».

والنية عند بعض الصوفية: الإخلاص؛ وعند آخرين: الصدق؛ وعند الجماعة: هى صحة العقد وحُسن القصد، ومن أوليات كل عمل.

وأول مجريات الأمور عند فساد النية: سوء الحال والمآل؛ وأول ارتداد عن الاستقامة: ضعف النية فيتمكن الهوى. وإذا قويت النية صحّ العزم. وإذا صلحت للعبد نيته، دامت استقامته؛ وإذا صارت المعاملة إلى القلب استراحت الجوارح. وأفضل للعبد أن يعرف نفسه، وأن يقف على حدّه، ثم يُحكِم حاله، ثم يقوم بعمله الذى فُتح له. والثواب يُعطَى على قدر النية لا على قدر العمل.

* * *

باب الهاء

* * *

١٠١٥ - هاء...

الهـاء: اعتبار الذات بحسب الحضور والوجود، والهُوَ: اعتبارها بحسب الغيبة والفقد .

١٠١٦ - هاجس...

يعبرون به عن الخاطر الأول، وهو الخاطر الربّانى، وهو لا يخطئ أبداً، وقد يسمونه السبب الأول، ونَقْر الخاطر، فإذا تحقق فى النفس سمّوه إرادة، فإذا تردد الثالثة سمّوه همّة، وفى الرابعة سمّوه عزماً، وعند التوجه إلى القلب إن كان خاطر فعل سمّوه قصداً، ومع الشروع فى الفعل سمّوه نية .

١٠١٧ - هباء...

الهَبَاء: هو ما فتح الله فيه صور العالم، مع أنه لا عين له فى الوجود إلا بالصور التى فتحت فيه، ويسمى بالعنقاء من حيث أنه يُسمَع به ولا وجود له فى عينه، كهذا المخلوق الخرافى الذى اسمه العنقاء، ويسمى بالهيولى أيضاً .

١٠١٨ - هجرة...

هجرة الصوفية لا تكون إلا فى سبيل الله، وهى أنواع: منها هجرة أصحاب الرسول ﷺ إلى الحبشة، ليكونوا فى أرض لا يمنعهم أهلها أن يعبدوا الله؛ وهجرة النبىّ ﷺ الى المدينة هرباً بدينه، وبأمر الله؛ وهجرة أصحابه إلى المدينة، لنصرة النبىّ ﷺ، وكانت هذه واجبةً أول الإسلام، حتى قال: لا هجرة بعد الفتح؟؛ وهجرة المسلمين من دار الحرب إلى دار الإسلام؛ وهجرة المسلم لما حرّم الله، لقوله ﷺ: والمهاجر مَن هجَر ما حرّم الله؛ وهجرة أهل المعاصى تأديباً لهم، فلا يُكلَّمون ولا يُخالطون حتى يتوبوا، كما فعل النبىّ ﷺ مع كعب وصاحبيه. - وهجرة أهل الله: قد تكون من كل ذلك: فقد تكون فى ذات الصوفى، فيهاجر من ذاته إلى ذات الله، كالحلاّج حينما قال: ما فى الجُبّة غير الله، يعنى أنه فنى عن ذاته وصار يعيش بالله وفى الله؛ وهجرة الصوفى إلى الكهوف والغيران (جمع غار وهو الكهف)، لكى يكون مع نفسه خالصاً لله، ولذلك يُسَمُّون الشكفتيّة، يعنى قاطنى الكهوف. والنبّى ﷺ كان يفعل ذلك قبل البعث، فكان يتحنّث فى غار حِراء. ومن الذين هاجروا فى سبيل الله من الصوفية الكبار: ابن أدهم، والحلاّج، والخوّاص، وابن سبعين، والسنوسى، والسهروردى، والشاذلى، والشافعى،

والشَّعراني، والبدوي، والبلخي، وابن عربي، والقونوي، والغزالي، والقنائي، وابن مسرّة، وابن سبعين، وابن مشيش، وذو النون المصري، وآخرون، فمن معاني التصوّف أن الصوفية هم السائحون في أرض الله.

وقيل: الهجرة نوعان: إمّا هربًا وإمّا طلبًا؛ **والهجرة الهرب** ستة أنواع: **الأولى: الهجرة من دار الحرب إلى دار الإسلام**، وكانت فرضاً أيام النبيّ ﷺ، وهذه الهجرة باقية مفروضة إلى يوم القيامة، وفي زمن الخروب في المغرب والأندلس، فرّ الكثير من الصوفية إلى مصر هرباً من الحرب؛ وفي أيامنا في البوسنة والهرسك والشيشان؛ **والهجرة التي انقطعت بالفتح** هي القصد إلى النبيّ ﷺ خاصةً؛ **والثانية: الهجرة من أرض البدعة**، فلا يجوز البقاء في أرض يُضطَهد فيها الإسلام والمسلمون، مثل اليمن الآن، والسعودية، ومصر، والجزائر، والمغرب، والولايات المتحدة، وبريطانيا،؛ **والثالثة: الهجرة من أرض يغلب عليها الحرام**، فيُباح العرى والزنا والخمر، فإنّ طلبَ الحلال فرضٌ على كل مسلم؛ **والرابعة: الهجرة فراراً من الأذى والضرر والسجن والاضطهاد** والسبّ كلّ يوم، في الصحف والمجلات، وفي أفلام السينما والتليفزيون، وأول من فعل هذه الهجرة إبراهيم، فإنه لما خاف على نفسه قال: ﴿إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي﴾ (العنكبوت٢٦)؛ **والخامسة: الهجرة بسبب الخوف من المرض** في أرضٍ لا تُراعَى فيها أصول الصحة، فلا الماء نقي، ولا المزروعات صالحة للأكل، ولا الدواء متاح، ولا العلاج متيسر، وتنتشر فيها البطالة، ويعزّ السكن، ويُحارَب العلم والعلماء، ويُقصرَ التعليم على الأغنياء؛ **والسادسة: الهجرة فراراً** خوفَ الأذية في المال، فالمسلمون يعلمون أن أمريكا وبلاد أوروبا كلما خرجت دولة إسلامية على ما يريدون منها، حاصروها اقتصاديًا، وصادروا أموالها وأموال رعاياها في مصارفهم، ومال المسلم له حُرمةُ دمه.ـ وأما **الهجرة طلباً**، فإما أنها هجرة لمقتضيات الدين، وإما لمقتضيات الدنيا. ولمن يطلب الدين سبعة أنواع من الهجرة: **الأولى: الهجرة للاعتبار** ـ كما يفعل الصوفية؛ **والثانية: الهجرة طلباً للحَجّ**؛ **والثالثة: الهجرة للجهاد**؛ **والرابعة: الهجرة طلباً للمعاش**؛ **والخامسة: الهجرة سعياً للتجارة والكسب**؛ **والسادسة: الهجرة طلباً للعلم**؛ **والسابعة: الهجرة للحاق بالمزارات**، وفي الحديث: **لا تُشَدّ الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد** ـ الحديث؛ **والثامنة:**

الهجرة للرباط، لإعمار الأراضي النائية المعرّضة للغزو؛ **والثانية: الهجرة لزيارة الإخوان في الله**. فهذه هي الهجرات التي يقوم بها الصوفية من أهل الله، والمُتاحة لهم بإذن الله.

١٠١٩ - هجوم...

فعْل صاحب الغلبات، وذلك عند قوة الرغبة، والانفلات من دواعي الهوى والنفوس، عند قوة رغبة الطالب إذا لاحت له أعلام المزيد في حال طلبه المطلوب، فلو وجد نفسه في بحر لجيّ لَسَبَحَهُ، ولو حالت دون مراده النار لاقتحمها بالهجوم. ومعنى الغلبات قريب من معنى الهجوم، وهي غلبة الرغبات وإلحاح المطالبات.

١٠٢٠ - هم...

الهَمّ: هو عقد القلب على فعل شيء من خير أو شر قبل أن يفعل.

والهَمّ: إشارة إلى جمع الهموم فيجعلها هَمّاً واحداً. قال الخرّاز: اجمع هَمّك بين يدَيّ الله تعالى. وقيل: ينبغي للعبد أن يكون هَمّه تحت قدمه، يعني لا يهمه حالٌ ماضٍ ولا حالٌ مستقبل، ويكون مع وقته.

والهَمّ المفرد والسرّ للتجرّد: هو هَمّ العبد إذا تجرّد من جميع الأشغال وتفرّد بمراقبة ذي الجلال، فيصبح هَمُّه هو سرُّه، وسرُّه هو هَمُّه، ويتجرّد فلا تعارضه خواطر قاطعة، ولا عوارض مانعة عن التوجه والإقبال والقُرب والاتصال.

١٠٢١ - همة...

الهِمّة: هي توجُّه القلب إلى قصده بجميع قواه الروحانية إلى جانب الحق لحصول الكمال له أو لغيره. وهي أعزّ شيء وضعه الله في الإنسان، ولاستقامتها علامتان؛ **الأولى**: حالية: وهي قطع اليقين بحصول الأمر المطلوب على التعيين؛ **والثانية**: فعلية: وهي أن تكون حركات صاحبها وسكناته جميعها مما يصلح لذلك الأمر الذي يقصده بهمته، فإن لم يكن كذلك لا يسمى «صاحب همّة» بل هو «صاحب آمال كاذبة وأماني خائبة».

والهِمّة من مَحْتدها (أصلها) الأول لا تَعلُّق لها إلا بالجانب الإلهي، وكل ما تعلّق بالاكوان تعلُّقاً ما، فإن تعلُّقه لا يسمى همّة بل هَمّاً.

والهِمّة من يَهُمّ أي يقصد إلى الشيء وتنعقد النية عليه، فيتولد العزم فتكون منه العزيمة على الفعل.

وهمّة الإفاقة: هي أولى درجات الهمة، وهي الباعثة على طلب الباقي وترك الفاني.

وهمّة الأَنَفة: هى الدرجة الثانية وهى التى تورث صاحبها الأنفة من طلب الأجر على العمل، حتى يأنف قلبه من أن يشتغل بتوقع ما وعده الله تعالى من الثواب على العمل.

وهمّة أرباب الهمم العالية: هى الدرجة الثالثة، وهى التى لا تتعلق إلا بالحق ولا تلتفت إلى ما سوى ذلك، فهى أعلى الهمم، فلا رضا لها بالأحوال والمقامات، ولا بالوقوف على الأسماء والصفات، ولا تقصد إلا عين الذات.

١٠٢٢ - همدانية...

الهمدانية طريقة صوفية شيعية، صاحبها **السيد على الهَمَدانى**، المتوفى سنة ٧٨٦هـ (١٣٨٤م)، ويُنسب إليه أنه قسّم محبى النبىّ ﷺ إلى: **الأولياء**، والشيعة، **والأصفياء** - وهؤلاء هم الصوفية، صفت نفوسه من الكدورات وهذه الطريقة ورثها محمد نوربخشى عن خواجه إسحق الختلانى، وصارت فيما بعد هى الطريقة النوربخشية. (أنظر أيضاً النوربخشية).

١٠٢٣ - هو...

هو: الغيب الذى لا يصح شهوده للغير، وهو فى حق الله إشارة إلى كنه ذاته.

«وهو بلا هو»: إشارة إلى تفريد التوحيد، كأنه يقول **«هو»** بلا قول القائل **«هو»**، ولا كتابة الكاتب **«هو»**. وأيضاً فإن **«هو بلا هو»** يعنى بلا ظهور هذين الحرفين: الهاء والواو. يعنى أنه تعالى المشار إليه بـ **«هو»** لا يمكن وصفه ولا الكلام عنه إلا **«بهذا»** الضمير الإشارى: **«هو»**. وهذه الحقيقة عنه تعالى قد يشار إليها أيضاً بالتعبير الاصطلاحى: **«هى هى بلا هى»**، يعنى: **هى هذه الحقيقة بلا زيادة ولا نقصان**.

ومن ذلك القبيل أيضاً قول القائل: **«أنا بلا أنا»**، **«نحن بلا نحن»**: يعنى بذلك تخليّه عن أفعاله؛ وقول القائل: **«أنا أنت وأنت أنا»**، فكان مجنون ليلى إذا سُئل عنها يقول: أنا ليلى - يعنى: **أنه غاب بليلى عن ليلى، حتى يبقى بمشهد ليلى، ويشهد الأشياء كلها بليلى**.

١٠٢٤ - هوى...

هو ميل القلب بالكلية إلى وجهة المحبوب، والإعراض عمّا سواه، وتجريد القصد له فى كل حين، وصرف الهمة إليه.

وفى **الهوى** تستحكم المحبة وتشتد صورتها، وينبسط سلطانها، ويستولى لاعج الشوق، ويجدّه النظر إلى الصور

الجميلة والمحاسن الرائعة النبيلة، والشمائل اللطيفة المعانى.

ولا يصح الاتصاف بالهوى، كقوله تعالى: ﴿ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ﴾ (النازعات ٤٠)؛ وفى الحديث: أخوف ما أخاف على أمتى اتّباع الهوى وطول الأمل»، إلا لمن خرج عن هواه وآثر طاعة حبيبه على ما سواه. ولمّا سئل الجنيد: ما هو الوصل؟ قال: تَرْك الهوى. ـ وطاعة الحق هى أعلى الطاعات، وهى التى تخالف ميل النفس إلى مقتضيات الطبع، فكان الهوى نوعان: الهوى الربّانى، والهوى الإنسانى: والأول يميل بصاحبه إلى الجهة العلوية، والثانى يميل به إلى الجهة السفلية.

١٠٢٥ - هوية...

هى الحقيقة المشتملة على الحقائق اشتمال النواة على الشجرة فى الغيب المطلق.

وهوية الحق تعالى: عينه الذى لا يمكن ظهوره إلا باعتبار جملة الأسماء والصفات، فكأنها إشارة إلى باطن الواحدية، لعدم اختصاص الهوية باسم أو نعت، أو مرتبة أو وصف، بل الهوية إشارة إلى كل ذلك على سبيل الجملة والانفراد، وشأنها الإشعار بالبطون أو الغيبة، وهى مأخوذة من لفظة «هو» الذى هو الإشارة إلى الغائب.

وهو: فى حقّ الله تعالى إشارة إلى كنه ذاته باعتبار أسمائه وصفاته، مع الفهم بغيبوبة ذلك، كقول القائل:

إن الهوية عين ذات الواحد
ومن المحال ظهورها فى شاهد
فكأنها نعتٌ وقد وقعت على
شأن البطون وماله جاحد

والهوية: هى الوجود المستوعب لكل كمال وجودى شهودى للحق، والحكم على ما وقعت عليه الغيبة لا يمكن استيفاؤه فلا يدرك، فقيل إن الهوية غيب لعدم الإدراك لها.

١٠٢٦ - هيبة...

تعظيمٌ فى القلب يمنع من النظر إلى غير المحبوب، وهذا المقام ذاتى للمحبّ لا يفارقه، إلا أنه يشتد عند تجلّى صفات الجلال، ولا ينقطع إلا مع عدم المشاهدة والرجوع إلى الحسّ.

والعابد إذا ظهرت له عظمة الله استشعر الهيبة، فإذا سبق جماله تعالى استشعر الأُنس. وكلما تقدّم العابد فى عبادته ازداد الله عنده هيبة، وزادت خشيته منه، وبَعُد عن الأُنس، لأن الإنسان لا

يأنس إلا بمن على شاكلته، ولا توجد مجانسة بين الله والإنسان، ولا مشاكله بين العبد وربّه.

والهيبة والأنس: حالتان فوق القبض والبسط، كما أن القبض والبسط فوق الخوف والرجاء، فالهيبة مقتضاها الغيبة؛ والأنس مقتضاه الصحو والإفاقة. والهيبة تتسلط على النفس؛ والأنس يتسلط على القلب، والله يُفنى نفس عباده بانكشاف جلاله؛ وأيضاً هو يُنعّم قلوبهم بمشاهدة جماله، ولذلك يعتبر **أهل الفناء**: الهيبة أرقى من الأُنس، وأما أهل البقاء: فيفضلون الأُنس، وهم بالأنس يبقون، ولكنهم بالهيبة يفنون.

١٠٢٧- هيولى...

مصطلح يونانى قديم، استخدمه الصوفية، دليل تأثرهم بالفلسفة اليونانية. **والهيولى عند الصوفية**: اسم الشئ بنسبته إلى ما يظهر فيه من الصور، فكل باطن تظهر فيه صورة فهو هيولى. (انظر هباء).

* * *

باب الواو

* * *

١٠٢٨ - واجب الوجود...

وجوب الوجود: عند الصوفية هو استغناء الموجود بالذات بوجود هو عينه، أو استغناؤه تعالى فى موجوديته فى الخارج عن غيره، ونقيضه **الوجوب بالغير**، وهو الذى للذات باعتبار غيره، كالابن يلزم لوجوده الأب، فوجوده إذن واجب وإنما بالغير. وعند البُرْسى الصوفى مثلاً، **واجب الوجود هو الله**، فهو ذات كل موجود، وسرّه وكلمته وأمرُه، ووليُّه على كل شئ، فوجود كل موجود به، بينما وجوده هو بذاته، وهو لذلك واجب الوجود.

١٠٢٩ - واحد...

اسم الذات، **والواحدية** اعتبار الذات من حيث انتشاء الأسماء منها، وواحديتها بها مع تكثّرها بالصفات.

والواحد من لا مثل له يدانيه، ولا شكل يلاقيه، ولا قسيم يجانسه، ولا نديم يؤانسه، ولا شريك يعاضده، ولا معين يساعده، ولا منازع يعانده. أحديّ الحقّ، صمديّ العين، ديمومى البقاء، أبديّ العزّ، أزلى الذات، لأنه الواحد فى كل ذلك، فهو واحد فى عزّ سنائه، فردٌ فى جلال بهائه، وترٌ فى جبروت كبريائه، قديمٌ فى سلطان عزّه، مجيدٌ فى جمال ملكوته. يقول: ﴿ **وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ** ﴾ (البقرة ١٦٣)، فلولا أنه واحد ورحمن رحيم، لتلاشى العباد إذا تعرّضوا لعرفانه. سبحانه!

١٠٣٠ - واحدية...

مجلى ظهورت الذات فيه صفةٌ، والصفةُ ذاتاً، فبهذا الاعتبار ظهرت كل من الأوصاف عين الأخرى، فالمنتقم عين الله، والله عين المنتقم، والمُنعم عين الله، والله عين المنعم، وبذلك تكون النعمة التى هى الرحمة هى عين النقمة التى هى العذاب، وتكون النقمة أيضاً هى عين النعمة، وكل هذا باعتبار ظهور الذات فى الصفات وفى آثارها، فكل شئ مما ظهرت فيه الذات بحكم **الواحدية** هو عين الآخر باعتبار التجلّى **الواحدى**، وهو ما يسمى **التجلّى الإلهى**.

والفرق بين **الأحدية والواحدية والألوهية**: أن الأحدية لا يظهر فيها شئ من الأسماء والصفات؛ **والواحدية** تظهر فيها الأسماء والصفات مع مؤثراتها، لكن بحكم الذات لا بحكم اقترانها، فكل منها فيه

عين الآخر؛ والألوهية تظهر فيها الأسماء والصفات بحكم ما يستحقه كل واحد من الجميع، ويظهر فيها أن المنعم ضد المنتقم، والمنتقم ضد المنعم، وكذلك باقى الأسماء والصفات. (أنظر الأحد والأحدية والتوحيد).

١٠٣١ - وارد...

الورد: كل ما يرد على القلب من المعانى الغيبية من غير تعمُّد من العبد.

والفرق بين الوارد والبادى: أن الوارد ما يرد بعد البادى فيستغرق القلوب ؛ والوارد له فعل، وليس للبادى فعل ، لأن البوادى بدايات الواردات. قال ذو النون: واردٌ حقٌّ جاء يُزعج القلب .

١٠٣٢ - واسطة...

واسطة الفيض، وواسطة المدد: هو الإنسان الكامل الذى هو الرابطة بين الحق والخَلق بمناسبة الطرفين، كما قيل فى الحديث القدسى (الموضوع): لولاك ما خلقتُ الأفلاك.

١٠٣٣ - واصل...

هو الكامل المكمَّل الذى بلغ هذه المرتبة بمتابعة حضرة النبىّ ﷺ، وهو مَن تهيأت لقواه اللطيفة تزكية بالإضافة إلى لطيفة الحق.

١٠٣٤ - واقع...

ما يثبُت بالقلب ولا يزول بواقع آخر مثله، بعكس الخاطر فإنه يزول بخاطر آخر مثله .

١٠٣٥ - واقعة...

ما يرد على القلب أثناء الذِّكر واستغراق الحال مع الله، فيكون السالك بين النوم واليقظة، ويرى ما يراه من الغيب وكأنه واقع، أمّا ما يراه فى حال اليقظة فيسمى مكاشفة.

١٠٣٦ - واقفية...

فرقة من المتصوفة المبطلة، يشتق الاسم الذى أطلق عليها هذا الاسم قديمًا من اسم الواقف، وهو الذى تصيبه وقفة، كأن يعجز عن تذوق الطاعات.

والواقفية ضلّوا من حيث فهمهم للسلوك، فتأدّى بهم ذلك إلى قلة المبالاة وترك الأدب ومجاوزة الحدود، فأسرهم الشيطان وغلبتهم النفس والهوى، باعتبار توقفهم فى السلوك حتى يتأكدوا مما هم فيه ويكون لهم الإخلاص على ما هم عليه، فطاش قصدهم وانتقصت عباداتهم.

١٠٣٧ - واو...

هو الوجود المطلق المتخلِّل لكل الموجودات.

١٠٣٨ - وقد...

في حكومة الغيب الصوفية: الأوتاد هم الرجال الأربعة الذين على منازلهم الجهات الأربع من العالم، أي: المشرق، والمغرب، والجنوب، والشمال، بهم يحفظ الله تلك الجهات لكونهم محل نظره تعالى. وكان الصوفية يقولون أن أبا سليمان الداراني من الأوتاد.

١٠٣٩ - وتر...

الوتر: أي الواحد، وهو الذات باعتبار سقوط جميع الاعتبارات، فإن الأحدية لا نسبة لها إلى شئ، ولا نسبة لشئ إليها، خلاف الشفع، أي الزوج، الذي باعتباره تعيّنت الأعيان وحقائق الأسماء.

١٠٤٠ - وَجْد...

الوَجْد: ما يكون عند ذكر مزعج، أو خوف مقلق، أو توبيخ على زلة، أو محادثة بلطيفة، أو إشارة إلى فائدة، أو شوق إلى غائب، أو أسف على فائت، أو ندم على ماض، أو استجلاب إلى حال، أو داع إلى واجب، أو مناجاة بسرّ.

والوَجْد مقابلةُ الظاهر بالظاهر، والباطن بالباطن، والغيب بالغيب، والسرّ بالسرّ، واستخراج ما لك بما عليك مما سبق لك لتسعى فيه، فيُكتب لك بعد كونه منك، فيُثبَت لك قَدَم بلا قَدَم، وذِكر بلا ذكر.

والوَجْد: أن تُستخرج للعبد حقيقته الإلهية التي وُجدت وجوداً سابقاً، وعليه - وقد تبيّنها - أن يسعى إلى الظفر بها من جديد. والوجود في الأحوال (أحوال الوجد) شعلة متأججة من نار العطش تستفيق لها الروح بلمع نور أزلي وشهود رفعي.

وكل ما صادف القلب من غمّ أو فرح فهو وَجْد. والوجْد مكاشفات من الحق.

والوَجْد وجدان: وجد ملك: أي أن يملكك إذا وجدك، ووجد لقاء. وكل وجد تجده فهو وجد لقاء، وكل وجد لا يشهد له الكتاب والسنة فهو باطل.

والوَجْد لا يكون إلا لأهل البدايات، لأنه يَرِد عقب الفَقْد، فمن لا فَقْد له لا وَجْد له.

والواجد: صاحب التلوين، يجد تارة بغيبة صفات النفس، وأخرى بوجودها؛ ويثيره تارة سماع خطاب المحبوب، وتارة يكون بشهود جماله، ولذا قيل إن الوَجْد هو خشوع الروح عند مطالعة سرّ الحق، أو عجز الروح عن احتمال غلبة الشوق من حلاوة الذكر، أو بتأثير وارد من الله يورث الحزن أو السرور.

ومن أصحاب الوجد من يرقص من السماع، وهو ليس بنقص، وإنما النقص لراقص يستريح بالوجد لا بالموجود فى الوجد.

وليس من الصدق إظهار الوَجْد من غير وجد نازل. وقد يزعق الواجد، وقد يبلغ إلى حد لو ضُرب وجهه بالسيف لا يشعر فيه بوجع، وقد يمزق ثيابه، وقد يرمى الخرقة إلى الحادى، وكل ذلك لا ينبغى إلا إذا حضرته نية يجتنب فيها التكلف والمراءاة. يقول الجنيد:

الوجد يُطرِب مَن فى الوَجْد راحته

والوَجْد عند شهود الحق مفقود

والواجدون طبقتان: واجد ومتواجد.

ومن صفات الواجدين الآية: ﴿مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾(الزمر ٢٣)، والآية: ﴿وجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ (الحج ٣٥)، ولما قرأ النبىّ ﷺ الآية: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ (النساء ٤١) صُعِق - يعنى غُشِى عليه. والقشعريرة، والخشية، والوجل، والصَّعْق، كلها من صفات الواجدين، ومنها الزفير، والشهيق، والبكاء، والغشية، والأنين، والصراخ، والصيحة إلخ. وقيل: الواجدون ثلاثة أصناف: فَصِنفٌ يتواجدون فإذا تكدّروا تكدّر انقطع وجدهم؛ وصِنْف يتواجدون فإذا تكدّروا تغيّر تواجدهم ولم ينقطع؛ وصنف يتواجدون باستمرار وبلا انقطاع، لأن كل شىء عندهم كالمفقود.

وقالوا: المتواجدون ثلاثة أصناف: فصنف يتكلف الوجد ويتشبّه؛ وصنف يستدعى الوجد، فتواجدهم مُطايبة وفرح وسرور؛ وصنف هم أهل الضعف من أبناء الأحوال وأرباب القلوب، يعجزون عن ضبط جوارحهم وكتمان أحوالهم، فينفضون عنهم ما لا طاقة لهم بحمله.

وصَفْو الوَجْد: معناه أن لا يعارضه فى وجده شئ غير وجوده.

والوجدان: هو أخصّ من الوجد، لأنه مصادفة الحق سبحانه، فبعد وَجْد الملك قد يكون وَجْد اللقاء، وهو المسمى بالوجدان.

وفرقٌ بين الوجود والتواجد، فالوجود يكون بغيبة الوَجْد، وأما التواجد فيدخل فى الاكتساب.

والوَجْد قد يُكرَه لمشاهدة علّة فى الذى يتواجد. والمواجيد الحادة فى الأذكار القوية قد يبلغ بها أن يُضرب الواجد على وجهه بالسيف فلا يحس. والسكون والتمكّن أفضل وأعلى من الحركة والانزعاج فى الوَجْد. ومن الواردات ما يوجب

السكون، ومنها ما يوجب الحركة. ولا يضر نقصان الوَجْد مع فضل العلم، وفضل العلم - يعنى الصحو بلا وجد - أتم من فضل الوجد.

١٠٤١ - وجود أول...

قال بعض الصوفية من أصحاب وحدة الوجود، كابن عربى: إن الوجود الأول هو الفائض من الله، وهو نور ان منه النبىّ ﷺ وعلىّ، والذين قالوا ذلك خاصة هم الصوفية الشيعة، جعلوا الوجود الأول لمحمد وعلىّ معًا، لأنهما من نور واحد، غير أن الله بعث عليًا ع كل نبىّ سرًا ومع محمد جهرًا، وهؤلاء نسبوا إلى النبىّ ﷺ قوله: كنتُ نبيًا وآدم بين الماء والطين، وقالوا على منواله عن علىّ: كُنت وليًا وآدم بين الماء والطين، وبذلك صيّروا محمدًا وعليًا واحدًا عند التحقيق، وقالوا عنهما أنهما معًا صورة الإنسان الكامل: وجه الله، وجنب الله، والأول والآخر، والظاهر والباطن. - وبعد - فهذه قصة فلسفة صوفية الشيعة عن الموجود الأول والإنسان الكامل..

١٠٤٢ - وجود ووجودية...

الوجود فقدان العبد بمحاق أوصاف البشرية ووجود الحق، لأنه لا بقاء للبشرية عند ظهور سلطان الحقيقة، وهو يأتى بعد الارتقاء عن الوَجْد، وهو أخصّ من الوَجْد والوجدان، لدوامه بدوام الشهود، واستهلاك الواجد فيه، وغيبته عن وجوده بالكلية. والتواجد هو تكلّف الوجد بملاحظة نِعَم الله.

ووحدة الوجود: اصطلاح أطلقوه على معتقدات بعض الفرق الصوفية من أن الحقيقة الوجودية واحدة، وأن الكثرة الظاهرة مظاهر وتعيّنات فيها، أى أن الخَلق الظاهر هو الحق الباطن، ويُعرَف أهل هذه الفكرة بأصحاب وحدة الوجود، أو القائلين بالاتحاد، والمَثَل الذى يتمثلونه فى ذلك كتاب «الإنسان الكامل فى علم الأواخر والأوائل» لعبد الكريم الجيلى. وقد غلط من قال بذلك وقصد إلى ما استخلصه المتقولون، وإنما فى اعتقادنا أن المشايخ: ابن عربى، والجيلى، والحلاج، والبسطامى، وابن الفارض، وغيرهم، ربما قد عنوا بما كتبوه حقيقة التوحيد، ووصفوا به فناء العبد عن صفات البشرية وتحققه بصفات الربوبية، وإلاّ فإنهم يكونون قد خرجوا عن دائرة الإسلام. وليست فكرة الاتحاد أو الحلول إلا فكرة الصوفية عن الإله الواحد، وهو نتيجة لجمع الصوفية بين التشبيه والتنزيه، واعتبار الله تعالى فى كل شئ، وفى نفس الوقت فوق كل شئ. وفى الحالة التى

انفردوا بها، وهى حالة الفناء، ليس من سبيل للتعبير عن صلتهم الشخصية بالله تعالى سوى القول أن الاثنين قد صارا واحداً . وهم يدركون ذلك بالذوق وليس بالعقل، وابن الفارض يتحلل من فكرة الحلول أو الاتحاد بالكلية صراحةً ويقول:

منى حلتُ عن قولى: «أنا هى»، أو أقُل
وحاشا لمثلى أنها فىّ حلّت
وها دحيةٌ وافى الأمينَ نبيناً
بصورته فى بدء وحى النبوة
أجبريلُ قل لى: كان دحيةُ إذ بدا
لمُهدى الهُدَى فى هيئة بشرية؟
ولى من أتمّ الرؤيتين إشارةٌ
تُنزِّهُ، عن رأى الحلول، عقيدتى
وفى الذكر ذكر اللَّبس ليس بمنكر
ولم أعْدُ عن حُكْمَىّ كتاب وسُنة

واللَّبس الذى يذكره ابن الفارض هو ظهور الحق فى صور أعيان الممكنات على نحو ما ظهر جبريل للنبىّ فى صورة دحية الكلبى أحد أصحابه، ولكنه يحذر سامعيه من أن يخلطوا هذا بالمعنى الذى يغلط به القائلون بمذهب الحلول أو وحدة الوجود.

وينبغى التنويه بشدّة إلى أن مذهب وحدة الوجود بعيد كل البعد عن التصوف، وفى رأى بعض الفلاسفة النقاد أنه من الخطأ اعتبار عبارات الشطح التى صدرت من بعض الصوفية دليلاً على اعتقادهم بوحدة الوجود، كقول البسطامى: «سبحانى»، أو قول الحلاج: «أنا الحق»، فلا جدوى من اتهامه بأنه يدين بوحدة الوجود، مهما صدر منه من أقوال تُشعر بالتشبيه.

والوحدة التى يقول بها الصوفى هى وحدة شهود وليست وحدة وجود، وفارق بين عبارة تصدر عن صوفى فَنِىَ عن كل شئ سوى الله، فأصبح لا يشاهد فى الوجود غيره، وهذه هى وحدة الشهود، وبين مذهب فى طبيعة الوجود لا يرى صاحبه إلا حقيقة وجودية واحدة، يطلق عليها اسم الله تارة، واسم العالَم أخرى، وهذه هى وحدة الوجود. ويقوم مذهب السهرندى المتوفى سنة ١٠٣٤هـ على التفرقة بين المذهبين. وقيل إن الوحدة التى تجعل الوجود كله واحداً عند ابن الفارض هى وحدة شهود، على خلاف وحدة الوجود عند ابن عربى، ويقال عن مذهبه إنه المذهب الوجودى، أو الوجودية، يقول: إن وجود الواجب الذى هو عين ذات الله هو وجود الممكنات، ومَن عَبَد شيئاً من الممكنات فقد عَبَد الله! - ويقول: لولا سريان الحق فى الموجودات بالصورة ما كان للعالم وجود. - ويلزم من قوله أن لا يكون للواجب تأثير

فى الممكنات، لأنها عنده ـ أى عند ابن عربى ـ نفس الواجب، ومن البيّن امتناع تأثير الشىء فى نفسه، ويلزم على ذلك تعطيل الصانع تعالى، وتكذيب جميع الرسُل والأنبياء، وجميع الكتُب المنزلة.

١٠٤٣ - وجه...

للربّ فى كل موجود وجهٌ كامل، وذلك الوجه على صورة روح ذلك الموجود.

ووجه الحق: هو ما به يكون الشئ حقاً، إذ لا حقيقة لشئ إلا به تعالى ﷻ وهو المشار إليه فى قوله تعالى: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ (البقرة ١١٥)، وهو عين الحق المقيم لجميع الأشياء، فمَن رأى قيومية الحق للأشياء فهو الذى يرى وجه الحق فى كل شئ.

ووجها العناية: هما الجذبة والسلوك اللذان هما جهتا الهداية.

ووجها الإطلاق والقيد: هما جهتا اعتبار الذات، فإن ذات الحق هو الوجود من حيث هو وجود، فإن اعتبرته كذلك فهو المطلق، وما عداه فهى الأعيان المعدومة بدونه، وبه موجودة، فالكل به موجود وهو بذاته موجود، فإن قيّدته بالتجرّد، أى بأن لا يكون معه شئ، فهو الأحد الذى كان ولم يكن معه شئ، ولذا قالوا أنه الآن كما كان. وإن قيّدته بقيْد أن يكون معه شئ، فهو عين الذى هو به موجود وبدونه معدوم، وقد تجلّى فى صورته فأضيف إليه الوجود، فإذا سقطت الإضافة فهو معدوم فى ذاته. وهذا معنى قولهم: التوحيد إسقاط الإضافات.

١٠٤٤ - وحشة...

يقابلها الأُنس؛ والوحشة: هى الخَلوة، والهَمّ، والانقطاع، وبُعد القلب عن المودّات؛ واستوحش ضد استأنس، أى وَجَد الوحشة أو شعر بها، يقال: إذا أقبل الليل استأنس كل وحشى، واستوحش كل إنسى.

وعن الفضيل بن عياض: طوبى لمن استوحش من الناس وأنِسَ بربّه، وبكى على خطيئته.

وعن يحيى بن معاذ: الوحدة مُنية الصدّيقين، والأُنس بالله وحشتهم. وأهل المعرفة وَحْش الله فى الأرض، لا يأنسون إلى أحد.

وعن ابن خبيق: وحشة العباد عن الحق، أوحشت منهم القلوب، ولا وجه الأرض أحدٌ إلا مُستَوحَشٌ منه، أولُهم أنا.

وعن الجنيد سئل: على ماذا يتأسف المحب من أوقاته؟ قال: على زمان بَسْط أورث قبضاً، أو زمان أُنس أورث وحشة.

والصوفية أخلاقهم السكون عند الفقر، والاضطراب عند الوجود، والأنس بالهموم، والوحشة عند الأفراح.

١٠٤٥ - وحي...

الوحي: عند الصوفية من الشيعة: أن النبيّ يُسدَّد بالوحي، والإمام بالعصمة بعد ارتفاع الوحي بموت النبيّ. والصوفية العجم - وهم شيعة. قالوا: العرب لهم نبيّ يُوحَى إليه بالعربية، والعَجَم سَيبعث الله فيهم رسولاً منهم، يُوحَى إليه كمحمد، ويُنزَّل عليه كتابًا كالقرآن، وإنما قرآن العجم هو الفرقان، وسينزل دفعة واحدة. وعند الصوفية الذين تأثّروا بإخوان الصفا، فإن الوحي بعد محمد، ﷺ يكون الرؤيا الصادقة، فهي البديلعي الوحي بعد انقطاعه، والذي تجتمع فيه شروط هذه الرؤيا. سول العجم يكون من العجم ويكون من صوفية الشيعة، فيصبح: المبعوث، وصاحب الزمان، والإمام للناس مادام حيًا.

١٠٤٦ - ود...

الوُدّ من مراتب المحبة عند الصوفية: وهو هيجان القلب والتصاقه بالهوى، لأن المحبة مراتب، ففي البداية: يكون الميل وهو انجذاب القلب؛ فإذا قوى سُمِّي ولعاً؛ فإذا اشتد سُمِّي صبابة؛ فإذا تمكن سُمِّي شغفاً؛ فإذا استحكم سُمِّي هوى؛ فإذا استولى سُمِّي غراماً؛ فإذا نَمىَ سُمِّي حُبًّا؛ فإذا هاج سُمِّي وِدًّا؛ فإذا طفح سُمِّيَ عشقاً. فالود إذن هو المرتبة الثامنة، أو المظهر الثامن للمحبة.

١٠٤٧ - وراثة...

فى التصوّف: هى المتابعة على الطريقة.

وَجَنة الوراثة: هى جنة الأخلاق الحاصلة بحُسن متابعة النبيّ عليه الصلاة والسلام.

وعلوم الوراثة: هى الفقه فى الدين، والصوفية أخذوا حظاً من كل العلوم فأفادهم العمل بالعلم، فلما عملوا بما علموا، أفادهم العمل علوم الوراثة، فهم مع سائر العلماء فى علومهم، وتميّزوا عنهم بعلوم زائدة هى علوم الوراثة.

وفى الآية: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ (فاطر ٣٢)، فلما ذُكر الميراث اقتضى أن يصحّ النسب بصحة السبب، ومن لا سبب له لا نسب له، ولاميراث له. ومحل النسب عند أهل الله من العلماء هو المعرفة، ومحل السبب الطاعة. أو قيل محل النسب فضله تعالى، ومحل السبب فِعْلهم. أو قيل محل النسب اختيارهم له بدءاً، ومحل السبب

إحسانه لهم تالياً. وهم أهل النسب على أقسام الأقوى والأولى فى الاستحقاق. ولا يحصل الاستحقاق إلا بالحضور والمجاهدة. وأهل الله هم الأقوى بهذين، ووراثتهم كالوراثة، تستحق من وجهين بالفرض والتعصيب.

ووراثة الطريقة: هى أن يُورِّث الشيخ الطريقة لأولاده من بعده، مثلما فى الطريقة المولوية التى بقيت متوارثة فى أبناء جلال الدين الرومى وأحفاده، وكذلك الطريقة القادرية التى يتوارثها خلف مؤسسها. والوراثة فى أغلب الطرق الصوفية الشيعية مثل النعمة اللهية.

١٠٤٨ - ورد ...

الوِرْد: اسمٌ لوقت من ليل أو نهار، يَرِد على العبد مكرراً، فيقطعه فى قُربه إلى الله، ويورد فيه فرضاً عليه، أو فضلاً نُدب إليه، فإذا فعل ذلك فى وقت من ليل أو نهار، وداوم عليه، فهو وِرْد قَدَمه، يَرِد عليه غداً إذا قَدِم.

وأيسر الأوراد: صلاة أربع ركعات، أو قراءة سورة من المثانى، أو سعىٌ فى معاونة على برّ أو تقوى. وكان لمحمد ابن سيرين فى كل ليلة سبعة أوراد، فكان إذا فاته منها شىء قضاه بالنهار، فسمى العمل الموظَّف المؤقّت ورداً. والورد كذلك هو الحزب من أحزاب القرآن، يتلوه العبد لوقت ما. وبعض الصوفية يجعلون الأوراد من أجزاء القرآن، وبعضهم يجعلونها من أعداد الركوع، والبعض يجعلون الأوراد من أوقات الليل والنهار، فإن قطعوا الوقت بآية أو ركعة أو تسبيحة أو شهادة فذاك هو الورد بالنسبة لهم.

والعارفون لا يوقّتون الأوراد، ولا يقسمون الأوقات، ويجعلون الورد واحداً لمولاهم، وهو أن يكونوا له عباداً يخدمون فى كل وقت، ويذكرونه ويسبّحون له، وعليه يتوكلون، ومنه يخافون، وإياه يحبّون. فلو تركوا أوراد المريدين كلهم ما أثّر فى قلوبهم بقسوة ولا فترة، لأنهم لا يتفقدون قلوبهم وأحوالهم بالأوراد، ولا يجمعون قلوبهم على سبب، ولا يقودون نفوسهم بطلب. غير أن المريد بخلاف العارف، والمريد يستبين بالأوراد والأعمال المؤقتة النقصان فى تقرّبه من الله، ويعرف قوة العزم والشِرّة من وَهَن العادة والفترة. ولربما كان نوم العارف أفضل من صلاة الجاهل، وفى الخبر: نوم العالم عبادة ونَفَسُه تسبيح؛ وفى الحديث: عالِمٌ واحد أشدُّ على الشيطان من ألف عابد.

والوِرْد للصوفى هو توبة اليوم، وهو طهوره الجابر لعيوبه، والصلة الناقلة بين

العبد وبين مولاه، ونبيِّه، وشيخه، وطريقه. وهو ثلاثة أنواع: الورد اليومي المؤكد؛ وأوراد التطوع، والورد القلبي.

وفي الورد اليومي: يبدأ الآخ بالتوبة ويقرأ الفاتحة ويستغفر ويقول: لا إله إلا الله وحده لاشريك له، له المُلك وله الحمد، يحيي ويميت وهو حيّ لا يموت، بيده الخير وهو على كل شيء قدير. ثم يدعو بما شاء من الخير.

ووقت الورد في المساء أفضل، ومكانه المفضَّل البيت.

وأوراد التطوع كثيرة، وتكون بملازمة مقرَّر يومي من القرآن، حتى ختمه ثم العودة إليه. ومن التطوّع ملازمة قراءة «تبارك» بعد العشاء، و«يس» فيما بين المغرب والعشاء، و«الواقعة» بعد الصبح، وإن أمكن «عمّ» بعد العصر، و«النجم» بعد الظهر، وسورة «الدخان» في ليلة الجمعة بعد «تبارك»، و«الكهف» قبل ظهر الجمعة؛ والتهليل قبل الغروب يوم الجمعة، وقبل التهليل يكون الاستغفار، والتهليل الجماعي أفضل؛ وختام صلاة الفجر والمغرب بعد الاستغفار بـ «لا إله إلا الله وحده لا شريك له» عشر مرات، و«اللهم أجرنا من النار» سبع مرات، ثم الختام المعتاد مع أدعية الصبح والمساء.

ومن التطوع ملازمة الأدعية النبوية، وأسماء الله الحسنى، في كل يوم اسمٌ بالترتيب، مع الورد اليومي، ويحسن ذلك في شهور رجب وشعبان ورمضان وجزء من شوال.

ومن التطوّع التعبّد بـ «دلائل الخيرات»، و«بُردة البوصيري»، و«منظومة الدردير»، و«مسبّحات الخضر».

ومن التطوّع صلاة التسابيح في الليالي والمواسم المباركة على انفراد أو في جماعة، وصلاة الضحى، والست ركعات بين المغرب والعشاء، والقيام بالأسحار، وملازمة النوافل العشر في مناسباتها، كصلاة الاستخارة، والتوبة، والحاجة.

والورد القلبي يكون عند النوم، فإذا أخذ العبد مضجعه ليدعُ ربَّه ويفوّض أمره إليه، وليقرأ خمساً من أول سورة البقرة، وثلاثاً من آخرها، وآية الكرسي، والآيتين بعدها، وقوله عزّ وجلّ: «وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم»، والآية التي بعدها إلى قوله تعالى: «لقوم يعقلون». ولا يدع أن يقرأ من بني إسرائيل (سورة الإسراء): «قل ادعو الله أو ادعوا الرحمن»، والآية من الأعراف: «إنّ ربكم الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام»، والآيات الخمس من أول سورة الحديد، والثلاث من آخر سورة

الحشر، و«قل يا أيها الكافرون»، و«قل هو الله أحد»، والمعوذتين، وعشراً من أول الكهف، وعشراً من آخرها. وليسبّح ثلاثاً وثلاثين مرة، وليكبّر أربعاً وثلاثين مرة، وإن شاء ربّعها خمساً وعشرين مرة، وزاد فيها التهليل فهذه مائة كلمة. فإذا قام من الليل فليقل: «الحمد لله الذي أحيانا بعد إذا توفانا وإليه النشور»، وليقرأ العشر الأواخر من سورة آل عمران، وليدعُ ربّه. والله تعالى قسّم الليل في قوله: إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه. وأخبر أن قراءة الليل أشدّ وطأً للقلب وأقوم قيلاً للحفظ والذّكر، أي يواطىء القلب اللسان بالفهم والحفظ، وسمّى أهل الليل علماء، وجعلهم أهل الخوف والرجاء، وهم ثلاثة أصناف: فقومٌ قطعهم الليل فهؤلاء المريدون ذوو الأوراد والأجزاء، كابدوا الليل فغلبهم؛ وقومٌ قطعوا الليل فهؤلاء العالمون الذين صبروا وصابروا الليل فغلبوه؛ وقومٌ قطع بهم الليل فهؤلاء المحبون والعلماء، أهل الفكر والمحادثة، وأهل الأنس والمجالسة، وأهل الذّكر والمناجاة، ولله نفحات في الليل والنهار تصيب القلوب المتيقظة وتخطىء القلوب النائمة. وأهل الله: هم الذين يراعون الظلام بالنهار، ويحنون إلى غروب الشمس كما تحن الطير إلى أوكارها عند الغروب، فإذا جنّهم الليل واختلط الظلام، وفُرشت الفُرش، ونُصبت الأسِرّة، وخلا كل حبيب بحبيبه، نصبوا أقدامهم لله، وافترشوا له وجوههم، وناجوه بكلامه، وتملّقوا له بأنعامه، فَهُم إما صارخ، أو باكٍ، أو متأوّه، أو شاكٍ، أو قائم أو قاعد، أو راكع أو ساجد، يؤدّون أوراد الليل ويتحمّلون لأجل الله.

١٠٤٩- ورع...

هو الابتعاد عن الإثم والكفّ عن الشبهات والمعاصي، وأن لا يتكلم العبد إلا بالحق، غضب أو رضى، وأن لا يكون اهتمامه بنفسه أو بالناس وإنما بما يرضى الله تعالى.

وأهل الورع على ثلاث طبقات: فمنهم من توّرع عن الشبهات وهي ما بين الحرام البيّن والحلال البيّن؛ ومنهم من توّرع عمّا وقف عنه قلبه، وهم أرباب القلوب والمتحققون؛ والطبقة الثالثة هم العارفون الواجدون، وفي ورعهم يقول الدارانى: كل ما شغلك عن الله فهو مشئوم عليك.

والأول: هو ورع العموم؛ والثاني: ورع الخصوص؛ والثالث: ورع خصوص الخصوص.

والورع ورعان: ظاهر وباطن، **والظاهر** يُفعَله الله، **والباطن** هو ألا يدخل قلبك سوى الله.

والورع من الزُهد، كما أن الزهد من الإيمان، **والزهد والورع** يجولان فى القلب كل ليلة، فإن صادفا قلباً فيه الإيمان والحياء، أقاما فيه وإلا ارتحلا.

والتورُّع من الورع، وهو التجنُّب والتعفُّف، ومن سُئل عن علم لا يعرفه فقال «**لا أدرى**» ـ **فلا أدرى نصف العلم**، وهى من **الورع**. **والتورُّع والتوقف** فى الأمور هو سيرة المؤمنين إن لم يكونوا علماء، لأن **الورع** جُبن عن الإقدام على الأشياء ببصيرة وتمكين، والقطع بالأمر على علم وخبر.

وقد يفرَّق بين **الورع** وبين **الزهد**: بأن الورع هو ترك الشبهات، والزهد ترك ما زاد على الحاجة. وكذلك يفرق بينه وبين **التقوى**: أن **الورع** هو ترك المحظورات، والتقوى ترك الشبهات.

١٠٥٠ - ورقاء...

الورقاء: هى الحمامة التى يُضرب لونها إلى الخضرة وتشبَّه بها النفس؛ وفى الاصطلاح هى النفس الكلبة، وهى **اللوح المحفوظ**، **ولوح القدر**، **والروح المنفوخ فى الصور** المسوّاة بعد كمال تسويتها، وسميت بالورقاء للطف تنزّلها من الحق إلى الاشباح المسوّاة.

ومن أشهر الشعر الصوفى فى **الورقاء**: **قصيدة ابن سينا** بهذا الاسم من بحر الكامل، ومطلعها:

هبطتَ إليك من المحل الأرفع
ورقاء ذات تعزُّز وتمنُّع

١٠٥١ - وسائط...

هى الأسباب الثانوية التى يتعلق بها أهل السلوك لنيل مقصودهم؛ أو هى الأسباب التى بين الله تعالى وبين العبد من أسباب الدنيا والآخرة، وهى على ثلاثة أوجه: **وسائط مواصلات هى** بوادى الحق، **ووسائط منصلات هى** العبادات، **ووسائط منفصلات هى** حظوظ النفس. ويقول **الرَّوْذبارى**: هو الذى جعل **الوسائط** رحمة للعارفين ليؤثروه عليها.

١٠٥٢ - وسط...

من سُنّة الصوفية شدّ **الوَسَط**، وهو أيضاً من السُنّة عمومًا. روى أبو سعيد قال: حجّ رسول الله ﷺ وأصحابه مشاة من المدينة إلى مكة، وقال: **اربطوا على أوساطكم** بأزركم، فربطنا ومشينا خلفه الهرولة. (أى بسرعة).

١٠٥٣ - وسع...

الوُسْع: هو الطاقة، تقول ليس فى

وسعه أن يفعل، أى ليس فى استطاعته أو قُدرته. والله تعالى يقول: ﴿لا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إلاَّ وُسْعَهَا﴾ (البقرة ٢٣٣). ووُسْع المتحققين، ويسمى وسع الاستيفاء أيضاً، وهو وسع الخلافة - أى خلافة الله فى الأرض: هو التحقق بأسمائه وصفاته، حتى أن يرى أن ذاته هى ذاته، فتكون هوية العبد هى عين هوية الحق، وإنّيته هى عين إنيته، واسمه هو اسمه، وصفته هى صفته، وذاته هى ذاته، فيتصرف فى الوجود تصرف الخليفة فى مُلك المستخلِف.

١٠٥٤ - وسم...

الوَسْم: العلامة، وفى الاصطلاح ما وَسَم الله به المخلوقين فى سابق علمه بما يشاء كيف شاء، فلا يتغير عن ذلك أبداً، ولا يطّلع على علم ذلك أحد. وفى الآية: ﴿إنَّ فى ذَلكَ لآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ (الحجر: ٧٥) قال الصوفية: المتوسّم العارف بما فى سويداء القلوب بالاستدلال والعلاقات، وهو الولىّ. والمتوسّمون: هم العرفاء أهل الله وخاصة، أصحاب المعرفة وأصحاب الأعراف.

١٠٥٥ - وسوسة...

هى لَمّة أو نزغ الشيطان؛ ينظر الشيطان فى القلب ولا غرض له فى تخصيص، بل مراده الإغواء كيفما أمكنه. وفرّقوا بين الهواجس والوساوس، والأولى من النفس، فلا تزال تطالب وتلحّ حتى تصل إلى مرادها، وهو أمر واحد تقصد إليه لا لغيره؛ وأما الوساوس فإن الوسوسة الواحدة لو فشلت بإزاء موضوع، تبدأ وسوسة أخرى بإزاء موضوع آخر.

والوسوسة بخلاف الإلهام، وبخلاف الخواطر؛ فالإلهام: فيْض يقع فى القلب ويدعو إلى العمل بلا استدلال؛ والخواطر: تخطر بالقلب ولا تثبت، وتزول بخواطر أخرى، وأصحّها هو أول خاطر.

وشَرّ الوساوس: هو الذى يدخل بينك وبين حبيبك، ينسيك ألطافه الحسنة، ويذكّرك أفعاله السيئة، ويقلّ عندك ذات اليمين، ويكثر عندك ذات الشمال، ليعدل بك عن حُسن الظن بالله ورسوله إلى سوء الظن.

وفى الصحيح: «ما منكم من أحد إلا وقد وُكل به قرينه»، قالوا: وأنت يارسول الله؟ قال: «نعم، إلا أن الله أعاننى عليه فأسلم، فلا يأمرنى إلا بخير». والقرين هو الشيطان. وقال: «إن الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم». وهو معنى: ﴿إنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بالسُّوءِ﴾ (يوسف ٥٣)؛ فالشرّ من الدم،

وهو موروث: ﴿ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ﴾ (آل عمران ٣٤)؛ وفطرة الشر: هي معنى ﴿الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ﴾ (الناس ١١٤/ ٤). في المعوذة، وهي مؤدّى قوله ﷺ: «إن الشيطان واضعٌ خطمه على قلب ابن آدم، فإن ذكر الله خنس، وإن نسي التقم قلبه، فذلك الوسواس الخنّاس» أخرجه الحافظ الموصلي. وهو قوله تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ (التين ٥، ٦)، ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ (الأنعام ١١٢).

والتعوّذ يحمي من وسوسة الشيطان والنفس، والقلوب إذا ذكرت الله تصاغر الشيطان وغلبت النفس وانهزم الإنسان، وإن لم يُذكر الله تعاظم الشيطان وغلبت النفس وانتصر الإنسان.

وفي الرواية عن سعيد بن المسيب: أنه شهد عثمان وعلياً وكان بينهما نَزْغٌ من الشيطان ـ ونزغ الشيطان: هو وساوسه ـ فما أبقى واحدٌ منهما لصاحبه شيئاً، ثم لم يبرحا حتى استغفر كل واحد منهما لصاحبه. والله تعالى أمر أن تُدفع الوسوسة بالاستعاذة به، قال: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ (الأعراف ٢٠٠)، ولله المثل الأعلى، فلا يُستعاذ من الكلاب إلا بربّها، أي سيدها وصاحبها، فكذلك الشيطان، فرغم أنه شيطان رجيم، إلا أن ربّه هو الله تعالى ـ فهكذا قال بعض السلف من الصوفية، فقال شيخٌ لتلميذه: ما تصنع بالشيطان إذا سوّل لك الخطايا؟ قال: أجاهده. قال: فإن عاد؟ قال: أجاهده؟ قال: فإن عاد؟ قال: أجاهده؟ قال: هذا يطول: أرأيت لو مررت بغنم، فنبحك كلبُها، ومنعك من العبور، ما تصنع؟ قال: أكابده وأردّه جهدي. قال: هذا يطول عليك. ولكن استغث بصاحب الغنم يَكُفُّه عنك!! ـ وقال ﷺ: يأتي الشيطان أحدكم، فيقول له: من خَلَق كذا وكذا؟ حتى يقول له: من خَلَق ربَّك؟ فإذا بلغ ذلك فليستعذ بالله ولْينْتَهِ». ـ وسُئل عن الوسوسة؟ قال: تلك مَحْض الإيمان»، أو قال: ذلك صريح الإيمان»، يقصد أن: الخوف من الوسوسة هو إيمان، أو بالأحرى هو محض الإيمان وخالصه، إشارةً إلى ما يخبره الخائف من الوسوسة، من أن يعاقبه الله تعالى على ما يعتمل في نفسه من الوساوس، فكأنه قال: الجزع من ذلك هو محض الإيمان»، لصحة إيمان الخائف، بأن ما يأتيه من الوساوس قد يفسد عليه إيمانه، فسمّى الوسوسة إيماناً، لمّا كان دفعها

والإعراض عنها، والردّ لها وعدم قبولها، والجزع منها، صادراً عن الإيمان. والاستعاذة إنما لتكون تلك الوساوس من آثار الشيطان. فأمّا الشيخ الصوفي الذي تخالجه الشُّبهة: أن الوسوسة من الشيطان، فمحاجته تكون بالدليل العقلي، كالذي خالطته الشُّبهة أن إصابة إبله بالجَرَب، كانت لمخالطتها بإبل جُرِبَ، فقال له ﷺ: لا عَدْوَى». وردّ الأعرابي عليه، قال: فما بال الإبل تكون من الرمل صحيحة كالظباء، فإذا دخل فيها البعير الأجرب أجْرَبها؟ فقال ﷺ: فمن أعْدَى الأوّل؟! - وبهذا الجواب استأصَل الشُّبهة من أصلها! والمعنى أن الوساوس قد لا تكون من الشيطان وإنما هي تُرّهات نفسية وأضاليل عقلية، نفرت عنها قلوبهم، وعَظُم عليهم وقوعُها عندهم، فصدّت عنها عقولهم. - ومثل ذلك الذين جاءوا إلى الرسول ﷺ يقولون: يا رسول الله، إنّا نجد في أنفسنا ما يتعاظم أحدُنا أن يتكلم به؟ فقال ﷺ لمن عاناها: أوَقد وجدتموه؟ قالوا: نعم: قال: ذلك صريح الإيمان رغماً للشيطان، حسب ما نطق به القرآن، في قوله تعالى: ﴿إنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ (الإسراء ٦٥). - فالخواطر التي ليست مستقرة ولا اجتلبتها الشُّبهه هي التي من الشيطان، وتُدفع بالإعراض عنها والتعوّذ منها، وهي التي يُطلق عليها صريح الوسوسة، وأما التي تجتلبها شُبهة المرض الذهني، أو الاضطراب النفسي، كالوساوس الذُهانية فهي التي تحتاج للعلاج النفسي او للتحليل النفسي، ووساوس الصوفية ليست وساوس ذُهانية psychotic obsessions، ولا هي أضاليل عقلية mental fallacies، ولا هلوسات سمعية auditory hallucinations، ولكنها وساوس وشكوك إيمانية، تأتيهم نتيجة شدّة الإيمان، فقد يعترى الصوفي الشّك ويطوف به طوافاً، وقد شكا الحلاج من مثل ذلك، وكذلك البسطامي، ورابعة العدوية!

والوسوسة من الكلمات الصوفية، ويتوافق معناها مع مبناها، وتكون حديثاً من النفس، والرسول - كما سبق القول - جاءه الرجل يشكو إليه، قال: يا رسول الله إني لأحدّث نفسي بالشيء! وهو معنى أن الوسوسة تكون خَنْساً، يعني تتوالى على فترات فتتقدم وتتأخر، وتُقبل وتُدبر، وتنبسط وتنقبض؛ والشيطان أو الإنسان ذو النفس الأمّارة بالسوء خنّاس، لأنه ينقبض ويتأخر عند ذكر الله.

وفي قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ﴾ (ق ١٦)،

يقول ﷺ برواية أحمد : «إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله، ما يظن أن تبلغ ما بلغت، يكتب الله له بها رضوانه إلى يوم يلقاه؛ وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من سُخط الله، ما يظن أن تبلغ ما بلغت، يكتب الله عليه بها سُخطه إلى يوم يلقاه».

١٠٥٦ - وصال...

مرادف **للوصل والاتصال**، قالوا: هو الانقطاع عمّا سوى الحق، وليس المراد به اتصال الذات بالذات، لأن ذلك إنما يكون بين جسمين، وهذا التوهم فى حقّه تعالى كُفر، ولهذا قال النبيّ ﷺ : الاتصال بالحق على قدر الانفصال عن الخلق.- وقال بعضهم: من لم ينفصل لم يتصل، أى من لم ينفصل عن الكونين لم يتصل بمكوّن الكونين.- وأدنى الوصال مشاهدة العبد ربّه تعالى بعين القلب، فإذا رُفع الحجاب عن قلب السالك وتجلّى له يقال إن السالك الآن واصل.

والوصال فى الصيام: استدل عليه علماء الصوفية بالآية: ﴿وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ (بقرة ٥١)، وقالوا: أن موسى واصل الصيام أربعين يوماً بلياليها، فوعظ بذلك الصوفية: أن لا يشغل المريدون أنفسهم فى الخلوة بالطعام والشراب، ليكون تضرعهم لله كاملاً، فتصفو صلواتهم من كل ما يكدرها من أمور الناس والدنيا. وقال علماء الصوفية: إن أفضل الوصال هو وصال موسى، أى وصال الأربعين، وكان ربّه قد واعدة ثلاثين ليله هى شهر ذى القعدة، وأمره أن يصومها وينفرد بالعبادة، فلما صامها أنكر خُلُوف فمه، فاستاك فعاتبه ربّه، فقد كان خُلوفه كرائحه المِسْك، فأقسدها بالسواك، فزيد عليه عشر ليال من ذى الحجة. وقيل: كان ذلك غداة النحر حين فَدَى إسماعيل؛ وبالمثل أكمل لمحمد ﷺ عشر ليالى للحجّ، فتمت الأربعون لموسى ولمحمد عليهما السلام.

ودلتّ الآية على أن الإعذار سُنّة ماضية، ومثل ذلك إعذاره تعالى لبنى آدم حتى سن الأربعين، فيكون الشيب، لقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ (حقاف ١٥)، فتلك «أربعينية الشيب»، والسابقة «أربعينية موسى».

١٠٥٧ - وصف...

الوَصْف الذاتى للحق: هو أحدية الجمع والوجوب الذاتى والغنى عن العالمين.

والوصف الذاتى للخلق: هو الإمكان الذاتى والفقر الذاتى.

١٠٥٨ - وصل...

يُعبَّر بالوَصْل عن فناء العبد بأوصافه

فى أوصاف الحق، وقد يُعبَّر به عن قيومية الحق للأشياء، فإنها تصل الكثرة بعضها ببعض حتى تتحد.

ويُعبَّر بالفَصْل عن تنزّهه عن حَدَثها.

وَصْل الفَصْل ورأب الصَّدع وجَمْع الفَرْق: هو ظهور الوحدة والكثرة، فإن الوحدة واصلة لفصولها باتحاد الكثرة بها وجمعها لشتاتها؛ كما أن **فصل الوصل:** ظهور الكثرة فى الوحدة، فإن الكثرة فاصلة لوصل الوحدة، مكثِّرة لها بمختلف التعينات المُظهِرة لتنوّع الوحدة فى القوابل المختلفة؛ **ووصل الوصل:** هو العودُ إلى مقام الجمع بالسلوك إلى الله وفى الله، بالاتصال بصفاته والفناء فى ذاته، ليحدث الوصل الحقيقى فى الأبد كما كان فى الأزل.

١٠٥٩ - وصولية...

مصطلح المستشرق ماسينيون، يقصد به القول بأن النفس تصل إلى موافقة الحقّ فتكون فى المنزلة الجامعة التى لا تكثُّر فيها ولا تعدُّد، ولا تفرقة بأى شكل من الأشكال. **والوصولية:** مذهب فلاسفة متصوّفة، كابن سبعين، وابن طفيل، وابن سينا.

١٠٦٠ - وصية...

كثيرةٌ هى وصايا الصوفية للمريدين؛ **والوصية** من ألفاظ القرآن، وتأتى به ثمانى مرات؛ **ووصايا** الله هى ما ألزم به عباده وأوجبه عليهم؛ ولقد أوصى الله الأنبياء: نوحاً، وإبراهيم، وموسى، وعيسى؛ وأوصى أهل الكتاب والمسلمين؛ والذين آمنوا يتواصون بالحقّ وبالصبر. **ومن وصايا الصوفية:** وصية رويم، تقول: يا بنىّ! ليس غير بذل الروح، فإن قدرت على ذلك وإلا فلا تشتغل بترهات الصوفية»؛ **ووصية** سَرِىّ السَّقطى، تقول: لا تستدينوا على الله، ولا تنظروا فى وجوه المُرد (الشبان الصغار لم يراهقوا بعد، مخافة أنْ يشذّوا جنسياً بما يسمى اللواط)؛ **ووصية** أبى سعيد الخَرّاز، تقول: خالص أصحابك مخالصةً، وخالط أهل الدنيا مخالطةً. شاهدهم بظاهرك، وخالفهم بفعلك، ودينك لا تثلب. إنْ ضحكوا فابك، وإن فرحوا فاحزن، وإن استراحوا فجِدّ، وإن ذكروا الدنيا فاذكر الآخرة؛ واصبر على قلّة الكلام، والنظر والحركة، والطعام والشراب واللباس، حتى يُسكنك الله من الفردوس حيث يشاء برحمته؛ **ووصية** ذى النون: تقول: يا أخى! اعلم أنه لا شرف أعلى من الإسلام، ولا كرم أعزّ من التُّقَى، ولا عقل أحرز من الورع، ولا شفيع أنجح من التوبة، ولا لباس أجلّ من العافية، ولا وقاية أمنع من السلامة.

١٠٦١ - وضوء...

هو إزالة النقائص الكونية. وأمرُ الصوفية فى الطهارة الظاهرة على التساهل، واستقصاؤهم فى الطهارة الباطنة. ومن أدبهم فى الوضوء حضور القلب فى غسل الأعضاء، واستدامة الوضوء.

١٠٦٢ - وطر...

الوَطَر: الحاجة والبُغية، يقال قضى منه وطره وأوطاره أى نال بغيته، وفى المصطلح الوَطَر: مُنيَة محمودة عن نعت البشرية وحظوظ النفسانية، فيقال فلان هو المتمكّن فى وطنه، والمعلّى فى وَطَره.

وقال القائل :

ترحّلتُ يا ليلى ولم أقض أوطارى

ومازلت محزوناً أحِن إلى دارى

وقال ذو النون:

أموت وما ماتت إليك صبابتى

ولا قُضيتْ من وِرْد حبّك أوطارى

١٠٦٣ - وطن...

وطن العبد حيث انتهى به الحال، واستقر به القرار.

والوطنات: كل معنى إلهى يستوطن القلب. يقول الدارانى: الإيمان أفضل من اليقين، لأن الإيمان وطنات، واليقين خطرات.

١٠٦٤ - وعد...

الوَعْد المطلق: فى المؤمنين المحسنين، وهو حق العباد على الله فيما أوجبه على نفسه. : ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ (الفتح ٢٩). ويقابله الوعيد، والوعد مرتبط بالرَجاء فى الله، والوعيد مرتبط بالخوف من الله: ﴿وَخَافَ وَعِيدِ﴾ (إبراهيم ١٤).

١٠٦٥ - وعيد...

الوعيد المطلق: فى الكفار والمنافقين، وهو حَق الله تعالى من العباد.

١٠٦٦ - وفاء...

الوفاء بعهد الإقرار بالربوبية : حيث قال الله: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾ (الأعراف ١٧٢).

ووفاء العامة: أن تكون العبادة رغبة فى الوعد ورهبة من الوعيد؛ ووفاء الخاصة: هو العبودية، لا رغبة ولا رهبة ولا غرضاً؛ ووفاء خاصة الخاصة: هو العبودية على التبرّى من الحَوْل والقوة؛ ووفاء للحب: صون قلبه عن الاتساع لغير المحبوب.

ومن لوازم الوفاء بعهد العبودية: هو أن ترى كل نقص يبدو منك راجعاً إليك، ولا ترى كمالاً لغير ربّك.

والوفاء بحفظ عهد التصرُّف: هو أن لا تُذهَل عن عبوديتك وعجزك فى أوقات ما يمنحك من التصرفات وخرق العادات.

١٠٦٧ - وفائية...

طريقة محمد وفا وابنه علىّ المتوفى سنة ٨٠٧هـ، وكانا شاعرين، وشعرهما ينطق بالاتحـاد، ولهـما كلام عـال فى الأدب ووصايا نفيسة. (انظر أيضًا وفاضمى أعلام الصوفية).

١٠٦٨ - وقت...

هو حال العبد فى زمان الحال: لا تعلق له بالماضى ولا بالمستقبل.

وقيل الوقت: ما هو غالب على العبد، وأغلب ما على العبد وقته، والصوفى ابن وقته، فإنه كالسيف يمضى الوقت بحكمه ويقطع.

وقيل الفقير لا يهمه ماضى وقته وآنيه، بل يهمه وقته الذى هو فيه، ومن ساعده الوقت فالوقت له وقت، ومن ناكده الوقت فالوقت عليه مَقْت.

وقد يراد بالوقت ما يهجم على العبد لا بكسبه، فيتصرف فيه فيكون بحكمه.

ويقال: فلان بحكم الوقت: يعنى هو مأخوذ عمّا منه بما للحق.

وقولهم: وقتى مسرْمَد: يعنى أن الحال بينه وبين الله لا يتغير فى جميع أوقاته.

والوقت الدائم: هو الآن الدائم.

١٠٦٩ - وقفة...

هى الحبس بين المقامين، وذلك لعدم استيفاء حقوق المقام الذى خرج عنه، وعدم استحقاق دخوله فى المقام الأعلى، فكأنه فى التجاذب بينهما.

والوقوف الصادق: هو الوقوف مع مراد الحق.

١٠٧٠ - ولادة...

هى التأليف بين المريد والشيخ بحيث يصير المريد جزءاً من الشيخ، كما لو كان ولده من ولادة طبيعية. والولادة بين المريد والشيخ هى ولادة معنوية، كما ورد عن عيسى عليه السلام: «لن يلج ملكوت السماء من لم يولد مرتين». فبالولادة الأولى يصير له ارتباط بعالم المُلك، وبهذه الولادة الصوفية يصير له ارتباط بالملكوت.

١٠٧١ - ولاية...

الولاية صغرى وكبرى، فالصغرى: يتولّى فيها العبد طاعة الله؛ والكبرى: هى التى يتولّى الله فيها عبده فلا يكله إلى نفسه

ولا إلى الناس: ﴿ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (يونس ٦٢).

والولاية في الاصطلاح: قيام العبد بالحقّ عند الفناء عن نفسه؛ وقيل: تولّي الحق سبحانه وتعالى عبده بظهور آسمائه وصفاته عليه، علماً وعيناً، وحالاً وتصرفاً.

وعند الصوفية: نبوة الولاية: هي إرجاعُ الحّق العبدَ إلى الخَلق، ليقوم بأمورهم المُصلحة لشئونهم في ذلك الزمان، على شرط الحال، فمن دعا الخَلق منهم إلى الله تعالى قبل محمد ﷺ، كان في اعتقاد الصوفية رسولاً، ومن دعا بعد محمد ﷺ، كان خليفة لمحمد ﷺ، لكنه لا يستقر في دعواه بنفسه، بل يكون تبعاً لمحمد ﷺ، كمن مضى من الصوفية، مثل أبي اليزيد، والجنيد، والشيخ عبد القادر، ومحيي الدين بن عربي، وأمثالهم.

ومن لم يدعُ إلى الله تعالى، بل وقف مع تدبير أمور الخلق على حسب ما يُنبئه الله تعالى عن أحوالهم، فهو الذي يقال إنه نبيّ نبُوة ولاية، كالخضر مثلاً.

ودائماً هناك فرق بين الولاية والنبوة، ودائماً باب الولاية مفتوح، وإنما باب النبوة قد سُدّ بعد محمد ﷺ؛ ودائماً علامة صحة الوليّ في أي زمان: هي متابعته في الظاهر لنبيّ وقته، إذ الوليّ هو مظهر تصرّف النبيّ، فلا متصرّف إلا واحد، وما قيل من أن الولاية أفضل من النبوة لايصحّ مطلقاً إلا بقيد، وهو أن ولاية النبيّ أفضل من نبوته التشريعية، لأن نبوة التشريع متعلقة بمصلحة الوقت، والولاية لا تعلّق لها بوقت دون آخر، بل إن سلطانها إلى قيام الساعة. وولاية محمد في سُنته، وفيما بلّغه ربّه مما أورده القرآن. وهذا هو ما يقوله المتّقون من الصوفية. (انظر أيضاً ولي).

١٠٧٢ - ولد...

الوَلَد من سلك طريق الشيخ واهتدى بهديه فهو ولده.

وفي دعاء زكريا: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ (آل عمران ٣٨) ردٌّ على جُهّال الصوفية الذين يدأبون على القول: الذي يطلب الولد أحمق، - أي الصوفي المنكر لطلب الولد - فهو لا يعرف أنه بقوله هذا صار هو الغبي الأخرق. وقد قال الله تعالى مخبراً عن إبراهيم الخليل يطلب الولد: ﴿وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ (الشعراء ٨٣)، وقال تعالى في الفاهمين الواعين: ﴿وَالَّذِينَ

يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ (الفرقان ٧٤). ولقد كانت سُنّة الأنبياء والرسل طَلَب الولد، وهى سُنّة نبيّنا ﷺ؛ ولمّا دعا لأنس بن مالك، لم يجد أحسن من أن يدعو له فيقول: **اللهم أكثر ماله وولده، وبارك له فيما أعطيته**». ودعا لأبى سلمة لمّا مات، أن يُخلفه خيراً فى أولاده، فقال: **اللهم اغفر لأبى سلمة**، وارفع درجته فى المهديين واخلفه فى عَقِبه فى الغابرين». ـ والولد منفعة، وخاصةً للصوفى؛ والرسول ﷺ قال: **إذا مات أحدكم انقطع عمله إلا من ثلاث**، فذكر: **ولد صالح يدعو له**». ولو لم يكن إلا هذا الحديث يحضّ على الزواج والولد، لكان فيه الكفاية؛ ومع ذلك فمن النادر أن يكون الصوفى متزوجاً، أو والداً! والأكثر ندرة أن تتزوج الصوفية وأن تنجب!!!

١٠٧٣ - ولع...

الوَلَع ميل قوى دائم، وقد سبق فى باب **الإرادة**.

١٠٧٤ - وَلَه...

الوَلَه: هو إفراط الوجد، وأن تجعل مرآة القلب فى مواجهة جمال الحبيب، وأن تصير ثملاً بشراب الجمال، وأن تصبح به فى عداد المرضى.

١٠٧٥ - ولىّ...

الولىّ فى اللغة: من يلى وَلْياً فلاناً، دنا منه وقَرُب، وتبعه من غير فصل، ونصره. **والوَلىّ** جمعها **أولياء**، وهو المحب، والصديق، والنصير، والجار، والحليف، والتابع، والصهر. تقول: «**اللهَ وَلِيُّك**» يعنى حافظك وساهرٌ عليك. ويقال: «**المؤمن ولىّ الله**» أى مطيعٌ له تعالى. **والولىّ** عند المسلمين يضاهى القديس عند النصارى فى القداسة، إلا أن **الولىّ** أرفع فى الرُّتبة، لأنه يضاف إلى الله تعالى فيقال: **ولىّ الله**، وأمّا قديس فلا تعنى إلا المقدَّس.

والناس فى الدنيا حزبان، فحزب الله، فيه المؤمنون، **ووليُّهم الله**، وحزب الشيطان، وفيه الضالون والظالمون والكافرون، **ووليُّهم الشيطان أو الطاغوت** (البقرة ٢٥٧)، وربما أولياؤهم من الإنس، يستمعون لبعضهم البعض (الأنعام ١٢٨). ولايتخذ المؤمنون أولياءهم من خارج جماعتهم (النساء ١٤٤)، ولا من خارج ملّتهم (المائدة ٥١)، ولا من آبائهم وإخوانهم إن استحبوا الكفر (التوبة ٢٣). والمؤمنون والمؤمنات **بعضهم أولياء بعض**(التوبة٧١)، **والله وليُّهم ورسوله** (المائدة ٥٥)، وهو

تعالى الوليّ والنصير (البقرة ١٢٠)، وهو الوليّ في الدنيا والآخرة (يوسف ١٠١)، والوليّ من الذُّلّ (الاسراء ١١١)، والوليّ والشفيع (السجدة ٤). وفي الدعاء: ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ﴾ (الأعراف ١٥٥)، ﴿وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾ (النساء ٧٥).

والوليّ من يتولى الله سبحانه أمره فلا يكله إلى نفسه لحظة، ومن يتولىّ عبادة الله تعالى وطاعته، فعبادته لله تعالى تجرى على التوالي من غير أن يتخللها عصيان.

ومن شرط الوليّ أن يكون محفوظاً، كما أن من شرط النبيّ أن يكون معصوماً.

والوليّ: هو العارف بالله وصفاته، والفاني عن حاله، الباقي في مشاهدة الحق.

والأولياء طبقتان، سابقون ومقرّبون، وفيهم يقول النبيّ عن ربّه: «من عادى لي ولياً فقد أذنته بالحرب، وما يتقرّب إليّ عبدي بشيء أحب إليّ مما افترضته عليه، ومايزال عبدي يتقرّب إليّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، ولئن سألني لأعطينّه، ولئن استعاذني لأُعيذنّه، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس عبدي المؤمن، يكره الموت وأكره إساءته».

والعداء للوليّ قد يقع عن بُغض يدفع إليه التعصّب، كالرافضي في بُغضه لأبي بكر، وتقع المعاداة من الجانبين، فمن جانب الوليّ فبُغضه لله تعالى وفي الله، ومن جانب المبتدع أو الفاسق، فلإنكار الوليّ عليه وملازمته لنهيه.

وقد يقع العداء بين الوليّ والوليّ، كالمشاجرة التي وقعت بين أبي بكر وعمر، والتي وقعت بين العباس وعليّ، غير أن ذلك يكون اختلافاً في الرأي، وكلاهما صائبٌ حول استخراج حقّ أو كشف غامض.

وفي الحديث «فقد أذنته بالحرب»، وفي رواية «فقد استحلّ محاربتي»، أو «فقد استقبلني بالمحاربة»، أو «فقد بارز الله بالمحاربة»، أو «فقد بارزني»، وهو مجاز، بمعنى أن من كره من أحبه الله خالف الله، ومن خالف الله عانده، ومن عانده أهلكه الله تعالى. وإذا ثبت هذا في جانب المعاداة ثبت في جانب الموالاة، فمن والّى أولياء الله أكرمه الله. ولمّا كان وليّ الله هو من يتولّى الله بالطاعة والتقوى، فإن الله يتولاّه بالحفظ والنُّصرة. وعدو العدو صديق، وصديق العدو

عدو. وعدو وليّ الله هو عدو الله، فمن عادى وليّه كان كمن يحاربه، ومن حاربه فكأنما حارب الله.

وخاتم الأولياء في عالم الولاية كخاتم الأنبياء في عالم النبوة. والقول بخاتم الأولياء كان لأول مرة عن الحكيم الترمذي (عاش إلى حدود ٣٠٠هـ)، وبسبب هذا القول نفوه من ترمذ، ويقول السُّلَمي إنهم شهدوا عليه بالكفر بسبب تصنيفه كتاب «ختم الولاية»، ويقول الترمذي - وهو بخلاف صاحب السنن: إن للأولياء خاتماً، كما أن للأنبياء خاتماً، وأنه يفضل الولاية على النبوة!!

وأقر ابن عربي القول بخاتم الأولياء، فكما أن علم الرسل مردوده مشكاة الرسول الخاتم، فكذلك علم الأولياء من مشكاة الولي الخاتم.

وفضّل ابن عربي كذلك الولاية على النبوة، باعتبار النبوة تنقطع والولاية لا تنقطع، ويعني بالنبوة نبوة التشريع، وأما الولاية فهي دائمة، ثم إن النبيّ يأخذ عن الله بواسطة المَلَك، وأما الوليّ فيأخذ عن الله مباشرة، وهو دائم الإضافة إلى الدين، بعكس النبيّ الذي تنتهي إضافاته بانتهاء نبوته، فكأن النبوة مغلقة، والولاية مفتوحة؛ وخاتم الأنبياء هو واحد بعينه: محمد ﷺ، وخاتم الأولياء ليس واحداً. وكان الحكيم الترمذي يرى نفسه خاتماً، وابن عربي كذلك، وادّعى أحمد التيجاني أنه الوليّ الخاتم، وقال عن نفسه إنه إمام الصدّيقين، ومُمِدّ الأقطاب والأغواث!!!

والفرقة التي ضلّت في تفضيل الولاية على النبوّة دفعها إلى ذلك غلطهم في قصة موسى والخَضِر، إذ الله يقول: ﴿عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا﴾ (الكهف ٦٥)، ويقول الخضر لموسى: ﴿إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ (الكهف ٦٧)، فيقول له موسى: ﴿لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا﴾ (الكهف ٧٣) فظنوا أن القصة مدارها نقص علم موسى إلى جانب علم الخَضِر، والأمر ليس كذلك لأن الله يخص من يشاء بما يشاء، ولا ينال الوليّ الكرامة إلا بحُسن اتّباع النبيّ، فكيف يجوز أن يُفضَّل التابع على المتبوع؟

وقال البسطامي للفقهاء: أخذتم علمكم ميّتاً عن ميّت (يعني بالميّت النبيّ ﷺ)، وأخذنا علمنا عن الحيّ الذي لا يموت (يعني عن الله مباشرة).

وقال ابن عربي: علماء الرسوم (يعني أهل الشريعة) يأخذون خلفاً عن سلف إلى

يوم القيامة، فيبعد النسب، والأولياء يأخذون عن الله، ألقاه في صدورهم من لدنه رحمةً منه، وعنايةً سبقت عند ربهم.

وفي القرآن ﴿ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ ﴾ (الأعراف ١٩٦)، وفي قول القشيري: الصالحون هم الصوفية»، وعند الصوفية من الشيعة: ولي الله هو علي بن أبي طالب!

علي ولي الله أظهر دينه

وأنت مع الأشقين فيمن يحاربه

ويحتج الشيعة بحديث علي مع طلحة في وقعة الجمل: أما سمعت رسول الله يقول: «والٍ من والاه وعادٍ من عاداه»؟

ويحتمل الولي أمرين: أولهما أن يكون فعيلاً مبالغةً من الفاعل كالعليم والقدير، ويكون معناه من توالت طاعته من غير تخلل معصية؛ ويجوز أن يكون فعيلاً بمعنى مفعول، كقتيل بمعنى مقتول، وجريح بمعنى مجروح، وهو الذي يتولى الحق تعالى حفظه وحراسته على الإدامة والتوالي، فلا يخلق له الخذلان الذي هو قدرة العصيان، وإنما يديم له التوفيق الذي هو قدرة الطاعة.

والله تعالى أتبع الأنبياء بالأولياء يخلفونهم في سُنتهم، ويحملون أمتهم على طريقتهم وسمتهم، فلم يُخْلِ وقتاً من داعٍ إليه بحقّ، أو دالٍ عليه ببيان وبرهان، وجعلهم طبقات في كل زمان.

وفي تفسير : ﴿ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ ﴾ (الأعراف ٤٦)، قال السُّلَمي: أصحاب المعرفة هم أصحاب الأعراف. يقصد بأصحاب المعرفة الأولياء. وقال ابن عربي: رجال هم العرفاء، أهل الله وخاصته ـ يقصد الأولياء.

وفي تفسير الآية : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾ (الحجر ٧٥) قال الصوفية: المتوسّم: هو العارف بما في سويداء القلوب بالاستدلال والعلاقات ـ يعني الوليّ.

والأولياء في التفسير الصوفي: هم الراسخون في العلم في الآية: ﴿ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ ﴾ (آل عمران ٧).

واختلف الناس على قولين في جواب للسؤال: هل يجوز أن يعلم الوليّ أنه وليّ أم لا؟ أحدهما أنه لا يجوز، وأن ما يظهر على يديه ويحب أن يلاحظه بعين خوف المكر، لأنه لا يأمن أن يكون مكراً واستدراجاً له. وقد رُوي عن السَّرِيّ أنه قال: لو أن رجلاً دخل بستانًا، فكلّمة من رأس كلّ شجرة، طيرٌ بلسان فصيح ـ قال: السلام عليك يا وليّ الله ـ فلو لم يخف أن يكون ذلك مكراً، لكان مكروراً به؛ ولو علم أنه وليّ، لزال عنه الخوف،

وحصل له الأمن. ومن شرط الولي: أن يستديم الخوف إلى أن تتنزل عليه الملائكة كما قال عز وجل: ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا﴾ (صلت ٣٠)، لأن الوليّ هو من كان مختوماً له بالسعادة، غير أن العواقب مستورة، ولا يدرى أحد ما يُختَم له به. ولهذا قال النبيّ ﷺ: إنما الأعمال بالخواتيم. ـ والقول الثاني: أنه يجوز للولي أن يعلم أنه وليّ، مثلما يجوز لغيره، وقد أخبر النبيّ ﷺ من حال العَشَرة من أصحابه أنهم من أهل الجنة، وعرف ذلك لأنه وليّ بالإضافة إلى أنه نبيّ، فلما أخبر عنهم لم يكن في ذلك زوال خوفهم، بل صاروا بهذا العلم أكثر تعظيماً لله سبحانه وتعالى، وأشدّ خوفاً وهيبة. فإذا جاز للعشرة أن يعرفوا ذلك عن أنفسهم، ولم تخرجهم معرفتهم عن الخوف، فكذلك غيرهم. وكان الشبلي من كبار الصوفية يقول: أنا أمان هذا الجانب ـ يقصد هذا الجانب من العراق. قيل: فلما مات ودُفن، عَبَر الديلم نهر دجلة في نفس اليوم وغزوا بغداد واستولوا عليها، فصار الناس يقولون: مصيبتان: موت الشبلي وليّ الله، وعبور الديلم!ـ ولا يصحّ أن يُقال أنه لو عرف الولي بأنه وليّ، فيمكن أن تكون معرفته استدراجاً، لأنه لو جاز ذلك، لجاز أيضاً ألا يعرف النبيّ أنه نبيّ، لجواز أن تكون معرفته كذلك استدراجاً؟ فلما لم يجز ذلك لأن فيه إبطال المعجزات، لم يجز أيضاً أن يعرف الوليّ، أنه وليّ لأن فيه إبطال الكرامات. وضربوا المَثَل بعدم جواز معرفة الولي بأنه وليّ، بقصة بلعام في سورة الأعراف، بدعوى أنه بهذه المعرفة انسلخ عن الدين، كقوله تعالى: ﴿فَانسَلَخَ مِنْهَا﴾ (الأعراف١٧٥)؛ غير أن الآية لم تتضمن أن بلعام كان ولياً، ثم انسلخت عنه الولاية! وما نُقل من قصته، أنه ظهر على يديه ما يجري مجرى الكرامات، هي أقوال عن آحاد لا تُوجِد العلم.

فهل الولي يعمل؟ وهل له أن يتملّك؟

والجواب: أن له ذلك، بل وعليه ذلك، فالعمل فرضٌ على كل مسلم، وكان داود وهو نبيّ يأكل من عمل يده، وكان الشاذلي وهو وليّ، يأكل أيضاً من عمل يده، وامتلك الضياع؛ ولم ينكر النبيّ على عبدالرحمن بن عوف، ولا على عثمان، أن يكون عندهما المال، وقال: إن العمل وامتلاك المال سُنّته ﷺ؛ وامتلك الصحابة الضياع في حياته ولم ينكر عليهم ذلك، بشرط أن يخرجوا زكاتها ويتصدّقوا منها، وقد انفق عثمان على

تجهيز جيش المسلمين مرات، وكان عبدالرحمن بن عوف ينفق على نساء النبيّ ﷺ بعد وفاته؛ وحسبنا الصحابة وأموالهم مع ولايتهم وفضلهم، وكانت ضياعهم ليصونوا بها المُدَّخَر من أموالهم، وصوناً لعيالهم من الحاجة؛ والصحابة وما كانوا يملكون ـ هم الحُجّة على غيرهم، وكانوا يتسلّمون دخولهم من ضياعهم وتجاراتهم، فثلث لله، وثلثٌ لعيالهم وأهليهم، وثلثٌ للناس وللمجتمع.

ولم يكن ذلك يناقض قول الرسول ﷺ: لا تتخذوا الضيعة فتركنوا إلى الدنيا، فإن ذلك محمول على من اتخذها مستكثراً، أو متنعّماً، أو متمتّعاً بزهرتها، وأمّا من اتّخذها معاشاً يصون بها دينه وعياله، فاتخاذها بهذه النية من أفضل الأعمال، وما تدرّه من دخل هو من أفضل الأموال، والرسول ﷺ يقول: نِعْمَ المال الصالح للرجل الصالح.

ويذهب بعض الصوفية إلى أن الأحكام الشرعية إنما يُحكم بها على الأنبياء والعامة، وأما الأولياء وأهل الخصوص، فلا يحتاجون إلى تلك النصوص، بل إنما يراد منهم ما يقع في قلوبهم، ويُحكَم عليهم بما يغلب عليهم من خواطرهم، وذلك لصفاء قلوبهم عن الأكدار، وخلوها عن الأغيار، فتتجلّى لهم العلوم الإلهية، والحقائق الربّانية، فيقفون على أسرار الكائنات، ويعلمون أحكام الجزئيات، فيستغنون بها عن أحكام الشرائع الكلّيات، كما اتفق للخَضِر، فإنه استغنى بما تجلى له من العلوم عمّا كان عند موسى من الفُهوم. وقد جاء عند هؤلاء الصوفية المعطِّلين، فيما ينقلون: استفت قلبك وإنْ أفتاك المُفتون». والذين قالوا ذلك وأكدوه هم صوفية الشيعة؛ وأمّا صوفية السُّنّة فقد اعتبروا مذهبهم هذا زندقة وكُفر، والقائل به مرتد ولكنه لا يستتاب، لأنه إنكار كامل لكل ما عُلم من الشرائع. وقد جرت سُنّة الله تعالى، وأنفذ حكمته، بأن أحكامه لا تُعلم إلا بواسطة رسُله السفراء بينه وبين خلقه، وهم المبلّغون عنه رسالته وكلامه، المبيّنون شرائعه وأحكامه، اختارهم لذلك، وخصّهم بما هنالك، لقوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ﴾ (الحج ٧٥) وقوله: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ (الأنعام ١٢٤)، وقوله: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ (البقرة ٢١٣) إلى غير ذلك من الآيات.

والخلاصة: أنه قد حصل العلم القطعي واليقين الضروري، واجتماع السلف

والخَلف، على أنه لا طريق لمعرفة أحكام الله تعالى التى هى راجعة إلى أمره ونهيه، ولا يُعرف شىء منها، إلا من جهة الرُّسُل. وإذن فمن قال: أن هناك طريقاً آخر يُعَرف بها أمرُه ونهيُه. بخلاف الرسُل، بحيث يُستغنَى عنهم، فقد كفر وخرج من الملّة، ومثله يستبدل الأنبياء بالأولياء، ويقول بالولاية ويُسقط النبوة، ويضع الأولياء فى مكانة الأنبياء فلا يكون نبيّنا محمد ﷺ خاتم الأنبياء. والقائل بمثل ذلك يثبت أنبياء بعد نبيّنا ﷺ. ومَن قال: أنه يُسقط الرسالات والنبوات، ويكتفى بأن يأخذ عن قلبه، يكون قد جعل لنفسه مكانة الأولياء كالخَضِر، ومثله يدّعى أنه لا يقع فى قلبه إلا أحكام الله! وأنه يعمل بمقتضاها، ولا يحتاج على ذلك إلى كتاب ولا إلى سُنّة! فيكون قد أثبت لنفسه الولاية خاصةً! - ومما يدفع هؤلاء به عن أنفسهم فى ذلك، حديث رسول الله ﷺ: إن روح القدس نَفَث فى رَوْعى»، وكذلك هؤلاء فإنهم يزعمون أنه يُنفَث فى روْعهم وكأنهم أولياء! فحسبنا الله!

* * *

باب الياء

* * *

١٠٧٦ - يأس...

يُعبَّر عن القبض. (انظر القبض).

١٠٧٧ - ياقوتة...

الياقوتة البيضاء: هي العماء، وهي هذا الوجود جميعه، والياقوتة الحمراء: هي النفس الكلية لامتزاج نورانيتها بظلمة التعلق بالجسم.

١٠٧٨ - يدان...

قال الله تعالى موبخًا إبليس: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ (ص٧٥). واليدان عند الصوفية: هما أسماء الله تعالى المتقابلة، الفاعلة والقابلة، فالأولى: مثل: الجميل والجليل؛ واللطيف والقهّار، والضّار والنافع؛ والثانية مثل: الأنيس والهائب، والراجي والخائف، والمنتفع والمتضرر. ولما كانت الحضرة الأسمائية هي مجمع الحضرتين الوجوب والإمكان، قال بعض الصوفية: إن اليدين هما حضرتا الوجوب والإمكان.

١٠٧٩ - يحيى...

اسمٌ للسيد الحصور النبيّ الصالح، سمّاه يحيى لحياة قلبه بالله، ولأنه سبب حياة من آمن به بقلبه، وحيّا به عُقْرة أمه - أي عدم إنجابها -، وقوله تعالى: ﴿يَا يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا ۝ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا﴾ (مريم ١٢/ ١٣) خصّه الله بخالصة القوة الروحية؛ وقوة المرسلين، لا قوة يد، ولكن قوة قلب. ودلّت الآية على أنه كان من الله له كتاب وهو أول نبي يُبعَث صبياً، والحُكم بالصواب لا بالسن، والحُكم إحكام الفعل بالصدق والإيمان والتقوى واليقين، ويحيى يُضرَب به المثل لمن يحيَوْن بقلوبهم، ويتأسّى به الصوفية فقد كان يلبس الخيش، ويأكل نبت الصحارى والجبال، وهو قدوتهم في الحنان أي الرحمة والطهارة والتوفيق ومجلوبات التّقْوَى، والتقوى على قسمين: مجموع ومجلوب، فالأولى يتوصل إليها العبد بتكلُّف وتعلُّم، والثانية من الله يهبها من يشاء ببذله سبحانه وبفضله.

١٠٨٠ - يسمى العجم...

اصطلاح صوفي فارسي وُصِف به الصوفي سعد الدين بن حمويه، المتوفى سنة ٦٥٠هـ (١٢٥٢)، بحسب الآية التي تقول: ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ﴾ (يس ٢٠)، وقال عن نفسه: إنه مظهر قيام الساعة، وهو بصفته «يَسْعَى العجم» يمثل العلم الإلهي المتسلسل من آدم إلى محمد، ويسمى طريقته الطريقة السنّية

أو السعدية، فهي سنّية ظاهرية في مراعاة ظاهر الإسلام؛ وسُنّية باطنية في التوجه إلى الله ومراعاة سُنّته، واسمها السعدية نسبةً إلى سعد الدين الحموي.

ويسمى الذي تشير إليه الآية في القرآن، نزلت عليه سكينة الله طبقاً للنصّ القرآني فصار بها حياً باقياً دائماً، وأعطاه السلام مفاتيح الغيب، وصار الله هو عينه وفؤاده ولسانه ويده ورجله، إشارةً إلى الحديث القدسي. وبذلك أيضاً صار «يسمى العجم» إنساناً إلهياً لا يختلف عن الله حتى في الخلود. وطريقة سعد الدين الحموي تعتمد التأويل لآيات القرآن وإلا فالنصّ القرآني لا روح فيه، وبالتأويل تصير له روح! هكذا يقول الحموي ليبرر تحريفاته في التأويل.

١٠٨١ - يسوية...

طريقة صوفية مؤسسها أحمد إبراهيم يسوى (٥٦٣ هـ)، وتقوم على المحبة والتوكّل، وكان اليسوي يكتب بالعامية، وطريقته لذلك كانت شعبية.

١٠٨٢ - يقظة...

الفهم عن الله تعالى للمقصود من زجره.

١٠٨٣ - يقين...

اختلفت فيه الأقوال، فقيل هو التصديق بالغيب بإزالة كل ظن، وقيل هو المكاشفة، وهي على ثلاثة أوجه: مكاشفة العيان بالأبصار يوم القيامة، ومكاشفة القلوب بحقائق الإيمان بمباشرة اليقين بلا كيف ولا حدّ، ومكاشفة الآيات بإظهار القدرة للأنبياء عليهم السلام بالمعجزات، ولغيرهم بالكرامات والإجابات. ولذلك أيضاً فأهل اليقين على ثلاثة أحوال: فالأولون: الأصاغر، وهم المريدون والعموم، ويقينهم أول مقام اليقين، وهو الثقة بما في يد الله تعالى وارتفاع الشك؛ والثانون: الأواسط، وهم الخصوص، والعبد الموقن منهم إذا تحقق باليقين ترحل من يقين إلى يقين حتى يصير اليقين له وطناً؛ والثالثون: الأكابر، وهم خصوص الخصوص، واليقين عندهم في جملته هو الإثبات لله عز وجل بكل صفاته.

وقيل: اليقين على ثلاث مقامات: الأول، يقين معاينة وهو للمصدّقين والشهداء؛ ويقين تصديق واستسلام - وهذا في الخبر، وهذا يقين المؤمنين، وهم الأبرار، ومنهم الصالحون، ومنهم دون ذلك. وقد يضعف هؤلاء بعدم الأسباب ويقولون بوجودها، ويجعلون مزيدهم وأنسهم بالخَلق، ويكون نقصهم ووحشتهم بفقدهم، ويكون من هؤلاء الاختلاف،

ويتلوّنون بالخلاف. والثالث، يقين الظن، ويقوى بدلائل العلم والخبر وأقوال العلماء، ويضعف بفقد الأدلة، وهذا يقين الاستدلال، وهو يقين الفلاسفة والمتكلمين من عموم المسلمين.

وقيل: أصول مقامات اليقين التي تُرَدّ إليها أحوال المتقين تسعة، هي: التوبة، والصبر، والرجاء، والخوف، والزهد، والتوكل، والرضا، والمحبة.

ومن أقوال ذي النون: كل ما رأته العيون يُنسب إلى العلم، وما علمته القلوب يُنسَب إلى اليقين.

وقيل: اليقين عبارة عن ظهور نور الحقيقة في الموقن حال كشف أستار البشرية بشاهد الوجد والذوق لا بدلالة العقل والنقل.

وقال عليّ: «لو كُشف الغطاء ما ازددت يقيناً»، لأن يقينه بالوجد والذّوق.

وقيل: نور الإيمان واليقين واحد، سوى أن نور الإيمان من وراء الحجاب، واليقين عند رفع الحجاب، والفرق بينهما كالفرق بين الأعمى والبصير إذا أُخبرا بطلوع الشمس، فإن إخبار البصير بالمشاهدة بخلاف إخبار الأعمى، واليقين في القلب كالبصر، فيرى به الموقن ما غاب عن بصره.

وقيل: إن لليقين اسماً ورسماً وعلماً: والاسم والرسم للعوام، أى أنه ليس لهم منه سوى الاسم والرسم. وأما أرباب العقول فلهم «علم اليقين»: وهو ما كان بشرط البرهان؛ وأما الخواص وهم أصحاب العلوم فلهم «عين اليقين»: وهو ما كان بحكم البيان، وأما أصحاب المعارف من الأنبياء والأولياء فلهم «حقّ اليقين»: وهو ما كان بنعت العيان؛ وأما حقيقة حق اليقين فذلك ما اختص به نبيّنا عليه الصلاة والسلام.

١٠٨٤ - يوم...

هو التجلّي الإلهي، فأيام الله، وأيام الحقّ: هي تجلياته وظهوره تعالى بما تقتضيه ذاته من أنواع الكمالات. ولكل تجلٍّ من تجلياته سبحانه حكمٌ إلهي يُعبَّر عنه بالشأن: يقول الله تعالى ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ (الرحمن ٢٩)، واختلاف الوجود أو تغيّره إنما هو أثر للشأن الإلهي الذي اقتضاه التجلّي الحاكم على الوجود بالتغيّر، وهي معنى قوله كل يوم هو في شأن.

وقوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ﴾ (الجاثية ١٤)، يريد بهم الذين لايرجون تجلّيه عليهم، لأنهم ينكرون وجوده ولايؤمنون به، فمن أنكر شيئاً

وقال بعدمه لا يرجو له ظهوراً، سواء فى الدنيا أو فى الآخرة. ويوم الجمعة : هو وقت اللقاء والوصول إلى عين الجمع.

* * * * *
* * *

تمّ بحمد الله ومنّه معجم ألفاظ الصوفية، وبلغ عدد الألفاظ الواردة به ٩٨٧ مصطلحًا، بالإضافة إلى عدد أعلام التصوّف وبلغ ٣٥٠ شخصية، وبذلك يصير مجموع ما قدّمناه من أشخاص وألفاظ ١٣٣٧، والفضل فى ذلك لتوفيق الله تعالى والحمد لله أولاً وأخيراً. وبذلك يكون قد تمّ كتاب الموسوعة الصوفية للأعلام واللغة الصوفية.

* * *

حقوق الطبع والنشر محفوظة للمؤلف

د. عبد المنعم الحفنى

القاهرة، الدقى ١٨ شارع محيى الدين أبو العز

ت ٧٦١٣٢٥٥

بعض المراجع للاستزادة

***

(أ)

١ ـ إحياء علوم الدين للغزالى
٢ ـ أخبار الحلاج لماسينيون
٣ـ أربعة نصوص للحلاج لما سينيون
٤ـ الإرشاد للمفيد
٥ـ الاستيعاب لابن عبد البرّ
٦ ـ أسرار حروف الكلمات للغزالى
٧ ـ الأسفار الأربعة للشيرازى
٨ ـ أسفار التوراة
٩ـ الإسلام والحضارة العربية لكُرد علىّ
١٠ـ الإصابة فى تمييز الصحابة للعسقلانى
١١ ـ اصطلاحات الصوفية للكاشانى
١٢ ـ أصول الفلسفة الإشراقية للدكتور أبى ريان
١٣ ـ الأعلام للزركلى
١٤ ـ الأغانى للأصفهانى
١٥ ـ الأمالى للمرتضى
١٦ ـ الإنجيل
١٧ ـ الأنساب للسمعانى
١٨ ـ أنساب الأشراف للبلاذرى
١٩ ـ الإنسان الكامل لبدوى
٢٠ ـ الإنسان الكامل للجيلى
٢١ ـ البدء والتاريخ للمقدسى
٢٢ ـ بدائع الزهور لابن إياس
٢٣ ـ البداية والنهاية لابن كثير
٢٤ ـ الإصابة فى تمييز الصحابة للعسقلانى
٢٥ ـ الفصل فى الملل لابن حزم
٢٦ ـ المقدمة لابن خلدون
٢٧ ـ العقد الفريد لابن عبد ربه
٢٨ ـ التدبيرات لابن عربى
٢٩ ـ الفتوحات المكية لابن عربى
٣٠ ـ البداية والنهاية لابن كثير
٣١ ـ أربعة نصوص للحلاج لماسينيون
٣٢ ـ أخبار الحلاّج لابن زنجى
٣٣ ـ أخبار الحلاج للسلمى
٣٤ ـ أخبار الحلاج لابن باكويه
٣٥ ـ أخبار الحلاج لابن فاتك
٣٦ ـ الديوان للحلاج
٣٧ ـ الطواسين للحلاج
٣٨ ـ الصحيفة السجادية لزين العابدين
٣٩ ـ الملامتية لأبى العلا عفيفى
٤٠ ـ الصوفية والفقهاء فى اليمن للحبشى
٤١ ـ المشارع والمطارحات للسهروردى
٤٢ ـ إعجاز البيان فى كشف أسرار أم القرآن للقونوى
٤٣ ـ الأقضية لابن الطلاّع
٤٤ ـ التاريخ الكبير للبخارى
٤٥ ـ الديباج المذهب فى معرفة أعيان علماء المذهب للبعمرى
٤٦ ـ الجامع الصحيح للبخارى
٤٧ ـ الجامع الصغير للسيوطى

٤٨ ـ القصد للشاذلى
٤٩ ـ الجواهر المضية فى طبقات الحنفية لأبى الوفاء القرشى
٥٠ ـ الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى لميتز
٥١ ـ التصوف الإسلامى لزكى مبارك
٥٢ ـ التصوف والفقراء للسمان
٥٣ ـ التعريفات للجرجانى
٥٤ ـ التصوف الإسلامى والشعرانى لسرور
٥٥ ـ التصوف الإسلامى لنيكلسون
٥٦ ـ الدّر الثمين لرجب البرسى
٥٧ ـ الدّر الفريد للحلى
٥٨ ـ الدّر النظيم لليافعى
٥٩ ـ الدّرر الكامنة للعسقلانى
٦٠ ـ الرجال للنجاشى
٦١ ـ الرسائل والمسائل لابن تيمية
٦٢ ـ الرسالة المعراجية لنوربخشى
٦٣ ـ الرعاية لحقوق الله للمحاسبى
٦٤ ـ الروض الفائق للحرنفيش
٦٥ ـ الروضة البهية للعاملى
٦٦ ـ السّر المصنوف للغزالى
٦٧ ـ السّيرة لابن هشام
٦٨ ـ سنن الصوفية للسلمى
٦٩ ـ السيرة الحلبية لابن برهان
٧٠ ـ الصوفية فى الإسلام لنيكلسون
٧١ ـ الشامل لابن الصباغ
٧٢ ـ الطبقات الكبرى للشعرانى
٧٣ ـ الفتوة لابن المعمار
٧٤ ـ الفهرست لابن النديم
٧٥ ـ المنقذ من الضلال للغزالى
٧٦ ـ اعتقادات فرق المسلمين للرازى
٧٧ ـ إخبار الحكماء للقفطى
٧٨ ـ التعرف لمذهب أهل التصوف للكلاباذى
٧٩ ـ أصل الشيعة لكاشف الغطاء
٨٠ ـ التنبيه والرد على أهل الأهواء للملطى
٨١ ـ الرسالة القشيرية للقشيرى
٨٢ ـ المواقف للنفرى
٨٣ ـ الأربعون النووية للنووى
٨٤ ـ أسد الغابة لابن الأثير
٨٥ـ ابن الفارض والحب الإلهى لمصطفى حلمى

(ب)

٨٦ـ البداية والنهاية لابن كثير
٨٧ ـ بشر الحافى لابن الجوزى
٨٨ ـ بيان سلسلة حاجى بكتاش
٨٩ ـ البصائر والذخائر للتوحيدى
٩٠ ـ البيان والتبيين للجاحظ
٩١ ـ بهجة الأسرار للشطنوفى

(ت)

٩٢ـ تأويلات القرآن للكاشانى
٩٣ ـ تبصير المنتبه للعسقلانى
٩٤ ـ تاج العروس للزبيدى
٩٥ ـ تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير والأعلام للذهبى
٩٦ ـ تاريخ جرجان للسهمى

٩٧ ـ تاريخ دمشق لابن عساكر
٩٨ ـ تاريخ الفرق الإسلامية للفرابى
٩٩ ـ تذكرة الحفاظ للذهبى
١٠٠ ـ تلبيس إبليس لابن الجوزى
١٠١ ـ تهذيب الأسماء والصفات للنووى
١٠٢ ـ تهذيب تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر
١٠٣ ـ تهذيب التهذيب للعسقلانى
١٠٤ ـ تهذيب الكمال فى أسماء الرجال للدمشقى
١٠٥ ـ تاريخ الأدب فى إيران لبراون
١٠٦ ـ تاريخ تصوف در إسلام لقاسم غنى
١٠٧ ـ تاريخ العرب لفيليب حتى
١٠٨ ـ تاريخ الفلسفة فى الإسلام لدى بور
١٠٩ ـ تأويلات القرآن للكاشانى
١١٠ ـ التبصير فى الدين للاسفراينى
١١١ ـ تذكرة الأولياء لفريد العطار
١١٢ ـ تذكرة الحفاظ للذهبى
١١٣ ـ ترياق المحبين للواسطى
١١٤ ـ التشوف إلى رجال التصوف للتادلى
١١٥ ـ تفسير القرآن لابن عربى
١١٦ ـ تفسير القرآن للتسترى
١١٧ ـ تفسير القرآن للحسن العسكرى
١١٨ ـ تفسير القرآن للرازى
١١٩ ـ تفسير القرآن للطبرى
١٢٠ ـ تفسير القرآن للقرطبى
١٢١ ـ التكليف للشلمغانى
١٢٢ ـ تائية ابن الفارض
١٢٣ ـ تائية عامر بن عامر
١٢٤ ـ تاريخ ابن خلدون
١٢٥ ـ تاريخ أبى الفداء
١٢٦ ـ تاريخ المشعشعيين لحسن شبر
١٢٧ ـ تاريخ اليافعى
١٢٨ ـ تتمة صوان الحكمة للبيهقى
١٢٩ تذكرة الخواص لابن الجوزى
١٣٠ ـ تذكرة الكرمانى
١٣١ تذكرة السمرقندى
١٣٢ ـ ترجمان الأشواق لابن عربى
١٣٣ ـ تزيين الأسواق للانطاكى
١٣٤ التشوّف إلى رجال التصوف للتادلى
١٣٥ التصوّف الإسلامى لزكى مبارك
١٣٦ التصوف والفقراء لمحمد السمّان
١٣٧ التعرّف لمذهب أهل التصوّف للكلاباذى
١٣٨ ـ تسع رسائل لابن سينا
١٣٩ ـ التحصين وصفات العارفين للحلى
١٤٠ ـ تذكرة المؤمنين للدمشقى
١٤١ ـ ترياق المحبين للواسطى

(ج)

١٤٢ ـ جامع الأسرار للآملى
١٤٣ ـ جامع الحقائق للآملى
١٤٤ ـ جامع الحكمتين لناصر خسرو
١٤٥ ـ جاودان كبير للحروفى
١٤٦ ـ جاودان نامة للحروفى
١٤٧ ـ جنة الأسماء للغزالى
١٤٨ ـ الجمعيات السرية فى الإسلام لعنان

(ح)

١٤٩ ـ حقائق التفسير للسلمى
١٥٠ ـ حسن المحاضرة للسيوطى
١٥١ ـ حلية الأولياء لابى نعيم
١٥٢ ـ حديقة السعداء للبغدادى
١٥٣ ـ حكمة الإشراق للسهروردى

(خ)

١٥٤ ـ الخطط للمقريزى
١٥٥ ـ خواص الخواص للغزالى
١٥٦ ـ خواص الخاص للثعالبى
١٥٧ ـ خلع النعلين لابن قسى
١٥٨ ـ ختم الأولياء لعثمان يحيى

(د)

١٥٩ ـ دائرة المعارف الإسلامية
١٦٠ ـ دائرة معارف البستانى
١٦١ ـ ديوان ابن عربى
١٦٢ ـ ديوان ابن الفارض
١٦٣ ـ ديوان الحلاج
١٦٤ ـ ديوان شمس تبريز
١٦٥ ـ دبستان المذاهب للفانى
١٦٦ ـ ديوان الحروفى
١٦٧ ـ ديوان ناصر خسرو
١٦٨ ـ ديوان نسيمى
١٦٩ ـ ديوان نعمة الله الولى

(ذ)

١٧٠ ـ ذات الأنوار لابن عامر
١٧١ ـ ذخيرة الملوك للهمدانى

(ر)

١٧٢ ـ رسائل ابن عربى
١٧٣ ـ رسائل إخوان الصفا
١٧٤ ـ رسالة ابن القارح
١٧٥ ـ رسالة الغفران للمعرى
١٧٦ ـ روضات الجنات للخوانسارى
١٧٧ ـ رسالة فى علم الفراسة لنوبختى
١٧٨ ـ رسالة الصلوات لرجب البرسى
١٧٩ ـ رسالة فى سورة الإخلاص لرجب البرسى
١٨٠ ـ رسالة فى الفلسفة الأولى للكندى
١٨١ ـ رسالة الوجود للآملى
١٨٢ ـ روضة الشعريف بالحب الشريف للخطيب
١٨٣ ـ روضة الشهداء للكاشفى
١٨٤ ـ رياض العارفين لهدايت

(ز)

١٨٥ـ زهر الآداب للحصرى
١٨٦ ـ زاد المسافر للإحسائى
١٨٧ ـ زهد النبىّ للقمى

(س)

١٨٨ـ السيرة النبوية لابن هشام
١٨٩ ـ سعادة نامة لجامى
١٩٠ ـ سفر حزقيال
١٩١ ـ سفر نامه لخسرو
١٩٢ ـ سلك الدّر للمرادى
١٩٣ ـ سير الأعلام للذهبى
١٩٤ ـ سيرة الاحسائى

(ش)

١٩٥ ـ شخصيات قلقة فى الإسلام لماسينيون
١٩٦ ـ شذرات الذهب للحنبلى
١٩٧ ـ شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد
١٩٨ـ الشيعة فى التاريخ لمحمد حسن الزين

(ص)

١٩٩ ـ صفة الصفوة لابن الجوزى
٢٠٠ـ صحيح البخارى
٢٠١ ـ صحيح مسلم
٢٠٢ ـ صفوة التصوف للمقدسى
٢٠٣ـ الصوفية فى الإسلام لنيكلسون

(ض)

٢٠٤ ـ ضحى الإسلام لأحمد أمين

(ط)

٢٠٥ ـ طبقات الصوفية للسلمى
٢٠٦ـ الطبقات الكبرى للشعرانى
٢٠٧ ـ طرائق الحقائق لمعصوم على

(ظ)

٢٠٨ـ ظهور الإسلام لأحمد أمين

(ع)

٢٠٩ ـ عرش نامة إلهى للحروفى
٢١٠ ـ عرف نامة للحروفى
٢١١ ـ عشق نامة لفرشته زاده
٢١٢ ـ عقيدة الشيعة لدونالدسن
٢١٣ـ العقيدة والشريعة فى الإسلام لجولدتسيهر
٢١٤ـ علىّ وبنوه لطه حسين
٢١٥ ـ علم القلوب للمكى
٢١٦ ـ على هامش الأسمر
٢١٧ ـ عوارف المعارف للسهرودى
٢١٨ ـ عيون الأخبار لابن قتيبة
٢١٩ ـ عيون الأنباء لابن أبى أصيبعة
٢٢٠ ـ عيون الهداية للبكتاشى
٢٢١ ـ عنقاء مغرب لابن عربى

(غ)

٢٢٢ ـ غزليات شمس تبريزى

(ف)

٢٢٣ـ الفتنة الكبرى لطه حسين
٢٢٤ ـ فتوة نامة للكاشفى
٢٢٥ ـ فرق الشيعة للنوبختى
٢٢٦ ـ فضائح الباطنية للغزالى
٢٢٧ ـ فصوص الحكم لابن عربى
٢٢٨ ـ فضيل بن عياض لابن الجوزى
٢٢٩ـ فى التصوف الإسلامى لنيكلسون

(ق)

٢٣٠ ـ قوت القلوب للمكى

(ك)

٢٣١ ـ الكامل لابن الأثير
٢٣٢ ـ الكامل للمبرد
٢٣٣ ـ كشف الظنون لحاجى خليفة
٢٣٤ـ كشف المحجوب للهجويرى
٢٣٥ ـ كشف المحجوب للسجستانى
٢٣٦ ـ الكشكول للعاملى
٢٣٧ ـ الكواكب الدرية للمناوى

٢٣٨ ـ كيمياء السعادة للجيلى

(ل)

٢٣٩ ـ اللّمع فى التصوف للطوسى
٢٤٠ ـ لواقح الأنوار للشعرانى
٢٤١ ـ اللّباب لابن الأثير
٢٤٢ ـ لسان الميزان لابن حجر

(م)

٢٤٣ ـ محاسن المجالس لابن العريف
٢٤٤ ـ مناقب إبراهيم بن أدهم للحلبى
٢٤٥ ـ معروف الكرخى لابن الجوزى
٢٤٦ ـ المنتظم لابن الجوزى
٢٤٧ ـ محاضرة الأبرار لابن عربى
٢٤٨ ـ الملامتية والصوفية وأهل الفتوة لأبى العلا عفيفى
٢٤٩ـ الملل والنحل للشهرستانى
٢٥٠ ـ مذاهب التفسير لجولدتسيهر
٢٥١ ـ المسائل للمحاسبى
٢٥٢ ـ معجم البلدان لياقوت
٢٥٣ ـ مقتل الطالبيين للأصفهانى
٢٥٤ ـ منهج العابدين للغزالى
٢٥٥ ـ ميزان الاعتدال للذهبى

(ن)

٢٥٦ ـ نشأة الفكر الفلسفى فى الإسلام للنشار
٢٥٧ ـ نشر المحاسن الغالية للبافعى
٢٥٨ ـ نفحات الأنس لجامى
٢٥٩ ـ نهج البلاغة لعلى بن أبى طالب
٢٦٠ ـ المنتظم لابن الجوزى
٢٦١ ـ النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى
٢٦٢ ـ نهاية الأرب للنويرى

(هـ)

٢٦٣ ـ هدية الأحباب للقمى
٢٦٤ ـ هدية العارفين للبغدادى
٢٦٥ ـ هداية الأمة للعاملى

(و)

٢٦٦ ـ وفيات الأعيان لابن خلكان
٢٦٧ ـ الوحدة الوجودية للعاملى

(ى)

٢٦٨ ـ اليواقيت والجواهر للشعرانى

* * *

الكتب الإفرنجية

- Arberry, A.J.: Catalogue of the Arabic Mss. Indian Library of the Embhassy of India in London.
- Birge: The Bektashi Ordre of Dervishes.
- Encyclopedia of Islam.
- Nicholson: The Idea of Personalsty in Sufsm.

* * *

فهرس أعلام التصوف

***

باب الألف

١ ـ الآملي
٢ ـ ابن أبي الحواري
٣ ـ ابن أبي جمهور
٤ ـ ابن أبي الخير
٥ ـ ابن أبي الدنيا
٦ ـ ابن أبي رواد
٧ ـ ابن أبي العشائر
٨ ـ الأبياري
٩ ـ الأحمدي
١٠ ـ أخي أوران
١١ ـ إدريس
١٢ ـ إبراهيم بن أدهم
١٣ ـ أربري
١٤ ـ ابن أسباط
١٥ ـ الأسفراييني
١٦ ـ الأسمر
١٧ ـ الإسنوي
١٨ ـ أصحاب الصفة
١٩ ـ الأصم
٢٠ ـ ابن الأعرابي
٢١ ـ أق شمس الدين
٢٢ ـ الأقصري
٢٣ ـ إمره (يوسف)
٢٤ ـ الأنصاري
٢٥ ـ الأنطاكي
٢٦ ـ الأنطاكي (البصير)
٢٧ ـ الأنطاكي
٢٨ ـ أوحدي
٢٩ ـ أولاد الشيخ
٣٠ ـ أويس القرني
٣١ ـ أيوب السختياني

باب الباء

٣٢ ـ بابا طاهر
٣٣ ـ بابا رسول
٣٤ ـ بارجيس
٣٥ ـ ابن باخلا
٣٦ ـ باعلوي
٣٧ ـ الباعوني
٣٨ ـ باقي بالله
٣٩ ـ باقي خانلي
٤٠ ـ بالمر
٤١ ـ البخاري
٤٢ ـ البدليسي
٤٣ ـ براق باب
٤٤ ـ ابن برجان
٤٥ ـ البرسي
٤٦ ـ البرعي
٤٧ ـ ابن برزاز (توكل)
٤٨ ـ البسطامي
٤٩ ـ البسطامي
٥٠ ـ البغدادي
٥١ ـ البقاعي
٥٢ ـ بكتاش ولي
٥٣ ـ أبو بكر الصديق
٥٤ ـ البكري (مصطفى)
٥٥ ـ بلاثيوس
٥٦ ـ البناني
٥٧ ـ البنوري
٥٨ ـ بهتاني
٥٩ ـ البوصيري
٦٠ ـ البوني: أبو العباس
٦١ ـ بيرام ولي
٦٢ ـ البيروني
٦٣ ـ البيومي

باب التاء

٦٤ ـ التامودزتي
٦٥ ـ التبريزي
٦٦ ـ التجاني
٦٧ ـ الترمذي
٦٨ ـ التستري (سهل)
٦٩ ـ التفتازاني أبو الوفا
٧٠ ـ التفتازاني
٧١ ـ التلمساني
٧٢ ـ التلمساني: العفيف
٧٣ ـ التوحيدي
٧٤ ـ ابن تيمية

باب الجيم

٧٥ ـ جابر بن حيان
٧٦ ـ جامي (أحمد)
٧٧ ـ جامي
٧٨ ـ الجرجاني
٧٩ ـ الجرمي
٨٠ ـ الجريري
٨١ ـ الجزولي
٨٢ ـ الجشتي
٨٣ ـ جعفر الصادق
٨٤ ـ الجعفري
٨٥ ـ الجلوتي
٨٦ ـ الجمالي (أحمد)
٨٧ ـ الجمالي
٨٨ ـ الجنيد
٨٩ ـ ابن الجوزي
٩٠ ـ الجوعي (القاسم)
٩١ ـ جولدتسيهر
٩٢ ـ الجويني: ابن عمران
٩٣ ـ الجيلاني
٩٤ ـ الجيلي
٩٥ ـ جينو

باب الحاء

٩٦ ـ الحافظ الشيرازى
٩٧ ـ الحافى (بشر)
٩٨ ـ حتى (فيليب)
٩٩ ـ الحراق (محمد)
١٠٠ ـ ابن حزم الأندلسى
١٠١ ـ الحسن البصرى
١٠٢ ـ حلمى إيشيك
١٠٣ ـ الحفنى
١٠٤ ـ حقى (اسماعيل)
١٠٥ ـ الحلاج
١٠٦ ـ الحلبى (أحمد)
١٠٧ ـ الحنفى
١٠٨ ـ أبو حنيفة النعمان
١٠٩ ـ حيونة

باب الخاء

١١٠ ـ الخراز
١١١ ـ ابن خضروية
١١٢ ـ ابن الخطيب
١١٣ ـ ابن خفيف
١١٤ ـ ابن خلدون
١١٥ ـ الخلدى
١١٦ ـ الخواص
١١٧ ـ الخواص(على)
١١٨ ـ الخولانى
١١٩ ـ الخيام

باب الدال

١٢٠ ـ الدارانى
١٢١ ـ ابن داود
١٢٢ ـ داود الطائى
١٢٣ ـ الداوودى
١٢٤ ـ ابن الدباغ
١٢٥ ـ أبو الدرداء
١٢٦ ـ الدردير
١٢٧ ـ الدسوقى
١٢٨ ـ الدسوقى
١٢٩ ـ الدمرداش
١٣٠ ـ الدهلوى
١٣١ ـ الدهلوى
١٣٢ ـ دى تاسى
١٣٣ ـ دى ساسى
١٣٤ ـ دى كورتى
١٣٥ ـ دى ماتيو
١٣٦ ـ دى ميثار
١٣٧ ـ ابن دينار

باب الذال

١٣٨ ـ أبو ذر الغفارى
١٣٩ ـ ذو النون المصرى

باب الراء

١٤٠ ـ رابعة العدوية
١٤١ ـ الرازى
١٤٢ ـ الرازى(أبو زكريا)
١٤٣ ـ الرازى(زين الدين)
١٤٤ ـ الرازى (الفخر)
١٤٥ ـ ابن رجب
١٤٦ ـ رشدى (ياسين)
١٤٧ ـ رضوان (حسن)
١٤٨ ـ الرفاعى
١٤٩ ـ الرقى (إبراهيم)
١٥٠ ـ روزبهان
١٥١ ـ الرومى
١٥٢ ـ رويم

باب الزاى

١٥٣ ـ زاده
١٥٤ ـ الزاهد
١٥٥ ـ الزبيدى
١٥٦ ـ زروق
١٥٧ ـ ابن زقاعة
١٥٨ ـ الزهراوى
١٥٩ ـ ابن زيد

باب السين

١٦٠ ـ ابن سالم
١٦١ ـ ابن سبعين
١٦٢ ـ السراج الطوسى
١٦٣ ـ السرغينى
١٦٤ ـ السعدى الشيرازى
١٦٥ ـ السعودى
١٦٦ ـ السعيدى
١٦٧ ـ سيفان الثورى
١٦٨ ـ سيفان بن عيينة
١٦٩ ـ السقاف
١٧٠ ـ السقطى
١٧١ ـ سلمان الفارسى
١٧٢ ـ السلمى
١٧٣ ـ سليمان توناهان
١٧٤ ـ السمرقندى
١٧٥ ـ السملالى
١٧٦ ـ السمنانى
١٧٧ ـ سمنون المحب
١٧٨ ـ سنائى الغزنوى
١٧٩ ـ السنوسى
١٨٠ ـ السهرندى
١٨١ ـ السهروردى
١٨٢ ـ السهروردى
١٨٣ ـ السهروردى المقتول
١٨٤ ـ السيارى
١٨٥ ـ ابن سينا
١٨٦ ـ السيوطى

باب الشين

١٨٧ ـ الشاذلى
١٨٨ ـ الشاذلى
١٨٩ ـ الشاذلى
١٩٠ ـ الشاطبى
١٩١ ـ الشافعى

١٩٢ ـ الشبستري
١٩٣ ـ الشبلي
١٩٤ ـ ابن شرقاوى
١٩٥ ـ الشرنوبى
١٩٦ ـ الشريشى
١٩٧ ـ الششترى
١٩٨ ـ الشعرانى
١٩٩ ـ شقيق البلخى
٢٠٠ ـ الشلمغانى
٢٠١ ـ الشيبانى

باب الصاد

٢٠٢ ـ ابن الصباغ
٢٠٣ ـ الصفة (أهل)
٢٠٤ ـ الصفوى
٢٠٥ ـ الصوفى: عبدك
٢٠٦ ـ الصوفى: محمد
٢٠٧ ـ الصومعى

باب الضاد

٢٠٨ ـ ابن ضيف الله

باب الطاء

٢٠٩ ـ أبو طالب المكى
٢١٠ ـ الطرق الصوفية
٢١١ ـ ابن طفيل
٢١٢ ـ الطمستانى
٢١٣ ـ الطهطاوى
٢١٤ ـ طه عبد الباقى
٢١٥ ـ ابن طورخان

باب العين

٢١٦ ـ عائشة الباعونية
٢١٧ ـ عامر بن عامر
٢١٨ ـ ابن عباد
٢١٩ـأبو العباس المرسى
٢٢٠ ـ ابن عبد الحق
٢٢١ ـ عبد الرازق
٢٢٢ـ عبد الرحمن بدوى
٢٢٣ـ عبده(الإمام محمد)
٢٢٤ ـ عتبة الغلام
٢٢٥ ـ ابن عجيبة
٢٢٦ ـ ابن عربى
٢٢٧ ـ ابن العريف
٢٢٨ ـ أبو العزائم
٢٢٩ ـ ابن عطاء
٢٣٠ ـ ابن عطاء الله
٢٣١ ـ العطار
٢٣٢ ـ ابن علوان
٢٣٣ ـ ابن علوان
٢٣٤ـ على بن أبى طالب
٢٣٥ ـ على بن الحسين
٢٣٦ ـ عمر بن الخطاب
٢٣٧ ـ عنقا (على)
٢٣٨ ـ ابن عياض
٢٣٩ ـ عين القضاة

باب الغين

٢٤٠ ـ الإمام الغزالى
٢٤١ ـ الغزالى (أحمد)
٢٤٢ ـ الغمرى

باب الفاء

٢٤٣ ـ الفارابى
٢٤٤ ـ ابن الفارض
٢٤٥ ـ الفاسى
٢٤٦ ـ فاطمة
٢٤٧ ـ فالين
٢٤٨ ـ الفرجى
٢٤٩ ـ فرقد السبخى
٢٥٠ ـ الفزارى
٢٥١ ـ ابن فلاح
٢٥٢ ـ الفوى(السنى)
٢٥٣ ـ الفيضى(العميد)

باب القاف

٢٥٤ ـ القارى
٢٥٥ ـ القاشانى
٢٥٦ ـ ابن قاضى
٢٥٧ ـ ابن قرة
٢٥٨ ـ قتادة بن دعامة
٢٥٩ ـ القسطلانى
٢٦٠ ـ ابن قسى
٢٦١ ـ القشاشى
٢٦٢ ـ القشيرى
٢٦٣ ـ القصار
٢٦٤ ـ ابن قضيب البان
٢٦٥ ـ القنائى
٢٦٦ ـ القونوى
٢٦٧ ـ ابن قيم الجوزية

باب الكاف

٢٦٨ ـ الكازرونى
٢٦٩ ـ كبرى
٢٧٠ ـ الكاشفى
٢٧١ ـ كعب الأحبار
٢٧٢ ـ الكلاباذى
٢٧٣ ـ الكمشخانوى

باب اللام

٢٧٤ ـ لوليو
٢٧٥ ـ الليث بن سعد

باب الميم

٢٧٦ ـ ماسينيون
٢٧٧ ـ مبارك (زكى)
٢٧٨ ـ ابن المبارك
٢٧٩ ـ مبارك (على)
٢٨٠ ـ المتبولى
٢٨١ ـ المتقى الهندى
٢٨٢ ـ المحاسبى
٢٨٣ ـ محمد إقبال
٢٨٤ ـ محمد بن طلحة
٢٨٥ ـ محمد بن على (الباقر)

٢٨٦ـ محمود: عبد الحليم ٣٠٢ ـ ابن منازل
٢٨٧ ـ أبو مدين ٣٠٣ ـ المناوى
٢٨٨ ـ مرجليوث ٣٠٤ ـ ابن المنور
٢٨٩ ـ المرصفى ٣٠٥ ـ المهدى (الإمام)
٢٩٠ ـ ابن مسرة ٣٠٦ـ مؤيد الدين الجندى
٢٩١ ـ ابن مشيش ٣٠٧ ـ مورينو
٢٩٢ ـ مصطفى محمود ٣٠٨ ـ الميرغنى
٢٩٣ ـ معاذ بن جبل ٣٠٩ ـ الميقاتى
٢٩٤ ـ معروف الكرخى

باب النون

٢٩٥ ـ ابن مفلح ٣١٠ ـ النابلسى
٢٩٦ ـ المقدسى ٣١١ ـ نجيب محفوظ
٢٩٧ ـ المقريزى ٣١٢ ـ النخشبى
٢٩٨ ـ ابن مكى ٣١٣ ـ نظامى الجنجوى
٢٩٩ ـ الملطى ٣١٤ ـ نعمة الله الولىّ
٣٠٠ ـ ابن الملقن ٣١٥ ـ أبو نعيم الأصبهانى
٣٠١ ـ موسى بن جعفر ٣١٦ ـ نعيمى الحروفى
٣١٧ ـ النفرى
٣١٨ ـ النقشبندى
٣١٩ ـ نللينو
٣٢٠ ـ النهرجورى
٣٢١ ـ ابن نوح
٣٢٢ ـ نور بخش
٣٢٣ ـ النورى
٣٢٤ ـ النووى
٣٢٥ ـ النيسابورى
٣٢٦ ـ نيكلسون

باب الهاء

٣٢٧ـ أبو هاشم الكوفى
٣٢٨ ـ الهجويرى
٣٢٩ ـ الهروى
٣٣٠ ـ ابن هود المرسى
٣٣١ ـ هيار
٣٣٢ ـ الهيبة (الصوفى)

باب الواو

٣٣٣ ـ ابن واسع
٣٣٤ـ الورّاق
٣٣٥ ـ ابن الورد
٣٣٦ ـ وفا (أبو الحسن)
٣٣٧ ـ وفا (الشيخ)
٣٣٨ ـ وفا (أبو الفضل)
٣٣٩ ـ أبو الوفا

باب الياء

٣٤٠ ـ اليافعى
٣٤١ ـ يافوت العرشى
٣٤٢ ـ ابن يزدانيار
٣٤٣ ـ ابن يسار
٣٤٤ ـ اليسوى
٣٤٥ ـ اليشرطى
٣٤٦ ـ أبو يعزى
٣٤٧ ـ يونس المصرى

* * *

فهرس المعجم الصوفي

***

المقدمة

باب الألف

١ ـ آخرة
٢ ـ آدم
٣ ـ آل
٤ ـ آن
٥ ـ آية
٦ ـ إباحية
٧ـ ابتلاء
٨ ـ أبجد
٩ أبد
١٠ ـ أبدال
١١ ـ أبدية
١٢ ـ أبرار
١٣ ـ إبليس
١٤ ـ ابن
١٥ـ أبو تراب
١٦ ـ اتحاد
١٧ـ اتحادية
١٨ ـ اتصال
١٩ ـ إثبات
٢٠ ـ أثر
٢١ ـ اجتباء
٢٢ ـ اجتهاد
٢٣ ـ احتلام
٢٤ ـ أحد
٢٥ ـ أحدية
٢٦ ـ إحرام
٢٧ ـ إحسان
٢٨ ـ إحصاء
٢٩ ـ إحصان
٣٠ ـ أحمدية
٣١ ـ أحوال
٣٢ ـ إحياء
٣٣ ـ أخ
٣٤ ـ إخاذات
٣٥ ـ إخبات
٣٦ ـ اختيار
٣٧ ـ أخذ
٣٨ ـ إخلاص
٣٩ ـ أخلاق
٤٠ ـ إخوان الصفا
٤١ـ أخى
٤٢ ـ أخيار
٤٣ ـ إدام
٤٤ ـ أدب
٤٥ ـ إدراك
٤٦ ـ إرادة
٤٧ ـ أرباب
٤٨ ـ أربعينية
٤٩ ـ ارتضاع
٥٠ ـ أزل
٥١ ـ استاد
٥٢ ـ استتار
٥٣ ـ استدراج
٥٤ـ استطاعة
٥٥ ـ أستغراق
٥٦ ـ استغفار
٥٧ ـ استقامة
٥٨ ـ استواء
٥٩ ـ اسقاط
٦٠ـ إسلام
٦١ ـ اسم
٦٢ـ إسماعيلية
٦٣ ـ إشارة
٦٤ ـ اشتباه
٦٥ ـ اشتياق
٦٦ ـ إشراق
٦٧ ـ اشراقية
٦٨ ـ إشراف
٦٩ـ إشكال
٧٠ ـ أصحاب
٧١ ـ اصطفاء
٧٢ ـ اصطلام
٧٣ ـ اصطناع
٧٤ ـ أصلح
٧٥ ـ أصول
٧٦ ـ أطوار
٧٧ ـ اعتبار
٧٨ ـ اعتصام
٧٩ ـ اعتكاف
٨٠ ـ أعراف
٨١ ـ أعيان
٨٢ ـ أفق
٨٣ ـ أقصرية
٨٤ ـ أكبرية
٨٥ ـ اكتساب
٨٦ ـ أكل
٨٧ ـ ألف
٨٨ ـ ألفة
٨٩ ـ الله
٩٠ ـ ألم
٩١ ـ الم
٩٢ ـ إلهام
٩٣ ـ إلهامية
٩٤ ـ ألهية
٩٥ ـ ألوهية
٩٦ ـ إلياس
٩٧ ـ أم
٩٨ ـ إمام
٩٩ ـ إمامان
١٠٠ ـ إمامة
١٠١ ـ أمة
١٠٢ ـ امتحان
١٠٣ ـ أمر
١٠٤ ـ أمر بالمعروف
١٠٥ـ أمل
١٠٦ ـ أمناء
١٠٧ ـ أمير
١٠٨ ـ أنا
١٠٩ ـ إنابة
١١٠ ـ أنانه

١١١ ـ أنانية
١١٢ـ أنتباه
١١٣ ـ إنجيل
١١٤ ـ انزعاج
١١٥ ـ أنس
١١٦ ـ إنسان
١١٧ـ انشراح الصدر
١١٨ ـ انصداع
١١٩ ـ أنية
١٢٠ ـ أهل الأهواء
١٢١ ـ أهل التصوف
١٢٢ ـ أهل الحق
١٢٣ ـ أهل الذوق
١٢٤ ـ أهل السلوك
١٢٥ ـ أهل الفتوة
١٢٦ ـ أهل الله
١٢٧ ـ أهل المحبة
١٢٨ ـ أهل الملامة
١٢٩ ـ أوّاهون
١٣٠ ـ أوبة
١٣١ ـ أوتاد
١٣٢ ـ أورانية
١٣٣ ـ أولاد
١٣٤ ـ أولوا العلم
١٣٥ ـ أوليانية
١٣٦ ـ أولياء الله
١٣٧ ـ أويسية
١٣٨ ـ إيثار
١٣٩ ـ إيلية
١٤٠ ـ إيماء
١٤١ ـ إيمان

باب الباء

١٤٢ ـ باء
١٤٣ ـ باب
١٤٤ ـ بابائية
١٤٥ ـ باد
١٤٦ ـ بارقة
١٤٧ ـ باطل
١٤٨ ـ باطنية
١٤٩ ـ باق
١٥٠ ـ بالغ
١٥١ ـ بتول
١٥٢ ـ بحر
١٥٣ ـ بدء
١٥٤ ـ بدائية
١٥٥ـ بخور
١٥٦ـ بدعة
١٥٧ـ بدلاء
١٥٨ـ بدن
١٥٩ ـ بدل
١٦٠ ـ برابرة
١٦١ ـ برانس
١٦٢ ـ برزخ
١٦٣ ـ برق
١٦٤ ـ برهامية
١٦٥ ـ بسط
١٦٦ ـ بسطامية
١٦٧ ـ بسم الله
١٦٨ ـ بشير
١٦٩ ـ بصر
١٧٠ ـ بصيرة
١٧١ ـ بطلان
١٧٢ ـ بطن
١٧٣ ـ بُعد
١٧٤ ـ بقاء
١٧٥ ـ بقرة
١٧٦ ـ بكاء
١٧٧ ـ بكاءون
١٧٨ ـ بكتاشية
١٧٩ ـ بكرية
١٨٠ ـ بلاء
١٨١ ـ بواده
١٨٢ ـ بون
١٨٣ ـ بيت
١٨٤ ـ بيرامية
١٨٥ ـ بيشرع
١٨٦ ـ بيضاء
١٨٧ ـ بيومية

باب التاء

١٨٨ ـ تاء
١٨٩ ـ تأنيس
١٩٠ـ تأهل
١٩١ ـ تأويل
١٩٢ ـ تاج
١٩٣ ـ تبتل
١٩٤ ـ تجريد
١٩٥ ـ تجلّ
١٩٦ ـ تحقق
١٩٧ ـ تحقيق
١٩٨ ـ تحلّ
١٩٩ ـ تحير
٢٠٠ ـ تختّم
٢٠١ ـ تخلّ
٢٠٢ ـ تدانٍ
٢٠٣ ـ تدبير
٢٠٤ ـ ترقٍّ
٢٠٥ ـ تروّح
٢٠٦ ـ تساكر
٢٠٧ ـ تسبيح
٢٠٨ ـ تسليم
٢٠٩ ـ تشبيه
٢١٠ ـ تصلية
٢١١ ـ تصوف
٢١٢ـ تصوف جوعي
٢١٣ـ تصوف سني
٢١٤ ـ تصوف سياسي
٢١٥ ـ تصوف شيعي
٢١٦ ـ تعبد
٢١٧ ـ تعرّف
٢١٨ ـ تعوّذ
٢١٩ ـ تفريد
٢٢٠ ـ تفرقة
٢٢١ ـ تفسير
٢٢٢ ـ تفكر
٢٢٣ ـ تفويض
٢٢٤ ـ تقبيل

٢٢٥ـ تعليه
٢٢٦ ـ تقوى
٢٢٧ ـ تقية
٢٢٨ ـ تكلف
٢٢٩ ـ تكبير
٢٣٠ ـ تكليف
٢٣١ ـ تكية
٢٣٢ ـ تلبيس
٢٣٣ ـ تلف
٢٣٤ ـ تلق
٢٣٥ ـ تلوين
٢٣٦ ـ تمكين
٢٣٧ ـ تناسخ
٢٣٨ ـ تنزيه
٢٣٩ ـ توابون
٢٤٠ ـ تواجد
٢٤١ ـ تواضع
٢٤٢ ـ توبة
٢٤٣ ـ توحيد
٢٤٤ ـ توراه
٢٤٥ ـ توسط
٢٤٦ ـ توسل
٢٤٧ـ توسم
٢٤٨ ـ توفيق
٢٤٩ ـ توكل
٢٥٠ ـ تولى
٢٥١ ـ تهليل
٢٥٢ ـ تيمم

باب الثاء

٢٥٣ ـ ثناء

باب الجيم ص

٢٥٤ـ جاه
٢٥٥ ـ جبر
٢٥٦ ـ جبروت
٢٥٧ـ جدل
٢٥٨ ـ جذب
٢٥٩ ـ جذبة
٢٦٠ ـ جرس
٢٦١ ـ جسد
٢٦٢ ـ جشتية
٢٦٣ ـ جعفرية
٢٦٤ ـ جفر
٢٦٥ ـ جلال
٢٦٦ ـ جلوة
٢٦٧ ـ جلوتية
٢٦٨ ـ جلوس
٢٦٩ ـ جمار
٢٧٠ ـ جمال
٢٧١ ـ جمع
٢٧٢ ـ جمعية
٢٧٣ ـ جنائب
٢٧٤ ـ جنة
٢٧٥ ـ جنيدية
٢٧٦ ـ جهاد
٢٧٧ ـ جهة
٢٧٨ ـ جهمية
٢٧٩ ـ جهنم
٢٨٠ ـ جوامع الكلم
٢٨١ ـ جوانية
٢٨٢ ـ جود وسخاء
٢٨٣ ـ جوع
٢٨٤ ـ جوعية
٢٨٥ ـ جوهر
٢٨٦ ـ جهمنيون
٢٨٧ ـ جيلانية

باب الحاء

٢٨٨ ـ حال
٢٨٩ ـ حالية
٢٩٠ ـ حب
٢٩١ ـ حبر
٢٩٢ ـ حبية
٢٩٣ ـ حج
٢٩٤ ـ حجاب
٢٩٥ ـ حجاز
٢٩٦ ـ حجة
٢٩٧ ـ حجر
٢٩٨ ـ حد
٢٩٩ ـ حدث
٣٠٠ ـ حـراس المثل الإسلامية ٣٢٨ ـ حلمانية
٣٠١ ـ حرف
٣٠٢ ـ حرق
٣٠٣ ـ حركة
٣٠٤ ـ حروفية
٣٠٥ ـ حربة
٣٠٦ ـ حزن
٣٠٧ ـ حس
٣٠٨ ـ حسبنا الله
٣٠٩ ـ حسد
٣١٠ ـ حُسن
٣١١ ـ حسنية
٣١٢ ـ حشر
٣١٣ ـ حشوية
٣١٤ ـ حصير
٣١٥ ـ حضرة
٣١٦ ـ حضور
٣١٧ ـ حظوظ
٣١٨ ـ حفظ
٣١٩ ـ حق
٣٢٠ ـ حقوق
٣٢١ ـ حقيقة
٣٢٢ ـ حكمة
٣٢٣ ـ حكيم
٣٢٤ ـ حكيمية
٣٢٥ ـ حلاجية
٣٢٦ ـ حلال
٣٢٧ ـ حلاوة
٣٢٩ ـ حلول
٣٣٠ ـ حلولية
٣٣١ ـ حمد
٣٣٢ ـ حمدونية
٣٣٣ ـ حنظل
٣٣٤ ـ حنفاء
٣٣٥ ـ حواريون

٣٣٦ ـ حورية
٣٣٧ ـ حياء
٣٣٨ ـ حياة
٣٣٩ ـ حيرة

باب الخاء

٣٤٠ ـ خاتم
٣٤١ ـ خادم
٣٤٢ ـ خارق
٣٤٣ ـ خاطر
٣٤٤ ـ خال
٣٤٥ ـ خالصة
٣٤٦ ـ خانقاه
٣٤٧ ـ خبيث
٣٤٨ ـ ختام
٣٤٩ ـ ختم
٣٥٠ ـ خدمة
٣٥١ ـ خربات
٣٥٢ ـ خرازية
٣٥٣ ـ خُرقة
٣٥٤ ـ خروج
٣٥٥ ـ خسروية
٣٥٦ ـ خشبية
٣٥٧ ـ خشوع
٣٥٨ ـ خشية
٣٥٩ ـ خصوص
٣٦٠ ـ خضر
٣٦١ ـ خطرة
٣٦٢ ـ خفي
٣٦٣ ـ خفيفية
٣٦٤ ـ خلافة
٣٦٥ ـ خل
٣٦٦ ـ خلة
٣٦٧ ـ خلع
٣٦٨ ـ خلفاء
٣٦٩ ـ خُلق
٣٧٠ ـ خَلق
٣٧١ ـ خلوة
٣٧٢ ـ خليفة
٣٧٣ ـ خليل
٣٧٤ ـ خمار
٣٧٥ ـ خمرة
٣٧٦ ـ خوارج
٣٧٧ ـ خنزيرة
٣٧٨ ـ خوف
٣٧٩ ـ خيال
٣٨٠ ـ خير

باب الدال

٣٨١ ـ دائرة
٣٨٢ ـ دار السلام
٣٨٣ ـ دار المقامة
٣٨٤ ـ دبور
٣٨٥ ـ درايش
٣٨٦ ـ درة
٣٨٧ ـ درجة
٣٨٨ ـ درويش
٣٨٩ ـ دعاء
٣٩٠ ـ دعوة
٣٩١ ـ دعوى
٣٩٢ ـ دليل
٣٩٣ ـ دمس
٣٩٤ ـ دنيا
٣٩٥ ـ دهر
٣٩٦ ـ دهشة
٣٩٧ ـ دواء
٣٩٨ ـ دين
٣٩٩ ـ ديوان

باب الذال

٤٠٠ ـ ذات
٤٠١ ـ ذخائر
٤٠٢ ـ ذكر
٤٠٣ ـ ذنب
٤٠٤ ـ ذهاب
٤٠٥ ـ ذو العقل
٤٠٦ ـ ذو العين
٤٠٧ ـ ذو الفقار
٤٠٨ ـ ذوق
٤٠٩ ـ ذهاب

باب الراء

٤١٠ ـ رابطة
٤١١ ـ راسخ
٤١٢ ـ راع
٤١٣ ـ راهب
٤١٤ ـ ربّ
٤١٥ ـ رباط
٤١٦ ـ ربّانى
٤١٧ ـ ربوبية
٤١٨ ـ رتب
٤١٩ ـ رتق
٤٢٠ ـ رجاء
٤٢١ ـ رجال
٤٢٢ ـ رجبيون
٤٢٣ ـ رجعة
٤٢٤ ـ رجوع
٤٢٥ ـ رحمانية
٤٢٦ ـ رحمة
٤٢٧ ـ رحمن
٤٢٨ ـ رحيم
٤٢٩ ـ رخ
٤٣٠ ـ رداء
٤٣١ ـ ردى
٤٣٢ ـ رزق
٤٣٣ ـ رسالة
٤٣٤ ـ رسم
٤٣٥ ـ رضا
٤٣٦ ـ رعاية
٤٣٧ ـ رعونة
٤٣٨ ـ رغبة
٤٣٩ ـ رفاعية
٤٤٠ ـ رفق
٤٤١ ـ رفرف
٤٤٢ ـ رق
٤٤٣ ـ رقص
٤٤٤ ـ رقم
٤٤٥ ـ رفيفعة
٤٤٦ ـ ركوع

٤٤٧ ـ رمز
٤٤٨ ـ رمس
٤٤٩ ـ رهبة
٤٥٠ ـ رهبانية
٤٥١ ـ روح
٤٥٢ ـ روح وريحان
٤٥٣ ـ روحانية
٤٥٤ ـ رؤيا
٤٥٥ ـ رؤية
٤٥٦ ـ رياء
٤٥٧ ـ رياضة
٤٥٨ ـ ريح
٤٥٩ ـ رين
باب الزاي
٤٦٠ ـ زاجر
٤٦١ ـ زاوية
٤٦٢ ـ زبور
٤٦٣ ـ زجاجة
٤٦٤ ـ زكاة
٤٦٥ ـ زمان
٤٦٦ ـ زمردة
٤٦٧ ـ زمزم
٤٦٨ ـ زنادقة
٤٦٩ ـ زهد
٤٧٠ ـ زوائد
٤٧١ ـ زواج وعزوبة
٤٧٢ ـ زواهر
٤٧٣ ـ زيتونة
٤٧٤ ـ زبدة
٤٧٥ ـ زبلة
باب السين
٤٧٦ ـ سائحون
٤٧٧ ـ سائل
٤٧٨ ـ سابق
٤٧٩ ـ سادات
٤٨٠ ـ ساعة
٤٨١ ـ ساعد
٤٨٢ ـ ساق
٤٨٣ ـ سالك
٤٨٤ ـ سبب
٤٨٥ ـ سبحة
٤٨٦ ـ ستر
٤٨٧ ـ سبعة
٤٨٨ ـ سجادة
٤٨٩ سجود
٤٩٠ ـ سحر ومق
٤٩١ ـ سحق
٤٩٢ ـ سدرة
٤٩٣ ـ سر
٤٩٤ ـ سرار
٤٩٥ ـ سرمدي
٤٩٦ ـ سرير
٤٩٧ ـ سعادة
٤٩٨ ـ سعدية
٤٩٩ ـ سعة
٥٠٠ ـ سفر
٥٠١ ـ سفلة
٥٠٢ ـ سكر
٥٠٣ ـ سكوت
٥٠٤ ـ سكون
٥٠٥ ـ سكينة
٥٠٦ ـ سلام
٥٠٧ ـ سلب
٥٠٨ ـ سلسلة
٥٠٩ ـ سلوك
٥١٠ ـ سماع
٥١١ ـ سمع
٥١٢ ـ سمسمة
٥١٣ ـ سنة
٥١٤ ـ سنية
٥١٥ ـ سهرودية
٥١٦ ـ سهلية
٥١٧ ـ سؤال
٥١٨ ـ سواء
٥١٩ ـ سواد
٥٢٠ ـ سورة
٥٢١ ـ سياحون
٥٢٢ ـ سيار
٥٢٣ ـ سيارية
٥٢٤ ـ سياسة
٥٢٥ ـ سير
٥٢٦ ـ سيرة
٥٢٧ ـ سيمرغ
٥٢٨ ـ سيواس
باب الشين
٥٢٩ ـ شأن
٥٣٠ ـ شأن محمد
٥٣١ ـ شاذلية
٥٣٢ ـ شاطر
٥٣٣ ـ شاهد
٥٣٤ ـ شجرة
٥٣٥ ـ شر
٥٣٦ ـ شراب
٥٣٧ ـ شرب
٥٣٨ ـ شرك
٥٣٩ ـ شرود
٥٤٠ ـ شريعة
٥٤١ ـ ششترية
٥٤٢ ـ شطح
٥٤٣ ـ شعر
٥٤٤ ـ شعشعة
٥٤٥ ـ شعوبية
٥٤٦ ـ شغف
٥٤٧ ـ شفاعة
٥٤٨ ـ شفع
٥٤٩ ـ شفق
٥٥٠ ـ شكر
٥٥١ ـ شكفتية
٥٥٢ ـ شلمغانية
٥٥٣ ـ شمائل
٥٥٤ ـ شمس
٥٥٥ ـ شمع
٥٥٦ ـ شهوة
٥٥٧ ـ شهوة خفية
٥٥٨ ـ شواهد
٥٥٩ ـ شوق

٥٦٠ ـ شهادة
٥٦١ ـ شهر حرام
٥٦٢ ـ شهود
٥٦٣ ـ شيخ
٥٦٤ ـ شيطان
٥٦٥ ـ شيعة
٥٦٦ ـ شيعة محمدية
باب الصاد
٥٦٧ ـ صابئة
٥٦٨ ـ صاحب
٥٦٩ ـ صاحية
٥٧٠ ـ صبا
٥٧١ ـ صبر
٥٧٢ ـ صبيح
٥٧٣ ـ صحابة
٥٧٤ ـ صحبة
٥٧٥ ـ صحو
٥٧٦ ـ صحيفة
٥٧٧ ـ صدأ
٥٧٨ ـ صداقة
٥٧٩ ـ صدق
٥٨٠ ـ صدقة
٥٨١ ـ صدّيق
٥٨٢ ـ صدّيقية
٥٨٣ ـ صراط
٥٨٤ ـ صعق
٥٨٥ ـ صفا
٥٨٦ ـ صفاء
٥٨٧ ـ صفائية
٥٨٨ ـ صفية
٥٨٩ ـ صُفّة
٥٩٠ ـ صفو
٥٩١ ـ صفوة
٥٩٢ ـ صفوية
٥٩٣ ـ صلاة
٥٩٤ ـ صلاح
٥٩٥ ـ صلصلة
٥٩٦ ـ صمت
٥٩٧ ـ صمدية
٥٩٨ ـ صنم
٥٩٩ ـ صواب
٦٠٠ ـ صوت
٦٠١ ـ صورة
٦٠٢ ـ صوف
٦٠٣ ـ صوفة
٦٠٤ ـ صوفى
٦٠٥ ـ صوفى أول من التابعين
٦٠٦ ـ صوفية
٦٠٧ ـ صوفية روملو
٦٠٨ ـ صوفية متفلسفة
٦٠٩ ـ صوفية فدائيون
٦١٠ ـ صول
٦١١ ـ صوم
٦١٢ ـ صومعة
باب الضاد
٦١٣ ـ ضاغط
٦١٤ ـ ضحك
٦١٥ ـ ضلال
٦١٦ ـ ضنائن
٦١٧ ـ ضياء
باب الطاء
٦١٨ ـ طائر
٦١٩ ـ طاعة
٦٢٠ ـ طالب
٦٢١ ـ طاهر
٦٢٢ ـ طاووس الفقراء
٦٢٣ ـ طب
٦٢٤ ـ طبائعية
٦٢٥ ـ طبع
٦٢٦ ـ طبقات
٦٢٧ ـ طبقة
٦٢٨ ـ طبيعة
٦٢٩ ـ طرق صوفية
٦٣٠ ـ طسم
٦٣١ ـ طعام
٦٣٢ ـ طلاّع الأرض
٦٣٣ ـ طمأنينة
٦٣٤ ـ طمس
٦٣٥ ـ طه
٦٣٦ ـ طهارة
٦٣٧ ـ طوارق
٦٣٨ ـ طواف
٦٣٩ ـ طوالع
٦٤٠ ـ طور
٦٤١ ـ طِيب
٦٤٢ ـ طَيّب
٦٤٣ ـ طيّبات
٦٤٤ ـ طيفورية
باب الظاء
٦٤٥ ـ ظالم
٦٤٦ ـ ظاهر
٦٤٧ ـ ظرف
٦٤٨ ـ ظل
٦٤٩ ـ ظلم
٦٥٠ ـ ظلمة
٦٥١ ـ ظلمية
باب العين
٦٥٢ ـ عار
٦٥٣ ـ عارف
٦٥٤ ـ عالِم
٦٥٥ ـ عالَمَ
٦٥٦ ـ عالون
٦٥٧ ـ عامة
٦٥٨ ـ عوام الخلق
٦٥٩ ـ عبادة
٦٦٠ ـ عبادلة
٦٦١ ـ عبد
٦٦٢ ـ عبرة
٦٦٣ ـ عبودة
٦٦٤ ـ عبودية
٦٦٥ ـ عُجب
٦٦٦ ـ عدالة
٦٦٧ ـ عدل
٦٦٨ ـ عدم
٦٦٩ ـ عراغة

٦٧٠ ـ عرش
٦٧١ ـ عرفاء
٦٧٢ ـ عرفات
٦٧٣ ـ عز
٦٧٤ ـ عزلة
٦٧٥ ـ عسل النحل
٦٧٦ ـ عشق
٦٧٧ ـ عشيرة
٦٧٨ ـ عصا
٦٧٩ ـ عصمة
٦٨٠ ـ عُقاب
٦٨١ ـ عقبة
٦٨٢ ـ عقد
٦٨٣ ـ عقل
٦٨٤ ـ علائق
٦٨٥ ـ علة
٦٨٦ ـ عَلَم
٦٨٧ ـ عِلم
٦٨٨ ـ عماء
٦٨٩ ـ عماد
٦٩٠ ـ عملة
٦٩١ ـ عمل
٦٩٢ ـ عموم
٦٩٣ ـ عنقاء
٦٩٤ ـ عوارض
٦٩٥ ـ عوض
٦٩٦ ـ عهد
٦٩٧ ـ عيد
٦٩٨ ـ عيسى
٦٩٩ ـ عين

باب الغين

٧٠٠ ـ غالطون
٧٠١ ـ غالية
٧٠٢ ـ غراب
٧٠٣ ـ غربة
٧٠٤ ـ غرباء
٧٠٥ ـ غرة
٧٠٦ ـ غرور
٧٠٧ ـ غشاء
٧٠٨ ـ غشية
٧٠٩ ـ غضب
٧١٠ ـ غلبة
٧١١ ـ غم
٧١٢ ـ غنا
٧١٣ ـ غناء
٧١٤ ـ غنى
٧١٥ ـ غوث
٧١٦ ـ غيب
٧١٧ ـ غيبة
٧١٨ ـ غيب
٧١٩ ـ غيرة
٧٢٠ ـ غين

باب الفاء

٧٢١ ـ فؤاد
٧٢٢ ـ فاتحة
٧٢٣ ـ فارسية
٧٢٤ ـ فاضل ومفضول
٧٢٥ ـ فان
٧٢٦ ـ فتح
٧٢٧ ـ فترة
٧٢٨ ـ فتق
٧٢٩ ـ فتوة
٧٣٠ ـ فرار
٧٣١ ـ فراسة
٧٣٢ ـ فرجية
٧٣٣ ـ فرع
٧٣٤ ـ فرق
٧٣٥ ـ فرقان
٧٣٦ ـ فصل
٧٣٧ ـ فصوص
٧٣٨ ـ فضيلة
٧٣٩ ـ فطام
٧٤٠ ـ فطور
٧٤١ ـ فعل
٧٤٢ ـ فقد
٧٤٣ ـ فقر
٧٤٤ ـ فقهاء
٧٤٥ ـ فكر
٧٤٦ ـ فكرية
٧٤٧ ـ فلاسفة
٧٤٨ ـ فناء
٧٤٩ ـ فنائية
٧٥٠ ـ فهم

باب القاف

٧٥١ ـ قاب
٧٥٢ ـ قابل
٧٥٣ ـ قادح
٧٥٤ ـ قادرية
٧٥٥ ـ قبض
٧٥٦ ـ قبيح
٧٥٧ ـ قدر
٧٥٨ ـ قدرة
٧٥٩ ـ قدرية
٧٦٠ ـ قدم
٧٦١ ـ قَدَم
٧٦٢ ـ قديم
٧٦٣ ـ قرآن
٧٦٤ ـ قرّاء سمعون
٧٦٥ ـ قرار
٧٦٦ ـ قرب
٧٦٧ ـ قربة
٧٦٨ ـ قزلباشية
٧٦٩ ـ قيس
٧٧٠ ـ قشر
٧٧١ ـ قصارية
٧٧٢ ـ قصم
٧٧٣ ـ قصود
٧٧٤ ـ قطب
٧٧٥ ـ قطبية
٧٧٦ ـ قطع
٧٧٧ ـ قلب
٧٧٨ ـ قلم
٧٧٩ ـ قلندرية
٧٨٠ ـ قناعة
٧٨١ ـ قهر ولطف
٧٨٢ ـ قناعة

٧٨٣ ـ قوامع
٧٨٤ ـ قونوية
٧٨٥ ـ قيام
٧٨٦ ـ قيامة
٧٨٧ ـ قيوم
باب الكاف
٧٨٨ ـ كاظم
٧٨٩ ـ كبائر
٧٩٠ ـ كبر
٧٩١ ـ كبروية
٧٩٢ ـ كبرياء
٧٩٣ ـ كتاب
٧٩٤ ـ كتمان صوفي
٧٩٥ ـ كثيب
٧٩٦ ـ كرامة
٧٩٧ ـ كرسي
٧٩٨ ـ كريم
٧٩٩ ـ كشف
٨٠٠ ـ كعبة
٨٠١ ـ كفار
٨٠٢ ـ كل
٨٠٣ ـ كلام
٨٠٤ ـ كلب أصحاب الكهف
٨٠٥ ـ كلمات
٨٠٦ ـ كلمة
٨٠٧ ـ كمال
٨٠٨ ـ كن
٨٠٩ ـ كنز
٨١٠ ـ كنود
٨١١ ـ كنية
٨١٢ ـ كهانة
٨١٣ ـ كهيعص
٨١٤ ـ كوكب
٨١٥ ـ كون
٨١٦ ـ كيمياء
باب اللام
٨١٧ ـ لا أدري
٨١٨ ـ لا إله إلا الله
٨١٩ ـ لاهوت
٨٢٠ ـ لب
٨٢١ ـ لباس
٨٢٢ ـ لجأ
٨٢٣ ـ لحظ
٨٢٤ ـ لسان
٨٢٥ ـ لسن
٨٢٦ ـ لطف
٨٢٧ ـ لطيفة
٨٢٨ ـ لمع
٨٢٩ ـ لوامع
٨٣٠ ـ لوائح
٨٣١ ـ لوح
٨٣٢ ـ لبسة
٨٣٣ ـ ليلة
باب الميم
٨٣٤ ـ مأجوج
٨٣٥ ـ مأخوذ
٨٣٦ ـ مأذون
٨٣٧ ـ ماء
٨٣٨ ـ مائيه
٨٣٩ ـ مالك
٨٤٠ ـ ماهية
٨٤١ ـ مبادىء
٨٤٢ ـ مبتدىء
٨٤٣ ـ مبدأ
٨٤٤ ـ مبطلون
٨٤٥ ـ متأهل
٨٤٦ ـ متجرّد
٨٤٧ ـ متحقق
٨٤٨ ـ متسبب
٨٤٩ ـ متشبه
٨٥٠ ـ متصوف
٨٥١ ـ متكاسلية
٨٥٢ ـ متنبية
٨٥٣ ـ متوسمون
٨٥٤ ـ متوكل
٨٥٥ ـ مثل
٨٥٦ ـ مجالسة
٨٥٧ ـ مجاهدة
٨٥٨ ـ متجاهلية
٨٥٩ ـ متوسمون
٨٦٠ ـ مجذوب
٨٦١ ـ مجلى
٨٦٢ ـ مجمع
٨٦٣ ـ مجوس
٨٦٤ ـ محادثة
٨٦٥ ـ محاسبة
٨٦٦ ـ محاسبية
٨٦٧ ـ محاضرة
٨٦٨ ـ محبة
٨٦٩ ـ محبوب
٨٧٠ ـ محفوظ
٨٧١ ـ محق
٨٧٢ ـ محمد
٨٧٣ ـ محمدية
٨٧٤ ـ محو
٨٧٥ ـ مخاريق
٨٧٦ ـ مخالفة
٨٧٧ ـ مخبثون
٨٧٨ ـ مخدع
٨٧٩ ـ مخيط
٨٨٠ ـ مداحون
٨٨١ ـ مداراة
٨٨٢ ـ مدامة حيدر
٨٨٣ ـ مدد
٨٨٤ ـ مدقق
٨٨٥ ـ مرآة
٨٨٦ ـ مراثي
٨٨٧ ـ مرابط
٨٨٨ ـ مراد
٨٨٩ ـ مراقبة
٨٩٠ ـ مرتبة
٨٩١ ـ مرشد
٨٩٢ ـ مرض
٨٩٣ ـ مرقعات
٨٩٤ ـ مروة

٨٩٥ ـ مريد
٨٩٦ ـ مزاح الصوفية
٨٩٧ ـ مسألة
٨٩٨ ـ مسافر
٨٩٩ ـ مسامرة
٩٠٠ ـ مستريح
٩٠١ ـ مستقدمون
٩٠٢ ـ مستلب
٩٠٣ ـ مستنبط
٩٠٤ ـ مستند
٩٠٥ ـ مستهلك
٩٠٦ ـ مسجد
٩٠٧ ـ مسخ
٩٠٨ ـ مسلم
٩٠٩ ـ مسوحي
٩١٠ ـ مسيح
٩١١ ـ مسيرون
٩١٢ ـ مشارق
٩١٣ ـ مشارق
٩١٤ ـ مشاهدة
٩١٥ ـ مشبهة
٩١٦ ـ مشعر
٩١٧ ـ مشعشعة
٩١٨ ـ مشهود
٩١٩ ـ مشى
٩٢٠ ـ مشيئة
٩٢١ ـ مشيخة
٩٢٢ ـ مصافحة
٩٢٣ ـ مصر
٩٢٤ ـ مضاهاة
٩٢٥ ـ مطاع
٩٢٦ ـ مطالعة
٩٢٧ ـ مطلع
٩٢٨ ـ مظهر
٩٢٩ ـ معجزة
٩٣٠ ـ معدوم
٩٣١ ـ معذرون
٩٣٢ ـ معراج
٩٣٣ ـ معرفة
٩٣٤ ـ معصومون
٩٣٥ ـ معلم
٩٣٦ ـ مغرب
٩٣٧ ـ مغربون
٩٣٨ ـ مفتاح
٩٣٩ ـ مفرد
٩٤٠ ـ مفقود
٩٤١ ـ مفيض
٩٤٢ ـ مقام
٩٤٣ ـ مقتصد
٩٤٤ ـ مقدرون
٩٤٥ ـ مقرب
٩٤٦ ـ مقصود
٩٤٧ ـ مكاسب
٩٤٨ ـ مكاشفة
٩٤٩ ـ مكان
٩٥٠ ـ مكانة
٩٥١ ـ مكة
٩٥٢ ـ مكتومون
٩٥٣ ـ مكر
٩٥٤ ـ ملا
٩٥٥ ـ ملامتية
٩٥٦ ـ ملجأ
٩٥٧ ـ ملك
٩٥٨ ـ ملكوت
٩٥٩ ـ ممد
٩٦٠ ـ مملكة صوفي
٩٦١ ـ مناجاة
٩٦٢ ـ مناصفة
٩٦٣ ـ منافقون
٩٦٤ ـ منصة
٩٦٥ ـ منقطع
٩٦٦ ـ منكرون
٩٦٧ ـ منة
٩٦٨ ـ منهج
٩٦٩ ـ منى
٩٧٠ ـ مهدي
٩٧١ ـ مهدية
٩٧٢ ـ مؤانسة
٩٧٣ ـ مؤمن
٩٧٤ ـ موافقة
٩٧٥ ـ موت
٩٧٦ ـ موجود
٩٧٧ ـ موحد
٩٧٨ ـ مودة
٩٧٩ ـ موقون مطيبون
٩٨٠ ـ مولوية
٩٨١ ـ ميزان

باب النون

٩٨٢ ـ نار
٩٨٣ ـ ناس
٩٨٤ ـ ناسوت
٩٨٥ ـ ناطق
٩٨٦ ـ نبوة
٩٨٧ ـ نبوية
٩٨٨ ـ نجباء
٩٨٩ ـ نجوى
٩٩٠ ـ نخلة
٩٩١ ـ ند
٩٩٢ ـ نساء
٩٩٣ ـ نسب علوي
٩٩٤ ـ نسبة
٩٩٥ ـ نصارى
٩٩٦ ـ نعت
٩٩٧ ـ نعمة اللهية
٩٩٨ ـ نغم
٩٩٩ ـ نفاق
١٠٠٠ ـ نَفَس
١٠٠١ ـ نَفْس
١٠٠٢ ـ نفي
١٠٠٣ ـ نقباء
١٠٠٤ ـ نقد التصوف
١٠٠٥ ـ نقشبندية
١٠٠٦ ـ نقيب
١٠٠٧ ـ نكاح
١٠٠٨ ـ نواب
١٠٠٩ ـ نوالة

١٠١٠ ـ نور
١٠١١ ـ نوربخشية
١٠١٢ ـ نورية
١٠١٣ ـ نوم
١٠١٤ ـ نون
١٠١٥ ـ نهاية
١٠١٦ ـ نية

باب الهاء

١٠١٧ ـ هاء
١٠١٨ ـ هاجس
١٠١٩ ـ هباء
١٠٢٠ ـ هجرة
١٠٢١ ـ هجوم
١٠٢٢ ـ هَمّ
١٠٢٣ ـ هِمّة
١٠٢٤ ـ همدانية
١٠٢٥ ـ هو
١٠٢٦ ـ هوى
١٠٢٧ ـ هوية
١٠٢٨ ـ هيبة
١٠٢٩ ـ هيولى

باب الواو

١٠٣٠ ـ واجب الأجود
١٠٣١ ـ واحد
١٠٣٢ ـ واحدية
١٠٣٣ ـ وارد
١٠٣٤ ـ واسطة
١٠٣٥ ـ واصل
١٠٣٦ ـ واقع
١٠٣٧ ـ واقعة
١٠٣٨ ـ واقفية
١٠٣٩ ـ واو
١٠٤٠ ـ وتد
١٠٤١ ـ وتر
١٠٤٢ ـ وجد
١٠٤٣ ـ وجدود أول
١٠٤٤ ـ وجـــــود ووجودية
١٠٤٥ ـ وجه
١٠٤٦ ـ وحشة
١٠٤٧ ـ وحى
١٠٤٨ ـ ود
١٠٤٩ ـ ورائة
١٠٥٠ ـ ورد
١٠٥١ ـ ورع
١٠٥٢ ـ ورقاء
١٠٥٣ ـ وسائط
١٠٥٤ ـ وسط
١٠٥٥ ـ وسع
١٠٥٦ ـ وسم
١٠٥٧ ـ وسوسة
١٠٥٨ ـ وصال
١٠٥٩ ـ وصف
١٠٦٠ ـ وصل
١٠٦١ ـ وصولية
١٠٦٢ ـ وصية
١٠٦٣ ـ وضوء
١٠٦٤ ـ وطر
١٠٦٥ ـ وطن
١٠٦٦ ـ وعد
١٠٦٧ ـ وعيد
١٠٦٨ ـ وفاء
١٠٦٩ ـ وفائية
١٠٧٠ ـ وقت
١٠٧١ ـ وقفة
١٠٧٢ ـ ولادة
١٠٧٣ ـ ولاية
١٠٧٤ ـ ولد
١٠٧٥ ـ ولع
١٠٧٦ ـ وله
١٠٧٧ ـ ولى

باب الياء

١٠٧٨ ـ يأس
١٠٧٩ ـ يافوتة
١٠٨٠ ـ يدان
١٠٨١ ـ يحيى
١٠٨٢ ـ يسمى المعجم
١٠٨٣ ـ يسوبة
١٠٨٤ ـ يقظة
١٠٨٥ ـ يقين
١٠٨٦ ـ يوم

تم الفهرس بحمد الله

* * *

من مؤلفات الدكتور الحفنى

من منشورات مدبولى

فى الإسلام والتصوف

- رابعة العدوية : إمامة المحزونين والعاشقين.
- الإمام الفيلسوف، حجّة الحق، الشاعر عمر الخيام، والرباعيات.
- الموسوعة الصوفية.
- المعجم الصوفى.
- موسوعة الفرق والمذاهب والجماعات والأحزاب الإسلامية من زمن النبىّ ﷺ حتى العصر الحالى.
- فرق الشّيعة للنوبختى والقمى. تحقيق.
- قوت القلوب للمكى. تحقيق.
- تجلّيات فى أسماء الله الحسنى.
- الدعاء لله.
- موسوعة أم المؤمنين عائشة بنت أبى بكر.
- موسوعة القرآن العظيم. (مجلدان).
- موسوعة حياة محمد نبىّ الإسلام: حياته الاجتماعية، والأسرية، وزواجه، وزوجاته، وفلسفته العائلية ومع الناس؛ وأحواله مع القرآن، ومعجزة القرآن، وأحاديثه وسُنّته، وخُطبه، وأمثاله، ووصاياه، وأسلوبه، وفكره الاجتماعى، والتربوى، والاقتصادى، والسياسى، والجنائى، والعسكرى، والأدبى؛ ونظرياته فى العلوم والفنون والصنائع؛ وفى الدولة والأمة؛ وفى أصل الخلق والكون، ونهاية الحياة على الأرض، وتأمله فى شبابه فى مكة، وبعثه ، هجرته، وعاداته، وحياته العسكرية وغزواته إلخ... ويظهر فى يناير سنة ٢٠٠٦ إن شاء الله .

بعض مؤلفات الدكتور الحفنى

فى الفلسفة

- موسوعة الفلسفة والفلاسفة (مجلدان).
- معجم الفلسفة : عربى ـ إنجليزى ـ فرنسى ـ ألمانى - لاتينى - روسى - يونانى - عبرى - أسبانى - إيطالى.
- المعجم اللاتينى لمصطلحات الفلسفة وعلم النفس والطب النفسى والتحليل النفسى.
- موسوعة فلاسفة ومتصوفة اليهودية.
- ما هى الوجودية.
- الوجودية والماركسية.
- البيركامى : الفلسفة والأدب والحياة.
- ثلاث مسرحيات لكامى : العادلون ـ الحصار ـ سوء تفاهم.
- التمرد لكامى.
- أسطورة سيسيف لكامى.
- جان بول سارتر. الفلسفة والأدب والحياة.
- ثلاث مسرحيات لسارتر : الشيطان والرحمن ـ سجناء ألطونا ـ الممثل كين.
- سيناريو فيلم الدوّامة لسارتر.
- سارتر : الوجودية مذهب إنسانى.
- سيمون دى بفوار : الأفواه اللامجدية.
- آرثر ميللر: البوتقة.
- شتاينبك: رجال وفئران.

بعض مؤلفات الدكتور الحفنى

فى علم النفس والطب النفسى

- موسوعة علم النفس والتحليل النفسى.
- المعجم الموسوعى للتحليل النفسى : عربى - إنجليزى - فرنسى - ألمانى.
- موسوعة الطب النفسى : مجلدان.
- الموسوعة النفسية الجنسية.
- موسوعة أعلام علم النفس.
- موسوعة مدارس علم النفس.
- تفسير الأحلام : الترجمة عن الألمانية لتحفة فرويد.
- التحليل النفسى للأحلام : نظرياته وطريقة جديدة فى التفسير.
- تعبير المنام لعمر الخيام.
- تعبير الرؤيا لأرطيميدورس الإفسى : ترجمة حنين بن إسحق. تحقيق ودراسة.
- ما فوق مبدأ اللذة لفرويد.
- ليوناردو دافنشى لفرويد.
- موسى والتوحيد لفرويد.

والحمد لله ربّ العالمين

* * *